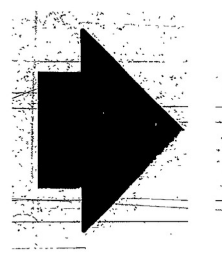
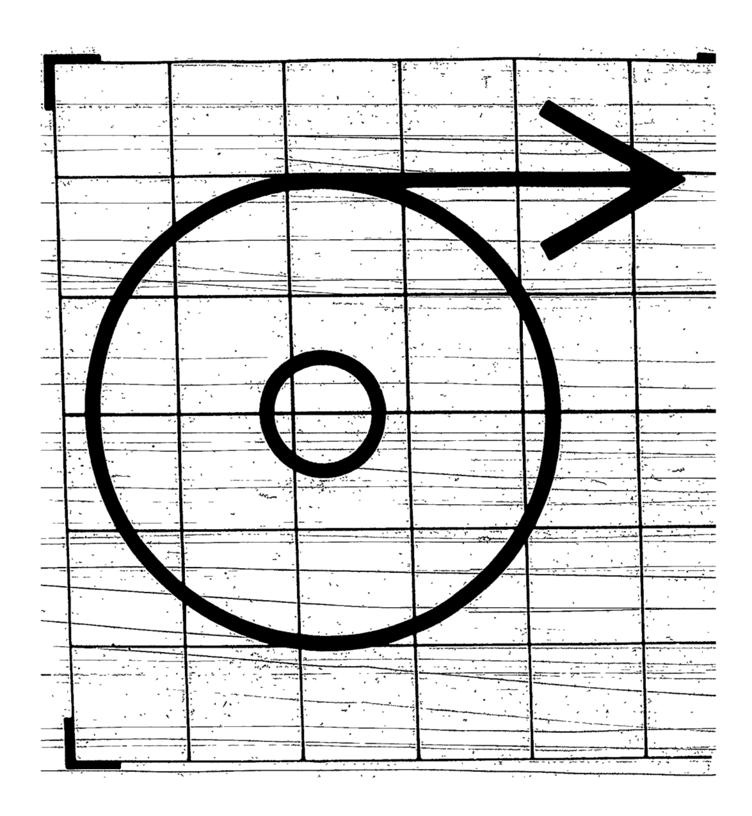


Suite d'une autre bobine

NF Z 43-120-7



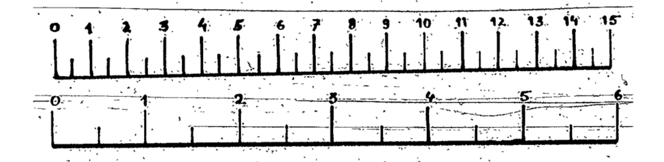
Début de bobine

NF Z 43-120-1



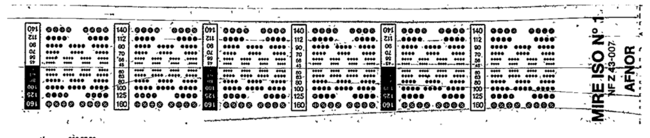
1934
2 juillet - 31 décembre
(n° 52 - 78)

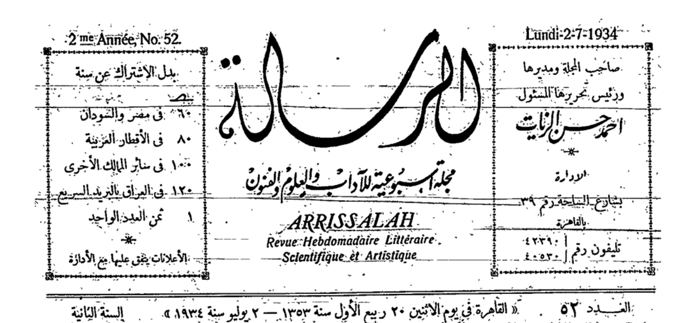
ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx11

A.C.R.P.P





2 me Année, No. 52.

Lundi 2-7-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البساحة رقم ٣٩
بالقاهرة

تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ — ٢ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

فى الموقف الأدبى الحاضر

كان ظهور (الملاح التائه) و(وراء الغمام)، وصدور (الوادى) فى لونها الجديد سببا قريبا فى حدوث هذه الضجة الأدبية القائمة. لأن الديوانين على رغم ما قيل فيهما نتاج من الطراز الأول يستحق العناية ويستوجب النقد ويستدعى الخلاف؛ ولأن الشاعرين — وإن كانا بحكم ثقافتهما غريبين عن العالم الأدبى — قد جذبا اليهما الأنظار، وعطفا عليهما الأنصار، بالطبع الموهوب والذوق الناقد. فلكل منهما فى كل قهوة رقيب ورفيق، وفى كل صحيفة عدو وصديق، وفى كل ناد مكبر ومنافس؛ ولأن الوادى قد أخذت منذ حين تفتح لأدب الشباب (محضراً) فى كل أسبوع، وقد تطوع للشهادة له وعليه أساتذة النقد فى الجهاد والبلاغ. وكانت الحملة عنيفة على صاحبى الديوانين لحظهما الوافر من الاجادة ومحلهما الرفيع من الفن، فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد، وقاسى الشاعر المهندس معول المازنى. وكان الدفاع عنهما ألكن الحجة أرعن الدليل، لصرفه الجهد فى رد المآخذ، ولو عنى بتبيين المحاسن كما عنى بتحسين المساوى لأخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضئال العيوب فى بهر الجمال وروعة الصنعة. ولكل عمل من أعمال الناس جهة



للمديح وجهة للذم لا تتشابهان على ناظر . والنقد صناعة دقيقة لا يحسنها في الغالب إلا شيوخ الأدب ، لأنهم استكملوا عدتها ، واكتسبوا ملكتها بإدمان الدرس وطول المران وكثرة التجربة ، فرد مأخذهم إذا برئت من الشطط والاعتساف يكون في الكثير الغالب من وراء القدرة الثابتة .

***

كان أسلوب النقد ولا شك مشوباً بصلف الأستاذية ، وعنت الحزازة ، وعنت التهكم . وحجة النقاد أنهم بالطبيعة أولياء الفن ، وأمناء هيكله ، وأصحاب إذنه ؛ فلا يجمل بهم أن يدخلوا فيه من لا يثبت معدنه على شدة السبك ، ويخلص جوهره على تقصى النظر ؛ وأن الأدب أعسر من أن ينال بالدعوى العريضة ، والثقافة المريضة ، والأساليب الملفقة .

وكان طبيعياً أن يأنف الشباب من هذه اللهجة ، ويألموا من هذه الشدة ، ويزعموا أن هناك ائتماراً بهم وإنكاراً لأدبهم ، فيسوء ظنهم بالنقد ، وتفيض مجالسهم بالشكوى ، ويقابلوا الأستاذية بالتمرد ، والحزازة بالعناد ، والتهكم بالحنق ، ويبسطوا الأمر على أنه نزاع بين أدبين : قديم يشتهيه الموت ، وجديد تبتغيه الحياة ، وتنفرج الحال أخيراً بين جيلين مقام الأول من الثاني مقام المدرب المشفق ، والمرشد الناصح ، والدليل المجرب .

***

إن شيوخ الأدب وشبانه إنما يصطنعون أدوات واحدة ، ويعالجون موضوعات متقاربة ، وينتجون نتائج متشابهة . فتاريخ الأدب يوم يكتب عن هذه الفترة لا يجد للشباب أسلوباً خاصاً يسجله ، ولا مذهباً جديداً يحلله ، ولا أثراً مستقلاً يشرحه ويعلله . إنما هي مطامح الفتوة إلى المثل الأعلى توحيه الطبيعة ، وتقتضيه الفطرة ، ويلهبه الاطلاع ، فتحاول همتهم الوثابة أن تدنيهم منه ؛ فيقعد بهم عجز الوسيلة ونقص العدة .

وليس يسوغ في العقل أن يعد التسامح في اللغة والتساهل في الأسلوب والتجاوز عن القواعد ميزة ، فإن بأس الشباب لم يتكسر أمام الشيوخ إلا في هذه الناحية .

والحق أن المسارعة إلى الإنتاج العام قبل استكمال وسائله الأولى غميزة بينة في أدب الجيل الحديث . فإن الإلمام باللغات الأجنبية ، والوقوف على قواعد الفن الأوربية ، لا يجعلان المرء كاتباً في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تزدها طيعة لقلمه ، لينة على لسانه ، والاعتماد في اكتساب الأدب على محاكاة النماذج وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ثابت ، ولا ينهض به فنان معدود . وما كان المثل ليغني عن القاعدة وهو لا يضيء إلا ناحية من الطريق ، والقريحة نفسها ، وهي غريزة الأدب والفن في الإنسان ، ليست من الكمال اليوم بحيث تجزئ عن القواعد ؛ كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة إلى عمل أدبي صحيح . فإنه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الأجناس ، وتحتاج إلى المران بالدرس والعادة ، وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت ؛ وإنك لتجد عقلاً مطلقاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء ، ولكنك لا تجد مهما استقريت واستقصيت ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة . أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لك إنها أمثل الطرق لإحسان العمل دون أن تخضع عبقريتك إليها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فإن بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

***

وبعد ، فإن الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضي والمحامي على فهم العدل ، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على حد منكب ؛ وإن الأدب الشيخ والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر . فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه

احمد حسن الزيات

ديمقراطية الطبيعة

للأستاذ أحمد أمين

يعجبني البحر في جماله وبهائه، وجلاله ولانهايته، ويعجبني كذلك في ديمقراطيته، فهو لا يسمح لأحد أن ينغمس في مائه إلا إذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التي خلقتها المدنية، يجب أن يتجرد أولاً من ملابسه التي تميز بين الغني والفقير، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التي اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها في بعض. ففي البحر تتساوى الرءوس، لا غني ولا فقير، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه، ولا عالم ولا جاهل، ولا حاكم ولا محكوم، لا يتميزون بشيء إلا بلباس البحر، وفي الحقيقة ليس هو لباس البحر، وإنما هو لباس البر، فليس للبحر لباس إلا ماؤه. ودليل أنه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض، واتخذوا منه شعاراً للغني والأناقة والنباقة والوجاهة، والبحر لا يعرف شيئاً من ذلك، إنما يعرف ذلك البر، ومن أجل هذا سرعان ما ينغمس الناس في البحر، فيسدل عبابه الأزرق الجميل ستاراً على كل أثواب الرياء حتى لا ترى بعد إلا رءوساً عارية لا يميز بينها شيء من الصنعة، ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على السواء، فتداعب الأسود كما تداعب الأبيض، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح، وتعبث بلحية العالم، كما تلعب برأس الجاهل، وأحياناً يهيج هائجه، وتثور حفيظته، فتزفر من الغضب حتى ليكاد يخرج من إهابه، ويظفر من ثيابه، ويربد وجهه فيلفظ بالزبد، وينتفخ ويرتعد، ويرقص من غير طرب؛ وهو في هذه الحال لا ينسى ديمقراطيته؛ يأتي للباخرة الضخمة قد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليه فيبتلعها في لحظة، لا تغني عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث، كما يبتلع أحياناً صبياً وديعاً وشيخاً ضعيفاً، ليبرهن أنه لا يعبأ بقوة ولا ضعف، ولا يخشى بأس كمي، ولا يرحم ضعف أعزل، سواء هو في هزله وجده، وسواء هو في حلمه وغضبه — ما أجمل البحر، وما أجله، وما ألطفه، وما أقساه!

على أنه يظهر لي أن الطبيعة في جملتها ديمقراطية لا أرستقراطية، ولا أرستقراطية إلا في الانسان الكاذب، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية، والقمر أشعته الفضية، على الناس سواء: على المؤمن والكافر، والأسود والأبيض، والغني والفقير، والكوخ الحقير، والقصر الكبير.

ويأتي الجو بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء، لا تميز عظيماً ولا حقيراً، ولا شريفاً ولا وضيعاً؛ ثم يأتي بريح طيبة تنعش الناس كذلك، لا يعرف في شيء من ذلك محاباة، ولا يعرف طبقات، ولا يعرف أي نوع من أنواع التفاوت التي تواضع عليها الناس، يرسل في الصيف شواظاً من نار فيدخل على الأمير في قصره، وعلى الفقير في كوخه، فلا يهاب عظيماً، ولا يحتقر وضيعاً، ويرسل في الشتاء برده القارس فلا يستطيع أن يتقيه الغني بصوفه وملابسه، ولا بمدفأته وناره، كما لا يتقيه الفقير في عدمه وبؤسه؛ ثم تطلع شمس جميلة، ويعتدل الجو، فتحتضن الطبيعة الناس على السواء وتكون لهم جميعاً أماً حنوناً، مشفقة بارة — إن تحدث الباشا أو البيك في نفسه بأنه فوق طبقات العامة، وأنه يستطيع في شرع العرف والعادة أن ينعم بما لم ينعموا، فتفسح له الطريق، ويخلي له السبيل، وتفتح له أبواب المجتمعات، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء، فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير في حر ولا برد، ولا نور ولا ظلام، فان أخطأ في ذلك وظن أنه يغالب الطبيعة في شيء من قوانينها صفعته صفعة آمن بعدها بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأدرك أنه إن علا الناس بماله أو جاهه، وإن تلاعب بأوضاع الناس لسخف الناس، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل.

***

ثم يأتي القدر فينثر نعمه ونقمه، وشره وخيره على الناس جميعاً، فصحة في الأغنياء والفقراء، ومرض في الأغنياء والفقراء. وتجد غنياً فاز القوى منقوف الوجه، يئن يتضور من الألم، يود لو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود اليه صحته، وبجانبه فقير مستحكم الحلقة، متين البنية، ممتلئ قوة وشدة وصلابة — وتجد جمالاً في الأغنياء والفقراء، وقبحاً في الأغنياء والفقراء، فهذه

فقيرة مشرقة الجبين ، صافية الأديم ، مفرطة الجمال ، معتدلة القوام ، لا تفتح العين على أجمل منها صورة ، ولا أتم منها جسماً ؛ وهذه سيلتها الغنية دميمة الخلقة ، منكرة الطلعة ، تنبو عن منظرها الأحداق ، وتتفادى من مرآها الأبصار ، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلى والملابس ، فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحاً ، على حين أن جارتها الفقيرة جميلة في طبيعتها ، جميلة في بساطتها ، جميلة حتى في ثيابها المهلهلة .

والقدر في ذلك يبدع ، فأشهر طبيب في القلب يموت بالقلب ، وأعظم جراح يموت بالتسمم . وتلك الفلاحة الفقيرة في الطريق وهي حاملة قدرتها مملوءة ماء على رأسها ، ثم يقطع « الخلاص » وتحمل طفلها وتذهب إلى بيتها سالمة غانمة ؛ وسيلتها الغنية يحلل دمها وغير دمها قبل الوضع ، ويعقم كل شيء في حجرة ولادتها ، ويقف مشاهير الطبيبات والأطباء على بابها ، حتى إذا آذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل إليه الطب الحديث ، والكيمياء الحديثة ، والعلم الحديث ، وأمعنت جمهرة الأطباء في التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة ، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلاً ؛ ثم هي بعد تصيبها حمى النفاس ، ويقف الطب والعلم دهشاً حائراً ، ثم تسلم الروح إلى ربها ، هازئاً بكل ذلك القدر .

***

وهناك نوع من الارستقراطية غريب ، هو الارستقراطية العلمية ، فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم — ويعدهم الناس أيضاً — نوعاً ممتازاً من الناس ، يختلفون عنهم نوعاً من الاختلاف ، ويرتفعون عليهم نوعاً من الرفعة ، كما ترتفع طبقة الأغنياء وكما ترتفع طبقة الأمراء ، فالمتعلم ينظر إلى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شيء من التعاظم ، وشيء من الازدراء ، وشيء من الغرور ، وإن ساواه في الدم ، وإن ساواه في الغنى أو الفقر ، وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه في كل شيء خير الآراء ، وأن غير الجامعي لا يحق له أن يبدي رأياً بجانب رأيه ، حتى فيما ليس له اختصاص فيه .

وهو كذلك نوع من الارستقراطية الكاذبة ، لا تعبأ بها الطبيعة ولا تعيرها أي التفات ، فقد جعلت بين المتعلمين أذكياء وأغبياء ، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء ، بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرأ ولا يكتب جاهلاً وأمياً ونحو ذلك من الأسماء ، ويسموا من يقرأ ويكتب متعلماً ، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدها ، ونحن لو نحينا غرور المتعلمين جانباً لعرفنا بالقراءة والكتابة في كثير من الأحيان ، ولوجدناها وسيلة من وسائل الرقي ، ولكن بجانبهما وسائل أخرى ، ولوجدنا أنهما لا تستحقان هذا الغرور الذي ينشئ نوعاً من الارستقراطية ، فالحكمة في تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعي ، وسعة العلم كما تعتمد على الفطرة البشرية ، والغريزة الانسانية . ومن ثم قد ترى الجامعي الحائز لأرقى الشهادات العلمية وهو أخرق في الحياة ، سفيه في التصرف ، وأخاه الذي يسمونه جاهلاً أمياً حكيماً في تصرفه مدبراً لشؤونه وشؤون أخوته الجامعيين ، وترى الأمة قد تصاب على يد متعلميها في أحوالها السياسية والاجتماعية أكثر مما تصاب على يد جاهليها ، والفلاح القروي الأمي قد يرزق من الحزم في تصريفه ، وبعد النظر في آرائه ، وصدق الشعور في وطنيته ، مالا يرزقه أخوه الأستاذ في الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية ، بل قد يصدر من الرأي العام الجاهل في شؤون وطنه ، وفي المسائل الهامة التي تعرض عليه ما يفوق رأي متفلسفة المشرعين ، وحيل القانونيين

إن نظرنا إلى الذكاء ، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل ، وإن نظرنا إلى حكمة التصرف ، والحزم في إدارة الأمور ، وتدبير شؤون الحياة ، فذلك أيضاً أمر مشاع بين الناس ، ففيم غرور المتعلمين وانشاؤهم أرستقراطية بجانب ارستقراطية الأموال والأعمال والطبقات ، يطالبون أن يكال لهم المال جزافاً ، ويطالبون ألا يهينوا أنفسهم في عمل ، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آبائهم أكبر نصيب ؛ ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم وحثالته لما يسمونه الجاهلين

ما أسعد الأمة تخفف من غلوها في ارستقراطيتها ، بجميع أنواعها ، وتقلد الطبيعة في ديمقراطيتها واعتدالها ؟

احمد امين

موت أم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رجعت من الجنازة بعد أن غبّرت قدمىّ ساعة فى الطريق التى ترابها تراب وأشعة ، وكانت فى النعش لؤلؤة آدمية محطَّمة هى زوجة صديق طحنتها الأمراض ففرّقتها بين علل الموت ، وكان قلبها يحييها فأخذ يهلكها ، حتى إذا دنا أن يقضىَ عليها رحمها الله بقضى فيها قضاءه . ومن ذا الذى مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه فى علته كالعصفورة التى تهتلك تحت عينى ثعبان سلط عليها سموم عينيه !

كانت المسكينة فى الخامسة والعشرين من سنها ، أما قلبها ففى الثمانين أو فوق ذلك ؛ هى فى سن الشباب وهو متهدّم فى سن الموت .

وكانت فاضلة تقية صالحة ، لم تتعلم ولكن علّمتها التقوى والفضيلة . وأكمل النساء عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الكتب فهى تنظر إلى الحياة نظرات تَحِل مُشكلاً وتخلق مشكلاً ؛ ولكنها تلك التى تنظر الى الدنيا بعين متلألئة بنور الايمان تقرّ فى كل شىء معناه السماوى فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تُعطَى من يد خالقها ، رحمة معروفة أو رحمة مجهولة . هذه عندى تسمى امرأة ، ومعناها المعبد القدسى ؛ وتكون الزوجة ، ومعناها القوة المسعدة ؛ وتصير الأمّ ، ومعناها التكملة الالهية لصغارها وزوجها ونفسها .

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأنه رجل ، ولكن المرأة حقّ المرأة هى تلك التى خُلقت لتكون للرجل مادةَ الفضيلة والصبر والايمان ، فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاء وقوة ، أى زيادة فى سروره ونقصاً من آلامه .

ولن تكون المرأة فى الحياة أعظم من الرجل إلا بشىء واحد هو صفاتها التى تجعل رجلها أعظم منها .

***

ومشيت من البيت الذى ألبسته الميتة معنى القبر — إلى القبر الذى ألبسَ الميتةَ معنى البيت . وأنا منذ مشيت فى جنازة أمى — رحمها الله — لا أسير فى هذه الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأتبع صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة لأنه من غير هذه الدنيا ، وأمشى فى ساعة ليست ستين دقيقة لأنها خرجت من الزمن ، ولا أرى الطريق من طرق الحياة لأننى فى صحبة ميت ؛ وتصبح للأرض فى رأيى جغرافية أخرى تعمى الناس عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر . أما أنا فأرى فى تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذى وصفوا ، ولكن خضم آخر زخّار مضطرب ، هو ذلك البحر الترابى العظيم المسمى « المقبرة » .

يقولون : ان الحياة هى ... هى ماذا ، ويحكم أيها المغرورون؟ أفلا ترون هذه الصلة الدائمة بين بطن الأم وبطن الأرض ؟

***

لعمرى كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحسن المرء بقلب ، ويعمل بقلب آخر ؛ يعتقد ضرر الكذب ويكذب ، ويعرف مَعرّة الاثم ويأثم ، ويوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضى فى العمر منتهياً الى ربه — ما فى ذلك شك — ولكنه فى الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فرّ من ربه ....

هبت الريح فى السحر على روضة غناء فطابت لها ، فعقدت عُقدتها أن تتخذ لها بيتاً فى ذلك المكان الطيب لتقيم فيه . . . يالها حكمة من التدبير ! تزعم الريح الاقامة على حين كلّ وجودها هو لحظة مرورها ، وتحلم بالقرار فى البيت وهى لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يالها حكمة سامية ! لا يسكنها من المعنى إلا أسخفُ ما فى الحُمق !

***

همد الحى وانطفأت عيناه ، ولكنه تحرك فى تاريخه مما ضيق على نفسه أو وسّع ، وأصبح ينظر بعين من عمله إما مبصرة أو كالعمياء ؛ فلو تكلم يصف الحياة الدنيا لقال : ان هذه النجوم على الأرض مصابيح مأتم أقيم بليل . وما أعجب أن يجلس أهل المأتم فى المأتم ليضحكوا ويلعبوا !

ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، ان هذا الحاضر الذى

عمر فيكون ماضيكم في الدنيا هو بعينه الذى يكون مستقبلكم في الآخرة ، لا تزيدون فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى ، من العظماء إلى الفقراء ؛ ولكنها تنقلب في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء ؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة . إن التام على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها ، ولكن التام في السماء من تم بنفسه وحدها .

***

يا أسفا ! لن يقول الميت للحي شيئاً ، ومن يدري ؟ لعلنا ونحن نلحد للموتى وننزلهم في قبورهم يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ، وأننا مدفونون في القبر الذى يسمونه « الكرة الأرضية » ! وهل الكرة الأرضية من اللانهاية إلا حفرة برجل نملة لتُدفن فيها نملة ......

الحياة . أتريد أن تعرفها على حقيقتها ؟ هي اللهيبات الكثيرة التي ليس لها في الآخر إلا تفسير واحد : حلال أو حرام .

***

ورجعنا مع الصديق إلى بيته ، وله خمسة أطفال صغار لو أنهم هم الذين انتزعوا من أبيهم لترك كل واحد على قلبه مثل المكواة المحمى عليها في النار إلى أن تحمر . ولكن أمهم هي التي نزعت منهم ، فكان بقاؤهم في الحياة تخفيفاً لسكرة الموت عليها ، وغشيتها الغشية فماتت وهي تضحك ، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامهم ؛ وكانوا هم عقلها في ساعة الموت !

تبارك الذى جعل في قلب الأم دنيا من خلقه هو ، ودنيا من خلق أولادها !

تبارك الذى أثاب الأم ثواب ما تعاني ، فجعل فرحها صورة كبيرة من فرح صغارها !

***

وجاء أكبر الأطفال الخمسة وكأنه ثمانية أرطال من الحياة ، لا ثمانية أعوام من العمر ؛ جاء إلينا كما يجيء الفزع لقلوب مطمئنة ، إذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقدِ الأم !

وطفت عليه الدموع فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة ، ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها !

وظهر الانكسار في وجهه يعبر ببلاغة أنه قد أحس حقيقة ضعفه وطفولته بإزاء المصيبة التي نزلت به ؛ وجلس مستسلماً تترجم هيئته معاني هذه الكلمة : « رفقاً بي ! »

ثم تطير من عينه نظرات في الهواء كأنما يحس أن أمه حوله في الجو ولكنه لا يراها .

ثم ترخى عينيه في إغماضة خفيفة كأنما يرجو أن يرى أمه في طويته .

ولا يصدق أنها ماتت ؛ فإن صوتها حي في أذنيه لا يزال يسمعه من أمس .

ثم يعود إلى وجهه الانكسار والاستسلام ، ويتململ في مجلسه فينطق جسمه كله بهذه الكلمة : « يا أمي ! »

***

أحس — ولا ريب — أنه بمَضْيعةٍ حدودها الحياة ، لأن الوجود كان أمه .

ولمس خشونة الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقد الصدر الذى فيه وحده لين الحياة ، لأن فيه قلب أمه وروحها .

وشعر بالذل ينساب إلى قلبه الصغير ، لأن تلك التي كان يملك فيها حق الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حق في أحد ، وليس لأحدٍ أمانه .

ولبسته المسكنة لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان فلن يصل إليه .

ولبسته المسكنة لأنه صار وحده في المكان ، كما هو وحده في الزمان .

وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسأل نفسه : « إذا لم تكن أمي هنا ، فلماذا أنا هنا ؟ ! »

ثم تغرغرت عيناه فيخرج منديله ويمسح دمعه بيده الصغيرة ،

ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها !

***

ونهض الصغير ، ولم ينطق بذات شفة . نهض يحمل رجولته التي بدأت منذ الساعة .

في تاريخ القضاء في مصر الإسلامية

صور من استقلال القضاء
وصور من خضوعه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم تعرف نظرية فصل السلطات الحديثة كثيراً في العصور الوسطى، ولم تطبق بالأخص في ظل الأنظمة المطلقة التي سادت في تلك العصور، فالسلطات الثلاث، التشريعية والقضائية والتنفيذية التي تقوم الدولة الحديثة على مبدإ الفصل بينها، كانت تجتمع في ظل الأنظمة المطلقة في نفس اليد العليا التي تتصرف في سائر الشئون العامة. ولم تشذ الدول الإسلامية عن هذه القاعدة، فقد كان الخليفة أو السلطان أو الأمير يجمع في شخصه كل السلطات ويزاولها مجتمعة أو منفردة على يد عماله. نعم كان هنالك توزيع للسلطات، ولكن نظرى محض، فقد كانت أصول التشريع قائمة تعدل وتفسر في ظل الدول المختلفة طبقاً لمختلف النزعات المذهبية والسياسية، وكان للقضاء جهة خاصة يعمل في دائرتها، وكان الوزراء ومن إليهم من الكتاب والعمال يتناولون الناحية التنفيذية؛ ولكن هذه الجهات الثلاث التي تقابل السلطات الثلاث في الدولة الحديثة كانت تمتزج دائماً من الوجهة العملية، وتخضع دائماً سواء منفردة أو مجتمعة لرأى الخليفة أو السلطان أو الأمير؛ وكان هذا الرأى دائماً فوق كل قانون وقضاء ونظام، وإن كان في معظم الأحيان يلتمس له ظاهر من القانون أو النظام.

وكان القضاء كالسلطة التنفيذية دائماً عرضة للتأثير والتدخل. ولكن السلطة العليا كانت تؤثر، في معظم الأحيان، أن تبدو في الظاهر محترمة لرأى القضاء بعيدة عن التأثير في سير العدالة. ذلك أن القضاء كان يتشح دائماً بثوب الدين، ويستمد سلطانه من كتاب الله وسنة رسوله، فكان التدخل المرغوب كثيراً ما يحمل طابع التفسير لنص من النصوص. وكان القضاة أعوان السلطان قبل أن يكونوا أعواناً للعدالة. وتقدير استقلال القضاء وحريته يرجع قبل كل شيء إلى السلطان: وقد كان ثمة خلفاء وسلاطين يقدرون استقلال القضاء، وينحنون أمام كلمته؛ وكان ثمة قضاة أقوياء النفس والجنان يتمسكون برأيهم وسلطتهم في الحكم، ويأنفون من التدخل والتأثير. وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي تؤيد هذه الحقيقة نورد بعضها في هذا الفصل، وهي مما يتعلق بتاريخ القضاء في مصر الإسلامية.

كان من قضاة مصر في أوائل القرن الثالث الهجرى، الحارث ابن مسكين، ولى قضاء مصر الأعلى من قبل الخليفة المتوكل سنة ٢٣٧ هـ. ويصف لنا الكندى مؤرخ قضاة مصر حتى منتصف القرن الرابع، شخصية الحارث بن مسكين وطريقته في الحكم، نقلاً عن ابن قديد، وهو فقيه ومحدث مصرى عاصر الحارث وعرفه. كان الحارث شخصية غريبة قوية، وكان شديد الحرص على حريته واستقلاله، وكان مقعداً، يركب حماراً مبرقعاً، ويحمل في محفة إلى مجلس الحكم بالمسجد الجامع (جامع عمرو)، وكان صارماً شديد الوطأة جريئاً في أحكامه يأبى تلقى الولاة والسلام عليهم، وطلب إليه أن يلبس السواد، وهو شعار بنى العباس فأبى حتى انتهى بعض أصحابه بإقناعه بأنه إذا لم يرتد السواد اتهم بالانحراف عن بنى العباس والميل إلى بنى أمية، فارتدى عندئذ كساء أسود من الصوف. وكان كثير الاجتهاد والابتكار في إجراءاته وأحكامه. ويورد لنا الكندى طرفا من هذه الإجراءات والأحكام، ويذكر لنا كيف أن الحارث بن مسكين آثر الاستقالة على قبول التدخل في أحكامه. وذلك أنه رفع إليه نزاع على ملكية دار الفيل، وهى

انتهت — أيها الطفل المسكين — أيامك من الأم؛ هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذي مضى، إذ يأتي الغد ومعك أبوك.

وبدأت — أيها الطفل المسكين — أيامك من الزمن، وسيأتي كل غد محجّباً مرهوباً، إذ يأتي لك وحدك، ويأتي وأنت وحدك!

الأم؟ يا إلهي، أي صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في الأم؟!

مصطفى صادق الرافعي

إحدى دور الفسطاط الشهيرة ، وكانت لأبي عثمان مولى الصحابي مسلمة بني مخلد الأنصاري ؛ وكان قد قضى في شأنها قبل الحارث عدة من قضاة مصر ، فقضى فيها أولاً هرون بن عبد الله بإخراج بني البنات من العقب باعتبار أن لا حق لهم في الميراث ؛ ولكن خلفه محمد بن أبي الليث قضى بإلغاء هذا الحكم ، وحكم لبني السائح الدعين بنصيبهم في الدار ؛ فلما رفع النزاع مرة أخرى إلى الحارث ابن مسكين ، فسخ حكم ابن أبي الليث ، وقضى بإخراج بني السائح من الميراث ؛ فسافر ابن السائح إلى بغداد ، ورفع إلى الخليفة المتوكل تظلماً من حكم الحارث والتماساً بإعادة النظر في قضيته ، فأحال المتوكل القضية إلى الفقهاء ، فحكموا فيها على مذهب الكوفيين ، وقضوا بإلغاء الحكم ، وكان حكم الحارث على مذهب المدنيين . فلما بلغ الحارث ما وقع ، كتب في الحال إلى المتوكل يرفع إليه استقالته من منصبه ؛ وقدر المتوكل دقة الموقف فقبل الاستقالة ، وكتب وزيره إلى الحارث بقبولها فيما يأتي : « إن كتابك وصل باستعفائك فيما تقلدت بأمر القضاء بمصر ، وأمر (أمير المؤمنين) أيده الله بإجابتك إلى ذلك . . استعفافاً لك مما سألت ، وتفضلاً لما أدى إلى موافقتك فيه ، فرأيك أبقاك الله في معرفة ذلك والعمل بحسبه »

وغادر الحارث بن مسكين منصبه سنة ٢٤٥ هـ ، وضرب باستقالته مثلاً قوياً في الكرامة والاستقلال بالرأي والحرص على حرمة القضاء وقدسه (١)

***

ولما تولى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦ هـ في عهد الظاهر برقوق ، أبدى في تصرفاته وأحكامه تمسكاً شديداً بالرأي ، وإعراضاً قوياً عن كل مؤثر وشفاعة ، خلافاً لما كانت عليه أحوال القضاء يومئذ ، وكان المؤرخ الفيلسوف يسبق عصره بمراحل في فهم استقلال القضاء ووجوب صونه عن كل مؤثر ؛ ولكن صرامته في تطبيق هذا المبدأ أثارت عليه عاصفة من الحقد والشماتة ؛ ويقول لنا ابن خلدون في هذا الموطن في « تعريفه » كلاماً طويلاً عما كان يسود القضاء المصري يومئذ من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ،

(١) راجع كتاب القضاة الذين ولوا مصر (أو تسمية قضاة مصر) لأبي عمر الكندي (طبعة المستشرق جوتهيل) ص ١٤٢ — ١٤٨

وعما كان عليه معظم القضاة والكتاب والشهود من جهل وفساد في الذمة ، وأنه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض يقول : « فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الله لومة ، ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة ، مسوياً بين الخصمين آخذ الحق الضعيف من الحكمين ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين (١) »

وهذا تصوير قوي لاستقلال القضاء لا يتفق كثيراً مع روح العصر ، ولكن يتفق مع شخصية الفيلسوف القوية ، ومع ثقته بنفسه ، وسموه برأيه . وقد انتهت العاصفة التي أثارها عليه خصومه باستقالته أو إقالته من منصب القضاء لعام فقط من توليته ، وينسب خصوم الفيلسوف تخليه عن منصب القضاء ، لأسباب غير استقلاله برأيه ونزاهته في أحكامه ، ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً قريباً من عصره هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يقر الفيلسوف على تعليله ، ويقول لنا مشيراً إلى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة وافية وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان . . . » (٢)

***

على أن فهم استقلال القضاء على هذا النحو كان من الأمور النادرة في تلك العصور ، وكان مرجعه شخصية القضاة أنفسهم ، وليس روح العصر أو نظمه . وقد كانت القاعدة العامة كما قدمنا أنه لا استقلال للقضاء إلا في حدود رأي السلطة العليا وهواها ؛ وكان خضوع القضاء لرأي هذه السلطة ووحيها يبدو بنوع خاص في بعض القضايا الجنائية الهامة التي تريد السلطة العليا أن تسبغ فيها لون القانون والعدالة على قصاص أو انتقام ترى إجراءه ، أو القضايا المدنية الهامة التي يراد فيها اغتيال مال وثروات يطمع فيها باسم الشريعة وقضائها . وكثيراً ما كانت السلطة العليا تغفل في إجراءاتها وأعمالها هذه الصبغة الشرعية ، ولكنها كانت في أحيان كثيرة ترى من حسن السياسة ألا تهمل

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ — وراجع كتابي « ابن خلدون » ص ٧١ و ٧٢

(٢) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ص ١٠٣

مسئولية القصاص أو الانتقام أو مصادرة الأموال ، وأن ترد هذه المسئولية إلى القضاء ، وهو في نظرها ورأيها أداة من أدوات التنفيذ التي تسيطر عليها وتسيرها طبقاً لمصالحها وأهوائها

وإذا كنا لا نستطيع أن نظفر في تاريخ القضاء في تلك العصور بأمثلة كثيرة لتطبيق مبدأ استقلال القضاء ، فانا نستطيع أن نظفر بالعكس بكثير من الأدلة والوقائع على خضوع القضاء للسلطة العليا أيا كانت وتبعيته لها وتوقفه على ارادتها وهواها .

ونكتفي بأن نورد لتأييد هذه الحقيقة مثلاً واحداً من تاريخ القضاء في أوائل القرن التاسع الهجري ، نقله إلينا المقريزي وهو من معاصريه وشهوده . وخلاصته أنه في عهد الناصر فرج سلطان مصر ، أنشأ الأمير جمال الدين الاستادار مدرسة عظيمة بالقاهرة ، وأوقف عليها أوقافاً جليلة ، وكان انشاؤها على أرض عليها أبنية موقوفة على بعض الترب ، فاستبدل بها الأمير أرضاً من جملة الأراضي الخراجية بالجيزة ، وحكم له قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال ، وهدم البناء وأقام مكانه المدرسة . ثم نكب الأمير جمال الدين وقتله السلطان ، وحسن له بعض وزرائه أن يستولي على المدرسة وأن يضع اسمه عليها ، فادعى السلطان عندئذ أن الأرض الخراجية المستبدل بها كانت ملكه واغتصبها الأمير جمال الدين دون اذنه ، وحكم له قاضي قضاة المالكية بأن بناء المدرسة الذي أقيم على أرض لم يملكها الواقف ، لا يصح وقفه ، وأنه باق على ملكية بانيه إلى حين موته ، وعندئذ انتدب الشهود لتقدير قيمة البناء ، فقدر باثني عشر ألف دينار ، ودفع المبلغ الى أولاد جمال الدين ، وباعوا المدرسة للسلطان ، فصارت ملكه ، ثم أوقف السلطان أرض المدرسة وبناءها بعد أن قضي له قاضي الحنفية بصحة الاستبدال ، وحكم له القضاة الأربعة بصحة هذا الوقف ؛ بعد أن قضوا من قبل بصحة وقف الأمير جمال الدين . فلما قتل الملك الناصر ، وتولى مكانه الملك المؤيد ، تولى الوزارة بعض أصدقاء جمال الدين ، وسعوا لدى السلطان لترد أملاك جمال الدين المغتصبة الى أخيه وأولاده ، فأجاب السلطان ملتمسهم ، وأحيلت القضية مرة أخرى على القضاة الأربعة ، وعقدت لذلك جلسة مشهودة (سنة ٨١٥ هـ) ، وقضى برد المدرسة وأوقافها الى اسم جمال الدين وما نص عليه في وقفيته ؛ ورد النظر فيها لأخيه ؛ ثم نزع منه النظر بحكم جديد وأعطى لكاتب السر ، وهكذا يقول المقريزي « فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة وحكمهم بأبطال ما صححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ، كل ذلك ميلاً مع الجاه ، وحرصاً على بقاء رياستهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون » [1]

***

وهذا مثل بارز يصور لنا مبلغ خضوع القضاء للسلطة التنفيذية وتأثره بأهوائها في تلك العصور ؛ فلم يكن القضاء يومئذ هو ذلك الملاذ النهائي للحق والحرية ، ولم يك ثمة احترام لما نسميه اليوم بقوة الأحكام النهائية ؛ فما يفتى به اليوم تحقيقاً لرغبة سلطان أو أمير أو وزير ، يفتى غداً بعكسه تحقيقاً لرغبة السلطان الجديد أو وزيره ، ويقضي بهذه الأحكام المتناقضة نفس القضاة في كل مرة . وما يقوله لنا المقريزي من ان بواعث هذه الحالة كلها ترجع الى ميل القضاة مع الجاه وحرصهم على بقاء رياستهم ، هو أصدق تعليل لهذا الصدع الخطير في بناء الدولة ونظمها . ونستطيع أن نضيف الى قول المقريزي ، أن هنالك عاملا آخر له قيمته في خضوع القضاء للسلطة التنفيذية على هذا النحو ؛ هو أن القضاء الأعلى لم يكن يتمتع في تلك العصور بما أسبغ عليه في العصر الحديث من الضمانات الكفيلة باستقلاله وحمايته من تدخل السلطة التنفيذية وانتقامها ، وأهم هذه الضمانات كما هو معروف هو عدم قابلية القضاة الأكابر للعزل أو النقل ، وعدم مسئوليتهم أمام أية سلطة أخرى ؛ ولكن القضاء في العصور الوسطى لم يكن يعرف مثل هذه الطمأنينة سواء في الشرق أو في الغرب ، وكان القاضي يخاطر دائماً بمركزه وجاهه ورزقه وأحياناً بحياته اذا لم يذعن لرأي السلطة التنفيذية وهواها ؛ ولم يكن يستطيع مغالبة هذا التيار الخطر أو تحديه سوى شخصيات قوية جريئة تستهين في سبيل كرامتها واستقلالها بالخطر ، وهي شخصيات لا يقدم الينا تاريخ القضاء في تلك العصور منها سوى القليل ؟

محمد عبد الله عنان
المحامي

(١) راجع خطط المقريزي (مصر) ج ٤ ص ٢٥٣ - ٢٥٦

بردى ...
والتاريخ العربي
للأستاذ علي الطنطاوي

(بردى) سطر من الحكمة الإلهية ، خطته يد الله على صفحة هذا الكون ، ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت ، وروعة الماضي والمستقبل — وخصته للأمة العربية ، فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية معجزة .

والله الذي جعل الآية المعجزة في القرآن — هو الله الذي جعلها في الأكوان .

والله الذي أعجز ملوك القول ، وأمراء البلاغة ، بسور من آيات وكلمات وحروف ، هو الله الذي أعجز قادة العقل ، وأئمة الفلسفة ، بسور من بحار وأنهار وكهوف .

وما (بردى) إلا سورة من قرآن الكون المعجز البليغ — وليس إعجازه في أنه يجري ، ولكن إعجازه في أنه ينطق . وبأن في كل شبر منه تاريخ حقبة من العصور ، وتحت كل شبر أنقاض أمة من الأمم : أمة ولدت في حجره ، ورضعت من لبانه ، وحبت بين يديه ، ثم قويت واشتدت ، وبنت فأعلت ، وفتحت فأوغلت ، ثم داخلها الغرور ، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه ، فظلمت وعتت واستكبرت ؛ فبعث الله عليها نسمة واحدة من وادي العدم ، فإذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة في نفس بردى ، وأنقاض هينة في أعماقه ، وصفحة أو صفحتان في كتاب التاريخ ، وإذا بأمة أخرى تخلفها في أرضها ، وترثها مالها ، ثم يكون سبيلها سبيلها : فقام الفينيقيون على أنقاض الحثيين ، والكنعانيون بعد الفينيقيين ، والفرس بعد الكنعانيين ، واليونان بعد الفارسيين ، والروم بعد اليونانيين ، والغساسنة بعد الرومانيين ، والمسلمون بعد الغسانيين — ثم قام العباسيون على أثر الأمويين ، ثم قام صلاح الدين ، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين — ثم جاء فيصل بن الحسين ، ثم جاءت جيوش الفرنسيين .

هكذا يدور الفلك في السماء ، ويدور السلطان في الأرض ، فتنشأ من القبر الحياة ، ويفضي على الحياة قبر ، والسلسلة لا تنتهي ، والناس لا يعتبرون ... و (بردى) يبتسم ساخراً من غرور الإنسان ، ضاحكاً من جهالته ، يحسب نفسه شيئاً ، فيضارع الكون ، ويتطاول بعقله إلى الله ؛ وما هو من الكون إلا ذرة من الرمل ضائعة في الصحراء ، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر (بردى) .

***

(بردى) وهو يجري على الأرض ، رمز لتاريخ الأمة العربية وهو يجري في الزمان . ففي كل قسم من بردى ، فصل من التاريخ :

يخرج (بردى) من بقعة في (الزبداني) منعزلة صعبة ، لا يبلغها إلا من كان من أبنائها عارفاً بمداخلها ومخارجها — كما خرج العرب من هذه (الجزيرة) الضنينة المنعزلة ، التي لم تلن إلا لأبنائها ، والتي ردت عنها الفاتحين كافة ، وجعلت رمالها قبراً لكل من يجرؤ منهم على وطئها ، على أنه لم يتجرأ عليها الإسكندري ، فبلغ جيشه (ذي قار) ، ولكن الجزيرة قد ابتلعت هذا الجيش وهي تهتف بالمجد ، ثم لم يقنعها هذا الثأر ، فابتلعت دولته كلها في (القادسية) تحت راية محمد ، وقالت للعالم : هذا جزاء من يطأ الجزيرة !

ويسير (بردى) في غور عميق لا يخرج الى هذه الجنان الجميلة الفتانة التي قامت على مقربة منه ، يسلك قرارة الوادي ، تلتطم أمواهه وتصطدم ؛ كما كان العرب في جاهليتهم يصطدمون ويقتتلون ويشتغلون بأنفسهم عن العالم ، فلم يخرجوا الى الدنيا ، ولم تخضع لجزيرتهم جنات الشام ، ولا سهول مصر ، ولا سواد العراق .

ثم يبلغ (بردى) (الفيجة) وهناك تصب فيه أمواهها العذبة الصافية الزاخرة ، فلا تخالطه ولا يخالطها ، ويسير النهر خمسين متراً ، ومن إحدى جهتيه (بردى) القليل العكر ، ومن الأخرى (الفيجة) الكثيرة العذبة ، ثم يختلطان ، فتضيع قلته وكدورته في كثرتها وصفائها ؛ ويعدو (بردى) قوياً عذباً زاخراً ، نحو أرض الورود والثمار .

كذلك صبت على الديانة الجاهلية مبادئ الإسلام السامية ، فتجافى العرب عنها ، وأبوا أن يتبعوها ، وكادوا لأصحابها ، حتى غدت الجزيرة كبردى ، فيها المسلمون الموحدون يتجهون ،

والجاهليون المشركون المختلفون ، ثم مكّن الله لمحمد ، فخضعت له الجزيرة لم تخضع قبل لمخلوق ، واجتمعت كلها تحت رايته ، ولم تجتمع قبل تحت راية واحدة ، فقادها الى الشام والعراق ، الى أرض النخيل والأعناب .

ويبلغ (بردى) (بسّيمة) ويبلغ (الجديدة) فيسير بين بسيمة والجديدة ، في أجمل البقاع على وجه الأرض ، ويبقى هذه الخمائل فيكون شكرها إياه ، أفنان الورود ، وأغصان الأشجار التي تتدلى فوقه ، وتلمس خده لمساً رفيقا ، وتقبل جبينه قبلة طاهرة ، وهو يلين تارة فترى حصباءه من صفائه ، ويشتد أخرى فيرغي ويزبد ، ويكون له منظر مرعب ولكنه جميل ! مرهوب ولكنه محبوب !

كما كانت الأمة العربية بعـــد أن بسطت سلطانها على العالم القديم كله محبوبة مرهوبة في آن ، يفزع أعداؤها من هيبتها ، ولكنهم يحبون عدلها ، وينتفعون بحضارتها . أغاثت بالعدل بقاع الأرض فكان شكرانها إياها ، هذه الأموال التي فاضت بها خزائنها ، وهذا النعيم الذي تفيّأ ظلاله أبناؤها ، وكانت تستقيم لها الأمور فتلين وتدع هذه الرقعة البسيطة من الأرض جنة يسعد بها أهلها ، ويسعد بأهلها أهل الأرض جميعا ، وكانت تستغضب فاذا غضبت غضب لها الدهر ، واذا سارت الى عدوها سار في ركابها الموت والدمار أني سارت : كانت تحمل في يمينها السلام والسعادة ، وفي يسراها الموت والشقاء ، كما يحمل بردى بين (بسيمة والجديدة) الغيث والثمرات ، والطوفان والغرق .

ويبلغ بردى (الربوة) ويمشي حيال النيربين ، ذلك المغنى الذي بني من الشعر ، وولد فيه الشعر ، ثم استحال الى مقام من عيدان تقوم على الخمر والقمر والعهر . . . وينقسم بردى الى أقسام سبعة قد انتثرت نثراً بين عدوتي الوادي : يزيد ، وتورا ، وبردى ، وبانياس ، وقنوات ، والديراني ، وعقربا — منها القوي المتين ، ومنها الضعيف القليل — كما انقسمت الأمة العربيـة الى طوائف وحكومات ، منها القوي المتين ، كحكومة صلاح الدين التي ردت — على صغرها — أوربة كلها يسوقها الجهل والتعصب ، وانتزعت في (حطين) الفريسة من (قلب الأسد) ، وحكومة سيف الله التي هدّت في (الحدث) حكومة الرومان هدّاً ، ومنها الضعيف المستكين وقد أزهرت الحضارة في هذا العهــد وأثمرت ، كما أزهرت الأشجار في (الربوة) وأثمرت .

ثم يدخل بردى (دمشق) ، فلا يصفق بالرحيق السلسل ، ولا يتمايل على الورود والرياحين ، بل يصفق بالأوحال والحشائش ، ويحمل على الأقذار والأوساخ ، ويشح ماؤه وينضب ثم يضيع ويضمحل ، كما ضاعت عزة العرب ، واضمحلت . . .

ثم يخرج الى (الغوطة) فاذا نشق نسيمها عاودته الحياة ، ونشأت في مجراه الجاف الصلب ، عيون وينابيع ، فاذا بلغ (جسر الغيضة) عاد قوياً زاخراً عذباً — كما عادت الأمة العربية اليوم الى الحياة ، ورفعت في الشام ومصر والعراق صروحاً جديدة ، لن تلبث الا قليلاً حتى تكون خالصة لأصحابها ، من دون الناس أجمعين !

***

وبعد ، فهل أحزنك يا بردى انك اليوم ضائع في أهلك ، لا ترى حولك عزة العروبة ولا جلال الاسلام ؟ كلا ، لا تحزن يا بردى فما أنت وحدك المضاع ، ان هنا أمة بقضّها وقضيضها ، هي مثلك مضاعة ، وهي مثلك بنت المجد والسؤدد .

لا تحزن يا بردى ! فلقد عشت حيناً من الدهر ، وأنت تسقي النيل والفرات وسيحون والوادي الكبير . . . أفيضيرك وأنت من لدات الدهر ، أن تذل ويذل أهلك أياماً .

لا تحزن يا بردى . بل اصبر حتى اذا أعجزك الصبر فثر بأمواهك ، وليضطرم موجك حتى تغسل عن قومك عار الذلة والخنوع ، انه لا يغسله الا بورتك ، هذه سنة الحياة يا بردى : لا بالحق ولكن بالقوة .

واذا غرهم منك لينك ، فأرهم شدتك ، إن الماء على لينه يجرف جبلاً على جبروته وكبريائه ، ولقد ثرت مرة . فبلغ رشاشك بواتيه من هنا ، وحيدر آباد من هناك ! فهل استنفدت تلك المرة قوتك كلها ؟ أما فيك بقية من الشباب ؟ أتعبت اذ تجري هذه الملايين من السنين ؟ إنها فترة صغيرة من عمرك ، فعلام الوني ؟ انك لا تزال شاباً . ولم تنس بعد جيش خالد ولا موكب الوليد ، لقد كان ذلك أمس . وسيكون مثله في غد .

فاصبر ولنصبر يا بردى ! إن الصبر مفتاح الفرج يا بردى . . .

دمشق — علي الطنطاوي

آراء حرة

القصة في الأدب العربي

للأستاذ فخري أبو السعود

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب في الطبع الانساني ، ولكن القصة كانت آخر صور الأدب ظهوراً ، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر في الآداب الأوربية الحديثة إلا أخيراً ، ولذلك أسباب منها الوهم الذي وقر في نفوس الأدباء المتقدمين وإن يكن يبدو لنا اليوم غلطه واضحاً : أعني توهم أن القصة إن هي إلا أحبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقي أن يلهو بحوكها ، وأن القصص مرتبة من التأليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجمل بالأديب القدير أن يتدلى اليها

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخية والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف ، لاعتبار أنها حقيقة لا اختلاق ، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسير دون كتب القصص ، ومن ثم أيضاً لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيدين إلا من كان له غرض آخر دون القصص يوهم قراءه أو يوهم نفسه أنه الغاية التي اليها يقصد : إما باعطاء القصص مغزى وعظياً كما في كتاب كليلة ودمنة ، أو بالباسه ثوباً قشيباً من الصناعة البلاغية كما في مقامات الهمذاني والحريري ، بينما تركت الأقاصيص المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص في كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبيعي في الانسان ، وتتداول بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادر الظرفاء والمتوهين

بيد أن القصة إن انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوربية الحديثة إلى عهد قريب ، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التي تؤثر في النفوس لا من طريق الميل الطبيعي الى القصص وحده ، بل من طريق أخرى هي الميل الى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات ، ومن طريق ثالثة هي الثوب الخيالي الشعري الذي أسبغ على تلك الروايات التمثيلية .

ثم التفتت رويداً رويداً الى أحوال المجتمع فتناولت وصف شؤونه وتصوير أخلاق أفراده ، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية ، فالام يعزى ذلك ؟ يعزى الى أمرين : أولهما ايجابي هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم ، وثانيهما سلبي هو مكانة الشعر لدى العرب

فكتاب العربية وشعراؤها عاشوا دائماً بنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون في تقلباته السياسية والاجتماعية ، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته ، ومن ثم ندر الأدب الوطني في العربية وإن كثر الأدب العصبي ، وندر الشعر الاجتماعي ، وكان جل شعر الشعراء فردياً يعبر عن عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بذم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أوليائهم نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمدون عليهم دون الشعب ويبتغون رضاهم قبل رضا الشعب ، فلم يكن هناك تواصل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء في معالجة شؤون المجتمع وتحليلها ومحاولة إصلاح فاسدها عن طريق أدبهم ، فلم يقم في العربية أمثال أديسون وستيل وديكنز وجالزورذي من الأدباء الانجليز الذين جعلوا إصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو انهاض العامل نصب أعينهم ، ولا ريب أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصة التي تصف المجتمع وتحلل الأخلاق ، ولم تنشأ القصة الحديثة في أوربا في القرن الثامن عشر إلا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع ، وكانت الطباعة التي سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب — والتي لعله لم ينلها لدى أمة أخرى — فانها ثبطت ما عدا الشعر من صور الأدب ، فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفرهم عليه عما عداه ، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم ، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كأبي نواس إلى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما يعبر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلاً على شخصيته ستاراً رقّ أو كثف ، ولربما كان منه في العربية نظير لوباسان في الفرنسية ، ولكن الشعر

كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة، فلم يتردد أبو نواس في سلوك السبيل التي سلكها ابن أبي ربيعة من قبله، سبيل الشعر القصصي أو القصص المنظوم شعراً

إن الناظر في أدب العرب وتاريخهم لا يسعه إلا أن يرى هذه الحقيقة بارزة: حقيقة أن الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم حتى طغى على ما دونه من ضروب الأدب، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته — برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم في التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع إلى محفوظه من الأدب، وكم من أعلام للشعر العربي لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لا نصرفوا إليهما دونه أو لمارسوهما معه

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت في الرسالة أخيراً يثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يعد أن أثبت أنه كان في حالة أولية لا يفتخر بها ولا يغتبط: فإن الفن الذي لا ترى له باقية ولا يمكنك أن ترى في أدب اللغة وكتبها، ولا يتوصل إلى إثبات وجوده إلا بشذرة شاردة في صحيفة من كتاب، لا يكون فناً قد نال حظاً من الرقي وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها، والحكاية التي رواها الأستاذ عن المقريزي تشهد بذلك، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين إحداهما كأنها داخلة في الحائط والأخرى كأنها خارجة منه: فإن تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له وإسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتها في كتابه، كل ذلك لا يدل على ارتقاء الفن في ذلك العصر بل يدل على كونه في حالة بدائية، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطي الحظ من الاجادة، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذي عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملي التي يزاولها الصناع كما يزاولون النقش والطلاء، ولم يرق إلى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية

إن صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة في الأقطار تملأ المتاحف وتتحدث عن نفسها وعن رقي الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التي ألفت فيها، فأين آثار مصوري العرب التي تحدثنا عن مثل ذلك؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها؟ بل أين الصور العربية التي كانت وحياً لشعراء العربية كما كانت الصور الأوربية وحياً لوردزورث وتنيسون وغيرهما، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحياً لسينية البحتري؟

لن تظفر بشيء من ذلك إذا طلبناه، ولن يسعنا إلا الاقرار بالحقيقة التي تطالع قارئ تاريخ العرب وأدبهم: وهي أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذي استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان.

مجرى أبو السعود

خصومة

للأستاذ توفيق الحكيم

بعثت اليه أول النهار بالرسالة التي سميتها «باقية على الدهر» ثم أويت آخر النهار الى بيتي فوجدت اسطوانات «بيتهوفن» التي استعارها مني قد ردها الى، فعلمت أنها القطيعة. فوقفت واجماً في مكاني وزالت آثار الغضب ولم يبق في نفسي الا ألم عميق: لقد انتهى كل شيء بيني وبين الدكتور طه حسين.. ولم أستطع أن أقرأ شيئاً في ليلتي، وما أن أقبل الصباح حتى أوفدت الى الدكتور طه حسين صديقين كريمين يحادثانه في أمر الرسالة، فاذا به قد دفعها الى المطبعة، واذا به يأبى الا أن يعلن الخصومة الى الناس. وحاول الصديقان عبثاً أن يحولا بينه وبين هذا الاعلان. وحاولا عبثاً أن يقنعاه بابقاء الخصومة سراً بيننا حتى يعرض أمرها على الأستاذ الجليل لطفي السيد بك وكلانا ولده وهو أولى من جمع بين القلوب النافرة لو كان الى ذلك سبيل. لكن الدكتور طه أراد أن ينتقم فتناول القلم ووضع قصة روى فيها ما كان من أمري وأمره

قرأت القصة فدهشت. أي روعة وأي ابداع! إنها في ذاتها أثر من آثار الفن الخالد، إني أشهد أنها عمل فني عظيم. فيها من سعة الخيال وروعة الأسلوب ما يضمن لها البقاء. إنها هي التي ستبقى على الدهر

لقد أعجبت حقيقة بهذه القصة اعجاباً شديداً. وهي عندي من أقوى ما كتب الدكتور. ولقد أنساني إطارها الأدبي ما احتوته

من ابتسامات قاسية ... وماذا يهم ؟ إن شخصي ليس يعنيني كثيراً ، كما أنه ليس يعني صديقي الدكتور منذ اليوم . إنما الذي حفلت به حقيقة وأحفل به الآن ، هو تلك القطعة التي تشيع الحرارة في جوانبها ، وعلى أسلوبها بحرارة مؤلمة . قطعة لا ينساها من يقرؤها . وأغلب ظني أن الدكتور قد أصر على نشرها لأنه يعلم أنه قد كتب شيئاً جميلاً : وإني الآن لأرضى أن يضحي شخصي الزائل في سبيل ظهور هذه القطعة الباقية .

بقي أن القارئ وقد فرغ من القصة لا بد يسأل نفسه : ما كل هذا الذي بين توفيق وبين الدكتور ؟ وإني أمد القارئ بالجواب فأقول : لا شيء في رأيي غير صداقة لا يمكن أن تزول لأنها صلة بين قلبين اجتمعا على حب الجمال الأعلى : جمال الفن والحقيقة ، ولئن قامت خصومة بيننا اليوم أو في الغد ، فهي خصومة من أجل الرأي والتفكير ، إن الشخصية الحرة هي كل ما يحتاج إليه الأديب الحقيقي . ومهما يكن من قيمة الصداقة الأدبية العظيمة لا ينبغي أن تفتات على هذه الحرية . إن الدكتور طه حسين العميد الرفيع المقام ، والزعيم الجليل الشأن في أدبنا العربي الحديث يفهم هذا حق الفهم . وإنه ليعلم أني أقدره أحسن تقدير وأضعه من نفسي في أسمى مكان وأحفظ له على الزمن ما أسدى إلى من جميل ، ولا أنسى أنه هو الذي ألقى الضوء على وجودي . غير أنه يخطئ إذا فهم أن صداقتي له معناها التزام موافقته على كل رأي أدبي يبديه ، والتسليم والتأمين على كل ما يخرج من قلمه أو من فيه . إن الحكم المطلق إذا صلح في دولة السياسة فهو لا يصلح في دولة الأدب . وإني لا إخال صديقي الدكتور طه نفسه يرضى لي أو يرضى لفني وتفكيري هذه الحرية المقيدة . هذه هي كل الخصومة التي بينه وبيني . فهو قد استاء مني إذ عارضته في بعض آرائه في مقالات نشرت في «الرسالة» أو في «المصور» وفاته أني أجد لذة عقلية في معارضة منطقه السليم وآرائه المستقيمة دون أن أحفل بالنتائج . ولقد استاء كذلك مني يوم أخرجت الطبعة الثانية من «أهل الكهف» بغير مقدمته ، وعقيدتي أنه على حق في هذا الاستياء لو أنه فهم من تصرفي أني قصدت خدش كبريائه ، أو أني رأيت أحداً غيره أولى منه بهذا التقديم . أما وقد فهم أني لم أقصد هذا ولا ذاك ، وأن الحقيقة لا تعدو أني شخص بسيط لا أمقت شيئاً في الأدب مثل المقدمات ، وأني روح حر يأبى أن يقيد نصوصه بتفسيرات ، فضلاً عما قام في ذهني يومئذ من إبطائه أنه غير جاد في وعده بالمقدمة . فهل تراه يصر بعد ذلك على اتهامي بسوء القصد ؟ . إني أحب الحرية ، حرية التصرف ، وحرية الكلام ، وحرية إبداء الرأي . وأعتقد أن أثمن كنز يغدقه المجتمع على رجال الفن هو « الحرية » ، وأعتقد أن خير هدية أهديها صديقي العزيز علي ، هي « الحرية » ولقد بلغ من إخلاصي في صداقتي لطه حسين أن أعطيته «حريتي» . فهو لن ينسى أني ما أتصرف في عمل أدبي بغير رأيه ، وما استشارني أحد في أمر يتصل بكتبي إلا أحلت الأمر عليه ، وانتظرت كلمته فيه . على أني أحب من جهة أخرى أن أستعير بعض هذه الحرية أحياناً لأناقشه في فكرة من الفكر ، أو أحاوره في مسألة ، أو أرد عليه في مقال . فأنا كما يعلم الدكتور طه ذو طبيعة لا تسير على نظام .

إني أعطي كثيراً ثم آخذ فجأة ، ثم أعود فأرد ما أخذت . وعلى صديقي أن يكون رحب الصدر ، سخي النفس كمصرف فتح لي فيه حساب جار . وإني أشهد أن الدكتور طه يحمل نفساً من أنبل النفوس وأندرها ، ولقد سجلت هذه الشهادة في قلبي قبل أن أسجلها في كتابي الفرنسي الذي بعثت به إليه منذ شهرين . غير أن الدكتور لم يعرفني حق المعرفة ، وأراه يأخذ بعض تصرفاتي على سبيل الجد ، حيث لا ينبغي أن يؤخذ على سبيل الجد . ولست أدري ماذا كان يضيره لو أنه غضب ما شاء من رسالتي العنيفة ثم مزقها دون أن يحفل بها ، ودون أن يعلن أمرها للناس ، ودون أن يدخل الناس بيننا ؛ وهو يعلم لو رجع إلى قلبه أن لا شيء في هذا الوجود يستطيع أن يحول بيني وبينه ؛ ومع ذلك فإن هذه الرسالة الغريبة قد أدت إلى الأدب العربي أجل خدمة ، فهي التي ألهمت الدكتور كتابة قصة من أروع القصص ، وإني أؤكد للدكتور أنها خير نموذج للون جديد في الأدب كان ينبغي أن يوجد . وأخشى أن تحدثني نفسي بتكرير فعلتي كلما تاقت نفسي إلى متعة فنية ، وكلما آنست في إنتاجنا الحديث فراغاً .

وبعد ، فيا صديقي الدكتور أنا محزون حقاً . فقد فكرت ، فإذا خطيئتي شنيعة ، فقد كان يجب على الأقل أن أستشيرك قبل أن أبعث بتلك الرسالة .. فماذا ترى في موقفي منك ؟ ويزيدني حزناً لطفك ، حين تتجاوز في سهولة وكرم عن كل هذا ..

إنما أنت في حقيقة الأمر فنان كبير ، فنان حقاً . وإني لأعترف بأني لم أمنح هذه النفس ، ولست أنا خليقاً بالفن ولا بك .

الرسول صلى الله عليه وسلم

للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت في عدد الرسالة الذي صدر بتاريخ الأثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ باباً من القصص الشعري عن (اسلام حمزة) رضي الله عنه وقد وضع هذه القصة واضعها وهو يقصد بها — إن شاء الله — خيراً . إلا أن طريق الخير إلى ما قصد إليه قد التوى به التواء يذهب بكل ما عمد إليه ، فانه وضع على لسان الرسول شعراً نزهه الله عنه بقوله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » . ثم بلى ذلك أنه قد وضع على لسانه مالم يقله صلى الله عليه وسلم

وليعلم صاحب هذه القصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ويقول « من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . فكيف بصاحبنا وهو ينطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يقله . ثم يكون ما ألحقه به من كلام مصوغ في قالب الذي نزّه الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

وهذه المسألة لم يرد بعض الناس أن يحتاطوا في تنفيق الكلام ليستحل ملا يحل بأساً . وهم يعتدون الناس يحتبس عن عقولهم أولاً ثم عن إيمانهم ثانياً . لينقادوا لهم في الرضا بها و متابعة عليها . . . والمسألة لو تناولت أحداً غير صاحب الرسالة لقلنا عسى ولعل . . . ولنظرنا في المخرج الذي يتأوله نظر المتعلق ، ولكنها تتناول إنسانية وحدها قد جعلها الله بمنزلة فوق منازل سائر البشر ، وإن لم تخرج عن منزلة البشر في أعراض الحياة وما يكون فيها وما يأتي منها .

إن إنسانية الأنبياء وحدها هي الانسانية التي أوجب الله على من حضرها من الناس أن يؤمن بها أولاً . ثم يحافظ على رواية سيرتها ثانياً . ثم يحترس ويتدبر فيما ينقل عنها أو يصف منها ، لأن نسبة شيء من الأشياء إليها قد يكون مما يتوهم أحد منه وهماً يخرج — فيما يقبل من أمر الدنيا — بحقيقة الرسالة التي أرسلوا بها عن القانون الالهي الذي جمعوا به ليحققوا كلمة الله التي تعلو أبداً ، وتزهر دائماً ، وتبقى على امتداد الزمن روح الحياة البشرية وميزان أمر الناس في هذه الدنيا

وليس يقال في قصة صاحبنا أو غيرها أن ما أنطق به الرسول لا يتناول تشريعاً أو أدباً أو حكمة ، وإنما يتناول الكلام المتعاطى بين الناس فليس به من ثم بأس . . . ليس يقال مثل هذا لأن التشريع حين يوضع ويراد به سد أبواب من الشر والفتنة يأتي منعاً مصمتاً لا مدخل فيه ولا ثغر حتى يدفع المخربين والمفسدين والعابثين ويضرب على أيديهم من كل ناحية . ولو كان الأمر على غير ذلك لتناول كل لص مفتاح الباب الذي يريد أن يدخل منه إلى عقول الناس ليستغرهم ويزلزلهم من جنة الايمان الى جحيم الالحاد في الدين من الطريق الخفي الذي لا تبصر فيه العامة ولا تهدى به إلى أرشد أمرها في الحياة

فنحن هنا نتقدم الى الأستاذ صاحب القصة بأن يتدبر ما شاء . فهو سيدع ما سلك الى سبيل أهدى . فإن الأدب الذي له نعمل لم يقتصر ولم يضيق حتى يدع ما أحل الله الى ما نهى عنه . ونترك سبيل الرشاد الى سبيل تنحدر بنا الى هاوية لا قرار لها . ولا عاصم منها .

محمود محمد شاكر

واليك الآن ما تمت عزيمتي عليه اذا احتفظت بغضبك على فسأعرض عن كل حياة أدبية » .

توفيق الحكيم

تعليق

نقلنا في العدد الماضي عن الوادي ما سماه صديقنا الدكتور طه « قصة تمثيلية للأستاذ توفيق الحكيم » ، لأن (الرسالة) كانت مسرحاً لهذه الرواية ، فمن حق قرائها الذين لا يصل اليهم الوادي أن يشهدوا فصلها الأخير ، ولأن (الرسالة) سجل لألوان الأدب الحديث ، فمن حق الأدب أن نسجل في تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدّي فيه كاملاً غير منقوص . ولهذين السببين نقلنا أيضاً عن الوادي ما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم تعليقاً على تلك (الرواية) ، وانه ليسرنا أن نسجل كذلك أن الود قد اتصل بين الصديقين الكريمين ، وأن الدكتور طه قد أعلن في الوادي (أن ما كان بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينه من خلاف قد انتهى أمره ومحي محواً بعد ذلك الكتاب الرقيق)

أما هذا الذي نشره في الوادي صديقي طه وسماه عتاباً فهو من الأمور التي تسمى بغير أسمائها وتجرى على غير أوضاعها في هذا العهد العجيب الذي استغل الناس فيه كل شيء حتى حياء الحي ووفاء الوفي وتسامح الصديق .

الزيات

في الريف

بقلم عبد الرحمن فهمي
ليسانسيه في الآداب

إذا أردت أن تمتع النفس بجمال الطبيعة فإنك لست واجداً هذا الجمال في المدينة لأنها ذاعة الصخب والضجيج، مشتبكة المصالح العامة والخاصة بشباك يتعذر على المرء الولوج منها إلى حيث الحرية الطبيعية التي وهبها الله عباده. ولا شك أن المدينة أحد العوامل التي أرخت ظلها الثقيل على جمال الطبيعة في المدن. بل إن هذه المدينة نفسها هي التي اضطرت ابن الطبيعة إلى أن يعقها إرضاء لشهوة المادة، حتى إذا سئم حياة المدينة — وسرعان ما علها لأنها حياة مضنية للعقل والجسد — تطلع إلى الطبيعة وارتمى في أحضانها إلى أن يرتوى بمائها.

وجمال الطبيعة في مصر يتجلى في الريف والصحراء والبحر بصورة جلية واضحة، وقد ذقت لذة الجمال في كل فطبت نفساً بهدوء الريف وسذاجته، وأخذتني روعة الصحراء ورهبتها، ورقصت مع أمواج البحر وأعجبت بعظمته، ولكني لم ألق جمالاً أكثر تأثيراً في النفس مثل جمال الريف الطبيعي.

ولا عجب إذ تراني أقضي بعض أوقات فراغي في قريتي بالمنوفية وهي قرية صغيرة بحجمها كبيرة بتاريخها، ومن أبنائها العالم الكبير، والوزير الخطير، والمدير القدير، ونسبة المتعلمين فيها طيبة. فإذا خلت بها نسيت كل شيء إلا الجمال: فهذه حقول واسعة تتزيا في كل موسم بلباس خاص قد يكون أخضر سندسياً مسترسلاً موشى بالأبيض اللامع والأصفر الفاقع في موسم البرسيم الجميل، وقد يكون ذهبياً براقاً عند ما تنضج سنابل القمح والشعير إيذاناً بالبركة والخير الجزيل، وقد يكون أبيض صافياً عند ظهور وبر القطن ثروة القطر وأمل الجميع، وقد يأتي هذا اللباس الآن يكون ذا خطوط متقاطعة أو متوازية عند إطلاق الماء في المصارف قبل أن ينبت الزرع. وهذه دور ساذجة تقرأ فيها كل أخلاق القروى من بساطة العيش ووداعة النفس وشيء من الدهاء مقرون بالسذاجة، ونوع من الاهمال ممزوج بالجهل، يشرف على هذه الدور جميعاً مئذنة مسجد صغير ينبعث منها كل وقت صلاة صوت مسترسل عذب يدعو المؤمنين إلى ربهم.

ويعجبني جمال الخلق الذي عفا معظمه في المدن، فالفضيلة لا تزال حافظة لكيانها في القرية، فلا بغاء ولا غش، ولا يمكنك أن ترى قروياً ثملاً في أحد طرق البلدة، بل إن أغلب القوم متمسكون بالعروة الوثقى. والشرف ظاهر في جوانب الحياة، والكرم والنجدة صفتان ملازمتان للقروى والقروية.

توقظك في الصباح الباكر صيحات الديكة المتناوبة، وزقزقة العصافير المرحة، فإذا أطلت الشمس من خدرها مؤذنة بالحياة والكد والعمل، خرج الفلاحون من دورهم إلى حيث أنعامهم فجهزوها ورووها بالماء وقادوها إلى العمل طوال النهار، ويعطف القروى عليها ويحنو، عطفاً كبيراً وحنواً زائداً، ولا عجب فهي ذراعه اليمنى التي يعتمد عليها في حياته، تطعمه وتهيء أرضه للزرع.

ينعم الفلاحون في الحقل بكثرة العمل ونقاء الهواء وضوء الشمس إلى أن يؤذنهم غروبها بوجوب العودة إلى دورهم وهم في ذلك أيضاً أول ما يفكرون به بهائمهم يقودونها إلى حظائرها وينثرون أمامها التبن والفول أو البرسيم والعشب، أما هم فتمد لهم ألوان الطعام على الأرض وهو طعام دسم كثير وهو الوجبة الوحيدة التي يعتمدون عليها في غذائهم فضلاً عن وجبة أخرى أو وجبتين من الخبز والجبن المخزون.

وفي العشية والمساء يجتمع أهل القرية جماعات في البيوت أو خارجها على المصاطب يتسامرون، أو يبحثون صفقة بيع أو يتفقون على ري قطعة من الأرض بعد قطعة، أو يصلحون بين متخاصمين وتلحظ عليهم جميعاً روح المعاونة والحب.

وعلى صفحة النهر الذهبية برملها المتلألئ اللامع ترى الفتيات النواهد الحسان كأنهن في جلابيبهن السوداء قد بدون سافرات الوجه في زينة طبيعية جميلة، وما أجمل الوجه القروى الناعم الذي لم تعمل فيه يد صناع، وقد حملن فوق رؤوسهن الجرار، هذه تغسل جرتها وقد ارتسم جسمها الجميل على صفحة الماء الصافي، وتلك تغترف من الماء ما هي في حاجة إليه، وضفة النهر في هذه الفترة من كل يوم في نظرى ناد لأولئك الفتيات يتقابلن فيه ويتحدثن

عنده ويستعرض يومهن الذى خلا ، وقد يغنين بصوت متناسق جميل أناشيد قروية طريفة :

وأظهر ما يلحظه فى القرية اليوم نوع من الركود المالى ، فبعد أن كانت عقب مواسم الحصد نشيطة بحركة بيع المحصول بالأثمان العالية أصبحت متأثرة بالأزمة ، فأسعار رزق الفلاح رخيصة ، وديونه كثيرة ، وموارده قليلة ، وقد نتج عن هذا هجرته الى المدينة باحثاً عن عمل يلقى منه أجراً يومياً أو راتباً شهرياً .

وتقام فى القرية رغم هذا سوق أسبوعية تعرض فيها أنواع التجارة فيبتاع القرويون ما هم فى حاجة اليه من أقمشة أو بضاعة ، ويبيعون ما هم فى غنى عنه من الغلال أو الطيور أو الزبد . ويفد اليها كثير من أبناء القرى المجاورة يبتاعون ويبيعون .

ومنذ بضع سنوات لم يكن بالقرية محطة للسكة الحديدية ، أو دار للشرطة ، أو مكتب للبريد والبرق ، وإنما كان المسافرون يحتملون عناء السفر بركوب ظهور الدواب ومتن النهر الى أن يصلوا الى محطة بعيدة يستقلون منها القطار ، وكان ساعى البريد الجوال يصل الى القرية كل يوم على حمارة فينفخ فى بوقه فيهرع القوم اليه ويقرأ عليهم الأسماء فيتناول منه كل صاحب رسالة رسالته ، أما اليوم فأسباب المواصلات موفورة .

ويثلج صدرك بعض الشىء أن ترى بالقرية اليوم مكتباً للتعليم الالزامى ، وفكرة ناجحة فى النفوس عن خطر الأمراض لاسيما (الرمد ، والبلهارسيا ، والانكلستوما) وغيرها ، ورأيى أن أفضل ما تقوم به حكومة مصرية هو ترقية شئون الفلاح وأحوال القرية ، لأن الفلاحين هم كثرة سكان مصر ، ولأن القرية هى مورد ثروة البلاد الأساسى .

عبد الرحمن فهمى

٦ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

السيد على البيلاوى

المالكى

هو على بن محمد بن احمد المالكى الحسنى الادريسى من بيلاو ، قرية تابعة لعمل ديروط الشريف التابعة لمديرية أسيوط ، ولد بها فى شهر رجب سنة ١٢٥١ ونشأ بها فحفظ القرآن ومبادئ العلوم ، وحضر للأزهر سنة ١٢٦٩ فقرأ به على شيوخ وقته كالشيخ محمد عليش ، والشيخ منصور كساب ، والسيد محمد الصاوى ، والشيخ على مرزوق ، والشيخ ابراهيم السنجلى ، والشيخ احمد الاسماعيلى ، والشيخ محمد الانبابى ، والشيخ على بن خليل الأسيوطى ، وكان له به نوع اختصاص فى الحضور ، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونه النواوى ، فكانا يسكنان معاً ، ويحضران معاً الدروس إلا فى درس الفقه فأن المترجم كان مالكياً والشيخ حسونه حنفياً . ولم يزل يجد ويجتهد حتى تأهل للتدريس فدرس بالأزهر والمسجد الحسينى الكتب المتداولة ، وفى سنة ١٢٨٠ سافر للحجاز فحج ، ثم استخدم بدار الكتب الخديوية بالقاهرة مغيراً ، حتى كانت الثورة العرابية ، واتجهت الأنظار لتنصيب المصريين فى المناصب الكبيرة فساعده صديقه وصهره محمود سامى باشا البارودى على اقامته ناظراً على هذه الدار سنة ١٢٩٩ فتمت له نظارتها بعد ماسعى كثيرون لها فلم يوفقوا .

ثم لما هدأت الأمور وأطفئت الفتنة كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين للعلم بأنه من صنائع البارودى ، ولكن الله سلمه ، ولم يشأ الخديو أذاته لاشتهاره عنده بالصلاح والتقوى والبعد عن الفتن فاكتفوا بفصله من دار الكتب وجبروا خاطره بالخطابة فى المسجد الحسينى ، ثم جعل شيخاً لخدمة هذا المسجد فى ثانى صفر سنة ١٣١١ . ولما غضب الخديو على السيد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره

بالإستقالة من النقابة فاستقال ، سعى المترجم صديقه ورفيقه فى الحضور الشيخ حسونة النواوى ، وكان اذ ذاك رئيساً لمجلس ادارة الأزهر قبيل اقامته شيخاً عليه ، فقبل الخديو منه وأقام المترجم نقيباً للأشراف فى ٦ شوال سنة ١٣١٢ فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ما اندرس وبنى دور بناها بجهة الحلمية ، وصار يصرف الاستحقاقات فى أوقاتها ، وسئل فى رياسة الخدمة بالمسجد الحسينى فقال ان كانت النقابة تمنعنى من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها فأبقى كما كان

وأقام المترجم فى النقابة نحو ثمانى سنوات يجدد من معالمها ، ويحيى ما درس منها ، حتى نقل منها شيخاً الى الأزهر ، وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ ؛ وأراد الخديو اعادة الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعى فلم يوافق النظار على ذلك ، فرشح الشيخ احمد الرفاعى المالكى وأعلمه بذلك ، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت ، ثم سعى الشيخ على يوسف صاحب صحيفة المؤيد ومن أكبر المقربين من الخديو للشيخ امين المهدى بن العلامة محمد المهدى العباسى فرد عليه بأنه لا يصلح لخموله وعدم توليته أموراً قبل الآن ، فأجاب بأنه وان كان كذلك فهو من بيت علم وغنى ، تربى فى نعمة فلا تطمح نفسه لشىء مما فى الأيدى ، وتدربه على الأمور قريب مدرك فرضى الخديو به ، ولكن النظار لم يوافقوه عليه لأمور نقمها عليه ناظر الحقانيــة مدة ما أقامه عضواً بالمجلس الحسينى فخار الخديو وحنق ، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على اسم المترجم فارتضاه وجنح الى توليته ، ولم يكن قد خطر على بال أحد ، وساعد الشيخ على يوسف على ذلك ليتمكن من رد السيد محمد توفيق البكرى الى النقابة فتم له الأمر ورضى به النظار وأعيد البكرى الى النقابة مضافة الى ما بيده من رياسة الطرق الصوفية وصدر الأمر فى ٣ ذى الحجة باقالة الشيخ سليم من الأزهر وتنصيب المترجم ، فلما ذهب لشكر الخديو كالعادة استصحب معه ولده الأصغر السيد محموداً والتمس اقامته شيخاً على المسجد الحسينى بدله ، كما أقيم أخوه الأكبر السيد محمد قبله خطيباً له فقبل ملتمسه وأجيبت رغبته .

وكان الخديو فى ذلك الحين منحرفاً عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس ادارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه ، فكان يظن ان المترجم يوافقه فى معاكسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه ، فأخطأ ظنه ، لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ووافقه فى كل مشروع ، واتحد به واندرج فيه حتى لم يكن له من الرياسة غير رسومها ، والكلمة كلة المفتى ، وعوتب فى ذلك من أحد المقربين فاعتذر بأن الرجل لا يريد غير الاصلاح فلا يرى وجهاً لمعارضته ، فكان ذلك سبباً لميل الخديو عنه بعد اقباله عليه ، وضعف المفتى عن معاندة الخديو ولم يجد من الانكليز المساعدة التى كان يتكن عليها فعزم على نفض يده من الأزهر ، ورأى المترجم أن الأمور لا تجرى على مرغوبه فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ فأقيل يوم السبت ١٢ منه وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعى واستقال أيضاً المفتى من مجلس الادارة مرغماً .

وأقام بعد ذلك المترجم بداره التى بجهة الناصرة بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين ديناراً مصرياً من الأوقاف الخيرية تصرف له كل شهر ، مواظباً على كثرة تلاوة القرآن كعادته ، مقبلاً على العبادة حتى ازداد به المرض سنة ١٣٢٣ ، وتوفاه الله فى غروب يوم الجمعة الثالث من ذى القعدة من تلك السنة فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت وصلى عليه بالمسجد الحسينى وطيف به حول المقام كوصيته ، ثم دفن بقرافة المجاورين فى بستان العلماء رحمه الله رحمة واسعة . وله من المؤلفات رسالة اسمها الأنوار الحسينية على رسالة المسلسل الأميرية ، ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان ، ولولده السيد محمود تعليق عليها سماه عروس العرفان فى الحث على ترك البدع وشوائب النقصان على الرسالة الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان .

وأعقب المترجم من الذكور ولدين كبيرهما السيد محمد الببلاوى سعى له والده حين انفصاله من نظارة دار الكتب فجعل مغيراً بها ثم جعل وكيلاً لها وخطيباً للمسجد الحسينى ونال درجة العالمية الثانية بالأزهر ، ثم جعل بعد ذلك نقيباً للأشراف . والآخر السيد محمود جعل شيخاً للمسجد الحسينى لما أقيم والده شيخاً للأزهر ثم جعل بعد ذلك شيخاً للمسجد الزينبى .

الشيخ أحمد الرفاعى

المالكى

اشتغل بالحضـــور فى الأزهر على مشايخ وقته حتى تأهل للتدريس فدرّس الكتب المتداولة ، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه الآن كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت والشيخ أبى الفضل الجيزاوى والشيخ محمد حسنين العدوى والشيخ محمد النجدى الشرقاوى وغيرهم ، وقد أصبح فى أواخر أيامه وليس فى الأزهر إلا من هم تلاميذه أو فى طبقتهم إلا الشيخ الشربينى والشيخ البشرى

وكان من عادته ألا يقطع الأقراء طول السنة ولا يسامح فى أوقات المسامحات ولا يقعده عن الاشتغال إلا المرض ، فقرأ الكتب المتداولة مراراً ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله حتى صار المستعصى منها عنده بمنزلة السهل عند غيره . وأتقن فن التجويد بجعل شيخاً على القارئ مدة طويلة . ولما أقيم الشيخ حسونه النواوى شيخاً على الأزهر فى المرة الأولى ولم يجد إقبالاً من علمائه صاحبه المترجم وتحبب اليه ولازمه فى غدواته وروحاته . ثم لما انحرف الخديو عباس باشا الثانى عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس ادارة الأزهر وأراد كف يده عنه ساعده المترجم على ذلك وأخذ فى معاكسة الشيخ وتدبير المكايد له ، وتنفير الأزهريين منه ، وتقرب من الخديو وأكثر من التردد على قصر القبة ومداخلة الحاشية حتى حظى عنده وأقبل عليه إقبالاً عظياً ، فلما عزل الشيخ سليماً البشرى عن الأزهر فى ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ وأراد ارجاع الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظار ، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له فعاد الى داره جذلاً وأشاع الأمر وهيأ السكر لشرب المهنئين والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار ، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخديو صرفه عن توليته وذكر عنه هنات الله أعلم بها ، فعدل الخديو عن تنصيبه الا أنه التمس لنفسه مخرجاً من وعده الذى وعده به فأعمل بعض المقربين الحيلة واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله للتولية فقال لهم نعم ولأنى مولاى وقبلت ، فأخذوا يذكرون صعوبة مراس أهل الأزهر والمشاق التى يعانيها شيخهم لاخضاعهم ولحوا له بأنهم لا يظنونه يقوى عليهم فقال ومن أهل الأزهر ، أنا أدوسهم بقدمىّ فقالوا إنك ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان العضوين بمجلس الادارة فهل ترضى بأن يشاركاك فى الادارة ؟ وكيف يكون شأنك معهما ؟ فقال كلا لا أرضى بأن يشاركانى بل أشترط لقبول التولية عزلهما وهما عندى كافران لا يوثق بهما ، فاستغرب الخديو فى الضحك وقال شرطك لا يمكن تنفيذه ، ونحن نريحك من رياسة الأزهر ونعوضك عنها بشئ نجريه عليك من الأوقاف فأسقط فى يده ورضى مرغماً ثم صرفوه .

ثم وقعت منه فى أواخر أيامه زلة ، قيل إنه تصرف فى وقف بغير وجه شرعى ولكن الله لطف به فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من القارئ ، وكثرت غمومه وهمومه لما لاكته الألسنة فى هذه المسألة ، فانقطع عن التدريس لمرض أصابه الى أن توفى بعد ظهر يوم الاثنين ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ ودفن يوم الثلاثاء وأذنوا له على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة ، وكان قصيراً دحداحاً خفيف الحركة رحمه الله تعالى وتجاوز عنه .

وله من المؤلفات حاشيته على شرح بحرق على لامية الافعال لابن مالك طبعت بمصر .

قس بن ساعدة الأيادى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى
مدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر

نسبه : قال أبو حاتم السجستاني هو قُسُّ بن ساعدة ابن حذافة بن زفر أو زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وقد نقل ابن حجر العسقلانى فى كتاب الاصابة هذا النسب عن أبى حاتم ولكنه ذكر جُذامة بدل حذافة ، وقال صاحب الأغانى هو قس بن ساعدة بن عمرو أو شمر أو عمرو بن شمر بن عدى بن مالك ابن ايدعان بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن زيد مناة بن مهدم أو يقدم ابن أفصى بن دعمى بن إياد ، فبينه وبين إياد على القول الأول ثلاثة آباء ، وبينهما على القول الثانى اثنا عشر أبا أو ثلاثة عشر أبا ، وقد يكون النسب الأول هو الثانى مع اختصار فيه ، ولكن يبعد هذا وجود أسماء فيه لا توجد فى النسب الثانى ، فلا يكون مع هذا مختصراً منه ، ولعل كلا من هذين النسبين يمثل رأياً من رأيين فى قدم قس أو قربه من زمن ظهور الاسلام ، فقد ذكره أبو حاتم فى المعمرين ، وحكى أنهم قالوا إنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، ونقل المرزبانى عن كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة ، ونقل الابشيهي فى كتاب المستطرف أنه عاش سبعمائة سنة ، فهو إذا كان قد عاش قبل الاسلام هذه القرون الطويلة (٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة) فلابد أنه لم يكن بينه وبين إياد الا نحو هذه الثلاثة الآباء ، وإذا كان لم يعمر قبل الاسلام إلا الحد المنقول فى معمرى عصره فيكون بينه وبين إياد ما ذكره صاحب الأغانى من تلك الأصول ، وقد يكون قس على القول بقدمه إلى ذلك الحد لم يعمر أيضاً إلا التعمير المنقول ، فلا يكون بينه وبين إياد إلا تلك الثلاثة الأصول ولا يكون من رجال ذلك العصر الجاهلى الذى كان قبيل الاسلام ، بل يكون عصره أبعد فى القدم منه ، ويكون ابتداء ظهوره فى نحو عصر كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قريب من زمن حواريى المسيح الذين قيل إنه أدركهم ، فاذا عاش إلى أن أدرك جداً أو جدين أو ثلاثة بعد كنانة بقى بعد هذا بينه وبين عصر الجاهلية الذى كان قبيل الاسلام أزمان طويلة

وليس هذا كل ما يحيط بنسب قس إلى الأصل الأول لقبيلته وهو إياد من الغموض ، فهناك غموض أشد منه فى صحة نسبته إلى إياد نفسه ، ويكاد يقتلعه من هذا الأصل وتلك القبيلة التى أجمع النسابون على أنه منها إلى قبيلة أخرى غيرها ، فقد ذكر صاحب الأغانى فى سلسلة نسب قس أفصى بن دعمى بن إياد ، وذكر أيضاً فى نسب النابغة الشيبانى أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فيكون أفصى بن دعمى على هذا من ربيعة بن نزار لا من إياد بن نزار ، ويكون قس من ربيعة لا من إياد ، ومن البعيد أن يكون أفصى بن دعمى المذكور فى نسب قس غير المذكور فى نسب النابغة ، وأن يكون الاتفاق فى اسميهما واسمى أبيهما من باب المصادفة ، على أنه روى مع هذا أن الجارود ابن عبد الله لما وفد فى وفد عبد القيس على رسول الله سأله ياجارود هل فى جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قالوا كلنا نعرفه ، وفى رواية أخرى أنه لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله قال لهم ما فعل قس بن ساعدة الايادى ؟ قالوا مات يا رسول الله ، وفى رواية ثالثة أن وفد بكر بن وائل قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم أحد من إياد ؟ قالوا نعم ، قال ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله ، فكل هذه الروايات تفيد اتصال نسب قس بعبد القيس وبكر وهما من قبائل ربيعة ، نعم قد يمكن أن تكون إياد مجاورة فى السكن لهاتين القبيلتين فسأل رسول الله وفديهما عن قس لمجاورتهما لقبيلته ، ولكن هذا لا يكفى فى دفع ما يفيده ظاهر هذه الروايات مع ما يفيده ذكر أفصى بن دعمى فى نسب قس ونسب شيبان وبكر وعبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة ، بل إن سؤال رسول الله بكراً وعبد القيس عن إياد ظاهر فى أن إياد كلها من ربيعة لا قسا وحده ، وربما يؤيد هذا أن إياد لو كانت فرعا مستقلا من نزار لما أمكنه أن يحافظ على وحدته ذلك العهد الطويل ، لما تأباه طبيعة بلاد العرب ، إذ يعيش فيها أهلها عيشة ارتحال وتنقل ، وقد قضت تلك الطبيعة على فرعى مضر وربيعة أن ينقسما إلى مالا يحصى من القبائل ، فلا يمكن أن ينجو من تأثيرها فرع إياد على ما يراه النسابون من تفرعه من نزار مع ذينك الفرعين فى ذلك الأمد البعيد ، وإذا كانت إياد من

ربيعة فيكون التقاؤها مع قبائلها في أفصى بن دعمى ، ويكون إياد بعد أفصى لا قبله ، وقد دخل أنساب القبائل تخليط كثير مثل هذا وغيره ، وربما كانت إياد فعلت ذلك عن عمد بعد حروبها مع عبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة

قبيلة إياد : كانت قبيلة إياد نازلة في قديم أمرها بين إخوتها من قبائل معد ، في تهامة والحجاز ونجد ، وكانت تقيم هي وأنمار معاً في أرض تهامة ، بين حد أرض مضر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها ، ثم نزحت من تهامة في حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر في خانق ، تغلبت فيها وخرجت إلى العراق فنزلت في سواده قرب مكان الكوفة ، فأقامت هناك دهراً ، وانتشرت في تلك الأنحاء ، وكانت تغزو أهل العراق من العجم وغيرهم ، فلما كان عهد كسرى أنو شروان أغارت على نساء من الفرس فأخذتهن ، فأرسل إليها أنو شروان جيشاً أجلاها عن أرض العراق ، وشتتها في البلاد ، فنزل بعضها تكريت ، ونزل بعضها الجزيرة، ونزل بعضها أرض الموصل ، ثم سلط عليها أنوشروان قوماً من بكر فنكوا بها ، وفرقوها في أرض الروم ، وبلاد الشام

وقد اشتهرت قبيلة إياد بخطبائها ، وظهور قوة الخطابة فيها ، وكان خطباؤها مضرب المثل في الفصاحة وقوة البيان ، وفي وصفهم يقول بعض الشعراء :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

فذكر المبسوط في موضعه ، والمحذوف في موضعه ، والموجز والكناية ، والوحي باللحظ ودلالة الاشارة . وكانت قبيلة عبد القيس من ربيعة تسامي إياد في خطبائها ، وشيوع الخطابة بين أفرادها ، ولعل هذا مما يقوى ما رجحناه من اتصال نسب إياد بنسب عبد القيس وربيعة ، ولكن عبد القيس لم تظهر فيها الخطابة إلا بعد أن انتقلت من البادية إلى عمان والبحرين ، حتى قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : وشأن عبد القيس عجيب ، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية ، وفي معدن الفصاحة ، وهذا عجب

ولا شك أن إياد كانت في سرة البادية مثل عبد القيس ، ثم انتقلت منها إلى العراق ، فالظاهر أن الخطابة لم تظهر فيها إلا بعد أن انتقلت من البادية مثل عبد القيس ، وقد علل ذلك بأنهم حينما تركوا سرة البادية جاوروا الأعاجم في تلك الأماكن، وكان الأعاجم أهل خطابة وكتابة ، ولهذا كثر الخطباء أيضاً في اليمن عند اختلاط أهله بالفرس الذين أتى بهم سيف بن ذي يزن لاخراج الحبشة منه ، وهذا يفيد أن الخطابة العربية مأخوذة من الخطابة الفارسية مع أن الجاحظ قال في موضع آخر في الموازنة بين خطابة العرب وخطابة الفرس ، وبيان الأمم التي انفردت بالخطابة : « وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، وأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ؛ ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام لهم فانما هو عن دراسة وطول فكرة ، ومشاورة ومعاونة ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ومكابدة ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هو كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله »

وإذا كان هذا شأن خطابة الفرس وخطابة العرب ، فأين إحداها من الأخرى ؟ وكيف أخذت الثانية من الأولى ، وهما يختلفان هذا الخلاف ، ولا يوجد بينهما أدنى شبه يدل على تأثر إحداها بالأخرى ، واحتذاء خطباء العرب بخطباء الفرس في الخطابة ؟ ولا يؤثر في هذا أنا لا نسلم للجاحظ ما زعمه من انفراد الفرس والعرب بالخطابة ، وانفراد العرب بالقدرة على ارتجالها ، فقد يوجد في غير العرب من يقدر على ارتجال الخطابة في لغته ، وقد يكون في العرب من لا يخطب إلا بعد ترو وتدبر ، ولكن العرب لشيوع الأمية فيهم ، كان يقل من يذهب هذا المذهب في خطبائهم

فلم يبق إلا أن نعلل ذلك بأن أخبار هذه القبائل قبل انتقالها

متى البادية بعيدة عنا ، ولم يصل الينا إلا قليل منها ، فما يدرينا أنها لم يكن فيها خطباء حين كانت بسرة البادية ؟ ولعله كان لها من الخطباء فيها ما لا يكون هناك محل لتعجب الجاحظ أو غيره منه

دراسة مثالية : إذا رجع الباحث الى ما كتب عن قس في كتب الأقدمين المختلفة لا يمكنه أن يؤلف من الأخبار التي وردت فيها عنه سيرة صحيحة ، متلائمة غير متدافعة ، متصلة غير منقطعة ، لها بداية معروفة ، ووسط غير مجهول ، ونهاية ليست غامضة ، وإنما هي أساطير لا يمكن أن يعرف منها يقيناً زمنه متى بدأ ؟ ومتى انتهى ؟ ولا مكانه في تلك الأمكنة التي تنقلت فيها قبيلته ؟ وهل كان يعيش بينها ؟ أو كان يعيش بين قبيلة أخرى غيرها ؟ أو كان يعيش هائماً متنقلاً لا يقر في مكان ؟ فقد ورد أنه أدرك حواري عيسى عليه السلام ، ولكن ورد مع هذا أنه أدرك محمداً صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، بل ورد أنه أدركه بعدها وآمن به وعد من أصحابه ، ولا يمكن أن يكون قد أدرك هذين العهدين المتباعدين إلا اذا صدقنا أنه عُمّر حوالى ستمائة سنة ، كما ذكر هذا من بعده في مُعَمَّري العرب ، وهذا أمر لا يمكن تصديقه ، ولم يحدث مثله من عصر الحواريين الى العصر الذي نعيش فيه الآن

وورد أيضاً أنه كان أسقف نجران ، فلا بد أنه كان يعيش عيشة مألوفة بين أهلها من النصارى ، ولكن أين اياد من نجران وقد كانت إياد مستقرة بالعراق فى الزمن الذى ظهرت فيه النصرانية بنجران ؟ بل أين هذا مما روي من أنه لم يكن تسكنه دار ، ولا يقره قرار ، ويتحسى فى تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، وأخبر بعضهم أنه رآه على جبل بالشام يقال له سمعان ، في ظل شجرة الى جنبها عين ماء ، فاذا سباع كثيرة وردت الماء لتشرب ، فكلما زأر منها سبع على صاحبه ضربه بعصاً وقال كف حتى يشرب الذى سبق ، قال فتداخلني لذلك رعب ، فقال لى لا تخف ليس عليك بأس ، ورووا أنه كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه ، وقد سأله مرة ما أفضل العلم ؟ قال معرفة الرجل بنفسه ، فقال له فما أفضل العقل ؟ قال وقوف المرء عند علمه ، فقال له فما أفضل الأدب ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه ، فقال له فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء فى اخلاف وعده ، فقال له فما أفضل المال ؟ قال ما قضى به الحق

وهذا كل ما رووه عن قس فى حياته ، يحيط به الغموض فى بدئه ، ويستمر متمشياً معه ، ثم يلازمه الى نهايته ، فلا تنتهى حياته بين قبيلته إياد ، ولا بين أتباعه الذين كان فيما يقال أسقفاً عليهم فى نجران ، بل يقال إنه توفى بروحين فى لِحْف جبل بها ، وهى قرية قريبة من حلب ، وله بها مشهد يزوره الناس ، ويقصدونه بالنذور ، وله أوقاف محبوسة عليه ، وقد زاره أبو جعبل الأليرى فقال فيه :

هذى منازل ذى العلا	قس بن ساعدة الايادى
كم عاش فى الدنيا وكم	أسدى إلينا من أياد
قد نالها بحلى البلا	غة مفصحاً فى كل ناد
قد قر فى بطن الثرى	متفرداً بين العباد

وقد قدروا له السنة التى توفى فيها بسنة ٦٠٠ م وذلك قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة

ولكن هذا الغموض الذى يحيط بحياة قس من بدئها الى نهايتها ، وهذه الأخبار القليلة التى لا يمكن أن يؤلف منها لقس سيرة متصلة تعرف منها أطوار حياته طوراً فطوراً ، كل هذا لا يمكن أن يتفق مع عيش قس فى هذا الزمن القريب من ظهور الاسلام ، فكل رجال هذا العصر من شعراء وغيرهم معروفون لنا ، وقد وردت إلينا أخبارهم معلومة مفصلة ، ولا تحيط بها هذه الأساطير من كل ناحية ، ولا يتفق مع هذا إلا ما رجحناه فى نسب قس من إدراكه عصر الحواريين ، وتعميره فيه التعمير المعقول فى مثل هذا العصر ، فتكون وفاته قبل الاسلام بتلك الأزمنة المتطاولة ، التى تسمح بهذا الغموض الذى يحيط بحياة قس على شهرته وظهور أمره ، نعم قد روى حديث قس وسماع النبى له فى سوق عكاظ من طرق متعددة ، وقد أفرد بعض الرواة طريقه وفيه خطبة قس وشعره ، وهو فى الطوالات للطبرانى وغيرها ، ولكن ابن حجر العسقلانى ذكر فى كتاب الاصابة ، أن طرقه كلها ضعيفة ، فلا يحتج بها فى مثل ذلك

عقيدته : قد ذكر الأب لويس شيخو اليسوعى قساً فى كتابه (شعراء النصرانية) وقد ورد فيما روى من أخبار قس أنه كان أسقف نجران ، وقد ذكر الجارود بن عبد الله فيما وصفه

به للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يلبس المسوح ، ويتبع السياح على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقراً بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتتكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان

ولا شك أن الأب لويس لا يعني بالنصرانية التي يثبتها لقس إلا هذه النصرانية التي تكاد تتصل بموت المسيح عليه السلام ، ومن أهم أصولها عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء ، وما الى هذا من أصول هذه النصرانية ، ولا شك أن الأخبار التي وصلت إلينا عن قس ، والآثار التي وردت إلينا عنه فيما كان يدعو العرب اليه ، لا تفيد أكثر من أنه كان يدعوهم الى التوحيد ، والايمان بالبعث والحساب ، ولم يرد فيها أنه كان يدعو الى عقيدة التثليث والصلب والفداء ونحوها ، وهي العقائد التي لا تثبت النصرانية التي يريدها القس لويس إلا بها ، بل لم يرد فيها أنه كان يدعو الى الإيمان بعيسى عليه السلام ، وإنما ورد أنه كان يبشر العرب بدين جديد قرب ظهوره بينهم ، فلا يمكن أن تكون عقيدته هذه النصرانية التي يدعو الى دين بعدها ، وهي ترى أنها خاتمة الأديان ، وأن عيسى هو آخر الأنبياء الذي بشر به موسى عليه السلام ، فلا يمكن بعد هذا أن يكون قس أسقفاً على نصارى نجران ، إلا أن تكون نصرانيتهم نصرانية أخرى غير هذه النصرانية ، ولكن الذي يفيده التاريخ أنها كانت من نصرانية الروم والحبشة ، ولهذا حاربوا أهل اليمن من أجلها ، ومع هذا فقد أثبتنا أن قساً كان أقدم من ظهور النصرانية بنجران ، ثم انه كان من إياد وكان أهل نجران من اليمن ، فلا يقبلون رآسة مثله عليهم ، لما كان من العصبية بين العدنانيين والقحطانيين ، وأما خبر الجارود إن صح فلا يفيد إلا أنه كان مثل عيسى في ذلك ، وقد ورد في بعض الأحاديث تشبيه أبي ذر الغفاري بعيسى في زهده ورهبه

فلا يعدو أمر قس إلا أن يكون من قدماء الحنفاء الذين ظهروا في بدء انحراف العرب عن ملة إبراهيم الى الوثنية ، فكان يدعوهم الى ملة أبيهم ابراهيم ، ويحـــارب فيهم هذه البدعة ، وهكذا كان شأن كل أولئك الحنفاء في العرب ، وهذه كانت وظيفتهم فيهم ، وقد حاول الأب لويس في كتابه (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) أن يلحق كل أولئك الحنفاء بالنصرانية ولا يخفى أن شأنهم في ذلك مثل شأن قس بن ساعدة

خطابته : كان قس خطيب العرب وحكيمها وحكمها في عصره ، وكان على شهرته بالخطابة يقول الشعر ، فاذا خطب أتى في خطابته بشيء من شعره ، يناسب موضوع خطابته ، وقد جدد في الخطابة العربية بعض أمور تنسب إليه ، منها أنه أول من قال فيها (أما بعد) وبعضهم ينسبها لغيره ، وقد نسبت لداود عليه السلام ، وفسر بها قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ولكن أسلوب الكلمة عربي خالص ، ولغة داود كانت عبرية ، وانما عظم شأن هذه الكلمة في الخطابة وغيرها ، لأنها تساعد على الانتقال من غرض الى غرض فيها ولا تحوج الخطباء في ذلك الى تكلف مناسبات طامية لا تقف فيه عند حد ، ويصعب على كل واحد فيه أن يأتي بما لم يأت به غيره ، وانما تحسن (أما بعد) في الخطابة والكتابة دون الشعر ، لأنها أسلوب نثري ، ولأن الشعر فيه من آثار الفنون ما ليس في الخطابة والكتابة ، فيحسن التفنن فيه ، ويقبح التزام أسلوب واحد في التنقل بين أغراضه . ومما ينسب الى قس أيضاً أنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكأ في خطابته على سيف أو عصا ، وأول من كتب من فلان الى فلان

ولم يبلغنا من خطابة قس إلا قدر قليل لا يمكننا أن نعرف منه تماما كنه خطابته ، ولا المميزات التي تمتـــاز بها من غيرها ، ولا الدرجة التي يستحق أن يوضع فيها قس بين خطباء العرب ، وإن كان قس في الخطابة مضرب المثل ، وان كان الناس قد أجمعوا قديماً وحديثاً على تقديمه فيها ، وقد قال فيه أعشى قيس :

وأحكم من قس وأجرأ من الذي
بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

وقال الحطيئة :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى
من الرمح اذ مس النفوس نكالها

وقد يمكننا أن نحكم من القدر الذي وصل الينا من خطابة قس حكماً تقريبياً بأنه كان يعني بالخطابة الدينية أكثر من غيرها ، فكانت أكثر خطابته في الدعوة الى التوحيد ، والإيمان بالبعث والحساب ، وما الى ذلك مما كان يدعو العرب اليه ، كما يمكننا أن

نحكم أيضاً بأنه كان يؤثر فيها الألفاظ السهلة على غيرها ، وكذا السجع القصير الفواصل لما له من التأثير فى النفوس ، وما كان له فى ثقافته وعلمه وحكمته واشتغاله بهذه الدعوة العامة ، إلا أن يدع التكلف فى خطابته ، ويخاطب الناس بهذه السهولة التى يفهمونها ، وقد أنكر عليها بعض أدباء عصرنا هذه السهولة ، فحكم بأنها خطابة إسلامية مختلقة على قس ، وليست خطابة جاهلية ملائمة لما كان فى هذا العصر من بداوة وخشونة ، ولا يخفى أنه لا يمكن أن يستقل عصر من العصور بالتأثير فى خطبائه أو شعرائه ، وإلا وجب أن تتحد مسالكهم فيه ، وألا يختلفوا فى أساليبهم من حيث السهولة والشدة وغيرهما ، وكم كان فى الاسلام من خطباء يؤثرون الشدة فى خطابتهم ، وخطباء يؤثرون فيها السهولة على الشدة ، فلا بدع فى أن يكون بجانب الشدة فى عصر الجاهلية تلك السهولة ، وأن تجتمع فيه كما اجتمعت فى غيره الرقة والخشونة .

عبد المتعال الصعيدى

عرس الورد

شذي الخزامى وريا النرجس العطر   سرت بها نسمات الروض فى السحر
والفجر قاد جيوش النور منتصراً   والليل أدبر لا يلوى على أثر
إلا بقايا نجـوم وهى حائرة   فى أفقها ورشاش من سنا القمر
سرى فأنعشني ريح الصبا سحراً   فرحت أستعرض الماضى من الذكر
والذكريات كأسراب القطا كثر   لما تحوم على الغدران والنهر
والقلب كالطير قد أرداه صائده   بين الضلوع خفوقاً خفق محتضر
أهيم والشوق يطويني وينشرني   والدمع طافٍ بجفني غير منهمر
حتى مررت بروض شاق منظره   قد أتقن الصنع فيه حذق مقتدر
لا الشعر وافٍ ولا التصوير يدركه   وإن سمت ريشة الفنان فى الصور
هنا الغصون بأعطاف لها رقصت   مثل الكواعب ذات الدلّ والحور
والعندليب يغنيها فيسمعها   أشجى النشيد بلا عود ولا وتر
والزهر فى مهرجان ريحه عبق   ما بين منتظم زاهٍ ومنتثر
والحوض يبدو كمرآة قد انعكست   فى وجهها صور الأفنان والثمر
أو خد عذراء لم يجذب بتطرية   اذا تدلت عليه خصلة الشعر
وقفت بالباب والأشواك تحرسه   أسائل الطائر الشادي عن الخبر
فأومأت مورقات الدوح مخبرة   تزوج الورد بنت السوسن النضر
فالورد فى حمرة الجلباب متشح   أما العروس ففى بيض من الأزر
يحنو عليها وأحياناً يقبلها   كمدنف آب للأحباب من سفر
كلاهما ليس يخشى عين مرتقب   فى الحب او قول واش فى الهوى أشر
يداعبان ضياء الشمس فى شغف   وظلمة الليل فى أنس وفى سمر
روحان قربت الأشواق بينهما   على اقتراب من الريحان والزهر
والكل جذلان لا الأيام توحشه   ولا تبدل صفو العيش بالكدر
ثم التفت الى نفسى وقد عصفت   فيها الهموم وأذوت زهرة العمر
بيني وبين الليالى ما يكدرنى   كأنني جئت ذنباً غير مغتفر
فقلت ياليتني فى الروض زنبقة   أو بعض ورد ولم أخلق من البشر

دمشق   عبد الجبار جومرد

لوعة الربيع

وقفت ـ ولم أقصد ـ على ضفة النهر   وطرفى ممتد إلى حيث لا أدرى !
وفى النفس ما فيها ! عواطف جمة   يضيق بها صدرى ، ويعيا بها فكرى
عواطف ، لا أدرى حقيقة أمرها   ولكنها بين الكآبة والشعر !
أراقب سير الموج ، والريح سجسج   تعابث وجه الماء ، وهو بها يزرى
ودجلة يجرى فى جلال وروعة   وعزم كعزم الدهر ، كراً بلا فرّ
تطلّ عليه الشمس من خلف رفرفٍ   ـ على الضفة الأخرى ـ من النخل والسدر
فينساب ، لا يلوى على ما وراءه   كأن به شيئاً من التيه والكبر
يجرّ على الشطين فضل غلالةٍ   من الموج ، كالأملاك فى غابر الدهر
رزين ، قوىّ ، يملأ النفس هيبة   وقور ، فسيح الصدر ، متزن السير
تخيّل لى ـ والماء ينساب جارياً   كأن حياة بين أثنائه تجرى
ولو كان ذا روح ، لعمرك ـ لم يكن   بأهيب منه وهو يجرى ، ولا يدرى !
فحولت وجهى ، ساكن النفس صامتاً   سوى خفقان خافت الجرس فى صدرى
فما هاجنى إلا جلالة موكبٍ   تسير به شمس الأصيل الى الخدر
وقد برزت فى حلة من شعاعها   مذهبةٍ ، فى منظر فاتن مغرى
ومن خلفها ، يحملن فضل ازارها   جوار من السحب المنوّرة الأز

ودرتُ بعيني حول نفسي فلم أجد سوى كل ما عند الطبيعة من سحر
فذي الأرض كيف ازّينت وتجملت بثوب من الأعشاب رصّع بالزهر
وهذا النسيم الرطب، نشوان فارح بما نال عند الزهر من عاطر الذكر
وهاتيك أرواح تجوّلُ في الفضا محسوسة التأثير، مجهولة الأمر
لعمرك ما أدرى ! أأرواح جنّة ترفرف، أم روح الربيع انبرت تسرى
أم السحر هذا، أم خيالات شاعر سبت لبّه أشباح آلهة الشعر
وذانك عصفوران من خلف دجلة يطيران في جوٍّ من الحب والطهر
وتلك حمامات ينحن نوادباً يساجلن فوق الدوح صادحة القمر
وكلٌّ بتمجيد الطبيعة هاتفٌ مُهنٍّ بميلاد الربيع ابنها البكر
بدت تعلن البشرى بشتّى لغاتها فذا الطير بالنجوى، وذا الزهر بالنشر
وتلمح حتى الجماد بشاشة ووجهاً ودوداً يستميلك كالسحر !
حياة لعمري لامست كل ميت تحسّ بها نفسي، وينكرها فكري !
فما لك يا قلبي كأنك نائم تساورك الأحلام غامضة السر ؟
لئن كنت في ليل الطبيعة راقداً شتاءً، فأنت اليوم في غرة الفجر

***

حنانيك هذا يومك المرتجى فقم وبادر لذاذات الهوى الطامح العذري
حرام علينا أن يمرّ بنا سدى ولم نقض منه مأرب الشاعر الحر
فجارِ الملا إن كنت منهم ومثلهم وطرْ في الفضا إن كنت من زمرة الطير
ونُح بالأسى إن كنت أسوان يائساً وبح بالهوى إن كنت صبا أخاضرّ
وفيم الأسى واليأس — والكل منقض ؟ وأنت لدى عيدين جاءا على الأثر
فهذا ربيع للطبيعة ناضرٌ جميل المحيا، زاهر، باسم الثغر
وهذا ربيع الشباب محببٌ بأحلامه، حلو المنى، ناعم البشر
وما العمر إلا مدة ثم تنقضي بكم، بما فيها من الخير والشر
لقد فاتني ما قد خلقت لأجله وأدركني ما يرتجي نيله غيري
فما طعم عيشي ؟ لا شقاء ولا هنا ولا يأسة تقضي ولا أمل يغري !
حنانيك فامرح في الضلال أو الهدى وهبتك ما تهوى فما لك من عذر
وخذ قسطك الأوفى من الأرض والسما من الرَّوح والريحان والنور والنَّور

العراق — العمارة عبد الحق فاضل الصيرلي

من الأدب الهندي

الببغاء

لشاعر الهند الأكبر طاغور

ترجمة الأستاذ مصطفى كامل المحامي

كتب طاغور هذه القصيدة التي نترجمها اليوم منذ بضع سنين في بنغالي تحت عنوان «الببغاء» وقد فهم بعض الناس في الهند عند قراءتها أنها رمز لاذع عن النظام المدرسي المدخل بالهند، ثم انتشرت هذه القصيدة في بلاد أخرى من آسيا فقال الناس «من الممكن أن الشاعر قد أراد بشعره أن يشير إلى النظام الذي أدخل في بلادنا» ورأى آخرون أن غرض النظام الذي أدخله الأوربيون في آسيا هو الحصول على النتائج التي نجحت مع الببغاء؛ وتصايح بعض الأوربيين «أرأيتم إلام يؤدي الأمر إذا أردنا أن ندخل التعليم العالي في شعب لا يفهم شيئاً من مبادئنا التعليمية العالية» ثم يديرون رؤوسهم والرضى ملء نفوسهم، وقليل ما هم الذين أدركوا أن ببغاءهم أيضاً ينحدر إلى الموت في نفس الوقت.

— ١ —

كان عصفوراً شديد الجهالة يهزج كل يوم، يقفز ويطير من هنا وهناك، دون أن يعنى بالعلم أو حسن السلوك.

فقال الملك يوماً لا يصلح هذا العصفور لشيء، وهو يحدث مع ذلك اضراراً جمة، فيتلف ثمار الحديقة الملكية؛ واستدعى في الحال وزيراً وأمر أن يُعلم العصفور أحسن التعليم.

— ٢ —

كلف ابن أخي الوزير بتعليم العصفور، فعقد المعلمون أولاً مجلسهم، ثم تباحثوا وتجادلوا دون انقطاع، في الأسباب الحقيقية لجهل العصفور؛ وقرروا أخيراً أن عش الطائر المصنوع من الخشب، شديد الضيق فلن يسع العلم العريض، ورأوا قبل كل شيء أن يصنع له قفص جميل.

— ٣ —

استدعوا صائغاً ليصنع قفصاً من ذهب، فجاء آية فنية مثيراً للاعجاب، حتى بادر الناس من كل فج لرؤيته وقالوا: «سيتلقى العصفور أخيراً تعليماً حسناً»؛ وصرخ آخرون: «حتى ولو لم ينل أحسن التعليم، فإن له الحظ أن يكون له قفص جميل! ما أسعد حظ هذا العصفور!» ورجع الصائغ سعيداً ملء اليدين من حسن

الجزاء، وابتدأ الأستاذ درسه بعد أن جذب نفساً من غليونه، وقال لابدلى من مكتبة. فدعا ابن أخي الملك نساخي البلاد، فنسخوا ونقلوا الكتب حتى تجمع منها الكثير، فقال كل من رأى هذه الأسفار: « مرحى سيكون له الآن من المعرفة قدر وفير »، ورجع النساخون بجوائز طردت عنهم إلى الأبد شر الفاقة.

وبذل الوزير لهذا القفص الثمين من ضروب العناية ما ليس له حدود، حتى جهر الناس جميعاً وقالوا: سيتقدم التعليم بكل هذى الجهود، وتوفر على العناية بهذا القفص كثيرون، ولرقابة هؤلاء توفر نفر أكثر، وفازوا جميعاً بأسنى الهبات والعطايا.

— ٤ —

تنقص الدنيا أشياء كثيرة، إلا أن الساخطين لا ينقصهم أن يهمسوا: « إن القفص معنى به كل العناية، لكن العصفور على ما يظهر مهمل »؟ وبلغ الهمس آذان المليك.

فاستدعى الوزير واستخبره معنى هذا الهمس، فقال الوزير: « يامولاى، إذا أردتم معرفة كل الحقيقة، فاستدعوا المعلمين والنساخين والصانع والرقباء على القفص ومراقبي الرقباء وقد قال الساخطون ما قالوا، لأنهم يتضورون من الجوع »، فاقتنع الملك وجزى الوزير، فاهدى سلسلة من الذهب اليه.

— ٥ —

وتاق الملك يوماً الى معرفة نجاح العصفور، فتوجه الى المدرسة فى حفل من الوزراء والأصدقاء والندامى، وأذاعوا زيارة الملك فى الأبواق، ودقت النواقيس المعلقة فوق المدرسة، وأخذ العلماء يرتلون الأجزاء المقدسة، وهتف البناؤون والعمال والنساخ والصانع فى صوت واحد « ليحيى الملك ».

وقال الوزير « مولاى! انظر! ».

فأجاب الملك « مدهش! ولكن ما هذه الضوضاء؟ ».

فقال الوزير: ليست هذه ضوضاء فحسب، فان وراءها معنى عجيباً، وطرب الملك كثيراً وجاز الدهليز، وحين أراد امتطاء الفيل خرج الناقد من مخبئه خلف شجيرة وقال بخبث: « هل رأيت العصفور يامولاى؟ »

فأجفل الملك وقال: « لم أر العصفور حقاً » وكر راجعاً مع الأساتذة وهو يقول: « أريد أن أعرف الطريقة التى اتبعتموها فى تعليم العصفور »، فلما رآها الملك وجدها بديعة، ولم يلاحظ نقصاً فى شىء، كما أن الأوامر كلها مرعية، ما كان فى القفص ماء ولا حب، وإنما كان يحشى فم العصفور بأوراق الكتب، فلم يعد قادراً على التغريد، إذ لم تبق أدنى فرجة يخرج الصوت منها؛ وما كان أبشع المنظر! وقبل أن يمتطى الملك الفيل أمر بالناقد فلكمه جنده.

— ٦ —

وغدا العصفور دقيقاً رقيقاً على مر الزمن حتى بدا كالميت، لكن الحراس ظنوا أنه مازال هناك أمل، والتفت العصفور نحو الضوء فى الصباح، ورفرف بالغريزة على حائط القفص بجناحيه، وحاول أن يقطع أسلاك القفص الذهبية بمنقاره الواهن، فصاح الحارس: « أى حمق! » وأسرع فأحضر الحداد فصنع أسلاكا من الحديد، ثم قصوا جناحى الطائر.

وقال أصدقاء الملك وهم يهزون الرءوس: « ليست طيور هذه المملكة جاهلة فحسب، وإنما تجمع إلى الجهل نكران الجميل »، وعاود المعلمون واجبهم باليقين الراسخ، ورجع الحداد قريراً بالعطاء الجزيل، والحارس القانع بالراتب المبذول جزاء انتباهه.

— ٧ —

وقضى العصفور، ولم يعرف أحد متى مات، وأذاع الناس قالة السوء، واستدعى الملك ابن أخيه يسأله عما حل بالعصفور:

— إن تعليمه قد تم يامولاى

— الا يقفز الآن؟

— كلا!

— أما زال يطير؟

— كلا!

— أيغنى؟

— كلا!

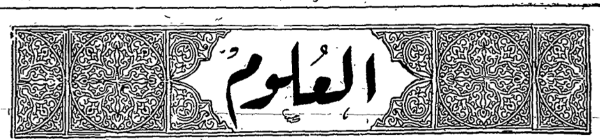
— فماذا يفعل إذا جاع؟

— لا شىء

— أحضره إلى فانى أريد أن أراه

وأحضروه إلى الملك فلمسه وضغطه دون أن يظهر الطائر علامة على الحياة الا حفيف الورق الذى حشوا به معدته، على حين اهتزت أوراق الشجر وقد مرت بها نسمة من نسمات الربيع!

« طاغور »



خلق المادة في الكون

بقلم فرح رفيـــدي

أين يخلق الكون؟ — كيف توصل ملكان (Millican) الى اكتشاف مصدر الأشعة الكونية وبناء نظريته في خلق المادة في الكون؟

في الفضاء خليط من المؤثرات التي تفعل فعلها في الأجسام والأشياء وهي مستترة في الأثير، لا ترى وكأنها ترى، كائنة وكأنها غير كائنة. وهي مزيج من الاشعاع المنبعث من جميع الجهات. فاشعاع من الشمس تراه العين وتحس به، واشعاع آخر من الشمس لا تراه العين ولا تحس به، وأشعة مصدرها الأرض وأخرى مصدرها النجوم والشمس، أشعة إكس وأشعة الراديوم، والأشعة الكهربائية واللاسلكية وأشعة الحرارة. وكل هذه تنطلق بسرعة متناهية في الفضاء ونحن لا نشعر بها ولا ندري حركتها. ولهذه الأشعة تأثير خاص في الهواء المحيط بنا وبها وخصوصاً الأشعة ذات الموجة القصيرة كأشعة أكس أو الراديوم، فانها تحلل الهواء الى ذرات مكهربة تكهرباً سلبياً أو ايجابيا (positive and negative charge). والذرات المتشابهة بالكهربائية تتنافر من بعضها كلما تقاربت، والذرات المختلفة الكهربائية تلتصق وتتحد في تلاقيها وبذلك تفقد صفة التكهرب وتصبح مادة في حالتها الطبيعية.

***

لقياس مقدار تكهرب الهواء أو تحلله الى ذرات من تأثير هذه الأشعة توجد آلة خصوصية تقيس الكهربائية الى درجة دقيقة جداً. وهذه الآلة هي (الالكتروسكوب). جرب أحد العلماء أن يمنع الأشعة المعروفة من دخول هذه الآلة ليرى هل يبقى تأثيرها في الهواء أم يتلاشى باختفائها ومنعها، فوضع الآلة في داخل صندوق من الرصاص الغليظ ليمنع دخول أقوى أشعة معروفة، فوجد بعكس ما توقع من أن الآلة ظلت متأثرة بالرغم من احاطتها بالرصاص فاستنتج من ذلك وجود أشعة أقوى من الأشعة المعروفة قدرت أن تخترق سماكة الحائط الذي بناه وتتصل بالآلة التي وراءه.

ظل هذا الاكتشاف سبع سنوات غامضاً، الى أن قام رجل سويسري سنة ١٩١٠ وصعد الى علو ٤٥٠٠ متر ومعه الالكتروسكوب، فوجد خلاف المنتظر، بأن تكهرب الهواء. أو تأينه (تحليله الى ذرات مكهربة تسمى الوحدة منها أيون "ion") ازداد مع ارتفاعه. فقد ظن أن مصدر هذا التأثير أشعة منبعثة من الأرض وليست من السماء، فعلى ذلك مقدار التأين يجب أن يقل بدلاً من أن يزداد مع الارتفاع. بعد ذلك بقليل قام الالمانيان (Hess and Kolhorster) وطارا الى علو ٩ كيلو مترات فوجدا أيضاً ذات النتيجة.

لم يكن (ملكان Millican) العالم الأمريكي أثناء ذلك ساكتاً عن هذه التجارب ونتيجتها الواحدة، بل أثرت عليه كل التأثير، وحفزته للعمل بأن يقوم بهذه المهمة في اكتشاف أصل هذا التأثير ومصدر تلك الأشعة التي لم تكن في الحسبان ولم تخطر على بال. فقام في سنة ١٩٢٦ مع مساعدة (Bowen) وصعد منطادين صغيرين في الفضاء الى علو ١٥ كيلو متراً. وكان المنطادان مرتبطين الواحد بالآخر، وحجم أحدهما مصنوعاً بالقدر الذي ينفجر فيه عند العلو المطلوب، والآخر كان ليقل الأدوات الأوتوماتيكية لقياس وتقييد التأثيرات الجوية ولارجاعها بعد بلوغ علوها الى الأرض سالمة. فكان من هذه الآلات الالكتروسكوب لقياس الكهربائية والترمومتر للحرارة والبارومتر لمقدار ضغط الهواء، والالواح الفتوغرافية المختلفة لتنطبع عليها صور التأثيرات المختلفة، ثم الآلة التي تسير كل هذه الأجهزة حركة أوتوماتيكية مطردة. ومع كل ذلك فان وزن المنطادين مع ما فيهما من غاز وآلات متعددة

لم يزد على ١٩ جراما أو ما يعادل ٥٠ درهماً تقريباً . وذلك مما يدل على دقة الصنع والتركيب ويبين مقدار اهتمام ملكان بالتجربة وتفرغه لها . والنتائج التي ظهرت من هذه التجربة أتت مطابقة للتجارب الأولى ، فلم يعد بعد شك في وجود أشعة خفية دقيقة ذات تأثير عظيم .

على أن ذلك لم يقنع ملكان قط ، ولم يقلل من شوقه لمعرفة تلك الأشعة وما لها . في ذات السنة التي أجرى فيها تجربة النطادين ، صعد بالألكتروسكوب الى قمم جبال مختلفة العلو في أميركا ، ليرى تماماً مقدار اختلاف التأين باختلاف معين في الارتفاع . وقد تحقق من ذلك شيئان : الأول أن قوة الأشعة تزداد مع الارتفاع ، وذلك يؤكد بأن مصدرها ليس هو الأرض بل السماء . والثاني أن هذه الأشعة ليست متجانسة ، بل من ثلاثة أنواع ، تختلف عن بعضها بقوة نفوذها في الهواء ، فمنها لقوتها من قدرت أن تخترق الهواء كله وتصل سطح الأرض ، ومنها من استطاعت فقط أن تنفذ في بعض الطبقات العليا غير المتكاثفة ، والأخيرة لضعفها لم تقدر على التعمق كالأوليين فظل تأثيرها محصوراً في الطبقات الرقيقة من الهواء .

تجارب في الفضاء وفوق سطح الأرض أكدت أن الأشعة آتية من فوق ، ولكي يتحقق من ذلك أكثر ، خطر لملكان أن يجري تجاربه في داخل الأرض تحت الماء . فوضع الكتروسكوباً أدق من الأول في صندوق من الرصاص يحتمل الضغط على عمق ٦٧ قدماً في الماء ، أي يحتمل ضغط كيلوجرامين لكل سنتيمتر مربع . فاذا كان مصدر هذه الأشعة حقيقة من الفضاء فالتأثيرات تحت الماء يجب أن تقل كلما ازداد الإناء عمقاً ، لأنه كلما نزل الاناء في جوف الأرض بعد عن مصدر الأشعة ، وبذلك ضعف تأثيرها على الهواء بحكم المسافة البعيدة التي تقطعها . والنتيجة أتت كما توقع ، أي أنها كانت تضعف تدريجيا في نزولها تحت الماء . وقد وجد من اختراق هذه الأشعة جميع طبقات الهواء ، ومن نفوذها ٥٠ قدماً في الماء ، أن لها من القوة ما يعادل ١٠٠٠ ضعف قوة أشعة إكس ، وأن طول موجتها أصغر من طول موجة الثانية بـ ٥٠٠٠ مرة تقريباً ، وهي لذلك قادرة على اختراق حائط من الرصاص عرضه متران .

أجرى بعد ذلك ملكان تجارب متعددة في الليل والنهار ، وفي أوقات مختلفة من الليل وأوقات مختلفة من النهار ، وفي ضوء القمر وتحت ستر الظلام والنجوم بكثرتها لامعة مشعة ، وفي أمكنة بعيدة عن الجبال وعن المدن ، وفي المغاور حيث لا تدخلها الشمس ، ولا ينفذ اليها شعاع النجوم ، وفي الصيف تحت تأثير حرارة الشمس المحرقة ، وفي الشتاء تحت تأثير البرق والرعد ، ليرى هل لكل هذه الأشياء والظواهر الطبيعية تأثير خاص على الأشعة وقوة انفعالها في الهواء . فوجدها غير متأثرة بها جميعاً . فكان تأثيرها واحداً صيفاً وشتاء ليلاً ونهاراً ، وما كان ليفرق بين تأثير وتأثير الا الارتفاع والهبوط . فاستنتج من ذلك أن الشمس والنجوم ليست مصادر هذه الأشعة .

ذكرنا أن التجارب دلت على وجود ثلاثة أنواع من هذه الأشعة ، تختلف عن بعضها بقوة نفوذها . وقد وجد ملكان من الحقائق التي توصل اليها أن نسبة هذه القوى الى بعضها كنسبة الأرقام الثلاثة هذه : ٦٫٣٥ : ٦٫٠٨ : ٤٫٤ الى بعضها . وكل رقم منها يشير الى نوع من هذه الأشعة . وقال ملكان من حيث أن الأشعة لا تأتينا من الأرض أو من النجوم والشمس فلابد من أن تكون صادرة عن أحوال ومقتضيات مضادة للأحوال والمقتضيات التي في جوف الشمس أو في داخل النجوم . وبما أن الأحوال في الشمس تدعو الى انصهار وهدم المادة من شدة الحر والضغط فالأشعة هذه يجب أن تكون ناتجة عن بناء المادة وتركيبها من ذرات (الكترونات وبروتونات) في أماكن بعيدة عنا في الفضاء ، حيث تقرب درجة الحرارة من الصفر المطلق Absolute Zero −273°C.

قسم آستون العالم السويدي جميع العناصر التركب منها الكون الى قسمين : مشعة كالراديوم وغير مشعة كالحديد والرصاص . وقد لاحظ أنه لما كان عنصر الهيدروجين أبسط العناصر تركيباً ، إذ هو مركب من بروتون واحد والكترون واحد ، وأخفها وزناً ، فانه يمكن افتراض أن جميع العناصر الأخرى متركبة منه كتركيب جميع الأعداد الصحيحة من الواحد الصحيح ، فذرة الهيليوم تتساوى في وزنها أربع ذرات من الهيدروجين ، وذرة

الصوديوم تساوى ٢٣ ذرة من الهيدروجين أيضاً . وكذلك افترض ملكان أن الهيدروجين يدخل فى تركيب جميع العناصر ، وأنه الحجر الأساسى فى بناء الكون . وقد افترض ملكان أيضاً طبقاً لمعادلة اينشتاين (القائلة بأن انصهار جزء من المادة فى داخل النجوم يولد جزءاً مقابلاً من الحرارة والقوة تشع فى كل أنحاء الفضاء) . إن هذه الحرارة والقوة المنبعثة باستمرار من النجوم ، ستصير يوماً ما وفى مكان ما مادة تحت الظروف اللائقة لبنائها ، وأنه ما من مادة تنعدم فى النجوم إلا ويقابلها بناء ثان فى غير النجوم .

بقسمة العناصر الى مُشعة وغير مشعة نرى أن المواد المشعة أقل من المواد غير المشعة ، وهذا شيء طبيعى ، لأن هذه المواد باشعاعها الدائم تتحول الى مواد أخرى ، وبذلك تقل نسبة وجودها فى الكون تدريجياً . فأخذ ملكان بعد ذلك ثلاثة عناصر تؤلف الجزء الأكبر فى تركيب الكرة الأرضية والشهب والنجوم . ووجد أن هذه العناصر الثلاثة فى الهيليوم والأكسجين والسليكون . وقال اذا كانت هذه الأشعة التى لاحظناها ناتجة عن بناء العناصر فان الهيدروجين وهو أبسطها تركيباً الحجر الأساسى فى هذا البناء . وبواسطة معادلة اينشتاين استخرج مقدار القوة الضائعة فى بناء كل ذرة لكل من العناصر الثلاثة وبواسطة معادلة أخرى اشترك فى إيجادها ثلاثة شبان : (دىراك Dirac) شاب انجليزى ، و (كلاين Klein) شاب ألمانى ، و (نشينا Nishina) شاب يابانى ، استخرج نسبة قوى هذه العناصر الضائعة الى بعضها ، فوجدها كما يأتى : ٠٦٣ : ٠٦٠٨ : ٠٦٠٤ وهذه كما نرى ذات الأرقام التى استنتجها من تجاربه ، إلا فى الرقم الأول فلاختلاف فيه تعلله قلة الضبط فى التجارب فقط .

وهكذا كان نجاح ملكان فى تعليل نظريته فى بناء الكون من طريقين : طريق التجربة التى أدت الى اكتشاف تلك الأشعة الصادرة عن بناء الكون ، ولذلك سميت بالأشعة الكونية ؛ وطريق الرياضيات التى طابقت نتائج تجاربه كل المطابقة ، فدلت لا على اكتشاف أشعة جديدة من مصدر جديد فحسب بل أيضاً على توحيد النظريات والمعادلات الرياضية مع الظواهر الطبيعية ، وعلى دقتها وتلاؤمها بعضها مع بعض .

جامعة بيروت فيرح رفيدي

٣ ـ اسحاق نيوتن

١٦٤٢ — ١٧٢٧

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

كتاب « البرنسيبا » : (١)

وفى أبريل سنة ١٦٧٦ تقدم نيوتن إلى الجمعية الملكية بكتابه المشهور « البرنسيبا » وهو فى ثلاثة أجزاء . وقد شرح فى الجزء الأول منه نظريته الخاصة بتحرك الأجسام مع البرهان الكامل لقانون الجذب العام . وقد أمرت الجمعية الملكية ان يطبع هذا الكتاب على نفقتها الخاصة ، ولكن ذلك لم يتم لأنها لم تشأ أو لم تقدر على جميع النفقات اللازمة لذلك . ولكن « هالى » صديق نيوتن قام بذلك على نفقته الخاصة . فخرج الكتاب باللاتينية فى مايو سنة ١٦٨٧

ولم تكد تظهر أصول الجزء الأول من « البرنسيبا » حتى قام دكتور « هوك » ينسب إلى نفسه الأسبقية فى الكشف عن قانون التربيع العكسى متهماً نيوتن بأخذ هذا الاكتشاف عنه . وبذلك اتسعت شقة الخلاف بين العالمين ، ولكن دكتور « هالى » تمكن بتأثيره على نيوتن من أن يجعله يشير فى كتابه إلى أنه مع « رن » و « هوك » و « هالى » توصلوا فى نفس الوقت إلى قانون الجاذبية من قوانين « كبلر » فى حركة الكواكب

وقد اشتمل الجزء الثانى من البرنسيبا على مبادىء علم الأيدروستاتيكا ، والأيدروديناميكا ، كما اشتمل على تطبيق قانون الجذب العام فى شرح ظواهر المد ونسبتها إلى مكان القمر من البحار ، وقد أضاف اليها هو مواضع الشمس أيضاً . وقد احتوى البرنسيبا أيضاً على موضوع المذنبات ، فاعتبرها أجساماً سماوية تسير فى قطع ناقص هائل ، ولا تظهر لنا إلا وهى تقطع جزءاً صغيراً من هذا القطع الناقص بالقرب من الشمس ، وعلل بذلك ظهورها بعد أزمنة معينة : وبذا يكون قانون الجاذبية قد امتد خارج المجموعة الشمسية فشمل هذه المذنبات أيضاً

(١) Philosophioe Naturalis Paincipia Mathematica الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية

لقد احتوى هذا الكتاب نواة الفلسفة الطبيعية ، ولكنه لم يؤخذ به كأساس لذلك إلا بعد سنوات ، وذلك لحملات النقد الكثيرة التي كانت توجه إليه من أمثال « هوك » و « هيجنز » و « ديكارت » وإن كان البعض قد آمن به بعد حين . وبرغم اتصال نيوتن بجامعة كامبردج طول حياته فانها لم تكن الجامعة الأولى التي أخذت بما في كتابه من فلسفة ، وسبقتها في ذلك جامعات اسكتلندا .

حياته البرلمانية

أخذ نيوتن راحة طويلة بعد ذلك المجهود الذي مكنه من اتمام البرنسيبيا في سنتين فقط . وفي سنة ١٦٨٨ اختير عضواً برلمانياً بعد دفاع مجيد قام به مع غيره لصيانة حرمة جامعته عند ما أمر الملك « جيمس الثاني » جامعة كامبردج أن تمنح قساً جاهلاً درجة « الأستاذية » ، مما كان له أثر في رجوع الملك عن أمره . وقد انصرف إلى أعماله البرلمانية سنتين ، ولو أنه لم يسجل له اي مساهمة في مناقشة سياسية . وفي ذلك الوقت اصابته أكبر محنة لاقته في حياته ، تلك هي وفاة أمه التي ضحت من أجله بالكثير من القليل وساعدته للوصول الى ما وصل اليه . فبرغم قلة دخلها السنوي الذي لم يتجاوز الثمانين من الجنيهات ، كانت تقتر على نفسها لتنفق عليه في « جرانتام » وفي سنواته الأولى في كامبردج .

وفي سنة ١٦٩٠ عاد الي كامبردج لتزاول التدريس مرة أخرى ، كما اشتغل بدراسة تأثير الضوء على شبكية العين بتجارب أجراها في نفسه . وقد أجرى تجارب لتقدير درجات انصهار بعض المعادن وملاحظة معدل برودتها ، وقال إن هذا المعدل يتناسب وزيادة درجة حرارة الجسم على درجة حرارة الوسط الذي يحيط به . ولكن بحوث « دولنيج دبتي » أثبتت بعد ذلك أن هذا ليس بصحيح إلا اذا كان الفرق بين درجتي الحرارة صغيرا .

وقد شاء نيوتن أن يخرج للعالم كل ما وصل اليه في علم البصريات ، وهو العلم الذي كان يشغل دائماً جزءاً من وقته ؛ ولكن كارثة - لا يعلم الى الآن سببها الحقيق سببت حرق أغلب مذكراته . فقد ترك غرفته ليلاً وبها شمعة موقدة وأخر الى أجل قليل ، فمادت الشمعة قد انكفأت فأحرقت جل مذكراته .

ويقال إن كلباً صغيراً يدعى « ديامونـد » كان السبب في ذلك ، ولكن لسوء الحظ لم يعرف عن نيوتن الميل الى إبقاء مثل هذه الحيوانات برغم حبه العظيم لها . وبذا لم يتمكن نيوتن من إعادة مذكراته وإتمامها إلا بعد اثنى عشر عاما .

في دار سك النقود

لم تكن المائتي جنيه التي كان يتقاضاها نيوتن سنويا عن وظيفة الأستاذية في الجامعة لتكفي للقيام بحاجاته ؛ فسعى صديق له يدعى « شارل مونتاج » حتى عين في سنة ١٦٩٥ وكيلاً لدار سك النقود بمرتب سنوى يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ جنيه . فوجه كل عنايته الى عمله بعيداً عن المناقشات العلمية ، ولكنه مع ذلك كان يشتغل بحل المشكلات التي تقابل غيره . في سنة ١٧٩٧ أعلن الرياضي الكبير « جون برنولى » عن معضلات رياضية يطلب الى العلماء حلها ، ففعل ذلك نيوتن في يوم واحد . وفي سنة ١٦٩٩ أصبح رئيساً لدار السك بمرتب سنوى قدره ١٢٠٠ من الجنيهات ، فترك مهنة التدريس التي كان يزاولها مع وكالته للدار .

وقد وجه نيوتن عنايته الى إصلاح العملة الانجليزية مما دخلها من الغش ، فوفق الى ذلك بعد صعوبات لاقاها هو وصديقه « هالى » الذي عينه مديراً لأحد الفروع ، ممن كانوا يستفيدون من ذلك الغش . فاتهموه بالرشوة عند ما وجدوه يرفضها .

وفي سنة ١٧٠٠ اكتشف نيوتن آلة السدس (السكستانت) وهي الآلة التي يتمكن بها الملاحون من معرفة أماكنهم في عرض البحار ، ولكن هذا الاكتشاف ينسب عادة الى « هادلى » .

وفي سنة ١٧٠٣ نال نيوتن أعظم شرف منحه في حياته ، وهو رياسة الجمعية الملكية ؛ وقد لبث في هذه الرياسة حتى موته ، ولا تزال صورته معلقة فوق كرسى الرياسة . وبعد سنة من ذلك التعيين توفى منافسه الدكتور « هوك » وأتم كتابه « البصريات » . وقد احتوى هذا الكتاب كل ما وصل اليه في علم الضوء ، كما احتوى أيضاً على رسالة في حساب التكامل ، قال إن أساسها هو ما وصل اليه في سنة ١٦٦٥ عند ما كان في « وولثورب » ، فقام ينازعه في ذلك العالم الرياضي « ليبنتز » ، الذي أصبح بعد وفاة « هوك » شر خلف لأعند سلف : هاجم نيوتن مهاجمة عنيفة ، فاتهمه بسرقة أساس علم التكامل منه ، فقام دكتور « كيل » من اكسفورد وأعلن أن « ليبنتز » هو سارق حساب التكامل

من نيوتن . والواقع أن كليهما وصل مستقلاً الى علم حساب التكامل ، إلا أن نيوتن له الأسبقية فى ذلك وإن لم ينشرها وصل اليه فى حينه ، كما أقرت بذلك اللجنة التى عينتها الجمعية الملكية للتحقق من مبلغ صحة أقوال المتنافسين . عند ذلك اختار « ليبنتز » ناحية أخرى يهاجم منها نيوتن ، فادعى أن فلسفته إلحادية ، واستمر زمناً طويلاً كان هو البادئ بالعدوان دائما . وقد تحدى نيوتن مرة أن يحل مسألة رياضية فحلها نيوتن فى ليلة واحدة بعد عمله اليومى فى دار السك .

نيوتن الرجل

كان طويل القامة ، كث الشعر أبيضه ، وقد لحقه الشيب ولما يزل فى سن الشباب ؛ كان كثير التفكير ، يندر أن يشترك فى مناقشة كلامية .

ذاق نيوتن طعم الفقر والحرمان فى أيامه الأولى ، وحتى بعد انتخابه عضواً فى الجمعية الملكية قصرت موارده عن أن يدفع رسم دخول واشتراك الجمعية ، فأعفى منهما مع ضآلتها . ومع ذلك كان كريماً يساعد أقاربه وأصدقاءه .

كان وديعاً خجولاً متواضعا ، وكان دائماً يردد قوله : « لا أعلم ماذا يعتقده الناس فى ، ولكني أعلم أننى كطفل صغير ألعب على الشاطئ فأجد من حين لآخر حصاة قد صقلتها الأمواج ، أو صدفة تدعونى اليها بحسنها ، بينما محيط الحق أمامى لم أكشف منه شيئا » .

لم يكن يميل الى الظهور واسترعاء الأنظار اليه ، كما كان لايميل الى المناقشات والمشاجرات، ومع ذلك لازمته ولاحقته بعد كل جديد كان يصل اليه . كان ضعيف الذاكرة ، لايعتني كثيراً بملابسه ، غريباً فى أذواقه . ولكنه كان يفنى نفسه فى عمله ، وكثيراً ما أثر ذلك فى صحته

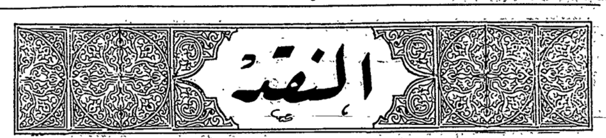
كان نيوتن يعتقد بوجود الله ، رغم ما اتهمه به « ليبنتز » من الكفر والالحاد . كان يعتقد بوجود قانون كونى عام يحكم كل أجزاء الكون ، وهذا القانون هو إرادة الله . وقد رأى فى ثبوت قانون الجذب العام سيطرة الخالق على الكون بأجمعه

وقد أنعمت عليه الملكة « آن » بلقب الفروسية (سير) فى زيارتها لجامعة كامبردج فى سنة ١٧٠٥ . وكان يعيش فى أواخر أيامه فى لندن وقد أصبحت له مركبة خاصة

لم يتزوج نيوتن برغم انه كان يحب « مس ستورى » التى تزوجت مرتين ، وكانت تعتنى به « حنا » أخته من أمه . وقد أخذت صحته فى الاضمحلال فى سنة ١٧٢٤ ، وأخذ يشكو مرض الشيخوخة ، ولكنه ظل يرأس الجمعية الملكية حتى مات فى سن الخامسة والثمانين فى مارس سنة ١٧٢٧ . ودفن فى وستمنستر ، وقدرت ثروته بمبلغ ٣٢ الفاً من الجنيهات ، أوصى بها إلى أولاد إخوته .

« تم البحث »

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابة



الملاح التائه

للشاعر المهندس على محمود طه

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

بعد كتابى الذى أرسلته إلى صديق الزيات منذ أيام ، قد أدرك القارئ أنى راض كل الرضى عن هذا العنوان الذى اتخذه الشاعر المهندس سمة لكتابه الجديد. وكيف لا نرضى عن هذا العنوان، وكثير منا من استقل زورق العمر ، يطفو به فوق بحر الحياة ، تتدافعنا رياح الحوادث ، وتتجاذبنا أعاصير القضاء ، وتحدق بنا الصخور والأمواج من كل جانب . فاذا أبصرنا على بعد جزيرة أمل مائلة لأعيننا، لم نلبث أن نضل السبيل فى البحث عنها ، فلا نزال حائرين ، ولا ننفك تائهين !

كان ظهور (الملاح التائه) لعلى محمود طه و (وراء الغمام) لابراهيم ناجى فى شهر واحد وفى سنة واحدة من أحسن النعم الأدبية على قراء العربية . وقد ظهر كلاهما فى شهر أيار ، حين تخرج الورود والرياحين ، فتملأ الأرجاء عبيراً وبهجة وجمالاً . ولست أشك فى أن هواء الأدب قد امتلأ أيضاً بأريج هذه الزهرات الأدبية اليانعة .

إن شعر على محمود طه ليس مجهولاً للقراء ؟ فقد ظهر منه فى (الرسالة) وفى (المقتطف) وفى (أبولو) شئ كثير. ولكن هنالك فرق بين أن نطالع شعر الشاعر موزعاً متفرقاً ، وبين أن نتناوله مجموعاً فى سفر واحد . فانا نجده فى الصحف ملتى بين مختلف المواضيع والمنشآت التى تشبه فى تنوعها وكثرتها « سلطة الفواكه » ، قد اختلط منها التفاح بالموز ، والعنب بالبرتقال ، والشليك بالكمثرى ، بل لقد تجد أيضاً قطعاً كثيرة من اللفت أو الفجل ، لا ندرى كيف اتخذت سبيلها إلى تلك البيئة الغريبة عنها .

لهذا كان ظهور تلك الأشعار مجموعة فى كتاب مستقل حادثاً يسترعى الانتباه ، ويستوقف النظر الذى كان عمر بتلك القصائد من قبل مراً سريعاً . ولدينا وياللأسف شعراء كبار مثل حفنى ناصف واسماعيل صبرى لم يعنوا — ولم يعن أحد بعدهم — بجمع أشعارهم فى كتاب. فليس فى قلبنا منهم سوى صورة مبهمة ناقصة

فاخراج أشعار على محمود طه فى كتاب هو الحادث الذى يتيح للمرء أن يجلس لكى يتذوقها ، ويتناولها بالنقد وبالدراسة .

***

تمجيد الشاعر

أول ما يلفت النظر فى على محمود طه أنه شاعر يعرف للشاعر منزلته العالية ، ومكانه السماوى الهائل وسط هذه المخلوقات الأرضية البائدة ، ولهذا نراه يخص الشاعر بقسم كبير جداً من قصائده الممتازة . فتراه يخبرنا فى أولى قصائده أن (ميلاد الشاعر) حادث جليل ترقص له الأرض ، وتبتهج السماء ، وتبرق أسارير الدهر ، ويزداد له البدر إشراقاً ونوراً . فتتنادى الملائكة ، وتتجاوب الأصداء : ليستبشر العالم . فقد ولد فوق الأرض شاعر !

وفى قصيدة أخرى ترينا الشاعر وهو يناجى ربه ، فى شىء من غرور الشعراء . وإذا كنا نرى فى هذه القصيدة ما يجعلنا أحياناً نصيح : « تأدب ياموسى ؟ » فيجب على الأقل أن نذكر أن الشاعر أقرب الكائنات إلى الله ، فيجوز له مالا يجوز لسواه .

وفى قصيدة ثالثة : تعد آية فى الشعر العربى يصف لنا الشاعر فى غرفته ، وصفاً بديعاً لا عهد لنا بمثله ، ولئن كان فى هذه القصيدة ينحو نحو ألفرد دي موسه أو غيره كما يقول الأستاذ طه حسين ، فان هذا لا ينقص من جمال القصيدة ذرة واحدة ، بل انه ليدهشنا أن تكون المعانى الغربية قد انسجمت هذا الانسجام الجميل فى ثوبها العربى القشيب . ولها من وزنها العربى مايسمو بها فوق الأوزان الأفرنجية الركيكة .

وفى قصيدة رابعة يحدثنا عن (قبر الشاعر) . وقد أثارها فى نفسه حديث عن الشاعر الفاضل المرحوم فوزى المعلوف ، الذى قضى نحبه وهو بعد فى ريعان الشباب ومزدهر الشعر ،

وسيحس القارئ في هذا التمجيد للشاعر شيئاً من تقدير المؤلف لنفسه ، وإن لم يقل كلمة واحدة عن نفسه ، وهذا خير مثال نضربه للذين لم يفهموا بعد أن هنالك مدرسة جديدة ومذهباً جديداً في الشعر العربي . فالقدماء من الشعراء كانوا هم أيضاً يقدرون للشاعر قدره . ولكن هذا الشعور كان مظهره فخر الشاعر بنفسه وبأدبه :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

هذا عتابك الا أنه مقة قد ضمّن الدر إلا أنه كلم

واني وان كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وفي الشعر العربي من هذا الشيء الكثير جداً ، ذلك كان دأب القدماء ومن نحوا نحوهم من المحدثين ، وقد تلطف شوقي وسلك طريقاً جديداً حين جعل غادته تقول : « أنتم الناس أيها الشعراء ! » ولكن علي محمود طه لم يقل عن نفسه شيئاً ولم يفتخر بل جعل يصف لنا الشاعر في مولده وحياته وفي أحلامه وأوهامه وفي تفكيره وحيرته ، وفي أثناء ذلك نتبين ما للشاعر من قدر جليل ومكانة سامية .

ورجائي إلى الذين لم يصدقوا بعد أن هنالك تجديداً في الأدب العربي أن يفكروا في هذا المثل وحده الذي ضربته ! فلعل فيه ما يقنعهم بأن هنالك نواحي جديدة قد أخذ شعراؤنا يسيرون فيها وأنها من غير شك أكثر ملاءمة لروح عصرنا ، فنحن اليوم لانعبأ بشاعر يقول لنا إنه اذا قال شعراً أصبح الدهر منشداً . فلقد كان للفخر والتفاخر زمان غير هذا الزمان . ولكننا نرحب ونستأنس بهذه الصور التي تمثل الشاعر في أطواره المختلفة كما يحكيها لنا علي محمود طه .

***

تمجيد الطبيعة

الظاهرة الثانية التي تكاد تبرز أمامنا واضحة قوية في كل صفحة من صفحات (الملاح التائه) هي تمجيد الطبيعة ، وهذه الظاهرة بادية فيما ظهر من أدبنا الحديث كله ، ولكنها شديدة الظهور في شعر علي محمود طه ، وليس ذكره للطبيعة ذكراً سطحياً بل فيه تدبر وتعمق وإمعان فكر . وهي أحياناً تسيطر على القصيدة كلها كما هي الحال في (الشاطئ المهجور) و (صخرة الملتقى) و (القطب) و (عاشق الزهر) و (الى البحر) . ولكنها إلى جانب هذا منتشرة في الكتاب كله ، ولن نعدم اشارة اليها في كل موضع .

وهذا يرينا كيف يسير شعراؤنا ، بفطرتهم — ومن غير تعمد على ما أظن — في نفس الدور الذي سارت فيه حركة الرومانتزم في الشعر الغربي ، فقد كان من أهم مظاهرها الرجوع إلى الطبيعة

والقارئ يعلم أن للوصف — سواء كان لظاهرة طبيعية أو لغيرها — طريقتين الأولى موضوعية Objective . فيحاول الكاتب بالألفاظ والعبارات أن يعطينا صورة واضحة لما يراه أمامه كقول القائل :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وكقول علي محمود طه نفسه :

نزلت فيه تستحم النجوم الزُّ هر في جلوة السماء النير

راقصات به على هزج المو ج عرايا مهدلات الشعور

وعلى صدره الخفوق طوينا الـ ـليل في زورق رضي المسير

ورياح الخليج دافئة تثـ ـني حواشي شراعه المنشور

والطريقة الثانية في الوصف ذاتية Subjective يرينا فيها الشاعر تأثير الموصوف في نفسه ، ويتخذ من مظاهر الطبيعة وسيلة لأخراج ما يكنه صدره من عاطفة أو حب أو ذكرى . كقول مهيار :

يانسيم الريح من كاظمة شدما هجت الجوى والبرحا

الصبا — ان كان لابد — الصبا انها كانت لقلبي أروحا

وكقول علي محمود طه في قصيدة (عاشق الزهر) :

ياليت لي كالفراش أجنحة أهفو بها في الفضاء هيماناً

أروح للنور في مشارقه وأغتدي من سناه نشوانا

وأرشف القطر من بواكره فلا أرود الضفاف ظمآنا

والأمثلة على هذا ونحوه كثيرة جداً لاحاجة الى الزيادة منها . وقد كانت عناية القدماء بالنوع الأول أقل من عنايتهم بالثاني . وأما هاهنا فسيجد القارئ من النوعين قدراً وافياً . . ومن رأيي أن قصيدة الوصف يجب أن تشتمل على النوعين فيبدأ الشاعر بتصوير الظاهرة التي أمامه حتى يكاد القارئ أن يلمسها ، ثم ينتقل الى تأثيرها في نفسه والى ما توحي به من حكمة أو عاطفة ، وهذا سر القوة الهائلة التي نجدها في قصيدة مثل سينية البحتري في إيوان كسرى

***

الغموض

والآن فلأعد الى علي محمود طه . وهنا أريد أن أسر الى القارئ

أن مطالعة هذا الشاعر هي أحياناً عبارة عن لذة سهلة سائغة كما يجدها القارئ في قصيدة (عاشق الزهر) أو (قبلة) أو (غرفة الشاعر). أو رثاء عدلي يكن. ولكنه أحياناً، وفي بعض القصائد الخطيرة، سيجدها لذة لا تدرك بسهولة. بل لا بد لها من التأني والتدبر. أما الموسيقى فهي هناك لاشك فيها. لكن المعاني فيها بعض الخفاء.

وقد يرجع هذا الخفاء لازدحام المعاني متعددة في البيت الواحد. أنظر مثلاً الى قوله في مطلع (الوحي الخالد)

لوجهك هذا الكون يا حسن كله وجوه يفيض البشر من قسماتها

فمثل هذا البيت لابد أن يقرأ في هدوء وتؤدة وأن يعاد غير مرة حتى نستوعبه فهما.

لكن هذا النوع من الخفاء لا يعترض عليه؛ بل قد يكون جميلاً مستحسنا. أما النوع الآخر فهو الذي دار فيه الجدال في (الرسالة) من قبل. وذلك أن هنالك شعراء لا يعنون فقط بالصور الواضحة الملموسة البارزة، بل يعنون كذلك بالصور التي يحيط بها غشاء من الأبهام، كالتي يراها الحالم بين النوم واليقظة أو كالظل لا هو نور ساطع ولا ظلام حالك. وهذا ما يعبر عنه في الفرنسية بكلمة nuance. ذلك مذهب الرمز بين أمثال فرلين وأتباعه ويمثلهم في الشعر الانكليزي الى حد ما الشاعر سوِنْبيرْن.

فالقارئ لأمثال هؤلاء الشعراء يجد في شعرهم موسيقى بديعة وأنغاماً رخيمة. أما المعاني البارزة الملموسة فاننا قد نطلبها دائماً، ولكنا لن نجدها دائماً. ويجب أن نكتفي منهم بصورة لا نعيها تماماً. بل نفهمها نصف أو ربع فهم. وذلك بالطبع لأنهم هم أنفسهم لم يفهموها الفهم كله، وانما تأثروا بها غامضة مبهمة خافية، وأرادوا أن ينقلوا الينا هذا الأثر كما هو.

وفي شعر علي محمود طه شيء يسير من هذا. نجده في مواضع متفرقة، في مثل قصيدة (عاصفة في جمجمة)، أو في (الله والشاعر) وفي غيرهما. وكثير منا يعز عليه أن يمر بالبيت فلا يحيط بمعناه تماماً، أو بالصورة فلا يتبين شكلها تماماً. وهذا الطراز من الناس لا يميل إلى هذا الضرب من الشعر وينكره. وقد يكون له بعض الحق في هذا الانكار، ولكن يجب أن نذكر أن الشاعر الذي يخلص لشعره ولشاعريته مضطر لأن ينقل الينا ما يراه أو يتوهمه من الصور واضحة كانت أو خافية.

والذي قد نؤاخذ الشاعر عليه حقيقة شيء واحد، ومن السهل جداً عليه معالجته إذا وافقنا على رأينا فيه، وذلك أن للشاعر خيالاً قوياً مفرطاً في القوة، وكثيراً ما يركب هذا الخيال بلا سرج ولا لجام فيذهب به في فيافٍ بعيدة وأقطار قاصية لا نستطيع - غبناً - أن نصحبه اليها. هذا الخيال القوي الذي كثيراً ما يطربنا ويعجبنا نراه أحياناً يتعبنا وينصبنا

يعجبنا حين نرى أمثال هذه الصورة:

أيها الشاعر الكئيب مضى الليل	وما زلت غارقاً في شجونك
مسلماً رأسك الحزين إلى الفكر	وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى	في ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفاسك يطغى على ضعيف أنينك	

أو هذه الصورة:

وأطلت الأزهار من ورقاتها	حيرى تعجب للربيع الباكر!
وجرى شعاع البدر حولك راقصاً	طرباً على المرج النضير الزاهر

فهذا وأمثاله كثير في (الملاح التائه) - هو من المعجب الطريف. وقد ساعده خياله القوي على إخراج هذه الصور الرائعة انظر الى البيت الثالث في القطعة الأولى. ما أروعه وما أبدعه، وهو مع ذلك لا يحكي سوى حقيقة واضحة ملموسة. حقاً إن أبدع الخيال ما كان وسيلة إلى تصوير الحقيقة.

والى جانب هذا سيجد القارئ أن شاعرنا قد يذهب به الخيال مذاهب بعيدة: انظر مثلاً الى قوله في (أغنية ريفية)

الى أن يمل الدجى وحشتي وتشكو الكآبة مني الضجر.

بيت موسيقاه جميلة مطربة. ولكنا لا ندري كيف تشكو الكآبة منه الضجر. وكذلك نرى خيال الشاعر قد بعد عنا إلى حيث لا نلحقه في قصيدة (عاصفة في جمجمة)، ولا نستطيع أن نأتي بها هنا كلها، ونكتفي بمثال أو اثنين كقوله:

أحياة سمتها صخر ونار	حفت الأشواك من يسلكه
تنقضي الآجال فيه والسفار	أبدي، ويح من تهلكه!

***

احملوا أمس إلى حفرته	وتخطوا هوة الوادي السحيق
واحفزوا النجم الى ثورته	واحطموا أنوال ليل لا يفيق،

وبالطبع عذر الشاعر في هذا كله أنها (عاصفة في جمجمة) ويجب أن تثور مثل هذه العاصفة في جمجمة القارئ لكي يستمتع بهذه القصيدة.

كذلك قد يجد القارئ أن الخيال قد ذهب بعيداً في قصيدة

(النشيد) حيث يجرد الشاعر من حبه شخصاً يصاحبه إلى لقاء الحبيب . وفى بعض المواضع نجد من الصعب علينا أن نتصور الموقف تماماً .

هذا ما يبدو للناقد فى خيال الشاعر ، أنه قد يفرط فى القوة فيذهب مذاهب بعيدة . فإذا وافق الشاعر على هذا الرأى ، فمن أبسط الأمور عليه أن يخفف من حدة هذا الخيال .

***

الأسلوب

الأسلوب هو طريقة الأداء ، وهو من المعانى كالجسد من الروح . وإذا نظرنا فى أسلوب على محمود طه نجد عبارته منسجمة طلية وألفاظه فى الغالب متخيرة ، ودليله فى الاختيار حسن وقعها فى الأذن ، وهذا نجده فى معظم الكتاب ، حتى فى المواضع التى يخفى أو يغمض المعنى لا نعدم الموسيقى على كل حال .

وفى اختيار الشاعر لأوزانه نراه يكثر من الخفيف والرمل . ونصف قصائد الكتاب من هذين البحرين ، وهو أحياناً يكتب القصائد الطويلة على الطراز المألوف من قافية واحدة ؛ وأكثر الكتاب من هذا الطراز ولكنه — لحسن الحظ — قد أتى بقصائد ذات قواف متعددة ، وهذه على ثلاثة أنواع ؛

(١) فى الأول منها تتغير القافية عدة مرات بلا قيد ولا شرط كما فى قصيدة ميلاد الشاعر

(٢) وفى الضرب الثانى تتغير القافية فى كل أربع أبيات كما فى (غرفة الشاعر) و (قبلة) و (قبر شاعر) و ترجمة (البحيرة) وقد نظم شعراء آخرون قصائد على هذا النظام الرباعى . ولهذا يخيل لى أنه طراز طبيعى مستحسن . والمنتظر لهذا النوع أن ينتشر ، ومن المستحسن جداً أن ينتشر .

(٣) أما النوع الثالث ومنه قصيدة (الله والشاعر) ، فان فيه كل بيتين على حدة ؛ والمصراع الأول يتفق فى القافية مع الثالث والثانى مع الرابع . وهذا الطراز منتشر أيضاً فى الشعر الحديث .

وهذا النظام الجديد للقافية من الظاهرات التى نرحب بها فى شعر شعرائنا المحدثين . فقد انقضى الزمن الذى يفتخر فيه الشعراء بطول النفس ؛ وبأن الواحد منهم ينظم القصيدة فى مائة أو مائتين بل مئات من الأبيات ، لا يكرر فيها القافية . كان هذا الفخر سخفاً لا طائل تحته . فليس نظم القصائد الطوال فى قافية واحدة بالشيء العسير على من أراد أن يقيد المعنى بالقافية . وأن يجعل الجسم كله متوقفاً على شكل الذنب ! وأكبر شعراء العربية لم يكونوا من الطليين مثل أبى نواس . والمتنبي . ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى ابن الرومى . الذى كان يكرر معانيه ويفصلها ويستقصيها فتطول قصائده تبعاً لذلك .

وليس من شك فى أن تنويع القافية سيشق أمام شعرائنا طرقاً كانت مغلقة أمام المتقدمين ، ويفتح لهم أبواباً جديدة .

وقد لاحظ الأستاذ طه حسين على شاعرنا أن قوافيه أحياناً غير متفقة فى مثل (نورها وقبرها) وفى مثل (فاتها وبواقيها) و (وجهها وتيهها) فى قصيدة (الله والشاعر) وهذه الأمثلة حقيقة نادرة فى الكتاب . ولكن يجمل بشاعرنا الذى ينشد الكمال أن يلاحظها :

ولقد يؤخذ على شعرائنا المحدثين أنهم قلما يهتمون بدراسة موضوع العروض والقوافى فى اللغة العربية . اتكالاً على أن هذا من الأشياء التى تجىء للشاعر الموهوب عفواً . هذا مع أن الكثير منهم — وليس صاحب (الملاح التائه) أحدهم — ربما خلط بين الوافر والهزج ، وبين السريع والكامل ، وبين الكامل والرجز . ولو أنهم أتعبوا أنفسهم قليلاً فى دراسة كتاب مختصر عن الوزن والقافية لكفوا أنفسهم شر هذه الزلات .

إن العرب قد اصطلحت على أن القوا فى الآتية — مثلا — : ليلى — ذيلا — قولا — هولا . لا يجوز أن تجتمع فى قصيدة واحدة مع هذه القوافى — مثلا — : قبلا — عدلا — جهلا — مهلا . فالمجموعة الأولى فيها حرفا علة — الواو والياء — لهما موسيقى خاصة لا تتفق مع الحروف الساكنة الأخرى . فلو عرف شعراؤنا هذا الاصطلاح العربى القديم لأمكنهم أن يتذوقوا القافية التذوق اللازم . وليس من حسن السياسة فى شىء أن نجهل أو نتجاهل ما اهتدى اليه الشعراء من قبل باحساسهم وذوقهم . ومهما كانت غرائز شعرائنا قوية وصادقة . فان مجموع غرائز شعراء العربية فى مختلف العصور والبلاد أقوى وأصدق . لهذا كان لابد لشعرائنا من دراسة العروض والقوافى دراسة وافية لكى يطلعوا على زبدة تجارب المتقدمين .

القصص

من صور الريف

كفـــارة...!!

... نهار من أيام الخريف ، بدأ ثقيلاً طويلاً قاتماً ، ومضى عاصفاً صاخباً ، وأقبل الليل فسال الظلام على جوانب الكون كثيفاً مطبقاً ، الريح تعصف عنيفة باردة والسماء يغشاها سحاب أسحم ومطر سخي ، أوراق الشجر تساقط مستسلمة ، وسعف النخيل يتحدى العاصفة ، والعاصفة تداعبه وتعبث به ، فتشيع في أطراف الليل حفيفاً موحشاً يشبه أن يكون أنين أرواح هائمة في أودية العذاب ، أصوات الذئاب يتجاوب بها الصدى ، والكلاب ترد عليها بنباح قوي مختلط يتصل حيناً طويلا ، ثم ينقطع لحظات ، ثم يعود فيتصل ويختلط ، على أن هذه الأصوات المختلطة المبهمة كانت تنجلي أحياناً عن نداء أو غناء يردده أحد الفلاحين في حقل بعيد

سكون موحش يثير القلق ، ويحمل على الشك ، ويدفع الرهبة الى النفوس دفعاً ... وقف بيومي قليلاً ثم تردد في استئناف السري ... لقد جسم له الوهم والخوف من الظلام أعمدة جاثمة تعترض الطريق كأنها المردة السود ، وكان بيومي يقف أحياناً يتطاول بعنقه ويرهف سمعه ويضرب بعينيه في صميم الظلام كأنما يبحث عن قبس أو هدى ، إنه يحمل في جيبه مالاً كثيراً وهو يوجس خيفة ، وهو فوق هذا وذاك يحس شيئاً من الجوع والتعب وبينه وبين بلده ساعة وبعض ساعة فلماذا لا يبيت في بلدة «قلوصنا» وهي على بضع دقائق فقط ريثما يسفر الصبح ؟ إن له صديقاً قديماً هو شيخ الخفراء وأكبر الظن أنه سيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ويهيء له من أمره راحة وأمناً ... ومن أحق بهذا من شيخ الخفراء ؟ ! ولكن بيومي لا يستريح الى هذا الحل ويتردد طويلاً قبل أن يبت فيه لأنه يعلم عن شيخ الخفراء ما ليس لنا به علم ، إنه يخشى أن يجيئه الهلاك من مأمنـــه ، فلشيخ الخفراء صحائف في ثبت الاجرام ، وأكبر اليقين أنه لا يتورع من أن يضيف اليها فصولاً جديدة . ولكن أتراه يعتدي على ضيف ينزل بداره ويلجأ اليه ؟ ربما ! وهو فوق ذلك صديقه ! ولنترك بيومي يضطرب بين الشك واليقين ويتصارع في نفسه الأحجام والأقدام فلعل الله أن يجعل له فرجاً من الضيق ، ومخرجاً من الحيرة ، ومن الخوف أمناً وهدى ...

أما عبد الهادي شيخ الخفراء فهو رجل مديد القامة ، شديد البأس ، قوي مفتول ، له وجه تشيع في قسماته الصرامة ، وعينان ينبعث منهما التحدي والشر ، كان فيما فرط من أيامه يقطع الطرق ويهدد السارين ويسلب الناس ، ولم يكن يجد في القتل حرجاً ولا في السلب جناحاً ، بل إنه ليعدها من مفاخره . وعبد الهادي يثبت نظرية لمبروزو في المجرمين بالطبيعة criminel né فقد كان من القرويين الذين تغلب فيهم سيطرة الاجرام ، ويتحكم في رجولتهم شر أسود في لون هذا الليل العاصف المدلهم ، لم يكن يردعه قانون ولا دين ، ولا يمنعه عقل ولا عاطفة ، عين شيخاً للخفراء فزاد عبثه وما زال يصل أسبابه بأصدقائه القدماء من اللصوص والقتلة ، يغريهم بالناس ويدلهم على مواطن الصيد ويمهد لهم سبل الافلات ...

واتصلت جرائمه واضطرب الأمن في بلده والبلاد القريبة ،

عوض

وفي الختام أهنيء صديقي صاحب (الملاح التائه) على كتابه البديع الذي قد تبوأ مكاناً ثابتاً خطيراً في الأدب العربي . واذا كان الأستاذ طه حسين قد قال عنه إنه مبتديء فليس معنى هذا أنه ينقصه النضوج أو الجمال . فهذا واضح في الكتاب كل الوضوح . ولكن معنى ذلك في نظري أن لديه ما للمبتديء من حماس ومن قوة ومن سمو وراء الكمال .

جوان لي بان

والناس يعلمون أن لعبد الهادى يداً فى كل شىء ، ولكنهم صامتون لا يهمسون ، لأن لعبد الهادى عيناً ترقب الثرثار ، ولأن الناس يدفعون هذا الصمت ثمناً لأرواحهم وأموالهم إشفاقاً من انتقامه وهم يؤدون اليه ما يفرض عليهم صاغرين اذا اختفت سوائمهم فترد اليهم من حيث يعلمون ولا يعلمون

أما بيومى فقد قلب الأمر غير مرة وانتهت المعركة فى نفسه أخيراً . . . وتغلبت على وساوسه نوازع الثقة فى الله ودوافع الخوف من السرى فى الظلام والبرد ، وتعاونت هذه الأسباب كلها على أن تسوقه الى بيت عبد الهادى ضيفاً . . .

طرق بيومى باب عبد الهادى فى رفق ففتح له وأحسن استقباله وقدم اليه طعاماً وأعقبه بالشاى مثنى وثلاث ، ثم سمر معه الى وهن من الليل وتركه ليجول فى البلد جولة بعد أن أوصى به ابنه سالماً أن يهيء له فراشه فى المنظرة ، سهر بيومى وسالم ما طاب لهما وسمرا ما تشقق بينهما الحديث وشربا الشاى غير مرة ، ودخنا كثيراً ثم ثقلت أجفانهما وفترت أعضاؤهما ولحقهما الخمول ، وأحسا الحاجة الى الراحة فقام كل منهما الى فراشه ، ونام بيومى بعد أن قرأ ما تيسر من القرآن وتوكل على الله وأسلم اليه وجهه

وعاد عبد الهادى بعد ما انتصف الليل وقد طوعت له نفسه أمراً ، وأحسب أن هذا الأمر قد اختصم فى نفسه طويلاً مع الواجب ، وأحسب أن بقايا المروءة المتناثرة فى زوايا قلبه قد تجمعت فانطلقت تقرع أذنيه فى عنف واتصال ...! ربما لم يسمع ، وأكبر الظن أنه سمع ، ولكنه سخر من ضميره وضحك من هذا الخور الذى لم يألفه فى أعصابه ، اتجه الى الباب ففتحه ودار ببصره فى الظلام والنجوم ، ثم أرسل ضحكة مكبوحة كأنها فحيح أفعى هائلة ثم انقلب إلى الداخل ثانية وأجمع رأيه قبل أن يبدو له ما يرده إلى النكول أو التردد ، حمل الذئب (بلطته) وتسلل إلى المنظرة فدخل ثم وقف وأنصت وتقدم إلى النائم فناوله ضربات متصلة قطعت ما بينه وبين العالم من أسباب الحياة

اضطرب القتيل قليلاً ثم ساد السكون مرة أخرى . . . !

وتحسس عبد الهادى جيب القتيل فلم يجد معه من المال قليلاً ولا كثيراً

عرته الدهشة . . ! أين اختفى المال الذى كان مع بيومى . ؟ لاشك أنه حفظه فى مكان ما فى نفس المنظرة . . . ولم يتردد عبد الهادى فى أن يخفى أثر الجريمة أولاً ... فلف الجثة وحزمها ثم حملها مطمئناً آمناً . لأن الشك ينحسر عنه وإن فاض حول جميع الناس . . شيخ الخفراء طبعاً . . ! ! وللمرة الأولى أحس عبد الهادى رجفة تأخذ أعصابه وهماً مبهماً جائشاً يستبد بروحه ويضيق عليه أنفاسه . وثورة صاخبة تصم أذنيه وتدور برأسه ... لقد أخذه الندم ! وأفاق ضميره ولكن متى . . . ! ؟ سمع عبد الهادى وقع حوافر الخيل تخب مسرعة وتناديه أن يقف . . إنهم العسس (الداورية) ! غامت الدنيا فى عينيه وملكه اليأس وأسقط فى يده ولم يملك إلا أن يتطامن للقضاء الأعلى ويعنو لارادة الله التى ترى كل شىء وتدبر كل شىء . . . ! قاتل ! وشيخ خفراء ! ! جريمة ذات شعبتين ؛ قاده الجند إلى منزله أولاً وعلى كتفه ضحيته .. وجسر الجند اللفائف وتفرسوا فى وجه القتيل وصرخ عبد الهادى وخر صعقاً . . !

لقد قتل ابنه خطأ . . . ! واستيقظ بيومى فزعاً فأدرك كل شىء ، وأعلن أنه كان ينوى أن يبيت فى المنظرة لولا أن سالماً رأى أنها رطبة لا تلائم الضيف فنقله إلى غرفة أخرى وأخذ مكانه فى المنظرة . !

وكان يوم الحكم فشرقت القاعة بالوفود ووقف القاتل فى القفص يبكى فى إطراق طويل وصمت صاخب ومرارة ملتهبة وحسرة لجوج ؛ وساد السكون فجأة لما ارتفع صوت القاضى يدوى فى القاعة قوياً جلياً هادئاً « أشغال شاقة مؤبدة » .

وقد الجند الرجل المحطم الى قاعة النيابة فى أعلى المحكمة وهو لا يزال ينشج كالأطفال . . . وغافل الرجل المحطم الحراس وألقى بنفسه من أعلى المحكمة فهوى خليطاً هامداً من اللحم والعظم ...

قلوصنا **محمود البكرى القلوصنادى**

يوم صيد

للأديب حسين شوقي

ما كادت تلوح بالأفق خيوط النهار الفضية الأولى ، حتى كنا انتبهنا من نومنا : صديقاي ، وأنا ، وقد أزمعنا الذهاب لصيد البط في ضواحي الهرم ، وكان كل منا يحمل بندقية ذات عيارين وعدداً كبيراً من الخرطوش ، صعدنا السيارة ونحن أشد بهجة من فصائل اسكندر المقدوني الفتية لدى زحفها على آسيا .

أما المدينة فكانت غارقة في النوم في تلك الساعة المبكرة ساكنة بأحقادها وشهواتها ، ولم يكن أحد مستيقظاً ، اللهم الا محرك سيارتنا .

سارت بنا السيارة في شارع الهرم ، ولما بلغنا المستنقعات الواقعة في الجهة الغربية من طريق الهرم ، غادرناها وركبنا زورقاً طلي بالطلاء الأسود حتى لا تشعر البط بوجودنا بالمستنقع ، وكان موجوداً بكثرة على سطح الماء . . هل كان البط نائماً وقتئذ ؟ لم يكن لدينا شك في ذلك رغم اعتراض دليلنا — وكان فتى قرويا — وذلك لسكونه سكوناً عجيباً . .

ولكنا كنا مخطئين إذ لم نكد نقترب منه حتى انطلق في الجو ، كأنه سهم نارى فأطلقنا عليه البنادق في الهواء ولكن بدون جدوى رغم عدة الكثير . . لقد ظهرنا في عيني دليلنا القروي صيادين غير ماهرين ، فانتزع بندقية أحدنا وأطلق طلقة واحدة أسقطت بطة في الحال !

وا أسفاه على الدروس التي تلقيتها في صباى للصيد في الهواء ! كنت أتمرن وقتئذ على البيض ، يقذفون لى البيض في الهواء فأطلق عليه بندقيتي فاذا أصيبت البيض وهو ما كان يقع نادراً — سال فأمطرنا مطراً أصفر !

وبعد محاولات يائسة لصيد البط ، غادرنا المستنقع اذ لم نجد سبيلاً الى البط فهو شديد الفطنة . .

كيف يدرك البط الخطر على مسافات بعيدة ؟ إن شأنه شأن الحمام الزاجل الذي يعرف طريق الوطن على بعد مئات من الأميال . هل تكشف لنا الطبيعة يوماً عن مثل هذه الأسرار ؟

قبل أن تغادر المكان تركنا لدليلنا القروى البطة التي صادها هو ، حتى لا تذكرنا فشلنا على الدوام . .

هل كنا نعود وقتئذ الى المنزل ؟ لم يكن في استطاعتنا أن نفعل ذلك ، إذ لو عدنا لصرنا سخرية الجميع . . صممنا بعد ذلك على البحث عن طير يكون أقل فطنة من البط . .

ها نحن أولاء نسير وسط الغيطان التي كسيت بساطاً أخضر جميلاً من البرسيم . . ثم اعترضتنا ترعة لا جسر عليها للمرور ، وكنا في حيرة من أمرنا حينما أقبل قروى وتطوع أن يحملنا على ظهره عبر الترعة . وقد مررت بهذه الطريقة ، ومر أحد صديقى . وأما الصديق الثالث وكان بديناً ، فقد غرز هو وحامله في الطين ، وبدلاً من أن يعمل على الخروج من الترعة ، أخذ يضرب القروى المسكين ! . ياله من منظر مضحك أنسانا فشلنا مع البط !

ثم أقبل قرويان آخران فقاما بعملية النجدة . . بعد ذلك بلغنا مكاناً مظللاً بالأشجار الكثيفة ، حيث أخذت العصافير تزقزق جزلة مسرورة . . وقد شاهدنا على أحد الغصون يمامتين تتناجيان ، كم كان منظرها جميلا ، وقد طوق عنقاها بطوق فاحم جميل ، كما رصع منقاراها بالياقوت . .

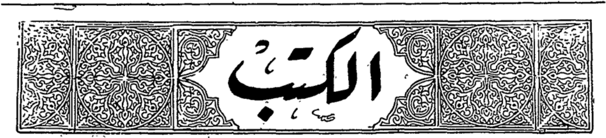
ثم حدث ما كنت أخشى وقوعه ، فقد اقترح صديقاى أن نصطادها ! لم يكن في طاقتي أن أطلق النار على هذين المخلوقين الجميلين ، إنها حقاً لوحشية ! لذلك رفضت ، فقال أحد صديقى ليقنعني : أطلق ولا تكن غبيا ، لقد حللت لك الصيد قوانين السموات والأرض ! فقلت : ليكن ، ولكن قلبي لا يطاوعني !

ولما رآني صديقى مصمماً على الامتناع ، أطلق هو عياراً فأردى احدى اليمامتين ، سقطت وقد كسر جناحها ، كما أن خرطوشة أخرى لا بد أنها اخترقت قلبها ، لأن الدم كان يسيل من منقارها بغزارة .

ورغم وحشيتنا هذه كانت عينا اليمامة ترمقاننا في حنان ، كأنها قد غفرت لنا فعلنا كما غفر عيسى من قبل لمضطهديه اليهود ! يا للأسف ! إننا ما زلنا متوحشين نسر لرؤية الدم ! كم نحن بعيدون عن المثل العليا التي ينشدها أفلاطون !

ومن ذلك اليوم كرهت الصيد ، فكل عام أجدد رخصتي دون أن أجدد رغبتي .

حسين شوقي



علم الدولة

[الجزء الأول فى أصول الدولة وتطورات فكرتها]

تأليف الأستاذ أحمد وفيق

يقع الجزء الأول من هذا الكتاب الفذ فى نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهو ثمرة جهود شـــاقة وتجاريب طويلة وحسبك أن فكرة الكتاب قد جالت فى رأس مؤلفه الفاضل منذ خمسة وعشرين عاما ، وأن العمل على اصداره ظل شغله الشاغل طوال هذه المدة ، ذلك لأنه أثر التريث وامعان النظر واطالة البحث والاطلاع حتى جاء عمله فى النهاية جديراً بفضله وأدبه وواسع خبرته .

مهد الأستاذ لموضوعه الواسع بمقدمة ضافية محكمة فتكلم عن أسباب إصداره هذا الكتاب مشيراً الى حاجة الشرق فى نهوضه الى مثل هذه البحوث ، ثم عرف هذا العلم الى القارىء وجاء بلمحة تاريخية عنه ، وبين له كيف تدرس فكرة الدولة عملياً ، وتعرض لآراء العلماء فى ذلك وهى بحق مقدمة شيقة ، تدلك على شدة اهتمام الاستاذ بموضوعه كما تشهد بحسن فهمه واستيعابه له .

بعد ذلك تكلم الأستاذ فى هذا الجزء من كتابه عن أصول الدولة وعرض فى اسهاب ودقة النظريات المختلفة التى وضعت للدولة ، فتكلم عن نظرية الطبيعة ، وعن نظرية الأصل الاصطلاحى شارحا العقد الاجتماعى وأصله ، مورداً آراء الفلاسفة فى ذلك . ثم انتقل الى نظرية التكوين الاختيارى الضرورى للدولة ذاكراً فى كل نظرية ما دار حولها من الآراء .

وبعد أن انتهى الأستاذ من سرد النظريات وشرحها ، عاد الى الكلام عن التطور التاريخي لفكرة الدولة : فتكلم عن فكرة الدولة فى الهند وفارس والصين ومصر ودولة الاسرائيليين واليونان والرومان ، ثم انتقل الى العصور الوسطى وعهد إحياء العلوم وعهد الاصلاح مورداً فى كل هاتيك الخطوات آراء العلماء والفلاسفة شارحا جميع الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية التى لم يكن منها بد لموضوعه ، وقد ختم الجزء الأول عند هذا الحد ، وسيفتتح الجزء الثانى بتناول الفكرة ابتداء من عهد الانتقال بين عصر الاصلاح وعصر الثورة الفرنسية .

وانى وقد أعجبتنى طريقة الأستاذ وفيق فى بحثه ، وراقتنى فصاحته وخبرته لأتقدم اليه باقتراح أرجو أن ينال عنده القبول ، ذلك أن يفرد باباً من كتابه لفكرة الدولة فى الاسلام وتطورها منذ عصر الخلفاء ، فان القارىء الشرق ليتطلع الى هذه الناحية فى شوق عظيم ، ولا سيما اذا صدرت من عالم جليل كالأستاذ وفيق له مثل هذه الخبرة عن الدولة وفكرتها ؟

م . الخفيف

غاندى والحركة الهندية

تأليف الأستاذ سلامة موسى

غاندى والحركة الهندية كتاب جدير بأن يطلع عليه كل شبابنا فهو حافل بدروس الوطنية الصادقة مصورة فى حركة من أروع وأجل الحركات الوطنية وفى شخصية من أعظم شخصيات التاريخ هى شخصية غاندى الرجل العظيم والزعيم النادر المثال والانسان الكامل ، الذى لا يجود الزمان بأمثاله من العظماء الا كل حقبة طويلة من الدهر .

أعجبنى فى هذا الكتاب تفصيل الموضوع وحسن تقسيمه وتقريبه الى أذهان القراء فى مهارة ولباقة عرف بها مؤلفه الفاضل . ثم أعجبنى أكثر من ذلك ما أحسسته من حماس الأستاذ وصراحته وصدق تأثره بما يكتب واندماجه فى موضوعه حتى لتحار فيما لو كان الأستاذ يسرد عليك تاريخ وتطور حركة من الحركات الوطنية أم هو يسمعك آراءه الصريحة الجريئة فى الاستعمار وما ينجم عنه من نكبات كل ذلك فى أسلوب علمى دقيق جمع بين حماس القلب ورزانة العقل .

قسم الأستاذ هذا الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، فى الجزء الأول

يتكلم عن الأحوال العامة فى الهند، وفى الجزء الثانى يبسط لك سياسة غاندى وفلسفته ، وفى الجزء الثالث يورد لك بعض مقالات وحكم كتبها غاندى ونشرت فى المجلات الهندية .

وغاية الأستاذ من هذا الكتاب جديرة بالثناء ، انظر إلى قوله « ونحن فى جهادنا للمبادىء الأمبراطورية البريطانية نشبه الهنود وإن كانت قدم الانجليز فى الهند أرسخ وتاريخهم أطول ، ولهذا السبب نفسه يجب أن نستنير بحركتهم كما استناروا هم بحركتنا فإن زعماءهم كثيراً ما ذكروا الاتحاد بين المسلمين والأقباط فى مصر ودعوا أبناء أمتهم المسلمين والهندوكيين الى مثله فى الهند » .

وسيجد القارىء المصرى فى هذا الكتاب كثيراً من المواضيع التى يهمه معرفتها ، كأصل الحركة الهندية والديانة الهندوكية ، والفقر والنجاسة ، والدستور الجديد ، وغاندى وحياته وموقفه من المدنية الحديثة وما لم يعرف عن غاندى ، وصوم غاندى الأول ، هذا إلى بعض مقالات غاندى نفسه ، مما يجعل الكتاب جديراً بالمطالعة والانتفاع مما جاء فيه من دروس نحن أحوج ما نكون إليها ؟

م .

مثلنا الأعلى

قصة وضعها عبد المجيد عباس المعلم فى مدرسة تطبيقات دار المعلمين
مطبعة الحكومة — بغداد

قصة تمثيلية تقع فى أربعين صفحة من القطع الكبير ، موضوعها الوحدة العربية والدعوة اليها ، أهداها صاحبها الفاضل الى روح المغفور له فيصل بن الحسين فقيد العرب العظيم وجاء فى هذا الاهداء أنها « مثلت فى حضرة جلالته لحباها بالاعجاب ، وظفرت من جلالته بالرضا »

ونحن لا يسعنا إلا الاعجاب بكل ما يكتب عن الوحدة العربية والدعوة إليها كما أنى أشعر بالغبطة والارتياح بعد تلاوة القصة ، وذلك لما تخللها من شعور كريم وآراء سديدة . ولكنى إذا نظرت للقصة من ناحية الفن ، أجدنى ميالا الى أن أصرح لمؤلفها الفاضل بأن هذا الموضوع الكبير ، كان يحتاج الى طريقة خير من طريقته التى اتبعها ، كما أن القصة يكاد ينعدم منها الجو القصصى ، وكأنى فى مواضع كثيرة منها كنت أستمع الى مناظرة فى موضوع الوحدة العربية ، فالحوار ينقصه الفن فى الأداء والتوجيه ، والآراء تسرد بطريقة سطحية جافة كما يجىء على لسان مدرس الطالعة عند شرح موضوع درسه ، هذا الى أنها تكاد تخلو من المواقف المثيرة والمفاجآت القوية ، كما أن مناظرها محدودة وأشخاصها قليلون لا أكاد أفرق بينهم فى خلق ، غير أنى أشعر بميل المؤلف الفاضل الى القصة واتخاذها أداة لنشر آرائه ، ولعلنا نجد منه فى المستقبل ذلك الفنان الناضج الذى يجمع بين الموهبة والثقافة ؟

م . الخفيف

صحيفة دار العلوم

تفضلت جماعة دار العلوم فأهدت الينا هذه الصحيفة الجليلة التى تصدرها كل ثلاثة أشهر فى العلم والأدب والاجتماع ، وهى ولا شك أثر نفيس من آثار هذه الدار المباركة التى حملت أمانة اللغة وأدت رسالة الأدب فى ثقة المؤمن وإخلاص المجاهد فى العصر الحديث .

وأقلام الصحيفة كلها من الأقلام البارعة التى تخرجت فى الدار ونبهت فى الأدب والاجتماع والتربية

بدل اشتراك الصحيفة السنوى لغير الطلبة عشرون قرشاً
وثمن العدد خمسة قروش

2me Année, No. 53.

Lundi-9-7-1934

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ في مصر والسودان

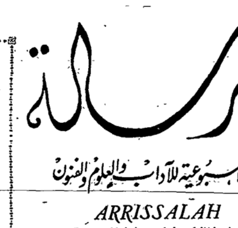
٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع السلاحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٥٣٠٠

العـــدد ٥٣ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ — ٩ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بين أســـلوبين . . .

بين الاطناب الذي تؤثره (الوادي) ، وبين الايجاز الذي تحبه (الرسالة) ، كادت تضيع صداقة رسخت قواعدها على الاكبار والحب ، وتأكدت أسبابها على الخفض والشدة ، وتمكنت ألفتها على ربع قرن من الزمان المضطرب تغيرت فيه مودّات الأخوة ، وتنكرت قلوب الجماعات ، وتحللت روابط الأمم .

وجملة الأمر أن صديقي طه قد بنى قصة من الأدب الجميل على رسالتين خاصتين أرسلها اليه الأستاذ توفيق الحكيم ، ثم نشرها ونشرها في الوادي ؛ فلما أصبح كل ذلك للجمهور والتاريخ جاءت الرسالة فنشرته ، لأنها كما قلت في العدد الماضي كانت مسرحاً لهذه الرواية ، فمن حق قرائها أن يشهدوا فصلها الأخير ، ولأنها سجل لألوان الأدب الحديث ، فمن حق الأدب أن نسجل في تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدي فيه كاملاً غير منقوص . وان بقي لأصحاب الظنون والفروض سبب ثالث فلن يكون غير تعصب الصديق للصديق . وكان الأستاذ توفيق الحكيم فيما بين ذلك قد نشر بيانه الذي نقلناه في الأسبوع الماضي عن

الوادي بعنوان (خصومة)، فلم يتح لي الاطلاع عليه لحالة خاصة صرفتني عن قراءة الصحف ذلك اليوم. ولو كنت قرأته وقرأت بجانبه تعريض الدكتور بالأستاذ في مقاله (أخلاق الأدباء) لشق على فهمي أن يستنتج من المقالين عودة الصفاء وزوال الجفوة.

تصافى الصديقان إذن على غير علم من الوادي ولا من الرسالة، فلما رأى الأستاذ الحكيم عودة المقالة في الرسالة خالجته في الصفاء ريبة، وأراد صديقي الدكتور أن يجلو شبهة الأمر، ويخرج من تبعة النشر، ويترضى الغاضب المرتاب، فأرسل إليّ كلمته العاتبة تتنمر على صفحة الوادي

كان المألوف في مثل هذه الحال أن يقف العتاب عند الترضي والتنصل، ولكن الأسلوب المطنب الذي يؤثره صديقي من خصائصه التدفق، والتدفق لا يخلو من كدورة، فأخذ يولد من العتاب ويفرع فيه، حتى خرج به إلى التلويح والتجريح والاستعداء، لأنني نشرت ما نشرت بغير إذنه. علقت على هذا (العتاب) الموجع بأن صديقي طه استغل حيائي منه ووفائي له في ارضاء الحكيم وانصاف الوادي، لأنه يعتقد انى اذا عاتب واشتد لا أجيب، واذا أجبت لا أعيب؛ ولكن الأسلوب الموجز الذي اصطنعته كان على ما يظهر أقرب الى الإخلال والغموض، لأن صديقي لم يفهم (الاستغلال) على الصورة التي اقتضاها المقام وبالمعنى الذي قصدته، وانما فهمه بمعناه الشنيع الذي لا يكون بين أخوين، ثم رتب على هذا الفهم في رده على تعليقي ما رتب مما لا أعده موجهاً إليّ ما دام قائماً على هذا الأساس!

فأنت ترى أن أكثر ما حدث انما نشأ من أسلوبين استعمل كل منهما في غير موضعه، وان الأمر كله ما كان ليقع لولا حرفة الصحافة التي تغري بالنشر كما يغري على القتل حمل المسدس. فان أكثر من هذا يقع كل يوم بين الأصدقاء والإخوة فتزيله كلمة في التليفون أو تحية عند اللقاء

قال الذين وقفوا على ملابسات هذا الأمر انى اذا كنت أخطأت في نشر المقالة وهي عامة، فان صديقي أخطأ في نشر الرسائل وهي خاصة، وما يسوّغ موقفه من الحكيم يسوغ موقفي منه. ولكنني لا أقول هذا القول ولا أستعين به، فان الواقع أن ما صرفني عن الاستئذان في النشر إنما هو اعتقادي بارتفاع الكلفة بين طه والزيات، وبين الوادي والرسالة

* * *

أما بعد، فاذا جاز لحبّة الريح أن تزعزع الجبل، أو لحبة الرمل أن تكدر البحر، جاز لنشر مقال أدبي من غير إذن أن ينال من صداقة رفيقي الصبى وخدني الشباب، فينتزع المحبة من خلال النفس، ويقتلع العلاقة من صميم القلب، ويقتطع الماضي من حساب الزمن، بالسهولة التي تنشر بها كلمة في صحيفة!

وما كان ليقع في الوهم أن قلبين ألفت بينهما براءة النشأة، وطول الصحبة، ووحدة الهوى، وطبيعة الثقافة، يجري بينهما من سوء التفاهم ما يجري بين القلوب المتناكرة والصلات الحديثة!

كذلك ما كان ليسبق الى الظن أن صديقي الذي لم تكشف الحوادث والأيام منه إلا شعوراً سليماً وخلقاً كريماً وذكاء متقداً وضميراً يقظاً ونفساً طيبة، يخضع لأثر الحر وثقل العمل وعنت الظروف، فيقول في صديقه ما لا يحب، ويرميه بما لا يعتقد!

أخي طه!

إن بيني وبينك ماضياً جليلاً لا تمحوه طوارئ الحاضر الحقير، وصداقة خالصة لا تكدرها شوائب الظن السوء، وذمة وثيقة لا تخفرها بوادر الكلام السريع، وإخوة كراماً جزعوا لهذا الخلاف ويسرهم أن ينقضي

وإذا أمكنك أن تجد في ذاكرتك القوية المعجزة غميزة في خلق أخيك على طول عهدك به، كنت خليقاً أن تطيع فيه نوازي الغضب، وتقبل عليه شواهد الظن، وتسلكه في ذوي الخلق المعوج والطبع اللئيم!

أما اذا كان من طبيعة الصحافة أن تعبث بكل ما بقي بيننا وهو الود، وتعتدي على كل ما بقي لنا وهو الخلق، وتمتد الى رأس مالنا الوحيد وهو الشرف، فادع الله لي ولك أن يخرجنا منها، ويغنينا عنها، ويحفظ البقية من عمرنا الكادح في كنف رعايته وفضله.

احمد حسن الزيات

حديث قطين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام في موضوع الانشاء ما يأتي :

« تقابل قِطَّان أحدهما سمين تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله ؛ فماذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القِطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، وإلى أيّ غاية ينصرف القول في محاورتهما ؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال — أن تكون في رءوسهم عقول السنانير ؛ وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة في هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة ، فيكتنهوا تدبير هذه القطاط لحياتها ، وينفذوا إلى طبائعها ، ويندمجوا في جلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويعزقوا بمخالبها .

قال بعضهم : وسخطنا على أساتذتنا أشد السخط ، وعبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلمونا من قبل — أن نكون حميراً ، وخيلاً ، وبغالاً ، وثيراناً ، وقردة ، وخنازير ، وفئراناً ، وقططة وما هب ودب ، وما طار ودرج ، وما مشى وانساح ؛ وكيف — ويحهم — لم يلقنونا مع العربية والانجليزية لغات النهيق ، والصهيل ، والشحيج ، والخوار ، وضحك القرد ، وقُباع الخنزير ، وكيف نصيء ونموء ، ونلغط لَغَطَ الطير ، ونفحّ فحيح الأفعى ، ونكش كشيش الدّبابات ، إلى ما يتم به هذا العلم اللغوى الجليل الذي تقوم به بلاغة البهائم والطير والحشرات والهمج وأشباهها ..؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزت . قال أستاذه : أجدت وأحسنت ، ولله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال كتبت هكذا :

يقول السمين : ناوْ ، ناوْ ، ناوْ . . . فيقول النحيف : نَوْ ناوْ ، نَوْ . . فيرد عليه السمين : نَوْ ، ناوْ ، ناوْ . . فيغضب النحيف ، ويكشر عن أسنانه ، ويحرك ذيله ويصيح : نَوْ ، نَوْ ، نوْ . . . فيلطمه السمين فيخدشه ويصرخ : ناوْ . . . فيثب عليه النحيف ويصطرعان وتختلط « النَوْ نَوَة » لايمتاز صوت من صوت ، ولا يبين معنى من معنى ، ولا يمكن الفهم عنهما في هذه الحالة إلا بتعب شديد بعد مراجعة قموس القطاط . . !

قال الأستاذ : يابنيّ ، بارك الله عليك ! لقد أبدعت الفن إبداعاً فصنعت مايصنع أكبر النوابغ ؛ يظهر فنه باظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطق القطّ بلغتنا إلا معجزة لنبيّ ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلا سبيل إلا ما حكيت ووصفت ، وهو مذهب الواقع ، والواقع هو الجديد في الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هِراً ، فكنت في إجابتك هِراً إستاذاً ، ووافقت السنانير ، وخالفت الناس ، وحققت للممتحنين أرقى نظريات الفن العالي ، فان هذا الفن إنما هو في طريقة الوضع الفنية ، لا في تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ؛ ولو حفظوا حرمة الأدب ، ورعوا عهد الفن لأدركوا أن في أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً في النادرة والتهكم ، وغرابة العبقرية ، وجمالها وصدقها ، وحسن تناولها ، وإحكام تأديتها لما تؤدى ؛ ولكن ما الفرق يابنيّ بين « ناوْ » بالمد ، و « نَوْ » بغير مد ؟ . . . قال التلميذ : هذا عند السنانير كالاشارات التلغرافية : شرطة ونقطة وهكذا . قال يابنى ولكن وزارة المعارف لاتقرّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصحح أستاذاً لا هِراً . . . والامتحان كتابي لا شفوى . قال الخبيث : وأنا لم أكن هِراً بل كنت إنساناً ، ولكن الموضوع حديث قِطين ، والحكم في مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكلفين له ، المتطفلين عليه ؛ فان هم خالفوني قلت لهم : اسألوا القطاط ؛ أو لا فليأتوا بالقطين : السمين والنحيف ، فليجمعوا بينهما ، وليحرّشوهما ، ثم ليحضروا الرقباء هذا الامتحان ، وليكتبوا عنها مايسمعونه وليصفوا منهما مايرونه ، فوالذي خلق السنانير والتلاميذ والممتحنين والمصححين جميعاً — ما يزيد الهرّان على « نَوْ ، وناوْ » ولا يكون القول بينهما إلا من هذا ، ولا يقع إلا ما وصفت ، وما بدّ من المهارشة والمواثبة بما في طبيعة القوى والضعيف ، ثم فرار الضعيف مهزوماً ، وينتهي الامتحان !

***

إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هِرّتين ، لا الحديث عنهما ؛ فان إجادة الانشاء في مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السويّ الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت

في الكلام قلب هر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام . وأين هذا من الأطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولها ؛ وكيف لهم في هذه السن أن يتزجوا بدقائق الوجود ، ويداخلوا أسرار الخليقة ، ويصبحوا مع كل شيء رهناً بمسائله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية « كن زهرة وصف .. واجعل نفسك حبة قمح وقل » وإنما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ؛ إذ النبي تعبير إلهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلها التي تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير ، تتخذه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التي تسمّى الفن .

وقد كان في القديم امتحان مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة ؛ وكان الممتحن هو الله جل جلاله ؛ والموضوع حديث النملة مع النمل ؛ والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملة : يأيها النمل ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها »

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية في النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروح في ذاتها نوراً ، وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجري في الشعاع كما يجري الماء في الماء ، وفي امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوب روحاني هو بذاته تعبير في البصيرة وإدراك في الذهن ، وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه : في الكلمة والصورة ، والتمثال والنغمة ؛ أي الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى .

ومن ذلك لا يكون البيان العالي أتمّ إشراقاً إلا بتمام النفس البليغة في فضيلتها أو رذيلتها على السواء ؛ فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن يكون تمام الرذيلة في أثره على العمل الفني — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة في أثره على هذا العمل ؛ والنقطة التي ينتهي فيها التعالي من محيط الدائرة هي بعينها التي يبدأ منها الانحدار إلى التسفل ؛ ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق ، حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله ، وبلاغة الأداء وروعتها ؛ ولا يكون السؤال الفني ما هي قيمة هذه النفس ، ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأي عجيب في ذلك والشيطان حتى في كبار أهل الفن ، كما الجنة حتى في نوابغه ؛ وإذا قالت الجنة : هذه فضائل البليغة ؛ أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائلي . وكيف لعمري يستطيع إبليس أن يؤدي عمله الفني .. ويصور بلاغته العالية إلا في ساقطين من أهل الفكر الجميل ، وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟ . .

* * *

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما .

كان القط الهزيل مرابطاً في زقاق ، وقد طارد فأرة فانجحرت في شق ، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج ، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزّها ، وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرّج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوي عنايتهم . وأبصر الهزيلَ من بعيد فأقبل يمشي نحوه ؛ ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلّع تخلّع الأسد في مشيته وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت في لحمه غلظاً ، وفي عصبه شدةً ، وفي شعره بريقاً ، وهو يموج في بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابه ينشق سِمَناً وكدْنة . فانكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً متقبضاً ، طاويَ البطن ، بارز الأضلاع ، كأنما همّت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر . فقال له : ماذا بك ، ومالي أراك مُتيبّساً كالميت في قبره غير أنك لم تمت ، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحي ، أوليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد ، فمالك — ويحك — رجعت صورة مختزلة من الهر ؛ أفلا يسقونك اللبن ، ويطعمونك الشحمة واللحمة ، ويأتونك بالسمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ، ويفتون لك الخبز في المرق ، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه ، وتدللك الفتاة على صدرها ، وتمسحك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه . ؟ وما لجلدك هذا مغبرّاً كأنك لا تلطعه بلعابك ، ولا تتعهده بتنظيف ، وكأنك لم ترقط فتىً أو فتاة يجري الدّهان بريقاً في شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعها ؛ وأراك متزايل الأعضاء متفككاً حتى ضعفت وجهدت ، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسالك وراحتك ، ولا يركبك

من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشيّة ولا وسادة ولا بساطا ولا طرازاً، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والهشيم اليابس، فما له لحم يجيء من لحم، ولا دم يكون من دم، وانحط فيه جسم الأسد، وسكنت فيه روح الحمار!

قال الهزيل: وإن لك لحمة وشحمة، ولبناً وسمكا، وجبناً وفتاتاً، وإنك لتقضي يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلاً، أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدداً. أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة، وأحكمت طبعاً ونقضت طباعا، وربحت شبعاً وخسرت لذة، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك، وحملوك وأعجزوك أن تستقل، وقد صرت معهم كالدجاجة تسمن لتذبح، غير أنهم يذبحونك دلالاً وملالاً.

إنك لتأكل من خوان أصحابك، وتنظر إليهم يأكلون، وتطمع في مؤاكلتهم، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شيء غير هذا، وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها ومحتبس فيها.

إن كان أول ما في الحياة أن تأكل فأهون ما في الحياة أن تأكل، وما يقتلك شيء كاستواء الحال، ولا يحييك شيء كتفاوتها، والبطن لا يتجاوز البطن، ولذته لذته وحدها، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك، وعن العلل الباطنة التي تحركنا إلى لذات أعضائنا، ومتاع أرواحنا، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر، وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله، لا من قبل المعدة وحدها؟

قال السمين: تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة، وأراني بإزائك معدوما بزوال أسلافي مني، وأراك بإزائي موجوداً بوجود أسلافك فيك. ناشدتك الله إلا ما وصفت لي هذه اللذات التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى؟

فقال الهزيل: إنك ضخم ولكنك أبله؛ أما علمت - ويحك - أن المحنة في العيش هي فكرة وقوة، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة، وأن لهفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب، وسعار الجوع هو الذي يجعل في الطعام من السادة طعاماً آخر من الروح، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة، فإن رغباتنا لا بد لها أن تجوع وتغتذي كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا، ليوجد كلٌّ منهما حياته في الحياة؛ والأمور المطمئنة كهذه التي أنت فيها هي للحياة أمراض مطمئنة، فإن لم تنقص من لذتها فهي لن تزيد في لذتها، ولكن مكابدة الحياة زيادة في الحياة نفسها.

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قارٌّ محصور من الدنيا بين الأيدي والأرجل؟ إنك كالأسد في القفص، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة في جلد، أما أنا فأسد على مخالبي ووراء أنيابي، وغيضتي أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً، وإن الحرية لتجعلني أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام، وأسترو ح من التراب لذة كلذة اللحم، وما الشقاء إلا خلتان من خلال النفس، أما واحدة فأن يكون في شرهك ما يجعل الكثير قليلاً، وهذه ليست لمثلي مادمت على حد الكفاف من العيش - وأما الثانية فأن يكون في طمعك ما يجعل القليل غير قليل، وهذه ليس لها مثلي مادمت على ذلك الحد من الكفاف. والسعادة والشقاء كالحق والباطل، كلها من قبل الذات، لا من قبل الأسباب والعلل، فمن جاراها سعد بها، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى.

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انجحرت في هذا الشق فطمعت منها لذة وإن لم أطعم لحماً، وبالأمس رماني طفل خبيث بحجر يريد عقري فأحدث لي وجعاً، ولكن الوجع أحدث لي الأحتراس، وسأغشى الآن هذه الدار التي بإزائنا فأية لذة في السلة والخطفة، والاستراق والانتهاب ثم الوثب شداً بعد ذلك! هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة، أو وجدت في قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جرذ، أو أدركت يوما فرحة النجاة بعد الروغان من عابث أو باغ أو ظالم؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هوّ لك طفل بالضرب فهوّ لته أنت بالعض والعقر ففر عنك منهزماً لا يلوي؟

قال السمين: وفي الدنيا هذه اللذات كلها وأنا لا أدري؟ هلمّ أتوحش معك، ليكون لي مثل نكرك ودهائك واحتيالك، فيكون لي مثل راحتك المكدودة، ولذتك المتعبة، وعمرك المحكوم

عليه منك وحدك . وسأتصدى معك للرزق أطارده وأواثبه ، وأغاديه وأراوحه و . . . فقطع عليه الهزيل وقال :

يا صاحبي ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة أسرك ، فلا يلقانا أول طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً ، وأهوى عليَّ بالضرب لأنطلق حراً ، فأنت على نفسك بلاء ، وأنت بنفسك بلاء عليَّ .

وكانت الفأرة التي انجحرت قد رأت ما وقع بينهما ، فسرها اشتغال الشر بالشر . . وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة ، فوثبت وثبة من ينجو بحياته ، ودخلت في باب مفتوح ، ولمحها الهزيل ، كما تلمح العين برقاً أومض وانطفأ ، فقال للسمين : اذهب راشداً ، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة أن الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق ، وكذلك أمثالك في الدنيا ، هم بألفاظهم في الأعلى ومعانيهم في الأسفل . .

مصطفى صادق الرافعي

من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قد تفوق الحقيقة أحياناً من حيث الغرابة والروعة والميل الى الدهش الخارق ، كل ما يتصوره الخيال المغرق . وهذه ظاهرة نلمسها في كثير من حوادث التاريخ ، كما نلمسها في الحوادث الفردية . ومن الأشخاص العاديين من تهيأ له حياة فياضة بالمخاطر والمغامرات المدهشة تجعل منه شخصية فريدة تخلق بذكر التاريخ ، وان لم تؤثر في مجرى حوادثه . وكثيراً ما تبدو هذه السير الشخصية الفذة برائع حوادثها ومفاجآتها في لون خارق لا تسبغه الحوادث العظيمة على التاريخ نفسه ، ولا يسبغه الخيال المغرق على القصة المبتكرة .

ومن هذه النماذج الخارقة للحياة الفردية ، حياة الفنان الايطالي بنفونوتو تشلليني Benvenuto Cellini ، وهو نموذج ليس له فيما نعتقد مثيل في الغرب أو الشرق ؛ ومما يزيد في قيمته وروعته أنه صورة رسمتها يد ذلك الفنان البارع الذي نقرأ حياته ؛ عن نفسه وعن حوادث حياته . وكم من تراجم شخصية بديعة انتهت الينا لشخصيات عظيمة وبأقلام قوية ساحرة ؛ ولكنا لا نستطيع أن نلمس فيها رغم روعتها ، تلك الحياة المضطرمة التي تفيض بها سيرة بنفونوتو تشلليني . ومن الغريب أن تشلليني لم يكن كاتباً ولا أديباً ، يسبغ من أدبه وقلمه على حوادث حياته سحراً وقوة ؛ ذلك أن معظم التراجم الشخصية العظيمة التي انتهت الينا أتيحت لها أقلام بارعة صاغتها في أوضاع أدبية باهرة ؛ وكثيراً ما يتفوق الجمال الأدبي فيها على روعة القصة وسحر الحوادث . ويعرف الذين قرأوا «اعترافات» جان جاك روسو ، أو ترجمة المؤرخ الفيلسوف جيبون لنفسه ، أي جمال يسبغه القلم ويسبغه البيان الرائع على تلك الصحف الشائقة التي يقدمها الينا كل من روسو وجيبون عن نفسه ، حتى أن سحر البيان ليسمو في مواطن كثيرة على روعة الحوادث ذاتها . ولكن تشلليني كان أكثر من كاتب وأديب ؛ كان فناناً عظيماً تتجلى عبقرية الطبيعة في مواهبه ، ويستمد منها سحر البيان وآية الوصف ؛ وإنا لنلمس في تلك الصحف القوية التي تركها لنا عن حياته العجيبة ، روعة هذه المواهب الساذجة ؛ وتحملنا بساطتها المؤثرة الى أعماق هذه النفس التي تحدثنا لا بواسطة اللفظ الساحر ، ولكن في نوع من الوحي والتأثير الروحي ، ونكاد نشعر ونحن نتتبع تلك الصورة الحية التي يرسمها لنا تشلليني عن نفسه ، اننا نرى تشلليني نفسه ، لا تفصلنا عنه القرون ، ونشهد معه تلك الحوادث العجيبة التي يقصها علينا ؛ ونشهد أحوال عصره ماثلة أمامنا ، في ألوان ساطعة ، تسبغ عليها ريشته البارعة كل ما في الحقيقة من قوة وروعة وحياة

***

كان تشلليني من غرس عصر الأحياء ، ذلك العصر الذي تفتحت فيه مكامن العبقرية البشرية ، وأخرجت لنا ثبتاً حافلاً من تلك الشخصيات التي يزدان بها تاريخ الانسانية ؛ وقد بزغ فجر هذا العصر في ايطاليا ، منذ القرن الرابع عشر ، وأشرقت طلائعه على يد دانتي وبتراركا وبوكاشيو وما كيافيلي ، وميراندولا وجاليليو ، ثم على يد رافائيل سانزيو وميشيل انجيلو وعشرات

آخرين من أبطال الفن الرائع ترجمهم لنا جميعاً ، جورجو فازارى فى أثره الضخم[1] ؛ وكان بنفونوتو تشاليني من جنود ذلك الجيش الباهر الذى لبث ضوء عبقريته يسطع فى جنبات ايطاليا زهاء قرنين . ولم يكن فى الصف الأول من ذلك الثبت الحافل ، ولكنه يقدم الينا بحياته الغريبة أقوى وأصدق مثل لعصره ، بكل ما فيه من حسنات ورذائل ؛ ولا غرو فقد عاش تشاليني فى عصر البابوية الذهبى ، وعصر الحروب الأهلية والغزوات الأجنبية فى ايطاليا ، واشترك بقسط وافر فى كثير من الحوادث العظيمة التى كانت تهز أسس المجتمع الايطالى يومئذ ، وشهد عن كثب سير أولئك البابوات والأحبار الذين كانت أقوالهم ونزعاتهم يومئذ كل شىء فى الملك والحياة العامة

ولد تشاليني فى أسرة متوسطة الحال فى سنة ١٥٠٠ بمدينة فلورنس (فيرنتزا) التى كانت يومئذ فى طليعة المدن الايطالية الزاهرة ، وكانت موئل الفنون والآداب ؛ وكان أبوه مهندساً وموسيقياً يجيد العزف بالزمار ، وفناناً يقوم بصنع التحف العاجية الدقيقة ؛ وكان يحاول أن يغرس فى نفس طفله بنفونوتو حب الموسيقى ويرغمه على العزف والغناء . ولكن بنفونوتو كان يتضجر من الموسيقى ، ويؤثر عليها الرسم . ولما بلغ الخامسة عشرة التحق على كره من أبيه بحانوت صائغ ماهر ؛ وكان يهوى هذه الصناعة بطبيعته ؛ ولكنه لم يلبث أن اضطر الى مغادرة فلورنس على أثر اشتراكه فى شجار دموى وقع بين أخيه وبين جماعة من جند الأمير ، وقضى من جرائه بنفى الأخوين من فلورنس ؛ فسار تشاليني الى مدينة سينا ، واشتغل هنالك حيناً لدى صائغ آخر ؛ ثم سعى والده لدى الكردينال دى مديتشى الذى انتخب لكرسى البابوية باسم كليمنضوس السابع ، فسمح للأخوين بالعودة الى فلورنس ؛ واقترح الكردينال على الأب أن يرسل ولده بنفونوتو الى بولونيا ليتعلم هنالك الموسيقى على أساتذة الفن بتوصية منه ؛ فاغتبط الأب لذلك أيما اغتباط ، وقبل الفتى رغم ارادته لأنه كان يكره الموسيقى وينعتها « بالفن الملعون » ، ولبث مدى أشهر يتعلم الموسيقى ، ويشتغل أيضاً بصناعته المحبوبة أعنى الصياغة وصنع القطع الفنية الدقيقة ؛ ثم عاد الى فلورنس يزاول صناعته حتى اشتهر رغم حداثته ، وتحدث الناس بمواهبه . وهنا اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين فتى يدعى تاسو ، وهو فنان حفار ؛ فاقترح عليه أن يسافر الاثنان الى رومه ؛ وكانت هذه أمنية تثير خيال فتى ذكى مخاطر مثل بنفونوتو ، فقبل الاقتراح ؛ وسافر الاثنان الى رومه ، وكان تشاليني يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره

وفى رومة اشتغل تشاليني لدى أقطاب فنه ، وزاد كسبه ، وتفتحت أمامه الآمال الكبيرة ؛ وكانت رومة فى ذلك العصر مدينة الأحبار ، ومعقل الفاتيكان ، تنثر عليها البابوية من سلطانها وبذخها وبهائها ألواناً رائعة ؛ وكان الاتصال بذلك المجتمع القوى الباهر أشد ما يثير طلعة ذلك الفتى الطامح ؛ وكانت البابوية وأولياؤها من الأحبار الأكابر يومئذ موئل الفن الرفيع ، وملاذ الفنانين الموهوبين ؛ فاستقر تشاليني فى رومة يرقب فرصه ، ولبث الى جانب عمله يشتغل بدراسة النقوش والصور الخالدة التى خلفها ميشيل انجلو ورافائيل ، فى صروح رومة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى أتيحت له فرصة الاتصال بحبر كبير هو أسقف شلمنقة أصلح له بعض التحف وسر من مهارته وعهد اليه بصنع اناء بديع مزخرف ؛ وعهدت اليه زوج الأمير تشيجى بصنع حلية من الجوهر . وهنا يفيض تشاليني فى وصف التحف والحلى البديعة التى كان يصنعها افاضة تدل على ما كان يجيش به من شغف بفنه ومهنته ، وهنا أيضاً يطلق تشاليني العنان لأهوائه المضطرمة ويصف لنا بمنتهى الصراحة والجرأة مواطن لهوه ، ومواطن عبثه وفسقه مهما كانت من الوضاعة ، ويقص علينا كيف أصابه الوباء الذى عصف يومئذ برومة ، عقب ليلة غرام قضاها مع فتاة خادمة لبنى حسناء جاءت لزيارة صديق له ، فاختص الصديق بها ، واقتنص هو الخادمة خلسة عنها . وقد قص علينا روسو فى اعترافاته كثيراً من مواطن لهوه وفسقه ، فى أحاديث صريحة واضحة ؛ ولكن روسو يسبغ من بيانه على تلك الأحاديث فى كثير من الأحيان لوناً من الحشمة ، وتكاد تنم عن شعوره بالاثم والندم واحتقار مواطن الضعف الانسانية . أما تشاليني فانه يقص علينا تلك المناظر الآثمة بكل بساطة ، ويصف لنا طبيعته المضطرمة الجامحة دون استحياء ، ويكشف لنا عن دخائل نفسه دون تحفظ ، وأخص ما يلفت النظر فى ما يقصه علينا من تلك الصفات النفسية ، أنه

(١) وهو كتاب فى أربعة مجلدات يحتوى على تراجم المصورين والمهندسين الايطاليين حتى القرن السادس عشر

كان كثير الافراط والعنف، شغوفاً بالمخاطرة، تواقاً الى الانتقام، كثير المجون والاستهتار.

ونجا تشلليني من الوباء، بينما احتمل كثيراً من أصحابه؛ ولكن رومة لم تكد تفيق من عيث الوباء حتى دهمتها مصائب الحرب والحصار، وزحفت الجنود الأمبراطورية – جنود الأمبراطور شارلكان – على رومة بقيادة الكونستابل دى بوربون (سنة ١٥٢٧). وهنا يبدو تشلليني فى ذروة الجرأة والمخاطرة، فنراه رئيس سرية من الجند المأجورين يتولى حراسة قصر الساندرو دليني، ثم يخف مع سيده الى الأسوار المحصورة ليرى الجيش المحاصر. وفى ذلك الموطن يقص علينا تشلليني قصة لا ينقضها التاريخ؛ وهي أنه حينما أشرف على الأسوار مع زملائه ليرقب سير المعركة، رأى وسط الدخان رجلاً يرتفع عن الجميع، فصوب رصاصه نحوه، وأطلق مع زملائه فى تلك الناحية عدة رصاصات، وحدثت على أثر ذلك فى قلب الجيش ضجة كبيرة؛ وشاع بعد ذلك أن الكونستابل دى بوربون قد قتل من رصاصة أطلقت عليه من وراء الأسوار. ويدعى تشلليني انه هو الذى أصاب الكونستابل برصاصه. وليس فى ذلك ما ينقضه التاريخ، ولكن ليس فيه أيضاً ما يؤيده. فقد سقط بوربون قتيلا فى بدء القتال من رصاص الجند المحصورين؛ ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن تشلليني هو صاحب الطلقة القاتلة. وعلى أى حال فان الحادث دليل على جرأة تشلليني ووافر شجاعته. ولم يمنع مقتل بوربون جنوده من اقتحام المدينة، فدخلوها فى عدة مواضع دخول الضوارى المفترسة، واضطر البابا كليمنضوس السابع أن يفر مع بطانته الى حصن سانت انجيلو الذى يتصل بقصر الفاتيكان بأقبية سرية؛ وكان ذلك الحصن الشهير الذى ما يزال الى اليوم قائماً فى رومة على ضفة نهر تيبري، من أمنع وأعجب معاقل العصور الوسطى، يلجأ اليه الباباوات بكنوزهم كلما دهم رومة خطر السقوط فى يد العدو، ويتخذ فى أوقات السلم سجناً تزج اليه البابوية أعداءها. واختار الجنرال دى مديتشى قائد الحرس تشلليني ضمن حرس الحصن اذ كان يعرف شجاعته؛ وكان الحصن مجهزاً بالمدفعية من جميع نواحيه، فانتخب تشلليني ليتولى إطلاق احدى وحدات المدفعية، ولبث مدى شهر يتولى هذه المهمة. ويقول لنا تشلليني انه أتى فى ذلك بالعجب العجاب، وحصدت قنابله كثيراً من جند العدو، وباركه أكابر الأحبار وهنأوه على براعته. وفى خلال ذلك استدعاه البابا كليمنضوس، وكان قد عرفه من قبل وعهد اليه بصنع بعض التحف وأعجب بافتنانه، وطلب اليه أن يقوم باستخراج جميع التحف والحلى الرسولية من علبها واطاراتها الذهبية؛ وبعد أن خبأ البابا الجواهر فى بطانة ثيابه وثياب بعض خواصه، أمره أن يصهر القطع الذهبية سراً؛ فأخذها تشلليني واشتغل بصهرها فى ركن صغير الى جانب مدفعيته؛ ولبث أثناء العمل يطلق القنابل على جند العدو؛ وهنا يقول لنا تشلليني انه أطلق قنابله ذات يوم على فارس يسير حول خنادق العدو فأرداه وتبين انه هو البرنس دى اورانج كبير الجيش المحاصر

وبعد أيام قلائل عقد الصلح؛ وسار تشلليني الى فلورنس لزور أباه وأسرته، ملىء الجيب، يركب فرساً جميلاً، ووراءه خادم خاص. وبعد أن مكث قليلاً سار الى مانتوا لزورها، واتصل بأميرها دوق مانتوا، وصنع له بعض التحف الجميلة. ثم عاد الى فلورنس، فألفاها تتأهب للدفاع عن نفسها ضد جنود البابا كليمنضوس، فاعتزم أن يشترك فى الدفاع عن وطنه، ولكن البابا كليمنضوس أرسل يستدعيه اليه، ويعده بوعود حسنة، فعاد الى رومة، واستقبله البابا مراراً، وعهد اليه بصنع حلى وتحف خاصة بثيابه وتاجه، ثم عهد اليه بصنع نماذج للنقود تستعمل فى دار الضرب البابوية، وأبدى تشلليني فى ذلك كله من المهارة والدقة ما جعل البابا يضاعف له العطف والبذل ويعينه ناظراً لدار الضرب. وهنا وقع حادث جديد يدل على صرامة تشلليني وعنفه؛ ذلك أن أخاه الأصغر جوفانى الذى كان يومئذ فى رومة ضمن جند الدوق الساندرو دى مديتشى اشتبك وبعض فتيان من صحبه ذات مساء مع جماعة من الحرس كانت تقود الى السجن صديقاً لبعض أولئك الفتيان، فأصيب جوفانى خلال المعركة بجرح خطير، وحمل مغشياً عليه الى قصر الدوق الساندرو، فهرع اليه بنفونوتو، ولكنه أسلم الروح بين ذراعيه؛ وعرف بنفونوتو الرجل الذى طعن أخاه الطعنة القاضية، فسار الى منزله ذات مساء، وكان الرجل يتنزه أمام داره، فطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر لها صريعاً؛ وبذا انتقم لأخيه وشفى نفسه. وعاد الى عمله كأن لم يحدث شىء.

وكان القانون يومئذ صريع الجاه والهوى ، فمن كان ذا جاه أو حماية استطاع أن يجرى القصاص لنفسه وأن يستبيح دم خصومه

واستمر بنفونوتو حيناً يقوم بخدمة البابا ، فأعاد صنع التحف الرسولية كما كانت قبل الحصار ، وكلفه البابا بصنع تحف أخرى ، فوضع رسومها ونماذجها ، وكان البابا دائماً فارغ الصبر يستحثه على السرعة ، وبنفونوتو لا يدخر وسعاً فى العمل ؛ وأصابه ذات يوم مرض فى عينيه ، وعاقه عن العمل حيناً ، فغضب البابا واعتقد انه يتقاعد عن إتمامه قصداً ، وكان ثمة بعض رجال البطانة ممن يحقدون على بنفونوتو ، ويستكثرون عليه هذه الرعاية ، يدسون دائماً فى حقه ويلتمسون الفرص لاحفاظ البابا عليه بحجة انه مقصر فى أعمال قداسته وانه كثير الحب للمال لا يقنع أبداً بما يدفع اليه من الأجور والهبات ، وانه كثير الادعاء والغرور ؛ فأثمرت هذه السعاية ثمرها ، وطلب البابا من بنفونوتو ما لديه من تحفه ، فامتنع بنفونوتو من تسليمها بحجة انها لم تتم وانه لم يقبض أجزها ، فقبض عليه بأمر البابا ، وأخذت التحف قسراً عنه ، ثم أطلق سراحه ؛ بيد أنه كان قد فقد عطف البابا . فحاول أن يجد يومئذ عزاءه فى الحب وكان قد تعرف بسيدة صقلية ذات ابنة حسناء ، وهام بحب الابنة ، واعتزم أن يختطفها ويفر بها الى فلورنس . ولكن الأم شعرت بمشروعه ، فسافرت مع ابنتها خلسة الى صقلية ؛ ولجأ بنفونوتو الى ساحر فى رومة ليعاونه على الاجتماع بحبيبته ، ولبث أياماً يحضر الجلسات السحرية خارج رومة ؛ ولكنه لم يفز طبعاً ببغيته . ثم نسى غرامه ، ووجد عزاءه مرة أخرى فى فنه وفى التماس صنع بعض الحلى والتحف النادرة التى تدلل على أنه أستاذ عصره ، وأنه لا يجارى فى ابتكاره وبراعته .

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

دق على الخشب

أو « بص وراك »

من عبارات الدعاء والتشميت لجلب الخير وطرد الشر عند الأنجليز قول الواحد منهم « مسّ الخشب » أو « دقّ على الخشب » كما نقول نحن « بص وراك » كأن هذا المسّ أو هذا الدقّ يطرد الشيطان أو العفريت الذى يتحفز غير منظور وغير مشعور به لقطع الخير عن أهله . يراد به أن يكون كالبسملة عند المسلمين أو كذكر الصليب عند المسيحيين ضماناً لحسن البدء وحسن الختام

وقد رأينا مقالاً لعالم انجليزى بهذا العنوان حاول فيه تعليل هذا المسّ وتسلط الخرافات على الناس قال :

« كلما مرّ يوم رأى العالم وقد عراه الدهش انه لا يزال فى القرن العشرين أناس يؤمنون بالسحر . أما أنا فلا أفهم قدرة الناس على أن تدهشهم هذه الحوادث التى تتكرر فى مدة قصيرة

ففى سنة ١٩٢١ كان حديث القوم عندنا ذلك المنزل المسحور الذى كانت فيه قوى غير منظورة تبعثر الأثاث والرياش فى جميع جوانبه ، وفى سنة ١٩٢٦ اتهم بعضهم بالسحر فى محكمة ملون ، وفى سنة ١٩٢٨ روع الناس بوقائع سحرية فى ولاية بنسلفانيا الأمريكية .

هذا بعض من كلّ ، وهم كلما سمعوا بحادثة من هذا النوع دهشوا لها لما دهش وقالوا انها مستحيلة ، ومن التخرص والأحاديث الملفقة . ثم تراهم يدقون على الخشب ويحاذرون المرور تحت السلالم الخشبية ويلقون الملح من فوق أكتافهم الى غير ذلك ، هذا كله مع علمنا بأن السحر خارج عن دائرة العقل والحقائق العلمية

***

فان كان ذلك كله مستحيلاً وخارجاً عن دائرة العقل فكيف قوى على البقاء آلافاً من السنين ، على حين أن خصوم السحر والسحرة جعلوا دينهم فى كل زمان ومكان القبض على السحرة وحرقهم أينما وجدوهم . فهل هذا كله مناقض للعقل ؟

كنا منذ مئة وخمسين سنة نقول إن طيران الانسان مناقض

للعقل ، وكنا منذ عشرين سنة نقول إن من مناقضات العقل جلوس امرئ في منزله بلندن ينصت إلى عزف الموسيقى في برلين

وقد علل بعضهم هذه الغرائب بقوله إنها من فئة الحقائق التي تخضع لناموس طبيعي مجهول ، ومتى يعرف هذا الناموس تصبح الغرائب حقائق لا علاقة لها بالسحر ، لأن السحر لا يخضع للنواميس الطبيعية

وقد تكون هنالك نواميس نجهلها ، ومع ذلك فهي تعمل عملها كل يوم أمام عيوننا

وفي سنة ١٧٧٠ كان الناس يسمون التنويم المغناطيسي سحراً أي ضبط انسان لحركات انسان آخر وأعماله وهو يجهله تمام الجهل فلا يمكن أن يقال أن بينهما تواطؤاً وتدبيراً سابقاً

ثم جاءت سنة ١٧٧٨ فسموه بالسمرزم وسلموا به جدلاً وعلى كره منهم كما نسلم نحن الآن بالتلبياثي أي انتقال الأفكار وننتظر ناموساً طبيعياً لتعليله ، ولكن هذا الناموس لم يكشف بعد ونحن نسميه في هذه السنة ، سنة ١٩٣٤ بالهبنوتزم . فهل نستطيع أن نعلل بناموس طبيعي كيف يتمكن بعض الناس وفي أيديهم غصن من شجر البندق من أن يدلونا على ينابيع ماء تحت الأرض التي يقفون عليها وذلك بانحراف الغصن فجأة في أيديهم ؟

وهل نستطيع كذلك أن نعلل تعليلاً طبيعياً حوادث شفاء المرضى والمفلوجين والمقعدين والمبتلين بسائر العلل في كهف لورد وتربيه (في فرنسا) فان كنا لا نستطيع ذلك وجب علينا الايمان بالسحر ونبذ القول اننا نرفضه لأنه لا يعلل بناموس طبيعي نعرفه

ثم ماهي هذه التي يسمونها حقائق علمية . أنا لا أعرف كثيراً منها ، وإنما أعرف كثيراً من المذاهب والآراء العلمية . ففي أيام تلمذتنا كان من الأوليات أو البديهيات قولهم « إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين » . ولكننا بعد مذهب اينشتين نعلم علماً ليس بالظن أن ذلك ليس صحيحاً

وكان من الحقائق العلمية في حداثتي أن أهل الكيمياء القديمة كانوا جهلاء وحمقى لأن القاعدة التي كانوا يبنون عليها تجاربهم وابتحاثاتهم كانت فاسدة . فقد كانوا يقولون إن عناصر معدن من المعادن يمكن تحويلها الى عناصر أخرى يركب منها معدن آخر . وعليه استدلوا أنه يمكن تحويل معدن ما ذهباً أو فضة باستعمال الوصفة الصحيحة لذلك . وبالفعل استحدثوا الذهب من النحاس ، ولكن نفقات التجربة كانت أعظم من الانتفاع بها عملياً كما أن استقطار الزيت من الفحم كان الى عهد قريب عظيم النفقة بحيث لا يمكن استخدامه تجاريا

وبعد ما تقدمت في السن وجد العلماء أن تحويل المعادن بعضها الى بعض حقيقة علمية كما ظن أهل القرن الثامن عشر لا خداعاً كما ظن أهل القرن التاسع عشر بعده . فصار العالم بعد ذلك أكثر إجلالاً لأهل الكيمياء القدماء وصرت أنا أكثر شكا في الحقائق العلمية

أما المذهب السحري فخلاصته هي أنه كما أن حولنا قوى عظيمة الفعل كالكهربائية ، وهذه القوى تنتج أشياء لا نزال نجهلها الى الآن كذلك في داخلنا قوى عظيمة الفعل كالهبنوتزم و « التبصير » نستطيع بها بعد تربيتها وإتقانها أن نأتي أفعالاً لا تخطر لنا الآن على بال

ويقول الخبيرون بالسحر إننا نستطيع بهذه القوى أن نخضع جميع الأشياء المادية التي نراها حولنا من شفاء الأمراض والتكهن بالمستقبل . والمعيشة بلا طعام . والعوم في الهواء كما صنع الوسيط دوجلاس هوم في القرن الماضي بشهادة الشهود العدول . وتحكم الانسان في مصيره

وقد قسم المعاصرون الأعمال السحرية قسمين : سموا ما يراد به الخير والرشد السحر الأبيض ، وما يراد به الشر والنكد السحر الأسود . فمن قبيل الأول الشفاء بالايمان وهو الشفاء الذي يجرى على أيدي أئمة التبت . ومن قبيل الثاني سحر سحرة أفريقية بين قومهم السود . ومن غريب ما يذكر في هذا الصدد أن الموظفين الانجليز والمبشرين في أواسط أفريقية يعودون منها وهم يعتقدون أن لأولئك السحرة قوة خارقة وإن لم يدركوها ويعرفوا لها تعليلا

وغاية « علم » السحر إن صحت تسميته علماً هي إضعاف شهوة الجسم بسلسلة من أعمال التمرين والرياضة والتقشف اعتقاداً أن « أماتة ما هو مادي انما هي أحياء ما هو روحاني وما وراء الطبيعة فينا . وهكذا نتمكن بالأشياء غير المنظورة من إخضاع الأشياء المنظورة والتحكم فيها » .

ولا نستغرب أن يصدق أهل أواسط أفريقية سحر سحرتهم وكهانة عرافيهم وكهنتهم ونحن نرى الأوربيين الذين يعيشون بينهم مبشرين وتجاراً ومستعمرين يحارون في تعليل بعض الحوادث

مصطفى كمال وموسوليني

كيف أجاب بطل تركيا على تهديد بطل ايطاليا

منذ بضعة أسابيع وقف دكتاتور ايطاليا وباعث نهضتها ليلقى خطبة من خطبه النارية على شباب ايطاليا الفاشيست ليزيدهم حماسة ووطنية فوق ما خلق فيهم منها كما هي عادته منذ أن تقلد زمام أحفاد الرومان ، فرأى أمامه بحراً زاخراً من ذوى القمصان السود وكلهم ممتلئون حرارة وحماسة ، ومتعطشون لليوم الذى تتاح لهم الفرصة فيه لابراز مقدرتهم الجسمانية ، ومهارتهم فى فنون الحرب والفروسية ، فغره ذلك : نعم ، غر الدوتشى ذلك الجمع المحتشد وتلك الصفوف المتراصة ، الثابتة كالبنيان . وخيل اليه فى تلك اللحظة أن العالم كله قد ارتدى القمصان السود وجاء ليقدم آيات الخضوع وفروض العبودية لموجد ايطاليا الأوحد ، ليزداد كبراً على كبريائه

وهنا لعب الغرور دوره وزلت بموسوليني القدم زلة سياسية فظيعة . أجل ، فقد أوحى الغرور الى هذا الجبار أن يميط اللثام عن أمور كان حريصاً على كتمانها حتى تلك اللحظة حرصه على حياته .. فأشار فى سياق كلامه الى رجاله ، شباب ايطاليا الحاضرين ساعتئذ ، ان أرض القياصرة لم تعد تسعهم وأن عليهم بعد الآن أن يتطلعوا بأبصارهم نحو الشرق ونحو الجنوب . . .

(تلك البلاد التى غدا أحقر علوج الغرب يمنى النفس بالسيادة عليها ؟ ! . .)

* * *

لقد غفل عن نفسه موسوليني هذه المرة وارتكب فى غفلته هذه خطأ سياسياً لا يمكن تلافيه بالسهولة التى كان ظنها . ذلك انه قد تحرش وبالأحرى صوب سهام كلامه ، بقصد أو بغير قصد لذلك الذى أثبت مراراً لأوربا ، المفتونة بنارها وحديدها ، انه مستعد دائماً وأبداً لأن يعطيها درساً جديداً أقسى وأمر من كل الدروس القاسية التى أعطاها اياها فى الماضى القريب فقط . . .

وما كاد الأثير يحمل صدى هذه الخطبة الى قاعة مجلس الأمة الكبير ويوصله الى آذان جبار تركيا العتيد ، حتى أوعز الى سفيره فى روما أن يقابل الدكتاتور ويستوضحه عن كلمة «الشرق» التى قالها وأومأ اليها فى عرض خطبته تلك . وما كاد موسوليني يعلم ان سفير تركيا يريد مقابلته حتى انتبه للغلطة التى وقع فيها . فأسرع للقاء الوزير وأكد له بأنه ليس إلا محباً لتركيا ومعجباً بغازيها الأعظم . ولم يقصد قط الأراضى التركية فيما أراد من « الشرق » فى خطبته . وانه لا يضع تركيا فى مصاف الأمم الشرقية ، بل يعتبرها دولة أوربية من صديقات ايطاليا . . .

فبمثل هذه التأمينات ظن موسوليني انه يستطيع اليوم أن يلعب مع الكماليين (أو ليسوا هم فى الحقيقة شرقيين أيضاً ؟ ؟) الدور الذى لعبته ايطاليا بالذات مع حكومة « الباب العالى » فى حرب طرابلس وبنغازى بالأمس القريب ، فاذا شعر كأن الكابوس الذى ضايقه من يوم إلقائه الخطبة المذكورة ــ وربما كان لأول مرة فى حياته الدكتاتورية ــ قد زال بانصراف سعاد بك من لدنه ، فوجئ على حين غرة بضربات سياسية قوية متتالية من منقذ تركيا العظيم

* * *

قلنا لم يكد موسوليني يضحك من تحت شاربيه الخليقين بعد

التى يخبرونها بأنفسهم ويرونها بعيونهم ، فما كدنا ننتهى من نقل مقالة العالم المتقدمة حتى قرأنا حكاية لضابط انجليزى فحواها أن بعض الأقوام الذين يعيشون حول بحيرة البرت نيازا فى أعالى النيل يقدسون التمساح ويقدم كاهنهم قرباناً له من آن الى آن — فتاة صغيرة من فتياتهم لردّ غضب الآلهة اذا أنسوا غضبها

وقد روى هذا الضابط أنه أنقذ فتاة أعدت طعاماً للتمساح المقدس بترويع التمساح من غير أن يلحق به أذى . وأرسلها الضابط الى مكان بعيد تشفى فيه من الروع الذى أصابها

وفى اليوم التالى علم الكاهن بما صنع الضابط فجاءه معاتباً وقال له فى جملة ما قال :

« أتظن الفتاة تنال الشفاء . لن يمضى عليها شهر من هذا التاريخ حتى تموت » . وكان ما قال الكاهن

وقد روى الضابط ما حدث وعلق عليه بقوله : « ومما كان سبباً فى أسفى أنه مع كل ما بذل من الجهد لشفاء الفتاة ماتت فى خلال شهر كما أنبأ الكاهن . أفكان موتها من لعنة الآلهة أم من تأثير الروع ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد معرفته » ! م . س

انصراف الوزير الشرقي حتى ذهل ووقف واجماً ، اذ علم أن قيامة الجيش التركي قد قامت ، ذلك الجيش الذي لم تكن كتائبه قد تنفست بعد من غمار الحرب الكبرى في وجه أوربا العاتية ، قبل عشر سنوات فقط ، وهددت جيوش أقوى دول العالم على أبواب الآستانة في الوقت الذي كان قد خيل الى العالم أن حملة الـ « آل سنجاق » (العلم التركي الأحمر) قد أصبحوا في خبر كان ودخلت سلطتهم وسيادتهم فيما قدر لها من صفحات التاريخ . .

وقف اليوم هذا الجيش النجب ، الشاب القوي ، المزود بأحدث معدات الحرب الآن ، وقف ليستعرضه وليرد له تحياته العسكرية الصميمة المشير « الغازي مصطفى كمال باشا » ، قائده العام بالأمس القريب — يوم أن كانت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء في الجبهة الغربية من بلاد الأناضول — ورئيسه الأعلى اليوم الذي أخذ يزور الأماكن التي قد يغر ضعف في استحكاماتها أو عدم أعتناء في حراستها من يسوقه سوء حظه من جيوش الغرب إلى أن يشتبك معها . .

وعلى أثر عودة الغازي الى الآستانة من طوافه لغرب الأناضول ومن استعراضاته لحماة سواحل تركيا الغربيـة والجنوبية دوى في قاعات عصبة الأمم والقاعات السياسية الأخرى في أوربا خبر التوقيع على معاهدة أصبحت بموجبها دول البلقان — كلها تقريباً — كتلة واحدة بزعامة سيدة البوسفور ، وأعقب ذلك اتفاق بين فرنسا وروسيا السوفيتية حليفة تركيا القوية . ومن ثم اعتراف شبكة بلقان بروسيا نتيجة للمساعي التي بذلها في ذلك السبيل توفيق رشدي بك (ساعد الغازي السياسي) . .

وليس هذا كل ما فعله الأتراك على أثر غلطة « الدوتشي » الزعيم الايطالي الأعلى ، تلك الغلطة التي ألقت في يد الكماليين سلاحاً قوياً ليستعملوه الى أقصى حد ممكن ؛ فرصة انتهزها الأتراك واستغلوها لصالحهم الى أبعد الحدود المستطاعة . .

أمر داهية تركيا أن يخصص فوراً — بحجة الخوف من غارة إيطالية — ثلث الميزانيـة العامة لهذه السنة لاعلاء شأن الدفاع القومي ؛ وأوصى اليابان — صديقته الجديدة — بصنع بوارج وغواصات ونسافات وطرادات وغيرها من معدات القتال البحري ، كما أوعز في الوقت نفسه الى وزير خارجيته وممثله في عصبة الأمم أن يطلب الى ممثلي الدول أن يأذنوا لتركيا لتلحق القسم المعتل الوحيد من معاهدة لوزان بامثاله من مجموع فصول معاهدة (سيفر) التي كان توقيع الكماليين عليها قد جرى ، لا كما جرى عليها توقيع باقي دول الإتفاق الرباعي ، انما برؤوس الحراب المسمومة التي مزقتها إرباً إرباً وقبرتها في مهدها فيما يتعلق بتركيا ، بينما ألمانيا المحاربة الآرية العظيمـــة لاتزال الى يومنا هذا تعمل المستحيل للتخلص من بعض أغلال تلك المعاهدة . وعلى ذلك تقدم ممثل تركيا الى مجلس جنيف وأبلغ أعضاءه رغبة الأمة التركية في تحصين المضايق وتسليحها ، اذ أن هذا القيد الوحيد الذي أجبرت ظروفه الدقيقة تركيا أن ترتضي به كتذكار — وقتي على الأقل — لمعاهدة لوزان التي اعترف فيها باستقلال تركيا المطلق ، لم يعد الآن يقوى على نمو ساعد تركيا الفولاذي .

إن هـذا القيد قد أكله الصدأ وتصدع من جوانبه كلها ، ولا يلبث حتى يتفتت من تلقاء نفسه إن لم يسرع ممثلو الدول في التقاط أوصاله التي ستتطاير في القريب ليحتفظوا بما صحوا في الدردنيل . .

(ولو أن السير جون سيمون صرح حديثاً وهو ، مسرور ، في مجلس العموم «أن توفيق رشدي بك قد وعده أخيراً بأن تركيا سوف لا تصر على هذا الطلب في الوقت الحاضر ؟ ! . .)

***

وها هي ذي الأسلاك أخذت تنبئنا الآن بأن صاحب الجلالة رضا شاه بهلوي امبراطور ايران العظيمة قد ترك بلاده لأول مرة في أيام حكمه ، واجتاز الحدود التركية ووصل بموكبه الشاهاني المؤلف من (٤٠) وزيراً وقائداً واختصاصياً ومرافقاً الى (أنقرة) عاصمة الكماليين ، محروساً طول الطريق بقوات مضيفه من البر والبحر والجو ، ومستقبلاً ومشيعاً حيث ما مر من بلاد جارته العزيزة بهتاف الشعب التركي بحياة جلالته الغالية ، وذلك اجابة منه لدعوة بلغته من زميله الحاكم الشرق الكبير ، وجاره القوي العزيز ، الذي اقام على انقاض حكومة (الرجل المريض) البائدة ، هذا الصرح الشامخ ، وهذا السد المنيع في وجه أوربا كلها ، والذي دعاه ليرتبط واياه بروابط ستهلع لها قلوب الكثيرين من طغاة أوربا المتجبرين . ومن بينها ، على كل حال قلب

الدكتاتور الأيطالي ، صاحب التهديد . الذي لابد وقد بلغته أيضاً الخطب الشديدة والكلمات النارية التي ألقاها أخيراً في المجلس الوطني الكبير نواب الأمة التركية ، جواباً على تهديداته المعروفة ، وكذلك التصريحات الرسمية التي ختم بها هذه الجلسة شكري قايا بك بالنيابة عن زميله وزير الخارجية الغائب ، عن موقف تركيا في الحرب المقبلة والتنويه الصريح الذي نوه به هذا الى المصير السيء المنتظر على حدود تركيا وسواحلها الصلدة الصلبة المهلكة لكل من تحدثه نفسه بأن ينظر خلسة أو بأن يمد في ساعة جنون أو غرور يده الى الأرض التي يفتديها في كل لحظة ١٧ مليون تركي وتركية ، من أعظم الأمم وطنية وشجاعة ، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم صناديد تركيا العظام الذين باعوا النفس في سبيل هذه التربة عشرات المرات : وهم الغازي وجماعته من كبار القادة .

وعلى كل حال فلسنا هنا في معرض الانتقاص من قدر موسوليني انما أردنا أن نبين أن الشرق مهد البطولة والأعمال الخالدة ومهبط الوحي ومنبت العلم والمدنية لايعدم في أيامنا أيضاً أن يرد الغرب على أعقابه خاسراً نادماً ، ويرفع رأس الشرق والشرقيين عالياً .

وقد أردنا بهذا المقال أن نبين بصورة خاصة كيف أجاب جبار الشرق على تهديد جبار الغرب ، وكيف ان القوة وحدها هي التي يحترمها الأقوياء ويهابون جانبها ، وكيف ان القوى وحده هو الذي يطلب وده وتلتمس صداقته .

بغداد ع . مولود

الأدب كما ينبغي أن يكون

بقلم الأستاذ احمد احمد بدوى

ماغاية الأدب ؟ وما رسالته في الحياة ؟ سؤالان إذا نحن استطعنا الاجابة عنهما أفلحنا إلى حد كبير في تحديد ما ينبغي أن يكون عليه الأدب ، وما يجب أن يأخذ به الأدباء أنفسهم حتى يصلوا أو يقاربوا المثل العليا التي ننشدها في الحياة ، ولا تظنوا أن الاجابة عن هذين السؤالين هينة يسيرة ، بل هي عسيرة جداً ، ومع عسرها تختلف باختلاف العصور إن لم تختلف باختلاف الأفراد ، ولكني أستطيع أن أقول : إن الأدب الخالد ، أو بعبارة أخرى مايجب أن يكون عليه الأدب ليكون خالداً ، هو تصوير المثل العليا للانسانية ، ونشدان هذه المثل ، إذ أن غايتنا في الحياة هي السير إلى المثل العليا بجد وعزيمة حتى نحققها أو نقاربها ، وبما أن الأدب هو المعبر الدقيق عن عواطف الانسانية وآمالها وأحلامها ، فلتكن مهمته في الحياة هي تصوير المهمة الملقاة على عاتق الانسانية وإن الانسانية لتسير إلى المثل العليا على قدمين : العلم الذي يحقق الناحية المادية للمثل العليا ، والأدب الذي يحقق منه الناحية الروحية . وقد فرغ العلماء من إثبات مابين الناحيتين من تآزر وارتباط ، وليس من واجبي الآن أن أتحدث عن المثل العليا للانسانية فذلك يحتاج إلى كتب تؤلف فيه ، ولكنني فقط أحدثكم عن بعض هذه المثل مصورة في الأدب ومقتبسة من حياتنا المصرية الحاضرة

— ١ —

إذا نحن ذهبنا إلى الشعر العربي وجدنا فيه القيم الخالد ، وإلى جانبه الكثير من الرديء البائد ، ولن أحدثكم عن رداءة الشعر أو جودته من الناحية اللفظية ، ولكن من الناحية الروحية وناحية مايبعثه في النفس من وجدان وشعور ، يسمو بنا إلى حيث نحقق ماخلقنا له ونعيش من أجله .

في الشعر العربي صور لا أغالي إذا قلت إنها ضعيفة لاتستحق خلوداً ، ولا ينبغي أن نلقنها نشأنا ، ونؤدب بها أبناءنا ، لأنها تنأى بنا عن بلوغ غاياتنا ، وسأعرض طرفاً من هذه الآداب مقتصداً في إيراده ما استطعت . ففي الأدب العربي كثير من الشعر الذي

أسميه شعر الضعف والاستسلام للواقع ؛ فتسمع فيه تلك النغمة التي تحقر العمل وأرباب العمل ، وتدعو بملء فيها إلى الرضا وإلى الاستسلام ، ومنشأ هذه النغمة على ما أرى هو إيمان أصحابها بالقضاء والقدر إيماناً معكوساً ؛ إذ هم قد حسبوا ، وهم مخطئون فيما حسبوا ، أن القضاء أو القدر لهما تأثير فعلي في فعل الإنسان وإرادته ، وإذا كان الأمر كذلك فما قدره الله جل وعلا لابد واقع لا محالة ، سواء أعمل المرء أم لم يعمل ، وإذا كان العمل وترك العمل سواء ، فمن العبث البين أن يكلف الانسان نفسه مؤونة الجد والجهاد والمزاحمة في تلك الحياة ، لأنه لن ينال على ذلك أجراً ، غير ما كان يناله لو كف عن جده وجهاده ، وليس غرضي الآن أن أبين خطأ ذلك التفكير ، فإنه من البين الواضح أن القضاء والقدر ليسا إلا علم الله فحسب بما سيكون ، والعلم ليس من صفات التأثير بل هو من صفات الكشف والايضاح لا دخل له في قدرة الانسان وإرادته

الإيمان بالقضاء والقدر على تلك الصورة التي أسلفت ذكرها هو إيمان بالجبر ، وإيمان بالحظ على الصورة السطحية التي لا تتغلغل في حقيقة الأشياء ، فأنكرت قدرة الانسان وإرادته ودعتنا إلى الضعف والاستسلام وأنتجت لنا هذا اللون من الأدب الضعيف

قال الشاعر :

ومما فسدت أخلاقنا باختيارنا   ولكن بأمر سببته المقادر
وفي الأصل غش والفروع توابع   وكيف وفاء النجل والأب غادر ؟
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً   أأنت على تغيير لونك قادر ؟

وقال أيضاً :

ويجري قضاء ما لكم عنه حاجز   فألقوا إلى مولاكم بالمقالد

وقال أيضاً :

وجبلة الناس الفساد وفضل من   يسمو بحكمته إلى تهذيبها

وقال أيضاً :

لا تمدحن ولا تذمن امرأ   فيها ، فغير مقصر كمقصر

وقال غيره :

عزت مطالب دنيا كل ذي أدب   وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيها أن يذللها   فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفك ذو علم وتجربة   من مأكل جشب أو مشرب رنق
وذو الجهالة منها في بلهنية   من مسمع حسن أو منظر أنق
تبارك العدل فيها حين يقسمها   بين البرية قسماً غير متفق .

ذلك شعر ينبع كله من واد واحد ومعين واحد ، هو الجبر والايمان بالقضاء والقدر إيماناً معكوساً ، والايمان بالحظ إيماناً ساذجاً ، وسأترككم إلى أنفسكم تحكمون على هذا الأثر الذي يتركه ذلك الشعر في النفوس ، وهل يقربها إلى مثلها العليا ؟ ! أو هو على العكس من ذلك يؤخرها ويسير راجعاً إلى الوراء ، إنكم رأيتموه يدعونا إلى الرضا بفساد أخلاقنا ، لأن الفساد ليس باختيارنا ، ولكن بأمر سببته المقادر ، ونحن عاجزون تماماً عن تغيير أخلاقنا عجز الغراب عن تغيير لونه ، ورأيتموه يدعونا إلى الضعف والاستسلام للقضاء والالقاء إليه بالمقالد ، ورأيتموه يسوّي بين الناس مقصرين وغير مقصرين ، فكلهم لا يستحقون مدحاً ولا ذماً ، لأنهم لم يأتوا ما أتوه بقدرتهم واختيارهم ، بل هم مجبرون على أن يفعلوا ما فعلوا ، ورأيتموه يقرن الرزق الواسع بالجهل ، والرزق الضيق بالعلم ، لأنه يؤمن بالحظ ، وإذن فعلى العلم والتعلم السلام ، لأن أحداً من الناس لا يرضى برزقه مقتراً ، ورأيتموه يؤمن بالحظ ويزري بالعمل والجد ، فقدروا بأنفسكم ما يبعثه هذا الشعر في النفوس من ضعف واستكانة واستسلام تبعد بنا عن المثل العليا التي لا تثبت ولا تقوم إلا على دعائم من العمل ثابتة وطيدة ، حقاً أنا أومن بالقضاء والقدر ، وأنا شخصياً أومن بالحظ ، ولكنه إيمان ليس كايمان هؤلاء ، إذ أني أعتقد أن الايمان بذلك كله لا يحول بين المرء وعمله ، لأنه ما يدريه أنه قد كتب له الشقاء وقدر عليه التعس ، وأن حظه بائس منكود ، وما يدريه أنه على العكس من ذلك قدر له السعادة ، وكتب له النجح وأن حظه حظ السعيد الموفق ؟

وبعد ذلك آخذ بيدكم لأريكم أدب القوة والهمة والأرادة وهي هي التي تأخذ بيدنا إلى بلوغ المثل العليا ، قال الشاعر :

ذريني من ضرب القداح على السرى   فعزمي لا يثنيه نحس ولا سعد
سأحمل نفسي عند كل ملمة   على مثل حد السيف أخلصه الهند
فإن عشت محموداً فمثلي بغى الغنى   ليكسب مالاً أو ينث له حمد
وإن مت لم أظفر فليس على امرئ   غدا طالباً إلا تقصيه والجهد

وقال غيره :

ذريني أنل مالا ينال من العلا   فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

تريدين إدراك المعالي رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقال أيضاً :

يهون على مثلي إذا رام حاجة ... وقوع العوالي دونها والقواضب

ويعجبني هنا ما قاله أحد شعراء الانجليز وترجمه إلى العربية بعض أدباء الشباب قال :

لي قلب لا يهاب ... فزعت منه الصعاب
بين أيامي وبيني ... حادثات وغلاب
لست أشكو إنما الشكوى من الحر تعاب
أنا ربان سفيني ... هاج أو قر العباب
فليلن أو يقس دهري ... إن قلبي لا يهاب

فافرقوا بين الاحساسين اللذين يبعثهما هذان الشعران المختلفان مورداً وينبوعاً، وإني واثق الثقة كلها من أن الاحساس الذي يبعثه فيكم الشعر الثاني هو الاحساس بالقوة والاحساس بالارادة، وإنا نطلب من الشاعر أن يحدثنا دائماً عن قوة إرادتنا، وأننا نستطيع فعل كل شيء لأن ذلك يبعث فينا إيماناً جديداً وعزيمة جديدة بل ويخلقنا خلقاً جديداً، وإن قوة الارادة هي النبع الفياض والمعين الذي لا ينضب للنجاح في الحياة وبلوغ المثل العليا، أما الشعر الأول فشعر ضعيف مستسلم لا ينفعنا ولا يهذب من إرادتنا

ولون آخر من ألوان الأدب الضعيف يتصل بالأدب الجبري، وقد يكون خدينه وشقيقه لأنه يستقي من معينه وينبع من ورده، وأعني بهذا اللون أدب الزهد والقناعة، ويطول بي الحديث إذا حدثتكم عن العوامل التي أنتجت لنا هذا النوع من الأدب، وإن كنت أرجع جل هذه العوامل الى سوء فهم الشرق للدين، فقد فهمنا وكنا مخطئين حين فهمنا أن الدين الاسلامي وهو دين العمل والجهاد ودين الرفعة والطموح — يدعونا إلى الزهد في الدنيا والقناعة بما نصيبه منها من صبابة قليلة، فهمنا ذلك، ووجدت هذه التعاليم التي أخطأنا فهمها مرعى خصيباً من قلوبنا الضعيفة الخائرة، وآنست من قلوبنا ضعفاً وقلة ثقة بالقدرة على الجهاد، والتغلب على ما يعترض سبيل الحياة وسبيل النجاح من صعاب وعقبات، فقنعنا بما في أيدينا من قليل لا يرضى به إلا ضعاف النفوس ضعيفو الهمم، فكان ذلك أكبر عامل في خلق هذا الأدب الزاهد القنوع، فأصبحت تسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

تبغي من الدنيا الكثير وإنما ... يكفيك منها مثل زاد الراكب

وقوله :

أيها الباني قصوراً طوالا ... أين تبغي؟ هل تريد السحابا؟
أأمنت الموت والموت يأبى ... بك والأيام إلا انقلابا
أبت الدنيا على كل حي ... نيلها إلا أذى وعذابا
إنما داعي المنايا ينادي ... احملوا الزاد وشدوا الركابا

وقول الآخر :

مرحبا بالكفاف يأتي هنيئا ... وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرىء يشمر في الجـ ... ـمع لعيش مشمر للفناء
دائبا يكنز القناطير للوا ... رث والعمر دائباً في انقضاء
حبذا كثرة القناطير لو كا ... نت لرب الكنوز كنز بقاء
يحسب الحظ كله في يديه ... وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له حظ ... وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقي وإن كا ... ن يرى أنه من السعداء
حسب ذي إربة ورأي جلي ... نظرت عينه بلا غلواء
صحة الدين والجوارح والعر ... ض وإحراز مسكة الحوباء
تلك خير لعارف الخير مما ... يجمع الناس من فضول الثراء

إلى غير ذلك من أدب يحمل الدعوة إلى الزهد والقناعة، وإذا نحن أردنا أن ندرك آثار هذا الأدب فانه يجب علينا أن نتصور شعباً نائماً كسلاً، لا يجد ولا يعمل إلا بقدر ضئيل، وماله يجد وماله يعمل، وقد وجد ما يمسك حوباءه ووجد قوته الضروري؟ وإني أكاد أعتقد أن تأخر الشرق في ميادين الاختراع وفي ميادين العمل يعود كثير منه إلى خلق الزهد وخلق القناعة الذي غرس في قلبه وأثر في كل عمله، بل إني أكاد أعتقد أيضاً أن استغلال الغرب للشرق يعود إلى هذا الخلق الوبيل الذي يجرنا الى الفناء، فلندع القناعة بمعناها الذي ضرنا وأخرنا، ولنتقبلها بمعنى ألا نطمع فيما في يد غيرنا، أما بمعنى الرضا بالقليل فيجب أن نذهب بها إلى قبر لا نخرج منه لنرى ضوء الحياة، ولنقبل على أدب الطموح وأدب الآمال الذي يسمو بنا عن الرضا بالقليل نناله من غير أن نبذل عناء في نيله ولا تعباً، ولنكرر دائماً مثل قول الشاعر :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وقول الآخر :

ذريني للغنى أسعى فاني ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأضيعهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
يحقره الندى وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

ويلقى ذو الغنى وله جلال | يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم | ولكن للغنى رب غفور

وقول الآخر :

من الناس من يرضى بميسور عيشه | ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله | مدى ينتهي بي في مراد أحده

وقول غيره :

يا شباب الغد وأبناء الفدا | لكمو ، أكرم وأنعم بالفداء
لا تقولوا خطنا الدهر ، فما | هو إلا من خيال الشعراء
واطلبوا المجد على الأرض فإن | هي ضاقت فاطلبوه في السماء

وإني مع شوقي يوم قال واصفاً شباب مصر :

شباب قنع لاخير فيهم | وبورك في الشباب الطامحينا

ولكنه من الواجب ألا نلقى العبء كله على الشباب ، بل هو ملقى على التربية والآداب ، فالأدب الشعبي الدارج مليء بالقناعة والأدب المدرسي مثله .

« يتبع » **أحمد أحمد بدوي**

زرياب *

بقلم محمد قدري لطفي

ليسانسيه في الآداب

رجل من رجال الفن ، خلق له وفطر عليه ، لعل في سيرته الظريفة مثلا للموهبة الطبيعية ، ترفع من شأن صاحبها فتبلغ به الذروة وتجعله شيئاً مذكوراً ، يتحكم في حياة أمة بأسرها ، فيبدل فيها ويغير منها ، ويؤثر وحده في طبائع أهلها وما ورثوه من تقاليد ، ويخلق فيها من العادات والفعال ما لم يكن بها وما ليس يخطر لأهلها على بال .

هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدى الخليفة العباسي كان أسود اللون ، حلو الشمائل ، وكان شاعراً مطبوعاً فصيح اللسان ، لقبه قومه بزرياب تشبيهاً له بطائر عندهم أسود اللون ، عذب الصوت ، حلو التغريد ، وكان زرياب رقيق الحس ، دقيق الشعور ، له حنجرة لم تخلق لغير الغناء ، وأنامل كأنما أعدت للعود ، ونفس تميل الى الفن ، وروح يهفو الى الطرب ، تتلمذ لاسحق بن ابراهيم الموصلي ببغداد يدرس عليه أصول الصناعة ويتعلم منه دقائق الفن ، وكان اسحق يعلمه الأغاني ويلقنه الألحان ، حتى اذا خلا زرياب بنفسه خلق من فن اسحق فناً جديدا ، وهداه صفاء نفسه وسمو روحه الى كل معجب مطرب ، واسحق لا يعلم من أمر تلميذه شيئاً ولا يدري أنه أخذ منه فتفوق عليه .

وذهب اسحق الى مجلس الرشيد يبعث فيه السحر كعادته وينطق فيه العود بالغناء الشجي والنغم العذب ، والخليفة مصغ اليه معجب به ، تأخذه حلاوة التوقيع وتروقه عذوبة الألحان ، حتى اذا فرغ اسحق من غنائه التفت اليه الرشيد يثني عليه ويمدحه ويحادثه في صناعة الغناء ، فما هو الا أن يتشعب بهما الحديث حتى يقترح عليه الرشيد أن يسمعه مغنياً غريباً يجيد فنه ويحسن صنعته ممن لم يشتهروا عنده ولم تبلغ مكانتهم اليه ، فيذكر له اسحق تلميذاً له قد علمه وأعجب به يتوسم فيه الاجادة وعلو الكعب في صناعة الغناء .

مثل زرياب أمام الخليفة فسأله عن معرفته بالغناء قال « نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ... فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك » وأخذ يصف له عوده وما ركب عليه من أوتار لها في الترنم والصفاء والعذوبة ما ليس لغيرها وما أن يأذن له الرشيد حتى يوحي الى عوده فيغني معه :

يا أيها الملك الميمون طائره | هرون راح اليك الناس وابتكروا

ويظل يغني والرشيد يسمع حتى يتم أبياته في نغم لم يسمع الخليفة مثله ، ولحن لم تردد نظيره جنبات القصر ، ويطير الرشيد طرباً ويسمع من الانغام جديداً لم يسمعه اسحق مثله فيعاتب اسحق كيف ترك الرجل من قبل فلم يعلمه به ، ثم يأمره أن يأخذه لديه فيغني به حتى يفرغ هو له .

أما اسحق فأسرها لتلميذه ، ولم يكد يخلو به حتى عنفه واشتد في تعنيفه وصارحه بما هاج به من الحسد له والغيظ منه ، وخيره بين اثنتين لا ثالث لهما ، فاما أن يغادر تلك البلاد فلا يراه بعد ذلك أبداً ويعطيه على ذلك أغلظ الايمان وأوثق العهود وله عليه ما يريد من مال أو عطاء ، وإما أن يقيم على كره منه وشركة له في الصناعة وعند ذلك لن يأمن غدره ولن يغنيه الحذر شيئا ، وأما زرياب

* نشرنا عن زرياب فصلا ضافيا ممتعا للأستاذ العبادى في ص ٨ من العدد (٧) من الرسالة

فلم يكد يرى أستاذه ينفس عليه رضاء الخليفة ، ولم يكد يسمع منه هذا الوعيد المخيف حتى قام من فوره يبغي بلاداً غير هذه وناساً غير هؤلاء ، وأما الرشيد فانه لم يكد يفرغ من بعض شؤونه حتى سأل عن زرياب أستاذه فزعم له اسحق أنه رجل غر أحمق ماهو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين حتى رحل غضبان ينعى على الأيام أن أوقعته فيمن لايقدرون النبوغ ولا يكرمون النابغين ولا يعرفون الغث من السمين فسكن الرشيد الى قول اسحق .

سار زرياب اذن من المشرق وكان المغرب قبلته فولى نحوها وجهه ، وراح في الأندلس يلتمس مالم يظفر به في العراق من بعد الصيت ورفعة الشأن ، وكتب الى عبد الرحمن بن الحكم يعلمه بمكانه من الصناعة ويسأله الاذن له في الوصول اليه ، وما هو الا أن يقرأ عبد الرحمن الكتاب حتى يرحب بصاحبه ويوصي عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة ، وفي قرطبة يبدع زرياب ويملك على الأمير نفسه فيطرح كل غناء سواه ويقدمه على جميع المغنين ويقطعه الأرض ويمنحه المال ويبلغ اعجابه به حداً لامثيل له ، فيفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده ، وزرياب يذهب في الغناء كل مذهب ويضرب في التجديد بسهم وافر : هذه أعواد القوم لها أوتار أربعة ، فليزد هو عليها وتراً خامساً يستهوي النفس بما يحدثه من النغم ، وها هي أعواد المغنين كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فليكن عوده خفيفاً مرهفاً دقيق الصنع ، وهذا مضراب العود قد استعمله الناس من خشب فهو ثقيل في اليد قاس على الأوتار ما يلازمها قليلا حتى يقطعها أو يفسدها ، فليكن مضراب عوده من قوادم النسر فهو خفيف على الأنامل رفيق بالأوتار وان طالت ملازمته لها ، وها هي ألحان القوم معدودة وأغنياتهم معروفة فليجدد هو في اللحن ، وليأت من النغم بكل طريف وليُسمع القوم من أغانيه وألحانه ما يعد بالآلاف .

وكان زرياب أيضاً قد جمع إلى براعة الفن وحلاوة الترجيع سلامة الذوق وترتيب الذهن فهو سمير اذا جالس الأمير أو أشراف الأمير ، وهو طيب الحديث إذا تحدث ، ماهر في خدمة الملوك ، يجيد استقبال الضيوف والزائرين ، متأنق في ملبسه يعنى بزينة نفسه حتى صار مثالاً في الأناقة يحتذى ، أخذ عنه أهل الأندلس وحاكوه ، فلم يعودوا إلى إرسال الشعر مفروقا وسط الجبين مسدلا إلى الخدين والحاجبين وانما فعلوا كما يفعل زرياب ونساء زرياب ، فحذفوا شعورهم وقصروها دون الجباه وسووها مع الحواجب ودوروها الى الآذان وأسدلوها إلى الخدود ولم يعودوا الى ملاحف الكتان يلتحفون بها ، وانما فعلوا كما يفعل زرياب فآثروا على الكتان أنطاع الأديم الناعمة ، ولم يبق الناس على ماهم عليه من خلط بين ملابس الشتاء وملابس الصيف ، وجهل بما يلائم الربيع ومايناسب الخريف ، وانما علمهم زرياب أن لكل زمان ثيابا ، فللربيع اللون الزاهي ، وللخريف الخفيف اللون ، وللشتاء الثياب الكثيفة ذات الحشو والفراء ، وللصيف البياض من الثياب ، وكذلك عرف الناس مذ جاءهم زرياب صنوفا من الطعام لم تكن لهم بها دراية ولا بطعمها علم واستعمل القوم في الأندلس من العطور مالم يألفوه من قبل ، وفضلوا آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة لأن زريابا كان يؤثر الزجاج ويتناول شرابه فيه

وكان زرياب ايضاً قد علم بناته وجواريه أحسن الأغاني وأدبهن بأدبه فبرعن في الغناء وأتقن الصناعة ، فكانت حمدونة ابنته عند أهل بيتها في الصدر ، وكانت أختها علية كذلك ، وتزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، أما جاريته مصابيح فقد جمعت إلى جمال الصوت جمال النبل كتب صاحب العقد الفريد الى مولاها وقد حجبها عن الناس واختص بها مجلسه يقول له :

يامن يضن بصوت الطائر الفرد
ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فأدخله مولاها الى مجلسه وأذن له في سماعها

ووضع زرياب المراسم لافتتاح الغناء فما يفتتح غناء في الأندلس الا وأوله النشيد وآخره الأهزاج فأكسب زرياب المحافل روعة وأهدى المجالس باقات من الفن زاهيات ، وكان وحده فنا انتقل الى الأندلس ، وحضارة عمت قرطبة ؟

محمد قدري لطفي

فن البنـــاء
عند المصريين والأغريق

بقـــلم محمد علوى

لا شك أن أهم مظاهر الحضارة الفرعونية هو فن العمارة . ولما كان للدين عند الفراعنة المنزلة العليا نجد أن درجة اهتمامهم به ظهرت جلية فى معابدهم ، وهى أهم ناحيـة ضرب فيها الفنان المصرى بسهم . ولم تـكن مصر هى البلد الوحيد الذى اهتم بأمر المعابد ، فقد تبعها فى ذلك الأغريق أيضا ، وكفاهم فخراً معبد (البارثينون) فى (الاكروبوليس) بأثينا ؛ فلقـــد كان هذا المعبد ولا يزال آية فى الجمال ، أجمع جميع الفنانين على أنه لا يوجد له فى العالم مثيل . فقد راعى فيه بانيه خداع النظر فى الأجسام المنظورة فتلافاه بكل الوسائل ، فكان معبـده أشبه بالثورة طبيعية جميلة . ومع كل ذلك فان الفنان المصرى قد سبق زميـله الأغريقى فى تصميم معبده ؛ فانك اذا وقفت أمام المعبد الإغريقى لاشك تشعر برهبة وذهول . ولـكن هذه الرهبة ليست إلا نتيجة لقوة الجمال وحسن التنسيق ، أو بمعنى أقرب إن تأثير هذا المعبد كتأثير حسناء كملت فيها معانى الجمال . فكأنما فن البناء الاغريقى أراد أن يأسر لب المتعبدين بسلطان الجمال . ولـكن ليس هذا هو الغرض الذى من أجله كلف بتصميم المعبد ، وفى رأيى أن هذا خروج عن الموضوع الدينى ، ولو أنه خروج لم يخل بقيمة المعبد من حيث جماله .

أما المعبد الفرعونى فهو يشعر بالهيبـة والعظمة فالخضوع والرهبة ، ولـكن هذا الخضوع ناشئ عن الشعور بالضعف أمام القوة والرهبة الدينية ، وهذا ما أحسه أنا الآن وأنا بعيد عن البيئة التى كانت تحيط بالمعبد فى حداثته ، وبعيد عن العقيدة الدينية التى كانت تملك شعور أسلافنا .

إن الفنان المصرى كان أعظم مما نقدره به وأوسع خيالا ، فنراه قد راعى فى معبده صلاحيته للعبادة من جميع النواحى ، فجعله لا يصلح إلا للعبادة ، بل والعبادة لا تصلح أن تقام إلا بين جدرانه . فتصميم المعبد واختيار موقعه فى مكان بعيد عن الحياة المادية الدنيوية ، والبيئة الدينية التى أحاط بها الفنان البارع معبده ، كل هذا يفصل المتعبد عن العالم المادى فيحصر ذهنه فى دائرة روحانية بحتة .

لست أريد أن أحكم على مقدرة هذا المهندس البارع ، بل سأوضح عمله ، وأترك لكم الحكم على كفايته وموهبته

اختار هذا الفنان لجميع معابده أن تقع فى نهاية طريق مستقيم جداً ومتسع ، بحيث ينتهى هذا الطريق بواجهة المعبد الشامخة ، يتوسطها بابه الصغير ، وقد خصص هذا الطريق مهما بلغ طوله (وقد يصل الى ثلاثة كيلو مترات) للمعبد فقط ، فلم يسمح بانشاء أى نوع من المصالح أو المبانى على الجانبين ، بل أنشأ على حافتيه وعلى مسافات متساوية تماثيل ضخمة متساوية ومتماثلة لمعبود معروف رأسه رأس كبش ، وجسمه جسم أسد . فتصور تأثير هذين الصنفين من التماثيل المتوازية المتماثلة ، والأفريزين الممتدين بجانبى الطريق ، تلك المستقيمات المتوازية تظهر للرائى كأنها تتقابل وتتجمع فى نقطة واحدة كما تجمع العدسات الأشعة الضوئية فى نقطة واحدة ، وهذه النقطة هنا هى باب المعبد الصغير الذى يظهر عن بعد . وكما أن النظر تقوده تلك المتوازيات الى النقطة ، كذلك يكون التأثير على الأذهان الشاردة ، فهذا يساعدها على أن تتجمع وتتركز فى العبادة . هذا بخلاف ما كان يعتقده الفراعنـة من أن هذا الطريق مقدس لا يطؤه غير المطهرين الأبرياء ، وأن تلك التماثيل الجانبية كانت تراقب حركات المارة وأفكارهم طوال الطريق . وكان المصريون يتوجهون الى المعبد تحت هذه التأثيرات فى موكب تتمثل فيـه معانى الخشوع ، يتقدمه غالباً الفرعون وحاشيته ، حتى اذا اقتربوا من المعبد يمرون تحت قوس نصر فخم أشبه ببوابة شامخة يبلغ طولها نحواً من ثمانية وثلاثين متراً فى معابد الكرنك . فتصور كيف يشعر المار من تلك البوابة بضآلته أمام هذا العلو الشاهق وهو يعتقد أنه بمجرد مروره منها تطهر نفسه مما قد يكون عالقاً بها من الأدران ، فيصبح طاهراً يصلح لأن يقترب من المعبد ، وبعد ذلك يمر الموكب بين مسلتين شاهقتين ، كتب عليهما تاريخ انشاء المعبـد وبعض الرموز التى تمثل شارة المعبود الذى فى المعبد ؛ وهنا يجد الموكب نفسه أمام بناء شامخ مثال للقوة والبطش والجمال ، وهذا هو المعبد ذو الواجهة الجرانيتية

الضخمة التي تتكون من هرمين شامخين ناقصين متقاربين ، يتوسطهما باب المعبد الصغير ، وعلى جانبيه تمثالان عظيمان (يصل طول كل منهما الى عشرين مترا كما فى معبد « أبى سمبل » شمال الشلال الثانى) ، وهذان التمثالان يمثلان فرعون ، ويرى الواقف بباب المعبد عدة أبواب متتالية ومتساوية الاتساع ، تقع جميعها على محور واحد عمودى على الواجهة غالباً ، وقد تصل المسافة بين المدخل والباب الأخير الى ثلثمائة متر ، وهذا الباب الأخير هو باب مخدع الآلـه الأعظم .

وأول ما يلفت نظر الداخل فى المعبـد هو البهو الـكبير ذو الأعمدة الضخمة ، وقد بلغت مساحة ذلك البهو الفخم فى معابد الـكرنك ثلثمائة متر فى خمسين مترا ، وهذا البهو مسقف بكتل عظيمة من الأحجار يحملها أربعة وثلاثون ومائة عمود ، مصطفة فى ستة عشر صــــفاً ، وطول أعمدة الوسط منها ثلاثة وعشرون متراً وقطرها ثلاثة أمتار ونصف . فتصور بهواً يحوى هذا العدد من هذه الأعمدة التى بلغ ارتفاع الواحد منها ارتفاع عمارة مكونة من سبع طبقات تقريبا . كيف يكون تأثير مثل هذا البهو الرهيب الفخم فى نفوس المصلين ؟ ألا يمكننا اعتبار هذا البهو رمزاً للقوة والبطش كما أنه مثال العزلة والرهبة ؟ إن طول قامة البشر فى هذا البهو لا يتجاوز قاعدة العمود . وبين تلك الأعمدة يقوم الشعب بتأدية الصلاة ؛ أما فرعون وحاشيته فيستمرون فى موكبهم مخترقين الردهات والدهاليز حتى يصلوا الى مخدع المعبود ، وهو مظلم لا يصله الضوء إلا من فتحة واحدة فى السقف ، قد وضعت بهندسة خاصة بحيث لا تضيء من المكان سوى تمثال الاله ، حتى يخيل للرائى أنه يشع الضوء من جسمه . وأمام المعبود وتحت قدميه يوجد نضـد عظيم من الحجر ليضع عليه فرعون قربانه بين التراتيل والتعاويذ الدينيـــة ذات الأنغام الساحرة الرهيبة .

ولو كانت لى موهبة فى الايضاح أرق من ذلك لاستطعت أن أضع لـكم صورة أقرب للحقيقة للمعبد والدرجة التى وصل اليها من الابداع ، ولـكن عظمة ذلك الفن وروعته فوق أن يصفها قلمى الضعيف .

وهنا أقف بسيدى القارئ لأسأله : هل يوجد مكان أنسب لبناء المعبد من المـكان الذى اختاره الفنان المصرى ؟ هل يوجد بناء تتمثل فيه معانى القوة والخشوع والرهبة أصلح للعبادة من تصميم هذا الهيكل الفرعونى ؟ وهل يمكن إيجاد بيئة تحيط بالمعبد من الوجهة المعنوية والفنية أقرب للكمال من تلك البيئة التى هيأها هذا الفنان الحاذق ؟ أظن أنه لا يمكن أن نجيب على تلك الأسئلة إلا بالنفى . ولقد أجمع عظماء الفنانين فى العالم على أن المعبد المصرى هو صاحب المنزلة الأولى بين معابد العالم ، واذا أمكن تصور منزلة أسمى من الأولى لـكانت هى منزلة معبدنا ، وبالتالى فن عمارتنا الذى نفر ونهرب منه ، وتتناسى منزلته حتى فى هذا العصر الذى هو عصر تجديد وانقـلاب ، لم يفكر أحد من كبار الفنانين المصريين فى إحياء هذا الفن الجميل ، أو ادخال روحه فى المنشآت الحديثة ، الا اذا استثنينا بعض الشواذ .

محمد علوى

قسم العمارة — مدرسة الفنون الجميلة العليا

١٠ ـــ بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والـكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

تحدثنا معك فى المقال الماضى عن ابن القارح ، وتوسله بالسيدة فاطمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان من أمر هذا التوسل والأذن له بدخول الجنة

والآن ماذا صنع ابن القارح ؟ انه تعلق بركاب سيدنا ابراهيم عليه السلام حتى بلغ الصراط ، وأشير اليــه بأن اعْبُرْهُ ، فلما وجد نفسه لا يستمسك قالت الزهراء لجارية من جواريها يا فلانة أجيزيه . فجعلت هذه تمارسه وهو يتساقط عن يمين وشمال ، فقال لها : ياهذه ان أردت سلامتى فاستعملى معى قول القائل :

ست إن أعياك أمرى ... فاحمليني زقفـــونه

فقالت : وما زقفونه ؟ !

فقال أن يطرح الانسان يديه على كتف الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره ، أما سمعت بقول الجلجلول من أهل (كفر طاب)

صلحت حالتى الى الخلف حتى ... صرت أمشى الى الورى زقفونه

فقالت : ما سمعت بزقفونه ، ولا الجلجلول ، ولا كفر طاب إلا الساعة ! ! !

ثم تحمله وتمر به كالبرق الخاطف حتى يبلغ الجنة ، فيمنعه رضوان طالباً منــه جواز المرور ، فيطلب ابن القارح ورقة من صفصاف الجنة ليرجع بها الى الموقف ، ويأخذ عليها الجواز ، ولكن رضوان يأبى عليه هذا ، فيقول ابن القارح إنا لله وإنا اليه راجعون ، لو أن للأمير أبي المرجى خازناً مثلك ، ما وصلت أنا ولا غيرى الى قرقوف(1) من خزانته

ولا يطول بينهما الحوار ، حتى يرجع اليه ابراهيم عليه السلام فيجذبه جذبة شديدة يحصله بها فى الجنة . . . أفرأيت اذاً كيف كان سبيل المعرى الى الفردوس مليئاً بالدعابة وبالمرح حين سقوط صك التوبة من ابن القارح ، وحين تدخله فى فض النزاع بين أبي على الفارسي ومشاجريه ، وفى دعابته مع الجارية ، وهو على الصراط فى أحرج المواقف وأدقها . فهل كان طريق دانتى كطريق المعرى ، كله دعابة وظرف ؟ لا . فقد كان طريق دانتى على العكس من طريق المعرى ، آلام وأوصاب ، وأهوال وعذاب . . . لقد كان طريق دانتى على النار يعبرها أولاً ثم (المطهر) بعدها حتى يصل الى الفردوس . فما ظنك بذلك الطريق الشائك المترع بالأهوال والآلام ؟ !

فبينا هو فى غابة موحشة اذا به يتخلص منها الى أكمة تكلل هامتها شمس الصباح فيهم بصعودها حتى اذا سار قليلاً رأى نمراً قبيحاً يسد عليه شعاب طريقه ، ثم يرى أسداً مخيفاً وذئبة قاحلة حدقته بنظراتها ، فكر راجعاً الى سفح الأكمة فرقاً ورعباً ، فثار فى نفسه اضطرابها حتى أتاه (فرجيل) فاستغاثه فهدأ روعه ، وخدثه بأن سبيل النجاة من هاتيك المخاطر هى رحلة فى أعماق الجحيم ، ومنها الى الأعراف ، ثم الى الفردوس . ثم حدثه بأن بياتريشى أوفدته لانقاذه مما هو فيه من أخطار . فاطمأن قلبه وهدأ روعه وعقد عزيمته على اجتياز الجحيم . فاجتازها بين أنين العصاة وعويل المذنبين ، مما حدثتك عن كثير منه فى المناسبات الماضية . حتى اذا انتهت رحلته من جهنم أمسك فرجيل بابليس ، وأمسك دانتى بعنق فرجيل ، وساروا قليلاً حتى خلصوا من الجحيم ، وأسلمت الجحيم دانتى الى الأعراف فدخلها وسار فى جنباتها يتحدث مع العصاة الذين يتطهرون من ذنوبهم ومن آثامهم ، حتى اذا قارب نهايتها رأى نهراً ينفرج عن ماء رقراق ، فبصر بالنهر وبفتاة على سيفه الآخر ، وهى تغرد بصوت مطرب وتقطف الزهرات ، فطرب دانتى واقترب منها فقصت عليه حديث النهر ، وأن اسمه نهر ليتى (lete) نهر التوبة ، من اغتسل منه طهر من ذنوبه ، وبرئ من آثامه ، ثم عاودت الفتاة الغناء ، وعاد له من الفتاة الطرب

ثم تراءت أمام عينيه أضواء تشع فى أرجاء الغابة ، وتواردت على سمعه نغمات حلوة لم يكد يطرب لها حتى تراءت له من بعيد سبعة أجسام كأنها شجرات من خالص الذهب ، تبينها فاذا هى مصابيح تحمل أضواءها كل ألوان الطيف ، ويتلوها أربعة وعشرون شيخاً بجلالهم ووقارهم ، وتلق عليهم الهيبة رداءها ، وتكلل رءوسهم زهرات الزنبق وتتبعهم عربة يقودها حيوان يشبه الأسد ، بيد أن له رأساً ، وأن له أجنحة كأجنحة الطيور ورءوسها

تلك العربة كانت تحمل بياتريشى جاءت تستقبله لتكون دليله فى جنبات الفردوس المحرمة على فرجيل أن يلج بابها . وقد افتن شاعر الطليان فى وصف بياتريشى وعربتها ، وما احتف بها من راقصات ، ومن سحائب الزهور افتناناً جعل ذلك الوصف فى طليعة كوميديته ابداعاً وفتنة . وكذلك نرى فى رسالة الغفران وصف الطريق الى الفردوس ، وامتداح رضوان وزفر ، ودعابة الجارية على الصراط ناحية جد مخصبة من خيال أبي العلاء ومن ابداعه

ذلك هو طريق الفردوس ، وها هو ذا وصفه فى الروايتين ، فأما الفردوس وطبقاته وأقسامه وما تخيله المعرى من حيات يسبحن فى الخلد فوق كثبان العنبر . وقد كان منهن فى الدار العاجلة من تسكن فى جحر بدار حمزة بن حبيب امام القراء ، وتقبست عليه قراءته واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (بخفض الأرحام) بعد أن كانت تسكن من قبل فى دار الحسن البصرى . ثم تحولت عنه لأنها رغبت عن بعض حروف فى قراءته حين يقرأ الأنجيل . وفالق الأصباح (بفتح الهمزة فيهما) . فأما الحديث عن تلك الحيات والرد على المعرى فى تخطئته حمزة فموعدنا به العدد القادم ؟

« يتبع »

محمود احمد النشوى

(1) القرقوف : الخمر

شركة مصر للغزل والنسيج

المحلة الكبرى منشستر مصر

لمندوب الرسالة

لا يتم استقلال سياسي صحيح لأمة من الأمم ما لم تستقل استقلالاً اقتصاديا أولاً . تلك حقيقة لا يختلف في صحتها اثنان . والاقتصاد في كل الأمم هو العمود الفقري لحياتها ، والمقياس لعظمتها وتقدمها ، حتى أضحى شغل العقول الكبيرة التي تخلص لأوطانها ، وتعمل لرقيها باخلاصها وإيمانها

ولقد ظلت مصر ردحاً من الزمن تضع السياسة في المنزلة الأولى من تفكيرها ، وفي غمرات ذلك الاضطراب السياسي ساءت الأحوال المالية فيها ، وامتدت الأيدي الى المصارف الأجنبية التي استغلت الفرص أحسن استغلال ، وأخذت تضيق على من يقع في حبائلها الخناق ، حتى ضج الناس وغمرهم الذهول . هنالك تفتحت الأذهان ، وحدقت العيون الى نصير منهم يأخذ بأيديهم ويهديهم صراطاً اقتصاديا مستقيما . عندئذ قام ذلك الوطني المخلص «طلعت حرب باشا» ووضع هو وصحبه الأكرمون نواة ذلك الصرح الوطني الشامخ ، فخر مصر وعنوان مجدها الاقتصادي ، ووجه ذهنه الخصب ، وعقله الجبار ، لانجاح ذلك العمل القوى العظيم ، حتى صافح الفوز وتجاوز حد الثقة وأصاب مشاكلة الغرض

وبعد أن وصل ذلك المشروع الى الحد الذي يحسد عليه ضاق على جسامته وخطورته بنشاطهم وبنتاج هممهم فأخذوا ينشئون الشركة تلو الشركة ، والمصنع تلو المصنع ، ومن بين هذه المشروعات الجليلة التي قام بنك مصر بتأسيسها « شركة مصر للغزل والنسيج » التي أقيمت في المحلة الكبرى

نما غرسها منذ سنوات ثلاث ، وأخذت أغصانها تزداد قوة وامتدادا ، وتؤتى أكلها جنياً شهياً ، كلما زادت الأمة في الاقبال عليها وتشجيعها ، وأبواها بنك مصر و« طلعت حرب » يتعهدانها ويؤازرانها بادخال كل مستحدث من الآلات ، وكل جديد من الفن ، حتى كان آخر ذلك هذا التوسع الكبير الذي يجرى اليوم فيها على قدم وساق ، والذي شاء لنا حسن التوفيق أن نشهده تلبية لدعوة وجهها الينا رجال الشركة

كان يوم الخميس الماضي يوماً حافلاً حقاً ، فقد شهدنا فيه بأعيننا صرحاً من صروح قوميتنا العزيزة ، وغرساً من غراس تلك الأيدي العاملة الكريمة

كان في انتظارنا رتل من السيارات أمام دار بنك مصر أقلتنا الى المحلة الكبرى ، فلما دخلنا المدينة وبلغنا مقر دار الشركة كان في استقبالنا رهط من موظفيها الكرام على رأسهم مدير الشركة العام الدكتور محمد عبد اللطيف محرم ، فطافوا بنا أقسام المصنع يشرحون لنا مختلف آلاته ومتنوع غاياته

تبلغ مساحة الأرض التي شيدت عليها مصانع الشركة مائة فدان ، وقد بنيت كلها على أحدث النظم الصحية وجميع العمال والمديرين والمهندسين من المصريين إلا اثنين من الأوربيين دعت الضرورة القصوى الى استخدامهما

وقد افتتحت مصانع الشركة لأول مرة في ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وعدد أنوالها ٤٤٨ فزيدت في عام ١٩٣٢ الى ١٢٠٠ ولن يأتي العام القادم حتى تبلغ ٤٠٠٠ ، أما المغازل فكان عددها ١٢٠٠٠ مغزل في عام ١٩٣٢ فزاد حتى بلغ الآن ٥٠٠٠٠ مغزل وسيزداد ان شاء الله باطراد كل عام

وكان عمل الشركة في بادىء الأمر قاصراً على غزل القطن ونسجه ، ولكن ما وافى عام ١٩٣٣ حتى أدخلت فيها صناعة غزل ونسيج الكتان ، وفي عامنا هذا انشئت مصانع لغزل الدوبارة والفانلات والجوارب وبكر الخيط وغيرها ، ويعدون العدة منذ الآن لكي يقوم مصنع الصوف في عام ١٩٣٦ بصنع البدل الصوفية ولوازمها من الصوف كذلك

وإن الذي يزيد في سرور كل مصري وابتهاجه أن يعلم أن عمال الشركة الآن يبلغون ٦٠٠٠ عامل سيزاد عددهم بعد عامين على الأكثر الى ١٨٠٠٠ عامل ، ولحرص الشركة على أن يكون كل شيء مصرياً انشأت مصنعاً كبيراً لصنع ما تحتاج اليه من الآلات ، ولكي لا تضطر إلى استخدام أجانب فيه أوفدت عدة بعثات إلى أوربا من خريجي المدارس الصناعية . وتخرج الشركة الآن أنواعاً عديدة من الأقمشة معروفة في سائر الأسواق : منها (التيل الكاكي) و (فولار) و (دبلان) و (تيل المراتب) و (زفير) و (سكروته) و (فوط للوجه) و (بشاكير) الى غيرها مما لا يتسع المقام لذكره

هذا قليل من كثير مما قام به بنك مصر من جسيم المشروعات التي سار بها من نجاح الى نجاح بفضل اخلاص اولئك المجاهدين القائمين على أمره ، وبفضل الأمة المقبلة على تعضيده وشد أزره .

٧ــ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري

أحمد أبو الفرج الدمنهوري الشاعر الأديب، ظريف الجملة والتفصيل، حلو النادرة والفكاهة، انجذبت اليه النفوس وألفته القلوب على دمامته وغرابة شكله. ولد بدمنهور ونشأ بها في ضنك وحرفة حال، ولم يكن مشتغلاً بالأدب في أول أمره، ثم لازم الشيخ محمداً الوكيل القباني أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج في النظم، وصحب أيضاً الشيخ حميده الدفراوي، وهو أديب لكنه لا يبلغ درجة الوكيل، ولم يحضر المترجم العلم على شيخ، بل كان يلازم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلاً ولا نهاراً فيكتب عنه كل مايسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره، أخبرني ثقة أنه اجتمع بدمنهور حوالي سنة ١٢٨٥ فرآه شاباً نيف على العشرين مخفوض الجانب كثير التواضع لا يستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا سار ليلاً.

ثم نظر المترجم في كتب الأدب ودواوين الفحول وبدأ ينظم الشعر فكان يعبث بالبيت والبيتين، ثم نظم بعد ذلك القصائد والمقطعات، إلا أنه كان قليل الاجادة كثير الخطأ واللحن، يتكلف التجنيس والتورية، وأحسن شعره مانظمه في المجون وضمنه ألفاظ العيارين والشطار. وكان حضوره إلى القاهرة بصحبة الوكيل، فأوصله إلى السيد عبد الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية فأعجب بظرفه ومجونه، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة، وهي إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان وفي الناس بقية، فكانوا يهشون له ويتهادونه إذا حضر، ويراسلونه إذا غاب، فحسنت حاله قليلاً بما كان ينال من هباتهم. ثم اتصل بشاهين باشا كنج في طنطا لما كان مفتشاً على الأقاليم سنة ١٢٩٣ فانتظم في حلبة ندمائه، واختص به وواساه وجعله طرفة مجلسه، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغاً وافراً اشترى به عقاراً ورمم داره بدمنهور، واجتمع عند شاهين باشا بعبد الله افندي نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب، ثم نقل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع في أثنائها بغيره من الكبراء وذوي الوجاهة فيهدي إليهم مدائحه ويتحفهم بطرائفه

وكان على قلة إجادته في شعره مفتوناً به مبالغاً في تقريظه وقت انشاده، يمزج ذلك بإشارات وحركات تستظرف منه، ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه في النظم، ولعمري لا أرى عبارة تفي بوصفه ووصف حركاته عند الانشاد وقيامه وقعوده والتفاته واستدعائه الحاضرين إلى استماعه، فانه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولاً بتقريظها ونبه الحاضرين إلى مواضع الاجادة منها، فاذا ألقوا إليه بسمعهم أنشد المطلع وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته، ثم التفت يمنة ويسرة مستطلعاً خبيئة رأيهم فيه، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق آذانهم مثله في عمرهم، وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له فيه من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين، ثم يمضي في البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكر، ويقول سبحان المانح! كم ترك الأول للآخر! وأمثال هذه الجمل التي اشتهرت عنه وصارت من لوازمه، ثم يمضي في الانشاد، فاذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طرباً، ثم نظر للحاضرين وقال لهم اسمعوا من الفتى العربي اللعوب، تف على المتنبي وسحقاً له، أين له السلاسة والسهولة؟ وهكذا حتى يتم القصيدة، فان رأى من السامعين استحساناً تمادى في غلوائه وأعجب وأطرب، وربما عارضه بعض من يحضره استجلاباً لطرائفه واستئناساً بمحاورته، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة الحاضرة. بلغني أنه حضر مرة مجلساً جمع لفيفاً من أهل الأدب فأنشدهم قصيدة من نظمه وبالغ في استحسانها كعادته، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها، فانتبذ له صديقنا العالم الفاضل، والشاعر المجيد، الشيخ عبد الرحمن قراعة مداعباً، وقال له أخطأت في بيت منها فأدخلت حرفاً على حرف وهو مما لا يجوزه النحاة، فإما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك، ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم، فنكس رأسه هنيهة، ثم نظر اليهم كالمتعجب وقال ياليت قومي يعلمون!

وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبي البقاء الزرقاني، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده إياه، ويعرض للشيخ مايشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الالحاح عليه بترك ماهو

فيه والاصاخة اليه ويضايقه بذلك مضايقة شديدة، ولكن لا يكاد الشيخ يعرض عنه حتى تصدر منه نادرة ينقلب لها المجلس ضحكاً ، فكان يقول فيه إن أبا الفرج عندى مشكلة من المشاكل لا أدرى أهو ثقيل أم ظريف .

وكان أول اجتماعى به فى مجلس أحد الأعيان وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله ، ولم أكن لقيته من قبل ، بل كنت أسمع به وأشتاق رؤيته فرأيت عجباً : رأيت شيخاً قصيراً دميم الوجه قد ذهبت احدى عينيه ، عليه جبة واسعة الأكام وهو جالس فى زاوية من المكان يملى على شخص حسن الخط داليّة من الطويل منصوبة الروى جعلها تهنئة للخديو محمد توفيق باشا بقدومه من الاسكندرية ، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والاعجاب به على ماتقدم ذكره ماينبهى للالتفات اليه ، ثم مر ببيت قافيته لفظة (ومعتضداً) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها تورية باسم الخليفة المعتضد بالله فلم يوافقوه ، فأعرض عنهم وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية حتى أضجره ورمى الدرج من يده ، فغلبنى الضحك واستظرفته وقصدت محادثته ، فقلت لعل سيدى الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبى الطيب التى يقول فى مطلعها :

لكل امرئ من دهره ماتعودا ... وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا

فسكت ثم نظر الىّ شزراً ولم يزدنى على قوله : رِتفّ على المتنبى ، فاستغربت فى الضحك وسألت عنه بعض الحاضرين فخبرنى به ، فكدت أطير سروراً بلقائه ، وأقبلت عليه أمدح القصيدة وأذكر مواضع الاجادة فيها وأستعيدها منه ، فأبرقت أسرته وأقبل علىّ أيما إقبال وأسمعنى بعض مقطعات من شعره ، فقلت له : أما كان الأولى بهذه اللآلئ أن تنظم فى سمط ؟ فقال نعم ياسيدى إنى مهتم بذلك وسيكون ديواناً مرقصاً ، وامتد بنا المجلس فرأيت منه مالو أردت إثباته برمته لطال بنا المقال . ثم فارقته وأنا أشوق الناس اليه ، وكأنى به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبى فى اليتيمة وأورد فصولاً للصاحب بن عباد فى وصفهم .

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يستملح منه مايستثقل من غيره ، فقد رَوَوْا عن بشار أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده وعن البحترى أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجاباً بشعره ، وقد عيبا بذلك وعد من سقطاتهما التى نعاها عليهما الناعون بخلاف المترجم .

ومن غرائبه أنه كان معجباً بكنيته وكثيراً ما كان يتدرج بها إلى الانتساب لمن تكنى بها من الفضلاء المتقدمين كأبى الفرج ابن الجوزى وأبى الفرج الاصبهانى صاحب الأغانى وغيرهما ، فلا يدع أحداً من المتكنين بها إلا وينتسب إليه ، تارة لهذا وتارة لذاك ، ثم ارتقى درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء ، ووسع أكمامه وسعى حتى جعلوه نقيباً للأشراف بدمنهور . حدثنى صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكرى أفندى المكى قال : لقيته مرة وكنت علمت بأمر تلك النسب وأردت مداعبته فقلت : ياأبا الفرج إن كنيتك تنبىء عن شرف عظيم فلعلك من نسل أبى الفرج بن الجوزى ، فقال نعم ياسيدى صدقت وأصابت فراستك ، ثم لقيته بعد ذلك بأيام وقد نسى مادار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له إجادتك فى الشعر مع هذه الكنية تدلنى على أنك من نسل أبى الفرج الببغاء ، فقال أى نعم وهو الواقع اهـ . ولاخلاف فى أنه كان يعلم قصد محدثه فى أمر نسبه ، إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد حتى مع أخص الناس به ويغضب ممن ينكر عليه فتستظرف منه .

وادعى مرة أنه نال نصيباً وافراً من اللغة بحيث أصبحت لا يشذ عنه شىء من مفرداتها ، وتمادى فى هذه الدعوى وتبجح بها فى المجالس ، وتصدر للاجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه فتوالت عليه الأسئلة وهو يجيب عليها خابطاً خبط عشواء لايبالى بمن يحتج عليه بكتب اللغة . وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له الفاظاً يسألونه عنها فيخترع لها معانى يجيب بها ، وربما أحال تخرصاً على كتب لغوية يعينها ، ونظم له بعضهم بيتاً كبيت الخنفشار وسأله عن معناه فى جمع كبير من الأدباء وهو :

وبخرنق الأقيال عاثت فالتثت ... وركاء تعترض الأكام بشيظم

فقال نعم ! هذا بيت لعنترة ، ذكره صاحب الأغانى وهو يصف به حمامة ، والخرنق شىء يشبه نسج العنكبوت وليس به ، يكون بين أغصان الأشجار ، فيقول إن هذه الحمامة عاثت بين الأقيال ، أى

الأشجار الكبيرة فالتئت قدماها بالجرنق أي اشتبكت به ، وأما الشيظم ، وأراد أن يفسره فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس .

وبالجملة فقد كان خفيف الروح محبباً إلى القلوب أديباً ظريفاً حاضر الجواب حلو النادرة ، وكانت وفاته فجأة بدمنهور فى ثانى ليلة من شهر ربيع الثانى سنة ١٣١٠ بعد أن صلى العشاء ، وكان آخر قوله إنا لله وإنا اليه راجعون ، فشق نعيه على من عرفه وشيع جنازته الألوف تغمده الله برحمته .

الشيخ زين المرصفى

الشــافعى

هو من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشرى ، إلا أن الشيخ سليماً أكبرهما سناً ، حضر إلى الأزهر وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس ، ثم جعله الخديو اسماعيل معلماً للعربية لولده الأمير حسين كامل باشا سلطان مصر الآن (١) ، وبسبب مخالطته له ولمن حوله ألم ببعض اللغات ، وسافر مع الأمير إلى القسطنطينية وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية فاقتنى هناك كتباً نفيسة غريبة عن أهل الأزهر ، فصار ينقل منها فى تآليفه نقولاً يغرب بها عليهم ، ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها ، ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ ، فشيع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس ، وأمر ناظر المعارف فسار فيها من كل مدرسة فريق من تلاميذها وأناب عنه بأن يحضرها ، ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه وقف الشيخ حمزة فتح الله فأبنه ورثاه ببيتين من نظمه هما :

سقى الله من صوب الرضا أعظماً هوى
بها ركن بيت العلم إذ دكه الحين
فــلا غرو إن أضحت وجوه علومنا
مشوهــة فاليوم فارقها زين

رحمه الله رحمة واسعة .

وفى مقدمة شرح أحمد بك الحسينى لكتاب الأم للامام الشافعى الذى سماه برشد الأنام لبر أم الأمام مانصه « زين المرصفى كان عالماً فاضلاً أخذ عن علماء وقته وجد واجتهد حتى صار من أكابر العلماء ، وكان ذهب مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو اسماعيل باشا وكان يجيد اللغة الفرنساوية ، وله كتابات فى المنطق والحكمة وكانت وفاته سنة ١٣٠٠ » . انتهى

(١) كتبت هذه الترجمة طبعاً أيام ولاية المغفور له السلطان حسين كامل

شعراء الجاهلية

طرفة بن العبــــد

للأستاذ بشير الشريقي

مسكين طرفة ! لقد ثكلته آلهة الشعر والهوى والخمور باكراً غضاً نضير العود ، مسكين لم يتمتع بالشباب ؛ بل كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره حينما طوته المنون فى سجل العـدم ودفنت معه عبقرية فياضة ، وذهنية جبارة ، وشاعرية قوية حارة . خمسة وعشرون حجة ، انها لحلم قصير ياطرفة . . ولكنه حلم لذيذ ، وحلم جـــدّ عجيب . أيها الشاعر الاغتناى والشاب الفيلسوف المتهتك .

* * *

على رمال الصحراء الطليقة ولد طرفة ، ولكن متى ؟ هذا مالا يعلمه أحد ؛ كان والده من سادة « بكر وائل » ومن ذوى الشرف الرفيع والمقام المحمود فى قومه ، وسمع طرفة يفتخر بأصله :

لقد علـم الأقوام أنا بنجوة علت شرفاً من أن تضام وتشتما

لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها ويأوى اليها المستجير فيعصما

وتشاء الأقدار أن تسلب الشاعر والديه وهو لم يزل طفلاً فى المهد فينشأ المسكين كما نشأ الحطيئة والأخطل وبشار وأبو نواس وابن الروى ، يتيما محروماً من كل عطف ورعاية ، لا يعرف سوى أعمامه الذين أهملوا تربيته وهضموا حقه .

لقد ثار طرفة فى شبابه على هؤلاء الذين نبذوه وظلموه وكانوا علة شقائه ، ثار على أعمامه وذوى قرباه ، وفى ساعة ذكرى ماض محروق مهان ، وطفولة نكدة محرومة ، تلهم عرائس الشعر هذا العبقرى الصغير أبياته الخالدة :

فمالى أرانى وابن عمى مالكاً متى أدن منــه ينأ عني ويبعد

يلوم ، وما أدرى علامَ يلومني كما لامني فى الحى قرط بن معبد

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ولا أعلم كيف عاب بعض النقاد الادباء هجاء طرفة لقومه فى قوله :

أسلمني قومى ولم يغضبوا لسوءة ، حلت بهم فادحـــة

وكلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلــة بالبارحة

وكيف رموه من أجل ذلك بكثرة الشر ولؤم الطبع ، ما كانوا محقين وما كانوا منصفين ، انهم لم يفطنوا الى أن الشاعر ما قال بيتيه إلا بعد أن لاقى من قومه كل احتقار وقسوة ؛ وكل ما من شأنه أن يجعل الشاعر يثور على البيئة التى نشأ فيها .

ثم هل تظن أن طرفة عني قومه فقط حينما قال : « كلهم أروغ من ثعلب » انا لا أظن ذلك بل أرجح أنه عنى الناس اجمعين ؛ وأنه كان سيء الظن بالبشر شديد الحذر منهم ، اليس هو القائل فى ذم الأخـــلاء :

كل خليـل كنت خاللته لا ترك الله له واضحـــه

* * *

ولد طرفة عبقرياً وشب عبقرياً ، فأسمعنا وهو فى زهرة العمر وفجر الشباب أناشيد الحياة والموت فأطربنا بانغامه إلى حين ، نعم الى حين ، فقد أخرس الزمن لهاته قبل أن يكمل الخامسة العشرين ربيعاً ؛ وكأن طرفة كان يشعر بمصيره ويعلم أن أيامه فى الحياة قصيرة ؛ فراح يسخر بمن يردعه عن اغتنام لذائذ الدنيا ويزجره عن الخمر والنساء واقتحام الهيجاء :

ألا أيهذا الزاجرى احضر الوغى وان أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فان كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعني أبادرها بما ملكت يدى

واعتقد طرفة أن « الـكل باطـل » ورأى أن هنالك شيئاً واحداً ثابتاً ، هو أن الحياة تمضى ، وما عدا ذلك أباطيل :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لـكالطِّوَل المرخى وثنياه باليد

لعمرك ما الأيام الا معـارة فما اسطعت من معروفها فتزود

وما دام طرفة يرى أن اسمه سيمحى من سجل الوجود وأن قبر البخيل النحام فى شرع الفناء كقبر الغوى الضال الذى قضى عمره فى الشرب واللعب :

أرى قبر نحـام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ما دام يرى ذلك فقد صمم على أن يغتنم أويقات الحياة ويتمتع بكل ما تناله يده من لذائذ ومتع فماش — وهذا طبيعى ممن مات ولم يبلغ الخامسة والعشرين من سنة — صريع الكأس والأعين النجل ؛ واهباً روحه للجمال وحسه للذة ، أما نفسه فظلت كبيرة

لم يذلها الهوى ولم يخضعها الحسن ، أبداً محترمة مهيبة طموحة الى المجد :

اذا القوم قالوا « من فتى » ، خلت أنني
عُنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد
فان تبغني في حلقة القوم تلقني
وان تقتنصني في الحوانيت تصطد
متى تأتني أصبحك كأساً روية
وإن كنت عنها غانياً ؛ فاغن وازدد
وان يلتق الحيُّ الجميع تلاقني
الى ذروة البيت الشريف المصمد

ندامای بیض کالنجوم وقینة   تروح إلینا بین برد ومجسد
ومازال تشرابي الخمور ولذتي   وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
الى أن تحامتني العشيرة كلها   وأفردت إفراد البعير المعبد

شعر رقيق عبر به صاحبه فأحسن التعبير ، وظريفة واقعية مذهبها الاباحة والصراحة ، حقاً لقد خلق هذا الصغير طرفة شاعراً فياض القريحة ، انظر ، إنه مافكر في غير نفسه ، ولا استمد إلا من حسه .

***

ربما دهشت اذا قلت لك إن هذا الشاعر الشاب الذي مات قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، والذي عاش كما قال بشار :

عشت بين الندمان والراح والمز
هر في ظل مجلس حسن

قد امتاز أيضاً بما نظم من الحكم البالغة والأمثلة السائرة ، لا تعجب ، إن طرفة لم يكن مخلوقاً عادياً ، بل كان عبقرياً ملهماً ، نظر بعين بصيرته الى الحياة نظر الشيخ المجرب ، فحدثنا عن الوجود والعدم حديث العارف الحكيم ، وعالج لنا خلال السنوات القليلة التي عاشها كثيراً من مسائل الحياة وأحوال المجتمع وخوالج النفس

قال يطلب الغيث لديار حبيبته :

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمي

شعر جزل فصيح ، طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار ، وقد قال محمد (ص) « اللهم اسقنا سيقاً نافعاً » أنا وأنت وكل الناس نتمثل بقول هذا الشاب :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

واسمع إنه يحدثك عن الخير والشر :

الخير أبقى وان طال الزمان به   والشر أخبث ماأوعيت من زاد

وتأمل قوله وهو في السجن — يخاطب قاتله [1] عمرو بن هند

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي
ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ألا تشعر معي أن في قوله « أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا » نقاء وحرارة ، وليناً وروعة واستعطافاً ، وان قوله « بعض الشر أهون من بعض » آية يتمثل بها .

وذكروا أن من حكمه التي حملت فحول الشعراء كلبيد وجرير والاخطل على الاعتراف بفضله وتقدمه قوله :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً   ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ويروى عن عائشة رضى الله عنها قولها : كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا استراب الخبر يتمثل بقول طرفة « ويأتيك بالاخبار من لم تزود » وكان ابن عباس يقول عن هذا البيت « انه كلام نبي » .

النبي محمد يتمثل بقول طرفة . !

وابن عباس يقول إن كلامه كلام نبي .

وأبو العلاء المعري يقول في رسالة الغفران « .. لو لم يكن لطرفة أثر إلا قصيدته التي على الدال لكان قد أبقى أثراً حسناً » .

أما قصيدة طرفة التي على الدال فهي معلقته ، اسمع مطلعها الرائع :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبي على مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ونظر طرفة الى الحياة ، الى المستقبل ، بعين فيلسوف حكيم ، بعين شيخ مجرب بصير بعواقب الأمور فقال :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره   حتى تظل له الدماء تصبب

رحم الله طرفة شاعر الشباب والجمال والحكمة .؟

شرقي الاردن   بشير الشريقي
المحامي

(1) يذكر الرواة أن طرفة اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ، ثم أرسله بكتاب الى المكعبر ، عامله على البحرين وعمان — يأمره فيه بقتله لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها فقتله المكعبر حوالى سنة ٦٠٠ ق . م

مِنْ طَرَائِفِ الشِّعْرِ

البلبل المسحور

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

أَلْهَمْتِنِي الشِّعْرَ وَأَنْغَامَهُ وَحَسْرَةَ الذِّكْرَى وَشَجْوَ الْهَوَى

وَحَيْرَةً صَاحِبُهَا ذَاهِلٌ مُرَوَّعٌ يُضْنِيهِ فَرْطُ الْأَسَى

نَادَتْكِ رُوحِي فِي دُجَى صَمْتِهَا مَمْرُورَةً غَلْغَلَ فِيهَا الْجَوَى

وَاسْمُكِ حَوَّامٌ يُنَاغِي فَمِي قَلْبِي طَوَاهُ وَلِسَانِي رَوَى

وَطَيْفُكِ الرَّفَّافُ فِي خَاطِرِي يُنَضِّرُ الْمَاضِي وَيُحْيِي الْمُنَى

***

آمَنْتُ بِالْحُلْمِ فَكَمْ مَأْمَلٍ مُسْتَبْعَدٍ أَدْنَتْ خُطَاهُ الرُّؤَى

وَعَالَمٍ ضَلَّلَنِي لُغْزُهُ مَدَّ عَلَيْهِ جُنْحَهُ فَانْجَلَى

***

يُطْمِعُنِي فِي عُزْلَتِي أَنَّنِي أَرَى بِسِتْرِ الْغَيْبِ مَا لَا يُرَى

أَعِي حَدِيثاً حَافِلاً بِالرِّضَا يُهَدْهِدُ الْقَلْبَ إِذَا مَا وَعَى

وَتَسْكُنُ النَّفْسُ إِلَى نَغْمَةٍ هَابِطَةٍ مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى

كَمْ صُغْتُ أَشْعَارِيَ مِنْ وَحْيِهَا وَكَمْ تَغَنَّيْتُ بِهَا فِي الدُّجَى

قُلْتُ لِنَفْسِي فِي شُجُوِّ الرُّؤَى لَمْ آتِ دُنْيَايَ لَعَمْرِي سُدَى

لَئِنْ شَجَانِي أَنَّنِي مَيِّتٌ لَقَدْ نَفَى شَجْوِيَ أَنِّي صَدَى

كَتَبْتُ رُوحِي قِصَّةً لَذَّةً وَصُغْتُ قَلْبِي نَغَماً يُشْتَهَى

لَيْسَ يَنَالُ التُّرْبُ مِنْ مُهْجَتِي وَلَا يُذِيبُ اللَّحْنَ مِنْهَا الْبِلَى

طَوَّفَتِ الْأَفْلَاكَ فِي سَبْحِهَا كَأَنَّهَا مَا حَفَلَتْ بِالرَّدَى

أَتْرَعَتِ الدُّنْيَا شَذاً بَاقِياً وَغَلْغَلَتْ طَيَّ الرِّحَابِ الْعُلَى

***

أَعَاضَنِي مِنْ فَرْحَتِي حَسْرَةً مَنْ بَدَّلَ الضِّحْكَ بِمُرِّ الْبُكَا

مَرَرْتُ فِي دُنْيَايَ مُسْتَعْجِلاً كَأَنَّنِي فِي الْغُمْضِ طَيْفٌ سَرَى

تُزَيِّنُ الْأَحْزَانَ لِي عِيشَتِي وَتَرْسُمُ الشَّكَّ وَتَمْحُو الْهُدَى

يَئِسْتُ مِنْ صَحْوِي وَمِنْ غَفْلَتِي كِلَاهُمَا بَعْضُ خَيَالِ الْكَرَى

أَسْلُو، وَمَا سَلْوَايَ إِلَّا الْبُكَا أَحْيَا، وَمَا عَيْشِي إِلَّا الشَّجَا

ضَاعَتْ أَمَانِيَّ وَلَمْ يَبْقَ لِي فِي عُمُرِي مِنْ أَمَلٍ يُرْتَجَى

وَلَمْ يَعُدْ لِي مَطْمَحٌ مُشْرِقٌ إِلَّا انْتَحَاهُ الْمَوْتُ نَضْرَ الصِّبَا

أَمْسِ صِبَايَ الْغَضُّ وَدَّعْتُهُ وَغَابَ عَنِّي فِي سَحِيقِ الْهُوَى

وَذَا شَبَابِي الْيَوْمَ مُسْتَرْجِعٌ يَمْشِي إِلَى الْمَوْتِ حَثِيثَ الْخُطَى

وَقَلْبِيَ الْمَوْجُوعُ مَا يَأْتَلِي يُمْعِنُ فِي النَّوْحِ إِذَا مَا اشْتَكَى

حَنَّتْ إِلَى الْمَاضِي جِرَاحَاتُهُ وَجُرْحُهُ قُدِّسَ لَمَّا مَضَى

***

آهاً عَلَى نُعْمَى تَخَيَّلْتُهَا مَا جَزِعَتْ أَنْ هَدَّمَتْنِي ضَنَى

تَعْتَادُنِي الْأَشْجَانُ فِي وَحْدَةٍ لَا فَرَحٌ يُسْعِدُهَا أَوْ سَنَا

دَاجِيَةٍ نَكْرَاءَ طَفَّاحَةٍ بِالسُّهْدِ وَالْبَلْوَى وَبَرْحِ الْأَذَى

الْعَدَمُ الرَّاعِبُ فِيهَا لَقًى تَحْسِرُ عَنْ أَسْرَارِهِ مَا اخْتَفَى

وَالْوَهْمُ مَلْمُوسٌ بِهَا بَيِّنٌ وَالْغَيْبُ فِيهَا مَاثِلٌ يُجْتَلَى

***

بُلْبُلُكِ الْمَسْحُورُ يَا فِتْنَتِي مَاتَ، وَعُشُّ الْحُبِّ مِنْهُ خَلَا

الْوَرْدُ قَدْ جَفَّ عَلَى قَبْرِهِ وَالنَّغَمُ الْمِطْرَابُ فِيهِ ثَوَى

فَأَرْهِفِي أُذْنَكِ تَسَّمَّعِي إِنْشَادَهُ مِنْ جَوْفِ هَذَا الثَّرَى

***

. . . .

يَا طَيْفَهَا قَاسَمْتَنِي وَحْشَتِي وَظَلْتَ فِي قُرْبِي بِرَغْمِ النَّوَى

عِشْ فِي فُؤَادِي بُلْبُلاً نَاغِماً وَابْقَ أَنِيساً لِيَ طُولَ الْمَدَى

أَسْمِعْنِيَ الْأَلْحَانَ عُلْوِيَّةً وَأَنْسِنِي الدُّنْيَا وَهَذَا الْوَرَى

وَطُفْ بِرُوحِي عَالَماً سَامِياً عَاشَ بِهِ الْحُبُّ وَمَاتَ الْقِلَى

تَعْتَنِقُ الْأَمْلَاكُ فِي سَاحِهِ وَيُسْعِدُ الْمُشْتَاقَ فِيهِ اللِّقَا

دمشق — أنور العطار

من الأدب الهندي

عود الى محمد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت فى الرسالة عام أول طرفاً من أخبار شاعر الهند العظيم ، وفيلسوف الاسلام النابغة الدكتور محمد إقبال ، وترجمت نبذاً من ديوانه « پيام مشرق » . ولاقبال كتاب اسمه « أسرار خودى » ، وهو كتاب منظوم شرح فيه « أسرار خودى » أى أسرار الذاتية ، فبين بأسلوب شعرى رائق أن حياة الانسان والأمة فى تقوية النفس ، واستخراج كل ما فيها من قوى ومواهب ، وأن الهلاك أن يغفل الانسان عن فطرته ، ويردد آراء الناس ، ويحاكى أعمالهم . الخ

ولاقبال كتاب آخر اسمه « رموز بيخودى » أى رموز اللاذاتية ، يبين فيه كيف يؤلف الانسان نفسه القوية فى الجماعة ساعياً الى المقاصد العامة . والكتابان منظومان فى بحر الرمل على القافية المزدوجة .

وسيرى القارئ فى هذا المقال وما يليه نبذاً من الكتابين ، على أن قارئ هذه الترجمة العربية المنثورة يفوته كثير مما يحس به قارئ شعر إقبال فى لغته .

وفيما يلى قطعة من أسرار خودى :

« قصة شاب من مرو ذهب الى السيد المعظم على الهجويرى (١) فشكا اليه حيف أعدائه عليه » :

سيد هجويرى قبلة الأمم الذى صار مرقده حرماً فى پيرسنجر ، جاب الأقطار ، وقطع سلاسل الجبال ، وبذر فى أرض الهند بذور السجود ؛ تجدد عهد الفاروق بجماله ، ورفع صوت الحق بجلاله ؛ عزت « أم الكتاب » بحماسته ، وخربت دار الباطل بنظرته ، وحييت أرض البنجاب بأنفاسه ، وتلألأ صبحنا بشمسه ، عاشق وهو رسول للعشق سيار ، تتجلى من جبينه للعشق أسرار .

(١) أحد كبار الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ؛ طوف فى الأقطار الاسلامية ثم استقر فى لاهور حيث مات سنة ٤٦٥ . وله مؤلفات فى التصوف أشهرها « كشف المحجوب » .

أقص عليك من أنبائه عبرة ، فأطوى بستاناً فى زهرة :

ورد لاهور شاب من أهل مرو مرير القوى ، فأم حضرة السيد الرفيع ليقشع بشمسه ظلمات نفسه .

قال : يا سيدى أحاط بى الأعداء الفجار ، فأنا منهم كزجاجة بين أحجار ؛ فعلمنى ياذا السنا والسناء ، كيف العيش بين هؤلاء الأعداء .

قال المرشد العليم الذى ائتلف فى نفسه الجمال والجلال :

يا جاهلاً بأسرار الحياة ، وغافلاً عن مبدئها ومنتهاها ؛ افرغ من هم غيرك ، وأيقظ القوة النائمة فى نفسك . إن الحجر الذى يتوهم نفسه زجاجة بين الأحجار ، ينقلب زجاجة غايتها الانكسار . ومتى ظن المسافر الضعف بنفسه ، فقد أسلم لقاطع الطريق روحه . حتام تعد نفسك طيناً وماء ؟ أخرج من طينتك شعلة الطور ناراً وضياء . ما ذا التكبر على الأصدقاء ، وما هذه الشكاة من الأعداء ؟ لاريب أن عدوك صديقك ، وأن وجوده رونق حياتك . كل من وعى مقامات الذاتيـة يحمد الله كلما ألقى عدوه فى قوة . العدو من الانسان كالسحاب من الأرض ، يغشاها ، فيوقظ من سباتها قواها . وإن حجر الطريق ليسيل كالماء ، أمام الهمة القعساء . وما السهل والحزن أمام السيل المنهمر ، عقبة الطريق مِسَنّ لسيف العزم ، وقطع المراحل اختبار لهذا السيف ، ما العيش فى أكل ودعة كالحيوان الأعجم ؟ وما غناء الحياة وأنت فى نفسك غير محكم ؟ حصن نفسك بالذاتية يسخر لك العالم كله . تجرد من نفسك إن ترد الفناء ، واعتصم بنفسك إن تبغ البقاء . هل الموت إلا غفلة عن الذاتية ؟ وهل افتراق الروح والجسم إلا هذه المنية ؟ اتخذ من نفسك مستقراً لتنجو من الهلك ؛ ثم امض قدُماً — كيوسف — من الاسار الى الملك . تفكر فى الذاتية وكن رجل الجلاد السباق الى الغايات ، كن رجل الحق الملىء بالآيات . هأنذا أشرح بالقصص الأسرار ، وأفتح بالنفحات أكمام الأزهار . « خير أن يأتى سر الأحباب حديثاً فى قصص الآخرين » (١)

« قصة الطائر الذى أنهكه العطش »

بلغ العطش من طائر جهده ، فاضطرب نفسه موجة من الدخان فى صدره ، فأبصر فى بستان شذرة من الماس الوضاء ، فخيل اليه العطش أنها ماء . وخدعت الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة

(١) هذا البيت مقتبس من مولانا جلال الدين

كالشمس ، فتوهم الحجر الصلب ماء سائلا ، وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته . قالت الماسة : أيها الطائر المسحور ! لشدّ ماضربت بمنقار الغرور ؛ لست قطرة من الماء ، ولا شربة للظماء ، ليست حياتى من أجل غيرى . إن محاولة التقاطى جنون وغرور ، وغفلة عن الحياة الذاتية الطهور ، إن مأتى يكسر من الطير منقاره ، ويصدع من الانسان جوهر روحه .

خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة ، وانقلب الأمل فى صدره حسرات ، واستحالت أنيناً هذه النغمات . ثم بصر بقطرة من الطل على فنَن من الورد ، تتلألأ كدمعة فى عين البلبل[1] ، ضياؤها استغراق فى حمو الشمس ، وهى من جوف الشمس فى رعدة . كوكب خفاق ولدته السماء ، فلبث لمحة فى نشوة الظهور والضياء ؛ وخدعته ألوان الأكمام والأزهار ، فلم يأخذ من الحياة نصيباً ، كدمعة العاشق العليل ، زانت الهدب لتسيل .

ويسرع الطائر الى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى .

أيها المبتغى نجاة من الأعداء ! خبّرنى أجوهر أنت أم قطرة من ماء ؟ ألم تر الى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقى بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة فى صلابة الجوهر ، ولكن كانت الماسة صلبة المكسر . فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة ، وكن قطعة ماس لا قطرة . كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال ، وتحمّل بحاراً من السحاب الهطال . وجمِّد نفسك بقوى نفسك ، واستحل فضته بجمود زئبقك . أظهر نغمة الذاتية من أوتارها ، وتجلّ للناس بأسرارها .

« قصة الماس والفحم »

وهذا حديث آخر يفتح لك من الحقيقة بابا :

قال الفحم للماس وهما فى المعدن : يامن أودعت هذا التجلى الأبدى ! نحن رفيقان ، وفى المنشأ صنوان ، وهأنذا أموت فى معدنى ذلة ، وأنت تعلو تيجان الملوك عزّة ، وقدرى من سوء الجبلّة دون الحصاة ، وجمالك يصدع قلب المرآة . يضىء بظلمتى المجمر الوقاد ، فاذا غاية جوهرى هذا الرماد . منزلتى من الناس مواطئ الأقدام ، وغايتى أن أكون طعام النيران . إنها لحياة جديرة بالبكاء ، فما وجودى إلا هباء ؛ موجة من الدخان مركومة ، وأما أنت فكالنجم وجهك وسيمتك تفيض بالنور كل جوانبك . فأنت حيناً قرة عين قيصر ، وأخرى حلية فى مقبض الخنجر .

قل الماس : أيها الرفيق البصير إن التراب الأغبر اذا نضج فهو جوهر ، وأنا ما زلت أجالد ما حولى حتى أنضج الجلاد نفسى ، فانقلبت صلباً كالحجر ، مضيئاً كالنجم ، وامتلأ صدرى بهذه التجليات . وأنت من حياتك النيئة ذليل ، محترق من رخاوة بدنك العليل ، فرّغ من الخوف والغم فؤادك ، وانضج كالصخر وكن ماساً بجهادك . فكل من جاهد فى الحياة صبوراً ، ملأ العالمين نوراً . إن الحجر الأسود كان تراباً بالتكريم غير خليق ، فصار حلية فى صدر البيت العتيق ، فاق الطور رفعة وصعّد ، حتى صار مقبل الأحمر والأسود .

إن فى الصلابة ماء الحياة وسر البقاء ، وإن فى النيوءة الهوان والضعف والفناء .

عبد الوهاب عزام

(١) البلبل فى الشعر الفارسى عاشق هائم بالورد

بين الشك والايمان

الشاعر الايطالى «ليو پاردى»

« Léopardi »

١٧٩٨ — ١٨٣٧

للأستاذ خليل هنداوى

« أيتها الشريعة الجليلة ! أنت ستعيشين طويلا معصومة من كل خطأ ، واذا هاجنا الضــلال نموج اليك ونجد الحقيقة تحت ردائك ، ويدك وحدها تقودنا الى شــاطىء الســلام »

« ليوباردى »

— ١ —

فى نفس « ليوپاردى » سكن الألم الممض والشك العنيف متجاورين . فجملا منه — فى العمر الذى يبسم فيه كل شيء — شاعراً يحمل للناس مقاطع الأحزان ، ونفاثات الأشجان .

قضى أيامه الأولى يساوره الداء من ناحية ، والدرس والاعتزال ينهكان قواه من ناحيــة ثانية ، على أن الدرس برغم متاعبه كان ينفخ فيه روح النشاط فيهب ، ويحيى أهواءه النائمة فتحيا .

كان لوالده الـكونت (مونالدو) شغف بالأدب ، يعوج الى مجالسته وندواته ، وقد بعثه شغفه هذا على أن يغرس فى ولده هذه الروح ، وأن يسهل له ادراكه . فكان أدبه الأول أدب إيمان وتقوى ، يتعصب لهذا الأدب ، ويحله من صدره أسمى مكان ، ويحسب من لا يؤمن به جاهلا ، وهو القائل فى ساعات شكه وجموده « ايتها الشريعة ، انك ستعيشين طويلاً معصومة من كل خطأ ، واذا هاجنا الضلال نموج اليك ، ونجد الحقيقة تحت ردائك ، ويفر الضلال فرار الذئب من الراعى ، ويدك وحدها تقودنا إلى السلام »

— ٢ —

كان الدافع الأول إلى شك « ليوپاردى » هو سأمه من كل شيء فى بلده ، قال فى إحدى رسائله [لا تحدثونى عن « ريكانانى » انني سأحب وطنى عند ما أغدو بعيداً عنه ، ماذا فى ريكانانى ؟ هل تنظرون ما أستطيع صنعه هنا ؟ فالـكل يجهلوننى ، وأنا مؤثر الحيــاة فى هذا الوطن الذى لاتعرفونه بدون معجم جغرافى ، مستخف بكل شيء . الآن صنع الآله الوجود جميــلا ، والناس يصفون العظائم فى كل الأنحاء ، وهنالك كثيرون من الرجال يعدون بلهاء لأنهم جربوا أن يروا وأن يعرفوا ! الأرض مــلأى بالعجائب]

وهكذا قضى أيامه الأولى مغترباً عن أبيه الذى دعاه مراراً وتكراراً الى العودة ، وهو يأبى ويصر على البعد اصراراً . كتب له أبوه : « وما هى الحاجة المــاسة التى تدعوك إلى هجرة دارك وأهلك إلى دار لا تتمتع فيها بمثــــل عطفى ورضاى ؟ » ولـكن ليوپاردى كان يهمل كثيراً هذه الأسئلة ، واذا أجاب أجاب بنفس ناقمة غاضبة ثائرة ، وكتب إلى أحد أصدقائه « لأسهل عليك أن تحرك الجبل من أن تدفعه (والده) الى صنع شيء من أجلى » ثم يقول : « على أننى اخترت هذه المرحلة ؟ فلا آخذ منه شيئاً ، ولا أطلب شيئاً » وهكذا يغلب الـكبرياء على ليوپاردى ويصبح شقاؤه شقاء جباراً .

أوى ليوپاردى إلى الدرس يجد فيه لذته النفسية ، ولـكن هل كان الدرس كله راحته من عنائه ، وهناءه فى شقائه ؟ كتب فى أحد كتبه يعبر عما يجد فى ساعة الدرس :

[إن سبب تعسى هو عقــلى ، اننى أظن أنـكم تعرفون ، ولـكننى أثق بأنـكم تجهلون كيف يقتل العقل صاحبه الذى يحاول أن يفكر على غير ما يفكر به الآخرون ، عند ما لا يكون لهذا الصاحب من لهو غير لهو الدرس . أما العقل فقد أعطانى ويعطينى أمثال هؤلاء الشهداء ، وبهذا وحده يفرض سلطته على ويكون سبب أذاتى . وسوف يقتلنى اذا لم أبدل خطتى ! ألا إن العزلة ما خلقت لمن يحترقون بأنفاسهم ويذوبون بأنفسهم]

بلى ! ما كان أصدق ليوپاردى فى كلته الأخيرة ! لأنه كان معبراً عن حالة نفسية هى فيه . فقد تسرب اليه الداء حتى أنهك قواه فشح ناظراه وساءت صحته وركبته العلة إثر العلة . ووقر على

ظهره عبث الحياة فقال [إنني ناضج للموت] . ولكن الموت كان يرى هذه الثمرة غير ناضجة ، فتركها عشرين عاماً تنضج خلالها وتحمل من آلام الحياة ماينوء بالجبابرة حمله ، تائهاً ضالاً في مسارب الشك ، مستجلياً الحقيقة كما استجلاها من قبله ، طالباً ما تعده من وصل ، وتعدها بالوصل علالة .

أما نظرته الحادة وصوته الرنان وتألق نفسه وكل تلك الملامح القوية التي مثلها — سانت بوف — قد تغيرت في أخريات أيامه وانما غيرهـا وقر الهم لا وقر الهرم ، واذا بليوپاردي كما يصفه (رانيري) صديقه الوفي « ذو قامة مقوسة ، ولون أبيض مشرب بصفرة ، وجبهة مربعة عريضة ، وعينين زرقاوين ذابلتين ، وأنف دقيق ، ولهجة مبهمة جافة ، وبسمة ترافقها العذوبة والشقاء »

وهو يكتب عن نفسه :

[وأخيراً أتعبتني تلك الأعوام التي قضيتها في الدرس وأودت بجسدي ، حتى لايرجى لي شفاء غير الموت . وهكذا حطمت رجائي لأفهم أن الطرب لايلائم قلبي . واذ ذاك وجب علي أن أرتدي ثياب الحداد وأن أتخذ التشاؤم رفيقاً لي لايمكن فصله عني إلى الأبد ، نظرتُ فألفيت أن حياتي لايمكن أن تكون إلا تعسة ، ولكن هذا لم يبعثني على اليأس ، فحبذا لو أن قواي تحملها بدون خوف وتحولها إلى شيء مفيد بعض الشيء]

وهكذا نستطيع أن ندرك أن أهم العوامل التي تألبت على هذا القلب فبدلت ايمانه شكاً معذباً إنما هي عوامل جسدية ونفسية تضافرت على نضاله ، وما فتئت تلح عليه وتنال منه ، حتى تركته لا يهديه الا شك ، ولا يقنعه الا جحود .

— ٣ —

في هذه العزلة الموحشة التي اختارها لنفسه ارتبط مع الأديب الايطالي (پيارو جيورداني) بصلات مودة متينة ، وكان نجم هذا الأديب متألقاً في سماء بلاده ، وهو ممن طرح القديم وأعلن شكه فيه ، وراقت له المذاهب الجديدة فأخذ بها ، فتمنى لو يرى ليوپاردي بعد أن سمع عنه الشيء الكثير ، فقصده في عزلته فمال اليه وأعجب به وكتب عنه « اذا كان دانتي نجمة صبح في سماء إيطاليا ، فان ليوپاردي هو نجمة مسائها »

لليوپاردي صفحة مؤثرة كتبها في ليلة تحت أضواء القمر والنجوم المشعة ، ذاهبة نفسه في الليل العميق كل مذهب :

[وفي ذلك المساء كانت نافذتي مفتوحة ، وناظري يتمتع في هذا الصفاء السماوي وشعاع القمر المتهادي . أتروح نسيما عليلاً ، وأصغي إلى عواء الكلاب المتناوحة في مواطن قصية عني . تخيل الي أن صوراً ترق إلى نفسي وأن قلبي يتسلط عليه قلق غريب ، فهتفت كمن أصابه مس ، طالباً رحمة الطبيعة التي خيل الي أنها تسمعني . في هذه اللحظة ألقيت أنظاري على ماضي ، فتجمدت من الخشية اعضائي ، وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن الناس أن يتحملوا الحياة بدون أوهام ولا أفراح ولا عواطف ، بدون خيال ولاهيام ، وبدون ماكان يملأ وجودي قبل عام ، ويجعلني سعيداً برغم مخاوفي ، أما اليوم فانني يابس كالقصبة ، لاعاطفة تتمشى في حنايا نفسي البائسة ، وقوة الحب الخالد المطلقة قد ماتت وهلكت في العمر الذي أنا فيه .]

كم مرة ذكر ليوپاردي هذه الليلة المنيفة ! وكم مرة تمثلت له هذه الليلة وهو ينظر في المروج الفضية الهادئة يغمرها نور القمر . وهو ينجلي وراء (الابينين ، وقمم الألب الشامخة) أو يتهادى على حضن البحر اللانهائي ، وسائق العجلة يردد أغنيته الحزينة ، مودعا آخر شعاع النهار » ثم يردد الشاعر : [وهكذا يغادر الشباب الحياة ويتركها تخمد رويداً رويداً ، الاوهام الجميلة تتطاير مع الآمال التي كانت مساعـدة للانسان ، ولكن أنتن أيتها الروابي التي ينحدر عنها النور ، أنتن لن يغشاكن الظلام طويلاً . . . ولكن حياة الانسان بعد فرار الشباب لن يلونها شيء ، وستظل غريبة حتى النهاية . . . والقبر وحده هو الذي يضع حداً لليل عمرنا !]

وفي عام ١٨١٨ نظف الشاعر رأسه من كل شيء . طلق الايمان وودع الاوهام ، فبقي وحده وسط خرائب جسده وروحه ازاء عالم فارغ وتحت سماء من نحاس ، ومنذ ذلك العهد لم يتغن الشاعر إلا بأنشودة الشك التي رافقته حتى ودع الحياة

— ٤ —

وأخيراً نزع عنه الشك العابس كل ايمان بالله والخلود والعناية ، فتلاشى منه كل شيء وانصرف عنه كل شيء ، فلا آله عنده غير

الطبيعة ، تلك القوة العمياء التي لا تُدرك ، يسألها عن سر الاشياء فتجيبه « وأنا طائعة للمقادير ، أما أسباب الاشياء فهي ألغاز ، لا أنا ولا أنت نستطيع ادراكها ، فالأجدر بني الانسان أن يصرفوا عيونهم عن هذه الألغاز التي تُقلقهم ، فان حلّها كلما خُيّل الينا انه صار قريباً زاد عنا بعداً »

لننظر ما هو الايمان الجديد الذي اعتنقه الشاعر في بعض مقطوعاته (مومياء تُبعث) بعثاً مقيداً بلحظة زمنية ، يسألها فيها « كيف ماتوا وماذا وراء الموت » ؟ ولكنها تجيب « اسكت ! لم يحن وقت الجواب . . . » وهكذا تكر هذه اللحظة ، وتعود المومياء الى رقادها الأبدي .

وهنالك مقطوعة صغيرة تدور حول رجل (ايزلاندي) فرّ في الأرض على وجهه من الطبيعة ، ولكنه تلاقى معها في وسط الصحراء ، فألح عليها بأسئلة كثيرة منها هذا التأنيب :

[لماذا قذفت بي في هذا العالم دون استشارتي ، ولماذا بعد ايجادك لي لم تشغلي نفسك فيّ ؟ فما هي غايتك ؟ وماعسى تبتغين ؟ وماذا تريدين ؟ هل أنت لئيمة أم عاجزة ؟]

فأجابته الطبيعة : بأن ليس لها الا سأم واحد وواجب واحد أن تُدير دولاب العالم دورة واحدة يناجي فيها الموت الحياة ، والحياة الموت . وإذ ذاك سألها الرجل « ومن عسى يبتهج بحياة هذا العالم الذي لا يبقى ولا يدوم إلا بموت كل الاجزاء التي تؤلف عناصره ؟ ولكن الطبيعة لم تجشم نفسها عناء الجواب . . . وإذ ذاك انقض أسدان جائعان عليه فالتهماه فهوى هيكله على التراب منتظراً أن يسقط كلاهما بدورهما على رمال الصحراء .

السكوت هو الجواب البليغ على هذه الأحاجي والاسرار ، لأن المستقصي عنها لن يرى إلا جداراً يعثر به ويدفعه الى الوراء ، وإذا سار فلن يسير إلا في صحراء لا يجد منها مخرجاً .

لم يختر ليوباردي شيئاً من حياة المستقبل ولا الحاضر ، ولم ينظر الى مستقبل الانسانية ، ولم يجرب أن يقف هواه على شيء في الحياة ، واذ أراد أن يجد وطنه فلن يرى شيئاً جديراً بالتمجيد إلا ذلك الماضي ، أما الغد فهو لا يؤمن به

[أيها الأسلاف العظماء ، ألا تزالون تصونون لديكم شيئاً من الرجاء فينا ؟ ألم يهلك نحن جميعاً ؟ اني محطم لا أملك أية قدرة أجابه بها الشقاء ، أما المستقبل فهو جهم في عيني ، والذي أتبينه هو الذي يريني الأمل حلماً أو جنوناً]

لهجته — أينما صعدت — مبطنة بالكآبة العميقة التي لا يخفف منها مجد ولا علاء . يُسأل عن الرجل العظيم فيقول « هو اسم سرعان ما يصبح كاللاشيء . ان فكرة الجيل تتبدل دائماً مع الزمن . فالمسائل العلمية سرعان ما يتفوق عليها غيرها وتصبح نسياً منسياً ، وإن أدنى رجل رياضي منا يعرف أكثر مما يعرف (غاليلوونيوتن) فالمجد ماهو إلا خيال ، والبراعة التي تكون مكافأة للمجد ليست إلا حاضراً مشؤوماً لمن يتقبلها » ثم يتكلم عن ذاتي ويقول . « وعلى هذه الأرض القبيحة لم يؤثر إلا الجحيم ، وأي منزل في الحقيقة لا يفضل على منازلنا الأرضية ، ان الشقاء الذي يؤلمنا هو أقل ثقلاً وأقل شراً من السأم الذي يخنقنا . ألا أيها السعيد ، أنت الذي حياتك في بكائك » وينظر ليوباردي الى المستقبل نظرة سوداء ويعتقد أن الأجيال تسفل ولا ترتقي ، ويسخر من المتأملين في تسامي الأحفاد

هنالك راع يخطر على قمم جبال (حملايا) متكئاً على عصاه يطيل التأمل في السكون المحيط به ، وينظر الى القمر الهائم مثله في السماء فيسأله :[قل لي أيها القمر ! ما قيمة حياة الراعي ، وما قيمة حياتك أنت ؟ بل ما قيمة حجي الفقير وسُراك الأبدي ؟ أنتَ أيها المسافر المنعزل الخالد والملك المفكر ، ربما تفهم أنت حياتنا وآلامنا وتنهداتنا ، وربما تفهم الموت والصفرة السامية ، وسفر الأرض ووداع الصداقات الجميلة . انك بلا شك تفهم أسرار كل هذه الاشياء ولكني لا أفهم ولا أعرف إلا شيئاً واحداً . ليأخذ البعض من هذه الحياة خير ما فيها ، يستنقذونه من ثوراتها الهوجاء ومن كائناتها الضئيلة . قد يمكن لهم ذلك . ولكن الحياة هي شر من اجلي]

وهل في هذه القطعة إلا اليأس من الحياة والكفر بها في شعر جميل ما ؟

« يتبع »

خليل هنداوي



تغير شكل الأرض من الكروية

بقـــلم نعيم على راغب

دبلوم عال فى الجغرافيا

كلنا نعرف أن الأرض التى نعيش عليها كروية الشكل . وقد برهن علماء الجغرافية على صحة هذه النظرية ببراهين عديدة كانت ولازالت موضوعاً من مواضيع دروس الجغرافيا فى المدارس ، من أهمها الظل المستدير الذى تلقيه الأرض على سطح القمر إذا ما حالت بينه وبين الشمس .

إلا أنه قد ظهر أخيراً بين العلماء المحدثين من يقول بأن الأرض يتغير شكلها من كروى وهو ما يطلق عليه Spher°id الى شكل هرمى له أربعة أضلاع ، كل منها مثلث متساوى السيقان .

والنظرية لا تعتمد فى إثباتها على براهين نظرية أو خيالية ، وانما تعتمد على حقائق جغرافية ملموسة موجودة فعلاً على الأرض ، فهى براهين عملية ثابتة . وسأنقل النظرية لحضرات القراء ملحقاً كل نقطة بالتفسير الكافى وذلك لخطر الموضوع الذى نبحث فيه وخطر النتيجة التى تنتج عن إثباتها علمياً .

قال صاحب النظرية :

« هناك على سطح الأرض منخفضات لم تغمرها المياه بعد ، من أهمها ذلك المنخفض العظيم الذى يقع فيه بحر الكاسبيان(1) The Caspian sea الذى يفصل وسط وشرق آسيا عن أفريقيا وأوربا ، والذى غمرته المياه فى العصور الحديثة . اذا علمنا هذه الحقيقة الجغرافية وعرفنا أن هذا المنخفض Depression على اتصال بالمنخفضين اللذين تغمرهما مياه المحيطين الأطلسى والهادى سهل علينا أن نفهم أو نعرف كيف أن شكل الأرض يبعد عن الكروية بالتدريج مقترباً نحو الشكل الهرمى Tetrahedron Shaep »

(1) لعله بحر قزوين

فى هذه النقطة يمهد صاحب النظرية الطريق للفكر لتسوغ نظريته ، وذلك بالقاء حقائق جغرافية ثابتة يرى أنها تساعد على فهم نظريته اذا ما أراد البرهنة عليها . وها هو ذا بعد ذلك يريد أن يعلل سبب اتخاذها الشكل الهرمى دون سواه مستعيناً فى ذلك بحقائق جغرافية أخرى . فيقول :

« باطن الأرض لا زال حاراً منصهراً يبرد بالتدريج ، فهو يقل حجماً بالبرودة . ولما كانت القشرة الأرضية صلبة لا يمكنها تقليل حجمها تبعاً لذلك فإنها تتقلص وتتغير من شكلها تبعاً لانكماش باطن الأرض فتتخذ الشكل الهرمى » .

أى أن باطن الأرض حار ملتهب منصهر ، ولكنه يبرد بالتدريج ، فسيجىء وقت مستقبل يصل فيه الى أقصى درجة ، أى لدرجة التجمد ، وعندها يقل حجمه تبعاً لقانون الانصهار . وبما أن الحيز الذى كان شاغلاً له قبل التجمد سيكون جانب كبير منه بعد ذلك شاغراً ، فان القشرة الأرضية أو الغلاف الخارجى سيضطر بفعل الفراغ الداخلى أن يغير من شكله لملء هذا الفراغ مع عدم تغير فى حجمه . وقد وجد الأستاذ صاحب النظرية أن الأرض سائرة فى هذه الطريق ، وأنها ستتخذ الشكل الهرمى دون سواه لحقائق جغرافية تبرهن على صدق قوله وصحـــة اعتقاده . ولظنه أن هذا الشكل يمكن القشرة الخارجية من التمشى مع وصول الباطن الى أقل حجم ممكن دون المساس بحجم الغلاف الخارجى .

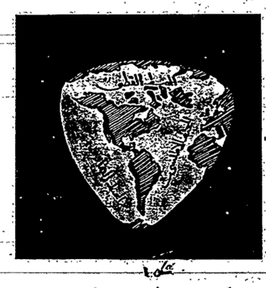
« ولو أننى أعرف جيـداً أن المعضدين لهذه النظرية أقلية صغيرة إلا أننى أقول إن هناك حقائق جغرافية كثيرة تؤيد وجهة نظرى وتبرهن على صحة نظريتى :

أولاً : تركز اليابس حول مساحة مائية فى النصف الشمالى من الأرض

ثانياً : كل مساحة مائية فى جهة يقابلها كتلة أرضية فى الجهة الأخرى

ثالثاً : وجود ثلاثة مناطق مرتفعة تكون عقداً أو أحزمة

أرضية شمالية وجنوبية يفصل بعضها عن بعض منخفضات هي منخفضات المحيط الأطلسي والهادي ومنخفض الكاسبيان . والشكل رقم (١) يساعدنا على فهم ذلك .



شكل ١

وتفسيراً لذلك يقول . أنه لما كانت الأرض في حالة الليونة الأولى وكانت تدور حول محورها بسرعة ، أخذت الشكل الكروي كأي جسم لين يدور حول محور ، وانبعجت عند خط استوائها ثم تفرطحت عند القطبين بفعل قوة الدوران .

وكانت الأرض في العصر الأيوزوي Eozoic Age أقرب في شكلها من الكروية التامة تغطيها المياه . فلما أخذت تبرد بدأت القشرة الخارجية في التقلص فظهرت أراض ارتفعت عن المياه المغطاة بها (شكل ٢ ا) . وفي العصر الباليوزوي Palaeozoic Age أخذت مساحة اليابس تتزايد وأخذت الأرض شكلا كما يقول العلماء عبارة عن هرمين غير كاملين متصلين ببعضهما (شكل ٢ ب) وكانت الأحزمة أو الكتل الأرضية بدلا من اتجاهها من الشمال للجنوب (مثل الأمريكتين) كما هو حادث الآن . متجهة من الشرق الى الغرب . وكانت عبارة عن كتلتين أو حزامين Belts كما يطلق عليهما احدهما شمالا والآخر جنوبا يفصل سطحيهما مساحة مائية عظيمة . ولما كانت الأرض لازالت آخذة في البرودة بالتدريج فان الكتلة الجنوبية قد بدأت في الانكماش وكادت تختفي ، وأخذت الأرض تسير نحو تكوين شكل هرمي واحد هو تكملة للكتلة الأرضية الشمالية (شكل ٢ حـ) » .



شكل ٢ (ا) (ب) (حـ)

هذا هو شرح صاحب النظرية لفكرته وهو شرح واضح واف نعرف منه أن الأرض التي نعيش عليها سائرة في طريقها الى تكوين شكل هرمي . وقد يعترض معترض فيقول لم لا تأخذ الأرض أي شكل آخر غير هذا الشكل الهرمي ؟ ولم كان هذا الهرم مقلوب الوضع ، أي أن قاعدته من أعلى . وردي على ذلك بسيط للغاية . لأن الحقائق الجغرافية والخرائط التي أمامنا يظهر عليها أن اليابس يتركز في الجزء الأعلى ، وأنه من الممكن جداً أن ندخل شكل اليابس داخل أضلاع مثلث . وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فلا أقل من أن الجزء الأعلى يكون القاعدة . ثم إن هناك نقطة أخرى وهي أننا نلاحظ جميعاً أن القارات الجنوبية ينتهي أغلبها بأشكال مدببة ، فأمريكا الجنوبية وأفريقيا وأستراليا بمجموعة جزائرها تكون أشكالاً تنتهي بمدببات ، ومن جهة أخرى فان الشكل الهرمي كما سبق ذكره يمكن القشرة الأرضية من التشكل تبعاً لنقص حجم باطن الأرض بالبرودة دون أي مساس بحجمها هي . وفي قوله هذا شرح أورد للاعتراض الثاني أي أن شكل الأرض الآن على ماهي مرسومة عليه في الخرائط يبين أن القاعدة من أعلى لا من أسفل .

وفي هذه النظرية يقول البروفسور و . هـ . هوبز مامعناه «إن الكرة الأرضية لا يمكن أن تعتبر بأي حال من الأحوال كرة تامة التكوير إذ لابد من أن تعاقب العصور الجيولوجية المختلفة قد أثر في شكلها التأثير البين وحور فيه . وهي تقترب في الوقت الحالي نحو الشكل الهرمي . ويجب ألا ننسى أن الزوايا الحادة قد استدارت ، وأن الشكل الهرمي قاعدته من أعلى ، يبرهن لنا على صحة ذلك رحلتا نانسن أولا ، وبيري ثانياً ، الى القطب الشمالي إذ أثبتت وجود كتلة أرضية في الشمال يزيد ارتفاعها على ١٠ آلاف قدم عن سطح البحر يمكن اعتبارها أكبر مساحة أرضية على سطح الأرض إذا ماضمت اليها مساحة ثلاجاتها وجزرها . »



الدون جـــوان

لموليير العظيم

ترجمة حامد اسعد محمد

الفصل الرابع . المنظر الثاني

(الدون جوان أحد فقراء الأشراف الفرنسيين . يغلق بابه دائماً في وجه الدائنين . يحضر المسيو ديمانش بائع الملابس والخائط وهو أحد دائني الدون فيطلب مقابلته)

الخادم زجانارل : سيدى . قد حضر المسيو ديمانش وهو يريد التحدث اليك .

الدون جوان : دعه يدخل . ان التهرب من مقابلة الدائنين لا يجدى نفعاً . سأعمل جهدى لاستقباله استقبالاً حسناً دون أن أدع له فرصة المطالبة بدينه

(يدخل المسيو ديمانش)

الدون جوان : أهلاً وسهلاً بالمسيو ديمانش . كم أنا مسرور برؤيتك . وكم أنا آسف لأن الخدم تركوك تنتظر فى الخارج أكثر مما ينبغى . ولكن معـــذرة ، إذ أننى أمرتهم بعدم دخول أحد ، ولكن هذا الأمر طبعاً لا يسرى عليك فان لك الحق أن تحضر دائماً دون أن يمنعك أحد .

المسيو ديمانش : سيدى . أنا عاجز عن شكرك . لقد حضرت لـ . . . .

(يقطع الدون جوان عليه حديثه فينادى خادمه)

الدون جوان : اسرع باحضار كرسى (فوتيل) للمسيو ديمانش.

المسيو ديمانش : سيدى . لا داعى (للفوتيل) . إننى مستريح

الدون جوان : لا . أبداً . يجب أن تجلس بجانبى

المسيو ديمانش : لا ضرورة لذلك . لقد أتيت فقط لـ . . . .

(يمنعه الدون جوان من إبداء الغرض من زيارته له فيقول للخادم)

الدون جوان : خذ هذا الكرسى الصغير وأسرع باحضار (فوتيل)

المسيو ديمانش : سيدى . أنت تهزأ بى . لقد جئت لـ . . . .

الدون جوان : لا . لا أقصد السخر منك . إننى أود أن أستقبلك كما يليق بك . وأود ألا أجعل هناك فرقاً بينى وبينك .!

المسيو ديمانش : سيدى . . . .

الدون جوان : تفضل بالجلوس .

المسيو ديمانش : لا ضرورة للجلوس يا سيدى . أريد أن أقول لك كلمة فقط . لقد حضرت لـ . . . .

هـــذه هى النظرية أقدمها لحضرات علماء الجغرافيا فى مصر راجياً الأدلاء برأيهم فيها . على أنه يجدر بى أن أذكر أن هذا التغير والتطور فى شكل الأرض هو تغير تدريجى بطىء يحتاج لآلاف السنين ، وأنه لذلك يمكن اعتبار الأرض التى نعيش عليها كروية أو قريبة للكروية ولو أنها فى الحقيقة سائرة فى طريقها الى تغيير شكلها الذى نعرفه .

الدون جوان : تفضل بالجلوس .

المسيو ديمانش : لا ضرورة لذلك يا سيدى . انى مستريح كذلك . لقد حضرت لـ . . . .

الدون جوان : لا . لا . لن أستمع اليك حتى تجلس .

المسيو ديمانش : سيدى . سأفعل ما تريد . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : ماشاء الله يا مسيو ديمانش . إن صحتك جيدة جداً ! !

المسيو ديمانش : نعم ياسيدى . أنا فى خدمتك . لقد حضرت لـ . . . !

الدون جوان : إنك فى صحة حسنة حقاً . وجهك متورد . وعيناك يلمع فيهما بريق القوة .

المسيو ديمانش : أنا شاكر لعطفك ياسيدى . لقد حضرت لـ . . . !

الدون جوان : كيف حال مدام ديمانش زوجك ؟

المسيو ديمانش : بحمد الله ، إنها فى صحة جيدة ياسيدى .

الدون جوان : انها امرأة طيبة القلب حقاً .

المسيو ديمانش : انها خادمتك ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : وكيف حال ابنتك كلودان ؟

المسيو ديمانش : انها على أحسن حال ياسيدى .

الدون جوان : كم هى جميلة وذكية . انى أحبها من كل قلبى

المسيو ديمانش : انه لشرف عظيم لها ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : وطفلك كولان . ألا يزال يكثر من ضوضائه ؟

المسيو ديمانش : نعم ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : (ضاحكا) وكلبك «برسكيه» لايزال يعض كل من يزورك ؟ !

المسيو ديمانش : اكثر من قبل ياسيدى . ولكنى جئت لـ . . . .

الدون جوان : لا تعجب من كثرة أسئلتى عن أسرتك فاننى أحبها كثيراً وأود سماع كل ما يتعلق بها .

المسيو ديمانش : اننا عاجزون عن شكرك ياسيدى . لقد . .

الدون جوان : (يقف ويمد يده للمسيو ديمانش مشيراً بذلك الى أن المقابلة انتهت)

ضع يدك فى يدى كصديق

المسيو ديمانش : انى خادمك ياسيدى .

الدون جوان : يا إلهى ! كم أنت رقيق وظريف . انى أحبك كثيراً

المسيو ديمانش : انه لشرف عظيم ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : انى على أتم استعداد لعمل كل ما تريد .

المسيو ديمانش : سيدى . لقد أحسنت إلى كثيراً .

الدون جوان : وكل هذا بدون مقابل

المسيو ديمانش : إنى لا أستحق كل هذا العطف . ولكننى حضرت لـ . . . . .

الدون جوان : العفو يامسيو ديمانش . هلا شرفتنى بتناول العشاء معى هذه الليلة ؟

المسيو ديمانش : شكراً لك ياسيدى . يجب أن أرجع إلى منزلى فى الحال . لقد جئت لـ . . . . .

الدون جوان : (يقف ويمد يده للمسيو ديمانش اشارة إلى أن الأخير يجب عليه أن يستأذن فى الانصراف)

أسرع يا زجانارل وأحضر الشاعل لتوصيل المسيو ديمانش . وخمسة من خدمى بأسلحتهم لحراسته اثناء رجوعه إلى منزله

المسيو ديمانش : (يقف أيضاً مضطراً) سيدى . لاضرورة لكل ذلك . يمكننى الرجوع وحدى ، ولكننى جئت لـ . . . .

(يأتى الخادم فى الحال ويأخذ الكرسى الذى كان يجلس عليه المسيو ديمانش)

الدون جوان : كيف لا ياسيدى وأنا خادمك أو بالأحرى مدينك ؟

المسيو ديمانش : (تنبسط أسارير وجهه ويقول) آه . سيدى

الدون جوان : انه فضل لا يمكن أن أخفيه . وانى لأعترف به امام جميع الناس .

المسيو ديمانش : شكراً . اذاً لقد حضرت لـ . . . . .

الدون جوان : ألا تتنازل بالسماح لى بأن أوصلك ؟

المسيو ديمانش : سيدى . انك تهزأ بى . سيدى لقد . . . .

الدون جوان : ضع ذراعك فى ذراعى إذا تفضلت . أود أن تكون على ثقة من أننى خادمك . وانى على استعداد لأبذل لك كل غال ونفيس

(يخرج المسيو ديمانش ويوصله الخدم الى بيته)

حامد أسعد محمد عاشور

قصة في رسائل

ســـعادة لم تتم

بقلم عبد الوهاب الخطيب

صديق :

تسألني مابالك كثير الاطراق ، دائم التفكير ، حائر البصر ، مشرد اللب ، بادية عليك علائم السقم ؟ كأنك تعالج كتمان أمر في نفسك شديد على لسانك إعلانه . أو تشكو داء لا قبل لمثلك باحتماله . وتعلم ياصديقي أنني كنت قبل ذلك مرحاً غاية المرح ، طروباً نهاية الطرب ؛ وأنني كنت في مرحي وطربي لا أخرج عن كوني شاباً سعد حقبة من الزمان بالأمل الباسم وعين الزمان نائمة — والأمل جذوة الشباب وشعلته ، وروحه وقوته ، ومرحه وطربه ، ولهوه ولعبه — فكنت بما بين ضلوعي من أمل أجري مع الشباب الى تلك الغاية التي رسمتها لنفسي ، مستسهلاً في سبيلها وراء الأمل كل صعوبة أمام الشباب ، حتى إذا كنت من آخر المضمار قاب قوسين أو أدنى ، فتح الدهر عينيه ، ثم تثاءب وتمطى ، ثم التفت إليّ ونظر نظرة أنت تعلم ماذا كان وراءها !

يا ويحي ! لقد تأنق في مكروهي القدر ، أخ في الورد من أيامه بالورد عثر ، وعم ظلاله المشيب فنفر منه ونفر ، وأمل على آثارها تحطم واندثر . ثلاثة أشباح كانت صروح سعادة ومنتديات أحلام ، لم يفارق العين خيالها ، ولم يهدأ القلب من طعناتها ، ولم أفتأ أذكرها من حين الى حين .

قلت قضاء حم ، وأمر من الله نفذ ، لاراد لقضائه ، ولامعقب لحكمه ، واستعنت الله على هذه النوازل فأعانني ، واستهديته فهداني . وإن كانت في القلب جمرات من الأسى ، مغطاة برماد من الصبر خفيف ضئيل . ولبثت على ذلك برهة كانت أقصر من عمر آمالي وسنات أحلامي ، لم أشعر فيها بشيء من معاني الحياة ، اللهم إلا بذكرى في قلبي تتمثل ، وخيال أمام عيني يتنقل . وكنت مع ذلك أرى كما يرى الناس ، وأسمع كما يسمعون ، وأسير كما يسيرون . غير أني كنت أنظر بعينين فيهما انكسار من بقايا آثار المدامع ، وأسمع بأذنين فيهما رنين من صدى تلك الفجائع ، وأمشي على قدمين يؤودهما حمل هذا الهيكل السقيم الناحل المتهدم ، مشي من حنت ظهره السنون ، وأثقلت كواهله الليالي والأيام ! !

ثم رأيتها لأول مرة ، وقد ألقى عليها باريء النسم ثوبين ضافيين من جمال وجلال ، فأحسست نحوها بحنان كأنه رقة العشق ، سرى في دمي سريان الكهرباء في أسلاكها ، ومكثت طول يومي أفكر فيما سيصير اليه أمري بعد تلك النظرة التي كانت توفيق أقدار لأقدار .

يالله ياصديق ! لشد ما ملكت علي إحساسي وشعوري في المرة الثانية ؛ والقلب الهواء تجد فيه كل غيداء فراغاً لها . وكان قلبي لا يزال واقفاً على أطلال الأمل ، يندب شجوه ويبث لوعته . فنظر اليها نظرة كنظرة إبراهيم في النجوم وقال إني سقيم . وكأنما أرادت أن تداويه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، فرنت اليه بنظرة جمعت شعبه ولمت شتاته ، وأطفأت لهبه وأحيت مواته ، فالتفت في مثل انكسار جفونها ، ودفع الراية بالاذعان في شكر ، والتسليم في طاعة . ثم كان بعد ذلك ما كان .

أخذ فكري يسبح رويداً رويداً في ملكوت لا نهاية له من الخيال وراء هذه الظاهرة الغريبة التي ملكتني ، وأصبحت أشعر بحياة جديدة فيها معنى حائر بين سعادة لا نهاية لها ، ذلك أني احتويتها في جوانح القلب ، واتخذت من عبقري جمالها ريشة لعبقري خيالي ، فكان لا يرتسم في ذهني معنى إلا وفيه من حسنها مثال ، ولا يقع نظري على شيء إلا وفيه منها رونق بهجة أو شعاع جمال ، تلك سعادة علوية ساحرة قاهرة ، تغطي على كل سعادة في الأرض لتظهر هي في صورتها البديعة اللطيفة فتنة لمن يراها أو يحس بها من الناس أجمعين .

لا أستطيع يا صديقي أن أصفها لك ، فهي روح ، والروح لا توصف ، وهي حياة ، والحياة لا يمكن إنساناً في الوجود تكييفها ، وهي مع هذا وذاك سر لا يدركه غيري ، ولا يحسه أحد سواي ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك إنها مشرقة الطلعة ، معتدلة القامة . مطمئنة السير ، فيها لمحات محدودة من الإنسانية العالية السامية . هبطت بها الى هذا الملأ الذي نعيش فيه كدليل حيي على أسمى مراتب الجمال وأتم مظاهر الجلال .

لقد مضت علي يا صديقي مدة تزيد على ثمانية عشر شهراً ،

لم أحاول فيها أن أطرق سمعها — على قربها مني — بكلمة واحدة تفهم منها ما يكنه قلبي من الحب لها والوجد بها ، وكم تمنيت أن أسمع من فيها الرقيق الناعم الحالم كلمة واحدة ، فلم أجد إليها من سبيل ، كما أني لم أملأ منها عيني حياء وخجلا ، واكتفاء بصورتها المرسومة في جبة القلب وفوق صفحات الخيال ، على أن طريق كانت تتحول تبعاً لها على غير قصد مني ، حتى إذا لم يكن من توديعها بالنظرة بد ، وضعت يدي على صدري كمن يتلمس شيئاً فقده ، وما فقدت إلا قلباً تقطر كالدمعة الحمراء من بين أهداب الجفون .

لا يزال صولجان القادر يقذف بقلبي في واد من الذكريات القديمة ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، كلما طال على الأمد في لقائها ، والآن يا صديق وقد مضت على مدة تزيد على شهرين لم ألمحها فيها لمحة واحدة ، أقول لك إن هذا هو سر اطراقي وتفكيري ، فلا تسألن عن شيء بعدها حتى أحدث لك منه ذكرا ؟

٢١—٧—١٩٣٢ صديقك جمال

***

صديقي :

أوقد فعلتها ؟ يا قلبي !! ما كان أحرصني على الاحتفاظ بالسر وكتمانه ، ولولا أنني أعتقد أن لي من قلبك وإخلاصك ووفائك ما يجعلني أستريح إلى أن أبوح لك (في شيء من التحفظ كثير وبعد مضي زمن على كتمان هذا السر طويل) بما كنت أقاسيه آناء الليل وأطراف النهار من لواعج قلبي ، وزفرات أنفاسي ودموع عيوني ، ولكن غفر الله لي ولك يا صديقي ما تقدم من ذنبنا وما تأخر ، فان هذه القلوب الطاهرة البريئة ، المكتهلة في شبابها ، الوثينة في حبها ، لا يمكن أن تتغير في يوم من الأيام بغير ما عاشت لها شوقاً وطهراً ، ورزانة ونبلا .

ولئن وقع خطابي في يد غير يدها ، ورأته عين غير عينها ، وطرقت نبرته الحزينة سمعاً غير سمعها لخطأ في الاسم كما يقال ، فانني لسعيد مغتبط ، هيء مليء قرارة نفسي وطوايا فؤادي ، ذلك أن خطابي وقع في يد شريفة ، وعند قلب ذي إحساس سام ، يعرف المعنى المرتسم فيه كما أريد ، وأغلب الظن أن الله قد يهيء لي من أمري هذا رشداً . ولعله يكون قريباً والسلام ؟

١٤—٩—١٩٣٢ صديقك جمال

***

عزيزتي :

عبثاً كنت أخادع قلبي بالسلو عنها أو الافلات من براثن حبها بعد أن جاءني خطابك الأخير ، فانها لم تدخل قلبي إلا بعد أن صهرته آلام الحياة وأحزانها ، وأصبح نقياً شديد الايمان بقضاء الله وقدره ، صادق الاحساس بما يجري حوله في الحياة من مظاهر خادعة وأخرى مخدوعة ، مطمئناً الى الحياة من حيث هي وجود ناقص حيناً وتام أحياناً ، عالماً أن لكل شيء نهاية لا بد وأن ينتهي اليها

ولقد أيقنت من يوم أن أحسستها تجري في دمي أن الله قدر لي أن أحبها ، فأحببتها لنفسي ، وأحببتها لأن الله أراد ذلك ، وكان قلبي صادق الحس بها ، فلم تكن خادعة ولم يكن مخدوعاً ، وكان وقوراً حكيما فاكتفى بأن يحبها هو من غير أن يتساءل ماهي ميولها نحوه ؟ وهل تعلم أن في العالم المحيط بها قلباً يرفرف عليها في غدوها ورواحها ، في مسائها وصباحها ، في يقظتها ومنامها ، في دمعتها وابتسامها ؟ ومن هو صاحب هذا القلب ؟ وبعد ذلك اطمأننت الى أن الحياة من حيث هي وجود ناقص ، هي تلك الساعات التي لا تجري فيها الدامع من شوق ، ولا تسيل فيها النفوس من ذكريات وحنين ، وأيقنت بعد هذا وذاك أن الحب كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ولا يقال في نقطة منها إنها نهاية إلا قيل في نفس الوقت إنها بداية

لقد ذهبت بك الظنون كل مذهب في أمري ، بل أيقنت أنك قد أصبت المرمى حين أرسلت إلي خطابك المفوق ، وإني أقول لك بلغة يقطر منها الشكر إن خطابك كان فيه الشفاء لقلبي من الناحية التي تريدينها ، وإني ما سكت هذه المدة إلا لأختبر قلبي وأستشير عقلي ، أما القلب فلم يجد عنها حولا ، وأما العقل فأشار بأخذ رأيك فيها من جهة ميولها نحوي ، فان كنت عندها شيئاً فابسمي يا دنيا ، وأشرق يا أمل

كنت في بعض الأيام أراها ، فيحترق قلبي من الشوق اليها وهي أمامي ، ولا يكاد نظري يلتقي بنظرها حتى ينقلب إلي خاسئاً

وهو حسير ، وكنت أستجمع قواي كلما رأيتها لألقى اليها بالتحية فيحتبس لساني من العي — لا طبيعة فيه ولكن جلالا لا أدرى له مدى ، وجمالا لا أعلم له غاية ، وسحراً بين هذا وذاك قوياً شديداً ، كانت ثلاثتها تقيد لساني عن النطق تقييداً أعتبر نفسى منه فى حد من السعادة محدود — ولقد كان الجو المحيط بنا يعرح فى عبق من أنفاسها وتحايا قلبى ، غير أنها كانت كالزهرة تفوح رائحتها عنـد الصباح ، وكان قلبى كعود الصندل ، كلما لامسته النار فاح .

مرت تلك الأيام كأحلام البكرى لذيذة مستعذبة ؛ قصيرة كالنظرة ، طويلة كالعبرة ، وخلفتها أيام أعانى من مرها ما أعانى !

فلقد سافرت الى البلدة لقضاء بضعة أيام هناك ، وكأنما كانت الأسقام منى على ميعاد :

يا ويح أهلى يرونى بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائى

ومكثت هناك بدل سبعة الأيام التى صرح لى بها سبعة عشر يوما . ثم عـدت الى القاهرة وفارقت الحى الذى ولد فيه هواى وترعرع ، إلى حيث أنا الآن ، وهأنذا أبعث إليكما منه وراء قلبى بتحيات كأضغاث الريحان لا تكاد تبلل بندى المدامع حتى تجفف بزفرات الأنفاس ، والسلام ؟ !

فبراير سنة ٣٣ جمال

***

صديقى :

كتب أحد الحكماء الى صديق له يقول «ياأخى إن أيام العمر أقل من أن تحتمل الهجر» وكنت قرأت فيما قرأت كلمة للامرتين يقول فيها « إن الحب القوى المطمئن صبور » فأنا بين هذين فى حيرة ، ترى متى أهتدى إلى سبيل ؟ !

مارس سنة ٣٤ جمال

***

أختى سعاد :

لماذا لا تكونين بجانبي فى كل لحظة كما كنت من عهد قريب ؟ أنا فى شدة الشوق إليك وإلى سماع حديثك العذب الجميل ، وكم أود أن أفضى إليك بسر يجيش به صدرى ولا يمكن أن ينطلق به لسانى لغيرك .

كنت إلى الأسبوع المـاضي فارغة الفؤاد ، وكنت على أن أطلب إليك الحضور لأناقشك موضوعاً خطيراً قرأته ليلة أمس فى رواية «مجنون ليلى» وهو لماذا حكم على ليلى بالموت قبل قيس؟ ألأنها كتمت حبها ؟ إن كان الأمر كذلك فانى — خوفاً على حياتى الشابة — أقول لك ياعزيزتى — واثقة منك كل الوثوق — إننى بدأت أشعر بقلبي يميل رويداً رويداً الى شاب كان يطالعني بعض الأحيان كئيباً حزيناً كأنه دفن قلبه بيده ، رأيته على حالته تلك منذ ثلاثة أعوام ، ويخيل لى أنه محب يكتم حبه أيضاً .

ألا ما أسـعد تلك الفتاة التى تتيح لها المقادير مثقال حبة من احترام هذا الفتى النبيل ! !

ضمى ياعزيزتى بجانب هذه الجملة سعادة من استولت على قلبه كله .

أرجو أن أراك يوم الخميس المقبل والى اللقاء . . ؟

٢ أبريل سنة ٣٤ اختك فتحية

***

وفى عصر الخميس تلاقت الصديقتان فى منزل فتحية هانم ، وكان بيد الآنسة الزائرة إحدى جرائد المساء ، فجذب نظر فتحية اليها صورة شاب غضير الشباب فى صدرها فتناولت الجريدة من صديقتها ورأت الصورة وقرأت تحتها ما يأتى :

(المرحوم جمال الدين افندى الموظف بوزارة المالية ، علقته المنون وهو فى بريق شبابه)

فامتقع لونها وأدركتها حال شديدة من الذهول والحيرة ، فأقبلت عليها صديقتها تسألها ما بهـا ، فقالت لها وهى تشير الى الصورة الضاحكة ، والخبر المبكى :

أمل لم يزدهر ، وناشئة حب لم تبق ، وسعادة مرجوة لم تتم !

ثم ألقت فى يدها مجموعة من الرسائل البالية ، وقالت والدمع يسيل على خديها ، ومرارة الأسى تجرى على شفتيها : اقرئى !

عبد الوهاب الخطيب

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . ونزولاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه

«يحررها الأستاذ محمد التابعي ومعه زملاؤه ومنهم الرسام المشهور الأستاذ صاروخان»



(المصرى افندى) : ياجماعه .. انتظروا يا اخواننا .. يعنى فاكرين إنى رايح أفوتكم ؟ . لاوالله .. رجلى على رجليكم ومعاكم على بركة الله !

(تصدر مجلة آخر ساعة يوم السبت ١٤ يوليه)

2me Année, No. 54.

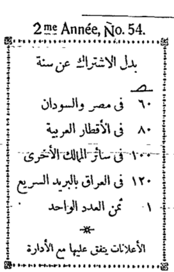
Lundi-16-7-1934



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠



بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ١٦ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

أحمـــد زكى باشا

رحم الله زكى باشا ورضى عنه ! لقد كان علماً من أعلام هذا العصر ، ورسولاً من رسل هذه النهضة ! وأعلام هذا العصر ورسل هذه النهضـة معلومون معدودن ، لا تزيد فيهم المجاملة ، ولا تنقص منهم المجافاة ، ولكل واحد منهم ناحية من نواحى الاصلاح

أشرقت فيها نفسه ، وانتشر في جوانبها سناه . وهم يمتازون من النابغين والنابهين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الايمان والعصبية ، ورسالة روحية بلاغها الجهاد والتضحية . فمحمد عبده في الناحية الدينية ، ومصطفى كامل في الناحية الوطنيـــــة ، وقاسم أمين في الناحية الاجتماعية ، وسعد زغلول في الناحية السياسية ، وأحمد زكي في الناحية القوميـة ؛ قد بلّغوا جميعاً رسالات الفطرة على نحو ما بلغ المرسلون رسالات الوحي . نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعي اليها ووسائل لها ؛ ثم لازمتهم في أطوار العمر ، وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعي والغاية من الحياة

فزكي باشا منذ بلغ سن التكليف تمثل لعينه مثَله ، واستعلنت في ذهنه رسالته : رأى العروبة لفظاً تغير مدلوله في الناس ، وجنساً تنكرت معالمه في الأجناس ، ولساناً فشا فيـه الدخيل ، وديناً تقول عليه الباطل ، وأثراً عبث به الجهل ، وتاريخاً تطرق اليـه النسيان ، وحضارة غض منها التعصب ، وحقاً تجهم له البغي ، وإرثاً تخطفته الغزاة ، ووحدة مزقتها العوادي ؛ فصمم لاصلاح ذلك كله صمود المصلح الملهَم ، والمؤمن الواثق . وكان أول ما عاني من وسائل العيش معالجة الترجمة في الديوان ، ثم تعليمها في المدرسة ؛ فصرف جهده في تنقيح التراكيب الديوانية ، وتصحيح الأعلام العربية ، وتصويب الأخطاء التاريخية ، ونقل ما يعلن محامد الاسلام الى اللغة الفرنسية ؛ ثم لا يسمع بكرمة تروى لأمة إلا التمس الأولية فيها للعرب . فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنئين دخلوا على الرئيس (تواتكارية) يهنئونه بالرياسة فما يشكر أحداً عنا يشكر به الآخر ، فيكتب في تلك الصحف نفسها أن الوزير ابن زيدون قد سبقه الى ذلك في موقف حرج من مواقف الوزراء ؛ وتبتهج أوربا باختراع الطيارة فيثبت لها أن ابن فرناس أسبق من طار في الجو وأول من ضحى في سبيل الطيران ؛ وتشيد أمريكا بعبقرية (كولمب) فيقول لها إن العرب أول من فطن الى وجودها وسعى لكشفها

ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرفت نفسه الى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الاســلام ، فخرج الأندلس وزار العواصم الأوربية ، ينقب عن نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر في سبيل ذلك جهداً ولا ثروة .

ثم لابس المستشرقين دهراً ملياً ، يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث ، وحذق أصول التحقيق ، ومهر طرائق النشر ، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة

فلما اعتزل المنصب الحكومي تسايرت قواه وهواه الى خدمة الأمة العربية ، فوفد على ملوكها ، وسفر بينهم بالصدق والألفة ، حتى أذهب الموجدة ، ومهد لتوحيد الكلمة

ثم جرد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبي ، وعزم الشاب ، وصبر الرجولة ، فشـــغل الصحف بالمقالات والمناظرات ، وعمر الأندية بالخطب والمحاضرات ، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات ، وفي كل يوم يعتكف الساعات الطوال في مكتبته الجامعة يحرر مسألة ، أو يحضّر اجابة ، أو يحبّر مقالة ، أو يصحح تجربة ، حتى اذا فرغ من ذلك كله رجع الى بيته ، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطارئين على مصر ، فينشر عليـه الأنس ، ويفيض فيـه الكرم ، ويبث خلاله المعرفة ، فكانت حضرته كحضرة الصاحب بن عباد ، مصدر العوارف والمعارف ، ومثابة القصاد من كل قطر وطبقة

ثم أسلم وجهه الى الله في عهده الأخير ، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره . فكنت تراه لا يفكر إلا في هذا المسجد ، ولا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا عنه ، ولا ينفق إلا عليه ، ولا يبرد البُرُد ويرسل الرسل إلا في شأنه . فلو لم يعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربي

***

ثقافة زكي باشا ثقافة الأديب ، فهو محيط بكل شيء ، ولكنه غير راسخ في شيء ؛ وذوقه ذوق الفنان ، فهو أنيق في ملبسه ، أنيق في مأكله ، أنيق في مسكنه ، أنيق في أسلوبه ، أنيق في نشر مقاله ، أنيق في طبع كتابه ؛ وخلقه خلق العالم ، فهو متطامن النفس ، عذب الروح ، حلو الفكاهة ، سليم الصدر ، يذهب في السذاجة الى حد العُجب ، ويخرج من تقرير مجهوده في العلم الى التفاخر به

وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية ، وإلمامه بالآداب الأوروبية : فتفكيره استطرادي لا يعني بالوحدة ، ولا يحفل كثيراً بالتناسق ، وأسلوبه أندلسي يتصيد السجع ، ويتلمس ألوان البديع ، ومرجع ذلك الى اعتقاده بعربيته ، واعتداده بشرقيته ، واعتماده في تكوين نفسه على أدب أمته

ما فعلت الأيام

للأستاذ أحمد أمين

عرفته بالاسكندرية منذ عشرين عاماً، شاباً رقيق البدن، ضئيل الجسم، مسنون الوجه، شاحب اللون، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين. حيي الطبع، شديد الخجل، إن جلس في قوم اعتقل لسانه، وأطرق رأسه. وأرخى عينيه؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة، تمنى لو ساخت به الأرض؛ وظل يحاسب نفسه ويطيل تأنيبها، فآثر الانفراد وأخلد الى الوحدة، واستأنس بالوحشة، فقلّت معرفته بالناس، وقلّت معرفة الناس به، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التي يدرس فيها، وبيته الذي يأوي اليه، ومسجده الذي يتعبد فيه؛ فأما الحياة وشؤونها، وجدها وهزلها، وملاهيها وألاعيبها، فلا يدري منها شيئاً. لا يجلس في مقهى لأنه يخلّ بمروءته، ولا يذهب الى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة، ولا يشتري شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينته التي يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير، فلا يطهرها مسح، إنما يطهرها غسل سبع مرات إحداهن بالتراب؛ ويغض طرفه اذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة.

أعز شيء عليه في الوجود دينه، حياته كلها دين، ومثله الأعلى رجل طهارته دين، وبطانته دين، تفتير عينيه في خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله في عبادة ومناجاة. أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر، فلا يأسى على فائت، ولا يجزع على ميت، ولا يستخفه الفرح لخير، ولا يغلو في الحزن على شر، راض بما كان وما يكون، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس، كل أحكامه صادرة عن دين، فالرجل الطيب من تدين، ورجل السوء من لم يتدين، ويستحيل على رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر، أو لعب لعبة ميسر، أو ترك صلاة أو زكاة — يوفق دائماً بين أعماله في الحياة وأوامر الدين، إذا أراد الرياضة ذهب الى سيدى بشر لزيارته، أو لسيدى جابر لصلاة الجمعة فيه، أو أخذ جزءاً من «الاحياء» وذهب الى «طابية قايتباى» يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب الاحياء. وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ في نهج البلاغة لأنه يجمع بين البلاغة والدين، وإن عرضت فرصة في دراسته للغة العربية خرج من اللغة الى الدين، وانقلب واعظاً لتلاميذه، حتى استطاع أن يكوّن منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين.

عرفته اتفاقاً، ولست أدري الآن سبب المعرفة وكيف كانت، وكل ما أذكره أني عرفته، وفي لمحة تحولت المعرفة الى صداقة حب، فكان من خاصة إخواني وأقربهم مودة الى قلبي، يأنس بي وآنس به، ويفضي إليّ بدخيلة نفسه وكامن أسراره، وكان حبي له مشوباً بعطف عليه ورحمة له، عطفني عليه ظرف فيه، وأرأفني به رقة حواشيه، وملأ نفسي رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها في كل شيء بالأشد الأجزم، قد ملك الدين عليه نفسه، فروّعه من كل نعيم خشية السؤال، وهوّل عليه كل لذة خوف العقاب، وغلبت عليه في كل تصرف فكرة الموت مخافة ما بعده، إن قال له قائل «ولا تنس نصيبك من الدنيا» قال «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم».

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء، وتقاسمنا الصفاء، أسافر الى الاسكندرية فأرى أول واجب عليّ أن أزوره، ويحضر الى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورني، وأكتب

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الاصلاح في عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حيّ عن بينة، فان نهوض الأمة على تاريخ طامس، وأثر دارس، ولغة معجمة، وهيكل منحل، يكون أشبه بنهوض الكسيح لا يقوم الا ليقع

وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص في ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره، وصورة شعاره، ومرجع حديثه. وهي:

وقفت على احياء قومى يراعتى ... وقلبي وهل إلا البراعة والقلب

ولى كل يوم موقف ومقالة ... أنادي ليوث العرب ويحكموا هبوا

فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء وهو ما يرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة. وعوض العزوبة والعربية والاسلام من فقده خير العوض.

احمد حسن الزيات

اليه ، ويكتب إليّ ، ثم عفّى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها ، وخمدت جذوتها ، لا لسبب إلا أن الصداقة ككل حيّ إذا لم تغذ دائماً بالمقابلة والمكاتبة أسرع اليها الذبول فالفناء .

***

ثم دارت الأيام دورتها ، وتعرفت في الاسكندرية بإنسان جديد ، فاذا هو صديقي القديم ، هو في هذه المرة بدين بطين ، مطهم الوجه ، ريان السواعد ؛ كنت في أيامي الأولى أقرأ في أرنبة أنفه وصفاء جبهته آيات السذاجة والاخلاص ، وكنت أرى في وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا ، وزهداً في الاستكثار منها ، ورضى بميسورها ؛ وكنت ألمح في فتور عينه حياء العذراء وخجل المخدرات ؛ وكنت أرى في نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً ، فاذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء الى ثلج ، علمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى ، وسمحت لي الظروف بمخالطته فأدهشني ما رأيت من تغير وانقلاب — رأيته وقد أماط عن وجهه قناع الحياء ، وخلع ربقة الحشمة ، يداخل الناس ويمازحهم ، حسن الصحبة ، جميل العشرة ، يضرب بسهم وافر في الفكاهة والتنادر ، جيد القصص ، حسن الحديث ، لا يأنف من حديث فاجر اذا كانت فيه نكتة حلوة ، كثرت أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم ، وهو عند كل جماعة منهم قطب الرحى ، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم ، خبير كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها ، يعرف جد المعرفة برامج السينما في كل أسبوع ، وما يمثل من روايات في كل فصل من الفصول ، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية ، وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الأسكندرية تغني أو تمثل ، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتتبعه ، ويحملق فيه ويشتهيه ، حلت المسائل المالية جزءاً كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها ، له ديون وعليه ديون ، وله قضايا وعليه قضايا ، وله دفاتر حساب دقيقة ، وله آمال مالية واسعة .

جاذبته مرة ، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذي كان يملك عليه قلبه وعقله ، والذي كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته ، فاذا عقله حر شديد الحرية في تفكيره ، قد تحرر من كل قيد ، يعجب بالمدنية الحديثة ويمثلها الرأي ويستوحيها النظر ، ويتخذ عماد منطقه ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الاوربيون وما لا يفعلون . قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادىء دينه فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة ، ويجمجم في القول ويتبين في قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته ، وبين عقل نزع إلى الحرية في آخر أيامه ، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد في تحوير الحديث ، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد كامل رأيه ، ومنتهى حريته — هذا عقله ، وأما قلبه فدينه في رف من رفوفه ، لم يملأه ولم يخل منه ، لذلك حرت أن أسميه مؤمناً أو كافراً ، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً ، ورأى القمر يسطع عليه بنوره الساحر ، فصاح هذا موضع سجود ، فصلى على الرمل ، ودعاني مرة إلى ملهى فكان فيه كمن لا يؤمن بحساب ولا عقاب ، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة ، ونزعة جديدة ، ودين نشأ عليه ، ولا دين مال حديثاً إليه ، حيناً يتحرك دينه الذي في الرف وينتعش حتى يعم قلبه ، وحيناً ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس

***

حننت اليه لما بيننا من حب قديم ، ولكن لست أدرى لم لم تتأكد بيننا الصداقة في هذه المرة كما تأكدت من قبل ، أكان يعطفني عليه دينه وقد رق ؟ أم كان يحنني عليه مافيه من ضعف — مظهره الحياء والخجل ، وقد قوى فلا حياء ولا خجل ، أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت ، وأسلوب واحد في الحياة فتفرقت بنا السبل ، لعله شيء من ذلك ، ولعله كل ذلك ، ولعله شيء غير ذلك ، على كل حال تركته وبيننا ود دخله العقل نخف ، وصداقة جال في نواحيها الفكر ففترت

لقد خليته ، وأنا أفكر في شأنه ، لقد عاش شيخاً وهو شاب ، وعاش شاباً وهو شيخ — عصى هواه صغيراً وأطاعه كبيراً ، فليته ولد كبيراً ثم عاد صغيراً ، وليت شعري هو في أي حاليه أسعد ، أيوم فر من العالم إلى دينه ، أم يوم فر من دينه إلى العالم ؟ — انه ليمثل في حياته العالم خير تمثيل ، موجة دين تتبعها موجة إلحاد ، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية ، وهكذا دواليك ، وما أدري أيقف صديقنا في تطوره عند هذا الحد ، أم يعود سيرته الأولى ، أم يختط مسلكاً جديداً لا هو هذا ولا هو ذاك ؟ الله أعلم ؟

أحمد أمين

سمو الفقر
في المصلح الاجتماعي الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

— ١ —

كان النبي صلى الله عليه وسلم على مايصف التاريخ من الفقر والقلة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقير لايجوز أن يوصف بالفقر ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعَرَض من الدنيا وتنزل بعرض ، فما كانت به خَلّة تحدث هدما في الحياة فيرممها المال ، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا ، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدرّ معيشته فيحتلبها ذهباً أو فضة ، ولا استقر في قلبه العظيم مايجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم ؛ فان المعنى الحيّ لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى ؛ والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة .

إن فقرهُ صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتّسع في الكون لا في المال ، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن ، وهو خاص به ، ومن أين تدبّرته رأيته في حقيقته معجزة تواضعت وغيّرت اسمها . معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرناً ، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله صلى الله عليه وسلم في صفة نفسه «إنما أنا رحمة مُهداة» .

نحن في عصر تكاد الفضيلة الانسانية فيه تلحق بالألفاظ التاريخية التي تدل على ما كان قديماً . . . بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراد لتحريك النسيم اللغوي الراكد في الخيال ، كما تقول : السحاب الأزرق ، والفجر الأبيض ، والشفق الأحمر ، والتّطاريف الوردية على ذيل الشمس ؛ وأصبح الناس ينظر أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشيّ لو لمس لضرب أو طعن أو ذبح ؛ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لانسانها الفني ترفاً ونعمة وافتناناً بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى الفظيع المتفاحش في الاباحة ، فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحش ، فزاغت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشي لانسانها الفقير ، فكأنما نزعت عقلاً من إنسان ، فضلت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَف الهوى ، وكان مع الثاني سَرَف الحماقة .

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدنية هي عَمَلُ الغِنَى للأغنياء . . وأن يكون الغنيُّ غنياً وهو يعلم أن عمله في المدنية هو صنعة الفقر لضميره .

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعايشة الانسانية التي يسمونها « الاجتماع » ، فسؤال اسمه الاشتراكية يسأل القوة أن تجعل صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها . . وسؤال اسمه الشيوعية يطلب من القوة أن تسلط على كل حيّ مايجعله في قواه كصاحب الدار سلط عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه ، فهو يتألم من معنى نعمته بمعنى شقائه ، ويكون أغيظ له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال اسمه الفَدَمِيَّة [1] يأمر القوة أن تجعل الانسان كالحيوان المُسْتَوْلِغ فيما يجده من طيب وخبيث لايبالي ذماً ولا عاراً ، وليس إلا أنه يعيش ليموت أكلاً ونوماً . . .

هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدها ونصفها لطال بنا القول وكلها عاملة على نزع الشعور العقلي من الحياة لتظهر أسخف مما هي ، وأقبح مما كانت ؛ حتى أصبحت الشمس تمحو ليلاً عن المادة وتلقي ليلاً على النفس ، في حين أن الدين والانسانية لايعملان غير بث هذا النور العقلي في الأشياء والمعاني لتظهر الحياة مضيئة ملتمعة فتصبح أوضح مما هي في نفسها ، وأجل مما هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت ، وجعلت من العلم في صدر الانسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت العالم يضج ضجيجه المزعج في قلب

(١) الفوضوية وما هو في معناها من طيش النزعة

كل حى حتى لتذاع الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثل هذا البلاء الماحق تلتفت الانسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الانسانى القديم تطبّ منه لهذه الحاقات الجديدة ، ولو علمت لعلمت أن درس هذا العصر فى علاج منشأ كله الانسانية هو « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى لن يبلغ أحد فى وصفه الاجتماعى ما بلغ هو فى قوله « إنما أنا رحمة مهداة »

***

هذا المصلح الاجتماعى الأعظم يلقى فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلح من فكّر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحىّ العظيم الذى تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه وتجعل له عمراً ذهنياً يكون مُصرّفاً على حكمها ، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عمراً ذهنياً محضاً تمر فيه المعانى الالهية لتظهر للناس إلهية مفسرة . وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس مفتّنة مختلفة المعانى ، ولكنها فى جملتها تخاطب الانسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكذب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النزقة ؛ فان الرجل يعرف ويدرك فهو بذلك وراء الحقيقىّ ، ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه ، وإيثاره كل عاجل وإن قلّ ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة فى مثل توثب أعضائه جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى الحياة فى ذاتك الداخلية وقانون كمالها ، فاذا استطعت أن تُخرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً فى الانسانية وأنت بذلك عائش فى القريب القريب من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشت فى دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائش فى البعيد البعيد من النفس وأنت به شىء أرضى كالحجر والتراب .

هنا ، أى فى الارادة التى فيك وحدك ، لا هناك ، أى فى الخيال الذى هو فى كل شىء . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لاتدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس هناك ، فى أموالك ومعايشك التى تجملك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نهبة أو سرقة . هنا ، فى الروح إذ تشعر الروح أنها موجودة ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الانسانى على سنة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحس إذ يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم فهو مهتاج لشعوره بوشك فنائه فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينل ، وهو منتهٍ بجسمه إلى الموت الحيوانى بين آكل ومأكول على سنة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك

***

إن الحكيم الذى ينظر إلى ماوراء الأشياء فيتعرف أسرارها لا تكون له حياة الذى يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته ؛ هذا الأخير هو فى نفسه شىء من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة ، وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء ما لا يطيقه الناس ولا يضبطونه إذا تكلفوه ، بل ينخرق عليهم فيكون منه العجز ، وينشأ من العجز الغلط ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة بدركة لحقيقة اللانهاية ، فيرى بداية كل شىء مادىّ هى نهايته فى التوّ واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجود غير موجود ، مبتدىء منته معاً . وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها ، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لها الناس فى حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، وما لها عنده هو جذر ولا فرع . وبهذا لم يفتنه شىء ولم يتعلق بشىء ، وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب فى نموه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ، فكلاهما لبس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمع فيها الزمن وأهله

من طمع وشره ، وجاء آدم ليعطي الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطي الناس قوانينهم من فضائله ، فآدم بشخصه هو دنيا بُعثت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم .

وماذا يُفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الانسان تتحكم فيه لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ، وأن الانسان الصحيح الذى لم تَزْوِره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح فى حكم النور وانطلاقه وحريته ، ولا ينكمش فيحصره جسمه فى غاياته وضروراته فيرتدّ إلى ماهو أسفلَ أسفلَ حتى يعود فى حكم التراب وأسره وعبوديته . فالفقر وما اليه ، والزهد هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك ان هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعد شيء ، لتضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولاتقيم لها وزنا . فبينا الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هى مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير ، وبهذا تكون النفس العظيمة فى الدنيا كأستاذ المعمل ، تدخل المادة إلى معمله وهى مادة وفكرة ، وتخرج منه وهى حقيقة ومعرفة ، وعلى أى أحوالها فهى إنما تُحس فى ذلك المعمل بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهن والفكر ، وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولكن طبيعة الانتباه والتحرز ، وليست فى أسر المادة ، ولكن المادة فى أسرها ماشاءت .

ولا يسمى فقره صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ، ولايحققون أصوله النفسية ، وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوى بأرواح مظلمة تريهم ما تُرى العينُ إذا مااختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لاتفصيل لها ، مفرغة لاتبين فيها ، وما بها من ذلك شيء ، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لاتغمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومُثلة ، وهى فى رأيى تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسير لانسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسير بالتراب . . . .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويجيئه ، وكان أجودَ به من الريح المرسَلة ، ولكنه لايدعه يتناسل عنده ، ولا يتركه ينبت فى عمله ، وإنما كان عمله ترجمة لأحساسه الروحى ، فهو رسول تعليمى ، قلبه العظيم فى القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثبات وحدة الانسانية ، وأن هذا الانسان مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميزة ، وأن الدين قوة روحية يلقىَ بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بازائها شيء على شيئيته ، إذ الروح خلود وبقاء ، والمادة فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها ، فان لم تخضع لم تُخضِعْها ، وإن لم تتغير لاتتغير الروح بها ، وأساس الايمان أن ماينتهى لاينبغى أن يتصرف بما لاينتهى .

وماقيمة العقيدة إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثر مايُصنع هذا المال : إما الكذب الصُّراح فى الحياة ، وإما شبهة الكذب ، ولهذا تنزَّه النبى صلى الله عليه وسلم عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبيّ الانسانية ومثلُها الأعلى ، فحياته الشريفة ليست كما ترى فى الناس إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولاتوسعا من ناحية وتضييقا من الناحية الأخرى ، ولاجمعا من هنا ومنعا من هناك ، بل كانت حياته بعيد الرسالة منصرفة إلى اقرار التوازن فى الانسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون . وبهذا العقل الكونى السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الانسانى — أبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها ، فاذا هو فى قانون السمو ، وإذا المادة فى قانون الثقل ، فيرتفع وتتهاوى ، ويصبح الذهب — وإنه ذهب — وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب .

مصطفى صادق الرافعى

مجهولو الأبطال

عيسى العـــوام

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

وقفت إلى جانب الطريح المسكين وقد فقد المحيطون به الأمل في حياته . وكان رجلاً نيف على الستين ، ظل يجاهد في عمله حتى وقع وهو يدفع عربته وعليها حملها الثقيل فكان في وقعته أجله ، وهو من أهل الصعيد الأعلى كما تنم عليه عمامته وسحنته ، إذ كان ثوبه المهلهل لا يكاد يتماسك في رأي العين ليكون آية دالة على منبت لابسه ، فكان موته في جوار البحر الملح موت المهاجر الشهيد ، لا تحيط به عناية أهل ، ولا ترفه عنه شفقة البنين . ومن يدري ماذا كان يعاني ذلك المسكين قبيل صجعته من آلام تحملها صامتاً ، وجاهد في سبيلها وهي تحزه وتطعنه ؟ ومن يدري على أية حال من الضعف كان يدفع بحمله في سبيل القوت ، وسوط الجوع من ورائه يلهب ظهره ؟

ووقف حوله معي جماعة من أهل الساحل بقوامهم السمهري ولونهم الخمري ، فكانوا يؤدون له تحية الوداع على غير معرفة ، والشفقة بادية في محياهم ، ولم يكن أحدهم خيراً منه بزة ولا مظهراً ، ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون كنه ما في هذه الحال من عظمة لأنهم يجاهدون مثله ، ولعلهم هاجروا مثله من بلاد قصايا في التماس الخبز وما يبلله من رقيق الأدام . « أولئك قوم بارك الله فيهم »

وانصرفت وفي عيني دمعة كما كان في عين سواي من الوقوف إشفاقاً على ذلك المسكين ، وجعلت أفكر فيما تدين به الحياة لهؤلاء ، فهم عدة السلم ، وهم سواعد العمل ، وهم جنود النضال : وأذكرني ذلك التفكير ببطل من هؤلاء الدهماء ذكر التاريخ اسمه ، وأقام له تمثالاً هو رمز لمجهولي الأبطال ، فلسنا نعرف أهله ولا منبته . ولا شيئاً مما يمسه غير اسمه ، وهو « عيسى العوام »

كان ذلك الرجل يعيش في عكا ثغر الشام منذ نيف وثمانمائة عام ، في أيام النضال الكبير بين الشرق والغرب — أيام الحروب الصليبية — وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في ذلك الوقت في صراع الحياة أو الموت مع ملوك الفرنج قد بلغ به الجد أن كان يتمثل بقول عبد الله بن الزبير وهو يصارع الاشتر النخعي في موقعة الجمل مصارعة من لا يريد هوادة ، إذ قال :

اقتلوني وما لكا واقتلوا مالكا معي

وكان الفرنج قد جمعوا جموعهم وحشدوا حشدهم أمام عكاء ، وجعلوا التغلب عليها مقصد همهم . فكان هناك ملوك ثلاثة هم أكبر ملوك أوربا وزعماء فرسانها . وحاصروا المسلمين في ذلك الثغر من قبل البر ومن قبل البحر ، وأتى صلاح الدين من خارج المدينة يحاول رفع الحصار عن اخوانه وجنوده .

واستمات جنود الجانبين في القتال ، وبذل كل قصاراه في النضال ، وعض على النواجذ من الأضراس . واستطالت بهم الحرب نيفاً وسنتين ، حتى اشتد الأمر بالمحصورين ، وعجز صلاح الدين عن أن يرفع عنهم نطاق الأعداء ، فأخذ ذلك النطاق يتضايق ويشتد ، حتى بلغت الشدة بالمحصورين مبلغاً عظيماً ، وتراخت همة الدفاع من طول الجهد وشدة القتال .

فذهب جماعة من صيادي عكاء ممن درجوا على أمواج البحر ونشأوا على أمواهه ، فعرفوا مداخله ومخارجه ، وبرعوا في اقتحام تياراته وخوض غمراته ، وعرضوا على قادة المسلمين ما في طاقتهم من المساعدة في ذلك المأزق . وتساءل القادة ماذا عسى هؤلاء يصنعون في قتال العدو ؟ وماذا تراهم يستطيعون أن يرزأوا فيه ؟ فأقبل عليهم الصيادون يعرضون أن يحملوا الأخبار الى اخوانهم المحصورين ، وأن يحملوا المال اليهم إذ استحال على السلطان الاتصال بهم ، وقالوا أنهم يستطيعون أن يستتروا بجنح الليل فيسلكوا سبيلهم بين سفن الأعداء سباحة ، فاذا ما تعذر ذلك سلكوا بينها غاطسين في الماء كما تسلك الأسماك وتسبح الحيتان . وكان صلاح الدين في أشد الحاجة الى الاتصال بالجنود والقواد الذين يدافعون عن المدينة ، فقبل ما عرض هؤلاء الأبطال ، وكانوا منذ ذلك الوقت لا ينقطع وافدهم من المدينة الى عسكر المسلمين ، أو من عسكر المسلمين الى المدينة . وكانوا لا يطلبون في سبيل ذلك جزاء ، إن هو إلا قربان يقدمونه احتساباً ، وواجب يؤدونه عن رضا وسخاء .

وظهر من بينهم « عيسى العوام » فكان أسرعهم سبحا وأجرأهم على الليل والنهار ، وأكثرهم إقداماً على الاخطار . فصار يهتف باسمه ، ويدعى إذا مااشتد الخطر وادلهم الخطب . وكان هو لايخيب ظناً ولا يخيم عند دعوة . وكانت بسالته تزداد كلما ضاقت حلقة الحصار ، والتأمت فروجه واتصلت سلسلته . فكان أقر لعينه وأثلج لصدره أن يغوص فى شبر بين سفن الفرنج ، أو يسبح على مرمى سهم من نبالهم . وبقى على أداء واجبه مدة حتى طلع يوم ، وانتظر أهل عكاء طلوع عيسى عليهم من ثنايا الموج كعادته ، فلم يتحقق لهم ذلك . وطال وقوفهم وامتدت أعناقهم نحو البحر ، كلما برق لهم شىء سابح ، أو لمع لهم جسم طاف ، أشاروا إليه إشارة الملهوف ، وتوقعوا أن يكون هو عيسى ، ثم تبين لهم أنه حباب الماء أورشاش الموج ، فعادوا الى ناحية أخرى ، فشدوا اليها أبصارهم ثم لم يلبثوا أن يجدوا خيبة لظنونهم وتكذيباً لأوهامهم . ولما طال بهم الوقوف وملوا الانتظار انصرفوا وفى قلوبهم هلع وتوقع للمحذور ، ولم تخل صدورهم من شكوك ساورتها فى أمانة عيسى وديانته . وقديماً كان فى الناس الطمع وأعماهم الجشع ، وقديماً فتنهم حب المال وأغواهم شيطان الغرور . أيكون عيسى كبعض من خان وافتتن ؟! أيكون عيسى ممن خذلتهم نفوسهم عندما استطال بها النضال ، وانخلع فؤادهم عندما اكفهر الجو وأظلم ؟ لم يرد الله أن يدع تلك الشكوك تساور ذكرى عيسى ، ورجم ذلك الرجل أن يهمس هامس عند ذكرى اسمه بما ثار فى صدره من شك ، فتسود بين الناس صحيفة بيضاء عند الله . فأرسل الموج حاملاً جسمه نحو الشاطىء ، فرأى الناس بعد بضعة أيام من غيبته وانقطاعه جثته ملقاة على الشاطىء ، ولا تزال حولها أكياس الذهب التى كان بعث بها صلاح الدين معه الى المدينة . فرأى الناس عنـــد ذلك جثة شهيد قضى وهو يؤدى الأمانة ، وجاد بالنفس وهو فى سبيل الخير والمجد .

رحم الله « عيسى العوام » ! وكم فى الناس من مثل عيسى ؟ . غير أن التاريخ لايذكر منهم أحداً إلا فلتة ليشير الى أن بين المجهولين الآف الألوف من أفذاذ الأبطال .

محمد فريد ابو حديد

٢ ـ من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبـــد الله عنان

لم ينعم بنفونوتو تشلليني بالسكينة طويلاً بعد الحوادث العاصفة التى خاضها ، وبعد أن فقد عطف البابا وحمايته . وفى ذات يوم وقعت مشادة بينه وبين صديق قديم من مواطنيه كان برومة وكان يدينه بشىء من المال ، وسبه ذلك الصديق بألفاظ جارحة ، فغلب عليه عنفه المعهود وضربه فى رأسه بحجر فسقط مغشياً عليه . وأبلغ الحادث الى البابا ، فأمر بالقبض على تشلليني وشنقه فى مكان الجريمة . ولكن تشلليني شعر بالخطر الذى يهدده ، واستطاع أن يفر من رومة فى الوقت المناسب ، وقصد الى نابولى ، وأقام بها حيناً ، واتصـــل بدوقها وحظى بعطفه ورعايته ؛ والتقى هناك بحبيبته انجليكا الصقلية . ثم وصـــله خطاب من الكردينال دى مديتشى حاميه القـــديم يأمره فيه بالعودة سريعاً الى رومة ؛ فسافر اليها فى الحال ومعه انجليكا ؛ واستقبله الكردينال بترحاب وطمأنه على نفسه وحريته ؛ وبعد أيام قلائل استطاع أن يزور البابا كلمنضوس ، وأن يقدم اليه « مدالية » بديعة من صنعه ، ثم سأله الصفح والرعاية بكلمات رقيقة ؛ فأعجب البابا بهذه التحفة ، وأمره أن يصنع له تحفاً أخرى تمثل بعض مناظر التاريخ المقدس ، ووعده بالعفو والرعاية . ولكن البابا لم يعش طويلاً ليحقق وعده ، ومرض وتوفى بعد أيام قلائل ؛ وحدث على أثر موته ذلك الاضطراب الذى يحدث عادة قبيل انتخاب البابا الجديد ؛ ولبث بنفونوتو يرقب الفرص ؛ ولكنه ارتكب فى تلك الأثناء جرماً جديداً ، وقتل رجلاً آخر من رجال البطانة يدعى بومبيو تحرش به ذات يوم بكنيسة القديس بطرس ، فسار اليه ولقيـــه على مقربة من منزله وطعنه بخنجره بين أصدقائه وأعوانه فألقاه صريعا . ويقص علينا تشلليني هذا الحادث الدموى وأمثاله فى عبارات صريحة هادئة ،

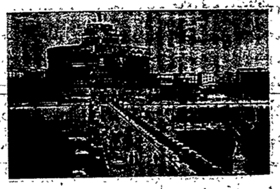
كأنها حوادث عادية لا خطورة فيها ، ويصور لنا بذلك مبلغ اضطرام نفسه ، ومبلغ استهتاره بالحياة البشرية

وانتخب الكردينال فارنيسى لكرسى البابوية باسم بولس الثالث ، وعهد الى تشلليني بصنع نماذج نقوده ، وأعطاه عهداً بالأمان . ولكن جماعة من خصومه وأصدقاء بومبيو القتيل لبثوا يدسون له لدى السينور بير لويجى ولد البابا حتى اعتزم القبض عليه ، ولكن بنفونوتو علم بهذه المؤامرة فى الوقت المناسب ففر الى فلورنس ، وأقام بها حيناً يخـــدم أميرها الدوق الساندرو دى مديتشى . وهنالك أصابته حمى شديدة كادت تقضى عليه ؛ فلما برئ من مرضه ، عاد الى رومة بعد أن استيقن أنه لم يبق ثمة ما يخشاه من كيد خصومه . وكان البابا يستعد فى ذلك الحين لاستقبال الامبراطور شارلكان ، فعهد الى تشلليني بعمل صليب بديع من الذهب المرصع بالجواهر ليهدي الى الامبراطور ، وتحلية كتاب للصلاة ليهدى الى الامبراطورة . ويصف لنا تشلليني هذه الزيارة التاريخية ، وكيف شهد استقبال البابا للامبراطور ، وقدم اليه الكتاب المرصع وخاطب جلالته بفصاحة وجنان ثابت ؛ وكيف عكف بعد زيارة الامبراطور على صقل جوهرة بديعة أهداها الامبراطور للبابا وتركيبها فى خاتم بديع الصنع . وكان تشلليني دائماً هائم الذهن والخيال ، يهوى التنقل والمخاطرة ، فما كاد ينتهى من صنع التحف البابوية حتى اعتزم تنفيذ مشروع قديم عنده ، هو السفر الى فرنسا

وسرعان ما نفذ عزمه ، وسافر الى فرنسا بطريق سويسرا وألمانيا ، مع خادم فتى يدعى اسكانيو . ولما وصل الى باريس سعى لرؤية فرنسوا الأول ملك فرنسا ، فاستقبله بترحاب فى فونتنبلو ؛ وسافر بنفونوتو فى ركبه الى ليون ؛ وهنالك مرض ولزم فراشه ، وأصابت الحمى فتاه اسكانيو ؛ فكره المقام فى فرنسا ، وعول على الرجوع الى رومة ، وغادر فرنسا فى أول فرصة ، فوصل الى رومة بعد رحلة شاقة ؛ وافتتح له حانوتاً كبيراً فخماً ، واستأنف عمله ، واتسعت موارده ؛ ولكنه لم يكن يتمتع بذلك العطف البابوى القديم الذى كان يستظل برعايته وحمايته ؛ وكان القدر من جهة أخرى يهيئ له أروع مفاجأة عرضها فى حياته ... ذلك أنه كان يستخدم عاملاً من بروجيا ، وكان يدينه ببعض المال ؛ ففر الرجل من حانوته ولم يؤد ما عليه ، فطالبه بنفونوتو بواسطة القضاء وحصل على حكم بحبسه ؛ فاستشاط الرجل غيظاً واتصل ببعض أتباع السينور بير لويجى ولد البابا وكان يعرف عندئذ بالدوق كاسترو ، وأفضى اليه أن تشلليني يملك ثروة طائلة من الجواهر ، وأن هذه الجواهر إنما هى من جواهر الكنيسة ، سرقها تشلليني وقت الحصار حينما كان فى حصن سانت انجيلو ؛ وأنه يجب القبض عليه قبل أن يفر مرة أخرى . فأثمرت هذه السعاية ثمرها ؛

وفى ذات صباح جاء ضابط الشرطة مع سرية من الجند الى حانوت تشلليني ، ونبأه الضابط بأنه أضحى سجين البابا ، وأنه مكلف بأخذه الى حصن سانت انجيلو حيث يعتقل الأكابر والرجال الممتازون ؛ ثم أحاط به عدة من الجنـد ، وجردوه من سلاحه ، ثم اقتادوه الى الحصن ، وهنالك ألقى الى غرفة فى البرج الأعلى ؛ وكانت هذه أول مرة يذوق فيها مرارة السجن ، وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين

***



حصن سانت أنجيلو

كان حصن سانت انجيلو فى ذلك العصر أمنع معاقل رومة ؛ ولا يزال الحصن الشهير قائماً على مقربة من قصر الفاتيكان وميدان القديس بطرس ، على ضفة نهر تفيرى ؛ يشهد بطرازه العجيب ومناعته الخارقة بما انتهت اليه هندسة القلاع فى العصور الوسطى من الإحكام والتقدم . ولقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يزور حصن سانت انجيلو مراراً وأن يتجول فى أقبيته ومخادعه المظلمة ، وأن يرقى الى أبراجه الشاهقة ، وأن يتأمل طويلاً فى جنبات ذلك

الأثر المدهش ، وهو اليوم يستعمل متحفاً حربياً تعرض فى طابقه الأول أسلحة العصور المختلفة ؛ ولكن طبقاته العليا لا زالت خالية تعرض لنا بعض الآثار الغريبة ، وأخصها الجناح الذى كان يسكنه الباباوات كلما التجأوا الى الحصن ، وغرفة نوم البابا بولس الثالث وسريره وكرسيه . على أن أروع ما فى الحصن مخادعه المنيعة الواقعة فى الجهة الخلفية ، وهاوياته السحيقة التى تنساب الى أعماق مظلمة لا يدرك غورها . وهنـــالك مخادع معينة ، اشتهرت على كر العصور بمن زج اليها من العظماء والسادة ؛ فهذا مخدع تقول الرواية إنه هو الذى سجن فيه بنفونوتو تشالليني ؛ وهذا مخدع تقول إنه هو الذى زج اليه جاليليو ، وآخر زج اليه جوردانو برونو وهكذا ؛ ولقد لبث هذا الحصن المروع عصورا سجنا لمحاكم التحقيق (التفتيش) ، وكان مقبرة لكثير من العلماء والأحبار الذين قضوا نحبهم فيه ضحية المطاردة الدينية ؛ ولا يزال السائح المتفرج يشعر فيه برهبة تلك العصور وروعتها

زج بنفونوتو تشالليني الى مخدع فى البرج الأعلى ، لا تزال تعينه لنا الرواية حتى اليوم ؛ ولبث ثمانية أيام منسياً لا يفاتحه أحد بشيء ، وفى اليوم التاسع قدمت الى السجن لجنة من ثلاثة على رأسها حاكم رومة ، ووجهت الى تشالليني تهمة اختلاس مقدار من الحلى الرسولية وقت أن كان يعمل أيام الحصار بدفعية الحصن ، وأمر اليه البابا كليمنصوس أن ينتزع الحلى الرسولية من اطاراتها ؛ وأن قيمة هذه الحلى قدرت بمبلغ ثمانين ألف جنيه (كرونا) ، وأن عليه أن يردها أو يرد قيمتها ، والا فانه يترك ليرسف فى سجنه . وعبثاً حاول تشالليني أن يقنع اللجنة ببراءته ، وأن الحلى الرسولية مرصودة فى دفاترها فلتراجع فيها ، وأن دفاتره رهن تصرف اللجنة لترى أنها فى منتهى الدقة ، وأنه قد خدم الكرسي الرسولي بفنه واخلاصه مدى أعوام طويلة ، فلا يحق أن يجزى بمثل ذلك القصاص . ولما نقل دفاعه الى البابا أمر بمراجعة الحلى على قوائمها فوجدت تامة لا ينقصها شيء . ومع ذلك ترك تشالليني يرسف فى سجنه ؛ وكان البابا يحمله سيء بطانته ، قد أصبح يرى فى تشالليني رجلاً شريراً يجب التنكيل به ؛ وزاد حنقه عليه أن رسولا جاء الى رومه من قبل فرانسوا الأول ملك فرنسا يسعى فى اطلاق سراح تشالليني ، وورد على السفير بأن تشالليني رجل شرير ، لا يستحق إهتمام جلالته . وكان محافظ الحصن رجلا طيب القلب فلورنسياً من مواطني تشالليني ، فعمل على تخفيف وطأة سجنه ، وتركه فى الحصن حراً طليقاً يتجول فيه كيفما شاء مكتفياً بعهده ألا يحاول الفرار ؛ وكان تشالليني ينفق وقته فى التجوال بالحصن وصنع بعض الحلى التى يأتيه بها فتاه المخلص اسكانيو ، وكان يسمح له بزيارته وبأن يحمل اليه ما شاء . ويقول لنا تشالليني أنه لم يشأ أن يفكر فى الفرار لولا أن حادثاً وقع فى السجن وحمل تبعته ، وهو أن قساً زميلاً له سرق منه قطعة من الشمع الذى يتخذ منه نماذج للحلى ، وطبع عليها مفتاح غرفته ليحاول صنعه ثم الفرار فيما بعد ، ولكنه ضبط واعتقد المحافظ أن تشالليني شريك فى هذا العمل ، فأمر باعتقاله فى غرفته والا يبرحها بعد ، وشدد عليه الخناق ، ولم يحله من هذه القيود الا بعد أن أقنعه تشالليني ببراءته ؛ وهنا أدرك تشالليني خطورة موقفه ، وأيقن أنه سيبقى عرضة لهذه المفاجآت الخطرة ؛ إذا قضى عليه بالبقاء فى هذا الأسر ؛ ونمى اليه أيضاً أن البابا يصر على اعتقاله ، وأن مساعى الملك فرانسوا فى سبيله لم تثمر شيئاً ، فأخذ يفكر فى مصيره ويرى الانجاة له من تلك المحنة الا بالفرار

وزاده عزماً على الفرار حادث جديد وقع بينه وبين المحافظ . ذلك أن المحافظ كانت تنتابه فى بعض الأحيان أعراض جنون غريب فيتصور أنه ضفدعة أو وطواط ، أو يتصور أنه ميت يجب أن يدفن ، ففى ذات يوم من أيام جنونه سأل بنفونوتو هل يفر ويطير اذا استطاع ، فأجابه بنفونوتو ، أنه اذا أطلقت له الحرية ، فانه يصنع لنفسه أجنحة يطير بها ؛ وعندئذ أقسم المحافظ أنه سيعتقله كرة أخرى ويشدد عليه الحراسة ؛ وفى الحال نفذ وعيده ، وزج بنفونوتو الى غرفته ، ووضع تحت الرقابة الصارمة . ومن تلك الساعة أخذ بنفونوتو يدبر وسائل الفرار ، وكان خادمه اسكانيو قد حمل اليه أغطية جديدة لفراشه ، فمزقها شرائح وجعل منها حبلا طويلا ، وكان لديه أيضاً خنجر ، ومقبض حديدى كبير سرقه من نجار الحصن ، فخبأ هذه الأشياء فى مرتبته ؛ وبدأ يعمل لانتزاع المسامير الغليظة التى ثبتت بها مفاصل الباب ، ويغطى مكانها بشمع قاتم حتى لا يكتشف أمره ؛ وأنفق فى هذا العمل جهداً كبيراً حتى انتهى منه . وفى ذات ليلة اشتدت فيها

النوبة على محافظ الحصن واجتمع حوله معظم الحرس ، اعتزم أمره . ويصف لنا تشلليني فراره في عدة صحف ساحرة رائعة كنا نحب أن ننقلها بنصها لولا ضيق المقام . وقد بدأ بأن دعا الله بحرارة أن يرعاه وينقذه . ثم رفع مفاصل الباب وعالجه حتى استطاع الخروج ، وثبت الحبل المصنوع من شرائح الأغطية بنتوء في سور البرج وأدلاه ، وعاد فرفع بصره الى السماء قائلا : « رباه ، إنك تعلم عدالة قضيتي ، فاشملني برعايتك » ؛ ثم أمسك بحبله وتدلى حتى وصل الى الأرض من ذلك العلو الشاهق ؛ وظن أنه غدا حراً طليقا ، ولكنه كان في الساحة الداخلية يفصله عن الخارج سوران كبيرا . بيد أنه لم ييأس ، ورفع قطعة كبيرة من الخشب كانت ملقاة هنالك على السور الأول وتسلقها حتى القمة ، ثم تدلى بحبل صغير كان معه الى الساحة الأخرى ؛ وهنالك رأى أحد الحراس على مقربة منه فاعتزم أن يسحقه ، وقصده شاهراً خنجره ، ولكن الحارس ولاه ظهره ؛ ثم تسلق السور الآخر ؛ وهنا خانته قواه قبل أن يصل الى الأرض فسقط من ارتفاع ، واصطدمت رأسه بالأرض وأغمى عليه ، ولكنه كان عندئذ خارج الحصن .

يقول تشلليني « وقد كاد النهار يسفر ، فهب على الهواء الصبوح الذي يسبق بزوغ الشمس ، ورد الى حواسى ؛ ولكن صوابي لم يعد تماماً ، وخيل لي أن رأسي قد فصل ، وأنني انحدرت الى عالم العدم ، ثم عادت الى قواى شيئاً فشيئاً ، وأيقنت أنى غدوت خارج الحصن ، وتذكرت في الحال كل ما وقع ، وشعرت بجرح رأسي قبل أن أشعر بكسر رجلي ، وذلك حينما مسستها ، ورأيت يدي قد خضبتا بالدماء ، بيد أنى رأيت بعد فحصها أن الجرح لم يكن خطيرا . ثم أردت النهوض ، وعندئذ رأيت ساقى قد كسرت مما يلي الركبة ؛ ولكني لم أيأس ، واستخرجت خنجري من غمده وألقيت العمد ، لأنه كان ينتهي بكرة كبيرة ، وهي التي اصطدمت بساقي وكسرتها ، وقطعت بخنجري قطعة من القماش وضمدت ساقي ؛ وأمسكت خنجري بيدي وزحفت على أربع نحو باب المدينة ؛ وكان الباب مغلقاً ، ولكني رأيت تحته حجراً ، فأزحته فتحرك ، فدفعته ونفذت من الخرق الى داخل المدينة . . وكان بين الحصن والمدينة نحو خمسمائة خطوة ؛ ولما دخلت المدينة هجم على عدة من الكلاب ، وأخذت تلاحقني وتعضني عضاً أليما ، فسحبت خنجري وطعنت أحدها طعنة نجلاء جعلته يصيح محتضرا ، فالتف باقى الكلاب حوله ؛ وأسرعت زاحفاً على اليدين والركبتين نحو طريق « القديس بطرس » (الكنيسة) ؛ وكان النهار قد أسفر ، وشعرت بالخطر الذي يهددني . وهنا قابلت سقاء وراء حماره المحمل بالقرب ؛ فناديته ، ورجوته أن يحملني الى شرفة سلم القديس بطرس ، وقلت له انني شاب فررت من نافذة صاحبتي ، فكسرت ساقي ؛ ولما كان المنزل الذي اقتحمته منزل أسرة كبيرة ، فانى في خطر القتل ؛ ووعدته بأن أعطيه ديناراً من الذهب وأريته كيسى المنتفخ ؛ فحملني في الحال على ظهره وسار بي الى ميدان القديس بطرس ووضعني عند الشرفة ، وعاد مسرعاً الى حماره »

واستمر تشلليني في زحفه قاصداً الى منزل قريب لأميرة يعرف أنه يستطيع الالتجاء الى حمايتها وهي زوجة الدوق الساندرو مديتشى ؛ ولكن رآه عندئذ أحد حشم الكردينال كرنارو الذي يقع قصره في ذلك المكان وعرفه ، فهرول الى الكردينال ونبأه ، فأمره بحمله . فلما رآه هدأ روعه وطمأنه ، واستدعى الطبيب لعلاجه . وذاع نبأ الحادث في رومة ، فاهتز الشعب الروماني دهشة وإعجاباً لهذه الجرأة . وذهب الكردينال كرنارو مع بعض زملائه الى البابا وسألوه الصفح عن ذلك الرجل الموهوب ، فأجاب بالعفو ووعد الاثابة . ولكنه طلب الى كرنارو فيما بعد أن يسلمه تشلليني ليقيم عنده في أحد الغرف السرية ، فاضطر كرنارو الى تحقيق رغبته لكي يحقق له بعض مصالحه ، وكانت نيات البابا نحو تشلليني غامضة ؛ وحمل تشلليني الى القصر البابوى ، واعتقل هنالك عدة أيام ؛ وفي ذات مساء قدمت الى غرفته سرية من الجند وحملته الى حصن سانت انجيلو ، وألقته في مخدع صغير يطل على إحدى الساحات الداخلية ؛ وبذا رد الى سجنه المروع كرة أخرى ، وغاضت كل آماله في الخلاص ، وغلبت عليه الروعة والاستكانة .

يقول تشلليني : « وكان قبس ضئيل من النور ينفذ الى غرفتي التعسة من ثقب صغير مدى ساعة ونصف في كل يوم ، فلا أستطيع القراءة إلا في هذه الفترة ؛ أما باقى النهار والليل فكنت أمكث صابراً في الظلام ، لا يفارقني التفكير في الله وفي ضعفنا الانساني . وكنت على يقين من أنه لن تمضي أيام قلائل حتى أقضى نحبي في

الامتيازات الأجنبية والضرائب

للأستاذ زكى دياب المحامى

عبثت الامتيازات ولا زالت تعبث بمرافق الدولة العامة ، ووقفت فى سبيل نموها عقبة ليس من اليسير تذليلها إلا على الأيام . وأثرت فيما أثرت على التشريع المالى تأثيراً بالغا ، وددتُ لخطورة شأنه أن أفرد له هذا الفصل .

***

إن المبدأ العام الذى يحكم تشريع الضرائب فى البلاد المتمدينة هو وجوب قيام كل فرد يقطن الأقليم بقسطه فى الضريبة التى تفرض ، بغض النظر عن تباين الجنسيات . تلك هى القاعدة العامة التى يأخذ بها الشارع والتى تقتضيها حكمة التشريع . وهى تستند على فكرتين أوليتين : محلية الضرائب ، وعمومية الضرائب .

والأولى بدورها تعتمد على الحقيقة المعروفة القائلة بأن سيادة الدولة محدودة فى نطاق أقليمها . وعماد الفكرة الثانية ضرورة تحمل كل فرد نصيبه من التكاليف العامة ، حتى تقوى الدولة على انجاز المشروعات الكبار التى تضطلع بها .

والآن وقد أوردنا المبدأ العام متعجلين ، نقول فى أسف شديد إن مصر أكرهت تحت عبء الامتيازات على عدم التمشى مع ذلك المبدأ الذى أخذ به العالم كله ؛ فالأجانب معفون أصلاً من الضرائب إلا اذا وافقت دولهم سلفا . وقد استطاعت مصر أن تحصل على هذه الموافقة بعد جهود كبيرة بالنسبة لأربعة أنواع من الضرائب يسوى فى جبايتها بين الوطنى والأجنبى وهى : —

أولاً : الرسوم الجركيـة ، والضرائب التجارية المفروضة طبقاً للمعاهدات التجارية . فللحكومة أن تفرض من هذه الضرائب ما تراه لازماً كضريبة الكحول .

ثانياً : ضريبة الأراضى طبقاً للفرمان العثمانى الصادر بتاريخ ٧ صفر سـنة ١٢٨٤ ، وهو الذى خول لهم بمقتضاه حق تملك العقار .

ثالثاً : عوائد المبانى طبقاً لاتفاق لندن سنة ١٨٨٥ ، وللدكريتو الخديوى الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ .

رابعاً : عوائد مجلس بلدى اسكندرية طبقاً للمادة ٣١ من الدكريتو الخديوى المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٩٠ .

فاذا ما حصلت الحكومة من أحد الأجانب رسوماً أو ضرائب فى غير نطاق ما ذكرناه ، كان له الحق فى طلب استردادها أمام المحاكم المختلطة ، التى تحكم طبقاً للمادة ١١ من لائحة ترتيبها فيما يمس حقوق الأجانب المكتسبة بالمعاهدات .

وفى الطريق الذى استطاعت به مصر أن تحصل على موافقة الدول على تلك الأنواع المذكورة من الضرائب تفصيل رأيت أن أبسط شيئاً منه :

وافقت الدول الأجنبيـة على سريان قوانين الضرائب على رعاياها فيما يتعلق بالضريبة العقارية على الأراضى الزراعية ، والضريبة العقارية على أراضى البناء ، وهما نوعان من الضرائب المباشرة .

أما عن الضريبة العقارية على الأراضى الزراعيـة فلم يكن يسمح قبل القرن التاسع عشر لأجنبى ما أن يتملك عقاراً فى الدولة العلية . ولم يعف الأجانب من هذا الحظر إلا عند ما حل عام ١٨٦٧ إثر مفاوضات طويلة . على أنه بالرغم من ذلك المنع السابق ، اعتاد الأجانب أن يسلكوا طرقاً ملتوية moyens derournés للحصول على تلك الملكية المحرمة ، فكان الواحد منهم يبتاع الأرض باسم شخص متجنس بالجنسية التركيـة . وازاء ذلك رأت الدولة

هذا المكان وفى هذه الظروف . بيد أننى كنت أروح عن نفسى ما استطعت ذاكرا أن الموت بضربة من سيف الجلاد أشنع من ذلك وأفظع ، هذا بينما أستطيع الموت هنا هادئاً كأننى فى غفوة النوم . وشعرت شيئاً فشيئاً أن لهب حياتى يخبو ، حتى اعتاد جسمى البديع على ذلك الانحلال ، وحتى شعرت أنه اطمأن الى تلك الظروف التعسة ؛ واعتزمت أن أحتمل آلامى المروعة فى سكينة وجلد ما بقى لى شيء من قوة الاحتمال » . وكان ذلك لعام ونصف من اعتقاله الأول ، أعنى فى منتصف سنة ١٥٣٩ .

« الخاتمة تأتى »

محمد عبد الله عنان
المحامى

العلية أن تضع حداً لتلك الحال ، فأباحت تحت تأثير هذا العامل الملكية العقارية لكل فرد ، بغض النظر عن تباين الجنسيات . ولقد تعرض الخط الهمايونى الصادر سنة ١٨٥٦ لهذا الموضوع ، فنص صراحة على إباحة الملكية العقارية للأجانب فى أراضى الدولة وولاياتها ، على أن يذعن هؤلاء الملاك لما يفرض على الجميع من التكاليف المالية ، فاستووا بذلك مع الأهالى .

ولكن حركة الاصلاح لم تنجح ، إذ تأجل نفاذ هذه النصوص الصريحة ؛ فحاول الباب العالى بعد ذلك مرة أخرى أن يخضع هؤلاء الأجانب للوائح والقوانين التى تسرى على الملكية العقارية ، وطلب ذلك مُلحاً ، فأجابته الدول الى ماطلب بقانون صدر بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٨٦٧ الموافق ٧ صفر سنة ١٢٨٤ ؛ وسمح للأجانب أن يكونوا ملاكاً عقاريين للأراضي الزراعيـة فى الدولة العثمانية ، وألزموا بالقيام بكافة الفرائض المالية على الأراضى الزراعية — أسوة بالوطنيين — فى أى صورة تتشكل بها تلك الفرائض

ولقد خول الأجانب فى مصر حق تملك الأراضى وكلفوا فى الواقع بضرائبها قبل أن يسن قانون ٧ صفر ومن قبل أن يسمح لهم بالملكية فى تركيا . ذلك أن الأجانب الذين حازوا فى مصر ملكية عقارية لم يفكروا فى منازعة الحكومة المصرية فى حق كانوا يرون من الطبيعى الخضوع له ؛ فكانوا يعتبرون الضريبة ديناً على الأرض نفسها لا على مالكها (دو روزاس ص ٤٦٥) ، ومن أجل ذلك كان غير صحيح القول — كما يرى دو روزاس — بأن فرمان ٧ صفر هو الذى قرر الضريبة العقارية على الأجانب فى مصر .

تلك هى الأدوار التى مر بها تشريع الضرائب العقارية على الأراضى الزراعية وخضوع الأجانب لها .

أما الضرائب العقارية على أراضى البناء فقد قبل الأجانب سداد الضرائب العقارية عن الأراضى الزراعية بعد اقتناع وتسليم بوجاهة الطلب ، ولكنهم رفضوا جميعاً الوفاء بضريبة أراضى البناء حتى بعد صدور فرمان ٧ صفر الذى صادقت عليه الدول ، والذى تقضى مادته الثانية بإلزام الأجانب بالضرائب على الأراضى الزراعية والأراضى المبنية . وفى انكار هذا الحق وعدم النزول على إرادة القانون تحميل ثقيل للنص الصريح .

ولا عجب فلقد ذهبت المحاكم المختلطة مذهبهم وعززت وجهة نظرهم فى أحكامها ، فقررت أنه برغم اطلاق النص فى قانون ٧ صفر وشموله الضرائب العقارية عن الأراضى بنوعيها ، فان العرف قد أكسب الأجانب حق اعفائهم من الضرائب على أراضى البناء . ونحن لا يكفينا إزاء الدور الذى تلعبه المحاكم المختلطة فى موضوعنا هذا أن نمر سراعاً على حكم لها ، بل سنبين فيما بعد أكثر أحكامها معلقين على بعضها عندما نرى ضرورة لذلك .

وأخيراً وبعد لأى وافقت الدول على تطبيق دكريتو سنة ١٨٨٤ المتعلق بالضريبة على الأراضى المبنية على رعاياها ، وكانت تلك الموافقة سنة ١٨٨٥ .

هاتان الضريبتان المباشرتان يخضع لها الأجانب حالاً فى مصر بعد الجهود المضنية التى بذلت للموافقة عليهما وبخاصة للموافقة على ضريبة المبانى ، فمن انكار تام لشرعيتها ، الى عبث بالنص صريح ، الى أحكام منتقدة تصدر من المحاكم المختلطة ، ولا أرجع أنا هذه المحاورات والتمحل من الطرف الأجنبى الا الى رغبة كمينة فى النفس الأجنبية تدفعها دائماً الى أن تجعل فى يدها جماع الحقوق وأكثر المنافع .

ولسنا فى حاجة الى أن نبين كيف وافقت الدول على النوعين الآخرين من الضرائب ، فلقد حمّل دكريتو ٥ يناير سنة ١٨٩٠ فى المادة ٣١ منه الأجانب عبء عوائد مجلس بلدى الاسكندرية ، شأنهم فى ذلك شأن الأهالى ، لما لبلدية اسكندرية من شخصية معنوية ممتازة ، ونظراً لتمثيل الأجانب فيها تمثيلا صحيحاً . أضف الى ذلك كثرتهم فى الثغر ، فلو تخلصوا من عبء الضرائب فقدت بذلك البلدية مورداً هاماً .

والحكومة المصرية بما تبرمه من معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية أن تفرض الضرائب التجارية والرسوم الجمركية .

***

أما المحاكم المختلطة فلقـد لعبت دوراً خطيراً فى الموضوع ، فكلما همت الحكومة راغبـــة فى فرض ضريبة جديدة حال بينها وبين ما تبغى عدم اعتراف المحاكم المذكورة بحق الحكومة فى فرض ضرائب جديدة تحمّل بها الأجانب فلا تستطيع

ازاء ذلك شيئاً . فلا بد من موافقة الدول سلفاً ، ويجب أن توافق هي مقدماً على كل ضريبة مستحدثة . وكل اجراء مالى سن به قانون أو شرع فى سنه وكان يلقى على عاتق الأجانب عبء ضريبة أو فريضة مالية أياً كان نوعها .

ووقف قرار الجمعية العمومية بالمحكمة فى سبيل فرض ضريبة السيارات التى شرعت الحكومة فى سنها أخيراً ورأت أن الحكومة تريد بذلك أن تفرض نوعاً مستتراً من الضرائب العقارية على الأجانب لأن تلك الضريبة كما تراها هى رسوم لاستعمال الطريق العام .

وأخيراً وبعد جهود عادت فأقرتها . وقضت تلك المحاكم فى القضية التى رفعها الفيكونت روفوتتارس سنة ١٩١٢ بأن الضرائب التى تفرضها مجالس المديريات للصرف منها على المنافع العامة ليست خاضعة لشروط موافقة الجمعية العمومية المقررة فى مادة ٢٤ من القانون الصادر فى أول مايو سنة ١٨٨٣ .

وقضت كذلك فى عدة قضايا ، منها قضية شركة سكة حديد القاهرة الكهربائية ، وقضية أوجست قساجيه ضد مديرية البحيرة .

وترى المحاكم المختلطة أيضاً فيما يتعلق بالأشخاص المعنوية أنها إن كانت مؤلفة من الأجانب تخضع للضرائب المباشرة التى تقررها الحكومة المصرية على الأشخاص الطبيعيين المصريين .

وخلاصة القول أن المحاكم المختلطة انتهت الى التفريق بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، فهذه الأخيرة يجوز فرضها ، أما الأولى فيجب لفرضها موافقة الدول ، على أن ذلك القيد قديم نشأ نتيجة لعرف فاسد منتقد لا نتيجة نص صريح .

ومما يستنبط من ذلك أيضاً ومن مجموعة الأحكام التى لم نشأ أن نورد كل ما لدينا منها أن للحكومة أن تفرض ضريبة مباشرة أو غير مباشرة على رعايا الدول غير المتمتعة بالامتيازات ، وعلى الشركات المساهمة المؤسسة فى مصر وقد حكم بأن جنسيتها مصرية ولو كان أعضاؤها أجانب ، وان كانت تشملها فى حالة تقاضيها نظرية الصالح المختلط . ولكن ذلك لا يزيل ما لها من صفة مصرية يظهر أثرها فيما يتعلق بالضرائب .

[بقية البحث فى العدد القادم] زكى دياب

نقابة للأدباء الشبان

لأديب كبير

أخرج اليوم من معتزلى إذ سمعت ضجة حسبتها ضجة معركة حربية ، وتحركت نفسى لمرأى ميدان تلك الضجة ، فعز علىّ أن أرى الصرعى يئنون من الألم وجراحهم تجرى بالدماء ، وأن أرى الصعاليق تزأر ، وترغى وتزبد ، وسيوفها تقطر من دماء ضحاياها ؛ وعولت على أن أنزل الى الميدان لألقى فيه نصيبى من الأذى إذا لم يتح لى أن أنصر ضعيفاً أو أنتصر لمظلوم .

وقد يحسب قارئ أنى أهزل فى قولى — ولا بأس عليه إذا هو ظن ذلك — فانى لا يضيرنى أن يحسب قارئ أنى أهزل ، ما دام لا يظن فىّ أنى أسخر منه أو من سواه ، فانى لا أحب أن يظن أحد فىّ أننى أسخر منه ، فان السخرية مرة الطعم ، وقد ذقتها فوجدت قبحها فوق كل قبح .

ولكنى مع ذلك أرجع الى نفسى فأقول : إننى لا أخشى من أن يظن أحد فىّ أننى أسخر ، فقد طالما سخر كبار الأدباء من قرائهم ، ولا يزيد قراؤهم مع ذلك إلا إعجاباً بهم ؛ بل إن بعض شيوخ الأدب قد زاد وبرز فى ذلك الباب إلى أن قال لقرائه فى صراحة عجيبة إنه يسخر منهم ، وإنه عالم بأن القراء لا يعجبون بالكاتب الأديب أشد الاعجاب ، إلا إذا تفنن فى السخرية بهم . فلا بأس علىّ إذن إذا حسب أحد القراء أننى ساخر ، فاننى قد أصل بذلك الى إعجابه وإكباره .

وإنى هنا قاصد الى الأدباء الشبان أدعوهم الى اتباعى والأخذ برأيى ، بعد أن شهدت صرعاهم فى النضال الأخير مع مشيخة الأدب وكباره . وقد يقول قائل وكيف تجعل نفسك بين الشبان وقد بلغت من السن فوق مبلغ الشبان ؟ ولكن ذلك القول لن يثنينى ، فانى لا أردع بمثل هذا العنف ، وإنى لا تزال فىّ بقية من الشباب تكفى لأن تبرر مدخلى فيهم وانخراطى فى سلكهم . على أن الأديب لا يعد شاباً إذا كانت سنه من سن الشباب ، فان الشباب والشيخوخة فى الأدب لهما اصطلاح خاص واعتبار موضوع . فالأديب الشاب هو الذى لم يبلغ من الشهرة مبلغاً مذكوراً ولو كان قد نيف على الخمسين ؛ والأديب الشيخ هو من ضرب اسمه فى

الخانقين ولو لم يكن ممن بلغوا سن الثلاثين أو الأربعين . وعلى هذا فأنا شاب فى عرف الأدباء ، لأننى بحمد الله قليل الحظ من ذيوع الاسم ، بل أكاد لا أسمع اسمى يذكره ذاكر إلا فى أمر من أمور هذه الدنيا البعيدة عن عالم الأدب ، ولقد حبب إلىّ الخمول والبعد عن الشهرة منذ اقترن ذلك الخمول باسم الشباب ، فأنى كنت دائماً أحب الشباب واسم الشباب ولو كان مقترناً بالذم ؛ وقد كان لى صديق — عفا الله عنه — عرف فىّ ذلك الطبع ، وكان يحلو له أن يشتمني ؛ ولكنه مع ذلك كان حريصاً على مودتى ، فدفعه خبثه الى أن يجعل سبابه لى مقترناً باسم الشباب ، فكان اذا رآنى بدرنى بقوله : « ما هذا الذى فيك من طيش الشباب ؟ » وقوله : « إنك تظهر فى عملك هذا ضروباً من جهل الشباب » وقوله : « إنك والله ملء بنزق الشباب » . فكنت أقبل الشتم ما دام دفيناً فى وصف الشباب المعسول ، وبذلك توصل صديقى الى ما شاء من سبابى ، ولم يخش أن يخسر شيئاً من مودتى . ولم أفطن الى حيلته الخبيثة إلا بعد لأى ، ولكننى مع ذلك لم أعاتبه ولم أغضب عليه ، بل بقيت راضياً بما ينالنى من شتمه لأحظى بوصف الشباب من ورائه . وعلى هذا فلست إلا خفياً بدخولى فى زمرة الشبان الأدباء ، قانعاً بوجودى بينهم . وما دمت كذلك فانى لا بد منذرهم على الشيوخ ، ومعضهم ومحرضهم . وأول آيات ذلك التعصب أننى أدعوهم اليوم الى تأليف نقابة لهم ، لتكون جامعة لكلمتهم ، ورابطة لهم عند الملمات اذا ما فكر الشيوخ مرة أخرى فى أن يصبغوا لهم العيون بلون الدماء .

وأى شىء يستنكر فى دعوتى هذه الى تأليف نقابة للأدباء الشبان ؟ وهل فى ذلك بدعة أو ضلالة ؟ إن الأديب الشاب شبيه بالعامل الفقير الذى لم يدخر بعد مالاً ، ولم يتأثل شيئاً من حطام الدنيا ، والشيوخ الأدباء هم الذين ادخروا وتأثلوا ، أليسوا تراهم اليوم يقولون للشبان إنكم مدينون لنا بكل شىء ؟ أليسوا قد أعلنوا للملأ أنهم الأوصياء على انتاج الأدب وتوزيعه ؟ وما دام هذا هكذا — كما يقول شيخ منهم — فان الأمر لا بدعة فيه ولا ضلالة ؛ فقديماً اجتمع ضعفاء العمال لكى يحموا أنفسهم من وقعة أصحاب « رءوس الأموال » بهم ، فلما أن فعلوا أظهروا للعالم أن العمل شىء واجب أن يرعى فيه الحق ، وأن يتخذ فى معاملته العدل .

فهلموا الى العمل أيها الأدباء الشبان .

وإنى منذ اليوم أجعل نفسى ردءاً لمن يدخل منكم نقابة الأدباء الناشئين أدفع عنهم عادية الشيوخ ، وأقف دونهم إذا ما سمع أحدهم يزأر أو يزمجر ، أو اذا ما رؤى بعضهم يرغى أو يزبد ، ولست أقف هذا الموقف لأنى آنس فى نفسى قوة فوق قوة الشباب أو قدرة على الدفاع لم يؤتها سواى منكم معشر مساكين الأدباء ، بل أقف موقفى هذا متدرعاً بدرع قلدت فيه بعض شيوخ الأدباء ، فقد رأيت أحدهم عفا الله عنه ، وزاده بسطة فى الأدب ، وأمتع به بابى الجد والفكاهة فى الكتابة ، وحفظ عليه دهاءه وبهاءه — ولا مؤاخذة اذا لم يسعفنى الخاطر الكليل بسجعة خير من تلك — أقول رأيت ذلك الصديق القديم قد لجأ إلى حيلة خلقها له عقله القوى ، وهى أن يبدأ نزاله وطعانه بأن يتبرأ من كل ما كتب فى الماضى وما يكتب فى الحال والاستقبال من نثر ونظم ، ومن جد وفكاهة . فاذا ما وثق من أن الناس انخدعوا بذلك واعتقدوه ، أقبل على المسكين أو المساكين الذين اختارهم لطعانه فما زال يخزهم ويضحك ، ثم يطعنهم ويضحك وهو يتسلى بما يراه من عنف حركات مساكينه وعلو صراخهم . فاذا ما دفع الألم أحدهم إلى الدفاع أو الانتقام وسدد طعنته إلى عضو من أعضائه قال له ثابتاً غير منزعج « ومن أدراك ان هذا العضو يهمنى أمره ؟ ومن قال لك أنى أعبأ بطعنتك لى فى هذا الموضع أو ذاك ؟ » فيصدقه المسكين وتنفجر عيناه بدموع الحنق والعجز ظناً منه أن هذا النازل متحصن فيما لا مطمع فيه ، ثم يرمى بحربته أو سهمه ، ويعدل عن انتقامه ، وتلك حيلة فطنت لها دون سواى من الأدباء ، وستكون لى عدة فى نزال الدفاع عن أفراد النقابة إذا ما التأم أمرهم ، وتم اجتماعهم ، فاذا هم جعلونى نقيبهم جعلت نفسى فداءهم ، ولن يصيبنى بفضل حيلة صديقى الشيخ أذى ولا ألم ، وسأنجل هى أيها الأدباء الشبان إذا ما وفقكم الله إلى اختيارى زعيماً لكم أن أقوم فيكم بدعوة أو « دعاية » كما يقول بعضهم تكون لكم فيها بركة ان شاء الله ، وذلك أن أنصح لكم أن تقللوا من الاهتمام لما ينالكم من وراء ما تؤلفونه ، وأن تقفوا من مؤلفاتكم موقف الناظر « المتفرج » لتروا ما يقول الناس فيها ، ولكم الحق فى أن تضحكوا ملء أفواهكم من سوا كم سخرية إذا رأيتم أنه لم يوفق الى فهم ما فى مؤلفاتكم من جمال أو حقيقة

وبذلك تكونون قد وقفتم من ناقدكم على سوأة — فإذا لم تستطيعوا ذلك ، ورأيتم أن الناقد قد أخذ عليكم مسامع الناس فاساء عندهم ذكركم ، فني أنصح لكم أن تروضوا أنفسكم على فلسفة الأستاذ الذي وصفت لكم حيلته حتى تصلوا بعد حين من رياضتها على تلك الفليسفة إلى مرتبة القدرة على أن تنظروا إلى مؤلفاتكم فى شيء من الاحتقار ، أليست مؤلفاتكم من صنعكم ؟ وإذا لم تكن معجبة ولا باهرة ، أليس فى طاقتكم أن تخلقوا سواها ؟ فاذا كانت باهرة ولكنها قد ظلمها النقاد ، أليس فى استمراركم على التأليف وإتيانكم بعد الآية الآية الأخرى ، وإتحافكم الناس بمؤلف فى أثر مؤلف أقوى دليل على حسن استعدادكم ، وعلو كعبكم ؟

وبعد ؛ فهذه نصيحة أخرى ، وهي أن يؤلف من يؤلف منكم لأنه مندفع إلى ذلك بميل فى نفسه لا لكي يطلع الناس منه على مايمدحونه به ، فالأديب الصحيح من ألف لنفسه أولاً ، ولا تظنوا أنني سأجتزئ من واجبات النقابة بالنصح لكم ، بل سأتجه بكم نحو نضال يجعل المشايخ يطلبون عفو الشبان وهم جاثون خاضعون مذعنون ، وليس فى خطتي شيء عجيب ، فاني لن أفعل شيئاً أكثر مما يفعله نقباء سائر النقابات ، فاني اذا ماحزبكم أمر سأدعوكم إلى الاعتصاب والأضراب عن التأليف والكتابة اضرابا تاماً ، فيعدل عندذلك عن الاقتراب من الأقلام كل من يكتب منكم فى مجلة أو صحيفة ، أو من يؤلف الكتب سواء أكان ممن يكتبون فى الجد أم فى الفكاهة ؛ وإذا ما رأى بعضكم أن ذلك غير ممكن لتغلب شهوة الكتابة عليه مهدنا له السبيل بأن نجعل فى دار النقابة مطبعة ونجعل لها صحيفة ونقصر قراءتها على أفراد النقابة أو أعضائها كما يقولون أحياناً ، وعند ذلك يجد شيوخ الأدب أنفسهم عدداً ضئيلاً ، كما حدث لأشراف رومة من قبلهم منذ قرون ، فلا يستطيعون أن يخرجوا جريدة ولا مجلة ، ولا يجدون شيئاً ينتقدونه ويظهرون بنقده سيادتهم فتقف دواليب أعمالهم ويعضون البنان أسفاً على اخراجكم واغضابكم ، ويلجئهم الحرص على مصلحتهم إلى طلب الصفح وإلى معاملتكم بالعدل والحق . حقاً قد يستريح الجمهور بضعة أيام من القراءة ، غير انه قد يستجم فى أثناء هذه الأيام قدرته على الاستقلال فى التفكير فيكون أقدر على أن يزن أقوال مشايخ الأدباء فيكم وحكمهم عليكم ، وعند ذلك لا أتشدد فى مطالبى ، بل سأقتصر على طلب واحد إلى مشايخ الأدباء ، وذلك أنهم إذا شاءوا نقد مؤلف أحدكم فهم بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يذكروا محاسنه ومساويه كما قال أحد قدماء مشايخ الأدب ، وأن يعدلوا فى الحكم ماداموا يجعلون عنوان كتابتهم « نقد كذا » وإما أن يجعلوا عنوان كتابتهم « محاسن كذا » ويكتفوا بذكر محاسنه أو « مساوئ كذا » ويكتفوا بذكر مساوئه ، فاذا هم قبلوا ذلك الشرط أبحت لكم العودة إلى معاونتهم ومشاركتهم ، وإن هم أبوه مضينا فى الأضراب حتى تلجئهم ضرورة الحياة الى النزول عند العدل .

فهل من مجيب أيها الأدباء الشبان ؟ « أديب »

وفاء الطائر

للآنسة أسماء فهمى

درجة شرف فى الآداب

امتقع وجه الشمس ، وخبت أشعتها ، وعلاها اصفرار ، وأصابتها رعشة ، وغشي الأفق حمرة الوجد فى ساعة الغروب ، ثم وجمت الطبيعة ، واطمأن الجدول فى سيره ، ورق النسيم واستولى على الكائنات شعور منقبض حزين . . .

ثم حالت نضرة الحقول فى الأصيل ؛ ونظر الناس الى الشمس الغاربة فآثروا الرواح ، وتململت الماشية ، وقلق الصغار ، فسارع القرويون الى جمع شتات أدواتهم من فؤوس وسلات ، وامتطوا دوابهم ، فصارت تعدو بهم يدفعها الحنين والشوق الى الدار بعد نصب النهار ؛ وسرعان ما ازدحمت بالعائدين الطرق والمسالك الموصلة الى القرية . وكلهم مفتون بروعة المساء ، الانسان والحيوان فى ذلك سواء . . .

وأمام الدور فى القرية تجمهرت النساء والأطفال ، وسرت الحياة فى الارجاء ، وتطاولت الأعناق لاجتلاء طلعة القادمين كما لو أن أمد الشوق والفراق قد طال . . .

والطير لحت بدورها احتضار الشمس من بين الأغصان ، فتبادلت النظرات ، وتجاوبت بالأغاريد كأنها تذكرت أمراً ذا بال ، وسرعان ما جمعت جموعها وغادرت أسرة الأغصان ، وحلقت فى الفضاء أسراباً تندفع اندفاعاً نحو العش بقوة الحنين وعزم الجناح . . والحق ليس هناك أروع من منظر الطير ، يدفعها الحنان نحو العش فلا تعود تأبه بتدليل الغصن ولا بجمال

الزهر ولا بوفرة الحَب ، ولا بالمرح والتغريد . . .

ولكن طائراً جميلاً يمتاز بقوة تغريده وشدة جرأته ، وتدفق مرحه وحيويته ، أغرته أكوام القمح الذهبية فترك أفنان الشجر وكاد يقع في شراك الفلاح لولا أن أنقذته سرعة قفزه . فنجا بأعجوبة بيد أن أصابه خدش في الجناح ، ولم يدر الطائر لشدة فرحه بالنجاة حقيقة ما أصابه إلا عندما حان ميعاد الرحيل للعش ، وناداه الرفاق فرفرف بجناحيه وفاضت نفسه بنشوة الحنين ، ودفع جناحيه محاولاً أن يأخذ مكانه في مقدمة السرب ، ويكون كعادته أول من تضمه أحضان الوكر .. وصاح صيحة الطرب ، واندفع إلى الأمام كالسهم ، ولكن لم يلبث أن أخذ منه الجهد ، إذ اتسعت شقة الجرح . فترنح في سيره ، وأخذ يدور حول نفسه ثم استسلم لجاذبية الأرض . . وسرعان ما استحال طيرانه إلى قفز . . ونظر أمامه فوجد السرب قد توغل في الفضاء فداخله الهم ، ولكن بقي لديه شيء من الأمل الذي كانت تحمله إليه بقايا أسلاك الشمس الغاربة ؛ فصار يتعلق بها كما يتعلق الغريق بالأعشاب الطافية على وجه اليم . . على أن شعاع الأمل سرعان ما انطفأ مع أشعة الشمس ، وانتشر الظلام في الأرجاء ، وتسربل الكون بحلة سوداء . . والطائر المسكين لا يزال بعيداً عن العش ، بينما الطيور الأخرى كانت في تلك الآونة تنعم بدفء الوكر وحنان الأهل ، وتستقبل الظلام في هدوء واطمئنان ، والناس والماشية بلغوا مستقرهم ، والليل يهمس حولها : نعم عقبى الدار . . .

أخذ الطائر الشريد يسير على غير هدى في دياجير الظلام واليأس — يرتطم بالحوائط والجدران والأشجار ، ويتعسر في الوحل والشوك ، وقد كان في وسعه لو أراد أن ينزوي في ركن من الأركان ، أو يقضي الليل فوق غصن من الأغصان ، ولكنه لم يشأ أن يتخذ عن عشه بديلاً ، بل آثر الجهد والنصب أملاً أن تسوقه الأقدار بعد طول السهاد إلى العش الوثير المحبوب . . . واستحالت في نظره حرية الفضاء إلى سجن قاتم ، وجمال الشجر إلى قبح دميم ، ونفح النسيم إلى شواظ من نار ، وأنسى الطائر فقد العش كل ما كان ينعم به من لذة ومتعة وشدو ، طليقاً في سماء الصفاء والجمال . . .

وبقي على تلك الحال من القلق والاضطراب إلى أن قاده الحظ العاثر إلى كوخ فلاح ينبعث منه نور ضئيل ، فاندفع إليه في ساعة يأسه وحيرته دون تفكير . وهاجت الأطفال وماجت عند ما رأت وسطها الطائر الجميل ، واجتهدت في حصاره وإلقاء القبض عليه ، فاشتد هلع الطائر وقاوم مقاومة الأبطال ، ولكن آلام جرحه اشتدت ، وازداد تخبطه وتكرر سقوطه ، وأخيراً وقع في الميدان صريعاً ، فهجمت عليه الأعداء ، ولكن سرعان ما تراجعت ووقفت مبهوتة صامتة مأخوذة برهبة الموت . . .

ولم يعلم الأطفال والكبار شيئاً عن سر دخول الطائر في ظلام الليل ، ولو علموا سبب حيرته واضطرابه ، وأنه قاوم القدر وأبى أن يهجع في غير العش الرؤوم اخلاصاً منه وولاء ، لنثرت عليه الزهور والرياحين ، ولشغل مكاناً من القلب أسمى من المكان الذي يشغله آلاف الناس — الذين لا يتعصبون في الحياة لأمر ، ولا يتطرفون في الغرام بشيء ، ولا يفضلون داراً على دار . . بل قد لا يبأون أن تضحّى سعادة أوطان بأكملها . . . بينما يموت طائر صغير شهيد الوفاء للعش . . .

أسماء فهمي

من الشعر المنثور

المدينـــة الهاجعة

للأستاذ خليل هنداوي

مهداة الى مدينتي الصغيرة الراقدة رقاداً عميقاً على الشاطئ الأزرق . . . صيدا ؟
خليل

خاطر أزعج نفسي يا له من خاطر !
ما له من أول ما له من آخر

* * *

دعوا مدينة البحر تنم هادئة ، فقـد أرقتها يقظة الشاطئ ،
لا توقظوها اذا جاء الفجر . . . إنها نائمة .
نامت عن الأرزاء والشجون .
واستسلمت للأحلام الجميلة وأطبقت عليها الجفون .
من فاته فى اليقظة الهناء
فليطلب النوم ، ففيه شفاء
وليغر أحلامه بألوان الضياء
فتصبح الروح بها ناعمة
ألا لا توقظوها . . . إنها حالمة .

* * *

نامت فى غابر الزمن على الشاطئ الأزرق نوماً عميقاً ،
وفى النوم تتبدل الخاطرات ، وتتغير الأرواح ،
إذ لا سكون فى عالم الحركة ، ولا وقوف فى عالم الضوضاء .
تبـدلت مدينتي وهى راقدة ، وهبت فلم تر من آثار أخواتها إلا أطلالاً بالية ، ورسوماً عافية .
فمشيت بين مدائن غريبة حائرة ذاهلة ، مشية أهل الكهف بعد يقظتهم !
رجعت الى شاطئها الأزرق كما قفل أولئك الى كهفهم ،
لأن الحياة تنكرت لها ولهم
فنامت . . . ولا تزال نائمة
لا توقظوها . . . إنها حالمة .

* * *

يهوى على قلبي أسى مبهم
أكتمه قسراً فلا يكتم
ألا أيها الأسى فى أية جانحة تجثم ؟
لا خمر تقوى على أمرك !
ولا غادة تقوى على قتالك . . .
أى أسى فى روحى الساعة ؟

* * *

تذوقت أيها الغريب جمال الصحراء الذى لا تنتهى حدوده كما لا تنتهى لها حدود ،
وفنيت مع طيوبها ، وامتزجت مع ألوانها
وجريت مع (فراتها) الصامت ، ورنات مع أطيارها ،
فمالك لم يشبعك جمال ، ولم تذهلك هذه الأشكال ؟

* * *

فيك وحشة من كل شيء ، لا يغلب عليها شيء ،
ولا تنير آفاقك المظلمة شمس ، ولا ينفذ اليها قمر
لأن فى روحك وحشة من كل شيء . . .
لا الطبيعة تشبع نفسك ، ولا عبيرها يسكر روحك .
لأن مدينتك الصغيرة بعيدة عنك . . .
وإن لم يكن لك فى مدينتك — أيها الغبى — إلا الصخور والأمواج ، فانها ستدعوك اليها .
لا حبيب فى زواياها يناديك . . .
ولا صديق يناجيك .
الرمال التى تحسبها جامدة ميتة . . . الرمال التى كنت تعبث بها طفلاً تناديك .
تناديك لتحتضنك . . . هى مبعث وحشتك ؛ وموئل ذكرياتك .
للصخور الصلدة روح ، وللأمواج المتقلبة روح
تحيا كلها فى حنايا روحك
هى نائمة كمدينتك النائمة . . .
لا توقظوها . . . إنها نائمة

* * *

ترقد مدينتي الصغيرة فى كل شيء أراه ، حتى فى ذرات الرمال وقزعات السحاب .
وىرن صوتها فى كل مبعث صوت ، حتى فى وقع الامطار .
فأين أفر من وجهها ، وكيف أصم اذنى عن صوتها ؟

دنيا الأدب

بقلم محمد قدرى لطفى
ليسانسيه فى الآداب

ليست هى دنيانا ، فما ينبغى أن يكون هذا الأدب منها . وليست هى عالمنا ، فما يجب لهذا الأدب أن يدخل فيه ، وانما هى طبيعة الأدب تأبى أن يكون من دنيانا فى شىء ، فان أكثر دنيانا قبيح . وأكثر الأدب جميل ، وعماد دنيانا الحقيقة وعماد دنيا الأدب الخيال ، والعقل فى دنيانا عنصرها الأكبر ، والعاطفة فى دنيا الأدب عنصرها الأول . والمرء فى دنياه يرى بعيني رأسه ، ويرى فى دنيا الأدب بعين قلبه ، وهو فى الدنيا مادى ، قد يمسك بالزهرة فيقطعها فى غير رحمة إلتماس عبيرها ، فيظل به حتى ينفد ، ثم يلقيها كأن لم تبهره لحظة بجمالها ، ولم تنعشه برهة بأريجها ، وهو فى دنيا الأدب روحى ، إذا أمسك بالزهرة فانما عسها فى رفق ، وإذا التمس شذاها فانما يفعل فى حذر واحتياط ، حتى إذا أعجبه عبيرها لم يقتطفها ولم يلقها ، وانما تراه يستخلص من عبيرها الطيب بيتاً ينظمه ، أو قصيدة ينشئها ، أو سطوراً يكتبها ، وتراه يغوص فى قرار المعانى ويصعد إلى عنان اللغة ليسجل للخالق حسن الصنعة ودقة الخلق وجمال التكوين ، وتراه يوفى الزهرة حقها من الاعجاب والاطراء ، ويبادلها حسنا بحسن ومتعة بمتعة . والمرء فى دنياه يتكلم فيما يشاء بما يشاء ، وهو فى دنيا أدبه لا يتكلم إلا فيما حركت شعوره وهزت عاطفته ، فاذا فعل فبا للفظ المختار وبالمعنى المنتقى ، والمرء فى دنياه حين يتكلم لا يكاد يقع قوله إلا من نفوس قليلة مهما تكثر فلن تخرج عن الحصر ، ولن تفوق العد ، وهو فى دنيا الأدب يتكلم فيلقى بمواطف الجموع ويضرب على أوتار القلوب ، وقد ينتقل قوله من لغة إلى لغة وينتشر حديثه من لسان إلى لسان ، فيفنى هو وما قال باق على الدهر خالد على الأيام ، وقد يظل المرء فى دنياه من غير صاحب ، وقوله فى دنيا الأدب يلقى الصحاب فى كل مكان ، ويتخذ سميراً فى الجماعات أو خليلاً فى الوحشة ، أو مؤنساً فى الوحدة ، يصادف من كل قلب مبتغاه ، ويلقى عند كل امرئ قبولاً ، ويقع من كل نفس موقع البرء من السقام

ودنيانا محدودة وان ترامت حدودها ، مقيدة وان اتسعت قيودها ، ودنيا الأدب لا تعرف الحد ولا تعرف القيد ، فالأدب يعيش فى كل مكان ويحيا فى كل زمان ، يتناول كل شئ ، وقد يتخذ لنفسه موضوعا من لاشىء ، وليس توخى الجمال فيه ولا التزام أوجه الحسن فى فنونه قيداً له ولا عيباً فى دنياه ، وانما هو الجمال طبيعته وعنصره ، ما أن يفقده حتى يخرج من دائرة الأدب إلى دائرة الكلام البحت والحديث الصرف . فالشعر إن فقد الجمال كان نظما فحسب ، لاهو بالشعر ولا هو بالنثر ، قد وقف بين الصناعتين لايدري أهو من هذه أم هو من تلك ، والنثر إن فقد طلاء البلاغة لم يكن من الفن فى شئ ، وكما تغلو الأشياء فى دنيانا وترخص ، يغلو الأدب فى دنياه ، وتنحط قيمته تبعا لمقدار الجمال فيه ، وأكثر موازين دنيانا الكم ، وميزان دنيا الأدب الكيف .

على أن دنيا الأدب وان كانت جمالاً كلها فليست نعيما كلها ، وان كانت إعجابا كلها فليست تخلو من العجب ، فقد أقام البؤس فيها إلى جانب الجمال ، وسكنت الفاقة فيها إلى جانب الحسن ، وكثيراً ما تحالفا على غير فكاك ، وتوافقا على غير خلاف ، شأن دنيا الأدب فى ذلك شأن دنيانا ، فانك لتجد فيها الوجه الجميل فى المسكن الذليل ، وغالباً ما يلقاك الشرف الرفيع فى الكوخ الحقير ، وكثيراً ما تحل السعادة حيث رق الحال ، ويقيم الهناء حيث يحل الفقر .

وكل الأشياء التى نحيا فيها تحيا فينا .

هى حية فى نفسى . . . مدينتى الصغيرة

هى مبعث وحشتى فى هذه الحياة الغريبة .

هى التي تجذبني اليها وتخيم فوق رأسى فى غربتى كالسحابة السوداء ، وهى مجمع ذكرياتى التى تصطف للقائى فى كل زاوية من زواياها ، وفى كل ثنية من ثناياها

***

سأحاول أن أنسى . . . وسيساعدنى الزمان على النسيان ، وأية ذكرى وأية خطرة تستطيع أن تثبت أمام سلطان الأزمان ؟ لكن شاطئك الأزرق الجميل . . . شاطئك الذى امتزج دمه بدمى ، ويخفق قلبه فى قلبى ، أنى لى أن أنساه ؟ . . .

هو كالقطرة التى تنعكس فيها كل السموات والنجوم . . .

ألا هنيئاً للجالس على شاطئك الازرق فانه مالك كل شىء ؟

صيداء خليل هنداوى

ودنيا الأدب لا آخرة بعدها ، ولا إمهال فيها ، وإنما يلقى صاحب الأدب فيها حسابه سريعاً فيجزى به أو يعاقب عليه ، فما هو إلا أن يظهر أهل دنياه على ماأتى من عمل فني حتى يتولاه النقاد من قومه بالحساب ، يحاسبونه حسابا فيه يسر حيناً ، وكله عسر أحياناً ، وحساب أهل الأدب على عسره ليس يخلو من عجب ، فلا الخير فيه خير بالاجماع ، ولا الشر فيه شر بالاجماع ، وإنما الخير عند زيد شر لدى عمرو ، والشر يراه هذا خيراً ، والخير فى عرف ذاك شر ، قد تفاوتت الموازين ، وتباينت المكاييل ، وليت شعرى متى يشاء ملائكة النقد أن يكون لدنيا الأدب ميزان يزن به الجميع ، وكيل يكيل به الجميع . فقد خلق الناقدون وكل معه ميزانه ، وكل فى يده كيله ، فاختلفت أحكامهم على العمل الفني الواحد ، وتعددت أقوالهم فى انتاج الأديب الواحد ، ولعل دنيا الأدب لم تظلم صاحب الأدب حين أباحت له حرية الدفاع عن آثاره الأدبية والرد على محاسبيه ، والتماس الحق لجانبه . ومن غريب دنيا الأدب أنها تبيح حساب المرء حياً وميتاً ، فيتناول النقاد سيرته بالتحليل ويتولون حياته بالتمحيص ، ويظهرون الناس على أقواله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وانك لتجد الشاعر أو الناثر قد فارق دنياه منذ قرون ، وأسدلت السنون عليه وعلى قومه حجابا من النسيان ، ومع ذلك فهو فى دنيا الأدب حى مذكور لا يزال النقاد يحاسبونه على شعر قرضه ، أو نثر كتبه ، أو قصة حاك أطرافها ، ولا يكتفون من ذلك بالمئات من المرات .

ومما يحاسب المرء عليه فى دنيا الأدب عدا الأجادة فى الفن أو التقصير فيه ماقد يرتكبه من سرقة لثمار العقول أو نتاج العواطف فينتحل لنفسه ماليس له . غير أن الحساب على هذا الذنب ليس كما ينبغى له من العسر والشدة ، وليس كما يتفق مع خطره من القسوة والقوة ، وإنما هو مباح أو كالمباح حتى خشيت دنيانا هذه الأباحة من دنيا الأدب ، وخافت على أهلها من دعاة الأدب أن يبيحوا فيها ماليس الى إباحته من سبيل ، فأفسحت صدرها لمن يلجأ اليها من دنيا الأدب ، شاكياً ما استحله الغير من ثمرات قريحته ووحى خاطره فحمته بتشريعها ، وأحاطته بسياج من قانونها .

وفى دنيا الأدب من المفارقات العجيبة والسير الطريفة ما لا تتسع له الصحائف ، فكيف يقوى كاتب على دنيا بأكملها يحصى مالها ويعدد مافيها ؟

محمد قدرى لطفى

٨ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ مصطفى السفطى

مصطفى السفطى بن مصطفى الفاكهانى السفطى بن على السفطى ابن احمد شلبى ، نسبة الى سفط القطايا ، ولد بمصر القاهرة حوالى سنة ١٢٥٠ ، وأرسل الى المكتب فى السابعة من سنيه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر . ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى ، ولما أعيى عليه أمره ، وتعذر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ، ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد احمد البقلى أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره بحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية ، فلم يستفد شيئاً أيضا ؛ وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهورى ، فأمره بترك طلب النحو كلية حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فمالت نفسه اليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتوح البيجرى ، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن القبانى أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لاخوانه المبتدئين .

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر ، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهورى ومعه متن الآجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له اقرأ هذه الجملة ثم تفهّم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشراح ، فيفعل ، فتارة كان يخطئ وتارة يصيب ، وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة ؛ وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به ،

وأخبره أن عند علي افندي العروسي شرحاً للرملي على الآجرومية ، فاستعاراه منه وقرآه معاً ، فكانا يفهمان ما فيه فهماً جيداً . ثم اجتمع المترجم بانسان كفيف البصر اسمه الشيخ على الفيومي ، له باع في العربية ، فقرأ عليـه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية ، والقطر ، وابن عقيل ؛ ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبيني بالأزهر ، وقرأ الخطيب على الشيخ على الأشموني عم الشيخ الشيخ محمد الأشموني الشهير ، وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المبلط ، وهو آخر حضوره في الفقه . ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر ، والعروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعة بك : كقدري باشا وابراهيم بك مرزوق . وبعـد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ في أول نظارة رياض باشا على المعارف ، وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزمخشري في النحو ؛ ثم كُلف بتأليف رسالة في الصرف ففعل ، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث سنوات ، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل في البلاغة والصرف بتوسع أبسط من الرسالة الأولى ، وقرأ بها سنوات ، ثم أمر بقراءة العروض والقوافي في المدارس ، فاستحسن رسالة أبي الجيش وأقرأها ، ثم وضع رسالة في العروض والقوافي أتم بها ما أراده أبو الجيش ، ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس ؛ ثم كلف بوضع رسالة في علم الرسم ، فوضع رسالته « عنوان النجابة في قواعد الكتابة » وقررت بالمدارس .

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة (بالمبتديان) ، وكان ذلك سنة ١٣٠٦ ، فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره في المترادفات ، ثم نقل الى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات ، فبقى بها سنتين ألف فيها رسالته « محاسن الأعمال » ، ولما عرضت على المجلس العالي بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جداً وقالوا : الأولى أن تكون بيد المعلمات لا بيد المتعلمات . ثم أخذت قوته في الوهن ، وبصره في الضعف لكبر السن ، فعرض استقالتـه على النظارة متبينا التسبب . فأحيل على الكشف الطبي ، ثم أحيل على المعاش . وله من التآليف غير ما تقدم رسالة في الصرف اسمها « قرة الطرف » أوسع من المتقدمة ، وأخرى في النحو وهي « منحة الوهاب في قواعد الاعراب » ، وهي نظم . ومن شعره :

الحمد لله لا فقر يضر ولا غني يغر فلا حزن ولا فرح

وليس لي مطمع في الناس يلجئني للذم والمدح إن ضنوا وإن سمحوا

وأسأل الله حاجاتي فيمنحني من فضله فوق ما أهوى وأقترح

وله :

قد يسر الله أسباب المعاش لنا بالعقل والرزق موقوف على القسم

ليعلم العبد أن الله يرزق من يشاء بالفضل لا بالسعي والهمم

فيطلب الرزق بالأسباب معتمداً على الذي أوجد الأشياء من عدم

ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق ، حسن المعاشرة ، اعتكف في داره بعد فصله من المدارس على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع بعض من يسمر معهم من اخوانه وأخلائه ، أو استقلالاً بنفسه ، وكان في مبتدا أمره مولعاً بالسماع ، وتشبث بتعلم الموسيقى ، فلازم الشيخ محمداً شهاب الدين الشاعر المشهور ، وكان متقناً لها ، فأخذها عنه وأتقنها ، ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت له ملكة أدبية ، ومعرفة بجيـد الشعر ونقده . ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الكبر وضعف عن المشى ، فلزم داره لا يخرج منها إلاّ لصلاة الجمعة في أقرب مسجد اليه ، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشـقة زائدة . وتوفاه الله الى رحمته في يوم الثلاثاء ٢١ رمضان سنة ١٣٢٧ .

الشيخ احمد أبو خطوة

الحنـفي

أحمد بن أحمد بن محمد بن حسب الله بن علي بن محمد بن علي ابن مدكور بن أبي خطوة المدفون في مطوبس ابن مدكور بن شكر بن هاشم بن محمد وهو أول من نزل بكفر ربيع منهم ودفن به ، ابن سالم المدفون بالحدين بالبحيرة ، ابن موسى بن حسن بن احمد ابن علي بن شكر بن ابراهيم بن أحمد بن شاكر بن حسن بن علي ابن محمد بن علي ابن السيد عبد الرحيم القنائي صاحب الضريح المشهور بقنا ابن هريدي بن جعفر بن حماد بن سعادة بن عبد اللطيف القاسم بن عبد الله بن عبد اللطيف بن هاشم بن عبد الجواد ابن محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام على بن أبي طالب . هكذا أملي عليّ نسبه من لفظه . . ولد في ٢٠ ذي القعدة سنة ١٢٦٨ ببلدة كفر ربيع التابعة لتلا من أعمال المنوفية ونشأ

بها ، فحفظ القرآن وبعض المتون ، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر فى ١٦ شوال سنة ١٢٨١ واشتغل فيه بالطلب وقراءة الفقه على مذهب الامام الأعظم . ومن شيوخه الشيخ محمد البسيونىّ البيانىّ ، والشيخ أحمد الرفاعىّ الفيومىّ ، والشيخ عبد الرحمن البحراوىّ ، والشيخ عبد الله الدرستاوىّ ، والشيخ حسن الطويل

وكان أكثر اشتغاله فى المعقول على الشيخ حسن الطويل ولازم صحبته وتخلّق بأخلاقه ، وقرأ عليه بداره العلوم الحكميّة والرياضيّة فتلقى عنه شرح الهداية للميبدى ، والطوالع ، وأكثر المقاصد والمواقف ، واشارات ابن سينا بالشروح لنصير الدين الطوسىّ والامام الرازىّ ، والمحاكات ، وبعض كتاب النجاة لابن سينا ، وأشكال التأسيس بشروحها فى الهندسة ، وتحرير أقليدس ، وفى الهيئة شرح الجغميني ، وتذكرة نصير الدين الطوسىّ ؛ وفى الحساب خلاصة بهاء الدين العاملىّ بشرح البورصاوى ، والمونة وشرح ابن الهائم وغيرها ، وفى المنطق القطب بحواشيه والمطالع والخبيصىّ وايساغوجى وغير ذلك من هذه العلوم .

وامتحن للعالمية والتدريس فى ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ وكان مجلس الامتحان مكوّناً من الشيخ عبد الرحمن البحراوىّ والشيخ عبدالقادر الرافعىّ الحنفيّين ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفىّ والشيخ زين المرصفىّ الشافعيّين ، والشيخ احمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى المالكيّين ، برئاسة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد المهدى العباسى ، فلما امتحنوه أعجبوا به اعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدّة ذكائه فأجازوه ، إلاّ أنه اخر التدريس لسبب اشتغاله بتتميم ما كان يقرؤه على شيخه الطويل

ثم ابتدأ فى القراءة بالأزهر سنة ١٢٩٦ فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها ، وتخرّج عليه جمع من الأفاضل منهم السيد محمد شاكر ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ محمد بخاتى ، والشيخ سعيد الموجى ، والشيخ محمد الغريني ، والشيخ مصطفى سلطان وغيرهم .

ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف فكانت له اليد الطولى فى اصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بجودة عقله وحسن رأيه ؛ وحسبك أنه دخله وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على المائتين . ثم نقل عضواً فى المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ورأس المجلس العلمي للنظر والفصل فى القضايا الكبرى ، ثم انتدب للمحكمة العليا بعد ذلك فكانت له اليد الطولى فى إصلاحها ومنع شهادات الزور وإصلاح حال المحامين ، وكانت وفاته فى شوال سنة ١٣٢٤ .

حسن افندى عبد الباسط

الحوَىّ

كان خِلاسىّ اللون يشبه الحبش ، وبوجهه أثر جدرىّ ، وكان أديباً شاعراً هجّاء ، خبيث اللسان مجيداً ، إلا أنه مقلّ ، استخدم بالاسكندرية فكان رئيس قلم فى الضبطية حوالى سنة ١٢٨٥ ، وبقى بها الى سنة ١٢٩٠ ، وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحى باشا الشاعر المشهور ، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء ، فيسمرون معاً ويحيون الليالى بالمذاكرة وإنشاد الشعر ، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمِرْبَد ، وألا يقبلوا به أحداً إلا اذا ارتضوا به جميعاً ، فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء المربد ، وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر ، ويعيّنون عدد الأبيات والوقت الذى يجب نظمها فيه ، فكان أحدهم اذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلة لا معنى لها ، أو لها معنى لا يوافق السياق وتمم بها البيت ، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية .

ثم تنقلت الحال بالمترجم فاستخدم معاوناً بمديرية الشرقية ، ثم فصل فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقازيق للصيدلة القديمة ، المساة فى العرف الآن بالعطارة ؛ وكان أمره بها عجباً ، فانه اقتنى كتباً من مفردات الطب وقانون ابن سينا ، وصار اذا طلب منه أحدهم بيع عقار من العقاقير ، سأله عن سبب حاجته اليه وقام الى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه وما يداوى به من العلل ، وبقى مدة على ذلك حتى توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠ .

ومن شعره يمدح محمداً فتح الباب افندى كبير كتّاب ديوان البحر :

رأيت العلا ترتاد بعلاً لنفسها	وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل
فقمنا سراعاً قاصدين لخدرها	عساها بنا ترضى ويُجلى التواصل
فلما رأتنا واقفين ببابها	أشارت لفتح الباب منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه طرفة من الطرف ، وأعجوبة

من العجائب : فى حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب ؛ رآه مرة بعضهم وهو مسافر الى الزقازيق فى القطار ومعه جراب يحمله بيده ، فقال له مداعباً : أظن هذا جراب الحاوى ، أى المشعبذ . فقال لا ياسيدى ، هذا جراب الحُوَىّ !

ابراهيم بيك مرزوق

الشاعر

تلقى العلم بمدرسة الألسن ، وتخرج على ناظرها رفاعة بك رافع الشهير ، فقرأ بهذه المدرسة النحو والصرف وباقى علومها ، وبرع فى الفرنسية . وكان لرفاعة عناية خاصة فى تلقين تلاميذه الغربية والعلوم الأدبية ، وتدريبهم على نظم الشعر ، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة ، فنظم الشعر الجيـــد من المقطعات والقصائد ، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك ابن جعفر مظهر باشا سنة ١٢٨٧ فى ديوان سماه «الدر البهى المنسوق ، بديوان ابراهيم بك مرزوق» وطبع بمصر .

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم فى ديوان كان يقال له (ديوان المرجلات) وهو خاص ببيع الخيـل والماشية التابعة للحكومة ، ثم نقل منه للقلم الافرنجى بالضبطية ، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر ، ثم عاد اليـه بعد نحو ثلاث سنوات ، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المماكبة للافرنج إذا وقع أحدهم فى سجن الضبطية ، أو كانت له دعوى بها ، فلما كان يسلم من أذاه ، حتى ضج منه وكلاء الدول وأكثروا من الشكوى ، فلم يكن يثبت عليه شىء عند التحقيق ، والسبب فى ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه ومرءوسيه بالضبطية على إيصال الأذى اليهم سراً ، نكاية بهم لطغيانهم على الرعيـة ، وتدرعهم بدروع الحمايات .

وفى مدة وكالة اسماعيل باشا الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام ، ثم لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الافرنجى بالخرطوم قاعدة بلاد السودان ، فبقى الى أن توفى بها سنة ١٢٨٣ . وكان مربوع القامة ، أبيض اللون ، قد وخطه الشيب ، ومات بعد ما تجاوز الستين ، رحمه الله تعالى .

الشيخ مصطفى سلامة

النجارى

توفى والده وهو صغير ، فتكفل به زوج أمه ورباه ، فلما ترعرع مال للأدب ، وقرض الشعر ، فاتصل بالشيخ على الدرويش ، وتخرج عليه فى النظم ، واتصل بعد ذلك بأسرة المويلحى ، ففتحوا له حانوتاً بالتربيعة لبيع الحرير فلم يصادفه النجاح ، ثم جعل منشئاً بالوقائع المصرية ، ولم يزل يكافح زمنه حتى اتصل بوالى مصر سعيد باشا ، وصار شاعره وتقرب اليـه ونال جوائزه ، فحسنت حاله ، واجتمع بأكابر الدولة ومدحهم وداخلهم فنال وجاهة وصار له شأن يذكر ، وجمع ما نظمه فى مدح سعيد باشا فى ديوان خاص ، وهو الذى جمع ديوان أستاذه الدرويش وسماه الاشعار بحميد الأشعار .

الكـنـــدى

« هو من الاثنى عشر عبقرياً الذين ظهروا فى العالم »
كاردانو

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

مقدمة :

ليس أصعب على الباحث من الكتابة عن حياة عالم لم يعطه التاريخ حقه من البحث والاستقصاء ، ويزيد فى الصعوبة التشويه الذى نجده فى حياة كثيرين من علماء العرب والمسلمين . فكم من حقائق لم تذكر ، وكم من حوادث أخذت على غير حقيقتها فسىء فهمها ، وكم من اختراع للعرب نُسب لغيرهم ، وكم من تلاعب طرأ على التراث الأسلامى فجعل كثيرين من شباننا يشكون فى مجد أمتهم ومدنيتها وقابليتها على الأنتاج . ومن الغريب أن نجد بعض علماء الفرنجة (لبقين) فى الكتابة عن نوابغ العرب ، فهناك شخصيات عربية واسلامية لمعت فى نواح عديدة من المعرفة ، ومن الطبيعى أن يختلف اللمعان ، فبينما تراه شديداً فى فروع ، تراه فى الأخرى وفى الوقت نفسه غير شديد . ويأخذ بعض الافرنج النواحى الشديدة اللمعان ويذكرونها ويهملون النواحى الأخرى اهمالاً كلياً لا يعيرونها أى اهتمام ولا يأتون على ذكرها . ولا شك أن فى هذا إجحافاً لا يستسيغه عقل ولا يقبله منطق ، وعلينا أن نعمل جهدنا لنظهر هذه ونعطيها حقها من التنقيب والبحث . خذ ابن سينا (مثلاً) فقد اشتهر فى الطب والفلسفة ، وقليلون جداً الذين يعرفون أنه كان رياضياً وطبيعياً ، وأن له فى كل هذه جولات وآراء سديدة قيمة ، فلقد أفاد الفيزياء ببحوثه المبتكرة فيها ، كما أنه استطاع أن يقدم خدمات جليلة لبعض الفروع من العلوم الرياضية . واذا اطلعت على ترجمة حياة ابن يونس فى دائرة المعارف الاسلامية تجد أن كاتب الترجمة (H. suter) قد وفى حق ابن يونس فى نواح ولم يوفها فى نواح أخرى فلقد جهل أو نسى أو تناسى (لاأدرى) ان يذكر ان الرقاص (بندول الساعة) هو من مخترعات ابن يونس وناهيك بالرقاص والفوائد التى جنتها المدنية منـه . ولا أكون مبالغاً اذا قلت إنه يندر أن تجد واحداً يعرف أن عمر الخيام كان من كبار رياضيى زمانه ومن فحول فلكيى عصره ، فلقد قدم خدمات حقيقية للرياضيات والفلك لا تقـل عن خدماته للشعر والفلسفة .. وما يقال عن هؤلاء يُقال عن غيرهم .

منشؤه :

والآن ... نعود الى الكندى فنقول : قل من يجهل أن يعقوب الكندى من أشهر فلاسفة الاسلام ، ولكن قل من يعرف أيضاً أن له فضلاً على العلوم الرياضية والفلكية اذ كان من الذين امتازت مواهبهم فى نواحيها العديدة ، ومن أوائل الذين اشتغلوا وألفوا فى العلوم الدخيلة . يقول كتاب التمدن الاسلامى « .. فبعد أن كان العربُ فى صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال حتى فى العلوم الاسلامية .. أصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى فى العلوم الفلسفية الدخيلة ، وأول من اشتغل فيها أبناء ملوكهم .. »

كان الكندى عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم ، وتأليف اللحون ، وطبائع الأعداد . وهو يمت بالنسب الى أحـد الملوك العرب ، وكان أبوه أميراً على الكوفة (محل ولادته) . وقد وُلد فى بداية القرن التاسع للميلاد ولم نتمكن أن نعثر بالضبط على تاريخ ولادته . أما تاريخ وفاته فيرجح أنه فى أواخر القرن التاسع .

درس الكندى فى بادىء أمره فى البصرة ثم أتم تحصيله على أشهر العلماء ، هذه الفرص التى لم تكن تسنح لغيره ، واستعداده الفطرى واستغلاله لكل ذلك أوجد له مكاناً ذا حرمة واعتبار عند خلفاء بنى العباس حتى أن الخليفة المأمون انتخبه ليكون أحد الذين يُعهد اليهم ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من حكماء اليونان .

ولم يخل الكندى من أناس يناصبونه العداء إما حسداً وإما غير ذلك كالقاضى صاعد بن احمد القرطبى ، وأبى معشر جعفر بن محمد البلخى ويُقال إن هذا الأخير كثيراً ما كان يشاغب عليه ويشنع بجهة أخذه بعلوم الفلاسفة ، وقد تمكن الكندى مرة بثاقب نظره أن يتخلص منه ، وذلك بأن بعث مَنْ حسّن له النظر فى الرياضيات وفعلاً اشتغل أبو معشر بها زمناً ، ولكنه لم يوفق ، فعدل عنها الى علم النجوم ، وقد وجد فيه لذة فعكف عليه وأحب من يشتغل فيه وأصبح من أصحاب الكندى ومن المعجبين بعلمه ونبوغه

آثاره :

والكندى أول من احتذى حـذو ارسطوطاليس ، كان ملماً بحكمة الهنود ، فسر كثيراً من كتب الفلسفة ووضع بعض النظريات الفلسفية فى قالب مفهوم حتى ان كتبه فى المنطق وغيره لقيت إقبالاً عظيماً ، « وله رسائل ومؤلفات فى علوم شتى

نفقت عند الناس نفاقاً عجيباً . وأقبلوا عليها اقبالاً مدهشاً » [١]

هذا وغيره أوجد له في قلوب معاصريه حسداً فنقموا عليه وحاولوا مراراً النيل منه . وأن يوقعوا بينه وبين الخليفة فنجحوا في ذلك ، ولكن إلى زمن لم يطل أمده .

كان الكندي مهندساً قديراً كما كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً عظيماً ومنجماً ماهراً . وقد ترك آثاراً كباراً جليلة جعلت العالم الإيطالي « كاردانو » يعده من بين الاثني عشر عبقرياً الذين هم من أهل الطراز الأول في الذكاء . وجعلت أيضاً « باكون » الشهير يقول « إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس » ويقول كتاب (آثار باقية) « إن الكندي أول من حاز لقب فيلسوف الاسلام . » وكان يرجع إلى مؤلفاته ونظرياته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات . وعلى ذكر الأقنية يقال إنه كان في بلاط المتوكل أخوان اشتهرا بالهندسة والأعمال التطبيقية ، وهما محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر ، وكان يعز عليهما أن يظهر غيرهما بمظهر الماهر المتفوق ، وبذلك لم يتركا فرصة للنيل من كل من عرف بالمعرفة والتفوق في علم من العلوم ، ومن الطبيعي أنه لم يكن يروق لهما أن يسمعا عن الكندي وفضله ، سيما وأنه ذو مركز عظيم في البلاط فسعيا في الوشاية عليه ، وكان لهما ما أرادا في بادئ الأمر ، واستطاعا أن يجعلا الخليفة يأمر بمصادرة مؤلفاته وكتبه . وكان يقال إن مراد ابني موسى من المصادرة هو أن يستفيدا من مراجعة الكتب في حفر القناة الجعفرية ، ولكنهما فشلا في إنشائها فاستدعيا المهندس الشهير سند ابن علي لحل بعض المعضلات التي وجداها عند حفر القناة ، فوعد بحلها ومساعدتهما على شريطة أن يرجعا للكندي كل كتبه ، وأن يسعيا لدى ولي الأمر في العفو عنه وفي ازالة ما أوجداه من فتور وسوء تفاهم .

وقال الكندي بأحكام النجوم ، وكان يرجع بعض الظاهرات والحوادث إلى أسباب فلكية ويستمد من أوضاع النجوم وحركاتها بعض التنبؤات . فيقال إنه نهى عن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، وقال إن في ذلك تضييعاً للوقت والمال ، وقد ألف في هذا الموضوع رسالة سماها « رسالة في بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم » . وقد افادت رسالته هذه بعض معاصريه والذين أتوا بعده ، إذ لا يخفى أن كثيراً من علماء القرون الوسطى أضاعوا معظم أوقاتهم في الكيمياء للحصول على الذهب ، وله مؤلفات في المرئيات والبصريات وقد وضع كثيراً من نظرياتها في قالب رياضي ، وكان لبحوثه هذه تأثير كبير على دراسات باكون [١] وواتيل ، وكتب في الموسيقى وأعطى طرقاً لأيجاد التردد .

(١) أبو حيان التوحيدي — المقابسات — ص ٨٥

مؤلفاته :

وللكندي مآثر جمة تظهر في أكثر العلوم بل تكاد تسجلها كلها فقد ألف في الفلسفة وعلم السياسة والمنطق والحساب والكريات والموسيقى والنجوميات والهندسة والفلك والطب والاحكاميات والجدليات والنفسيات والاحداثيات والابعاديات والتقدميات ، كل هذه وغيرها مذكورة في كتاب الفهرست لابن النديم ، وتربو على ٢٣٠ كتاباً ، وله فوق ذلك رسائل في علم المعادن وانواع الجواهر والأشباه وفي أنواع الحديد والسيوف وجيدها ووضع انتسابها . أما تآليفه في الرياضيات والفلك فاهمها رسالة في المدخل إلى الارثماطيقي خمس مقالات ، كتاب في استعمال الهندي أربع مقالات ، رسالة في تأليف الأعداد ، رسالة في تسطيح الكرة ، رسالة في علل الأوضاع النجومية ، كتاب في أغراض كتاب أقليدس ، كتاب في تقريب قول ارشميدس في قدر قطر الدائرة من محيطها ، رسالة في تقسيم المثلث والمربع وعملها ، كتاب في كيفية عمل دائرة مساوية لسطح اسطوانة مفروضة ، رسالة في قسمة الدائرة ثلاثة أقسام ، رسالة في صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، رسالة في ظاهريات الفلك ، رسالة في استخراج بعد مركز القمر من الأرض ، رسالة في استخراج آلة وعملها يستخرج بها ابعاد الاجرام ، رسالة في الحيل العددية وعلم اضمارها ، وو . . . الخ .

تلاميذه :

وقد أخذ عن الكندي طلاب كثيرون منهم أبو العباس ابن محمد بن مروان السرخسي ، وكان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب ، قرأ على الكندي وعنه أخذ ، اشتهر في الفلسفة والطب وكان موضع سر المعتضد ، وكذلك أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي فقد أخذ عن الكندي ، وكان له مقام رفيع ، ودعي جاحظ خراسان . ومن تلاميذه أيضاً حسنويه ونفطويه وسلمويه وغيرهم كثيرون .

نابلس — **قدري حافظ طوقان**

(١) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ ص ٥٥٩

من طرائف الشعر

فرحة الألم

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

لقد صاغنى الله جم الشجون   ويأبى فؤادى إلا المرح
يبدد أحزان قلبي الرجاء   ويمحو صفائي طول الترح
أهدهد أوجاعي الصارخات   وأرقدها بالمنى والملح
سكرت من الدهر حتى انتشيت   فلست أبالي بخمر القدح
كأنى أخو سفر لاغب   تهالك من جهده وارتنح
فطوبى لجرحي إما استفاض   وطوبى لقلبي إما انجرح
تعلمت بالنوح سر النعيم   وأدركت بالشجو معنى الفرح

***

سجت ليلتي وترامى الظلام   ومالى عن خوضه منتدح
وقد روح الغيب النازحون   وألقى المسافر عبئاً فدح
وفض الكرى سامر العاشقين   ولم يبق فى الأرض إلا شبح
يحوم على عالم نائم   رمى بمتاعبه واطرح
يطوف فى الليل ما يأتلي   يناجي ويرعى حبيباً نزح
وقد سكن الغاب إلا صدى   توله من وجده وافتضح
كأنى أصغي إلى بلبل   يثير المفارح إما صدح
فأحسست دنيا من النعميات   وأفقاً جديد الأماني انفسح
وأذنى إلى همسة فى الدجى   وعيني إلى بارق قد لمح
وأقبل طيفك جم الجلال   تدثر بالنور حتى اتشح
مددت يدى وعانقته   فغمغم قلبي ودمعي شرح
وضاع اللجاج وغاب العتاب   كأن الزمان صفا أو سنح
قرأت بعينيه فرط الحنين   وشجواً يذيب إذا ما قدح
وعاين بي غمرات الردى   ترف على هيكل قد جنح
فأطرق مستعبراً نادماً   وبان عليه الأسى واتضح
فقلت له خل عنك البكاء   ولا تجزعن إن قلبي صفح
إذا من أحب جزاني الصدود   هتفت عفا الله عما اجترح

***

... ...
... صحوت فلا الطيف يحنو على   ولا نعم تشتهى أو منح
وعدت إلى وحدتي راضياً   أرى فى الأسى غاية المقترح

أنور العطار

يقظة الهوى

تعالى قد سجا الليـــل   ونام الدوح والطير
تعالى قد حلا الوصـل   وطاب السهد والسمر
تعالى ضاحكى البدرا
تعالى نافحى الزهرا
تعالى طارحى الجدول   نشيد الأعصر الداوى
تعـــالى نرشف السلسل   ونروى روحنا الناوى
شجتنى رنة العود   وصوت الناى أغرى بى
تعـــالى أنت معبودى   وهـذا الروض محرابى
تعـــالى لجرى قلبى
ينابيع من الحب
تعالى عطرى النرجس   بعطر الورد والشوق
تعـــالى نورى الحندس   بنور الحب والعشق
أيا ليـــل ألا أمهل   معنى فيك ذا مأرب
وقل للصبح لا يقبـل   وقل للنجم لا يغرب
هلمى نفحة الورد
هلمى ملكة الخلد
هلمى قبل أن يجفو   ويمضى الليل والبدر
هلمى فالهوى يغفو   اذا ما استيقظ الفجر

البصرة   فتى شط العرب

جائزة الأدب الكبرى

هنرى دو منترلان

Henry de Montherland

بقلم علي كامل

لمحة عن أدبه وفنه

منحت الأكاديمية الفرنسية جائزة الأدب الكبرى للكاتب الشاب هنرى دو منترلان ، فارتفع بذلك اسمه إلى مصاف أكبر الكتاب الفرنسيين المعاصرين ، وتنبهت الأذهان إلى الطابع الخصوص الذى يمتاز به أدبه كفن من فنون القصة الفرنسية الحديثة :

وهنرى دو منترلان كاتب من كتاب الشباب الذين تفتحت عيونهم على ضوء هذا القرن العشرين . ولد عام ١٨٩٦ . ودخل مدرسة سانت كروا دو نوبى . ولما شبت الحرب الكبرى خرج من المدرسة ليشترك فيها وجرح جروحا بليغة . وكان طبيعياً أن يعود منترلان وقد ملأت نفسه نزعة التشاؤم والثورة ، فقد هجر مدرسته ليخوض غمار المجزرة البشرية الكبرى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، فعانى فيها أشهرا من الحرمان والتضحية لم يجد لها مبرراً أمام عقله الذى يفكر وقلبه الذى يحس ، كما يفكر ويحس كل أديب فنان ينزع نحو مثل عليا فى الحب والرحمة والأخاء

عاد منترلان من الحرب ضائع العزم محطم الآمال . وكان استعداده الأدبى قد ابتدأ يتفتح على ضوء تجاربه ومحنه السابقة ، فانصبت آلامه وثورته فى أدبه تلمسها من بين خفايا السطور ، وكانت إنسانيته الحزينة تدفعه — كغيره من كتاب الشباب الذين خاضوا غمار الحرب — لوصف أهوالها وما جرته وراءها من التدهور الأخلاقى والفكرى . كذلك فان (أنانية الفنان) التى تغيره كانت تأبى عليه أن يضحى بشىء دون أن ينال على تضحيته جزاء يبررها ويلتمس منه العزاء . لذا لم يغفر منترلان لأمته وللمجتمع تضحيته الكبيرة حين جرفته العاطفة الوطنية كغيره دون وعى الى ميدان القتال ليتعذب شر عذاب ويعود جريحاً بين الحياة والموت فاقد الأمل فى إتمام حياته المدرسية .

ولقد كان هذا الشباب المعذب دافعاً لهنرى دو منترلان الى أن يهيم بتلك السن التى ضحى وتألم فيها ، فأصبح يمجد سن الشباب (تلك السن — كما يقول — التى لا تعترف بجميل . سن القلب والنفس . نجم الحياة المتألق) . ولقد تدرج منترلان من ذلك الى الغرام بالألعاب الرياضية لأنها المظهر الذى تتمثل فيه حيوية الشباب وجبروته ، ولأنها الوسيلة لاطالة عهد الشباب الى أبعد مدى مستطاع

و (أدب الالعاب الرياضية) فن حديث جداً فى الأدب الفرنسى . وترستان برنار هو صاحب الفضل الاول فى تغذية القصة الفرنسية بالأفكار الرياضية ومعالجة شئونها ووصف أبطالها ، وكان يحب الكتابة عن ألعاب الملاكمة وأبطالها كما فى قصته Nicola2 Bergère على أن هذه الحركة ظلت بطيئة الخطر ، ولم يتعد نشاط قادتها القليلين الكتابة فى الصحف والمجلات ، وإخراج عدد قليل من الأعمال الأدبية التى لم تكن ذات قيمة تذكر . الى أن كانت الالعاب الاولمبية عام ١٩٢٤ فنشط أنصار (أدب الالعاب الرياضية) وأرادوا أن يدخلوا الفنون الرياضية فى القصة الطويلة والقصيرة وفى الشعر أيضاً ، وكثر عددهم واتسعت مدرستهم وأصبح كل منهم متخصصاً فى الكتابة عن فن من فنون الالعاب الرياضية ، فمنهم من هام بالسيارات مثل هنرى كستماكرز Kistemackers كما فى قصته M. Dupont Chauffeur وميشيل كورداى Kordoy فى قصته Nonsieur. Nadrme et L'auto وأكتاف ميربو Mirbeau فى قصته الشهيرة La 628-E8 التى تعتبر فى نظر النقاد أروع قصة فى (أدب السيارات)

ومنهم من ولع بألعاب كرة القدم مثل جان برنييه Bernier فى قصته Tête de mêlée ولوى هنرى دستل Destel فى قصته Desroches footballeur وتعتبر قصة L, Histofre de quinze hommes لمارسيل برجيه Berger خير ما كتب فى (أدب كرة القدم)

وهناك غير هؤلاء الكتاب عدد كبير من أنصار هذه المدرسة جعلوا من شخصيات قصصهم أبطالاً لفنون رياضية أخرى مثل سباق الخيل والطيران وغيرها .

وهنرى دو منترلان يعتبر اليوم زعيم الأدباء الشبان على الاطلاق ، وأدب الالعاب الرياضية على الخصوص . وقد برع فى الكتابة عن المصارعة . وسافر خصيصاً الى اسبانيا وتعلم طريقة مصارعة الثيران

ودرس نفسية أبطالها وأخلاقهم ثم عالج ذلك في قصته Les Bestiaires

كان أول أعمال منترلان كتابه La Relève du Matin الذي كتبه عام ١٩١٦ وظهر عام ١٩٢٠ وهو قطع من الشعر المنثور يصف فيها ذكرياته عن الحرب والمدرسة التي كان يتعلم فيها . وفي عام ١٩٢٢ ظهرت قصته Le Songe وفيها يمجد الالعاب الرياضية والصداقة التي بين الابطال الرياضيين . تلك الصداقة التي يضعها (البان) بطل القصة فوق الحب . وفكرة (البان) عن الحب هي فكرة الكثرة العظمى من أبطال الرياضة الذين يقعون فريسة النزاع الدائم بين نداءين : نداء القلب ونداء الواجب الرياضي الذي يطالبهم بالابتعاد عن النساء كيما يحتفظوا بعناصر القوة فيهم . وينتهي بهم الأمر الى انتصار النزعة الرياضية وعبادة القوة والمجد فيتضاءل مركز المرأة في نظرهم . وهم لذلك لا يؤمنون بالحب العاطفي . فالحب في نظرهم ميل جسدي اذا ما تحقق مات ما يسميه الناس بالحب ، ولذا نرى (البان) يرفض حب القلب بقسوة

ولألبان هذا رأي غريب الى حد ما . فهو يقول إن العالم خاضع لفلسفتين : فلسفة النساء وفلسفة الرجال . فالأولى تتمسك بالديموقراطية ، أما الثانية — وهي التي يؤمن بها بعناد — فهي تتشبث بالماضي المجيد وبالقومية .

وفي قصة le Paradis à l'ombre des épées (١٩٢٤) نرى منترلان يبرر اهتمامه بالألعاب الرياضية إذ يعتبرها مرحلة من مراحل تحقيق الشخصية ، على أن فكرته في علاقة الرياضة بتكوين الشخصية تتكرر بشكل أقوى بروزاً في قصة (مصارعي الوحوش) Les Bestiaires (١٩٢٦) . إذ يعرض لنا منترلان نوعاً من أنواع المخاطرة الجريئة ، تلك التي يستهدف لها مصارعو الثيران يعرضها مصاغة في قالب بارع يدفعنا لاحترام أولئك المصارعين البواسل الذين يغامرون بحياتهم حباً في السيطرة وإظهاراً للقوة وامتحاناً لشخصياتهم التي لا تعتبر كاملة في نظرهم إذا عرفت للوجل معنى !

وقد كتب منترلان في هذه الفترة القصيرة من حياته الأدبية عدداً كبيراً من القصص أهمها عدا ما ذكرنا قصة Aux fontaine du Désir (١٩٢٧) و Pages de Tendresses (١٩٢٨) و La Petite Infante de Costille (١٩٢٩) و La Rose des Sables و Hispano Mauresque .. وكانت آخر قصصه قصة (العزاب) Les Cilibataires

والآن قد يتساءل القارئ . كيف يبشر منترلان بقيمة الألعاب الرياضية ويخصص أدبه لخدمتها والدعوة لنشرها وهو الناقم على مظاهر العنف ، الثائر على نظام الجندية والحرب ، الداعي الى الأخاء والمحبة والتعاون ؟ ومنترلان نفسه يحس بالتناقض الظاهر بين طبيعته الثائرة المتمردة وبين نظام الألعاب الرياضية الذي يدعو اليه وما فيه من معاني الترف البرجوازي . على أنه يقبل ذلك كارهاً غير مرتاح الضمير . يقبله كوسيلة لتحقيق فلسفته التي ترى في الألعاب الرياضية — كما ذكرنا — وسيلة لأبراز الشخصية والسمو بها على سائر الشخصيات التي تحيط بها . والواقع أن منترلان قد أجاد تصوير فكرته بطريقة غاية في الابداع . فأنت تلمح من خلال شخصيات قصصه كيف تتفتح الشخصية وتسود حين يصبح صاحبها بطلاً من أبطال الرياضة . وكيف يغمر صاحبها النشاط والحيوية وعبادة البطولة التي تدفعه للاستهداف للموت راضي النفس مرتاح الضمير

وأدب منترلان أقرب إلى الرومانتيكية منه إلى الواقعية وهو في ذلك يقول (إن الواقع والحقيقة تقع عندي في المرتبة الثانية) وإذا كان كل كاتب لابد أن يتأثر بروح بعض من سلفه من الكتاب ، فان بلزاك وشاتو بريان يطبعان أدب منترلان بطابع لا يمكن إنكاره وتناسيه

ويمتاز هنري دو منترلان بأسلوبه الرائع ، فثروة الألفاظ وحسن اختيارها وأدائها ، والموسيقى السامية التي تلبس عباراته فتعبر عما يدوي بين أرجاء نفسه من النزعات والعواطف هي أظهر ما يميز فنه وشخصيته بين الكتاب الفرنسيين المعاصرين .

علي كامل

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد في مصر وبخمسين قرشا في البلدان الأخرى



مدام كورى وقصة الراديوم

١٨٦٧ — ١٩٣٤

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

مسيو ومدام كورى :

توفيت مدام كوري في صباح الرابع من شهر يوليو الحالي بعد أن نالت من النجاح في حياتها العلمية والعملية مالم تنله أخرى من قبل ، فانطفأ ذلك السراج المنير الذي أضاء سبيل بعض علماء العصر الحديث في الوصول إلى أخطر انقلاب علمي حديث ، وهو النظرية الحديثة في تركيب المادة

ولدت ماري سكلودوفسكا في فارسوفيا عاصمة بولونيا في ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، ولكنها نزحت عن وطنها الأول إلى وطنها الثاني فرنسا لأسباب سياسية . فذهبت تطلب العلم في السوربون ، وقد اضطرها الفقر إلى الخدمة في معامل المعهد ، فكانت تغسل الزجاجات وأنابيب الاختبار لتنال من ذلك ما يساعدها على تسديد نفقات التعليم

تعرفت بالمسيو « بيير كورى » الذي كان يعمل في السوربون هو الآخر ، وقامت تساعده في أبحاثه التي كان يقوم بها في ذلك الوقت في الكهربائية وخواص الأجسام المغناطيسية في درجات الحرارة المختلفة . وقد انتهى بهما هذا الارتباط الذي ابتدأ في المعمل إلى الزواج به في سنة ١٨٩٥ . وقد ظلا يعملان معاً احد عشر عاماً توصلا فيها إلى الكشف عن عدة عناصر أهمها « البولونيوم » و « الراديوم » . وقد كشف الأستاذ الفرنسي « بيمون » عن وجود عنصر الراديوم مستقلاً عنها ، ولكن اسمه لا يكاد يقرن باسميهما عند الكلام عن الراديوم إلا في القليل النادر .

قصة الراديوم :

لم يكن الكشف عن الراديوم من هذه الاكتشافات التي أتت عفواً وكاد مكتشفها يتعثر فيها أثناء سيره في عمله ، كما حدث للأستاذ الألماني « رنتجن » عند كشفه عن الأشعة التي تعرف باسمه ؛ ولا من تلك الاكتشافات والاختراعات التي كأنه قد أوحى بها إلى أصحابها ، كما حدث للأستاذ « ويلسون » عند تفكيره في صنع « الغرفة القاتمة » ، وهي الجهاز الذي يمكننا من رؤية مسار الدقائق المتحركة التي لا يمكن رؤيتها بالعين ولا بأقوى ميكروسكوب (1) . بل كان من هذه الاكتشافات التي عمل لها أصحابها وكانوا يتوقعونها نتيجة لأبحاثهم الرياضية أو الطبيعية ، كما حدث عند البحث عن السيار « نبتون » فقد رآه « لفريبه » بالرياضة قبل أن يراه « جال » بتلسكوبه

اذن لا بد أن يكون قد سبق الكشف عن الراديوم دراسة بعض الظواهر التي مهدت السبيل لظهور هذا العنصر ، وهذا ما أود أن أسرده الآن مرتباً ترتيباً تاريخياً

في سنة ١٨٩٥ ، وهي السنة التي ارتبط فيها « الكوريان » بالزواج ، كان الأستاذ « رنتجن » يمرر التيار الكهربائي في الأنابيب المفرغة تقريباً من الهواء ، وهي المعروفة بأنابيب « كروكس » ، وذلك للكشف عن أشعة غير مرئية للعين . فلاحظ أن لوحاً مغطى بطبقة مومضة — وقد وضع عفواً بجوار الأنبوبة — قد تألق وأومض وهو في الظلام . فاذا انقطع التيار انقطع الوميض . هذا الوميض يحدث لمواد معينة إذا سقطت عليها أشعة الشمس ، وبالأخص ما كان منها بعد البنفسجي ، وامتصت جزءاً من الطاقة الضوئية ، ثم أخذت إلى الظلام . فالطاقة الممتصة تنطلق ببطء ، وتومض المادة حتى تزول الطاقة

(1) الجهاز عبارة عن صندوق يحتوى على بخار ماء دون التشبع بقليل ، فاذا برد هواء الصندوق وأطلقت الدقيقة فانها في انتقالها تمزق الذرات فتتأين وتصبح مراكز لتكاثف البخار . فترى خطاً أبيض من بخار الماء المتكاثف على طول الطريق الذي أخذته الدقيقة المتحركة

المخزونة . يحدث هذا إذا عرضت هذه الأجسام إلى أشعة الشمس ، ولكن لوح « رنتجن » لم يتعرض تعرضاً مباشراً لأشعة الشمس ولا للأشعة الخارجة من أنبوبة « كروكس » لأنها كانت مغطاة بورق أسود يمنع نفاذ كل الأشعة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، ولكن مادام اللوح قد أومض فيجب أن يكون « رنتجن » قد توصل إلى أشعة غير معروفة من قبل ويمكنها النفاذ من الأجسام المعتمة ، وقد سماها رنتجن « أشعة اكس » أو « الأشعة السينية » أو « الأشعة المجهولة » . ولكن عدم معرفته لكُنه هذه الأشعة لم يمنعه وغيره من دراسة خواصها ، فعرف أنها تخترق الصفائح الرقيقة المعدنية ، وأن مقدار نفاذها من هذه الصفائح يختلف باختلاف المعادن نفسها ، وأنها تؤثر على الألواح الفوتوغرافية وتلقى عليها ظلالا للأجسام المعتمة التى توضع بين مصدر الأشعة واللوح الفوتوغرافى ، وأنها تجعل الغازات موصلة للكهربائية ، وأنها تضيع شحنة الأجسام المكهربة

هذه هى نتائج التجارب الأولى التى أجريت على « أشعة رنتجن » فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، وفى السنة التالية فكر أحد علماء فرنسا وهو الأستاذ «هنرى بيكرل» فى شىء آخر وهو : إذا سقطت « أشعة رنتجن » على جسم مومض فانه يومض ويتألق ، فهل العكس صحيح ؟ هل المادة بعد تعرضها لأشعة الشمس ثم تركها تومض فى الظلام ، تخرج « أشعة اكس » أو أشعة نفاذة مثلها ؟ للاجابة على ذلك السؤال اشتغل « بيكرل » بأملاح الأورانيوم المومضة ، فتركها فى الشمس مدة ثم لفها فى ورق أسود ووضعها فى الظلام بجوار لوح فوتوغرافى ، فوجد بعد مدة أن اللوح قد تأثر . اذن هناك أشعة خرجت من ملح الأورانيوم المومض ونفذت من الورق الأسود ، فهى كأشعة رنتجن فى ذلك ، وقد وجد لها أيضاً بقية الخواص المعروفة لهذه الأشعة .

ولكن استمرار البحث بيّن له أن هذه الأشعة الخارجة ليس لها علاقة البتة بالوميض كما كان يعتقد . فالوميض يضعف عادة مع الوقت ، ولكن هذه الأشعة النفاذة لم يكن ليعتريها الضعف بمقدار محسوس . أذاب الأملاح المومضة وبلوّرها فى الظلام دون تعريضها لأشعة الشمس فوجدها تخرج نفس الأشعة . أخذ أملاح الأورانيوم غير المومضة فوجدها تخرج نفس الاشعاع النفاذ. جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة التى كان من نتيجتها الكشف عن « المواد المشعّة » أو المواد الراديومية[1] .

انقسم العلماء بعد تجارب « بيكرل » إلى فريقين : الأول ذهب يبحث عن ماهية الأشعة التى تصدر من أملاح الأورانيوم ، والثانى يبحث عن مواد أخرى لها نفس خواص أمـــلاح الأورانيوم ، وقد تزعم هذا الفريق « مدام كورى » وزوجها ، بعد أن أبدت رأيها فى مبحث الفريق الأول من العلماء بأن قالت : إن « الفعل الأشعاعى » لأملاح الأورانيوم راجع إلى خاصية فى المادة لم تعرف بعد ولا تشبه فى ذلك أشعة رنتجن .

وأول ماوصلت إليه « مدام كورى » فى بحثها أن إشعاع أملاح الأورانيوم « خاصية ذرية » . أى أن مقدار الاشعاع يتوقف على مقدار الأورانيوم أو عدد ذرات العنصر الموجودة فى المادة المختبرة ، وليس له أية علاقة بالمواد الأخرى الداخلة فى تركيب الملح . وإلى ذلك يعزى سر نجاحها فى الكشف عن مادتين مشعتين أخريين

وجدت بقياس الفعل الاشعاعى لبعض المواد التى تحتوى الأورانيوم أن قوة اشعاعها تفوق ما ينتظر أن يكون ، على حساب أن الموجود فى المادة أورانيوم فقط . فلو كان الفعل الاشعاعى « خاصية ذرية » كما وجدت هى فلا بد أن توجد مادة أخرى أقوى فى فعلها الاشعاعى من مادة الأورانيوم نفسها . وعلى هذا الأساس بدأت « مدام كورى » تعمل لكى تفصل هذه المادة الجديدة . وقد شجعتها حكومة النمسا على المضى فى بحثها بأن أهدت اليها طناً من المعادن المحتوية على أملاح الأورانيوم المستخرجة من « بوهيميا » . ففصلت بالتحليل كل الأورانيوم الموجود فى الخامات ، ولكنها وجدت أن الباقى كان أشد فعلاً واشعاعاً من مقدار الأورانيوم المستخرج بأربع أو خمس مرات . فاستخرجت ملح البزموث الموجود فى الخامات فوجدته متحداً مع مادة فعالة مشعة سمتها « بولونيوم » نسبة إلى وطنها الأصلى « بولونيا » . ثم استخرجت ملح الباريوم الموجود فيما تبقى من الخامات فوجدته متحداً مع مادة مشعة أخرى سمتها « راديوم » أو « المشع » ، وهى تسمية موفقة ؛ لأن هذه المادة الجديدة تفوق فى إشعاعها « الأورانيوم » بمقدار مليونى مرة إذا قورنت به وزناً بوزن . وقد أعلنت « مدام كورى » عن هذا

(١) الأفضل تسميتها المواد المشعة لأن اسمها Radioactive Substances مشتق من كلمة Radius اللاتينية ومعناها « شعاع »

الاكتشاف العظيم فى رسالة قرأتها أمام « أكاديمية العلوم » فى باريس سنة ١٨٩٨ .

وقد أثارت رسالتها الرغبة فى نفوس كثير من العلماء للبحث عن ماهية الأشعة المنطلقة ذاتيا من المواد المشعة ، وقد كان من قادة هذا البحث سير « جوزيف تومسون » وسير « إرنست رثر فورد » (وهو الآن لورد رثر فورد) . فلم تأت سنة ١٩٠٠ حتى كان من المعروف أن هنالك ثلاثة أنواع من الاشعاع تصدر عن المواد الراديومية .

الأول — أشعة لاتقدر على النفاذ من ورقة رقيقة ، وقد سميت « الأشعة الالفية » . وقد درسها « رثر فورد » فى المدة الواقعة بين سنة ١٩٠٣ ، ١٩٠٩ فعرف أنها ليست أشعة بل دقائق متحركة بسرعة كبيرة ، وأنها مشحونة بشحنة كهربائية موجبة ، وأنها عبارة عن ذرات غاز الهليوم الذى تملأ به المناطيد الحديثة . وقد استخدم « رثر فورد » هذه الدقائق كقذائف يرمى بها الذرات فيحطمها ، وكان من نتيجة بحوثه فى ذلك أن وضع النظرية الذرية الحديثة ، القائلة بأن الذرة عبارة عن نواة متركزة فى الوسط موجبة التكهرب ، يدور حولها الكترونات سالبة .

الثانى — أشعة يمكنها النفاذ من ألواح من الالومنيوم سمكها بضعة مليمترات ، فهى أكثر نفاذا من الاشعة الالفية وقد سميت « الأشعة البائية » . وفى سنة ١٨٩٩ تمكن « بيكرل » و « جيزل » و « كورى » من معرفة أن هذه الأشعة تنحرف بتأثير المجال المغناطيسى ، فهى ليست أشعة بل دقائق كهربائية سالبة .

الثالث — أشعة أشد نفاذا من سابقتيها كشفها « ڤيلار » فى سنة ١٩٠٠ ، وسميت « الاشعة الجيمية » ويمكنها النفاذ من ١٥ بوصة من الصلب أو ٦ بوصات من الرصاص . وهى من نوع أشعة رنتجن .

وفاة بيير كورى :

انهالت على « الكوريين » التهانى والاسئلة بعد كشفهما الراديوم . وفى سنة ١٩٠٣ منحتهما الجمعية الملكية بلندن مدالية « ذاڤى » . وفى نفس السنة قسمت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية بينهما وبين « هنرى بيكرل » . وقد عين « كورى » استاذاً للطبيعة فى السوربون ، واختير فى سنة ١٩٠٥ عضوا فى « اكادمية العلوم » بباريس . وبعد ذلك بعام واحد ، بينما كان خارجا من الجامعة صدمته عربة ومرت عليه فقتلته لساعته . وقد أثر ذلك فى زوجته حتى خيف أن تترك الاشتغال بالعلوم بعد تلك الفاجعة ؛ ولكنها تشجعت واستعانت بذلك الصبر الذى لازمها فى أبحاثها العلمية الشاقة . وقد عينت استاذة للطبيعة فى السوربون مكان زوجها .

وقد تمكنت « مدام كورى » من فصل عنصر الراديوم من أملاحه ، وهى عملية شاقة لأنه سريع التحول الى الايدروكسيد ، وعينت وزنه الذرى فوجدته ٢٢٥ ، ولكنها تمكنت بعد ذلك من تصحيحه الى ٢٢٦,٢ ، ثم وجده « ثورب » ٢٢٧ . وقد نالت من أجل ذلك جائزة نوبل فى العلوم الكيماوية ، وبذلك تكون قد نالت جائزة نوبل مرتين وهو مالم يظفر به عالم من قبل .

تأثير الراديوم فى خلايا الجسم :

استخدم الراديوم فى بحوث نظرية وعملية . ومن النظرية الكشف عن كيفية تركيب المادة وتحطيم الذرة . كذلك تقدير عمر الكرة الارضية بالاستعانة بما يوجد من الراديوم بين الصخور فانه يتحول ذاتيا الى مواد أخرى تنتهى بالرصاص بنسب معينة فى أزمنة معينة . ومن البحوث العملية التى يستخدم فيها الراديوم معالجة بعض الاورام الخبيثة مثل « السرطان » . وأول من عرف تأثير الاشعاع الخارج من المواد المشعة على جلد الانسان وخلاياه هو « بيكرل » فى سنة ١٩٠١ . ولكنه دفع ثمناً لذلك التهاب جلد صدره زمناً طويلا . فقد كان يحفظ أنبوبة صغيرة بها مواد مشعة فى جيب صدريته ، فاصيب فى مدة أربعة عشر يوما بالتهاب جلدى حاد تحت موضع الانبوبة ، سمى « حرق بيكرل » ومنذ ذلك الوقت بدأت البحوث تترى فى تأثير الراديوم على الخلايا المريضة فى الجسم ، فافتتح فى سنة ١٩٠٦ فى باريس « المعمل البيولوجى للراديوم » . وفى سنة ١٩٠٩ افتتح مركز يماثله فى لندن ولكن لا زال النجاح غير كامل فى استخدامه للعلاج ، وان كان موثوقا به فى الاضرار بالخلايا السليمة اذا أسىء تعريضها اليه .

وفاة مدام كورى :

ظلت « مدام كورى » تحاضر فى السوربون ، وتجرى بحوثها العلمية حتى هذا العام . فاصيبت بفقر فى الدم وانتقلت الى مصح حيث ماتت فى الساعة الرابعة من صباح ٤ يوليو سنة ١٩٣٤ بعد أن خلدت اسمها فى صحائف المجد .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

القصص

من الواقع

طارق الليل

للأستاذ أديب عباسى

كان ذلك فى ليلة من ليالى الحرب الكبرى وفى شطرها الأخير ، وكنا يومئذ لا نعلم من أهوال ذلك الصراع العنيف إلا مايستطيع الصغار — وما رُكّب فى رءوسهم من عقول محدودة — أن يعلموا . فلم تكن الحرب عندنا إذ ذاك إلا تلك الفترة وذلك الوجوم يعلوان وجوه الكبار ، وإلا ذلك القلق المقيم فى اللحاظ ، وتلك الهمسات يتبادلونها فيما بينهم ، ولا ينُون فى التلطف حيناً والمخاشنة حيناً آخر ، ليصرفونا عن الاستماع والاصغاء اليها . ولكنها كانت محاولات فاشلة ، إذ ليس شىء أعلق بنفوس الصغار وأخلب للبّهم وألصق بخيالهم وأدعى لفضولهم من حديث يتسارُّ به الكبار فيما بينهم ، ثم يُراد لهم ألا يُلمّوا منه بشىء . فكنا — لنرضيهم ونأمن منا كدتهم — ننأى ونصد عنهم لا عبين ظاهراً ، ونتكئ عليهم بالسمع نرهفه لنلتقط ما يتسارُّون به ويتهامسون . فلم يكن يفوتنا شىء من أحاديثهم عن الحرب ، وما يقدرونه لها من استطالة ، وما يترقبون من مفاجآت ، ومايخشون من عواقب ، وما يتوجهون به من عطف ، وتمنى الانتصار لهذه الدولة أو لتلك .

على أن أظهر ما كان يبدو من آثار الحرب هو ما كنا نلمحه من مظاهر الفاقة والحاجة الى الغذاء ؛ وهو أثر ليس للتجمل والابتسام المقسور عليه حيلة . فالحزن والغضب ، والحب والفرح ، والبغض والعطف ، والكره والحقد والخوف ، جميعها يستطيع المرء بالمران والممارسة أن يروض نفسه على إخفائها ، بل والظهور معها فى عكس مظاهرها الصحيحة . ولكن الجوع اذا أزمن لا يستطيع وجه أن يخفيه مهما رُزق صاحبه من قدرة على الاخفاء وحيلة فى التمويه .

أقول : كان هذا أكثر مظاهر الحرب بُدُوّاً عندنا وأشدها بروزا : وماذا ينتظر ممن كان فى سننا وفى مثل خبرتنا غير هذا ؟ وهل كان بوسعنا أن نستشرف من حوادث ذلك النضال غير هذا الأثر الذى لم يستجد علينا مع الحرب غيره ؟ فى الحق أننا لم نكن نعى من معانى تلك الحرب فى ذلك الحين سوى أنها شدة تقاسى فيها المعدة وتوابعها أشد مايقاسى ، وهى نظرة لم تكن من الضحولة وقرب الغور على قدر ما حسبنا لها فيما بعد ، حينما بدأنا نقرأ عن الحرب فى بطون الكتب وفى ثنايا الخطب ! وهذا فى الحق مما يُحسب للطفولة من بداهة مسدَّدة وإلهام صادق . ومن منا يشك بأن أقسى ماقاساه الناس عموماً فى الحرب هو الجوع ، حتى بين الجنود الذين كانت تشويهم نيران المدافع وتجزّئهم قذائفها !

***

أوينا الى فراشنا ليلتئذ على هدهدة قبضة من الأخبار المتناقضة عن الحرب مما ترشّح الى البلدة النائية . وكنا نتلقى هذه الأخبار

وقد خلفت « مدام كورى » وراءها ابنتها مدام « جوليو » زوجة العالم الفرنسى الاستاذ « جوليو » . وهى كوالديها شغوفة بالبحوث العلمية ، وهى تسلك نفس الدرب الذى شقه والداها من قبل . فقد أجرت مع زوجها فى سنة ١٩٣١ بعض تجارب فى اطلاق « الدقائق الالفية » على عنصر « البريليوم » مما كان من نتيجته الوصول الى معرفة أحد الاحجار البنائية فى الكون وهو « النترون » . فان لازمها التوفيق فسيكون للعلم « مسيو ومدام كورى » آخران ؟

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابه

في كثير من الاستمتاع واللذة . وما هو إلا أن أغمضنا أجفاننا حتى نقلنا من عالم الواقع المنغص الى عالم الأحلام والرؤى اللذيذة : من عالم الحرمان الى عالم الرغائب المحققة والمتع الدانية . فكان لنا من شهي الحلوى التي حرمتنا الحرب ما نشتهي ، ومن طريف اللعب التي غابت مع الحرب ما نختار . على أنها كانت لعباً من نوع آخر غير الذي ألفنا . فهي لعب صورها مشتقة ومؤلفة من الأوصاف التي كانت توصف بها أدوات الحرب يومئذ : طيارات تئز في الفضاء ، وسيارات تنهب الأرض وتختطف الأميال ، ودبابات تجوز الوهاد وتتخطى العقبات ، وأمور أخرى شتى . وكنا في يومنا يشن بعضنا الغارات على بعض ، وسلاحنا هذه الأدوات التي أعارها لنا الخيال ، فلم يكن يكلفنا اقتناؤها جهداً ولا نقداً ، إلا أنها متع لم تدم ، وأحلام روّعت ؛ فقد هببنا مذعورين بعد موهن من الليل على طرق يوالى ذراكاً على باب أحد الجيران . وأصخت على جوارحي أتبين ضوضاء السيارات وقعقعة المدافع ، ورغاء الطيارات ، فيتصل ما بين يقظتنا والمنام : وهي الصورة التي تبادرت حالاً الى الذهن بعد ذلك الليل الحالم وبعد تلك الانكسارات والانتصارات التي عالجناها نياماً .

وأطللت فيمن أطل من خصاص الباب نتبين الأمر ونجتلى الواقع ، وكل في ذهنه — على ما أقدر — صورة تباين ما في ذهن الآخر تبعاً لأول بوادر الخيال المروّع والبداهة المجفلة . ولم نلق صعوبة في تبين الطارق ؛ فقد كانت ليلة قمراء فائضة النور كشفت لنا عن شخص في بقية أثواب لا ينفك يقرع الباب بجُمع يده قرعاً فيه عنف وفيه شدة ، يصيح بين الفينة والفينة في نبرات شديدة يطلب فيها فتح الباب ممن كان وقتها وراء الباب أما صاحبنا الذي كان الطارق يقصده بالطرق ، وبهذه الصيغة الآمرة بفتح الباب ، فقد ذهب به الخيال مذهباً آخر . وهل يتجه في مثل هذا الحال الى غير اللصوص خيال من امتلأت صناديقه بالذهب وفاضت بالأصفر الرنان ؟ إن صاحبنا كان على ثروة لا بأس بها في مثل ذلك العهد . فقد كان صاحب مطحنتين ، وكان لا يتخلى عن صاع القمح بأقل من خمسة مجيديات ، ليس من طمع أو جمود عاطفة كما كان يقول ، بل لأنه حلف حلفة لا يبيع الصاع بأقل من هذا المقدار ! فكانت تجيئه المرأة وبيدها الخمسة مجيديات تنقص بضعة قروش تروم بها دفع أجور الطحن في مطحنته ، فيبادرها بهز الرأس مشيراً في أسف الى يمينه التي أقسم والتي ستجره إن هو حنث بها الى الجحيم !

أيقن صاحبنا إذن أن لصاً شديداً جاء يقتحم عليه الدار عنوة ، وإذن فليتحصن ما تيسر له أن يتحصن ، وليتخذ من العدة كل ما يستطيع من عدة ، وليضع من الصناديق وراء الباب ما يضع ، وليأخذ بيده مسدسه محشواً ، وليوسّط بينه وبين الباب أمه العجوز يتترّس بها ، ففي جسمها الدسم الغني بالشحم واللحم ، وفي قامتها العريضة المديدة وقاء له خير وقاء إذا همّ هذا الواغل بشيء من خلف الباب ، وتشجع صاحبنا المحاصر ونادى بصوت كالحشرجة : مَن الطارق ؟ ! من الطارق ؟ ! فجاءه الجواب زيادة في الطرق ولجاجة في النداء والطلب . وتكرر السؤال الذي جعله الرعب على وتيرة واحدة ، وتكرر الجواب الذي جعله الاصرار على وتيرة واحدة أيضاً .

* * *

وقال كبيرنا : ليس هو باللص الذي يخشى . وعهدنا باللصوص لا يقتحمون المنازل على السكان ، بل هم يتسللون اليها في غفوة من الناس وغفلة من الحراس . وهو كذلك ليس بالسائل والعهد بالمتسولين يقرعون الأبواب قرعاً خفيفاً في أبصار غضيضة ، ورؤوس منكسة ، وأصوات خفيضة لا تكاد تبين ، الا الأغرار منهم الذين لم يجربوا ولم يعرفوا من طباع البشر ما يعرف المتسولون المجربون .

ولم نشأ أن نطيل الحدس والتخمين ، فتوجه كبيرنا إلى الطارق وسأله في جفاء ماذا يريد في ذلك الهزيع من الليل ، ولم ذلك القرع العنيف والنداء الصاخب ؟ فأجاب في نظر شارد وفي غير أناة :

لقد مضى على ثلاثة أيام لم أطعم طعاماً ، فأوشكت أن أهلك وقد طرقت فيمن طرقت حياً من أحياء الاعراب المخيمين في ضاحية البلد الجنوبية على بعد غلوتين أو ثلاث ، فوصفوا لي هذه الدار من البلدة ، وقالوا انك واجد هناك قوتاً ومأوى ليلتك هذه ، وعساى لم أخطىء الاستهداء .

وهم كبيرنا ليدخله بعد الذي عرف من أمره دون أن يزيد في

سؤاله ، فينال بعض الطعام ويبيت ليلته . غير أنه حدث فى هذه اللحظة ماراعنا جميعاً : ذلك أن صاحبنا المحاصر ، بعد أن أنس إلى أصواتنا ولهجة الحديث الذى دار بيننا ، أيقن أن الأمر من الخطورة على غير ما توهم وجسم له الخيال الزائغ . ففتح الباب بعنف ظاهر ، والمسدس يلمع فى قبضة يده والعصا فى قبضة يده الأخرى ، ولم يتريث لنوضح له جلية الأمر ، بل أقبل على المسكين بهراوته الثقيلة وانهال يكيل له بلا حساب حتى كاد يقضى عليه بين أيدينا ، لولا أن لطف المولى وتداركه برحمته فسقط مما ناله بين أيدينا التى جعلنا منها شبه حاجز بين عنف الرجل الهاجم وضعف هذا الطارق . ولم يستطع صاحبنا معها أن يستعمل العصا فاندفع يكيل له بقبضة يده حيثما وجد سبيلاً إلى ذلك من بين أيدينا . وأدرك كبيرنا أى شىء يصير إليه الرجل إذا لم يحل حيلولة تامة بينه وبين مهاجمه الحنق ، ولم تسعفه سنه من أول الأمر فى تخليص الرجل ، فلجأ أخيراً إلى أسلوب فيه شىء من القسوة ، ولكنه الأسلوب الذى لم يكن بالامكان ارتجال ما يفضله فى هذا الظرف الحرج . فقد أمسك بتلابيب الرجل وجره إلى حيث استطاع أن يوقيه من لكمات مهاجمه الذى أراد أن يثبت لنا بعد ذلك الموقف من الجبن أنه على شىء كثير من البأس والاقدام .

وبعد أن هدأ روع الرجل وتناول بعض الطعام أقبلنا نلومه مشفقين ، وسألناه ما شأنه ولم لم يختر له غير ذلك الأسلوب الغريب للاستجداء واستدرار العطف . فأجاب عن أسئلتنا جميعاً بقوله :

إننى جندى من فلول الجيش التركى فى فلسطين ، طوح بى السير إلى هذه البلاد بعد أن نال منى الجوع والتعب أقصى ما ينالانه من حى . فقد كنت لقلة خبرتى بالطرق أسير من البلد الواحد أبغى بلداً آخر فأنتهى غالباً حيث أبتدىء ، وأبتدىء حيث أنتهى . وكنت حيناً أصيب طعاماً أو شيئاً شبيهاً بالطعام وأحياناً أمضى ساغباً أياماً لا يخالط الماء فى جوفى شىء من الزاد ، وآخر عهدى بالطعام — كما أخبرتكم — كان منذ ثلاثة أيام . فقد استجديت واستجديت ، مصطنعاً كل أساليب الخشوع وأنواع الضراعة ، ولكن فى غير طائل . وأخيراً وصلت ذلك الفريق من الأعراب فوصفوا لى هذه الدار ، فآليت لا أصبر زيادة عما صبرت فاما شبع يرد إلى الحياة ، أو موت أرتاح معه من ذلة السؤال وآلام الجوع . وعولت على أمر . قلت أبادر أصحاب الدار بالعنف والصياح : فان كانت فيهم بقية من رحمة وأثارة من انسانية لم يمنعهم صياحى إذا ما شاهدوا ما أنا فيه ، من الرثاء لحالى والجود على بشىء . وإن كانت الأخرى وكانوا كبقية الناس نالنى منهم ما أرجو معه أن أضع حداً لهذه الحياة الثقيلة . وحياة الجندى — كما قد تعلمون — لا تساوى فى هذه الأيام شيئاً ، ولا تعسر على أحد ، ولولا كم — جزيتم خيراً على كل حال — لكانت هذه آخر ليالى من الشقاء .

ولحظت عند هذا الحد من حديث الرجل الدمع يجول فى عينيه بين متحير ومتحدر ، يهبط به الحزن لحظة ، وتكفكفه الرجولة أخرى . وكأنه آنس منى عطفاً صادقا عليه وإشفاقاً على ماصار اليه ، فأقبل على يحدثنى ويبثنى شكواه . وأغلب اليقين أنه لم يكن يعتقد أننى مدرك الى أى الأغوار والاعماق النفسية تنحدر آلامه وأشجانه . إلا أن ذلك لم يكن بمانعه قط عن الحديث . والمرء اذا زخرت نفسه بالألم وأترعها الحزن تحدث الى كل شىء ، تحدث الى نفسه ، تحدث الى سواه ، تحدث الى الأطفال ، تحدث الى الحيوان ، تحدث الى الجماد ، تحدث الى لاشىء . فكأن المرء فى ذلك الأثناء يمتلىء فيفيض بالزائد على ما حوله .

كشف الجندى عن صدره وأرانى أثر جرحين أو ثلاثة ، وكشف عن ساقه وأرانى مثل ذلك وشرع يقول : أترى ياولدى؟ هذا بعض نصيبنا من هذه الحرب . هذا بعض ما أصابنى . ولكننى كنت كلما اصبت أتغلب على آلامى وأتحامل على نفسى فألوذ بربوة أو اهبط حفرة تقينى زيادة الأذى الى أن ينصرف العدو أو يزول الخطر ، فأقوم اذا كنت قادراً ، أو أحمل الى حيث أعالج ، لأعود الى القتال أمضى عزيمة وأشد بأساً . ولكن الزمن — يابنى — والجوع والخذلان ، قد ذهبت بالكثير من قوانا وصبرنا ، فعدنا لا يهمنا أكنا فى الطليعة أم فى المؤخرة . وأخيراً رأيتنى على غير ارادة منى أتخلف عن الجيش وأهيم على وجهى فى غير قصد أو اتجاه ، الى أن انتهى بى المطاف الى هذا البلد ثم هذه الدار ، فنالنى ما نالنى على يدى ذلك العلج الذى كاد يميتنى بهراوته . . . أهذا ياولدى جزاء هذه الجراح ؟ أهذه خاتمة الجندى الذى يدفع عنكم

عدوان الأعداء بدمه وحياته ؟ ! إنني من غدى مسلم نفسي الى أقرب سلطة عسكرية تفعل بى ماتشاء . ذلك خير لى وأبقى .

والتفت اليه عند هذا الحد من حديثه وخاطبته متحمساً :

نعم ! ذلك أفضل ياعماه . لو كنت محالك ما فعلت غير هذا . إنك هناك لا تضرب بالعصى على ما أعتقد ولا تجر على الأرض :

ونظر الى المسكين نظرة ذاهلة حزينة وقال :

نعم يا بنى ، سوف لا يضربوننى بالعصى ، لأن العصى ليست جزاء من يتخلف عن واجبه فى الجندية ! إنما هى قطع من الرصاص صغيرة يدفنونها فى أحشائنا أو يولجونها فى رؤوسنا : فنضحى وكأن لم نكن . ولكن يميناً غموساً لن يحول هذا دون ما أنا عازم عليه من غدى !

وخيل الى كأننى أدركت معنى هذا الكلام الغريب فراعنى من الرجل هذا العزم ، ونظرت اليه فى رعب ظاهر وذعر متوسل ؛ وبعد لحظة من الصمت خيل الى فيها أن الرجل يتذكر أموراً ويستعيد صوراً رفع عينيه وقال :

كلا يا ولدى الصغير ! كلا ! سأجاهد اذاً فى سبيل الحياة ، سأحاول أن أعيش . إن لى صغيراً فى سنك . لقد نسيته حينما أقسمت ، ولكننى الآن أذكره . انه ينتظرنى الآن : ينتظر أن يطوقنى بيديه الصغيرتين . سأعيش ، سأعيش

وانحدر الدمع المعلق فى مقلتيه منذ حين ، وذهب يسير فى أخاديد وجهه المجعد . وكان بعضه يقع على الأرض وبعضه الآخر تتلقاه كفه وفيها قدة من القماش أخذها من بقية قميص على صدره

وعدت الى فراشى وليس أقر منى عيناً ، وليس أدمى منى قلباً كذلك .

اديب عباسى

المغفل المخـــدوع

« إذا أصيب الرجل بداء الغفلة فقد الثقة من نفسه ، وعاد لا ينظر بعينه ، ولا يسمع بأذنه ، ولا يفكر بعقله »

أولع ملك من الملوك بالجديد من الثياب ، فكان يتأنق فى لباسه التأنق كله ، وأصبح لا يرى اللذة إلا فى الاغراب فيه ، وكثرة الانفاق عليه ، وما كان يعبأ بعد ذلك بأمر أمته ، فترك الجند هملاً ، وهم حصن الأمة وسلسلتها الفقرية ، واحتقر علماء الدنيا والدين ، وهم مصابيح الكون يضيئون الحياة ، ويبصرون الناس بسبلها الموجة وطرائقها العجيبة ؛ وكان لا يذهب الى التمثيل حباً فيه ، وإنما ليعرض على الناس زخرف ملبسه وجميل هندامه ، وكان لا يخرج للنزهة ترفيهاً لأعصابه واستمتاعاً بجمال الطبيعة ، وإنما ليدهش من يقابل ، ويثير فيه عاطفتين : العجب من تأنقه ، والاعجاب بذوقه .

مرت الأيام هادئة فى حاضرة الملك الواسعة ، وأخذ يأتيها الناس من كل فج عميق . وفى ذات يوم قدم الى الملك لصان متشردان ، ضربا فى فنون الاحتيال السهم ، وذهبا فى صنوف الخداع كل مذهب ، وتظاهرا أنهما أستاذان مبرزان فى النسج والحياكة ؛ فأقبل عليهما الملك بسمعه وبصره . ثم قالا له : « أيها الملك المعظم ، إنا نريد أن نقدم لك خدمة جليلة ، إذ أنت بها خليق ، وهى بك أنسب ، إنا نستطيع أن نعد لك ثوباً شفيفاً جميلاً لا يراه عليك إلا من كان مخلصاً لك ، معجباً بك ، أو كفؤاً فى عمله ، قديراً عليه » .

فتهلل الملك واستبشر وقال : « لله دركما ياصديقى ، ما أكرمكما وما أجمل صنيعكما ، إننى ولا شك أصبح بما تنسجان وتحوكان بصيراً بأحوال الخلق جميعاً ، فأعرف من كان لا يحسن عمله ، ولا يصلح للقيام بما وكل اليـــه ، وأعرف كذلك المخلص من المخادع المداهن ؛ فابدآ من الساعة بهذا العمل الخطير ، وأنا أعرف كيف أجزل لكما العطاء » .

ثم أمر الملك أن يعطيا مبلغاً كبيراً من المال ، وأخلى لهما قصر رحيب على مقربة من قصر الملك ، ثم انتشر الجند حوله

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . ونزولاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه

يحرسونهما من اعتداء المعتدين (من غير المخلصين وغير الأكفاء !)

جلس اللصان المحتالان فى القصر الجديد ، ونصبا المناسج والأنوال ، وتظاهرا بالجد فى العمل ، والمثابرة التى لا تعرف الملل ، وطلبا من الحرير أرقه وأنعمه ، ومن الخيوط الذهبية أدقها وأنقاها ، فجيء لهما بما أرادا ؛ ولما انفردا فى المكان وضعا الحرير والخيوط وما أخذاه من المال فى حقيبتيهما ، وجلسا الى مناسجهما القائمة يديرانها على لا شيء ، لا خيط عليها ولا قطعة حرير ، يديرانها بهمة غير محدودة الليل كله ، والملك فى قصره ساهر يسمع أزيز المناسج والأنوال ، وهى لا تضعف ولا تخمد . وأخذ النعاس يغالب جلالته حتى غلبه وأخضعه لسلطانه ، ولم يبرح عنه حتى تنفس الصبح ، وجلا الليل جلاء تاماً ، فقام الملك مسرعاً الى نافذته ، تواقاً الى معرفة ما قد تم ، وأخذ يقلب وجوه الآراء فيمن يبعث ، فقر رأيه على رئيس وزرائه ، وما كان أخلص منه ولا أكفأ فى نظر الملك .

كلف الوزير الأكبر بهذه المهمة الشاقة ، فانطلق فى سبيله واثقاً من نفسه ، ودخل على الدجالين الكاذبين فوجدهما يتصببان عرقاً ، ويديران المناسج الفارغة بالقوة والعزم اللذين يميزان عمل المخلصين المصممين على النجاح ، فدهش الوزير الجليل وقال فى نفسه : « ماذا أرى ؟ أيمكن أن أكون غير مخلص للملك أو غير جدير بمكانتى الاجتماعية العالية ؟ أيمكن أنى لا أرى ولو قطعة صغيرة من الخيط أو الحرير على هذه المناسج القائمة الدائرة ؟ لله ما أشقانى ! » ثم صدر من اللصين سؤال قطع عليه تفكيره الصامت ، إذ طلبا منه أن يقترب قليلاً من المناسج ويخبرهما برأيه فى اتساق الألوان ؛ ودقة التطريز وجمال الأشكال ، ثم أشارا فى الوقت نفسه الى مناسجها الفارغة .

اقترب الوزير الخطير ووضع منظاره على عينيه ليرى مالم تبصره عينه المجردة . نظر فلم ير شيئاً . ثم رجع البصر كرتين فعاد البصر اليه خاسئاً وهو حسير . اتهم الرجل نفسه وكفايته ودب الحزن فى قلبه . وقال فى نفسه : لا لا ! لا يمكن أن يعرف الناس عني أنني غير مخلص أو غير كفء ، ولن أعترف أبداً أنى ما رأيت النسيج الشفاف .

لم يكد السيد الرئيس يفرغ من خاطرته الشجية المضحكة حتى فاجأه أحد المحتالين بقوله : « سيدي ، يظهر أنك لا تبصر محاسن ما قد صنعنا . » فأجابه الوزير : « لا أبصره ! ! ومن ذا الذى يستطيع الابصار اذن ؟ ما أبدع ما أرى وما أدقه ، بنفسى تلك الألوان المتسقة . وهذه التصاوير الرائعة . و . و . و . . . نعم سأخبر الملك سريعاً بهذا البدع وهذا التفنن » فشكره اللصان شكراً جزيلاً على حكمته وكفايته . وأخذا يشرحان له الأشكال المختلفة الموهومة . ويذكران أسماء الألوان . ويبينان مواضع الحسن فى ذلك القماش الخيالى . والوزير يصغى اليهما ويهز رأسه لبعض ما يسمع حتى يسرده على الملك عند عودته حرفا بحرف

رجع الوزير والهم حليفه الى الملك ؛ وأخذ يصف ذلك الجمال الذى سمعه بأذنه . وعجز عن رؤيته بعينه . والملك يترنح عجباً وسروراً . وفى اليوم التالى بعث الملك ضابطاً من ضباطه الذين سمعوا وصف الوزير وإعجابه بما شهد . فذهب الرسول ولم ير من المناسج إلا خشباً قائماً لا شيء فيه . ولكنه اتهم عينيه واتهم كفايته وأخذ يفكر تفكيراً هو الحريق الداخلى ويقول لنفسه : « لاشك أنى غير كفء لمكانتى ذات الأجر الكبير . أف ما أتعسنى ! كيف أعجز عن إبصار ما رآه السيد الرئيس وافتتن به ؟ لا يجوز أن يعلم أحد عنى ما أعلمه الآن من نفسى . » ثم ارتفع صوته فجأة بالاعجاب والمديح ، وعاد إلى الملك يبالغ فى الثناء . فازداد الوزير (وكان حاضراً) اتهاماً لنفسه وكفاءته . وسر من كذبه الصالح . ثم عزم الملك على زيارة تلك المناسج العجيبة . فقام مع حاشيته ورئيس الوزراء والضابط الممتاز وذهبوا إلى اللصين جميعاً

دخلوا حجرة اللصين فصاح الوزير الأكبر صيحة العجب والاعجاب : « ما أجمل ذلك الزخرف . وما أدق هذه الصنعة ! وما أبدع تلك الألوان المتداخلة . وتلك الأشكال المتماثلة . » ثم صاح الضابط : « يالله ! ما كنت أحسب قبل اليوم أن فى طاقة الانسان أن يعمل كل هذا البدع : ثوب شفيف مطرز . وبالأشكال الجميلة مزخرف . وهو مع ذلك لا تراه إلا عيون المخلصين والأكفاء ، ولا تلمسه الأيدي ولا تدركه الظنون . »

فوجم الملك وقال فى نفسه : « ما هذا ؟ ألا أرى شيئاً ؟ إنها لمصيبة كبرى ؟ هل يمكن أن أكون معتوهاً أو غير خليق بالملك ؟ لا . لا بد أن أسدل على الأمر ستار الخفاء . » ثم صاح

« حقاً ما أجمل ذلك القماش ! إنى راض عنه الرضى كله » . ثم ابتسم وحدق فى المناسيج الفارغة . ولكن هيهات لنفسه الضعيفة أن تنكر وجود شيء أقره رجلان من كبار رجاله !!
وانطلق رجال الحاشية يحدقون كذلك ويصيحون : بديع ! مدهش ! فخم ! عجيب ! رائع ! تلك كانت الصفات التى أخذت ترن فى أنحاء المكان الواسع . ثم عطف الملك على الحائكين وأجزل لهما العطاء ورفعهما إلى الدرجات العالية ، وقرر الملك أن يلبس تلك الحلة الرائعة ويسير فى موكب فخم فى أنحاء المدينة يعرضها على الأنظار . .

جاء يوم الاحتفال — ذلك اليوم المشهود — فخرج الناس من منازلهم ، وساروا زرافات فى الطرق ، حتى فاضت بهم السبل ، وكأن الأرض صفحة كتاب ، سطورها الشيوخ والشباب . أما الملك فقد جرده اللعنان من ملابسه إلا قميصه وسرواله ، ثم أوقفاه أمام المرآة ، وأخذا يروحان ويجيئان ويرفعان أيديهما ويضعانها ، ويديران الملك أمام المرآة ليرى الحلة الجديدة ، وأفراد الحاشية وقوف بين متعجب ومسرور ، ثم صاح اللصان أن قد تم كل شيء فتقدم الخدم إلى رفع الذيل الموهوم لتلك الحلة الخيالية ، وسار الملك فى طليعة السائرين ، والوزراء والأعيان حوله ووراءه ، والنساء مطلات من النافذ والشرفات ، والناس مبهوتون بالنظرات وما وقعت عيونهم عليه حتى علا الصياح يشق جوف الفضاء : « ما أجمل الثوب ، وما أبدع الذيل » !! . . .

وهكذا ظل كل إنسان يخدع نفسه ويكذب عينيه ، ظناً منه أنه وحده قد عجز عن رؤية الثوب ، وأن الباقين يرونه كما يرى بعضهم بعضاً . واستمر الحال كذلك برهة والناس جميعاً خادعون ومخدوعون ، ثم صاح طفل ساذج : « ليس على الملك ثوب جديد ! الملك عريان ! » فبهت الجميع . . . ثم صاح شيخ كهل :
« اسمعوا صوت الحق ، اسمعوا صوت الطبيعة التى لا تعرف الملق والنفاق » . فاغتم الملك غماً شديداً إذ علم أن ما قاله الطفل حق صراح ، يبصره هو ويشعر به ، ثم عاد أدراجه بين سخر الساخرين ، واستهزاء الضاحكين . . . .

م . ك

سيوة

تقع واحة سيوة فى صحراء مصر الغربية على الحدود ما بين مصر وطرابلس على مسافة مائتى ميل جنوبى السلوم وأربعمائة ميل غربى وادى النيل .

ويمكن القول أنها الواحة الشمالية من سلسلة واحات تتبع إحداها الأخرى من الجنوب إلى الشمال فى صحراء « ليبيا » وكان الأقدمون يسمون هذه الواحات « بالأراضى المقدسة » لأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة منحت هذه البقاع ماء وسط تلك الصحراوات القاحلة ، ولأن هذه الواحات قد حمتها الطبيعة بأن أحاطت كل واحة منها بسلسلة من جبال كلسية تمنع عنها الرمال الدقيقة التى تحملها معها الرياح ، إذ لولا هذه الجبال لغطتها كثبان الرمال وجعلتها فى عالم النسيان ، كذلك عيون الماء المتفجرة فى هذه الواحات سببت الحياة والرخاء وسط ذلك المحيط القاحل غرب وادى النيل .

تتكون سيوة من عدة واحات صغيرة متجاورة تقع فى منخفض من الأرض يبلغ طوله حوالى ثلاثين ميلا وعرضه ستة أميال تقريبا ، وينخفض عن سطح البحر حوالى عشرين متراً تكنفها صحراء جرداء محرقة لا تسقط فيها الأمطار

ولقد زارها الاسكندر الأكبر حينما غزا مصر وتبرك بزيارة معبد « جوبيتر آمون » إرضاء للكهنة المصريين ورغبة منه فى إظهار احترامه لدينهم .

يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة ، وهم سلالة أقوام قديمة من البرابرة ، ولا يشبهون أعراب الصحراء فى شيء . ولهم لغة خاصة بلهجة ولكنة غريبتين ، ولعلها لغة أجدادهم البرابرة القدماء ، والغريب فى أمرهم أنهم يتكلمون بتلك اللغة ، ولكنهم لا يتكاتبون بها ، بل إنهم يتكاتبون باللغة العربية ، ولا شك فى أن بقاء هذه اللغة البربرية راجع إلى بعد الواحة عن العمران ، وصعوبة المواصلات بينها وبين الأجزاء الأخرى من القطر فقل اختلاط السكان بالمصريين والأعراب ، بل إن أهالى سيوة لهم عادات خاصة ، وطباع تخالف فى جوهرها طباع العرب و سكان وادى النيل

ليس لهذه الواحة تاريخ معروف ، بل إن ماضيها مظلم ، وليس من

سبيل لالقاء أشعة من النور لمعرفته إلا إذا قامت بعثات علمية بالحفر فى جبالها وآثارها والتنقيب فى معابدها وخرائبها حتى يمكن أن يرفع ذلك الستار الكثيف عن تلك المدنية البائدة الغريبة

والطريق الأكثر استعمالا للوصول إلى سيوة هو من مرسى مطروح والسلوم ، ويمكن للسيارات الصغيرة الخفيفة أن تقطع مابين مرسى ومطروح وسيوة فى ثمانى ساعات . أما السيارات الثقيلة المعدة للتحميل فتقطع المسافة فى يومين . وتقطعها الجمال فى سبعة أيام ، ويقطع كثير من أعراب الصحراء المسافة من شاطىء البحر الأبيض إلى سيوة مشيا على الأقدام وهى مسافة لايستهان بها إذا أضيف اليها ندرة الماء فى الطريق .

وكل ما يعيش عليه الأعرابى فى الطريق ، قليل من التمر ولبن الناقة وقطرات من الماء . وبهذه المناسبة أقول إن السيارات لم تبدأ بالسير بين مرسى مطروح وسيوة إلا منذ سنة ١٩٢٦ أما قبل ذلك فالمواصلات بين البلدين كانت بالجمال ، غير أنه حدث أن زار الخديو السابق عباس باشا سيوة سنة ١٩٠٥ مع بعض الألمان الذين كانوا ينقبون عن الآثار فى مدينة «سانت مناس» القديمة التى تقع فى الجنوب الغربى من الاسكنـــدرية وكان بصحبته الهر إيوارت فولز Ewart Falls . وقد قطع المسافة لسيوة على عربة مكشوفة (فيتون) تجرها جياد تستبدل بغيرها كلما أصابها الكلال والتعب، وهذه هى المرة الأولى التى سارت فيها عربات ركوب فى الصحراء فى تاريخ سيوة الحديث ، وتألفت حملة الخديو السابق فى هذه الزيارة من أربعة علماء من الألمان وعشرين جنديا واثنين وستين حصانا و٢٨٨ جملا لحمل الأمتعة . هذا عدا خدم الخديو الخصوصيين .

وتهتم مصلحة الحدود الآن باصلاح الطريق ما بين مرسى مطروح وسيوة ، فهى تزيل الصخور من الطريق وتضع خلوطاً من خرسانة الأسمنت فى المواضع التى يغطيها مطر الشتاء ، ثم إنها أصلحت بعض المستودعات القديمة الرومانية التى تجمع فيها الأمطار وسقفتها بأسقف من خرسانة الأسمنت وعملت فيها فتحات حتى يتمكن المارة من أن يحصلوا على الماء بالقاء دلو مربوط فى حبل كى يأخذوا مايشاءون من الماء ، وحتى لا يضيع أى قدر من ماء الأمطار ، وازدادت تلك العناية عقب زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك الأخيرة سنة ١٩٢٨ إذ أن مصلحة الحدود تعمل على إيجاد أكبر عدد من مستودعات ماء المطر فى طريق الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة لدرجة أن العربى الذى يقطع المسافة سائراً على قدميه يمكنه أن يجد فى طريقه كل يوم مستودعاً فيأخذ مــــا يحتاجه من ماء يكفيه طول اليوم ، ومن أكبر هذه المستودعات أو الآبار هو بئر جلالة الملك فؤاد الأول عند اليويب وهى منتصف المسافة تقريباً بين مرسى مطروح وسيوة ، وتوجد آبار أخرى فى الطريق أذكر منها بئر الكنائس والجحفا وغيرها .

يقطع المسافر من مرسى مطروح الصحراء الغربية فى رقعة من الأرض متشابهة الأشكال والمنظر لا تغيير فيها ، فهى رمال صفراء تغطيها قطع صغيرة من الأحجار المتناثرة هنا وهناك ، ويمر فى طريقه ببعض التلول الصخرية القاتمة اللون ، ولا يرى إلا سراب الصحراء على امتداد البصر . ولقد رسمت السيارات دروباً واضحة فى الصحراء بحيث أصبح السائقون على إلمام بها بحيث لا يضلون الطريق كأنما هم يسيرون فى شوارع البلاد الآهلة بالسكان، وقبل الوصول الى سيوة بما يقرب من عشرين كيلو متراً تبدأ العربات بالانحدار فى طرق منعرجة وسط الصخور التى تحيط الواحة ، ولا تزال هذه الطرق تنحدر فى ميلها تدريجياً حتى تتمكن السيارات فى نهايتها من الوصول الى الواحة نفسها . وذلك الانحدار طبيعى لأن هضبة الصحراء ترتفع عن سطح البحر ، بينما الواحة نفسها منخفضة عن سطح البحر حوالى عشرين متراً ، ومتى أن ينتهى ذلك الانحدار حتى ترى أشجار النخيل وقد مالت كل منها على الأخرى وكأنما هى عرائس وضعت على رؤوسها أكاليل من أوراق الربيع الخضراء ، وتراها وهى فى وسط الواحة الهادئة الساكنة كأنما تسر كل منها للأخرى أسرار الكون وأسرار وجود الحياة وسط تلك الصخور الصامتة الخرساء . ولا شك فى أن القادم على سيوة حينما يقع بصره على أشجار الزيتون والنخيل يشعر بالفرق الشاسع بين تلك الصحراء المملة برمالها ودروبها ، وبين تلك الواحة باخضرارها ووجود الحياة البالغة فيها . ثم يستمر السير وسط حقول الواحة وقد أحيط كل حقل بسياج من جريد النخل الذى لفحته حرارة الشمس فتحول لونه من أخضر زاه الى أصفر ذهبى ، وبعد مسير بضع دقائق تصل وسط البلدة عند مركز سيوة .

« يتبع »

ثابتى



رسائل سائر

من بلاد العرب إلى بلاد اليونان

بقلم صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان

من الأمور اليسيرة العسيرة ، السهلة الممتنعة ، التى تستعصى اجادتها إلا على ذوى الأفهام النادرة ، والأقلام القادرة ، وإن خدعت ظواهرها ، وخيل لأوساط الكتاب أنها هنة هينة ، تستطيع أرباع الاقلام وأنصافها أن تجول فيها وتبرز ، هى تصوير الشعوب تصويراً صادقاً ناطقاً قوياً رائعاً . . . يروى عن سائح فرنسى زار انجلترا ، أنه لم يكد يقيم بها أسبوعا حتى حمل القلم وهم بالكتابة عنها ، فلم يقطر قلمه إلا كلمات متقطعة وأسطراً ركيكة فلم يشأ أن يرد ذلك إلى قصوره وعجزه ، وزعم لنفسه أنها سبعة الأيام لا تجمع فى الذهن محصولاً من الصور يكفى لاجادة التصوير ، وعول على الاقامة شهراً كاملاً ، فانقضى الشهر واهتز القلم ، فانغمس فى الدواة مراراً وجف مراراً ، دون أن يهبط عليه الوحى الذى يرجو ، ولكنه ليس عاجزاً ولا مقصراً ، انما هو الشهر لا ينفع ولا يجدى كاتباً يريد أن يجيد ، فصبر حتى دار الفلك دورة كاملة ، وانسلخ العام بشهوره الاثنى عشر ؛ والذهن على ركوده والقلم على جموده ، فأيقن بعجزه عن الوصف وارتحل

فليست الكتابة عن الأقطار والشعوب هينة لينة كما يبدو ، إنما هى مرتبة عالية ، تحتاج إلى قلب كبير حساس ، يعى ما يرى من الصور وعياً تاماً ويحسها احساساً قوياً ، حتى لكأنه نشأ بينها ودرج فى أحضانها ، وإلى عقل راجح لا يميل به الهوى ، فيزن القول وزناً دقيقاً عادلاً ، وإلى قلم قدير ينطق بما يحسه القلب ويحكم به العقل ؛ وقد اجتمعت هذه الأدوات الثلاث لدى الاستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان ، الذى طوف فى أرجاء فلسطين وسوريا وزار بلاد اليونان ، فلم يعوزه ذلك القلب اللاقط الحساس ، ولا غرابة فهو أبو التلاميذ جميعاً ، الذى وسعت رحمة قلبه ألوف الأبناء ، ولم ينقصه العقل الراجح المتزن العادل ، فقد عرفته منصات القضاء أعواماً وأعواماً ، فاذا ما أحس قلبه وإذا ما حكم عقله ، ألفيا قلماً بليغاً ينطقانه فى بيان ساحر خلاب .

طوف الأستاذ فى تلك الأنحاء ، فأحس كثيراً وعلم كثيراً ، فأملى على القلم إحساسه وعلمه ، فصدع القلم ودبج فصولاً لست أعرف خيراً منها ، أستغفر الله بل ما يدنو منها فيما كتبه الرحالة المتجولون حديثاً ، وأخذ ينشر تلك الفصول تباعاً فى صحيفة سيارة ، ثم نظمها اليوم فى كتاب ، حتى يطالعه الأخلاف كما قرأه المعاصرون ، فكان هذا الكتاب القيم : رسائل سائر

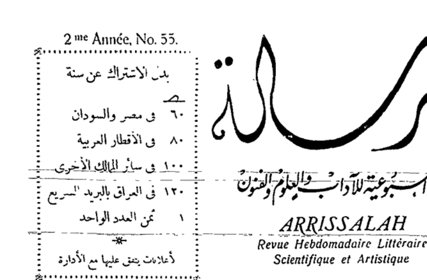
قرأت الكتاب فراعتنى منه جوانب ثلاثة : التصوير الدقيق ، والملاحظة الصحيحة ، واستخلاص العبرة ، ولو أردت أن أسوق اليك الأمثلة لنقلت اليك الكتاب الذى أدعوك لقراءته من السطر الأول إلى السطر الأخير

على أن فى الكتاب هنات يسيرة ، كنا نرجو أن يبرأ منها كالتطويل القليل القائدة فى بعض المواطن ، وقلة عدد الصور ، وهذا القليل لم ينل حقه من الاجادة تصويراً وطبعاً ؛ وكالأطناب فى خالد بن الوليد ، ومن رأينا أن ما يمكن تحصيله وأنت هادىء ساكن فى مكتبك ، ليس مما يحسن ذكره فى كتب الرحلة ، وبوقوع بعض الأخطاء اللغوية ، أو التى نحسب أنها كذلك ، فى صفحة ٧ يقول « ظاهرة حقة » ونظن أن الصفة هنا لا تؤنث كقولك رجل عدل وامرأة عدل . وفى صفحة ٣٥ ذكر الريح مذكراً وأظنها أو يحسن على الأقل — أن تكون مؤنثة . وفى صفحة ٣٨ ذكر « باقة زهر » والباقة لا تكون إلا للبقل ، أما حزمة الزهر فيقال لها طاقة الزهر .

وانما نذكر هذه المآخذ لضرورة ذكرها فى مجال عرض الكتاب ، على انها لا تشوه من جمال الكتاب فى شىء ما ؟

زكى نجيب محمود

2 me Année, No. 55. — Lundi-23-7-1934



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بمناسبة ذكرى حافظ

بين السياسة والأدب

ينظر الأدب المصرى اليوم الى السياسة نظر المَغيظ الحانق لطغيان جلادها على جلاله، وعدوان سلطانها على استقلاله، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث الهوى المتحكم بقوانين العدالة!

شهد الأدب فى هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا، وجنازة أدبية لأحمد زكى باشا. وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك، وذكرى أدبية لحافظ ابراهيم بك: فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة، ومظهرتين من مظاهرات القومية المتحدة. شملت البلاد، وشغلت الصحف، وأرهفت الشعور، وأرهبت الحكومة، ونفّست عن العاطفة العامة المكروبة: وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا شاهدين على هذا التواضع المسكين الذى يصاحب العلم، وأثرين لهذا البؤس المهين الذى يلازم الأدب، فشيّع الأولى بعض الأصدقاء وبعض الخاصة، وسعى الى الثانية كل الأصدقاء وكل الخاصة، ثم تهامست بين الناس الشكوى، وتمتمت من الأنصار المعاذير.

وتجاوبت في الأقطار الشقيقة أصداء الأسف ، ونعى كتب سورية الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة ؛ وليس الأمر في نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة . ويثير السخط على الجمهور ، ويستوجب الملامة على مصر ، فإن السياسة تقوم بواجبها ، ولا تحول بين أحد وبين واجبه .

السياسة عقيدة ، والعقيدة تحييها الشعائر ، وتنميها المظاهر ، ويقويها الحشد ، وينشرها الاعلان ، ويديمها التذكير ، وتجددها الدعاية .

والسياسة مبدأ ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرم في ذكرى الميت كما كان يكرم في وجود الحي ، وما حالات السياسي إلا مناسبات يُهتف فيها بفكرته لا بصورته .

والسياسة جهاد ، والجهاد يدعو بتكريم البطولة الى البطولة . وبتعظيم التضحية الى التضحية .

والسياسة حكومة وخصومة ، ومن حق السياسة المكبوتة أن تلتمس الحرية في كل فرصة ، وتتنشق الراحة من كل فرجة

والسياسة جاه وقوة ، ومن طبيعة النفوس أن تشايع الجاه وتبايع القوة ابتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة

والسياسة بعد ذلك كله الشعب ، فرجالها زعماؤه ، وضحاياها شهداؤه ، ومواقفها مواقفه

أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك ، ليس عقيدة للعامة ، ولا فكرة للأمة ، ولا ساحة للنفوس المجاهدة ، ولا مطمعة للعيون الرغيبة ؛ إنما هو فن الخاصة وبغية الرجل المثقف ، فاذا لم يحتفل أهله بأهله ، وينوه جمهوره بفضله ، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنغام موسيقى الجيش بعد المعركة ، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجند والقادة

***

الأدباء هم الملومون على هذا العقوق ، والصحفيون هم المسئولون عن هذا الاهمال ، وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة ، هما اللتان تفسران البواعث على هذا والدوافع الى ذاك ؛ والأديب الذي ينفس على أخيه محنة الوجود ، يجد الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود ،

والأدب في الحياة وفي الممات شر على صاحبه ، فإنا لا نزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة ، وتخفى دلائل النبوغ ، وتزيف حقائق الفضل ثم لا تترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكرة من الأدب والفن والخلق . ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطي بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكي ، كأن الكاتب يداً في تركيب مزاجه ، وتكوين بيئته ، وتأليف ظروفه ، وتثقيف ملكاته . كذلك لا نزال نسمع من يشدد النكير على شوقي لأنه عالج في بعض عمره شعر المديح ، كأنه نشأ في ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة ، وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبي كان يمدح سيف الدولة !

***

نعم كان أمس ذكرى حافظ ، وكان أول أمس ذكرى سينوت ! فهل رأيت بعينك وفاء السياسة وجحود الأدب ؟ . إن حافظاً رحمه الله ما يزال يقتضى أصدقاءه الخلص حفلة التأبين وتأليف الكتاب ، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال ؟

ولقد كان من جرائر نحسه الذي ظل بعد موته حياً يعيث ، أن مواهبه السامية في الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة ، فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث ، حتى خشينا أن يصبح في الخاصة ما أصبح أبو نواس في العامة . !

***

فمن مبلغ حافظاً الصديق أن المودة بعده أصبحت لا تبقى على المحن ، ولا تقوى على الأهواء ، ولا تثبت للظروف ، ولا تتجاوز كذب الحياة الى صدق الموت !

ومن مبلغ حافظاً الأديب أن الأدب بعده أصبح داء كداء الضرائر ، تهيمن عليه المنافسة الكاذبة ، وتغض منه المحاسدة اللئيمة ، وتتحكم فيه الأغراض الحقيرة ؟

ومن مبلغ حافظاً الفنان أن فنه الجميل سيبقى على لؤم الانسان وظلم الزمان ، رائعاً ما راع الجمال ، ساطعاً ما سطعت الشمس ، خالداً ما دام هذا الخلود ؟ ! .

احمد حسن الزيات

ســـمو الفقـــر

فى المصلح الاجتماعى الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

— ٢ —

قالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلئ جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قط ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .

وقالت : ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعنها : كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار ، إن هو إلا التمر والماء .

وقالت : ما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قط غداء لعشاء ، ولا عشاء لغداء ، ولا اتخذ من شىء زوجين ، لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى .

وقالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله ما أمسى فى آل محمد صاع من طعام ، وإنها لتسعة أبيات » والله ما قالها استقلالاً لذكر الله ، ولكن أراد أن تتأسى به أمته .

وعن ابن بجير ، قال : أصاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم جوعٌ يوماً فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « ألا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا — جائعة عارية يوم القيامة ؛ ألا ربَّ مكرمٍ نفسه وهو مهين لها ؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها » .

وخُيِّرَ صلى الله عليه وسلم أن يكون له مثل « أحد » ذهباً فقال : لا يارب ، أجوع يوماً فأدعوك ، وأشبع يوماً فأحمدك .

وكان يقول فى دعائه ويكثر منه : اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين .

* * *

هذا هو سيد الأمة ؛ تمسكه فى الحياة نبياً عظيماً ما يُخرج غيره منها ذليلاً محتقراً ، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فرده أشعة نور ، على حين يلقى الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبقى تراباً ، بل يرجع ظلاماً ، فكأنهم يطئون المجهول بخوفه وروعته ؛ ثم لا يستقر ظلاماً ، بل يرجع آلاماً ، فكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة ؛ ثم لا يثبت آلاما ، بل يتحول فورة وتوثباً تكون منه نزوات الحمق والجنون فى النفس . هؤلاء الذين تعيش أنفسهم فى التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه — ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دوداً لا يقع فى شىء إلا أفسده أو قذّره ؛ أو قوماً سوساً لا ينال شيئاً إلا نخره أو عابه ، فهم يوقعون الخلل فى نظام أنفسهم فاذا هى طائشة تخيل لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا ، وكأن الله قبضهم وبسط غيرهم ، وشغلهم وفرَّغ من عداهم ، وابتلاهم على مشكة الرزق بالشهوة المسعورة التى لا تتحقق ، فضربهم بالمجاهدة التى لا تنقطع ؛ وأنعم على غيرهم فى بسطة الرزق بالشجرة المسحورة التى لا تُقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضر ؛ وأنه لم يجعل نفسه فى همّ المال ، ولا جعلته نفسه فى هم الفقر ، وأنه لقى الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقر فيها هادئاً لا مضطربا — كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وبعث وعاش ليكون درساً عملياً فى حل المشكلات الاجتماعية ، يعلّم الناس أنها لا تتعقد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ؛ ولا تستمر بقوتها ، ولكن بامداد قواهم لها ؛ ولا تغلب بصولتها ، ولكن بجزعهم منها ؛ ولا تعضل من ذات نفسها . ولكن من سوء أثرهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .

فاذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتقللاً ، ولا فقراً وجوعاً ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تترجمها نفسك أو تحسبها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعية مُفصَّلة على طبيعة النفس ، قائمةً على أن تأخذ نفس الانسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية ، لتعطى الحياة من ذلك قوة عناصرها . والحياة العاملة غير الحياة الوادعة ، هاذي كر وأنثى ؛ فأما الأولى فهى ما وصفنا وحكينا ، وأما الثانية فهى تغلُّل النعمة ، وإطلاق قانون التناسل فى المال ينمى بعضُه بعضا ، وينبت بعضه على بعض ، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوِّماتها ، وقيام الزينة على الخداع وطبائعه ، فيُقْبل المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفه عنها ، ويحب منها ما كان ينبغى أن يباغضه فيها . وكل ما رأيت وعلمت فى رجل قُوَّته القوة فهو هناك ؛ وكل ما علمت ورأيت فى أنثى قوتها الضعف فهو هنا .

فالسواد الذى تراه فى فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحى ؛ سواد الليل حول الروح النَّجْميَّة الساطعة ؛ وذلك التراب هو التراب الحى ؛ تراب الزرع تحت النضرة والخضرة ؛ وتلك الحاجة الجسميَّة هى الحاجة الحية الدافعة الى حرية النفس ؛ وذلك الاقلال من فهم اللذة هو الاقلال الحىّ الذى يزيد قوة فهم الجمالى فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيق فى حيز المتاع الخارجية هو الضيق الحى الذى يوسع حيِّز المتاع للروح . وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقار للعرَض الفانى الزائل هو المعنى الآخر لتقديس الخالد الباقى .

فليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودى ... كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة مترتبة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفق والحلم والتواضع ، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبى العظيم هو الرجل الاجتماعى التام بأخلاقه وفضائله ، وهو الذى بُعث لتنفيح غريزة تنازع البقاء ، وكسر هذه الحيوانية وقمع نزواتها ، وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها فهو بنفسه صورة الكمال الذى بعث لتحقيقه ، وإثبات أنه الممكن لا الممتنع ، والحقيقى لا الخيالى .

ليس هناك درع مرهونة فى ثلاثين صاعا ، ولا الفقر ، ولا خبز الشعير . كلا ، كلا ، بل هناك تقرير أن النصر فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ، وأن التقدم الانسانى لا يبتاع بيعاً ، ولا يؤخذ هوناً ؛ بل هو انتزاع من الحوادث بالاخلاق التى تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها ، وأن هذا المال وهذه الشهوات — فى حقائق الحياة ومصائرها — ككنوز الأحلام لا تكون كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمق أو المخذول أو الضائع هو الذى يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز ، وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

كلا ، كلا ، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما ، بل هناك وضع هذه الحقيقة : ينبغى أن تجد نفسك ، وموضع نفسك ، وإيمان نفسك ، وعزة نفسك ، فاذا أدركت ذلك ورفعت نفسك الى موضعها الحق ، وأقررتها فيه وحبستها عليه ، وحددتها بالانسانية من ناحية ، وبالله من الناحية المقابلة — رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة فى أن تكون وسيلة تعطى وتعمل لتعطى ، لا غاية تأخذ وتعمل لتأخذ — ومهما ضيق عليك ، فانما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع حلاوة . وما قط نبتت شجرة فى مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب ، وتحصنها وتمنعها عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل ، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم ، فيكون طمعها سريعاً فى إفساد الصلة بينها ، فلا يجد القانون فيها نظامه ؛ ومن ثم لا تجد فى القانون نظامها ، فتهلكها التى كان يحييها ، وتستعبد لحظ نفسها فيفقدها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها .

***

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن بكل خير على كل حال ، إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل » . فهذا هو أسمى قانون اجتماعى يمكن أن تظفر به الانسانية

ومايأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا إليهاشعوراً اجتماعياً عاماً ، مقرراً في النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحب القمح في السنبلة ليس لجميعه إلا قانون واحد ، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها ، علت أو سفلت ، وكثر ما تأخذه أو قل ؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها ، وأن يستمر النور من حولها يغمرها .

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنزَع وما بها أنها نُزعت ، ولكنها أدت ما تؤدّي ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره ، وما اغتنت ولا افتقرت ، ولا أكثرت ولا أخفّت ؛ بل حققت موضعها ، فانها ما نبتت لتبقى ، وما تمت إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمن الصحيح الايمان ، الصادق النظر في الحياة ، هو أبداً في قانون آخرته ، فهو أبداً في عمل ضميره .

والناس في هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء ؛ فاذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفْضُون إلى هذه النهاية مرّوا آمنين وكان في يقينهم السلامة ، وفي صبرهم الوقاية ، وفي نظامهم التوفيق ، وفي تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، مادام هذا قانون جميعهم ، فأيما رجل شذّ منهم فاضطرب فطاش هلك وأهلك من حوله ، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه أهلك من حوله وهلك . والموت أشق الموت هنا — اعتبارُ الحاضر بنفسه ، والضجرُ منه ، وجعل الانسان نفسه غايةً ؛ والحياة أهنأ الحياة — اعتباره بما وراءه ، والصبر على شدته ، وجعل الانسان نفسه وسيلة .

***

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودي من سيد الخلق وأكملهم ، ومن لوشاء لمشى على أرض من الذهب . فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الانسانية أن الرجل العظيم النفس لايكون في الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معاني ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلُّل من خلق الأثَرَة . والبراءة من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسْرة رمز ثالث على مجاهدة المال الحي الذي يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الايقاظ النفسي للأمة العزيزة التي تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ؛ لتكون في كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للانسانية .

على أنه صلى الله عليه وسلم حثّ على طلب اليسار ، والتنال من الأعمال الشريفة بالغلّة والمال ؛ فقال : « إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال صلى الله عليه وسلم : من يعوله ؟ قالوا كلنا نعوله . فقال : كلكم خير منه ! ... إلى أحاديث كثيرة مرويّة ، هي تمام القانون الأدبي الاجتماعي في الدنيا ، تثبت أن الحي إن هو إلا عمل الحيّ . ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدح لعيشه ، ويجوع يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يده في تِلاد من المال يرثه ولم يجمعها على طريف منه يورّثه — فذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالأمر نافذاً لا رخصة فيه على ألاّ يتخذ الغني من الفقير عبداً اجتماعياً ، لفقر هذا ولمال ذاك ؛ بل هي المساواة النفسية لا غيرها ، وإن اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله ، بمعنى التقوى ؛ والأقوم بالواجب ، على معنى الواجب ؛ والأكفأ للانسانية ، في معاني الانسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك ، لقيام التعاون الانساني على أساسه العمليّ ؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية يمنع أن تأكل مصلحةٌ مصلحةً فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني كالقاضي الجالس وراء موادّ القانون . صلى الله عليه وسلم .

مصطفى صادق الرافعي

بين يدي شهـــرزاد

للأستاذ توفيق الحكيم

شهرزاد متكئة على الوسائد تنظر باسمة فى حوض ماء من الرمر وبين يديها الوزير قمر . . . .

شهرزاد — (فى مكر) أراك ياقمر تسرف فى إطرائى وتبخس قدر صديقك .

الوزير — لم أبخس قدره .

شهرزاد — (فى مكر) يخيل إلىّ أنك نسيت مابينكما من ود عجيب .

الوزير — (فى حدة) لم أنس شيئاً .

شهرزاد — (فى خبث) بلى !

الوزير — (فى حدة عياء) انى لم أنس شيئاً . انما أبين لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب ، فلا تزعمى لى غير هذا مرة أخرى . انى لست أخدع . لست أخدع . لست أخدع !

شهرزاد — (هادئة) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير — (يثوب الى رشده) مولاتى مغفرة . . انى . .

شهرزاد — انك أحياناً لا تملك نفسك .

الوزير — إنى . . أردت أن أقول انك غيرته ، وأنه انقلب انساناً جديداً منذ عرفك .

شهرزاد — انه لم يعرفنى .

(يسمعان طرقاً شديداً)

الوزير — (يرهف السمع) هذا هو .

شهرزاد — ان شهريار يحمل دائماً مفتاحه ولا يدخل القصر ليلاً إلا من سرداته .

الوزير — مَن هذا الطارق اذن ؟

شهرزاد — اذهب وجئنى بالخبر .

(الوزير يخرج مسرعاً)

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) مسكين أنت يا قمر !

(الوزير يعود على عجل)

قمر — مولاتى ! أتدرين من الطارق ؟ رجل عجيب الزى ، يقول انه المؤلف ، ويلتمس المثول بين يديك .

شهرزاد — (فى عجب) المؤلف ؟ أى مؤلف ؟

قمر — لم أفهم مراده . انما هذا ما قاله لى .

شهرزاد — أدخله لنتبين أمره .

قمر — أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

شهرزاد — وماذا يضير . انك معى .

قمر — نعم سألبث معك .

(يخرج قمر فى الحال)

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) المؤلف ؟ : أتراه أحد السحرة قد أرسل فى طلبه شهريار ؟

(قمر يعود وخلفه توفيق الحكيم يلتفت يمنة ويسرة منبهر البصر مما فى القصر من عجائب لم يسبق لعين مثله أن وقعت على مثلها)

شهرزاد — (تلتفت اليه وتتأمل زيه قليلاً وتأذن له فى الدنو منها ولكنه يقف مكانه جامداً) (تقدم يا هذا .)

توفيق — مولاتى ...

شهرزاد — ماذا بك ؟

توفيق — أأنا بين يدى شهرزاد ؟

قمر — نعم أنت فى حضرة الملكة العظيمة .

توفيق — (كالمخاطب لنفسه) نعم ، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها .

شهرزاد — بم تهمس كمن به مس ؟

توفيق — مغفرة أيتها الملكة ، إنى . . .

شهرزاد — لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟

توفيق — هذا الجمال ...

شهرزاد — (لقمر) أرأيت يا قمر ! انك قد جئتنى آخر الليل بمُعجَب مفتون .

قمر — (لتوفيق) ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟
توفيق — (همساً) لست أدرى ... (يعود فيتأمل شهرزاد)
شهرزاد — أرجو منك ألا تطيل النظر إلىَّ هكذا .
توفيق — مولاتى ! لا أستطيع .
شهرزاد — أين الجلاد ؟
توفيق — خير لك أن تأمرى بى فتطاح رأسى من أن تطلبى إلىَّ ألا أعجب بك .
شهرزاد — أترانى حقًّا جميلة ؟
توفيق — نعم .
شهرزاد — ان لى جسداً جميلاً ! أليس لى جسد جميل ؟
توفيق — ليس الجسد وحده .
شهرزاد — اقترب .
توفيق — كلاَّ .
شهرزاد — لماذا ؟
توفيق — (يشير الى الحوض) هذا الحوض ...
شهرزاد — أيخيفك هذا الحوض ؟
توفيق — أخشى أن تزل قدمى فأسقط وأنا لا أحسن السباحة ...
شهرزاد — انه قليل الغور
توفيق — لا شىء عندك قليل الغور .
شهرزاد — (تتفرس فيه) عجبًا ! انك تتكلم كما يتكلم شهريار ! من أنت ؟
توفيق — خادمك توفيق الحكيم .
شهرزاد — أتعنى أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة ؟
توفيق — لا هذا ولا ذاك ، ولكنه اسم من الأسماء .
شهرزاد — وما صناعتك ؟
توفيق — أؤلف القصص .
شهرزاد — مثلى ؟
توفيق — لم أبلغ شأوك . وليس لى ذكاؤك ولا خيالك .
شهرزاد — انك تسرف فى اطرائى وتبخس قدر نفسك .
توفيق — قدر نفسى ؟ وما أدراك به ؟ وهل عرفت لى قصصاً على الأقل أيتها الملكة ؟
شهرزاد — كلاَّ . ماذا صنعت من القصص ؟
توفيق — قصة « شهرزاد »
شهرزاد — (فى عجب) أنا ؟
توفيق — نعم أنت .
شهرزاد — متى صنعتها ؟
توفيق — ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه .
شهرزاد — أصنعتها فى الماضى ؟
توفيق — بل فى المستقبل .
شهرزاد — فهمت . هذا الزى العجيب ...
توفيق — نعم . انى أهبط اليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه لألقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين كما يهبط الطائر من الشمال الى الجنوب فى غابة متسعة الأرجاء .
شهرزاد — يا للعجب ! كلامك هذا يذكرنى بشهريار .
توفيق — أترين هذا ؟
شهرزاد — لكنك أهدأ نفساً منه .
توفيق — نعم ، الآن .
شهرزاد — (تنظر اليه ملياً) انى أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟
توفيق — لقد جمع بيننا دائماً .
شهرزاد — أين ؟
توفيق — (يشير الى قلبه) هنا .
شهرزاد — (فى عجب تشير الى قلبه) هنا ؟
توفيق — نعم . ومن هنا خرجت أنت الى الوجود . فما أنت إلا صنع النار والنور الكائنين هنا (يشير الى قلبه)
شهرزاد — هذا جميل .
توفيق — أرأيت من أى مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتى العزيزة !

قمر — (يتململ) من هذا الرجل ؟

توفيق — صه أيها الوزير . فكر في شأنك أنت ، ودعني فيما أنا فيه . فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد .

شهرزاد — جئت من أجلي ؟

توفيق — نعم .

شهرزاد — وماذا تريد مني ؟

توفيق — أريد أن أعيش الى جانبك .

قمر — (في غضب وهياج) أيها الرجل ! من أنت أيها الرجل ؟

توفيق — أنا كائن أشقى منك حالاً .

شهرزاد — (باسمة لتوفيق) لماذا ؟

توفيق — لأني أشعر ببرد الوحدة يكتنفني في تلك السماء ذات السحب .

شهرزاد — ويل للمبدعين !

توفيق — صدقت ، أجل يا شهرزاد لو لم يعش المبدع في مخلوقاته لقتله برد الوحدة .

شهرزاد — تريد إذن أن تهبط الى الأرض ؟

توفيق — لقد هبطنا يا شهرزاد . لا شيء غير الأرض .

شهرزاد — أين شهريار يسمع منك ؟ وهو الذي هجر الأرض يريد السماء . !

توفيق — لا تخشى عليه من بأس . سوف يعود اليك .

شهرزاد — متى ؟

توفيق — يوم يعلم أن السماء في الأرض .

شهرزاد — يا هذا . أريد منك شيئاً .

توفيق — ماذا ؟

شهرزاد — أمنحك قبلة . !

توفيق — تمنحينني قبلة ؟

شهرزاد — نعم .

توفيق — وهبتها قمراً .

قمر — (في استنكار) مولاي !

توفيق — خذها أيها الأبله . من ذا يرفض قبلة من شهرزاد ؟

قمر — (يخرج سريعاً) ...

توفيق — هرب الأحمق .

شهرزاد — (تنظر الى توفيق ملياً) عرفتك أخيراً .

توفيق — (باسماً) أعرفتني ؟ من أنا ؟

شهرزاد — أأنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

توفيق — من هو ؟

شهرزاد — شهريار !

توفيق — صه . لست أدرى ... لست أدرى ... هذا سؤال لا ينبغي أن يوضع . ولا ينبغي أن يلقى عليّ .

شهرزاد — اذن ارتفع . فما أنت إلا شبح من الأشباح .

توفيق — شبح من ؟

شهرزاد — شبح شهريار . !

توفيق — لا تقولي هذا . إنما هو الشبح وأنا الحقيقة .

شهرزاد — أمام الأبد هو الحقيقة التي ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك ، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مر الأيام ، وان ذكر اسمك على الدهر فانما يذكر خلف اسمه . انك تزعم الآن أنك صانعنا ومبدعنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وإنما نحن في الحقيقة صانعوك ومبدعوك في الغد أمام الخلود ...

توفيق — ويل لي .

شهرزاد — ماذا بك ؟

توفيق — أأنا عندك شبح ؟ تلك هي السخرية الكبرى ! في وحدتي ينخر في نفسي الشك . فاذا هبطت بينكم ألتمس اليقين علمت أني شبح لا حقيقة . واني وليد صنعكم أنتم أمام الدهور .

شهرزاد — كل شيء يصنع كل شيء ...

توفيق — نعم .

شهرزاد — ليس هناك إلا حقيقة واحدة .

توفيق — ماهي ؟

شهرزاد — أننا جميعاً لسنا حقيقة .

[البقية في أسفل الصفحة المقابلة]

٣ – من روائع عصر الإحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل عال للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

زج بنفونوتو تشلليني إلى غيابة الحصن الرهيب (حصن سانت انجيلو) مرة أخرى، وهو كسير الساق، طريح الفراش وألقى فى تلك المرة إلى غرفة مظلمة ضيقة رطبة، تتمثل فيها روعة الأسر، ورهبة العدم؛ وشعر أن لهب حياته يخبو، فانكب على قراءة الكتاب المقدس استعداداً للقاء ربه؛ ولكنه بعد أن لبث أياماً فى قراءته، شعر أن قبساً جديداً يضيء حياته، وتولاه نوع من السكينة المعنوية وصفاء النفس؛ ويصف لنا تشلليني ذلك التطور النفسى الغريب الذى حقق له خلال الألم المبرح نوعاً من السعادة، وحوله من فتى مضطرم الأهواء والنزعات، إلى شبه قديس يتجرد بعواطفه نحو الملكوت الأعلى، لا يذكر شيئاً من ملاذ هذا العالم وحواسه؛ ويقص علينا فى عدة صحف شائقة حوادث حياته الهادئة فى ذلك الظلام الدامس، وكيف غدا عرضة للأحلام الروحية البديعة، ويبدو تشلليني فى هذا الوصف كاتباً بارعاً، فى بيانه كثير من القوة والسحر؛ والمحن تطلق البيان والشاعرية؛ أجل، وغدا تشلليني شاعراً أيضاً، يكتب فوق الصفحات البيضاء من «توراته» أبياتاً من الشعر الصوفى، ويشتغل بوضع قصيدته الكبيرة (الكابيتولو) فى وصف السجن ومديحه، ووصف ما عانى من ألم، وما آنس من سعادة نفسية

ثم توفى محافظ الحصن، صديقه القديم الذى كان يرعاه ويجتهد فى تخفيف محنته وخلفه أخوه فى منصبه. وكان البابا كلما خطر له أن يطلق تشلليني من أسره تدخل ولده السنيور بيرلويجى وحال دون قصده. وكان خصوم تشلليني يودون موته بأى الوسائل، وكان السم بالطبع أيسر وأنجع الوسائل التى تستعمل فى هذا العصر الفياض بالجريمة والغدر. وعلى ذلك عهد أحد رجال البطانة إلى أحد حراس السجن أن يضع شيئاً من مسحوق الماس فى طعام تشلليني، وعهد بسحق الماس واعداده إلى صائغ من أرزو؛ وقدم الطعام المسموم إلى تشلليني فأكله، ولكنه لاحظ فى النهاية ذرات تلمع فى أحد الصحون، نخفق قلبه، واعتقد بعد فحصها أنها ذرات الماس القاتلة. يقول: «فأيقنت عندئذ بأنى هالك، وامتزج الحزن والايمان فى قلبى حينما هرولت إلى الصلاة. ولبثت مدى ساعة أواجه الموت المحقق، وأضرع إلى الله، وأشكره على أن هيأ لى هذا الموت المهين، وشعرت برضى عميق، وباركت العالم والزمن اللذين عشت فيهما؛ والآن فانى أعود إلى أرض أفضل برعاية الله التى أيقنت أنى كسبتها».

ولكن أملاً غامضاً فى الحياة حمله على أن يتأمل الذرات اللامعة مرة أخرى، وأن يفحصها بواسطة مدية صغيرة، فانتهى بعد فحصها وسحقها إلى أنها لا يمكن أن تكون من الماس، وأنها مسحوق مادة لامعة أخرى لعلها لا تؤذى الحياة. والظاهر أن الصائغ الذى عهد إليه بسحق الماس قد طمع فيه واستبقاه لنفسه واستبدله بهذه المادة. وعلى أى حال فقد نجا تشلليني من هذه المحاولة، واستمر أياماً يرفض الطعام الذى يحمل اليه ما لم يذقه أمامه حارس السجن

وقضى ربك أخيراً أن تختتم المأساة المروعة وأن يطلق سراح البرىء. ذلك أن الكردينال دى فرارا مبعوث فرانسوا الأول ملك فرنسا قدم إلى رومة لمفاوضة البابا فى بعض الشئون، وانتهز هذه الفرصة فالتمس من قداسته أن يفرج عن تشلليني، وأن يسلمه إليه، منوهاً باهتمام ملك فرنسا بأمره، فاضطر بولس الثالث

توفيق — وأنا معكم.

شهرزاد — وأنت معنا لا فرق بينك و بيننا.

توفيق — (بعد لحظة) صدقت! ولا أمل لى مع ذلك فى أن أعيش الى جانبك.

شهرزاد — اليوم كلا.

توفيق — ومتى اذن؟

شهرزاد — فى الغد، يوم تصبح من مادتنا، لو أن لنا اليوم مادة.

توفيق — فهمت. وداعاً يا شهرزاد.

شهرزاد — الى الملتقى!

توفيق الحكيم

أن يجيب ملتمسه ، وأوفد رسوله في الحال الى الحصن مع كبيرين من حاشية الكردينال ، وأفرج عن تشلليني ، وأخذ الى الكردينال دى فرارا ، فاستقبله بترحاب ، وأنزله بقصره . فلبث به مدى حين ينفض عنه عثار السجن ، ويستجمع قواه الذاهبة ، ويستعيد مواهبه التى كادت أن تخبو . ولما انتعشت نفسه ، عاد فانكب على عمله المحبوب ، وأخذ يشتغل بطائفة من الأوانى والتحف التى عهد اليه الكردينال دى فرارا بصنعها . ولما أتم الكردينال مهمته فى رومة اعتزم السفر إلى فرنسا ، فسار تشلليني فى ركبه مع فتاه اسكانيو وزميل له يدعى باجولو ، وسبقه الكردينال إلى فرنسا ، وتخلف هو حيناً فى فلورنس وفيرارا ، ثم كتب اليه الكردينال ليوافيه إلى باريس ، فسار اليها مع عامليه ، ولم يكن راضياً عن معاملة الكردينال له من الوجهة المادية ، ولكنه لم يستطع التخلف قياماً بحق الوفاء والعرفان لأنه هو الذى أنقذه من إسار السجن . ووصل الى باريس ، ثم سار الى فونتنبلو حيث كان يقيم الملك وبلاطه ؛ وهنالك لقى الكردينال ، فأكرمه وأنزله منزلاً حسناً ، ثم استقبله الملك فرانسوا الأول بترحاب وأغدق عليه عطفه ، وقدم اليه التحف والحلى التى صنعها لحسابه ، فأعجب بجمالها ودقتها وهنأه على براعته ، وعهد اليه بصنع تحف أخرى ، وأقطعه منزلاً للعمل والاقامة ، وأجرى عليه راتباً حسناً . وهنا يفيض تشلليني كعادته فى وصف التحف التى عهد اليه ملك فرنسا بصنعها والزخارف التى وضع نماذجها لبعض أبواب قصر فونتنبلو ، ثم يصف لنا حياته اليومية فى عاصمة فرنسا . وكانت كالمعتاد حياة عاصفة مليئة بالشجار والمنازعات ، وكان قد اتخذ له صاحبة جديدة ، هى فتاة فرنسية تدعى كاترينا ، تشتغل لديه كنموذج فنى ، فكانت هذه العلاقة مثاراً لعدة منافسات وفضائح غرامية يصفها لنا تشلليني بصراحته المعروفة . ويقص علينا كيف فاجأ ذات يوم فتاه باجولو متلبساً بالخيانة مع كاترينا ، وكيف تسممت بينهما العلائق من أجل ذلك ، وطرد الفتاة الخائنة وصاحبها ، ثم انتهى بأن رتب لهما انتقاماً جهنمياً هو أنه عقد زواجهما بالإكراه ، وسيفه معلق على رأسيهما ثم عاد بعد ذلك فاستخدم كاترينا نموذجاً وخليلة لكى يذل بذلك أنف عامله السابق باجولو ، وكيف أنه استخدم بعد ذلك فتاة أخرى ، وأولدها طفلة ثم صرفها مع طفلتها بشىء من المال ، ولم يرها بعد ذلك قط .

ولبث تشلليني فى خدمة ملك فرنسا حيناً من الدهر ، ولكنه لم يحظ بعطف الدوقة دتامب صاحبة الملك ، وكانت تستأثر يومئذ بالنفوذ فى البلاط ، وأنفت نفسه من أن يترضاها بوسائل لاتتفق مع كبريائه ، فلبثت من جانبها تدس له لدى الملك وتخلق الصعاب فى وجهه . ولكن الملك أعرض عن تحريضها حيناً ، وعهد الى تشلليني بأعمال فنية كبيرة منها تماثيل فضية عديدة ، وأحواض زهر ، وباب برنزى وغيرها ، وأدى الفنان هذه الأعمال كلها ببراعته الفائقة ، وأعجب بها الملك أيما اعجاب . وأخيراً شعر تشلليني بأن عطف الملك قد فتر ، وعاف هذه الحياة المضطربة الفياضة بالأحقاد والدس ، فاستأذن فى السفر ، وذهب الى الكردينال دى فرارا يلتمس اليه العون فى العودة الى وطنه ، فاجاب ملتمسه ، وغادر فرنسا غير آسف على فراقها ، ووصل الى إيطاليا بعد رحلة شاقة ، وقصد الى مدينة فلورنس مسقط رأسه ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٤٤٥ . وبعد أن أقام أياماً إلى جانب أسرته ، سعى إلى لقاء الدوق كوزيمو دى مديتشى أمير فلورنس ، فاستقبله بترحاب وعهد اليه بصنع تمثال « لبرسيوس » وتمثال نصفى له ، وقضى حيناً فى خدمته ، ولكن سوء تفاهم وقع بينه وبين الدوقة زوج الأمير ، حمله على مغادرة فلورنس ، وعندئذ سافر الى البندقية وأقام بها حيناً ثم سافر الى رومة وزار هنالك ميشيل أنجيلو المهندس والفنان الخالد ، وكان يومئذ يعنى ببناء كنيسة القديس بطرس وزخرفتها ، ليفاوضه فى بعض المسائل الفنية . ثم عاد الى فلورنس ، بعد أن عاد التفاهم بينه وبين الدوق ، واشترى هنالك ضيعة صغيرة بما اجتمع له من المال ، واستقر هنالك منكباً على تحفه وتماثيله

* * *

وهنا ينتهى ما كتبه بنفونوتو تشلليني عن حياته . وقد كتب تشلليني هذه الصحف بين سنتى ١٥٥٨ و ١٥٦٦ ، ولكنه يقف فيها عند سنة ١٥٦٢ . وكانت أوصاب الشيخوخة قد دهمته يومئذ ، وذهبت بذلك العزم المضطرم الذى كان يلتهب أبداً ؛ وملك تشلليني سحر القلم فكتب فى ذلك الحين أيضاً قصته « ترااتى » يكرر فيها القصة القديمة المعروفة بذلك الاسم . وليس فى حياته ما يستحق التدوين يومئذ غير زواجه سنة ١٥٦٥ ، وهو فى الخامسة والستين من خادمته بيرا دى سلفادورى ، تزوجها عرفاناً

بما قدمته فى خدمته أثناء مرضه من الغيرة والاخلاص ؛ ورزق منها بولدين هما ابنه أندريا سيمونى ، وابنتـه مادلينا ، وتبنى أيضاً أبناءها من زوجها الأول . وتوفى الفنان الـكبير فى ١٣ فبراير سنة ١٥٧١ ، بمنزله فى فلورنس ، ودفن باحتفال فخم ، وخبت تلك الحياة التى لبثت سبعين عاماً علأ ما حولها حركة ونشاطاً واضطراما .

***

هذه خلاصة لذلك المجلد الضخم الذى تركه لنا بنفونوتو تشلليني عن حياته الغريبة الحافلة . وإذا كان تشلليني قد عُدّ من أقطاب الفنانين فى عصر الأحياء ، فانه يرتفع بأثره الى صف أقطاب كتاب هذا العصر . ولم يكن تشلليني كاتباً كما قدمنا ، ولم تهيئه تربيته الساذجة ، ولا حياته الشريدة المضطربة لمعالجة الكتابة ؛ ولـكن البيان هبة الطبيعة ؛ وقد كان تشلليني ابن الطبيعة ، وهبته كثيراً من خلالها الباهرة ؛ فـكان القلم فى يده يدون به حوادث حياته ، كالريشة يرسم بها نماذج تحفه . وليست روعة ترجمة تشلليني فى هذا البيان القوى الساذج الساحر فقط ، ولـكنه أيضاً فى تلك الصراحة الخشنة التى يحدثنا بها تشلليني ، وفى تلك البساطة الرائعـة التى يكشف لنا بها عن دخائل نفسه . ويقول لنا تشلليني فى الخطاب الذى يوجهه الى صديقه بنديتو ڤارشى بشأن ترجمته أنه لم يكتب إلا ما وعته الذاكرة من حقائق حياته . يقول : « والواقع أنني لم أكتب سوى الصدق ، وقد أغضيت عن كثير من الحوادث العجيبة التى كان غيرى يعطيها أهمية خاصة . ذلك أن لدى شئوناً عظيمة كثيرة أقصها ، وقد تركت كثيراً مما هو أقل أهمية منها لـكى لا يفيض بى القول فأخرج مجلداً ضخماً جداً » . ولم ينته الينا قبل تشلليني أو بعده أثر كأثره يمتاز بتلك الروعة والصراحة والحقائق المدهشة ، وإن كانت هنالك ثمة تراجم شخصية عديدة غربية وشرقية ترتفع الى ذروة البيان والطرافة الأدبية . وقد أشرنا فيما تقدم الى ما بين ترجمة تشلليني و « اعترافات » جان جاك روسو من وجوه الشبه والتباين ، وأخصها أن جمال ترجمة تشلليني مستمد بالأخص من روحه التى تـكاد تمثل فى كل صفحة من صفحاتها ؛ أما جمال الاعترافات ، فهو مستمد على الأغلب من السحر الذى يسبغه بيان روسو وقلمه على حوادث حياته . وفى رأينا أن ترجمة تشلليني تتفوق من ناحية الفن والطرافة والروعة على اعترافات روسو ؛ وعلى أى أثر غربى آخر من نوعها .

ولدينا فى العربية أثر هام من نوع التراجم الشخصية القوية . ذلك هو ترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لنفسه ، وهى المشهورة « بالتعريف » . فقد دوّن ابن خلدون حوادث حياته فى مجلد خاص فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، أعني قبل أن يكتب تشلليني ترجمته بقرن ونصف ؛ و « التعريف » ترجمة شخصية ، ولـكن الحياة السياسـية العاصفة التى خاض ابن خلدون غمارها والتى يقصها علينا فى هذا السفر ، تسبغ على « التعريف » لون التاريخ العام ؛ ذلك أن ابن خلدون ضنـين علينا بمواطن الافضاء الشخصى التى تملأ ترجمة تشلليني ، وهو يؤثر دائماً أن يدون من حوادث حياته ما يرتفع الى أهميـة الحياة العامة وحوادث التاريخ ؛ بيد أنه يحـدثنا أيضاً عن نفسه وعن خلاله ، ولا يتردد فى الافضاء بكثير مما لا يحسن الافضاء به ، لا عن حياته الداخلية ولـكن عن حياته العامة . وفى تعريف ابن خلدون ، كما فى ترجمة تشلليني عنصر القصة الشائقة لحوادث حياة حقيقية . فان فيلسوفنا يصف لنا فى تعريفه كيف يجوز من قصر الى قصر ، ويتعرض لمخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة ، ويسير فى ركب الجند ، ويمثل الى جانب أميره فى المعارك الحربية ، ويقوم بقضاء المهام الخطرة فى أعماق الهضاب والصحارى . ونراه فى دمشق فى السبعين من عمره يجوز مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ليقصد الى معسكر الفاتح التترى تيمورلنك ، وغير ذلك من الحوادث الغريبة الشائقة . والواقع أن هنالك شبهاً عظيما بين ترجمة ابن خلدون وترجمة تشلليني مع اختلافهما فى النوع ، فكلتاها تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الافضاء والصراحة . وإذا كانت ترجمة الفنان الايطالى تعتبر فى الأدب الغربى نموذجاً بديعاً للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فان « تعريف » ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة فى أدبنا العربى .

ولأثر تشلليني فوق ذلك أهمية تاريخية ، فهو يصور لنا كثيراً من ألوان الحياة الاجتماعية فى عصر الاحياء ، وهو عصر تطور

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

٢ – الامتيازات الأجنبية والضرائب

للأستاذ زكي دياب المحامي

يري بعض الشراح أن اعفاء الاجانب من الضرائب التي تفرضها الحكومة المصرية قائم على اتفاقات دولية ، وهم في زعمهم خاطئون . وآية ذلك أن الاتفاقات الخاصة بالامتيازات كانت ترمى الى اعفاء الأجانب من الضرائب الكيدية ، وخصوصاً ضريبة الرأس (Capitation) وهي ماتقضي قواعد الشريعة المطبقة في الدولة العلية حينذاك بأن تجبى من كل أجنبي يقيم أكثر من سنة في بلد إسلامي ، وكانت تعتبرها الشريعة أيضاً نوعاً من الجزية ، فضلاً عن أن في دفعها مظهراً للاستبداد والتعسف المالي . هذا ويلاحظ أنه وإن كانت هذه الاتفاقات تحمي الأجانب من حملة المكايد إلا أنها لم تعفهم اعفاء مطلقاً من الضرائب بكافة أنواعها . وقد كان الأجنبي منظوراً اليه بعين الكراهية لنزعته الدينية ، وبدراسة نصوص الاتفاقات الفرنسية والانجليزية يظهر ذلك جلياً . على أنه وإن كانت الاتفاقات الفرنسية تعفي الأجانب من فرائض صغيرة فيها شيء من التعسف ، فان ذلك الوضع لا يمنع من فرض ضرائب معروفة لدى الدول المتمدينة ، فالهوة سحيقة بين الجزية القديمة التي كانت تفرض من جانب الظافر على المهزوم وبين الضرائب التي تفرض في الدول الحديثة .

وترى الأوساط الأجنبية هنا وجوب الأعفاء من كل تلك الضرائب ، ضريبة الأراضي العقارية والرسوم الجمركية ، ويرد على هذا بأن العامل الوحيد الذي حدا بالدول الى طلب هذا الامتياز والحرص عليه هو وضع الأجانب في مأمن من تيار الضرائب الكيدية التي كان يفرضها الحكام في ذلك الوقت بدليل أن نص الاتفاقات لا يتضمن اعفاء عاماً للأجانب ، فالدول في الواقع كانت تقصد حماية رعاياها من حيث طريقة جباية الضريبة ولكنها لا تعارض في فرضها . ومادامت قد ذهبت العلة فلا داعي لبقاء المعلول . فدوافع الكيد معدومة .

ولا غرو فمبدأ المساواة في تحمل الضرائب قد حبذته لجنة التحقيق في بيانها سنة ١٨٧٨ . وهي مؤلفة من أجانب عينوا بعد مفاوضات مع الدول . أليست هذه حجة قوية ؟ وأليست هذه شهادة شهود من أهلهم ؟

وفي مؤتمر لندن سنة ١٨٨٥ أكدت الدول بصراحة رغبتها في المساواة ، ورأت من العدل اخضاع الرعايا الأجانب القاطنين بمصر لنفس الضرائب التي يخضع لها المصريون . . وقبلت (الدول) تنفيذ ديكريتو سنة ١٨٨٤ الخاص بالضرائب على أراضي البناء فسرى على الأجانب والمصريين كما سبق القول . وفي قرارات ذلك المؤتمر الخطير حجة لنا دامغة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وفي مستهل القرن العشرين استنكرت الشخصيات الكبيرة المعروفة في عالم السياسة نظام الامتيازات في مصر فصرح اللورد ملنر في كتابه (England in Egypt) أو (انجلترا في مصر) بأن إعفاء الأجانب من الضرائب في القطر المصري من المنح التي خلقتها الامتيازات بدون وجه حق ، وفي عبارته التالية مبلغ ذوده عن رأيه الحكيم : —

« L'exemption des impots pour les étrangers est le plus insolite des privileges accordés sons le régime des Capitulations. »

وأعرب لورد كرومر بأنه لا يتردد في القول بأن النظام المعروف بالامتيازات في مصر لا يتفق اطلاقاً وحالة مصر الحاضرة :

عظيم في تاريخ الانسانية ؛ وفيه وصف شائق لكثير من أحوال البابوات وبذخهم وقصورهم ، ووصف لأخلاق الأحبار ودسائسهم واستغلالهم لطبقات المجتمع الأخرى ، ووصف لأحوال الجمهوريات الايطالية في ذلك العصر وأمرائها وسادتها ؛ والخلاصة أنه يلقي أكبر الضياء على تاريخ عصر من أهم عصور إيطاليا ، وعصر يعتبر بحق فجر التاريخ الحديث . وفي رأينا أن كتاب تشلليني من أجدر الآثار الغربية وأحقها بالترجمة العربية ؛ وقد ترجم فعلاً من الايطالية الى جميع اللغات الأوربية ؛ فعسى أن يتقدم بعض شبابنا المثقف فيتحفنا بترجمة عربية بديعة لذلك الأثر البديع ؟

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان

المحامي

« Je n' hésite pas à dire que le systéme connu sous le nom générique de Capitulations, tel qu'il est partiqué aujourd'oui en Egypte, est tout a fait incompatible avec la siluation actuelle de l' Egypte.

وبعد ، أليس من الجور فى أخص صوره أن مصر وقد خطت فى سبيل المدنية الصحيحة والتقدم خطوات لم تنكرها عليها الدول ؟ أليس من الجور أن مصر هذه إن أرادات فرض ضريبة جديدة تستعين بها على ما تقوم به من أعمال كبار أن تلجأ الى اثنتى عشرة دولة تلتمس موافقتها ؟ إنه مظهر من مظاهر قصور السيادة ، وجرح لايندمل فى صميم العزة القومية .

ومن ذلك ما حدث خلال المدة التى أعلنت فيها الأحكام العرفية على البلاد ، إذ جرت السلطة العسكرية على إصدار أوامر تسرى على الوطنيين والأجانب سواء بسواء ، وكان بين هذه الأوامر ما يتعلق بفروض مالية قبل الأجانب ، والوطنيون يحملونها . فلما ألغيت الأحكام العرفية أثار إلغاؤها دفائن العصيان الدفى لأوامر الحكومة المصرية ، فامتنع أكثر الأجانب عن دفع ضريبة الخفر ، وأشار بذلك بعض القناصل وعللوا الامتناع بأن دولهم لم توافق عليها . وما كانوا ليقولوا كلة وقت أن فرضتها السلطة العسكرية .

ومجمل القول أن نظام الضرائب فى مصر جد متناقض ، وعلة ذلك نظام الامتيازات العتيق والتوسع الضار الذى خلقه العرف السائد الآن والقواعد القديمة البالية ، والأوضاع الكيدية المهينة التى صورتها الامتيازات . وهل ترى من العدالة أن الأراضى الزراعية وجلها فى يد المصريين تثقل بالضرائب حتى لتكاد تستغرق الايراد ، أما التجارة الواسعة وهى فى يد الأجانب ، والصناعة المتازة المكسبة ، والمصارف الكبرى وكل ذلك فى يدهم ، فمعفى من الضرائب .

***

وأخيراً فلا تردد فى إبراز الحقيقة نيرة فى سطور معدودة ذلك أن قيام الأجانب بتمسكين فى وجه مصر بامتيازاتهم كلما حاولت الحكومة المصرية السعى لالغائها أو تخفيف وطأتها سيكون له من الأثر الخطير مايقرب أجل الامتيازات ، لأن الحال على ماهى عليه لن تدوم طويلاً ولا بد لمبادىء العدالة أن تسود يوماً ما .

« تم البحث » زكى دياب

الذكرى

للأديب حسين شوقى

مضى عام كامل منذ أن رافق (س) رفاتها الى القبر الأخير ، فرأى أن يزور القبر بهذه المناسبة وأن يضع على الضريح طاقة من البنفسج ، لأنها كانت تحب هذا الزهر الذى طالما لاحت زرقته فى انسانى عينيها ، ثم قصد الى محل الشاى حيث اعتاد مقابلتها لدى خروجها من عملها ، وجلس الى المائدة التى كانت تجلس اليها وهى تنتظره فى شغف وسرور . . ثم أقبل الخادم وكان هو بعينه الذى خدمها فى العام الماضى ، فحياه (س) كالعادة فى لطف ودعة ، ثم طلب منه الطلب نفسه : قدحين من الشاى ، فدهش الخادم لأن الرجل لم يكن معه أحد ، ثم أخرج (س) مجموعة من الرسائل التى علتها صفرة القدم ثم أخذ يتلوها واحدة واحدة للمرة المتممة للمائة ، ولكن كان يجد فيها دائماً لذة جديدة كأنها لحن من ألحان ديبوسى الشجية التى لاتملها النفس أبداً . .

هاهى ذى ذكريات الماضى ماثلة أمامه : مقابلاته الأولى مع محبوبته ، رحلاتهما ، نزهاتهما ، نوادرها ، جلساتهما فى هذا المكان نفسه ، تناولها الشاى فى هذه الساعة نفسها ، كل ذلك كان يحس وجوده ، حتى المحبوبة خيل اليه أنها بجواره . . كان يشعر بلذة عظيمة من أجل هذا ، لقد أتى عملاً يعد من معجزات الرسل اذ تحدى الفناء وعلا سلطانه فوق سلطان الدهر ، ولو الى زمن قصير !

مضت ساعة ، فساعة ولم يحضر أحد . . وكان الخادم يرقبه فظن أن الرجل ضحية خيبة أمل من عشيقة . . ولكن على حين فجأة تذكر قصة هذا الرجل ففهم الحقيقة المؤلمة لما كان يبدو على (س) من مظاهر اليأس التجلد ، فخجل من نفسه وأشفق على الرجل شفقة عظيمة ، كما أعجب من تحديه للموت ومن وفائه لمحبوبته المتوفاة ، ثم اقترب منه ومداليه يده معتذراً لسوء ظنه قائلا: آسف جداً ياسيدى لقد شككت فى وفائك ، سامحنى ! فصافحه (س) فى حزن وألم مرجداً : لابأس لابأس . . وكأنه أفاق من حلمه الجميل فعاد الى عالم الألم والشقاء ، يئن تحت سلطان الزمن .

.. حسين شوقى

رأى عربي مسيحي في محمد

محمــــد والعرب

قصيدة في ذكرى مولد الرسول

بقــلم وصفي قرنفلي

توطئة

عقيدتي الشخصية، أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كبقية الرسل، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح (ص) صفتي الألوهية والانسانيـة الممتازتين، فقد يجوز لي أن أرى في سيد قريش نبياً دينياً ومنقذاً قومياً في آن واحد. فأنا أحترمه (ص) كنبي جاءنا بالهدى والرحمة، وأنضوي الى لوائه كمنقذ لهذا الشرق من إيثار الفرس والرومان، وأنا أرى في الدين الاسلامي قوة للشرق في جهاده القومي يجب استغلالها، واذا لم يكن للقرآن من يد إلا صيانة لغتنا — واللغة أجلّ مظاهر القومية — لكفاه ذلك فضيلة يحمد، ويداً تشكر.

فاعترافاً بفضل محمد وقرآنه على العرب والعربية كتبت ما كتبت، وأكتب من طوال الفصول في جرائد الفتح في (مصر) والاعتصام في (حلب) والرابطة في (دمشق) وسواها من الصحف الاسلامية، عدا رسائلي وقصائدي القومية في بقية الصحف العربية.

وفي سبيل محمد وقرآنه لقيت وألقى ما أكابد من عنت الجهل وسخر رجاله، تقيت «الرياء» وساماً، ورميت بالكفر والضلالة، وقيل إنني أداري الأكثرية فأصانع المسلمين، وأني حزب القوة أنى كانت القوة، وكان أشد أولئك الناقمين عنتاً وغيظاً، كهل مسيحي يدعى «سمعان» قرأ لي مقالاً في (الجزيرة) فهزّه الغضب حتى لقد هم بي لو استطاعني، ولكني هزأت به ورفعت عن خصامه، فالى «سمعان» هذا ومن أخذ أخذه صرفت وجه الخطاب في مستهل القصيدة.

إنني مسيحي كما يحب «سمعان» أن أكون، ولكني لا أرى في مسيحيتي ما يمنعني عن الاعتراف بهدى محمد ويده على الانسانية والعرب!

ولعل الضلالة كل الضلالة أن نحصر الفضيلة والهدى في دين من الأديان، فلكل دين ميزاته، ولكل دين فضائله، ومرجع كل دين الى الله (ولله ما في السموات وما في الأرض، والى الله ترجع الأمور)

القصيدة

قد يقولون «شاعر نصراني ... يرسل الحب في كذاب البيان»

«يتغنى هوى الرسول ويهذى ... بانبثاق الهدى من القرآن»

«ينتحي الجبهة القوية يحدو ... ها رياءً، والشعر (لا وجداني)»

«قسماً بالمسيح، لو قام للشيطا ... ن حزب، أشاد بالشيطان.»

كذبوا والرسول، لم يجر يوماً ... بخلاف الذي أكن لساني

ما تراءيت بالهوى، بل بيقاني ... طائف الحب والهوى ماسقاني

أو عار على فتى يعربيٍّ ... أن تغنى بالسيد العدناني؟

أو ليس الرسول منقذ هذا (م) ... الشرق من ظلمة الهوى والهوان؟

صاح بالشرق واستثار بنيه ... فتنادوا بالفرس والرومان

ومشوا للحياة تحت رايته السم ... حاء صفاً موطد الأركان

وبنوا مجدنا المؤثل صرحاً ... من نثار العروش والتيجان

وأتوا قمة الزمان فكانوا ... سادة الأرض في شباب الزمان

أفكنا لولا الرسول سوى العبـ ... ـدان؟ بئست معيشة العبدان!

أو ليس الوفاء أن نخلص الحمـ ... ـد حباً إن كنت ذا وجدان؟

فالتحيات والسلام أبا القا ... سم تهدى اليك في كل آن

***

قل «لسمعان» إن ما في عروقي ... عربي، وأن ما في لساني

أتغنى بالحق، والحق ياصا ... ح لا مسلم ولا نصراني

إنما الشاعر الذي أنا منه ... فوق ذاك الارجاف والبهتان

قد تعالى عن الرياء بريئاً ... من هوى الشيخ أو هوى المطران

كل هذي الاديان — لو عقل النا ... س — سبيل هادٍ الى الرحمن

أخذته الغايات فانشعب السيـ ... ـر وضلت قوافل الركبان

فاذا الناس في مريج من الأمـ ... ـر حيارى مشلولة الأذهان

يترامون بالكبائر والآثا ... م ويمضون طيبة الأضغان[1]

أيها الناس! ما أتى الرسل للتفـ ... ـريق لكن لوحدة الانسان

كلنا مسلمون لله، فحتا ... م الترامي بالكفر والايمان؟

كلنا صائرون لله يوماً ... «يوم تنشق وردة كالدهان»[2]

أتدينون بعضكم؟ من حباكم ... أيها الناس سلطة الديان؟

فاتقوا الله! واتركوا الأمر للـ ... ـه، وخلوا ضلالة الكهان

أم نزا كم علم الغيب فأصدر ... تم إذ أصدرتم عن عيان؟

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

(١) الطية القصد والسبيل، والمعنى أننا بتنا يكفر بعضنا بعضاً ويخطئ بعضنا بعضاً، ولو صدقنا جميعاً لكنا جميعاً من الكافرين!

(٢) إشارة الى قوله تعالى في سورة الرحمن: «فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان».

لماذا أخفقت جمعية الأمم في نشر السلام في العالم؟

للكاتب الانجليزي الشهير H. G. Wells.

« ولز » من أعظم كتاب العالم اليوم ، أصالة رأى وقوة بيان ؛ يزيد كتاباته روعة نزعته الانسانيـة الصادقة التى تتجلى فى كل ما يكتب . لايشاطره مكانته الرفيعة فى عالم الأدب الغربى من كتاب اللغة الانجليزية سوى « برناردشو » الـكاتب الارلندى الشهير بنقده اللاذع . غير أنه يختلف عن « شو » فى أنه لا يقتصر على هدم الأنظمة الاجتماعية التى يتراءى له فسادها ، وإنما يكلف نفسه عناء خلق أنظمة جديدة تخلفها . فهو يهدم ليبني ، وينتقد ليصلح .

من أحدث ما كتب « ولز » ومن أروع ما أنتج ، كتابه « شكل الأشياء القادمة » الذى بحث فيه ما يكون عليه العالم فى سنة ٢١١٦ ؛ فقد تصور شخصاً يعيش فى هذا التاريخ ، أخذ يدرس تطورات العالم الاجتماعية منذ سنة ١٩١٣ ، حيث انتهى ذلك التطور بحكومة عالية يعيش فيها كل فرد سعيداً ، لا استعباد فيها ولا استبداد ، ولا احتكار ولا منافسة .

وليُلمّ قراء الرسالة الذين لم تصل أيديهم الى هذا الـكتاب ببعض ما فيه ، ترجمت فصلاً منه بالعنوان المذكور آنفاً ترجمة حرة مختصرة :

يحث فى الفصل السابق لهذا الفصل معاهدة فرسايل بحثاً مستفيضا وانتقدها انتقاداً مراً ؛ ثم أخذ فى هذا الفصل يشرح أسباب فشل جمعية الأمم كما يأتى :

« قبل أن نضرب صفحاً عن ذكر « ويلسون » ، ذلك الرجل الخيالى ، يجدر بنا أن نلفت الأنظار الى العوامل التى أدت الى فشله .

لم تـكن شخصيته مكتملة الميزات الضرورية لنجاح الهدف الذى كان يرمى اليه . ولـكن هذا النقص يجب ألا يجعلنا نتناسى استحالة تحقق مطمحه فى ذلك الوقت .

فأنانيته الضيقة ، والروح الانتقاميـة التى عوملت بها دول أوربا الوسطى وما الى ذلك ، جعلت من الخطر مجابهة العالم غير المستعد آنئذ بجمعية أمم .

فلم يكن فى ذلك الوقت استعداد فـكرى كاف لقبول نظام عالى ؛ و « الحـكومة العالمية » أو الحـكومة الحديثـة الحاضرة كانت مجرد فـكرة غامضة لم تبحث جيداً . فلا ريب إذن أن ويلسون تسرع فى خلقه جمعية الأمم ، إذ كان لزاماً أن ينتشر علم النفس الاجتماعى ، وأن يطبق قبل القضاء على فوضى الحـكومات الملـكية واستبدالها بسلطة مركزية .

غير أن ويلسون الذى لم يسبرغور الواجب الذى ألقى على عاتقه ، ولم يحط بما يكتنفه من عقبات ، رأى من غير روية ولا تبصر ، انه من السهل عليه توحيد البشر . فقد حاول أن يرتق نظام ذلك الزمن البالى ، وأن يجيزه كنظام جديد .

لم يحلم بتهذيب نظام النقد ، ولم يفـكر بالحاجة الى انتشار النظام الاشتراكى فى العالم ، وانقلاب النظم التربيوية انقـلاباً شاملاً ، قبل أن يكون فى الامكان استقرار السلام فى العالم .

ولـكن على الرغم من كل نقائصه يظهر أنه كان أبعد رجالات زمنه نظراً .

فجمعية الأمم هذه غير الناجحة ، والعديمة الأثر ، لم تساعد على توطيد السلام الدولى ، وإنما على العكس من ذلك كانت حجر عثرة فى سبيله ؛ إذ منعت الناس أن يفـكروا تفـكيراً حراً فى هذا الموضوع .

ومن المؤسسات التى وجدت لمساعدة جمعيـة الأمم وعرقلة مساعى ناقديها « جمعيـــة الأمم البريطانية » فـكانوا يقولون بأن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

فقذفتم فى النار زيداً وبوأ | تم عميراً مقصورة فى الجنان
جلّ سبحانه عن الشرك فى الرأ | ى وعلم المصير والسلطان !

***

منقذ الشرق ! قد أتيناك نشكو | ضيعة الحق وانخذال الأمانى
فاحى فينا ميْتَ العزائم وابعث | ثائرات الهدى ودُرس المبانى
قد أضعنا ذاك التراث وضعنا | فى شعـــاب الحياة والوديان

***

منقذ الشرق ! أنت لم تنقذ الشـ | ـرق دون المواطن النصرانى
فجزاء الاحسان أن ينهض الشر | ق جميعاً بواجب المهرجان

حمص (سورية) — وصفى قرنفلى

«وجود جمعية الأمم خير من عدمه» . وقد فاتهم أن البدء الخاطئ أسوأ من عدمه .

في العشر سنين التي تلت الحرب العالمية لم تكن أفكار مجددة في السياسة العالمية يؤبه لها ، ولم يرجع البشر الى بحث توحيد العالم ، إلا بعد أن ثبت لهم ثبوتاً لا شك فيه عدم صلاحية جمعية الأمم للغرض الذي كونت من أجله .

ظلت حركة «الحكومة العالمية» في الاثنتي عشرة سنة التي تلت تلوح وتختفي . وكان من الضروري أن تتوحد جهود محبي السلام والشيوعيين والاشتراكيين ، وكل من سار على نهجهم من الذين حاولوا حل المعضلات الاجتماعية ، وكانوا لا يزالون يقضون أوقاتهم في مناضلة بعضهم وفي التراشق بالتهم .

وعلى كل فقد انقضى منتصف القرن العشرين قبل أن يتسع نطاق الدعاية في العالم «للحكومة الحديثة» .

نابلس — عبد القادر صالح

١ - كتاب نهج البلاغة

بقلم محمد محمد العزازي

ذلك الكتاب المنسوب إلى فارس الفصاحة وصيقل البلاغة وإمام الخطابة ، والضارب في ميدان البيان بما لم يلحقه فيه لاحق ، ولا وصل إليه سابق . أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . كتاب نابه الشأن ، رفيع القدر ، بليغ الموعظة ، صادق الحكمة ، قد توفرت عليه سنين طوالاً أقرأ ما بين دفتيه مرة وأخرى وثالثة حتى بدت لي فيه آراء أردت بها تحقيق أمره ، والكشف عن سره . مستنداً في بحثي إلى ما هدتني إليه الفكرة وطول المراس .. وجل الذي قيل في الكتاب كلمات مجملة . لا تشفي غليلاً ولا تقوم دليلاً ، فالشيعة على أن الكتاب بجملته وتفصيله لأمير المؤمنين علي ، والمتصفون من النقدة والنظار على أن فيه ما هو مدخول منحول بدعوى أنه يتعرض لبعض الصحابة بالطعن والتجريح ..

وهناك من يدعي أن الذي لعلي من القلة بحيث لا يصح أن ينسب الكتاب إليه . وعلى كل فهذه كلمات – كما قلنا – مجملة لا تشبع الباحث . ولا توقف الناظر عند حد أو تلزمه رأياً . وهذا ما يدعونا إلى بحث المسألة على ضوء العلم والأدب والحقيقة والتاريخ.. والكتاب في جملته عالي الأسلوب فخم العبارة صقيل الديباجة ، لطيف الروح يتحدر إلى النفس بسهولة . والذي يدور عليه الكلام في الكتاب كما يقول الرضي «أقطاب ثلاثة أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ» وهذا تقسيم حسن ، والمعقول ألا يخرج كلام أمير المؤمنين عن هذا . . فأمير المؤمنين أحد رجالات الاسلام غير مدافع . وله في الفصاحة والشجاعة والفضل والنبل يد طولى . بايع أبا بكر نزولاً على حكم الأجماع . ورضي بعمر نزولاً على اختيار أبي بكر ، وأخطأته الشورى بعد ابن الخطاب ، ثم انتهت اليه بعد عثمان . فكان أمير المؤمنين أربع سنين وتسعة أشهر أخذ يصلح فيها ما رآه فاسداً ويجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم . وقد نقض بعض الصحابة بيعته فكانت حروب . انتهى بعدها الحكم إلى معاوية بعد تنازل الحسن . فكل هذا يدعو أمير المؤمنين إلى الخطب في شأنه . وفي صلاح المسلمين وفي رجال جيشه . يحثهم على الأخذ بحقهم ، ويستنفرهم للقاء عدوهم وإلى الأوامر يصدرها إلى عماله ورجاله وأعوانه . وإلى الكتب والرسائل يبعث بها إلى الثغور والعمال ، بل وتجري بينه وبين معارضيه ، كل يؤيد رأيه ويقيم حجته ويدعي الحق في جهته والباطل في جهة صاحبه . أما الحكم والمواعظ فأشياء كانت في نفس علي غرسها فيها حب الصلاح للناس يلقيها عليهم يبين لهم طريق الهدى ومنارة الحق ويذكرهم بالله ويفهمهم المعاش والمعاد ، مما يدل على اخلاص علي وطيبة نفسه وسمو روحه وكرم أخلاقه وقوة ايمانه وحبه للمسلمين . . .

ولكن الذي يعنينا هو : هل كل ما في الكتاب من خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواعظ لأمير المؤمنين علي ؟ أم أن فيه ما ليس له .. نريد أن نعرض أمام القارئ صوراً مختلفة من الكتاب نشرحها له تشريحاً دقيقاً ثم نخرج على ما يهدينا إليه البحث . وليكن أول ما نعمل فيه المبضع الخطبة الأولى من الكتاب التي يقول الرضي في عنوانها إنها خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم ، وعبارات هذه الخطبة منسجمة سيالة آخذة بعضها

بحجز بعض . وهى مبتدأة بتحميد بديع يعقبه تنزيه لله عما لا يليق به ، وكلام فى معرفته مترتب على بعضه على مثال القضايا المنطقية ، ثم ذكر للخلق من ابتدائه إلى انتهائه على مثال ما فى الكتب المقدسة ، وذكر لخلق آدم ومعصيته وخروجه من الجنة . وذكر لذريته فى الأرض ، وكلام عن الأنبياء من أبنائه حتى انتهى إلى محمد وبعثه ؛ والقانون السماوى الذى نزل به ، وخص من ذلك الحق ، فتكلم فيه كلاماً كثيراً . ولو نظرنا إلى هذه الخطبة لوجدنا أسلوبها أقرب إلى الأسلوب التأليفى منه إلى الأسلوب الخطابى ، فهى خالية من الاندفاعات الخطابية ، ويظهر على عباراتها أنها وليدة التفكير ، فترتب العبارات على بعضها ترتباً مطرداً على مقتضى قوانين المنطق مما لا يتيسر فى الخطابة ولا يتأتى فى الارتجال ، وما كان على ليخطب غير مرتجل ، والتحميد الذى فى أولها (الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون . ولا يحصى نعماءه العادون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم ولا غوص الفطن . الخ .)

هذا التحميد أشبه بالتحاميد التى تبتدأ بها الكتب . وهو يخالف التحاميد فى صدر الأسلام . وهو ملحق بتنزيهات كالتى تلحق التحاميد فى العصر العباسى حتى ان فى العصر العباسى ما يوافقه فى المعنى ويكاد يشبهه فى اللفظ ، ويجرى معه فى النسق والترتيب والروح ، مما يحملنا نرجح أنه من تحاميد ذلك العصر التى منها (الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهلين ، وتحديد الواصفين ، وتكييف الناعتين . يوصف لا بالعرض والطول ، وينعت بغير الشبح المثول . ويحد لا بالخلق المعدود ، والجسم الموجود ، بل يتناهى من وصفه ، الى ما دل عليه من صنعه ، ويوقف من نعته ، على ما أخبر به عن نفسه . وكيف يوصف من لم يره أحد ، أو يحد من لم يحده بلد ، أو يشبه غير ذى أعضاء ، أو يكيف غير ذى أجزاء . لو رئى لوصف ، ولو وصف لمثل ، ولو مثل لكان له نظير الخ)[1] فكل هذه التنزيهات من منع التحديد والرؤية ، ونفى الصفات على نسق واحد فى التحميدين . مما يحملنا لا نشك فى أنها وليدة عصر واحد ، ونشك فى أنها وليدة عصرين ، ثم لو قارنا هذا التحميد بتحميدات أمير المؤمنين التى يهدينا البحث الى أنها له .. لوجدنا بوناً شاسعاً فى المعنى والاسلوب والروح مما يظهر منه أن القائل غير واحد . . . ثم لنا نظرة فى هذه التنزيهات وهى قوله فى صفة الله (الذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود . ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل محدود ... أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به . وكمال التصديق به توحيده . وكمال توحيده الأخلاص له ، وكمال الأخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزأه . ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار اليه . ومن أشار اليه فقد حده . ومن حده فقد عده . ومن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى منه) . . هذه التنزيهات تجرى على نسق بديع من البيان والمنطق وكلها عقائد كلية فى علم الكلام .

وأهم ما يطالع الباحث فيها شيئان : هما المحور الذى تدور عليه . والغرض الذى صيغت من أجله هما منع رؤية الله ونفى الصفات . فمنع الرؤية يؤخذ من العبارات الأولى ، لأن الأدراك قد نفى ، والرؤية أحد الأدراكات ، ولأنها تقتضى تكييفاً وقد دلل على بطلان التكييف . ولذلك نرى ابن أبى الحديد عند شرحه لهذا الكلام يطنطن فى هذه المسألة ، ويدلل عليها بأدلة المعتزلة ، ويرد على الأشاعرة رداً قوياً ومعقولاً . وأما نفى الصفات فقد جاء صريحاً فى قوله . « وكمال الأخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » .. ونفى الصفات كلام جرى بين علماء الكلام وأخذ به المعتزلة ـــ واحتدم فيه النزاع والجدال بينهم وبين الأشاعرة . والمعتزلة ينفون الصفات بدعوى أنها تثبت تعدد القدماء ، وأنه لابد من تغاير بين الصفة والموصوف ، وأن الموصوف يسبق الصفة ، ولذلك يحرجون الأشاعرة فيسألونهم عن كيفية قيام الصفات بالذات ان كانت زائدة عنها . والذى يعنينا من هذا الكلام أن مسألة الرؤية ومسألة نفى الصفات لم تنشأ إلا بعد نشوء مذهب الاعتزال ، والا بعد أن اختلف واصل بن عطاء واستاذه الحسن البصرى فى مسألة الاختيار ومسألة مرتكب الكبيرة إن لم يتب . فلم يكن لهذه المسائل أثر فى زمن على . ولم يكن لعلى أو الناس وقت يخلون فيه إلى نفوسهم ويفكرون فى مثل هذه الاشياء . . وليس عندهم ما يدعوهم إلى التفكير فى هذه الاشياء . وإنما كانوا فى زمن الرسول والخليفتين من بعده يفكرون فى الفتوح وفى انهاض الدين الجديد

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ١٥١

وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد . [1]

وفي زمن الخليفة الثالث حصلت فتن سياسية أفضت الى قتله . ولم تكن هذه الفتن لتترك الناس يفكرون في مثل هذه العقائد ، وفي زمن علي قام الخلاف بين أمير المؤمنين وبين ناقضي بيعته فاشتعلت به نار الحرب وانتهى الأمر إلى الأمويين . وحصل بهذا الانقسام خلاف جديد لا في الأشياء التي نحن بصددها وإنما في شيء آخر هو الامامة ، انقسم الناس به إلى شيعة وخوارج ومعتدلين . .

فالمنقول إذن والمعروف من التاريخ السياسي وتاريخ علم الكلام أن هذه العقائد جاءت متأخرة عن علي وزمن علي وأنها نشأت بعد نشوء مذهب الاعتزال وصارت من مسائله وكلياته . . .

فالدليل ناهض والحجة ناصعة على أن علياً لم يقل هذه العبارات ولا نشأت في عصره . . وربما كان الرضى قائلها . أو أنها وقعت للرضى منسوبة للأمام فالحقها بالكتاب

وبنظرة في هذه العبارات نجدها عبارات تأليفية محضة ، فعبارة (نفي الصفات) وعبارة (لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف الخ) هي بعينها الجارية على ألسنة المؤلفين والباحثين في علم الكلام حتى أن ابن أبي الحديد يقول عند العبارة الأخيرة هذا دليل المعتزلة بعينه . . ويظهر على هذه العبارات بأجمعها أنها جاءت وليدة جدل وبحث ، وأن فيها تكلفاً محسوساً جاء من إقامة الدليل المنطقي ومن قرع الحجة بأختها مما يشهد على أن هذا الكلام من أحد المتحمسين لهذا المذهب . والمنافحين عنه وأنه حدث بعد احتدام الجدل بين الفريقين ؟

« يتبع » أبو حماد محمد محمد الغزالي

(١) رسالة التوحيد . والملل والنحل

العلم الحديث ينصف العرب

العصـــور المظلمة

تسمية تاريخية خاطئة

للأستاذ بشير الشريقي

هذا هو الموضوع الطريف الذي أثاره في هذه الأيام الدكتور جورج سارتون أستاذ علم التاريخ في جامعة وشنطون ، واني أنقله فيما يلي كما لخصته مجلة « أخبار العلم Science News » في عددها ٦٧٤ سنة ١٩٣٤ ·

« ليعلم المؤرخون المعاصرون بأن « العصور المظلمة » لم توجد حقيقة ؛ من الجائز أن غربي أوربا قد عانى المتاعب خلال القرن السادس حتى العاشر الميلادي من جراء تراجع الثقافة الرومانية التي لم ينعم بها غربي أوربا الا زمناً قليلاً ؛ وان الشمل الروماني قد همد تحت أقدام البرابرة المهاجمين ؛ ولكن نور الثقافة لم يخمد أبداً في الأرض التي تطل على شرقي البحر الأبيض المتوسط ، والتي هي الوطن الحقيقي والطبيعي لما نسميه خطأ « بالمدنية الغربية »

لقد انتقل مصباح الثقافة الذي من أيدي اليونان البيزنطيين إلى أيدي العرب الفاتحين المؤمنين بالله وبمحمد ، وكان في أيديهم أكثر تألقاً وبهاء .

إن سبب اضطراب آراء مؤرخي القرون الوسطى هو أنهم وان كانوا يجيدون اللغة اللاتينية ، فقد كانوا يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً ، على حين كان كل تقدم في العلم والثقافة ، يسجل منذ عهد محمد حتى منتصف القرن الثاني عشر باللغة العربية .

ولكن هذا لا يعني بأن مدنية الاسلام المشرقة التي امتدت من قلب الهند حتى منتهى غربي أسبانيا المتوحش كانت من عمل الفاتحين فحسب ؛ يقول الدكتور سارتون ، إن العرب أول من نزلوا الميدان أسياداً للعالم ، لم يكونوا أحسن ثقافة من قبائل الهنود الغربية ، ولكنهم كانوا ذوي أهبة ممتازة فاقتبسوا بسرعة عجيبة كل ما يمكن اقتباسه من مدنية البيزنطيين ، واستطاعوا في خلال جيلين اثنين فقط أن يرتقوا في العلم منزلة لم يرتق إليها أحد

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

من قبلهم . وكذلك برهنت الثقافة التي نشروها على أنها توافق طبيعة كل الشعوب .

إن تكييف العرب لعلوم اليونان وتوسيعهم لفنونهم قد بلغ بهم الذروة في الفلك والرياضيات والطب والطبيعيات والكيمياء ، وهم لم يقتصروا على نشر الثقافة فيما بينهم ، بل نشروها خارج ممتلكاتهم . إن موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود ، لم يكن يكتب بالعبرية ، بل بالعربية ؛ ومن المسلم به الآن أن تأثير العرب كان قوياً في بجاج القديس توماس أكويناس مؤسس مناهج الدرس في العصور الوسطى Scholastieisn التي تعتبر بحق جسراً بين تفكير القرون الوسطى والتفكير الحديث .

وعلى ذلك فان سلسلة الثقافة ظلت تامة ولم تنقطع من عهد اليونان الى ثقافة العرب الى مدنية أوربا الحديثة ؟

شرق الأردن — بشير الشريقي
المحامي

تحليل نفسي

الأفعال المفقودة أو الفلتات

Les actes manqués

للدكتور عبد الفتاح سلامة

إذا كانت الأمثلة السائرة والقصص المتداولة بين الجمهور تدل على شيء ، فانما يكون ذلك لأنها نتيجة لتجارب كثيرة ، لمس كل فرد حقيقتها ، وعرف مقدار الحكمة فيها ، ويمكن له الاستفادة منها بتطبيقها على ما قد يصادفه من حوادث . وقد تكون القصة الآتية واحدة من هذه القصص ، وإنا لنذكرها هنا لأنها تحتوى على فعل مفقود أو فلتة . وإذا عرفنا أن راوي هذه القصة هو أحد رجال البوليس فان من السهل معرفة الى أى حد يمكن للبوليس والقضاء الاستفادة من هذه الفلتات .

قال صديقنا — والعهدة على الراوي — إن اثنين كانا يسيران في جهة بعيدة عن العمران فأراد أحدهما اغتيال الآخر ، وبعد أن استعطفه دون جدوى قال له : وهل تظن أنك ناج من القصاص؟ فأجابه : ولم لا ؟ فقال المسكين : « الهوا يخبر » . ولكنه قتله ووارى جثته التراب ورجع وحده الى بلدته ؛ ولم يهتد أحد الى مقر القتيل المسكين . مضى على ذلك وقت غير قصير ، واطمأن القاتل الى النجاة . وفي ذات ليلة قمرية جميلة جلس القاتل وزوجه يتبادلان الحديث — والحديث ذو شجون — وتوالت الأفكار على رأسه ، واذا به يبتسم في غير موضع للابتسام ، واذا بزوجه تصر على معرفة سبب الابتسام ، فيقول لها إنه تذكر كلمة قالها رجل معتوه أثناء قتله ، وهذه الكلمة هي (الهوا يخبّر) . فلا تزال هي به حتى يعترف لها بكل شيء يتعلق بالجريمة وبمكان الجثة . فالابتسام إذن هو الفلتة التي كشفت سراً كان يحرص على كتمانه ؛ وهي التي حققت المثل القائل : « مهما تبطن ، تظهره الأيام » . ولا حاجة بنا الى القول بأن فلتات مشابهة لهذه قد اضطرت الزوجة الى الاعتراف الى صديقة لها ، وهكذا شاع الأمر وأمكن إدانة القاتل . ولعلنا نكون قد توصلنا بايراد هذه القصة الى إيضاح ما نقصد من كلمة « فلتات ، أو أفعال مفقودة » ، إذ أننا بعد أن تكلمنا عن تأثير الايحاء في بعض الأمراض العصبية وكذلك في بعض الأمراض الأخرى ، نود أن نتكلم عن التحليل النفسي ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة للكشف عن المشادة اللاشعورية ، وهي التي تحدث بين ذلك الشيطان — اللاشعور — والنفس .

ويكون التحليل النفسي ممكناً بالمناقشة والاستفادة من الفلتات ومن الأحلام ومن الأعراض عند المرضى . وقد سبق أن تكلمنا عن تفسير الأحلام التحليلي .

أما الفلتات أو الأفعال المفقودة فانها أفعال تصدر في الغالب عن غير إرادة الانسان ، كأن ينطق في سياق حديثه بكلمة لا يريدها ، وقد ينتبه أو لا ينتبه الى ما صدر منه ، (فلتة لفظية) . أو قد يكتب كلمة غير التي يريد كتابتها ، أو قد ينسى كلمة كان يود أن يكتبها ، (فلتة كتابية) . وقد ينسى الانسان شيئاً كان يذكره منذ لحظة قصيرة ، فيبحث عن قلم وهو في يده ، أو يريد أن يتذكر اسم شخص أو بلد كان يعرفهما تماماً ، ولكنه لا يمكن له ذلك ، (فلتة من فلتات الذاكرة ، وهو ما نسميه بالنسيان) .

وكذلك قد تتحدث الى شخص وهو منتبه اليك ، ولكنه لا يلبث أن يسرح ببصره في الفضاء ، أو أن يتغير لونه ، أو أن يلعب بأصابعه في أي شيء ، ثم يسألك أو لا يسألك بعد ذلك عما كنت تتحدث به اليه لأنه (لم يأخذ باله) . وهذا بالطبع معناه أنه حدث له ما صرف انتباهه الى ناحية أخرى .

فلماذا لفظ الانسان أو كتب ما لا يريد ؟ ولماذا نسي ما كان يعرفه تماماً منذ لحظة قصيرة ؟ السبب في ذلك هو في وجود رغبتين عند الانسان ، وفي أن إحداها مكبوتة refoule ، والرغبة المكبوتة قد تكون لاشعورية أو شعورية أو تمييزية كذلك ، ولكنها في الغالب رغبة لاشعورية ، حيث لا يعرف عنها صاحبها شيئاً إلا بعد التحليل . أما اذا كانت شعورية أو تمييزية فان صاحبها ليس في احتياج الى تحليل لمعرفتها . هذا فيما يتعلق بالرغبة المكبوتة . أما الرغبة الأخرى فانها في الغالب رغبة تمييزية ، ولكنها قد تكون شعورية أو لا شعورية كذلك ؛ فصاحب الفعل المفقود إذن يجد نفسه أمام رغبتين ، وهو في أثناء تعبيره عن الرغبة غير المكبوتة عنده تتحين الرغبة المكبوتة أي فرصة للظهور، وهي عند ما تسنح لها هذه الفرصة تجد سبيلها الى الظهور بواسطة أي لفظ أو حركة تنم عليها ، وهذا اللفظ أو الحركة هو ما نسميه الفلتة أو الفعل المفقود أو الفعل غير الارادي acte manqué أو lapsus

ومع أن الفعل المفقود قد أظهر الرغبة المكبوتة فانه لم يتمكن من تنفيذ هذه الرغبة ، لأن الانسان سرعان ما يستنكر صدور هذه الفلتة منه ، ويتساءل كيف أخطأ في تعبيره . والواقع أن الرغبة المكبوتة وهي التي سببت هذه الفلتة قد اكتفت بهذا التحقق الرمزي أو التلميحي بواسطة الفعل المفقود ، لأن التحقق الفعلي تأباه عليها ظروف الحياة ، فهو إذن غير ممكن لها . وهكذا تكتفي الرغبة المكبوتة بالأوهام بدلاً من الحقيقة الواقعة ، ومثلها في ذلك مثل الأفكار الذاتية التي سبق أن تكلمنا عنها سواء بسواء ، لأن الرغبة المكبوتة مهما كانت شعورية أو تمييزية فانها في الأصل من اللاشعور ، وهو الذي يكتفي في تنفيذ رغباته بالأوهام .

وأما الفرص التي تنتهزها الرغبة المكبوتة فهي كثيرة : فالتعب واهتياج الشعور والاجهاد الفكري وكل ما من شأنه أن يقلل من انتباه الانسان يساعد على إيجاد هذه الأفعال المفقودة . والرغبتان اللتان ينشأ عنهما الفعل المفقود قد تكونان متعارضتين ، فيكون اللفظ إذن عكس ما كان يراد تماماً ، وقد تكون إحدى الرغبتين معدلة للأخرى أو مكملة أو مؤكدة لها ؛ وسنذكر فيما بعد بعض الأمثلة على كل نوع منها . ولنرجع الآن الى ابتسامة القاتل التي سببت اكتشاف سره ، ونرى هل هي الأخرى وليدة رغبتين عنده ؟ وهل في هاتين الرغبتين ما يدل على التعارض ؟ والى أي حد يمكن استخدام الفلتات في الكشف عن خفايا نفسية المجرم ؟

فلقد جلس هذا الى زوجه وعنده رغبتان : الأولى حب الظهور بالبطولة ، وإظهار بأسه وقوته . والثانية حب كتمانه لما فعل خوفاً من تسرب الأخبار والوقوع تحت طائلة العقاب ؛ فهو إذن بين رغبتين تتنازعانه ، وبينما تشتد رغبة النجاة في كبت رغبة الزهو والاعتداد بالنفس إذا بهذه الرغبة الأخيرة تنتهز الفرصة للظهور في وقت ضعف الرغبة الأولى تحت تأثير الهوى . وهكذا يتحقق الزهو والفخر ، ولكن هذا التحقق انما هو إلا تحقق رمزي وذلك بالابتسام ، وما الابتسام إلا رمز الانتصار ، لأن رغبة النجاة مهما ضعفت فانها لا تسمح بالاعتراف والفخر الصريح . وهكذا كان ، فقد ابتسم الرجل في غير موضع الابتسام ، ولكنه مع ذلك يأبى الاعتراف الصريح أولاً . وهنا نرى الزوجة تقوم بدور المحلل النفسي فتستخلص منه ما كان يأبى الاعتراف به .

وإذا كنا فيما سبق قد قلنا إن الشعراء والأدباء والفنانين يستخدمون الخيال ، فان ذلك من دواعي الفخر لهم ، لأن التخيل ممكن وموجود عند كل انسان ، وانما امتاز هؤلاء بامكان استخدام خيالهم وتحقيق أحلامهم على صورة رمزية جميلة تأخذ بالألباب . وفوق ذلك فان لهم من حسن الذوق ودقة الحس ما يسمح لهم بملاحظة كل ما يمر أمامهم من دقائق الحياة ، وهكذا فان الأفعال المفقودة أو الفلتات لم تفت عليهم ، بل إنهم استخدموا هذه الأفعال لتجميل الأسلوب وتوضيح المقصود ، وقد أظهر لنا فرويد مثلين من ذلك . في رواية تاجر البندقية لشكسبير تقول بورشيا لبسانيو الذي يتقدم إلى الصناديق الثلاثة ليجرب حظه في نيل يدها « إن عينيك هذه تقسمني إلى نصفين . فالنصف الأول لك وأما النصف الثاني فهو لك ... : أريد فهو لي » . والسبب في هذه الفلتة الكلامية هو أن بورشيا تريد أن تقول إنها كلها له . وفي رواية أخرى . يقول كاستنبرج لاوكتافيو . (إلى أين أنت ذاهب) . فيجيب اوكتافيو (إليها . . . إلى الدوق هيا بنا) والسبب في هذه الفلتة أيضاً هو رغبة اوكتافيو في اللحاق بالفتاة التي يحبها

وأما النكت والفكاهات التي تقال على البديهة فانها نوع آخر من الأفعال المفقودة ، إلا أن قائلها يتذرع بالضحك لستر رغباته الكامنة ، ومع ذلك فإن هذه الرغبات كثيراً ماتكتفي حقيقة بالأوهام ، فلا تصر على التنفيذ الحقيقي لها ، وإنما تكتفي بالرموز والتلميح كما تقدم .

ويمكن استخدام هذه الأفعال في انتخاب الأسئلة المحرجة وفي توجيه الاتهامات والمناقشة إلى الهدف الذي يرمى اليه المحقق ، أما فيما يتعلق بالمرضى فان التحليل النفسي لا يطمع من المريض أن يعترف برغباته اللاشعورية ، ولكنه يطمع فقط في أن يعرف المريض رغباته في أثناء المناقشة معه ، ولو أنه قد ينكرها بتاتاً ، وقد يكون ذلك الانكار خجلاً أو لأي سبب آخر ، ولكن إنكاره هذا لايمنع من وصول رغبته إلى الشعور ، ومن ثم إلى التمييز لمناقشتها . فليس الاعتراف إذن ضرورياً للشفاء مادامت الرغبة قد وصلت إلى التمييز ، والانكار نفسه قد يكون طريقة من طرق السمو بالرغبة ، وهذا السمو هو في الواقع ميزة من ميزات التحليل النفسي ومن أجلها يفضل على الايحاء . والرغبة المحرمة يسمو بها الانسان إذا صورها وعدلها فاصبحت غير مخالفة لنظام المجتمع وتقاليده . فقد يفكر الانسان في الاضرار بأي شخص كان لكراهيته له ، وذلك إظهاراً لقدرته على البطش والأذى ، ولكنه قد يسمو فيكتفي فقط باظهار قدرته على الأذى ثم يعفو ويتسامح بعد ذلك . وهذا هو مايحدث تماماً عند مايسمو المريض العصبي برغبته . ولكن رغبة هذا المريض العصبي ليست من هذا النوع البسيط من الرغبات فانها هي والرغبات التي تتجلى في الأحلام والتي تملي على الفنان فنه ليست إلا رغبات جنسية تتعلق بأشخاص من ذوي القربى ، وقد عرف كل من المريض العصبي ، وصاحب الرؤيا ، ورجل الفن طريقه إلى تحقيق رغبته . وإن كان هذا التحقيق رمزياً مشوهاً لايدل في الظاهر على أي رغبة محرمة ، ولكن التحليل في كل الحالات قد أثبت أن أعراض المريض والرؤيا ومبتجات الفن ليست إلا هذا التحقيق الرمزي المشوه لهذه الرغبات . فالرغبة المحرمة المجهولة لصاحبها لأنها مكبوتة بفعل الضمير هي أصل كل أعراض المرض ، وهي أصل الرؤيا ، وهي التي توحي الفن إلى الفنان ، بل هي سبب التخيل وكل ما يبنيه الخيال من تصورات وأماني ، وإذا كنا قد ذكرنا الفنان هنا فان من الانصاف أن نقول إنه عرف كيف يسمو برغبته ذلك السمو البارع الجميل .

ولا يمكن أن يكون هذا الموضوع تاماً إلا إذا تكلمنا عن المسألة الجنسية ، وعن قصة أوديب الملك كما ينظر اليها فرويد ، وهذا ما نرجو أن نتمكن من إيضاحه فيما بعد ، إلا أن ماسبق أن أوردناه يسمح لنا أن نقول إن الايحاء وحده لايمكن أن يثمر الشفاء التام الدائم إلا إذا سبقه التحليل والكشف عن الرغبات الكامنة السالفة الذكر . ولنرجع الآن إلى الموضوع الذي يشغلنا وهو الفلتات أو الأفعال المفقودة . فقد بينا أن هذه الفلتات قد تكون كلامية . كأن يذكر كلمة غير التي كان يود أن يقولها أو يقرأها إذا كان يتكلم أو يقرأ من أي ورقة أو كتاب . أو فلتة سماعية ، كأن يسمع كلمة غير التي قيلت له أو بمعنى آخر يتخيل سماع الكلمة المبتغاة ، أو فلتة كتابية كأن يكتب غير الكلمة التي كان يريد كتابتها أو يمحو كلمة غير التي كان يريد محوها . أو فلتة من فلتات الذاكرة وهو ما نسميه بالنسيان — وقلنا إننا سنذكر بعض الأمثلة على كل هذا ، وأن الكلمة الخطأ قد تكون عكس الكلمة المطلوبة — المخالفة قد تكون في ترتيب الحروف وفي معنى الكلمة — أو معدلة لها أو كلمة مدغومة في غيرها . الخ

والواقع أن الأمثلة على كل نوع منها كثيرة ولا تدخل تحت حصر ، ومن منا لم يسمع أو يلاحظ الكثير منها في كل يوم وفي كل مكان ؟. ولهذا فانني أترك الأمثلة لمن يود أن يلاحظ بنفسه هذه الفلتات وأن يتعرف إلى الغرض الذي حدثت من أجله . وأتكلم الآن عن فلتات الذاكرة أو النسيان ، فقد أخبرني صديق لي أنه أراد مرة أن يتحدث عن شخص عرفه من مدة قريبة وعرف اسمه وسمع ذلك الاسم مراراً ، ولكنه مع ذلك كان ينسى اسمه كلما أراد أن يتحدث عنه . وبعد جهد في محاولة استذكار الاسم فانه يذكر اسما آخر على أنه الاسم مطلوب — وهكذا يسمي صديقي ذلك الشخص (شافعي) دائما بدل اسمه الحقيقي ، وذلك بعد جهد في التذكر بدون جدوى ، وهو إذ يقول إن اسمه شافعي لايقولها بصفة التأكيد أيضاً في كثير من الأحيان : وفي ذات مرة بعد لحظة قصيرة من التأملات أخذت الأفكار تتوالى على

عقله ولم يكن يقصد أن يتذكر الاسم الذي ينساه دائماً وإذا به يصيح فجأة إن اسمه (شلبي)

نعم، هذا هو ما حدث لصديقي، وأراد أن يعرف لماذا نسي ذلك الاسم، ثم لماذا ذكر شافعي بدل شلبي مع شكه أيضاً في أن ذلك هو اسمه الحقيقي. ولما سألته أن يذكر لي كل ما يعرفه عن أي شخص آخر يسمى بنفس هذا الاسم (شلبي) أخبرني أنه كان يعرف شخصاً بهذا الاسم ولكن لم تكن بينهما صداقة ما. بل بالعكس فانهما كانا متنافرين — هذا يفسر لنا نسيان الاسم (شلبي) ولكنه لا يفسر لماذا يسميه شافعي في كثير من الأحيان فسألته أن يذكر لي شيئاً عمن يعرفهم باسم شافعي هذا. وهنا صاح متعجباً أنه يعرف شخصاً محترماً بهذا الاسم وأن هذا الشخص المحترم (شافعي) من حيث الخلقة والشكل العمومي يشبه (شلبي) ذلك الشخص المكروه الذي مضى على معرفته إياه وقطعه كل علاقة به زمن طويل — هذا هو اذن سر ابدال الأسم، وهو جواب ما كان يسأل عنه.

وقد ذكر فرويد أن رجلاً كان بينه وبين زوجته نفور، ولكنه لم يكن قد صارحها بأي شيء، وهي مع ذلك تحبه وتخلص له. وقد أهدته كتاباً شيقاً في نظرها ليقرأه. ولكنه وضعه في جهة معينة ولما أراد البحث عنه لقراءته لم يتمكن من تذكر المكان الذي وضعه فيه برغم كل الجهود التي بذلها في هذا السبيل. ثم حدث أن والدته مرضت مرضاً شديداً فحملت زوجته على أن تعتني بها وتمرضها، وكان من نتيجة ذلك أن شعر الزوج بشكره لزوجته لعنايتها بوالدته، وتحول هذا الشكر الى تقدير، ثم رجع الحب الى سابق عهده. ثم لما رجع الى بيته ذات يوم فتح درجاً من أدراج المكتب بدون أي فكرة عن امكان العثور على الكتاب ولكنه لدهشته وجده فيه، برغم مضي أكثر من ستة أشهر على وجوده فيه، وبحثه عنه على جملة مرات في هذه المدة.

أليست عوامل المودة والنفور هي التي تؤثر في النسيان والتذكر وحدها؟ فاننا سبق أن تكلمنا عن فعل الضمير في هذا الشأن، وكيف أنه يكبت الرغبة فيردها الى اللاشعور، ولست في حاجة الى القول بأن الأنسان لا يذكر أو بمعنى آخر لا يشعر إلا بما يعرفه الجزء الشعوري من عقله. فكل فكرة تتمكن من الوصول الى الشعور فهي شعورية، أي أن الأنسان يعرفها ويذكرها، وكل فكرة ترتد الى اللاشعور أو تحفظ فيه فهي فكرة لاشعورية لا يعرفها الأنسان ولا يذكر الحوادث المتعلقة بها. على أنه من السهل التنقيب عما يوجد في ذلك المخزن — اللاشعور — اذا ترك الأنسان لحرية تفكيره العنان، فلا يعترض حرية التفكير هذه بنقد أو تجريح ولا يرى أي فكرة تأتي اليه بأنها غير معقولة أو غير جائزة أو الخ... بل يترك نفسه للتفكير فلا تلبث الأفكار إذن أن تتوالى كما يقول المثل — الشيء بالشيء يذكر — لأننا سبق أن بينا أن الأفكار والرغبات مسجلة على قواعد الأصطحاب والقرينة، أي أن الأشياء المتشابهة أو المتضادة — والمتقاربة والمتباعدة مسجلة بالقرب من بعضها، واذا ذكر أحدها فلا بد من تذكر الآخر. واذا ذكر الأنسان صديقه فلا يلبث أن يذكر أشياء كثيرة معه كبيته أو المقهى الذي يجلسان به أو الكلام الذي حدث بينهما، واذا تذكر هذا المقهى فقد يذكر مقهى آخر في أوربا أو أي بلد آخر، ويذكر معه الحوادث التي مرت به في هذا المقهى الآخر وهلم جرا.

فاذا كانت الفلتات تخدم التحليل النفسي لأنها توجه نظر المحلل الى وجهات مهمة فتوحي اليه بالاسئلة الواجب القاؤها على المريض، وهذا يتطلب من المحلل ذهناً صافياً وفكراً سليماً، فان على المريض واجباً آخر يجب عليه أن يرعاه، وهو أن يلتزم الأخلاص في كل اجاباته على الأسئلة التي توجه اليه، ويجب أن يعلم أن مقدار اخلاصه هذا يعرفه الطبيب المحلل نفسه. وفوق ذلك فانه يجب أن يترك أفكاره حرة من كل قيد فيجيب بكل ما يخطر على باله بصرف النظر عن موافقة ذلك للمعقول والجائز أو مخالفته لهما.

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن شاعرنا شوقي بك في روايته الخالدة «مجنون ليلى» قد ذكر فلتة على لسان ليلى العامرية، فقد ذكرت السكينة اسم قيس مرتين دون أن تشعر، ولما نبهتها زميلة لها الى ذلك قالت: وأي شيء في ذلك لو ذكرت قيساً ثلاثاً. ثم قالت «ياقيس ناجي باسمك القلب اللسان فعثر».

دكتور عبد الفتاح سلامه
طبيب مستشفى برقاش

٩ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

محمد افندى أكمل

هو محمد أكمل بن عبد الغني بك فكرى بن لطف الله بن حسين ، الشاعر الأديب الظريف ؛ ولد بالقاهرة ونشأ بها واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه ، ثم أدخله فى الديوان الخديوى للتعلم كتلميذ ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان مدة الخديو اسماعيل باشا ، يجود الخط به وألمّ باللغة التركية ، وكانت له حدبة بظهره شوهت خَلْقه ، ورأى والده أن لامطمع فى استخدامه بمنصب لائق ، لحدبته وقصر قامته ، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر ، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء ، فلازم الطلب به وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصورىّ ، والشيخ محمد البجيرمىّ ، وكان أحدب مثله ، وكثيراً ما كان يقعده بجواره فى حلقة الدرس . ثم انقطع عن الطلب ولازم والده ، وكان والده جمّاعة للكتب ، مغالياً فى اقتنائها شراء واستنساخاً ، ينفق عليها جلّ ما يصل ليده ، ويحيى الليالى فى مقابلة مايستنسخه منها وتصحيحه وضبطه ، فكان المترجم يعاونه فى ذلك ، واطلع بهذا السبب على كثيرمن الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية ، وعاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء وتردد عليهم واستفاد منهم ، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين كالشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، والشيخ أحمد مفتاح وحفني بك ناصف وغيرهم ، فاستفاد منهم أيضاً ، ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء ، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التندير وسرعة الجواب وخفة الروح ، وكان كثيراً ما يجعل محور تنديره دائراً على حدبته ، فيأتى بما يضحك الثكلى ، بل كان لايأنف من ذكرها فى شعره ، كقوله من زجل فى الوباء الذى حلّ بمصر أوائل سنة ١٣٢٠ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور :

بشاعرْ وناثرْ زجّالْ عالْ ... فنْ الأدبْ فيدُه[1] لِعبَهْ
لطيف زكى وِفهمُه سيّالْ ... ورِقتُه مِنَ اللهْ وَهبَهْ
مخلِصْ لاخوانُه وميّالْ ... نادرِة زَمانُه ولُه حدَبَهْ
مافيهش عيبْ ظاهرْ معروفْ ... قصيرْ ولكن فيهْ أقصرْ
واللى يعيش ياما يشوفْ ... واللى يمشى يشوف أكترْ

ومن ولوعه بحدبته شرع فى جمع كتاب فى نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار ، وتراجم مشهوريهم ، أخبرنى أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه

ونقل والده مدة محمد توفيق باشا الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضياً ، وتوفى يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ وخلف له ولاخوته ضيعة بالصعيد أصاب المترجم منها ستون (فداناً) باعها وبدد ثمنها بالاسراف حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف بمرتب قليل دون الكفاف ، وعاش فى ضيق ومضض بعد ما تعوده من السعة والرفاهية ، وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ فى كل عيد واحتفال وحل وترحال وينشرها فى صحف الأخبار رجاء أن تبلغه فيأخذ بيده فلم يستفد شيئاً وراح تعزّ له فى الريح ، وكان قصر شعره فى أواخر عمره على هذه التواريخ فنظم منها الغث والسمين . وكنا إذا قرب عيد أو سفر أو قدوم للخديو لانتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية فيصير هذا ديدنه فى غدوه ورواحه وقيامه وقعوده حتى يمن الله عليه بشيء يرتضيه

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً ، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة فى نفائس الكتب ونوادر الأسفار ، وهى التى أفنى عمره وماله فى جمعها ، وأتعب نفسه فى تصحيحها وضبطها ، وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها ، فوق ما كان يتكلفه من السعى فى البحث عنها فى الخزائن المهجورة وعند الورّاقين ، واتخذ له فى داره مصنعاً للتجليد ، واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه ؛ وكان هو وعبد الحميد بك نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان فى ذلك ويتسابقان . أخبرنى المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الورّاقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد بك نافع بجلبها له وبينها ديوان البحترى

(١) أى فى يده

وكان إذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف فى مصر إلا باسمه ، فأسرع إليه وبذل له مالاً فوق قيمة الديوان على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه ، فرضى وأعاره إياه ، فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده وأحضر فى الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه ، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت ، ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد بك وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به ، فقال له خفض عليك يا أخى هذا شيء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه ، ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة . وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل ، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها ، فلم يسعه إلا أن قام فى الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل ، فأيقظه من نومه وساومه فى الرسالة بقيمة فوق قيمتها ولم يمهله للصباح بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ففتحه ليلاً وأخرجها له ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده . فلما مات عرض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر ، وكان من مستعربى الإفرنج المولعين بجمع الكتب العربية ، وأدركت أنا أواخرها فاقتنيت منها بضعة عشر كتاباً ، منها ما هو بخط عبد الغنى بك نفسه ، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التى كان يقابلها بها

وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق بك ، وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته ، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب ، وقد تعذر على فهم باب أفعل التفضيل ، وأجهدت نفسى فى درسين متواليين على تفهمه ، فلم يفتح على بشيء فيه ، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت على فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولا تنسنى . ثم تأهل ببنت جنى بك ، وكان لأسرتها نوع اتصال بنا ، فاتصلت المودة بينى وبينه بهذا السبب ، وازدادت ملازمته لى لما سكن بجوارنا ، فكان يزورنى عصر كل يوم ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف ، فتارة كنا نحيى الليالى بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية ، أو بمطالعة بعض الكتب ، وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه ، وكان لا يمل من المقابلة معها يطل الوقت فيها ، ويقول هذا شيء دربنى عليه والدى وعودنى إياه من الصغر . وأشار على مرة استاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطى أن أطالع أمالى أبى على القالى مطالعة امعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها ، وأخبرت المترجم أننى سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفى ما بهذه الكراريس ، فغاب عنى ثلاثة أيام ثم حضر ومعه زجل ، ينحى فيه على الأستاذ وعلى أبى على القالى اللذين تسببا فى انقطاعى عن الاخوان ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا

وقد أطلعته على رسالة عندى جمعها الشيخ احمد الفحماوى صاحب الخط الحسن ، المشهور بكتابة لزوم ما يلزم للمعرى وسماها (بنات أفكار وعرائس أبكار فى ألقاب أهل العصر) ذكر بها كنى وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع ، وابراهيم افندى طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة ، فلقبا كل واحد بلقب شاعر متقدم ، أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به ، أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله ، كتلقيبهما مصطفى افندى النعوت بكامل بالنكوك ، لأنه كان قصيراً جداً معوج القدمين ، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعى الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بعلا مسكين ، لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يرى كأنه تواضع وانكسار ، وتلقيبهما عبد الغنى بك أبا المترجم بالأخطل ، لأنه كان ضخم الجسم كبير الهامة . فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً وشرع فى وضع رسالة تماثلها فى فضلاء عصره ، وسألنى مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان فامتنعت خشية اللوم ، فانفرد هو بتأليفها وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد ، فمن ذلك تلقيبه للعالم الفاضل على رفاعة باشا ابن رفاعة بك المشهور ، بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه ، وتلقيبه للعالم الفاضل يحيى افندى الأفغانى ، بالقدورى لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبيهاً له بالقدر من الفخار ، والقدورى اسم عالم من الحنفية مشهور . وكان الشيخ محمد الحفنى المهدى ابن أخى مفتى مصر الشيخ العباسى المهدى ولعاً بذم الناس

منقباً عن معايبهم ، لهجاً بها في المجالس ، لم يسلم منه أحد حتى عمه ، واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه وتحاموا عن الاجتماع به ، فلقبته بابن هرمة ، وهي كلمة سب عند العامة ، فقلت له هذا لا يستقيم لك لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله فتأنف وقال لا أجد له لقباً ينطبق عليه غير هذا فدعني من شنقيطتك . ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه ، ففكر وقال أحسن لقب ينزل على ابن قتيبة ، ثم تركه وتلقب بالقوقس . وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره ، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم ، فانه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ احمد مفتاح سلامة طويته ، بالأبله البغدادي ، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهما ، وغضب منه صاحب آخر كان قصيراً ممتلئاً يتدحدح في مشيته كما يتدحدح البط لأنه لقبه بابن بطوطة ، فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها .

وكان رحمه الله مجيداً في الزجل ، متقناً لصياغة الأدوار التي يتغنى بها ، وأكثر ما كان متداولاً منها بين المغنين في عصره كان من نظمه ، وأما شعره فالاجادة فيه قليلة إلا ما ضمنته النكت والتندرات العامية ، فمن أحسن ما وقفت عليه منه قوله من مرثية في صاحبه علي رفاعة باشا

جزعت وللحر أن يجزعا	وودعت صبري إذ ودعا
وجادت عيوني على بخلها	وحق لها اليوم أن تدمعا
وروع قلبي النوى بعد ما	أمنت ومثلي كم روعا
لحا الله يوماً أشاعوا به	وقالوا أمير العلا شيعا
فما كان أصعب تأبينه	وما كان أسوأه موقعا
وما كان حتى البكاء ولكن	فزعت ولا بدع أن أفزعا
تجرعت من هوله كل صاب	وغيري من الناس كم جرعا
وما دار في خلدي أنني	أرى البدر يرضي الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب	فما كان أضيع عهداً رعى
يقول النعي على قضى	ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سيداً صيته طائر	حوى الفضل في شخصه أجمعا
فدكت رواسي الدنى بعده	وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما	ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقل للخطابة ذوبي أسى	ولا تطلبي بعده مصقعا

وقل للكتابة لا تحفلي	بمن يتبجح في المدعى
وقل للعلوم فقدت أميراً	مضى تاركاً فضله مشرعاً

وقال مورّياً باسم الطبيب سعد بك سامح :

ياســـعد مالك معرضاً	عني وقلبي فيك طامح
إني أتيتـــك قائـــلاً	أنا تائب ياسعد سامح

وقال مورّياً باسم محمد ثابت :

ان كنت في ريب بصدق محبتي	وسمعت عني ما تقوّل شامت
فاعلم فديتك دائماً اني على	عهد المحبـــة يا محمد ثابت

ولما مرضت شقيقتي السيدة عائشة التيمورية وأحست بدنو الأجل نظمت في مرضها أبياتاً لتكتب على قبرها وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها وهي :

قد كنت عائشة فنوديت ارجعي	للقبر مأوى كل حي فان
فأتيت صفر الكف عن مرضاته	ومقرة بالعجز والعصيان
جردت من ثوب الهدى لكن لي	تاجاً من الاسلام والايمان
ونزلته مستشفعاً بمحمـــد	وتوســـلي عفواً من الرحمن
أصبحت ممن زار لحدي راجياً	خير الدعا وتلاوة القرآن
لكم البقا إخوان ديني أرخوا	

فنظم المترجم التاريخ بقوله : (قبر لعائشة سما بجنان)

١٠٦ ١٠١ ٨١١ ٣٠٢

١٣٢٠

وله غير ذلك مما ذهب عن الذهن الآن ، ولكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتي فيها أحياناً بغرائب في ابراز المقصود بدون حشو كقوله في تاريخ ولادة ولده عبد الغني : (عبد الغني ابن أكمل) .

وكانت وفاته فجأة قبيل ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٢١ ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله تعالى .

من طرائف الشعر

تعالي

للشاعر الشباب السوري أنور العطار

تعالي نسأل الذكرى عن الحب وماضيه
وعن سحر لياليه وعن حلو أمانيه
حكايا ما تنى تنهل من ضحك وتمويه
قصصناها على قلبين مغمورين بالتيه
وهذا الليل كم أصغى وكم أصغت دراريه
لقد قربنا الحب وضمتنا أواخيه
ولم تنو القلى أهلي فلم أهلك تنويه
حياتي منك في نوح وتعذيب وتأويه
فهل أظفر في الهجر بطيف منك أصبيه
أفديه بأحلامي فيسليني وأسليه
وأغريه بأشعاري فيبكيني وأبكيه

***

وكم قاسمني الليل أنينا بت أخفيه
شجاني منه ما أشجى وأضناني مضنيه
أسى للقلب ما ينشد إلا ما يعنيه
وما يبرح طول الدهر طفلاً في تمنيه
يعد الفرحة الكبرى لحب كامن فيه

***

إذا ساورني الوجد وأطياف لياليه
وأضنى قلبي الهم وأحزان عواديه
لمست البرء في الليل وفي صمت دياجيه
كلانا موحش روحاً سقيم غاب آسيه

***

إذا ضاع لك الحلم الذي عشت ترجيه
فما تطمع في العيش ولا يغريك حاليه

***

لقد لقنني الحب ومعسول أغانيه
وأوحيت لي الشعر ومن غيرك يوحيه؟
ونجوى لحنه الباكي وأنات قوافيه

***

قطعنا العمر في الحب وفي غمرة واديه
فلم يبق لنا منه سوى طيف نناجيه

دمشق أنور العطار

ليلة الزورق

لعبد العزيز أفندي عتيق

حينما ذهب الأصيل مياه النيـ ـل، واختال في الرياض جميلا
أبصرتني أطوف حول حماها سادر الخطو، حائراً، مخبولا
هتفت بي: إليّ يا صاح أقبل أنا من قد بحثت عنها طويلا
ذاك وكر الهوى، ألست تراه مثلما كان شاعرياً ظليلا؟
ذاك روضي، فقر عيناً ونفساً ياحبيبي، واجلس إليّ قليلا
واسقني بالجمال والسحر شعراً شفقياً يميت مني الغليلا

***

كيف جانبت روضك الفينانا أتسليت؟ أم نسيت المكانا؟
كلما طفت بالمكان أثارت وقفات الوداع مني الحنانا
وأرى القلب في غيابك أمسي ياحبيبي موزعاً حيرانا
أيها الغائب الذي خالط القلـ ـب هواه، تعال نحي هوانا
خذ ذراعي إلى ذراعك واصعد ربوة الأمس، واسقني الألحانا
رب ليل سهرته أتقلى فيه وحدي، وأشتكي الحرمانا!

***

ها هو الناي حالماً بالأغاني فأعدها سحرية الأنغام
ها هو الناي يا حبيب فؤادي غن للحب، للنفوس الظوامي
فاذا ما شغلت عنك بنفسي وبما هاج من هوى وضرام

فدع الناى جانباً ، وأذرها   قبلات من ثغرك البسام
ودع الربوة السحيقة تخفى   أثرينا عن أعين الأقوام
ولنعش هاهنا كما نتمنى   للأغانى ، للحب ، للالهام

* * *

وانظر الشمس ! هل شجتك اختلاجاً   وهى تخطو الى الفنـاء السريع ؟
كم أضاءت وجددت من حياة   وتجلت فى كل أفق وسيع
ثم همّت فليس فى الكون إلا   نائح فى مواكب التشييع
ياحبيبى خل الوقار وهيا   نوقظ اللهو بعد طول هجوع
بالأغانى ، وبالحديث ، وبالشعـ   ـر ، وبالسحر ، والهوى والدموع
فغداً تذهب الحياة بشمسيـ   ـنا وتمضى بنا لغير رجوع !

* * *

وانظر البدر فى الفضاء سبوحاً   يغمر الكون وجهه بالنور
أطلق السحر فى السماء وفى الأر   ض ، فبتنا فى عالم مسحور !
لا ترى فيه غير ليل وضىء   يبعث الشوق والهوى فى الصدور
ياحبيبى خذنى اليك وأنعش   شفتينا بثغرك المخمـور . .
قرّب البـدر بيننا ودعانا   فتمتع بساعة من سرور
ما غناء الساعات ، تمضى خواء   من لقاء ، أو رحلة ، أو سمير ؟

* * *

وارقب الزورق المقدس يبدو   من بعيد كالطائف الجوّال
كم عبرنا به الخضم وقد أغـ   ـفى وجلنا به بكل مجـال
نوقظ الموجة الصغيرة بالهمـ   ـس ، فتبدى تثاؤب الأطفال
وأغانى الجداف تضفى على اليمّ (م) رداء من رهبـة وجلال
ياحبيبى حان الوداع فهيا   جئت نقضى حق الليالى الخوالى
كم حبتنا بصفوها ورعتنا   نضّر الله وجهها من ليال

* * *

ورسا الزورق المقدس للشط   ط فيا للضفاف تخطو الينا
ودعانا الملاح بالنغم العذ   ب ، فأورى بصوته مهجتينا
أيهذا الملاح أية ذكرى   فوق هذا الخضم هجت لدينا ؟
قرّب الزورق المقدس كالأمـ   ـس ، وهيئ لنا به مجلسينا
وامض فى اليم حيث نسعد بالصفـ   ـو ، ونحيى فى ظله أملينا
طال شوقى الى المطاف بدنيا   كم شجتنا وأطلقت خاطرينا !

* * *

قلت والبدر حالم ، والدرارى   حالمات ، والكون وسنان صاح
يارجاء القلب الجريح — وماذا   ل — أما آن أن تداوى جراحى ؟
بى ظماء الى حديثك عذباً   واشتياق لوجهك الوضاح
قد سهونا عن الحياة وبتنا   فى محيط من الطلاقة ضاح
فابعثى النور فى جوانب نفسى   وارحمينى من وحشة الأرواح
شد ما ضقت بانفرادى وسهدى   واغترابى ، فى غدوتى ورواحى !

* * *

أنا لولاك لم أعش فى حياة   ثقلت محملاً وساءت مقرّا
ليس تصفو لنا ، وهيهات تصفو   للذى ازداد بالحقائق خبرا
أنت جمّلتها لعينى ونفسى   وفؤادى ، فلست آلوك شكرا
فتعالى نعش هنا فى حمى اليمّ (م) وننسى ما ساءنا ، أو سرّا
نتناغى كالطير فى كنف الدو   ح ونطوى الساعات أساً وبشرا
ذاك لب الحياة ، بل ذاك أندى   ما حوته الحياة برّاً وبحرا

* * *

وصحا الشوق عارماً فاذا هى   فى جنون ورعشة قبلتنى
ثم ألقت برأسها فوق صدرى   كالذى نام من ملال وأين
وسرى الريح ليناً فاطمأنت   واستراحت فى جانبى المطمئن
وشجاها الهوى فألقت بأذنى :   يا حبيبى طاب المكان فغنّ
غنّ لى غنوة الربيع على اليمّ (م) وروّ الفؤاد من كل لحن
فاحتضنت العود الحبيب الى النفـ   ـس ، وأيقظته ورحت أغنى :

* * *

حينما يشرق الربيع   فى سماء الحـدائق
ونرى حسنه البديع   فى وجوه الشقائق

* * *

سوف ألقاك ها هنا   فوق ذا الزورق السبوح
حيث تصفو لنا المنى   ويقر الهوى الجموح

* * *

يا حبيباً عبدته   مثلما يعبد الآله
وجمالاً عشقته   عشق من لا يرى سواه

* * *

كم تمنيت لو نكون   فى حمى اليمّ مفردين
فى وقاء عن العيون   حيث نحيا كطائرين !

* * *

قدّر الله يا حبيب   للغريبين بالتلاق
فمتى تبعد القلوب   بلقاء بلا افتراق ؟ !

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بمناسبة ذكرى وفاة الامام

وقفة على دار الامام محمد عبده

بعين شمس

للشاعر الحاج محمد الهراوى

أظلاماً وأنت فى عين شمس ... وعبوساً من بعد صفو وأنس؟

كيف أصبحتِ يا مثابة غاد؟ ... كيف أمسيتِ يامنارة ممسى؟

كنتِ والعهد منك غير بعيد ... بيت مَلْك بغير تاج وكرسى

كنتِ للفضل والمكارم والنبـ ... ـل جميعاً، للناس من كل جنس

كنتِ للعلم، والمعلم، والطا ... لب، مجلى نهى، ومعهد درس

عطلت هذه الدروس وكانت ... ملء أهل الزمان فى كل حس

وانطوت ثم لا يزال صداها ... بين صدر يرن فيه وطرس

فانظر الدار وهى قفر خلاء ... بعد أهل، فهل ترى من محس؟

واسأل الرسم إن أصبت جواباً ... فى كلام أو فى إشارة خرس

هيه يادار بعد أنس أحبتى ... كيف أوحشت بين يوم وأمس؟

لا تراكِ العيون من دمعها المسـ ... ـبل حزناً، إلا بنظرة خلس

نظرات تعيد ذكرى إمام ... كاد ينسى، وصنعه غير منسى

حسدت مجدكِ الليالى فمالت ... بعد لين عليكِ ميلة بأس

أقفرت هذه الربوع وأقوت ... واستحالت الى معالم درس

لا يكاد البناء يقوى على الأر ... ض ولا يثبت الجدار بلمس

ما بناكِ الذى بناكِ لزهى ... بالذى شاد من قباب وأس

ورسا الزورق المقدس للشطـ ... ـطِ، فصاح الملاح: هيا، فقمنا

ومشينا على بساط من العشـ ... ـب ندىّ، يهتز فى حيث سرنا

ووقفنا فى كل مجلس حبٍّ ... وادّكرنا من سحره ما ادكرنا

ثم ودّعتها وغدتْ وأحلا ... مى إلى عالم الشقاء معنى

أسأل القلب: كيف ياقلب مرّت ... ليلة الزورق الحبيب، وأينا؟

وأرانى مردداً فى حنين: ... ليت أنا نعيدها! ليت أنا!!

ميت غمر ... عبد العزيز عتيق

وهو لو شاء شاد عرشاً وفرشاً ... من لجين ومن حرير الدمقس

إنما آثر التواضع حكماً ... للذى فيه من تواضع نفس

ليس يعنى بزخرف العيش حرٌّ ... قطع العيش بين نفى وحبس

فأقام البناء من لبنات ... خشنات أطرافها غير ملس

لا يبالى وكل شىء سيبلى ... أن يطوف البلى عليه بطمس

أنكر النفس ثم باع هواها ... فى سبيل الأوطان بيعة بخس

ومضى يحمل الكريهة فرداً ... مستهيناً بكل بأس وبؤس

مستعيناً بالله والحزم والعز ... م ووحى الحجى وتدبير رأس

نفس حر تجملت بخلال ... يتجافين عن صغار ورجس

خصه الله بالمواهب والرأ ... ى بعيد المرام صلب المجس

رجل كان حين يقطع أمرا ... يتقاضاه من مخالب يأس

ليس يثنيه عن أياديه قوم ... يصبغون الجميل صبغة ورس

فلقد عاش (عبده) فى زمان ... جل من فيه أهل كيد ودسّ

حسدوا فيه نعمة الله فيهم ... ورموه بكل منكر حدس

فاذا مات أيقنوا أى ركن ... هدمته يد الضلال بفأس

قل لشعب حظ النوابغ منه ... حظ سقراط حين أودى بكأس

تقتلون النبوغ حياً وتمضو ... ن بكيا عليه فى بطن رمس

أيها الناس، ههنا قام بيت ... فوق آثار خفرع وكيوبس

لم يكن من صروح هامان فرعو ... ن ولا كان من حصون الفرس

فاذا ذل فالذى قد بناه ... ليس من طينة الذليل الأخس

آه لو كان شكسبير بناه ... أو بناه أخوه «هيجو» الفرنسى

لرأى الناس أى دار تجلت ... واستحالت الى حظيرة قدس

أثر النابغين فى كل شعب ... هو ميراث كل جيل وحرس

أيها الناس ههنا سر مجد ... قبست منه نورها عين شمس

وهنا ههنا أشعة ذكرى ... تستضىء العقول منها بقبس

فأقيموا البناء من قبل أن يأ ... تى يوم يحول فيه للبس

واجمعوا فيه ما تشتت منه ... بيد الدهر من متاع ولبس

واجعلوه للعلم داراً وللد ... ين مناراً، أو مرجعاً للتأسى

ينبرى للوفود منه خطيب ... صايبت القول فى بلاغة قسّ

يوعظ العقل للحياة ويمضى ... يفتح العين من عماء ونعس

ذاك من جانب الوفاء الى الشعـ ... ـب نداء لصاحب غير نكس

محمد الهراوى

بمناسبة ذكرى حافظ

شاعر النيـــل

بقلم الأديب أحمد عثمان عبد المجيد

لولا أن الخطب فى شاعر النيل هو خطب الشرق الذى كان الفقيد لساناً من ألسنته ، وعموداً من عمد نهضته ، وبطلاً من أبطال الحماة عن حريمه ، والذود عن حقيقته ، وقائداً من قواده البسلاء الميامين ، وداعية فيه إلى الاخلاص فى الجهاد ، والاحسان فى البلاء ، ليظفر بحقه فى الحياة والسلطان . لولا أن الفقيد كان ذلك الرجل ماجل الخطب فيه وما فدح وما كان لمثلى أن يجاوز طوره ، ويصطنع ما لا يطيق ، ويدفع نفسه دفعاً فى مزدحم الكرام الكاتبين عن حافظ شاعر النيل فيعرضها لشىء كثير من العنت والمشقة .

***

ومن أعجب العجب أن يريغ هذا القلم اللدن تلك السبيل برغم ما يتناوز حامله من تبلد القريحة ، وركود الذهن ، وأن يأسره ذكر شاعر النيل وحده فيتحدث عنه يوم مضى على وفاته الأربعون ، ثم العام ، وهاهوذا يتحدث عنه وقد تصرم العام الثانى على وفاته أمس .

وأعتقد أن حافظاً ماملك من نفسى إلا بما غلب عليه من إيثار الوطن وفدائه ، وغلب على شعره من الحماسة الوطنية والنزوع إلى الحرية ، والولوع بالاستقلال والسيادة . ولعل أقل مانجزى به حافظاً (رحمه الله) أن نكثر الحديث عنه ، وأن نقدمه إلى شعرائنا الذين آثروا أدب الصبابة واللذة ، وجنحوا بالأدب عن أن يكون وسيلة من وسائل إلهاب الشعوب المستضعفة وإنهاضها للمطالبة بالحقوق والدفاع عن الذمار ، وظنوا أن تزويق الحديث وتليين المعارض والمقاطع ووصف الغانيات ، وأسباب الترف من الأوليات التى يجب أن يعنى بها الأديب ، وأن يخلص لها الأدب .

لمثل هؤلاء يجب أن نقدم حافظاً مثلاً للأديب الذى عرف غاية الأدب السامية فجمل نتاجه الجم وقفاً عليها ، وجهاداً فى سبيلها ، ولم يحاول أن يسلك بالأدب مسلك أ كثر أدبائنا الذين جحدوا حق الوطن عليهم ، وتأثروا طريقة الأدب العربى فى فنونه التى خلت إلا قليلاً جداً من الشعر الوطنى الذى يحدث عن آمال الشعوب ورغائبها .

لذلك لم يأل جهداً فى تسجيل ماللشرق من مفاخر ، عز بها حقبة من الزمن ، وما ينبعث لتحقيقه فى إيمان ثابت ، وجهاد صادق من مآرب وغايات . ضارباً له الأمثال ليشد أزره ، ويصحح عزيمته ، ويثير حفيظته ، ويزيد إيمانه بحقه ، واعتزازه بمجده

***

فتش فى آثار حافظ كلها يأخذ ببصرك هذا الطابع المجيد ، وتر أنه لم ينس الحديث عن مصر والشرق حتى فى مدائحه ، ومراثيه ، لأنه لم يمدح ولم يرث إلا العطارفة الذين عرفهم وعرفتهم مصر مجاهدين فى سبيلها ، مخلصين فى الذود عنها ، بل لم ينسه فى خمرياته التى يستعبد الحديث عنها السمع والبصر واللب جميعاً ، ويأخذ بذمام الفكر فلا يدعه يجنح إلا إلى اللهو والخمر والقيان والندمان وما إليها .

لم يذهب حافظ فى أدبه ذلك المذهب إلا متأثراً بعصريته الصميمة ، وما أفاده من صحابة الأحرار من كره للاستعمار وضيق بالذل ، وما لقيه من عناد الانجليز بالسودان وما منى به بعد من بؤس وشدة .

كل هذه العوامل قربت بينه وبين الشعب ، فأحس منه ضعف النفوس ، وتزايل الوحدة ، وتردد المستضعف ، وخوف الذليل ، وأراد الاصلاح ما استطاع فاتخذ سبيله لترضى بسمية عن نفسه ، ويكون كما قال : —

لعمرك ما أرقت لغير مصر ... ومالى دونهـــا أبداً مرام

وقوله :

انى لأحمل فى هواك صبابة ... يامصر قد خرجت عن الأطواق

لذلك لم يدع باباً من أبواب الجهاد الا ولجه ، فكان له فى سبيل الوطن والدين والأخلاق مواقف عز بها وبز ، وأقعد غيره عن أن يلحق به ويدانيه ، واصطنع فى جميعها الجرأة والصراحة وخلطها أحياناً بالتهكم اللاذع ، والسخرية المرة ، لتكون أبلغ فى التأثير وأبقى فى الآذان . واليك حديثه مع غادة اليابان مثلاً تر فيه كيف برز حافظ فى هذا المضمار ، وجمع إلى سلامة

الشعر وشرف المقصد دقة التصوير ، وسمو التصور : —

لا تلم كفى إذا السيف نبا	صح منى العزم والدهر أبى
أنا لولا أن لى من أمتى	خاذلا مابت أشكو النوبا
أمة قد فت فى ساعدها	بغضها الأهل وحب الغربا
وهى والاحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها	أم بها صرف الليالى لعبا

ثم يمضى يصف تفريط أمته ، وعشقها الألقاب فى غير العلا ، وتجهادها بالنفوس فى سبيل الرتب ، وتباغضها وتحاسدها ، وما إلى ذلك مما يقعد بالمصلحين ، ويثبط همم المجاهدين إلى أن يقول مخاطباً غادة اليابان : —

قلت والآلام تفرى مهجتى	ويك ما تصنع فى الحرب الظبا
فسلينى إننى مارستها	وركبت الهول فيها مركبا
وتقحمت الردى فى غارة	أسدل النقع عليها هيدبا
جال عزرائيل فى أنحائها	تحت ذاك النقع يمشى الهيدبى
فدعيها للذى يعرفها	والزمى ياظبية البان الخبا

وهو بذلك الحديث كله يمهد لما يريد أن يقدمه نصيحة للشباب ويجعله مثيراً لهممهم ، باعثاً لهم من مراقدهم ، فأى شاب يعرف للرجولة حقها يسمع حديث حافظ على لسان هذه الغادة فيرضى أن تسيغ الذلة ، ويقيم على الخسف الذى يراد به فيكون أحد الأذلين ؟

فأجابتنى بصوت راعنى	وأرتنى الظبى ليثاً أغلبا
إن قومى استعذبوا ورد الردى	كيف تدعوننى الا أشربا
أنا يابانية لا أنثنى	عن مرادى أو أذوق العطبا
أنا إن لم أحسن الرمى ولم	تستطع كفاى تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم	وأواسى فى الوغى من نكبا

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول : إن حافظاً قد بلغ فى هذه القصيدة مبلغاً من الاحسان يحسد عليه ، وأشرف بها على الغاية ، وأسمعت كلماته من به صمم

ولم يزل يتبع الصيحة الدوية أخرى أشد وأعلى ليستقيم له قياد النفوس . ويدفع الشباب المترف المنعم الذى سدر فى شهواته وغلا فى مباهجه ، ونسى حق الوطن عليه — الى مايجب أن يعمل له ويشغل نفسه به فانه

عار على ابن النيل سباق الورى	مهما تقلب دهره أن يسبقا
فتدفقوا أسداً وصونوا نيلكم	فلكم أفاض عليكم وتدفقا
فمن البلية أن تباع وتشترى	مصر وما فيها وألا تنطقا

تلك هى البلية البالغة ، والهوان الأكبر ، والفعلة النكراء ، فأحر برجال الغد المأمول أن يلموا الشعث ، ويرأبوا الصدع ، ويسعوا الى خير هذا الوطن المسكين سعياً ملاكه التضحية بالنفس والتفدية بالعزيز .

رجال الغد المأمول إن بلادكم	تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالاً عاملين أعزة	وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا
وياطالبى الدستور لاتسكنوا ولا	تبيتوا على يأس ولا تضجروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله	ولا ناله فى العالمين مقصر

***

لست أدرى إذ أقرأ لحافظ هذا وكثيراً غيره فأرى دعوته الى الثورة سافرة غير مقنعة ، وحفيظته على الاستعمار صريحة غير منكتمة ، ماذا يكون منه لو أفسح له القانون قليلاً فى الحرية ؟ وأى شىء بعد هذا نرتقبه من مجاهد ، ونرجوه من حر . ؟

إن من يعرف صرامة القانون إذ ذاك وما رمى اليه المشترع الانجليزى من كبت الشعور ، والتقريع والكيد للاحرار ، ليعتقد أن حافظاً آثر عنت القانون ، وشدته ليقضى حاجة نفسه ، وحاجة أمته فى ذلك الوقت العصيب الذى سعى فيه كثير من الخاصة الى رجال الاستعمار متزلفين مؤثرين أنفسهم على الوطن .

فهذا يلوذ بقصر الأمير	ويدعو الى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير	ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين	على غير قصد ولا مأرب

لله درك ياحافظ ! لقد جاهدت والغمرات من حولك منكرات والقوم مشغولون عنك بذات نفوسهم . فما فنيت عزيمتك ولا وهى صبرك ، ولا دفعك ذلك الى اليأس إلا حين ترجو الالهاب والتهييج ، فما أجمله يأساً يوقظ الشعور ويحفز الغافل الى المناداة بالحقوق

حطمت اليراع فلا تعجبى	وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يامصر دار الأديب	وما أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يامصر من كاتب	أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت	فقد ضاق منك ما ضاق بى

أيعجبني منـك يومَ الوفاق   سكوت الجماد، ولعب الصبي
وكم غضب الناس من قبلنا   لسلب الحقوق ولم نغضب

غضب الناس لحقوقهم فاستردوها، ونمنا نحن عن حقوقنا وهى ملء الأرض، وشغلنا عن مجدنا الدابر وهو ملء التاريخ، ورضينا بالدون من العيش قسماً وحظاً وقد

كنا قلادة جيد الدهر فانفرطت   وفى يمين العلا كنا رياحينا
كانت منازلنا فى العز شامخة   لا تشرق الشمس إلا فى مغانينا
وكان أقصى مُنى نهر المجرة لو   من مائه مزجت أقداح ساقينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة   لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا   شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاه ولا حسب   ولا صديق، ولا خل يواسينا

فى هذه الأبيات وفى كثير غيرها يذكرنا حافظ بسلطان الشرق وملكه، وعلمه وفلسفته، وأيامه الخالية، ثم بعبوديته وفقره المادى والأدبى ليبعث من ألقى السمع الى النهوض، وينبه الغافل الكسل الى ماله من حقوق مسلوبة

وليس من شك فى أن شاعرنا قد أدى بقصائده هذه ما وجب عليه كمصرى صميم إن لم يكن زاد وأربى، وأن الشعب قد أحسه تذكير نعيمى عريضة تحولت أبؤساً، وعز باهر آض ذلاً. ولكن نفسه الكبيرة ما كانت لترضى بهذه التضحية الحق، فلولا صرامة القانون لأرتنا عجباً، فمثلها لا يقنع بما دون النجوم.

متى أرى النيل لا تصفو موارده   لغير مرتقب لله مرتهب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت   جادت دموعى لها باللؤلؤ الرطب
إذا نطقتُ فقاع السجن متكئى   وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب

وكما لم يحمد حافظ جهاده وبلاءه لم يحمد للشباب نهوضهم المقدور، وجهادهم المحدود، وهو يريدهم أسوداً ضارية لا ترتد عن الغاية أو تبيد، فأنحى عليهم باللائمة وأغلظ لهم فى القول، وقرعهم وتحدى رجولتهم فقال:

أنابتـة العصر إن الغريب   مجد بمصر فلا تلعبى
يقولون فى النشء خير لنا   وللنشء شر من الأجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنين   وبين المساجد مثوى الأب
وكم ذا بمصر من المضحكات   كما قال فيها أبو الطيب

هذه النابتة التى راضها حافظ على التضحية فارتاضت بعـد شماس، وأدبها ذلك الأدب الجميل وطالما أوضعت فى اللهو وجنحت الى الأثرة فجنت على الأمة، هى التى تسعى اليوم غير وانية، وتمضى غير متريثة، لا يشغلها عن جهادها الشريف ما يُجنى لها من كيد، وما يراد بها من هون، لقد علمها بالصراحة، وعرض عليها شر ما فيها من الخصال لتتوقاه، وكان عليها حديد اللسان إن ترددت حين العزم وتقاعست عند النائبة

حسبى هذه الصور البارعة التى تدل دلالة واضحة على أن حافظاً — أحسن الله جزاءه — كان شاعر الوطنية الثائرة، لم يقدع ثورته الخوف، ولم يأسر قلمه التزلف والرياء، ولم يخالف بين قوله وفعله

وستظل هذه الناحية من شعر حافظ شغل الباحثين ما دام الحديث عنها يمتد ويمتد فلا يقوم بالايفاء فيه الاطناب المطنب، وما دامت النفوس الألمة تستروح برد الراحة فى دراسة هذه الآثار التى تحدث عن أشجى أمنية من أمانيها، وما دام — حافظ — نفسه يأبى أن يحتفل بغير هذه الناحية، ويقول ما معناه « إن من قضى شبابه فى الجيش، ثم انغمس بعد تسريحه فى شعر الوطنية؛ هيهات أن يجد متسعاً لما وراء ذلك » وأختم الكلام بعرض مختار من إحدى قصائده فى داهيـة دنشواى الدهياء، وقد صاغها من حسرات نفسه وآلام شعبه، ورثى فيهـا العواطف الشريفة — يقتلها حب الاستعمار فى نفوس أهله — فجاءت طرازاً وحدها فى قوة التأثير وجمال النظم قال:

خفضوا جيشكم، وناموا هنيئاً   وابتغوا صيدكم، وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق   بين تلك الربى فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء   لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن   أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

— ثم يقف بعدُ من المستعمر موقف الخصم العنيد، فلا يدع له حجة ولا يتجيه من التثريب والملامة:

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو   أقصاصاً أردتمُ أم كيادا؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو   أنفوساً أصبتم أم جمادا؟
ليت شعرى أتلك محكمة التفـ   ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى   فى ضعيف ألقى اليه القيادا؟

ثم يمضى بعدُ ينفث حسراته وزفراته حتى ينتهى الى تقريع

أبناء مصر الذين يتقلبون حرباً عليها، ويكونون عوناً للمستعمر على خضد شوكتها؛ ويخلص من ذلك الى قوله وقد أنكر تصرف هؤلاء الأعيان وزرى عليه:

لاجرى النيل فى نواحيك يامصر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يامصر فأضحى عليك شوكاً قتادا
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمس فأدمى القلوب والأكبادا
إيه يا مُدرة القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

* * *

هذه الروح القوية التى استبانت فيما أوردنا من شواهد هى التى صدر عنها حافظ فى جهاده الوطنى الذى صار من أجله شاعر النيل غير مدافع ولا منازع.

وما زال - رحمه الله - يغذى الحركة الوطنية، ويشيد بها حتى ألقى عصاه بدار الكتب، فصرم بها زماناً لا ينشدنا إلا لماما.

وما كان للنفوس التى خالطها حبه، وغذاها أدبه، وطبعت على أن تسمع صوته متصلاً لا ينقطع، أن تسكن الى تلك الحال، وأن ترضى بذلك القليل يأتيها منجما فى أوقات متباعدة.

فلما ترك - رحمه الله - المنصب محالا الى الراحة والدعة، أملت خيراً واستشرقت وأنست الى مقطوعاته التى كان ينظمها اليوم بعد اليوم، ولكن ماهى إلا جولة أو جولتان حتى رفع القلم، وطوى الأثر، وودعنا حافظ

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أبى البؤس الذى ألح على حافظ حياته أن يدعه بعد وفاته، فكفرت الأمة بأياديه عليها، ولم تعرف لذكراه حقها، وكان أقل ما يجب عليها لمن عاش حياته مجاهداً فى سبيلها، مسبحاً باسمها، أن تجعل يوم وفاته أحد أيامها الخالدات، تهرع فيه الى تمجيد ذكره وإعلاء قدره، وأن تنشر صحيفة جهاده للأدباء ليتأثروه فيه ويعملوا على شاكلته.

وليس هذا وحده هو كل ما أصاب حافظاً من بؤس بعد وفاته، فان خلصاءه الذين عاشروه ولابسوه ولزمهم بذلك ما يجب على الصديق للصديق، قد نفضوا أيديهم مما تعاهدوا عليه إثر وفاته واجتمعوا من أجله، وقد كان فيه قليل من كثير جداً يجب عليهم لذلك الشاعر الصديق الذى أضحى حظه بين هؤلاء الصفوة الأنساء أو النسيان وكلاهما شر.

وبعد، فتلك كلمة فيها إيجاز وقصور، لم أرد فيها كشفاً عن فضل مستور، وبياناً لقدر منكور، ولكني أردت أن أؤدى لشاعر النيل بعض ما وجب على بالأخذ عنه، والانتفاع بآثاره. فان أك قد قاربت ما أردت فحسبى، وإلا أكن فالمجتهد يعذر؟

أحمد عثمان عبد المجيد

بين الشك والايمان

الشاعر الايطالى «ليوپاردى» *

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

أعجب ليوپاردى بالموت والفناء ، فقال فى مقطوعة له :

[أيها الموت الرحيم الذى لم أزل أدعوه إلىَّ منذ تألق صباى : تعال أغلق إلى الأبد عينيَّ ، فقد طرحت بعيداً عنى كل أمل خادع يتعلل به العالم ، ويلهو كالطفل . أنا لا رجاء لى إلا بك ، ولن أرتقب إلا النهار الذى أرقد فيه مسنداً جبينى على صدرك الطاهر]

وهكذا أصبحت نفسه لا يشبعها لون من ألوان الحياة وآمالها ، لا الحب ولا زهوه ، ولا الأمل وآفاقه ؛ لا يشبعها ولا يطفىء رغائبها إلا لقاء الموت .

قد تسمع هذه اللهجة من غير ليوپاردى فتصد عنها ، ولكنك تسمعها من هذا القلب الخافق والروح المعذب فتوقظ نفسك الهاجعة وتهيج قلبك الهامد ، لأن اللهجة التى ينطق بها الشاعر ليست لهجة خاصة ، وإنما هى لهجة الانسانية التى تأتى من حيث لا تعلم ، وتنطلق إلى حيث لا تدرى .

يقول ليوپاردى : إن الجميل هو عدو الحقيق ، ولكن هذا الجمال الخادع هو — عندى — خير من الحقائق الأرضية الدنيئة . ألا فلنهذب الأشياء التى تفسح ساحات الخيال ، فهى اجدى نفعاً على الناس لأنها تبعث على النسيان . إن الآداب هى رفيعة المقام ، وهى القائدة إلى المثل العليا ، والدرس يبعث على التعزى ، وهو يبهج ويلهى النفس . أما الحب فهو نعمة لأنه يتصور ويتأمل . أما الأمل فهو الأريج الفواح الذى يعطر مسارب كل مكان . وإذا كنت أعتقد أن الموت هو خير هذه الأشياء ، فلأنه يفاجىء الانسان المسترسل فى أوهامه ، لا يقتل هذه الأوهام إلا بقضائه على الحياة ؛ لماذا تصلح حياتنا ؟ هل تصلح إلا للازدراء ؟

— ٥ —

ومن الغريب أن ترى ليوپاردى الكاتب يناقض ليوپاردى الشاعر ، فرسائله لا تكاد تخلو من ذكر الله وهو فى شعره جاحد لوجوده ، يقول فى إحدى رسائله « والأجل الذى كتبه الله لى لما يحن ! ولكننى أرجو من الآلام التى أنهكتنى أن تسوقنى إلى الراحة الخالدة التى أطلبها كل يوم ، هرباً من العذاب الذى أضوانى . »

كان ليوپاردى يجحد وجود العناية الآلهية ، والآن يثبتها لأنه يحس وجودها بالضرورة التى تفرض وجودها . يقول الشقى « إذا كان هنالك كائن فى السماء أو على الأرض أو فى قاع البحار ، فلا أقول عنه إنه رحيم ، ولكنه شاهد على عذابى »

كان ليوپاردى يحتقر البراعة ، وينسى الأسماء الخالدة اللامعة وها هو الآن فى ذات مساء ، فى مدينة (رومة) يرقى ربوة (سانت أونوفريو) حيث قضى (لوتاس) نحبه ، ينحنى إزاء قبر هذا الشاعر الكبير ، ويستوى تحت ظلال الشجرة التى ألف الشاعر أن يفىء إليها متأملاً فى غروب الشمس ، هنالك يقول ليوپاردى لا شىء جميل على الأرض ؛ عظمة البراعة التى تعيش وتخلد هى فوق كل عظمة . وكان يقول عن الحب إنه حلم فارغ ، غير خليق به أن يقلق نفساً صافية ، وها هو ذا الآن يجعل من الحب رسول السعادة الحقيقية ، ترسله الآلهة إلى قلوب بنى الانسان . (فهو إذا هبط الأرض تحرى عن أشرف القلوب وأطهرها ، وبث فيها من روحه وعذوبته . حتى ليحس صاحب الحب أن فى قلبه روحاً غريبة تنتبه عن العالم) وهو الكاتب إلى أخيه (بالله أجبنى . . . أنا فى حاجة إلى الحب . . . الحب . . . النار . . . الهيام . . . الحياة) وهو الذى يحدث عن صداقة أنقذته ، وبدلت بؤسه هناء وجعلته يؤمن بأن فى الحياة أفراحاً كان يحسبها مستحيلة .

كان ليوپاردى يساير مذهب الجاحدين وجود المشاعر السامية فى الانسان ، والآن أصبحت هذه الأكاذيب عنده أسمى

* انظر العدد ٥٣ ص ١١٥٠

شيء في أخلاق الانسان ، تدل على شيء هو أعظم من الرداء الترابي ، فيصرف وجهه عن الأرض ليتأمل في عظمة الفضاء الشاسع والعوالم السابحة فيه ، فيرى كل شيء صغيراً حقيراً عند هذه النفس ، فيعرف أن النفس هي أوسع بخاطراتها وتأملاتها من كل عالم ، فتشكو هذا النقص وتحس الفراغ والسأم ؟ أليس هذا بما فيه برهاناً على شرف الطبيعة الانسانية ؟

هذه الشكاة هي المعركة التي تقوم بين القلب والروح ، ولكن هذه المعركة التي تتخذ من صدر (ليوباردي) ميداناً عنيفاً هي معركة دائمة لا انتهاء لها . يحفزها الألم ويسعر ضرامها الشقاء ذلك الألم الذي نحا بالشاعر إلى هذه الوجهة العابسة من فلسفة الشك ، وطبيعي أن تكون هذه الوجهة غيرها فيما لو قيضت المقادير لهذا الشاعر حياة ناعمة وعيشاً رغداً ؛ اذاً لكسبت الحياة متفائلاً جديداً يشدو بمحاسنها ويلهج بالثناء على جمالها ، وسيان عندها شاعر بكى وشاعر شدا !

فلله ما أظلم الفلسفة إذا كان قليل من هناء يبيض وجهها فيبيض العالم ، وقليل من شقاء يسود وجهها فاذا العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض . والحقيقة — وأجدر بالحقيقة أن تكون وراء هناء الانسان ووراء شقائه ، ولكن قل لي من الذي يستطيع أن يتجرد من جميع هذه الظواهر ، ومن ذا الذي يقدر على أن يضمن سلامة عقله إذا جاع بطنه ، وأن يبقى على هنائه إذا غضه ألم أو فر منه أمل

— ٦ —

وهكذا ظل ليوباردي تتشاطر قلبه نوازع مختلفة ، وينحط على جسده الهباء إثر الداء ، يحاول أن يهدىء ثائرتها عنه بتنقله من رومة إلى بولونيا ، ومن بولونيا إلى فلورنسا ، إلى نابولي ، والداء لا يزيد إلا تمكناً منه ، حتى آثر الشاعر الموت لنفسه على أن ينالها بسبب الحاجة ، وقد دفعه ألمه هذا للكتابة إلى والده (...... إن ما زدتنيه لي لا يكفي . . . على أنني أريد ألا أحيا كما يحيا الناس ، ولكن الموت هو أفضل عندي ، ولكن الموت يجب ارتقاب أجله ، فلو كان الأمر بيدي لما طلبت اليك — والله شهيد علي — أن تمنحني شيئاً .)

تعرف في نابولي إلى صديقه (رانيري) ذلك الصديق الذي أخلص له كل الاخلاص ، وظل أميناً له حتى اللحظة التي غادر فيها ليوپاردي الوجود ، وفي نابولي اعتزل الشاعر الناس ، فلا يبصر منهم أحداً ، ولا يسمع عنهم شيئاً ، كأنما عزلته هذه هي عزلة الموت . ينطبق عليه فيها قوله « اصبحت جزعاً يفكر ويقاسي العذاب ، هو لا يزجي حياته إلا في التفكير ، ولا يشغله في عزلته إلا التأمل . إذا رآه الناظر يخطر بين خرائب (بومباي) عند الغروب ، تمثل شبحاً قديماً يزحف بين الخرائب يرثي حظها وحظ نفسه

وجد على قمة جبل تنفث مائعاً نارياً نبتة ضعيفة تحاول أن تنزل فيها جذورها ، فمثل الشاعر نفسه بالنبتة الحقيرة وناجاها قائلاً : [وأنت أيضاً ، ستخضعين لقوة النار ، وستحنين تحت الأثقال ، ولكنك لن تنحني جبانة أمام الظالم ، ولن تلتفتي إلى السماء بكبرياء أهوج]

يطغى على ليوپاردي هذا الشك العنيف ، فينكر الخلود ويعلن قبل موته أن هذه الفلسفة البائسة — كما يدعوها — ليست نتيجة ألمه وشقائه ، ولكن نتيجة اعتقاد وإيمان ، ويؤلف مقطوعة الموت والحب ، معنوناً اياها ببيت للشاعر (لينادر) (هنالك يموت شاباً من تحبه الآلهة)

وإزاء هذا التناقض الذي شاهدناه بين قصائده ورسائله كتب أيضاً (وداعاً ياصديقي العزيز . . انني أحس في نفسي رغبة هائجة لعناقك ، ولكن كيف ؟ وفي أي موطن أستطيع ؟ أخاف جداً ألا يكون هذا بقدر طول حديقة (أسفوريل) . حدثني عن دروسك ، وأحببني دائماً ، وداعاً لك من كل قلبي)

انتشرت الكوليرا في نابولي وكثرت ضحاياها ، فنقله (رانيني) صديقه الحميم إلى (بورتيسي) . وفي الرابع عشر من يونيو عام ١٨٣٩ اخذت الشاعر نوبة اغماء قوية تزايلت لها أعضاؤه ، ولم يكن عند الشاعر إلا صديقه وأخت صديقه ، كانت تمسح العرق المتصبب من جبين العليل ، وكان (رانيني) يساعده بحركات رياضية على التنفس ، وكل هذا لم يغنه شيئاً . فعاد بعد

[البقية على صفحة ١٢٣٧]



تطور فكرة النظام الشمسى

عند اليونان

بقـــلم فرح رفيدى

. . . هذه أول مقالة من عدة مقالات فى تطور فكرة النظام الشمسى عند اليونان وعند الكنيسة فى العصور الوسطى ، وعنـد العرب ، ثم الانقلاب الأخير الذى حدث على عهد كوبرنيكس وجاليليو .

وقفت فى مساء ليلة من ليالى الصيف متأملاً انحدار الشمس الى المغرب انحـداراً بطيئاً ، وكان الشفق بألوانه ممتعاً للأنظار ، محركاً للنفوس . لكنى لم أبال بجمال المنظر أكثر من أن الشمس ستتوارى عنى وراء الجبال بعد بضع دقائق

وأجهدت نفسى فى تلك الآونة لأرى الشمس واقفــة وأشعر نفسى متحركاً مع الأرض ، لكن جهدى ذهب عبثاً ، إذ مازلت أرى الشمس تهوى مسرعة لتختفى عن ناظرى ، والشفق يزداد احمراراً كلما دنت من المغيب . فبالرغم عنى لم أرها إلا متحركة وبالرغم عن كل شىء لم نلاحظ الشمس تقف ثانية واحدة فى مجراها اليومى ، فهى أبداً فى كل يوم نشاهدها صباحاً فى المشرق ، ترتقى رويداً فى هذه القبة الزرقاء ، الى أن تصل أوجها فى منتصف النهار ، ثم تأخذ فى الانحدار والاختفاء وراء الأفق الغربى ، فتضىء هناك ما كان مظلماً ، وتبقى خلفها الظلمة ترقبها النجوم بأعين ساحرة متلألئة .

وقد نشاهد القمر أحياناً يظهر بعد اختفاء الشمس ، فيسلك مسلكها ، ويتبع خطاها واحدة واحدة ، الى أن يتدرج فى انحداره وراء الجبال أو وراء البحار . ففى أثناء هذه الدورة العظيمة من الشمس ، أو هذا الانقلاب الخطير المتعاقب من ليل ونهار ، من يفكر أو يشعر أنه دائر حول محور الأرض بسرعة تقرب من الألف ميل فى الساعة ، وأنه فى اثنتى عشرة ساعة ينقلب أسفله الى أعلاه وأعلاه الى أسفله ؟ وكيف يكون هذا الدوران السريع ولا نرى البنايات تنهدم ، والأشجار تتساقط ، والمياه تتطاير فى الفضاء والناس تقع وتقوم ؟ . إن هذا الدوران حركة عنيفة قادرة على تفتيت الأرض وهدمها . فبما أن كل هذه الأشياء لا تحدث ، فالأرض إذن ثابتة لا تتحرك فى وسط هذه القبة المستديرة . نعم ذلك ما اعتقده اليونان الاقدمون وجاهر به بطليموس فى القرن الثانى بعد الميلاد . فثبات الأرض فى مركزها كان النقطة الاساسية فى النظام اليونانى القديم .

لنقف الآن قليلاً ، ولنتصور أنفسنا فى يوم ٢٢ يوليو عند ما يكون النهار على أطوله ، والشمس مشرقة تماماً على الخط المار بين الغرب والشرق منا . لندع الشمس تدر حول الأرض كعادتها ونحن نرقبها كل يوم من مسقطها ونعين موضعها بين الجبال أو ان شئنا بين النجوم ، فبعد أيام نرى أن الخط المار بنا وبها قد بدأ فى الانحراف قليلاً عن خط الشرق والغرب ، ولا يزال الخط فى الانحراف ولا تزال الشمس متنقلة بين النجوم الى أن يأتى الخريف بعد الصيف الحار ، ويقترب الشتاء ببرده القارس ، ويأتى يوم ٢٢ ديسمبر حينما يكون النهار على أقصره ، فيبلغ الخط منتهى انحرافه ، ويبدأ بالرجوع الى مكانه الأول . ثم لحق الربيع الشتاء ، وما كاد يطرب بنضارته وجماله الشعراء حتى يباغته الصيف بحره وجفافه ، ويأتى يوم ٢٢ يوليو حيث يرجع الخط لمكانه الأول . وذلك بعد أن أتمت الشمس مسيرها بين النجوم . لأن ذلك كان ما اعتقده ارسطو وبطليموس فى النظام الكونى وعللاه بقولهما : إنه لو كانت حركة الشمس هذه ظاهرية فقط ومسببة عن حركة فى الأرض فى جهة معكوسة ، لكننا رأينا النجوم أيضاً تسير بهذه الحركة الظاهرية مع الشمس ، وبما أننا لا نلاحظ أى انتقال أو تغيير فى النجوم فالأرض إذن ثابتة لا محالة ، وأى تغيير قد يحدث فى بعض هذه اللوامع فى الليل فانه راجع الى

الأجرام نفسها لا الى حركة الأرض أو دورانها . وهذا التعبير الذي أذاعه المعلم الأول ارسطو تعبير منطقي يسلم به العقل ، ولذلك ظل معتقداً راسخاً في قلوب الناس قروناً عديدة

أول ما يلاحظه الناظر في الليل الى السماء هو الاختلاف البيّن في لمعان النجوم ، فاستدل اليونان من ذلك على أن النجوم الأشد لمعاناً هي أقرب الى الأرض من غيرها ، وقد وجدوا أن من غريب أمر بعض هذه النجوم ، أنها تنتقل من مكان الى آخر ، لذلك سميت بالنجوم السيارة Blanets ، فبثوا العيون وراءها ترصدها أينما حلت ، واعتقد أرسطو أن هذه النجوم الســـيارة إن هي إلا أجسام طبيعيـة تدفعها الى الحركة أرواح حالة فيها . وبما أن الأرواح تسير بقوة الآلـه الأكبر ، والكاهن هو الواسطة بين الله والانسان ، فالكاهن إذن عالم بأمر هذه النجوم . فادعى الكاهن هذه المعرفة فأخذ يدرس حركاتها ، فلما لم يعلم بسر حركتها ظن أن الروح تحركها ، ولما رآها تسير بنظام لا تدركه قال هي تسير بلا نظام ، وأن بعضها يسلك على حسب حظ الواحد وسعده ، فمنها ما يتحرك لخير ومنها يتحرك لشر . ومن ذلك انتشر الاعتقاد بمعرفة حظوظ الناس من معرفة حركات النجوم ، فصار العالم بالأرواح عالماً بالنجوم ومسالكها ، وأصبح صاحب الدين في الدنيا وهو صاحب العلم أيضاً ، ولم يمكن عندذلك التمييز بين الاثنين .

عرف اليونان من الكواكب خمسة غير الشمس والقمر . عرفوا : (١) الزهرة ، وهي الكوكب المتألق في السماء عنـد الصباح أو عنـد المساء ، وقد دعاها الرومان إلـهة الحب لجمالها وافتتانهم بها ؛ وليس من الغريب أن يقرن نابليون حظه بها ، إذ قال لأحد جنوده ذات ليلة : « انظر ! هذه نجمتي ، ما دامت متألقة فلا شك في نجاحي » .

(٢) عطارد ، رسول الآلهة ، يرى أحياناً في الشفق نقط بعد مغيب الشمس ، يلبث قليلاً ثم يتبعها ، وهو كالزهرة يرى أيضاً في الصباح .

(٣) المريخ ، وتراه أحياناً متألقاً ، وأخرى ضعيف الاشعاع ، أحمر اللون ، وهو إلـه الحرب عند الاغريق .

(٤) المشتري ، إلـه الآلهة ، وهو كزوس عند اليونان ، وثاني الكواكب بشدة لمعانه ، فلا عجب إن عرفه الناس من زمن قديم .

(٥) زحل ، المعروف ببطء حركتـه بين النجوم الثوابت ، عرفه الأقدمون كأبعد سيار عن الأرض .

ليس لنا أن نبين الأبحاث التي قام بها علماء اليونان في علمي الهيئة والنجوم ، ولـكن المهم الآن أن نعرف بعض من قاموا بتأسيس فكرة النظام الشمسي التي عرفت بالنظام البطليموسي ، والتي ما كانت إلا تعديلاً لما اعتقده أرسطو العظيم في هـــذا الكون العجيب .

في سنة ٥٣٢ ق . م قام فيثاغورس Pithagoras وأنشأ أخوية دينية كان لها اعتقادها الخاص في كروية الأرض ، وكان هو أول من فرض حركة الأرض حول الشمس ، لـكن أرسطو رفض هذا الفرض لعـدم ظهور دواع تؤيده ، وكان أيضاً هبارخس Hipparchus أول من أظهر استدارة فلك الشمس والقمر حول الأرض .

وفي سنة ٣٧٠ ق . م ، أظهر يودكسس فكرة الكرات المتراكزة ، فبنى على هذه الفكرة من بعـــده أرسطو ورؤساء الكنيسة في العصور الوسطى .

وفي القرن الرابع قبل الميلاد قام المعلم الأول أرسطو ، الذي تلقى على أفلاطون فيلسوف ذلك العصر ، وجمع ورتب التعاليم اليونانية بعد أن حللها وناقشها مع تلاميذه ، وقاسها بمقياس العقل والمنطق ، وعزا الحوادث والتغيرات في النجوم الى مسبباتها الظاهرة ، وخلّف للملأ خلاصة التعاليم اليونانية منقحة بفلسفته المنطقية ، فأكبر العالم هذه العظمة فيـــه ، فمال على كتبه ومؤلفاته يدرسها ، فوجدها غاية المنطق ، وسداد الرأي ، وقوة الدليل ، فاقتنع وآمن بها إيماناً ذهب بالشك في صحتها من قلبه

لم يكتف أرسطو بأن جعل الأرض ثابتة ، بل تصور النظام الكوني كله مؤلفاً من كريات مستديرة الشكل في أحجام مختلفة والواحدة في جوف الأخرى ؛ وعلى هذه الكرات جعل الأجرام السماوية تدور حول الأرض .

وقد حسب النجوم الثوابت كلها على أبعاد متساوية من الأرض ، لذلك جعلها على سطح كرة واحدة ، وقد علل اختلاف الأضواء المنبعثة من بعض السيارات باختلاف بعدها عن الأرض . ولما زادت العناية بمراقبة النجوم ، ودقت ملاحظاتهم لها ، تبينوا

اختلافات كثيرة فى حركاتها ، لم يقدروا على تعليلها بكرة واحدة ، فزادوا عليها كرات ، وقالوا إن هذه الحركة الظاهرة ما هى إلا مجموع حركات دائرية على كرات مختلفة ، وزاد أرسطو على هذه الكرات اثنتين وعشرين كُرة ، كانت سبباً فى تعقيد النظام اليونانى بدلاً من تسهيله .

الأسم الأكبر الذى كثيراً مانصادفه فى كتابات اليونان القديمة فى علوم الهيئة وبين مؤلفات العصور الوسطى ، وفى الكتب العربية المنقولة عن اليونانية هو بطليموس (Btolemy) . مؤلف كتاب الماجسطى الذى ترجم الى العربية الحجاج بن يوسف بن مطر سنة ٧٨٦ م . وكان لهذا الكتاب المقام الأول بعد ارسطو لمدة أربعة عشر قرناً .

عاش بطليموس من سنة ١٠٠ الى سنة ١٧٠ ب . م . وكان مولده على أيام الأمبراطور هدريان ، وكان مقيماً طول مدته فى الاسكندرية ، وهو معدود من أشهر رياضيى ذلك العصر . وكتابه الماجسطى يحوى كثيراً من العلوم الرياضية والجغرافية عن أبحاثه فى علمى الهيئة والنجوم . وقد وافق هبارخس فى تراكز الأجرام السماوية ودورانها حول الكرة الأرضية ، ونزع فكرة الكرات فكرة ارسطو ، وأدخل نظام الدوائر الصغيرة (epicycles) وهو النظام الذى عرف باسمه من بعده ، وهو أن الكواكب تدور فى دوائر مراكزها تدور فى دوائر أكبر منها حول الأرض .

بهذه الفكرة تمكن بطليموس من تعليل حركات الكواكب السيارة فى السماء ذهاباً وايابا ، ومن تعليل ثباتها مدة من الزمن عند تغيرها من ذهاب الى اياب وبالعكس . فقد قال إن حركة الذهاب والاياب مسببة عن كون حركة الكوكب فى جهة عمودية لاتجاه خط النظر (line of sight) . وثبات الكوكب مسبب عن كون حركة الكوكب فى اتجاه واحد مع خط النظر ، وذلك كما يلاحظ فى حركة اقتراب أو ابتعاد الكوكب عن الأرض ، إذ يعجز الانسان عن ادراك الحركة فيظن صاحبها ثابتاً .

وأما انحراف السيارات عن دائرة البروج (ecliptic) أو فلك الشمس فهو ناتج عن ميلان سطوح الدوائر الصغيرة عن سطح الدائرة الكبيرة .

وهذا النظام الكونى نظام بطليموس وهبارخس ، وان كان مرتكزاً على جعل الأرض ثابتة بالنسبة الى عوالم النجوم حولها فان الأرصادات الدقيقة للحركات الظاهرية لم تذهب قط سدى ، وهى من الأهمية بمكان فى تقدم علم الهيئة الحديث . والحقيقة فى فكرة النظام البطليموسى أنها لم تبتدىء مع بطليموس ، فأول من عرض هذه الفكرة كان ابولونيوس (Apollonius) فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فقبلها هبارخس فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ولما أتى بطليموس فى القرن الثانى بعد الميلاد ، توسع فيها وزاد عليها وشرحها شرحاً وافياً فى كتابه الماجسطى ، وظلت أساس معتقد الناس والكنيسة فى النظام الكونى أربعة عشر قرناً .

فرج رفيدى

ليو پاردى

[بقية المنشور على صفحة ١٢٣٤]

لأى إلى وعيه واتسعت عيناه ، ونظر إلى صديقه نظرة عميقة ، وقال له بلهجة يمازجها التنهد : (لن أراك أبداً) ثم انقطعت أنفاسه وهمد قلبه الهمدة الأخيرة

ووورى جثمانه فى الكنيسة الصغيرة (سانت فينال) حيث يرقد غير بعيد عنه رفات الشاعر الأكبر (فرجيل) . فيا لله من هذا الحظ الذى جمع بين لحدى هذين الشاعرين العظيمين ، وهما على قرب فى الوطن والفكر والشعر . قد انشق الاثنان من نبعة واحدة ، وانطلقا ليرقدا فى رقعة واحدة . كلاهما تألم ، وكلاهما لقى حتفه فى ميعة الصبا ، وكلاهما أيس من العالم الثانى ، وود أن ينتقم من القادر ويثأر لشقائه فقالا : « هى القادر ! ما أوجدت الانسان ليحيا ، وانما أوجدته ليموت »

وهذه الفكرة التى تجعل الموت غاية الوجود قد رددها ليوپاردى فى مقطوعته (انشودة الديك)

(يخيل الىَّ أن المآل الوحيد لكل موجود هو الموت ، لن يموت شىء لم يوجد ، ولن يولد شىء من العدم .
يتجه كل مخلوق بأعماله وآماله إلى السعادة .
فيسعى ثم يقف مجهوداً دون أن يدركها .
ثم يجد أن جميع أعماله — لاتؤول وا أسفاه ! إلا إلى مشيئة الطبيعة المكتوبة على كل موجود — وهى الموت)

وكأنه يقول ، وهو التألم ، خلقنا لنتألم ، ثم لنفنى ؟

(بيروت) خليل هنداوى

القصص

الهيكل العظمى

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور

في الغرفة المجاورة لحجرة نومنا — نحن الأطفال — كان هناك هيكل عظمى معلقاً ، يجلجل في الليل حين يداعب النسيم عظامه ، أما في النهار فقد كنا نحركه بأنفسنا ، وكان يدرس لنا علم العظام طالب بمدرسة طب كامبل ، ذلك لأن من حولنا وطدوا العزم على أن يجعلوا منا أساتذة مبرزين في كل المواد ، ومهما كان نجاحنا فلم نكن نخبر به أحداً ممن يعرفنا ، كما كنا نخفي ذلك عمن لا يمت إلينا بصلة .

مرت سنون اختفى في أثنائها الهيكل من الحجرة ، كما محيت بقايا علم الأستيولوجيا من ذاكرتنا ، ولم تترك وراءها أثرا ، وفي يوم من الأيام كان منزلنا في هرج وعرج بالضيوف ، وقدر لي أن أقضى الليلة في تلك الحجرة القديمة ، وعبثاً كنت أحاول إغراء الكرى ليطرق جفوني ، وبينا أنا أتقلب في مضجعي سمعت كل ساعات الليل تدق واحدة إثر أخرى في المعبد المجاور لي ، وبعد عدة دقائق انطفأ المصباح الموضوع في ركن الحجرة ، بعد أن ظل شعاعه الخفاق يضطرب ، فأسلمني الظلام إلى تذكر بعض أحباء فقدناهم ، وتأملت خفوت الشعاع في محيط من الديجور القاتم ، ومن ثم قارنت بينه وبين خروج الروح من أجسامنا البشرية الضئيلة وهالني الشبه العظيم بينهما .

وقد جعلني تداعي الأفكار أفكر في الهيكل العظمى ، وبينا أنا أرسم في خيالي صورة للجسد البشرى الذى كان يكسو هاتيك العظام النخرة ، خيل إلى أنى أسمع وقع أقدام تجوس خلال الحجرة وحول الفراش وتتلمس الجدران ، وأحسست أنى أسمع أنفاس المتجول المضطربة ، وكأنما أعياه البحث فمضى يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وخدعت نفسي بأن ما أسمع ليس إلا من قبيل الوهم ، وما صوره لي إلا الأرق الطويل ، وتشتت العقل ، ومحاكاة اضطراب أعصابي حاكى لوقع الأقدام ؛ ومع ذلك فقد عرتني قشعريرة سرت في جسدي ، ولكى أتخلص من هذا الوهم هتفت صارخاً : « من هنا ؟ » وإذا بالسارى يقف حذاء فراشي ويقول : « إنه أنا ، لقد جئت أفتش عن هيكلى الذى بارحته » . فرأيت من الجبن أن أتخاذل أمام مخلوق صوره وهمى ، وجسمه خيالى ؛ فأمسكت جيداً بالوسادة وقلت : إنه عمل جميل في هذا الوقت المتأخر من الليل ! ما جدوى هذا الهيكل لك الآن ؟ وإذا بالصوت يصدر من الكلة نفسها ويقول : يا له من سؤال عجيب ! إن في هذا الهيكل عظاماً كانت سياجاً يقي قلبي الفتى الذى لم يتجاوز السادسة والعشرين ، أفلا يحق لى أن أراه مرة أخرى ؟ . فقلت له : « لا شك في ذلك ، إنها رغبة سامية محترمة ، فلتبحث عنه ما شئت ، ودعني أنعم بالكرى قليلا ! »

فقال الصوت : « أظنك هنا منفرداً » ، حسن ، إنى لأغتنم هذه النهزة لأجلس برهة معك ، نتجاذب فيها الحديث ، وتلك سجيتي ، فقديماً كنت أجلس إلى الرجال نتحادث ، ولكن في الخمسة والثلاثين عاماً الأخيرة ، أبدلت ذلك بأنيني مع الرياح الذاوية عند قبور الأموات ، وها إذا أتكلم مع فرد من بنى البشر لأول مرة منذ مماتى » .

وأحسست أن شخصاً يجلس قرب كلة سريرى ، فأذعنت للواقع وأجبت : « إن هذا في الحقيقة لشيء جميل جدا ، وهيا بنا نتكلم في شيء طريف » فقال الصوت : « إن أجمل شيء أتذكره هو تاريخ حياتى ، فدعنى أقصه عليك »

وحينئذ دقت الساعة دقتين فانطلق محدثاً وقال :

« عند ما كنت في ميعة العمر في دنياكم ، كنت أخشى شيئاً واحداً كما أخشى الموت ، ألا وهو زوجى ، وكانت احساساتى أشبه باحساسات سمكة علقت بالشص ، إذ كنت أحسبني هذه السمكة ، وقد نزعت من ذلك الهدوء الذى شعرت به في منزل الصبا . لقد مات زوجى عقب زواجى بشهرين ولم يكن حزنهم على وفاته أكثر من حزنهم على حظى التعس ، أما أبوه فقد نظر إلى وجهى ذات يوم وقال لزوجه : ألا ترين في عينها نذير الشؤم ؟

ثم قال الصوت: «أمنصت أنت لقصتي: آمل أن تكون قد أعجبتك!»

فقلت: «لقد أخذت على جماع مشاعري وإن مبدأها ليشوق المرء إلى نهايتها.»

«ثم عاد الصوت يقول: دعني أتمها، لقد عدت إلى منزل والدي، والسرور يملأ نفسي، واستنكر الناس هذا مني، ولكني كنت أعرف جيداً أني على قسط وفير من الجمال، ألا ترى ذلك؟»

«فقلت: لاشك في ذلك، ولكن يجب أن تتذكري أني لم أرك أبداً.»

فصاح الصوت: «عجباً لك! ألم ترني مطلقاً! إذن فما هذا الهيكل العظمي، ها ها، لا بأس عليك، لقد كنت أمزح معك وهل في مقدوري أن أعرفك كيف كان في هاتين الحفرتين الغائرتين عينان يشع منهما السحر، وألا تشابه بين الشفتين الياقوتيتين اللتين كانتا تفتران عن ابتسامة فتانة وبين تلك الأسنان القائمة التي تعودت أن تراها، وإني كلما حاولت أن أصور لك ما كنت عليه من جمال عبقري، وحسن وبهاء ورقة، ابتسمت طرباً كما أشعر بشيء من الحزن والغضب، وإن أشهر أطباء عصري لم يكن يخطر على بالهم أن عظامي ستكون يوماً وسيلة لتفهيم دروس الاستولوجي، أتعرف طبيباً شاباً — كما أعرف — قارن بيني وبين زهرة (الشامباك) وما دار بخلده أن هذا الهيكل المحطم لفتاة كانت هي زهرة الجمال، وكلما سرت شعرت بأني قطعة من الماس المتلألىء ألقيت في جوف الثرى، وأن كل حركة مني تثير عاصفة من الاعجاب، وكم أمضيت الساعات الطوال أتأمل هاتين اليدين اللتين تمناهما كثير من الشبان المتيمين، ولكن هذا الهيكل الجامد، لايستطيع أن يحرك شعورك نحوي، ولست أملك وسيلة أدحض بها هذا الافتراء الذي يوحيه إليك هيكلي، ولذلك أشعر بمقت للرجال، وهأنذا أطرد الكرى عن مقلتيك بوصفي لك شفتي الورديتين.»

فصحت قائلاً: «أقسم لك بجسدك، أنك لو كنت محتفظة به حتى الآن لما كان للاستولوجي أثر في ذاكرتي، ولكان الذي يملؤها هو صورة الحب القوي العاصف يلوح لي في غياهب الليل، ولست أذكر لك أكثر من ذلك.»

فتابع الصوت كلامه قائلاً: «لم تكن لي فتاة شقيقة، أما أخي الوحيد فقد وطد العزم على ألا يتزوج، وكنت أقضي الوقت منفردة في الحديقة أتفيأ ظلال الأشجار المهدلة، وأسبح في بحر الخيال. فأتصور العالم كله يعبد جمالي، وأن النجوم الزهر تسكر من حسن طلعتي، وأن الرياح تدوي إعجاباً بي، والعشب المخضر يضطرب ثملاً حين أخطر فوقه، وكنت أحسب شباب العالم كلهم كالأعشاب التي أطؤها بقدمي، ولكن قلبي لأمر ما كان ينطوي على شيء من الألم، وكان لأخي صديق اسمه (شيكار) أتم دراسته بكلية الطب وأصبح طبيب العائلة، وكنت أرقبه عن كثب من خلال الأستار، أما أخي فقد كان رجلاً شاذاً اعتزل الناس، وأوى إلى ركن مظلم، وإذ كان (شيكار) صديقه الوحيد فقد أبيح لي أن ألقاه، وكنت إذا مضيت إلى الحديقة مساء، تخيلت كل عشبها (شيكارا) آخر. أمنصت أنت إلي؟ فيم تفكر الآن؟»

فقلت: «أفكر فيما لو كنت (شيكارا) هذا!»

فقال الصوت: «تمهل قليلاً، وأنصت للقصة كاملة، في يوم ممطر، أصابتني الحمى، وجاء الطبيب يعودني، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها، وكنت أتكىء على حافة النافذة حتى تصبغ حمرة الشفق المودع وجنتي، وحين جاء الطبيب تأمل في وجهي ملياً فقلدته، وتأملت في نفسي فخيل إلي أن وجهي وردة حمراء، قد ألقيت على وسادة بيضاء، فسأل الطبيب أخي أن يجس النبض، ولم أر طبيباً أجبن منه، حتى أن أصابعه كانت تضطرب ولا تستقر حين أقبل يتلمس معصمي، وفي النهاية سجل حرارة الحمى التي انتابتني، أما أنا فقد قدرت خفقان قلبه، أعندك شك في ذلك؟»

فقلت: «كلا. كلا، إن خفقات الفؤاد لتحكي قصته!!»

فقال الصوت: «بعد أن أبللت من مرضي المنهك، ألفيت كل أحبابي قد رغبوا عني، وأخيراً أصبح الطبيب يعود مريضاً فحسب، وكنت في هذه الأمسيات أرتدي ثوباً أبيض، وقد تدلت عليه ضفائر شعري المحلاة بزهور الياسمين الأبيض، ومن ثم أتخذ مقعدي المعتاد تحت أفنان الأشجار ومرآتي في يدي، وربما تظن أن رؤية الشخص لصورته وجماله في المرآة تجعله ملولاً. ولكن الواقع غير ذلك، لأني لم أكن أرى نفسي بعيني رأسي، لقد كنت شخصين في جسد واحد، فكنت أنظر لنفسي بعين الطبيب، وشعرت بجنون الحب، ولكن برغم هذا الدلال الذي أسرفت فيه قد كانت هناك آهة حبيسة تتردد في صدري وتئن كما تئن رياح الليل، ولم أكن في ذلك الحين وحيدة، بل كنت حين أسير أتطلع بعين

كثنية إلى أصابع قدمى وأعجب ماذا تكون حالة الطبيب لو أنه يشاهدني الآن ، أما فى الظهيرة ، حين تتوسط ذكاء كبد السماء ، ولا يسمع صوت هنا أو هناك إلا صيحة حدأة لا تلبث أن تتلاشى ، فقد كان يمر خلف سور حديقتنا بائع الصقور ينادى « صقور زجاجية للبيع » وحينذاك أبسط على العشب خرقة بيضاء أجلس عليها وأعتمد رأسى بكفى ، ويدى الأخرى تعبث بالحشائش ، وكنت أتخيل أن هناك من يرقبنى فى مجلسى هذا ويعجب بى ، ويود لو أنه طبع قبلة على أطراف أصابعى الوردية . . ولكن كيف أتم لك قصتى ، وفى استطاعتى أن أسامرك حتى الصباح ولكن ذلك يبغضها لك . . . . إذن دعنى أظل فى قصتى ، أما الطبيب فحين مارس صناعته جيداً استأجر غرفة فى الدور الأرضى بمنزلنا وجعلها عيادة للمرضى ، وكنت أتسلى بسؤالى إياه عن الأدوية والسموم والمقدار الذى يميت من هذا الدواء أو ذاك ، ولكن هذه الأحاديث أخذت طوراً آخر ، فقد جعلتنى أتأمل فى فكرة الموت ، وكان الحب والموت شاغلى تفكيرى وحياتى .

مضى على ذلك ردح من الزمن ، لاحظت فيه على الطبيب تشتت الذاكرة ، وخيل إلى أنه يحتفظ فى صدره بسر يخجل أن يحدثنى عنه ، وفى ذات ليلة جاء مرتدياً كثيراً من الملابس واستعار من كبة أخى ، وهنا ثارت الدهشة فى نفسى ، ومضيت أستفسره عن كل شىء ، وبعد أن تجاذبت معه الحديث سألته : ألك أن تخبرنى يا (دادا) عن وجهة الطبيب هذه الليلة وقد استعار من كبتك ؟ . . . فأجابنى أخى فى صوت أجش « الى الموت » فصحت به « أخبرنى حقيقة أين هو ذاهب » . . فقال فى شىء من الصراحة « مضى ليتزوج » فتعالت ضحكاتى طويلاً وقلت : أحقاً ما تقول ؟

وعرفت حينذاك أن العروس وريثة ثرية ، ستنفح الطبيب مبلغاً كبيراً من المال ، ولكن لماذا كان يخدعنى طيلة الوقت بإخفائه ذلك عنى ، وهل توسلت إليه ألا يتزوج حتى لا يحطم قلبى ؟ ولكن تلك سجية الرجال طبعوا عليها ، فتصيدبهم ضرب من البلاهة ، لقد عرفت فى حياتى كلها رجلاً واحداً ، ولكنه سرعان ما اختفى وتفقدته فلم أجده .

وبعد أن أتم الطبيب عمله وعاد إلينا ، وتهيأ للعمل سألته ضاحكة : لقد أحسنت يا دكتور ، أعزمت على الزواج هذه الليلة ؟ ولم يفقده سرورى ابتسامة حياء فحسب ، بل أثاره ذلك فسألته : « ولم لم توقد الثريات ولم تعزف الموسيقى ؟ »

فأجابنى فى تنهد : « وهل تحسبين فى الزواج سعادة أو لذة ؟ » فانفجرت ضاحكة وقلت : لا ، لا ، لن يكون ذلك ، وهل هناك عرس لم توقد فيه المصابيح ولم تعزف الموسيقى ؟

وظللت أزعج أخى حتى أصدر أمره باحضار جماعة الموسيقى ، وكنت أبتسم طيلة الوقت ، وأتحدث عن العروس وحياتها ، وما سأفعله حين تأتى المنزل . وسألته : خبرنى يا دكتور هل ستظل تجس النبض ؟ ثم انفجرت ضاحكة ؛ وتم عقد الزواج فى ساعة متأخرة من الليل ، وقبل ابتدائه كان أخى والطبيب قد جلسا إلى خوان صغير يشربان كأساً من الخمر ، ولما هتك القمر أسداف الظلام ، سألت الطبيب : « أنسيت عرسك وقد حان الوقت ؟ »

ومضيت إلى صيدليته ألتمس فيها قليلاً من مسحوق وضعته فى كوبته حين كان مشغولاً عنها ؛ وإذ ذاك رفعها الى فمه وتجرعها دفعة واحدة ، ثم صوب إلى نظرة اخترقت شغاف قلبى وقال : الآن سأذهب الى حيث لا عودة لى أو مآب .

ولما صمتت الموسيقى للراحة ، مضيت إلى غرفتى وارتديت ثياب عرسى الحريرية الوشاة بالذهب ، وأخذت جواهرى كلها ووضعت شارة العرس الحمراء على مفرقى ، ومن ثم هيأت فراشى تحت شجرة فى الحديقة .

وكانت ليلة جميلة ناعمة ، ورياح الشمال الهادئة تقبل ما تمر عليه فتحمل الطمأنينة الى القلوب ، وقد فاح فى أرجاء الحديقة عطر الياسمين الشذى ، وبينما الموسيقى آخذة فى الهدوء شيئاً فشيئاً ، كان وجه القمر يلتحف حجب السحاب الغبر القاتم ، وبدأت أغيب عن الدنيا رويداً رويداً ، وأفقد شعورى ، وأغلقت عينى مبتسمة ، وتذكرت مجىء الناس ومشاهدتهم إياى هنا ، ولكن وا أسفاه على الملابس الحريرية المذهبة ؛ وحين استيقظت على صوت لغط حولى ، ألفيت ثلاثة شبان يدرسون علم العظام على هيكلى ، فجاشت فى نفسى الآلام ، وأخذت زهرات الشباب تتفتح عن أكمامها ، وإذا بالأستاذ يشير بعصاه الى عظامى مسمياً إياها بأسمائها العلمية ، ولكن أرى أثراً لهذه الابتسامة الأخيرة ، وهل أعجبتك القصة ؟ فقلت يا لها من قصة رائعة !

وفى هذه اللحظة رنت أول صيحة وقلت : « أأنت هنا ؟ » فلم يجبنى سوى الصدى ، وحينذاك كانت أشعة الصباح قد نفذت الى الحجرة !

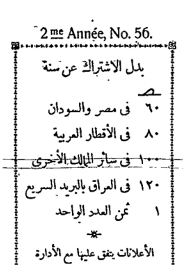
حسن محمد محمود

استدراك

فاتنا أن نذكر أن قصة الطفل المخدوع التى نشرناها فى العدد الماضى ترجمها كاتبها عن الإنجليزية

2me Année, No. 56.

Lundi-30-7-1934


بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة


مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩ بالقاهرة

تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بين السياسة والأدب أيضاً

أشارت « الرسالة » فى عددها الماضى الى كلمة أسف وعتاب مر كتبتها إحدى الزميلات الدمشقيات لمناسبة وفاة شيخ العروبة المغفور له أحمد زكى باشا ، تشكو فيها من طغيان السياسة على الأدب فى مصر ، وتنعى علينا تقصيرنا فى حق العظماء الراحلين من أدبائنا ومفكرينا ، وتلاحظ أن العلامة الراحل لم يشيع الى مقره الأخير بما يجب لعلمه وأدبه وخدماته للاسلام والعرب ، من التجلة والاهتمام ؛ هذا بينما تغمر ذكرى بعض الراحلين من رجال السياسة بمظاهر الاجلال الشامل ، وتفرد لها فى الصحف عشرات الفصول الرنانة ، ويحتفى بها أيما احتفاء

ونعود فنعقب على ما كتبته الرسالة بأن ملاحظة الزميلة الدمشقية جديرة بكثير من التأمل ، وفيها تنعيه علينا كثير من الحق . فنحن نشعر منذ أعوام طويلة بطغيان الاعتبارات السياسية على كثير من مظاهر حياتنا العامة والخاصة ، ونشعر بما تجنيه هذه الاعتبارات على كرامة التفكير والأدب . وقد ظهر هذا الأثر فى مواطن مازالت تثير فى نفوسنا كثيراً من الأسى والألم . فى مثل هذا الوقت منذ عامين ، توفى شاعر مصر الكبير المغفور له

حافظ ابراهيم ، فكان حقاً لعظمته وعبقريته أن يكون جنازه حادثاً قومياً عظيماً تشترك فيه الأمة كلها شعباً وحكومة ؛ ولكن حافظاً شيع الى قبره فى حشد متواضع من الأصدقاء والمعجبين ، وحالت الاعتبارات السياسية دون أن يسبغ على جنازه أية صفة رسمية أو قومية ، ولم يقم لذكراه أى حفل تأبين لائق . وكان لهذا الاغفال المؤلم صداه يومئذ ، فألفت لجنة من بعض الكبراء والأدباء أصدقاء حافظ لتستدرك هذا التقصير المعيب فى حقه ، ولتقوم بما يجب لتخليد ذكراه ؛ ولكن هذه اللجنة لم توفق للأسف الى القيام فى هذا السبيل بعمل يذكر ؛ ولم تبد دوائر الأدب من جانبها أى اهتمام بحافظ وتراثه ، ولا زالت ذكرى الشاعر العظيم نسياً منسيا

وثمة حادث آخر ظهر فيه طغيان هذا التيار السيء ، هو أنه لما أرادت الحكومة أن تكرم ذكرى أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقى بك فى حفل رسمى دعت اليه ممثلى الأقطار العربية الشقيقة ، لم تفكر فى زميله وقرينه حافظ ؛ ولو أنها أرادت أن تكرم ذكرى الشعر للشعر والأدب للأدب ولم تبد مثل هذه التفرقة بين رجلين اشتركا فى حمل زعامة الشعر العربى زهاء ربع قرن ، وساهما فى مجد مصر الأدبى بقسطين متعادلين لكان عملها جديراً بكل تقدير . ولكن ظروف هذا الحفل كلها كانت تنم عن تغلب هذه الاعتبارات الخاصة فى إقامته وفى تنظيمه ؛ وهى ظروف واعتبارات شعر بها ولاحظها وأسف لها جميع اخواننا مندوبى الأقطار العربية الذين شهدوا هذا الاحتفال

***

وبعد فهل نسى أحد قصة مثّال مصر العظيم مختار وماجنته الاعتبارات السياسية على شخصه وفنه أثناء حياته ثم بعد وفاته ؟ لقد قضى مختار معذباً منتسياً مهضوم الحقوق ، لا تحفل الحكومة بأمره ، ولا تذكر أن له فناً وآثاراً رفعت اسم مصر عالياً ؛ وحذت الهيئات العلمية والأدبية حذو الحكومة فى تناسى مختار وفنه وذكراه .

وهذا الروح المعيب يكاد يتغلغل فى جميع الهيئات المصرية ، رسمية ، وغير رسمية . وفى كل يوم ترتكب فى ظله وتحت تأثيره تصرفات يأباها العلم والأدب ، وتأباها اللياقة والذوق السليم . وكثيراً ما تجنى هذه التصرفات على قضية العلم والأدب ، وحقوق العلماء والأدباء ، والأمثلة عديدة معروفة لا يتسع المقام لذكرها ، والتبعة فى ذلك لاتقع على الهيئات الرسمية أو الحزبية وحدها وانما تقع أيضاً على الهيئات العلمية والأدبية نفسها ، وعلى العلماء والأدباء أنفسهم . أما تبعة الهيئات ، والهيئات الرسمية بنوع خاص ، ففى أنها تمزج بين السياسة والأدب عن عمد وتدبير ، وتخضع الأدب والعلم لمؤثرات السياسة وهواها ؛ هذا مع أن التفكير والأدب تراث قومى عام ، بل هما تراث انسانى يرتفع فوق جميع الاعتبارات والمؤثرات الحزبية والمذهبية . ومن واجب الحكومات والهيئات المستنيرة ان تقدر هذا المبدأ وأن تحترمه دائماً . وانما تبعة الهيئات العلمية والأدبية والعلماء والأدباء ، ففى أنهم بجمودهم وتقصيرهم يشجعون على تلك التصرفات المغرضة المعيبة ، وأحياناً يساهمون فى ارتكابها متأثرين بنفس تلك الاعتبارات التى يجب عليهم أن يحاربوها بكل قواهم

***

لقد جنت هذه الاعتبارات والمؤثرات على تفكيرنا وأخلاقنا وأصابت حركتنا الأدبية بكثير من ضروب الفساد والشر ، وكانت هيئاتنا الرسمية والعامة دائماً فى ذلك قدوة لا تحمد . وما زلنا منذ أعوام نعانى هذا الافساد ونستكين له . أفلم يحن الوقت إذن لكى نحارب هذا التيار الخطر ونعمل على اقناع حكومتنا وهيئاتنا العامة بأن الحركة الأدبية يجب أن تحرر من تلك المؤثرات والاعتبارات الخاصة ، وان التراث الفكرى والأدبى يجب أن ينظر اليه لذاته ، وان من حق المفكرين والأدباء أن ينالوا دائما ، أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، من رعاية حكومتهم وأمتهم ما هو جدير بأقدارهم العلمية والأدبية قبل كل شىء ؟ ؟

« ع . ا »

نجـــار ونجار

للأستاذ أحمد أمين

استأجر دكانا أمام منزلنا الأسطى حسن النجار

وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، مهزول الجسم ، أصفر الوجه ، ينتعل نعلا بالية ، ويلبس ثيابا رثة ، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود ، وأعلاه أحمر ، قد دفعه الى الوراء ليظهر « قصته » من شعره ، فرّعها فروعا ورفعها الى السماء لتناطح السحاب

ينظر اليك بعين منتفخة كأنه قريب العهد — دائماً — بنوم طويل ثقيل ، ويمشى متطرحا كأن فى رأسه — دائماً — فضلة خُمار ، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبداً ، أقوى شىء فيه لسانه فى السباب ، وصوته فى النزاع

ليس لفتح دكانه أو اغلاقه موعد ولا لعمله وراحته وقت محدد ، يحلو له أحياناً أن يغلقه فى الصباح ويفتحه فى الظهر اذا بدأ الناس يقيلون ، وأحياناً يسره أن يتركه مغلقاً طول النهار ويفتحه ليلا حيث يبدأ الناس فى النوم ، فيضىء مصباحه ويخرج عدده وأدواته فى الشارع ، ويأخذ فى نجارته ما حلا له ذلك ، فحينا الى الفجر ، وحينا الى الصباح ، نحاول أن نصده عن ذلك وننصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر فى خطته ؛ وأحياناً تنقلب دكانه فى الليل حلبة الكميت ، يتنادمون ويتشاربون ، حتى اذا تمشت الخمر فى مفاصلهم ، ودبت فى عظامهم ، ذهبت بهم كل مذهب ، وأخذت منهم كل مأخذ . فتغنوا أحياناً ، فوقع الغناء فى نفوسهم أحسن موقع ، وصاحوا جميعا بصوت واحد : آه ! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم — وأحياناً يعدلون عن الغناء الى تبادل النكات ، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم ، وتخرق آذان جيرانهم

واذا فتح الدكان نهاراً فمعرض غريب ، لا لجودة المصنوعات ولا دقة المعروضات ، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بانجاز أعمالهم ، والشكوى من تأخير طلباتهم ، ثم يصل الأمر فى أغلب الأحيان الى تدخل البوليس ، وأحياناً يكون ما هو أدهى وأمرّ ، اذ يكون قد سلّم اليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لاصلاحه فلم يجد دولابه ولا كرسيه ، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه

وهكذا أصبح شارعنا بمحمد الله معرضا فى النهار للسباب والمشاكل والخصومات والبوليس ، ومنتدى جميلا ليلا لأهل السماح الملاح ، الى الصباح

وأخيراً عدت من عملى يوما فرأيت الزحام شديداً على دكان الأسطى حسن ، واذا جلبة وضوضاء ، وصياح يملأ الآذان ؛ واذا المنادى ينادى لبيع عدد النجارة وأدواتها :

منشار فى حالة جيدة !

عشرة قروش — أحد عشر — اثنا عشر

ألاوونا — الادو — ألاتريه

وهكذا حتى تم بيع كل مافى الدكان وفاء لكرائها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن

وكان شعورى إذ ذاك مزيجا من غبطة وألم ، وحزن وفرح ، فقد آلمتنى خاتمته ، وأفرحنى ما منيت به نفسى بعد ذلك من نوم هادئ سعيد

ودعوت ربى جاهداً ألا يرغب فى الدكان مستأجر بعدُ ، فان كان ولابد فكواء أو عطار ، لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس ، وقصرت شكواى على الله بعد أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف ، وليس له من الزمن ما يلفته لهذه الصغائر

ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتى — وكأن الدكان وقف على سكنى النجارين — فقد سكنها هذه المرة أيضا نجار ، ولكنه من صنف آخر — هو نجار رومى ، لم أشعر بسكناه إلا بعد شهر ، لأنه لم يكن فى عمله شئ غير عادى ، فهو يفتح دكانه وقت العمل ، ويغلقها عند الغروب ، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته فى أصوات البائعين وحركات المارين وأصوات السيارات

دعوته يوما لاصلاح دولاب ، فاذا شاب يشترك مع الأسطى حسن فى سنه ، ويختلف عنه فى كل شىء آخر ، جميل الهندام وان

لم يكن ثمينه ، صفف شعره فى أناقة ولمان بينا اعتنى الأسطى حسن «بقصته» فقط — عمل عمله فى هدوء واتقان ، وكأنه يحترم نفسه ويحترم عمله ، ويقدر نوع معيشته وما يلزم لها ، فطلب ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضيا

له فى جوارنا ستة أشهر أو تزيد لم أسمع صوته ، ولم أسمع شاكياً من تأخر موعد أو تصرف سيء . ولم يقلق راحتى كما أقلقها مَن كان قبله ، فهو وإن لم يكن كواء أو عطاراً كالذى رجوت فليس شراً منهما ، وتبين بعدُ أن الأمر ليس نوع الصناعة ، وإنما هو نوع الصانع

* * *

ونزلت بيتاً فى ضاحيـة من ضواحى الاسكندرية ، فرأيت (ڤيلا) جميلة على شاطئ البحر ، لا يسكن مثلها — عادة — إلا من ورمت جيوبهم ، وانتفخت محافظهم ، راديو ، وبيانو ، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش ؛ ولكن لفت نظرى رجل يلبس قباء ، ويحزم وسطه بحزام ، وعليـه جاكتة بسيطة نظيفة ، قد أرخى لحيته ، ودفع طربوشه الى وراء ، يحمل أقشة على كتفه يكاد ينوء بحملها ، وهو من الصنف اليهودى الذى تراه يجول فى الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و (الزفير) و (الباتستا) . حيرنى أمر هذه (الڤيلا) بجمالها ونظافتها ، وأمر هذا الرجل ، يخرج صباحاً يحمل سلعته على كتفـه وقد سمنت ، ويعود مساء وسلعته على كتفه وقد هزلت ؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة فى البيت ، أم قريب فقير لأصحابه عطفوا عليه وآووه واحتملوا منه أن يعيش بينهم وينزل فى مسكنهم ؟ — وفى الحق كان هذا لغزاً شغلنى شرحه ، وأعيانى حله ؛ ثم هدتنى المصادفة البحتة الى اكتشاف الأمر وافتضاح السر : هو ربُّ البيت ! وهو عميد الأسرة ، وليس فيها إلا زوجه وأولاده ، ولكن كلهم يعمل ، وكلهم يكسب : هذه خياطة ، وإحدى بناتها معلمة بيانو ، وهذا ابنه كهربائى ، وهذا الآخر يعمل فى مصلحة التلغراف ، وكل كاسب يعطى ما كسب لأبيـه ، ويجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط ، ثم هم جميعاً يعلمون كيف يعيشون ، وكيف ينعمون بالعيش بأقل مصرف ، ويعلمون ما ينفقون وما يدخرون .

قارنت بين هذا الرجل ورجل مصرى آخر كان يجول أمام بيتنا أيضاً ، يحمل سلعة كسلعة اليهودى . وينادى على (حرير المحلة) ، وتصورته وبؤسه ، وتصورت أسرته وبؤسها ، وكيف يتحد العملان ، وتتباين المعيشتان

* * *

ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين ، والمتعلمين العاطلين ، ونسمع من يرجع العلة الى تفشى الأمية حيناً ، والى نوع الدراسة حينا ، والى غير ذلك من أسباب ، وليس فى نظرى سبب أهم من نقص الأخلاق ؛ ولست أعنى أخلاق الكتب ، ولكن أعنى أخلاق العمل ، من معرفة طرق الكسب ، وإجادة العمل ، وحسن العرض ، وعدم الأنفـة من مزاولة الحرفة مهما حقرت ، وضبط الدخل والخرج ، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة .

أحمد أمين

القبلة الأولى .. !

هى البريد الذى حمل عنى رسالة حبك ، والاخلاص لك ، فأداها فى أمانة وطهر . .

هى الوحى الذى هبط بالألفة ، وارتفع بالكلفة . .

هى الرسول الذى بلّغك ذوب عاطفتى فى صدق وفطانة . .

هى طابع الوفاء ختمتُ به على ثغرك الزاهى الجميل . .

هى اعتراف بالمحبة أبرقتُ به الى قلبك من أخصر طريق . .

هى تذكار الصفاء سجّلتُه على لطف شفتيك . .

هى برهان الولاء استخلصتُه من سحر عينيك . .

هى التصريح الصامت لما يكنه القلب من لوعة وهيام . .

هى الضغطة الرفيقة التى تذكى فى النفس الحب والغرام . .

هى السلسبيل الصافى الذى يندّى لهاة المدنف الولهان . .

هى النسمة الوادعة اللينة التى تطيف بالنفوس فتنتعش . .

هى الأرج الذاكى الذى تمتلىء به الصدور فتنشرح . .

هى الرحيق المختوم ، والوردة النضرة ، والزهرة المتفتحة . .

هى الجمال كله . يعلن عن نفسه فى خفوت وهمس تزيدانه روعة ورهبة . ويعلنانه إجلالا وهيبة . . ؟

كمال الدين حسين
مدرس

أحـــــلام في الشارع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد ، ويلتحفان جوًّا رخامياً في برده وصلابته على جسميهما .

الطفل مُتكبكِبٌ في ثوبه كأنه جسم قُطِّع ورُكمت أعضاؤه بعضها على بعض ، وسُجِّيتْ بثوب ورُمِىَ الرأس من فوقها فمال على خده .

والفتاة كأنها من الهزال رسم مُخطَّط لامرأة ، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه . كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة : أنها صارت قَشًّا . . .

نائمة في صورة ميّتة ، أو كميتة في صورة نائمة ؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها وبقى وجه أخيها في الظل ؛ كأن في السماء ملكاً وجَّه المصباح اليها وحدها إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامة همٍّ ، وأن في وجهها هي كلَّ همها وهم أخيها .

من أجل أنها أنثى قد خُلقت لتلد ، خُلق لها قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها .

من أجل أنها أعدت للأمومة ، تتألم دائماً في الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدم .

من أجل أنها هي التي تزيد الوجود ، يزيد هذا الوجودُ دائماً في أحزانها .

وإذا كانت بطبيعتها تقاسي الألم لا يُطاق حين تلد فرحَها ، فكيف بها في الحزن . . . !

* * *

وكان رأس الطفل الى صدر أخته ، وقد نام مطمئناً الى هذا الوجود النسوىّ الذى لا بدّ منه لكل طفل مثله مادام الطفل إذا خرج من بطن أمه خرج الى الدنيا والى صدرها معاً .

ونامت هي ويدها مرسلة على أخيها كيد الأم على طفلها .

يا إلهي ! نامت ويدها مستيقظة !

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثال للانسانية التي شقيت بالسعداء فعوّضها الله من رحمته ألا تجد شقياً مثلها إلا تضاعفت سعادتها به ؟

تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الحبيبين في الجسم الآخر فيجعل له وجوداً فوق الدنيا ، لا تصل الدنيا اليه بفقرها وغناها ، ولا سعادتها وشقائها ، لأنه وجود الحب لا وجود العمر ؛ وجودٌ سحرى ليس فيه معنى للكلمات فلا فرق بين المال والتراب ، والأمير والصعلوك ؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم ، وإذ المعنى ليس في أشياء المادة ولكن في أشياء الارادة .

وهل تحيا الألفاظ مع الموت ، فيكون بعــده للمال معنى وللتراب معنى ؟ . . . هي كذلك في الحب الذى يفعل شبيهاً بما يفعله الموت في نقله الحياة الى عالم آخر ، بَيْدَ أن أحد العالمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

* * *

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد خفَّ ثقل الدنيا على قلبه .

لم يبال أن ينبذه العالم كله ، مادام يجد في أخته عالم قلبه الصغير .

وكأنه فرخ من فراخ الطير في عُشّه المعلّق ، وقد جمع لحمه الغضَّ الأحمر تحت جناح أمه ، فأحسَّ أهنأ السعادة حين ضيّق في نفسه الكونَ العظيم وجعله وجوداً من الريش . .

وكذلك يسعد كل من يملك قوة تغيير الحقائق وتبـديلها ، وفي هذا تفعل الطفولة في نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزاتُ الفلسفة العليا في جملة أعمار الفلاسفة .

وما صنع الذين جُنّوا بالذهب ، ولا الذين فُتنوا بالسلطة ، ولا الذين هلكوا بالحب ، ولا الذين تحطموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتعطيهم في الذهب والسلطة والحب والشهوات ما تَوّلته هذا الطفلَ المسكين النائم في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب روحه الأرضي .

ألاَ إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشترى الطريقة الهنيئة التي ينبض بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل .

* * *

وقفت أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل ، وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة ، فان الله مع المنكسرة قلوبُهم ، ولعلي أن أتعرض لنفحة من نفحاتها ، ولعل ملكاً كريماً يقول : وهذا بائس آخر . فيرفُّني بجناحه رفّةً ما أحوج نفسي اليها ، تجد بها في الأرض لمسة من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر .

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين أسود كالحاً، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه الى الصبح، ثم يفتح له لينطلق معمِّراً، أى مخرِّبا . . . أو هو جسم جبار كفر بالله وبالانسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فسخه الله بناءً، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره.

يا عجبا! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطوى والهم، ثم لا يكون وسادها إلا عتبة البنك! تُرى مَن الذى لبن (البنك) بهذه اللبنة الحية؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك خزائن حديدية يملؤها الذهب، ولكنه خزائن قلبية يملؤها الحب .. ؟

***

وقفت أرى الطفلين رؤية فكر ورؤية شعر معاً، فاذا الفكر والشعر يمتدان بيني وبين أحلامهما، ودخلت فى نفسين مضهما الهم واشتد عليهما الفقر، وما من شىء فى الحياة إلا كادَّها وعاسرها؛ وتمت رؤيتي الشعرية . . .

قال الطفل لأخته: هلمِّى فلنذهب من هنا فنقف على باب (السينما) تتفرج مما بنا، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم.

أنظرى هاهم أولاء يُرَى عليهم أثر الغنى، وتُعرف فيهم روح النعمة؛ وقد شبعوا . . . إنهم يلبسون لحماً على عظامهم؛ أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء؛ إنهم أولاد أهليهم، أما نحن فأولاد الأرض؛ هم أطفال، ونحن حطب إنسانى يابس؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون؛ أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت، إلى أن نموت؛ لهم عيش وموت، ولنا الموت مكرراً.

ويلي على ذلك الطفل الأبيض السمين، الحسن البزة، الأنيق الشارة؛ ذاك الذى يأكل الحلوى أكل لصّ قد سرق طعاماً فأسرع يحدره فى جوفه ما سرق؛ هو الغنى الذى جعله يبتلع بهذه الشراهة كأنما يشرب ما يأكل، أو له حلق غير الحلوق؛ ونحن — إذا أكلنا — نغص بالخبز لا أُدْمَ معه، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام وأضنياه عفناً أو فاسداً لا يسوغ فى الحلق، فاذا تخفّفنا فليس إلا ما تقمَّم من قشور الأرض ومن نُحاتات الخبز كالدواب والكلاب؛ وإن لم نجد ومنَّينا أنفسنا بالعيدم، وقفنا نشتهى طعام قوم فى دار أو نزل فتراهم يأكلون فيأكل معهم بأعيننا؛ ولا نطمع أن نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردوّنا بألمين، وننقد بالضرب ما كان يمسك رمقنا من الاحتمال والصبر.

هؤلاء الأطفال يتضوّرون شهوة كلما أكلوا ليعودوا فيأكلوا، ونحن نتضوّر جوعاً ولا نأكل، لنعود فنجوع ولا نأكل؛ وهم بين سمع أهليهم وبصرهم؛ ما من أنةٍ إلا وقعت فى قلب، وما من كلمة إلا وجدت إجابة؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها، أنين ضائع، ودموع غير مرحومة!

آه لو كبرت فصرت رجلاً طويلاً عريضاً! أتدرين ماذا أصنع؟

— ماذا تصنع يا أحمد؟

— إنني أخنق بيدىّ كل هؤلاء الأطفال!

— سوأة لك يا أحمد، كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمنا التى ماتت، وله أخت مثلى؛ فما عسى ينزل بى لو شكلتك إذا خنقك رجل طويل عريض؟

— لا، لا أخنقهم؛ بل سأرضيهم من نفسى؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذى رأيتاه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير . . . أتدرين ماذا أصنع؟

— ماذا تصنع يا أحمد؟

— أرأيت عربة الاسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل الهرم المحطم الذى أغمى عليه فى الطريق؟ سمعتهم يقولون: إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة، ولكنه رجل غفل لم يتعلم من الحياة مثلنا، ولم تحكمه تجارب الدنيا فالذى يموت بالفجاءة أو غيرها لا يحييه المدير ولا غير المدير، والذى يقع فى الطريق يجد من الناس من ينتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب إنسانية رحيمة، لا بقلب سواق عربة ينتظر المصيبة على أنها رزق وعيش.

إن عربات الاسعاف هذه يجب أن يكون فيها أكل . .

ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتصنع له أم.

كل شىء أراه لا أراه إلا على الغلط، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة أدبارها، وما قطُّ رأيت الأمور فى بلادنا جارية على مجاريها؛ فهؤلاء الحكام لا ينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة، لا بقانون الغنى والقسوة، وليتقحموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس، وخلق ودين ورحمة؛ فانه لا ينهزم فى

معركة الحوادث إلا روح النعمة في أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين في أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية في كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحماً ودماً هو لحم الحاكم ودمه ؛ فان كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك ، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعاً . وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لا يكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطة درجة فوق الغنى ، ومن نال هذه استشرف لتلك ، فاذا جمعوها كان منها الخلق الظالم الذي يصور لهم الاعتداء قوة وسطوة وعلوًّا ، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذي يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبناً ونذالة . إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا في المبدأ الاجتماعي للأمة ، أو في الأصل الأدبي للانسانية. ويحرصون على مابه تمامهم ، أي على السلطة ، أي على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه ، وأن يجمعوا في أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانعة والمهاونة ، نازلاً فنازلاً إلى درك بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ماداموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ليجدوا عملاً شريفاً يصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آبائهم ؛ فانه والله لولا العمى الاجتماعي لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطّل في أملاك أبيه من القصور والضياع وابن فقير متبطل في أملاك المجلس البلدي من الأزقة والشوارع . . .

وابن الأمير إذا كان تجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتعفّفه وكرمه ، فيتعلم سوادُ الناس منه الأمانة والصدق ، إذ هو لا يكذب ولا يسرق مادام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير الذي يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً فتكون حرفته التجارة ، وهي السرقة ، أو الصناعة وهي الغش ، ويكون في الناس أ كثرَ عمره مادة كذب وإثم ولصوصية .

آه لو صرت مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمد الى الأغنياء فأردهم بالقوة إلى الانسانية ، وأحملهم عليها حملاً ، وأصلح فيهم صفاتها التي أفسدها الترف واللين والنعمة ، ثم أصلح ما أخلّ به الفقر من صفات الانسانية بالفقراء ، وأحملهم على ذلك حملاً ؛ فيستوى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل في الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون . ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادي الصفات الانسانية في أفرادها ، فتقطّع ما بينهم ، فهم أعداء في وطنهم ، وإن كان أعداؤهم أهل وطنهم

ومتى أحكمت الصفات الانسانية في الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً — صار قانون كل فرد كلمتين ، لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حقّي) ونحن نريد أن يكون (حقّي وواجبي) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانون الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير . . . لست المدير بباقي نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده . . . كلا ، أنا عمل اجتماعي منظم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلقٌ ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياة الأمّ مع الحياة الأطفال الاخوة في هذا البيت الذي يسمى الوطن ، أنا الرحمة ، عندي الجنة ولكن عندي جهنم أيضاً مادام في الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحد ، لكنني الأصلاح .

ها أنذا قد صرت مديراً أعسّ في الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهم .

من أرى ؟ هذا طفل وأخته نائمان على عتبة البنك في حياة كأهدابهما المرقعة ، في دنيا تمزقت عليهما ، قم يابنيّ ، لا تُرَع إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول : إنك مانمت من الجوع ، ولكن مضمضت عينك بشماع النوم ؟

ياولديّ المسكينين بأي ذنب من ذنوبكما دقتكما الأيام دقاً وطحنتكما طحنا ؛ وبأي فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا وبنت فلان باشا في هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنقان فيه ، ما الذي ضرّ الوطن منكما فتموتا ، وما الذي نفع الوطن منهما فيعيشا ؟

إن كنت يابني لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلوم إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيف إلى أن آخذ لك الحق .

إليّ بابن فلان باشا وبنت فلان باشا .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

يا هذا عليك أخاك أحمد ولتكن به حفياً ، ويا هذه ، عليك أختك الآنسة أمينة . . . .

أتأبيان ، أنفرة من الانسانية ، وتمرداً على الفضيلة ، أحقاً بلا واجب ، دائماً قانون الكلمة الواحدة ! ؟ خلقتما أبيضين سخرية من القدر وأنتما في النفس من أحبوشة الزنج ومنا كيد العبيد .

ورفع أحمد يده . . . . .

وكان الشرطي الذي يقوم على هذا الشارع ، واليه حراسة البنك قد توسمهما[1] ودخلته الريبة ، فانتهى إليهما في تلك اللحظة وقبل أن تنزل يد سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطي قد ركله برجله فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عدو الخيل من ألهوب السوط .

. . . .

وتجحدت الفضيلة كعادتها . . ! . . أن مسكيناً حلم بها . .

مصطفى صادق الرافعي

(1) توسمهما [illegible]

أدب الرواد المسلمين

فن في الأدب العربي يحتفظ بقيمته وجدته

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فن من فنون الأدب العربي لم تذهب الأيام بجدته ؛ ولا يزال تراثه رغم كر الزمن يحتفظ بقيمته الفنية فضلاً عن قيمته التاريخية ؛ ذلك هو فن السياحة والمشاهدة . ففي الأدب العربي ، القديم والحديث ، تتبوأ كتب السياحة والمشاهدة مكانة رفيعة ، سواء أكانت لمكتشف يرود مجاهل القارات ثم يسجل اكتشافاته ، أو لكاتب يجوب البلاد بقصد الدرس والمشاهدة ويدون ملاحظاته ومشاعره . وقد كانت كتب السياحة قبل قرنين أو ثلاثة تعتبر دائماً بالنسبة للمجتمعات التي كتبت لها كتب استكشاف تلقي أضواء جديدة على أحوال المجتمعات التي كتبت عنها ؛ فلما تقدمت المواصلات وتقاربت الشعوب ، وكثر تعارفها ، وتوثقت بينها الصلات العلمية والأدبية ، لم يبق للسائح المتجول ما يكتشفه من أحوال الشعوب المتمدنة أو التي تأخذ بقسط من الحضارة ، إلا ما يمليه عليه الدرس الخاص لأحوال هذه الشعوب ، وأصبحت كتب الاستكشاف وقفاً على رواد المجاهل والعلماء الذين يجوبون معهم مجاهل البحار أو اليابسة ليكشفوا جديداً من الآثار أو الأنواع . وكتب الفريق الأول يغلب عليها الطابع الأدبي ، وأما كتب الرواد الفنيين فيغلب عليها الطابع العلمي .

وقد عرف الأدب العربي فن السياحة والمشاهدة في عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثالث نرى الجغرافيين العرب يطوفون أرجاء العالم المعروف يومئذ للوقوف على أحوال البلدان والأقاليم المختلفة وخواصها ويدونون مشاهداتهم في كتب لا زالت حجة عصرها . ومن أعظم هؤلاء الجغرافيين الرحل ، اليعقوبي الذي طاف العالم الأسلامي من السند الى الأندلس وتجول في جميع بلاد فارس والجزيرة ومصر والمغرب والأندلس في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري ، ووضع كتابه الجامع « البلدان » ، والمسعودي المؤرخ والجغرافي الذي طاف أنحاء العالم الأسلامي شرقاً حتى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، واخترق المحيط الهندي حتى شواطئ افريقية الشرقية وجزيرة مدغشقر ، وشهد عجائب هذه الآفاق ، ودونها في كتبه ولا سيما مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، وذلك في أوائل القرن الرابع الهجري . بيد أننا لا نريد أن نتحدث هنا عن هؤلاء العلماء الجغرافيين ، وإنما نتحدث بالأخص عن طائفة من الرحل والمكتشفين المسلمين الذين تصور آثارهم أحوال البلاد والمجتمعات التي شهدوها ، وتعتبر من الوجهة الفنية آثاراً وصفية اجتماعية قبل أن تعتبر آثاراً جغرافية . ولدينا في الواقع ثبت حافل من أولئك الرواد المشغوفين بالسياحة ودراسة أحوال الأمم ، ولدينا كثير من آثارهم التي مازالت تعتبر رغم قدمها نماذج حسنة لهذا النوع من الأدب المفيد الشائق معاً . وما نذكره منهم ومن آثارهم في هذا الفصل ، نذكره على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر ؛ وإنما نلاحظ أن الذين عرفوا منهم وعرفت آثارهم هم أقلية صغيرة بالنسبة الى أولئك الذين لم تصل الينا آثارهم أو التي انتهت آثارهم إلينا ، ولكنها مازالت مخطوطات منسية في ظلمات المكاتب العامة والخاصة .

ومن أقدم أولئك الرواد الوصفيين الذين انتهت آثارهم إلينا

أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الذى أنفق نحو ثلاثين عاماً فى الطواف بالأمم الاسلامية من بغداد إلى الأندلس ، يدرس أحوالها وخواصها وأحوال شعوبها ومجتمعاتها ، وذلك فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) . وقد دون ابن حوقل رحلته ومشاهداته فى كتاب أسماه «المسالك والممالك» ، وهو أثر يجمع بين الناحية الجغرافية والناحية الوصفية . بيد أنه يعنى بالمشاهدات الوصفية عناية خاصة ، وفيه يدون ابن حوقل خلال أخبار رحلته أحوال الأمم التى مرّ بها وما شاهده فيها من المناظر والمعاهد والآثار والخواص التى تستحق الذكر . وقد مرّ ابن حوقل أثناء رحلته بمصر ، فى أواخر الدولة الاخشيدية ، وخصص لمشاهداته فيها فصلاً طويلاً يصف فيه مصر الفسطاط ومعاهدها والنيل ومجراه ، وكثيراً من أحوال المجتمع المصرى يومئذ[1] . وأسلوبه يجمع بين الطابعين العلمى والأدبى . ولدينا فى القرن السادس رحالتان شهيران أحدهما يجوب العالم المعروف يومئذ من المشرق الى المغرب ، والآخر يجوبه من المغرب إلى المشرق ، والأول هو أبو الحسن على بن أبى بكر المعروف بالسائح الهروى ، نسبة الى هراة بلد أسرته . وقد ولع أبو الحسن بالأسفار منذ حداثته ، وخرج من الموصل مسقط رأسه يجوب أنحاء العالم لغير قصـــد سوى التفرج والاستكشاف ، وذلك نحو سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) ، وأنفق زهاء ربع قرن فى رحلته ، فطاف أرجاء الشأم وفلسطين ومصر ، وقبرص وغرب الأناضول وزار قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، واخترق البحر الأبيض وتجول فى جزائره حتى صقلية ؛ ولم يترك ، على قول ابن خلكان « براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل الى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » . واشتهر ذلك فى الآفاق كلها ، وهو الوحيد الذى تلقبه الرواية الاسلامية « بالسائح » وأسره الفرنج والقرصان مراراً ، وضاعت كتبه ومذكراته ، كما يخبرنا بذلك فى كتابه الذى انتهى إلينا ، وهو سفر صغير عنوانه « الأشارات إلى معرفة الزيارات »[2] وفيه يقص باختصار سير رحلته ، وما شاهده من الأماكن والمعاهد ، دون وصف ولا إسهاب . وفى أواخر القرن السادس استقر أبو الحسن فى حلب بعد طول التجوال ، ونال حظوة لدى أميرها وتوفى سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) ودفن بتربة أعدها لنفسه ، وكتب عليها حسب وصيته ومن انشائه تلك الكلمات المؤثرة : «هذه تربة العبد الغريب الوحيد على بن أبى بكر الهروى ، عاش غريباً ، ومات وحيداً ؛ لاصديقاً يرثيه ، ولا خليلاً يبكيه ، ولا أهل يزورونه ، ولا اخوان يقصدونه ، ولا ولد يطلبه ، ولا زوجة تندبه ؛ آنس الله وحدته ، ورحم غربته »

وأما الثانى فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الأندلسى . رحل من الأندلس شرقاً الى افريقية ومصر والشأم والحجاز . وكان رحالة بطبيعته قوى الملاحظة والوصف . رحل من غرناطة الى المشرق ثلاث مرات ، الأولى سنة ٥٧٨ هـ والثانية سنة ٥٨٥ هـ ، والثالثة فى أواخر القرن السادس ، وقطع البحر الأبيض مراراً ، وطاف بمعظم جزائره وثغوره الجنوبية والشرقية ، وتجول فى بلاد مصر والشأم والحجاز ، وقاسى فى أثناء تجواله كثيراً من الشدائد ، وأشرف مراراً على الهلاك فى البحر ، واستقر أخيراً بالاسكندرية وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ودون أخبار رحلاته فى سفر كبير ممتع يسميه « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » . وفيه يدون مشاهداته فى الأمم والبلاد التى زارها ؛ ويقص حوادث أسفاره مفصلة بالتواريخ فى نوع من « المذكرات » ؛ وهو أثر شائق الأسلوب والوصف يعتبر نموذجاً بديعاً لأدب الرواد .

ونستطيع أن نذكر من الرواد المسلمين فى هذا العصر أيضاً ، عبد اللطيف البغدادى الطبيب العلامة الذى وفد على مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وطاف بعد ذلك فلسطين والشأم وبلاد الروم الأناضول يدرس أحوالها ومجتمعاتها . وقد دون عبد اللطيف مشاهداته فى مصر فى كتاب كبـير لم يصل إلينا ، ولكن وصلت الينا منه عدة فصول اختارها عبد اللطيف وسماها كتاب « الافادة والاعتبار » وهى فصول قوية بديعة عن أحوال مصر وخواصها الطبيعية والاجتماعيـة ، يغلب عليها الأسلوب العلمى الذى يمتاز به مؤلفها

***

على أن أعظم الرواد المسلمين على الأطلاق هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الطنجى الشهـير بابن بطوطة . ولم يكن ابن بطوطة

(١) راجع هذا الفصل فى كتاب « المسالك والممالك » (وهو ضمن المكتبة الجغرافية التى أصدرها المستشرق دى جويه)

(٢) ومنه نسخة خطية فى دار الكتب رقم (٣ م جغرافيا)

رحالة عظيما فقط يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ ، بل كان أيضاً مكتشفاً عظيما يقصد الى مجاهل البر والبحر . وكتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وأنفس أثر عربي في هذا النوع من الأدب . وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) يجوب أقطار العالم ، واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية ، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية ؛ واخترق في عوده قلب أفريقية من السودان الى بلاد النيجر ؛ ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التي لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة ؛ ووصل الى أعالي نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل اليها الرواد الأوربيون ويكتشفها الرحالة الانجليزي منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون . وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن ؛ وترك لنا عن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته ذلك الأثر الذي يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف .

وقد لبث أدب الرواد متصلاً في العربية حتى العصر الحديث ؛ فنجد المقري مؤرخ الأندلس — مثلاً — يصف لنا في فاتحة «نفح الطيب» رحلته البحرية من المغرب الى المشرق في أسلوب رائع ؛ ونجد العلامة الصوفي عبد الغني النابلسي يجوب بلاد الشام ومصر والحجاز ، وذلك سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٤ م) ، ويترك لنا عن أسفاره ومشاهداته أثراً نفيساً هو كتاب « الحقيقة والمجاز » الذي تحتفظ دار الكتب بنسخة خطية منه .

***

ومما تقدم نرى أن أدب السياحة قد بدأ في العربية في عصر مبكر ، واستمر على كر العصور . وكثيراً ما قيل إن تراث الأدب العربي أضحى قديماً لا يساير العصر ، وأن فنونه قد عفت ، وأنه ليس في تعداد فنونه ومناحيه كالأدب الغربي . ولكنا نستطيع أن نقول هنا على الأقل ، إن الأدب العربي قد سبق الأدب الغربي في فن السياحة والمشاهدة بعصور طويلة ؛ وهذا مترتب بالطبع على أن الرواد المسلمين كانوا أسبق من الرواد الغربيين الى التجوال في أنحاء العالم المعروف يومئذ ؛ والى ارتياد كثير من الأنحاء المجهولة . والواقع أن أول رحالة غربي كبير ارتاد أنحاء المشرق وآسيا هو الرحالة الايطالي مركو بولو ؛ وكانت رحلته الى المشرق في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ؛ هذا بينما يرجع نشاط الرواد المسلمين الى القرنين الثاني والثالث من الهجرة (القرنين الثامن والتاسع من الميلاد) . وأقدم أثر غربي قيم في السياحة هو أثر مركو بولو الذي يصف فيه أحوال الأقطار الأسيوية ولاسيما الشرق الأقصى . وقد كان أول أثر استطاع الغرب أن يقف فيه على عظمة الشرق يومئذ وبذخه وبهائه وروعة حضارته . ولكن الأمم الاسلامية كانت تعرف أقصى الأمم الشرقية ومعظم الأمم الغربية على يد جغرافييها وروادها قبل ذلك بقرون .

على أنه مما يؤسف له أن أدب السياحة في العربية قد انحط في العصر الأخير ، كما انحط كثير من فنونها ، وأضحى نوعاً من المشاهدات الطائرة تكرر في كل فرصة وفي كل أثر جديد ، وتكتب بالأسلوب الصحفي الركيك ، وتقف عند الأخبار والمشاهدات السطحية ، كوصف السفينة والبحر والشوارع والفنادق والملاهي ، بأساليب وعبارات مملة ؛ وقلما يعنى السائح المتفرج بالمشاهدات والدراسات العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، ومن الأسف أننا لا نستطيع أن نجد بين كتب السياحة التي أخرجت في العصر الأخير كثيراً من الآثار التي تمتاز بقيمتها الأدبية والفنية [1] .

محمد عبد الله عنان
المحامي

[1] يسرني أن أنوه بهذه المناسبة بالكتب القيمة التي يخرجها صديقنا الرحالة محمد ثابت عن رحلاته ، وقد أخرج منها الى اليوم ثلاثة تمتاز بدقة دراساتها ومشاهداتها الجغرافية والاجتماعية .

حول اقتراح

نقابة للأدباء الشـــبان

بقـــلم حنفي غالي

قرأت المقال الشيق الممتع الذى نشرته مجلة الرسالة الغراء لذلك الأديب الكبير مقترحاً فيه تأليف نقابة للأدباء الشبان، تجمع شملهم، وتوحد كلمتهم، ويكون لهم منها قوة ترد عنهم هجمات المعتدين، ودرع يقيهم طعنات الطاعنين؛ فراقنى منه ميل خالص للعـــدل، ورغبة صادقة فى الانصاف، فأحببت أن أقول فى هذا الموضوع كلمة صريحة لوجه الحق، غير متأثر من جانبي الشبان أو الشيوخ برغبة أو رهبة.

وكم كنت أود أن يتجه اقتراح الأديب اتجاهاً غير اتجاهه، ويرمى الى غاية غير غايته، فيدعو الى تكوين جماعات من الشباب تلتف كل منها حول شيخ أو أكثر من شيوخ الأدب، تفيــده وتستفيد منه؛ تفيده باعلاء ذكره وإظهار فضله وإعانته فى عمله، وتستفيد منه بالاستماع لنصائحه والتشرب بروحه والتأدب بأدبه؛ ويكون هذا خيراً من تأليف نقابة تغرى بالمصارعة وتغرى بالمناجزة، وأليق برجال يجتمعون قاطبة حول عرش الفن، ويتعبدون له ويتقدمون بقرابينهم اليه، لا فارق فيهم بين شاب وشيخ، وخامل ونابه، ومغمور ومشهور. نعم كنت أصبو الى تلك الأمنية وأتحرق شوقاً اليها؛ ولكننى الآن قد انصرفت عنها وزهدت فيها، فقد هممت بالعمل على تحقيقها وإنفاذها فى العام الماضى إجابة لرغبة شيخ من شيوخ الأدب محبب إلىّ، عزيز علىّ، فوجدت السبيل الى ذلك شائكاً وعراً بسبب المعركة التى احتدمت حينئذ بين الأدباء الشبان والشيوخ والتى لا زال جرحاها وقتلاها يَسقطون حتى اليوم، فرغبت فى الوقوف على أسبابها، وتعرّف من أوقد شعلتها الأولى، أهم الشيوخ أم الشبان؟ واستطعت باتصالى بهؤلاء وأولئك أن أستشف روح كل منها، وأستكنه خبيئة نفسه؛ فعلمت علم اليقين أن التبعة فى ذلك إنما يقع أكثرها على الشيوخ، لأننى وجدت فى أدباء الشباب كرماً وصفحاً، وإن كان فيهم غرور. أما الشيوخ فلست أغالى إذا وصفتهم بعنت الحزازة وصلف الأستاذية — كما يقول الأستاذ صاحب الرسالة — بل بالخروج عن طور الحكمة والرزانة المعروفة عنهم. أو المفروضة فيهم على الأقل؛ ولله ما أعجب تقلبات الأيام! فقد كان هؤلاء الشيوخ بعينهم ينعون على رجال المدرسة القـــديمة استبدادهم وتخطيهم الرقاب بشهرتهم، واستغناءهم عن الاخلاص والصدق، ويفاخرون بأن مذهبهم الجديد إنما يقوم على أساس من الحجج الناصعة، والبراهين الدامغــة؛ ولا يبغى سوى الحرية والحق، ومازالوا يعملون المعاول فى المذهب القــديم حتى أحالوه صعيداً جرزاً، ولكن ما كادوا ينتصرون ويفرح الشباب بهذا الانتصار، وتفيض نفوسهم غبطة به وابتهاجاً له، حتى تبـدلت نفوسهم، وتجهمت قلوبهم، وأصبحوا للشباب ألد الأعداء، بعد أن كانوا أخلص الأصــدقاء، وأخذوا يضعون اللجم فى الأفواه والأصفاد حول الأعضاد، والعقبات فى سبيل النفوس الناشئة السائرة على الدرب، وبذلك مثل شيوخ الأدب فى مصر وفى القرن العشرين المأساة المبكية المضحكة التى مثلها من قبلهم رجال الثورة الفرنسية حين ثاروا على استبداد البوربون، فقوضوا صرحه، ثم أقاموا مكانه استبداد نابليون، أليس كذلك؟!

رحم الله المدرسة القديمة وطيب ثرى رجالها الأبرار! لقد قال الأستاذ الدكتور طه حسين عن أحدهم وهو المغفور له حفني بك ناصف «كنا نستعينه على أن نكون خراًمنه، وكان يعيننا على ذلك راضياً به مبتسماً له راغباً فيه». فأين هذه العلاقة الأبوية العطوفة من علاقة الأذلال والاستعباد التى يريد شيوخ الأدب أن تكون بينهم وبين الشباب؟ هم يخيرون أدباء الشباب بين أمرين أحلاهما مر، أما أن يندمجوا فى أشخاصهم ويفنوا فيهم ويسبحوا لهم بكرة وأصيلا وغدوا ورواحا، وإلا فالويل والثبور لهم أن حدثتهم أنفسهم بابداء رأى حر فى كتاب شيخ أو قصيدة، أو يتربصون بهم حتى إذا وقعوا فى أيديهم فرائس أثخنوهم طعناً فما يبقون فيهم ذماء من حياة؛ فالموقف الأول مفسد للنفوس مميت للضمائر، والموقف الثانى مثبط للهمم مضعف للعزائم، وكلاهما لا يرضي الكرامة ولا العدل، وما كان للشباب وهم الذين طالما غســلوا بدمائهم الزكية طريق الحرية أن يقبلوا الاستعباد فى الأدب بعد أن أبوه فى السياسة

ولست أرى مبرراً لهذا الموقف الشاذ الغريب من الشيوخ

فالمألوف أن الأدباء يختلفون في الرأي ويختصمون في الفن فماذا يخيفهم من نقد الشباب لآثارهم ؟ إلا أن الأمر لا يخلو من أحد اثنين : أما أن إنتاج الشيخ الفني قوى لا مغمز فيه فلا يعقل أن النقد يغض من قدره وينقص من قيمته، أو انه ضعيف فيكون من حق الفن ألا يدخل في حرمه المقدس . أما دعوى الشيوخ بأنهم وحدهم حراس الفن وأمناء هيكله فهي دعوى مرفوضة شكلاً وموضوعاً ، هي مرفوضة شكلاً لسخافتها الظاهرة وبعدها عن الجد بعد ما بين الأرض والسماء ، وهي مرفوضة موضوعاً لأن وسائل النقد هي الذوق والاطلاع وهما متوفران لكثير من أدباء الشباب

والحق أن من شيوخ الأدب من هو مقدور فوق قدره ، ولعل هذا سر فزعه من النقد وجزعه من كل يد تمتد إلى آثاره ولو كانت عاجزة ضعيفة

على أنني لست أخلي أدباء الشباب من كل تبعة ، ففيهم غرور يحمل بعضهم على النزول إلى ميادين لم يعدوا لها العدة ولم يتخذوا الأهبة ، ولكن أي ضير على الشيوخ لو قابلوا نزوات الشباب بابتسام الأب البار الحنون الذي يغفر ويتجاوز عن كثير ؟

ولقد نشأ عن هذا الموقف الشاذ بين الشيوخ والشبان أن غشي الحياة الأدبية في مصر غشاء من الحقد والرياء في النقد فلا يكاد يظهر مؤلف أدبي حتى يرفعه الأنصار إلى السماء ، ويهبط به الخصوم إلى الغبراء بغير حق ، فانظر ماذا فعل شيوخ الأدب بديواني الشاعرين المهندس وناجي ؟ أو ليس فيهما ما يستحق الاعجاب والتقدير ؟ بلى ، وإني لأترك الكلام هنا للأستاذ المنصف صاحب الرسالة إذ قال : إن ما فيهما من مساوىء هو من ضئال العيوب التي تختفي في بهر الجمال وروعة الصنعة ، فالحكم في حياتنا الأدبية الآن للهوى والغرض لا للعقل والعدل ، فما علاج هذه الحالة . إنني وإن كنت أرى في تأليف نقابة لأدباء الشباب ما يغري بالصراع والنضال ، ولكني أويد الاقتراح كل التأييد على أن يكون الشباب عند حسن الظن بهم تسامحاً ونبلاً ، فلا يكونوا البادئين بصبغ العيون بلون الدماء — كما يقول الأديب الكبير — فاذا بغى من الشيوخ باغ أو عدا عاد فليقف منه الشباب موقف المدافع في سبيل إعلاء كلمة الحق ، واقرار العدل في نصابه ، ورد الأمور الى مجراها الطبيعي .

فالنقابة بما تبثه من روح التعاون بين الشباب ، وبما تخلقه من قوة الاتحاد في الغاية والغرض ، ستزيل كل العقبات المصطنعة من طريقهم ، وتبدد هذه السحب التي تراكمت في سماء حياتنا الأدبية ، وحبذا لو امتد نشاطها فشمل جميع الأقطار العربية ، وضمت بين أعضائها أدباءها الشبان ، فيكونون رسل محبة وسفراء خير .

ولكن النقابة لن تكون جديرة بالتقدير والاحترام ، إلا إذا كان وجه الفن قبلتها وغايتها ، والاخلاص له قائدها ورائدها ، فلا يتقارض أعضاؤها المديح والثناء الزائف ، بل يتبادلون النصح والارشاد الصادق ، فاذا ما سارت سفينة الشباب في هذا السبيل القويم والصراط المستقيم ، فلا شك أنها بالغة غايتها منتهية الى بر السلامة محوطة برعاية الله مكلوءة بعنايته

قد أمن الله مجراها وأبدلها ... بحسن عاقبة من سوء منقلب

حنفي غالي

حقائق

١ — الأثينيون القدماء والفرنسيون الحديثون يبذون غيرهم من الأمم في شغفهم بجمال الحياة ومباهجها . كما يبذونهم كذلك في رقة الأخلاق وظرف الشمائل .

٢ — يقول المثل « لا ألفة بين اللصوص » ومعنى ذلك أن الشر يهدم الصداقة

٣ — أن دراسة الشعر والفصاحة والموسيقى والتصوير وغير ذلك من الفنون الجميلة تبث في الناس روح الدماثة والرقة والايناس .

٤ — إن لتداعي الأفكار تأثيراً عظيماً جداً على العقل والأخلاق ، فنرى أن أشغال الذوق توجه العقل إلى مواطن الجمال والسمو . وترده عنه أسباب الضعة والفساد ، وذلك لأنها تبعث على حب الأولى . والنفور من الثانية بقوة التداعي والترابط .

٥ — كما أن الموسيقى تطرب السمع . والألوان البهيجة تفتن العين . كذلك بدائع الذوق تهذب العقل . ولذلك نرى أن الموسيقى يؤلمه اختلال الألحان . والفنان يزعجه اضطراب الألوان ، والذوق الرقيق تؤذيه شراسة الأخلاق وغلظة الطباع

ترجمة عامر عبد الوهاب عامر

الموت والخـــلود *

للأســتاذ زكى نجيب محمود

أما أحدهما فكان يحب الحياة ويخشى الموت ، وأما الآخر ففيلسوف يستصغر شأنها وينفذ ببصره وراء ظواهرها الزائلة إلى حيث الحقيقة الخالدة . جمعت بينهما الأيام على مائدة واحدة فدار بينهما الحديث وتشعبت أطرافه ، وما لبث الحوار بينهما طويلاً حتى مس موضع التناقض بينهما . . .

تراسيا كوس — لله ما أعجب الموت ! لايكاد يمس الحى بأطرافه الباردة ، حتى تنقلب تلك القوة المفكرة المدبرة الفعالة إلى جمود الصخر ، يلقى بها فى جوف القبر الصامت ، وكأنها بعض تربته ، أفتستطيع ياصديق أن تحدثنى حديثاً جلياً واضحاً لايغمض ولا يلتوى عن قصة هذا الموت العجيب ؟ ماذا عساى أن أكون بعد هذا القضاء المحتوم ؟

فيلاليثس — ستكون كل شىء ، ولن تكون شيئاً

تراسيا كوس — لم أكن والله أتوقع منك حين طرحت السؤال ، إلا عبارة كهذه مبهمة مرنة ، أسرفت فى المرونة والابهام حتى وسعت كل معنى ، فلم أظفر مما أريد بشىء ، وماذا عسى أن أفيد من جواب يتنافر الصدر فيه مع العجز ، ويتناقض شطره الأول مع شطره الثانى ، فيزيد المشكلة تعقيداً على تعقيد ولا يوضح منها شيئاً ؟ ولكنها الفلسفة العقيمة تأبى إلا أن تعلو بنفسها فوق مستوى الأفهام فتربك العبارة إرباكاً وتغلقها إغلاقاً ، كأنما أريد لها أن تقتصر على قائلها ، وكان خليقاً بها إن أرادت أن تمكن لنفسها من المقول ، أن تلتمس سبيلاً طيعاً ذلولا ، لا وعراً ولا شائكا ، فيرده الرائدون جميعاً .

فيلاليثس — عفواً صديق ، فما قصدت إلى التناقض عمداً بل اضطررت اليه اضطراراً ، فهذه اللغة التى تواضع الناس على اصطناعها فى التفاهم ، لم تنشأ أول أمرها إلا لكى تكون أداة للتعبير عما يقع تحت الحس من أشياء ، فلما درج الانسان صاعداً فى سلم الرقى ، وبدأت تدور فى رأسه خلجات من الفكر المجرد ثم أراد أن يبرزها فى ثوب من اللفظ ، لم تسعفه إلا هذه اللغة ، التى انما خلقت للمحسوسات ، والتزم أن يجرى فى قوالبها المحدودة تلك الآراء المطلقة التى لاتعرف الحدود ، فلم يكن بد من هذا التناقض والاضطراب ، فأنا ان فكرت فى مصيرك بعد الموت ، فلست أعنى بجسدك وما يطرأ عليه ، بل يسبح الفكر فى حقيقتك التى تكمن وراء هذا الستار من اللحم والعظم فى جوهرك مجرداً عن قوالب المادة ، وما أضيق اللغة عن هذا النطاق الفسيح !

تراسيا كوس — ويحك ! أو تريد أن تجعل منى رجلين ، فرجل من مادة فى إهاب من الجلد ، ورجل مجرد خبىء وراء الأستار تراه أنت من دون صاحبه ؟

فيلاليثس — وأى غرابة فيما أزعم ياصديق ؟ أفتظن أن هذه الأجسام والأجساد التى تنبث فى أنحاء الكون ، والتى ندركها بوساطة الحواس ، هى كل شىء ؟ اللهم إن صح هذا لكان الانسان كتلة من اللحم والشحم والعظام ، وقل على أفكاره ومشاعره وشتى مظاهر حيويته العفاء ، لأنها لا تسلك اليك سبيلاً من عين أو أنف أو أذن ! ! لا ، لكل شىء حقيقة كامنة وراء ظاهره ، ما فى ذلك شك ولا ريب ، فان أدركك الموت ياأخى أفنى منك هذا الفرد الذى يحاورنى الآن ، هذا الشخص المعين الذى أراه وأسمعه ، ماذا أقول ؟ هذا التراسيا كوس ، فلن يكون بعد الموت شيئاً مذكوراً ، ستنحل مادته وستسلك ذراتها سبلاً شتى ، فطائفة الى شجرة تدخل فى تركيبها ، وطائفة الى حيوان ، وثالثة الى صخرة تلقى فى طاق الكوخ لتصد عن ساكنيه الهواء كما يقول شاكسبير ، ولكن ليست هذه الشخصية إلا ظاهرة فانية مع الموت ، ولها بطانة باقية الى الأبد ، ليست إلا ذباً صيغت فيه حقيقتك الخالدة . فالفرد منك ظاهرة مادية عارضة محصورة فى أطواق الزمان والمكان ، فلها بدء وخاتمة ، وهى تشغل حيزاً من الفراغ ، فأما سرك وجوهرك ، أما الحقيقة التى اندست فى مادتك فلا تعرف زماناً ولا مكاناً ، فهى فى الكون منذ الأزل ، أرادت أن تثبت وجود نفسها ، فتجسدت فى الكائنات التى ترى ، فهى لا تختلف فى شخصك عنها فى بشخصى ، أو فى شخص هـــذا

* يوضح هذا الحوار فلسفة شوبنهور فى إرادة الحياة ، وخلاصتها أن الحياة تستعين بالأفراد على بقائها ، فهى لاتعنى بالفرد مادامت تحقق البقاء فى الأفراد الآخرين ، وقد أخذنا مادة هذا الحوار وأشخاصه من فصل كتبه شوبنهور .

الطائر الذي تراه يحلق بين أطباق الهواء . . . فإن أدركتك المنية ستفنى منك الفرد ، وستخلد الحقيقة ممثلة في سائر الأحياء ، لعلك الآن قد آمنت بما زعمته لك من أنك لن تكون بعد الموت شيئاً ، وستكون كل شيء ؟

تراسيا كوس — ولكن خلودي في أشخاص آخرين لا يساوي عندي جناح بعوضة ، ما دمت لن أحيا بشخصي هذا ، فإن كان تراسيا كوس الذي يطارحك الحديث الآن ، سيفنيه الموت ، فسحقاً للحقيقة ، إذ ليس لي في خلودها غناء .

فيلاليتس — مهلاً ! هب أنك خيرت في أن تعيش بعد الموت بشخصيتك التي تتشبث بها على شرط واحد ، وهو أن تسلب منك تلك الشخصية شهوراً ثلاثة فحسب ، ثم ترد اليك الى الأبد ، فماذا أنت قائل ؟

تراسيا كوس — لا أتردد في القبول فرحا راضيا .

فيلاليتس — ولكنك تعلم أنا لو سلبناك الوعي والشعور حيناً من الدهر ، ثم بعثنا فيك اليقظة والحياة ، فلن تدرك كم لبثت في غيبتك إلا أن يقص عليك نبؤها بعد البعث . فهؤلاء أصحاب الكهف أووا الى كهفهم فضرب الله على آذانهم عدة سنين ، ثم بعثهم ، فقال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ؛ مع أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا . فإن كنت كهؤلاء ستفقد إدراك الزمن ، فما ضرك لو أطلنا أمد الرقاد المفروض الى آلاف ثلاثة من السنين ؟

تراسيا كوس — لا شيء ، أحسبك مصيباً فيما تقول !

فيلاليتس — وإذا فرضنا أن تلك الآلاف الثلاثة قد تعاقبت عليك في رقدتك ، وأن أحداً لن يوقظك بعدها ، أفتظن أن في ذلك وبالاً عليك ؟ اللهم لا ! فإن كانت عشرات قليلة من السنين قد عودتك الحياة وربطتك بها رباطاً وثيقاً ، يعز عليك كثيراً أن تنفصم عراه ، أليس أجدر بذلك الأمد المديد أن يعودك الموت ويوثق بينك وبينه الصلات ؟ أو أحسب أنك لو ظفرت بمن يبعثك ويرد اليك وعيك المفقود ، لن ترضى عندئذ أن تطرح حالاً لابستك طوال ذلك العهد الطويل ، وستزيد في اطمئنانك حينذاك علمك أن هذه القوة السحرية العجيبة التي تحبيك في الحياة الآن ، ستظل تنشر من الأحياء ملايين وملايين لا تنفك متعاقبة الى الأبد .

تراسيا كوس — ما أبرعك في الجوار ، وما أروعك في سحر المنطق وطلاوة الحديث ! إني لأكاد أستخف بشخصي وأستصغر حياتي ، التي طالما أحببتها وحرصت عليها أشد الحرص ولكن هيهات ، فلن أنخدع بهذا الاغراء ، ومازلت أريد بعد هذا كله أن أحيا بهذه الشخصية نفسها

فيلاليتس — يارعاك الله ! كأنما بلغت شخصيتك من الكمال شأواً بعيداً ، بحيث يعز ضريبها على الدهر ، وكأنك عاجز الخيال لا تستطيع أن تتصور حالاً خيراً وأسمى ؟ عجباً ! ألا تريد أن تستبدل بنفسك الناقصة المحدودة نفساً أسمى مرتبة وأبقى خلوداً ؟

تراسيا كوس — ولكنني ياصديقي لست أملك في ذلك اختياراً ، فشخصي بالغاً ما بلغ من نقص وتحديد ، هو نفسي ، وهو عندي أعز ما في الوجود ، لا أعدل به شيئاً ، ولا أرجو إلا أن يمتد الأجل بهذه الذات التي ترى صورتها وتسمع صوتها ، ولا يعنيني في كثير أو قليل تلك الحياة الخالدة التي تظل باقية في الكائنات الأخرى ، والتي تحاول بكل ما وسعك من دليل أن تقيم الحجة على أنها حياتي أنا ، فلست أرى خيراً في حياة لا أحس بنفسي أنها حياتي .

فيلا ليتس — لست وحدك ياصاح تريد أن تبقى ، فكل كائن دبت فيه الحياة يريد البقاء ، وحسبك هذا دليلاً قوياً على أن هذه الرغبة الشاملة هي التي تنطق فيك بهذا الرجاء ، إنها ليست صيحة الفرد منك ، ولكنها نزعة الوجود بأسره ، إنها قوة عامة تنشد البقاء ولا عبرة عندها بالأفراد ما دامت تحقق بقاءها المنشود ، فرغبة البقاء ، أو ارادة الحياة ، وقد التمست لنفسها الوجود والخلود ، تجسدت نفسها في أفراد الكائنات ، وألقت في أنفسهم وهماً بأنهم غايات مقصودة لذاتها ، لكي يحرصوا على الحياة ويكونوا وسيلة صالحة لبقائها ، والواقع أنهم ليسوا إلا أداة تستغلها تلك الارادة ، وسواء لديها أفنى هذا الفرد المعين أم امتد به الأجل ، ما دامت تجد من غيره ما يضمن بقاءها . . . حسبك يا أخي أن تعلم أنك أداة لتلك الارادة الشاملة ، وأنك صورة من صورها ، وأنك لست غاية مستقلة قصدت لذاتها ، وأن الحياة لن تخسر بفقدك شيئاً ، بل لعلها تجني من ذلك خيراً كثيراً ، لأنها كانت سجينة في قيود فرديتك ، مثقلة بمادة جسدك ، ثم انطلقت الى حيث لا قيود ولا حدود ! حسبك هذا لتعلم أن قصة الموت صبيانية تافهة ،

[البقية في اسفل الصفحة التالية]

فليس جديراً بالخوف والاشفاق، وليست حياة الفرد خليقة بهذا التقدير العجيب، ولكم يبعثني على السخرية إنسان يتمسك بحياته ويتشبث بها، ويشفق من الموت ويخشاه، كأنه وحده الكائن الحي الذي نيط به بقاء الحياة.

تراسيا كوس — ليس لعمري أبعث على السخرية من هذا الهراء، ولولا رغبتي في السمر واللهو، لما استمعت اليك لحظة واحدة.

زكي نجيب محمود

خواطر المصيف

الماء والسماء

بقلم محمد قدري لطفي
ليسانسيه في الآداب

كلاهما أحب الزرقة فآثرها لنفسه لونا، وكلاهما آثر الرهبة فاتخذها لنفسه وصفا، وكلاهما يمتد فلا يبلغ البصر منتهاه، ويسرح فلا يعرف الطرف مداه، قد حجب كل منهما الذي وراءه، ولم يبد كل منهما غير صفحته، لا تمل السماء النظر الى البحر، ولا يمل البحر التطلع الى السماء، صفحتان متشابهتان، ووجهان متقابلان، قد يبسم كل منهما لصاحبه فيصفو أديم السماء وتنبسط أسارير البحر، ويكتنف ما بينهما هدوء يشرح الصدور وترتاح له النفوس، وقد يُديل كل منهما على صاحبه، ويعكر كل منهما بمقابله، فيعلو وجه السماء سحاب خفيف، أو يسدل عليها نقاب منه شفاف، وترتسم على وجه البحر تقطيبة من الموج. لا يلبث معها أن يهدأ فتزول، وقد يتجهم كل منهما لصاحبه، ويتجنى كل منهما على الآخر، فتسدل السماء على وجهها حجاباً من السحاب أدكن اللون، لا يشف عن شيء ولا ينم على شيء، ويثور البحر في عنف، ويحتد في غضب، فيرغى ماؤه ويزبد موجه، ويشتكي من لطماته شاطئه، وقد تستسلم السماء الى البكاء، فترمى البحر برذاذ من الدمع أو بوابل من المطر، وقد يزأر البحر فترعد السماء، ويزهو بياض الموج فيشتد من البرق اللمعان.

سبحان الذي جعل بينهما هذا الفضاء مجالا للطير ومسرحاً لكل ذات جناح، وتعالى الذي جعل بينهما هذا الهواء حياة للكون، ومطلباً لكل ذي روح. ثم شاء ألا تتقطع بينهما الأسباب وألا تبعد بينهما الوسائل، فتقاربا على بعد، وتدانيا على تناء، أضاءت السماء بنور الشمس، فأرسلت في الماء من شعاعها فضة لا تذوب، وتحلت السماء بضوء القمر، فأهدت الى الماء صورته، ورسمت على سطح البحر ظله، وتجملت السماء بوشى النجوم، فبعثت الى البحر منه بريق. ويا عجبا لوفاء تلك السماء لهذا الماء، ما يكاد ينقضى النهار وتعتزم الشمس المغيب، حتى توصيها الا ما قصدت الماء في طريقها الى الغروب، وأبلغته سراً من الأسرار لا يلبث وجه الشمس أن يحمارّ له احمراراً ينبئ عن السر، ويفصح عن مدلول الكلام، ويا عجبا لهذه السماء تضحك من أهل الأرض، فتخيل اليهم أنها تلاقى الماء عند الأفق، وتحسب أهل الأرض لها عُذّلا، فتوهمهم أنها طوقت الماء بجناحها، وأرخت على صفحته طرفاً من ذيلها، وتمكر بأهل الأرض، فكلما قربوا من الأفق ابتعد عنهم، وكلما علوا عنه اتسع أمامهم مداه، ويا عجبا لهذه السماء حين تدل على الماء، وحين تتجنى على البحر، فتغرى به الشمس أن الفحيه بشواظ من نارك تنفذ منه الى الصميم، وارميه بسهام من شعاعك تخترق منه الفؤاد، فما تكاد الشمس تأتمر بأمر السماء، حتى يضيق البحر بوهج الأشعة وألم السهام، فتذوب حشاشته، وتتبخر عزيمته، وما تكاد السماء تحس حر أنفاسه، وتشعر بلافح زفراته، حتى تسيل من الأسى دموعها، وتتقرح من البكاء مقلتاها، لله شأنها!! تريد أن تلعب بالنار فلا يمسها سوء ولا يلحق بها أذى.

ويأبى البر أن يترك الأمر خالصاً بين السماء وبين الماء، فيود أن يكون له معهما شأن أي شأن، ويجب أن يكون له من كلٍ نصيب وافر، فيلجأ البر الى أهله يغريهم بالبحر، وويل للبحر يومئذ من الانسان، ويسلطهم على السماء، ويا للسماء يومئذ من أهل الأرض، أما البحر فقد قدروا عليه، وهزئوا به، فركبوا متنه، ومخروا بالسفن عبابه، وجرءوا عليه فغاصوا بالعلم الى قاعه، لم يخفهم منه موت، ولم يرهبهم فيه وحش، أقاموا فوقه الجسور، وشيدوا عليه السدود، فقطعوه ولم تبتل لهم قدم، وعبروه ولم يخلعوا لهم ثوباً. وهكذا قرب البحر من الانسان فاستخف به، وتكشف البحر للانسان فلم يخش ما فيه، ولو قد كان بعيداً لما استخف به أحد، ولو قد كان غامضاً لما اطمأن اليه انسان،

في الغموض سر رهيب ، وفي عسر المنال رغبة في النوال .

ولم يكف هذا الانسان أن يلزم الجد مع الماء ، وأن يتخذ منه معيناً على الحياة ، وطريقاً الى الممالك والديار ، وانما أراد أن يمزح مع البحر ، وأن يلهو بالشاطئ ، فاتخذته الغيد مسرحاً يخطرن فيه ، وميداناً يصلن في أرجائه ، سلاحهن الجمال ، وعدتهن الرشاقة ، واتخذه الرجال معرضاً يرون فيه مالم يكن من قبل الى رؤيته سبيل ، ويشاهدون فيه ماليس يوجد عند غيره ، واتخذه هؤلاء وهؤلاء ملهى وملعباً ومصطافا ، فلم يبق للبحر من هيبته الا اتساع مداه وتراكم لججه ، ولم يعد للبحر من رهبته الا خواطر المتأمل فيه ، الناظر اليه حين يخيم عليه الظلام ، وتضن عليه السماء بنورها .

أما السماء فلم يبلغ منها أهل الأرض مابلغوا من الماء ، وإنما تنافسوا في العلو اليها ، وتسابقوا في الارتفاع الى ذراها ، فحالت الطبيعة بينهم وبينها ، وأوقفتهم عند حد من الفضاء محدود ، لايكاد المرء يعدوه حتى يضطر الى الهبوط أو يورد نفسه موارد الهلاك ، فتعلق الناس بالريح ولم يبلغوا عنان السماء ، ووقفوا منها على الأبواب ولم يبلغوا منها الصميم ، وقديماً تمنى فرعون لو أنه بلغ عنان السماء ، وقال : « ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع الى إله موسى » فهلك عنه سلطانه وصدعن السبيل .

وهكذا تعبدت السماء عن أهل الأرض فعزت عليهم وخارت دونها قواهم ، وأسرفت في النأى عن الناس ، فما زالت وراءها أسرار هيهات للمرء أن يكشف عنها ، ومازال فيها من الافلاك والاجرام ماليس يعرفه الناس إلا أماني ، وقد كان أهل الأرض يفرحون لرؤية السحاب ، ويستبشرون بنزول المطر ، ويضحكون لبكاء السماء ، فما زالوا يرون فيها مصدر الخير وسر الطبيعة وينبوع الحياة ، وما زال الناس يلتمسون ضوء النهار من السماء ، ويفتقدون فيها ضياء البدر أو سناء النجوم حين يخيم الظلام ، فحفظوا للسماء قدسيتها ، وقدروا لها هيبتها ، وعرفوا الجن في الأرض ، وقالوا الملائكة في السماء .

والناس يوقنون أن الله معهم أينما حلوا ، موجود أينما وجدوا ، قد كان في كل زمان ، وهو كائن في كل مكان ، ولكن شاءت قدسية السماء ألا تلهج الألسنة بالدعاء حتى ترفع اليها الأكف وتتطلع نحوها الأبصار !!

الاسكندرية **محمد قدري لطفي**

من الفصول التي يجب أن تقرأ مراراً

العاطفـــة في الأدب

لغوستاف لانسون
الأستاذ بكلية الآداب في باريس
ترجمة الأستاذ محمد روحي فيصل

— ١ —

تعوق العقل عن التأمل والتفكير أمور شتى وعلل مختلفة ، أهمها في نظرنا هذا الاعتقاد السائد أن نشاط الذهن يخمد العاطفة المشبوبة ، ويقتل النزوة الحية ، ويحبس القلب الخفاق ، فلا أماني ترف ، ولا أحلام تطيف ، ولا ذكرى تلوح ، ولا هوى يبوح ، وانما العقل كله قد نأى عن ركدة الخمود ، واستيقظ من نوم الجمود ، رأي في إثر رأي ، وخاطر يتلوه خاطر ، ومقدمة تسوق الى نتيجة ، وتحليل يسلم الى استنباط ! إنه ليحسن بالأديب المبين أن يخنق صوت الفكر ويطمس معالمه ، ثم لا ينطق سوى قلبه ، ولا يترجم عن غير لبه . إذن تخلت لغته من ألوان الزينة المصطنعة ، وصفا أسلوبه من أصباغ البهرجة الزائفة ، ثم تراءت النفس على سجيتها الموهوبة من خلال السطور ، وبرزت نقية رائعة من بين سواد المداد .. !!

هذه دعوى — على جمالها وروعتها — عاثرة خاسرة ، ووجه الخطل فيها أن القلب لا يستغني عن العقل ولا يستطيع أن ينكره في حال من الأحوال . فان قوى النفس متحدة مشتبكة ، يتصل بعضها ببعض ، وتتداخل احداها في جارتها الأخرى ، ويندس الضعيف منها في القوى ، والكامن في البارز ، والوديع في المتمرد . وانما القلب الكبير تراه عند من له عقل كبير ، والطلعة البصير يفطن الى ألطف ما يضطرب في الفؤاد من الميول والنزعات ، ويشعر بأدق العواطف وأهدإ الأحاسيس ، وعلى قدر ما يكون العقل من الثراء والخصب ، أو الفقر والجدب ، يكون القلب عظيما رفيعا ، أو وضيعاً خسيسا ! ! هؤلاء القديسون الصالحون ورجال البر والاحسان ، هم أصحاب عقول نيرة تناهض عقول العباقرة والمفكرين ، وقد يكون فيهم سذج غافلون فما يعني هذا أنهم

حيوانات هائمة سائمة ، ولئن كانت محبة الله وبرّ عباده استجابة روحانية لنوازع القلب ومطالب الشعور ، فان تأسيس المدارس والأندية وبناء المستشفيات والملاجئ صورة من صور المنطق المنظم ، ومظهر من مظاهر الرأى والتدبير .

— ٢ —

يستبد الهوى المبرح ، ويجور الألم البالغ ، ويطغى الهيجان الثائر ، فتختبط النفس وتهتاج الأعصاب ويغلى الدم ، ثم تنطلق من شفاه العانى همسة محزونة ، أو صرخة يائسة ، أو قولة قوية جليلة ، تجرى خالدة على وجه الدهر ، وتذهب فى الناس مثلا سائراً وحكمة مضروبة ! أما النقد الحديث فما يحفل بهذا النوع من الكلام البليغ الجامع ، ولا يمنحه التعظيم والاجلال مثلما تمنحه الأمم والأجيال ، وانما يراه من عمل الراوى المؤرخ الذى سرده لزملائه المعاصرين ولمن يليهم الى يومنا هذا ، ويستنكر نسبته الى القائل الحساس ، والمؤرخ — بخلاف الصحافى — على على الحادث رأيه ومذهبه ، ويسرد الرواية على نحوه وأسلوبه ، ويسكب الكلم فى قالبه ومثاله .

ويغضب الرجل فيحول باطنه ، ويختل ظاهره ، ويضطرب احساسه ، ثم تستبين طبيعته الصامتة كما خلقها الله ، وكوّنتها الوراثة ، ووجهتها البيئة !! يقذف الكلمة من فيه فاذا هى كالسيف مضاء ونقاوة ، واذا هى جماع فطرته الناعمة ، وعادته الراسخة ، وغريزته الكامنة ..!!

لغة القلب آهة أو أنة ، أو نداء أو عويل ، ولكنه يكف عن التوجع والحنين حين تجتاحه موجة من الحب القوى أو الألم المميت ، وقد قيل إن الهوى يعمى ويصم ! فمن يفرق بين القلب والعقل ثم يروز الأول ويهمل الثانى ، لزمه الايجاز فى البيان ، والاقتضاب فى الكلام ، ذلك بأن البين اذ يسمى شكواه ويدل على بلواه ، إنما يعلن جميع ما يكنه فؤاده من الخلجات ، ويذكر كل مايحز نفسه من اللواعج ، ثم لايرى شيئاً يتخذه مادة للكتابة ومفتاحا للتحدث والافاضة ! تمثل محباً ملأ الحب جوانحه ، وتغلغل فى حناياه وأحشائه ، واختلط بلحمه ودمه ، شاء أن يصور هيامه المستفيض فى إسهاب وتفصيل ، فلتجدنه أحرص الناس على الايجاز فى التصوير ، وأقلهم تبسطاً فى الحديث ، فما يكاد يسجل هذه الجملة المألوفة المبتذلة : « إنى أحبك » حتى يعيد لفظها ويكرر معناها . سطران لا غير يخطهما المحب ، ثم يرمى القلم فى انكماش ووجوم ! !

ونلاحظ أن النفس الراضية المطمئنة قد تلتوى على الكاتب ، وتجهده عند الاعراب والتبيين ، وتستهلك ملكاته النابهة ، وأدواته القوية . أما الميول المصطدمة والأهواء المتعاكسة ، فهى تظهر فى يسر وسهولة ، ولا تستلزم عبقرية عالية أو مبيناً كبيراً . ويرجع هذا الى أن النفس الراضية المطمئنة ، لاتتطلع لغير حاضرها ولا ترغب إلا فى هدوئها وراحتها ، وهى انما تنطوى على مشاعر حلوة صافية لا سبيل الى الخلوص اليها بلفظ أو كلام ، وحسبها من ذاتها أن تستمتع بما تحس ، وتتملى ماتشعر ، وتذوق ماتحلم : ولكن الميول والأهواء اذ ترتطم وتتعاكس تثير ألف خاطرة ولاعجة ، من ندامة على الماضى وأمل فى المستقبل ، وخوف من المصير ، وكلها هواجس يفطن لها الكاتب الصغير ، بله الألمعى القدير ، ثم يبرزها مخطوطة واضحة على الطرس ...

مظهر الألم صوت متلجلج ، ووجه أغبر ، ورعشة باليد ، ودمعة فى المحجر . فالاعراب عنه بلفظ قريب لا لبس فيه ولا غموض انما يحتاج الى عقل خصب يتأمل وجه الألم الذى يتحسسه ويدرك قيمته وأثره ، ويعرف أين يتحد مع غيره من العواطف ، ومتى يختلف ثم يعرضه تاماً صحيحاً غير منقوص ولا مشوه ؛ وكلما كان التأمل العقلى كثيفاً نافذاً كان الألم أكثر وضوحا وأبهر لوناً وأدق تعبيراً .

تلك صفحات الأدب الباكى فاقرأوها بامعان ، وفتشوا فيها عن القلب المنفطر ، وتبينوا النفس المعذبة ، ألستم توافقوننا على أن الأديب انما اتخذ العقل مبضعاً يشق مطاوى القلب ، ويسبر غور الضلوع ، وينفذ الى حقيقة البكاء ومصدر اللوعة ؟!

ولقد حفظ التاريخ القديم فيما حفظ فى ذاكرته الواعية رسائل طريفة انحدرت إلينا كاملة من شيشرون ومدام سيفينيه ، وهى رسائل تفيض بالشكوى وتنزى يأساً وألماً ، كشف فيها الخطيب الرومانى عن الحب الأبوى حين ماتت ابنته وذهبت الى حيث لارجعة لها ، وأبانت المركيزة الفرنسية كيف تتوجع الأم الرؤوم حين تزوج ابنتها فى الديار النائية والغربة الطويلة ! وإن الآباء

والأمهات ليكون أبداً أولادهم وبناتهم عند الموت ووقت الفراق ، ولكنهم لا يستطيعون وصف ما تكابد مهجهم من هموم وأشجان ، وليس الذنب في ذلك ذنب قلوبهم المترعة المفعمة ، وانما هو ذنب عقولهم القاحلة ، وألسنتهم البكيئة ، وأقلامهم الجامدة

والطريف في هذا الباب ما زعمه هيجو من أن الشاعر مصلح عظيم ونبي كريم ، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب . وقد دفع هيجو الى هذا الرأي الأرستقراطي غروره السلكي ، وحماسه الوطني ، وتطرفه المعهود ، وخياله الواثب . والحق أن الشاعر رجل مثلي ومثلك ، يرى ما نرى ويشعر بما نشعر ، وانما يمتاز بنوع من الامتياز لا ينهض به الى صف المصلحين ولا يرفعه الى مقام الأنبياء – يمتاز من غيره من الناس بهذا العقل الحاجي المسجل الذي يقدر على الأبانة عما يرى ويشعر ، ويعرف كيف يصور ما يتجاذبه من النازع والأهواء

فالتأمل الذهني كما ترى ضرورة من ضرورات البيان ، فلا تظهر الخلجة النفسية على النحو الذي قذفتها الفطرة ودفعها التطور واكتنفتها الحياة ، الا بالمراقبة الباطنية العميقة . والمعهود انما ينبغي أن يكون على شيء من العلم بمواقع الأعضاء حتى يصف للطبيب المرض الذي ينتابه والداء الذي ينهشه ، ولكن الطفل إذ يتألم لا يفقه ألمه ولا يعلنه الا في ابهام : يصرخ ويبكي ، وهذا كل ما عنده من وسائل الاعلان وأدوات الأفصاح ! !

إن الأدباء المحدثين ممن نقرأ لهم ونستمع لأحاديثهم في الصباح وفي المساء ، يلتزمون البساطة في اللفظ والمعنى ، ثم ينحدرون الى النفس المتأخرة الابتدائية التي لم يصقلها العلم ولم تهذبها المدنية ، فينتزعون منها الشعور الفطير والعاطفة الساذجة ، وهم موقنون أن الاخلاص في الأدب أو الصدق في التعبير لا يكون الا حيث يكون الطفل الصغير أو الجاهل الأمي موضوع الحديث ومدار البيان ،

ولست أعرف انحرافاً عن الحق وخللاً في المنطق يشبه ذاك الانحراف وهذا الخلل ، فان الثقافة العلمية لن تفسد النفس والشعور ، ولن تمنعها عن البوح والظهور

وقد كان المؤلفون اليونان يستصرخون أبطال رواياتهم ، ويستدرون عبراتهم ، ويتعمدون إيلامهم . وكانوا يسهبون في وصف الألم ، ويذكرون بواعثه ونتائجه ، ويتغلغلون الى كنهه وحقيقته . فهم فنانون حقاً يلتمسون مواطن الجمال المنسجم ، وينشرون مواضع الحقيقة الفنية ، أحباء الذوق أقوياء الحواس ، يجمعون الى تبدل اللون وتقلص العضلات واختلال الحركات تدفق الألم الداخلي ، وأفاعيله النفسية ، وأثره في الرءوس والقلوب . وقد ترسم شكسبير خطاهم ونهج سبيلهم ، فكان يصور أوضاع الجسد ثم ينفذ الى الألم ذاته ، ويربط بين اضطراب الحواس اللدنة ، وهيجان النفس الباطنة

ونحسب الآن أننا كشفنا عن الصلة المتينة بين القلب والعقل ، ونبهنا الى خطر التفريق بينهما ، والى قلة الابداع والانتاج عند إهمال التأمل والتفكير ، فان كثيراً من الناس ليحسون أقوى الاحساس ، ويشعرون بأشد الشعور ، ولكنهم لا يعبرون عن احساسهم وشعورهم ، لأنهم ضعاف العقول ضئال التفكير ، وأغلب الظن أن البين لو راض عقله وصقل ذهنه بالتأمل الدائب الملح لوفق في رسالته أحسن التوفيق ، ومضى الى غايتــــه كما يرجو ويرجو له النقاد والباحثون

— ٣ —

ما دام الأديب أداة تصور واعية مرهفة تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة ، وصور الحياة ، فلن يحس بالفراغ يملأ ذاته ولا بالوحشة تحف نفسه وكيانه ، وهو أبداً يرقب جيشان عاطفته ، ويرصد خفوق قلبه . ثم يستمتع بهواه وشعوره ، والاستمتاع هنا معناه استيقاف الحياة قبل أن تطوى ، والاحساس بها احساساً «مضاعفاً» قوياً . وفي النفس نزوات مبهمة خافتة ، يبصرها الأديب الصناع ثم ينشرها عارية واضحة تكاد من فرط ظهورها تطفر لعين الرائي الشاهد

ويعتقد الأستاذ إميل فاجيه أن التكلف في البيان أشر ما يبلى به الأديب الفنان من العلل والأدواء ، وهذا حق لا ريب فيه ، وانما الريب في قول من قال إن مراقبة النفس تقتضي التصنع ، وتؤدي الى التكلف ، لأنها إنما تقتل الطبع الموهوب والهمة الفتية ، والقوة الدافقة . والحق إن المراقبة اذا كانت منظمة متصلة توسع إطار الاحساس ، وتوضح بداءة الشعور ، وتنهض بالقريحة الخابية الهامدة . . فلقد تستكين العاطفة ويخمد أوارها ، وتهدأ حدتها ويبرد لهبها ، وليس هذا مما نسميه النضوب والأمحال ،

وانما هو أثر من آثار الأعياء والنصب الشديد ، كأنما العاطفة المكدودة تنام فى جو مظلم ساكن ، وكأنما القريحة المتعبة تقف عن الشعور فترة غافلة من الزمان ! وفى هذه الحال لقد يأخذ الأديب نفسه بوصف منظر أو تبيان خلجة فيقف مكتوف اليدين متبلد الحس ، جامد القلم .

فالمراقبة انما توقظ العاطفة النائمة أو هى تهيجها كلما غفت ، ومن العجب أن تكون سبيلاً الى التكلف المرذول والتصنع الممقوت ، وعهدنا بكبار الشعراء أمثال لافونتين ولامارتين أنهم على هيامهم بالتنقيح والمطالعة والتأمل ، كانوا أطلق الشعراء لساناً ، وأرقهم بياناً ، وأسلسهم لفظاً

ومن الأدباء من لا يستوحى نفسه ، ولا يترجم عن طبعه ، وانما يستقى من ذاكرته ومحفوظاته وقراءاته ، وهؤلاء يكتبون فى غير جدوى ولا طائل ، والمعروف المتداول أنهم يأتون غالباً بتشابيه مستعارة ، وكنايات معادة ، وصور مبتذلة لا تعبر عن « شخصية » ولا تنم عن جديد مبتدع . وانما الرجوع الى الطبع دون الذاكرة الحافظة هو مصدر الأدب الخالد والابتكار القويم ، وليس من شك فى أن التكلف يضمحل ويتزايل أثره ، كلما رجع الفنان الى نفسه وعوّل على طبعه واستقى من عبقريته . ولقد يجمل بالمبين أن يتناول ما تمده القريحة فى الوهلة الأولى واللمحة الخفيفة ، وألا يصطنع شعوراً لا يتردد فى أطواء نفسه بل يأخذ ما جادت به العاطفة من غير جهد ولا عناء ! !

وكلمة « أنا » وما يشتق منها قد تكون سبباً مباشراً من أسباب التكلف البيانى ، لأنها تتصف بالشمول وتجمع الشتات كأنما هى عنوان النفس ورمز العاطفة ، والسبيل الذى ينبغى أن يسلكه الأدب الرفيع هو أن يحمل كل لفظ من ألفاظ اللغة جزءاً من النفس وقسماً من العاطفة ، أما « أنا » فما ينبغى أن تكون إلا عيناً تتفجر منها الأفكار والمعانى ، وتصدر عنها الأساليب واللغات ، وتصب فيها فروع الكلام وأغراض البيان

فاذا كان فى هذا عسر ومشقة ، فان الرياضة والمران حقيقان بأن يذللا كل شىء ، وكما يخلق اللاعب المرتاض لجسده الحواجز ليجتازها ، والجبال ليتسلقها ، والوديان ليهبط اليها ، كذلك يخلق المبين لنفسه طرائق ملتوية ليمارسها ، مهما تكن تلك الطرائق وهمية خيالية ، مادامت الغاية محمودة تبرر الواسطة ثم تخضعها بالتجربة والعادة

كانت العصور السالفة تقدم للمبين مواد التفكير الصحيح ، وأسباب العاطفة الحية ، وأدوات الكتابة الخالدة . وكانت الظروف والأحوال تنشىء المرء إنشاء جيلاً قوياً ، وتعده لحياة شديدة فيها من الجد والنشاط ، ومن الأبداع والانتاج ما يزرى بحياتنا الحاضرة الراكدة ، ويستخف بعيشنا اللاهى الهازل ..!!

كان الطالب إذا نال الشهادة وخرج من المعهد لا يرى بضاعته من العلم إلا قليلة موجزة ، ولا يعتقد فى نفسه إلا القصور والجهل ، فما يزال يقرأ فى الكتب والأسفار ، ويتلقى عمن هو أكبر منه سناً وأوسع تجربة ، حتى يريش ويهرم ، فهو أبداً فى دراسة دائبة ، واختبار متصل . ولم يكن مقياس النبوغ سعة القراءة والرواية ، وانما هو الفهم السليم والنظرة الصائبة . وكانت الآداب على اختلافها دروباً متشعبة تنحدر كلها به إلى النفس الانسانية يطالع منها ما يطالع ثم يجمع المتشابه ويفرز المتشابك ، ويستعمل النابه ويعنى بالضعيف الخامل . أما القصة فما كانت تتلى للتسلى والفاكهة أو لتزجية الوقت والفراغ ، وهى التى قد تبلغ عشرات المجلدات مخطوطة ومطبوعة ، وتلاقى من الرواج والذيوع ما يستدعى الدهشة والأكبار ! هذا إلى تراجم المؤرخين ، وتأملات الحكماء ، ومواعظ الزهاد والخطباء ، مما يوقظ العاطفة والشعور ويربى ملكة الانتباه والتفكير . وفى حضرة المرأة والطفل الناشىء كانت تثار فى غير تحرج ولا تقية أعوص مسائل الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد . وكان العرف الدينى والاعتراف الكهنوتى ، وحب الفضيلة يقلق المؤمن ، ويقض مضجعه ، ويضطره إلى مراقبة نفسه وإلى التعبير الدقيق عن خطراته ونياته

ومن ثم كانت النساء اللواتى لم يتعلمن سوى الأدعية والصلوات ، وكان الشبان الذين لم يفقهوا غير المبارزة والرقص — كان هؤلاء جميعاً يعبرون عن مرادهم تعبيراً حسناً ، ويفكرون تفكيراً صحيحاً ، فكانت الكتابة عندهم كالمحادثة والحوار ، يمنحونهما الجهد والأناة ، ويقصدونهما بقلوبهم وعقولهم مجتمعة متساندة .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

١٠ – أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ حسن الطويل

المالكي

الامام العلامة ، شيخ الشيوخ ، وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرّد في مصر بالبراعة في المعقول والمنقول ، وأتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلوّ النفس ، والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات .

وهو حسن الطويل بن احمد الطويل بن علي ، ولد بمنية شهالة إحدى قرى المنوفية ، حوالى سنة ١٢٥٠ كما سمعته من تلميذه الخاص العلامة الشيخ أحمد أبي خطوة . وذكر الشيخ بشير الظافر في كتابه اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ، أنه ولد سنة ١٢٥٦ ، وتربى بهذه القرية فقرأ القرآن الكريم وحفظه بها ، ثم انتقل الى طندتا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدي نحو سنتين أو ثلاث ، ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر ، مثل الشيخ محمد عليش المالكي في الفقه والحساب وغيرهما ، وعلى الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ ابراهيم السقاء ، والشيخ محمد الأشموني ، والشيخ محمد الأنبابي ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفي ، فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ في حضور السعد ، وكان من دأبه في أول أمره معاكسة المشايخ في الدروس بكثرة الأسئلة والمناقشات ، حتى حدث ما اضطره إلى الأنقطاع عن الأزهر ، وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول في الجندية بقانون وضع لذلك أمر به سعيد باشا والى مصر ، ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته طلب معهم

تجنيده بأمر سعيد باشا

وجند مع من جند فصار واحداً منهم ، إلا أنه لم يسلك مسالك أكثرهم في التفريط في الفروض ، فكان يواظب على الصلوات والأوراد ، وكان الوالي يكره من الجند من يصلي ، وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ احمد شرف الدين المرصفي كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرج كربه ويخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب في أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم اهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم في السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل في هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ما وقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالتماردة ، فغضب مرة على التماردة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه إلا أنهم بقوا تابعين له ، وهم ما كانوا يسمونهم بالعساكر الأمدادية ، وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة ، وكان قبل ذلك يجتمع على الشيخ خالد أحد مشايخ الطريق فرأى أن يسافر اليه فسافر الى بلدته السباط بالسرية من أعمال المنية أى منية ابن الخصيب ولزمه بعض أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطريق

فراره

ثم طلب الى الجندية مرة ثانية فذهب اليه أبوه ليحضره وأراد الشيخ خالد منعه فلم يرض هو بل عاد مع أبيه الى قريته فوجدهم أهملوا طلبه ، فحمد الله وأراد والده ابقاءه معه في القرية خوفاً من أن يعود الى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر وخرج

أما اليوم فالذاكرة الحافظة هي غاية الغايات ، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدى ضيق من الزمن كما يكدسون في المراكب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة لتقلها إلى المرفأ سالمة لا أكثر ولا أقل . والمرفأ هنا هو الفحص الذي ينتهي عنده الدرس ، وينسى الطالب بعده ما اكتسب من العلوم . ذلك بأنه تعلم منفعلاً لا فاعلاً ، تعلم كما تدور الآلة من غير وعي ولا تفهم ، فالبرامج واسعة ، والوقت قصير ، والتمثيل منعدم ، والهضم سيء .

وجملة القول أن التربية الحديثة ، لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية ، ولا تهيئ العاطفة للفن والكتابة . وما دام الخروج على البيئة مستحيلاً ، فان تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغي العناية بأمرهما والنهوض بهما ما ؟

حمص « سوريا » محمد روحي فيصل

من غير علم أبيه من القرية وهو لا يملك شيئاً ، فمشى على قدميه يبيت في كل بلدة تصادفه حتى وصل الى القاهرة ، ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئاً أكله ، وذهب الى الأزهر فصادف الشيخ محمد السقاري في طريقه ، فلما رأى المترجم أسرع اليه وهش له ، وأخبره أنه يطلبه من مدة . ثم أنزله بداره وحلف أن يبقى بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده ، وكان مراد السقاري نظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له وأخذ السقاري عليها أربعين ديناراً جائزة . ولما انقضى الشهر حفّ الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن العدوي لتصحيح البخاري ، وكان شرع في طبعه فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب الى ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتحنه فأعجب به ، وكاد يطير فرحا وقال عنـه هذا جوهرة خفيت عنا ، واستخدمه في الحال للتصحيح بهذا الديوان ، وسعى له حتى محوا اسمه من الجيش حتى لا يعاد طلبه .

ثقافته العامة

وكان المترجم في هذه المدة عاد لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهل للتدريس فدرّس بالأزهر ، وكان أول درس قرأه في شوال سنة ١٢٨٣ . وابتدأ فيه بالقراءة في الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الافغاني فتلقى عنه العلوم الحكمية ، وبرع فيها ، وتلقى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي ، ونظر في الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبر ، وطالع كتب اللغـة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلا ويسعى اليـه ، ويتلقاه عنه كائناً من كان ، حتى صار نسيج وحده ، وفريع دهره ، في سائر العلوم مع بعد النظر في السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الأنكار على البدع والمستحدثات في الدين .

مشاهير تلاميذه

وقد قرأ عليه في الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين ، فكان الشيخ الأجل أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد عبده ، والسيد احمد الشريف ، وابراهيم بك اللقاني ، والشيخ محمد راضي البوليني ، ممن قرأ عليه في الطبقة الأولى من تلاميذه . ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ محمد الغريني ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعه ، وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربي ، والشيخ أحمد الزرقاني ، وغيرهم ممن لا يحصون ، واختص به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ راضي البوليني ، والشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، فكانوا يقرأون عليـه في داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه فانتفعوا به في دينهم وأخلاقهم فوق انتفاعهم بعلمه .

ثم نقل الى نظارة المعارف وعيّن للتفتيش فيها ، ولما مات الشيخ زين المرصفي مفتشها الأول سنة ١٣٠٠ ، وأقيم بدله الشيخ حمزة فتح الله المفتش الثاني جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرّساً بمدرسة دار العـلوم ، فعمّ الانتفاع به ، وتخرّج عليـه أحسن من نراهم الآن من الأساتذة المتخرجين في هذه المدرسة كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ محمد الخضري ، والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من أفاضل الوقت .

وفاته

وبقي في هذه المدرسة الى سنة ١٣١٧ ، وكانوا شرعوا في الامتحان قبل الأجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كعادته . ثم ذهب لداره معافى ليس به شيء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح . ثم طلب الافطار والقهوة ، وأخذته غفوة كان فيها القضاء المحتوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم الا والنعاة ينعونه والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة في موت كبار العلماء ، وأم داره شيخ الأزهر الشريف الشيخ عبد الرحمن الشربيني ، والشيخ محمد عبده المفتي ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً ، فصلوا عليه في الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين رحمه الله وغفر له عدد حسناته . ومن غريب المصادفات أنه زارني قبل وفاته بيومين في ليلة مقمرة ، فجلسنا في صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولعاً به مع قلة اجادته فيه ، فقال لي عند ما أراد الذهاب نحن الآن في الامتحان ، وقد قربت الأجازة ، وصدري ضيّق في هذه الأيام من الناس ، ونفسي تجنح للعزلة ، فهل تعرف لي مكاناً أقضي فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت يا سيّدي اذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً الى ضيعتنا التي بقويسنا فنخلوا

فيها بكتاب نقرؤه ، فقال نعم الرأي هذا ، وسأستصحب معي ولدي حسيناً ليشترك معنا في القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله الى جواره ويسر له العزلة ، ولكن في دار قراره ، فاصبت فيه مضيبة لم أصبها في بعيد ولا قريب ، لما كان له علي من الفضل ولو لم يكن له علي سوى تصحيح العقيدة وتأديبي بآداب الحنيفية السمحاء لكفى .

الاستاذ يرشد

أما سبب اجتماعي به وقراءتي عليه ، فاني كنت خرجت من المدارس بعد تلقي ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا في سن العشرين ، وقد علق بالعقيدة شيء من آثار التربية بهذه المدارس إلا أني كنت مولعاً من الصغر بالاسلام ومحاسنه ، والمطالعة في السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدري لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لي فيها شبهات . ثم كنت أعرض ما يظهر لي من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التي تمسكوا بها ، وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد التناقض والتصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ، لعلي أجد عندهم مفرجا فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، فاما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله الحاد تأصل في النفس . حتى أرشدني بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت في السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا يتفرقون مني حتى بالغ بعضهم عامله الله على يستحق ورماه بالزندقة ، فقلت اذا كنت لم أجد طلبتي عند من تسموتهم بالصلاح والورع ، فلعلي أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت في الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه ، والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه الصرف بتوسع وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة في شرح الدواني على هياكل النور للسهروردي ، وشرح رسالة الزوراء وغير ذلك . ولما رآني مجداً في التحصيل ، قرر لي درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها ، وأنا في كل هذه المدة أستوضح منه ما أشكل علي فيجليه لي ، فكان اجتماعي به ومصاحبتي إياه من أكبر نعم الله علي في ديني ، وكثيراً ما كان يغضب مني ويؤنبني اذا رأى مني تهاوناً في الصلاة .

وكان من عاداته الخروج الى الريف كل خميس ترويحاً للنفس فكان يذهب الى الأميرية من ضواحي القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فودة فيقضي عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت فلما عرفته صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر في بعضها الى ضيعتنا التي بقويسنا أو الى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضي معه هذين اليومين في مطالعة واشتغال حتى في حالة المشي والتنزه كنت أحمل الكتاب معي وأسمعه فيه فيقرر لي المسائل ونحن سائران

كانه متصوفاً

وكان رحمه الله سني العقيدة ، صوفي المشرب ، لايحيد عن الشرع قيد أصبع ، آخذاً بمذهب الامام ابن تيمية في مسئلة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكراً على المبتدعة أشد انكار ، آية من آيات الله في معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلعاً من الحديث ، متحصناً بالشريعة في كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات ، وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره في ذلك عجباً وشأنه فيه مستغرباً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومع انحراف علماء الأزهر عنه لانكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فانهم كانوا مقرين بفضله ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه في معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين

أخلاقه وسماعه

أما أخلاقه فزهد غريب ، وعلو نفس عن الدنايا ، وبعد عن الرياء ، وتواضع مع كل انسان ، وسذاجة في الطعم والملبس والمسكن ، لاينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ويتصدق بالباقي في الخفاء ؛ فلما مات قام الصراخ في دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل ، كان يعولهم في كل شهر بما فضل من نفقته ، وما علم بهم أحد حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به إلا بعد موته .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر في مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله يحفهم ، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين ، تقوى على جمع شملهم ؛ ولذلك لما قام المهدي بالسودان وانتصر انتصاراته المشهورة واستولى على البلاد السودانية ، أحسن المترجم فيه الظن

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، حتى اضطر الانكليز أن يسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه لولا أن سلمه الله

ولمداومة اشتغاله بالاقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً ، غير أن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس بجمع مايلقيه من الدروس ، وكان يدرّس التفسير بمدرسة دار العلوم ، شرع فى جمع ذلك فى كتاب سماه « عنوان البيان » لم يطبع منه غير المقدمة سنة ١٣١٦ ، أى قبل وفاته بسنة

أحمد تيمور

المعلقـــات

رأى جديد فيها

للأســـتاذ عبد المتعال الصعيدى

اختلف علماؤنا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية تلك القصائد التى جمعها حماد الراوية باسم المعلقات ، وكان حماد أول من جمعها فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل عصر بنى العباس ، وذلك أنه رأى زهد الناس فى الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة ، ويراد بالشعر الذى زهد الناس على عهد حماد فيه الشعر الجاهلى القديم ، وإلا فان سوق الشعر كانت رائجة فى عهد حماد ، وكان الشعراء المحدثون فى ذلك العهد لايحصون من كثرة ، وقد ابتدأوا يخرجون على الشعر القديم ويزهدون فيه ويهجرون مذاهبه وأساليبه ، وكان أول من فعل ذلك بشار بن برد الذى يعد فى رأس الشعراء المحدثين ، وكان من أصدقاء حماد المقربين ، فدعا هذا حماداً إلى محاولة إحياء ذلك الشعر المهجور ، وترغيب الناس فى حفظه وروايته ، فجمع هذه القصائد لهم ، ولعلها كانت أول ماجمع من هذا الشعر

ويؤخذ من نص الرواية السابقة فى جمع حماد لها أنها لم تكن قبل جمعه لها تعرف بهذا الأسم « المعلقات » وأنها كانت تسمى عقب جمعه لها القصائد المشهورة ، أخذاً من قوله بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المشهورات » ولو كانت تسمى قبل جمعه لها باسم المعلقات لقال بدل هذا بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المعلقات » فسماها باسمها المعروف ، ولم يعدل عنه إلى ما ذكره فى تمييزها ، فعدوله إلى ذلك دليل على أنها لم تكن تعرف باسم المعلقات ، بل إن عنايته بجمعها وما عمله فى ذلك من أقوى الأدلة على أنها لم تكن تعرف بهذا الأسم ، لأنها لو كانت تعرف قبل حماد به لكان لها اسم يجمعها ، وكانت مجموعة بالفعل فيه ، ولم يكن هناك من حاجة الى جمع حماد لها

فاذا أردنا أن نعرف كيف حدث هذا الأسم « المعلقات » لها بعد جمعها ، فلننظر ماجرى للناس معها بعد جمع حماد لها ، فلقد أخذوا يعنون بحفظها وشرحها ، ثم شغفوا بذلك الحفظ والشرح واتخذوها متناً شعرياً مثل المتون التى دونت فى العلوم بعد جمعها ، وشغف الناس بحفظها وتعليق الشروح عليها ، ولكن هذه القصائد كانت أسبق جمعاً من هذه المتون ، حتى أتى عليها زمن وهى منفردة بعناية الناس بتعليقها حفظاً وشرحا ، فشاع لها بين الناس هذا الأسم الجديد « المعلقات » ونسوا به اسمها القـــديم « القصائد المشهورة » ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء من العلماء من عنى بفهم هذا الأسم الجديد لها ، ومعرفة سر اطلاقه عليها ، ففرض له تلك الفروض الخاطئة التى سنبين فيما بعد خطأها

ولاشك أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد مما عنى به الناس بعد جمعها من حفظها وشرحها ، فان الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه ، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحاً له ، ولاتزال الشروح التى توضع على المتون ونحوها تسمى شروحاً وتعليقات ، وقد جاء فى القاموس والأساس أنه يقال فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك ، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها ، وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر

فهذا إن لم يكن هو الذى وقع فى حدوث هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد بعد جمعها ، فهو فرض قريب يرتاح اليه العقل فى بيان وجه تسميتها بذلك ، وهذا شأن كل الفروض العلمية التى يراد منها تقريب فهم بعض المسائل النقلية من المعقول ، إذ تستعصى عليها ، ولا يمكنها بيقين معرفة سرها ، وهو خير من تلك الأمور الخاطئة التى يذكرها من يذهب الى أن تلك القصائد كانت تسمى قبل جمعها باسم المعلقات ، ولابذكرها على أنها

فروض يهون الخاطئون فيها ، بل على أنها أمور وقعت وكانت سبباً في تلك التسمية

قالوا إن الشعراء فى الجاهلية كانوا يقصدون أسواق العرب التى كانوا يقيمونها كل سنة بجوار مكة فيتناشدون الأشعار ، وكان ينصب للشاعر فيها ربوة فيصعد اليها ، ويحدق به العيون ، وتشرئب اليه الأعناق ، فينشد قريضه عليهم حتى يأتي على آخره ، فلا يقاطعه أحد ولا يستوقفه ، فاذا ما أحكم القول ، وبلغ من الفصاحة ماوقع اتفاقهم على حسنه وإجادته كتبوه بحروف الذهب على نفيس الديباج وعلقوه على الكعبة المشرفة ، تنويهاً بشأن صاحبه ، وتخليداً لذكره

وممن قال بهذا أو نحوه فى سبب تسمية تلك القصائد بالملقات أحمد بن عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد ، وابن خلدون ، وابن رشيق . قال ابن عبد ربه : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطي المدرجة ، وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات »

وقال ابن خلدون بعد كلام له فى ذلك « حتى انتهوا الى المباهاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام ، موضع حجهم ، وبيت أبيهم ابراهيم كما فعل امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع »

وقال ابن رشيق « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم ، فكتبت فى القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء »

وكان أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ يخالف صاحب العقد ومن تابعه على هذا المذهب فى علة تلك التسمية ، وكان أبو جعفر معاصراً لابن عبد ربه وهو من علماء المشرق ، أما ابن عبد ربه فمن علماء الأندلس والمغرب ، وقد ساح فى بلاد الشرق وسمع من علمائه ، ثم رجع الى بلاده

وقد قال أبو جعفر فى هذا من شرحه على تلك المعلقات « واختلفوا فى جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوا لنا هذه ، وأثبتوها فى خزانتي ، وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة »

ولم يذكر أبو جعفر من هو هذا الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزانته ، وقد رجح بعضهم أنه النعمان بن المنذر لأنه هو الذى كان يعنى من ملوك المناذرة بجمع أشعار العرب ، وكان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول ، وقد صار ذلك الديوان أو مابقى منه الى بنى مروان على مارواه أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى فى كتابه طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين

ويستند أبو جعفر فى رأيه هذا على ماقيل الى أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ويؤخذ من ذلك كله أن تسميتها بالمعلقات عند أبى جعفر يرجع الى قول الملك علقوا لنا هذه ، لا الى أنها علقت فى الكعبة ، ولست أدري على أي شيء يستند أبو جعفر فيما ذكر عن حماد فى جمع هذه القصائد ، وهو كما قلنا ينقض تسميتها بالمعلقات قبل جمعه لها ، سواء أكان ذلك للوجه الذى ذكره أم كان للوجه الذى ذكره غيره

ولاشك أن عصر النعمان بن المنذر أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات ، مثل امرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فلا يصح أن يكون هو الذى كان يعلق قصائدهم بخزانته ، بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ ، واستحسانه إنشادها ، بل إن سوق عكاظ ، ويكادون يجمعون على أن تلك القصائد كان ينشدها أصحابها فيه ، أحدث بكثير من عهد هؤلاء الذين ذكرناهم من أصحاب المعلقات ، فقد أقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وهو العام الذى ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم بقيت الى مابعد الاسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وفى عهد إنشائها كان جيل امرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة قد انقرض ، أو كاد ينقرض ، وانا نستطيع أن نجزم بأن هذه القصائد السبع لم تقل فى سوق عكاظ ، ولا فى غيره من الأسواق العربية التى كانت معاصرة له ، وقد ذكروا لها أسباباً معروفة قيلت من أجلها ، وأمكنة غير سوق عكاظ أنشدت فيها ، وذكروا لبعضها ملوكاً غير النعمان قيلت أمامه ، ولسنا فى حاجة الى تفصيل هذا كله لشهرته ؟

عبد المتعال الصعيدى

من شعر الشباب

السحاب

مُزجى الشتاء بخيله و برجْلِهِ والمنذرُ الدنيا بوشْكِ إيابِهِ (١)
يَشْجُوكَ من ماشٍ على لِمَمِ الرُّبَى طرّاقِ أجوازِ المدى جوّابه
تسعى جنود البرد تحت جناحه والريح والإعصار حول ركابه
حيث انتحى أرخى مسائح (٢) دَجْنِه
وتجلّلَ الآفاقَ جَوْنُ حجابه
ورمى على شمس الضحى بمسوحه وطوى محياها دُجى جلبابه
ليس الربيع بمانعٍ رَجَفَاتِهِ رغم الربيع ورغم وَفْرِ شبابه
فإذا دنا انقبض الفؤاد تطيُّرًا بقدومه من بعد طول غيابه
وأثار في النفس القنوط وأشفقتْ من ثقلِ خطوته ومن إلبابه (٣)
فإذا سرى بردُ القلال مخالطاً أجزاءه وانسلّ في أعصابه
أوْهَى عُرَاهُ وفَتّ في أوصاله فانصبّ ملء السهل في تسكابه
فَجَرتْ عيون الأرض بعد جفافها
وروى نبات الأرض من أكوابه
في كل غابٍ دَاغِنٍ أو غَيْضَةٍ غَدِقَتْ غَوادِيهِ وأفرغ ما به
وبكل قاع مُمرِعٍ ويفاعةٍ توقيعُ وكّافِ النّدَى صبّابه
وبكل منحدرٍ تدفّقَ مَشْرَعٍ ينساب في إزباده وحبابه
لم يُلْفِ شيئاً ثم يشكو جَدْبَهُ ظمآنَ إلاّ لجّ في إخصابه
حتى إذا أفنى غزيرَ شئونه همياً وأنفدَ كلّ ما بوطابه
وسخا على الوادي البنيع بروحه وعلى ثناياه وبين شعابه
وَلّى وغادر بعده أسلابه تزهو بقاع الأرض في أسلابه
تمايد الأعواد في أندائه طرباً وتَغْدَقُ (٤) في تقي رُضابه
فأعجبْ لأسودَ ذي يدٍ بيضاءَ لا ينفكُّ يُسبغ من شهيٍّ رغابه
جهم المحيا لا يُرام لقاؤه والجودُ والبركاتُ ملءُ إهابه
عَبَسَتْ لغدْوته الرياضُ فإن مضى
هشّتْ لفيض يديه بعد ذهابه
وترقرقت في كل روض قُضْبُهُ مُخْضَلّةً ريّا ببَرْدِ شرابه
وتألّقت حُمْرُ الزُّهور وصفرها حَلْيًا ووَشْيًا في اخضرار ثيابه
وسَرَى النسيم مُجمّمًا أين انتهى من زهره الزاهي شَذَىً مَلاَبه

كمبردج **فخرى أبو السعود**

---

(١) في سياق القصيدة محاكاة لطريقة ترديد المغنى بصدى الألفاظ المتبعة في بعض الأشعار الغربية.
(٢) مسائح : ذوائب (٣) إلبابه : مكثه
(٤) تغدق : تبتل بالماء

حيرة

إن روحي في الفضا حيرى تحوم مثل طير ضل عن سرب الطيور
واشتهى الشمس فأخفتها الغيوم واشتهى الريح فضنت بالمسير
فانثنى تعلو جناحيه الهموم ودعا يشكو ويبكي في دعاه

***

إن روحي ترتقي هذا الفضاء وهو ليل مظلم رطب فسيح
فيحيط القدس قلبي بالهناء وأحس الشك في صدري يصيح
وظلام الجو للشك وعاء وانفساح الأفق للروح صلاه

***

هذه شتى انفعالات النفوس كرياح البحر تأتي عاصفات
جافلات في عَرا قلبي تجوس دون وعي منه بل دون التفات
اي وعي عند تهتان الكئوس للذي استعبدت الراح هواه ؟

***

ما أرى جرما ولا قبحاً بدا لم يكن يعمر نفسي بعضه
أو جمالا أو حناناً أو هدى لم يكن يعمر نفسي فيضه
سكن العيش فؤادي والرّدى وفؤادي بهما يقضي مناه !

***

عقد الكون بنفسي الاتصال فكأن الكون مني قطعةٌ
وجرى الدهر عليه كخيال هو مما في جناني صورةٌ
ما احتياجي للمطايا والرحال ! انني للدهر والكون نواه !

الظلام الوحش حولى لا يريد عن محيا الحق إلقاء النقاب
فهو يغرينى به كى أستزيد ثم يمهيه أمامى كالسراب
ليتنى ألقى غشاء من حديد دامج الليل على عينى رماه!

***

لست أخشى الحق بل أخشى الوجود
وأخاف الزهر يبكى للنسيم
وأخاف البحر هدار الوعيد وأخاف الطير يشدو كاليتيم
وأخاف الغصن يذوى كالشهيد وتلاشيه المنايا فى صباه

***

اننى أخشى بنفسى الانفراد ثم أخشى الناس أن تجمع بى
كم يصيح الدمع فى ليل الفؤاد كهزيم عاصف مضطرب!
انما الحيرة فى فهم المراد مثل داء يجهل الطب دواه

***

أنا من شىء الى شىء أفر حول نفسى مثل مخمور أدور
عقرب وسط لهيب مستعر لا يرى فيه سبيلا للعبور!!
كتب الهم على لوح القدر يوم حار الفهم فى معنى الحياه

***

هتفت عيناى بى تشتكيان قسوة الظلمة : خوفا وعمى
وهما من كل نور تخشيان ما يوارى : حرقا أو عدما
الحياة النور والنور الأمان والظلام الخوف والخوف الحياه!

***

انظرا هذا شعاع الحق لاح كشهاب يرتقى عرش السماء
كلما جئناه عن قرب أشاح فهو كالشمس التى تطوى الفضاء
يتبع الطفل خطاها فى الصباح علها تقرب... ماجدوى خطاه؟

***

يا شعاع الحق فيإذا الفرار أترى لقياك تعمى بصرى؟
أنت للقلب ملاذ ومنار فأنر قلبى وأطفئ نظرى
إن يكن لابد من حمل الستار لن تضىء العين للقلب عماه

باريس حسين عارف

رسالة

رسالة كفتيت المسك عاطرة بكل مايشتهيه القلب من وطر
ما إن تناولتها حتى أحاط بها قلبى ولم يك يدرى سرها نظرى
ورف فى جنبات الصدر مبتهجا كالطير عادت اليه الأم بالثمر
وبثها الدم فى الأحشاء فانتعشت كالزهر جاد رباه هاطل المطر

***

منى الفؤاد الذى انضمت جوانحه على لهيب من الآلام مستعر
أهفو اليك وما أندى على كبدى
من أن أناديك فى الآصال والبكر
دعنى أذع بعض ما تخفيه جانحتى
ففى الجوانح حب ثائر الشرر
وأصطفيك بشعر أنت ملهمه عف عن اللغو والاسفاف والهذر
فمنك أنهل شعرى ثم أبعثه إليك عقدا بديع النظم والدرر
أولا فإن حيائى منك يمنعنى من أن أبوح بحب عنك مستتر

فريد عين شوكه

زهرة

زهرة فى الروض تزهو فى ثياب المترفين
جلست تستقبل الصبـ ـح على العرش المكين

***

أهديت من كل زهر عاطر أنفسه
وحباها الله خدا ناعما ملمسه

***

فهى ريحان وورد وهى ريا الياسمين
وهى من مسك وكل الزهـ ـر من ماء وطين

***

زينت زندا جميلا بسوار الزرد
تعل الخدين منها بمياه البرد

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بمناسبة ذكراه الثانية

حافظ بك ابراهيم

الشاعر الوفى لمصر

بقلم السيد احمد العجان

حافظ شاعر النيل متعدد النواحي فى الدراسات ، متشعب المباحث فى التناول ، والتحليل الدقيق إنما يكشف كل ناحية ويبين كل مبحث ، وليس الألمام بعبقريته ونبوغه وشاعريته وخياله مما تأتى عليه هذه العجالة ، ولكننا سنقتصر على ناحية واحدة هى وفاؤه للنيل وأهله ، وكيف كان هذا الوفاء دفيناً فى نفسه ، مستقراً فى جنانه العامر ، يتحرك به لسانه فى كل مناسبة ، ويجرى به قلمه كلما عنت فرصة

والذى نلاحظه فى شعر حافظ هو ما يحملنا على اليقين بصدق وفائه وإخلاصه ، ومحبته لمصر وأهلها ؛ فهو إذا انتقد كان لاذع النقد قويه ، يظهر المثالب ، ويعدد المساوئ ، ويود لو نتخلص منها ، ونحيد عنها . وقد يكون فى النقد المر اللاذع شكا فى الوفاء والأخلاص لو أنه ضن بالنصيحة وبخل بالأرشاد . ولكن حافظاً حين يهزه الألم من حالة مصر حتى ليود الخلاص من الدنيا ، والفرار من الحياة ، وحين يسخط شديد السخط عليهم ؛ لم يكن لكراهته لهم ، وبغضه إياهم ، وإنما لأنه يرجو لهم الخير الشامل الغامر ، والرقى الدائم السديد ، يحدثنا حافظ عن ذلك بأجلى عبارة وأوضح أسلوب

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلاً ؛ ما بت أشكو النوبا
أمة قد فتّ فى ساعدها بغضها الأهل ، وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا وتفدّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها أم بها صرف الليالى لعبا

ومما يقوى لدينا الأدلة على وفاء حافظ للنيل ، وحبه لهذا الشعب أنه لم يكن يقنع بالتحدث عن الغرض الواحد عدة مرات بهذا الأسلوب العالى الرصين ، كالذى نراه فى وصفه للحالة الداخلية وموقف بعضنا من بعض ، وموقف الصحافة منا ومن الوزارة ، ثم موقفنا من دار المندوب البريطانى ، وبيانه أن طريق الرقى هى العلم ، وأنه الوسيلة فى النجاح والظفر ، وهو من وراء ذلك يضع أمله قوياً فى الشباب ، ويكثر من ندائه لهم ، ولا يزال يستنهض الهمم ويضرب المثل باليابان كما سنوضح ذلك من شعره

إن إخلاص المخلص لا يؤدى ثمرته إذا لم تتوفر فيه عناصر ثلاثة : نقد قوى اللهجة للمثالب حتى يحس المنتقد ضعفه ، ويقف على عيوبه ؛ فيجتنب الغرور ويقترب من الفضيلة ؛ ونصح سديد الفكرة تظهر فيه سبل الخير ويبين منه طريق الهدى ؛ كى يسلكه المنصوح له دون عثار أو ضلالة ؛ وأمل فى الله والشعب كبير رجاء التوفيق وابتغاء الاصلاح .

وهذه العناصر الثلاثة قد ظهرت بوضوح فى شعر حافظ ، وكان لكل منها مظاهره العدة ، وأنواعه المتنوعة . وسنتناول كلا منها على حدة :

١ — نقده : فى الشعر السابق وصف حافظ ما نحن عليه من كراهة الأهل وحب الغرباء ، وأننا كرماء لضيوفنا ، نهوى الألقاب فى غير العلا ، ونعشق الرتب . ويحدثنا عن حالتنا النفسية بأنها سليمة مستقيمة فنحن :

ألفنا الخول وياليتنا ألفنا الخمول ولم نكذب
تضيع الحقيقة ما بيننا ويَصْلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبى

ونراه يحدثنا عما هو واقع بيننا من الفخر بالمال الموروث أو بالرتب ، ثم تأخذه حمية الغضب : فيقول إنما الفخر بالعلم والاختراع ، وبالفضل والأدب :

بَسَمت للشمس لما سطعت فوق الخميله
وبدت فى الروض تزهو مثل حسناء جميله

***

فاسلمى يا زهرة الوا دى من الأيدى العوادى
وانبذى الماء على الأرْ ض الى ماء الغوادى

محمد مصطفى حموده

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا بمال غير مكتسب
فقل للفاخرين أما لهذا الفخر من سبب
أرونى بينكم رجلاً ركيناً واضح الحسب
أرونى نصف مخترع أرونى ربع محتسب
أرونى نادياً حفلاً بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب

ولقد عاب علينا اعتبارنا للمظاهر ، وانخداعنا بالملابس :

إن قومى تروقهم جدة الثو ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب باهر لونه وبين حذاء

وضعف الرجولة داء كمين فى بعض المصريين كشف عنه حافظ ، وأبان طوائف الناس بين مهلل مع المهللين لا يعرف له غرضاً ، وبين ساع إلى دار المندوب البريطانى ، أو متردد على أبواب الحكام .

فهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

ووراء أخر أشد فتكاً ، وأقوى بطشاً ، وهو الصحف التى تطن طنين الذباب ، وما هى إلا حصائد ألسن تجر إلى الويلات وأنها أيبست مابيننا فى الأخذ والرد ، فصحف ترى رأى المندوب البريطانى ، وأخرى تعد هذا جرماً وإثماً كبيراً ، والوزارة من وراء ذلك فى رغد ونعيم

وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب

وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب
حصائد ألسن جرت إلى الويلات والحرب

وآراء الصحائف أيبست ما بيننا أخذاً ورداً
هذا يرى رأى العميد وذا يعد عليه عداً
وأرى الوزارة تجتنى من مره هذا العيش شهداً

ومصابنا الذى يفوق كل مصاب ، ودواؤنا الذى يعلو على كل داء ، هو تزلفنا لدار المندوب البريطانى وهو البعيد عنا لغة ، وجنساً ، وديناً ، والأجنبى عنا مهبطاً وميلاداً ، والذى لا نلتقى وإياه إلا فى وادى بؤسنا ودار نعيمه ، والذى لا تجمعنا وإياه آلام ولا آمال . وحافظ يبرئ المندوب من كل ذنب ، ويخليه من اللام فسبيله أن يستبد ، أما نحن فشأننا أن نستمد

وقالوا دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياماً ولما نفق فشمر للسعى والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب

أنا لا ألوم المستشار (م) إذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد (م) وشأننا أن نستمدا

٢ — *نصحه وإرشاده* : ولكن حافظاً لم تفل من عزمه هذه العيوب ، ولم تثن همته تلك المثالب ، ولم تقعد به هذه المخازى عن إسداء النصيحة وحث الهمم ، وضرب اليابان مثلاً ، وجعلها قبلة

فهبوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابان جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً وهمنا بابنة العنب

أيجمل من بعد هذا وذاك بأن نستكين وأن نجمدا
وها أمة الصفر قد مهدت لنا النهج فاستبقوا الموردا

ثم تراه لا يرسل النصيحة خلواً من كل سند ، بل يشفعها بتلقين عظمة الآباء ، والإيحاء بعزة الماضى ، ومجد التاريخ ، ويرى أن الزمان قلب ، والفلك دوار ، وأنه لا علينا أن نهزم اليوم إذا كنا نتوثب للغد ، وأن نبتلى فى الحاضر كى نتأهب للمستقبل

فديناك يا نيل لا تجزعن إذا اليوم ولى فراقب غدا
فلا يؤسنك قول العداة وإن كان قيلاً كحز المدى
أتودع فيك كنوز العلوم ويمشى لك الغرب مسترفدا
ويقضى عليك قضاة الضلال طوال الليالى بأن ترقدا

وتراه لا ينسى هذا التلقين والإيحاء والاعتداد بالماضى فى كل مناسبة وفرصة كما فى وداعه لصديقيه محمد بك بدر ، وأحمد بدر عند سفرهما إلى بلاد الإنجليز

سيرا أيا بدرى سماء العلا واستقبلا التم ولا تأفلا
سيرا إلى مهد العلوم التى كانت لنا ثم ازدهاها البلى
وخبرا الغرب وأبناءه بأنا نحن الرجال الأولى

لئن غدا الدهر بنا مدبرا ... لابد للمدبر أن يقبلا

ويختم حافظ نصيحته بالوسيلة الأولى للنجاح والظفر ، والتغلب على الصعاب ألا وهي العلم ، ويرى أن انشاء الكتاتيب لا يغني عن العلم الصحيح ، وأن ألف كتاب لا تعدل مدرسة عالية ، أو جامعة منظمة تضم بين جنبيها رجالاً أكفاء يتعهدون الناس بالتعليم ، والمداواة ، والسهر على الأمن والأرواح ، والقضاء فيهم ، والاشراف على موارد المياه وتصريفها ، ورصد الافلاك والكواكب ، والبحث عن بقايا القدماء ، ومخلفات الآباء بالحفر والتنقيب

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغني عن الشهب
هبو الأجير أو الحراث قد بلغا ... حد الكتابة في صحف وفي كتب
من المداوي اذا ما علة عرضت ؟ ... من المدافع عن عرض وعن نشب ؟
ومن يروض مياه النيل ان جمحت ... وأنذرت مصر بالويلات والحرب ؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم ؟ ... حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
. . . .
ومن يميط ستار الجهل ان طمست ... معالم القصد بين الشك والريب
فمالكم أيها الأقوام جامعة ... ألا بجامعة موصولة السبب

٣ — **رجاؤه في تحقيق هذه الآمال** : ثم إن حافظا — رحمه الله — كان عامر الفؤاد بالرجاء في الاصلاح ، قوي الايمان بالتوفيق ، يود لو هيأ الله لمصر صلاحا وللنيل سعادة . وقد وضع أمله بين يدي الشباب ونابتة النصر ، ولا غرو فالشباب أقوى من يحمل الأمانة ، ويؤدي الرسالة تحت إرشاد الشيوخ . وموعظة الكهول .

يامصر هل بعد هذا اليأس متسع ... يجرى الرجاء به في كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا ... كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكي على بلد سال النضار به ... للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه ... كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب

ثم هو في ندائه للشباب يضع آلام الوطن بين يديه ، ويثير عواطفهم لحبه والأخلاص له ، بأسلوب أخاذ بمجامع القلب والنفس جميعاً .

وهو رحمه الله حين يأمل الخير للنيل وواديه ، ويرجو له أن تحقق آماله وأمانيه ، وألا تحلو موارده إلا للمخلصين من بنيه ؛ تهيج به الآلام ، وتحرك كوامن غيظه ودفين حسرته

متى أرى النيل لا تحلو موارده ... لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب
كأنني عند ذكرى ما ألم بها ... قرم تردد بين الموت والهرب

هذا حافظ الشاعر الوفي لأهله ووطنه ، والمخلص لشعبه وأمته ، مر عامان على وفاته ، دون أن يذكره شعبه أو يحيى ذكراه ؛ لولا أدبه الخالد الذي يأبى الركود ويعشق الحياة

قد أضاعوك غير أن الذي أظ ... هرت من عبقرية لا يضيع

فرحمه الله وجزاه باخلاصه ، وعوضه عن نكران شعبه حياة أدبه

السيد احمد العجان

من الأدب الهندى

محمـــد اقبال

للدكتور عبـــد الوهاب عزام

قدمت فى الرسالة نبذاً من كتاب إقبال الذى سماه « أسرار خودى » فعرف القارىء رأى الشاعر فيما سماه « الذاتية » ورأى كيف ضرب مثلاً من الطائر الظمآن وقطعة الماس ، ومن الفحم والماس .

وفى هذا المقال يرى القارىء كلمتين من الكتاب نفسه : الأولى قصة الشيخ والبرهمن ، ونهر الكنج وجبل هماله ، والثانية « الوقت سيف » . وإذا رأى القارىء غموضاً فى بعض الجمل فمرجع هذا أن كثيراً من المعانى والعبارات غير مألوف فى العربية ، وأن الشاعر الكبير يعرض آراء من فلسفته الخاصة ، لم تذلل لها اللغة التى كتب بها . وهو يشكو فى كلامه عن الوقت من أن الألفاظ تضيق بالمعانى التى يحسها .

وكان أهون على أن أكتب فى موضوعات أخرى هى أقرب الى القراء ؛ لولا أنى أود أن أبين جهد الطاقة عن جوانب مجهولة من أدبنا الشرقى ، ولا سيما فلسفة شاعر الاسلام الأكبر محمد اقبال

ويرى القارىء أنى أحاول بالسجع تدارك بعض مافات من الوزن والقافية .

« قصة الشيخ ، البرهمن ، وحديث كنكا وهماله فى بيان أن حياة الأمة تستمر بالمحافظة على سننها »

كان فى بنارس برهمن من الكبراء ، غواص فى بحر الحياة والفناء ، مالك زمام الحكمة ، وبحذق فى الطلب الهمة ، متوقد الذهن ، يتحرى الدقائق ، ويحلق فوق الثريا فى طلب الحقائق . أوغل فى لوح الجو كالعنقاء ، واضطربت الشمس والقمر فى شعلة فكره الوضاء . عنى زمانا بالحرمان والحسرة ، لم تصب كأسه قطرة من الحكمة ، وألقى شبكته فى رياض المعرفة ، فلم تر طائر المعنى عين الشبكة ، وأدمى مخالب الفكر المجهود ، ولم يحل عقدة الوجود ، نطقت بعجزه آهاته ، وصورت حيرة قلبه قسماته .

ذهب يوماً الى شيخ عظيم ، ذى قلب سليم ، فأصغى الشيخ لحديثه حتى عرف مكنون صدره ، ثم قال : أيها الطائف فى الأفلاك ! اتخذ فى الأرض مثواك . اغتربت عن المرج والصحراء فجاز فكرك آفاق السماء . ياطاوى السماء اسكن الى الأرض قليلاً ، ودع حقائق النجوم حيناً . لا أقول لك اهجر أصنامك ، أنت كافر فكن جديراً بزنارك . ياأميناً على التهذيب القديم ، لاتحقر دين آبائك الأولين . فان فى الألفة حياة الأمة ، والكفر كذلك من أسباب الألفة . أنت ناقص حتى فى الكفر ، فلست أهلاً للطواف فى حرم القلب . لقد بعدنا عن جادة التسليم ، بعدت عن آذر وبعدت عن ابراهيم . قيسنا ليس هائماً بالمحمل ، وهو فى جنون العشق لم يكمل [1] ، ماجدوى الخيال الذى يطوى السماء ، إن كان شمع الذاتية الى انطفاء .

قال نهر الكنج يوما لجبل همالة وهو يجرى فى سفحه : أيها المتوج بالبرد من فجر الخليقة ، والمتخذ زناراً من الأنهار الجارية . جعلك الله نجى السماء ، ولكن حرمك التبختر فى العراء ، ماغناء هذا الوقار والرسوخ والرفعة ، وقد سلبت رجلك الحياة والحركة؟ الحياة سعى دائم كالموج ، وجوده من الاضطراب المتصل .

فلما سمع الجبل تعيير النهر ، أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال : يامن اتخذت صفحته مرآتى ، وأ كنت مثات من مثله فى صدرى إن هذا التبختر زينة الفناء ، من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء ، قد غفلت عن مقامك ، وفخرت بهلاكك ، يا وليد الفلك الرفيع [2] ، خير منك الساحل الوضيع ، جعلت نفسك قربان المحيط ، ونثرت جوهر روحك لقاطع الطريق ، كن ورداً فى بستانك ، ولا تذهب وراء قاطف الورد لتنثر عبيرك ، ان الحياة أن تنمو فى مكانك ، وأن تقطف الورد من بستانك ، خلت القرون وأنا فى طينتى ثابت القدم ، وتحسبنى الى الغاية لم أتقدم ، كلا قد عظمت حتى بلغت السماء ، واستراحت على سفحى الجوزاء ، وقد ضل وجودك فى البحر الخضم ، وصارت ذروتى مسجد الأنجم عينى بأسرار الفلك بصيرة ، وأذنى بطيرانه خبيرة ، احترقت بنار السعى الدائم ، فجمعت فى صدرى الجواهر « فى صدرى حجارة وفى الحجارة نار ، ليس للماء سبيل الى هذه النار » [3] ان كنت

(١) اشارة الى قصة مجنون ليلى

(٢) يعتقد الهنود أن الكنج يأتى من السماء

(٣) اقتباس من شعر مولانا جلال الدين الرومى

قطرة فلا ترق نفسك بيدك ، وجاهد اللجة وحارب اليم لحياتك ، كن جوهراً لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء ، أو اسم بنفسك وأسرع التسيار ، وكن سحابا يرمى البروق ويعطر البحار ، ليستجدى البحر احسانك ، ويشكو ضيقه بانعامك ، ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويطرح نفسه أمام قدميك .

— ٢ —

أتبع الشاعر الفصل السابق بفصل عنوانه « نصيحة أمير نجاة النقشبندى المعروف ببابا الصحراوى ، التى كتبها لمسلمى الهند »

وهو فصل ممتع بلغ فيه الكاتب من سمو الشعر ، وعظمة النفس مبلغه . ثم أتبعه بكلمة عنوانها « الوقت سيف » وهذه ترجمتها : - .

سقى الله ثرى الشافعى ، كما استقى الناس من فيضه ، لقد اقتطف فكره كوكبا من السماء ، حين سمى الوقت سيفاً ذا مضاء ، ماذا أقول فى سر هذا السيف الذى يفيض بالحياة ماؤه ؟ ان صاحبه فوق الخوف والرجاء ، ويده أنصع من يد الكليم البيضاء ، يلين الحجر لضربته ، وييبس البحر لهيبته ، كان هذا السيف فى يد موسى فعلا أمره على التدبير ، شق صدر بحر القلزم ، فانقلب براً ذلك العيلم ، وكان فى كف حيدر فاتح خيبر ، ذلك السيف العظيم الأثر .

إن البصير يرى دوران السماء ، ويدرك تقلب الليل والنهار فى الفضاء ، انظر يا أسير الأمس والغد ، تر فى قلبك عالما لا يحد ، زرعت بذور الظلام فى طينتك ، وتوهمت الوقت خطاً بجهلك ، ثم قست طول الزمان بمعيار الليل والنهار ، واتخذت هذا الخيط زناراً ، فملت الى الأصنام واتخذت الباطل متجرا ، كنت كيمياء فانقلبت قبضة طين ، وولدت الحق ثم صرت الباطل المهين .

إن تكن مسلماً فتحرر من هذا الزنار ، وكن شمعاً فى محافل الأحرار . لقد جهلت أصل الزمان فجهلت الحياة الخالدة ، يا أسيراً فى الليل والنهار مثواه ، تعرف رمز الوقت من « لى مع الله »[1] كل شئ من سير الوقت ظاهر ، والحياة سر من أسرار الوقت الباهر ، ليس الوقت من دوران الشمس العلية ، هو أبدىّ وهى ليست أبدية ، الوقت هو السرور والغم ، والعيد والمأتم ، وهو سر الضياء ، فى القمر وذكاء ، قد بسطت الوقت كالمكان ، ثم فرقت بين الأمس والغد فى الحسبان ، يامن جفلت كالشذى من بستانك ، وبنيت سجنك بيدك ! إن وقتنا الذى لا أول له ولا آخر ، ينبت من بستان الضمير الناضر ، الحياة من الدهر والدهر من الحياة ، وقد قال الرسول لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله .

استمع نكتة تضىء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحرّ :

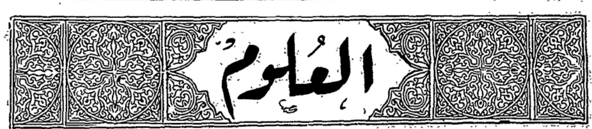
العبد ضالّ فى الليل والنهار ، والزمان فى قلب الحر ضالّ . العبد ينسج من الأيام كفنه ، ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحرّ يخلع نفسه من الطين ، ثم ينسج على الزمان عزمه المتين . العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح فى الهواء ، وصدر الحرّ الهمام ، قفص لطائر الأيام ، فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وخواطره تكرار قاتل ، مقامه من الخمود واحد ، وصوته بالليل والنهار راكد . والحر كل حين خلاّق ، يسكب وتره نغمة مجددة فى الآفاق ، فطرته لا تحتمل التكرار ، وليس طريقه حلقة البركار ، العبد فى سلاسل من أيامه ، والقضاء والقدر ورد لسانه . وهمة الحر مشيرة على القضاء ، تصور يده الحادثات كما تشاء ، الماضى والآتى ماثلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه .

هذا كلام برىء من الصوت والصدى ، يأبى على الادراك أبدا . أقول ولفظى من المعنى يخجل ، ومعناى من ذلك اللفظ أجلّ ، يموت المعنى الحى فى هذه الحروف الجامدة ، وتخمد ناره بأنفاسك الباردة . ان فى القلب نكتة الغيبة والحضور ، وإن فى القلب رمز الأيام والمرور ، مزهر الوقت ذو نغمة صامتة ، فغُص فى قلبك لتدرك أسراره الخافتة .

نضّر الله عهداً كان سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثان ، فبذرنا الدين فى أرض القلوب ، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب ، وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه الأرض سجودنا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوة الحق بين الخلق ، يا من أترعت كأسه الخمر المنتقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرقة ، وملأه الكبر والغرور والأثرة ، فعيّرنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك ، زينة المحافل ، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل ، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد ، ينجلى بكل أمل بعيد وروبت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عُبّاد الحق بيلائنا ، ودوّى العالم بتكبيرنا ،

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) اشارة الى الحديث الذى يرويه الصوفية « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب » .



أصل الأرض وماهية تكوينها

بقلم نعيم علي راغب

اختلفت الآراء وتضاربت ، ثم كثر الحدس والتخمين فى أصل الأرض من قديم الزمان ، واستمر الحال كذلك الى أن جاء القرن التاسع عشر يحمل معه مخترعات جليلة الشأن ، عظيمة الفائدة ، نخص منها بالذكر المنظار المقرب أو التلسكوب ، ثم آلات تحليل الطيف الضوئى ، فأمكن تكوين رأى لا يزال حتى الآن غير محكم عن أصل تكوين الأرض .

وخلاصة المأخوذ به حتى الآن هو أن الأرض التى نعيش عليها جزء من المجموعة الشمسية التى تتركب من عدة أجرام سماوية يتوسطها الشمس ، وهى ثمانية كواكب سيارة Plauets مرتبة حسب قربها من الشمس : (عطارد . الزهرة . الأرض . المريخ . المشترى . زحل . أورانوس . نبتون) . كذلك من ٦٣٥ كوكبا صغيرا سيارا بين المريخ والمشـــترى ، وكذلك التوابع Satelites وهى أجرام سماوية صغيرة تدور حول الكواكب السيارة (كالقمر بالنسبة الى الأرض) ؛ هذا غير عدد لا يحصى من أجرام سماوية صغيرة اسمها الشهب Meteors تدور على غير هدى .

ونحن اذا رجعنا الآن الى تكوين الأرض من هذه المجموعة ، وجدنا أن الآراء متفقة على أنها كانت قبل انفصالها عبارة عن كتلة واحدة متماسكة ، ثم انفصلت الى أجزاء صغيرة كانت الأرض أحدها . واليك بيان ذلك :

كانت المجموعة الشمسية فى البـداية سديما ، (وهو جسم يرى بالعين المجردة كأنه سحابة بيضاء ، ولكنه فى الحقيقة جسم غازى شديد الحرارة جداً ، له مركز أشـد صلابة ولمعاناً من باقى جسمه ، وهو بيضاوى الشكل) ، انخفضت درجة حرارته بعامل من العوامل فانفصلت أطرافه على شكل حلقات دائرية ، واستمرت بعد عملية الانفصال تدور حوله فى نفس الاتجاه الذى كان يدور فيه ، فتكونت من هذه الحلقات الكواكب السيارة ، وكان أولها فى التكوين أبعدها عن الشمس ، وهو نبتون الواقع على طرف المجموعة الشمسية ؛ وكان آخرها أقربها اليها وهو عطارد .

وتعرف هذه النظرية بالنظرية السـديمية Nebuler Theory ، وهى النظرية التى قال بها العالم الفرنسى الشهير Laplas فى أواخر القرن الثامن عشر .

حار العلماء فى تفسير منشأ حرارة السديم ولم يتمكنوا من ايجاد تعليل معقول يستسيغه العقل فسكتوا على مضض حتى تقدم سير نورمان لوكيار Sir Norman Lockyer بنظرية الشهب Theory Meteoric وخلاصتها أن النيازك العديدة التى تسبح فى الفضاء إذا ما تقاربت نشأ عن اتحادها واحتكاكها درجة حرارة تبدأ

وعمرت كعبات من ترابنا . وأنزل الحق كلمة « اقرأ » فينا ، ثم قسم رزقه بأيدينا . فان يكن ذهب منا الخاتم والتاج ، فلا يحقر ذلك الفقير المحتاج . ان نكن بزعمك مفسدين ، وبالأفكار العتيقة مغرمين . فنحن لا نزال الأحرار أنصار التوحيد ، قوامين على العالمين والله شهيد .

فرغنا من غم اليوم والغد ، وحالفنا الله الأحد ، فنحن فى قلب الحق سر مكنون ، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون ، لا يزال نورنا فى الشمس والقمر مصونا ، ولا يزال سحابنا بالبرق مشحوناً .

إن ذات المسلم مرآة الحق ، وإن وجود المسلم من آيات الحق .

عبد الوهاب عزام

قليلة المقدار لكنها تزداد كلما ازداد مقدار تقاربها من بعضها بفعل الجاذبية نحو المركز، وهكذا إلى أن تصل إلى حد تتحول معه النيازك إلى مادة غازية Gassic . ثم يأتي وقت بعد ذلك تزيد فيه الحرارة المتشمعة من الشهب عن الحرارة الناشئة من الاحتكاك فتتكاثف هذه الغازات ثانية . وتأخذ درجة حرارة السديم في الانخفاض تبعاً لذلك . وتكون أبعد الأماكن عن المركز أولاها في هذه العملية . ومن هنا نعلم أن أبعد السيارات عن مركز المجموعة أقدمها في التكوين كما سبق ذكره .

استمرت النظرية السديمية مأخوذاً بها طول القرن التاسع عشر غير أنه كان فيها بعض نقط غامضة احتاجت إلى إيضاح كثير : من ذلك مثلاً أن هذه النيازك التي قيل إنها تكون السديم صغيرة الحجم إلى حد كبير تسير في الفضاء على غير هدى وبسرعة عظيمة . ومن الصعوبة أن نتصور القوة الجبارة التي سببت اتحادها بعضها ببعض . وبغير هذه القوة لا يمكن بأي حال من الأحوال تفسير النظرية السديمية . ومن الاعتراضات الأخرى التي قامت في وجه هذه النظرية حقيقة جغرافية ثابتة ، وهي أن توابع كل من أورانوس ونبتون تدور حولها من الشرق إلى الغرب على عكس باقي اجزاء المجموعة الشمسية .

وقد تقدم في القرن العشرين بعض علماء الانجليز والأمريكان بنظرية عن أصل تكوين الأرض تعرف بنظرية المد Tide Theory خلاصتها أن تكون الكواكب السيارة وغيرها من المجموعة الشمسية قد نشأ عن اقتراب نجم كبير من سديم الشمس في أوقات مختلفة . فنشأ عن اقترابه أن جذب اليه جزءاً من كتلة السديم انفصل منه بقوة هذه الجاذبية .

ولا تختلف النظرية الأخيرة وهي نظرية المد عن النظرية السديمية في شيء إلا في تعليل انفصال الحلقات المكونة للمجموعة الشمسية عن جسم السديم الأصلي .

وهناك اختلاف بين بين قولنا هـذا وبين من يقول إن الأرض أصلها جزء من الشمس لأن القول الأخير غير صحيح إذ أن الأرض والشمس جزءان من سديم واحد أو كتلة واحدة وليست جزءاً من كل بالنسبة للثانية .

باطن الأرض :

كانت الأرض كما قلنا جزءاً من السديم الشمسي وكانت حرارتها في البداية شديدة جداً ثم انخفضت وأخذت في القلة تدريجاً بفعل الاشعاع فبردت قشرتها الظاهرية شيئاً فشيئاً حتى وصلت الحالة الصلابة ، ثم تجمدت هذه القشرة تبعاً لبرودة الأجزاء الباطنية وأخذت في التقلص فتكونت فيها منخفضات ملأتها الأبخرة المتكاثفة (الماء) وأخذت معالم الحياة تظهر شيئاً فشيئاً وكان آخر هـذه العالم هو الانسان . إلا أن باطن الأرض ظل مرتفع الحرارة . تدل على ذلك ظواهر طبيعية عديدة :

١ — تزيد درجة الحرارة بمعدل درجة واحدة فهرنهيت لكل عمق مقداره ٥٦ قدماً

٢ — سخونة المياه التي تخرج من الينابيع الساخنة . وقد وجد أن درجة حرارة الماء الخارج من نافورات ايسلنده ٢٦١ ف

٣ — خروج المواد منصهرة من البراكين .

ولقد أثارت الظاهرة الأولى اهتمام العلماء وكانت سبباً في اختلافات كثيرة وقعت بينهم في القرن التاسع عشر ، لأنه اذا كانت زيادة درجة واحدة فهرنهيت لكل ٥٦ قدماً بعد الخمسين قدماً الأولى صحيحاً واستمرت هذه الزيادة باطراد لوجب أن تكون حرارة الباطن ١٥٠٠ درجة حرارة مئوية على عمق ٢٨ ميلا أو على عمق ١/١٤٢ من نصف قطر الأرض . وهذه الدرجة تذوب عندها أشد العناصر صلابة . فوجب على هذه الحال أن يكون سمك القشرة الأرضية Hot Geysers الصغرى غايته ٢٨ ميلا وفيما يلي ذلك يكون الباطن منصهراً .

غير أنه ثبت في القرن الحالي أن باطن الأرض صلب ، وأن الأرض تتكون من طبقتين متميزتين عن بعضهما :

الأولى : طبقة سطحية تتكون من صخور قليلة الكثافة يطلق عليها اسم Lithosphere

الثانية : طبقة معدنية عظيمة الكثافة تسمى Barysphere وأن الطبقة السطحية تحتوى بالقرب من الظاهرات على جيوب مملوءة بالمواد المنصهرة ، وهى ما تعرف بالحمم Magma ومنها تفيض البراكين عند ثورانها . وهناك أدلة تثبت أن باطن الأرض أصلب منها :

(١) كلما تعمقنا فى باطن الأرض زاد الضغط بنسبة العمق الذى نصل إليه ، ومعنى ذلك أن الطبقات على عمق ١٠٠ متر مثلا تقع تحت ضغط يساوى عمود الهواء وثقل الطبقات التى تعلوها . ولذا فان المواد التى توجد على هذا العمق تحتاج الى درجة حرارة أكثر بكثير من الدرجة التى تنصهر عندها نفس المواد اذا ما وجدت على سطح الأرض .

(٢) لما كانت كثافة الأرض ٥,٦ وكثافة السطح الخارجى ٢,٥ وجب أن تكون كثافة الباطن أعلى من ذلك بكثير حتى يكون الناتج ٥,٦

(٣) تزيد سرعة الموجة الزلزالية عند مرورها فى باطن الأرض عنها على السطح ، فقد لوحظ أنه بينما تسير الموجة بسرعة ١,٨٦ ميلا فى الثانية على السطح ، فانها تسير بسرعة ٥,٠٥ أميال فى الثانية فى باطن الأرض .

(٤) لو كان باطن الأرض سائلا لوجب أن يتأثر بالمد والجزر ، فيظهر ارتفاع فى القشرة الأرضية من جهة المد ، وانخفاض فى الجهة الأخرى .

(٥) قد ثبت أن النشاط الراديومى Radio Activity محصور فى دائرة ضيقة غاية قطرها ٤٥ ميلا من السطح الخارجى . ولو كانت الصخور التى دون هذا العمق ، تحتوى على راديوم لازدادت كمية النشاط الراديومى . ولما كانت المواد الحديدية التركيب من المواد القليلة الخالية من هذا النشاط . يثبت لنا من ذلك أن باطن الأرض يتكون من مادة حديدية عظيمة الكثافة ، وهذا يتفق مع النظرية الشهبية التى قال بها السير نورمان لوكيار . كما يتفق مع الحقيقة الثابتة فى النقطة الثالثة .

انتهينا الآن من ماهيــة باطن الأرض ، وسنبحث فى مقال آخر فى ظواهر حرارة باطن الأرض ، فنتكلم عن البراكين وظواهرها وأسبابها . ثم نبين التضارب الحادث فى تعريفها جغرافياً ، والتغليط العلمى فى شرح ظواهرها وأسبابها ؟

نعيم على راغب

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

من التاريخ

ذكرى زينب

بقـــلم مهدى الجم الطرابلسى

أقبلت عليه متهادية ، تحمل أذيالها الجوارى السود ، وجلست قربه وقالت بصوتها العذب : عم صباحاً أيها الأمير . فقال : عمى صباحاً أيتها الأميرة . قالت : مالى أراك طويل التأمل ، عميق التفكير ، مؤرق الليل ، محزون النهار ؟ قال : آه يازينب ! كيف لا يأرق العربى ويموت أرقاً ، ويحزن ويذوب حزناً ، إذا استلب الكرامة ، وفقد الحرية ؟؟

حنانيك يا زينب ! إنى أكاد أموت هما وكمدا ! إنى أريد أن أستقل استقلالاً تاماً ! إنى أريد أن أملك زمام المشرق والمغرب !

إلى متى أنا خاضع للروم ؟ إنى أخاف هؤلاء اللئام يازينب ، وأرهب غدرهم ، فهم لا يرعون ذمة ، ولا يوفون عهداً ، ولا يصدقون قولاً . إنى أشفق أن يمر بنا حين نذل فيه ، ونساق للهوان والصغار سوق الابل !

إن الحرية يا زينب لا تنال بمعاهدة ولا مفاوضة ، بل تنال بالدم ، والدم وحده . ونحن لا جيش لنا ولا عدة ، فمن أين نأتى بالدم ؟ أبالشجاعة وحدها ؟

أفديك يا زينب ! اهدنى بنور وجهك المشرق ، وحبك إياى ، وإخلاصك لى سبل الحرية !

فقالت حييت أيها الأمير ! هيء جيشك ، وحالف سابور ذا الأكتاف ملك الفرس ، ولأسر معك نحارب الروم ولا نرجع إلا ظافرين أو مقتولين . فللموت فى سبيل الحرية خير مايتصف به العربى ! !

عاد أمير تدمر بعد أيام وقال لزينب : لقد سار ملك الروم بجيش جرار على سابور ملك الفرس ، وخفت أن يظفر به ، فصالحته من بعد ما اتفقت مع سابور عليه . إلا أن الفرس هزموا جمع الروم ، وأسروا مليكهم ، فأشفقت كثيراً أن يسير سابور الينا يطلب الوتر ، وما أحسبه إلا قاضياً علينا القضاء الأخير !

ولقد أرسلت اليه رسول الاعتذار ، وكتاب الوفاء ، وإعلان السلام ، وهدية المحبة والاخلاص ، فعتا اللئيم عتواً كبيراً ، فأهان الرسول ، ومزق الكتاب ، ورفض السلام ، ورمى بالهدية ، وتهددنى أمام الوفد الذى أرسلته اليه ، ثم طرده من مجلسه ، وأخشى أن يحقق وعيده ! فهبت زينب تقول : الساعة يلتئم المجلس الحربى ، والساعة يعلن الحرب على العلج ، والفداء على لئيم العجم . . .

وفى تلك الساعة التأم المجلس الحربى التدمرى ، وبدا من القادة أنهم يترددون فى اعلان الحرب ، لأنهم يعلمون أن سابور ملك عظيم ، تتصدع له الجبال خشية . وانهم لفى ترددهم اذا زينب تبدو على المنبر متلثمة ، ثم تخطب خطابا بليغاً ، تحرك به العواطف ، وتلهب القلوب ، وتهيج النفوس ، وتهتف قائلة : العربى لا يرضى بالذل والهوان ، وانما يرضى بهما الفرس والرومان ، فهو للعز يموت ، وهما للذل يحييان .

وبعد أيام تكون الجيوش العربية فى طريقها الى الفرس ، يتقدمها أمير تدمر (أذينة) وأميرة تدمر (زينب) الزباء .

***

تلاقى الجمعان ، وكانت جولتان ، ثم انهزم الفرس ، وسبى أذينة من قصور سابور الحور والولدان ، وأسر الأجرار والعبدان .

وأتى بسابور ترهق نفسه ذلة ، ووجهه قترة ، فاعتذر واسترحم ، وذل واستكان ، ودفع الجزية عن يد صاغراً ، وأضحت تدمر جنة البادية بما نقل اليها من بلاد فارس .

امتلأت نفس أذينة بنشوة الانتصار ، فلم أن بعض الروم عصوا مليكهم وثاروا عليه ، فسار اليهم ورد عصيانهم اياه طاعة ، وثورتهم عليه استكانة ، وعاد مع زينب الى قاعدته بين هتاف ودعاء ، وما انقضت أيام حتى أتى وفد ملك الروم (جاليانوس) برأسه الأمير (سولفا) ، ومثل بين يدى الملك العربى والملكة وشكرهما باسم الملك والامبراطورية الرومانية ، وقدم اليهما ولاءها وصداقتها . انفتحت أمام أذينة مدارج الآمال ، وأمل السيادة التامة ، والحكم المطلق ، فكتب الى جاليان يسأله إياها وأشياء أخرى تضر بملكه ، فحنق ملك الروم وغضب وأرسل قائده (أورل) بجيش ليخرق تدمر ويخربها ، ويزيل هذه العقبة البكاداء من طريق مطامعه فى الشرق . فانتهز الفرصة سابور فزحف بجيشه الى حاضرة البادية يريد الانتقام ، وكان فى حمص ابن أخ لاذينة يلقب بالمعنى ، وكان يحسد عمه ، ويريد سريره ، فلما رأى تألب الأمتين عليه قال حان حينه . اقتله وألبس تاجه ، وأرث عرشه .

فأما سابور فهزمته زينب بشجاعتها وبسالتها . وأما الروم فلم يبدأوا الحرب بعد . وأما المعنى فاستأذن أذينة . ودخل عليه بوفد من أتباعه وأنصاره ، فلما اشتد الهجير ، وهدأ القصر ، اغتاله وأعلن نفسه ملكاً على تدمر .

هاجت زينب هياجاً شديداً ، وهتفت بقوادها المخلصين إلى الانتقام ، وأهابت بشعبها إلى الثورة ، وسارت بالجيوش إلى حمص ، ثم حاربت المعنى حروباً كثيرة ، وصاولته بنفسها ، وأخيراً أسرته ، وحكمت عليه وعلى من ساعده ولاذ به بالصلب والفصد ، وقالت هذا أقل ما يعاقب به خائن الوطن ، وهكذا استأثرت بسرير تدمر وحدها ، وما أجدر زينب بسرير تدمر ، وما أليق زينب لأعظم ثمن مثله .

***

كانت مى جميلة رائعة الجمال ، حسناء بارعة الحسن ، وكانت مى وفية كريمة شجاعة صبوراً ، وكيف لا تكون كذلك وهى الابنة البكر لزينب ملكة العرب ؟

وكان سولفا رئيس الوفد أميراً جميلاً فتاناً كريماً ، اعتلقته مى اعتلاقاً شديداً ، وشغفت به كثيراً ، ولم يكن ما يضمر لها من الحب بأقل مما تضمر له ، ولطالما اجتمعا وتشاكيا الهوى والجوى . إلا أن سولفا فارقها إلى رومًا ليفى عهد الرسالة ، ومى تعذبت لفراقه كثيراً ؛ وحنت اليه حنيناً ، وبكت حتى كادت تتلف . وعلمت أمها بأمرها فعذرتها فى نفسها ، لأنها تعرف الحب وولائه وأفعاله ، وجنونه وفنونه . إلا أن الذى آلمها أن الروم أعداؤها وسيحاربونها ، وما سولفا إلا رجل من رجالهم ، بل قائد من قوادهم ، فاذا خان وطنه فى سبيل حبه استصغرته ولم ترض أن تصهر إليه ، وإن لم يخن فابنتها مائتة غراماً مافى ذلك شك .

ولقد أقبلت عليها ذات يوم فقالت لها : أى مى ! أى ابنتى العزيزة ! لقد وكلت إليك ملك تدمر إلى حين ، لما أعهد من حزمك ودرايتك ، وأما أنا فذاهبة لأحارب الروم وأموت ، أو أملك ما بين المشرق والمغرب . فتوكلت مى راضية مسرورة . إلا أنها بكت لفراق أمها كثيراً ، وتجلدت لفراق سولفا وتصبرت فما ازدادت إلا حزناً ولوعة .

انقضى شهر ، ثم أتى البشير يعلن انتصار مليكته على الروم ، وأنها أسرت كثيراً من قادة الجيش وضباطه ، فأمرت مى بسوق الأسرى الى تدمر ، وفى تدمر أطلت عليهم من الطاق ، فرأت بينهم الأمير سولفا ، ففرحت كثيراً واندفعت اليهم ، وحيتهم ، ودعتهم الى قصرها ، وأكرمتهم كثيراً ، لأن سولفا بينهم ، لا لأنهم قادة ، ولا لأنهم من الروم . وهؤلاء أعجبوا بها وبحنكتها وأخلاقها كثيراً ، وأول من أعجب بها سولفا . وبعد حين أقبلت زينب فارسة كمياً ، فزغردت النساء ، وهزجت الأطفال ، وغردت طيور الأمانى . وما انتهت الى قصرها حتى سرحت الأسرى ، فأعظم الناس كرم خلقها ، وهتف العرب والروم وكثير من الفرس : مرحى زينب الزباء ! مرحى ملكة العرب !

***

لم تقنع زينب باستقلالها التام ، بل أرسلت جيشها فغزا ساحل البحر الأبيض الأسيوى كله ، وأعدت جيشاً آخر لغزو النيل ، وفتح مصر ، فجعلت تدمر مملكية عظيمة يخشى بأسها القياصرة والأكاسرة . وملك الفرس الجديد « بهزاد » عقد معها معاهدة ليجعل منها ملاذاً وحمى ، وخطب مياً من زينب ،

فأقبلت هذه على ابنتها ، وقالت بشراك يخطبك بهزاد ملك الفرس ، فاعترفت لها مي بحبها سولقا وغرامها به . ولكن زينب تريد أن تزوجها بهزاد لتأمن شره ، فقد يكون له شر . فدعت سولقا اليها وقالت . أهكذا أيها الأمير تسيء الى من أحسن اليك ؟ قال ما كان لي ذلك أيتها المليكة المعظمة ! قالت نمى الى أنك جاسوس لقائدك « أورل » . قال اسمحي لي أيتها المليكة أن أقول لك ، إن مثلي أرفع من أن يكون جاسوساً . انى لا أخفى أنى صديق «أورل» ، وصديق مليكي ، وصديق الروم كلهم ، كما أنى أعترف أنى صديق مخلص اليك ، والى ابنتك . فوجمت زينب وقالت أيها الأمير ! لقد وجدتك قائداً شجاعاً ، ووطنياً مخلصاً ، وصديقاً لي أميناً . وسأجعلك القائد الثاني للجيش الذى سأسيّره الى مصر ، فحارِبْ وَعُدْ الى ظافراً منتصراً . فقال سأكون إياه ، وكان إياه .

إلا أن ميّاً خافت أن يُقتل في هذه الحرب . وعلمت أن أمها لم ترسله إلا لتنجو منه .

وبعد شهور أقبل فارس يقول . إن الجيش العربى قد انتصر ، وعاد الى المعسكر غانماً ، غير أن أمراً أحزن الجيش كله ، هو أن الأمير سولقا الذى ناضل كثيراً ، وكان سبب النصر والفوز الأكبر ، اختفى بغتة .

ما وصل الخبر الى مي حتى صاحت قائلة : آه إنها حيلة مدبرة ! إن سولقا قد قُتِلَ . ثم انزوت في حجرتها ، وأنشأت تبكي وتنتحب . ولبثت على حالها أياماً ، لا تأكل ولا تتكلم ، حتى وهنت ووقعت في سرير المرض : فعالجها الطبيب فشفيت ، إلا أن وجهها الناضر الزاهى أضحى شاحباً حائلاً ، لا رونق فيه ولا حياة .

أقبل رسولٌ بعد ذلك يقول إن الأمير سولقا حيّ ، وهو يحارب المصريين بعيداً عن المعسكر . فطار لب مي فرحاً ، وكادت تُهوى على يدي الرسول تلثمهما شكراً ، لكنها خلعت عليه خلعة ، ووصلته بالمال والحلى .

عاد القائد العربى «زبدا» بعد أيام يرافقه الأمير سولقا فاستأذنا على زينب ، ومَثَلا بين يديها فقال « زبدا » أيتها الملكة المعظمة ، إن الأمير سولقا بطل يجب أن يُفتخر بمثله ، فهو هو الذى هزم المصريين ، وجعل العلم العربي يخفق على ربوع النيل .

***

ما زال الروم يسألون زينب أن تعترف بسلطانهم عليها ، وأن تدفع لهم جزية الانتداب ، وما زالت زينب على شممها وإبائها ، لا تعترف لهم بشيء . وأرسل اليها أورل ذات مرة يقول ، تعترفين بسلطاننا عليك ، وتدفعين الجزية ، أو أحاربك وأخلعك ، وأضلك ، وأسبي ابنتك ، وأتوّجُ على سريرك زيدَ بنَ المغنّى . فثارت زينب ثورتها ، وغضبت غضبتها ، وجمعت المجلس . وقالت الى الحرب أيها الأبطال ، الى الانتقام أيها الرجال ! إن تدمر العربية لا تستكين أبداً لتطاول الروم أو البربر . . .

وهكذا اضطرمت الحرب ، ورحل الروم القيمون في تدمر الى وطنهم ، بينهم الأمير سولقا . ولاقت زينب جيش الروم ورأت أن زيد بن المغنى تحت لوائهم ، فقالت الويل له من عاقبة كعاقبة أبيه ، وحاربت وناضلت كثيراً ، وشجعت القادة ، وتقدمتهم الى الموت .

غلب الرومُ ، وانهزم جمعهم ، فتبعتهم زينب تريد التنكيل بهم والقضاء عليهم ، فما أحست إلا وفرسان جيشها في مستنقعات (العُوَيق) يغالبون الموت والموت يغالبهم ، وما أحست إلا والروم قد طوّق المشاة من جيشها ، وأعمل فيهم السيوف ، فجزعت كثيراً ، وخطبت في سائر جنودها الخطب الحماسية ، فما أفادت ، وما زالت عددها تنفد ، وعددها يقل حتى أوشكت على الهلاك فاستنجدت ملك الفرس قال مي ابنتك وأعينك . فما رأت بداً من التراجع فتراجعت ودخلت تدمر محزونة مكتئبة ، وأغلقت الأسوار .

***

بينما كانت زينب تحارب الروم جوار (انطاكية) كانت مي ابنتها ترسل اليها العدد ، وتدير أمر المملكة ، وأقبل عليها ذات يوم رسول وقال لقد وجدنا الأمير سولقا يا سيدتى قتيلاً في سهول حماة . فقالت في نفسها إذن اهلك معه . وأمرت خادماً لها أن يأتيها بثعبان تعلم امساكه . ففعل . فخلت بالثعبان وقربت الناب القاتل من الثدى الزاهى وهتفت قائلة : نفسى فداء الأمير سولقا ، وما كاد الناب يغرز في الثدى حتى هتفت وقالت : لا لا .

نفسى فداء الوطن . ورميت الثعبان من النافذة . وإنها لتفعل إذا رسول بالباب يقول سيدتى هذه خوذة الأمير سولقا يرسلها اليك وهو جريح نمالجه وسيشفى عن قريب ، فقالت : وافرحتاه ! ووصلت الرسول بما يستحقه .

***

حاصر أورل بجيشه تدمر ، وطال الحصار فمل ، ونفدت مؤن المدينة ، وتضاغى الناس جوعاً ، فجمعت زينب المجلس الحربى ، فلقيها القادة باكين ، فقالت لم البكاء أيها الأبطال ؟ إما الموت ، وإما الحياة !

وصعدت ابنتها مى المنبر وقالت إن حفيدة السميدع ميا لتضحى بنفسها فداء الوطن .

أخرج بكم أيها الأبطال ، من السرداب الخفى الذى يصل تدمر بنهر الفرات . ثم أسير الى ملك الفرس وأعلن له قبول خطبته إياى ، ثم نرجع بجيش وعدة من عنده ، فنكر على الروم ، ونمزقهم شر ممزق ! -

فأكبرت زينب إخلاص ابنتها ، وتفاديها وتضحيتها في سبيل الواجب ، وأكبر القواد إخلاص أميرتهم وشجاعتها

فى تلك الساعة قال زيد بن المعنى لأورل قائد الروم : إن بين الفرات يا سيدى وبين المدينة سرداباً خفياً ، ترسل منه زينب رسولها الى بهزاد ، ليمدها بالرجال والزاد ، قال اذن الليلة تمسكون الرسول ، وتفتحون الأبواب ، وتدخلون المدينة ، وتدكون القصر دكاً دكاً ، وتثلون العرش ثلاً ثلاً !

ولما غشى الليل واختلط ، حتى كانت مى متقلدة حمائل سيفها تتقدم القواد فى السرداب ، وتشجعهم . وما أطلت حتى كان زيد يطوقها بجنده ، فأهابت به قائلة الويل لك أيها الخائن ، وأقامت تحارب وتناضل ما تقدر أن تفعل ، وودت لو تقتل ولا تؤسر ، إلا أن أورل أقبل بجيشه فأسرها ، وفتح المدينة ، وأسر زينب ، ولكن لم يثل العرش ثلا ، وإنما توج على سرير تدمر زيداً الخائن .

سيقت زينب وابنتها والقواد الى منزل الذل والهوان ، وحكم أورل على زينب بالصلب ، وفى الساعة التى كادوا ينفذون بها الحكم ، كان قائد جميل رومانى يدفع الجموع بمنكبيه ، ويهب بالجلاد قائلاً : رويدك أيها المبلج . ويتقدم الى أورل ، ويركع عند قدميه ، ويقول : أنا صديقك سولقا أناشدك الصداقة التى بيننا أن تعفو عن زينب ! إنها بطلة يا سيدى ! إنها لم تحاربك إلا دفاعاً عن حريتها واستقلالها وكرامتها ، فلا تلطخ جبين الدولة الرومانية الناصع بقتل البطلات اللائى يضحين أنفسهن فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ! ! فصرخت زينب قائلة : لا ، لا ، الموت أعذب لى من الحياة بعد الآن ! إن العربية لا تعرف الحياة إلا بالعز ، ولن تعرفها إلا به أبداً ! !

عفا أورل عن زينب وابنتها وأمر بنقلهما معظمتين الى قصره . وتقدم الأمير سولقا يوماً من مى يخطبها فقالت : أنا لا أخفى عليك أيها الأمير أنى أحبك كثيراً ، ولكن لا أقدر أن ألبى طلبك إلا حين أبعث ؛ وأنا اليوم ميتة ! إن العربيات اللائى دوخن الفرس والروم ، وخفقت رايات نصرهن فى لبنان وربوع النيل ، لا يرضين التزوج بالروم ، ولا يعرفن الحياة والحب إلا مع العز والكرامة والحرية[1] . . .

حماه مهدى الجم الطرابلسى

(١) لم يعرف التاريخ قط امرأة تشبه زينب بعفتها ، وفضلها ، وكرمها ، وشجاعتها ، وحزمها ، وإدارتها ، وصدقها ، ووفائها . ويمكن أن نقول إن زينب المثل الأعلى للمرأة الكاملة — بالنسبة للعصر الذى وجدت فيه — بل لأعظم من الكاملة . وكمثل الشعار الذى اتخذته زينب لها يجب أن يتخذ سائر نساء العرب شعارهن ! إن زينب فريدة عصرها بل فريدة عصور غيرها . نعم إن هنالك الفتاة الفرنسية جان دارك ، لكنها لا يمكن أن تقاس بزينب على حال ، لأنها لم تبلغ ما بلغت . والذى يؤسف له أن الفرنسيين يقيمون لجانداركهم عيداً كل عام . ونحن العرب إذا ذكرنا زينبنا يوماً فانما نذكر أسطورة بالية ، وخرافة قديمة ! ؟

النقد

شخصية أبي شادى

فى ديوان « الينبوع »

بقلم الأديب حسن كامل الصيرفى

يمرُّ صدى الطرب أمام جهاز « الراديو » فيطوف فى الأثير بين رياح عاصفة ونسمة هادئة، ويمتزج فى ضجيج الحياة وجلبتها ويغرق فى صمت البوادي والقفار، حتى يتلقاه جهاز الاستلام فاذا الصوت ناطق بشخصية صاحبه . . كذلك يمر ذهن الشاعر بمحيط الحياة، يسمو إلى الأفلاك فلا يسمع منه أهل الأرض إلا همسات ونجوى يستشعرون فيها حناناً وراحة، ويهبط منها إلى صخب الحياة فيحاول أن يلطف من حدة ذلك الصخب بأنغام قيثارته، ولكن جمود الحياة يستثيره فيترك القيثارة لحظات تراه فيها صاخباً ثائراً متململاً، وهو بين سموه عن الحياة وبين اندماجه فيها يحتفظ بشخصيته

وهنالك شعراء يفقدون شخصياتهم فى جولاتهم الواحد منهم كالمهرج عليه رُقع ليس بين ألوانها وحدة وتناسب. فالاحتفاظ بالشخصية يرجع إلى مؤهلات الشاعر الفنية، فالأول يطوف ويقف ويحلق ويهبط، وهو ينظر إلى العالم كما ينظر المصور إلى اللوحة التى يخط عليها بريشته عارفاً حدودها . أما الآخرون فيسيرون فى طريقهم على غير هدى لم يرسموا لأنفسهم غاية .

وبمقدار احتفاظ الشاعر بشخصيته تكون قوته أو ضعفه، فلننظر إذاً فى ديوان « الينبوع » ولنبحث عن شخصية أبي شادى، وعن مدى ظهورها أو تلاشيها . ولقد قرأت هذا الديوان فما كانت شخصية ناظمه تنأى عنى أو تنمحى من أمامى قد يفقد الشاعر فى أثناء حله الجميل ذاته ولكنه لن يغيب عن قارئه إذا استطاع أن يمزج روحه بآثاره .

فأبو شادى الذى أعرفه فى حياة الناس شعلة فانية يريد أن يجمع العالم فى يده فيحيله قطعة فنية فى أقصر وقت كما تحيل النظرة الفاتنة دنيا العاشق لحظة قصيرة العمر مسرعة الخطى يتعجل اقتناص ما وراءها، هو نفسه أبو شادى الذى عرفته فى حياة الشعر شعلة فانية يشقيها التسامى ويفنيها الكد .

فلأبي شادى شخصية واحدة تظهر دائماً وإن تنوعت ثيابها وتشكلت، فهو محب للحياة متصوف فى حبه عالي الروح، يريد الحياة خالصة سامية، يريدها قطعة فنية، فهو يحاول تهذيبها، أو هو يحاول تلوينها بألوان من السعادة تختلف فتبدو للناس عجباً، ويجتمع عنده فى قرارة نفسه، فلا يراها إلا وحدة متماسكة الأطراف متساوقة لاتناقض فيها، ويراها طريقاً إلى غايته وسبيلاً إلى أداء فكرته، وإنه ليشعر بحيرته بين كل هذا، ولكنها حيرة الشاعر أمام ربط معانى قصيدته حتى يلم بها فاذاهى آية تؤلف بين أبياتها وحدة تامة فيقول :

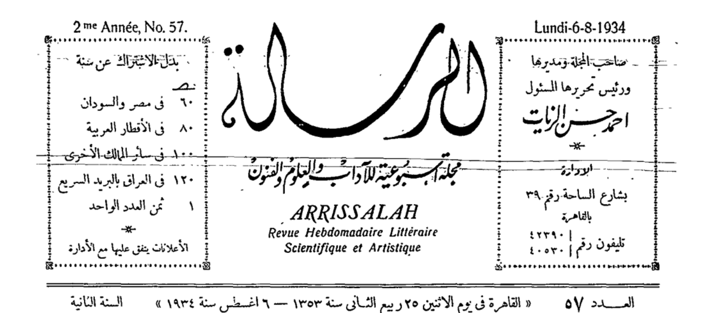
عييت من قلقى فما وجدت له ... وفى المعانى لكونى أولأخلاى
أسائل الدهر عنها وهو مضطرب ... مثلى، وأصحب كالمبهوت أعوائى
وأنتحى عن وجودى شبه منعدم ... فى الصمت، والصمت آمالى وآلامى
فى حيرة وكأنى عالم يئست ... منه الحياة فماتت روحه الدامى
أبكى وأضحك فى نفسى فان بها ... من التناقض إيسارى وإعدامى
مابين ضدين قدعاشت وليس لها ... من شاغل غير معنى عيشها السامى
تصدّرت لهموم الناس تسمدهم ... وعوقبت بين أحباب وأخصام

ولقد ظلت غايته، وهى نشدان المثل الأعلى، تتبعه كظله حتى أكسبته هذه الشخصية : شخصية الصوفى العالى ؛ فهو أمام الجمال المغرى صوفىّ يحوّل الشهوة الصاخبة فى أعماق جسده فناً يملأ روحه ويغمرها، ولا يرى فى ذلك الجمال إلا روح الوجود وروح الفن كما فى قصيدته « العيون المتكلمة »

ولقد جاهر الكثيرون ممن نقدوا أبا شادى بأن فى قصيدته « الينبوع » التى يقول فيها :

أيها الينبوع كم ساع إليك ... يدعى بغضاً كما أهوى لديك
كل مارجوه موقوف عليك ... فاذا الانبيام منك وإليك !

2 me Année, No. 57. — Lundi-6-8-1934



بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

العــدد ٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٦ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العــدد

حول باخرتنا «النيل»

بيننا وبين الأجانب

لمصر ماض بحرى مجيد يرجع الى عهد الفراعنة ، وكان لمصر أساطيل حربية وتجارية تشق عباب البحر الأبيض ، ليس عهدنا بها بأبعد من قرن ، ولو لم تتألب أوربا النصرانية على مصر المسلمة فى نافارين ، ولو لم تصب مصر بعد ذلك بما أصيبت به من المحن السياسية التى هدت من إرادتها وحريتها ، لكان لها اليوم أسطول يحمى ثغورها ، وكانت لها سفن تجوب البحار وتأخذ بنصيبها من حركة النقل والتجارة . فلما أتيح لمصر الناهضة أخيراً أن تبدأ بغزو الميدان الاقتصادى ، اتجهت الأمانى والجهود الى إحياء الملاحة التجارية المصرية ؛ ووفق بنك مصر — أمتن وأعز صروحنا الاقتصادية — الى وضع الدعامة الأولى فى سبيل تحقيق هذه الأمنية ، فاقتنى باخرتين كبيرتين هما « زمزم » و « النيل » ؛ وأدت « زمزم » فى موسم الحج الماضى للحجيج من مختلف الأمم الاسلامية أجل الخدمات ؛ وخصصت « النيل » لقطع البحر الأبيض والسفر بين الاسكندرية ومرسيليا ، وقامت الى اليوم بأربع رحلات موفقة ، وأثارت بحسن استعدادها وفخامتها ودقة

نظامها ، واعتدال أجورها إعجاب كل من شهدها أو سافر على ظهرها من المصريين والأجانب ؛ واغتبط المصريون أيما اغتباط إذ أصبحوا يستطيعون السفر على ظهر باخرة مصرية فخمة ، تسيرها وتستثمرها أموال ومصالح مصرية ، ويشعرون أثناء السفر عليها أنهم بين أهلهم وذويهم .

بدأت مصر إذن بغزو ميدان اقتصادي جديد كان حتى اليوم وقفاً على الأجانب ، هو ميدان الملاحة البحرية ؛ ومن قبل غزت مصر — خلال الأعوام الاثني عشر الأخيرة على يد بنك مصر وشركاته — مختلف الميادين والأعمال الاقتصادية والصناعية ؛ ونمت هذه المؤسسات وأزهرت ، تحفها عناية الله ، وإخلاص القائمين بأمرها وعطف الأمة كلها ، حتى غدت ركناً هاماً في حياة البلاد الاقتصادية التي كانت من قبل كلها غنماً للمصالح والأيدي الأجنبية ؛ وبثت هذه الحركة المباركة في الأمة روح الاهتمام بالمشاريع الاقتصادية والثقة فيها ؛ وأخذت المصالح الأجنبية التي غصت بنجاحها تنظر إلى المستقبل بعين الخوف والجزع ؛ وتلتمس لمحاربتها مختلف الوسائل والدعوات . وآخر ما أذيع عن جهودها في هذا السبيل موقفها من شركة الملاحة المصرية ، ومن باخرتها « النيل » ، فقد عرف أن بعض الجهات التي تخشى أن تتأثر مصالحها بجهود الشركة الجديدة تبث ضد « النيل » دعوة سيئة ، وتحث الأجانب على مقاطعتها ، وتشترك بعض وكالات السياحة في هذه الخصومة فتأبى نشر « النيل » في قوائمها ، وتأبى التعريف عنها وعن أجورها أو مواعيدها ؛ وهذه خصومة غريبة في الواقع ؛ أولاً لأن شركة الملاحة المصرية تدخل ميدان المنافسة المشروعة عزلاء من كل حماية خاصة ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومؤازرة مواطنيها ؛ وثانياً لأنها أنشئت لخدمة مصر والمصريين قبل كل شيء ، والمصريون لا يمكن أن تحولهم أية دعوة عن مؤازرة شركتهم وباخرتهم ؛ وثالثاً لأن هذه الدعوة في ذاتها غير صحيحة ، إذ الواقع أن النيل من أفخم بواخر البحر الأبيض وأحسنها استعداداً ، هذا فضلاً عن اعتدال أجورها ومصرية جوها ومحيطها .

* * *

على أن هذا التحرش من جانب المصالح الأجنبية بالجهود المصرية المشروعة لا يمكن أن يضر هذه الجهود ، وإنما يرتد أثره بالعكس إلى المصالح الأجنبية ذاتها . فقد طال عهد مصر بعسف هذه المصالح التي تحميها الامتيازات الأجنبية الباغية ؛ وقد عرفت مصر التي تطمح إلى استكمال حرياتها السياسية أن التحرر الاقتصادي دعامة قوية في هذا السبيل ؛ وعرفت المصالح الأجنبية أن هذه الامتيازات التي تتمسك دائماً بسلطانها وحمايتها لا يمكن أن تحقق لها ما تريد من عطف الشعب الذي تعمل بينه ، لأن عطف الشعوب لا يكسب بالقوة والعنف ، وعرفت من جهة أخرى أن هذا العطف ينثال على كل مشروع مصري خطير ، ورأت أخيراً أن مصر تغزو الميدان الاقتصادي الذي احتكرته عصراً ، بقوة ونجاح ؛ فهذه العوامل كلها تجعل المستقبل مظلماً في وجه المصالح الأجنبية ، وتحملها على أن تقف أمثال هذه المواقف التي لا تعرب عن فطنة ولا كياسة من مصالح بلد مازالت تستغل كرمه ورعايته وضعفه .

إن في هذا الموقف وأمثاله لعبرة جديدة لمصر والمصريين . وفي وسع مصر دائماً — في مثل هذه الظروف على الأقل — أن تقابل هذه الخصومة بمثلها ؛ فالمصريون الذين يسافرون على البواخر الأجنبية ألوف وألوف ؛ ولن تتأثر شركة الملاحة المصرية و « النيل » بهذه الدعاية الوضيعة ؛ ولكن الشركات الأجنبية يمكن أن تتكبد خسائر فادحة يوم يقاطعها المصريون بحق ، ويؤثرون عليها « النيل » وغيرها من البواخر التي نرجو أن تقتنيها مصر في أمد غير بعيد .

فلتسر شركة الملاحة المصرية ، ولتسر كل شركاتنا المصرية في طريقها محفوفة بالرعاية القومية الشاملة ، فإن هذا العدوان لن يضيرها في شيء ، ولكنه بالعكس يكسبها عطفاً جديداً ، ويمدها بروح جديد لمتابعة العمل المجيد الذي تقوم به في سبيل مصر .

« ع »

فى اللهب ولا تحترق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أفى الممكن هذا ؟

لعوب حَسَنة الدَّلّ ، مفاركهة مداعبة ، تحيى ليلها راقصة مغنية ؛ حتى اذا اعتدل الليل ليمضى ، وانتبه الفجر ليقبل — انكفأت الى دارها فنَضت وَشْيها ، وخرجت من زينتها ، وخلعت روحاً ولبست روحاً ، وقالت : اللهم إليك ، ولبَّيك اللهم لبَّيك . ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها ، وقامت بين يدى ربها تصلى . . . !

***

هى حسناء فاتنة ، لو سطع نور القمر من شىء فى الأرض لسطع من وجهها . وما تراها فى يوم إلا ظهرت لك أحسن مما كانت ، حتى لتظن أن الشمس تزيد وجهها فى كل نهار شعاعةً ساحرة ، وأن كل فجر يترك لها فى الصبح بريقاً ونضرة من قطرات الندى .

وتحسب أن لها دماً يَطْعم فيما يطعم أنوار الكواكب ، ويشرب فيما يشرب نسمات الليل .

وإذا كانت فى وَشْيها وتطاريفها وأصباغها وحلاها لم تجدها امرأة ، ولكن جمرة فى صورة امرأة ؛ فلها نور وبصيص ولهب ، وفيها طبيعة الاحراق . . . . إن الذى وضع على كل جمال ساحر فى الطبيعة خاتَمَ رهبة — وضع على جمالها خاتَمَ قرص الشمس

فاذا رأيتها بتلك الزينة فى رقصها وتثنّيها — قلتَ : هذه روضة مُفْتنَّة اشتهت أن تكون امرأة فكانت ، وهذا الرقص هو فنُّ النسيم على أعضائها .

وهى متى نفذتْ الى البقعة المجدبة من نفسك أنشأت فى نفسك الربيعَ ساعة أو بعض ساعة .

وتنسجم أنغام الموسيقى فى رشاقتها نغْمة الى حركة ؛ لأن جسمها الفاتن الجميل هو نفسه أنغام صامتة تُسمع وتُرى فى وقت معاً وتنسكب روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى ، لتخرج لك بطرفيها صراحةَ الفن من إبهامين كلاهما يعاون الآخر .

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشواقَ الحياة وأفراحها وأحزانَها ، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةَ جسمِ المرأة .

وكأن الليل والنهار فى قلبها ، فهى تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة .

وهى إلى القِصر . غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمامها حسبتها طالت لساعتها .

وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فاذا هى رابية كأن بعضها كان مختبئاً فى بعض .

ويخيل إليك أحياناً فى فن من فنون رقصها أن جسمها يتثاءب برعشة من الطرب ، فاذا جسمك يهتزّ بجواب هذه الرّعشة لا علك إلا أن يتثاءب . . . .

ويُجنّ رقصها أحياناً ، ولكن لتحقّق بجنونِ الحركة أن العقل الموسيقىّ يُصرّف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفن فى تأوّدها ولفتها ونظرتها وابتسامها وضحكها — ففى وجهها دائماً علامة وقر عابسة تقول للناس : افهمونى .

***

ولما رأيتها شهد قلبى لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء ؛ وأنها مُتحرّزة ممتنعة فى حصن من قلبها المؤمن ، يبسط الأمنَ والسلامة على ظاهرها ؛ وأن لها عيناً عذراء لا تحاول التعبير ، لا سؤالاً ولا جواباً ولا اعتراضاً بينهما ؛ وأن قوة جمالها تستظهر بقوة نفسها ، فيكون ما فى جمالها شيئاً غير ما فى النساء — شيئاً عبقرياً بالغَ القوة ، يكفّ الدواعى ويحسم الخواطر ، ويُرغم الاعجاب أن يكون ذهولاً وحيرة ، ويُكره الحبَّ أن يرجع مهابة واحتشاماً .

والرواية كلها فى باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها ، وما وجهها إلا الشاشة البيضاء لهذه «السينما» ، وهل يكون على الوجه إلا أخيلة القلب أو الفكر ؟

وعندى أن المرأة اذا كان لها رأى دينى ترجع اليه ، وكان أمرها محتماً فى هذا الرأى ، وكانت أخلاقها محشودة له . متحفلة به — فتلك هى الياقوتة التى ترى فى اللهب ولا تحترق ، وتظل

مع كل تجربة على أول مجاهدتها ، إذ يكون لها في طبيعة تركيبها الياقوتي ما تهزم به طبيعة التركيب الناري .

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعة ياقوتيــة ، هي فطرتها الدينية التي فيها ؛ إن بقيت لها هذه بقيت معها تلك ، ولكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تخذلها الفطرة والطبيعة معاً ، فيجعل الله عقابها في عملها ، ويكلها الى نفسها ؛ فاذا هي مقبلة على أغلاطها ومساوئها بطرق عقلية إن كانت عالة ، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة . وما بدٌّ أن تستسرّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة الى الفساد ؛ ويرجع ضميرها الخالي محاولاً أن يتلّى من ظاهرها ، بعد أن كان ظاهرها هو يتلّى من ضميرها ؛ وتصبح المرأة بعد ذلك في حكم أسباب حياتها ، مصرّفة بهذه الأسباب ، خاضعة لما يصرّفها ؛ ويذهب الدّين وينزل في مكانه الشيطان ، ويزول الاستقرار ويحل في محله الاضطراب ؛ وتنطفئ الأشعة التي كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم ، فاذا الغيوم ملتفٌّ بعضها على بعض ؛ وتخذل القوة السامية التي كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرها بذلك على أقوى الرجال ، فاذا المرأة من الضعف الى تهافت ، تغلبها الكلمة الرقيقة ، وتغترُّها الحيلة الواهنة ، وتوافق انخداعها كلُّ رغبة مزيّنة ، ويبتذلها طمعها قبل أن يبتذلها الطامع فيها . ولكن بعد ذلك من هي كائنة أصلاً وحسباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعلماً وفلسفة ، فلو أنها امرأة من « الاسمنت المسلح » لتفتتت بالطبيعة التي في داخلها ، ما دامت الطبيعة متوجهة الى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تنهدم وأن تهدم .

لقد رقّ الدين في نسائنا ورجالنا . فهل كانت علامة ذلك إلا أن كلمة « حرام ، وحلال » قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن الى « لائق ، وغير لائق » ثم نزلت عند كثير من الشبان والفتيات الى « معاقب عليه قانوناً ، ومباح قانوناً ... » ثم انحطت آخراً عند السواد والدهماء إلى « ممكن ، وغير ممكن ... »

* * *

قالت الياقوتة ، أعني الراقصة :

— أخذني أبي من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت في نفسي أن الصلاة لا تنصح بالأعضاء إن لم يكن الفكر نفسه طاهراً يصلّي لله مع الجسم ، فان كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزدد المرء من روح الصلاة إلا بعداً . وقرّ هذا في نفسي واعتدته ، إذ كنت أتعبّد على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ، فأصحّح الفكر ، وأستحضر النية في قلبي ، وأحصر بكلّي في هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكري قادراً على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرج منها ثم يعود اليها ؛ ونشأت فيه القوة المصمِّمة التي تجعله قادراً على أن ينصرف بي عما يفسد روح الصلاة في نفسي ، وهي سر الدين وعماده .

ويا لها حكمةً أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروح أبداً إما متصلة أو مهيّأة لتتصل . ولن يعجز أضعفُ الناس مع روح الدين أن يملك نفسه بضع ساعات ، متى هو أقرّ اليقين في نفسه ، أنه متوجه بعدها الى ربه ، نخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً ؛ ثم هو اذا ملك نفسه الى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضع ساعات كذلك ، فلا تزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدّل ولا يتغيّر ، كأنه بجملته — مهما طال — عملٌ بضع ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيت أبي يصلي ، وكذلك رأيت أمي ، فلا تكاد تُلِمّ بي فكرة آثمة إلا انتصبا أمامي فأكره أن أستلئم اليهما فأكون الفاسدة وهما الصالحان ، واللئيمة وهما الكريمان ؛ فدمى نفسه بركة الدين يحرسني كما ترى .

قلت : فهذا الرقص . . . ؟

قال : نعم ، إنه قُضي عليّ أن أكون راقصة ، وأن ألتمس العيش من أسهل ثلاث طرق ، وألينها وأبعدها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهرها . أريد : الرقص ، أو الخدمة في بيت ، أو العمل في السوق . وأنا مُطيقة لحريتي في الأولى ، ولكني لن أملكها في الأخيرتين مادام عليّ هذا الميسم من الحسن ؛ وكم من امرأة متحجبة وهي عارية الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجبة . إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه ، وليس السؤالُ ما سألت ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا : هل ما ترى هو في ثيابي فقط ، أو هو في ثيابي ونفسي ؟

ها أنت ذا تُغلغِل نظرتك في عينيّ إلى المعاني البعيدة ، فهل ترى عيني راقصة ؟

قلت : لا والله ، ما أرى عينَيْ راقصة ، ولكنْ عينَي مجاهد فى سبيل الله . . ! فاستضحكتْ وقالت : بل قل : عينَى مجاهد يهزم كل يوم شيطاناً أو شياطين .

إنى لأرقص وأغنّى ، ولكن أدرى ما الذى يُحْرِزُنى من العاقبة ، ويحميني من وباء هذا الجمهور المريض النفس ؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ، ولا بروح المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيعين اليها ؛ فهيهات بَعْد ذلك هيهات ! ومن هذا لا أحس بقلوبهم ولا بشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدّى عملاً فنياً على ملأٍ من الأساتذة الممتحِنين ، والنظّارة يحكمون لها أو عليها ؛ فهى فى فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاءوا . . .

ولستُ أنكر أن أكثرهم ، بل جميعهم يخطىء فى طريقة تناوله السيّال الكهربائى المنبعث من نفسى ، ولكن لا عَلَيّ ، فهذا السيال نفسه ينبعث مثله من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق ، ومن كل جميل فى الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لانسان فيها ذكريات قديمة ، أو نبّهت ببعض معانيها بعضَ معانيه .

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى ؛ اضطرب وجوهاً من الاضطراب فى جذب الناس ودفعهم معاً . واذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها سلمت من أن يغلبها الرجل على فضيلتها . وفى النساء حواس مغناطيسية كاشفة منبّهة خلقت فيهن كالوقاية الطبيعية ، لتسلم بها المرأة من أن تُخْطِرَ عفّتها لغرض ، أو تُغرّر بنفسها لانسان ؛ فانك لتكلم المرأة ، وتزيّن لها ما تزيّن ، وهى شاعرة بما فى نفسك ، وكأنها ترى ما فى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينيها ، وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفك يَشِفُّ ويفضح ، لا فى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم .

وليس يُبطل هداية هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعها المادىّ فى المال والمتاع والزينة ؛ فان هذا الطمع هو القوة التى يغلب بها الرجلُ المرأةَ ، فبنفسها غلَبها ؛ واذا تبذّل طمعُ امرأة فى رجل فهى مومس ، وإن كانت عذراء فى خدرها .

ويا عجبا ! إن وجود الطبيعة فى النفس غير الشعور بها ؛ فليس يشعر المرأة بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة . فكأن الحكمة قد وَفّتها وعرّضتها فى وقت معا ، لتكون هى الواقية أو المخْطِرة لنفسها ، فبعملها تجزى ؛ ومن عملها ما تضحك وتبكى .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمع فى شىء من أشياء الناس ، وسَخوتُ عن كل ما فى أيديهم ؛ فما يتكرّمون علىّ إلا بهلاكى . وحسبى أن يبقى لعينى قلبى ضوؤها البصر . وأنا أعتمد على شهامة الرجل ، فان لم أجدها علمتُ أنى بازاء حيوان انسانى ، فأحذره حذرى من مصيبة مقبلة . واذا جاءنى وقح خلق الله وجهه الحسن مسبةً له ، أو خلقه هو مسبة لوجهه القبيح ، ذكرت أنى بعد ساعة أو ساعات أقوم الى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعدا وإن كان بازائى ، فأغلظ له وأتسخط ، وأظهر الغضب وأصفعه صفعتى .

قلت : وما صفعتك ؟

قالت : إنها صفعة لا تضرب الوجه ولكن تخجله .

قلت : وما هى ؟

قالت الياقوتة : هى هذه الكلمة : أما تعرف ياسيدى أنى أصلى وأقول « الله أكبر » فهل أنت أكبر . . . ؟ أأقيم لك البرهان على صَغارك وحقارتك ، أأنادى الشرطى . . . ؟ !

***

تختنق بالرقص وتنتعش بالصلاة ، وفى كل يوم تختنق وتنتعش .

ولكنى لا أزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى الترادف شرعاً : رقَصتْ وصلت . . . ؟

مصطفى صادق الرافعى

أزمــــة الكتاب

ومصير الكتب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن التاسع عشر عصر الآلات والاختراعات الصناعية ، حلت الآلة مكان اليد العاملة فى معظم الصناعات ، وحرم ملايين العمال من العمل اليدوى ، وساد البؤس فى الطبقات العاملة ، واستمر هذا التطور طوال النصف الأخير من القرن الماضى حتى استقرت الصناعة أخيراً على قواعدها الجديدة ، وتهيأت الطبقات العاملة للعمل فى الظروف الجديدة ، وحل العمل الفنى والآلى مكان العمل اليدوى .

واليوم نشهد انقلاباً عظيماً آخر فى مصاير الانتاج العقلى ؛ فقد كان « الكتاب » حتى أوائل هذا القرن أهم وأنفس غذاء عقلى للطبقات المثقفة ، وكانت قراءة الكتب المختارة أسمى وأمتع وسائل التربية والتهذيب والرياضة العقلية ، ولكن التطورات العلمية والأدبية والاجتماعية التى حدثت منذ الحرب الكبرى كان لها أثر كبير فى تطور الذوق الأدبى أو بعبارة أخرى فى قيمة الكتب وفى مركز القراءة وميول القراء . وليس من ريب فى أن الكتاب قد فقد اليوم كثيراً من سحره وقيمته المادية والاجتماعية ، وقل الاقبال كثيراً على اقتنائه وقراءته ، ولكن ذلك لا يعنى أن منسوب القراءة قد هبط ، فالقراءة بالعكس قد كسبت من هذا التطور بصفة عامة ، وزاد منسوبها بلا ريب تبعاً لازدياد نسبة المتعلمين فى مختلف الأمم ؛ واذا كان الذوق الأدبى قد تطور وخسر الكتاب القيم كثيراً من قرائه ، فان أولئك القراء تحولوا الى ألوان جديدة من الأدب الخفيف والى قراءة الصحف والمجلات . والواقع أن الصحافة أول وأقوى العوامل الجديدة التى أثرت فى مركز الكتاب ومدى انتشاره . ففى ربع القرن الأخير تقدمت الصحافة تقدما عظيما ، وغزت كل ميادين التفكير والعلوم والفنون ، ولم تبق دوريات خبرية فقط ؛ ومعظم الصحف اليومية السياسية ، فى جميع الأمم ، تخصص للأدب والنقد والعلوم والفنون والمسرح والاقتصاد والمالية والرياضة صحفاً خاصة حافلة بمختلف البحوث والشذور القيمة ، هذا عدا القصة الصغيرة اليومية ، وعدا الرواية المسلسلة ، وعدا الصور الكثيرة ؛ ثم هنالك المجلات الأدبية والعلمية ، الأسبوعية والشهرية ، وقد بلغت مدى عظيما من التقدم والذيوع ، وأضحت مسرحا لأعظم الأقلام ، ومعرضاً لمختلف البحوث وأهمها . وتمتاز المجلة على الكتاب بتنوع مادتها ، فهى تجمع بين الفصول الأدبية والعلمية والسياسية ، والقصة والمسرح والأزياء ، ويكاد كل عدد منها يكون كتابا مستقلا بذاته ، وهى دائما متنوعة متجددة ترضى مختلف القراء والأذواق بأكثر مما يرضى الكتاب الموحد الفكرة والموضوع ، والصحافة الأدبية هى بلا ريب أشد خصوم الكتاب ومنافسيه ، وأشدها تأثيراً فى مركزه ومدى انتشاره ، لأنها تبدو فى بعض ألوان من الكتاب ، وتأخذ بالسهل الموجز منها ، حتى انك لترى أحياناً موضوعات وبحوثا خطيرة تشغل فى الكتاب مجلداً أو مجلدات تلخصها المجلة فى فصل لا يتجاوز عدة صفحات ، وربما كان ملخصها مؤلف الكتاب ذاته ؛ هذا الى ما تتوخاه المجلة من اختيار الموضوعات الشائقة والأساليب السهلة التى تغرى كثيراً من القراء على تفضيلها على الكتاب

هذه المنافسة الأدبية القوية كانت وما تزال شديدة الوطأة على الكتاب ، ولم يكن فى وسع الكتاب أن ينافسها ، لأنها تجرى طبقاً للعوامل النفسية وطبقاً لتطور الظروف الاجتماعية ؛ أضف الى ذلك المسألة الاقتصادية أعنى مسألة الثمن ، فالصحف والمجلات تعرض بضاعتها الأدبية على الجمهور بأثمان بخسة يستطيع أن يؤديها الملايين ، معتمدة فى ذلك على كثرة انتشارها وما تجنيه من أجور الاعلانات . ولكن الكتاب القيم لم يستطع حتى اليوم وليس فى الامكان أن ينزل الى هذا المستوى . نعم حاول كثير من المؤلفين والناشرين أن يسايروا هذا التطور فى الذوق الأدبى ، فعمدوا الى اخراج الكتب السهلة الموجزة ، والى معالجة الموضوعات العلمية الخطيرة فى أساليب خفيفة عادية مما يعرف اليوم بتبسيط العلوم ، وهى طريقة تعالج بها اليوم أخطر وأعقد الموضوعات العلمية فى الصحف والمجلات ، وان كانت لا تؤديها دائما بما يجب من الدقة والتحقيق ، وكذلك عمد كثير من المؤلفين والناشرين الى إخراج الموضوعات الخطيرة العلمية والسياسية والاجتماعية وغيرها فى ملخصات صغيرة ، وفى فصول متناثرة ، أو الى جمع القطع المختارة فى كتاب واحد ليكون له بذلك ما للمجلة أو الصحيفة من التنوع ، وعمدوا فوق ذلك الى اخراج هـــذه الكتب فى

طبعات شعبية رخيصة لتكون في متناول جميع الطبقات ، ومن المعروف أيضاً أن كثيراً من كتاب القصص البالبين يخرجون اليوم كتبهم في طبعات شعبية عديدة ، ويتحرون اختيار القصص والحوادث المثيرة والشائقة ، وكثير منهم يفضل كتابة القصص الشرطية ، وقطع السينما لأنها تدر عليهم أرباحاً حسنة . والخلاصة أن الكتاب اضطر تحت ضغط هذه المنافسة الشديدة التي شرحناها أن يتطور نوعاً وأن يساير الذوق الأدبي والظروف الاجتماعية الجديدة . ولكنه مع ذلك لا يزال بعيداً عن أن يسترد مركزه أو يقاوم هذا التيار الجارف الذي يهدد مركزه وقيمته وتقاليده

وقد غدت السينما والراديو من أشد خصوم الكتاب ، فني السينما تلخص أو تمسخ أمهات القصص حتى يمكن اخراجها في صور تلائم الجمهور ، ولا يقع الجمهور منها إلا على الجانب القصصي ، ولا يلمس شيئاً من قيمتها الأدبية أو الفنية . وأما الراديو فهو أشد خطر على الكتاب من كل ما تقدم ، وربما كان هذا الخطر اليوم في بدايته ، وقد يستفحل كثيراً فيما بعد ، فني الراديو تنقل اليوم في سائر انحاء العالم جميع الأنباء والأحاديث السياسية ، ومعظم المحاضرات العلمية والأدبية والنقدية الهامة ، وتذاع فيه ملخصات عن معظم المباحث والموضوعات الخطيرة التي تعنى بها الحركة الفكرية ، ومزيته في أنه ينقل ذلك كله للسامع وهو جالس في مكانه الوثير في المقهى أو المنزل ، لا يكلفه عناء القراءة ، وخطره على الكتاب والحركة الفكرية في أن الاذاعة الموجزة السهلة تمسخ معظم الموضوعات العلمية والأدبية التي تتناولها ، وتصرف بذلك ملايين السامعين عن قراءتها وتتبعها في مصادرها القيمة .

* * *

وفي ظل الطغيان السياسي الذي يسود اليوم بعض الأمم المتمدنة تواجه الحركة الفكرية ويواجه الكتاب أشد المخاطر والأزمات ، فني بلاد كايطاليا والمانيا وتركيا وبولونيا وروسيا تسودها النظم « الدكتاتورية » ؛ وتخمد الحريات السياسية والفكرية ، تصطبغ الثقافة والتفكير بنفس الألوان التي يفرضها الطغيان وتقتضيها مصلحته وغاياته السياسية ؛ وحيثما تنعدم حرية الفكر ، تخبو حركة التأليف الحر وتغدو الصحافة والمفكرون والكتاب طوعاً أو كرهاً جنود النظام القائم ، ويطارد المفكرون الأحرار ، وتطارد كتبهم بلا رأفة ؛ وفي ظل هذه الأنظمة الطاغية ، التي يزعم فيها الطغاة وأعوانهم انهم يعبرون عن رغبات الشعب وآماله وتفكيره ، يختفي الانتاج الفكري القيم ويتحول إلى نوع من الأدب الذليل الخاضع ، يشيد جله بالطغاة ونظمهم ومبادئهم وأعمالهم . وقد شهدنا من مناظر هذا الاضطهاد الفكري في العهد الأخير ألواناً شنيعة في ألمانيا ، في ظل الطغيان الهتلري ، حيث طورد جميع المفكرين والكتاب الذين لم يسايروا الطغيان الجديد ولم يرتضوا فظائعه ، ففر منهم من فر خارج ألمانيا ، وقتل من قتل ، واعتقل من اعتقل ؛ وشرد كثير من أقطاب الأدب الألماني المعاصر ، وحظر على دور النشر الألمانية أن تتعاقد معهم أو تنشر لهم شيئاً ، ومنعت كتبهم من التداول ، وأحرقت كتب كثيرة في أوائل عهد النازي في شوارع برلين على نحو ما كان يجري في العصور الوسطى على يد محاكم التحقيق ؛ والخلاصة أن الانتاج الأدبي في المانيا قد أصيب في عهد الطغيان الهتلري بضربة مميتة ، وأضحت الثقافة الألمانية والأدب الألماني الحاضر والصحافة الألمانية الحاضرة صورة متماثلة مملة للمبادىء والنظريات والآراء التي يفرضها الطغيان الحاضر على الشعب الألماني . وحيثما يوجد الطغيان السياسي يمر الانتاج الأدبي دائماً بهذا الدور ، ويصاب التأليف بمثل هذا العقم والتماثل ويواجه الكتاب أشد المحن .

وهنالك أخيراً روح العصر ؛ فعصرنا عصر سرعة ورياضة ، والسرعة تدفع كل الناس بلا هوادة ، وشغف الرياضة يستغرق اهتمام الشباب وفراغه ؛ فلا يجد من الوقت أو الرغبة ما يحمله على التماس القراءة ، ولا سيما القراءة الرزينة الهادئة . وإذا أتيحت للشباب فرصة القراءة اليوم فماذا يقرأ ؟ الكتب أو المجلات الخفيفة ، المبتذلة غالباً ؛ لأنه لا يقرأ دائماً للفائدة وانما يقرأ للهو فقط ، ولا يريد أن يبذل جهوداً عقلية في استيعاب كتب الثقافة الرفيعة ، وهذه الروح السيئة بلا ريب ، من أقوى العوامل في صرف أنظار الشباب عن الكتاب

* * *

وهل نحن بحاجة للقول بأن جميع ما قدمنا من العوامل والظروف ينطبق على سير الحركة الفكرية والانتاج الأدبي في مصر كل الانطباق ؟ إن الكتاب يواجه في مصر نفس الأزمة الخطيرة التي يواجهها في جميع الأمم المتمدنة ؛ وقد صرفت الصحافة والمجلات الأدبية والقصصية ولا سيما المجلات الخفيفة

والماجنة أنظار الشباب عن القراءة الرزينة المفيدة ؛ وأفسد الأدب المبتذل ، ولا سيما الأدب الجنسي ذوق الشباب وعقليته ، فانحط مستوى تفكيره وتقديره ؛ وأضحى الكتاب القيم لايجد بكل أسف بين الشباب كثيراً من الأنصار . أضف إلى ذلك ظرف مصر الخاص وهو انتشار الأمية فيها ، وضعف نسبة المتعلمين إلى حد لايزال يزرى بكرامتها ، ولولا أن الشعوب التي تتكلم العربية التي تكتب بها في مصر تبلغ زهاء سبعين مليونا ، لكان خطب الانتاج الأدبي العربي مضاعفاً ؛ ومع ذلك فالمعروف أن الكتب العربية القيمة تواجه أشد الأزمات ، وأن الكتاب الذي لايطبع منه سوى ألفي أو ثلاثة آلاف نسخة يمكث أعواماً طويلة قبل أن تنفد نسخه بين السبعين مليوناً من الشعوب التي تتكلم العربية

والخلاصة أن الكتب تواجه أشد أزمة عرفتها في العصر الحديث . وقد تتفاقم هذه الأزمة ، ويزداد مركز الكتاب حرجا ويزداد ذبوعه كساداً ، ولكن الكتاب لايمكن مع ذلك أن يختفي أو يموت . ذلك أن الكتاب قد ولد مع المدنية الانسانية ، ولبث مدى العصور أقدس متنفس للذهن البشري ، وما دام الذهن البشري ينتج ويعبر عما يجول فيه ، فلا بد من التجائه إلى الكتاب ؛ وقد من الانتاج الفكري ومرت الكتب خلال العصور المظلمة بمحن شديدة ، ولاذت بالاختفاء أيام الغزوات البربرية في عهد الهون والوندال ؛ ولبثت في الأمم الأوربية مدى قرون تقبع في ظلمات الأديرة ، ولم تجد متنفساً وملاذاً إلا في الدول الاسلامية ، في ظل المدنية الاسلامية الزاهرة ؛ واستمرت محاكم التحقيق (التفتيش) عصوراً تجد في مطاردة التفكير الانساني وفي مصادرة الكتب وحرقها ؛ ولكن هذه الخطوب والمحن كلها لم تخمد جذوة التفكير الانساني ، ولم تقض على حياة الكتاب ؛ وخرج الكتاب ظافراً من هذه المحن ، وجاءت المطبعة في فجر العصر الحديث فاستطاع بعونها أن يغمر العالم ؛ ولم تقو عصور الطغيان ونظمه على مغالبة الذهن البشري ؛ فاذا كان الكتاب يجوز اليوم أزمة فكرية اجتماعية ، نظراً لتطور الحياة والاختراعات العلمية ، فتلك أزمة مؤقتة ، سوف يتاح للكتاب أن يتغلب عليها متى استطاع أن يهيء نفسه للتسير مع الظروف الجديدة في ألوان لاتغض من قدره ورفيع مكانته ؟

محمد عبد الله عنان

المحامي

ابراهيم بك مرزوق

ومحمد سعيد بك

بقلم الأستاذ محمود خيرت

نقلت الرسالة في عددها الرابع والخمسين مادونه المغفور له تيمور باشا من حياة المرحوم ابراهيم بك مرزوق وأنه كان شاعراً مجيداً نظم كثيراً من المقطوعات والقصائد . ولكنه مع توسعه في ذكر مولده ونشأته وأدوار تقلبه في مناصب الحكومة أوجز كثيراً في حياته الأدبية مقتصراً على أن المرحوم محمد بك سعيد هو الذي جمع ديوانه ونشره في سنة ١٢٨٧ هـ ، فلم يتعرض الى شيء من شعره ليعطينا صورة ريانة من تلك الحياة .

وقد كنت أود لو أن بين يدي ديوان هذا الشاعر الذي لم أهتد اليه في المكاتب ، فأسد هذا الفراغ ، ومع ذلك فانه لايزال عالقاً في ذهني منه هذان البيتان :

لم يرضني الهجر حتى عمر الحبيب تقضى
والأرض ضمته قبلي ياليتني كنت أرضا (أرضى)

وقد لايكون هذا القدر القليل كافياً للحكم على هذا الشاعر من حيث ميوله المختلفة في مجموعها وعلاقتها بالبيئة التي عاش فيها ، ولكنه على كل حال شاهد صدق على ما كانت عليه نفسه من الرقة وكان عليه أسلوبه من الفخامة والحلاوة والسهولة ، فهذان البيتان مع أنهما من المجزوء تضمنتا قصة بحالها يجول فيها الحب وجنانه ، والهجر وأناته ، والموت وأظفاره ، والدمع وأنهاره ، وهو بين الحبيب الذاهب ، واليأس الغالب ، يعود باللائمة على نفسه التي لم تقنع بالهجر وتجد لذتها فيه ، حتى ضمته الأرض قبل أن تضمه حنايا قلبه الشجي المحترق ، وهو مع كل هذا لايفوته حكم الصناعة فيخرج لنا جناسا لانحس عنده جهدا ولا تكلفاً ولا مللاً ، يجمع بين الندم على عدم الرضى ، والحسرة على فوز الأرض بالحبيب من دونه

***

على أن الذي هداني الى هذا الديوان وأنا فتى هو نفس

المرحوم محمد سعيد بك الذى عنى بجمعه ونشره ، فقد كان كثير التردد على المرحوم جدى ، (وكان صديق أبيه) ، وكان من ترديده علينا أن حبب الى نفسى قرض الشعر فى ذلك العهد . - -

ولقد كان محمد سعيد بك واسع الاطلاع غزير المادة فياضاً مجيداً . أذكر أنه زارنا مرة فوجد منى قريباً جميل الطلعة ، فمال علىّ هامساً فى أذنى ما اسمه ؟ قلت مصطفى ، وعند ذلك انفرد بنفسه فى ركن من الغرفة ، حتى اذا مضت أربع دقائق أقبل علىّ يقول بصوت خافت : اسمع ، ثم أنشدنى هذا البيت :

وأعطشني وجدى الى رشف ريقه
لفرط صبابتي فمذ قال مُصْ طَفَى

ومن شعره رحمه الله فى سيدة رثاها :

أيها المغرور بالدنيا اعتبر فبوعظ كم ينادى الزمن
بينما الانسان فى الدنيا اذا قائل هذا فـلان يدفن
هاهنا درة خدر فارقت قصرها الزاهى وهذا السكن
أنشد الرضوان فى تاريخها رحمـة الله عليها جلشن

وجمل عجز البيت الأخير يعطيك تاريخ السنة التى توفيت فيها تلك السيدة ، واذا علمنا أن محاولة الحصول على التاريخ عند قرض الشعر من الأمور المعقدة التى لايمكن فيها الجمع بين التاريخ وحلاوة الشعر أدركنا من هذا الشعر مقدرة هذا الشاعر الكبرى فى تذليل هذه الصعوبة ، فان ارسال الرحمة فى هذه الصيغة التى ألفها الناس وذكر اسم المرثية والحصول مع ذلك على التاريخ المطلوب فى شعر من بحر الرمل حلو الألفاظ والمعنى كاف للتدليل على مكانته . ولقد بلغ من مقدرة محمد بك سعيد أنه نظم مرة قصيدة من عشرين بيتاً كان كل صدر وكل عجز منها تاريخاً ، وقد سمعت ذلك من جدى رحمه الله ، وكان وقتئذ وكيلا للمطبعة الأميرية ، ولعل هذه القصيدة منشورة بالوقائع الرسمية التى كانت تنشر وقتئذ له وللمرحوم الليثى وغيرهما من الشعراء

وقد روى لى محمد سعيد بك رحمه الله انه هو الذى وضع القطعة الغنائية المشهورة التى مطلعها :

بستان جمالك من حسنه أبهى وأجمل م البستان

على خلاف ما شاع بعد وفاته من أنها للمرحوم اسماعيل باشا صبرى هؤلاء الناس الموفقون فى الأدب والشعر قد لا يعلم الناس عن كثير منهم شيئاً ، وهكذا يذهبون وتذهب معهم آثارهم . روى لى المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أن كتبة محكمة الاسكندرية الشرعية كان رئيسهم (الباشكاتب) فى وقت ما رجلا نسيت اسمه خفيف الروح جيد الشعر ، ولكنه كان مولعاً بالشراب ، وقد صادفه مرة أحد أصدقائه وهو يحتسى فى حانوت خمار فطلب اليه أن يسايره حيث هو ذاهب (وكان لا يزال فى القنينة نحو ثلثها) فأبى قائلا وبلسانه التواء من أثر السكر . . . .

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

ولا أدرى اذا كان هذا البيت من مقوله أو قديم ، ولكنه على كل حال دليل على سرعة ارتجاله أو سرعة خاطره

ومما يدل على ظرف هذا الرجل ان حضرة القاضى رئيس المحكمة كان معتاداً أن يقبل الموظفون (وهو معهم) يده عند كل صباح . ولكنه بلغه مرة انه مدمن على الخمر ، وانه يعترض فى الطرقات الفتيات المتبرجات بالهوى ، فغضب عليه وأسرف فى تعنيفه حتى اذا ضاقت نفسه خرج من صمته صائحاً ليكن ما بلغ فضيلتك عنى صحيحاً فمالك وسلوكى فى غير أوقات عملى . وعند ذلك جن جنون الشيخ وصرخ فيه أن اخرج من هنا . أنت طالق . أنت طالق . أنت طالق . . !

وفى صباح اليوم التالى لم يره الشيخ مع باقى الكتبة فتذكر ما كان من أمره معه بالأمس ، وأرسل فى طلبه ، ولكنه أبى أن يحضر فذهب اليه بنفسه ، وعند ذلك أسرع صاحبنا فغطى وجهه بطرف ثوبه ... وفى هذه الحركة من حسن الاشارة ما فيها بعد صدور ذلك اليمين . . .

رحمهم الله جميعاً

محمود خيرت
بقلم قضايا وزارة المالية

في ربيع حوته فرتر

من رسالة

فرنكفورت – صباح الأحد ٨ يونيو سنة ١٩٢٤

. . . الأسرة التي أقيم فيها مؤلفة من أرملة وأولادها : بنتين وصبياً أصلهم من الريف ، من وتسلار حيث كان جوته موظفاً ، وحيث عرف شرلوت وأحبها ، وكتب آلام فرتر — نزحوا الى فرنكفورت طلباً للعيش ، وسأقص عليك الآن قصة كبرى الابنتين ، ويبلغ عمرها أربعة وعشرين عاماً —

عرف قلبها الحب وهي في السادسة عشرة حينما كانت في وتسلار ، وأحاطت بحبيبها ظروف قاسية اضطرته أن يتزوج من سواها ، فلم تطق البقاء في وتسلار فرحلت الى فرنكفورت تبحث عن وظيفة . . . وتبعها شاب من مواطنيها كان يحبها ولا يجرؤ على التصريح لها بحبه . تبعها ليدرس بالجامعة ، واصطحبا وتكتم الحب ثلاث سنوات قضى اثنتين منها في ميدان القتال ، فلما انتهت الحرب عاد الى فرنكفورت ليتم دراسته ، وعادت علاقة فلتر بحبيبته تيا (Thia)

. . . باح لها بحبه وطلب يدها ، وظنت هي أنها تحبه فأجابته بالقبول ، وتمت الخطبة ، ومرت سنتان وهو يستعجل الزواج فتؤجله محتجة بغلاء الأثاث وهبوط قيمة المارك في ذلك الحين ، فلما زاد إلحاحاً صارحته برغبتها في فسخ الخطبة ، لأنها لا تستطيع أن تجد معه السعادة التي تنشدها ، فهي مادية وهو خيالي ، هي تحب الرقص ولا تفهم الموسيقى ، وهو يحب الموسيقى ولا يعلم الرقص ، فكانت بينهما القطيعة .

وهنا أنقل اليك أيها الصديق قطعاً من رسائله التي كتبها بدموعه بل بدماء قلبه ، والتي أطلعتني الأم عليها ذات مساء وتركتها لدى ليلة لأقرأها .

يقول فلتر في خطابه الأول : « مهجور ! أنا مهجور ! وما أطول الليل على مهجور مثلي في هذه المدينة الكبيرة ! لو كنت في قرية صغيرة لخرجت الى الجبال والغابات أشكو اليها حبي وأحدثها عن بؤسي ، ولكني في هذه المدينة الكبيرة اذا خرجت لا أجد إلا السكارى وهم عائدون آخر الليل الى مساكنهم ، والنساء الخليعات وهن يتسكعن في زوايا الطرق وعلى مقاعد المتنزهات »

وعلم أن « تيا » أخذت ترفض تسلم كتبه ، فكتب الى أمها يقول : « قولي لتيا إنني سأكوّن من نفسي شخصاً آخر كما تحب هي أن أكون . قولي لها إنني تقدمت في دروس الرقص وأصبحت غيري بالأمس . قولي لها تسمح لي بأن أراها مرة واحدة ، وسوف لا أحدثها عن حبي ولا أذكر لها شيئاً عن الماضي . قولي لها ترحمني فإني بدونها لا يمكنني أن أعيش . اسأليها عن ذنبي لديها ، فان كان لي ذنب غير شدة حبي فسأكفر عنه بدمي وحياتي . »

وكتب في ثالث : « في مثل الغد ولدتُ ، ولقد تعودت منذ خمس سنوات أن أتناول هديتي من المحبوبة « تيا » قبلة وعهداً على حبنا ، قولي لها إنني أنتظر هديتها غداً ، وأن تسمح بالعودة الى مثل ما كنا . سأحضر بنفسي اليكم وكلي أمل ، فأستحلفكم ألا تصدموني في كل آمالي . »

وعلمت أنه لما حضر رفضت تيا أن تقابله فأرغمتها أمها على ذلك ، فأساءت لقاءه ، فكتب الى أمها : « قولي لها تجربني شهراً واحداً ، وسوف لا أحدثها عن حبي ، غداً تبدأ حفلات يتهوفن السنوية . ذكريها أنها لما سمعتها لأول مرة ، وكانت معي بكت . . . وفي تلك الليلة حدثتها لأول مرة عن حبي . . . لقد اشتركت لها ولي ، وسأمر بكم غداً لأرافقها »

ولما بلغه أنها تخطب الى آخر كتب الى أمها :

« إني آمل وآمل ولا أستطيع أن أيأس قبل أن يضع القسيس على رأسها إكليل الزواج من غيري ، آمل لأن حبي لها لا يفنى ، ولأني بدون هذا الشعور لا أستطيع أن أحيا . »

وكانت آخر رسائله هذه الكلمات : « سوف تتزوج من غيري ! إن هذا يطن في رأسي طنين حلم مروع ، وما كنت لأتصور حدوثه يوماً من الأيام ، وهل هناك أحد في العالم يستطيع أن ينيلها من السعادة ما أستطيع ؟ . قولي لها إني أتمنى لها الهناء من صميم فؤادي ، وأن الشيء الوحيد الذي أحذره أن تذكرني يوماً من الأيام بالأسف حين لا ينفع الأسف . . . . وداعاً الى الأبد ! . . »

وفي الشهر القادم موعد حفلة زفافها الى خطيبها الجديد ، وهو دميم الخلقة ، قصير ، أعرج ، ولكنه غني ، فلقد كان أيام هبوط قيمة

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

البغـــاء

بقـــلم حبيب المعوشي

لقد كثرت فى هذه الأيام الأقاويل وتباينت الآراء فى البغاء ومنعه من البلاد ، واقصاء البغايا الأجنبيات عنه عملاً بقانون يسنّ لهذا الغرض . فمن مؤيدين لهذا القانون ، ومن معارضين له ، ولكل فريق فيما يدّعيه حججه وبراهينه . فالذاهبون الى تحريم البغاء مدنيا يقولون إنه آفة الاجتماع ومصدر الفاحشة ومجلبة البوائق ، وانه الحائل الكبير دون الزواج وتكوين الأسر ، وانه العقبة القائمة فى وجه كثرة المواليد الى غير ذلك من الأدلة . والقائلون مدنياً باباحته يؤيدون دعواهم بأنه السور الذى يصون الكثير من شرف المحصنات ، والحاجز الذى يخفف — ان لم يقف — الاعتداء على شرف العذارى وأعراض الأسر . أما أنا فلست أريد بهذا المقال أن أؤيد رأياً أو أخالف آخر ، ولكنني إجابة لطلب بعض الاخوان من الأدباء رأيت أن أنشر بايجاز ما أعرفه من هذا القبيل وما قيل بهذا الشأن فى العصور الخالية وما كان للبغايا لدى مختلف الأمم من المنزلة والمقام .

كانت البغايا فى العهد القديم من بواعث الحمية فى الرجال . فكنّ ينبهن فيهم الحماس البدنى والنشاط العقلى ويحملنهم على الدفاع والجهاد والتضحية ، والتفانى فى سبيل الوطن والعقيدة . ففى حرب شعواء شهرت على قورونتية قامت البغايا فى اليونان يشجعن الرجال ليذودوا عن الحمى ، فهبّ الرجال هبـة واحدة وخرجوا بحشدهم زمراً وكتائب لمواجهة العـدو مستبسلين مستميتين بفضل حضّ البغايا واغرائهنّ . ولم تقف البغايا عند هذا بل قمنَ وجذذن شعورهن — وكان الشعر فى ذلك العهد أنفس حلى النساء وأجمل أزيائهن — وقدّمنها قرباناً للزُهرة آلـهة الجمال كى تساعد الاغريقيين على أعدائهم وتهبهم الفوز والظفر ، وبفضل ما أبدينـهُ من ضروب التضحية والحضّ والتنشيط واستفزاز الهمم انتصر الاغريقيون انتصاراً عظيما ، وعزوا أهم أسباب فوزهم للبغايا ، فأكبروا عملهنّ وأعلوا قدرهنّ — ومثل هذا كان يجرى أيضاً فى كثير من البلاد الأخرى بحيث خصهنّ رجال تلك العصور الخالية بالمكان الأول فى الاجتماع وقالوا إن التمدن لا يقوم إلا بهنّ ولا يزداد انتشاراً إلا بمعاونتهن ، وقد شبههنّ بعض الكتاب الأقدمين بأريج ذكى يعطر الجو ويولى مستنشقيه الاغتباط ويحرك فيهم الهمة والجرأة والاقدام .

وظلّ فيهن على هـذا حتى ظهر الدين المسيحى فحرمت النصرانية البغاء تحريماً مطلقاً وجعلت من أهم أسس الكمال فى الدين قهر الجسد وكبح الشهوات البدنيـة ، ومنذ العهد الذى انتشرت فيه هذه التعاليم أخذ نجم البغايا فى الأفول ، وبدأ مجدهن فى الزوال ، فأمرت كنيسة المسيح بنبذهن من الاجتماع ، فأقصينَ من المجالس ، واضطهدن وحقرن ، حتى غدون أحط من سقط المتاع

وعند ما كانت الأوبئة كالطاعون والهواء الأصفر تتفشى فى العالم أو تصيب الأمم نكبات ومجاعات كان الناس ينفون البغايا من البلاد ويرهقونهن بألوان العـذاب ويذيقونهن شر الميتات ظناً منهم أنهم بما يفعلون يلطفون غضب السماء

ففى بعض البلاد كان الزواج محرماً على البغايا ، وفى بعضها كانت البغايا يعزلن فى الحظائر شأن المواشى ، وفى عهد البابا بولس

المارك يضارب — مع اليهود — على إسقاط عملة بلاده فأثرى

وقد سمعتها أمس فقط تقول إنها تأسف على فلتر ، فصرخت أمها فى وجهها تقول « ألم يكن ذلك من قبل ؟ . » فقلت لها إننى أتعهد بأن أرده اليهم لأنه معى فى الجامعة . فقالت الأم « هذا مستحيل ، انك لاتعرفه ، إن كبرياءه جرحت بلا شـفقة ، فلا يمكن أن يعود ، انك لاتعرفه » — والحق ياصديقى انك لو رأيته لما رأيت إلا الكبرياء والعظمة ، هو ليس بالجميل ، طويل القامة كبير الوجه ، واسع العينين ، تحيط بهما هالة سوداء ، بوجهه خطوط كثيرة وتجعدات عميقة ، يتكلم بصوت خافت يكاد لايسمع مع كبر جسمه ، وأظهر مايتجلى عليه الكبرياء والتكتم ، وقد سألته يوماً عما ينوى عمله بعد حصوله على الدكتوراه فقال : انه سوف يرحل إلى أمريكا الجنوبية ليعيش هناك ، فقلت له ألا يعز عليك مفارقة أهلك ووطنك ؟ فاجاب « لا . ليس هنا أحد يهمه أمرى »

الرابع ، أى فى القرن السادس عشر كان أشبان الأشراف فى إيطاليا يعدّون التغاضى عن حرق منازل العهر عاراً وفضيحة . وفى مدينة تولوز فى فرنسا كانت البغى التى تجرؤ على اجتياز عتبة أحد الأديرة تعدّ جانية فيقبض عليها وتلقى فى السجن ، ثم تساق للمحاكمة فيحكم عليها بأقسى عقوبة .

وفى مدينة بوكير من أعمال فرنسا أيضاً كان يفرض فى كل عام على البغايا الجرى عاريات فى أحد الميادين إلى أن تنقطع أنفاسهن وتسكت دقات قلوبهن ، وفى مدينة مانطو فى إيطاليا كانوا يوجبون على البغى شراء ما تلمسه من الأشياء لدى مرورها فى الأسواق بحجة أنها دنسته بلمسها ولوثته بيدها النجسة الذليلة وأفسدت تجارته على صاحبه . وفى هذه المدينة أيضاً كان يحتم على البغايا تعليق الجلاجل فى أعناقهن عند ما يطفن فى المدينة أسوة بالمصابين بداء الجذام تنبيهاً للمارة كى يبتعدوا وتحذيراً لهم من العدوى .

هذا قليل من كثير مما كان يجرى على البغايا فى القرون الوسطى ، ولكن عند ما أخذ التمدين الحديث يتمشى فى أنحاء العالم قل اضطهاد البغايا وأبيح لهن مخالطة الناس والظهور فى المجتمعات والأندية والمجالس ، بل عدّ البعض وجودهن من عوامل النهوض والارتقاء ، والبلوغ بالتمدين إلى أرقى درجات الكمال . ألسن هن اللواتى يبتدعن التأنق فى المعيشة ، ويطلقن الأزياء البديعة فى العالم ، ويروجن أسواق الحلى الغالية ، والملابس الأنيقة ، والمنسوجات الناعمة ، والمطارف الثمينة ، والمفروشات الفاخرة ؟ أو ليسن هن اللواتى يخرجن من خزائن الشيوخ الاشحاء ما اكتنزوه من تحف ، وكدسوه من نفائس ، وخبأوه من أموال ، فيغدقنها على الأسواق وينتفع بها المجموع الانسانى .

هذه هى الكلمة التى توخيت نشرها فى هذا الباب لعلّ فيها فائدة ، ومنها نرى أن البتّ فى تحريم البغاء أو إباحته يستلزم كثيراً من التروى والتفكير لمعرفة أيهما أفضل وأصلح للبلاد ، ولا نخال حكومتنا وهى لم تزل مترددة فى سن قانون التحريم إلا مواصلة الفحص والتمحيص حتى تهتدى إلى الأصوب والأنفع فتقرره .

وبهذه المناسبة أذكر ما قاله ديموستين كبير خطباء أثينا ، من ثلاثة وعشرين قرناً ونيفاً — فى النساء ، والبغايا وما يبتغيه الرجال منهن وهذا تعريبه :

« نحن الرجال ، بحاجة الى ضروب ثلاثة من النساء :

المرأة الرشيدة المثقفة لنشغل بها العقل ونلهي بها النفس

والمرأة البارعة فى الجمال لترضى بها الحواس ونسكن ثورات الجسد

والمرأة الصالحة الحكيمة لتلد لنا البنين وتدبر لنا المنازل . »

وقد رأى أن وجود البغايا فى البلاد ضرورى لاستفزاز همم الرجال إبان الحروب لأن المحصنات قد يحجمن عن ذلك كيلا يعرّضن أزواجهن وفلذات أكبادهن الى الهلاك .

وقال أحد علماء الفرنسيين وكتابهم فى البغاء وفى الدفاع عن البغايا ما معناه :

« ينحى الناس باللائمة على البغى التى تبيع جسدها وينبذونها ويصمونها بالعار ويعطونها وابلاً من السبّ والثلب ، على حين ان الكثيرين منهم يبيعون عقولهم وأفكارهم وضمائرهم ، فاذا كان العقل فى حكم الناس أفضل من الجسد وأسمى منه منزلة ، فلماذا يحجم عن نبذ ممتهنه ويغضى عن تعيير بائعيه ، بينا أن بيعه أجلب للعار والثلب والاستنكاف من بيع الجسد . ؟

ثم لماذا نرانا نجلّ من الرجال العظام والعلماء الأعلام من باعوا فكرهم وحريتهم وأباحوا عقولهم لقاء الدرهم . أليس هؤلاء أدعى للاحتقار والازدراء والنبذ من البغى التى تبيع جسدها وهو المادة الدنيئة الحقيرة الخاضعة للعقل ودونه قيمة ومقاماً . ؟

أجل ، ولكن بينا الناس يتخبطون فى الخطأ والغواية ويعمهون فى كثير من الضلال ، وشرّ الضلال احتقار المرأة البائعة جسدها واجلال الرجل الذى يسلم للعهر عقله وفكره وضميره وحريته الوطنية والأدبية .

فلا مراء أن فى هذا الكلام حقائق يحسن النظر فيها وتعاليم يجدر بالعاقلين والنابهين التسليم بصحتها والاستفادة منها — سدد الله خطواتنا وهدانا سواء السبيل »

حبيب المعوشى

مخترع الرقاص منجم مصرى

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يعتقد كثيرون أن الرقاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الايطالى الشهير غاليلو (١٥٦٤م — ١٦٤٢م)، وأن هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه. وهؤلاء الكثيرون يستغربون إذا قيل لهم إن هذا غير صحيح، وإن الفضل فى اختراعه يعود الى عالم مسلم عربى، عاش فى مصر ونشأ على ضفاف النيل، وقد سبق غيره فى استعماله فى الساعات الدقاقة، وبذلك يكون غاليلو مسبوقاً بهذا الاختراع بستة قرون. أقول إنهم يستغربون وأزيد على ذلك وأقول إنهم قد يستهزئون، ولكن ما كان لنا أن نجرؤ فننسب هذا الاختراع الجليل الى العرب لولا اعترافات المنصفين من علماء الافرنج، فاذا تصفحت كتاب تاريخ العرب للعالم الفرنسى المنصف سيديو تجد نصاً صريحاً بأسبقية العرب فى اختراع الرقاص: «... وكذا ابن يونس المقتنى فى سيره أبا الوفاء ألف فى رصدخانته بجبل المقطم الزيج الحاكمى، واخترع الربع ذا الثقب، وبندول الساعة الدقاقة»[1]. وكذلك يقول (تايلر Tayler) و (سدويك Sedgwick) إن العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمن[2].

من هنا يُستنتج أن العرب سبقوا غاليلو فى اختراع الرقاص وفى استعماله فى الساعات الدقاقة. أنا لا أقول إن العرب وضعوا القوانين التى تسيطر على البندول، ولا أقول إنهم وضعوا ذلك بقالب رياضى على الشكل الذى نعرفه الآن، ولكنى أقول إنهم سبقوا غاليلو فى اختراع الرقاص وفى استعماله، وفى إيجاد علاقته بالزمن؛ وفوق ذلك كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص (قانون مدة الذبذبة). يقول سمث العالم الأمريكى فى كتابه تاريخ الرياضيات فى ص ٦٧٣ من الجزء الثانى ما يلى: «ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه فى معرفة شىء عنه، وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد...»

يظهر مما مر أن العرب عرفوا شيئاً عن القوانين التى تسيطر عليه، ثم جاء من بعدهم غاليلو، وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه، إذ وجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل، ووضع ذلك بشكل رياضى بديع وسع دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه.

وأخشى أن يختلط الأمر على القارئ فيظن أن كمال الدين بن يونس هو نفسه ابن يونس الذى ذكره سيديو، مع أن هذا خلاف الواقع، فكمال الدين بن يونس كان «علامة زمانه، وواحد أوانه، وسيد الحكماء، قد أتقن الحكمة، وتميز فى سائر العلوم[1]». ولد فى الموصل سنة ١١٥٦ م، وتوفى بها سنة ١٢٤٢ م، وتلقى العلم فى بغداد فى المدرسة النظامية. كان ذا اطلاع واسع على العلوم الشرعية، وتعيين مدرساً فى الموصل، قرأ الطب والفلسفة «ويعرف من فنون الرياضة من أقليدس، والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطى وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والأرثماطيقى بطريق الخطائين، والموسيقى والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا فى ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها، واستخرج فى علم الأوفاق طرقاً لم يهتد اليها أحد...[2]»

ولنرجع الآن الى ابن يونس المصرى، فهو مخترع الرقاص، واسمه أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى. كان من مشاهير الرياضيين والفلكيين الذين ظهروا بعد البتانى وأبى الوفاء البوزجانى، ويعده سارطون من فحول علماء القرن الحادى عشر للميلاد، وقد يكون أعظم فلكى ظهر فى مصر، ولد فيها وتوفى بها سنة ٣٩٩هـ — ١٠٠٩ م.

ويقول بعض معاصريه إنه كان ذا طباع شاذة، يضع رداءه فوق عمامته، اذا ركب ضحك الناس منه لسوء حاله وشذوذ لباسه، «وكان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة فى النجامة لا يشاركه فيها غيره، وكان متفنناً فى علوم كثيرة، وكان يضرب على العود

(١) سيديو — تاريخ العرب ص ٢١٤
(٢) تايلر وسدويك — مختصر تاريخ العلم ص ١٦٣

(١) ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ١ ص ٣٠٦
(٢) ابن خلكان — وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٣٢

على جهة التأدب [١]» ... وهو سليل بيت اشتهر بالعلم ، فأبوه عبدالرحمن بن يونس كان محدث مصر ومؤرخها ، وأحد العلماء المشهورين فيها ، وجده يونس بن عبدالأعلى صاحب الامام الشافعي ، ومن المتخصصين بعلم النجوم [٢] . وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدر ابن يونس وقدروا علمه ونبوغه ، فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه في الهيئة والرياضيات ، وقد بنوا له مرصداً على جبل المقطم قرب الفسطاط ، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات ، وأمره العزيز الفاطمي أبو الحاكم أن يصنع زيجاً ، فبدأ به في أواخر القرن العاشر للميلاد ، وأتمه في عهد الحاكم ولد العزيز ، وسماه (الزيج الحاكمي) . ويقول عنه ابن خلكان « وهو زيج كبير رأيته في أربعة مجلدات ، ولم أر في الأزياج على كثرتها أطول منه » . ويعترف سيديو بقيمة هذا الزيج فيقول : إن هذا الزيج كان يقوم مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد سابقاً . ويقول سوتر الشهير في دائرة المعارف الاسلامية : « ومن المؤسف حقاً أنه لم يصل الينا كاملاً ، وقد نشر وترجم (كوسان) بعض فصول هذا الزيج التي فيها أرصاد الفلكيين القدماء ، وأرصاد ابن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف واقتران الكواكب » . وكان قصده من هذا الزيج أن يتحقق من أرصاد الذين تقدموه وأقوالهم في الثوابت الفلكية ، وأن يكمل ما فاتهم ، وأن يضع ذلك في مجلد كبير جامع . « يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب والتسيير [٣] » . وابن يونس هو الذي رصد كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة حوالي سنة ٩٧٨م ، وأثبت منها تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائرة البروج ، فجاء حسابه أقرب ما عرف الى أن أتقنت آلات الرصد الحديثة [٤] .

وأصلح ابن يونس زيج يحيى بن أبي منصور ، وعلى هذا الاصلاح كان تعويل أهل مصر في تقويم الكواكب في القرن الخامس للهجرة [٥] .

(١) ابن خلكان — وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٥

(٢) ابن القفطي — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٥٥

(٣) ابن القفطي — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٥٥

(٤) صروف — بسائط علم الفلك ص ١١

(٥) صاعد الأندلسي — طبقات الأمم ص ٩٣

وبرع ابن يونس في المثلثات وأجاد فيها ، وبحوثه فيها فاقت بحوث كثيرين من العلماء ، وكانت معتبرة عند الرياضيين ، ولها قيمتها الكبيرة في تقدم علم المثلثات . وقد حل أعمالاً صعبة في المثلثات الكروية [١] واستعان في حلها بالمسقط العمودي للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقي ومستوى الزوال [٢] . وهو أول من استطاع أن يتوصل الى إيجاد القانون الآتي في المثلثات الكروية :

جتاس جتاص = ½ جتا (س+ص) + ½ جتا (س−ص) [٣]

وكان لهذا القانون [٤] قيمة كبرى عند علماء الفلك قبل اكتشاف اللوغارتمات ، إذ يمكن بواسطته تحويل عمليات الضرب الى عمليات جمع ، وفي هذا بعض التسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة . وفي زمن ابن يونس استعملت الخطوط المماسة في مساحة المثلثات . ويقول سيديو : « ولبث ابن يونس يستعمل في سنة ٩٧٩ م الى سنة ١٠٠٨ م أظلالاً أي خطوطاً مماسة ، واظلالا تمام حسب بها جداول عنده تعرف بالجداول الستينية ، واخترع حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم وتريح من كثرة استخراج الجذور المربعة . . . » وهو الذي اخترع الربع ذا الثقب ، وبندول الساعة الدقاقة ، وفوق ذلك فقد كان ينظم الشعر نأتي على بعض منه للتنويع ، فمن قوله في الغزل :

أحمل نشر الريح عند هبوبه	رسالة مشتاق لوجه حبيبه
بنفسي من تحيا النفوس بقربه	ومن طابت الدنيا به وبطيبه
لعمري لقد عطلت كأسي بعده	وغيبتها عني لطول مغيبه
وجدد وجدي طائف منه في الكرى	سرى موهناً في خفية من رقيبه

« نابلس » قدري حافظ طوقان

(١) كاجوري — تاريخ الرياضيات — ص ١٠٩

(٢) دائرة المعارف الاسلامية — مادة ابن يونس

(٣) سارطون — مقدمة في تاريخ العلم ج ١ ص ٧١٧

(٤) نلفت نظر الأساتذة مترجمي دائرة المعارف الاسلامية الى ضرورة التدقيق في نقل المعادلات والقوانين الرياضية ، فقد وقع خطأ في نقل المعادلة المذكورة ، فنسوا أن يضعوا الكسر ½ في الحد الثاني من الطرف الثاني من القانون الموجود في ترجمة ابن يونس في العدد الخامس من المجلد الأول .

ذكرى أدبائنا

بقلم محمد محمد مكين

كتب الدكتور زكى مبارك فى البلاغ ينصح أصدقاء شيخ العروبة بجمع ما تناثر من مقالاته وبحوثه وضمها فى كتاب ، وخشى فى نهاية الأمر أن يلحق بشيخ العروبة ما لحق حافظاً واسماعيل صبرى من إهمال ونسيان . وكتب الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى مقالاً أرسله من لبنان يذكر فيه أنه خجلان لأن إخواننا السوريين يخلدون ذكرى الامام الشيخ محمد عبده ونحن نهمله . وكتب الأستاذ احمد حسن الزيات فى الرسالة كلمة بكى فيها حظ الأدب والأديب وما يلاقيان من جحود وإنكار . وكتب الأستاذ محمود الشرقاوى كلمة بمجلة الأسبوع عن المنسيين (من الأدباء) قال فى ختامها انه يجب على كل أديب أن يعد نفسه كالذبيح ثم يموت مدحوراً لا ينال حتى كلمة الذكر .

فهل يا ترى نستخلص من تلك المقالات أننا استيقظنا وتلمسنا تلك الظاهرة المعيبة — ظاهرة عقوق الأدباء وجحود العباقرة .؟ أخشى أن تكون اليقظة يقظة الموت .

نعم مات حافظ فلم نوفه حقه ولم نقم بالواجب نحوه ، ووالله إن أبناء العروبة فى أمريكا لخير منا ألف مرة ، فقد قاموا بواجبهم نحو حافظ وشوقى خير قيام

ومات من قبله الأديب محمد السباعى وذهب كأنه لم يخلق ، وكأنه لم يخلف آثاراً أدبية لو كانت فى أمة غير مصر لصعدت بها الى الأوج .

وانتقل الى جوار ربه المرحوم احمد باشا تيمور ، وفضله على الأدب والعلم غير منكور ، فماذا قدمناه لاحياء ذكراه ؟

ورحل المرحوم اسماعيل صبرى عن هذه الدار ، وما زال شعره متفرقاً لم يجمع فى ديوان .

تمضى الأعوام فنحيى المنفلوطى بطعنات داميات ، ونرمى خير الدين يكن بالمروق ، ونتهم جبران بالسخف . ثم ننسى البارودى ، وصروف ، وجورجى زيدان ، وحفنى ناصف . ولولا وفاء أبناء دار العلوم لذهب شعر عبد المطلب هباء منثوراً .

أذكر من سنين قليلة أن أدباء مصر أرادوا الاحتفال بذكرى ابن خلدون فتقاعست همتهم ، وقام أدباء المغرب على ما أذكر بذلك العمل الجليل . وأذكر انهم يتحدثون عن الاحتفال بذكرى المتنبى والمعرى . فهل تراهم يفلحون ؟

ها هو ذا عام ١٩٣٤ عام حافل بالذكريات . فيه مناسبات كثيرة لاحياء ذكرى أدبائنا وعلمائنا ، ففى هذا العام كانت مناسبة صالحة لذكرى قاسم امين ، ولكنها ضاعت بكل أسف فلم تفعل أكثر من كتابة مقالات تافهات نشرتها الصحف وذهبت بذهاب الأمس . على أن فى ذلك عبرة ، هى أن دعوته لما تثمر الثمر الطيب ، وإلا لعرفت المرأة المصرية قدر محررها فقامت بواجب غفل عنه الرجل .

أقول ان عام ١٩٣٤ عام حافل بالمناسبات ، ففيه يكون قد مضى خمسة عشر عاماً على وفاة حفنى ناصف ، ويكون قد مضى عشر سنين على وفاة المنفلوطى .

وفى أغسطس القادم يكون قد مضى عشرون عاماً على وفاة جورجى زيدان . وفى ديسمبر القادم يكون قد مضى ثلاثون عاماً على وفاة أمير الشعراء محمود سامى البارودى .

وفى هذا العام يكون قد مضى حولان على وفاة حافظ وما زال « يقتضى أصدقاءه المخلص حفلة التأبين وتأليف الكتاب » .

فماذا نعد لهذه المناسبات ؟ أندعها تمر فنضع رؤوسنا فى الرغام ونرمى بأنفسنا فى وهدة الذل والصغار ، أم ننتهز هذه الفرصة ولا ندعها تفلت من أيدينا ؟

لست أدرى ماذا تفعل جماعاتنا الأدبية على كثرتها حتى تهمل ذلك الواجب المقدس ؟ أحق عليها ما كتب بمجلة كل شىء فى عددها الأخير من أن جماعاتنا الأدبية تقوم على صرح واه لأنها ترمى الى أغراض تلعب فيها الحزازات الحزبية والمآرب الشخصية الدور الأول ! ! وأنه ينقصها روح التعاون والقدرة على كبح جماح العواطف الشخصية فى سبيل الفكرة التى تعمل من أجلها الجماعة . .

الى جماعة الأدب العربى ، وجماعة أبولو ، والى أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر أتوجه بالرجاء أن يعالجوا ذلك النقص المعيب ، فهم خير من يتعهد اليهم ذلك الأمر .

وأخيراً أذكر الأدباء قاطبة بأن يفوا لأسلافهم حتى يفى لهم أخلافهم . وإلا كان مصيرهم مصير من سبقهم : جحود وإنكار ونسيان ؟

« طنطا » محمد محمد مكين

جولة بين أطلال بومبى

للأديب حسين شوقى

كانت بومبى المدينة التى يقصدها سراة روما وعظماؤها للمتعة والنزه، لما توافر فيها من أسباب ذلك، كما يقصد اليوم المترفون من الغربيين ساحل الرفييرا الساحر . . .

وقد يرى المتجول بين أطلال بومبى آثار الطريق التى كانت تصل روما — حاضرة الدولة الرومانية العظيمة — ببومبى . . .

وبومبى اليوم تبعد كيلو مترات قليلة عن البحر، أما فى زمانها الغابر فقد كانت تشرف على البحر، كما كانت ترسى فى مينائها يخوت أقيال الرومان الأنيقة .

وبومبى التى لم يزد عدد سكانها على خمسة وعشرين ألف نسمة، كان فيها من المسارح والحانات والحمامات العامة وأماكن المصارعة ما يجذب النفس ويستهوى الفؤاد . . .

وكل ذلك باق أكثره على رغم الزلزالين الكبيرين اللذين منيت بهما بومبى من عشرين قرناً خلت . . .

وما أجمل الدور التى شيدها سراة روما فى بومبى ليخلوا إليها فى أوقات فراغهم للهو واللعب، وقد حليت أرضها وسماؤها بالفسيفساء الملون الرائع، وبالصور الزيتية الجميلة، المنقولة عن الأساطير، وقد شيد أكثر هذه الدور على طراز خليط من الطرازين الرومانى والأغريقى . . لأن الرومان أعجبوا بالحضارة اليونانية، فنقلوا منها إلى بلادهم فنونها، وآدابها، ودياناتها . . !

وقد بلغ إعجاب القيصر نيرون بالأغريق أنه تعلم لغتهم فأتقنها، وكان يشجيه أن يغنى بها، وقد وهب صوتاً رخيماً . . .

وقد شيدت هذه الدور على النظام الآتى: باب ضخم على الشارع، يلج منه الزائر إلى دهليز ضيق يوصل إلى فناء فسيح ليس له سقف، سوى سماء نابولى الصافية الزرقاء، وقد زين هذا الفناء بالأزهار النادرة، كما حلى بالتماثيل المرمرية الجميلة التى تمثل الآلهة، وبعض هذه التماثيل لا تزال قائماً فى مكانه وبعضه هدمته الزلازل، والبعض الآخر نقل إلى متحف نابولى . .

وفى وسط هذا الفناء تقوم نافورة من المرمر، يتفجر منها الماء عذباً سلسبيلاً . . .

وحول جنبات هذا الفناء بنيت حجر الدار، وقد بلغت عناية القوم بأولادهم أنهم أنشأوا لهم حجراً خاصة زينوا جدرانها بالصور الزيتية الفكاهية التى تلائم مزاج الأطفال . . .

كما أن بومبى كانت لها معابد فخمة صدعتها الزلازل فأودت بمعظم عمدانها الكورنثية الأنيقة . . وقد شيدها القوم زلفى للآلهة حتى يغمضوا أعينهم عما يقترفونه من كبار الآثام الخلقية بين جدران هذه المدينة المهتكة . . .

كذلك الآلهة المصرية إيزيس، التى ذاع صيتها فى العالم القديم وعظم شأنها، لها معبد خاص فى بومبى، وقد عبدها الرومان فى صورة سيدة رومانية !

وقد شاهدت تمثالها فى متحف نابولى . . .

وهناك حى للمتبذلات كن يقبلن من أهل المرح وعودهم بأن يدفعوا شيئاً . . . وشاهدت فى إحدى الحجرات اسماً منقوشاً على الحائط يتعهد صاحبه بأن يدفع الأتاوة فى الزيارة المقبلة !

وشوارع بومبى مرصوفة مرصعة بالحجر، وقد وضعوا فى مفترقاتها أحجاراً بعلو الأرصفة، ليعبر عليها المارة من الشعب فى الأيام المطرة، أما المترفون فكانوا يسيرون فى عربات محمولة على أكتاف عبيدهم . . .

ولكن يلوح لى أن أهالى بومبى قد بالغوا فى الاستهتار واقتراف الرذائل، حتى أغضبوا الآلهة عليهم برغم ماشيدوه لهم « رشوة » من معابد، فسلطوا على المدينة جارها الرهيب بركان فيزوف فزلزل أرجاءها، وأخذ يرميها بشواظ من النار السائلة والدخان الكبريتى الخانق، حتى تصدعت قصورها ودورها، وهلك معظم أهلها، وقد رأيت على عتبة إحدى تلك الدور أسرة قد أدركتها القارعة وهى على أهبة الفرار فتحجرت جثثها، وكانوا فى فرارهم يحملون حليهم، ففنوا وبقيت هذه الحلى الى اليوم معروضة فى متحف نابولى، شاهدة على حرص الانسان حتى وهو ملاق حتفه !

أى بومبى ! أيتها المدينة الساحرة كنت هوة الأخلاق وبؤرة الرذيلة، فضربتك الآلهة؛ فأصبحت اليوم مثلاً خالداً على الدهر

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

أدب الزراعة

للأستاذ محمد محمود جلال

ما زلنا نحس حنيناً الى الأدب ، ولو أقصتنا ظروف الحياة عن بيئاته ومجامعه ، ويهفو بألبابنا شوق مُلح الى كتبه ورسائله برغم الفارق الظاهر ، والحجاب الذى تكاد تسدله شواغل الحياة فى الزراعة والمال والاقتصاد . فنتلمس فى أجوائنا جهد الطاقة نسيمه المنعش ، وهو للروح حاجة كحاجة الزرع للماء .

والأدب فى عرفى روح كل كيان ، ولا ينقبض بفضله عن أى عمل أو مهنة ، وانما يتلون ويختلف باختلاف الأعمال والبيئات . وهو عنوان الحياة والذوق — فلا يعرض نفسه إلا لراغب الاجتلاء . وعندى أنه بشيء من التفهم ، وحسن النظر يجده المرء ماثلاً . ويجد غذاءه دافقاً بغير مَنّ .

وها هى ذى رحمة الله تقرب البعيد ، وتعوض من طرف ما يخال ضناً من طرف آخر . فتبسط لنا يده جل شأنه — فيما تبسط — من صحيفة الحقل قصائد عامرة الأبيات ، شجية النغمات . وفى أمثال إخواننا الفلاحين وإشاراتهم واستعاراتهم قطع من المنثور الملىء بالمعانى الدقيقة القيمة ، ولكن بالأسلوب الذى يتفق والنشأة ، ويتسق مع البيئة .

رافقت مرة أحد مفتشى الجمعية الزراعية متعهداً حقلاً للقطن من الزراعة الخاصة ، سائرين خلف ناظر الزراعة ، نطوف باحثين كل منا بقدر علمه ، وُعنينا جميعاً بالتحقق من خلو الحقل من الآفات . ثم من النبات الغريب ، وتدرجنا الى حالة الزرع ودرجة العناية به . ثم الى البذرة وانتقائها ، والناظر فى كل ذلك فخور بنتائج اشرافه ، ينتظر الحكم فى ثقة وثبات .

ظننا حين هنأناه بحسن عمله ، أننا فرغنا وليس لنا إلا أن نعود أدراجنا ! ! واذا بالناظر يغير السير ، ويتجه الى أقصى الجهة الشرقية فى خطوات متئدة ، وفى معان من التوسل للاقتداء به . ثم نظر نظرة هادئة الى أسفل ، أعقبها بأخرى أبعد مدى الى الغرب ، وقال يخاطب المفتش : « أرجو أن تنظر لترى النبات فى خطوط لا تشكو عوجاً ؟ ثم انظر فى أى ناحية ، ألا تجد النبات فى مستوى واحد فى الارتفاع ؟

أليس هذا الحقل قصيدة إذن ؟ أليست خطوط القطن مفصولاً بينها (بالساقى) القاطعة لها — أبياتاً من الشعر من صدر وعجز ؟

ثم أليس فى نغمة الناظر على سذاجتها شاعرية ؟

أى والله ! ولقد روحت عنى هذه الملاحظة كثيراً من العناء ، وسرى فى جسمى ما يسرى عندما أخرج من عملى مكدود الذهن ، كليل الخاطر ، فأقرأ قصيدة للمتنبى أو مقطوعة لشوقى بك رحمهما الله !

على أنى بين مشاغل المادة من مرور وفحص وارشاد ، وبين متعة الأدب الذى خبرت فذكرت ، لم أزل بين القطن ، ولم أعد الحقل وفيه ريان ، وذكرت قول شوقى بك فى (باريس) :

إن كنتِ للشهوات رياً فالعلى شهواتهن مُرَوَّيات فيك

***

ولطالما عز القطن وعز معه زارعوه ، فلم تكن تسمع بيننا إلا تنويهاً بذكره ، وتدليلاً لاسمه ، ففاز من أدب الزراعة بأقشب الأثواب ، وأجذب الأسماء والاشارات ، فدعى « بذى العين البيضاء » وسمى « أبا الذهب »

حتى اذا دهمت الأزمة ، وحلت الكارثة ، فى سنة ١٩٣١ بتدهور أسعاره ، لم يبخل عليه أدب الزراعة «بذى القلب الأسود» فاذا تساءلت دَهِشاً أو أنكرت عدم الوفاء لمن سبقت على الفلاح نعمه ! قيل لك : أوليس بذوره سوداء حقاً ؟ أوليست تقع من « اللوزة » فى الصميم ؟ .

جزاء فجورك ، وما انبث فى كل شق من شقوقك من دعارة وفساد . . .

أى بومبى ! أيتها المدينة الفاتنة ، لقد كان ما حل بك من عقاب عدلاً ، حتى لتجزع الطير من أن تحوم بين أسوارك رهبة وذعراً ، على رغم مضى عشرين قرناً على نكبتك !

أى بومبى ! أيتها المدينة الخالدة ! لا تجزعى على ما أصابك فالدنيا دول ، فكم من مدن كانت أعظم منك شأناً ، وأرفع بنياناً اندثرت كأن لم تكن ، حتى أن بعضها تلاشى فلا يعرف الآن مكانه . . . !

حسين شوقى

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت فقل قيء الزنابير

ألم تر إلى حقل القطن في أواسط شهر أكتوبر ، وقد كادت تجف سوقه وقد اشتد سواد لونها ، ودنت قطوفه بيضاء تحلي عاطله وتلين من وحشة جفافه . أليست الأولى أشبه بالليل ، وجاءته الثانية نجوماً ذات لألاء تخفف من قساوة ظلماته ، منتشرة بين أعاليه وأسافله وأواسطه هدى للسارى .

فإذا حان القطاف ، وانتشر في الحقل الصغار يجنون ثمار عمل طويل الأمد ، عوضوا من شدة السوق وأذاها طراوة القطوف لينة طيعة في بياض ناصع خلال سواد قاتم

يمزج الوصل بالصدود وياما أعذب الوصل من خلال الصدود!

فإذا انتهى اليوم وقاربت الشمس المغيب ، في آخر الحقل « الموازين القسط » منصوبة للعاملين ، تحدد نتائج أعمالهم . وتحدد لكل ما يستحق من جزاء ، ويؤجر الإنسان بقدر عمله .

ولقد عز الصبي وما جمع بأكثر من يد . فهذا ينظر الى خلو القطن من طين الأرض ، وذاك يحقق خلوه من الرطوبة (عب الندى) ، وآخر ينظر في النظافة عموماً ، كما يفعل جمهرة الأدباء وصفوة النقاد حين يطالعهم بديوانه شاعر ، أو ينشر كتابه ناثر ، فكل وذوقه ، وكل وما يستسيغ من المعاني ، فيرهفون أقلامهم بما يعن لكل منهم ، وكل يؤدى أمانته

بل إن اليوم الواحد في موسم « الجنى » ليمثل رواية كاملة للدنيا . فمن جد للسعى ، الى تشعب للعمل ، الى تنافس فيه ، الى اختلاف في النظر والمذاهب ، الى وضع لنظريات الحياة ، فيما فريق يجمع بكلتا يديه ما تصلان اليه أياً كان نوعه ، الى فريق ينتقى ويدقق عن يقين بمآله ونتائج سعيه ، فالأولون يفرحون بالكم ، والآخرون يدخرون النوع والدرجة شفيعاً إذا نقصت الموازين .

في نهاية اليوم ما يشبه تصفية الحياة والنظر في صحيفتها ، فمن مقل مجيد ، الى مكثر مسيء ، الى سابق بالخيرات

ثم ما هي إلا لحظات حتى لا ترى للازدحام أثراً ، وينصرف كل بما أفاد ، ويتفرق الجمع الى مختلف الجهات ، وتمر أيام قليلة فتجعل من تلك البقاع التي تشبه المناجم الغنية ، أحطاباً سمراء مهجورة ، ثم تحيلها الأيام هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً ؟

محمد محمود هلال

الرسالة ...

للأديب أحمد على المكى

كان صدور « الرسالة » فتحاً جديداً في الأدب العربي ، وخطوة كبيرة في ميدان العلوم والفنون ، وهي الآن في شكلها الحاضر تعد آية في غزارة موادها ، وحسن طبعها ، وأنيق رسمها ، وسحر مقالاتها ، وبديع منظرها ، ومنظر غلافها الرائع .

وإذا أنعمنا النظر اليها من حيث مركزها الأدبي في الوقت الحاضر ، نجدها — مع قرب صدورها — قد أصبحت في طليعة المجلات العربية الأدبية ، وكونت لنفسها مركزاً سامياً ، بين كثير من أخواتها التي مع قدمها لا تزال سائرة متطلعة الى مثل هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة .

وصدورها في « مصر » العربية — التي لها الحق في أن تفتخر وتزهى على بقية الأقطار العربية بكثرة مجلاتها المتنوعة ، ووفرة جرائدها المختلفة — لم يكن حاجزاً دون انتشار صداها في عموم البلاد العربية وأبنائها ، ولم يمنعهم وجود البون الشاسع ، والحواجز الطبيعية الجغرافية ، وتفرقهم في مختلف الأقطار ، من أن يجعلوها « منبراً » عاماً لنشر ثمار قرائحهم الوقادة ، وعصارة أفكارهم الثاقبة ، ونتائج تجاربهم الأدبية والعلمية ، وآرائهم القيمة العالية ، واقتباساتهم الطريفة الظريفة ، من الثقافة الغربية الملائمة للذوق العربي الشرقي .

خذ أي عدد من أعدادها الثمينة فلن تجده إلا عنواناً للرابطة الأدبية العربية الوثيقة . فهذه مقالة لكاتب مصري بليغ ، وتلك قصيدة منشأة أو مترجمة عن الانجليزية أو الفرنسية لشاعر في سوريا أو العراق أو الموصل ، من غير أن تتعصب لطائفة مخصوصة — شأن كثير من المجلات — أو تقديم كاتب وطني على غيره ، أو التشدق بالنعرة الوطنية .

هذه الظاهرة الجليلة التي امتازت بها هذه المجلة الغراء تحملنا على أن نسميها بحق : مجلة العالم الأدبي العربي — ولا نتجاوز سياج الحقيقة والواقع ، إذا سميت بهذا الاسم أو اتخذته شعاراً لها .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

مهمة النـــــاقد

بقـــــلم نظمى خليل

شغلت الصحف فى الأيام الأخيرة ببعض الدواوين الشعرية وانبرى النقاد والكتاب لهذه الدواوين بالعرض والتحليل . وهذا أمر مألوف ، فقد اصطلح الناس على أن يتناولوا كل أثر فنى جديد يعرضون له تارة فى شىء من التقدير والاعجاب ، وتارة فى شىء من التحقير والسخط ، وحجة كل ناقد أو مستوعب لهذا العمل الفنى أنه يراه كذلك ، وأن ذوقه الأدبى يوحى له بهذا .

ولست أريد اليوم أن أسلك هذا الطريق أو أتناول ديواناً من هذه الدواوين بالعرض أو النقد . ولكنى أريد أن أتساءل فى هدوء ما فائدة النقد وما مهمة الناقد ؟

لا أرغب من طرح هذا السؤال أن أثير ضجة فى ميدان النقد ، أو أن أحط من شأن النقاد ، ولكنى أتساءل مخلصاً ما الفائدة الحقيقية التى تعود على الفن من نقد النقاد وتحليلهم ؟

لقد انحط فن النقد عندنا حتى صرنا نرى الناقد لا يعدو أحد رجلين : رجل يكيل المدح فى كرم وسخاء ، وآخر يرمى بالشتائم والهجاء اللاذع المؤلم فى غير تحرج ولا استحياء ، وليس هذا عمل الناقد الفنان ، فما كان النقد فى يوم من الأيام مدحاً أو هجاء ، ولن تكون مهمة الناقد فى يوم من الأيام أن يقف من الأثر الفنى موقف من يقول إنه حسن أو إنه قبيح ، ولكن الناقد الفنان هو الذى يستوعب ويقف على هذا الخلق الفنى سواء فى الأدب أو النحت أو التصوير أو الموسيقى ، ويقول لماذا هو حسن وأين موضع القبح فيه .

ويجب عليه ألا يبنى حكمه هـذا على ذوقه الشخصى ، فلو اعتمد النقد على الذوق فقط لنالته الفوضى وعمه الفساد . ولكن النقد لابد له من قواعد وأصول تقوم بجانب هذا التحكم الفردى فتخفف من غلوائه وتوقفه عند حده . ولست أذهب الى ماذهب إليـه تين Taine المؤرخ الفرنسى من أن زماناً معيناً ومكاناً معيناً وجواً معيناً تنتج أدباً خاصاً . فأنا لا أريد أن أحشر النقد فى زمرة العلوم ، ولكنى أرى أنه لايمكن أن يكون فناً خالصاً يقوم على الذوق ، أو علماً محضاً مرجعه القواعد والأصول .

أعود بعد هذا الاستطراد إلى سؤالى السابق الذى طرحت ، والذى شغلنى كثيراً ولا سيا فى هذه الأيام ، إذ لا يكاد ينقضى يوم حتى أقرأ فى صحيفة أو أكثر من صحيفة بحوثاً مستفيضة تارة عن ديوان « وراء الغمام » وتارة عن ديوان « الملاح التائه » وهكذا ، أتساءل فى شىء كثير من الاخلاص ما الفائدة الحقيقية التى عادت على أصحاب هذه الدواوين ، ولست أعنى بأصحاب الدواوين أشخاصهم ولكنى أعنى ملكة الانتاج وقوة الابداع فيهم .

هل استفاد هؤلاء الشعراء من تلك البحوث المستفيضة ؟ هل زادت ثروتهم الفنية ؟ هل نجد فى آثارهم المستقبلة أثراً لهذه البحوث ؟

ليس من شأنى أن أتعجل الزمن فأحكم على آثار هذه البحوث ومواضيع النقد التى كتبت وتكتب حول هذه الدواوين . ولكنى أعرض لكاتب من كبار كتابنا الذين ظهروا حديثاً وهو الأستاذ « توفيق الحكيم » لم يكن هذا الكاتب معروفاً لدى القراء قبل عام ، ولكنه استطاع أن يتبوأ مكانة سامية بين كبار كتابنا فى

وهذه الميزة الواضحة السامية ، هى التى ألجأتنى وحفزتنى الى كتابة هذه الأسطر ، مع إظهار الأسف الزائد اذ لم تقع عينى وأنا أراجع الفهرس للسنة الأولى ، وأتتبع أعداد السنة الثانية على اسم كاتب حجازى يكون قد اشترك مع إخوانه وزملائه المعاصرين فى الأدب ، على صفحات هـــذه الصحيفة الغراء ، ليساهمهم فى هذه النهضة العلمية الفكرية المباركة ، وليتعرف اليهم ، ويعرفهم بنفسه ، وألا يكون بعيداً عنهم ، اذ هو أقرب الناس الى هذه المجلة الراقية علاقة ورابطة ، وأحوجهم الى الاشتراك فى مثل هذه الخدمات الأدبية الجليلة ، وباشتراكنا معهم يمكننا أن نؤمل من مديرها الفضال الأستاذ الزيات ، اذا أراد أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين ألا ينسى « الحرمين » كذلك .

مكة المكرمة أحمد على

***

(الرسالة) جاءنا بهذا المعنى رسائل وقصائد للسادة الأفاضل محمد الرضا آل السيد هاشم الخطيب ، والأستاذ السيد مصطفى شريف ، والأديب حافظ غريب ، والسيد محى الدين الفضل ، والشيخ ابراهيم احمد ابو الفرج . . . فرأينا فى نشرها إساءة منا الى الحياء واعتداء على حق القراء ، فحفظناها تذكاراً لهذه العاطفة النبيله وتقدم لهم أسمى ما يقدم الصديق المخلص من الشكر والمعذرة ؟

أقل من أسبوع ، إذ ما كاد يذيع بأكورة آثاره الفنية الرائعة « أهل الكهف » حتى ذاع صيته وعرف في كل مكان . وهنا ألقي السؤال « هل كانت شهرة الأستاذ توفيق الحكيم آتية من جانب النقاد الذين تناولوا روايته أو قصته التمثيلية في إعجاب وتقدير شديدين ؟ أم من تلك المسرحية نفسها وما فيها من فن صاحبها وقدرته على تفهم أصول القصة والمحاورة . ؟ »

إني لا أتردد في الاجابة على هذا السؤال معلناً رأيي في صراحة أن شهرة توفيق الحكيم استمدت غذاءها من روح صاحبها الفنان ، ودعمت أسسها على فنه الخالد ، أجل ، أنا لا أنكر فضل أساتذة النقد عليه ، فقد شادوا بفضله ، ووقفوا الناس على فنان كان أمره مجهولاً من الكثيرين .

ولكني أسأل ما الذي عاد على فن الأستاذ الحكيم من هذا التهليل والتكبير . قد يكون أساتذة النقد أفادوا الأستاذ كمؤلف يريد أن يتعرف للجمهور ويتحدث عنه الناس ويقبلوا على شراء كتبه ، وقد يكون أساتذة النقد أفادوا القراء بما استكشفوه في نتاج توفيق الحكيم من فن رائع وعبقرية كامنة . فأقبل القراء على مؤلفاته متزاحمين مدفوعين على قراءتها بما كتبه هؤلاء الأساتذة عنها . ربما كان في هذا الكلام الصواب كله أو بعضه ، فكلنا يعرف أن القراء إنما يقرأون بالتأثير كما يتمغطس بعض المعادن من بعض .

فاذا قرأ قارىء كتابا وأعجب به أخذ يبدي هذا الاعجاب لمن حوله فيثير فيهم الرغبة القوية لقراءة هذا الكتاب . وهو لا يقنع بهذا ولا يهدأ حتى يقبل أصدقاؤه على هذا الكتاب ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فقد يقرأ قارىء كتاباً فيضيق به ويسخط على صاحبه ثم هو لا يبقى على هذا السخط في نفسه بل يخلق المناسبات لإعلانه في المجالس وفي الأندية والمجتمعات ، ثم هو لا يرتاح ولا يستقر حتى يجد من يشاركه هذا السخط والضيق بالكتاب وصاحبه . وهكذا شأن القراء ، فهم يقبلون على القراءة بالعاطفة والشعور سواء أكانت هذه العاطفة جميلة أم غير جميلة . وسواء كان هذا الشعور في جانب صاحب الكتاب أو عليه .

وقد يكتب أحد أساتذة النقد مقالاً يتناول فيه كتاباً من الكتب بالبحث والتحليل فيستهوي هذا المقال لب قارىء من القراء — وقد يستهوي كثيرين — فيعلن هذا القارىء آراء هذا الناقد في ذلك الكتاب بين أصدقائه وإخوانه وتكون النتيجة أن يتزاحم هؤلاء الأصدقاء على قراءة هذا الكتاب مدفوعين بما سمعوا أو قرأوا عن هذا الكتاب . فيقرأونه وهم تحت تأثير هذا المقال . وإني أسوق الى القارىء مثالاً على هذا

كنت منذ أربعة أعوام أكره الشاعر « تنيسون » وأضيق به كلما هممت أن أقرأ شيئاً من شعره . كان هذا منذ أربعة أعوام لم أكن قرأت قبلها نقداً أو تحليلا لشعر هذا الشاعر . قضيت على ذلك عامين وأنا أكرهه ، بل كنت أقرأ كل من يذكر اسمه أمامي أو يعجب به ؛ حتى كان لي مع الأستاذ « سكيف » أستاذ الدراما وشكسبير بكلية الآداب نقاش شديد حول هذه الكراهية الغريبة . فأخذ الأستاذ ينسط لي جمال شعر ذلك الشاعر ، ثم كان أن قرأت كتابه الصغير وهو ثلاث محاضرات كتبها مستوعباً بعض قصائده مقدراً فنه . فأخذ رأيي يتغير وأقبلت على قراءة شعر ذلك الشاعر في حب وتقدير عظيمين .

وإني أقف اليوم من الشاعر رونتج ما وقفته بالأمس من الشاعر تنيسون ، ولست أدري أأوفق إلى أستاذ كذلك الأستاذ أو إلى كتاب كذلك الكتاب يحبب إلى قراءة شعر هذا الشاعر ، أو أني سأقبل عليه من نفسي أو أظل على انصرافي عنه بقية أيامي .

أعود إلى سؤالي الأول « هل استفاد الأستاذ توفيق الحكيم شيئاً من هذه الضجة الكبرى التي أثارها بمؤلفاته الثمينة . إني أرى أن الفائدة الفنية معدومة ، ولكني مع ذلك لا أتجاهل فائدة النقاد للقراء والمؤلف . للقراء كمرشد يأخذهم إلى مواطن الحسن الفني ، وينبههم إلى مواضع الضعف ومواطن القبح ، وللمؤلف كاعلان عن كتابه وكاشادة بفنه السامي .

ليس في هذا الكلام تعسف ولا مغالاة . وإني أرجو كل من يرى أو يخيل إليه أنه يرى أن في هذا إجحافاً بحقوق النقاد ألا يثور ويحنق ، بل أرجو منه أن يهدأ ويخلو إلى نفسه يسائلها هل غير الأستاذ توفيق الحكيم شيئاً في فنه نزولاً على رأي أو تنفيذاً

النقد ، هل تفتحت طبيعته عن أشياء كانت أثراً للنقد أو نتيجة لنصائح النقاد . هل زادت ملكة الانتاج وقويت عنـده بعد نشر هذه البحوث وكتابة هذه المقالات . كلا .

أرجو كل من يرى فى هذا تطاولاً على النقد والنقاد ألا يحنق ويسخط بل يهدأ ويخلو إلى نفسه يسائلها ما الفائدة التى عادت على فن شكسبير من مئات الكتب التى كتبت عنه . لقد كتب عن شكسبير مالم يكتب عن أى انسان آخر . وإنك لترى اختلافاً كبيراً فيا كتب عنه . فمن النقاد من تناول حياة شكسبير الأولى ومنهم من تحدث عن شكسبير شاعر الانسانية ، وشكسبير الممثل ، وشكسبير المؤلف المسرحى ، وشكسبير المصور المبدع ، وشكسبير الفنان وهكذا .

هناك مئات الكتب عن شكسبير وهناك عشرات الكتب كتبت فى غرض واحد مثـل شكسبير « المؤلف المسرحى » ولكنك لن تجد رأيين يتفقان ، ولن تعثر على كاتبين قد سلكا مسلكاً واحداً فى بحثهما ، ثم أرجو أن تسأل نفسك هذا السؤال : « مابال أولئك النقاد يصلون ليالهم بأنهارهم صامدين للبحث صابرين على الشدائد فى هذه البحوث الطويلة المستفيضة ؟ ستقول إنهم يريدون أن يحلوا ألغاز شكسبير ويشرحوه حتى يعرف الناس من هو شكسبير . ستقول إنهم يريدون أن يحللوا مسرحيات شكسبير ويطبقوها على الحياة الواقعية التى نحياها كل يوم . يريدون أن يبرزوا مواهب شكسبير الفنية ودقة فهمه للطبيعة الانسانية وما فيها من شتى العواطف والاهواء من حب وبغض وحقد وغيرة وحيرة ويأس وأمل وخيبة وخيانة وغدر . إنهم يريدون أن يكشفوا عن أثر الطبيعة فى فن شكسبير وأثر الحياة الطبيعية فى شعره .

إنهم يريدون هذا وغير هذا ، ولـكن هل وفقوا إلى شىء من هذا الجواب . لا . لم يوفقوا إلى ازاحة الستار عن سر تلك العبقرية الشاذة وعن ذلك الفن الخالد . لقد كتب كثيرون عن مآسى شكسبير Tragedies ، كتب برادلى كتابه « المأساة عند شكسبير Shakespearean Tragedy » وهو أحسن ما كتب فى هذا النوع : حلل فيه أبطال مآسيه الكبرى عطيل وهاملت والملك لير وماكبث . وكتب كثيرون غير برادلى عن فن شكسبير الدرامى أو التمثيلى . ولـكن هل استطاع كاتب من مئات الـكتاب أن يكشف الستار عن سر هذه العبقرية وجلالها ؟ هل أفلح كاتب من مئات الـكتاب أن يقدم لنا صورة واضحة لنفسية هاملت الحائر وطبيعته العميقة وفلسفته الغامضة ؟ هل استطاع كاتب أن يحدد لنا غرض شكسبير من مأساته الخالدة « الملك لير » وهل استطاع علم وظائف الأعضاء وعلم النفس الحديث أن يفسرا ظواهر الجنون فى الملك لير وهاملت ، وغرائز الغدر والخيانة فى « ياجو » ، والشعور بالغيرة فى عطيل ، ومطامع الانسان فى ماكبث ؟ بل هل استطاع كاتب أو وصاف بارع أن يصف لنا شكسبير شاعر الطبيعة الفذ فى كوميدياته : « كما تحبها » ، « وحلم ليلة فى منتصف الصيف » ، « والعاصفة » لا . لا . لقد أجهد مئات الـكتاب أفكارهم فى شرح رجل واحد وفى تفهم نفسية فرد فلم يفلحوا ، بل تشعبت بهم البحوث وتباعدت آراؤهم وتضاربت .

فعلام كان كل هذا الاجهاد والنصب ؟ وعلام كان كل هذا الاهتمام ؟ لم يأت هذا الاجهاد بثمرة ، ولم تـكن لاهتمامهم نتيجة ، فقد فشلوا جميعاً وعجزوا عن تفهم روح الشاعر نفسه ، عجزوا عن ادراك سر عبقريته .

فياليت شكسبير الذى أبدع كل هذه المسرحيات وجاء بهذه المعجزات الفنية فى الشعر أراح أولئك النقاد وأراحنا نحن القراء ، فـكتب موجزاً صغيراً لمآسيه وكوميدياته يشرح فيه فكرته وأغراضه ، ولـكن شكسبير معجزة الدهور قد أبى أن يقف الناس على أسرار فنه ، ومن يدرى ؟ ربما لم يعرف هو نفسه من أمر فنه شيئاً فمات وبقى لغزاً لن يحل . فاذا ألقينا نفس السؤال « هل استفاد فن شكسبير من هؤلاء النقاد الذين يعدون بالمئات ؟ كان الجواب بالنفى طبعاً ، لأن شكسبير لم يعش حتى يرى هؤلاء النقاد ، وأغلب الظن أنه لم يعن بأمر هؤلاء النقاد ولم يأبه بمعاصريه الذين تناولوا مؤلفاته بالنقد سواء المعجبون المشجعون أو الناقمون الحاقدون . فان شكسبير لم يكتب ليعجب النقاد أو يسخطهم ، بل أغلب الظن أنه لم يفكر فى اغضابهم أو اعجابهم ، وهذا شأن الفنان الحر الطليق لا يفكر إلا فى نفسه وفى فنه ولا يأبه إلا لرأيه ولا يخلص إلا لفنه .

ولكني مع ذلك لا أنكر أن هذه المئات من الكتب التي كتبت عن شكسبير قد أعانت وستعين كل دارس لشكسبير؟ ستعينه بقدر ما وصل اليه هذا الكاتب من تفهم لروح شكسبير ووقوف على أسرار عظمته الفنية. أقول أعانت القارئ وستعينه، ولكنها لن تقفه على موطن الاعجاز في شكسبير الأصيل، فلن يعرف قارئ هذه الكتب موطن الاعجاب بهاملت والغرض الأساسي الذي كتبت من أجله، وسيظل البطل هاملت حيرة الألباب والعقول ما بقي في العالم إنسان مفكر.

فاذا كان هذا أمر النقاد والشراح من الفنانين العظام، ففيم إذن تنحصر مهمتهم؟ هل لهم رسالة يؤدونها كالكتاب؟ في رأيي أن الناقد عالة على الكاتب، أرى أن الناقد شخصية ثانوية تعيش على غيرها؛ فلولا الكاتب لما وجد الناقد، ولولا الخلق والابتكار والانتاج لما وجد النقد ولما سمعنا صياح النقاد الذي يصم الآذان. فلولا شخص واحد كشكسبير لما وجد مئات النقاد الذين وإن كانوا قد أرشدونا إلى بعض مواطن الحسن والاعجاز في فن شكسبير، إلا أني أرى أن هذه المهمة وإن كانت عظيمة الفائدة في ذاتها، أقل من أن تكون مهمة مئات من الرجال قد استمدوا حياتهم الفنية ووجودهم الأدبي من عبقرية فرد واحد هو شكسبير مثلا.

نظمي خليل
بكالوريوس آداب

جواب عن سؤال

الالياذة والأوذيسة*

... أشرتم في كتابكم (تاريخ الأدب العربي) إشارة موجزة الى ديواني الالياذة والأوذيسة. فهل تتفضلون وأنتم ... بكلمة في الرسالة عن موضوعي هذين الديوانين ...

(سنغافورة) م . ع . ج

الالياذة والأوذيسة منظومتان يونانيتان نسبتا الى هوميروس، واستفاضتا في الشعوب والأجيال تحملان أثر العبقرية الاغريقية، وترددان صدى الحرب الطروادية، وتمدان الآداب العالمية بالغذاء والقوة. موضوع الالياذة غضب أخيل، وهو حادث بسيط من حوادث حرب طروادة وقع في السنة العاشرة من حصارها، واستغرق واحداً وخمسين يوماً، تبتدئ بشجار أخيل وأغا ممنون وتنتهي بقتل هكطور. وتنقسم هذه الملحمة الى أربعة وعشرين نشيداً تمثلت فيها صور الحياة اليونانية بأساطيرها وعاداتها وآدابها جلية زائعة مؤثرة. وأهم أبطالها من الاغريق أغا ممنون ملك ارجوس ومسينا وأمير الجيش، ومنيلاس أخو أغا ممنون وملك اسبارطة، وأخيل ملك الفذيوتيد، وبتروكل صديق أخيل، ونسطور ملك بيلوس، وأوليس ملك أتيكا؛ ومن الطرواديين هكطور وفاريس ابنا فريام ملك طروادة، واينوس حمو فريام الخ. وللآلهة في الالياذة شأن خطير وأثر كبير: فزحل ومنيرفا مع الاغريق، وأبولون والمريخ مع الطرواديين. فهم يدبرون القتال، ويحمون الأبطال، ويتقارعون فيما بينهم انتصاراً لطائفة على أخرى.

وملخصها أن أبولون سلط الوباء على معسكر الاغريق، فأعمل فيهم منجله انتقاماً منهم على سبيهم بنت كاهنه كريزيس. ثم جل الخطب بوقوع الخلاف بين أغا ممنون وأخيل من أجل سبية نفسها الأول على الثاني فاستأثر بها دونه من غير حق. ولما عجز أخيل الباسل عن الأخذ لنفسه من أمير الجيش

* ترجم الالياذة الى العربية المرحوم سليمان البستاني، أما الأوذيسة فلم تترجم

اعتزل الحرب وهو يكاد ينشق من الغيظ والحنق ، فرجحت كفة الطروادين باعتزاله ، وحالفهم النصر منذ استراحوا من قتاله . ودارت الدائرة على الاغريق فجرح ديوميد وأوليس ، وأخذ هكطور يحرق أسطولهم وأحدق بهم الخطر من كل جانب . فلما رأى ذلك بتروكل استعار سلاح أخيل وصمد الى العدو فأجلاه عن موقفه . إلا أن أبولون أسعف الطروادين فتصدى للبطل فأسقط خوذته ونزع درعه ، حتى أمكن هكطور أن يضربه الضربة القاضية . وجاء نعى بتروكل الى صديقه أخيل فسارع الى الخنادق ، وما كادت العيون تأخذه حتى وقع الرعب فى قلوب الطروادين ، وسرت الحمية فى نفوس الأغريق . فاستخلصوا جثة بتروكل ، وشق على أخيل أن يطل دم صديقه ، فصالح الزعماء وأزمع قيادة الجيش . وأرسل أمه الى ڤلكان إلـه النار تأتيه منه بسلاح ولأمة . فلما تسربل بالحديد خاض المعركة فأوقع بالطروادين وقذف بهم فى نهر الاجزنت ، والتقى بهكطور فحمل عليه وقتله ، ثم شده الى مركبته وطاف به مسحوباً على وجهه حول جدران طروادة على مشهد من أسرته الضارعة الحزينة . ثم احتفل بعد ذلك بجنازة بتروكل ؛ وأوحى إلـه من الآلهة الى فريام أبى هكطور أن يذهب الى أخيل يسأله جثة ولده ؛ فذهب الشيخ يسترحم البطل المنتصر ، ويتوسل اليه بذكرى أبيه حتى رق له ورد اليه أشلاء القتيل .

***

أما موضوع الأوذيسة فهو مخاطر أوليس بعد سقوط طروادة ورجوعه الى أتيكا بعد أن عوقته عن هذه الأوبة أقدار الآلهة العادين عشر سنين . وتنقسم هذه الملحمة الى أربعة وعشرين نشيداً أيضاً ، وقعت حوادثها فى خلال أربعين يوماً ، وهى دون الالياذة فى الأسلوب والقوة والجاذبية ، حتى كان هذا الاختلاف الشديد دليلاً من أدلة الأستاذين الناقدين ڤيكو الايطالى ، وولف الفرنسى ، على أن هاتين الملحمتين ليستا من صنع مؤلف واحد . وملخصها أن أوليس لدى عودته من حصار طروادة حل عليه غضب نبتون إلـه البحر فأضله بين جزره وسواحله ؛ وطال نزوحه عن وطنه حتى ندبه أهله وبكاه قومه ، وختى جرؤ الطغاة من الأمراء على أن يستبيحوا ذماره ويهلكوا ماله ، ويكرهوا بنيلوب زوجه ، على أن تختار أحدهم لها بعلاً . وغضب تلياك ابن أوليس على حداثة سنه لانتهاك حرمته ، وانتهاب ثروته ، وابتذال فنائه ؛ فخرج فى البحث عن أبيه عند رفاقه من أبطال طروادة ، ائتماراً بمشورة الآلـهة منيرڤا . فذهب الى نسطور فى پيلوس ، والى منيلاس فى أسبارطة ، فقص كل منهما عليه ما كابداه فى أوبتهما من الأهوال ، ونعيا اليـه بتروكل وأخيل واغاممنون وأجاكس ؛ أما أوليس فانهما لا يعلمان شيئاً عن مصيره

وكان أوليس فى ذلك الحين أسيراً فى جزيرة « أوجيجى » عند الحورية جاليبسو ، فظفر بالنجاة على ظهر طوف[1] ، ولكن عاصفة هوجاء هبت عليه فقذفت به فى ساحل جزيرة (الفياسين) على حالة بين الحياة والموت ؛ فاقتاده أهلها الى ملكهم ألسينوس ، فقص عليه أوليس ما عاناه من الشدائد منذ غادر طروادة ، فأعجب الملك بشهامته وفصاحته ، وأعد له سفينة أقلتـه الى أتيكا ، فلما وطئت قدمه أرضه تنكر فى زى سائل ، ونزل عند الشيخ (أوميه) حارس قطعانه ؛ واتفق أن رجع تلياك الى وطنه فى ذلك الحين فلقى أباه وعرفه ، وأخذا يدبران الحيلة معاً لهلاك أولئك الأمراء المعتدين بمعونة الخدم المخلصين . وكانت بنيلوب طوال هذه السنين قد نجحت فى مماطلة هؤلاء الخطاب الملحفين بأن علقت قبولها الخطبة على فراغها من الثوب الذى كانت تنسجه ، وهيهات أن تفرغ منه ، لأنها كانت تظل النهار كله تنسج فيه ، حتى إذا جاء الليل نقضت ما نسجته . فلما طال الزمن وانقطع الرجاء من أوبة الغريب ، وكلت الحيلـة ، وأهلك الخطاب الزرع والضرع ، أوشكت أن تذعن لولا أن دخل أوليس متنكراً الى قصره وفتك بأعدائه ، وتعرف الى زوجه الوفية بنيلوب ، وجده الشيخ لايرت ، وأخذ يجمع أهبته لمقاومة أهل المقتولين ، إلا أن منيرڤا حلت فى شخص منطور صديق أوليس ومشير تلياك ، فضمنت بحكمتها لمملكة أتيكا السلام الدائم والرخاء العميم .

(الزيات)

(١) الطوف خشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى البحر ويقال له الرمث أيضاً : Radeau

١١ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ على الليثى

سيد الندماء

ولد سنة ١٢٣٦ ، كما تحققته من بعض أفراد أسرته ، كان في ابتداء أمره مقيما بمسجد الامام الليث ، وكان ينزل الى الأزهر لطلب العلم ، ويعود للمبيت هناك ، وكان كريماً على فقره . ثم ورد على مصر الشيخ السنوسي الكبير قاصداً الحج ، فاتصل به ، وأخذ عنه الطريق وحج معه ، ولما عاد الى مصر لم يفارقه . بل سافر معه الى جغبوب ، وأقام هناك مدة لم يفتأ فيها يطلب العلم ويستفيد . ثم فارقه وعاد لمصر ، واتصل بأم عباس باشا الوالى فجعلته شيخاً على مجلس دلائل الخيرات عندها . ثم اتصل أيضاً بالأمير أحمد باشا رفعت بن ابراهيم باشا الكبير ، فاعتقد فيه ، وأطلعه على خزانة كتب عنده ، فاطلع على ما فيها واستفاد منها . ونسبت سفره الى جهة المغرب لمهموه بمعرفة الزايرجة والأوفاق .

فلما تولى سعيد باشا على مصر ، أمر ضابط مصر غبيه باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات ، ونفيهم الى السودان ، فسيق المترجم معهم لما علق به من هذه التهمة ، فبقى في السودان الى أن عفى عنه وعاد لمصر .

ولما تولى اسماعيل باشا على مصر ، تلألأ نجم المترجم ، وبدأ سعده ، فاتصل به ، وقربه هو والشيخ علياً أبا النصر ، وجعلهما نديمين له كنديمى جذيمة ، وصار لا يصبر عنهما فى مجالس أنسه ، فكانا اذا حضرا تلك المجالس أزاحا الكلفة وتبسطا معه فى القول والتندير ، فكانت لهما فى ذلك من النوادر ما يملأ الأسفار . وقد بلغ من شغفه بهما أن خصص لهما قاعة بديوانه يجلسان بها كأنهما من المستخدمين فيه . وحدث مرة أن أمر بكتابة ألواح على باب كل قاعة فى الديوان ، ليعرف من بها ، كقلم التشريفات ، وقلم التحريرات ونحوها ، وسألهما العامل عم يكتبه على قاعتيهما ، فقال

المترجم أكتب عليها : إنما نطعمكم لوجه الله . وبسبب تقرب المترجم من الخديو قصده الناس فى الشفاعات عند الكبراء ، ونفع الله به خلقاً كثيراً ، جزاه الله عز مسعاه خير جزاء .

ثم لما عزل الخديو ، وتولى ولده محمد توفيق باشا ، شغف أيضاً بالمترجم وأحله محله من القبول . حتى كانت الفتنة العرابية وسفر الخديو الى الاسكندرية ، فانضم المترجم الى العرابيين اضطراراً أو اختياراً ، فلما عاد بعد الفتنة لم يؤاخذه ، وصفح عنه ، وقابله المترجم بقصيدة مطلعها :

كل حالٍ لضده يتحوّل فالزم الصبر إذ عليه المعوّل

تبرأ فيها من الفتنة ، وأبان عذره فى الانضمام الى العرابيين ، وزاد بعد ذلك من الخديو قربا ، وخصوصاً لما بنى قصره بحلوان ، فانه كان اذا سافر اليه كل اسبوعين ، ركب من هنا سفينة بخارية وذهب بها الى ضيعة المترجم التى بشرق أطفيح ، فيقيم عنده يوما ويتغدى فيها ، وهو شيء لا يفعله مع غيره . ولهذا السبب اعتنى المترجم بتلك الضيعة ، فغرس فيها البساتين والكروم ، وبنى قصراً صغيراً لنزول الخديو ، وحرمه وحاشيته ، ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات الخديو ، فلم يكن له حظ مع ولده عباس باشا ، كما كان مع أبيه وجده ، فجعل أكثر اقامته بتلك الضيعة ، يشتغل باستغلالها ومطالعة كتبه ، فاذا حضر لمصر نزل بداره التى بجهة باب اللوق ، فيقيم بها أياماً ، ثم يعود ، ولم يزل كذلك حتى اعتلت صحته وطال مرضه أشهراً ، حتى توفاه الله الى رحمته فى يوم السبت ١٠ شعبان سنة ١٣١٣ عن سن عالية ، وقد شبع من الأيام وشبعت منه ، ونال من العز والجاه الى مماته مالم ينله غيره .

وكان رحمه الله آية فى حسن المجالسة ، محبباً الى القلوب ، أديباً شاعراً ، حاضر الجواب ، فكه الحديث ، اذا عرفه انسان تعلق به ، وكره مفارقته ، مع أنه كان دميم الصورة ، أطلس ، ليس فى وجهه إلا شارب خفيف ، وشعرات على ذقنه . ولما حضر لمصر السلطان برغش ملك زنجبار ، ندبه الخديو اسماعيل باشا لمرافقته ومجالسته ، فلازمه مدة مقامه بالقاهرة ، وأعجب السلطان به اعجابا شديداً . ثم لما عاد لبلاده ، صار يتعهده بالرسائل والهدايا من العنبر ونحوه كل سنة ، فيهدى هو بها أخصاءه وأصحابه . وكذلك ما كان ينتج ببساتينه من غرائب الفاكهة ، وأصناف

الأعناب النادرة ، كان موقوفاً جميعه على الهدايا لا يبيع منه شيئاً . واقتنى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالاهداء والشراء ، والاستنساخ وغالى فيها ، وبذل الأثمان العالية ؛ فجلبت له من الآفاق وعرفه تجار الكتب والوراقون فخصوه بكل نفيس منها . ثم لما مات اقتسمها ورثته ، وبقيت الى الآن محبوسة تحت أيديهم لا ينتفع بها .

وكان أدباء مصر وفضلاؤها يقصدونه فى تلك الضيعة ، فينزلهم على الرحب والسعة ، ويقيمون عنده الأيام والأشهر ، وهو مقبل عليهم بكرم خُلُقه ولطائفه ، ومحاضراته المستحسنة ، وقد يقيم الانسان عنده شهراً أو أكثر ، وهو يؤنسه كلّ يوم بحديث جديد لا يعيده . وبالجملة فقلّ أن يوجد مثله ، أو يجتمع لانسان ما اجتمع له ، مع الورع والتقوى خصوصاً فى أواخر أيامه رحمه الله رحمة واسعة .

الشيخ محمد شهاب الدين

المصرىّ الشاعر

شريف النسب اشتغل أولاً بالقبانة ، ثم دخل المحكمة الشرعية تلميذاً للتعلم ، ومال للأدب ، ونظم الشعر ، وداخل الأعيان حتى اتصل بعباس باشا والى مصر ، وتقرب اليه ومدحه بالقصائد فأحبه وقرّبه حتى صار كبير جلسائه وندمائه ، وجعل له فى كل قصر من قصوره حجرة يبيت فيها الليلتين والثلاث اذا طلبه للمجالسة والمنادمة ، وأفاض عليه من نعمه ، وقبل شفاعته حتى صار له بذلك جاه طويل عريض ، وله معه نوادر غريبة ، منها أن المترجم كان جالساً فى حجرته مرة فى أحد القصور ، ومعه بعض جلساء الوالى ينتظرون الاذن بالدخول اليه ، فقال فى عرض كلامه : يقولون إنّ البغلة لا تحمل ، أفلا يكون ذلك بسبب رطوبات أو ما أشبهها تعيق حملها ؟ وعند أفندينا أطباء كثيرون ، فلو أنه أطال الله بقاءه أمر بعضهم بالبحث فى سبب هذه العلة وازالتها ، فلست أشك فى أنها تحمل بعد ذلك . وأسرع بعض العيون ، فبلّغ عباسا باشا كلامه ، فجاءه بعد هنيهة أحد رجال القصر يقول له : يا أستاذ يقول لك أفندينا أننا سنأمر الأطباء بما أشرت ، ولكن إذا لم تحمل البغلة ماذا يكون ؟ فبهت القوم لثقل المجلس بهذه السرعة إلاّ المترجم ، فانه وقف وقال : بلّغ أفندينا أنّ عبده شهابا له كذبتان كل سنة أيام الباذنجان ، هذه إحداها .

وكان رحمه الله رقيق المزاج ، أنيس المحضر ، لا يملّ جليسه من نوادره ، وتعلّق بعلم الموسيقى فبرع فيه ، وأخذه عنه كثيرون وجمع فيه كتاباً سمّاه سفينة الملك . وله ديوان شعر طبع بمصر ، وكانت وفاته سنة ١٢٧٤ .

الشيخ محمد أبو الفتح الحنفى

مفتى الاسكندرية

ولد فى أوائل القرن الثالث عشر ، وطلب العلم بالأزهر على الشيخ الصاوى وغيره من شيوخ الوقت ، ثم انتقل لرشيد وتزوج بها بنت السيد عباسى من مشهورى رشيد . وكان ملازماً للشيخ محمد البنا الكبير ، فلما انتقل الشيخ الى اسكندرية انتقل المترجم معه وبقى بها وانتخب أميناً لفتواها ، وكان مفتيها إذ ذاك الشيخ الدويرىّ ، ثم لما مات الدويرىّ تولى البناء الافتاء فنقل المترجم لمنصب آخر ، ولما مات البنا تولى هو إفتاء الثغر وبقى به الى أن مات . وكان له شغف زائد بجمع الكتب واقتناء نفائسها ؛ حتى اجتمعت له خزانة نفيسة بيعت بعد موته بثمن بخس . وكان رأى بناته وزوجته ابقاءها فلم يرض ولده ، فذهبت وتفرقت بعد ما عانى أبوه ما عانى فى شرائها واستنساخها . وكان له ولع أيضاً بجمع الساعات فجمع منها نوادر وطرفاً بيعت بعد موته أيضاً ، ولم يترك شيئاً من الحطام سوى دار باسكندرية كان يسكنها فى أواخر أيامه وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شهر صفر سنة ١٢٩٤ ودفن يوم الثلاثاء ، ورثاه الشيخ عبد الرحمن الابيارى قاضى اسكندرية بقصيدة مطلعها :

أهذى سيوف الدهر جرّدها الدهر
أم السنة الشهباء جفّ بها الزهر

ومن مؤلفاته كتاب تبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم ، وشرع فى كتاب آخر فى الفقه لم يكمله ، وكانت له يد طولى فى علم الميقات ، وهو جدّ صاحبنا العالم الفاضل الشيخ حسن منصور لامّه .

أحمد تيمور

في الأدب العربي

أبو العتاهية

بقلم عبد الحليم عباس

لا أعرف . ماهو هذا الشيء الذي يجذبني الى قراءة هذا الشاعر ، ومعاودة هذه القراءة الفينة بعد الفينة .

فليست جودة شعره هي كل شيء ، فهناك من يفوقه طلاوة لفظ ، وصحة أداء ، وسمواً في الشاعرية .

لا لأنه يعيد لنا صورة حقبة زائعة للمجد العربي ، والحضارة العربية ، التي نما في أحضانها وتقلب في أعطافها ، والتي تبذى فينا هذه العزة القومية ، التي نشعر أنها مثلومة ، كلما رأينا الوطن نهباً مقسماً مهيض الجناح . . . هنالك غيره من الشعراء ، يمثلون أروع الحقب ، وأزهى الأزمنة للفتح الاسلامي ثم نحن لا نستطيب أحاديثهم ، ولا نستملح سيرهم بهذا المقدار . ولعل السبب يعود الى هذه العواطف والفكر ، التي يبعثها فيك هذا الشاعر ، والى هذا التركيب النفساني ، الذي يبعث فيك صدى متضارب النغمات ، ومزيجاً من العواطف فيها السخرية المشوبة بالعطف ، وفيها الضحكة العالية ، تنطلق لتقطعها عواطف الرثاء والرحمة . . وليس هذا بالقليل ، وأية متعة أسر للنفس ، وأخصب للفكر ، من أن تفخر وترثي وتتفكه وتعبث ، ثم تستعبر لتعود فتضحك ملء أشداقك . انها الحياة مصغرة في سيرة شاعر ما أحراها منا بدراسة مستفيضة .

نسب أبي العتاهية وعصره

قوام النقد في العصر الحديث

النقد الحديث يقول إن العبقري ثمرة عصره ، غذتها هذه الأصلاب ، وهذه البطون تلقفها ، وهي تنسل من الأجيال ، وتتمشى بطاء الى زمنها القدور ومتقلبها المحتم ، فالبحث في خصائص العباقرة ، يجب أن تتناول قبل كل شيء البحث في أزمانهم ، وتحليل هذه العوامل التي تتضافر على خلقهم ، ثم مقياس إبداعهم الفني ، وما يتركون من آثار ، بمقاييس الجمال والفن المتواضع عليها في أزمانهم . .

ولا مشاحة في أن هذه النظرية ارتفعت بالنقد الى حيث أصبح مأمون الجانب من عبث الأهواء ، وتقلب الميول ، وألقت ضياء على هذه الدياجير التي كانت تعتور الباحث ، وتتكاءد النقب . ؛ بيد أنها من وجهة ثانية جادت على العبقري ، ولم تحسب لهذا السر المودع في نفسه حساباً في أبحاثها ، فليس الزمن ، وليست قوانين الوراثة ، هي كل شيء في إيجاد العبقري وتكوين رسالته . وإنما هو سر غامض مستعص حله كغيره من هذه الأسرار التي تحيط بهذا العالم الأكبر والأصغر ، والتي يحاول العقل جهده إماطة اللثام عنها ، ثم لا يجد غنيمة بعد الكد إلا سلامة القفول . . . وإلا فأي شيء هذا الذي يخلق الاثنين من صلب واحد ، وفي زمن بعينه ، ثم تتسامى نفس احدها وتتفتح أفكاره ، فاذا هو يغذي الانسانية بزاد المعرفة ، ويتسامى بها ، ويزيد في ذخيرة الخلود . وأما الثاني فيعيش خاملاً مغموراً ويندس في سواد الناس . . فقمين بنا أن نحسب لهذا حساباً في أبحاثنا . . ثم نحسب لهذا المزاج والتركيب النفسي في الشاعر ، وهو أثر من آثار هذه الهبة ألقته القوة المجهولة ، في نفس الفنان وركبت أعصابه على مثال خاص ، ليتلو رسالته ويهتف بلحنه على نغمة مرقومة ونحو خاص : حساباً علّه لا يقل أهمية عن عوامل الزمن وقوانين الوراثة . . .

وما أحرانا ونحن نبحث بحثاً مقتضباً عن الشاعر — أبو العتاهية — أن نغفل — ولو الى حين — عوامل العصر والوراثة لنتكلم عن مزاجه ، وحسبنا أن نعلم عن العصر والأصل . . أن أبا العتاهية تحدر من أصل وضيع ، ومن الموثوق أنه اشتغل ببيع الفخار ، ورافق المخنثين . أما الزمن فيكفينا أن نعلم أنه من هذه الأزمان التي كانت تنكر كل فضيلة ، والتي يطلق عليها كلمة المتشائمة « pessimistes » والتي كان الشك ، والاغراق في المجون أظهر ميزاتها .

مزاج أبي العتاهية

وأول ما يطالعك من مزاج أبي العتاهية هذا التناقض ، وهذا الاضطراب ، فيما يأخذ ويدع ، وفيما ينهج من سبل

فلقد تجاذبت نفسه طرفى النقيض ، وكان يرى الدنيا ويلابس الوجود على هدي نزعتين بينهما من الاختلاف مابين النقيض ونقيضه . . فهو آونة مندفع بتيار اللذة مستغرق بهذا المجون ، الذى وصل بعصره حدّ الشناعة ، وطوراً تتقمصه أرواح الزهاد ، فيلبس المسوح ويهجر اللذائذ ، وتتملكه تملكاً عنيفاً فكرة الخوف من الموت . فاذا هذه الدنيا باطل ، وإذا هو موفٍ من الصلاح على الغاية . حتى ليحار فيه أهل عصره ، وقد تصل بهم الحيرة الى حد أن يحيلوا أمره الى العبث ، ويرموه بالتدجيل ، والحق أن ليس فى هذا عبث ولا تدجيل ، وأن الأمر صادر عن عقيدة خالصة طهور ، وهذا التناقض قريب الرد إذا رحنا نستوضح خافيه على ضياء مزاجه ، حتى لنرى أن قد تقاربت هذه المتناقضات ، فاذا هى تنبع من عين واحدة . .

فأبو العتاهية — لم يكن مستقيم المزاج وانما هو مضطربه ، وقد طغى فيه الجانب العاطفى ، ولم تتح له نشأة صالحة ، ولابيئة هادئة ، تخفف من حدة هذا الأضطراب ، وتأخذ بزمام هذه العاطفة الى حيث يتملكها العقل ، ويفرض عليها سلطانه ، وقد بلغ من طغيان هذه العاطفة أن أصبح الشاعر عرضة لانفعالات عنيفة مستهجنة فى عرف العقل ، والعاطفة الصحيحة ، كأن يتخذ — مثلاً — لباسه من قوصرتين يدخل رأسه فى احداها ، ويدخل رجليه فى الأخرى ، كل ذلك زهادة فى الدنيا وكرهاً لنعيمها ، ولكن أية سخرية تتملكك إذا رأيته يلقيها بعد حين ليتخير على المنى ، ويجرى مع الغواية ، وليسيم سرح اللهو ، على أن ينفض يده كرة أخرى من نعيم الدنيا ، ويجلس حجّاماً لأبناء الفقراء ، يبتغى المثوبة ، ويطلب الباقيات الصالحات ، ثم تكون آخر أمنياته . وقدمه فى حياض الموت أن يسمع غناء مخارق .

كل ذلك جائز فى عرف هذا المزاج المضطرب وليس بمستغرب منه ، وانما المستغرب أن يمشى وفاق نظام معين ، وخطة مقررة . . وإذا عرفنا هذا من أبى العتاهية ، فقد عرفناه ظاهراً وباطناً ، وأصبح سيرنا معه مأمون الغرابة . وأصبح لهذه الخطرات المستغربة علتها الأصيلة المعروفة النبع والورد . وأصبحنا نرقب منه فى كل أمر شذوذاً وانحرافاً الى ضده . فاذا رأيناه مثلاً ينعى على الناس حرصهم ويقول :

تعالى الله ياسلم بن عمرو أذلّ الحرص أعناق الرجال

ارتقبنا منه أن يكون نادرة فى الحرص .

وإذا نهض ليرى الناس صغارة دنياهم وحقارة درهم وأموالهم .

إن مال المرء ليس له منه إلا حظه الحسن
كل حى عند ميتته حظه من ماله الكفن

عرفنا أنه أعجوبة الزمن ، ونادرة العصر ، فى البخل والتقتير . .

عاتبه صديق له على هذا البخل المنقطع النظير وقال له : إن الناس يزعمون أنك من شدة بخلك ، وفرط تكالبك على حطام الدنيا لا تأكل اللحم — أو الأصح تشتريه — إلا فى العيدين ، فتأوه أبو العتاهية وقال : والله لقد ظلمونى . وأنى قد اشتريت لحماً وتوابل فى يوم عاشوراء .

على أننا نرى هذا البخل فى حاجة الى كلمة خاصة ، فلقد كان من المنتظر أن يهب أبو العتاهية ولو مرة ليتلف هذا المال ويبذره جرياً مع هذا المزاج ، ولكنه لم يفعل هذا ولا جال بنفسه : وعلة هذا تعود الى أمرين ، أولها أنه نشأ فى صميم الفقر ، وذاق غصته ، وعرف أن المادة هى كل شيء فى قيم الرجال

ما الناس إلا الكثير الما ل أو مادام فى سلطانه

وكان سيء الظن بالناس ، يخشى عادية الفقر ، ويخشى أن طاح به غدر الزمان ألا يجد أخا معيناً

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فاذا احتجت إليه ساعة مجك فوه

والسبب الثانى ، أنه أرضى مزاجه الغريب ، بمناقضة الناس وشدة حرصه وتكالبه ، فكلما عنّ له أن يتلف ماله ذكر سوء المنقلب . فيندفع غلواً فى التقتير .

***

وأبو العتاهية سوداوى المزاج من نوع خاص يميل إلى ما يميلون اليه ، ولكن أعصابه ما كانت لتقوى على السير على منهاجهم . فهو يتبرم بالناس وينشد الوحدة

برمت بالناس وأخلاقهم وصرت أستأنس بالوحده

ولكنه لايقوى على وحشة الوحدة . فيعود ليندفع بشدة فى صخب الاجتماع ، فهو ضعيف الأعصاب من جهة ، ومضطربها من جهة ثانية ، وأصدق مظهر يدل على ضعف أعصابه

ما كان من أمره فى شأن الدين . فقد زعم أهل عصره أنه كان زنديقاً ، وقد انتابه الشك فى أمر العقائد ، وجاراهم فى هذه النظرة رجال النقد الحديث ، ولكنهم لم يبينوا لنا مدى هذه الحيرة فى أمر الدين ، ومقدار هذا الشك . فهو قد شك وحار ، ولكنه شك الطفل وحيرته ، تروعه الأشباح وتتملك وعيه الهواجس ، فلا يجد بداً من الاستسلام فيروح يتعلق بالدين تعلق الخائف . ويبتسل الى خرافاته استبسال العاجز

إلهي لا تعذبني فاني مقرٌ بالذى قد كان مني
فمالى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

وانظر اليه لتتحقق صدق هذه النظرة وهو يناجي الموت : فما كان ليقف عنده وقفة المعرى يسأله ويستوحيه عن أسراره وغوامضه ، وانما هى وقفة الخائف الرعديد ، تلجمه روعة الموقف وتأخذ عليه الدهشة مسارب الفكر ، فاذا كلُّ ما يهجس بخاطره ويدور بخلده ، خشوع عميق ، ووصف مقتضب للموت يلوذ بعده ، إلى إظهار التوبة والضراعة

كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح
لبني الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشي وأصبحن عليهن المسوح
نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح

وترتد فى رخاوة هذه الأعصاب واضطرابها أن أبا العتاهية لم ينل حظاً وافياً من الثقافة ، وكان أيضاً ضعيف الخبرة بالدنيا لم يعز عليه من التجارب ، فما يصقل هذه العاطفة المستوفزة .

ولمعترض أن يقول : كيف يكون ضعيف الخبرة ، قليل التجربة من طفحت بأمثاله كتب الأدب وأسفاره ، فهو قد نظم أرجوزة فحسب ، أودعها مئات بل آلاف الأمثال والحكم الرائعة ، وصحيح هذا ، بيد ان هذه الأمثال ونحن نقلبها ونعيد تلاوتها ، لا نجدها تدل على علم مستفيض وخبرة واسعة ، فكلها فى معنى واحد ، وان تجاوزته فالى معان متشابهة مطروقة ، فهو يرى أن الدنيا ما برح مقدوراً عليها الفناء ، نخير زاد للمرء التقى ، أو السمعة الحسنة ، ومن يقل غير هذا ؟

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمني أو فذر ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
كأن كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل

وهكذا دواليك من العبر الرخيصة القريبة التناول ، والتى لا تحتاج إلى سعة فى العلم ولا سمو فى التفكير كالتى تجرى على لسان المتنبي مثلاً : وانما تحتاج إلى هذا اللسان الذرب ، والشاعرية السمحة . ومن أولى بها من هذا الذى كان يتناول الشعر من كمه كما يقول الأصمعى ، ولعلَّ هذا هو السبب الذى يعود إليه كثرة السقط فى شعره .

شرق الأردن — عبد الحليم عباس

أغنية النيل...

للشاعر الحضرمي علي أحمد با كثير

يا جسر إسماعيلْ بُورِكْتَ من جسرِ
أنت سِوَار النيلْ رُصِّعَ بالدُّرِّ!

حلا بهِ وازدانْ معصمُهُ الناعمْ
كأنَّهُ وسنانْ بالأملِ الحالمْ!

بين المصابيحِ في نورها الفاترْ
تُوحي بما توحي للمُلهَم الشاعرْ

من نجمةٍ وسنى لنجمة وسنى
قد كسرت جفنا فأغربت حُسنا!

مَنْ عَلَّم النُّورا فلسفةَ الكسرِ؟
أستلهَمَ الحُورا دقائق السِّحْر؟!

مَنْ عَلَّم النُّورا ترنيقةَ الطَّرفِ؟
أستلهم الحورا صناعة الحَتْفِ؟!

***

في شطِّهِ قامَتْ بواسقُ النَّخلِ
عرائس هامَتْ بالمَيْسِ والدلِّ

برزْنَ ممشوقاتْ ورافعات الهامْ
يحسَبْنَ منسوقاتْ علامَ الاستفهام![1]

والقمر المحزون مبتسم الثغرِ
يبكي لمن يكون من عَنَت الدهرِ

يسامر العاشق ويسعد الولهان
ويسعف الغارق في لجج الأحزان

وساخراً يبسمْ بَسْمةَ فولتيرِ
من هالك ينعمْ بعيشٍ مغرورِ

سخريَّةً تعلَمْ بواعث السِّخْرِ
من عالمٍ يحلُمْ وقدَرٍ يجري!

يطوف بالأرضِ في سحنة الناقمْ
لسُنَّةٍ تقضي فراقها الدائمْ

منعكس نورُهُ في صفحة الماء
راقصة حُورُهُ بلحن لألاء!

كأنه أحلامْ أحلام حسناء
لا تعرف الآلام تعصف أهواء!

***

والنَّسَمُ الهامِسْ في أُذُنِ الليلِ
يَبُلُّ ما لامَسْ بطرَفِ الذيلِ

يمسُّ — في رفقٍ — جسمك مبتلاً
كصالحٍ يَرقى، بالذكر معتلاً!![1]

***

والزورق الناعِسْ يغفو على الماء
كالبائس اليائس في وسطِ نعماء!

يرتِّل الشِّعرا مجدافه اللاغبْ
يشيِّع العمرا ويندب الصاحبْ

يجري فيرعاه — في ألمٍ — بالي
يهيجُ مسراه ذكرى الهوى الخالي!

غنَّى به الملاَّحْ أغنيَّة الحُبِّ!
يكرِّر التَّصداحْ بالنغم العذبِ

يمدُّها: يا ليل! يا ليل.! يا عيني!
مناديا بالويل من ألم البين

يجري على نهرٍ سِيماؤه العطفُ
يهفو على مصرٍ وشدَّ ما يهفو!!

يمشي على هَوْنِ مشيَ الطواويسِ
من عهد فرعونِ موسى ورمسيس

يطوي لها البُعدا شهراً على شهرِ
من خاف (اوغندا) في لهفٍ يجري!

يخترق السودانْ لأختِهِ مصرِ
قُطران معدودان ألدهرَ كالقُطرِ!

حتى إذا وافى من بعد ما أعيى
طوَّف تطوافا بكعبة الدنيا!

(١) علام: جمع علامة

(١) يرقى: من ارقية

ورَاحَ ينصبُّ .. للبحرِ في اطمئنانْ
كما قضى الصَّبُّ بعد اللقا جذلانْ !!

***

ما جشَّم النهرا تلك المشقَّاتِ ؟
عسلٌ بها سِرًّا من أجلهِ يأتي
أزاحمٌ يستبقي جُرْدٌ صحاريها ؟
أم عاشقٌ يبغي لثمَ عذاريها ؟!
فقطرةٌ منهُ ترشفها غادهْ
لاهيةٌ عنهُ تكفُلُ إسعادهْ !!

***

أوَّاه ! هل نجهلْ ما عرفَ الماءْ ؟
في عزِّها تُقتَلْ ونحن أحياءْ !!
يا مصر نفديكِ نحنُ بني يعربْ !
آمالنا فيكِ كالشمسِ لا تغرب !!
مَنْ ذا يواسيكِ إن لم نكنْ نحنُ ؟
نحْنُ أمانيكِ لكنّنا لحْنُ !!

***

جزيرةُ العُرْبِ مصرُ لها أمُّ
عقيدةُ الربِّ تجمع والجِذْمُ
ليس لها عنها صرفٌ ولا تحويل
معدودة منها ما دام يجري النيل !
(فؤاد) يحميها مليكها العادلْ
من طامعٍ فيها مخادعٍ خاتِلْ
ووراءه الشعبُ نسلُ الفراعينِ
تحفيزه العُربُ وعزّةُ الدينِ
تَمَلَّكَ به باهتْ ممالكُ الدنيا
بفضله نالتْ رتبتها العُليا
قلَّدها مجداً لمجدها التالدْ
جدَّدَ أو ردّا جلالها الخالدْ
في عهده الميمون ارتقت «الفصحى»
إذ كان كالمأمون لم يألُها نُصحا
(جامعة) الآداب و(الدار) و(الأزهر)
تهيّئ الطلاب للحادث الأكبر !
يختصُّ بالاعظام وخالصِ الحُبِّ
جامعةَ الاسلام ووحدةَ العُرْبِ
عاشَ و (فاروقا) لبيضة الاسلام
كلاهما يُوقَى من نُوَب الأيام
للوحدة الحقِّ ! للوحدة العظمى !
مُبلغةِ الشرق مكانه الأسمى

***

يا مصر نفديك ! نحن بني يعربْ
آمالنا فيك كالشمس لا تغرب !
مَنْ ذا يواسيكِ إن لم نكن نحنُ ؟
نحْنُ أمانيكِ لكنّنا لحْنُ !!

علي أحمد باكثير

يا طبيب ..!

لا تقل يا طبيب إنك ماضٍ بشحوبي ولوعتي وذبولي
حبذا الضعف والهزال دواء لفؤاد المشرَّد المتبول

***

إيه يا لحظة الوداع ، لقد جُرْتِ على المدنف الطريد العليل
قبلاتٌ مسكوبةٌ في سكونٍ وعناقٌ في ضجةٍ وعويلِ
ودموعٌ ممزوجةٌ بدمٍ يجري من القلب ، مستفيض الهطول
وزفيرٌ يكاد يحرق أحشاء المعنَّى من وَقْدِه والغليـــل
وذراعٌ هوتْ تعانق خصراً صيغ من تربة الضنى والنحول
ويدٌ في يدٍ تُسِرَّان أشياء بضغطٍ محبَّبٍ وذهولِ
وعيونٌ تقصُّ بالنظر الفاتر أقصوصةَ الغرام الجميل
وتنَصُّ الآمال تاجاً من السحرِ على مفرق الزمان المجهول !

***

حين سار القطار طار صوابي وتمايلتُ في ذهول طويل ...
وطغت علّتي . وجُنَّ جُنوني ووهَتْ قوّتي . وضلَّ سبيلي !

***

لا تقل يا طبيبُ إنك ماضٍ بشحوبي ولوعتي وذبولي
ثغرُها يا طبيبُ طِبِّي فعجِّلْ بدواءِ كثيرِ ريقِهِ المعسولِ !

مختار الوكيل

في الأدب الإنجليزي

ديكنز وولز

بقلم رشدي ميخائيل السيسي

فترات تقصر أحياناً ، وأحياناً تطول وتطول ، ليس يعنيني أن أعرف أهي من صفاء الذهن وراحة البال ، أم ضجر طارئ وملال ، أعكف فيها على القراءة والاطلاع ، فأذهب إذ ذاك الى دنيا غير هذه الدنيا ، ويغمرني احساس غير مايغمرها من احساس ، وسأخفق إن حاولت أن أظفر بتعليل لهذا العكوف : أتدفعني اليه رغبة الاعراض عن حقائق الحياة خشية الاصطدام بها ، أم يغريني به نزوع الى تفهم هذه الحقائق ونشدان هذا الفهم فيما ضمته صفحات الكتب من عصارة الأذهان ؟

لن أظفر بجواب قاطع ، ولا يعنيني أن أظفر به ، إنما أؤكد أنه ليس أحب الى نفسي في مثل هذه الفترات من أن أتناول بيدي أثراً من آثار « ديكنز » معبود الانجليز ومهبط وحيهم بعد شكسبير ، وأن أذهب معه في سلسلة من الرحلات نغشى في خلالها رياضاً من الأمل الواسع العريض فنستنشق العبير ونتفيأ الظلال ، ثم نروح تائهين في صحارى من الشقاء ، فنكتوي بلافح الحر وقاسي الهجير ، ثم لا نحزم في هذا المدى المترامي من الشقاء القاحل أن نلمح واحة الرجاء من بعيد فنتسابق اليها نتقي وهج الحر ولفح الهجير ، ولكنا لا نأمن بين الحين والحين على أقدامنا وجسومنا أن تدميها أشواك من اليأس والخيبة ، ثم لا نلبث أن نرتفع على أجنحة الخيال الى سماء من السعادة والثراء .

وديكنز في هذه الأثناء لا يفتأ يحدثني في لهجة تلين وترق حتى لكأنها حفيف الأشجار وموسيقى الآلهة ، ثم تعلو وتشتد حتى لكأنها دوي العواصف وقصف الرعود ، يروح يحدثني عن القناعة وعن البؤس والبائسين ، ويحدثني أيضاً عن التمرد وعن الظلم والظالمين ، وكأنه يسكب على جراحات التمرد من نفسي بلسما من القناعة والرضا ، ولكنه لايني بعد ذلك أن يمزق بيده ماعالج من جراحات في قسوة الحقيقة وعنف الواقع ، بينما هو يتحدث الى في لهجة يفعمها الألم والغضب عن استبداد الغني بالفقير ، وعن افتراس القوي للضعيف ، ويهيب بي وبقارئيه جميعاً في فكر عنيف وفي لفظ ملتهب شديد : أن ارحموا البائسين وادفعوا عن المظلومين !! ذلك هو ديكنز الكاتب الانجليزي الكبير الذي يملأ عين القارئ بالدموع وفمه بالضحكات في الفترة الواحدة ! والذي يمزج الجد بالهزل ، ويخلط الحكمة بالدعابة ، ويسوقها جميعاً في كتاباته طعمة سائغة فيها تنوع وجدة ، وفيها قوة وحق وجمال

***

وقد يعلم القارئ أن ديكنز مات عن ثروة كبيرة تبلغ عشرات الألوف ، فهو إذن قد ذاق حياة الترف والثراء وتنعم بها ، وهو لهذا لم يعجز عن تصوير هذا الضرب من المعيشة تصوير فنان خبير ، ولكنك إذ تقرأه وهو يقص تاريخ طفولته الحزينة القاتمة وما لاقاه إبانها من صدمات متتالية ومن متاعب جمة مع شظف العيش والحرمان ، لابد ستأخذك رعدة عنيفة من فرط التألم لهذه الطفولة المعذبة الشهيدة ، وستعلم السر آنئذ في قدرة ديكنز على التعبير عن آلام البائسين وشقاء الفقراء والمعوزين تعبيراً رائعاً مفعماً بالحياة .

وليس يخلو مؤلف لديكنز من آهات متوجعة ، ومن صرخات حزينة ، ومن دموع ملتهبة ، يسكبها في غير حرص أو تقتير على مذبح الانسانية المضطهدة المعذبة ، الا انه لم يكن في كتاباته ناقماً عنيفاً الى الحد الذي يثير الفقراء على الأغنياء ويدفعهم الى الحاق الأذى بهم ، بل كل ما كان يرمي اليه أن يهز النخوة ويلين القلوب ويستدر منها العطف والرحمة والايثار ...

ولد ديكنز عام ١٨١٢ وعاش ثمانية وخمسين عاماً قاسى في العقدين الأول والثاني منها ما قاسى لفقر والديه المدقع وزجهما في السجن وفاء لديونهما ، ولكنه بدأ يرقى سلم المجد منذ استهل العقد الثالث ... واشتغل في أوائل شبابه بالصحافة فكان مخبراً لبعض الصحف ، ثم مندوباً برلمانياً فمحرراً ، فكان بحكم عمله هذا مضطراً الى ان يزج بنفسه في كل بيئة ، وأن يختلط بكل طبقة ويعاشر كل طائفة من الناس ، فاكتسب خبرة وافرة بمختلف الشخصيات ومختلف النفسيات بعد دراستها دراسة وافية ، فأفاد كل الفائدة بهذه الخبرة ، إذ تيسر له أن يوفق الى أبعد حد في تصويره للشخصيات المختلفة التي تناولها في قصصه ورواياته

ويشبه ديكنز من هذه الناحية بعض الشبه « ولز » الكاتب الانجليزي المعاصر الذي اشتغل بالصحافة فأصبح لا يكف عن التعرض لمشاكل العالم الاجتماعية الراهنة والاجتهاد في معالجتها

وفرض الحلول المختلفة لها فى أسلوب رائع مفيد ، بيدأنه على الرغم من هذا لن يكون الخلود من نصيب كتبه ، لأن قيمتها موقوفة على الجيل الذى عاش فيه ، وإن طال أجلها فلن تتعدى الجيل الذى يليه ، إذ سيجد العالم المتطور إذ ذاك أن كل ماجاء بها من نظريات ومبادئ قد تحقق جميعه أو جله ، واقتصرت أهميتها على الناحية التاريخية دون غيرها ، ذلك « لأن النزعة الصحفية فى الكاتب إنما تعمل لفنائه لا لخلوده ، وهذا الفناء هو فى الواقع تضحية الكاتب بنفسه فى سبيل جيله » على حد قول بعض كتابنا الاجتماعيين.

واذا صدق هـذا الرأى عند تطبيقه على « ولز » الذى لم يكترث لغير علاج المشاكل الاجتماعية فهو لا يصدق اذا أرسلناه على إطلاقه ، وخاصة اذا أردنا تطبيقه على ديكنز

صحيح أن ديكنز قد كتب معظم قصصه الرائعة للصحف إذ ذاك ، ولكنها ستظل خالدة على مدى العصور ، خلود مافيها من قوة ومن حق ومن جمال ، ولأنها انتزعت من صور الانسانية انتزاعاً ، فملأتها عواطف هذه الانسانية التى لن تتغير ، أجل ، وستظل خالدة لأنها صورة من الفن الخالد رسمتها ريشة أديب فنان سيعيش تراثه على مدى العصور ، وليست موضوعاً اجتماعياً يتغير ويختلف وفقاً للحوادث والظروف ، ويزداد مقدار مافيه من الصحة أو يقل تبعاً لقدرة كاتبه على وضع الفروض والاحتمالات الصحيحة والاستطراد منها الى تقرير نتائج يثبت المستقبل القريب أو البعيد صحتها ، فولز إذن ليس كاتباً اجتماعياً فحسب ، ولكنه كاتب ثاقب البصر بعيد النظر ، صادق الفراسة ، سليم المنطق والاستدلال . أما ديكنز فأديب فنان ينقل الينا أحاديث الطبيعة والانسانية وعواطفها ، ويعبر عنها جميعا أصدق تعبير وأجمله ، وهو فى مهمته السامية لايختلف بأى حال عن المصور المبدع أو الشاعر المطبوع ... فى الحق انه يكفيك أن تقرأ أى كتاب لديكنز حتى تصل الى هذه النتيجة الصحيحة عنه دون لأى ودون اجهاد

والأديب اذا تناول أى موضوع من المواضيع التاريخية أو الاجتماعية — أو حتى الاقتصادية الجافة — وجعله مادة لكتابته تراه لايفتأ يرويه بدماء قلبه الحية ويغذيه ، ولا يفتأ يسبغ عليه من روحه ونفسه وشتى عواطفه واحساساته ، حتى يبعث فيه الحياة بكل معانيها وصفاتها ، ويكفينا اذا أردنا تطبيق هذا القول على ديكنز ومخلفاته الأدبية أن نستعرض كتابه أو بتعبير أدق طرفته الفنية الرائعة « قصة عن مدينتين » نؤمن بصحته كل الايمان ، نعم ! فبالرغم من أن موضوع هذه القصة تاريخى جاف وهو تاريخ الثورة الفرنسية ، وبالرغم من أنه تاريخ دموى مروع تقشعر منه الأبدان ، وأنه غير حديث العهد بنا . فنحن مع هذا لا نكاد نقرؤه حتى نحس فى أعماقنا أن هذه القصة فى جوهرها انما قد كتبت لنا وبيننا ، والتعليل المعقول لهذا أن الكاتب قد استمدها من وحى الانسانية الخالدة غـير المتغيرة - الانسانية التى تؤلف بين جميع المشاعر وشتى الاحساسات — وانه قد استلهمها من معني الحياة غير الزائلة ، التى هى حق للجميع دون استثناء ، والتى قد ترك أمر فهمها وادراكها لهذا « الجميع » كل حسب اجتهاده ومدى تفكيره .

بيد أن هذا لن يكون حال كل اجتماعى مهما علا كعبه ونبه أمره ، لأنه إنما يعالج المشاكل الراهنة فى عصره التى لا بد أن تقتصر أهميتها على العصر الذى كتبت فيه ، وهو قد يفرض لها حلولا مختلفة يصدق بعضها أو معظمها كما هو الحال مع ولز فى كتابه الذى نشره قبل الحرب الكبرى وقدر فيه احتمالات صدقت فراسته فيها ، حتى لقد اعتبرها البعض من قبيل النبوءات ، ولكن بالرغم من صدقها فلن يقدر لها الخلود بأى حال كأى « تراث أدبى فنى » من مخلفات ديكنز العظيم ؟

رشدى ميخائيل السيسى



العلوم

فكرة النظام الشمسي عند الكنيسة

في العصور الوسطى

بقلم فرح رفيدي

ماهب صرح مدنية روما ينهار بقدوم البرابرة الأوربيين من الشمال حتى انتشرت الديانة المسيحية انتشاراً سريعاً ، وصادفت في قلب الشعب التعس تربة خصبة تنمو فيها ، لأنتنانه بوعودها الجيلة ، ولأنها واسطة انتقال من حياة ملأى بالمصائب والعذاب الى حياة السعادة والهناء . فتأسس من معتنق هذه الديانة الجديدة جماعات أخوية تحت رعاية أحدهم يرشدهم الى الحياة القويمة ، أو يلقنهم دروساً في الحصول على الحياة الأخرى . ومن هذه الجماعات أو رؤسائها تكونت طبقـــة الاكليروس ، وفي يدها أمور الشعب الدينية والمدنية . وكان نظام هذا الاكليروس أشبه بنظام دائرة التأمين على الحياة : تتاجر بالنفوس ؛ فكان الانسان يعطي ماله وأرضه ودينه ، وحتى عقلـه للكنيسة ، لكي يؤمّن حياته بعد الموت . فان راعى قوانينها أعطى تلك الحياة في الجنة ، وإن خالفها حرمته من الكنيسة وكان نصيبه جهنم بعد الموت .

لكن الكنيسة لم تنشأ فقط بعقائدها الدينية ، ولم يكن الكتاب المقدس دعامتها الوحيدة في بناء صرح نفوذها وتحكمها في الشعب ؛ بل كان هناك مع الديانة المسيحية المدنية اليونانية ، وهي ثروة كبيرة وتركة ثمينة خلفها الأقدمون ، لم تقدر على اهمالها وطرحها جانباً والاكتفاء بتعاليم المسيح وحـدها . ويرجع السبب في هذا إلى أن أثر المدنية اليونانية في قلوب الناس لم يذهب باعتناقهم الديانة الجديدة ، وليس من السهل أن يذهب تأثير قرون طوال بقيام نزعة جديدة ، وفي أمد قصير ؛ دعك مما كان لأرسطو وكتاباته من التأثير الجسيم في العقليـة اليونانية أولاً وفي الكنيسة ثانياً .

قد نرى هنا الكنيسة بازاء الدين المسيحي والمدنية اليونانية تكاد تقع في مأزق حرج من احتمال تناقض العلم القديم بالدين المقتبس الجديد ، وقد ينتج عن رأينا هذا سؤال : كيف تمكنت الكنيسة إذن من التوفيق بين الاثنين ؟ أو كيف قدرت أن تستمسك في تلك النقطة الحرجة ؟ الجواب على ذلك هو أن الدين المسيحي والمدنية اليونانية القديمة لم يتناقضا قط ، وكيف يتناقضان والأول خرج من تأثير الثاني ؟ فمثـلاً لم تكن هناك فكرة واحدة أساسية في أصل الكون عند اليونان ، حتى تناقض قصة الخليقة في كتاب التكوين ، وأساطير اليونان القديمة تحتوي على قصص كثيرة مختلفة في أصـل الكون ؛ فليس من الغريب إذن أن تقتبس شعوب أوربا المتنصرة في ذلك الحين فكرة التوراة عن بدء العالم ، وأن تطرح خرافاتها القديمة جانباً . فالديانة المسيحية أتت موافقة للتعاليم اليونانية .

فاستمرت الآراء والمعتقدات اليونانية في النظام الشمسي وحركته آراء ومعتقدات للناس في العصور الوسطى . ولم يحدث هناك أي تغيير جديد أو انقلاب أساسي في النظام اليوناني القديم ، إلا ما زيد عليه بسبب الدين المسيحي ، من إدخال فكرتي الجنة والنار فيـه . وذلك ظاهر بالنظام الذي تصوره الشاعر الايطالي دانتي في منتصف القرن الثالث عشر :

تصور دانتي الأرض ثابتة في وسط الأفلاك السبعة ، ووراء الفلك السابع أي فلك زحل تصور منطقة البروج (zodiac) مكان النجوم الثوابت ، وفوق منطقة البروج ما يسميه بسماء السموات أو عليين (empyrean paradise) ووضع جهنم في وسط الأرض ، وفوق الأرض تحت الأفلاك قسمه الى طبقات مختلفة العلو ، الأولى طبقة الماء من حيث تنزل الأمطار ، والثانية طبقة المطهر حيث يطهر غير الواقعين في الخطيئة المميتة ، وأخيراً طبقة الجنة الأرضية ، وتقع ما بين فلك القمر والمطهر .

هذا النظام دليل بين على مقدار توافق العلم والدين ، وامتزاج الاثنين معاً بصورة يصعب فيها تمييز الواحد من الآخر . ولأن دانتي شاعر خيالي يتصور نظاماً شمسياً يدلنا على عدم سير العلم حينئذ في الطريق الذي يضمن له التقدم الصحيح أو الانقلاب الى

ما هو صحيح وغير ذلك . فقد كان الاعتقاد الشديد بأن منطقة البروج لها تأثير في جسم الانسان . فالاثنا عشر برجاً كل واحد منها له تأثير خاص على عضو خاص في جسم الانسان ، فمنها ما يؤثر على الرأس ، ومنها ما يؤثر على القلب ، ومنها ما يؤثر على الأطراف وباقي الأعضاء . وقد تخيلوا أيضاً أن بعض الكرات التي تدور عليها السيارات تختلف بحسب نظام خاص في العدد والوسيقى ، وأن هذه الكرات تحدث في دورانها نغمات متلائمة ، لا يحظى بسماعها إلا أناس مخصوصون . وهذه النغمات هي ما يسمونه بموسيقى الأفلاك (music of the spheres) تصعد لتمجيد الله الجالس فوق الأفلاك في سماء السموات .

وأما لماذا لم يتقدم العلم في العصور الوسطى ، فذلك ليس لتناقض العلم والدين ، وعدم مقدرة الشعب والكنيسة على التوفيق بينهما ، كما قال الدكتور سارطن (Sarton) ، بل لأن الديانة المسيحية زادت تأثير الذهنية اليونانية على الشعب تأثيراً جسيماً ، حتى لم يكن عنده شك في صحتها وضرورة الاستسلام اليها . من الأمور الظاهرة أن بعض العلوم اليونانية ، بصورتها كما تلقاها أهل العصور الوسطى ، لم تكن قابلة للتطور الأساسي ، وخصوصاً في علمي الهيئة والنجوم . وذلك لأن الأساس الذي بني عليه علم الهيئة مثلاً كان خطأ محضاً . فنظام اليونان الشمسي معها أتى أهل العصور الوسطى بالبراهين والحجج الدامغة ، ومهما زادوا عليه من تفاصيل وشروح ، لم يكونوا ليزدادوا إلا تعمقاً في الخطأ وبعداً عن الصواب . وبعظم تأثير الكنيسة وأرسطو معاً على عقول الشعب ، كثر الاختلاف والتناقض في الآراء والتعابير العلمية والدينية ، فعم الغموض وتولد الشك في قلوب الناس في كثير من المعتقدات السائدة . إلا أن الأرض ظلت ثابتة بين يدي الإله أطلس (Atlas)(١) مدة أربعة عشر قرناً الى أن أتى كوبرنيكس في أواخر القرن الخامس عشر ، وحركها من بين يديه . وذلك لأنه رأى الاعتقاد بدوران الأرض حول الشمس أسهل من الاعتقاد بأن الكون بجلاله وعظمته وعدد نجومه يدور حول ذرة صغيرة في الفضاء تدعى أرضاً .

فرج رفيدي

وقعت بعض أخطاء مطبعية في المقال المنشور في العدد ٥٥ بتاريخ ٢٣ يوليو الماضي في هذا المكان فرأينا تصويبها وهي :

خطأ	صواب
Blanets	Planets
Btolemy	Ptolemy
فلل	فلك
٢٣ يوليو	٢٢ يونيو

(١) من اعتقادات اليونان أن الإله أطلس هو الذي يحمل الأرض بين يديه

مظاهر الحرارة الباطنة للأرض

بقلم نعيم علي راغب

دبلوم عال في الجغرافية

إذا كان هناك شك وتضارب في الآراء الجغرافية عن ماهية باطن الأرض وحالته التي هو عليها ، سائلاً كان أم صلباً ، فانه ليس هناك أدنى شك في أن هذا الباطن حار ، تدل على حرارته مظاهر ثابتة منها :

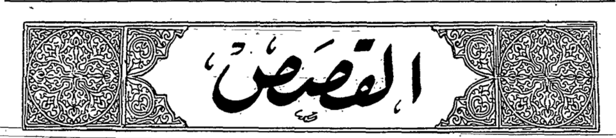
١ — المناجم والحفر العميقة : من المعلوم أن هواءها أشد حرارة من هواء السطح الخارجي ، وكلما زاد العمق ارتفعت درجة الحرارة تبعاً لذلك . ففي منجم Rosebridge بالقرب من Loigan الذي عمقه ٢٤٤٥ قدما ترتفع درجة الحرارة الى ٩٤° ف يقابلها في الخارج ٥٠° ف ، كذلك شأن الحفر العميقة ، فان الماء يخرج منها في درجة حرارة مرتفعة ، وبالقرب من باريس بئر عمقها ١٧٩٨ قدماً يخرج الماء منها في درجة ٨١,٥ فرنهيت .

٢ — الينابيع الحارة Hot Springs : وتلك ظاهرة تكاد تكون عامة في العالم أجمع ، وعلى الأخص في المناطق البركانية ، ومن أمثلة ذلك تلك الينابيع التي توجد في مدينة Wiesbaden وكرلسباد ، وشمال غربي أسبانيا ، إذ يخرج الماء منها في درجات حرارة عالية ١٥٨ ف و١٦٧ ف و١٩٢ ف على التوالي حسب الترتيب السابق .

٣ — النافورات : geysers وهي عبارة عن ينابيع ساخنة توجد عادة في المناطق البركانية ، وتمتاز من الينابيع السالفة في رقم ٢ بارتفاع درجة حرارة الماء الخارج منها ، إذ قد تبلغ ٢٦١ ف كذلك بقوة اندفاعه منها الى علو كبير قد يزيد على ٢٠٠ قدم ويطلق عليها بعض الجغرافيين أحياناً اسم البراكين المائية .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نعرف النافورات وأسباب ثورانها فنقول : — إنها عبارة عن عيون تتصل بباطن الأرض بواسطة قصبة على شكل أنبوبة يتراوح قطرها كثرة وقلة تبعاً للنافورة نفسها (في النافورة الكبرى بجزيرة الجليد iceland يبلغ قطر النافورة ٨ أقدام ويحيط بها شبه حوض قطره يبلغ ٥٦ قدما وارتفاعه ١٥ قدما)

[البقية في أسفل الصفحة التالية]



من الأدب التركي

فتـــاة الصحراء

رآها لأول مرة فى صحراء فلسطين فأحبها وتزوجها ، ونقلها من تلك الصحراء المقفرة الهادئة ، من وطنها العزيز إلى وطنه استانبول ، إلى ضوضاء المدن وجلبتها .

عاش الزوج سنين طويلة فى البلاد النائية ، فى الأماكن البعيدة عن وطنه ، ثم عاد ومعه كنز حبه ، تلك الفتاة التى تشبه زهرة ذابلة ، والتى نشأت وترعرعت فى الصحراء بجانب نخلة عارية وفوق رمال حارة ، عاد بها إلى استانبول تلك البلدة العظيمة التى تجمع أصنافاً من الناس وأنواعاً من البشر ، وتعج بمن فيها من السكان . أراد أن يجد لها فى استانبول العظيمة مكاناً تعيش فيه هانئة لا تذبل فتنصل [1] ولا تجف فتسقط .

كان متوسط الحال ، فهو لا يستطيع أن يقدم لها فى بلد كاستانبول حياة صحراوية ، فلا بد له أن يجد لها فى أقاصى البلدة مكاناً هادئاً منزوياً .

لم يتركا مكاناً فى استانبول ولا محلة إلا بحثاً فيها عن دار فلم يجدا ما يوافقهما ، وبالأحرى لم تجد الزوجة ما يلائمها وما يلائم روحها الصحراوية ، وكانت تظن أنها إذا بحثت كثيراً فى أنحاء تلك البلدة العظيمة وجدت منزلاً فيه روح الصحراء

كلما زارا داراً كان ينظر الزوج بطرف عينه إلى زوجته ليرى

(1) نصل الثوب تغير لونه .

ولتفسير أسباب النافورات يجب أن نذكر حقيقة جغرافية وطبيعية وهى أن الماء يغلى عند درجة ٢١٢ فرنهيت أو ١٠٠ مئوى تحت ضغط يعادل الضغط الجوى ، لذلك اذا زاد الضغط وجب أن ترتفع درجة الغليان ، وعلى هذا فان الماء الذى يوجد فى أسفل قصبة النافورة قد تزيد درجة حرارته على درجة الغليان ولكنه لا يغلى عندها لوجوده تحت ضغط عمود الماء الذى يعلوه ، إلا أن ارتفاع درجة الحرارة يسبب تمدد الماء ورفعه الى مستوى أعلى من المستوى الذى كان عليه فى قصبة النافورة ، وهذا يسبب تمدد الماء السطحى فيفيض على جوانب الحوض ، ولما كان الضغط قد قل بذلك على الماء الموجود فى أسفل القصبة فانه يتمكن من الغليان ويتحول جزء كبير منه الى بخار يدفع طبقات الماء التى تعلوه ، ويسمع لمحاولته الخروج الى السطح العلوى أصوات شديدة كأصوات الفرقعة ، وعلى قدر قوة البخار يكون ارتفاع الماء المندفع .

وتوجد النافورات فى مناطق ثلاث من العالم هى : —

١ — ايسلندا : ويوجد بها ما ينيف على ١٠٠ نافورة تزدحم بها منطقة بركانية صغيرة المساحة لا تزيد على ميلين مربعين .

٢ — منطقة يلوستون بارك Yellowstone Parck : فى الولايات المتحدة وتقع فى الغرب منها وفيها بضع مئات من العيون ، منها ما يزيد حجماً وقوة على النافورات العظمى بايسلنده وأشهرها نافورة Old Faithful دقيقة فى مواعيد تفجرها حتى لتكاد تضبط عليها ساعتك ، إذ أنها تقذف كل مدة تتراوح بين ٦٠ و ٨٠ دقيقة نحو عنان السماء عموداً من الدخان الأبيض الى ارتفاع ١٥٠ قدماً مكوناً منظراً من أجمل المناظر الطبيعية .

٣ — فى نيوزلند : توجد الجزيرة الشمالية التى تشتهر نافوراتها بعظم مقدار السليكات التى تخرج ذائبة فى مائها والتى ترسب حولها وتكون مدرجات كانت الى ما قبل سنة ١٨٨٦ مجموعة من أجمل المناظر الطبيعية فى العالم حتى حدث أن ثار بركان فى نفس السنة هدم الجانب الأكبر منها .

٤ — البراكين : وهى المظهر الرابع لمظاهر الحرارة الباطنية للأرض ومن أهمها إن لم يكن أهمها ، ولذا سنترك الكلام عليها الى مقال آخر يتسع للكلام عنها بالتفصيل اللائق بخطر موضوعها .

نعيم على راغب

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

في عينيها الصافيتين ما ينطبع فيهما من انقباض أو انشراح ، إلا انها كانت بعيدة الغور لا يظهر في عينيها ما يجول في قلبها . وكان زوجها أيضاً يود من صميم فؤاده أن يجد مكاناً ترى فيه فتاة الصحراء ولو شيئاً صغيراً يذكرها بالصحراء وطنها العزيز .

وفي يوم من الأيام نهضا صباحاً ليذهبا إلى دار قيل لهما إنها موافقة لرغائبهما وهي في محلة (السلطان أيوب) فذهبا اليها وتسلقا الهضبة التي قامت عليها تلك المحلة حتى بلغا الدار المقصودة ، كانت الزوجة كعادتها لا تبدى اعتراضاً أبداً ، بل كانت تمشي بجانبه كآلة صماء ، وقد تعبت من البحث عن الدار التي تريدها في تلك البلدة التي لم تر أولها ولم تعرف آخرها .

كانت الدار صغيرة مشرفة على البحر فيها غرفتان وبهو وحديقة صغيرة ، وكانت فتاة الصحراء تنظر إلى كل ذلك بفتور وملل فاذا بشيء يعلق به نظرها ، لقد لمعت أمام عينيها شمس الصحراء : هناك في الحديقة الصغيرة شجرة نخل ، نعم انها صغيرة هزيلة ، ولكنها كانت كافية لأن تمثل لها وطنها العزيز .

لقد أثر منظر تلك الشجرة في فتاة الصحراء تأثيراً عظيماً ، وأعطى وجهها حرارة شمس لطيفة أجرت الدم الذي جمد في عروقها منذ فارقت صحراءها ، وفتحت تلك الشجرة الطريق بين عينيها وبين الصحراء النائية عنها : فرأت أباها وأمها وأخويها ، وعلى قيد غلوة منهم رأت جملها الذى يغمض عينيه السوداوين الكبيرتين أمام الشمس وهو يمد عنقه إلى الأمام .

لقد جاءتها هذه الشجرة بالصحراء ، الصحراء العزيزة عليها ، وبكل شيء قد تركته هناك ، وألقته في أحضانها فكأنها بجانبه تلامسه وبلامسها .

نظرت الى زوجها بعينين يلمع فيهما بريق السعادة لأول مرة بعد عدة شهور ، كانت تلك النظرة تفيد معنى : انني وجدت مبتغاى ، وانى هنا ، هنا فقط أستطيع أن أعيش بجانب هذه النخلة الصغيرة .

لقد حلت تلك الدار المشرفة على مياه الخليج من قلب المرأة محلاً رفيعاً ، فأحبتها بعد زوجها ، بقدر حياتها ، بقدر وطنها .

نزلا في الدار وعاشا فيها سنة طويلة .

كانت تعيش هنا بعيدة عن الناس لا تخرج لزيارة أحد كائناً من كان ، بعيدة عن الحياة الغريبة ، عن الوجوه الغريبة ، في تلك البلدة الغريبة .

لقد زارتها جاراتها يوماً ، فلما رأينها لا تبتدئ معهن خطاباً ولا ترد عليهن جواباً إلا بنظراتها الفاترة الحزينة التي تطلب بها الرحمة والشفقة ، ذهبن في الحديث عنها مذاهب شتى كل واحدة ترى فيها رأياً ، فلما علمن أن بينها وبينهن حاجزاً من الاختلاف في اللغة يمنعها من الاتصال بهن تألمن لها أشد الألم ، ثم أخذت تلك الرحمة تستحيل الى سخرية واستهزاء .

إن أهل المدن فطروا على أن يعدوا أهل الصحراء دونهم في كل شيء ، وهكذا كان شأن نساء تلك المحلة ، كن يستهزئن بالمرأة المسكينة ، وكن يضحكن منها ويقهقهن ، لأنها لا تفهم ما يقلنه من الكلمات فيها ، وكن يجدن في ذلك لذة عظيمة كما يجد الأولاد القساة لذة في تعذيب الحيوان الذى لا حول له ولا قوة ، فشعرت فتاة الصحراء بذكائها الفطرى أنهن كن يضحكن منها ، فنفرت منهن ولم تعد تقابلهن .

لقد نسى نساء الحي وجود فتاة الصحراء بينهن ، عدا عجوز دردبيس كانت تتردد على نساء الحي فتقص عليهن أحاديثها وتجد لها مع كبرها ، وتقلق راحتهن بتلك الأحاديث التي لا تعرف الانتهاء ، حتى مللنها وسئمن زورتها ، فكانت تتردد على فتاة الصحراء فتجلس أمامها وتبدأ حديثها باسم الله وتبقى مدة طويلة تتكلم وتتكلم ، ثم تختم القصة بدموع ترسلها من عينيها وتغادر البيت وهي تقول للمرأة التي لم تفهم منها غير دموعها : « الى الملتقى يا بنيتى لقد أزعجتك بثرثرتى ، شرفينا »

كانت العجوز لا تني عن زيارة فتاة الصحراء ، وأخيراً شعرت أنها وحدها التي كانت تتكلم طيلة هذه الأيام ، فقالت لفتاة الصحراء : مالك لا تتكلمين يا ابنتاه ؟ أبكماء أنت أم ماذا ؟ فلما رأت أن فتاة الصحراء لم تجبها إلا بابتسامة مبهمة ولم تقل إلا برأسها نهضت وغادرت المكان على ألا تعود اليه مرة أخرى

لم يبق من يطرق باب الدار الصغيرة ، ولم يبق من يوقظ شمس الصحراء النائمة هنا من أحلامها ، إلا انها أحياناً كانت تنزل عند إرادة زوجها ورغبته وتذهب معه الى النزهة ، ولكنها كانت تعود الى بيتها وهي مريضة قلباً لا جسماً ، لقد كانت تشبه

طائراً صغيراً فارق عشه ليطير، فوهي جناحاه ووقع على الأرض. إنها لا تكون سعيدة إلا إذا كانت في منزلها منفردة بنفسها أمام شجرة النخل مستغرقة في رؤياها، وفي ذلك الحين فقط تظهر الشمس لعينيها؛ إنها حين تجلس تلك الجلسة، في تلك الساحة التي يبدو لها منها وجه السماء، والتي تشبه في نظرها قصراً من القصور تنسى ذلك الدور الأخير من أدوار حياتها، وتعود بخيالها في غفلة لذيذة الى تلك البحار الرملية التي تجري فيها بقوة هائلة سيول أشعة شمس بلادها فتغمرها غمراً، وتملأ أرجاءها ونواحيها.

إنها في ذلك الحين حين تجلس الى تلك النخلة التي تشبهها في محبة الوطن، وتشاركها الأسف والحزن، وترتسم على شفتيها ابتسامة حزن يائسة، لوقوعها بعيدة عن وطنها وعن شمس وطنها وعن سماء وطنها، تجمع تلك الهضاب والتلال التي أمامها بعضها الى بعض، حتى يغيب عن نظرها ذلك البحر الذي أمامها، وترى أشعة الشمس تغمر تلك الصحراء، وتبصر ألوف النخيل المنتشرة فيها يسلم بعضها على بعض من بعيد بأغصانها الخضراء العالية الرءوس

فاذا رسمت في خيالها هذه الصورة الجميلة، وأتقنت صنعها كل الاتقان، وأعطتها من حسن تمثيلها حياة حقيقية، تخيل اليها أن أباها وأمها وإخوتها وجملها ذا العينين الواسعتين السوداوين أمامها وتحت نظرها، فخفق قلبها لهم، وحاولت أن تهجم عليهم مسلمة معانقة.

وربما ذهبت بعض الأحيان في النهار الى الحديقة ووضعت حصيراً تحت النخلة التي لا ترد أغصانها عنها أشعة الشمس واضطجعت عليها، ورفعت عينيها الى السماء، وسافرت بفكرها الى أقصى حدود الخيال.

كانت ترى قطع السحب تمشي في السماء على غير انتظام، فهي إذن إما ذاهبة نحو قومها، أو آتية من عندهم؛ فالسحب إذن قد رأت قومها أو ستراهم، فكانت تبتسم لهؤلاء السائحات وتسألهن: ألم يجئنها بسلام من قومها وصحرائها؟ أو تسألهن أن يتركن لها في أجنحتهن مكاناً صغيراً يسع خبراً عنها لقومها وأهلها

***

في أعقاب خريف السنة التي قضتها في تلك الدار رأت الطيور تطير أسراباً أسراباً في السماء، فاهتمت لذلك وسألت زوجها عنها فقال لها: «إنها ذاهبة الى بعيد! الى البلاد الحارة». فقالت في نفسها إنها ستمر إذن بوطنها العزيز. فكانت تضطجع تحت نخلتها وتغني بصوت حزين أناشيد قومها وألحانهم الشجية، مضمنة ذلك شوقها الشديد، متوهمة أن تلك الطيور ستقفل راجعة اليها تحمل اليها أجوبة تلك الألحان والأشواق.

جاء الشتاء بخيله ورجله، وأصبحت فتاة الصحراء لاتقدر على الجلوس تحت نخلتها، والتمتع بظلها، وشم رائحتها، فأخذها من اليأس ما زاد في آلام نفسها، وأصبحت تقعد بجانب نافذتها ساعات فراغها من عمل المنزل غارقة في بحر من الآلام والأفكار، فما يدري ما الذي كان يشغل خيالها ويقلق بالها في ذلك الحين، أمنظر النخلة التي كانت تخشى عليها من البرد القارس، والهواء العاصف؟ أم انتظار الطيور تقبل عليها من ناحية من نواحي السماء المستورة بالغيوم، تنقل اليها أخبار أهلها ووطنها؟

كانت فتاة الصحراء كلما مضى يوم من الشتاء هزلت وضعفت، وأخذ نور عينيها يخبو تدريجاً. فلم يخف ذلك على زوجها، فقال لها: «ما بك؟ أراك تخفين عني شيئاً يمضك ويؤلم، لقد سئمت الوحدة وتشوقت لرؤية أهلك وصحرائك» كانت تنكر ذلك، ولكنها كانت في شوق زائد الى رؤيتهم، إنها اشتاقت الى الصحراء، الى شمسها، الى جوها الصافي، الى نخيلها، الى والديها واخوتها، الى جملها، أجل! اشتاقت الى كل هؤلاء، ولكنها كانت كالأطفال تنكر شوقها وتصر على الانكار، ومع هذا كانت تدير وجهها تحت تمثال صحرائها، ألا وهو نخلتها وتنظر اليها بحزن عميق.

أقبل الربيع:

علمت ذلك من زوجها فابتهجت وفرحت: جاء الربيع، كانت تظن أنه اذا جاء الربيع أتاها بتذكار جميل من أهلها ومن قومها، ولكن هيهات، جاءها الربيع بالمصيبة الكبرى: ستباع الدار، وهما مضطران الى النزوح عنها الى غيرها

الدار يبيعها صاحبها: ستفارق إذن فتاة الصحراء حلمها الجميل، ستفارق النخلة، خطر لها خاطر خفي وهو أن تأخذ معها شجرتها الى الدار التي ستسكنها، ذكرت لزوجها رأيها فوافقها على ذلك، وقررا أن يأخذا معهما النخلة سلوتها الوحيدة

رحلا إلى دار صغيرة مظلمة فى حى فقير مظلم فصنعا للشجيرة محلا أمام النافذة ووضعاها فيه وربطاها الى حديد النافذة

لقد قنعت فتاة الصحراء بهذه الدار الصغيرة المظلمة ، ما كانت ترى فى هذه الدار السماء الصافية ، ولا الشمس المشرقة ، ولا القمر الزاهى ، ولا النجوم الزاهرة ، ولا الدور الشاهقة ، لكنها كانت ترى نخلتها المحبوبة فيسكن قلبها لرؤيتها ، حياتها منوطة بها . تجلس دائماً بقرب النافذة واضعة رأسها على يدها ، وتنظر إلى رفيقة وطنها بقلب أضناه الشوق وبرحت به الذكرى . ولكن النخلة كانت تذوى كطفل أخذ غصباً من حضن أمه ، وفتاة الصحراء تذبل بذبولها كشجيرة انتزعت من مغرسها ، فاستحكم الذبول فى الاثنتين ، فكان يظن الناظر إليهما أن سراج حياتهما ينطفىء تدريجياً .

نهضت يوماً من فراشها وذهبت كعادتها إلى نخلتها ، ولكنها تراجعت إلى الوراء دهشة ، ماذا ترى ؟ رأت نخلتها العزيزة رفيقتها ومؤنستها قد انكسرت من وسطها حيث الرباط ، وسقط رأسها إلى الأرض ، فهدت تلك المصيبة من قوة الفتاة ، فجلست بجانبها وذرفت دموعاً غزيرة خرجت من أعماق قلبها المحطم لفراق الوطن والأهل . . .

عاد زوجها مساء فألفاها على تلك الحالة باكية حزينة . فسألها قائلا : « مابك ؟ أعلميني أسباب حزنك وكدرك ، ما الذى يبكيك ؟ » فاعترفت لأول مرة قائلة : « لنذهب ! لنذهب إلى هنالك ! » وأشارت بيدها إلى بعيد ، إلى ديار أهلها وقومها .

***

عادت الطيور ولم تأتها بخبر من أهلها ، ولكن ما الذى يهمها من ذلك الآن : إنها ذاهبة بنفسها الى الصحراء ، الى الوطن الذى طالما فكرت فيه وأضناها بعدها عنه ، وذرفت لذلك دموعاً غزيرة . .

لقد ذهبا إلى الصحراء ومضى على ذهابهما زمن طويل . .

فليت شعرى ، أفتاة الصحراء لا تزال تجلس تحت ظل أشجار النخيل ، تغنى أناشيدها القومية فرحة مسرورة بالوطن العزيز الذى كانت ترى بجانبه جمال الآستانة قبحاً ، وماءها ملحاً ، وهواءها رديئاً ، وجوها وبيئاً ، وشمسها قاتمة ، ونجومها مغمضة ناعسة ، أم هى ناعسة نوماً أبدياً تحت أطباق الثرى ، وحيدة منفردة وظلال أشجار النخيل تبكى عليها ؟ . .

« حلب » فتاة الفرات

من المسرح الغنائى

١ ــ سافو

لألفونس دوديه

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

مقدمة

ليس الفونس دوديه بمجهول من المشتغلين بالأدب الفرنسى وهو ذلك الكاتب الوجدانى الرشيق الأسلوب ، السليم الذوق ، البارع فى وصف الحقيقة ، فهو المنبع الصافى ، والسهل الممتنع ، يأخذك بجلال ما يكتب ، ويسحرك بيان مايصوّر ، فلا يلبث أن يشد أعصابك شداً ، ويجرى دموعك سيولاً ، ويلهب مشاعرك إلهاباً وأنت ذاهل تشارك بالرغم منك أشخاص قصصه ما يوزعه عليهم من مختلف العواطف المضطربة المتباينة .

وسافو إحدى آياته الكبرى التى جمع فيها بين الشهوة الثائرة ، وعاطفة الأمومة الطاهرة ، ظهرت فى سنة ١٨٨٤ وهو فى الرابعة والأربعين من عمره (لأنه ولد سنة ١٨٤٠) وقد امتلأ تجربة وخبرة ، وشبع شهرة وصيتاً ، فكانت من القصص الخالدة ، حتى ان قطعة سافو التمثيلية الغنائية (أوبرا) التى أخذت عنها دائما متجددة الشباب تمثل فى فرنسا إلى الآن ، وفى مصر بدار الأوبرا الملكية كل موسم تقريباً . وهذه القطعة هى التى عنينا بنقلها « للرسالة » إلى لغتنا العربية الكريمة [1]

واسم سافو على مايظهر غير فرنسى ، لأنه اسم امرأة أغريقية اشتهرت مابين القرن السادس والسابع قبل الميلاد بشعرها ، كما اشتهرت بخلاعتها واستهتارها ، حتى أنها لما ملك اليأس عليها كل سبيل ألقت بنفسها من أعلى صخرة (لوكاد) فى اليم .

ولقد وضع پراديه المثال الفرنسى الشهير فى سنتى ١٨٤٨ و ١٨٥٢ تمثالين أولهما من البرونز والثانى من المرمر كانا محل أعجاب الناس ، حتى أن كثيراً منهم حصلوا على نسخ منهما ، وقد سماها باسمها ، ولا يمكن أن يكون أراد بهما تخليد تلك القصة الشهيرة التى لم تظهر كما قدمنا إلا فى سنة ١٨٨٤ لأن أول هذين

(١) مؤلف هذه القطعة هو أوجيه ايميل وقد ضبعت بمطبعة كالمان ليفى باريس وهذا على ما أذكر لأنى فقدتها بعد الفراغ من تعريبها

التمثالين تم ودوديه فى الثامنة من عمره ، وظهر ثانيهما قبل نشر قصته بنحو اثنتين وثلاثين سنة . ومن هذا يتضح أن براديه أنما وضع التمثالين المذكورين تخليداً لذكرى تلك الأغريقية .

وإذا علمنا أن دوديه رجل (شأن كل كاتب) واسع الاطلاع مفروض وقوفه على تاريخ تلك الأغريقيـــة وظروف حياتها ، وكذلك علمه بأمر هذين التمثالين جزمنا بأنه ما كتب تلك القصة إلا وهو متأثر بهذين الظرفين لقيام وجه الشبه بين هذه المرأة وبين سافو ربيبة قلمه من حيث الحب والخلاعة والاستهتار . ولأن قصته والقطعة الغنائية المـأخوذة عنها تناولتا ذكر التمثال المرمرى الذى أشرنا إليه .

على أن من العجيب ما لحظناه من أنه جعل فتاة قصته مصرية ، وأن واضع القطعة التمثيلية المنقولة عنها جعلها أندلسية ؟

أما الناقل فقد يكون التبس عليه الأمر بين هذه المصرية وبين راقصة أخرى أندلسية جاء ذكرها أيضاً فى نفس القصة . ولكن دوديه أكد وصف سافو بالمصرية فى أكثر من موضع منها ، فلا بد إذن أن واضع تلك القطعة تعمد جعلها أندلسية ، لأن سافو كما وصفها دوديه امرأة فطرت على الحب العنيف المتقد ، وهى أيضاً كثيرة الأهواء لا تستقر عند حبيب واحد ، ولا تطيب حياتها إلا بالتنقل من حب إلى حب ، وكلها صفات تتوافر كثيراً فى الاسبانيات ، حتى أن روسبر مريميه اضطر إلى اختيار « كرمن » فى قصته البديعة من بينهن

ودوديه الكاتب القدير لا يفوته ذلك أيضاً ، ولكنه قصد الى تمصير سافو قصداً ، وقد خصها بالاجادة فى رقص « البطن » فاذا كان هذا ما اراده فقد التوى عليه قصده ، لأن مثل هذا النوع من الرقص ليس من عادات الباريسيات ، وقد أراد بقصته وصف تلك العادات ، ولأنه كان عليه ما دام هذا قصده ألا يسمى فتاته سافو ، لأن سافو الأغريقية لا تعرف مثل هذا الرقص ، ولأن المصرية لا تتسمى بهذا الاسم .

وعلى كل حال فقد رأى ألا يجعل الخاتمة واحدة فى سافو التاريخ وسافو القصة ، فغلّب هذه على اليأس الذى ذهب بحياة أختها ، وأحياها الحياة الكبرى حياة الأم التى تحطم قلبها وتتطهر من أقذار الأثم لتنصرف الى تربية طفلها . فكان فيما اختار عظيما رائعاً ، وهو ينزل على حكم الطبيعة ، ويساير غريزة التكوين البشرى ؟

محمود خيرت

الرواية

الفصل الأول

(بهو ينتهى الى مصنع المثال كاوودال . يموج البهو بالفنين والعذارى المقنعات ، لأن الليلة راقصة ، وأما المصنع فتدوى فيه نغمات الآلات الوترية ، وسافو (واسمها المستعار فنى) ترقص وتغنى ، والمجتمعون يصيحون من النشوة والطرب . وأخيراً يظهر فى البهو كاوودال ولا بودرى مقنعين)

كاوودال — انظروا أيها الشبان كيف أصبح الشيوخ أكثر فتوّة منكم !

لابودرى — إنى راحلٌ يا أستاذى

كاوودال — طبعاً لأن المجلس لم يعجبك

لابودرى — كلا ، ولكنى لا أستطيع البقاء فوق هذا

كاوودال — بل قل إن هذه الراقصة ذات العيون السود لم تفتنك ، إن رشاقة هذه الأندلسية لا تدع عقلا لعاقل ، وهى تجتمع دائما هنا بأصحابها ، فلم لا تشاركهم هذا الأنس ؟ (يغنى)

يا غصون الشباب

الجميع — يا غصون الشباب

فني (سافو) — إن عذب القُبَل هان فيه العذاب

وسواد المقل طاب فيه الجنون

الجميع — يا شباب الغصون

لابودرى — مهما كان من الأمر فانى سأرحل

كاوودال — يا عدوّ الملاح

الجميع — ما علينا جناح فانتظر للصباح

كاوودال — ما أغربك أيها الفتى . تفرّ من هذا الأنس وتزعم أنك شاب

لابودرى — وكأنى بك فى سن العشرين

كاوودال — مع انى فى الستين (ثم يخاطب حنا) وأنت لم لا ترقص يا حنا ؟ كنت أظنك فى مجلى هذا السرور أكثر نشاطا ومرحا

حنا — إننى ما رقصت عمرى

كاوودال — ولكن الرقص ينفض عنك تراب القرية . تشجع

لابودرى — العبرة بالخطوة الأولى . هيّا

كاوودال — ألا تعرف هؤلاء الفتيات الجميلات ؟

حنا — لا يا سيدي

كاوودال — وكيف تراهن

حنا — رائعات

كاوودال — ألا أقدمك إليهن

حنا — أشكرك وأعتذر ، فقد أكون محل سخريتهن

السيدات — ها ها ها (ضاحكات)

لابودرى — (وكأنه يكلم نفسه) ولم ؟ ما أبسط هذا الفتى !

كاوودال — تعال معي

حنا — دعني بالله (يمتنع فينصرف كاوودال ومن معه الى المصنع)

كأنني في حلم . أهذه هي السعادة التي يتغنون بها !

(هنا يسمع ضجيج المجتمعين في المصنع وهم يغنون) :

نماذج المصنع سافو لها تاج

جبينها يسطع كالتبر وهاج

سبحان من أبدع جمالها سافو

ماذا أسمع ؟ كل شيء في هذا المصنع يشد أعصابي . فأين أنا من قريتي كنز السكون والنور ؟ ومن خمائلها يحمل النسيم أرجها فيعطر الأرجاء . لقد كنت في المساء أجوب غاباتها النضرة فتهزني الأحلام ، وهواؤها العليل يشدو من خلال أوراقها فأنسى قسوة الشتاء . قريتي التي تفيض بالأمل والحب ما أبعدها الآن عني !

(يسمع هرج في المصنع وضحك طويل ثم يخرج بعضهم يتعقب فني)

أحدهم — قبلة يا فني

فني — اخسأ

هو — (الذي يتعقبها) قبلة واحدة صدقة عن هذا الحسن ...

فني — تظهرون الغرام لي في ابتسام مغرر

خدعة ليس ينطلي سبكها في نواظري

إنكم تصدعونني ، انكم تخدعونني

(تفلت منهم وتسأل كاوودال)

من هذا الفتى الجميل (مشيرة الى حنا)

كاوودال — لا أعرفه

فني — ولم لا أسأله أنا ؟

كاوودال — شأنك معه (يبتعد ضاحكا)

فني — (تقترب من حنا) ما اسمك يا صاحبي ؟

حنا — حنا جوسين

فني — قروى ؟

حنا — نعم

فني — وهل أنت مصور ؟

حنا — لا ياسيدتي (مطرقاً)

فني — أحسنت . ولكن لم أنت مطرق؟ وماذا رابك مني ؟

حنا — بالله لا تسخري مني يا سيدتي

فني — أنا ؟ إنك بالعكس سحرتني وإن كنت غير مصور

(يسمع صوت كاوودال ولابودرى يناديان)

الطعام . . الطعام

فني — (في اذن حنا) الى الملتقى ياحنا

كاوودال — هيا يا إخواني

الجميع — (داخل المصنع) الغداء ! الغداء !

ان لذة الأنام في تذوق الطعام

الغداء ! الغداء !

كاوودال — (من الداخل) سافو !

(يحاول حنا الدخول فتمنعه مضطربة)

فني — لا تدخل ياحنا . تعال معي

حنا — ولكن . . .

فني — تعال . تعال

حنا — (يخضع) غلبتني مقلتاها فسبيلي قدماها

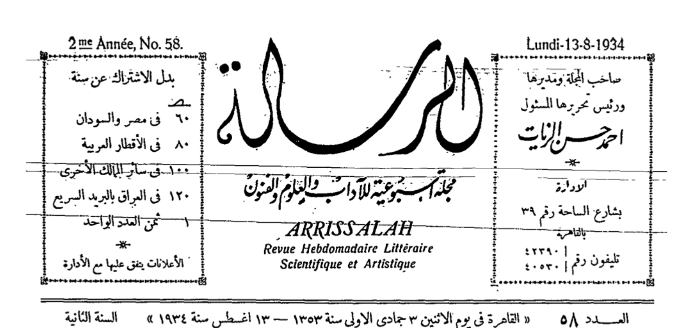
فني — عقل فني فيك تاها سهم عينيك رماها

حنا — ياحبيبي !

فني — ياحبيبي !

(يذهبان بينما المصنع في هرج وأنس)

« يتبع »



ذكرياتنا القوميـــة

تعاودنا فى كل عام بعض الذكريات الأليمة التى يغص بها تاريخنا الحديث ؛ وفى الأمم المغلوبة التى سلبت أعز ما تزهو به الأمم ، أعنى حرياتها القومية ، تنسخ الذكريات الأليمة كل ماعداها من ذكريات الفخار والمجد ؛ وإذا أتيح لها يوماً أن تحتفل باحدى هاته الذكريات المجيدة ، فان محنتها الحاضرة تكدر دائماً صفاء شعورها القوى ، وتذهب بكل ماعكن أن تأنس به من كبرياء وغبطة ونخار .

وقد مرت بنا منذ أسابيع قلائل بعض هذه الذكريات السود فى تاريخنا : حوادث الاسكندرية المشئومة فى ١١ يونيه ؛ وضرب الأسطول الانجليزى للاسكندرية فى ١١ يوليه ؛ وستحل بعد أسابيع قلائل ثالثة الذكريات المفجعة ، أعنى تمام احتلال الانجليز لمصر فى ١٥ سبتمبر ؛ ومنذ عامين كان قد انقضى على ضياع الحريات القومية وقيام الاحتلال الأجنبى فى مصر خمسون عاما . فكيف نستقبل هذه الذكريات المؤسية فى تاريخنا القوى ؟ وماذا نفيد منها من عظات وعبر ؟

الواقع أننا لا ننسى هذه الذكريات التى تعاودنا كل عام ،

فهرس العـــدد

وبينها اليها دائماً استمرار المحنة واستمرار الاعتداء على حقوقنا وحرياتنا. وقد تكون الذكرى وحدها فضيلة. ولكن الذكرى المجردة لا تكفي دائماً للافادة من عبر الحوادث وتغذية الشعور القومي وإذكاء الهمم للنضال في سبيل استرداد الحقوق المناوبة.

وقد جرى في أن نستقبل هذه الذكريات كل عام بعبرة فصول ومقالات في الصحف تكاد تتفق دائماً في ألفاظها ومعانيها: بكاء على الماضي، ورثاء للاستقلال الذاهب، واستنكار للاعتداء الواقع، وتنديد بنكث المعتدى، وتشهير بأساليب الاستعمار؟ هذا ما نقرأ دائماً في صحفنا في هذه المناسبات، وهذا كل ما نفعل لاستقبال ذكرى الحوادث والخطوب التي ذهبت بحرياتنا واستقلالنا. وهذا حسن بلا ريب؛ ولكنه لا يكفي لتحقيق الغاية القومية التي يعلق تحقيقها عليه.

وليس هنا مقام تفصيل ما يجب أن تعمله أمة كأمتنا في مثل هذه المناسبات. ولكن الجهاد السلمي لاحياء الشعور القومي، وإعداد الأمم للنضال في سبيل استرداد حقوقها متعدد الوسائل والصور. وترديد النواح والعبارات المؤثرة لا يفيد شيئاً في سبيل استقلال الأمم؛ وإنما يفيد أن تثير دعوة مقنعة لبيان حقك، وأن تتخذ هذه المناسبات لتنظيم جهود سلمية جديدة، سياسية أو اقتصادية في سبيل الكفاح القومي، وأن تعقد الاجتماعات والمحافل السلمية، وأن تنظم الاحتجاجات بالقول والفعل، وأن تلقي رسالة المستقبل إلى الشباب بطريقة عملية؛ ويحسن أن يدوي صدى احتجاجك في الخارج، في جميع أنحاء العالم، فقضايا الأمم المغلوبة دائماً بحاجة إلى التعريف، وقد يلقى التعريف أحياناً شيئاً من التأييد أو العطف في ثنية الضمير الدولي. ومن جهة أخرى فان هذه المناسبات يمكن أن تتخذ ذريعة حسنة للقيام ببعض الأعمال والمشاريع الوطنية النافعة، فتكون دائماً رمزاً عملياً لاذكاء الشعور القومي.

***

ونود بهذه المناسبة أن نشير إلى نقطة أخرى جديرة بالتأمل، ذلك أننا نشهد في مصر احتفال بعض الأمم الغربيـة بأعيادها القومية؛ ومن هذه الأمم من تسيطر بقوة الغصب والاستعمار على شعوب عربية وإسلامية شقيقة، وتسومها أمر ضروب الاضطهاد والذلة؛ ففي مثل هذه المناسبات نجد بكل أسف صحفنا ومجلاتنا تشيد بأعياد هذه الأمم المستعمرة وتشاركها في الاحتفاء والابتهاج. خذ مثلا عيد ١٤ يوليه الفرنسي الذي يزف الينا دائماً بأنه عيد الحرية والإخاء الإنساني، وتأمل كيف تفيض صحفنا كل عام في الاشادة به وبآثار الحوادث التي ارتبطت به في تحطيم صروح الظلم والاستبداد، وكيف يشترك كثير من شباننا الاغرار في الحفلات التي تقام لهذه المناسبة، وكيف ينسى هؤلاء وهؤلاء أن هذه الأمة التي تتغنى بنشيد الحرية والاخاء والمساواة، هي نفس الأمة التي تفرض نير الذلة والاستعباد على ملايين المسلمين، وتعصف سياستها الاستعمارية الحديدية بدينهم ولغتهم وكل تراثهم القومي؛ هذا بينما يقضي الواجب الوطني وواجب التضامن الاسلامي أن نقف دائماً من هذه المناسبات موقفاً سلبياً، بل أن نذكر هذه الأمم الاستعمارية بما في دعواها من تناقض، وبأن الأمم المغلوبة لا يمكن أن تؤمن بنداء الحرية، وهي ترى أن أولئك النادين به هم نفس الجناة على حرياتها واستقلالها.

***

إن تقدير الذكريات القومية، وتنوع الاحتفاء بها، وحسن الاستفادة منها، من شواهد اليقظة القومية؛ وإن المتغلب المستعمر لا يفوته أبداً أن يلاحظ هذه المواقف في حياة الأمم المغلوبة لأنها في نظره مقياس للشعور القومي؛ وهو أشد ما يخشى هذا الشعور وأحرص ما يكون على محاربته وإخماده، وإن كثيراً من الخطط والوسـائل التي يدبرها الغالب لتثبيت نيره أو مصانعة فريسته يتوقف على مبلغ ما يأنسه فيها من قوة الشعور القومي أو ضعفه.

ومن الأسف أننا نجوز مرحلة فتر فيها الشعور القومي، وفترت فيها قوة المقاومة؛ فلنعمل بكل ما وسع الجهاد المشروع لاذكاء هذا الشعور، ولنلتمس دائماً لاذكائه ذكريات المحن القومية، فالمحنة تشحذ همم الأمم الحية. والشعور القومي لا يكفي في تغذيته أن نردد الفصول الفاترة المماثلة كل عام، والحريات لا تغنمها إلا شعوب فياضة الوطنية، فياضة الشعور بكرامتها؟

«ع»

حول الحر

للأستاذ أحمد أمين

اشتد الحر وشغل الناس بالتفكير فيه ، وبطرق التغلب عليه ، وبالتأفف منه ، فهذا يدبر المال للأقامة في مصيف فيوفق ويرحل ، وهذا لا يواتيه المال فيقيم على مضض ، وهذا نزاع عائلي بين ميزة الاصطياف في أوربا والاصطياف في الاسكندرية ، وهذا غني أفلس يأتي عليه الحر فيذكره بأيام هنية قضاها في أجود المصايف وأنزه الأماكن ، فتجتمع عليه لذعة الحر ولذعة الذكرى — وهذا بائع المرطبات والمبردات يسأل الله أن يزيد في الحر حتى يكثر بيعه ، ويزيد ربحه ؛ وهذا يرقب درجة الحرارة من حين لآخر ليعلم أتحسن الجو أم ساء ، وهو يتبع القياس في رضاه وسخطه ، وهذا يقرأ نشرات مصلحة الطبيعيات ليقارن بين القاهرة والاسكندرية ، والقاهرة وبور سعيد ، فان كان في الاسكندرية رثى لمن في القاهرة ، وإن كان في القاهرة حسد من كان في الإسكندرية ؛ وإن كان في أسيوط عزى نفسه بقلة الرطوبة وجفاف الهواء ؛ ومن كان في مصر كلها حمد الله على أنه ليس في أمريكا حيث يختنق الناس — وهذه شغلها التفكير في المقارنة بين حمام ستانلي وسيدي بشر : أيهما أكثر ناسا ، وأنظف مرتاداً ، وأحسن للعرض وأمتع للنفس . وهذا يرتقب غروب الشمس التي تكويه بنارها ، ليخرج الى الجزر والأنهار والمقاهي المفتوحة والملاهي في الجو الطلق ، فينتقم في ليله من نهاره — وهذا وهذا وهذه وتلك مما لا يعد ولا يستقصى ؛ ولكن لابد من «هذا» أخرى أنسيتها ، فهذا كاتب وشاعر شغله الحر من ناحية أخرى فهو يريد تشبيهاً جميلاً للحر أو تعبيراً بليغا ، فيقول : هذا الجو أحرّ من الرمضاء ، وأحرّ من دمع الصب ، وأحر من قلب العاشق ، ومن فؤاد الثاكل ؛ ثم لا تعجبه هذه كلها فيريد تشبيهاً مخترعا ، أو عبارة مبتكرة ، أو استعارة بديعة ، فيسبح في الخيال ، وينسى الحر ، وهي حيلة لطيفة للتخلص منه !!

أما أنا فقد ضايقني الحر ، وحرت بين مصر والاسكندرية ، تؤلمني الأولى بحرها القاسي ، وتؤلمني الثانية برطوبتها الثقيلة ، ووددت أن لو كان لي من المال ما يمكنني من أن أطير صباحاً فأقضي النهار في الاسكندرية ، وأطير مساء فأقضي الليل في القاهرة

وأخيراً رأيت أن أهرب من الحر حيناً بالتفكير في الكتابة فيه ، وقلت إنها فرصة جميلة أن أكتب في الحر ، فان خرج المقال قيماً ممتلئاً حرارة وقوة ربحت ربح المحسن في عمله — وليس لي كبير أمل في ذلك — وإن خرج المقال بارداً أكون قد أحسنت الى الناس فرفهت عليهم ، وانتقمت من الحر ، وأعنتهم عليه ؛ وأية فرصة للكاتب خير من هذه ؟ يحسن اذا أحسن ، ويحسن إذا أساء ؛ وللانصاف لابد أن أعلن أني لست مبتكراً لهذا المعنى ، إنما سرقته من نادرة لها اتصال بالحر ، فقد أنشد بعضهم بيتاً من الشعر ، فقال سامعه : إن هذا البيت لو طرح في نار المتنبي لأطفأها ، ويريد بيت المتنبي قوله :

في فؤادِ المحبِ نارُ جَوًى أحرُّ نارِ الجحيمِ أبردُها

فكذلك أردت أن أثأر لنفسي وللناس من حر هذا العام بكتابة مقالة تطفئه ، وأخشى ما أخشاه أن تخرج فاترة ، لا بالحارّة فتعجب ، ولا بالباردة فتطفئ

***

أول ما خطر لي في الحر أني الآن لابس ثوباً خفيفاً أبيض ، واسعاً فضفاضا ، مكشوف الرأس ، عاري القدمين ، جالس في حديقة ، أشجار عن يميني ، وأشجار عن يساري ، وحوض زهر أمامي ، وقد رشت الأرض من حولي ، وبجانبي إناء مما يحفظ فيه الماء مثلوجاً ، لا أدري ما اسمه بالعربية ، وأخشى أن أقول « ترمس » فينقدني علماء اللغة ؛ وكل شيء حولي يرطب الجو ويلطفه ويمدّله ، وأنا مع هذا كله برم بالحر ، ضيق الصدر ، مغيظ محنق ، ألتمس أقل سبب ، لأعلن الغضب — وعلى البعد مني أصوات ترتفع بالنداء ، هذه تحمل قفصاً مملوءاً بالفراخ ، وهذا يجر عربة ملئت بأصناف الخضر ، وهذا ثالث يحمل على رأسه سفطا كبيراً قد ملئ بالتين أو العنب ، وهو سائر طول نهاره في هذا القيظ ينادي ، لا يعبأ بشمس ولا حر ، ولا يضجر كما أضجر ، ولا يألم كما آلم ، ولا يفكر في الحر كما أفكر — أليس في الأرض عدل ؟ أليس الشقاء قد أكسبه مناعة وقوة ؟ أو ليست الرفاهية والمدنية والنعيم قد حرمتني الجلد والاحتمال ؟ إنه ليسعد بما أشقى به ، إنه ليسعد بشربة ماء من كوز من حنفية ،

ويسعد بالازمّاء فى ظل بيت فى الشارع بعد أن أعياه التعب وأضناه السير ، ويسعد بقرش يكسبه ليشترى به خبزاً جافاً يأكله فينعم به — إن كانت السعادة فى اللذة والطمأنينة وهدوء البال فما لا شك فيه أن هناك مجالاً للتفكير العميق « أينا أسعد » وتباً للعيش الناعم ، والمدنية المعقدة ، والرفاهية المترفة ، التى أرهفت حواسنا وإحساساتنا ، وأفقدتنا الصبر واحتمال المكاره ، وجعلتنا نفر من نعيم إلى نعيم أدق منه ننظر فيه السعادة ، وما السعادة إلا فى العيش البسيط والمران على الجلد ، واحتمال ألوان الحياة وصنوف التعب ، وأقلها الحر والبرد ، إن تحتمل الحر فلا حر ، وإن تحتمل البرد فلا برد ، وإن تعتد بساطة العيش تكره نفاق المدنية ، وإن السعادة خير ما يحقق مذهب « اينشتين » فى النسبية ، فكل شىء فى الحياة من لذة وألم نسبى ، وليست اللذة والألم يعتمدان على الشىء الخارجى فحسب ، بل هما نتيجة تفاعل بين الشىء الخارجى والنفس ، ويختلف هذا التفاعل اختلافاً كبيراً باختلاف النفوس ، فليس الألم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحدها ، بل إن صلح الترمومتر أن يكون مقياساً لحرارة الجو ، فلا يصلح أن يكون مقياساً لألم النفس من الحر ، وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى فيه الناس ، إنما لكل انسان فى الألم من الحر والبرد ترمومتره الخاص ، ولذلك ترى من يموت من الحر ، ومن يموت من الضحك على الحر — ومن الغريب أن يتوجه كل الناس بكل مجهودهم للتخلص من الحر بالأصطياف وسكنى الشواطئ والمراوح والمرطبات ، ولا يبذلون أى جهد فى الناحية الأخرى وهى الناحية النفسية بترويضها وتمرينها على الاحتمال ، وتعويدها الصلابة ، وهذا فى نظرى ليس أقل شأناً ولا أصغر قيمة من العلاج الأول

* * *

وخطر لى أن علماء الجريمة يذكرون أن هناك أنواعاً من الأجرام تكثر فى الصيف كالأجرام الجنسى ، وأنواعاً تكثر فى الشتاء كأجرام السلب والنهب ؛ فقلت لعل ذلك أيضاً فى الأدب ، فالأدباء يهيج بعضهم على بعض صيفاً أكثر مما يهيجون شتاء ، ويهيجون فى القاهرة أكثر مما يهيجون فى الاسكندرية ، إن شئت مصداق ذلك فانظر ما كان بين من يسموتهم أدباء الشيوخ وأدباء الشباب ، وانظر ما كان بين أدباء الشيوخ بعضهم وبعض ، وأدباء الشباب بعضهم وبعض ؛ أليس هذا كله فعل الحر ؟ أوليس من كان فى الاسكندرية على شاطئ البحر كان يعجب من فعل الحر فى أدباء القاهرة ؟ — ولئن كان الحر يؤاخذ على ماجنى من تعريض العلاقات بين بعض الأدباء لخطر ، فانه يشكر على أنه استطاع أن يستخرج من الأدباء قطعاً فنية بديعة أكملت أبواب الأدب ، فان القدماء قد عدوا من أبوابه باب الهجاء كما عدوا باب المديح — كما أنه يشكر إذ لم يسلط ناره الحامية على الأدباء طويلاً فقد حوّل عدسته الى غيرهم ليتنازعوا فنجا الأدباء من ثورته ، وهدأت عواطفهم وتصافت نفوسهم

* * *

وأخيراً خطرت لى محمدة جليلة للحر القائظ ، والبرد القارس ، وقلت إن هذه المحمدة تفوق كل ما كان للحر والبرد من سوء ، ولولاها لما تقدمت الانسانية ، ولما رقى النوع البشرى هذا الرقى ، ولظل هائماً على وجهه كالوحوش ، ذلك أن الشمس بنارها اللافحة ، والحر بشدته اللاذعة ، والبرد بحدته القاسية ، وأمطاره المنهمرة ، وبرده وثلوجه ، والطبيعة العنيفة — بعواصفها ورياحها — كل ذلك هو الذى ألجأ الانسان قديماً إلى أن يبحث له عن ملجأ يأوى اليه من الحر والبرد ، فسكن الكهوف فى نشأته الأولى وظل يرتقى فى ضروب من الارتقاء حتى أسس البيت ، وأسس الأسرة ، وكونت الأسر القبائل والمدن ، وكونت هذه القبائل الأمم ، ثم تعاونت الأمم على ترقية النوع الانسانى ، فلولا الحر والبرد ما أظن أن قد كان بيت ، ولولا البيت ما كانت أسرة ، ولولا الأسر ما كانت أمم — أليس الحر والبرد إذن كانا أفعل فى ترقية النوع الانسانى من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون ؟ فاذا قلنا إن تقدم النوع البشرى مدين فى تقدمه لرداءة الجو ، وشدة الحر والبرد ، لم نبعد

* * *

خطر لى كل هذا حينما حاولت أن أكتب فى الحر فبدأ الضجر يقل ، والألم يحتمل ، والنفس تهدأ ، والعاصفة تسكن والاحتمال يقوى — فهل هذا يستمر ؟ سأجرب

على كل حال قد هزئت بالحر ونسيته — ولو الى حين — بكتابة مقال فيه ؟

احمد امين

قصـــة أب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدثني المسكين فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال :

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباء فَنَسأ بالولد في آثارهم ، ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً ، وضمَّ به الى قلوبهم قلوباً ، وملأ أعينهم من ذلك بما تقرّ به قُرَّةَ عين كانت لم تجد ثم وَجدت ، فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوة التي ترجعهم أطفالاً مثلهم في كل ما يسرهم ، فيكبر الفرح في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظم الأمل في أشيائهم وإن كان هو عن شيء حقير لا يُؤْبه له ؛ وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة الأخرى ، وهي القوة التي يتحول بها الكون في قلب الوالدين الى كنز من الحبّ والرحمة وجمال العاطفة ؛ بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة ، أو بكلمة منهما أو حركة ؛ على حين لا يتحول مثل ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ولا بملك الدنيا .

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباء ، ولكنه ابتلاني بأن أكون أباً ، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنتُ كرجل ملك داراً يستمتع بها ، فتمنى أن يشرع[1] في جانب منها غرفة يُزَخرفها ، فلما تم له ذلك وبلغ المقترح انهدمت الدار ، وبقيت الغرفة قائمة !

عَمْرَكَ اللهَ ، أيشعرهذا الرجل في نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد أو نقص ؟ ويا ليتهما بيت وغرفة من بيت ؛ فان الحجارة تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم ، ولكن من ذا يحيي الزوجة ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأول والآخر :

إنها طفلة وُلدت وكأنما أُخرجت من تحت الردم إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدم . وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أُكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي ! فالمسكينة على الحالين منقطعة أولَ ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها .

(١) أي يفتح غرفة الى الشارع

طفلة وُلدت صارخة ، لا صرخة الحياة ، ولكن صرخة النوح والندب على أمها .

صرخة حزينة معناها : ضموني مع أمي ولو في القبر !

صرخة ترتعد كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يدفئها !

صرخة تتردد في ضراعة كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات : « يا رب ارحمني من الحياة بلا أم .! »

***

قال المسكين وهو يبكي امرأته :

ولما ضرَبها المخاض ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة ، وستكون روحين لا روحاً واحدة ، وتلد لي الحياة والحبَّ الالهيَّ معاً ، وتأتي لقلبي بمثل طفولته الأولى التي يستحيل أن تأتي الرجلَ إلا من زوجه . كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشدَّ منها ، ولكن ما أسرع ما تبينتُ أنه الموت إذ عُضِّلتْ وعسر خروج مولودها وجاءها الجراحيّ بمبضعه ، وكأنما رأته ذابحاً لا طبيباً فجعلت تعبر بعينيها إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين .

كانت بنظرة تبكي عليَّ وعلى بؤسي ، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقائه ؛ وبنظرة تودعني ، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنت اليها ؛ وبنظرة تتوجع لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكاد اجن .

نظرات نظرات .

يا إلهي ! لقد خيل إليَّ أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآة تحيط به ، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً . وكل نظرة من عيني زوجتي إليَّ كانت منها هي نظرةً ، وكانت عندي أنا مرآة الروح للروح .

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها ، وأن هذه الآلام الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقية حية منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب ! لقد ابتسمت لي وهي تموت ، وهي تلد ، وهي تذبح !

***

ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا اذا كانت حرارة الشمس

التى تحيى الدنيا خيالاً أيضاً ؛ إن هذا القلب النسوى المستقر فوق أحشاء تحمل الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها ، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها — هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه . وللرحمة الالهية أدلة كثيرة تدل الانسان عليها دلالات مختلفة ؛ فالشمس تدل عليها بالضوء الذى تطعمه الحياة ، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تتنفسه الحياة ، والماء يدل عليها بالضوء الذى تشربه الحياة ، وهكذا الى أن يأتى فى الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذى تقوم به الحياة .

ابتسامة الحب غالبت زفرات الموت التى تمتلج من تحتها حتى غلبتها ، وأعادت الحياة لحظة الى وجه زوجتى لأراها آخر ما أراها فى صورة المُحبة ، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعني وداعاً حزيناً متبسما يتكلم ؛ يتكلم بمعجزة عن الكلام .

ابتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها ؛ فكأنما النعت بأشعة من الخلد ترفّ رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت .

***

قال المسكين : وبتر الطبيب ذا بطنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتى تقترح أن يكون الجنين غيرها ، بل كانت مستيقنة أنها تضعها أنثى ، وصنعت لها ثيابها ، ووشتها زينة الأنوثة ، وعرضت أسماء البنات فاختارت اسمها أيضاً ، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولداً لابنتا ، فكانت تغـــايظنى بعملها وإصرارها غيظ دعابة لا غيظ جفاء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد كنت أعجب لذلك ، فلما قضى الله فيها قضاءه علمت أن ذلك أمر من أمر الروح ، فكان الالهام فيها أنها على باب قبرها وأنها لن ترى طفلتها ولن تعيش لهـا ، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها ، تضم ثيابها الى صدرها ، وتحملها على يدها ، وتناغيها وتقبّلها ، وتأخذها من الوهم وتردّها اليه . وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة !

لك الله يا معجزة الرحمة ، يا نفس الأم !

ولما قيل : ماتت — جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل ، فان الكلمة التى تأتى بالمصيبة المتوقّعة طال ارتقابها — لا تأتى بمعان لغوية كغيرها من الكلام ، بل بأسلحة تضرب فى النفس وفى العقل ، وتُثخنهما جراحا وفتكا .

وجعلني موتها كأنى ميت يحمل نفسه ، ما حوله إلا المشيّعون ، وأحسست كأن قوة أخذت باحدى رجليّ فوضعتها فى الآخرة ، وتركت الثانية فى الدنيا ، ولحقني من الجزع ما الله عالم به ، ووجدت أحرق الوجد ، وبكيت أحر البكاء ؛ وجعلت أفكارى تنحدر من رأسى إلى حلقى فأختنق بها ، ثم لا يُنفّس عني إلا الدمع ، كأن أعضائى اختلّت مما ضغطني من الحزن فأنا أتنفس برئتيّ وعينيّ .

بموتها شعرت بها ، ولعله من أجل ذلك لا يشعر الانسان بلذة الحب كاملة إلا فى آلام الحب وحدها ، وكانت فى حياتها تضع من روحها فى سرورى ، وهذا هو سر المرأة المحبوبة ، يجد مُحبّها فى كل سرور لمحات روحانية ، وكذلك فعلت بعد موتها ، فجعلت روحها فى أحزانى ؛ ولولا أن روحها فى أحزانى لقتلتني المصيبة .

وكنت أدلف وراء النعش وقد بطل فى نفسي الشعور بالدنيا ، وكان الناس يمشون حولي بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان ، أما أنا فكنت أمشي بما فيّ من الحب منكسراً متخذلا متضعضعاً ، لأني وحدي سائر وراء مالا يُلحق .

وثقل الناس على قلبي ، ورجع كل أمرهم عندي إلى العيب والنقيصة ، إذ كان لى عقل طارئ من الحالة التى أنا فيها ليس مثله لأحد منهم ، وكنت وحدي المصاب بينهم ، فكنت وحدي بينهم العاقل .

أنا أمشي لأنتهي إلى آخر مصيبتى ، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق ؛ وشتّانَ ما نحن وشتان !

ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناى تنظران بالدموع لا بالنظر ، ورأيت التراب كأنه غيوم ملوّنة بألوان السحب السوداء تهيأ فى سمائها تحت الظلام لتخفي كوكباً من الكواكب ؛ وظهر لى القبر كأنه فم الأرض يخاطب الانسان بحزم صارم ، يخاطب الفقير

والغنى ، والضعيف والقوي ، والملوك والصعاليك : « إن كل قوة تُنزَع هنا »

* * *

قال المسكين : وكما يجد الانسان فى أيام المطر رائحة النسيم المبتلّ بالماء كنت أستروح فى رجعتى إلى الدار رائحة نسيم مبتلّ بالدموع ، وحضرت المأتم وعزّانى الناس فكنت فيهم كالأسور بينهم لا أعني إلا أن يدعونى فأنجوَ على وجهى ، ولا أرى إلا أنهم يجرّعوننى الوجودَ غُصصاً كما تجرعت الفقدَ غصة غُصة ، إلا أن تفرقوا مع سواد الليل ، فانكفأت إلى الدار فاذا كل شيء قد تغير ولسه الموت لسة ، واذا الدار نفسها كالعين المقروحة من آثار البكاء ، ما تمّ إلا ليطالعني بأن مسراتى قد ماتت !

ولاح الصبح لعينيّ الساهرتين صبحاً فاتراً تبينتُ فيه الخجل كأنه يقول : « لم أطلع لك » ، فانسللتُ من البيت ، وذهبت أمشي فى دنيا هى الكآبة المضيئة ، سخرت الأقدار منها باظهارها فى هذا الضوء مَظهرَ وجه العجوز المتصابية فى زينة لا تزيدها إلا قبحاً !

ومضيت على وجهى لا غاية لى ، أضرب فى كل جهة كأنما أريد أن أهرب من نفسى ! وما خطر لى قط أنى فى يوم جديد ، بل كنت عنـد نفسى لا أزال فى أمس ، وتغير عندى الزمان والمكان ؛ فأحدهما ساعة موت لا تترك مافيها ، والآخر قبر ميّتة لا يرد ما فيه .

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الوجود ليعذبنا بالتذكر أنه كان موجوداً !

* * *

قال المسكين : ثم أعادتنى قدماى إلى البيت لأرى طفلتى — وما كنت رأيتها — ولقـد كانت ولادتها أولَ الحياة لها ، وأول الحياة لى أيضاً ، إذ لولاها لانتحرت غيرَ شكّ .

يا ويلتا ! لم تلتق عيني بعين الطفلة حتى انفجرت تبكى ، أتبكين لى يا ابنتى أم عليّ ؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة ، أم هو صوت قلبك اليتيم ؟

أصوتكِ أنتِ ، أم هى روح أمكِ تصرخ ترثى لى وتتوجع لفرط ما قاسيت !

يا ابنتى ، إنما أنتِ الحقيقة الصغيرة التى خرجتْ لى من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة — خيالات الأيام السعيدة التى مرّت !

يُخلَق المواليد من اللحم والدم ، وأراكِ أنتِ يامسكينة ، خلقتِ من اللحم والدم والدموع !

بقيّة حياة ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنك بقية موت يحيا ؟

مسكينة ، مسكينة ، لو أن نواميس العالم متغيرة لشيء لتغيرت من أجل بؤسك فردّت لك الأم ، ولكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا تراث الحياة فى أجسامنا الأرضية ؛ كل ذلك طبيعة ، ولكن بقعة أنظف من بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيت الذى هُدِم أوّل ما بني يملؤه ترابه !

لن تتغير النواميس ، فلن تجدى عطف الأم ، ولكن لن يتغير قلبي أيضاً ، فلن تحرمى عطف الأب .

وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعاني الصبر لك ، وأعاني الصبر لى ، وأعاني الصبر عن أمك ، سأصبر على الصبر نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتك الأقدار من هذه الحياة فى الناحية التى ليس فيها إلا قبر مظلم مقفل على أمكِ ، وأب مسكين مقفل على آلامه ؟ !

***

قال المسكين : وهكذا كتبتُ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنع لى حبيبتى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لى حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلا تصنع لى دموعى ما ؟

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعى

مجهولو الأبطال

أبنا النقيب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أرأيت التاريخ اتسع يوماً لذكر الألوف المؤلفة ممن سيروا حوادث الدهر، ودفعوا تيارات الزمان نحو مستقرها ؟ قد يذكر التاريخ عظيماً أو بعض عظماء، وهؤلاء قد يكونون من قادة الحرب وزعماء أرباب السيف، وقد يكونون من أهل السياسة وأصحاب الدهاء والكياسة، الذين تألفوا الناس وحركوا الأحزاب، وقد يكونون من أهل القلم، لا بل قد يكونون من أصحاب العلم الذين أضاءوا للناس سبلهم فى الحياة. ولكن كم يكون هؤلاء الذين يذكرهم التاريخ ؟ أيكونون بضع مئات فى كل عصر ؟ أم لعلهم يبلغون بضعة ألوف ؟ وأين يقع هؤلاء من ذلك التيار الأتىّ الذى تزدحم به الأيام والليالى من الناس ؟

قد يزعم زاعم أن الأفذاذ كانوا أبداً قليلى العدد، وأن التاريخ لا يذكر إلا هؤلاء الأفذاذ. وذلك زعم أكل الحكم فيه لكل من وقعت عينه على هذه الكلمات، فانى لا إخال فيهم الكثيرين ممن بلغت بهم الأنانيـة الى التطلع لذكر التاريخ والخلود فى صحائفه. فاذا كان أكثرنا لا يطمع فى ذكر التاريخ والخلود فيه، أيكون ذلك مخذلاً لنا عن القيام بما يجب علينا ؟ إن من الناس من يعطى المسكين أمام أعين الناس حتى يشتهر بينهم بالأفضال والاحسان، وإن منهم من يرفع رأسه بكلمة الحق، وهو على مسمع من قوم يطمع أن يقولوا عنه إنه حر أبى كريم النفس، وإن منهم من تدفعه الحمية، وهو على مرأى من الناس الى أن يخوض الأخطار فى سبيل المكارم، لتكون له بذلك ذكرى بينهم وحسن أحدوثة. وهـذا والحق لا بأس على الناس أن يأتوه، فان الخير لا يضيره أن يكون من ورائه منفعة لمن يقدمه. غير أن تلك المرتبة فى المحل الثانى من المكارم، وأما المحل الأول فقد سبق اليه من يواسى فى الخفاء، وهو لا يطمع فى شكر من يواسيه، ولا يتطلع الى إعجاب من حوله من الناس، ومن يصدع بالحق لا يبتغى من وراء ذلك إلا أن يقوم بواجبه أمام نفسه، ومن يصنع الخير للناس لا ليجازوه بالاجلال، ولا ليفوز منهم بالاعجاب. بل لأنه يطيع طبيعته فى ذلك وينطلق على سجيته. ومن ثم كان الأولى بشكر الانسانية من يقوم على المكرمات، ويمضى فى الخير، وهو فى غمار الناس لا يستشرفه أحد من الناس، ولا يشرئب هو بعنقه اليهم. فاذا نحن رضينا بذلك كان انتدابنا الى أداء الواجب من تلقاء أنفسنا غاية ما يحرص عليه أماثلنا، ولم يكن إعجاب الناس ولا ثناؤهم بما يطمع فيه الكرام أو تطمح اليه النفوس العالية.

* * *

ولقد كان فى مصر فى مختلف العصور جماعات كثيرة، بلغت من سمو النفس أنها أدت واجبها، ولم تعبأ بأن يتخلف عنها فى التاريخ ذكر. ومضى التاريخ بذكرياته وأسمائه، فلم يذكر من هؤلاء إلا النزر اليسير. ونحن اليوم موردون ذكر اثنين من هؤلاء أبى الله الا أن يحفظ لنا اسميهما لتكون تلك آية دالة على أن فيمن مضى جماعات لا عد لأفرادها أدوا واجبهم، ومضوا فى ثنايا ضباب الماضى، ولم يعبأوا بأن يلتفتوا التفاتة واحدة الى الناس يطلبون منهم شكراً ولا ثناء. وتلك هى مكارم الأخلاق ومروءة الحياة.

كان فى مصر جماعة الأمراء المصريين الذين يظلمهم التاريخ بأن يطلق عليهم اسم «المماليك»، وكانوا يسمون أنفسهم الأمراء المصريين. ومهما يكن من محامدهم أو مساوئهم، فقد كانوا معتزين فى كل الأحوال بمصريتهم يحبون هذه البلاد كأعظم ما يحب الرجل بلاده.

وكان من هؤلاء الأمراء من استقل بمصر استقلالاً تاماً وأحاط ذلك الاستقلال بسياج من قوة قلبه وحماسة نفسه. ثم عدت على ذلك الاستقلال العوادى فآثر أن يبذل دمه قبل أن يبصر صرحه ينهار، وقضى قتيلاً فى دفاعه كما يموت الأسد وهو يدفع عن عرينه. وكان أحد هؤلاء أمير مصر الأشهر على بك بلوط قبن المعروف بعلى الكبير. وقد كان فى أيام هذا الأمير كثيرون من الأفاضل الأمجاد، منهم أخوان من نسل هاشمى حسينى : أحدهما اسمه السيد على بن موسى الحسينى الأزهرى المصرى، والآخر اسمه بدر الدين الحسينى المصرى. ويعرف كل منهما بابن النقيب، لأنهما من سلالة بيت كان منه نقباء فى بيت

القدس . وكانا عالمين ، نالا من العلم أقصى ما ينال من زمانهما . وبلغا من ذلك مرتبة التدريس ، فكان أكبرهما (على) يدرس فى المشهد الحسينى التفسير والفقه والحديث ، وتبعه أخوه الأصغر بعد موته فى إملاء الحديث فى المشهد الحسينى نفسه . وكانا مع ذلك كاتبين مبرزين ، فكان السيد على يتبع فى النثر طريقة طريقة « لا يتكلف السجع ، وإذا سئل عن مسئلة كتب عليها الجواب أحسن من الروض جاده الغمام »

غير أن هذين الأخوين لم تقنع نفساهما بما بلغتا من مرتبة العلم ، إذ رأيا أن دونهما واجبا عاما يجب عليهما أن يضطلعا به ، وذلك أنهما رأيا الحياة العامة محتاجة إلى كثير من التقويم والتهذيب ، فكان الأخ الأكبر يخرج فى دروسه عن التلقين المجرد « إلى الرد العنيف على أرباب الأموال والأكابر وملوك الزمان » حتى انه اضطر للهجرة فى سبيل الحق من مصر إلى بلاد السلطنة العثمانية ، ثم اضطر مرة أخرى إلى أن يهاجر إلى مصر هارباً من حكومة السلطان لأنه لم يرضها ولم ترضه .

وكان الأمراء يعرفون له إخلاصه ، ويقدرون له صراحته فى الحق ، فان الأمير محمد بك أبا الذهب الذى آل اليه الأمر بعد على بك الكبير سأله مرة على سبيل الباسطة فقال له : « كيف رأيت أهل اسلامبول ؟ » فقال له : « لم يبق باسلامبول ولا بمصر خير » فلم يغضب الأمير من شدة رده، بل قضى ديونه وأعانه بما يتصدق به على الفقراء .

وكان السيد على فارساً شهما « لا يخلو (اصطبله) من الخيل ، ويضمرها ويعتنى بأحوالها ، ويرغب فى شرائها لمعرفته بالفروسية فى رمى السهام واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك » فكان مقصد اللاجئين من الناس ، وموئل المظلومين من العامة ، ومكان الاجلال من أهل الحكم ، يقضون ما يأتى فيه شافعا ، ويخشون نقده ، ويكرمون نصحه . ثم مات السيد على وتبعه أخوه الأصغر السيد بدر الدين . فسار على منهاج أخيه من « التردد الى الأعيان والأمراء ، والسعى فى حوائج الناس ، والتصدى لأهل جهته وخطته فى دعاويهم ، وفصل خصوماتهم وصلحهم ، والذب عنهم ، ومدافعة المعتدى عليهم ، ولو من الأمراء والحكام » ، وصارت له مكانة كبرى فى البلاد وعند الأمراء « يخشون جانبه وصولته » ثم ذهبت أيام هؤلاء الأمراء المصريين وهبطت على مصر كارثة الأجنبى ، إذ دخل الفرنسيون مصر ، فدمروا وهدموا وغيروا ، وأبوا إلا أن تكون مصر على مثل خططهم ومدنيتهم . فغضب كرام المصريين لذلك ، ورأوا فى تلك المحاولة قضاء على شخصيتهم وازدراء لمدنيتهم الموروثة التليدة . فانتهزوا الفرصة وثاروا على الفرنسيين ، وكان السيد بدر الدين من زعماء الثوار . « فجمع جموعه من أهل الحسينية والجهات البرانية ، وانتبذ لمحاربة الفرنج ومقاتلتهم وبذل جهده فى ذلك » غير أن الثورة لم تنجح كما هو معروف ، فخرج السيد بدر الدين من مصر منذ رآها غير صالحة لمقامه فيها . وأى مقام للحر الكريم المجاهد فى بلاد الضيم وبلاد الله واسعة يستطيع أن يهاجر فيها ؟ واتبعه غضب الفرنسيين فى داخل البلاد وفى خارجها ، وانتقموا منه بهدم ما ترك فى مصر من أبنية ، وسلب ما خلف فيها من أموال ، غير أنه لم يبال بشىء من ذلك ، ولم يكن مثل بدر الدين ليعبأ بما يصيبه فى المال من خسارة ، ومازال فى خارج مصر يجاهد مع المجاهدين حتى عاد منصوراً فيمن عاد بعد خروج الفرنسيين من مصر ، ولم يبطره النصر كما أنه لم يضعف فى أيام المحنة من الخيبة والخذلان ، ولما عاد إلى مصر استأنف السعى فى خير المجموع وهو قرير العين بما نال من توفيق ، وكان مما يزيد قلبه اطمئناناً وسلاماً أن يذكر ما أصابه من الألم فى جهاده .

ولم يكن ابنا النقيب سوى درتين من عقد أبطال سمى التاريخ بعضهم ونسى البعض ، ورحم الله من سمى ومن لم يسم .

لقد طوى الماضى فى بطون الثرى ألوف الألوف من الأجداد ، وقد يكون منا من يتهم هؤلاء الجدود ببعض التهم ، وجدير بنا أن نفكر مرتين قبل أن نجرؤ على ذلك الاتهام .

لقد كان فى الماضين من هم أقوى منا مروءة فى حياتهم وجهادهم وسعيهم الى الخير ، منذ كانوا يؤدون أماناتهم غير طامعين فى أن يعرف الاحفاد عنهم ما صنعوا . وحرى بنا أن نتسامى الى مثل هذا الكرم فنسعى الى أداء الأمانة ، ونحن فى ستر الخفاء لا يطلع علينا إلا الله ، ولا نرقبنا بعد الله سوى عين الضمير ؟

محمد فريد أبو حديد

ملاحظة : كل ما نقلناه هنا من المقتبسات منقول عن تاريخ الجبرتى .

شعب شريد

النــــور

نشأتهم وخواصهم وفنونهم

النور (النجر) جنس غريب من البدو الرحل ، مشتت في سائر أنحاء العالم ، في أوربا وغرب آسيا وشمال افريقية وأمريكا وأستراليا ، ويقدر تعداده بنحو تسمائة ألف نسمة ، منهم في المجر وحدها نحو ٢٨٠ ألفاً ، وفي رومانيا نحو ٢٥٠ ألفاً ، وفي تركيا نحو مائة ألف ، وباقيهم مشتت في سائر الأنحاء . ويقول بعض علماء اللغة أن كلمة « Gypsies » ومثيلاتها في الأوربية ، ومعناها النور ، مشتقة في الأصل من كلمة « Egypt » أعني مصر ، ويستدل البعض بذلك على أن النور ربما نزحوا من مصر الى أوربا في غابر العصور . بيد أن أصلهم غامض جداً ، وكل ما يمكن أن يقال في ذلك أن النور ظهروا في أوربا ، وبالأخص في بلاد البلقان ، منذ القرن الرابع عشر ، ثم انتشروا في جميع البلدان الأوربية حتى سواحل البلطيق وانكلترا ، وعرفوا بالبداوة وعدم الاستقرار ، يتنقلون دائماً ويقيمون في الحقول والغابات في خيام يحملونها ، ويسافرون على الخيل والعربات المقفلة ، ويزاولون الحرف المريبة كالسحر والتنجيم ؛ وعرفوا أيضاً بكثير من الخلال السيئة وبانحلال الأخلاق والإقدام على ارتكاب الجرائم .

ولما اشتد عيثهم في أواخر القرن السادس عشر ، قررت فرنسا ومعظم دول أوربا نفيهم وعقاب المخالفين بالاعدام ؛ فطوردوا في كل مكان وعذبوا وأحرق منهم كثيرون لأنهم « نور » فقط . وفي القرن السابع اشتهروا بخطف الأطفال ، وهبت عليهم من أجل ذلك ريح جديدة من المطاردة ، وكانوا في كثير من البلاد ولا سيما رومانيا والمانيا يعتبرون رقيقاً يحل بيعهم وشراؤهم . ولكنهم منذ القرن الثامن عشر ، أخذوا يتقدمون في اكتساب الحقوق الانسانية ، ومنحوا الحرية في المجر ، واهتمت بأمرهم الامبراطورة ماريا تيريزيا ، وأمرت بتعليمهم الزراعة ، وتحسنت أحوالهم وأطوارهم نوعاً . وفي القرن التاسع عشر اعترفت بهم معظم البلدان كرعايا ، ومنحوا الحقوق والحريات السياسية . وفي سنة ١٩٠٦ عقد النور ومن يهتم بأمرهم مؤتمراً في صوفيا عاصمة بلغاريا ، وطالبوا بالاعتراف لهم بكافة الحقوق التي تمنح لباقي الرعايا

وعرف النور منذ عصور باتقان بعض الحرف مثل صنع الحلى والأواني النحاسية الدقيقة ، وأجراس الكنائس ، والنجارة ، وصنع السلال ، والحفر أحياناً ، واشتهروا بالاتجار في الخيل ؛ بيد أنهم اشتهروا بالأخص بالبراعة في الموسيقى ، وهي موسيقى خاصة بهم ، وذهب بعض النقدة الموسيقيين في تقدير الموسيقى النورية الى حد بعيد ، حتى قال الموسيقى المجرى الكبير (لسزت) إن الموسيقى المجرية ترجع الى أصل نورى . كذلك برع النور في الغناء والرقص ، واشتهر نساؤهم بالتنجيم وقراءة الكف والورق ، ولنساء النور جمال شرقي خلاب ، ولكن تغلب عليهم الرثاثة ، ولهن ولع بالثياب والحلى ، ويغلب عليهن الانحلال الخلقى

وليس للنور دين خاص بهم ، ولكنهم يعتنقون في الغالب دين البلد الذي يحلون به ، وتغلب عليهم التقاليد الوثنية والخرافات ، كذلك ليس للنور لغة خاصة معروفة ، ولكنهم يتكلمون لهجات عديدة ، وقد دل البحث على أن هذه اللهجات ترجع الى بعض اللهجات الهندية ، حتى اعتقد البعض أنهم نزحوا أصلا من الهند .

* * *

هذا وقد قرأنا عن النور وخواصهم وأخلاقهم وفنونهم بحثاً ممتعاً للكاتب المجرى الكبير يوليوس كودولاني ، رأينا أن ننقله لقراء «الرسالة» فيما يلي ، وحديث الكاتب يتعلق على الأخص بالنور المجريين ، وهم كما رأينا أكبر كتلة من النور في العالم . قال الكاتب :

لبث النور المجريون حتى أحدث العصور يقاومون كل محاولة لتمدينهم ، وقد كانوا كأبناء جنسهم في البلاد الأخرى يعيشون في جماعات بدوية متنقلة لا ترتبط برباط المواصلة ، ولم ينتهوا إلا في أيامنا الى البدء بالاستقرار ومزاولة الأعمال المنظمة . ويوجد في المجر نوعان من النور : « نور الكولومبار » ، « ونور الفلاح » وكلاهما يرجع الى أصل آرى كباقي النور . ولكن توجد بينهما

فروق ظاهرة فى طرق الحياة وفى اللغة والأخلاق ، وكذلك فى القوام والمحيا ؛ وبينما يميل الكولومبار الى الرباعة والغلظة ، اذا بالقلاج غالباً ممشوق القد ، وسيم المحيا . ولنور الكولومبار لدى الفلاحين سمعة سيئة ، ويشعر الفلاحون نحوهم ببغض مقرون بالخوف ؛ فاذا ما نزلوا بجوار قرية ما بذل الفلاحون كل ما استطاعوا للتخلص منهم ، واتخذوا كل تحوط للمحافظة على دجاجهم ومواشيهم وثيابهم .

ويشتغل نور الكولومبار بصنع الآنية وأقمشة الخيام وببعض أعمال الحدادة . وتزاول نساؤهم السحر ولهن فيه براعة ، ويتبعن فى مزاولته كثيراً من الرسوم الوثنية التى اختفت من بين الشعوب المتمدنة ، وهن يتنبأن بالمستقبل ويكشفن الأوراق ، ولهن براعة مدهشة فى الوقوف على عواطف الرجال وغرائزهم ، ويعربن فى نبوءاتهن عن الأمانى الخفية ، والشهوات المكتومة ؛ ويلجأن الى الرسوم الرمزية ، ويكتشفن ما يجول فى صدور قصادهن من الرغبات والشهوات . وقد بثت الحياة الخشنة المضطربة ، والعزلة الدنيوية ، والحرمان المستمر ، فى نفوس هاته القبائل ميلاً الى تحقيق الغاية دون عنف وبوسائل ملتوية ؛ فهؤلاء النور يكذبون ببراعة ، ولهم فصاحة مقنعة ، ومثابرة مدهشة . ولو أردنا أن ندرس من الوجهة النفسية أساليبهم وتأثيرهم الغريب ، شبه الروحى ، الذى يبثونه فى نفوس ذوى الغرائز المضطربة لانتهينا الى نتائج فى منتهى الأهمية . وهم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ فى قلب أوربا ، وفى قلب المجتمعات المتمدنة بالحياة البدوية التى تذكرنا بحياة الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية أو الزنوج فى افريقية . ذلك أنهم معرضون دائماً لنزعات الطبيعة ، ولهم علاقات دائمة مع قواها ؛ فهم يحملون بذلك الى كل ما يقرب من الحيوان والغريزة .

والنور لا يملكون شيئاً ، ولذا فهم لا يحترمون الملكية ؛ فاذا استطاعوا الاستيلاء على شيء استولوا عليه بأى الوسائل ، وحياتهم العائلية منظمة على قاعدة الشيوع ، وأن لا ملكية يعترف بها

ونور «القلاج» أظرف وأفضل خلالاً من نور الكولومبار ؛ وهم يشتغلون عادة بصنع الآلات الخشبية بمهارة ، ويطوفون القرى لبيعها ، ويبدون فى جميع الأسواق مثقلين بالسلع . ويرتدون ثياباً وأزياء غير تلك التى يرتديها زملاؤهم ، ويسكنون غالباً فى السهل ، عند أطراف القرى ، فى بيوت من الطوب الأخضر ، ويعنون بتربية الماشية . وفى أقاليم المجر الغربية ينشئون نوعاً من القرى المنعزلة بجوار الغابات ، ويلعب أطفالهم عراة بين الأعشاب والماء . ولهاته القبائل قضاة منها يختصون بالفصل فى المنازعات الصغيرة ؛ ولا يعيشون عيشة العائلة إلا حيثما اكتسبوا نوعاً من الملك كقطعة أرض أو منزل قروى . ولهم ولع بالخيل واقتنائها بأى الأثمان

وأهل القرى لا يبدون لنور «القلاج» من البغض ما يبدونه لنور الكولومبار . وهم يعاملونهم بكبرياء واحتقار ولكن بنوع من العطف ؛ ولا يخشون منهم على متاعهم وأموالهم بمثل ما يخشون من زملائهم ؛ ويكثرون من التصدق عليهم ، ويعهدون اليهم بصنع الأشياء الخشبية . وعلى ذلك فاذا كان النورى القلاجى لا يمكن أن يعتبر عضواً فى المجتمع ، أو إنساناً متمدناً ، فانه فى طريقه ليصير كذلك . وهو منذ الآن ينزل عن بعض العادات التى كان يتمسك بها دائماً فيقص شعره ويرتدى السراويل ، ويعتاد العمل ، ويرغب فى اقتناء الملك شيئاً فشيئاً ؛ وهذا بلا ريب أساس قوى للتطور

***

وأخلاق النورى نتيجة محتومة لنوع حياته ، فهو لا يملك أرضاً ولا بيتاً ؛ وما يملك من المؤن والأدوات وغيرها ليس له فى الواقع ، بل هو ملك الجماعة كلها ؛ وهو لا يشعر بشعور الأسرة ولا يقدر معناها ، ولما كان لا يرث ولا يورث ، فسواء لديه أكان ولده منه أم من آخر . وكذلك المرأة النورية لا تختص برجل واحد كنساء الشعوب المتمدنة ، فهى مخلوق همجى ، لا تنكر غرائزها ، ولا تستطيع أن تكبح جماحها ، والطفل النورى يعيش مع أسرته فى نفس الخيمة أو الكوخ ، ويشهد عن قرب حياتها التناسلية ، فاذا شب اتجهت شهواته الجنسية الأولى الى الأسرة ، فيباشر الأخ أخته ، والولد أمه ، والأب ابنته ، وتجرى هذه المعاشرة دون ذرة من الحرج أو الندم . ولا حاجة للقول بأنه لا وفاء بين الأزواج ، فهم كاثوليك ويذهبون الى الكنيسة فى

الحفلات الكبرى ، ولكن مبادئهم الأخلاقية ليست نصرانية في شيء ، بل هم غالباً صرعى غرائزهم الوحشية

وقد اهتم الارشيدوق يوسف (١٨٣٣ — ١٩٠٥) بأمر النور وأبدى نحوهم عطفاً ، وبعث ذلك الى الاهتمام بشأنهم ، وكان هذا الأمير العظيم الذي يعشق حياة البداوة والبساطة ، ينفق كل أوقات فراغه بين النور ، ويدرس حياتهم ، ويتذوق رقصهم وأغانيهم وأمثالهم وأطوارهم وخلالهم ، وقد حاول أن يعودهم الحياة المنظمة ، وأن يجمعهم في مكان مستقر ، ولكنه لم ينجح كثيراً في محاولته ، ثم عكف الباحثون على جمع الأغاني والأمثال النورية وترجمتها ، ولكن هذا الاهتمام فتر فيا بعد ، ولما كان النور اليوم في طريق التحضر والاندماج في المجتمع المتمدن ، فقد يعود هذا الاهتمام بعد فوات الوقت ، وبذا تضيع معالم جنسية ونفسية الى الأبد . بيد أنه قد يكون ثمة أسر أو قبائل ما زالت تحتفظ بخلالها الوثنية ، وبأساطيرها ، وقصصها ، وأغانيها ورقصاتها ، وتلك يمكن تخليدها بواسطة السينما أو « الجراموفون »

وقد قلنا إن إبعاد النور عن المجتمع المتمدن ، واضطهادهم المستمر ، وحياتهم البدوية ، تحملهم على الريبة والوجل والعنت وانتهاز الفرص وسرعة التأثر ، وهم لا يهتمون بغدهم ، ويحتملون شقاء الحاضر بجلد الشريد ، كالأطفال أو الشعوب الهمجية . وهذه الصفات ذاتها تمثل في فنهم ، فرقصاتهم عاصفة مضطرمة الروى ، فياضة بالغزل ، ونصوص أغانيهم فياضة بالرموز الغرامية ، والكلمات الضخمة ، والأخلاص الساذج ، وألحانهم محزنة منكسرة ، روى مطبق ، وغزل مطلق ، وفسق خالص يلهب أعصابهم ، وهذا ما يشحذ مشاعرهم بنوع خاص ، ويعاونهم على التمكن من روح الموسيقى والقوافي الأجنبية ، واعتيادهم المستمر على الوسط والعنف ، وعشرة الأجانب تحدث فيهم نفس الأثر ؛ فالنورى الرومانى ينشد الأغاني الرومانية ، والنورى السربى ينشد الأغاني السربية ، والنورى السلافى ينشد الأغاني السلافية ، ويجمعون في كل مكان عناصر الموسيقى الخاصة بالشعب الذى يعيشون بين ظهرانيه ؛ والنورى المجرى ، هو الوحيد الذى لا تتأثر موسيقاه بخواص الموسيقى الريفية المجرية ، وذلك لأسباب خاصة به وبظروفه

ذلك أن الموسيقيين من النور المجريين هم أشراف النور ، فهم يرتفعون فوق مستوى جنسهم ، وفي أحيان كثيرة تراهم وقد نسوا لغتهم الأصلية ، وغيروا كل ظروف حياتهم . وفي القرى يتحول النورى من حرفته العادية الى الموسيقى ، وفي يوم الأحد وأيام الحفلات أو السوق يحمل آلاته الموسيقية ، القيثارة أو الزمار أو غيرهما ، ويذهب مع بعض زملائه الى مجالى النزهة ، والموسيقاه ضجيج مروع ، وصخب يصم ، ولا تشترك مع موسيقى الحضر الا في الروى ، ويتحول النور الى احتراف الموسيقى شيئاً فشيئاً ، ويهجرون صنع الأواني والسلع الخشبية والآجر ، ويجتمع بعضهم فيؤلفون فرقة (أوركستر) ويتجولون يوم السوق من قرية الى قرية ، ويلاحظ أيضاً أنهم أخذوا يستبدلون ثيابهم النورية بثياب الحضر ، وبين النور المجريين كثيرون ممن درسوا في معهد الموسيقى الأعلى (الكونسرفتوار) ، ومنهم من درس الموسيقى نظرياً وعملياً ، ومنهم فنانون يعجب بفنهم العالم كله ، فهم حقاً من أمراء الموسيقى ، لهم مقامهم في المجر وفي الخارج ؛ وممن قدر موسيقاهم وأعجب بها أساتذة عظام مثل هيرمان ، وكيبورا ولبزت .

وقد كان من المستطاع أن تحمل النور المجريين على درس الموسيقى الريفية الأصلية ، كأخوانهم نور رومانيا أو سلوفينا أو روسيا ؛ فالنور يتلقون ببراعة مدهشة كل فن وكل روى ؛ وتلك أعظم خواصهم ؛ والنورى يغتبط جد الاغتباط اذا ألفى مستمعاً يستطيع أن يرشده وأن يعلمه الأسلوب الحق ؛ وعندئذ يدرك معنى الموسيقى الريفية وينفذ الى روحها ، ويترك تلك الألحان الصاخبة التي تملأ بها أغانيه . ولسنا ممن يجارى بعض المتشائمين من نقدتنا الموسيقيين في قولهم بوجوب القضاء على الموسيقى النورية ؛ فان لديهم خواص عجيبة ترجع الى مقدرتهم على التشبه والاقتباس .

***

هذا وقد استطاع النور في اسبانيا وانكلترا وبسارابيا والبوكرين أن ينشئوا ثقافة موسيقية خاصة . وأغاني النور الأوكرانيين ورقصاتهم ذائعة معروفة في كل مكان . أما النور

الغجريون فلا يعرضون علينا فنهم قط ، حتى ليقال أن ليس لهم فن . ولكنهم فى الواقع ينشدون أغانيهم فيما بينهم ؛ ويرقصون رقصاتهم ، ويتلون أمثالهم وقصصهم . وهم يعيشون فى عزلة مطبقة حتى أن البحث عن خواصهم الجنسية والفنية ليصطدم بأكبر الصعاب . ولديهم وسيلة أخرى للدفاع هي لغتهم التي هي مزيج من العناصر السلافية والرومانية وغيرها . وهم يضمرون البغض والريبة للأجانب لما فرض عليهم من الحياة الوضيعة التي تكاد تنحط الى المستوى الحيوانى ، وشأنهم فى ذلك شأن القبائل الهندية التي غزاها الأوربيون . والنورى يقدر ما بينه وبين الغير من الفروق ، ويعرف أن الغير لا يعتبره انساناً بالمعنى الصحيح ؛ ولا يجد سوى الموسيقى للتعبير عن نفسه ومقدرته ؛ فاذا سنحت له فرصة العزف ، فانه يملأ موسيقاه وألحانه بكل ما يشعر به من الشهوات وألوان البغض والغضب ، والحنان ، والثورات ، والاحتقار ، والفرح ، واليأس ؛ ويبقى النورى فى ذلك المجتمع المتمدن الرأسمالى ، النصرانى ، الذى برغمه على الاستقرار والاعتراف بالملكية ، والتنصير ، والخضوع للقوانين بين الغابات والسهول الموحشة — يبقى دائماً وثنياً ، جامح العاطفة ، مخلوق الغريزة ، ويلجأ الى الموسيقى لبث مقاومته وشكواه ؛ ولو نبذ النورى أساطيره وسحره ، ونسى لغته ، وترك قصصه وأناشيده ورقصه ، فانه يبقى مع ذلك نورياً بالموسيقى .

ولن تمضى أعوام أخرى حتى يغمر النور ذلك البحر الانسانى الذى يحيط بهم ؛ ولن تمضى أجيال قليلة حتى يغدو النور كالزراع ، وينسون كل خواصهم وتقاليدهم ؛ ولن يبقى من الفن النورى سوى قليل من الأغانى والقصص ، ذلك الفن الذى هو أعجب الفنون الشعبية وأكثرها طرافة ؛ وعندئذ لن تجد سوى بعض الفنانين الذين ينحدرون من أصل نورى ، يتجولون هنا وهنالك فى بعض المدن ؛ بقية شعب كبير كان يجوب السهول والغابات ، يزاول السحر والكهانة ، ويخاطب الأرواح ، ذليل عزيز مع ذلك لأنه حر . وتلك خسارة فادحة للنور وللوثنية والقصص والحرية ... بيد أنه يستحيل علينا أن ننقذ النور فى ذلك المجتمع الذى يناقضهم فى كل شىء .

بين توفيق الحـــكيم

وأهل الكهف

بقلم شهدى عطيه الشافعى

قرأت لتوفيق أهل الكهف فيمن قرأ . وأحببتها حباً يفوق حب الناس لها . ولكن ناحية منها لم ترضنى ، وليس ذلك بجريرة للمؤلف آخذها عليه . ولكنه شعور نفسى تملكنى

منظــر

فى إحدى جنان الخلد . ثلاثة رجال متكئون على الأرائك وأمامهم أباريق وأكواب من ذهب وفضة ، والأطيار من حولهم تشدو

مرنوش : (متأملاً حوله) — يالله ! ما أبدع هذا وما أجمله ! مشلينيا أيها الكسول . ألا تستيقظ لتستمتع بهذا الجمال .

مشلينيا : (يفرك عينيه) أهذا أنت يا مرنوش ! أين نحن ؟ لسنا فى الكهف .

مرنوش : (فى حدة) الكهف ؟ تباً لك ! لا تذكرنى به ، لقد كان كابوساً مخيفاً .

مشلينيا : لعنة الله عليه ما أشأمه . . . وهذه الثلثمائة عام التى لبثناها فيه . ! وملك آخر مسيحى مكان دقيانوس الوثنى . . وبريسكا غير بريسكا . كيف كان كل هذا ؟

يمليخا : (مستيقظاً) حمداً لك يا خالق السموات والأرض . اللهم إنا نمجدك ونؤمن بعيسى نبيك

مرنوش : (مأخوذاً) يمليخا ؟ كيف أنت ؟

يمليخا : (فى خشوع) ألا تحسان فيضاً من النور الآلهى يخترق شغاف القلب . كأنى على قيد ذراع من الله . يا لروعة هذا !

مرنوش : (فى عجب) إنك لتبدو جميلاً يا يمليخا . أنى لك هذا الثوب المزركش وذلك الوجه الصبوح ؟

مشلينيا : (فى دهش) ولكنك لم تر ثيابنا يا مرنوش . إنها موشاة بالذهب . من أتانا بها (ناعضاً) . مرنوش يا للعجب !

لقد شف جسمي حتى لأرى ما بداخله ! مرنوش !

مرنوش . لقد خف ثقلي حتى لأحسبني طيراً ذا جناحين !

مرنوش : مشلينيا ، ماهذا ؟ لقد صدقت . ألا تذكر استكراش بطني وانتفاخ رجلي . لقد ذهب كل هذا (يتحسس وجهه) لله ما أنعم وجهي وما أرقه !

مشلينيا : وأنت يا عليخا (لا يجيب ولكنه يذهب بعيداً) عليخا ! أتاركنا ؟ إلى أين ؟

عليخا : إلى حيث قطمير كلبي .

مرنوش : (ضاحكا) أليس لك في هذا الجمال سلوة عن قطمير ؟

عليخا : (مبتسماً) قطمير . عزيزي قطمير . حارس غنمي ورفيق طريقي وصاحبي في السراء والضراء (متهللا فجأة) بالله ! هاهو ذا مقبلاً . انه يهز ذيله فرحا

مشلينيا : (عابثاً) أهذا قطمير كلبك ؟ أين هذا ذو الشحم واللحم من قطمير الضاوي البطن البارز الأضلاع ؟

عليخا : (في سرور) إنه قطمير بعينه . إنني مستطيع أن أتبينه من كلاب الأرض جميعاً . تعالت قدرتك يا إلهي . لقد أنلتني بغيتي وجمعتني بكلبي !! سبحانك اللهم نسبح بحمدك !

مرنوش : (مشيراً الى رجل مقبل من بعيد) مشلينيا ! انظر ! ألا ترى رجلا ؟

مشلينيا : (متجهاً بنظره) وما يدريك لعله امرأة . (بعد برهة) إنه يضع قرصاً أحمر فوق رأسه ويشد عنقه بمنديل

عليخا : انه ليتسرع في خطاه نحونا

مرنوش : لعل ذلك لحاجة له . إنني أرى تقاطيع وجهه جيداً . إنه رجل يا مشلينيا . يا لغرابة لباسه . إنه يشد عنقه بحبل ملون لا بمنديل

توفيق الحكيم : (بلباس افرنجي وفوق رأسه طربوش متبينا القوم) ميشلينيا ! مرنوش ! عليخا ! . وقطمير أيضاً هنا ! يا لحسن حظي . كيف أنتم ؟ لقد كنت أتوق لرؤيتكم .

(أهل الكهف يتلاومون ويتأملون توفيقاً في خوف غير قليل)

عليخا : (متشجعاً) ومن عساك تكون ؟ ومن أنباك بأسمائنا ؟

توفيق : ألا تعرفونني ؟ لكنني أعرفكم حق المعرفة ، وأحفظ وجوهكم كأني عشت بينكم ألف عام . أنا توفيق الحكيم

مشلينيا : ماذا يقول ؟

عليخا : (هامساً) انه يخبر عن صناعته . فهو حكيم

مرنوش : (في اضطراب) ولكن ليس بنا من مرض يا سيدي

توفيق : لا . لا . إنه اسمي . توفيق الحكيم . لقد قرأت سيرتكم وتحدثت عنها في قصة حوت فن باريس وفلسفة أثينا وحكمة الروم

عليخا : (في همس) إنه يذكر الروم

مرنوش : (في ذكاء) آه . لقد فهمت يا سيدي . لعلك رأيتنا إذ بعثنا من كهفنا بعد نومنا الطويل

توفيق : لا ، لا ، ليس هذا . اني قرأت عنكم وامتزجت روحي بروحكم ، ولكنني لم أركم قط رؤيا العين

مشلينيا : ولكن أنى لك بمعرفة وجوهنا ؟

توفيق : (في دلال) إنه الفن يا سيدي . يسمو بالمرء حتى ليرى ما تختلج به نفوس القوم ، وما تضطرب به أفئدة البشر . إنه الفن الذي يصل الماضي بالحاضر . لقد ترجمت عما في نفوسكم واستكشفت خباياها بعد موتكم بعشرات القرون . أفيعجزني الآن أن أتعرف الى وجوهكم ؟

مرنوش : (هامساً في خوف) لعل به مساً من الشيطان !

عليخا : (معترضاً كالهامس) لعله قديس وهبه الله قبساً من نوره فقرأ ما في نفوس البشر .

مرنوش : (في همس) لقد عرفنا وعرف أسماءنا ، برغم أنه لم يرنا قط

مشلينيا : بل ويزعم أنه استطلع ما في نفوسنا .

توفيق : (عابثاً) نعم . ألست أنت مرنوش (مشيراً اليه) . ألم يكن لك زوج تحبها . وبنيت بها في الخفاء فأنجبت لك غلاماً ، ثم نجوت بنفسك الى الكهف خوفاً من دقيانوس وشروره ! !

عليخا : (هامساً) ألم أقل لكما إنه قديس ؟ (في صوت عال) صدقت أيها القديس .

توفيق : (متماً حديثه) ولولا زوجك هذه يا مشلينيا لما كنت مسيحياً ، ولمت وثنيـــاً ، ونقمت على المسيح والمسيحيين . أنت يا ساعد دقيانوس الأيمن فى مذابحه قبل زواجك . . فاذا ما افتقـدت زوجك وغلامك انقلبت ساخطاً على السماء والأرض « ومت مجرداً من كل شيء عارياً كما ظهرت ، فلا أفكار ولا عواطف ولا عقائد »

مرنوش : أتعنيني أنا ؟ (هامسا الى زميله) لقد حسبت به مساً من الشيطان ، ولكني واثق الآن أنه الشيطان نفسه . ولعله كان يسكن هذا الكهف المظلم المشئوم الذى لبثنا فيه حقبة من الدهر . ولابد أنه تحسس أخبارنا ونحن فى ظلمة لا نتبين من أمره شيئاً .

(ثم يتوجه بكلامه الى توفيق فى صوت عميق حار) لا يا سيدى لقد عشت مسيحياً ، ومت كما عشت ، ولقد أرتنى زوجى الطريق الى الله فأحببته بكل جارحة ، وما عبأت بدقيانوس ولا بمكانى عنده .

مشلينيا : (هامساً) لنمتحنه ! فلعل ما يدريه عنى خير مما عرفه عنك (فى صوت مرتفع) وماذا عندك لى يا . . يا . . معذرة يا سيدى الفاضل .

توفيق . : (متردداً) مشلينيا الذى أحب بريسكا وأحبته ، بل عبدته ، حتى لقد اعتنقت المسيحية من أجله ، ورضيت بدين عشيقها عن دين آبائها بديلا .

مشلينيا : (محاولا كتمان غضبه) تالله لقد أخطأت . إنها أرادت لنفسها هذا الدين وآمنت به قبل أن تدرى عن مسيحيتى شيئاً . لقد كان دين الحب ، وكانت تعاليمه البساطة عينها والنبل نفسه ، فآمنت بريسكا الطاهرة الساذجة ، وكان ايمانها قوياً .

ألا تذكر يا مرنوش كيف كانت تمزج قبلاتها لى بالصلاة لله شاكرة له أن هداها سواء السبيل ، وأن أرشدها الى نوره الحق ؟ أو تذكر عند هروبنا تحت جنح الليل ، وقد كشفوا أمرنا كيف كانت مطمئنة واثقة أن الله سينجى عباده المخلصين ؟ وكيف أخذت على نفسها عهداً أن تصلى وتصلى لعل الله ينجينا . ؟

يمليخا : (هامساً فى ذعر) إن هذا الرجل لا يعجبنى ! ماذا يقفه يابانا ؟ ما أقبح عينيه ! انه ليشع منها ذكاء خبيث !

مشلينيا : ألم تحسبه قديساً ؟

يمليخا : لقد نسيت أن الشياطين تتخذ أحياناً ثوب القديسين

توفيق : (محاولا التقرب بعد ما أحس منهم نفوراً) ويمليخا . . . . الراعى الذى آمن فى اخلاص ، وأحب الله فى قوة . ورضى قرير العين أن يترك غنمه ليرشدكم الى كهف تلجأون اليه . ؟

مرنوش : ولماذا جملته من بيننا وحده المؤمن ؟

توفيق : (بين التردد والاحجام) لم يكن له أهل « وكان قلبه خليا ، فلا يضيره أن يمنح قلبه لله »

مرنوش : (هامساً لزميله) ألا تشمان فى عبارته رائحة الخبث والسخرية المخبوءة ؟

مشلينيا : (فى ضجر) لقد صدقناك ياسيدى . ولكن مادفع بك الينا ؟

توفيق : لقـد اتصلت روحى — روح الفنان بروحكم ، ولم تستطع الأجيال أن تفصل بيننا ، فبعثت قصتكم بعثاً جديداً الى القرن العشرين .

مرنوش : (فى تهكم خفيف) أكنا فى حاجة الى هذا البعث . ؟

توفيق : (فى غيظ) أتنكرون فضلى ؟ . لقد أصبح القوم ولا حديث لهم إلا أهل الكهف . ولقد أخرجتكم الى الناس فى ثوب من الفن أنيق ، أتقنت فيه الصياغة ، وأجدت فيه الانسجام ، وسخرت له كل ما قرأت من فلسفة اليونان ، وفلسفة القرن العشرين ؟ ! !

مرنوش : ولكنك مسختنا وأنكرت علينا إيماننا ومسيحيتنا التى كانت كل شيء لنا .

مشلينيا : ولقد أهنت بريسكا الطاهرة الجميلة .

يمليخا : (فى سأم وضيق) سيدى القديس ! لعل فى جوارنا أهل كهف آخرين . فلتبحث عنهم . أما نحن فلسنا من ذكرت ..!!

شهدى عطية الشافعى
بكالوريوس آداب

مصر تنسى شاعرها

حافظ ابراهيم

للأستاذ كرم ملحم كرم

تألم صاحب «الرسالة» البصرية لحظ الأدباء المنكود . وأوجعه أن يسير حافظ ابراهيم الى مثواه الأخير بين حفنة من رجال الفضل والأدب ، وألا يمشي وراء نعش أحمد زكي باشا رجل العلم والجد غير نفر معدود ، على حين أن السياسيين إذا ماتوا اندفعت وراءهم الأمة بأسرها في شبه مظاهرة ، وأبدت عليهم من الأسف واللوعة مالا تفكر أن تبديه حيال أي أديب .

ومما زاد في إيلام صاحب «الرسالة» أن القوم في مصر تناسوا أدب حافظ ابراهيم ، وبات الرجل لديهم أشبه بأبي نواس في مجونه ، فهم إذا ذكروه تحدثوا عن نوادره لا عن أدبه ، كأنما شاعر البائسين أضحى من الهازلين ، كأنما أضحى جحا في مداعباته مع أن حافظاً خالد في شعره ونثره ، فقد أبقى من المنظوم والمنثور ما يحق للغة العربية ، وخصوصاً لمصر ، أن تفاخر به . فان حافظاً شاعر الوطنية وشاعر الأدب البائس . وقد أحيا في قصائده كما أحيا شوقي والمطران ، عهداً للأدب مشرقاً في مصر ، فأعادوا على ضفاف النيل عهد الفرزدق والاخطل وجرير على ضفاف بردى .

ومصر مدينة لحافظ بشيء من هذه النهضة الوطنية البادية فيها . أما هز النفوس بقصائده في ضرورة انقاذ مصر من الطغيان الأجنبي ؟ أما أظهر استبداد المحتلين وجورهم وسعيهم الى اذلال مصر ؟ . . .

لقد ترددت قصائد حافظ تحت سماء وادي النيل كأنها أنفاس بوق يدعو المصريين الى الجهاد والاستشهاد ، ومع كل هذه الغيرة الملتهبة على مصر من حافظ ، لم يجد حافظ من المصريين أي وفاء ، فما اعترفوا له بمكرمة ولا بمأثرة في غير بطون الكتب والصحف والمجلات . أما عاينتهم ، ولا تنسى خاصتهم ، فما فكروا في أن يقيموا لشاعرهم ضريحاً . ولقد ضل الوفد اللبناني طريقه الى هذا الضريح وهو يحمل اليه إكليلاً مضفوراً من فلذة أكباد اللبنانيين الذين يجاهدون في سبيل أدبهم ، الأدب العربي ، ويقدرونه قدره ، والذين لا ينسون لحافظ أقواله فيهم وحبه لهم وإعجابه بهم

مع أن من واجب مصر ألا تجحد فضل شاعرها عليها ، من واجبها أن تقيم له ضريحاً يليق به ، من واجبها أن تذكره كشاعر قبل أن تذكره كماجن ، فالمجون في حافظ لا يغلب على الشعر

وكنا نعتقد أن صداقة حافظ لمحمد محمود باشا ستدفع به الى تخليد ذكرى الشاعر بانشاء ضريح فخم يضم رفات فقيد الأدب . ومما حملنا على هذا الاعتقاد ما يتمتع به محمد محمود باشا من ثروة ، ولقد أخلص حافظ ابراهيم للرجل ، ولقي من عنت حكومة اسماعيل صدقي باشا ما لقي لأجل اخلاصه لمحمد باشا محمود وصداقته له ، أيكون هذا جزاءه منه ؟ . .

أيضن الرجل المصري العظيم الثروة بقليل من المال في سبيل تشييد ضريح يرقد فيه جثمان حافظ بأمان ؟ . . .

من حق صاحب « الرسالة » أن يتألم ، وإننا لنشاطره ألمه ونأسف على مصير الأدب والأدباء في البلاد العربية . فالأديب لا يجد من ينصفه ، لا في حياته ولا في مماته . فان قيمته لدى الناس لا تزيد على ما يملك في جيبه من المال . فاذا كان ذا ثروة وجد من يحفل به ويشيعه الى مرقده الأخير . أما اذا خانته الثروة فلا صديقه يتأثر لفقده ولا بنو قومه . فالمال هو كل شيء في هذه الحياة .

ولو لم يمت شوقي عن ثروة ضخمة لكان نصيبه من بني قومه نصيب حافظ ، وربما كان دون نصيب حافظ . إلا أن ثروة شوقي شفعت له في حياته ومماته ، فساعدته على التربع في عرش أمارة الشعر ، وحملت الناس على الاطناب فيه ، وهي هي التي دفعت الحكومة المصرية الى إقامة ذلك المهرجان العظيم لرثاء شوقي والاحتفال بذكراه .

نعم ، هي المآرب السياسية وصلات القربى التي مالت باسماعيل صدقي باشا الى اقامة ذلك المهرجان نكاية في الوفديين والأحرار الدستوريين الذين أخلص لهم حافظ ، وتودد اليهم في أيامه الأخيرة ، إلا أن الوفديين والأحرار الدستوريين هم الفئة الكبرى في مصر ، فكيف تناسوا حافظاً ولم يحتفلوا بتخليد ذكراه ، ولو لأجل النكاية

كما احتفلت حكومة اسماعيل صدقي بتخليد ذكرى شوقي ؟ .

إن حافظاً ليبين في حاجة الى ضريح خاص يقام له ليخلد ، ولا بحاجة الى مهرجان أدبي تقال فيه قصائد الرثاء لمسى الرجل ذا قدر في عالم الأدب ، فان آثاره تكفي لتخليده ، وتلك المظاهر الزائلة ليست ذات شأن في مقام حافظ الأدبي ، بل هي عديمة الشأن ، إلا أن الفضل يجب أن يعلن ، والوفاء واجب على من طوق حافظ جيدهم بجميله ، وعلى كل ذى مروءة وحمية ألا يصدف عن هذا الواجب المفروض .

لسنا نجهل أن حكومة اسماعيل صدقي ماتت ، ولكن الوفديين والأحرار الدستوريين لم يموتوا ، وما فاتهم بالأمس يجب ألا يفوتهم اليوم ، وعلى مصر بأجمعها ألا تنسى بنيها ذوى الأدمغة النيرة فيها ، وتلك النشرة الخاصة التي أذاعتها جريدة «السياسة» لاحياء ذكرى حافظ لاتكفي ، فمن الواجب الدعوة الى المهرجان ، ومن الواجب تشييد الضريح ، وإن مجلة «الرسالة» لاتخطىء إذا خصصت أحد أعدادها بحافظ ، فتدعو أدباء الأقطار العربية جماء الى إعلان كلمتهم في الشاعر المبدع الموهوب ، فان نشرة كهذه يذهب لها صدى بعيد ، وتحمل كل ذى شمم على الاهتمام بشاعر كل عيبه أنه رغب في توطيد دعائم الأدب في وادى النيل وفي الاشادة بوطنه ، وفي لفت أنظار سائر البلاد العربية الى ذلك الأدب الريان المورق في خمائل مصر .

وإن تكن «الرسالة» تطمع في المساواة بين حافظ وشوقي فلتخصص نشرة من نشراتها بحافظ ونشرة أخرى بشوقي ، فذلك اليها ، على أن تبث الدعوة الى مهرجان حافظ والى بناء ضريحه ، وبهذه الهمة تخدم الأدب وبنيه خدمة لم تسبقها اليها صحيفة عربية ، ويكفي أن تمط المصريين بتذكيرهم بواجبهم حيال علم من أعلامهم خفق في ميدان الوطنية والأدب ، فان هذا التذكير لابد منه لأجل مصر قبل الجميع ، لئــلا تتحقق كلمة المتنبي وحافظ فيها :

فما أنت يامصر دار الأديـ ـب ولا أنت بالبلد الطيب

نحن نتألم لنصيب حافظ من بني قومه كما يتألم صاحب «الرسالة» الأستاذ الزيات . وإنا لعلى اعتقاد تام أنه لن يغفل عما نبدى من رأى . وحرام وألف حرام أن يطرح حافظ جانباً كالنبوذين من الناس ، وأن يقصد الغريب عن مصر الى ضريحه يحج اليه فلا يجد من يهديه الى هذا الضريح ، وقد تناست مصر واجبها حيال شاعرها ، فما جادت ببضعة دنانير تحفظ بها بقاياه !

بيروت

كرم ملحم كرم
صاحب مجلة العاصفة

والرسالة ترجو أن توفق الى رأى الاستاذ

حول مقال

نجـــار ونجار

بقلم محمد السيد محمد المويلحي

تشاء سخرية القـدر اللاذعة أن تحملني قسراً ، وأن تضطرني اضطراراً ، وأن تخرج قلمي عما اعتاده نحو أساتذته من الاشادة بنتاجهم والفخر بأدبهم الذي يضفي علينا ألواناً من الثقافة الحق التي هي جماع ما في الآداب من رقة ودقة وجمال ..

أقول : تشاء هذه السخرية المرة أن تحملني على نقـد مقال لصاحب فجر الاسلام ، وضحى الاسلام ، بل صاحب الثقافة النائثة في شمم المجد ، السامقة في سماء الخلود .. لزلّة زلّها ، وكبوة كباها ، ولا أحب أن أكون قاسياً شديداً فأقول : « إنها زلّة وطنية ، وكبوة قوميّة » سوف تكون سلاحاً ماضياً ، وحجة دامغة في يد أعدائنا الذين يتصيدون هفواتنا ، وأخطاءنا ، والذين يستغلون عيوبنا الصغيرة الناشئة من جهل بعضنا ، لتكون سيفاً يشهرونه في وجوهنا كلما هممنا أن نطلب العزة ، وأن ننشد الكرامة ، وأن ندّعي الكفاية ..

إنما أحب أن أكون هادئاً ومرشداً الى حقيقة ربما تجاهلها الأستاذ ليرفه عن قرائه ، ويضحكهم بذكر عيوب إخوانهم وأبناء وطنهم ، وليهرب في الوقت نفسه من عناء البحث المضني والتفكير المرهق ، الذي لايتفق مع هـــذا الحر .

وهذه الحقيقة : هي أن ضيوفنا الأجانب الذين يمتصون دماءنا ، ويسلبون أموالنا ، بمختلف الطرق وشتى الأساليب .. يؤلمهم جداً ، ويخيفهم جداً ، أن يروا تلك النهضة المباركة التي قام بهـا المصريون ، وتلك المزاحمة التي أوشكت أن تتغلغل في كل شيء بعد أن كان أغلب المهن المزاحم فيها وقفاً على الأجانب دون غيرهم . لذلك تراهم يسرفون في اتهـــامهم وفي محاربتهم لجهودنا ، بل تراهم يقاومون كل عمل مثمر لنا أشد المقاومة وأخسها وأبعدها عن الشرف والكرامة .. فكيف بهم ، وهم يرون أستاذاً جليلاً ، وعالماً رزيناً ، يعتقد المصريون فيـه كل الخير ، ويؤمنون بوطنيته أعمق الايمان ، كيف بهم ، وهم يرون الأستاذ يتطوع للدفاع عنهم بطعن شخصية مصرية بلغة تنبعث على احتقارها وتشويهها ، ثم ينبري لتمجيد نفر منهم ، وتكريم شخصيته بأسلوب يطفح إعجاباً ، ويشجع على لثم يد صاحبها التي تعمل بسكون وهدوء ، والتي لاتقلق راحة الأستاذ ، بل تدفعه الى النوم ، لأنه لايحس بها ولا بحاملها ..

أكبر ظني أن الأستاذ نال منا أكثر ممـا ناله الأجانب ، وحقّر فئة منا لم تحقرها الأجانب ، لأنها مشتركة معها في عيبها وكيف لا يكون قد نال منا وحقرنا وهو يصف بقلمه الخصب المطاوع شخصية شاب مصري يمتهن التجارة . ويعمل في حانوت أمام منزل الأستاذ الذي كان يراقبه عن كثب ، ولا ينصرف عنه إلا ليصف « قُصتَهُ » الكبيرة الخارجة من طربوشه صاعدة الى السماء .. وإلا تلك الملابس القذرة الممزقة التي تعلو جسمه .. وإلا تلك الحفلات التي كان يقيمها « ليلا » في حانوته ليشرب وإخوانه بنت الحان .. وإلا تلك الأشياء التي كان يأخذها المسكين ليرممها فيبيعها ، فيأتي أصحابها ويلتحم الجميع في معركة حامية لا يعيرها البوليس أدنى اهتمام لأنه كما يقول أستاذنا : لا يهتم بهذه السفاسف .. وإلا تلك الضجة الهائلة التي كان يحدثها عند ما يشتغل ليلا والناس نيام .. فيأمره الأستاذ بالكف عنها رحمة بالجيرة فلايصدع بما يؤمر .. وإلا هذا الحجز الذي وقع عليـه ..

أفرأى الناس .. وبخاصة القاصين منهم كيف أن الأستاذ قد بذّهم في ابتكار شخصية مصرية ليطلقها كل هذه المطاعن ؟ . فتارة يرميها بالقذارة والعربدة والكذب ، وطوراً يرميها بالنصب والعمل على إقلاق راحة الناس ؟ ؟

هب ياسيدي الأستاذ أن هذه الشخصية المصرية حقيقية . فهل يجوز أن تذكرها في مجلة نبيلة واسعة الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها . ؟ على أنني أستميح عذر الأستاذ وحلمه فأقول : إنني أشك كثيراً في هذه الشخصية المسكينة .. فكلنا يعلم أن زمن « القُصة » قد امحى . وكلنا يعلم أن قذارة الملبس ، وتمزيقه لا تكون لنصاب يبيع أدوات الناس وأثاثهم . بل كلنا لم يشاهد نجاراً واحداً يغلق حانوته نهاراً ، ويفتحه ليلا ليشرب ويعربد ثم يقوم فيشتغل !! أين البوليس الذي يقوم بالحراسة والمحافظة على راحة الناس ، وبخاصة في الأحياء الراقيـة التي يقطنها الأستاذ ؟ ؟

هل كان يترك الأسطى حسن يعربد ، ويشرب ، ويدق ، ويشق ، ويتركك ترجوه وتستعطفه دون أن يعير هذا أدنى اهتمام . أم كان كما تقول في حديثك عنه « لايهتم لهذه السفاسف . » ؟؟

وإذا كان التعيب والاحتيال ، والسكر والعربدة ، وإقلاق راحة الناس سفاسف ، فما هى الكبائر . . ؟ ؟

أعترف أن الحر يؤثر فى نشاط العقول حتى الكبيرة منها ، وأعترف أيضاً أن جوضاحية الأستاذ قد ظلم الأسطى حسن المصرى أخفس الظلم ، وأشاد بفضل الأسطى « الرومى » كل الاشادة ، حتى أن الأستاذ لفرط إعجابه به لم يسمع شقه ودقه . لأنه يشق ، ويدق فى حرير لا فى خشب ! ! وإلا لما قال ما معناه . .

« . . وحل محل الأسطى حسن شاب رومى يماثله سناً ومهنة . ويختلف عنه نظافة وأدباً وإتقاناً وصدقاً . . حتى أننى لم أحس به إلا بعد ستة شهور . لأنه يفتح حانوته نهاراً ، ويغلقه قبيل الغروب . . وأذكر أننى استدعيته مرة ليصلح دولاباً فطلب ضعف ما كان يطلبه الأسطى حسن فأعطيته ما طلب لوثوق من وفائه ، وصدق ميعاده . . »

يا لله . . وكيف لا يكون وفياً صادق الوعد ، وقد أعطيته ضعف ما كان يأخذه المسكين حسن الذى لو جرؤ وطلب هذا الضعف لرميته بالجشع والطمع . .

لعلى فى هذه الكلمة قد أرضيت الحقيقة التى تكلمت عنها فى كلمتى السابقة بالوادى الأغر ، والتى قلت فيها

« إننى لا أحب إلا الحق ، ولا أكتب إلا له ، وله وحده : لا فرق عندى بين شيخ وشاب ، ومشهور ومقبور »

ولعل الأستاذ يعتقد أننى لم أكتب هذه الكلمة إلا لأنى أحب أن أقرأ لصاحب فجر الاسلام وضحاه شيئاً غير هذا الأدب الذى يبعث الأجانب على احتقارنا .

ولعلى أيضاً لم أغضب أستاذنا فيتقبل كلمتى بقبول حسن ، ويحملها محملاً خالياً من الغرض ، بريئاً من اللؤم . فانها لا ترمى إلا الى تمجيد أمة فتية تتوثب نحو الكمال والنور ؟!

(الرسالة) نعتقد ويعتقد معنا الكاتب الفاضل أن الأستاذ الجليل احمد أمين لم يرد بما كتب تحقير العامل المصرى ولا إيثار الأجنبى عليه ، وإنما أراد ايقاظه واصلاحه من طريق المقارنة والمثل . واخفاء العيوب خوف الشماتة مظنة لعدم الشعور بها ، ومن حق الناقد الاجتماعى أن يجسم بعض العيوب لتتمثل فى الاحساس الضعيف ، وتبرز أمام العين الكليلة . ولأن نسمع عيوبنا من أساتذتنا نقداً ونصيحة ، خير من أن نسمعها من خصومنا سباً ونقيصة !

نسبة شعر

قرأت فى مقال (ابراهيم بك مرزوق) المنشور فى العدد السابع والخمسين من الرسالة بقلم الأستاذ محمود خيرت فيما روى عن المرحوم المنفلوطى هذا البيت :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها … وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

أورده فى قصة حكاها عن رجل قال إنه كان رئيساً (باشكاتب) لكتبة محكمة اسكندرية الشرعية ؛ ثم قال الراوى : « ولا أدرى اذا كان هذا البيت من مقوله أو قديم »

والبيت قديم من قصيدة لعبد الله بن العباس الربيعى [1] يقول فيها :

ومستطيل على الصهباء باكرها … فى فتية باصطباح الراح حذاق

يمضى بها ما مضى من عقل شاربها … وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

فكل شىء رآه خاله قدحاً … وكل شخص رآه ظنه الساقى

والذى نسبت اليه القصة لم يكن رئيساً للكتبة ، ولكنه كان أحدهم ، واسمه الشيخ احمد ، وكان مليح النادرة معروفاً بالنكتة ، سمعت عنه مضحكات كثيرة ، منها انه كان ذات يوم نازلاً من المحكمة فالتقى برجل صاعد يطلب مقابلة الرئيس ، فسأله الرجل : ياشيخ احمد هل الرئيس فوق ؟ . قال هو فوق ولكن أعضاءه نزلت . . . ومنها أن عمى المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الرافعى ، وكان نقيباً لمحكمة اسكندرية ، سئل فى ميراث يراد معرفة ما يفرض منه لكل وارث ، وكان الشيخ احمد هذا يكتب عنه الفتاوى ، فكلفه المفتى أن يعمل ما يسمونه « شباكا » وهو رسم ذو بيوت يذكر فيه الورثة أصولا وفروعا وفريضة كل منهم ، ولما كان الغد سأله : ياشيخ احمد هل عملت « الشباك » ؟ فقال ياسى الشيخ : ما لبش « طاقة » .

أما النادرة التى رواها الأستاذ خيرت وحكاها له المنفلوطى فليست بصحيحة على ذلك الوجه ألبتة ، إذ لا يعقل أن عالما فاضلا رئيساً لمحكمة شرعية يقول لرجل : أنت طالق

والذى روى لى أن أحد الموظفين مع الشيخ احمد قاطعه على

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) وهى تنسب أيضاً الى أبى نواس (الرسالة)

طريقته فطلقه ثلاثاً ، وجاء الباقون يسعون في الصلح بينهما وأخذوا المعتدي الى المعتدى عليه ترضية له ، فلما دخلوا « بالطلق » على الشيخ أحمد قبل بجبته ما تفعل المطلقة بملاءتها اذا استترت ممن لا يحل لها ... فضحك الجميع وشاعت النادرة ، ولعل الشيخ أحمد نظر فيها الى نادرة قريبة منها رواها صاحب الأغاني في كتابه والله أعلم ؟

مصطفى صادق الرافعي

فصول مدرسية في الأدب الدرامي (١)

١ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الرواية تمثيل طائفة من الناس لحادث متحقق أو متخيل لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الامكان . فكونها تمثيلاً يخرج الملحمة لأنها حكاية صرفة ، والرواية مدارها على التطبيق والعمل ، فليس لمؤلفها وجود في المسرح ولا حضور في الذهن ، وانما يرى الشاهد ويسمع الأشخاص يعملون بعينه وأذنه .

وكون الحادث متحققاً أو متخيلاً يفيد أن الحقيقة التاريخية ليست شرطاً في الرواية ، فيستطيع الكاتب أن يكملها بالزيادة ويحملها بالمبالغة كما فعل كورنيي في (بوليكت) ، أو يختلق الحادث وحده اختلاقاً كما فعل في (السيد) ، أو يخترع الحادث والأشخاص اختراعاً كما فعل فولتير في (زير) .

وقولنا (لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الامكان) احتراس من إدخال الخوارق في الرواية ، لأن قانونها الأساسي أن تكون صورة للحياة البشرية ما استطاعت . ولن تستطيع أن تصور الحياة أو تقلدها إلا بتوخي الحوادث الحقيقية الواقعة أو الممكنة . وشرط الامكانية يوجب على الكاتب أن يقف عند حدود الممكن المعقول في الموضوعات المتخيلة ، وأن يضحي بالواقع أحياناً اذا بعد احتماله لشذوذه وغرابته في الموضوعات المتحققة . على أن من الجائز استعمال الخوارق قليلاً في الرواية إذا كان الكاتب قادراً والمخرج المسرحي ماهراً كما وقع في رواية « فيلوكتيت » لسوفوكليس ، ورواية « أتالي » لراسين ؛ ومحل ذلك حين يراد تقوية الشعور وإثارة العاطفة وتحريك الهوى في شخص من أشخاص الرواية ، بإبراز هواجس فكره ووساوس نفسه في صورة مشخصة مجسمة ، كما صنع شكسبير بشبح (هملت) وساحرات (ماكبث) . وليس من الضروري أن يهبط الآلهة والأشباح والهواتف على منصة المسرح ، بل يجوز أن يحدث ذلك في ظاهره ثم يخبر به شخص من الأشخاص كما حدث مثلاً في حلم أتالي وبولين ، وفي موت هيبوليت وأوديب .

منشأ الرواية وتأثيرها

كان منشأ هذا النوع من الأدب تلك اللذة التي يبعثها في نفوسنا ويفيضها على حواسنا تقليدنا لطبيعة الانسان وعمله . فتمثيل الطبيعة الناطقة والصامتة بالأحجار والألوان والألحان إنما يلذنا منه ذلك التقليد الذي أجاده الفنان وأحكمه . قال أرسطاليس في كتاب (الشعر) : « إن الانسان مقلد بطبعه ، وأشد ما يطربه ويعجبه من الفنون إنما هو التقليد » . وليس من شك في أن التقليد في الرواية أكمل صنعاً وأقوى ظهوراً منه في غيرها من سائر الفنون . لأن التقليد فيها لا يقف عند الأشكال الخارجية للانسان كالنحت والتصوير ، وانما يتغلغل في باطنه ، فيصور نوازع نفسه وخواطر فكره ودواعي عمله . أضف الى ذلك تلك الحاجة الملحة التي تدفع الانسان الى السبوح في أجواء الخيال فراراً من وحدة العيش وضيق الحياة وثقل الحقيقة

وجد الانسان تحقيق تلك اللذة وقضاء هذه الحاجة في التمثيل المسرحي ، فسره أن يخرج من نفسه ، ويقلد أبناء جنسه ، ممثلاً لعينه ذلك المثل الأعلى الذي طالما رسمه في خياله ، وتمنى أن يعيش على مثاله . ظهر ذلك أولاً عند الأغريق في أعياد باخوس إله الخمر ، إذ تقدم (إبيجين) من أهل (سسيون Sycione) فمثل ذلك الإله على المسرح ، وقطع ما بين الأناشيد بحكاية بعض الحوادث الحماسية ، فاستغل (يسبيس) ذلك الابتكار ، وجاء (أسخيلوس Eschyle) أبو المأساة ، فأضاف الى الممثل الأول ممثلاً آخر ، فخلق الحوار ثم اخترع الوجه الكاذب ، والثوب الضافي والحذاء العالي ، واستعمل الألفاظ الجزلة ، والتراكيب الفخمة ، واختصر الأناشيد التي سميت بعد ذلك (خورس) ، فضعف شأنها في الموضوع .

على هذا النحو نشأت المأساة ، وهي أحد فرعي الرواية كما ستعلم بعد . أما فرعها الآخر وهو الملهاة فمنشؤه ذلك التهريج الذي كان يستبيحه الشعب الأغريقي لنفسه في مواكب باخوس وهو يجول جولان الفرح في قرى (أتيكا) . ومن ذلك يعلم أن الرواية

(١) تطلق كلمة الدرام على كل الأنواع التي تمثل ، ثم اطلقت بعد ذلك على نوع خاص منه سيأتي تعريفه وشرحه

منذ خلقها الأغريق تقسم الى قسمين مستقلين : هما المأساة والملهاة أو التراجيدية والكوميدية كما سيجيئك تفصيله بعد قليل .

أما تأثير الرواية أو المسرح فلا جدال فى قوته وخطره ، فالحكاية مهما قويت فى التعبير وبالغت فى التأثير لا تبلغ شأو الرواية فى ذلك ، إذ القصص الحكائى لا يخاطب إلا المخيلة ، وهى تختلف فى الناس ضعفاً وقوة ، فلا يكون تأثرها إلا بمقدار ، أما القصص الروائى فيخاطب الخيال والحس ، ويملأ البصر والسمع ، فيكون فعله أقوى وأثره أشد . أرأيتك إذا قرأت أو سمعت حادثة قتل مثلا ، فهل يبلغ أثرها منك مهما عظم واشتد ما يبلغه ذلك الأثر الذى يستولى على نفسك وحسك حين تسمع استغاثة المذبوح ، وترى انسكاب الدم المسفوح ؟ لذلك كان حقاً على الكتاب أن يتوسلوا بهذه الوسيلة الناجعة الى إقرار الخير فى النفوس ، واقتلاع الشر من الرءوس ، وتغـذية القلوب المريضة بالعواطف النبيلة بتصوير مُثلها العليا كما فى المأساة ، أو الى اصلاح الفاسد وتقويم المعوج من العادات والأخلاق باتخاذ أهلها مضحكة للناس كما فى الملهاة . أما تلك القطع الداعرة التى يلفقها ضعاف الكتاب ، ويمثلها صغار الفرق ، تملقاً للشهوة وتصيداً للمال ، فهى من عمل الزور وتجارة المحظور وإذاعة الفاحشة ، وهى لا تجـد مكانها إلا فى الشعوب البهيمية الجافية التى لم يثقفها علم ولم تهذبها حضارة ، فواجب النقد ألا ينى عن مهاجمة هذا الخطر ، فان ضرره لا ينال الخلق وحده ، وانما ينال الأدب والذوق والفن جميعاً

العمل الروائى (Action)

العمل الروائى هو الفعل الذى يجرى على المسرح من قيام وقعود وحركة وسكون . وبعبارة أدق هو العراك الناشب بين الوسائل والحوائل التى تتنازع حادثاً من الحوادث ، فالأولى تعمل لوقوعه ، والأخرى تعمل لمنعه أو لانتاج ضده .

فمن هذا التعريف نستنتج أن العمل لابد أن يكون مريباً غير مؤكد ، ثم لا يزال فى عمايه من الشك وغيابه من الظن حتى آخر الرواية ، لأن عقدة العمل اذا لم يكن لها إلا حل واحد يدل عليه المنطق ، ويتنبأ به الشاهد ، فقد الداورة ، وهى تحول ذهن الشاهد من الضد الى الضـد تبعاً لتصرف الأشخاص وتقلب الظروف ، فتارة يقدر النتيجة على نحو معين ، وتارة يقدرها على نحو آخر ، وهكذا دواليك حتى ينتهى العمل ، وربما انتهى على غير ما فكر وقدر . فالتباس العمل هو الذى يوجد هذه المداورة ويفرض كثيراً من الحلول ، ويقف الشاهد بين الخوف والرجاء ، وعلى ذلك كله يقوم أساس التشويق والجاذبية ، ولكن ماذا عسى يصنع الكاتب لو كان للعمل حلان ممكنان فسبقه ذكاء الشاهدين اليهما ، ووقف قبل النهاية عليهما ؟ أو لو كانت روايته على ما يريد الفن ، ولكنها مثلت غير مرة ، فعرف الناس كيف تتعقد وكيف تتحلل ، ألا يكون معنى ذلك أن إبهام العـمل لا يفيد الشاهد ولا يجذبه إلا أول مرة ؟ وجواب ذلك أن تذليل هذه العقبة ليس فى طوق الكاتب ولا هو من واجبه ، وانما هو عمل الممثل وأخص واجباته . وهل يكون الوهم المسرحى بالغاً كماله الا اذا أنساك ما تعلم وشغل فكرك بما ترى ؟

كذلك نستنتج من التعريف أن الحوادث المتعارضة كلما كانت مسافة الخلف بينها بعيدة ، ومناقضة بعضها لبعض شديدة ، كان شأنها أهم وجاذبيتها أقوى ، وذلك حق لا جدال فيه ، فان حوادث العمل اذا تتابعت طائفة منها مفرطة فى الحزن ، وأخرى مفرطة فى السرور ، كان حلها أمتع وألذ مما لو سارت ضعيفة فى جهة وقوية فى أخرى ؛ أضرب لك مثلا برواية "بوليكت"[1] لكورنى : لو أن كورنى جعل (بولين) مشغوفة الفؤاد بحب زوجها لكانت المشكلة أعقد وأصعب ، وموقف بولين أقسى وأرهب ، ولكن كورنى جعلها عاشقة (لسڤير) ففضل جاذبية الاعجاب على جاذبية الارهاب ، وأطاع عبقريته فى هذه القطعة فحرك الدهش وسكن الفجيعة

وليس تعاقب الحزن والسرور والخوف والرجاء من خواص المأساة ، وانما يكون فى الملهاة أيضاً ، فان جاذبيتها لا تتم إلا بشيئين : أولها أن تجعل الشاهد يتمنى أن يؤول أمر الأضحوكة الى السخرية والاحتقار ، ثانيها أن تولد فى نفسه القلق والفضول والرغبة فى أن يرى هذه الأمنية كيف تتحقق . ففى رواية البخيل يدور فى نفس الشاهد هذا السؤال : أيتزوج البخيل من مريان أم يتخلى عنها لابنه ؟ وفى رواية ترتوف أو الشيخ متلوف تتردد على خاطره هذه المشكلة : أيفتضح أمر ترتوف عند أرجون ويبوء باللعنة والخزى أم يتمتع بثمرة حبه وخبثه ؟ على أن الحزن فى الملهاة يجب ألا يتعدى أشخاص الرواية الى جمهرة الشاهدين فان ذلك ميزة المأساة . ومن حق النظارة عليك أن تسرهم على حساب أشخاصك فتضحكهم من بكائهم وتسعدهم بشقائهم . وسيمر بك تفصيل ما أجمله التعريف من صفات العمل وتحليله فنجتزئ الآن بذلك .

يتبع (الزيات)

(١) سنلخص فى فصلى المأساة والملهاة جميع ما نستشهد به من الروايات

بمناسبة الفيضان المبارك

النيل

للأديب حسين شوقي

عند ما انتهى المصريون من تشييد معبد الكرنك الفخم، تكريماً للإله (آمون)، دعا (آمون) الآلهة الآخرين إلى اجتماع خاص ليختاروا أحسن هدية تقدم لبنى مصر مكافأة لهم على عملهم، ولاسيما أن المصريين ما برحوا يبنون مثل هذه المعابد الشاهقة لآلهتهم من آن لآخر... فاقترح (هوروس) الآله الشاب أن تقدم الى فرعون آلة سينما لتسليته هو وأولاده فى ليالى الشتاء العابسة، ولكن الآله (سوكر) وكان شيوعى النزعة اعترض على هذا الاقتراح قائلاً: إن الشعب المصري هو الذى أرهق فى بناء المعبد، فالهدية يجب أن تكون له لا لفرعون، فثار بعضهم على اعتراض (سوكر) وكاد المجلس ينقلب إلى عراك بين شيوعيين وفرعونيين، إلا أن (أنوبيس) — إله الموتى — صاح فيهم بصوته المزعج: أنصتوا إلىّ: لقد وجدت ضالتكم، أقيموا للمصريين جبلاً من الذهب بجوار طيبة أو منفيس فانهم يعبدون هذا المعدن فى حياتهم، ويستصحبونه معهم فى قبورهم بعد مماتهم. ولكن (حوتيب) إله الحكمة اعترض على هذا فقال: إن وجود الذهب بمثل هذه الكثرة فى مصر يعلم أهلها الجشع والكسل.. ثم هنالك الأجانب الذين يرهقون البلاد وهى فقيرة، فما بالك إذا عرفوا وجود مثل هذا الكنز؟ إن هؤلاء القوم لاحد لطمعهم، تصور انهم أنشأوا بوارج فى السموات ليستولوا بها على عالمنا العلوى بعد ما انتهوا من الأستيلاء على الأرض؟.

ثم رأى إله ثالث غرس غابات فى مصر حتى تخف حرارة الجو فى الصيف، ولكن (ست) وكان إلهاً أنانياً صاح: هل جننت حتى ترى مثل هذا الرأى؟ ألا تدرى أن الجو إذا رطب صارت هيا كلنا رماداً فى سنين قليلة.؟

ثم نهض (آمون) الآله الأكبر الذى لازم السكوت طول الحديث وقال: أبنائى الأعزاء لا تتعبوا أنفسكم، ولا تجهدوا قرائحكم، لقد وجدت ما تنشدون وعرفت أحسن هدية تقدم لمصر ولشعبها الوفى، سأعطيها حياة هنيئة سعيدة، سأعطيها نهراً عظيما ينتفع به الحاكم والمحكوم، الانسان والحيوان على السواء، سأعطيها وادياً خصباً.. سأعطيها النيل..

فوافق الآلهة باجماع الآراء على هذا الرأى المفيد، ثم استمر (آمون) قائلاً: وسندعو الآلهة الأجانب إلى الاحتفال بهذا الحادث الجليل، ثم جلس (هوروس) الآله الشاب الذى كان يقوم بأعمال السكرتارية فى المجلس، بناء على اشارة من الرئيس، إلى آلته الكاتبة فكتب الدعوات على وجه السرعة، ثم ناولها إلى (آمون) فمهرها بخاتمه، ثم أعطيت إلى (إبس) الآله الطائر فحملها فى منقاره وطار بها إلى الأقطار الأجنبية.. بعد ذلك أخذوا يبحثون عن المكان الذى يبدأ منه النهر فرأى أحدهم أن تكون بدايته أسوان، ولكن الحكيم (حوتيب) اعترض مرة أخرى قائلاً: إن مصر سوف يزيد عدد سكانها مع الزمن، فيحسن لذلك أن نعطى لها فسحة.. وبعد البحث اختيرت إحدى بحيرات بلاد (البونت) المقدسة لارتفاعها، ولتكون تحت إشراف الآلهة ورعايتها.. ثم جاء يوم الاحتفال وكان يوماً فريداً فى التاريخ، شرب فيه الآلهة كثيراً من نبيذ قبرص اللذيذ الذى جاء به (ديونوزيس) إله الخمر الأغريقى هدية (لآمون)، كما أن (ايزيس) الآلهة الساحرة قامت بألعاب سحرية مدهشة سرّ لها الناظرون، منها أنها قطعت بالسكين رأس دجاجة، ثم أشارت بعصاها إلى ذلك الرأس فعاد فالتحم بالجسد. وقد أعجب بهذا المنظر، بصفة خاصة، (بعل) إله آشور الكبير فأخذ يضحك ملء شدقيه.. ثم قصد الجميع إلى جبل قائم بجوار البحيرة، فأشار (آمون) إليه بيده وأخذ ينادى أرواح الماء بصوت عظيم يشبه الرعد، فتفجرت المياه نقية عذبة من الصخور.. فى جلال وروعة.. وكان (بنتاؤر) الشاعر، البشرى الوحيد الذى دعى إلى الحفلة. ليخلد على قيثارته ذلك اليوم المهيب، ولكنه أرتج عليه من هيبة المنظر وظل صامتا لحظة، وقد اخضلت عيناه بالدمع، ولم تحل عقدة لسانه إلا بعد أن شرب جرعة من ماء النيل، فأنشد: «سلام عليك أيها النيل! يامن يتفجر من الصخر حياة ويسراً! إنك حينما تهبط تخضر الأرض، كما أن عيدان القمح تنحنى لك إجلالاً، وتقدم لك بذورها قرباناً... إنك تخلق للصانع العمل، وللأرض الغبطة. كما أن كل معدة تسر لمقدمك، كذلك يهتز كل منكب من شدة الفرح.. دم أيها النيل حياة لمصر ويسراً للمصريين!»

فصاح الحاضرون: آمين! آمين!

حسين شوقى

١٢ – أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ أحمد مفتاح

العالم الشاعر الناثر، أحمد بن مفتاح بن هرون بن أبي النَّماس ينتهي نسبه الى عُمار بضمّ العين المهملة وتخفيف الميم، أحد العرب النازلين من الصفراء الى أرض مصر حوالى القرن العاشر، وبين أبي النماس وعُمار جدان أو ثلاثة، ولما ورد عمار مصر قطن بأقليم منية ابن الخصيب فى صعيد مصر، وقامت بين عرب تلك الجهة منازعة أدت الى مقاتلة، كان لجدّ المترجم أبي النماس اليد الطولى فيها، ويقال إنه حضر بعض الوقائع بدون سلاح، ولقوّته أمسك جحشاً صغيراً من رجليه وضرب به حتى مات الجحش.

وقطن هرون الجدّ الأدنى للمترجم فى بلدة على الشاطىء الغربي للنيل بأقليم المنية تابعة لبنى مزار، أنشأها حسن بن عبد العزيز أحد أجداد المترجم من جهة والدته، وهى بلدة صغيرة اشتهرت بين العامة باسم أبي عجيز محرفاً عن أبي عزيز، يعنون به حسن بن عبد العزيز مؤسسها، على عاداتهم فى تكنية الرجل باسم أبيه، ومازال هرون المذكور بها حتى ولد له مفتاح أبو المترجم سنة ١٢٢٩، وكان فى هذه البلدة رجل اسمه على أبو محمد، من أقارب والدة المترجم، جعلته الحكومة شيخ المشايخ، وهو لقب كان يطلق إذ ذاك على من يحكم عدّة بلاد، وكان جائراً فى معاملته فاعتدى على أناس من أهل البلد بالضرب حتى أشرفوا على الهلاك فاضطر بعض أهلها الى الشكوى للمذير مستعينين بعلي أفندى الشربيى والد حسن باشا الشربيى، وبعد اللتيا والتى ساعدوهم على الانفصال فانفصلوا واختطوا بلدة أخرى شمالى أبي عزيز سنة ١٢٦٤ سموها نزلة عمرو، وانتقل اليها هرون بولده أبي المترجم، وبنى بها داراً كبيرة، وبقى بها حتى مات بعد أن أسن، وكان سديد الرأى يُرجع اليه فى المشكلات.

ثم سكن هذه البلدة بعده ولده مفتاح، وتزوج بها وأعقب جميع أولاده، وحج سنة ١٣٠٤ فأرخ حجه ولده المترجم بقوله:

حجٌّ مفتاحُ أبي معتمرا
سنة ١٣٠٤

ومات سنة ١٣٠٨، وكان طويلاً خفيف اللحية، وقد وخطها الشيب، وكان اشتغاله بالزراعة دون غيرها، ويتحرى الحلال فى كسبه، ويقول الحق ولو على نفسه، وتعلم القراءة والكتابة فى الكبر ولم يجدها، ولما وصل نعيه الى ولده المترجم بالقاهرة رثاه على البديهة بقوله:

قضى والدى بالرغم منى وليتنى	سبقت لأمر ساورتنى غوائله
لقد عاش دهراً لم يشبه بريبة	حياة سخىّ فاض بالقوم نائله
وقام بعبء الدين والفضل صادقا	وما المرء إلاّ دينه وفضائله
عليه سلام كلما غاب كوكب	وسالت من الجفن القريح هوامله

وكانت ولادة المترجم ليلة السبت الرابع من شعبان سنة ١٢٧٤ ونشأ بالبلدة المذكورة فى حياطة والده، وابتدأ القراءة على الشيخ جاد المولى، فقرأ عليه القرآن وبعض المتون، ومكث بعدها نحو ثلاث سنوات، ثم حضر الى القاهرة سنة ١٢٨٩ لطلب العلم بالجامع الأزهر، وتلقى عن شيوخ وقته، فقرأ النحو على الشيخ محمد الشعبونى المغربى، والشيخ عرفة سالم السفطى، والشيخ عبدالله الفيوى، والشيخ محمد البحيرى، والشيخ سالم البولاقى، والشيخ محمد الانبابى؛ والفقه الحنفى على الشيخ عبد الرحمن السويسى، والشيخ صالح قرقوش، وحضر بعض دروس الأستاذ الكبير الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر إذ ذاك؛ والبيان على الشيخ عرفة، والشيخ على الجنائنى، والشيخ محمد البحيرى؛ وآداب البحث على الشيخ محمد البحيرى المذكور، والمنطق على الشيخ محمد عبده، والشيخ أحمد أبى خطوة، والشيخ سالم البولاقى، والشيخ محمد البحيرى، والعروض على الشيخ محمد موسى البجيرى.

وفى أثناء مجاورته بينما كان مسافراً من بلدته الى القاهرة فى سفينة كبيرة أيام زيادة النيل، نزل يغتسل على سكان السفينة مع جماعة فانحدر مع الماء فى وسط النيل، وتبعه أحد المغتسلين لانجاده، فما زال سابحاً حتى كلت سواعده وكاد يغرق، ثم نجا وخرج على الشاطىء الغربى للنيل وأرسل اليه من بالسفينة زورقا وصل به اليها، وسافر مرة من القاهرة عائداً الى بلدته فى سفينة، فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى الى اخراجه منها، فخرج الى بلدة يقال لها الرّقة قليم بني سويف، لايملك شروى نقير، سوى كتاب مخطوط

رهنه في أجرة القطار لبلدته، وله نوادر كثيرة أمثال ذلك من المشي على القدمين مسافات بعيدة، والمبيت على الطوى في كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته.

وبعد أن قضى سبع سنوات بالأزهر مجداً في طلب العلم ومباحثة الشيوخ، عاد الى بلدته ومكث بها نحو سنتين مشتغلاً بحفظ الشعر ونظمه، ولم يكن له بالأزهر كبير عناية به لانصرافه الى تحصيل العلوم، ثم حضر الى القاهرة، ودخل مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٨ فأعاد بها معظم العلوم العربية مع الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المشهور بالمقدمة على الشيخ حسين المرصفي، ثم خلفه في تدريس اللغة العربية شيخنا الشيخ حسن الطويل فتلقى عنه بعض المثل السائر، ورسالة ابن زيدون الهجوية، والزوراء للجلال الدواني في الحكمة، وانتفع به كثيراً، وقال فيه وفي الأستاذ المرصفي:

دار العلوم شكت فراق أبي الهدى المرصفي الحبر أوحد ذا الزمن
فأجبتها تحسن المعارف بعده لا تجزعي إن الحسين أخو الحسن

وتلقى التفسير والحديث بالمدرسة عن الشيخ احمد شرف الدين المرصفي، والفقه الحنفي عن الشيخ حسونة النواوي، والعلوم الطبيعية والرياضية على أساتذة آخرين بالمدرسة، ثم خرج منها بعد أن نال الشهادة الدالة على براعته سنة ١٣٠٢، فقال بعد مفارقته المدرسة مضمناً:

دار العلوم تثرثت نظم أحبة كانوا بدوراً في سماء علاك
حتى بلى عهدي بهم وتغيروا يادار غيرك البلى ومحاك

واشتغل بعد خروجه من المدرسة بالكتابة في صحف الأخبار كالأعلام والقاهرة، وبالتدريس لبعض أناس منهم السيد توفيق البكري، ولما اتصل به حسن له خلع العمامة والجبة وإبدالها بالملابس الافرنجية والطربوش، ثم فارقه واستخدم كاتباً بمحكمة بني سويف الأهلية نحو عشرة أشهر، ثم انفصل وورد القاهرة فكتب في المؤيد أياماً قليلة، ثم امتحن للدخول بمدرسة دار العلوم مدرساً للانشاء فحاز قصب السبق وعاد للعمامة والجبة، وأقام بها تسع سنين انتفع فيها الطلبة وتخرج عليه كثيرون ممن يحسنون الكتابة الآن، ثم نقلوه بعد ذلك مدرساً للنحو بالمدارس الابتدائية في الأقاليم فحطوا من درجته إلا أنهم أبقوا له مرتبه، وكان أخيراً بمدرسة بني سويف ومرض بها فأحيل على المعاش واختار السكنى بالقاهرة، وابتغى مكاناً يعتزل فيه الخلق ويشتغل بالمطالعة وإتمام بعض تآليفه، فاختار مصر الجديدة واكترى بها داراً صغيرة أقام فيها بمفرده مع خادم مسن كان يقضي له حاجاته من السوق، ويقوم بتنظيف المكان، وكان الشيخ مريضاً بمرض يعرف عند الأطباء بتصلب الشرايين وهو لا يعلم بأمره ولا يهتم بنفسه، حتى اشتد عليه أخيراً وهو يظنه ضيفاً مرتحلاً، ثم تركه الخادم وعاد لبلده، فبقي وحيداً بالدار حتى أدركه أجله المحتوم فجأة والأبواب مغلقة عليه، وبقي أياماً لا يعلم به أحد، حتى ظهرت رائحته للجيران فأخبروا رجال الشرطة فحضروا وكسروا الأقفال فألفوه مائلاً في سريره وجزء من كتاب الأغاني ملقى بجانبه، وكان ذلك يوم الأحد ٢٨ المحرم سنة ١٣٢٩، وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً، فنقلوه ودفنوه تغمده الله برحمته.

***

ولم يكن اشتغاله بالعلوم على السواء، بل كان جل اعتنائه بمتن اللغة والشعر والنثر، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره، وكلف بتصحيح شرح القاموس عند طبعه برمته المرة الثانية. وكان اشتغاله بالشعر في الأزهر قليلا كما قدمنا، ولم يبرع فيه إلا عند دخوله دار العلوم طالبا، وقد أرخ أول إجادته فيه بقوله:

أقول الشعر عن فكر سليم ١٢٩٨

ونظم بعد ذلك القصائد المتينة والقطعات الثمينة، وكان ينهج فيها منهج العرب لكثرة نظره في دواوينها واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً بيده، ولو تم له الخيال الشعري كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ لكان أشعر أهل زمانه بلا منازع. ولما عاد الأمير محمود سامي باشا أشعر شعراء العصر من منفاه بسيلان، وكان بعيد العهد بشعراء مصر ومن حدث منهم لم يعجبه إلا شعر المترجم في رصانة البناء وسلامة التراكيب. وأما نثره فتوأم شعره في الأسلوب العربي، وكان مولعاً بالتضمين فيه من شطر عربي أو مثل سائر، لا تكاد تخلو قطعة منه من ذلك.

وقد ترك من التآليف «رفع اللثام عن أسماء الضرغام» جمع فيه ماينيف على خمسمائة اسم للأسد، طبع بمصر؛ و «مفتاح الأفكار في النثر المختار» جمع فيه مختار النثر من رسائل وخطب من الجاهلية الى هذا العصر، وهو كتاب جليل الفائدة، طبع بمصر أيضاً؛ و «مفتاح الأفكار في الشعر المختار» جمع به مختار الشعر من الجاهلية الى عصرنا هذا، لم يطبع ولم نطلع عليه؛ وله ديوان حماسة من شعر العرب استدرك به على أبي تمام ما فاته؛ و «مفتاح

الانشاء » لم يكمله ، وأخذ فى أواخر أيامه فى جمع شعره ونثره وترتيبه فى ديوان ، ولا أدرى ما فعل الدهر به .

وكان رحمه الله غريب الأطوار ، سريع الغضب سريع الرضا ، مع صفاء الباطن ، له شذوذ فى أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره ، أسمر اللون ، أسود اللحية والشاربين كبيرهما ، أميل الى الطول ، له هزة وتبختر فى مشيته لمرض كان أصابه فى ظهره ورجليه . ولما انتقل الى مدارس الأقاليم صار يحضر الى القاهرة فى فترات فينزل عندنا ويجتمع به إخوانه وأصدقاؤه فى ليال كنا نحييها بالمطارحات الأدبية وإنشاد الأشعار .

ومات ولم يعقب غير بنتين زوجها فى حياته ، رحمه الله .

الشيخ أحمد وهبى

كان طالب علم فقير ثم تزوج باحدى الموسرات فحسنت حاله وفتح له حانوت طرابيش بالغورية جعلها مجتمع الأدباء والشعراء ولم ينجح فى التجارة فتركها وأخذه الشيخ مصطفى سلامه النجارى معه فى الوقائع المصرية وجعل محرراً ثانياً بها ثم فصل وتقلبت به الأحوال فاتصل بأسرة المويلحى ثم بالشيخ على أبى النصر شاعر الخديو اسماعيل باشا فسعى له فى الاستخدام بنظارة المعارف فلم يوفق .

وكان طلبه العلم على الشيخ منصور كساب وغيره من شيوخ الوقت وتعلق بالأدب ونظم الشعر الجيد وكانت وفاته سنة ١٢٧٣ ، كما فى ص ٣٣٠ من ديوان الشيخ شهاب . اه

احمد تيمور

(**الرسالة**) بهذه الترجمة انتهى ما كتبه العلامة الجليل المرحوم أحمد باشا تيمور من تراجم علماء القرن الرابع عشر وأدبائه ، وسيدرك القراء ولا ريب حزاز من الأسف على انقطاع هذه السلسلة الفريدة فى روحها اللطيف ، وأسلوبها العذب ، ومعرضها المشرق ، وصدقها الأخاذ ، وطابعها الجميل . فهل لشيخ من شيوخ الأدب اجتمعت له مزايا الفقيـــد من فهم العصر ، وملابسة الأشخاص ، وتذوق التاريخ ، وتوخى الايجاز ، وصراحة اللهجة ، يصل ما انقطع من هذه السلسلة ؟ ومَنْ أحق بهذه الخدمة الجليلة للأدب والعلم والوطن من الأستاذ عبد الوهاب النجار ؟

فى تاريخ الأدب

رأى جديد فى المعلقات

نقد وتعقيب

بقلم محمد طه الحاجرى

كتب الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المتعال الصعيدى فصلاً فى « الرسالة » جعل عنوانه : (المعلقات . رأى جديد فيها) ، وقد والله فتنني هذا العنوان أيما فتنة ، واستوقفني عن قراءة المقال برهة ، وأسلمني الى طائفة من الخواطر غير قليلة . فقد طال عهدنا بالطريف من الآراء فى تاريخ الأدب ، واشتدت حاجتنا الى اعادة النظر وتقليب الفكر فى تراثنا الأدبى ، واستشفاف الحقيقة المستكنة فى ثنايا النصوص المختلفة ، والتأويلات الكثيرة ، ولاسيما فيما يتعلق بالعصر الجاهلى ، وقد وقفنا منه فى مجهل لايتبين الباحث فيه إلا لمحات خاطفة ، وأثارات ضئيلة ، يكتنفها الغموض ويحيط بها الابهام وتلعب بها الأوهام . . . وما نشك فى أن المعلقات صورة صحيحة من ذلك العصر ، مهما كان أمرها ، ومهما اختلفت فيها مذاهب الباحثين وآراؤهم . فكل رأى جديد فيها جدير أن تلتفت اليه القلوب ، وتصغى اليه العقول ، ويتلقاه المتأدبون بالبشر والترحيب ، إذ الجديد وحده هو الذى ينتظر منه أن يبدد الظلمات ويزيل الشبهات ، ويفسر المشكلات . وليس الأستاذ الصعيدى ممن يتهم بأن له مع المستشرقين علاقة هوى ، فيميل ميلهم ، ويفسد الأدب والتاريخ بآرائهم ! فجديده لابد أن يكون الجديد الخالص لا يشوبه شوب من تقليد . وهو رجل محافظ بطبعه ، فيما يظن الناس ، فجديده خالص لوجه العلم والحقيقة ، لا عن رغبة فى الخلاف وهيام بالتجديد .

حدثتني بهذا الحديث نفسى ، وأنا واقف عند حد العنوان . ولكنى كنت أنتقل فى مدارج الغبطة والفخر والسرور ، حتى أقبلت على انقال ألتهمه التهاماً ، فاذا بى لا أحس شيئاً مما حييد

فى المقام، وزينته لى الأوهام، ثم اتهمت مشاعرى فعدت الى المقال أقرؤه جملة جملة وكلمة كلمة. فاذا بى أرتكس على عقبى، وأحس فى نفسى مايحسه الطاعم لقاء طعام سئمته نفسه، ومجه حسه، وبرمت به معدته من كثرة ما تقلب فيها.

أما هذا الرأى «الجديد» فليس رأيا فى الملقات من حيث هى صورة للجاهلية، نلمح فيها صفاتها، ونقرأ فيها خلائقها وعاداتها، وليس بحثاً فيها من حيث وثاقة رواتها، أو الوضع فى أبياتها، ولكنه رأى فى سبب تسميتها، ثم مايحتاج من توجيه وتعضيد، وانحاء على الآراء الأخرى بالمحاجة والمجادلة ثم التوهين، وهذا بحث جليل لايضع من قيمته جزئية موضوعه، مادام متمشياً مع الأسلوب العلمى، قائماً على أصول البحث الصارمة.

يقول الأستاذ فى سبب التسمية: «فهذه الملقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها وتتبعهم اياها بما كانوا يتبنون به من حفظها وشرحها، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر».

فهو يذكر هنا سببين متداخلين: الحب والتتبع، ثم التتبع بالحفظ والشرح، وما أدرى فيم هذه المعاظلة؟ أما كان الأدنى الى الاستقامة أن يقتصر على السبب الأول، ويكون مابعده مرتباً عليه، راجعاً اليه، ناتجاً منه، فيكون سبيل التسمية هو هذه الدرجة الرفيعة التى قدرها الناس لهذه القصائد، فتعلقوا بها، وأولوها حبهم وإعجابهم، وما يمليه عليهم الحب والاعجاب من القيام عليها بالاستظهار والشرح، أما التعليق بمعنى كتابة الشرح على المتن فما نحسبه مما كان يسوغ فى عرف اللغة حينذاك.

هذا هو الجديد فيما زعم الاستاذ، ولوددت والله لو كان جديداً حقاً، فنرفع به رءوسنا تيهاً وفخراً، ولكنه رأى مقرر، يدرسه طلاب الملقات فيما يدرسون من الآراء فيها منذ أصبح للدراسة الملقات فى مصر سبيل علمى معبد، وأسلوب جامعى ثابت، فليس الجديد فى حقيقة الأمر إلا اعتبار هذا الرأى جديداً اليوم.

وإذا كان لابد من تبيث لما ندعيه من قدم هذا الرأى وإمعانه فى الشيوع بين جمهرة العلماء، فها هو العلامة المستشرق الجليل نولدكه Noldeke، وحسبك به من علامة ذائع الصيت، يقول فى الفصل الذى كتبه عن الملقات فى دائرة المعارف البريطانية، وهى أدنى مايقصد اليه الباحثون:

« إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع الى تسميتها بالقصائد المذهبات، وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها، وكذلك يجب أن نؤول تسميتها بالملقات على هذا الأساس نفسه، فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت الى درجة خاصة مجيدة، وأن هناك اشتقاقاً آخر من المادة نفسها، وهو كلمة «علق»، ومعناها الشىء النفيس»[1]

فمدار القول هو الاعتبار المجازى فى فهم الكلمة وإغفال المعنى الحرفى لها. فأين هى الجدة التى يسندها الأستاذ الى رأيه؟

وأما قوله إن الملقات هى أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه فدعوى لا نحسب الا أن علم الأستاذ وفضله ينوءان بها، وأياً كان الأمر، فان تعيين الأولية فى هذا العصر الغامض البعيد أمر ليس من السهولة بحيث يلقى فى كلمة فى درج الكلام، بل لابد من النص الواضح أو الاستنتاج القاطع

وبعد أن انتهى الأستاذ من عرض هذا الرأى وتوجيهه عمد الى ما يخالفه من الآراء عرضاً ومناقشة، وقد اكتفى من هذا برأيين: الأول رأى ابن عبد ربه وابن خلدون وابن رشيق، والثانى رأى أبى جعفر النحاس المصرى، وكان المنتظر أن يعرض الى غير هذين الرأيين من آراء المحدثين، فقد جعل مستهل مقاله أن العلماء قد اختلفوا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية هذه القصائد، فالقارئ معذور اذا ظن أن الأستاذ يعرف مذهب المحدثين الى التفسير المجازى، ثم أغضى عنه تمهيداً لوصف رأيه بالجدة والابتكار، والا فأين ما خالف فيه المحدثون عن رأى المتقدمين؟ ولكنا لا نقول بهذا، فليس مذهبنا فى النقد أن ندخل الى الضمائر ونحاسب على النيات، ولا نقول هنا إلا أن أول واجب يفرضه العلم على الباحث المؤرخ هو التقصى فى طلب النصوص ومعرفة الآراء، والتثبت فى وصف الرأى، والعصمة لله وحده

(١) ويرى الأستاذ كليمان هيار أن الملقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً «السموط» بمعنى العقود أو القلائد

« الرسالة »

أما أول الرأيين فيقول إن المعلقات كتبت بالذهب ، وعلقت على أستار الكعبة ، وكأن الأستاذ رأى هذا الرأى بين البطلان ظاهر الاستحالة ، فاكتفى بعرض أقوال القائلين به وأغفل مناقشته ونقضه

وأما الرأى الآخر فينكر دعوى تعليق المعلقات على أستار الكعبة ، ويذهب الى أن الملك كان اذا استحسن قصيدة مما كان ينشد فى سوق عكاظ قال علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى

فانظر ماذا يصنع النقد فى هـذا الكلام ؟ يقول أبو جعفر « الملك » مطلقاً من غير تعيين ، فيأبى الأستاذ الا أن يفترض أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، ثم يبنى على هـذا الافتراض الذى افترضه هو اعتراضه موجهاً الى أبى جعفر ، فيقول إن عصر النعمان أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات فلا يصح أن يكون هو الذى كان يعلق قصائدهم بخزانته بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ واستحسانه انشادها ، وهذا ولا ريب سبيل ملتو ، وتحكم فى النقد غير محمود ، وتحريف للكلم عن مواضعه ، وتخصيص للعام بدون مخصص

ويتوارد العلامة نولدكه والأستاذ الصعيدى فى نقد عبارة النحاس عند هذه النقطة ، أما الأستاذ الصعيدى فقد ذهب إلى ما رأينا من التحكم والبناء على الفرض ، وأما نولدكه فيقول إن من الصعب احتمال أن ملكاً عربياً كان يشهد سوق عكاظ .

ويؤلمنا والله أن يكون هذا العلامة الأعجمى أكثر توفيقاً ، وأهدى إلى الجادة فى فهم الكلام وتخريج النصوص .

ثم ينتقل الأستاذ إلى وجه آخر من وجوه النقد ، فيقول إن سوق عكاظ التى أجمعوا على أن تلك القصائد كانت تلقى فيها أحدث بكثير من عهد أصحاب المعلقات ، لأنها أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، ولوددنا والله لو دلنا الأستاذ على مصدر هذا القول ، فلسنا نذكر أن ياقوتاً تعرض فى معجمه إلى تاريخ إنشائها ، والذى نحسبه أن عهد هذه السوق أقدم مما ذكر الأستاذ ، ففى سيرة ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد حرب الفجار وعمره أربع عشرة سنة ، ويذكرون فى سببها أن قريشاً حين بلغها مقتل عروة الرحال ، كانت فى عكاظ ، وفيها قامت الحرب ، وسميت باسمها ، وقال ابن الزبعرى فى مدح العنابس :

وفى يوم عكاظ منعوا الناس من الظلم

بل إنهم ليذكرون فجاراً آخر قامت وعمر الرسول صلوات الله عليه عشرة أعوام ، ويذكرون فى سببها أن أحد الغفاريين كان له مجلس فى سوق عكاظ يفتخر فيه ، ويزعم أنه أعز العرب فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته .

وأوضح من هذا فى الدلالة على قيام هذه السوق قبل التاريخ الذى حدده له الأستاذ ما جاء فى أخبار عبد شمس بن عبد مناف أن زوجته عبلة بنت عبيد كانت قبله تحت رجل من بنى جشم ابن بكر فبعثها بانحاء سمن تبيعها له بعكاظ ، فباعت السمن وراحلتين كان عليهما وشربت بثمنها الخمر . . الخ القصة ، وهى مذكورة فى الجزء الأول من الأغانى فى أخبار عمر بن أبى ربيعة ، وهى تدلنا دلالة قاطعة على قيام سوق عكاظ فى عهد عبد شمس ، وأين عبد شمس مما ذكره الأستاذ ؟ فكيف يصح مع هذا أن يكون عام ٥٨٦ تاريخاً لبدء قيامها ؟

والأمر بعد هذه النصوص كلها بعيد الاحتمال بالنسبة للأمة العربية ، وهى أمة تجارية منذ أقدم عصورها ، وقد جعلت من أسواقها نطاقاً يحيط بالجزيرة ، ونظمت قيامها تنظيماً يتفق مع سير التجارة ، وكانت عكاظ حلقة من هذه السلسلة . فكيف يسوغ القول بأن إنشاءها كان فى هذا العهد المتأخر ؟ ولكن لعل الأستاذ قد اعتمد على نص صريح قوى يضعف ما قدمنا من النصوص ، ويهدم ما رأينا من منطق الأمور .

وبعد ، فلا يحسبن القارىء أننا ندافع بهذا القول عن رأى أبى جعفر النحاس ، فلسنا ، ولله الحمد ، من القائلين بالتفسير الحرفى لكلمة المعلقات ، وما نبغى من كل ما أسلفنا إلا أن نقر الأمور فى نصابها ، فلا نغمض فى الاقرار بالحقوق لأصحابها ، وأن نصطنع الانصاف فى نقد ما نراه جديراً به ، فلا نتجنى على الشىء مالا يحتمل ، ولا نستعصم إلا بالقاطع من الأدلة والصحيح من الحجج . ونرجو أن نكون قد وقفنا على الجادة فى هذا النقد فلم يستزلنا الهوى ولم يخطئنا التوفيق .

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

من طرائف الشعر

نادره

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ما أنتِ إلاّ نادره — في كل فنٍّ ساحره
للسمع أنتِ مُتعةٌ — ومُتعــةٌ للباصره
أنتِ لشعبٍ كُسِرَتْ — منه القلوب جابره
أميرةَ الفنِّ على الـ — إبداع أنتِ قادره
أنتِ جــديرة بحـ — قٍّ أن تكوني الآمره
وأنتِ عبقــرية — من أكبر العباقره
معجزة بالغنـــة — من معجزات القاهره
بين أغانيـكِ ووجـ — هكِ الجميـل آصره

***

ليلتنا بيضاء مِنْ — خير الليالي الساهره
حسبُكِ أن الناس حو — لَ الرافدَين شاكره
أما الأغاني فهي من — قلب رقيــق صادره
في جوِّها الأرواح من — أفراحهن طائره
بما بعينيكِ من الـ — سحر القلوبُ شاعره
رفقاً فإنا لا نطيـ — ق النظرات القاهره
ما حيلة الضعيف تلـ — قاء السيوف الباتره
ليس له من حُجَّة — غير الدموع الطافره
تعطي القلوبُ جزيةَ الـ — غرام وهي صاغره

***

من الجمال ليس تشـ — بع العيونُ الناظره
الغادة الحسناء تشـ — به النجومَ الحاسره
أنحن فوق أرضنا — أم في السماء الزاهره؟
لو كان يحيا الميْتُ أحـ — ييته الأغاني الساحره
فحبذا الفنّ وحـ — بذا أغاني «نادره»
نحن بمحفل جامع — للنخبــة المؤازره
كأنما عاد الربيـ — ع ناثراً أزاهره

***

ياعندليب الروض غرّ — د للوجـود الناضره
أميرةَ الفن تحيّـ — تي اليـكِ عاطره
كوني لشيخ قد صبا — الى الجمال عاذره
لا تحسبي الشيوخَ أمـ — ثالَ الرسوم الدائره
كل امرئٍ يتبع في — أمياله عناصره
وهل اذا النفس صبت — في الشيخ فهي وازره؟
وقد يعود لي الصبا — وعهدُه في الذاكره
أبكي اذا ذكرته — على سنيه الغابره
إن لم أُجِلَّ الفن فلْـ — تدُرْ عليَّ الدائره
ولْنَتَمَلَّ قبل أن — تُردى الحياةَ الحاضره
إن الحياة كلها — الى الحتوف صائره
ولنكسب الدنيا وربـ — ـي غافرٌ في الآخره

***

هذا غناء فيه آ — ثارُ النبوغ ظاهره
أجدتِ يا نادرتي — أوَّنَهُ وآخره
أشيم ناراً سُعِرت — وأنتِ أنتِ الساعره
والناس في حرب الهوى — مدحورةٌ وداحره
يا زهرتي حييتكِ أنـ — داءُ الربيع الماطره

***

تحذّري تحذّري — من الزهور الغائره
هذا الهتاف المستطيـ — ـر كله لنادره
غنّتْ فكانت فتنة — في النغمات الثائره
ورددت فهيجت — فينا الشجون الخادره
تجسّ نبضَ العود أحـ — ياناً بأيدٍ ماهره
فيصرخ العودُ كطفـ — لٍ دغدغته الحافره
العـودُ شاعرٌ بها — وهي به لشاعره

***

غنّي لحريتنا الـ — حبيبـة المهاجره
كنا بها في حقبة — من الشعوب الظافره
قضت على آمالنا — يدُ الزمان الغادره
هوت بنا ساعةَ أد — برت الجدودُ العاثره

ثمالة كأس

للأستاذ فخرى أبو السعود

بقية أيام تقضّى كثيرها ... بنعماء أو بأساء والعيش قُلَّبُ
غدوتُ أقضيها بأرضٍ عاقتْها ... وطاب بها لى مستراد ومذهب
وطاب اجتلاء الحسن بين شعابها ... أشرّق فيها تارة وأغرّب
تَبَسّمُ أحياناً فيعذب بِشْرُها ... ولستُ بخاشٍ سُخْطَها إذ تقطّب
بها مُستَجمٌّ للجسوم ومتعة ... وَرِيٌّ وللنفس الشجية مهرب
إذا ما سقاها الغيث صفّى أديمها ... ونقّى ثراها حينما يتصبب
فرفّ بها عشب وشفّ بها صفاً ... وماد بها غصن ندىٌّ مُرَطَّبُ
وفاح بها عطر ورقّت نسائم ... وتاه على البلور قاعٌ ومَشْعَب
فكم ثَمّ من حُسن نثير منظّم ... وشِعْرٍ إلهيٍّ هنالك يُكتب
على هامها حيناً وفى وهداتها ... أصعّد فى جنح الدجى وأصوّبُ
فى نشوة الآصال أو يقظة الضحى ... وعند شروق الشمس أو حين تغرب
فكم ليلة قد جمّد البردُ ماءها ... بأحشائها أقبلت لا أتهيّب
وقد عوت الأرواحُ فيها وأطفأتْ ... مصابيحها لم يتذمّت كوكب
وكم مَشْرِقٍ بادرته فى طلوعه ... ومازال ماء المزن فى الغصن يضرب
وقد غطّ أهلوها وأقبلت مثلَ مَنْ ... له عند قرص الشمس فى الأفق مأرب
يُنقّطُنى غصنٌ بمُنْهَلٍّ قَطْرِهِ ... ويعبق من حولى نسيمٌ ويلعب
صَحَابىَ هاتيك الشعابُ ألِفْنَنِى ... ويعرفن خطوى حيثما رُحْتُ أدأب
لقد آذنتْ بالبين صُحبتنا سوى ... ثمالة كأس عن قليل ستنضب
أباكرُها صفْوًا وأعلمُ موقنا ... بأنّ ثمالَ الكأس أشهَى وأطيبُ
سأذكرها يوماً فأَحْمَدُ عهدَها ... وأهفو إليها مستهاماً وأطرب

فخرى أبو السعود

ما كان هذا فى مظنّـ ... ـة النفوس الثائره
وربما دار الزما ... نُ مُعلناً بشائره
تحوّل الشعبَ حقو ... قَ الأمم المجاوره

بغداد ... جميل صدقى الزهاوى

العودة الى الريف

بقلم فريد عين شوكه

أمل على رغم الزمانِ يوافى ... يا طالما ضنّ الزمانُ الجافى
بى الحنين بمقلتىّ الى القرى ... مأوى صباىَ ومُنتدَى ألاّفى
يانفسُ فاستبقى الزمانَ الى غد ... فغدٌ قرارك بعد طول طواف

***

اسكندرية ياعروس الشرق من ... ماضى العصور وغابر الأسلاف
ومُنى الشباب وبُغية الفتيات فى ... الصيف الحرور ومتعة المصطاف
مهما حبتْك يد الرشاقة حَليها ... ولبستِ أبراد الجمال الضافى
وبهرتِ شبان البلاد وشيبها ... برُوائك المترقرق الرفّاف
فالريف أزين من جمالك حرائراً ... وأحبُّ لى من هذه الأطياف
خطرت عليه يد الإله فأبدعت ... ما شاء من وشىٍ ومن أفواف
وصفت أصائله وطاب نسيمه ... كنسيم جنات النعيم الصافى
وسعى اليه وران فوق ربوعه ... سحرٌ عن العين الكليلة خاف
سحر تحيرت النُّهى فى كنهه ... فسمتْ به عن رائع الأوصاف

***

ياريف شاه جمالك السحرىّ من ... سيل الخطوب الماحق المتلاف
وعدتْ عليك يد المداين فاجتنت ... مافيك من ثمر وطيبِ قطافِ
وازدان مغناها بمالك فاغتدت ... فتانة الأحشاء والأطراف
حتى استطال الفقر فيك وصوّحتْ ... دنياك من تحفٍ ومن ألطاف
وتكبكب الفلاحُ فى أزماته ... وغدا بمصر ضحية الاسراف
وأمضّه الفقر المضوض فحاله ... ما بين مسغبةٍ وبين كفافِ
وبنوه يالبنيه! من غول الضنى ... زهرٌ ذوَى من حُرقة وجفاف
إن ضجّ بالشكوى فما من مُسعد ... أوضاق بالبلوى فما من واف
آذانهم صمّاءُ عما يشتكى ... وعيونهم عما دهاه غوافِ
لكنهم متدافعون عليه كالطير الصدىّ على النمير الشافى
يجبون من دمه العزيز نقودهم ... لتضيع فى سرَف وفى إتلاف
يا شِقوةَ الفلاح فى مصرَ التى ... لولاهُ لم تك غير بعض فيافِ

***

اسكندرية كم رثيتك إذ رأيـ ... ـتك للأجانب سهلة الأكناف
سيلُ الأجانب فيك كم ألقى على ... عينى المضيئةِ حالك الاسداف

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

رسالتان فلسفيتان

بين فولتير وروسو

للأستاذ خليل هنداوي

طوّح بليسبونة زلزال روّع النفوس وذهب بكثير من الضحايا ، فراع فولتير — وهو رسول العطف — أن تعمد العناية الإلّـهية الى مثل هذه الوسائل فى إعلان الشر ، فهاجم ربوع القائلين بنظرية الخير الشامل ، وأين هو الخير ؟ ونظم هذه المقطوعة يرثى بها من نكبهم الزلزال ، ويتخذ منه برهاناً يؤيده فى جحوده العناية الإلّـهية ، ويرى أن الوجود مبنيٌّ على الشر والعذاب .

وأجابه روسو على مقطوعته برسالة فلسفية عميقة ينكر عليه هذا الإسراف فى التشاؤم ، وهذا الاستسلام الأعمى لسلطان العاطفة ، ويظهر فلسفة الرضا عن الوجود وعن أنظمته برغم مايشيع فى بعضها من فساد ، ويعتقد أن هذا الكون هو خير ما أبدعته فكرة المبدع « إذ ليس فى الامكان أبدع مما كان »

وهذه هي المقطوعة :

« أيها الأموات التعساء ! أيها الأرض الخاشعة !

أنتم يامن قذفتكم قواذف لا معنى لوقعها .

وأنتم أيها الفلاسفة الذين تصيحون فى الأرض « ليس على الأرض إلا الخير

تعالوا معى واهرعوا الى هذه الخرائب الدامية ، هذه البقايا الهاوية ،

أنظروا الرماد الحائل ، وهؤلاء النســـاء والأطفال يتهاوى بعضهم على بعض مهشمى الأعضاء تحت الحجارة ، وهناك ألوف الضحايا التهمتها الأرض .

وجوه دامية ، وقلوب خافقة ، وأشلاء ممزقة .

قد ماتوا ! ولم يدركهم مسعف .

ماتوا ! وهم ينظرون الى الموت

***

أتقولون أيها الفلاسفة ،

وأنتم تسمعون أنينهم وترونهم وهم يحتضرون :

« إن هذا الا صنع الشرائع الخالدة ،

وإن إلـهاً حراً فى مشيئته شاء لهم ذلك .

أتقولون : إن الالـه قد انتقم لنفسه منهم لأنهم كانوا آثمين ،

وما كان تقتيلهم إلا جزاء آثامهم . فأية جريمة أم أى رجس فعل هؤلاء الأطفال الذين لقوا مصارعهم على صدور أمهاتهم ؟

ليسبونة التى أمست لا شىء ، أ كانت أكثر رذائل من (لوندرة) ومن (باريس) الغارقة فى بحر من اللذات . ليسبونة هوت فى الهاوية . وباريس لا تزال ترقص .

***

إن بعض الشاهدين يتأملون فى مصيبة إخوانكم

وهم يتحرون عن أسباب العاصفة بهدوء وسلام .

ولكنهم حين يشعرون بضربات الحظ الأعمى تنصب عليهم ، يتحرك فى نفوسهم معنى الانسانية ، ويبكون مثلنا على مصارعهم .

***

آمنوا إنى صادق الشكوى واللوعة !

وأن مظالم الحظ شائعة فى كل مكان . . .

ذرونى أشكُ !

كل شىء فى العالم يئن ، بعضه يفنى بعضاً ! .

وكل شىء يولد للهموم والأذى .

وأنتم — هنا — تجعلون من شقاء كل موجود سعادة مطلقة ، فأية سعادة أسندوها اليك أيهـا الانسان الذى يكتنفه الموت والضعف والشقاء . . . ؟

أنتم تصيحون هاتفين « ليس على سطحها إلا الخير ! »

الوجود يكذبكم ، وقلوبكم تدحض أراءكم !

وهذه عناصر المادة ، حيوانها وإنسانها وجمادها ، كلٌ فى نزاع مستمر ! . .

يجب أن تقولوا معى « ليس على سطحها إلا الشر »

***

يلقون منك التبر فى جوف الثرى والؤلؤ المشفوف فى الأصداف

ويرون فيك التُّمِّيمِيات وليتهم جازوك غير الكفر والاجحاف

صيغ الأجانب فى ربوع الشرق من فرط الجحود وقلة الانصاف !

***

غفراً (مينوف) إذا هجرتك حقبة وحُرمتُ روعة حسنك الشفاف

سأزيح عن قلبى تباريح النوى وأحُطُّ عبء البعد عن أكتافى

قريب عين شوكه

إن سر الوجود لايزال مجهولاً . . .

فهل يصدر هذا الشر عن مصدر صاحب الخير نفسه ؟

ولكن كيف يُدرك الفكر أن رباً يزجى إلى أبنائه الخير الذى يرتضيه لهم ، هو بذاته يصب عليهم سوط عذابه ؟ أية عين تستطيع أن تتبين فى هذه الاغوار العميقة ؟ . لايمكن أن يكون مصدر الشر كله من الوجود .

والشر لن يرسله أحد غير الله ، لأنه هو سيد الوجود وهو الكائن فى كل موجود .

يالها من حقائق مؤلمة ! . .

وياله من مزيج لعناصر متباينة ! . . . »

وهذه هى الرسالة التى كتبها روسو جواباً على هذه القطوعة :

« اسمح لى أيها العزيز بأن أشكو اليك من هذه العقيدة ، إذ كنت أرتقب منك ماهو خير وأهدى لهذه الانسانية التى تريد منك أن تنفس عنها . أنت تلوم (بوب)[1] و (ليبنتز)[2] لأنهما خففا عن الانسانية عذابها باعلانهما (أن لاشىء عليها إلا الخير) ورحت ترينا شقاءنا وتهدينا الى تعسنا ، تدفعك الى هذا عاطفتك الهوجاء ؛ وبدلاً من أن تكون رسول تعزية لى لم تعمل إلا على إثارة حزنى . قد يقال إنك تخشى أننى لا أرى مبلغ شقائى فى هذا الوجود ، وأنك إذا تركتنى أسىء الظن بالكون تخفف عنى شقائى .

قال لى (بوب وليبنتز) : صبراً أيها الانسان فان الألم شىء ضرورى فى الطبيعة والوجود ، فان الموجد الخالد المحسن الذى يحكم هذا العالم ودّ أن يعصمك فيه عن كثير من الأنظمة المطلقة ، فانتخب نظاماً هو أصلح الأنظمة وأقلها شراً وأكثرها خيراً ، فلماذا المكابرة ؟ لنقل هذه الكلمة وان كانت قاسية : « إذا لم يصنع إله الكون خيراً مما صنع ، فلأنه لايقدر على أن يصنع خيراً منه»

وأنت ماذا تقول لى فى قصيدتك ؟ تقول : تألم إلى الأبد أيها الشقى ، فاذا كان — ثمت — خالق أوجدك فهو قادر بدون شك على أن يزحزح عنك آلامك ويطلق نفسك من قيودها . ولكن لاترج من آلامك أن تتزحزح ، لأن من المحال أن تعرف لماذا وجدت إذا لم توجد للألم والموت .

إننى لأرانى أتحرى عن أسباب الشقاء الأدبى فى الانسان الحر الكامل والانسان الفاسد . وأما الشقاء المادى فاذا صح ما أشعر به فان بين المادة الحساسة والمادة الجامدة الميتة نزاعاً مستمراً ، فهذا الشقاء وجوده محتم فى كل جزء يتصل به الانسان . واذ ذاك يصبح سؤالنا «لماذا لم يخلق الانسان سعيداً» لغواً لا معنى له . وانما يسأل « لماذا وجد الانسان » ؟

وأقول : إن كل مصائبنا — ماعدا الموت — إنما نوطن لها بأسباب تتقدمها ؛ وجل مصائبنا المادية تجنيها علينا أيدينا ، عد إلى موضوع قصيدتك نفسها ، وهب أن الطبيعة لم ترفع هنالك عشرين ألف منزل بطبقات مختلفات ، وأن سكان هذه المنازل قد توزعوا فرقاً فرقاً فى مساكن حقيرة ، أفليست النكبة تكون أهون شراً إذا كان لامفرَّ من النكبة ؟

ولكى يتسنى لنا العودة إلى المذهب الذى ضربته ، فلا غنى لنا حال تجريبه وامتحانه عن أن نميز الألم الخاص الذى لاينفى وجوده فيلسوف من الألم العام الذى ينفى وجود التفاؤل . ولا ينبغى هنالك أن يسأل أحدنا الآخر : أذقت ألماً أنت أم لم تذق ؟ وأنما ينبغى أن نفهم إذا كان الوجود بنى على أساس الخير ، أو إذا كانت آلامنا فيه محتمة لامحيص عنها ؟

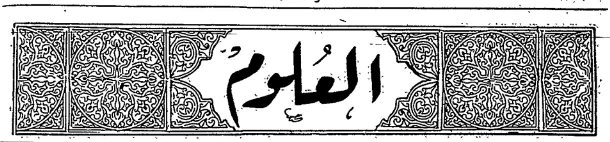
وهكذا أرى قولنا « مجموع الكل هو خير » أدنى إلى الحقيقة من قولنا « كل شىء هو خير» وإذ ذاك لاسبيل لأحد أن يأتى ببراهين لأثبات شىء أو لدفع شىء . لأن هذه البراهين تتعلق رأساً بمعرفة عمارة الكون والاطلاع على غاية خالقها ، وهذه المعرفة يبعد على العقل البشرى أن يُلم بها ، والقواعد الصحيحة لمذهب التفاؤل لا تستمد من متاع المادة ولا من ميكانيكية العالم ، ولكنها تُستمد بواسطة العقل من كمالات الله التى يدبر بها كل شىء .

اذا عدتَ بهذه الأسئلة المتباينة الى مصدرها الشامل رأيتها كلها تعود الى مسألة وجود الله ، فاذا ثبت وجود الله فلا بدّ أن يكون كاملا ، واذا كان كاملا فلا بد أن يكون عاقلا وقديراً وعادلاً ، واذا كان عادلاً وقديراً فكل شىء مبنى على خير وصلاح ؛ واذا كان عادلاً وقديراً فروحى هى خالدة ، واذا كانت روحى خالدة فان ثلاثين عاماً من عمرى لا توازى شيئاً عندى ، وربما كانت ضرورية لانقاذ الكون . فاذا ما سلمتَ لى بالقضية الأولى فلم تتزعزع هذه النتائج التى وقفنا عليها ، وإذا لم تسلم بها وكان نصيبها منك الجحود فان كل مجادلة فى توابعها تذهب عبثاً ؟

بيروت — خليل هنداوى

(١) بوب : (١٦٨٨ — ١٧٤١) شاعر انجليزى مذهبه التفاؤل

(٢) ليبنتز : (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيلسوف ألمانى نشر مذهب التفاؤل فى كتابه الفلسفى عن عدالة الله .



بلـــوتو Bluto

السيار التاسع

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

في العدد (٥٦) من مجلة الرسالة مقال ذكر به أن الكواكب السيارة ثمانية ، وأنها — مرتبة حسب قربها من الشمس — (عطارد ، الزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشتري ، زحل ، أورانوس ، نبتون) . وقد كان هذا القول صحيحاً حتى شهر مارس سنة ١٩٣٠ ، فكان مدار « نبتون » يحدد نهاية المجموعة الشمسية التي تنتمي اليها كرتنا الأرضية ، ثم اتسعت هذه المجموعة باكتشاف سيار تاسع هو « بلوتو » وإلى القارىء قصة هذا الكشف .

الفرق بين النجم والسيار :

في المقال المشار إليه سابقاً نظريتان من النظريات التي وضعت في تفسير كيفية تكوين السيارات حول الشمس ، ولعل أقرب هاتين النظريتين إلى الصحة هي أحدثهما ، وهي نظرية المد التي يؤيدها الآن كثير من العلماء تأييداً رياضياً ، منهم العالم الانجليزي المشهور « سير جيمز جينز » ، فشمسنا الحالية ومعها كل ما انفصل منها على شكل كواكب وذرات متحطمة وإشعاع كانت في الماضي السحيق تكون نجماً هائلاً ، اقترب منه نجم ثان — ربما كان أكبر منه — فجذب اليه جزءاً من الأول على شكل السيجار ومن هذا السيجار انفصلت الكواكب السيارة . ولعل ترتيب السيارات بحجومها الحالية يؤيد هذه النظرية ، فأضخمها في الوسط وأصغرها في الطرفين . وهذه المجموعة الشمسية تسبح كلها في الفضاء تفصلها ملايين ملايين الأميال عن أقرب نجم إليها . فاذا نظر الإنسان وهو على الأرض إلى القبة السماوية رأى بعينه المجردة آلافاً من هذه النجوم ، وقد يكون الوقت ملائماً لأن يرى سياراً أو أكثر [1] . ويمكنه أن يميز السيار عن النجم بشدة لمعانه وعدم تألقه وتغييره لمكانه النسبي بين النجوم الثوابت على مر الشهور والأعوام (ومن هنا نشأت تسميته بالسيار أو التائه) وكذلك يميز السيار بظهوره على شكل قرص صغير في عدسة التلسكوب ، على حين أن النجوم لا يمكن أن تظهر أكثر من نقطة ، ولكن ذلك لا يساعدنا دائماً على الكشف عن السيارات ، فعطارد لا يبعد عن أمه الشمس إلا قليلا ، فتصعب رؤيته بالعين المجردة الا في البقعة المنبسطة قبيل شروق الشمس أو بعيد غروبها ، وأورانوس ونبتون لا تراها العين المجردة لبعدها عن الشمس والأرض بعداً يجعل الزاوية التي يحدثها قطر كل منهما عند العين لا تمكنها من الرؤية ، وهذا هو السبب في عدم معرفة العرب القدماء لها قبل اختراع التلسكوب

وكلما ابتعد السـيار عن الشمس صعب كشفه وتمييزه عن النجوم ، وقد كشف « هرشل » عن اورانوس (أب زحل آله الزرع) عفواً في سنة ١٧٨١ وهو يوجه منظاره الى جزء من السماء ، وقد ظنه في أول الأمر « مذنبا » وكشف « جال » عن نبتون (آله البحر) في سنة ١٨٤٦ بعد بحوث « ليفرييه » الرياضية

البحث عن سيار تائه :

وفي أوائل القرن الحالي كان الأستاذ « برسيفال لول » يقول بوجوب وجود سيار آخر تابع لمجموعتنا الشمسية أبعد من نبتون ، وقد جاء هذا القول نتيجة لبحوثه الرياضية في مدارات السيارات المعروفة في ذلك الوقت ، وعدم اتفاق المدار الرياضي مع المدار الشاهد . فانطلق الفلكيون هواة ومحترفين يبحثون عن ذلك السيار التائه ، ولعله لولا التعاون الدائم بين فروع المعرفة العامة في الوصول الى الحق لما تمكن أحد الى الآن من الكشف عن هذا السيار ، فان محاول الكشف عنه كان عليه أن ينظر الى جزء

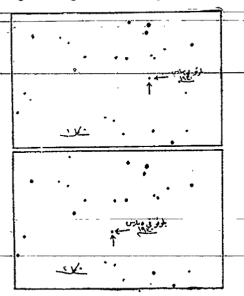
(١) يمكن الناظر إلى السماء أن يرى بعد مغيب الشمس بساعة أو ساعتين « المشتري » يميل هو الآخر إلى المغيب . ويميزه الناظر بشدة لمعانه بالنسبة إلى ما يجاوره من النجوم . ويمكنه أن يرى أيضاً « الزهرة » قبل شروق الشمس (نجمة الصباح) لامعة لمعاناً يبعث في النفس مزيجاً من السرور والرهبة والخشوع

من السماء فى وقت معين من كل ليلة ويطيل النظر الى آلاف النقط اللوامع التى يراها ، ويحاول أن يجد أيها يغير موضعه على مر الليالى ، وبذلك يميز السيار عن النجم الثابت ، فهذه النجوم « الثوابت » وإن كانت فى حركة مستمرة الا أن بعدها السحيق يخفى عنا هذه الحركة ولا يظهرها الاعلى مر الأجيال الطويلة ، وذلك كما يلاحظ الانسان أن القطار السريع البعيد يدب دبيباً

وعملية ملاحظة حركة السيارات هذه عملية شاقة تحتاج الى صبر كثير ودقة وأمانة فى التقدير ، فان إطالة النظر الى عدسة التلسكوب تتقب شبكية العين وتجعلها ترى ما ليس له وجود ، ولكن تضافر نواحى المعرفة للوصول الى الحق هو الذى مكن العلماء من الوصول الى السيار التاسع ، وذلك باستخدام الكمرا فى تصوير السماء بدلا من الملاحظة والتخطيط ، فأغلب تلسكوبات العالم الآن مجهزة بآلات فوتوغرافية تمكن الفلكي من تصوير أى جزء من السماء بكل دقة وأمانة ، كما أنها تزيد من قدرته على الملاحظة ، فالجسم الضعيف النور قد لا يؤثر فى العين باستمرار النظر الى موضعه ، ولكنه يؤثر فى اللوح الحساس باستمرار تعريضه اليه عدة ساعات ، وأحياناً عدة ليال ، وذلك بادارة التلسكوب إدارة تعادل حركة الأرض ، فيصبح اللوح دائماً فى مواجهة الجزء المراد تصويره

الكشف عن بلوتو :

قلنا إن الأستاذ « برسيفال لول » كان قد تنبأ فى أوائل القرن الحالى بوجود تابع تاسع لمجموعتنا الشمسية ، وقد تمكن فلكيو مرصد « لول » فى « أريزونا » من الكشف عن هذا السيار ، وبذلك أصبحت التوابع المعروفة لشمسنا تسعة إذا استثنينا مئات التوابع الصغرى Asteroide التى تقع بين مدارى المريخ والمشترى ، والتى قد تكون بقايا سيار منفجر أو متحطم ابتدأ البحث عن هذا السيار الجديد بأن عرضت الألواح الفوتوغرافية الى أجزاء السماء المشتبه فيها مدة من الزمن تكفى لانطباع آثار كل ما فى السماء على الألواح ، وتكررت هذه العملية فى الليالى المتتالية ، ثم امتحنت الألواح المختلفة فلوحظ أن جميع النقط اللامعة لم تغير مواضعها بالنسبة لبعضها البعض ، إلا نقطة واحدة جعلت تسبح بين مواضع النجوم الثابتة ، فكانت هى السيار المنشود ما دامت جميع السيارات المعروفة بعيدة عن الموضع المصور . وبهذه الطريقة تم الكشف عن السيار التاسع ، فان الفلكي الشاب مستر « كليد تمباو » لاحظ بامتحان لوحين أخذا فى ٢ مارس سنة ١٩٣٠ ، ٥ مارس سنة ١٩٣٠ أن نقطة لامعة قد غيرت موضعها تغيراً محسوساً (شكل ١ ، شكل ٢)



وبذلك يكون هو أول من كشف عن « التائه » التاسع . وكان بعده عن الأرض فى ذلك الوقت ٤٠٠٠ مليون ميل ، أى أن الضوء المنعكس عن سطحه يصل الى الأرض بعد خمس ساعات ونصف ساعة من وقت انعكاسه ، وقد سمى بلوتو (إله العالم السفلى) ، وهو الاسم الذى أطلقته عليه فتاة كان سنها ١١ عاماً تدعى « فينيتا » . وهى ابنة أخى الأستاذ « مادن » أستاذ العلوم فى كلية « ايتون »

ولا يعرف الآن كل شىء عن هذا السيار ، وذلك لبعد المسافة التى تفصلنا عنه ، ولكن مداره حول الشمس قد عرف بدراسة الألواح الفوتوغرافية التى يظهر فيها من وقت لآخر ، ويعتقد أنه يعادل الأرض حجماً ، ولكنه أكبر منها كتلة ، فمادته أكثر كثافة من مادة الأرض

ولا يمكن أن يقال الآن إن بلوتو يحدد نهاية مجموعتنا الشمسية ، فقد تسفر دراسة الخرائط السماوية عن وجود سيار آخر فتتسع مجموعتنا الشمسية ، ولكن ذلك قليل الاحتمال لأن قوة جاذبية الشمس لهذه السيارات تضعف مع البعد ، فتقل قدرتها على الامساك بالسيار وجعله يدور حولها ؟

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة امبابه للمعلمين



من صور الريف — قصة واقعية

الشقراء المجنونة ...!!

بقلم محمود البكري

... فتاة مثقفة على خلق عظيم ، تناولت من التعليم حظاً غير قليل، وفيها شيء من الجمال : عينان ساجيتان ، شعر يشبه أن يكون خيوطاً من ذهب ... ثم نفس شاعرة متمردة تحس الجمال وتتذوق الأدب . كانت «فتحية» صورة نادرة في الفتيات : امتزج فيها سمو الروح بجمال الصورة ، تعلمت في La mère du Dieu وقرأت جوت ولامارتين ودي موسيه . فظمئت روحها الى حب عنيف ، وعرفت «سامي» فوجدت عنده رياً لروحها الصادى ، فأنست اليه وهام بها ، وكان حب بينهما : حب جبار قوى كأنه الأعصار لا تسيره المنافع ولا تغيره المطامع ولا توهنه أحداث الحياة ، وهو فوق هذا نبيل بصورة لا تقع في الوهم ، طاهر بشكل لا يتعلق به ظن

... وكانا يقضيان حياة فيها حظ من الشعر والخيال : يتقابلان في الحدائق فيجلسان على العشب الندى ، ويخلوان الى نفسيهما فيأخذان في فنون من الحديث والأدب ، حتى يتقدم الليل فيفترقان الى غود ... وكانا يتفقان على الاعجاب بالأدب الفرنسي ، وينفقان في القراءة وقتاً غير قليل ، ويستطيل كل منهما على صاحبه أحياناً في رقة ورفق ودعابة

ومضى على هذا الحب سنوات ثلاث . ثم أحيط أبوها بخبره ، وكان صارماً قاسياً شديد القسوة ، عنيداً مسرفاً في العناد ، فاستدعى فتحية فجأة ...

... وكان يوم الوداع ثقيل الظل سريع الخطو ... وجاء القطار ! فجاشت الدموع في صدر فتحية ، ولكنها تجلدت ونهنهت عينيها ، وأخذت نفسها بصمت عميق ، وإن كانت روحها تكتم ثورة صاخبة تضطرم في عينيها الحالمتين في ذهول واستغراق .. وكانت تخرج منديلها الأزرق الصغير من حين الى حين فتلتقط به دمعة أو دمعتين .. ثم تحرك القطار وغاب في أحشاء الطريق . فاهتدت الدموع الضالة الى عين فتحية وغلبتها على أمرها ، فاستسلمت للغريزة ، وأرسلت عينيها في حرارة وغزارة وذلة وصمت ... !!

... وخطبها الى أبيها رجل كبير من أعيان الريف أوتى بسطة في المال ، إلا أن بضاعته من الثقافة والعلم مزجاة ، وكان يكبرها بثلاثين سنة أو تزيد ! ... مانعت وتمردت . وثار بينها وبين أبيها نقاش قصير ولكنه حاد . أيهما أشد إسرافاً في الجرعة ؟ أهو لأنه يريد أن يقضى على سعادة ابنته ؟ ! أم هي لأنها تخالف أباها في أن تتزوج رجلا لا تفهمه ، وليس بينهما صلة من عاطفة أو سن أو ثقافة ، وكان جدال عنيف في شيء لا يحتمل الجدال ولا يستدعى الحجة . لأنه بين لا لبس فيه ولا غموض ، ولأن حق حرية اختيار الزوج لا يسخط الله ويرضى الناس ، يقره العقل ولا يرى القانون بأساً في أن يسمح به ، ولكن الحق مهما يكن ، ينكره ويلتوى به المكابرون ، والمكابرون لا حيلة فيهم ولا دواء لهم . والوالد يحتال حيناً ويتلطف ، ويقسو حيناً آخر ويهدد ، والفتاة على كل حال تتمرد وتثور ... !

... وأخيراً استقرت ثورتها وانتهت إلى مثل ما تنتهي اليه ثورات النساء في منازلنا : استسلام مغلوب

... وأخيراً ! ! تبددت في مهب الظلم آمال ، وتحطمت على شعاب العناد أحلام ، وضاعت في غمرة الطمع أماني ..

وأخيراً زفت فتحية التي تعلمت في «La mère du Dieu» إلى الرجل الذي اختير لها وأكرهت عليه إكراهاً . . . أغدق عليها مالا وحلياً وثياباً ، فلم تبهرها هذه المظاهر ، ولم تكسر من حدة نفارها ولم ترد جماحها ... كانت تبكي في اتصال ومرارة .!

وكان حب سامي لما يزل يستبد بها فينسيها في النهار الراحة والقرار ، وفي الليل المنام .. كانت تغفو أحياناً قليلة ، ثم تفيق صارخة مضطربة روعتها الأشباح ، وطاردتها أرواح الذكريات في إلحاح وقسوة ، فراحت حياتها خليطاً مشوشاً من الصور المرعبة ، كانت تحبه حبا طاغيا عنيفاً جعل حياتها في البعد عنه سلسلة طويلة متصلة من الشقاء

حاولت جهدها أن تنسى : فكانت تخرج إلى الحقول ، وتقرأ كثيراً ، ولكنها كانت تفر من عذاب إلى عذاب

وكان زوجها سخيف العقل ضعيف الرأي ضيق النظر ؛ وعنده أن المرأة لم تخلق إلا لتكون ماء أو شيئاً يشبه الماء يطفئ به الرجل جذوة الحيوانية . . . فاما أن تتعلم أو تقرأ أو تكتب أو تحب ، فكل ذلك حياد عن القصد وجور عن السبيل ، وخروج على العرف ، وانتقاض على التقاليد

كانت الهوة بينه وبين فتحية عميقة سحيقة لا حد لها ولا غاية ولا قرار : انصرفت هي إلى حبها وذكرياتها وكتبها فاستغرقتها واستأثرت بها ، فلم تجعل لشيء آخر في قلبها مستقراً ولا مقاماً

وتولى هو إلى مزارعه وماله عن كل شيء عداها ، وكان حقير النفس فقير العاطفة مجدب الشعور ، لا يضطرب في نفسه إحساس ولا تعرف العواطف إلى قلبه سبيلا : كل أيامه بعد أعماله أكل ونوم ... يمر النهار فلا يكاد يتحدث إلى زوجه بأكثر من كلمات آلية معدودة ، وإن تحدث ففي شئون مزارعه وماشيته حديثاً تافهاً ضئيلا لا يدل على معنى ، وإن كان يدفع السأم ويرد إلى الضجر القاتل

ضاقت فتحية بهذه الصور المتشابهة من العيش ، وأسقمها هذا اللون من الحياة المضطردة الباردة ، فاندفع السأم واليأس إلى نفسها اندفاعا قويا

وضاعت في تيه الذكريات والظلم هذه المخلوقة الشقية التي تستقبل الصباح بالدموع وتودع النهار بالدموع . . . فرعت إلى الكتب تقرؤها إذا كان وجه النهار إلى الضحى ، فاذا أقبل العصر خرجت إلى الحقول مطرقة ذليلة لا تحدث إنساناً ولا تستمع إلى إنسان فتقضي وقتاً ما ، ثم تأخذ طريقها الصامت إلى المنزل فتخلو إلى نفسها في غرفتها ، ثم تخرج صور سامي فتتحدث إليها وتسكب أمامها الدمع كأنها عابد في المحراب ..!

. . . وظهر زوجها على صور سامي ورسائله ، فثارت نفسه وارتد وحشاً ضاريا عاتياً ديس عرينه وأبيح حرمه واستحل حماه ، وبدت في خلقه صورة جديدة : الغيرة الصارخة العنيفة . فمسخت تصرفاته كلها وصبغت حياته بلون قاتم ظالم مستبد

العرض والشرف في الريف شيئان يهون معهما كل شيء..!

ومضى الوحش يفكر في انتقام هائل مروع بعيد الأثر : فكر في قتلها وفي طلاقها : ولكن هذه الصور لم ترض شعوره المحنق ، ولم ترو نفسه الصادية إلى الدم ، لأن في كل هذا موتاً سريعاً مريحاً ، ولكنه يريدها أن تموت على مهل في نزع طويل بطيء

واستقرت نفسه الحائرة أخيراً على تجربة بدأها حالاً ، فعمد إلى كتبها وأوراقها فجعلها وقوداً للنار ، ثم أخذها هي بالقسوة وسوء الحساب : يضربها إذا كان النهار ، ويهجرها إذا كان الليل ، وهو فوق هذا يكلفها من أعمال المنزل مالا طاقة لها به ...

ومضى السجان الجبار في تجربته والضحية البريئة تذبل على مهل . تمادت بها الآلام فأغرت بها اليأس ، وردها اليأس إلى لون من الحسرة ملح ، عميق يسوقها إلى الجنون سوقا متداركا سريعاً . !

***

كل هذا قصته على أختي عن صديقتها زوج جارنا الغني

ولأيام خلت كنت أجلس في حديقتي في ظل شجرة هرمة إلى جانب الساقية التي تنوح أبداً . . سمعت صرخات متصلة ومتقطعة ، وكلها ثائرة ومجنونة ، وسمعت كلمات مبهمة مختلطة . . . صمت وصمتت الساقية وحبست دموعها ، ومالت الغصون على الغدير هامسة « إذن أفلحت التجربة وجنت الشقراء !! »

واستأنفت الساقية نواحها . . . وأرسلت دموعها . . . على الشقراء المجنونة ... !!!

« قلوصنا » محمود البكري القلوصناوي

من المسرح الغنائي

٢ – سافو

لأوجينه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

الفصل الثاني

(منزل حنا جوسين بباريس وبه حنا ووالده سيزار ثم أمه ديفون وايرين ابنة عمه)

حنا — إنك تتعب نفسك يا أبي

سيزار — صه . صه

حنا — (متأملا صورة فوق الحائط) ما أجمل منزلنا وهو يتحكم في السهل ، وتمتد كرومه نحو الأفق . وما أحلى ما ألمح أمي عند الباب فيتضاعف اجتهادي . ولكن أين هي ؟

سيزار — في الدير ياولدي عند ابنة عمك إيرين

حنا — وهل تعود إيرين معكما ؟

سيزار — نعم لتتسلى بها في غيبتك

حنا — حسناً تفعلان يا أبي

(تدخل ديفون وإيرين)

ديفون — آه يا ولدي ما هـذه المدينة . ما أكثر مبانيها ، وما أكثر الحركة فيها . إن طرقاتها تموج بالعربات والناس ، فأين هي بجلبتها من قريتنا الهادئة . آه يا ولدي المسكين !

سيزار — قضى الأمر فلا محل للتبرم الآن

ديفون — ولكن هل نسيت إيرين يا حنا ؟

حنا — حقيقة كيف أنت يا ابنة عمي ؟

ديفون — وكيف تراها الآن ؟ أليست صبوحة كالنهار ، جميلة جمال الملكات . ولقد ضمك وضمها صدري من الصغر (لزوجها) يجب أن نرحل ياسيزار فهيء نفسك ، بينما ألقي نظرة الى غرف الدار (لولدها وهي خارجة مع سيزار) ضمها ياحنا (يخرجان)

حنا — ما كان أسعدني بهما ، فأنا أغبطك يا إيرين لأنك ستكونين معهما بقريتنا ، هبة الشمس وموطن الأمل والحب

إيرين — ولعلك تذكر أيام كنا نقصد إلى الغابة فوق حمارنا بلانشيه بينما أجراسه تجلجل تحت عنقه وهو ينهب بنا الأرض

حنا — نعم يا إيرين وأذكر أيضاً ساعة كنت أضع يدي في يدك وأنا معتز بك مباه بحسنك

إيرين — وكنا نقلد اليهود عند فرارهم من مصر وأنا أسميك يوسف وأنت تدعوني مريم . هل نسيت ؟

حنا — لا . لم أنس

إيرين — وكنا بعدئذ نفر إلى المنزل كأنما يطاردنا هيرود العاتي الذي أسرف في دم الأبرياء ، وأذكر أيضاً اغتباطنا عند عودتنا ونحن نسمع صياح الأوز يحمله إلينا النسيم .

حنا — وإن إيرين عند ما كانت تقترب من الدار كانت تسرع فتضمني

إيرين — ما كان علي وقتئذ من حرج

حنا — والآن ؟

إيرين — آه . . .

حنا — إذن لاتغضبين لو أنني ضممتك

إيرين — كما كنا نفعل فيما مضى ؟

حنا — نعم كما كنا في ذلك العهد (يضمها ويقبلها في جبينها)

(يدخل سيزار وديفون وفي يدها مصباح وقد رأياها)

ديفون — (هامسة في أذن زوجها) أرأيت يا سيزار ؟

سيزار — رأيت

ديفون — في رعاية الله ياولدي

حنا — دعيني أصحبك يا أمي

ديفون — (تمنعه) مكانك . فهذا المكتب أولى بك . إن العمل في هذه المدينة الواسعة هو الذي يدفع عنك خطرها

سيزار — صدقت يا ديفون

ديفون — الوداع ياحنا . ثم احتفظ بهذا المصباح القديم . فقد كنت على ضوئه أهيىء لك الثياب ، وأنظر إلى وجهك من خلال الأستار وأنت طفل فى المهد . إلى الملتقى ياولدى

حنا — (متألماً) أمى . . ؟

سيزار — (لديفون وهى متأثرة) ديفون !

ديفون — ثم عليك ياولدى بالدرس . واجعل نصب عينيك أن تكون رجلاً . والله يرعاك

حنا — (باكياً) ما أكرمك يا أماه

ديفون — (متأثرة جداً) تشجع ياولدى

سيزار — (متأثراً مثلها) حنا . . .

ديفون — أراك على وشك البكاء أنت أيضاً

إيرين — ولكن ألا تشعر بالوحدة هنا

حنا — يجب يا إيرين . . .

سيزار — إلى الملتقى ياولدى

حنا — إلى الملتقى يا أبى . إلى الملتقى يا أمى . إلى الملتقى

(يخرجون ولا يبقى إلا حنا ثم فنى)

هاهم رحلوا وها أنا فى وحدتى . ولكن كيف تطيب حياتى هنا بعد أن ذقت لذة لقياهم ، وبعد أن عشت معهم تحت سماء ذلك المنزل . لقد أصبحت فريداً فى باريس تدوى بضوضائها من حولى كما تدوى العاصفة من حول السفينة . آه لم لايحين الفراق إلا فى الساعة التى يحلو عندها الحب ؟ لقد دلوا الألم على طريق قلبى ، وعرّفوا الدموع مكان أجفانى . . .

(تدخل فنى ببطء بحيث لا يشعر بها)

فنى — بيبى [1]

حنا — (يلتفت) أنت . . . ؟

فنى — نعم أنا . أظننت أن كل شىء انتهى . إنى ممن ليس لحبهن مدى . وإذا كنت قد انقطعت عنك فلأننى علمت بمقدم أهلك . ولكن قل لى : من تكون تلك الفتاة الصغيرة التى كانت معهم ؟ أحبتك . هه ؟ (ثم تضحك)

حنا — بل ابنة عمى

فنى — (ببرود) إنها لطيفة حقاً . . إننى أخذت أرقبهم حتى رحلوا فأسرعت إليك .

حنا — لقد أعدّت لى أمى هذا المنزل لأنصرف فيه إلى درسى

فنى — إذن أذهب حتى لا أضيع وقتك

حنا — ولم ؟ . أما كنت أشتغل من قبل وأنت إلى جانبى

فنى — على أننى سأكون عاقلة وحكيمة ياحنا (يقع نظرها على تمثال لها من المرمر) ولكن كيف حصلت على هذا التمثال ؟

حنا — إنه لسافو التى صورها كاوودال . ألا تعرفينها

فنى — سافو ! . . إسمع ياحنا إننى أمقت أولئك الفنانين فلا تذكرهم لى فكم أساؤا إلى

حنا — ولكن الفن جميل يشرح النفس ويرسل السرور إلى القلب وينثر أزهار الأمل فى طريق الناس

فنى — بل الجميل أن يكون لى مثل شبابك الغض ، وقلبك المتقد . الجميل هو تلك النفس التى يرفعها الحب فوق مستوى النفوس فتدرك أن السعادة لا تكون إلا حيث تأتلف القلوب

(يحاول هنا حنا أن يقبلها فتشير إلى مكتبه)

عد إلى عملك يابيبى

حنا — لابأس من لحظة

فنى — إذا كنت تحبنى فانصرف إلى درسك

(يعود إلى عمله متظاهراً بالمطالعة وهو يراقبها وكأنها تناجى نفسها)

يامن تملكنى هواه وقد سرى بمفاصلى
خذلى أماناً من لحاظك إنهن قواتلى

حنا — آه يافنى ليتك تنشدينى دائماً شعر هذا الحب

أنعشى مسمعى وغنى قصبة الغرام
واعلمى يامناى أنى فيك مستهام
كلما هجت مسمعى لا أرى خاطرى معى
فارحمى المتيم

(1) أى حبيبى

فتى — هل ترى حل قلبه صادق الهيام
أم ترى أن حبه ماله دوام
ربما خاب مطمعي وانطوى فيه مصرعي
فالرحيل أسلم
(تحاول الذهاب فيمنعها)

حنا — أنت مِلكي لا مرد
فتى — لست ملكاً لأحد
حنا — آه ما كنت أظن
فتى — إن تردني فليكن
حبنا ملك الأبد
حنا — أنا يا فتى فقير
فتى — في الهوى كل الغنى
إنما البؤس يصير في حمى الحب هنا
حنا — مستحيل. مستحيل
فتى — ليس في الحب محال
أنا في البيت أزيل عنك أسباب الملال
كلما أبصرتني أتثنى زدت جد
فاجهد لا تنثني ولكن ملك الأبد
حنا — دعي شفتي تغنم قبلة من الوجنتين لأحيا بها
فقد صار حسنك لي قبلة يصلي غرامي بمحرابها
فتى — ودعني لصدرك أنسى به عذاباً بقلبي وحظاً قسا
فياليتهم علموا ما به وما جرعوني كؤوس الأسى
معاً — نعمنا على غفلة من رقيب وتم المرام
كذاك الحياة فليست تطيب بغير الغرام
(قبل وعناق)

الفصل الثالث

المنظر الأول

(في مطعم «نعيم البطون» بحديقة بمدينة أفريسي في يوم أحد)
(فتى في نافذة تطل على الحديقة وحنا من خلفها)

فتى — ما أطيب الحب تغمره مثل هذه الشمس،
ألا نخرج يا حنا؟
حنا — نعم نخرج (محاولا ضمها)
فتى — ألا نخشى أن يرانا الناس

حنا — بعد سنة: . . ونحن هنا، ما أسرع مر الأيام.
آه كم ملكت مشاعري يا فتى؟
فتى — ولكنك مع هذا لم تصبح كلك لي. إني أود أن تكون لي وحدي. وألا تشوب سماء هذا الحب غيوم
حياتي الأولى

حنا — ألم نقطع شهي الحياة في هذه المروج الساحرة؟
فتى — وأنا أرقب عودتك عند كل مساء
حنا — فاذا ما عدت هزتنا أحلام القبل وأناشيد الحب والأغصان خفاقة نشوى بتغريد الطيور (يجذبها اليه)
آه يا فتى؟
فتى — ليس هكذا. دع لي ساعدك ليشعر الناس أنك الى جانبي
حنا — (يفعل ما طلبت)
فتى — نعم هكذا. هلم الآن
حنا — (يغني)
أضاءت حياتي فيوض السنا فليلي نهار
وأطربني بنشيد المنى لسان الهزار
فتى — وطوق خصري حبيب الهنا وحسني إزار
أنا معصم الحسن يزهو أنا وأنت السوار
(يختفيان حيث يؤم الحديقة لابودري وبعض فتيان وفتيات وكذلك كاوودال حيث تقع عينه على المطعم فيشير اليهم)

كاوودال — من هنا. من هنا
لابودري — حقاً إنه مكان بديع
كاوودال — (مشيراً إلى اسم المطعم)، ثم انظر هذا العنوان
لابودري — لقد صدق والله. إن الطعام في الواقع نعيم البطون
(يقترب الباقون لاغطين فرحين)

«يتبع» محمود خيرت

٢ – سيوة

بانى سيوة

إذا تسامحت كثيراً يمكننى أن أقول إن سيوة فى مبانيها ومنازلها وصوامعها تعادل فى تفصيلها وشكلها أحقر قرية من قرى وادى النيل . فالمنازل فى تلك الواحة تبنى بقطع من الملح والطين بغير نظام فى البناء أو حفر لوضع الأساس فى الأرض ، بل إن البناء و(أسميه بناء على سبيل المجاز) إذا أراد أن يبنى منزلاً فإنه يضع قطعة من الجبل يحدد بها أربع حوائط المنزل ، ثم يبنى بعد ذلك فوق سطح الأرض بقطع الملح والطين بارتفاع متر تقريباً ، ثم يترك تلك المبانى مدة اسبوع حتى تجف ، ثم يبنى فوقها متراً آخر وينتظر أسبوعاً ثانياً ثم يكمل البناء لسقف المنزل . وفى العادة أن الحجرات فى سيوة لا تزيد ارتفاع سقفها على مترين ونصف متر أو ثلاثة أمتار ، والحوائط يكون سمكها فى نهاية ارتفاعها أقل كثيراً منه وهى قريبة من سطح الأرض ، وتتكون الأسقف بعد ذلك من خشب النخيل ، وطريقة ذلك أن يشقوا بالطول خشب بعض النخلات المتينة ثم يضعوا أنصاف النخيل فوق الحوائط ويسمونها « قناطر » ثم يضعون فوقها ألواحاً يقطعونها من النخيل أيضاً ثم يطنون هذه الألواح بالطين .

ولبعد الواحة وصعوبة المواصلات إليها لا يمكن للسكان أن يحصلوا على أخشاب ليصنعوا منها أبواباً ونوافذ للمنازل ، ولذا فنوافذ المنازل صغيرة ، لا تزيد اتساع احداها على نصف متر مربع ، ويصنعون النافذة نفسها من خشب صناديق البنزين التى تحملها سيارات النقل معها ، ولذا فالنافذة الصغيرة تعمل من أربعة مصاريع رغم صغر حجمها ، وتتكون المنازل عادة من طابقين ، وبعض الأغنياء يقيمون أمام منازلهم مظلات يجلسون تحتها وقت الحر الشديد ، لأنه من الصعب أن يتعرض إنسان لحرارة الشمس فى سيوة مدة الصيف ، إذ تصل درجة الحرارة فيها الى ٤٨ سنتجراد ، وتمتاز سيوة بدروبها الضيقة وحواريها المتعرجة الملتوية ، حتى ارتبك مأمور البلدة كيف يضع أحد مصابيح الانارة فى احدى الجهات لأنه وجد أن المصباح لن ينير إلا الموضع الذى هو فيه لكثرة الالتواء والانحناء ، ولأن المنازل متنافرة غير منسجمة الوضع

وعدا ذلك فإن جزءاً من القرية وهو الجزء الغربى مبنى على صخرة ترتفع تدريجياً عن باقى القرية ، ولذا تجد منزلين متقاربين يرتفع أحدهما عما يجاوره بما يقرب من ثمانية أمتار .

ومن الظواهر الواضحة فى سيوة أن الزائر لها يرى وهو فى وسط سوقها صخرة مرتفعة تشرف على ميدان السوق وقد علتها منازل من الملح والطين ونزعت سقوفها وتهدمت جدرانها ، وظهرت بشكل بشع مخيف ، وليست تلك المنازل إلا سيوة القديمة هجرها أهلها من فوق الجبل بأمر الحكومة من زمن غير بعيد وأقطعتهم أراضى فى سفح الجبل وفى الأرض الواطئة المجاورة له فبنوا منازلهم الحالية .

وكان الأهالى يقطنون فوق الجبل فى تلك المنازل المتلاصقة ، وقد أحاطوا منازلهم بسور مرتفع يضم القرية كلها ، وفتحوا فى ذلك السور فتحات صغيرة كفتحات الحصون الكبيرة التى تعملها الجيوش لرؤية العدو ولاطلاق النار منها ، ووصل ارتفاع هذا السور فى بعض الجهات الى نحو خمسين متراً ، وصنعوا فى ذلك السور عدة أبواب ضخمة من خشب النخيل كانت تقفل أثناء الليل حينما يأوى سكان الواحة الى منازلهم .

وقد سألت عن الغرض من سكنى السيويين فى الماضى فى مثل هذا الحصن فوق الجبل ، فعلمت أنهم إنما فعلوا ذلك حفظاً لأنفسهم من هجوم أعراب الصحراء الغربية ، إذ أنهم كانوا يحضرون بالليل لنهب سيوة وسلبها .

وبدأت منازل سيوة القديمة فوق الجبل متجاورة كالمعتاد فى كل القرى ، ولكن لما زاد عدد سكان الواحة بنوا منازل أخرى فوق المنازل القديمة حتى لا يخرجوا على السور الخارجى الذى هو حصن لهم ، ولذا فبدلا من أن تتسع رقعة الواحة كلما ازداد سكانها بدأت ترتفع أبنيتها وهى فى نفس المساحة الضيقة التى ابتدأت فيها ، وهكذا استمر الحال وبمرور الزمن ازدحمت الأبنية فوق بعضها ، وضاقت أزقتها وشوارعها وتعرجت منافذها حتى أصبحت أشبه شىء بخلية النحل ، بل وصل الأمر ببعض المنازل أن أصبحت وهى داخل السور أكثر ارتفاعاً من السور نفسه وأصبحت الشوارع لا تسع رجلين يسيران متجاورين فيها ، وأظلمت جميع أنحاء القرية من ارتفاع المنازل وضيق المنافذ التى توصل الضوء الى فتحاتهم الصغيرة التى كانوا يفتحونها على أنها نوافذ ،

وأصبح السائر فيها يحتاج في الواقع إلى مصباح يحمله معه أثناء النهار لينير له الطريق. على أن الذي يقف فوق تلك المنازل يرى أمامه الواحة بحقولها الخضراء وحدائقها اليانعة بأشجار الزيتون والليمون، ونخيلها الهادئ الساكن، فيأخذه هذا المنظر الجذاب، ويرجع بذاكرته إلى تلك المواقف البهيجة التي أكثر عمر الخيام من وصفها في رباعياته.

وظنيي أن الحرارة تكون شديدة في منازل القرية، لأن الشمس شديدة التأثير بينما التهوية تكاد تكون معدومة.

وفي وسط القرية في مكان متسع قليلاً بين هذه المنازل المرتفعة المظلمة توجد بئر منحوتة في الصخور بها ماء عذب، لأن في أسفل الصخر عين ماء تغذي تلك البئر، وأيضاً تغذي بئرين صغيرتين مجاورتين للبئر السالفة. عندقاعدة هذا الجبل بنى الأهالي منازلهم الحديثة بعد أن تركوا تلك القرية التي كانت مزدحمة بهم وهم الآن آمنون من الهجوم، بل إن هذه الفكرة لا تتطرق إلى مخيلتهم، فالحكومة مسيطرة على الصحراء بأعرابها وقبائلها جميعاً، وقد فضل كثير من السكان أن يبنوا منازلهم وسط حدائقهم وحقولهم في ناحيتي السبوخا والمنشية، وللأغنياء منهم منازل للشتاء حيث يرجون الدفء وسط القرية، ومنـــازل للصيف وسط الحدائق المتسعة يقضون فيها فصل الصيف حينما تشتد حرارة الشمس وتصبح غير محتملة، وتمتاز منازل المشايخ والأغنياء بطلاء جزء منها بالجير الأبيض من الخارج، ولذا فإنهم يغضبون إذا حاول أحد الفقراء أن يطلي منزله بالجير تشبهاً بهم، بل إن معظم الفقراء لا يفكرون في ذلك تلافياً لغضب مشايخهم عليهم، وبهذه المناسبة فإن كل الأضرحة للأتقياء منهم تمتاز بطلائها بالجير إكباراً لشأنها وشأن أصحابهـا. وهذا الدهان يكون عادة من تبرعات يدفعها السكان تبركاً بصاحب الضريح.

* * *

توجد بسيوة ثلاث أسواق كبيرة لبيع البلح والزيتون تسمى بالمساطيح، والمسطاح مكان متسع تكتنفه حائط يبلغ ارتفاعها مترين، وهذه الحوائط تخالف في بنائها حوائط المنازل، إذ أنهم رغبة منهم في توفير العمل صنعوها من جريد النخيل، ثم أحاطوا الجريد من الوجهين بقطع من الملح والطين، فاذا جف الطين تماسك بسعف الجريد وهي في الحقيقة فكرة قديمة للخرسانة المسلحة ورغبة منهم في الاقلال من سمك الحائط، وضعوا الجريد رأسياً وهو يعادل أسياخ الصلب في الخرسانة. وأحد هذه المساطيح للسكان الغربيين من الواحة، والثاني للسكان الشرقيين، والثالث وهو أكبرهم وأعمهم لجميع سكان الواحة. ويقطن رجل سوداني أو كفري (نسبة إلى واحة الكفرة) منزلاً صغيراً عند مدخل السطاح ليحرس بلح الناس وزيتونهم طول العام نظير هبات يعطونها إياه من الشعير والبلح والزيت، ويحضر الأعراب عادة في فصل الخريف من وادي النيل ومن الصحراء ليشتروا البلح من سيوة، ثم ينقلونه على الجمال لوادي النيل حيث يباع في الأسواق بثمن معتدل

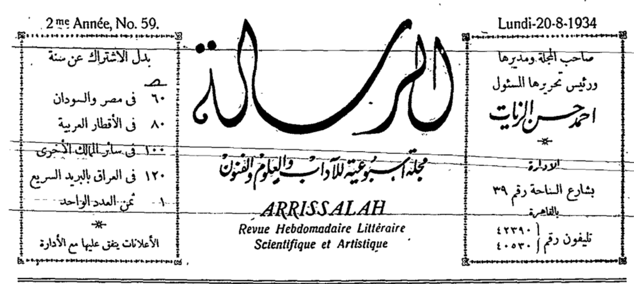
وحول هذه المساطيح أقام بعض الأعراب الذين يتاجرون بالبلح حظائر لجمالهم ومنازل لهم، وفي فصل الخريف ترى مئات من هؤلاء الأعراب بأرديتهم البيضاء يجوبون أنحاء المساطيح بين أكوام البلح ذات الألوان المختلفة من أحمر إلى أصفر إلى داكن بين الحمرة والسواد يساومون أصحابها في أثمانها على حين تنتظر جمالهم خارج المساطيح مجلجلة بأصواتها كأنما تنادي أصحابها في الداخل، وتزيد الحركة بعض العبيد وهم يحملون البلح المشترى مكبوساً داخل «مقاطف» كبيرة من الخوص ليحملوه على الجمال. وما أجمل منظر الناقة تحمل حملها وتسير وسط السوق تشق طريقها بين الناس كأنها باخرة تشق طريقها في الماء، أضف إلى ذلك صهيل خيول الأعراب ونهيق الحمير ونباح الكلاب، منظر يدل على أن في البلد حركة كبيرة، ولا شك فإن البلح والزيتون هما عماد الثروة في واحة سيوة.

ويقضي العرف بين الناس بالسماح لكل من يشاء أن يأكل ما شاء من البلح في المساطيح من غير مقابل، غير أنه ممنوع أن يأخذ معه شيئاً خارج المسطاح، ولذا ينتهز الشحاذون من الأعراب فرصة هذا الموسم ويدخلون المساطيح سائلين أصحاب البلح أكلة منه ليفوزوا بالشبع

وبيع «العجوة» شائع في السوق أكثر من غيره، وبعض الناس يبيعونها من غير (نوى)؛ وفي عرض البلح للبيع بهذه الطريقـة خطورة كبيرة: فالذباب يملأ المساطيح، والناس يطأون البلح بأقدام قذرة، ويعبثون به بأيد لا يفكر أصحابها في نظافتها. ولو أن العناية تصل الى تنظيم طريقة البيع لكان في ذلك أمان وطمأنينة لمن يأكلونه.

« يتبع »

فابتن



2me Année, No. 59. — Lundi-20-8-1934

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥٩ « القاهرة في يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ — ٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

صراع بين ثقافتين

فتنة الثقافة الأجنبية

ظاهرة في تفكيرنا وأدبنا تحمل على جد الأسف ، هي أن الشئون والنواحي القومية ماتزال مهملة منسية ، في حين أن الشئون والنواحي الأجنبية تلقى بيننا دائماً كثيراً من العناية والاهتمام

وتلك ظاهرة قديمة في تاريخنا الحديث ، ترجع الى سبب معروف ، هو سيادة النزعة الأجنبية في برامج التعليم التي تفرض على مصر منذ نصف قرن ، والتي يلحظ فيها دائماً إقصاء عناصر الثقافة القومية أو إضعافها حتى لا تكون عاملاً في تغذية الشعور القومي وإذكائه ؛ وإذكاء الشعور القومي شر ما يخشى المستعمر من أمة مغلوبة تطمح الى استرداد حريتها

وقد رجونا خيراً يوم قيل لنا إن برامج التعليم سوف تحرر من أصفادها القديمة ويعنى فيها بكل مايرفع شأن الثقافة القومية ، وتتخذ فيها لغة البلاد وتاريخها ومسائلها وشئونها مكانها اللائق ؛ ولكن سرعان ما خاب هذا الأمل ، وإن كانت اللغة العربية قد استردت في العهد الأخير شيئاً من حقها المسلوب ؛ وما زالت

النزعة الأجنبية تبث اليوم في برامجنا وثقافتنا كما كانت تبث بالأمس، ولم تتغير الغاية وإن تغيرت الوسائل.

وما زالت هذه النزعة الأجنبية تتجلى في تفكيرنا وأدبنا بشكل واضح. ففي بضعة الأعوام الأخيرة مثلاً صدرت بالعربية كتب عن الدكتور مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا، والسنيور موسوليني، والغازي مصطفى كمال، وجيته شاعر ألمانيا الأكبر، وأخيراً عن الهر أدولف هتلر؛ وصدر بالعربية أيضاً كتابان عن باريس وكتاب عن لندن. فهذه كلها كتب عربية أخرجتها أقلام مصرية في موضوعات أجنبية في بضعة أعوام فقط. هذا الى ما تنشره صحفنا ومجلاتنا من فصول ومباحث لا نهاية لها عن الموضوعات والشخصيات الأجنبية، وما يغرق فيه بعض أدبائنا الناشئين من الكتابة عن الكتاب الغربيين والأدب الغربي مما يسمونه بسم الطرافة والتجديد.

وهذا حسن في ذاته لو أن مثل هذه العناية بالموضوعات الأجنبية يبذل لتناول الموضوعات والمسائل القومية. ولكن ماذا أخرجنا من الكتب والرسائل عن عظمائنا؟ وماذا نشرت أو تنشر عنهم صحفنا ومجلاتنا؟ لقد أصدرنا كتباً عن مازاريك وموسوليني ومصطفى كمال وجيته وهتلر، ولكن لم نصدر في تلك الفترة كتاباً واحداً عن أحد من عظمائنا الذين يحفل بهم تاريخنا الحديث مثل عرابي، والبارودي، ومحمد عبده، وعلي مبارك، وقاسم أمين، وصبري، وسعد زغلول، وحافظ، وشوقي، وغيرهم وغيرهم ممن يمطلون الى اليوم حقهم من الناحية الأدبية، ولا يفكر أحد من كتابنا في أن يعنى بدراستهم وترجمتهم بما يجب من إفاضة وتحقيق.

نعم إن الأدب لا وطن له، والتفكير تراث الانسانية كلها، والقلم حر له أن يجول أنى شاء؛ ولكن هذه الفتنة الغربية التي تأخذ علينا سبل التفكير في تراثنا القومي جديرة بكثير من التأمل والاهتمام؛ ففي الأمم الحرة التي يزدهر تفكيرها وأدبها في ظل الاستقلال والحرية، تأخذ جميع ألوان التفكير والأدب، قومية كانت أو خارجية مكانها من النهضة الأدبية العامة. ومع ذلك فان التراث القومي يحتفظ دائماً بالمقام الأول، ويعتبر دائماً أقوى وأنفس غذاء للشعور القومي. فاذا كانت هذه الأمم التي يحتفظ فيها الشعور القومي بكل قوته واضطرامه تقدر دائماً فعل التراث والذكريات القومية في تغذية هذا الشعور وتكوينه، فأولى بالأمم المغلوبة التي يعمل فيها الغالب الأجنبي على محاربة الشعور القومي وإضعافه أن تجعل تراثها وذكرياتها نصب عينها دائماً، وأن تتخذها عدة وذخراً لتغذية هذا الشعور وإذكائه. ولما كان التفكير والأدب خير أداة لتحقيق هذه الغاية، فان الواجب الوطني يقضي على كتابنا أن يرعوا هذه الناحية وأن يجعلوا لها أوفر نصيب من عنايتهم، وأن يؤثروها دائماً بدرسهم واهتمامهم.

إن الآداب القومية التي نضجت وازدهرت في كل النواحي والفنون لا غبار عليها اذا عنيت بالنواحي والشئون الأجنبية ما شاءت وما وسعت، فهي بذلك تكسب دائماً ثروات جديدة. ولكن حيثما كانت الآداب القومية فقيرة كآدابنا، وحيثما كان التاريخ القومي منسياً مغموطاً، وحيثما كانت برامج التعليم والتربية عرضة لأهواء المستعمر ينفث فيها من وحيه الخطر، ويعمل دائماً على محاربة عناصرها القومية، يجب على قادة الفكر أن يتداركوا هذا النقص بأقلامهم وتفكيرهم، وأن يقاوموا هذا الخطر، فيقدموا دائماً الى الشباب الذي يحرم في معاهد الدرس من الالمام الشامل بعناصر الثقافة القومية، كل ما يقوم الشعور الوطني ويصقله ويغذيه؛ ويجب على الأدباء الناشئين أن يفكروا طويلاً في اختيار الطريق المنشود قبل أن يحملهم تيار هذه الفتنة الأجنبية المضللة من عالم الآداب القومية الى فوضى موضوعات وشئون لسنا في كبير حاجة اليها.

يجب علينا قبل أن نقرأ عن مازاريك وموسوليني وهتلر، وقبل أن نشيد بذكرهم في كتب خاصة، أن نقرأ عن أبطالنا وعظمائنا الذين يغمرهم النسيان والجحود، وأن ندرسهم ونكتب عنهم؛ فذلك دليل الأدب القوى المستنير، وذلك دليل الوطنية الرفيعة، والشعور القومي الحي؟

« ع »

عرش الورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت جَلوة العروس كأنها تصنيفٌ من حُلم ، توافتْ عليه أخيلةُ السعادة فأبدعت إبداعَها فيه ، حتى إذا اتسق وتمّ ، نقلته السعادة إلى الحياة في يوم من أيامها الفَرْدةِ التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العددُ القليل ، لتحقّق للحي وجودَ حياته بسحرها وجمالها ، وتعطيَه فيما يُنسَى مالا يُنسى .

خرج الحُلُم السعيد من تحت النوم إلى اليقظة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثّل قصيدةً بارعة جعلت كل ما في المكان يحيا حياة الشعر ؛ فالأنوار نساء ، والنساء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء ، والموسيقى بين ذلك تتمم من كل شئ معناه ، والمكان وما فيه ، وزْن في وزن ، ونغم في نغم ، وسحر في سحر .

***

ورأيت كأنما سُحرت قطعة من سماء الليل ، فيها دارة القمر ، وفيها نَثرة من النجوم الزُّهر ، فنزلت فحلت في الدار ، يتوضّحن وتأتلقن من الجمال والشعاع ، وفي حسن كل منهن مادة فجرٍ طالع ، فكنّ نساء الجلوة وعروسَها .

ورأيت كأنما سُحر الربيع ، فاجتمع في عرش أخضر ، قد رُصّع بالورد الأحمر ، وأقيم في صدر البهو ليكون منصّةً للعروس ، وقد نسقتْ الأزهار في سمائه وحواشيه على نظمين : منهما مفصَّل ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما ؛ ومنهما مُكرَّسٌ بعضه فوق بعض ، من لون متشابه أو مُتقارب ، فبدا كأنه عشّ طائر من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجار سبق الكوثر أغصانَها .

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين ربوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه ، يحملها خَمْلٌ من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تتهافتُ من رقتها ونعومتها .

وعُقد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر كأنما نزع عن مفرق ملك الزمن الربيعيّ ، وتنظر إليه يسطع في النور بجماله الساحر سطوعا يخيّل إليك أن أشعة من الشمس التي ربّتْ هذا الورد لا تزال عالقة به ، وتراه يزدهي جلالاً كأنما أدرك أنه في موضعه رمز مملكة إنسانية جديدة تألفت من عروسين كريمين .

ولاح لي مراراً أن هذا التاج يضحك ويستحي ويتدلّل ، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثّل وجه الورد .

ونُصَّ على العرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما ، ويكسوهما طِراز أخضر تلمع نضارته بشراً ، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحة لمسةٌ من فرحها الحيّ .

وتدلّت على العرش قلائدُ المصابيح كأنها لؤلؤ تخلّق في السماء لا في البحر ، فجاء من النور لا من الدر ؛ وجاء نوراً من خاصته أنه متى استضاء في جو العروس أضاء الجوّ والقلوبَ جميعاً .

وأتى العروسان إلى عرش الورد ، فجلسا جلسة كوكبين حدودهما النور والصفاء ؛ وأقبلت العذارى يتخطرْن في الحرير الأبيض كأنه من نور الصبح ، ثم وقفن حافّاتٍ حول العرش ، حاملات في أيديهن طاقات من الزَّنبق ، تراها عطرةً بيضاء ناضرة حييّةً ، كأنها عذارى مع عذارى ، وكأنما يحملن في أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانيَ قلوبهنّ الطاهرة ؛ هذه القلوب التي كانت مع المصابيح مصابيحَ أخرى فيها نورها الضاحك .

واقتعدتْ درجَ العرش تحت ربوتي الزهر ودون أقدام العروسين — طفلةٌ صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتَها ، فكانت من العرش كله كالماسة المدلاّة من واسطة العقد وجعلت وجهها للزهر كله تماماً وجمالاً ، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبانُ مُنزوٍ لا يريد أن يُرى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيار من أحلام الطفولة جعل المكانَ بمن فيه كأن له روحَ طفل بَغتتْه مسرّةٌ جديدة .

وكانت جالسة جلسة شعر تمثل الحياة الهنيئة المبتكرة لساعتها ليس لها ماضٍ في دنيانا .

ولو أن مُبدعا افتنّ في صنع تمثال للنية الطاهرة ، وجيء به في مكانها ، وأخذتْ هي في مكانه لتشابها وتشابا كل الأمر .

وكان وجودها على العرش دعوة للملائكة أن تحضر الزفاف وتباركه .

وكانت بصغرها الظريف الجميل تعطي لكل شيء تماماً ، فيرى أكبر مما هو ، وأكثر مما هو في حقيقته . كانت النقطة التي استعملت في مركز الدائرة ، ظهورها على صغرها هو ظهور الإحكام والوزن والانسجام في المحيط كله .

***

لا يكون السرور دائماً إلا جديداً على النفس ، ولا سرور للنفس إلا من جديد على حالة من أحوالها ؛ فلو لم يكن في كل دينار قوة جديدة غير التي في مثله لما سُرَّ بالمال أحد ، ولا كان له الخطر الذي هو له ؛ ولو لم يكن لكل طعام جوع يورده جديداً على المعدة لما هنأ ولا مرأ ؛ ولو لم يكن الليل بعد نهار ، والنهار بعد ليل ، والفصول كلها نقيضاً على نقيضه ، وشيئاً مختلفاً على شيء يختلف — لما كان في السماء والأرض جمال ، ولا منظر جمال ، ولا إحساس بهما ؛ والطبيعة التي لا تفلح في جعلك معها طفلاً تكون جديداً على نفسك — لن تفلح في جعلك مسروراً بها ، لتكون هي جديدة عليك .

وعرش الورد كان جديداً عند نفسي على نفسي ، وفي عاطفتي على عاطفتي ، ومن أيامي على أيامي ؛ نزل صباح يومه في قلبي بروح الشمس ، وجاء مساء ليلته لقلبي بروح القمر ؛ وكنت عنده كالسماء أتلألأ بأفكار كما تتلألأ بنجومها ؛ وقد جعلني امتداد سروري في هذه الطبيعة كلها ، إذ قدرت على أن أعيش يوماً في نفسي ؛ ورأيت وأنا في نفسي أن الفرح هو سر الطبيعة كلها ، وأن كل ما خلق الله جمال في جمال ، فإنه تعالى نور السموات والأرض ، وما يجيء الظلام مع نوره ، ولا يجيء الشر مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنساني خلق أوهامه في الحياة ، وإخراجه النفس من طبائعها ؛ حتى أصبح الإنسان كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعها صناعة ، فلا يصنع إلا أن يزيغ بالنفس التي فطرها الله .

يا عجباً ! ينفر الإنسان من كلمات الاستعباد ، والضعة ، والذلة ، والبؤس ، والهم ، وأمثالها ، وينكرها ويردها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه في الحياة إلا عن معانيها .

***

إن يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرحاً ، لأنه من الأيام التي تجعل الوقت يتقدم في القلب لا في الزمن ، ويكون بالعواطف لا بالساعات ، ويتوالى على النفس بجديدها لا بقديمها .

كان الشباب في موكب نصره ، وكانت الحياة في ساعة صلح مع القلوب ، حتى اللغة نفسها لم تكن تلقى كلماتها إلا ممتلئة بالطرب والضحك والسعادة ، آتية من هذه المعاني دون غيرها ، مصورة على الوجوه إحساسها ونوازعها ؛ وكل ذلك سحر عرش الورد ؛ تلك الحديقة الساحرة المسحورة التي كانت النسمات تأتي من الجو ترفرف حولها متحيرة كأنما تتساءل : أهذه حديقة خلقت بطيور إنسانية ؛ أم هي شجرة ورد هبطت من الجنة بمن يتفيأن ظلها ويتنسمن شذاها من الحور ؛ أم ذاك منبع وردي عطري نوارني لحياة هذه الملكة الجالسة على العرش ؟

يا نسمات الليل الصافية صفاء الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها وأرها وبركتها من مثل الورد البهج ، والعطر المنعش ، والضوء المحيي ؛ فإن هذه العروس المتلية عرش الورد :

هي ابنتي ...

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

شخصيات نسوية أندلسية

١ ـ صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حظية خليفة ، أم خليفة ؛ سيدة مطلقة الرأى ، تولى وتعزل الوزراء والقادة ؛ وتدير شئون السلام والحرب ، حسناء يغنم جمالها ملكاً ، ويأسر خليفة ، ويسيطر على قصر وحكومة ؛ صاحبة السلطان المطلق فى دولة من أعظم دول الاسلام ؛ نصرانية نافارية مع ذلك ؛ تلك هى صبح أو صبيحة أو « اورور » قرينة الحكم المستنصر بالله الأموى خليفة الأندلس ، وأم ولده هشام المؤيد بالله

يقدم الينا التاريخ الاسلامي أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيق أو الأسرى ، سطعن فى قصور الخلفاء والسلاطين ، وتمتعن بالسلطان والنفوذ ؛ ولكنه لا يقدم الينا كثيراً من المواطن التى تستأثر فيها أجنبية نصرانيـة بالسلطان والحكم المطلق فى دولة إسلامية قوية ، وتسهر على مصاير هذه الدولة بذكاء وعزم ، وتقودها لخير الاسلام والخلافة . والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلاً أسطع من مثل صبح أو « اورور » ، تلك الفرنجية الحسناء التى لبثت زهاء عشرين عاماً تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة ، وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس . ولم تك صبح سوى احدى كواكب هذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات اللائى يقدمهن الينا تاريخ الأندلس منـذ الفتح ، واللائى يتركن أثرهن فى سير الحوادث أحياناً . ونستطيع أن نذكر منهن « ايلونا » القوطية أرملة ردوريك (لذريق) ملك القوط عنـد الفتح ، وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » ، فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح ، وكان نفوذها ووحيها السيء من الأسباب التى أدت الى مقتل عبد العزيز بن موسى (سنة ٩٥ هـ) ؛ ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسناء ابنة اودو أمير اكوتين ، تزوجها عثمان بن أبى نسعة الذى تسميه الرواية الفرنجية « منوزا » أو « مونز » ، وكان حاكماً للولايات الشمالية (البرنيه) ، وتحالف مع أبيها الدوق اودو ، وأخذ يدبر الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايتـه ؛ ولـكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس يومئذ وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشاً قوياً لبث يطارده فى الجبال حتى أخذ وقتل وأسرت زوجته الأميرة الحسناء لامبيجيا وأرسلت الى بلاط دمشق (سنة ١١٣ هـ) ؛ ومنهن ماريا الاسبانية النصرانيـة زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الاسلام فى الأندلس ويسميها العرب « مزنه » ؛ ومنهن أخيراً « ثريا » النصرانية زوج السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة ، وهى فتاة أسبانية وابنة قائد شهير ، أخذت أسيرة فى بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها ؛ وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير فى إضرام نار الحرب الأهلية فى غرناطة وفى سير الحوادث التى أدت الى ذهاب دولة الاسلام فى الأندلس .

ظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) (٩٦١ — ٩٧٦ م) . ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى ؛ وكل ما تقدمه الينا الرواية الاسلامية فى ذلك هو أن «صبحاً» كانت جارية بشكنسية[1] أى نافارية[2] ؛ ولا تذكر الرواية ان كانت قد استرقت بالأسر فى بعض الوقائع بين المسلمين والنصارى ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ؛ ولكنها تصفها بالجارية والحظية . وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة «اوروا» Aurora الفرنجية ومعناها الفجر أو الصبح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[3] . وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر[4] ، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . وكان الحكم حينما تولى الملك بعـد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ، ولم يكن رزق ولداً بعد ؛ وكان يتوق الى ولد يرث الملك من بعـده ؛ فحققت أمنيته على يد صبح ، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن سـنة ٣٥٢ هـ

(١) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ — دوزى (الطبعة الجديدة) ج ٢ ص ١٩٠

(٢) يسمى العرب اقليم نافار بلاد البشكنس محرفة عن اسمها القديم « Bascon » وأحياناً يسمونها « بسكونية »

(٣) راجع كوندى — (الترجمـة الانكليزية) ج ١ ص ٤٩٣ — ودوزى — ج ٢ ص ١٩٠

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣

(٩٦٢ م) وفرح بمولده أيما فرح ، وسمت لديه مكانة صبح ؛ ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولداً آخر سماه هشاماً (سنة ٣٥٤ هـ)، ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبد الرحمن فاشتد حزنه عليه ، وعقد كل آماله على ولده هشام ؛ ولبثت صبح تستأثر في البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان . بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم ، بارعة في تدبير الشئون ، مخلصة لسيدها تعاونه في تدبير مهام الحكم بذكاء وبصيرة ، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الاسلامية الى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية ؛ ولكن هنالك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع في البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية ، فالرواية الاسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[1] ، وتصفها التواريخ الافرنجية «بالسلطانة صبح»[2] . بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و «أم ولد» فقط . وتصفها الرواية الاسلامية بعد موت الحكم بأنها «أم ولد»[3] ، وهو في الشريعة وصف الجارية التي حملت من سيدها وأصبحت أماً لولده .

وعلى أي حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية ، وتتمتع في البلاط والحكومة بنفوذ لا حد له ؛ وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ويستمع لرأيها في معظم الشئون ؛ وكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة . وكان كبير الوزراء الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصاير الأندلس . تلك هي شخصية فتى مغمور يدعى محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري ؛ أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طرش ؛ ووفد على قرطبة حدثاً ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع في الآداب والشريعة . وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال ، وكان في نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين مشرفاً لادارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب المصحفي فيمن رشح لتولي هذا المنصب . وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه وظرف شمائله فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر ، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[1] . ولما توفي عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام . وتقدم بسرعة في وظائف الدولة فأضيف اليه النظر على الخزانة العامة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث ، فقاضياً لكورة اشبيلية ، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة ، وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص)

ويرجع الفضل في تقدم محمد بن أبي عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء لاتزال في زهرة شبابها ، ولا يزال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الاعياء والمرض ؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان يفتن من جهة أخرى في خدمة صبح وإرضائها ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة قصراً صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمله من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً . فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفثه ابن أبي عامر إلى حظيته وإلى نساء قصره جميعاً ويعجب له ؛ ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ؛ إنه لساحر عليم أو خادم لبيب . وإني خائف على ما بيده »[2] . ولم تلبث علائق

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ – والبيان المغرب – ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) راجع كوندي – ج ١ ص ٤٨٠ و ٤٩٣ – ودوزي – ج ٢ ص ١٩٠ و ١٩٨

(٣) البيان المغرب – ج ٢ ص ٢٦٩ – المعجب للمراكشي ص ١٤

(١) البيان المغرب – ج ٢ ص ٢٦٧ . ويقدم المقري عن ابن حيان رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر بصبح ، خلاصته أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت صبح من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر فاستحسنت كتابته وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧)

(٢) البيان المغرب – ج ٢ ص ٣٦٨

صبح وابن أبي عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة ؛ ولم يك ريب في أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم في طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأي في نكبة ابن أبي عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه واتهموه بأنه يبدد الأموال العامة التي عين للنظر عليها في شراء التحف والانفاق على أصدقائه ؛ فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها ؛ وكان بالخزانة عجز لجأ ابن أبي عامر في تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن جدير فأغاثه ؛ وتقدم إلى الحكم سليم العهدة بريء الذمة ؛ فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه ، واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه ، ينتدب لعظيم المهام والشئون ؛ وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح ويستزيد منه ، ويصانع الحاجب جعفر ويجتهد في إرضائه وكسب ثقته ، ويخلق حوله حزباً من الصحب والانصار بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته وبارع وسائله وأساليبه .

وكانت أعظم أمنية للحكم في آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده أبي الوليد هشـام ، وهو يومئذ غلام في نحو العاشرة من عمره ؛ وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية ؛ وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع . ونفذ هذا المشروع في جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ (فبراير سنة ٩٧٦ م) وعقدت البيعة لهشام في حفل جامع بالقصر ، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده ، وأخذت له البيعة من الحاضرين ودعي له في الخطبة على المنابر ونقش اسمه في السكة ، وأنفذت الكتب إلى النواحي لأخذها من الأكابر والأعيان ، وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث ، وميسور الكاتب مولى صبح ، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً . ولكنه لم يعش بعد ذلك سوى بضعة أشهر ؛ وكان المرض يشتد عليه منذ حين ، ثم أصابه الشلل ، وتوفي في الثالث من صفر سنة ٣٦٦ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م)

* * *

ولما توفي الحكم المستنصر بالله كانت مقاليد السلطة مجتمعة في أيدي ثلاثة : هم صبح أم هشـام ، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ومحمد بن أبي عامر ، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخاص) . ولم يكن يعترض على بيعة هشام سوى صقالبة القصر ، وكانوا زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ؛ وكان رأيهم أن تؤخذ البيعة للمغيرة بن الناصر أخي الحكم ؛ ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم في الحال ، واستدعى القواد والجند الذين يثق باخلاصهم تحوطاً للطوارىء ، واتفقت الكلمة على تولية هشـام ، وقتل المغيرة ؛ ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويع ولده هشام ولقب المؤيد بالله ، وتولى الحاجب جعفر وابن أبي عامر تنظيم البيعة ، وتولى ابن أبي عامر في نفس الوقت تدبير مقتـل المغيرة بن الناصر ، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه ؛ ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها ، وكان في نحو الثانية عشرة من عمره ؛ وتم بذلك مشروع الحكم المستنصر ، ومشروع الثلاثة ذوي السلطان من بعده . وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ؛ وكان طبيعياً أن يؤازر ابن أبي عامر صاحبته والمحسنة اليه ليستمر بواسطتها محتفظاً بنفوذه ، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ما يضطرم به من الأطماع الخفية ، أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام ، إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوي كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة ، ولكن هذا التحالف الذي أملته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعياً ، ولا سيما بين الحاجب جعفر ومنافسه القوي محمد بن أبي عامر ، وكانت العلائق بين صبح وابن أبي عامر في عهد الحكم تزداد كل يوم تمكناً ووثوقاً ، وكان ابن أبي عامر يرى عندئذ في صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم ، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه ، ولكنه منذ توفي الحكم ، وأضحت جميع السلطة الشرعية مجتمعة في يد صبح بوصايتها على ابنها هشام ، أخذ يتأهب للعمل في طريق آخر ، ويرى في خليلته صبح أداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لارادته ، ويسخرها لمآربه ، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل الذي سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته ، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذي يشغله ولدها الفتى . فلم تمض

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

الحرمان

للأستاذ علي الطنطاوي

كتب الأديب الذكي الغيور السيد احمد علي ، في الرسالة السابعة والخمسين : (يظهر الأسف الزائد اذ لم تقع عينه — وهو يراجع الفهرس للسنة الأولى ، ويتتبع أعداد الثانية ، على اسم كاتب حجازي ، يكون قد اشترك مع اخوانه وزملائه المعاصرين في الأدب ، على صفحات هذه الصحيفة الغراء . . . ويؤمل من مديرها الفضال الأستاذ الزيات ، اذا أراد ، أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين ، ألاّ ينسى الحرمين ، كذلك)

فأحببنا أن نلحق بكلمته هذه كلمة :

***

ألم يشد أستاذنا الزيات بذكر الحرمين يا سيد احمد علي ؟ فما هو اذن عدد الهجرة الممتاز ، وما هي تلك المقالات الاسلامية العربية ؟

أما ان الرسالة اذا نظرت الى أمر ، فانما تنظر اليه نظرة سامية فيها حكمة وفيها جلال ، ولا يعنيها من « الحرمين » أخبار دائرة الصحة ، ورسوم الحج ، ولكن يعنيها حياة محمد (ص) وظهور الاسلام ، وعظمة الفتوح ، وجلال حكومة الراشدين ؛ ولا يهمها من « النيرين » تنظيم الميزانية ، ومناقشات المجلس البلدي ، ولكن يهمها تاريخ بني أمية ، وسعة الفتوح ، وعز العروبة ؛ ولا تحفل من « الرافدين » بقرارات الغرفة التجارية ، وأخبار الجند ، ولكن تحفل بحضارة الاسلام ، ومجد المنصور والمأمون ، ونهضة العلوم والفنون .

وتحفل بعد هذا كله ، بالصورة المشرقة الوضاءة ، صورة هذا الماضي الجليل ، حين تظهر في صفحة الأمل الجميل ، ذلك لأنها « تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية » ولأنها ليست جريدة يومية إخبارية .

فهل تراها بعد . لم تشد بذكر الحرمين ؟

***

وهل نسي أستاذنا الزيات الحرمين ياسيد احمد علي ؟ وهل يستطيع مسلم واحد على وجه الأرض أن ينسى الحرمين ، وهو يستقبل الحرم خمس مرات كل يوم ؟

يستقبله اذا سمع المؤذن يشق سكون الليل ، بهذا النداء العلوي الجليل : « حيّ على الفلاح ، لا إله إلا الله » فينهض من فراشه ، يستأنف الحياة والليل يولي ساكناً خاشعاً ، والنهار يقبل متبرقاً زاهياً ، والأطيار تتلو بلغة الطير سورة الحمد والشكر ، فيتوضأ ، ويحس في نفسه السمو والجلال — ذلك السمو الذي حالت الحضارة الغربية ... بيننا وبينه ، فقطعنا مذ لبسناها أجمل مراحل الحياة نياماً ، وغفلنا عن داعي السماء ، حين ينبعث في تلك الساعة هاتفاً بالنفوس المؤمنة الطاهرة : ألا من مستغفر فأغفر له ؟ ألا من داع فأستجيب له ؟ ألا من سائل فأعطيه ؟

يتوضأ ، ثم يستقبل « الحرم » وينسى كل شيء إلا « الحرم » ، ثم يخشى أن يشغله الحرم عن الصلاة ، والصلاة انقطاع عن الدنيا الفانية ، واتصال بجلال الله الباقي ، فيرفع يديه ويقول : الله أكبر ، ويدخل في الصلاة فينسى كل شيء ، إلا الله الذي يقوم بين يديه .

ويستقبله إذا زال النهار ، وقامت الدنيا على قدم وساق ، تدعو أبناءها وعبادها ، إلى ما أعبدت لهم من اللهو واللعب ، فاستبقوا اليه ، واقتتلوا عليه ... معرضاً عن نداء الدنيا ، مجيباً داعي الله ، فيقوم بين يدي رب العالمين ، مولياً وجهه شطر المسجد الحرام ، تاركا وراء ظهره الدنيا وما فيها !

بضعة أيام على تولية هشام ، حتى دفع ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة ، في نفس الوقت الذي أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفر المصحفي حاجباً له [1] ، وهكذا أشرك ابن أبي عامر في تولي السلطة المباشرة مع المصحفي ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً ، وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ، ويرتاب في طاعته ونياته ومن ذلك اليوم اضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك في نتيجته .

« للبحث بقية » محمد عبد الله عنان
المحامي

(١) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٧٠ .

ويستقبله اذا أخذت نفسه حظها من طعامها وشرابها وراحتها وقنعت من الدنيا بما نالت منها — وما الدنيا إلا ما يملأ بطناً ، ويكسو جسماً ، ويريح نفساً ... يستقبله حامداً شاكراً .

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) إياك نعبد وإياك نستعين (لا نعبد غيرك ، ولا نخشى سواك ، ولا نرجو النفع إلا منك ، ولا نخاف الضر ممن دونك . أنت الضار وأنت النافع ، وأنت المعطى ، وأنت المانع ؛ لا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا يجير عليك من نبي ولا ولىّ ، ولا يشفع عندك إلا باذنك ملك ولا رسول »

ويستقبله إذا أطبق المصباح الأعظم ، وغطى الليل بسواده الفاحم على بهاء الدنيا وجمال الأصيل ، فلا تشغله الرياض والجنان ، ولا الورود والثمار ، عن وادٍ غير ذى زرع ، عند بيت الله المحرّم .

ويستقبله إذا عمّ الظلام ونام الكون ، وأقبل على الفراش يسلم روحه إلى خالقها . لا يدرى أتعود أم تبقى فى عالم الخلود ، فيكون « الحرم » آخر ما يقبل عليه ويذكره من هذه الدنيا .

فهـل ينسى مسلم « الحرمين » . أو هل ينساها أستاذنا الزيات وهو الذى يذكر الناس ؟ !

* * *

أولم ترَ ياسيد احمد على كاتباً حجازياً فى الرسالة ؟ أين أنت يا سيدى ؟ وأىّ شىء يكون كتاب الرسالة اذا لم يكونوا مسلمين عرباً حجازيين ؟ أهم روم ؟ أهم يونان ؟ أهم فنيقيون ؟ أهم فرس ؟

أليس أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام من أبناء الحجاز الذين خرجوا من الجزيرة تحت راية محمد ، ففتحوا العالم واستقروا فيه؟ أليس عمرو وجيشه من أهل الحجاز ؟ أليس سعد وجنده من أهل الحجاز ؟ أليس أبو عبيدة وخالد وأصحابهما من أهل الحجاز ؟ أليس بنو أمية حجازيين ؟ أليس بنو العباس حجازيين ؟

كأنى بك تريد أن تقول : هاك كتاب الرسالة السابعة والحسين : إن مختار الوكيل مصرى ، وطوقان فلسطيني ، وعباسى أردنى ، وفتاة الفرات عراقيـة ، وباكثير حضرمى . ولـكن لا . ليس فى قاموسنا مصرى ولا شامى ! ولـكن فيـه مسلم ، وفيه عربى .

وأى مسلم لا يرى الحجاز وطنه الأول من جهة النسب ومن جهة الدين ؟

وأى عربى (كائناً ما كان دينه) لا يرى الجزيرة محتده وأصله ، ومحمداً سيد العرب فخره ؟

* * *

وهل ينسى مكة مسلم يتلو قول الله :

(لتنذر أمّ القرى ومن حولها)

(والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين)

(لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ بهذا البلد)

(وليطّوّفوا بالبيت العتيق)

(جعل الله الـكعبة البيت الحرام قياماً للناس)

(رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام)

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم)

و يتلو قول رسول الله (ص) حين فارق مكة مهاجراً :

(إنى لأعلم أنك أحب البلاد الىّ ، وأنك أحب أرض الله الى الله ، ولولا أن المشركين أخرجونى منك ما خرجت)

* * *

ومن ينسى مكة وفيها تاريخ أشرف أمة . وهى أشرف مدينة : لم تدن منذ خلقها الله لملك أجنبى عنها ، ولم يؤد أهلها أتاوة لأحد ، كانت تحج اليها ملوك حمير وكندة ولخم وغسان ، فيدينون للحمس من قريش ، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم فرضاً مفروضا ، وشرفاً لهم عظيماً ، وكان أهلها آمنين ، يغزون الناس ولا يُغزون ، ويَسْبون ولا يُسبون :

أبوا دين الملوك فهم لقـــاح   إذا هيجوا الى حرب أجابوا

وكان أهلها فى جاهليتهم حلفاء متألفين ، ومتمسكين بكثير من شريعة ابراهيم عليه السلام ، ولم يكونوا كالاعراب الأجلاف ، ولا كمن لا يوقره دين ، ولا يزينه أدب ، وكانوا يختنون أولادهم ، ويحجون البيت ، ويقيمون المناسك ،

وكانوا يتزوجون أى القبائل شاءوا ، ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشرطوا عليه بأن يكون متحمساً لدينهم ، يرون أنه لا يحـل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدين لهم وكان العرب منـــذ الجاهلية يحجون البيت ، ويعتمرون

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

قرطبــة*

نبذة تاريخية عنها

كانت قرطبة تعد من المدن العالية المهمة ، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً ، سواء بأبنيتها الجميلة الفخمة ، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة ، أم بحدائقها وبساتينها البديعة . وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له ، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد ، ولاسيما الجامع المعروف « بجامع قرطبة » وظلت عاصمة للأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر ، ثامن ملوك بني أمية هناك ، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة ، وجعلها عاصمة له بدلاً منها ، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً ، وكثرت دور الكتب والمدارس ، وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة ، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته ، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لاحدى مكاتب (دور كتب) تلك المدينة العظيمة ، ثم جاء هشام الثاني ، فعجز عن ادارة المملكة ، وتدخل أرباب المصالح والمطامع في أمورها ، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها ، ومن جملتها « قرطبة » إذ استقلت سنة ٤٢١ هـ — ١٠٢٩ م ، واستولى عليها « أبو الحزم بن محمد بن جهور » ، وأسس الدولة الجهورية فيها (٤٢٢ هـ — ١٠٣٠ م) ، ولما مات (٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) تولى الأمر بعده ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور » ، ثم توفي وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد ، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم ، ثم خلعوه ، وأخرجوه من قرطبة (٤٦١ هـ) متحدين مع جيش محمد بن عباد . وبسقوطه انقرضت دولة بني جهور ، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر ، وفي سنة ١٢٣٦ م استولى عليها الأفرنج ، وطردوا أهلها ، واتخذوها حصناً على حدود مملكتهم ، وهي الآن من المدن الصغيرة ، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسمة . . .

معيشة أهلها وصنائعهم :

أما في تلك العصور الزاهرة فكان عدد نفوسها يربو على المليون ، وكلهم يعيشون في خفض من العيش ورفاهية وسعادة ، ومما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة ، وزيادة نسبة المتعلمين والمثقفين بينهم ، كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة ؛ فاشتهرت غرناطة بجودة حريرها وطليطلة بتفننها في صنع الأسلحة ، وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق ، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ . . . وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة ، تصدر أنواع السلع الأخرى الى المدن الأندلسية ، والى خارج البلاد أيضاً . .

العلم والأدب :

نقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد (مؤلف الحلة الذهبة في مملكة قرطبة) : « أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث : بأصالة البيت ، وبالجندية ، وبالعلم . قال : وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة ، يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب ، ويحتفظ فيها ، ليس إلا لأن يقول : عندي خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . . . »

وكان فيها مكاتب كثيرة كبيرة ، تحوي أثمن الكتب وأجلها وأفضلها ، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار

* من كتابنا عن الأندلس وسيظهر عن قريب

ويطوفون . فإذا أرادوا الانصراف أخذ رجل منهم حجراً من حجارة الحرم ، يتذكرها به ويجله [1] . . .

***

هذا ولك الحق يا سيدي الأديب ، في أن تأسف إذ لم تر لواحد من سكان بلدك بحثاً أو مقالة في الرسالة ، ولكنا هم الملومون يا سيدي لا الرسالة . وما أحسب الرسالة تنشأ (لتسجل ظواهر التجديد في الأدب العربي ، وتكون ديوان العرب المشترك) ثم تنبذ بابها في وجه قوم هم خلاصة العرب ، وبنو خلاصتها ، فانشروا فيها يا سيدي ، نقرأ لكم ، ونستفد منكم ، ونشكركم . وعليك يا سيدي الأخ الأديب السلام ورحمة الله . ؟

دمشق علي الطنطاوي

(١) ياقوت

الأخرى ، بكثرة علمائهم وأدبائهم ، وبشدة إقبالهم على التعليم والتثقف ، وعلى حبهم للعلماء والأدباء ، واحترامهم لهم ، ولصناعة العلم والأدب .

وكان للحكم الثانى فى قرطبة مكتبة ، فيها ستمائة ألف كتاب[1] لها أربعة وأربعون فهرساً ، فى كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط ! ! . ويقول جستاف لوبون — بهذه المناسبة — إن شارل الحكيم الذى تولى أمر فرنسا بعد خلافة الحكم باربعمائة سنة (١٣٦٤ م) بذل جهده فى أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس — حين أسسها — ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية ! . . .

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة ، وكان فيها ٨٠ مدرسة جامعة ، يقصدها طلاب العلم الراق والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة ، ومنهم البابا سلفستر الثانى ، وكان قد ذهب الى أشبيلية فدرس فيها زمناً ، ثم الى قرطبة ، وذلك قبل أن يصبح بابا (٩٩٩ م) ، وكان يسمى قبلاً الراهب جربرت ، وممن تخرجوا فى جامعات قرطبة ، بطرس فرنابل وقسيس كولونى ، وكذلك « شانجه » ملك ليون ، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب اليوم الى جامعاتهم التى حلت محل الجامعات العربية ، والله يغير ولايتغير ، والله على كل شىء قدير ! . . .

وكان فى قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون ، نذكر منهم « أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدى القرطبى » الملقب « بصائن الدين » وهو أحد الأئمة المتأخرين فى القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة الخ . . ولد بقرطبة (٤٨٦ هـ) ومات بالموصل (٥٦٧ هـ) . وأبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف (بابن الفرضى) وكان فقيهاً عالماً من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (حسن فى المختلف والمؤتلف) و (فى أخبار شعراء الأندلس) ، وقد ولد سنة ٣٥١ هـ . وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٠٣ هـ وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤ هـ . ومات باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ .

وأحمد بن محمد بن عبد البر ، من موالى بنى أمية ، له كتاب فى الفقهاء بقرطبة ، ومات فى السجن لليلتين بقيتا من رمضان . ومنهم (أحمد بن محمد بن موسى) له مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس ، توفى فى ١٢ رجب سنة ٣٤٤ هـ . وولد فى (١٠) ذى الحجة سنة ٢٧٤ .

و (خالد بن سعيد القرطبى) أحد أئمة الأندلس ، مات فجأة فى سنة ٣٥٢ هـ فى الستين من عمره ، وحسن بن الوليد بن نصر وابن الدباغ الأزدى ، وغيرهم . وغيرهم . .

خطط قرطبة :

تقع قرطبة على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير ، وبينها وبين البحر خمسة أيام ، وذكر ياقوت الحموى فى معجمه أنها كانت « أعظم مدينة فى الأندلس ، وليس لها فى المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة ، ويقال إنها كأحد جانبى بغداد ، وان لم تكن كذلك فهى قريبة منها ، وهى حصينة بسور من حجارة ، ولها بابان مشرعان فى نفس السور الى طريق الوادى من الرصافة — والرصافة مساكن أعالى البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها ، مشتبكة محيطة من شرقيها وشمالها وغربيها وجنوبيها ، فهو الى واديها ، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها . . . »

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلاً ، وعرضها ستة أميال « وكان عدد أرباضها ٢١ ربضاً ، فى كل ربض من المساجد والأسواق مايقوم بأهله ، ولايحتاجون الى غيره ، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية فى كل واحدة منها منبر وفقيه . »

وكان فيها (٢٠٠٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوقى ، فضلاً عن الثمانين مدرسة التى ذكرنا ، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعرضها ٢٠ ذراعاً ، وفيها ثمانى عشرة حنية ، وتسعة عشر برجا .

وقد تنافس الخلفاء والأمويون فى تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها ، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له ، وشيد المنصور بن أبى عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادى الكبير ، وانتقل اليه سنة (٣٧٠ هـ) وبنى باقى الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكر منها « الحائر » ، الروضة ،

(١) ويقول المقرى فى نفح الطيب إن المكتبة كانت تحوى أربعمائة ألف كتاب ، وهو مخطىء ولاشك ، لأن أغلب المؤرخين الحديثين (ولاسيما الغربيين منهم) يقولون إنها ستمائة ألف ، وليس أربعمائة ألف

المشوق ، المبارك ، التاج ، السرور الخ . .

ولكن أعظم بنايات قرطبة ، بل الأندلس كلها ، المسجد الجامع ، الذي شيده عبد الرحمن الداخل ، وكان في الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة .

جامع قرطبة :

والواقع أن هذا المسجد آية من آيات الفن العربي ، ودليل قاطع على علو كعب العرب في النقش والبناء ، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربي ، والمقدرة الفنية العربية . ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور في ذلك العصر سوى الجامع الأموي بدمشق ، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارىء وصفاً وتصويراً صادقين ، بل ليس من السهل على القارىء أن يدرك عظمته إذا ما نظر الى عدة صور فوتوغرافية عنه ، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا في أن نعطيك فكرة عامة عنه :

فطول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٢٠ متراً ، وفي عرضه الأيمن ٣٨ صحناً ، والأيسر ٢٩ صحناً ، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام ، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة . « وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس الدافع) ، وأوسطها مرضع بصفائح من الذهب ، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من المسجد »

أما الباب العمومي — وهو باب المنارة — فهو من النحاس أيضاً ، عرضه ٨ م وارتفاعه ٢٠ م ، وفي الزاوية القبلية من المسجد تقوم منارته العظيمة ، وهي مربعة الشكل ، وطول كل ضلع منها ١٢ م وارتفاعها ١٣٠ م ، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية ، يحيط كل منها نصف متر أو أكثر بقليل . ويقول صاحب « رحلة في الأندلس » : إنها خمس طبقات في كل طبقة عدد كبير من الأجراس .

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر ، والمحراب والمقصورة من أجمل ما في المسجد ، ففي تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون « وهي بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جداً ، وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية » وأما المحراب ففسيح واسع ، ويتكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية ، وكان فيه المصحف العثماني الشريف ، وقد نقله عبد المؤمن بن علي الى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة ٥٥٢ هـ .

وفي المسجد (٤٧٠٠) قنديل من الذهب الأبريز ، واحد منها في المحراب ، وكان يصرف عليها سنوياً (٢٤٠٠٠) رطل زيتاً و (١٢٠) رطلاً من العنبر والعود القاقلي . . .

***

قال الأستاذ سديو : « وكانت هذه المدينة تصبح مضيئة ، وحاراتها مطيبة ، بما يلقى فيها من الزهور ، مع استعمال الألحان المطربة في المتنزهات والميادين العامة . . »

هذا بعض من كل ، وقليل من كثير ، عن حالة قرطبة في تلك العصور التي بلغت العظمة العربية فيها الحد الأقصى من الرفعة والسمو ، والتي خلد فيها أبطال العرب أسماءهم في أنصع صفحات التاريخ ، ورفعوا أمتهم الى المكانة اللائقة بها .

البصرة عبد الكريم وعبد الصمد الناصري

مصادر البحث : وقد ترجمنا الأسماء الأفرنجية الى العربية

١ — معجم البلدان : ياقوت الحموي
٢ — نفح الطيب في تاريخ الأندلس الرطيب : المقري
٣ — رحلة في الأندلس : محمد لبيب البتنوني
٤ — ملخص تاريخ العرب : سديو
٥ — فلسفة التاريخ : ميلر
٦ — دائرة معارف القرن العشرين : فريد وجدي

شلفون بعد نصف عام !...

بقلم منير الجم الطرابلسي

رحم الله هذا الموسيقى الراحل ، فقد عاش طريداً شريداً ، غريباً فى وطنه ، منبوذاً من أهله ومن الناس ، ومازال مع الخطوب فى صراع وعراك حتى فجأته كارثة دهماء أجهزت على حياته المنكودة ، فكان ضحية غالية على مذبح الفن لم يدر أحد من أمرها شيئاً !

عاش فى دنياه مجهولا ، وجاهد فى سبيل الفن مغبوناً ، ولقى حتفه باليأس والبؤس ، ثم لجأ إلى بارئه يشكو مكر الانسان ، وختل الصديق ، وجور الدهر !

وقعت الواقعة ، ونزلت النازلة ، وانهار صرح (كوكب الشرق) فى بيروت ، فكانت نكبة نكباء ، وجيبت لهولها الأفئدة ، وهلعت القلوب ، والناس حول الضحايا فى مأتم يبكون ، هذا يرثى أباه ، وذاك يبكى أخاه ، وآخر يذرف الدمع على صديقه مدراراً . إلا هذه الضحية الجللة بروعة الفن ، كانت فى عزلة عن اهتمام الجمع ، فانهم جهلوها أو تجاهلوها ، ونسوا ماضيها وحاضرها ، وما أسرع الناس فى نسيان الماضى ، وجحد الفضل ، ونكران الجميل!

ولكن لم تخل الأرض من أخيار بررة قاموا بواجب التأبين فى محفل الوليد ، وشاركتهم بعض صحف حرة فى نشر الترجمة ، وتعديد المناقب والمزايا ، فكانت تعزية للراحل الكريم فى الأولى والآخرة ؛ ثم أسدل الستار على ذكراه ، فلم يفطن اليه محفل أوناد ، حتى ولا تلاميذه ، وما ذلك إلا لأنه كان بائساً معدماً ، أبىّ النفس ، عالى الهمة ، كارهاً للشهرة والظهور ، شأنه فى ذلك شأن عظماء الفن ، يصهرون نفوسهم الزكية فى مثلهم العليا ، ثم يتلاشون فى سكون وهدوء !

كان موسيقياً نابغاً فياض العواطف والشعور ، وكان أديباً كبيراً مملوءاً بنفس سامية تأبى أن تذل ، جاهد فى مصر زمناً ينشر علينا من أريج (روضة بلابله) الغناء مايسر النفس ، وينعش القلب ، حيث المبتكر الساحر ، والجديد السائغ فى الموسيقى والأدب ؛ ثم ناهضه الحساد فرحل إلى دمشق علّه يخفف اللوعة فيها والأسى ، فكان نصيبه الصد والفشل والاخفاق ! فلما ضاقت الأرض عليه بما رحبت سعى إلى عاصمة لبنان ، وكأنه كان على موعد من منيته ، فدهمته أشنع ميتة يموتها إنسان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

مات ولما يتم جهاده الشريف ، ولم يجن ثمار أدبه وفنه ، وأبى حظه العاثر أن يكون موفقاً فى حبه وإخلاصه ، بل فى حياته ومماته ، فقد كان يعلم ذلك كل العلم ، ويتأكده كل التأكيد ، فألف قطعته الخالدة (الألم) رمزاً لذاته ، وشعاراً لبؤسه ، وعزفها على مسمعنا يوم كنا لديه فى عاصمة الأمويين ، فسحرنا بأنغامها الشجية ، وغمرنا فى ذهول من الحزن عميق ، نرثى لحاله ونتألم ، ولاغرو فحياته سلسلة آلام مبرحة ، ختمت بفاجعة مروعة ، قضت على آماله الجسام ، وذهبت بنبوغه الرائع

أما ورثاء نوابغ الفن علينا واجب ، وذكر الفقيد البائس أوجب ، فقد أدبته قسطى على قدر المستطاع ، كما أرجو أن يذكره كل مخلص غيور ، فى ذمة الله والتاريخ فقيـــدنا الكريم ، وفناننا المجهول !

حماه منير الجم الطرابلسي

العامل الاقتصادى فى الأدب

للآنســة فكرية زكى
دبلوم فى التربية والآداب

أريد أن أعالج موضوع الأدب من الوجهة الاقتصادية ، لأن كثيرا من الأدباء يمنعهم الحياء من التبسط فى شرح ذلك ، مع أن هذا الموضوع جدير بالبحث والنظر ، لأن هناك صلة تصل المؤلف بالقراء ، فالمؤلف لا يكتب إلا لقرائه ، سواء فى الجيل الحاضر أو فى الأجيال الآتية ، ولم يخلق بعد المؤلف الذى يكتب لنفسه .

وإذا رجعنا بالبصر قليلاً وجدنا أن كثيرا من أمهات الكتب القديمة التى تنعم بها لم يكتبها مؤلفوها إلا تحت رعاية عظيم أو تشجيع كبير ، مما لا تتبسط فى شرحه وبيانه ، غير أن هذه الكتب لم تكن فتحاً فى الأدب .

فالأدب الصحيح الذى يصور الحياة فى صورها الصادقة لا يولد فى كنف عظيم أو رعاية كبير ، لأنه إذ ذاك لا يصدر عن نفس حرة طليقة من قيود المادة ، ولذلك لم تولد أمهات الكتب فى الأدب الحديث إلا مع وجود القراء ، وإذا أردت دليلاً على ذلك فان لويس الرابع عشر أغدق المال على رجال العلوم والفنون إغداقا ليس له نظير ولا ضريب ، ثم لم ينبغ فى عصره كاتب ولا فنان ، لأن يد الاحسان كانت تعقل أفواههم ، فلا يقولون إلا ما ترضيه ، ولا يعملون إلا ما يحسن لديه ويجمل فى ناظريه ، ولم أجد كاتباً فصل ذلك فى وضوح وجلاء إلا (بكل Buckle) فى كتابه الممتع تاريخ الحضارة فى انجلترا .

والكاتب مهما قنع بالقليل يجب أن يعيش قبل كل شىء ، فاذا كانت رعاية الكبراء تحول دون الانتاج البكر فى الأدب ، بله عدمها الآن ، فليس هناك وسيلة للأدب والأديب غير القراء . ولذلك نتساءل : هل يوجد الآن بيننا جيل القراء الذين يقبلون على قراءة الكتب القيمة فيساهموا فى إحياء الأدب ؟ . أم نحن نعيش فى عصر لم يخلق فيه القراء بعد ؟ ولا يمكننا أن نعلل ذلك بفقر القراء ، أو غلاء الكتب ، لأن ثمن أكبر كتاب لأشهر مؤلف لا يتجاوز ثمن تذكرة من تذاكر دور السينما .

وإذا قال مكابر بأننا نعيش فى ذلك العصر فاننا نطالبه بالدليل على ذلك ، أين هى الكتب التى طبعت مراراً ؟ لا أعلم كتاباً طبع للمرة العاشرة ، بله الثالثة أو الرابعة ، وتكرار الطبع دليل على رواج الكتب وانتشار الأدب . إذن ففى أى عصر نعيش ؟ أنعيش فى ذلك العصر الذى باع فيه ملتون روايته الخالدة « الفردوس المفقود » بعشرة جنيهات ؟ أم فى العصر الذى كان يعيش فيه جنسون موحد اللغة الانجليزية فلا يجد قوت يومه ؟ أستغفر الله ! بل نحن نعيش فى عصر الانتقال ، فى عصر تتكون فيه أجيال القراء ، «فالرسالة» تطالعك كل أسبوع ، والجرائد اليومية تطالعك كل صباح ، وهى تؤدى عملاً نافعاً لا يفطن اليه كثير منا ، فهى تخلق جيل القراء المقبل الذى سيساهم فى رواج الأدب ، ومتى وجد هذا الجيل فلا شك فى تطور الأدب تطوراً آخر غير ما نراه الآن . وإنى أرى بعين المستقبل أديباً كبيراً يقول لنا كما قال ما كولى عن أدباء عصره : « إنهم ينعمون بالثراء ومباهج الحياة ، بينما أشباههم ونظراؤهم من سبعين عاما كانوا يتضورون جوعاً » غير أنى أدعو الله أن تكون هذه الفترة فى تاريخ أدبنا أقل من سبعين سنة ، فانها وإن كانت قليلة فى أعمار الأمم طويلة فى حياة الأفراد . ؟

فكرية زكى

ابراهيم بك مرزوق وشعره

بقلم صلاح الدين الوداعي

قرأت في العدد السابع والخمسين من الرسالة ما كتبه الأستاذ محمود خيرت عن الشاعر المصري ابراهيم بك مرزوق تعقيباً على كلمة المغفور له احمد باشا تيمور التي لم يلم فيها بنواحي حياته الأدبية إلماماً وافياً، فوجدته في مستهل كلمته يقول إنه كان يود لو أن بين يديه ديوان هذا الشاعر ليسد الفراغ الذي تركه تيمور باشا، ويسرني أن أحمل هذا الواجب الأدبي عنه، فقد أتيح لي أن أقرأ نسخة مخطوطة من هذا الديوان، سأنقل هنا شيئاً منها يعطينا صورة لحياة هذا الشاعر ومقدرته الأدبية

أسلوبه في الشعر:

أما غزله فهو من الملاحة بمكان، قال رحمه الله:

أشجتك شمس ملاحة ... في غيهب الليل استنارت
أم بدر حسن طالع ... من حسنه الأقمار غارت
نظرت له عين المها ... فتعجبت منه وحارت
من منصفي من أعين ... في حكمها في القلب جارت
يا جنـــة نيرانها ... في قلب عاشقها استعارت
ما ضرها لمـــا نأت ... لو أنها في النوم زارت
يا شمس حسن بالحجا ... ب السندسي عني توارت
غصن القوام عليــه كـ ... ـل قلوب أهل العشق طارت
ودوائر الأحزان من ... أطواقها بالصب دارت
وكتائب الأشواق بالـ ... قلب الأسير اليك سارت

وقال أيضاً من قصيدة:

ما احتيالي قد صير الصد عاده ... ليته حين أسقم الصب عاده
ما احتيالي وكل من هام وجداً ... سلب الحب لبــه ورشاده
بين كاس الهوى وكاس الحيا ... قدر غالب له وإراده
فهو في حالتيه حيران ألقى ... بيد الذل والهوان قياده

ومن قصائده أيضاً هذه الخمرية البديعة:

هيا اسقياني ثلاثاً واشربا قدحا ... ياساقيي فزند اللهو قد قدحا
وأحييا دولة القصف التي درثت ... وخليا الزهد للوعاظ والنصحا
وبادرا فرص اللذات واجتنبا ... من لام في رشف كاسات الطلا ولحا
فقد خلعت عذاري غير معتذر ... ورحت أرفل في برد الصبا مرحا
وقلت للرشد مالي فيك من أرب ... فارحل وقمت بثوب الغي متشحا

وفيها يقول بالتورية:

فما طياني وعين النجم شاهدة ... شمساً يقصر عن أوصافها الفصحا
لو أن عائبها قد ذاق لذتهـا ... ما كان عاب لها كأساً ولا (قدحا)

وعلى ذكر التورية هنا أقول إنه كان مولعاً بها مجيداً لها، فمن ذلك قوله في الرثاء:

يا راحلا فيـه ذقنـا ... ما كنا منـه احترزنا
كم قد حوينا هموما ... لما رحلت (وحزنا)

ومن محاسن اقتباساته قوله:

ومليح له ســلاسل شـعـر ... وقلوب الورى بهن أسارى
كلما جال طرفه ترك النا ... س سكارى وما هم بسكارى

وقوله أيضاً:

قد كنت سليماً لا تدرى ... ما حلو الوصل من الهجر
فأطعت النفس وشهوتها ... إن الانســان لفي خسر

وللشاعر في التخميس والتشطير مقـدرة عظمى، تشهد له بالتمكن في النظم مع سمو الخيال، واتساق المعنى، وقد نظم في ذلك مقطوعات كثيرة لفحول الشعراء فخمس أغلب القصائد والمقاطيع المتداولة على ألسنة أهل الأدب للمتنبي، والكمال ابن النبيه، وتقي الدين السروجي، والمعري وغيرهم، وكلها في غاية الطرافة والحكمة، ولولا طولها وكثرتها لأوردت هنا طرفاً منها لاثبات كفاية هذا الشاعر النادر، وأنا لذلك أكتفي بذكر تشطيره للبيتين المنسوبين الى إبليس في الخمر — على سبيل المثال — قال:

(وحمراء قبل المزج صفراء بعده) ... كوجنة خود راعها لثم سارق
إذا صبها في عسجدي مخضب ... (بدت بين ثوبي نرجس وشقائق)
(حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا) ... على نهبها الألحاظ من كل وامق
وصاغ حباب الماء في حال صبه ... (عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق)

وعلى قلة الوصف والتشبيه في شعره بلغ حد الاجادة والابداع، فمن ذلك وصفه لمنشية النزهة باسكندرية:

باسكندرية للصفا منشيــة ... غراء واضحـــة البها غنــاء
سطعت شموس الحسن في أرجائها ... وبدوره فلها سنى وسنــاء

حيث التفت رأيت أبهى روضة (سال النضار بها وقام الماء)

وقال في (فسقية) يتصاعد منها الماء

لله بل للحسن ماء أحكمت فسقية تصعيده فتقطرا
تجري لجيناً أو مذاب الدر أو سيار بللور بنا فتقنطرا

ومن قصائده في الفخر والحماسة هذه القصيدة :

قامت تساجلني العلاء جدودي حتى تحقق في رأي جدودي
واستنجدت فينا شمائل ماجد واستنجزت شيم الوفاء عهودي
وتعيب في ذم الجمود مليحة لتشب ناري غير وشك خمود
ويسمع مني تقول لمن دنت منها أهذي حالة المجدود
أبرد عمـا يبتغيه وعزمه ماض وطالعه يبعد سعود
أولم يكن من لم تغر طلابه يوماً عليه لفضله والجود
أوليس من بهر الكواكب رفعة بعلو صائب رأيه المعهود — الخ

وفي الديوان غير ذلك من المدائح والتهاني والمراثي والتعازي وباقي الفنون الأدبية من القصائد الشيء الكثير ، وكلها مليئة بالمحاسن والغرر — ولا سبيل إلى استقصائها هنا لكثرتها وتشعب أغراضها .

أسلوبه في النثر

وقد عثرت للشاعر على هذه الرسالة الفريدة المسماة « برحلة الكرامة » التي كتبها إلى سعادة خيري باشا مهردار ، واقتصرت على بعض فقرات منها خشية الاطالة ، وهي التي ضمنت وصف رحلته إلى الخرطوم ، قال رحمه الله :

« أهدي إلى نسيم الصبا ، الحاملة لرياض الربا ، ووفود النسيم ، المتحملة بالتكريم والتعظيم ، ورسل الأصائل ، المتضوعة بنشر الخمائل ، ما يزري بنور الرياض ، وتغازل المقل المراض ، أرق من الدموع ، في الربوع ، وألعب من الراح ، بالعقول والأرواح ، وأشهى من الأمان ، في الزمان ، ووفاء الاخوان ، وألذ من عناق أهل الاشتياق ، بعد الفراق ، وأعذب من الرحيق ، على الريق ، وأحلى من الاقبال ، ببلوغ الآمال ، وأحب من الاتحاف ، بالأسعاف ، وأهنأ من الورود ، على حياض الوعود ، وأشوق من الوصال ، وأوفى من طيف الخيال . . . ولكني حيث تنقلت في البلاد ، وهمت في كل واد ، من أقطار السودان ، القاصي منها والدان ، واعتسفت طرقها[1] ، وبشسوغة أسواقها ، حيثما ذكره الأستاذ في الوقائع ، وجنيته من ثمرها اليانع ، التزمت أن أذكر بوجه الاختصار ، ما يتذكر به أولو الأبصار ، وعسى أن تنفق عنده بضاعتي المزجاة ، وأفوز ببركة دعائه بطريق النجاة ، فأقول معتمداً على الله ، وما توفيقي إلا بالله . . . « قد اقتعدنا غوارب الأقتاد ، وجبنا الصخور والأوتاد ، مستدين[1] في المهامه والقفار ، مستندين إلى أعواد الأكوار ، مصطحبين ما يفت في عضد الاصطبار ، ويقلب قلب القرار على النار ، إلى أن وصلنا إلى بندر الخرطوم ، فكانت المحفوفة بالقذى ، المحروسة بالأذى ، لأنها القرية الظالم أهلها ، المستحيل مثلها ، بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المستديم ، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة الأسماء والصفات ، التي ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها من الست الجهات ، إلى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز من الغيظ ، ويستغيث بالسعير ، في أوقات الزمهرير ، فهي بين رياح متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضباب ، كأول يوم الحساب . »

بلاد لا يحيين من رعاها ولا حسن بأهلها اليسار
إذا لبس الدروع ليوم بؤس فأحسن ما لبست لها الفرار

قلت مما اتفق لي نظمه في بلاد السودان وأهلها من جملة أبيات هذا البيت :

قوم تخيلهم جاناً لرؤيتهم وقلت إن خديوينا سليمان

فلو مكثت غير بعيد ، واجتلبت خيل المعتصم والوليد ، واستعديت بذي القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين . ونشرت أبا مسلم الخراساني ، وخرجت في رايات السفياني ، وبعثت بالرياح السوافي ، ورميت بثالثة الأثافي ، ورصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، وزحفت في جنود صفين ، وقاتلت إلى يوم الدين ، لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح ، ولو عمرت عمر نوح ، فإنا كنا في مصادمة الأمطار ، ومزاحمة الأقدار . . . . . »

وبعد ، فهذه صورة من أسلوب الشاعر المجيد ابراهيم بك مرزوق المصري في الشعر والنثر ، أعرضها على قراء الرسالة علها تجد من أدبائنا من يولي أمثال هذا الشاعر المجيد ، ما يستحق من ذكر وتخليد

القاهرة صلاح الدين الرواعي

(١) اعتسف طرقها : خبطها على غير هداية .

(١) بات يشيد السير : يديمه .

الحركة الفكرية لشباب العرب

خبا بريق الثقافة العربية بعد أن بلغت أوجها فى القرون الوسطى عقب غارة التتار على البلاد العربية

وقد قال جوستاف لوبون : « إن الكلام على الشعب العربى وتاريخه وتألقه وعظمة مدنيته لهو كلام عن شعب كان أكثر من أضاف الى ميراث المدنية وزاد فى ثروة الانسانية العامة والمدنية العربية آخر هدية قدمها الشرق الى الغرب وأكبر مدنيات الشرق أهمية ، لأنها نتاج كثير منها ، وقد تركت فى محيط العلم آثاراً لا تمحى »

حتى اذا كان القرن الثامن عشر وهو عهد تقسيم الامبراطورية العربية التى طبقت كل البلاد العربيــة وآسيا الصغرى والعجم والهندستان ومصر وشمال افريقية وكل أسبانيا تقريباً ، عانت الثقافة العربية عهداً طويلاً من الجمود بله القهقرى

فقد غلّت سيادة الأجانب ملكات الذكاء التى أوتيها العرب ، وقتلت حبهم الشديد للمعرفة ، وأضعفت قوتهم المبدعة ، حتى اذا كان علم ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى الى إحياء الفكرة العربيــة وتجديد ثقافتها القديمة . فكانت هذه الحركة الذهنية ، وهى على أشد ما تكون من المضاء فى سوريا ، القبس الأول الذى سطع منه عهد الأحياء العربى الجديد ، ممــا كان له دوى فى باقى البلاد العربية وصدى عميق فى نفوس الشعب الراسف فى الجهالة والجمود

ولقد واجهت هذه اليقظة الذهنية الحركة السياسية التى يقوم بها فتيان الأتراك من أجل « تتريك » كل العناصر غير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية الشبيبة العربيــة ، وبذلك نشأت وطنيتان متعارضتان : العربية والتركية ، يقود كلا منهما شباب الشعبين المثقفون ، فنجم عن هذا التعارض بينهما حركة عنيفة أدت الى تكوين جمعيات تطالب ببعض الحقوق والاصلاح وعلى رأسها شباب الضباط والطلبة الذين تلقوا علومهم فى القسطنطينية مما جعل الجامعات مركزاً لوحدة الشباب وألفته

وصارت وعود الاصلاح التى وعدها الترك لتحسين حال العرب ومن بينها إدخال اللغة العربية فى مدارس الأقاليم هباء ، فلم يتورع الأتراك عن استعمال كل وسيلة للضغط ومقاومة هــذه الكتلة العربية المفكرة مما ألجأ معظمها الى النزوح الى مصر التى غدت مثابة للثقافة العربية

ولقد كان من جراء هذا الخطر الأجنبى توثيق عرى الاتحاد بين شباب العرب الذين استشهد منهم طائفة كبيرة على مشانق الأتراك فى سبيل المسألة العربية ومثلهم الأعلى

ولم يكن لدى هذه الشبيبة الى حين قيام الحرب العالمية الا بعض المدارس الحكومية تلقن العلوم باللغة التركية وغير المدارس الأولية الخاصة لتتاقى فيها لغتها وآدابها . وأما العلوم العالية فلم يكن هناك سبيل اليها إلا القسطنطينية أو أوروبا أو الأزهر

ولما كانت الدراسة العالية غير ميسورة إذن إلا للموسرين ، والحكومة التركية لا تكترث لمصير الشباب العربى اضطر هؤلاء بمواردهم الخاصة الى الخروج من هوة الجهل التى ألقوا فيها عمداً حتى يسلس قيادهم ويسهل إخضاعهم ، إذ كانت سياسة الأتراك نحو العرب تركهم ضُلالا فى ظلام الجهل

وفى خلال سنى الحرب العصيبة قاد الشباب العربى حركة العصيان ضد المستعمر وانحازوا الى الحلفاء الذين وعدوهم باستقلال البلاد بعد النصر ، فهجر شباب الضباط والطلبة كلياتهم واستبدلوا بأقلامهم وكتبهم البنادق لانقاذ ثقافتهم ونصرة حقهم بالمهج والدماء

ولشد ما كانت دهشة العرب بعد الحرب ! أملوا من الحلفاء استقلال بلادهم بالوعود المأخوذة فاذا بهم يقسمونها الى سوريا وفلسطين والعراق ، لتكون تحت انتداب انجلترا وفرنسا ، دون أن يكون لرغبات العرب ومصالحهم حساب ، واذا بالعرب يقاسون بعد الحرب كما قاسوا قبلها عنت الحكم الأجنبى وظلمه ، وكان لهذا التقسيم السياسى أوخم العواقب فى تكوين العقلية العربية للجيل العربى بعد الحرب ، فان الطرق التعليمية المختلطة التى تمارس فى هذه البلاد ترمى الى تطورات متنافرة وعقليات متعارضة لتكسر من حدة الثقافة العربية والوحدة الوطنية ممــا عانت منه البلاد كثيراً ولا سيما سورية

ثم كان من توزيع التعليم بين مدارس الحكومة الرسمية

والمدارس الأجنبية الخاصة ، كمدارس الفرير والفرنتشسكان والجزويت ، والأتحاد الاسرائيلي ، والمدارس الأمريكية ، وجميعها لاتخضع لأية رقابة ، ومن تباين الطرق التعليمية المختلفة فيها ، والتنافس القوى الأعمى بينها ، شر النتائج مما لم يكن يقع غبنه وغرمه إلا على الشباب العربي وحسده ، فأفسدت الاتجاهات المختلفة والأهواء المتباينة والمؤثرات المتعددة روح الشباب ، وباعدت بين بعضهم وبعض فأصبحوا كأنهم غرباء لا يجمع بينهم تفاهم ولا تناسق ، فترددوا بذلك في عذاب أدبي مروع ، وفوضى فكرية فظيعة ، وجهلوا أو لم يعرفوا إلا لماماً أدبهم الوطني وتاريخ أسلافهم الباهر .

وإن الشبيبة التي لا تتغذى ثقافتها الوطنية بالاعجاب بالماضي والزهو بالأسلاف ، لا يمكن أن تتعاون وتعمل في سبيل رفعة الوطن ، فلقد لاحظنا أن طلبة مدارس الارساليات مثلاً وجلهم من المسيحيين قد خلوا تماماً من الوطنية وحل مكانها التعصب الديني ، وهذه حالة نفسية تساعدهم على قبول الاستعمار الأجنبي وتباعد بينهم وبين إخوانهم المسلمين .

على أن من الحوادث السعيدة الجديرة بالذكر أن نخبة من مفكري المسيحيين قد ألقوا منذ سنين نير الرق الأدبي ، وبرئوا من الريبة التي خامرت النفوس ومدوا يد المودة الى إخوانهم المسلمين .

أما تنظيم المدارس الحكومية فقد تم وفقاً للنظام الانجليزي في فلسطين والعراق ، والنظام الفرنسي في سوريا ، دون أن يتفق مع حاجات البلاد .

وقد أنشأت هذه الحالة مسألة غاية في الدقة والخطورة ، وهي مسألة توحيد التعليم القائم على الثقافة الوطنية ، وتحقيق هذه السياسة التعليمية هو الوسيلة الوحيدة السريعة لانضاج ذكاء الشباب العربي وتحقيق الوحدة مهما كان وسطها أو دينها . فتوحيد التعليم ينتج وحدة الفهم والتفكير والارادة ، وهي العوامل الثلاثة الأساسية اللازمة لتخلق في الشباب قوة التعاون على توحيد الجهود وإنهاض البلاد مادياً وأدبياً .

ولقد اشتدت الضرورة الى وحدة التعليم بازدياد عدد الشباب المتعطش للدراسة ، فان عدد المقبلين على التعليم ازداد عقب الحرب كثيراً من الذكور والأناث على السواء . ومع ذلك فان المدارس الرسمية أضيق من أن تسع الطلاب ، مع أنه ليس للبلاد العربية مصروفات حربية ، وميزانيتها تسمح بفتح مدارس جديدة وعلى الأخص في القرى كما تسمح بتحسين المدارس الحالية على وجه السرعة ، وفي نظرنا أن هذا الواجب هو من أول الواجبات الملقاة على عاتق الحلفاء . فلماذا أهمل ؟

ومن جهة أخرى ، فإن المتعلمين يعانون الآن أزمة شديدة في جميع البلاد العربية لما يصادفونه من العقبات في المهن الحرة ، إذ لا يجدون بعد سنين طويلة من الدراسة الشاقة في أوربا أو في الوطن مايحتاجونه من عوامل الكمال بعد أن سدت في وجوههم كل طرق الحياة أو ألقيت فيها العراقيل ، دون أن تفكر أية حكومة في معونتهم وتمهيد الطريق لانماء معارفهم وجني ثمار عملهم ، بل أنهم أبعدوا عمداً عن وظائف الدولة وجميع الأعمال المتصلة بها تقريباً إذ يشغلها طبعاً رجال الانتداب ، فرنسيون وإنجليز ، وكل ذنبهم أنهم تنكروا لنظام الانتداب ففرت منهم معظم وظائف الأدارة في بلادهم ، وحرموا من مورد عدل مشروع .

وها كم مثلا لتوضيح ما تقدم : إن بمجلس النواب كثيرين أميين ، على حين أن البلاد تزخر بالمتعلمين الذين لا يبغون إلا أن يخدموا بلادهم بمعارفهم ، وتفسير هذا الأمر أن حكومة الانتداب ترغب في توطيد مركزها بسهولة

أما الوظائف القليلة التي شغلوها بعد لأى فلا تتناسب مع مستوى تعليمهم ، والحاجة هي التي أرغمتهم على قبول وظائف أبعدتهم تماماً عما تخصصوا له ، ولطالما خضعوا لرؤساء من رجال الانتداب لا يحملون أية درجة جامعية

وكذلك كانوا في ميادين الحياة الأخرى ، تميز الأجانب عليهم وارتفعوا على أكتافهم بفضل سلطات الاحتلال

ولا ينبغي أن ننسى أن بالبلاد العربية أراضي شاسعة ما تزال بكراً كان يمكن أن تقوم بها مشروعات زراعية وصناعية فتشغل كل هذه الطبقة العاطلة

ولقد كان لهذه الأزمة الفكرية أثر نفسي سيء في الشباب فألقوا نفوسهم دون وعى في أكثر الدراسات قدرة على تأمين مكسب متواضع سريع مما أدى الى وقف النضوج الذهني وقتل الطموح

وأحس الجميع بهذه الأدوار المادية والفوضى الذهنية المنتشرة فاذا أضفنا الى هذه الحالة المعنوية ما يعانيه الشباب من الاذلال والامتهان المستمرين فهمنا بجلاء سبب جنوحه عن غرضه الأصلي بالنسبة له ولبلاده واندفاعه بحرارة وحماسة نحو السياسة لكفاح الاستعمار الأجنبي الذي سبب كل هذه الأدواء ، وهو لم يكن قد أدرك الا بعد سنين طويلة من الألم أن حاله تزداد سوءاً ، وأن بلاده تشرف على الهلاك ، وأن الضرر لابد أن يقتلع من أساسه ، لكنه ازاء الصعوبات الحاضرة والانقلابات الاجتماعية المتوالية ظل مغلولا محروماً من كل وسائل الكفاح ، فالحاضر يفلت منه إذ لا يعاونه نظام البلاد الاقتصادي والسياسي ، والمستقبل لا يمثل له الا نذيراً من الابهام والقلق المخيف

ولطالما شل المستعمرون المتعاقبون على البلاد الحركة الفكرية فيها فقاست منهم الأمرين

واليوم قد نهضت هذه الحركة برغم كل القيود ، وأحس الشباب الذي يقاسي شر هذه الأدواء هذه الحاجة وترسم ذلك المثل ، فهبت ريح من الوطنية الجارفة تقوض كل الحواجز الزائفة التي وضعتها القوى الأجنبية ، وتدعم أواصر هذا الشباب الذي وحد بينه التاريخ والعادات واللغة

وإن هذه الوطنية لتتغلغل اليوم بقوة في الطبقات الدنيا من هذا الشعب الذي قوته ذكريات ضحايا الحكم التركي ونظام الانتداب ودفعته لانقاذ ثقافته وحريته

وقد بدت في هذه الأيام نفسية عجيبة في روح هذا الشعب ، هي التعطش لتعليم الأبناء حتى يصبحوا قادرين على نيل الاستقلال

وتتجه الحركة الفكرية بالشباب العربي نحو إحياء مجد أورشليم وبغداد القديم من الوجهة الذهنية والسياسية ، وستستعين في ثقافتها بكل العوامل الضرورية لارتقائها روحياً وسياسياً ؟

(آسيا الفتاة) أ . الجابري

فصول مدرسية في الأدب الدرامي

٢ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

صفات العمل

من صفات العمل الأساسية الوحدة ، والسرعة ، وتوجيه الأثر الى الذهن

فوحدة العمل هي اتحاد الأجزاء المختلفة التي يتركب منها العمل الروائي على إيجاد حادث واحد أو منعه . ولا يتحقق ذلك إلا بحصر الأهتمام كله في بطل الرواية ، وجعل هذا البطل في خطر وأحد لا يختلف من ابتداء التمثيل الى انتهائه . لأن الخطر اذا زال انتهى العمل ، والبطل اذا وقع في خطر غير الأول ابتدأ بوقوعه فيه عمل آخر . على أن العمل قد يكون مركباً متشعباً تملؤه التغيرات وتعوقه المفاجآت ولا يؤثر شيء من ذلك في وحدته . إذ يكفي أن تكون هذه التفصيلات وتلك الاعتراضات مسوقة الى غرض واحد ، موصلة الى نتيجة واحدة . وقد يتسامحون أحياناً في تطبيق شرط الوحدة ، فيكتفون في تحققه بأن يتحد الخلق الفعال في الرواية ، فيجيزون أن تتنوع المواقف وتتعدد الحوادث مادامت تدور كلها حول خلق واحد تحلله وتفصله

الوحدات الثلاث

ولقد كان القدماء من أشياع المذهب الاتباعي (Classique) في فرنسا أثناء القرن السابع عشر يشترطون في العمل غير هذه الوحدة وحدتين أخريين : هما وحدة المكان ، ووحدة الزمان ، ويسمون ذلك قانون الوحدات الثلاث ، وظلوا يطبقونه في غير لين ولا هوادة حتى ظهر المذهب الأبتداعي (Romantique) في صدر القرن التاسع عشر فهاجم هذا القانون فيما هاجم من قوانين القدماء . وكان من أثر هذا النضال العنيف بين أنصار المذهبين أن تجوز الأدباء في تطبيقه ، وأغضوا النظر قليلاً عن تحقيقه ،

فذهب ما يشينه من تكلف وتعسف، وبقى ما يزينه من دقة وتجديد. فماذا كانوا يريدون بوحدتي المكان والزمان؟ كانوا يريدون بوحدة المكان أن يفرض وقوع العمل كله في مكان واحد لا يتعداه، فاذا وقع في مدينة أو معسكر أو طابق بيت ظل ذلك المنظر واحداً في كل فصل من فصول الرواية من بدء التمثيل الى ختامه. وإن اقتضى الحال أن يعمل أحد الأشخاص عملاً يحتاج الى نقلة أو رحلة عمله خارج المسرح ثم نبأ به الشاهدين في وقته المناسب. وكانوا يريدون بوحدة الزمان ألا يستغرق العمل الروائي أكثر من أربع وعشرين أو ست وثلاثين ساعة. وكان أرسططاليس يحتم ألا يتجاوز هذا الزمن دورة الشمس. وعلتهم في اشتراط هذه الوحدات الثلاث مجاراة السلف من الأغريق في سلوك هذه الطريقة، والمحافظة على الأمكانية بمقاربة الحقيقة؛ فان الذوق السليم يقتضي أن ما يمثل في ثلاث ساعات أو أربع يكون قد حدث حقيقة أو فرضاً في زمن يسير ومكان واحد. ولكن المحدثين يقولون لماذا تستطيع المخيلة أن تتصور الحادث الذي أتت عليه القرون حاضراً، ولا تستطيع أن تتعقب الحادث من مكان الى آخر؟ واذا قبلت مخيلاتنا أن يمثل لها في ساعة أو ساعتين ما لا يحصل إلا في يوم وليلة، فكيف ترفض أن تمتد العمل الى ما وراء ذلك؟

الواقع أن الكتاب يتوسعون في هذه القاعدة حتى القدماء منهم ما داموا محتفظين بالأمكانية ووحدة الجاذبية. وقد أصبح اليوم تغيير المكان وتطويل الزمان من الأمور الميسورة على المسرح الحديث، فعالجوا الأول بارخاء الستار هنيهة ريثما ينتقل الممثلون الى مكان آخر — والستار ميزة لم تكن لمسرح القدماء من قبل — وعالجوا الثاني بتقسيم الرواية الى فصول يفرضون مرور الزمن الذي يريدونه في الفترات القصيرة التي تتخللها. على أن هذا الزمن وإن يكن غير محدود لا ينبغي أن يطول حتى يخرج عن حدود الامكان، فلا يجوز مثلاً أن يكون البطل صغيراً في الفصل الأول ثم يدركه الشيب في الفصل الأخير.

أما السرعة فيجب أن يكون العمل في الرواية أسرع منه في الملحمة، لأن الملحمة مسرحها الطبيعة، ومسرحها ذهن القارئ، فهي تحتمل من التطويل والتفصيل والاستطراد والوصف ما لا تحتمله الرواية لضيق مسرحها وقرب مداها. فهي لا بد أن تبدأ في عنفوان العمل وعلى مقربة من الحل، لأن طبيعتها من قوة الحركة وشدة الاندفاع، وما تحدثه في نفس الشاهد من شدة القلق وقوة الانجذاب، تأبى الأسراف في خلق الظروف وابتكار الوسائل، فلا تبتغيها إلا بقدر الحاجة اللازمة. فالرواية ولا سيما المأساة، سيل يقطع السدود ويقتحم الحواجز، ولكن الملحمة نهر فياض يتحدر هادئاً طليقاً الى مصبه، فيطول مجراه بكثرة منعطفاته وتعدد محانيه. واذا امتازت الملحمة بالتنوع والغزارة والفخامة، امتازت المأساة بالسرعة والتأثير والحرارة.

بقيت الصفة الثالثة وهي توجيه الأثر الى الذهن لا الى الحواس، لأن المسرح اذا غلَّب التأثير في الجسم على التأثير في الفكر كان أقرب الى الملعب (Cirque) وهو مظهر العجائب البدنية من الحيوان المروض والانسان المرن، وكان جزاءه أن يفقد سلطانه ومكانه في قليل من الزمن. وعلة ذلك أن التأثير المادي محدود متشابه، فلا يلبث الناس أن ترى أعينهم مداه وتتعود آذانهم صداه، ويدركوا أن ما قرع أسماعهم أول مرة من أصوات الألم المروعة، وأنات الاحتضار الموجعة، انما هو صوت واحد متكرر الأثر، ويؤول الأمر بالشاهدين والمؤلفين حتماً الى أن يفقدوا التأثر منه والتأثير به لتشابه موضوعاته وتكرر مؤثراته. من أجل ذلك لا ترى على المسرح تفاصيل الحوادث المرعبة كالقتل مثلاً، بل يفرض حدوثها في ظاهره (Coulisse)، ثم تلقى الى الشاهد على لسان شخص من أشخاص الرواية. ومسرح الأغريق نموذج السارح في هذه السبيل. أما المسرح الروماني فقد دعاه غلظ الطبع وجفاء الشعور الى أن يسمع النظارة أنين مصارعي الثيران وهم في سياق الموت، ويريهم دماء الضحايا وأشلاء القتلى مبعثرة على أرضه، فتأخر الفن الروائي عند الرومان من جراء ذلك كثيراً

يتبع (الزيات)

في الأدب العربي

كثـــير عزة

مدى التطور في شعره ، خلقه وخلقه ،
شيعي وشاعر الأمويين ، عشـــقه

بقـــلم عبد الحليم عباسي

يعجبك في الأدب العربي القـديم ظاهرة جديرة بالبحث العميق ، وهي شيوع هذا الأدب الغنائي ، فالشعر الجاهلي الذي وصل الينا لا يتعدى هذا النوع في الأعم ، فهو غنائي في لفظه وفي موضوعه ، بينا تجده في الأمم ذوات الأدب لم يسم الى هذا الضرب إلا بعد قيام الدولة وازدهار النهضة . . . فالشعر اليوناني لم يصل الى هذه المرتبة إلا بعد أن اشتد أمرهم وعظم سلطانهم ، فأخذوا يقيمون المستعمرات على شواطئ البحرين ، وكذلك الشأن في الأمم الأخرى ، فهو عند الرومان مثلاً لم تقع عليه قرائح الشعراء إلا بعد قيام الدولة ببضعة قرون ، وهو في الأمم الأوربية الحاضرة كذلك قد ساوق النهضات وقيام الدول .

ويجيء على الضـد من ذلك في الأدب العربي ، فقد نهض وما برح العرب يهيمون في أوديتهم القاحلة ، لا يلم شعثهم بأس الدولة ، ولا يحكم أمرهم شرف الملك ؛ ولعـل البحث في علة هذا يعود الى ضرورة البحث في خصائص الخيالين : الآرى والسامى ، والى تفهم المزاج العربي الأصيل ، مما نرجئه الى وقت يكون أكثر ملاءمة من هذا الوقت الذي نخصصه للبحث عن كثير ؛ وحسبنا هنا أن نشير الى ذلك ، وأن نشير الى أن من هذا الشعر الغنائي ما يتصل بكل نفس ، ويخلد على وجه الدهر ، وهو الشعر الذي ينبعث من نفس الشاعر ، لا يبتغي من ورائه غرضا ، وإنما يقوله إرضاء لرغبة الجمال والفن في نفسه ، ومنه الغزل والحنين ، وهو شائع في الأدب العربي شيوعاً كبيراً ، استطاع معه أن يلون خيالهم ، وأساليب تفكيرهم ، وأن يجعل الرقة في الحديث والحوار ، والبكاء على الدمن من أظهر صفات العرب . . ومن هؤلاء الشعراء الذين زادوا في ذخيرة الأدب الوجداني كثير بن أبي جمعة .

مدى التطور في شعره

كانت الحقبة التي أعقبت عاصفة الفتح الاسلامي الجتاحة ، والتي دوخت بلاد فارس ، وأدخلت في حوزة المسلمين كثيراً من الأيالات الرومية ، حقبة فيها شيء من الهدوء والاستقرار على الأقل — في الأطراف النائية عن مقر الملك الأموي ، وكان من ذلك ، ومن هذا الرخاء الذي أخذ يمتد بما هيأ له الفتح الاسلامي من فيء يفيض عن الحاجة ، أضف إلى هذا ما اقتضته سياسة الملك من ضرورة مشايعة الشعر والأخذ بناصره أن نهض الشعر ، وازدهر سلطانه ، وقامت له مدارس كثيرة من أشهرها هذه المدرسة التي لم يقتصر التطور على تغيير أسلوبها اللفظي ، وانما تناول مع القالب الشعري الفكرة ، وكثير أقرب إلى هذه المدرسة منه إلى أية مدرسة أخرى . . .

وقد غايرت هذه المدرسة الأنماط الشعرية المتواضع عليها من القديم ، فقد أنشأت القصائد يقصدبها النسيب فحسب ، ويقصدبها موضوعات غير هذه المعروفة قديماً من الهجو والمدح والاستجداء .

وكثير وإن يكن من هذه المدرسـة الا أن النوازل والمؤثرات التي أثرت في نفوس أصحابها لم تكن عميقة الأثر في نفسه ، فقد مدح وهجا ، وكل ذلك بلفظ شيق سمح صقلته الحضارة الأسلامية التي بدأت تتفتح ، وباعدت بينه وبين وعورة الأسلوب الجاهلي ، وليس لذلك من تعليل غير أن النفسية العربية لم تتطور بعد التطور كله ، ولم يحن لهذا التمازج الهين مع الثقافات والأمم الذي أخذ يظهر ، ان يبدو عنيفاً . . كما ان كثيراً لم يك له هذا الحسب الباذخ والغناء الفاضح ، الذي للعرجي وابن أبي ربيعة ، فالزمن يقسره على المدح ويضطره الى الهجاء ، ليأخذ الجوائز والهبات ، ويستفيد من موالاة هذه العصبيات التي أراد القابضون على مقاليـد الأمر ابقاءها حية ، ليطرد لهم الملك . . بعد أن جاهد الاسلام في اخفائها زمناً طويلاً . . .

ولـكنه إذ يمدح يجانب بعض الشيء هذا المثل الذي يحتذيه شعراء العرب ، وهو النمط الجاهلي . . فهو يضيف الى رقته شيئاً من هذه الصور الوضاءة ، التي بثتها عيشة الهدوء والاستقرار .

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه   حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى نافعاً   بكت فبكى مما شجاها قطينها

وهو يجيد بصفة خاصة مدح الملوك إجادة منقطعة النظير، حازت إعجاب معاصريه حتى كانوا يرون من أبرز صفاته القدرة على ذلك. فلا غرو بعد هذا أن كان أثراً عند ملوك بني أمية يعلمون أبناءهم شعره:

خلقه وخلقه

عن الوقاصي قالت: رأيت كثيراً فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب، وقد تشاجر هو والشاعر الحزين، فقام كثير وحمل على الحزين ولكزه، فحمله الحزين في يده مثل الكرة، ورمى به الأرض.. وهو الى ذلك دميم أحمر، أما أخلاقه فكان شديد التيه والكبر، كثير العجب بنفسه، تقع من ذلك على نوادر مضحكة. فمن ذلك أن بعضاً من فتيان قريش كانوا يتحدثون على مسمع منه، بأن كثيراً من تيهه لا يلتفت الى ورائه، ثم يتبعونه عن يسحب رداءه فلا يلتفت أبداً، وقد عرف عنه أنه أحمق وفيه غفلة، ولسنا نشك في ذلك، ولكننا نشك في عامة هذه الروايات التي تقص علينا نوادر حمقه، والتي توصله من الغفلة والانتكاس في العقل حداً يصعب تصوره، في مثل من هو مثله في قوة شاعريته.. فمن ذلك أنه قال لعميته مرة: أتدرين من أنا؟ فقالت: نعم، أنت فلان بن فلان، فقال: لا، وإنما أنا يونس بن متى!... وقال لأصحابه وهو في مأدبة الموت: سترونني بعد أربعين ليلة طالعاً على فرس عتيق من شعاب هذا الوادي... وقد كان له الى ذلك آراء في الرجعة والتناسخ، وهذه من العوامل التي جنت عليه في عامة هذه الروايات، فما عرف الناس منه هذا حتى راحوا يختلقون ويضيفون اليه شتى الروايات التي تؤيد مزاعمهم انتقاماً من تيهه وكبره، ثم يتعاقب الزمن، فتصبح هذه المزاعم حقائق ثابتة يتناولها الكتاب دون ما نظر ولا تمحيص، وليس لدينا ما يقوي هذا الشك في صدق هذه الروايات، غير ما نلمحه في سيرة كثير من أنه كان محاطاً بزمرة حبب اليها التندر والفكاهة، ومن أولى بهما من هذا القزم الذاهب بنفسه.. من ذلك أن أبا هاشم عبد الله محمد بن علي وضع عليه من يأتيه بأخباره، فكان يلقاه فيحدثه عما كان منه في خلال يومه، وكثير يعجب من هذا، حتى جاءه يوماً بكلام جرى بينه وبين آخر، وقال له: لقد جرى منك اليوم كيت وكيت... فقال كثير: أشهد أنك رسول الله...

فمن هنا نرى مبلغ ولوع الناس بالعبث به حتى كانوا يرصدون له من كان يأتيهم بأنبائه، لا يسقط منها حرفاً..

وزاد في الطين بلة أنه كان دعي النسب الى قريش، وأكثر الرواة يلحقونه بخزاعة، ولكنه هو يأبى إلا أن يكون من كنانة قريش، ويأبى إلا أن يدل بهذا النسب المختلق على القرشيين أنفسهم، وإذا عوتب في ذلك وأعوزته الحجة قال: لدعيُّ النسب في قريش خير من صريحه في غيرها من القبائل. ومن هنا ندرك مبلغ ما انطوت عليه نفسه من حماقة، وما ركب فيه من تبجح وادعاء.

على أننا إذا شككنا في كثرة هذه الروايات التي تمثل حمقه وغفلته، فلا نشك في أنه كان دميماً الى حد البشاعة، وكان تياهاً بنفسه، وهذا ما يكفي لصد الناس عنه واستثقالهم لظله.

شيعي وشاعر الدولة

من المعروف عن كثير أنه كان متشيعاً مغالياً في التشيع، وكان ملوك بني أمية يعلمون ذلك، ولكنهم يحسنون مع هذا وفادته، بل يذهبون الى أبعد من هذا في إكرامه، فينعتونه بشاعر الدولة، وتعلل الروايات الاسلامية هذا بلطف مدخل كثير وجلاله في أعين الخلفاء، وهي قولة ليس فيها سداد منطق ولا عمق بحث... فأين لطف المدخل عند هذا البغيض الروح؟ وأين هذا الجلال عند من لا يزيد طوله على ثلاثة أشبار ومن هو دعي النسب في قريش؟.. ولا سيما إذا علمنا بأن صدر الدولة الأموية لم يكن يتسع للشيعة، فكم أخذتهم بأساليب العنف والقوة، وكم صرعت من جلة الناس، وما حوادث زياد بن سمية وتنقيبه عنهم تحت كل حجر ببعيدة المدى، بل هذا الحجاج في العراق، يقتفي آثارهم ويأخذهم هبراً بالسيف وبعجاً بالرماح.

إذن فلابد من أن يكون في الأمر شيء غير هذا الجلال المزعوم، ولطف المدخل الموهوم، مكن لكثير من أن يحتمله الأمويون، وأن يستحلفه الخلفاء في مجالسهم بلى؛ إذا ما أرادوا

أن يصدقهم بخبر دون أن يروا فى ذلك غضاضة .

ولنبحث بإيجـــاز فى طبيعة هـذا التشيع الذى كان يعتنقه كثيّر فلعل فيه العلة ، وما نخال إلا ذلك . . .

نشأت الشيعية فـكرة بسيطة ، تتلخص فى أن علياً وأحفاده أحق بالخلافة من كل من عداهم ، ثم أخذت تتطور هذه الفكرة حتى أصبح الشيعيون فى هذه الفترة التى نكتب عنها فرقا متباينة لا يستبان بها . . .

وأشهر هذه الفرق فرقتا الزيدية والأمامية ، ومن هـذه الأخيرة تتشعب فرق متعددة يختلفون فى أشخاص الأئمة ، منها هذه التى تنتظر خروج محمد بن الحنفية . وقد كان من أتباعها شاعرنا كثيّر ، فهو يمدح هذا الامام وينعت أحفاد على بالأنبياء الصغار ، وليس فى طبيعة هذا التشيع ما يضير الأمويين إذ هو لا يتعرض للقضية الكبرى وهى قضـية الملك والخلافة ، وأن أحفاد على أحق بها من آل مروان ، فقد ألهته هذه الأمور أو ألهى بها نفسه — لا ندرى — عن القضية الأساسية الـكبرى كما أسلفنا .

أقر الله عينى إذ دعانى ... أمين الله يلطفُ بالسـؤال

وأثنى فى هواى علىّ خيراً ... ويسأل عن بنى وكيف حالى

هو المهـدى خبرناه حق ... أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

***

وسبط لا تراه العـين حتى ... يقود الخيل يقـدمها اللواء

تَغَيَّب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى عنـده عسل وماء

فهل ترى فى هذا النوع من التشيع ضيراً على الأمويين ؟ بل نزعم أكثر من هذا وهو أن الأمويين ما كانوا ليروا حرجاً فى أن يشيع هذا النوع ، ليمدوا فى أسباب الخلف بين فرق الشيعة من جهة ، وليلهوهم من جهة ثانية ، وما عليهم ان قعدت بهم هممهم ، ينتظرون هذا الذى يقود الخيل يقدمها اللواء

فلا جرم أن لم يأبهوا لتشيع كثيّر ، وما عليهم وهو يجيد مدح الملوك ، وقد تغلغل حب القرشيين فى صميمه ، يحب من والاهم ، ويعادى من عاداهم ، ان اتخذوه شاعرهم يقـدمونه ويروون شعره ، وهو بعـد الشاعر البعيد الصيت ، المستفيض الشهرة .

عشقه

يشك بعض الرواة ، فى أن كثيرا كان صادق العشق لعزة ، ويدللون على ذلك بروايات نرى فيها أثر الاختلاق والتكلف ، فمن ذلك أن كثيرا تبع مرة بثينة وقال لها متغزلاً :

رمتنى على عمـد بثينة بعـدما ... تولى شـبابى وارجحن شبابها

فالتفت فرأى وراءه عزة فاستدرك وقال :

ولـكنما ترمين نفساً مريضة ... لعزة منها صفوها ولبابهـا

وهكذا دواليك من هذه المزاعم التى يلحظ فيها الانسان أثر الصنعة ، ولا نعرف من أين غلب على الرواة هذا الظن ، لعلهم ظنوه قلد جميلا فى غزله ، دون أن يعرف قلبه هذا الحب المبرح . .

والذى نعتقده ونحن ندرس شعره الذى تركه فى عزة ، فنرى اللوعة وبرح الهـوى ووقدة العاطفة ، أنه أحب عزة حباً قوياً جارفاً كما يقولون ، وكان من أثر هـذا الحب أن زفر بهذا الشعر الذى يحمل نجيع القلب ، وذوب العاطفة ؛ وهاك ما قاله فيها لما أخرجت الى مصر ، ولك أن تحكم :

وقال خليلى مالهـا إذ لقيتها ... غداة السنا فيها عليك وجوم

فقلت له إن المودة بيننـا ... على غير فحش والصفاء قديم

وإنى وإن أعرضت عنها تجلداً ... على العهـد فيما بيننـا لمقيم

وإن زماناً فرق الدهر بيننا ... وبينكم فى صرفه لمشوم

ولـكن أنى لهذا الحب أن يدوم وقد فترت دواعيه . فمن الرواة من يشك فى أن كثيرا رأى عزة واجتمع بها ، والذى صح عندنا أنه رآها ، ولـكن فى مرات معدودة ، وأنها لم تـكن تبادله الحب قوياً كحب بثينة لجميل بن معمر ، فمن هنا مال لغيرها وقصد القصائد فى أم الحويرث ، وأخرى اسمها ظلامة ، والمرء إذ يطالع شعره فى هاتين ، يراه بارد العاطفة ركيك الصنعة .

تقطع من ظلامة الوصل أجمع ... أخيراً على أن لم يك الوصل ينفع

وقس هذا بهذين البيتين يقولهما فى عزة :

وأجمع هجراناً لأسماء إن دنت ... بها الدار لا من زهدة فى وصالها

فان شحطت يوماً بكيت وإن دنت ... تذللت واستكثرتها باعتزالها

وأخيراً فشعره فى عزة هو الذى زاد فى ذخـيرة الأدب الوجدانى ، ومحال أن يكون مجرد صياغة وصناعة

عمان

عبد الحليم عباسي

من طرائف الشعر

الى شبان المسلمين

للشاعر الحاج محمد الهراوى

قل للشباب المسلمين تحية ... من مسلم ثبت على إيمانه

ويزيده فى الله حسن عقيدة ... ما جره الالحاد من خسرانه

الغرب مجلبة الخسار جميعه ... والشرق مفتتن به عن شأنه

متودد ، والغرب لم يأبه له ... لا فى مودته ولا شنآنه

ماذا من الغربى فى إحسانه ... والشر غلاب على إحسانه

مازال يرمى الشرق من نيرانه ... حتى تردى فى لظى نيرانه

فى كل يوم معقد للجانه ... والمشكلات تثار تحت لجانه

لو أخلص الغربى فى نياته ... ما ثارت النيران من بركانه

ما باله ، والعدل من ألحانه ... تبكى العدالة فى صدى ألحانه

لو يحفظ الشرقى طابع قومه ... لم يطوه الغربى فى سلطانه

أو كان يزهد فى الحياة لعزة ... ما هان بعد العز فى أوطانه

أو كان متبعاً لآى كتابه ... لمشى ، وهذا الدهر طوع بنانه

لكن سبته حضارة غربية ... ألقى الى مضمارها بعنانه

أين الغزاة الفاتحون وأين ما ... فتحت سيوف الله من بلدانه

أين السراة الخيرون وأين ما ... شادوا لدين الله من بنيانه

أين البيوت العامرات بأهلها ... سل كل بيت دال من سكانه

والأزهر المعمور أين مكانه ؟ ... سل عنه : أين ؟ وأنت فوق مكانه

فرحوا وهم يبنون كلياته ... فليفرحوا بالطوب تحت دهانه

من يوم أن نقلوه عن جدرانه ... قد طار سر الله عن جدرانه

فاسأل عن الأحياء من علمائه ... والفتية الأطهار من شبانه

المتقين الله حق تقاته ... الحافظين لدينهم وكيانه

العاملين بشرعة وكتابه ... العاملين بروحه وبيانه

خرجوا وحتى الزى لم يبقوا له ... ظلا لجبته ولا قفطانه

***

مولاى ، يا ملك البلاد وذخرها ... وملاذ هذا الدين عند هوانه

مصر بأزهرها القديم كما بدا ... بالطابع الموروث منذ زمانه

فأعد اليه عهده وأستبقه ... تدفع به الإلحاد فى عدوانه

أدعو شباب الشرق من أجناسه ... وعلى اختلاف الشرق فى أديانه

أدعو لجامعة تضم شتاته ... من صينه الأقصى الى تطوانه

إن لم يكن فى الدين جامعة له ... كبرى ، ففى آلامه ولسانه

مابالنا والغرب غرب دائماً ... فى ظله نمشى وتحت ضمانه

فخذوا سبيل الدين فهو كفيلكم ... ليرد سيل الغرب عن طغيانه

والدين للدنيا وللأخرى معاً ... وسعادة الدارين فى قرآنه

أهذه الأرض ؟

للأستاذ فخرى أبو السعود

من غازل الروض حتى افتر جذلانا ... وكان منقبضاً بالأمس غضبانا ؟

ونضر الزرع فاخضرت لفائفه ... وانبث فى الأرض آكاماً ووديانا

وأخرج الزهر من أقصى منابته ... فرصع العشب أشكالاً وألوانا

وصاح بالريح حتى قر ثائرها ... إلا نسيماً بعرف الزهر ملآنا

وكفكف الغيث فانجابت عوارضه ... وكان لا يأتلى هطلاً وتهتانا

وقشع السحب عن أفق السما فبدا ... طلقاً وأطلع وجه الشمس ضحيانا

ورد غائل برد كاد يهلكنا ... عات وأرسل دفئاً منه أحيانا

أهذه الأرض مازالت كما عهدت ... أم بدلتها جنود من بسليمانا ؟

قد ظل ملتحفاً بالدجن محتجباً ... حسن الطبيعة طول العام وسنانا

حتى انجلى فبدا من طول لهفتنا ... إليه آخذ بالألباب عريانا

وللطبيعة حسن حيثما سفرت ... فى الشرق والغرب ساب أينما بانا

ليست أقل بأرض الثلج فتنتها ... منها بواد يغذى النخل والبانا

وددت لما تمشى فى الجزيرة لو ... يتاح لى فى حماها الخلد أزمانا

على أعب ملياً من مناهله ... ويغتدى القلب من رياه ريانا

ذرعتها من جنوب الأرض مبتغياً ... شمالها ممعناً فى السير إمعانا

والشمس ترمى شواظاً من أشعتها ... آناً ويفتر عنى وقدها آنا

مقلقلَ الشخص تعلو بى غواربُها ... حيناً وتهبط بى الأغوارُ أحيانا
تبدو على الأفق الآطامُ مائلةً ... خلف المزارع أسراباً وأُحدانا
وقدْ علَتْ بينها الأبراجُ راسيةً ... طوَتْ بموضعها دهراً وحدْثانا
إذا هبَطْتُ قُراها أو مدائنَها ... رأيت خيراً وإثراءً وعمرانا
ماجت بمن درَجوا فيها ومن ركبوا ... كالنمل تعمُرُ ألواذاً (1) وكثبانا
وإن أويْتُ لأحضان الطبيعة لمْ ... ألاقِ أحْنى على الأبناء أحضانا
أهدَتْ إلىَّ وفوداً من نسائمها ... تترى وظلاً من الأغصان فينانا
قد أمَّنَ العدلُ قُطَّاناً وسابلةً ... بها وظلَّلَ أجوازاً وبلدانا
وفاءَ للحق شعبٌ فى منا كبها ... على الإباءِ لوجْهِ الحقِّ قد دانا

فخرى أبو السعود

(1) ألواذ الجبل : جوانبه وما يطيف به

زفرة

للأستاذ محمد خورشيد

ذكَرُونى كيفَ أبتسمُ ... قد طوى عهدَ المُنا الألمُ
وشؤونى باتَ زاخرها ... بدمِ ابنِ الجنبِ يلتطمُ
وربيعى للخريفِ حبَا ... وشبابى اغتاله الهرَمُ
أشتكى همى فيشمت بى ... زمنٌ أنوارُه ظُلَمُ

***

أنا فى ليلِ الشقا همدت ... جذوتى واجتاحنى السقَمُ
لم يشأ ليلى السُّرَى فغفا ... وطلبتُ الفجرَ أعتصمُ
فذوى فى مهده أملى ... حين زلّت بالمُنى القدَمُ

***

لحياتى — والأسى قدرٌ — ... صفحاتٌ كلُّهنَّ دمُ
حسبونى بينَ مَن وُجدُوا ... ووجودى — لو دَرَوا — عدَمُ
زفرةٌ كالجمرِ لاذعةٌ ... سلَّها من صدرىَ القلمُ

القدس ... محمد خورشيد

أستاذ الأدب العربى بالرشيدية الثانوية

خبيئة نفسى

للأديب سيد قطب

خبيئةَ نفسى، قد غفا الكونُ فاسفرى ... وكونى سميرى، بعد إذ نامَ سُمَّرى
سها الدهرُ والأقدارُ رنَّقها الكرى ... وهوَّمَ فى جوف الدُّجى روحُ خيِّرِ
يُطيف على العانين بالعطف والرضا ... ويغمرُ بالأغفاء رأسَ المفكرِ
وينتظم الدنيا هدوءاً كأنها ... عوالمُ فى وادى المنى لم تُصوَّرِ
فلا صوتَ إلا خفقةٌ من جوانحٍ ... كما خفقتْ للضوء عينُ المصوِّرِ
ولم يَبقَ من هذى الحياةِ وأهلها ... سوى طيفها السَّارى بوادى التذكرِ

***

خبيئة نفسى من عهود سحيقةٍ ... ومن جوف آبادٍ مضت قبل مولدى!
أمسُّكِ فى أغوار نفسى ولا أرى ... محيَّاكِ إلا كالخيال المشرد
علمتُكِ حتى أنتِ منّىَ بُضْعةٌ ... جهلتُكِ حتى أنتِ فى غير مشهدِ!
ويا طالما أخلفتِ لى كلَّ موعدٍ ... ويا طالما ألقاكِ فى غير موعدِ!
عجبتُ فكمْ مِنْ نفرةٍ تنفرينها ... على فرطِ ما تبدينه من تودد!
حديثُكِ من نفسى قريبٌ وإنما ... إخالُكِ فى وادٍ من التيهِ سرمدِ

***

خبيئةَ نفسى، ما ترى أنتِ؟ إننى ... أريدكِ فى جوٍّ من الضوء مَعلَمِ
أعنصرُكِ الإيمانُ والطهرُ أصلُه ... وإلا إلى الكفرانِ والرجسِ مُنتمِ
وفى أىِّ وادٍ أنتِ تسرينَ خلسةً ... ومن أىِّ عهدٍ فى الجهالات مبهمِ
وكم فيكِ من نصرٍ وكم من هزيمةٍ ... تجاورتا فى حشدكِ المتزحِّمِ
وكم فيكِ من يأسٍ وكم فيكِ مأملٍ ... وكم مِنْ تردٍّ أو وثوبٍ تقحُّمِ
وكم فيكِ من حبٍّ وكم فيكِ بغضةٌ ... ومن رشدِ إلهامٍ إلى خبطِ مظلمِ

***

خبيئةَ نفسى فى ثناياكِ معرضٌ ... لما لقيتهُ الأرضُ فى الجولانِ
وفيكِ من الآبادِ سرٌّ وروعةٌ ... وفيكِ صراعاتٌ بكلِّ زمانِ
وفيكِ التقى الانسانُ من عهد خلقه ... وفيكِ التقى الروحىُّ والحيوانى
وانكِ طلَّسمُ الحياة جميعها ... وصورتها الصغرى بكل مكانِ
أبينى إذنْ عن ذلك العالمِ الذى ... تضمَّنتِهِ من صورةٍ ومعانِ
أبينى أطالعْ فى ثناياكِ ما مضى ... وما هو آتٍ من رؤًى وأمانِ

سيد قطب

٢ - بين الشك والإيمان

بيـــرون

للأستاذ خليل هنداوي

تسمع قلبه يخفق ، وتصغي إلى ضميره يهتف ، فتعرف أن الشك قد فتح في قلبه الذي يريد ألا يحس شيئاً جراحات لم تفقده الحياة ولا يرجى له منها شفاء . «وباطلاً ترتسم الابتسامات على شفتيه ، وباطلاً يتحرى الطرب عن سبيل ينفذ منه اليه في الليالي التي يثور فيها قلبه » ، ويشبه نفسه بذلك الأكليل الغض ظاهره ، الذاوي باطنه ، وإزاء هذا الشقاء قد تراه ينتفض كالجبار فيقول بلهجة صارمة «ليقل عني من رآني خائن الجبين ومن أورثه قلق نفسي ضعفاً »

إن الشاعر لا يعاند في احتمال الشقاء ، ولكنه يريد أن يقابله وهو قوي لا ذليل مستكين ، يريد أن يصبر عليه كما يصبر الرجل عند البلاء ، يريد أن يموت كالسراج الذي لا ينطفيء حتى يشيع ماحوله بشعلة ساطعة يختم بها حياته ، ولكن هذه الانتفاضات المؤقتة سرعان ما تتلاشى ليبدو وراءها (بيرون) نفسه .

يقول هارولد «إن آلامنا العاصفة تترك وراءها أثراً بعد ذهابها : قليل من شيء يسقط على ذلك القلب فيهزه إلى الأبد وقد يكون هذا الشيء نغمة شائعة ، أورنة موسيقية ، أو ذكرى ليلة من ليالي الصيف ، أو ربيع بهي ، أو زهرة أو ريح ، أو البحر الذي يفتح على حين فجأة جراحاتنا »

ووراء هذه الخاطرات يكمن بيرون الذي يصف نفسه ونفوس كثيرين مثله ، فهو سئم من الماضي القاتم ، وهو شاك من الحاضر الظالم ، ويائس نائم بين الغد القادم . تقرأ في أسارير وجهه المتجعد هذه الآيات التي كانت كل همه في الحياة .

وروح بيرون هل ارتاحت إلى شقائها أو غلب عليها أمل في غد هو أزهى من الحاضر ؟ وإنما يهمها من ذلك الغد أن يجتمع فيه إلى أحبابها وأصدقائها .

«وما عسى يحول إليه هؤلاء الأحباب المختفون ؟ وهل تراهم بعد أن توارَوْا في الثرى ؟ ألا يبقى منهم شيء غير الأسماء المنسية ؟ »

وقف بيرون على قبر صديق له مات في مقتبل عمره وقال : «هل يمكنني أن أومن أنك أمسيت لاشيء وأنت حي مقيم في ذاكرتي . أجل ! إنني أعلم بأننا سنجتمع معاً . وهذا الوهم سيملأ فراغ قلبي»

وهكذا نجده لا يذكر المستقبل إلا مصحوباً بوهم أو بحلم ، ولكنه وهم خلقته له الحاجة ، فهو لو لم يرغب في لقاء من مات من أترابه لما خلق هذا الوهم .

وبيرون هو الذي يهتف : « أصدقائي يتهاوون على الثرى من كل جنس ، وأنا سأرسو على الأرض كشجرة منفردة قبل أن يغشاها ذبول . يستطيع الرجال الآخرون أن يلوذوا بأهليهم وأنا لا ملجأ لي إلا عواطفي التي لا تربني في حاضري وفي غدي إلا الرضاء الأناني ببقائي حياً بعدهم ، إنني لشقي ! »

وقد يبلغ به اليأس مبلغاً أشد وأقوى فيقول « أيها الانسان ! ترفع عينيك إلى السماء وأنت لاصق بالأرض ، ألا يكفيك أن تعرف من أنت ؟ وهل كان الوجود منحة ثمينة تنعم بها مرة ثانية بعد هذه ؟ وترغب في التوجه إلى مكان لا أدريه ، جل ماتطلبه أن تستعجل الفرار من هذه الأرض ، والفناء في السماء »

وفي حالة يأس كتب بيرون هذه الفقرة «الموت ! وا أسفاه ! ذهاب دائماً ! فالى أين ذهبوا؟ وإلى أين يذهبون ؟ أسأحول إلى العدم الذي كنت فيه قبل حياتي وشقائي الحي ؟ »

وهذه الفقرة الثانية «الحياة تحلق بين عالمين : كالنجمة المعلقة في حاشية الأفق يكتنفها عالما الظلمة والنور . إن أوقيانوس الزمن الخالد يمشي ويجرف معه (حبياً خفيفاً) . الحبب القديم يتلاشى والحبب الحديث يتألف منفصلاً من زبد العصور . وخلال ذلك ترى بقايا هذه الممالك تجرفها أمواجه الهاربة »

ولكن هذه الثورة النفسية يتخللها شيء من الهدوء . أوقل هدوء الخضوع للقدر المجهول الذي يعمل دون أن يرى . فيخلق الشاعر من هذا الرضا شيئاً يمثله على الرجاء فيناجي الموت قائلاً : «أيها الموت القاسي ، قد ملكت مني كل ماتستطيع أن تأخذه : سلبتني أمي ، ثم صديق ، والآن نزعت مني أسمى من صديق ، ولكنني أنحني توقار أمام الله » وإذا بهذا الوقار ينمو في نفس الشاعر ويوقظ فيه الايمان القديم ويحيي فيه حنيناً إلى السماء ، فيأسف على القيود التي تحول بينه وبين الصعود إلى السماء التي تدعوه إليها بنظراتها الخلابة ، وإذا بشعره تبدو على ديباجته مسحة روحانية صوفية .

قال الكونت (غامبا) : لأول مرة فتحت حديثاً دينياً مع الشاعر بيرون في نزهة لنا قضيناها على ظهور الجياد بين غابات الصنوبر ، فكانت تلك العزلة باعثة على التأملات . فقال : والنهار مشرق الصفاء «كيف يشك الانسان في وجود الله على الأرض إذا رفع عينيه الى السماء وخفضها على الأرض ، ثم انحدر بهما الى

نفسه ، أفي إستطاعتنا أن نشك في أن هنالك شيئاً هو أسمى وأبقى من التراب الذي نشأنا منه ؟ . » وهو الذي كتب قبيل وفاته : « يخيل الي أن الانسان إذا تأمل في أعمال الروح لايستطيع أن يجد شكاً في خلودها ، إنني شئت أن أشك ، ولكن التأمل أبدى لي خطئي . أما هل حالتنا الثانية تشبه حالتنا الحاضرة ؟ فهذا سؤال آخر . أما أن الروح هي خالدة ، فهذا شأن ثابت عندي ثبات فناء الجسد . » ولكن بيرون الذي يؤمن بالحياة الثانية تراه لا يؤمن بها على المثل الذي جاءت به الكتب الآلهية ، فهو يجعل من الجنة مستقراً للجميع ، ولا يود أن يحشر في النار أحداً .

ويقول في هذا الموضوع : « إن كل بعث جسدي هو غريب منكر لايقبل به العقل إلا إذا كان المراد منه إزال العقاب . ولكن كل عقاب غايته الانتقام من المذنب لا تهذيبه فهو عقاب سيء غير أدبي . والأهواء الانسانية هي التي بدلت — كما يتبادر الى الظن — المذاهب الآلهية . والخلاصة إنه سر عظيم . »

وتراه يطلب الى الدين أن يحقق ما أبت الفلسفة أن تميط عنه اللثام : « ما هي الحقيقة ؟ ومن هو الذي يملك دليلها ؟ الفلسفة ؟ كلا : لأنها تنفي كثيراً من الأشياء ! الدين ؟ بلى . ولكن أي دين ؟ أما قد حان للآله أن يحيي إيماننا فيرسل الينا نبياً جديداً . »

وهكذا تتوزع بيرون نوازع مختلفة ، منها ما يدنيه الى الجحود بعد أن يجهد نفسه في التنقيب والتفكر ، فلا تصل الى شيء . ومنها ما يصرفه الى الايمان بعد أن تكل عزيمته ، ويأخذ منه الأعياء كل مأخذ . فآياته منها الآية الشاكة الجاحدة ، ومنها الآية المؤمنة الزاهدة ، هو كالعصفور الذي يود أن يحلق فيحلق في الأجواء حتى يبلغ الأوج الذي يستطيع ، ثم يهبط ويرضى بهبوطه لأن ارتفاعه لم يغنه شيئاً .

وكيف انتهى بيرون ؟ وهو الذي كان يرجو الموت فلايلقاه . ويكرهه أشد الكراهية اذا تمثل في الانتحار ، أراد موتاً شريفاً في ساحة الأبطال ، فيمم أرض اليونان حيث دعاه داعي تحرير الانسان من الانسان ، فوجد نفسه يحيط بها القلق ويغلب عليها الاضطراب . وهناك وهو في السادسة والثلاثين من عمره نظم مقطوعة ودع بها الشباب والحياة ، وهو في أزهى ريعان الشباب والحياة ، فلم يتمن إلا قبر الجندي البطل . فناجى نفسه قائلاً : « إذا نقدت من الحياة أعذب شيء ، فمن أجبرك على احتمال هذه الأعباء الثقيلة ؟ هي هنالك ساحة الشرف ، فاذهبي واختاري مضجعاً عظيماً ، اذهبي وتخيري موطناً يهدأ فيه رمادك ثم استريحي »

وفي اليوم الموعود طار النبأ بأن (الرجل العظيم قد مات)

وقد أفرد النقادة الفرنسي (تين) في كتابه « تاريخ الأدب الأنجليزي » صفحات مختارة ، تناول فيها الشاعر (بيرون) ووصف بحذق ودراية (مرض العصر) (la maladie du siècle) الذي فشا بين الأدباء ، فأسقط كواكبهم ، وصرع عظماءهم .

يقول تين : [وهكذا عاش ومات هذا الرجل العظيم التعس ، فكان فريسة سمينة لم يعلق بمثلها مرض العصر [1] ، ومن حولها يتساقط الآخرون ضحايا . . . . البعض انطفأ غارقاً في الذهول والنشوة ، والبعض قتله السرور والعناء . أما هؤلاء فقد آل أمرهم الى الجنون والانتحار ، وأولئك غلب على أمرهم العجز والداء . وكلهم عاشوا ناقمين حانقين متألمين ، وأشدهم عزماً من استطاع أن يحتمل جرحه حتى صار كهلاً ، وأكثرهم هناء من تألم كما يتألم الغير ، يحرص على جراحه وهي بريئة . قد ملأ أنينهم العصر كله ونحن وقوف حيالهم نصغي الى قلوبنا التي تردد هتافهم همساً ، ونحن كثيبون مثلهم ، تسيطر علينا الثورة ، فالديمقراطية قد فتحت مطامعنا دون أن ترويها ، والفلسفة أضرمت رغائبنا دون أن ترضيها . فرجل الشعب يشكو وضاعته . والشاك من شكه !

وانما هذا الرجل — كالرجل الشاك مصاب بسوداء حلت في قلبه قبل أوانها . . . . فتراه يستسلم بعواطفه للشعراء الذين يقولون باستحالة السعادة ، وفساد بناء المجتمع وسقوط الانسان لارجاء في شفاء هذا الداء ، لأنه داء لا تقوى على محوه عوامل السرور ولاالدين ولا أي شيء . . . وطويلاً سيشعر الناس بأن عواطفهم ترتعش لأنين شعرائهم العظماء . وطويلاً سينقمون على قدر يفتح لأهوائهم فضاء بدون حدود ، ولن يقدر لهم الشفاء حتى يحطموها . . . إن ذريتنا مصابة كالسابقين بهذا المرض نفسه . . إننا ذاهبون الى الحقيقة لا الى السكون ، كل مانستطيع أن نعالجه في هذه اللحظة هو عقلنا . . . إذ ليس لنا ما نؤاخذ به عواطفنا ، ان لنا الحق بأن نتفهم آمال غيرنا التي ليس لنا مثلها ، وأن نهيء لمن يأتي بعدنا سعادة لن نتمتع نحن بها ، وستكون لهم أرواح صافية المعدن عند ما ينشأون في محيط صافي المعدن .

ولكن أين يكمن مورد هذا الصفاء ؟ إن مورده العلم وحده ، فان في استخدام العلم وفي ادراك الأشياء ، فناً وأدباً وسياسة وشريعة جديدة ، وانما واجبنا اليوم أن نتحرى هذه الأشياء »

(بيروت) **خليل هنداوي**

(١) مرض الأسلوب العاطفي



العلوم

فكرة النظام الشمسي عند العرب

بقلم فرج رفيدي

امتدت الممالك العربية في أيام الدولة العباسية ، والكنيسة حينئذ في أول عهد نفوذها ، وما قويت شوكة الخلافة في بغداد ، حتى هدأت الزوابع السياسية التي كانت شديدة في أيام بني أمية ، وانصرف هم الخلفاء إلى نقل العلوم اليونانية والزيادة عليها . وأقول كما قلت في أمر الكنيسة ، إن العرب تلقنوا هذه العلوم ، وخصوصاً علمى الهيئة والنجوم من اليونان ، لكنهم شرحوها شرحاً أقرب للحقيقة مما شرحته الكنيسة . والسبب في ذلك واضح ، لأن الكنيسة كان غرضها الأكبر من تفسير العلوم اليونانية المحافظة على مقامها وتعاليمها لدى الشعب ، فأبقت العلوم لديها مختلطة بالدين أو جزءاً منه . لكن العرب لم يختلط عندهم العلم بالدين اختلاطه عند الكنيسة ، فكان ما نقلوه وزادوا عليه هو لأسباب علمية بحتة ، وأيضاً لم يكن عندهم هيئة خاصة كمحكمة التفتيش تحاسب الفرد على اعتقاده ودينه .

لكنا إذا سألنا بكل هذا ، فلماذا لم يحدث الانقلاب العلمي في أيام العرب ؟ أي لماذا لم يتوصل العرب إلى حل رمز هذا الكون الجليل بطريقة تبين اعوجاج النظام اليوناني ؟ نذكر لذلك سببين : لما ابتدأ العالم العربي في نقل العلوم كان ذلك فقط في أيام المأمون في أوائل القرن التاسع للميلاد ، أي في بداية العصر العباسي الثاني ، ونعلم أنه قبل القضاء على الخلافة العباسية في القرن الثالث عشر للميلاد قامت دول شتى في كل أنحاء البلاد ، فعمت الفوضى وكثرت القلاقل والحروب ، فلم يستتب السلام في أيام بني العباس إلا مدة قصيرة جداً . أي إن الوقت لم يكن كافياً للعرب ليقوموا بانقلاب أو تجديد في العلوم اليونانية ، فإذا قابلنا مثلا المدى الذي تطورت فيه حضارة اليونان بالمدة التي قام فيها العرب بنهضتهم العلمية وجدنا الفرق كبيراً . فلو اقتصرنا بدء حضارة اليونان من عصر تاليس وبيتاغوراس فقط في القرن السادس قبل الميلاد ، إلى عهد بطليموس وبروكلوس في القرن الثاني بعد الميلاد ، لوجدنا المدة تقرب من الثمانية قرون . أما عند العرب ، فيمكن أن يقال إن ترجمة العلوم اليونانية ابتدأت فقط من العصر العباسي الثاني ، أي في ابتداء القرن الثالث للهجرة ، وبقيت حتى أواخر القرن الخامس للهجرة وهي مدة لا تزيد على الثلاثة قرون . فإذا كان اليونان بعظمة نبوغهم ، وباعتبار أن قسماً كبيراً من مدنيتهم مرتكز على المدنية المصرية القديمة ، لم ينتجوا ما أنتجوه في أقل من ثمانية قرون ، فكيف يقدر العرب أو غيرهم ، أن يستوعبوا ما أبدعه اليونان من تعاليم طبيعية وفلسفية وغيرها في مدة لا تتجاوز ثلاثة قرون ؟ خصوصاً والعرب كانوا حينئذ أمة جديدة على الحضارة ، لم تتعود ما اعتاده اليونان قبلا .

زد على ذلك أنه لو لم يعتن العرب بعلوم اللغــة والدين والتوسع فيهما توسعاً زائداً ، في عهد بني أمية وما بعده ، وصرفوا اهتمامهم الكافي لبعض العلوم اليونانية ، لكان العرب عندئذ أولى بأن يقوموا بحركة علمية جديدة .

لم يكن علماء العرب في ذلك الوقت راضين عن النظام اليوناني أو محبذين له . فانه عند ما بدأ العرب ترجمة العلوم اليونانية ، ورأوا فكرة اليونان في المجموعة الشمسية ، وما هي عليه من التعقيـــد والتناقض وعدم تلاؤم أجزائها ببعضها داخلهم الشك في صحتها وارتابوا في كثير من أقسامها . وجعل هذا الشك منهم عيوناً دقيقة الملاحظة ، حريصة في التنقيب ، لا تدع شيئاً مهما كان حقيراً دون بحث أو تفسير . ولم يتركوا سبباً إلا فحصوه وشرحوه ووازنوه مع غيره من الأسباب ، وقابلوه مع ما تأتي لهم من نتائج أرصادهم ، فأنقصوا من النظام اليوناني أشياء ، وزادوا عليه أشـيـاء ، واعتمدوا في كل شروحهم وتعليلاتهم على ما يستسيغه العقل ويقبله المنطق محاولين بذلك اتباع طريق غير طريق بطليموس وشرح نظام جديد ربما تصوروه ولكن لم يدون .

قام حينئذ من العرب ابن رشد وابن طفيل وتلميذه البتروغي في القرن الخامس للهجرة ، وانتقدوا كتاب المجسطي حتى أنهم

لعدم اكتفائهم بتفسير النظام البطليموسى أتوا بأفكار مبتكرة فى حركات الكواكب السيارة ، وألفوا نظاماً جديداً يقال له Homocentric خلاف النظام اليونانى ، فأنكروا وجود الدوائر الصغيرة epicycles للكواكب ، وبذلك عللوا حركة الكواكب من الغرب الى الشرق وبالعكس تعليلا مخالفاً لكتاب الماجسطى ، ومنهم من اعتقد أن الكواكب لم تبعد مسافة واحدة ثابتة عن دائرة البروج (zodiac) ، بل هى فى أبعاد مختلفة ، إذ هذا هو السبب فى اختلاف شدة الضوء المنبعث منها .

ومن المشهورين فى تطور النظام الشمسى من العرب الخوارزمى سنة ٢٢٠ هـ . وهو صاحب الارصاد المختلفة والمرتبة بنظام خاص يقال له الزيج Astronomical Tables

والفرغانى سنة ٢٢٥ هـ . وله قياسات فى أبعاد وأقطار الكواكب الخمسة ، وكتابه « كتاب فى الحركات السماوية وعلم جوامع النجوم » ترجمة أكثر من واحد الى اللغة اللاتينية .

وثابت بن قرة (سنة ٢٣٥ هـ) ويعد أكبر المشتغلين فى العلوم الهندسية من العرب ، أصلح ترجمة اسحق بن حنين لكتاب اقليدس ، ووضع عدة شروح عن النظام اليونانى ، محاولاً فيها كلها ابتكار نظريات جديدة ، وشروح سهلة لدرس النظام البطليموسى ، وله أرصاد مختلفة فى قياس بعد الشمس وتحديد السنة الشمسية ، وقد أضاف فلكاً تاسعاً الى النظام القديم وراء فلك النجوم الثوابت ، وكان أول من وصف الكرات المتراكزة من العرب .

البتانى سنة ٢٧٠ هـ . وهو الذى اشتهر بدقة ارصاده من أيام هبارخس الى كوبرنيكس ، حتى فاق الخوارزمى بدقة ملاحظاته فى الكواكب السيارة . وكان من منتقدى بطليموس ، وقد وجد ميل دائرة البروج عن دائرة خط الاستواء ٣٥ َ ٢٣ ْ وهو رقم مطابق لقيمة الميل الحديث ، وعمل ملاحظات دقيقة عن القمر واختلاف حركاته ، وعن أوقات الخسوف والكسوف . وهذا ما قاله عنه ابن خلكان . « له الأعمال العجيبة ، والارصادات المتقنة ، وأول من ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤ هـ ، وله من التصانيف : الزيج ، وكتاب معرفة مطالع البروج ، وشرح أربع مقالات بطليموس ، وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء » .

الزركلى سنة ٤٦٠ هـ . اشتهر بصنع أدوات الرصد وخصوصاً الأداة المسماة بالصفيحة Astrolabe ، وهى لقياس أبعاد وأقطار الكواكب السيارة . كتب شرحاً ترجم على أيام الملك الفونسو ملك كاستيل Castille ، وقد أخذ عنه وعن البتانى كوبرنيكس فى تعليل نظريته الجديدة

ولعل أشهر التجارب العملية التى قام بها العرب أيام المأمون هو قياس الدرجة من خط نصف النهار ، بواسطة ثلاثة إخوة يقال لهم بنو موسى ، وبطريقة غير التى عمل بها اليونان الأقدمون ذهبوا الى موضع فى سهل سنجار فى العراق ، فذهب بعضهم شمالاً والبعض جنوباً ، حتى رأوا فى الشمال النجمة القطبية ترتفع درجة وفى الجنوب تهبط درجة . ثم قاسوا المسافتين ووجدوا الوسط بينهما ، ولكنهم اتخذوا الرقم الأكبر منهما وهو ٥٦ ⅔ ميلاً

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم ، قام أناس كثيرون من العرب أتوا بأبحاث جليلة مختلفة فى شكل النظام الشمسى ، وتعليقات شديدة النقد على النظام اليونانى لا يسعنا ذكرها الآن .

قد يبدو النظام اليونانى للبعض بسيطاً بالصورة التى شرحناها ، ولكنه فى الحقيقة معقد وغاية فى الصعوبة ، وفيه كثير من التناقضات لعدم ثبوته على أساس راسخ ، والذى زاد فى المسألة تعقيداً هو نظرهم للظواهر كما ترى لا كما يستسيغها العقل البشرى .

فتعقد النظام اليونانى وتناقضه ، من كثرة ما زيد عليه من الكرات والدوائر الصغيرة ، ولد الشك فى قلوب الكثيرين من العرب . وهذا الشك هو الذى حرضهم على البحث والتدقيق فى ملاحظاتهم ، وعلى التأمل فى نتائج ارصاداتهم فى الكون ، وربما يمكن أن تكون أسباب التناقض وعلل النقائص ومسببات الحركات الشاذة والمختلفة التى لاحظوها ولاحظها اليونان من قبلهم . لكن هذا الشك الذى نراه فى كثير من شروحهم ومؤلفاتهم لم يتخذ طريقاً محسوساً معيناً يمكننا معه أن نسميه انقلاباً علمياً كالذى قام به كوبرنيكس وكبلر وغاليليو فيما بعد .

ومع أن العرب لم يتوصلوا الى اكتشاف جديد فى ميزة هذا الكون العجيب ، وتعليل ظاهراته تعليلا صحيحاً ، فان دقة ملاحظاتهم وحسن ترتيب نتائج أبحاثهم ، جعلتهم يفوقون الأغريق ويدنونهم فى أشياء كثيرة . فقد مهدت السبيل لاكتشافات مقبلة ، وجعلت فكرة النظام اليونانى سهلة التغيير قابلة للانقلاب الى الفكرة الصحيحة ، حتى لم يكن بينهم وبينها إلا مسافة قصيرة جداً بدليل أن كوبرنيكس مبتدع الفكرة الجديدة لم يتوصل الى ما وصل اليه إلا بعد مراجعة كتب العرب ، وقد عاش بعد ما انطفأ نور العلم فى الشرق مدة غير طويلة .

فرح رفيدى

القصص

رجل ... وامرأة

بقلم محمد سعيد العريان

— ١ —

جلس شوكت افندي كاظم في حجرة الانتظار بمدرسة ... يجيل طرفه في قطع الأثاث المبثرة ، وينقل النظر بين السقف والأرض والحيطان . لم يتغير شيء فيها عما رآه آخر مرة منذ سنوات أربع ؛ هذا النضد الصغير في زاوية الحجرة كأنه قطعة من أرض المكان فلم يتزحزح عن موضعه ؛ وهذه الأريكة الكبيرة طالما تمدد عليها ولوى ذراعيه تحت رأسه وسبح في أحلام اليقظان ؛ وهذه الصور على الحيطان تطل منها الوجوه الصغيرة ، في أساريرها مرح الطفولة ، وفي عينيها بريق الأمل — إنها في موضعها حيث صففها بيديه قبل سنين ؛ ولكنها زادت أخرى ، لا شك أنها صور الفرق التي أتمت دراستها بالمدرسة منذ نقل منها ... ودفعه حنين وشوق فنهض يتأمل صور تلاميذه الذين عاش بينهم شطراً من حياته في منزلة الأب الثاني ، ثم فارقهم وفارقوه منذ سنين بعيدة فوجاً بعد فوج الى حيث لا يدري من فجاج الحياة . ما أسرع ما تمر السنون ! أيهم الآن يذكره كما يذكرهم ؟ لعل منهم صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض وهو ما يزال حيث تركوه في منصبه وجاهه ... ووقف لدى صورة من عديد الصور المعلقة ، ولم ينتقل عنها ولم يخفض بصره ؛ لقد طافت برأسه ذكريات من الماضي ، ذكريات حية ما يزال قلبه يدمى بها وينزف . وحدق في الصورة طويلاً يحدث العابس في المرآة تمنى الشباب وتهم الزمن ... منذ ثماني سنوات حين دعي ليجلس بين تلاميذه في هذه الصورة كان شخصاً آخر غير الشخص الذي يعيش اليوم ، لقد كان يومئذ يعيش في وادٍ من الأحلام : أحلام الشباب والمرأة والحب . أين هو اليوم مما كان ؟ أما الشباب فقد أنهكته أحداث الزمن ، وأما الحب فقد دفنه هناك ولفه في أكفان اليأس ، وأما هي ...

ودخل الضابط يحييه بصوت غليظ ، في يده عصا ومن ورائه غلام . واندفع عادل شوكت الى أبيه حين رآه باسطاً ذراعيه ، فلم يخش عصا الضابط ولا صوته البغيض ؛ وضم الرجل ولده الى صدره ومال عليه يقبله في ظمأ وشوق ؛ وطأطأ الولد رأسه يعبث بأزرار معطف أبيه ويداعب سلسلته ؛ وسبح أبوه في ذكريات ينشرها ويطويها :

لقد كان يحبها أعنف الحب وأرقه ، ولم يكن يتمنى غير أن يظفر بها زوجاً يصفيها الحب ويخلص لها الوداد ؛ وقد ظفر بها ونالها ، فأين هو اليوم من سعادة الحياة ؟ ! لقد أفلتها فلم يبق بين يديه من تلك التي الساحرة غير لمحة ضئيلة يراها في عيني هذا الغلام .

وعاد الى الماضي يسترجع ساعاته ولياليه ، ويحصي على الزمن سيئاته وأياديه : لقد عرفها فتاة في إحدى الحدائق العامة مع أخيها الصغير فعطفه عليها دل متواضع وكبرياء تبتسم ، وأحبها منذ ذلك اليوم وراح يعيش في وهم الأماني ... واستطاع أن يلقنها اليه وأن يجعلها تهتم بأمره ؛ ومدت اليه خيط الرجاء فتعلق ، ومضت الأيام تقرب بينهما وتدني نفساً الى نفس حتى أشعرتهما أنها كل شيء في حياته ، وأنه كل شيء في حياتها . وشاركته سعادة الأمل ، وأخذ يعد العدة للأمر العظيم يوم تكون زوجه ، وأخذت تسابق الأيام فمنحته من ودها على غفلة الأهل أشياء في إباء الراغب ورغبة المتأبي ؛ ولم تكن أيام الوصال على وتيرة ؛ فيوماً دلال ، ويوماً عتاب ، ويوماً يتنبه الرقيب من حيث يريد وتريد ... وهكذا راح الزمن يذكي في صدريهما لواعج الشوق ، ويضرم لهيب الوجد — أربع سنين متوالية بين لهفة وشوق وأمل ؛ ثم زفت اليه . لقد شعر يومئذ أن الدهر أتم عليه نعمته وأسبغ عارفته ، ولكنه أعطاها مقادته من اليوم الأول ، ولم يتلقها إلا بتقديس وعبادة ، وظل بعدها في العبادة والتقديس !. ولكنها تحب السيطرة والسلطان ، بعض ما في دمها من طباع الشركس ؛ وإن فيه لطراوة ولينا من ضعف العاشق الذليل ؛ فأخذت تملي عليه إرادتها وهو كالكرة في يد الصبي . ولم تجد فيه رجل أحلامها الذي قدرت أن يكون ، فراحت تنتقص من

سلطانه وهى تتمنى أن يعاصيها ويتمرد على إرادتها فتشعر به زوجاً له مثل سيطرة الرجال . وكانت كلما راحت تستثير فيه نخوة الرجل استخذى لها وتلاشت إرادته ؛ لقد كان يجيد الغزل وحديث الحب ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يعلى إرادته ، ويُلوح للحب بالبغض ؛ وكان يعرف كيف ينزل عند رغبتها حين تريد ، ولا يستطيع أن يكون رجلاً حين يريد . . .

— ٢ —

ورأت كل حاجاتها لديه مقضية ؛ ووجدت نفسها الآمرة الناهية فى هذه المملكة الصغيرة ، حتى الرجل الذى كانت تخشى سلطانه وتهواه كان أطوع لها من بنانها . وراحت تبالغ فى مطالبها ، لا تقف عند حد ولا تنتهى الى غاية . وحين جاء الصيف رغبت أن يسافرا الى الاسكندرية فلم يجد فى نفسه قوة على العصيان وهو يعلم أن أكلاف الاصطياف هناك فوق مايتحمل مرتبه الضئيل .. وقضيا فى المصيف شهرين استمتعت فيهما زوجه بكل ما اشتهت من حرية وانطلاق ، وكان لها فى نفسه لذع ومرارة . وأخذ الحب الذى كانت تحسه لزوجها من قبل يتلاشى رويداً رويداً ؛ لأنها بدأت تعنى بأشياء أخرى ؛ وصارهمها من دنياها ثوباً جديداً تختال به على صواحباتها ، أوليلة ساهرة فيها متاع القلب والنظر ، أو سفرة الى هنا أو هناك تجتلى من مشاهدها أنساً وبهجة . ولم يكن يضن عليها بشىء . . ونسيت تدبير البيت وشئون الزوج ؛ فكانت تقضى نهارها زائرة أو طائفة بالبيوت التجارية والحدائق ودور اللهو ، وأخذت تنفلت من قيود المرأة المتزوجة قليلاً قليلاً ، حتى اطمأنت الى حريتها كاملة فى الغدو والرواح ، وفى السهر أيضاً ؛ وتاقت لأن تبسط إرادتها إلى ما وراء جدران البيت مؤمنة بجمالها وسلطانها على القلوب ! . . وألف شوكت أن يعود الى البيت فى النهار وأول الليل فلا يجد هناك غير الخادم تخلع عنه ملابسه وتهيء له الطعام ، ولم يكن ليسوءه ذلك كثيراً ، فحسبه من الزوج الحبيبة أن تكون سعيدة هانئة ، وأن يستيقظ فى الصباح على نغمات من صوتها الندى الرقيق ، وأن يمسى ووجهها آخر ما يراه من دنيا اليقظة . ولكن الكرة مازالت تتدحرج ويخاف أن تبعد عن منال يمينه . . . !

وعاد ليلة متعباً مكدوداً يلتمس الراحة فى البيت ، ودق الباب فلم يجب أحد ، وعاود الدق فلم يسمع غير الصدى يرن ثم يتلاشى فى مثل ضحكة ساخرة من فم امرأة . . . ترى أين ذهبت الخادم ، وأين زوجه الآن ؟ لقد تعودت الغياب عن البيت كأنما لا يعنيها منه إلا أن تأكل وتنام ! أليس له عليها مثل حق الأزواج ؛ فما لها لا تدرك عليها واجباً ولا تعترف له بحق ؟ . . وأخذ يذرع الطريق غادياً رائحاً ويداه خلفه ورأسه الى الأرض ، يمد بصره بين حين وحين يرقب الطريق . . ورأى زوجه مقبلة فى سرب من رفيقاتها تهتز أعطافهن فى فتنة مغرية ، ويجاهرن بالحديث عابثات ضاحكات . ورأته زوجه فقالت : « أنت هنا ؟ » ولم ترد ، وسبقته تفتح الباب وانصرف صواحبها . ولما اطمأن بهما المكان قال لها :

— « لقد ضايقنى الانتظار يا إلهام ، أين الخادم ؟ » . قالت :

— « الخادم ؟ لقد سافرت لترى أباها . ألم أنبئك ؟ » .

قال وقد رسم الاستياء خطين على جبينه :

— « وهلا قدرت أن أعود مبكراً فتكونى فى انتظارى ولا تتركينى بالباب ؟ ! »

ومالت عليه فطوقته بذراعها ويدها تعبث بشعره وعيناها تبرقان ، وقالت تداعبه فى لين وتكسر : « ليتك لا تغضب ياشوكت ، أنا أحبك ! » ثم كانت قبلة نسى معها الغضب والعتاب . . .

وتتابعت أيامها من بعد بين غضب ورضى ، وأدركت إلهام أن زوجها يحاول أن يعود رجلاً وأن يبسط عليها سلطانه ، ولكن بعد أن عرفت من أين تناله وكيف تسلبه إرادته . . . ومر عام ، وصار شوكت أباً . هذا ولده عادل .

***

ودق الجرس فى فناء المدرسة ، فانفلت الغلام من بين يدى أبيه كما فرت سعادته من قبل . . !

أين هى الآن ؟ إنه مازال يحبها أعنف الحب وأرقه ، ولكنه قد فارقها إلى الأبد ! وآلمته الذكرى ، فأخرج علبة من جيبه فأشعل دخينة ، واعتمد بذراعه على حافة المقعد ، وأسند رأسه إلى راحته ، وزفر زفرة ، وتلوت ثعابين الدخان صاعدة ، وراح يتابع الذكرى الأليمة :

لقد كافأته زوجه على حبه ووفائه وطاعته — بالسخر والتمرد والعصيان ! ليته استطاع أن يكون معها أصلب قناة وأغلب إرادة ، فلعله كان أحب إليها صلباً غلاباً صاحب إرادة وعنفوان . . . !

إنه كان يحبها حباً بعيد الأمل ، ليس له حدود تحصره فى دائرة الممكن ، ولا حرية تطلقه وراء المستحيل ؛ فلما ظفر بها ضل الطريق إلى السعادة ، وراح يلتمس قلبها فهوى على قدميها ..!

وحين أراد أن يهيء لها سعادة الرضى في جواره لم يعرف كيف يجعل إرادته تسبق إرادتها فيما تشتهي فيمنحها ما تشاء قبل أن تدعوه إليه آمرة مطاعة . . . !

ولو أن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن في حزانة التقاليد ، لتفاهم قلباهما على الود الكريم ، ووضعا الأساس لحياة الغد على غير جرف هار من الوهم والخيال . . . !

لم يكن يومئذ يدري أن المرأة تعشق الرجل المتسلط الذي يغلبها ويفوقها ، بقدر ما تحتقر الرجل الذي يتراءى على قدميها في ضعف وهوان ، ولو كان ضعف الحب وهوان العاشق . . . !

لقد عاشرته خمس سنين كانت معه في البيت كضيف على ميعاد ، وكان حظ صواحبها منها أكثر من حظه ! وربما قضى الساعات في البيت وحيداً ؛ وهي هناك تتنقل زائرة من بيت الى بيت ، فلم تكن تعرف دارها إلا يوماً واحداً في الأسبوع ؛ هو يوم الاستقبال . . . ولقد كان في البيت مرة وسمع بأذنيه أي الشئون يتحدث فيها النساء : حديث الأزواج ، وشح الأزواج ، وغفلة الأزواج ، ثم الأزياء والملاهي ولا شيء غير ذلك ! . . بل لعله رأى بعينيه ماذا يصنعن يوم الاستقبال . لقد نقم على كثيرات من صاحبات زوجه ، وعاب عليهن سوء الأدب وقلة الاحتشام ، ولكنه لم يجرؤ حتى فيما بينه وبين نفسه أن يسيء الظن بأخلاق زوجه ، ولم يجرؤ أن يحدثها عما رأى وسمع ؛ خشية أن تلومه على استراق الحديث والنظر . . . آه ! لو كان يدري يومئذ أنها واحدة من هؤلاء حين تكون بعيدة عنه ، فلعله كان حينئذ يستطيع أن يردها الى الصواب !

— ٣ —

وطالت غفلته عن حديث الناس بسلوك زوجه ، حتى حين مرض بالاسكندرية صيف عام واشتدت به العلة ، وأمره الطبيب أن يعود الى بلده ، فأبت زوجه أن تعود قبل أن ينصرم الصيف ، وتركته يخلفها وحدها هناك على الشاطئ في حراسة الشيطان ، تداعب أمواجا في البحر وأمواجا في البر ، لقد كان لها يومئذ رغبات تنبيك في سبيلها وفاء الزوجة وبر الأم ، فلم تعد إلا بعد شهر . . !

لم تهنأ الهلم بالحياة في بلد زوجها على ما فيه من جمال وفتنة ، وخالت بعد عودتها امرأة أخرى ؛ فلم تعد تهتم باسترضاء زوجها ، تمحو غضبه بابتسامة الخداع وبهرج الكلم ، ومزقت القناع عن وجه عابس ، وكشفت صدرها عن ألم وضيق بحياتها في كنف الزوج الحبيب ، وراح شوكت يستميلها فلا تزداد إلا نفوراً ، ويتحبب إليها فلا تبدي غير البغض والكبرياء . . . وآلمه ماتغير من أخلاقها ، وراح يحاسب نفسه على ما قد يكون أساء به إليها ، ويحصي ما قصر في حقها وما اقترف . فلا يبدو له إلا صفحات كلها حب ووفاء وتضحية . وأخفق فيما سعى إليه ولكنه لم ييأس .

وترامت إليه الأخبار عما يتحدث الناس من شأنها ، وكان آخر من عرف . . ! ياللهول ! وأفاق من وهم الحب . لقد مد لها أسباب الغواية وتركها تتدحرج حتى استقرت في أعماق الهاوية وجذبته معها !

واستعاد رجولته ، ولكن بعد أن فقد من يأتمر بأمره ، وفارقها في صمت ، عيوفا أبيا ، ولكنه خلف قلبه هناك . . . تحت وسادتها وبين الحشايا !

وكان له ما أراد ، ونقل من البلد الذي دفن فيه الشباب والحب والأمل ، ينشد العزاء والسلوان بعيداً بعيداً ؛ وقد أقسم ألا يكون له من بعدها زوج .

وها هو ذا يعود بعد سنوات ليأخذ ولده يعيش في حضانته ، بعيداً عن غار الخطيئة — عن المرأة التي كرهت أن يكون ولدها معها فيعلن للأصدقاء بوجوده أنها أم . . . !

* * *

وصلصل الجرس ، وما يزال شوكت غريقاً يجاهد موجات الذكرى الأليمة في يأس ؛ يأس الحب الوفي جوزي بحبه ووفائه غدراً وخيانة !

وحياه زميله الأستاذ مختار وهو يصيح : « أهلاً ، شوكت ، متى حضرت ؟ »

وهز يده بقوة ، وربت على كتفه بحنان ثم أردف :

— « إن صديقنا « أحمد » لموفق ، فقد كان يذكرك اليوم ويتمنى أن تحضر زفافه ، وقد حضرت . »

قال شوكت : « زفافه ؟ وماذا تراني أصنع له في زفافه ؟ »

ودهش مختار أن يتحدث شوكت كذلك وأجابه : « لاأحسبك نسيت ما كان بينكما من ود ؛ أفليس من حقه عليك أن تهنئه أن ظفر بالفتاة التي يهواها ، وإنك لتعرف أين كان أمله ! »

وابتسم شوكت في ألم ، وقطب جبينه ، واسترجع كل ماضيه الأليم في لمحة ، وقال لصديقه ساخراً : « وهل تراه ظفر بشيء يستحق التهنئة ، أم تراني أعزيه . . . ! »

وتولى عن صاحبه وهو ممسك بيد ولده ، والأرض تجاذبه

إلى الخلف — إلى حيث يرى المرأة التي أحبها فخانته . ولكنه عرف كيف يكون رجلاً ، وكيف يقمع في صدره ذلك الحب الذليل الذي نزل به إلى الهوان والعار . ومضى في طريقه إلى البلد الثاني وكأنما كان يدوس بقدميه قلبه الدامي فيحس وخزاً أليماً فوق ما تخزه الذكرى وتؤلمه .

ومضت الأيام تسدل بينه وبين الماضي حجاب النسيان ، وهو يغالب هواه ويصارع نفسه ، حتى برئ من دائه . وأخذت ذكريات الماضي تتضاءل في رأسه حتى أوشكت أن تتلاشى ، وانقشعت عن عينيه غشاوة العاطفة التي كانت تغلبه على عقله وتزين له أن يبيع بالحب كرامة الرجل .

وانقضت سنوات ثلاث ، ثم رأى نفسه وجهاً لوجه أمام المرأة التي كان يحبها أرق الحب فعاد يبغضها أعنف البغض ، ويبغض من أجلها النساء جميعاً . لقد أخفقت فيما سعت إليه ، فلم تظفر بالسعادة التي انطلقت وراء أوهامها وخطمت في سبيلها عش الزوجية ، وحالت الثمرة التي كانت تشتهي حلاوتها مرة كريهة المذاق حين عرفت منزلتها الحقيقية من نفوس المعجبين بها والمزدلفين إليها من الرجال ، لقد انفضوا عنها جميعاً بعد أن ملوها ، وراح كل منهم يلتمس لحظات سعيدة في غرام جديد أبي ، يذوق فيه سعادة الظفر بالمغنم المجهول . وتنكرت لها الحياة فعادت إلى الماضي تستلهمه ، فإذا هي ما تزال تحب شوكت . . . وذكرت في النهاية الرجل الذي كان يحبها ، والذي كان يبيع من أجلها كل شيء ، فجاءت تسعى إليه معترفة تائبة . هيهات ! لقد أضلها السراب طويلاً ، فلما همت أن تعود إلى الناخ كان الركب قد تحرك ، فلم تدرك غير الغبار يقذى عينيها وتتكاءدها عقبات الطريق !

وأغلق الرجل دونها بابه ، ووقفت بينه وبينها الذكريات المؤلمة عن ماضيها وماضيه ، لم تؤثر فيه دموع الندم ، ولم يعطفه عليها ما ناشدته الحب القديم ، فقد علمته من قبل كيف يكون بليد العاطفة ، فبقي معها بليد العاطفة ، وعلمته ألا يؤمن بالحب ، فأثبت لها أنه لا يؤمن بالحب ، وعلمته ألا يثق بوعود امرأة ، فأكد لها أنه أبداً لن يثق بوعود امرأة .

وحين عادت المسكينة امرأة ذات قلب . . . . عاد المسكين رجلا بلا قلب ! . . ؟

محمد سعيد العريان

٣ — سافو

لأوجيه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

كاوودال — (ينادى) هي . هي

لابودري — يا صاحب المطعم

الجميع — أنت يا رجل

(يظهر صاحب المطعم)

كاوودال — أسرع فلقد قتلنا الظمأ

صاحب المطعم — أهلا أهلا بأسيادي (وكأنه يعرف كاوودال) سيدي كاوودال . . . ما أطيب هذه الفرصة تفضلوا. فاجلسوا عند هذه البراميل أو تحت هذه الشجرة الظليلة

كاوودال — نبيذك الطيب أولاً !

لابودري — الأبيض ؟

كاوودال — أصبت

صاحب المطعم — كما تشاؤون . والطعام ؟

كاوودال — عند المساء متى عدنا ، ولكن ماذا عندك منه

صاحب المطعم — كل ما تشتهون

كاوودال — شواء مثلا ؟

صاحب المطعم — نعم . وفرختان !

لابودري — حسناً

صاحب المطعم — وضلع

كاوودال — لا بأس

صاحب المطعم — ثم . . .

الجميع — هذا يكفي

كاوودال — (منشداً) ولكنْ أيها الشيطان

لابودري — اذا أهملت في الألوان

آخر — والمــــزات

ثانٍ — والسَّــلطات

ثالث — وحذار أن تنسى كذا البصطرْمه

رابع — معها والا فالجزاءُ

صاحب المطعم — « الصَّرْمه »(١)

(ضحك عام)

(١) رصدنا هذا اللفظ العامى المألوف لنستقيم القافية سيا وأن المقام مقام هزل

صاحب المطعم — (منادياً) نبيذ أبيض حالاً (ينظف الموائد ويرتب المقاعد حيث يجلسون ، وعندئذ يظهر الخدم حاملين قناني الشراب والكؤوس)

كاوودال — ليحي النبيذ ليحي الشراب

الجميع — ليحي النبيذ ليحي الشراب

كاوودال — شراب النبيذ شراب لذيذ

يرد الشباب لصرعى الخضاب

الجميع — ليحي النبيذ ليحي الشراب

كاوودال — ألا فاشربوا ولا تحسبوا

لهم حساب فهذا الصواب

الجميع — ليحي النبيذ ليحي الشراب

صاحب المطعم — ليحي الصنم

الجميع — لتحي الصرم

(ضحك عام)

(يظهر حنا)

كاوودال — (وتدلجه) حنا ؟

حنا — (يقترب ويحيي بقبعته) نعم أنا

كاوودال — ما أجمل هذه الصدفة

لابودري — كيف أنت يا حنا . أنت مقيم هنا

حنا — بل هناك (مشيراً) لأني أميل للغابات أتفيأ ظلها وأملأ عيني منها . نعم إن الحياة بالقرب منها خير من حياة المدن حيث السكون والنسيم العليل

كاوودال — وهل لازلت مع سافو

حنا — سافو ؟ من هي سافو

لابودري — فني . نموذج المصنع

حنا — (مفكراً) إذن هي سافو (متردداً ثم يتكلم) لا . إنني تركتها .

كاوودال — تركتها ؟ إنها فتاة حسناء . ولكنها مع ذلك . . .

حنا — ولكنها ماذا ؟

كاوودال — . . . لا شيء

حنا — لا شيء ؟ ولكنك قلت إنها . . .

كاوودال — فتاة لا وفاء لها . نعم إنها تحفة من تحف الحسن . ولكن حبها مشوب بالآلام . على أن من يقع في شركها يصعب عليه أن يسلوها .

لابودري — لقد صدقك كاوودال يا حنا

كاوودال — ومع ذلك فدليلي قصتها مع ذلك الحفار الفنان

لابودري — فرومان

كاوودال — بعينه . فلقد دفعته إلى تزوير زج بسببه في السجن . على أني لا أزال أذكر يوم أخذوه اليه وهي تودعه بأطراف أناملها وتقول له تشجع يا بيبي فما قريب تخرج ونعود الى سيرة حبنا .

حنا — (لنفسه وهو مفكر) إنها تناديني بمثل هذا أيضاً

كاوودال — مالك يا صديقي ؟

حنا — الحقيقة أني كذبتكم . فأنا من سنة أتلوث بصحبة هذه الفاجرة . ولقد استسلمت لمكذوب حبها ، ومعسول كذبها حتى أبحتها قلبي ومشاعري لأني كنت أجهل أمرها ولكني الآن أقسم لكم أن كل ما بينها وبيني قد انقطع وانتهى

(تظهر فني من بعد)

آه . . .

كاوودال — (يلمحها) سافو

سافو — (وحنا يفر منها) حنا

حنا — دعيني (ثم يختفي)

سافو — (في نفسها) نمّوا عنده عليّ (لهم بحدة) الآن وقد فرّ بسعيكم فلن أخشاكم أيها الأنذال

كاوودال — (يسكن ثورتها) هوّني عليك يا سافو . اسمعي

لابودري — عودي الى رشدك ولا تتحدّي

فني — لقد أكلكم الحسد على حبه الذي أسعدني وغير سبيل حياتي فصورتموني له في أشنع صور الرذيلة حتى التوى وفرّ مني . إنكم غلاظ قساة (للابودري) وأنت أيها النافق طالما أسهرت جفني وأجريت دمعي . ولا زال صدرك طافحاً بالحقد على صفوي فحطمت قلبي الذي أصلحه هذا الفتى ، وهكذا لم أخطئ في حسباني إذ علمتم فوشيتم فانتقمتم . فأنا الآن إذا كنت أتعلق بأذيال الحياة فلكي ألعنكم وأستنزل غضب الأقدار عليكم .

الجميع — (بغضب) سافو (يتجاذبونها كأنهم يحاولون جرها معهم)

فني — دعوني فما عادت تطيب بعد ذلك نفسي للحب . لقد أصبحت أمقتكم جميعاً أيها الأخساء

(تهجم على لابودري فيضحك ويضحكون)

« يتبع »

محمود خيرت

٣ - ســـيوة

تجارة سيوة

يجاور مسطاح البلح الكبير مقام سيدى سليمان ، وهو عبارة عن بناء بسيط يحتوى على مقبرة ، إلا أن له مكاناً محترماً فى قلوب سكان سيوة ، ويحيط بهذا المقام بعض قبور أخرى يقال إنها للمقربين اليه من أتباعه ، ويعلو المقام سعف نخيل معلقة فى نهايته قطع من أقمشة مختلفة الألوان ؛ ويلاصق هذا المقام مسجد جلالة الملك فؤاد الأول ، وبدئ فى بناء هذا المسجد فى عهد الخديو السابق عباس باشا ، حتى وصل ارتفاعه أربعة أمتار ، غير أن العمل وقف فيه لقلة المال وكثرة التكاليف ، ثم تم بناؤه فى عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول فى سنتى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، وأصبح مسجداً يضارع مساجد القاهرة الكبيرة فى كبر حجمه وروعة بنائه . ولقد تحريت عن السبب الذى حدا بالخديو السابق أن يفكر فى بناء مسجد كبير كهذا فى واحة متعزلة مثل سيوة على الرغم من صعوبة المواصلات وقلة وسائل العمل فى الوقت السابق ، فروى لى أنه كان يقصد ببنائه أن يكون جامعة إسلامية فى الصحراء الغربية ، يؤمها السنوسيون وغيرهم لتكون لهم بمثابة الأزهر فى وادى النيل ، وأنه كان يتصور أن مثل هذه الجامعة تمكن له فى قلوب السنوسيين فيفيدوه فى الصحراء وقت الحاجة . وعدا هذا المسجد الكبير توجد مساجد أخرى مقامة على نظام المنازل السيوية من الملح والطين ، وسقوف من خشب النخيل ، ولها مآذن غريبة الشكل ، أشبه بمداخن المعامل ، وسمك حائطها من أسفل حوالى مترين ، ثم يقل سمكها تدريجيا كلما ارتفع بناؤها حتى يصل فى النهاية الى ثلث متر تقريبا

وكان أئمة هذه المساجد يدرسون فى الوقت الماضى القرآن للصبيان على طريقة عتيقة غير مألوفة ، وهى أن يحفظوهم القرآن من غير أن يعرفوا القراءة والكتابة ، ولكن مصلحة الحدود أنشأت مدرسة أولية بسيوة تتبع فى تدريسها منهاج وزارة المعارف العمومية ، ويؤمها أولاد السكان ؛ غير أن الأقبال عليها غير كثير برغم كل تسهيل يقدم للأولاد ، وتتساهل المدرسة فلا تطالب من الطلبة إلا أن يلبسوا جلباباً نظيفاً وطاقية نظيفة ، على أن معظم الأطفال يحضرون حفاة من غير أحذية ، ومع كل ذلك فالرجل يفضل أن يشغل ابنه فى الحقل أو الحديقة على أن يعلمه أبسط المبادئ من القراءة والكتابة والحساب ، ووصل الأمر بعناية الحكومة بهؤلاء الناس أن أرسلت اثنين منهم للجامع الأزهر ليتلقوا فيه العلوم الدينية على أحسن الأساتذة ، غير أنهما بعد بضع سنين كرها الأقامة فى القاهرة ودفعهما الحنين إلى سيوة فعادا إليها ولم يحصلا من العلم إلا قليلا

تتكون السوق فى سيوة من بضعة حوانيت متجاورة تبيع كل ما يحتاجه السكان من مختلف الأصناف ، وأثمان جميع الحوانيت واحدة ، ولذا فلا يهم الشارى أن يشترى من هذا أو من ذاك مادام الثمن واحداً ، وإذا دخلت حانوتاً من هذه الحوانيت خيل اليك لأول وهلة أنك فى مخزن بضائع إذ ترى فيه عدة رفوف من خشب قديم وميزان وبعض الأكياس « والقاطف » فيها دقيق وعدس وفول وسكر ، وفى ركن من أركان الحانوت بضعة أثواب من البفتة ، ومعلق بسقف الحانوت بضعة مناديل للرجال وللنساء ذات ألوان متنافرة غريبة . وترى فى ركن ثان من الحانوت بضع صفائح بها زيت الزيتون وأبسطة من الصوف تنسجها نساء العرب بأيديهن ويبعنها للتجار . ويربح بعض التجار كثيراً من حوانيتهم وبخاصة من بيع البلح وزيت الزيتون ، على أن النقود المتداولة فى سيوة هى النقود المصرية بجميع أنواعها ، ولم أر بها عملة أخرى كما هو الحال فى السلوم ، إذ أننى رأيت فيها العملة التركية القديمة وبعض النقود الايطالية متداولة فى أيدى التجار والأهالى ، وقد اعتاد الأهالى أن يرهنوا حدائقهم وحقولهم لبعض التجار نظير أرباح باهظة ، حتى أن بعض التجار يتمادى فى الجشع فيطلب من المدين أن يسدد دينه بلحاً وزيتوناً ، ولكنه ينص فى شروط الرهن على أن يكون سعر البلح والزيتون نصف سعره المعتاد فى السوق ، وبذلك يكون التاجر قد ضاعف مبلغه الذى أقرضه للمدين زيادة على الارباح التى ينالها عن مبلغه الذى دفعه للمدين ، وفى ظروف كثيرة يقبل المدين كل تلك الشروط الباهظة لحاجته للمال . وقل أن يرى المرء امرأة أمام حانوت من حوانيت البلد ، والعادة أن تمر زوجة التاجر أو أمه ببضاعتها على المنازل

ليشتري أصحابها ما يشاؤون ، وما تشتريه النساء عادة يكون الكحل والحناء وبعض حلي من الفضة : كالدمالج ، والأقراط الكبيرة الحجم التي تتدلى أطرافها من الأذن حتى تصل كتفي المرأة أو الفتاة . ثم إنهن لا يلبسن العقود الملونة من حبات متلاصقة كما هو الحال في المدن . بل إنهن يلبسن أطواقاً من الفضة حول أعناقهن بأن يدخلن رؤوسهن فيها . ولذا فهي تباع كثيراً لدى التجار ، وأيضاً فإنهن يشترين أحذية من جلد أحمر رفيق ، وملاءات يلتففن بها وقت خروجهن ، وهي من قماش قطني ذات خطوط زرقاء تجاورها خطوط رمادية ، وهذه الملاءات يحضرها لسيوة أحد التجار المصريين ، إذ أن لعمه مصنعاً خاصاً ببلده بمديرية الجيزة ، ويشترين أيضاً بعض الاصباغ الخضراء والحمراء والزرقاء ، لصبغ سعف النخيل الذي يصنعن منه « مراجين » وسلات وغيرها .

وكثيراً ما تبيع زوجات التجار بعض الأحجبة والتعاويذ الفضية التي عليها آيات من القرآن الكريم ، وقد لاحظت أن النساء لا يحاولن تغيير ملبسهن بأحسن منه ، وكلهن في ذلك سواء . وليس في السوق سوى قصابين يبيعان عادة لحم الجمال للأهالي والعرب ، ولكنهما مكلفان ببيع لحم الضأن ثلاثة أيام في الأسبوع هي الأحد والثلاثاء والجمعة ، وهذا طبعاً ليتمكن الموظفون الحكوميون من أكل لحم الضأن . ولذلك لا يذبح القصاب إلا كبشاً واحداً يكفي الموظفين ، لأنهم يشترون في الأيام الثلاثة اللحم الذي يكفيهم كل الأسبوع .

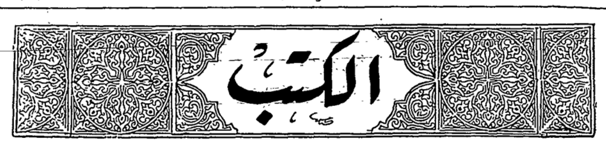
وأهم ما يشتريه الأهالي من التجار الشاي والسكر فهما عماد الحياة والعمل لدى السيويين والعرب ، ولا يمكن أن يستغني عنهما منزل قط ، ولاحظت أن إقبال السيويين على شرب القهوة قليل جداً ، بل يمكن القول بأنه معدوم ، وحدث أن احتاج سيوي يوماً لعمل قهوة فبحث في حوانيت الواحة كلها فلم يجد .

* * *

يحيك السيويات ملابسهن وملابس أزواجهن وأولادهن باتقان ودقة ، وبعضهن يطرزن ملابسهن بخيوط حريرية مختلفة الألوان ، غير أنه يخالف ما ألفناه في القاهرة ، وبعض السيويات يغزلن الصوف وينسجنه ويصنعن منه جبباً للرجال يلبسونها وقت الشتاء القارس ، وهذه الجبب وإن كانت رديئة المنظر إلا أنها تساعد الرجال على تحمل برودة الشتاء على كل حال .

على أن للسيويين والسيويات طباعاً نراها نحن شاذة لا تتمشى مع ما ألفناه من عادات وأخلاق ، وسنأتي على سرد تلك العادات تباعاً إن شاء الله ؟

[illegible]



الكتب

كلمة الى الشبيبة الطالبة على ذكر كتاب

مرشـــد المتعلم

ترجمة الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كثيراً ما هممت أن أكتب فى أمر من أمور التعليم الى الرسالة الغراء، عالماً أن صدرها الرحب يتسع لذلك البحث لما فيه من مساس بناحية حيوية من نشاطنا ، غير أنى كنت كلما هممت بذلك قعدت بى مبعان صدتنى عن عزيمتى . فانى معلم بى ما بصاحب الفن من حب لفنه وانصراف بقلبه اليه . غير أن التعليم مرتزق ، وسبيل الأرزاق غير حبيب ، فما يكاد الرجل ينصرف من مضطرب عيشه حتى يود أن يتناسى مااعتراه فى ذلك المضطرب ، فتراه يقبل على كل حديث غير حديث فنه ، ويحب الخوض فيما يبعد به عن ذكر صناعته . ومع ذلك قد رأيتنى أقرأ كتاباً أهداه الىّ صديق كريم قد ترجمه عن الانجليزية الى العربية ، وهو الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، فبدأت قراءته لأنه كتاب صديق ، ثم رأيتنى أسير فى قراءته مقبلاً عليه لما فيه ، واضمحلت صورة الصديق شيئاً فشيئاً من ثنايا السطور حتى صرت بعد لا أجدها ، وصرت أعاود الكتاب لنفسه ، وأطلب صحبته وحديثه لما أجده فيه من فائدة ولذة ونشاط .

ذلك الكتاب سفر قيم . أقل ما أصفه به للشبان أن قراءته ضرورة لازمة لهم إذا شاءوا أن يخرجوا من دراستهم على أكبر قسط من الفائدة من وراء جهدهم وعملهم . وإذا كنت أخاطب الشبان بذلك فانى أفعل ذلك لعلمى بأنهم أحوج الناس الى قراءة مثله ، ولكن ليس معنى هذا أن من هم من طبقة أعلى من الشبان سناً قد بعدوا عن أن يجدوا فى قراءته فائدة ، أو استغنوا عن أن ينتفعوا بما فيه من بحوث طريفة فانى أقول غير محامل ولا مبالغ أننى قد خرجت من قراءة ذلك الكتاب وقد علمت كثيراً مما كنت أجهل ، واستوضحت كثيراً مما كان غامضاً مبهماً عندى ، وغيرت كثيراً مما كنت متجهاً اليه ، قانعاً به . وفضل ذلك الكتاب لمن يقرؤه من الكبار أنه يوحى اليهم معانى جديدة بما يأتى به ، مما قد يكون معلوماً لهم ، فيرى القارىء المعانى تهم فى نفسه وهو يقرأ كأنما تلك القراءة تثيرها وتوقدها .

قلت إن الطالب الشاب لا غنى له عن قراءة ذلك الكتاب ، وذلك لأننى أعرف أن الطالب الشاب فى حياته اليومية يسير سيراً غير مهتد . فلا هو يجد من يهديه ولا هو إذا وجد من يهديه يأخذ عنه نظاماً تاماً شاملاً يستطيع أن يهتدى به فى كل جهوده وأعماله على اختلافها . فالطالب يقرأ ، ولكنه وهو يفعل ذلك يتجه إلى حيث تدفعه المصادفة أو المثل ، وقد يكون موفقاً فى طريقته كما انه قد لا يكون موفقاً ، ولكنه على أى حال لا يكون فى اتجاهه مرتكناً على أساس قوى علمى . ولا أظن أن بين المعلمين أو أساتذة الجامعة من يجد فرصة فى وقت درسه يستطيع أن يرشد الطالب فيها إلى خير الطرق التى يسلكها فى دراسته ، فان الوقت مخصص كله لمادة الدروس بطبيعة الحال . ولقد كان من أشد الأمور إيلاماً لنفسى أن أرى فى بعض الأحيان بعض تلاميذى وهم ينكبون على دراستهم انكباباً غير موفق ، إذ يتبعون فى ذلك طريقة تجعلهم كمن يحاول السباحة فى وجه التيار ، فلا هو موفر جهده ، ولا هو سالك سبيله . وكنت إذ أرى ذلك أحاول جهدى أن أرشد بمقدار علمى ، ولكنى كنت لا أستطيع أن أبسط المنى بسطاً تاماً يستقر فى النفس استقراراً متمكناً ، ويحيط بالمصاعب من جميع أطرافها . فكنت أتمنى لو أتيح لهؤلاء المساكين كتاب يستطيعون أن يجدوا فيه الهداية .

وما كنت أجد تلك الطلبة حتى أتحف الصديق الغمراوى قراء العربية بكتابه .

يبدأ ذلك الكتاب بمقدمة ككل كتاب في مثل موضوعه ، يهيئ فيها المؤلف عقل الطالب الى أن يدخل على عمله بذهن مفتوح وعقل فاحص يقظ ، وهذا هو الفصل الأول وعنوانه « تولى المرء أمر نفسه » ثم يلقى عليه في الفصل الثاني خطة العمل ويسميها « خطة الغزو » يبين له كيف يقسم وقته للمذاكرة والدراسة ، وما مقدار الوقت الذي يجب عليه أن يجعله لتلك المذاكرة ، وطريقة تقسيم ذلك الوقت على مختلف المواد ، وأي المواد يبدأ بمذاكرتها ، وأيها يؤجله في ترتيب المذاكرة ، ثم يبين للطالب أي الطرق أصلح في توزيع الوقت على الدروس : هل الأصلح أن يجعل لكل مادة قسطاً صغيراً كل يوم ، أو أن يجعل قسطاً أطول من ذلك بين حين وحين ، وهو في كل ذلك يستضيء بنور التجارب العلمية الثابتة .

وأسلوبه في ذلك البيان أسلوب حي بديع ، فهو يقول مثلاً : « ومن الخطر الكبير في استعمال جدول المذاكرة الجمود . إن من الصعب أن نفرغ من عملنا في كل مادة في اللحظة التي يحل فيها وقت مادة أخرى ، وقد يخطر لنا تخلصا من هذه الصعوبة أن نفرد كل ليلة في نهاية المذاكرة حصة صغيرة ، قل خمس عشرة أو عشرين دقيقة نجعلها كزمن احتياطي ننهي فيه أي شيء صغير قد نكون اضطررنا الى إغفاله في أية حصة عادية من حصص المذاكرة . لكن هذه الخطة محفوفة بالمخاطر » . وهكذا يسير بالطالب حتى يستقر معه على خير الخطط وأوثقها .

ومن خير ما جاء في هذا الفصل ما كتبه على التعب وماهيته في المذاكرة ، وطرق التغلب عليه أو تقليل ضرره .

وفي الفصل الثالث بحث طريف في « تصريف المذاكرة » وطرق الحفظ ؛ ويليه في الفصل الرابع بحث آخر في مثل طرافته في « طبيعة الدراسة والتفكير » والفصل الخامس بيان « طريقة المذاكرة » وهو بحث عملي لا يستغني عنه طالب ، وقد أفاض فيه المؤلف إفاضة أحاطت بالموضوع من أطرافه .

وأجد نفسي ضنيناً بأن أترك باباً من أبواب الكتاب لا أكتب عنه كلمة ، بل أجد نفسي ميالاً الى أن أنقل للقارىء منه نموذجاً لعله يعرف أي قول فيه وبأي أسلوب ، غير أني أعود الى نفسي فأذكر أنني إنما أنوه بكتاب رأيت فائدته ، على صفحات مجلة قد لا تتسع لكل ما أريد ذكره من ذلك . ولكن لا بد أن أنوه بالفصل الثامن الذي يعالج فيه المؤلف « الاصغاء وأخذ المذكرات » فإن هذا الفصل يسد حاجة ماسة عند طلبة المدارس ولا سيما طلبة الجامعة والمدارس العليا

وقد أضاف المعرب فصلاً بعد الفصل العاشر ألحقه بالفصل السابع وجعل موضوعه « كتب المراجعة في اللغة العربية » .

والحق أن هذا الفصل بحث عميق في تراثنا اللغوي والعلمي ، وفق فيه المعرب كل التوفيق ، وأصاب في إضافته كل الاصابة ، وقد تناول فيه أمهات المراجع العربية بالوصف والتحليل فكان فصله دليلاً يرجع اليه من شاء المراجعة في تلك الأمهات ليهتدي الى أيها شاء .

فأزف الى الأستاذ المعرب إعجابي الذي لا حد له بذلك الكتاب وأرجو أن ينتفع به أبناؤنا في جهادهم العلمي ، وأوصي من يطلع على كلمتي هذه من الاخوان أن يصفوه لمن حولهم من الأبناء ، ففيه خير عون لهم ونعم الهادي ؟!

محمد فريد أبو حديد

جولة في ربوع الشرق الأدنى

للدكتور عبد الوهاب عزام

سمعت بسياحات الأستاذ محمد ثابت ، فأعجبت به واغتبطت أن كان من المصريين سيّاح يجوب الآفاق الى أقصى الأرض ليرى ويصف ، ويقص على أمته من أنباء الأمم الأخرى . ولم يُتح لي أن أطلع على ما كتبه هذا الرحالة المصري الا الأسبوع الماضي ، اذ اطلعت على كتابه « جولة في ربوع الشرق الأدنى » وقرأت ما كتبه عن العراق وإيران ، فاذا الرحالة الهمام يعوزه العلم والتثبت في مواضع كثيرة ، وأنا أربأ به أن يكون كبعض سائحي الأمريكان ؛ يقدم واحدهم الى القاهرة فيرى في ساعات قليلة الاهرام والأزهر والقلعة ومسجد السلطان حسن ، وخان الخليلي ، ويرى في الشوارع أناساً لا يعرف وجوههم ولا يفهم لغتهم ، ولا يفقه عاداتهم ثم ينقلب الى أهله فيكتب أو يحدّث عما يضطرب في رأسه من خوفو باني الأزهر ، وجوهر الصقلي مشيد الأهرام ، والسلطان حسن مؤسس القاهرة وهلم جرّا !! ثم يتحدث عن أخلاق المصريين وتأثير تاريخهم وجوهم في هذه الأخلاق

إنما تراد بالرحلات المشاهدة ، والعلم عن عيان ، وبحث بعض

الأمور في مواطنها وإفادة علم جديد ، أو إبطال وهم قديم ، أو التثبت من رواية شائعة . وأما أن يطوف الانسان بالبلاد مسرعاً كراكب القطار يخيل اليه أن الأرض والجبال والشجر سائرة وأن السيارة التي تجرى الى جانبه واقفة فذلك قلب الحقائق أو تشويهها ، وتلك سبيل علمها شر ، وجهلها شر .

وأحسب رحالتنا اعتمد في بعض ما كتب على كتاب من الأدلة الأوربية ، وبهذا يفسر كثير من الغلط والتحريف في الأسماء ، وتأريخ الحادثات الاسلامية بالتاريخ الميلادى ، ونحن معشر المسلمين ، يكذب علينا كتاب أوربا ويفترون على ديننا وتاريخنا وأخلاقنا ، ويسيئون بنا الظن إساءة تقلب حسناتنا سيئات . فينبغي للسائح المسلم ألا يشاركهم في ضلالاتهم ، فيكتب كل ما يسمع غير متثبت ، ولكن الرحالة المصرى المسلم لم يتوقّ الغلط والغلو مع نية حسنة وقصد سليم . وأصل البلية أن الأمم الأسلامية قد تقطعت بينها الأسباب ، وجهل بعضها بعضاً إلا ما يقرءون في كتب الأوربيين ، فصار المصرى إذا رحل إلى العراق وإيران وتحدث عن أخلاق أهلها ومذاهبهم ، فانما يقص عن بلاد مجهولة لم يعرف ماضيها ولا حاضرها ، على قرب ما بين الأمم الاسلامية وكثرة ما بينها من أواصر ، وسهولة تفهم أحوالها ودرس تاريخها .

وفيما يلي نماذج من الأغلاط التي وقع فيها المؤلف :

من الغلط في بديهيات التاريخ الاسلامي قوله إن الحسن بن على رضى الله عنه فرّ من العراق وقتل ، وأن الحسين قتلته جنود معاوية ، وقوله إن بلاد الفرس فتحها المسلمون في ستين عاماً ، وجعلُه معاوية بن أبي سفيان فر من خالد بن الوليد في قيادة الفتوح أيام عمر ، وقوله عن خلافة عثمان بن عفان «ثم جاء عثمان وقتل عاجلاً» كأنه لم يل الخلافة احدى عشرة سنة ، وقوله في أثناء الكلام عن الحجاج : «وكان زياد في البصرة» كأن زياداً والحجاج وليا العراق في وقت واحد ، وبين موت زياد وولاية الحجاج زهاء عشرين سنة ، وقوله إن خالد بن الوليد صلى في جامع همذان ، وقوله إن الفرس رأوا في العباسيين أعداءهم فحاربوهم بالتشيع ، وهذه كما يرى القارئ أغلاط كنا نربأ بالأستاذ أن يقع فيها .

ومن التحريفات كتابته مدينة هيرات بالياء . ونصر الدين شاه بدل ناصر الدين بالألف . وجبل ألفند ، ودمافند . وكرفان سراى بالفاء بدل الواو في الكلمات الثلاث . وقصر جولستان بالواو بعد الجيم . وهذا تحريف النقل من الكتابة الافرنجية .

وأشنع من هذا أنه قال عن الارانيين الذين سافروا معه الى مشهد إنهم كانوا يصيحون بين الحين والحين : «لاهم سل الى مهمد آلى مهماد» فهل عرف الرحالة المدقق أن هذه الكلمة التي سمعها هي «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» فان كان قد عرفها فلماذا لم يفسرها بالكتابة الصحيحة ، وإن كان لم يعرفها فلماذا لم يسأل عنها ؟

وأفظع من هذا كله قوله عن اخواننا شيعة ايران أنهم يفضلون مشهداً على مكة . وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض وقاعدة من قواعد الإسلام — كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج الى مكة ؟ ربما بالغ عامة الارانيين في تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين في تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى وابراهيم الدسوقى ، ولكن عمل العامة لا تفسر به عقائد الأمة . وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب ، ولست أنسى غضب إخواننا شيعة العراق من قول بعض أساتذتنا : إن الشيعة الأمامية يتبرأون من الشيخين ، ولست أنسى عتب أحد علمائهم في بغداد ، ولا عتب السيد الحجة محمد الحسين آل كاشف الغطاء حينما شرفنا بزيارته في النجف فقال : لماذا تكتبون عنا ولا تقرأون كتبنا . لقد كان عتاب الأخ للأخ يود ألا يكون بينهما من الغلط ما يكدّر صفو الأخوّة الأسلامية ، وقد اعتذرنا للسيد يومئذ واعترفنا بتقصيرنا في الاطلاع على كتب أئمة الشيعة . وأنا أعتذر هنا مرة أخرى عن الرحالة محمد ثابت واثقاً بحسن نيته ، وإن كان حسن النية لا يعد عذراً كافياً لمن لم يتحرّ الحق في كلامه .

وفي الكتاب أغلاط أخرى ، أرجو أن يتوقى أمثالها في رحلاته المقبلة .

وإنني لراج أن يتم التعارف بين الأمم الاســلامية ، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وإنصاف ، والله ولى التوفيق .

عبد الوهاب عزام

التجديد في الأدب الانجليزي الحديث

تأليف الأستاذ سلامه موسى

للأستاذ سلامه موسى في خدمة الأدب العربي المعاصر همة تذكر فتشكر، فهو ماينفك يتحف جمهور المثقفين بأبحاثه الطريفة على صفحات مجلته الغراء وغيرها من الصحف. ومن آثاره الأدبية الأخيرة كتابه هذا عن التجديد في الأدب الانجليزي ويقع في نحو مائة صفحة من القطع الكبير. شرح الأستاذ الحركة الفكرية في العصر الفيكتوري، ثم تكلم عن بعض المذاهب الأدبية في ذلك العصر، وذكر بعض الأجانب وأثرهم في الأدب الانجليزي. كذلك ذكر اثنين غيرهما ونجاري ما كس نورداو في تسميتهما بالمنحطين وهما: والتر باتر وأوسكار وايلد، ولخص مذهبهما في أنه ينحصر في الدعوة إلى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف، ثم ترجم الأستاذ لبعض أعلام الأدب الانجليزي مثل كبلنج وهو في رأيه شاعر الاستعمار، وبرنارد شو وداروين وولز وجالزورثي وغيرهم، ولقد تعرض لمذاهبهم وفلسفتهم في دقة ومهارة. ولقد يبدو موضوع الكتاب غريباً عند من لم يكن له إلمام بالأدب الانجليزي، والحقيقة أنه نافع لكل مثقف فهو يدرس حركة فكرية، والحركات الفكرية وثيقة الصلة بالحياة، ومن ثم فأنت تقرأ في هذا الكتاب ملخص الحياة الاجتماعية في انجلترا منذ عام ١٨٣٠، بيد أن الأستاذ المؤلف يغالي في بعض آرائه مغالاة تنتهي بأحكام لا يمكننا أن نمر عليها دون أن نعارض الأستاذ فيها، وبخصوص لصدورها من أديب نابه كالأستاذ سلامه موسى. فهو ينعت العصر الفيكتوري ما بين ١٨٣٠ و ١٩٠٠ م بأنه عصر خمول في الأخلاق والأدب، مع أنه من أرقى عصور الأدب الانجليزي وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة، بلغت فيه المدرسة الرومانتيكية غاية نموها وتطورها، وتعددت فيه مذاهب الكتاب واتسع الأدب في نواح عديدة كالقصة والشعر والتاريخ وأدب المقالات وغيرها. يتجلى ذلك في شعر الشعراء الذين افتتحوا هذا العهد ولم تمهلهم المنية كشلي وبيرون وفي شعر غيرهم ممن عاشوا بعدهم كورد ثورث وتنسن، كما يتجلى في قصص سكوت العديدة وقصص شارلز دكنز العظيم وثكري ومن ذهب مذهبهم أو خالفهم من القصصيين، كما يتجلى في كتابات ماكولي وكارليل ورسكن وغير هؤلاء. وهؤلاء ممن ارتفعوا بآدابهم الى درجات المجد، وما التجديد الذي يشير الأستاذ الى ظهوره في عام ١٩٠٠ إلا ثمرة من ثمار العصر الفيكتوري الناهض، وانك لتلمس أسبابه في حركات ذلك العصر وترى هذه الأسباب واضحة في كتاب الأستاذ نفسه مما لا يتفق مع وصفه هذا العصر بالجمود. لذلك لا أستطيع أن أشايع الأستاذ في قوله إن الأدب الانجليزي قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام»، هذا مع احترامي لآراء الأستاذ الفاضل ومزيد إعجابي بطريقته في عرض آرائه وثقافته الواسعة؛ فهو كما يتجلى في كتابه هذا وفي سواه من مؤلفاته العديدة يعتبر بحق مثالاً للأديب العصري المثقف؟

محمود الخفيف

2me Année, No. 60.

Lundi-27-8-1934



بدل الاشتراك عن سنة

صـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

العـــدد ٦٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٢٧ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

من فضائل الازمة

المصرى يكتشف بلاده

من صفات الأزمات الاقتصادية أنها تعلم الناس الاقتصاد ، وتحملهم على الاعتدال فى كثير من مواطن الاسراف والتطرف ، وقد دهمتنا الأزمة الاقتصادية منذ أربعة أعوام ، فقضت على كل أسباب الرخاء والسعة ، وألقت على ذوى البذخ والترف دروساً قاسية ؛ ولكنها علمتنا من فضائل الاقتصاد مالم نكن نعلم ، وفتحت عيوننا الى أمور كثيرة كانت دعة الرخاء تحملنا على إغفالها ، وبثت إلى الأعصاب المضطربة كثيراً من عوامل الهدوء ، وإلى النفوس الجامحة كثيراً من عوامل الاعتدال

وكان الاصطياف من الأمور التى كشفت لنا الأزمة بعض أسرارها ؛ ففى أعوام الرخاء والسعة ، كان المصريون فى كل صيف يهرعون ألوفاً الى عواصم أوربا ومصايفها ، وينفقون مئات الألوف فى فنادقها ومنتدياتها وملاهيها ، ثم يعودون وقد استنفد التجوال الممتع كل مافى جيوبهم ؛ وكان ما ينفقه المصريون كل عام فى الاصطياف خارج القطر يبلغ زهاء المليونين ، تذهب كلها الى يد الأجانب . فلما حلت الأزمة ، وذهبت بالدخل الفياض ، قبع

كثير من المترفين السابقين الذين كانت تجذبهم «موائد» دوفيل وبياريتز ومونت كارلو فى دورهم ، وذكر كثيرون أن هنالك مصايف مصرية يمكن انتجاعها ، ولا تكلفهم ركوب البحار وإنفاق المئات والألوف ؛ وذكر كثيرون أيضاً أن هنالك مصايف شرقية قريبة لا بأس بها .

كان للأزمة فضل هذا الاكتشاف : فبالأزمة وحدها اكتشف المصريون بلادهم ، وعرفوا بعد فوات كثير من الوقت أن إنفاق الملايين خارج القطر على هذا النحو سفه لا يغتفر ؛ وأنهم يستطيعون بقليل من المال أن ينتجعوا الراحة والعافية فى مصايف بلادهم كالاسكندرية وبور سعيد والسويس ورأس البر ؛ وكان لما بذلته مصلحة السكك الحديدية لتسهيل الإصطياف أحسن الأثر ، فقد شعر الناس أخيراً أن الاصطياف ليس ترفاً ، وليس وقفاً على الأغنياء ، ولكنه ضرورة صحية ، وأنه فى متناول جميع الطبقات .

واتجه كثير من المصريين ، ممن شاءوا الاصطياف خارج القطر ، الى مصايف البلاد الشرقية القريبة التى لا يجشمهم كبير نفقة ، فأموا فلسطين والشام ولبنان ، واستطاعوا أن يتصلوا عن قرب بإخوانهم فى تلك البلاد الشقيقة ، وأن يعملوا على توثيق الروابط المشتركة بينها وبين مصر ؛ وكان ذلك من فضائل الأزمة أيضاً .

***

نذكر أنه لما وقفت كارثة النقد فى فرنسا سنة ١٩٢٥ ، وهبط الفرنك الى نحو نصف قيمته ، بادرت الصحف الفرنسية الى نصح الشعب الفرنسى بأن يقلل من شراء العملة الأجنبية جهد الاستطاعة ، وأهابت بالفرنسيين الذين اعتادوا السفر والسياحة أن يبقوا داخل فرنسا حتى لا تبدد ثروات البلاد وقت المحنة النقدية فى بلاد أجنبية ، وأهابت بهم بالأخص أن يحاولوا أن يكتشفوا فرنسا أولاً ، فيجدوا فيها من بدائع الطبيعة وساحر النزه ، وتنوع المناظر فى البر والبحر ، ما يخفف من شغفهم بارتياد مواطن السياحة والنزهة الأجنبية . فاستمع الفرنسيون الى هذا النداء القومى ، وكانت فرصة اكتشفوا فيها بلادهم على نحو ما قالت صحفهم يومئذ ، واقتصدت فرنسا يومئذ مئات الملايين ، وازداد الفرنسى شغفاً بالتجوال فى بلاده ، وتفضيلها على غيرها فى قضاء فترات العطلة والراحة .

ولما وقعت الأزمة الاقتصادية الحالية ، واضطربت أحوال النقد فى كثير من البلاد الأوربية ، وضعت ألمانيا والنمسا والمجر ويوجوسلافيا وغيرها قيوداً شديدة على شراء العملة الأجنبية لتحول دون تسرب أموالها الى الخارج ، ولتمنع مواطنيها جهد الاستطاعة من السفر خارج بلادهم وإنفاق أموالهم فى بلاد أخرى . ووضعت دول أخرى قيوداً شديدة على شراء المنتوجات والحاصلات الأجنبية ، واشترطت أن يكون الدفع بعملتها أو من منتوجاتها ، وكان للقيود الأولى أثرها فى ركود موسم السياحة المصرى ، وكان للثانية أثرها فى كساد سوق صادراتنا .

ولكننا فى مصر نغفل هذه الاعتبارات دائماً ، ومال المصرى مباح أبداً ، وعرضة للتبديد خارج القطر حتى فى أحرج الأزمات ؛ ولم توفق الحكومة المصرية حتى اليوم الى أن تضع لها أية سياسة أو تقاليد ثابتة فى مثل هذه الشئون ؛ فهى لم تفكر مطلقاً فى اتخاذ أية إجراءات للمحافظة على أموال المصريين الذين لا يحملهم أى وازع على حفظها ، وللحد من حريات ذلك النفر الذى ما زال فى كل صيف يحمل الأموال التى يعتصرها من عرق الفلاح الى «موائد» العواصم والمصايف الأوربية ، والى مراقصها وفتياتها .

***

يقولون إن لمصر موسم سياحة ، وإنها تغنم من ذلك الموسم مالاً لا بأس به ؛ فلماذا لا ينفق المصريون مثل هذا المال فى مواطن السياحة الأوربية . والحقيقة أن مصر تظلم بهذا القول أيما ظلم ؛ ففى مصر موسم سياحة حقاً ، ولكن معظم الغنم فى هذا الموسم لا يعود الى مصر والمصريين ، وإنما يعود الى الأجانب : الى شركات السياحة الأجنبية ، والى شركة الفنادق الاجنبية ؛ وما بضع عشرات الألوف التى تعود على خزينة الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار ، ثم على بعض المصريين المتصلين بهذا الموسم ، إلا فضلات ما يجنيه الأجانب باسمنا .

لقد بدأ المصرى يكتشف بلاده ، وعلمته الأزمة شيئاً من الاقتصاد والاعتدال ؛ فهل سيعتبر بهذا الدرس دائماً ، ويذكره أيضاً أيام الرخاء ، فيضن قدر الاستطاعة بماله أن ينفق فى غير بلاده ؟ أم هو درس الساعة فقط ، يزول أثره بزوال الظرف الذى ألقاه ؟

وعلى أى حال فانه يبقى للأزمة فضل التذكرة وفضل العبرة .

« ع »

الشخصيـــة

للأستاذ احمد أمين

أعجب ما في الانسان شخصيته ، وقد تنوعت الشخصيات بعدد ما على ظهر الأرض من إنسان ؛ فترى الشبه الكبير بين الحجر والحجر ، ويصعب عليك أن ترى بينها فرقاً ، وترى الطبعة تخرج آلافاً من الكتب تتشابه وتتماثل ، ولا تميز بين أحدها والآخر ؛ وترى الشبه الكبير بين الوردة والوردة في رائحتها ولونها وكل شيء فيها ؛ وترى الحيوانات من فصيلة واحدة تتشابه وتتقارب حتى ليلتبس عليك بعضها ببعض — أما الانسان والانسان فلا ، حتى ليكاد يكون كل إنسان فصيلة وحده — فان كان علماء «الأنثولوجيا» استطاعوا أن يقسموا الانسان الى أنواع ، وأن يضعوا لكل نوع خصائصه ومميزاته ، فذلك عمل تقريبي محض ؛ أما إن أرادوا الدقة التامة فلا بد لهم أن يضعوا كل فرد في قائمة وحده ، له مميزاته الخاصة في جسمه وعقله ، وروحه وخلقه ؛ فاذا أردنا أن نحصي الشخصيات في هذا العالم فعلينا أن نحصي عدد الناس فنضع مايساويه من عدد الشخصيات — وكانت اللغة عاجزة كل العجز عن أن تضع لكل شخصية اسماً خاصا ، فاكتفت في الجسم بأن تقول : طويل أو قصير ، وسمين أو نحيف ، وأبيض أو أسمر ؛ مع أن كل كلمة من هذه تحتها أنواع لا عداد لها ، فهناك آلاف من أنواع الطول ، وآلاف من أنواع القصر ، وآلاف من الألوان ؛ ولكنها عجزت فقاربت ، ولو حاولت أن تضع اسماً خاصا لكل نوع من أنواع العيون وحدها ، على اختلافها في الألوان واختلافها في النظرات ، واختلافها في السحر ، واختلافها في السعة والضيق لوضعت في ذلك معجما خاصا ، وهيهات أن يغنيها

وعجز علماء الجمال فاكتفوا بقولهم جميل وقبيح ، مع أن هناك آلافاً من درجات الجمال ، وآلافاً من درجات القبح ، بل إنك لا تستطيع أن تُنْزل إنسانين في منزلة واحدة من الجمال والقبح ، فلما أعياهم الأمر قنعوا بقبيح وجميل ، واكتفوا بالاجمال عن التفصيل

وعجز علماء الأخلاق فوقفوا في ذلك مثل موقف إخوانهم علماء الجمال ، فقسموا الأعمال الى خير وشر ، وقسموا الصفات الى فضيلة ورذيلة ، وسموا الانسان خيّراً أو شريراً ، وهيهات أن يكون ذلك مقنعا ؛ فالخير والشر يتنوع بتنوع الأفراد ، ولو كان للأخلاق ميزان دقيق لاحتاج الى سنج بعدد ما في العالم من إنسان

الحق أن علماء كل علم عجزوا عجزاً تاماً عن أن يجاروا الشخصيات في كل مناحيها ، وأن يسيروا وراء تحديدها تفصيلا ، ووجدوا العمر لا يتسع لهذا ولا لبعضه ، فعنوا بوجوه الشبه أكثر مما عنوا بوجوه الخلاف ، وعنوا بالموافقات أكثر مما عنوا بالفروق ، وفضلوا أن يضعوا مسميات شاملة وإن شملها الخطأ ، وأن يضعوا قواعد عامة وإن عمها الغموض والابهام ، وقالوا ليس في الامكان أبدع مما كان

* * *

هذه الشخصية لكل فرد هي التي ميزته عن غيره من الأفراد ، وجعلتني أنا أنا ، وأنت أنت ، وهو هو ؛ ولولا هذه الشخصية لكان أنا وأنت وهو شيئاً واحداً — هذه الشخصية هي مجموع صفاتك الجسمية والعقلية والخلقية والروحية ، تتكون من شكلك ونظراتك ونبراتك وطريقة حديثك ، ودرجة صوتك من الحسن أو القبح ؛ وإيمائك وإشارتك كما تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء ، وحكمك عليها ومقدار ثقافتك — كما تتكون من تصرفاتك وموقفك نحو المال ودرجة حبك له ؛ وعلى الجملة كل علاقتك بالحياة ، وكل علاقة الحياة بك — وإذ كان الناس مختلفين في هذا كله اختلافاً يسيراً أو كثيراً كانت الشخصيات كذلك مختلفة ، وبين بعضها وبعض وجوه شبه في بعض الأشياء ، ووجوه خلاف في بعضها ، وكانت بعض الشخصيات تتجاذب وتتحاب ، وبعضها تتباغض وتتنافر — وفي الواقع إن معنى أحبك أو أبغضك ، وأعرفك أو أنكرك ، أن شخصيتي تحب شخصيتك أو تكرهها ، وتعرفها أو تنكرها ، وصدق الحديث « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف » وليس معنى حب الشخصية لشخصية أخرى أن الشخصيتين من جنس واحد ، وأن ميولها متقاربة ، بل إن ذلك يرجع الى قانون أكثر تعقيداً مما تظن ، فقد يتحاب الشخصان لأن ميلها العلمي في اتجاه واحد ، أو ميلها الى كيف من الكيوف متحد ، وقد يتحاب الشخصان لأنهما مختلفان ويكمل نقصُ أحدهما الآخر ، كما يحب أحياناً كثيرُ الكلام قليلَ الكلام ، وكما يحب الساكنُ الهادئ المتحفظُ

الريح النشيط المتحرك ، وكما تتعاشق الكهربائية السالبة والموجبة — على كل حال ليس قانون تجاذب الشخصيات وتنافرها قانوناً بسيطاً سهلاً يمكن الفصل فيه بكلمة

***

هذه الشخصيات الأنسانية تختلف قوة وضعفاً اختلافاً أكبر مما بين الآلات الميكانيكية والمصابيح الكهربائية ، فهذه شخصية عاجزة ضعيفة ذليلة ، لا يكاد يتبينها الانسان إلا بعسر ، ولا يكاد يراها إلا بمنظار ، ولا يكاد يحسها إلا بمجهود ، هي « كاللمبة » قوتها شمعة واحدة ، بل هي فوق ذلك مغبشة لتضعف قوتها ، هي من جنس مايستعمل في حجر النوم ، نور كلا نور ووجود كعدم ، لاتتعب نظر النائم لأنه لايشعر لها بوجود ، ولا تستهلك مقداراً يذكر من التيار لأنها كامنة الحياة ، مسكينة في فعلها وانفعالها ، ضعيفة في تأثيرها وتأثرها ، وهذه شخصية أخرى قوتها ألف شمعة أو ألفان أو ماشئت من قوة ، تضيء فتملأ البيت نوراً ، بل هي أكبر من أن تضاء في بيت ، إنما تضاء في شارع كبير أو ساحة عامة ، إذا وضعت في بيت أقلقت راحة أهله بقوتها ، وأعشيت الناظر بضوئها ، وعد وضعها غير ملائم لجوها ، وكان مثل ذلك مثل من وضع « فناراً » في بيت ، أو أشعل أكبر وابور جاز ليصنع عليه فنجان قهوة — وبين اللمبة الأولى الضعيفة الخافتة ، والثانية القوية الباهرة درجات لاتحصى ، فكذلك الشخصيات ، بل أكثر من ذلك — ولكن هناك فروقاً بين الشخصيات واللمبات ، أهمها أن اللمبة الكهربائية لايمكنك أن تنقلها من قوة إلى قوة ، فاللمبة التي قوتها شمعة واحدة هي كذلك أبداً ، والتي قوتها مائة أو مائتان هي كذلك أبداً ، وكل ماتستطيع أن تفعله أن تنظف اللمبة وتجلوها حتى لايضعف غبش من قوتها ، ولايقلل غبار من ضوئها — أما الشخصية الانسانية فقابلة للتحول ، بل هي قابلة للطفرة صعوداً وهبوطاً ، علواً وانحطاطاً — فبينا هي خاملة ضعيفة إذ اتصل بها تيار قوي أشعلها وقواها حتى كأنها خلقت خلقاً آخر ، وكأنه لااتصال بين يومها وأمسها ، هي اليوم مخلوق قوي فعال يلقي أشعته الى أبعد مدى ، وكانت بالأمس لايؤبه بها ، ولايحس بضوئها — كذلك ترى شخصيات أخرى يخبو ضوؤها ، فاذا هي مظلمة بعد نور ، وضعيفة بعد قوة ، ليس لها من حاضرها إلا ماضيها — وكذلك شاء الله ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويخلق الانسان في أحسن تقويم ، ثم يرده أسفل سافلين — وتاريخ الانسان مملوء بالأمثال ، فكم من نابغ بعد خمول ، وخامل بعد نبوغ ، وميت في الحياة الأدبية والاجتماعية حي ، وحي مات ، وهكذا شخصيات الناس في مد وجزر دائماً .

وهذا التغير المستمر في الشخصيات هو الذي أبقى على أمل المصلحين في إصلاح الناس ، وباعد بينهم وبين اليأس .

***

وكل شيء يواجه الانسان في حياته يؤثر في شخصيته أثراً صالحاً أو سيئاً فالغنى بعد الفقر ، والفقر بعد الغنى ، واليأس بعد الأمل ، والأمل بعد اليأس ، ومايعتريه من شدائد وكوارث ، وما يبذله في صراع الحوادث ، وما يلاقيه من رخاء ونعيم ، وما يمسه ذلك من هدوء واطمئنان — كل هذا وأمثاله له أثر في تكوين الشخصية يختلف ضعفاً وقوة ؛ وأهم غرض للتربية الصحيحة في نظرى أن تجعل ممن تربيهم شخصيات هي أقوى ما يمكن أن يكون الأشخاص من حيث استعدادهم وأهليتهم ، فالمجرب هو الذي يستطيع أن يصل بطلبته الى أقصى ما في استعدادهم من رقي ، ويبلغ بشخصياتهم الى آخر حدودها الممكنة — ولكن بجانب هذا التأثير العادى اليومي تحدث حوادث بارزة في تاريخ الانسان وخاصة العظماء يكون لها الأثر البالغ والتغير الخطير — وهذه الحوادث يصعب ضبطها وتعليلها وحصرها — فقد تنقلب شخصيات الأفراد فجأة على أثر عقيدة دينية تملأ نفوسهم حماسة وقوة وعظمة كما رأينا في فعل الإسلام في رجاله أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، فلولا الاسلام ما كانت لهم هذه الشخصيات البارزة ، ولكانت عظمتهم محدودة محصورة ، ولو سبقوا زمنهم بسنين لماتوا كأمثالهم من عظماء الجاهلية ، وقد يكون بروز الشخصية وظهور النبوغ في الانسان على أثر مقابلته عظيماً ، فيحس بعدها كأن عود ثقاب أشعل في نفسه فألهبها ، وأضاء مابين جوانبه وحفزه للعمل ، وهون عليه الأخطار ، بل قد تكون العظمة نتيجة لشيء أتفه من ذلك ، فقد يقرأ جملة في كتاب ، أو يسمع عبارة من خطيب ، فكأنها كانت مفتاح عظمته ، وكاشف حيرته ، بل قد تكون العظمة لم تأت من شيء

[البقية على صفحة ١٤٣٨]

الإنسانية العليا

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت . لا يتكلم في غير حاجة ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقّت لا يذم منها شيئاً ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فاذا تُعُدِّيَ الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره الى السماء ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه ، لا يحسب جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه ، ولا يطوى عن أحد من الناس بشرَه ، قد وسع الناس بسطُه وخُلقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواءً ، يحسّن الحسنَ ويقوّيه ، ويقبّح القبيحَ ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، وكان أشد الناس حياء ، لا يثبّت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه ، كأن الشمس تجرى في وجهه ، لا يؤيس راجيه ، ولا يخيب فيه ، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير[1] .

***

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الانساني مذهباً عنها ، ولا عن شيء منها ، ولا يجد النقص البشرى مساغا إليها ، ولا إلى شيء منها ، ففيها المعنى التام للانسانية ، كما أن فيها المعنى التام للحق ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للايمان .

هي صفات إنسانها العظيم ، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياةُ إنسانيتها العالية ، فهي بذلك من براهين نبوّته ورسالته .

ولو جمعت كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ، ونظمتها بعضها إلى بعض ، واعتبرتها بأسرارها العلمية — لرأيت منها كوناً معنويا دقيقاً قائماً بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا معجم نفسي حتى ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوّتها ، لتتخرج به الأمة التي تبدع العالم إبداعا جديداً ، وتنشئه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله .

ولن ترى في الانسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض ، وإني لأكاد كلما تأملتها أحسب هذا السمو قضاء وقدراً بانسان على الانسانية كلها . وهي دليل على أنه الانسان الذي خُلق للدنيا لا لنفسه ، فهو لا ينمو بما يكون له على الناس من الحق ، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها ، فما تكون في الوجود إلا لتقرر وجودها هي ، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ، فهو صلى الله عليه وسلم إنسان غُرِسَ في التاريخ غرساً ليكون حداً لزمن وأولاً لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه ، وهو أبداً قائم في مكانه الاجتماعي ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد في إثباته . وقد أصبح في الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس ، فلن يتغير أو يُمحَى إلا إذا تغير أو مُحِيَ المشرق والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشمائل من أمثالها — لا نقرؤها أوصافاً ولا حلية ، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبدع تصنيف وأدقه ، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدّى الفكر البشرى لأحسنَ منه ولا أصح ولا أكمل ، فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسألة الرياضية لا ينبغي أن تزيد أو تنقص ، إذ كان في مجموعها ما وُجِدَ له مجموعها .

ويكاد الارتباط بين أجزاء هذه المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ، فان كل جزء منها موضوع وضعاً لا يتم الكلُّ إلا به ، حتى لا موضع فيها لقلةٍ أو كثرة ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وأنت إذا دققت في هذا الحديث أدركت من معناه أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة تجرى على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم — أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها كخالقة القلب

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

الإنساني بنظامه حياته وحياته نظامه ، وكأنما اعترته حالة نفسية كالتي تعترى القلب في استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد — من القوة والصبر يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة ؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدّرة بميزان ، مضبوطة بقياس ؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونة يؤازر بعضها بعضاً ، وكان قانونها الطبيعي أن تتجاذب وتتساقط وتفسد الواحدة منها عمل الأخرى ، فيجيء بها الشيء وضده معاً : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والجمود الساكن ، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز ؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد ، فيشد بعضها بعضاً ، ويتمم النقيض منها نقيضه ، ويجرى كلها في قانون واحد : هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازع منها وإنه ليستقر في أشد من القيد ، وكأن فيه غير طبيعته .

وهل ينبئك مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتات الوجود فيتجاوز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة في منبعها . وتلك الحالة — كما ترى بك — تجعل وجود الإنسان هو وجود إرادته وعقله ، لا وجود شهواته وغرائزه ؛ وبذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهو مدة حياته في وجود إرادته لا غيرها ، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة ، كأنه خلق تشدّه نية مستيقظة قد نبهها ما ينبه النفس من الغرر والخطر . ولعل هذا الشعور في نفسه صلى الله عليه وسلم هو التفسير لقوله : « نية المؤمن خير من عمله » إلى أحاديث كثيرة مما يجرى في معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها أن نية المؤمن لا تنطوى إلا على الخير الكامل ، فهو ما دامت نيته على صلاحها ، وسرّه على إخلاصه — لا يعدّ اليسير من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ؛ فالأصل القائم في تلك النية المؤمنة ألا يبدأ الشر كى لا يوجد ، وألا ينتهى الخير كى لا يفنى ؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً ، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعاً ، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتى الخير في بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه ليحقق ضميره الطيب في كل ما يهمّ به ، ويحصر أفكاره في قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساس في علم الأخلاق ، لا أساس من دونه والنية من بعدُ هي حارس العمل ، فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى ، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعة من ناحية ، واستجابة ومطاوعة من الناحية الأخرى ؛ فهى على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للارادة ، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الارادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانون المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النية الصحيحة المستقيمة ؛ فالتزوير والتلبيس كلاهما سهل ميسور في الأعمال ، ولكنهما مستحيلان في النية إذا خلصت .

وهى كذلك ضابط للفضائل توجّه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف ، فيكون طريق ما بين الانسان والانسان ، من ناحية الطريق ما بين الانسان وبين الله .

وأشواق الروح بطبيعتها لا تنتهى ، فيعارضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية ، يحاول أن يطمس بهذه على تلك ، وأن يغلب الحيوانية على الروحانية ، فاذا كانت النية مستيقظة كفّته وأماتت أكثر نزعاته ، ووضعت لكل حاجة حداً ونهاية ؛ وبذلك ترجع النية الى أن تكون قوة في النفس يخرج بها الانسان عن كثير مما يجده من جسمه ، ليخرج بذلك عن كثير مما يجده من معانى الأرض .

وهى بعد هذا كله تحمل الانسان أن ينظر الى واجبه كأنه رقيب حيّ في قلبه ، لا يرائيه ولا يجامله ، ولا يُخدع من تأويل ، ولا يُغرّ بفلسفة ولا تزيين ، ولا يُسكته ما تسوّل النفس ، ولا يزال دائماً يقول للانسان في قلبه : إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك .

وجملة القول في معانى النية أنها قوة تجعل باطن الجسم متساوقاً مع ظاهره ، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطّرداً ، كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها في اطراد وسهولة وطبيعة .

* * *

وكل صفات النبي صلى الله عليه وسلم — مما ذكرناه وما لم نذكره — متى اعتبرت بذلك الأصل الذى بيّناه انتظمها جميعاً ، فجاء بعضها تماماً على بعض فى نسق رياضى عجيب ، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة ، ورأيتها فى مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة ، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً ، بل كله أجزاؤه ، وأجزاؤه كله ؛ كالوضع الهندسى ؛ إما أن يكون بكله ، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلها .

وليس مجموع تلك الصفات فى معناه إلا صنعة الانسان صنعة جديدة تخرجه موجوداً من ذات نفسه ، وتكسر القالب الأرضى الذى صُبَّ فيه وتفرغه فى مثل قالب الكون ، فاذا هو غير هذا الانسان الضيق المنحصر فى جسمه ودواعى جسمه ، فلا تخضعه المادة ، ولا يؤتَى من سوء نظره لنفسه ، ولا تغرّه الدنيا ، ولا يمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هى صفات المستعبَد بأهوائه لا الحرّ فيها ، والخاضع بنفسه لا المستقل بها ، والمقبور فى إنسانيته لا الحىّ فوق إنسانيته . ومثل هذا المستعبَد الخاضع المقبور لا وجود له إلا فى حكم حواسه ، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله ؛ ويتصل بكل شىء اتصالاً مبتوراً ينتهى فى هوى من أهواء الحيوان الذى فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكون فى الانسان الاجتماعى حيوان تقابله الحكمة فى الحيوان الأليف بانسان ؛ وحكمهما واحد ومنطقهما لا يختلف . فلو أنك سألت حيوانَ الأعصابِ عن صاحبه الانسان لقال لك : هو عَلَفى ومزرعتى . ولو سألت كلباً عن حبّه صاحبَه ومبلغ هذا الحب فى نفسه لما زاد فى جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظمة . . .

ومتى كان الانسان فى حكم حواسه لم تَعُد الأشياء عنده كما هى فى نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وانقلبت كما هى فى وهمه بمعان متفاوتة مضطربة ، فلا يشعر المرء بائتلاف الوجود وتعاونه ، ولكن باختلافه وتناقضه ، فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم ، ويدخل فى كل حب بغضٌ ، وفى كل رغبة طمعٌ ، وفى كل خير شرٌّ ، وفى كل صريح خبىء ، وهلم جراً ؛ إذ لابد من هذا كله متى غلب الفانى على الباقى ، ولا بد من كل هذا فى تمثيل رواية الحواس الخادعة التى أساسها التغيّر والتقلّب ، حتى لكأن النفس إنما تعيش بها فى ظاهر من الحياة ، لا فى الحياة نفسها .

وهذا الخداع جاعلٌ كلَّ شىء من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهى ، ثم لا ينتهى إلا ليبدأ ؛ فما تزال هذه النفس طامعة فيما لا تناله ، ولا تزال من ذلك مصدرٌ لآلامها الحسية ؛ ثم إذا هى نالت منالها سئمت ، فلا تزال من ذلك مصدر آخر لآلامها المعنوية . ولن يجىء الصحيح من غير الصحيح ؛ فالكون كله ليس إلا كذباً فى النفس الكاذبة بحواسّها .

ولذا كان أخص أوصافه صلى الله عليه وسلم راجعاً الى خروجه من سلطان نفسه ، فلا يغضب لها ، ولا يطلقها من الدنيا فيما تذمه أو تمدحه ، ولا يحب فيها ، ولا يبغض من أجلها ، ولا يهاونها ، ولا يستلين لها فى مأكل ولا ملبس ، ولا يأخذها إلا من ناحية الايمان بالله والايمان بالانسانية ؛ فأفراحها أحزانها ، وآمالها أشواقها ، وأملاكها أعمالها ، وحسابها فى طبيعتها ، وجوادثها من العقل لا من الحواس ، وعظمتها إثبات ذاتها فى غيرها ، لا إثبات غيرها فى ذاتها ؛ وغايتها فى الباقى لا الزائل ، وفى الخالد لا الفانى . ومادام الحاضر متحركاً فهو طارىء عابر أو شك أمور الدنيا زوالاً ، والعمل له على مقدار فى قلة لبثه وهوان أمره ، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لا به .

فأول النفس النية العاملة لآخرتها ، وآخر النفس ما تؤدى اليه أعمال هذه النية ؛ فليس فى إنسان الدنيا إلا إنسان العالم الآخر ؛ وبهذا يُقدَّر صمته وكلامُه ، وحركته وسكونه ، وما يأتى وما يدع ، وما يحب وما يكره ؛ إذ كل شىء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه .

وجماع الأمر ألا يكون مستقبل الانسان علامة استهزاء بجانب ماضيه ، ولا علامة استفهام ، ولا علامة إنكار .

* * *

وتدل صفات النبى صلى الله عليه وسلم باجتماعها وتساوقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد ؛ وهى أن جميع خصائصه النفسية مرهفة متيقظة ، وهذا مما يندر وقوعه وإمكانه ؛ فان الرجل من الناس ليكون حياً بالحياة ، ولكن جوانب كثيرة من

نفسه قد طاح بها الموت ، أوهي مريضة ، وذلك أول الموت ؛ أو غافلة ، وذلك شبه الموت . أما الحيّ العظيم فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحي الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها ، تملؤه الحياة فيملأ الحياة ، ويتمدد السرّ فيه ليريه حقائق الأشياء ، ويهديه ويدلّه ، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة ؛ ومثل هذا يعظم ثم يعظم حتى ليرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نوز لبس اللحم والدم ، وبين تراب لبس الدم واللحم .

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتب أعلاها الامتياز فى النبوة ، ثم النبوة ؛ ثم تنزل الى الامتياز فى الحكمة ، ثم تهبط الى عبقرية الشعر . فأكبر الشعراء قاطبة كالنبي فى معناه إلا أنه نبي صغير ، وإلا أنه فى حدود قلبه .

وهذه القوى الثلاث هى التى أبدعتها الحكمة الالهية لتحويل الحياة والسموّ بها ، فالشاعر يستوحى الجمال إذا تألّه الجمال فى قلبه ، والحكيم يستوحى الحقيقة إذا تألهت فى نفسه ، والنبي يستوحى الألوهية نفسها .

***

(كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان) ولكنها أحزان النبوة تكسو الحياة فرح النفس الكبيرة ، وهو فرح كله حزن وتأمل وفكرة وخشوع ، وطهر وفضيلة . وما فرح أعظم الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلا شيء قليل من حزن النبي .

(وكان دائم الفكرة ليست له راحة) إذ هو مكلّف أن يصنع الانسان الجديد وينفخ الآدمية فيه . وفكرة النبي هى معيشته بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرها تعيش فى الناس . وهى الفردية واستقلالها وسموّها لأنها إطاقة النفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التى لا تطيقها ، فدأبها أبداً أن تبحث عما تستعبد له ، أو تنسى ذاتها فيه ، أو تستريح اليه من ذاتها . ومتى كانت النفس فارغة كان تفكيرها مضاعفة لفراغها ، فهي تفر منه إلى مايلهيها عنه . ولكن العظيم يعيش فى امتلاء نفسه ، وعالمه الداخلي تسميه اللغة أحياناً : الفكرة ، وتسميه أحياناً : الصمت .

(وكان صلى الله عليه وسلم طويل السكت لا يتكلم فى غير حاجة) ومن الصمت أنواع ، فنوع يكون طريقة من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار مايحيط به ؛ ونوع يغشى الانسان العظيم ليكون علامة على رهبة السر الذى فى نفسه العظيمة ، ونوع ثالث يكون فى صاحبه طريقة من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم ، ونوع رابع هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح فى ساعة أعمالها ؛ ونوع خامس يكون صمتاً على دوي تحته يشبه نوماً ساكناً على أحلام جميلة تتحرك .

***

على هذا النمط يجب أن تُفسر كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ؛ فهى بمجموعها طابع إلـهى على حياته الشريفة يثبت للدنيا بكل براهين العلم والفلسفة أنه الانسان الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

بضع كلمات

خير زمام لمطية الشجاعة الحلم

لا تستقل أمة نفوس أفرادها غير مستقلة

لا يخرج أبو الهول من صمته حتى نتكلم

الحياة كأس تحلو وتمر ، ثم تتحطم

لا تنهر السائل فقد ينهرك غداً

العفاف كالمعدة يشبع ويجوع ، فاذا لم يجد ما أُعتاده من طعام الزوجية الطيب انصرف الى غيره من خبيث الطعام

المرأة شيطان جميل

السكير يملأ فى آخر أيامه قواريره عقاقير

ما رأيت أستاذاً يعلمنى الحلم خيراً من زوجتى وأولادى

شباب التاريخ يتجلى فى آثاره القديمة

الطبيعة الجميلة ليست ملكى ولكنها ملك عينيّ ، فلمَ لا أتمتع بها؟

الأولاد مصابيح البيت

المرأة كالطفل ، نفر منه فيتبعنا ، ونتبعه فيفر

أعمى البصيرة أعمى مرتين

المخدرات كالمرابى ، ولكنها تتقاضى ربحها من صحتك

محمود خيرت

شخصية نسوية أندلسية

صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تولى محمد بن أبي عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتدبيرها كما بينا، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة. وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بمؤازرة صبح له. ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط الى ذلك الحب القديم الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى، ولكنها كانت ترجع أيضاً الى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى، وأن يوطد السلام والأمن فى المملكة. فكان ابن أبي عامر فى الواقع هو السيد المطلق، وكانت صبح تفوض اليه كل سلطة وكل أمر، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء.

وكان الأمير الفتى، هشام المؤيد بالله، ميالاً بطبعه وسنه الى اللهو والدعة، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة التى تهىء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك، فكان يلزم القصر والحدائق، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب. وكان ابن أبي عامر يشجع هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده؛ ومذ ولى هشام، حجر عليه ابن أبي عامر؛ ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين فى قصره لا يعرف شيئاً من العالم الخارجى إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب. وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى: «حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة. وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنساً فلا يعرف، واذا سافر وكل من يفعل به ذلك[1]». ويروى كوندى أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم، جاء من ماردة الى قرطبة يوم البيعة لهشام ليؤدى يمين الطاعة، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع[1]. وفى الفرص النادرة التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج كان ابن أبي عامر يتخذ أشد التحوطات، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه. وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبي عامر أن يحدثه فى نظم الدولة لتمكين سلطانه وطغيانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده.

ولا يتسع المقام للأفاضة فى شرح الوسائل والاجراءات المتعاقبة التى تذرع بها ابن أبي عامر لتحقيق مشروعه؛ ولكنا نقول فقط إنه سار الى غايته بسرعة مدهشة، ولجأ فى تحقيقها الى أشد الوسائل؛ واستطاع بعزمه وصرامته وبراعته أن يسحق كل عقبة، وأن يروع كل منافس ومناوئ. وفى ذلك يقول لنا ابن خلدون: «ثم تجرد (أى ابن أبي عامر) لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم»[2]. وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر، ودسائس الخصيان الصقالبة بالقصر؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة وحمل جعفر على نكبتهم وتشريدهم، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقون أو شردوا؛ ولبث بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر، ويحرض صبحاً عليه، وبنوه كلما سنحت الفرص بقصورة وسوء تدبيره، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات؛ وجد بعد ذلك فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل، وسحق كل من يصلح للولاية والرآسة. وفى ذلك يقول ناقم منه:

أبنى أمية أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

وعمد ابن أبي عامر الى الجيش فنظمه من جديد ليؤكد عونه وإخلاصه، وأبعد عنه كل العناصر المريبة، وملأه بصفوف جديدة من البربر والمرتزقة؛ وفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة فى ضاحية قرطبة على ضفة الوادى الكبير وسماها بالزاهرة، ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين؛ وأنشأ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة؛ واتخذ سمة الملك، وتسمى

(١) المقرى — ج ١ ص ٢٧٦

(١) كوندى — ج ١ ص ٤٩٥

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه فى السكة ؛ وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم[1]

* * *

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب ؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبى عامر على إحداثه ؛ وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها يدفعها دائماً الى مؤازرته والإذعان لرأيه ووحيه ؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطرة التى يسعى الى تحقيقها ؛ هذا اذا لم نفترض أن تلك الفرنجية المضطرمة الجوانح كانت تذهب فى حبها الى حد الأثمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر ، أو المنصور كما نسميه فيما بعد ، انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو ؛ وظهرت فى ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر المنصور على هشام ، وعلائقه بصبح . فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه ؟
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شئ فى يديه[2] ؟

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب وأمه حبلى وقاض . . .[3]

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المرة . وتتفق الرواية الاسلامية فى الاشارة الى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور ، وان كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لكاتب مغربى يدافع فيها عن المنصور ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب[4]

ولم تخمد جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور ، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلا جديداً على إخلاصها ووفائها ، وكانت زوج المنصور اسماء ابنة غالب مولى الحكم وصاحب « مدينة سالم » ، وهى فتاة بارعة الجمال والخلال ؛ زفت إلى المنصور سنة ٣٦٧هـ ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ؛ ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ذاته باشراف الخليفة ، وبعبارة أخرى باشراف أمه صبح ؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف ؛ وكان زواجا سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[1] وان كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور ، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل

* * *

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصاير الأندلس ، ويسير من ظفر إلى ظفر ، ويثخن فى ممالك أسبانيا النصرانية ؛ ولم تبلغ أسبانيا المسلمة مابلغته فى عهد المنصور من القوة والسؤدد ، ولم تبلغ اسبانيا النصرانية مابلغته فى عهده من التمزق والضعف ؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة ، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل أسبانيا النصرانية ، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام ؛ فكانت الأندلس فى عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن ؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى ، وكان قد فتح فى عهد الحكم المستنصر ؛ ولكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكما من الطغيان المطبق ، وكانت وسائله العنيفة الصارمة ، الدموية فى أحيان كثيرة ، تذكى من حوله أوار البغض والتربص ؛ وكان اجتراؤه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب سلطاتها ، والحجر على صاحبها الشرعى ، تقدمه دائماً إلى الشعب فى ثوب الطاغية المغتصب ، فكان الشعب يعجب به ولا يحبه . على أن المنصور كان يسير دائماً فى طريقه ، معتمداً على قوته ووسائله ، لا يحفل برأى الزعماء أو الشعب ؛ فلما استتب له كل أمر ، واجتمعت فى يده كل السلطات ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الملك ومظاهره ، فبدأ بالتخلى عن لقب الحاجب ، وخلعه على ولده عبد الملك ، وهو فتى فى الثامنة عشرة ؛ وتسمى بالمنصور فقط ؛ ثم أصدر أمره بأن يخص دون سائر أهل الدولة بلقب « السيادة » فى المخاطبات ، وتسمى عندئذ « بالملك الكريم »[2] وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التى يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهى إليها ، وهى أن

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ — ابن الابار (الحلية السيراء) — ص ٤٠٩ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩١ وما بعدها

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً الى المقتدر العباسى « الرسالة »

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٠ — نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١

(٤) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ — دوزى ج ٢ ص ٢١٤ و ٢١٥

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

ينسخ الخلافة الأموية حكماً كما نسخ سلطانها فعلاً ، وأن ينشيء دولة عامرية تتمتع برامسيم الملك والخلافة .

ولم تك ثمة معارضة يخشى بأسها المنصور ؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ولكنه لبث خاملاً ضعيف العزم والارادة ، لا تسنده أية قوة ؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة ، وجمع حوله الجيش . ولكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها : تلك هي صبح أو « أورور » صاحبته القديمة ، وعونه السابق في الوصول إلى ذرى الحكم ، وفي الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه . ثارت صبح لما تبينته من نيات المنصور وغاياته ، وكانت صبح يومئذ في نحو الخمسين من عمرها ، وقد تصرم ذلك الحب الذي شغفها بالمنصور دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذي سلب ولدها كل سلطة ؛ وأخذت تبث في نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة ، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ومنازعته واسترداد سلطانه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ؛ وأذاعت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعوة شديدة ؛ واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعي ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . ولم تقف عند هذا الحد ، بل فكرت في القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه ، ففاوضت زيري بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور وأرسلت إليه الأموال سراً ليحشد الجند وليتأهب للعبور إلى الأندلس ؛ وكان زيري بن عطية أقوى زعماء المغرب ، وكان مخلصاً لبني أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها ؛ فلبى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة . ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها فبادر برؤية هشام المؤيد سرا ، وتفاهم معه ، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم ؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لا تمتد إليها يد خصومه . ثم تحول إلى زيري بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه ؛ فرد زيري بأن محا اسمه من الخطبة وطرد عماله بالمغرب ، وتأهب للحرب . وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاه واضح فهزمه زيري وارتد إلى طنجة ؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين ، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم في نهايتها زيري ومزق جيشه وفر إلى الصحراء الداخلية (٣٨٨ هـ — ٩٩٧ م)[1]

* * *

وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوي ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يكن الخليفة الأموي سوى شبح فقط . ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلاً بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام المؤيد ، أيام المنصور ، ثم تجددها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بني أمية ، إلا مرحلة السقوط النهائي . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدي ، لجأت الى السكينة والعزلة ؛ فلا نسمع عنها بعد ذلك في تاريخ الأندلس ؛ ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م) أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الأسلامية في ذلك إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام[2] . والظاهر انها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالى سنة ٣٩٠ هـ ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس . وقد أورد صاحب يتيمة الدهر للشاعر الأندلسي أبي عمر بن محمد بن دراج القسطلي قصيدة رثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » نقتطف منها ما يأتي :

هل الملك علك ريب المنو ... ن أم العزيصرف صرف القضاء

ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء

هو الرزء أودى بعـــزم اللو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء

* * *

وحاشا لرزئك أن يقتضيـــه عويل الرجال ولدم النساء

لبيض أياديك في الصالحـــا ... ت تمسك وجه الضحى بالضياء

فتلك مآ ثرهـــا في التقى ... وبذل الهى مابهـا من خفاء

جزاك بأعمـــالك الزا كيا ... ت خير المجازين خير الجزاء

ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثـــواء

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان

المحامي

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ — دوزي — ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠

في السعادة

للورد افبري من كتابه (فائدة الحياة)

ترجمة الأستاذ بشير الشريق

لا تسير الرفاهية مع السعادة دائماً، وإن كثيراً من الناس بؤساء وإن كانوا يملكون في الظاهر كل ما من شأنه أن يجعلهم سعداء.

يمكن أن تقدم الطبيعة إلى أحب عشاقها الغنى والقوة والشهرة والحياة الطويلة، ولكنها لا تستطيع أن تجعله سعيداً؛ إذ يجب أن يعتمد في ذلك على نفسه.

إذا لم تكن عناصر السعادة موجودة في نفس الرجل فان كل ما في العالم من جمال ومشاهد وملذات ومبهجات لن تستطيع أن تهبها له

أكثر ما تتوقف عليه السعادة إنما هو ضبط الرجل لأفكاره وقيادته لها متجنباً ما هو مؤلم، مستعيداً أجمل الذكريات.

يقول «شوبنهور» — يرى أحدهم العالم قاحلاً مظلماً حقيراً، ويراه الآخر غنياً مبهجاً مملوءاً بالمعاني.

السعادة شيء يحتاج إلى المران كالعزف بالناي.

إذا سرنا على الصراط المستقيم وصلنا إلى ما تصبو إليه نفوسنا ولكن حذار أن نبحث عن هذا الصراط باهتمام شديد.

يقول «فرانكلن» — اتبع السرور يتبعك.

لا تفكر كثيراً في نفسك، أنك لست الوحيد في هذا العالم،

يقول «راسين» — لا تفتش عن اللهو، ولكن كن مستعداً دائماً أن تلهو.

إنه من الصعب أن تجعل الحياة تعاقب لذائذ،

يقول «تشفورت» — إن أضيع يوم في حياتنا هو اليوم الذي لا نضحك فيه.

إذا كان اليوم مظلماً فأضئه.

يقول أحد القساوسة — إن البشاشة هي تسعة أعشار المسيحية[1]

يحتاج النزاع إلى شخصين فلا تكن أنت أحدهما.

لا تدع الشمس تغرب على غضبك.

إن أنت فكرت في نفسك كنت تعساً، وإن أنت فكرت في غيرك كنت سعيداً.

يتذمر بعض الناس دائماً، ولكنهم تعساً كين لم يدركوا أنه لو قدر لهم فولدوا في جنات عدن لوجدوا هنالك أشياء كثيرة يتشكون منها ويتذمرون.

الغبطة مقوم أخلاقي عظيم، وكما أن الشمس تفتح الأزهار وتنضج الأثمار، كذلك الغبطة

الشعور بالحرية والحياة يبعث فينا كل بذور الوجود.

ما دام الانسان محافظاً على بشاشته فهو محافظ على قوته وشبابه.

يظن بعض الناس أن السرور دليل عدم التفكير وهذا خطأ، إذ ليس من علاقة ضرورية بينهما.

لا نستطيع أن نمنع آلام هذه الحياة عنا، ولكننا — إذا أردنا — نستطيع أن نسمو فوقها؛ ولذلك يجب أن نعلق على جدران غرفة ذكرياتنا صوراً جميلة ضاحكة. وكما يلأم الزمن الجراح يشفي الزمن الأحزان.

يقول «كوكريتوس» يخاف بعض الرجال في النور بقدر ما يخاف الأطفال في الظلام.

إن العقل المثقف، ولا أعني بالمثقف عقل الفيلسوف، بل كل عقل فتحت له منابع المعرفة فعرف كيف يمرن قواه، سيجد في كل ما يحيط به منابع للسرور والتسلية لا ينضب معينها؛ سيجد في بدائع الفن غبطة، وفي جمال المرأة راحة، وفي خيال الشعراء وحوادث التاريخ سلوة، وفي عقائد الناس تفكهة.

الطبيعة نعمة لمن لا يكفر النعمة.

لا الغنى ولا الجاه بضامنين لك السعادة.

قد تكون غنياً وعظيماً وقوياً من غير الحب والاحسان والاطمئنان، ولكنك لن تكون سعيداً.

لقد اتفق أحكم الحكماء على أن السعادة لا يمكن أن تشترى بالمال ولا أن تنال بالقوة.

يقول «هريو» لسيمونيدس: لقد أغرت مفاخر الامارة وعظمة الملوك ورفاهيتهم السواد الأعظم من الناس؛ أنا لا أعجب من ذلك، لأن الناس كما يظهر لي يحكمون على بعضهم بمجرد الظواهر فقط؛ إنني أؤكد لك ياسيمونيدس ان الملوك يملكون أقل نصيب من «المسرات العظيمة»، وأعظم سهم من «البلايا العظيمة».

لا ينبغي أن نخاف الموت، فالموت كما يقول «باسكال» هو المصيبة الوحيدة التي لا نشعر بها.

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

[1] ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بني إن البر شيء هين وجه طليق وكلام لين

حول كتاب «هتلر»

قضية طريفة أمام القضاء الباريسي

نعرف أن الهر أدولف هتلر رئيس الحكومة الألمانية الحالية، وزعيم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني ، كتاباً كتبه أيام المحنة ، وقت أن كان زعيم جماعة صغيرة وحزب ناشىء ، وكان وقتئذ معتقلاً في إحدى القلاع يقضي حكماً صدر عليه لاشتراكه في مؤامرة دبرت في ميونيخ لقلب الحكومة . ولم يكن لهذا الكتاب الذي صدر في سنة ١٩٢٥ بعنوان جهادي Mein Kampf ، أهمية سياسية أو أدبية ، وفيه يقص هتلر سيرة حياته ، ويعرض برنامج حزبه ، وآراءه السياسية في أسلوب عادي لا يمتاز بشيء إلا بما يتخلله من المبادىء والآراء المتطرفة . فلما تطورت الحوادث ، وغدا هتلر زعيم أعظم الأحزاب الألمانية ، واستولى على مقاليد الحكم ، اتجهت الأنظار الى كتابه ، وتخاطفته الملايين ، وطبع مراراً عدة ، وترجم الى عدة لغات ، واتخذ أهمية جديدة يسبغها عليه مركز مؤلفه وما انتهى اليه من السلطان والنفوذ

وقد رأى أحد الناشرين الباريسيين أن يخرج الكتاب باللغة الفرنسية لما للكتاب من خطر في نظر الجمهور الفرنسي بعد أن غدا مؤلفه أعظم خصم لفرنسا ، فأرسل الى شركة فراتز أيهر الألمانية التي فوضت جميع حقوق النشر يستأذنها في الترجمة ، فأجابت بالرفض المطلق . والظاهر أن ذلك يرجع الى أسباب سياسية أكثر مما يرجع الى أسباب مالية ، لأن الهر هتلر لم يشأ أن يطلع الشعب الفرنسي على ما كتبه ، وفيه كثير مما لا يدعو الى الطمأنينة . ولكن الناشر الباريسي لم يعبأ بهذا الرفض ؛ وأخرج لكتاب « جهادي » ترجمة فرنسية بديعة كاملة بقلم ثلاثة من الكتاب المعروفين . فبادرت شركة فراتز أيهر الألمانية الى رفع الأمر الى القضاء الفرنسي ، واستصدرت أمراً بالحجز على النسخ المطبوعة لدى الناشر الباريسي ، ورفعت عليه دعوى تطلب مصادرة النسخ المحجوزة ، والحكم عليه بغرامة قدرها ألف فرنك عن كل نسخة ، والحكم عليه فوق ذلك بتعويض مالي كبير

وكانت نظرية الشركة الألمانية أمام المحكمة أن نشر الترجمة دون إذن يعتبر اعتداء واختلاساً ، وقانون سنة ١٧٩٣ الفرنسي الذي يحمي الملكية الأدبية يعتبر ذلك « تزويراً » تترتب عليه جميع حقوق التعويض والمصادرة

ولكن الناشر الباريسي أجاب على لسان محاميه الأستاذين جابيه وفيليب لامور أن هذه الحالة لا يشملها قانون سنة ١٧٩٣ . ذلك أنه لا يمكن أن نشبه كتاب هتلر بكتاب عادي أو رواية لمؤلف عادي ؛ والواقع أن كتاب « جهادي » إنما هو كتاب عمومي لرجل من الرجال العموميين ، ورؤساء الحكومات الذين تغدو كتاباتهم ملكاً للجميع على نحو ما يغدو تصريح وزاري أو خطبة عرش ؛ فلكل إنسان الحق ، بل ومن واجب كل إنسان يهمه الاطلاع على الشئون العامة أن يعرفها وأن يقرأها . هذا الى أن العقد الذي تزعم الشركة الألمانية أنها حصلت بمقتضاه على حقوق النشر لا يوجد ولم يقدم . وليس لديها غير تصريح شفوي من « الزعيم » هتلر . ورفع الدعوى بهذه الصورة باطل ، وكان واجباً على هر هتلر ، إذا شاء أن يحمي حقوقه أن يتقدم بنفسه ، وعلى أساس الاعتبارات السياسية التي هي جوهر القضية ؛ ولكنه لم يكن لديه من الشجاعة أو الصراحة ما يحمله على اتباع هذا الطريق ، ولهذا آثر أن يتقدم بواسطة شركة النشر وعلى أساس الاعتبارات التجارية

وقد أثارت هذه القضية اهتماماً كبيراً في الدوائر القضائية والأدبية ، ولا تزال منظورة أمام محكمة السين التجارية ، رهن صدور الحكم فيها . على أنه يرجح منذ الآن أن يأخذ القضاء الفرنسي بنظرية الناشر الباريسي في اعتبار كتابات الرجال العموميين وأقوالهم ملكاً مباحاً يسوغ لكل إنسان أن يحصل عليه وأن يذيعه .

مادمنا كائنين فما ثمة موت . وإذا جاء الأجل فما ثمة وجود .

يجب ألا ننشد السعادة في الخارج بل في نفوسنا ، في عقولنا .

الجنة فيك ، فان أنت لم تستطع أن تكون سعيداً على الأرض فكيف تنتظر أن تكون سعيداً في السماء ؟

يقول « سقراط » : خير الرجال من يسعى لضبط نفسه ، وأسعدهم من يشعر بأنه ضابط لها .

خذ الغبطة إلى بيتك

واسمح لها أن تنمو ودارها .

إنها ستخفف من آلامك وأحمالك

وتغني لك وأنت تجاهد في خزانة أرضك .

إنه لعمل عادي أن تكون مسروراً .

« شرق الأردن » بشير الشريقي المحامي

صورة من صدر الإسلام

عبد الله بن مسعود

بقلم محمد طه الحاجري

أخذ الناس في مكة يحسّون شيئاً جديداً يداخل روح الحياة عندهم ، وينشر ظلالاً خفيفة من حولهم ، ويبعث في أنفسهم شعوراً شديد الغموض لا يتبينون كنهه ولا يتحققون أمره ، شأن الجماهير في فجر الأحداث الخطيرة .. وكأن لهم من وراء الحواس الظاهرة حسّاً باطناً لا يستند اليها فيما يدرك ، ولا يدرك إلا المعنى الغامض الذي لا يحدد . وكان الجو في تلك المدينة المقدسة يزخر بشتى التيارات ، ويموج بلمحات النبوة ونفحات السماء ، كما يموج الأثير بأمواج الكهرباء : تحمل في أطوائها معاني القوة دون مظاهرها ، وتخفى في أثنائها الصوت المجلجل ، والضوء الساطع ، كامنة كمون الروح ، خفية خفاء القدر ، حتى تتاح لها الظروف المواتية ، والحالات الملائمة ، فتجهر وتستعلن وتؤدي رسالتها . . . وكذلك كان الأمر في الأيام الأولى للبعثة : تنزل الملائكة وتصعد ، ويترادف الوحي ويمتد ، ويزخر الجو بنفثات الرسالة ، والناس مستمرون في شأنهم ، لا يحسون شيئاً إلا حفيفاً لا يعبأون به ، ولمحات خفيفة لا ينظرون اليها ، حتى تصادف قلباً أعدّ لها ، و« جهازاً » صالحاً لقبولها ، فتجهر وتستعلن وتؤدي رسالتها . . .

وفي يوم من هذه الأيام ، خرج الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ومعه صاحبه وصفيه أبو بكر ، وأخذا يسيران في ظاهر مكة ، على نجوة من العيون ، وأمنة من الأتباع . يتناجيان نجوى المودة الصادقة ، ويتحدثان حديث العقل المتزن ، وقد أقبل الرسول على صاحبه ليجد عنده راحة نفسه ، وطمأنينة قلبه ، لقاء ما ألقى عليه ربه . وبينما كذلك لقيا شاباً في نحو العشرين ، ضئيل الجسم ، ضعيف البنية ، آدم البشرة ، تلمع عيناه ذكاء وعزيمة وصفاء سريرة ، يرعى قطيعاً من الغنم ، هو ذا عبد الله ابن أم عبد الهذلي ، مولى أخوال الرسول من بني زهرة ، يرعى غنماً لابن أبي معيط أحد السادة المتجبرين من بني أمية . فوقفا عليه واستسقياه بعض اللبن فسقاهما ، حتى إذا ما فرغا من شرابهما أقبل بدوره عليهما ، وأخذ يسائل الرسول عما سمع بعض الناس يهمسون به ، من كلام بدع تتضاءل أمامه كل صنوف الكلام ، وأمر جديد يتنزل عليه من السماء ، يدعو الى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام . فهش له الرسول ومسح على رأسه ، وجعل يقرأ عليه ، وإن صوته ليتجاوب بين قلبه وعقله ، وجعلت كلمات التنزيل تتنزل على نفسه ، كما تتنزل قطرات الماء على حلق يتحرق ظمأ ، حتى شرح الله صدره للإسلام . ومضى الرسول وصاحبه ، رضى النفس مغتبط الضمير . وخلفا عبد الله وقد ملكته نشوة هذا الأمر ، وقد جعلت كلمات الرسول يتردد صداها بين سمعه وقلبه ، وهو يحسب أنه قد ظفر بسعادة الأبد . وما زال كذلك حتى يقبل الليل ، فينطلق الى دار الأرقم ، يلقى الرسول وصحبه يتدارسون آيات التنزيل ، ويضرعون الى الله أن يسدد خطاهم ويمكن لهم دينهم .

أي رجل هذا ؟ شاب يافع محروم من أسباب القوة ووسائل المنعة ، ليس له عشيرة يلجأ اليها ، ولا عصبة يعتمد عليها . ضعيف في ذاته الجسمية ، قضيف العظام مترهل العضلات مجرد من وسائل الحياة المادية ، يعتمل نفسه لأشراف مكة في الخدمة ورعي الغنم ، لقاء ما يحفظ عليه روحه ويمسك عليه الرمق . ثم لا يبأ بعد هذا أن يخرج عليهم ، وهو يعلم مقدار حميتهم لدينهم ، وتعصبهم لأنفسهم ، ولا يأبه لما لابد أن يصيبه في هذا السبيل من تصرم وسائله ، واستهداف حياته في تعرضه لعداء سادته وهم من هم : سدنة البيت الحرام ، والقوام على ميراث اسماعيل عليه السلام ، والخيرة المتخيرة من أبناء العرب ، وأصحاب الحول والطول في كل أنحاء الجزيرة .

ولكن عبد الله كان يملك من أسباب السماء بقدر ما حرم من وسائل الأرض . كان قوى النفس ، متين الخلق ، بقدر ما كان هزيل القوام ضعيف الجسد . كان يشعر بالسؤدد الروحي يوجهه ويعلى عليه ، وإن كان يضطرب في أسمال الخدمة وأهدام الحاجة . فلم تكن الضرورات المادية لتخضع روحه أو تغلب ضميره ، وما كان للخوف أن يغشى بصيرته فيخلد الى الأرض . وكذلك انطلق

مع روحه فاعتنق الاســلام وأخلص له ، وأحب محمداً الى غاية ما يبلغه الحب الروحى ، فاصطفاه الرسول ليكون تابعه الأمين ، وخادمه الذى ليس من دونه حجاب ، فكان يرى وكأنه واحد من آل بيته ، مما كان يركن اليــه ويطمئن له ويتلطف معــه ويحسن عشرته ، فأخلص للرسول الاخلاص كله ، ووصل حبه له الى قرارة قلبه ، حتى صار جزءاً من حياته ، بل لقد اصطبغت حياته كلها به ، وتأثر به فى مخبره ومظهره ، فكان أقرب الناس له سمتاً ، وأدناهم اليه دلاً ، وأشبههم به فى سكينته ووقاره .

* * *

مضت الأيام والأسلام نجوى الضمائر ، وحديث القلوب ، وهمس الشفاه : والقرآن لا يعـدو بيت الرسول ودار الأرقم وأطراف مكة القاصية . ثم جاء أمر ربك فأتيح للخافية أن تظهر ، وللسر أن يستعلن ، وللدعوة أن تأخذ سبيلها فى وضح النهار ؛ واجتمع ذلك النفر من المسلمين يتدبرون الأمر ، وكانوا يعرفون موضع الأحساس الدقيق فى نفس العربى ، وموطن التأثر البليغ من قلبه : إنما هى تلك الحاسة البيانية المرهفة التى أمسكت بقياده ، وسيطرت على حياته ؛ وجاء القرآن وافياً بها متحكما فيها ؛ فكان من الطبيعى أن يكون سبيل الدعوة . فقالوا من لقريش يسمعها هذا الكلام ؟ فانبرى عبد الله يقول : أنا لها . وهو يعلم مقدار مايستتبعه هذا من الأذى ، ولا عاصم له من قوم ولا عشيرة . فراجعوه فى هـــذا الأمر ، وبصروه بعاقبته ، وذكروه ضعفه ووحدته ؛ فأبى أن يفوته هذا الشرف ، أو أن رده عنــه اعتبار لا قيمة له فى ميزان المجد . فاعتصم بإيمانه القوى ، ويقينه الثابت أن لا إله إلا الله ، فلا نافع ولا ضار إلا الله ، وأن لو اجتمعت الجن والأنس على أن ينالوه بشىء ما اســتطاعوه الا بقضاء الله وقدره ، وأحبب به أذى فى سبيل الله وإعلاء كلمته . ثم تخير غداة الغد حين تكون قريش مجتمعة فى أفناء الحرم حول الكعبة ، يدبرون أمورهم ، ويتحدثون عن أموالهم ، ويتكهنون بمقادير أرباحهم ويتراهنون على ما يدور بخواطرهم ، وتذهب اليه مطامعهم وتراوحهم به مخاوفهم . فلما كان موعده أقبل الى البيت الحرام ، واستقبل الكعبة بوجهه ، وأخذ يتلو من كتاب الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الرحمن علـم القرآن ، خلق الأنسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

أى صوت رهيب دوى فى أرجاء الحرم ، فالتفتت إليــه أسماعهم ، ودهشت له قلوبهم ، واستطارت منه ألبابهم ، وأذهلهم عما هم فيــه من حجاج ولجاج فى تجاراتهم وحياة أموالهم ؟! فانصرفوا إليه يقولون : ما شأن ابن أم عبد وماذا يقول ؟ فلما علموا أنه يتلو بعض ماجاء به محمد أقبلوا عليه يضربونه فى وجهه ويدفعونه فى صدره ، ما شاءت لهم الحمية ونخوة الجاهلية ، حتى نالوا منه وتركوا آثار الدم فى وجهه . ثم عاد إلى أصحابه وهو يقول : « ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم عاديتهم بمثلها غداً » فقالوا له : حسبك . وتم لهم ماشاءوا .

استشرف عبد الله إذن لعواصف النكير والاستهزاء ، واستهدف لسهام التنكيل والاعتداء . إن كان فى بيت الرسول فهناك جيرانه : أبو لهب وعقبة بن أبى معيط والحكم بن العاص وعدى بن حمراء الثقفى يترصدون له وينالون منه . وإن كان فى السوق فما شاءت جماهير قريش من أذى وتجهم وسخرية ، وإن كان فى المسجد ، وقد جلس إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فى المستضعفين من أصحابه فكذلك ؛ وما يفتأ القوم يمرون بهم ، فيتغامزون عليهم ويسخرون منهم ، ويقول بعضهم لبعض : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه »

وهكذا مضت الأيام بعبد الله ، وما زيده هذا إلا صفاء فى نفسه ، وصلابة فى يقينه ، واستشرافاً لهدى الله جل شأنه ، وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصنعت منه هذه الخطوب ما تصنع حرارة الأرض وضغطها من الماس وكرائم الأحجار ، فأصبح كالماسة الصافية صلابة وإشعاعاً .

فلما اعتدل ميزان الأمور ، وتمت كلمة ربك الحسنى على المسلمين ، وأصبحت القوة فى جانب الحق ، وأصبح الاسلام فى يثرب صاحب الكلمة ، كان عبد الله سيفاً قاطعاً ونجماً ساطعاً ، فشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، لم يقعد به ضعفه . ولم يخلفه هزال جسمه ، إذ كان قوى القلب ثابت الايمان . وكانت بصيرته فى الدين قوية الأشعاع دائمة السطوع ، حتى لقد أوصى

الرسول صلى الله عليه وسلم بالتمسك بعهده ، وشهد له كبار الصحابة كعلي وحذيفة ، ومكانهما من هذا الأمر ما نعلم ، وكان من العلم بالقرآن في المكان المرموق : ما من سورة في القرآن أو آية من سورة إلا وهو يعلم سبب نزولها ، ومكان مجيء الوحي بها ، لا ينكر عليه ذلك منكر . ولقد كان إيمانه يتلألأ في قراءته كما كان يتألق في جبينه ، حتى كان يحبب إلى رسول الله أحياناً أن يسمع القرآن منه . فقال له مرة : اقرأ علي سورة النساء . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأ عليه حتى بلغ قوله تعالى مخاطباً رسوله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » فبلغ التأثر من الرسول مبلغه ، وفاضت عيناه بالدموع .

وحين نذكر فصاحة منطقه ، وخلوص لسانه ، لا ننسى أنه هذلي الأصل ، مع عرق فيه يمت إلى زهرة ؛ ثم هو مع هذا قرشي المولد والمربى ؛ فلا غرو أن كان جيد الأداء حسن القراءة ، بعد أن اجتمعت له مقومات لسانه ونصاعة إيمانه .

***

انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فانتقلت الدعوة إلى الشمال ، تكافح بالسيف ولاة فارس وعمال الروم ، فما كان أسرع عبد الله إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد مكن له فقهه وبصره وورعه أن يتولى أمر الأنفال ، فكان لا يفتأ قياً بين هذا يعلم القرآن ، ولا يترك فرصة دون أن ينتهزها لتفهيمه والتبصير به ؛ وإنه لجالس ذات مرة في حمص وقد جيء إليه بسبائك من الفضة ، فجعل يذيبها ، وإنها لتتلون ألواناً ، فرأى في ذلك صورة بينة للمهل الذي جاء به القرآن ، فالتفت إلى أصحابه يقول لهم : أتدرون ما المهل ؟ هذا أشبه شيء به . لله أنت يا ابن مسعود ! ما كان أبصرك بكتاب الله وأحرصك عليه !

ثم بعثه عمر إلى أهل الكوفة معلماً حين بعث عماراً عليهم أميراً ، وكتب إليهم هذه العبارة التي تدل دلالة واضحة على قيمة ابن مسعود في نظر أصدق الصحابة بصراً ، وأنفذهم رأياً ، وأعرفهم بقيم الرجال : « إني بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي » وكفى بهذه الجملة الأخيرة شاهداً بمكانة الرجل .

فلبث فيها ما لبث قيماً على بيت المال ، قائماً بتعليم القرآن وبث تعاليم الاسلام ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان فوق هذا يضرب بخلقه وورعه خير الأمثال ، حتى كان أصحابه يقولون : « ما رأينا رجلا أحسن خلقاً ، ولا أرفق تعليماً ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا من ابن مسعود » . فكون فيها مدرسة تحبه وتتعصب له ، فلما كان عثمان وأخذ يقلب بين الولاة والعمال ، بعث الى ابن مسعود يستقدمه اليه ، فجزع أصحابه أيما جزع ، واستشعروا أثر النازلة ، إذ يوشك أستاذهم الذي وهبهم قلبه وألهمهم حبه أن يفارقهم ، فاجتمعوا اليه يرجونه أن يقيم بينهم ، وله عليهم أن يمنعوه مما عسى أن يصل اليه من مكروه ، ولكن عبد الله ما كان ليعبأ بالمكروه يصيب شخصه ، فما أهونه في ذات نفسه لقاء الخير يصيب أمته ، ولكنه كان يرمي ببصره إلى ما وراء الشخوص الماثلة أمامه ، فيرى بوادر شر تتربص بالأمة الدوائر ، ودلائل فتنة توشك أن تنقض . وما كان له أن يفتح بعصيانه ثغرة في بناء المسلمين ، فصرف القوم عنه وهو يقول : « إن له على حق الطاعة ، وأنه ستكون أمور وفتن ، فلا أحب أن أكون أول من فتحها » فمضوا عنه وهم يشدون على قلوبهم ، ثم أخذ أهبته وسار الى المدينة .

وقد لبث فيها وإن الفتن لتموج بالناس من حوله وهو قار ساكن ، يسأل الله العصمة وإطفاء الثائرة ، ولا يكاد يلفته شيء إلا كتاب الله الذي تلقاه عن رسول الله ، فهو موضع عزته ، ومناط كرامته .

ولم يطل به العهد حتى اصطفاه الله لجواره ، رضي الله عنه ؟

محمد طه الحاجري
بكلية الآداب

القضاء عند قدماء المصريين

بقلم حامد أسعد محمد عاشور

قبل أن نطرق هذا الموضوع يجب أن ألفت نظر القارئ الى أن مصر كانت على درجة عظيمة من الرقى والحضارة ، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان موطدة الدعائم ؛ وأن النظم الديمقراطية التى يدعى الأوربيون اليوم أنها من بنات أفكارهم أو مما ورثوه عن الأغريق والرومان ، لم تكن إلا وليدة النظريات السياسية الفرعونية فى عصور سحيقة ؛ وأن الحريات الدنيية والسياسية وحماية الملكية الفردية التى يباهى بها القرن العشرون بعد الميلاد ، عُرفت فى مصر وتوطدت أركانها فى القرن العشرين قبل الميلاد تحت حكم ملوك مصر وفراعينها العظام .

كذلك قبل أن أبدأ الكلام أرى لزاماً على أن أذكر أننى استقيت معلومات هذا المقال من مصادر تاريخ مصر المعروفة من كتابة على جدران القبور والمعابد الى ما كتب فى أوراق البردى ؛ ثم من محاضرات أستاذى الدكتور زكى عبد المتعال فى كلية الحقوق ، ثم من كتاب « وصف مصر » الذى وضعته الحملة الفرنسية بعد رجوعها من مصر .

***

يرجع أصل سكان البلاد الى بعض العناصر الاسيوية التى غزت مصر من الشرق ، ثم امتزجت بعناصر أخرى من السود آتية من الجنوب .

أما تكوُّن الأقاليم فهناك رأيان فيه : الأول يقول إن البلاد كانت تتكون من قبائل اتحدت فكونت مدناً ، ثم اتحدت هذه فكونت أقاليم ومقاطعات ، ثم تكونت مصر العليا مستقلة عن مصر السفلى الى أن وحد سكوريبون ملك نخة (مصر الوسطى) قسمى الأمبراطورية ، ومن بعده جاء مينا فأتم ما بدأه سلفه .

أما الرأى الثانى فيقول : إن مصر لم تمر بهذ التطور التدريجى بل أنها من يوم أن دبت الحياة فيها وهى أمة موحدة ، ويستند أصحاب هذا الرأى الأخير الى أن نهر النيل هو منبع الثروة الوحيد فى البلاد ، ولا يمكن الا أن توحد جهود السكان فى سبيل الغرض المشترك وهو حب البقاء ، والدفاع عن أموالهم وموود رزقهم ؛ هذا الى أن الوثائق وأوراق البردى لم تذكر أن البلاد مرت بالدور التطورى السابق ذكره .

ولما تكون الاقليم وجدت الأسرات . فى عهد الأسرتين الأولى والثانية كان الحكم مطلقاً ، فكان الملك قائماً على الحق الالهى . وبذا كان الملك ممثلاً للسلطتين الزمنية والدينية ، فكان يصدر القوانين بنفسه وبمساعدة كتبة خصوصيين .

وفى عهد الأسرة الثالثة كان الملك مصدر جميع السلطات ، يستعملها بمساعدة موظفيه المدنيين لا الدينيين ، وكان خاضعاً للقوانين التى يصدرها وتسرى على شعبه ، وبذا كان الحكم مطلقاً مشبعاً بروح العدالة والأنصاف ، فالجميع متساوون فى الحقوق لا فرق بين أمير وحقير أو غنى وفقير ، وكانت الدولة إذ ذاك زمنية لا دينية أى لم يكن للكهنة نفوذ كبير فيها .

وفى عهد الأسرة الرابعة أصبحت الدولة دينية ، وأصبح الملك ممثلاً لرع وهاتور الآلهين ، وقدمت الديانة الملكية على الادارة الحكومية ، والكهنة على الموظفين ، وكانت هناك ادارات حكومية كثيرة ، منها (ادارة الرى ومياه النيل ، وادارة الحربية ، وادارة الاحصاء والضرائب ، وادارة المالية ، وادارة العقائد والتموين .) وكل هذه الادارات كانت تحت اشراف مجلس العشرة الملكى ، وهو يقابل مجلس الوزراء الآن ، وكان الوزير الأكبر هو الذى يرأس هذا المجلس .

هذه نظرة عامة عن اختصاصات السلطة التنفيذية ، أما فيما يتعلق بالتشريع والقضاء — وهو موضوع هذا المقال — فان القوانين عرفت ودونت فى مجموعات عند ما اخترعت الكتابة فى القرن الخمسين قبل الميلاد ، فوضع (تحوت) إله القانون مجموعته القانونية فى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد .

وقد شملت هذه المجموعة الالتزامات والأموال وجميع العقود الأخرى ، والزواج والطلاق . وكان مما نص عليه فى هذا الشأن أن الزواج يتم بعقد مدنى بطريق الشراء ، ثم يجرى بعد ذلك احتفال دينى . أما العلاقة المالية بين الزوجين فكان يتفق عليها فى مشارطة الزواج على أحد بأمور ثلاثة : (١) فصل مال كل من

الزوجين عن الآخر فيكون للزوجة في هذه الحالة حق التصرف في مالها بدون إذن الزوج (٢) تخصيص جزء من مال الزوجة لمساعدة الزوج على المعيشة العائلية ، ويكون للزوج في هذه الحالة حق الانتفاع بأموال الزوجة وعليه ردها عند الانفصال (٣) اشتراك الزوجين في بعض الأموال أو جميعها . وكان للنساء امتيازات كثيرة عللها المؤرخ ديودور الصقلي باحترام المصريين للآلهة إيزيس .

أما الطلاق فقد أجازه الشارع الفرعوني كما أباح للمرأة أن تتزوج ، بشرط أن يكون لها الحق في فسخ الزواج كما كان لها حق الرهن العام على أموال زوجها ضماناً لعدم تعرضها لخطر الطلاق منه

ويترتب على البيع الصحيح (باليمين والشهود) التزام البائع بتعهدين : الأول وموضوعه تسليم سندات الملكية — والثاني وموضوعه ضمان كل تعرض للمشتري . وينقسم عقد البيع إلى عقدين أحدهما اتفاقي والآخر عيني وبه تسلم العين المبيعة .

وقد أخذت سائر العقود الأخرى صورة عقد البيع ، حتى أن الوصية كان يكتب لها عقد اتفاق بين الموصى والموصى له بشرط ألا يتم استلام الأخير للوصية إلا بعد وفاة الموصى وتسلم الوارث العقد العيني من باقي الورثة .

ولما تشتت مجموعة بحوت جاء بوخوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين وجمع شتاتها وعدلها في مجموعة نظم بها جميع المعاملات المدنية والأحوال الشخصية في مجموعة قوانين سميت باسمه كما سماها اليونانيون بمجموعة العقود .

ولما جاء أحمس أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أصدر مجموعته المسماة باسمه . ثم جاء من بعده الملك نفريت فأعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد أن نقحها ، واستمر العمل بها حتى نهاية العهد الفرعوني . ثم طبقت على المصريين فقط في العهد الأغريقي حتى جاء الرومان فمنحوا ممتلكاتهم الرعوية الرومانية في عهد الأمبراطور كراكلا ، وبذا طبقت في مصر القوانين الرومانية .

هذه نظرة عابرة عن تطور التشريع في عهد قدماء المصريين حتى الفتح الروماني ، والآن نستعرض نظام المحاكم واختصاصاتها وسلطة القضاء في الدولة .

كانت سلطة القضاء العليا في يد الملك يباشرها إما بنفسه أو بواسطة موظفين مدنيين أو دينيين تبعاً لازدياد نفوذ الكهنة في الدولة . وفي حالة ازدياد نفوذ رجال الدين (كما كانت الحال في عهد الأسرة العشرين) كان يجري العمل على استفتاء الآله آمون في القضايا الجنائية والمدنية ، فكان يقدم المتهم أمام تمثال الآله فيقر بذنبه ، وإذا أنكر أعيد إلى السجن ، وفي حالة تعدد المتهمين كان الآله يشير بيده إلى السارق مثلاً قائلاً هذا هو السارق ، فاذا أنكر أعيد إلى السجن حيث يلاقي أشد أنواع العذاب ، إذ لا يمكن تكذيب الآلهة ، ثم يعاد إليه فيقر بذنبه ويؤمن التمثال على كلامه ، ومن ثم يقدم إلى المحكمة بعد أن يقسم اليمين الآتية :

« أقسم بآمون والملك أن أقول حقاً ، ولئن كذبت فلأعودن إلى السجن ولأسلمن الى الحراس » ثم تأخذ المحكمة بأقواله وتحكم عليه .

وكان القضاة يقسمون يميناً أمام الملك بعد تعيينهم يتعهدون فيها بعدم طاعته إلا فيما يوافق العدالة . وكان يرجع إليه كثيراً عند تعذر الحكم في بعض القضايا الهامة .

أما المحاكم فكانت على أنواع كثيرة : محاكم جزئية بالقرى والمدن ، ومحاكم ابتدائية في عواصم الأقاليم ، ومحكمة استئناف عالٍ بعاصمة الدولة ، ثم محاكم عسكرية للجند ، ومحاكم عائلية تفصل في المسائل المتعلقة بالأسرة ، ثم محكمة للأموات يقوم الكهنة بتكوينها ومحاكمة كل ميت أمامها ، فان كان سيء السيرة قضت بحرمانه من الدفن .

أما المحاكم الجزئية فكان يرأسها حكام المدن ، وقد أعطى لرئيس مقدري الضرائب اختصاص الفصل في المنازعات التي تقوم بين دافعي الضرائب والمقدرين .

أما المحاكم الابتدائية فكان يرأسها حاكم الاقليم وأعضاؤها الأعيان ، وكانت مختصة بالفصل في المنازعات المدنية فقط ، وترفع أمامها عريضة دعوى وجميع الاجراءات أمامها كتابية .

أما المحكمة العليا فقد كان يرأسها رئيس أسرار الملك وأعضاؤها

كتمة الأسرار . وكان الملك يقوم بالقضاء فيها بنفسه ، وعلى الأخص في القضايا الجنائية .

وكانت هذه المحاكم ترجع في اختصاصها الى الادارة القضائية وهي تشبه وزارة الحقانية الآن .

وقد وجدت وظيفة النائب العام في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وكان يسمى إذ ذاك «لسان الملك» ولكن كان له بجانب سلطته القضائية ، وظيفة أخرى يقوم بها بصفته مدير شئون السراى الملكية وكبير الأمناء ، وكان له وكلاء في الأقاليم يباشرون الدعوى العامة أمام المحاكم الجنائية .

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة قسم القضاء الى مدني وجنائي بنفصلاً كل منهما عن الآخر ، وكان للجميع حق رفع الدعوى المباشرة الجنائية

هذا فيما يتعلق بالقضاء الجنائي العادي أي الذي يتعلق بأفراد الشعب ، أما القضاء الجنائي غير العادي الذي يتعلق بشخص الملك أو الدولة ، فقد كان موكولا الى محكمة خاصة تشكل من اثني عشر قاضياً بعضهم من رجال الجيش ، وكان النائب العمومي هو الذي يختارهم بناء على أمر من الملك ذاته ، فتتكون المحكمة وبمجرد انعقادها تنقسم الى هيئتين تفحص كل منهما الدعوى على حدة ، ثم تجتمعان ، وكانت محاضرها مختصرة وسرية ، فكانت تصدر الأحكام دون نشر الأسباب ، وبالرغم من أن النائب العمومي هو الذي يختار هؤلاء القضاة فقد كان لا يتدخل مطلقاً في عملهم حتى أن اسمه كان يأتي بعد أسمائهم وقبل أسماء كتاب الجلسة .

هذا ما كانت عليه حال القضاء في عهد قدماء المصريين ؛ ومنها يرى القارئ أنها كانت على درجة عظيمة من الثبات والاستقرار ، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان قوية الدعائم . وقد ظلت كذلك حتى انتهى العهد الفرعوني السعيد ، ودخل الأغريق البلاد فأفسدوا نظمها ، وقد كان للبطالسة شأن كبير في طرد العدل من البلاد ، إذ أدخلوا امتيازات أعطوها للأغريق دون المصريين في القضاء وفي الضرائب ، فكان على المصري الغُرم ولهم الغنم ؛ ومما يدل على صحة ما قلت تقسيم المحاكم في عهدهم الى إغريقية ومصرية ، وكانت الاجراءات أمام الثانية معقدة تتبع شكل القانون الضيق دون التوسع فيه ، بعكس المحاكم الاغريقية التي كانت تحكم طبقاً لقواعد العدالة والانصاف والقانون الطبيعي . وكان نظام المحاماة معروفاً في المحاكم الاغريقية بعكس المصرية حيث كان الخصوم ملزمين بالدفاع عن أنفسهم كما كانت تقدم الوثائق والمستندات أمام المحاكم المصرية ، فاذا لم تكن كافية مُزقت علانية في الجلسة ؟

حامد أسعد محمد عاشور

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٣ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقـــلم أحمد حسن الزيات

أجزاء العمل

العمل الروائى كالعمل الحكائى يتألف من العرض والتعقيد والحل

فالعرض فكرة عامة مجملة عن العمل الروائى يتقدم بها الكاتب فى الفصل الأول، ليهيئ الأذهان إلى الحادث، ويشوق النفوس إلى المتأخر، ويعرف الظروف والأمكنة والأشخاص إلى المشاهد. وهو فى الرواية أصعب منه فى الملحمة، لأن أداءه لابد أن يكون بالعمل، ولأن الأشخاص وهم مشغولون بأعمالهم الحاضرة وأحوالهم القائمة، ملزمون بتقديمه إلى المشاهدين فى معرض حديثهم الخاص دون أن يظهر عليهم أنهم يريدون ذلك. فالطبيعة إذن هى الصفة الجوهرية للعرض. وهناك صفة أخرى لا تقل عنها خطورة، وهى أن يكون العرض وسطاً بين الغموض والوضوح: فيكون واضحاً بقدر ما يدلك على أدوار الأشخاص الأساسيين، ويضع يديك على الخيوط التى سيحيك العمل منها عقدته؛ وغامضاً بقدر ما يخفى عنك الحل ويدخر لك سرور المفاجأة

ولقد كان عرض المأساة فى الفن القديم بأن الطول، قوى الفعل، شديد الأثر؛ ولا تزال عروض اسخيلوس وسوفوكليس مضرب الأمثال فى ذلك. فأصبح فى الفن الحديث سريع الحركة، ضعيف التأثير، ولكنه أدق وأبلغ. إذ من القواعد الأولية المقررة فى فن المسرح أن تتدرج الجاذبية فى أجزاء الرواية، فتبدو ضعيفة فى العرض، ثم تنمو على التدريج رويداً رويداً حتى تبلغ الغاية فى النهاية. فاذا ما بدت قوية فى صدرها فأسالت العيون من الرحمة، وخلعت القلوب من الرعب، كان من الصعب على الكاتب أن يدرج المواقف الروائية ويرتبها فى الفصول. لذلك نجد كتاب العصر لا يضعون الجاذبية فى العرض، وإنما يكتفون بالتهيئة لها والدلالة عليها

إن العرض يسهل بناؤه ويخف أداؤه كلما اشتهر موضوع الرواية أو كان مما ألفه الناس فى اجتماعهم، وعرفوه من طباعهم. ولذلك كان فى الملهاة أسهل منه فى المأساة، لأن العمل فيها قريب العلاقة محدود الفكرة، لا يخرج فى معظم الأحوال عن دائرة الجماعة أو الأسرة، والمآرب والأخلاق، والعادات والأهواء، فى هذه الدائرة معروفة مألوفة، توضحها كلمة وينبئ عنها منظر. ومع ذلك فلبعض الملاهى عروض بلغت حد الاعجاز من الفن كعرض ترتوف، والمريض المتوهم، والنساء العوالم لموليير.

والتعقيد هو الجزء الذى تشتبك فيه الظروف والوقائع والمنافع والنازع والأخلاق فى اعتراضها طريق البطل، فينشأ عن اشتباكها الشك والتطلع والقلق وفروغ الصبر وبذلك تقوى الجاذبية. وأفضل التعقيدات وأجدرها بالفن ما نشأت فيه العوائق من أخلاق الأشخاص وأهوائهم، لا مما يصدر عن غير طبيعتهم ولا إرادتهم، كالأخطاء القهرية، والحوادث الخارجية. ولابد أن يسير التعقيد على سنن الطبيعة حتى يسهل على المشاهد أن يتصور وقوع الحوادث كما يراها. والحوادث الطبيعة كما تعلم نتيجة وعلاقة وتسلسل، فينبغى إذن أن يكون التعقيد سلسلة من الحوادث بينها من التواصل والتفرع ما بين الحلق

لم يكن للتعقيد فى المآسى القديمة ماله اليوم من شأن وخطر. فقد قسم إرسطاليس الموضوع تقسيما كمياً إلى أربعة أقسام. وهى المقدمة والوقائع والنتيجة والخورس. (والقسم الأخير قد حذف اليوم)، ثم تكلم عن التعقيد دون أن يعنى به، وقسم الموضوع إلى بسيط وهو ما كان العمل فيه مستمراً متحداً ينتهى من غير انقلاب[1] ولا تعرف[2]، ومركب أو معقد وهو ما اشتمل على هذين الموقفين أحدهما أو كليهما. فالقاعدة التى وضعها ارسطاليس

(١) الانقلاب (Révolution) هو أن يحدث فى آخر العمل حادث يغير وجهة الأشياء فيرد الشقى سعيداً والسعيد شقياً

(٢) التعرف (Reconnaissance) فى اصطلاح المسرح هو اللحظة التى يعرف فيها شخص من أشخاص الرواية لنفسه أو لغيره. فقد يحدث أحياناً أن يجهل الشخص حقيقة أمره أو حقيقة غيره حتى تتهيأ الظروف فيعلم المجهول وينكشف الستور فيكون له ضجة ودهشة

للنوعين جميعاً هي أن تستمر سلسلة الحوادث متصلة ، وألا يكون تسلسلها تعاقبيا ، بل يتوالد بعضها من بعض على غير ما يترقب الشاهد حتى تنتهي الى الحل . والحق أن ارسطاليس لم يكن محتاجا الى غير هذا ما دام كل ما يبغيه هو حادثاً يبعث في القلوب الرعب والرحمة ، فهو لا يشغل باله إلا بالحل ، أما التأثير الداخلي للموضوع فذلك مالا يحفل به كثيراً . فأنت ترى أن المسرح الأغريقي كان يعتبر الموضوع الذي يتمخض عن الفاجعة الأليمة الحزينة بسيطاً . وما كانت تلك البساطة في الواقع الا فراغا في عمل عقيم بطبعه ، وكيف يكون في مثل هذا الموضوع الساذج محل لتناقض الأخلاق وتصادم الأهواء ، وأسباب حوادثه خارجة عن إرادة الأشخاص أو سابقة للعمل الروائي نفسه ؟ ففي رواية أوديب الملك ماذا ترى ؟ ترى كل شيء قد وقع قبل ابتداء العمل . (فلبّوس) قد قتل ، وأوديب قد تزوج من (يوكاست) ، فلم يبق إذن بين البطل وبين الشقاء الا أن يعلم أنه زان بأمه قاتل لأبيه ، فرويداً تنكشف الحجب وتنجلي الحوادث ، ويستيقن أوديب أنه نفذ إرادة الآلهة فيعاقب نفسه . تلك هي رائعة الأدب الأغريقي وكل ما فيها انكشف عن جريمتين وقعتا قبل عملها ، فكان ذلك الكشف الرهيب الأليم كافياً لشغل المسرح وملئه .

فكيف استطاع الأغريقي إذن أن يشغلوا خمسة فصول بحادث محتوم لا حيلة للأشخاص فيه ولا منجى لهم منه ؟ كانوا يملأون على التتابع مآسي كثيرة في يوم واحد ، وكان الخورس يقتل جزءاً من الزمن ، وما بقي من الفراغ كانوا يملأونه بالشكاوى والوعظ والوصف والانشاد والمجادلات في الفلسفة والسياسة

تلك حال التعقيد الروائي في الفن الأغريقي ، وهو كما ترى ضئيل الخطر قليل الأثر ، لا يقوي الجاذبية ولا يزيد التشويق ، وإنما كان سبيلهم الى ذلك هو التعرف وحده ، وكان شعراؤهم يؤثرونه ويرونه أنجع الوسائل لايقاظ المسرح وإحياء الرواية . ولولاه لما كان لمعظم روائعهم الفنية شأن يذكر كأوديب وإيفجيني وفيلوكتيت

أما التعقيد في الفن الحديث فهو جسم الرواية وروح العمل ، وكان سبب ما أحله تلك المكانة هو امتداد نواحيه ، وتشعب أطرافه ، وحرية وجهه ، فقد تخلص من ربقة القضاء والقدر والكهانة ، وأصبح مظهراً للعواطف المؤثرة المنتجة ، وصدى لأصوات الحياة الصاخبة المزعجة ، وصورة للبيئة الحاضرة المعقدة ؛ وصارت جاذبية المسرح معقودة بما يحدثه اصطدام الأهواء واضطرام النفوس وتباين الأخلاق وتعارض الأطماع من خير أو شر ، وأخذ الحب والبغض والانتقام والطمع والغيرة تحل من حياة الانسان محل الاقدار والحظوظ ، وتعقد العمل بتفاوت الشعور وتنازع النفس واختلاف الهوى وثورة العاطفة فبعث في المسرح الحديث حركة شديدة وروحا قوية كان القدماء يجهلونها كل الجهل ، لأن مسرحهم كان يقوم على حكم الضرورة ، ومسرحنا يقوم الآن على نظام الطبيعة ، والضرورة عامل قاهر ، ومتسلط مستبد ، لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه . أما الطبيعة فلها مبادئ وقوانين تصدر عنها وتسير عليها ، فكل حادث لعلة ، وكل غاية لأصل ، حتى في اضطراب الأهواء وفوضى الميول تجد نظاماً خفياً لا تستطيع أن تقلبه دون أن تصرخ الطبيعة في نفسك بأنك خرقت قانونها وانتهكت حماها ، لذلك كان بناء المأساة الحديثة من أدق الأمور وأشقها على الكاتب : فالحوادث تتدرج في الصعوبة بحكمة ، والجاذبية تتوزع في الاجزاء بدقة ، والعمل يتسلسل بعضه من بعض في حدود الطبيعة سواء أكان منتزعا من جوهر الموضوع أم من خلق الأشخاص . ولو شاء ربك أن يبعث الآن ارسطاليس فرأى كيف نسجت العقدة في أمثال بُلْيُكْتَ وأَزِيرَ لملكه الدهش وأخذه العجب ، ولاعترف أن هناك فناً آخر أسمى وأبلغ من فن اوريبدس وسوفوكليس يدور العمل فيه على الأخلاق والعادات ، لا على الضرورة والخرافات

بقي الحل وهو الجزء الذي تنتهي به الرواية وتنحل فيه العقدة بزوال الخطر أو قضاء الوطر أو تذليل العقبة أو حلول الكارثة . وبراعة الحل أن يدبر دون أن يظهر . فتدبيره يكون بوضع العمل على طريقة تجعل اللاحق ناتجاً عن السابق ، فان بين الحوادث المتوالدة والحوادث المتعاقبة بوناً بعيداً كما قال ارسطاليس ، وبذلك يكون الحل طبيعياً منطقياً متفقاً مع أخلاق الأشخاص وأعمالهم ؛ وعدم ظهوره هو أن يكون فجائياً ولا سيما اذا كان ساراً ، لأن

الجاذبية إنما تقوى بتعاقب الرجاء والخوف على قلب الشاهد، ولا مصدر لهذا التعاقب الا الشك، فاذا علم من قبل أن الحل سيكون ساراً انتفى سبب الرجاء والخوف، وسكن بانتفائه محرك الجاذبية. حتى فى الموضوعات المعروفة يجب أن يخفى الحل. وخفاؤه انما يرجع الى براعة الكاتب فى سوقه العمل على وجه ينسى الشاهد ما يعلمه من قبل. وتلك هى قوة الوهم وعبقرية الفن، ولولاها لما رأينا ذوى الحساسة من الشاهدين يبكون للمأساة الواحدة عشرين مرة.

إن معنى فجائية الحل هو انتقاله طفرة من حالة مبهمة الى حالة واضحة. وتقريب ذلك أن حظ الأشخاص فى سياق العمل أشبه بسفينة تناوشتها الأمواج واصطلحت عليها العواصف — وتلك هى العقدة — فاما أن تغرق وإما أن تبلغ الساحل — وذلك هو الحل —

ثم إن الحل قد ينتهى إما بالتعرف اذا تعقد العمل على أساس الجهل والتناكر، ثم تحلل بجلاء الموقف وتعارف الأشخاص؛ وإما بالانقلاب اذا حدث تغير فجائى فقلب حال البطل من نعيم الى بؤس أو من بؤس الى نعيم، وفى الحالة الأولى يسمى الحل محزناً[1] وفى الحالة الأخرى يسمى ساراً. وكان ارسطاطاليس يفضل الحل المحزن ويقول بابعاد الفضيلة المطلقة والرذيلة المطلقة من المسرح، ليكون لأشخاص الرواية نصيب من كلتيهما بارتكابهم جرائم عن غير عمد فيعاقبون عليها جميعاً فى النهاية. أما سقراط وأفلاطون فرأيهما على خلاف رأيه: يريان أن المأساة لا بد أن تتفق مع القوانين فتقف البرىء على المسرح إزاء المجرم ثم تحكم للأول على الثانى. وعلى الجملة فالحل عند القدماء كان يعوزه اجتماع التأثير والمغزى وهما قوامه وكماله، لأن الحوادث التى تؤدى الى الحل كانت خارجة عن إرادة البطل صادرة عن سواه، والشقى اذا أشقته أخطاء غيره لا يكون مثلاً، واذا أشقته أخطاء نفسه لا يستحق عطفاً. أما الحل فى الفن الحديث فمن السهل اجتماع هاتين الخلتين فيه، لأن الرجل اذا أضله الهوى وأعماه الغى فتردى فى هوة الشقاء وهو طيب القلب نبيل النفس، كان مثلاً قوى التأثير شديد الروعة جليل المغزى، يشعر قلبك الخوف دون أن يفزعك بالبلاء، ويثير فى نفسك الرحمة دون أن يثيرك على القضاء. وليس الكاتب فى حاجة الى أن يغمس يد أشخاصه فى الجرائم ليهز النفوس ويبكى العيون، فانه يجد لهم فى صميم أفئدتهم العدو الكاشح، والطاغية المستبد، والسياف القاسى، وإذن يكون عذابهم ومصابهم من طريق الهوى المضل أبلغ مثلاً وأقوى أثراً وأفظع صورة. وفى ذلك يتجلى فضل الطريقة الحديثة على القديمة فى الحل المحزن. أما فضلها عليها فى الحل السار فهو أظهر وأكبر، لأن هوى النفس مقروناً بسلامة القلب لا يقابل على المسرح بما تقابل به الدناءة الغريزية والشر الصادر عن روية من الزراية والمقت. وإذن يستطيع الكاتب أن يجد للبطل الذى أضله هواه مخرجاً من شقوته ومخلصاً من ورطته، وهو جازم بوقوع هذا الحل السار من نفوس الشاهدين موقع الرضا والمسرة، لأنهم طالما ابتأسوا لبؤسه، وشقيت نفوسهم لشقاء نفسه.

ويجمل بنا قبل أن نفرغ من الحل أن ننبه الكتاب الى عيب أصلى من عيوبه وهو الطول

ومنشأ ذلك العيب سوء توزيع العمل على خمسة فصول، فيجعلون الفصل الأول للعرض، والثلاثة التالية للتعقيد، والخامس للحل. وطبيعة ذلك التقسيم تقضى بأن يبلغ الخطر أقصى درجته ومنتهى قوته فى الفصل الرابع. فاذا جاء الفصل الخامس وجد الكاتب نفسه مضطراً أن يحل العقدة ببطء وتدرج لملائه، فيطول بذلك الحل ويفتر، والجاذبية اذا انتهت فى الزيادة بدأت فى النقص، أو هى كالنار تتغذى بالوقود فاذا ماسكت عنها انطفأت. فينبغى الأسراع فيه على شرط ألا تضر السرعة بالأمكانية، ولا الأمكانية بالشك. أما حل الملهاة فهو بحكم العادة كشف خديعة وإزالة غرور وفضيحة خبث وقطيعة سخرية. ويغلب أن يكون الحب محور التعقيد الهزلى فينحل بالزواج. وهو يشارك حل المأساة فى ترتبه على ما قبله وانتزاعه من نفس الموضوع وتولده من تسلسل الحوادث. ويختص دونه بعدم المفاجأة، فقد يزداد هزله كلما وضح أمره. وفى المأساة يخدع الشاهدون، أما فى الملهاة فيخدع الأشخاص.

يتبع (الزيات)

[1] فى المسرح الأوربى يطلقون على الحل السار كلمة Pérépitie بيريبتى ومعناها الحل المتقلب، وعلى الحل المحزن كلمة كتستروف Catastrophe ومعناها هنا: القاضية أو الحل الحاسم. واذا حدث التغير بسرعة ومفاجأة سمى: بالضربة المسرحية Coup de Théatre

من الشعر المنثور

موعظـــة الحكيم

للأستاذ خليل هنداوي

وسمعته وقد جمع إليه تلاميذه فى الساحة يودعهم ويشجعهم، وقد لمعت بوارق الأمل فى وجوههم ، وكأنما كل واحد منهم رسم على صفحة وجهه ما يوارى له الغد .

قال لهم : يا أبنائى ، إنكم داخلون فى أقطار تعرفونها وتجهلونها ، وحاملون اليهم ما يعرفونه ويجهلونه ، فابذلوا تعاليمكم فى سبيل الحياة ، لأن من يعمل للحياة تضمه الحياة إلى صدرها .

لا تكونوا كأولئك الحكماء الدجالين الذين يسخرون من جهل الناس وما عرف جهلهم إلا أنفسهم ، يقولون للناس : هلموا الينا ، إننا أتيناكم بالحياة ، وما يحملون إلا الموت . لتعط ألسنتكم من خزائن قلوبكم ، وليخرس اللسان اذا أراد القلب ألاّ ينطق .

الكلمات المنثورة — من غير صدق اعتقاد — تمضى كما تمضى الأصداء ، وتنقش فى الصدور ، كما تنقش على الرمال السطور !

أريد أن أسمع كلماتكم فى عزلتى ، وأريد أن ترسخ على وجوه الجبال وصفحات البحار . ولن تقدروا على تخليدها إلا إذا اعتقدتم بخلودها .

اذهبوا كما تذهب السوافى من البحر مبشرة بنعمة البحر . لا تمدحوا عذوبتها قبل أن تذكروا ملوحته . البحر يوزع الحياة على الأرض ، و يُعطى بلا نفاد ، لأن لذة حياته لم يقفها على الأخذ دون العطاء .

تذهب السافية من البحر لتعود الى البحر نقيةً طاهرة لامعة تؤوب كما ذهبت . لأن الأرض لا تقابل يد الطاهر إلا بجسدها الطاهر ، ولا تقابل الرجس إلا بالطهر .

اذهبوا أنتم وعودوا إلىَّ أنقياء طاهرين كما تذهبون طاهرين ، أما الطاهرَ فلن يعود إلا طاهراً كالسافية النقية تذهب حبلى بأسرار البحر ، وتعود حبلى بأسرار الأرض ! وأما الدنس فانه لن يعود الىَّ كالسافية التى خبثت نفسها فعرجت على بطون الرمال تتهادى فيها ولا تنفع الحقول . فهى الى موت لا حياة بعده ، وهى فى موطن لا ترتقب فيه سافية ثانية تحملها الى مستقرها .

كونوا كالسافية الأولى ، تذهب مرنمة على أجنحة النيوم ، وتعود كرّارة ثرثارة بين تعاريج الجبال والوديان .

الماء لا يحيا إلا اذا كان يغنى ، واذا سكن هديره فهو آسن قد فقد الحياة .

الماء يغنى فى صدر البحر والجداول والأنهار ، ولا يسكت إلا فى الغدران الراكدة ، وأية حياة فى هذه الغدران ؟ غنوا اذاً ، وليكن غناؤكم فى سبيل الحياة كما يغنى كل حى من أجلها . وعلموا الناس أن يبتسموا لأن غاية الحياة هى أسمى من أن توجدنا لنشقى ونتألم ، ومتى علمتموهم أغنية الرجاء هان عليكم تعليمهم غيرها من الأغانى :

ما أكفرك أيها الانسان !

كل شىء يضحك للحياة إلا أنت !؟

« بيروت » خليل هنداوى

١٣ - أعيان القرن الرابع عشر

أحمد باشا تيمور

بقلم حسن عبد الوهاب

والده المرحوم اسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور بن اسماعيل ، تقلب فى الوظائف الكبيرة إلى أن كان رئيساً للديوان الخديوى فى عهد المغفور له اسماعيل باشا

جده محمد كاشف تيمور كان ضابطاً فى جيش محمد على وساعده على إبادة دولة المماليك وترقى حتى كان والياً على الحجاز وتوفى سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٧ م).

مولده

ولد فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م وقد تلقى دروسه الأولية على مدرسين خصوصيين ، ثم تلقى اللغة العربية على المرحوم العلامة الشيخ رضوان محمد العالم الشهير فى علمى القراءات والرسم ودرس اللغة الفرنسية مدة منه كلير وعلى الأستاذ عبيد بك حتى نبغ فيها مع نبوغه فى اللغتين التركية والفارسية .

وتلقى علم المنطق وعلوماً أخرى على الأستاذ الكبير الشيخ حسن الطويل ، ثم تلقى علم اللغة على اللغوى الثقة الشنقيطى الكبير ، فقرأ عليه شرح المعلقات وغيرها ، فكان يذهب إليه الفقيد فى منزله ويتلقى الدرس عليه وهو جالس ، فكان حيناً يشعر بالم ويتذلل رجلا بأخرى يقول له لا تتألم يا أحمد فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث والاستقصاء عن مسألة علمية .

وظل مثابراً على الدرس ومجالسة العلماء والأخذ عنهم حتى أصبح الحجة فى اللغة بعد الشنقيطى فى عصره والوحيد بعده .

ناديه بسراى درب سعادة

يرى السائر الآن فى شارع درب سعادة بجوار مسجد آسنبغا فضاء كبيراً هو سراى تيمور ، وقد كانت منتدى يؤمه شيوخ الأدب واللغة فى القاهرة للبحث والمناقشة فى المواد العلمية والأدبية ، أمثال المرحومين الشيخ أحمد مفتاح والعلامة الشيخ طاهر الجزائرى الحجة الثقة فى المؤلفات العربية ، والمرحوم الشيخ محمد عبده ، ويحيى افندى الأفغانى وأصدقاؤه الأجلاء السيد رافع والسيد محمد البيلاوى والشيخ حسن منصور والشيخ محمد شاكر أطال الله بقاءهم ، وغيرهم كثيرون ممن يضيق المقام عن سرد أسمائهم ، وقصارى القول أن تلك الدار كانت كعبة العلماء والأدباء فى مصر والأقطار العربية ، وما كتبه فى الصحف والمجلات من مباحث علمية وتنقيب عن حضارة العرب بأسلوب شيق وتمحيص للحقائق أكبر دليل على ماله من أدب ونظر سديد فيما يعانيه من الأبحاث . وقد جمع خزانة كتب هى مفخرة مصر بل والشرق .

الخزانة التيمورية

بدأ فى تكوين خزانته سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) وقد كان لديه نواة صغيرة لها من جمعه أيضاً ، وظل طوال تلك السنين ينقب عن النوادر من المخطوطات القيمة ويشتريها بأغلى الأثمان حتى اجتمعت لديه نوادر يندر وجود مثلها فى خزائن أخرى ، بل انفردت بتحف كثيرة .

ويبلغ عدد كتبها ١٥٠٠٠ كتاب فى نحو ٢٠٠٠٠ مجلد غالبها خط ، جميعها مجلدة تجليداً متقناً ، واستنسخ فى عهده الأخير مجموعة صالحة من مكاتب أوروبا بالفوتوغرافيا . وبها القليل من المؤلفات الفرنسية والانجليزية مما له علاقة بحضارة العرب أو تاريخ مصر ونشرات المجمع العلمى الفرنسى .

وتمتاز هذه المكتبة بوفرة كتبها الخطية وخاصة فى التاريخ واللغة ، ولعل القارىء يعجب إذا أ كدت له أن هذا العدد من الكتب قد اطلع عليه رحمه الله وعلق عليه ملاحظات له ما بين وفاة مؤلف ، أو بيان ذيول وضعت على الكتاب ، أو الاشارة الى قوة المؤلف والاعتماد عليه فى النقل . هذا ما يتعلق بالكتب المطبوعة

أما الكتب الخطية وهى أكبر قسم فيها ، فقد استنفدت منه مجهوداً لا يقدر عليه أشخاص . ومن يطلع على جميع الكتب الخطية يجدها مبتدأة بترجمة المؤلف ومنمرة ، ثم فهارس بالتراجم الواردة فيه ، والموضوعات المهمة ، وآخر بأسماء البلدان والأماكن . وبيان الكتب الواردة فيه ، ومن حبه للعلم ومساعدته على نشره لم يبخل على من أراد طبع بعض هذه الكتب بالترخيص له بطبع

فهارسه ، وهذا مشاهد فى كتاب الطالع السعيد للأدفوى المطبوع سنة ١٩١٤ فانه محلى بالفهارس التى أشرت اليها ، وكما حصل أخيراً من إعطائه مفتاح الخزانة ، وهو مجموعة الفهارس التى وضعها لكتاب الخزانة للبغدادى الى المطبعة السلفية لدرجها فى الطبعة الجديدة ، وفعلا طبعتها ، وأمثال هذا كثير .

ومن اللطيف فى هذه المكتبة تدقيقه رحمه الله فى انتقاء كتبها ، فاذا اطلع مطلع على نسختين من كتاب فلا بد وأن يكون هناك فرق بينها ، كأن تكون هذه كتبت فى عصر المؤلف أو قرئت عليه ، والأخرى طبعت بمصر أو أوربا أو الهند .

أما المجاميع الخطية فقد وضع لها فهارس بمشتملاتها ، وكل هذا المجهود بخطه .

وكثيراً ما أعار الكاتب والمستشرقين أو استنسخ لهم لحسابه هدية منه ، كما أنه أعار دار الكتب الملكية بعض نفائس خزانته لتصوير نسخ منها مثل الأجزاء التى كانت تنقصها من كتاب عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، وما لديه منه بخط المؤلف . وأخيراً أعارها الجزأين الأول والسابع من كتاب الضوء اللامع للسخاوى ، وتاريخ ابن الفرات الذى استنسخه من ڤينا بالفوتوغرافيا ، وسمح للدار بتصوير الفهارس التى وضعها لكل جزء فى أوله ، وعدد أجزائه سبعة عشر جزءاً .

أما النفائس التى امتازت بها المكتبة فكثيرة ولا تسعها تلك العجالة ، ومن مميزات تلك المكتبة النادرة وجود تواقيع مئات من أكابر العلماء فى القرن السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر الهجرى ، وقد حصرها جميعها ، وبعد وفاته رحمه الله أهديت مكتبته الى دار الكتب المصرية ، فأفردت لها مكاناً خاصاً بها .

مقالاته ومؤلفاته

كان رحمه الله دقيقاً فى البحث والتمحيص ، وقد نشر مقالات كثيرة فى المؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والاهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الاسلامية ، وكلها فى حضارة العرب وتحقيقات تاريخية .

فمن مقالاته الممتعة « الخلافة والسلطنة » نشرت فى المقطم سنة ١٩٢٢ ومنها «المهندسون الاسلاميون» نشرت تباعا فى السنة الثانية ١٩٢٢ والثالثة ١٩٢٣ من مجلة الهندسة ، وأيضاً خص تلك المجلة بفصول قيمة من كتابه « التصوير عند العرب » نشر منها « التصوير على الجدران » فى العدد الأول والعدد الثانى من السنة الثامنة يناير وفبراير سنة ١٩٢٨ « التماثيل المتحركة والمصوتة » فى العددين ٣ و٤ مارس وأبريل سنة ١٩٢٨ — وسبق أن نشر بمجلة الهلال الغراء مقالات عن التصوير عند العرب .

وقد انفردت مجلة الزهراء بنشر قسم كبير من مقالاته نذكر منها : بئر الثنيتين — حول تصحيح القاموس — شعر يزيد — دار ابن لقمان بالمنصورة — انتشار المذاهب الأربعة — الكرات العربيـة الأرضية والفلكية — الكتابات الدقيقة ، غرائب أخرى فى الكتابة — لقب الطواشى — الطربوش وتاريخه — وصف ساعة المدرسة المستنصرية — الشتهى وتحقيق موضعه بالروضة

ومن مقالاته التى كان يوافينا بها أخيراً (الآثار النبوية) خص بهـا مجلة الهداية الاسلامية ونشر منها تسع مقالات فى الأعداد محرم ، وربيع الثانى ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذى القعدة سنة ١٣٤٨ وظهر المقال العاشر فى عدد الحجة بعد وفاته رحمـه الله ، تكلم فيه عن الآثار النبوية فى الأقطار الاسـلامية باسهاب لم يسبق ، وتحقيق وتمحيص نادر ، وباقى هذا البحث معد للنشر أيضاً .

وكلها مباحث تدل على سعة الاطلاع والتعمق فى البحث ، بل هى خلاصة معلوماته وعصارة أفكاره ، وآثار تنقيبه فى خلال السنين الماضية .

والحق أنها رسـائل فريدة وليست بمقالات ، وذلك لغزارة مادتها ودقة مباحثها التى لم تطرق من قبل .

مؤلفاته

هذه المؤلفات قسمان : ما نشر وما لم ينشر . أما ما نشر فهو

١ — تصحيح لسان العرب نشر القسم الأول منه سنة ١٣٣٤ هـ

٢ — القسم الثانى من تصحيح لسان العرب نشر سنة ١٣٤٣ هـ

٣ — تصحيح القاموس طبع سنة ١٣٤٣ هـ

٤ — نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها طبعت سنة ١٣٤٤

٥ — قبر الامام السيوطي وتحقيق موضعه مزين بالصور. طبع سنة ١٣٤٦

٦ — اليزيدية ومنشأ نحلتهم طبع سنة ١٣٤٧

٧ — تاريخ العلم العثماني مزين بالصور . طبع سنة ١٣٤٧

أما مؤلفاته التي لم تطبع فهي

١ — الأمثال العامية : وقد رأيتها بعيني تملأ مجلدات كبيرة وكلها معدة للطبع صرف في جمعها زهرة شبابه ، حتى أنه رغم جمعها بنفسه أعد جوائز لمن يأتيه بمثل لم يدونه

٢ — التصوير عند العرب : اطلعت على قسم كبير منه وجميعه معد للنشر ، ومن يطلع على ما نشر منه في مجلة الهندسة يعلم مقدار حاجتنا الى مثل هذا المؤلف بعد أن رأينا ما ظهر من مؤلفات الغرب في هذا الباب وجلها اقتصر على ما عثر عليه من التصوير الفارسي وكلها لا تسمن ولا تغني من جوع بجانب هذا السفر القيم العديم المثال

٣ — معجم تيمور في العامية المصرية : وهو بمثابة إصلاح للأخطاء الدخيلة على اللغة العربية فيذكر الكلمة وأصلها الصحيح ، وبيان التحريف الذي طرأ عليها ومنشأه . وقد اطلعت على قسم كبير منه فاذا هو مجهود مضن لا يستطيع المضي فيه إلا من أوتي بسطة في العلم مثل تيمور رحمه الله ، وقد نشر منه قطعاً في مجلة المجمع العلمي بدمشق ، ونقلت البلاغ الغراء قطعتين منه في العددين المؤرخين ٢٥ و ٢٦ مايو سنة ١٩٢٦ .

٤ — السفن الإسلامية وأسماؤها

٥ — شرح التبري من معرة المعري

وهو كتاب لطيف جمع فيه أسماء الكلب بمناسبة ما قرأه في ترجمة الامام أبي العلاء المعري من أنه دخل على أبي القاسم المرتضى فعثر برجل فقال من هذا الكلب فقال له أبو العلاء الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

٦ — ولديه أيضاً مجموعة كبيرة من الوفيات منذ العصر الذي يلي القلاقية الجبرتي الى عصرنا هذا ، ويكاد يكون متفرداً بها أيضاً .

هذا قليل من كثير ، ولديه أشياء لم يطلع عليها أحد ومقالات لم أشر إليها في مجالتي هذه

أعماله وفاته

كان عضواً في مجلس الشيوخ منذ تكوينه حتى أوائل دورة التام الذي توفي فيه واستقال لانحراف صحته

وكان عضواً بلجنة حفظ الآثار العربية . والمجمع العلمي العربي بدمشق . والمجلس الأعلى لدار الكتب الملكية ، ومن مؤسسي جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ، ومن مؤسسي جمعية نشر الكتب العلمية ، وفي سنة ١٩٢٤ أهدى إلى المجمع العلمي بدمشق مجموعة من الموازين (الصنج) الزجاجية مع قسم كبير من الكتب

وأهدى إلى دار الآثار العربية خنجراً مرصعاً بالأحجار الكريمة وسيفاً كان لجده تيمور كاشف وأهدى إلى جمعية الشبان المسلمين كتباً قيمة وأيضاً منح جمعية الهداية الاسلامية في شهر ابريل سنة ١٩٣٠ — ١٢٠ كتاباً .

ولو لم يكن من مآثره إلا مكتبته النادرة لكفى .

أخلاقه

كان رحمه الله مثلاً عالياً في الأخلاق . حلو المعاشرة هادئاً حليماً ، على دين متين ولهجة صادقة ، وسمت حسن ، وعقل وافر ووقار ، محباً للخير لا يصل إلى الشر مطلقاً

وقد كان محسناً متواضعاً لا يحب الظهور ولا المباهاة ، وانظر إلى تواضعه الملموس في مقدمة كتابه تصحيح لسان العرب وهو أكبر كتاب في اللغة حيث يقول :

« ولسنا في ذلك بمدعين عصمة أو متبجحين بفضل »

وما أجمل تواضعه حينما يصف لنا مقالاته « التصوير على الجدران » و « التماثيل المتحركة » بأنهما من رسالة التصوير عند العرب ، يعلم الله أن المقال الواحد منهما حري بأن يكون رسالة ولغية فما بالك بكتاب ضخم يصفه لنا برسالة

وكان مثلاً عالياً في التقوى والغيرة على الاسلام والمحافظة على العوائد القومية

خاتمة

لقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال قضى معظمها في البحث والتنقيب والذود عن الاسلام ، وجمع نفائس الكتب ، حتى

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

فى المعلقات أيضـــا

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

... وكنت عازماً على العودة اليها بتكملة رأيى فيها ، وأقول رأيى وإن حاول بعضهم أن يجعله رأى عالم أوربى سبقنى اليه فلا يكون لى جديد فيه ، وقد اشتغلت بالكتابة فى العلم والدين والأدب والتاريخ من نحو خمس عشرة سنة ، ولى فى ذلك بفضل الله آراء كثيرة جديدة خالصة جدتُها لى ، ولم يحاول أحد فى رأى منها ما حوول فى رأيى الجديد فى المعلقات ، اللهم إلا ما كان من الأستاذ الجليل أنطون الجميل فيما كان بينى وبين الأستاذ زكى مبارك فى نقد تسمية العصر الأدبى قبل الاسلام باسم العصر الجاهلى ، لأنها تسمية دينية لا أدبية ، وكان بيننا فى ذلك جدال فيمن هو صاحب ذلك الرأى منى ومنه ، فذكر الأستاذ الجميل أن هذا الرأى ليس لى ولا له وفلاناً مسبوق به ، فأما أنا فذهبت إليه فلم أجد عنده فى ذلك شيئاً فاكتفيت بذلك منه ، وأما الأستاذ زكى فانه سكت على ذلك ، وهو من عادته ألا يسكت عن شىء ، وألا يرضى بالهزيمة وهو منهزم ، ولعله رضى من ذلك بما رضيت به إحدى المرأتين اللتين تنازعتا فى ولد عند سليمان عليه السلام .

وكذلك هـذا الرأى الذى أذهب اليه فى المعلقات ليس هو رأى الأستاذ نولدكه ، ولا رأى الأستاذ كليمان هيار ، وإنما هو توجيه جديد لتسمية هذه القصائد باسم المعلقات أصح من توجيههما لها ، فانى أرى أن المعلقات اسم مفعول مشتق من التعليق بمعنى الحفظ أو الشرح أو الحب و التتبع كما قال الشاعر :

علقتها عرضاً وعلقت رجلا ... غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

وكما يقولون فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك

وأما الأستاذ نولدكه فيحاول أن يحمل اسم المعلقات معنى علق ، وهو الشىء النفيس فتعنى هذه التسمية عنده أن هذه القصائد قد سمت الى درجة خاصة مجيدة ، وهى محاولة خاطئة ، لأن العلق بمعنى الشىء النفيس صفة مشبهة لا يشتق منها اسم مفعول هكذا (معلقات) ، وإنما يشتق اسم المفعول من المصادر وما فى معناها ، ولم يقل أحد إن اسم المعلق يطلق على الشىء النفيس ، وإنما الذى يطلق عليه إسم العلق فقط فأخذ أحدهما من الآخر خبط وخلط

وأما الأستاذ كليمان هيار فيرى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود أو القلائد وهو أيضاً توجيه خاطىء لأن كلمة معلقة تطلق على التميمة وعلى المرأة المعلقة وهى التى ليست بذات زوج ولا مطلقة وعلى غير ذلك من أمور كثيرة وهى أشهر فى المرأة المعلقة [1] من التميمة والقلادة وغيرهما من كل ما يعلق ولو كانوا يريدون هذا المعنى فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات لسموها باسم القلائد كما سموها باسم السموط حتى يكون هذا الاسم نصاً فى ذلك المعنى ولا يحتمل معنى التميمة أو غيرها مما يصح أن يطلق عليه اسم المعلقات . وقد جاء فى الأساس أنه يقال أعلقت المصحف جعلت له علاقة يعلق بها واشتقاق اسم المعلقات لهذه القصائد من نحو هذا أجدر من اشتقاقها من المعلقة بمعنى القلادة . وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ما يقرب من هذا فى سبب تسمية تلك القصائد باسم المعلقات فقال إن العرب لم تكن تكتب فى دفاف ولم تكتب قبل القرآن

(١) قال تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

نكب بوفاة نجله المرحوم محمد بك تيمور فى أوائل سنة ١٩٢١ فكانت صدمة قوية لم يقو على كفاحها ، فأثرت فى صحته ، ومن ذلك الحين أصبح يميل إلى العزلة

ومع أن مصيبته بفقد نجله هذا من أكبر المصائب فانها لم تثنه عن المثابرة على الكتابة والبحث ، غير ان نوبات المرض كانت تنتابه بين آونة وأخرى ، وبخاصة فى أعوامه الأخيرة وهو لم يرحم نفسه ولم يشفق عليها

وفاته

فى الساعة الرابعة من صبيحة يوم السبت ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤٨ — ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٠ انتقل إلى رحمة الله تعالى فانطوى ذلك العلم الخفاق ، وانهد ذلك الركن الركين ، وكان لنعيه رنة حزن وأسف جزعت لها القلوب وفاضت بالبكاء العيون إنا لله وإنا إليه راجعون . ودفن وقت الغروب بمقبرة عائلته المجاورة لقبر سيدنا الامام الشافعى ، رحمه الله وطيب ثرى تربته .

حسن عبد الوهاب

كتاباً مدفقاً ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، وذلك تأويل قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طى الكتاب وتعليقه

فهذا هو رأيي في المعلقات مع رأيي الأستاذين نولدكه وكليمان هيار وهذه ميزته عليهما ولا أقول الفرق بينهما ؛ لأنه من الوضوح بحيث كان يغني ذلك الناقد عن نقده ، ويغنيني عن هذا الرد عليه إلى ما هو أنفع عندي منه . ولا أثقل على نفسي من أن يقول ناقد رأيي إنني أغفلت مناقشة ونقض رأى القائلين بأن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها كانت تكتب بالذهب وتعلق بأستار الكعبة فيلجئني إلى أن أعيد له ما ذكرته في نقض هذا الرأى عن أبي جعفر النحاس من أنه لا يعرفه أحد من الرواة ، فكيف أكون مع هذا قد أغفلت مناقشته ونقضه

ولا أثقل على نفسي من أن يذكر ناقد رأيي أن أبا جعفر النحاس أطلق الملك الذي كان يأمر بتعليق هذه القصائد في خزانته إطلاقاً وأني أنا الذي حملته على النعمان بن المنذر ليتأتى لي نقض رأى أبي جعفر فيلجئني إلى أن أعيد له ما قلت من أن أبا جعفر لم يذكر من هو هذا الملك الذي كان يأمر بتعليق هذه القصائد في خزائنه وأن بعض علماء الأدب هو الذي رجح أنه النعمان بن المنذر ، فلم أكن أنا الذي حملته عليه ليتأتى لي بذلك نقض رأيه ، ثم إني لم أكتف بهذا في نقض رأيه بل ذكرت ما ينقضه ، ولو كان ذلك الملك ملكاً آخر قبل النعمان بن المنذر وأشرت إلى الأسباب المعروفة التي قيلت المعلقات من أجلها وإلى الأمكنة التي قيلت فيها وهي أمكنة غير تلك الأسواق التي يقول أبو جعفر وغيره إنها كانت تقال فيها

ولا أثقل على نفسي من ألا يطلع ناقد رأيي على النص الذي أخذت منه أن سوق عكاظ أنشىء بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، ثم يطلع على نصوص أخرى قد تخالف ذلك فيمضي فيها إلى أن يعود فيسألني عن النص الذي اعتمدت عليه في أمر قيام تلك السوق بعد عام الفيل ، فيلجئني إلى أن أدله في ذلك على كتاب متـــداول مشهور هو كتاب « الوسيط » للأستاذين الفاضلين الشيخ أحمد الاسكندري ، والشيخ مصطفى عناني ، وأني أذكر لناقد رأيي نصاً أقدم مما ذكره من النصوص التي ذكرها في إثبات قدم سوق عكاظ

قالوا في تفسير المثل المشهور (الحديث ذو شجون) إنه يضرب في الحديث يتذكر به غيره ، أي ذو طرق يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها الى بعض ، والواحد شجن قاله ضبة بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقد نفرت إبل له فطلبها ابنـاه « سعد وسعيد » فوجدها سعد فردها ، ومضى سـعيد فلقيه الحارث بن كعب فأخذ منه برديه وقتله واختفى خبره على أبيه إلى أن وافى عكاظ فرأى بردي بسعيد على الحارث فسأله عنهما فأخبره بأنه رآها على غلام فطلبهما منـــه فأبى فقتله بسيفه ، فقال له ضبة : أعطينيه أنظر اليه فإني أظنه صارما ، فأعطاه له فهزه في يده وقال : (الحديث ذو شجون) ، ثم قتله به ، فقيل له يا ضبة : أفي الشهر الحرام ؟! فقال : (سبق السيف العذل) فذهب أيضاً مثلاً .

ولاشك أن عصر ضبة أقدم بكثير من عصر عبـد شمس بن عبد مناف ، ولكنها نصوص قد تحمل على الاشتباه وأن ذاكرها يريد سوقاً أخرى غير سوق عكاظ فاشتبهت عليه لشهرتها ، وهكذا يغطى كل مشهور على كل شيء سواه ، فيبقى النص الذي يعـين قيام سوق عكاظ بعد عام الفيل غير قابل للتأويل ويقدم على غيره من النصوص الأخرى لأنه نص سيق لبيان تاريخ بدء هذه السوق ونهايتها ، وتلك نصوص في حكايات أخرى ذكرت هذه السوق عرضاً فيها ، فيمكن حملها على الاشتباه كما ذكرنا .

وإذا أراد ناقد رأيي بحثاً في وثاقة رواية هذه القصائد وأمثالها فيمكنه أن يجد ذلك في بحث صحة أشعار امرىء القيس من كتابنا (زعامة الشعر الجاهلي) فلعله يقتنع بأنا قد نحسن هذا النوع من البحث ، وأراني بعد هذا قد أطلت ، ومنعني الأستاذ الحاجرى من العود في هذا المقال الى تكملة رأيي في المعلقات فليكفه هذا مني وليتركني في سبيلي وجزاه الله خيراً ؟!

عبد المتعال الصعيدي

من طرائف الشعر

على الشاطئ

للأستاذ محمود خيرت

انظر الشاطئ البهيّ الرّواء ضاحكاً كالخميلة الغنّاء
كل غصن به تمثّل قدّا أنبتتْ ورده خدودُ الظباء
فاتنات وقد خطرْن سكارى برحيقٍ من الرّضى والصّفاء
سافرات وكيف يحتبس الحسْـــنُ وقد كان من فيوض السّماء
عاريات كأنما قد تستّرْ نَ عليه بحُلّةٍ من رياء[1]
باسمات والابتسامةُ تحيي في قرار النفوس ميْت الرّجاء
فترى أعيُنَ الشّباب عليهـــنّ خفافاً من كل قاصٍ ونَاء
وتراهنّ آمنات بمنأى عن تجنٍّ أو نفرة أو جفاء
قد تأكّدْنَ أنّها نظراتٌ أرسلتْها العيون بالإطراء
والغواني يهزّهنّ كما قد قال شوقى العظيم سحر الثناء[2]

* * *

وانظر البحر هل ترى لمداه آخراً . رائعاً كرحب الفضاء
وهو حيٌّ له نصيبٌ من الحسّ وحالاتُ فتنة والتواء
فاذا مسّه النّسيم عليلاً كان مثل الصحيفة الزّرقاء
وتراهُ كأنما الرّعدُ يدوى حول أمواجه من الأنواء
قام يُزجي مياهَه صاعداتٍ نحو أقدامهنّ في إغراء
فتوثبْن كالعرائس[3] لكنْ كُنّ فيه عرائساً من ضياء
وتناثرْن كالدُّمى سابحاتٍ في انحراف عن سطحه واستواء
هاديات لقاعـــه غائصاتٍ ثم يظهرْن عند سطح الماء
ثم يأخُذن في التّراشُق بالما ء رشاشاً وهنّ في ضوضاء
هكذا ينعمُ الملاح على الشّا طئ حتى يرفّ ظلّ المساء

«الاسكندرية» محمود خيرت

بقسم قضايا المالية

(١) (ثوب الرياء يشف عما تحته) (٢) (والغوانى يغرهن الثناء)

(٣) Sirènes

ليلة الأهرام ......

موثقُ الحبّ الذى صحْنا به شَهِدَ الأهرامُ والبدرُ عليهِ
شقّ كلٌّ صدرَهُ عن قلبهِ ومضى يبعثُ بالعهد إليهِ

* * *

ومضتْ أعيُننا تروى الغرامْ وتَبُثُّ الوجْدَ وحياً خالدا
رفرفَ الأمنُ عليها والسلام وضياء البدرِ يسرى هاجدا

* * *

آهِ من فرصة لثمٍ وعناقْ لم تُتَحْ إلاّ لسُكّان الجنان
اختلسناها ، وعُدْنا فى احتراقْ نَحْقرُ الدنيا، ونزْرى بالزمان..!

* * *

ثغرىَ الصديانُ كم لاذَ بثغركْ يرشفُ النورَ الذى رفّ وحامْ
وذراعى كم هوت تعطف خصْركْ والهوى الصادقُ فى الأعيُن نامْ!

* * *

لا تقولى ما مضى فاتَ ، فما يَطَّبيني غيرُ ماضى الذكرياتْ
أنا أهواكِ جبيناً وفماً وضياءً شاع فى كلّ الجهات

* * *

قُلْتِ لى، والبدرُ للأهرام يرنو، وأنا فى سَكْرةٍ مما أرى :
«أتُرى أحْببْتني أمْ أنت تحنو.
مُشْفقاً ، أمْ ذاكَ حُلْمٌ فى الكرى ؟ »

* * *

قلتُ : « أهواكِ ولا أهوىَ سواكِ »
ثم لاذَ الثغــرُ ظمآناً بثغركْ
وطعِمْتُ الحبّ حلوى فى لَماكِ
وشربتُ الضوء من جامات سِحْركْ !

* * *

ثم قُمْنا ، وانحدرنا فى الطريقْ مثْلَ مخمورَيْن لجّا فى الغبوقْ
ضمّ صدرانا من الوجدِ حريقْ وثوى فى ثغرها حُلْوُ الرحيقْ !

مختار الوكيل

فى الريف

للشاعر محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا   وعشقتُ فيكَ جمالك الموهوبا

قدست فيك من الطبيعة سرها   أنعم بشمسك مشرقاً وغروبا

ولقد نزلتك فادكرت طفولتى   وتمتمتى طوبى لعهدك طوبى

زعموك مرعى النبات . وليتهم   زعموك مرعى للعقول خصيبا

فهى القرائح أنت مصدر وحيها   كم بت تلهم شاعراً وخطيبا

حييتُ فيك الثابتين عقائداً   والطاهرين سرائراً وقلوبا

والناهبات الى الحقول حواسراً   يمشى العفاف أمامهن رقيبا

سلبت عذاراك الزهور جمالها   فبكت تريد جمالها المسلوبا

* * *

كست الطبيعة وجه أرضك سندسًا   وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا

بسط تظللها الغصون فأينا   يممت خلت سرادقاً منصوبا

وحنت على الماء الجذوع كأنها   أم تضم وليدها المحبوبا

وبدا النخيل غصونه فيروزج   يحملن من صافى العقيق حبوبا

أرأيت عملاقاً عليه مظلة   أو ماردا ملء القلوب مهوبا ؟

يارب ساقية لغير صبابة   أنت وأجرت دمعها مسكوبا

وحمامة سمع الفؤاد هتافها   فحسبته بين الضلوع مجيبا

والغيد تغمس فى الغدير جرارها   فيظل يضحك[1] ملء فيه طروبا

سربان من بط وبيض خرد   يتباريان سباحة ووثوبا

وترى الجداول فى الأصيل كأنها   من فضة فيها النضار أذيبا

يابدر أنت ابن القرى وأراك فى   ليل الحواضر إن طلعت غريبا

* * *

نشر السكون على القرى أعلامه   فتكاد تسمع للفؤاد وجيبا

بدت الحياة هنالك فى ربعانها   ولو انها سارت تدب دبيبا

ولقد ينام القوم ملء العين فى   زمن يقض مضاجعا وجنوبا

(١) ضحك الغدير صوت الفقاقيع الناشئ عن حلول الماء محل الهواء

وهى السعادة كم أوت كوخاً وكم   هجرت أشم من القصور رحيبا

قالوا الحضارة قلت أسفر وجهها   وبدت محاسنها فكن عيوبا

* * *

ما ضر أهل الريف ألا يحفلوا   بالطب أو لا يعرفوا (الميكروبا)

ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم   وصفا هواؤهمو فكان طبيبا

رضعوا رحيق[1] السائمات وما دروا   غير النمير وغيره مشروبا

وسرى شعاع الشمس فى أبدانهم   تجرى بأوجههم دما مشبوبا

شمس القرى كست الوجوه نضارة   أرأيت وجها فى القرى مخضوبا ؟

سر فى الحقول تر الرياضة عندهم   فنا . وخطا عندنا مكتوبا

* * *

أكبرت فى القروى صحة عزمه   وحسبته فى صبره أيوبا

ورأيت طيب النفس فيه سجية   ووداده سهل المنال قريبا

فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى   ضحك التواجذ بالخديعة شيبا

أنا لا أقول : تشينه أمية   كن خيرا لا كاتبا وخطيبا

كم ضل من أهل الحواضر قارئ   فاغتال أعراضا وشق جيوبا

فى الريف فتيان تسيل جباههم   عرقا فيصبح لؤلؤاً مثقوبا

لا فتية مرد بأيد بضة   فى كل يوم يلبسون قشيبا

بذلوا لمصر فوق ما فى وسعهم   ورضوا بما دون الكفاف نصيبا

محمود غنيم

(١) رحيق السائمات اللبن



البراكين

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافيا

هى ظاهرة من أهم الظواهر التى تدل على حرارة الأرض الباطنية . وانه لمن المدهش حقاً أن نجد حتى الآن وبين مدرسى الجغرافيا من يخطئ فى تعريف هذه الظاهرة ، ولذلك سأبدأ بحثى بتعريف البركان ووصف أجزائه بالتفصيل ، ثم أختتمه ببيان الغلطات الشائعة فى تعريف البركان ووصفه :

البركان عبارة عن شق يصل باطن الأرض بظاهرها، فهو بمثابة قصبة تخرج عن طريقها المواد المنصهرة من باطن الأرض الى سطحها اذا كان البركان ثائراً . فاذا ما همد لسبب ما وخمدت ثورته سدت القصبة إما بتجمد المواد المنصهرة فيها ، أو تجمع المواد المفتتة بها .

أجزاء البركان

يتكون البركان عادة من أقسام ثلاثة هى : —

١ — القصبة Funnel وهى واسطة الاتصال بين باطن الأرض وسطحها . تخرج منها المواد المنصهرة ومقذوفات البركان وهذه القصبة تظل مفتوحة مادام البركان مستمراً فى ثورانه حتى اذا ما سكنت ثورته أو خمدت تجمدت فيها المواد الذائبة وتراكمت فى الفتحة الصخور والأحجار فتنسد .

٢ — الحوض Crater هو تجويف يقع فى نهاية القصبة البركانية يختلف فى اتساعه تبعاً لقوة ثوران البركان . فنى البراكين الصغيرة يصغر مقدار قطر الحوض كما فى بركان كوتا بكس وفزياما .

٣ — المخروط Cone وهو عبارة عن تراكم المقذوفات على جوانب الفتحة أو القصبة . والمخاريط على أنواع فهى إما لابية كمخروط بركان Mauna Lua وإما ترابية كما فى بركان Misti (الواقع على الساحل الغربى لجمهورية بيرو) أو أن يكون المخروط جامعاً بين النوعين وهذا شائع الوجود . وقد تتجمد المواد المنصهرة هنا بين الطبقات الترابية والحجرية وتكون عروقاً صلبة يطلق عليها اسم السدود Dikes . أما ارتفاع المخروط البركانى فيختلف باختلاف قوة البركان وقد يبلغ ارتفاعاً كبيراً : فمخروط فيزوف يبلغ ارتفاعه ٤٠٠٠ قدم واتنا ١١٠٠٠ وكوتا بكس ١٨٨٧٦ .

ثوران البركان

اذا ما ثار البركان جمع الشياطين معه ليقوموا سويا بعملية الهدم والتخريب فيقذف من فوهته بالحمم ويلقى فى الجو بالصخور مكوناً سيلاً من مواد منصهرة مخربة ينحدر على المدن والقرى القريبة ليدمرها . ينحدر الهوينا حقيقة ولكنه ينحدر بلا تردد .

ويسمع للبركان الهائج دمدمة تصم الآذان وينتشر مع الثوران دخان يعمى العيون ، فتذبل الأزاهير وتتحطم الأشجار ، وتعود الأماكن التى كانت كالجنان جحيما ثارت فيه الشياطين ، ويغدو الجو الذى كان عطراً بالاريج خانقاً لا يحتمله الصدر ولا مجال للتنفس فيه .

ويغلب أن يحدث الثوران البركانى بعد مقدمات تسبقه بدقائق معدودات لوحظ منها : —

ا — ارتفاع صوت كصوت الرعد يرتفع منقطعاً لكنه لا يلبث حتى يزداد شدة فتصحبه هزات أرضية شديدة تتعاقب بسرعة كبيرة .

ب — انخفاض مستوى الماء فى الآبار المجاورة وذلك ناشئ من تسرب المياه فى الشقوق الحادثة فى باطن الأرض .

ولو أنه قد يثور البركان دون إنذار سابق كما حدث في بركان فيزوف عام ١٨٥٣ ميلادية . ويجب أن لا نظن أن البركان اذا ثار اندفعت منه المواد المنصهرة دفعة واحدة فهذا غير حقيقي لأن للمقذوفات البركانية ترتيباً يقرب من الترتيب التالى حين الثوران :

١ — يبدأ الثوران البركانى بخروج الأبخرة والغازات قاذفة معها أثناء خروجها أتربة كثيرة وفتات الصخور التى كان قد سبق أن تجمدت فى فوهة البركان . وتعلو فى الجو الى ارتفاعات عظيمة بخار الماء المتصاعد وما معه من الغازات الأخرى (بلغ ارتفاعه فى بركان كركاتو ١٧ ميلا) وعلى أثر ارتفاع الأبخرة المائية الى هذه الارتفاعات العظيمة تتكاثف وتنهمر على شكل أمطار غزيرة تمتزج بالأتربة الكثيرة فتكون أنهاراً طينية Lund-Stuame

٢ — يتلو ذلك الأتربة والأحجار المفتتة التى تندفع على أثر البخار والغازات وتنشأ عن انفجار الصمامات البركانية والتصدع الناشئ فى الجوانب الداخلية للمخروط بفعل الاضطرابات البركانية

وقد ميزوا بين أنواع مقذوفات الدور الثانى بالنسبة للحجم فهناك

ا — التراب البركانى Volcanic-Ash وهو عبارة عن فتات رفيع يتراوح حجمه بين حبة الرمل والدقيق

ب — القنابل البركانية V. Bombs وهى عبارة عن كتل حجرية مستديرة أو بيضاوية أصلها صخر منصهر قذفها البركان وهى فى حالة السيولة فتجمدت واستدارت أثناء وجودها فى الهواء وتكون مسامية غالباً

جـ — Scoraie Cinders وهى كتل لابية الأصل تخرج من البركان جامدة .

٣ — يأتى بعد ذلك خروج المواد المنصهرة وهى ما يطلق عليها اسم اللابة من القصبة المركزية أو من الفتحات الجانبية . وهى آخر مايقذفه البركان ، وبخروجها يتعين هدوء الاضطرابات البركانيـة . وهذه تخرج فى درجة حرارة عالية ثم تبرد تدريجاً بتعرضها للجو الخارجى ، ويقتم لونها إذا مابردت كما أنها عنـدما تتجمد تصير كثيرة الثقوب .

وتختلف سرعة سير المادة اللابية باختلاف درجة سيولتها واتصهارها كذلك تبعاً لانحدار الأرض ولذلك تكون سرعتها فى المبدأ كبيرة نسبياً تقل تدريجاً كلما بعدت عن فوهة البركان .

وقد يحدث أن تحتفظ هذه الأنهار المكونة من المادة اللابية بسيولتها لمسافات طويلة فمثلا فى سنة ١٧٨٣ م ثار بركان فى جزيرة الجليد Iceland خرجت منـه مقادير عظيمة من المواد المنصهرة ملأت مجارى الأنهار والبحيرات والفتحات المجاورة لمكان البركان لمسافات كبيرة فبلغ امتدادها فى احدى هذه الجهات ٣٨ ميلاً وفى الأخرى ٥٠ ميلا وارتفاعها ١٠٠ قدم وعرضهـا ١٥ ميلا . وليتصور القارىء الكريم مى بعد ذلك مجرى بهذه المقاييس مكوناً من مواد منصهرة تشع حرارة وتصعد أبخرة وغازات خانقة .

ومما يدل على عظم مساحة الأراضى التى كانت تغمرها المواد اللابية المنصهرة ماهو مشاهد الآن من وجود مساحات كبيرة على الأرض ، طبيعة تكوينها لابية تكسوها مادة لابية الى أعماق كبيرة خرجت من باطن الأرض فى عصور جيولوجية حديثة . أشهرها هضبة الدكن وكولومبيا والحبشة .

ويميز عند ذكر كلمة بركان بين ستة أنواع للبراكين .

١ — البراكين الثائرة Active volcanoes . وهى دائمـة الثوران كسترامبولى ، ومتقطعة الثوران كفيزوف .

٢ — البراكين الساكنة Dormant وهى التى تهدأ لمدة من الزمن ثم لاتلبث أن تثور فتهدم مايقوم بجانبها من مدن أو مساكن كما حدث فى فيزوف سنة ٦٩ م

٣ — البراكين المتآكلة أو ما يطلق عليها اسم Solphatara نسبة الى بركان بهذا الاسم سكن وأثرت عليـه عوامل التعرية فتآكل مخروطه ولم يبق منه إلا فتحة تخرج منها الغازات .

٤ — البراكين الهامدة أو المائتة وهى ما ينعدم فيها كل أثر للثوران ولا يبقى منهـا إلا المخاريط على شكل تلول كتلك التى وجدت قرب أسوان ومثل براكين أوفيرون فى هضبة وسط فرنسا .

٥ — البراكين الطينية وهى نوع تخرج منه كميات كبيرة من الماء مختلطة بالأتربة فيسيل الوحل على الجانبين مكوناً أنهاراً طينية ، وتوجد هذه الظاهرة فى كثير من المناطق البركانية وتعين آخر مظهر للثوران البركانى مثل براكين صقلية ونيوزلند وباكو وجنوب بلوخستان

٦ — البراكين المائية . وفيها لايخرج سوى الماء كما فى الينابيع الحارة والنافورات

أسباب البراكين

سبق لي القول في العـدد ٥٣ من هذه المجلة الغراء الصادر بتاريخ ٩ يوليو الماضي، أن القشرة الظاهرة للأرض عرضة لعامل الانكماش بفعل انخفاض حرارة الباطن وانكماش الجزء الداخلي فتلتوي القشرة الظاهرية لكي تتلبس على الباطن الذي نقص حجمه. وقد يكون الالتواء الحادث من الانكماش في بعض الجهات أكثر منه في جهات أخرى، ولذلك فانه حيث ينظم الالتواء تنكسر الطبقات الأرضية، وتشقق مكونة مناطق ضعف في القشرة الأرضية Lines of weakness

ولما كانت مناطق البراكين في توزيعها على العالم تتبع هذه المناطق الضعيفة فاننا لا نشك لحظة في أن السبب الرئيسي لحدوث البراكين هو تكوين هذه الشقوق أو العيوب faults التي تستفيد من وجودها المقذوفات البركانية والمواد المنصهرة، فتندفع خلالها، وتخرج منها الى السطح الخارجي.

على أن هذا السبب يحتاج لبعض التفسير، فهناك قوة البركان القاذفة، وتكرار الثوران بين كل آونة وأخرى، وهذان يمكن تفسيرهما بوجود الشقوق البركانية مجاورة للمساحة المائية العظيمة، ولذلك فان الماء المتسرب الى الباطن يتحول الى بخـار بتأثير الحرارة، يجتمع مع الغازات الأخرى التي في الباطن، ويكوِّن منها قوة دافعة عظيمة تقذف بالمواد المنصهرة وغيرها الى السطح.

هذا وهناك من يرى أن المادة المنصهرة التي تخرج في نهاية الثوران مصدرها «جيوب» في أسفل القشرة الظاهرة، وتوجد هذه بكثرة في الجهات المرتفعة حيث يكون الضغط قليلاً.

غلطات شائعة

لا زلت حتى الآن، وأنا أكتب هذا المقال، أذكر كيف كنا نحفظ تعريف البركان بأنه «جبل يخرج ناراً ودخاناً» ولعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هناك اليوم من لا يعرف إلا هذا التعريف للبركان.

البركان ليس جبلاً. وقد جاء في تعريفي الأول للبركان، أنه فتحة أو شق في ظاهر الأرض يوصل بينه وبين الباطن، وليس الشكل المخروطي الذي هو حقيقة شبيه بالتل أو الجبل إلا المقذوفات والأتربة التي قذفها البركان، فتساقطت وانحدرت حول الفتحة البركانية مكونة هذا الشكل المخروطي.

وليس البركان جبل نار. إذ أن ذلك الذي يراه النـاس فيحسبونه ناراً ليس إلا خطأ أو خداعاً نظرياً لأن انعكاس لون باطن البركان المتوهج على الغازات المتصاعدة يوحي إلى الناظر أن المتصاعد نار. ويجب أن نعرف أن هناك بين النار والتوهج فرقاً عظيماً فقد تكون قطعة من الحديد تتوهج احمراراً من الحرارة ولكن لا يصلح أن نطلق عليها اسم نار.

وهناك من يقول بأن البركان يخرج دخاناً وليس هذا القول صحيحاً، لأن ذلك الذي يطلق عليه اسم الدخان ما هو في الحقيقة إلا بخار الماء المتصاعد من باطن الأرض بفعل حرارتها عند ثوران البركان. كذلك لا يشترط في ثوران البركان أن يحدث الانفجار من أعلى المخروط أو بمعنى آخر أن تكون الفوهة في أعلى المخروط، لأنه يحدث كثيراً أن تكون الفتحة جانبية وأن يكون للبركان الواحد أكثر من فوهة واحدة.

ويحسن بي الآن وقد انتهيت من الكلام على البراكين أن أذكر ظاهرة طبيعية تقترن بثورانها، وهي الاهتزاز الذي يحدث في المنطقة المحيطة بالبركان الثائر، وهذه يطلق عليها اسم الزلزال البركاني، وهذا النوع من الزلزال ولو أنه محلي إلا أنه عنيف، وقد يحدث تلفاً وأضراراً عظيمة كما حدث في زلزال جزيرة Iscia (في خليج نابلي) سنة ١٣٨٨ الذي أهلك ألفي نسمة ؟

نعيم علي راغب

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

القابلة(١)

للأستاذ محمود خيرت

تقيم تلك القابلة مدام دوبوا في ركن عند ملتقى شارع سان لازاك وشارع روشفوكولد حيث كتبت اسمها على باب منزلها بخط كبير.

وهذا المنزل أو تلك (العيادة) التي لا تقتصر في باريس على مساعدة الحاملات عند وضعهن. لا تجرؤ الفقيرات على الدنو منها، لأن مدام دوبوا تشتط في الأجر فلا تستقبل فيها إلا طبقة السيدات الغنيات التي ترى في الحمل عيباً ثقيلا

وفي ذات يوم نزلت من العربة أمام تلك الدار فتاة رشيقة ثم صعدت الى الطابق الثاني، وبعد أن استقبلتها الخادمة وأدخلتها عند سيدتها أخذت هذه تطيل النظر فيها كأنها تستطلع أمرها، لأن الزائرة كانت مع حسنها وصباها يشق جبينها من وقت لآخر خط يتم عن تفكيرها وتكتمها حالها

على أن القابلة لم يخف عليها من أول نظرة أن هذه الفتاة حامل، ولكنها مع ذلك تجاهلت أمرها، وسألتها عن سبب زيارتها وقد عادت إليها حالتها العصبية السالفة:

« لقد اقتضى مجيئي اليك كثيراً من الشجاعة يا سيدتي لأنني لم يعد في وسعي الاحتمال بعد ذلك الصبر الطويل الذي غلبني. بل إنني لا أدري كيف قدرت على كتمان أمري الى الآن. لذلك قصدتك وأنا أرجو السلامة على يديك فأنا بذات بعل ولا أنا مخطوبة، حتى إنني لأخشى أن يفتضح أمري فيلحقني العار ويلحق بأهلي »

وعند ذلك عادت القابلة تسألها: لماذا لم توحي لأمك بذلك فلعلها كانت تهيئ لك أسباب السفر الى مكان قصي تضعين فيه حملك. ولكنها كانت يتيمة من أمها، وما كانت لتجد شجاعة على مكاشفة أبيها بأمرها وإن كان يحبها ويعزها خشية أن تنغص حياته وتكدر صفوه.

وقد علمت منها القابلة أن عشيقها مات قبل أن تشعر بهذا الحمل الذي مضى عليه أربعة شهور، فلامتها على إهمالها شأن نفسها الى تلك اللحظة قائلة إنها لو كانت قصدتها قبل ذلك فربما كانت وُفقت الى الأخذ بيدها. أما بعد هذه المدة الطويلة ...

وعند ذلك سقطت الفتاة باكية عند قدميها تستصرخها وتتوسل اليها صائحة: أنقذيني يا سيدتي فانك قديرة على ذلك. على أنني ما قصدتك الا بعد أن هدتني إليك إحدى صاحباتي

أما القابلة فتجاهلت تلك الصاحبة قائلة إنها ما أقدمت مرة على عمل ممقوت كهذا، فأخذت الفتاة تنوح وتستعطفها وتنشد مروءتها إن لم يكن اكراماً لتلك الصاحبة فشفقة بها، ثم قالت إنني لن أبخل بما تطلبين، وأقسم لك أيضاً أنني لا أخرج من هنا الا ضياء فلن يعرف أحد شيئاً من أمرك وأمري

ولقد هدأت هذه الأقوال من روع القابلة سيما بعد أن اطمأنت على أجرها، ولذلك قالت لها إني أعرف جراحاً شهيراً في وسعه أن يخلصك من هذا الحمل بغير عناء ما دمت تدفعين له ما يطلب، ولكنه لا يقبل أقل من ثلاثة آلاف فرنك. فلما قبلت المسكينة أوصتها بالعودة اليها في صباح اليوم التالي

***

وفي الموعد وقفت عربة الدكتور تيسو عند باب منزل خلوى كان يعده لعملياته الجراحية المجرمة. وكان قد علم من القابلة بأمر هذه الفتاة وأنها جاءت كما أوصتها، وناولته الأجر الذي اتفقت معها عليه. وعند ذلك سألها ما إذا كانت قد عرفت من هي أو من هم أهلها، فقالت له إنها لم تشأ أن تذكر لها شيئاً من ذلك، ولكنها سلمتها خطاباً أوصتها أن لا تفضه إلا إذا كتب لها أن تموت لا قدر الله

(١) معربة عن الافرنسية

وعند ذلك هز الطبيب كتفيه ثم قصد إلى معمله قائلاً ، إذهبي أنت تخدريها بينما أغسل أنا يدى وأعقم سلاحى

وبعد لحظة كان الطبيب بغرفة العملية ، والفتاة نائمة عارية إلا أن وجهها كان مختفياً تحت حجاب المخدر

وعند ذلك شرع فى عمله بغير شفقة على هذا الشباب المنطرح أمامه ، ولكنه فوجىء بمضاعفات أخطأ حسابها ، وقطع القطن تتساقط من يديه فوق الأرض وقد صبغها الدم بينما القابلة تراقب تأثير المخدر فى ضربات القلب ، وكان قد مضى على بدء العملية عشرون دقيقة . غير أنه صاح فجأة : ماهذا ؟ لقد ثقبت الجدار . فصرخت شريكته ، إذن هلكنا

ولقد اضطر الطبيب إلى اتباع آخر وسيلة كانت أمله الأخير فأخذ يقتطع من لحم الفتاة ، والغضب والاضطراب باديان على وجهه ولكن القابلة صاحت فجأة صيحة مزعجة : لقد وقف قلبها . ماذا نعمل الآن . وكيف ندفع عنا شر هذه الخاتمة المشئومة . ثم أخذت تستر جسم الفتاة بغير أن تنزع عن وجهها ذلك القناع

أما هو فبعد أن غسل يديه كما يغسل القاتل يديه من دم قتيله صاح : كيف حصل هذا ؟ وما عسى أن نفعل بعد ذلك ؟ لقد قضى الآن على وعلى اسمى وشهرتى ، وابنتى التى تعلم أننى رجل شريف ماذا يكون الآن حكمها على ؟ ثم تحقيق النيابة ثم محكمة الجنايات . . اسمى يادوبو : قولى إذا سئلت أنها لم تكن حاملاً وأنها . . ولكن القابلة أفهمته أنه لن يصدقها أحد ثم ذكرته بأهلها الذين قد لا يسكتون أيضاً . وعند ذلك تضاعف يأسه وتذكر ذلك الخطاب الذى نوهت له به فطلبه منها لعله يهتدى منه إلى مكان أهل الفتاة ، وربما إذا غمرهم بالمال اكتفوا ووقفوا عن الشكوى . .

ولكن ما كادت تقع عيناه عليه وأصابعه ترتجف وعرقه يتصبب حتى صرخ صرخة دوت لها الغرفة ثم أسرع فنزع ذلك القناع، فاذا بتلك الفتاة لبزا ابنته !

ولا تسل بعد ذلك عما حل به فقد أخذ يلطم خديه ويدق صدره ويدفع رأسه دفعاً شديداً فى الحائط كمن جن . وأخيراً جحظت عيناه فأخذ مبضعاً قريباً منه وغيبه فى صدره حيث سقط ميتاً بعد أن جر ابنته إلى جانبه عند سقوطه .

محمود منيرت

سحر المرأة

بقلم محمد عبد الحميد

وأنت يا أمين ألا تتزوج ؟

أنا ؟ لا . لن . . .

بهذا الرد القاطع أجابنى « أمين » يوم سألته وكنا فى رفقة من الزملاء ، نقطع الوقت بالحديث ، وأغلب ما يدور حديث الشباب حول المرأة

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٠ ، وكان « أمين » معاوناً فى وزارة الأوقاف ، مات والده قبل أن يبدأ مرحلة الدراسة الثانوية ، وهو مازال صبياً لم تثقله الحياة بهمّ أوتصبه بكارثة ، فشاء أو شاءت له الظروف أن يختصر طريق التعليم ، فلم يكد يقطع شهوراً فى مدرسة مشتهر الزراعية ، حتى لحقت أمه بأبيه

فقضى أمين زهرة حياته محروماً من عطف أبيه وحنان أمه ، لم تكد تتفتح نفسه ، ويلمع بريق الحياة فى عينيه ، حتى ألفى نفسه وحيداً ، لا تضمه الى صدرها أم ، ولا يتولاه بالارشاد أب . لم ينسكب فى نفسه هذا النور الذى تشعه عيون الأمهات حناناً ورحمة ، وخرج الى الحياة بقلب صلب لم تصهره قبلات الأم الحارة البريئة ، ونفس جافة لم ترققها شفقة الوالد ورعايته . كذلك إخوته الثلاثة قطعت الحياة بينهم وبينه ، فلم يلمس حنان الاخوة ، ذهب أولهم فى بعثة الى أوروبا لدراسة الطب ، والتحق الثانى والثالث قبل وفاة أبيهما بوظائف الحكومة ، وعاش كل منهما مع زوجته فى منزل وحده

وكذلك عاش أمين وحيداً أكسبه جفاف حياته خشونة لم تكن تروق فى أعين الذين يحتكون به ، فكان صريحاً جافاً ، لا يفكر فى أحد من الناس ، ولا يفكر فى الاتصال به أحد من الناس

غير أنه كان يضم فى كيانه قلباً حياً نائماً لم يتح له أن يثور ، فرقت بيننا ظروف العمل ، فنقل الى مأمورية الأوقاف فى طنطا ، وهناك ولأول مرة بعد وفاة والديه اتصل برجل من أهله . فقد كان له فى هذه المدينة « خال » لم يتصل به منذ صباه . زار منزل خاله ، فرحب به أهل الدار : خاله وزوجته وابنه وابنته « زينب » ، وهى عذراء ، أتمت السادسة عشرة من عمرها

مضت الأيام وتوالت الشهور دون أن يعنى كثيراً بزيارة أقاربه حتى أحس يوماً بالمرض يسرى فى جسمه ، وإذا هى الحمى ، وإذا

هو مضطر أن يستريح كما أشار عليه الطبيب ، ولكن أين يجد الراحة وهو «أعزب» ليس فى منزله من يعني به أو يهتم بأمره ، وهو مضنى لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه . إذن لتكن دار خاله ملجأه اليوم فى مرضه ؛ لعله يجد فيها بعض الراحة مما يعانى لقيه أهله فى عطف ، وأحاطوه بقلوبهم ، ووقفت الى جوار سريره « زينب » لا تكاد تخرج من بين شفتيه كلمة حتى تسعفه بما يبغى ، وتقوم له بما يحتاج ، وما تكاد الساعة تدق حتى تسرع الى الدواء تسكب له منه بالقدر الذى أشار به الطبيب ، وهى ما تفتأ بين الحين والحين ، تضع يدها على جبينه تجس بها حرارته . كانت تقضى النهار الى جواره ، وتقطع الليل أو أغلبه حول سريره ، ما يكاد يلمع ضوء الفجر حتى تهب اليه تسأله فى كلمات رقيقة عذبة ، ألم يشعر بتحسن ؟ ألا يزال يعقب ماء الشعير ؟ أتستطيع أن تحضر له مقداراً يغذى جسمه وتستريح به معدته ؟ وهى الى جانب هذا لا تنقطع كلما صحا من نومه المتقطع تعمل على راحته وتبنى جهدها لتغتصب الابتسامة من بين شفتيه اغتصاباً ،

واشتدت به العلة يوماً فارتفعت درجة حرارته ، وأغمض عينيه ، ووقف حوله أهله يبتهلون الى الله من أجله ، حتى اذا كان الليل وهدأت الحياة ، واستسلم الجميع للنوم ، أفاق أمين قليلاً وارتفع جفن عينه المغمض فاذا هو يواجه « زينب » الى جواره تنظر اليه بعين قد التهبت من البكاء .

ماذا ؟ هل تبكين ؟ ثم انهمرت من عينيه دمعة لعلها أول دمعة تفيض بها عينه منذ وفاة والدته .

توالت الأيام وزال عن « أمين » ما كان قد أقعده فعاد الى عمله يستعيد مع الأيام الطويلة بعض الذى فقده

لم يكن يعيش مع أقاربه فى مدينة واحدة ، بل كان يعمل فى « منطقة » من مناطق الأوقاف القريبة من طنطا فلم يكد يقطع اليوم الأول فى مقر عمله حتى أحس فى أعماق نفسه شعوراً قوياً يدفعه الى العودة .

إنه يحن الى طنطا ، بل هو يحن الى منزل أهله . طغى على قلبه شعور قوي لم يكن يدركه قبل اليوم يدفعه الى العودة .

الى أين ؟ الى منزل أقاربك ، ولكن لماذا ؟ لقد شفيت ولم تعد لى بالعودة حاجة ، وأنا لم أقض بعيداً عنهم يوماً كاملاً ؟

لقد كانت هناك حاجة قوية تدفعه ، وشعور جبار يغريه .

نام ليلته الأولى بعد تفكير طويل لم يكد يتبينها واضحة جلية ، فاذا هو يقطع الليل فى أحلام متقطعة رأى فيها أشباحاً بيضاء رقيقة تدور حوله ، فلما حاول أن يتعرفها لم تتمثل له غير « زينب » زينب العذراء الحلوة الفاتنة ، زينب الجميلة الساحرة ، هذه عيونها تلمع بفتنة الحياة ، وهذا قوامها البديع ، وهذه يدها الرقيقة تمتد اليه فى دلال ولين ، وهذا صوتها العذب يتدافع الى أذنيه حلواً سائغاً .

هب من نومه مع الصباح الباكر فألفى السماء ساكنة صافية وهذه الأشجار لا تزال تلمع بقطرات الندى ، والقرية ساكنة إلا من أصوات أفراد قلائل يصل اليه وقع أقدامهم وهم فى طريقهم الى المسجد يؤدون فريضة الصباح ، غير أنه يشعر بوحشة ويحس بالهم والحاجة . . .

لابد أن يكتب الى خاله يشكره على عنايته به فى مرضه ، فاذا هو يختتم خطابه فى حرارة لم يكن يحسها قبل اليوم ، واذا هو يحاول أن يختص زينب بتحية يقنع نفسه أنها ستدركها رغم أنها صادرة للجميع .

لقد أحب أمين . ! أمين الجامد الصلب قد تفجر قلبه فاذا اللهيب يكاد يحرقه ، واذا العاصفة التى ثارت فى أعماقه تكاد تسحقه ، فاذا هو يعود الى منزل أقاربه ، واذا هذه الزيارة تتكرر فى الاسبوع الواحد مرات ، واذا هو لا يصمد لهذه الثورة الجتاحة .

لقد نفذت العاطفة الحارة الى قلبه فألهبته وصهر العطف نفسه فاذا هو يرى فى الحياة ألواناً جديدة ، هو يهواها ويفنى نفسه فى سبيلها . لقد لمسته المرأة بالعصا السحرية فانبثق النور فى أعماقه ، فاذا هو مفتون .

كانت الأيام قد توالت ، وكنا على وشك أن نختتم عام ١٩٣٢ فاذا أنا أتسلم منه كتاباً لم يزد فيه على كلمات :

عزيزى محمد :

لقد أدركت سر الحياة لأول مرة ، فى عينى المرأة ، سأتزوج .

أخوك . أمين

لقيته بالأمس فاذا هو كالعصفور يكاد يطير . ينطلق فى حديثه فاذا هو ينساب فى رقة وعذوبة ، وينقطع عنه ، فاذا ابتسامة مشرقة تنشر على صفحة وجهه نوراً لامعاً جذاباً

أتذكر يا أمين يوم سألتك عن الزواج ، فأجبت فى لهجة الواثق أنك لن تتزوج ؟ لا يصدقنى . لقد كانت الحياة إذ ذاك قاحلة جدباء . هيا هيا نشترى معاً « تربية الطفل » لزوجتى تقطع به الوقت ، وتخفف به عن نفسها عبء الحمل ، ونشترى لعبة مما أعده المستقبل لابنتى المرتقبة « كامليا »

محمد عبد الحميد

٤ — سافو

لأوجينيه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

المنظر الثاني

(غرفة بدار حنا بها دولاب ومائدة فوقها شمعة موقدة وحنا وحده ينزع من الدولاب ملابسه بيدين مرتجفتين ويضعها في حقيبة)

حنا — (كارهاً الحياة) نعم أفر من وجه هذه المدينة فلعلي لا أعود أشعر بآلامها وأقصد إلى قريتي فلعل نسيمها ينسيني مرارة هذا الحلم .

(يعثر في الدولاب على علبة من صنع اليابان فيتأملها) عليها . والحفيظة على ذكرياتها . لم تعيدين لخاطري أيتها العلبة صورة ذلك الماضي القذر (تظهر فني)

فني — (جازعة وهي تراه يستعد للرحيل) حنا . لا ترحل

حنا — قضي الأمر

فني — لقد كذبوا عليك حسداً . ثم كيف أصغيت إليهم وكيف صدقتهم

حنا — سافو . (متعمداً لكي تفهم أنه يعلم ما تخفي من أمرها) يالها من خيانة . أنت التي أحبك قلبي ، واتخذتك معبودي تقدمين على خيانتي . أهكذا في وسع امرأة أن تعبث بنفس هادئة مطمئنة وأن تحطم قلباً لم ينغمس في إثم . ليتك تشعرين بما أشعر به الآن من مرير الألم . ولكني أرحل فلعلي في وحدتي أنسى وأنا أستنزل غضب الله ولعنته عليك . لقد بلغ من جهلي أن أكرمتك وتخذتك امرأتي ، حتى انكشف لعيني ماضيك الذي سترته عني . وبلغ من نفاقك أن أعميتني فتمكن سلطانك من إيماني ، ولكن الحمد لله فقد نضب الآن معين حبي ووقف من دونك شبح كراهيتي ومقتي . فعودي الى ما كنت سافو الخليلة العاهرة الفاجرة

فني — (وقد صدعها الألم والفضيحة) هب كل ما سمعت صحيحاً أفنسيت أن المصادقة هي التي جمعتني بك . ثم ألم تقم هذه المصادقة سداً بين سافو العابرة وفني الحاضرة . أقسم لك أن سافو ماتت من يوم أن عرفت فني

حنا — كما أقسمت لغيري

فني — أنا ما أحببت سواك ياحنا

حنا — تكذبين

فني — (مضطربة) بل إني لصادقة وإني لأعبدك

حنا — إذن لم احتفظت بهذه العلبة ؟

فني — (مفكرة) أوعلمت بها ؟

حنا — (مشيراً الى الدولاب) إنها لا تزال هنا . انظري

فني — ولكنها لا تحوى شيئاً . . .

حنا — أبداً ؟ (يتناول العلبة بين يديه ليفتحها)

فني — (بصوت خائر خافت) ما هذا الجنون

حنا — إنها تحوى الشواهد الناطقة بفجورك .

فني — مهما جرعتني من القسوة فما زلت أحبك

حنا — (بخشونة) أين مفتاحها ؟

فني — لا أدري

حنا — (مهتاجاً يعالج فتحها بالقوة) سأعرف كيف أحتال على فتحها

فني — (تحاول منعه ويكون قد فتحها) ولكنك تعالج النار بالنار

حنا — ها قد أفلحت . انظري . إنها هنا مكدسة منكمشة خشية أن يفوح نتن عارها

فني — أحرقها إن شئت فهي لك

حنا — لي أنا يا سافو . . .

فني — لم أعد سافو . يا حنا (تتناول بيد مرتجفة بعض رسائل سقطت على الأرض) نعم أحرقها أو فمزقها لتصدق أنني أصبحت لك وحدك (بلطف) بالله لا تجر خلف شكوكك ودع ما أقاسي يتصاعد في دخانها . إنها ما كانت غير سحب بعيدة فلا تحجب الآن بها سماء طهارتي

حنا — (ببطء وألم) كنت أود أن أقف على ما فيها

فني — إذن أنت تريد أن يصل الهم الى قرار نفسي (تقترب وإحدى يديها الى ظهرها حيث تمسح بيسدها اليمنى خده كما كانت مع كاوودال)

حنا — (منفجراً) إنك بهذه الحركة تعيدين الى ذهني صورة ما اعتدته مع سيدك كاوودال

(تأخذ بحالة عصبية لفافة وتشعلها)

وعلى هذه الصورة أيضاً كنت تدخنين لفافاتك معهم . إنك لا زلت تكلمينني بلغة المصنع وأسلوب العاهرات حتى كأني بين عشاقك أسمعهم وأراهم

فني — (تلقي اللفافة بغضب وتفركها بقدمها) ما أقساك

حنا — كل هذه الرسائل على ما بها من صفرة القدم وتأثير الزمن . . .

فني — (تقطع حديثه) دعني أنا أشعل النار فيها

حنا — بعد أن أتبين ما بها (يقرأ إحداها) : « ليتك يا سافو تعلمين كم أحرقت من دمي لأجري الحياة في الرمس الذي نعم بتصوير جسمك الغض . . . »

فني — (معترضة) بالله عليك (تخطفها وتحرقها)

حنا — (يتناول كتاباً آخر) إنه شعر هذه المرة

سافو لقد ذقت الهوى من مقلتيك فذقت أنسا
لكن بعدك شفني وجنى علي فكيف أنسى

(متأثراً) ماذا فعلت معهم حتى تركتهم على هذه الحال

فني — (حزينة) ليتني أدري

حنا — (يقرأ رسالة أخرى ورقها وردي اللون) : أنا بانتظارك الليلة في دار التمثيل » (تطرق في خجل . أما هو فيحرقها ولكنه يحس كأن سهماً مسموماً أصابه حين يقع بصره على تخطيط يصورها عارية)

وهذا الرسم ؟ إذن كانوا يصورونك عارية (ثم يقرأ ما هو مكتوب تحته) : « حبيبتي سافو . . . »

فني — (متجهة اليه) إنني ما استبقيته إلا لشهرة مصوره

حنا — (يلقيه اليها) احتفظي به

فني — (ترده اليه) بل احرقه واحرق كل ما بقي معه (بحزن) كفى باحنا وارحم ألمي (يشتد حزنها) وليتك تعلم كيف نشأت ؛ فلقد كنت وأنا طفلة على ما يروى زهرة القرية أمرح في الطرقات وقد تيتمت من أمي وربما أيضاً من أبي ، وما كان يعود إلا آخر الليل يترنح من السكر ، وكان شديد القسوة معي حتى اذا ما بلغت سني الخامسة عشرة ، وأنا أجمل فتيات الناحية فررت الى هذا المصنع . أما أولئك الفنانون فانتهزوا فرصة احتياجي وبؤسي فعبثوا بطهارتي ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا الى طريق قلبي ولا تركوا في نفسي من الأثر غير الحقد واللعنة ، فهذا القلب ما كان لهم يوماً ما فحطمه إن شئت فانه لك

حنا — وما هذه الرزمة المخبأة

فني — (تصرخ متألمة) لا لا إلا هذه يا حنا

حنا — وما الفرق بينها وبين أخواتها

فني — حنا . دعني أحرقها . أتوسل اليك

حنا — إنك تحيرينني

فني — قلت لك دعها (تحاول اختطافها فيتغلب عليها) إذن ليكن ما يكون

حنا — (متهكماً) طابع السجن ! (ينظر الى الامضاء) فرومان ! فرومان المزور ؟

فني — بل فرومان القدير . أما التزوير فما يعيبه ، وما دفعه اليه غير فقره .

حنا — (باحتقار) إنه مجرم

فني — (متلطفة به) بيبي

حنا — (يستشيط غضباً) هذه الكلمة كنت تداعبين بها أيضاً ذلك اللص

فني — ليكن ، ولكن مالك به وأنا لك

« يتبع » محمود خيرت

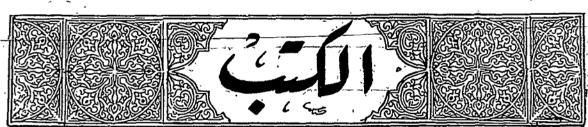
الشخصية

[بقية المنشور على صفحة ١٤٠٤]

خارجي بل أتت من تفكير الشخص في نفسه وتحليلها وتبين موقفها في العالم ، وموقف العالم منها ، وتساؤله لها ما رسالتها في العالم وكيف تؤديها — فإذا هو يشعر بعد طول التفكير كأن قبساً من نور إلهي ألهب نفسه ، وأضاء العالم أمامه ، فهو يسير على هدى ، ويؤدي رسالته كما بلغ — الى كثير من أمثال هذا مما لا يستطاع حصره .

ويظهر أن النفوس إذا نضجت تلمست الوسائل المختلفة لبروزها ، وظهور عظمتها ، والصوفية يقولون : « صاحب الخصوصية لابد أن يظهر يوماً ما » ولكن كم في العالم من شخصيات كامنة لو هيئ لها عود الثقاب لاشتعلت ، ولو أتيح لها القبس لأنارت ، وكم من بذرة صالحة قوية لم تجد تربتها اللائقة بها ، فغلبتها على الحياة بذرة فاسدة ، وكم من زهرة بدأت تتفتح فأصابتها ريح هوجاء عصفت بها — وعمل المصلحين والشخصيات القوية في كل أمة أن يستكشفوا هذه الكوامن فيقدموا لها الغذاء ويتعهدوها بالنماء ؟

أحمد أمين



صلاح الدين الأيوبى

لمؤلفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم عبد الحميد حفنى الشواربى

لجنة التأليف والترجمة والنشر ، هى بلا ريب فى مقدمة الجمعيات العلمية الحديثة ، التى ساهمت — الى حد كبير — فى النهوض العلمى والانتاج الفكرى فى الشرق العربى ، الذى يقاسى فوق فقره المادى من أثر الاستعمار الأوروبى فقراً أشد فتكاً وأبعد خطراً ، هو غزو اللغات الأجنبية له ، فقامت هذه اللجنة فى جهد الجبابرة ، تنشر وتترجم وتؤلف بلسان عربى فى مناح مختلفة فى الفلسفة والعلوم والآداب والاجتماع .

والذى يحز فى قلوبنا وينال من إحساسنا القومى ، أن تنهض هذه الجمعية على أكتاف أفرادها ، دون أن تمكن لها من مال الدولة أو الأمة بالقدر الكافى ، أو ما يوازى على الأقل ما حصلت عليه الجمعيات العلمية الأجنبية مع ما فيها من مكمن الخطر التبشيرى وما تحمله من نزعات الشر والكراهية لمصر والمصريين .

هذه الجمعيات قد منحت من أملاك الدولة ، فى الصميم من قلب المدينة وخير بقاعها ، فضلاً عما تمدها به حكوماتها وشعوبها ، بينما ترى مركز لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فى ركن متواضع من أركان بيت ضج بالسكان ، أو المرضى من الناس فى شارع الساحة . هذا فضلاً عن حرمانها من امتيازات لو منحتها لبذت من أنواع الثقافات أفضلها وأعظمها قدراً

وأذكر أن المرحوم ثروت باشا قد أشار الى وجوب إصدار سلسلة معارف عامة تعين على ثقافة الشعب ، فكانت هذه اللجنة هى أول من لبى أمنية وزير مصر الكبير

وكان أستاذنا النابه « محمد فريد أبو حديد » أول من وقع اختيار اللجنة لرسالته كسلسلة معارف عامة فى صلاح الدين الأيوبى .

والمؤلف غنى عن التعريف لولا ما تأخذنا به أصول التحليل والنقد . فهو أستاذ تخرج فى المعلمين العليا ، وفى مدرسة الحقوق المصرية ، وتقلب فى مناصب عدة فى التعليم الثانوى ، على أن هذه المناوين ليست كل شىء فى الرجل ، فان كثيرين قطعوا مراحل التعليم منفعلين لا فاعلين ، ومروا بها من امتحانات متأثرين لا مؤثرين ، ولكن هذا الرجل وقد عاشرته عن كثب — تجد فيه الابن المصرى البار الذى كلف نفسه حمل رسالة النهضة من وجهتين : أخلاقية وعلمية — ليؤديها الى الناس فى نفس كبيرة وجسم ضئيل

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

انظر إليه وهو يلقى عليك هذا السؤال فى مؤلفه صلاح الدين ما الحياة ؟ فانك لتستشف من جوابه على هذا السؤال ناحية أبية من نواحى النفس المصرية النادرة ، أو قليلة العدد على الأقل ، التى يغتبط بوجودها ، بل ويفتقر إليها المجتمع المصرى ، وهاك جوابه : « أليست تلك الأنفاس التى تتردد فى تلك الفترة المحتومة ما بين واجب البلاد وواجب الموت ؟ ألا إنها فترة مملة مسئمة إذا لم يكن بها ما يهز النفوس » .

ثم هاك كتابه وقد تناول بالبحث الشيق بطلا من أبطال العالم الاسلامى تقف فيه على خير عصر من عصور التاريخ عانى من غشاوة الجهل والتعصب التى اكتنفت أوروبا فى القرون الوسطى . وترى كذلك كيف تكون السياسة الحكيمة يعلها رجل الشرق فترتفع الحواجز وطلاسم الحياة التى بيننا وبين أمة أمة بالغة ما بلغت من العظمة والسلطان ، اسمعه يقول فى تقدير صلاح الدين « والناس إذا تولى أمرهم عظيم تساموا إلى مستوى عظمته فأتوا بالمعجب » وها كم رجل الساعة مصطفى كمال مصداق لما ذهب إليه المؤلف الجليل . والكتاب فى جملته وتفصيله حافز للهمم دافع للعزم الصادق فى نفوس شباب طفت به مدنيات

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

للدكتور محمود النشوى

استقبلت صباح اليوم وهو يتبلج عن عامل البريد يزدلف نحوي ويحمل بين أعطافه هدية ثمينة ، بل منة خالدة من الأمير الأكبر (عمر باشا طوسون). تلك هي كتابه الذي طوق به جيد مصر وأسماه (يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢) ولم أكد أتصفحه حتى ذكرت الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية مشرع الترجمة ومبتكرها في الأمة العربية وإبان فجر المدنية الاسلامية . ثم انتقلت بي الذاكرة إلى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وجالت في خيالي صورته وهو يهيب بالأمام مالك رضوان الله عليه أن يؤلف الموطأ فيأبى ، ثم يرضي متأثراً بالحاح المنصور ، ثم يرسم له خطة التأليف حتى يقول إمام دار الهجرة لقد علمني المنصور التأليف

ثم تذكرت الرشيد ومجالسه الأدبية وشعره الرقيق . وانتقل بي الخيال إلى المأمون وحدبه على العلماء وعلى العلم . وتفرده بكثير من مسائله ثم ذكرت قابوس بن وشكمير وشعره العالى الرصين ، وعضد الدولة بن بويه ، وسيف الدولة الحمداني ، وأبا فراس بن عمه . وتلك الحلقة من الأدباء والشعراء والمؤلفين التى كانت تحف بهؤلاء الملوك والأمراء فتستمد منهم ومن مشاركتهم في الشعر والعلم روحاً تبعثها للأمة قوة ونهوضاً . ذكرت ذلك كله ، وعهداً تسامح فيه الأمراء والملوك في العلم . فكان عصر العلم وكان عصر النهوض . وعلمت أن مؤلفات الأمـــير هي تباشير الصباح ، وبواكير النهضة العلمية في مصر وفي غير مصر .

... وإنك لتواجهك الوطنية المخلصة في كل حرف من حروف

كتاب الأمير الجليل حتى في اسم الكتاب ، وفي مقدمته . فاسم الكتاب يذكر باليوم المشؤوم . يوم الاحتلال . ومقدمته لا أصفها . بل أذكر فقرات من أولها . وأدعها توحي للقارئ بالغيرة على الوطن . وبالتفاني في حب مصر . فاستمع للأمير الجليل حين يقول [(١)]

(يقبل علينا شهر يولية في كل سنة فيذكرنا باليوم الأسود يوم ١١ يولية ذلك اليوم الذي داست فيه انكلترا المعاهدات الدولية وتعلقت بأوهى الأسباب . وضربت مدينة الاسكندرية فاقترفت بذلك سبة الاعتــــداء على أمة لم يكن بينها وبينها إلا السلام واجترحت إثم الهجيم على بلاد لم تناوئها الحرب . ولم تبادئها بالعدوان والخصام) . ثم نراه يرسل زفرة الأسى محيياً أبطال مصر وضحايا يوم ١١ يولية فيقول (لحيا [(٢)] الله أولئك الأبطال الذين راحوا ضحية الدفاع عن الأوطان ، وتغمدهم برحمته ورضوانه)

. وكذلك ترى حدب الأمير على مصر يحدو به أن يذكر شهادة الأعداء ببطولة مصر فيحدثنا عن الماجور تلك Tulloche [(٣)] أنه دهش من بطولة جنود مصر حتى وثب الى حافة السفينة ورفع يده قائلاً : لقد أجدت العمل أيها الجندي المصري .

ثم يروي عن الأميرال سيمون قائد الأسطول إذ يقول في تقرير رفعه الى سكرتير الأميرالية [(٤)] (ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتــة) . ثم يختم أميرنا الجليل شهادة الأعداء لأبطال مصر بالأسف على الشهداء ، وعلى الوطن فيقول [(٥)] (رحمهم الله وعزانا وعزى هذا الوطن الأسيف) ذلك قل من كثر . وغيض من فيض من الوطنية في كتاب الأمير .

وإن في الكتاب من وراء ذلك لضبطاً ونقلاً عن مصادر لا تلين قناتها لغير الأمير حين يعتمد دار المحفوظات المصرية ، وحين ينقل عن تقرير القائد الأمريكي (جون دربتش) الذي قدمه لحكومته ، ثم نرى الأمير ينقل عن الأثبات ، فيروى عن ابن عبد الحكم مما ذكره في كتابه (فتوح مصر) ، وعن خليل شاهين الظاهرى مما سطره في كتابه (كشف الممالك) ، وعن صاحب الخطط التوفيقية ، وغير هاتيك المراجع التى ذكرها الأمير وذكر صفحاتها ، فأرانا كيف يكون الضبط ، وكيف يكون البحث العلمي الدقيق . فلهنأ الأمة بأميرها ولهنأ العلم بمؤلفات الأمير .

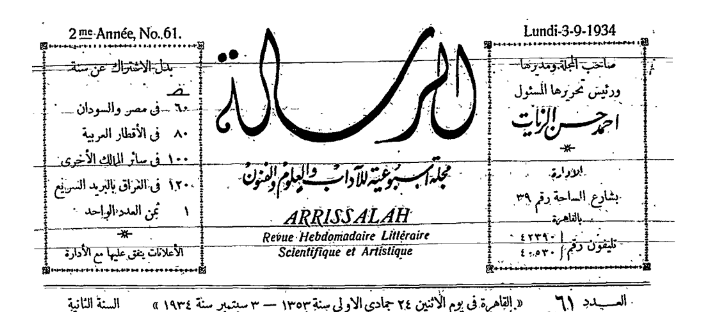
محمود النشوى
دكتور في الآداب

(١) ص ٣ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ٩٩ (٤) ص ١٠١٣ (٥) ص ١٣١

الاستعباد حتى ماع ، وبهره سراب خلب حتى هوى واستسلم إلا من عصم ربك ، فبعث فينا من يعاني النظر في أمراضنا والبحث في وسائل علاجها .

ولولا مغالاة المؤلف في أسلوبه الملى وتوخيه البحث على نمط مدرسي وهو يكتب للشعب ، لكان مؤلفه قد بلغ الغاية وأوفى حتى انتهى إلى درجة الكمال . ولكن نشكره على جهده وما بذل في وسط كوسطنا المصري ينادي ذكري مؤلمة لمجدنا السالف ، ومحنة راهنة بسبب فقرنا العلمي .

قليوب البلد — عبد الحميد حفني الشوارلي



2 me Année, No. 61.

Lundi-3-9-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العــدد ٦١ « القاهرة في يوم الأثنين ٢٤ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

الأخـــلاق والتشريع

إذا كان الصيف موسم التنزه والاستحمام وجوب الشواطىء، فهو أيضاً موسم التحدث عن الأخلاق . ففي كل صيف يتجدد لدينا حديث الأخلاق وانحلالها ، وما تجنيه عليها مناظر الاستحمام والعرى المثيرة ؛ وقد بلغت هذه المناظر على شواطىء الأسكندرية فيما يظهر حداً مزعجاً من التبذل والتهتك ، وأثارت عاصفة شديدة من الاحتجاج والسخط ، وارتفعت الصيحة بوجوب وضع حد لهذه الأباحة الخطرة ؛ فاهتمت الحكومة وتدخلت إدارة الأمن العام ، ووضعت قيوداً جديدة على الاستحمام والنزه البحرية والركوب أو الجلوس بملابس البحر ، تحقق في نظرها مستوى معيناً من الحشمة والحياء والصون

وثار أيضاً حديث الأفلام والمناظر السينمائية المنافية للحياء ، وانتهى إلينا صدى تلك الحملات القوية التي تنظم في أمريكا ، وتنظمها الكنيسة بالأخص لمحاربة هذه الأفلام والمناظر المثيرة المفسدة لأخلاق النشء والشباب ؛ وقيل بحق إننا في مصر أشد حاجة إلى مقاومة هذا الخطر الأخلاقي ؛ فاهتمت لذلك لجنة الرقابة الأدبية ، واقترحت على وزارة الداخلية أن تشدد الرقابة على الأفلام المصورة الواردة من الخارج ، فأقرت الاقتراح وستعمل لتنفيذه .

وهكذا كلما ارتفعت الشكوى من خطر على الدين أو الأخلاق ، اتجهت الأنظار إلى الحكومة ، وطلب إليها العمل لمقاومة هذا الخطر . والحكومة في مصر هي حامية الدين والأخلاق . والحكومة في جميع الأمم المتمدنة تضطلع بمثل هذه المهمة وتحمل مثل هذه التبعة ؛ ولكنها لا تنفرد بتأدية هذا الواجب ، وإنما تقوم به إلى جانب القوى المعنوية والاجتماعية الأخرى ، وتمد إليها يد العون متى احتاجت . أما في مصر فالمفروض أن الحكومة تقوم في هذا السبيل بكل شيء ، وتحمل كل تبعة ، وعليها وحدها يقع عبء التقويم والإصلاح

وليس هنا مقام التحدث عن أسباب هذه الظاهرة ، وإن كان وجودها طبيعياً في بلد تقبض حكومته على جميع السلطات ، وتسيطر على جميع الحريات والقوى المادية والاجتماعية ؛ ولكنا نتساءل فقط : هل يكفي تدخل الحكومة لدرء الشر ، أو بعبارة أخرى هل يعتبر التشريع وسيلة ناجعة لتقويم الأخلاق ؟ لقد اعترض بعض النقدة حينما فرضت الحكومة تلك القيود الجديدة على ملابس البحر والنزه البحرية ، وقالوا إن الأخلاق لا تقوم بالتشريع ، وإن تيار الفساد أقوى من أن تحده مثل هذه القيود . وربما كان ذلك حقاً في ذاته ؛ فالتشريع وحده لا يكفي لقمع الفساد وتقويم الأخلاق ، بل يجب أن تتضافر معه جميع القوى والعناصر التهذيبية الأخرى ، في البيت والأسرة والمدرسة والمجتمع ؛ ولكن التشريع لابد منه في بلد تسيطر الحكومة فيه على كل شيء : على التعليم والتربية ، وتكوين التفكير والأخلاق ، وتنظيم المجتمع ؛ والتشريع أول وأهم خطوة في بلد لم يستكمل نضجه في التهذيب والثقافة ، وفي بلد تغزوه أسفل عناصر المدنية الغربية ؛ وفي مجتمع لا يفهم التمدن إلا بأنه اقتباس للخلال والأزياء الغربية الخليعة ، والانحدار إلى مهاوي الهتك ، وإهدار قواعد الحياء والحشمة ، والانغماس في شر ما تنغمس فيه العناصر الأجنبية الوضيعة .

وحينما يسري الفساد إلى مجتمع ضاع فيه وازع التربية والحياء والأخلاق ، وجب أن يمثل وازع التشريع والإكراه ، ونريد هنا التشريع الحكيم النزيه المبني على دراسة عميقة وتمحيص مستنير . نعم إن التشريع لا يحدث أثره سراعاً ، ولكنه بذلك الطريق دائماً للغاية المثلى ، وفي جميع الأمم الغربية يتخذ التشريع وسيلة لحماية الأخلاق وتقويمها ؛ ففي انكلترا قوانين لحماية الأحداث من خطر ارتياد المقاهي والملاهي منفردين ولحماية أخلاقهم في المصنع ؛ وقد لجأت الفاشستية في إيطاليا إلى التشريع لمعالجة الفساد الأخلاقي الذي بثته فوضى ما بعد الحرب إلى كل طبقات المجتمع ، فأصدرت قوانين عديدة لمحاربة الخلاعة والهتك ومطاردة الملاهي المبتذلة ، وتناول التشريع أزياء المرأة فحتم أن تكون ذات طول معين ؛ وردت المرأة الايطالية بقوة التشريع إلى الأسرة والمنزل ، وحملت على تقديس الزواج والأمومة ، واحتقار الأمعان في التبرج واللهو الخليع ؛ وحذت الوطنية الاشتراكية في ألمانيا حذو الفاشستية في ذلك ، فلجأت إلى التشريع في مطاردة الفساد الاخلاقي والملاهي المبتذلة ، وأغلقت مئات الحانات والمنتديات المريبة في برلين وغيرها ، وردت المرأة الألمانية إلى حظيرة الأسرة ، وبوعد بينها وبين العمل الخارجي جهد الاستطاعة ، إلى غير ذلك من الوسائل والاجراءات التي أريد بها صون الأخلاق بعد ما وصلت إلى أبعد حدود الانحلال ، ورفع مستوى الحياء والحشمة بعد أن هبط إلى الدرك الأسفل .

وفي تركيا الكمالية ، كان التشريع وسيلة التحرير والتمدن ، فلما طغى سيل الفساد الأخلاقي في مجتمع لم ينضج بعد لمثل هذا الأغراق والتطرف ، عادت حكومة أنقرة فلجأت إلى التشريع أيضاً لكبح جماح ما أطلقت عنانه بادئ بدء ، وحماية النشء والشباب من الاندفاع في حريات لم يألفوها ، وكانت وبالاً على أخلاقهم ونفوسهم .

والخلاصة أننا لا نعترض على التشريع في ذاته كوسيلة لحماية الأخلاق والآداب ؛ فلنا في ذلك أسوة بكثير من الأمم الغربية ذات الأخلاق والمدنية ؛ ومادمنا نخضع لمثل هذه الظروف والنظم ، فلا مناص من الالتجاء في الاصلاح إلى وسائل الاكراه ؛ ولكن الذي نعترض عليه حقاً هو أن هذه القوانين التي توضع لمعالجة هذه الشئون ليست دائماً على جانب كبير من الحكمة والاتزان ، ولا تقوم دائماً على نزاهة القصد والنية ؛ وإنما توضع في الغالب لتهدئة بعض الحملات المزعجة ، ومعالجة بعض الحالات المؤقتة ، والتماس شيء من المديح والرضى .

« ع »

تربيـــة لؤلؤية

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كتبتْ إلىّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى :

... أما بعد فهذا الذى كنا ظننّا وظننتَ ، فاقرأ الفصل الذى انتزعته لك من مجلة ... وستعرف منه وتنكر ، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى ... وتجد فتاة اليوم على ماوقع بها من الظِنّة ، وكثر فيها من أقوال السوء — لا تَشْمس على الريبة ولا تريد أن تنتفى منها ، بل هى تعمل لتحقيقها ، وتبغى مع تحقيقها أن يَتَسالَمَ الناسُ ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ماشاءت ، ويسوّغوها مقارفة الاثم ، ويُقِرّوها على منكراتها .

أمّا إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلات هنّ أمسنا الذاهب بلا فائدة ، فان فتياتنا المتعلمات هن يومنا الضائع بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسَد ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلمة لم تكد تَنْفُق ومعها الرذيلة ، ولَتاجرٌ أمىّ طاهر الاسم تتحرك سُوقُه ويحيا ، خير من تاجر متعلم نجس الاسم قد ماتت سوقه وخبثت ، فما تتنفس من درهم ولا دينار .

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكمَتْه المتعلمات منا كنّ بين الشرق والغرب كالسَّبِخة النشّاشة من الأرض ، طرفٌ لها بالفلاة وطرف بالبحر ؛ فهى رمل فى ماء فى ملح ، لا تخلُص لفساد ولا صحة ؛ فاعتبر هذه وهذه فستجدها بحكاية واحدة ، أصلا وطبق الأصل ...؟

***

وقرأتُ الفصل الذى أومأت اليه السيدة وكان فى كتابها فاذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علم الجهاد لحرية المرأة) وإذا فى أوله :

« كتبت آنسة أديبة فى عدد سابق من ... الأغر تقول : «أجل ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فان أخطأناهم أزواجا فلن نخطئهم أصدقاء ...» وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى ويطرقان نفس السبيل (كذا) التى اختطتها الآنسة الجريئة فى غير حق ، الثائرة فى نزق ؛ ثم قالت بعد ذلك : « قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حيوية صارحة .... فجزعت لأن قاسم أمين عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة ، وولى الدين يكن عندما جاهر بعده فى سبيل السفور ، وهدى شعراوى عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ماظنت وماظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور الى حد أن تقف آنسة مهذبة تكشف عن رأسها تبكى وتستبكى سواها معها من أجل الزواج ... »

***

وأما فلست أدرى والله مِمّ تعجب هذه الكاتبة وإنى لأعجب من عجبها وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلا وهو يتى مُظهِرة الجدّ والقصد والغضب . أئن أُطْلِق للنساء أن يَثُرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلت فى حريتها ، فامتدّ بها أمدها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً فى غير مداراة ولا حذق ولا كياسة يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله ، ثم وقف على رغمه فى الطريق منكسراً مما به من اللهفة والوثبة يتوجع ، يتنهد ، يتلذّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أئن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جرى عليكِ وكنتِ حرة ، وتزعزعتِ وكنتِ ثابتة ، وأخشتِ وكنتِ عفيفة ، وتعهّرتِ وكنتِ طاهرة . أفلا تقول لها : سفَرتْ أخلاقُكِ إذ كنتِ سافرة بارزة ، وضاع حياؤكِ إذ كنتِ مُخلاة مهملة ، وغلَوتِ إذ كنت فى المبالغة من البدء . أفلا تقول لها : لقد تلطّفتِ جئتِ بالمعنى المجازىّ لكلمة (العُرى) ولقد أبدعتِ فكنتِ امرأة ظريفة اجتماعية مُخيلة للشعر والفن ، وحقّقتِ أن واجب الظريفة الجميلة إعطاءُ الفن غذاءً مِن ، ومن ، ومن لحمها .....

نعم إن قاسم أمين — رحمه الله — لم يكن يظن .. ولكن أما كان ينبغى أن يظن أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعل الخطأ صوابا ؟ بل هو أحرى أن يُلبّسه على الناس فيُشبّهه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون اليه ويأمنون جانبه فينتهى بهم يوماً الى أن ينتسف خطؤه صوابَه ، ويغطى باطلُه على حقه ، ثم تستطرق اليه عوامل لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد اليه السبيل وهو خطأ محض ، فتمدّ له فى الغى مداً . ثم تنتهى هى أيضاً الى نهايتها ، وتؤول الى حقائقها ؛ فاذا كل ذلك قد

داخل بعضه بعضاً ، واذا الشر لا يقف عندما كان عليه ، واذا البلاء ليس في نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد في نية قاسم أمين ، ولا نزعم أن له خفيّة سوء أو مضمّر شر فيما دعا اليه من تلك الدعوة ، ولكني أنا أرتاب في كفايته لما كان أخذ نفسه به ، وأراه قد تكلّف مالا يحسن ، وذهب يقول في تأويل القرآن وهو لا ينفذ الى حقائقه ولا يستبطن أسرار عربيّته ، وكان مناظروه في عصره قوماً ضعفاء فاستعلاهم بضعفهم لا بقوته ، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت في ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة ، وقال للنساء غيّرن وبدّلن ؛ فلما أطعنه وبدّلن وغيّرن ، وجاء الزمن بما يفسّر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات التخيّل أو التشيّع — إذاً معنى التغيير والتبديل هو ما رأيت ، واذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر ، واذا المرأة التي ربحت الشارع هي التي خسرت الزوج ! واذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة ، ولكن نفياً للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة كأنها مجرمة عوقبت على فساد سياستها ؛ وهي في بيتها ، ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها .

كانوا يحتجون لنفي الحجاب بالفلاحات في سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعي في ذلك ، وهو أن السفور إنما عمّهن من كونهن لسن في المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة . ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا في اجتماع طبيعي فطري أساسه الخلط في الأعمال لا التمييز بينها ، والاشتراك في شيء واحد ، هو كسب القوت لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التي ثارت بفتياتنا — إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الطائلة المتصرفة بها ، وتحسبه توسعاً من الطبيعة في الحرية ، وطلباً للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلها بعد نبذ الحجاب ؛ وهو في الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق ، ورغبة منها في أن تُحدّ بحدودها ويؤخذ منها العالم كله بما فيه ، و تُعطَى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتطلقها بزعمك من حجابها وتخرجها الى النور والحرية ، فانما أعطيتها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خشباً لا ثمراً ، ومنظر شجرة لا شجرة ! لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها ، وجهلت أنها من أطباق الثرى في قانون حياتها ، لا في قانون حجابها .

أفليست كذلك جذور الشجرة الانسانية ؟

كل ما يتغير يسهل تغييره على من شاء ، ولكن النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتماً مقضياً كما يقتضي فلن يسهل تبديلها ، ولا تحويلها ولا ردّها أن تقع . وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طبّبوا للمرأة المسلمة كذلك الطب الذي أساسه الرائحة الذكية في البخور ...!

***

وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاء سعرها في الاجتماع ، وصونها من التبذل الممقوت لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم ؛ قانون العرض والطلب والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها في مدارج الطرق والأسواق : العيون الكحيلة ، الخدود الوردية ، الشفاه الياقوتية ، الثغور اللؤلؤية ، الأعطاف المرتجة ، النهود الـ .. الـ ..

أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب الى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هـذا فانهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا ؟ وهذه التي كتبت اليوم تطلبهم مخادنين إن أخطأتهم أزواجاً ، وتفتّش عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات ! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى في مخزيات هذا التطور ، فتمشي في الطريق مشي الأنثى من البهائم طموحاً مطروقة ، تذهب عيناها هنا وهنا تلتمس من يخطو اليها الخطوة القابلة . . .

ما هو الحجاب الشرعي إلا أن يكون تربية عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصّها الرحمة ؛ هذه الصفة النادرة التي يقوم الاجتماع الانساني على نزعها والمنازعة فيها مادامت سنة الحياة نزاع البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد يحفظ المرأة به منزلتها ، وتؤدي فيه عملها ، وتكون مغرساً للانسانية وغارسة لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليد الحيوان تولد كلها : إما ساعية كاسبة لوقتها ، وإما محتاجة الى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضي فتكدح لعيشها ؛ إذ كانت غاية الحيوان هي الوجود في ذاته لا في نوعه ، وكان بذلك في الأسفل لا في الأعلى . غير أن طفل المرأة يكون في

بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً في صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعاف ذلك سنة بكل شهر . فهل الحجاب إلا قصرُ هذه المرأة على عملها لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت ؛ وهل قصرها في حجابها إلا تربية طبيعية لرحمتها وصبرها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمة ذات ولد ، تترك ابنها في أيدي الخدم بعد وصاة علمية سيكولوجية . . وتمضي ذاهبة عن يمين الصباح ويمضي زوجها عن شماله . وقد رأيت هذا الطفل مرة فرأيته شيئاً جديداً غير الأطفال ، له سمة روحانية غير سماتهم ، كأنما يقول لي إنه ليس لي أب وأم ، ولكن أب رقم (١) ، وأب رقم (٢) . .

***

وقد كنت كتبت كلمة عن الحجاب الاسلامي قلت فيها : « ما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدود من الأخلاق أن تجاوز مقدارها أو يخالطها السوء أو يتدسس إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب ، وليس يؤدي شيء إلا أن تكون المرأة امرأة في دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعاني . »

وهذا هو الرأي الذي لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجاب إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحه الدينية المتعبدة ؛ وهو كالصدفة لاتحجب اللؤلؤة ولكن تربيها في الحجاب تربية لؤلؤية ؛ فوراء الحجاب الشرعي الصحيح معاني التوازن والاستقرار والهدوء والاضطراد وأخلاق هذه المعاني وروحها الديني القوي الذي ينشيء عجيبة الأخلاق الانسانية كلها ؛ أي صبر المرأة وإيثارها . وعلى هذين تقوم قوة الدافعة ، وهذه القوة هي تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهي سر المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا في المرأة ذات الدين والصبر والدافعة . إنها فيها تشبه أخلاق نبي من الأنبياء .

وقد مُحِق الدين والصبر ، وتراخت قوة الدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات ، فابتلين من ذلك بالضجر والملل ، وتشوه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كمعنى العفن في الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتهن فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية في ذاتها ، وأنه لايشدها ويقيمها إلا الصفات السلبية ، وملاكها الصبر فروعه وأصوله ، وجمالها الحياء والعفة ، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده . إنه إن لم يكن في المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطىء المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالها صفات الأيجاب ، وتمردها على صفات السلب كما يقع لعهدنا ، فان هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأةُ نقائض أخلاقها من أخلاقها كما ترى في أوربا ، وفي الشرق من أثر أوربا . فمن هذا تُلقي الفتاة حياءها وتبذؤ وتُفحِش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالمعاني وحدها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك ؛ وكانت الأستجابة لهذا مافشا من الروايات الساقطة والمجلات العارية ؛ فان هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون عِلْمَ الفكر الساقط .

وعادت الفتاة من ذلك لاتبتغي إلا أن تكون امرأة رواية ؛ إما فوق الحياة ، وإما في حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر ! وتنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين ، وليست الطرفين جميعاً ، فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعاني الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها ؛ فانسلخت من كل شيء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير فانسلخت من إنسانية الغريزة .

***

أما إن غلطة الرجل في المرأة لاتكون إلا من غلطة المرأة في نفسها ، وهي قد أعطيت في طبيعتها كل معاني حجابها ؛ فاحساسها محتجب مختبيء أبداً كأنه في إتب[1] وملاءة وبرقع ، وأفكارها طويلة الملازمة لها لاتكاد تتركها كأنها منها في بيت ، وطبيعة الحذر لا تبرحها كأنها الحارث الثابت في موضعه القائم بسلاحه على حفظ هذا الجنس الجميل ؛ وطول التأمل مُوكّل بها كأن عمله مصاحبة وخدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى ؛ وضغطة الحياة طبيعية فيها حتى لايساورها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها والتي تمزقها الحياة كلما ولدت لاتكون الحياة إلا رحيمة بها إذا ضغطتها .

فخروج المرأة من حجابها خروج من صفاتها ، فهو إضعاف لها ، وتضرية للرجال بها ، وماذا تجدي عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع ، فيكون حذراً ليكون إغفالاً ، ثم يكون إغفالاً ليمهد الزلة والغلطة ؛ ومتى رجع غلطة فهذا أول

(١) الاتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الريفيات (اللبس)

السقوط ومبدأ الانقلاب والتحول . وليس الفرق بين امرأة نفور من الريبة ، شموس لا تطالع الرجال ولا تطمعهم ؛ وبين امرأة قرور على الريبة ، هلوك فاجرة — إلا حجاب الخفر أنسدل على واحدة ، وانكشف عن أخرى .

وإذا قرّت المرأة في فضائلها فإنما هي في حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأة غير الرجل ؛ فهو مسمّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها .

ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأي لا يدركون مذهبه ، ولا يحققون ما ينتهي إليه ، وينفذون في حكمهم على الظاهر لا على البصيرة — هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا في القماش والكساء والأبنية ، كأن حجاب الأخلاق النسوية شيء يصنعه الحائك والباني والمستبد ، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ، فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوة عقل تتكون قوة إيجاب ، ولكنه أبدعها قوة عاطفة لتكون قوة سلب ؛ فهي بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجب صابر هادئ منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعي تتم به الطبيعة .

وينبغي أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفاً ، وزيادة لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها في مشيا كله أن يكون كصوت الرجل صيحة في معركة ؛ بل يحتاج هذه المشيا كل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمعاً على طاعته كصوت الأم في بيتها .

***

أيتها الفتاة ، إن صدق الحياة تحت مظاهرها لا في مظاهرها التي تكذب أكثر مما تصدق ؛ فساعدي الطبيعة واحمي أخلاقك عن الرجل ، لتعمل هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين منها ومنك ، فيسرع انقلابه إليك ويحنو عليك ؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبغايا ، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد غيرك .

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكين للرجل نفسه أن يرجف بك الظن ويسيء فيك الرأي ، وعقابك على ذلك ما أنت فيه من الكساد والبوار ؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم منك .

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

في الأفق الدولي

حديث الحرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الحرب المقبلة ، وعن أسبابها المحتملة ، وعن مواطن نشوبها والدول التي قد تشترك فيها . وكلما اظلم أفق السياسة الأوربية ، وتفاقمت مشكلة من المشاكل ، تكرر حديث الحرب ؛ وازداد المتشائمون تمسكاً باعتقادهم في قرب نشوبها . ومنذ أشهر نشهد في جو السياسة الأوربية ما ينذر فعلاً باضطراب العلاقات الدولية وتوترها ؛ فمن محالفات سياسية وعسكرية تعقد بين مختلف الدول ، ومن اعتمادات مالية ضخمة تقررها معظم الدول لتعزيز قواتها واستكمال أهباتها الحربية ، ومن تصريحات سياسية هنا وهناك تحمل على التشاؤم والجزع . ولقد كشفت الأزمة النمسوية التي وقعت منذ أسابيع قلائل من جراء الثورة التي أضرمها دعاة التحريض الألماني لقلب النظام في النمسا والتمهيد لإعلان انضمامها إلى ألمانيا عن مبلغ توتر أعصاب الدول العظمى ، وعما يجثم في ثنية المشكلة النمسوية من خطر على السلام الأوربي ؛ ولم تحجم إيطاليا في هذا الظرف الدقيق عن حشد جنودها على حدود النمسا الجنوبية استعداداً للطوارئ . فإذا ذكرنا أن الحرب الكبرى أضرمت شرارتها الأولى في تلك المهاد ، أي في امبراطورية النمسا والمجر القديمة ، استطعنا أن نقدر ظرفاً من العوامل التي تملي بحديث الحرب ونبوءاتها .

على أننا مع تقديرنا لخطر هذه الظواهر المزعجة في سير الحوادث الأوربية ، نخشى أن يكون خطر الحرب جاثماً في جهة أخرى غير أوربا القديمة ؛ ففي الشرق الأقصى تقع حوادث ذات مغزى خطير ؛ وهذا التلاحم المستمر بين اليابان وروسيا ينطق من الخطر على السلام أكثر مما يدلي به ظاهر الحوادث . ولنلاحظ أولاً أن هنالك خصومة تاريخية خالدة بين اليابان وروسيا منذ الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ؛ وأن بينهما منافسة قديمة مستمرة مدارها التنازع على النفوذ في الصين واقتسام المصالح الصينية ؛ وهما يلتقيان في الصين في مناطق ومراكز في منتهى الأهمية . وفي الأنباء الأخيرة أن حادثاً جديداً قد وقع في

منشوريا، وزاد في تحرج العلائق بين البلدين. ذلك أن سلطات منشوكيو (منشوريا) قد قبضت على عدد كبير من الموظفين الروس في الخط الحديدي الشرقي، وأنها تتحرش بممثلي روسيا القنصليين. وحكومة منشوكيو كما نعلم هي التي أنشأتها اليابان في منشوريا بعد افتتاحها، وهي التي تسيرها كما شاءت. وليس هذا التصادم هو الأول من نوعه، فقد تكرر مراراً في الفترة الأخيرة، ومصدره دائماً هو النزاع على الخط الحديدي الشرقي. ولكي نعرف أهمية هذا الخط الذي يجمع بين الدولتين المتنافستين، نقول إنه يخترق منشوريا من غربها مبتدئاً من مدينة منشولى، ثم يسير نحو الجنوب الشرقي في قلب منشوريا حتى يتصل بخط «أسورى» الذي يمتد الى ثغر فلاديفوستك على شاطئ المحيط الهادي. ومنه يمتد فرع الى الجنوب من هربين ويتصل بخط منشوريا الجنوبي. وقد أنشىء هذا الخط في أوائل القرن الماضي بالاتفاق مع حكومة الصين الأمبراطورية بأموال روسية وفرنسية، وتحملت روسيا أكبر قسط في نفقاته، واشتركت الحكومة الصينية فيه بقسط ضئيل؛ وبعد الحرب ادعت حكومة منشوريا بتحريض اليابان على الخط حقوقاً؛ ثم ظهرت اليابان في الميدان واحتلت القسم الشرقي من الخط بحجة حماية مصالحها وحماية الخط من العصابات؛ ولما افتتحت اليابان منشوريا منذ نحو عامين أصبحت تسيطر على الخط الشرقي كله. وكان النزاع قد اشتد بين الروسيا واليابان على شئون هذا الخط الحديدي في سنة ١٩٢٩، ووقعت بين قواتهما بعض المعارك الدموية، وخشى يومئذ أن تقع بينهما الحرب. ولكنهما انتهيا بالاتفاق والتفاهم على شئون الخط ونظامه في مؤتمر عقد بينهما في سنة ١٩٣٠.

ومنذ افتتحت اليابان منشوريا وسيطرت على شئونها، شعرت روسيا أن مصالحها في هذه المنطقة من الشرق الأقصى أضحت مهددة، وأضحى التلاحم مستمراً بينهما. وللروسيا في الخط الحديدي الشرقي مصالح حيوية جداً. لأنه يتصل بخط سيبريا الكبير، ويقصر أمد المسافة إلى فلاديفوستك، وهو الآن تحت رحمة اليابان. ثم إن حلول اليابان في منشوريا واقترابها بذلك من منطقة النفوذ الروسي في منغوليا، يهدد نفوذ الروس في هذه المنطقة، ويحول دون التوسع الروسي؛ ولا تخفى السياسة اليابانية منذ وطدت أقدامها في منشوريا أنها تعمل على سحق النفوذ الروسي في تلك الأنحاء؛ ولا تخفى حكومة موسكو من جانبها أنها تحرص على مصالحها ونفوذها في الشرق الأقصى كل الحرص، وأنها دائماً على أهبة لحمايتها بالقوة المادية؛ وروسيا تحتفظ منذ أعوام بقوات كبيرة في منطقة شيتا على مقربة من الحدود المنشورية؛ وهي تحيط بمنشوريا من الشرق والشمال والغرب، واليابان تحتفظ في منشوريا بقوات كبيرة وتحتل الخط الحديدي الشرقي كله، وتثير في وجه موظفي الخط الروس كل الصعاب الممكنة وتعتقلهم من آن لآخر بتهم مختلفة على نحو ما حدث أخيراً. وقد احتجت حكومة موسكو لدى الحكومة اليابانية احتجاجاً شديداً، وطالبت بالأفراج عن رعاياها المعتقلين، ونوهت في مذكرتها بروح العداء الذي تبديه بعض المقامات اليابانية نحو روسيا، وحملت اليابان كل تبعة فيما يترتب على هذه السياسة من العواقب الخطيرة.

ومما يلفت النظر أنه في نفس الوقت الذي يتفاقم فيه النزاع بين اليابان وروسيا إلى هذا الحد، تذاع أنباء عن عقد معاهدة أو تحالف بين اليابان وبريطانيا العظمى. ولهذا الحادث إذا صح مغزى دولى خطير، ذلك أن المنافسة الصناعية والتجارية بين اليابان وانكلترا بلغت في العهد الأخير مدى بعيداً، واستطاعت اليابان أن تنفذ بتجارتها إلى جميع الأسواق التي تسيطر عليها التجارة البريطانية، وأثارت بذلك في وجه التجارة البريطانية صعوبات فادحة. واستعملت بريطانيا كل نفوذها وسلطانها المادي لمحاربة هذا الخطر؛ فاذا صح أن التفاهم قد عاد بين البلدين، وأنهما سيؤكدان هذا التفاهم بمعاهدة سياسية تجارية، أو أنهما قد عقدا بالفعل مثل هذه المعاهدة، فمعنى ذلك أن نوعاً من التوازن الدولي يقوم في الشرق الأقصى، وأن اليابان قد استطاعت بعد عزلتها منذ نحو عامين على أثر حوادث منشوريا وانسحابها من عصبة الأمم، أن تجد حليفة قوية تؤازر سياستها في الشرق الأقصى ضد روسيا. والمعروف أن بريطانيا العظمى هي ألد خصوم روسيا البلشفية، وأشدهم مقاومة لسياستها، وأنها مثل اليابان تخشى دائماً من تقدم نفوذها ودعواتها الثورية في الصين، وتخشى بالأخص من دسائسها في الهند؛ على أن مثل هذا التحالف سيحمل روسيا بالطبع على التماس المعونة من جهة أخرى. والظاهر أن أمريكا هي الدولة التي يمكن أن تميل إلى محالفة روسيا على مقاومة التوسع الياباني؛ والمنافسة شديدة بين أمريكا واليابان على سيادة المحيط الهادي، وقد ظهرت خصومة أمريكا لليابان في العهد

الأخير حينما احتجت غير مرة ضد توسعها في الصين وأنذرتها بسوء عواقب هذه السياسة ، وظهر تصميم اليابان على تحدي أمريكا وغيرها من دول الغرب حينما أعلنت أنها ستعتبر الصين منذ الآن ميداناً للتوسع الياباني وحده ، وأنها ستقاوم كل مجهود تبذله الدول الغربية لاكتساب نفوذ جديد في الصين . وعلى ذلك فقد نشهد في القريب العاجل قيام هذا التوازن الخطر في الشرق الأقصى بين الدول ذات الشأن ، وقد تتفاقم الحوادث بسرعة ، ويضطر البلاشفة أخيراً إلى خوض حرب مازالوا منذ بعيد يحاولون اجتنابها .

***

هذا ونرى مثل هذه السحب القاتمة يحلق في أفق القارة الأوربية . وصحافة أوربا كلها تفيض اليوم بحديث الحرب ، بعد أن كانت منذ أعوام قلائل تفيض بحديث السلام والتعاون الدولي . وقد توارت عصبة الأمم من الميدان وغاضت كل الآمال التي علقت على جهودها في تعزيز السلم ، ولا يحجم الساسة المسئولون اليوم عن التحدث بوقوع الحرب ؛ وأقرب شاهد على ذلك ما صرح به السنيور موسوليني في خطاب ألقاه أخيراً على أثر انتهاء الجيش الايطالي من تمارينه السنوية ، من « أن الشعب الايطالي يجب أن يكون شعباً عسكرياً لأن بقاء الأمم رهن بقوتها » ، ومن أنه إذا لم يكن أحد في أوربا يرغب في الحرب ، فان نذر الحرب نرى مع ذلك ظاهراً في الأفق ، ومن المحتمل أن تنشب الحرب في أية لحظة ؛ فعلى إيطاليا أن تستعد لحرب اليوم لا لحرب الغد » ولقد نشأت في أواخر شهر يوليو (بزيد حوادث النمسا) حالة تشبه الحالة التي كانت عليها أوربا قبل نشوب الحرب الكبرى ، فلبت إيطاليا في الحال دعوة الخطر وأرسلت جنودها إلى الحـــدود ، وقضت بذلك على الأزمة . والسنيور موسوليني سياسي عملي ، وقد كانت تلميحاته إلى الحرب تثير منـذ أعوام في أوربا كلها عواصف من النقد القارص ، ذلك أن أوربا كانت ما تزال يومئذ غارقة في أحلام السلام ؛ وكانت الآمال معلقة على مواثيق السلام والتحكيم التي سادت الأفق الدولي حيناً ، وظن المتفائلون أنها ستقضي على كثير من أسباب الاحتكاك بين الأمم ؛ ولكن الأمم الأوربيـة تشعر اليوم أنها تعيش في جو من التشاؤم والجزع ؛ وقد توالت في العامين الأخيرين أحداث سياسية خطيرة ، كقيام الوطنية الاشتراكية في ألمانيا وعملها لأحياء الروح العسكري القديم ، وتفاقم المشكلة النمسوية من جراء تهديد ألمانيا بالقضاء على استقلال النمسا ، ونشاط السياسة الفرنسية لجمع أمم أوربا الشرقية والوسطى حولها بمعاهدات سياسية وعسكرية ، وتفاهم فرنسا مع روسيا واهتمامها بمضاعفة تحوطاتها وأهباتها العسكرية رداً على نشاط ألمانيا العسكري ، واهتمام انكلترا بزيادة تسليحاتها البحرية والجوية ، وتصريح المستر بلدوين زعيم حزب المحافظين الانكليز بأن حدود انكلترا تمتد حتى نهر الرين ؛ فهذه كلها أحداث وتطورات ترجع بأوربا إلى عهد ماقبل الحرب ، وتثير في أفقها سحباً قاتمة ، وتجعلها تشعر بأن تصريحات كالتي يلقيها السنيو موسوليني إنما تعبر عن الحقيقة والواقع .

والخلاصـة أن خطر الحرب يجثم في الشرق والغرب معاً . والدول العظمى تعمل كلها لمضاعفة تسليحاتها وأهباتها . ولـكن متى تقع الحرب ، وفي أي ساحة ، ومن أي جانب ؟ هذه أسئلة تستحيل الأجابة عنها الآن . وكل ما يمكن قوله أن ما نراه اليوم من توتر أعصاب أوربا يجعل خطر الحرب محتمل الوقوع لأي بادرة أو احتكاك يحدوه التحرش أو سوء القصد ، كما دلت عليه تطورات المسألة النمسوية ، فلو لم تبادر ألمانيا بوقف تحريضاتها الثورية وتعديل خطتها نحو النمسا ، ولو دفعت ألمانيا الجرأة الى حد إرسال الخوارج النمسويين الذين تجندهم في أرضها الى النمسا ، لبادرت إيطاليا باختراق الحـدود النمسوية ، ولتحركت في الحال دول الوفاق الصغير ، ووقعت مصادمات يخشى أن تثير حرباً عالمية أخرى . وقد تقع الحرب نتيجة للنزاع الألماني الفرنسي أو الايطالي الفرنسي ، أو نتيجة لما بين ايطاليا ويوجوسلافيا من التنافس ؛ وقد تقع في الشرق الأقصى بين الروسيا واليابان ؛ وقد تكون ساحتها الأولى في النمسا أو في ألبانيا أو على حـدود الرين . تلك احتمالات تبررها الحوادث والتطورات الجارية ، ولكنها لا تخرج عن حد الاحتمالات .

لسنا من المغرقين في التفاؤل أو التشاؤم ، ولكنا لا نستطيع أن نؤمن بقول مستر لويد جورج إن الحرب لا يمكن أن تقع قبل عشرة أعوام .

محمد عبد الله عنان

المحامي

ماهو أدب اليوم ؟...

للأستاذ كرم ملحم كرم

أدب اليوم رواية وقصة

فالمنشئون من أي طبقة كانوا لا يعتمدون في معظم مؤلفاتهم على غير الحكاية والرواية ، فالفن القصصي هو السائد . وأكثر الأدباء بلغوا القمة في إخلاصهم لهذا الفن . ولا بدع ، فالرواية محك الأدباء . المنشئ البليغ يظهر فيها ، والكاتب الركيك السمج يفضح نفسه إذا توكأ عليها

وأكابر الأدباء في العالم لجأوا إلى القصة يذيبون فيها بلاغتهم وقوة بيانهم . فما أحجم عنها « فولتير » ولا « جان جاك روسو » ولا « لامارتين » ولا « ألفرد ده موسيه » ولا « فكتور هوجو » ولا « فرنسوا كوبيه » ولا « تولستوي » ولا « ادجار والاس » ولا « كونان دويل » ، فكلهم مال إلى القصة يعالجها

وإذا لم تكن رواية « غرازييلا » أو رواية « رافائيل » أسمى من شعر لامارتين فهما لا تقلان سمواً عن هذا الشعر . وإذا لم تكن رواية « البائسون » لفكتور هوجو أرفع من منظومه فلقد عادلت هذا المنظوم ، ونفحت الشاعر بشهرة فوق شهرته ، وزادت في تخليده ، وحملت عشاق الأدب الروائي على التحدث عنها في العالم أجمع . فان شهرة « البائسون » شهرة عالية لا يجهلها نادٍ أدبي . وما يقال فيها يقال في « غرازييلا » و « رافائيل » للامارتين ، وفي اعترافات جان جاك روسو . أليست إعترافات جان جاك روسو حكاية من الحكايات وفيها يحدث الرجل عن نفسه ؟

نعم لقد تربع جان جاك روسو في « عقده الاجتماعي » في ذروة الفلسفة ، على أن « اعترافاته » رفعت من مقامه كأديب ، وباتت خالدة كمؤلفه الفلسفي ، فمن شاء الوقوف على حياة الرجل فليس له إلا أن يقلب « الاعترافات » فيدرك من هو جان جاك روسو

و « اناتول فرانس » أستاذ الأدباء في مطلع القرن العشرين مدين بشهرته لرواياته ، ومثله بلزاك ، وأميل زولا ، وموريس بارس ، ومارسيل بريفو ، وهنري بوردو ، ورينه بازان ، وبول بورجيه ، فان أعظم أدباء فرنسا لا تقوم شهرتهم على سوى الروايات التي أنشأوها ، ومثلهم أدباء انكلترا وروسيا . فالقصة إذاً أساس الأدب العالمي

والدين نفسه يقوم على الروايات . فما هو كتاب التوراة ، وما هو الانجيل ، وما هو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب الدينية أكبر نصيب ؟

وإن تكن التوراة أقدم كتاب تتداوله الأيدي ويتيسر للجميع الاطلاع عليه ، جاز لنا القول أنه أول كتاب عرفه العالم مشيد الأركان على القصة . فهو يبدأ بقصة وينتهي بقصة . والكتب الخالدة في معظمها — إذا استثنينا كتب الفلسفة والعلم — كتب قصصية سواء صبت نظماً أو نثراً

ولا شأن اليوم في المؤلفات الأدبية لسوى المؤلفات القصصية ، وهذه الكتب التي تتمتع بالجوائز الضخمة ، ولا سيما جائزة « نوبل » ، لا تخرج في سوادها الأعظم عن النطاق الروائي

ولقد جاء الأدب العربي في عهده الأول بما يعجز عنه الغرب من قصص وروايات . فما هي « كليلة ودمنة » ، وما هي « الف ليلة وليلة » ، وما هو « عنتر » ، بل ماهي « الأغاني » ، وما هو « المستطرف » ، وما هو « العقد الفريد » ، وما هي « نهاية الأرب » ؟ . . . كلها روايات وقصص : وإن تكن كليلة ودمنة غير عربية المولد فهي لم تخلد في سوى النص العربي . وباستطاعة لغة الضاد أن تتبناها ، خصوصاً ولها عليها باستبقائها يد بيضاء

وما يقال في كليلة ودمنة يقال في ألف ليلة وليلة . فالأدب العربي احتضن الف ليلة وليلة وتعهدها بالبقاء . ويمكن الأدعاء أنها عربية الوجه واللسان . أما رواية « عنتر » فقد روى أنها من سبك الأصمعي . والأصمعي — الف رحمة الله عليه — خير من لفق واختلق ، وروى وتحدث ، وسرد وابتكر واخترع . ولقد أتى بالعجائب وهو في تلك الصحراء الكاوية اللاذعة . فبهر العيون وملك الألباب بغزارة علمه وفرط ذكائه وعذوبة حديثه وفيضان بحره . فانه ليتدفق كالسيل في الحديث عن الأعراب وعشقهم وغرامهم . ويروي حكاياتهم بدقة وإبداع ، فيسحر سميه وجليسه ، ويستدر رفد الملوك والعظماء ، ويجود

بالمعجزات فيقصر عنه المتطاول والمقلد واللاحق ، كأن سر الرواية في الأدب العربي القديم لم يفتح على غير الأصمعي

ولو ظهرت كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة في هذا العهد لكان الأدب العربي سيداً في الفن الروائي ، حتى وإن يكن ثمة من يزعم أن الكتابين ليسا من مبتكرات الأدب العربي ، فليس من أدب غير الأدب الشرقي ينسج في هذا الخيال الرحيب الخصيب

ولا ننسى أن أداء القصة وسياقها في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يختلفان كل الاختلاف عن مثلهما في روايات اليوم . فهما جديدان مبتكران لقوة المخيلة فيهما اليد الطولى . ومن المحال أن يوفق فيهما ويهتدى اليهما من لم يكن يحلق في الأفلاك

واختلافهما عن روايات اليوم يحببهما إلى عشاق الروايات ويفسحان لهما المقام الأول في الأدب العالي ، ولكن أين من يقوى على توفير ذلك النسيج ؟

ربما جهل الأدب العربي يوم ظلمت في عمانه « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » قيمة هذين السفرين . ربما أعرض عنهما وشغف بمقامات الهمذاني والحريري — ومقامات الهمذاني والحريري فن روائي خاص — على أنه اليوم يدرك شأنهما ولا يتنكر لهما بل يفاخر بهما وإن يكن استمدهما من بلاد الهند وفارس كما ذاع وشاع

لقد كان الأدب اليوناني يحفل بهذه الأقاصيص البارزة في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة . ومن هذا الأدب نهل « لافونتين » في أقاصيصه الفرنسية ذات الشعر الطليق ، على أن ثمة من يقول ، ويثبت ما يقول ، أن « لافونتين » نعم بكليلة ودمنة فاقتبس منها وصاغ تلك الأقاصيص الواقفة في طولها عند القتر ، وإن تجاوزته فالى الشبر ، اللائي بالمغزى الرائع والإرشاد البليغ ، فاستمان بالحيوانات على تأديب الملوك شأن ابن المقفع في كليلة ودمنة . ومما يدل على اقتباس « لافونتين » من كليلة ودمنة أن بين ابن المقفع ولافونتين نحواً من ألف سنة ، وأين كان الأدب الفرنسي يوم كان الأدب العربي زاهراً ريانا يناطح السماء ؟ . .

قد تسمع ممن يحدثك عن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة أنهما شيء قديم . غير أن هذا القديم لا يخلق لجدته ، فهو أبداً جديد . وعشاق الروايات وقد ملوا طراز اليوم ، وبعضه يشبه بعضاً ، يميلون الى الجديد . وروايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة مما يجوز أن نسميه جديداً ، وإن تكن انبثقت منذ ألف عام .

ولا نكير في أن ثمة خرافات وأساطير ، على أن الخرافات والأساطير إذا عرضت على الناس في إناء مزخرف براق وكانت دسمة طيبة ازدردها الناس وهضمتها المعد . وخرافات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة كالقاتنة الحسناء ، وكل مايعاب على ألف ليلة وليلة المجهولة الأم والأب أنها ركيكة ضعيفة في قالبها ، ولو اتفق لها من يصوغها في بيان ابن المقفع لنافست كليلة ودمنة في متانة تعبيرها وصحة مبناها .

ومما نستدل به على أن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يثيران ضجة بعيدة الصيوت في الأدب العربي ، لو برزا اليوم إلى النور ، ويتربعان في القمة العليا من الفن الروائي ، مايلقيان من غزو الروائيين الأجانب ، فكل يوم يرزحان تحت غارة جديدة . وليست رواية « حديقة على العاصي » للكاتب الفرنسي الشرق الديباجة « موريس بارس » غير قبس من ألف ليلة وليلة . وما رواية « الأتلانتيد » لبيير بنوا غير صفحة من صفحات ألف ليلة وليلة . فكأنما مستوحى أدباء الفرنج يسلبونها أطايبها الباحة دون أن يقف في سبيلهم من يقول لهم : ماذا تفعلون ؟ . .

ومع كل احترامنا للتوراة وتقديرنا لها نجرؤ على أن نقارن بينها وبين ألف ليلة وليلة مقارنة صادقة لا نرمى مطلقاً الى الحط من قدر الكتاب الكريم . إن هي إلا مقارنة أدب بأدب . وكل ما نريد إثباته أن ألف ليله وليلة أضحت لدى كتاب الغرب أشبه بالتوراة . فكما يغيرون على التوراة يستوحونها يغيرون على ماجادت به علينا شهرزاد اللسانة ، أو الثرثارة ، التى لا تسكت عن الكلام المباح إلا حين يطلع الصباح .

ولا تقف غارة كتاب الغرب عند ألف ليلة وليلة ، بل هم يشنون أبداً الغارة علينا ويستأثرون بكنوزنا ونحن عنهم في غفلة ، فلا تراهم إلا يشدون الرحال الى هذا الشرق ، هذا الشرق الحافل بكل غريبة ، الطافح بالأسرار ، المنبثقة منه الأديان ، المتصاعدة من معابده روائح البخور تنفثها المجامر الحزام . هذا الشرق القديم في حضارته وهياكله وآلهته ، المثقل بالرموز والأشباح والمغارت ، المخيمة عليه حسرات داود وحكمة سليمان ، الهزأ

الشرق الراسخة فيه المساجد العالية القباب ، والمآذن الناطحة السحاب ، والمستورة فيه المرأة وراء ألف حجاب وحجاب . هذا الشرق مهد الناقة والبعير ، المتهادية فيـــه العمائم والقلانس والطرابيش ، المكردسة فيه الذكريات أطباقاً فوق أطباق ، من عهد الفراعنة ، الى عهد العبرانيين ، الى عهد الأشوريين ، الى عهد الفرس ، الى عهد العرب ، الى عهد الأتراك .

وعلينا ألا ننسى الصليبيين . فالصليبيون أموا هذه الديار ، ومنذ أقبلوا والغارات علينا تتلو الغارات فى الميادين كلهـا ، فى السياسة والأدب ، فمن غزو الى استعمار . !

***

ومن غزاتنا فى أدبنا « بيير بنوا » القصصى الفرنسى . فهو يفكر اليوم فى وضع رواية تتناول فصولها جماعة الصليبيين وتدور حوادثها عليهم . فهم أبطالها وسادتها وحجر الزاوية فيها ، ولبيير بنوا أن يقول فى الصليبيين ماشاء . فالقول ذو سـعة ، ومخيلة الكاتب قد تأتيه بالمبتكر ، ولكن هل عودنا بيير بنوا الابتكار ؟ . . .

كل مارأينا من بيير بنوا لا يزيد على كونه مقتبساً ، وهـذا الاقتباس لاغبار عليه لوعرف الكاتب كيف يتلاعب به ويمنحه من قوة الخيال والجمال ما يرفع من شأنه ويزيد فى قدره ، أما أن يكتفى بالاقتباس دون أن يضيف أليه الابتكار الورق السمين فأى عمل أتاه ؟ . . .

وبيير بنوا ليس من المبتكرين فى إنشائه ولا فى حوادث روايته فهو من الطبقة الوسطى فى الروائيين ، وفى طبقة دون الوسطى فى المنشئين ، حتى وإن يكن يكتب باللغة الفرنسية . فليس كل مايكتب باللغة الفرنسية وبسائر اللغات الحيـة بلبغاً عالى الديباجة باقياً على مر الأيام . فكل لغة حافلة بالمبتذل السخيف . كل لغة يتلاشى منها معظم ما يكتب الكاتبون وينشر الناشرون . ولايخلد من ثمـار القرائح غير جزء من عشرة آلاف جزء . وإذا بقى شىء من مواليد « بيير بنوا » الأدبية ، فلا ريب بأن روايته « ربة قصر لبنان » — وقد استمدها من لبنان — ليست بذلك الجزء الباقى ، فهى تحت رحمة الفناء ، وربما استطعنا أن ننعاها منذ الآن .

قد تبقى منه رواية « الاتلانتيد » ، على أن رواية « الاتلانتيد » من سرقاته لا من مبتكراته . وكل نفسه فيهـا أنه انتقل بها الى أفريقيـا ، الى الصحراء . الى تلك الديار القاحلة الجرداء . وماذا يقال عنه فيها ؟ . . . يقال إنه صاحب « الاتلانتيد » ليس غير . وقد يجوز لك أن تقرأ « الاتلانتيد » كما يجوز ألا تقرأها . فاذا قرأتها خرجت منها صفر اليدين . وإذا وقفت عن قراءتها ربحت الوقت إن يكن الوقت عزيزاً عليك . وقد تسأل : كيف بلغت رواية « الاتلانتيد » هذه الشهرة العالميـة ؟ . . . وجوابنا أن المؤلف أجاد بث الدعوة لروايته ، فذاع لهـا الصوت العاطر فى الأندية الأدبيـة جماء قبل أن تقف هذه الأندية على مضمونها . وشـاق الذين طالعوها من الغربيين تلك الصبغة الشرقية فيها . وجاءت دور السيمياء ترفع من مكانتها . والحق يقال إن « الاتلانتيد » نجحت فى عالم السيمياء أكثر منها فى عالم الأدب

واليوم و « بيير بنوا » يفكر فى وضع روايتـه الصليبية سوف نرى أى وحى هبط عليه . أيدرك التوفيق أم لا يوفق ، ونحن نرتاب فى توفيقه لمعرفتنا شأنه الأدبى . غير أننا لانستطيع الانـكار ان الرجل من الغزاة الفاتحين . فهو يقبل علينا ينتزع منا موضوعاته الروائية ونحن نشاهد ما عندنا من كنوز ولا نـكلف أنفسنا نبشها وإبرازها إلى النور . فالرواية فى الأدب العربى الجديد لاتزال فى المهد ، مع أن الأعصر العباسية حفلت بها وراحت تفاخر العالم بثمارها اليانعة الشهية ، ولا يبرح العالم يتذوق هذه الثمار وسيتذوقها ما دام الأدب وضاء الجبين

وليت أدباء اللغة العربية يدركون اليوم شأن القصة ، فتعالجها أقلامهم بما يعيد إلى الأدب العربى مكانته الأولى وعزه القديم . فالرواية حجر الزاوية فى كل أدب ، وفى كل نهضة ، وفى كل دين !

بيروت **كرم ملحم كرم**

صاحب جريدة « العاصفة »

لا تحــزني ...

بقلم جورج وغريس

لا تحزني يا سيدتي . فهكذا شاء القدر أن يدفع بك الى محيط هذا العالم ذرة مضطربة من ذراته التي لا تستكين ولا تهدأ . . كلما حضرني أمرك أيتها السيدة ، شعرت بالألم يحز في قلبي ، وأحسست بالحياة كلمة غامضة في سجل مبهم ، ورأيت السعادة كذبة هائلة انحدرت من شفاه الأبالسة الى آذان هذه الأجيال التعسة الخالة . .

لا تحزني أيتها السيدة الكريمة ، وكفكفي دمعك لأنك لست بمستطيعة أن تغطي الأفق الوسيع بكفك الصغير ، ولست بقادرة أن تحولي دون الريح وهبوبها ، أو النهر وجريانه . .

قبل أن تغرب شمس اليوم زاحفة بأشطانها أوزار العالم وأوحاله لتقدمها الى صاحب العرش الأعلى . . . جاءني طفلك الصغير ، وكأن أحزان العالم قد وسعها قلبه الغض وهو يلهث من التعب ، وأخذ يبكي ويقول لي في كلمات يقطعها البكاء : « تعال لتخفف عن أمي . . . إنها حزينة من الصباح . . . إنها طريحة الفراش . . . باكية منتحبة . . . وكلما سألتها السبب قالت : إن أباك لم يعد . . . فمن يكون أبي ؟ ومتى يعود . . . ؟ إنني لا أفهم ما تقوله أمي . . . »

فيا رحمة الله أدركيني . . . بأي لسان ينطق هذا الطفل . . ؟ أتستطيع ملائكة الرحمة أن تظل واجمة ساكنة ؟ أتظنين يا سيدتي أن الرياح حملت فيما تحمل تلك الكلمات التي نطق بها هذا الصبي البريء . . . ؟ كلا بل إنها ستبقى خالدة في نفسي ما بقيت . . . وستظل حائمة في فضاء هذا العالم لتصرخ في آذان الجيل بعد الجيل أن الانسانية ما وجدت إلا لتشقى ، وأنه ما من أرض إلا وزرعت فيها التعاسة ، وما من حاصد فيها إلا وهو للبؤس ربيب . . .

من يقول لطفلك أيتها السيدة الحزينة إن أباه هو الشر الذي ولد الخير ، والحبة النتنة التي أنبتت الزرع الجميل ، والحشرة القذرة التي انبثق منها الشهد ، والريح الخبيثة التي خلفت النسمة الطيبة ، والنيم الحالك الذي بعث ببهجة الأرض ، وهو اليد التي دفعت به الى الحياة . ثم تراجعت متخفية كاليد السارقة التي تأخذ غادرة ولا تعترف بعطاء . . . .

من يقول لطفلك يا سيدتي إنه ما من وليد من أمثاله إلا وله أب يزغاه بعنايته . أما هو فيتيم وإن كان أبوه حياً يرزق ، ولكنه يشاء اليتم لابنه ويريد النعم لنفسه ، وليس وا أسفاه في قوانين الأرض ما يرد تلك المشيئة أو يمنع تلك الارادة ، وليس وا أسفاه في نتاج الانسانية بعد جهاد القرون ما يخفف أنين الطفل وهو يسائل الحقيقة « من يكون أبي . . . ؟ »

يا سيدتي الحزينة — خفقي عن نفسك فما أردت أن أثير أشجانك . . . دعي الماضي يمر أمامك كالأطياف السريعة . . . ماذا يؤلمك وماذا يبكيك ، وأنت ربيبة الألم ووليدة البكاء ؟ . . .

لقد كنت فتاة في منزل أبيك تقاسين من غلظته ، وتعانين من زوجته ، وتشكين فراق أمك المطرودة البعيدة . . . وكما خرج موسى من أرض مصر ، خرجت أنت من سجن أبيك الى دار زوجك ، ولكنك لم تجدي في صحرائه مناً ولا سلوى . . فمسكينة أنت أيتها السيدة . . . لقــد رضعت الشقاء ، والشقاء ما زال في أحضانك رضيعاً يترعرع . . . ورشفت الكأس وثمالتــه أشد مرارة . . . . .

مسكينة أنت أيتها السيدة . . بل مسكينة كل امرأة تعيش في كنف زوجها الغاصب ، لأنها لا تستطيع أن تلامس أطراف السعادة ولو كانت الجنة تحت قدميها . . . غريب أمر الرجل في هــذه الحياة ، خلق الله له المرأة ليأتنس بها خلق هولها الوحشة ، وجعل الله له القوة ليحمي ضعفها فنازلها بقوته . . . ومنذ انحدر آدم الى هذه الأرض والفضيلة والرذيلة تعتركان ، أما الحق فمخبوء أبداً . . .

لا تحزني يا سيدتي لأن الحزن لا يقدم من شأنك ولا يؤخر ، فانما أنت مخلوق ضعيف أسلمته يد الأقدار الى قبضة عاتية . . . وما دامت المرأة في دولة الرجال ، فسوف لا تعيش إلا ذليلــة مسكينة . . . لأنهم يصنعون الشرائع ويحتكمون الى أنفسهم ثم يحكمون . . .

لا زلت أذكر يا سيدتي اليوم الذي أتيت فيــه الى جوارنا ، وكان زوجك يتعهد هذا الوكر برعايته ، يبادلك الوفاء ويقاسمك السعادة ، ولكنه كان متكلفاً في هذا العناء فقبل أن يرى طفلك النور ، انسل كاللص السارق ليعيش في الظلام . . . ومنذ ذلك الحين الى الآن وزوجك مقبور في حفرة الأحياء ، لا يتلمس النور ولا يتسقط الماء .

ما أغرب هذه الطبيعة البشرية وما أعجب أمرها . . . إذا أصابها التقلب والتلون نسيت ما فعله يومها فى أمسها ، وبَعُد خيرها عن شرها ، وتنكر حاضرها لماضيها . . . فاذا بصاحبها إنسان لا يستأنس ، وإن كان الحيوان قد بدأ ينسى ما فى أحط غرائزه من غدر وفتك وبطش . . .

قومى ياسيدتى ورفهى عن نفسك فلكل بداية نهاية ، ولا بد لجقك أن ينتصر اليوم أو غدا . لأن الألم الذى تعانى لم يحترق بمثل ناره قلب من قبل ، والدمع الذى ينهمر من عينيك الغائرتين على وجهك الشاحب لم تدانه فى حرارته ما سكبته عيون الشقاء منذ ولادته . . .

للمريض آلام وللفقير آلام ، للمتعب آلام وللضعيف آلام ، للغريب آلام وللطريد آلام . . . وآلامك أنت أيتها الشقية المظلومة تسمو على كل ألم . فيجب أن تسمو نفسك بقدر سموها . ويجب أن ترفعى رأسك فوق الطوفان الذى يغمرك . وليكن مثلك فى ذلك مثل الحادى وراء الابل يقطع الفيافى على قدميه ، وقد أمضه التعب وأضناه الجوع وعضه الفقر ، وهو يغنى أنشودة الحياة والحب والفرح . . .

فى بكائك المتواصل « قولى ما يقوله الفلاحون عن غيث السماء : هذا المطر كله حنطة » . . .

فى ظلامك الدامس تطلعى الى الخيوط الرفيعة البيضاء التى تتراءى لك من وراء الأفق ، وارفعى نحوها بصرك . . .

قومى ياسيدتى . ولا تجعلى للألم سلطاناً على نفسك . فقد فنيت بك العلة فملها . . وارحمى طفلك الذى هوى على صدرك ليمزج أنات قلبه بدقات قلبك . . قومى ياسيدتى وهات يدك . . .

***

قلت هذا بجوار سريرها . . ثم مددت يدى الى يدها . فاذا بها باردة ! . . .

يا لشقاء نفسى ! . لقد كنت بكلماتى الأخيرة أخاطب الأرواح الهائمة حولى . . . فى استطاعة المرء أن يذكر كل ما يجول بخاطره ، ولكنه ليس فى استطاعته أن يقول كل ما يبدو لناظره .

أيها الرجل ... لقد ماتت تلك المرأة !

اسكندرية — جورج وغريس

الأزمة كما يراها الاقتصاديون

بقلم عبد العزيز عبد الكريم

كانت الشعوب القديمة تشكو من القحط والمجاعات . قال الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة يوسف : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » . هذا ما رآه ملك مصر فى منامه ، فلم يعرف أحد تأويل رؤياه ، وكان يوسف حينئذ فى السجن ، فاستدعاه الملك واستفتاه فى أمر الرؤيا ، ففسر يوسف المنام قائلاً له : إنه سيمر عليكم سبع سنين خصبة ، فازرعوا فيها واخزنوا ما زرعتم وهو فى سنابله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة ، تأكلون فيها مما ادخرتم .

***

وقد تطورت الآن وسائل المعيشة وأحوالها ، وتبدلت طرق الكفاح فى سبيل العيش ، وارتقت الزراعة والصناعة والتجارة ؛ فنشأت بإزاء هذا التبدل مشاكل جديدة ، وظهرت معضلات خطيرة . وأشد ما نعانيه الآن من النظام الاقتصادى الحالى هو الأزمة التى انتابت العالم بأسره ؛ وقد خلقت للعالم مشاكل عديدة لا تنحل ولا تزول إلا بالسلاح .

الأزمة هى اضطراب فجائى فى التوازن الاقتصادى ؛ ولها أعراض وعلامات تشابه أعراض الأمراض التى تصيب الانسان ، فبعض الأزمات يقتصر على بلد واحد ، وبعضها وبائى يتنقل فى أنحاء العالم كمرض الكوليرا .

***

عرف الاقتصاديون بعد طول البحث أن ظواهر الأزمة وأعراضها هى هى فى كل الأزمات تقريباً . وأول ما يشير إلى نشوء الأزمات تناوبها ؛ فقد رؤى أنها تتبع بعضها بعضاً فى القرن التاسع عشر بنظام منتظم عجيب ، فبين كل أزمة وأخرى مدة تبلغ عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ، نصفها يمثل حالة صعود ،

والنصف الآخر يمثل حالة هبوط ، ويظهر ذلك في تقلبات الأسعار والأجور ، وأسعار الفوائد .

ومن ظواهر الأزمة وبائيتها ، ففي بادىء الأمر يزيد الانتاج في احدى الصناعات أو ينقص ، وينتقل هذا الاضطراب من صناعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر .

هناك ثلاث علامات خاصة تسبق الأزمة ، وتعلن قرب حلولها :

(١) ارتفاع في الأسعار يدل على نشاط الاستهلاك ، ووفرة الأموال المتداولة وسهولة الاقراض .

(٢) ارتفاع في قيمة الضمانات القابلة للتحويل وخصوصاً الأسهم والسندات ، ويدل ذلك على تقدم المشروعات التجارية وزيادة الانتاج ، وزيادة الحصص في رؤوس الأموال .

(٣) ارتفاع في الأجور يشير إلى نشاط سوق العمل ، وزيادة الطلب للعمال .

غير أنه بعد وقت ما ، تتغير الحال وتنقلب حالة الصعود الى حالة هبوط ، ونجد أمامنا :

(١) تدهوراً في الأسعار : يدل على عجز الاستهلاك ، وندرة الأموال المتداولة وصعوبة الأقراض .

(٢) تدهوراً في قيمة الضمانات : يدل على تدهور الأرباح والحصص ، وفشل المشروعات الكبرى الخطيرة ، وسقوط يرافقه ارتفاع في سعر الخصم والقطع .

(٣) تدهوراً في الأجور : يدل على شلل الانتاج ، ووقف طلب العمال ، والاشراف على الوقوع في خطر العطلة والعاطلين .

والأزمات التي وقعت في القرن التاسع عشر تواريخها كما يلي :

١٨١٥	١٨٥٧	١٨٩٠
١٨٢٧	١٨٦٦	١٩٠٠
١٨٣٦	١٨٧٣	
١٨٤٧	١٨٨٢	

وقد لاحظ جيفونز gevons من هذه التواريخ أن الأزمات والت بعضها في خلال فترات ومسافات منتظمة تبلغ كل واحدة منها عشر سنوات تقريباً . وقد ظن أن الأزمات يرجع سببها إلى ظاهرة فلكية لا سلطان لأحد عليها . ولكن القرن العشرين قد دحض نظريته هذه ، فان أول أزمة وقعت فيه كانت في عام ١٩٠٧

***

اهتم الاقتصاديون بالبحث عن أسباب الأزمات ، وأخذوا يبحثون عن علة توالي الأزمات وتناوبها ، فاهتدوا أخيراً إلى الأسباب الآتية :

(١) وفرة الانتاج (over-production) : لا تنشأ وفرة الانتاج إلا عن تقدم الصناعة الكبرى . فمن البديهي أن البضائع المعروضة في السوق سوف تزيد يوماً ما على حاجة الاستهلاك ، ويصبح من العسير تصريف شيء ما من هذه المقادير ؛ فينتج عن ذلك تدهور عام في الأسعار ، ولكي يتجنب الصناع البيع مع الخسارة يحصلون على الأموال من المصارف ، أو يبيعون الأسهم ، فينشأ عن ذلك ارتفاع في الفوائد ، وتدهور في قيمة الأسهم ، حتى يصبح المال نادراً ، وذلك راجع إلى زيادة السلع المعروضة . وسرعان ما يصبح هؤلاء الصناع في حال من الافلاس والضنك يرثى لها .

وها قد رأينا كيف يسبق الانتاج الاستهلاك ، وكيف يقف الانتاج عن السير عند حد معين ، وكيف يسير الاستهلاك حتى يلحق الانتاج ، فيسبقه بدوره ؛ وهذا السبق لابد منه . فظاهر لنا في هذه الحال علة تناوب الأزمات : وكل أزمة يعقبها وقت تعوض فيه الصناعة خسارتها ، وتنتعش حالتها ، وتجدد إنتاجها ليسد مطالب الأفراد الحديثة .

(٢) قلة الاستهلاك (under-consumation) : ويذهب بعض الاقتصاديين الى أن الأزمات هي في الغالب راجعة إلى زيادة الانتاج الناشئة عن شراهة أصحاب رؤوس الأموال الذين يحاولون استرداد ما فقدوه من الأرباح عن طريق الكمية ؛ ولكن السبب الأساسي هو عدم كفاية ثروة أغلب المستهلكين — وأغلبهم من طبقة عمال اليومية — لابتياع ما أنتجوه وما صنعوه بأيديهم ؛ فزيادة الحاجة إلى الصناع لتوسيع الانتاج وزيادته ، وزيادة عمال الأجور ، وعدم القدرة على تسديد أجورهم ، تؤدي إلى اضطراب التوازن في وقت من الأوقات . ويزيد الاضطراب وتشتد الأزمات حتى يحين الوقت الذي يقضى فيه على نظام الرأسمالية . فهذا النظام مقضي عليه بالفناء بسبب النتائج التي أدى إليها .

(٣) زيادة الرأسمالية (over-capitalisation) : اتفق

الاقتصاديون على أن زيادة الرأسمالية أخطر من زيادة الانتاج فى إحداث الأزمات . إن المصانع الكبرى يلزمها ترتيب حركة دولاب العمل بتجهيز الآلات ، والمناجم ، والعربات ، والسفن وغير ذلك . وإذا كان المصنع على أهبة الاستعداد للعمل ، فقد يرسل غلالاً لاحصر لها إلى السوق . وليس فى الامكان وقف هذه الحركة متى رغبنا ، لأن رأس المال ثابت لا يمكن سحبه بأى حال من الأحوال . تتدهور الأسعار تبعاً لذلك ، وتفلس أكثر المشروعات ، أو تستسلم للأمر ، حتى تتصرف الزيادة بزيادة الاستهلاك نظراً لتدهور الأسعار .

والاقتصاديون يعتبرون أن قلة الانتاج ليست سبباً من أسباب الأزمات أو ظاهرة من ظواهرها : فلماذا ؟ ألا يضطرب الميزان الاقتصادى بقلة الأنتاج كما يضطرب بزيادته ؟ بالرغم مما تحدثه قلة الأنتاج من البؤس والفناء والموت ، وبالرغم من القحط والمجاعات التى سجلتها الحوادث المخيفة والشهيرة فى تاريخ الشعوب كلها ؛ فان الاقتصاديين لم يجمعوا الآراء على أن القحط والمجاعات نوع من أنواع الأزمات ، إذ ليس من خواصها التناوب ، ولا ارتفاع الأسعار قبلها ، ولا هبوطها بعدها .

***

أما علاج الأزمة : فيقف على نوع الأسباب التى أدت إليها . فاذا اعتقدنا أن السبب هو زيادة الانتاج ، وجب علينا أن نعمل على تحديد ذلك الانتاج ، فيمكننا توحيد الشركات وتضامنها ، وتنظيم إنتاجها لتتمكن من منع زيادة الأسعار المطردة وهبوطها أيضاً ؛ ويمكننا إيجاد حركة تعاون بين الشركات لتنظيم حركة الأنتاج تبعاً للحاجات لا تبعاً للأرباح .

ولو اعتبرنا أن سبب الأزمة هو أن طبقة العمال ليس لديها من الثروة ما يعينها على زيادة الاستهلاك كلما زاد الانتاج ، كان من الضرورى أن نبحث عن نظام يضمن للعامل نجاح كل ما ينتجه .

وإذا نظرنا إلى زيادة الرأسمالية ، وجب أن نلجأ إلى المصارف إذ هى أكبر عضد لمساعدة الشركات وإمدادها بالأموال . قد تتدخل المصارف ، إما برفع سعر القطع لديون الآجال المحدودة ، إذا رأت أن سرعة التداول تزداد إلى درجة مقلقة ، وإما بانقاذ البيوت الكبيرة الوشيكة السقوط والضياع ، إذا كان لسقوطها الأثر الفعال فى إحداث الاضطراب وشل الحركة التجارية .

والأزمة الناشئة عن زيادة الرأسمالية تزداد وتشتد وطأتها بسبب الذعر والتشاؤم الاقتصادى . والتنبؤ بالأزمة يزيد الخطر ويسوقنا عن العمل على تلافيها ، فما أجدرنا ألا نعتقد ذلك ، فالخوف من الشر يولد الشر ، والتفاؤل بالخير يجلب الخير ؟

اسكندرية عبد العزيز عبد الكريم

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٤ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

أجزاء أخرى للعمل

ذلك هو التقسيم الأساسى للعمل ، وهناك تقسيم آخر أغفله اليونان واستعمله الرومان ، وهو تقسيم العمل الى فصول ، والفصول الى مناظر . فالفصول هى مراحل العمل أو درجاته ، تفصل بين كل درجة وأخرى فترة تسمى استراحة ، والمناظر أجزاء الفصل المختلفة ، وتحدد بدخول ممثل أو خروجه . ولعلك لا تكتفى بالتعريف فى شرح هذه الكلمات ، فدونك شيئاً من التفصيل :

الفصل : لم يعرف الأغريق كما قلت تقسيم الرواية الى فصول ، وإنما كانوا يعرفون شيئاً يشبه ذلك فى تمثيل ثلاث مآس فى موضوع واحد ، كل مأساة لها كيان مستقل عن الأخرى . أما اللاتين فقد قسموها الى فصول حصرها هوراس فى خمسة لا تزيد ولا تنقص . ففى الأول يعرض العمل ، وفى الثانى ينشط ، وفى الثالث يعقد ، وفى الرابع يهيأ حله ، وفى الخامس يحل . ولكن جعل هذا التقسيم قاعدة مطلقة لا يخلو من ضرر . وإلا فماذا يصنعون فى موضوع يعرض فى منظر ويحل بكلمة ؟ أيتركونه وهو ظريف مؤثر صالح للتمثيل ، أم يملأ بالتطويل والحشو حتى يكمل ؟ وما حكمهم على مأساة أو ملهاة محكمة النسج لا تبدأ عقدتها إلا فى الفصل الثالث ، ثم يخصص لحلها الفصل الخامس ؟ إن التعقيد هو جسم العمل وروحه كما علمت ، فينبغى أن ينزل من الرواية فى أوسع محل ، بل يجب أن يكون كالتيه ، مدخله العرض ومخرجه الحل . وأمهر الكتاب وأقدرهم من عجل بالتعقيد ثم طوله ما استطاع محكما القوة ، متدرجاً فى عقدته .

الحق أن جريان العرف بتقسيم الرواية الى خمسة فصول ليس قائماً على أساس متين فيفرض ، ولا هو خالياً من الفائدة الفنية فيرفض ، إنما المرجع فى ذلك كله الى طبيعة الموضوع ، فاذا كان قوياً غنياً يستطيع أن يملأ خمسة الفصول كان ذلك التقسيم أدعى الى انفساح العمل وتقوية الجاذبية وتحليل الأخلاق واطراد الحوادث من غير ضغط ولا اصطدام ولا مباغتة . وأما اذا كان بسيطا لا يحتمل البسط ولا يقبل التطويل فخير لك أن تغلب حكم الطبيعة على حكم العرف فتتصرف فى التقسيم تصرفاً يلائم الموضوع ويتفق مع الأمكانية ويعصمك من الحشو والتكلف . على هذا الرأى يسير الكتاب اليوم فتجد الروايات تتردد بين فصل واحد وخمسة .

على أن الشرط الأساسى هو الدقة فى هذا التقسيم حتى يحسن توزيع العمل ، ويمكن تدرج الجاذبية فى الفصول والمناظر بحيث يكون العمل كالساعة : فالحوار يرصد الثوانى ، والمناظر ترصد الدقائق ، والفصول ترصد الساعات ، لأنك اذا أرحت العمل فى منظرين متعاقبين فترت الحركة وخمد الأثر . اقرأ رواية ترتوف لموليير — وهى منقولة الى العربية — وراقب فيها سير العمل وتدرجه وتقسيمه تجدها فى كل ذلك المثل الأعلى . علام يدور العمل فى هذه القطعة الخالدة ؟ يدور إما على هتك الحجاب عن نفاق ترتوف وخبه ، وإما على استيلائه على بيت أرجون وثروته ، وحرمانه ابنه ، وزواجه من ابنته . فماذا صنع موليير فى الفصل الأول ؟ عرض على أنظارنا صورة المنزل الداخلية ، وأرانا سلطان ترتوف المنافق على أرجون الساذج وأمه العجوز ، وأطلعنا على سوء رأى الباقين من الأسرة فى هذا اللئيم . أعلن كل ذلك فى المنظر الأول فاشتبكت المعركة وابتدأ العمل بقوة . وفى الفصل الثانى حمل أرجون على الأقرار بطاعته العمياء لترتوف ، وترتوف قد قطع ما بينه وبين بنيه وزوجه ، وأفسد ما كان صالحاً من نفسه ، وجعله يعلن أن ترتوف سيكون زوج ابنته ، وابنته تحب ڤالير ، ولكنها لم تجرؤ على عصيانه . ومن ثم نشبت المعركة المضحكة بين العاشقين . وفى الفصل الثالث كاد داميس بن أرجون يفضح أمر ترتوف ، وأوشك العمل أن يشارف الحل لولا براعة المنافق وسذاجة أرجون ، فاستحكمت العقدة وقويت الجاذبية بعزم أرجون على معاقبة بنيه بالخروج عن ماله كله لترتوف . وجاء الفصل الرابع فانكشف سر ترتوف وانجلى أمره لأرجون فهم بطرده ، إلا أنه عارضه بعقد الهبة ، وهدده بوثائق تتهمه وتجرحه ، فاضطرب البيت ونال من أهله الهم والجزع . وفى الفصل الخامس زاد الاضطراب ، واشتد القلق حتى حانت ساعة الانقلاب فعرف

الملك بخيانة الماكر فقبض عليه وعفا عن أرجون . فأنت ترى أن العمل قسم بدقة ، وأن الجاذبية وزعت بحكمة ، وأن الموضوع كان كافياً لتغذية الفصول فبرئت القطعة من الاستطراد واللغو

الاستراحة :

هي فترة بين فصل وآخر من فصول الرواية يقف أثناءها التمثيل وينقطع انتباه المشاهد ، أما العمل الروائي فلا بد من فرض استمراره خارج المسرح مجاراة للطبيعة والواقع ، ومحافظة على شرط الأمكانية . فهي راحة للمشاهد وضرورة للمسرح ، ولكن الممثل يجب أن يشتغل فيها ، وإن كان في الواقع يستنشي هو أيضاً نسيم الراحة في ظاهر المسرح (الكواليس) . ولا مناص للكاتب من أن يراعي ذلك وهو يكوّن هيكل الرواية ويقسم العمل على الفصول . فلا يجوز مثلاً أن يحرك العمل عند ما وقف في الفصل الأول . بل يفرض أن العمل قد قطع في أثناء الاستراحة مرحلة طويلة أو قصيرة على حسب الظروف ، فحكمه في ذلك حكم مهندس البناء يرسم في تخطيطة الأماكن الفارغة والمشغولة ولكل منها نصيب من عنايته وتقديره . وبعد ، فان الاستراحة عظيمة النفع جليلة الخطر . وحسبك أنها أجل مزايا المسرح الحديث ، اهتدى إليها فحقق بها مبدأ الامكانية ، ووثق بها عقدة الجاذبية . أما الأغريق فما كانوا يقفون التمثيل ، وأنما كانوا يشغلون ما بين الفصول بالقيان (الخورس) وكان يساعدهم على اتباع هذا النظام اشتراط وحدتي الزمان والمكان . فلما تحلل المحدثون من سلطان هاتين الوحدتين وأجازوا لأنفسهم الخروج عن مداها لم يكن بد من هذه الاستراحة يسدون بها خلل التمثيل ، ويتقون بها ملل التطويل ، ويفرقون ما بين الحوادث والواقع . وأظن في هذا الكلام شيئاً من الغموض فاليك توضيحه :

لاشك أن في الطبيعة كثيراً من الأشياء لايمكن أن تمثل على المسرح ، ولا أن تغفل في الرواية ، فاذا أسأنا تمثيلها أضعف الوهم المسرحي ، وإذا أغفلنا ذكرها شوهت العمل الروائي . فلا مخرج لنا إذن من هذه الحيرة إلا الاستراحة ، نفرض حدوثها في خلالها ، ثم نكتفي بعد ذلك بذكرها . كذلك لايخلو العمل المسرحي غالباً من تطويل لازم وتفصيل واجب يملان المشاهد ويُفتّان في طبعه ، وهو يأبى إلا أن يظل مشغول القلب متمتع الحواس بتأثير لذيذ قوي ، فنستطيع إذن أن نوفق بين شعور الشاهد وحقيقة الواقع ، بأن نعرض على المسرح ما يلذ ويؤثر ، ونبقي للأستراحة ما يمل وينفر .

بقي أن الكاتب بفضل الاستراحة يستطيع أن يحقق مبدأ الأمكانية الزمنية بفرضه حدوث أشياء لو مثلت على حقيقتها لاقتضت من الزمن مالا تتسع له مدة التمثيل

المناظر : المناظر هي أجزاء الفصل المختلفة كما علمت ، وتحدد بدخول شخص أو خروجه ، وليس لها عدد معين . ولكن لها قاعدة عامة ، وهي ألا يبقى المسرح خالياً من ممثل حرصاً على الوهم واستبقاء للخديعة واستدامة للأثر . فاذا اضطر الممثلون جميعاً إلى تركه ليخلفهم عليه آخرون ، وجب إما أن يوجهوا الخطاب إليهم ، وإما أن يعلنوا دخولهم عليهم ، حتى لايدخل المسرح أحد أو يخرج منه دون أن يعلن الشاهدون بسبب دخوله ، أو يكونوا قد علموه من قبل حصوله . أما أن يخرج ممثلو المنظر السابق ويدخل ممثلو اللاحق من غير مخالسة النظر ولا مبادلة الكلام فذلك اخلال بشرط الامكانية

الأشخاص : يشترط في أشخاص الرواية أن تكون صفاتهم وعاداتهم (محلية) تلائم الزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما ، (متناسبة) تتفق مع عمرهم وجنسهم وطبقتهم ، (ممكنة) لاتناقض التاريخ ولا التقاليد ولا الأساطير ، (ثابتة) تلازم الشخص من بدء العمل الى انتهائه ، (متنوعة) لاتتشابه في شخصين ، بل يختلف كل شخص عن الآخر في صفته وعادته ، جارية مع العرف ، فلا تكون شاذة ولا غريبة كوصف اللص بالكرامة ، وقاطع الطريق بالشهامة ، والسفاح بالنبل . وتلك نقيصة من نقائص المسرح الحديث .

أداء العمل

يحدث العمل في نفس الممثل فيؤديه بالعبارة مستعيناً بالاشارة . والعبارة تكون حواراً وقد تكون نجوى نفس . وبحث هذه الكلمات الأربع يحتاج الى شيء غير قليل من الأناة والعناية

العبارة : الأسلوب الروائي هو أسلوب الحديث النبيل الموثق . فشرطه أن يكون طبيعياً لاتفسده الصناعة والتعمل ، حيا لاتجمده الثثاثة والتبذل ، بسيطاً لاتعقده الروية والتأمل ، ملائماً تتناسب لهجته مع نشأة المتكلم وتربيته وطبيعته وعادته وموقفه . ولن يتسنى

للكاتب أن يحقق هذه الشروط إلا إذا نسي نفسه وفني في أشخاصه، فيطرح المقاطع الوجدانية والمحسنات البديعية والتشابيه الغريبة من كل ما ينم على الدرس والبحث والتحذلق. اللهم إلا المأساة بنوعيها فإنها تقتضي الأسلوب الرائع، واللفظ المختار، واللهجة المؤثرة، لملاءمتها بالوجدان وصلتها بالعواطف. والبيان كان وما زال شرك العقول وسحر القلوب. وأكثر المآسي لم يضمن لها الخلود إلا روعة الأسلوب وبلاغة الأداء. ولقد أخطأ بعض الروائيين القصد فغلبوا جانب الحركات والإشارة، على جانب الكلمات والعبارة، فوجهوا التأثير للعيون لا للقلوب، وهيأوا الرواية للتمثيل لا للقراءة. وفاتهم أن العمل المسرحي مؤلف من الكلام والحركات. فلا الممثل متكلم لا غير كالمحدث، ولا هو متحرك لا غير كالخيال الشمسي، وإنما الكمال أن يعني بالطريقين جميعاً؛ فما كان من العمل قويا ماديا عاميا أدته الحركة، وما كان منه جليلاً دقيقاً عميقاً كآثار العادات وصور الأخلاق وتباين العواطف وتضارب الأهواء وتعارض المنافع شرحته العبارة. فظواهر الغيرة والاشمئزاز والغضب تستطيع الحركات والملامح أن تؤديها واضحة جلية، ولكن تحليل القلب البشري وهو سر الجمال في أدوار ديدون[1] واريان وفدر وهرميون لا يضطلع به إلا البيان المعجز. وهل يعلق بذهنك من القطعة الفنية بعد تمثيلها غير مواقفها الشعرية القوية التي أوجلها البراع فانتقشت في لوحة ذهنك؟

إن العمل الروائي يتجه إلى العين أو إلى القلب تبعاً لطبيعته وملاءمته للبلاغة أو للتصوير، ولكن الأثر الذي يحدثه في النفس عن طريق الأذن أهدأ وأبطأ وليكنه أبقى وأعمق، أما ما يحدثه فيها عن طريق العين فهو قوي جائي سريع، ولكنه قريب الغور قليل البقاء، لأن الأذن إنما تنقل الفكرة وهي نامية ولود، والعين إنما تنقل الإحساسة وهي جدباء عقيم. ذلك إلى أن القطعة إذا قامت على البلاغة فهي التي تخلق الممثل وتدفعه وترفعه، أما إذا قامت على الحركات فحياتها ونماؤها رهن بقوة المسرح وقدرة الممثل. ولك فيما تشهده على المسارح المصرية من روائع الفن الغربية دليل قائم على صحة ما تذهب إليه، فإن بعض المتعسفين من أدعياء الكتابة ينقلونها نقلاً لفظياً، فيهدمون فيها ركن البلاغة وهو عمادها الأقوى، فتثير الضحك وهي فاجعة، وتستوجب الهزء وهي رائعة!!

ولا يقعن في بالك أنا نريد أن نضع من قدر الحركات أو ننكر أثرها في الفن، فإن ذلك ليس في حسابنا ولا هو مفهوم من كلامنا، وإنما نريد أن يوفى الكلام حقه من العناية أيضاً حتى تقوم الرواية على قدميها فلا تسير عرجاء ولا شوهاء.

بقي علينا أن نعرض لمسألة دقيقة خلقتها فوضى الأدب في مصر، ودعوى كل أديب حق التشريع لهذه اللغة الأسيفة، وانصراف القادرين من الكتاب عن الأدب المسرحي انصرافهم عن كل جليل مثمر. تلك هي لغة الرواية! فقد زعم بعض الكاتبين أن لغة المسرح المصري يجب أن تكون العامية تثبيتاً للون المحلي وتحقيقاً لشرط الإمكانية. وكل ما يمكن أن يقولوه تأييداً لمذهبهم إن العامية لغة الأشخاص التي سايرتهم في كل سن، ولابستهم في كل ظرف، فعبرت عن خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم، وأنها حملت خلاصة تجاربهم وثمرات قرائحهم من لطيف الكنايات وبديع الأمثال وبليغ الحكم، وأنها مرآة لبيئتهم انعكست عليها صور حياتهم ومظاهر معيشتهم، وأنها أكمل دلالة وأسهل إبانة عن التصورات الجديدة التي تخرج من أعماق النفس أو تدخل في ثنايا الحوار. ذلك كلام وجيه لا غبار عليه ولا نكير فيه، وما يسوغ في رأينا أن ننقضه وقد قررناه من قبل. ولكن ليقولوا لنا متى طبق قانون الإمكانية بنصه على اللغة والأسلوب؟ إن الناس في كل زمان وفي كل مكان لا يتكلمون في الواقع كما يجعلونهم يتكلمون على المسرح. وهذه جميع المآسي ومعظم الملاهي قديمها وحديثها مكتوبة بالشعر الرصين، ذي اللفظ المنضد والأسلوب الفخم، فهل يزعمون أن أشخاصها كانوا في الحقيقة يتحاورون بالشعر ويتجادلون بالمجاز؟ أم يزعمون أن لغة راسين وشكسبير وهوجو وجوت وهي نموذج البلاغة للكتاب، وموضوع الدراسة للشباب، كانت لغة الشعب الذي كانوا يمثلونه أو يمثلون له؟ وإذا جاز لهم أن يجعلوا الفرنسيين والانجليز يتكلمون على المسرح المصري بلسان عربي، فلم لا يجوز لنا كذلك أن نجعل خاصة المصريين بل عامتهم أيضاً يتكلمون بلهجة عربية فصحى، وهي أقرب إلى هؤلاء منها إلى أولئك؟ ليفرضوا أن العامية لغة أجنبية ننقلها إلى لغتنا العربية، وليمضوا على تلك القداة النبيلة ابتغاء رقي اللغة ونهضة الأدب وتعليم الشعب. إن الفن الحقيقي أبدي خالد، ومن المحال أن تخلده لغة جيل واحد، ولهجة قطر واحد، لأن العامية تتغير من جيل إلى جيل، وتختلف في قطر عنها في قطر.

ونحن لا نريد أدباً مصرياً فحسب ، وإنما نريد أدباً عربياً يمثل حضارة مصر وثقافة المصريين ، وينقلهما الى الأقطار النائية ، والأجيال الآتية

على أن أحداً من الناس لم يقل بأن المسرح لا بد أن يعرض الحقيقة جرداء عارية ، بل المعروف أن من واجبه أن يحسنها بالخيال ويزينها بالكذب ، وفي ذلك التحسين والتزيين سحره وجاذبيته ، والمشاهد ذاهب اليه وفي نفسه أنه سيخدع ، وهو راض بهذه الخديعة ما دام فيها لذته وفائدته ، ومن قواعد المسرح أن الصدق يتوخى فيما يؤثر في الذهن والنفس من الأفكار والعواطف ، أما ما يؤثر في السمع والبصر فلا بأس فيه من الكذب ؛ فشكل الأسلوب من النظم والنثر والعامي والفصيح كشكل المسرح من المناظر والستائر والأضواء والأصباغ ، تعرف الآذان والعيون أنه صناعي مختلق ، ولكن الأذهان والنفوس لا بد أن تتأثر لما يقع في الامكان من المواقف والعواطف والأخلاق والعادات

إن المسرح مهبط البيان ومورد البلاغة وطريق النفوس الى الجمال والخير والحق ، فليس من غايته التأثير واللهو ، وإنما يعمد اليهما تخفيفاً لثقل الحكمة عن النفوس كما يساغ الدواء الشديد المرارة بالسكر أو العسل . فاذا لم يخرج المشاهد من المسرح وهو أوفر علماً وأرجح حلماً وأحسن حالاً من قبل أن يدخل فقد أخطأ المسرح غرضه وضل طريقه . ولعمري كيف يستطيع أن يرفع النفوس في مراقي الكمال ، اذا لم يترفع هو عن حقارة الحياة العامية ، ويصور للناس المثل العليا من الجمال والفضيلة فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن يسف هو إلى حضيضه ودهائه ؟

وعافني نشدتك الله من احتجاجك على بنجاح الرواية الفلانية وهي مكتوبة باللغة العامية ، فان نجاح الرواية لا يقدر بما تستدره من المال والدموع ، وإنما تقدر بما يبقى في نفسك منها بعد أن يسكن الممثل ويسدل الستار .

إن الضوء الباهر يبقى أثره في العين ملياً بعد اختفائه ، والنغم الجميل يرن صداه في الأذن طويلاً بعد فنائه ، وكذلك الفن الساحر يستولي على نفسك وحسك حيناً بعد انتهائه ، فهل تجد الأمر في هذه الروايات كذلك ؟ أم الحقيقة المخجلة أن أكثر هذه القطع تسود في ليلتين وتمثل في ليلة ، ثم تذرو أوراقها عواصف البلى والعدم ؟ !

يتبع (الزيات)

مثل أوربي لعرفان الجميل !

منزلي هو منزلك !

« قصة مقتبسة عن (F. Duviard) تمثل آراء هؤلاء الأوربيين الذين يعيشون بيننا ، ويأكلون خبزنا ثم يجزوننا عن الكرم لؤماً وعن المعروف نكراناً »

— الشرق . آه على الشرق !

همست الفتاة بهذه الكلمات ، وقد رأت رودلف فالنتينو في رواية الشيخ .

وكان بير ازنافي المدرس في تجهيز فالاندر قد طوحت به الحاجة مرة الى مصر فكان معلماً في المدرسة العلمانية الفرنسية في (الزهرة ؟) ولبث فيها عشر سنين . ثم عاد الى فرنسا منذ عشرة أشهر ، وليس في جيبه شروى نقير ، ولم يربح إلا حكايات وتجارب حملها معه من الشرق ، فلما سمع مقالة الفتاة اغتنم الفرصة فقال :

* * *

— الشرق يا سيدتي ؟ هل تحبين أن أقص عليك حادثة وقعت لي فيه ، إنها مأساة هازلة عن الصداقة العربية . كان في مدرستي الفرنسية عشرون معلماً أوربياً ومعلم واحد عربي ، عربي قح ، ذو وجه أسمر مستطيل ، يلبس القفطان والجبة الواسعة ، ويبدلها كل يوم بلون جديد . وهو مدرس للغة القرآن — الأجبارية في مصر — ومعرض دوما لاحتقار الأساتذة الأوربيين الذين يرون أنفسهم أرفع منه ، فلا يتنزلون لمصاحبته .

أما أنا فكنت أحييه التحية المعتادة لا أبالي بسخط زملائي ودهشتهم ، ولا بدهشته هو المسكين الذي ما كان يجرؤ على رد تحيتي إلا بابتسامة عريضة ، ونظرات ملؤها العطف والاحترام ، ولا تعد صحبتنا الى أكثر من هذا ، لأنه لا يعرف كلمة من الفرنسية ، ولأنني أجهل العربية إلا المائة كلمة التي لا بد منها للسير في الشارع مثل عندك هنا عربجي Andak huna arbagui و Esma fène chareh Fouad اسمع فين شارع فؤاد .

ثم شاء القدر أن نلتقي مرة في شارع فؤاد صباح يوم من ديسمبر حار ملتهب كأنه الظهيرة من أغسطس في فرنسا ، وكان

معه ابن عم له أقل عروبة منه ، له إلمام بالانكليزية ، إلا أننا لم نكن نتفاهم إلا بصعوبة ، وكان علينا أن نفترق ، ولكن رغبتي في تعرف الحياة الشرقية وضجري من الوحدة أبقياني معهما . والفضل في بقائي لابن عمه هذا . . والّغة الانكليزية (وأي انكليزية ؟) ولم تكن إلا أيام حتى كنا أصدقاء .

***

كان طيب القلب ، بسيطاً محبباً ، ولكن فيه شيئاً من العنجهية والجفاء ، وكنا نذهب كل خميس وكل أحد الى النزهة جميعاً : أنا وهو وابن عمه ، فنزور معاهد النزهة ومتاحفها في عربة أو سيراً على الأقدام .

وكان ابن العم كثيراً ما يتخلف عن الموعد ، هرباً من مهمته الشاقة في الترجمة بيننا ، فنبقى وحيدين ، وتصوري موقفنا إذن ! نسير جنباً الى جنب ونحن بنا كتان ، نتبادل النظرات في ابتسامة ساخرة حزينة ! ونسلم على المارة ، وكنت قد تعلمت التحية العربية ، وهي الأشارة باليد الى الجبهة والشفة والصدر ، رمزاً الى أن الصداقة تشغل العقل بالتفكير ، واللسان بالنطق ، والقلب بالعاطفة . وكان صاحبي يتعلم الفرنسية ، ولكنه كان يحفظ مقطعاً واحداً في كل ساعة بعد أن أردده عليه مرات ويعيده على محرفاً ، فأشكره بابتسامة .

وكنا إذا بلغنا مسجداً ودخل هو وقفت أنا على الباب أستشعر الزهو بأنني زوجي لا كالأروام ، وأنني صديق الشيخ ، وأنني تشرفت بالوقوف في عتبة قبور الصالحين .

***

وكان مساء السبت ، وكنت في المدرسة ، فدنا مني أحد الطلاب وأعطاني رسالة من الشيخ ، مكتوبة بالفرنسية باللغة التي يحسنها طالب صغير ، ففتحتها فاذا فيها :

«ياصديقي العزيز التالم الفاضل ، تفضل بالمجيء غداً الى داري الحقيرة ، لتتناول الغداء معي ، واعلم أن منزلي هو منزلك . . . . »

منزله منزلي ! . ولكن من الظهر الى الساعة الرابعة ، وطعامه طعامي ، وكنت وا أسفاه مضطراً الى الاجابة ، لأن أي رفض مني يكسر هذا القلب الطيب ، ولا أنسى ما حييت تلك الأكلة المنحوسة وهي التي يسمونها (الملوخية) ، ولا أنسى كيف كانوا يأكلون من غير صحاف ولا شوكات ، إنما يغمسون خبزهم جميعاً في صحفة واحدة ، وكان على أن آكل بأصابعي هذه الدجاجات المحمرة التي أكرمني بها ، وجعل نصيبي منها اثنتين ، وقد ذهبت من الدعوة رأساً الى الفراش ، فلبثت ثلاثة أيام مريضاً !

ورأيت في هذه الزيارة عقيلة الشيخ سافرة ، لأن المعلم كالقس ليس كالرجال ، ولا ضرورة للتحجب دونه (هكذا . . .)

***

وتوثقت صداقتي مع الشيخ ، فعرفني بالقاهرة وحياتها ، ولم يكن غنياً ، غير أنه لم يمكني من فتح كيسي مرة واحدة حينما أكون معه ، بل يكون السابق الى دفع الحساب المطلوب ، كنا نزور الأهرام ، ونجول في القاهرة وهي أشبه بعشرين مدينة مجتمعة منها بمدينة واحدة ، بل هي عالم لا بد لرؤيته من ثلاثة أشهر . أما أنا فقد لبثت فيها مع الشيخ مدة قصيرة وإن أنس ذكراها لا أنس وقوف القطار بنا يوماً في المحطة ، ورؤيتنا قريب الشيخ ينتظرنا ومعه البلح والبرتقال والموز المصري الصغير وغير ذلك مما لا أدرى من أين أتى به ، وما كنا نتحدث إلا بالابتسامات والجمل المقطعة والأشارات ، كأن صداقتنا صداقة صامتة تتكلم فيها القلوب لا الألسنة ، ولما اعتزمت العودة الى فرنسا ، في منتصف تموز ، ودعني على المحطة وألقى على نظرة كلها حب وعطف ، وقال لي : إلى اللتقى ! ولا تنس أن منزلي هو منزلك . ثم اختفى بين الجموع وأنساني البحر الواسع ، وشواطىء الوطن المحبوب كل ما عداها .

فقالت الفتاة :

— أهذا هو الشرق ؟ ياضياع أحلامي !

فهز الأستاذ كتفيه ، وعاد يقول بصوت خافت : وبعد أمد من رجوعي عينت مدرساً في مدرسة ماجيدى الثانوية في الألب ، فلبثت فيها مدة ، وتزوجت فيها ، وكنت جد مشغول بأمور المدرسة ، حتى أنه لم يكن في وقتي ساعة واحدة خالية ، وإذا أنا ذات يوم أفاجأ بكتاب عليه خط ردىء ، وطابع من طوابع (النزهة) ! ففتحته فاذا هو من الشيخ ، وإذا هو يخبرني بمجيئه مع

امرأته وولديه ليقضي عندنا عدة أشهر ، كأنما جاء يتقاضاني بذل ما أحسنَ إليَّ ، وتصوروا وقع هذه المفاجأة على امرأتي التي أغمى عليها من شدة الدهشة ، ولم أر بداً من الأنفاس في هذه المهزلة ، ولا سيما وأنهم أبحروا دون انتظار جوابي .

نزلت الى مرسيليا أنتظرهم ، فوجدت شيخاً غريباً في سراويل متهدلة وطربوش ، ومعه امرأة ضخمة ، على رأسها منديل أسود والى جانبها بنت صغيرة . واتفق أن تفتحت أبواب السماء يومئذ فهطل المطر غزيراً ، حتى شعرنا أن السماء قد هبطت على الأرض فدخلنا مقهى قريباً ، ولكن البنت ارتاعت منه ، فملأت الدنيا بكاء ولم تشأ السكوت ، وأخيراً أزفت ساعة القطار فركبناه الى ماجيدى ، والناس يرمقوننى يحسبون أنى أنقل الى البلد (سركاً) غريباً . وبلغنا المنزل ، فكان استقبال زوجتى بارداً ، وجاءت ساعة الطعام ، فلم تألف أيديهم الأكل بالشوكات والصحاف ، وانتشروا بعد الطعام في قاعة الأكل وفي الغرف المجاورة ، وبكى الطفل بكاء شـديداً ، فبكت زوجتى أيضاً ، ووقعت أنا في حيرة بينهما ، فلعنت الشرق ومن شاد بذكره .

***

ولما كانت صبيحة الغد سمعت وأنا نائم أصواتاً غريبة تمتزج بأحلامى ، فصحوت فاذا زوجتى ترقص أمام السرير ، وتغنى وتصيح : لقد سافروا يا بيير ، لقد سافروا ! . . .

ونظرت فاذا الشيخ قد ترك لى بطاقة صغيرة ، فيها جملة واحدة عربية ، حملتها الى من يترجمها لى ، فاذا فيها : — وداعاً ! لقد علمت الآن أن منزلك ليس منزلى .

دمشق : (ذو الطابعه)

ناحية خفية من نواحى السودان

القعب

مصح ومصيف جميل

بقلم أبو القاسم محمد بدرى

القعب واحة مشرقة بين صحراء محرقة ، يشتد بها الحر ويعنف فيها القر ، تكاد تصعب فيها السكنى وتستحيل الاقامة ، لولا أن الله وهب لها تلك الواحة البهيجة ، والروضة النضرة ، فتوقت إليها السكنى وطيبت بها الاقامة وحببت فيها الحياة .

ليس القعب واحداً فى عده ، ولا شاسعاً فى بعده ، فهو عدة واحات متقاربة الأطراف مختلفة الأسماء ، متحدة المنفعة والدواء ، سميت بالقعب فى مجموعها ، ولكن لكل قعب منها اسم خاص به ، كقعب اللقية وهو أشهره ، والسوانى ، وأبو نمل ، وما إليها ، مما يبلغ العشرة أو ينيف عداً .

يشغل القعب جزءاً كبيراً فى الجزء الغربى من مديرية دنقلا ، ويبعد عن النيل بضع ساعات ، ويسافر اليه بالمطايا نظراً لقلة السيارات فى هذه المديرية ، ولكنها ستعم فى المستقبل القريب كل أنحائها ولاسيما بعد أن انتظم طريق المواصلات بالسيارات بين مديريتى دنقلا وحلفا . ولايفوتنا أن مشقة السفر هذه لاتمنع الوصول اليه على متون الابل بأجرة زهيدة وزمن وجيز ، وخصوصاً إذا توجه المسافر اليه من مدينتى دنقلا وأرجو ، أو من احدى القرى المنتثرة بينهما على طول الطريق ، ويبتدىء موسمه عادة فى آخر فصل الصيف فى الزمن الذى يقرب أو يتم فيه نضج البلح الذى له — على مايزعم البعض — أثر كبير فى الشفاء وصحة البدن ، ويصنع منه شراب تختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، منـه ماهو سائغ الطعم لونه أصفر مشرب بحمرة ، حلو لذيذ لايسكر ، يسمى « الشربوت » ومنه ماهو مر المذاق حائل اللون يسكر فى الغالب ، ويطلق عليه « الدكاى » وكلا النوعين مفيد للصحة ، مجدد للنشاط ، مقو للبدن .

والقعب بلدة طيبة المناخ غنية المرعى خصبة الثرى وافرة النعيم ،

يؤمها البدو صيفاً ويرحلون عنها شتاء ينتجعون الكلأ والماء ، ويطلبون الغنى والثراء من أكف المرضى وأيدي السائحين الذين يفدون الى القصب زرافات ووحداناً من أقصى جهات السودان وبعض البلدان الأخرى . يقاضونهم أجراً على عملهم ومسكنهم ، ويمنحونهم فيضاً من نعمهم وفضلهم ، على أن هاته الأجور وتلك المنح لا يأخذونها من جراء الكبرياء وتملق النزلاء وحب الاستجداء ، كلا ، ففطرة البدوي الصميم تأبى عليه أن يتطلب الغنى والجاه من سبيل كهذه ، لولا أن حاجات العيش الملحة ومطالبه الكثيرة ترغمه على أن يتقبلها كارها طائعاً إذ لا سبيل لعيشه بدونها ؛ وهو لسمو نفسه وكرم محتده لا يقبلها إلا بعد أن يرهق بدنه في هناء ضيفه وخدمة نزيله لما رُكّب فيه من طباع الكرم والنجدة والمروءة ، وبعد أن يقدم له قرى فاخراً وهدايا جميلة من حمر النعم ، وطيب الغنم ، ومشتهى الأزواد ، وهي كل ما يصل اليه يد ذلك البائس الكريم ، والبدوي الى ذلك لطيف المعشر بسام الثغر ، سريع البدار الى لقاء الزوار ، يستقبلهم بطلاقة ويحييهم ببشر ، ويستدبرهم بكريم غيب وطيب ذكر ؛ تلمح في وجهه سمات السذاجة المشوبة بالجهل ، وآيات الوداعة الممزوجة بالأنفة والاخلاص مع بساطة عيش وهدوء نفس ، وصبر جميل على معاناة النوائب والشدائد .

وهؤلاء البدو لا يختلفون — عادة — عن باقي العرب في أساليب العيش والسكنى وطرق التفكير والتدبير في شئون الحياة ، فعيشهم تغلب عليه البساطة ، يعتمدون في غذائهم على الألبان واللحوم وبعض التمر والحبوب ؛ أما مسكنهم ففقير متواضع ، مصنوع من القش والوبر وخشب النخيل ، إلا أنه مع تواضعه وحقارته نظيف الحجرات بارد الظل والنسيم ، بديع الشكل . ويعتمد البدو كثيراً في جلب قوتهم على الاحتطاب ، وهو أهم موارد رزقهم لفقر بلادهم المجدبة التي لا تصلح أن تكون إقليماً زراعياً مع خصوبتها لندرة الأمطار وصعوبة الري .

وأرض القصب رملية ناصعة تصعد طوراً حتى تكون نجداً ، وتهبط آخر حتى تنحدر الى وهد أو سهل فسيح تنتشر فيه هنا وهناك كثبان الرمل المتفاوتة ، وقد قامت فوقها أشجار النخيل الباسقة حانية أغصانها الخضراء المورقة فوق سفح الوادي وحول حافة الينبوع ، ومن بينها تتدلى أقناء البلح موشاة بصفرة الذهب وحمرة العقيق ، فيتكون من ذلك منظر طبيعي جميل تتجلى فيه الطبيعة بأجلى معانيها وأروع صورها الفاتنة الساحرة . هنالك تحت ظلال النخيل وفوق الرمال وحوالي الينبوع ، حيث تخلد النفس الى الراحة وتنعم بالهناء والصفاء ، تحسن المتعة وتطيب المسرة ويلذ الأنس ، بل هنالك وحده يصفو العيش ، وتسعد الحياة ويحلو المقام . .

وكأني بك وقد جلست عند الأصيل فوق ربوة عالية تسرح الناظر وتمتع الخاطر بمشهد الغزالة عند الغروب ، وهي تستل أشعتها الشاحبة من أحضان الوادي الكئيب بعد أن زفت اليه تحية الوداع ، وبعد ما ألقت عليه نظرة ساجية تفيض بالألم الممض والحزن العميق . أو نهضت من فراشك مبكراً فألفيت الشمس تهبط من خدرها باسمة مشرقة تشيع الحرارة وتنشر الضياء ، وتبعث الحياة في جوف ذلك المهمه القفر ، وبين جوانب الطبيعة الصامتة ، فيستيقظ الطير من سباته الطويل ويصدح بأغاريد الصباح بنغمة سحرية أخاذة وصوت عذب حنون . وهنالك حول الينبوع النمير وبين مدارج السبل ترى فتيات البدو السذج في ثياب فضفاضة وقد بدون سافرات الوجه في صورة مليحة تسحر اللب وتستهوى القلب ، لم تعبث بها يد الحضارة الفاسدة ، ولما تنل منها مظاهر التجمل الخادع والتكلف المزري الشائن ، خرجن يردن الماء وبأيديهن الجرار وهن ينشدن نشيداً بدوياً ساذجاً في لفظه حلواً في معناه ، فتمتزج تلك الأغاريد العذبة بهاته الأناشيد السحرية فتتولد منها نغمة قوية مشجية هي كل ما في تلك الطبيعة الجافة الغليظة من موسيقى رائعة ، وصوت رخيم . في المساء ، وما أسعد سويعات المساء في ليالي القمر البيضاء ، إنها والله داعية أنس ومسرح لبانة ، ومذاد هم ، ومعهد سرور . وما أجمل تلك السويعات التي تنفقها في السمر مع بدوي ساذج وديع ، يجلس معك ويسمع منك ، ويتحدث اليك بأحاديث ممتعة خالية من الحقد والحسد والنميمة . أو تلك التي ترتاد فيها مواطن الرقص في سبيل لذة بريئة ، ووراء متعة طاهرة ، حيث ترى الفتيان يصفقون والفتيات يغردن ، والكل يقف في حركة مستديرة ومن بينهم الراقصة التحررة ، ترقص على توقيع الدف ونغمات العزف ، وتتمايل في حركات ريفية واهتزازات بدوية تستلهمها من فن الطبيعة ، وتستوحيها من جمال الطبيعة ، ولكنها مع سذاجتها

وبساطتها بديعة ، لأنها صدرت عنها عفو الخاطر ، وبدرت منها دون تكلف في الظاهر ، وقد يستمر هذا الأنس حتى مغيب القمر ومطلع السحر ، وفي النهار تشغل الوقت في عملية الدفن ، وماذا عسى أن تكون عملية الدفن هذه ؟ . وهل هي نوع من أنواع التسلية أو وسيلة من وسائل المعالجة ، أو ضرب من ضروب الرياضة ؟ . وهل اتخذت المعالجة بالقبر طريقة للحياة ؟ وليس بعجيب أن تنشأ من القبر الحياة كما قد يطغى على الحياة القبر .

إن عملية الدفن هذه ضرورية للقعب ضرورة « الحمام » للمصيف و « الدفء » للمشتى . ولا أعدو الحقيقة إن قلت إن أثرها في جلب المنفعة ودفع الداء أبعد من ذلك وأسمى : فهي بمثابة العلاج الناجع والدواء الوحيد لشتى الأمراض التي استعصى علاجها بالعقاقير والأدوية المختلفة . وكم من مريض لصب جلده من الهزال ، وارتهكت مفاصله من الأعياء ، وطحطته العلل والسقام ، وكان إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، جاء إلى القعب ومكث به قليلاً فاستحال هزاله سمناً وضعفه قوة ، وتجددت فيه قوى الحياة المضمحلة ، وانتعش فيه روح الأمل البائد . وأنواع الأدواء التي يمكن علاجها في القعب عديدة ، منها ما هو عضال يصعب علاجه ، وما هو وسط يخشى استفحاله ، وما هو يسير يسهل استئصاله . وهي في الغالب كل أنواع الأمراض العصبية والروماتزم « داء المفاصل » وبعض العلل الباطنية المزمنة ، والشلل بنوعيه الجزئي والعام . . . ألخ . ومهما يكن من شيء ، فعلاجها أمر موكول إلى التجربة والاستقصاء أكثر منه إلى شيء آخر . على أنه قد يشفى منها الكثيرون بعد ما يقطع الأمل في شفائهم . ولا يزال الأطباء في حيرة من أمر القعب لم يهتدوا حتى الآن إلى معرفة حقيقته معرفة تامة تستند إلى البحث العلمي الصحيح ، وقد اكتفوا من ذلك بالإشارة إلى جودة هوائه وصحو سمائه ، وأثرها الحسن في نفوس المرضى ، وإسداء النصح لمن يستشيرهم في الذهاب إليه من ذوي العاهات والأمراض . وللناس أقوال متضاربة وإشاعات عديدة يتناقلونها ويروونها عن القعب . فمنهم من يذهب في القول إلى أن مصدر قوته السحرية هذه إنما هي عذوبة الماء ، وزعم أناس أنها جودة الهواء ، ويجزم فريق آخر أنها أكل الأزاد والشواء . وعلى كل حال فحقيقة القعب لا تزال غامضة حتى يستجليها البحث والاستقصاء ، ويتولى ذلك نخبة من شبيبتنا المثقفة تحت إشراف الحكومة وبتعضيد الشعب .

وبالمناسبة ألفت نظر الجميع إلى وجوب العناية والاهتمام بشأن القعب ، وذلك طبعاً بتوفير كل معدات الراحة والرفاهية ، وتشييد المساكن الفخمة ، وتنظيم طرق المواصلات حتى يسهل السفر إليه والأقامة فيه ، فيكثر بذلك عدد المصطافين والمرضى ، وحينئذ نحصل على مورد لا بأس به من موارد الرزق نصلح به أحوال البلاد خصوصاً هذه المديرية البائسة في مثل هذه الأزمة الطاحنة

ولعلك تشتاق إلى معرفة طريقة الدفن ، ولشرحها نقول في إيجاز : تشق الأرض على شكل أخدود أو حفرة أو قبر أو كما شئت فسمّه ، ثم ينصب حول هذا القبر المزعوم سياج من أعواد النخيل يسقف ويغطى من الجوانب بأغطية كثيفة تحجب أشعة الشمس عنه ، ويكون في شكله أشبه شيء بالتابوت ، ويترك حتى يبرد أديمه ، ثم يؤتى بالشخص المراد دفنه ، وبعد أن يجرد من جميع ثيابه يضطجع ويهال عليه التراب ويدفن كل جسده ما عدا رأسه ووجهه ، ويستمر على هذه الحال بضع دقائق يضيق خلالها نفسه ، وتسرى في جسمه حرارة خفيفة في بدء الأمر تأخذ في الاشتداد كلما طال مكثه ، ويشرع في إخراجه متى بدت عليه مظاهر التعب والضيق . والمدة المحددة لدفنه تستغرق ما بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة . وبعد خروجه من ذلك القبر يكون متغير الصورة معفر الوجه والبدن ملبداً بالتراب الممزوج بالعرق في شكل يثير منك الضحك والعجب وبعد الانتهاء من الحمام يشعر بخفة في بدنه وسرور يغشى نفسه ، ويلتهم بعد ذلك طعامه بشهية ونهم عجيبين ، وتكرر هذه العملية مرة أو مرتين في اليوم على حسب استطاعة المرء ورغبته ، وهي تفيد — على الوجه الأصح — جميع الأمراض العصبية والروماتزم والفالج ، ولعل مفعول هذه الحرارة المكتسبة من الدفن يقرب في الغالب — على ما أظن — من مفعول الحمام الشمسي في معالجة هذه الأمراض . ويبتدىء زمنه المناسب من الساعة الثامنة صباحاً والساعة الخامسة في المساء في الزمن الذي تلائم فيه الحرارة الجسم . والدفن كما ذكرنا ضروري للمرضى . أما ما عداهم فعلى سبيل التسلية والرياضة ، ومع ذلك فمنفعته لا يستهان بها في الفتك بالأمراض عند بدئها وإزالة الضعف والنحافة وتقوية العضلات والبدن ؟

كلية غردون (سودان) أبو القاسم محمد بدري

١ – مصطفى كمال

سيرة حياته

للكاتب الانجليزى ارمسترونج

تلخيص وتعليق حنفى غالى

هنالك فى الحى العثمانى بسالونيك فى بيت حقير متهدم ، قائم فوق أحد التلال فى ظل حصن عتيق ، رأى الطفل مصطفى نور الحياة عام ١٨٨١ ، فى عصر كانت الأمبراطورية العثمانية تعالج سكرات الموت من جراثيم الأمراض الخلقية والاجتماعية التى تنخر فيها ، وتكاد تلفظ النفس الأخير ، لولا أن قضت السياسة الأوربية فى ذلك الحين أن يبقى « الرجل المريض » ليذود الدب الروسى عن حياته ، ويحول دون امتداد طغيانه حتى يوافيه أجله المحتوم . فكأن العناية الالهية قد أرسلت الطفل العظيم فى هذا العصر لتبصره بموطن الداء ، وتهيئه لتأدية رسالته لانقاذ أمته .

كان أبوه على رزا رجلا مغموراً نزح من ألبانيا الى سالونيك طلباً للعيش وسعياً وراء القوت ، فابتسم له الأمل فيها بوعاما ، واشتغل كاتباً بادارة الدين العثمانى ، ولم يكن مرتبه الضئيل ليقوم بمطالب أسرته ، فزاول تجارة تعينه على الحياة .

أما أمه زبيدة فكانت كسائر النساء العثمانيات ، قعيدة البيت لا ترى نور الشمس إلا من كوته ، ولا تغادره إلا فى رفقة أحد محارمها لتعود ذويها أو جيرانها الأقربين ، فظلت فى ظلام دامس من الجهل بشئون العالم الخارجى لا تلم حتى بمبادىء القراءة والكتابة ، ولكنها كانت ربة أسرة بحق تعرف كيف تدبر أمورها بحزم ، وتسوسها بنظر بعيد ، فى مزاجها شىء من الحدة ، وفى محياها سيماء النبل والسيادة . يمتزج فى عروقها الدم الألبانى بالدم المقدونى ، وكانت أقرب الى الرجولة فى بنيانها ، مديدة القامة ، قوية الصحة ، وقد آثرت الحياة بجوار الريف الذى أحبته ونشأت فى أحضانه ، فظل لها خلق أهله من إيمان عميق ووطنية صادقة ، واستمساك بالقديم ، وعقل ونجيح صائب الحكم فى مسائل الحياة الأولية ، وكانت ككل امرأة عثمانية تهب نفسها ، وتصن ودها لزوجها وأطفالها الثلاثة الذين توفى أحدهم فى طفولته ، ولم يبق سوى مصطفى وأخته مكبولا .

كان مصطفى هزيلا نحيلا ، وكان طفلا فى سنه ، كهلا فى خلقه . فلست ترى فيه جذل الأطفال ومرحهم . بل وقار الرجال ورزانتهم ، وكان عصى النفس عسير القياد ، كثير التمرد على أوامر والدته ، فاذا همت بتأديبه ثار واهتاج ، وكان قليل المخالطة للداته من الأطفال مستقلا بنفسه عنهم ، اعتزل أبوه منصبه فأراد أن يعلمه الأتجار ليساعده ويعينه ، ولكن أمه أرادت أن تفقهه فى دينه ، فأرسل الى مكتب ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة ويستظهر القرآن . ثم الى مدرسة شمس أفندى حيث بدت بواكير نبوغه .

وفى ذلك الحين فجعت الأسرة بموت عائلها ، فأضحت فى فقر مدقع ، وبؤس ملح ، فلجأت زبيدة الى أخيها فأوى اليها وعطف عليها ، واحتضن مصطفى وأخرجه من المدرسة وأبقاه معه ، وناط به رعى الماشية وإطعامها ، ومال الفتى الى هذا اللون من الحياة واطمأن اليه ، إذ كسب منه قوة فى بنيته ومتانة فى صحته ، ولم تزده الأيام إلا حبا له وشغفاً به ، وإباء لكل ما يرمى الى انتزاعه منه ، ولكن الأم الحكيمة لم تنزل على هوى الفتى الغرير ، فأغرت أخاها بالأنفاق على تعليمه وكان لها ذلك . ألحق فتانا مرغماً باحدى مدارس سالونيك ، فألفى البون شاسعاً بين حياته الأولى الحرة الطليقة ، وبين حياته الجديدة السجينة المقيدة ، فأضحى دائم الثورة كثير التبرم بنظام الدرس ، ولكنه ظل كما كان شديد الأعجاب بنفسه ، كثير التفاخر على أقرانه ، قليل المخالطة لهم حتى فى ألعابهم المدرسية ، فاذا هموا بمضايقته والتحرش به ، ناضلهم بشدة ، وردهم على أعقابهم مدحورين ، فاشتد بغضهم له ونفورهم منه وإنكارهم لكبريائه ، حتى اشتبكوا فى شجار معه وشكوه الى أحد المدرسين فصفعه صفعة أطارت صوابه ، ففر من المدرسة وعاد الى ذراعى أمه ، وعبثاً حاولت أن تعيده اليها رغم توسلها بالترغيب حيناً وبالارهاب أحياناً ، فاقترح خاله إرساله الى المدرسة الحربية بسالونيك ، لأن التعلم فيها لا يكلفهم من النفقات كثيراً ولا قليلا ، وهى تحت رعاية السلطان عبد الحميد ، فاذا ظهر تفوق الفتى ارتفع الى مرتبة ضابط ، وإلا التحق جندياً بالحرس السلطانى . فمستقبله على أى حال واضح مأمون . وما كانت الأم لترضى بهذا

أو تميل اليه ، إذ كانت تريده فقيهاً على غرارها في التقى والورع ، ولكن فتانا الثائر نال منه الاقتراح كل منال ، وأخذ منه كل مأخذ ، فما كانت نفسه الطموح لتقنع بما تريده الأم ... بل هو يريد أن يرتدى حلة الجندية التى يرتديها ترِبه أحمد ابن أحمد جيرانهم ، ويخطر بها غادياً رائحاً فى زهو وإعجاب ، وعنى نفسه بأن يكون ضابطاً يصــدر أوامره فيتلقاها مرؤوسوه بالأذعان والخضوع ، ولم يطل بفتانا الانتظار بل عول على نفسه فى تحقيق غايته . فلجأ الى ضابط متقاعد من معارف أبيه ، ورجاه أن يكون ولى أمره لدى المدرسة المذكورة . ثم تقــدم للامتحان فجازه ، والتحق بها دون أن تعلم أمه من الأمر شيئاً ، وهكذا أرادت الأم شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ، فكانت إرادته جلت قدرته أرحم بالفتى وبأمته من الأم الورعة الزاهدة ، وفى المدرسة وجد الفرصة التى هيأتها له الأقدار فى عالمها المحجوب ، فبرزت مواهبه رائعــة فى الرياضة وسائر العلوم الحربيــة ، أما خلقه فظل كما هو ، بل زاد مزاجه حدة وطبعه تمرداً ، يثور لأقل نقد يوجه اليه ، أو لوم يلقى عليه ، وكان يحب دائماً أن يكون قبلة الأنظار ومدار الحديث ، ولم يكن أبغض اليه من أن يرى نفسه خاملاً ذاهباً فى غمرة الاهمال ، إذ كان شديد الشعور بشخصيته ، قوى الأحساس بارتفاعها عن أقرانه ، حتى كان يرد من حاول الأتصال به منهم قائلاً « أنا لا أريد أن أكون واحداً من أمثالكم » ويمضى فى سبيله قدماً لا يلوى على شىء ، كذلك كان لرغبته الملحة فى التفوق والتبرز ، شديد الحسد لكل من بذه منهم ، ولعلك تعجب حين تعلم أن هذا الفتى الجافى الخلق الفظ الطباع يلعب الغرام برأسه ، فيرى دائماً يخطر فى أبهى ملابسه وأزهاها ، مداعباً الفتيات مغازلاً لهن ، محاولاً الاستيلاء على قلوبهن ، ولكن لم العجب ؟ أوليست هى الطبيعة تأبى إلا أن تبرز العظيم فى جميع أدوار حياته نمطاً شاذاً ؟

ومهما يكن من أمر فتانا فقد نبغ نبوغاً لفت نظر أحد أساتذته واسمه مصطفى ، فاختاره مشرفاً على إحدى الفرق الصغرى ووكل اليه إلقاء بعض الدروس ، ولتشابه الأسمين ميز الأستاذ تلميذه بإضافة اسم كمال ، فأصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم مصطفى كمال ، وقد تخرج فى المدرسة فى سن السابعة عشرة . ثم أرسل الى المدرسة الحربية العليا بموناستير

(يتبع) حنفى غالى

مشـــــهد ومكة

بقلم الأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

سارت الرسالة فى عددها التاسع والخمسين ، بكلمة ناقدة للأستاذ عبد الوهاب عزام ، عن كتاب « جولة فى ربوع الشرق الأدنى » للرحالة محمد ثابت ، وقد عنانى من هذه الكلمة تفظيع الأستاذ عزام خطأ الرحالة فى قوله عن شيعة إيران : إنهم يفضلان مشهداً على مكة ؛ فنشطت لكتابة هذه الكلمة لا أنصافا للناقد أو المنقود ، فهذا شىء قد يكون عند غيرى حسابه ، إنما عنيت بذلك لثلاث : إحداهن حب الحقيقة ، وإنها لحقيقة أن تبتغى لذاتها ، وبحمل إلى الناس تصحيح ما خالفها تطوعاً . وثانيتهن : أن فى هذ الحديث عن تفضيل الشيعة مشهدا على مكة مثلاً شيقاً طريفاً للباحث النفسى عن فرق ما بين العقيدة والفكرة ، وصلة ما بين العقل بمنطقه ، والاعتقاد بسلطانه . كما أن أمثال هذه الحقائق النفسية هى الأصول القوية لتفسير التاريخ تفسيراً صحيحاً صادقا . والثالثــة : أننا حــين نعمل جادين ، وندعو محبين للوحدة الأسلامية ، وتقريب ما بين الشعوب الأسلامية على تنائى ديارها ، واختلاف أنظارها ، يجب أن نعرف الحقائق على ما قد يكون بها من قسوة وشدة ، إذ لا غناء فى إنكارها ، ولا خير لنا فى تناسيها أو نسيانها .

***

قال الأستاذ الناقد « وأفظع من هــذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران ، إنهم يفضلون مشهداً على مكة ، وكيف يعقل أن أمة مسلمة شــديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض ، وقاعدة من قواعد الاسلام ، كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج الى مكة ؟ . ربما بالغ عامة الايرانيين فى تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة ، كما يبالغ عامة المصريين فى تعظيم مسجد سيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيد البدوى ، وابراهيم الدسوقى . ولكن عمل العامة لا تفسر به عقائد الأمة .

وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب » (ص ١٣٩٩ عدد ٥٩ من الرسالة) .

والأستاذ عزام خير من يعرف أن القياس قليل الجدوى وضائع الأثر في مثل هذا المقام . فما لا يعقل وما يعقل قد يعتقد ويهرب معتقده من الحوار فيه أو الجدال حوله ، بل يهرب من طلب النفس تفسيره ؛ على أن الأستاذ لو أنصف لذكر من كتب الشيعة التي بين أيدينا شيئاً بعينه يفند هذا الزعم ، أو يحتسبه على العامة ، فيرد عليهم بدعتهم ، كما نرد على عامة المصريين بدعهم في تعظيم المشاهد المصرية والقبور ، ولكنه لم يفعل فلم يرح القارئ .

وكيف يكون الأمر إذا كانت كتب الشيعة تقرن هذا التفضيل المكاني بقسوة وعنف ؛ وتجعل مكة وبيتها الحرام ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لكربلاء ، وإلا هوى الله بها في نار جهنم ! ! . وهذا عالم فارسي شيعي من المحدثين قد أشرب روح العصر واعتداله أو تساهله إن شئت ، وهو مع ذلك ينقل عن قديم كتبهم هذا التفضيل ؛ بل يصف المروى فيه متواتراً عندهم ! ! ذلك العالم هو الشيخ أحمد بن عبد الله الكوزه كناني ، صاحب كتاب روضة الأمثال في تفسير آيات التمثيل بالقرآن الكريم ، وكتابه مطبوع في فارس ومنه نسخة في دار الكتب المصرية .

عقد الشيخ فصلاً « في فضيلة أرض مكة وفضائل بيت الله . » الخ ص ١٨٧ . واستطرد في خلاله بفصل عنوانه « في أن أرض كربلاء أفضل من الكعبة » ص ١٨٨ وفيه يقول ما نصه :

« أقول قد ورد في أخبارنا الخاصة أن أرض كربلاء أفضل من الكعبة مثل ما في البحار[1] عن . . . عن أبي عبد الله . . . قال إن أرض الكعبة قالت من مثلي : قد بني بيت الله على ظهري ، يأتيني الناس من كل فج عميق ، وجعلت حرم الله وأمنه ؛ فأوحى الله إليها أن كفي وقري ، ما فضل ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غمست في البحر ، فحملت من ماء البحر ، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك ، ولولا ما تضمنته أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت الذي افتخرت به ، فقري واستقري ، وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً ، غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء ، وإلا سخت بك وهويت بك في نار جهنم »

إلى مرويات أخرى في هذا المعنى آخرها قول الرسول عليه السلام « يقبر ابني في أرض يقال لها كربلاء هي البقعة التي كان عليها قبة الإسلام التي نجى الله عليها المؤمنين الذين آمنوا مع نوح في الطوفان » ، ويختم هذا الفصل بقوله « والأخبار في هذه المعاني في خصوص كربلاء متواترة من أرادها فعليه بالمجلد الثاني والعشرون المسمى بمزار البحار » .

فليس الأمر من مبالغة العامة ، ولا من عمل العامة الذي لا تفسر به عقائد الأمة ولا نكر على الرحالة ، ولا قطاعة فيما أخبر به .

أنا لا أقول بصحة هذه الروايات بله تواترها ، وليس يعنيني في شيء مطلقاً أن يستمسك إخواننا الشيعة بها ؛ بل أحب ألا يكون لذلك أثر حتى تتضاءل الفروق بين المسلمين ، ويهون التقارب ، لكن مالا نحبه قد يواجهنا صارخا به الواقع .

وأكتفي بهذه الكلمة قائلا مع الأستاذ عزام في ختام كلمتي : إنني أرجو أن يتم التعارف بين الأمم الإسلامية ، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وإنصاف ، والله ولي التوفيق . . .

أمين الخولي

(١) لعله يريد كتاب بحار الأنوار ، وهو كتاب كبير يعد مجمع علم الشيعة وفيه بيان عقائدهم ومناهجهم .

اليـابان تلقى على الشرق درساً

للأستاذ محمد مختار المحامي

جاء فى الصحف اليومية منذ عهد قريب أن مصانع اليابان أخرجت سيارات زهيدة الثمن فى طاقة كل شخص أن يقتنيها وهى تريد أن تغمر بها أسواق العالم ، وقد كان لهذا الخبر رجة عنيفة فى جميع الدول ، فقد أوقعها فى حيرة شديدة إزاء هذا التيار الجارف السادر من أقصى الشرق .

منذ نصف قرن تقريباً استيقظت اليابان من أحلامها ، وبخطوات العمالقة اقتحمت الهوة التى تفصلها عن الحضارة الغربية الحديثة فتركت وراءها قروناً غطت فيها فى سبات عميق ، ورفعت الحجاب عن أعين الشرق ونبهته إلى الحقيقة التى غابت عنه ، وأظهرته على باطل ماباتى إليه المستعمرون من أن الشرق يعيش فى الماضى ، وأن من المحال إحياءه وجعله يسير فى طريق التقدم لأن وجهه دائماً إلى الخلف ، وقد قبلنا هذا الاتهام وآمنا به ، وفعل فينا فعل التنويم المغناطيسى إلى أن أتت اليابان ففكت طلاسم هذا السحر ، وكنا قد نسينا أن نشأة الفلسفة والعلم والآداب وكل أديان العالم لم تكن إلا فى الشرق ، فكيف تتهم أراضيه بالعقم وعقوله بالجمود ، وهى التى قد حملت مشاعل الحضارة وقت أن كان الغرب يتخبط فى الظلام ؟

لقد دهش العالم أيما دهشة حين حطمت اليابان الحواجز التى كانت تحجزها عن العالم بين يوم وليلة ، ثم خرجت منتصرة أيما انتصار ، فقد فعلت ذلك فى وقت قصير كالوقت الذى تغير فيه الثياب ، لا الوقت الذى توضع فيه أسس حضارة جديدة ، وقد أظهرت أصدق مظاهر قوة الخصب والقدرة على العيش فى هذه الحياة الجديدة ، فقيل إن هذا الانقلاب ليس إلا مسخة من مسخ التاريخ ، أو فقاعة كفقاقيع الصابون كاملة فى استدارتها ولونها ، جوفاء فى قلبها ومادتها . ولكن اليابان أثبتت أن تطورها لم يكن لحظة دهشة قصيرة ، أو فرصة من فرص مد الزمن وجزره .

الحقيقة أن اليابان قديمة وحديثة فى آن واحد ، فهى لم تترك تراث الشرق القديم وثقافته التى تدفع الانسان إلى البحث عن القوة والسعادة الحق فى أصل نفسه والتى توحى اليه برباطة الجأش عند مواجهة الخسائر والأخطار ، وبالتضحية التى لاتحسب حساباً للكسب وبتحدى الموت . فاليابان زهرة من أزهار اللوتس تنمو بسهولة ورشاقة محافظة على الأعماق التى منها نمت ، ومع ذلك فقد تسلقت اليابان إلى آخر ماوصل إليه الغرب وصارت تعج فيها الحضارة الحديثة بكل مسئولياتها .

إذن الحياة والقوة كائنتان فى الشرق ، ولكنهما كامنتان تغطيهما قشرة ميتة يجب أن تزول ، لأن الاحتماء بالميت موت ، واحتمال أخطار الحياة حياة .

ولا يظن أحد أن اليابان قد وصلت إلى ما وصلت إليه بالتقليد ، لأننا لانستطيع تقليد الحياة والقوة لأمد طويل ، بل إن التقليد مصدر من مصادر الضعف ، فهو يعوق طبيعة الأمة الحقيقية ، لأنه كالباس هيكل عظمى لانسان ما ، إهاب إنسان آخر .

لقد استمدت اليابان غذاءها من الغرب ، ولكنها لم تستمد منه حيويتها ، بل احتفظت بروحها ، وهذه هى المعجزة التى بهرت أعين العالم ، فقد علمت عن حق ويقين أنه لايمكن قبول المدنية الغربية على علاتها ، تلك المدنية التى لم تحل بعد أعظم مشاكل الوجود كالتنازع بين الفرد والدولة ، وبين العمل ورأس المال ، وبين الرجل والمرأة ، والتنازع بين شره الكسب المادى والحياة الروحية للانسان ، وبين أطماع الأمم المنظمة والمثل العليا للانسانية ، تلك المدنية التى تتغنى بالحرية ، ثم تأتى بأقسى ضروب العبودية ، تلك المدنية التى يفقد الانسان تحت تأثير سحرها كل ثقة فى المثل العليا التى جعلته من قديم الزمن إنساناً .

والحق يقال إن النفس الشرقية بما انطوت عليه من قوة روحية وحب للبساطة واعتراف بالواجبات الاجتماعية عليها أن تحكم العقل الشرقى إذا أرادت أن تشق طريقاً وسط هذه المعمعة الغربية ، وعليها ألا تلقى وراء ظهرها تراث الأجيال الماضية كما تلقى الملابس البالية ، إذ أن هذا التراث فى دمها وفى نخاع عظمها وفى تكوين لحمها ، وفى ألياف مخها ، وهو يكيف دون أن تشعر ودون أن تريد كل ما تضع عليه يدها بتكييفه الخاص .

ومن تراث الماضى وغذاء الحاضر المستمد من الغرب عليها

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

ليـــلى العفيفة

للمرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب

لعل أسمى مراتب العظمة الانسانية فى الحياة الدنيا هى تلك الكلمة الصغيرة التى تفنى الأجيال وهى باقية ، وتتقلب الأزمنة وهى ثابتة ، وتخفت الكواكب والأقمار وهى متلألئة متوهجة ، والتى أسميها ، ويسميها الناس معى « . . الخلود . . » ! !

نعم . . إن أعظم مافى الحياة الدنيا وأبقى ما فيها من خير هو الخلود من غير شك . . وإذا قلنا إن الخلود هو أمتع مافى الحياة من جمال وروعة ، فلأننا نريد أن نقول أيضاً إنه صعب المنال عسير الإدراك . لا يشترى إلا بأعز مافى النفس البشرية ، وأغلى ما فيها . . وهى الحياة . . فمن ضحى بحياته ، أو كان على استعداد لتضحيتها فى سبيل سعادة غيره ورفاهيته ورفع الظلم عنه نال الخلود لأنه أناله لغيره ، أو حاول أن ينيله إياه . . وإن قصر أجله عن إتمام ذلك . . .

ومن ضحى بوقته وراحته فى سبيل تثقيف الغير وتعليمهم ، وتهذيبهم ونشر نور العلم بينهم . . لن يفنى ، وإن فنى جسمه ، ولن يُنسى وإن اختفى شخصه ، ورجع إلى الأرض التى منها نشأ وعليها تربى . . .

فالحياة والذكرى ليستا وقفاً على الجسوم الحية المتحركة . . وإنما هى رهينة تلك الأعمال الجليلة التى أداها أصحابها ، وعلى تلك الخدمات الصادقة التى بذلوا فى سبيلها راحتهم وشبابهم ، والتى لن تفنى حتى يفنى الفناء ، ولن تزول حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فكم من حى لا تعرفه إلا نفسه ، وكم من ميت بلى عظمه وفنى جسمه ، ومع كل فهو يملأ القلوب بحبه ، ويملأ الدنيا بذكره واسمه .

ومن هؤلاء الخالدين المرحوم الأستاذ « محمد عبد المطلب » الذى تعرفون عنه أكثر مما أعرف ، وتقدرون أعماله الجليلة كما أقدر ، وتؤمنون بعبقريته الفذة كما أومن ، وتعترفون بشاعريته الخصبة الساميــة كما أعترف ، وتفخرون بدرره اللامعة — التى حلى بها جيد العربية — كما أفخر .

لهذا فانى أعتقد أنكم تودون أن تقرءوا له شيئاً لتمتعوا أنفسكم بسحر هذا الشاعر البدوى الذى سيدهشكم الآن بأسلوبه الحضرى الرقيق ، وبتفكيره العصرى الذى نعجز عنه ونحن فيه .

وقبل أن أعرض للأستاذ المرحوم شيئاً أود أن أقول : إنه كان من أسبق الشعراء إلى تأليف الروايات ، فله فى دار الكتب من عشرين سنة مضت روايتا « المهلهل » و « امرىء القيس » وله أيضاً عدة روايات وضعها للمدرسة السعيدية وقت أن كان مدرساً بها .

وكان المرحوم شعر بحاجة المسرح المصرى الى روايات عربية سليمة التفكير رقيقة التعبير ، فوضع له فى سنة ١٩٠٩ رواية « ليلى العفيفة » ، ولكن حظ المسرح التعس حال دون ذلك ، لأن الأستاذ لكثرة أعماله فى مدرستى دار العلوم والقضاء الشرعى لم يستطع إتمام القصة ، وحاول فى أواخر أيامه أن يتمها ولكن الموت القاسى عاجله ، فحرمنا من تراث أدبى نافع . على أننا سنعرض الجزء الذى كُتب من « ليلى العفيفة » بنت لكيز ، وهى التى حاربها الزمن على يد أبيها بضع سنوات ، فأذاقها مُرَّ الحياة وشقاء العيش ، وذل الأسر . . . ولكن الله جلت قدرته أنالها سعادتها مضاعفة ، ورد عليها فتى قلبها وبطل أحلامها جزاء وفائها وإخلاصها . . .

أن تخرج خلقاً جديداً لا مجرد تكرار ، ولتكن لنا من اليابان عبرة

إنا لنصغى إلى ما يقوله الغربيون من أن مدنية الشرق ليست إلا فلسفة لاهوت ، فإن الأصم يرى فى اللعب على (البيانو) حركات أصابع مجردة عن نغم الموسيقى ، وهم لا يعرفون إننا قد بنينا تقاليدنا على أساس من الحقائق التى تدخل الطمأنينة والسلوى فى قلب الإنسان ، والتى تجعل وجدانه دائم اليقظة والحياة . .

لقد واجهت الشمس المشرقة العالم فكانت الأولى فى الشرق فى هذا السبيل ، ولقد أشعلت الأمل فى فؤاد الشرق فحق علينا أن نقدم لها الثناء ، ومن يدرى فقد يكون هذا بشيراً بأن يعم النور الخالد هذا المكان الذى بزغت فيه شمس الآدمية لأول مرة .

محمد مختار المحامى

ولعل القارئ يدهش من هذا ويعجب ، إذ كيف يحارب رجل ابنته ويذيقها الألم الممض ، ويمنع عنها سعادتها ورفاهيتها . والمعروف أن الآباء يتسابقون الى جلب السعادة لبناتهن ؟ !

ولعله لا يدهش ولا يعجب عند ما أقول له : حقاً إن الآباء يفعلون هذا وأكثر من هذا ، ولكنهم في مسألة واحدة ، بل وفي لحظة واحدة يهدمون حياة بناتهن ، ويسقونهن كأس الموت مترعة ، ويقاومون شعورهن ، ويتجاهلون إحساسهن ، ويدفعونهن الى الهاوية باسم المحافظة عليهن . فترى الرجل منهم عند ما يعلم أن ابنته تهوى إنساناً وتحبه ، وتود من صميمها أن يكون رجلها . تراه في هذه اللحظة قد تنمر وركب رأسه الأخرق ، ووقف بينها وبين من تحب رافضاً زواجهما ، آبياً جمعهما ؛ بل يزوجها ممن يحب هو ويريد ، محتجاً بأنه أعرف منها بمصلحتها ! فتكون الطامة ، وتكون النهاية السوداء في أغلب الأحايين ! .

وهذا ما حصل فعلاً مع ليلى بنت لكيز فانها كانت مخطوبة لابن عمها البراق ، وكان الحب يجمعهما برباطه المقدس . فرأى لكيز بعقله الأخرق ، وحماقته المجنونة أن يفسد هذه الخطبة ، وأن يقبل خطبة عمرو بن ذي صهبان لابنته طمعاً في ماله وشجاعته !.. فانظر اليه وقد زاره أحد بني كليب لينهاه عما فعل حرصاً على البراق ورحمة بابنته التي تحبه وتهواه :

كليب : ما لأبي ليلى حزيناً مطرقا ؟

لكيز :

أرقني شغل بليلى أرقا — جمّع من همي ما تفرقا
عمرو بن ذي صهبان لما حققا — أن لها في الحسن جدا صدقا
وفي المعالي غاية لن تلحقا — بادر في خطبتها مستبقا

كليب :

رام ابن ذي صهبان صعب المرتقى — إن سمع البراق أو تحققا
بأن عمرا باب ليلى طرقا — أرعد كالليث لنا وأبرقا
وطبّق الأرض علينا طبقا

لكيز :

لكن عمراً بالأيادي سبقا — قلدنا نعماءه وطوقا
يجود كالغيث علينا غدقا — إذا بنا صرف الليالي أحدقا

كليب :

لكنه ليس من البراق — أحق بالطاهرة النطاق
نقية الأعراض والأعراق — وهو فتى الجيش لدى التلاق
وما لبكر غيره من واق — إذ تأخذ الخطوب بالخناق
وتلعب الأرواح بالتراق — في يوم هول مظلم الآفاق

حتى إذا يئس كليب هدده بقوله :

إياك يا ابن العم أن تجيبا — فان فيه اللوم والتأنيبا
وإن ليلى — إن تكن أريبا — تأبى سوى ابن عمها خطيبا
وهو وإن كان لها حبيباً — فما أتت نكراً ولا عجيبا
فلا يزال السيد الأريبا — في قومها والبطل المهيبا
يكفيهم البأساء والكروبا

فيغضب لكيز من قول كليب ويستأسد قائلا :

ويحك ! هل ليلى ترد أمري — برد هذا وقبول عمرو ؟
رضيت عمرا أن يكون صهري — ماحجتي في رده ؟ ما عذري ؟
أليس في منعيه عين الغدر — ولو أبى البراق إلا هجري ؟
فليجز في قطيعتي ما يجري

وقد أنصف كليب كل الأنصاف حينما ذكره بأنه غدر بابن أخيه فقال له :

يا أبا ليلى كفى . فالحقوق . أنكرتها . ذلك الغدر
وأحاديث الجفا . والعقوق . كررتها . حلوها مر
غضب البراق . مر لا يطاق . وله العذر

ولكن أترى لكيزاً يأبه لهذا ويهتم به ؟ كلا وإنما يمعن في قسوته ، ويسترسل في شدته ، ويأبى إلا تنفيذ ما رآه . ولو كان ما رآه هو الخطل بعينه ، فاسمع الى ابنته ليلى وقد عرفت من أمرها ما عرفته : فأخذت تشكو الى الله ظلم أبيها ، وتعدد مناقب ابن عمها ، وتبثه لواعج غرامها . ثم تعرج على خطيبها المكروه فتتمنى من الله أن يقبض روحها قبل أن تزف اليه ، فتواسيها صديقتها سلمى فلاتستمع اليها ، ولا تزداد إلا أنيناً ، وإلا حسرة على بعاد براقها

ليلى :

وب كم تباو وتحتن إن قلبي شفه الحزن
كلما قلت انجلت محن عاودتني بعدها محن

سلمى :

هل أتى عن ركبنا نبأ محزن، من بعد ما ظعنوا ؟

ليلى :

لا ، ولكني أرى جللا عاجلا يسعى به الزمن
يا ابن عمي إن لي كبداً قد براها بعدك الشجن
إنما البراق خير فتى فيه بنت العم تفتتن
صده عني أبي سفها وأبي في رأيه أفن
وأتى عمرو ليخطبني فأذلهم له السنن
ليت شعري ما الذي خبأت لي من أحداثها اليمن
ليتني يوم أزف له يحتويني قبله الكفن

سلمى :

إن في الأيام معتبراً والليالي بيعها غبن
اصبري ليلى ، ولا تهني إن عزم الحر لا يهن

ليلى :

ارحمي يا سلم والهة غلقت من قلبها الرهن
وارحمي البراق فهو بنا قد جفا أجفانه الوسن

وكما قلنا من قبل أن أرواح العاشقين متجاوبة تشعر بشعور واحد، وتحس بإحساس واحد وفي وقت واحد.. فإننا نستطيع أن نقول هنا إن براق أحس ما أحسته ليلى ، وشكا مما شكت منه ، فقال لصديقه عقيل :

براق :

ياعقيلا ، ياعقيلا ، ما ترى الليل طويلا ؟
ما لنجم الليل لا يسعى عن الأفق أفولا ؟

عقيل :

طال ليلى وهو أولى بعد ليلى أن يطولا

براق :

بالأسى قد عيل صبري

عقيل :

أي نعم ، صبرك عيلا
يا ابن روحان رويدا واصبر الصبر الجميلا

براق :

إن يحل دوني فإني عن هواها لن أحولا
يرتضي مثل ابن ذي صهبان من ليلى حليلا
إن ليلى يا عقيل لا ترى مني بديلا
ظلموني ظلموها أغضبوا السيف الصقيلا
أنا إن لم أسق عمي بالردى كأساً وبيلا ...

فيخاف عقيل من هذا التهديد ويخشى عاقبته .. ويشفق للكبير أن يقتله ابن أخيه فيقول لصديقه بخبث :

عقيل :

أو ترضى يتم ليلى ؟

فيستفيق براق حينما يسمع اسم ليلى ، وتأخذه عليها الشفقة والرحمة ، ويخاف كرهاً إن هو نفذ تهديده .. فيكرر صديقه الخبيث قوله :

عقيل :

أو ترضى يتم ليلى ؟

براق :

لا ولا ، حسبي ذهولا
قطع السيف يميناً تترك العم قتيلا
والفتى من كان للأهلين مساحا وصولا

غير أن براق يرى أن من المستحيل عليه معاشرة أهله ، وقد حطموا قلبه وفتتوا كبده فيقول :

غير أني لا أرى عن أرضكم إلا الرحيلا
يا لقومي للنوى زموا عن الحي الحمولا
وإلى البحرين في صبح غد ، حثوا الرعيلا

حتى إذا كان الصباح رحل براق إلى اليمامة ليأسو جرحه ، وينسى ما هو فيه من عذاب وألم . فهل ترى الأقدار ساعدته ؟ أم أنها كانت تعد له من مخبآتها ما أثار شجونه واستفز رجولته وألهب حميته وهو العربي الضيم ؟

نعم إن الأقدار حاربته وعذبته ، فإنه ما كاد يستقر في اليمامة حتى علم أن قومه في حرب ضروس مع طيء وخزاعة . فماذا يعمل ؟ أيذهب ويحارب معهم حتى ينتصروا وهم هم الذين عذبوه ومزقوا قلبه . . ؟ ؟ أم يتركهم لأعدائهم يسومونهم سوء

العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ؟ إنه إن فعل هذا فقد لحقه العار وركبه الذل ، وناهيك بعار الغرب وذلهم ؛ على أنه مع هذا وذاك لم ينس أن يتهكم ويعتد بقوته فيقول :

أتانى أن قومى جـد فيهم ... من الحدثين شر مستطير

أناخت بينهم حرب عوان ... ضروس للردى فيها زئير

وما أدرى أيذكرنى لـكبْر ... إذا استعرت وطار لها زفير؟

وهل هو بابن ذى صهبان يغنى ... إذا عميت على القوم الأمور؟

وما إن ينتهى براق من قوله حتى يخبره خادمه بضيوف يطلبونه ، وسنرى الآن من أخلاق براق ما يدهشنا ، وما يثير إعجابنا

الضيوف : نزلنـا بأبى نصر ... سـلام يا أبا نصر

دعـوناك الى أمر ... فهل تصغى الى الأمر ؟

بنو عمـك قد جاروا ... ومـدوا سبب الشر

وقد خانوك من قبل ... بمحض البغى والغـدر

فخالفنا وأيدنا ... عليـهم واسع فى النصر .

تحالفـك على من شئـ

ـت فى بر وفى بحر

براق :

ذرونى لست أترك آل قومى

وأرحل عن فنائى أو أسـير

بهم ذلى إذا ما كنت فيهم

ولـكن لى بهم شرف خطير

أأنزل بينهم إن كان يسر

وأرحـل إن ألم بهم عسير ؟

وفى إثر هذا القول الذى خيب ظن القوم يخرجون وهم يتميزون غيظاً ويحترقون ألماً . بل وفى إثره أيضاً يعـلم براق بموت أخيـه وانـكسار قومه ، وأسر أغلبهم وفيهم « ليلى » فيطير عقله ، وينخلع قلبـه ، ويسافر تواً الى قومه ويجمع شملهم وينظم عقـدهم . ويشاء الله أن ينتصر انتصاراً حاسماً وأن يشتت أعداءه ، ويمزقهم شر ممزق ثم يرجع بحبيبته ليـلى ليستأنفا سعادتهما وحبهما ، وهو يقول :

ياليل قومك عنك قد نكلوا ... يا خجلتى يا بئس ما فعلوا

أفأسلموك وأمنوا هربا ... وتخطفتهم دونك السبل ؟

أم كانت الحلى فما ثبتوا ... وعن الحريم لهولها ذهلوا ؟

أهلوك لاميل ولا كُشُف ... عنـد اللقاء ، إذا هم نزلوا

إن يخـذلوك فرب معترك ... عميت به النجدات والحيل

***

هذه عجالة رأينا من الخـير للأدب أن ننشرها للناس لتكون ذكرى طيبة للأستاذ الخالد ، ولتكون نواة صالحة ، وقدوة حسنة لمن يود أن يكتب الشـعر العربى الرصين للمسرح المصرى . رحم الله الفقيد وأسكنه مساكن الشهداء والصالحين .

محمد السيد المويلحى

من طرائف الشعر

وحي المصيف

ليلة البدر

للشاعر الوجداني أحمد رامي

عبرت أعدّ ليالي القمر ... وأرتقب البدر حتى ظهر
وفي القلب أمنية للقاء ... وفي النفس عاطفة للسمر
أسوق اليك حديث الشجون ... وأشكو اليك صروف القدر
وأرسل شعري على مزهري ... فأسمع منك حنين الوتر

***

تعالَيْ الى زورق سابح ... نشقّ عليه عباب النهر
ونبصر بدر الدجى زاهياً ... يرصّع أعطافه بالبدر
وفي الشاطئين حسان المغاني ... تجلّت لأعيننا كالصور
سجا الليل إلا اصطفاق الشراع ... وأبلس إلا حفيف الشجر

***

بقلبي شكاة تكتّمتها ... وقد كتم القلب حتى صبر
توالى المغيب وكان الغروب ... وعيني على الموعد المنتظر
ظللت أودّع شمس النهار ... وأستقبل الليل بين الذِّكَر
خلا الكون إلا نجيّ الفؤاد ... تناغى مع الموج لما هدر

***

هُنا البحر أقبل آذيّه ... هنا النيل طالعه وانحدر
تلاقي الغريبان بعد النوى ... وضنّى الذي أرتجي ما ظهر

تعالى

له أيضاً

تعالى نسعد الروح الحزينا ... فقد قرّت نواة الوجد فينا
حرمتِ هوى الذي ترضين إلفاً ... وعزّ عليّ من أهوى خدينا
كلانا ناشد قلباً حنوناً ... وكلٌّ يحتوي القلب الحنونا
تعالى كفكفي الدمع السخينا ... فكم أرسلتِ بالدمع الجفونا
عرفتِ الحزن في فجر الليالي ... وذقتُ من الأسى فيه فنونا
وملتُ عن الهوى ونأيتِ عنه ... فذكرنا اللقاء وما نسينا
بكيتِ مودة وبكيتُ شجواً ... ومن يبك العهود يكن أمينا
فواسيني ترى قلبي حنونا ... وباكيني ترى دمعي هتونا

رأس البر ... أحمد رامي

من الأدب الغربي

الضجر

للشاعر الانجليزي هنري لنجفلو

ترجمة محمد متولى بدر

يا قدما من سُرَى الليالي ... ورحلة العمر والسنين
أدمتك أحجارها ففاضت ... فجاجها بالدم الثخين
تجرين بالعبء — والأماني ... تفرّ — موصولة الأنين
ها أنا أوشكت أن أوافي ... لبيتك الهادئ الأمين
هناك ننسى الذي عرانا ... ومضنّا، في حمى السكون
لشدّ ما أرهقت فؤادي ... يا قدمي رحلةُ السنين!

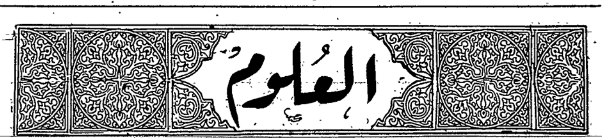
***

ويا يداً، لا أراكِ إلاّ ... كثيرة الوثب والنضال
آناً مليكاً ومستبدا ... وتارة موطئ النعال
الجود يُعليك بالعطايا ... والفقر يدنيك بالسؤال
أنا الذي خضت مستميتاً ... معترك العيش بالمقال
يا طالما رحتِ في شقاء ... تشكين من كثرة الأمالي
كم أنا يا غدتي حزين الـ ... فؤاد من دائك العضال!

***

وأنت يا قلب يا ضميري ... يا دائم الخفق والوجيب
أراك تهتاج بين هذى الـ ... ضلوع كالثائر الغضوب
كأنما أنت — والأماني ... بعيدة — مِلْتَ للغروب
يا عجبا! هل رماك رامٍ ... غير أمانيك بالخطوب؟
نارٌ كنار الغضى وجمر ... متقد ثائر الشبوب

[البقية في أسفل الصفحة التالية]



بعض الأسماك الغريبة بالبحر الأحمر

للدكتور كرسبلاند
مدير محطة الأحيــاء البحرية بالغردقة

لم تمض بضع سنوات قليلة على إنشاء الجامعة المصرية حتى فطنت إلى أهمية البحر الأحمر من الوجهة البيلجية . فأقامت على شاطئه الغربي محطة الأحياء البحرية بالغردقة لمساعدة النجاث من العلماء على دراسة هذا البحر واستنباط أسراره . وهنالك في هذه المحطة يمكننا أن نشاهد دون ما عناء تلك الحيوانات الغريبة التي تختلف كثيراً عن حيوانات البحار الشمالية والبحر الأبيض المتوسط ، والتي لم يرها حية إلا نفر قليل من العلماء تكلفوا في سبيل ذلك من المال والعناء الشيء الكثير .

ويكفي أن تجرف قاع البحر — قريباً من مرسى المحطة حيث تغزر الحشائش — بجرافة صغيرة كي تحصل على نحو من ثلاثين نوعاً من الأسماك الصغيرة ، أغلبها غريب في شكله وعاداته . ومن هذه الأسماك فرس البحر والأسماك الأنبوبية الفم (Pipe fishes) ولا يبدو فرس البحر لأول وهلة من الأسماك ، لولا زعانفه الصغيرة . وقد فقد زعنفته الذنبية فليس يفيد الذنب في العوم ، وإنما يلتف حول الحشائش التي يعيش بينها فرس البحر فيمسك بها . أما الأسماك الأنبوبية الفم فبرغم جسمها العصوى الشكل الكثير الحراشيف ، فهي أشبه بالأسماك العادية من فرس البحر ويمكننا أن نرى جلياً حلقة الاتصال بينها وبين فرس البحر .

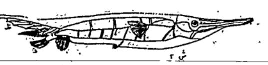
فهنالك واحدة من الأسماك الأولى ذات ذنب قابض قد فقد زعنفته ، فإذا أخذت هذه السمكة وثنيت رأسها بزاوية قائمة ونفخت بطنها حصلت على فرس البحر . . كل هذه الأسماك تشابه الحشائش البحرية في لونها ، وتحمل نقطاً حمراء قاتمة أو سمراء تشبه تماماً صدأ الحشائش التي تعيش بينها .

وتبلغ مشابهة الأسماك للحشائش أقصاها في نوع ماصة الفم (Solenostomus) (شكل ١)


شكل (١) سمكة ماصة الفم (Solenostomus) تصعب رؤيتها بين الحشائش البحرية

فهذا النوع يبلغ في الطول ثمانية سنتيمترات ، ومع ذلك تصعب رؤيته جداً بين الحشائش التي يعيش بينها ، حتى خارج الماء . ويخيل لناظر الصورة أن هذه السمكة سهلة الرؤية لشكلها الغريب ، ولكن جسمها الرقيق ذا اللون الأخضر وزعانفها الصدرية العريضة والنقط السوداء المنتشرة عليها ، كلها تكسبها شكلاً يحول كثيراً دون رؤيتها بين الحشائش خارج الماء . فكم تتعذر رؤيتها في مكانها الطبيعي ؟

وهناك جنس آخر لا يمت إلى الأسماك الأنبوبية الفم بصلة يعرف بالأمفسيل (Amphisile) (شكل ٢) يشبه الأولى في فمها الأنبوبي الماص ، وتغطي جسمه حراشيف كبيرة ملتصق بعضها



(شكل ٢) أمفيسيل (Amphisile) سمكة ذات حراشيف كبيرة ملتحمة ، «ذ» الزعنفة الذنبية متحولة إلى الجهة البطنية «ظ» الزعنفة الظهرية وهي التي تكون نهاية جسم السمكة

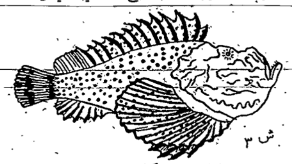
الآن فاهدأ فسوف نرضى — وتنطفي شعلة اللهيب
وأنت يا روح ، يا حياتي — يا هبة الرب والسماء
هبطت من عالم خفي — أنقى وأصفى من الضياء
يا روح ، هذي سحائب العمر — كالأوادي في الفضاء
تمعن في سيرها وراحت — تنتهب النور في ظماء
يالي من العمر ! كيف ولى — وانحدرت شمسه ورائي ؟ !
يالي من الموت ! كيف حانت — واقتربت ساعة اللقاء ؟ !

محمد متولي بدر

ببعض ، تكسب السمكة صلابة في الحركة — وجسم أسماك هذا الجنس مفرطح رقيق صلب ، فهو أشبه شيء بحد السكين . ولا ينتهي بالذنب كالمعتاد ، فقد تحول هذا من مكانه الأصلي وتقدم قليلاً نحو الجهة البطنية . ويستدل من زعانفها الصغيرة على بطء حركتها — ولا يمكننا أن نتكهن كيف يعيش هذا السمك الغريب ، إذ يصعب الحصول عليه حياً أو على الأقل في حالة جيدة ، وذلك بالرغم من صلابة حراشيفه التي هي بالنسبة إلى حجمه أقوى من درع التمساح . والمفروض كما وصف بولانجيه (Boulenger) في كتابه « البرني المائي » (Aquarium Book) أن هذه الأسماك تتغذى على الحيوانات المائية الدقيقة تمتصها بفمها الأنبوبي .

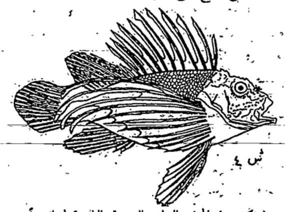
وتعطينا الأسماك الأنبوبية الفم مثلا من الأمثلة النادرة بين الأسماك ، إذ يحتفظ السمك ببيضه حتى يفقس ، ويرقابه حتى تتطور وتصبح قادرة على الأخذ بأسباب الحياة . والذكر وحده هو الذي يرعى النسل ، فله كيس بطني تضع الأنثى بيضها وتثبته فيه . ومن بين الأسماك الصغيرة هنا سمكة تلصق بيضها بعضه ببعض على شكل كرة ، تمسكها بفمها فتسد فتحته حتى ليستحيل الغذاء ، والغريب أنها مع ذلك تتنفس — ومن طبيعة الأسماك الكبيرة أن تأكل الصغيرة ، سواء أكانت من نوعها أم لا . وهنا نرى جلياً ظهور غريزة تخالف تماماً الطبيعة العامة للأسماك ، وهي تشبه في ذلك غريزة بعض الأقراش الكبيرة (Sharks) يقال إنها تأوي صغارها في فمها — ولا يمكننا أن نقول إن مثل هذه الأسماك يمكنها أن تتعرف صغارها ، فان عقل الحيوانات لم يصل إلى الدرجة الدنيا التي يمكنه منها تمييز صغارها الا في ملايين السنين بعد أن بلغت الأسماك نهاية تطورها المخي .

وعائلة السكوربينويد (Scorpaenoids) كلها أسماك قبيحة المنظر ، لها أشواك حادة في كل مكان يمكن أن يظهر فيه الشوك . وكلها ضارة اذا أمسكت ، وبعضها خطر يهدد الحياة . اذ أن للأشواك غدداً سامة — ومن أفراد هذه العائلة أسماك صغيرة تعيش بين الحشائش المائية أيضاً ، ونحصل عليها بالجرافة . وهذه أدنأ أفراد العائلة وأقلها تخصصاً . ويمكن امساكها بشيء من الحذر . ومن هذه أخذ التطور طريقين ، فنشأت من ناحية أسماك منتفخة كثيرة التجاعيد والنتوءات (شكل ٣) هي أقبح المخلوقات ، يبدو التمساح بجانبها حيواناً جميلا وديعاً . وقد بلغت هذه الأسماك حد مشابهة الصخور المرجانية في شكلها ولونها حتى لتكاد تستحيل رؤيتها في موضعها الطبيعي اذا وطئها انسان عاري القدم أو بحذاء رقيق أصابه ألم مبرح قد ينتهي بالموت . وهي غير منتشرة هنا ، وان كان يوجد منها نوعان . وشيء واحد يحمدهما ، ذلك أنهما تلوذ بالفرار اذا أوجست خيفة أو لمحت انساناً يسير على الشعاب ، فاذا هربت سهل رؤيتها لوضوح زعانفها الصفراء الفاقعة ، في أحد النوعين ، وخطوط عريضة بيضاء في ذنب النوع الآخر ، فيها تحذير من شرها .



(شكل ٣) سمكة من عائلة السكوربينويد تسمى هنا (البومة) (Synanceia) تشبه تماماً الصخور المرجانية ولها أشواك سامة جداً

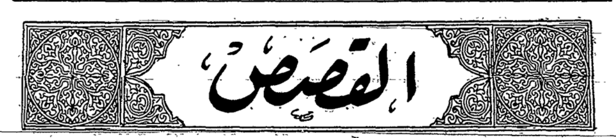
وذهب التطور من الناحية الأخرى إلى سمكة تعرف هنا بالجنخ — (شكل ٤) — (Pterois) وهي وان شابه جسمها جسم الأسماك العادية ملاسة ، الا أن لها رأساً مجعداً كبقية أفراد عائلتها . والزعانف في هذه السمكة تأخذ شكلا غريباً ، اذ تطول أشعتها كثيراً وتصير أشبه شيء بريش الطيور ، وليست كزميلاتها تهاب أعداءها ، وتحاول التخفي بمشابهة الصخور والأعشاب ، بل تبدو جلية واضحة بألوانها الزاهية الجميلة . فجسمها مخطط أسمر وأشهب ، بينما ريشها الطويل ملون بالأحمر والأسمر والأبيض . وتكثر الجنانخ (جمع جنخ) هنا — وقد اعتدت أن أزور صخرة



(شكل ٤) الجنخ . الزعانف الصدرية والظهرية طويلة جداً وتشبه ريش الطيور وألوانها زاهية

مرجانية قريبة من المحطة لأتمتع بمشاهدة المرجان اللين النامي عليها ولألاحظ النجوم الريشية (Feather Stars) تخرج من جحورها ،

[البقية في أسفل الصفحة التالية]



القصص

أقصوصة من الأدب المجري

الأنشــــودة

بقلم الكاتب المجري يوليوس كرودي[1]

« أن ينفق المرء وقته في الليـل ، تحت نافذة ، ومن وراء حجاب ، ولا يعمل شيئاً إلا أن يفكر في امرأة ، أمر حاولة بلا ريب كل انسان في هذه الحياة » . والحق أنه من السخف أن تجد رجلاً رزيناً يسير في الطريق نهاراً رافع الرأس ، يحمل من وقت الى آخر ، اذا ما جاء الليل على ارتكاب الحماقة تحت تأثير الجوى والأفكار التي تحملها الخفافيش ؛ فيذهب ليلاً ويتربص تحت نافذة ، بينا لا يشعر انسان بأمره ، وليس لعمله أي معنى ، إذ ربما كانت السيدة المنشودة تحلم في مثل هذا الوقت بأوراق « اليانصيب ، أو تحلم برجل آخر ؛ أو يعمد الى تلاوة نظم بوشكين تحت الأشجار ، بينا لا يصغى اليه انسان سوى الليل . . . والله شهيد على انه ليس ثمة حياة أكثر حزناً وإنما من حياة رجل عاشق ! »

دونت هذه الأسطر فيما مضى حين كنت أعتقد من الضروري أن أسطر على الورق بعض مشاعري ، في مذكرة عتيقة ذات غلاف أحمر ، وقد مرّ على ذلك زمن طويل ، وكنت يومئذ في العشرين ؛ وكنت ألاحظ كثيراً من الأشياء المختلفة التي لا أتنازل اليوم بالالتفات اليها . وكنت أحب السياحة في العربة من مدينة الى أخرى ، فكنت أحفظ أسماء نسيت أصحابها ، وأدون في مذكرتي بكل عناية ما أقف عليه في الفنادق العتيقة ، محطات أسفاري ؛ ففي فندق «الوردة البيضاء» كانت هناك آنسة خادمة تدعى فالى ، وكانت تتعلم الفرنسية خفية ؛ وسمعت صاحب حانة ليلية في الطريق الأعظم يتحدث عن الأمبراطور فرانز يوسف ، ويقول أنه مرّ وهو فتى من هذا الطريق في عربة تجرها

[1] من أعظم كتاب المجر المعاصرين (١٨٧٨ — ١٩٣٣)

وتنشر ريشها ساعة الأصيل . وقتئذ يخرج الجنخ من مضجعه ويعوم بتؤدة وهوادة ، حتى اذا وصلت الى هذه الصخرة ، دفعت برأسها الى أسفل ، ونشرت أجنحتها الكبيرة أفقياً ، ورفعت زعنفتها الذنبية ، وهي كالزعانف الظهرية الخلفية والشرجية رقيقة شفافة تصعب رؤيتها في الماء . وتمكث هكذا طويلا دون حراك ، ولا تزال الغاية من عملها هذا سراً خفياً

***

البحر الأبيض المتوسط بحر النور والألوان ، ولكن الخبيرين بأحيائه يشدههم كثيراً زهاء الألوان في أسماك البحر الأحمر عندما يزورون الغردقة — لا يقتصر ذلك على الأسماك الدقيقة ، التي تسبح كالفراش بين الشعاب المرجانية ، أو التي يحاور بعضها بعضاً في الكهوف بين المرجان — بل يتعداها الى الأسماك الغذائية الكبيرة . وقد يظن من ليس لهم خبرة الا بأسماك المنطقة المعتدلة ، أن الصور التي نشرها روبل (Ruppell) سنة ١٨٢٩ لم تكن الا محاولة ضعيفة لتصوير ألوان هذه الأسماك ، وأن فيها قدراً من المغالاة غير يسير ، اذ ما كان في استطاعة الطباعة في ذلك العصر أكثر من ذلك . والحقيقة إن روبل لم ينال مطلقاً ، بل ان معظم الصور جاءت كأدق ما يكن عمله الآن بالطرق الحديثة ، فقد يجتمع في بعض الأحيان الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر الى غير ذلك جنباً الى جنب في خطوط أو بقع ، دون أن يختلط أحدها بالآخر وأحياناً تمتزج هذه الألوان الواحد بالآخر في أجمل صورة . وأخرى قرمزية لا يداخلها لون آخر ، غير أن لها بريقاً فضياً يكسبها جمالاً لا تجده في أي سمكة فارقت الحياة ، مهما بلغت من الجمال في حياتها .

كيرلس كرسلاند
مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

أربعة جياد؛ وفي بلدة صغيرة تحف بشوارعها الأشجار وتتدلى أغصانها ذابلة، وتأتي اليها أصوات الأجراس خافتة من وراء التل كأنما تأتي اليها من أجراس البلدة المجاورة، كانت هررة هزيلات تجوب طرقاتها يوم الخميس المقدس، وثمة رجل في فناء داره يشمر عن ساعديه ويحتسي النبيذ الأحمر ويقرأ في جريدة عتيقة، وهو كئيب كأنه متسول ترك هنالك جيش الامبراطور؛ وترى فوق التل أطلال كنيسة متهدمة تبني حفظها، وعن بعيد مجرى نهر يترقرق بين القصب القصير؛ في تلك البلدة كنت أطوف ذات مساء، غريباً لا يعرفني أحد، لأن سائقي احتسى من الشراب أكثر مما يجب، وأبى قطعاً أن يواصل السير في ذلك الحلك الذي يغمر كل شيء.

والحق أني لست أذكر بعد اسم تلك البلدة، ولا بد أنها تقع في ناحية من شمال الجز، فقد كان لها قنطرة مغطاة ودار بلدية ذات تماثيل للقديسين. وكان المطعم يسمى «الفندق الأرجواني» فذهبت أتمشى وحيداً غريباً، لأن سائقي أبى إلا أن يتسلى هذا المساء إلى مكان معين، وأذكر أني اخترقت حديقة صغيرة؛ وكان ثمة في المقهى الصغير محصلة تقرأ جريدة مصورة وهي تعتمد رأسها بيديها اللتين تغوصان في شعرها المتهدل، ووراء باب مدهون باللون الأبيض يبدو فناء صغير يجلس فيه بعض الموظفين في صدريات سود وهم يدخنون «السيكار» إلى جانب الكؤوس الصغيرة؛ وكنت تسمع عن بعد شخصاً لعله طالب ينفخ في مزمار، ويغني تلك الأنشودة التي أولها: « إذا ما ابتعدت يا حبيبتي » فقلت لنفسي: أجل توجد هنا أيضاً قلوب، وتوجد عواطف... وكان ذلك مساء ربيع، وربما كان الطالب المذكور قد رسب في الامتحان.

وكانت الحديقة تمتد جانباً في قفر مطبق، بيد كرك يقفر فناء المحكوم عليهم. ولا بد أنها تكون في القصر منتجع الشيوخ، والضباط أو ذوي المعاشات، يفكرون في موتاهم أو في خليلاتهم القديمات؛ وكانت أشجار الصنوبر التي ترتفع فوق كل مقعد هزيلة محزنة كأنها حياة تصرمت وانطفأت في غمار السل؛ وكان يعمر هذه المقاعد أحذية عتيقة وسترات خرجت عن الثري، وفوق الحصى الصغير الذي يغطي المشى، ترسم العصى الباهتة التي ربما كانت في شبابها أيادي مظلات، خطوطاً ذاهلة

جلست على مقعد، وأخذت أفكر في شتى الأمور المحزنة: في نساء البلدة المسكينات اللاتي يرتدين أثواباً شديدة الحفيف ويبكين أكثر مما يضحكن، وفي الرجال الحزانى الذين يتجملون توقعاً لرؤية الأميرة الحسناء، ولن تأتي الأميرة قط، وفي المحادثات المقيمة التي تدور حول المائدة المقفرة أو في السرير المضني لمعرفة من هو أغنى انسان في البلدة؟ وفي الشهر القادم ستأتي فرقة تمثيلية الى « الفندق الأرجواني » ... وكثيراً مايعرف الأزواج أن لزوجاتهن عاشقاً!

آه، تباً لحياة البلدة الصغيرة من حياة محزنة ذات رائحة كرائحة كسرات الخبز؛ وفيها يضج المرء بالضحك، ولكنه لايستطيع أن يتناول فيها عشاءه. رباه، إن النساء هنا لا يتكلفن العناية بالنظافة، إذ يستوي ذلك عند الرجال.

شعرت أنني جد تعس، إذ قضي على أن أضيع وقتي في تلك النزهة الحقيرة المحزنة في البلدة الصغيرة، بدلاً من أن أجلس في مقهى فخم في مسكولك أو كاسا أو بودابست.

وكانت نغمات المزمار قد انقطعت حيناً، ولكنها عادت فدوت في الحديقة ذاتها. وإذن فقد كان الموسيقي الفتى موجوداً هنالك؛ وكان يقوم في ركن المكان إلى جانب الحاجز منزل عتيق له نوافذ صغيرة جداً، حتى لايتسنى لغير رأس امرأة رشيق جداً وهزيل جداً أن يبرز منها.

وكانت النجوم منورة لاتسطع في ذلك المساء المظلم، وربما لم تك ثمة نجوم فوق تلك البلدة الموحشة. وكان هنالك مصباح زيتي ينشر ضوءه، ويتأمل ذات اليمين وذات الشمال وجلاً كأنما يخشى أن يقيم رجال المطافىء احتفالهم في تلك الليلة، وعلى بعد تقوم منازل ضيقة، لايعمل ساكنوها بلا ريب شيئاً طول حياتهم إلا أن يقتصدوا وأن يتكوا، ولا يفكر نساؤها منذ العشرين في شيء سوى غسل الثياب.

وكان صاحب الزمار يعزف أنشودة محزنة تحت الأشجار، ولا ريب أنه كان يقصد بعزفه ماوراء الحاجز، وربما كانت لأنشودته صبغة غرامية، وربما كان مؤلفها الشاعر التوفى يحيى فيها القمر أو الصبية ذات العينين البراقتين؟ بيد أنني لم آنس

فيها شيئاً غـــير الذلة والمرارة والفقر ، والسلوة الوحيدة لفتى مسكين من القرية . . . رباه ، وكنت قد عرفت يومئذ خادمات فرنسيات .

وأخذت الموسيقى تنحـدر الى الأنين شيئاً فشيئاً ، وكانت الأنشودة تضرع تضرع السائل ، الى سيدة لاترد — وربما كانت أيضاً حمقاء آثمة — أن تصغى من فوق الحاجز الى اعتراف فتى ، لعله فى ظروف أفضل كان يصلح أن يكون فارساً فى ملعب ، أو حاجبا فى حانة ليلية فى بودابست يلقى على الغانيات أجوبة ساخرة . . كان المزمار يئن كالهرة المريضة ، وكأنك ترى وجهاً شاحباً لفتى تعس لايملك من المال ما يمكنه من التلهى بلعبة « الخشب » (لعبة مجرية قومية) ، وكان البؤس المؤلم الساحق والثياب الخلقة ، والمستقبل الذى ينذر بما هو أشنع ، كلها تبـكى فى الأنشودة ، ذلك المستقبل الذى ربما استجابت فيه السيدة الخفية الى التضرع ، وأتت للفتى البائس بعدة أولاد لاخير فيهم

نهضت من مكانى وسرت لأبحث عن ذلك الفتى الذى يعزف بزمباره بين الأدغال

وقد كان حدثاً ذا محيا حزين بائس ، وربما كان كاتب مسجل فى البلدة ؛ وكان مكشوف الرأس ، وشعره الأشقر كث منفوش قائم كالمسامير

فقلت له بمنتهى الخشونة : عد الى منزلك ، ولا تسمم هواء هذه الحديقة ؟ ألا تشعر بالخزى إذ تذل نفسك على هذا النحو من أجل امرأة ؟

ثم هرولت فأيقظت سائقى من سباته ؛ وفى الليـلة نفسها غادرت البلدة الصغيرة ، التى شعرت فيها بثقل ذلك الأسى من جراء عازف سخيف .

٥ـ سـافو

لأوجيـه اميــل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

حنا — لنر الآن ماذا أكتب إليك : « لا أنسى عطفك على زيارتى يافنى » ولكن متى كان ذلك (يقرأ) إبريل من هذه السنة . . إذن فقد أقدمت على زيارته وأنت معى . . .

فنى — شفقة به وحياتك عندى

حنا — (يقرأ) : « وإنى أفكر الآن فى أمر ولدنا . . » ولك منه ولد ؟

فنى — نعم . فماذا تريد الآن

حنا — ها . ها . ما أكبر فخرك بهذه البذرة التى نبتت فى السجن !

فنى — (صارخة شامخة فى غضبها) لاترد على ذلك حرفاً

حنا — وما أجمل طفلاً أبوه فرومان وأمه سافو !

فنى — لاتسبه فهو ولدى

حنا — (وقد غلبته صرخة الأمومة) حسناً

فنى — (بصوت مخنوق) قضى الأمر بيننا ، فعد إلى أهلك لعلك تسعد إلى جانبهم

حنا — ياللك من قذرة !

فنى — يالأمك وابنة عمك من حواصير !

حنا — ماذا ؟ (يهم بضربها فتحتره هازة كتفيها)

فنى — حقيقة إنك نذل . أخرج الآن من هنا

حنا — على هذا عزمت (يأخذ حقيبته وعند ما يصل إلى الباب يلقى الخطاب فى وجهها ثم يختفى فتتناوله وتضعه فوق المائدة وهى تبكى وتنشد)

فنى — ظلمونى وأسرفوا ... حين تمّوا وأرجفوا
كم تخيلت أنـّـــه ... ذو شـعور فيعطف
فاذا الطبع واحـــدٌ ... دبّ فيـه التعسّف
وإذا مَن بذكره ... كنتُ فى الحب أهتف
حانثٌ فى يمينـــه ... واعــدٌ وهو مخلف
قُضى الأمر لم يعـد ... لى من الناس مُنصفُ

الفصل الرابع

(في أفينون منزل أسرة جوسين الى اليمين، وله حديقة بئرها في الجهة اليسرى، وعلى بعد نهر الرون. والأشخاص حنا ووالداه وإيرين ثم سانو وهم عدا سافو على المائدة حيارى لحزن حنا، وعندئذ تشير ديفون اشارة فيخلو المكان إلا منها ومن ولدها.)

ديفون — مالك ياحنا ؟

حنا — أمي !

ديفون — (تمسح رأسه بكفها) ثم تشكو ياولدي ؟

حنا — لا أدري !

ديفون — لا تكذبني . أحدث لك حادث هناك ؟

حنا — كلا . ياأمي

ديفون — إذن لم تعجلت العودة حتى كأنك فررت إلينا فراراً ؟ .

حنا — لا ، لاشيء ياأمي

ديفون — لعل امرأة خدعتك أو حباً غير موفق صادفك ؟ . لا تخف عن أمك شيئاً ياحنا . إنك لا تجهل مالك في فؤادها من الحب .

حنا — أمي . ما أخطأت ولكني شقيت

ديفون — أصدقني ياحنا

حنا — كانت يا أماه ثورة ولكني نسيتها ، فهل أستحق بعد ذلك صفحك عني ؟ .

ديفون — وماذا فعلت مما يستوجب صفحي ياولدي ؟

حنا — آه ليتك ياأماه تنزلين الى أعماق نفسي ؟

ديفون — إن حنو الأمهات يخترق الحجب فتتكشف لهن الأحزان والدموع

حنا — ليقاسمن أبناءهن إياها

ديفون — نعم يابني حتى تغسلها قبلاتهن . تشجع ياحنا واذا عادت اليك همومك فأستحلفك ألا تكتمها عني

حنا — سأفعل ياأماه ، دعيني أضمك . . . .

ديفون — نعم . نعم تعال فادفن همك عند صدري (يضمها)

حنا — الآن خف حمل ألمي . وهدأت ثورتي . . وزعا أخطأ الحزن بعد ذلك طريق قلبي مادمت الى جانبي

ديفون — اذن أدعك لأزف الى أبيك هذه البشرى ، فانه يطرب اذا رأى نور السكينة يتلألأ في عينيك

حنا — نعم أسرعي اليه ياأمي (تخرج أمه)

ايرين — (مقبلة على حنا) ماذا يحزنك يا ابن عمي ؟

حنا — لست السبب على كل حال يا إيرين

ايرين — ألستُ صديقتك . أنسيت مريم ويوسف ؟ . إنني ساعة الأسى أندفع الى صدر صديق تذيب حرارته همي ويطرد حديثه وحشتي

(يدخل سيزار)

سيزار — (مسرعاً اليه) حنا

حنا — (مندفعاً اليه) أبي

سيزار — (لإيرين) اذهبي أنت لديفون

ايرين — ولم لا أبقى ؟

سيزار — قلت لك اذهبي

ايرين — كأنك غاضب علي ؟

سيزار — لا . ولكن دعينا الآن (تخرج حزينة) (لولده) آه ياولدي المسكين . إنها هنا . . .

حنا — (مضطرباً) هنا ؟ أو عادت ؟

سيزار — نعم وتلح في أن تراك !!

حنا — سافو ؟

سيزار — نعم هي ياولدي . أحسبتني عميت عن أمركما وأنت تكتمه عنا . ولكن تشجع عند مقابلتها ياحنا .

حنا — سأكون عند نصيحتك يا أبي ، ولقد كنت من برهة أنتفض وأتلوى . . أما الآن فسأستقبلها بقلب ثابت . نعم نعم يا أبي (سيزار يخرج وتتقدم سافو بخطى بطيئة وهي تنظر حولها حتى إذا وقع بصرها عليه أسرعت نحوه ثم وقفت فجأة)

سافو — (بعد سكوت طويل) لا تعتب علي إذ عدت وما ودعتك الوداع الأخير . وقد كنت وأنا بعيدة عنك أشعر بألم خفي يعذبني . أما الآن وقد رأيتك فقد ذهب ألمي .

حنا — إنني لا أحمل لك في نفسي غلاً

سافو — (والألم يرجها) ماذا ؟ آه لو تعلم كم بكيت وكم

[البقية في أسفل الصفحة التالية]



ماقل ودل

بقلم أحمد الصاوى محمد

جزءان فى نحو ٥٨٠ صفحة طبع دار الكتب

عنوان هذا الكتاب هو نفس العنوان الذى يتخذه مؤلفه منذ أعوام عنواناً لما يكتب كل صباح فى جريدة الاهرام الغراء، وما يحتويه الكتاب هو مجموعة مختارة من هذه القطع التى غدت تقرن باسم كاتبها.

ولمؤلف ماقل ودل طابع خاص يسبغه على مقالاته؛ فهو يتناول من مادة الحياة اليومية مسائل الساعة، ماين اجتماعية وأدبية واقتصادية، ويعالجها بإيجاز ولكن بوضوح؛ ويميل بنوع خاص الى تناول المسائل الاجتماعية وعلاقات الجنسين ومسائل الزواج والأسرة، ويبسط فيها آراءه المحدثة ببساطة وشجاعة. وقد لانوافقه أحياناً على كثير من آرائه وتعليقاته، ولكنك تأنس دائماً فيما يكتب حرارة الاخلاص، وحسن القصد ومحاولة الاصلاح.

وعندنا أن عنصر الفن يتغلب عند الأستاذ الصاوى على عنصر الكتابة، فهو يكاد يرسم أكثر مما يكتب؛ ومقالاته تبدو كأنها صور سريعة لما يتناول، ويخيل اليك فى كثير من الأحيان أنك تتأمل فيما يكتب صورة رمزية ناطقة لما يجول فى ذهنه. وأسلوبه بسيط واضح ينم عن خفة روح ودعابة مستملحة فى كثير من الأحيان، وهو لذلك لايتكلف اختيار اللفظ أو إجادة البيان، لأنه يتجه دائماً فى خطابه الى الرجل «المتوسط»، والى الشباب اليافع؛ ولايهمه أن يمزج العربية بالعامية فى أحيان كثيرة، لأنه يرى ذلك المزج من مقتضيات البساطة والسلاسة فى عرض مايريد لمن يريد. وهذا أسلوب له أنصاره ومؤيدوه؛ ولكن له معارضوه أيضاً، ممن لايسيغون مثول الألفاظ العامية الى جانب الألفاظ العربية بمثل هذه الحرية وهذا الاسراف؛ وقد يسيغون وجود اللفظ أو العبارة العامية لضرورة محلية لايؤديها البيان الفصيح؛ ولكن كثرة الألفاظ العامية مما يذهب دائماً بقوة الأسلوب ورونقه، وإن كانت تكسبه فى بعض الأحيان لوناً من الخفة والدعابة.

ولسنا بحاجة بعد ذلك الى أن نقدم الكتاب ومؤلفه، ففيما يكتبه الأستاذ الصاوى كل صباح فى الاهرام الغراء خير تقدمة؛ ولكن الذى نريد أن نهنىء الأستاذ الصاوى عليه حقاً، هو توفيقه فى حل مشكلة النشر والتوزيع بطريقة يغبط عليها؛ فما زال الكتاب فى مصر يعانون متاعب هذه المشكلة؛ وليس فى مصر ناشرون يعتمد على فطنتهم وأمانتهم وحسن تقديرهم؛ وما زالت معظم جهود المؤلفين نهباً لتجار الكتب. وقد وفق الأستاذ الصاوى الى تجنب طغيان هؤلاء السادة، واستطاع فى شجاعة

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

هدَّنى الجهد حتى لا أدرى كيف أننى لم أزل من بين الأحياء (بدهشة) أترانى تغيرت؟

جنا — وهل تقيمين دائماً هناك؟

سافو — وأين تريد أن أقيم، وهناك تلك الذكريات التى أحيا عندها بالألم... وكثيراً ما كنت على أثر البكاء تقتلنى وحدتى فأضطر إلى العمل لأتسلى. وكم من مرة كنت أستيقظ عند الصباح باسمة فأرتدى ثوبى الأبيض وأصلح شعرى على ما كنت تحب، ثم ألزم نافذتى إلى مغرب الشمس، وأنا أتسمع خطواتك وأتلمس عودتك، حتى إذا يئست أغلقتها واستسلمت للحـزن.

«يتبع» محمود خيرت

المهاتما غاندي

حياة وجهاده

للأستاذ فتحي رضوان المحامي

أثارت شخصية غاندي وحياته ومبادئه الروحية ، وأساليبه السياسية في الأعوام الأخيرة كثيراً من الاهتمام في جميع أنحاء العالم ؛ وكان غاندي منذ سنة ١٩٢٠ أعظم شبح يروع السياسة البريطانية في الهند ، وكان لذلك الرجل الذي يضطرم جسمه النحيل بقوة روحية هائلة في الأعوام الأخيرة مواقف اهتزت لها السياسة البريطانية ، واضطرت أن تنحني أمامها ، أشهرها موقفه سنة ١٩٣٠ حينما أعلن العصيان المدني الأكبر ، وأشهر دعوة عدم التعاون ، واضطرمت الهند من أقصاها إلى أقصاها بدعوته ، واضطرت حكومة الهند إلى اتخاذ أشد الاجراءات الدموية لسحق الثورة ، واضطرت الحكومة البريطانية أن تصرح على لسان اللورد ارون حاكم الهند أنها ترمي الى السير بالمسألة الهندية إلى منح الهند استقلالها الذاتي ، وأنها تعقد لبحثها مؤتمراً خاصاً هو الذي عرف بمؤتمر المائدة المستديرة ، والذي استدعي غاندي من أعماق سجنه إلى شهوده ، بعد أن التزمت حكومة الهند بوقف الاجراءات الاستثنائية ، وإعادة النظر في ضريبة الملح ؛ ومن مواقف غاندي المشهورة أيضاً ، موقفه منذ عامين في مسألة المنبوذين حينما أعلن أن يصوم حتى الموت مالم تعدل الحكومة البريطانية موقفها نحو المنبوذين ؛ ولبث غاندي في صيامه حتى أشرف على الموت ، واضطرت الحكومة البريطانية في آخر لحظة أن تنزل عند وجهة نظره نحو المنبوذين اتقاء لموته ، وما يجره ذلك الموت في الهند من العواقب الخطيرة .

هذه الحياة العظيمة الفياضة بعواطف الكفاح القومي المضطرم ، ومواطن القوة الروحية الهائلة ، يتناولها الأستاذ فتحي رضوان في سفر كبير تربى صفحاته على الثلاثمائة . وقد سبق أن نشر الأستاذ فتحي رضوان عن غاندي عدة فصول قيمة في بعض الصحف اليومية ؛ ولكنه يقدم الينا الآن دراسة كاملة متصلة عن حياة هذا البطل القومي الممتاز . فأعوام غاندي الأولى ، ثم مراحل الدراسة في الهند وفي انكلترا ، ومرحلة الحياة العملية الأولى في المحاماة ، وذهاب غاندي الى جنوب أفريقية ، حيث هاله ما رأى من اضطهاد مواطنيه وجهاده في سبيل إنصافهم ، وبث الدعوة الأولى الى عدم التعاون ، وظفره في هذا الكفاح ؛ ثم استئناف العمل في الهند ، ونمو الدعوة الى عدم التعاون ، وحياة السجن والمحاكمات المختلفة ، ومراحل الكفاح القومي المختلفة حتى سنة ١٩٣٠ — هذه كلها يفصلها الأستاذ فتحي رضوان في إفاضة وترتيب ووضوح — ونلاحظ فقط أن المؤلف فاته أن يشرح أدوار المسألة الهندية ، وما اتخذته السياسة البريطانية نحوها في الأعوام العشرة الأخيرة ، وأعمال لجنة الاصلاح الدستوري وما يتعلق بها . فهذه كلها مسائل هامة يجب أن يستوعبها كتاب يوضع عن غاندي ؛ ونلاحظ أيضاً أنه لم يتناول مراحل الكفاح التي خاضها غاندي في الأعوام الثلاثة الأخيرة ، وقد كان جديراً به أن يتناولها .

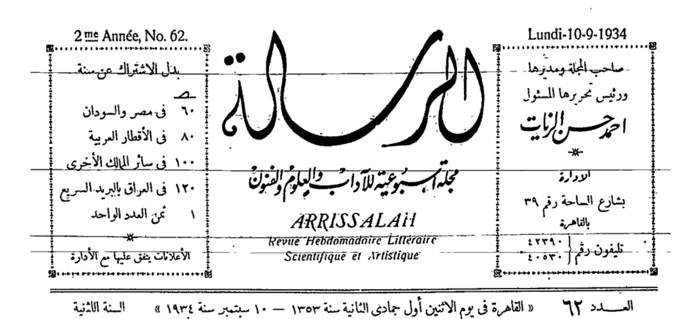
وفي حياة غاندي عبر قومية عميقة يجب أن يستعرضها شباب الأمم الشرقية المغلوبة ، ومن واجب الشباب المصري أن يدرس هذه الحياة الفياضة بعواطف الكفاح القومي . وبين الهند ومصر محنة مشتركة ، وعدو مشترك . فيجدر بشبابنا المثقف أن يقرأ حياة المهاتما غاندي ، وأن يدرس ما فيها من أسرار العظمة ومقومات البطولة القومية .

« ع »

ولباقة أن يتجه الى قرائه رأساً وأن يقدم إليهم كتابه بطريق الاشتراك ؛ واستطاع أن يخرج لهم كتابه في جزءين كبيرين ، وفي أتقن طبع وأجوده ، محلى بالصور الرمزية الممتعة ؛ وذلك كله بثمن لا يتجاوز عشرة قروش للجزءين !

وإنا لنرجو أن يكون في هذا المجهود الموفق عبرة للناشرين فيحد من جشعهم وطغيانهم ؛ وأن يكون فيه درس يستفيد منه الكتاب والمؤلفون .

كما نرجو لمؤلف « ما قل ودل » ما هو جدير بأدبه وفنه من تشجيع وتقدير .



العـــدد ٦٢ « القاهرة فى يوم الاثنين أول جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

حقائق التـــاريخ

لا يمكن أن يطمسها التشريع

صُفد القلم ، وصُفدت حرية الرأى والفكر فى مصر ، فى الأعوام الأخيرة ، بأغلال وقيود شتى لم نعرفها حتى فى أشد أيام الاحتلال ؛ والتمس الشرع لصوغ هذه الأغلال والقيود مختلف المعاذير فى مختلف الفرص ؛ فتارة يقال لنا إنه يشرع لحماية النظم الأساسية للدولة من الدعوات والمبادىء الثورية ، أو لحماية الحكومة والهيئات العامة من مطاعن خصومها السياسيين ؛ وتارة يقال لنا إن سيل الأدب الملحد أو الماجن يكاد يطغى على الدين والأخلاق ، فهو يشرع لحماية الدين والأخلاق ؛ وكان التشريع يجرى فى هذه الحدود الى ماقبل بضعة أعوام ؛ وكنا نعتقد أن الشرع قد وصل فى مختلف القوانين التى أصدرها الى ذروة الشدة والتحوط لما يريد تحقيقه من الغايات السياسية والاجتماعية ، وأنه لم تبق للقلم والرأى حريات حقيقية يستطيع أن يحد منها بعد ؛ ولكن صدرت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة عدة قوانين جديدة للقضاء على ما بقى من مظاهر حرية الرأى والقلم ، أولها قانون الصحافة المعروف ، وثانيها قانون تحريم نشر الأخبار الجنائية والقضائية والادارية إلا فى حدود معينة ، وثالثها قانون تعديل

٢٦ ٥٠ ٣

العقوبات الخاصة بجرائم النشر والسب والقذف ، ودفعها إلى حدود لم يسمع بها من قبل ، وأخيراً ، في هذه الآونة ، يقال لنا إن المشرع ينشط من جديد لفرض أغلال وأصفاد جديدة لا على الصحافة وحدها ، بل على ناحية أخرى هي عرض التاريخ أيضاً .

إذا لم تنته حلقات هذه السلسلة المدهشة من قوانين وأحكام فريدة في شذوذها وشدتها ، بل يراد أن تكمل بما يرى المشرع أنه نقص في حلقاتها حتى يكمل سحق البقية الباقية من هذه المظاهر الضئيلة التي يستطيع القلم المصفد أن يبدو فيها خلال هذه الخطوب التي تغمره ؛ ويراد فوق ذلك أن يتناول التشريع الجديد ناحية علمية أدبية محضة كان المشرع يحوم حولها من قبل بطرق ونصوص غير مباشرة ؛ ولكنه يزمع اليوم أن يتناولها صراحة وبطريقة مباشرة ؛ فيفرض قيوداً خاصة على كتابة التاريخ ، ويعاقب أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بحرية العرض أو النقد في تدوين حوادث التاريخ أو تراجم أشخاصه .

ليس هنا موضع التحدث عن هذه القوانين من الناحية الدستورية أو السياسية فقد قتلتها الصحافة السياسية من هذه الناحية بحثاً ومناقشة ؛ ولكنا نريد فقط أن نتحدث عن أثر هذا التشريع المنشود في سير الحركة الأدبية والمباحث التاريخية .

لا ريب أن هذا الحجر الجديد على عرض الحقائق التاريخية سيثير صياحاً علمية جمة ، وسيكون ضربة شديدة لحرية البحث ونزاهته ؛ بيد أنه لن يحقق الغاية التي يعقد عليه تحقيقها ؛ وقد أشير إلى طرف من الأسباب التي تتخذ حجة لتبرير هذا الحجر ، فقيل إنه قد ظهرت في العهد الأخير كتب ومباحث تاريخية بها مطاعن ومثالب في حق بعض الأمراء السالفين ورؤساء الحكومات الأجنبية الحاليين ، واتخذ العرض التاريخي شعاراً لهذا التجريح ؛ وأنه يجب أن يوضع حد لذلك ، وجوابنا أن حقائق التاريخ لا تتجزأ ، والمؤرخ المحقق لا يمكن أن يتقيد في سرد هذه الحقائق إلا بالمراجع والأسانيد والوثائق ؛ ولا يمكن أن يخضع لغير ضميره ومقتضيات الحق والنزاهة . وحياة الذاهبين من الزعماء والقادة ملك التاريخ ، لا سلطان لإنسان عليها غير سلطان العلم ؛ فالتوسل بالتشريع إلى طمس الحقائق التاريخية تدخل غير مسوغ في حرية العلم والبحث ، وبجني على الحقيقة لا يخلق بعصرنا عصر العلم والحقيقة والنور .

والحجر على حرية البحث والكتابة على هذا النحو يلقي سحبا من الشك على قيمة الكتب والمباحث التي تصدر في ظله حتى ولو كانت جديرة بالتقدير ؛ ومن المستحيل أن تنقلب المثالب إلى مناقب بقوة التشريع ؛ والعلم ليس له اليوم حدود ولا وطن ، فإذا استطاع المشرع أن يصفد الأقلام في مصر ، فليس في وسعه أن يصفدها في أي أرض أخرى ؛ وأرض الله واسعة . والتاريخ يكتب بكل اللغات الحية ؛ وهذه اللغات تقرأ في مصر ، كما تقرأ في غيرها . هذا إلى أن ما لدينا اليوم من الكتب والمباحث في الميادين والموضوعات التي يراد حمايتها بقوة القانون يلقي عليها ضياء لا يمكن أن تطمسه بعد أية قوة أو بطش .

كان لويس الخامس عشر يعتبر حتى عصرنا أشنع مثل للملكية الظالمة الباغية المسرفة ؛ وكانت النشرات القاذفة تنثال عليه إبان حياته من أقلام قاسية لاذعة كقلم فولتير ؛ فكان الباستيل مأوى القاذفين ؛ ولكن هل استطاع الباستيل وكل ضروب البطش والمطاردة الأخرى أن تخمد الصيحات المنبعثة أو تطمس الحقائق الثابتة في هذه الحياة الفياضة بالإثم والبغي ؟ ومع ذلك فقد وجد في أيامنا من كتاب التاريخ من يذهب في سيرة هذا الملك رأياً آخر ، ويقول إن التاريخ قد ظلمه ، وأنه كان في أخطائه ومثالبه دون ما يصوره بكثير .

وكانت لوكريزيا بورجيا ابنة البابا اسكندر السادس تعتبر حتى عصرنا أشنع مثل للأميرة الفاجرة التي تضطرم بأوضع الأهواء والشهوات ، وتنحط إلى أسفل درك من الرذيلة والإثم ، فجاء أخيراً مؤرخ بارع هو العلامة فونك برنتانو ، وأصدر كتاباً عن حياة هذه الأميرة ، وفيه يصورها لنا امرأة عفيفة فاضلة ، ويدفع عنها كل الجنايات والآثام التي نسبت إليها . وكان الباستيل يعتبر حتى عصرنا أروع سجون التاريخ فجاء فونك برنتانو أيضاً يقول إن الحياة فيه كانت ناعمة ، وكانت تنتظم بين جدرانه القاتمة جميع مجالي اللهو والانس والترف .

والخلاصة أن التاريخ ملك البحث الحر وملك الزمن ، فاتركوه يجري مجراه الحر ؛ ونقول أن من المحال أن يحول التشريع دون ظهور الحقائق غير المرغوب في ظهورها ؛ فالتاريخ مسمع جاد يصل إلى ما وراء الجدر ، وبصيرة ثاقبة تنفذ إلى أعمق الظلمات . وإنما تطلب الحماية للحقيقة لا لغيرها .

« مؤرخ »

سيدنا

للأستاذ أحمد أمين

كان لسيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن كتّاب فى حى وطنى فى قسم الخليفة ، أسلمنى له أبى وأنا فى السادسة من عمرى .

كان هذا الكتاب بيتاً من بيوت الوقف ، يتكون من طابقين ، طابق أرضى فيه حجرتان احداها سبيل لسقى الماء كان قد هجر عندما ذهبت اليه ، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً ، وفى الطابق العلوى حجرتان كذلك ، احداها لأولاد الكتاب يقرأون فيها ، والأخرى لسيدنا أيضاً ، وبين الحجرتين «فسحة» فى أحد أركانها زير ماء لاتعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان ، وعليه غطاء من خشب ، قد كسر ولم يهتم أحد باصلاحه ، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شُد بحبل فى مسمار فى الحائط ، حتى لايذهب به الأولاد من مكان الى مكان ، وخشية أن يقع الكوز فى أسفل الزير ، فاذا كان مربوطاً ووقع استطعنا أن نشده بالحبل ، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه ، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه .

وأدوات الكتاب : حصير فرش على البلاط ، يبلى أحياناً فتتناثر عيدانه ، ومع ذلك يبقى الى أن يحنن الله على سيدنا فيشترى حصيراً جديداً ، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع فى زاوية من زوايا الحجرة ، نضع فيه ألواحنا — وهذه الألواح أكثرها صفيح ، تسوَدّ أحياناً ويذهب طلاؤها حتى لاتتبين الكتابة منها — وكيف يبين أسود من أسود ؟ وأقلها خشب قد طلى بدهان أبيض ، وله أطار لُونَ بلون بُني ، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم .

هذا كل ما بالكتاب من أدوات ، ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك كله ، وهو مجموعة عصى من جريد النخل ، تختلف طولاً وقصراً ، أما القصيرة فيستعملها سيدنا لمن يُسمّع عليه اللوح أو « الماضى » فيخطىء فتدركه هذه العصا ، وأما الطويلة فعند ما يرى سيدنا طفلاً فى آخر الحجرة لايهتز وقت قراءته أو يتهاون فى حفظه ، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا « اهتز ياولد » — وقد كان لهذه العصى ما طال منها وما قصر ، أثر فى نفوسنا لا يكر ، فكثيراً ما رعبنا لأن خيالنا صوّر لنا أن سيدنا يريد أن يهوى علينا بعصاه ، وفى الواقع لم يكن شىء من ذلك ، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا ، ويحصل هذا أحياناً حتى فى البيت ، فننسى أننا خرجنا من الكتاب ، وأننا بين أهلينا ، فنرتجف بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا فى الكتاب .

وإلى جانب هذه العصى « فلقة » وهى عصى غليظة من خشب متين قد ثقب فى وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر ، وركب فى هذين الثقبين سير من جلد أو نحوه ، فاذا شكا الولد أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجليه فى هذا السير ولواه عليهما ، وأمسك بطرفى الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتاب ، فلم تستطع الرجلان حركة ، وانهال عليه سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح « فى عرضك ياسيدنا » « حرمت » « أتوب » ! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا فشق عقبى وسال منه الدم ؛ وكان عزائى الوحيد أنى مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين .

وهذا كل ما كان فى الكتاب من « موبليات » .

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً ، ويكتب كتابة عاجزة ، وهذا كل ماله من ثقافة ، كان يطوف فى الصباح على البيوت يقرأ فيها ماتيسر من القرآن ، ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته ، وكان موظفاً فى مسجد يؤذن فيه ، فاذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتاب للأذان والصلاة — وفى غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصراً يتركنا لعريف يقوم مقامه ، ولكن كان العريف ولله الحمد أهون علينا من سيدنا ، فكنا نتنفس الصعداء إذا خرج ، ونصاب بالرعشة إذا حضر .

وكان برنامج الكتاب ينحصر فى كلة هى « تحفيظ القرآن » فيبتدىء بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة ، فأول درس كان هو « أ ألف » وهى كلة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب فى مدرسة القضاء ، إذ فهمت أننا لو تهجينا كلة ألف لكانت ألفاً ولاماً وفاءً ، وما أدرى ماالسر فى هذا البدء على هذا الوضع — حتى إذا عرف الولد شيئاً من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزء من القرآن فى اللوح يحفظه كل يوم وهو فى اثناء ذلك « يثبت الماضى » ويمضى النهار كله فى هذا الباب ، فلا إملاء ولا حساب ، ولا يعرف سيدنا شيئاً من ذلك ، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء

فاذا حان الظهر جمع « سيدنا » من كل ولد ملليمين أو ثلاثة

أو خمسة ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين ، أحدهما فيه قليل من فول نابت وكثير من مرق ، والآخر مملوء بخللا بماله وبخله ، ونحلق الأولاد حلقة ، وأخرج كل رغيفه ، وكان قد أحضره معه في الصباح تحت إبطه ، وضربوا بأيديهم في الماجورين وأكلوا هنيئاً مريئاً — وقد رحمني الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بجوار الكتاب أستطيع أن آكل فيه وأعود — وبين هؤلاء المريض والقذر ومن تلوثت يده بالخبز .

لا تعجبن من هالك كيف هوى بل فاعجبن من سالم كيف نجا

***

كان « سيدنا » غريب الأطوار عرف في الحي باسم الشيخ سيد المجذوب ، يلبس المرقع من الثياب فلم أره يوماً لبس « مركوبا » جديداً ولا عمة نظيفة ولا قباء ولا عباءة جديدين ، فكأنه كان يتجرى القديم من كل شيء ويشتريه ، كان يتزهد في أكله ولبسه وحديثه ، ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتاً ، فهو يمشي مسرعاً مشياً يشبه الجري ، ويأكل في الشارع وهو على هذه الحال ، وإذا ناداه مناد لا يلتفت إليه . فكان بذلك يلفت أنظار الناس والأطفال ، ويتعجب منه بعضهم ، ويتبرك به بعضهم ، وكان في المجالس العامة غريباً يتنحى ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم ، وفي مجالسه الخاصة واعياً أنيساً لطيفاً .

لم أره مرة يقرأ في كتاب ، وما أظنه كان يعرف ذلك ، ولكني مع هذا أذكر له حادثة حيرتني حقاً : فقد خرجت من كتابه ، وأتممت التعليم في مدرسة ابتدائية ، ثم قطعت مرحلة بعدها في التعلم — ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات ، ثم لقيت سيدنا في الطريق فسلمت عليه في احترام وإجلال اعترافاً بفضله علي في أول مراحل التعليم ، ولكني أطوي بين جنبي إدلالاً بنفسي عليه ، فأين هو الآن مني ؟ لقد درست طبيعة وكيمياء ، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب مثلثات ولوغاريتمات وتراتيب ولوغاريتمات ، ودرست علوماً دينية مختلفة الأشكال والأنواع ، وعلوماً مدنية من تاريخ وأصول قوانين ونظام إدارة وما إلى ذلك — فأين سيدنا من هذا كله وهو لا حظ له من علم إلا أن يحفظ القرآن ، ولكن ما أدهشني حقاً أنه أخذ يسألني عن حالي وجرى من ذلك إلى الإدلاء برأيه في العالم وفلسفة الكون عن طريق صوفي ، فإذا أنا أسير معه ملتذاً من حديثه معجباً بقوله إعجاباً يفوق ما كنت أضمره لأساتذتي في المدارس العالية ، وإذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ في ساعتين أو أكثر ، ولوددت أنه طال أكثر مما كان — لست أذكر الآن حديثه وقوله ، ولا أذكر ماذا كانت نظراته في الحياة ، ولكني أذكر لذة حديثه وفائدة درسه .

***

ثم راحت أيام وجاءت أيام ، وإذا لي ولد ، وإذا بي أرسله إلى « روضة الأطفال » ، وإذا مكان الكتاب ذي السبيل والحصر ، بناء فسيح ذو حديقة غناء ، وتخت وأدوات شتى ، ومكان العصى و « الفلقة » ، بيانو وآلات موسيقية ، ومكان مواجير الفول والخلل ، لبن وبسكوت في الساعة العاشرة ، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب في الظهر ، ومكان برنامج كتابنا الذي ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل محدود بالساعة والدقيقة فيه غناء وفيه لعب ، وفيه مبادئ القراءة ، وفيه ماشئت من تنوع واختلاف ، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن آنساتنا المربيات .

وأتى ابني يوماً يقول إن « أبلة » فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً ، قالت هذه « ستى » أ ، وهذه « ستى » ب ، وستى أ لا شيء عليها ، وستى ب من تحتها نقطة ، فقلت أين هذا مما كنا نتعلمه من « ألف ، لام ، ألف ، باء ، ياء ، باء » .

ورأيته ينشد أناشيد « سمير الأطفال » ونحوها فقلت أين أنت من أبيك ، وقد كان ينشد في العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية .

ورأيته يزكم فيجلس في البيت ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتي بشهادة طبيب بأنه بريء ولم يكن مرضه معدياً ، فقلت لحا الله زماناً لم نكن نعرف فيه طبيباً ، وكان حولنا في الكتاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض ، وكان أصحاؤهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد .

ورأيته في سنه لا يحفظ شيئاً ، وكنت وأنا في سنه أحفظ جزءاً كبيراً من القرآن .

ورأيته يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين مالا أعرفه إلى اليوم .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

ورأيته ورأيته ؛ ورأيتني ورأيتني

* * *

أخشى أن نكون في كلا الحالين مُفْرِطين ومفرِّطين ، وأن نكون في « كُتّابنا » قد غلونا وفي « رياض أطفالنا » قد غلونا

أخشى أن يكون الكتاب قسا وأسرف في القسوة ، ورياض الأطفال ماعت وأسرفت في الميوعة ، أخشى أن نكون في كتابنا قد وضعنا أمام الطفل كل العقبات فلم يستطع أن يجتازها إلا القليل ، ونحينا في « رياض الأطفال » كل العقبات فاجتازوها جميعاً ، ولكنهم خرجوا لا يعرفون كيف يجتازون عقبة عرضت ، ولا يصبرون على شدة ألمت ، ولا يتحملون مشقات العلم ومعاناة الدرس ، ولا يعالجون ما يعن من مصاعب الحياة — وآية ذلك أن الجيل السابق — مع كثرة من تخلف — كانوا أصبر على الدرس وأحمل للمكاره والمشاق ، وأن الجيل الحاضر أنعم وأظرف وألبق ، ولكنهم لا يصبرون على مكروه حتى العلم .

أحمد أمين

قصيدة منثورة

لحوم البحر . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لكأنما والله قد تمدَّد على سِيف البحر في إسكندرية شيطانٌ ماردٌ من شياطين ما بين الرجل والمرأة . يخدع الناسَ عن جهنمَ بتبريد معانيها . . وقد امتلأ به الزمانُ والمكان ؛ فهو يُرْعِشُ ذلك الرملَ بذلك الهواء رَعشةَ أعصاب حية ؛ ويُرسل في الجو نفخاتٍ من جُرْأة الخمر في شاربها ثارَ فعربد ، ويُطلع الشمس للأعين في منظر حسناءَ عُريانةٍ ألقت ثيابها وحياءها معاً ؛ ويُرخي الليلَ ليغطي به المخازي التي خجل النهار أن تكون فيه .

ولَعَمري إن لم يكن هو هذا الماردَ فما أحسَبُه إلا الشيطان الخبيث الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفةً في أجسامها تحت عين التقيّ والفاجر لتعمل عملها في الطباع والأخلاق ؛ فسوّلَ للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاجُ المللِ من الحر والتعب ، حتى إذا اجتمعوا فتقاربوا ، فتشابكوا ، يسوّلُ لهم الأخرى أن الشاطئ هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين .

ولئن لم يكن الشيطان فهو الرجيمُ الثالث ، ذلك الذي تألَّى أن يفسد الآدابَ الانسانية كلَّها لفساد خُلُقٍ واحد ، هو حياءُ المرأة ؛ فبدأ يكشفها للرجال من وجهها ولكنه استمر يكشف . وكانت تظنه نَزْعَ حجابها فإذا هو أولُ عُريها . .

وزادت المرأة ، ولكن بما زاد فجور الرجال ، ونقصت ولكن بما نقص فضائلهم ، وتغيرت الدنيا وفسدت الطباع . فإذا تلك المرأة ممن يقرونها على تبذلها بين رجلين لا ثالثَ لهما : رجل فَجَرَ ، ورجل تخنّث . .

* * *

هنالك فكرة من شريعة الطبيعة هي عقل البحر في هؤلاء الناس ، وعقل هؤلاء الناس في البحر ؛ إذا أتت اعترضتها فتبيّنتها فتعقّبتها ، رأيتها بلاغة من بلاغة الشيطان في تزيينه وتطويعه ، وأصبت فكرةً مستقراً فيها استقرار المعنى في عبارته ، آخذاً بمداخلها ومخارجها . وما كان الشيطان عَيِيّاً ولا غبياً ، بل هو أذكى شعراء الكون في خياله ، وأبلغهم في فطنته ، وأدقهم في منطقه ، وأقدرهم على الفتنة والسحر . وبتمامه في هذا كله كان شيطاناً لم تسعه الجنة إذ ليس فيها النار ، ولم تُرْضه الرحمة إذ ليس معها الغضب ، ولم يعجبه الخضوع الملائكي إذ ليس فيه الكبرياء ، ولم يَخلُص إلى الحقيقة إذ لا تحمل الحقيقة شعر أحلامه .

وما أتى الشيطان أحداً ، ولا وسوس في قلب ، ولا سوّل لنفس ، ولا أغوى من يُغويه إلا بأسلوب شعري مُلْتبسٍ دقيق ؛ يجعل المرء يعتقد أن اطّراح العقل ساعةً هو عقل الساعة ، ويُفسد برهانه مهما كان قوياً إذ يرتد به من النفس إلى أخيلةٍ لا تقبل البراهين ، ويَقطع حجته مهما كانت دامغة ، إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق .

فكرة من شريعة الطبيعة ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدرى ، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدرى وما كانت الشرائع الآلهية والوضعية إلا لاقرار العقل في شريعة الطبيعة كي تكون إنسانية لأنسانها كما هي الحيوانية لحيوانها ، وليجد الانسان

ما يحفظ به نفسه من نفسه التي هي دائماً فوضى ، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائماً فوضى . .

وبالشرائع والآداب استطاع الانسان أن يضع لكلمة الطبيعة النافذة عليه ، وأن يرى في هذه الطبيعة أثر جوابه ؛ فكلمتها هي : أيها الانسان أنت خاضع لي بالحيوانيّ فيك ؛ وكلمته هو : أيتها الطبيعة وأنت لي خاضعة بالالـهيّ فيّ .

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنية التي نظمها الشيطان على رمل الشاطئ في اسكندرية ؛ وقد نقلتها أترجمها فصلاً بعد فصل عن تلك الأجسام عارية وكاسية ، وعن معانيها مكشوفة ومغطاة ، وعن طباعها بريئة ومتهمة ، حتى اتّسقت الترجمة على ما ترى

قال الشيطان :

ألا إن البهيمية والعقلية في هذا الانسان ؛ مجموعهما شيطانية . . .

ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به .

هنا يتعرى المرأة من ثوبها ، فتتعرى من فضيلتها .

هنا يخلع الرجل ثوبه ، ثم يعود إليه فيلبس فيه الأدب الذي خلعه .

رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظر بالعين والعاطفة .

يرى ببصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد .

ونظر المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط . . .

تحول بصرها أو تخفضه ، وهي من قلبها تنظر .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

* * *

يالحوم البحر ! سلخك جزار من ثيابك .

جزار لا يذبح بألم ولكن بلذة . .

ولا يحز بالسكين ولكن بالعاطفة .

ولا يميت الحيّ إلا موتاً أدبياً . .

إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء .

فهنا تلتحم نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق .

للطبيعة أسلحة العُرْي ، والمخالطة ، والنظر ، والأنس ، والتضاحك ، ونزوع المعنى إلى المعنى . .

وللأخلاق المهزومة سلاحٌ من الدين قد صدئ ، وسلاحٌ من الحياء مكسور .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

* * *

الشاطئ كبير كبير ، يسع الآلاف والآلاف .

ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير ، حتى لا يكون إلا خلوة . . .

وتقضي الفتاة سنتها تتعلم ، ثم تأتي هنا تتذكر جهلها وتعرف ما هو . .

وتقضي المرأة عامها كريمة ، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي . . .

لو كانت حجّاجة صوّامة ، للعنتها الكعبة لوجودها في « استانلي » .

الفتاة ترى في الرجال العُرْيانين أشباح أحلامها ، وهذا معنى من السقوط .

والمرأة تسارقهم النظر تنويماً لرجلها الواحد ، وهذا معنى من المواخير . . .

أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين ؟

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

* * *

هناك التربية ، وهنا إعلان الأغفال والطيش .

وهناك الدين ، وهنا أسباب الاغراء والزلل .

وتكاليفُ الأخلاق ، وهنا طبيعة الحرية منها .

والعزيمة بالقهر يوماً بعد يوم ، وهنا إفسادها بالترخّص يوماً بعد يوم .

والبحر يعلّم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر . .

لو درى هؤلاء وهؤلاء معرّة اغتسالهم معاً في البحر ، لاغتسلوا من البحر .

فقطرة الماء التي نجّستها الشهوات قد انسكبت في دمائهم .

وذرة الرمل النجسة في الشاطئ ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم . .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

* * *

يجيئون للشمس التي تقوى بها صفات الجسم ،

ليجد كل من الجنسين شمسه التي تضعف بها صفات القلب .

يجيئون للهواء الذي تتجدد به عناصر الدم ،

ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسد به معاني الدم .

يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية ،

ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية : سمكة تطارد سمكة . .

ويقولون ليس على المصيِّف حرج .

أي لأنه أعمى الأدب ، وليس على الأعمى حرج .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

***

المدارس ، والمساجد ، والبِيَع ، والكنائس ، ووزارة الداخلية ، هذه كلها لن تهزم الشاطئ .

فأمواج النفس البشرية كأمواج البحر الصاخب ، تنهزم أبداً لترجع أبداً ، لا يهزم الشاطئ إلا ذلك « الجامع الأزهر » ، لو لم يكن قد مُسخ مدرسة . فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم ، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح ، وتردّ الأمواج نقيّة بيضاء[1] ، كأنها عمائم العلماء .

وتأتي الى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء ، ولكني أرى زمناً قد نقل حتى الى المدارس روح « الكازينو » . .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . !

***

هنا على رغم الآداب ، مملكة للصيف والقَيْظ ، سلطانها الجسم المؤنث العاري .

أجسام تعرض مفاتنها عرض البضائع ؛ فالشاطئ حانوت الزواج . !

وأجسام تعرض أوضاعها كأنها في غرفة نومها لا في الشاطئ . .

وأجسام جالسة لغيرها تحيط بها معانيها ملتمسة معانيه ، فالشاطئ سوق للرقيق . .

وأجسام خفِرة جالسة للشمس والهواء ، فالشاطئ كدار الكفر لمن أُكرِه[2] .

(1) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقال « بيض » ولسنا من هذا الرأي ، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه لغفلتهم عن السر في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد ومرة في الوصف بالجمع .

(2) إشارة الى الآية الكريمة : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدريها ، لأنها جعلت الشاطئ مستشفى . . . !

وأجسام خليعة أضافت من استانلي وأخواتها الى منارة اسكندرية ، ومكتبة اسكندرية ، مزبلة اسكندرية . . .

كان جدال المسلمين في السفور فأصبح الآن في العُرْي .

فاذا تطوّر ، فماذا بقي من تقليد أوربا إلا الجدال في شرعية جمع المرأة بين الزوج وشِبْه الزوج[1] . ؟

انتهى ما استطعت ترجمته ، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة الى بعض القواميس الحية . . الى بعض شبان الشاطئ . . ؟

طنطا — **مصطفى صادق الرافعي**

(1) يسمى هذا في اللغة الضمد بفتح الضاد والميم ، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج ومنه قول الشاعر :

تريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

ومن هذا يقال في الرجل : ذاق الضماد (بكسر الضاد) أي ذاق الطعم الذي وصفه أناتول فرانس . . .

حول ذكرى الشاعرين

شوقي وحافظ

كتب كثير من الأساتذة الغير ، يأسفون على إهمال حافظ ، ويتألمون على أن كتاباً لم يصدر عنه . ولم يذكر واحد منهم ، أن المكتبة العربية في دمشق ، قد اخرجت كتاباً في ذكرى الشاعرين في (٧٥٠) صفحة كبيرة . فيه (١٢) مقالة عن حافظ لطائفة من أكبر كتاب مصر والشام كالرافعي والمازني وطه حسين وهيكل والبشري والمغربي و (٢٦) قصيدة في حافظ لطائفة من كبار الشعراء كشوقي (رحمه الله) والزهاوي ومطران والعقاد ومحرم والبزم والهراوي وجبري، وأكثر من الف بيت من شعر حافظ الذي لم ينشر في ديوانه ، ومثل هذا عن شوقي ، وخمس مقالات في المقارنة بينهما للزيات وطه حسين والمازني ومطران وسعيد الأفغاني .

أفليس من الحق ان ينوه بهذا العمل ، وان يشكر لدمشق ؟

« دمشق » — « متأدب »

أعظم حادث في حياة روسو :

روسو ومدام دى فرنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

صدر أخيراً في باريس كتاب عنوانه « مدام دى ڤرنس » Mme de Warens ، وهو عنوان لا يثير لأول وهلة كبير اهتمام ؛ ولكنا متى علمنا أن صاحبة هذا الاسم هى المرأة التي كان لها أكبر أثر في حياة چان چاك روسو الكاتب والفيلسوف الأشهر ، وأنها إذا لم تكن معروفة شهيرة لذاتها فان روسو يخلدها في آثاره ، ويفرد لها في « اعترافاته » أو ترجمة حياته أكبر مكانة ، استطعنا أن نقدر أهمية بحث يتناول هذا الجانب من حياة روسو ، وما كان له من عظيم أثر في تكوين تفكيره وفلسفته .

نلمس أثر المرأة في حياة كثير من عظماء الرجال ، وتمتاز هذه الشخصيات النسوية في أغلب الأحيان بخلال قوية بارزة تمكن لها في النفوذ والتأثير ؛ ولكن مدام دى ڤرنس تبدو لنا في صورتها وخلالها شخصية عادية ، لا تحلق في ذاتها لأن توحى بشيء من مقومات العظمة أو البطولة ؛ وكان مثولها في حياة روسو أيام كان فتى مغموراً شريداً لا قيمة له في مجتمع وطنه وعصره . على أن هذه الصلة طبعت نفس روسو وروحه بأعمق طابع ، وأثرت في عواطفه وتفكيره أعظم تأثير ، وأثارت من قلمه عن مدام دى ڤرنس وعن صلاته بها تلك الصحف المؤثرة البديعة التي نعتقد أنها أجمل ما في « الاعترافات » .

كانت لروسو مع مدام دى ڤرنس قصة من أغرب القصص وأجلها ؛ قصة « أم » وولد ، ومربية وتلميذ ، وحامية ومحسوب ، وأخيراً قصة عاشق ومعشوق ، وصاحب وخليلة ؛ وكان اتصاله بها سنة ١٧٢٨ وهو حدث في نحو السادسة عشرة من عمره ؛ في ذلك الحين فر روسو من جنيف مسقط رأسه ، وغادر أسرته بعد أن التحق حين كان صبيا بمكتب محام ولم يأنس ميلا للعمل فيه ، ثم بحانوت حفار لم يطق خشونته وسوء معاملته ؛ وسافر على غير هدى إلى بلدة كنفنيون من أعمال ساڤوا ، وقصد قسيسها المسيو دى بونفير وكانت بينه وبين أسرته صداقة ، فأرسله بتوصية منه إلى سيدة خيرة محسنة هى مدام دى ڤرنس ، لكي تعاونه على البحث عن عمل يعيش منه .

وكانت مدام دى ڤرنس تقيم يومئذ في بلدة « أنسى » ؛ فقصد إليها الفتى چان چاك ، وقلبه يتردد بين الخيبة والأمل . ويقول لنا روسو إنه لما وصل إلى « أنسى » فكر في وسيلة مؤثرة يكسب بها عطف مدام دى ڤرنس ، فكتب إليها خطاباً منمقاً ضمنه كل ما وسع من الكلمات والعبارات البليغة ، ووضع معه خطاب المسيو دى بونفير . ثم ذهب إلى منزلها فلم يجدها هنالك ، وقيل له إنها سارت تواً إلى الكنيسة على مقربة من المنزل ، فهرول في أثرها ولحق بها وناداها . ثم يقول : « وإنى لأذكر هذه البقعة بلا ريب . وكثيراً ما بللتها بعد بدموعى وغمرتها بقبلاتى . وإنى لأود أن أسور هذه البقعة السعيدة بقضيب من الذهب ، وأود أن ألتمس لها إجلال العالم . ومن يقدس آثار انقاذ الانسان فعليه أن لا يقربها إلا راكعا » . وشد ما كانت دهشة روسو حينما رأى مدام دى ڤرنس لأول مرة ، وكان يتصورها عانساً مظلمة المحيا شديدة الورع ، وما كانت المحسنة التي يختارها القس دى بونفير لتكون في نظره غير ذلك . ولكنه رأى بالعكس محيا يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين نجلاوين تفيضان بالرقة ، وبشرة ناصعة باهرة . فاستقبلته باسمة وتناولت الخطابين وقرأتهما . ثم طلبت إليه برفق أن ينتظرها في المنزل حتى تعود من القداس .

وهنا يحدثنا روسو طويلا عن مدام دى ڤرنس ؛ فهي لويز الينور دى ڤرنس سليلة أسرة نبيلة من لوزان ؛ تزوجت صغيرة بالمسيو دى ڤرنس ؛ وكان الزواج عقيما ، ولم يكن سعيداً ؛ فعافت حياة الأسرة ؛ وانتهزت فرصة وجود الملك فكتور أمديه (ملك سافوا) ذات يوم في أفيان ، فغادرت أسرتها ووطنها واستغاثت به ، فمنحها حمايته ورعايته ورتب لها نفقة حسنة . ثم ذاع بعد ذلك أنه يهواها ، فأبعدها إلى « أنسى » ، وهنالك نبذت مذهبها البروتستانتي واعتنقت الكثلكة إرضاء لمليكها وكان كاثوليكيا متعصبا . وكان قد مضى عليها ستة أعوام في أنسى يوم وفد عليها روسو ؛ وكانت يومئذ في الثامنة والعشرين من عمرها . وكانت حسناء « جمالها من ذلك النوع الباقي الذي يبدو في المحيا أكثر مما يبدو في التقاسيم ، هذا إلى أن جمالها كان ما زال في ذروته الأولى ؛ وكانت ذات هيئة ناعمة

جذابة ، ونظرة ساحرة ، وبسمة ملائكية . وكانت صغيرة القد ، أميل إلى القصر ، عبلة نوعا ولكن دون قبح ؛ بيد أنه لم يك أجمل منها رأساً ، ولا أجمل صدراً ويدين ومعصمين » .

وقد تلقت مدام دى ڤرنس تربية مضطربة متنوعة ترجع إلى أنها فقدت أمها عند مولدها ، فتعلمت شيئا من مربيتها ، وشيئا من والدها ، وشيئا من أساتذتها ، وكثيراً من عشاقها . وتلقت بالأخص عن والدها قشوراً من الطب والسمياء ، وكان للأفاقين من الأطباء والسميائيين نفوذ كبير عليها ، فكانت تقلدهم فى عمل المركبات والأدوية ، وتبدد فى ذلك ذكاءها وسحرها اللذين كانا يخلقان بأرفع المجتمعات . بيد أنها لبثت خلال هذه الغمار محتفظة بطيبة قلبها ، ورقة شمائلها ، وبشرها وصراحتها ، وحبها للبائس والمسكين ، وكان جديراً بذكائهـا وربيع خلالها أن تشغل مكانة غير التى وجدت فيها ، وأن تؤدى عملا أجل من ذلك الذى كانت تؤديه .

ولقى روسو مدام دى ڤرنس « ففزت به وحازت ثقته من أول مقابلة وأول كلمة وأول نظرة » . ولا يستطيع روسو أن يدرك كنه هذه العاطفة العميقة التى بثتها إليه مدام دى ڤرنس منذ الساعة الأولى ، ويتساءل إذا كانت هذه العاطفة حبا ، فكيف اقترنت منذ البداية بسلام القلب ، والسكينة ، والبشر ، والثقة ؟ وكيف أنه وهو فى حضرة امرأة رفيعة رائعة الحسن ، يتوقف عليها مصير مستقبله فى معنى من المعانى ، استطاع أن يشعر بمنتهى الحرية والطمأنينة ، ولم يخالجه أى اضطراب أو وجل ؟ هذا وهو الحدث الحيى الذى لا يعرف شيئاً عن العالم .

وسألته عن أحواله ورغباته ، فقص عليها قصته ، وبعد أن فكرت ملياً فى أمره ولم تجد له حلا موافقاً ، اقترح أحد ضيوف النزل على مضيفته أن يسافر الفتى الشريد الى تورينو ليلتحق هنالك بمعهد لتخريج الكهنة ، وفيه يلقى العون المادى والروحى ، فوافقت مدام دى ڤرنس لأنها لم تجد حلا آخر ، وساعدت روسو ببعض المال ، فسافر الى تورينو بعد أن أقام لديها بضعة أيام أسرته فيها بسحر خلالها وبثت اليه شعوراً خالداً بالمحبـة والعرفان ؛ وهنالك قدم أوراق التوصية التى يحملها . وكان المعهد معهد تبشير للكثلكة ، فلم يمض حين حتى حمل روسو على تغيير مذهبـه البروتستانتى واعتناق الكثلكة ، ثم أخرج على أثر ذلك من المعهد ونفح بمكافأة صغيرة فلبث حيناً يتجول فى المدينة ، وينتقل من مسكن الى آخر ، وهو شريد لا يدرى ماذا يصنع ، حتى ألقى به القدر الى خدمة سيدة نبيلة تدعى الكونتة دى ڤرتشلى . وكانت أرمل متقدمة السن ولا ولد لها ، وكانت أديبـة قارئة ، فكان روسو يكتب ما تمليه عليه من القطع والخطابات ؛ ولكنها لم تلبث طويلا حتى مرضت ثم توفيت ؛ وغادر روسو المنزل آسفاً شريداً ؛ حتى سنحت له فرصة أخرى ، فألحق بتوصية من بعض الأصدقاء بخدمة الكونت دى جوڤون أحد رجال البطانة ، وتعرف عندئذ بالأب دى جوڤون أحد أعضاء هذه الأسرة ، وتلقى عليه دروساً فى اللاتينية والأدب القديم ، ولبث فى عمله الجديد أشهراً أخرى ، ثم أقيل منه فخرج خالى الوفاض مهموم النفس وكره البقاء فى تورينو ، واعتزم العودة الى أنسى والى مدام دى ڤرنس .

فغادر تورينو على قدميه ، ووصل الى أنسى بعد رحلة شاقة ، وقصد الى منزل المحسنة اليه ؛ وآنس فى الحال منها ذلك العطف القديم ، فارتمى على قدميها وهو يلثم يدها فرحاً ، وفاض قلبه سعادة إذ علم أنها أعدت له غرفة بالنزل وأنه سيقيم الى جانبها باستمرار . وهنا يفيض روسو فى وصف عواطفه نحو هذه السيدة البارة الساحرة ، فيقول لنا إن علائقهما لم تمر منذ الساعة الأولى بأية كلفة ، فكانت تسميه « ولدها الصغير » ويسميها « أمه » وأن هذه التسمية كانت أصـدق معبر عن بساطة هذه العلائق وسذاجتها ، وبالأخص عن تجاذب قلبيهما ، وان الشهوة الجنسية كانت بعيدة عن ذهنه ، ولكنه كان سعيداً إذ وجد « أماً » فتية حسناء تغمره مداعباتها وقبلاتها — أجل قبلاتها — سحراً ، وانه كان يشعر الى جانبها ولدى نظراتها وأحاديثها بمتعة خالدة لا يستطيع أن يدرك كنهها ، يقول روسو : « كان يأخذنى سحر المقام معها ، ورغبتى المضطرمة فى أن أقضى حياتى الى جانبها ، فكنت أرى فيها دائماً ، أكانت غائبة أم حاضرة ، أماً رؤوماً ، وأختا محبوبة ، وصديقا ممتعاً ، ليس غـير ؛ وكانت صورتها التى لا تفارق قلبى قط لا تفسح مجالا لأية صورة أخرى ، فلم أك أرى فى العالم امرأة سواها ، وكانت عذوبة المشاعر التى تبثها الى تمنع حواسى من أن تنتبه الى مشاعر أخرى ، وتحميني منها ومن جنسها كله ، وبعبارة أخرى كنت عفيفاً لأنى أحببتها ، فتأمل هذه النتائج التى لا أكاد أحسن عرضها ، وقل لى من ذا الذى يستطيع أن يصف طبيعة شغفى بها . . . »

« البقية فى العدد القادم »

محمد عبد الله عنان
المحامى

من المدنية الإسلامية

الأرقام الهنـــدية

شرقية لا غربية

للأستاذ محمد عبد السلام البرغوثي

ثلاثة عوامل أساسية دفعت الانسانية من حظيرة الهمجية التي رتعت فيها أجيالا إلى مستوى المدنية الذي تتبوأه في يومها هذا . ولا تزال هذه العوامل دعائم مدنية الانسان الثابتة وهي

(١) التقاليد الاجتماعية المتوارثة جيلاً بعد جيل ، وقد انتهت هذه التقاليد بالعقائد الدينية الراسخة التي حولت وجه البشرية شطر المثل العليا .

(٢) اللغة التي تطورت إلى آداب رفيعة سمت بالانسان إلى مدارك الحياة العليا .

(٣) العلم الذي توج بانتصارات باهرة سلحت للانسان مقاليد الحياة .

ولقد كان هذا الشرق مهبط وحي الأديان الحنيفة التي خلصت البشر من ديجور الجهل وأنارت لهم سبل الحياة القويمة . وقدم هذا الشرق للعالم الحروف الهجائية فكانت واسطة تخليد آدابه الرفيعة واكتشافاته الجديدة في مجاهل الحياة ، ومفتاح ثقافة متماسكة مسرعة الخطى نحو الكمال . ومن قرائح أبناء هذا الشرق أخرج الله للعالم الدعامة الثالثة لصرح مدنيتهم هي — ألف باء الحساب — أس العلم الحديث ، فتم بذلك للانسان ثلاث وسائل فعالة تتحد وتأتلف لتدفع به في سبيل القوة نحو غاية سامية قدرها الله .

لقد بلغت الحضارة الأغريقية شأواً بعيداً من السمو ، ووضعت العقلية الأغريقية قواعد المدنية الأساسية ، وخطت للبشرية معالم مدنيتها فكانت مبرزة في كل مضمار إلا في الحساب والجبر لعوزها الارقام وهي اللبنات الأساسية في بناء هذا العلم .

ولو لم تزد الحضارة الأسلامية على تراث الأغريق سوى تلافيها هذا النقص الذي كان يعتورها لكفاها مأثرة وفخراً .

حوالى سنة ١٥٦ هـ وفد إلى بغداد تاجر هندي يحمل مقالة في الرياضيات وأخرى في الهيئة . فكانت الأولى أول رسالة رياضية ترجمت إلى العربية ترجمها ابرهيم الفزارى بأمر من الخليفة . وكانت هذه المقالة على ماهو شائع ومتعارف تحوى الأرقام التسعة والعمليات الحسابية الأساسية . ولهذا كان للحساب عند العرب اسمان : (الهندى) وهو ما كان على الطريقة الرقمية الهندية ، والارتماطيقي وهو ما نسج على أسلوب الاغريق الخالي من استعمال الأرقام .

لعل أول من أشار إلى أصل هذه الأرقام ، العالم سفيروس سيبوخت Severus Sebokht أحد أعلام مدرسة نيسابور ، على ما يظن في القرن السابع الميلادى ، فقد جاء في كتاب له مؤرخ سنة ٦٦٢ م عن براعة أهل الهند في العلم ما يأتي :—

« . . ولا يتسع المقام لشرح ما كان للهند من حذق للفلك وبراعة في الاختراعات التي تفوق براعة الأغريق والبابليين ، وبخص بالذكر طرق حسابهم للمقادير والكميات وتفوق كل وصف ، وصفوة القول في هذا الصدد أن هذا الاحصاء والتقدير يتم باستعمال علامات تسع » : « فعلى من يعتقد من الأغريق انهم قد بلغوا نهاية القصد في العلم أن يفقه ذلك ويدرك أن من الأمم غير الاغريق من ضرب في العلم بسهم وافر » اهـ

وعلى هذا كان الاعتقاد السائد في العالم العربي وفي أوروبا طيلة القرون الوسطى أن الأرقام من أصل هندي . وقد نشر العلامة الفرنسي وونوك Woepocke M. F في المجلة الأسيويه التي تصدر في باريس عام ١٨٦٣ بحثاً مستفيضاً عن تاريخ الأرقام مرجعاً إياها إلى الأصل الهندي ، فكانت كلمته فصل الخطاب في ذلك العهد .

وفي مستهل القرن الحالي أثيرت ضجة حول هذا الموضوع كان فرسان حلبتها وحاملو لوائها ثلاثة من علماء الغرب الأعلام ، أولهم كيس C. R. Kays الأميركي البحاثة في علوم الهند ، والثاني كارادفو Carra de Vaux الفرنسي الحجة في تاريخ المدنية الفارسية ، وثالثهم نيقولاوس بهنوف Nicolaus Buhnof الروسي وهو ضليع في اشتقاق اللغة . وقد شك هؤلاء في صلة الهند بالأرقام ، وقدم الأخيران فرضاً جديداً لتاريخ الأرقام .

نشر الأستاذ كيس عدة مقالات عام ١٩٠٧ في المجلة الأسيوية في البنغال عن تاريخ الرياضيات في الهند . وكتب دفو de Vaux

بحثاً فى مجلة Scientia سنة ١٩١٧ عن أصل الصفر . أما بهنوف فقد أخرج مؤلفين عام ١٩٠٨ أولهما « استقلال الثقافة الأوروبية فى العلوم الرياضية » وقد ترجم إلى الألمانية عام ١٩١٨ وثانيهما « تاريخ الأرقام »

تصدى الأستاذ كيس فى تحرياته إلى سبع عشرة لوحة نحاسية بها مخطوطات هندية يرجع تاريخها إلى ماقبل القرن العاشر الميلادى وتحوى أساس استعمال القيمة المنزلية للأرقام والأرقام ، وأثبت أنها جميعها مزيفة إلا واحدة مؤرخة سنة ٨٦٧ م . أما أقدم مخطوطة هندية تحوى الأرقام العشرة فترجع إلى سنة ١٠٥٠ .

على هذا الأساس رفض كيس قول المؤرخين السابقين الذين ذهبوا إلى أن الأرقام كانت معروفة لدى الهنود منذ القرن الثالث للميلاد . ورد على من زعم بأن الفلكى الهندى أريابهاتا Aryabhata وعاش فى القرن السادس الميلادى هو مخترع الأرقام زعمه عليه .

كان وويوك قد عرض فى أبحاثه عن تاريخ الرياضيات إلى مخطوطات عربية جاءت على ذكر بعض مسائل حسابية كطريقة تحقيق عمليات الضرب والقسمة باسقاط التسعات ، ونعتها بالطريقة الهندسية . ولما خيل اليه أن هذه الأعمال حسابية بحتة ولا صلة للهندسة بها ، قرر أن الكلمة مصحفة عن « هندية » . اما كيس فقد استطاع أن يثبت أن شرح هذه الطرق الحسابية ممكن هندسياً وانه كان فعلاً معروفا لدى العرب . وعدا ذلك فقد تحرى جميع المراجع العربية التى عثر عليها فوجد أن معظم هذه المراجع لم يبحث فعلاً عن العمليات الحسابية بالطريقة المعروفة برغم أن عناوينها تشير إلى ذلك . فمن هذه المؤلفات وأقدمها مؤلف الخوارزمى الذى عثر على ترجمة لاتينية له عنوانها Algoritmi de numero Indorum وليس فيها مايشير إلى استعمال الأرقام غير هذا الاسم .

وقد عثر كيس على مخطوطات هندية جاء فيها نظام للأعداد التسعة دون الصفر يخالف النظام الآخر الذى وجد وفيه الصفر فرجح أن النظام الأخير جاء الهند من البلدان المجاورة فى أزمنة متأخرة .

ومما قوى عزيمة كيس على إنكار نسبة الأرقام للهند أن الأعداد تكتب من اليمين ، أما الكتابة الهندية فمن اليسار .

أما العالم الفرنسى دفو فقد كان أشد جرأة فى رفض فضل الهند على الأرقام إذ قال إن مؤلفى العرب جروا فى تسميتهم الأرقام الهندية على ماجاء فى حادث الفلكى الهندى الذى وفد إلى بغداد فى عهد المنصور وهى حكاية براها هو أنها مدسوسة من علماء النساطرة والسريان نكاية فى الاغريق الذين كانوا يتوخون التنقيص من فضل مدنيتهم ، واشارة سبوخت إلى ذلك واضحة فى روايته التى مر ذكرها . وقد تناقض رواة هذه الحكاية فى تاريخها : فالبيرونى فى مؤلفه « تحقيق ما للهند من مقولة » المطبوع بلندن سنة ١٨٨٧ (ص ٢٠٨) يسند هذه الحكاية إلى عام ١٥٤ هـ ويشاركه فى ذلك المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » . اما القفطى صاحب طبقات الأطباء (ص ١٧٧ طبع مصر) فيسندها إلى عام ١٥٦ هـ نقلاً عن الزيج الكبير لابن الآدى . والمظنون أن البيرونى المتوفى سنة ١٠٣٨ م أخذ روايته عن المسعودى المتوفى سنة ٩٤٣ م دون تحقيق لها ، ونستدل على ذلك من اقتضابه هذه الرواية وعدم شرحها أو تمحيصها على خلاف ماعهد عنه من الاطناب والتمحيص فى أخباره الأخرى عن أهل الهند .

ويجرى دفو فى حكمه على روايات المؤلفين العرب على طرفى نقيض من وويوك إذ يرى أن كلمة « هندى » مصحفة عن هندسى فى كتب الرياضيات العربية . ولقد برع العرب حقاً فى تحقيق الأعمال الجبرية والحسابية هندسياً .

والعالم الروسى بهنوف بحث القضية من وجهة لغوية وذلك اختصاصه . وله فى اشتقاق اللغة سبق . فلم يرجع إلى نسبة الأرقام إلى الأصل الهندى . ويذهب إلى أن مبدأ استعمال القيمة المنزلية للأرقام كان أولاً فى (العداد Abacus) إذ يقول إن بعض هذه العدادات كان يتكون من صفوف فى كل صف حبات عشر كل واحدة تخالف الأخرى شكلا وترمز إلى رقم من الأرقام العشرة الأساسية ، وإن الأعمال الحسابية كانت ممكنة باستعمال هذه العدادات . ثم قلدت هذه الرموز كتابة فجاءت الأرقام على الصورة المعروفة . ويعتقد ان قدماء الاغريق واليونان استعملوا هذه العدادات بالرغم من عدم قيام أى حجة أو دليل يدعم مقولته .

إذا صح ماذهب إليه بهنوف من أن الأرقام تطورت من العداد

فمن المتعذر نسبتها للهند، لأن الهنود القدماء لم يثبت استعمالهم للعداد، وقد أخذ العرب هذه الآلة عن الفرس، وفي تسميتهم إياه «بالتخت» الدليل القاطع على ذلك.

لقد شهد الأستاذ كاجوري المؤلف المعروف في تاريخ الرياضيات بأمانة كيس في البحث وتوخي الدقة العلمية وعدم التحيز والمغالاة، والحقائق التي توصل إليها تضعف النظرية الهندية ولكنها لا تنقضها من الأساس.

أما العالم الفرنسي فقد ركب متن الشطط ومرق من أمانة العلم إلى خسة التعصب والأثرة. فقد ذهب إلى أن الأرقام من تراث المدنية الاغريقية انتقلت إلى الشرق عن طريق الثقافة الأغريقية فيما بين النهرين على العهد الفارسي، وأخذها العرب عن الفرس. بينما نقل الرومان هذه الأرقام إلى أوروبا، ولهذا تباينت هذه الأرقام شكلاً عند مختلف الأمم. وليس من باعث على هذا الاعتقاد الواهن إلا ما وقر في نفوس علماء الغرب من إعلاء شأن الثقافة الاغريقية ونعتها بما لا تستحقه من صفات، والحط من قدر الشرق واستهجان مدنيته. ولقد طمس هذا التعصب الخسيس مآثر المدنية الاسلامية إذ رماها بالتقليد والتقيد واللبس بينما قصر الابتكار والسمو والوضوح على مدنية الاغريق.

ومما لاريب فيه أن الأرقام تداولتها أمم الشرق في العهد الاسلامي أجيالاً قبل أن تعرفها أمم الغرب، وعن العرب أخذتها أوروبا، ولا تزال تسميها بالأرقام العربية. فان كان تداولها في القرن العاشر الميلادي على ما يقرر كيس فلا بدع أن هذه الأرقام نشأت في طرف من أطراف الامبراطورية الاسلامية الشاسعة، ثم عمت هذه الامبراطورية قبل أن تعرفها أمم الفرنجة.

وللمستقبل أن يأتي شعاعاً على ما غمض من تاريخ هذه الأرقام ويردها إلى منبتها الذي فيه نشأت. وليس لعالم غربي أن يستأثر بهذه الميزة الشرقية في غفلة من الشرق وعجز عن التمتع بحقوقه كاملة غير منقوصة. وويل من العلم لمن ينتهك حرمة العلم! هذا وفي فصل آخر سنأتي على انتقال الأرقام الى أوربا

محمد عبد السلام البرغوثي
مدير مدرسة حيفا الثانوية

الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مقدمة:

إذا تقدم أحد أقاربك من الشبان لوظيفة من الوظائف، ثم سئلت عما تعرفه عنه بالتفصيل، فقد تجيب بأنه: شاب أمين نزيه، صادق في قوله، كريم الخلق، حسن السلوك، سليم القلب طاهر السريرة، كثير التفاؤل، قليل التشاؤم. يقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول، هذا من الوجهة الخلقية. أما من الوجهة العقلية فهو: ذكي، حاضر البديهة، حسن البصيرة، صافي الذهن، صادق الحس؛ وأما من الناحية الاجتماعية فهو محب للتعاون، عدو للأثرة، يشارك الناس في مسراتهم، ويواسيهم في أحزانهم، يوقر الكبير، ويعطف على الصغير. مطيع للرئيس، وفي للنظير؛ وأما من الناحية الجسمية. فهو قوي الجسم، معتدل القامة، حسن الهيئة، جميل الذوق؛ وأما من الوجهتين العلمية والعملية فهو مثل في النشاط وأداء الواجب، واسع الاطلاع، غزير المادة... وما إليها من الصفات المختلفة التي يتصف بها ذلك المثل الأعلى من الشباب

فمجموع هذه الصفات هو عبارة عن شخصيته العليا بصورة واضحة مفصلة. وقد أثبت علم النفس التطبيقي أن الشخصية شرط أساسي للنجاح في الحياة، وان المؤهلات العلمية وحدها لا تكفي للنجاح، بل يجب ان تصحب بالشخصية القوية. فكثيرون من الأطباء والمدرسين والمحامين وغيرهم قد فشلوا في حياتهم العملية لضعف شخصياتهم مع كفايتهم من الوجهة العلمية[1].

ولكن ما تلك الشخصية التي طالما سمعنا الناس ولا نزال

(١) ولا يفهم مطلقاً مما تقدم أن الشخصية مقصورة على الصفات المحمودة بل إن هناك أشخاصاً ذوي شخصيات معروفة قد اتصفوا بصفات ممقوتة كالخيانة واللؤم والتشاؤم والخداع والغباوة والأثرة وحب العزلة وقبح المنظر والحمق والمهارة في التلصص.

نسمعهم يتكلمون عنها ، ولا ندرى من أمرها شيئا ؟ وإجابة عن هذا السؤال نقول : —

تعريف الشخصية

ليس من السهل أن نحدد الشخصية ونعرفها تعريفا علميا جامعاً مانعاً ؛ فهي كالكهرباء والمغناطيسية والجارس « الراديو » لا تعرف إلا بآثارها . ولكن هذا كله لا يمنعنا ان نحاول البحث عن سرها وتعريفها ولو تعريفاً تقريبياً فنقول : —

(١) الشخصية هي مجموع الصفات والمزايا الذاتية التي يمتاز بها الشخص من غيره . أو هي :

(٢) مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والأرادية التي يتوج بها الانسان . أو هي :

(٣) مجموعة الفروق التي تميز الشخص من غيره .

والحق أن هذه التعريفات كلها تقريبية ، وأن الشخصية لا يمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية تحليلا محسا ، ولكنها تبدولنا في مقدار ماعند الشخص من الاستقلال الفكرى ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وقوة الروح ، وهي كالحب والكره اللذين لا يمكن تعليلهما عادة ، فقد نحب شخصاً أو نبغضه لمجرد رؤيته بدون معرفة سابقة ، وقد لا يمكنك إبداء السبب . وكل ماتستطيع أن تذكره هو أن تقول : إنى أحبه أولا أحبه . أما السبب فلا يمكن تعليله لأنه أمر معنوى وسر خفى يتعلق بشخصية ذلك الرجل . وقد يكون الشعور بالحب أو البغض ناشئاً عن صفات أو عيوب خاصة فى الشخص الذى تعرفه وتقابله من حين لآخر ، فنحن نحب فلاناً مثلاً لأنه مخلص كريم شجاع متفائل ، يواسى الفقير ويساعد البائس . ونكره فلاناً لأنه لا يعرف الأخلاص ، والأخلاص لا يعرفه ، يتمثل فيه البخل ، والجبن ، والتشاؤم ، والقسوة والغلظة ، لا يحن إلى مسكين ولا يتألم لحزين . وفى مثل تلك الأحوال نعرف إلى حد ماسبب المحبة أو الكراهة ، ولكن ليس ذلك بسهل دائماً ؛ فقد نحب الشخص فى أول لحظة نقابله فيها ، وقد نبغضه لأول وهلة قبل أن نعرف شيئاً عنه ، نحبه لمظاهره أو نكرهه لهذه المظاهر ، ولا يمكننا أن نوضح الأسباب التى جذبتنا إليه ، أو التى نفرتنا منه . والسبب الجوهرى هو أن شخصيته محبوبة أو مكروهة .

هل الشخصية هبة طبيعية أو صفة مكتسبة ؟

والجواب أن الشخصية توهب بالفطرة ، وقد تكتسب بالتربية الحق ، ولكن الطبيعة أقوى من المكتسبة . ولو كانت الشخصية هبة طبيعية فحسب لكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أى أثر فى تكوين العظماء من رجال الدين والعلم والأدب والفن . ولكن أثرها لا ينكر فى تكوين الشخصية والعظمة فى نفوس العظماء .

وهنا نسأل هل قامت التربية وقام المربون حقيقة بواجبهم نحو تربية الشخصية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد أصبحنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا ، ونتكلم بما قاله سوانا ، ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا أصبحنا مقلدين فى أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسنا وشخصياتنا ، لأن التربية تربية اتكالية ، لا نعرف معنى الثقة بالنفس والاعتماد على النفس فى التفكير والقول والعمل . وقد نادى كبار المربين وبخاصة « السر برسى نن » المربى الانجليزى الكبير بأن الغرض من التربية هو تربية الشخصية المستقلة ؛ ولكن كتب التربية فى واد ، والمدارس فى واد آخر . فبينما نقول : يجب أن نربى الفرد تربية كاملة من كل الوجوه ، جسما وعقلاً وخلقاً واجتماعا ، نجد أن الفرد مهمل إهمالاً تاماً من جميع الوجوه ، وأن شخصيته تطبع بالطابع المدرسى ، وتصب فى قالب خاص ، فتفقد مظاهرها الطبيعية . كل ذلك حباً فى النظام ، ولسنا ننكر أن النظام يجب أن يكون سائداً ، بل إننا ننادى بالنظام ، ونقول دائما : النظام هو الحياة ، ولكننا نعترض على الطريقة التى بها يسود ذلك النظام ، تلك الطريقة التى تقتل شخصية الطفل وتضعف مواهبه ، ونريد طريقة أخرى بها يستتب النظام من غير إضرار بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته أو جسمه أو شخصيته ، وليست هذه الطريقة بسهلة ، لأنها تتطلب مشاركة فى الوجدان ، وفهما لكل فرد من حيث الذكاء والميول والبيئة والظروف .. وما ذلك بالأمر الهين ، فنحن لا ننكر إلا فى المظاهر ، والنظام الشكلى ، والسكون العسكرى . مهما ضحينا فى سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم ، ووجدت الصلة الروحية بينهما

فمن المحال أن تكون هناك صعوبة في نظام أو غيره ، ولن تضحى شخصية الفرد أو الأفراد بعد .

الاختلاف في الشخصية

كما أن الناس يختلفون في الذكاء والميول الفطرية كذلك يختلفون في الشخصية ؛ فبينما تجد هذا قوى الشخصية قد تجد ذاك خاملاً ضعيف الشخصية ، وكما أن الشخصية تختلف باختلاف الأفراد كذلك تختلف باختلاف الشعوب ؛ ففي الشخصية الألمانية تتمثل الروح العسكرية ، والطاعة العمياء ، والاتكال على الحكومة في كثير من الأشياء . وفي الشخصية الانجليزية تبدو الثقة بالنفس ، واحترام الذات ، وتقدير الحرية الشخصية والاستماتة في سبيلها . وفي الشخصية الأمريكية تظهر الروح العامة أو « الديموقراطية » ، وعدم الاكتراث للتقاليد ، لأن أمريكا كأمة حديثة لا تقاليد لها . وفي الشخصية الفرنسية تتغلب العاطفة على التفكير ، والنظريات على الأعمال ، وتكثر الآمال ، والميل إلى الخيال ، وحب الظهور ؛ فكل فرنسي يريد أن يكون ضابطاً إذا تقدم للحرب ، ولا ندري من أين يؤتى بالجنود إذا كان الجميع ضباطاً ، وإذا كانوا ضباطاً فإنهم لا يفكرون في الجنود ولا يحتفظون بهم خوفاً من أن يقل احترامهم . والمثل يقال في العلاقة بين المدرسين والتلاميذ ، فأولئك في واد ، وهؤلاء في واد آخر ، والصلة بين هؤلاء وأولئك لا تتجاوز صلة الحجرة الدراسية تزول بمغادرتها وتتجدد بالعودة إليها .

والشخصية صفة نسبية وقوة سرية توجد في كل شخص إلى حد ما ، وتختلف في نوعها وقوتها باختلاف الأشخاص . وقد تكون بارزة واضحة في بعض الأفراد يشعر بها الإنسان في الحال ، وقد تكون كامنة خفية في البعض الآخر .

وليست الشخصية مقصورة على جنس دون آخر ، ولا على طبقة دون أخرى ، فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم ، وكما تكون بين المدنيين تكون بين القرويين . وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء ، وكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء ، ولكل تفكيره وتقاليده وطرقه ومعيشته الخاصة . والعاديون من الناس قد يكونون في ضنك من العيش ، ولكن لهم شخصية خاصة ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا عن الحوادث المحلية ، ويذكروا حقائق قومية ، بروح قوية لا تنقص عن روح الكبار من القوم ، وقد يمتازون عنهم لأنهم لا يرددون ما يقرءون من أفكار غيرهم ، ولكنهم يصلون إلى هذه الحقائق بتفكيرهم الخاص .

« يتبع »

محمد عطية الابراشي

صورة

بغير عنوان !

للأستاذ علي الطنطاوي

« هذه صورة من صور الحياة ، أعرضها على علاتها في الرسالة ، ليلحق عليها من شاء من القراء شرحاً وحاشية وتعليقاً . »

ذهبت أمس إلى الحلاق ، وتخيرت آخر ساعة من النهار كي يخلو لي المكان ، ولا تعرفوني نظيرة . . فوجدت عنده شاباً ، وكرهت أن أدخل فأنتظره ، وأنا أكره الناس للانتظار ، فهممت بالرجوع . ولكن الحلاق أومأ إلي أن أدخل ؛ لن يلبث حتى يقوم فقد أوشك أن ينتهي . فدخلت

وكان الشاب قد انتهى حقاً ، وكان قذاله وعذاره وسالفته مقصوصة ، وكانت لحيته مرحلة مضففة ، وكان وجهه كالمرآة الصقيلة ما فيه (والحمد لله) أثر من لحية أو شاربين ؛ فما باله لا يزال قاعداً على الكرسي ؟ وماذا يرى الحلاق صانعاً به بعد ؟ ثم اطمأننت وقلت : قد انتهى وإنه لقائم . وقعدت أرقبه فلم يرعني إلا الحلاق يقبل على شعره فينفشه نفشاً وهو ساكت لا ينكر عليه .

فقلت : لعله قد بدا له فأحب أن يقصر من هذا الشعر ، ولن يطول أمد هذا التقصير ، وإني منتظر .

وتنظرت والحلاق ماض في عمله ، حتى إذا تم النفش غدا على رأس صاحبنا شجرة ذات فروع . . . فعجبت كيف كان هذا الشعر كله مصففاً مستقراً ؛ ورثيت له إذ يحمل على رأسه أبد الدهر هذا الحمل الثقيل ، وأعجبني منه أن زمع الخلاص منه . ولكنه لم يقصه كما قدرت أن يفعل ، بل أشار إلى الحلاق

فعمد الى هنات سوداء لا والله ما عرفتها من قبل وسنّي سنّي ؛ فأدخلها النار حتى احمرّت ثم أدناها منه ، فأشفقت أن يصيبه منها أذى ، ثم فكرت فقلت : لعلّه مريض يكتوى ، وقديماً قالت العرب : آخر الدواء الكيّ . ونظرت فاذا هو يقبض على شعره باحدى هناته تلك ، ويديره عليها ، ثم يستلّها منه استلالاً ، ثم يفعل مثل ذلك وأنا أعجب ، حتى انتهى فاذا صاحبنا قد عاد جعد الشعر ، وقد كان سبطا ، فقلت : إنا لله ! رجل أصله من البربر فهو يحب أن يتشبه بأصله ، والتمست له المعاذير .

وحسبته قد انتهى وظننت أنه قائم ، ولكنه لم يقم بل أشار الى الحلاق . فضمّخ رأسه بماء (كلونيـة)[1] وأقبل فسرحه تسريحاً ، وعاد فمسحه بدهن استخرجه من حق صغير ، فصار لرأسه وميض ولمعان ، فقلت الحمد لله قد انتهى ، ونزعت عني طربوشي ، ثم أعدته الى رأسي حين لم يقم . ولبثت أنتظر ، وجاء الحلاق بكُمَّة فوضع فيها رأسه وشدها من حوله شداً ، فقلت مُصدَّعٌ متألم فهو يخفف من صُداعه .

***

ثم أخذ الحلاق الملقاط ، وعمد الى حاجبيه ، فجعل ينتش منهما نتشاً وأنا أرثى له ، وألح عليه بالنظر ، علّ عينه تقع على عيني ، فأبذل له عوني ونصرتي ، فان هذا الحلاق لا يكاد يرحمه فلا يبصرني . ثم أدركت الحلاق رحمة فعفا عنه وأبقى عليـه ، فنظرت فاذا حاجباه خطان كأنما خطا بقلم ؛ فقلت سبحان الله أي فتاة تعطى مثل هذين الحاجبين ثم لا تنزل راضية عن سنين من عمرها .

وفتح الحلاق خريطة فاستخرج منها كُبَّة ، أخذ منها خيطاً لفه بين أصابعه وجعل فى وسطه فرجة تضيق وتتسع كلما شدها أو أرخاها ، وأمرّ هذا الخيط على وجهه ووجهه يتمعر ويخيل الىّ أنه يقاسى ألماً شديداً ، ثم كف عنه . فلا والله ما ترك فى جبينه زغبة إلا اجتثها هذا الخيط .

فقلت : قد انتهى ، ولم يبق فى وجهه ما يذهب به ، إلا أن يكون أنفـه ، فيكون كباغى الجمال بجدع الأنف ، ولكن سرعان ما خاب ظنى فى أنه انتهى . ورأيت الحلاق يدلك وجهه دلكاً ويقرصه قرصاً ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قد جُنّ الرجل . وإلا فماذا يكون هذا القرص من الحلاق ، ثم كف فنظرت فى وجه الشاب فاذا عليـه حمرة الخجل ، وأنعمت النظر والتفكير فعلمت أنها حمرة الصحة والحياة ، أو حمرة الدلك والقرص ، فهممت أن أقوم اليه فألزمه وأهنئه على هذا الاختراع : يصيب الناس الصحة بالغذاء وبالرياضة ويصيبها هو بالدلك وبالقرص ، ثم تخاذلت ورحت أنظر مشدوهاً الى الحلاق وهو يصبغ وجهه بالأبيض والأحمر ، ورأيتنى لا أطيق احتمال هذا منه وأنا أكره من النساء أن يفعلنه ، وعجبت كيف لا ينكره هو ؟ وكيف لا يغضبه أن يعامل كامرأة .

ولكنه لم ينكر شيئاً ، بل أشار الى الحلاق ، فجاء باصبع حمراء فمس بها شفتيه كما تفعل قينات السينما سواء بسواء ، فلم أستطع المكث بعـد هذا وقمت فجلت فى السوق جولة ، ثم عدت لما فارق الكرسى .

***

وما أدرى بعد كيف أصفه ؟ أأبدأ من رأسه أم من رجليه ؟ أما رأسه فقد عرفت أى شيء هو ! أما صدره وظهره فبادٍ أعلاها ، وأما ذراعاه فمكشوفان . ولو أنك عرضته على الناس بزينته تلك ما عرفوا أرجل هو أم امرأة .

أما (بنطلونه) فأبيض رقيق يبدو ما تحته واضحاً إلا شبراً تستره سراويلات قصار .

***

ثم كانت الطامة الكبرى واقترب منى الشاب يسلم علىّ وزعم أننى أعرفه .

— أنا أعرفك ؟ كلا . أراك مخطئاً .

— أوه ؟ كيف ؟ أنا تلميذك منـذ كذا سنين فى مدرسة كذا ، وأنا الآن معلم فى المدرسة التى فيها ابنك .

— أنت معلم ؟ !

وندّت منى صرخة تعجب ولم أجب .

دمشق (علي الطنطاوي)

[1] كأفريقية وصقلية

فصول مدرسية في الأدب الدرامي

٥ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

أداء العمل — الحركات

هي أحد لساني العقل . ومصاحبتها للكلام في إبانة الفكرة طبيعة في الناس منشأها ضعف العبارة وعجز اللغة عن تصوير ما يجول في النفس من خواطر ومشاعر . لذلك تجد حركات الجسم وملامح الوجه تشتد وتحتد كلما أصاب اللسان عي أو لكنة . ومن ثم كانت الشعوب ذات الخيال القوي والاحساس الشديد أكثر الأمم حركة وأشدها لهجة . والمرء اذا ما التاث عليه القول لنقص طبيعي في منطقة أو لضعفه في اللغة التي يعبر بها ، اعتمد على هذه الدلالات المنظورة فرنها وقواها كما ترى في الأخرس والبادئ في تعلم لغة جديدة . وأشد ما تكون الحركات قوة وظهوراً حين تثور النفس وتصطرم العواطف ، فتنفجر من اللسان والجوارح والملامح . لذلك كانت الحركات عنصراً من العمل الروائي ، وجزءاً من الفن الخطابي ، لشـدة انفعالاتهما وكثرة مفاجآتهما وازدحامهما عادة بالمواقف الثائرة أو الناخرة . على أن الحركات قد تقوم بنفسها مقام الكلام كما ترى في الخيال الشمسي والخيال الظلي والرقص التمثيلي مثلا . وليس من شأننا أن نتعرض لهذه الأبحاث فلها فن آخر ، وانما حملنا على ذكر الحركات ذيادنا عن حق البلاغة في العمل الروائي والمسرحي ، وقد مر شيء من ذلك عند الكلام عن العبارة ، وربما عدنا اليه عند بحثنا في الدرامة

الحوار : الحوار هو مطارحة الحديث بين شخصين أو ثلاثة على الأكثر ، أما الرابع فقلما يكون له شأن في الحديث أو خطر . ومن الصعب أن تشركه فيه ما لم يكن دوره أن يظل صامتاً أثناء الحديث ، أو يؤيد بعض المتحدثين بكلمات قليلة . وشرطه أن يكون جيد المناقلة ، شديد المساجلة ، حسن التقطيع ، مطابقاً لموقف المتكلم وخلقه ، متغير اللهجة والجرس تبعاً لمقتضى الحال ، سريع الجواب قصير الخطاب ، فلا يشبه دفاع المحامي ولا خطبة الخطيب ، لأن ذلك يزهق روح الجاذبية ويبعث السأم في النفس . وأجدر الأساليب به أسلوب الطباق والمقابلة

نجوى النفس . نجوى النفس هو حديث الممثل مع نفسه بصوت مسموع ، ومحله حين تضطرب حال الشخص ، فيغلبه الجزع ويفترسه الشك ، فينفجر بالكلام الجهير معلناً عن ضميره مصرحاً بسره ، ولو لم يكن هناك من يسمعه . وقد غالى رجال المذهب الابتداعي في استعمال نجوى النفس ، قاصدين بذلك الى حذف الأنجياء (Les confidents) وهم أشخاص كان كتاب الأغريق ومقلدوهم من القدماء يضعونهم في الرواية لا لشيء غير أن يسر اليهم البطل ما يفكر ويقدر بدل أن يتحدث الى نفسه . ولكن الابتداعيين بإسرافهم في النجوى ، وإسهابهم فيها لم يبرئوها من النقص والاملال . فلهوجو مثلا في رواية هرناني نجوى ألقاها (دون كارلوس) على قبر شرلمان بلغت ستين ومائة بيت ! وجمال النجوى أن تكون قصيرة إلا اذا كان اضطراب الشخص قوياً فلا بأس أن تطول قليلا .

أنواع الرواية

موضوع الفن الروائي هو حياة الناس بأسرها . فهو يصور المضحك والمبكي من الحوادث ، ويصف الخامل والنابه من الناس . فاذا كان العمل الذي يمثله جديا ، والأشخاص الذين يصورهم من الطراز الأول والطبقة العالية سمي مأساة . وإذا كان العمل هزلياً منتزعا من حياة العامة مصوراً لعيوبهم سمي ملهاة . أما اذا جمع بين الجد والهزل ، أو اقتصر على الجد ولكن أشخاصه من طبقة العامة والسوقة ، فتلك هي المأساة الحديثة أو الدرامة . وكل ذلك يؤدى عن طريق الألقاء ، فاذا أدى عن طريق الموسيقى والغناء ، كانت الغنائية وفروعها . وسنتناول كل نوع من هذه الأنواع بالشرح والتفصيل والتحليل ، إلا الغنائية فسنلم بها إلماماً على قدر صلتها الواهية بالأدب والبيان .

المأساة La Tragédie

تعريفها : المأساة هي تمثيل عمل عظيم يبعث في النفوس الرعب والرحمة والأعجاب . وليس من الحتم أن تسفك الدماء وتنثر الأشلاء فوق المسرح لتحدث تلك الآثار ، بل يكفي أن يكون العمل جليلاً والشخص نبيلاً ، والهوى التحكم رفيعاً ، حتى ينشأ ذلك الحزن الرهيب الذي يجدر بالمأساة . ومعنى ذلك أن يكون العمل خطيراً كأرجاع ملك مغصوب ، أو إخضاع هوى مستحكم ؛ وأن يكون الأشخاص من ذوى التيجان وطلاب العروش ، لأن وجيعة النفس لمصاب الملوك أشد من وجيعتها لمصاب السوقة ؛ وأن يكون الموضوع مقتبساً من الماضي ليكسب العمل جلال القدم ؛ وأن يكون الهوى المحرك للرواية هو الطمع أو الأنتقام أو الحب .

هكذا كانت المأساة بعد كورنيي : أرستقراطية العمل والأشخاص والأسلوب والغرض . وقد درج الناس دهوراً يوجبون أن تكون نهايتها فاجعة محزنة ، أخذاً برأي أرسطاطاليس كما علمت ، ولكن هذا الرأي جانبه المنطق وخالفه الواقع فأصبح غير واجب ولا محتوم ، لأن العمل قد يثير الأعجاب ويبعث الرهبة والرحمة ، ثم ينتهي مع ذلك بالسرور والغبطة .

غرض المأساة : فغرض المأساة إذن هو إصلاح النفوس بإثارة الرهبة من الجرم الفاضح ، والرحمة للفضل المعذب ، والأعجاب بالصنع الجميل . وطريقها إلى ذلك أن تمثل لنا أمثالنا وهم يصارعون الخطر ويكابدون المصيبة ، على شرط أن يكون هذا الخطر مما يفزعنا ، وتلك المصيبة مما يروعنا ، وأن يكون هذا التمثيل مصبوغاً بلون الحقيقة حتى يخدع أبصارنا ويعلك بصائرنا ، فنتأثر التأثير الذي نحبه

على أنك تسألني بما لذة المرء في شهوده نوائب الناس وسماعه أنين غيره ؟ يقول ارسطاطاليس إن مصدر هذه اللذة هو إتقان التقليد ، ويقول (لكريس) إن مصدرها شعور الإنسان بالنجاة والأمن من مصائب يصلاها غيره وهو بعيد عنها ، كلذة الجالس على شاطئ البحر يبصر في عرضه سفينة تصارع الموج وتكافح الخطر وهو رخي البال هادئ السر . ويؤخذ من خطاب الشاعر الهندي طاغور الذي ألقاه في مسرح الأزبكية حين مر بمصر أن مصدر هذه اللذة تمثيل الحقيقة . « لأن الحقيقة من حيث هي ، جمال لا يعد له جمال . ألست ترى إلى صورة المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر ؟ إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجمالها ، ولكن العجوز التي فيها ليست على شيء من الجمال ، وإنما جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة على حقيقتها »

ونحن لا ننكر أن المرء يروقه أن يفزع من الخطر وهو بعيد ، ويلذه أن يألم لمصاب غيره وهو آمن ، وأن تفكيره في سلامته من هذه الأرزاء وبراءته من تلك الأدواء سبب من أسباب سروره حين يشهد مأساة على المسرح ، ولكن السبب الذي يبعث فينا تلك اللذة الغريبة من رؤية الألم وسماع الأنين غير هذا كله . فان الأطفال وهم لا يفكرون هذا التفكير يلذ لهم أن يستشعروا الرعب والرحمة من سماع الحكايات المروعة المؤثرة . يظهر أن منشأ هذه اللذة فينا عند مشاهدة المنظر الفاجع هو ميلنا الغريزي الى تمرين قوانا الجسمية والنفسية ، وما يحدثه ذلك الميل في نفوسنا من قوة الشعور بحيويتنا وعقليتنا وحساستنا وقدرتنا على العمل والتصرف . وما الأمن الذي نشعر به عند شهود هذه الفجيعة إلا شرط ضروري لاحداث منظرها تلك اللذة لا مسبب لها . وذلك التمرن الطبيعي هو علة ما نجد في الطفل من شره الى سماع الخوارق التي ترعبه ، والحوادث التي ترهبه . وهو كذلك سبب ما نرى من سعي العامة والسوقة الى الساحة التي كان يشنق فيها المجرمون أيام كان الشنق علنياً ، وهو السبب أيضاً في ميل الأمم الغليظة أو القوية الى صراع الثيران وأناشيد الحماسة ، وميل الأمم الرقيقة أو الضعيفة الى تمثيل العواطف وقصائد الغزل .

أما السبب في جعل الجاذبية المزدوجة من الرعب والرحمة أساس المأساة وروحها ، فهو ما لهاتين العاطفتين دون سائر العواطف من التدرج مع الحادث ، والترقي مع الخطر ، والأخذ بمجامع القلب شيئاً فشيئاً الى أن يبلغا الغاية عند انتهاء العمل . أما عواطف الحماس والفرح مثلاً فانها تنشأ بقوة ثم تضمحل بسرعة

موضوع المأساة : يقع الرجل في التهلكة والبؤس لأسباب خارجة عنه ، أو صادرة منه . فالأولى تنشأ من حظه وموقفه وواجباته وعلاقاته ، ومن صروف الحياة وأحكام الآلهة ، وأفاعيل الطبيعة وأضاليل الناس . وأفجع هذه الأسباب وأوجعها ما دهمت البائس من مأمنه ، وأتته ممن لا يتوقع منهم إلا الخير والنفع .

والأخرى تنشأ من ضعفه وغفلته وميوله وأهوائه ورذائله ، وقد تأتيه أحياناً من فضائله . وأسباب الهوى المقرون بطيبة القلب وسلامة النية ، هي أقوى الأسباب تأثيراً وأكثرها خصوبة وأروعها حكمة . ومن هذا الفرق بين الأسباب الداخلية والخارجية نشأ للمأساة مذهبان : مذهب القدماء أو مذهب القضاء والقدر ، ومذهب المحدثين أو مذهب النفس والهوى .

مذهب القدماء : فأما مذهب القدماء أو الأغريق بتعبير أصح فيعزو مصائب الأشخاص دائماً إلى سبب خارج عن إرادتهم ، حتى لو اتفق أن حدث لهم ما يكرهون بسبب غفلتهم أو ضعفهم أو ميلهم كأوديب وهيكوب مثلاً حرص الكاتب على أن يخلق لهذه الأسباب أسباباً أولى كمشيئة القدر وغضب الآلهة . ولقد انتقل مذهب الأغريق إلى من خلفهم من كتاب العالم باقتباس رواياتهم أو موضوعات تاريخهم ، واستعان المقلدون من كتاب الفرنج بالوهم المسرحي على تمثيل العادات والعبارات ، فظهرت مقتبسات ميروب وأوديب وإيفجيني وأورست لراسين وفولتير على المسرح الفرنسي ، أقوى وأروع وأبدع مما ظهرت به لأوربيدس وسوفوكليس على مسرح أثينا .

والذي حمل الأغريق ومن لف لفهم على الأخذ بمذهب القضاء والقدر في الرواية أنه أشد تأثيراً وأقوى حيلة . فانك لا تجد أبعث للرعب وأدعى إلى الرحمة من رجل يعميه القدر فتسيره قوة غير قوته ، وتسخره مشيئة غير مشيئته ، وتعبث به إرادة متحكمة غير إرادته ، ثم تراه يجهد عبثاً في الفرار من جريمة تراصده ، أو النجاة من مصيبة تطارده . وذلك هو مذهب الرواقيين الذي لخصه (سنيكا) في هذه الجملة :

(إن القدر يقود ذوي الإرادة ولكنه يجر فاقديها) ذلك فضلاً عن موافقة هذا المذهب لمسرحهم وعبادتهم وسياستهم وعاداتهم مما لا نجد داعياً لشرحه وتفصيله .

مذهب المحدثين : على أن القدماء كان لهم بجانب مذهب القدر الذي أملاه عليهم الدين والتاريخ والاقليم مذهب آخر هو مذهب النفس والهوى ، ولكنهم أغفلوه إما لضعف تأثيره وإما لعدم انطباقه على نظام مسرحهم في سعته وشكله ووسيلته ، حتى جاء المحدثون وأولهم كرنيي أبو المأساة الحديثة ، فأخذوا به وساروا عليه ، وجعلوا المأساة صورة لمصائب الرجل الخاضع لهواه ، لا لمصائب الرجل الطائع لحظه ؛ وأصبح الرجل الحر الذي يخضع لآله عادل يسمح بالشر ولا يأمر به ، ويتعرض لأرزاء الدهر بسبب أهوائه وأهواء غيره ، موضوع المأساة الحديثة وينبوع الأثر الروع الوجيع الذي يأخذ بأذهاننا ووجداننا . ومزايا هذا المذهب هو أنه أخصب إنتاجاً لاستمداده من ينابيع القلب البشري الفياضة ، وأتم شمولاً لتحليله الانسان في كل زمان ومكان دون الاقتصار على شعب معين وتاريخ معين ؛ وهو مع ذلك أبلغ حكمة وأتم ملاءمة للمسرح الحديث ، وأروع جمالاً في التمثيل العصري .

ولولا الخوف من أن يسأم القارئ من تفصيل قد لا يعنيه لأفضت في شرح هذه المزايا واحدة فواحدة ، ولكن فيما ذكرته غناء للقارئ المستفيد . وأما عمل المأساة وصفاته كالأمكانية ، والوحدة والجاذبية والتأثير والمغزى ، وأجزاؤه الأساسية كالعرض والتعقيد والحل وما إلى ذلك من الانقلاب والتعرف والأسلوب ، فقد سبق القول فيه .

يتبع (الزيات)

بمناسبة عيد موزار (Mozart)

تكريم النـوابغ

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

فى الوقت الذى وصل فيه العدد الأخير من الرسالة إلى أيدى القراء كان سكان مدينة سالزبرج (Salzburg) خاصة والنمسا وبون عامة قد انتهوا من عيدهم الذى يقيمونه سنوياً ذكرى للموسيقار النابغة (Mozart) الذى لم يطل عمره أكثر من ستة وثلاثين عاماً بذّ فيها جميع معاصريه الموسيقيين وأحدث فى الموسيقى الغربية حدثاً عظيماً لا يمحوه الزمان. ولد هذا النابغة فى ٢٧ من يناير سنة ١٧٥٦ فى مدينة (Salzburg) مدينة الحدائق والجمال، ونشأ وترعرع فى حضن والده ليوبولد الذى كان موسيقاراً فى خدمة الكنيسة فى تلك المدينة، وقد ظهر ميله إلى الموسيقى ولما يبلغ الثالثة من عمره، وبدأ فى سن الرابعة يعزف بعض القطع الصغيرة وفى سن السادسة رحل مع والده إلى ألمانيا فاز عزفه إعجاب الملوك والأمراء حتى أن الأمبراطور فرنسوا الأول أجلسه بجواره وسماه «الساحر الصغير» كما أن البرنسيس ماري أنتوانت التى صارت فيما بعد ملكة فرنسا رفعته بين ذراعيها لشدة إعجابها به، فقال لها الطفل عندئذ: «حقاً إنك لطيفة وعند ما أكبر سأتزوج منك» وفى سن السابعة بدأ يعزف على الكمان والأرغون فى رحلاته مع والده كما بدأ يؤلف بعض قطع صغيرة. وفى أبريل من سنة ١٧٦٤ زار مع والده انجلترا. فكان إعجاب الأسرة المالكة به كبيراً، وقد أملى على الملكة قطعة موسيقية من تأليفه، كما أنه أهدى إلى المتحف البريطانى مقطوعة أسماها «الله ملجأنا» «God is our refuge» ولما بلغ الحادية عشرة ألف أول أوبرا له أسماها «La finta Semplice» بناء على إشارة الأمبراطور جوزيف الثانى قالت عنها لجنة الفحص «إنه عمل لا يضارع» ومن ذلك الوقت أخذ يظهر حقد الموسيقيين عليه وهبوا يدسون له الدسائس فى قصر الأمبراطور، فكان ذلك سبباً فى البؤس والفاقة اللذين لازماه طول حياته تقريباً. غير أن هذا لم يمنعه من إبلاغ رسالته وإخراج تآليفه العظيمة أثناء جولاته فى إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا

وفى يوليه سنة ١٧٦٩ أى عند ما كانت سنه ثلاثة عشر عاماً تقريباً منحته أكاديمية بولونيا لقب «مؤلف» مع أن القانون يحرم منح هذا اللقب لمن هو أصغر من عشرين عاماً. ولقد كان عجباً أن يخرج هـذا الصبى النمساوى المولد والنشأة واللغة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٧٦٩ ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره أوبرا باللغة الايطالية فى ميلانو أسماها «Mitridate Re di Ponto» أحرزت نجاحاً منقطع النظير، ومنذ ذلك الحين اعتبر هذا الفتى سيد الموسيقى وزعيمها. وفى سنة ١٧٧٣ وبعد أن عاد إلى مسقط رأسه أخرج أوبرا بمناسبة زواج البرنس فرديناند فاقت كل ما أخرجه قبل ذلك حتى قال عنه أكابر الموسيقيين «إن هذا الصبى سيجعلنا نسياً منسياً» وزاد حسدهم له وحقدهم عليه كما زادت دسائسهم عليه فى قصر الامبراطور. وبالرغم مما كان يلاقى بسبب ذلك كله من ويلات، وما كان يعانى من ضيق وضنك، فانه استمر فى إتمام رسالته بما كان ينفثه فى الموسيقى من سحر، حتى اعترف له الجميع بأنه أدخل عليها تعديلات وتحسينات غيرت من طبيعتها. وكان أشد الحاقدين عليه فى حياته «Salieri». ولما توفى فى يوم ٥ من ديسمبر سنة ١٧٩١ مات معتقداً أن هذا الرجل هو الذى دس له السم فى الدسم كما كان يعتقد الكثيرون، فراح بذلك ضحية نبوغه وعبقريته. ولكن النمساويين الذين يقدرون الفضل لذويه إن كان فاتهم أن يواسوه فى حياته، فلم يفتهم أن يكرموه بعد وفاته فلقد رأيت له تمثالين عظيمين رفع أحدهما بين القصر الامبراطورى ودار الأوبرا فى ڤينا يحف به تلاميذه بآلاتهم الموسيقية ورفع الثانى فى أنخم ميدان فى مدينة «Salzburg». وهم فوق ذلك يقيمون لذكراه فى هذه المدينة عيداً سنوياً فى شهر أغسطس من كل عام حيث يهرع إليها أكابر الموسيقيين والممثلين من ڤينا وغيرها من بلاد النمسا لاقامة الحفلات وتمثيل مختلف الروايات، فتراها غاصة بالجماهير من مختلف الشعوب بين انجليز وأمريكيين وغيرهم. وقد بدأ عيد هذا العام يوم ٢٨ يوليه وانتهى يوم ٢ سبتمبر وكان لى حظ مشاهدة كثير من مظاهره فى تلك المدينة الجميلة. وقد مثلت هذا العام فى هذا العيد بعض الروايات المشهورة مثل Faust ،

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

من الأدب الإغريقي

الشـــاعر الصائم

بقلم بسام كرد علي

لقد أطبق شفتيه ولم يرد — بعد أن قضى الأيام الطوال ينشد أهل أثينا شعره الرائع العذب — أن يظل مثابراً على ما بدأ به، فألقى نفسه في داره والتزم حياة العزلة، وانقطع ذلك الصوت الذي كان يغذي جميع سكان أثينا، وسكنت تلك العواطف الثائرة وخليق بها ألا تسكن، وهدأت تلك النسمة الالـهية التي كانت تحمل الحياة لمن يطلب الحياة، وتشرق بأنوار الجمال لكل من يريد الجمال.

فدخل عليه هوبول وكان من أصدقائه الملازمين، فوجده مستلقياً على فراشه الثاني، وصاح به هوبول وقتئذ:

يا قيثارة الأرض، ويا عندليب السماء، هل حبست صوتك انتقاماً منا نحن أهل الأرض الذين أصمت آذاننا كثافة الجسد، وأعمت عيوننا ترهات النعيم، وشغلت عقولنا سفاسف اللذات، فلم يبق منا إلا هذه الأجسام المركبة من عظم الكبر ولحم الفرائس، ودم يجس كالحجر المسكوبة في مجلس التجارة.

فقام هايكلوس من مكانه وحمل جسمه المنهوك وحاول إخراج جملة قصيرة من صدره المتهدم قال: إني لا أزال أرى في نومي ويقظتي ملائكة أبولو تحاسب أهل أثينا عما حفظته من أشعار هوميروس، وعما تمي من كلم زوفراست، وهيراقليط، وسقراط، فلا تجد غيرك ياهوبول، وتصرخ في أعلى السموات بصوت موحش مهول: لقد نسي أولئك الطاغون أشعار اليونان وكلها، وتركوا عبــادة آلهتها، فدعهم ياهايكلوس في ظلمات الجهل يعمهون.

دعهم فقد عبدوا البطون والقدود، وأضحوا قوقعات نجسة تدنس الأرض بسائلها اللزج، ما أشدهم طغياناً وفجراً، إنهم نسوك ياهايكلوس فثابر على صومك ولا تعد تنشدهم شيئاً، وإن الثلاثين يوماً التي انصرمت على انقطاعك لا تكفي، بل ثابر على صمتك فهؤلاء قوم قد نسوا ماضيهم وحاضرهم، وعليك أن ترحم نفسك لأني أرى أن كل كلمة من أشعارك الباهرة قد سلبت خلية من جسمك الغض.

إني ياهوبول رأيت الملائكة تخاطبني غضبى: «ستترك المدينة طعماً للشياطين، وسنحرسك فقط بعنايتنا»

[وكان هوبول جثياً على ركبتيه بجانب الشاعر هايكلوس مصغياً لما يفسر له من أقوال الملائكة] فوخزه هايكلوس وأشار اليه ليرى المدينة، فأبصر الشياطين تمرح في أسواقها وقد خيمت عليها السحب الربداء، وأعقبها قصف الرعود الصاخبة، فصرخ الأهلون ... وجزعوا، وهرعوا الى الجبال والآكام ومنهم من فر واختفى في الغابات ... ومنهم من رضي بالاستسلام للشياطين، فلم يستطع هوبول أن يبقى صامتاً ساكناً، فألقى نفسه من النافذة، وركض نحو القوم صائحاً:

ألم أذكركم بصوم هايكلوس، ألم أبين لكم غضب الآلهة لعدم انقيادكم لصوت الحق.

إنكم لم تعوا الحكم المرسلة على ألسنة شعرائكم، ولم تبأوا بما صاغ لكم خطباؤكم من الأقوال المأثورة.

إن هايكلوس قد بلغ به الأعياء حد النزع، وأضحى لا يستطيع

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

Jedermann ست مرات كما أعيد تمثيل كثير من الروايات الأخرى في آل « FestsPieli ». وفي مدينة « Salzburg » مسرح اسمه « Marionetten Theater » لا يعرف له قط نظير في العالم وقد حضرت فيه تمثيل رواية Faust: يرفع الستار فترى أمامك دمى لا تزيد طول الواحدة على ثلاثين سنتيمتراً تتحرك أمامك على المسرح وتتكلم وتمثل أدوارها بغاية الدقة والاتقان تسطع عليها أنوار قوية زاهية مختلفة الألوان. ولقد كنت دهشاً طوال مدة التمثيل لحركات تلك الدمى العجيبة وللمناظر الرائعة التي كانت تسحر الأنظار وتأخذ بمجامع القلوب. فلعل أحد علمائنا يفسر لنا حركة تلك الدمى على المسرح.

وبعد فلا يسعني الا أن أعلق أمنيتي العظيمة في أن يحل الوقت الذي يكرم فيه الشعب المصري نابغيه كما يكرم الأوربيون عامة والنمساويون خاصة نابغتهم العظيم موزار

عبد الحميد فهمي مطر

... المصري ، وأن جوبيتر يرثي لحالكم الأسيفة بعد أن فقدتم كل ما في الحياة من معنى ، وأصبحتم في حياة لا روح فيها ، فان أثينا بعد اليوم ستقفر من الفن ، ستقفر من مواهبها السماوية ، ستقفر من بلابلها الغريدة . لم يعد يخرج بين ظهرانيكم شعراء وحكماء يفنون أجسامهم لتغذيتكم ، وينشرون الرائحة لتعطيركم ، ويصوغون الحكمة لأرشادكم .

ومازال هو بول يجول في أحياء المدينة ويقص ما سمع من هايكلوس عن جوبيتر وأبولو والملائكة ، حتى فزع القوم ، فانتدبوا من يذهب الى هايكلوس ويرجوه وساطته بينهم وبين الآلهة ، لئلا تستمر الشياطين في تمردها ، فانتدبوا أشخاصاً من كل طبقة وتوافدوا مستجدين أشعاره صائحين : لقد أيقنا بحكمة الحكماء ، وآمنا بحاجتنا لأمثالكم الرفقاء . . . .

فخرج هايكلوس من داره وأخذ ينشد دعاء يعيد لأثينا حياتها الأولى . . . .

بسام كرد على

ردّ على نقد

مكة ومشـــهد

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت وأنا على أهبة السفر كلمة في الرسالة لأخي الأستاذ أمين الخولي عنوانها « مشهد ومكة » فلم أجد بين مشاغل السفر فراغاً لاجابته ومناقشته ، وعزمت أول الأمر أن أترك كلته حتى تتهيأ لي المناقشة فيها ، ثم بدا لى أن أكتب كلمة كعجالة الراكب ، أو كُهَيْنَة الضيف ، يروى بها الأستاذ بعض ظمئه للحقيقة « وإنها لحقيقة أن تبتغى لذاتها » .

أترك كلام الأستاذ عن « فرق ما بين العقيدة والفكرة وصلة العقل بمنطقه ، والاعتقاد بسلطانه » فهذه فلسفة لم أتهيأ لفهمها ، وأعمد إلى الموضوع :

أخذت على الرحالة محمد ثابت في مآخذ أخرى تاريخية ولغوية قوله إن الشيعة يفضلون مشهداً على مكة ، فقلت : « وأفظع من هذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران أنهم يفضلون مشهداً على مكة ، وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض ، وقاعدة من قواعد الاسلام كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة الخ » ، ففقه المسألة أن الشيعة يعتقدون أن الحج قاعدة من قواعد الاسلام ، ولا يرون زيارة مشهد كذلك ، خلافاً لما رواه محمد ثابت .

فهل استطاع الأستاذ أن ينقض هذه الدعوى بما روى من حديث هذا (الكوزة كنانى) الذى تسلح به للجدال ولم يستطع إخفاء فرحه به ؟

قلت : « ربما بالغ عامة الأيرانيين في تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين في تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى وابراهيم الدسوقى ، ولكن عمل العامة لا تقاس به عقائد الأمة . وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب » فطالبني الأستاذ متحدّياً بأن أذكر له من كتب الشيعة التي بين أيدينا شيئاً بعينه ليرتاح القارىء .

ثم قال : « وكيف يكون الأمر إذا كانت كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل المكاني بقسوة وعنف الخ » ويساق ما نقله من كتاب الكوزه كناني . وظاهر أن دليل الأستاذ الخولى لا يفى بدعواه ، فقد أدعى أن كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل ثم لم يرجع إلى كتب الشيعة ولم يتحر أقوال أئمتهم ، ولكنه اكتفى برواية في كتاب فرد لمؤلف لا يعرف عنه الأستاذ إلا أن له كتاباً مطبوعاً منه نسخة في دار الكتب . فلو فرضنا أن كتب الشيعة الأخرى تؤيد رواية الكوزه كناني لكان الأستاذ مجازفاً في الاستشهاد بكتب الشيعة قبل الاطلاع عليها .

أنا لا أطيل على القارىء بنقل نصوص من كتب أئمة الشيعة ، ولكن أعرض عليه خلاصة قراءتى :

في كتب الشيعة روايات في تفضيل كربلاء على مكة ، وفيها روايات يؤخذ منها تفضيل مكة على غيرها مثل هذا الحديث المروى عن جعفر الصادق في كتاب « وسائل الشيعة الى أحكام الشريعة » « ماخلق الله خلقاً أكثر من الملائكة ، وأنه لينزل كل

يوم سبعون ألف ملك ، فيأتون البيت المعمور فيطوفون به ، فاذا هم طافوا به نزلوا فطافوا بالكعبة ، فاذا طافوا بها أتوا قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلموا عليه ، ثم أتوا قبر أمير المؤمنين فسلموا عليه ، ثم أتوا قبر الحسين فسلموا عليه ، ثم عرجوا ، فينزل مثلهم أبداً إلى يوم القيامة » .

وفي كتب الشيعة أيضاً روايات عن فضل زيارة الحسين والرضا ، ولكن خلاصة الروايات كلها ، وفقه النصوص الكثيرة أن الحج والعمرة الواجبين لا تعدلها زيارة أحد ، وأن زيارة الحسين قد تعدل عمرة أو حجة أو أكثر من ذلك من الحج والعمرة المندوبين بعد أداء حجة الاسلام المفروضة . وفي « وسائل الشيعة » : قلت لأبي عبدالله (جعفر الصادق) : ماتقول في زيارة قبر الحسين ، فانه بلغنا عن بعضكم أنه قال : تعدل حجة وعمرة ، فقال : ما أصعب هذا الحديث . ما تعدل هذا كله ، ولكن زوروه ولا تجفوه ، فانه سيد شباب أهل الجنة . . الخ .

فهذه خلاصة قراءتي في كتب الثقات ، وذلك تصديق ماقلته في مقالي السابق ، وفي صدر هذا المقال .

وقد ختم الأستاذ الخولي مقاله بعد أن أثبت على الخطأ بقوله : « وأكتفي بهذه الكلمة ، قائلا مع الأستاذ عزام في ختام كلمته : وإنني لراج أن يتم التعارف بين الأمم الاسلامية ، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وانصاف ، والله ولي التوفيق » .

وإعادة كلمتي هنا تعريض معناه أن محمد ثابت كان متثبتاً فيما كتب ، وأنني أنا غير المتثبت . ولعل الأستاذ قد عرف الآن أينا بنقيصة التثبت ، على أن من فاته التثبت وهو يصف أمة مسلمة بما هو خزي بها وبديها خير ممن فاته التثبت في الادعاء على بعض المسلمين أنهم يفضلون زيارة كربلاء على الحج ، وهو قاعدة من قواعد الاسلام عند المسلمين كافة .

عبد الوهاب عزام

فجيعة الحياة

« أبي »

للأستاذ محمد محمود جلال

يا أبعد الناس عن لغو وإيذاء ... جوزيت بالخلد عن هم وعن داء

مضت حياتك ركناً يستظل به ... سغب العفاة ويؤوي البائس النائي

فكنت آية خير ، في حمايتها ... دفع الخطوب بحزم دون ضوضاء

وإذ يمينك بالاحسان في شغل ... تمد يسراك ستراً عيب أعداء

عف اللسان كثير العفو في أدب ... كم طوح الخصم في وغظ واطراء

تغار للحق والدنيا على ملق ... وتصرع الظلم والدنيا بأملاء

حتى أتى القدر الغلاب عن أجل ... على الصبابة بين السين والراء

فهز نعيك في الدنيا مكارمها ... وقوضت من حياتي كل سراء

في غربة فجعتني قبل موعدة(١) ... وهونت بعد رزئي فيك أرزائي

(١) افترقنا في ١٧ يوليه — وتوفي أبي في غيبتي ، وعلمت النبأ مساء ٢٩ أغسطس سنة ٣٣ لدى وصولي ميناء الأسكندرية .

التوبة

يا حبيبي هذا الحب فما يجدي التمني

واسترحنا من غرام وعذاب وتجني

وانتهينا لسكون هاتف الصمت يغني

وفرغنا من أمان قربت بالأمس حيني

***

يا حبيبي هدأ الحب بقلبي وضلوعي

وتراءى الكون ليلا في سكون وخشوع

وطيور الروض غنت في الضحى لحن الربيع

أقفر القلب من الحب فما جدوى دموعي ؟

***

كان هذا الحب لحناً من لحون الأبدية

على هامش اللزوميات

الى المعـــــرى

لعل موتاً يريح الجسم من نصب إن العناء بهذا العيش مقترنُ
(المعرى)

للشاعر التونسي محمد الحليوى

أبا العلاء ، أحقًّا أنتَ فى دَعةٍ من الخُطوب ، وفى سِلْمٍ من الكُرَبِ

هل فى رُقادِك فى بيتٍ تُقيم به على الغضاضة ، ما أغنى عن النَّصبِ

وهل طريقُ الرَّدى زهراءُ مونقةٌ أم حفَّها الله بالوَيْلات والحَرَبِ

وكيف كأسُ الرَّدى هل فى ثُمالتها خَمْرٌ ، وهل شربها أشهى من الضَّرَبِ

وما رأيتَ وراء القَبْر من عمهٍ حارت عقولُ الورى فى سِرِّه العَجَبِ

أبا العلاء ، لقد حاولتَ مُجْتهداً فكَّ الرُّموز ، وكشفَ السرِّ عن كَثَبِ

فما رأيتَ سوى طخياءَ حالكةٍ وكنتَ تنظر خلف الباب من ثقب

واليومَ ها أنتَ لا بابٌ ولا حجبٌ فقل لنا ما وراء الباب والحُجُبِ

ما علة الكون ... ما سرُّ الوجود ، وما فى هذه الأرض من صدقٍ ومن كذب

ما غايةُ الحيِّ من دنيا يُقيم بها وما يُراد به من عَيْشه اللَّجب

والموتُ ما هو ... هل جسر نمرُّ به أم هُوَ غايتنا من كلِّ ذا التعب !

هيَ الحقيقة تحكى ربةً ملكتْ عرشَ الألمب على الأرباب والرسلِ

وجرَّبتْ سحرَها فى الأرض فافتتنتْ به الخليقةُ من فَسْلٍ ومن بَطَلِ

خلفَ النقاب بدَتْ هَيْفاءَ ساحرةً تبادل الصبَّ أفناناً من الغزلِ

أهلُ الصَّبابة فى الأشواقِ ما برحوا يَسْتَشْهدون ولا يحظَوْنَ بالقبلِ

كم من قتيلٍ قضى فى حُبِّ ربَّته وكم رماه الهوى بالحادث الجللِ

لكنَّ ربَّتَهُ ظمأى إلى دمه لا ترتوى الدهرَ من علٍّ ومن نَهَلِ

أبا العلاء ، لقد راعتك نضرتَها فهمتَ مفتتناً فى حبها الازلى

وعشتَ رهنَ العمى والحبس فى شظف تنهى لها كلَّ ما تأتيه من عمل

وقد مضيتَ وما أُدْخلتَ هيكلَها ولا أحلَّتْكَ يومًا قنةَ الجبل

وكيفَ ! وهى التى فى الدهر ما رفعتْ عنها النقاب ، ولم تُسْفِرْ إلى رجل

كلٌّ مشوقٌ وكلٌّ آملٌ ظفراً بوصل ليلَى ، وكلٌّ خائبُ الأمل

يا ليتَ شِعْرِى هل تخفى غِلالتُها ملاحةً ، أم حِمَى ليلى على دَخَل

* * *

أبا العلاء ، وهل أجدَتْك موجدةٌ على الحياةِ وتجديفٌ على القدر

الكونُ ما زال مثل العهدِ مشكلةً وسرهُ مُضْمَرٌ فى مُغْمَرِ العُصُر

والدهر يمشى .. فلا شكواك توقفه ولا سبابك يثنيه عن الوطر

يمشى لطِيتِهِ والحىّ يتبعه يأتى على الكُرْه أو يأتى على قَدَر

رحاهُ لا تنتهى فى الدّهر ضجتُها ولا تدورُ الرَّحى إلاّ على البشر

وما عَلِمْنا على التحقيق من خَبرٍ سوى القُصور على الاتيان بالخبَر

نمشى على الدَّرب فى جهلٍ وفى عمهٍ والليل فى حلك والدَّربُ فى خطر

ما تطلع الشمس مصباحا لترشدَنا كلاَّ ، ولكنها رَمْزٌ على الحَقَر

والبدرُ يضحك فى عليائه أبداً وكيف لا .. وهو يلقانا على سَحَر

وذا الفضاء كتابٌ نُصْبَ أعيُننا يُتْلَى فيلقِى علينا خالد العِبَر

يقول فى كلِّ سطر من صحائفه : « أف لكم ما لكم فى الكَوْنِ من خطر »

ما أنتمُ فى قضاءِ الله من أحدٍ سوى هباء على الأكوان منتثر

سوْأى لكم يا هباءُ هل ضجيجكمُ ولعنةُ الأرض تثنى الدَّهرَ عن سَفر !

(تونس) محمد الحليوى

كان هَذَا الحبُّ إشعا ع الأمانى القدسيَّه

كان رَوْضًا من جمالٍ وَزهورٍ ذهبيَّه

وَهْو طيفُ اللهِ فى الأرْ ضِ وَلِى أسْنَى عطيَّه

* * *

يا حَبيبى كمْ تغنيْـ ـنَا بألحانِ الإلَهْ

وَشدَوْنَا فوْقَ نايِ الـ ـحبِّ أصْداءَ نداهْ

وَتَذَوَّقنَا مدامًا من سُلافاتِ الشِّفاه

وَهتفنا فى حَنِينٍ : إنمَا الُحبُّ الحياه !

حسن محمد محمود

في تاريخ الأدب المصري

أيدمر المحيوى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

١

في عصر الدولة الأيوبية ، حينما كانت مصر زعيمة العالم الاسلامى ترفرف رايتها عليه ، وتقف فى وجه المغيرين من الصليبيين وتصد هجماتهم ، وتدفع عن بيت المقدس وتذود عن حياضه ، وتحمى مدنية الشرق وتحوطها بسياج من المناعة والقوة ، وحينما كانت مصر تقف أمام أوربا مجتمعة ، يريد الأوربيون أن ينالوا منها منالاً ، فتأبى مصر أن ينكسر عودها أو تلين قناتها ، في ذلك العصر الملىء بأسباب القوة ، المفعم بالعظمة المصرية والمجد المصرى ، عاش الشاعر أيدمر المحيوى ، وربى فى أرض مصر ، وفوق ثراها المخصب الندى ، وهو فى أصله ينتسب الى الترك ، وإن كنا نجهل مايتعلق بأسرته وآله ، ويظهر أن التاريخ يجهل كذلك أسرته ، ولايذكر إلا أنه كان مملوكاً للأمير محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد ، ثم أعتقه وأصبح حراً ، غير أنك إذا ذهبت تبحث عن السنة التى ولد فيها شاعرنا بله الشهر واليوم ، فانك غير مهتد الى شىء ، اللهم إلا أنه نشأ فى عصر الدولة الأيوبية فى منتصف القرن السابع الهجرى ، نستنبط ذلك استنباطاً من قصائده التى مدح بها بعض سلاطين تلك الدولة ، وإذا أنت سألت التاريخ عن تربيته وتعليمه فانك سوف تجد غموضاً وإبهاماً لاتستبين خلالهما إلا ماقد ينم عنه شعره من أنه درس اللغة ، واطلع على كثير من شعر الشعراء السابقين والمعاصرين ، فتثقف به وتأثره ، وعارضه أحياناً كما فعل ذلك مع ابن المعتز وابن النبيه ومسلم بن الوليد والمتنبى — وإلا ماقد يكون قد تثقف به من علوم اللغة العربية على يد ولى نعمته محيى الدين الذى نسب اليه والذى ظل أيدمر حافظاً لنعمته عليه يذكرها ، ويمدح سيده بغرر القصائد والموشحات .

٢

ليس لنا اليوم إلا أن نحدثك عن شعره الذى بين أيدينا ، وقبل أن نصفه لك أو نحدثك عنه حديثاً مسهباً ، يجمل بنا أن نخبرك أن ماسوف نتحدث عنه ليس بكل شعره ، بل هو مختار منه أبقته لنا الأيام ، ولسنا ندرى إن كنا سنعثر على كل شعره أو أن الزمن بذلك ضنين ؟

أول مميزات شعر شاعرنا طول نفسه ، فقصائده أغلبها طويلة ، وقد يبلغ بها الطول الى أن تقارب المائتين ، وذلك إن دل فانما يدل على تمكن فى اللغة ، واطلاع واسع يهيئه لأن يطيل كما يشاء حتى يوفى مابنفسه ويستوفيه . ثانيها الرقة وجمال الأسلوب مع متانته ، فلست تحس بالتنافر أو نبو الألفاظ أو أن تركيباً قلق فى موضعه غير مستقر ، أو أنك تجد عسراً فى فهمه ، أو تحتاج الى وقوف طويل حتى تستبين معناه ، فهو سلس سهل ، يسبق معناه الى قلبك قبل أن يسبق لفظه الى سمعك ، وانك لتجد نفسك مسوقاً الى قراءته متى بدأت أول القصيدة لطلاوته وعذوبته ، وهو يذكرنا بالبحترى حينما نجد الألفاظ له منقادة متخيرة ، مع السهولة والعذوبة . ولا يذهبن بك الوهم الى أنه لم يستعمل ألفاظاً غريبة فى شعره ، فانه قد استعمل منها طائفة صالحة ، غير أنه كان حكيما فى استخدامها ، حصيفاً فى استعمالها ، لا يكثر منها ولا يضعها فى غير موضعها . ثالثها استعمال بعض المحسنات البديعية من غير إكثار منها ولاتكلف ، بل إنها تجىء سلسة سهلة ، لاتذهب برواء القصيدة ، ولا تضيع من بهجتها ، ولقد استخدم فى شعره التورية والجمع والجناس ، وحسن التعليل ، والطباق ، والاقتباس ، فهو يقول :

في جوده السفاح أم فى عزمه المنصــور ، أم فى غيبه المأمون

ويقول :

قضت لك الشيمتان : العــدل والكرم
أن تخضع الأمتان العرب والعجم
وشرف الدين والدنيا بدولتك الـ غراء ، والأشرفان العلم والعلم

ويقول :

ملك إذا امتدت يداه الى العدا يوم الوغى تتقاصر الأعمار

ويقول :

هو الناهب الأرواح والواهب اللهى وبانى العلا والناسك المتورع

ويقول واصفاً حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لايفـارقـه صب الفـــؤاد به متيمه
يدعو بصوت أستبـين به معنى الحنين ، ولست أفهمه
فيميل بى طرباً تمايـــله ويهزنى شوقاً ترنمـــه

يـبدى أسى الباكى ورقته في نوحه ، والدمع يكتبه
بحر الأسى إنسان مقلتـه يجرى تخضب رجـله دمه

ويقول من موشح :

أنت ياموسى رجائى آنسا
نار جــدواه فوافى قابسا
رحت فى حضرة قدس دائسا
فى طوى السؤدد ، فاخلع نعلكا وادعه يأت بكبرى يوشع

وكان أكثر ماأتى به فى شعره حسن التعليل ، على أن كل المحسنات التى أتى بها قليلة ، فهو غير مغرم بها ، ولاملزم نفسه كغيره السير على منهاجها .

٣

شعر المحيوى ينضوى تحت لواء واحد وفن واحد من فنون الشعر الغنائى ، هو المدح ، فهو الغرض الأول فى شعره ، يقصد اليـه قصداً ويلم بغيره عرضاً من غير قصد ، يبدأ به قصـيدة المدح أو يختم به الموشح ، وكان ماأتى به عرضاً يدخل فى الوصف أو فى الغزل ، ولنقف وقفات قصيرة لدى كل غرض من تلك الأغراض التى طرقها واصفين ودارسين .

أول ماتلمسه فى شعره المدحى أنه قد خلا من الغزل فى أوله حينما يمدح سلطاناً من سـلاطين الدولة الأيوبية ، بينما هو يبدؤه بالغزل عندما يمدح ولى نعمته محى الدين بن سـعيد أوغيره من الوزراء ، فأى شىء تستطيع استنباطه من تلك الملاحظة ؟ وعلى أى شىء تدل ؟ لقد قلبنا الأمر على وجوهه ، ثم خرجنا بنتيجة قد تكون قريبـة من الصواب : تلك هى أن هؤلاء السلاطين لم تكن عنايتهم موجهة للغوانى والحب والغرام حتى يأسرهم الحديث عن الحب ويسترعى انتباههم ، وإنما كان كل همهم موجهاً الى الحرب والقتال ، وقهر الأعداء ، ورد العادين من المغيرين على دولتهم ، فقد كانوا كما قال أبدمر فى أحدهم :

متفرغ للمجد ، لاهو من دد يلهيـه عن كرم ولا منه دد
البيض من صنع القيون لدى الوغى يطربنه ، لا البيض مما ولد
والأسمر الخطـار يبهج نفسه ويسرها لا الأسمـــر المتأود

وإذا كانت عنايتهم متجهة نحو ميادين الحروب فماله يشغل نفسه بشىء لا يملك عليهم نفوسهم ، ولا يأسرها ؛ حقاً لقد كانت لهم مواطن لهو ولذة ، ولـكنها لذة العظمة وأبهة الملك كذلك يسترعى نظرك فى شعره كثرة مدحه لسلاطين هذا العصر بذبهم عن حياض الدين وحياطته بسياج من العزة والمهابة فهو يقول للملك الصالح :

ملك يلوذ الدين منه بمعقـل أشب ، سطاه سوره والخندق
فالدين بعـد تفرق متجمع والـكفر بعـد تجمع متفرق

ويقول له :

فاسلم لدين قد هديت إليه من لايهتدى ، وجمعت مالا يجمع
وحميت حوذته ، فأصبح وهو فى أيام دولتـك الأعز الأمنـع

ويقول للملك الـكامل :

فالله يشهد أن دين محمـد بمحمد ، وله الخليقـة تشهد

ويقول له :

لولاه كان الدين سرحا ماله راع ، وزندا ما عليـه سوار

وذلك نتيجة طبيعية لهذا العصر الذى صبغ بالصبغة الدينية وكان القتال يدور فيه باسم الدين وباسم الدفاع عن الدين ، فليكن الشعر كذلك مصبوغاً بهذه الصبغة ، مثنياً على السلاطين لأنهم خدموا الدين وقاموا على صيانته .

تلمس فى شعره المدحى كذلك قوة ملوك مصر فى هذا العصر حتى لـكثيراً مايسميهم ملوك الملوك وكثيراً ما تسمعه يقول لهم :

من ألقت الدنيا مقالد أمرها بيديه وهو بها أحق وأليق
ذو صورة تنبيـك عنـه أنه ملك الملـوك الحق حين يحقق

إلى أن قال :

فجلست حيث جلست منه تزينه شرفا فطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفة فتراه ، وهو لغير فـكر يطرق
هيهات جزت مدى الملوك إلى مدى رجم الظنون اليه لايتطرق

ويقول :

منح رآك الله أهـلا أن تقا دها فقـلدك الذى تتقـلد
ذكرت مفاخرها الملوك وخيرما ذكرته منها أنها لك أعبـــد
ذكراك فيهم سجدة مسنونة فلذا متى تذكر لديهم يسجدوا
فاذا هم نظروا إليــك فأعين حسرى ، وأفئدة تقوم وتقعد
ملك الملوك وخير من عقدت له الـ تيجان فى قدم الزمان وتعقد

وإذا أنت علمت أن ملوك مصر فى ذلك الحين كانوا حقاً زعماء الملوك فى العالم ، وكانوا أكبر رؤوس تطأطىء لها هام الملوك ، وتنخلع من هولها قلوب الأعداء ؛ وإذا أنت علمت أن مصر فى تلك الأزمان كانت أكبر مملكة فى الشرق والغرب ، وأقوى دولة يقصـدها الأوربيون بجموعهم ، فلا ينالون منها إلا ماناله

الوعل من الصخرة ، وإذا أنت علمت أن الجيش المصرى هو الذى حمى الشرق وحفظه من الأجنبى الذى يريد أن يتحكم فيه وإذا أنت علمت أن الاسلام وحرية الأديان كانت تسهر عليهما مصر وملوك مصر ، ويحيطونهما بسياج الحفظ والمناعة ، إذا أنت علمت كل ذلك أيقنت أن هذا الذى مدح به هؤلاء الملوك لم يكن بالكذب ولا المغالى فيه ، وأمامك كتب التاريخ فاقرأها تعد مؤمناً بصدق ما قال فى قوة مصر وملوك مصر .

شعر شاعرنا الدهنى يعطيك صورة عن بعض نواحى الحياة المصرية فى ذلك الحين ، فهو يحدثك عن النزاع الذى كان قائماً بين المصريين والصليبيين حينما وجه هؤلاء تيار حروبهم إلى مصر نفسها قلب العالم الاسلامى ، فأغاروا على دمياط ، ولكنهم فشلوا أيما فشل ، واستطاع المصريون أن يخلصوا دمياط من حوزتهم ويرجعوهم بخفى حنين ، وهو يحدثك عن هذه الجموع الكثيرة التى كانت أوربا تمد بها الجيش المحارب لدمياط ، والذى يريد الغلبة عليها ، قال أيدمر :

أيام قال الشرك بغياً للهدى ... دمياط لى ، وتلك الغداة الموعد
وأتى بما يملأ البسيطة كثرة ... والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت نداه بقعة ... جف المياه بها ، وذاب الجلمد
كالسيل إلا أنه لا ينقضى ... والليل إلا أنه يتوقد
وأتى بك الاسلام وحدك موقناً ... أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما ... بالنصر تشقى من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو منيربل ... خزياً ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم : فمكلم ... ومجدل ، ومشرد ، ومصفد

كما يحدثك عن هذا النزاع الذى كان قائماً حول حلق (دمشق) أتبقى فى حوزة المصريين ، أم يحكمها غير المصريين ، وكانت الغلبة غالباً فى جانب المصريين ، وهو حين يحدثك عن هذا الفتح يشعرك بما فى نفوس المصريين من حب لأن تبقى دمشق ضمن حدود مملكتهم ، وأن يخفق علمها علم الامبراطورية المصرية . حتى إنه حينما كان يأتى البشير بفتح دمشق يزين المصريون دورهم ، ويرفعون الأعلام على شرف الجدران تخفق كما تخفق قلوبهم بالفرح والسرور ، واستمع اليه يقول :

قد قلت إذ جاء بالفتح البشير به ... الله أكبر هذا غاية الأمل
ترنح الدهر ، واهتزت معاطفه ... وراح يسحب ذيل التيه والجذل
والأرض قد أخذت للناس زخرفها
وازينت ، فهى فى حلى وفى حلل
مسرة فى قلوب الناس قد ظهرت
حتى على شرف الجدران والقلل . الخ

وهو يؤمن بأن دمشق سوف تنال الخير والسعادة ، وسوف تصبح فى دعة وأمن مادامت ضمن المملكة المصرية :

فلهن حلق أنها قد أصبحت ... فى مستقر الملك ، لا تتحول
وأنا الضمين بأن سيسلى جلقاً ... عما مضى من غمرها ما يقبل

ونختم حديثنا عن مدحه بتلك القطعة الصغيرة لتكون نموذجا لبقية مدحه ، قال يمدح الملك الكامل :

الله جارك ، والورى أنصار ... فانهض ، ونل بهما الذى تختار
خضعت لهيبتك الأقارب والعدا ... وجرت بوفق مرادك الأقدار
ملك إذا امتدت يداه الى الظبا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمار
من وجهه قمر ينير ، وسخطه ... قدر يسير ، وحدسه إبصار
وإذا القلوب تطارت فى موطن ... نزلت عليه سكينة ووقار
ملك له من بأسه وعتابه ... حصن أشم ، وجحفل جرار
ملك يميل الى المكارم لا الدمى ... وتهزه العلياء لا الأوتار
ملك تهيم به بنات قلوبنا ... حباً ، وتمشق مجده الأشعار
لولاه كان الدين سرحا ماله ... راع ، وزنداً ما عليه سوار

فأنت تحس حقاً بأنك تقرأ أسلوب البحترى وتحس جماله وعذوبته ، مدحه لغير الملوك يبدأ بالغزل ، وهو وإن لم يكن مقصوداً لذاته لا بأس بجماله وعذوبته ، حتى لتتمنى حين تقرأ غزله أن لو كانت القصيدة كلها غزلية ، وإن كنا نؤكد أنه فى غزله مقلد آخذ معانى من سبقه من الشعراء ، واستمع اليه يقول من موشح :

قال لى العاذل لما نظرا
من غدا قلبى به مشتهرا :
أكذا تعشق ؟ ماذا بشرا ؟
حاش لله ؟ أراه ملكاً ... مثل ذا فاعشق ، وإلا فدع
هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البدر تغيب ويحكا ... ما احتياج الناس للبدر معى ؟ !

فأنت لا شك تحس بالعذوبة فى ألفاظه وإن كان الكثير من معانيه مقتبساً ، وكم كان بودنا لو أطال الحديث فى الغزل أو لو قصد اليه قصداً وظل يروى لنا عاطفتنا الظامئة الى غزله .

(البقية فى العدد القادم) احمد احمد بدوى

بمناسبة الذكرى الأولى للملك فيصل

فقيد الأمة العربية

للشاعر القروى

لحيٌّ برغم القبر فليخسإِ الردى ... وقد سلم الغازى فلا يهنأ العدا
ولو كل موت يضمن الخلد سارعت ... اليه ملوك الأرض مثنى وموحدا
ولو كل حظ حظُّ غازى من العلى ... تفاءلَ بالدنيا مهلٌ فأنشدا
بنيتَ له الملكَ الذى هو أهله ... وأطرفتَ ما هارون بالأمس أتلدا
فكنتَ أساساً وزخرفت قبةً ... وذهبت آفاقاً وأطلعت فرقدا
ورممت فى بغداد عرشاً مهدماً ... وخلفت فى الأكباد عرشاً مؤبدا
وما أنت إلا السيف أعقب خنجراً ... بلوناه فى الحلى فكان المهندا
لئن أدب الجبارَ بالصفعة التى ... تداول أسماعَ النجوم لها صدى (1)
وصبَّ على رأس السفير صواعقاً ... نزلن على أكبادنا البرد والندى
رآه وقد ضلَّ الهدى فانتضى له ... يداً قدحت من عينه النور فاهتدى
بعين شريف تقعد الطود قائماً ... ولو شاءت اليسرى أقامته مقعدا
أذابت قلوب الخائنين وفورت ... دماً فى عروق الانجليز تجمدا
ليرضَ عليك الله ياسبط أحمد ... فانك قد أرضيت جدك أحمدا
شفيت بهذا الموقف الحر نفسه ... وزحزحت عن صدر العروبة جلمدا
وكم غضب أدنى من الحلم للتقى ... وأهدى الى المجد الرفيع من الهدى
وما شأن ملك سامه العبد ذلة ... وأبرق صعلوك عليه وأرعدا . !
وكم تاج ملك صار نيرًا لربه ! ... وكم صولجان عاد فى العنق مقودا . !
أيزعم ذو القرنين أنك عبده ... ومثلك من يلقى السلاطين أعبدا
تعوَّد منا أن نغضَّ على القذى ... فعوَّدته نسيانَ ما قد تعودا
ليعلمْ عبيد التاج أنك سيد ... تزيد به التيجان مجداً وسؤددا
وأن قريشاً أعظم الخلق هيبة ... وأكرم أخلاقاً وأشرف محتدا
تخرّ منيعات الجبال مهابة ... لبيت على رمل الحجاز تشيدا

(1) إشارة الى وقفته الجريئة مع السفير البريطانى فى بغداد وقت حادثة الاشوريين

زكا أصله قبل النبى محمد ... فكيف وقد أزكى النبى محمدا
بتمكينه عهد من الله خالد ... على الدهر ما كرَّ الجديدان جُددا
تشيب الثريا قبل إنذار شيبه ... ويوشك خدُّ الشمس أن يتجعدا

***

أفيصل إنى مرسل فيك شُرَّداً ... يثبن اليك اللانهاية غُرَّدا
أكلفها نوحا فتمضى شواديا ... أوابىَ أن ترثيك حياً مخلدا
كأن حروف الخط أعواد جنة ... على كل فرع بلبلٌ للعلى شدا
وقلدتُ منها كلَّ شطر مهندا ... يظل على هام العداة مجردا
اذا قرع الراوى به سمعَ خائن ... تذوَّق طعمَ الموت شعراً مُردَّدا
وحسب القوافى أنها فيك ألهمت ... لأغدو بها رب البيان المسوَّدا
فقد يهب الحق الغرابَ فصاحة ... وقد يُخرس البُطْلُ الهزارَ المغردا
سبيلك لم تسلكه الا منوراً ... وسهمك لم ترسله إلاّ مسدَّدا
وكنت لأشتات البلاد موحدا ... كما كنت فى الدين الحنيف موحدا
وكنت لأجل المجد بالمال زاهداً ... وكنت لأجل العرب بالمجد أزهدا
وكم خضت لاستقلال شعبك لجة ... وكم جبت آفاقًا وكم جزت فدفدا
بعيد المنى لم تلقِ مرساةَ مطمح ... الى المجد الاّ سامك المجد أبعدا
مشيت له تستبطىء البرقَ مركبا ... وأدركته تستوطىء النجم مقعدا
أرحْ كبدًا حمَّلتها كلَّ فادح ... من الهم يعيى الشُّم لو كنَّ أكبدا
طعامٌ على مضٍّ وشربٌ على قذى ... ومشىٌ على جمرٍ ونومٌ على مُدى
تصبَّرتَ حتى الصبرُ كاليأس قاتل ... وحتى ذممنا فى الخطوب التجلدا
صعدت جبال الألب تنشدُ راحة ... وعدت كأن الألب فى القلب صعَّدا
كلا كلُّ هم لو أنيخت (بيذبل) ... لعاد (بزوفا) يقذف الجمر والردى
خيانةُ أحلاف وإخلافُ ساسة ... وغدر الذى أكرمته فتمردا (1)
مشوا بك بين الجيش والتاج موكبًا ... أعدت له نظَّارة الخلد مرصدا
فلم يرَ أهلُ الأرض أروعَ مشهدا ... ولم ترَ عينُ الغيب أفظعَ مشهدا
يمدون للتسليم فى لندن يدا ... ويخفون للتسليح فى نينوى يدا
وقالوا مليك العرب فى الغرب مكرم ... فقلت إذن بات المليكُ مهددا
نصحتك لا تمدد الى أبرص يدا ... ولو مطرت كفاه درا وعسجدا

(1) مار شمعون زعيم الأشوريين

رسول الوحدة العربية!

للشاعر الحضرمي علي أحمد با كثير

يا أبا غازى ! ومافينا سوى … مستطار يمزج الدمع بدم
يا أبا غازى وما فينا فتى … «عربى دمه» إلا انسجم
يا أبا غازى وما فينا فتى … ماراه – يوم ودعت – الألم
ليت شعرى ، سامع أسئلتى … أنت ؟ أم فى مسمع الموت صمم ؟
فيم ودعت على أجراحها … أمة العرب ولما تلتئم ؟
فيم غادرت بنى قحطان فى … مرجل يغلى ، ونار تحتدم ؟
أولم تشرع لها وحدتها ؟ … لو تلبثت بها حتى تتم !
لم تجب قولى .. بلى ! هذا صدى … رن فى أعماق قلبى كالنغم :
مكره . . لو كان أمرى بيدى … لم أمت إلا وقد فقنا الأمم
ورأيت العرب فى وحدتها … كشعاع النور يجرى فى الظلم !
همها أن تصلح العالم ، فى … يدها السيف، وفى الأخرى القلم !
هذه (الخلد) ! وما أبغى بها … وبنو الضاد يبؤس وضرم ؟
وأرى (الحوض) فأواه متى … ترد العرب ينابيع الحكم ؟ !
وأرى (الحور) فلا ينسين ما … لفتاة العرب عندى من ذمم
رب لا نقض لما أبرمته … فارزق العرب هماما ذا شمم
بدوى العيش والخلق معا … حضرى العلم ، غربى الهمم
طابع (الوحدة) فى تاموره … بعد توحيدك مرقوم بدم ! !
يخرج البدو فيبنى منهم … ثبكن الجيش كأمثال الهرم
يجعل (العرفان) كبرى آية … ويرى (القوة) فى الدنيا الحكم

* * *

ذالكم (فيصل) فابكوه وقد … غاب عنكم شخصه ، والروح لم
من إذا ما عزم الأمر مضى … وإذا ما أبصر الرأى عزم
وإذا ما قدم زلت به … قام يمشى – غير وان – بقدم !
وإذا ما وقف الدهر مضى … وإذا ما عبس الدهر ابتسم !

* * *

يا مليكا هاشميا ما له … غير توحيد شعوب العرب هم
يختم النوم عليه جفنه … فيراه فى تهاويل الحلم !
بسناه كنت فى (سورية) … ملكا فى عرش (أقمار الحكم)
وبه فى (ميسلون) استشهدت … مهج لو لم تقمها لم تقم
وبه اخترت – على كرهكه – … عرش (بغداد) ولم تأنف ولم .
واثقا أنك تشفى داءه … بطريق الحرب أو طرق السلم
فيصل يفسح للخطب اذا … جاءه لا ينثنى ، لا يصطدم
فاذا الخطب الذى قد أمه … قد تولى خلفه كالمنهزم !
فيصل لا يعرف اليأس ، ولا … يرهب الموت ، ولا يخشى النقم
فيصل العامل يمتد له … أمل النهضة ما امتد الألم
فيصل يعمل ما يعمله … صامتا فى غير عى أو سأم
يسهر الليل تناجيه المنى … من رعى آمال شعب لم ينم
هذه (يعرب) ضلت سيرها … فهى حيرى تترامى فى ظلم
بعضها يعثر بالبعض ، وقد … غرب الطالع ، والليل ادلهم
وفم (الغرب) – وأخفى شخصه – … جاهدا ينفخ فى النار الضرم

* * *

أيها الآوى الى فردوسه ! … طالما أسهرت عينيك فنم !
لا تخف شرا على العرب ، فقد … لقنت مبدأك الحر الأشم
وترى فيها ، فلن يهضمها … طامع أجنب ، أو طاغ صنم
ولقد خلفت فيهم (غازيا) … علما يهديهم بعد علم
لم يمت من عاش (غازى) بعده … يرفع الملك ، وللشعث يلم
قم تهيأ للقاء (المصطفى) … جدك المبعوث فينا بالحكم
فسيدنيك إليه فرحا … بمساعيك كبارا والخدم
والق (آل البيت) وارتع بينهم … فى كروم الخلد أمثال النجم !

علي أحمد با كثير

لأمر يلاقيك الفرنجى باسما … فزد حذرا ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الود وهو سقيمه … كما تكسب الحمى الخدود تورُّدا

حفيد رسول الله يا غوث أمة … اذا استنجدت لم تلق غيرك منجدا
بكل لسان رتلت لك آية … وكل جنان شيدت لك معبدا
أذبت عليها حبة القلب ساهرا … فسافر بحبات القلوب مزودا

الشاعر القروى

من العصبة الأندلسية

بين الشك والإيمان

الشاعر الانجليزى بيرون[1]

Byron

(١٧٨٨ — ١٨٢٤)

للأستاذ خليل هنداوى

روح هائمة ونفس معذبة طغى عليها الشك فى جميع أدوارها، فارتعشت واضطربت وجدّفت، وما تجديفها إلا صدى تلك الحرقة الملتهبة فى قلب الشاعر الذى يريد أن يزيح ذلك الغطاء عن الحقيقة المحتجبة.

قضى الشاعر طفولته الأولى حراً لاتقرعه عصا الأبوة، لأنه نشأ تحت رعاية أم كثيرة الاشفاق عليه، دخل المدرسة وشيطان الشعر والفن أخذ يوسوس له ويقويه وهو لما يلبس أردية الشباب، فأنفق أيامه يزجى الفراغ متسلياً بالنظم لاهياً بالطرب. وفى هذا العمر الزاهى تسرّب إليه الشك ودعاه زهوه إلى الجحود، فجحد باليوم الآخر وحطم قيود التقاليد. ولكن سرعان ما أعياه التفكر فى حقائق الوجود وكم أعيت من قبله؛ فتعب من نفسه وهو الرقيق النفس، وتعب من الناس وهو ذو الروح الشاعر.

هجر وطنه وفى خلال هذه الهجرة بدأ ينظم مقطوعته الخالدة « طواف شيلد هارولد »

ومن هو هارولد؟ « هارولد عرفه الناس شر من جاور الناس، يعيش مستقلاً عنهم مزهواً بيأسه، يعرف كيف يتلمس الحياة فى زوايا نفسه. كذلك الكلدانى الذى أرسل عينيه فى النجوم، ومازال يحدق فيها حتى أسكن نجومها المضيئة كائنات مثلها مضيئة، فاذا استطاع أن يرق بنفسه فى هذا الأوج كان سعيداً، ولكن الطين الذى جبل منه يثقل عليه، وتراه — وهو الراغب فى النور الساطع — يتمنى أن يهدم السد الذى يحول بيننا وبين السماء، تلك السماء التى تتفتح لنا فى أعاليها عوالم مضيئة. وإنه لهائم فى منازل بنى الانسان يغلب عليه القلق ويزعجه التعب؛ مظلم النفس كثير الهم كاسف اللون كالصقر المهيض الجناح لايجد له وطناً إلا الفضاء الفسيح، فيأخذه هيمان يسلبه عقله، فهو يريد انقاذه منه، فيهيج ويدأب كالطائر الذى يقرع قضبان قفصه فيصبغ كساءه بدمائه، ونفسه السجينة المضطرمة أخذت ترشف هذه الدماء، دماء قلبه . . . »

فأى فتى يتوارى وراء هذه الأبيات؟ هل هو غير الشاعر؟ وكل من قدر له أن يتذوق ماوراءها من يأس ومرارة يحس أن الشاعر لايستطيع أن يخرج عن نفسه، لأنه يستمد كل عوامل نظمه من نفسه، فلندعه يخلق الأشخاص ويولد الأبطال. فلن ترى وراء هؤلاء كلهم ناطقاً غير الشاعر، ولا قانطاً غير الشاعر، فهو ذلك الفتى النبيل الذى غامر فى ملذاته حتى عاده السأم، والسأم داء يقتل فى المسرات كما يقتل فى الأشجان، فتراه يهجر عالم الانسان كالمسحور « هائماً وراء أحلام مظلمة، يخنقه السرور ويهفو إلى الشقاء والحزن لأنه يجد فيهما مروّحاً عن نفسه، مغادراً وطنه، حاملاً معه إلى المواطن التى وطئها — وهى مواطن الانس ومرابع النزهة — فكرته التى تسبى وراءه كأنها شيطان لاحق به [1] ».

عرّج على الاندلس ونزل فى (أثينا) مدينة الفلسفة، وهنالك استفزته هذه المشاهد التى تحمل طياتها التراث الفكرى الذى استلمه الحاضر من الغابر. وهذه المشاهد هى التى أوحت إلى (رينان) [2] صلاته الخالدة، وفجرت فى قلب (شاتوبريان) [3] ينابيع العاطفة والتصور. هنالك وقف (بيرون) ازاء هذه الآلهة المتناثرة على الحضيض، فسخر من الآلهة الموجود والآلهة المفقود.

يا ابن يوم واحد! أنهض وادنُ مني . . . .

أنظر إلى هذا المكان . . . هو وطن شعب، ومأوى آلهة تبعثرت هيا كلهم.

الآلهة نفسها تتلاشى، ولكل شريعة أجلها . . . !

(١) نشرنا فى العدد ٥٩ الجزء الثانى من هذه المقالة قبل أن ننشر جزءها الأول لأنه فقد فى البريد، وقد أرسل إلينا الأستاذ الكاتب صورته اليوم فعدنا لنشره (الرسالة)

(١) Taine : تاريخ الأدب الانجليزى

(٢) اشارة إلى صلاة هذا الفيلسوف على الأكروبول. وهى القطعة الأولى والأخيرة التى ظهر بها (رينان) شاعراً عجيباً تجرد من اثقال الفكر واتبع صوت العاطفة.

(٣) هو الكاتب الوجدانى الذى مهد الطريق بكتاباته للمدرسة الرومانتيقية.

فالأمس ساد (جوبيتر) واليوم يسود (محمد)[1] والعصور الآتية ستتخذ لها من مذاهب القوم مذهباً حتى يجيء عصر يجد فيه الانسان أن مايضرمه من بخور ويهديه من أضاحيّ يذهب عبثاً!

أيها الولد الحقير! ياقذيفة الشك والموت! يامن يتوكأ رجاؤه على أقدام من قصب . . . ! »

وقف الشاعر إزاء (البريتون) وتحت قبته المثقوبة فرحَّب بالعدم وجعل عصره خير عصر لنا وغده خير غدلنا . فقال :

«هاهنا قبة العقل ، هاهنا مأوى النفس . كل ما كتبه القديسون والسفسطائيون والعقلاء، أقادر على أن يعمر هذا الجوب المتنزل؟ ألا إن الراحة تنتظرنا على شواطىء (الاشيرون) . هنالك لا يكره الذى شبع من الحياة على ان يستوى على هذه المأدبة المملة ؛ ولكن السكون بعد ذلك الرقد الذى يحمل للجالس عليه السبات الأبدى»

ولكن بيرون لم يكن بذلك الجاحد الذى استراح ضميره وأراح ، فالحيرة لاتزال تغشاه ، والتردد لايزال يطغى عليه كأنما اتسع قلبه لنوازع يأكل بعضها بعضاً ، ويدمر بعضها بعضاً ، شأن الذى يركبه الشك ، ويتوارى عنه اليقين . وإنما يتميز بيرون من غيره من شعراء الشك بثورة دامية فى نفسه يقدم وقودها من قلبه ليتحرق بها قلبه ، وهو قلب قتله الظمأ الى اللانهاية ، هذا الظمأ الذى عجزت عن إطفائه سواقى الأرض .

قال (لامينى) لزملائه يوماً : أتعرفون ماذا جعل الانسان أشقى الكائنات؟ هذا لأن له قدماً وضعها فى العالم المتناهى ، وأخرى فى العالم اللامتناهى ، وهذه هى حالة بيرون .

ولكن وجه الغرابة فى ثورة بيرون أنها اضطرمت فى صدره ولما يبلغ الثامنة عشرة ، وحق لمثل هذه الثورات أن تثور على مهل لأنها تأخذ غذاءها من العاطفة لامن العقل . وقد طغى اليأس عليه وهو مازال فى ميعة صباه ؛ ولكن قلبه يخفق ويخفق معلناً «أن الشباب ولّى ، وأن الحياة بليت ، وأن الرجاء نفسه قد أسدل على وجهه حجاباً . »

جاز بيرون بأحد القبور فقال : « ياأحلام طفولتى ! كم حسرة تتصاعد منى عليك . أنا لا أستطيع أن أنساك ، لأنى أجد ما حولى ظلمات متراكماً بعضها على بعض ، لاشىء أعز على قلبى منك ياشعاع الماضى . »

وكتب وهو فى فينوس « إننى سأنفق شبابى حتى ينفد ، وبعدئذ أقول : عمى مساء أيتها الحياة ، فقد عشت وكنت مسروراً . »

ولكن ياله من سرور ! وهو القائل « أتيقظ فى كل صباح وبى يأس وسآمة من كل شىء ، حتى من الذى يطن سهدى بالسرور . »

بمَ يشكو الشاعر؟ وما هى الأسباب التى أورثت قلبه هذه السآمة وهو ممن لم تعوزهم أسباب الهناء ، ولا ممن نزلت بهم حوادث الدهر ، وهذه المواطن التى جابها فى سياحاته تشفى البائسين وتداوى أصحاب الهموم ، ميدان الهوى أمامه رحب الفناء ، ومجال الحرية والمجد والبراعة واسع الفسحة ، فأية سعادة يطلبها ويلح فى تناولها ، ويشق نفسه فى تتبعها ، وأين يجب أن يتحرى عنها إذا لم يجدها هنالك؟

قد علل بعض النقاد أسباب هذه المظاهر بافعام نفسه بالسرور الذى يخلق السأم ، ولا عجب إذا قتل السرور الكثير صاحبه كما يقتل الحزن صاحبه ، ولنسمع الشاعر نفسه يعلل هذه السآمة قائلا :

« وا أسفاه ! عواطفنا الفتية تذوب ضائعة ، حيث لاتنتج إلا قفراً فارغاً ، ولاينبت منها إلا أشواك مؤذية . . . ونبات يقدر مايروق للعين منظره ، يؤذى القلب ويؤله . وأشجار يقطر منها السم القاتل ، هذه هى الأشجار التى تولد تحت أقدام الأهواء .

أيها الحب ! لست أنت من سكان هذا الوجود ! أيها الساروفيم الذى لانرى ، نحن نؤمن بك . أنت شريعة أصحاب القلوب المنكسرة فيها ، هم الشهداء ، ولكن العين لاتراك ، ولن تراك بحقيقتك .

الحب هو هذيان ، وهو جنون الشباب ، لكن علاجه أمر من عذابه ، وعند ما نرى تلك الجواذب تتلاشى الواحدة بعد الثانية من أصنامنا الغرامية ، وعند ما نرى تلك الروعة التى كانت تمثلها مخيلتنا فى حالة التسامى قد زالت ، فسرعان مايذهب هذا

(١) اشارة إلى الاتراك الذين كانوا يسيطرون على اليونان

الانجذاب عنا ، وبعد أن زرعنا الريح لم نحصد إلا العاصفة .

يأتينا الذبول ونحن في فجر العمر . . . نشقى ونسأم ونسعى الى الغاية ، والغاية تمعن في الفرار . . . وظمؤنا لا ينقع غلته شيء . . . وفي اللحظة الأخيرة ، ونحن على حافة القبر يعودنا خيال جميل هو خيال السعادة التي تحرينا عنها في مطالع الحياة ، ولكنه زار متخلفاً ، وجاد بالوصل حين لا ينفع الوصل ، فنذوق الشقاء مرتين . . . .

الحب والطمع والبخل ، كل هؤلاء سيء ، ماهي إلا شهب واحدة تجيء باسم واحد . والموت وحده هو الدخان القاتم الذي يطفيء نارها . »

ما أدنى هذه العواطف من القلب ، لأنها ماخرجت من قلب إلا لتدخل في قلب . . . ولكن بيرون المظلم قلبه ماوجد على الأرض إلا الظلام ؛ وما أبصر إلا خيال السعادة مولياً أمامه ، فقيد الحقيقة — التي هي حقيقة الدهر — بهذا الخيال . وهو الشاعر قبل أن يكون فيلسوفاً . ولكن هل كل جمال مآله الزوال؟ أكل حب يستقي من نبعة واحدة . فهنالك أنواع كثيرة لجمال يزول وجمال يبقى ، وحب يتلاشى وحب يحيا ، فبأي نوع قيد الشاعر سعادته ؟

ماهو حائر كيف يقضي أعوامه هنا ؟ وكيف يستقبل ذلك العالم الهامد ؟ يأتيه الضجر فيبدع أشخاصاً وأبطالاً تغلي فيهم نزعة الضجر لأنهم يستمدون عواطفهم من عاطفته .

فهذا (مانفرود) يملك عليه السأم ، سأله الجني : ماذا تتمنى ؟ فأجابه : النسيان ، نسيان نفسي .

وهذا هارولد كان يدعى : « الفتى السائم من الوجود » وهذا (جيور) كان لا يجد أقفر من صحراء القلب الفارغ

وأخيراً آل به هذا الشك إلى جحود كل شيء ، فخلا قلبه من الحب وفرغ من الأمل . واستحالت كل هذه الصفات النبيلة إلى كره للبشر ، وهل في استطاعة من كرههم وأوسعهم ذماً أن يبدلوا ظلمة قلبه نوراً إذا لم يكن النور ابن قلبه ؟

لنصغ إليه وهو يحدثنا عن الناس « هل أعود إليهم كرة ثانية أتحرى عما رجوه قلب هادىء في هذه المواطن التي يغلب فيها إنهاك أصحابها في المنكرات ، وحيث الضحكات ترتفع عبثاً لتخفي حقيقة القلب . هذه الابتسامة هي تؤلف أخدوداً لدمعة طافرة ستنسكب »

لم يستطع أن يحمل نفسه قطاربها في الآفاق يسليها بالوحدة فطابت له حياة منعزلة تقصيه عن الناس في مواطن آهلة بالجبال التي يدعوها أصدقاءه ، متنحياً عن قوانين وحكومات أقسم ليكرهنها حتى يقضي نحبه .

وكأن هذا الألم قد أكسبه قوة ومناعة « أما الجمل فانه يحني ظهره تحت الحمل ثم يمشي ساكتاً ، والذئب يموت ساكتاً ، ونحن الأولى تسمو جبلتنا على جبلتهم ، لنتعلم أن نتألم مثلهم »

ويقول بلسان أحد أبطال روايته « إنني شبيه بهذه الريح المشتعلة التي لا تسكن إلا الصحراء ، ولا تهب لوافحها إلا على الرمال . . الأسد وحده أتخذه لنفسي مثلاً » وبمثل هذا الكبرياء خلق بيرون أبطال رواياته ، وجعلهم ناقمين ثائرين غير راضين عن الوجود ، فأتعب نفسه كثيراً وأتعبهم كثيراً . فاذا كان القعود عن الشيء يعد عجزاً فان التحليق فوق حدود الامكان ماهو إلا ضرب من ضروب العجز ، وان رفض الانسان الوجود رفضاً باتاً بحجة نقصه ، وان يهرب منه ومن اصحابه بداعي هذه الحجة هما من نقائص النفس التي تستر عجزها وترددها وراء هذا التهور الفارغ .

هذا هو الوجود ؛ إن وجدت فيه الجميل فاملكه ، وإن وجدت القبيح فحسنه وأصلحه ، وإياك ان تعفّ عن الأول بسبب الثاني ، لأن قوانين الحياة قاسية تسحق من يحاول ان يسحقها . هكذا أرادت أن تكون ، وهكذا تريد أن تمشي

وفي النهاية لا تجدي هذه الكبرياء شاعرنا شيئاً ، فهو تعس يود أن يعترف بتعسه لأنه لا يستطيع أن يمشي كالجمل ساكتاً او يموت كالذئب صامتاً . فيقول :

« ما أشد تعسي ! أيامي أمست تجري على وتيرة واحدة ، وليالي أقضيها بالسهاد ، لا أخالط المجتمع البشري الا قليلاً ، اذا جاءني احد منه لذت بالفرار . . إنها لحال مؤلمة لا ينقذني منها إلا الجنون »

كل هذه الأهواء الصاخبة ، والأنات المتصاعدة رسلها الشاعر وراء محبوبته ، الحقيقة . . ولكن أين يجدها ؟

(بيروت) خليل الهنداوي



١ ـ التلفزة فى عهدها الأول

للأستاذ محمود مختـــار

بكلية العـــلوم

مقدمة :

ليس لعالم اللاسلكى حد ينتهى عنده . فهو يأتينا كل يوم بمعجزات لم تخطر على قلب بشر . فما كاد وليـده بالأمس يكبر ويترعرع ويلعب دوراً جدياً فى الحياة يملأ الدنيا بهجة وسروراً بما ينشر من موسيقى شجية وأحاديث عذبة ومسامرات طريفة ، أقول ما كاد هذا الوليد يكبر حتى قال الإنسان الطماع « لو أن لى أن أرى ذلك الذى يشجينى بتلك الموسيقى ، ويبعث إلى بأحاديثه . لو أن لى أن يكشف عن بصرى كما كشف عن سمعى . إذاً لكنت إنساناً آخر » . وسرعان ما وصلت هذه الأحلام إلى العقل البشرى الجبار حتى قام لفوره يقول « ليس فى الوجود معنى لكلمة مستحيل » فلم تكن كلته محض هراء ، وهو الذى لا يلقى الكلام جزافاً .

فى سنة ١٩٢٦ طلع علينا العالم الأنجليزى الكبير جون بيرد (John Baird) بجهازه الأول فى عالم التلفزة وعرضه بالمعهد الملكى فى لندن ونقل به صوراً لأجسام بسيطة كانت موضوعة بغرفة مجاورة . وبالرغم مما كانت عليه الصورة المتلفزة من صغر واهتزاز وعدم وضوح ، كانت فكرة جبارة جريئة شغلت العالم بعدها وملأت الرؤوس فقام الكثير يعمل على تحسينها وإتمامها . فلم يمض عليها بضعة أشهر حتى قامت مصلحة التلفونات والتلغرافات الأمريكية بعرض هائل للتلفزة بعض الأجسام ما بين واشنجتون ونيويورك ، وقد كان من بين من اشترك فى هذا العرض ما لا يقل عن ألف مهندس كهربائى .

تخطى الوليد دور المهد بعد سنوات ثلاث تحت رعاية مخترعه الأول الذى تمكن من إذاعته مع أخيه الأكبر بنجاح تام من محطة B. B. C. للإذاعة اللاسلكية فى لندن على موجتين مختلفتين كما استقبلهما بجهازين منفصلين أيضاً .

ولأترك الآن النقطة التاريخية فى الموضوع لأنتقل إلى شرح جهازى بيرد للارسال والاستقبال كل على حدة . ويلاحظ أن التلفزة يقصد بها إرسال الصور الثابتة أو الأجسام المتحركة على حد سواء كما يمكن أن تنقل بواسطة أسلاك أو بدونها .

وتأخذ عملية الارسال ثلاث خطوات . تبدأ أولاها بتقسيم الجسم المتلفز إلى مساحات صغيرة ، وثانيتها بتحويل الأضواء المنعكسة من هذه المساحات إلى دفعات كهربائية ، وثالثتها بتكبير هذه الدفعات وإذاعتها على التعاقب بواسطة أسلاك أو بالأثير إلى جهاز الاستلام .

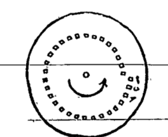
وللاستلام خطوات ثلاث أيضاً هى بنفسها خطوات الارسال مأخوذة فى الاتجاه العكسى . فتبدأ باستقبال هذه الدفعات الكهربائية من الأثير وتكبيرها ثم تحويلها إلى دفعات ضوئية ، ثم أخيراً جمعها وإعادة تركيبها لتخرج صورة الجسم المتلفز .

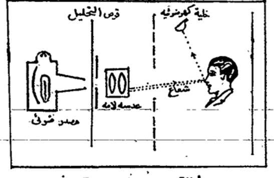
ولأبدأ ببحث كل من هذه الخطوات على حدة متدرجاً من أبسط الأجهزة إلى ما تطور منها .

جهاز الارسال

فلتحليل الجسم المتلفز ـ ولنفرضه الصورة أ ١ ب ٢ ى ٢ ى ١ شكل (١) ـ يستعمل القرص المثقب ويكون عادة من معدن خفيف كالألومنيوم ويبلغ قطر دائرته حوالى ٤٠ سنتيمتراً ويحوى قرب حافته المستديرة ثلاثين ثقباً صغيراً مربعاً تقع على منحن على شكل لفة مفردة من حلزون صغير الزاوية كما هو مبين بالشكل ، ويوضع الجسم المراد تلفزته خلف هذا القرص كما يوضع أمامه ضوء قوى من قوس كهربائى . ويكون موضعى الجسم والضوء بحيث أن الخط الواصل بينهما يكون متعامداً على مستوى القرص ماراً

باحدى قوته . ويدار هذا القرص بسرعة منتظمة قدرها ١٢½ دورة فى الثانية بواسطة محرك كهربائى مركب على محوره .







شكل (١) صورة رمزية لجهاز التحليل

ولنفرض الآن أن القرص فى موضع بحيث أن شعاع الضوء النافذ من المربع (ا) يقع على النقطة (ا١) على الجسم فيضيئها ، وتنعكس هذه بقوة تتناسب مع قدرتها على العكس ، فان كانت قاتمة كانت نسبة الأنعكاس صغيرة ، أو ناصعة كانت نسبتها كبيرة . فاذا تحرك القرص فى اتجاه بحيث يحمل معه المربع (ا) إلى أعلى تحرك تبعاً له شعاع الضوء الساقط على الجسم إلى أعلى فيضىء على التعاقب نقطاً من الجسم تقع على خط رأسى حتى إذا ماانتهى عند حافة الجسم العليا عند (ا٢) بدأ شعاع آخر يخرج من المربع ب ويقع على الجسم من أسفل عند (ب١) الملاصقة للنقطة (ا١) . وهذا هو الغرض من وضع ثقوب القرص على لفة من حلزون حتى يكون كل ثقب مزاحا عن سابقه بقليل بحيث يرمى شعاع الضوء الخارج منه على نقط ملاصقة لنقط الثقب الذى قبله .

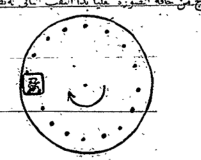
فاذا ماأتم القرص دورة كاملة شاهدنا ظهور الضوء أولاً عند (ا١) ثم سيره إلى (ا٢) ثم اختفاءه وظهوره ثانياً عند (ب١) وسيره إلى (ب٢) ثم إختفاءه وظهوره عند (ح١) وسيره إلى (ح٢) وهكذا حتى (ى٢) وبذلك تكون كل نقط الجسم قد أضيئت على التعاقب ، ويمكن أن نشبه حركة النقطة المضيئة على الجسم بحركة العين عند ماتقرأ كتاباً كتبت أسطره فى اتجاه من أسفل إلى أعلى .

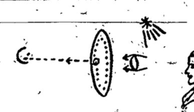
وعند ماياخذ القرص سرعته العادية (١٢½ دورة فى الثانية) لايمكن للعين أن تتبع حركة هذه النقطة المضيئة على الجسم بالتفصيل ، ولاحتى هذه الخطوط الرأسية المتلاصقة المتتابعة . بل سيخيل إليها أن الجسم كله مضاء إضاءة واحدة منتظمة من مصدر واحد مستمر .

ويوضع عادة بين الجسم والقرص عدسة لامة تعمل على جمع الأشعة الخارجة من الثقب على نقطة واحدة من نقط الجسم كما يغطى مصدر الضوء حتى لايتسرب منه ضوء إلى الجسم بطريق غير طريق الثقب .

وقد وجد أن هذه الطريقة تستلزم مصدراً ضوئياً قوياً إذ أن الجزء الساقط منه على الجسم صغير ، وهذا يسبب قلة استضاءة الجسم . هذا فضلاً عن أن هذه الطريقة تستلزم أيضاً وضع الجسم المتلفز فى ظلام حالك لايتسرب إليه أى ضوء خارجى وذلك مما يمنع تلفزة أجسام موضوعة فى ضوء النهار . فنقحت هذه الطريقة باضاءة الجسم ذاته من مصدر الضوء ثم وضع عدسة أمامه لتكوّن له صورة تقع على حافة القرص المثقب . بحيث لايمكن أن تغطى أكثر من ثقب واحد فى أى موضع من مواضع القرص كما هو مبين بشكل (٢) ففى أى موضع من مواضع القرص ينفذ من ثقب واحد منه شعاع ضوئى تتناسب شدته وشدة استضاءة نقطة الصورة الباعثة له . وبحركة دوران القرص يسير كل ثقب على الصورة على التعاقب فى اتجاه رأسى من أسفل إلى أعلى حتى إذا

ماخرج من حافة الصورة عليا بدأ الثقب الثاني له بطوف أسفل





شكل (٢) صورة رمزية لجهاز التحليل في ضوء النهار

الصورة ليمسح من الصورة خطاً رأسياً آخر يلاصق الأول وهكذا حتى إذا ما أتم القرص دورة كاملة أرسلت من ثقوبه على التعاقب أشعة تمثل في شدتها وضعفها شدة استضاءة نقط الصورة كلها.

وفي السنوات الأخيرة استبدل هذا القرص المثقب بعجلة على شكل الطبلة تثبت على حافتها الخارجية مرايا مستوية صغيرة بعدد ثقوب القرص تميل كل منها بزاوية صغيرة جداً على سالفتها شكل (٣) فتعكس الضوء الساقط عليها من المصدر على نقطة واحدة من نقط الجسم بمساعدة عدسة لامة وبدوران العجلة تمسح أشعة الضوء المنعكسة من المرايا المتعاقبة الجسم المتلفز بطريقة تشبه تمام الشبه الطريقة الأولى للقرص

شكل (٣) طبلة المرايا للتحليل

كذلك استعمل لنفس القرض حلزون المرايا وهو شكل ثان لطبلة المرايا. وميزة أجهزة المرايا هذه أنها لا تشغل فراغاً كبيراً.

***

وبأي طريقة من الطرق السالفة لتحليل الجسم المتلفز الى نقط صغيرة نجد أن كل عملية التحليل لا تستغرق سوى ١ من ١٢½ جزءاً من الثانية كما أسلفت. ومعنى هذا أنه يرسل للجسم ١٢½ صورة في الثانية الواحدة. فإن كان متحركاً اختلفت كل صورة عن سابقتها اختلافاً طفيفاً بحيث أنه عند عرضها في جهاز الاستقبال بنفس السرعة ١٢½ صورة في الثانية تظهر للرائي حركة الجسم كما هي الحال في ظهور حركته بواسطة آلة السينما مثلاً.

هذه الأشعة المنعكسة من الجسم المتلفز في حالة طريقة القرص الأولى أو المارة من ثقوب القرص في حالة طريقة القرص الثانية أو المنعكسة من المرايا في جهاز طبلة المرايا أو حلزون المرايا. كل هذه الأشعة تتحد في خاصية واحدة كما أسلفت، وهي أن كلا منها تمثل في تغيراتها من حيث الشدة والضعف باختلاف نقط الجسم المتعاقبة من حيث الضوء والظلام. وعند هذه تنتهي الخطوة الأولى من خطوات الارسال.

***

هذه الأشعة الضوئية المتعاقبة التي حصلنا عليها. نريد الآن أن نحولها الى دفعات كهربائية تختلف شدة وضعفاً تبعاً لاختلاف شدة هذه الأشعة. وهذه هي الخطوة الثانية من خطوات الارسال.

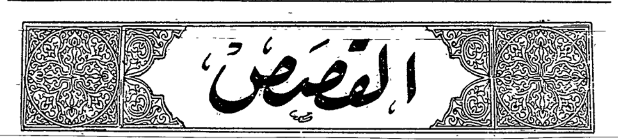
العين الكهربائية أو ما نسميها علمياً بالخلية الكهرضوئية هي المحور الأساسي والجزء المهم في جهاز التلفزة للارسال كما تكون أيضاً أهم أجزاء جهاز عرض السينما الناطقة. ولها أنواع كثيرة منها ماهو مبين [بشكل (٤)]. وهي عبارة عن انتفاخ زجاجي مفرغ من الهواء أو به غاز مخلخل ويحوي قطبين بداخلها، أحدهما يبطن الزجاج من الداخل ويسمى الكاثود ويكون عادة من معدن البوتاسيوم، أو الصوديوم، أو الروبيديوم أو السيزيوم. والقطب الآخر وهو الأنود، ويكون عادة على شكل سلك رفيع في وسط الانتفاخ. ويوصل الأنود هذا بالطرف الموجب من جهد

القطب الموجب — الأنود

شباك الضوء

القطب السالب — الكاثود ويبطن جدار الانتفاخ

شكل (٤)
الخلية الكهرضوئية
Photoelectric Cell



الضيف ...

بقلم الأستاذ محمد سعيد العريان

ودّ توفيق لو يهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان ، فانه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التي يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء، لقد أطافت به نوبة من الضيق والملل حتى لايلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمة ، ودقّ حسّه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال . وكان فى إجازة طويلة ، والجو خار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم؛ وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد فلا طاقة له على البقاء فى البيت ساعة من نهار ، ولا يجد فى القهوة مايسلّى نفسه ويشغل فراغه ؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم وخلفوه ونفسه يصارع الهم والوهم والوحدة والألم . . !

وتصورت فى خياله القرية التى مس ترابها جلده منذ ربع قرن ، والتى لا يذكر – لبعد العهد – متى هاجروا منها إلى المدينة ، وليه . . . لاشك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ، ويهدى إلى نفسه الموحشة بعض الأنس والهدوء والدعة .

وتراقصت أمام عينيه صور جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر ؛ وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته فى القرية ، فذكر مجالسه مع شبابها على حافة الساقية تحت شجرة التوت الغليظة تساقط عليه ثمراً شهياً ، ورياضاته فى جلبابه الفضفاض تحت المعطف الابيض على شاطىء الترعة وبين الحقول ، يتملّى بجمال القرويات غاديات رائحات من الترعة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذيول ، ويحملن الجرار على رؤوسهن ، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل فى نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وذكر مجالس الأنس والسمر فى الليلة المقمرة على مصطبة الدار ، وحديث القرويين يتنقل فى لذة وسحر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر . . وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التى تحوطه هناك .

***

كهربائى عال يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ فولتا ، ويوصل الكاثود بطرفه السالب . ولهذا الكاثود خاصية غريبة ، وهى أنه إذا ماسقط عليه ضوء انبعثت منه ألكترونات واتجهت نحو الأنود ، وتسبب تياراً فى دائرته تتناسب قوته مع شدة الضوء الواقع على الكاثود .

فاذا ماسلطنا الأشعة الضوئية المتعاقبة التى حصلنا عليها سابقا من تحليل الجسم على كاثود هذه الخلية سببت تيارات كهربائية فى دائرة الخلية تتغير تبعاً لاختلاف نقط الجسم المتلفز بالنسبة للضوء والظلام ، وتكون هذه التيارات عادة ضعيفة جداً ، أى أنها لاتتعدى بضعة ميكروأمبيرات [الميكروأمبير يساوى واحدا من مليون من الأمبير] . لذلك كان من الواجب تكبيرها قبل إرسالها ، وهذه هى ثالثة خطوات الارسال .

أما كيفية تكبيرها وارسالها فهذا موضوع آخر يختلف تمام الاختلاف فى بحثه عن موضوع اليوم . وهو موضوع قائم بذاته يتطلب دراسة وافية لعلم الصمامات . فكل مايهمنا الآن هو أن نعلم أن هذه التيارات الكهربائية المتغيرة المارة فى دائرة الخلية الكهرضوئية تؤخذ إلى هذا الجهاز المكبر ومنه إلى جهاز الاذاعة حيث تذاع فى الأثير بنفس الطريقة التى تذاع بها الأمواج اللاسلكية . ومن ثم إلى جهاز الاستقبال وموعدى به الرسالة القادمة .

محمود مختار

وفي اليوم التالي كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية ، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح في أحلام لذيذة بهدوء القرية وسحر لياليها ...

وتلقته أخته بالترحيب والعناق ، وجاءت إليه قليلاً تحدثه ويحدثها ، ثم تركته تهيء له الطعام بيدها ، طعام القرية الشهي الدسم اللذيذ . وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحيونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث يقطعون بين فتراته بالتحية المكررة والسؤال عن الصحة والأحوال ...

وخرج معهم في العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية ، واخترق سبلاً وعرة بين الحفر وكومات السماد ، وبيوت متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق . وانتهى به المطاف في دار له بها عهد ، لأن صاحبها من ذوي قرابته ، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يعبثون بالتاريخ ، ويتناولون شتى الذكريات ، ويخوضون في كل حديث ، ويتبادلون أنباء القرية وحوادثها ، وأنباء السياسة أيضاً ، وإن لهم في السياسة لأحاديث لا تخلو من حكمة وبعد نظر ...

وأعجب توفيق بحديثهم كما يعجب بحديث الطفل ، فأنصت إليه في لذة وأنس ، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافات دليله الجاهل عن سر أبي الهول وأطناف وادي الملوك ...!

وأديرت فناجين القهوة وانعقدت في جو الغرفة سحائب الدخان ، واشتد الحر وأسال العرق على الجباه ، وشعر توفيق أنه يكاد يختنق وأن أعصابه تخونه ، وهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس فجلس ، وأخذوا في حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع وما رأى ! وتفننت عبقرية الجهل في اختراع القصص المروعة والروايات الغريبة ، وطفقوا يعددون الشياطين بأسمائها وحوادثها وضحاياها ... وأشار « الشيخ » بيده فأنصتوا ومالوا برءوسهم إليه وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفتاه في انفعال عصبي ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذي كان يتسور عليه البيت وهو شاب ليالي متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه وفراشه أيضاً فلا ينصرف إلا مع آذان الفجر ، والزمجية الحسناء التي كانت تصحبه ليالي فتحتل موضعه من الفراش ، وتضطره أن يقضي الليل معقودة يداه خلف ظهره ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبته قبل الصباح إلا بنفحة من دراهم ، أو عصوين من نار تلهبان ظهره ، جزاء رضاه أو سخطه على ما يصنعان ...!

وكان حديثاً غريباً على الضيف فحاول أن يتفلسف وينكر ويعلل ، ولكنهم أنكروا منه ذلك ، وطلبوا إليه التسليم ، أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ، وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت ، واستمروا يتحدثون . وأحس رعدة خفيفة تتمشى في جسده فسحب رجليه في هدوء فدفنهما في أطراف ثيابه ، وجمع يديه في حجره ، ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئاً منصتاً في شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه ، وهاجت وساوس نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ولكن صاحبنا ظل جامداً في مكانه ، لم يهم بالقيام حتى دعوه ، فنهض كسلاً متراخياً يكاد يسقط من إعياء .

وشيعوه إلى دار أخته ، وهو سائر بينهم يتعثر في أوهامه ..

ووجد أهل البيت نياماً فلم يبق ساهراً إلا مصباح ضئيل موقد في الردهة يرقص لهبه على عزيف الهواء . وكان يعلم أنهم أعدوا له غرفة في الطبقة الثانية فصعد في السلم بطيئاً متثاقلاً يتلفت بين الخطا والمصباح في يمينه ، ودفع باب الغرفة بيسراه فسمع صوتاً يشبه أنين المستصرخ ، فأدار ظهره في فزع ليرى من هناك ولكنه لم يجد شيئاً ، وعاد يدفع الباب فسمع حشرجة خشنة ، ثم ضحكة بشرية ناعمة ...

ووقف في وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها في رعب وفزع ، وكانت به رغبة في التدخين ، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ . وخلع نعليه وهو جالس على حافة السرير ويداه ترتعشان ، وتتجاوب في أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه الطمأنينة . ودفن نفسه في الفراش ، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة ، وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه ، وأشباحاً خفية تطيف به .

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكداس من الحطب والوقود ، ولكنه أحس دبيب أقدام ، وسمع أصواتاً غريبة هامسة ليست من صوت البشر ! أتراه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتاً ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه . واضطرب فكره ، واشتد ضغط الوهم على صدره ، وهم أن يصرخ ويستنصر ، ولكن صوته احتبس ولم

يتحرك لسانه . وشُبّه له أنه يرى شبحاً من الضباب في شكل غير إنساني — وإن كان يمشي على رجلين — ينسل من النافذة مع ضوء القمر ، ويشير إليه بالصمت في إنذار وتهديد ! . . وسحب الغطاء يخفي عينيه في حركة آلية ، ولكنه أحس شيئاً بارداً يلمس أطراف قدميه ، فاستوى جالساً وأفلتت منه صرخة مكتومة . وتوارت الأشباح فلم يعد يبصر شيئاً ، ولكن همهمة غير مفهومة ، ودبيباً وهمساً وأصواتاً غريبة كانت تصك أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحدق في الحائط الذي أمامه تحديق الخائف الذعور ، فقد أبصر ظلاً أسود مطبوعاً عليه يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث الى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ماوراء ليرى المشار إليه ، ولكنه خاف ؛ واستمر الهمس والدبيب يرنان في أذنيه ، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم ينم ليلته ؛ وفي الصباح مع أول خيط من ضوء النهار كان جالساً في فراشه يصفق بيديه في عنف يستدعي الخادم ، ودخلت أخته تحييه ، فراعها مارأت في وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له : « توفيق ماذا بك ؟ »

— « لاشيء ، ولكني مسافر اليوم فأعدى لي ركوبة الى المحطة »

— « مسافر ؟ ولكنك عرفتني أمس أنك قد تمكث لدينا شهراً ، فلماذا غيرت رأيك ؟ »

— « لاشيء ، لاشيء ، قلت لك لاشيء . إن حقيبتي في الغرفة الثانية ! . »

وآلمتها لهجته فمطت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت تسأله :

— « حدثني يا توفيق ، هل تألمت من شيء هنا ؟ »

— « لا ؛ ولكني لم أخبر أمي أمس أني مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابي أو يؤلمها ، لذلك سأعود . »

— « ليتك لم تحضر يا توفيق !! » وانصرفت لبعض شأنها . »

* * *

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها في جيبه قبل أن يقرأها .

ولما جلس في القطار وضع يده في جيبه ليخرج شيئاً فعثر بالورقة ، ونشرها بين أصابعه يقرؤها . . . وضحك توفيق وشاع في وجهه السرور حين عرف ما هناك ؛ لقد كانت أخته تربي له ماعزة ولوداً ، فكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن في ضيافة ماعزته فوق السطح جدياً فلا يفزعه دبيبهما ربما ترد الجدي الى صاحبه في الصباح . . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت . . . ! ؟

محمد سعيد العريان

٦ – سـافو

لألوجينيه اميـل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

حنا — إن الشتاء قرس هناك فلم لا تقصدين الى باريس ؟

سافو — وماذا أعمل فيها وأنت بعيد عني . ثم إنني ما عدت أجد في الوسط الذي كنت قديماً فيه غير أسباب الأسى والهم . ولقد امتلأت يدي منك خشبتها امتلأت من حب كتيب له الدوام ، وما لبثت امرأتك أكثر من سنة . عد يا حنا فتعود الينا تلك الأيام من جديد ، وتعود السعادة فتملأ جوانب قلبك وقلبي : تعال مني وسأكون كما تريد محبة طائعة ، وسأفتح لك صدري وأتركك في عيني . تعال إنك لا زلت تحبني . رقَّ لحالي فليس غيرك يروي ظمئي وينسيني همي .

حنا — لا يا فتي لم يعد هذا في طوقي

سافو — ولمَ ؟

حنا — لأنني لا أريد !

سافو — وآلامي وعذابي ؟

حنا — وما ضنيك ؟ (مبكتاً)

سافو — (وقد ملكها اليأس) الذنب فيه على الأيام . ومع ذلك ألم يمت ؟

حنا — بل هو حي يحول دون كل أمل في الحياة معك بغير عذاب ودون كل أمل في الحب بغير ريبة وعار . على أنني سأرحل :

سافو — قل إنهم هيأوك للزواج وأنت تسخر من دموعي وتلتذ على حساب ألمي . لقد حطمت قلبي وتثرت البقية الباقية من رجائي

حنا — (بصدة) ماذا ؟

سافو — سامحني فما عاد لي غير أمل واحد هو أنت .

حنا — وهو وا أسفاه أمل ضائع !

سافو — إنني أحبك يا حنا . أحبك ولن أجد سواك علاجاً لفراغ قلبي . رق لحالي . إرحمني ، إنني أجثو عند قدميك

حنا — (وهي تحاول وقد تزعزع صوابه) فتي ! –
(هنا يدخل سيزار وديفون فجأة)

سيزار — كفى يا ولدي وتعال

حنا — آه يا أبي . . .

سافو — لا . لن أصبر على بعده (تتعلق به وأبوه يجتذبه فتدفعها أمه)

ديفون — (لها) دعيه واذهبي من هنا

سافو — ولكن مَن أنتِ ؟

ديفون — أنا أمه

سافو — آه سامحيني فما كنت أعلم ياسيدتي
(تمد ساعديها نحو حنا وأبوه يجره وهو يتفت إليها وهي تبكي) ها أنا ذاهبة يا حنا

ديفون — (لا تستطيع أن تنظرها وهي على هذه الحال) آه يا مسكينة

***

الفصل الخامس

(الفصل شتاء والمنزل في أفرني ويظهر منه غرفة لها باب به مربعات من الزجاج يطل على الفضاء وقد كساه الثلج)

سافو — (حزينة منكرة ثم تنشد)

حال عهد الهوى بعيـد ما ابتسم
فهو حلم حوى يقظـة الألم
وكؤوس المنى في سنا القُبَل
جرَّعتني العنـا من يد المَلَل
واستبدَّت بي قسوة القـدَر
فجـرَت أدمعي تشبه المطر
ها حبيبي هجَرْ إنَّ هجـرَهْ
مثل وخز الإبَرْ ما أمـرَّهْ
ليتَـهُ أنصفَا قبلما رحَلْ
يا فـؤادي كفى أخطأ الأملْ

(بعد سكوت)

سافُ هبّي فأكرمي ساعة الواجب
إنَّه مهجتي . دمي طفليَ الغـائب
قم فقبِّله يا فمي قبلة التـائب

على ظهر اليمين الذى ما عرف
أين قلبى . يزين قلبـــه بالشرف
فإلى الواجب عقــنى الصاحب

حنا — (يدخل فجأة) فنى ؟

فنى — (داهلة) أنت ؟

حنا — نعم فلقد خاننى جلدى ولم أقو على البعد

فنى — وعدت

حنا — ساءتك إذن عودتى ؟

فنى — ولـكننى سأرحل يا حنا فأولى لك أن تنسى

حنا — (فاقداً صبره) نعم ترحلين . ولـكن الى غير صدرى

فنى — قسماً بك لا

حنا — إننى حطمت من أجلك قلبى وأهـــلى وأعزائى ومزرعتنا والغابة والنهر وكل ما هو عزيز علىّ . وكذلك أمى التى كانت فى منتصف الطـريق تستبقينى وتبكى . وبعد هذا كله ترحلين وتطلبين الىّ أن أنسى . اذهبى إذن . إذهبى ولا تطيـــلى ساعة عذابى

سافو — (منتبهة) لازلت تحبنى . إذن أبق وأعدك ياحنا

(يتعانقان ويلبثان هكذا برهة)

ولـكن مالوجهك مصفراً ياحبيبى

حنا — ماذا قلت . إن هذه الـكلمة تعيد إلى ذهنى تلك الذكريات الأليمة

سافو — (باكية) هكذا طاب لك ان تعذبنى من جديد . فهل لهذا عدت إلى من كانت تلتمس قبلة العفو عند شفتيك .

حنا — لقد أخطأت يا فنى فاحملى ذلك على جنونى

(يذهب فيرتمى فوق مقعد وقد خارت قواه)

سافو — لابأس عليك فإن شفتيك تختلجان وعينيك تصهرهما الحمى

حنا — خانتنى قواى وما نمت إلى الآن

سافو — إذن نم ياحبيبى

حنا — ولـكن إلى جانبك

سافو — بل عند صدرى

حنا — (ينام ورأسه عند صدرها) آه لو تعلمين كم أحبك

سافو — إنس تـكن سعيداً

حنا — نعم إن السعادة فى النسيان (ينام)

سافو — ولـكن كيف نسيت . خير لى أن أرحل من الآن

(تنحنى عليه وتضع رأسه فوق وسادة)

حنا — (حالماً) زوجتى . . . .

سافو — (تضطرب وتنحنى عليه) هل استيقظ ؟ لا .

(تبتعد رويداً رويداً نحو الباب وهى تنشد بصوت خافت)

ساعة الرحيل ساعة العذاب شتتت فكرى
أيها الجميـــل أقصر العتاب واجبى عذرى
يا لهـــا ليال عهدها النضير مر كالفجر
هكذا الجمال عمره قصير فهو كالزهر
أيه يادموع أنت لى المتاع بعده فاجرى
أسعفى الضلوع ساعة الوداع من لظى الجمر

(وأخيراً تودعه بأطراف أصابعها ثم تختفى)

(تمت الرواية) محمود خيرت

بقلم قضايا المالية

بعض الكتب الجديدة

فيصل ملك العرب

حياته . أثر فاجعته . أربعينه

بقلم عبد الجبار الرجبي

وضع هذا الكتاب الصغير أحد أدباء دير الزور الأفاضل . وقد حلاه بكثير من الصور وأهداه إلى جلالة الملك غازي . وفي هذا الكتاب تجد كثيراً من المعلومات الشيقة النافعة عن المغفور له صاحب الجلالة الملك فيصل عاهل العرب العظيم وعن أثر فاجعته في العالم العربي والعالم الأوروبي . كما تجد فيه كثيراً من نصوص برقيات التعازي ، وقصائد الرثاء . وبالجملة ترى في هذا الكتيب على صغره ما يعجبك من هذا الحديث العطر حديث تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال ، وما أجدر شباننا وشبان العالم العربي أن يقرأوا سيرة هذا العظيم الراحل في تبصر واعتبار .

الخفيف

ابراهيم في الميدان

تأليف الأستاذ حبيب جاماتي

عنيت بنشره إدارة الهلال بمصر

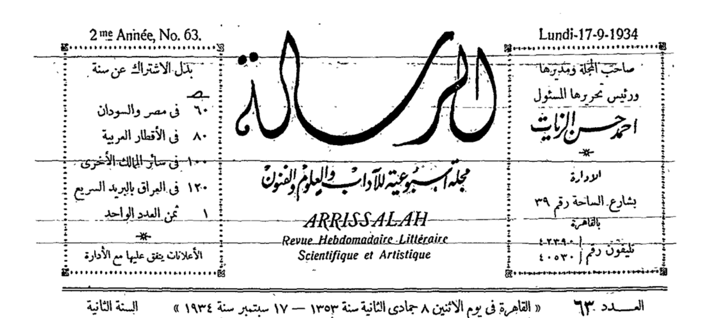
يقع هذا الكتاب في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبير وهو مجموعة أقاصيص تاريخية تدور حول معارك البطل المصري العظيم ابراهيم باشا ، وقد أصدره الهلال هدية لقرائه هذا العام ، ولا شك في أن الهلال قد أحسن صنعاً باختياره هذا ، فهي مجموعة أقاصيص تجمع بين اللذة والفائدة ، ولصاحبها الفاضل قدم راسخة في فن الأقصوصة ، ولقد أضاف بكتابه هذا إلى ذلك الفن الناشيء ثروة يعتد بها ، ومن أقاصيصه التي راقتني بنوع خاص ، الأخذ بالثأر ، وخرساء البادية ، والضريح الخاوي ، والحقيقة أن كل ما يكتبه الأستاذ جاماتي في باب القصص جدير بالعناية والاهتمام .

رواد الشعر الحديث في مصر

تأليف مختار الوكيل

كتاب صغير يقع في نحو ثمانين صفحة افتتحه مؤلفه الفاضل بكلمة رشيدة في النقد الأدبي وشروطه وما يجب على الناقد ، ثم بكلمة أخرى في الشعر وأغراضه ومظاهره في المدرستين القديمة والحديثة ، وبعد ذلك ترجم لهؤلاء الشعراء الذين سماهم رواد الشعر الحديث في مصر وهم بحسب ترتيبه الأساتذة خليل مطران ، وعبد الرحمن شكري ، وأحمد زكي أبو شادي ، وعباس محمود العقاد . ولقد أعجبتني دقة المؤلف الشاب ونزاهته في بحثه ، وحسن ذوقه في النقد ، كما راقتني فطنته في تعرف مواضع الجمال أو القبح في شعر هؤلاء الشعراء ، مما يجعل بحثه متفقاً تمام الاتفاق مع ما جاء في مقدمة كتابه من شروط النقد ، ومما يجعل هذه الرسالة على صغرها جديرة بالقراءة في تمهل وامعان .

الخفيف



2me Année, No. 63. — Lundi-17-9-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

على ذكر اعانة الكبتن كرسويل

تشجيع التـــأليف

أذاعت الصحف نبأ هذه الهبات السخية التى أغدقتها وزارتا المعارف والأوقاف على الكبتن كرسويل المحاضر المنتدب بالجامعة المصرية فى الآثار الاسلامية ، وقد بلغ مجموع هـذه الهبات بضعة آلاف جنيه ، دفعت اليه معاونة له على إخراج مؤلف يضعه بالانكليزية عن العمارة الاسلامية فى مختلف العصور ؛ وقد أخرج منه الى الآن الجزء الأول من أربعة أجزاء ، ويتعهد الأستاذ كرسويل مقابل هذا السخاء الحاتمى الذى شملته به الحكومة المصرية أن يسمح لوزارة المعارف بترجمة مؤلفه الى العربية ، وأن «يهدى اليها» خمسين نسخة من كتابه .

وتشجيع المباحث العلمية والتاريخية على هذا النحو أمر مستحب لذاته . ولنترك البحث فيما إذا كانت جهود الأستاذ كرسويل ومباحثه جديرة بمثل هذا التشجيع . ذلك أننا نحمد المبدأ لذاته ونؤيده بكل قوانا ؛ بيد أنا نود أن نلاحظ أنه لم يسبق لوزارة المعارف أو وزارة الأوقاف أن أبدت مثل هذا العطف أو أسبغت مثل هذه الرعاية على أحد من المصريين الذين يشتغلون بهذه المباحث أو غيرها ، مما يجدر تقديره وتشجيعه ؛ ولم تضع

وزارة المعارف أو الجامعة المصرية وغيرهما من الهيئات العلمية الرسمية لنفسها أي تقاليد في هذا الشأن بالنسبة للعلماء المصريين، وإن كان من تقاليدها أن تشجع العلماء الأجانب لأي مناسبة.

وربما قيل في ذلك إن المباحث العلمية والتاريخية لم تبلغ في مصر مستواها المنشود من التقدم والنضوج، وأن جهود العلماء المصريين لم تظهر بعد بمظهر يجدر بالتقدير والتشجيع. ولكنا نبادر فنقول إن هذا الاعتراض لم يبق له محل بعد، وإنه يرجع إلى نوع من التحامل القديم الذي نألفه دائماً في حكومات يطبعها الأجنبي بوحيه وتأثيره، والذي يتخذ مظهره في انتقاص الجهود القومية والاغضاء عن تقديرها وتشجيعها حتى لا تنمو وتزدهر وتكون قوة معنوية في الأمة. ومن التحامل أن تنكر أنه يوجد بين العلماء والباحثين المصريين عدة ممن ينافسون الكبتن كرسويل ومن هم في مستواه من العلماء الأجانب، على الأقل في ميدان المباحث الاسلامية؛ وإنه إذا كانت جهودهم مغمورة غير ظاهرة، فذلك لأنهم يعملون في جو من العزلة واليأس، ولا يأنسون لدى حكومتنا أو لدى هيئاتنا العلمية أي عطف أو تشجيع. وإذا سلمنا جدلاً بأن علماءنا وباحثينا لم يبلغوا بعد من العلم والكفاية مابلغه أمثال صاحب كتاب العمارة الاسلامية، فانه ليس من الحكمة أو العدل أن يتركوا حيث هم؛ وأن تضن عليهم حكومتهم بالعطف والتشجيع؛ وإنما السبيل الى شحذ هممهم ومواهبهم وإبراز جهودهم في المستوى اللائق، هو أن تشملهم حكومتهم بشيء من ذينك العطف والبذل اللذين تغدقهما على العلماء الأجانب.

خذ مثلاً مسألة المباحث الأثرية التي كانت الى ماقبل أعوام فقط وقفاً على العلماء الأجانب. فقد لبث المصريون نحو قرن محرومين من التنقيب عن آثارهم في نفس بلادهم وأرضهم؛ وكانت البعثات الأجنبية والعلماء الأجانب يستأثرون بهذه المباحث في أرضنا بفكرة أنهم دون غيرهم يستطيعون إجراءها. ومع أن معظم آثارنا الفرعونية قد تسربت الى الخارج، وغصت بها المتاحف الأجنبية في مختلف أنحاء العالم، فإن حكومتنا لم تكن تضن عليهم بكل صنوف التشجيع المادي والمعنوي. فلما أن قررت الجامعة المصرية إجراء بعض الحفريات على يد بعض أساتذتها من المصريين، ولما بذل للمصريين ما كان يبذل لزملائهم الأجانب من العون والتشجيع، ظهرت كفاية المصريين ناصعة في الكشف عن آثار بلادهم واستقرائها، وظهر خطأ النظرية القديمة الجائرة التي كانت تنكر على المصريين كل كفاية لتقصيهم عما هو من صميم حقوقهم وميادينهم لكي يتسع المجال للأجانب.

لقد ظهرت في العهد الأخير طائفة قيمة من التآليف والمباحث الاسلامية، والآثار الأدبية الرفيعة، ولقيت كثيراً من التقدير بين العلماء الأجانب؛ فماذا كان نصيبها من التشجيع الرسمي في مصر؟ كل مايطمح اليه المؤلف الذي أنفق كل ذكائه ووقته وماله على اخراج مؤلفه، هو أن تتفضل عليه وزارة المعارف بتقرير كتابه لمكتبات مدارسها وشراء بضع عشرات نسخ منه، وذلك بعد أن تفحصه لجنة فنية تقره وتوصى به، وهذا كل ما يعرفه المؤلفون المصريون من تشجيع وزارة المعارف، ولا يحظى بهذه المؤازرة الضئيلة سوى القليلين منهم. أما أن تشمل وزارة المعارف برعايتها جهوداً علمياً أو أدبياً معيناً قبل أن يتم إخراجه، وتبذل لصاحبه شيئاً من العون المادي على نحو ما فعلت مع الكبتن كرسويل، الذي استطاع بمجرد الطلب أن يحمل ولاة الأمر على بذل هذه الآلاف المؤلفة له قبل أن يتم مؤلفه أو يخرج منه سوى الجزء الأول فقط، — فهذا أمر لم نسمع به قط، ولا نعتقد أنه تقرر بعد بالنسبة للمصريين في تقاليد وزارة المعارف

على أننا نرجو أن يكون في الضجة التي أحدثها تصرف وزارة المعارف ووزارة الأوقاف في هذه المسألة، والأثر المؤلم الذي تركته في أذهان المصريين جميعاً، ما يلفت نظر ولاة الأمر في وزارة المعارف وفي غيرها من الهيئات الحكومية المتصلة بالشئون العلمية والأدبية، إلى التفرقة الجائرة بين المصريين والأجانب في نفس الميدان الواحد، وإيثار الأجانب على المصريين بالعطف والتشجيع

لا بأس أن تشجعوا العلماء الأجانب بأموال المصريين، وإن كان هذا التشجيع لا يصادف أهله في معظم الأحيان، ولكن الحكمة والعدالة وحسن الذوق تقضي كلها بأن يبذل للعلماء والكتاب المصريين من أموال المصريين أضعاف مايبذل لزملائهم الأجانب حتى لا تبقى جهودهم ضحية الانتقاص والنسيان والنكران. « ع »

س . ا . ع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العزوبة ، ويحبون المرأة حباً خائفاً يقدِّم رجلاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يُقبل إلا أدبر ، ولا يعزم إلا انحلّ عزمه . بلغوا الرجولة وكأن ليست فيهم ؛ وتمرّ بهم الحياة مرورها بالتماثيل المنصوبة ، لا هذه قد وَلَدها ولا أولئك ؛ ومارحوا يجاهدون ليحتملوا معانيَ وجودهم ، لا ليطلبوا سعادة وجودهم ، ويُخضرِقون في شعوذة الحياة بالنهار على الليل وبالليل على النهار ، يحاولون أن يجدوا كالناس أياماً وليالي ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً نصفه أسود مقفر مظلم .

فأما « س » فرجل « كشيخ المسجد » يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض . . . ذو دين وتقوى مازال بهما ينقبض وينكمش ويتزايل حتى رجع طفلاً في الثلاثين من عمره . . . وهو حائر بائر لا يتجه لشيء من أمر المرأة وقد قَعد منها مايحل وما يحرم ، ولا جرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على الموبقات ، ولا يرى له الشيطان ورطة منها إلا أفلس منه ، فإن له ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب ؛ إذ يخشى الله ، ويتوقّى على نفسه ، ويستحي من ضميره .

وأما « ا » فرجل معَزابة ، ولكنه كالاسفنجة امتلأت حتى ليس فيها خلاء لقطرة ، ثم عُصرت حتى ليس فيها بَلال من قطرة ؛ وقد بلغ مافي نفسه وقضى نَهمته حتى اشتفى مما أراد ؛ ثم قلب الثوب . . . فاذا له داخلة ناعمة من الخز والديباج ، وإذا هو « الرجل الصالح » العفيف الدَّخلة ما تنطلق له نفس إلى مأثم ، ولا يعرف الشيطان كيف يتسبّب لصلحه ومراجعته الود .

وأما « ع » فهو كالأعرج ، إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجل واحدة ، ولكنه يمشي . . وهو « ملك الشوارع » لا يزال فيها مقبلاً مدبراً طرفاً من النهار وزُلَفاً من الليل ؛ فاذا لم يكن في الشارع نساء ظنّ الشارع قد هرب من المدينة وخرج من طاعته . ولهذه الشوارع أسماء عنده غير أسمائها التي يتعارفها الناس ويستدلّون بها . فقد يكون اسم الشارع مثلاً « على الحكيم » ويسميه هو « شارع مارتي » . . . ويكون اسم الآخر « شارع كتشنر » فيسميه « شارع الطوبلة » . . . ودَرْبٌ اسمه « درب الملاَّح » واسمه عنده « درب المليحة » . . وهلم جرّا وَمَسْخاً . وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخر من الشيطان دخل المسجد فصلّى ، وإذا أراد الشيطان أن يسخر منه دحرجه في الشوارع . . .

***

وافيتُ هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة « تربية لؤلؤية »[1] يناقشونها بثلاثة عقول ، ويفتّشونها بستّ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأة السافرة التي نبذت « حجابَ طبيعتها » على ماتيّنته في تلك المقالة — إن هي إلا امرأة مجهولة عند طالبي الزواج بقدر مابالغتْ أن تكون معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة قدر ما اقتربتْ من خيالها الفاسد ، وأتقنتْ الغلط ليصدّقها فيه الرجل فلم يكذبها فيه إلا الرجل ، وجعلتْ أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها . . . ؛

وأردت أن أعرف كيف تنتصف الطبيعة من الرجل العَزَب للمرأة التي أهملها أو تركها نهملة . . . وأين تبلغ ضربتها في عيشه ، وكيف يكون أثرها في نفسه ، وكيف تكون المرأة في خائنة الأعين ؛ فتسرحت مع أصحابنا في الكلام فنّاً بعد فن ، وأزلتُ حذارهم الذي يحذرون حتى أفضَوْا إليّ بفلسفة عقولهم وصدورهم في هذه المعاني .

قال « س » : حسبي والله من الآلام وآلام معها — شعوري بحرماني المرأة ؛ فهو بلاء منعني القرار ، وسلبني السكينة ؛ وكأنه شعور عثل الوحدة التي يعاقَب السجين بها مصروفاً عن الحياة مصروفةً عنه الحياة ؛ تجعله جدران سجنه يتمنى لو كان حجراً فيها فينجو من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة المخلّى بينها وبينه تو سّعه مما يكره ؛ شعورٌ بالوحدة والعزلة حتى مع الناس وبين الأهل ، فما في الاعواطفُ خرْسٌ لا تستجيب لأحد ولا يحاورها أحد في « ذلك المعنى » .

وتمام الذلّة أن يجد العَزَب نفسه أبداً مُكبرها على الحديث عن آلامه بكل من يخالطه أو يجلس إليه ، كأنه يحمل مصيبة لا ينفّس منها إلا كلامه عنها . وهذا هو السرّ في أنك

(١) نشرت بالعدد ٦١ من الرسالة .

لا تجد عزباً إلا عرفته ثرثاراً لا تزال في لسانه مقالة عن معنى أو رجل أو امرأة ، وأصبته كالذباب لا يطير عن موضع إلا ليقع على موضع .

ومع جهد الحرمان جهد شر منه في المقاومة وكف النفس ، فذلك تعب يهلك به الآدمي إذ لا يدعه يتقار على حالة — من الضجر — فيما تنازعه الطبيعة إليه ، وهو كالنزع في أعصابه يحسبها تشد لتقطع ، ودائماً تشد لتقطع .

وقد رهقني من ذلك الضنى النسوي ما عيل به صبري وضعف له احتمالي ؛ فما أراني يوماً على جمام من النفس ، ولا ارتياح من الطبع ؛ وكيف وفي القلب مادة همه ، وفي النفس علة انقباضها ، وفي الفكر أسباب مشغلته ؟ وقد أوقدت سورة الشباب نارها على الدم ، تلتعج في الأحشاء ؛ وتطير في الرأس ، وتصبغ الدنيا بلون دخانها ، وفي كل يوم يتخلف منها رماد هو هذا السواد الذي ران على قلبي ...

وما حال رجل عذابه أنه رجل ، وذله أنه رجل ؟ يلبس ثيابه الانسانية على مثل الوحش في سلاسله وأغلاله ، ويحمل عقلاً تسببه الغريزة كل يوم ، وتراه من العقول الزيوف لا أثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة الثابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مجترحاً جريمة فكر ...

وفي دون هذا ينكر المرء عقله ؛ وأي عقل تراه في رجل عزب يقع في خياله أنه متزوج ، وأنه يأوي إلى « فلانة » وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ، وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء بعيداً من المنكر ، وفاء لها ، وحفظاً لعهد الله فيها وقد دلهته بفنونها التي يبتدعها فكره ؛ وهي ساعة تواكله على الخوان ، وساعة تضاحكه ، ومرة تلاعبه ، وتارة تجافيه ، وفي كل ذلك هو ناعم بها ، يحدثها في نفسه ، ويسمر معها ، ويتصنع لها وتتصنع له ؛ ويعاتبها أحياناً في رقة ، وأحياناً في جفاء وغلظة ؛ وقد ضربها ذات مرة ... ؟

ألا إن المرأة عندي هي هذا الجنون الذي يرجع بي إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمي بي في كهف أو غابة رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الانس ، دنياه أحجار وأشجار ، وهو حجر له نمو الشجر .

لقد توزعت المرأة عقلي فهو متفرق عليها وهي متفرقة فيه ، لا أستطيع والله أن أتصورها كاملة ، بل هي في خيالي أجزاء لا يجمعها كل ؛ هي ابتسامة ، هي نظرة ، هي ضحكة ، هي أغنية ، هي جسم ، هي شيء هي هي هي . أكل تلك المعاني هي المرأة التي يعرفها الناس ، أم أنا لي امرأة وحدي ؟

وإني على ذلك لأتخوف الزواج وأتحاماه ؛ إذ أرى الشارع قد فضح النساء وكشفهن ؛ فما يريني منهن إلا امرأة تزهى بثيابها وصنعة جمالها ، أو امرأة كالهاربة من فضائلها ؛ والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصناع ، تخيط ثوبها بيدها فتباهي بصنعته قبل أن تباهي بلبسه ، وتزهى بأثر وجهها في ، لا بأثر المساحيق في وجهها . وإن مكابدة العفة ، ومصارعة الشيطان ، وتوهج القلب بناره الحامية ، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل — كل ذلك ومثله معه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل ، أبتلى منها في صديق العمر بعدو العمر .

إن أثر الشارع في المرأة هو سوء الظن بها ، فهي تحسب نفسها معلنة فيه أنوثتها وجمالها وزينتها ، ونحن نراها معلنة فيه سوء أدب وفساد خلق وانحطاط غريزة . ومن كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله في الأخرى ؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك متعلقاً يتعلق به ، وقياساً يقيس عليه ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

آه لو استطعت أن أوقظ امرأة من نساء أحلامي .. !

***

وقال « ا . ا » : لقد كانت معاني المرأة في ذهني صوراً بديعة من الشعر تستخفني إليها العاطفة ، ولا يزال منها في قلبي لكل يوم نازية تنزو . وكانت المرأة بذلك حديث أحلامي ونجي وساوسي ، وكنت عفيف البنطلون[1] ؛ ولكن النساء أيقظنني من الحلم ، وفجعنني فيه بالحقيقة ، ووضعن يدي على ما تحت ملمس الحية . ولو حدثتك بجملة أخبارهن ، وما مارست منهن لتكرهت وتسخطت ، ولأيقنت أن كلمة تحرير المرأة إنما كانت خطأ مطبعياً ، وصوابها : تجرير المرأة .. فهؤلاء

(١) يقول العرب في الكناية عن العفة : هو عفيف الازار ، وترجمتها في عصرنا ما رأيت .

النساء أو كثرتهن — لم يُذن لن الحجاب إلا لتخرج واحدة مما تجهل إلى ما تريد أن تعرف ، وتخرج الأخرى مما تعرف إلى أكثر مما تعرفه ، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة

لقد عرفتُ فيمن عرفت منهن الخفيفة الطيّاشة ، والحمقاء المتساقطة ، والفاحشة ذات الريبة ؛ وكل أولئك كان تحريرهن أي تجريرهن — تقليداً للمرأة الأوربية ؛ تهالكن على رذائلها دون فضائلها ، واشتدّ حرصهن على خيالها الروائي دون حقيقتها العلمية ؛ ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائل كما هي ، بل نزيد عليها ضعفنا فإذا هي رذائل مضاعفة .

كان الحلم الجميل في الحجاب وحده ، وهو كان يُسعر أنفاسي ويستطير قلبي ، ويرغمني مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرّم ورمز الأدب وشارة العفة ، وأن هذه المحصّنة المخدّرة عذراء أو امرأة لم تُلقِ الحجاب عليها إلا إيذاناً بأنها في قانون عاطفة الأمومة لا غيرها ؛ فهي تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها ، ورمز الفصل بين ما يحسن وما لا يحسن ، ولأن وراءه صفاء روحها الذي تخشى أن يكدّر ، وثبات كيانها الذي تخشى أن يُزعزع .

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النســاء بأنواع الحلي وصنوف الزينة والكسوة الحسنة : « ياهؤلاء ، إنكم إنما تعلمونهن محبةَ الأغنياء لا محبة الأزواج » . وأحكم من هذا قول ذلك الرجل الإلهي الصارم عمر بن الخطاب : « إضربوهن بالعرى . » فقد عرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تجريزها ، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لاظهار زينتها . فلو مُنعت الثياب الجميلة حبستْها طبيعتها في بيتها . فماذا تقول الشوارع لو نطقت ؟ إنها تقول : ياهؤلاء ، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد . . . !

لقد والله أنكرتُ أكثر ما قرأت ، وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحيلتهن . ولقد كان الحجاب معنيّ لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار الشارع معنيّ لسهولتها ورخصها ؛ وكان مع تحقّق الصعوبة أو توهّمها أخلاقٌ وطباع في الرجل ، فصار مع توهم السهولة أو تحقّقها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك ما زالت تنمي وتتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقّى عن لمس المرأة في الطريق من « الجنحة » إلى « الجناية » . وتخنّث الشبان والرجال ضروباً من التخنث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال ، وتحللت فيهم طباع الغيرة ، فكان هذا سريعاً في تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسريعاً في إفساد اعتقادهم ، وفي نقض احترامهم ، فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب ، وأخذوها بمعنى الأنوثة وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قل طلاب الزواج ، وكثر رُوّاد الخنا .

ولقد جاءت الى مصر كاتبة إنجليزية وأقامت أشهراً تخالط النساء التحجبات وتدرس معاني الحجاب ، فلما رجعت الى بلادها كتبت مقالاً عنوانه « سؤال أحمله من الشرق الى المرأة الغربية » قالت في آخره : « إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً ، وهذا التنافس الجنسي ، وتجريد الجنسين من الحجب الشوقية الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما — إذا كان هذا سيصبح كل أثره أن يتولى الرجال عن النساء ، وأن يزول من القلوب كل مايحرّك فيها أوتار الحب الزوجي فما الذي نكون قد ربحناه ؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال الى تغيير خططنا ، بل قد نستقرّ طوعاً وراء الحجاب الشرقي ، لنتعلم من جديد فن الحب الحقيقي . »

* * *

وقال « ع » : لست فيلسوفاً ، ولكن في يدي حقائق من علم الحيـــاة لا تأتي الفلسفة بمثلها ، وكتابي الذي أقرأ فيه هو الشارع . فأعلم أن العُزّاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض ، وهم كاللصوص لا يجتمع هؤلاء ، ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة . وحياة اللص معناها وجود السرقة ، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق .

ومن حكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يباهي باظهار فسقه قدرما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها ؛ وهذه إشارة من الطبيعة الى أن المرأة مسكينة مظلومة . فما ابتذال الحجاب ، ولا استهتاك النساء إلا جواب على انتشار العزوبة في الرجال ، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فنازلاً إلى ما دون الصفر ؟ فهذا الثلج ماءٌ يعتذر من تحوّله وانقلابه بعذر طبيعي قاهر له قوة الضرورة الملجئة ، وكذلك المرأة المذالة أو الطائحة أو المتبذلة أو المتهتكة — ماصفاتهن إلا توكيد لأعذارهن . وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربةَ قانون صارم ، فالعزب وإن كان رجلاً حراً في نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقّها فيه ؛ فمتى جحد هذا الحق واستكبر عليه رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه ؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة وأحكامها وقوتها التنفيذية . وإذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزاباً

فماذا يكون إلا أن تمحى الدولة ، وتسقط الأمة ، وتتلاشى الفضائل ؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها ، ولا ينبغي أن تتربص بها الحكومة حتى تعم ، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هي ؛ ويجب تفسير كلمة «العزب» في اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساء رأى العزاب في النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة خيالهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا في أسوإ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم وجدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجوداً محزناً يستمتعون فيه ولكنهم يتهتكون ويتهالكون به ؛ هم والله أساتذة الدروس السافلة في كل أمة ، وهم والله البغاة من الرجال في حكم البغايا من النساء ، يجزون جميعاً مجرى واحداً ؛ ومن هي البغي في الأكثر إلا امرأة فاجرة لا زوج لها ؟ ومن هو العزب في الأكثر إلا رجل فاسق لا زوجة له ؟ على أن مع المرأة عذر ضعفها أو حاجتها ، ولكن ما عذر الرجل ؟

ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فوضى الحياة ، وسيرها على غير نظامها ، وتحققها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ؛ وأي عزب يجد الاستقرار أو يجتمع له أسباب الحياة الفاضلة ، وهو قد فقد تلك الروح التي تتمم روحه وتنفحها وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها ، وتحييه بالأرواح الصغيرة التي تشعره التبعة والسيادة معاً ، وتمد به وتمده بها في تاريخ الوطن .

كيف يعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حي مختل في وجود مستعار ، يقضي الليل هارباً من حياة النهار ، ويقضي النهار نافراً من حياة الليل ؛ فيقضي عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل ببعضها ، بل بالممكن من بعضها ! أية أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجل عزب ؛ وأية خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً عزباً ؛ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال !

قال الراوي : وهنا انتفض «س» و«ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويرداها إلى حلق «ع» ، ثم سألني ثلاثتهم أن أسقطها من المقال ؛ بيد أني رأيت أن خيراً من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا «س» و«ا» و«ع» . . . ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

أعظم حادث في حياة روسو

٢ - روسو ومدام دي فرنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والحقيقة أن مدام دي فرنس نفثت في جان جاك ضرباً غريباً من السحر والجوى ، لا هو بالحب الجنسي الخالص ، ولا هو بالحب البنوي الخالص ، ولا هو بالصداقة الحميمة ، بل كان مزيجاً من ذلك كله ، يقترن بنوع من عبادة الجمال والسحر ، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيعة . وسنرى أن له إلى جانب هذه الناحية الأفلاطونية ناحية أخرى . . وعلى أي حال فقد كان لهذا السحر الذي بثته مدام دي فرنس في جان جاك أعظم أثر في تكوين عواطفه وفلسفته في الجمال والحب والمرأة ؛ وكان يستقي خياله ومشاعره في بضعة الأعوام التالية التي اكتمل فيها شبابه ، وتفتحت أمامه عوالم الحياة ، في ظلال هذه السعادة . أقام جان جاك معززاً مكرماً يقضي أوقات فراغه في القراءة ودرس الموسيقى والأحلام اللذيذة ، والسمر مع مدام دي فرنس ؛ وكان يشعر أن السعادة قد بلغت ذروتها ؛ وأنها لذلك لن تدوم ؛ ويرتجف فرقاً كلما تصور يوم النفاد وانقضاء هذا العهد الأمثل .

وأقام روسو على هذا النحو زهاء عام وبعضه ؛ ثم رأت مدام دي فرنس أن ترسله إلى ليون لقضاء بعض المهام ، فسافر إليها ، ولم يغب سوى أيام قلائل ؛ ولكنه لما عاد إلى أنسي لم يجد «أمه» وموئل سعادته ، ولم يستطع أن يعلم شيئاً عن غيابها سوى أنها سافرت إلى باريس مع خادمها كلود آنيه ، فلم ير سبيلاً سوى الانتظار ، وأقام وحده بالمنزل يتنسم أخبارها وموعد عودها ، وهو يدرس الموسيقى ويؤلف الأناشيد . وهنا يقص علينا روسو عدة حوادث غرامية تافهة وقعت له خلال هذه الفترة . وكانت معرفته بالموسيقى سبباً في اتصاله ببعض الهواة . ولما طالت غيبة مدام دي فرنس ، سافر إلى جنيف ، ثم إلى نيوشاتل ، وهناك استقر حيناً يكسب عيشه بتدريس الموسيقى ، ولكن شبح مدام دي فرنس كان يساوره أبداً ، وكان العود إليها أبداً أعز أمانيه ، فلم تمض عليه بضعة أشهر في هذا التجوال حتى عاد إلى سافوا . وكانت مدام دي فرنس قد غادرت يومئذ أنسي إلى شامبري

واستقرت هناك بعد مرضها وتحققت أمنيته بالمقام الى جانبها كرة أخرى ؛ واستطاع بنفوذها أن يحصل على وظيفة فى ديوان مسح الأراضى فى تلك الناحية نفسها ، فكانت سعادة مزدوجة ، وكان الهدوء والسكينة والاستقرار ، وكان ذلك سنة ١٧٣٢

وهنا فقط يكتشف روسو حقيقة مرة غابت عنه طيلة هذه الأعوام الثلاثة ؛ تلك هى علاقة مدام دى ڤرنس بخادمها وأمينها كلودآنيه ؛ فقد عرف روسو فجأة أن الخادم ينعم بحب سيدته ؛ وعرف ذلك من مدام دى ڤرنس ذاتها ، ففى ذات يوم ثارت بين السيدة وخادمها مناقشة عاصفة وجهت اليه خلالها بعض الألفاظ الجارحة ؛ فهرول كلود آنيه خفية الى زجاجة من « اللادونوم » فابتلع ما فيها لكى يزهق نفسه ، ثم أوى الى غرفته ينتظر حشرجة الموت ؛ ورأت سيدته وخليلته الزجاجة الفارغة فأدركت الأمر ، وهرولت صارخة الى غرفته . ونادت روسو واعترفت له بكل شىء ورجت منه العون ؛ فعاونها على إسعافه ، ونجا الخادم المحبوب . ودهش روسو لغبائه إذ خفيت عليه هذه الحقيقة من قبل . ولكنه لم يشعر نحو كلودآنيه بشىء من الحقد ، برغم أنه يسلبه معبودة قلبه ، لأنه يحرص على سعادتها وهنائها .

***

ولبث روسو مدى الأعوام التالية الى جانب مدام دى ڤرنس ، ولم يفارقها إلا فى فترات قليلة ولأسباب طارئة . كانت شامبرى موطنه ومستقره ، وكانت مدام دى ڤرنس أمه وأسرته وكل شىء فى الوجود بالنسبة اليه . وكانت الحياة عندئذ هادئة منظمة ، وقد أخذ روسو يشعر بشىء من الثقة بنفسه وبمستقبله ؛ وكان يوزع وقته بين عمله . ودرس الموسيقى ، ومدام دى ڤرنس . وكانت ثمة سعادة أخرى لم يكن يتوقعها روسو ، ترفرف عليه فى ذلك المقام الرغد ، بل كان ثمة حادث لعله أعظم مفاجأة فى حياة روسو . ذلك أن علائقه الساذجة الأفلاطونية مع مدام دى ڤرنس تحولت فجأة الى علائق حب عملى . ولذلك التحول قصة غريبة يرويها لنا روسو فى عدة صفحات ساحرة مؤثرة . فقد كان روسو يعطى دروساً فى الموسيقى لبعض أكابر السيدات فى شامبرى ، وكانت علائقه النسوية تزداد بذلك يوماً عن يوم ؛ وكان بين أولئك السيدات ، سيدة تدعى الكونتة دى منتون كان روسو يعلم ابنتها الغناء ؛ وكانت سيدة مضطرمة الأهواء تحب الدسائس الغرامية . وبينها وبين مدام دى ڤرنس صلة ومنافسات نسوية . فلما اتصلت بجان جاك وقدرت ذكاءه ومقدرته على الكتابة الساخرة ونظم الأناشيد والأغانى . فكرت فى استهوائه والانتفاع بمقدرته ، واستقبلته بعطف وإكرام . وشعرت مدام دى ڤرنس بذلك ، ففكرت فى انقاذ روسو من شراكها وشراك غيرها من النسوة اللائى يحطن به . والتمست لذلك أغرب وسيلة يمكن تصورها . فختلت بروسو ذات يوم . وأفهمته أنها لم تر وسيلة لانقاذه من أخطار الشباب سوى أن تقدم نفسها اليه ، وأن تفتدى بجسمها كل ما يهدده من الأخطار . وأنها تمهله ثمانية أيام للتفكير والعزم .

ويقول لنا روسو إنه دهس لهذه المفاجأة أيما دهشة ، وإنه لم يكن يتوقع قط هذا المصير لعلائقه مع المحسنة اليه ؛ بيد أنه يقول لنا إن ذهنه لم يكن بعيداً عن تصور هذه السعادة ؛ فقد كان يضطرم جوى نحو النساء ؛ ولم يكن قد لامس إحداهن بعد ؛ وإن مدام دى ڤرنس وإن كانت تكبره بنحو عشر سنين ، كانت ماتزال فتية فتانة وافرة الأنوثة والسحر ، ولم يحزه أنها كانت خليلة غيره ، وأنها بذلك توزع متاعها على أكثر من رجل ، فقد كانت هذه الشركة مؤلمة حقاً ، ولكنها لم تغير ذرة من عواطفه نحوها .

ويحاول روسو أن يحلل عواطفه نحو مدام دى ڤرنس مرة أخرى . لقد كان يحبها حقاً ، بل كان يهيم بها حباً ؛ ولكن ذلك الهيام كان أقوى من أن يحمله على الرغبة فى وصالها . وقد أنفق هذه الأيام الثمانية فى اضطراب ذهنى لا يمكن تصوره ، وكأنها كانت قروناً ثمانية . ولكنه كان يبغى المزيد منها . ثم جاء اليوم الروع أخيراً ؛ فهرول روسو إليها ، وصرح بالقبول والأذعان ؛ وبر فى الحال بوعده . ويصف لنا روسو ذلك اللقاء الدهش فى تلك العبارات القوية المؤثرة : « لقد توج قلبى كل نذورى دون أن أرغب فى المكافأة . بيد أنى حصلت عليها ؛ وألفيت نفسى لأول مرة ، بين ذراعى امرأة — وامرأة أعبدها . فهل كنت سعيداً ؟ كلا ! ولقد تذوقت السرور ، ولكن شعوراً قاهراً من الحزن كان يسمم سحره ؛ وكنت أشعر أنى أرتكب عشرة محرم ؛ ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاث مرات ، بينما كنت أضمها إلى فى شغف وهيام . أما هى فلم تكن حزينة ولا مضطرمة ، ولكنها كانت ناعمة هادئة . ولم تكن تحدوها الشهوة ، ولم تكن ترجو المتاع ، ولهذا لم تشعر بمتعة ، ولم يؤنبها الضمير قط »

وهنا يفيض روسو فى تحليل عواطف مدام دى ڤرنس وميولها الغرامية ، ويحاول أن يعتذر عن أخطائها وزلاتها ؛ فقد

نشأت نشأة حسنة ، ذات فضيلة واستقامة ، وذوق رفيع ، وخلال بديعة ، ولكنها كانت تصغي إلى العقل والفلسفة دون القلب ؛ وقد عني معلمها وأول عشاقها ، مسيو دي تافل ، بأن يغرس في ذهنها جميع المبادئ التي تسهل له إغواءها ؛ فعلمها أن الاخلاص الزوجي سخف ، وأن الاجتماع الجنسي أمر تافه ، وأن الفضيلة والعفة والحشمة أمور ظاهرية فقط . فتزتها هذه المبادئ وطغت عليها حتى أصبحت تعتقد دائماً أنه لا يصفد الانسان بحب امرأة قدر الوصل . وفي تلك الصحف التي يصف لنا فيها روسو ذلك التحول في علائقه مع مدام دي ڤرنس ، يبلغ روسو ذروة البلاغة والافتنان ، ولعلها أبدع قطعة في « الاعترافات » .

* * *

وهكذا تحولت القصة البنوية الأموية إلى قصة غرامية ، وغدا روسو خليل المرأة التي لبث بضعة أعوام يقدسها كأم رؤوم . واستمرت هذه العلاقة ما بقي إلى جانبها ، واستمر الخادم كلود آنيه شريكه في الوصل مدى حين . ولكنه لم يلبث أن توفي . ثم انتقلت مدام دي ڤرنس وروسو إلى منزل خلوي في ضيعة « لاشارميت » . وهنالك قضى روسو ، في ذلك المقام المنعزل أياماً سعيدة في الدرس ، مستأثراً بصحبة « أمه » وتحبيبه . ثم اعتلت صحته ، واشتد به الهزال والضعف ، وفكر في السفر لينتجع العافية ، وأشير عليه أن يسافر إلى مونبلييه حتى يجد من الأطباء من يستطيع معالجته ، ولم تمانع مدام دي ڤرنس في تنفيذ ذلك العزم ، فسافر إلى مونبلييه ، ووقعت له أثناء رحلته بعض حوادث غرامية بثت في ذهنه إضطراباً وجوى . وبعد أشهر عاد إلى « أمه » وكانت تلك العاطفة المضطرمة التي لبثت مدى أعوام تدفعه إلى جانب مدام دي ڤرنس قد خبت نوعاً ، واستحالت إلى نوع من الصداقة الهادئة ، والظاهر أيضاً أن مدام دي ڤرنس كانت تبحث عن صداقة جديدة وغذاء جديد لعواطفها الملتهبة ، فلما عاد روسو ألفى إلى جانبها في المنزل رجلاً آخر يدعى فنتزريد ، ولم يلبث روسو أن أدرك من تصرفاته ولهجته أنه غدا صاحبا لمدام دي ڤرنس ، وأنه قد حل مكانه ، فحزن روسو لذلك ولم يطق البقاء حيناً هدمت سعادته ، فسافر إلى ليون ، ولم تبد « أمه » كبير أسف لسفره . وبعد أن أقام بها حيناً عاد إلى مدام دي ڤرنس كرة أخرى ، وأقام بالمنزل حيناً في عزلة عنها لا يكاد يراها إلا وقت الطعام ، وكانت آخر زيارته لها . وكان يومئذ قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ونضجت دراساته ومواهبه وآنس في نفسه طموحاً إلى غزو ميدان الحياة الواسع ، فاتجه ببصره إلى باريس ، فودع « أمه » الوداع الأخير ، وسافر إليها تحدوه مختلف العواطف والآمال .

وكان ذلك ختام قصة روسو ومدام دي ڤرنس ، فلم يرها بعد ذلك ولم يحاول رؤيتها ، وألقى به القدر في باريس إلى غمار حياة جديدة عاصفة ، ولكنه لم ينس ذكرى المحسنة اليه قط ، ولما توفيت بعد ذلك بنحو عشرين عاماً — سنة ١٧٦٤ — اشتد حزنه لفقدها ، وهو يعرب لنا عن ذلك الحزن في نفثة مؤثرة في « الاعترافات » .

محمد عبد الله عنان
المحامي

ماذا يعني ؟

سيدي الأستاذ البليغ صاحب الرسالة

إني قرأت في رسالتكم الواحدة والستين كلمة ندت من الأستاذ كرم ملحم كرم ، وهو يتحدث عن « أدب اليوم » صغيرة في ذاتها ، ولكن فيها طبيعة كطبيعة (الديناميت) لا يمس شيئاً إلا جعله يباباً ، فأكبرتها ، وأعددت فصلاً طويلاً في الرد عليها ، ثم بدا لي فقلت : لعل الأستاذ كرم ، لا يعني هذا الذي يفهم من كلمته ، ولعله إذا نبه إليها نظر فيها ثم رجع عنها ، فيكفي الله المؤمنين القتال ، وعهدنا بالأستاذ أنه ذكي متأن ، وكاتب مفكر ، فطويت فصلي وبعثت بهذه الكلمة إليكم راجياً منكم أن تنشروها وتسألوه الجواب عنها :

* * *

ماذا يعني الأستاذ كرم بقوله ، وهو يتحدث عن روايات ڤولتير وروسو ولامارتين وهوغو : « والدين نفسه يقوم على الروايات ، فما هو كتاب التوراة ، وما هو الانجيل ، وما هو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب ؟ » اهـ .

هل يعني دين التوراة والانجيل فقط ، فلا ننازعه ولا يكون لنا أن ننازعه وهو صاحب الدار ، وأدرى بما فيها ، أم يعني دين القرآن ؟

وهل يعني أن القرآن رواية كروايات روسو ولامارتين ؟ وان ما فيه من عبرة التاريخ الصحيح ، هو ملهاة الرواية الباطلة ؟

* * *

هذا ما أرجو أن تتفضلوا بسؤال الأستاذ عنه ، وأن يتفضل بإيضاحه .

علي الطنطاوي
عضو « جمعية الهداية الاسلامية » بدمشق

٢ – الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

إن العناصر الجوهرية التي تتكون منها الشخصية القوية كثيرة منها :

(١) الجاذبية : وهي قوة طبيعية إن وجدت في الشخص استطاع أن يجتذب قلوب غيره ممن يتصلون به بدون أن يتكلف أو يتصنع : وهذا العنصر يعد من أقوى العناصر التي تتكون منها الشخصية إن لم نقل أقواها ، ولكن بماذا يجتذب الانسان غيره من الناس ؟ والجواب أنه يستطيع أن يجتذبهم ويسيطر عليهم بأدبه وعلمه ، وضبط نفسه ، وسداد رأيه ، وسرعة خاطره ، وحسن حديثه ، وكرم خلقه ، ومراعاة شعورهم ومشاركتهم في وجدانهم . وهذه الصفات بعضها وراثي ، وبعضها يمكن أن يكتسب بالتربية والتعلم ، في البيت والمدرسة والملعب والمجتمع ،

(٢) النشاط العقلي أو الذكاء : العنصر الثاني من العناصر المكونة للشخصية القوية هو النشاط العقلي أو الذكاء ، وبعبارة أخرى حضور الذهن . وسرعة الخاطر ، وصفاء القريحة . فقد يكون الرجل مثقفاً ، واضح التفكير ، غزير المادة ، واسع الاطلاع ، ولكنه قد لا يكون متقد العقل ، وضاء الفكر ، حاضر البديهة . فلا يستطيع أن يدرك ما يرمي اليه محدثه ، ولا أن يشاركه في رأيه ؛ وقد تكون المرأة وسيمة الوجه ، حسنة المنظر ، جميلة الملبس ، ولكنها قد تكون فاقدة ذلك النشاط الفكري والاتقاد العقلي ، فتعجز عن التأثير في غيرها أو اجتذابه والسيطرة عليه . فهي كصورة جميلة المنظر ، ولكنها فاقدة الروح الفنية ، تلك الروح التي تؤثر في الصورة فتعطيها قوة وتأثيراً وحياة معنوية .

فللنشاط العقلي تأثير حسن في شخصية الانسان ، وفي ارتفاع منزلته بين إخوانه وذويه ، وللغباوة وقلة الفطنة والكسل العقلي أثر سيء في خمول الشخص وتأخره ، وعجزه وارتكابه الجرائم أحياناً ؛ ولا عجب إذا قلنا إن معظم المجرمين من الأغبياء وضعاف العقول ، وتبدو شخصية الأذكياء في أعمالهم وأقوالهم كما تبدو في منطقهم وتفكيرهم المنظم ، وآرائهم المرتبة ، وحججهم القوية ، وقدرتهم على التخلص بسهولة من المشكلات التي تعترضهم بما أوتوا من نشاط عقل وحدة ذهن وصدق حس .

وممن كان لذكائهم أثر في نجاحهم في حياتهم « ابراهام لنكولن » ، أحد رؤساء الولايات المتحدة الذين تدين لهم تلك الولايات اليوم بما فيها من تقدم ورقي وإصلاح . ولد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ ، وكان أبوه نجاراً ، نجاراً عادياً . توفيت والدته ولما يبلغ من العمر عشر سنين ، تعلم مبادىء القراءة والكتابة وهو طفل ، وكانت أمه قبل وفاتها تعنى به العناية كلها ، اختارت له من الكتب الكتاب المقدس وكتاباً عن حياة « جورج واشنطون » قرأهما وأعاد قراءتهما مراراً حتى كاد يحفظهما . وكان في بعض الأحيان يسير أميالاً ليستعير كتاباً يقرؤه . كان في حياته الأولى عاملاً ، ثم ثقف نفسه بالقراءة في أوقات الفراغ ، وكان في الليل يوقد قطعاً من الخشب ، يتدفأ بنارها ويقرأ على نورها ، ولولا ضيق المقام ، والخوف من الخروج عن الموضوع لكتبنا عنه الكثير فارجع الى تاريخ حياته إن شئت ، وكل ما نريد أن نذكره هو أنه درس القانون أخيراً ، ثم كان محامياً مدرهاً يشار إليه بالبنان ، حاضر الذهن متقد الفكر ، قوي الشخصية ، ثم كان عضواً بمجلس النواب ، فسياسياً ، فرئيساً للولايات المتحدة بأمريكا . فضلته زوجته — وكان فقيراً — على منافس آخر من الأغنياء ، وقد اختارته زوجاً لذكائه وإخلاصه وشخصيته . تنبأت أنه سيكون عظيما ، وقد كان مثالاً للعظمة ؛ ولئن قام واشنطون بتحرير الولايات المتحدة ، فقد قضى لنكولن على ما كان فيها من الاضطراب ، وقام بكثير من الاصلاحات ، وقد ترك لنكولن اسماً خالداً محبوباً لا من الأمريكيين فحسب ، بل من أبناء الانسانية في جميع الشعوب ، فقد كان يعمل للانسانية ويفكر كثيراً في الانسانية وينسب اليه كثير من الحكايات التي تقرب من الخيالات والروايات .

وممن كان لحدة ذهنهم وشخصيتهم أثر كبير في نجاحهم أيضاً

«اللورد ماكولى» الاسكتلندى ، فقد كان كاتباً وشاعراً ، وكان مؤرخاً وقانونياً ، وكان خطيباً وسياسياً ، ولد فى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٠٠ م وتوفى فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ م . أظهر حباً للقراءة وتعطشاً للعلم منذ نعومة أظفاره ، توسم فيه أبوه كثيراً من علامات الذكاء والقدرة العقلية منذ طفولته ؛ فقد قلد «السير وولتر سكوت» فى كتابته وعمره لم يزد على سبع سنين ، فكتب ثلاث قصائد ، ومختصراً تاريخياً عاماً ، وهو طفل . كان قوى الذاكرة ، محباً للعمل مولعاً بالأدب وبخاصة الروايات . وكثيراً مالامه أبوه على قراءتها ، التحق فى أكتوبر سنة ١٨١٨ بجامعة «كمبردج» . وحصل على أربع جوائز منها . وكنا نود أن نكتب عنه كثيراً لولا الخوف من التطويل . وكل مايمكننا أن نقوله هو أنه اشتغل بالقضاء ، ثم اتخذ الأدب مهنة ، ثم انتسب إلى أحد الأحزاب السياسية ، ونجح فى حياته النيابية نجاحاً باهراً لنشاطه العقلى ، وتأثيره الخطابى ، وإخلاصه فى قوله ، وكان ينضم لآرائه كثيرون حتى المعارضون لحزبه . وله خطبة هى آيات بينات يدافع فيها عن تعميم التعليم المجانى ، تدل على غيرته ، وحضور بديهته . ولم يفخر الشعبان : الإنجليزى والاسكتلندى إلى اليوم بأحد من رجال السياسة والأدب فخرهما بما كولى ؛ ومن كتابته تكاد تلمس قوة حجته ، وروح خطابته ، ووضوح لغته ، وصفاء ذهنه ، وسلامة ذوقه فى كتابته ، وجمال تعبيره ، وحسن أسلوبه ، ووفاءه لبلاده ، وأقاربه وأصدقائه ، تكاد تلمس نقده المر البرىء الذى ينبىء عن الإخلاص والايمان بما يقول .

ومن كان يشهد لهم بالذكاء وحضور البديهة كثير من رجال العرب ونسائهم ، نذكر لك منهم : معن بن زائدة ؛ فقد دخل على أبى جعفر المنصور ، فقارب خطوه ، فقال المنصور : «لقد كبرت سنك ؛ قال فى طاعتك . قال وإنك لجلد ؛ قال على أعدائك . قال : وأرى فيك بقية ؛ قال : هى لك .» فانظر إلى أجوبة معن تجد أنها تدل على سرعة الخاطر وحسن الجواب ؛

فالنشاط العقلى يساعد على النجاح فى الحياة ، وينقذ الانسان من أدق المراكز ، ويحفظ شخصيته فى أشد المواقف ، ويسهل الصعب ، ويقرّب البعيد . وله أثر كبير فى حسن الخلق والسلوك . وبالاحصاء وجد أن أكرم حكام أوربة خلقاً فى القرون الثلاثة الأخيرة الماضية كانوا على قسط كبير من الذكاء .

(٣) المشاركة الوجدانية :

العنصر الثالث من العناصر التى تكون منها الشخصية يدعى المشاركة الوجدانية ؛ فاذا لم نشعر بشعور الناس ونشاركهم فى مسراتهم وأحزانهم ، ونتأثر بآرائهم وأفكارهم ، فهذا دليل على أننا فى حاجة إلى أن نضع أنفسنا موضعهم ، مهما كانت علاقتهم على شرط أن يكون لدينا استعداد للفهم والتفكير والشعور ، مهما كانت مراكزنا بالنسبة إليهم ، من غير نظر إلى رئيس أو مرءوس ، غنى أو فقير ، عظيم أو حقير ، رفيع أو وضيع ، وألا تكون مناصبنا العالية حجر عثرة فى سبيل فهمنا لغيرنا ، وتقدير ظروفه المحيطة به ؛ بل تكون معينا على أن نشاركه فى حالاته ، فنسر لسروره ، ونتألم لآلامه ، وبذلك نمتلك قلبه .

أما صاحب المزاج البارد الذى يتمثل فيه الجمود والقسوة والغلظة فلا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات ، ولا يحب أن يتفاهم مع أحد ؛ فهو ينفر من الناس ، والناس ينفرون منه . وهو يؤثر فى غيره بالايذاء ، كما يؤثر الهواء البارد فى النبات الغض الشديد الاحساس ، فيتجمد قبل أن ينمو أو يترعرع .

ومن أكبر عيوب نابليون التى كان يتخلق بها شدة قسوته على النوع الانسانى ، وعدم مشاركته له فى شعوره ؛ ومن ثم كانت شخصيته غير كاملة ؛ وإننا فى الوقت الذى نطالب فيه بالعدالة نطالب أيضاً بالرحمة .

ومن الحكمة إذا كنت رئيساً أن تصل بالمشاركة الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك من غير التجاء لاظهار سلطتك ، وأن تفوز بطاعة مرءوسيك من غير احتماء بالقانون . ومن المهارة أن تبين لمرءوسيك أخطاءهم ، ونقط ضعفهم ، وتسيرهم كيف تشاء ، بدون أن تحط من كرامتهم ، وبدون أن تظهر لهم أنك أعلى أو أرقى منهم ، ومن غير اضطرار إلى اتخاذ شدة أو عنف . إذا أمكنك الوصول إلى كل هذا كانت شخصيتك قوية ، وكان تأثيرك كبيراً .

وإن قوة التأثير لا تستدعى قسوة أو غلظة ، ولكنها تستدعى أن تشارك الناس فى شعورهم ووجدانهم ، وتتألم لما يدهمهم من حوادث الدهر ، وتواسيهم فيما يلم بهم من نوائبه ، وتنظر إلى حسناتهم قبل سيئاتهم ، وفى صوابهم قبل خطئهم ، وتقدر

حسناتهم إذا أحسنوا ، وتفكر فى البواعث التى اضطرتهم الى الخطأ إذا أخطأوا ، وتعدل فى أحكامك اذا حكمت ، لاتنزع الى جانب الظلم ، ولا تميل الى ناحية التهاون ، وبهذه الوسيلة تكون قويا ، ليناً فى غير ضعف ، متواضعاً فى غير ذلة ، موفقاً فى عملك محبوباً عند غيرك .

أما هؤلاء الذين يلجأون الى الشدة والقسوة دائماً فهم ضعفاء ، يشعرون بالضعف فيلجأون الى الغلظة ، ظانين أنهم بتلك الطريقة يسترون ذلك الضعف ، ويكملون ذلك النقص . مثلهم مثل الكلاب ، تنبح فى الطرق لافى ضوء النهار ، بل فى ظلام الليل ، كى تبحث عن فريسة تفترسها ، أو خيانة تخونها ، أو طعام تسرقه . هم كالكلاب تسرهم عيوب غيرهم ، ويفرحون لهفوات سواهم . وأمثال هؤلاء لاشخصية لهم ، فأشخاصهم مكروهة ، وأسماؤهم منبوذة ، وأفعالهم مذمومة مشئومة .

فالمشاركة الوجدانية من أهم عناصر الشخصية تجعل القلب متقداً يشعر بشعور غيره ، ويقيس نفسه بمقياس سواه من الناس . يقول (السير وولتر سكوت) الكاتب الاسكتلندى الكبير : « إن المشاركة الوجدانية هى الحلقة الفضية أو الرباط الحريرى الذى يصل القلب بالقلب ، ويربط العقل بالعقل ، والجسم والروح » فاذا كانت الشخصية هى القوة التى بها يجتذب الغير فالمشاركة الوجدانية من أهم الأشياء التى بها نتصل بقلوب غيرنا وأرواحهم .

واذا قدرنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ، فاننا ننتظر منه أن يقابل المثل بالمثل ، فيقدرنا ويفكر فينا ، ويشاركنا فى سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه ، أما إذا لم نقدر أحداً ، ولم نفكر فى أحد ، فاننا لانترقب أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد .

ومن المشاركة الوجدانية أن يخلص الأستاذ فى نصح طلبته وإرشادهم ، والتفكير فى عملهم وظروفهم ومستقبلهم ، فيقابل الطلبة ذلك بالوفاء والطاعة والتقدير . فالشخصية تستدعى أن نتأثر للغير ، ويتأثر الغير لنا ، ونشعر بشعورهم ، ويشعروا بشعورنا .

ولا أثر للتربية والتعليم إذا لم يصحبا محبة غيرنا ، والتفكير فيهم بقلوبنا ، فالمشاركة الوجدانية يجب أن تتحقق فى القادة ، قادة الفكر وقادة العمل ، حتى تكون لهم شخصية جذابة قوية . غير أنه ينبغى ألا يتدخل الوجدان والعاطفة فى أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا تدخلاً كبيراً ، حتى نستطيع أن نزن الشىء بميزان العدالة لا بميزان العاطفة . ويجب ألا ننظر الى الأمور من ناحية واحدة وهى الناحية الوجدانية ، لئلا يختل التوازن ، ويصبح العقل عبداً خاضعاً للتاثيرات الوجدانية العاطفية التى تعمينا عن حقائق الأشياء وعلاقتها بغيرها .

ونظراً لطول الموضوع وتشعبه أرجىء البقية إلى بعض الأعداد التالية من الرسالة .

محمد عطية الابراشى

الصقور البحرية
فى البحر الأحمر
للدكتور كرسلاند

مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

تقل الطيور البحرية فى شمال البحر الأحمر حيث محطة الأحياء البحرية التابعة للجامعة المصرية . وأكثرها الصقر البحرى « Pandion haliaëtus » ويدهش أن تندر الطيور البرية فى أرض مجدبة لم تجدها الأمطار منذ اثنى عشر عاماً . أما الغربان فكثيرة الانتشار وتعتمد فى غذائها على جماعات الانسان ، ولكنى لم أعثر للآن على النسر البحرى المصرى الذى كان يوجد بكثرة عند المحطة التى كنت أديرها على شاطىء السودان .

أما فى فصلى الربيع والخريف فيمر بالمحطة عدد كبير من الطيور من كل نوع ، كنوعين من البط وبعضها كالخطاف وأبى فصاده ينساب طوال الفصل . أما الصفير (العصفور) فيمر فرادى .

وصقر البحر يختلف فى نوع فريسته وطرق صيده عن الطيور البحرية الأخرى . إذ لم يتأقلم تماماً للحياة البحرية ، فبرغم تشوك أصابعه واندثار الريش الطويل من أرجله ما زال يشبه الطيور الأخرى من فصيلته . ولا يمكنه أن ينقض على جماعات الأسماك التى

تعوم بسرعة قريباً من سطح الماء كما تفعل النورزه « Sea gull » والخطاف البحري « Tern » بل يفترس عادة الأسماك البطيئة كما في صندوق « Box fish, Ostracion » والحجم « Balistes » والدرمة « Tetraodon » والمشط « Holacanthus » وهذه الأخيرة سمكة زرقاء اللون تزينها بقعة صفراء فاقعة ، وتكثر حول الشعاب المرجانية .

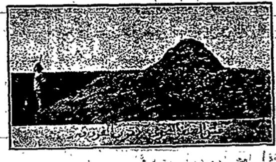
وكثيراً ما نرى عظام هذه الأسماك وجلودها بكميات كبيرة حول أعشاش الصقر . وإنه وإن بدت هذه الأسماك محصنة من الأسماك المفترسة بكيفية لا نعرفها إلا أن ذلك لا يقيها شر بن : حربة الصياد ، ومخالب الصقر .

وقد التجأ الصيادون هنا إلى استعمال الحراب لانتشار الشعاب المرجانية مما أدى إلى تحديد صلاحية الشباك للصيد . وقد لا يجدي الصيد بالشص كثيراً إذ تتحصن الأسماك المصيدة بالشعاب فيفقد السمك والشص معاً ، لذلك انتشر استعمال الحراب . وتتكون الحربة من قضيب من الحديد يبلغ سمكه سنتيمتراً أو سنتيمترين ، ويصل طوله إلى ثلاثة أمتار ، أحد طرفيه مدبب وبالآخر ثقب صغير يثبت به الخيط . ويشتغل الصيادون مثنى في كل هوري (قارب منحوت من الأشجار) ينظر أحدهما في منظار الماء بينما يجدف الآخر ببطء ، ويبحثان عن صدف اللؤلؤ ، ولكن إذا ما تراءت لهما سمكة أمسك أحدهما الحربة من منتصفها وصوبها ثم قذف بها بمهارة لا تفلت منها الأسماك الصغيرة . وأكثر ما يصاد عادة بهذه الطريقة الأسماك البطيئة الحركة . وقد تقتنص الأسماك السريعة كأنواع البياض « Caranx » وأميز هذا الجنس ما يسميه الأوربيون خطأ « Dolphin » فانه يتلون بألوان براقة جميلة حينما يحتضر خارج الماء .

وقد صادفت مرة جماعة من صيادي اللؤلؤ وقد أمسكوا درمة (جنس من السمك) فسألتهم « كيف أمسكتم هذه السمكة وليس معكم حربة واحدة ؟ » فأجاب أحدهم « أمسكها بيدي » .

والدرمة سمكة معروفة بأنها سامة ، ولكنها تؤكل كثيراً بالبحر الأحمر ، ويقال إن لحمها جيد وإن كان قليلاً .

وعلى شاطئ البحر الأحمر لا توجد جروف ولا أشجار يبني في وقايتها الصقر عشه . فيلجأ إلى أفرع نباتات الأرض الملحة على الشاطئ المنبسط مثل الشمرة البحرية « Samphire » والحزيس « Zygophyllum album » والساليكورنيا « Salicornia » وغيرها من النباتات التي تنمو على الأرض المنخفضة بجانب البحر بل وعلى رمل الشاطئ نفسه ، وكذلك على الأعشاب البحرية وجلد الأسماك وعظامها والأجسام الطافية على سطح الماء من أي نوع . والصقر لا يغير عشه بل يضيف إليه كل عام حتى يصبح ربوة عالية — وعلى مقربة من المحطة عش يربو ارتفاعه على المترين . ورأيت آخر على شاطئ السودان كان يسكنه صقر مدة خمسة عشر عاماً ولست أدري كم أقام به الصقر قبل ذهابي إلى السودان .



عش الصقر البحري على مقربة من الغردقة

ويبيض هذا الصقر كبير الحجم وعليه نقط سمراء داكنة ، أما الصغار فسمر الألوان ، وإذا أزعجت خرجت من عشها واختبأت بين الأعشاب المجاورة .

ومما يساعد على وقاية هذه الطيور عزلتها في الصحراء ورغبة (البشارين) عن أكل الطيور وبيضها . ولكن انتشار السيارات في الصحراء قد سلبها عزلتها . وكم نشفق الآن على بعض هذه الطيور التي ما زالت تأوي عشاً لا يبعد إلا قليلاً من الأمتار عن الطريق الموصل بين آبار البترول ومحطة الأحياء البحرية ! أما الجزر فما زالت ولن تزال حصناً منيعاً لها .

وقد أقيمت عدة علامات لتحديد الشعب المرجانية ، وسرعان ما انتفع بها الصقر للاستراحة والتهام فريسته ، ولا شك أن هذه العلامات توسع نطاق صيدها . إذ أن الصقر طير بري ، ولا بد له من الرجوع إلى الشاطئ لأكل فريسته ، ولكنه الآن لا يحتاج إلى ذلك كثيراً بفضل انتشار العلامات على بضعة أميال من الشاطئ .

وكثيراً ما نرى الصقر ممسكاً بفريسته بين مخالبه باحثاً عن مكان يلتهمها فيه ؛ وهو يمسك فريسته موازية لجسمه ، بخلاف الطيور الأخرى التي تمسكها في اتجاه مستعرض .

كرنس كرسلند

الامتيازات والديك ..

للأستاذ محمد محمود جلال

منذ عشر سنوات كنت أعالج « ضرساً » لدى طبيب انجليزى يقيم فى مصر من زمان طويل بل لعله ولد بها . والعجيب من أمره أنه خالف سنة قومه فأكثر من معاشرة المصريين وأتقن الكلام بالعربية ، واندمج فى مختلف بيئاتهم ، وهو على خفة فى روحه وظرف فى طبعه حلو النكتة حتى لتحسبه « ابن بلد » .

ففى يوم من أيام العلاج ، وقد أخذ يعد دواءً ، أراد أن يروح عني من شدة الألم ومرارة الانتظار بنادرة مما حفظ فقال : إن أحد الشيوخ من ذات يوم بشارع ضيق من شوارع القاهرة ، وبينما هو فى سيره إذ قفز من أحد المنازل ديك على عمامته فأتلفها وهوى بها ، فاستاء الشيخ وبحث عن صاحب المنزل ثم رفع أمره للقضاء . ولم يشك المدعى يوم الجلسة فى صدور حكم لصالحه ، فحقه فى التعويض واضح ، زكته اعترافات المدعى عليه فى أول إجابته . .

بيد أنه ذهل إذ سمع المدعى عليه يدفع بعدم الاختصاص ! ! والخصمان مصريان والمحكمة مصرية ، وصرخ عجباً ! ! قال المدعى عليه « كل ذلك حق » ولكن الديك « رومى » فقضت المحكمة بعدم اختصاصها ! ! !

إحدى الخرافات الفكاهية التى لا يعدو أثرها حين تطلق فى مجلس أن تنتزع ضحكة ، ولا نفيد منها إلا نصيباً من الترويح ، لكنها من خير ما يصور الأثر الذى تركه ذلك النظام فى بلادنا ، والطابع الذى أقامه فى روح الحياة بعد أن نال من مصالحنا وكرامتنا وآدابنا .

فكم تعطلت إجراءات عادلة بدعوى أفاق ، حتى إذا فصل فى أمره كان الزمن قد ذهب بالمصلحة والغرض ، وكم من عاث تعب فى أمره رجال الأمن وهو كل يوم يظهر بحيلة جديدة ، وكم من حقوق مصرية بحتة أخرجت من دائرتها الطبيعية ودفعت لمجرد شبهة فى صالح أجنبى ، إلى محاكم استثنائية .

يعيش بيننا كثيرون ينتسبون إلى سمعة دولهم أكبر الإساءة ، فهم يؤجرون للتعرض فى التنفيذ ويتخذون ذلك مهنة لهم . وإنى لأذكر واحداً تعرض مرة فى تنفيذ حجز على محصول لقاء مبلغ الايجار — وكان المتعرض شخصاً معروفاً للناس تأنف منه الجالية التى ينتسب إليها ولا يملك شيئاً إلا هذه المهنة — ومع ذلك فقد ادعى بأنه اشترى المحصول ، وكان هذا وحده إشكالاً رجع معه المحضر ليتلافى الأمر من طريق الاجراءات — فلما أخذنا المتعرض بشىء من الحزم اعترف وأخرج من جيبه « جنيهاً واحداً » . قبضه أجراً لتعرضه

هذا وغيره كثير الوقوع وقد أصبح حديثاً مردداً . ولكن اليوم تشاء سخرية القدر أن يقع ما هو شر من الخرافة .

قضت أعمالى أن أغيب عن مصيفى ببور سعيد فى أوائل أغسطس الماضى ، فلما عدت أخبرت أن ضابطاً مصرياً جاء إلى المنزل بأمر الحكمدار الانجليزى ، وأبلغ الخادم أن « ديكاً » يزعج الجار الأوربى ، فهو يأمر بنفيه إلى « السطوح » أو ذبحه ! !

ليس بالمنزل سلم « للسطح » ، ومكان الطيور بالحديقة بناء الماك ولا يد لنا بتغييره ، لأننا نشغل المنزل لموسم الصيف ، وإذن نفذ الأمر ، وذبح « الديك » مأسوفاً عليه من الدجاج مسطراً بدمه صحيفة عن آثار الامتيازات والعبث بالكرامة ! ! ضابط خلق لمهمات عالية من صيانة أرواح وأموال وأعراض ، يحمله الرئيس الانجليزى رسالة حقيرة فى أمر حقير ! !

عندما يحس الجار إقلاقاً لراحته يكفى فى دفعه عادة كلمة طيبة لجاره ، وتكفيه رسالة من خادم لخادم . هكذا نفعل ، ولكن الاعتزاز بالامتيازات والاحتلال بدّل الجوار الحسن تفرقة وتحكما .

ولست أشك فى أن المناحة التى أقامتها الدجاج حزناً كانت قوية مؤثرة تضاعفت معها حركة الأقلاق ، مما جعل الجار يندم على شكواه والحكمدار يرفه عنه ، ولعلهما نسيا بهذه الصيحات المزعجة صوت الديك « الفقيد » .

وأنا ما تخيلت ثقة بوفاء هذه الطيور تساءلت : « ألم يتجدد الأمر بذبح البقية المقلقة ؟ » فلما أجبت بالنفى قلت : لعل الآمرين قد أخذا روعة الوفاء وصعقة الحزن فنسيا الجريمة ! ! أو لعل فى

ذلك إشارة إلى قرب الخلاص !! والله سميع مجيب .

على أن فى بيت الجار التالى « دجاجاً » سمعت صوتها وصياحها ولكن الشاكى لا يتحرك !! والكمدار الانجليزى لا يهتم ! والضباط المصريون لا يسخرون ! لأن الجار يتمتع بالامتيازات ، وما فى كنفه تابع له ، ولو أن الديك « بلدى »

ولقد هممت أن أكتب الى الحكمدار — واحدة بواحدة — ولكنى خشيت أن أكون سبباً فى نكبة تحل بواحد أصله « مصرى » وأنا الذى أفدى الوطن وما ينسب اليه بكل غال .

أنظر إلى ما حدث على تفاهته — انه سيصبح حديثاً يتناقله خادم طارىء عن خادم مقيم ! وينشره الأول والثانى — ثم يصبح موضوعاً يتنادر به أكثر من جماعة فى مقهى أو شارع أو مجلس ، ثم تبنى عليه نوادر وخرافات أصلها حقيقى عن أمر صدر من رئيس كبير وبلغه مرءوس كبير ، ثم قل بعد ذلك ما شئت فى التسلسل الطبيعى وأثره فى البيئة وما ينشأ عنه من إكبار النفوس البسيطة للنفوذ الأجنبى — وما يتبع ذلك من صبغها بنوع من الخنوع أو نوع من الوجل .

ولكن الله سبحانه وتعالى يتدارك الشعب بأبنائه النابهين وما أظن نافذاً بإذنه إلا مشيئة البلاد .

ولقد راجعت نفسى وواجبى فكتبت الى الحكمدار منبهاً الى كرامة الضباط وغرابة الحادث ، ودخول البيوت بغير إذن ، وهم العاملون المكلفون بطبيعة وظائفهم بالسهر على الحقوق .

وبعد : أليس فى الخرافة الأولى حق وعظة ؟

محمد محمود جلال

المحامى

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشاً غير أجرة البريد فى مصر وبخمسين قرشاً فى البلدان الأخرى .

الرياضيات فى الشعر

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يقولون إن عداء مستحكما موجود بين الرياضيات والأدب بما فيه الشعر ، ولكن الحقيقة تنفي وجود هذا العداء ، والواقع لا يؤيده ، إذ ليس فى أحدهما ما يناقض الآخر ، وكثيراً ما استعان العلماء بأحدهما على الثانى . واذا كان هناك عداء موضوع أو خصام موهوم ، فهو فى الحقيقة والواقع بين الرياضيين من جهة ، والأدباء من جهة أخرى ؛ وما علمت لهذا سبباً ، وما قدرت أن أجد الدافع لذلك . فالأديب أو الشاعر يغيظه أن تذكر أمامه كلمة رياضيات ، ويزيد فى حنقه أن تجرى أمامه بحوث فى الأرقام والمعادلات والأشكال والخطوط ، يتملص من جلسات الرياضيين ويشمئز حين الاجتماع بهم . وليس هذا خاصاً بالأدباء ، فكذلك الذين يعنون بالعلوم الرياضية هم أشد حنقاً على الأدباء من الأدباء عليهم ، لا يتركون فرصة دون ذكر النوادر عن الأدباء والشعراء ، وقد يتمادى بعضهم فيستهزىء بلغة العواطف والنسيم والطلول وهند وليلى ومجنونها ، وتراهم (أو على الأقل يتظاهرون) بأنهم لا يفهمون معنى لأبيات يتخللها وصف بديع أو مجاز بليغ . هذا صراع موجود لا يمكننا إنكاره . وقل أن تجد أديباً أو شاعراً يعنى بالأرقام ، كما أنه قل أن تجد رياضياً يعنى بالأدب أو الشعر . وأصبح الجمع بين الرياضيات والأدب والشعر فى شخص واحد من الخوارق ، بل من ضروب الشذوذ التى تثير الدهشة والاستغراب . فاذا قيل هذا أديب أو شاعر ، فمعنى ذلك ضمناً أنه يمج الرياضيات ويكره كل شىء يحتوى على الأرقام والمعادلات . واذا قيل هذا رياضى فمعنى ذلك ضمناً أنه يكره الأدب والشعر ، ولا يفهم إلا الملموس المحسوس ، ولا يتكلم إلا بلغة الأرقام . ولكن برغم ذلك فاننا نجد أشخاصاً رعوا وبرزوا فى الناحيتين ، وكان لهم فيهما جولات موفقات ، فهناك رياضيون اعتنوا بالأدب ووجدوا فيه تسلية ، وسحرهم الشعر وفنونه ؛ ووجدوا فيه ملهاة ، ولم تمنعهم الرياضيات من النظم أو من الغوص على كنوز الأدب ،

بل قد بلغ في بعضهم حب الجهتين أن استعمل الشعر في التعبير عن القوانين والمعادلات الرياضية . واذا اطلعت على كتاب (مخطوط) للبيروني : (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) رأيت أدباً عالياً ، ودقة في التعابير بالغة الدرجة العليا من الاجادة . وهناك شعراء عكفوا على دراسة الرياضيات والفلك ، وشعروا بلذة في دراستهما ، وبلغوا فيهما ذروة عالية يحسدهم عليها الكثيرون .

لا أعرف شاعراً أو شاعرة قبل زرقاء اليمامة نظم شعراً وضمنه مسألة حسابية . ومما لاشك فيه أنها لم تكن تقصد وضع معضلة رياضية في قالب شعري ، إنما جلّ مافي الأمر أنها كانت حادة البصر ، وقد رأت سرباً من الطيور ، فرغبت في وضع عدده شعراً . وأرجح أن إيجاد العدد يحتاج الى عملية حسابية يعجز عنها الكثيرون من فحول الشعراء وكبار الأدباء ، أما الأبيات فهي :

ليت الحمام ليه ونصفه قديه
الى حمامتيه صار الحمام ميه

والمعنى المقصود من هذين البيتين أنه اذا أضيف الى هذا السرب نصفه وحمامة واحدة لكان حاصل الجمع مئة ، فاذا أخذت الحمامة كان الباقي تسعاً وتسعين ، وهذا العدد يعدل عدد الحمام ونصفه ، أي أن عدد الحمام ست وستون . وقد علق النابغة الذبياني على هذه الأبيات ، ويظهر منها أنه يعرف عدد الطيور مع أنه لم يذكر ذلك صراحة . قال النابغة :

أحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت الى حمام شراع وارد الثمد
يحفه جانباً نيق وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
قالت : ألاليتما هذا الحمام لنا الى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما زعمت تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها وأسرعت حسبة في ذلك العدد

واذا اطلعت على ديوان أبي نواس وقد غمره الحب والخمر واستوليا عليه ودخلا في كل أعماله الصغيرة والكبيرة ، أقول اذا اطلعت على ديوانه العجيب الغريب وجدت فيه بعض أبيات أشار فيها الى تقسيم قلبه بين جنان حبيبته والساقي والعشاق تقسيماً حسابياً غريباً في بابه . وإليك تقسيمات أبي نواس :

جنان حصّلت قلبي فما إن فيه من باق
لها الثلثان من قلبي وثلثا ثلثه الباقي
وثلثا ثلث مابقي وثلث الثلث للساقي
فتبقى أسهم ست تجزأ بين عشاق

ولقد وجد في العرب من استطاع أن يضع كثيراً من الطرق والقوانين التي تتعلق بالأرقام والأعمال الأربعة شعراً . واعتنى بعض علماء الرياضة بالشعر والأدب ، ورغب غير واحد منهم في وضع الجبر شعراً ، فابن الياسمين وضع أرجوزة في علم الجبر وقد شرحها كثيرون . وفي هذه الأرجوزة نجد خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التي يجدها القارىء في كتب الجبر الحديثة . وتدل الأرجوزة على تضلع الناظم في الجبر وبُعد غوره فيه ، على أن ثروته الأدبية لايستهان بها ، وتدل أيضاً على أن لديه شاعرية قوية قد لانجدها في كثيرين من شعراء زمانه ، واني أعتقد أنه لولا إحاطته بالجبر والشعر إحاطة كلية لما استطاع أن يضعها في قالب سلس جذاب . ولدينا نسختان من أرجوزة ابن الياسمين ، أخذنا الأولى عن مخطوطة قديمة موجودة في المكتبة الخالدية في القدس وهي (شرح الياسمينية للمارديني) ، والثانية أرسلها الينا الصديق الأديب عبد الله كنون من شباب طنجة بالمغرب ومن نجومها اللامعة في سماء الشعر والتاريخ .

ولنرجع الى الشعر الموجود في أرجوزة ابن الياسمين فنجد أنه يبدأ بذكر خواص القواعد الأربع الأصلية وشرح طرق حلها للأعداد الصحيحة والكسرية ، وبعد ذلك ينتقل الى علم الجبر فيقول :

على ثلاثة يدور علم الجبر المال والأعداد ثم الجذر

ثم يفسر كل واحد من هذه الأشياء الثلاثة بقوله :

فالمال كل عدد مربع والجذر واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق مالم ينسب للمال أو للجذر فافهم تصب

من هنا يفهم أن المال هو كل عدد مربع ، والجذر أحد ضلعيه ، والعدد المطلق هو الذي لم ينسب الى جذر ولا الى مال ولا الى غيرهما ، فالاثنان (مثلاً) عدد

والجذر والشيء بمعنى واحد كالقول في لفظ أب ووالد

أي أن الجذر والشيء مترادفان ، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال

إن الجذر هو العدد المجهول ويعبر عنه بالحرف (س) في علم الجبر وعلى ذلك يكون المال (س^2) . ثم يبحث ابن الياسمين في المعادلات وأقسامها وأنواعها وطرق حلها ويأتي بعد ذلك على شرح طريقة إكمال المربع لحل المعادلة ذات الدرجة الثانية ، وإذا تتبعت خطواتها بالدقة تجدها هي بنفسها الخطوات المتبعة في الكتب الجبرية الحديثة .

فربع النصف من الأشياء … واحمل على الأعداد باعتناء
وخذ من الذي تناهي جذره … ثم انقص التنصيف تفهم سره
فما بقي فذاك جذر المال … وهذه رابعة الأحوال (١)

ولم يستطع العرب أن يدركوا القيم السالبة ، أي أنهم لم يعتبروا من جذور المعادلة إلا الموجب . ثم يشرح طريقة استخراج المجهول في المعادلة التي يكون فيها معامل (س^2) غير الواحد ، وهي نفس الطريقة التي نجدها في كتب الجبر للمدارس الثانوية . وأعطى طرقاً لكيفية حل بعض المعادلات التي تكون في أوضاع مخصوصة مثاله :

فاجمع إلى أعدادك التربيعا … واستخرجن جذرها جميعا
واحمل على التنصيف ما أخذنا … فذلك الجذر الذي أردنا (٢)

ولم يقف ابن الياسمين عند هذا الحد ، بل نجده يشرح بعض النظريات التي تتعلق بالقوى والأسس وطرق ضربها في بعضها وقسمتها على بعضها . ولم ينس أيضاً أن يذكر معنى كلمتي (جبر) و (مقابلة) فقال :

وكل ما استثنيت في المسائل … صيره إيجاباً مع المعادل
وبعد ما يجبر فليقابل … بطرح ما نظيره يماثل

ولولا الخوف من الملل الذي قد يتسرب إلى القراء ولا سيما الأدباء منهم لأتينا على شرح هذين البيتين تفصيلاً . ولقد سبق أن شرحت معنى الكلمتين (جبر) و (مقابلة) في مقالي في المقتطف.

وتنتهي الأرجوزة بالصلاة والسلام على النبي .

ويوجد شعر كثير حوى مسائل حسابية وهندسية ومعضلات فلكية من الصعب فهمها وقد يكون حلها أيضاً .

وفوق ذلك أخذ الشعراء بعض الاصطلاحات والأسماء والآلات الفلكية والرياضية واستعملوها في شعرهم فقد كتب أبو اسحاق الصابي في يوم مهرجان مع اصطرلاب أهداه إلى عضد الدولة ما يلي :

أهدى إليك بنو الآمال واحتفلوا … في مهرجان جديد أنت مبليه
لكن عبدك إبراهيم حين رأى … علو قدرك عن شيء يدانيه
لم يرض بالأرض مهداة إليك فقد … أهدى لك الفلك العالي بما فيه

وكتب أيضاً مع زيج أهداه — والزيج هو كتاب يتضمن جداول وحسابات فلكية :—

أهديت محتفلاً زيجاً جداوله … مثل المكاييل يستوفى بها العُمر
فقس به الفلك الدوار واجر كما … يجري بلا أجل تخشى وينتظر

ومما كتب إليه في يوم نيروز مع رسالة هندسية من استخراجه :

رأيت ذوي الآمال أهدوا لك الذي … تروق العيون الناظرات محاسنه
وحولك خزان يحوزونه وما … له منك إلا لحظ طرف يعاينه
ولكنني أهديت علماً مهذباً … تروق العقول الباحثات بواطنه
وخير هدايانا الذي إن قبلته … فليس سوى تامور قلبك خازنه

وأخذ بعضهم من الأفلاك والكواكب ومن الظواهر الطبيعية والفلكية ميداناً لنظم الشعر ومسرحاً للخيال ؛ قال أحدهم ، ولا يحضرني اسمه الآن :

اما ترى الزهرة قد لاحت لنا … تحت هلال لونه يحكي اللهب
ككرة من فضة مجلوة … أوفى عليها صولجان من ذهب

وقال التهامي في البقع السوداء التي تظهر على سطح القمر :

فبات يجلو لنا من وجهها قمراً … من البراقع لولا كلفة القمر

---

(١) أي أنه إذا كان لديك معادلة من الدرجة الثانية : مثال ذلك : مال وعشرة أجذار (أو أشياء) تعدل ٧٥ أو بالتعبير الجبري الحديث $\text{س}^2 + ١٠\,\text{س} = ٧٥$ فالنصف من الأشياء يعدل $\frac{١٠}{٢} = ٥$ وتربيعه يعدل ٢٥ ؛ ثم احمل على الأعداد باعتناء أي أضف الـ (٢٥) إلى الـ (٧٥) فيكون الناتج (١٠٠) ثم خذ جذر المئة وهو عشرة واطرح بعد ذلك منه التنصيف أي اطرح الخمسة من العشرة فيكون الباقي (٥) وهو جذر المال أي مقدار جذر المعادلة . وإذا أردنا أن نتتبع الطرق التي نعرفها والموجودة في كتب الجبر يكون الحل على الصورة الآتية $\text{س}^2 + ١٠\text{س} = ٧٥$ ، $\text{س}^2 + ١٠\text{س} + (\frac{١٠}{٢})^2 = ٧٥ + (\frac{١٠}{٢})^2$ $\text{س}^2 + ١٠\,\text{س} + ٢٥ = ١٠٠$ أي ان $(\text{س} + ٥)^2 = ١٠٠$ $\therefore \text{س} + ٥ = ١٠$ $\therefore \text{س} = ٥$ مهملين بذلك القيم السالبة

(٢) إذا كانت المعادلة في هذا الوضع : $\text{س}^2 = \text{حـ}\,\text{س} + \text{د}$ فاستخراج جذرها يكون :

$$\text{س} = \frac{\text{حـ}}{٢} + \sqrt{(\frac{\text{حـ}}{٢})^2 + \text{د}}$$

وقال ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وجاء فى سقط الزند للمعرى وصف للسماء ومافيها من اجرام وقد صُوّرت أحسن تصوير فى قالب شعرى جيل :

كأن سهاها فى مطالع أفقه ... مفارق إلف لم يجد بعده إلفا

كأن بنى نعش ونعشاً مطافل ... بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا

كأن سهاها عاشق بين عوّد ... فآونة يبدو وآونة يخفى

كأن قدامى النسر والنسر واقع ... قصصن فلم تسم الخوافى له ضعفا

وجاء أيضاً :

سقتها الذراع الضيغمية جهدها ... فما أغفلت من بطنها قيد أصبع

بها ركز الرمح السماك وقطعت ... عُرى الفرع فى مبكى الثريا بأدمع

ويستبطأ المريخ وهو كأنه ... إلى الغور نار القابس المتسرع

وتبتسم الأشراط فجراً كأنها ... ثلاث حمامات سد كن بموضع

وتعرض ذات العرش باسطة لها ... إلى الغرب فى تغورها يد أقطع

وجمع الشيخ اليازجى أسماء البروج فى ثلاثة أبيات فقال :

من البروج فى السماء الحمَلُ ... تنزل فيه الشمس إذ تعتدل

والثور والجوزاء نعم المنزله ... وسرطان أســـد وسنبله

كذلك الميزان ثم العقرب ... قوس وجدى دلو حوت يشرب

وقال أبو العباس ابن الخليفة المعتز بالله فى مخاطبة القمر :

ياسارق الأنوار من شمس الضحى ... يامثكلى طيب الكرى ومنغصى

أما ضياء الشمس فيك فناقص ... وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل ... متسلخ بهقا كلون الأبرص

ولا يمكننا فى هـذه العجالة الاتيان على أكثر ماقاله الشعراء وعلماء الفلك والرياضة فى مبادىء العلوم الرياضية والفلكية فهو أجل من أن يحاط به فى مقالة أو مقالتين آملين العودة إلى البحث فيه بصورة أوسع وأوفى للمرام .

(نابلس) ... قدرى حافظ طوقان

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٦ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

المأساة فى خلال القرون

لعلك تذكر أنى أشرت عند الـكلام عن منشأ الرواية إلى أن أصل المأساة هو تلك الأناشيد التى كان يغنيها القيان (الخورس) إجلالاً لباكوس إلـه الخمر يوم عيده . وكلة (تراجيدى) اليونانية لا تزال تحمل دليل هذا الأصل . فمعناها غناء الجدى ، وهى مركبة من كلتين : (تراجوس tragos) : جدى ، و(أودى ôdê) : غناء . وذلك لأن الجدى كان مخصصاً للقربان فى ذلك اليوم ، ولأن القيان كن ينشدن تلك الأناشيد أثناء ذبحه . وقلت إن (إيسخيلوس) وضع الحجر الأول فى بناء المأساة ، ولـكن اسخيلوس (٥٢٥ — ٤٥٦ ق م) هو الذى صورها وسوّاها بخلقه الحوار ؛ ثم أبقى على القيان ، وبث فى المأساة الرعب على الأخص ، وجعل تصريف الأشخاص بيد القدر . وجاء سوفوكليس (٤٩٥ — ٤٠٥ ق م) فقلل من عمل القيان ، وأضعف من شأن القدر ، وعزا جزءاً من العمل إلى أهواء الانسان وحريته ، وأحكم العقدة الروائية . وأشهر مآسيه أنتيجون ، وإلـكترا ، وأوديب الملك ، وفيلوكتيت . ثم كان أوريبيدس (٤٨٠ — ٤٠٢ ق م) فكاد يلغى القيان ، وأخفى أثر القدر من رواياته ، وجعل الأمر كله لتصارع الأهواء ، وبث فيها الرحمة على الأخص . وأطلق عليه أرسطاليس اسم أمير المأساة . ولـكنهم أخذوا عليه الاغراق فى تعقيد العمل ، والالتجاء إلى معونة الآلهة فى الحل ، وحشوه القطعة بالحكم الفلسفية . وأشهر مآسيه ألسست وهيكوب وإيفجيني وأوليس . ثم نضبت قرائح اليونان من المأساة بعد أوريبيدس فلم ينبغ فيها منهم أحد .

أما الرومان فيلهم الغريزى إلى المشاهد الوحشية الدموية

كمصارعة الوحوش والثيران أزهق فيهم روح الفن الروائى ، وشغلهم عن إجادة المأساة . وما نستبوه من المآسى إلى سنيكا (٦١ ق م — ٣٠ ق م) ليس إلا تطبيقات مدرسية صيغت فى أسلوب روائى . ثم درست معالم المأساة ، وانقضى أمرها فى العصور الوسطى ، فلم تعد ثانية إلى الظهور إلا مع النهضة العامة فى القرن السادس عشر . ظهرت فى فرنسا واستمدت موضوعاتها من الأساطير اليونانية واللاتينية ، واقتبست قواعدها من الأدب القديم ، حتى جاء اسكندر هاردي فاستقاها من موارد الاسبان والطليان أيضاً . وظلت المأساة على هذا النحو من التقليد والفوضى حتى أدركها كرنيي زعيم المسرح الفرنسى ، وخالق المأساة الحديثة ، فزاد على غرضيها الأولين وهما الرعب والرحمة ، غرضاً ثالثاً وهو الاعجاب ، وحصر أسباب هذه الأغراض الثلاثة فى قلب الرجل وهواه ، ووصف الناس كما ينبغى أن يكونوا ، وجعل الخلق الغالب على أشخاصه النبل والبطولة ، وضحى بالهوى على مذهب الواجب ، وأضعف أثر الحب فى رواياته ماعدا « السيد » . ثم أعقبه راسين فحرك الرحمة فى النفوس على ضحايا الأهواء ، ولا سيما ضحايا الحب والغيرة ، وأرخى عقدة الرواية إيثاراً لجاذبية التصوير الخلقى على جاذبية التعقيد الروائى ، وجعل للحب المحل الأول فى رواياته ، ووصف الرجل كما هو لا كما ينبغى أن يكون كما فعل كورنيي . ثم يأتى ڤولتير فى حسن الأثر وعظم الفضل ثالثاً لكورنيي وراسين ، ولكنه دونهما فى البراعة والاجادة . فقد أنكر النقاد عليه مزجه الحكاية بالفلسفة ، وقصوره عن تصوير أخلاق أشخاصه ، غير أنهم يذكرون له حسن صنيعه فى تقويته حركة العمل الروائى ، وحرصه على حفظ اللون المحلى فى المسرح

* * *

ثم جاء القرن التاسع عشر ، وظهر المذهب الابتداعى فهاجم المأساة وطاردها فى المسارح حتى قضى عليها ، واستبدل بها المأساة العصرية أو الدرامة ، ولم يبق من أنصارها المؤلفين فيها والناضلين عنها إلا تلما Talma المتوفى سنة ١٨٢٦ ، وراشيل المتوفى سنة ١٨٥٨ ، ودلاڤنى المتوفى سنة ١٨٦٨ مؤلف لويس الحادى عشر وأطفال إدوار . ثم بنسار المتوفى سنة ١٨٦٧ مؤلف لكريس ، وأنييس دميورانى ، وشرلوث كردى . وقد ظل هذا الكاتب حيناً من الدهر زعيم المعارضة لفكتور هوجو عميد المذهب الابتداعى .

أما أمر المأساة فى غير فرنسا فقد كان ساقط الشأن قليل الجداء ، اللهم إلا فى انجلترا فقد ألف شكسبير جملة من المآسى الخالدة كروميو وجوليت ، وعطيل ، والملك لير ، ومكبث ، وهملت ، ويوليوس قيصر ، وانطوان وكليوبطرة ، وكريولان . وكلها ماعدا الثلاث الأخيرة مقتبسة من التاريخ الحديث

تحليل موجز لأشهر المآسى

نريد بتحليل ما اخترناه من المآسى الرائعة الكشف عن هيكلها المظمى ليتبين القارىء فيها كيف يتوزع العمل فى الفصول وتتدرج الجاذبية فى الحادث ، وتراعى الوحدة فى الموضوع ، وتسير الرواية على حكم ما قرأ من القواعد . وسنختار ما نحلله مما خلد على الدهر وعلق بالقلوب من روائع كورنيي وراسين وڤولتير وشكسبير عسى أن يكون فى اختصارها له حادياً لقرائها ودراستها . . . .

مآسى كورنيي :- (السيد Le Cid)

وقعت حوادث هذه المأساة فى أشبيلية أواخر القرن الحادى عشر فى ساحة من ساحات المدينة ، ثم فى دار كُنْت جُرماس ، ثم فى قصر الملك . وأهم أشخاصها : الدون ديبيج أبو ردريج ، والدون جوميز كنت جُرماس أبو شيمين ، وردريج حبيب شيمين ، وشيمين خطيبة ردريج ، والدون فردناند الأول ملك قشتاله ، والدون سانش منافس ردريج فى حب شيمين . وموضوعها زواج ردريج من شيمين ، والحيلولة دونه بلطمة الكنت للدون ديبيج ، وانتقام ردريج لأبيه من والد خطيبته

ففى الفصل الأول : بينما كانت أسرتا الأميرين (دون ديبيج ودون جوميز على وشك الاتصال بالمصاهرة أسند الملك امارة (الانفانت) إلى الدون ديبيج ، وكان الدون جوميز يرى نفسه أحق بها وأهلها . فيتلاقى الأميران وهما خارجان من مجلس الملك وتستعر بينهما نار الجدل حتى يلطم الدون جوميز صاحبه لطمة يريد أن يدفع عارها عنه بالسيف فيخونه عزمه ويظهر عليه خصمه . فليجأ إلى ولده ردريج يطلب منه أن ينتقم له . فيتردد ردريج هنيهة ، ثم يقول : ها خطتا خسف لا مَعْدى لى عن واحدة منهما : إما مية

الاهانة إلى الأبد ، وإما الانتقام من أبي الحبيبة . ثم لايلبث أن يغلب واجبه على هواه فيقبل .

الفصل الثاني : يأبى الكنت أن يعتذر عن فعلته للدون دييج على الرغم من إلحاح الملك . ويدخل في أثناء ذلك ردريج فيدعوه إلى المبارزة ويقتله . ويعلم الملك فردناند بغزو العرب وقتل الكنت في وقت معاً ، ويبعى الناعى لشيمين أباها فترفض الزواج من ردريج القاتل وتطلب إلى الملك عقابه ، ويتولى الدفاع عن ولده الدون دييج

شيمين (للملك) : أنا أطلب العدل .

دون دييج : اسمع دفاعى .

شيمين : لقد كسر ابها الملك عضادة صولجانك ، وهدم ركنا من أركانك . إنه قتل أبى .

دون دييج : انه انتقم لأبيه !

شيمين : إن من واجب الملك أن يحقن دماء رعيته .

فيسمع الملك لها وله ، ثم يحيل الفصل في القضية إلى مجلسه .

الفصل الثالث : وفي أثناء انتظار الحكم يدخل ردريج على شيمين يسألها أن تقتله هي بيدها ، فتقف موقف الحيرة ملبابين الحقد والحب ، ثم يفوز الشرف فتصرفه من وجهها وهي مصرة على القصاص . ويلقى الدون دييج ولده فيهنئه بفوزه ، ويمدحه على شهامته ، ويرسله إلى قتال العرب وقد أوشكوا أن يفتحوا أشبيلية ، عسى أن يكون بلاؤه الحسن في جهاد العدو وسيلة إلى عفو الملك وصفح شيمين .

الفصل الرابع : يهزم ردريج العرب تحت أسوار أشبيلية ويعود مظفراً بالأسرى وقد لقبوه بالسِّيد — وهي كلمة السَّيد بالعربية محرفة — فيقص على الملك أنباء مجده ونصره ، وتأبى شيمين مع ذلك إلا القصاص . فيجيبها الملك ويأمر بالمبارزة القضائية ، وهي أن تختار من تشاء ليبارز السيد على أن تكون زوجة الغالب ، فاختارت الدون سانش .

الفصل الخامس : يلقى السيد شيمين فيصرح لها أنه لن يدافع عن نفسه ، وانه لم يجىء إلا ليودعها الوداع الأخير فتحاول صده عن عزمه ، ويأبى هو إلا إنفاذه ، فتقول له : «دافع عن نفسك وانقذنى من دون سانش ، وإذا خرجت من المعركة فائزاً كنت لك »

فيخرج من عندها قويا بهذا الوعد وينقض على خصمه فيجرده من سيفه ، ويحكم الملك عليه أن يحمل سيف السيد لشيمين ، فينالها الجزع الشديد ظنامنها أنه قتل ، ولكن الملك يطمئنها على حياته ، ويعلمها أنها تستطيع أن تتزوجه متى كفكف من دموعها الزمن

(**هوراس Horace**) : وقعت حوادثها في روما في غرفة من بيت هوارس عام ٦٦٨ قبل الميلاد . وموضوعها انتصار روما على « ألب » في موقعة شعواء دامية نشبت بين بنى هوراس وبنى كرياس ، ومغزاها إيثار محبة الوطن على محبة الأسرة ، وأهم أشخاصها ملك روما ، والشيخ هوراس فارس رومانى ، وهوراس ولده ، وكرياس أحد أشراف ألب وحبيب كاميل ، وڤالير فارس رومانى وعاشق كاميل ، وسابين زوجة هوراس وأخت كرياس ، وكاميل حبيبة كرياس وأخت هوارس ، وجوليا نجية سابين وكاميل .

الفصل الأول : أزف يوم المعركة الحاسمة بين الرومانيين والألبيين ، فتجد سابين جالسة تشكو الى نجيتها صرامة القدر الذى جذم الحبل بين ألب مسقط رأسها ، وبين روما بلد زوجها ، وتألم لحظها النكود وهمها المتقسم . وتبثها كاميل أيضاً مخاوفها المتوقعة ، وعواطفها المتوزعة ، ويهدىء روع كاميل إشارة من الآلهة ، ولكنها ترى رؤيا تقلق بالها وتقلب حالها . ويقدم خطيبها كرياس فينبئها أن المعركة لن تكون ، وأن قوميهما رأوا حقناً للدماء أن يقصروا المعركة على ثلاثة أبطال من كلا الفريقين ، ويكون فوز الثلاثة فوزاً لقومهم .

الفصل الثاني : يجتمع مجلس الشيوخ الرومانى فيختار للمعركة أبناء هوراس الثلاثة . ويقبل كرياس خطيب كاميل فيهنىء صهره بما أحرز من ثقة وشرف . ويأتيه النبأ بعد قليل بأن مدينة ألب اختارت عنها أبناء كرياس الثلاثة . يتأهب الأبطال للذهاب الى المعركة ، ولكن خطيب كاميل يكره أن يقاتل إخوة حبيبته ، بينا زوج سابين لايرى في أصهاره إلا أعداء لروما وأخصاماً للوطن . وتجهد كاميل وسابين في تخذيل الأبطال عن القتال ، ولكن الشيخ هوراس يقبل فيشجعهم على الحرب ويبعث بهم الى الميدان .

الفصل الثالث : تدخل جوليا فتنبىء سابين وكاميل بأن الأقران برز بعضهم لبعض ، وأن الجيشين أدركتهما الشفقة فعارضا في تقاتل الاخوة ، وطلبا إما المعركة بين الجيشين . وإما الاختيار من غير هاتين الأسرتين . ولكن الشيخ هوراس يقبل

وعلى لسانه الخبر المشئوم بأن الملك استشار الآلهة فى هذا الاختيار فأقروه ، وأن المبارزة بين الاخوة قد بدأت . وتطالع جوليا القتال عن بعد فترى اثنين من بني هوراس يسقطان مجندلين ، والثالث يلوذ بالفرار ، فتبادر القوم بإعلان هزيمة روما . ويتحدم الشيخ هوراس حنقاً وغضباً من جبن ولده . فتقول جوليا : وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة ؟ فيجيبها الأب فى شدة وحدة : يموت ! ثم يقسم الشيخ جهد اليمين ليغسلن عار الرومان بدم هذا الابن الجبان .

الفصل الرابع : ولكن ڤالير وقد شهد نهاية المعركة يعود ويقول : استغفروا الآلهة فقد ظلمتم بطل روما ! انه لما بقى وحده أمام بني كورياس الثلاثة ، وهم يجروحون وهو سليم ، رأى أنه أضعف منهم مجتمعين ، وأقوى عليهم منفردين ، فعمد الى الخديعة وأوهمهم أنه يفر فطلبوه . حتى اذا انفرد كل عن الآخر كر عليهم واحداً بعد واحد فقتلهم ، وبذلك انكسرت ألب ! فتتباغ غصة الشيخ ، ولكن كاميل تجزع على حبيبها جزعاً شديداً يفقدها الرشد فتنحى باللعنة والسخط على أخيها ووطنها . ويدخل حينئذ أخوها المنتصر فيسمعها ، فينزو فى رأسه الغضب ، فيلطخ انتصاره بدم اخته

الفصل الخامس : يحمل هوراس حياته فى يد أبيه تكفيراً عن الجريمة التى ارتكبها ، ويجىء الملك مهنئاً هوراس بفوزه . فيتقدم اليه ڤالير متهماً الأخ بالقتل طالباً موته ، ويستسلم القاتل ليدل الملك . ولكن الشيخ هوراس يتولى الدفاع عن ابنه فيقول : «معشر الرومانيين !! أترضون أن تقتلوا رجلاً لولاه ما كانت روما اليوم ؟ قل لنا يا ڤالير وأنت تريد قتل هوراس : فى أى مكان يقتل ؟ أبين هذه الجدران ، ولاتزال آلاف الأصوات ترن فى جنباتها بأعماله العظيمة ؟ أم فى وسط هذه الساحات ودماء بنى كورياس لاتزال تدخن فيها ؟ أم بين قبورهم الثلاثة فى ميدان الوغى وكلها شواهد على شرف روما وشهامة هوراس ؟ . . .» ثم تكون نتيجة هذا الدفاع البليغ البراءة .

ومما أخذه النقاد على كورنى فى هذه القطعة الخالدة أنه لم يراع وحدة العمل ، فجعل فيها عملين مختلفين ، الأول حرب روما مع ألب ، وينتهى بالمنظر الثانى من الفصل الرابع . والثانى قتل كاميل ومحاكمة هوراس وينتهى بالرواية .

يتبع (الزيات)

شخصية ابن خلدون

فى

كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى

هيأت لى فرصة حسنة قراءة كتاب الأستاذ عنان الأخير عن ابن خلدون وتصفح مقالات بعض كتابنا المصريين فى التعليق عليه ، وبخاصة مقال الدكتور هيكل والأستاذ العقاد . وقد لفت نظرى فى مقال هذا الأخير ملاحظة تتضمن أن عنانا لم يتناول شخصية ابن خلدون فى كتابه ! ولعل الذين درسوا الكتاب يذكرون أن كل فصل من فصوله حوى مادة غزيرة عن هذه الشخصية ، وإن لم يجمع هذه المادة فى فصل مستقل .

فلقد أفاض المؤلف كثيراً فى ذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية أى فى العناصر المهمة التى تقوم عليها كل شخصية . ولعل كتابه وعى من هذه الصفات أكثر مما وعى عن تراثه الفكرى الذى لايزال الكثير منه مبثوثاً فى طى المجهول .

أبرز الأستاذ عنان صورة تقارب الحقيقة من صفات ابن خلدون النيرة والمظلمة أبرزها كما هى بين النور والظلمة ، كما يفعل النابهون فى كتابة التراجم . ووقف من شخصيته موقفاً نزيهاً . فلم يقف منه موقف المحامى الذى يدافع عن الحقيقة حيناً ، ويستخدم فصاحته فى الظفر أحياناً ، بل وقف موقف القاضى النزيه الفطن الذى لا همّ له الا الوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة دون سواها . وهذا هو موقف المؤرخ العلمى .

فها نحن أولاء نراه لايقطع برأى فى خلال ابن خلدون حتى يرجع إلى الثقات الأذكياء من المؤرخين ، ويتخذ مقاييسه فى الحكم من أعماله وتصرفاته . ونراه أيضاً يربأ بضميره أن يطاوع بعض الكتاب فى الزراية بابن خلدون ونسبة القبيح إليه ، لئلا يكونوا قد اندفعوا فى هذا السبيل جريا وراء الانفعال الأعمى أو العاطفة المهوجاء . وهذا مانوافقه عليه ، وبخاصة إذا علمنا أن لابن خلدون

أعداء حداداً أسرفوا فى ذمه ، وتدفقت أقلامهم فى الطعن عليه غيرة منه وحقداً .

* * *

وقد حفل الكتاب بذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية إلا أنه مر مر الكرام على صفاته الجثمانية ومظهره الخارجى . فقد نقل إلينا المؤلف عن السخاوى أن ابن خلدون كان فصيحاً مفوها جميل الصورة ، ونقل عن ابن حجر أنه كان يتمسك بزيه المغربى ، ولم نعثر فى الكتاب على شىء من ملامح وجهه وسمات جسمه ، ولا أعلم ما إذا كانت هناك مادة فى هذه الناحية تعمد المؤلف إغفالها لأن بحثها ليس من عمله ، بل من عمل الفنان والأديب ، أو أنه لم يجد هذه المادة فى كتب القدماء كما هى مع الأسف عادتهم فى إغفال صفات الجسم ، ولعل هذا هو الأرجح .

* * *

ومن حسن الحظ أن المؤلف أمدنا بمادة وافرة عن خلال ابن خلدون وخلقه ، فنقل إلينا طائفة من أقوال الكتاب الأذكياء أمثال المقريزى والسخاوى وابن تغرى بردى ، والجمال البشبيشى ، والعنتابى ، وابن الخطيب ، وابن حجر . فذكر أن المقريزى وكان تلميذاً له وسمه بسمات حميدة وذكره بالخير ، ولسان الدين بن الخطيب ، وكان من معاصريه ، نعته بحسن الخلق والطموح وعلو الهمة ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى أشاد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء بقوله : « إنه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته » وأبو المحاسن من ثقات المؤرخين المصريين .

إلى جانب هذه الصورة النبيلة لابن خلدون نجد أقلاما ضئيلة مسمومة تشوه صورته وتبهت عليه ، وتزرى بخلقه ، وترميه بالتهمة المؤذية الجارحة . فالعنتابى مثلاً ذكر أن ابن خلدون كان يتهم بأمور قبيحة (ص ٩٤) — والجمال البشبيشى اجترأ بقوله إن ابن خلدون كان فى أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومباشرة الأحداث ، وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ! (ص ٩٤)

* * *

جمع الأستاذ عنان هذه الأقوال وعلق عليها بقوله : « إنها أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ، ومبالغة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف » وقد يكون الأستاذ محقاً فى هذا التعليق لأن نسبة أمثال هذه التهم إلى هذا العبقرى بلا سند ، مما لا يقبله الضمير النزيه ، وقد تكون هذه التهم أراجيف أذاعها الكاشحون عن قصد وتعمد ولا ظل للحقيقة فيها ، فليس على الأستاذ المؤلف من غبار إذا حكم حكمه الحاسم ، واحتقر هذه التهم كى لا يجرى الوهم إلى تصديقها ، وتصير فى الأذهان اعتقاداً وهى بمجرد إرجاف ومراء .

ومع هذا فقد أورد المؤلف كثيراً من صفات ابن خلدون غير المحمودة ، واعتمد فى إيرادها على أقوال ابن خلدون نفسه وأعماله ، فلقد نبى عليه خلتين : أولاها تلونه ووصوليته ، وثانيتهما كبرياؤه وصلفه . أبرز هاتين الخلتين ابرازاً جلياً ، فانه ليقول فى القسم الأول من كتابه أن ابن خلدون كان من عباد الحوادث ، وكان ينتهز الفرص ويسعى لها بأى الوسائل (ص ٢٨) مهما نافت الوفاء والولاء والعرفان (ص ٤٨) وجلا هذه الخلة فى مكان آخر من الكتاب قال : « وكان ابن خلدون يصدر فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة والأخلاق المرعية ، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافللى فيما بعد . » وأشار فى كثير من المواضع الى خلته الثانية من خلاله البارزة وهى خلة الكبرياء ، وهذه الخلة قد تدل على عزة النفس وعظمتها فتكون خلة محمودة ، وقد تكون متغالية فتصير كريهة مذمومة ، ولقد أيد المؤلف تخلق ابن خلدون بها فى بعض الأوقات وأنها كانت سبباً من الأسباب التى جعلت كثيراً من المصريين يناصبون الرجل العداء .

ومن دلائل هذه الخلة مايقوله البشبيشى من أن ابن خلدون كان يكثر الازدراء بالناس (ص ٩٥) وما يقوله ابن حجر فى كتابه رفع الأصر من أن ابن خلدون كان معروفا بخلق الكبر والازدراء بمقام غيره ، وروى أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لأحد منهم ، واعتذر لمن عاتبه على ذلك .

* * *

وأورد المؤلف غير هاتين الخلتين البارزتين خلالاً أخرى عول فى إيرادها على طائفة من الكتاب أثنت على ابن خلدون وأخذت عليه بعض المآخذ ، فمن هؤلاء نذكر ابن تغرى بردى وما قاله فى المنهل الصافى من أن ابن خلدون كان محباً للمنصب ؛ وما

قال ابن الخطيب الذي وسمه بالفضائل الجمة يأخذ عليه الخفة فيقول: «إنه كان بعيداً عن التأني»، وعلل تحامل رجال الدولة عليه إلى هذه الخلة. وابن حجر نقم عليه سوء الأدب أيام كان قاضياً فقال: «كان فظاً جافي الطبع، وكان يعزر الخصوم بالصفع».

ولم يقتصر المؤلف في سوق هذه الحقائق على أقوال الكتاب السالفين، ولكنه اعتمد في ذكرها على أقوال ابن خلدون نفسه في كتاب — التعريف — وهذا الكتاب هو ترجمة ابن خلدون لنفسه. وهذا التعريف الذي تركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته قطعة فريدة في الأدب العربي، فهو صورة حقيقية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة، رسمت في كثير من الحرية والصراحة، حتى إنها لتفصح في كثير من المواطن عن خلال صاحبها، وليست هذه الخلال دائماً مما يحمد أو مما تقره الأخلاق الفاضلة، فهنالك الكبرياء والزهو والأثرة، وهنالك الطمع وحب التقلب وشغف الدس، وانتهاز الفرص بأي الوسائل، ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة، هذه الخلال كلها أو بعضها تلمحها من آن لآخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه (ص ١٤٠).

***

وبعد هذا الدرس الطويل الحر لخلق ابن خلدون كشف الأستاذ عنان في الجزء الثاني من كتابه ركناً من أركان شخصية ابن خلدون المضيئة، وهذا الجزء يلقي ضوءاً قوياً على عبقرية ابن خلدون، تلك العبقرية التي صيرته موضع إجلال السلاطين والملوك وذوي النفوذ والجاه، فهاهم سلاطين المغرب والأندلس يخطبون وده، وهاهم بنو عريف يكرمون مثواه وينزلونه ضيفاً عزيزاً مع أسرته بأحد قصورهم أربع سنين، وها هو شعاع العبقرية يسبقه إلى مصر المتحضرة، فيلقاه أهلها بالحفاوة والتعظيم، ويولونه التدريس في الأزهر التائه في ذلك الحين، ثم يتولى بعد ذلك قضاء المالكية عدة مرات، وهاهم الكتاب يجمعون على قوة عقله وحدة ذكائه وعلو تفكيره، حتى أنصفه الحاقدون عليه، فجمال الدين البشبيشي وهو من ألد خصومه اعترف له بالفصاحة والتفوه، وابن حجر الذي زرى عليه خلقه، يظهرنا على ناحية من نواحي عقله يقول: «كان لسناً فصيحاً حسن الترسل وسط النظم، وكان جيد النقد للشعر، وإن لم يكن بارعاً فيه» (ص ٩٣).

ولقد كشف لنا الأستاذ عنان عن عبقرية هذا الرجل الفذ وعن شاعريته أيضاً، وأتى بقليل من قصائده، وأبان أن هذه القصائد كان يطبعها طابع الروح الصوفي، وهذه الأبيات تجري بين دفتي الكتاب كالنهر العذب في الأرض المثمرة، ولقد أضاف المؤلف في القسم الثاني من كتابه آراء كتاب الافرنج في عبقرية ابن خلدون وتراثه الفكري. فذكر ما قاله جمبلوفتش من أن ابن خلدون درس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأنه أتى في هذا الموضوع بآراء عميقة (ص ١٥٢) وذكر أيضاً ما قاله فون كريمر من أن ابن خلدون تر يدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري.»

***

وأظن بعد هذا البيان يمكن للقارىء أن يخرج بصورة صحيحة عن شخصية ابن خلدون، صورة لا تشيع فيها ولا تحيز، ظهرت فيها الظلال كما ظهرت فيها الأنوار. وهذا المنحى الذي نحاه الأستاذ عنان في درس هذه الشخصية جدير بالتفات كتابنا المصريين المغرمين بتراجم العظماء، ولعل الذين وقع في وهمهم أن كتاب عنان لم يتناول شخصيته، يصححون رأيهم بعد هذا البيان الموجز.

***

وأحب قبل أن أختم هذه الكلمة أن أدعو القراء إلى قراءة هذا الكتاب القيم ليتذوقوا فيه حرية البحث ونزاهة الحكم، ودقة الأسلوب وثباته وإيجازه ورزانته.

وأسمح لنفسي بعد هذا أن أهنىء الأستاذ المؤلف على كتابه، فلقد أعجبت به وبخاصة بالفصل الذي عقده عن «ابن خلدون والتفكير المصري» الذي أبان لنا فيه خلق ابن خلدون وأوقفنا على تفكير المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري. وأعجبت كذلك بالفصل الذي عقده عن «ابن خلدون والنقد الحديث لأعلام الغرب».. والذي كشف به عن تفكير ابن خلدون الدقيق الذكي.

وأرجو الله أن يزيد المؤلف قوة ليتم ما أخذ به نفسه من التنقيب عن التاريخ الاسلامي، وحياة أعلام مصر النابهين.

(ميت غمر) مصطفى عبد اللطيف السحرتي المحامي

٢ — مشهد ومكة

للأستاذ أمين الخولي
المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

أصبح من الواجب أن أعود الى الحديث عن مشهد ومكة ، إذ عاد الأخ الأستاذ عبد الوهاب عزام الى الموضوع ، ففتح أبواباً كثيرة للكلام ، وإنها لحقيقة من حقها علينا أن تتجلى وتتكشف

* * *

ويأذن لى القارىء أن أرسل أول الأمر تحية خالصة الى الأخ فى حله ورحيله ، ودعوات صالحة بأن يوفقه الله دائماً ، وسلاماً اليه . . . ثم سلاماً على عبارات مهتاجة وردت فى كلمته التى رد بها

كل ما فى الأمر : ١ — أن الأستاذ قال مالفظه : « وأفظع من هذا — أى الخطأ كله ؛ قوله — الرحالة — عن اخواننا شيعة ايران أنهم يفضلون مشهداً على مكة » . فقلت له : « لا خطأ ولا فظاعة ، لأن فلاناً العالم الشيعى قال فى كتاب كذا صفحة كذا نقلاً عن كتاب البحار الذى يعد من أمهات كتب الشيعة : « إن كربلاء أفضل من مكة » ، فلا خطأ » . قضايا محدودة ، قصيرة ، وجيزة ، واضحة ، متقابلة الأطراف ؛ لا أجد فيها محلاً للمخالفة . . . وليس يقال مع هذا التحديد إنى مجازف فى الاستشهاد بكتب الشيعة قبل الاطلاع عليها ، لأنى قرأت بلا شك ما نقلت ، وقلت بقدر ما قرأت وفهمت . قرأت فى كتاب شيعى عن كتاب شيعى من أكبر إن لم يكن أكبر ما يرجع اليه فى بيان عقائد الشيعة ومذاهبهم ، كتاب عن كتاب ، فهناك على الأقل جمع منطق أيسره اثنان . . . ثم ماذا قرأت ؟ قرأت أخباراً تنعتها كتب الشيعة بأنها متواترة أى رواية جمع عن جمع ، كما تنعتها بالكثرة ، ويدل مرجعى على مكانها من أجزاء الكتاب الكبير الذى يعزو اليه . . . فدليلى واف بدعواى ؛ وليس من الموضوع فى شىء أنى فرحت بالكتاب أو لم أفرح ؛ وليس يجب فى شىء أن يكون لى بالشيخ مؤلف الكتاب صداقة قوية أو صلة شخصية .

٢ — مع هذا كله يقول الأستاذ عزام فى رده على : « لقد ادعى أن كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل ، ثم لم يرجع الى كتب الشيعة ؛ ولم يتحر أقوال أئمتهم ، ولكنه اكتفى برواية فى كتاب فرد لمؤلف ... الخ » فهل لم أرجع الى كتب الشيعة ؟! . وهل اكتفيت برواية فى كتاب ؟ ! وهل هو كتاب فرد ؟ ! . على أن الأستاذ بعد هذا بقيراط من الورق ذكر « كتب الشيعة » وما فيها مرتين ، فنتوقع من صاحب اللاحظة السابقة أن يحتج من « كتب الشيعة » بأقل الجمع ولو عند المناطقة وهو اثنان ، ولكنك لاتراه يذكر إلا كتاباً فرداً هو « وسائل الشيعة الى أحكام الشريعة » على حين يكرر الحديث عن قراءاته وخلاصة قراءاته فى كتب الثقات ، ويتحدث عن قراءاته فى كتب الثقات وهو ذاكر أنى اكتفيت بكتاب فرد ، وأنه لا يرى ذلك ، فكيف يجىء هذا ؟! .

٣ — لما أراد الأخ الأستاذ نقد خبر الرحالة « تفضيل الشيعة مشهداً على مكة » استنتج استنتاجاً وقال : « وكيف يعقل أن أمة مسلمة ... الخ » فسلمت له اختصاراً واقتصاراً أن هذا غير معقول ، وقلت عرضاً إن مالا يعقل قد يعتقد ، وان العقل ومنطقه شىء ، والاعتقاد وسلطانه شىء آخر . فقال أعزه الله : إن هذه فلسفة لم يتهيأ هو لفهمها . فليسمح لى اذن أن أقول فى غير فلسفة :

ا — إن من المعقول أن يكون الحج إلى مكة فرضاً وأن تفضل الشيعة مع ذلك مشهداً على مكة ؛ فالأخ يعرف أن الوقوف بعرفة ركن فى فريضة الحج ، ويعرف أن زيارة الرسول عليه السلام ليست ركناً فى تلك الفريضة ولا واجباً ؛ ويعرف فى الوقت نفسه أن المسلمين جميعاً يفضلون زيارة الرسول عليه السلام ويتطوعون بهذه الزيارة فى غير موسم الحج من أيام السنة ؛ ويشدون الرحال لها ، ويتمنون المجاورة بالمدينة المنورة ، ويؤثرون الموت فيها ، ولا أعرف واحداً منهم جاور بعرفة أو حرص على زيارتها . فتفضيل مشهد على مكة يتفق تعقله مع كون الحج إلى مكة فرضاً . هذا هو القدر المعقول فى المقام ، والذى يتصل بفرضية الحج إلى مكة وتفضيل مشهد عليها .

ب — لكن الأستاذ عزاما لا يقول هكذا ، بل يقول : « وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن

الحج إلى مكة فرض ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة » . ولنا هنا مواقف : إن الرحالة ناقل مخبر ، ولا يرد الخبر بهذا الاستنتاج العقلي ؛ فإثم التناقض على المفضلين لا على المخبر . ولا يقال لناقل الخبر إنك خاطىء ، بل يقال إنه كاذب أو غافل أو غير متحرٍ وما إلى ذلك .

على أنا لو جاوزنا هذا نرى التناقض المعقود غير ما نحن فيه . فخبر الرحالة أو دعواه — إن شئنا — أن الشيعة تفضل مشهداً على مكة ؛ وكذلك تقول عبارة الأستاذ عزام في نقده ، وتفضيل مشهد على مكة غير تفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة ؛ ولا يلزم من تفضيل مشهد على مكة تفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة ، كما لا يلزم من تفضيل مسجد الرسول عليه السلام على عرفات تفضيل زيارته على الوقوف بعرفة ؛ ولن ننسى أن الرحالة — في نقل الأستاذ عزام — يخبر بتفضيلهم مشهداً — لا زيارتها — على مكة — لا على الحج إليها —

والعجب أن الأخ الأستاذ يقحمني أيضاً في مسألة الزيارة والحج ويضع في رده خطاً تحت قوله « زيارة مشهد أفضل من الحج » كأني كنت فيما كتبت مشتغلا بنقد استنتاجه لا بتصحيح خبر الرحالة من كتاب شيعي غير عامي ؛ والأستاذ بذلك يقول عني إني أدعي « على بعض المسلمين أنهم يفضلون زيارة كربلاء على الحج وهو قاعدة من قواعد الإسلام » وأنه فاتني التثبت في ذلك الادعاء . . الخ . . ومن الفكه أن لفظتي « حج » و « زيارة » لم تردا في كلمتي مطلقاً ، بل لم يقعا كذلك فيما استشهدت به من كلام العالم الشيعي المحدث مطلقاً ؛ ولم تردا إلا في الفقرة المنقودة التي نقلتها من كلام الأخ عزام ، فكيف حملني عبء هذا الادعاء ؟ لا أدري ! ولعله هو يدري .

وأخيراً ، نقل الرحالة ثابت تفضيل الشيعة مشهداً على مكة متفق مع ما ينقله عالم شيعي عن عالم شيعي ويعده متواتراً ، وليس يتنافى هذا التفضيل مع فرضية الحج إلى مكة ، وليس يلزم من هذا التفضيل زيارة مشهد على الحج المفروض ، وهذا التفضيل لمشهد على مكة شيء آخر مغاير لتفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة ؛ وأسأل الله لي ولأخي الثبات والتثبت دائماً ؟

أمين الخولي

في تاريخ الأدب المصري

أيدمر المحيوى

تتمة

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

أما الوصف في شعر شاعرنا فهو وإن كان غير مقصود له بالذات يحدثنا كذلك عن بعض نواحي الحياة المصرية ، وبعض الجمال فيها ، يحدثك عن الطبيعة المصرية في زمن الربيع ، فيصفها وصفاً دقيقاً ، ويحدثك عن الاحتفال بوفاء النيل ، فيصفه كأنك تراه ، ويصف لك الأبنية التي بناها الملك الصالح فيجعلك تشعر بالعظمة والأبهة اللتين تمتعت بهما تلك الأبنية . ويصف لك الجيش المصري فتحس بالمجد المصري والقوة المصرية والشجاعة المصرية التي لا تنثني عن قصد ولا تنهزم أمام حصن مهما كان عظيماً .

قال يصف الجيش المصري الذي فتح دمشق :

جيشاً تغص به الأرض الفضاء كما ... ترا كم الغيم يوم الدجن ذا زجل
من الكماة التي تطوى ضلوعهم ... على العزيمة والإقدام لا الفشل
من كل أمضى من الهندي في يده ... عزماً ، وأنفذ إقداماً من الأسل
يكون أثبت يوم الروع من جبل ... راس ، وأجول في الصفين من مثل

ولننصت إليه حين يصف لنا الاحتفال بوفاء النيل ، وكأنه يصف لنا الاحتفال الذي لا نزال نراه بأعيننا في كل عام ، قال :

يوم تجلى الدهر منه بزينة ... لما غدا المقياس وهو مخلق
هو ثالث العيدين إلا أنه ... لهو ؛ ليس على العبادة يطلق
جمعت لمشهده خلائق غادرت ... فيه رحيب البر ، وهو مضيق
وعلى عباب البحر من سباحه ... أمم يغص بها الفضاء ، ويشرق
كادت تبين لهم على صفحاته ... طرق ، ولكن يفتقون ويرتق

ثم مضى يصف الأنوار ، ويصف المليك تحف به حاشيته إلى آخر ما وصف به ذلك اليوم ، فإذا أنت ذهبت تستمع إليه ، وهو يحدثك حديث إبداع عن طبيعة مصر في الربيع سمعته يقول :

الروض مقتبل الشبيبة مونق ... خضل يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلىء عقده ... فالزهر منه متوج ، ومنطق
وارتاع من مر النسيم به ضحا ... فغدت كأنم زهره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه ، فالتقى ... منها ومنه سنا شموس تشرق
والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنعيم ويغبق

والطير ينطق معرباً عن شجوه ... فيكاد يفهم عنـه ذاك المنطق
غرداً يغني للغصون فتنثني ... طرباً جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل ... لا يستطيع الرقص ظل يصفق
فتمـلّ أيام الربيع فإنها ... ريحانة الزمن التي تستنشق

فهو قد رسم لك بشعره ذلك صورة جميلة للرياض والزهر المتفتح الذي ارتاع من مر النسيم في الضحا فتفتحت أكمامه . وقد كان الندى عليه كحبات العقد فأضحى عليها كالتاج أو النطاق ، ثم هذه الغصون المياسة كأنها سكرى والطير يغني على تلك الغصون فتهتز لهذا الغناء طرباً ، والنهر يصفق فرحاً ، والشمس تلقى أشعتها على هذا الجمال كله ، فيبدو للمرء منظر هو أبدع ما في الطبيعة من مناظر الجمال .

٤

لشاعرنا المحيوى موشحات عارض بها سواه ، وهي تعد بحق من أجمل الموشحات وأبدعها ، وهو أحياناً يسير على أوزان الشعر العربي ، وأحياناً لا يسير عليها ، وأنت تحس في بعض موشحاته بآثار الصنعة اللفظية ظاهرة جلية ، وهو حين يعارض سواه في موشحاته يضمن موشحه أول بيت من الموشح الذي عارضه ؛ ولذلك يضطره الحال إلى أن يدع المدح وينتقل منه إلى الغزل على عكس السنة المعروفة لدى الشعراء .

ولقد كان شاعرنا فخوراً بشعره الفخر كله ، مملوءاً به تيهاً ، يعتقد أن شعره يفوق شعر غيره ويسمو عليه حتى قال :

إن القريض وإن تكاثر ساكنو ... أبياته ـ للعبد فيـه الأوحد

وكان أحياناً لا ينشد الممدوح قصيدته إلا بعد أن ينشده سواه ليتمكن الممدوح من أن يرى الفرق بين شعره وشعر غيره . غير أنه في بعض الأحيان كان لا يجد مركزه وما يواتيه به الدهر متناسباً مع جودة شعره وبلاغة قوله فيشكو ويلح في الشكوى ، ويتألم أشد الألم ، ولقد كان شعره فضلاً عن عذوبته التي تحس بها جارياً على قوانين النحو والصرف إذا استثنينا بعض أخطاء لا تكاد تذكر . غير أنه قد أخطأ حقاً حين قال يهنئ بالعيد :

لا أهني مولاي بالعيـد إلا ... خوف تعطيل سنـة تعتاد
فمن الجهل أن يهنا بعيد ... من به الدهر كله أعيـاد

فمع صحة المعنى لا نشك مطلقاً في أنه ليس من أدب الخطاب أن يقال لأحد لا أهنيك بالعيد في مفتتح الكلام ، ولكن شاعرنا لم يعن إلا بالمعنى وصحته بدون نظر إلى جمال الافتتاح وهو ليس أول من هفا تلك الهفوة بل سبقه بها سواه من الشعراء والشعراء المبرزين .

نظم شاعرنا قصيدة طويلة سماها الوسيلة المشفعة في مناقب الخلفاء الأربعة ، وهي قصيدة طويلة تبلغ تسعة وسبعين ومائة بيت ، عدد فيها مآثر الخلفاء وذكر فضائلهم ، وبدأها برأيه فيهم كلهم وهو :

كل من الخلفاء غير مُجَلَّأٍ ... عن مورد الشرف الذي لا يورد
ولهم سوابق أزلت كل امرىء ... حيث اقتضاه له التقى والسؤدد
وأقر بعضهم لبعض بالذي ... يسمو به من فضله ويمجد
فمضوا ، ولم يتدافعوا حسناتهم ... كل لصاحبه يقر ويشهد

ثم مضى يعدد فضائل كل مبتدئاً بأبي بكر ، ذاكراً مآثره في الإسلام : فهو أول من آمن بالنبي ، ولما مرض النبي أنابه عنه في الصلاة ، فكان ذلك من النبي تقليداً له بالخلافة ، ولذا كان أولى الناس بها ، ولقد جمع أبو بكر أمر المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون يوم السقيفة ، وحارب أهل الردة حرباً موفقاً أعاد للإسلام بهجته ، ثم حارب الروم والفرس ، وكانت خاتمة حسناته أنه ولى الأمر عمر من بعده ، وعمر هذا طالما نزل القرآن موافقاً لرأيه وما بدا له ، كما أن النبي كان يطلب من الله أن يعز الإسلام بدخوله فيه ، حتى إذا دخل فرح المسلمون ، وجهروا بدينهم بعد أن كانوا يخفونه ، لما كان له من المكان العظيم بين قومه وعشيرته ، حتى إذا ولى أمر المسلمين بعد أبي بكر سهر على الرعية ومصالحها بعين لا تغفل ، ففتحت الدنيا في عهده ، ودرت الخير الوفير على المسلمين ، فإذا أنهى عمر وتحدث عن عثمان ذكر له إعانته للمسلمين بماله ، وصومه وصلاته ، وزواجه من بنتي النبي وفضله يوم جيش العسرة ، ويوم بيعة الرضوان ، ثم رد على من ينتقصه بقوله :

نطق الكتاب بفضله فمن الذي ... يرتاب فيه جهالة أو يجحد
إلا كفور للهـدى متنكب ... أو جاهـل في غيه متردد
ولكم ما نقموا عليـه ضلة ... قربى تبر ، وهفوة تتعمد

ثم انتهى إلى علي فحدثنا عن قربه من النبي ، وتربية النبي له وزواجه من ابنته ، وإسلامه صبياً فلم يدنس الكفر نفسه ، ولم يسجد لصنم طوال حياته ، ثم وصف عدله ، وعلمه ، وتواضعه ، وعبادته وورعه وزهده وشجاعته وبلاغته ؛ وكل هذا الحديث عن الخلفاء الراشدين ينطق بأن شاعرنا سني يفضل الخلفاء كلهم لا شيعي يقدم علياً على سواه ، بل هو يرتبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، غير أنه مما يلاحظ أنه أثنى على أبي بكر

وعمر بأعمالهما بعد الخلافة ثناء مستفيضاً ، حتى إذا جاء إلى على وعثمان أثنى عليهما بفضائلهما الشخصية أكثر مما أثنى عليهما بأعمالهما بعد الخلافة ، وربما يكون منشأ ذلك أن أبا بكر وعمر كانت أعمالهما بعد الخلافة فى تثبيت دعائم الاسلام ونشر دعوته أكثر من زميليهما ، ومن أجل هذا كان الثناء المستفيض .

قبل أن نختم حديثنا عن صاحبنا المحيوي نريد أن نشير إلى أنه كان ناثراً مثلما كان شاعراً ، غير أن نثره لم أعثر عليه ، ولعلى أوفق يوماً ما إلى الاطلاع عليه ودراسته ، ولقد ألف كذلك كتاباً أهداه إلى ولى نعمته محيى الدين محمد بن سعيد لا نعلم اسمه وإن كنا نستطيع أن نفهم موضوعه حين نقرأ قوله واصفاً إياه .

العبد أبدع تطلب تحفة تكسى القبول لسيد الأصحاب

فرأى أجل هدية تهدى له ذوب النهى ، ونتائج الألباب

فأجال فى روض القرائح فكره ثم انتقى منه لباب لباب :

من طيب نادرة ، ولطف فكاهة وبديع بادرة ، وحسن خطاب

وسوائر الأمثال قد وشحتها فيه بمعجز سنة وكتاب

والجد موصولا بهزل ينشط الـ قارى ، ويطرب أيما إطراب

ونوادر الحكماء والبلغاء ، والـ خطباء ، والشعراء ، والكتاب

وجمعت فيه إلى سلامة رقة الـ حضر اللطيف جزالة الأعراب

فأتاك كالحسناء قد لبست على الـ ترائب ثوب نضارة وشباب

والروضة الغناء أهدت نشرها ريح الشمال ضحى غداة سحاب

فهو مجموعة فيها النوادر والفكاهات ، وفيها الأمثال والحكم ، وفيها ظرف من نثر الخطباء والكتاب ، وبعض من شعر الشعراء ، فأنت تنتقل فيه من جد إلى هزل ومن هزل إلى جد ، فتطرب ولا تسأم القراءة ، وتلك طريقة معروفة لدى مؤلفى اللغة العربية فهم من قديم قد استنوا تلك السنة وساروا عليها فى مؤلفاتهم .

٦

لم نهتد إلى تعيين عام وفاته كما ضن علينا التاريخ بمعرفة عام ولادته ، غير أنه مما روى عنه أنه كان لطيف المحضر فاضلاً مهذباً ، أحضر ديوان شعره إلى ابن العديم وكان قد حضر رسولاً عن السلطان الملك الناصر فتصفحه وأعجبه ، وكتب على الديوان :

وكنت أظن الترك تختص أعين لهم إن رنت بالسحر فيها وأجفان .

إلى أن أتانى من بديع قريضهم قواف هى السحر الحلال وديوان

فأيقنت أن السحر أجمعه لهم يقر لهم هاروت فيه وسحبان .

وعسى أن يواتينا الزمن يوماً بكل شعره ونثره ، وتاريخ حياته مفصلاً فندرسه دراسة مستفيضة تليق ببلاغته .

أحمد أحمد بدوى
المدرس المنتدب بثانوية نابلس

من طرائف الشعر

بين الليل والصبح

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

انظر الى الكواكب يسبحن فى الغياهب
من ذاهب فى شوطه ولا حق بالذاهب
الى الطوالع الوضا ء الزهر والغوارب
الى الجمال آخذاً الى الشعاع السائب
والليل ساج قد خلا من العصوف الصاخب
يعبرن عُرضَ بحره من جانب لجانب
غرقى الى الجيد ، الى الثدى ، الى الترائب
أرسلن شَعراً من أشعة على المناكب
وقد حلين ما على الر ؤوس من عصائب

***

ما إن رأت عين امرئ أبهى من الكواكب
يلمعن مثل الماس أو كومضة الحُباحب
يمشين أسراباً كأتـ راب من الكواعب
يذهبن من مشارق الا أرض الى المغارب
والليلُ ضاربٌ روا قه على الجوانب

***

كلّ الجمال فى النجو م اللمّع الثواقب
العاريات للخلا عات من الجلابب
الغامزات بالعيو ن النجل والحواجب
ما إن لهن غير نشـ ر النور من مآرب
يضحكن من شيبي ومن آماليَ الكواذب
أشدو بما لهنّ من حسن ومن مناقب
كأنهن الحور يُط لِعن من المراقب
أمن بنات الليل هنّ أم من الربائب؟
أم من طيور الخلد يـ ـفقن على المشارب
عصائب يقعن أسـ ـرابا على عصائب
والماء فى المجرّة الـ بيضاء غير ناضب
وربما اختلفن فى الـ ميول والمذاهب
خاطبتهنّ لو سمعـ ـن القول من مخاطب
يالهفتى على ضيا ع للشهاب الثاقب
قدخرّ من عين الدجى ليلا كدمع ساكب (١)

***

وخيّم الليل ونا م القطبُ فى المضارب
ماذا الذى قد خلّف الـ ـقطبَ عن الصواحب
ما أجهل الليل ، وقد خيّم ، بالعواقب
فليس يدرى ما يلا قيه من المصائب
لقد رماه الفجر فى الصـ ـدر بسهم صائب
وكان لمّا ناله بالسهم غير كاذب
وكشر الليلُ عن الـ أنياب كالمغاضب
وجرّد الصبح عليـ ـه السيفَ كالمحارب
وظلّ يفرى جلدَه فرْيَ حنيقٍ غاضب
جرّ الغرورُ الليلَ مخـ ـذولا الى المعاطب
ملاقياً جزاءه من ثائرٍ مُعاقِب
والليل لا يقوى على ردّ الصباح الواثب
يفرّ كالمغلوب من وجه القويّ الغالب
وهو جريح ، دمُه يجرى على الجوانب

***

ما انتصر الليلُ بما جمّع من كتائب
بل إنه اختفى عن الـ ـعين كملح ذائب
إن عبس الليل فليـ ـس الذنب للكواكب
فهنّ يبتسمنَ حتـ ـى للعدوّ الناصب
هو الذى جنى فكنْـ ـنَ عرضةَ النوائب
وظلّت الشعرى تنا جى الصبحَ كالمعاتب

***

بين الصباح مسفرا والليل ذى الغياهب

(١) من سكب اللازم بمعنى جرى

ثأرٌ سيبقى فتقهُ دهراً بغير راتب
غمَّ النجومَ ما تُقا سيه من المصائب
والصبحُ لمّا راعها ما كان بالمداعب
كأنه بازٌ جرى يسطو على أرانب
أو قسورٌ حمارسٌ سطا على ثعالب
يريد أن يفترس الـ أنجمَ بالمخالب
ففرنَ جمعاء من الـ خشية في المذانب
اني لأقرأ الأسى في الأوجه الشواحب
أجفلنَ لا يحملنَ غيـ ر الخوفَ في الحقائب
تؤذي العذارى في الحيا ة قلةُ التجارب
تالله ما هـذي الوجو ه الغرُّ للنوائب

***

والعندليب هبَّ يشـ دو بانتصار الغالب
والديك صاح يعلن السرورَ للصواحب
كأنما قد فرحا بنكبة الكواكب

***

يا كوكبَ الصبح لك الصـ بح من الأقارب
ما كان ينبغي له صفعُك كالمعاقب
لا تيأسَنَّ وانتظر ليلَ الغد المقارب
تكن كما قد كنت في الـ مين من الرغائب

***

يا أيها الصبح الجميـ ل يا ملاذَ الراغب(١)
لقد قسوتَ حين أحـ نيتَ على الكواكب
رميتَ شملهنَّ بالـ شتيت والمصاعب
ما ضرَّ لو حميتهنَّ مثل أمٍّ خادب
كن بينهنَّ حتك في الـ ليل الطويل اللازب
وكن زينـةَ السما ء في عيون الراقب

***

ما أجمل الشمسَ بدت مرخيةَ الذوائب
قد طلعت في موكب من أنجم المواكب
تنثر من ضيائها تبراً على الجوانب

بسمة

للأستاذ محمد خورشيد

هاتها من فم القدرْ بسمةً تفتنُ البشرْ
تُفسحُ الصدرَ للرَّجا ءِ وتنفي قوى الكدرْ
إنما الحظُّ خلسةٌ فاغتنمْ منهُ ما بدرْ
إجعل الهنا كمةَ المُنى
يضحك العُمرْ

أهملِ الدَّهرَ ما طغى لا تخفْ منهُ إن بغى
وادَّرِعْ بابتسامةٍ تُحرِزُ النصرَ في الوغى
لم يُجندلْهُ غيرُ من لاذ بالحزنِ والضَّجرْ
عِشْ بحَربِه لا تثقْ بهِ
طالما غدرْ

أمسِ كالحلمِ أدلجا عودهُ ليسَ يُرتجى
وغدٌ من ضميرهِ لم يرَ الغيبُ مخرجا
فابتغِ (اليومَ) كلَّ ما يشتهي السمعُ والبصرْ
رو بالأملْ فُسحةَ الأجلْ
تصرفِ الغيرْ

دغدغِ النايَ واعزِفِ لحنَ هيمانَ مُترفِ
واسقني قبلَ صحوتي ريقَ عذراءَ قرقفِ
فندامايَ أكؤسٌ راحُها يخطفُ البصرْ
رحمةُ الصمدْ صاحِ لا تُحدْ
كمْ وكم غفرْ!

القدس محمد خورشيد

على البحار والجبا ل الشُّمّ والسباسب
ياشمسُ أنت للورى من أكبر المواهب
حبيبةٌ أنتِ الى الشبّان والأشايب
أكبرْ بما تهدينَ من نورٍ ومن كهارب!

بغداد جميل صدقي الزهاوي

(١) الخائف

النفس الضائعة

للأديب سيد قطب

أثَمَّني أنا ؟ أم ذاك رمز لغابرٍ ؟
لأنكرتُ من نفسي أخصَّ شعائري !
لأنكرتُ إحساسي ، وأنكرتُ منزعي
وأنكرتُ آمالي ، وشتَّى خواطري
وأنكرتُ شعري ، وهو نفسي بريئةً
ممحصةً من كل خِلطٍ مخامر
ويفصلني عما مضى من مشاعري
عهودٌ وآباد طوال الدياجر
وأحسبها ذكرى ، ولكنَّ بُعدَها
يخيَّل لي أن لم تمر بخاطري !

***

أنقِّب عن ماضٍ بين سرائري
فألمحه كالوهم أو طيف عابر
أعيش بلا ماضٍ كأنيَ نبتةٌ
على السطح تطفو في مهب الأعاصر
وما عابرُ الإنسان إلا جذوره
فهل تمَّ نبت دون جذر مؤازر ؟
أنقب عن نفسي التي قد فقدتها
بنفسي التي أعيا بها غير شاعر
وأطلبها في الروض إذ كان همها
تأمله ، يُفضي بتلك الأزاهر
وفي الليل إذ يغشى وكانت إذا غفا
تيقظ فيها كل غافٍ وسادر
وفي الليلة القمراء إذ تهمس الرؤى
وتومئ للأرواح إيماء ساحر
وفي الفجر، والأنداء يقطرن، والشذى
يفوح ، ويشجي سمعه لحنُ طائر
وفي الحب إذ كانت شواظاً وحرقة
ومهبط آمال ومطمح ثائر
وفي النكبة النكباء ، والغبطة التي
تجود بها الأقدار جود الحاذر
ولكنني أيِستُ أن ألتقي بها
وتاهت بوادٍ غامر التيه غائر
سأحيا إذن كالطيف ، ليست تحسُّه
يدان ، ولا يجلوه ضوء لناظر

سيد قطب

من وحي المرض :

الى صورتها الحبيبة . . .

بقلم مختار الوكيل

ياصورةً قد عبدتُ فيها صورةَ مَنْ أبدعَ الوجودْ
أنتِ التي قد ضمنتِ خلدي بوحيك الباسم السعيد

***

أعيش في عَالَم الدنايا سأمان من حِصَّة العبيدِ
الداء ! يا ويلتا ، غزاني بجيشه الساغب المبيدِ
والصحب ! أواه من صحابي لم يرأفوا بالفتى العميدِ
ياليتهم حين أهملوني لم يطلقوا الهجوَ كالرعودِ !

***

يا طلعةً قد لمحتُ فيها تهلُّلَ الوردِ في الخدودِ
وبسمةً قد قبَسْتُ منها بشائرَ العالم الجديدِ
أمونتُ والنورُ منكِ ضافٍ على دُجَى قلبيَ الشريدِ !

***

ياما أُحَيْلَى الممات ، لولا مرارة الحَبْسِ في اللحودِ !

***

كم هاجسٍ ضجَّ في خيالي وثارَ في خاطري البليدِ
وأنت يا فتنتي أمامي وبين كفيَّ كالوليدِ !

***

غفرْتُ كلَّ الذي دهاني في عالَمِ الظُّلم والكنودْ
ببسمةٍ منكِ لا تُراني ونظرةٍ تضمن الخلودْ !

مختار الوكيل

الأدب الانجليزي

في القرن التاسع عشر

للأستاذ بشير الشريقي

اطلعت في عدد الرسالة التاسع والخمسين على كلمة موجزة للأستاذ محمود الخفيف في نقد كتاب «الأدب الانجليزي الحديث» الذي قدمه الأستاذ سلامه موسى للجمهور مؤخراً ، وقد ظهر لي من هذه الكلمة .

أولاً — ان الأستاذ مصنف الكتاب أو مؤلفه قد نعت العصر الفيكتوري ما بين ١٨٣٠ — ١٩٠٠ بأنه عصر خمول في الأخلاق والأدب ، بينما يرى الأستاذ محمود الخفيف هذا العصر من أرقى عصور الأدب الانجليزي وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة .

ثانياً — ان الأستاذ سلامه يشير في كتابه إلى تجديد في الأدب الانجليزي ظهر عام ١٩٠٠ فيوافقه الأستاذ محمود على ظهور هذا التجديد ويذكر أنه ثمرة من ثمار العصر الفيكتوري الناهض .

وأنا بدوري أود أن أقول كلمة في الموضوع أختلف فيها مع الأستاذين الفاضلين في مسائل ، وأتفق معهما في أخرى ، فأرجو أن توسع مجلة الرسالة الغراء صدرها لهذه الكلمة :

١ — إن مؤرخي الأدب الانجليزي الحديث لا يوافقون الأستاذ سلامه موسى على قوله : « إن الأدب الانجليزي قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام» ويرونه قد حاد كثيراً حين رمى الأدب الانجليزي في القرن التاسع عشر بالضعف والقبح والفساد لأن هذا العصر الذي يمتد من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٩٢ من أزهى عصور الأدب عندهم اشتهر بمذاهبه الأدبية الجديدة وبتنوع شعرائه وكتابه الذين خرجوا فيما ينظمون ويكتبون عن أساليب القدماء . وإلى القارىء ما ذكره المؤلفان الانجليزيان «وايت Wyatt » و « كلي Clay » عن الأدب الانجليزي في القرن التاسع عشر في كتابهما «الأدب الانجليزي الحديث Modern English Literature » ص ١ — ٣ :

إذا كان من العسير أن نقع على تاريخ يحدد لنا نهاية عصر من عصور الأدب أو بدايته ، وكان من النادر أن يتفق مثل ذلك التاريخ مع فسحة الزمان إلى قرون أو عصور أو أجيال ، فان القرن التاسع عشر قد امتاز بأنه كان ممثلاً أحسن تمثيل لدور انتقال بيّن في الأدب الانجليزي . نشر (وردثورث) و (كوليردج) (قصائدهما الغنائية) قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر بعامين فقط في عام ١٧٩٨ ، فكان ذلك النشر خدمة عظيمة للفن والأدب وعاملاً من أهم العوامل التي قلبت المذاهب الشعرية الأولى وهدمت النظريات الأدبية القديمة ، وكأن في تلك القصائد الغنائية قد أعلنت نهاية الطريقة الاتباعية (Classic) في الشعر باحياء الطريقة الابتداعية Romanticism

إن الروح الرومانتيكية لم تكن حتى أيام (ورد ثورث) و (كوليردج) قد استيقظت والأساليب الشعرية القديمة لم تكن قد نسخت .

هذا ما ذكره المؤلفان العالمان عن أهمية عام ١٧٩٨ بالنسبة لتاريخ الأدب الانجليزي ، فلنصغ إلى حديثهما عن وحدة الأدب في القرن التاسع عشر :

« فعام ١٧٩٨ إذن يكاد يتفرد في أنه يعين بوضوح ابتداء عصر جديد للأدب ، عصر إصلاح وتجديد أطلق الشعر فيه من قيود « الاتباعيين » والقرن التاسع عشر يبدو لنا ذا وحدة تامة كما كان عصر الياصابات ١٦٦٠ — ١٧٩٨ فلم يفقد فيه الشعر الروح الابتداعية Romantic التي أمده بها (ورد ثورث) ومعاصروه ، وقد ظلت روايته النثرية في تقدم مطرد . إن أدب العلم والتاريخ والفلسفة قد امتاز في هذا العصر بطريقته الجديدة التي أدنت مسائله وأوضحتها ، والتي اختلفت عن طريقة القرن الثامن عشر اختلاف (دارون) عن « لوك »

قد ترى الأجيال المقبلة في مذاهب (ماثيو أرنولد) الاتباعية أو في الطريقة (الابتداعية) الجديدة التي دعا إليها (روسيتي) و(موريس) ما لم نره نحن من خطورة وأهمية ، غير أن ما يمكننا قوله الآن هو أنه لم يقم حتى العهد الذي ظهر فيه (ورد ثورث) و(كوليردج) ثورة تهدم الطرق القديمة وتكون جديرة بأن تعتبر فاتحة عصر جديد .

لا ينبغي أن نطنب — طبعاً — في وحدة أدب القرن التاسع عشر أو بالفروق التي كانت بينه وبين أدب القرن الثامن عشر ، إن كل ما ننوي التحدث عنه هنا هو أن نظهر أن الوحدة الأدبية كانت فيه تامة ، وأن الفارق الذي يدعونا إلى درس أدبه كأدب عصر خاص كان ظاهراً جلياً .

ولقد تظهر فوارق الشعر أكثر وضوحاً في هذا العصر ، يرجع ذلك إلى النزاع العنيف الذي قام بين شعراء المدرسة القديمة في القرن الثامن عشر وبين شعراء الطريقة الابتداعية في فجر القرن التاسع عشر ؛ أما الروايات النثرية فمن المؤكد أنه لم يدخلها تبدل ظاهر ، لأن روائيي القرن التاسع عشر كان يرضيهم بوجه عام أن ينشروا فن أساتذتهم فحسب — أساتذة القرن الثامن عشر .

ولو تتبعنا حقل النقد الأدبي الآن لأمكننا أن نقع على تغير واضح في طرقه وأساليبه وقواعده ، وهذا التغير يظهر بارزاً جلياً منذ اليوم الذي تفتحت فيه عبقرية « كارليل » ودفعت بالنقد في طريق جديدة . كان النقد في الربع الأول من هذا القرن يتفق في أصوله وأساليبه مع نقد القرن الثامن عشر ، وكان الناقد هو من يحسن وضع الخلاصات ، ويجيد المديح والهجاء ، حتى اذا جاء « كارليل » كان أول مبشر بطريقة النقد الحديثة الصحيحة ، التي يهمها الشرح والتفسير والايضاح الاصولي للمبادىء الجديدة . »

دور ١٧٩٨ — ١٨٣٢ وخطره .

ويقول المؤلفان الفاضلان :

مات « اسكوت ، وكريب ، وبنتام » عام ١٨٣٢ وعاش من بعدهم « وردثورث » ثمانية عشر عاماً أيضاً ، و « كوليردج ولامب » عامين ، و « مور » عشرين ، و « سوذي » احد عشر ، و « كامبيل » اثني عشر ، لقد أدى كل واحد من هؤلاء الأعلام رسالته قبل عام ١٨٣٢ ، أما (كارليل) و (ماكولي) . و (تنسون) و (هود) و (بالوير) و (ليتون) والسيدة (براوننك) من مشاهير الكتاب فلم يكونوا قد نشروا حتى عام ١٨٣٢ سوى خواطر صباهم . وفي عام ١٧٩٨ كان عمر كيتس وشيلي وبيرون يتراوح بين الثالثة والعاشرة ، ثم لم يأت عام ١٨٣٢ حتى كان قد مضى على وفاة الثلاثة ثماني سنوات أو أكثر ، وهكذا تظهر لنا أهمية الخمسة والثلاثين عاماً التي بين ١٧٩٨ ، ١٨٣٢ من الناحية الفنية الشعرية .

وفي الحق أنه ما من عصر من عصور الأدب الانجليزي حتى عصر الملكة اليصابات يستطيع مناظرة هذا الدور ١٧٩٨ — ١٨٣٢ في سمو التصوير وسرعة الانتاج ، فقد بذ ببدائعه الفنية الرائعة عصر الملكة الزاهر .

إن في مجرد تعداد كتاب الطبقة الأولى والثانية شيئاً من الغرابة والقوة والتأثير ، يكفي أن نذكر من الشعراء (وردثورث) و (كوليردج) و (بيرون) و (شيلي) و (كيتس) و (لاندور) و (مور) و (ساوس) ، ومن الكتاب (اسكوت) و (اوستن) و (هازلت) و (ويلسن) ، حتى نجعلك تؤمن بعظمة هذا الدور ، ثم إليك نتاج عام واحد : في عام ١٨٠٦ ظهرت رواية (اما) لجان أوستن ، و (تشايلد هارولد) ، (وحصار كورنث) و (سجين تشيلون) لبيرون ، و (الفناء القديم) لاسكوت ، (وحاجتنا الى الجحود) لشيلي ، وكثير من المؤلفات القيمة .

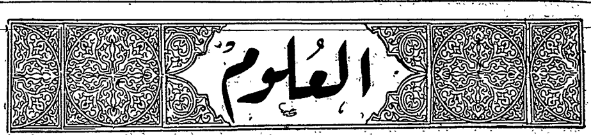
بعد كل ما تقدم ما أحسب أن القارىء يشايع الاستاذ واضع كتاب (التجديد في الأدب الانجليزي الحديث) في قوله : (إن الأدب الانجليزي قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام) ، وفي قوله : (ان العصر الفيكتوري ما بين ١٨٣٠ و ١٩٠٠ كان عصر خمول في الأخلاق والأدب . . الخ) بل أعتقد أنه يرى الصواب والحكمة في معارضة الأستاذ محمود الخفيف له في رأيه هذا .

* * *

أما هذا التجديد الذي أشار الأستاذ سلامه موسى الى ظهوره في الأدب الانجليزي عام ١٩٠٠ ووافقه عليه الأستاذ محمود فانه في رأي (وايت) و (كلي) لم يوجد حقيقة ، وان الشعر في هذا الدور وما أعقبه من أعوام (من عام ١٨٩٢ — ١٩١٩) قد سرى اليه الضعف ، وجهل أربابه (روبرت بريدج ، بلانت ، وليام ونسون ، ارثر سيمون ، حنا دافيد سون ، كبلنج ، هاردى) الغرض منه ، فمالوا الى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع وأوغلوا في ذلك حتى قبحت مبانيهم وسمجت معانيهم . والى القارىء ما يذكرانه في كتابهما المشار اليه ص ٢١١ — ٢١٢ .

« يرينا الشعر في هذا الدور ١٨٩٢ — ١٩١٩ ضعفاً بيناً ؛ ليس في صور التعبير وآداب النظم ، بل في النجابة واتساع أفق التفكير ؛ لقد تجنب فيه معظم الشعراء السجايا النفسية وعواطف الحب وفتنة الجمال ، فاكتفوا بمغازلة الوداد العائلي ، وقراءة أفكار الرجل من غير أن يتعرضوا لخوالج نفسه ؛ كانوا أطفالاً في تفكيرهم ونظراتهم ، قل أن يخوضوا في البحث والجدل والتفسير ، بل كان مجرد (التبليغ) هو كل ما تصبو اليه نفوسهم ؛ يطربهم الجمال الطبيعي (الفيزيكي) أو أن يكتشفوا في صورة اصطلح الناس على

[البقية في أسفل الصفحة التالية]



٢ - التلفزة في عهدها الأول

للأستاذ محمود مختــــار
بكلية العـــلوم

جهاز الاستقبال:

تحدثت في رسالة سابقة عن جهاز الارسال للتلفزة. والخطوات التي مرت بها صورة الجسم المتلفز من بدء تحليلها الى مساحات صغيرة بواسطة القرص المثقب أو حلزون المرايا، ثم إسقاط الأشعة الضوئية المنعكسة من هذه المساحات الصغيرة على التعاقب على خلية كهرضوئية حيث تحولت الى دفعات كهربائية، ثم تكبيرها فاذاعتها في الأثير.

والآن نحن عند جهاز الاستقبال حيث تصل الينا هذه الدفعات الكهربائية بعد أن التقطها الهوائي « Areal » وأرسلها الى الكاشف اللاسلكي « Detector »

وتأخذ عملية استقبال هذه الأمواج حتى إخراج الصورة النهائية ثلاث خطوات أيضاً هي بعينها ماينا ظر خطوات الارسال مأخوذة في ترتيب عكسي. فتبدأ أولى الخطوات بكشف هذه الأمواج وفصلها عن باقي الأمواج اللاسلكية المنتشرة في الأثير وتكبيرها. ثم تليها الخطوة الثانية وهي تحويلها من دفعات كهربائية الى أخرى ضوئية. ثم تأتي الخطوة الثالثة وهي إعادة تركيب هذه الدفعات الضوئية بجوار بعضها لتخرج صورة الجسم المطلوبة.

أما خطوة الكشف والتكبير « Detection, Amplification » فهي كنظيرتها في جهاز الارسال — خطوة التكبير والإذاعة — في المقام الثاني من الأهمية لباحث التلفزة. ويكفي لنا الآن أن نعلم أنها تتم بواسطة دائرة من الصمامات هي بنفسها دائرة أجهزة السمع العادية — ولا داعي للخوض في تركيبها وعملها في مثل هذه العجالة — وكما تؤخذ تلك الأمواج الكهربائية المكبرة في جهاز السمع الى البوق لتحويلها الى دفعات صوتية تؤخذ هذه بعد تكبيرها أيضاً الى المصباح الغازي أو الى خلية كر « Kerr cell » لتحويلها الى دفعات ضوئية، وهذه ثانية خطوات الاستقبال.

والمصباح الغازي ولو أن لفظه ليس مطروقاً إلا أنه كثيراً ما تقع عليه أبصارنا على واجهات المحلات التجارية الكبيرة في شكل أنابيب ضوئية كهربائية للاعلانات تأخذ ألواناً مختلفة أحمر أو بنفسجياً أو أزرق أو غيرها. هذه الأنابيب الضوئية ما هي إلا شكل محور من المصابيح الغازية المستعملة في التلفزة لتحويل الطاقة الكهربائية الى أخرى ضوئية. وهي عبارة عن انتفاخ زجاجي (شكل ١) في حجم الصمام الكهربائي العادي يحوي بداخله غاز النيون أو الأرجون أو بخار الزئبق تحت ضغوط صغيرة جداً تقرب من بضعة مليمترات. وبه قطبان أحدهما الكاثود، ويكون القطب السالب للمصباح وهو عادة على شكل صفيحة رقيقة من النيكل. والثاني الأنود، ويكون القطب

تقبيحها شيئاً يدعونه جمالاً حقاً؛ تقيدوا بأوزان العروض وعانوا طول الدرس ليتمكنوا من تحسين عباراتهم وتطبيقها على مايتخيلون من التشابيه والاستعارات؛ ثم تلاميذة (وردزورث) نبذوا مثله الأسلوب الشعري ونظموا معظم منظوماتهم غنائية، إنما كانوا يوقعونها على أوتار خرساء، نعم على أوتار خرساء لأنها تقف بمعزل عن الحياة ومسائلها، ولا تدعونا الى التفكير في سر الوجود والعدم تفكيراً يجعلنا نرى بعين عقلنا العالم أكثر وضوحاً ... »

* * *

هذا ما رأيت أن أثبته تعقيباً على كلمة الأستاذ محمود الخفيف التي انتقد فيها كتاب (التجديد في الأدب الانجليزي) تأليف الأستاذ سلامة موسى .؟

شرق الأردن — بشير الشريقي

الموجب . ويكون عادة على شكل سلك حلزونى أو قضيب قصير يواجه صفيحة الكاثود . وعندما يوصل الأنود بالطرف الموجب لجهد كهربائى عال — حوالى ١٥٠ الى ٢٠٠ ڤولت — ويوصل الكاثود بالطرف السالب لهذا الجهد يتوهج المصباح بأحد هذه الألوان التى نراها فى أنابيب الاعلانات تبعاً لنوع الغاز الموجود به . وأفضل هذه الغازات هو بخار الزئبق إذ يعطى لوناً بنفسجياً فاتحاً . والسبب فى هذا التوهج فى المصباح هو انبعاث الالكترونات من الكاثود — تحت تأثير فرق جهده عن الأنود — وسيرها بسرعة نحو الأنود ، ومصادمتها فى طريقها بذرات الغاز المنتشرة فى المصباح التى تتذبذب سريعاً تحت تأثير الصدمة فتتوهج .

شكل (١)
المصباح الغازى

وربما عنّ لسائل أن يقول إننا كان يمكننا أن نحول الطاقة الكهربائية الى أخرى ضوئية بطريقة المصباح المتوهج البسيط المستعمل فى الاضاءة ، فما هو إلا جهاز لتحويل طاقة كهربائية الى أخرى ضوئية . والجواب على ذلك : أن عملية تحويل الطاقات فى هذا المصباح نشأت من مرور تيار كهربائى فى سلك المصباح ذى القاومة الكبيرة الذى ترتفع درجة حرارته كلما اشتد التيار عليه حتى يحمى فيتوهج . وبمقارنة هذه النظرية فى التوهج بنظرية المصباح الغازى السالفة الذكر نرى أنهما يختلفان تمام الاختلاف . ولكن لم فضلنا هذه على تلك ؟ ذلك لأن المصباح الغازى يفوق المصباح المتوهج بحساسيته الشديدة للتغيرات الكهربائية ، فلو أُمرّ فى كليهما تيار سريع التغير لظهرت إضاءة الأول متذبذبة تبعاً لذبذبة التيار ، على حين تظهر إضاءة الثانى منتظمة مستمرة . لايلاحظ فيها أى ذبذبة أو تغير ، وهذه طبعاً ميزة لاستعمال المصباح المتوهج للاضاءة العادية . ولكنها ليست المطلوبة فى التلفزة ، بل المطلوب هو المصباح الأكثر حساسية للتغيرات حتى يمكنه أن يترجم ترجمة حرفية مايصله من دفعات كهربائية سريعة التغير خارجة من جهاز الكشف والتكبير . ويوجد سبب آخر لتفضيل المصابيح الغازية . وهو أن الطاقة الضوئية المنبعثة منها تتناسب تناسباً طردياً مع الطاقة الكهربائية الداخلة اليها .

وقد يستعاض عن مصباح الغاز بخلية كيرّ ، وهذه فكرة حديثة صائبة ، يتوقف عملها على خاصية سائل النيتروبنزين فى استقطاب الضوء إذا ماوقع تحت تأثير مجال كهربائى . وربما عدت لشرح هذه النظرية فى فرصة أخرى .

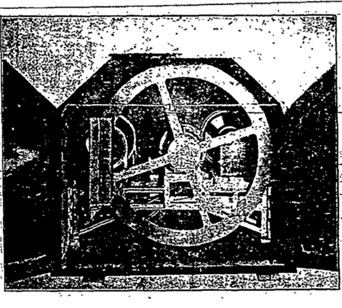
والآن بعد أن حصلنا على دفعات ضوئية متعاقبة تختلف شدة وضعفاً باختلاف الدفعات الكهربائية المستقبلة من الأثير والتى كان اختلافها يتبع اختلاف نقط الجسم المتلفز نفسه فى ضوئها وظلامها ، لم يبق علينا إلا أن نعود فنركبها بنفس الطريقة التى حللناها بها ، وذلك بوضع كل نقطة فى مكان يناظر المكان الذى انبعثت منه على الجسم المتلفز ، وهذه هى خطوة تكوين الصور النهائية .

وتتم هذه الخطوة بنفس الجهاز الذى حللها ، وهو كما تقدم : إما القرص المثقب أو طبلة المرايا ، أو حلزون المرايا . ولأقصر الكلام على القرص المثقب وحده إذ علمنا أن الطبلة أو الحلزون يمكن أن يستبدلا بدون أى تغيير .

فيوضع مصباح الغاز أمام القرص تجاه ثقوبه ، ويوضع حاجز فى الجهة المقابلة له من القرص ليتلقى الصورة [شكل ٢] ويدار القرص بنفس السرعة التى يدار بها نظيره فى جهاز الارسال — ١٢½ دورة فى الثانية — ويكون دائماً فى خطوة واحدة معه ، ويخرج المصباح الغازى دفعاته الضوئية المتتابعة ، والتى تنم كل دفعة منها عن خواص نقطة واحدة من نقط الجسم المتلفز فى لحظة من لحظاته . فتقع على القرص الذى هو صورة مضبوطة لقرص الارسال فى حجمه وشكله وعدد ثقوبه وسعتها وسرعته وخطوته ، فيعمل هذا على وضع كل نقطة فى مكان على الحاجز يناظر تماماً مكانها الذى انبعثت منه على الجسم التلفز ، وبذلك تظهر الصورة .

غير أن العملية لاتتم بمثل هذه السهولة ، فنقطة الصعوبة فيها هى إمكان ضبط سرعة دوران القرص بحيث تساوى تماماً سرعة دوران قرص جهاز الاذاعة . وظاهر تماماً أنه لو اختلفت

وتستقبل مع باقى دفعات الجسم كأنها واحدة منها ، ولكن يمكن فصلها بسهولة عنها ، لأن ترددها صغير جداً بالنسبة لتردد دفعات الجسم . وعلى ذلك تفصل عند جهاز الكشف الأول وتأخذ طريقاً آخر حيث تكبر ثم تسلط على محرك قرص الاستقبال لتنظم سرعته .


شكل (٢) جهاز كامل للاستقبال

وقد تتساوى سرعة القرصين تماماً ، ولكنا نرى الصورة النهائية مشطورة إلى نصفين [شكل ٣] وينشأ هذا من اختلاف الخطوة . ومن أمثلة اتحاد السرعة


شكل (٣) صورة مشطورة نشأت من اختلاف خطوة القرصين

السرعتان ولو اختلافاً بسيطاً لحصلنا على خيال لا يدل إلا على سحب غير مفهومة من الضوء والظلام . والطريقة الوحيدة لضبط السرعتين هى إرسال دفعات كهربائية ثابتة التردد من مصدر منفصل آخر لاعلاقة لها بالجسم المتلفز أو توزيع الضوء أو غيره . بل تتوقف ذبذبتها على سرعة دوران قرص جهاز الإرسال فحسب . وهذه تستقبل عند جهاز الاستقبال بجهاز منفصل أيضاً حيث يكشفها ويكبرها ويسلطها على محرك القرص لتضبط سرعته تبعاً لسرعة قرص الارسال . وهذه طريقة فضلاً عن أنها تستلزم جهازى استقبال منفصلين فهى تزيد الاذاعة والاستقبال تعقيداً على تعقيد .

فكر (بيرد) فى أن يرسل من نفس جهاز الاذاعة باشارة يكون ترددها لا يتوقف إلا على سرعة دوران القرص ، وذلك بأن جعل شعاع الضوء الخارج من ثقب القرص فى جهاز الارسال عندما ينتهى من رسم خطه الرأسى من الضوء على الجسم المتلفز لايبدأ شعاع الثقب التالى له إلا بعد وقت قصير ، وهكذا بين كل ثقب وآخر يمضى مثل هذا الوقت الذى يسبب دفعة ضوئية مظلمة فى الخلية الكهرضوئية ترددها ثابت ويتوقف على سرعة القرص ، أى يساوى ٣٠ × ١٢ ½ = ٣٧٥ ذبذبة فى الثانية ، لأن بالقرص ثلاثين ثقباً وسرعته ١٢ ½ دورة فى الثانية . هذه الاشارة ترسل

واختلاف الخطوة ما نشاهده إذا لاحظنا صمامى عجلتين متشابهتين فى دراجة مثلاً أثناء سيرها . كلتا العجلتين تسيران بنفس السرعة ، ولكن ذلك لا يستلزم أن يأخذ صماماها موضعين متشابهين تماماً . فهما فى هذه الحالة متحدتان فى السرعة ومختلفتان فى الخطوة . واختلاف الخطوة هذا هو ما يسبب شطر الصورة وأظن ذلك واضحاً بقليل من التفكير .

* * *

وبالرغم من كل هذه المجهودات الجبارة مازال جهاز التلفزة للاستقبال محروماً من دخول المنازل . وبالرغم من نجاح التجارب التى عملت عليه حتى الآن نجاحاً كافياً ، فان الأجهزة مازالت على شىء من التعقيد وصعوبة التداول لشخص عادى . والعالم بطبيعته يرغب فى البساطة بقدر الأمكان كما يتمنى أن يتخلص — فى منزله على الأقل — من الأجهزة ذات الحركات الميكانيكية . فهو يأمل فى جهاز للتلفزة له سهولة جهاز السمع فى استعماله . فهل يقف العلم دون ذلك ؟ ؟ . . .

قريباً سوف يتحقق له ما يريد . فذبذب أشعة الكاثود على الأبواب والجميع ينتظره . وآمل أن آتى على ماوصل العلم فيه فى رسالة قادمة .

— — —



شكل (٤) أول صورة تلفزت

وقبل أن أختتم هذه اللمحة عن التلفزة أريد أن أنوه ببعض نواح مختلفة تخرج عن مجرد إرسال صور أو أشخاص .

أولاً : التليتوكى وهى تلفزة أفلام سينمائية ناطقة كما تذاع الاسطوانات الموسيقية . ولنقدر من الآن ما سيهدد دور السيما بانتشار هذه التلفزة .

ثانياً : التلفزة فى الظلام أو «Noctovision» وذلك باستعمال الأشعة تحت الحمراء بدل الضوء العادى . وستكون هذه ساعد البحّار الأعظم لخوض البحار المجهولة فى ظلام حالك ، وكأنه فى وضح النهار . كذلك فى الحروب سوف تمكن هذه من رؤية حركات العدو وسكناته وهو فى ظلام حالك بدون أن يشعر .

ثالثاً : التلفزة بالألوان الطبيعية ، وذلك باستخدام قرص ذى ثلاث لفات من الثقوب مغطاة بثلاث زجاجات شفافة ملونة بالألوان الأحمر والأزرق والأصفر . واستعمال ثلاث خلايا كهرضوئية وثلاثة مصابيح غازية كل منها يعطى أحد الألوان السابقة .

رابعاً : التلفزة المجسمة «Stereoscopic Television» أو عرض الصور مجسمة بدل أن تكون فى مستوى واحد

خامساً : حاكى التلفزة «Phons-vision» وكما يدل عليه اسمه هو جمع ما بين الحاكى [الجرامفون] و المتلفز . وهو إشراك الصور وحركات الأشخاص مع حديثهم وموسيقاهم على اسطوانة واحدة من اسطوانات الحاكى . بحيث ترى وتسمع فى آن واحد .

محمود مختار
معيد بكلية العلوم

القصص

من صور الحياة — قصة واقعية

ظمأ الروح

« مهداة الى : H. M »

للأستاذ عبد الحليم عباسي

كان فتى خيالي النزعة ، أغرته هذه الأفكار السوداوية ، فاندفع فيها ، لا يرى أن الحياة تتسع لغير هذا الشقاء يعلق بها من مفتتحها الى حيث الجد بين الدنيا والآخرة ، ومضى تعبث الكآبة بناضر شبابه ، الى أن غدا ، وهو في ميعة العمر ، ناحل القد ، حائل اللون ، رطب الجفن كأنما علق به أثر من أدمع البارحة . وإذا ما أصغيت اليه ، وهو يتحدث أسرتك هذه الغنة في صوته ، وهذا العمق في أفكاره ، ورحت تعجب كيف يستطيع هذا الطائر حمل كل هذه الشجون ؟

عرفته في بلدة الجمال — الشام — فقامت بيننا صداقة موثقة العقد ، متينة الأواصر ، يشوبها الاجلال من جانبي ، والرثاء من جانبه ، فقد كنت في نظره واحداً من هذه الملايين التي تبعثر آمالها ، وتتمرمر بأمانيها ، وغبرنا على هذا زمناً الى أن فرقت بيننا دواعي الحياة ، وبقي خالداً في فكري ، خالداً في روحي ، ومضت سنون لم نتلاق فيها ، الى أن جاءتني منه هذه الرسالة أثبتها للقارىء ، ففيها قصة طريفة :

يا صديقي :

ما كنت أظن أن كلامك يكون جداً وأنت تهزل ، فلقد اعترضتني هذه — الجنية — التي شد ما حدثتني عنها ، واستطاعت أن تلامس حياتي بعصا سحرها ، فتنير منها . . ثم تمر بأناملها الجميلة على أجفاني فأغدو أبصر وأرى أن هذا الوجود ينطوي على أشياء كثيرة جميلة .

. . . وتفصيل الخبر أني هبطت هذا البلد ، وشدتني اليه ضرورات لا أستطيع الافلات منها ، ومرت الأيام والشهور متشاكلة متشابهة ، وقد كنت لا أزال أسدر في كآبتي ، وأتخبط في مآتي أشجاني ، حتى كان يوم اللقيا بهذه الساحرة ، فكأنما بعثت خلقاً جديداً ، واستطاعت أن تنقي حياتي من كل هذه الأفكار الشائكة . . . فلقد كانت تكبرني بأعوام ، وكانت تكبرني بهذه الأفكار نقتها التجارب وأخلصتها من كل خطل ، وشاء الدهر الساخر أن يكون بين أبي وزوجها علاقة . . . وزوجها هذا — غفر الله له — ليس له ميزة من علم أو جاه . غير هذا الجاه الرخيص الذي تبعثه المادة ، وهو يجمع بعد الى قبح الجهل ، دمامة الشكل ، وسمح لي أن أتردد الى بيته ، وراقه أن يجد أن زياراتي تبعث في زوجه روح الغبطة والسرور ، فينضر فرعها الذابل ، وتدب الحياة في روحها الرازح تحت هذا الألم الحبيس الذي يعج في صدرها . . . وكأنه كان يشعر أن بينه وبينها عدا فارق العمر ، تبايناً في الروح والفكر . .

وكنت أشعر وأنا أتردد اليها أني أقاد الى الهاوية ، فهذا الصوت الهادىء المتزن ، يعيد اليك ذكرى لذة غابرة ، وهذه العين غرقى في صفائها تنازل النور ، محال أن يقوى على ندائها روح يتعشق الجمال . . . ولقد كنت قادراً على أن أكتمها حبي ، وما حاجتي الى الافضاء به ، وأنا لا أطلب أكثر من أن أجلس اليها ساعات ترفه عن روحي ، وتغذي مشاعري ، غير أنا في احدى جلساتنا ، وقد تشعب بنا الحديث ، وأخذت علينا الغبطة يقظات الارادة ، سمعت صرخات روحي في داخل البدن . . . أنني في حاجة الى الامتزاج بها ، الى الفناء في ذاتها ، وكأنها أحست بما أحسست به فالتحمنا بالنظر .

وقلت عينها ، لا حاجة الى الثورة — إنى أحبك —
فأجابت روحى من عينى — وأنا أحبك —
ولكنَّ عينها عادت فقالت إنى أحتقر ملذات البدن ، فلا تطمع بها ، فقلت وأنا أحتقرها ، لقد مللتها ، إن روحى هى الصادية.
وفى تلك الجلسة أعلنت لها حبى ، وباحت لى بمثله . . .

* * *

ومن ذلك الحين ، أصبحت لا أقوى على فراقها ، ولا أطيق الأبتعاد عنها دقيقة ، ولقد تعاظم أو تضاءل الوجود — لا أدرى — فأصبحت هى كل شىء فيه ، واستقرَّ حبها فى أعماقى ناراً ، فغدوت بجانبها أحترق .

ومرت الأيام مفعمة بالهناءة ، فكنا نلتقى كل يوم ، لا أرتوى من هذه الكلمات تندُّ عن هذه الشفاه الجميلة ، ولا اشبع من النظر الى هذا المحيا الذى يبعث اليك فى كل لمحة فكرة تحمل معانى الرضى عن الحياة . . .

وأشهد أن جمالها أدنانى كثيراً من حمى الله . . وارتفع بنفسى الى عالم أندى من عالمنا هذا ، يرى منه الانسان مبلغ ما تتردى فيه الخلائق من سخافات ، ومبلغ ماتنطوى عليه البشرية من حماقة .

وكنا نتخير من الأمكنة أهدأها ، ونهرب بسعادتنا بعيدين عن الضوضاء والصخب ، وكأنها وهى ترقى القمم ، أو تنساب معى الى الوادى دُنيا من الفتنة تتحرك . . على أن هذه التشابيه والصور كانت تجيش بنفسى ولا أجرؤ على إسماعها إياها . . . فهى لا تسمح لى أن أصور تموجات النسائم على غدائرها ، ولا كيف تفتضح الموسيقى والشعر ، قبالة ضحكتها وبسمتها ، ولقد سألتها مرة عن سر هذا الأمتعاض، فقالت : ذلك أن الجمال ليس فى الشكل ، وإنما هو فيما وراءه . . . على أن فى كلامك غلواً ، قلت : نعم ولا ، الجمال فيما وراء الأشباح ، وليس فى كلامى غلواً ، وكذا أنت ترين أن جمالك أمثل من أن نتطاول الى وصفه ، فصمتت ثم قالت : دع هذا وخذ فى غيره .

قلت : فليكن فقد يجرُّ الى ما أخذنا على أنفسنا العهد بالابتعاد عنه . . . ثم تأخذ الحديث بلباقة وتديره على الوجه الذى تريد ، مبتعدة فيه عن كل ما من شأنه أن يستثير فيك هذا الذى يطمع فيه عباد البدن . وهى إذ تحدثك لا تجهد فى إقناعك ، بل تلقى الفكرة موجزة واضحة ، ثم تتركك تتخيل ، وتقيس وتقارن ، ولك أن توافقها أو تخالفها فهذا ليس بالشىء المهم ، وإنما المهم أن تفكر ! .

* * *

شارف العام أن ينتهى ، وأنا لا أزال فى غمرة حبها أنضوى جماً ، وأنمو فكراً وإحساساً ، أصبحت شغلى الشاغل ، لقد لهوت عن العالم ، ونسيت أن به خلائق يعزُّ عليها أن ترى الآلاف تمتزج بالمحبة ، وتلتحم بالروح ، حتى كان اليوم الذى سحق فيه قلبى ، وتحطمت كأس سعادتى ، فقد جئتها فى عصاره كالعادة ، لنذهب الى نزهة اتفقنا عليها ، فجلست إليها ريثما تنهى عملها ، وتصلح من شأنها ، ولكنى أوجست خيفة ، وأنا ألاحظ عليها أثر اضطراب تحاول جهدها إخفاءه ، ثم رأيتها تتحفز للكلام ، وبعد لأى استطاعت أن تجمع شتيت إرادتها فقالت :

إصغ الىَّ . . . . قلت : كلى آذان . . . .

قالت : أو لم تسمع ؟ . . لقد أكلتنا الألسنة ! .

قلت : لا أدرى ماتقصدين ؟ قالت : ستدرى . إن هذه البشرية المتمرغة بالخسة ، المتهافتة على الساقط من اللذة ، لا ترى من الممكن أن تقوم علاقة بينَ متحابين ، لا تمت الى هذه الأسباب الدنيا ، ولا تنبع من هذه المنابع الآسنة التى منها يستقون علاقاتهم.

قلت ، وقد قام بنفسى أن أدارى ألم الصدمة : ليكن هذا خلقهم وصغائرهم ، فما تصاحبنا لبذل فى الخلق .

فوجمت قليلاً ، ثم قالت : ليس عن غباوة تتكلم ، وعاجلتها دموعها ، وقد والله ياصاح رأيت أنواعاً من الدمع ، فما رأيت أشجى ولا أبعث للأسى من دموع هذه الحسناء البريئة المظلومة ، إنها بهذه القطرات تحاول أن تستنطق العناصر وتستشهدها على طهرها وظلم الانسان .

قلت : هونى عليك أو بلغ الأمر الى هذا الحد ؟ ! . . .

قالت : أجل ! ومن حين وأنا أكتمك إياه ، وزوجى وأقرباؤه لقد طلبوا منى أن اقطع معك هذه العلاقات ، إنهم يرونها خطراً على كرامة الأسرة ، وغداً يسافر بى الى بلد ناءٍ كتم عنى اسمه وإخاله لن يعود إلا متى رحلت ! ! . . .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]



القيثارة السارية

لطاهر محمد أبو فاشا

قرأت ديوان هذا الشاعر الشاب فأعجبني منه تنوع موضوعاته وراقني هذا النشاط الذى يبدو فى قصائده ، وهذه الحركة التى تنتقل به من الوصف إلى التوجد إلى نقد بعض مظاهر الاجتماع .

بيد أنى أصارح شاعرنا بأنه قليل العناية بتهذيب شعره وإحكام قوافيه ، فان فى قصائده بعض العيوب اللفظية وبعض المجازات والأخيلة التى لايستسيغها الذوق ، كما أنى ألاحظ على الشاعر الفاضل أنه شغوف بالتلاعب بالألفاظ ، يتدفق فى غير رَوِية ، وعهدي به سليم الذوق سريع إلى معرفة مواضع الجمال فيما يقرأ من الآثار الأدبيـة ، وليت شعرى كيف تنسب مثل هذه الأبيات إلى من كانت هذه صفاته إلا أن يكون أساس ذلك الإهمال . أنظر إليه يقول :

وأنى قد دعوت وبح صوتى   وأنـك لا ترق ولا تجيب

وانظر إلى قوله :

اهدى مهجتى بصـبرك هدما   واسألى الحب فى الفؤاد المهدم

وإلى قوله :

أنا بين هاتيك الحمام حمامة   تصف الشعور بشعرها الرنان

المرء يقتـــله الشعور وربما   هز الشعور الميت فى الأكفان

وانظر إلى قصيدته فى ملكة الجمال عند سفح أبى الهول :

يكاد أبو الهول لولا الجلال   يعـربد مما رأى حوله

وكم سبح قد من صخرة   يحب الجمـال ويصبو له

وأوهمها أنه كالجمــاد   لتأمنه فتطيـل الوقوف

ولولا مخافته أن تخاف   لقام يدق لها بالدفوف

إلى غير ذلك من الأخيلة التى نحب أن يخلص منها شعر طاهر إن شاء الله ؟

الخفيف

ودارت بى الأرض الفضاء وصرخت كالمذعور :

محال هذا ، إنهم يملكون منك الجسد ، أما الروح فهو وقف على محبتي ، لن أدعهم — وأنا قادر — يحطمون كأس حياتى ..

كيف يفصلونك عنى ؟ ! أيفرق الروح عن الجسـد دون أن يتقوض ؟ . . .

ثم كانت ساعة افتضح فيها جلدى ، فطفقت أبكى ، لقد بكيت كثيراً ، وماصحوت إلا وهى تضمنى ، وتبللني بمدمعها ، ثم طبعت على فمى قبلة ، طبعت على فمها مثلها ، هى أول وآخر قبلة ، هى أثمن ما أمتلك من ذكرى . .

* * *

ومالى أشق عليك ، لقد انتزعوها مني كما ينتزع الطفل عن ثدى أمه ، لقد ذهبوا بأجمل حياتى ، وموئل ذكرياتى .

لقد كانوا قساة ، فلم يرحموا غرباء جاءوا دنياهم على عجل ، وسيمضون كما جاءوا .

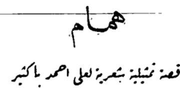
لقد ذهب معها الصبر ، فأصبحت هذه الدنيا فى نظرى كشراك الطائر ضيقة قفراء من كل ما يلهم العزاء

وأنى لى أن أحمل كل هذه الدنيا من الأوصاب ، فسقطت مريضاً خائر القوى ، ولى هاهنا — بالمستشفى — شهران لاأبل إلا لأنتكس . .

وقد جاءتني بالأمس منها كلمة هى : « الى الملتقى .. » إذن فهى تعرف أنى بالمستشفى ، بدليل أنها كتبت العنوان ورقم الغرفة ، نخبرنى أين تكون لقيا المرضى . . وأكبر ظنى أنها مثلى مريضة إن الدنيا أضيق من أن تتسع للقيا القلوب الطاهرة .

الى الملتقى . . حيث يتبع الحسن دون رقيب ، وحيث تروى القلوب الظامئة الى الجمـال . . . الى الملتقى . . . الى الملتقى . . .

شرق الأردن   عبد الحليم عباس



ناظم هذه الأقصوصة أديب حضرمي تعجبك فيه براعة نظمه وعربية ديباجته، ويحمل بين جنبيه قلبا يخفق للعروبة التي خالطت دماءه كما يتبين لك ذلك من مقدمته النثرية التي يقول فيها « والشعب الحضرمي شعب عربي صميم تجرى في عروقه دماء قريش وهمدان وحمير وكندة ومذحج » وتدور القصة حول محور واحد، ألا وهو حفلات الزواج في عاصمة الأحقاف ... والناظم ممن يتشيعون لتعليم البنت فيقول على لسان همام (ص ٥)

صار فرضا عليك أن تنشرى هـ ... ـذا الهدى في جماعة النسوان
فهدى الشعب من هدى أمهات ... الشعب في كل موطن وزمان

ويقول في موضع آخر في هذا الموضوع نفسه على لسان فتاة :

فيم غادرتم البنات على جهـ ... ـل وقمتم تعلمون البنينا
كيف نستطيع بالجهالة يوما ... أن نؤدى أمانة الله فينا

والناظم يجيد الوصف ويحسن التصوير مما يدل على ذوق محمود، ومقدرة قوية في رسم ما تقع عليه عيناه، فيقول مصوراً الشاي في الكأس :

لولا انتصاف الكأس خيل أنها ... في كف ساقيها تقوم بذاتها

ويسوؤه أن يرى الألاعيب والمهازل تمثل في وطنه تحت ستار الدين وهو برىء من تلك الأفاضيح الساقطة، ويهزأ برجال الدين الذين يدعون أنهم يذودون عن حياضه، ويدافعون عن بيضته وهم أبعد الناس عنه، فيسخر بهم قائلاً :

ولى الله ذو الجبـ ... ـوة والأردية الخضر
وذو المسواك في العمة ... قد أربى على الشبر
ورب السبحة الفارق ... في التسبيح والذكر
بها يذكر في الناس ... ولا يذكر في السر

والأقصوصة على هذا المثال البديع من النظم التقليدي، وهي في أسلوبها وفنها أروع منها في روحها ومعناها، وهناك هفوات كنا نود أن يترفع عنها الناظم كما في قوله :

يوم ما أجملها من فتاة ... يوم ما أصلحها لهمام ؟
صلوات الله تغمر طه ... وحماها الله من عين ولم

ومثل المبالغة المجوجة في قوله يصور الحب :

ولقد لقيت به دواهى لو ... رُعْنَ الجبال تركنها تربا

ومن حسن الحظ أن مثل هذه الأبيات قليل، ولا يشين أقصوصته مثل هذا المغمز، وإنا لنهنئه على ذلك خاصة وهو مازال في غضارة الصبا وميعة العمر .

م

تربية الطفل

للدكتور شخاشيري

وهذا الكتاب أيضاً من الكتب التي تتناولها في غبطة وإعجاب، فما أحوجنا في حياتنا الاجتماعية إلى مثل هاتيك الكتب القيمة التي تبحث في الصحة وعلى الأخص ما يتعلق منها بالطفل .

والكتاب الذي أحدثك عنه قد سار على نهج فريد، فهو سلسلة أحاديث موضوعة على طريق الحوار بين طبيب وإحدى الأمهات، ويتناول كل حديث ناحية من نواحي حياة الطفل كتغذيته ونظافته وخصائص الأطعمة الصالحة له، وما يطرأ عليه من الأمراض ...... الخ مما جعل الكتاب سهل المأخذ بعيد المرمى، خفيف المحمل، هـذا إلى علم واسع وتفاصيل دقيقة ما أجدر الأمهات والآباء أن يستوعبوها لخير أطفالهم، ولقد أضاف الدكتور الفاضل إلى الكتاب نص محاضرته التي ألقاها في دار جمعية الحشرات الملكية في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية وموضوعها التأمين على صحة الطفل، كما اختتم الكتاب ببعض الآراء القيمة في موضوع الطفولة لثلاث من فضليات المربيات، وإنا لنشكر للدكتور الفاضل عمله الانساني وإخلاصه الذي يتجلى في كتابه للطفل ووالديه .

الخفيف

أدولف هتلر

زعيم الاشتراكية الوطنية

مع بيان المسألة اليهودية

تأليف أحمد محمود الساداتى بدار الكتب

كتاب يقع فى نحو مائة وستين صفحة من القطع المتوسط جيد الطبع ، متين الورق ، وضعه مؤلفه الفاضل ليشرح به حركة من أهم الحركات التى تشغل بال العالم الآن ، وإنه ليسرنا أن يكون بين إنتاجنا الأدبى ما يشهد باهتمامنا بتلك الحركات الشعبية التى تخرج عنها المطابع فى الغرب مئات الكتب ، وإن هذا الكتاب الذى أحدثك عنه ليزيد فى اغتباطنا أنه بحث منظم واف بالغرض تقرؤه فتقف على الأحوال السائدة فى ألمانيا اليوم وموقف حركتها الوطنية من العالم ، ولقد أحسن المؤلف جداً بما أورده من مقدمات تاريخية عن ألمانيا منذ عهد تأسيس الامبراطورية إلى الحرب العالمية ، ثم بما قام به من شرح المسألة اليهودية ، وشرح النازية وبرنامجها وروحها والشيوعية فى ألمانيا وموقف النازية منها إلى غير ذلك من الأبحاث الوافية ، وليس ثمة ما يؤخذ على المؤلف الأديب سوى تحمسة لهتلر تحمساً ظاهراً ، كاد أن يفقده فى بعض المواضع اتزان المؤرخ وانصافه ، وفيما عدا ذلك فالكتاب يشهد بمجهود محمود ، وهمة مشكورة .

محمود

ديوان صالح جودت

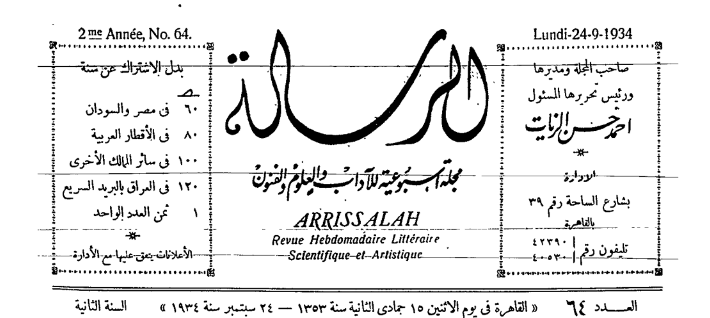
أتممت قراءة هذا الديوان لشاعرنا الشاب ، فأحسست روح لطيفة ونبرات ساحرة هادئة تطن فى أذنى ، وأشهد لقد أعجبتنى موسيقاه وصفاء ديباجته ، ولكنى عدت فنظرت فى بعض القصائد نظرة تمحيص وتعقيب فوقعت عينى على بعض الأخطاء اللغوية وصدمتنى بعض القوافى ، ولو أن شاعرنا قد عنى بنظمه أكثر من ذلك لكان لقصائده شأن غير هذا الشأن ، ففيها روح وفيها شاعرية لايمكنك أن تنكرها عليه ، بل إن شاعريته لتستميلك حتى ولو لم تكن ممن يقبلون على الشعر ، هذا وإنى لأنكر عليه وأعاتبه فى شدة على تلك النزعة الطائشة التى جعلته وهو ذلك العصفور الفريد الوديع يضطرب فى أجواء خانقة ويتعثر فى أشواك موبقة ، ما كان أغناه عنها ، فانه فى الحقيقة لم يرجع بطائل ولم يفد شيئاً ، ولعله كان فى نزعته تلك متأثراً بقراءته أو مقلداً لغيره ، فانك لا تجد فى تلك القصائد التى جرته إليها المغالاة ، تلك الروح العذبة الرقيقة ، ولا تلك النغمة الهادئة الساحرة ، التى تجدها فى باقى قصائده . والخلاصة أن شعر صالح جودت كالذهب ؛ ولكنه « خام » لابد أن يتخلص مما يعلق به من الأوشاب

الخفيف

المرافعات والتوثيقات الشرعية

عنى فضيلة الأستاذ الشيخ على قراعة رئيس محكمة الزقازيق الابتدائية الشرعية بوضع « كتاب الأصول القضائية فى المرافعات الشرعية — وكتاب مذكرة التوثيقات الشرعية » .

استوعب فى الأول طرق القضاء وقواعد المرافعات الشرعية ، وفى الثانى كل مايلزم الموثق والموثقين فى كتابة الاشهادات المنوعة وصور الدعاوى الشرعيــة ، والوثائق المختلفة ، مما لا يستغنى عنه موظفو المحاكم الشرعية ، وطلاب الحقوق ، وأقسام التخصص فى القضاء الشرعى ، ويكون مرجعاً للقضاة والمحامين ومدرسى القانون والشريعة ، ويطلبان من المكاتب الشهيرة .



2me Année, No. 64. — Lundi-24-9-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩ بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٤ « القاهرة في يوم الاثنين ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

طغياد النيل

على الشاطئ الغريق . . .

هكذا الطغيان يا نيـل يجعل مصدر الحياة مورد هَلَكَة ، ومنبع الخيرات مغيض بَرَكَة ، وأصل العمارة غاية دمار وخُسر ! !

هذه شواطئك الخُضر يا نيل كانت بالأمس تتنفس بالنعيم ، وتتدفق بالخـــير ، وتترقرق بالجمال ، فأصبحت اليوم تختنق بالأخطار ، وتلتطم بالمخاوف ، وتهدد الحقول الغنية الخصيبة بالفاقة والجدب ؛ وهذه مدنك البيض وقُراك السُّمر كانت تتفيأ على ضفافك ظلال الخفض ، وترمق من خلال النخل أمواجك المرسلة المسلسلة ، وهى توقع بين القصب الألَف ألحان الثراء والغبطة فتعتز بك وتقدس لك ؛ فأصبحت تحشد في وجهك الجنود ، وتقيم بينها وبينك السدود ، وتضرع إلى الله أن يصرف عنها طغيانك وجورك ! وهؤلاء أبناؤك الوادعون كانوا يتعهدون بالعمل الدائب غرسك الزكي وثمرك الغالي ، فيدفعون الحشرات عن القطن ، ويدرأون الطفيليات عن الذرة ، ويسايلون في الحقول نضارك الذائب ، ويستقبلون بالشوق الآمل موسمك الآنب ، فأصبحوا وهم من هَولك قائمون على رِجل ، لا يستقر لهم جنان

من الروع ، ولا يطمئن بهم مجلس من الجزع ، ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك ، من أسوان إلى مصبك ، يدافعونك مدافعة العدو ، ويكافحونك مكافحة الوباء ، ويكابدون فى صد غارتك الجهد والجوع و(السخرة) ! ذلك والقرويات ينتظرن بالقلق الحازع الغرق المخشى ، ويرصدن الأهبة للهجرة المتوقعة ، فهن يجمعن المتاع ، ويشددن الغرائر ، ويلقين النظر الحزين على القطن المكتهل على أعواده ، والذرة الناشئ على سوقه ! وهكذا الطغيان يا نيل يروع السكينة فى القلب ، ويفزع العدالة فى الدولة ، ويجعل سلام الأرض وسلامة الناس لمشيئة فرد ! !

***

وقفت منذ أيام على شاطىء من شطئانك المنكوبة ، أرسل طرفى الساهم فى تيارك الجارف ، ودواراتك المدومة ، ولججك الفائرة ، ثم أرده الى السواحل الغصانة والمزارع الغرقى ، وفكرى بين هنا وهناك يستقبل الذكريات القديمة ، ويستخرج الشابهات الأليمة . فذكرت بهذا المنظر الحزين ترة بيني وبينك موروثة ! فقد طغيت فى عام ١٨٧٨ على قريتى الصغيرة ، فاحتملتها هى ومئات من أمثالها كما يحتمل السيل الدافع أكوام الهشيم ! وكان قوى قد سموا بانفجارك على مقربة من سمنود ، وبيننا وبينها عشرات من الأميال ، ولكن ماءك الطاغى نحر هذا المفيض حتى انحدر فيه مجراك كله ، فلم يكن بين السماع والرؤية الا ريثما جزموا المتاع وشدوا المطايا ، ثم أدركهم فيضانك قبل الرحيل ، فتركوا الأرزاق وطلبوا النجاة . فحمل الكبار الصغار ، والطوال القصار ، والنساء الأطفال ، ومضوا يتحسسون الطرق تحت الماء ، ويتلمسون الصناعد فوق الأرض ، حتى بلغوا — وما كادوا يبلغون — ساحل نهر (شبين) ، وهو على بضع دقائق من القرية ، وهنالك وقف المهاجرون على الشاطئ الثانى بين البحرين ، يودعون بالنظر النيران قريتهم الهالكة ، والماء يغيب الدور ويبتلع الشجر ، حتى لم يبق ظاهراً منها إلا شرفات بيت الله ، وغرفات[1] بيت العمدة . ثم تجزءوا فى البلاد يطلبون المأوى عند ذوى القربى أو عند أولى المودة ، حتى انحسر الماء فعادوا ، واستأنفوا عمارة القرية فعادت

ثم لا يزالون يؤرخون الحوادث بهذه (الغرقة) ، ويهولون فى أحداث تلك الهجرة ، ويستعدون كل عام لطغيان النهر ، قبل أن يئون أوانه بشهر ! وهكذا الطغيان يا نيل يفرق الآلاف ، ويشتت الوحدة ، ويوهن بين الأوداء أسباب المودة !

***

يطغى الحكم كما طغيت يا نيل فيجرف السدود ، ويتعدى الحدود ، ويتخطى الحواجز . ثم يدور بالتجسس ، ويفور بالارهاب ، ويقذف بالتهم ، ويسخر قوى الدولة وموارد الأمة ومرافق الناس لسلطان أمره وطماح نفسه ونفاذ حكمه . وأصل الطاغية كان مثلك يا نيل فياض اليد فقدسه الناس ، جارف التيار فاتبعه الشعب ، ثم ناصرته شهوة الخاصة ، وساعدته غفلة العامة ، فرد أهواء النفوس الى هواه ، وشورى العقول الى رأيه ، وحدود القوانين الى إرادته ، وسطوة الجماعة الى يده ، ثم تفيض هذه القوى المتجمعة عن طاقة الفرد فيطغى ، ويزيد السلطان المفرط على غرور الانسان فيتأله ، ويومئذ لا تسأل عن حدود الله كيف تطمس ، ولا عن رسوم العدل كيف تدرس ، ولا عن حقوق الناس كيف تسفه ، ولا عن نظام الأمر كيف يتبدد ، ولا عن جموح الأثرة كيف يبغى ويتحكم .

وهكذا الطغيان يا نيل يعطل منابع الخير ، ويبدل طبائع الفطرة ، ويقتل مواهب العقل ، ويغمر بالظلام آثار العلم ودلائل العقل وشواهد الكفاية .

***

ويطغى الأدب كما طغيت يا نيل فلا يكترث للقواعد ، ولا يعوج بالأصول ، ولا يحفل بالمنطق ، ولا يأبه للخلق ؛ ثم يرغى بالبذاء ، ويزبد بالهراء ، ويطفح باللغو . وكان الأدب الطاغى مثلك يا نيل عذب الشمائل ، سهل الشريعة ، فروى الناس من نبعه ، وردت أكبادهم على نداه . ثم انتكس المجتمع ، وانقلبت الأوضاع ، وفسدت المقاييس ، واستفاضت الدعوى ، وتبجح الغرور ، واستبهم الأمر ، فرأى سلاطة اللسان أجدى عليه من براعة الذهن ، والتواء الفكر أنفع له من سلامة القياس ، ولؤم الوقيعة أشد لسلطانه من كرم النفس ، وشهوة الجدل أقرب الى قلبه من حب الحقيقة . وفى العهود التى تسطو فيها اليد ويستخذى القانون ، يتسلط فيها اللسان ويستكين المنطق ! ثم يمكن لمثل هذا الطغيان تكرم الأدباء عن مقام السافهة ، ضنا بأخلاقهم على الغمز ، وبأحسابهم على المضاضة وفى التاريخ السياسى والأدبى يا نيل أمثال وأشباه ؛ ولكنها تنحسر كلها عن جوهر الحق ، ومحض الخير ، ولباب الجمال ، كما تنحسر أنت عن هذه السواحل والجزر والقرى ، بحكم الطبيعة ومشيئة الله !

احمد حسن الزيات

(١) الغرفات جمع هى الحجرات العليا من البيت

استنوق الجمـــل ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشاب : لا قِبَل لي بهذا التعب المُعنّى الذي يسمّونه « الزواج » فما هو إلا بيت ثقله على شيئين : على الأرض ، وعلى نفسي ؛ وامرأة همها في موضعين : في دارها ، وفي قلبي ؛ وما هو إلا أطفال يلزمونني عمل الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين ، وأتحمل فيهم رَهَقاً شديداً كأنما أبنيهم بأيامي ، وأجمع هموم رؤوسهم كلها في رأس واحد هو رأسي أنا ؛ يُولَد كلٌّ منهم بمعدة تهضم لتوّها وساعتها ، ثم لا شيء معها من يد أو رجل أو عقل إلا هو عاجز لا يستقلّ ، متخاذل لا يطيق ولا يقدر .

قال : وإذا كان أول الزواج أيْ عَسَلُه وحَلْواه أنه امرأة تُذهب عُزوبتي — فأنا وأمثالي ما نزال في عسل وحلوى ؛ ولكل وقت زواج ، ولكل عصر أفكار ، وما أسخف الليالي إذا هي ترادفت على ضرب واحد من أحلامها ، فهذا يجعل النوم حكماً بالسجن عشر ساعات . . . !

قال : وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العزّاب قوم كرجال الفن ؛ رذيلتهم فنّيّة ؛ وفضيلتهم فنّيّة ، فتلك وهذه بسبيل ؛ وكل شيء في الفن هو لموضعه منه لا من غيره ؛ فاذا قلت : هذا خالٍ من الفضيلة عار من الأدب ، وعِبْت الفن لذلك — فما هو إلا كَعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خالٍ من لحية ..! هات الظلام وسواده ، فانه لون كالنور وإشراقه ، لابدّ من كليهما ؛ إذ المعنى الفنيُّ في تناسب الأشياء لا في الأشياء ذاتها ؛ ويد الفنّيّ كيد الغنيّ ؛ هذه لا يقع فيها الذهب إلا ليتعدد ثم يتعدد ؛ وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتعدد ثم تتعدد ؛ وفي كل دينار قوة جديدة ، وفي كل امرأة فنٌّ جديد .

قال : ومذهبنا في الحياة أن نستمتع بها ضروباً وأفانين ؛ من أطاق أنواعاً لم يقتصر على نوعين ، ومن قدر على نوعين رفض الواحد ؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى لثقل مسها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصوّان ؛ إذ هي لا تلد أشعة كواكب ولا قطراتِ ندى ، وحسب الجسد برأس واحد حملاً .

قال : ومن الذي تعرض عليه الحياة ســلامها وتحياتها وأشواقها في مثل رسالة غرام ثم يدع هذا ويسألها غضبها وخصامها ولجاجتها في مثل قضية من قضايا المحاكم ، كل ورقة فيها تلد ورقة . . !

ثم قال الشاب : لا تحسبنَّ أن المرأة هي السافرة عندنا ، ولكنّ اللذة هي السافرة ؛ وما أحكم الشرع ! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة : — ما أحكم الشرع الذي لم يُرخِّص في كشف وجه المرأة إلا لضرورة ، فان الواقع في الحياة أن هذا الكشف كثيراً ما يكون كنقْب اللص على ما وراء النقب ؛ وإذا كسر ما فوق القُفل من الخزانة المكتنز فيها الذهب والجوهر فالباب الحديد كله سخرية وهزؤ من بعد . . !

* * *

هذه عقلية شابّ محامٍ طوى عقلَه على الكتب القانونية وطوى قلبه على مثلها من غير القانونية . وليس يمترى أحد في أنها عقلية السواد من شبابنا المثقف الذي لبس الجلد الأوربي . ومن البلاء على هذا الشرق أنه مابرح يناهض المستعمرين ويواثبهم غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التي تناهضه وتواثبه ، جاهلاً أن أوربا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية ؛ وتسوق الأسطول والجيش ؛ والكتاب والأستاذ ، واللذة والاستمتاع ، والمرأة والحب . ولو أن عدواً رماك بالنار فاستطارت في ثيابك أو متاعك لما دخلك الشك أن عدوك هو النار حتى تفرغ من أمرها . فكيف لعمري غفل الشرقيون عن أخلاق نارية حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا أسهل مساغاً ، وألين أخذاً ، وأسرع في الهضم .

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوربا في أعصابه ، وأما مصر ونساؤها ورجالها فعلى طرف لسانه لا تكون إلا صَيْحة ، وليس بينه وبينها في الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها ، لا من ناحية فائدتها منه .

وتلك المعاني كلها مشتق بعضها من بعض ، ومرجعها إلى

أصل واحد ، كالأعراض التي تبتلى الجسم يمهّد شيء منها لشيء ، ما دامت طبيعة هذا الجسم زائفة أو مختلة ، أو متراجعة إلى الضعف ، أو ذاهبة إلى الموت .

وأولئك شبان وقف بهم الشباب موقف بلادة ، فلا يخطو إلى الرجولة ، ولا يكمل بنموه الاجتماعي كما يكمل الرجل الوطني ، فمن ثمّ يكون خوّاراً لا يستطيع أن يحمل أثقالا مع أثقاله ويستوطيء العجز والخمول فلا يكون إلا قاعد الهمة رخو العزيمة ، قد استنام إلى أسباب عجزه وتخاذله ، ولا يكون في بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حميلة على ذويه ضُجَعة لا يمشى ، نُوَمة لا ينهض ، مستريحاً لا يعمل .

وبهذه الكسلة الاجتماعية في الشبان يبدأ الشعب يتحول من داخله فينصرف عن فضائله ويتخذ في مكانها فضائل استعارة يقلد فيها قوما غير قومه ، ويجلبها لبيئة غير بيئته ، ويقسرها على أن تصلح له وهي فساد ، ويُكرهها على أن تنفعه وهي ضرر ، وتلك حالة يغامر فيها الشعب بكيانه فلا تلبث أن تصدّعه وتفرّقه .

ولو أن في السحاب مطرا وغيثا لما كان له في كل ساعة لون مصبوغ ، ولو أن في الشباب دينا لما صبغته تلك الاخلاق الفاسدة ، وما ذهاب الحارس عن مكان إلا دعوة للصوص إليه ، وهل كان الدين إلا واجبات وتبعات وقيودا يراد من جميعها إعداد الانسان لأمثاله في الاجتماع ، حتى يقر في إنسانيته الصحيحة على النحو الذي يصلح له منفرداً ويصلح له مجتمعاً ؟ فليست الزوجة وحدها هي التي خسرت الشاب بل خسره معها الوطن والدين والفضيلة جميعا ، وبهذا انعكس وضعه من الجماعة ، فوجب في رأيه أن تسخّر الجماعة له وأن يستقل هو بنفسه . وبهذا العكس وهذا السقوط وهذا الاستمتاع الذي يجد سعادته في نفسه أصبح أولئك الشبان كأنما حقهم على المجتمع أن يقدم لهم بغايا لا زوجات . . . . بغايا حتى من الزوجات . . . !

قبّح الله عصرا يجهل الشاب فيه أن الرجل والمرأة في الوطن كلّيتان تفسر الانسانية إحداهما بالأخرى تفسيرا إنسانيا دينيا بالواجبات والقيود والأحمال ، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق ، كما تفسر الحيوانية الذكر والأنثى .

والنفس الدنيئة أو المنحطة في أخلاقها ومنازعها من الحياة لا تكون إلا دنيئة أو منحطة في أحلامها وأخيلتها الروحية ، دنيئة كذلك في طاعتها إن قضت عليها الحياة بموضع الخضوع ، دنيئة في حكمها إن قضت لها الحياة بمنزلة من السلطة . ولو تنبهت الحكومة لطردت من عملها كل موظف غير متأهل ، فانها إنما تستعمل شرا لا رجلا يمنع الشر ، وكل شاب تلك حاله هو حادثة ترتدف الحوادث وتستلزمها ، وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه .

* * *

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعة ثالثة تقوم بالأثنتين معا ، وهي طبيعة الشعب . فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفرّ الشاب القوى من تبعة الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الانسانية ، ولا يقيم لوطنه جانبا من بناء الحياة في نفسه وزوجه وولده ، بل يذهب يجعل حظ نفسه فوق نفسه وفوق الانسانية والفضيلة والوطن جميعا ، ولا يعرف أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعاف في طبيعته لمعنى الاخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل في أي أسبابها عرضت .

ومن فُسولة الطبع ولؤمه ودناءته أن يهرب هذا الجندي من ميدانه الذي فرضت عليه الطبيعة الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه الطبيعي متعللا لفراره المخزى بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يعاني فيه كما يحتج الجبان بخوف الهلاك وعناء الحرب .

ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات وبوارهن على الوطن ، وأن يتواطأوا على نبذ هذه الأحمال وإلقائها في طرق الحياة وتركها لمقادرها المجهولة كأنهم أصلحهم الله لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم في أمهات الجيل المقبل ، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهمومها السامية . إن الجمل اذا استنوق تخنث ولان وخضع ، ولكنه يحمل ، وهؤلاء إذا استنوقوا تخنثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا .

ومن سقوط النفس في الرجل التكسّل العاجز المقصر أن يحتج لعزوبته بعلمه وجهل الفتيات ، أو تمدنه وزعمه أنهن

لم يبلغن مبلغ الأوربية ، ولايدرى هذا المنحط النفس أن الزواج فى معناه الانسانى الاجتماعى هو الشكل الآخر للاقتراع العسكرى ، كلاهما واجب حتم لايعتذر منه إلا بأعذار معينة ، وماعداهما فجبن وسقوط وانخذال ولعنة على الرجولة .

ومن سقوط النفس أن يغنى الشاب عن الزواج لفجوره فيقره ويمكن له ، وكأنه لايعلم أنه بذلك يحطم نفسين ، ويحدث جريمتين ، ويجعل نفسه على الدنيا لعنتين .

ومن سقوط النفس أن يغتر الشاب فتاة حتى إذا وافق غرتها مكر بها وتركها بعد أن يلبسها عارها الأبدى ؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك ، هو أبداً عند من يسرقهم فى باب الخسائر والنكبات ، لا فى باب الربح والمكسب ؛ وعند المجتمع فى باب الفساد والشر ، لافى باب المصلحة والخير ؛ وعند نفسه فى باب الجريمة والسرقة ، لا فى باب العمل والشرف .

***

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج فى أصلها وفروعها الكثيرة التى منها الغالاة والشطط فى المهور ، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية وإهمال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء وعزوفها عن الفاضل ذى الكفاف أو اليسير على غنى فى رجولته وفضائله ، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة ، والسبيكة بالدينار ، وكأن الطبيعة قد ابتليت هى أيضاً بالسقوط ، فأصبحت تعتبر الغنى والفقر ، نتجعل فى دم أولاد الأغنياء روح الذهب واللؤلؤ والماس ، وتلقى فى دم أولاد الفقراء روح النحاس والخشب والحجارة . . . على حين أن الجميع مستيقنون لايتدافع اثنان منهم فى أن الطبيعة لاتبالى إلا بوراثة الآداب والطباع .

وأعظم أسباب هذا السقوط فى رأيى هو ضعف التربية الدينية فى الجنسين ، وخاصة الشبان ؛ ظناً من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لا غيره نظام هذه الحياة وقوامها فى كل مايتصل منها بالنفس . وليست المدنيــــة الصحيحة كما يحسب المفتونون هى نوع المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها . والى هذا ترمى كل مبادىء الاسلام ؛ فان هذا الدين القوى الانسانى لايعبأ بزخارف كهذه التى تتلبس بها المدنية الأوربية القائمة على الاستمتاع وفنون اللذات وانطلاق الحرية بين الجنسين ؛ فهذا بعينه هو التحطيم الانسانى الذى ينتهى بتهدم تلك المدنية وخرابها ؛ وإنما يعبأ الاسلام بالعقيدة التى تنظم الحياة تنظيماً صحيحاً متساوقاً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة ، بعيداً من الخلط والفوضى .

ويقابل ضعف التربية الدينية مظهر آخر هو سبب من أكبر أسباب السقوط ، وهو ضعف التربية الاجتماعية فى المدرســة ؛ وإلى هذا الضعف يرجع سبب آخر هو تخنث الطباع واسترسالها الى الدعة والراحة ، وفرارها من حمل التبعة « المسئولية » التى هى دائماً أساس كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى .

وبذلك الضعف وذلك السقوط وضعت المرأة البغى العاهرة فى الوضع الطبيعى للأم ، ونزل الرجل السافل المنحط فى المكان الطبيعى للأب ، وتحللت قوى الوطن بانحراف عنصريه المعظيمين عن طبيعتهما ، وجمدت فضيلة الفتيات المسكينات تتأكل من طول ما أهملت ، وأخذ سوس الدم يتركها فضائل نخرة ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته ، مادامت الفضيلة فى حكم الناس وتصريفهم قد تركت مكانها للقوانين . ومادامت قوة النفس قد أخلت موضعها للقوة التنفيذية .

لقد قتلت روحية الزواج ، وهى على كل حال جريمة قتل .

فمن القاتل ياصاحبنا المحامى ؟

قال الشاب : هو كل رجل عزب

قلت : فما عقابه ؟

فسكت ولم يرجع إلى جواباً

قلت : كأنى بك قد تأهلت وخلاك ذم . . فما عقابه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزاب ، فليعاقبهم الشعب بتسميتهم أرامل الحكومة . . واحدهم : رجل أرملة حكومة . . .

ثم قال : اللهم يسرها ولا تجعلنى رجلاً بغلطتين : غلطة فى نساء الأمة ، وغلطة فى ألفاظ اللغة .

طنطا مصطفى صادق الرافعى

انقلاب عظيم

فى السياسة الدولية

روسيا البلشفية فى عصبة الأمم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وتحاملها فيما اقتضته من العراق شرطاً لالتحاقها بالعصبة ، وموقفها من أمانى فلسطين وسوريا ؛ ولا زلنا نذكر بالأخص موقفها العقيم من مسألة نزع السلاح وفشلها الذريع فى معالجتها ؛ وسواء أكانت روسيا السوفيتية مخلصة فى رأيها بالنسبة لعصبة الأمم أم كانت تمليه بواعث السياسة فقط . فان العصبة لم تحقق خلال هذه الأعوام العديدة من حياتها شيئاً مما علق عليها من الآمال فى إنصاف الشعوب المظلومة أو تخفيف الخصومات القومية أو توطيد دعائم السلام .

تجوز العلائق الدولية فى تلك الآونة أعظم انقلاب عرفته منذ الحرب الكبرى ، وتستعد عصبة الأمم لاستقبال أعظم حادث عرفته فى تاريخها ؛ فمنذ أشهر يجرى الحديث بأن روسيا السوفيتية ستدعى إلى الالتحاق بعصبة الأمم . وستغدو عما قريب عضواً فيها ، وتتمتع بكرسى دائم فى مجلسها . وقد كان ذلك مثار دهشة وريب ممن يعرفون ظروف روسيا السوفيتية ، ونزوعها إلى التباعد عن الدول الغربية ، وما تقضى به طبيعة نظمها من مخاصمة الحكومات « الرأسمالية » ، ومناوأتها بكل الوسائل الخفية ، والعمل على هدمها وهدم النظم التى تحميها ، وإضرام نار « الثورة العالمية » . وقد كان للبلاشفة فى عصبة الأمم منذ قيامها رأى يناقض ما يرونه اليوم كل المناقضة ؛ فقد كانت فى نظرهم عصابة من الدول الرأسمالية تحركها هذه الدول وتوجهها كيف شاءت . وهيئة استعمارية منافقة تعمل من وراء ستار لتحقيق غايات الاستعمار الغربى ، وأداة لتمكين نير الأمم القوية الغالبة من أعناق الأمم الضعيفة المغلوبة ؛ وكانت الحوادث تؤيد كثيراً من هذه الريب الظنون ، فلم تر الأمم الضعيفة ولا سيما الأمم الشرقية شيئاً من الأنصاف على يد عصبة جنيف ، بل ابتدعت لها نظام الانتدابات أو الحماية المقنعة لتسبغ على استعبادها صفة مشروعة ، ولم تحاول مرة أن تحد من مزاعم الدول الاستعمارية أو أطماعها — وهذه الدول هى بعينها التى تسيطر على مجلس العصبة — ولم تجرؤ مرة على أن تصدر فى أى المسائل التى طرحت أمامها أى قرار يناقض آراء هذه الدول أو غاياتها ، ولا زلنا نذكر موقفها من النزاع بين تركيا وانكلترا على كردستان ، والنزاع بين الصين واليابان على منشوريا ، وخذلانها حينما احتلت إيطاليا كورفو ،

والآن ماذا حدث ؟ لقد تطورت العلائق الدولية خلال الأعوام الأخيرة تطوراً سريعاً مدهشاً ؛ وأخذت روسيا تخفف من خصومتها للدول الغربية شيئاً فشيئاً ، وأخذت الدول الغربية فى التقرب من حكومة موسكو البلشفية ، بعد ما لبثت أعواماً تحاول القضاء عليها ، وتحشد لمناوأتها كل ما استطاعت من القوى الخفية والظاهرة ؛ وعاد عهد التوزان الأوربى القديم وعهد المعاهدات السرية والمحالفات السياسية والعسكرية ، وغاض ذلك الأفق المصطنع الذى ساد فيه حديث السلام والتضامن الدولى مدى حين . وقد كان من الطبيعى أن يعتبر التحاق روسيا بعصبة الأمم عاملاً فى صفاء الأفق الدولى ، وتعضيد قضية السلام ، لأن تباعدها عن الدول الغربية كان عقبة واقعة فى سبيل تقدم التفاهم الدولى واستقرار العلائق الدولية ، وعدم اعترافها بالعصبة يعرض جهودها فى سبيل السلام للأنهيار : هذا على الأقل ما كان يتردد فى دوائر جنيف كلما حبط مسعى فى سبيل التفاهم أو مجهود فى سبيل نزع السلاح . ولكن التحاق روسيا اليوم بعصبة الأمم يدلى بمعان أخرى . وروسيا لم تغير رأيها فى العصبة ولا فى الدول « الرأسمالية » التى تتكون منها ؛ ولكن روسيا اليوم تعلق على هذا الانضمام آمالاً كبيرة وترى أنه يحقق لها من المصالح مالم تحققه سياسة القطيعة والعزلة ، والسياسة الغربية التى تسعى منذ حين لتحقيق هذا الانضمام تحاول أن تقنعنا بأنه يزيد العصبة قوة ويزيد كلمة أوربا توحيداً ، ويقرب أمد التفاهم فى مسألة نزع السلاح ، ويعاون على استقرار السلم فى أوربا ؛ ولكن الحقيقة أن هذه النظرية القديمة قد تطورت اليوم . وما ترشيح روسيا لدخول العصبة الا نتيجة لسياسة التوزان الأوربى الجديدة التى ظهرت

بوادرها قوية منذ قيام الحركة الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا وظهورها بمظهر المهدد لسلام أوربا ، وفشل مفاوضات نزع السلاح وعود فرنسا صراحة إلى السياسة القومية القديمة بحجة الدفاع عن نفسها أمام الخطر الألمانى . ومنذ عامين ونحن نشهد نتائج هذا التطور الجديد ، فى وقوع الجفاء بين ألمانيا وروسيا أولاً ، ثم انتهاز فرنسا لهذه الفرصة وتقربها من روسيا ، وتفاهم الدولتين على إحياء التحالف الفرنسى الروسى القديم الذى كان قائماً قبل الحرب ، ثم مساعى السياسة الفرنسية المتواصلة فى جمع كلمة دول أوربا الشرقية حولها فى كتلة واحدة تخاصم ألمانيا جميعاً ، وحملها حليفاتها دول الاتفاق الصغير على الاعتراف بروسيا السوفيتية ، وسعيها أخيراً فى ضم روسيا السوفيتية إلى عصبة جنيف .

ولروسيا صلة قديمة بعصبة الأمم وإن لم تكن من أعضائها ، فقد اشتركت فى لجنة نزع السلاح ومؤتمراته بصفة رسمية منذ سنة ١٩٢٥ ، وقدمت اليها عدة مشاريع لنزع السلاح كانت جميعها مثار البحث والمناقشة ولكنها رفضت جميعا ، وكانت السياسة الروسية خلال هذه الأعوام تثابر على خصومتها لعصبة الأمم وعلى الطعن فيها وفى نزاهة مقاصدها ، وتتخذ من فشل مؤتمر نزع السلاح دليلا على نفاق الدول الغربية وتمسكها بسياسة الحرب القديمة ، وبالأخص على ائتمارها بروسيا السوفيتية . أما اليوم فان روسيا لا تأبى التفاهم مع الدول الغربيـة والأندماج فى فى عصبة جنيف . ووراء هذا التطور الخطير فى سياسة البلاشفة عاملان جوهريان : الأول حوادث الشرق الأقصى ، والثانى موقف الدول الغربية من روسيا السوفيتية ، فأما فى الشرق الأقصى حيث تسيطر روسيا على أراض ومصالح عظيمة ، فقد نشط الاستعمار اليابانى فى الأيام الأخيرة نشاطا عظيما وانتزع إقليم منشوريا من الصين ، ولم تحفل اليابان باحتجاج الدول الغربية أو تدخل عصبة الأمم ، وآثرت أن تنسحب من العصبة لكى تكون مطلقة اليدين فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى ، ولم تحجم عن أن تصرح بأنها تعتبر الصين ميدان نشاطها وتوسعها دون غيرها من دول الغرب ، وأنها ستقاوم كل محاولة جديدة تقوم بها الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مصالحها فى الصين ، ولما كانت روسيا تجاور اليابان فى الشرق الأقصى فى أكثر من منطقة ، فان هذه السياسة اليابانية الجديدة التى تؤازرها عسكرية قوية تهدد أملاكها ومصالحها أعظم تهديد ، وروسيا تريد من أجل ذلك أن تصفى خصومتها مع الدول الغربية لكى تستطيع أن تتفرغ لمقاومة هذا الخطر . وأما عن موقف الدول الغربية إزاء روسيا السوفيتية ، فان هذه الدول قد نبذت خصومتها المطلقة القديمة لروسيا بعد ما اقتنعت بأنه يستحيل عليها أن تسحق الثورة البلشفية ، وبعد ما تطورت البلشفية ذاتها وتركت كثيراً من تطرفها القديم وآثرت جانب الاعتدال ، وأصبحت روسيا تميل الى العود إلى حظيرة أوربا القديمة والتفاهم مع الدول الغربية وإعطاء بعض الضمانات السياسية والاقتصادية ، وقد كانت السياسة الفرنسية روح هذه التطور كما بينا لأن فرنسا أشد الدول اهتماما باكتساب تلك القوة العظيمة فى شرق أوربا ، لتعود كما كانت قبل الحرب مصدرا للخطر على ألمانيا يزعجها ويشغلها .

وقد نجحت السياسة الفرنسية فى إقناع انكلترا وإيطاليا بتعضيد التحاق روسيا بالعصبة ، وهذه الدول هى التى تسيطر على مجلس العصبة (بعد انسحاب اليابان وألمانيا) وجرت مفاوضات تمهيدية بين فرنسا ومعظم الدول المنضمة الى العصبة لتوافق على قبول روسيا ، واستطاعت أن تحقق الاصوات اللازمة لذلك ، ويشترط لقبول الدولة المرشحة أن يؤيد قبولها ثلثا أصوات الجمعية العمومية واليك ما ورد فى ميثاق العصبة بخصوص ذلك .

« كل دولة ، أوملك مستقل (دومنيون) أو مستعمرة تحكم نفسها حرة لم يرد اسمها فى الملحق (ملحق الدول المنضمة) تستطيع أن تغـدو عضوا فى العصبة اذا وافق على دخولها ثلثا الجمعية العمومية بشرط أن تقدم الضمانات اللازمة على إخلاص مقاصدها وعلى مراعاة تعهداتها الدوليـة . وأن تقبل القواعد التى تقررها العصبة بخصوص القوات والتسليحات العسكرية والبحرية والجوية » (المادة الاولى الفقرة الثانية)

« تتألف الجمعية العمومية من ممثلى أعضاء العصبة ، وتجتمع فى أوقات معينة أو فى أى وقت آخر إذا اقتضت الظروف ذلك فى مركز العصبة أو فى أى محل آخر يختار لذلك ، وتختص الجمعية بالنظر فى كل مسألة تدخل فى دائرة نشاط العصبة أو تتعلق بسلام العالم ، ولا يجوز لأى عضو فى العصبة أن يختار لتمثيله فى الجمعية أكثر من ثلاثة مندوبين ولا يحق له أكثر من صوت » (المادة الرابعة)

وأما عن مجلس العصبة فقد ورد في الميثاق ما يأتي : « يتكون المجلس من ممثلي الدول الكبرى المتحالفة والمشتركة ، وكذلك من ممثلي أربعة أخر من أعضاء العصبة . وهؤلاء الأربعة تختارهم الجمعية حسب رغبتها وفي الوقت الذي تختاره لذلك . . . ويستطيع المجلس بموافقة أغلبية الجمعية أن يعين أعضاء آخرين من أعضاء العصبة يكون لهم كرسي دائم في المجلس ، ويستطيع بنفس الطريقة أن يزيد في عدد أعضاء العصبة الذين تختارهم الجمعية للمثول في المجلس » (المادة الرابعة فقرة أولى وثانية) .

أوردنا هذه النصوص لنبين الاجراءات اللازمة لالتحاق دولة ما بالعصبة ، ثم لنبين أهمية الكرسي الدائم في المجلس ، ذلك أن روسيا مرشحة للفوز بكرسي دائم في المجلس الى جانب باقي الدول العظمى ، وقد تمت الاجراءات الخاصة بترشيح روسيا في الجمعية العمومية ، وحصلت روسيا على أكثر من ثلثي أصوات الجمعية ، ولم يعارض في قبولها سوى ثلاث دول أو أربع هي سويسرا وهولندا والأرجنتين وبلجيكا ، وعقب ذلك دعوة العصبة لروسيا للانضمام اليها وقبول روسيا لهذه الدعوة ؛ وبذا تمت الاجراءات وغدت روسيا عضواً في عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى في الهيئة التي شد ما خاصمتها وحملت عليها ، ومما يلفت النظر أن هذه الاجراءات تجرى وروسيا بعيدة عنها لا تحرك ساكناً ولا تصرح بشيء ولا تعلق صحفها بكلمة ، ولتفينوف المشرف على الشئون الخارجية الروسية يقيم في أحد مصايف فرنسا الجنوبية . ذلك أن هذه الحركة كلها من صنع فرنسا وهي التي تحمل كل أعبائها وتسهر على تنفيذها ، وقد جرت جميع المفاوضات بشأنها وراء الستار مما أدى الى احتجاج بعض أعضاء العصبة ، فقد حمل مسترى دي فاليرا ممثل ارلندة على هذه التسوية ، ونوه بما فيها من الشذوذ . ولكن كل شيء يسير مع ذلك وفقاً للبرنامج المرسوم .

ومن المعروف أن دخول تركيا في العصبة انما هو نتيجة لدخول روسيا فيها . وقد كانت تركيا تحذو حذو حليفتها الكبيرة في موقفها إزاء العصبة وتنظر اليها بنفس نظرتها ، وهي الآن تسير وراءها في سياستها الجديدة .

***

ولهذا التطور الذي انتهى بإقبال روسيا على عصبة الأمم واندماجها في زمرة الدول الغربية مغزى عظيم فيما يتعلق بمصاير روسيا البلشفية ذاتها ، فقد كان شعار موسكو منذ ظفر البلشفية في سنة ١٩١٧ ، خصومة العالم « الرأسمالي » كله ، والعمل على إضرام نار الثورة العالمية في سائر جنباته ؛ ولم يقبل البلاشفة في ذلك أي مناقشة أو هوادة ، وكانت الشيوعية تتقدم في غزو الدول الصناعيـــة تقدماً حثيثاً ، وتؤازرها موسكو بكل ما وسعت . ولكن البلشفية لم تستطع أن تعيش طويلا بمثلها وغاياتها المتطرفة ولم تلبث أن تأثرت بقطيعة العالم ومقاومته ، واضطرت أخيراً أن تسلك مسلك الاعتدال سواء في سياستها الداخلية أو الخارجية . ورأى سادة موسكو أن موارد روسيا البلشفية وقواها المادية والمعنوية تتحطم تباعاً أمام ضربات الدول الغربية ، وأن روسيا لا تستطيع الحيـاة الى الأبد في ظل نظام يؤلب عليها العالم كله ، ويحرمها من كل عطف وتعاون ، فجنحوا الى تغيير السياسة القديمة ومدوا يدهم الى الدول الغربية ، ولم تهمل الدول الغربية الانتفاع بهذه الفرصة فمدت يدها الى روسيا وجذبتها الى حظيرتها . فالآن نستطيع أن نقول إن البلشفية قد دخلت في دور انحلالها ، وأنها تنزل شيئاً فشيئاً عن مثلها وغاياتها الثورية المتطرفة ، وأن روسيا تعود شيئاً فشيئاً الى حظيرة الماضي ، في ظل نوع من اشتراكية الدولة لا يلبث أن يستقر أو يختفي مع الزمن .

وترى الدول الغربية أن دخول روسيا في العصبة يقويها كهيئة دولية ويزيد في هيبتها ونفوذها في سير السياسة الأوربية خصوصا بعد أن غادرتها اليابان ثم ألمانيا . وقد يكون ذلك صحيحاً من الوجهة المحلية ، لأن العصبة تتخلص بذلك من خصم قوي كان يشتد في مناوأتها ، وتكسب نفوذاً جديداً في مسائل أوربا الشرقية . ولكن العصبة لا تكسب كثيراً من الوجهة العامة ، ذلك لأنها قد خسرت كثيراً من هيبتها ونفوذها خلال الأعوام الأخيرة ، ونستطيع أن نقول إنها فقدت نهائياً ثقة العالم كعامل في توطيد السلم العالمي ، وأداة من أدوات التفاهم الدولي والعدالة الدولية ؛ وقد اختفت مثل العصبة القـديمة بعد تخبط وفشل استمرا منذ قيامها ، وبعد أن قدمت الأدلة العملية العديدة على أنها لا تستطيع العمل إلا في الدائرة التي ترسمها لها الدول المستعمرة المسيطرة على مجلسها وعلى إرادتها .

هذه المعركة المزمنة بين أدبين!

للأستاذ كرم ملحم كرم

إنها لمعركة مزمنة حقاً ، هذه المعركة بين الجديد والقديم . فهي معركة حامية لا تنطفىء لها نار ولا يخبو منها أوار . فالشباب والمشيب يتطاحنان . المتربع فى القمة يصارع الواقف فى ساحل الحياة ، الضاحك للمستقبل ، المتقلب فى أحضان الربيع ، الناعم باخضرار العيش ، يقاتل من يحاذر الوقوع فى اللجة . الهاتف بمل فيه « الغد لى ! . » يغالب المتمسك بأذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت !

ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصل بالأبد . فان هذا التطاحن بين ابن الأمس وابن اليوم حديث كل يوم . هذا التطاحن بين ابن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم ، وابن اليوم الراغب فى أن يشق لنفسه طريقاً إلى الشمس ، القائل للقديم المزمن : « دعني أحتل مقعدك ! . » ، هذا التنافر ابن عصور ودهور ، انبثق يوم انبثاق الكون ، وسيرافق الكون فى مراحله الطوال لا يزول منه إلا يوم يزول

فالشباب يغيظه أن يطأطىء الرأس للمشيب ، أن يعترف له أبداً بالسيادة ، أن يقف حياله مكتوف اليدين ، فيصيح به : « نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمنى نصيبي ! . . » فيأبى من أدركهم الشيب أن يتزحزحوا من أماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة . ويغضب الشباب وفى أعصابه جمر ونار فيثور وتنشب المعركة . ولا يسلم الفريقان من شظايا القدح والنقد والتعريض . الشيخ العتيق يسخر بثمار عقول الشباب . والرائع فى مقتبل العمر يهز بيده المهند الصقيل مهدداً متوعداً ، وتتساقط الضحايا فى الميادين . ويقول القائلون : « المعركة بين القديم والجديد ! . . » ويخيل إلى بعضهم أن الأدب القديم هو ما جاد به الطاعنون فى السن . وأن الأدب الجديد هو ما يتحفهم به كل ناضر العود . على حين أن بين ذوى الأنياب الصفر فئة لا يبلى لها طارف ولا تليد . فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم ، كما أن بين الفتيان الأفراخ الزغب الحواصل ، فريقاً لا يحسن الابتكار ولا التوليد ، فانه لغارق فى القديم إلى الأذنين ، ويأبى إلا أن يحارب كل من أسن وشاب وشاخ ، وبات على قيد خطوة من يومه الأخير !

وهذه المعركة لا يصح القول عنها أنها بين أدب قديم وأدب جديد . إن هى إلا بين المشيب والشباب ، بين قوم تمتعوا بأطايب دهرهم وأدركوا الشهرة الواسعة والصيت البعيد ، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى . فهم نهمون شرهون جائعون ، يلتمسون الأكلة الشهية يتذوقونها ، مع أنهم فى الخطوات الأولى من عهد الفطام

ومثل هذا النضال ما خلا منه عهد . أما سمعنا جريراً يقول حين سئل رأيه فى الأخطل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلنى !

فالأخطل أكبر من جرير سناً . وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فأدركها ، وهناك من شاء الاقتداء بجرير فى التحكك بالطاعنين فى السن . نريد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير . فقد راش بسهامه جريراً ، على أن جريراً لم يرد عليه . وكان يقول حين يبلغه طعن بشار : مالنا ولهذا الغلام الخامل الغر نرفع قدره !

فقيل لبشار : بم أساء إليك جرير ؟

قال : لم تنلنى منه إساءة . على أنى وددت أن يهجونى . ولو فعل لكنت أشعر شعراء العرب أجمعين !

وغاظ المعرى أن يسمع : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » فأنشد قصيدة من عالى الشعر جاء فيها :

على أنه قد تترتب على هذا التطور نتيجة هامة هى توطيد دعائم التوازن الأوربى واقصاء شبح الحرب من أوروبا الى حين . ذلك أن وقوف روسيا إلى جانب فرنسا ودول الاتفاق الصغير على نحو ما بينا يقوى الجبهة الشرقية المعادية لألمانيا ، ويحمل ألمانيا على التأمل والتريث ، ويزيد من جهة أخرى فى طمأنينة فرنسا ، وفرنسا وألمانيا هما طرفا الخصومة الأوربية ، وعلى موقفهما وعلائقهما يتوقف السلام والحرب الى حد كبير . وهذا التحالف بين فرنسا وروسيا يعود بنا الى ما قبل الحرب ، وهو نتيجة طبيعية للسياسة التقليدية التى سارت عليها روسيا وفرنسا منذ الحرب الفرنسية الألمانية فى سنة ١٨٧٠ ، وأثناء الحرب الكبرى .

محمد عبد الله عنان

المحامى

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه . فكل يريد المقام الأول . والشجيرة يؤلمها أن تخيم عليها الشجرة فتسعى إلى امتصاصها كي تذبل وتجف . هي سنة تنازع البقاء . الشاب يدفع الشيخ إلى الهوة ليقوم مقامه ، والقوى ينشب أظفاره في الضعيف لتخلو له الساحة . وقد يكون هذا الشيخ من أنصار التجديد . ولكن الشباب لم يطق ظله ، فحفر له الحفرة ووقف يشهد مصرعه فيها .

إذاً من هم أنصار الأدب القديم ؟

من هم المتمسكون به والداعون اليه ؟

لا جدال في أن الأدب القديم ركن الأدب الجديد . فالأدب الجديد لم ينشأ عفواً ، بل تسلق قواعد القديم وشيد عليها قواعده الخاصة يستند إليها ويحيا بها . فالأدب القديم أبوه ، على أن الابن وإن يكن تغذى من أبيه فقد أظهر فيما شيد لنفسه من بنيان أنه مستقل . فان حجارة هيكله تختلف في حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين ، بل هو خالفهم في البناء نفسه : فعلوا هيكلهم مستطيلاً . فأبى إلا أن يشيد هيكله مستديراً ، وبنوه عالى القباب فرفعه ناتئاً يشك في الأجواء . بدا هيكلهم في منظر خشن فتلألأ هيكله لطيف الشكل ، مصقول الجدران ، ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال .

والأدب الجديد ليس وليد عصر معروف ، فكل عصر يحفل بالقديم والجديد ، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلاً ولوناً وذوقاً . كل عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد . وليس نصير القديم من وقف على الأطلال فبكى واستبكى ، فان بعضهم يقف على الأطلال ويجود بالشائق الرضى . أما أنشد داود عمون :

هاج أشواقي الى الدمن طائر غنى على فنن

وداود عمون شاعر ثوى منذ سنوات قلائل في مقره الأخير . وقد جاء شعره في الدمن من أرق الشعر ، فلا هو بالخشن المبتذل ولا الجاف الغليظ ، فالعذوبة وافرة فيه ، والقوة محكمة في ديباجته العالية .

وليس كل من تحدث عن الإبل والنوق بنصير القديم .

فالمنخل اليشكري لم يكن من أنصار القديم حين قال :

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

لا ، فان في هذا الشعر لظرفاً ، وإن فيه لأمعاناً في التوكيد على نحو ما جاء في قول أبي نواس :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

إن فيه لرونقاً ، فهو بعيد عن التكلف في سبكه ومعناه . وكل شعر جامع للرونق خال من التكلف والغلو الفحاش يطمئن اليه كل جيل ، ويرضى عنه الأدب الجديد .

فما هو الأدب القديم إذاً ؟ . . .

الأدب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشي الألفاظ ، المثقل بالتقليد ، الراكد في معناه ومبناه ، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا ذوق ، هو المنسوج على منوال خشن ، الضخم الكلمات ، الطنان الأجوف القائم على صناعة الألفاظ ، المحشو تكلفاً وتعقيداً ، البارد لفرط ما لاكته الألسن ومضغته الأفواه .

الأدب القديم هو الأدب المطبوع بطابع عصر معلوم ، جاءه من يمثله حياً في عصر لم يخلق له . فاذا نحن رأينا في شعر امرىء القيس شيئاً جديداً فهنالك مالا يصح قوله في عصر غير عصر الشاعر الضليل ، فقد قيل في زمن يجب ألا يتخطاه الى زمن آخر ، وقد تبدلت العادات وتبدل الناس ، والجديد الجديد في شعر امرىء القيس تشابيهه واستعاراته . وهذه التشابيه والاستعارات ملك الشاعر لا يجوز لأحد أن يسطو عليها وإلا كان سارقاً . كان أشبه بالضاحك من نفسه ليخدعها وانما يهين نفسه .

فالابتكار في الأدب أشبه بالابتكار والاختراع في سائر الفنون . فمن ابتكر في أسلوب الانشاء مذهباً جديداً بات هذا الأسلوب معروفاً باسمه ، ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لا يجوز لأي أديب بعده أن يأخذ عنه هذا التشبيه ويتبناه وهو ليس من تواليده ، وإلا كان سائحاً ضعيف المخيلة ، قاصر اليد .

والأديب العربي لا يكون اليوم مبدعاً إذا أتحف الأدب روايات أشبه بمقامات الهمذاني والحريري ، فان ذلك النسيج من ثمار عصر مضى ، وهو مما تستحسن حياكته في أيام الانحطاط لانهاض اللغة وإذاعة مفرداتها ، فتلتقطها الأذهان وتستعين بها الأقلام ، أما اليوم فان أسلوب المقامات لا يحتسيه أبناء العصر

ولا يستسيغونه ، فقد تبدل أسلوب الأنشاء تبدلاً عظيماً ، فمات السجع ، ومات التقعر والتحذلق والأنصراف الى الألفاظ دون المعانى ، وأضحى الأسلوب السارى كلٌ واضح جلىٌ قريب الى الذهن والفهم .

ولا فرق فى هذا الواضح الجلىّ سواء انتقل الينا من الجاهلية أو صدر الاسلام ، أو الأعصر العباسية ، أو عصر الانحطاط ، أو عصر الأنبعاث ، فان إنشاء ابن المقفع لايبلى فى أى عهد ، ومثله الجاحظ ، وابن الأثير ، والأصبهانى ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، مع أن انشاء ابن خلدون أخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل مافيه .

واللغات كلها طافحة بأساليب الأنشاء . وإنها لتحوى من الأساليب الممتعة مالا تقوى على محوه يد الدهر ، ولاتؤثر فيه سنة بقاء الأنسب ، فهى صامدة للصروف لاترثُّ منها القوى ولا ينصل لونها وهى صافية نقية كزرقة السماء .

وهذه الأساليب يصح أن نطلق عليها اسم الأدب الجديد ، وهى الخالدة ، وهى مرجع الطلاب والأدباء ، كساها منشئوها المعنى الجميل فى المبنى السليم ، فأضحت لا تنبو عنها الأذن ولا ينكرها أى جيل ، وهو بها قرير ضنين .

وما يقال فى النثر يقال فى الشعر . فالشعر الناضج بالعصير الشعى لايفنى ، على حين أن الشعر اليابس لاتقوم له قائمة فى سوى يومه ولو أنشده المتنبى ، فان شعر عمر بن أبى ربيعة ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وابن الدمينة ، وعباس بن الأحنف ، وابن زريق ، وأبى نواس ، والشريف الرضى ، والبهاء زهير ، وابن المعتز ، وأبى فراس ، وشعراء الأندلس فى معظمهم ، مما يصح أن يقال اليوم وينشد ، وتقتبس طريقته ، ويهتدى بنوره ، اللهم اذا تغاضينا عن بعض مناحى هذا الشعر اقتضاء روح العصر ، وكثيراً مايكون هذا الروح نائياً عن حضارة العصر الذى يلى .

فان هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح ، وكل شعر يرتع فى هذه الميزات لا يعرف الأنقراض ، خصوصاً وهو مستمد من العاطفة ، والعاطفة لا تموت ، فالقلوب تخفق أبداً بها . وكل شعر أوحت به العاطفة وعته الذاكرة ، وردده اللسان ، وابتهج به الخاطر ، وتناقلته الكتب والأفواه من عهد الى عهد ، وهو الشعر الذى يفرض مشيئته على الأيام والسنين .

وللشعراء الهجائين منزلة وشأن لدى الحفّاظ والرواة . ويمكن القول أن شعرهم يقوم على العاطفة ، أفلا تتبدل هذه العاطفة بما يتبدل به القلب ؟ . . ألا تخضع لسلطان الهوى ؟ . . . وشعر الهجاء يثيره الهوى . إذاً فهو شعر عاطفى . ولهذا الشعر حظه من البقاء والخلود إن يكن جميلا فريدا ، على طراز ما أتحفنا به الحطيئة والأخطل والفرزدق وجرير وبشار ودعبل وابن الروى والمتنبى .

فان شعر الهجاء أقرب الى الحفظ وأبقى أثراً . فالنفس وهى الأمارة بالسوء تميل إلى الهجاء وترتاح له أكثر منها الى إحراق البخور وتقبيل الأذيال .

ولسنا ندعو بالخلود لكل شعر عاطفى ، ولكننا نقول إن شعر العاطفة يملك ميزة الخلود أكثر من أى شعر آخر ، ويأتى بعده شعر الوصف ، على أن يكون بليغاً رشيقاً غير مسبوق اليه . ويقبل فى الدرجة الثالثة شعر الحكمة إذا أفرط فيه قائله تبرأ منه الشعر .

ولا يكتب الخلود لشعر الحكمة إلا اذا قاله من أرغم الدهر على الاصغاء الى إنشاده وأسمعت كلماته من به صمم ؛ ومع أن المتنبى يسير فى طليعة من صاغ هذا الشعر فلا يستطاع الجزم بأن حكمياته تستاغ فى كل عصر ، فهى من بنات عصرها . وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها . ومن المحال أن يحاول تقليدها أى عصر جديد . وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة المحافظين .

لا نكير فى أن فى هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة . ولكن صب الحكمة فى الشعر ليس مما يشمله الأدب الجديد . فالأدب الجديد فى الشعر عاطفة ووصف . وما جاوز العاطفة والوصف بليد . ويجوز أن تطفو الحكمة فى بعض المواقف . إلا أن الأغراق فيها يذهب برونق الشعر . ويرصف هذا الشعر فوق أكداس القديم .

ومن الواجب على الأدباء والتأدبين الاكثار من مطالعة أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء . فنى مطالعة هؤلاء الأئمة ما يساعد على اقتباس العصمة والقوة والفخامة . إلا أن التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد ، يدل على الانغماس فى التقليد ، على الغرق فى بحيرة ملأى منذ الف عام . فمن خاض عبابها ، لن يبلغ شاطئها

الآخر وإذا بلغ هذا الشاطئ ، فأي فضل هو فضله وقد كان تابعاً لا متبوعاً ، وقد وقف حيث وقف سواه ؟ . .

ولماذا الاقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء في شعرهم الضخم الجامع إلى القديم أكثر منه إلى الجديد ، وهنك عمر بن أبي ربيعة في قالبه الصحيح العذب الرسيل ؟ . . . فان ابن أبي ربيعة ابن كل عصر ، على حين أن المتنبي ابن عصر أو عصرين أو ثلاثة . . فان شعر زعيم الغزليين يقال وينشد ويردد اليوم وغداً وبعد غد ، ويدغم في يقال اليوم وغداً وبعد غد كأنه منه وفيه . فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أي عهد . بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل ، وإن يكن ثمة من اعترف به سيد الشعراء .

وكيف تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك أبياته :

تقول وليــدتي لما رأتني طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت أمراً وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقت القرينا
بعينك هل رأيت لها رسولا فساقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إليّ أخ محب كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص عليّ ما يلـــقى بهند يُذَكِّر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المحب وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم ، بل من مواليد كل يوم ، وهو الوضاء الصافي ، الأنيق الرقيق ؟ . .

وهذا ابن الدمينة هلا أصغينا اليه في قوله :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادني مسراك وجدا على وجد
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبابة
وذبت من الشوق المبرح والصد

هلا أصغينا إلى هذا الشعر البهي القشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم وروح اليوم ؟ . . .

قيل كان العباس بن الأحنف إذا سمع هــذا الشعر ترنح منه الأعطاف ، وكاد لفرط اعجابه به ينطح برأسه العمود . فقد تمتعه ابن الدمينة بلا خمر .

وأبو فراس أي عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر

وماذا تقول في شعر المنازي يوم فزع إلى الوادي الظليل هربا من الحر :

نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ألا يسير هذا الشعر في ركاب كل عصر ؟ .

والبهاء زهير ؟ . . أتنسى البهاء زهيراً ؟ . .

أنا من تسمع عنه وترى لا تكذب في غرامي خبرا

وماذا نطلب في الشعر إلا أن ينهج هذا النهج ، إلا أن يصدر عن هذا المورد ؟ . ماذا نبغي منه إلا أن يبقى أبداً شهي المذاق ، اذا رددناه في كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه ، فلا يتنكر له زمن من الأزمان ، ولا تشد دونه الأسماع كلما قام للأدب العربي كيان .

فالأدب الجديد إذاً هو المبتكر ، الفريد ، السائغ ، الرائع الديباجة ، الواضح الجلي ، الذي يرضى عنه كل عصر ، ويهضمه كل جيل ، فلا يؤلم السميع بغريب الألفاظ ، ولا بالنافر من المعاني ، ولا بالتكلف والتعقيد .

والأدب القديم هو المثقل بالتقليد ، المطبوع بطابع عصر خاص لا يعــدوه ، المنغمس في السجع في نثره ، والمتوكئ على الألفاظ والتفلسف في شعره ، العويص ، الخشن ، الوحشي الكلمات والمعاني ، هو ما يحتاج إلى القاموس كلما خطر لك أن تجيل الأنظار

ومثل هذا الأدب شؤم على اللغة والبيان ، إلا أن المحافظين يستمرئونه ، بينما أنصار التجديد يشنون عليه الغارة ، وينادون إلى استئصاله وهو أدب راكد ، والأدب الراكد لا يعيش !

وقد طال التطاحن بين أنصار الأدبين . وسيطول كلما بقي في الأدب قديم وجديد . وعندنا أن الأدب الجديد بالحياة ما استوفى شروط البيان ، وحفل بالمبتكر ، وهز النفس ؛ وأرغمك على قراءته والأصغاء اليه ، واستعادة قراءته والاصغاء إليه ، هو ما أطربك كلما رويته ووقفت على بدائعه وآياته . هو ما رمى إلى أبعد مما يرمي اليه مقال في صحيفة سيارة ينشر اليوم ليطوى غداً . . !

بيروت كرم ملحم كرم

صاحب جريدة « العاصفة »

الشريف الأدريسي

بضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضي
عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

١ — تمهيد :

إنني إذا تحدثت عن الخريطة الأدريسية فانما أتحدث عن مجهود علمى خالد من مجهودات أحد أسلافنا الأمجاد ، عن مبرة من مبرات رجل من رجالاتنا فى التاريخ ، ويد من الأيادى البيضاء التى أسداها أحد علماء الاسلام وأبناء العرب الى العلم والعالم يوم كانوا قادة المعرفة وحملة لوائها على وجه البسيطة ، ويوم كان الشرق يملى كلته على الغرب ويقوده الى مسالك الحياة الحق على ضوء العلم ، وفى سبيل الهدى والمعرفة . أتحدث عن أقدم خريطة عالمية جغرافية صادقة عرفها التاريخ ووصلت الى أيدينا ، وأقرب صورة عرفت فى تلك العصور السالفة مطابقة لما وصل اليه العلم الحديث ولما نعلمه الآن علم اليقين ، تلك هى «خريطة الشريف الأدريسى» التى أظهر فى وضعها براعة علمية فائقة ، وخلد لنفسه بها ذكراً طيباً حسناً بين العلماء الأمجاد سوف لا يزال يضوع شذاه وينتشر عبيره مادام للعلم أهل يقدرونه ، وما دام هناك من يعرف للعلماء حقوقهم .

ولم يكن كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) إلا شرحاً لهذه الخريطة وتعليقاً عليها ، وهو كتاب ضخم يقع فى جزئين كبيرى الحجم ، وإن كثيراً من علماء البحث فى الشرق والغرب وفى مختلف العصور ، قد بحثوا بحوثاً مستفيضة فى هذا الموضوع الشائق . ولقد كان آخر من عنى بذلك من علماء البحث الجديد الأستاذ « كونراد ميللر » أحد العلماء الألمان الأجلاء فإنه أخرج الخريطة فى ثوب قشيب ، وطبعها طبعة ملونة سنة ١٩٢٨ وكتب عنها الفصول الطوال ، وعقد الموازنات بينها وبين الخرائط الجغرافية القديمة والحديثة ، وأشاد بمنزلها كأساس قوى متين ؛ ومرجع منظور اليه بعين التجلة والاحترام من مراجع هذا العلم وأسسه .

***

٢ — من هو الشريف الأدريسى ؟

الأدريسى هو الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ينتسب الى بيت الأدارسة الذى حكم مدينة « مالقة » فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى بعد سقوط خلافة قرطبة فى بلاد الأندلس .

هذا البيت يمت بصلة القرابة الى الأسرة الأدريسية التى حكمت فى مراكش ١٣٥ سنة من ٧٩١ الى ٩٢٦ م .

وهاتان الأسرتان ترجعان معاً فى نسبهما الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

إدريس هذا أفلت من يد العباسيين بعد اشتراكه فى ثورة العلويين عليهم فى ولاية موسى الهادى ، وفر من وجههم الى بلاد المغرب سنة ٧٨٤ م وهناك أسس مملكة الأدارسة التى ورثها أبناؤه من بعده . بعد أن بسط يده على تلك الجهة التى نزل بها ، بعضها بموالاة سكانها له ، والبعض الآخر بواسطة الحرب وبعد تحكيم السيف ، وما زال الأدارسة هناك يدبرون ويحكمون حتى غلبهم الفاطميون على أمرهم وانتزعوا الملك من يدهم . صاحبنا الأدريسى ولد سنة ١١٠٠ ببلاد المغرب فى « تطوان » على إحدى الروايات أو فى « سبته » كما فى الرواية الأخرى حيث هاجر والده وبعض أقاربه فى نهاية القرن الحادى عشر ، وأين أتم الأدريسى دراسته وتلقى دروسه ؟ لم يذكر المؤرخون ذلك . ولكن الأمر كما قال الأستاذ « ميللر » ليس بعسير ، فان القارئ لوصفه الدقيق الوافى لمدينة « قرطبة » يستطيع أن يستنبط من ذلك أنها كانت مقر دراسته وموطن تخرجه . نشأ هذا الرجل وقد حببت اليه الأسفار من صغره ، فبدأ أسفاره وهو فى السادسة عشرة ؛ وسافر الى البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وتغلغل فى شمال أفريقية ، ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدهم . فوق هذا سافر الى سواحل فرنسا فى المحيط الاطلانطى ، والى سواحل انكلترا كما حدث فى بعض كتاباته . وفى نهاية الأمر دعاه رجار « روجر الثانى النورمانى» ملك صقلية الى الرحلة اليه والنزول عنده فى « بالرم » على الرحب والسعة والأقامة ببابه كأحد أفراد الحاشية معززاً موفور الكرامة . رجاه ذلك الملك الجليل فى هذا بعد أن وصل الى مسامعه من هو الأدريسى ، وبعد أن علم منزلة الأمير العلمية . قبل الأدريسى هذه الدعوة الكريمة وشد رحاله نحو صقلية ليأخذ

منزلته في البلاط الملكي هناك ، وليحدث هذا الدوي الهائل في الأفق العلمي الذي ما زلنا الى الآن نسمع صداه ، شجعه على قبول هذه الدعوة رغبته في الفرار من وجه أعدائه وأعداء أسرته في البلاد العربية الذين بالغوا في اضطهاده وطلبه ، وسموا جهدهم في النكاية به . رحل الأمير الى صقلية وأقام بها مدة حياته حتى قبض الى رحمة ربه سنة ١١٦٦ م . وهكذا كان حظه حظ جده الأول أدريس . كلاهما استخلص لنفسه الحياة من مخالب الموت ، وفر من حظيرة الاضطهاد الضيقة الأنحاء الى بحبوحة الملك الواسعة الأرجاء . كلاهما شاد بمجده وعزمه دولة إدريسية ، غير أن دولة جده انقضت وأتى عليها الدهر ، ودولته هو خالدة لا تنقضي . والأمر ليس بغريب . فهذا شأن دولة العلم نصيبها الخلود والبقاء بينما تقضي دولة الملك وتفنى . رحل هذا العالم الجليل والأمير النبيل الى صقلية وقضى بقية أيامه هناك ، قضاها في الانتاج والعمل المثمر . لم يحدد المؤرخون الوقت الذي رحل فيه الأدريسي الى صقلية تلبية لدعوة مليكها رجار «روجر الثاني» ولم يذكروا في أي سنة كان هذا . غير أننا نستطيع أن نأخذ برأي الأستاذ « كوراد ميللر » ونستنبط ذلك من الحوادث التاريخية المرتبطة بالموضوع ، وعليه فلنا أن نفرض أن ذلك حدث قبل سنة ١١٣٨ م بقليل . فأننا نعلم أنه في تلك البيئة عقد « رجار الثاني » العزم على العمل لوضع خريطة جغرافية ووضع كتاب يشتمل على وصف أجزاء المعمورة المعروفة في ذلك الوقت . هذا الأمر الخطير الذي لعب الأدريسي فيه دور البطل .

٣ — صقلية في ذلك العهد ورجال البلاط الملكي في بالرم .

كانت صقلية في ذلك العهد ملتقى العقول المفكرة ، ومحط رحال العلماء يأتون اليها من كل فج عميق ، وكانت بالرم العاصمة كعبة رجال العلم يسعون اليها من الشمال والجنوب لما عرف عن مليكها رجار الثاني النورماني من محبته للعلم وتقديره للعلماء واحترامه لهم من أي جنسية كانوا ، والى أي ملة انتسبوا . فقد كان بلاطه بحق حرم العلم ، من دخله من العلماء كان آمناً . هنا التقت الحضارة الاسلامية بالحضارة المسيحية ، وتعرف فن الشرق المسلم الى فن الغرب المسيحي فتآخيا وأخذا يعملان جنباً الى جنب إخواناً متحابين لمصلحة العلم وفي سبيل خير العالم . هناك ورث النورمانيون حضارة العرب الذين حكموا الجزيرة ٢٤٢ سنة من سنة ٨٣٠ الى ١٠٧٢ م والذين ورثوا حضارة الروم من قبل . في ذلك الوقت كانت الحروب الصليبية قائمة على قدم وساق ، فكان هذا سبباً لوفود كثير من رجال دول أوربا ودول العالم المختلفة الى بالرم . هؤلاء الرجال الذين كان للكثير منهم شأن في بلادهم ومعرفة بأحوالها السياسية والاجتماعية والجغرافية . كان ذلك الوقت هو العصر الذهبي للنورمانيين في صقلية الذي عمت فيه سيادتهم جميع أنحاء الجزيرة ، والذي دخل تحت سلطانهم في خلاله قسم من ايطاليا وشمال أفريقيا . كل هذه العوامل سهلت للأدريسي القيام بمهمته الكبيرة الشأن ، ومكنته من أن يجمع الى معارفه الخاصة وملاحظاته الشخصية التي اكتسبها بأسفاره الطويلة ورحلاته المتعددة ، وأن يضم اليها ما جعله يضع خريطته العالمية ويكتب كتابه « نزهة المشتاق » عنها بوجه لم يسبق اليه ، حتى كانت هذه الخريطة وذلك الكتاب مرجع المؤلفين الجغرافيين من بعده .

٤ — مؤلفات الأدريسي في المدة التي قضاها في صقلية .

لم يقتصر عمل الأدريسي في تلك المدة التي قضاها في بلاط بالرم على وضع تلك الخريطة ، ولكنه ألف غير ذلك أربعة كتب (١) كتاب نزهة المشتاق أو كتاب رجار الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي اختصر فيما بعد تحت هذا الاسم عينه ، ولقد اطلعت على نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهد الشرقي بهامبورج مطبوعة بروما في سنة ١٥٩٢ م ومكتوب على هامشها أن هذا الكتاب أول ما طبع باللغة العربية (٢) كتاب الممالك والمسالك الذي لم يصلنا منه الا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفدا عند كلامه على الجغرافية العربية . كذلك حدثنا عنه الشاعر ابن بشرون الأندلسي ، وحدث أن الأدريسي ألف هذا الكتاب سنة ١١٦١ لنجل رجار الثاني « فلهلم » الذي حكم من سنة ١١٥٤ الى ١١٦٦ م (٣) كتاب روض الفرج ، وهو كتاب جغرافي صغير اكتشفه أحد الباحثين من نحو ثلاثين سنة بمكتبة خاصة في (استامبول) (٤) كتاب يبحث في وسائل العلاج البسيطة . فوق هذا نقل الأستاذ «ميللر» عن المؤرخين أنه كان شاعراً وأنه لم يصلنا من شعره الا بعض مقطوعات ، ولكنني لم أعثر على شيء من هذه المقطوعات لأعرضه على قراء الرسالة .

٥ — كيف فكر روجر الثاني في وضع هذه الخريطة وكيف عهد الى الأدريسي بذلك ؟

عني روجر الثاني عناية خاصة بالمسائل الجغرافية وأخذ يشتغل بدراسة الكتب الجغرافية المختارة الموجودة في ذلك العهد ، ولاسيما

العربية منها ، ولكنه لما لم يجد بعد البحث الطويل مايطفىء غلته ويقضى به لبانته ويريح ضميره كباحث مجد . لما لم يجد جواباً واضحاً وحلاً موفقاً لما كان يجول بخاطره من المشكلات العلمية أخذ يستحضر رجال الخبرة الأجانب الذين وفدوا على مملكته من كل فج ويسألهم بواسطة المترجمين منفردين أو مجتمعين عن مواقع البلدان وحدودها ، وعن كل مايتعلق بها جغرافيا كلاً بقدر ماتصل اليه معرفته ، وقد كانوا كثيري العدد ، فان توافقت أجوبتهم ولم تتضارب أقوالهم اعتبر إجابتهم صحيحة وأعطاها قيمتها العلمية وقيدها وإلا ردها عليهم ولم يعتبرها ، وبعد أكثر من خمس عشرة سنة قضاها بلا انقطاع مع صاحبه الأدريسي فى هذا العمل الخطير والبحث الشائق استقر الرأى على تقييد ماوصلوا اليه ورسمه فى خريطة عالية كاملة تبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك كما وصل اليه البحث وانتهى اليه الاستقراء ، فأعطيت القوس باريها ، وعهد بهذه المهمة الكبيرة الى الشريف الأدريسى الذى رسم أصل هذه الخريطة ، ثم بعد هذا أراد الملك أن تحفر هذه الخريطة ثانية على لوح من الفضة ، فأحضر الصناع المهرة الذين أتموا هذا العمل تحت رعاية الأدريسى ورقابته ، وبعد أن جعل الملك مقدار أربعمائة ألف درهم من الفضة كما روى خليل الصفدى تحت تصرف الأدريسى لهذا الغرض اتخذ الأدريسى أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة يبلغ طولها كما قدر الأستاذ «ميللر» ثلاثة أمتار ونصف متر وارتفاعها متراً ونصف متر تقريباً ، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة كما قدمنا خريطة بغاية الدقة والأتقان وتمام الموافقة لتلك الخريطة التى رسمها قبل القيام بعملية الحفر ، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل الشأن فى يناير سنة ١١٥٤ م .

وكشرح لهذه الخريطة وتعليق عليها ألف الأدريسى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق أو كتاب رجار الذى أشرنا اليه . وإنه لجدير بهذه التسمية بعد أن بذل هذا المليك الجليل تلك العناية الكبيرة ، وقدم هذا السعى المحمود خدمة للعلم وحباً فيه ، وقد كانت العناية بتأليف هذا الكتاب شبيهة بأختها فى وضع الخريطة . فقد اختار رجار الثانى والأدريسى عدة من الرجال الذين يصح الأعتماد عليهم فى مثل هذه العظائم وبعثوهم الى جهات العالم المختلفة ليدرسوا أحوال البلدان النائية ويدرسوا أهلها وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويدرسوا حاصلات البلاد وحيواناتها وكل ماتنتجه ويعيش فيها الى غير هذا مما له أهمية جغرافية وما يتعلق ببعض نواحى علم طبقات الشعوب وعلم الاجتماع . أمرهم بأن يدرسوا هذا ثم يضموا تقريراتهم عنه ، ولقد حمل هؤلاء الرسل إذاً من الملك النورمانى رجار الثانى ليحضروا معهم كل مايعدونه غريباً فى بابه ذا أهمية جغرافية خاصة من الأمور الخارقة للعادة فى باب الطبيعة ، وبعد أن تم ذلك وعاد أفراد تلك البعثة الاستكشافية من الجهات التى أرسلوا اليها ، وقدموا تقاريرهم اجتمع لدى الأدريسى ما مكنه من وضع كتابه نزهة المشتاق .

٦ — كيف كانت صورة الأرض فى نظر الادريسى عند وضع خريطته ؟

ولابد لنا قبل أن نتكلم عن شرح الخريطة وبيان بنائها أن نشرح الصورة الأرضية التى كان يعتقدها الأدريسى عند وضع خريطته . كان الرأى الشائع الى أواخر العصر المتوسط أن الأرض مسطحة عائمة على وجه الماء . نعم لقد شك بعض علماء اليونان فى ذلك وثار عليه أفراد آخرون بعدهم ، ولكنه لم يزل رأى الأغلبية حتى نهاية ذلك الوقت . أما رأى الأدريسى يشاركه فيه علماء الجغرافيا الأخصائيون من العرب فقد كان غير ذلك ؛ اعتقد الأدريسى أن الارض مكورة على شكل بيضة يحيط بها الماء ويتعلق بها بواسطة قوة جاذبية طبيعية ، فالماء يغمر نصفها وينحسر عن النصف الآخر مع كون هذا النصف الأخير المنحسر عنه الماء آخذاً شكلا بيضاويا منقسما بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين : شمالى وجنوبى ، المعمور منهما الشمالى فقط . أما الجنوبى فهو خراب غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء ، ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقيه المسلم (١١٢٦ — ١١٩٨) عارض الأدريسى فى هذه النقطة ، فلقد روى عنه ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) فى مقدمته [1] أنه ارتأى أن النصف الجنوبى من الكرة موافق للنصف الشمالى منها تمام الموافقة فى الجو والطبيعة وأنه مأهول بالسكان مثله ، وأن النقطة القريبة من خط الاستواء سواء كان شمالا أو جنوبا شديدة الحرارة ، ثم تتدرج درجة الحرارة فى الانخفاض بقدر بعد النقطة عنه . ووافق ابن خلدون ابن رشد فى أصل نظريته وأيدها بما ساق من الأدلة ، إلا أنه رأى أن النصف الجنوبى لا سكان فيه كما فى الشمال ، وعلل ذلك بأن معظم القسم الجنوبى الصالح للسكنى مغمور بالماء .

يتبع **محمد عبد الله ماضى**

(١) المقدمة ص ٢٩ طبعة المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

الصورة والتصور والتصوير *

للأستاذ الحوماني
صاحب مجلة العروبة

هنالك في حيّز الشعر صورة وتصور وتصوير ، ولكل منها نصيب من الجمال في الحياة ، ومناط الجمال في كل منها إنما هو الفن إذا صح إطلاق الفن وحده على الشعر كما سترى . فالصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهي إما حقيقة أو خيال — والتصور مرور الفكر بهذه الحقائق يتصفح صورها — والتصوير إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فني ، فالتصور إذن هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط ، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة ، والصورة يتعاقب عليها فنان : فن المبدع وفن المصور ، ويقال للمصور مبدع إذا كانت الصورة من خلقه ، وهو يتصفح الحقائق فينتزع منها صورة مركبة نسميها خيالاً . فالخيال لا يخلو من رمز يشير لك إلى المبدع الأول مهما افتن الشاعر في صرفك عن لحاظه . فالمرآة ظاهرة من ظواهر الفن الطبيعي ، وتصويرها إحدى ظواهر الفن الصناعي . فجمال النفس فيها إنما هو جزء من روح مبدعها الأول ، وجمال الشعر في تصويرها إنما هو جزء من روح مبدعها الأخير .

والتصور الذي هو لحاظ الفكر صور الحقائق يختلف شدة وضعفاً باختلاف الفكر الذي هو أداته ، فتصور الشاعر جمال الفن في إحدى ظواهر الحياة إنما هو الإحاطة بدقائقها واكتناه السر الذي كانت له ، والصورة الفنية إنما تتكون من جليل تحف به دقائق يمتاز بالوصول إليها شاعر الفن من غيره ، ومناط الجمال في تصوير الشاعر وقوفه على دقائق لا يتبينها في الصورة الفنية سواء ، في كل صورة فنية طبيعية كانت أم صناعية من معجزات الفن ماهو ظاهر وماهو خفي . فالشاعر يمتاز من غيره بتصور هذا الخفي ثم لا يكون فناناً حتى يصوره . فالرسام إنما يصور لك المرأة الجميلة حتى كأنك ترى شخصها ، والشاعر إنما يصفها لك حتى كأنك تلمس روحها ، إنما يصور ذلك ويصف هذا ، وكلاهما شاعر فنان ؛ بفضل ما يدركان من خفي ما أبدعه الفن في الصورة الجميلة فيصورانها . من ذلك نصل إلى أن الشاعر لا يفهمه كالشاعر وناقد الفن يجب أن يكون فناناً ، ولا تنس أن الشاعر إنما يفهم الشاعر الذي هو دونه أو مساوله ، وأما من حلّق عليه فلا ينبغي له أن يمد بصره إلى أفقه وهو يحاول نقده حتى يكونه ، على أن الشاعر لا يجب في النقد أن يكون فناناً ، فرب شاعر غير فنان يستطيع بما أوتيه من فكر أوتي دقة التصور أن ينقد الشاعر الفنان .

فالدكتور طه حسين يستطيع أن ينقد أمير الشعراء لا من حيث كونه [1] شاعراً فناناً ، بل من حيث كونه شاعرا فقط ، إذ هو في الفن دون أمير الشعراء ، ولكنه في تذوق الفن قد يكون فوقه أو مساويا له ، فليس الشعر مرادفا للفن ولا الفن مرادفاً له . وقد يكون الشعر فنّاً كما قد يكون الفن شعراً . والشاعر الفنان يستطيع أن ينقد الشاعر فناناً وغير فنان ، فكل من أبدع في التصوير كان في حيزه الابداع في التصور ، وقد يكون في حيز الابداع في التصور الابداع في التصوير ، وإذا صح لنا أن نطلق على الشعر أنه تصوير الجمال في الحياة صح لنا أن نطلق عليه جمال التصوير ، فحيث يكون تصوير الجمال يكون جمال التصوير ، وقد يخامر السامع ريب في صحة الأول ، وأن الشاعر قد يصور قبيحا في الحياة فلا يخرجه عن كونه شاعرا فيما صور ، وجوابه سهل فيما إذا لحظنا ثبوت كون الجمال نسبيا في الحياة وأنه لا قبح فيها ، وإنما هو جميل كما مر بك في القول على الجمال .

وأما إذا اعتمدنا القول في أن من الصور الفنية في الحياة ما هو حسن وما هو قبيح لزمنا القول في أن حد الشعر بجمال التصوير أصح ، ولزمنا من جهة أخرى نفي الجمال المطلق عن الفن الطبيعي وهو مرآة الفن الصناعي ، فلزم الفرق بين فن الطبيعة وفن الانسان من حيث حده وتعريفه ؛ وهما فن واحد ، إلا أن يكون القبح في الصور الفنية عارضاً بعد كونها والجمال ذاتي فيها فيستقيم إذ ذاك تحديده الثاني .

فالطبيعة لم تبدع غير جميل ، وما يتراءى لنا قبيحاً فلعارض حور مجراه الطبيعي في نفوسنا ، أو لسر فيه خفي عنا إدراكه فمز علينا مناط الجمال فيه ، وليس الجمال في الصورة أو التصور مناطا

* من كتابه (العبقرية) وهو تحت الطبع

(١) أي كون طه حسين

للجمال فى التصوير ، ولا شىء من جمال التصوير أو قبحه يستلزم جمال الصورة أو قبحها ، فأى جمال فى صورة الأحدب يستلزمها جمال تصويرها فى قول الشاعر :

قصرت أخادعه وغاب قذاله   فكأنه مترقب أن يصفعا
أو أنه قد ذاق أول صفعة   وأحس ثانية لها فتجمعا

فاللازم إنما هو جمال التصوير فقط ، وجمال التصوير يتحقق فى نقل الصورة على أتم وجه بأسلوب جميل ، والصورة أعم من أن تكون فى الخارج كصورة الأحدب التى مرت بك أو فى النفس كما فى قوله :

أعانقه والنفس بعد مشوقة   اليه وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاه كى تزول حرارتى   فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من الجوى   ليطفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يطفى غليله   سوى أن ترى الروحان تمتزجان

فلم يكن الشاعر ليصف لك فى هذا المشهد صورة العناق فى الخارج ، وإنما يريد أن يصور لك حالة نفسية تعتريه كما تعترى كل عاشق ، وهى انفعال النفس بما تجده فى قرب من تحب . وبلوغها حداً لا تشعر معه حتى تبلغ النهاية فى ثورتها وهى امتزاج الروحين ، ولم يكن ليطفىء ثورتها تلاصق الجسدين ، ووضع الشفاه على الشفاه وهما طريقها الى الغاية التى تصبو اليها . على أنى لا أرضى عن الشاعر فى إنكاره أن وراء العناق تدانيا ، فالحب اسمى من أن تناله المادة وهو وليد الروح ، ولعل دموع الحب عصارة هذه النفس المتألمة من وراء انفعالها به ، فاذا كانت الروح مناط هذا الحب فأنى للجسم أن يطفىء ثورته بالتقبيل أو العناق ، والصلة بين المتحابين إنما تتحقق فى امتزاج روحيهما ، فقد يتلاصقان ولما يزل هنالك بعد بين الروحين ، وحجاب كثيف يحول دون امتزاجهما . أفلا يكون إذ ذاك تدان وراء العناق ؟ على أن فى البيت الأخير وجعله امتزاج الروحين مناط شفاء النفس دليلاً على أنه إنما يقصد بقوله (وهل بعد العناق تدان) أن العناق أقصى ما يبلغه الحب فى الصلة بين شخصى المتحابين لا أن مطلق التدانى مرة وراء الحب قاصر على العناق إذ صرح فيما بعد أن هنالك امتزاجاً فى فى الأرواح ، وهو أشد ارتباطاً فى الحب من العناق ، وأبلغ تدانياً منه .

اذا وصف الشاعر قبيحاً فأبدع فى تصويره ، فقد صور لك جمال الفن ، فكان صادقاً عليه اذ ذاك أنه مصور جمال الحياة إذ الفن من الحياة ، فتصويره تصوير لجمالها أو لناحية من نواحى الجمال فيها .

فقد لا تجد أثراً للجمال فى كوخ بال قذر يمرح فيه الفار وتملو جدره العناكب ويسود أفقه البق . وقد جلس فى احدى زواياه شيخ بالى الطمر وبين يديه سراج ضئيل يقاسى الى جنبه آلام البؤس .

قد يبدو لك ذلك قبيحاً وأنت تشرف عليه أو تلج اليه فتصفر الحياة فى عينك ماثلة بين جدره . ثم اذا صور لك رسام مفن حرك منظره من نفسك بين روعة الفن وجمال التصوير ما يقف بك خاشع الطرف بين يدى الفن وجلاله ، وهكذا تراك وأنت تقرؤه فى قول الصافى :

أكافح البرد فى سراج   يكاد من ضعفه يموت
فى غرفة كلها ثقوب   أوشكت قل كلها بيوت
يسكن فيها بلا كراء   فأر وبق وعنكبوت

فمناط الشعر فى ذلك إنما هو جمال التصوير ، ولعل الخيال أوفى نصيباً من الحقيقة فيه . ففى قوله (يكاد يموت) و (كلها بيوت) و (بلا كراء) من جمال الفن ما لم تكد تعثر عليه فيما لو جردت الأبيات منها ، ولم يكن ليستطيع الصافى أن يصور لك الجمال فى البؤس لو لم يكن هو بائساً ، ولعل أشعر الناس بالبؤس هو ألصقهم به وأقربهم نفساً منه . اذ البؤس إحدى ظواهر الحياة فى الحى ، والصورة الفنية إما أن تكون حقيقة محضة أو ملفقة من الحقيقة والخيال ، فالأولى تتحقق فى نقلها لك كما فى الواقع حتى كأنك تراها حقيقة مجردة عن الخيال كما مر بك فى تصوير الأحدب فى قول ابن الرومى ، والثانية نقلها لك وليدة خيال يوهمك وجودها فى الخارج كقوله[1] :

خلا بدك البيضاء ذم وللندى   على حافتيها مسرح ومقيل
حمت غصن المعروف أن يخطىء الجنى   وزهر الندى أن يعتريه ذبول

لم يشأ أن ينقل صورة الغصن أو صورة المعروف ولا صورة الزهر أو صورة الكرم ، وانما شاء أن ينقل لك صورة لفقها الخيال من كلتا الصورتين على طريق الاستعارة ومن ورائها التشبيه المطوى كما يحققه علماء البيان .

بيروت   الحرمانى

(1) الناظم صاحب المقال

٣ — الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
مفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

تكلمنا فيما مضى عن الشخصية وماهيتها ، وقلنا إنها قد توهب بالفطرة ، وقد تكتسب بالتربية الخلق ، وبينا أن الناس يختلفون في شخصياتهم كما يختلفون في ذكائهم وميولهم الفطرية ، وذكرنا من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية ثلاثة عناصر وهي : الجاذبية ، والنشاط العقلي ، والمشاركة الوجدانية . واليوم نتكلم عن العنصر الرابع وهو الشجاعة فنقول :

ربما كانت الشجاعة أهم عنصر من عناصر الشخصية القوية في أوقات الرخاء والشدة على السواء ، ولكن ما الشجاعة ؟ الشجاعة قوة بها يتمكن الانسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت الخطر الذي يهدده ، سواء أكان ذلك الخطر حقيقياً أم وهمياً .

وكما أن الشجاعة فضيلة في الجندي والملاح فكذلك هي فضيلة في غيرهما من بني الانسان . وهي خير مقياس يقاس به الشخص في أوقات الشدة حيث يتطلب الثبات أو الاقدام . وبهذا المقياس يمكن وضع الشخص في مرتبته الخاصة بين الشجعان أو الجبناء وبين العظماء أو العاديين .

وقد قيل ، وقيل حقاً ، إن الشجاعة تتوقف على القوة الجسمية والعصبية والعقلية والخلقية التي لدى الانسان . وإن المدنية الحاضرة قد قللت من الشجاعة بين الأفراد ، فقد صرح أحد النظار السابقين لمدرسة (إيتون) الانجليزية المشهورة بأنه رأى غلاماً قد دخلت في عينه ذبابة ، فحاولت أمه وأخواته الثلاث إخراجها بغير جدوى ، ولم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من أن يتحمل الولد الألم دقيقة واحدة ، ولكنه لم يتحمل آلام دقيقة — إن كانت هناك آلام — فأخذ في عربة إلى طبيب في مدينة تبعد خمسة أميال عن القرية ، كل هذا من أجل شيء يسير كان في استطاعة أي فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة .

هذه حكاية عن شبان الأمس وأمهات الأمس بانجلترا . أما اليوم فتجد الأمهات والآباء يغرسون الشجاعة ، وخلق الرجولة في نفوس أبنائهم من الصغر ، ويعودونهم الصبر ، وضبط النفس وكتمان الشعور ، وتحمل الألم من الطفولة الأولى . وبهذه الوسيلة ينشئون الشجاعة فيهم . ولا يظهر الخلق المتين ولا تبدو الشخصية القوية إلا بهذا النوع من الشجاعة ، وهو القدرة على احتمال الآلام . وإن من يستطيع أن يحتمل خمس دقائق أكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر ، سواء أكان جندياً أم قائداً ، متعلماً أم معلماً ، غنياً أم فقيراً . وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة . والآن نريد أن نبين مظاهر الشجاعة وأثرها في النجاح في العمل وفي الحياة الاجتماعية فنقول :

مظاهر الشجاعة :

أولا : الشجاعة في ضبط النفس ، وذلك بأن نقف موقفاً طبيعياً بكل شجاعة عند مقابلة الرؤساء أو عند الظهور أمام مجتمع لالقاء محاضرة أو الاشتراك في مناظرة ، أو التعبير عن رأي ، أو الدفاع عن مبدإ أو عقيدة ، بحيث لا نرتعد أو نضطرب ، ونظهر بأحسن مظهر في حديثنا والقائنا ، ونبرهن بأعمالنا وآرائنا على مقدرتنا بكل لطف وأدب . وإذا لم يكن لدى الانسان قدرة على إظهار مقدرته بالعمل وضبط النفس فقد تضيع منه الفرصة الذهبية التي قد لا تصادفه مرة أخرى . وكثيراً ما تضيع الفرصة من الشخص ، ثم يندب سوء حظه ، ويشكو الظروف والمقادير ، مع أنه لم يكن في حاجة إلى أكثر من الشجاعة في انتهاز الفرصة حين سنوحها .

ولا سبب يدعو الانسان إلى الخوف من أبناء جنسه . وقد يكون الخوف مبنياً على وهم لا أساس له . وإذا وثق المتكلم من نفسه ، وعرف ما يريد أن يقوله ، وعرف كيف يعبر عن خواطره ، وكيف يبرهن على نظريته بالعقل والمنطق ، فانه يستطيع أن يطمئن إلى نفسه ، ويمسك زمامها ، ويقابل من يشاء ، ويخاطب من يريد ، مادام متحلياً بالأدب ، واثقاً من نفسه ، وكان عقله مرتباً وأفكاره منطقية ، بحيث لا يتسرع في ذكر شيء يدل على عقل مضطرب ، أو روح قلق ، ولا يتظاهر بما ليس فيه . وإذا وثقت مما تريد أن تقوله فهذا وحده كاف لأن تؤثر في نفوس سامعيك ، وتنظر إليهم وتقابلهم بكل قلبك وجهاً لوجه ، وتجعل قلبك وروحك في إثبات ما تريد إثباته ، أو نفي ما تريد نفيه ، فتتكلم بقلبك لا بلسانك .

ولا شيء يبرهن على الشجاعة ويخفيد شوكتها أكثر من الهلع؛ فحيثما وجد وجد الألم، والقلق النفسي. وتعب الضمير، واضطراب العقل، فتضطرب شخصية الانسان. ولئن كان الخوف ثمناً ندفعه في سبيل المحافظة على الحياة فالافراط فيه عيب من العيوب الانسانية التي يجب تهذيبها، والتي تقضي بأن يفكر الانسان في الشيء وفي نتائجه.

وبجانب المخاوف التي تلحق الشخص في حاضره، وتحيط به من وقت لآخر، مخاوف وهمية يتوهمها، ويتخيل حدوثها في المستقبل، فيقلق باله، ويضطرب فكره، وتضعف شخصيته. وكثيراً ما تكون هذه الأوهام المخيفة مبنية على غير أساس، وندر أن تقع. وكم اغتممنا لتوقع مصائب لم تحدث، ولن تحدث. وتكثر هذه المخاوف عادة لدى الشخصيات الضعيفة. أما ذوو الشخصيات القوية فلا يكثرون من الهموم من غير ما سبب، ولأقل سبب، بل يستقبلون الحياة كما هي، ويواجهونها بما فيها من مسرات وأحزان، وسعادة وشقاء على السواء، يبتسمون بهدوء حتى في مواطن البكاء، ويصبرون في مواقف البأساء. وهؤلاء جديرون بالنجاح في الحياة لشدة ثقتهم بالله.

والحياة مملوءة بالحوادث والمصائب، والعجائب والغرائب. ولا يستطيع الانسان أن يعرف ما ينتظره في الغد من القادير، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فيفاجأ الانسان بأشياء ما كان ينتظرها، كمرض أو فقد مال أو خسارة. فبهذه وبكثير أمثالها من الحوادث تختبر رجولتنا، ويعرف معدن الرجولة فينا، وبالروح التي نقابل بها هذه الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستتر. ولا تظهر الرجال إلا عند الشدائد والمصاعب.

وبما أن النجاح في الحياة ليس من السهل فيجب أن يتعلم الانسان كيف يبتسم في الأيام المظلمة، كما يبتسم عند المسرات في أيام السعادة والهناءة. وينبغي أن يتعود الشجاعة والاحتفاظ بقواه عند الملمات حتى يكتسب إعجاب رفقائه واحترامهم، ويثبت ثبات الطود في مهب الرياح. وليس من الشجاعة أن تكثر من شكوى الحياة والظروف والأيام، فشكوى سوء الحال لن تغير ما حدث، بل تذهب بنضرة العقل، وقوة القلب. وإن الفرق من الخذلان والهزيمة يؤدي إلى الهزيمة، وقوة الأمل في النجاح مع التشجيع والمثابرة تحفظ روح الانسان وهمته، وتبعث فيه كثيراً من الرجاء في الفوز، وبخاصة اذا عمل بعقله وقلبه ويده، وإن الاعتراف بالنقص فضيلة، والعمل على علاجه شجاعة.

فنحن في حاجة الى الشجاعة التي بها نستطيع مواجهة المخاوف ومقابلتها بكل ثبات وصبر وتفكير حتى نتغلب على مصاعب الحياة، ونقلل من الخوف الذي يهدم الرجولة من أساسها، ويقتل الشخصية في مهدها.

وإن أعظم انتصار في الحياة هو الانتصار على النفس بضبطها وكبح جماحها. والتغلب عليها. وليست الشجاعة في أن تنتصر على سبع مفترس فحسب، ولكن الشجاعة في أن تسيطر على نفسك التي بين جنبيك. وأرقى مظاهر الشجاعة الصبر والتحمل عند المقدرة.

ثانياً: هناك مظهر آخر للشجاعة يتبين في التغلب على الصعاب التي تعترض الانسان في الحياة، وإصلاح الأخطاء التي تمر بنا سواء أكانت هذه الأخطاء منسوبة الينا أم منسوبة إلى غيرنا. وهناك كثير من المصاعب التي يمكن التخلص منها بقليل من الشجاعة والحزم والثبات؛ وكثيراً ما يكون الجبن سبباً في الفشل وعدم النجاح في العمل. وكما تكون الشجاعة في الاقدام على الشيء تكون في الاحجام عند تحقق التهلكة. ولا تقل الشجاعة في الأحجام والتريث حينئذ عن الشجاعة في الاقدام.

وممن كانوا مثلاً للشجاعة واقتحام المخاطر بين العرب خالد ابن الوليد؛ ومن أقواله: لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه طعنة أو رمية، ثم هأنذا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء.

ثالثاً: تظهر الشجاعة في الاجابة وفي إبداء الرأي: ومن الشجاعة أن يجيب الانسان بكل أمانة وإخلاص عما يسأل، وأن يبدي رأيه بكل صراحة، ويدافع عنه من غير تغيير للحقائق، ومن غير اضطرار الى الانكار أو ذكر نصف الحقيقة خوفاً من أن يظهر بنفسه الحقيقية كما هي، وإذا اعترفنا بكل اخلاص أننا فعلنا كذا، ولم نسمع رواية كذا، أو لم نقرأ كتاب كذا، أو أننا لا نحب فلاناً فقد يعجب المستمع العادي، ولكننا لو ذكرنا السبب بطل العجب. وهذا أفضل من تشويه الحقائق بالتغيير والزخرفة وتضليل الغير. وهناك أسئلة شخصية تدل على تطفل السائل، وتدخله في شئون غيره، فمثل هذه الأسئلة يجب أن تحارب برفض الاجابة عنها بكل أدب. عقاباً لذلك التطفل ؟

محمد عطيه الابراشي

فصول مدرسية في الأدب الدرامي

٧ - الرواية المسرحية

في الفن والتاريخ

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر المآسي

مآسي كورني : سنا Cinna — موضوعها حلم أغسطس على سنا ، وعفوه عنه وعن سائر المؤتمرين به ، ومغزاها انتصار العفو على الانتقام . وقد وقعت حوادثها في قصر أغسطس بروما عام ٢٣ قبل الميلاد ، وأهم أشخاصها : أغسطس أول امبراطور لروما ، وسينا حفيد (بمبيه) وزعيم المؤتمرين بالامبراطور ، ومكسيم زعيم آخر من زعماء المؤامرة ، واميلي بنت طورانيوس قتيل أغسطس ظلماً ، وأوفورب عتيق مكسيم .

الفصل الاول : تناجي اميلي نفسها أولاً ، ثم تصارح نجيتها ثانياً بعزمها على الانتقام من قتل أبيها ، ولا تجد آلة لانتقامها إلا سنا حبيبها ، فتشترط عليه الانتقام وجزاء الا اذا انتزع من الامبراطور السلطان والحياة . فيجتهد سنا في تدبير المؤامرة . ويعود اليها فينبئها باستعداد المؤتمرين للعمل في الغد . ويفجأه الامبراطور باستدعائه اليه هو وشريكه مكسيم ، فترتعد مفاصلهم مخافة أن يكون أمر المؤامرة قد افتضح .

الفصل الثاني : على أن جزعهم كان سابقاً لأوانه ، فان الامبراطور مازال يجهل أمرهم ، وانما يريد أن يستشير الزعيمين في نزوله عن الملك ، فقد سئمه وزهد فيه . فيشير عليه مكسيم بترك العرش ، ويتوسل اليه سنا بالاحتفاظ به . فان الشعب لا يصلح أمره ولا يهنأ عيشه إلا إذا كان له سيد . أما حكومة الشعب فهي شر الحكومات . فينزل الامبراطور على رأي سنا . ويخلو الزعيمان الى نفسيهما ، فيلوم مكسيم شريكه على إظهاره خلاف ما يضمر . فيعلن اليه سنا أن موت الطاغية هو مهر اميلي ، وفي نزوله عن الملك إخفاق هذا الأمل .

الفصل الثالث : يغار مكسيم من سنا لأنه يحب اميلي أيضاً ، ويحاول إحباط زواجهما . ويغريه مولاه (أوفورب) أن يفشي سر المؤامرة الى أغسطس . ويحز سنا ضميره ويشتد ألمه وندمه كلما دنا الوقت العصيب فيتردد . وتدخل عليه اميلي وهو في تلك الحال فتوقد صدره وتجمع أمره فيذهب ، ولكن في نيته أن يقتل نفسه بعد أن يقتل الامبراطور .

الفصل الرابع : يبلغ أوفورب خبر المؤامرة الى أغسطس من قبل مكسيم ، ويوهمه أن سيده ألقى بنفسه في نهر التيبر كراهة للحياة بعد اقتراف جريمتين : جريمة التآمر وجريمة الوشاية . فيدهش الامبراطور ويناجي نفسه بالأمر نجوى جميلة ، ويقلب الرأي فيما يحسن أن يفعل ، فتنصحه زوجه بالعفو فانه أجدر بالقادر ، ولكنه يخرج على غير رأي ، وتخلفه أميلي على المسرح ، ويدخل عليها مكسيم يتضرع اليها أن تفر معه فتأبى الا الوفاء لسنا . وتعرف من الواشي الخيانة فتحتقره ، ويندم مكسيم على إطاعته مولاه فيعزم على قتله قبل أن يقتل هو

الفصل الخامس : يجمع الامبراطور رأيه على أن يمن بالعفو فيدعو اليه سنا ويذكره بنعمه عليه ، وطول إحسانه إليه ، ويعجب أن يكافئه على حسن صنيعه بقتله . فيحاول سنا أن ينكر ، ولكن أغسطس يظهره على أنه يعلم سر المؤامرة . وتدخل حينئذ أميلي فتحمل تبعة المؤامرة وتعلن أنها تثأر لأبيها . ويبرئها سنا ويقرر أنه هو المسئول عن تدبيرها وحده . ويظهر مكسيم فيعترف بخيانته ، وتتحرك في قلب أغسطس عواطف الكرم والاريحية فيعفو عنهم جميعاً ، وهو يقول : أنا سيد نفسي كما أنا سيد العالم !

***

بوليكت Polyeucte موضوعها استشهاد القديس بوليكت من اضطهاد الامبراطور (ديس) ، ومغزاها انتصار الايمان على الحب . وقد وقعت حوادثها في ميليتين عاصمة أرمينية في قصر فيلكس عام ٢٥٠ للميلاد ، وأهم أشخاصها فيلكس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وحاكم أرمينية ، وبليكت أمير أرمني وزوج ابنة فيلكس ، وسيفير فارس روماني وحظي الامبراطور ، ونيارك أمير أرمني وصديق بوليكت ، وبولين بنت فيلكس وزوجة بليكت .

الفصل الأول : اعتنق بليكت الدين المسيحي ولكنه لا يجرؤ على الخروج إلى المعمودية ، مخافة أن يؤلم زوجته بولين . فقد رأت في النوم رؤيا مروعة أخافتها على حياة زوجها فمنعته من الخروج . ولكن صديقه نيارك يلح عليه فيذهب معه خفية . وفي غيبته تقص بولين على وصيفتها الحلم الذي أزعجها ، وتعلن إليها أنها أحبت سيفير وهي في روما ، ولكن أباها رفض أن يصادق على زواجه منها ، ثم قدمت أرمينية مع أبيها وفي ظنها أن سيفير مات ، فتزوجت من بليكت ؛ وفي الليلة البارحة رأت فيما يرى النائم أن سيفير منتصر وأنه منتقم . ويدخل عليها أبوها فيخبرها بقدوم سيفير وبحظوته عند الامبراطور ، ويخشى أن يعزله من منصبه لتزويجه ابنته من غيره ، ويطلب إلى ابنته أن تحسن استقباله وتكفكف من غربه

الفصل الثاني : ينزل سيفير في قصر الحاكم ، ويعلم بزواج بولين فيملكه الذهول والدهش ويريد أن يراها . فاذا ما لقيها تعترف له بأنها تزوجت من بوليكت نزولاً على حكم أبيها ولكنها أحبته منذ تزوجته ، وتطلب إلى سيفير ألا يراها مرة أخرى وفاء لزوجها فيتركها بعد أن يتمنى لها الخير . ويعود بوليكت من المعمودية فلا يرتاب في حضور سيفير لثقته بزوجه ؛ وتأتيه دعوة إلى حضور القربان الذي يقدمه الحاكم ابتهاجاً بانتصار سيفير ، فيذهب إليه مع صديقه نيارك ، وفي نيته أن يحطم الأصنام

الفصل الثالث : وبينما يعبث القلق والخوف بقلب بولين إذ تدخل عليها وصيفتها فتخبرها بأن نيارك وبليكت حطما الأوثان على ملأ من الشعب . ويستقل الغضب بفيلكس فيحكم على نيارك بعذاب الموت . ويعلن إلى ابنته أن بليكت إذا لم يرعو عن زيغه ويتعظ بمصير صاحبه حل به ما حل به ، ثم يريدها على أن تعيده إلى حظيرة الوثنية ، وإلا خشي أن يسخط الأمبراطور عليه إذا تساهل في أمره

الفصل الرابع : تعلن إلى بوليكت زيارة بولين . فيخشى دموعها أكثر مما يخشى تهديد فيلكس ، ويبعث في طلب سيفير . وفي غضون ذلك يعبر عن عواطفه الدينية بقطعة من الشعر الخالد وينبو على حنان زوجته . ثم يطلب لها الهداية ، ويرجو سيفير أن يتزوج من بولين ، فقد صمم على أن يموت في سبيل عقيدته ، ولكن بولين تصرح أنها لا تتزوج رجلاً كان سبباً في موت زوجها ولو غير عامد . فيقرر سيفير في نفسه أن يسعى في نجاة خصمه ليكون أهلاً لحب بولين

الفصل الخامس : ولكن فيلكس يظن أن سيفير لا يطلب العفو عن خصمه إلا تدبيراً لمكيدة ، فهو يخشى أن يرميه عند الأمبراطور بالتساهل والمحاباة . فيدعو اليه بليكت ويحاول أن يفتنه عن دينه ، وتساعده بولين بدموعها فما يرجعان بطائل ، ويمشي بليكت إلى الموت مشية الظافر ، وتتبعه بولين ثم تعود إلى أبيها بعد أن شهدت زوجها يموت ، فتوبخه على وحشيته وتعلن إليه أنها مسيحية ، ويهدده كذلك سيفير على عدم اعتداده برأيه وقبوله لشفاعته ، فيتنصر فيلكس أيضاً ويستعد للموت . ولكن سيفير يؤثر فيه هذا المشهد فيطلب إليه البقاء في منصبه ، ويعده أن يمنع الأمبراطور عن اضطهاد المسيحيين .

مآسي راسين

أندروماك Andromaque موضوعها حادثة من الحوادث التي أعقبت حرب طروادة وهي سبي أندروماك أرملة هكطور في أبيريا . وقد وقعت حوادثها في بطرون من مدائن ابيريا في غرفة من قصر بيروس . وأهم أشخاصها أندروماك أرملة هكطور وسبية بيروس ، وبيروس بن أخيل وملك أبيريا ، وأوريست بن أغا ممنون ، وهرميون بنت هيلين وخطيبة بيروس ، وبيلاد صديق أوريست

الفصل الأول : بيروس يهوى أندروماك التي سباها بعد سقوط طروادة ، وجلبها إلى أبيريا مع ولدها استياناكس ، ويهجر خطيبته هرميون بعد أن شغفها حباً . ويقدم أوريست عاشق هرميون إلى بيروس موفداً من الأغريق يطلب منه تسليم استياناكس ليقتلوه ، فيأبى الملك تسليمه ، وينبىء أندروماك بالخطر الذي يترصد ولدها ، ويأخذ على نفسه أن يحميه على شرط أن ترضى به زوجاً . ولكن أندروماك ترفض إخلاصاً لذكرى زوجها الأول ، فيثور الغضب في وجه الملك ويخرج وهو يقول : إن الولد سيكفر عن احتقار الأم .

الفصل الثاني : تتلقى هرميون الأمر من أبيها بالعودة مع الأغريق اذا أبى بيروس أن يسلم استياناكس . فيرفض بيروس ، ولكن هرميون ترفض أن ترحل لأنها تغار من اندروماك . على أنها تلين لالحاح أوريست خطيبها الأول ، فيزهوه النصر . ولكن

بيروس يحنق على اندروماك لإبائها ، فيعلن الى أوريست أنه يسلم استياناكس ويتزوج من هرميون .

الفصل الثالث : يتحرق أوريست من اليأس ، وتطفر هرميون من الفرح ، وتتقطع أحشاء اندروماك من الحزن ، وتتوسل الى هرميون أن تنقذ ولدها ، فتدفعها هذه باحتقار ، فتذهب الى بيروس فتجثو بين يديه وتسأله ولدها ، فيرضى أن يدفعه إليها إذا قبلت أن تنتظره عند الهيكل ، وهناك إما أن تربح التاج ، وإما أن تخسر الابن . فتذهب اندروماك مشردة اللب الى قبر هكطور تستشير روحه .

الفصل الرابع : تستكين اندروماك ابتغاء حياة ولدها ، وترضى أن تتزوج عبيد أسرتها على نية أن تنتحر بعد الزفاف ، وترغب وصيفتها أن تموت هي أيضاً ، ولكنها تنصح لها أن تعيش لتنفع استياناكس ، ولتمكن له عند بيروس ، ولتحدثه عن أبطال قومه . ويثور ثائر هرميون فتطلب من أوريست أن يقتل بيروس على أن تتزوجه من بعده ، فيتردد طويلا ثم يطيع .

الفصل الخامس : يذهب أوريست مع الأغريق الى الهيكل فيقتل الملك ثم يعود ، فيقص على هرميون ما فعل ، فتقابله بالازدراء وتصفه بالخيانة ، ويصيبها الخبال من الحزن واليأس فتطعن نفسها بالخنجر فوق جثة الملك ، ويرى أوريست نفسه محاطاً بالأشلاء والدماء ، فيضل عقله ويفقد صوابه . ويسدل الستار على هذه الفاجعة الأليمة .

***

(أتالي Athalie) موضوعها حادثة من تاريخ بنى إسرائيل وهي موت أتالي وتتويج جواس في القرن الرابع قبل المسيح . وذلك أن أتالي بنت آكاب ، وأرملة جوزام ملك يهودا ، ذبحت أبناء ولدها أوكزياس جميعاً بعد موته ليخلو لها الطريق إلى العرش والسلطان . ولم تدر أن واحداً منهم أخطأه القدر ، فأنجته (جوزابيت) عمته وزوج الكاهن الأكبر جواد ، وربته هي وبعلها سراً في معبد أورشليم باسم إلياسين حتى جاء يومه فرفعاه على عرش أبيه . وأهم أشخاصها جواس ملك يهودا وابن أوكزياس ، وأتالي أرملة جوزام وجدة جواس ، وجواد كبير الكهنة ، وجوزابيت عمة جواس وزوجة جواد ، وزكريا بن جواد ، وسالوميت أخت زكريا ، وأبنير ضابط من ضباط الملك ، وقد وقعت حوادثها في معبد أورشليم في دهليز مسكن الكاهن الأكبر .

***

الفصل الاول : يظل أبنير قائد جيش أتالي مخلصا الدين لله . وفي يوم عيد العنصرة يبكر بالذهاب إلى الهيكل فيلقى هناك جواد ، فيفضي اليه بمكنون صدره من الأسف على الماضي ، والأسى على الحاضر ، والانكار لما اقترفت أتالي من ظلم ، وأحدثت من بدع ، ويبدى لما يساوره من الخوف عليه من سطوتها وبغيها . فيهدىء الكاهن روعه ويحمد أمله ، ويعده أن يبوح إليه بسر خطير في الساعة الثالثة من النهار . ثم يصرح لزوجته بأنه سيعلن نسب جواس في ذلك اليوم نفسه . وتشدو القيان بتمجيد آلاء الله وإعلاء دينه.

الفصل الثاني : تجيء أتالي الى الهيكل فيغلق الكاهن دونها أبوابه ، فتظل في الفناء مع أبنير وماتان ، وتقص عليهما أنها رأت حلماً أزعجها وراعها : رأت أن أمها إزابيل جاءتها في المنام منذرة بحلول كارثة فادحة . ثم ظهر لها بعد ذلك غلام طعنها بخنجره في أحشائها طعنة قاصمة . وما كان أشد عجبها ودهشتها حين ترى في الهيكل شبيه الغلام الذي طعنها ! فينصح لها ماتان أن تقتله . ويشير عليها أبنير أن تدعوه وتسأله ، فتأمر به وتستفهمه عن أمره . ولكنه لا يقول أكثر من أنه يحب الله ويبغض الأوثان وأهل الشر ثم يذهب . فيشتد قلقها وفرقها من هذا الجواب وتخرج . فيطهر الكاهن الأكبر الهيكل من أثرها النجس . ثم تشدو القيان بسعادة الأبرار وشقوة الفجار .

الفصل الثالث : يفد ماتان من قبل أتالي على كبير الكهنة يطلب منه تسليم الغلام رهينة الصلح بين الملكة وبينه ، فيطرده الكاهن طردا قبيحا فيذهب مهددا ، ويوقظ شكوك أتالي فيه . فيشتد الخطر ويفدح الأمر . ولكن جواد يزداد بالله إيمانا وثقة ، فيطمئن امرأته ويتنبأ بسقوط أورشليم وقيام الكنيسة المسيحية . ثم يأخذ في أسباب التتويج ويحرض اللاويين على القتال دفاعاً عن الهيكل ، وتنشد القيان أناشيد الخوف والرجاء

الفصل الرابع : يعلن الكاهن إلى جواس حقيقة مولده ، ويبصره بحقه وواجبه ، ويقدمه إلى اللاويين ولياً لعهد داود ، ويأخذ عليهم الايمان أن يؤازروه وينصروه . وما هي إلا لحظة حتى يحمل إليه لاوى خبر محاصرة الهيكل بجنود أتالي . فتضطرب جوزابيت جزعاً على جواس ، وينظم الكاهن صفوف المدافعين ، وتنشد القيان نشيد الغوث والمعونة من الله .

حول ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

دعوت الله ألا أرى القاهرة فى الرابع عشر من سبتمبر. وكنت مقيماً بين مزارعى وشواغلى إلى الثانى عشر منه ، فجد لى عمل هام يقتضيني سفراً اليها قد يستغرق يومين أو ثلاثة .

لست أكره الذكرى ، بل أعمل لها ، وعقيدتى أن ذكريات المحن كذكريات المنح فى نتيجتها . لأنها تشحذ العزائم وتبعد تكرار الأخطاء ؛ وليست ذاكرتى بالضعيفة ، وإنما تعذبنى فى الواقع بشدة إحساسها ، ولكنما خيل إلىّ أن أعصابى لا تحتمل شهود العاصمة المحبوبة فى ذلك اليوم !!! كبر على أن أشهد المدينة القاهرة الزاهرة التى عاش أهلها فى طهارة الاستقلال وعزه ، يعيشون منذ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ غارقين فى رجس الاحتلال وذله . . .

ما كدت أصل القاهرة مساء الثانى عشر من سبتمبر حتى استعرضت برنامج عملى على أن أعجل منه ما أستطيع وأرجىء منه مالا يضيره إرجاء . فلما أصبحت أسرعت الى عملى وفرغت منه فى نحو العاشرة صباحاً ، وذكرت على التو أن قطاراً يغادر القاهرة إلى بور سعيد فى الحادية عشرة ، وفى هذا زوال ما أخشى .

وأزمعت السفر لأعود بأسرتى من المصيف وقد قرب افتتاح معاهد الدرس ، وخيل الىّ أنى سأتلافى بسفرى جواً خانقاً ويوماً من الدهر خانقاً ! . .

سيتحقق إذن ما تمنيت على الله ، فلا أكون بالقاهرة يوم تشرق شمس جاء أصيلها على البلاد بمحنة المحن . فاذا جيش الاحتلال يدخل قلب البلاد ، وإذا نائب عن الخديو يلازم الجيش ! ! . . وهل شر من احتلال أجنبى يظله اضطراب لا يستقيم معه فكر ، ولا يتسق وإياه منطق ؟ ! ! .

الفيكونت ولسلى يرفع لانجلترا فى قلب مصر راية ؛ وسلطان باشا يؤمن تلك الراية باسم الخديو ! . وأين عرابى وأين الجيش ؟ وفيم كانت الحرب ؟ وأى فكرة تنطبع فى ذهن البلاد لصورة هى التناقض بذاته فوق ما تحمل من عار ؟ . .

والله ما ابتلى شعب بمثل ما ابتلى به شعبنا فى ميدانى السادة والمنى ، ولولا أن الشعب كان قوياً بدينه وتقاليده ، عظيماً بآثار المحن الغابرة فى عزائمه ، عزيزاً بكرامته ، لنالت منه الأحداث أضعاف مانالت ؛ ولو خلت بغيره لأفنته .

***

جلست فى القطار أتسلى بالقراءة ، واتفاقاً بدأت بكتاب صغير اشتريته من (كشك) ليفاداس بالمحطة — مؤلفه فرنسى — والكتاب عن حصار « باريس » سنة ١٨٧٠ .

أخذت أقرأ وفى نفسى أنى واجد فى وطنية الفرنسيين الهائمين بعاصمتهم ومجدهم ، وفى كفاءة الألمان وحسن تنظيم جيوشهم خير عبرة وتسلية . ولقد أجاد المؤلف فى المقدمة ، وفى وصف الحالة العامة ، ثم إذا به فجأة يتكلم عن باريس فى ١٩ سبتمبر ، فيصف الطوارىء ، وحالة الرأى العام وصعوبة التموين ، وضعف خطوط الدفاع ! .

إذن مازلنا فى شهر سبتمبر ! ولازالت هناك سلسلة من هموم فى ثناياه إذا خلفتها فى القاهرة ذكرتها عن باريس فى محنة مماثلة ! وفى المثل : يؤتى الحذر من مأمنه .

ما عتمت أن تمثلت بالكلمة الخالدة التى انتزعها من فم الرجل

الفصل الخامس : يدخل أبنير الهيكل المحصور سفيراً إلى الكاهن يحمل شروط أتالى الأخيرة وهى تسليم إلياسين ، وتقديم الكنز المدفون فى الهيكل ، فيجيبه الكاهن : لتدخل الملكة فتأخذ ماتشاء بنفسها . ثم ينصب فى أثناء ذلك عرشاً لجواس ، وتدخل أتالى المكان المقدس يحف بها ثلة صغيرة من الحرس وهى تقول : أين الغلام وأين الكنز ؟ فيريها الكاهن جواس على العرش ، ويقول لها : هذا كل ما بقى من كنز داود ! فتحتدم الملكة من الغيظ وتصيح : ياللخيانة ! ! ياللجند ! ! ولكن الجنود يأخذهم الفزع فيتمزقون شر ممزق ، ويقبض اللاويون على الملكة ويسحبونها خارج الهيكل ، ويذيقونها عذاب الموت بما كسبت ؛ ويقول جواد لجواس فى كلام طويل : « لا تنس يامالك اليهود أن للملوك قاضياً جبارا ، وللبرىء منتقما عزيزا ، ولليتيم أبا رحيما . ! ! »

(يتبع) الزيات

الحزين سيدنا كعب بن مالك – خطاب عاهل غسان اليه ؛ فقلت معه رضى الله عنه : « وهذا أيضاً من البلاء » (١)

يقول المسيو « سارسى » مؤلف « حصار باريس » بعيد إعلان الجمهورية : « وبينما يشتد ضغط الجيش البروسى وتتوالى انتصاراته وتكتمها الحكومة عن الشعب كنت كثيرا ما تسمع واحداً يقول لرفيقه : (إنهم لن يجرؤا على دخول باريس مادمنا حصلنا عليها) أى ما دمنا أعلنا الجمهورية فلن يجرؤ البروسيون على فتح باريس »

وهكذا تلهى الباريسيون بأعلان جمهوريتهم عن الغرض الأساسى وهو حماية باريس من هجوم الأعداء .

أو لم نصب بهذا يوم أطلق سراح المرحوم سعد باشا زغلول وصحبه ، ويوم ذهب اللورد ملنر يفاوض الوفد ، ثم يوم أعلن الدستور سنة ١٩٢٤ فتفرقت ثورتنا وتشتت شملنا ؟

كان لأحد أدباء باريس فى ذلك العهد غرام بجمع المؤلفات الأدبية ذات الغلاف الأنيق . فاقتنى منها ما يعد ثروة ضخمة رتبها فى منزل بجوار باريس . ثم صدق ما كانت تردده الصحف من استحالة باريس على الهاجمين فمضى فى تنسيق تراثه . ثم إذا به بين يوم وليلة يتحقق أن الصباح قد لا يشرق إلا مغبراً بخيل العدو . أسرع بما استطاع حمله ، وآوى إلى أول فندق ثم استراح الراحة الأبدية ، فقد وجدوه ميتاً فى بكور الصباح . وكان بذلك مجدود الحظ سعيداً ، فلم يرسنابك الأعداء فى العاصمة الحبيبة

وإذن لست أول الناس فى هذا الشعور الذى أقض مضجعى قبيل ١٤ سبتمبر ولو أنى لم أحظ بنصيبه ، فلعل الله يرينى يوماً ميموناً بالخلاص .

***

أغرق أهل باريس فى تحية الحكومة الجديدة بقدر ما أسرفوا فى الطعن على الأمبراطورية وما جرت من ويلات ، حتى رسخ فى ذهن الجمهور أن بروسيا لاتحارب فرنسا ، ولكنها تحارب الامبراطورية .

وقد يعجب القارئ إذا علم أن الأمبراطورية التى باتت مثالاً للشقاء فى أعين الفرنسيين هى النظام بذاته الذى تأيد بثمانية ملايين من أصوات الناخبين قبل ذلك بشهر

ولقد كان موقف نابليون الثالث شبيهاً بموقف عرابى باشا ، ولعل الخير كل الخير كان فى أن يموتا فى ميدان القتال .

ليست العبرة فيما ينفع أنه يرضى الناس بادى الرأى ، وإنما العبرة فى أن يكون نافعاً وكفى . ولا بد من تعويد النفس احتمال الكروب فى سبيل العقيدة ، وثبات العزم على صحيح الرأى

ألف الجنرال « تروشى » فى عهد الأمبراطورية كتاباً نقد فيه حالة الجيش وخطوط الدفاع من الوجهة الفنية نقداً أغضب الأمبراطور ورجال ذلك العهد حتى أضروه بسببه

فلما حوصرت باريس وبدا الضعف واضحاً فى خطوط التحصين عادت بالشعب ذاكرته إلى الجنرال المؤلف وإلى كتابه ، ووصل الرجل وكتابه إلى الذروة ، ولكن الوقت لم يكن يسمح يومئذ بتنفيذ شىء مما أشار به .

ولا بد لنا – لأحاطة أخلاقنا بسياج يقيها العثرات – أن نرجع البصر إلى خطوات الماضى ، وإلى عظات من سبقونا من رجالات مصر – فذلك كفيل بحسن التوجيه .

شىء من الثبات ، وعود إلى آدابنا القومية وتقاليدنا الشعبية ، وشىء من الشجاعة الأدبية ، لنقول للمخطىء أخطأت ، وللمصيب أصبت .

جعل الله لنا فى الماضى عظة ، وفى الحوادث عبرة . وجمع على الحق شتاتنا إنه كريم مجيب ؟

محمد محمود جلال
المحامى

(١) خلد الصحابى الجليل فى سجل التاريخ مثلا أعلى لمتانة الخلق والثبات والصدق : أسلم وحسن إسلامه . ثم جاهد ، ثم تخلف عن إحدى الغزوات عن غير نية مبيتة . فلما مثل بين يدى الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام قدم بأنه أوتى جدلا ، ولكنه يصدق نبى الله الحديث فيعترف بأنه كان معافى قويا موسرا ولكنه تخلف . يعترف وقد يغضب الرسول ولكنه لا يحب أن يكذب فيسخط الله .

قاطعه المسلمون ، ولا يشرفه النبى بكلمة . وبوعد بينه وبين زوجه – يسير فى الأسواق فلا يجد من يرد عليه تحيته . وهو فى كل ذلك صابر واثق من نفسه مقتنع بصدق نيته وهو فى هذه الحالة من القطيعة يسمع منادياً باسمه ، فاذا نبطى يدفع اليه المنادى كتابا من ملك غسان يغريه بالهجرة اليه . يقول له : إن الله لم يجعلك بدار هوان فاصل الينا نواسك .

ولكن كعباً رضى الله عنه يرى فى عقيدته ومبدئه حصنا ومناعة فيأخذ الكتاب ويترقرق الدمع فى عينيه ويقول : « وهذا أيضاً من البلاء » ثم يمضى إلى تنور فيسجر فيه الكتاب .

من اللزوميات :

من أبى العلاء

الى الشاعر التونسى محمد الحليوى

(أبا العلاء أحقاً أنت فى دعة من الخطوب وفى سلم من الكرب)

« الحليوى »

أبا فلان ! جزاك الله صالحة فان وصلك حبلى أطيبُ القُرَب

هذا جوابك — لكنى أُسِرُّ به فاشحذ لتسمعنا أذنيك واقترب

(قد عشتُ رهن العمى والحبس) منقبضاً

عن رفقة طبعهم أعدى من الجرب

لم أعدُ أنى عددت القوم مذ نَضِحت حمقاً جلودهمو صنفاً من القِرَب

وما يضير الورى أن بت مكتفياً

من الطعام بمثل الصَّرْب والصَّرَب [1]

أغربت عند أناس من غباوتهم بأننى مزت عود النبع والغَرَب [2]

***

أمّا الولاة ، فقوم أنت تعرفهم ! يُمنى مخالطهم بالويل والخرَب

كم سارب منهمو خوفاً وآمننى

فى السِّرْب أنى اتخذت الدار كالسَّرَب [3]

***

فدع (المُبَكِّ) [4] إنى لست أعرفه ،

من لى بذاك ، وصحن الدار مضطرَبى [5]

وما مررت بقصّاص فأسمعنى ألا وألفيتنى أمعنت فى الهرب

فليس يعمر قلب بات يملؤه بالإفك يصدره عن قلبه الخرب

(١) الصرب والصرب : اللبن الحامض والصمغ (٢) أغرب : جاء بالغريب . والنبع والغرب شجر قوى وشجر ضعيف (٣) السارب : الذاهب على وجهه فى الأرض . السرب : النفس والجماعة . والسرب : البيت فى الأرض (٤) الخطاب للشاعر التونسى حيث قال :

(هى الحقيقة تحكى ربة ملكت عرش الألب على الأرباب والرسل)

(٥) المضطرب : المجال

قد عشت ما عشت رهن المحبسين ومن

يعاشر الناس باع التمر بالكرَب [1]

لجـاء يوماً أبو يحيى وفى يده

كأس مذاقتها أشهى من الضَّرَب [2]

فأسكرتنى بلا خمر وجدّ بنا من شربها طرب ناهيك من طرب

واذ بعينىّ عادت وهى مبصرة واذ بذهنى ذهن الحاذق الدَّرِب

نظرت حولى فأبصرت الأُلى سبقوا على غرار وإذ بالعُجم كالعرب

***

حتى إذا النفس ثابت بعد دهشتها لاحت مجرّدة من ثوبها التَّرِب [3]

فراعنى انها المرآة منعكساً نور الحقيقة فيها غيرَ مضطرِب

أمانة حملتها النفس قد خفيت على البصائر لم تدرك من التَّرَب [4]

ما كنت مدركها لو لم أمت أبداً أو كنت مبصرَها أو بالغاً أربى

ومن يمت مرة فى الدهر واحدة نال الخلود فما يخشى من الكرَب

***

من يصقل النفس يكشف عن حقيقتها

ولست تكشفها بالمنطق الدرِب

مصطفى العلوى

(١) يعنى بالمحبسين : الدار والعمى . الكرب : أصول السعف . والمعنى باع القيم بما لا قيمة له (٢) أبو يحيى : كنية ملك الموت . والضرب العسل (٣) الترب : بالكسر المصاب بالتراب . والمراد بالبيت : أن النفس متى تجردت تدهش أولا ثم تثوب (٤) الترب : بالفتح الاصابة بالتراب . والمقصود بالأمانة هنا الحقيقة ، ويريد أن الحقيقة قائمة فى النفس ، وأن إدراكها ممكن .

من الأدب الأندلسي

التوابع والزوابع (١)

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

— ١ —

نشأ أبو عامر بن شهيد الأشجعي في الأندلس في قرطبة إحدى مدن العلم والأدب ، وكان هذا الرجل أديباً مغموراً توغل في شعاب البلاغة وطرقها كما يقول ابن خاقان (٢) ، وله في الأدب مجالس معمورة يبث فيها تعاليمه وآراءه ، ويا لها من تعاليم قيمة ، وآراء مبتكرة ، ولكنه كان مبتلى بحقد جماعة من معاصريه قصروا عن شأوه فناصبوه الخصومة ، فكان وهم كما يقول :

وبلغت أقواما تجيش صدورهم علىّ وأنى منهم فارغ الصدر
أصاخوا الى قولى فأسمعت معجزاً وغاصوا على سرى فأعياهمو أمرى

ولكنه لم يلبث أن ضاق صدره بهم ، وشغله أمرهم ، فأسلاهم ناراً حامية من التهكم المر والتعريض اللاذع ، وتفنن في الانتقاص من قدرهم ، والحط من شأنهم ، وتحداهم بآرائه في النقد والبيان ، وازدهى عليهم بقدرته في الشعر والنثر ، وساق ذلك كله في قصة خيالية زعم أنها وقعت له في وادي الجن ، وأن حوادثها جرت بينه وبين شياطين الشعراء والأدباء — هذه القصة هي « التوابع والزوابع » موضوع بحثنا اليوم — وهي رسالة أدبية ممتعة تعد من خير ما خلف في تراثنا الأدبي قوة وجدة وطرافة .

ولما كان في التوابع والزوابع شبه من رسالة الغفران ، وكان عصر ابن شهيد مندرجاً في عصر المعري ، رجح لدى الأدباء أن يكون أخذ الرجلين ضرب على غرار الآخر ، وانساق مع تياره ، فاهتموا ببحث الصلة بين الرسالتين ، وتلمسوا فضل الأسبقية للسابق من الرجلين ، وكان من رأي الدكتور أحمد ضيف أن ابن شهيد هو الذي احتذى شيخ المعرة وحاكاه ، واحتج لذلك بأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في الخافقين ، وقد كان أهل الأندلس مولعين بتقليد المشارقة في آدابهم وأفكارهم بل وفي كل شيء ؛ ولكن الدكتور زكي مبارك أمعن في البحث والتدقيق ، ونظر الى المسألة من جانبين : الجانب الأول التاريخ الذي وضعت فيه التوابع والزوابع وقد استخلصه بالتقريب من قول صاحبها يخاطب جنية « من إخواننا من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة » . قال : وفي هذا اشارة الى أنه وضعها وهو كهل ، أي بعد سنة اربعمائة واثنتي عشرة للهجرة (١) ؛ وأما الجانب الآخر . فهو التاريخ الذي كتبت فيه رسالة الغفران ، وقد قال في تحقيقه : إن هذه الرسالة كانت جواباً على رسالة ابن القارح ، فاذا علمنا بأن هذا الرجل وضع رسالته بعد أن نيف على السبعين كما وقع في ثنايا كلامه ، واذا علمنا بأنه وُلد سنة احدى وخمسين وثلثمائة ، ثبت لدينا أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، أي بعد التوابع والزوابع بنحو عشر سنين ، وعلى هذا صار من الرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد . ! !

فالدكتور زكي مبارك قد أنصف ابن شهيد حقاً ، واستطاع أن يثبت له فضل السبق على صاحبه ، ولكنه لم يستطع أن يثبت تهمة التقليد التي رجحها على المعري ، وهي تهمة كبيرة لو صحت لكان لها شأن كبير في الأدب ، خصوصاً إذا طاوعنا الذين يقولون بأن « دانتي » و « ملتن » — أخذا عن المعري في « الكوميديا الالهية » و « الفردوس المفقود » والواقع أنه ليس في الرسالتين ما يدل على تقليد أو محاكاة ؛ نعم إن بينهما شبها في بعض الوجوه ، فكل منهما عبارة عن سياحة خيالية إلى عالم آخر ، كما أن في كل منهما عرضاً لكثير من المشاكل الأدبية واللغوية ، وزيادة على ذلك فقد اهتم كل من الرجلين بالتهكم بمعاصريه في رسالته ؛ ولكن هذا كله تشابه في أمور عامة تتوارد فيها الخواطر غالباً ، وربما تكون من وقع الحافر على الحافر كما يقولون . ولو أنك نظرت الى وجه الخلاف بين الرسالتين لرأيته أقوى وأدل على

(١) التوابع جمع تابع أو تابعة وهو الجني أو الجنية يتبع الانسان ، والزوابع جمع زوبعة وهي الشيطان أو رئيس الجن

(٢) مطمح الأنفس ص ١٠٦

(١) ولد ابن شهيد سنة ٣٨٢ هـ

تباعد الرجلين واستقلالهما فى الفكر والغرض ؛ فقد قصد المعرى فى سياحته الى الفردوس والجحيم فى العالم الآخر ؛ وذهب ابن شهيد إلى وادى الجن فى عالم الحياة ؛ واختار المعرى أشخاص قصته من الرواة والشعراء والملائكة ، وارتضاهم ابن شهيد من الشياطين — شياطين الشعراء والأدباء . وعنى المعرى بالتعرض لكثير من المسائل الفلسفية والدينية ، ولم يتعد ابن شهيد القول فى البيان والنقد والشعر ، وكتب المعرى رسالته بأسلوب وحشى غريب فلا يستطيع القارىء أن يأتى عليها إلا بشق النفس ، وقوة الصبر ، وبعد الاستعانة بمعاجم اللغة ، وساق ابن شهيد قصته فى أسلوب عذب رقيق يخلق اللذة فى نفس القارىء ، ويدفع به إلى استيعابها بلا ملل أو سآمة ؛ ولقد أظهر المعرى كثيراً من التباهى بحفظ الغريب والتمكن فى قواعد النحو والتصريف ، وأطال ابن شهيد القول فى الغض من قيمة هذه الأمور وتحقير الذين يجعلونها كل همهم ؛ ثم بعد هذا كله لا تجد فى إحدى الرسالتين فكرة اشتملت عليها الأخرى ، أو رأيا اتفق لكل من الرجلين ؛ فلكل منهما فضله فى عمله ، ولكل منهما شخصيته فى رسالته ؛ وأظن فى ذلك ما يكفى لدفع تهمة الأخذ والتقليد ، سواء أكانت فى جانب ابن شهيد كما يقول الدكتور ضيف ؛ أم ناحية المعرى كما يريد الدكتور زكى مبارك . وحسبى بعد هذا أن أفرغ معك للحديث عن التوابع والزوابع ، وأن أستعرض أمامك ما احتوته من الآراء والأفكار ؛ ويقينى أنك ستجد فيها كثيرا من الأبداع والأمتاع ، بل سترى شيئاً جديداً يثمره الفكر العربى ، وستشهد لصاحبها بالدقة فى الوصف ، والقوة فى التصوير ، خصوصاً وصف أحوال الشعراء السابقين ، وتصوير ميولهم ونفسياتهم ، وستعجبك منه روح خفيفة ، ونفس مرحة طروب يلذ لها أن تضحك فتجيد الضحك ، ويهمها النادرة الحلوة فتوفق كثيرا الى حلاوة النادرة وبراعة النكتة .

استهل ابن شهيد رسالته بمقدمة قصيرة أراد أن يبين فيها كيف وقعت له حوادثها ، وكيف رحل إلى وادى الجن فقال : « كنت فى أيام الحداثة أحن إلى الآداب ، وأصبو إلى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين ، وجلست إلى الأساتيذ ، فنبض فى عرق الفهم ، ودر لى شريان العلم ، وبسير المطالعة من الكتب يؤيدنى ، إذ صادف شن العلم منى طبقة ، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً ، ولا كالحمار يحمل أسفاراً ؛ وكان لى فى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى ، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزعت ، وأخذت فى رثائه فقلت :

تولى الحمام بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن انتهيت إلى الأعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

ثم أرتج على القول ، فاذا أنا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدهم قد اتكأ على رمحه ، فصاح بى أعجز يا فتى الأنس ، فقلت لا وأبيك ، للكلام أحيان ، وهذا شأن الأنسان ؛ فقال قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته ، وقلت : بأبى من أنت ؟ قال : « زهير بن نمير » من أشجع الجن ، تصورت لك رغبة فى اصطفائك ؛ قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت قلباً إليك مقلوباً ، وهوى نحوك محبوباً ، وتحادثنا ، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقلت له هل من حيلة فى لقاء من اتفق منهم ؟ قال حتى أستأذن شيخنا ، وطار عنى ، ثم انصرف وقد أذن له فقال حل على متن الأدهم فسرنا عليه ؛ وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو فالدو ، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا ؛ وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال : حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، ولكنى إلى الشعراء أشوق . . »

وابن شهيد كما ترى يحاول الايجاز فى سرد الحوادث . ويود أن ينطلق على طبيعته فى إيراد القول ، ولكنه لم يوفق كثيراً فى هذه المقدمة كما يود ، وكما وفق فى عرض الرسالة ؛ فظهر على أسلوبه مسحة التكلف ، ووقعت بعض جملة قلقة نابية ، كأنه كان يدفع بها إلى غير موضع ، ويضعها حيث لا مستقر ؛ فمثلاً فى قوله : « وبسير المطالعة من الكتب يؤيدنى ، إذ صادف شن العلم منى

طبقة ، ولم أكن كالثنج تقتبس منه ناراً . ولا كالحمار يحمل أسفاراً » ثقل يحس به القارئ في اللسان وفي الذوق ؛ وزيادة على ذلك فقد اضطرب الرجل في وضع الكلام ، واختل به نهج القول . ألا تراه يقول في بدء كلامه « كنت في أيام الحداثة أحن إلى الآداب . . » ، ويسير في الحديث على هذه الكينونة ؛ كأنه رحل إلى وادي الجن غض الأهاب ، نضر الشباب ؛ مع أنه فيما بعد سيشكوا إلى إحدى التوابع ما فعلت الأيام به ! ! وسيذكر لنا أن من إخوانه من بلغ الامارة ، وانتهى إلى الوزارة ! وفي هذا ما يفيد أنه طعن في الكهولة على أقل تقدير ثم نجده يصف صاحبه « زهير بن نمير » بأنه من أشجع الجن ، وكان الأوفق بداهة أن يجعله في الأدباء ، مادام القول في الأدب والشعر وما دام الحديث عن الأدباء والشعراء .

ولكن هذه هنات هينات . على أنها ترجع الى العرض ، ولا تمس الجوهر في شيء ، وقد تكون هي كل ما في الرسالة من المآخذ ؛ ولقد سلك الرجل طريقه بعد ذلك على أحسن ما يكون ؛ يجد ويهزل ، ويتهكم ، ويضحك . ويعالج كثيراً من الآراء العميقة ، والأفكار القويمة ؛ وهو في كل ذلك ظريف خفيف ؛ ملء قلمه الفصاحة والبيان ، وملء تعابيره البلاغة والايجاز السليم ؛ ولقد حدثنا بعد هذه المقدمة أنه لما نزل بوادي الجن ، ورغب في البدء بلقاء الشعراء ؛ طلب من صاحبه « زهير بن نمير » أن يقدمه الى عيينة بن نوفل شيطان امرئ القيس ، فصاح به زهير : ياعيينة بن نوفل[1] ، أقسمت عليك بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جلجل ؛ الا عرضت لنا وسمعت من الأنسي ، وعرفتنا كيف إجازتك له — يقول ابن شهيد — فظهر لنا فارس على شقراء كأنها تلهب ، فقال حياك الله يا زهير وحيا صاحبك ، أهذا هو وحق أبي ؟ ثم قال أنشد ، قلت : السيد

(١) الذي في كتب التراجم أن شيطان امرئ القيس اسمه لافظ بن لاحظ

أولى بالأنشاد ، فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وضرب عنان الشقراء ، ثم أنشد : « سما لك شوق بعد ما كان أقصرا[1] » حتى أكملها . ثم قال أنشد . فهممت بالحيصة ، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت : « شجته مغان من سليمى وأدؤر » حتى انتهيت فيها الى قولي :

ومن قنة لايدرك الطرف رأسها ... تزل بها ريح الصبا فتحدر

تكنفتها والليل قد جاش بحره ... وقد جعلت أمواجه تتكسر

ومن تحت حضني أبيض ذو شقائق ... وفي الكف من عسالة الخط أسمر

هما صاحباي من لدن كنت يافعاً ... مقيلان من جد الفتى حين يعثر

« للكلام صلة »

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) مطلع قصيدة جيدة لامرئ القيس يشكو فيها الزمان وتنكر الخلان ويذكر رحلته الى قيصر الروم مع صديقه عمرو بن قميئة الضبعي الشاعر .

من طرائف الشعر

خمسة ...!

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

فجعت الأمة العراقية الكريمة منذ أسبوعين باستشهاد خمسة من طياريها البواسل ، سقطت بهم الطيارة على مقربة من مطار المنيدى ، فرثاهم شاعر العراق الكبير بهذه القصيدة

(١)

خمسةٌ طاروا من عيون الشباب ... فوق طيّارة كمثل العقاب
أخذت في الجوّ الرفيع تعالى ... ثم خرّت من أوجها كالشهاب
إن ذاك الصعود في الجوّ منهم ... كان للجد والعلا والغلاب
صدمةٌ في هبوطها أهلكتهم ... بعد أن حلّقت بمجرى السحاب
لا ترى بعدها على الأرض منهم ... غير أشلاء أو دمٍ منساب
انما أوقف المحرّكَ فيها ... سببٌ قاهرٌ من الأسباب
هلكوا في شرخ الشباب فيا للـ ... رزء لمّا عرا ويا للمصاب

(٢)

فتيةٌ طارت تبتغي المجدَ ذخراً ... ولأوطانها تخلّد ذكرا
فوق طيّارة تطوف بهم في الـ ... جوّ هدّارةٍ فتشبه نسرا
كلما اشتدّ كربُ الفجيعة أحسسـ ... ـت من الحزن في فؤادي جمرا
ليس عندي ما أستقي منه شعري ... غيرُ عينٍ من الكآبة عبرى
أنا في الحزن أرسل الشعرَ دمعاً ... ساخناً ثم أرسل الدمعَ شعرا
حسبُ مَن مات عند خدمته أو ... طانَه أنه بها كان برّا
عاش مَن برّ بالمواطن محمو ... داً فان مات فهو بالحمد أحرى

(٣)

فتيةٌ صرعى فارقتها الحياة ... فبكتها الآباء والأمهات
وبكاها العراق حزناً عليها ... وبنوه ودجلةٌ والفرات
أينما ألتفتْ أشاهد شحوباً ... في وجوه عيونها خضلات
شيّعتها الى مقابر شتى ... عبراتٌ وراءها عبرات
إنما المجد لا يموت وان كا ... نَ ذووه لحادث قد ماتوا
أيها الشعب لا يثبّطك يأسٌ ... انما في الموت المُلِمّ حياة
أيها النسر ما دهاك وقد كنـ ... ـتَ اذا طرتَ لم يخنك الثبات

(٤)

هي دنيا كثيرة الإمتاع ... ودّعوها ولات حين وداع
وهو المجد بالمساعي اقتنوه ... حبذا المجدُ يُقتنى بالمساعي
قد أضعناهم خمسةً ليس فيهم ... مَن به رعدةٌ فيا للضياع
مشهدٌ للحياة والموت يُشجي ... ما به من تنازع وصراع
لهف نفسي على شباب تردّوا ... فنعاهم إليّ في الصبح ناع
شاع ذاك النعيّ حول الفراتين ... فأُثقِل به على الاسماع
جنحت للغروب شمسُ نهاري ... ثم منها لم يبق غيرُ شعاع

(٥)

وقف الموت للأنام رصيدا ... كلّ يوم يريد منهم شهيدا
شطّت الدار بالأحبة عنا ... وعسى مَن نأى بهم ان يعيدا
فتيةٌ كادتها صروفُ الليالي ... والليالي من شأنها ان تكيدا
أنا لولا شيخوختي ثم دأبي ... كل يوم نظمتُ فيهم قصيدا
حبذا الليل والنهار لو أنا ... فيهما نستطيع ألاّ نبيدا
قد ظننت الذي ثوى يسكن القبـ ... ـرَ قريباً مني فكان بعيدا
فات مَن قد رأى السلامَ رغيبا ... أن يرى في الاخطار موتا حميدا

(٦)

حلّ يودي بخمسة أطهار ... قدرٌ نازلٌ من الاقدار
بنسور قد خلقت قبل أن يؤ ... ذن ضوء الصباح بالإسفار
خطرٌ كله الظلام ولكن ... لا تبالي النسور بالأخطار
ركبوها طيّارةً لم تخنهم ... في تماريتهم وفي التكرار
ما دهاها حتى هوت كشهاب ... خرّ من جوّه بلا انذار
ثم دارت بهم على نفسها بالرّ ... غم عن كل حيلة الطيّار
ثم كان الذي به جرت الأقـ ... ـدار من سقطةٍ لهم وبوار

(٧)

كلّ يوم تُعطى الحياةُ ضحايا ... تبتغي إرضاءً بها للمنايا
إن هذا الجيل الذي نحن منه ... هو من هاتيك الضحايا بقايا
تبتغي تخفيفَ الرزايا بلهو ... ترتضيه فلا تخفّ الرزايا
لا أظن الحياةَ تلقى سلاما ... من بلايا وراءهنّ بلايا
ان مَن اعطانا العقولَ اذا ما ... شاء أن تردى يستردّ العطايا
والذي أنشأ البرايا من البو ... ر مُعيدٌ الى البوار البرايا
كِبَرٌ شفّني فلم يبق عندي ... غيرُ قلب يئن تحت الحنايا

بغداد ... جميل صدقي الزهاوي

في النقد الألماني

النقادة الكبير ليسنغ

(Lessing)

حياته ومذهبه

(١٧٢٩ - ١٧٨١)

للأستاذ خليل هنداوي

ما عرف الأدب ناقداً كليسنغ جبار التصحيح القابيس، بليغ التأثير، لا يبني مذهبه على المدرسة الأدبية القائمة في عصره، وإنما يبني مدرسته الجديدة لترتكز عليها مدرسة للأدب جديدة، ولم يكن عند الجرمانيين أدب بارز. فحار الناقدون في تفهم هذا الناقد الذي افتتح أدب أمة عظيمة بالنقد، وإنما عهدهم أن يخلق الأدب النقد كما يخلق الأديب الناقد.

نشأ ليسنغ ميالاً في بدء عهده إلى أدب الأوائل، وما كاد يتمكن من هذا الأدب حتى تفتح لعينيه أفق جديد يريد استكشافه، يحث مناصريه على السعي معه حثيثاً ليكون لهم مثل حظه من هذا الاستكشاف، وما أصدق من قال: (كان الأدب الألماني قبل ليسنغ مفازة يفتقر السائر المتخبط فيها إلى هاد، وهذا الهادي لم يكن إلا إياه) هذا الذي أنار للسالك وهدى الأدباء إلى سبيل في الأدب قويمة، يستدل لهم مكامن الإبداع ومواطن الخطأ، وأسس الأدب الجديد على قواعد النقد، وصاغ الشعر مزيجاً من الفن والأدب والفلسفة. فكانت نفسه في جميع حالاتها مصابة بطلب المعرفة، هذه المعرفة التي ظن أنه لابد ملاقيها، فذهب وراءها في أحناء الكتب والصحف، وتحرى عنها في مشاهد الوجود.

دخل في أول نشأته أحد الأديرة يتلقى اللغات القديمة التي كانت لب برامج التعليم القديم، فأبدى من الذكاء والانتباه ما ترك أساتذته في دهشة منه، حتى قال عنه أحدهم: (نحن لا نستطيع أن نقوم بواجب الشكر لهذا الطالب، فإن الدروس التي كان زملاؤه يستثقلونها كان يجدها لسهولتها كالألهية، إنه كالجواد يبتغي علوفة مضاعفة) حتى إذا بلغ السابعة عشرة من عمره انكب على علم اللاهوت، ثم تتلمذ للحياة بعد أن أنجز تلمذه للكتب، تلك الكتب التي قال عنها في إحدى رسالاته « إنها صنعت مني عالماً عارفاً ولم تصنع مني إنساناً، سأبدأ عاجلاً بدرس أطواري » فترك علم اللاهوت وعمل على جمع رواياته التمثيلية، وقد حثه قريب له أديب على الاختصاص بهذا الفن، فمثلها غادة لامعة نجحت في أداء تمثيلها، فزاده ذلك انصرافاً إلى هذه الحلبة، حتى ظن أن هذا الفتى لن ينصرف بعد اليوم عن الفن الروائي.

على أن الضعف ليبرز في هذه القطع التي عرضها، ويغلب على أسلوبها اللون الفرنسي الذي كان يصبغ جميع الآثار الألمانية، وكان مذهبه فيها نفس المذهب الدرسي الذي كان (راسين وكورني وموليير) يبتدعونه ويتبعونه. كأنه كان يؤمن بجمال هذا المذهب ويحمل نفسه على الأخذ به. ولكنه في بعض نظراته يشن الغارة على هذا المذهب، ويطلب إلى معاصريه ألا يكونوا مقلدين لأذواق غيرهم، وإنما الأجدر بهم أن يتفهموا مذاهب غيرهم وألا يكونوا مقلدين لها. ونهاهم عن التهافت على أدب أمة واحدة كالأمة الفرنسية، وهنالك آداب مهملة كأدبها جديرة بالدرس والتمحيص، وفي هذا الصدد قال كلمته المأثورة « إذا أراد الألمان أن يتبعوا مذهباً يلائم طبيعتهم وجبلتهم فليتبعوا الأدب الإنجليزي الذي هو أدنى لهم من الأدب الفرنسي »

وقد أشار في أكثر من موضع إلى هذه الروح التي شاء أن يغرسها في أدباء عصره. وهو الذي كتب في إحدى رسالاته ينتقد المؤلف المسرحي (جوتشيد) ويؤاخذه لاسترساله إلى الروح الفرنسية: « يطمع هذا الكاتب في أن يمثل دور المبدع في مسرحنا الجديد، ولكن ماهو هذا المسرح الجديد؟ إنه مسرح نصف روحه فرنسية ... ولعل صاحبنا لا يحفل بهذه الصفات إن لاءمت الروح الألمانية أو لا؟ وهو لو أنعم النظر في آثارنا القديمة لأوحت إليه أن الأدب الإنجليزي هو أكثر ملاءمة لروحنا، وأننا نتوق إلى التأمل والتفكر أكثر مما يسمح به الأدب الفرنسي لنفسه، وإن الأدب الذي تتمثل فيه الروعة والعظمة والظلمة هو أكبر سلطاناً علينا من أدب الرقة واللوعة والحب، وإن البساطة في الأدب لتضنينا أكثر من حالاته المركبة

الهوشة . . . يجب عليك أيها المؤلف أن تخطط طريقاً يحملك الى المسرح الانجليزى . . . »

وقد كان انقلابه فجأة الى هذا الذهب وهذا الأدب موضع دهشة ، إذ تبادر الى أذهان بعض النقاد أن شكسبير وحده هو الذى أثر فى ليسنغ ، على أن الأسباب الحقيقية التى ساقته الى هذا الأدب كانت أعمق من ذلك . فليسنغ بعد أن درس حق الدرس أخلاق الشعب الألمانى وجد أن المأساة الحماسية هى التى تبسط تأثيرها فى النفوس . وأن المأساة المجردة ينبغى لها أن تهبط درجة الى عالم الحقيقة ، وأن الكوميديا قد تكون أدنى الى الحقيقة ، وهى التى تثير ما تثير من ضحك ومن بكاء .

وفى النهاية انغمس ليسنغ فى التأليف المسرحى . فكان فى أول أمره يترسم أقدام بين تأثر بهم من الأقدمين ، وهو خلال ذلك لا يترك الجهاد إلا استعداداً لجهاد آخر يفتقر الى عنف كثير وصبر كثير ، والغاية التى يتطلبها من وراء ذلك عظيمة ، لا تلين إلا لمثل هذا النوع من الجلاد ، فهو يريد أن يخلق أسلوباً جديداً وتفكيراً جديداً ، وما زال يدأب ويجهد حتى وفق الى سعيه بعض التوفيق ، وضرب لعصره مثلاً عالياً للرواية التى تمثل أحسن تمثيل صفات قومه وأخلاق قومه . وهو — وإن لم يبلغ برواياته القمة التى لا تلين خياشيمها إلا للعباقرة فقد كاد . . .

ثم طفق ليسنغ يكتب فى احدى خلواته مقاطيع من الكتاب الذى خلد اسمه على الدهر فى عالم النقـــد ، كتاب [اللاوكون[1]] الذى حشر فيه خلاصة نظراته فى التأليف المسرحى . وفيه عالج الشعر وعُنى بأسلوبه والوسائل التى ترمى الى إحيائه .

وما هو مذهب ليسنغ فى الشعر ؟

لقد كانت المدرسة الويسرانية تعتقد أن الشعر إن هو إلا تصوير صامت . والشاعر الألمـانى (ڤينجيلمن Winckelmann) كان يرد أصول الفن مها تنوعت فروعها إلى مثـل عال واحد تنضوى تحته . وهذا المثل هو العظمة المتجلية بالسكينة . . . وهذا المثل الأعلى مثله كالبحر العميق يبقى هادئاً مها تقاذفتـه قواذف الريح . وحاله حال تصاوير اليونان وفهى فى أحدى ثوراتها وأهوائها الجامحة تظل مالكة لعظمتها ولنفسها ، ومثل هذه الروح يمثلها تمثال (اللاوكون) بوجهه وأعضائه المتصلبة فى ساعة الألم العنيف . وقد لام هذا الشاعر الألمـانى شاعر إيطاليا الـكبير (ڤرجيل) لأنه وصف (اللاوكون) بصورة شـعرية تخالف فيها الصورة التى نحتها الحفار . إذ تركه فى مقطوعته الشعرية يصيح من الألم صيحات منكرة ، ولـكن ليسنغ يجابه فى كتابه نقد الشاعر الألمانى ، ويعتقد أن للشعر قواعده الخاصة ، وللنحت قواعده الخاصة ، ويرى أن فى استطاعة الفن الشعرى أن يمثل لنا الشىء وحتى يحدق به من جوانبه ، بينما أن الفن الثانى لا يمثل لنا من هذا الشىء إلا لحظة موقوتة هى كل شىء فى هذا الشىء . وبينما نرى الرسم يخضع للهيئة الجامدة التى يتلبس بها نرى الشعر حرا طليقا يحيا بحركته واضطرابه واختـلافه . وهكذا لبث هذا الـكتاب أثراً ناطقاً للرجل ، وقد ترك وراءه صدى بعيـداً وتأثيرا ترامى فى الأقطار . وهو كما قال فيه (جوته) شاعر الألمان « يجب أن تكون فتى أيها الرجل حتى تستطيع أن تتمثل ذلك التأثير الذى أدخله هذا الـكتاب فى أرواحنا » وكفى بهذه الـكلمات التى رددها جوته شهادة .

وهكذا أراد ليسنغ أن يبنى نقده على نظريات ثابتة لا يذهب بها الوهم . فاستمد قانون (أرسطو) يعمل به لتنظيف الأهواء . ومن هذا القانون قد استمد ليسنغ أكثر نظراته النقدية كأنما كان يحاول أن يقتل الحدة والجموح والطيش فى الأدب ويترك إلى العقل سبيلاً ينفذ منه ليبقى مالكا على الأهواء فى أعنف ثوراتها .

وقد شاء ليسنغ أن يغزو حقل الأخلاق دأبه فى كل حقل يغزوه ، فكتب مقطوعات فى الحـكمة دلت على سمو نفسه . فهو يعتقد أن قيمة الرجل ليست بالفضيلة التى يحرزها ، أو بالفضـيلة التى ظن أنه يحوزها ، ولـكن قيمته تنحصر فى الجهود التى يقوم بها فى سبيل إحرازها ، لأن المجـد لا يتوقف على صفة الاحراز ، ولـكن على العمل للفضيلة التى يـكثر به جنودها . ويعتز هو بانتصارها . ويقول أيضاً « إذا الله قبض على الفضيلة الـكاملة بيده اليمنى ووضع فى يده اليسرى التوق الخالد — توق القلب — الى الفضيلة . مازجا معه انخداع الانسان ، وقال لى : انتخب ، فانى إذ ذاك آخذ بيده اليسرى بكل تواضع وأقول . أعطنى يا إلـهى .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) Le laocoon هو كاهن عظيم خنقه وأبناءه صلان خرجا من الأمواج [أساطير اليونان]

العلوم

بحث في تاريخ الإنسان

بقلم نعيم علي راغب
دبلوم عال في الجغرافيا

إذا أردنا الكتابة أو البحث في تطور الانسان على ممر الدهور والأيام، فانما نعني في الحقيقة تاريخ الانسان، تاريخ حياته وجهاده، وكيف . . ومتى . . ومن أين أتى بشكله الطبيعي المألوف الذي نراه به اليوم، وكيف تكونت عنده القوى العقلية والقدرة على التكلم والتفاهم.

من الواضح الجلي أننا إذا حاولنا الكتابة في هذه الحادثات التاريخية القديمة، يجب علينا أن نوجه أبحاثنا وننظر بعيداً الى عصر قديم جداً من العصور، يقع قبل التواريخ المدونة في الكتب بمراحل كبيرة جداً. ونجد لزاماً علينا في هذه الحالة أن نقص عليك أطيب القصص عن عصر لم يوجد به رأى يفكر أو يد تسطر لنا ثمرات هذا التفكير.

ولقد خيل للعلماء أجمع استحالة تتبعهم وتفهمهم لما حدث في تلك الأحقاب السحيقة، ثم تسطير تلك الحوادث التي حدثت منذ آلاف السنين، لو لم تأت المصادفات ويساعد الحظ الحسن على كشف أستار الماضي الكثيفة. فانه في حوالي سنة ١٨٢٥ قامت بعثة أثرية دنمركية بالبحث عما قد يكون مندثراً في أراضي بلادها من أسلحة أو حلى أو آنية قديمة، ثم وضعت كل ما وجد في متحف كوبنهاجن.

وفي سنة ١٨٣٠ حينما ازدادت كمية المحفوظ به فكر مدير قسم الآثار س. ج. تومسون C. J. Thomsen في تقسيم المحفوظات الى أقسام ترتب حسب نوع المعدن المصنوعة منه. إلا أنه في ذلك الوقت أتته فكرة طارئة، كانت ذات أثر بين في سير التاريخ الانساني، وذلك أنه سائل نفسه عما إذا كان من المحتمل أن تكون تلك المحفوظات عنده في المتحف كل منها يمثل عصراً خاصاً من عصور الانسانية، وجاءت الحوادث بعد ذلك لتحقق صدق حدسه الذي خمنه، فقد وجدت أشياء أخرى بطريق المصادفة لفريق من عمال البناء عند حفرهم آبار منازل كلها من مرافق الانسان الذي عاش في العصور السالفة، وكان أقربها لسطح الأرض الحديدية والبرونزية فالحجرية.

فأخذ علماء الدنمرك حينذاك يعرفون أن الأرض نفسها سجل صامت ثابت يحفظ تاريخاً صحيحاً لأعمال وحياة الانسان في العصور السالفة، ووجدوا ذلك صحيحاً في كل جهة من جهات بلادهم: في المقابر القديمة، في الآبار وفي شواطىء الأنهار مما على عليهم التاريخ الصحيح للانسان القديم.

... لأن الفضيلة الكاملة التي وضعتها في يمينك لم تصنع إلا من أجلك» وقد ولدت عنده هذه الحكمة حكمة دينية أبداها في بعض مقاطيع صغيرة، حيث أبدى أن الوحي الآلهي ليس بواحد ولا بثابت ممتنع عن التغير، ولكنه يتنوع ويتقلب ويتقدم كالانسانية نفسها. وقد أدرك ليسنغ الذروة العالية في روايته (الحكيم ناتان) اذ أعلن أن الحكيم الحقيقي هو الذي يتروض على الفضيلة ويخضع لأحكام العناية الالهية الخالدة.

لقد فهم رجال الأدب بعض جوانب هذا الرجل العظيم، ولن تظهر عظمته واضحة إلا بعد أن يرجعوا الى البذور الفنية التي نثرها في طريقه، وهل كان (جوته) و(هيردار) إلا أول فنن من هذه الشجرة، أورق وأزهر وأثمر، ثم أتى أكله فكان نعم الأكل (١)

بيروت — خليل هنداوي

(١) آثرنا أن ننقل صفحة معربة من كتاب (اللاوكون) وفيها تحليل دقيق لبعض الصور الفنية التي كان لها تأثيرها البليغ في تحوير الفن وإبداع صوره الجديدة في العهد القديم، وفيها يطلع القارىء على نحو نظر هذا الناقد.

من كل تلك الأشياء وصل تومسن Thomsen إلى نتيجة نهائية ، هي أن تاريخ الانسان القديم مقسم الى ثلاثة عصور : الحجرى والبرونزى فالحديدى . وبذا كانت الدنمرك أحدث الجهات في التكوين جيولوجيا ، هي أول مكان بحث التاريخ السحيق للانسان على هذا النمط العلمي الجديد .

حول العلماء الفرنسيون بعد ذلك طريق كتابتهم لتاريخ الانسان وجاروا الدنمركيين في طريقتهم ، ووجدوا مادة بحثهم الجديد في كهوف مقاطعة Dordogne وبدأ ادوارد لاريت F. Larett ومعاونوه البحث فيها حوالى عام ١٨٦٠ فوجد أن معظمها كان مستعملاً قبل ذلك كمساكن أو مقابر في كل عصور التاريخ القديم ، وكان من عدم اعتناء السكان الأقدمين بالنظافة وترك كهوفهم مملوءة بالبقايا والأدوات حظ حسن للتاريخ ، وكان من تساقط المياه اللجية من سقوف الكهوف خير معوان وخير عامل على حفظ تلك البقايا الانسانية بعيدة عن الضياع أو التلف ، وارتفع قاع الكهوف بالعوامل الطبيعية والجيولوجية ، فحفظت الأرض بين ثناياها على ارتفاع ينيف على الثلاثين قدماً آثاراً عظيمة الشأن للحياة الانسانية من مدة طويلة من الزمن .

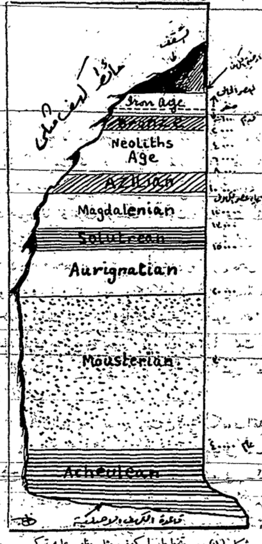
ولم يطل الزمن بعد ذلك حتى عرف الفرنسيون أن كهوف بلادهم تحفظ تاريخ الانسان لمدة أقدم بكثير مما تحفظه مقابر اسكنديناوه أو قدماء المصريين . ولم تكن العصور الانسانية الثلاثة المعروفة لهم سوى عصور حديثة جداً إذا ما قيست بما تنم عليه آثار كهوف فرنسا ، ومن بينها الهياكل العظيمة المتحجرة للحيوانات التي كانت تعيش في تلك العصور ، كغزال الرنة ، والضبع ودب الكهوف . ولقد قسم اللورد ايفبرى Lord Avebury العصر الحجرى إلى قسمين : أسمى أحدهما العصر الحجرى الحديث Neoliths القريب من العصر البرنزى وهو ما وجدت آثاره في الدنمرك ، وأسمى الآخر العصر الحجرى القديم Palaeoliths .

وكلما ازداد الفرنسيون تعمقاً في حفرياتهم ازدادوا يقيناً بصحة ترتيب تلك العصور المختلفة وبتغيرات عديدة قد حدثت للمناخ وقتذاك ، وعرفوا أنه لم يكن هناك عصر حجرى قديم واحد كما ظن السير ايفبرى بل جملة عصور متتابعة متناهية في القدم يمتاز كل عصر منها بميزات مختلفة ، أمكن انتزاعها من الآثار التي وجدوها . وزاد يقينهم في هذه النظرية تكرار وتماثل ترتيب الطبقات في كل الكهوف التي بحثوها . وقد وجد علماء الانجليز والألمان والطليان والاسبان بدورهم نفس الظواهر والترتيب الذي وجد في كهوف فرنسا

وهكذا نرى أن الكهوف قد أمدتنا بالمعلومات والحقائق الخاصة بتاريخ الانسان القديم ، وأمكننا تسطير تاريخ دقيق لا عن المدة التي كشفت عنها حفائر الدنمرك فقط ، بل عن مدة تتناهى في القدم عن تاريخ قدماء المصريين أو تاريخ بابل القديم . وإنك لتدهش حقاً إذ تعرف أن تلك الحفريات قد كشفت لنا عن ظاهرة ليست غريبة عن عصرنا ، وهي مسألة الزى ، أو « المودة » fashion فقد ثبت منها أن مجرد وضع زى خاص للبس أو زينة في بلد في تلك العصور كان كافياً لانتشاره في العالم القديم أجمع ، ولذلك ترى أن أجدادك وأجدادنا الأقدمين كانوا مثلنا عبيداً للزى المتفشى في العصر . ولو أن زيهم كان أثبت قدماً وأطول بقاء من زينا الذى يتغير سريعاً بتغير الفصول والمناسبات

لنر الآن إلى أى حد تعمق البحث في تاريخ الكهوف القديم . من الشكل رقم «١» يرى القارئ قطاعاً رأسياً في كهف مثلى كانت فيه الطبقات والعصور التي وصل العلماء إلى الكشف عنها . ومنه يمكنه أن يلاحظ أن العصور الثلاثة المعروفة (الحديدى والبرونزى والحجرى) تقع في أحدث جهات الكهف كشفاً ، ومن بعدها عصر سماه العلماء Azilian (لأن الحفريات التي دلت على وجوده عملت بالقرب من قرية Mas d, Azile في فرنسا) يجيء بعده عصر سموه Magdalenian (نسبة إلى كهف La Madeleine في مقاطعة الدردون) يتبعه عصر سمى Solturean (نسبة إلى جهة Solutré بالقرب من ماسون بفرنسا) فعصر أطلق عليه إسم Aurignacian (نسبة إلى قرية Aurignac في أعلى الجارون) وآخر هذه العصور عصر أطلق عليه إسم Mousterian نسبة إلى الكهف Le Maustier في مقاطعة داردونى Dardogne.

وليس هناك أدنى شك في صحة ترتيب العصور السالفة الذكر ، لأن الابحاث التي قام بها العلماء بعد ذلك لم تكشف لنا إلا عن تتابع صورة طبق الأصل لما قد بيناه في هذا المقال . إلا أننا نقف لحظة



شكل (١) رسم تخطيطي لكهف مثلي يظهر عليه تركيب وتتابع الطبقات الجيولوجية

ونسائل أنفسنا ما هي فترة كل عصر من تلك العصور ؟ ومتى بدأ كل عصر منها ؟ . . ومتى انتهى كل منها ؟ .

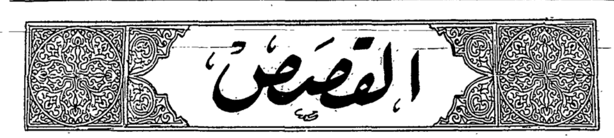
إن السنين المذكورة في شكلنا رقم « ١ » ما هي إلا عدد تقديري تقريبي غير ثابت تمام الثبوت ، وربما كشف لنا العلماء حديثا ما يدفعنا إلى تغيير في هاته الأرقام . لكننا مع ذلك نعلم أن فترة الكهوف قد انتهت بانتهاء عصر الجليد . ولقد استطاع علماء السويد وعلى الأخص البارون دي جير Baron de Geer أن يضعوا لنا تقديرا معقولا انتزعوه من آثار عصر الجليد وعرفنا منهم أن عصر الجليد قد بدأ في السويد من مدة ١٢٠٠٠ سنة مضت تقريبا . ونحن إذا قدرنا أن حياة الانسان في الكهوف قد انتهت من مدة ١٠٠٠٠ سنة أو ٨٠٠٠ قبل الميلاد لأمكننا أن نقرر لأقدم عصر من عصور الكهوف تقديرا غير مبالغ فيه وهو ٤٢٠٠٠ سنة

ولكي تعلم أيها القارئ أن أقدم عصر من عصور الكهوف هو أهم عصر في هذه العصور جميعا ، يكفي أن نخبرك أنه بين طبقات الأرض في هذا العصر قد وجدت بقايا عظام متحجرة لعنصر من عناصر المخلوقات يختلف اختلافا عظيما جدا يبعده عن الصورة التي كان عليها أقدم الأجناس البشرية المعروفة . هذا النوع أو الجنس يعرف باسم انسان النيادرتال Neanderthal Man ويمتاز هذا النوع بفرطحة الجمجمة وبروز عظام محاجر العين . كان رجاله ونساؤه ذوي قامات محدودبة يعتمدون كما تعتمد القردة على أيديهم في المشي .

وقد بدأ هذا النوع من أنواع الانسان القديم يظهر واضحا جليا بآثاره ومخلفاته في أواخر أقدم عصر من العصور التي ذكرناها مستريان Mousterian

ومن الآثار والمخلفات التي وجدت في الكهوف القديمة في جميع أنحاء العالم أمكن تتبع حياة الانسان لمدة تنيف عن ٤٠٠٠٠ سنة في وقت كانت فيه أوروبا مسكونة بعنصر من العناصر الانسانية يختلف اختلافا بينا عن العنصر الذي نحن منه . عنصر أطلقنا عليه كاسلف Homo Neanderthalensis . وثبت أن أوروبا كان يسكنها في العصر القديم الذي أطلقنا عليه اسم Mousterian عنصر من الانسان النياندرتال .

وبرغم أن الانسان الذي وجدت آثاره كان فطريا أقرب في حياته إلى الحيوانية فانه كان رجلا أو إنسانا بكل ما في جسمه من صفات وما في عقله من خواص وتفكير . وما دمنا نرمي إلى الوصول لفجر الانسانية ومعرفة تاريخ النشأة البشرية فانه يجب علينا أن نتخذ لنا طريقا آخر يساعدنا على تفهم ما نريد ومعرفة ما نرمي إليه . هذا الطريق هو البحث في الأنهار والمجاري المائية . وإن البحث والتنقيب اللذين قام الناس بهما فيها دلا على أن هناك آثارا ومخلفات قديمة تحفظها الأنهار والمجاري في قاعها وشواطئها ومدرجاتها ، وكأنها تقدر مجهود الانسان لحفظ كيانه ، فعملت على حفظ آثاره وتخليد ذكره تنويها منها بعظمته وقوته . ولنا في مدرجات نهر التيمس أكبر دليل على



من الأدب التركي

المعلمة الصـــغيرة . .

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

ركبت عربة الترام ولم يكن فيها غير السائق الذي كان مغمضاً عينيه يستريح قليلاً من عناء أربع عشرة ساعة ، أما بائع التذاكر فكان جالساً في المكان المعد للسيدات يقرأ جريدته على ذلك الضوء الشاحب الهزيل الذي كان ينفذ من زجاج ذلك المصباح الأغبر ، وليس يعلم إلا الله كم مرة أخرجها من جيبه وأعادها اليه . وكأن دخولي الى تلك العربة وهي آخر العربات في ذلك الوقت من تلك الليلة الشاتية نفخ فيها حياة بعد أن كاد يقتلها الأعياء ، فقد أفاق السائق من نومه وفتح عينيه المغمضتين ، وأبعد بائع التذاكر الصحيفة عن وجهه وصعد بصره فيَّ كأنه يقول : وهل بقي من راكب بعد أن مضى الهزيع الأول من هذا الليل المطر ؟ . ثم قام الأثنان ونظرا الى الخارج كأنهما يريدان أن يريا المطر الذي كان يسفع زجاج العربة بشدة ، وعادا في الحال كل الى مكانه لأن وقت الحركة لم يحن بعد ، فأغمض السائق عينيه ، ورفع بائع التذاكر جريدته الى وجهه وأخذ يقرأ .

جلست وفي نفسي أن انتظاري سيطول ، لقد كان منظر العربة مؤلماً جداً ، كانت أطرافها ملوثة بالطين ، وكان زجاجها مستوراً بطبقة من مياه الأمطار التي كانت تسيل عليها ، وكان نورها ضئيلاً ، وهي واقفة تحت سيل الأمطار الذي لم ينقطع منذ ساعات وقفة حزن وملل تنتظر الوقت لتسير . كم كان مؤلماً منظر الخيل(١) وهي تنتظر بفارغ الصبر العودة في تلك الساعة الى اصطبلها الدافئ ، ومنظر السائق الذي هدّ التعب جسمه وغلبه النعاس فلا يكاد يرفع رأسه ، ومنظر بائع التذاكر الذي كان يود النزوح ولو بخياله عن خط الترام الذي هو كل ماتراه عينه في كل يوم منـذ الصباح حتى المساء ، فهو يتلهى بالنظر الى جريدته كلما سنحت له الفرصة . .

كنت وأنا أنظر الى المياه التي كانت تسح من مظلتي التي ابتلت من المطر الغزير فتؤلف دوائر ، أقول في نفسي : « إن هذه العربة التي كادت قطعها تنفصل عن بعضها لكثرة ما حملت من الناس لأراحتهم ، وهذين الحيوانين اللذين أكل عليهما الدهر وشرب ، وهذين الرجلين البائسين ، وهذا الخط الحديدي الذي يفسح لنفسه الطريق بين الأوحال من « الجسر » حتى « جنبرلي طاش » . كل هؤلاء مكلفون في هذا الليل المدلهم بحملي وحدي بأجرة لاتزيد على قرش واحد » .

دق الجرس فجأة ففتح السائق عينيه ونهض يتمطى ، ونظر

(١) كانت عربات الترام في الزمن القديم تسير بالخيل لابقوة الكهرباء كما هي الآن

ذلك . ولقد ساعدت عملية الردم والتكوين التي تقوم بها الأنهار بما تحمله من غرين وغيره أثناء طريقها على حفظ آثار الانسانية ، حتى جاء بورشيه دي بيرث B. De Perthes فوجد في بلدة أبفيل Abebville صخورا نادرة (كان الناس وقتذاك يعتقدون أنها من مخلفات الصواعق) اعتقد أنها من عمل الانسان ووجد بها أثرا من فن الانسان ، واعتقد أن الانسان قد استعملها قديما كـ(بلطات) يقطع بها الاشجار وغيرها ، أو يدافع بها عن نفسه وقت الخطر . كذلك وجد في نفس الجهة عظاما متحجرة لحيوانات قديمة منقرضة ، وهنا نظر اليه الناس كنظرتهم الى من بعقله مس من الشيطان ، لأن العظام التي كشف عنها ترجع الى عصر Pre Deluvian وهو عصر اعتقدوا أن الانسان لم يوجد فيه . فكيف بهذا الرجل يقول إن الصخور التي وجدها من قطع وتشكيل من لم يكن قد وُجد بعد ؟ . .

(يتبع) نعيم علي راغب

الى ما حوله جدران كأنه يبحث عن وجود عمل يجب القيام به في ذلك الوقت من الليل لاتمام عمل النهار . ففرك يديه وسار . فتح الباب فهجمت منه موجة هوائية باردة ، ثم خرج وأغلقه خلفه ، وبقي وحده معرضاً لموجات الهواء التي كانت تلطم عربة الترام .

انتفضت تلك العربة الكبيرة الثقيلة وتمطت واهتزت كأنها هي أيضاً كانت نائمة ، وتحركت بحركة مزعجة ، وأرسلت أصواتاً كأنها شكوى عميقة يثيرها اضطراب دائم ، ثم سارت وهي تحمل مع اضطراب ألواحها الزجاجية جسمين مضطربين وهما بائع التذاكر وزبونها الوحيد .

تقدم بائع التذاكر من الراكب الوحيد وسلمه تذكرته واستلم نقوده من غير أن ينبس ببنت شفة ، ثم عاد بائع التذاكر الى جريدته يقرؤها ، وعاد الراكب الى ما اجتمع تحت مظلته من الماء ينظر اليها .

في تلك الأثناء كثر اهتزاز العربة ، وأخرجت أصواتاً مزعجة كأن أسنان تلك العربة ، ذلك المخلوق البطيء ، تعض الخط الحديدي بشدة ، مظهرة ألمها واستياءها ، ووصلنا الى « سوركه جي » فلم ير بائع التذاكر حاجة الى وقوف العربة ، وهي آخر العربات حركة ، لوثوقه أنه لا يوجد راكب في مثل هذا الظلام البهيم ، فصفر مثلناً الحركة ، ولكن السائق صاح قائلا :

— راكب !

وقفت العربة فقلت في نفسي « شيء مؤلم ! كم كنت مستريحاً وحدي ! » ثم فتح الباب فما كدت أبصر الداخل حتى تغير رأيي ، فقد كان الراكب الجديد فتاة شابة قد ابتلت ثيابها من المطر لأنه كان ينزل عليها فلا ترده عنها مظلتها الصغيرة ، كانت صفراء الوجه من البرد ، وكانت شفتاها متقلصتين وأسنانها مصطكة ، وعليها ثوب أبيض فوقه معطف بني اللون لا يشك الناظر اليه في أن ذلك الشتاء لم يكن أول شتاء مر عليه . جلست بهذه الهيئة الفقيرة المؤلمة في الجهة المقابلة لي ، وفي الحال مدت يدها الجامدة من البرد في قفازها الذي امتدت منه أطراف أصابعها والمخيط بأسلاك بيضاء ، الى جيب معطفها لتخرج منه حقيبة النقود ، وأخرجت منديلا أبيض ثم حقيبة تقادم عهدها وحال لونها لكثرة الاستعمال وتمزقت جوانبها ، فأخذت تعالجها لتفتحها فلم تقدر كأن قفلها قد تعطل . تعالجها السكينة كثيراً ، والحقيبة مصرة على ألا تنفتح ، وبائع التذاكر واقف أمامها يهتز ذات اليمين وذات الشمال من حركة الترام وجريدته تحت إبطه ، ينتظر النقود منها ، لقد مللت النظر إلى الماء المتجمع أمامي من المظلة فرفعت رأسي وأخذت أنظر اليها نظري إلى شيء جديد ، كانت هي على ما يظهر من حالها متألمة من عدم تمكنها من فتح الحقيبة بسرعة لأنها كانت تعالجها كمن تود كسرها ، وأخيراً فتحت الحقيبة فأدخلت أصبعيها فيها وأخذت تطوف بهما في جوانبها على ضوء العربة الضئيل .

لقد شعرت وأنا في مكاني أن الحقيبة لا تحوي أشياء كثيرة يحتاج المرء معها إلى كثرة البحث والتنقيب ، أدخلت يدها وهي

في القفاز الممزق حتى غابت في الحقيبة وأخذت تبحث عن شيء صغير مختبئ هناك .

بعد بحث طويل لمع بين أصبعيها شيء صغير وهي تخرجه من الحقيبة فناولته الى بائع التذاكر الذي لم يشأ أن يقطع لها التذكرة قبل أن يستلم النقود . . . . فتنفست الصعداء كأنها خرجت من مهمة صعبة وتمكنت من مقعدها كل التمكن . ثم رفعت عينيها اللتين لم أستطع أن أعرف لونهما تماماً .

لقد كانت تارة تنظر والعربة سائرة إلى قطع الجلود المتدلية من المسامير التي في سقف العربة ، وآونة إلى المطر الذي يسح من زاوية العربة ، ثم الى ما فوق رأسها لتعلم أين مكانها منه ، وطوراً تقارب بين جفنيها وتتأمل في ضوء المصباح الضئيل ، إلا أنها ضجرت من كل هذه الاشياء وسئمتها ، فمسحت بظهر يدها زجاج العربة المبتل ونظرت الى الشارع ، لترى أقرب مكان نزولها أم لايزال بعيداً ؟ إلا أنها لم تر غير أشعة المصابيح الضئيلة التي تشع من الحوانيت القليلة في هذه الليلة الباردة ، فترقص أشعتها فوق الطين المتراكم في الشوارع .

وأخيراً نظرت الي نظرة بجلي كأنني آخر ما يمكن أن يعرض على نظرها من الأشياء التي حولها ، ولكنها وجدتني كبقية الاشياء التي استعرضتها أمام ناظريها ولم تجد فيها مايوجب العناية ، فأعرضت عني واستندت على مسند المقعد ، ومدت رجليها وفيهما حذاءان عتيقان قد قطع زر أحدهما وتمزقت عروة الثاني ولكنهما كانا جميلين ، ووضعت إحدى رجليها على الأخرى ، ثم أصلحت قبعتها وأسندت رأسها إلى ما خلفها وأخذت تنتظر .

هل كانت جميلة ؟ لا أدري ! ولكنها مع ذلك كانت مركبة من أعضاء صغيرة ، حتى ليخيل للناظر إليها أن رجلاً من المولعين بالأشياء الدقيقة قد صاغها هذه الصياغة وركبها هذا التركيب ، فهي مليحة بعينيها الصغيرتين ، وفمها الرقيق ، وأنفها الدقيق ، ووجهها المخروط ، ولم يكن في ذلك الجسم المركب من تلك الأعضاء الصغيرة طويل غير قامتها ، فقد كان طولها لا يتفق وصغر أعضائها ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من الملاحة .

لقد كنت أشعر بشيء غريب لوجودي في تلك الليلة الشاتية في تلك العربة بجانب تلك الفتاة منفردين ، كنت أشعر بلذة جامدة كالتي يتوهم الانسان عند قراءة شعر لا يفهم معناه .

وفي تلك الأثناء رفعت رأسها بسرعة ومسحت زجاج النافذة ونظرت طويلاً نظرة تدل على ضجرها من التأخر . وكنا في ذلك الوقت نسير في محلة (جيفته حاووضلر) وكنت أقول في نفسي « أين تذهب هذه الفتاة في مثل هذا الوقت في مثل هذه الحالة الجوية ؟ » ثم ارتدت مسرعة عن النافذة ، وانحنت قليلاً كأنها تريد أن تكلم بائع التذاكر الذي كان مغطياً وجهه بجريدته يغالب النوم ويغالبه ، ولكنها لم تجرؤ أن تكلمه فنظرت إلي نظرة تدل دلالة واضحة على أنها تريد أن تسألني عن شيء ، فنظرت إليها نظرة أسألها فيها عما تريد ، إلا أنها بصورة من الصور لم تجد قدرة على الكلام فسكتت ، ونهضت على رجليها ونظرت ثانية من النافذة ، وفي هذه المرة ارتدت مصفرة فقلت لها :

— كأنك تريدين أن تسألي عن شيء أيتها الآنسة ؟

فقالت بصوت رقيق يشبه جسمها الصغير بلهجة تدل على الحشمة والوقار :

— عفواً ياسيدي ، فهل « الجسر » بعيد عنا ؟

فقلت :

الجسر ؟ أنت مخطئة أيتها الآنسة ، إن هذه العربة تسير بنا إلى « آق سراي »

فنظرت إلى وجهي نظرة جامدة كأنها لم تفهم شيئاً ، وبعد أن وقفت مدة على هذه الصورة لا تجد في نفسها قوة على الاستيضاح قالت :

— إذن نحن الآن لا نسير نحو « الجسر » ؟

لفظت جملتها هذه بصورة تدل على فزع شديد علمت منه أنها ارتكبت خطأ ، فداخلتني عليها شفقة وقلت :

— أنا آسف جداً يا آنسة ، أنت تريدين الذهاب إلى « الجسر » إلا أنك ركبت عربة تسير عنه لا إليه ، وقد أوقعك في هذا الخطأ ظلام الليل ودهشة المطر .

كانت تسمع كلامي والبكاء يكاد يغلبها على عينيها وتقول بصوت مسموع : لقد تأخرت كثيراً . ثم قالت بصوت يخالطه شيء من الأمل :

— إذن سأعود أدراجي من أول موقف .

لقد وصلنا إلى موقف « صالقم سكود » فقلت لها :

— إنك مضطرة إلى الرجوع راجلة ، فهذه آخر عربة ولا أظن أنك تجدين عربة في هذا المطر .

فلما سمعت ذلك اضطربت اضطراباً عظيماً ، وفي ذلك الوقت استيقظ بائع التذاكر واقترب منا يشاركنا في الحديث ، ثم قال مبرئاً نفسه من التبعة :

— لماذا لم تذكري لنا المحل الذي تريدين أن تذهبي اليه ؟ .

فلم تجد تلك المسكينة حاجة الى الجواب ، فنظرت الىّ نظرة خائرة تطلب بها المدد والمعونة ، وقالت :

— لطفاً يا إلهي ، في مثل هذه الساعة ، في هذا المطر ، وفي مثل هذه الأزقة المظلمة الخالية كيف أستطيع السير وحدي ؟ .

لم أجد حاجة لاتخاذ قرار بعد ذلك في هذا الشأن ، فقلت لها :

— أيتها الآنسة ، هل لك أن تقبلي مرافقتي حتى الجسر ؟.

فنظرت الىّ دهشة وصاحت :

كيف ذلك ياسيدي ؟ كيف تعود لأجلي في هذا الهواء ؟ وكيف أستطيع أن أقبل هذه التضحية ؟ .

على أنه لم يكن أحسن من هذا الحل ، لأن السائق كان بفارغ الصبر ينتظر الحركة ، وبائع التذاكر ينتظر أن نعطي نتيجة حاسمة فقلت لها مصراً :

— أنت لا تقدرين على العودة منفردة في مثل هذا الوقت ، ومن مثل هذا المكان ، مع أني أتمكن من أن أركب عربة وأعود من الجسر ، وذلك يسير عليّ .

فنظرت الىّ عند ذلك نظرة فاحصة ، وبتلك النظرة علمت صفاء نيتي وصدق عزمي فأظهرت الاطمئنان وقبلت مرافقتي قائلة :

— سمعاً وطاعة ياسيدي ، لقد أظهرت إنسانية نبيلة وعطفاً كريماً ، وأنا أقبلها مع الشكر .

فتح بائع التذاكر الباب ليشرح للسائق القصة ، ونزلنا نحن من الباب الثاني ، وتحركت العربة في الظلام كأنها خيال ذو عينين صفراوين ؛ كان المطر إذ ذاك رذاذاً إلا أنه كان متوالياً ، ففتحت الفتاة مظلتها ، فلما تأملتها وجدتها ممزقة الأطراف ، وفتحت أنا أيضاً مظلتي وأخذنا نمشي متكاتفين بقدر ما تسمح لنا المظلتان . كانت في ذلك الظلام الدامس في تلك الشوارع الخالية تشعر أنها محتاجة الى الاقتراب مني بدافع غريب مجهول المصدر يدفعها الى ذلك ، وكنت أنا أشعر بلذة منشؤها حمايتي لفتاة في مثل هذا الوقت . على تلك الحال كنا نمشي صامتين لا نتكلم ، وكانت توسع خطاها لئلا تضطرني الى المشي البطيء .

كنت وأنا في الترام في شك من جمال هذه الفتاة ذات القامة الهيفاء ، ولكنها الآن في الظلام كانت تتراءى لي جميلة .

إن هذه المصادفة غريبة جداً ، وأظن أن تلك الفتاة التي رأيتها لأول مرة في حياتي وبسطت عليها ظل حمايتي لو كانت غير جميلة لكانت اللذة التي أشعر بها الآن ناقصة ، كنت أقول وأنا سائر بجانبها : يا لجمال عينيها الصغيرتين .

(البقية في العدد القادم) نزيلة بعلبك (فتاة الفرات)

الكتب

تاريخ العالم القديم

تأليف الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

للأستاذ المؤلف شغف عظيم بالتاريخ القديم ، فهو ما ينفك يقلب صفحاته ، ويطيل النظر في أدق موضوعاته ، حتى صار لهذا العلم المحل الأول من اهتمامه في درسه وفي أوقات فراغه ، ولقد قام بتدريسه سنين متوالية في المعاهد الدينية ، وعرف ما يوافق طباع الطلاب منه ، ووقف على الأسباب التي تحبب إليهم موضوعاته ، أو التي تنفرهم منها ، وكانت ثمرة هذه الخبرة هذا الكتاب الذي أحدثك عنه ، وهو في طبعته الرابعة هذه على خير ما تصدر به الكتب دقة طبع وسلامة ذوق .

أما عن موضوعه فهو وفق المنهج الأخير لوزارة المعارف والمعاهد الدينية ، يشمل تاريخ قدماء المصريين والأغريق والرومان على أن أهم ما في الكتاب هو تلك الطريقة الفريدة التي اتبعها الأستاذ في كتابة التاريخ ، فلقد نبذ تلك الطرق التي تقتصر على سرد المعلومات الجافة يقصد بها استيفاء المنهج المقرر ، ونفذ بخبرته إلى صميم الموضوع ، فاهتم بالحياة الاجتماعية ومظاهرها في تلك العصور القديمة ، إلى جانب اهتمامه بتفاصيل المنهج ، كل ذلك في عبارة طلية متينة ، مما جعل كتابه جم الفائدة ، خفيف المحمل ، أضف إلى ذلك ما يحتوى عليه ذلك الكتاب الفذ من الصور والخرائط ، وكلها موضوع لغرض إيضاحي في تدبير حصيف وترتيب محكم مما لا نجد مثيلاً له في غيره من الكتب ، ولا شك عندى أن هذه خير طريقة تحبب إلى الطلاب دراسة التاريخ والاستزادة منه .

ولئن كان أثر المؤلف مرآة نفسه ، فإن كتاب الأستاذ السرنجاوى خير شاهد على ذلك ، فانك تلمس فيه هدوء طبعه ، وقوة منطقه وعذوبة روحه وسلامة ذوقه ، وإنى لأتقدم إلى الأستاذ بالثناء على ما بذل من جهد ، وبصادق التهنئة على ما صادف عمله من نجاح ما .

الخفيف

الرائد

في تاريخ الأدب العربى ونصوصه ومتن اللغة

هذا كتاب جديد في تاريخ الأدب العربى أخرجه في هذه الأيام صديقاى الفاضلان الأستاذ عبده زيادة عبده المدرس بمدرسة الخديو اسماعيل الثانوية الملكية ، والأستاذ محمد السيد عامر المدرس بمدرسة بنبا قادن الثانوية الملكية ، وهو يتألف من جزأين أولهما في منهاج تاريخ الأدب الأخير للسنة الثالثة بالمدارس الثانوية ومدارس المعلمين والمعلمات ، وثانيهما في منهاج تاريخ الأدب الأخير للسنة الرابعة بالمدارس الثانوية .

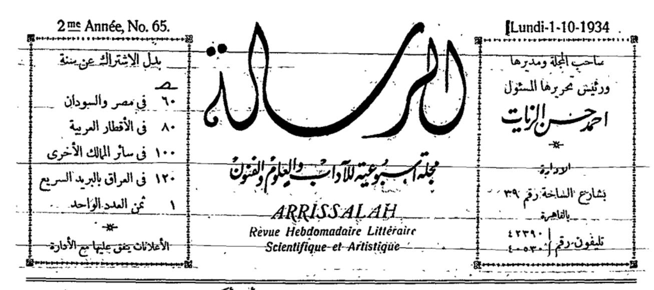
وقد ألف في منهاج الأدب للسنتين الثانويتين كتب غير كتاب الأستاذين ، ولكنه جاء آخرها فتداركا بمافاتها وامتاز عليها بأمور كثيرة ، وقد قال الأستاذان في ذلك : « ولسنا ننكر أن للكتاب أنداداً ، غير أن بعضها على قيمته جاوز المنهج الجديد فعاد كتاباً للمتأدبين ، لا لطلاب يتقدمون الى الامتحان في موضوع بعينه ، وبعضها جاء مقصوراً على فن واحد من فنون كتابنا هذا ، وبعضها علا أسلوبه ودقت اشاراته على الناشئين حتى مايستطيعون في غير عناء أن يدركوا مايريد .

وقد عنينا في هذا الكتاب أن يعالج مسائل الأدب بذكر المقدمات في شيء من البسط ليخلصا الى مسائله واضحة معقولة ، وأن يحللا نصوصه الأدبية من جميع نواحيها لغة ومعنى وإعراباً وبلاغة إلا أن يتركا لقدر التلاميذ بعض الأبيات والجمل ليحاولوا شرحها على مثال ما فعلا ولا يهملوا مداركهم فتنشأ لاتبنى إلا على مثال » .

وقد سار الأستاذان على هذه الخطة القويمة التى خطاها لأنفسهما في كتابهما بما نعهده فيهما من علم واسع وإنشاء مهذب وترتيب محكم ، فيسرا لطلاب هاتين السنتين منهاجيهما الأدبى تيسيراً ، وأصبحت طلبتهم منهما فيه سهلة المنال دانية القطوف ، فنحمد للأستاذين مابذلا من جهد نقدره لهما ، ونترك من أجله بعض أمور نخالفهما فيها وقد تابعا فيها غيرنا ، ولكل وجهة هو موليها .

عبد المتعال الصعيدى

2me Année, No. 65. | Lundi-1-10-1934



بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٠٥٣

العـــدد ٦٥ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

الأزمة والغـــلاء!

مضت أربعة أعوام ، وريح الأزمة الأقتصادية العالمية تهب على مصر بقوة ، تضاعفها وتذكيها الظروف المحلية ، وملايين الزرّاع والفلاحين يرون جهودهم وآمالهم تذهب هباء ، ومحاصيلهم تباع بأبخس الأثمان ، والدين يرهقهم ، والحاجة تنذرهم بشر العواقب ، وباقي الطبقات تشاطرهم هذا البؤس الأقتصادي . ولما كانت الحياة الأقتصادية كلها متصلة النواحي ، وكان الأنتاج والاستهلاك مرتبطين أشد الارتباط ، فقد اضطر الناس الى الاقتصاد بحكم الضرورة والنزول على أحكام الأزمة ؛ وكان في هبوط نفقات العيش بعض التنفس ، ولا سيما للطبقات الفقيرة ، ولكن الضيق لبث مع ذلك يرهق كل الطبقات .

وإذا كانت الأزمات الاقتصادية محناً شعبية عامة تعانيها جميع الطبقات ، فانها تغدو في كثير من الأحيان ميداناً لنشاط بعض المستغلين الذين لا ذمة لهم ، والذين لا تزدهر روائهم إلا في أيام المحنة والضيق . وكذلك وقع خلال الأزمة الأخيرة ، فقد ظهر المستغلون في الميدان ، فظهر الغلاء المصطنع في حاجات

العيش الضرورية ، وهي التي تشترى من الزارع والفلاح بأبخس الأثمان ، وصرخ الناس غير مرة ، ولكن ماذا يجدى الصراخ والحكومة لا تعنى بأمر المستغلين والمضاربين ؟

واشتدت وطأة الغلاء منذ أسابيع ، وظهرت بنوع خاص في أثمان الخبز — قوت الشعب — واللحم والزبد وغيرها من ضرورات العيش ، وضج الناس ولا سيما الطبقات الفقيرة من هذا العنت الذي لا تبرره ظروف الأزمة ، ولا يتناسب مع نتائجها ، واتجهوا ببصرهم الى الحكومة لكي تتدخل لحمايتهم وإنقاذهم من شره المضاربين والمستغلين ، خصوصاً وأن هذا الارتفاع الطارىء في أثمان الحبوب ، وهو الذي ترتبت عليه هذه الموجة من الغلاء ، لم يرتفع إلا بعد أن خرج معظم المحصول من يد المزارع والفلاح ، فلن يفيد منه سوى القليل .

فماذا فعلت الحكومة ؟ قررت أن تشترى ربع مليون أردب من القمح الأسترالي لتستدرك — على ما صرح به رئيس الوزارة — النقص في المحصول المحلي ، ولتنذر بذلك المضاربين والمستغلين بأنها سوف تضرب على يدهم إذا لم يقفوا عند حد الاعتدال .

ومن حق الشعب أن يتطلع في مثل هذا المأزق الى حكومته ، والحكومات في جميع الأمم المتمدينة تضطلع بمهمة محاربة الغلاء المصطنع أو الحقيقي ، وتسن لذلك القوانين الرادعة إذا اقتضى الأمر ، وكثير من الحكومات والبلديات يتولى الاشراف على تموين الشعب ، فيحدد وزن الخبز ونوعه وأثمانه ، ويتخذ غير ذلك من الاجراءات الكفيلة بالضرب على أيدي المحتكرين والمستغلين ؛ وإذاً فليس علينا لوم إذا نحن تطلعنا الى الحكومة لتتخذ ما يجب من الوسائل لحماية المستهلكين ومكافحة الغلاء ، ولحفظ التوازن المعقول بين ما يجنيه الزارع من محصوله ، وما يقتضيه التاجر من المستهلك ثمناً لوساطته . وليس من وسائل الحماية الناجعة أن تستورد الحكومة مقداراً محدوداً من القمح الأجنبي على نحو ما قررت ، ولكن الوسيلة الأولى هي أن تخفض الرسوم الجمركية على الحبوب الأجنبية ، وهي التي رفعت في وقت كانت فيه وفرة المحصول المحلي تبعث إلى هبوط الأثمان هبوطاً شديداً .

لتتخذ الحكومة هذه الخطوة وغيرها مما تراه ضروريا لدرء كارثة جديدة تنذر ملايين الفقراء بالجوع ، ولا يستفيد منها سوى قلة من المحتكرين والوسطاء ، على أن هنالك عاملا آخر لم يتوفر لدينا بعد ، ذلك هو المقاومة الشعبية ، فمن الواجب أن نعود أنفسنا هذه المقاومة التي لابد منها في مثل هذه الظروف . ولو أن الجمهور يعنى بالحرص على حقوقه الشعبية ، لكانت المقاومة الفردية والشعبية في مثل هذه الأحوال خير وسيلة للحماية . ولو عنى كل فرد بأن يقتصد حيثما وجب الاقتصاد ، وأن يحرم نفسه بعض الكماليات وقت الضرورة ، وأن يجرب جميع الوسائل الممكنة لمقاومة طغيان المحتكر ، وإنقاص منسوب الاستهلاك ، لكانت حاجته الى حماية الحكومة في مثل هذه الظروف أقل بكثير مما نشهد اليوم ، إذ لا حول لجمهورنا ولا قوة إلا أن تنجده الحكومة ، وإذا أجابته فانها لا تستطيع أن تذهب معه دائما الى حيث يريد .

وهذا ظرف يستطيع الجمهور فيه أن يبدى الى جانب ما يمكن أن تقوم به الحكومة شيئاً من المقاومة الفردية الحكيمة ، فاذا استطاع أن يفعل فانه يبرهن على حيويته ، وعلى أنه حريص على حقوقه ، وأنه لا يذعن لنير المؤتمرين به من رهط المستغلين والمستفيدين الذين يعملون على سلبه دون أنفة ، ويبرهن أخيراً على أنه ليس عالة مطلقة على حكومته في جميع شئونه ومرافقه ؟

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

وزعنا فهرس المجلد الأول من السنة الثانية مع هذا العدد على المشتركين والمتعهدين ومن أراده من غيرهم فليطلبه من الإدارة

عدو الديمقراطية

للأستاذ أحمد أمين

لنَدَع الديمقراطية السياسية ، فلها نظرياتها ولها رجالها ، ولها نزاعها الحار بين دعاتها وأعدائها .

ولنتكلم في الديمقراطية الاجتماعية وأعدائها - فأكبر مظاهر الديمقراطية الاجتماعية الاشتراك في مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة ، فاذا رأيت في القطار درجة أولى وثانية وثالثة فهذا مظهر أرستقراطي ، وإذا رأيت ذلك في عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت أحياء يعني فيها بالكنس والرش والنور ، وأحياء لا يعنى فيها هذه العناية . فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت في المآتم والأفراح كراسي ضخمة مذهبة ، وأخرى عادية ساذجة ، وقوماً يستقبلهم آل الميت وآل العرس بالحفاوة فيجلسونهم في الصدر ، وآخرين يستقبلون في غير حفاوة فيجلسون في الذيل فهذا أيضاً مظهر من مظاهر الأرستقراطية - وإذا رأيت في قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعوين ، وأخرى حقاً مشاعاً للدهماء . فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية - وإذا رأيت الحجاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة ، ويغلقونها في وجه ذي الجلباب الأزرق . فذلك نوع من الأرستقراطية . وإذا رأيت مقهى افرنجياً فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد . ومقهى بلدياً فيه فنجان القهوة بخمسة مليمات أو تنقص ، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، ولا أسترسل في ذلك ، فلعلك - ياصاحبي - فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية ، وعلمت أنك في كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر في أشكالها المختلفة ، وألوانها المتعددة .

وهناك دعاة يدعون إلى هذه الديمقراطية الاجتماعية ، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية ، ولهم على ذلك حجج وبراهين .

ولكن لعل أعدى أعداء الديمقراطية وأهم طعنة توجه إلى دعاتها ، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شيء واحد هو « الوساخة » أو « القذارة » أو ما شئت فسمه . فأكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم ، عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن الوساخة .

قد يركب راكب الدرجة الأولى في القطار أو الترام أو السيارات طلباً للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء أو نحو ذلك من أعذار كلها سخيفة ، ولكن عذراً واحداً يصح أن يقام له وزن ، وهو وساخة ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم .

وقد يتطلب بعض الناس أغلى مطعم وأغلى مقهى حباً في الظهور ورغبة في الجاه ، وطلباً لمخالطة العظماء ، ولكن العذر الصحيح أنه ينشد النظافة في هذا المطعم وهذا المقهى ، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهي الرخيصة .

فلو عني الناس بالنظافة ، وكان من لبس لبس نظيفاً ، ومن فتح مطعماً أو مقهى عني بنظافته ، وكان الفرق بين لبس الغني والفقير ، والمطعم الغني والفقير ليس فرقاً في الكيف ، فالكل نظيف ، وإنما هو فرق في النوع والكم ، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية في كثير من نواحيها ، ولما تقززت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء في مأكلهم ومشربهم ومركبهم ، ولسلحوا الديمقراطية بسلاح قوي متين ، ولهذا ترى الأمم التي عنيت بالنظافة والتزمتها في صغيرها وكبيرها ، وفي فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أمام محبي المساواة ودعاة الديمقراطية . وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات في السيارات العامة ، وقل منهم من يركب الدرجة الأولى في القطار ، وقل من يتطلب أفخم مطعم وأغلى مقهى ، علماً منهم بأن الكل نظيف والكل مريح ، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون بجانبهم لا يؤذونهم بمنظرهم ولا برائحتهم ولا

بأى شيء فيهم ، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء فى مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفشو القذارة .

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يتعشقونها ، ولكن إذا وصل الأمر الى احتمال عدوى مرض ، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة ، أو آلم عيونهم منظر بغيض ، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية .

***

لو جرى الأمر على المعقول لكان المسلم من أنظف الناس فى العالم ، فقد ربطت صلواته الخمس بالوضوء ، وفرض عليه الاستحمام فى أوقات ، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة .

وأغتبط إذ أسمع وصف « ابن سعيد » لمسلمى الأندلس فيقول : « إنهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

ويؤلمنى أشد الألم ما ذكره ابن سعيد نفسه ، وقد زار القاهرة ، وركب منها حماراً الى الفسطاط يقول « فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنس ثيابي ، وعانيت ما كرهت ، وقلت :

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكحل الغبار

ألم من منظر الفسطاط ، وقال إنه رأى شوارعها غير مستقيمة ، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، ورأى الباعة يبيعون فى مسجد عمرو ، والناس يأكلون فيه ، ورأى فى زوايا المسجد العنكبوت ، قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة الخ ،

آلمنى هذا الوصف لمصر ، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره ، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة الى الفسطاط فى أرض معبدة ممهدة ، لاتثير غباراً ولا تدنس ثياباً ، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً ، لا يأكل فيه آكل ، ولا يكتب على حيطانه كاتب .

ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسى فى مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس فى النظافة ؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك .

لست أدرى لم لم يلتفت الدعاة الى هذا الأمر فى الأمة ، فيدعون ويلحون فى الدعوة الى النظافة ، ويضعون الخطط الدقيقة لها ، فانها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة ، فلا يأنف بعد مثقف أن يجلس مع غير المثقفين ، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين ، وفى هذا الاختلاط نشر للثقافة ، ودعوة للآداب العامة ، وغلبة للعنصر المهذب .

يظن الناس أن النظافة غالية ، وأنها مرتبطة بالغنى ، وهذا خطأ بين ، فكم من غنى قذر ، ومن فقير نظيف ، والأمر يتوقف على تعويد النظافة أكثر مما يتوقف على المال ، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس ، وأن تأكل أنعم الطعام ، وإنما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب ، وأن تأكل نظيفاً ولو كان أحقر الطعام .

هذه بديهيات أولية ، ولكنا مع الأسف مضطرون أن نقولها .

***

لعل الأمر فى العلماء والأدباء على نحو ما بينا فى الماديات ، فالذى يفرق بين عالم أرستقراطى وعالم ديمقراطى ، وأديب أرستقراطى وأديب ديمقراطى ، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأساليبهم ، وعكس ذلك فى الآخرين — ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم ، ونظافة كتاباتهم مهما اختلفت فى النوع والقيمة لانهارت الأرستقراطية العلمية والأدبية أيضاً ، ولكان الكل سواء ؟

أحمد أمين

انضم الى تحرير الرسالة الأساتذة :

مصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز البشرى

وابراهيم عبد القادر المازنى

كلمة وكُلَيمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

نحن من التنظير بين المدنيتين الأوربية والاسلامية ، كأننا بإزاء جوادين أحدهما مُخَلًّى له الطريق إلى غايته ، والآخر يُضرَبُ وجهه مرةً ويُصرف بالعوائق مرة ؛ ومع ذلك يقابل بينهما فى السباق ! لو حكم الشرقُ أوربا لظهر جوادها حماراً . .

***

أربعة آلاف كلمة فى الثرثرة ، أقلُّ من أربع كلمات فى الحكمة

***

لاتغضبْ من حماقة امرأة تحبها ، ولا تغضبي من حماقة رجل تحبينه ، وإلا فأين تدسُّ الحياةُ سُمَّها إلا فى ألذ أطعمتها ؟

***

يموت الحيُّ شيئاً فشيئاً ؛ وحين لايبقى فيه ما يموت ، يقال مات . . .

***

قضت الحياة أن يكون النصر لمن يحتمل الضربات لا لمن يضربها .

***

غَلَبَ رجلٌ على امرأة كانت تهواه وجعل يباهى بما صنع ، فقلت له : ياهذا إن من السخرية أن تزعم انك تعبت فى فتح باب مفتوح . . .

***

حتى الأرادة ؛ هى فى الذكور مذكَّرة ، وفى الأناث مؤنثة ؛ فعند ما يغلب سحر الحقيقة التى فى الرجل على الحقيقة التى فى المرأة ، تلتمس المرأة إرادتها لتَعُوذَ بها فلا تجدها إلا صورة . . فاذا امتنعت كانت فى صورة امتناع على استجابة ، وإذا غضبت كانت فى صورة غضب على رضى . ولهذا ما يكره بعضُهن الحجاب فانه يُذَكِّرهن تأنيث الارادة ويُبعدهن ويحذِّرهن ؛

ويا شؤمَ من إذا نجت من ذلك الخطر نجت كارهة . .

***

هناك حبٌّ يسمو ولا يزال يسمو ؛ إذ يكون المحبوب فيه مع المحب كالترجمان مع السائح ؛ ذلك حب بعض الشعراء لبعض الأجسام المترجمة .

***

تكون الأمانىُّ مرةً كَسْبَ أفكارنا ومرةً لصوصية أفكارنا ! . . .

***

ينفر الأنسان من الكلمة التى تحكمه ، ولكنه فى الحب لا يبحث إلا عن الكلمة التى تحكمه .

***

من خُلِقَ بطلاً فلا عجب أن توجدَ له الأقدار دائماً من كل ما حوله مادةَ حرب ، مائةٌ من مائة فى التوكل على الله تكون مائةً من مائة فى النجاح ؛ ولكن تسعة وتسعين من المائة فى التوكل لا تكون إلا خيبة محققة .

***

هل أستطيع أيتها الجميلةُ السوداءُ أن أقول فى وصف خديك إنهما فى حمرة الورد ؟ فلماذا تغضبين إذا قلت إنهما فى التماع الزيتون الأسود . . ؟ وأنت أيتها الحسناءُ المتكبرة السخيفة ! لماذا تغضبين إذا رأيت فى قلبك الزيتون ولم أر الورد ؟

***

فى بعض أحوال الحب ، تكون العواطف المحبةُ لك فى الباطن هى المعاديةَ لك فى الظاهر .

***

لا يسعد أحد بشعور غيره ؛ وطبيعيٌّ أن يكون هذا هو الذى يجعل السعادة ممكنة فى الناس ؛ ولكن العجيب أنه هو الذى يجعلها غير ممكنة ، إذلا يريد كل إنسان لنفسه إلا شعور غيره .

***

الناس يزاحمون فى الدنيا لأجسامهم ، فاما بؤسٌ وإما سعادة ، والحكماءُ والمحبون يزاحمون لأرواحهم ، فاما بؤسان وإما سعادتان

***

ما أظرفها كانت وأبلغها حين قالت لي: ألا تنظر ثانيا فتفهم بالثانى؟

***

يخيل إلىّ والله أن قلب المرأة امرأة معها؛ فاما أن تأخذها بكبتين أو بمعونتين.

***

فلسفتي أن الكبرياء على المتكبرين هو أعلى التواضع.

***

مصادفة الشمس حظاً تحتاج في اتفاقها إلى مصادفة تجيء بها

***

تستطيع أن تقول في كل نابغة عظيم: إنه أذكى البلداء. فان كذبك الناس لم يكذبك هو.

***

المودة القوية تتحمل العتاب والمحاسبة لتثبت أنها قوية.

***

الحب يخرج من نفسك شخصاً غيرك، والبغض يخرج من هذا الشخص غيره. فتحب بنفسين وتبغض بثلاث.

***

إن رضي المحب قال في الحبيب أحسن ما يعرف، وما لا يعرف؛ وإن غضب قال فيه أسوأ ما يعرف، وما لا يعرف، وما لا يمكن أن يعرف.

***

إذا رأيت كبراء قوم همتهم عيشتهم، فاعلم أنها أمة مأكولة. فلو شهرت السيف الماضي لقاتل روح ملعقة... ولو زعدت بالأسطول الجبار لصلصل كآنية المطبخ...

***

لم تعد التربية في كل أمة تربية للناس ولكن للمطامع؛ فما يكبر جيل إلا كبرت معه الحرب...

***

يراد من التجميل الصناعي حين تبالغ فيه المرأة أن يخف فيثقل؛ ويراد من الجمال الطبيعي أن يخف فيزداد خفة...

***

من النساء من إذا رأيتها حسبت روحها زجاجة ملئت عطراً؛ ومنهن من إذا رأيتها حسبت روحها زجاجة ملئت زيت خروع....

***

أول فلسفة الشريعة في الزواج أنه حصر المعاني البهيمية من كل رجل وامرأة في الرجل والمرأة بذاتيهما. فآخر فلسفة الشريعة في الزواج أنه إذا عم وانتظم تراجعت بهيمية العالم فصغرت وصغرت حتى تكون كأنها في اثنين فقط...

***

إذا سألت السياسي الداهية فسكت عن الجواب فقد قال لك قولا...

***

من لا يملك على الأرض شيئاً يملك على الأقل أن يفرح وأن يحزن...

***

مات وأصبح كأن لم يوجد، ومع ذلك فقد وجد، ومع ذلك فكأن لم يوجد. إن خرج من هذا التركيب المنطقى معنى يثبت في الفهم، كان للحياة في الفهم معنى ثابت....

***

أيا غاضباً من صروف القضا   بنفسك تعنف لا بالقدر
ويا ضارباً صخرة بالعصا   ضربت العصا أم ضربت الحجر؟

طنطا   مصطفى صادق الرافعي

الشيخ احمد مفتاح

يرجو عباس شاكر شكري ببني سويف حضرات الذين لديهم شيء من آثار المرحوم الشيخ احمد مفتاح أن يتفضلوا بارساله اليه سواء أكان شعراً أم نثراً بعنوانه المذكور، ليدرجه في كتاب تحت الطبع سيجمع فيه شعر الفقيد ونثره، ولحضراتهم الشكر سلفاً.

صفحة من التاريخ

روح مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

دع من شاء يتغنى بفرنسا وما فى فرنسا، ودع من شاء يتغنى بانجلترة وما فى انجلترة؛ دع هؤلاء جميعاً ينفون مصر وما فى مصر وينكرون ماضيها، فما نحن منهم فى شىء. وليس فى الأمر علينا من مضاضة إلا ألم الساعة نشعر به كلما وقعت أعيننا عفواً أو قصداً على كلة لبعض هؤلاء؛ حتى إذا مرت الساعة لم يبق من أثر لكلمتهم إلا كما يبقى من أثر قول الولد العاق فى نفوس أهله، فان الحب يغلب الكراهة، وسمة صدر الوالد لا يدوم معها الغل ولا تبقى عليها الحفيظة. ثم لن تكون إلا أعوام فتنضج العقول الفجة، ويتسع الأفق الضيق، ويغزر المحيط الضحل، فيعود هؤلاء جميعاً إلى تقديس مصر ومعرفة روحها، وإعطائها ما يجب لها من الاجلال.

وأما نحن فما بنا ولله الحمد غير مصر وحب مصر، والاعجاب بها والاشفاق عليها: نعجب بما فيها من جليل، ونشفق على ما بها من عليل أو ضعيف. ليس فى القلب نحوها موضع لغير عاطفتى الحب والاشفاق. هذه كلمة نفرج بها عن النفس مما تحسه، إذ كثر فى هذه الأيام حديث الزراية بمصر من قوم لانجد فى نفوسنا ميلاً إلا للدعاء لهم بالتوفيق إلى ما هو خير من ذلك وأكرم.

ولنعد إلى الماضى نقلب فيه صفحة من صفحات تاريخ مصر، لنرى أن روحها كان أبداً روح الكريم الأبى، ولو علا تلك الصفحة صدأ القدم، أو غشاء الوهم.

لا حاجة بنا الى أن نعود إلى أيام الفراعنة، أو إلى أيام مجد الدول الأسلامية التى كان فيها لمصر ذلك الروح المتوثب القوى؛ بل نعود إلى أيام القرن الثامن عشر الذى يصفه بعض المؤرخين بالظلمة والأنحطاط، ولم يتورعوا أن يتهموه بأقسى التهم وأشنعها، وتعدوا فيه الوصف الشنيع إلى السب المقذع حتى فى التسمية، فلا يعرفونه إلا باسم «عصر المماليك» كأننا بهم يعيرون حكامه بأنهم كانوا فى أول أمرهم يشترون بالمال. وإنا إذا عدنا إلى ذلك العصر لم نجد روح مصر خفياً، بل نراه واضحاً مجلواً على عهده من الكرم والآباء:

لئن كان حكام مصر الأسبقون يشترون فى أول حياتهم بالمال، فقد كانوا رجالاً حماة طالما ذادوا عن حوض مصر، وحموا ذمارها. ولقد كانوا يفاخرون بمصريتهم ويعتزون بها، ويسمون أنفسهم منتسبين إليها، فكانوا يعرفون أنفسهم باسم «الأمراء المصريون» وما أجدرنا نحن اليوم أن نسميهم بذلك الاسم ونتجنب تلك التسمية الجائرة التى رددها من قبل أعداء مصر ظلماً منهم وعدوانا. فلقد ألصقت بهم هذه التسمية منذ أطلقها عليهم فرنجة الحملة الفرنسية الذين جاءوا إلى مصر لينزعوها من أيديهم ويحلوا محلهم فى حكم البلاد، فكانوا يحاولون فى كل مناسبة أن يشهروا بهم ويحملوا عليهم، بغية أن يفسدوا عليهم قلوب أهل مصر. ولهذا حبب إليهم أن يسموهم باسم «المماليك» وأن ينعتوهم بأشنع النعوت، ويتهموهم بأبشع التهم.

أما نحن فما أحرانا أن ننظر لأنفسنا بأعين مجردة عن الهوى، وأن ننظر إلى صفحة تاريخهم بغير حقد ولا كراهة، فما كانوا بأهل لذلك، وما كان حكمهم إلا كسائر حكم الدول التى تعاقبت على مصر فى مختلف العصور. فلقد تعاقب فى عهدهم حكم العدل والظلم، واختلف فى زمانهم زهو النصر، وذلة القهر — وأى عصر فى التاريخ قد خلا من مثل هذا التقلب والاختلاف؟ وكان شعب مصر فى مدتهم يزن الدولة، فيرى ما فيها من حسنة وسيئة، فاذا رأى الحسنة غالبة، غفر السيئة فى سبيلها، وهو فى ذلك مثل سائر الشعوب المتمدينة المستقرة، لا تستخفه الحوادث الى العنف ضناً بالسلام والطمأنينة،

غير أن ذلك الشعب الوديع كان يرى أحياناً من الحكام من لا يستحق عطفه ولا إجلاله، فكان عند ذلك يرفض الأعتداء بإباء العازم على عدم الاستكانة. وما أكثر الآيات الدالة على هذا لمن أراد النظر لنفسه، ومن لم يتلق وحيه عن أساطير الكارهين الكاشحين.

ولى أمر الحكم فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أميران من أضعف من ولى أمر الحكم فيها، وهما مراد وإبراهيم. فكان حكمها فى مصر أشبه شىء بالمرض يعترى جسم الشاب الناشىء؛ وتهدم فى أيامهما ما بناه أكابر الأمراء السالفين قبلهم منذ أيام إبراهيم ورضوان، ومن جاء بعدهما مثل على بك الكبير ومحمد بك

أبي الذهب. وشهد أهل مصر في أيام هذين الحاكمين الضعيفين تغيراً في نظام الحكم وعظ السياسة، وأخذت شوكة الدولة تتجه نحو جوانب الناس تجرحهم وتؤذيهم وتفسد عليهم أحوال حياتهم، وما كان عهدهم بشوكة الدولة أن تكون أداة أذى لهم. فإن الأمراء المصريين كانوا منذ القدم إذا تشاحنوا كان تشاحنهم فيما بينهم، وإذا اعتدى بعضهم فإنما كان يعتدي على بعض، وإذا غصبوا مالاً أو سفكوا دما فإنما كان الحزب الغالب منهم يغصب مال الحزب المغلوب، ويسفك المنتصرون منهم دماء أتباع الحزب المخذول. وقديماً تشاحن الأحزاب على الحكم وتنافسوا على السلطة، وما كان بأهل مصر بأس من ذلك، إذ كانوا في كل هذه الحركات بمعزل عن الأذى: دماؤهم محفوظة، وأموالهم محرمة، وأعراضهم مقدسة؛ وأما منذ تولى أمر الحكم إبراهيم ومراد، فقد تغيرت الحال، وخرقت الحدود، وإذا بجنود الدولة تعسف بالناس، وتنتهك حرماتهم، فلم يرضهم ذلك، بل احتجوا وشكوا، ثم تحركوا واضطربوا، وكان اضطرابهم ذلك قبل أن يتحرك شعب فرنسا في ثورته الكبرى بنحو أربع سنوات.

قال صاحب «عجائب الآثار» في حوادث سنة مائتين وألف للهجرة، أي في سنة ألف وسبعمائة وخمس وثمانين للميلاد ما يأتي:

«وفي صبحه (يوم الجمعة) ثارت جماعة من أهالي الحسينية بسبب ما حصل في أمسه من حسين بك (تابع مراد بك) وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول. والتف عليهم جماعة من أوباش العامة والجعيدية، وبأيديهم نبابيت ومساوق، وذهبوا إلى الشيخ الدردير، فوانسهم وساعدهم بالكلام، وقال لهم: أنا معكم. فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول، وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة، وأغلقوا الحوانيت، وقال لهم الشيخ الدردير: (في غد نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم). فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظان، ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفي كتخدا إبراهيم بك وجلسوا في الغورية، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه، وخافوا من تضاعف الحالة، وقالوا للشيخ: (أكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها من محل ما تكون) واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة وانصرفوا، وركب الشيخ في صبحها إلى إبراهيم بك وأرسل إلى حسين بك فأحضره بالمجلس وكله في ذلك..»

ولم يقف الأمر عند حدود القاهرة، بل اشترك أهل الأقاليم في ذلك، فلم تمض السنة نفسها حتى تحركت مدينة طنطا في أيام مولد وليها المشهور السيد البدوي، وكان الشيخ الدردير على رأس الحركة هذه المرة أيضاً.

قال صاحب تاريخ «عجائب الآثار»:

«فذهبوا (أي أهل طنطا) إلى الشيخ الدردير، وكان هناك بقصد الزيارة، وشكوا إليه ما حل بهم، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب إلى (الكاشف الظالم) فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة، فلما وصل إلى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر إليه والشيخ راكب على بغلته، فكلمه ووبخه وقال له: (أنتم ما تخافون من الله) ففي أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم، وقبضوا على السيد أحمد الصافي تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت، وهاجت الناس على بعضهم، ووقع النهب في الخيم وفي البلد، فنهبت عدة دكاكين، وأسرع الشيخ بالرجوع إلى محله... ثم حضر كاشف المنوفية وهو من جماعة إبراهيم بك الكبير وحضر إلى كاشف الغربية وأخذه وحضر به إلى الشيخ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان... ولما رجع الشيخ الدردير إلى منزله حضر إليه إبراهيم بك الوالي وأخذ بخاطره أيضاً، وكذلك إبراهيم بك الكبير، وكتخدا الجاويشية.»

غير أن الحوادث السياسية التي وقعت في ذلك الوقت حالت دون استمرار سعي أهل مصر نحو إصلاح نظام الحكم بأنفسهم، وذلك أن السلطان أرسل عند ذلك جيشاً لمعاقبة المفسدين في زعمه. فانخدع أهل مصر وتركوا ما كانوا فيه من مسعى ظناً منهم أن السلطان كفيل لهم بإزالة المظالم وإصلاح الأمور. وبقي جيش السلطان في مصر قليلاً، ثم دعته الدواعي إلى مغادرة البلاد فعاد الأمر إلى ما كان عليه من عبث مراد وأتباعه، وعاد الناس

يفكرون فى الدفاع عن أنفسهم والتحرك لإزالة العسف ، وأضحت مصر والجو فيها مكفهر ، والقلوب غير مستقرة ، والشعب متحفز . وأهل الدولة فى وجل وترقب .

قال صاحب « عجائب الآثار » فى وصف هذه الأيام :

« وركب ابرهيم بك الكبير فى ذلك اليوم وذهب الى الشيخ البكرى وعيد عليه ، ثم الى الشيخ العروسى ، والشيخ الدردير ، وصار يحكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جداً ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف جداً . »

ثم أراد الله مرة أخرى أن يحول دون تمام تلك النهضة ، إذ لم تلبث البلاد أن شهدت طلائع الحملة الفرنسية ، فكان فى تلك الحملة المشئومة آخر قضاء على حركة مصر فى القرن الثامن عشر .

أمن الحق أن يقول قائل مع هذا إن أهل مصر ظلوا منذ القدم على الاستكانة والخضوع للمظالم ؟ . . .

محمد فريد أبو حديد

حركات الشـــباب

خواصها وأثرها فى بناء اوربا الجديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من أهم الظواهر التى يمتاز بها المجتمع الأوربى الجديد ، أن الشباب يقوم فى بنائه وتوجيهه بأعظم قسط ؛ وقد هلكت زهرة الشباب الأوربى القديم فى الحرب ، وخلفها شباب جديد حائر يتخبط فى غمار المتاعب والأزمات العديدة التى خلقتها الحرب ؛ ولكن الحركات والانقلابات السياسية العنيفة التى تمخض عنها العهد الجديد أفسحت للشباب مجالاً كبيراً للعمل ، وأسبغت عليه كثيراً من النفوذ والسلطان ، وخصته فى بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد بأعظم قسط . ويلاحظ أن هذا التطور قد بدأ فى أواخر الحرب ذاتها ؛ حيث قامت الثورة البلشفية فى روسيا وحطمت صرح المجتمع القديم كله ، ولبثت منذ قيامها تعمل بجد ومثابرة على خلق جيل جديد وشباب جديد يضطرم بالمبادئ والمثل الجديدة ويكون لها فى المستقبل عماداً وسياجاً . ثم قامت الثورة الفاشستية فى إيطاليا بعد نهاية الحرب بأعوام قلائل ، وأدركت ما للشباب من أهمية فى بناء المستقبل ، فأقبلت عليه واجتهدت فى حشده وتنظيمه وتدريبه ، وطبعته بطابعها القوى فأصبح من طلائعها وجندها المخلصين ؛ وأخيراً قامت الثورة الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا (الثورة الهتلرية) وكان قوامها منذ البداية ذلك الشباب البائس الذى دفعته خيبة الأمل إلى أحضان التطرف وإلى لواء أولئك الذين يعدونه بالعمل ورفاهة العيش فى ظل دولة جديدة يكون الشباب فيها كل شىء ويستأثر بكل شىء ؛ وفى تركيا الكمالية يشغل الشباب فى المجتمع التركى الجديد أعظم مكانة ، ويعلق عليه زعماء الثورة الكمالية أعظم الآمال ؛ وقد حذت الثورة التركية حذو الثورة البلشفية والثورة الفاشستية فى حشد الشباب وتدريبه وطبعه بالمبادئ والمثل الجديدة ؛ وفى معظم الأمم الأوربية الأخرى مثل اسبانيا وفرنسا وبولونيا يجتمع الشباب حول المثل الجديدة ، ويحاول أن يشق طريقه إلى بناء دولة جديدة ومجتمع جديد يكون له فيهما ما يطمح إليه من السلطان والنفوذ . وحتى فى انكلترا التى عرف شعبها بالروية والاتزان إزاء الآراء والتطورات الجديدة يبدى الشباب الانكليزى ميلاً كبيراً إلى التطور ، ولا يأبى تأييد الشيوعية والفاشستية إلى حد ما .

ونلاحظ أيضاً أن الشباب أشد ما يكون تطوراً ونفوذاً فى بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد فى ظل حركات الطغيان ، كالبلشفية والفاشستية والوطنية الاشتراكية الألمانية . ذلك أن هذه النظم الطاغية تقوم على القوة والعنف وتحتاج أولاً إلى السواعد الفتية تؤازرها وتحقق لها ما شاءت من ضروب العنف والارهاب ، فاذا ما استقرت بفضل هذه السواعد القوية والأذهان الملتهبة الطامحة ، اضطرت أن تفسح لها مجال النشاط والعمل تحت اشرافها ووحيها ، وأن توليها من النفوذ والمكانة ما يحقق بعض أطماعها ، على أنها لا تقنع بحشد الشباب الناضج المكتمل ، لأنها لا تأمن تطوره وانقلابه ، فتعمد إلى الشباب الفتى تبث اليه تعاليمها ، وتدربه على أساليبها ؛ ولا تفر الأحداث والأطفال ، لأنها ترى فيهم أجيالاً متعاقبة من الشباب الذى ترى أن تخلد زعامتها على يده ؛ ولذلك نراها تخضع نظم التعليم والتربية لصولتها ، وتطارد حرية التفكير والرأى بكل ما وسعت من ضروب العنف

والشدة حتى لا تفضح مثلها ووسائلها ، وحتى لا يلقى الشباب الذي تستعبده وتذلله لغاياتها من النور والضياء ما يهديه إلى الحقيقة ويدفعه إلى تحطيم ذلك النير الوحشي الذي تضعه في أعناقه .

وتلجأ هذه الحكومات الطاغية دائماً إلى حشد الشباب في جماعات شبه عسكرية ، تحت أسماء وصفات مختلفة ، وتعنى عناية خاصة بتنمية الميول العسكرية والرياضية في نفسه ، لتعوده أولاً على الطاعة العمياء ، ثم لتحكم قيادته وتوجيهه بواسطة رياسة متدرجة مباشرة ؛ وقد استطاعت الفاشستية الإيطالية أن تحشد حولها بهذه الوسيلة ملايين الشباب والأحداث ، وحذت حذوها الوطنية الاشتراكية في ألمانيا فجندت الملايين باسم فرق الهجوم والحرس الأسود ، وجيش العمل ، والشباب الهتلري وغيرها .

ويتخذ الطغيان ، الوطنية والغايات القومية ستاراً لهذه الحركات ؛ وقد يحقق بالفعل كثيراً من الغايات القومية المحلية أو القريبة المدى ؛ ولكنه يمثل دائماً روح حزبي عميق ، ويؤثر المبادئ والغايات الحزبية على غيرها ، ويخضع الدولة لسلطان الحزبية ، كما فعلت الفاشستية في إيطاليا والهتلرية في ألمانيا .

وتثير حركات الشباب اليوم في أوربا كثيراً من الإهتمام ، ولا سيما بعد أن أضحت عماد انقلابات خطيرة في نظم القارة ومجتمعاتها القديمة ، وأضحت عاملاً قوياً في حياة أوربا السياسية .

هل توجد بين حركات الشباب في مختلف البلدان خواص مشتركة ؟ وما هي هذه الخواص المميزة وما علاقتها بالتطور الاجتماعي والسياسي في كل بلد ؟ وهل يحفز الشباب في جميع البلدان آمال وغايات مشتركة ؟ هذه الأسئلة وما إليها تثير كثيراً من البحث والجدل . وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة عدة كتب ومباحث هامة بأقلام جماعة من كبار الباحثين والساسة عن حركات الشباب الأوربية وخواصها وآثارها ، ومن أشهر هذه الدراسات وأحدثها كتاب بقلم الكاتب الفرنسي ايليا ابرنبور بعنوان « اليوم الثاني من أيام الخلق » Le deuxième jour de la création وفيه يدرس حركات الشباب في روسيا السوفيتية ، ويستعرض خواصها وتطوراتها بطريقة روائية ، وفي رأيه أن الشباب الروسي إنما هو شعب جديد ، يفيض بعادة خلدنة تستنفد اليوم في مرحلة التوطيد الاشتراكي ، كل

قواه على الجرية ، وأن الركسية (الشيوعية) قد انسابت الى دمه ، وأصبح يتذوق الأوضاع التي تقررها ، وأنها قد أسبغت عليه بالأخص صفتين : الأولى عاطفة التضامن البشري الذي دعا اليه من قبل سولوسييف ، وتولستوى ، ودستويفسكى ؛ والثانية هي الثقة التي لا حد لها بالعقل والنطق وما يترتب عليهما من الطموح المستمر الى النور ، واستعمال القوة المفكرة ، ونبذ الخرافات القديمة . ومن هذه الدراسات أيضاً كتاب الدكتور جرينتدل عن حركات الشباب الألماني وعنوانه : « رسالة الجيل الفتي » Die Sendung der jungen Generation ، وقد ظهر قبل قيام الطغيان الهتلري في ألمانيا ، ولكنه لا يزال مرجعاً في موضوعه .

ويصف الدكتور جرينتدل الشباب الألماني بأنه « وطني » يخاصم الشيوعية أشد الخصومة ، وأنه يطمح إلى إقامة « اشتراكية ألمانية » تضع حداً لمساوىء النظام الرأسمالي وتقضي على الشيوعية أتم قضاء ، وتوفق بين مصالح جميع الطبقات والأفراد . ويمتاز الشباب الألماني بصفة خاصة ، هي أنه يعتبر نفسه ذا قيمة في نفسه ، ولا يكتفي بأن يعتبر ذخر المستقبل كما هو الشأن في معظم الأمم ؛ فليس الشباب في نظره حالة نضوج ينتهي عملها بعد حين ، ولكنها حالة نضوج تام تترك وراءها كل الأجيال السالفة والقادمة ، وهي ذات قيمة في نفسها تتمتع بأعظم الجلال ؛ وإذا كان الشباب يتكون في الأمم الأخرى على مثل الرجل الناضج ، فانه يرى في ألمانيا أنه أتم نضوجاً وأوفر قيمة من الرجل الكامل . وليس أدل على ذلك من « حركة الشباب » الألمانية الشهيرة التي استطاعت أن تنشىء ثقافة شباب حق لها كل مميزاتها ، ولها مثلها الأعلى الخاص ؛ ومن المعروف أن الطموح الألماني إلى المثل الأعلى ، الذي غدا منذ الفيلسوف « كانت » ظاهرة الحياة العقلية الألمانية ، هو مصدر هذه النزعة التي تدفع الشباب الألماني إلى الامام ، فهو يتقدم في سبيله لا يقعده شيء من الأعتبارات العملية التي تسحق الرجل الناضج ، وهو لا يعبأ بالمصاعب الخارجية ، بل يتحرى الغايات البعيدة دون النظر الى الحقائق ، وهذا الطموح الحر الى المثل الأعلى هو الذي خلق الشباب الألماني .

هذا عن الدراسة الخاصة لحركات الشباب ، وقد صدرت

كتب وبحوث عديدة عن الفاشستية وأثرها فى تكوين الشباب الأيطالى . وهنالك بحوث عامة عن حركات الشباب الأوربى ، منها كتاب لرنيه دبوى والكساندر مرك عنوانه « أوربا الفتاة » Juene Eurepe وكتاب لارنو دانديه عنوانه « الثورة المحتومة » La Révolution nécessaire وكلها تدور حول تنظيم أوربا الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، وحول تطور المجتمع الأوربى القديم ، وفشل الديموقراطية فى حشد الشباب ، وخصومة الشباب للنظم الرأسمالية والشيوعية معاً . وسر هذه النزعة نحو النظم الأقتصادية القائمة ، هو أن معظم شباب مابعد الحرب من أسر فقيرة ومتوسطة ؛ وهو يشعر أنه ضحية إغراق النظم الرأسمالية فى استثمار الطبقات العاملة ، ويشهد من جهة أخرى أخطار الشيوعية ووسائلها المخربة ، فهو يرغب عن النظامين ، ويطمح الى نوع من الاشتراكية المعتدلة ؛ وأحياناً يرى مثــله الأعلى فى الفاشستية ، وأحياناً فى الاشتراكية الوطنية ؛ غير أن الفاشستية والاشتراكية الوطنية لم تتمخضا بعد عن مثل هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى ينشده الشباب . ومن الغريب أن هذه الحركات الطاغية قد استطاعت أن تستعبد هذا الشباب الطموح المتوثب أحيانا بالوعود الخلابة ، وأحياناً بالمنح المتواضعة فى ميدان الكسب والعمل ، ولكنها تعمد بنوع خاص الى كسبه بالملق ، فتصوره دائماً بأنه كل شىء فى حياة البلاد ، وأنه صاحب السلطان المطلق فى شئونها ، وتمنحه من أجل ذلك بعض المناصب الرئيسية ، ثم تسيره من ورائها وفق مشيئتها ، مصورة إياه بأنه هو الذى يقود نفسه بنفسه ، على يد زعمائه الشبان .

* * *

ومن الحق أن نقول إن هذه الحركات الطاغية — الفاشستية والوطنية الاشتراكية والكمالية — كان لها مع ذلك فى تكوين الشباب من بعض النواحى الخلقية والقومية آثار حسنة ، تدعو أحياناً الى الاعجاب ؛ فهى فضلاً عن العناية بتكوينه من الوجهة الرياضية والعسكرية ، والسهر بذلك على رعايته الجسمية والصحية ، تعنى عناية خاصة بصقل رجولته وتقوية خلاله ومبادئه الأخلاقية ، وتعوده على الحياة الخشنة العمليــة ، وتدربه على احتمال المشاق ، والاعتماد على النفس ، فهى تنشئه من هذه الناحية نشأة إسبارطية حسنة ؛ وأما من الوجهة القوميــة فان لها كل الفضل فى جعله جندياً متحمساً من جنود الوطن ، فهى تحشده باسم الوطن أولاً ، وتذكى فى نفسه حب الوطن وكل مايتصل به ، تاريخه وماضيه ، ومدنيته ، وربوعه ، وخواصه ، ثم تبعث اليه حب المثل القومية التى تجيش بها الزعامة السياسية وتدخره لتحقيقها ، وتذكى فى نفسه العزة القوميــة الى أقصى حدودها ، وتحميه من أخطار المبادىء الشيوعية والثورية الهدامة ، أو بعبارة أخرى تتخذه درعا لحمايتها منها . ولا يستطيع منصف أن ينكر ما لهذه التربية الأخلاقية والقومية من المزايا البديعة . على أن هذه الحركات تذهب أحيانا إلى حدود بعيدة ، وتركب متن الأغراق فى تصوير العواطف والغايات القومية ، ففى ألمانيا مثلا تبث الاشتراكية الوطنية فى نفوس الشباب نزعــة قومية مغرقة تذهب الى حد الأحقاد الجنسية ؛ وشعار الأشــتراكية الوطنية (الهتلرية) فى هذه الناحية أن الجنس الألمانى هو خير الأجناس البشرية ، وأنه يتفوق عليها جميعا بمواهبه وخواصه ، وتستتر الوطنية الاشتراكية وراء التفرقة بين الأجناس الآرية والسامية ، وتعلم الشباب والشعب الألمانى جميعاً أن الجنس الآرى (ويجب أن نقرأ دائماً الجنس الألمانى) هو أجدر الأجناس بأنشاء المدنيات ، وأن الشعوب السامية والأسيوية كلها شعوب هدامة للحضارة يجب أن تستعبد وأن تستغل لصالحة المدنية الآرية والجنس الآرى ؛ وتنظر الشبيبة الألمانيــة اليوم الى جميع أمم العالم من عل وتتوغل فى الأحلام المغرقة ؛ وكان من آثار هذه المبــادىء المغرقة التى تبثها زعامة محدثة متطرفة لا تتمتع بشىء من المواهب الممتازة أن وقعت تلك الحوادث والمناظر الدموية المثيرة فى ألمانيا باسم خصومة السامية ومطاردة اليهودية ؛ ومن الأسف أن هذه المبادىء المغرقة تهيمن اليوم على الثقافة الألمانية كلها . وقد شهدنا بأنفسنا آثار الفاشستية فى إيطاليا وآثار الثورة الكمالية فى تركيا ، فأما فى إيطاليا فان الفاشستية تغذى العاطفة القومية بقوة ، ولكن فى نوع من الرزانة وحسن التوجيه . وقد تحمل الشبيبة الأيطالية بعيدا فى كبريائها وأحلامها ، بل تذهب أحياناً إلى حد التعصب والخشونة . ولكنها لم تذهب قط الى تلك الحــدود المغرقة التى انتهت اليها الوطنية الأشتراكية فى ألمانيا . وتتجه الشبيبة الأيطاليا اليوم ببصرها الى ماضى إيطاليا المجيد ، الى مجد رومة ومجد القياصرة ، فتتصور بعث الدولة الرومانية بكثير من حدودها وأملاكها القديمة ، وتتجه

أيضاً الى إحياء الفضائل والخلال الرومانية القديمة؛ وهى اليوم أفضل مما كانت عليه بكثير من حيث الأخلاق والهمم والثقافة.

وأما فى تركيا فأن العاطفة القومية تبلغ بالشباب حد التعصب الأعمى؛ ومع أن الشبيبة التركية لا تتمتع بدرجة محترمة من التعليم والثقافة، فإنها مع ذلك شديدة الكبرياء والغطرسة تتصور أنها سيدة الشباب فى العالم كله، وأنها على حداثة عهدها بالمدنية الأوربية وضآلة ثقافتها تضارع أرقى شباب أوربا ذكاء وثقافة ومدنية؛ وليس هذا بغريب فى بلد يدعى زعماؤه أنه هو مهد الحضارات البشرية، وأن لغته (أى التركية) هى أصل اللغات البشرية، ويحسبون أن ما أسبغ على تركيا الجمهورية فى أعوامها القلائل من قشور المدنية الأوربية يكفى لوضعها إلى جانب أعظم الأمم رقياً وحضارة.

***

هذا وأما عن حركات الشباب فى الأمم الأسلامية والعربية فلا نستطيع أن نبسط القول، ومن الأسف أنه لم تنتظم فى أممنا الإسلامية والعربية حركات منظمة قوية من الشبيبة. نعم قام الشباب فى مصر وفى البلدان العربية بحركات متقطعة، واشتركوا فى الحركات القومية، وكان لهم فيها يوم قيامها أكبر الأثر. ولكن هذا العمل القومى لم يكن منظماً ولا مستمراً، ولم تدعمه من الناحية الأخرى تلك المزايا القومية والأخلاقية التى ننشدها. ومن الأسف أيضاً أن شباب الشرق يتأثر من آن لآخر بنزعات الشبيبة الأوربية، فيحاول أن يقلدها تقليداً أعمى. مثال ذلك ما أذيع من أن شباب بعض البلدان العربية يحاول أن يقتبس من مبادىء الحركة الهتلرية، مع أن الحركة الهتلرية هى من أشد الحركات الحديثة نزعة إلى الأستعمار، وأبلغها عداوة للحرية، وأشدها احتقاراً للأمم الشرقية؛ فمن الواجب على شبابنا أن يسترشد فى حركاته وأمانيه بالظروف المحلية والغايات القومية قبل كل شىء، ومن الواجب أن يعمل ولكن فى روية واستنارة؛ ومن الواجب أن يسترشد دائماً بحب الوطن وماضيه المجيد فى تغذية العاطفة القومية، وأن يكون شعاره العمل الرزين المنظم فى سبيل الأمانى القومية؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

الناى السحرية(١)

The Magic Flute

للأستاذ بشير الشريق المحامى

حين قدم موزار Mozart (١٧٥٦ — ١٧٩١) الناى السحرية للجمهور لم تلق ما تستحق من نجاح. ويقال إن مدير الجوقة الموسيقية لأول مرة ظهرت فيها الناى السحرية، وبعد أن هدأت عاصفة التهليل، تسلل الى موزار وكان يشرف على الأخراج، وقبل يده؛ فربت موزار على رأسه. لنا أن نذهب من ذلك إلى أن المدير قد فهم ماعنته الموسيق، وأن موزار أدرك أن المدير قد فهمها. كلاهما لم يستطع وضعها فى كلمات رواية غنائية libretto وهى فى الواقع لم تكن مثبتة فى كلمات؛ وما كانت كلمات الرواية الغنائية لتحول دون إدراك المعانى الموسيقية لولم يتساءل النظارة عن معانى تلك الكلمات. لقد نجحت النـاى السحرية بعد موت موزار؛ وسبب هذا النجاح ولاشك أن النظارة لم يعودوا يتساءلون عن معانى كلمات الرواية libretto وأدركوا شيئاً من معانى الموسيق.

كلمات الناى السحرية هى عناوين لموضوعات ضخمة، ونحن نمر خلالها بسرعة الى موسيق باباكينو Papageno الواضحة، ولكنا سوف نضيع ذلك الوضوح إن نحن سعينا اليه عن طريق الكلمات أو نشدنا موضوع الرواية فى هذه الكلمات. إن حوادث الرواية ليس لها ارتباط بالكلمات بعضها ببعض، كما أن منطق الرواية كله فى الموسيقى التى تخلق عالماً تقع فيه الحوادث عفواً؛ عالما تصدر فيه النغمة عن أختها أو تنعكس عنها كما تنعكس قوى الطبيعة أو أفكار الرجل؛ هذا العالم هو الكون كما يراه موزار، والرواية بكاملها هى إيضاح لايمانه الخاص. وعلى هذا فهى بذاتها عمل دينى وان كانت سليمة مما نجده فى الدين من مسائل مبهمة وورع جبان. لقد عاش موزار فى هذا العالم

---

(١) للاديب الأنجليزى كلاتون بروك A. Clutton-Broch عن كتابه: «مقالات فى الفن Essays On Art»

أشبه ما يكون بملك همه أن يضحك، ولكن بلا أذى ولا حقد، همه أن يضحك من شقاء بنى الانسان، وشر المصائب مايضحك. وكان يعطف حتى على الفجار «إنهم أطفال خبثاء يمكن لمن عنده سر السحر أن يجعل منهم أهل خير وصلاح» وفى الناى السحرية يعمل السحر، إنه يعمل فى الناى نفسها، وفى قيثار بابا كينو. عند موزار سر الموسيقى، وقد بلغ من جهل العالم بحكمته أن حسبه مجرد شحاذ يعزف بأنغامه فى الشوارع؛ وبعد جيل أصبح الناس يذكرونه كلما ذكروا الأنغام، وأصبح الشعب ينظر اليه كما ينظر الى سوسن الحقل؛ ولا تزال الناى السحرية الى اليوم أكثر من رواية غنائية عادية ذات أنغام وأسلوب بسيط قديم، يمكنك أن تتمتع بها على كل حال اذا لم تقف إزاءها موقف المهيب، يمكنك أن تنعم بها، كما تنعم «بهملت» تلك الرواية الشجية؛ وهى مثل «هملت» تحوى معانى دقيقة بعيدة، معانى لاتدركها أفهامنا. إن بابا كينو صورة مجازية؛ ولكنها من أعظم الصور فى جميع روايات العالم، إنه كل شخص كما كان «هملت»، واذا كنا نملك مهارة معرفة أنفسنا وجدنا فيه كلا منا نفسه؛ وبكلمة أخرى أنه ذلك العامل المستولى علينا والذى نحبه فى أنفسنا ونحتقره فى الآخرين؛ إنه ذلك العامل الذى لا نعترف به للحظة، الا وهو عامل الخوف والاعتزاز والكذب.

قدم موزار أغانيه لسارسترو Sarostro وبابا كينو، حتى اذا أخذا فى الغناء أحسسنا كأنا نشاركهما غناءهما؛ وأى غناء؟! غناء ليس فوق مقدرة فهمنا ولا سرورنا؛ غناء الملاك الذى تعلم لساننا الأرضى وأدخل عليه الاصلاح فأقام بذلك سماء على الأرض؛ سماء لا تبعد عنا ولا تصعب علينا؛ سماء من غابة مغفرة تقدر فيها أن تضحك بقدر ماتقدر أن تغنى؛ سماء تضحك فيها الملائكة منا وتضحك معنا؛ وفى هذا الفردوس الذى خلقه لنا موزار سرعان ما يتحول جلال الموسيقى الى هزل، وسرعان ما تعود الموسيقى الى جلالها، وهذا التبدل يظهر دائماً طبيعياً.

ذلك هو عقل موزار الذى رماه الشعب بالطيش لسبب واحد هو أنه وقد أوجد فى مبانه مكاناً لكل شيء لم يوجد مكاناً لجسد سليمان المتبذل، أو للعنف والبشاعة والبلادة، لا يوجد فى الفن أبداً ما هو أعمق أو أجمل من أصول موسيقى سارسترو. لقد بلغ من وضوح عقيدة موزار أنها تبدو وكأنها ليست بعقيدة وانما هى مجرد بهاء، مثلها فى ذلك مثل القديسين الحقيقيين الذين يبدو عليهم أنهم ليسوا من أهل الصلاح بل من أهل الفتون. وهنالك من الناس من لا يجد فى جمال موزار فناً، وسبب ذلك أن جماله جمال حق. هم يحسبون أنه احتال على هذا الجمال احتيالاً؛ إنهم ينشدون صرير الجهود، وينشدون الأنانية؛ لقد بلغ من نقاء جهوده ومن كثرتها أن حسبوها رخيصة لا ترضى إلا العوام.

يصعب علينا أن نشاهد الناى السحرية تمثل تمثيلاً مرضياً على مسرح اليوم، ولكننا برغم ذلك سنسر ولا ريب من أى تمثيل لهذه الرواية التى حوت روح الموسيقى، والتى يمكن للمرء أن يرى منها كيف تكون الناى السحرية؛ لقد بلغ من رقة موسيقاها ورقة أنغامها أنها تقدر أن تجدد موسيقى هذه الأيام المسرحية الغربية.

يمكننا أن نصف تامينو Tamino وبانينا Panina كما نصف أحسن صور فى مجمع فنى، وأن نتخذ كلا منهما مثالاً لأبطال

الروايات الغنائية وبطلاتها فى كل عصر ومصر ؛ بل قد لا تنتسب ثيابهما للعالم الحقيقة أو الفن ، وقد تعرض نماذج مصطنعة ومنمقة ؛ ولكن الموسيقى تلطف من ذلك وتتباعد كل شخص على أن يقوم بدوره أحسن قيام . من الواضح أن موسيقى الناى السحرية تجلب السرور وتوافق أولئك الذين ينشدونها فاذا بهم كأنهم يقومون بعمل دينى أ كثر مما لو كانوا يقومون بعمل مسرحى ، وأنك أ كثر ما تشعر بذلك عند انسجام الأنغام حيما يتراءى لك أن ريح الفردوس تهب على جميع المغنين فيتمايلون لها تمايل الأزهار بالرغم من ثيابهم الكثيفة . ولكن الناى السحرية مفتقرة الى عالم متجانس فى النظر كما هو متجانس فى السمع حتى تظهر بمظهر كامل مرض ، ولهذا فنحن أحوج ما نكون لفترة إصلاح تتناول كل عاداتنا المسرحية ؛ نضرب لذلك مثلا سارسترو ، إنه يعيش بين مناظر مصرية ، على حين أن هذا العالم المصرى لا يناسب الموسيقى وهو يعنى لدينا أعاجيب القاعة Hall المصرية ، ولكن هنالك عالماً مفرداً يناسب الموسيقى كل المناسبة ، عالماً تستطيع أن تعزو فيه من العبث الى الجمال غروراً طبيعياً ؛ وفيه تكاد تكون جميع الصور متناسبة وواضحة ؛ ذلك العالم هو العالم الصينى كما عرفناه فى الفن الصينى حيث توجد فى هذا الفن الخيال الروحى والهزل البهى ؛ حيث يوجد فى هذا الفن مزيج من طفولة وقداسة يوحى الى الفن ما توحيه موسيقى موزار الى الأذن ؛ وفى الفن الصينى فقط يقدر بابا كينو أن يكون قديساً ؛ فى ذلك العالم فقط تعيش زوج موزار بضحكتها وحكمتها ، وكأنها فى بيتها ؛ فى هذا العالم تساوت الأزهار وجميع الحيوانات فى الخطر مع جنس الانسان ، فى هذا العالم يظهر الأفعى والثعبان وكأن كلاً منهما مصنوع من ورق مقوى ؛ فى هذا العالم لا يظهر السحر أنه مجرد تعاويذ ؛ فى هذا العالم يمكن للمرء أن يقع على مناظر طبيعية وصور جميلة ؛ وفيه لا يكون سارسترو ساحراً بمسرحياً بل كاهنا كنسياً .

فى الحق أن الفن الصينى هو عالم الناى السحرية حيث تتدلى الأجراس الفضية من كل شجرة مزهرة ، وتزدحم الحدائق بالبلابل الساحرة ؛ هو عالم الحماسة والتأمل ، حيث يجلس الحكيم فى البرادق فى ضوء القمر ، ويبتسم ابتسام عاشق ، وحيث يبتسم العشاق كالحكماء . . حيث يوحى كل شىء للعين ما توحيه موسيقى موزار للأذن . وفى العالم الصينى يمكننا أن نتجنب كل تشدق فى الغزل الشهوانى اعتاد أن يلفظ به المسرح الحديث ؛ كما يمكننا أن نخضع أنانية أوربا الثقيلة للشرق المنكر لذاته .

لقد تمرّس موزار بالألم ، ولكنه لم ينغمس فيه ؛ إنه يعنى بجمال العالم أكثر مما يعنى بجمال نفسه ؛ عنده أن الشر من عمل الشياطين الذين تقدر الموسيقى على طرد أرواحهم

لقد كان موزار أورفيوس Orpheus هذا العالم الذى يستطيع إن نحن أصغينا اليه أن يذلل الحيوانية الكامنة فينا جميعاً ؛ ومع ذلك فإن أقصى وقاره ومنتهى سر جماله إنما هو فى رحمته التى وسعت كل شىء ؛ وهو حين يترحم علينا أو على نفسه لا يأخذه البكاء ؛ بل يطلب الينا أن نجفف دموعنا وأن نكون من الصالحين ، وأن نصغى لنابه السحرية .

وهذا الحنان الذى ينبعث من أصواته خلال الناى السحرية يبعث فى الناى السحرية جمالاً وهزة وعجباً ، لا يمكن أن تبعثها أية عاطفة إنسانية .

سارسترو ليس بساحر ، إن هو إلا قسيس ، لأن فيه حكمة الرحمة المحببة ، ولأنه خصص مكاناً فى فردوسه لبابا كينو ابن الطبيعة يلهو فيه مع صاحبته بابا كينا . مرت بيابا كينو وهو فى فردوس سارسترو الموحش لحظة فكر فيها أن يشنق نفسه ، لأنه لم يجد من يشاطره الحب ، ولكنه لا يكاد يضع حبل المشنقة على عنقه حتى تسمع فى الموسيقى قهقهة تنبئك أنه يتملص من حبل المشنقة ؛ ولكن سرعان ما تقدم اليه بابا كينا وسرعان ما يعود الى الفردوس أنسه ، ويأخذ الأثنان فى غناء دورهما فى نهاية الرواية .

نحن على يقين بأن عدالة الناى السحرية قضت ببراءة ملكة الليل ؛ والزنجى البشع وجميع معاونيه ؛ لم يعاقب منهم أحد ؛ لقد شقوا لغير ما سبب ؛ فجاءوا نادمين مستغفرين ؛ وهكذا تنتصر الناى السحرية على شرورهم وشقاوتهم ، فتدق الأجراس الفضية من كل شجرة ؛ وتغنى البلابل غناء يخلب الألباب ، ويبتسم الحكماء والمحبون ابتسامة الأطفال ، فتدخل ابتساماتهم دخولاً طبيعياً فى دين موزار المقدس ؛ هذا الدين المهيب الذى تآلف فيه الابتسام والعبوس ، ولم يتنافرا تنافرهما على الأرض .

شرق الأردن

بشير الشريقى
المحامى

خيال الشـــاعر
بين الطبع والصنعة

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لعل من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يتكيء أكثر ما يتكيء في فنه على الخيـال . أما العالم فوجهه كله إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسبية . نعم لقد يكون هذا من فضول الكلام إذا قُرر لذاته . ولكنه يرتفع عن هذا الموضع إذا سيق لتوجيه بعض القضايا التي قد تدق على كثير أو على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذي نعالجه اليوم من هذا الطراز .

وبعد ، فاذا كان شعر الشـاعر إنما يتكيء أكثر ما يتكيء على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما غلا ، ومهما حلّق وارتفع ، ومهما استحدث واخترع ، ومهما لوّن من الألوان وشكّل من الأشكال ، فانه مستمدٌّ في تصرّفه جميعه من الحقائق الواقعة . مبتديءٌ لابد بها ، منتهٍ لامفرّ في الغاية إليها . فمن الحقائق الواقعة مادته ، وهى مستعارُه في كل ما سوّى وفي كل ما صوّر وشكّل ولوّن .

وذلك بأن الانسان مهما رُزق من شـدة العقل وأوتى من قوة الخيال ، لايستطيع أن يتصوّر شيئاً لم يقع عليه حِسُّه . وكيف له بهذا والحسُّ وحده هو السبيل لاسبيل غيره إلى إدراك الانسان ، وإلى إدراك الحيوان . فدُنيا الحيوان هى ما يحيط به ويشهده في مضطربه لا أكثر ، ودُنيا الانسان في الواقع ، هى ما يَرى وما يسمع ، وما يدرك من الحقـائق بسائر الحواسّ الأخرى ، وليس يعدو العلمُ من طريق القراءة حاستى السمع والبصر . بل إن هذا الانسان نفسَه لو قد كُفَّ من أول مولده في محبس لما قدَّر أن دنياه شيء غير ما هو فيه ، وما يتصل من الأسباب بما هو فيه ، ولقد يمد ذهنه إلى التقصي ، ولقد يتبسَّط في القياس ، ولقد يذهب في إدراك مالم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد ، ولكنه في النهاية لن يقع على جديد لايتصـل بمحيطه ، ولا يرتبط بأسبابه [1] .

* * *

لك الحق بعد هذا الكلام أن توجه هذا السؤال : إذا كان الخيال لايمكن أن يعدو الواقع الذى يُدركه الحس ، فما الفرق بينه وبين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أخيلة الشعراء وبين حقائق العلماء ؟

لقد توجه ، بادىء الرأى ، هذا السؤال ، على أنك لو فكّرت وتدبرت لبان لك الفرق بينهما دون جُهد في التفكير والتدبير : فالعالم إنما يطلب الحقيقة كما هى ، سواء أكان ذلك بأخذها كما قررها مقرروها ، أو باستظهارها ، أو باستكشافها ، أو نحو ذلك من وسـائل إصابتها والتهدّى إليها . أما الخيال فانه يعمد إلى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، ويأخذها بالتشكيل والتلوين ، حتى تستوى له منها صورة تَوائم في قوتهـا وروعتها وتناسقها حظ مسوّيها من قوة التخييل ، وجودة الصنعة ، ودقة الذوق . والعكس في العكس .

فقد بان لك أنّ الصورة المتخيَّلة مهما غـلا فيها صاحبها وأطرف ، ومهما أبعـد بها عما طالعه الفكر ، فانها مشكَّلة من حقيقة واقعة ، أو ملفقة من حقائق واقعة . ولست أصيب مثلاً لتوضيح هذا الكلام أحسن مما أجراه أصحاب المنطق من التمثيل للممكن العقلي (المستحيل الوقوعى) بقيام جبل من الذهب ، وتموّج بحر من الزئبق . فذلك وإن كان غير واقع بالفعل ، إلا أنه مما يمكن إيقاعه في الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجبل موجود والذهب موجود . والبحر كائن والزئبق كائن . وكل سعى الخيال في تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لذلك الجرم ، فيكون جبل الذهب ، ويكون بحر الزئبق .

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر في الجملة ، مُعطٍ ، أما العالم ، في الجملة ، فآخذ : الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق ، والتلفيق بينها ، وإفراغها في غير صورها ، وتلوينها بغير ألوانها . أما العـالم فأبلغ جهده في تلق الحقائق . فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما

(١) سبق الكاتب أن ألم بهذا المعنى إلماماً يسيراً في بعض ما كتب من الرسائل

انكشف له فيها من الآثار ، وما تُخلى عليه من مكنون الأسرار .

***

ولقد علمت أن الشاعر إنما يتكئ في فنه أكثر ما يتكئ على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثر النقدة الى أنه ليس شعراً ذلك الكلام الذى يجرى فى الحقائق المجردة ، وإن كان مقفى موزوناً . ولقد عرفت أثر الخيال فى تلفيق الحقائق وتزييفها ، وطبعها على غير صورها الواقعة . لهذا نفى الله تعالى أن يكون كتابه الحكيم شعراً ، ونفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وما هو بقول شاعر) . (وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ردَّ جل مجده بهذا وبغيره دعوى الكفار من أن القرآن شعر ، على معنى أنه من تلفيق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم بأنه سحر ، والسحر ما يوارى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صور تتمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سحروا أعين الناس) . (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) . إنما الكتاب كله حق وصدق ومنطق صحيح (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) . (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله المعلمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة .

***

ومن البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم فى فنون المعانى لمجرد العبث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغاية كل الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريفة بديعة لهذا الذى أدركته من الواقع ، أو تترجم لك عما يدق عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكه وتسويته . ونحو هذا مما يرهف الحس ، ويمتع النفس بمطالعة صورة من صور الجمال الفني فى أى وضع من أوضاعه ، وعلى أى شكل من أشكاله .

ولا شك فى أن أبدع هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحس ، وأجلها موقعاً من النفس ، هى أدقها حبكاً ، وأحكمها سبكاً ، حتى إذا طالعتها التبست عليك بالحقيقة ، أو إنها لتكاد . وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء فى قوة التخيل ، ورهافة الحس ، ودقة الصياغة ، وبراعة الأداء .

وفى هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير الى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذب الشعر أكذبه . وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ما وقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحى هذا الموضوع رأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولسنا نعنى بالصدق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وإنما نريد به الصدق فى الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر فى الواقع هو الذى ينفض عليك ما يعتلج فى نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه فى إدراكه للأشياء .

ولا يذهب عنك أننا نحن سواد الناس تعرض لنا الأشياء فندركها ، فى الغالب ، كما هى ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا . وهذا الادراك لا يتعدى ظاهر الصور ، أما الشاعر ، وأعنى به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرة نافذة فى مطاوى كثير من الأشياء ، تسلكها دقة حسه ، وهنا يتقدم خياله السرى فيسوى منها صورة جميلة بارعة ، فاذا واتته قدرة النظم ، فأداها كما أدركها ، وجلاها كما تمثلت له ، خرجت على حظ من الاحسان والاجمال يوائم حظه من قوة الخيال ، ودقة الذوق ، وحسن الأداء .

والشعر الذى تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذى يروعك ، ويصقل حسك ، وقد يغمز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفعك به إلى نفسه ، فأشهدك مالم تكن تشهد ، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، وبعث عاطفتك خلقت فى عالم الروح كل محلق ، وترقرقت فى سرحات الجمال كل مترقرق .

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، فى هذه الحالة ، وإن كانت خيالاً فى خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودقة صنعها تشبه عندك الصور الواقعة ، بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لها فى نفسك هذا الأثر ، وهى نفسها قد تمثلت لأدراك الشاعر واضحة سوية ، فى غير تعسر ولا تعمل ، فنفضها فى الشعر عليك كما تراءت لذهنه ، وتمثلت لحسه .

أرجو أن يكون قد صح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أكذبه

الصناعة الشعرية :

ولست أعنى بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال . فانه إذا كانت الصناعات البديعية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر العربى إساءة بالغة ، فان الصنعة الخيالية لقد كانت فى الأساءة أشد وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدى لقرض الشعر ، على العموم ، لا يشعر شيئاً ولا ينفذ حسه إلى شىء . فيبعث خياله من مجثمه ، ويستكرهه استكراها على أن يصنع له صورة شعرية ، فيمشى متعثراً هاهنا وهاهنا فى الارتياد لما عسى أن يسنح له من المعانى واقفة حيث وقفت . حتى إذا لاح له شبحها شكها ولو لم يتبين شخصها . ثم جعل يعالجها بالترويض والتذليل ، ويضيف اليها ما ظنه من جنسها ، أو ما حسبه مما يلابسها . ويطبع من هذه الأمشاج صورة شعرية (والسلام) ، صورة لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوقها ، ولا من يقرؤه شعر بالألف لها ، أو ذكا حسه بها .

وهذا الخيال المصنوع المتعمل المجهود به ليس من الشعر فى كثير ، وهذا على أرفق تعبير . بل إنه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد فى بسائط المصنوعات . بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة ، تخفى معارف وجهها على ناظمها فكيف بقارئيه ؟ وعلى عيبى أن أقول إن شيئاً من هذا يقع فى بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام ! . .

ودعنا من الحديث الآن حتى نفرغ من شأن القديم . وخبرنى بعيشك أى شىء هذا الذى ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل ! .

لو لم تكن نيةُ الجوزاء خدمتَه
لما رأيتَ عليها عِقد منتطق

وقول الآخر فى هذا الباب أيضاً .

لم تحكِ نائلكَ السحابُ وإنما
حُمّت به فصبيبُها الرُّحَضاء[1]

اللهم أفكان من السائغ فى العقل أو فى الذوق أو فى الخيال أن نظرة الشاعر للجوزاء يحيط بها دقاق النجوم لم تلهمه إلا أنها إنما تمنطقت لتقوم على خدمة ممدوحه ؟

وهل كان من السائغ أن نظرة ثانى الشاعرين فى السحاب وهى تهمى ، لم تشعره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته ، فأخذتها الحمى ، فلم يكن ماتسُح به إلا من عرَقها !

اللهم أشهد إن هذا وهذا كلام بارد مليخ ، وهذا وهذا من الخيال الفسل السخيف ! .

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع فى قرض الشعر فى الجملة ، الى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبع له ولا شاعرية فيه ، فهو يتصيد الخيال تصيداً ويصنعه صنعاً ، ليجىء بنحو مايجىء به الشعراء ، وإما الرغبة فى شدة المبالغة ، والايفاء على الغاية من المديح ونحوه ، فيسف الشاعر ويسخف ، ويأتى بمثل هذا الهذيان الذى أتى به ذانك الشاعران . إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح ، ولا لخيال واضح صريح : والحمد لله الذى عفى على كثير من هذا الأدب فى العصر الذى نعيش فيه

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زهير بن أبى سُلمى فى مدح هَرِم بن سنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غلا فى ذلك أشد الغلو ، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة .

قد أحدث المبتغون الخير من هَرِم
والسالكون الى أبوابه طُرُقا
من يلقَ يوماً على علاّته هَرِماً
يلق السماحة منه والندى خُلُقا

وذلك لأن ممدوحه كان جواداً حقاً ، وأنه هو تأثر بشدة جوده حقاً ، وهو الى هذا شاعر فحل ، خصب الذهن سرىّ الخيال ، فلم يتعمل ولم يتعسف ، بل لقد انتضح شعره بالصورة التى جادت بها شاعريته فجاءت ، على إمعانها فى الغلو ، سائغة مسبوكة لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ، وبين الخيال المصنوع .

* * *

ولقد عرض ذكر الذوق فى بعض هذا الحديث . وللذوق محله غير المنكور فى الشعر وفى غير الشعر . ولقد كان ينبغى أن نفصّل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام . فلنرجىء هذا الى مقال آخر ؟

عبد العزيز البشرى

(١) يقال رحض المحموم : أخذته رُحضاء الحمى ، وهى عرقها .

بين فن التاريخ وفن الحرب

١ - خالد بن الوليد*

في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان حرب الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

يعد خالد بن الوليد من أكبر قادة العرب في عهد الفتوح الأولى ، وهو بلا منازع من أفذاذ الرجال الذين حالفهم النصر وأيدهم الظفر في المنايع والحروب بلا استثناء .

ولم يذكر قط له التاريخ وقعة خسر فيها المعركة وهو قائدها ، حتى في معركة مؤتة التي وقعت في السنة الثانية للهجرة في شرق الأردن بين الطفيلة والكرك ، أنقذ خالد المسلمين ببطولته وإقدامه ، برغم تفوق الأعداء الأكيد وموت الذين تولوا القيادة على التعاقب عملاً بوصايا الرسول .

وفي غزوة أحد كان خالد يقود خيالة قريش فبقي في الميمنة يشاغل ربيئة المسلمين الموقدة لحماية الميسرة بالهجوم عليها من حين إلى آخر ، ويراقب سير القتال بين المسلمين وقريش إلى أن رأى ربيئة المسلمين تركت موضعها وسارعت للاشتراك في الغنيمة ؛ فهجم بخيالته ملتفاً وراء المسلمين وقاطعاً عليهم خط الرجعة ، فقلب نصر المسلمين إلى انكسار انتهى إلى انهزام المسلمين وجرح الرسول .

قلنا من الوقائع التي اشترك فيها خالد بن الوليد في عهد إشراكه وإسلامه أن تلك الوقائع جميعاً انتهت إلى النصر المبين .

ومما لا شك فيه أن خالداً من أقدر قواد العرب على القيادة . فجدير بالضباط أن يدرسوا حركاته إن في حروب الردة أو في فتح العراق أو فتح سورية . ومن الواضح أنهم سيطلعون على الأسس القويمة التي كان يسير عليها ويرون فيها تنفيذ مبادئ الحرب التي لا تزال مرعية حتى يومنا هذا .

ولقد قال خالد قبل وفاته إنه شهد مائة زحف أو زهاءها ، وما في بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة . ولا نبالغ إذا قلنا إنه خرج من تلك الزحوف بأجمعها غالباً منصوراً .

١ - مصادر البحث :

من العسير جداً البحث في أخبار الفتوح الأولى بحثاً يمكننا من الاطلاع على الخطط العسكرية والأسباب التي أدت إلى وضعها والنتائج التي أسفرت عنها الحركات . ذلك لأن القصاصين أو مدوني السير والمغازي أو مؤرخي الفتوح ليسوا من أبناء الجيل الفاتح ، فقد دونوا الأخبار بالسماع أو نقلاً بالأسناد . وقد نراهم غير متفقين في تدوينهم الأخبار على التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة ، ولا على مقدار القوة التي اشتركت فيها ، ومن المعارك ما لم يتفق المؤرخون على زمن وقوعها . والحقيقة أن التاريخ العسكري يثبت المعارك التي جرت قبل الميلاد بمقدماتها ونتائجها وتفاصيلها ، وقد يستخرج منها الباحث الأسس الحربية دون عناء .

فالمعارك التي نشبت بين الجيش المكدوني بقيادة الاسكندر والجيش الفارسي في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد تم تدوينها بصورة أقرب إلى الصحة من الوقائع التي نحن بصددها .

أما المعارك التي جرت بين الجيوش الرومانية وجيوش الأقوام المهاجرة ، والقتال الذي نشب بين القياصرة والقواد الطالبين بالعرش ، فأخبارها مفصلة في كتب التاريخ إلى حد أن الباحث فيها لا يرى مشقة في استقصاء الحوادث .

فمعركة (كانية) التي نشبت سنة ٢١٦ قبل الميلاد بين الجيش القرطاجي بقيادة هنبال والجيش الروماني ، كانت ولا تزال مثالاً ينسج القادة العظام على منواله تعبئة الجيش في ميدان المعركة ، وهي بلا منازع معركة نموذجية تتوق نفس كل قائد إلى تقليدها .

والسبب في تدوين أخبار هذه المعارك تدويناً صحيحاً مع أنها نشبت قبل الفتوح العربية بعدة قرون ، هو أن المؤرخين الذين أثبتوا أخبارها إما أنهم اشتركوا فيها فعلاً ، وإما أنهم قادوها بأنفسهم ، وإما أنهم عاشوا في زمن وقوعها . فالقائد زينوفون

* وهو بحث قيم لا يستطيع مثله اليوم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

اليونانى الذى قاد العشرة الآلاف من بلاد بابل إلى بلاد اليونان راجعاً بهم إلى بلاده سجل حوادث تلك الرجعة فى كتابه « الزحف » (أنا باسيس Anbasis) وهذا الكتاب لا يزال مرجعاً ثقة للباحثين العسكريين . وكذلك سجل يوليوس قيصر أخبار فتوحه فى بلاد جيرمانية فى كتاب « الحروب الغالية » .

أما المؤرخون العرب الأولون فلم يدونوا أخبار الغزوات النبوية وحروب الردة والفتوح التى تمت فى النصف الأول من القرن الهجرى إلا بعد انقضاء جيلين على أقل تقدير .

وأول من جمع الوثائق الباحثة فى الغزوات والفتوح الأولى عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هجرية . فان عروة جمع تلك الوثائق فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان — أى بعد وفاة الرسول بستين سنة ، ودونها دون إسناد . ويلى عروة فى التدوين ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هجرية مقتبساً معلوماته من عروة . أما ابن هشام المؤرخ للسير النبوية فاستقى أخباره من ابن أسحق ، مع أنه توفى بعده بقرن ونصف قرن — أى سنة ٢١٣ هجرية . ويأتى بعده ابن سعد الواقدى الباحث فى حروب الردة والمدون للفتوح العربية فى العراق وفى سورية ، وتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، بعد أن عاش ٦٢ سنة . ويليه المؤرخ المشهور الطبرى وهو بلا منازع أول مؤرخ عربى أثبت الأخبار التاريخية بطريقة علمية وتوفى سنة ٣١٠ هجرية بعد الفتوح العربية الأولى بقرنين ونصف قرن على أقل تقدير .

والحقيقة أن كتاب تاريخ الطبرى هو العمدة فى استقصاء أخبار الفتوح العربية وهو المرجع الأول والأخير . وهكذا يتضح لك أن رواة الفتوح أو مؤرخيها لم يشتركوا فى وقائع الفتوح أو أنهم لم يعاصروا أولئك الفاتحين ، بل إنهم دونوا أخبارها سماعاً أو نقلاً بعد مرور مدة غير يسيرة على الفتوح . وكان لزاماً أن تأتى الأخبار ناقصة ومشوشة ومتناقضة . حتى أمسى الباحث فيها لا يهتدى الى استنباط بعض الحقائق إلا بشق النفس . والذى يزيد البحث إشكالاً كثرة الرواة الذين استند اليهم المؤرخون فى تدوين الأخبار . وأنت تراهم يسخون برواية غثها ويبخلون بسمينها .

وثمة تناقض بين أخبار الرواة المنتمين الى الديوان الحجازى والرواة المنتمين الى الديوان العراقى . وكذلك نجد تناقضاً فى الروايات التى ينقلها المضرى والربيعى واليمانى والقيسى . لأن كلا من هؤلاء حاول أن ينسب مفخرة الوقعة إلى قبيلته وقد يكون غير مشترك فيها .

٢ — دار الحركات :

إن الساحة التى جرت فيها الحركات تمتد من سواحل البحر الأحمر فى الحجاز وتنتهى فى أرض الدهناء التى تفصل بين مقاطعة الحسا ومقاطعتى العارض والسدير ، وهذه الساحة تتناول شمالى الحجاز وجبل شمر وبلاد نجد .

والأرض التى تتكون منها هذه الساحة صحراوية الوصف على العموم ، والمياه فيها قليلة ، والغابات لا أثر لها فيها ، وتتخللها واحات نبتت فيها أشجار النخيل وبعض أشجار الفاكهة . وقد تكونت فى المنخفضات التى تنصرف اليها مياه الأمطار بسهولة حيث تكثر الآبار الضحلة ، وتقطع الوديان هذه الساحة ، وتكاد تبدأ جميعاً من هضبة نجد المرتفعة فتجرى فى جهات مختلفة : ويصب بعضها فى البحر الأحمر والبعض الآخر فى خليج فارس أو فى جهة الربع الخالى . والوديان يابسة على العموم وهى ضيقة ووعرة عند اجتيازها المناطق الجبلية وعريضة سهلة عند مرورها بالبادية .

وينبت فى بعض أنحائها شجر الأثل والشوك والطلح وغير ذلك من الأشجار التى تتحمل العطش . وعند ما تنزل الأمطار تجرى اليها المياه من كل جانب فتغطى الوديان سيول المياه الجارفة الجارية بسرعة ، وتصب إما فى البحر وإما فى الأنفدة الرملية .

والجبال فى المنطقة التى جرت فيها الحركات قليلة . وهى لا تتعدى سلسلة طويق فى نجد تمتد من الشمال الى الجنوب فى جبلين متوازيين ، ويشرف الجبل الغربى على الأنفدة الغربية بين نجد والحجاز . ويشرف الجبل الشرقى على رمال الدهناء الواقعة بين خليج فارس ونجد . والسلسلة جرداء ، لا نبت فيها ولا ماء . وفى القسم الجنوبى من منطقة العارض يفصل وادى حنيفة هذين الجبلين أحدهما عن الآخر ، فيجرى أولا من الشمال الى الجنوب بعد أن تصب فيه عدة شعب من الشرق والغرب ، وفى جنوبى الرياض يغير مجراه الى الجنوب الشرقى فيصب فى رمال الأحقاف .

وما عدا سلسلة طويق نجد سلسلتين أخريين فى منطقة جبل

شمر وهما جبل أجأ وجبل سلمى ، وهما متوازيان يفصل أحدهما عن الآخر وادي العيش . ويمتد كلا الجبلين من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . وجبل أجأ باتصاله بالجبال المنفردة الواقعة في جنوب غربيه يكون سلسلة طويلة تمتد الى حرة خيبر في الحجاز .

والسلسلتان حجريتان ارتفاعهما من ٥٠٠ إلى ١٨٠٠ متر .

والجبال المتفرقة التي تتشعب من هاتين السلسلتين تحيط بها الكثبان الرملية ، والبادية الواقعة بين الحجاز وسلسلة طويق مكونة من هضبة مرتفعة يتفاوت ارتفاعها من ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ متر ، وتكتنفها بعض الروابي الحجرية المنفردة . وهذه الهضبة تنفصل عن هضبة جبل شمر بوادي الرمة الذي يبدأ من حرة خيبر ، ويجري من الغرب الى الشرق ، وبعد أن يسقي بآبار منطقة القصيم الغنية يغير جهته الى الشمال الشرقي الى أن يصب في أرض السواد بجوار البصرة .

والوادي هنا أخطر الوديان الواقعة في دار الحركات ، وهو يفتح خطوط الحركات بين الحجاز ونجد . وعندما تقطع الوديان وشعابها السلاسل الجبلية تكون العقبات المضائق والمنعطفات التي تنساب فيها الطرق .

والساحة مملوءة بالأنفدة الرملية ، والكثير منها يتجه من الشمال الى الجنوب ، أو من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، لذلك تعترض الوديان الطرق الممتدة من الغرب الى الشرق .

ومن جملة العوارض التي تتصف بها دار الحركات الحرات ، وهي الأراضي البركانية التي تكتنفها الحجارة الخامدة . وهذه الحرات واقعة الى شرق الحجاز ، وأخطرها حرة خيبر الواقعة في شمالي المدينة مسافة بضع مراحل .

والبقاع الآهلة بالسكان في هذه الساحة هي الواحات في بطن الوديان أو في الأرض المنخفضة التي انصرفت الى بطنها مياه الأمطار ، وأخطرها واحة المدينة في وسط وادي الحمض ، ثم واحة بريدة وعنيزة في وسط وادي الرمة . وواحات العارض الممتدة على طوار وادي حنيفة ، ثم واحات السدير وواحة خيبر وواحات جبل شمر .

وتمتد الطرق في الوديان للاستفادة من المياه المتراكمة فيها في زمن الأمطار من الآبار المحفورة على طوارها . وهذه الطرق تبدأ من المدينة ، ومنها مايتجه شمالاً ، فبعد أن يمر بخيبر يمتد الى وسط جبل شمر سالكاً السفوح الجنوبية لسلسلة أجأ ، ومنها مايتجه نحو الشمال الشرقي الى أن يهبط الى وادي الرمة فيسلكه حتى يصل الى واحات نجد الغنية . ولا سبيل الى السير على خارج الطرق لوعورة الأرض وندرة الماء فيها .

(يتبع) طه الهاشمي

٢ - الشريف الأدريسي

يضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضي

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

٧ - الادريسي يضع خريطته بناء على نظريته السابقة .

وبناء على نظرية الأدريسي التي شرحناها وضع خريطته العالمية هذه ، فهي تمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية وهو القسم الشمالي منها كما قدمنا . هذا القسم يشمل القارات الثلاث : أفريقية الشمالية في الجهة اليمنى العليا (الجنوب الغربي) ، أوربا في الجهة اليمنى السفلى (الشمال الغربي) يفصل بينهما بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، وآسيا في النصف الشرقي تشمل جميع الجهة اليسرى . وأميركا طبعاً لم تكن عرفت بعد ، وكذلك هذا التقسيم إلى القارات الثلاث لم يكن معروفاً لدى العرب على الاطلاق ، وانما كانوا يقسمون الكرة الأرضية إلى الأقاليم السبعة من الجنوب إلى الشمال ، ثم كل أقليم إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق ، وفوق هذا كانوا يقسمونها إلى الدول والممالك التي كانت معروفة في ذلك الوقت .

٨ - الأقاليم السبعة وخطوط العرض

والأقاليم السبعة كانت عند قدماء اليونان عبارة عن خطوط أفقية تبتدئ من خط الاستواء نحو الشمال وتحدد النقط التي تتم فيها زيادة النهار نصف ساعة على طوله في المنطقة السابقة من جهة الجنوب ، ثم استعمل العرب الأقاليم وأرادوا منها المناطق التي تقع بين هذه الخطوط ، وتلك المناطق لم تكن متساوية عندهم . أما الادريسي فانه أراد من الأقاليم السبعة التي قسم خريطته إليها هذه المناطق التي كانت معروفة عند العرب ، ولكنها عنده متساوية المقدار إذا استثنينا الأقليم الأول الذي يمتد إلى درجة ٢٣° شمال خط الاستواء ؛ فالأقاليم الستة الباقية يشمل كل منها ست درجات من درجات العرض ، وعليه فالأقليم الثاني من ٢٤° — ٢٩° ، والثالث من ٣٠° — ٣٥° ، والرابع من ٣٦° — ٤١° ، والخامس من ٤٢° — ٤٧° ، والسادس من ٤٨° — ٥٣° ، والسابع من ٥٤° — ٥٩° .

ولما كانت نظرية الأدريسي أن المسكون من جهة الشمال هو لغاية درجة ٦٣° فقط ، لأن المنطقة التي تقع بعد ذلك شديدة البرودة ومغمورة بالثلوج فهي غير صالحة للسكنى والعمران . لما كانت هذه نظريته أضاف إلى الأقليم السابع الذي ينتهي بدرجة ٥٩° أربع درجات أخرى من جهة الشمال من ٦٠° — ٦٣° وبذلك يتم الجزء المعمور من الأرض . ومما يذكر للأدريسي بالاعجاب والفخر أنه حاول بتقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة إثبات درجات العرض وتحديدها ، وأنه أفلح في محاولته هذه إلى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص في الوقت الحديث يطأطئون الرأس له إعجاباً وتقديراً . ابتدأ الأدريسي باثبات درجات العرض من درجة ٢٨° إلى درجة ٦٣° على التوالي ، والدرجات التي أثبتها توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة في جميع البحار وفي معظم اليابسة حيث توفرت لديه الأسباب وأمكنه إجراء المقاييس الصحيحة ؛ وفي بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم لديه الأسباب تختلف الدرجات التي أثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافاً بسيطاً . فمثلاً وضع الادريسي مدينة « كلمار » ببلاد السويد عند درجة ٥٦½° وهي تقع عند درجة ٥٦½° ، وجعل الدانيمرك ابتداء من ½ ٥٤° إلى ٥٨° والصحيح انها من درجة ٥٤° إلى ½ ٥٧° ، وجعل انكلترا من ٥٢° — ٥٨° بدلاً من ٥٠° — ½ ٥٨° ، وهذا طبعاً فرق بسيط في جهات قليلة دعا إلى ارتكابه عدم توفر الأسباب كما قدمنا ، ولم تنقصه عناية الأدريسي ودقته . أضاف الأدريسي إلى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءاً بسيطاً من القسم الجنوبي إلى درجة ١٦° جنوب خط الاستواء ، هذا الجزء الذي تقع فيه منابع النيل ، وبين عليه منابع النيل بشكل واضح يدل على مقدار براعته العلمية ، ومد الساحل الشرقي لأفريقيا نحو الشرق وجعله حداً للمحيط الهندي من جهة الجنوب ، وطبعاً لم يلق هذا الجزء عناية الأدريسي لخلوه من السكان وعدم صلاحيته لذلك طبقاً لنظريته التي شرحناها . كذلك لم يثبت الأدريسي درجات العرض إلى درجة ٢٨° شمال خط الاستواء ، وانما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة . ولما كانت هذه الأرقام لا تتطابق مع درجات العرض للبلاد الموضوعة بجوارها وانما

تختلف عنها اختلافاً كبيراً فاننا نستطيع أن نفهم السر فى أن العلامة الأدريسى لم يثبت هنا درجات العرض متوالية كما فعل بعد تلك المنطقة ، بل اكتفى بوضع الأرقام التى وصلت إليه فى مواضعها كما أخبر بها .

٩ — التقسيم الثانى (تقسيم كل من الاقاليم السبعة الى عشرة أقسام) .

وبعد هذا قسم الأدريسى كلا من الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب إلى جهة الشرق ، فالأقليم الأول يبتدى من القسم الأول غرباً إلى العاشر شرقاً ، والثانى من الحادى عشر إلى العشرين ، وهكذا إلى الأقليم السابع الذى يبتدى بالحادى والستين وينتهى بالسبعين . وعليه فأول الأقسام السبعين يوجد فى الجهة العليا من الغرب ، وآخرها فى الجهة السفلى من الشرق .

بحث الأستاذ « ميللر » هذا التقسيم الثانى فتبين له كما ذكر أن الأدريسى لم يرد به إثبات درجات الطول ، وأن الباحث بخريطته والقارىء لكتابه نزهة المشتاق لايستطيع أخذ ذلك منهما ، فضلا عن أن هذا التقسيم يختلف اختلافا كبيرا عن درجات الطول . لهذا أريد أنا هنا أن أفرض أن الأدريسى اتخذ هذا التقسيم الثانى تسهيلا للقيام بالمهمة ورسم الخريطة لا غير .

١٠ — البحار السبعة .

وبعد هذا نريد أن نتكلم على البحار السبعة التى ضمنها الأدريسى خريطته ، وهى شىء آخر غير البحر المحيط أو بحر الظلمات الذى يحيط بالكرة الأرضية .

(١) البحر الشامى أو الرومى (البحر الأبيض المتوسط) الذى يتفرع من بحر الظلمات الغربى ويمتد نحو الشرق .

(٢) خليج البندقية (بحر الأدرياتيك) .

(٣) خليج النطاس (البحر الأسود) ، وهذان يتفرعان من بحر الروم .

(٤) البحر القزوينى أو بحر الخزر وهو بحر داخلى غير متصل بالمحيط الأعظم .

(٥) بحر الهند (المحيط الهندى) وهو يحتوى على ثلثمائة جزيرة يستمد ماءه من بحر الظلمات الشرقى .

(٦) البحر الفارسى .

(٧) بحر السويس أو بحر القلزم (البحر الأحمر) وكل من هذين يتفرع من بحر الهند .

١١ — الادريسى يسير فى وصفه للكرة الارضية بناء على التقسيم الثانى .

هذه البحار السبعة تخترق الأقاليم السبعة بحسب مواقعها ، ولقد وصفها الأدريسى وصفاً مسهباً دقيقاً ووصف جزرها والبلاد التى تقع عليها إلى غير ذلك فى كتابه نزهة المشتاق عند كلامه على الأقاليم السبعين التى شرحناها فى التقسيم الثانى . فانه اتخذ فى طريقة وصفه للكرة الأرضية أن ابتدأ بوصف القسم الأول من الأقليم الأول متدرجا نحو الشرق إلى العاشر ، ثم عاد الى القسم الأول من الأقليم الثانى متدرجا الى العشرين ، وهكذا سار فى طريقه إلى أن تم الكلام على القسم الأخير من الكرة وهو القسم السبعون ، وعند كلامه عن كل قسم منها حدده وبين موقعه ، وتكلم عن مدنه وجباله وبحاره وأنهاره وعن كل ما يحتويه من ماء ويابس ، وعن الدول التى تشغله وعن سكانه وجنسياتهم وعاداتهم وعما يعيش فيه من حيوان وما ينبت فيه من نبات ، مبينا كثيرا من خواص ذلك الطبيعية والطبية الى آخر ما ضمنه نزهة المشتاق من الشرح المسهب والملاحظات الدقيقة .

١٢ — مصير المائدة الفضية وأثر خريطة الادريسى الذى تركته فى علم الجغرافيا ورسم الخرط .

شرحنا كيف وضع الأدريسى خريطته وكيف ألف شرحها ،

ولقد تم حفر المائدة الفضية ورسم الخريطة وتأليف الكتاب ونشرهما واختيار الأسماء لهما بأمر رجار الثانى فى يناير سنة ١١٥٤ كما سبقت الإشارة الى ذلك ، وبعد إتمام هذا العمل الجليل بستة أسابيع عاجلت المنية رجار الثانى ، ولكن ولله الحمد بعد أن استراح ضميره ووصل الى حل ما استعصى عليه السنين الطوال . وبعد أن قدم للعالم والعلم على يد الأدريسى خدمة من أجل الخدمات فى التاريخ ، ولعله يشوق القراء الآن أن يعلموا مصير المائدة الفضية وماذا فعل الله بها وإن كان مصيرا يوجب الأسف ويثير العبرة ، ففى سنة ١١٦٠ ميلادية بعد وفاة رجار الثانى بست سنوات وفى عهد ابنه « فلهلم » هاجم الثوار القصر الملكي واقتحموه وكان أشنع أعمالهم التى لم تكن موجهة إلى الأسرة النورمانية فقط ، وإنما قد ارتكبت — علم الثوار أو لم يعلموا — ضد العلم والعالم أجمع . كان أشنع هذه الأعمال أنهم كسروا هذه المائدة واقتسموها فيما بينهم وما هى حقاً الا ثورة ، والثورات لا عقل لها ، تم هذا الجرم على مرأى ومسمع من الأدريسى الذى بذل مع مليكه من الجهد ما استغرق السنين الطوال وما كلفهما كثيراً من تضحيات . حتى أبرزا عملهما القيم للوجود . والذى كان يستطيع أكثر من غيره أن يقدر قيمة عملهما العلمى والفنى . لم يبق بعد هذا إلا خريطة الحائط وخريطة الكتاب الموزعة فى السبعين قطعة التى هى أقسام الأقاليم السبعين كما ذكرنا . انتشرت هذه الخريطة من بعد أشد الانتشار وأعمه ، وتركت أثراً واضحاً فى المؤلفات والخرائط الجغرافية التالية لهذا العصر فى الشرق والغرب ، وظلت مع شرحها مئات السنين المرجع الوحيد لعلماء الجغرافيا من العرب والأفرنج . ومعينهم الذى يستمدون منه معلوماتهم . ولقد ذكر الأستاذ ميلر بعض أسماء المؤلفات التى يظهر فيها أثر خريطة الأدريسى وكتابه بوضوح عند أول نظرة ، منها كتاب الجغرافيا لابن زيد المولود بغرناطة سنة ١٢١٤ والمتوفى بتونس سنة ١٢٧٤ ومنها خرائط مارينو زانوتو Marino Sanuto التى وضعها (بطرس فيسكونتى Potros Vesconte فى سنة ١٣١٨ — ١٣٢٠ م . والتى انتشرت فى جميع أنحاء أوروبة . الى آخر ما عدد من أسماء المؤلفين والمؤلفات التى قد يكون لنا أن نكتفى منها بما ذكرنا .

(يتبع) محمد عبد الله ماضى

في الأدب الدرامي

٨ – الرواية المسرحية

في الفن والتاريخ

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر المآسي

(فدر Phèdre) : موضوعها أسطورة من أساطير الأغريق في عهد الحروب الطروادية ، وأهم أشخاصها تيزيه بن ايجيه ملك أثينا ، وفدر امرأة تيزيه وبنت مينوس ، وهيبوليت بن تيزيه من انتيوب ملكة الأمازون ، وأريسي أميرة من أميرات أثينا ، وتيرامين مشير هيبوليت ، وأونون مرضعة فدر ونجيها . وقد وقعت حوادثها في ترزين إحدى مدن (بيلوبونيز) وملخصها أن فدر امرأة تيزيه تبوح إلى مرضعتها (أونون) بهواها الدخيل وحبها المضمر لهيبوليت بن زوجها ، ويستفيض الخبر في الناس فجأة أن تيزيه قتل في أثناء رحلته ، فتهتبل هذه الفرصة فدر ، وتعلن إلى هيبوليت غرامها ، فيقابل إعلانها بالدهش والأباء ، ويظل مخلصاً لحبيبته أريس . ثم يعلمون أن الملك حي وأنه قدم المدينة ، فتيأس فدر من هيبوليت ، ويتسعر قلبها بالغيرة ، ويعضها الندم ووخز الضمير . فتخجل من لقاء الملك وتفر من وجهه ، وتظن أن هيبوليت سيفضي إلى أبيه بما كان منها فتترك أونون تؤلف المكيدة له ، وتدبر الوقيعة به ، فتتهمه عند أبيه بمراودة سيدتها عن نفسها فيثور ثائر الملك فينفي ابنه ، ويكله إلى غضب (نبتون) . ويستيقظ ضمير فدر ، فتنفجر باللعنة والعقوبة على مرضعتها الأثيمة ، ويرجع تيرامين فيقص على الملك في أسلوب بليغ مؤثر حوادث مصرع هيبوليت ، وموته تلك الميتة الشنيعة ، فيجزع الملك ، وتقوم الأدلة على براءة ابنه مما اقترف به ، فيتضاعف الحزن ويجل الخطب ، فيذهب إلى فدر يسألها جلية الأمر ، فتعترف له بخيانتها ، وقد كانت من قبل قد شربت سماً فيفعل في جسمها ، ولا تلبث أن تلفظ نفسها على المسرح .

مآسي فولتير

أشهر مآسي ڤولتير اثنتان وهما : (زيير) وميروب :

(زيير Zaïre) : موضوعها ذكرى من ذكريات الحروب الصليبية ، وقعت حادثها لفتاة مسيحية أخذها أحد فرسان المسلمين في سبيه منذ طفولتها فرباها وأراد أن يتزوج منها ، ولكنها عرفت أباها وأخاها وهي على وشك الزفاف فأغرياها بالتنصر ، وهذه المأساة مكتوبة على مثال عطيل لشكسبير . أما أهم أشخاصها فهم : أورسمان وهو سوداني من سكان أورشليم وخطيب زيير ، ولوزينيان أحد أمراء أورشليم وابنته زيير وابنه نيرستان ، وثلاثتهم من أسرى صلاح الدين ، وشاتيليون فارس فرنسي ، وفاطمة جارية من جواري السوداني ، وقد وقعت هذه المأساة في أورشليم .

ففي الفصل الأول : تبوح زيير لفاطمة بسر زواجها المقبل من السوداني . فتذكرها الجارية أنها مسيحية . وكان نيرستان قبل ذلك قد نال الأذن من مولاه أورسمان أن يذهب إلى فرنسا ليأتي بالفداء له ولعشرة من الأسرى . فيعود ويطلب من أورسمان فك رقبة زيير وفاطمة وعشرة فرسان من الأسرى . فتفعل هذه الأريحية في نفس الأمير ، فيمنحه مائة أسير ليس فيهم زيير ولا لوزينيان .

وفي الفصل الثاني : تريد زيير أن تقضي نيرستان حق الشكر على مروءته وفضله ، فتحمل أورسمان على إطلاق سراح لوزينيان . فيتحرر هذا ، ولكنه يعرف ابنته زيير بصليب قد احتفظت به ، وابنه نيرستان بأثر جرح فيه . ويأخذه المقيم المقعد من الهم والحزن حين يعلم أن ابنته مسلمة ، ولكن زيير ترتمي في أحضان أبيها ، وتعده أن تتنصر .

وفي الفصل الثالث : يلقى نيرستان أخته ، وينعى اليها لوزينيان أباها ، ويحضها على أن تعجل باعتناق النصرانية . فتوافقه على ذلك ، وتقسم له أنها لن تتزوج من أورسمان . ويأتي هذا بعد قليل يطلبها الى المسجد[1] ليعقد عليها ، فتستمهله ريثما تدبر وسيلة للهرب .

وفي الفصل الرابع : يعطيها أورسمان يوماً للاستعداد للزواج . وفي غضون تلك المهلة يرسل نيرستان كتاباً الى أخته ، يرشدها فيه الى طريق الهرب ، ويلقاها على باب سري تنجو منه ، فيقع

(١) ليس من عادة المسلمين أن يحتفلوا بالزواج في المسجد كما يحتفل به المسيحيون في الكنيسة ، وإنما هذا قياس من فولتير ورطه فيه جهله بالعادات الأسلامية فأساء به الى شرط اللون المحلي أيضاً .

هذا الكتاب في يد أورسمان ، فيظن أن نيرستان يزاحمه في حب زير وهو يحاول الفرار بها . فيعد الوسائل للقبض عليه .

الفصل الخامس : وفي جنح الليل البهيم تتسلل زير الى المكان الذي دلها أخوها عليه ، وتناديه فلا يجيبها غير أورسمان بطعنة نجلاء بخنجره ، ويسحب نيرستان في المسرح الى موضع الجثة ، فيصيح الأخ المنكود : وأختاه !! فيعرف أورسمان خطأه ، ويعتلج في صدره الندم واليأس فينتحر .

يأخذون على هذه القطعة فقدان اللون المحلي منها في دوري زير وأورسمان . فقد يخيل الى من يسمع تلك المواطف التي أكنَّاها وشرحاها ، أنهما من المختلفين الى أندية السمر الأوربي في القرن الثامن عشر ، فضلا عن أنه جعل ذلك الأمير الكريم الحليم الوديع ينتقل فجأة الى جنون الغضب لرؤيته رسالة لم يتحقق ما فيها .

***

(ميروب Mirope) موضوعها استيلاء ايجسط بن ملك مسينا على العرش ، ومدارها على انتصار الحب . وأهم أشخاصها : ميروب أرملة كريسفونت ملك مسينا ، وولدهما إيجسط ، وبوليفونت قاتل الملك ، ونرباس خادم كريسفونت الخ . وقد وقعت حوادث هذه المأساة في مسينا .

الفصل الأول : قبل خمسة عشر عاماً من ابتداء المأساة قُتل كريسفونت هو وولدان من أولاده في ثورة . أما إيجسط ثالث بنيه فقد أنقذه من المذبحة نرباس خادم أبيه ، ونجا به في بلد غريب ، وكان القاتل هو بوليفونت ؛ وقد استطاع أن يكتم سر الجريمة خمس عشرة سنة ، فيبدأ الفصل بتحريض احدى الوصيفات ميروب على المطالبة بحقها في العرش ، وهي تتربص قدوم ولدها الغائب ، ولكن الشعب يصمم على انتخاب ملك ، ويفاضل الآن بينها وبين بوليفونت . ويوهم بوليفونت الشعب أنه المنتقم للملك ، فيفضلونه وينصبونه عليهم ملكاً . ويريد هو أن يجعل تملكه شرعياً فيحاول الاقتران بميروب فترفض وتطالب بحق ولدها ، فيرسل طغمة من السفاكين يبحثون عن ايجسط ليقتلوه .

الفصل الثاني : وفي أثناء ذلك يقدم الى المدينة شاب فيتهم بقتل ايجسط ويساق الى قصر الملك ، وتسمع بأمره ميروب فتشفق أن يكون ابنها فترغب في أن تراه وتسأله هي بنفسها ، فيجيب الفتى على أسئلتها في طهارة قلب وسلامة ضمير ، فتأبى أن تحكم عليه . ومع ذلك تستفيض الاشاعة في الناس أن إيجسط قد قتل ، وأن قاتله هو ذلك الشاب الغريب . وأقوى الأدلة على حدوث القتل منه أن سلاح القتيل معه ، فيستولى الهم واليأس على الملكة .

الفصل الثالث : تعزم الملكة الرأي على قتل الشاب ، وتحرص على أن تقتله بيدها انتقاماً لولدها واطفاء لكبدها . وبينما هي ترفع يدها بالضربة القاضية عليه يقبل نرباس لحسن الحظ في الوقت المناسب فيمنع الضربة ، ويفشي لها سر هذا الغريب ، ويخبرها أن القاتل الحقيقي لزوجها هو بوليفونت .

الفصل الرابع : يُدهش بوليفونت أن المتهم لايزال حياً يرزق ، ويرتاب في أمر هذا الغلام ، ويرى ميروب مقبلة فيأمر حراسه أن يضربوا الساعة عنق هذا الغريب ، فيضيق ذرع ميروب وتعييها الحيلة ويغلبها الجزع ، فتصيح بالجند : ويحكم أيها البرابرة ، كفوا إنه ابني !!

الفصل الخامس : يقبل بوليفونت أن يُبقي على الولد إذا رضيت أمه أن تكون له زوجة . ولا ترى الأم بداً من الخضوع لقاتل زوجها ابقاء على ولدها ، ويذهب الناس جميعاً الى الهيكل ليحتفلوا بعقد الزواج ، ويأخذ الناس فيما هم فيه ، ويتقدم إيجسط الى الهيكل يريد أن يقسم يمين الطاعة للملك ، فيأخذ مدية القربان ويطعن بها بوليفونت طعنة نجلاء فيصرعه ، ويهتف الشعب بعد تردد قليل للملكة وابن ملكه .

يأخذون على هذه القطعة الرائعة ، بعد الأمكان في بعض الحوادث ، فيسألون كيف يقتل بوليفونت الملك ، ثم يسير بجمعه في الناس خمسة عشر عاما بأنه المنتقم له ؟ وكيف يتهم الفتى القادم الى مسينا بقتل ايجسط وهو نفسه إيجسط ؟ ولماذا تريد ميروب أن تقتل بيدها هذا الغلام ؟ ! والجاذبية مع قوتها لم تسر نامية ، فان الخطر الذي حاق بإيجسط ساعة أن همت أمه بقتله في ختام الفصل الثالث أقوى من الخطر الذي يهدده في الحل .

***

وكان في النية أن أختار نماذج من مآسي شكسبير إلا أن ما اخترناه لغيره قد كثر حتى حبسنا طويلاً عن الموضوع ، فلنكتف بما شاع له في مصر من ملخص ومترجم ، ولنأخذ فيما نحن بسبيله .

يتبع (الزيات)

٢ – مصطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزي أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفي غالي

وفي ذلك الحين لم يكن يسمع في موناستير سوى صفير الرصاص ودوي المدافع، ولم يكن يرى فيها سوى جحافل الجيوش المتأهبة لمقاتلة اليونان الذين استولوا على كريد، وكان الجو يضطرب بإشاعة الحرب واقتراب ساعة الخطر على الأمبراطورية، وأخذت نسور أوربا تتأهب للانقضاض على الجثة محاولاً كل منها أن يظفر بنصيب الأسد. أما في داخل الأمبراطورية فهناك فقر مدقع، وبؤس مفجع، وحكم فاسد، واستبداد خانق، أصبحت معه حياة الأتراك حلماً مروعاً وكابوساً ثقيلاً، إذ سلب السلطان عبد الحميد الأتراك أمنهم وحريتهم، فنشر عيونه في كل مكان، وألقى بالأتراك في أعماق السجون، فعم الذعر وساد القلق كل الناس، ونادى الشبان بالإصلاح، واضطربت النفوس بالثورة، ولا سيما في بلاد البلقان حيث يوجد مستودع البارود على وشك الاشتعال عاجلاً أو آجلاً.

وكان الشاب مصطفى قد هضم كل الأفكار الحديثة الشائعة في أوربا في ذلك الحين وتشبع بها فخالطت لحمه ودمه، فكان إذا تأمل حالة وطنه وما يقاسيه من ألوان العسف والارهاق غلى مرجل قلبه، وتمنى نفسه أن يكون على رأس ثورة تقتلع الاستبداد من أساسه، ويكون هو بطلها البارز وسيدها المطاع، وهكذا تتجلى عظمة بطلنا في حساسية نفسه الكبيرة التي تأبى أن يطمئن له بال أو يهدأ له ضمير حتى تتحقق مثله الأعلى وغرضه الأسمى في الحياة.

وفي أيام العطلة كان يذهب إلى سالونيك لزيارة أمه، ولكنه كان ينأى جهد استطاعته عن الحياة المنزلية، وظل الصفاء بينهما حتى تزوجت، فأنكر عليها الزواج ولم يرتح إليه وصارحها بهذا، فتشاجرا وحل بينهما بعض الجفاء.

وقد تعلم إبان اقامته في سالونيك مبادئ اللغة الفرنسية بمعونة الرهبان الدومنيكان، وتعرف إلى شاب يكبره قليلاً يدعى فتحي كان حيياً أنيس المحضر، وكانا يقرآن معاً في شغف شديد أدب روسو وفولتير وبعض الكتاب الفرنسيين كما قرأ كتب استوارت مل وهبز في الاقتصاد؛ وكان بطلنا لا ينى عن حث الطلبة على انقاذ الوطن من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية كما كان يكتب وينظم القصائد النارية متغنياً بجمال الحرية.

وصاحبه التوفيق في مدرسة موناستير كما صاحبه من قبل في مدرسة سالونيكا، وكتب أساتذته عنه إنه «شاب متقد الذكاء عسير النفس تستحيل مخالطته» وبعد أن أتم دراسته أرسل إلى المدرسة الحربية بالآستانة برتبة ملازم ثان، وهناك انغمس في حياة الاثم والفجور من لعب القمار ومخالطة النساء، ولم يعرف عنه أنه أحب إحداهن ذلك الحب الافلاطوني النبيل، بل كان يقبل عليهن إقبال النحل على الزهرة يمتص رحيقها ويتركها ذاوية ذابلة، وقد انصرف فجأة عن هذه الحياة وأقبل على عمله بجد ونشاط، ووفق فيه توفيقاً بالغاً يعزى قبل كل شيء إلى تعويله على نفسه واعتماده على مجهوده، وقد جاز كل امتحاناته بتفوق باهر، ورقي إلى رتبة كبتن سنة ١٩٠٥، وكان يمزج السياسة بعمله دائماً، وقد ألقى نفسه في الآستانة بين ضباط صغار يقاربونه في السن ويضطرمون بالثورة على استبداد الخليفة وتدخل الدول الأجنبية. وكان أساتذتهم بالمدرسة يعطفون عليهم ويتغاضون عما يفعلون، ولكن لا يجرؤون على قيادتهم ومظاهرتهم.

وكان لهؤلاء الضباط بالمدرسة جمعية تدعى جمعية الوطن تلقى الخطب وتذيع النشرات مهاجمة فيها نظام الحكم وأخلاق الموظفين واستبداد الخليفة ورياء رجال الدين، بل لم يخل الدين نفسه من مطاعنهم وحملاتهم كما كانوا يعتقدون – دون التقدم والارتقاء، فضلاً عن فساد النظم المؤسسة عليه، وقد تعاهد أعضاؤها على تقويض حكومة الخليفة واستبدالها بحكومة دستورية، وإنقاذ الناس من كابوس رجال الدين، وتحرير المرأة من عبوديتها. والواقع أن تركيا في ذلك الحين كانت تحتضر، وما كانت الحياة لتعود اليها إلا إذا لقحت بدم نقي جديد، وقد انخرط الشاب مصطفى في سلك أعضائها، وأخذ يكتب في نشرتها مقالات نارية وشعراً ملتهباً، ويلقي في اجتماعاتها خطباً لاذعة، ولكن السلطان

(*) انظر العدد ٦١ من الرسالة

عبد الحميد لم تكن لتخفى عليه خافية ، فعلم بأمر الجمعية من جواسيسه المنبثين فى كل مكان ، وجزع جزعاً شديداً إذ رأى فيها نواة عمل سينتهى بثل عرشه . فخاطب أحد أعوانه المدعو اسماعيل حقى ، وتحدث هذا بشأنها الى ناظر المدرسة الحربية بالاستانة ، فحرم الناظر عقد اجتماعاتها ، ولكن لم يفت هذا فى عضد أعضائها الثائرين ، فأخذوا يعقدون اجتماعاتها فى الخارج ، وأضحت احدى تلك الجمعيات السرية المنتشرة فى الاستانة تعمل على هدم الظلم ومحو آثاره .

وبعد أن جاز مصطفى الامتحان بمدرسة الاستانة استأجر غرفة لتكون مكتباً للجمعية تطبع فيه نشراتها ، وكان الأعضاء يجتمعون فى منازل خاصة يأتون اليها خفية يترقبون ، وقد ارتاح بطلنا الى هذه الحياة لتأصل حب المغامرة فى نفسه واستقراره فى طبعه ، وأخذ يتعلم أساليب الجمعيات الثورية ونظمها ، ولكن عيون عبد الحميد لم تأل جهداً فى مراقبة هذه الجمعية وتضييق الخناق عليها ليفاجئوا الأعضاء متلبسين بالجريمة ، ولم يكن هذا بالعسير عليهم ، إذ كان الأعضاء ينقصهم الدراية بأساليب هذه الجمعيات ، وإن لم تعوزهم الحماسة والشجاعة .

واستطاع أحد الجواسيس أن يتسلل الى الجمعية ويتصل بها ، وازدادت على توالى الأيام ثقة الأعضاء به واعتمادهم عليه ، فتمت خديعته لهم وجازت حيلته عليهم ؛ وبينما هم يقسمون قسم الجمعية فى يوم من الأيام إذا برجال البوليس السرى يفاجئونهم ويقبضون عليهم ، فزج مصطفى وسائر الأعضاء فى السجن الأحمر بالاستانة ، وكان بطلنا من بينهم مثار الريب والمخاوف ، واعتبر فى عداد الخطرين على النظم القائمة ، فعزل عن زملائه فى مكان قصى ، وتراءى له المستقبل مظلماً قاتماً ، إذ لو بدا لعبد الحميد أنه نذير خطر عليه لاختفى من الحياة كما اختفى أمثاله من قبل كوميض البرق .

وقد راع الأم الحنون مصير ابنها ، فأسرعت يحدوها الأمل والخوف لزيارته ، فأبوا عليها ذلك ولم يسمحوا لها إلا بارسال بعض النقود اليه ، ومضت على حاله هذه أسابيع نقل بعدها الى « زنزانة » ضيقة مظلمة قذرة لاينفذ اليه فيها إلا قبس ضئيل من النور من كوة صغيرة ، فأثر هذا السجن الموحش فى نفسه أبلغ تأثير ، وزاد خلقه غلظة ووحشية .

وفى يوم من الأيام اقتيد من غير انذار الى مكتب رجل من رجال العهد القديم ومن أنصار عبد الحميد المقربين هو اسماعيل حقى باشا ، فأخذ الرجل يديم النظر فى ملامحه ، ثم قال له : «لقد أظهرت مقدرة فائقة وكفاءة ممتازة ، وأمامك مستقبل باهر ينتظرك فى خدمة صاحب الجلالة ، ولكنك من جهة أخرى شنت نفسك ولوثت شرفك الحربى ، فخالطت أسوأ الخلان . وأخذتم تقامرون وتشربون وتختلفون الى الأمكنة الموبوءة ، وأشنع من هذا وأشد نكراً أنك نكثت عهد الاخلاص لمليكك ، فزججت بنفسك فى موج السياسة ، وظاهرت الدعاية الخائنة ضده ، وحرضت زملاءك على احتذاء مثالك ، والاقتداء بك ، ولكن جلالة الخليفة قد وسعتك رحمته وشملتك رعايته ومغفرته إذ رآك شاباً أحمق ، لعلك قد انقدت لهواك من غير تبصر أو تقدير للعواقب ، فاختارك للذهاب مع فرقة الفرسان الى دمشق ، ويتوقف مستقبلك على مايعلم من مسلكك ، ولكن عليك أن تتجنب هذا الحمق وتتوفر على أداء واجباتك الجندية ، وخذ لنفسك الحذر فانك لن تحظى بفرصة أخرى» .

وفى نفس الليلة رحل فى سفينة إلى سوريا بدون أن يسمح له برؤية أمه أو أصدقائه ، وبلغ بيروت بعد سفر شاق ، فامتطى جواده وعبر به جبال لبنان حتى انضم إلى الفرقة فى دمشق فوجدها تتأهب للزحف على الدروز المقيمين بجنوب دمشق والذين كانوا دائمى الثورة على الدولة العلية ، وقد كانت هذه الغزوة أول تجربة لنشاطه ، ولكنها لم تكن ترضى الجندى النظامى إذ كانت بلاد الدروز عبارة عن جبال مجدبة تتقاطع مع وديان ضيقة عميقة لاماء فيها ولا طريق معبد ، وكان الدروز قوماً أقوياء الشكيمة صعاب المراس دارسين كل شبر من أرضهم ، ومضت الأيام بين الفريقين فى كفاح غير مثمر ، إذ لم يستطع الأتراك الظفر بأعدائهم ، فأحرقوا قراهم ودمروا حقولهم وعادوا القهقرى إلى دمشق لهجوم فصل الشتاء ببرده القارس وجوه المكفهر المظلم ، وهناك أخذ بطلنا الثائر يعد العدة لانشاء فرع لجمعية الوطن ، ولم تغير الأيام السود التى قضاها فى سجن الأستانة منه شيئاً ، ولم تضعف نفسه القوية ، ولم تلن قناته الصلبة ، ولم ترد قلبه الكبير عن غرضه ، إذ كان مصطفى ثائراً على كل شىء : على الدين والناس والنظم

والتقاليد ، ولم يكن لشيء ما في نفسه حرمة أو قداسة ، ولكنه كان يجمع إلى حماسة الشباب حذر الشيوخ ونظرهم البعيد ، وكان قد هجر الأدب لما وجده مدعاة للشك ، مجلبة للتردد موجباً للخطأ لما بين الحكمة النظرية والحكمة العملية من تناقض ، وأقبل على درس أساليب الثورة ووسائلها ، وقد وجد التربة صالحة للبذر .

فصغار الضباط مضطرمون بالسخط ، ورؤساؤهم يعطفون عليهم ويميلون اليهم ، وقد وجد مصطفى من بينهم زميلاً قديماً له ، فاتخذ منه نصيراً ومعيناً له في عمله ، وسرعان ما اشتد ساعد الجمعية وتكاثر عدد أعضائها ، وأخذ بطلنا يشعر بمكانته وخطره ، ولكن سرعان ما فطن الى خطئه وعاد الى صوابه ، فعلم أن أهل البلاد ليسوا متهيئين لقبول دعوته ، وإن كان ضباط الحامية التركية متأهبين لتلبيتها وإبرازها الى حيز العمل .

وقد أرسل اليه أصدقاؤه يخبرونه بأن البلقان هي مهد الفتن والقلاقل ، وأن عليه أن يسعى لنقله الى سالونيك ليضمن نجاح حركته وانتشار دعوته ، فاعتزم تنفيذ ما أشاروا به عليه ، سواء أجابته الحكومة الى طلبه أم أبته عليه ، وكان صاحب شرطة يافا عضواً بجمعية الوطن ، فاتفق معه على كتمان وجهته ، وحصل على أجازة بضعة أيام رحل في خلالها الى يافا وأبدل اسمه واتخذ له لباساً مستعاراً ، فاستطاع أن يعبر البحر منها الى أثينا ، ثم الى سالونيك حيث ألفى السخط والقلق يساوران كل النفوس ، وهناك اعتكف في منزل أمه ، ووجد أن الجو صالحاً لابلاغ رسالته ، إذ كانت سالونيك قلب الحركة ومهد الثورة ، فأخذ يتعرف بمعونة أمه وأخته الى صغار الضباط من زملائه القدماء ، وطلب نقله الى سالونيك ليتسنى له الإشراف على تنفيذ خطته ، ولكنه قبل أن يخطو خطوة أخرى صدرت من الأستانة الأوامر بالقبض عليه ، فعمل حكمدار سالونيك على خلاصه ، فنبهه الى الخطر المحدق به وأخبره أن أمر القبض سينفذ بعد يومين ، وعليه أن يتأهب للرحيل ، فعاد مصطفى بطريق البحر الى يافا ، وكانت أوامر القبض عليه قد سبقته اليها ، ولكن لحسن طالعه قيض الله له كبير الشرطة في يافا ، وكان عضواً بجمعية الوطن ، فمهد له سبيل الفرار الى غزة ، وأراد أن يحكم الحيلة لتجوز على حكومة الأستانة ، فكتب اليها يطلب أن تزوده بتعليمات أوضح وأدق عن مصطفى كمال ، ويقول إن ما وصل اليه منها فيه كثير من الخطأ ، لأن مصطفى كمال كان طوال المدة السابقة مقيما في غزة ، ولم يبرحها الى سالونيك . وصادق على كلامه مفيد لطفي الضابط بغزة .

وهنا تظهر حكمة بطلنا ونظره البعيد . فقد رأى أنه لو وقع في يد عيون الخليفة مرة أخرى ، لما رأى نور الحياة بعد ذلك لحظة واحدة ، فاعتزل الحياة العامة زهاء عام ، ليزيل ما أحاط به من ريب وشكوك ، وأقبل على عمله بجد ونشاط ، حتى لفت أنظار رؤسائه اليه ، فأعجبوا به وأثنوا عليه قائلين . إنه لا يعني بغير واجبه ، وهو يؤديه على أكمل وجه ، وأتم شكل ، فأحسنت به حكومة الأستانة الظن ، ورجحت أن جواسيس سالونيك قد ظلموه باعتباره في عداد الخطرين ، ولكن خيال سالونيك لم يبرح رأس بطلنا ، وأنى له ذلك وفيها نذر الثورة التي يريد مصطفى أن يكون بطلها الذي يشار اليه بالبنان ، وبينما هو غارق في تفكيره وتدبيره إذا به يتسلم أمر النقل الى سالونيك وهو يكاد أن يكون له من المكذبين ؟

(يتبع) حنفي غالي

إلى النهر الغـــاضب

للأســـتاذ محمود الخفيف

غضبتَ فسهدتَ أجفانها   وزاد هياجـك أحزانها
وقد أنِستْك لطيف الأناة   ضحـوك الأسرّة فتانها
جميـل الوفاء شهى الصفاء   عريق السماحة هتـانها
وفاؤك عيــد يعم البلاد   ويغمر بالخــير أركانها
تهز الحقول على جانبيـك   وعـلاً فيضُك غدرانها
وتذكر مصرُ إذا ما خطرت   وسال نضارُك، سودانها
فأنت لمصر وريد الحياة   ولم تر غـيرك شريانها
حليم عليـك سماة الجلال   تقـــابل بالبشر قربانها
وتلقى برفقك فى المهرجان   وجوه البـلاد وأعيانها
تود الرياض على شاطئيك   لو انك تسمع شكرانها
وتهفو الخمائل شوقاً إليك   فتنشر حولك أغصانها
تردد مصر أناشــيدها   وتبدأ باسمــك ألحانها
ويطربها منك حلو الخرير   فترهف للسمع آذانها
فتلقى إليها حديث القرون   وتحفز للمجـد غلمانها
وما نسيت مصر هذا الحديث   ولا صرفت عنه تحنانها

***

تجهم وجهك بعد الصفاء   وروع بأسُـك سكانها
لبست الجفـــاء على غرة   فآلم غــدرك وجدانها
تركت الكنانة فى غمرة   يهدد ســيلك بلدانها
كأنك جيش تخطى الحدود   وأنذر بالموت قطانها
تقيم السدود على ضفتيك   وتحشـد حولك فتيانها
تراقب موجك فى حسرة   تجـدد للنفس أشجانها
ولم أر مثل جفاء القلوب   تفيأت من قبل رضوانها
ولا كالأســاءة من راحة   تعود كفُّك إحســانها

***

ترفق بمصر فقد نالهـــا   خطوب تزلزل بنيـــانها
توالت عليها عجاف السنين   وأعمى التنابذُ رُعيانها
وذاق بنوهــا بأوطانهم   صنوف العـذاب وألوانها
ألم تر كيف دهاها الكساد   وكاد يدمر عمـــرانها
وكيف توقف فيها النماء   وأخرجت الأرض ديدانها
فأضحى فتاها كسير الجناح   كئيب الملامح خزيانها
وجاس الغريب خلال الديار   قوى المخـالب يقظانها
ألم يكف يانيل هذا الشقاء   فجئت تضاعف خسرانها ؟

***

تحـيرت يا نيل ماذا دهاك   وأوحى لنفسك طغيانها
أساءك من مصر هذا السكون   فقمت تحرك شبانها ؟
وأوغر صدرك يأس البلاد   فجئت تجـدد ايمانها ؟
ورحت تكذب ظن الدخيل   وتوقظ للمجــد أعوانها
تحركُ وحـدك فى أمة   أذل التفرق وحـــدانها
بلوت بنفسك ماضى البلاد   وأدركت بالأمس سلطانها
وكيف تناهى اليها النبوغ   فراحت تعلم جيرانهـا،
تلقى من الوحى شتى الفنون   وترفع فى الأرض ميزانها
تدب الحيـاة على جانبيها   فتشعر بالعز ولدانها
على البر تحشـد أجنادها   وفى البـحر تنصر ربانها
تذكرت «أحمس» يزجى الصفوف
ويدعو الى النصر فرســانها
و«رمسيس» يخطر فى جنده   تخور المواكب مزدانها
وآنست فى مصر عهد الرشاد   وقد شمل العـدل أركانها
تلقَّى الرسـالة فى غبطة   ولو كره الروم اعـلانها
تســير الى الحق منقادة   اليــه وتخلع بهتانها
وتمسى من الأمن فى جنـة   وقد كرهت قبلُ حرمانها

***

أسفت لحاضرها المستكين   وأنـكرت يانيل خذلانها
كرهت هـدوءك فى أمة   أطاعت إلى اللهو شيطانها
فجن جنونك يا ابن السماء   وقمت تنبه وســنانها
ألا فلتقر فقـــد بايعتك   وسوف تقـدم برهانها
ستحذو مثالك فى فعلها   وتجعـل عهـدك قرآنها
ستنفض عنها غبار القرون   وتنزع يانيـل أكفانهـا

محمود الخفيف

بين الشهرة والخلود

للأمين للدقنيج

تلخيص محمد أمين حسونة

خطر ببالي ذات شتاء أن أمضي شطراً طويلاً منه في منطقة الألب لأستمتع بدفء الجبال ، فكان مما استرعى اهتمامي في منطقة التيرول ، تلك الكنيسة الفخمة التي اشتهرت منذ القرون الوسطى بأثرية ناقوسها وروعته ، فلما مر بخاطري زيارته ، صعدت إلى القبة لأشبع العين من فتنته ، وهناك تملكتني الدهشة والعجب ، إذ كانوا يعلقون صورة « شيللر » الى جانب صور القديسين الأبرار ، كتذكار لمقطوعته الخالدة « نشيد الناقوس » !

فشيللر الكاتب الملحد ، عدو الكنيسة والكثلكة ، يجعلون منه رمزاً للقداسة والخلود ؟ ولكن لا عجب فقد تكون شهرته كشاعر مخلد لذكرى « الناقوس » هي التي حدت بهم الى رفعه في مثل هذا الموضع الذي يرتكز عليه ، وهكذا تكون الشهرة حامية للأغلاط . إننا نذكر جميعاً غلطة « كوك » المعروفة ، وكيف دفعته الى مصاف العظماء ، وقذفت باسمه الى أول قائمة المكتشفين الخالدين ، ولو أن لعبته لم تكتشف إلا بعد مرور فترة طويلة !

إذن فالشهرة ليست بمعناها المعروف ، هي « العظمة » ، وقد لا تهدينا شهرة الرجل الى تقدير مناحي عظمته في ثوبها الحقيقي ، وإلا كان من حقنا أن نفاخر « بشارلي شابلن » عن « برجسون » وأن نفضل « مستنجيت » على « مدام كورى » . مع أننا كمؤرخين في عنقنا دين يجب تأديته للأجيال القبلة ، ذلك هو تصحيح الأخطاء التي تلابس أولئك الذين يستحوذون على الشهرة عن طريق المخادعة .

وقد عاد كرواته « ألا يجوز البتة إعلان كون الناس سعداء ماداموا أحياء[1] ! فاذا جاز لنا أن نحكم بأن حياة الانسان إن هي إلا رواية تمثل لمشاهدها ، ففي مكنة « فصل خامس » منها أن يطغى على الفصول أربعة تقدمته ، وفي ضوء هذه النظرية لا يمكننا الحكم على أعمال الرجال إلا بعد موتهم ، ولا أن نخلع عليهم ثوب العظمة وهم أحياء ، فمن المحتمل أن يأتي هذا الثوب فضفاضاً عليهم ، أو يحدث في أواخر أيامهم ما يدفعهم الى تشويه هذه الصفحات التي نكون قد ملأناها حمداً وثناء عليهم !

إن سرعة انتشار الأخبار تمكننا من معرفة أي رجل اشتهر في أقل من لمح البصر ، فاسم « ليندبرج » — قاهر الجو — عرفه في ليلة واحدة خمسمائة مليون شخص من أقاصي منشوريا الى جنوب استراليا ؛ كذلك كان أمر « كوك » حين انتحل لنفسه اكتشاف القطب الشمالي ، ولو أن خدعته اكتشفت فيما بعد ، ولكن بعد فوات الفرصة ، وبعد أن رسخ اسمه في قلب كل انسان كمكتشف عظيم !

إن الآلة التي تخرج لنا العظماء اليوم غيرها قبل خمسين عاماً مضت ، فليس الرجل العسكري هو الذي ينال إعجاب أبناء هذا الجيل ، وليس من حقنا تدوين اسمه في ثبت العظماء ، كما فعل

(١) هذا الرأي مأخوذ عن أرسطو في كتابه « الأخلاق »

مدينة الأحرار

للأستاذ محمد محمود جلال

الله أكبر « يا جنيف » فوق الجمال « دم خفيف »

طهرت كالجنات من لغو ومن هم مطيف

وخلوت للأحرار إلا من نسيم أو جفيف

يلقى الربيع ربيك المبتسر بعد إعنات الخريف

كم صنت عزة أنفس ووقيتها وزد الحتوف

فوقفت سيداً رمانياً دون العواصف والصروف

فيك التقيت بنجبة هم عدة الشرق النيف

وغنمت أمتع جلسة في « بارك[1] لجرانج » الرفيف

وإذا البحيرة ناظر إنسانه من (ليزوفيف)[2]

بذر الفؤاد مردداً « الله أكبر يا جنيف »

(١) هو بارك لاجرنج La Grange من أوسع المتنزهات وهبه صاحبه والقصر القائم في وسطه للبلدية ، وشرط ألا يدخله خمر ولا رقص — وتقوم بأدارته أرقى سيدات الأسر الكبيرة بجنيف — ويحظرون فيه إعطاء « بقشيش »

(٢) يهيم السويسريون ويعتزون ببحيرة ليمان . يحسنون استثمارها ملاحة وصيداً وشرباً ويدعون ماءها (Les eaux vives) ولهم ميدان لهذا الاسم في المدينة

الاسكندر وقيصر ونابليون ، كلا ! فالشعوب أصبحت لا تتهافت على معرفة اسم القائد المنتظر فى الميدان ، لكنهم يتساءلون عن الآلة الجهنمية التى أحرزت التغلب ، وخفقت فوق ربوعها بنود النصر . وخذ اسم الماريشال هيندنبرج مثلا ، فلا يتطرق الى أذهاننا أن شهرة اسمه راجعة الى عظمته الحربية وحدها ، بل لذلك الاعتقاد السائد فى النفوس ، وهو اعتباره «أبا للشعب». والاعجاب اليوم لا ينال الجيوش الظافرة فى ساحات الوغى ، أكثر مما ينال ذلك «الجندى المجهول» الجامع لرفات الانتصار والانكسار .

إن شهرة كبار القواد الذين خاضوا غمار الحرب العظمى ، وكان النصر حليفهم فى المعارك الكبرى ، قد تضاءلت حتى كادت تتلاشى ؛ كذلك مآل بلسودسكى ومصطفى كال وموسوليني ، فسوف يصبح اسم كل منهم خرافة سائدة فى أفواه الأجيال القبلة .

* * *

ومن يحرز الشهرة إذن ؟ إن رجال الألعاب الرياضية وأبطال الملاكمة ونجوم السينما هم وحدهم الذين يحرزون الشهرة دون غيرهم . أما الأولون فلأن الجماهير تساهم بقسط وافر فى الشهرة التى يحرزونها عن طريق المراهنة فى مبارياتهم ؛ وأما نجوم السينما فيستولون على الشهرة بفضل الملابس الزاهية وإتقانهم الأدوار التى تتطلب المثل العليا فى الحب والتضحية .

ولأنهم جميعاً يشغلون قلوب الجماهير ويستدرون عواطفهم فى كل مناسبة ، فملامحهم وصورهم وحياتهم الخاصة مطبوعة على صفحة كل قلب بفضل الصحافة المصورة التى تمهد لهم سبل الشهرة والدعاية فكاروزو مثلاً اشتهر أكثر من غيره من المغنين السالفين بفضل اختراع «الفونوغراف» الذى خلد صوته

إن مهمة المؤرخ دقيقة وعسيرة فى هذا العصر ، فيجب ألا يعتمد على الشهرة وحدها فى جعلها مقياساً للعظمة ، وإنى باعتبارى مؤرخاً لا يحق لى مطلقاً أن أخدع نفسى وقرائى بجعل الشهرة عظمة . إنى لا أجد اليوم موسيقياً بعد «مولر» ، وأذكر «ليبرمان» فى أول قائمة الفنانين العالميين ، وأسائل نفسى وقرائى عن «كاتب القرن الحالى» الذى يحق له إحراز هذا اللقب النبيل ، والذى له الفضل فى تربية ملكة الذوق لجيلنا الحاضر فلا أجد غير «برنارد شو» ، كما كان «فولتير» كاتب القرن الثامن عشر ، نعم إن هناك كتاباً يفوقون «شو» سواء فى قوة الابتكار أو سلاسة الأسلوب ومتانة التعبير ، وأذكر منهم : ابتان ، وهمسون ومان ، ودانتزيو ، وبير اندللو ، ورولان ، ولويس ، ولكن «شو» قد أثر بآرائه ومداعباته واستحواذه على لب القارئ أكثر من سواه .

* * *

وإذا خطر لنا أن نتكلم عن الساسة حق لنا أن نعترف بأن رجالها قد احتضروا واختفوا من الأفق سراعاً : ويلسن ، ولينين ، وكليمنصو . أما «لويد جورج» فشيخ رجال السياسة الحاليين وأكثرهم دهاء ، و «موسوليني» أخطرهم وأصغرهم سناً ، ولكن إذا تحدثنا عنه كسياسى ، أيحق لنا أن ننعته بالعظمة ؟ كلا ! فالحكم للمستقبل . وموسوليني يؤدى الآن دوره على خشبة المسرح ، وقد انصبت الأنوار فجأة عليه من كل جانب فأخفت «الرتوش والمكياج» التى تخفى شخصيته الحقيقية ، وتظهره أمام الجماهير فى ثوبه الخيالى معبوداً للشعب ؛ انه لا يزال فى الفصل الثانى من الرواية التى تمهد القيام بدور البطل فيها ، وليس لأحد أن يتكهن إذا كان الستار سيسدل عن تصفيق وإعجاب ، أو عن استهزاء وسخرية [1] !

* * *

وإذ ذكرت سياسى الجيل الحاضر ، فانى أتحدث عن «فينزيلوس» اليونانى و «مازاريك» التشيكى : فالأول سياسى محنك ورجل داهية ، والثانى حلم بنى وطنه لعشرين عاماً خلت ، كما أن زعماء المضطهدين — لسان حال الشعوب المظلومة — قد أحرزوا الاعجاب بمبادئهم الاشتراكية السامية ، وضربوا أحسن الأمثال لأممهم فى التضحية ، وأخص بالذكر منهم : «مكسويني» محافظ كورك الذى ذهب ضحية إخلاصه لمبدئه ، و «غاندى» رجل الهند — بل الشرق — الوحيد .

* * *

أما رجال العلم والصناعة فقد كان الجيل الماضى حافلاً بالكثير من شخصياتهم البارزة . أما جيلنا الحاضر فمفتقر الى طائفة كبيرة

(١) لاميل لدفيج رسالة طويلة كتبها بعد هذا البحث عن « محادثاته مع موسوليني » ضمنها آراء أخرى يعارض فيها كتاب لويجى شتورزو عن « إيطاليا والفاشستية » .

منهم ، فانه لا يوجد اليوم علماء للآثار القديمة جديرين باحراز هذا اللقب الذي استخلصه لنفسه شامبليون ، ولا مؤرخون يستطيعون إرواء ظمأ المتعطشين الى نظريات حديثة ، ولا علماء فى الاقتصاد والتشريع والفلك كعلماء القرن الماضى من الانجليز أو الألمان .

إن عالمنا اليوم لا عمل له سوى الجمع بالنسبة للماضى ، والتمهيد بالنسبة للمستقبل ، ومع كل فهناك شخصيات برزت فى بعض الصناعات التى كان العالم فى أشد الافتقار اليها . فبركلند ، وآيد النرويجيان انتشلا شعوباً من المجاعات باقدامهما على استخراج النيتروجين من الهواء ، و «هابر ، وارنست ، وارينوس» أول من أحدثوا نظريات جديدة بشأن السوائل ، كذلك «بور» الدانيمركى و «بلانك» الألمانى ، والى جانبهما تأخذ «مدام كورى» مكانتها العلمية كامرأة واصلت البحث والدرس بعد موت بعلها بعشرين عاما .

أما علماء النفس فعلى رأسهم «فرويد» الذى أيقظت نظرياته الجديدة شعور ألوف المثقفين فى العالم ، ويجىء دور « اينشتين » شيخ علماء الحكمة الطبيعية الذى زحزحت نظرياته الرياضية الكثير من الاعتقادات العلمية التى كانت سائدة فى أذهان علماء الأجيال الغابرة .

وهناك «مركونى» الايطالى و «اركو» والى جانبهما «اخوان رايت» و «فورد» ، والى جانبهم أبطال الصناعة الذين لهم الفضل فى ابتكار اللاسلكى وبناء الجسور وحفر الترع وتشييد المنشآت الهندسية الحديثة كمحطات الكهرباء والخزانات والمصارف وناطحات السحاب ..

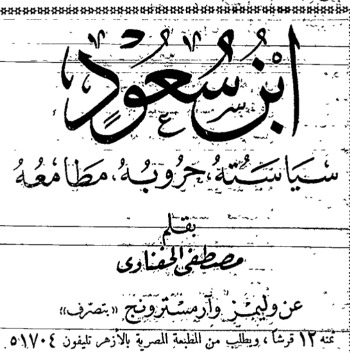
ولكن أين هم هؤلاء الأبطال ؟ من هم أساتذة الصناعة والفن اليوم ؟ من يعرف منشىء جسر اليشون أو أرث الخامس أو خزان أسوان ؟ من الصعب أن نعرف أسماء كل هؤلاء الأبطال ، لأن أعمال الشركات جيمت على جهود الأفراد ، وجهود الأبطال قد اندمجت فى أعمال الشركات .

وعند ما تنحدر الشمس الى المغيب ونجد مكانها الأنوار الكهربائية المتلألئة ، لمن نتوجه بالحمد على كل هذا ؟ لمن الفضل فى سر الاتصال بين الأمم بأسلاك التلغراف وفى نقل الرسم والصوت من مكان قصي فوق ثلوج سيبريا الى عبيد الكونغو مثلاً ؟ إن أحداً لم يستطع تذليل العلم وتسخيره فى أغراض المجتمع وإفادته كما استطاع ذلك خالد الذكر « أديسون » .

وهكذا نأتى فى النهاية لنشيد بذكر أكبر عالم نظرى الى أعظم مخترع عملى ، أولهما ألمانى وهو عقل العالم الذى عز به حقيقة الأشياء ، وثانيهما أمريكى وهو عين العالم التى ترى بها الضوء ، كلاهما نشأ فقيراً معدماً ، ليس مديناً لأحد إلا لعبقريته ونبوغه ، هما « اعانيس » الذى وهب الثقافة وحرية الفكر للعالم ، و « بروميسثيس » الذى اختطف النور من الآلهة ليهديه الى البشرية هما :

اينشتين وأديسون .

محمد أمين حسونه





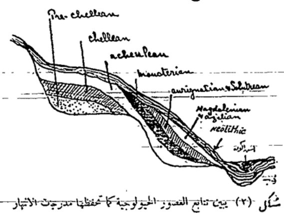
٢ ـ بحث في أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال في الجغرافية

استمر (بوشيه) برغم كل معارضة قامت في وجهه ، ولم يتطرق إليه خمول أو تهاون ، فنشر في عام ١٨٤٧ كتاباً عن اكتشافاته قوبل بالاستنكار، ونظر إليه الناس نظرتهم إلى مجنون. وظل على هذا الحال حتى أتى بعض العلماء الانجليز يساعدونه عام ١٨٥٨ فاختبروا صخوره وفحصوا ما وجده من عظام متحجرة؛ وظلوا يجادلونه ويجادلهم حتى اعترفوا وجاهروا — بعد التثبت والاقتناع — أن هذه الصخور من عمل الانسان وتشكيله. وهكذا ثبت أن الانسان كان موجوداً في وادي نهر السدم بفرنسا عند ما كان المدرج الموجود الآن على ارتفاع ١٠٠ قدم مكوناً مجرى النهر في ذلك الوقت حيث كانت تعيش أنواع غريبة من الحيوانات؛ وبذا يفتتح العالم أول باب لتاريخ حياة الأنسان في المدرجات.

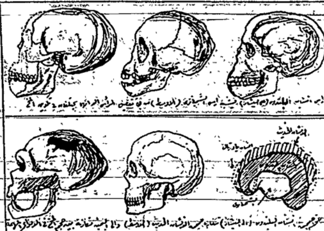
وعند ما عاد العلماء الانجليز إلى بلادهم وجدوا في مدرجات نهر التيمس Tames نفس الصخور النارية أو Palaeoliths وعظاماً متحجرة تماثل تمام التماثل تلك العظام التي وجدت في نهر السدم. وبذلك بدأ استخدام حفريات الأنهار لمعرفة تاريخ الانسان القديم منذ مائة عام تقريباً، ولكنها لم تتحول إلى فن صحيح ذي قواعد إلا في السنوات الأخيرة

سبق لنا أن تتبعنا تاريخ الانسان القديم مما وجده الباحثون في الكهوف، وسنحاول الآن أن نرى ما قد تكشف لنا عنه هذه المدرجات. وفي الشكل (٢) ترى مثلاً عاليا لتتابع المدرجات، ومن الطبقات السطحية للمدرجات السفلى نجد شواهد الكهوف نفسها ونفس الأدوات الحجرية عينها، بل وهيا كل أنواع الحيوانات البائدة والعنصر الانساني الذي كان سائداً في ذلك الوقت. تأتي بعد ذلك مدرجات أحدث من الأولى تكونت في عصور متتابعة هي: سولتريان Solutrean، وأورجنتيان Aurignatian، وماجدالينيان Magdalenian، وموستريان Mousterian، وهو العصر الذي يقع قبل عصر الجليد مباشرة، وبذا نصل إلى



شكل (٢) يبين تتابع العصور الجيولوجية كما تحفظها مدرجات الانهار

عصر غمرت فيه الثلوج القارة الأوربية، وفي هذه الفترة يقع عصر أطلق عليه اسم أشيوليان Acheulean. ومن عصر الموستريان حتى الآن تقع فترة يبلغ طولها ٤٠ ألف سنة. وليس هناك أدنى شك في أنه كلما اتسع أفق العلم أمامنا وازدادت الابحاث أمكننا تقسيم فترات ما قبل التاريخ إلى حلقات متتابعة — وفي هذه الفترة نجد أنواعاً من فؤوس Coup-de-poing صنعت من الصخر الناري، عليها أثر الصنع بل والاستعمال. وإذا أنعمنا النظر في المدرجات عدنا إلى البقايا القديمة للعصر المسمى شيليان Chellean وهو السابق للمسمى أشيليان Achelean امتاز بزيادة دفء جوه عن جو العصر الجليدي. وفؤوس هذا العصر كبيرة نوعاً ما عن فؤوس عصر الأشيليان. ونحن إذا قدرنا لها مدة ليس فيها مبالغة وهي ٤٠ ألف سنة، فننا نصل إلى فترة من فترات تطور الانسان تبعد عنا بنحو ١٢٠ ألف سنة. ويأتي قبل عصر الشيليان عصر لا يسعنا لجهلنا به إلا أن



شكل (٣) بين أوجه الشبه أو التقارب بين انسان البلتدون والانسان الحديث وأهم هذه الأوجه شكل الرأس وحجم المخ وتقاطيع الوجه والفك كما فى القال

نسفيه ما قبل عصر الشيليان Pre-chellean وقد وجدت آثار تدل عليه على عمق ٥٠٠ قدم فى مدرجات نهر التيمس بانجلترا ، ومن هذه الفترة نصل إلى بدء عصر البلستوسين Pleistocene

ولهذا العصر أهمية خاصة عند الباحث فى تطور الانسان ، إذ أنه فى فجر هذا العصر أخذت الحيوانات شكلها الحالى ، وتطور الانسان تطوره الأخير الذى جعل له من الخصائص ما يمتاز به اليوم من سائر المخلوقات . وبابتداء هذا العصر يمكن القول بأن العالم الحى أخذ شكلا جديداً من مظاهر التطور الحديث ، ولذلك فان علماء الحيوان يضعونه فى المرتبة الأولى من فترة حديثة لتاريخ الانسان أطلقوا عليها اسم كواترنارى Quaternary ولسنا نعرف متى بدأت هذه الفترة ، ولو أن بعض العلماء قدر لها مليون سنة ، إلا أننا لا نبالغ فى التقدير اذا قلنا إن هذه الفترة بدأت من ٣٠٠ ألف سنة كما فى شكل « ٣ »

ولحسن حظ التاريخ الحديث أن يصنع الانسان الأول أدواته وأسلحته من الصخر النارى ، لأنه قد مكننا من معرفة التاريخ وتتبع حركاته وأدواره حتى عصر البليستوسين بتتبع الآثار التى تركها لنا فى أدواته وخاماته . وقد وجد الباحثون القواعد التى قطعت وشكلت عليها الأدوات الصخرية ، بل وجدوا عظاما من بقايا من قام بصنعها . إلا أنه برغم الأبحاث المتتابعة لم يوجد إلا بقايا فردين ممن سكن أوربا فى فترة البريشيليان : أحدها يسمى انسان هيدلبرج ، وكل ما وجد منه فكه الأسفل . وقد وجد فى أسفل واد من أودية نهر الرين القديم مع عظام متحجرة من عظام نوع من الحيوان كان عائشاً فى أوربا فى الفترة الأولى من عصر البليستوسين ، وكان معاصراً لانسان هيدلبرج . ولقد لوحظ أن الفك خشن كبير وأصلب من أى فك لأى عنصر من العناصر المعروفة ؛ أما نظام أسنانه فانه عائل تمام التماثل نظام أسنان القردة ، إلا أن الأنياب الحادة البارزة فى قرد الانسرويد قد انخفضت واستوت هنا مع باقى أسنان الفك عند انسان هيدلبرج

وأما القرد الآخر الذى كشف عنه ومر ذكره بك ، فقد عرفنا عنه معلومات تزيد كثيراً عما نعرفه عن انسان هيدلبرج ، كان يسكن أوربا فى عصر ما قبل الشيليان Pre-Chellean وقد وجدت بقايا من عظامه المتحجرة فى جهة بلتداون Piltdown بانجلترا ، ولذلك سمى باسمها إنسان بلتداون Piltdown man ولنا من البراهين القوية ما يثبت أن هذه الجهة أقدم بكثير من الجهة التى وجد بها فك انسان هيدلبرج . ولذلك فاننا نرجح أن يكون الحلقة الانسانية التى سبقت انسان هيدلبرج بما فيها من تطور .

ويرجع فضل الكشف عن هذا الانسان إلى الأستاذ شارلس داوسون الذى كان محامياً فى لويس Lewes ثم تفرغ لدراسة جيولوجية منطقة Sussex حيث وجد هذا الانسان .

فى عام ١٩٠٨ قبل أن يموت ذلك الأستاذ مأسوفاً عليه ممن قدر قيمة كشفه مر على طريق جديد قد رصف بنوع من الصخور النارية التى لم يكن قد رآها من قبل ، ولكنه كان يعرف أن هذا النوع كان يستعمله الانسان القديم فى صنع أسلحته وأدواته ، ولذلك أخذ يستعلم عن مصدر ذلك الصخر حتى علم أنه يستورد من منخفض فى وسط مزرعة على حدود Piltdown Common ، ولما كان يتردد كثيراً على هذه الجهة فانه عقد أواصر الصداقة مع عمالها ، وبمساعدتهم حصل بعد سنوات قلائل على لوح سميك من العظم اشتبه فى أن يكون جزءاً من جمجمة انسان قديم . ولكنه لم يتمكن من الحصول على باقى الجمجمة الا حوالى سنة ١٩١١ .

ثم قام بعد ذلك هو والسير آرثر سميث وودوارد Sir. A. S. Woodward بالحفر فى هذه المنطقة ، فوجدا بقايا أخرى من هيكل الرجل الذى وجدت جمجمته ، ووجدا أيضاً هيا كل

متحجرة لحيوانات قديمة بائدة ، وبقايا أدوات وأسلحة غالبها ينتسب الى عصر ما قبل شيليان Pre-Chellean ، ومنها ما يمت الى عصر أقدم من ذلك وهو عصر Eoliths

وأمكن بعد ذلك معرفة حجم الجمجمة وشكلها ، وتخيل شكل لها قبل التحلل والتكسير ، ثم بواسطة صب عجينة من المصيص بداخلها أمكن معرفة حجم وشكل المخ الذي كان يسير سكان العالم الأول خلال معاب الحياة . وقد لوحظ أن حجم مخ البلتداون يرتفع عن المستوى المقدر للأجناس المنحطة من العناصر الانسانية ، إلا أنه من جهة أخرى يبتعد كل البعد عن مميزات الجنس الحديث .

أما تلافيف المخ فقد لوحظ أن هناك شبهاً كبيراً بينها وبين الانسان بعكس انسان النياندرتال الذي يشبه مخه مخ القرد . مع أن تكوين وجه انسان البلتدون يقربه كثيراً من القردة .

وأما نصف الفك الأسفل فهو عجيب حقاً ، لأنه قد وجد أنه وتركيب الأسنان فيه يحتان الى القردة تماماً ، وأن شكل الأنياب عنده لا يختلف عن شكلها أبداً عنـد صغار القردة . وهذا الفك يشبه تمام الشبه فك الشمبانزي مع أنه في انسان هيدلبرج برغم كبر حجمه كبراً غير متناسب مع الانسان الحديث ، لا يختلف في شيء كثير عن فك الانسان العادي المعروف لدينا جميعاً .



شكل ٦ شبيه بالعربي في شكل ...

وبذلك نرى أن انسان البلتدون يصل بنا الى درجة أو عصر لم يكن قد تغير فيـه شكل رأسه أو أسنانه عن شكلها عند القردة إلا قليلاً ؛ وبمعنى آخر أن التطور والارتقاء قد حدثا عنـده في المخ وقوى التفكير ، قبل أن يحدث في شكله العام وعلى الأخص شكل وجهه بفكه وأسنانه .

ونحن إذا خامرنا الظن أو الشك في نشأة النوع الانساني ، وجال بنا الحدس أنه قد انحدر من عنصر أولي منحط يشبه القردة إن لم يكن منها بالذات ، فانه يلزمنا أو يلزم من يقول بذلك البرهنة على صحة هذا الظن أو ذاك القول .

ولذلك نظن ظناً كافياً أن نقول تدليلا على صحة ذلك أن العلماء حينما كانوا يبحثون عن أصل الانسان الجيولوجي قد وجدوا أنه في منطقة Piltdown بانجلترا كان يعيش عنصر انساني قديم جدا جمع في جسمه وعقله صنعة الانسان المعروف ، وفي وجهه وفكه شكل القردة وصنعها .

وربما اعترض معترض علينا في ذلك بأنه ربما كان يسكن هذه المنطقة من انجلترا نوع منحط من الانسان وعنصر راق من القردة أو الشمبانزي ، وأن الجمجمة التي بنيت عليها الأبحاث ، وجاءت هذه النظرية نتيجة لها ، لم تكن جمجمة قرد واحد ، بل مجموعة أو خليطاً من جمجمة انسان وجمجمة قرد انحلتا واختلطتا بعد التحلل !.

إلا أن ذلك الاعتراض يمكن الرد عليه بقولنا إن الأجزاء التي تجمعت وتكاملت أجزاؤها مكونة جمجمة كاملة تتكامل أجزاؤها تمام التكامل ، وتتفق كلها في المقاييس المقدرة لها ، كما أنها من نوع قد تحجر في وقت واحد ، وهذا كله لا يمكن القول بأنه وليد المصادفة ، وبذا يثبت أن الجمجمة هي لفرد واحد هو انسان البلتداون

وقد بلغ اهتمام السـير آرثر سميث وودوارد بهذا العنصر الانساني الجديد الشبيه بالقردة مبلغاً كبيراً حتى أنه اعتبره عنصراً انسانياً لم يكن معروفاً قبل اكتشاف بقاياه في Piltdown وأطلق عليه اسم الانسان الأول أو Eoanthropus .

يتبع

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا



من الأدب التركي

المعلمة الصـــغيرة ..

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ثم تكلمتي حتى وصلنا الى (سركه جي) حيث موقف الترام هناك فقالت :

— هنا كنت أنتظر ياسيدي ، وفي كل يوم كنت أركب الترام من هنا ، ولا أدري كيف أخطأت في هذه الليلة وركبت الترام الذاهب عن « الجسر » لا اليه ؟ ولا أدري كيف لم أتنبه لذلك ؟ كان السبب كما قلت ياسيدي الظلام الحالك والمطر الكثير الذي أدهشني ، لو تدري ياسيدي كم انتظرت هنا تحت سيول الأمطار معرضة للهواء الذي يعصف بشدة ، وكم لقيت من الانتظار ، لقد ظننت أن غشاء أسود قد ستر عيني ، لا أقدر أن أصف لك اضطرابي حينما علمت منك أنها آخر عربة تسير في الليل ، آه لقد تأخرت كثيراً ...

— لقد كانت كأنها في حمية عن الكلام ثم تركتها تذهبت فيه مذهباً بعيداً وقالت :

— غريب جداً أن المصادفات في بعض الأحيان تظهر للمرء بجانبها وغرائبها كأنها تسخر منه ، لقد فاتني القطار أيضا في « مقرى كوى » لذلك تأخرت حتى ذلك الوقت لأني انتظرت هناك طويلا ، ولم يكن يخطر لي على بال أني هنا سأركب في آخر عربة تسير في الليل وفي غير الجهة التي أقصدها .

فسألتها :

— إذن أنت آتية من مقرى كوى ؟

أخذت الكلفة ترتفع بيننا شيئاً فشيئاً لأن وجودي بجانبها طول المسافة التي قطعناها أظهرها على حسن نيتي وجعل لي في قلب هذه الفتاة الشابة موقعاً حسناً فأجابتني على سؤالي جوابا طويلا مفصلا ، قالت :

أجل ياسيدي اني أذهب مرتين في الأسبوع الى « مقرى كوى » لاعطاء درس خصوصي هناك لأحدى السيدات ، آه ياسيدي ! إن حياتي شقية جداً ، محتم علي أن أشتغل من الصباح حتى المساء في جميع أنحاء هذا البلد الكبير ، تصور المسافات التي أقطعها كل يوم : ذهبت اليوم صباحا الى « طرابية » وعدت منها إلى « مقرى كوى » وأنت تعلم تباعد هذه المسافات وتنائي بعضها عن بعض . على هذه الصورة يجب أن أشتغل في أربعة أطراف البلد ، فاذا كان الصيف احتملت كل ذلك ، لأن النهار طويل أتمكن فيه من تأدية دروسي من غير كبير مشقة ولا عناء ، أما في الشتاء فالمشقة فوق الطاقة وخاصة في مثل هذه الأيام عند شدة النوء وكلب الشتاء ، لقد غلبني اليوم البكاء أكثر من مرة ، ولا أتذكر أني تأخرت مثل هذه الليلة ، وما الذي اقوله الآن في البيت لوالدي ؟

وهنا انقطعت عن الكلام ولم تجسر على إتمام جملتها ، لأنها فجأة شعرت بخجل من سردها تاريخ حياتها ، ولما لم تجد في نفسها القوة على إتمام كلامها غيرت مجرى الكلام وقالت وهي تنفض ذراعها المبتلة من المطر .

— لقد ابتلت ثيابي .

فقلت لها :

— إن مظلتك صغيرة فاطويها وخذي مظلتي فهي تحفظك من المطر .

ولكنها لم تقبل وقالت :

— أشكرك ياسيدي ! لا أود أن تبتل ثيابك أكثر مما ابتلت ، ألا يكفي ما تحملت حتى الآن من أجلي ؟

أردت أن أعودها الى الحديث عن حياتها فقلت لها :

— إذن لك والد فقط يا آنسة ؟

— نعم ياسيدي . ثم قالت :

— أظننا قد بلغنا الجسر ؟

وسكتت كأنها لا تريد أن تبحث عن شيء أبداً . ولكنها لم تتمكن من ذلك لأنها كانت في حاجة إلى أن تتكلم عن نفسها وأن تحدثني عن حياتها ، أجل ! بحاجة شديدة إلى ذلك ، فقالت :

— فقدت والدتي منذ سنتين ، ومنذ ذلك الوقت اضطررت إلى العمل الكثير . كانت والدتي في حياتها هي التي تشتغل لنا ، فلما ماتت ورثت تلك الوظيفة عنها وانتقلت إلى بمرارتها وألمها . . هل لك والدة ياسيدي ؟

فأشرت اليها برأسي أن نعم ، على أنها ما كانت تنتظر مني جواباً ، لأن سؤالها هذا كان مقدمة لما تريد أن تحدثني به فقالت :

— إن أكبر تغيير يطرأ على حياة المرء يبتدي من تاريخ وفاة أمه ، لقد كنت حتى وفاتها أجهل الحياة وما فيها ، كنت في مدرسة داخلية لا أعرف من الحياة إلا قدر ما يقع عليه نظرى بين جدرانها السامقة ، لا أعرف شيئاً ولا أعرف أحداً أبداً ، فلما توفيت والدتي واضطررت إلى ترك المدرسة والبقاء في البيت علمت أنني أجهل كل شيء حتى أبي ؛ أما الآن فقد عرفت الحياة جيداً ، واختبرت أبناء آدم ظواهرهم وبواطنهم . لقد علمت كل ذلك ، ولم يكد يمضى على دخولى في معترك الحياة أكثر من شهر . ولكن من المؤلم جداً أن يقف المرء على تلك الحقائق دفعة واحدة لأن أعصابه تتزلزل بتلك الصدمة . لقد وصلنا إلى « الجسر » ياسيدي . أشكرك شكراً جزيلاً ، وهذه عربة هنا تقلني إلى البيت.

وهنا تهيأت لوداعي ، ولكني رأيت أن المصادفات قد وقفتني على قصة حياة مؤلمة ، فكنت أفكر في وسيلة أمد بها مرافقة تلك الفتاة حتى البيت ، فقلت لها .

كلا أيتها الآنسة ، إني سأرافقك حتى الجانب الآخر من « الجسر » لأني عدلت عن الرجوع إلى بيتي في مثل هذه الساعة وسأبيت بفندق هناك ، فلم تعارضني بل اكتفت بتلك الايضاحات وسرنا نقطع « الجسر » ونحن ساكتان .

كنا نمشي معاً على أحد جانبي الطريق ، وكنا نلاقي مشقة شديدة في إمساك مظلتينا بسبب ذلك الهواء الشديد البليل الذى كان يعصف من أحد جانبينا فيبلل ذلك الجانب . وفي تلك الأثناء أدارت نظرها فيما حولها وقالت :

— نعم إن بقاء الفتاة الشابة كل حياتها محرومة من عطف الوالدة وحنانها مصيبة ليست تصارعها مصيبة .

ثم استأنفت كلامها فقالت :

هل تدرى ياسيدى ما الذى يقلق فكرى أكثر من كل شيء بعد هذا التأخر ؟

كانت مضطربة تماماً واضطرابها يزداد شيئاً فشيئاً ، كانت تشعر أنها في حاجة إلى أن تقص على هذا الرجل الذى لا تعرفه ولا يعرفها الناحية التى خفيت من نواحى حياتها .

فسألتها بسكون قائلاً :

— ماهو أيتها الآنسة ذلك الذى يقلقك ؟

قالت : والدى ! . ثم سكتت قليلاً وقالت :

— أرانى لا أقدر أن أصف لك والدى وصفاً دقيقاً ، لا أدرى كيف تنظر الى فتاة تشكو اليك من والدها لأول مرة رأيتها فيها ، ولكنك بمرافقتك لى حتى هذا المكان أثبت لى طيبة قلبك وصفاء نيتك ، وأنك بحسن تلك النية وبصفاء ذلك القلب ستدرك سلامة الأسباب التى ساقتنى الى الشكاية ، أليس كذلك ياسيدى ؟

كان الهواء يعصف بشدة ، فلم نقدر أن نضبط مظلتينا ونقاوم الهواء الشديد فأغلقناهما وأخذنا نمشى غير مبالين بالمطر

القليل الذي ينزل ، بل خففنا السير لندرك وقتاً كافياً للتكلم معاً ، وقد اقترب كلانا من الآخر ، وكنا نسير متلاصقين بقلبينا وجسمينا كأننا قد تعارفنا منذ سنين لا منذ دقائق .

كانت هي في حاجة إلى أن تشكو إليّ همومها ، أجل ! كانت في حاجة شديدة جداً إلى أن تنشر كل ماخفي من نواحي حياتها ، وتبسطه أمام ذلك الرجل الذي ربما كان اجتماعها به مصادفة واتفاقاً أول اجتماع وآخره ، فقالت .

— اعلم ياسيدي أني الليلة ككل ليلة سأجد والدي سكران طافحاً ، وحينما رآني يستقبلني بكلمات الشتم والتحقير ، وفي بعض الأحيان . . . . . ولم تتم جملتها كأنها رأت أنها قد اعترفت لي بأ كثر مما يجب ، لذلك قطعت كلامها بسرعة وأتمت جملتها التي شرعت فيها بصورة أخرى ، فقالت :

— لا أذكر أن والدي عمل يوماً ما عملاً مثمراً يعود عليه وعلينا بربح ؛ كان في شبابه صاحب مقهى صغير في « بك أوغلي » ، وكان يأتي بمغنيات في الشتاء إلى قهوته ، وكانت والدتي إحدى أولئك المغنيات ، اشتغلت عنده ثم تزوجها ، وقد علمت هذه التفصيلات واحدة بعد أخرى مصادفة واتفاقاً ، ولا أدري كيف تم الاتفاق بين أبي وأمي على الزواج الذي كنت ثمرته ، ولكن ظهوري في الحياة كان سبباً لأمراض كثيرة أصابت والدتي ومصائب أخرى اضطرتها إلى ترك العمل وأرغمت والدي على ترك المقهى كانت والدتي موسيقية بارعة ، فبعد أن تركت المسرح صارت معلمة تعطي النساء دروساً في الموسيقى ؛ وأنا أعرف والدتي وهي معلمة فقط ، لم تكن تلك دقيقة من دقائق حياتها ، بل كلها كانت رهن التعب والشقاء والتعليم والكدح في سبيل القوت ، حتى اضطرت إلى وضعي في مدرسة داخلية ، أخرج منها في الأسبوع مرة إلى البيت ، أقول « البيت » وأنت تدرك بثاقب فكرك ماهو هذا البيت . كنا نسكن في غرفتين في الطابق الرابع من بناء كبير عال . كنت إذا جئتهما في يوم عطلة أو في يوم جمعة وجدتهما بعيدين عن الحياة العائلية كل البعد ، فأهرب منهما إلى المدرسة ؛ وكيف يكون البيت إذا كان لا يطبخ فيه طعام ، ولا تغسل فيه ثياب ، ولا يعمل فيه شيء مما يعمل في البيوت ؟ كانت والدتي تشتغل بلا انقطاع لتحصيل القوت ، وكان والدي بلا انقطاع يشرب الخمر ؛ فهذان المخلوقان وإن كانا متقاربين جسماً يعيشان تحت سقف واحد ، فقد كانا متباعدين كل التباعد معنىً ، وكنت أنا في سرور لأنني بعيدة عنهما ، حتى أني لم أكن أجد لها في قلبي مكاناً . استدعتني يوماً مديرة المدرسة إليها وأخبرتني بوفاة والدتي ثم قالت : « إن المرء تصيبه في حياته مصائب جمة ، فيجب أن يتلقاها بكل ثبات وصبر » ، لم أجد في ذلك الوقت وفاة والدتي مصيبة كبيرة كما قالت المديرة ، ولكني أصبحت أحب والدتي بعد وفاتها ، آه لو تعلم كم أحبها الآن . . . . كم أحبها !

سكتت هنا قليلاً ، وقد شعرت أن صدرها يعلو وينخفض من حسرة كامنة في أعماق قلبها ، ثم قالت :

— منذ ذلك الوقت أصبحت الحياة علي أضيق من سم الخياط . أخرجني والدي من المدرسة ، وأخذ يسوقني من مكان إلى مكان . أجل ! أخذ يسوق فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، لا تعرف من الحياة إلا ما رأته من نافذة المدرسة ، إلى الأماكن التي كانت والدتها تعطي دروساً فيها لتقوم مقام أمها في تحصيل اللقمة ؛ ومنذ ذلك الحين انتقلت إلي وظيفة السعي وراء كسب القوت . وأنا الآن أسعى بكل قواي وأعطي دروساً ، وكل يوم أقطع مسافات شاسعة متعبة ، فمن « طرابية » إلى « مغرى كوى » ، ومن « إسكدار » إلى « بك أوغلي » ، ولكني لا أدري لماذا أشتغل كل هذا الشغل ؟ ولماذا أسعى كل هذا السعي ؟ . . إنهم يقولون لي (اشتغلي) وأنا أصدع بالأمر ! . . .

كنا على وشك الوصول إلى آخر « الجسر » فتراءت لنا أضواء « غلطه » ، فرأيت من الواجب أن أقول لتلك الفتاة المسكينة كلمتين أسليها بهما ، فقلت لها :

— لا تجزعي يا آنسة ، اصبري وتجلدي ، فالصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء في طريق الحياة . فهزت رأسها الصغير وقالت :

— الصبر ياسيدي ! إن الإنسان أوجد لنفسه كلمات خداعة يخدع نفسه بها ليتحمل مصائب الحياة . وازداد اضطرابها فقالت :

هل تعلم ياسيدي ماذا ينتظرني في البيت بعد كل هذه الأتعاب وهذه المشقات من الصباح حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ إن والدي في مثل هذه الساعة يعود من الحانة ترتمي في مشيته لام ألف ، فاذا دخل المنزل جلس في غرفته يتم ما فاته في الحانة انتظاراً لي ، وهو قد جعل لنفسه في البيت حانة صغيرة ، فغرفته مملوءة بالزجاجات الفارغة والأقداح المكسورة والصحون القذرة ، لو رأيت كل ذلك لدهشت ، كثيراً ما سعيت لتكون غرفته نظيفة ولكني لم أفلح ، فعدلت عن ذلك الآن وصرفت همتي إلى ترتيب غرفتي الخاصة وتنظيفها ، لله تلك الغرفة الصغيرة ! إنها صغيرة إلا أنني أجد فيها راحة كبيرة ، أنزوي فيها بعد

عودتي من العمل ليلاً وبعد أن آخذ قسطي من كلمات التحقير والشتم التي يستقبلني بها أبي إرضاء لنفسه وكسراً لحدته ، هناك في غرفتي فقط أفهم معنى الراحة وأفسح المجال لدموع عيني أن تسيل فأجد السعادة في ذلك البكاء ، أغسل به قسماً مما تراكم على قلبي من الهم والبؤس .

تقول المسكينة « فأجد السعادة » ، حتى هذه الفتاة البائسة ترى أن في البكاء سعادة ، وفي هذه اللحظة لو لم أخش أن ترتاب بي لأمسكت بيدها وشددت عليها بكل قوتي مظهراً ما بقلبي من الرحمة لها والإشفاق عليها .

فقالت بعد صمت قصير :

— أنا على يقين أنني هذه الليلة لن أقدر على تهدئته ، آه ليت شعري ما الذي سيكون لي منه ؟

فقلت لها :

— ولكنك أيتها الآنسة تشتغلين لأجل والدك ، أفلا يدرك تلك الحقيقة فيشكرك عليها ؟

وقفت عن السير في الحال ورفعت وجهها إليَّ ونظرت في وجهي ولم تقل شيئاً ، إلا أنني أدركت في الحال مغزى نظرتها هذه وما تقصده منها ، كانت تريد أن تقول بها لمخاطبها الذي يدعي أنه خبير بالحياة « أنت غر قليل التجربة » ثم خطر ببالي خاطر فجائي فقلت لها :

— أيتها الآنسة : إذا كانت مرافقتي لك حتى البيت وإعطائي الايضاحات اللازمة لوالدك يفيدانك شيئاً فاسمحي لي أن أرافقك حتى منزلك .

ترددت قليلاً ثم فكرت ملياً وقالت — وأكثر ظنها أن ذهابي معها سيخلصها من تحقير أبيها ويقلل من حدته — :

— نعم ياسيدي أقبل لطفك هذا أيضاً .

ثم أضافت إلى جملتها هذه قائلة :

— لقد أثر البرد في جسمك فهل لك في قدح من الشاي أقدمه إليك إذا انتهينا إلى البيت ؟

ارتفعت الكلفة بيننا وأصبحنا صديقين . كنا في ذلك الحين نتجه نحو « غلطه قوله سي » فقالت :

أتراني لو لم تكن معي كنت أجسر على المرور وحدي من هذه الأماكن ؟ ثم وقفت فجأة أمام دار كبيرة وقالت « هنا »

دخلنا إلى صحن الدار المفروش بأحجار الرمر ثم أخذنا نصعد الدرج الحلزوني ، لا أدري كم صعدنا ، ولكني شعرت بدوار في رأسي وسمعت رجلاي عن حملي لأننا كلما انتهينا من طابق وقفنا قليلاً نستعيد قوانا للصعود إلى الطابق الذي فوقه . ووقفت أخيراً وأنا أتنفس بقوة ، فقالت ضاحكة : لم يبق درج نصعده !

فدخلنا في دهليز صغير فيه ضوء ضئيل ووقفنا أمام باب ، فنظرت إلى وجهي ولم تجسر أن تطرق الباب فطرقته بظهر يدي فلم يجبني أحد ؛ طرقته مرة ثانية فسمعت صوتاً يشبه صوت حيوان وحشي ، ثم سمعت وقع أقدام تخطو رويداً رويداً خطوات غير منتظمة ، وشعرت باقتراب أنفاسه منا ، وأخيراً فتح لنا الباب وعاد من غير أن ينظر إلى ما وراءه وفي قلبه من الغضب والسخط عواطف يخشى بأسها .

دخلنا في ممر ضيق ووقفنا أمام غرفتين متقاربتين إحداها مفتوحة فدخلناها وعلمنا أن الرجل لم يتبين أننا شخصان إلا بعد دخولنا غرفته ، فنظر إليَّ متحيراً بعينيه المحمرتين من تأثير الكحول فقلت له : إن ابنتك اليوم قد وقعت في خطأ . . .

كان عند كل كلمة ألقيها عليه في شرح موقف الفتاة وحالها ترتسم على وجهه المغطى بسحابة من البلاهة منشؤها ذلك الأدمان ابتسامة خفيفة وترتخي أعصابه وتنحل

كنت وأنا أسرد له القصة ، أنظر الى تلك السحنة البلهاء تارة ، وإلى غرفته أخرى . كان غائر العينين بارز عظام الخدين قد رجل شعره بدهن اللوز ليلمع ، وعلى وجهه مسحة شباب ميت قد أقامه ذلك الهرم المتصابي بقوة العلاج الذي كان يستعمله .

وكانت الغرفة قذرة بقدر ما تحويه هذه الكلمة من معنى ، وكان كل ما فيها عبارة عن : كراسي عتيقة مكسرة ، ومنضدة صغيرة كمناضد المقاهي عليها مشمع أسود اللون ، وزجاجات خمر ونبيذ فارغات ، وصحون قذرة ، ومصباح قد طار من زجاجه قطعة فجعل مكانها ورقة سيجارة ينشر ضياء ضئيلا كأنه أنين باك موجع ، وفيها فراش إن صح أن يسمى مثله فراشاً ، حولت نظري التألم عن كل هذه الأشياء وقلت له :

— لقد جئت بالآنسة الى هنا وها أنذ أسلمها اليك .

فلما سمع مني تلك الكلمة ظهر مالم يكن في الحسبان : ذلك أن والد تلك الفتاة المسكينة السكير البغيض الذي ابتدأ حياته أجيراً في أماكن الريب في « غلطه » وأمضى قسماً منها في مرقص أنشأه بنفسه ، تقدم مني مشيراً إلى فتاته الطاهرة التي كانت تنتظر النتيجة ، وقد تجلت عليه تماماً أمارات البله وقال :

— لقد ظهرت الحقيقة أيها السيد . . . !

ثم اقترب مني وقال وهو ينظر اليّ نظرة مرتاب :

— يظهر أن الآنسة قد وقعت من نفسك . . .

فأدركت سوء نية ذلك الرجل . كم كانت يدى فى تلك الدقيقة تود أن تصفع ذلك السكير ! حولت نظرى الى ابنته فوجدت وجهها قد علاه الاحمرار ، لأنها أدركت غاية والدها .

لله أنت أيتها الملكة الصغيرة ! أيتها المخلوقة التى تشتغلين من الصباح حتى المساء لاشباع والدك ، هل أنت حقاً ابنة ذلك الرجل ؟!

حولت وجهها عنى فلم أشك أنها فى تلك الدقيقة كانت تود لأنها من تلك المهانة التى لحقتها فى عصمتها وعفتها ، والجرح الذى أصابها فى كرامتها ، أن تهرب من بين يدى وتذهب الى حيث لا أراها فتبكى . . . وتبكى . . .

لم أجبه بشىء ما ، إن الرجل كان لا يزال ينظر اليّ نظرة المرتاب ، فأدركت أن من الواجب البعد عن ذلك المكان . وكأنه أدرك ما دار فى خلدى ، فعرض عليّ مستهزئاً كأساً من « الكونياك » فقلت :

— شكراً . ليس لدى من الوقت ما يتسع لذلك .

وسرت نحو الباب ، فظهرت من الفتاة حركة تدل على أنها تود أن تخرج معى حتى الباب تودعنى . لكنها لم تجسر على ذلك فى بادىء الأمر . ثم أقدمت عليه وسارت ورائى . بقى والدها فى غرفته يضحك ضحكاً عالياً كأنه يعلن به ما قاله أولاً :

« يظهر أن الآنسة وقعت من نفسك !! »

تبعتنى الفتاة حتى باب الدار وقالت بصوت تخنقه العبرات :

— سيدى . . .

ثم اضطربت ولم تستطع أن تتم جملتها .

حينذاك أخذت يدها وهى فى القفاز بكلتا يدى ، وشددت عليها مظهراً ألمى على تلك الزهرة الناضرة التى نبتت فى ذلك المكان الملوث ، وحكم عليها أن تعيش فيه عيشة حقارة ومهانة وقلت لها :

— أيتها الآنسة : أكرر لك جملتى السابقة وأقول . إن الصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء فى طريق الحياة . لا أظن أننا نلتقى مرة أخرى ، ولكن كونى على ثقة أننى دائماً سأتمنى لك من صميم قلبى السعادة والهناء .

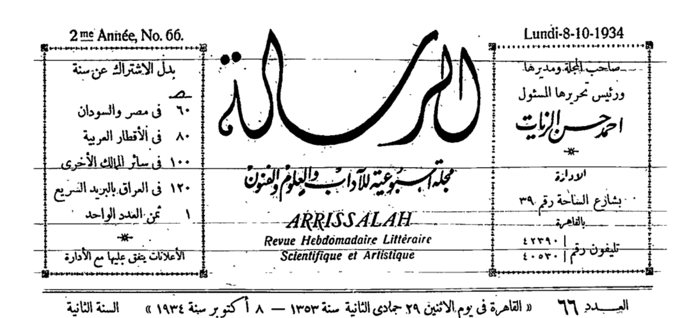
فانحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وسالتا على خديها ثم استقرتا على صدرها ، أعلنت بهما شكرها لى .

ففررت من ذلك المحل ، وكنت وأنا أنزل الدرج أقول فى نفسى : « لقد وعدتها أن أتمنى لها دائماً السعادة ، ولكن أين منها السعادة ؟ ! »

لعمرى لو رأيتها حين يبدى الربيع نواره ، وينثر على بسط الزبرجد أزهاره ، على عربة من تلك العربات الفخمة ، التى يركبها صائدات القلوب وسالبات الجيوب ، وهى متجهة نحو « شيشلى » حيث تموت الفضيلة ، وتحيا الرذيلة ، تسلم على أحبابها بابتسامات غريبة وإشارات مريبة ، لم أعجب لذلك بعد الذى رأيت من حالها مع أبيها .

ما أتعس تلك الفتاة الصغيرة ! إنها بين شقاءين : شقاء الحاضر بأبيها المختبل ، وشقاء المستقبل بشرفها المبتذل .

نزيلة بعلبك — فتاة الفرات



2me Année, No. 66. — Lundi-8-10-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العــــدد ٦٦ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــــدد

نهضتنا الاقتصادية

بمناسبة النمو العجيب في شركة مصر للغزل والنسيج

نهضتنا الاقتصادية هي وحدها الدليل الناهض على نضوج شعبنا المظلوم . لأنها نسق من الضرورة والقدرة والنظام والثقة قائم بذاته لا يقوم على الهوى ، ولا ينتظم على الطيش ، ولا يصبر على الفساد ، ولا يتقدم على العجز ، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة . فبينما نجد النهضة السياسية تنتكس فترجع الى الموت ، والحالة الأخلاقية تنحل فتعود الى المهانة ، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب الى الفوضى ، وحمية الشباب تنكسر فترتد الى الفتور ، نجد هذا الركن القوي الذي يقوم على بنك مصر وشركاته يثبت أصله في الأرض ، ويسمو فرعه في السماء ، ويمسك هذا الوطن المنكود في مهب الأزمات ومضطرب الكوارث . واطراد النجاح في هذا العمل الشعبي الخالص مبعثه إخلاص القادة ، وثقة الأمة ، وضمان من الله يسميه الدين إيمانا ، والخلق ثباتاً ، والعلم كفاية ، ونسميه نحن : طلعت حرب

إن هذا اللحن الذي يتألف من صريف الأموال المصرية في (البنك)، وهدير البواخر المصرية في البحر، وأزيز الطوائر المصرية في الجو، ودوي المصانع المصرية في (المحلة)، لهو النشيد القومي القوي الذي يعلن استقلال البلاد، ويعلو مسامع الأجانب، ويتبه مطامع الشعوب الى أن هنا أمة حية لها ماض تستهديه، ووطن تستغله، وغرض تسمى اليه؛ وأن هذا التوسع المطمئن الحازم في شركة مصر للغزل والنسج في الوقت الذي تسهم فيه كفاية البلد، وتطير الشائعات التنود في جو السياسة، تصحيح للأفهام الأجنبية التي تحاول استنتاج الحقيقة المصرية من أخطاء جماعة

***

كان نجاح شركات (بنك مصر) نجاحاً حقيقياً طبيعياً يطرد اطراد الزمن من غير بطء ولا طفرة. ولكن نجاح هذه الشركة — شركة مصر للغزل والنسج — وهي كأخواتها مصرية الرجال والأموال والعمال والمادة، تجاوز حدود الظن، وفات معاقد الأمل؛ فقد أنشئت منذ ثلاث سنوات وعدد أنوالها ٤٤٨ نولاً فأصبح اليوم أربعة آلاف، وعدد مغازلها اثنا عشر ألف مغزل فبلغ هذا العام خمسين ألفاً، وعدد عمالها ستة آلاف فأصبح مع هذا التوسع ثمانية عشر ألفاً، وكانت مصانعها تنشأ بادئ الأمر على قدر الحاجة، فبسطها النجاح السريع، والفرص المواتية، والادارة الرشيدة، حتى بلغت مساحة الأرض التي تقوم عليها اليوم مائة فدان؛ وكان عملها مقصوراً على غزل القطن المصري ونسجه، فصنعت الآن (الدوبارة، والفانلات، والجوارب، وبكر الخيط، والقطن الطبي). فأصبحت بهذا النمو العجيب في هذا الوقت القريب من أكبر المصانع العالمية.

عمل جسيم من أعمال الادارة والفن، غزت به هذه الشركة ميادين الاقتصاد في البلاد، وفتحت الطرق الموصدة أمام الرءوس المصرية، والأيدي المصرية، لتفكر بنفسها، وتعمل لنفسها، وتنسج من القطن المصري الجميل، مجد الكنانة واستقلال النيل.

***

هذه هي الوطنية الشمرة بوسيلتها وغايتها. فأما ثمرة وسيلتها فتوظيف الأموال المصرية في أضمن مكان وأربح مورد، وتخفيف العطلة باستخدام هذا الجيش الكثيف من العمال وما يتبعه من مرشدين ومهندسين وكتبة، واستهلاك مقدار من القطن المصري قد يربو على خمسمائة ألف قنطار، ثم نشر الثقافة الآلية الحديثة في هذه الصناعة عن طريق البعوث الى أوربا، ومن تدربه من الأحداث في المصانع؛ وأما ثمرة غايتها فدفع هذا الاحتلال الاقتصادي الذي أفقر البلاد وأذل الشعب، وحبس أموالنا في بلادنا حتى لا تخرج ذهباً من أيدينا لترجع حديداً في أرجلنا، وانماء العزة القومية بشعور المصري انه يلبس من زرعه ومن صنعه، وترفيه الحياة المصرية بكثرة الانتاج ووفرة الكسب وتوزيع الثروة، ثم تمكين النفوذ المصري في الأسواق الشرقية والأقطار العربية، وذلك مجد ورثناه ثم حرمناه منذ طويل.

***

قدرت الأمة الرشيدة غاية هذه الشركة، وعقدت آمالها بمستقبلها، وأخلدت بثقتها الى رجالها، فلم تضن عليها بالعطف والمساهمة. وآية ذلك أنها أصدرت منذ ثلاثة شهور ١٧٥٠٠ سند بثلاثمائة وخمسين ألف جنيه بفائدة ٥٪ فبيعت كلها على رغم هذه الأزمة! وهاهي ذي تريد اليوم أن تطرح للاكتتاب العام خمسة وسبعين ألف سهم اقتضاها نمو المشروع، واتساع العمل، والتقدير الدقيق لحاجة البلاد، وضرورة التصدير، وضمان المستقبل.

ولا ريب أن الأمة التي تئن أنين الأسير العاني من الاحتلال والاستغلال والامتيازات، لا تني عن تعضيد هذه الشركة وأخواتها بالأموال والآمال بعد ما ثبتت بدلائل التجربة وشواهد الواقع أنها أنجع الوسائل وأخصر الطرق لادراك الاستقلال الصحيح؟

نزعنا مع العدد الماضي فهرس المجلد الأول من السنة الثانية، فمن لم يصله فليطلبه من الادارة.

أرملة حكومة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا[1] هو الرجل العَزَب ، يكون مُطيقاً للزواج قادراً عليه ولا يتزوج ؛ بل يركب رأسه في الحياة ، ويذهب يُمَوِّهُ على نفسه كذباً وتدليساً ، وينتحل لها المعاذيرَ الواهية ، ويَخْتَلِق العللَ الباطلة ، يحاول أن يُلْحِق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو ؛ ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات ، يَزيدهن على نفسه شرَّ نفسه ؛ ويرميهنَّ بالسوء وهو السوءُ عليهن ، ويَتَنَقَّصُهُنَّ ومنه جاء النقص ، ويَعيبهُنَّ وهو أكبر العيب ؛ لايتذكر إلا الذى له ، ولايتناسى إلا الذى عليه ، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا ، وتبدلت رسومُ الحياة ، فزالت الرجولة بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانفصلت الأنوثة بحقوقها من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تَحمل تلك ما كان يحمل هذا ، فتُقْدِمَ ويَقَرَّ وادعاً ، وتتعب ويستريح ، وتعانيَ الهمومَ السامية في الحياة الاجتماعية ، ويعانيَ المخنثُ ابتساماته ودموعَه ، متكئاً في مجلسه النسيميّ تحت جَناح المِرْوحة . . . فأما المرأة فتشرف على هَلَكتها ، وتخاطر بحاضرها ومستقبلها ، وأما هو فيتقي من ثيابه في مثل الخِدْر المَصُون . . . !

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائف المُبَهْرَج ، يُحْسَبُ في الرجال كذباً وزوراً ؛ إذ لا تكمل الرجولةُ بتكوينها حتى تكمل بمعاني تكوينها ، وأخصُّ هذه المعاني إنشاءُ الأسرة والقيامُ عليها ، أيْ مغامرةُ الرجل في زمنه الاجتماعيّ ووجودِه القويّ . فلا يعيش غريباً عنه وهو معدود فيه ؛ ولا طُفَيْلِيّاً فيه وهو كالنَقيّ منه . ولا يكون مَظهراً لقوة الجنس القوى هاربةً هروب الجبن من تَحمُّل ضعف الجنس الآخر المحتمي بها ، ولا لمروءة العشير مُتَسَبِّبَةً تَبَرُّؤَ النذالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها ؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان في نساء أمته عملاً واحداً ، وأن يصبح هو والكساد لا يأتي منهما إلا أثرٌ متشابه ، وأن يبيت هو والفناء في ظُلمة واحدة كظلمات القبر ، تنقل الأجداثَ إلى الدور ، فتجعل البيت الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌ وأطفال — بيتاً خاوياً كأنما ثُكل الأم والأطفال ، وبقيت فيه البقية من هذا الرجل العَزَبِ الميت أكثرُ تاريخه . . . !

لقد رأيت بعينيّ أداةَ العزب وأثاثه المبعثر في بيته ، كأنما يقصّ عليه كلُّ ذلك قصةَ شؤمه ووحدته ، وكأنما يقول له الفَرْش والتَّجْديدُ والطراز : « بعني يارجل وردَّني إلى السوق ؛ فإني هنالك أطمع أن يكون مصيري إلى أب وأم وأولاد ، أجِدُ بهم فرحةَ وجودي ، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابي ، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قد عملت عملاً انسانياً . أما عندك فأنت خشبة مع الخشب ، وأنت خِرْقة بين الخِرق . واسمع الكرسيّ إنه يقول : أفّ . وأصغِ إلى فراشك انه يقول : تفّ . . . »

شهد العزبُ وربُّ الكعبة على نفسه أنه مُبْتَلَى بالعافية ، مستعبدٌ بالحرية ، مجنون بالعقل ، مغلوب بالقوة ، شقي بالسعادة . وشهدتْ الحياة عليه ورب البيت أنه في الرجولة قاطع طريق يقطع تاريخها ولا يؤمِّنُه ، ويسرق لذاتها ولا يكسبها ، ويخرج على شرْعها ولا يدخل فيه ، ويعصي واجباتها ولا ينقادلها . وشهد الوطن — والله — عليه أنه مخلوق فارغ كالواغل على الدنيا ؛ إن كان نعمةً بصلاحه ، انتهتْ النعمةُ في نفسها لاتمتد ؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ في غيرها لا تنقطع . وأنه شحّاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً ، ولا يُحْسِن هو بنسل يبقى ، وأنه في بلاده كالأجنبي ، مهبطه على منفعةٍ وعيشٍ لاغيرها ، ثم يموت وجودُ الأجنبي بالنَّقْلَة إلى وطنه ، ويموت وجودُ العزب بالانتقال إلى ربه ؛ فيستويان جميعاً في انقطاع الأثر الوطنيّ ، ويتفقان جميعاً في انتهاب الحياة الوطنية ، وأن كليهما خرج من الوطن

---

(1) أنظر مقالة « استنوق الجمل » بالعدد ٦٤ من الرسالة . والتاء في « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ، بل هي تاء جديدة في العربية ، تزاد في هذه الكلمة خاصة ، واسمها تاء الهزؤ . . . ويا حبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل عَزَب « أرملة حكومة » فإن هذا الاسم إذا عم وشاع كان في معناه وفعله المطهر حامضاً لعوباً كحامض الليمون . . . !

أبتر لا عقب له ، ويذهبان معاً فى لجج النسيان : أحدهما على باخرة ، والآخر على النعش !

***

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسية الدقة البالغة فى الرقم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذر البالغ أن يختل شىء ، أو ينحرف ، أو يتقاصر أو يطول ، أو يزيد أو ينقص ، أو يدخله السهو ، أو يقع فيه الخطأ ؛ إذ كان الحاضر فى العمل الهندسى إنما هو للعاقبة ، وكان الخيال للحقيقة ؛ وكان الخرق هنا لا يقبل الرقعة . ومتى فصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس ؛ فإما عقل دقيق منتظم ، أو عقل مأفون مختل .

بيد أن المهندس — على ما ظهر لى — قد تخلت حياته من الهندسة . . . وانتهى فيها من التحريف المضحك — حتى فيما لا يخطئ الصغار فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين » فقد رووا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلى بهم فى مسجدها ، فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائل فى الدين لم يتوجه لى وجه الحق فيها ، ولا أزال متحير الرأى ، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة فأريد أن أسألك عنها . قال العالم : سل ما أحببت .

قال الخطيب : أشكل على فى القرآن بعض مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياك نعبد وإياك » . . . أى شىء بعده « تسعين ، أو سبعين » . . ؟ أشكلت على هذه فأنا أقرؤها : تسعين . . أخذاً بالاحتياط . . !

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عزب أخذاً بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تكلفنى الزواج وتكرهنى عليه ، وتعنفنى على العزوبة وتعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكن وخذ المستحيل . إن استحالة الزواج هى جعلتنى عزباً ، والعزوبة هى جعلتنى فاسداً ؛ وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب إما أن تكسد الفتاة ، وإما أن تتصل بها العدوى . والعزب لا يأبى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق .

قلت : لقد هولت على ؛ فما مستحيلك يا هذا ، ولم استحال عليك ما أمكن غيرك ، وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً ؟ أمن غير آباء خلقوا ، أم زرعوا زرعاً فى أرض الحكومة ؟ اسمع — ويحك — ألا يكون الرجال قد أقبلوا وتراجعت ، وتجلدوا وتوجعت ، أو أقدموا وخنست ، واسترجلوا وتأنثت ؟

قال : ليس شىء من هذا .

قلت : فإن المسألة هى كيف ترى الفكرة ، لا الفكرة نفسها ، فما حملك على العزوبة وأنت موظف وظيفتك كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يصدق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود : لو عمد إلى حجر لانفلق له عن رزق .

قال : أليس مستحيلا ثم مستحيلا أن يجمع مثلى يده على مائة جنيه يدفعها مهراً ؛ وما طرقت — علم الله — باباً إلا استقبلونى بما معناه : هل أنت معجزة مالية ، هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فإن عملك فى الحكومة يغل عليك فى السنة مائة وثمانين ديناراً فلم لا تعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟

قال : « يكل أسف » لا يستطيع الرجل العزب أن يدخر أبداً ؛ فهو فى كل شىء مبدد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتك على نفسك بالسفه والخرق والتبذير ؛ تنفق ما يكفى عدداً وتضيق بواحدة ، وماذا ترتئى مثلك فى الحياة ؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبد فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع فى شهوات حياته ، ويتوسع فيها ضروباً وألواناً ، ليكون وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة ، كل منهم فى موضع رذيلة أو مكان لهو ؛ وكأن منه رجالا هو كاسبهم وعائلهم ، ينفق على هذا فى القهوة ، وعلى هذا فى الحانة ، وعلى ذلك فى الملاهى ، وعلى الرابع فى المواخير ، وعلى الخامس فى المستشفى . . . ؟ إن كان هذا هو أصل الرأى عند العزب ، فالعزب سفيه مجرم ، وهو إنسان خرب من كل جهة إنسانية ، وهو فى الحقيقة ليس المتسع لنفقات خمسة ، بل كأنه قاتل خمسة من أبناء وطنه ؛

[البقية على صفحة ١٦٧٩]

عصبة الأمم والأمم الشرقية

لمناسبة انضمام أفغانستان اليها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتظمت فى سلك عصبة الأمم دولة شرقيــة جديدة هى فغانستان ، وكان قبولها فى العصبة باجماع الآراء تقريباً ، ولم يبق خارج العصبة من أمم الشرق الأدنى والأوسط بعد دخول تركيا وافغانستان سوى مصر وسوريا والمملكة السعودية واليمن . ولعلائق الأمم الشرقية بعصبة الأمم وموقفها منها تاريخ خاص ، يصح أن نستعرضه بهذه المناسبة . وقد بدأت هذه العلائق منذ مولد العصبة ذاتها ، وكانت العصبة يومئذ إحدى نفثات ذلك الانجيل الجديد الذى بشر به توماس ودرو ولسون أعظم ذهن هائم فى التاريخ المعاصر ، والذى انهارت مبادؤه ووعوده فى فرساى مهد تطبيقه . كان انجيل الصلح بين الأمم المتحاربة على قواعد التسامح والعـدالة ، وانجيل السلام والتفاهم ، وانجيل الحريات الدولية والاعتراف بحقوق الشعوب فى تقرير مصايرها ، فاستحال فى فرساى ، وفى نصوص معاهدة الصلح ، الى بركان من الشهوات القوية ، ومزقت باسمه شعوب ، وأرهقت أخرى ، ومنحت الحرية لشعوب ، وسلبت أخرى حرياتها ، وفرضت عليها العبودية بأسماء وصور جديدة . وكان المفروض أن عصبة الأمم ستغدو عصبة دولية انسانية تجمع الأمم على احترام السلام والمثل الانسانية الخالدة ، ولكنها جاءت منذ مولدها نفثة من تلك الروح التى أملت معاهدة الصلح ؛ روح الظفر والأثرة ؛ وكان موقفها من الأمم الشرقية بالأخص مناقضاً لجميع العهود التى قطعت ، والمبادىء التى قررت .

كانت اليابان والصين والهنــــد وسيام والحجاز هى الأمم الشرقية التى وقعت على ميثاق عصبة الأمم ومعاهـدة الصلح (وميثاق العصبة هو القسم الأول من المعاهدة) منذ وضعها فى يونيه سنة ١٩١٩ ، وبذلك غدت أعضاء فى العصبة منذ إنشائها ، وقد أبى الوفد الصينى أن يوقع معاهـدة الصلح احتجاجاً على بعض نصوصها التى تمنح الانتداب لليابان على بعض الأراضى الصينية التى كانت بيد ألمانيا ، ولكن الصين اعتبرت عضواً فى العصبة لأنها وافقت على الميثاق . أما الحجاز فقد كانت يومئذ هى المملكة العربية الجديدة التى أنشأها الانكليز للحسين بن على ، والتى انهارت قبل أعوام قلائل . وكانت فارس من الأمم التى دعيت الى دخول العصبة منذ إنشائها ، وقد انضمت اليها غير بعيد . وأما تركيا فقد كانت من أمم الأعداء ، وكان مقضياً عليها بالتمزيق والاعــدام ، وكانت افغانستان تخوض يومئذ حرب الحرية مع الانكليز . وأما العراق وسوريا وفلسطين ، فقد كانت من ضحايا الانتداب الذى ابتدع لتوزيع أسلاب الدولة العثمانية الذاهبــة على الحلفاء . وكانت مصر ضحية الحماية الانكليزية التى أعلنت عليها قسراً أيام الحرب ، وكانت تضطرم بثورتها التحريرية التى انتهت بعد ذلك بعامين بالغاء انكلترا للحماية واعلان استقلال مصر من الوجهة النظرية . والواقع أنه لم يكن للشرق فى العصبة عند قيامها سوى صوت قوى واحد هو صوت اليابان . ولـكن اليابان كانت من دول الحلفاء ، وكان دخولها فى العصبة لتأييد نفس المبادىء وتحقيق نفس الغايات التى تؤيد وتعمل على تحقيقها الدول الغربية ، وكان لها نصيبها من أسلاب الحرب ، ولم تكن فى سياستها الاستعمارية أقل شرهاً من انكلترا أو فرنسا . وأما الصين فقد كانت تتخبط فى غمار الحرب الأهلية ، وكان تمثيلها فى العصبة على يد وحدة صغيرة فيها هى جمهورية كنتون الناشئة . وأما الهند فقد دخلت باعتبارها من الأملاك البريطانية لتشد الى جانب استراليا وكندا وجنوب أفريقية أزر بريطانيا العظمى فى سياستها ومشاريعها داخل العصبة . ودستور العصبة يجيز دخول الأملاك المستقلة والمستعمرات الحرة . وأما الحجاز فلم تكن لها يومئذ أية أهمية سياسية أو دولية ؛ ولم يكن متولها فى مؤتمر الصلح ، ودخولها فى العصبة إلا ضرباً من المجاملة النظرية .

كانت عصبة الأمم منذ قيامها إذاً هيئة غربية فى روحها وفى جوهرها ، ولم تكن تمثل من الوجهة العملية شيئاً من المبادىء الرنانة التى أعلنها الرئيس ولسون فى ختام الحرب ، والتى أريد أن تكون قاعدة لعقد الصلح الحر بين الأمم المتحاربة وقيام عصبة حرة من الأمم تعمل على تخليد مبادىء الحرية والعدالة

والوئام فيما بينها . ومع ذلك فقد بعثت مبادىء الرئيس ولسون المتعلقة بحريات الأمم ومصير الشعوب في بعض الأمم المغلوبة شيئاً من الأمل ، وكان مفروضاً أن ذلك الهيكل الجديد الذي أقيم ليعاون في تطبيق هذه المبادىء الخالدة — أعني عصبة الأمم — سيكون بالفعل سنداً للأمم الشرقية في جهادها في سبيل الحرية والاستقلال . ولكن ذلك الأمل كان وهماً . وجاءت عصبة الأمم بالعكس لتقر من المبادىء والأساليب إزاء بعض الأمم الشرقية ما يخالف كل عدالة وكل حق وكل عهد مقطوع .

ونذكر بهذه المناسبة أن الوفد المصري برئاسة المغفور له سعد زغلول باشا كان يوم وضع معاهدة الصلح في باريس يعمل في سبيل القضية المصرية ، وقد احتج عبثاً على نصوص معاهدة الصلح التي تمس مصر ، والتي تقر حماية انكلترا المفروضة عليها رغم إرادتها ؛ وتذكر أيضاً أن سعد باشا أرسل إلى الرئيس ولسون يرجوه باسم مبادئه مقابلة يبسط له فيها ظروف القضية المصرية ، فلم يجبه الرئيس ولسون إلى هذا الرجاء . وكانت أول خطوة عملية اتخذتها عصبة الأمم لتأييد الاعتداء الواقع على الأمم العربية هو أنها أقرت نظام الانتداب الذي وضعه الحلفاء لتقسيم البلاد العربية وحكمها رغم العهود الصريحة التي قطعت خلال الحرب بمعاهدات ووثائق رسمية ، فأقرت الانتداب على سوريا لفرنسا ؛ وأقرت انتداب انكلترا على فلسطين وشرق الأردن والعراق ؛ وأقرت عهد بلفور وما ترتب عليه من إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ؛ ولم تحاول العصبة أن تتدخل يوم قسم الحلفاء تركيا إلى مناطق ودفعوا اليونان لاحتلال أزمير والتوغل في قلب الأناضول ؛ ولما وقع الخلاف بين تركيا وانكلترا على مسألة الموصل واتفقتا على رفع الأمر إلى عصبة الأمم ، كان موقف العصبة مريباً ظاهر التحيز ؛ وكثيراً ما حاولت الأمم العربية أن تتقدم إلى العصبة بالشكوى من نظام الانتداب وما يرتكب في ظله من ضروب الجور والعسف ، فلم تفز منها بالإصغاء قط ؛ ولم تكن لجنة الانتدابات الدائمة بالعصبة إلا سيف المستعمر الشرعي مصلتاً على رقاب الأمم الواقعة تحت الانتداب .

هكذا كان موقف عصبة الأمم نحو الأمم الشرقية المغلوبة منذ البداية . وقد أثبتت العصبة خلال أعوامها الأربع عشرة أنها غير أهل لتحقيق شيء من المبادىء والمهام العظيمة ، التي عهد اليها بالعمل على تحقيقها . وأسطع مثل لذلك موقفها إزاء مسألة تخفيض السلاح ، وعجزها المطبق عن أن تحقق شيئاً في هذا السبيل ، لأن تحقيقه لا يروق للدول المسيطرة على مجلس العصبة ؛ وأسطع مثل لوقوع العصبة تحت نفوذ الدول القوية ووحي النزعة الاستعمارية ، موقفها في مسألة منشوريا ، التي ثارت منذ ثلاثة أعوام بين اليابان والصين ، وكلتاهما من أعضاء العصبة ؛ فقد استغاثت الصين بالعصبة حين غزو اليابان لمنشوريا ، فلبثت العصبة بين التردد والتمهل حتى تم استيلاء اليابان على منشوريا ولم تستطع أن تتخذ أي إجراء حاسم تنوه فيه باعتداء اليابان على الأراضي الصينية ، مع أنه قد نص في ميثاق العصبة على عدة عقوبات تأديبية واقتصادية يتقرر اتخاذها ضد الدولة المعتدية في مثل هذه الظروف . ولم ترض اليابان عن هذا التدخل رغم عقمه . فانسحبت من العصبة لتكون مطلقة اليدين في تنفيذ سياستها الاستعمارية . وقد كان فشل العصبة في مسألة منشوريا ذروة ضعفها وانحلال هيبتها ، فعملت الدول الغربية التي تستتر في العمل وراء العصبة على تدارك هذا الضعف ، بحمل روسيا السوفيتية على الالتحاق بعصبة الأمم ؛ ولبت روسيا هذه الدعوة ، والتحقت بالعصبة بعد أن كانت تخاصمها وتعتبرها من أدوات الاستعمار المستترة حسبما فصلنا في فصل سابق في « الرسالة » . وأرادت الدول الغربية من جهة أخرى أن تقوى المظهر الشرقي لعصبة الأمم ؛ فسعت لدى تركيا حتى التحقت بالعصبة ، وكان التحاقها بها نتيجة مباشرة لانضمام روسيا اليها ، لأن السياسة التركية الخارجية تسير مع السياسة البلشفية الخارجية جنباً إلى جنب ؛ ولأن موقف الخصومة الذي اتخذته تركيا نحو العصبة من قبل لم يكن إلا مجاراة لسياسة حليفتها موسكو . ثم كان دخول أفغانستان أخيراً نتيجة أيضاً لنفس السياسة ؛ وأفغانستان تتأثر بنصائح موسكو ، وهي مدينة باستقلالها الأخير إلى معاونة موسكو ومؤازرتها ، وهي تتأثر أيضاً بنصائح انجلترا ، وانجلترا يهمها تقوية المظهر الشرقي لعصبة الأمم ؛ ولذلك رأينا أغاخان مندوب الهند وأحد أبواق السياسة الانكليزية يقول في خطابه الذي ألقاه لمناسبة انضمام أفغانستان : إن أخطار الطابع الغربي للعصبة كانت واضحة ، وكانت دائماً تنشى صبغتها

العالمية ، فدخول أفغانستان يقوى طابعها العالمى ، ويزيدها قوة فى القيام بمهمتها .

هذا ويجب ألا ننسى أن العراق أيضاً عضو فى عصبة الأمم ، وقد دخلت العصبة منذ نحو عامين ، وكان دخولها نتيجة لعقد المعاهدة العراقية الانكليزية التى نالت بها العراق استقلالها الذاتى (سنة ١٩٣٠) وخروجها بذلك من ربقة الانتداب الذى كان مفروضاً عليها من قبل عصبة الأمم لصلحة انكلترا . ويجب ألا ننسى أن دخول العراق فى العصبة كان مقروناً من جانب العصبة بمظاهرة تؤكد صبغة العصبة الغربية والاستعمارية معاً ، فقد وضعت العصبة لقبول العراق شروطاً تلفت النظر بتحاملها وشدتها ، ولا سيما فيما يتعلق بحماية الأقليات الدينية والجنسية ، وحرية البعثات التبشيرية فى القيام بأعمالها ، وتقرير الحق لكل دولة أن تشكو العراق إلى العصبة إذا رأت أنها قصرت فى تنفيذ تعهداتها .

ولم تنضم المملكة السعودية (نجد والحجاز) بعد الى عصبة الأمم ، وليس فى سياستها ما يدل على أنها تنوى أن تسعى الى هذا الانضمام فى القريب العاجل ، غير أنه يلاحظ أن المملكة السعودية معترف بها من جميع الدول الكبرى التى تسيطر على مجلس العصبة ، وأن علائقها بهذه الدول ولا سيا انكلترا حسنة ؛ وقد يكون فى الحوادث الأخيرة التى انتهت بدخول تركيا وأفغانستان فى العصبة ما يحمل المملكة السعودية على التفكير فى السعى إلى الانضمام الى العصبة ، أما اليمن فليست لها سياسة خارجية منظمة معروفة ، ومن الصعب أن يعرف موقفها فى هذا الشأن ، وإن كان المرجح أن الأمام لا يعلق على مثل هذا الانضمام أية أهمية . أما سوريا فهى لا زالت ترزح تحت الانتداب الفرنسى ، ومن المعروف أن السياسة الفرنسية تنوى متى استطاعت أن تعقد المعاهدة المنشودة مع سوريا ، أن تحذو فيها حذو المعاهدة الانكليزية العراقية من حيث العمل على التحاق سوريا بعصبة الأمم .

***

بقيت كلمة عن مصر وعن موقفها من العصبة ، فأما عن حق مصر فى الدخول فى عصبة الأمم فليس عليه غبار من الوجهة الدولية ، أولاً لأن مصر قد نالت استقلالها من الوجهة الدولية بتصريح فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهى طبقاً لهذا التصريح دولة مستقلة ذات سيادة . وثانياً لأنه لا يوجد فى ميثاق العصبة ما يمنع دولة فى ظروف مصر السياسية من الانضمام اليها ، فالفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق تنص على أنه يحق لكل « دولة أو ملك مستقل (دومنيون) أو مستعمرة حرة فى حكم نفسها أن تغدو عضواً فى العصبة إذا وافق على انضمامها ثلثا أعضاء الجمعية العامة » ، ومصر ليست ملكا مستقلا ولا مستعمرة ، بل هى من حيث المركز الدولى دولة مستقلة ذات سيادة ، وقد سلمت السياسة البريطانية لمصر بهذا الحق فى مشروع المعاهدة المصرية الانكليزية الذى وضع سنة ١٩٢٩ ، فنص فيه فى المادة الثالثة على ما يأتى « إن مصر رغبة منها فى أن تصبح عضواً بجمعية الأمم ، ستتقدم طلباً للانضمام إلى تلك الجمعية ، طبقاً للشروط التى تنص عليها المادة الأولى من عهد الجمعية ، وتتعهد حكومة جلالة الملك البريطانية بتأييد هذا الطلب » ونص فى مشروع المعاهدة المصرية الانكليزية الذى وضع سنة ١٩٣٠ على ما يأتى « بما أن مصر تنوى أن تكون عضواً فى جمعية الأمم فان صاحب الجلالة البريطانية يعترف بحقها كدولة مستقلة ذات سيادة فى أن تصبح عضواً فى جمعية الأمم عند ما تقوم بالشروط التى نص عليها فى عهد الجمعية » .

ولكن هل تفيد مصر من الانضمام إلى عصبة جنيف سواء فى الحال أو الاستقبال ؟ لسنا ممن يعتقد ذلك . إن تاريخ عصبة الأمم إزاء الأمم الشرقية والأمم الضعيفة حسبما بسطناه لا يدلى بأن العصبة تأخذ بمبادئ المساواة والعدالة الدولية بين مختلف الأمم ؛ والعصبة سواء بنشأتها أو القوى المهيمنة عليها ، أو الغايات التى تعمل لها ، تنم عن روح غربية عميقة ، وربما نمت أيضاً عن روح نصرانية كما ظهر من موقفها نحو العراق فيما اشترطته عليها ثمناً لانضمامها إليها . ولن يكون شأن الدول فى العصبة فى ظروفنا الحاضرة إلا كشأن التمثيل السياسى الذى يكبد مصر مئات الألوف دون أن تجنى من ورائه مزايا عملية يعتد بها .

وحتى لو سويت المسائل المعلقة بين مصر وإنكلترا وعقدت المعاهدة المصرية الانكليزية المنشودة ، وتأكد استقلال مصر من الناحية العملية ، فانا لا نجد ما يحمل مصر على السعى إلى

٤ ـ الشـــخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

تكلمنا فيما مضى عن الجاذبية ، والنشاط العقلي ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية . والآن نتكلم عن بعض العناصر الأخرى القوية للشخصية كالحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، ومظهر الانسان وقوامه ، وقوة البيان وأثرها في الشخصية فنقول :

الحكمة :

إن شخصية الانسان لا تكون متينة إلا إذا زانتها الحكمة والعلم والحزم ، ووضع الأشياء في مواضعها ، وقدرها حق قدرها . والرجل الحكيم هو السديد الرأي ، البعيد النظر ، الحسن التقدير ، الذي يعرف الحق فيتمسك به ، ويفعل ما يجب أن يفعل ، ويترك ما ينبغي أن يترك ، ويقول ما يجب أن يقال ، يرى الفرصة فينتهزها ، ويشعر بالطريق المستقيم فيسلكه ، يحس بنتيجة الشيء حتى قبل حدوثها ، ويعامل غيره بما يحب أن يعامل به ، ويحكم على غيره بما يود أن يحكم به عليه ، يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وإذا حكم على غيره كان حكمه بعيداً عن الأهواء والأغراض ، تتمثل فيه النزاهة والعدالة . كل هذه الصفات نتيجة الحكمة وحسن التقدير. والحكمة صفة أساسية في تكوين الشخصية السامية . أما إذا انتفت الحكمة فان الانسان يكون واهن الرأي ، مضطرب البصيرة ، سيء الحظ ، عاثر الجد ، ضعيف الشخصية ، يعجز عن تقدير الأشياء ، ويفعل ما يجب ألا يفعل ، ويهمل أموراً تجب العناية بها ، ويهتم بأشياء لا قيمة لها ، يحب ما ينبغي أن يكره ، ويكره ما ينبغي أن يحب ، فيصبح ضحية لوجداناته وأقواله وأفعاله ، ويصير مكروهاً لدى من يعرفونه .

ومن الحكمة أن نجتهد في إرضاء الناس — وإن كان إرضاؤهم جميعاً غاية لا تدرك — من غير أن نضحي بمبدإ من مبادئنا ، أو مظهر من مظاهر رجولتنا حتى نمتلك قلوبهم ، وهذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة .

وكثيراً ما تفسد الحكمة وتشوه بالفخر ، أو التكبر ، أو الحقد ، أو الغيرة ، أو الغش . فينبغي أن يهذب الانسان نفسه ، ويترك الفخر جانباً ولا يتكبر أو يحقد على غيره ، ولا يغش أحداً أو يضله ، حتى تكون علاقته بغيره حسنة ، وتكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه .

التفاؤل :

من العناصر التي لا تقل أهمية في تكوين الشخصية الممدوحة : التفاؤل والتيمن والنظر إلى الأشياء بمنظار الفأل الحسن ، ويمن الطالع ، لا بمنظار التشاؤم والتطير ، ذلك المنظار الأسود ، منظار الشؤم والطيرة . فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة . ولا نقصد بالتفاؤل أن نغمض أعيننا عن الحقائق ونتائج الأمور ، بل نقصد أن نعتاد في تفكيرنا النظر إلى الأشياء بعين الأمل والرحمة ، لا بعين اليأس والقنوط ، وننظر إليها في نور الأمل لا في ظلام اليأس ، من الناحية المضيئة من الطريق ، لا من الناحية المظلمة الحالكة . والمتفائل يرضى بالماضي خيره وشره ، ويثق بالمستقبل ، ثم يؤدي الواجب ويترك النتيجة لله سبحانه وتعالى . وتعتبر هذه العادة العقلية — عادة التفاؤل — من الأمور

الالتحاق بعصبة جنيف . ومن الخطأ أن يتصور البعض أن الدول في العصبة من مظاهر الاستقلال ، فان بين أعضاء العصبة مستعمرات وأيلاكا مستقلة طبقاً لما ينص عليه ميثاقها .

لقد تمزق الحجاب أخيراً عن ذلك الرياء الدولي الذي استمر زهاء خمسة عشر عاماً ، والذي لبث حيناً يحتضن الدعوة إلى السلام وتفاهم الأمم ، ويعقد المواثيق للتحكيم وتحريم الحرب ؛ وعادت أوربا القديمة إلى سياستها القومية القديمة ، عمادها القوة والعنف ، وغايتها افتراس الأمم الضعيفة ؛ وما عصبة الأمم إلا عرين الأمم المفترسة قبل كل شيء ، ولا خير لأمة ضعيفة أن تقر الذئاب على ريائها ، ولا خير لها بالأخص في أن تندمج معها في صعيد واحد .

محمد عبد الله عنان
المحامي

الجوهرية في تقوية الشخصية . وكثيراً ماينشأ التفاؤل عن نشاط الشخص وقوته العقلية والعصبية ، وعن نوع الأفكار التي يسمح لها بالدخول إلى العقل ، وإذا تعود الانسان أن يزود نفسه بالأفكار الصحية السارة فانه لا يتجنب التشاؤم والحزن فحسب ، بل قد يطل من نوافذ العقل على الناحية السارة المضيئة من الحياة .

وينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط وضعف القوة العصبية ، ووهن الرقابة العقلية (Mental control) في الانسان ؛ فيسمح لنفسه بأن تسبح في جو مظلم من الأوهام حتى يصبح عقله متلبداً بغيوم لا حقيقة لها ، ودخان لا أصل له ، هي غيوم التطير ودخان التشاؤم . وإن ضبط النفس والنظر إلى الناحية السعيدة دائماً مما يزيل عن أولئك المتشائمين وهؤلاء المتطيرين هذه الهموم والأحزان التي تسيطر على نفوسهم . وإذا كان التفاؤل موقظاً للعقل ، ومدعاة للنشاط وباعثاً على الاقدام ، ومحرراً للانسان ، ومنشطاً لجميع قواه العقليــة ، فالتشاؤم سبب في الخمول والكسل وكثرة التردد والفشل والشقاء والضعف لا في التفكير فحسب ، بل في الشخصية أيضاً .

فالشخصية الحية القوية ينبغي أن تتمسك بالتفاؤل ، وتلتزم الناحية السارة ، يقودها الأمل ، ويحييها الرجاء . تفكر في النجاح أكثر من الخيبة ، وفي التقدم أكثر من التأخر . وتميل إلى جانب الثقة أكثر من الميل إلى جانب التردد ، وتثق بما تقول وما تفعل ، ولديها كل عـلاج وهي منبع النشاط والقوة . قال (روبرت براوننج)[1] : « من الحكمة أن ترجح جانب الخير على جانب الشر ، واللين على الشدة ، والتعقل على الطيش ، والأمل على اليأس ، والنور على الظلام »

التواضع وعدم التصنع :

العنصر السادس من عناصر الشخصية التواضع وعدم التصنع ، وذلك بأن يكون لدى الانسان استعداد به يقدر نفسه ومركزه تقديراً يدل على التفكير والحكمة من غير تصنع أو تظاهر بما ليس فيه .

فاذا تصنع المرء وادعى صراحة أو ضمناً ما ليس فيه ؛ كأن يقدر نفسه فوق قدرها ويعطيها أكثر من حقها ، ويتعظم وما هو بالعظيم ، ويدّعي العلم وما هو بالعالم ، والثروة وما هو بالثرى ، والقوة وما هو بالقوى — إذا ادعى شيئاً من هذه الأشياء فقد يتضح أمره لدى الناس ، ويتبين جهله أو فقره أو ضعفه على عكس ما ادعى ، فيعلمون كذبه ، فيحتقرونه ويزدرونه ، وينفرون منه ويتباعدون عنه ، ويصبح ممقوتاً عندهم جميعاً .

وإن مدح الانسان نفسه ثقيل لا يقبل ، وإذا قبل فانه يجب أن يستند إلى حقائق . والأولى أن يترك الانسان عمله ليدل عليه ويتحدث عنه ، بدلاً من أن يتحدث هو عن نفسه . وإن كان المرء جديراً بالمدح فسرعان ما تظهر حقيقته ، ويقدر الناس كفايته ، ويزنون أعمـاله ، ويعترفون بشخصيته ومقدرته . فالتواضع سبيل النجاح والرفعة ، والتصنع سبيل الفشل والذلة .

وإننا وإن كنا ضد التصنع والتظاهر لا نمنع أن ننزل أنفسنا منزلتها ونعدها وحدة من المجموع ، لهـا ما لها وعليها ما عليه ، ونستحسن أن نترك للغير الحكم لنا أو علينـا ، وأن نتحلى بالتواضع في غير ضعف أو ذلة . فالتواضع أساس للشخصية المحبوبة الجذابة . وإننا نجتذب غيرنا بقدر ما يحبنا الغير . وإذا كانت الشخصية مظهراً لقوة النفس فهي عدوة الكذب والتضليل . فليس المهم في أن تدّعي كذباً ، ولكن المهم في أن تعمل حتى تثبت لنفسك العظمة إن كنت عظيماً .

مظهر الانسان وقوامه :

لمظهر الانسان أثر في شخصيته ، فالرجل الصحيح الجسم الحسن القامة ، قد لا يحتاج في إظهار شخصيته والتأثير في غيره إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ؛ فبينما تجد الأول طبيعياً في معاملته لأنه لا يشعر بنقص خارجي يريد أن يكمله ، إذ تجد الثاني محباً للتظاهر ، متكلفاً في أقواله وأفعاله ، متخذاً كل وسيلة يستطيع أن يظهر بها نفوذه ، فيتظاهر بالعلم تارة ، ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى . وقد يتخذ أحياناً وسائل ثعبانية أو ثعلبية ؛ ليظهر بها نفسه أمام من يبغي الظهور بينهم ، فيلجأ إلى الوشاية حيناً ، وإلى الملق حيناً آخر . وقد يضطر إلى

(١) هو شاعر انجليزي كبير (١٨١٢ — ١٨٨٩ م) مشهور بغموض الأسلوب

التجمل في جسمه ولبسه ، أو الدعابة في حديثه ، كل ذلك ليكمل ما فيه من نقص جسمي .

فالانسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلاً تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته الملأ . فسقراط مثلاً شيخ الفلاسفة من اليونان ، كان أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، جاحظ العينين ، قبيح المنظر ، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى ذروة المجد . ويكفيه فخراً أنه أستاذ أفلاطون ، وأنه أكبر فلاسفة اليونان . والجاحظ كان أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، وما لقب بهذا اللقب الذي كان مبغضاً اليه إلا لأنه كان جاحظ العينين (بارزهما) ، دميم الخلقة ، حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم ، فاستقدمه اليه (بسر من رأى) ليؤدب ولده ، فلما رآه استبشع منظره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . ولكنه بجانب ذلك كان خفيف الروح ، ذكي الفؤاد ، واسع الاطلاع ، وكان يعد دائرة معارف في الآداب والعلوم واللغة والتاريخ حتى أصبح لقبه — الذي كان يكرهه — دليلاً على التبحر في العلم والأدب ، والتفوق في فنون البلاغة والبيان ، سئل كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال : « حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلات إلي . . . . » والتاريخ حافل بكثير من العظماء المشوهة أجسامهم ، السامية أرواحهم وعقولهم ، فلا حاجة بنا الى التطويل . وكل ما نريد أن نقوله هو أنه إذا نقص الانسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى .

قوة البيان :

إن قوة البيان ، وفصاحة اللسان ، وحسن المنطق ، والقدرة على التأثير في السامع مع رجاحة العقل ، تكسب الانسان شخصية ، وتجعل له منزلة بين سامعيه ، ولذلك لما أمر سيدنا موسى عليه السلام أن يذهب الى فرعون ، شكا موسى العي في القول ، وطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون لفصاحته قائلاً : « وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً يصدقني » يريد فرعون . وإننا لا نريد بالفصاحة الثرثرة والتشدق والتوعر في الكلام ، كما لا نريد بها أن يزيد كلام الانسان على عقله ، بل نريد حسن التعبير عما في النفس ، وقوة التأثير في المستمع ، والتكلم من غير تهيب أو تخوف بحيث يكون الكلام حلواً رشيقاً ، سهلاً عذباً مؤثراً . أما العي والحصر واللجلجة ، والتمتمة والفأفأة وكثرة التردد في القول ، والخجل في أثناء التكلم فتقلل من تأثير الشخص في سامعيه . وإن حسن التعبير عما في النفس شرط أساسي لقوة الشخصية ، وهو يتطلب العلم بالشيء الذي نريد التكلم عنه ، لأن أفكارنا إذا عرفت كان من السهل التعبير عنها . وكما يجب أن نعرف ما نريد أن نقول ، وما نريد أن نفعل ، كذلك يجب أن نحسن القول ونحسن العمل . وما أجمل الكلمة الصائبة في اللحظة المناسبة . وكما ينبغي حسن التكلم والخطاب ، كذلك ينبغي حسن الاصغاء والاستماع للغير . وقد تكون لدينا الأفكار السامية ولكننا نحتاج الى شجاعة في إظهارها حتى ينتفع بها غيرنا . . . ؟

محمد عطية الابراشي



من فنون التاريخ وفنون الحرب

٢ - خالد بن الوليد *
في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان حرب الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

٣ - أسباب الحروب :

مات رسول الله والاسلام لم يتمكن من قلوب جميع العرب الساكنين في الجزيرة . وادعى بعض الرؤساء النبوة في آخر أيام الرسول ، وارتد الكثير من العرب بعد وفاته .

والثابت أن الذين تمكن الإسلام من قلوبهم ولم يتزعزع ايمانهم هم المهاجرون والأنصار وقريش وثقيف والقبائل الساكنة بين المسجدين (المدينة ومكة) على مايذكره الطبري .

ولم يكن تأثير الردة في القبائل على نمط واحد ، بل كان الأثر يختلف باختلاف العوامل ، وهي تتلخص فيما يلي : —

(ا) قرب المنطقة التي تسكنها القبيلة من المدينة أو بعدها .

(ب) علاقة القبيلة بالمدينة .

(ح) قرب عهد القبيلة بالاسلام أو بعده .

ولقد ناقش المستشرق الطلياني لئونه كايتاني هذه العوامل في كتابه « تاريخ الإسلام » (Annali del islam) فصنف العرب من حيث علاقتهم بحروب الردة الى خمسة أصناف ، فوضع في الصنف الأول القبائل التي أسلمت منذ مدة طويلة وخضعت لسلطة المدينة خضوعاً تاماً ، وهي القبائل التي تسكن بالقرب من المدينة ومكة وفيها بينها جهينة ومزينة وبلي وأشجع وأسلم وهذيل وخزاعة وغيرها .

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

ووضع في الصنف الثاني القبائل التي تعاقدت مع الرسول واشتركت في المدة الأخيرة في حروبه ، وقد كان فيها على اسلامها أقلية مختلفة تنتهز الفرص للتملص من سلطة المدينة ، ومن هذه القبائل هوازن وعامر بن صعصعة وطيء وسليم وخثعم .

ووضع في الصنف الثالث القبائل الساكنة على حدود المملكة الاسلامية ، فخضعت هذه القبائل سياسياً لسلطة المدينة ، ودفعت الصدقات الى الرسول ، وفيها أكثرية تتحين الفرص للرجوع الى حالتها القديمة . ومن أخطر هذه القبائل بنو أسد وبنو غطفان وبنو تميم الساكنون في مناطق نجد الغنية .

ووضع في الصنف الرابع القبائل التي لم تخضع لسلطة المدينة ، بل اكتفت بارسال الوفود الى الرسول وتظاهرت بالخضوع له . فيها أقلية مسلمة ضئيلة تستند الى قوة المسلمين في المدينة للإحتفاظ بعزلتها . ومن أخطر هذه القبائل بنو حنيفة وعبد القيس وأزد عمان وأكثر قبائل حضرموت واليمن . أوفد الرسول اليها عمالاً ليمثلوا الاسلام ، وليعلموا المسلمين أمور الدين .

أما القبائل التي وضعها في الصنف الخامس فهي القبائل التي لم تسلم وكانت نصرانية أو مشركة . وهي القبائل الساكنة في الشمال كبني كلب وبني تغلب وبني غسان وقضاعة وتنوخ وبني بكر وبعض القبائل في حضرموت واليمن .

ولكني لاأجارى المؤرخ الطلياني في تصنيفه هذا ؛ بل من الثابت أن تأثير الاسلام في القبائل العربية كان يختلف باختلاف العوامل التي ذكرناها قبلاً ، والواقع أن الرسول لم يمت إلا وقد ظهرت حركة الردة في القبائل ، فمنها من طلب إعفاءه من اعطاء الزكاة ، ومنها من امتنع من اعطائها ، ومنها من قدم رجلاً وأخر أخرى في ذلك فأمسك عن الصدقة ، وأخيراً منها من ارتد وطرد عمال الرسول أو قتل المسلمين ومثل بهم .

وكان الرسول في حياته قد حرض عماله في اليمن على مقاتلة الأسود العنسي الذي ادعى النبوة واستولى على أكثر مقاطعات اليمن .

أما أبو بكر فرد الوفود التي أتت الى المدينة وطلبت منه أن يعفيها من إعطاء الزكاة ، وقال كلمته المشهورة « والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه » ولما وردت الكتب من أمراء الرسول

تنبأ أبو بكر بأن البلاد ارتدوا عامة وخاصة وأنهم تبسطوا بالتمثيل بخارجهم.

٤ — قوات الفريقين :

١ — أهل الردة : إذا استقصينا الأخبار التي رواها الرواة توصلنا إلى النتائج التالية :

(أولاً) لم ترتد القبائل الساكنة إلى شرق مكة وغربيها وجنوبيها ، بل ظلت على الحياد غير ميالة إلى أحد الفريقين ، وهي قبائل كنانة وأزد وبجيلة وخثعم وعك وأشعر وحكم وغيرها .

(ثانياً) تأثر بحوادث الردة القبائل الساكنة إلى شمال شرق مكة كهوازن وعامر بن صعصعة وجديلة . أما بنو سليم فقد ارتد الكثير منهم ، بيد أن هذه القبائل جميعاً لم تشهر سلاحها في وجه المسلمين .

(ثالثاً) أما قبائل طي فإنها لم تقرر إلى أي جانب تميل ومع ذلك فإن قسماً قليلاً منها انضم إلى جيش طليحة الأسدي مدة قصيرة .

(رابعاً) وأما قبائل قضاعة الساكنة إلى شمالي المدينة فإنها شهرت سلاحها على المسلمين .

ومع ذلك لا يصح أن يقال إن هذه القبائل جميعاً ساعدت أهل الردة الذين ثاروا في وسط الجزيرة ، بل إن بعضها ظل في منطقته إما على الحياد وإما مترددا لا يحرك ساكناً ، وإما أنه طرد العمال الموفدين من المدينة في عهد الرسول .

لذلك لا يجوز اعتبار هذه القبائل من القبائل الساكنة في وسط الجزيرة التي حشدت رجالها وأغارت على ضواحي المدينة ، أو أنها تأهبت لمنازلة جيش المسلمين .

أما القبائل التي اشتركت في حروب الردة فعلاً فاليك بيانها :

(١) بنو فزارة وبنو غطفان الساكنون إلى شرق المدينة على طريق نجد . فقد توافد رؤساء هذه القبائل إلى المدينة وطلبوا من أبي بكر أن يعفيهم من الزكاة . ولما لم يجب طلبهم رجعوا فجمعوا رجالهم وتأهبوا لمباغتة المدينة .

(٢) بنو أسد الساكنون على منتصف الطريق التي بين الحجاز ونجد إلى جنوبي جبل شمر . ويزعم الرواة أن طليحة بن خويلد الأسدي ادعى النبوة في حياة الرسول وجمع رجاله في السميراء . ولما توفي الرسول وامتنعت القبائل من إيتاء الزكاة سعى إلى جمع القبائل حوله ، واقترح عيينة بن حصن الفزاري ترك المنازعات بين بني أسد وبني غطفان وعقد حلف بين بني فزارة وبني غطفان وبني أسد .

لبى بنو فزارة هذه الدعوة واتحدوا مع بني أسد ، وكذلك البعض من بطون طيء أيضاً انضم إلى طليحة ، حتى أن رئيس جديلة بن طي ، ثمامة بن أوس ، جمع خمسمائة رجل وانضم إلى بني أسد .

(٣) بنو تميم الساكنون في نجد في منطقة القصيم .

وتتألف هذه القبيلة من عدة بطون . ولما بلغها نعي الرسول امتنع أكثر بطونها عن أداء الزكاة . وكان الاختلاف قد دب فيما بينها ، ولما ظهرت سجاح من شمالي الجزيرة بجموعها من تغلب مدعية النبوة ، ودخلت حتى بني تميم لأنها كانت تمت إليهم بنسب ، التف حولها بعض من تميم وعلى رأسه مالك بن نويرة . ويزعم الراوي سيف بن عمر أنها كلفت مالكا بالسير معها نحو المدينة للهجوم على أبي بكر . وكان البعض من بطون بني تميم لم يرتد فالتجأ إليه المسلمون الهاربون من البطون الأخرى فقاتل سجاحا ومن معها من بني تميم ومنعها من التقدم نحو المدينة . والرواة يزعمون أنه انتصر عليها وعلى حلفائها من بني تميم وألجأها إلى مغادرة ديار بني تميم والذهاب إلى مسيلمة الكذاب .

(٤) بنو حنيفة الساكنون في اليمامة . ادعى رئيس هذه القبيلة مسيلمة النبوة فآمن بنبوته جميع بني حنيفة . ويظهر أن دعوة الإسلام لم تنتشر فيها وكان معظمها مشركا . فلما ادعى مسيلمة النبوة آمنت بنبوته . وهي ولا ريب من أخطر القبائل التي اشتركت في حروب الردة وقاتلت المسلمين قتالاً عنيفا . وذاق المسلمون الأمرّين في حروبها . ويزعم الراوي سيف بن عمر أن جيش بني حنيفة المحارب بلغ أربعين ألفاً .

ومن العسير معرفة قوات هذه القبائل التي اشتركت في المعارك ، والواضح أن قبائل غطفان وفزارة التي حاولت مباغتة المدينة حتى اضطر أبو بكر إلى مقاتلتها كانت دون القبائل شأناً . ولعل القوات التي جهزتها لم تزد على ألفي رجل .

أما القوة التي استطاع طليحة أن يجهزها ويقاتل بها جيش المسلمين فكانت تربو على أربعة آلاف مقاتل ، وانضم خمسمائة

رجل من جديلة طيء وسبعمائة فارس بقيادة رئيس بني فزارة عيينة بن حصن .

أما بنو تميم فلو اتفقت بطونها وقابلت جيوش المسلمين لبلغت قوتها زهاء عشرة آلاف مقاتل ، غير أنها لم تتفق فيما بينها ، بل حارب بعضها بعضاً ، ولما وصل خالد بن الوليد بجيشه إلى ديار بني تميم كانت البطون قد تفرقت .

أما بنو حنيفة فكان جيشهم من أقوى الجيوش التي حاربت المسلمين ، ومع أن سيفاً زعم أن قوتهم بلغت أربعين ألفاً ، بيد أننا لا نميل إلى اعتقاد صحة روايته ، ولعل قوة جيش بني حنيفة لم تزد على خمسة عشر ألف مقاتل .

والذي جعل الرواة يبالغون في تقدير جيش بني حنيفة هو وعورة المنطقة التي حارب فيها المسلمون ، والحقيقة أن أرض اليمامة أرض وعرة فيها وديان وشعاب وجبال وعقبات وثنايا . والذي زاد في مناعة الأرض القرى المحصنة بالأسوار والحدائق المسورة بالأحجار المكدسة شأن الكثير من قرى العارض والسدير في بلاد نجد .

ب . المسلمون :

جهز الرسول جيش أسامة قبل وفاته بمدة قليلة وكان يقصد إيفاده إلى الشمال . واجتمع الجيش في الجرف في شمال المدينة ، ولما علم بمرض الرسول أجل حركته .

وبعد وفاته أوفده أبو بكر لينفذ الخطة التي رسمها له الرسول في حياته . ونصح بعض الصحابة أبا بكر أن يبقيه لكي يعتز به بعض الاسلام وأراد بعضهم تبديل قائده ، بيد أن الخليفة لم يجب طلبهم ، ولم يرض أن يبدل ما قرره الرسول . وليس لدينا معلومات موثوق بها عن قوة هذا الجيش ، لأن المؤرخين القدماء جريا على عادتهم ، بحثوا في قائده والأوامر الصادرة إليه ، والغاية المتوخاة من إيفاده وغير ذلك ولم يذكروا مقدار قوته .

وإذا تأملنا في سبب إيفاده ، ظهر لنا أن قوته يجب أن تكون كافية . وسبق أن جهز الرسول جيشين لهذه الغاية ذاتها وهما : جيش جعفر بن أبي طالب الذي قاتل الروم في البلقاء في وقعة مؤتة ، وكانت قوته ثلاثة آلاف مقاتل ، والجيش الذي قاده الرسول بنفسه ليغزو به تبوك ، وقد بالغ المؤرخون في قوته ، وزعموا أنه بلغ ثلاثين ألفا ، أما جيش أسامة ، فهو الجيش الثالث ، ونعتمد أن قوته يجب ألا تقل عن خمسة آلاف .

وكان المهاجرون والأنصار نواة هذا الجيش . فالمهاجرون والأنصار عماد الجيش الاسلامي ، وهم كالحرس الذي كان يؤلفه الملوك للاعتزاز به في تنفيذ خططهم ، اصلاحية كانت أم حربية .

واشترك هؤلاء في غزوات الرسول وحروبه من أولها إلى آخرها . وكانوا يؤثرون النبي على أنفسهم في جميع أعمالهم ، فكان الأسلام متمكناً من قلوبهم ، فلا غرو إذا رأينا الأسلام يقوم على سواعدهم بعد وفاة الرسول ، ولعل عددهم كان يتفاوت بين الألف والخمسمائة وبين الألفين لما توفي النبي .

وكان أكثرهم في جيش أسامة ، ما عدا البعض منهم فانه بقي في المدينة مع أبي بكر ، أو أوفد في حياة الرسول عاملاً أو معلماً أو مبشراً الى الأقطار العربية النائية ، أو جابياً أو معلماً الى القبائل العربية القريبة .

ويلي المهاجرين والأنصار قريش التي أسلمت بعد فتح مكة وأبلت بلاء حسناً في الاسلام بعد ذلك . أجل ، إنها لبت الدعوة أخيراً وقسراً ، الا أنها اقتنعت أن عز الأسلام من عزها فناصرت الرسول في حياته من أعماق قلبها ، حتى أن الرسول بعد فتح مكة رضي أن يظل البعض من قريش مشركاً حتى يفتح الله قلبه ، ومع ذلك لم يحجم هذا البعض عن الجهاد معه في غزوة صفين أو في محاصرة الطائف .

ولعل القوة التي كانت قريش تستطيع أن تجهزها للقتال زادت على ألفي مقاتل على أقل تقدير .

ويلي قريشاً القبائل الساكنة بين الحرمين ، مكة والمدينة ، وهي التي ناصرت الرسول في دعوته . وقد اشترك بعضها في الغزوات ، وجاهدت أخيراً في حروب الرسول . فقربت هذه الحروب بينها وبين المهاجرين والأنصار وربطتهما برباط متين . فلا مندوحة إذن من أن نرى أبا بكر يدعوها الى الجهاد لما كان جيش أسامة بعيداً عن المدينة ، فلبت دعوته راغبة مطيعة ، وهذه القبائل هي : أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب وغيرها .

ولعل القوة المحاربة في هذه القبائل لم ترد على ثلاثة آلاف .

وتليها قبيلة بني ثقيف الساكنة بين مكة والطائف وهي خير من أسلم من قبائل الحجاز . واشتهرت بشدة مراسها وصلابة عودها ، وكانت تعتز بعاصمتها الطائف المسورة . ولم ترتد ثقيف على ما سبق ذكره ، بل بقيت متمسكة بالأسلام ، وكانت قوتها الحاربة تقدر بأكثر من ألفي مقاتل .

هذه خلاصة القوات التي كان الخليفة يعتمد عليها في محاربته أهل الردة . وقد ظهر لك أنها كانت تبلغ عشرة آلاف متى تيسر جمعها . والواضح أن جيش أسامة بن زيد كان مؤلفاً من معظم المهاجرين والأنصار وبعض رجال القبائل ، وذلك لما كان أسامة بعيداً عن المدينة إذ أخذت القبائل المرتدة الواقعة إلى شرقي المدينة تهددها .

ولعل من الفائدة أن نذكر بهذا الصدد مقدار القوات التي استطاع الرسول أن يجمعها في حروبه .

فكانت قوة المسلمين في غزوة بدر لا تزيد على ثلثمائة رجل ، أما في غزوة أحد فكانت تناهز الألف ، وفي غزوة الخندق بلغت ثلاثة آلاف . أما في فتح مكة إذ ظهرت سطوة الأسلام ، وقويت شوكة المسلمين فكان جيش المسلمين عشرة آلاف ، نواته المهاجرون والأنصار ، وقوامه رجال القبائل الضاربة إلى شرقي المدينة وشماليها وجنوبيها .

ويزعم الرواة أن جيش الرسول بلغ ثلاثين ألفاً في غزوة تبوك ، كان عشرون ألفاً منه رجالاً وعشرة آلاف فرساناً . أجل إن الموقف العسكري كان ملائماً لمبادرة رجال القبائل إلى الالتفاف حول راية الأسلام للهجوم على بلاد الشام وهي المشهورة بخيراتها ، وذلك يجعل جيش المسلمين يصل الى حده الأقصى ، إلا أننا لا نظن أنه بلغ القوة التي ذكرها الرواة ، ولعلها بلغت أكثر من خمسة عشر ألفاً .

ولما امتنعت القبائل العربية عن أداء الزكاة وارتد البعض منها لم يكن في وسع الخليفة أن يجمع كل القوات التي يستطيع أن يعتمد عليها على ما سبق بيانه . لأن جيش أسامة كان في الشمال ، وفيه نخبة الجنود المجاهدين . أما قريش وثقيف فكانتا بعيدتين عن دار الحركات ، لذلك دعا أبو بكر القبائل الضاربة بين المدينة ومكة أولاً ، ولما رجع جيش أسامة استنجد به . ثم أخذ رجال قريش وبعض ثقيف ينضمون الى الحملات .

ومن الثابت أن قوة المسلمين كانت جد ضعيفة لما تأهب بنو غطفان وفزارة للهجوم على المدينة ، ولعلها لم تجاوز بضع مئات .

(يتبع) طه الهاشمي

من مشاهداتي في أوربا :

معجزات طبيب

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

في بطن واد من وديان بلاد النمسا بين التلال والسهول المكسوة بالأشجار الباسقة والخضرة الضاربة ، قرية صغيرة كانت قبل خمس سنوات مجهولة لا يطرقها طارق ، ولا يذكر اسمها ذاكر . ولكنها أصبحت منذ سنة ١٩٢٩ محط الرحال ، ومهبط الآمال ، تعرفها شعوب الأرض قاطبة ، ويحج إليها المريض الأوربي انجليزياً كان أو ألمانيا أو إيطالياً أو تركياً أو مجرياً كما يحج إليها مرضى القارات الأخرى أمريكا واستراليا وآسيا وأفريقيا ، تلك هي قرية جالزباخ Gallspach الصغيرة التي تبعد عن فينا أربع ساعات في القطار ، وتعلو عن سطح البحر بنحو ٣٠٠ متر تقريباً .

عرفت تلك القرية منذ أنشأ فيها (فالنتين تسايلايس) Valentin Zeileis ، رجل المعجزات والعجائب كما يسميه أفراد تلك الشعوب ، مصحته العظيمة التي كلفته نحو الأربعين ألفاً من الجنيهات . وإذا كان تسايلايس استطاع بمهارته وقدرته ومخترعاته أن يعالج بالألكتروراديوم الأعمى فيبصر ، والأخرس فينطق ، والمقعد فيمشي ، والأشل فيبرأ ، وغير ذلك من المرضى فيشفون . فقد حق لتلك الشعوب أن تطلق عليه اسم الساحر أو طبيب المعجزات والعجائب .

ولقد مكنت لي الظروف صيف هذا العام أن أتعرف إلى الكثيرين في تلك المصحة من المرضى النازحين إليها من مختلف شعوب الأرض ، بعضهم لعلاج العمى ، وبعضهم لعلاج الشلل ، وبعضهم لعلاج الربو ، وهكذا من شتى المرضى بالعاهات المختلفة ، ورأيت فيهم جميعاً روحاً غريبة هي روح الثقة بالشفاء على يدي هذا الرجل إن عاجلاً أو آجلاً ، كل حسب شدة المرض عنده . وقد تحدثت هنالك إلى رجل نمساوي كان أعمى وأبصر ، فعلمت منه أنه مستمر في العلاج بالألكتروراديوم لتحسين قوة نظره ، وهو يتطوع أبداً لقيادة العميان وأخذهم في صف واحد ممسكاً كل واحد منهم بقميص الآخر من الخلف في دخولهم إلى حجرة العلاج وخروجهم منها . كما أني تحدثت مع فتى انجليزي ، وآخر ألماني ، كان كل منهما أشل لا يستطيع أن يحرك نصفه الأيسر ، وبعد العلاج مرتين أو ثلاث مرات أصبح كل منهما قادراً على المشي بعرج بسيط ، وكلاهما يأمل في الشفاء التام بعد تكرار العلاج مرة أخرى أو مرتين ، وهناك فوق هؤلاء وهؤلاء عشرات من الشيوخ الذين يحجون إلى مصحة هذا الساحر لاسترجاع شبابهم واستعادة قوتهم . وقد قابلت هناك من المصريين عبد الرحمن فهمي بك السكرتير السابق للوفد المصري ، وقد ذكر لي أنه كان يعالج عينيه مما يسمى بالذباب الطائر [1] ، وأنه قد برئ منه ، وأن هذه سابع مرة يحج فيها إلى تلك المصحة لأنه يشعر بعد كل مرة أن الشباب والقوة يتدفقان في جسمه . وقد حدثني كثيراً عما رأى من معجزات تسايلايس ، وكان مما ذكره أنه رأى أخرس عالجه هذا الرجل بطريقته الشاذة العجيبة حتى أنطقه . ورأيت هناك أيضاً من المصريين أحمد حجازي بك عضو مجلس النواب السابق وأسرته لأول مرة له ، ليعالج نفسه من الربو ، وليعالج كريمته التي عجز نطس الأطباء في أوربا عن شفائها ، وهو وإن لم تطل مدة إقامته هناك إلا أنه ذكر لي أنه استفاد فائدة محسوسة من العلاج ، وأنه لا بد أن يعود في العام المقبل مع كريمته ليستأنف علاجها مدة حتى تشفى على اعتقاده نهائياً . أما أنا وصديقي الأستاذ علم الدين القوصي فقد جمعتنا ظروف المرض العصبي الذي عجز أطباء مصر عن علاجه ، فقصدنا لأول مرة تلك المصحة حسب نصيحة الدكتور يوسف قابيل مأمور القنصلية المصرية بفينا ، والذي نسجل له على صفحات الرسالة جزيل شكرنا على ما لقيناه منه من مساعدة ونصيحة . قصدناها فعالجنا الساحر النمساوي ثلاثة أسابيع بالألكتروراديوم ، فأحس كل منا بالتحسن الكبير في صحته ، وعدنا شاكرين الله سبحانه على اهتدائنا لهذا الطبيب .

وقد حصلت على إحصاء رسمي عن آلاف المرضى الذين عولجوا في تلك المصحة في خمس سنين من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٣ فكان كالآتي .

---

(١) هو ما يسمى بالعربية البسادير (الرسالة)

سنة ١٩٢٩ : ١٠١٠٠ مريض ، سنة ١٩٣٠ : ١٦٣٥٤ مريضاً ، سنة ١٩٣١ : ١٠١٥٥ مريضاً ، سنة ١٩٣٢ : ١٢٠٩٢ مريضاً ، سنة ١٩٣٣ : ٧٦٧٠ مريضاً ، وكان عدد المرضى في شهور سنة ١٩٣٤ كالآتي :

يناير ٣٦٤ ، فبراير ٣٠٤ ، مارس ٤١٦ ، أبريل ٦٠٢ ، مايو ٦٠٤ ، يونيه ٧٢٥ ، يوليه ٨٨٣

والذي يتتبع هذا الأحصاء يرى تناقصاً في العدد في سنتي ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ويرجع السر في ذلك الى اقفال الحدود النمساوية الألمانية ، فقد قررت حكومة ألمانيا في يونيه سنة ١٩٣٣ على كل ألماني يرغب اجتياز الحدود النمساوية أن يدفع ألف مارك ، أي نحو ٧٥ جنيهاً ، فكان هذا سبباً في صد تيار الألمان الذي كان يتدفق قبل ذلك الى جالزباخ ، ويكفي للدلالة على ذلك أن تعلم أن عدد الأجانب الذين هبطوا تلك القرية أخذ في التناقص من ٧٤ ٪ من جميع المرضى في سنة ١٩٢٩ الى ٥٥ ٪ في سنة ١٩٣٣ الى ٤٧ ٪ فقط في شهور سنة ١٩٣٤ .

أما تسايلايس ومصحته وطريقته في العلاج فقد أثارت ضجة عظيمة في الجرائد الأوربية عامة والنمساوية والألمانية خاصة بين سنتي ١٩٢٩ ، ١٩٣١ ، وقد اطلعت على بعض المقالات التي نشرت في الجرائد الانجليزية تحت عناوين مختلفة ، منها مقالة في « الدلي ميل » بتاريخ ١٧ / ١٢ / ١٩٣٠ تحت عنوان « عمليات بالآلة الكهربائية » أطرت فيها استخدام الكهرباء بدل المشرط في العمليات الجراحية ، ومقالة أخرى طويلة في Literary Digest تحت عنوان « معجزات النمساوي صاحب العصى السحرية » وغيرها مما لا يتسع المقام لتفصيله . وسنأتي فيما بعد على طرف من أخبار انتصاره على أساتذة الطب في النمسا وألمانيا ، كما سنذكر شيئاً عن الطرق التي يستخدمها في العلاج والأمراض التي يعالجها .

عبد الحميد فهمي مطر

٣ - الشريف الأدريسي

يضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضي

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

تتمــــة

١٣ . — الاستاذ كونراد ميللر يعنى عناية خاصة بدرس خريطة الادريسي وطبعها طبعة ملونة لأول مرة .

لم تخف قيمة هذه الخريطة العلمية والفنية على علماء الجغرافيا المستشرقين ، فالكثير منهم قد اشتغل بدراستها في مختلف العصور ، ولكنهم شغلوا أنفسهم بنواحي خاصة منها ، ولم يجر واحد منهم بحثا شاملا مستقصيا مع اعترافهم جميعا بمنزلتها وتقديرهم لها . وما زالوا على طريقتهم هذه ولم يخرجوا عنها الى أن أتى الأستاذ كونراد ميللر فأجرى عن هذه الخريطة البحوث المستفيضة وكتب عنها الفصول الطوال التي استغرقت أعداداً كاملة من مجموعته العربية (Mappe Arabackae) تلك المجموعة التي ضمنها أبحاثه في الجغرافية العربية ، ثم توج هذا العمل الجليل الذي نشكره عليه ونقدره له بطبع الخريطة سنة ١٩٢٨ لأول مرة طبعة ملونة . أبرزها في تلك الحلة الفاخرة المتناسقة الأجزاء ، فدل على المدن بدوائر ملونة باللون الذهبي ، ورسم الأنهار والبحيرات بلون أخضر فاتح ، والجبال بألوان مختلفة أحمر وأصفر وبنفسجي إلى جانب بعضها ، كل هذا فوق أرضية فاتحة اللون تدع نفسها متميزة بوضوح عن لون البحار المدلول عليه باللون الأزرق السماوي المموج بخطوط رفيعة بيضاء ، كما أنها تساعد على تحديد المسالك بعضها عن بعض بسهولة . ولقد كتب أسماءها بحروف لاتينية مميزاً الأقاليم السبعة بخطوط رفيعة حمراء وجعل طولها مترين وارتفاعها متراً تقريباً . وبهذا تكون مساحتها ⅔ مساحتها الأصلية التي قدمنا أنها كانت بطول ثلاثة أمتار ونصف متر ، وارتفاع متر ونصف متر تقريباً . هذا وقد يظن أن المساحة الأصلية كانت كبيرة بشكل زائد على اللزوم ، ولكن سوف يتلاشى هذا الظن إذا علمنا أنها تتضمن من أسماء المدن فقط التي كانت مابجة بالعمران في ذلك العصر ٢٠٦٤ اسماً : (٣٦٥)

بأفريقيا ٥ (٧٤٠) بأوربا ٥ (٩٥٩) بآسيا ، ويوجد بين هذه الأسماء كل أسماء المدن الشهيرة المهمة فى ذلك الوقت .

قبل هذه الطبعة لم تكن الخريطة موجودة بشكل تام مشتبكة الأجزاء بعد فقدان الأصل للخريطة الحائطية ، وإنما كانت موجودة فى قطع متفرقة داخل كتاب نزهة المشتاق أو مستقلة بذاتها . ومجموع هـذه القطع الموجودة إلى الآن منها يبلغ ٢٥٥ قطعة كما ذكر الأستاذ ميللر ، توجد بمكاتب باريس واكسفورد واستانبول ولينينجراد والقاهرة ؛ وكانت هذه القطع من الأصل الذى طبع عنه الأستاذ ميللر تلك الطبعة التى بين أيدينا .

وهنـاك خريطة أخرى تدعى الخريطة الأدريسية الصغيرة طبعها الأستاذ ميللر كذلك فى مجموعته ، وهى ليست لصاحبنا الأدريسى وإنما هى لابنه محمد وضعها سنة ١١٩٢ ، واسمها روض الفرج . ولقد وجدها بعض الباحثين كذلك فى استانبول فى ٧٣ قطعة ، وإذا وازنا بينها وبين خريطة والده فاننا نجدها قد أخذها صورة طبق الأصل عنها بشىء يسير من التغيير ، ومع هذا فقد فاته عناية والده فى الرسم .

١٤ — خريطة الشريف الادريسى أقدم خريطة عالمية يعرفها التاريخ . موازنات بينها وبين بعض الخرائط وبيان مميزاتها

بقى أن نذكر مع الفخر والاعجاب أن الخريطة الأدريسية أقدم خريطة عالمية صحيحة كبيرة مفصلة وموضوعة بغاية الضبط والاتقان والوضوح عرفها التاريخ الى الآن . نعم لقد وصل إلى أيدى علماء الجغرافيا خريطة من عهد قياصرة الروم لها من العمر ضعف ما للخريطة الأدريسية وهى خريطة (بويتنجر) التى وضعت فى عام ٣٦٥ بعد الميلاد ، ولـكنها ليست خريطة عالمية للدنيا القديمة كخريطة الأدريسى ، وإنما هى خريطة لبيان طرق المواصلات فقط ، فضلا عن أن المدن والمحطات التى ذكرتها أصبحت كلها أنقاضاً لا يعرف لها أثر ، فالناظر إلى هذه الخريطة إنما يستطيع أن يتصور موضعها بالتقريب . وأما خريطة الأدريسى فهى فوق كونها عالمية تمثل الدنيا القديمة ، وبالرغم من أنها تبلغ من العمر نحو ثمانمائة سنة فـكل المواضع التى ذكرتها يستطيع الباحث أن يعثر عليها ويتثبت منها إلى الآن ، وما زال أغلبها يعرف بنفس الأسماء التى ذكرها الأدريسى إلى يومنا هذا . نحن لم نرث من العصر القديم خرائط جغرافية عالمية وإن كان قدماء اليونان قد وضعوا خرائط من هذا النوع مبنية على طريقة فلكية متقنة ، وأشهرها خريطة الدنيا لبطليموس التى تزيد على خريطة الأدريسى بألف سنة فى القـدم ، ولـكنها ليست خريطة للدنيا بالمعنى الذى نعرفه ولا على منهج خريطة الأدريسى تبين الممالك ومواقعها إلى آخر ذلك ، وإنما هى خريطة للدنيا بمعنى أنها تعطى نظرة عامة فقط عن الدنيا القديمة وتبلغ مساحتها ٣٥ سنتيمتراً فى ٥٢ سنتيمتراً . هذه الصورة التى أعطاها خريطة بطليموس ظلت معتبرة فى بـلاد الشرق والغرب إلى آخر العصر المتوسط . ولقد أخذ الأدريسى حدودها واستعان بها عند وضع خريطته ، ولـكن من حسن الحظ كما عبر الأستاذ ميللر أن الأدريسى قطع النظر بالـكلية عما احتوته خريطة بطليموس بعد الصورة والتحديدات العامة تنفيذاً لأمر رجار الثانى ، نقول من حسن الحظ لأن الأسماء التى ذكرها بطليموس فى خريطته على كثرتها غير مطابقة للواقع بأكثر من ١٪ مع التسامح فى هذه النسبة . وكذلك درجات العرض والطول المثبتة فى خريطة بطليموس تختلف عن الحقيقة بمئات من الأميال ، لهذا كان من الحـكمة والسداد قطع النظر عما أثبت فى تلك الخريطة بالـكلية ، وكذلك فعل الأدريسى ووصل بمجهوده المستقل إلى أن يعطينا صورة صحيحة مطابقة للعصر الذى عاش فيه بما لا ينتظر خير منه ؛ الأمر الذى جعل لتقسيمات الممالك فى الخريطة الأدريسية وللتقسيمات السياسية على الاطلاق قيمة علمية فائقة . نعم أظهر بطليموس مقدرة العـالم الفلـكى عند وضعه لخريطته فى الوقت الذى أثبت فيه درجات العرض والطول بناء على حساباته العلمية المبنية على القواعد بمقدار لم يصل إليه الأدريسى ، ولـكن هذا لا يغنيه شيئاً بجانب عدم التحرى للحقيقة . وعنـد الموازنة بين خريطته وبين خريطة الأدريسى نجد أن بطليموس أثبت خطوط العرض والطول معاً ولـكنها تختلف عن الواقع بشكل غير مقبول . أما الأدريسى فانه أثبت درجات العرض فقط ولـكن بعد قياسات صحيحة ، فهى مطابقة للحقيقة بمقدار يدعو القـدر للخريطة الأدريسية علمياً إلى أن ينظر إليها بعين الاكبار والاجلال . وأما خطوط الطول فقد ترك إثباتها الأدريسى عن قصد ، إذ تبين له أن مقادير المقاييس التى وصلت إليه غير صحيحة ، ولأنه لم يتيسر له بعد هذا إجراء قياسات أرضية لبيان درجات الطول وقياس الـكرة السماوية ، وإن كان فى الاسـتطاعة فانه لا يعطى نتيجة مقطوعاً بها .

هناك خريطتان أخريان

(١) خريطة Ebstorf نسبة للدير الذي وجدت فيه بمدينة هانوفر من أعمال ألمانيا.

(٢) خريطة Hereford التي وجدت بإحدى كنائس هرفورد بإنجلترا.

وهاتان الخريطتان بالرغم من أنهما وضعتا بعد الخريطة الأدريسية بمائة سنة فلم تكونا عملاً علمياً ، وإنما كانتا عبارة عن تخطيطات زخرفية كما عبر الأستاذ ميللر ، تمثلان شيئاً من الفنون السابقة لعصرها، غير محتويتين إلا على شيء يسير من الجغرافية المعاصرة لها.

لعل القارئ يتساءل الآن عن مقياس الرسم للخريطة الأدريسية ، وهنا أقول إن مقياس الرسم بالمعنى الحديث الذي نعرفه والذي بمساعدته يستطيع الإنسان أن يعرف مساحة جهة من الجهات بقياس مساحتها فوق الخريطة ، مقياس الرسم بهذا المعنى لا نجده في خريطة الأدريسي ، وهو طبعاً لم يوجد في جميع الخرائط القديمة ، وإنما وجد بعد وضع خريطتنا بمئات السنين .

على أن الأدريسي قد أشار إلى طريق الوصول إلى معرفة مثل هذا القياس الحديث . الأدريسي ذكر درجات العرض وقدر الدرجة بخمسة وعشرين فرسخاً ، والفرسخ بثلاثة أميال ، وعليه فالدرجة ٧٥ ميلاً ، ولكن الذي لم يذكر قدره الأدريسي هو الميل ، فان قدرنا الميل بما كان معروفاً عند الروم وهو كيلو متر ونصف تكون الدرجة مقدرة عنده ١١٢٫٥ كيلو متر ، وبهذا يكون الأدريسي أعطانا مقياس الرسم لخريطته بشكل واضح .

في الختام أريد أن أذكر لحضرات القراء بعض المميزات التي تزيد في قيمة الخريطة الأدريسية ، وقيمة شرحها نزهة المشتاق :

(١) تجنب الأدريسي ذكر الخرافات التي كانت شائعة في العصر المتوسط ، والتي تورط في ذكرها غيره من المؤلفين . ولقد كان من حنكته أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن حدود العادة نسبه إلى ناقليه ، ثم أعقبه بكلمة احتياط كقوله : والقادر على كل شيء أعلم بما في هذا من الحقيقة . ولم يرسم ما كان شائعاً رسمه عند علماء الجغرافية مما يمثل الغرائب الجغرافية ، وظني أن كان لتعاليم الإسلام الفضل الأكبر في هذا .

(٢) انفردت خريطة الأدريسي بأنها هي الخريطة الوحيدة التي تعطينا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزويني وصحراء العجم في مدة من الزمن تبلغ نحو قرن ، هذه المدة التي لولا خريطة الأدريسي لظلت حلقة مفقودة في تاريخ هذه البلاد .

(٣) إن خريطة الأدريسي وحدها هي التي مثلت لنا دولة الإسلام العربية وهي في عصرها الذهبي ، تلك الدولة التي كان حظها حظ المائدة الفضية التي علم خبرها والتي قضى عليها في وقت وجيز على يد التتار والمغول . فما لم تصل اليه يد جنكيز خان بالتدمير من المدن العربية وحضارتها الى عام ١٢١٩ ميلادية صمقته يد هولاكو التتري يوم ضرب العواصم الإسلامية ، وترك جنوده يعيثون في بغداد فساداً في فبراير سنة ١٢٥٨ سبعة أيام كاملة ، قتلوا فيها أهلها ، وخربوا عامرها ، وحرقوا كتبها أو أغرقوها .

ومن هذا الوقت تغيرت العواصم ، وتبدلت الأسماء ، وخلفت الدولة العربية دولة المغول والأتراك ، وأخذت الخرائط التي وضعت بعد ذلك وجهاً آخر جديداً . فالخريطة الأدريسية إذن هي آخر تمثال لدولة العرب الغابرة يلهمنا العظة ويحدثنا عن فتوحهم وعن مجدهم ومفاخرهم بأنصع عبارة وأجلى بيان .

وإنني في الختام أدع الحكم على قيمة هذا العمل العلمي الكبير، وعلى مجهودات الأدريسي ورجار المشكورة لرجل خبير درس الخريطة وشرحها « نزهة المشتاق » دراسة وافية ، لرجل لم يجر في عروقه الدم العربي ، ولا مجال لاتهامه بالتحيز في حكمه ، ذلك هو الأستاذ « كونراد ميللر » إذ يقول في آخر بحث أجراه لشرح الخريطة ما معناه: « إن رجار الثاني والأدريسي وضعا لهذه الخريطة قد وضعا أهم حجر أساسي في تاريخ انتشار العلم الانساني » واليكم عبارته بالنص الألماني :

"Sicher ist, dass Kinig Roger II., und der Scherif Idrisi mit dieser Karte ein Werk geschaffen haben, welches eine der wichtigsten Marksteine in der Geschichte der Ausbreitung des menschlichen Wissens darstellt."

أما كلمتي أنا فاني أوجهها الى ورثة الأمة العربية ، وأخص شباب مصر الناهض وأبناءها البررة العاملين ، أوجهها الى هؤلاء جميعاً بعد أن نشرت بين أيدي القراء صحيفة باصمة من صحائف أسلافنا الأمجاد ، وبعد أن عرضت عليهم بعض ما يجعلنا نعتز بتاريخنا ، ونفخر بماضينا ، وأناشد هذا الشباب المصري ليجد في العمل كل في ناحيته راجياً أن نوفق في مسعانا ، وتربط حاضرنا بماضينا لنصل بوطننا العزيز بمشيئة الله وعونه إلى مكانه الذي أخذه فوق ذروة المجد ، وعلى قمة العلياء تحت قيادة مليكنا المحبوب قائد النهضة وحامل لوائها في مصر والشرق .

محمد عبد الله ماضي

لننشد الجمـــال!

للأديب حسين شوقي

فى مقدور شبابنا اليوم ولا شك أن يتعلموا فى مصر تعلماً صحيحاً بفضل الجهود التى بذلتها حكوماتنا فى السنوات الأخيرة لاستجلاب الفنيين والأساتذة الأعلام من الخارج .. حتى زادت بفضل ذلك نسبة المتعلمين فى مصر زيادة عظيمة، وهو أمر محمود بطبيعة الحال، ولكن ... مما يؤسف له عدم اكتراث أولياء الأمور المسيطرين على تربية النشء بتنمية الذوق .. أجل، الذوق أهمل أمره فى مصر إهمالاً شائناً ... إنهم يزودون الشباب بمختلف العلوم، ليدخلوا بها الحياة، ولكنهم لا يحببونهم فى الحياة نفسها .. إنهم لا يرشدون الشباب الى ما فى الحياة من أسباب الجمال، مع أن الحياة الخالية من الجمال هى طعام خال من الملح ...

يجب أن يتذوق الناشىء ما فى الطبيعة التى تحيط به من جمال رائع، لأنه كلما أنعم النظر فيها، وتذوق جمالها، ازداد عبادة للخالق تعالى وتقرباً منه، فاستقامت بذلك أخلاقه بلا حاجة الى واعظ أو مرشد ...

على طالب النبات قبل أن يدرس السماد الكيماوى الذى يزيد فى إنتاج زهرة ما، أن يشم عبق هذه الزهرة، وأن يملأ ناظريه من ألوانها البهجة ..

كذلك على طالب علم الفلك المنهمك فى تقدير عمر القمر، أن ينظر قبل هذا الى جمال خيوط القمر الفضية وهى منعكسة على سطح الماء، أو على رمال الصحراء، وقد تلألأت كالماس النقى.

كذلك يجب أن يرشدوا النشء الى ما فى الطبيعة من تآلف رائع غريب فى الألوان، سواء فى الزهور أو فى الحيوان .. حتى إذا كبر الطفل .. صار ذوقه سليماً، فلا يلبس مثلاً حذاء أبيض على رداء أسود ...

كذلك ليتهم أرشدوا الأبناء الى العناية بالطعام! يجب أن يتعودوا تنسيق المائدة بالأزاهير الناضرة، حتى يدخلوا الغبطة على قلوبهم. أليس لنا أسوة فى آبائنا الأولين — المصريين القدماء — الذين كانوا يتناولون الطعام على أنغام الموسيقى الشجية. تلك العادة اللطيفة التى ورثها عنهم الأوربيون؟ ..

كذلك يجب اهتمام النشء برشاقة أجسامهم، فحذار ثم حذار من السمن الذى يشوه الشباب، فضلاً عن أنها مضرة بالصحة إذ تسبب مع الزمن أمراضاً كثيرة للجسم ..

وياحبذا لو شجعوا ميول الشباب منذ الحداثة الى الفنون الجميلة! . فاذا آنسو مثلاً ميلاً فى طفل الى عادة التصفير لقنوه الموسيقى .. وإذا رأوا فى آخر حب اقتناء الصور علموه الرسم ..

أذكر بهذه المناسبة الواقعة المؤلمة الآتية التى حدثت منذ سنوات قليلة لأحد طلبة الطب الشرقيين فى لوزان:

كان هذا الطالب يكشف على مريض تحت إرشاد أستاذه، فلم يرق للأستاذ طريقة نقر الطالب على بطن المريض، بل وجدها غليظة فقال له:

انقر على بطنه كأنك تلعب على البيانو ..

فأجاب الطالب: ولكنى لا أعرف البيانو ..

— إذن أى فرع من الموسيقى تعرف؟ .

— لم أتعلم الموسيقى بتاتاً!! .

— إذن كيف قضيت شبابك؟ .

فخجل الطالب ولم يعرف كيف يجيبه ..

كذلك علينا أن نوفر على النشء فى المستقبل، مشاهدة بعض المناظر المؤلمة فى مجتمعنا الحاضر ..

ويالله مما فى مجتمعنا من مضحكات! .

هذا مغرم بالمظهر .. يقتنى سيارة فخمة تبهر الأنظار، بينما الدجاج يسرح فى حجر داره .. وأثاثه ليس له طراز معروف، وإنما هو طراز «الشيخ أحمـــد» كالذى يفرش فى المآتم والأفراح ...

وذاك يبنى داراً فخمة، فلا يترك مكاناً لحديقة، إذ ماله وما للأزهار والأشجار وهى لا تزيد على كونها حشائش فى نظره تنبت بكثرة فى أطيانه الواسعة؟ ..

كرمة ابن هانى — حسين شوقى

في الأدب الدرامي

٩ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة La comédie

تعريفها : الملهاة تمثيل حادث منتزع من الحياة العامية يبعث اللهو ويثير الضحك . وموضوعها الجهة الوضيعة من طبائع الناس وعادات المجتمع ونقائص الحياة . أما جهة الإنسان الرفيعة ونكبات الدهر الفظيعة وجرائم الهوى السفيه فموضوع المأساة . ويخيل إلى أن الفرق بين الملهاة والمأساة لا يزال غير واضح ولا محدد ، فيحسن هنا أن نفصل القول فيه . فالملهاة تختلف عن المأساة في المبدأ والواسطة والغاية . فمبدأ المأساة حماسة الإنسان وشعوره ، وواسطتها التأثير ، وغايتها الرهبة من الهوى المقتل والرعب من الجرم الفظيع ، والرغبة في الخلق الكريم . وأما الملهاة فمبدأها خيانة الانسان وضعفه ، وواسطتها السخرية والضحك ، بأن تنظر إلى عيوب الناس نظرة الضاحك الساخر مادامت غير مؤلمة فتثير الرحمة ، ولا محنقة فتثير البغض ، ولا خطرة فتثير الفزع . ثم تصور هذه النقائص بمهارة ودقة ، وتستعين على تقوية هذه الصورة بالفارقات والمفاجآت لتكون مثاراً للاستهزاء والضحك . ولا ريب انه كان أجدر بنا وأنفع لنا أن نقابل عيوب الناس بالرثاء الأحوى والتطير الفلسفي بدلاً من هذه الضحكة المازئة ، ولكنهم وجدوا أن أقرب الطرق وأنجع الوسائل أن يستخدموا فساد بعض الناس في إصلاح فساد الآخرين ، كما تستخدم ذبابة الحجر من الناس في صقل الماس نفسه . وإصلاح العيوب بالعيوب هو غاية الملهاة . ومن الناس من يفرق بين الملهاة والمأساة بكيفية الأشخاص وكمية العواطف ، فيقولون إن أشخاص المأساة من طبقة الخاصة ، وأشخاص الملهاة من طبقة العامة ، وإن درجة العواطف في الأولى قوية وفي الأخرى ضعيفة ، وذلك فرق لا يميز ولا يوضح ، لأن الآلهة والملوك قد يتخذون في بعض الأحيان أضاحيك كما ترى في رواية (امفتريون Amphitryon) لموليير ، ولأن اليأس القاتل الذى استولى على بخيل موليير حينما فقد خزانة ماله ، لا يقل في درجته وشدته عن يأس فيلوكتيت[1] سوفوكليس حينما خطفوا منه سهام هرقل .

إن النوازل الفادحة والمهالك الجائحة والعواطف الخارقة مزايا المأساة ودلائلها ، ولكن النافع الخاصة والأخلاق العامة والعيوب الشائعة كيان الملهاة وخصائصها . فالأولى صورة من التاريخ ، والأخرى صورة من المجتمع ، والرذيلة لا تدخل في باب الملهاة إلا وهي مضحكة محتقرة . فاذا كانت ممقوتة مضرة دخلت في باب المأساة : فموليير جعل المنافق المحتال شخصاً مضحكا في (ترتوف) ، وشكسبير جعله شخصاً محزناً في (جلوستر) ، وذلك بالطبع راجع إلى طبيعة النفاق والخلق في الحالين .

سبب الضحك في الملهاة : سبب الضحك هو خطأ حقيقي أو ادعائي لا ضرر منه ولا تبعة له . فنحن إنما نضحك إذا لحظنا بين الشيء وبين الواقع اختلافاً لا يكون فيه مضرة لأحد . فالرجل المفلس الذى يظن نفسه كفؤاً لأن يعلم الناس جمع الثروة ، والشيخ المهدم الفاني الذى يتصابى في مشيته ، ويتظرف في لهجته ، يبعثان على الضحك ، ويستوجبان السخرية ، لأنهما يريان الأشياء على غير حقيقتها . والدمامة في ذاتها ليست مضحكة ، وإنما تصبح كذلك إذا ظن الدميم نفسه جميلاً ، أو رجا أن يظنه الناس كذلك . ولهذا السبب نفسه نضحك من اربجون بخيل موليير حين يطبق على خزانته ما يقوله له ڤالير عن ابنته ؛ وكذلك نضحك من (مينالك) لابرويير حين أخذ نعله وهو يحسبه كتاب القداس ، كما حدث لأحد إخواننا من المعلمين الكهول إذ وضع « دفتر

---

(١) فيلوكتيت مأساة شهيرة لسوفوكليس ، وعلم على بطل من أبطال طروادة اليونانيين . أوصى إليه هرقل عند موته بسهامه المسمومة . وبينما هو في طريقه إلى طروادة جرحه سهم منها . وتقل الجرح فسطعت منه ريح منتنة لا تحتمل . فبرم به القوم وخلفوه وحده في جزيرة لمنوس فلبث فيها عشر سنين . فلما أعلنت الآلهة ان طروادة لا تؤخذ إلا بسهام هرقل عاد إليه أوليس وديوميد يبحثان عنه فيها ، فلما لقياه خطفا منه السهام وعادا إلى طروادة .

التحضير» في شباك المرحاض بجانب قطعة بالية من قفة خوص . ولما قضي أمره منها فأخذ (البرش) بدل الدفتر ، ودخل به الفصل فكركر التلاميذ في الضحك من هذا السهو الغريب .

على أن حدوث السهو أو الخطأ من إنسان لا يكفي في حدوث الضحك ، بل لا بد أن نلحظ ذلك الخطأ منه ، وندرك التباين بين فكرته عن الشيء ، وبين حقيقة ذلك الشيء نفسه . فاذا اتفق أن أحد الناس لم يفطن الى هذا الخطأ لفتور ذهنه أو قلة علمه بقي جاداً لا يضحك ولا يبتسم . وذلك سبب ما نرى من أن الشيء يضحك بعض الناس ولا يضحك البعض الآخر . ولا يلزم أن يكون الخطأ المضحك حقيقياً ، بل يكفي أن نراه نحن كذلك ، أو يتظاهر المضحك بأنه غلط في شخص أو في شيء . والمازح إذا أراد أن يمزح فانما يدعى الحماقة والسذاجة وهما مصدر السهو والخطأ . كذلك يجب ألا يكون لهذا الخطأ تبعة محزنة ولا نتيجة مشئومة كما ذكرت من قبل ، وإلا أثار الرعب والإشفاق ، بدل أن يثير الجذل والضحك . فميروب حين أخطأت في ولدها فظنته قاتلاً ، وأرادت أن تقتله لم يضحكنا ماتفعل ، وإنما ملأ قلوبنا رعباً وخشية ؛ والمتكبرون لا يضحكون من أنفسهم إذا أخطأوا ، لأنهم يجدون في هذا الخطأ خدعاً لتكبرهم وإهانة لصلفهم فيتألمون .

ومنشأ الخطأ الذي يولد الضحك إما نقص في الخلق ، وإما ضعف في الذكاء ، وإما ظروف خارجة عن شخص المخطيء . والخطأ يستتبع في أكثر الأحوال أقوالاً وأفعالاً تخالف المرعى من العادة أو العرف أو القوانين أو الذوق ؛ وتلك هي السمات التي تحدد لك أخلاق الملهاة . ففي ملهاة (المتوحش) لموليير تجد كل ما يقوله (ألسيست) ويفعله مناقضاً للعادات الجارية ، لأنه فقد قوة الحكم على الأشياء ، فبالغ في تقدير الفضيلة الى حد أن يرى فيما أجازه العرف وأمضاه خطورة ليست فيه .

أنواع الملهاة : الملهاة ثلاثة أنواع : وهي الملهاة الاشكالية La comédie d'intrigne وتؤلف من الحوادث المضحكة الغريبة المتشابكة المعقدة التي تأخذ على الشاهد أنفاسه وتملك حواسه ، حتى تنتهي بحل مرغوب غير متوقع . فالحوادث روحها وقوتها . أما وصف العادات ، وتصوير الأخلاق ، فهما في المحل الثاني منها ؛ كملهاة المريض الواهم ، والطائش ، والحضري الشريف لموليير ، والملهاة الاجتماعية La comédie de moeurs وتؤلف من الهزؤ بخبال الناس وسخف المجتمع ، وتصور ما أحدثته العادات السيئة في الأخلاق من تشويه ومسخ ، وذلك في طبقة خاصة وعصر معين . ويجب أن يكون كل شيء فيها مهيئاً ليظهر مع غيره عيباً من عيوب الاجتماع . فالحوادث تختار عن قصد لبلوغ هذه الغاية ، والظروف ترتب بدقة لأحداث هذا الأثر ، والفرد يكبر ويعظم حتى يتضمن الجنس بأسره ، والحوار يجرى على طريقة تبرز فكرة المؤلف واضحة في كل خطاب وجواب ؛ كالمتحذلقات والتخيفات لموليير ، ونصف العالم ، ومسألة النقود ، والأب المبذر ، لاسكندر دوماس الصغير . والملهاة الخلقية La comédie de caractére وهي تهاجم العيوب والنقائص المسيطرة على الأخلاق في كل زمان ومكان ، ونزعتها الى الافادة والامتاع أقوى منها إلى السخر والاضحاك . كالبخيل ، وترتوف ، والمتوحش لموليير . وهذا النوع أنفع الأنواع الثلاثة وأقواها وأصعبها . فأما أنه أنفع ، فلأنه يرجع الى مصادر العيوب وأصولها فيهاجمها في مباديها ومناشئها ؛ وأما أنه أقوى فلأنه يقدم الى الناس المرآة فيخجلهم من صورهم ويضحكهم من أنفسهم ، وأما أنه أصعب فلأنه يطلب من المؤلف دراسة عميقة للأخلاق ، وبصيرة نافذة في الملاحظة ، وخيالاً قوياً ليجمع شتات الملحوظات الكثيرة في نقطة واحدة .

هذه هي أنواع الملهاة الثلاثة ، دون أن نعد منها تلك الأنواع التي تعتمد في الأضحاك على النكات اللفظية ، أو على المواقف الخليعة المجونية ، فانها بضاعة الأذهان الكليلة ، والأذواق السقيمة . ولها مع ذلك اسم غير هذا الاسم وموضع غير هذا الوضع . على أن هناك نوعاً رابعاً هو أسمى من تلك الأنواع وأقوى . ذلك هو الملهاة المختلطة التي تستوعبها جميعاً . فتجمع الى هزل المواقف هزل الأخلاق والعادات ، فترى فيها الأشخاص مدفوعين بضعف عقولهم ، أو مرض قلوبهم الى أن يقفوا مواقف مخزية تعرضهم الى سخر المشاهدين واحتقارهم . كالموقف الذي وقفه أرباجون بخيل موليير مع ولده حينما أقبلا يتعاملان بالربا دون أن يعرف أحدهما الآخر ، فكانت مقابلة الأب المرابي والابن المبذر من سخريات الحياة وغرائب الأمور .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

بين فتاتين

فصل من رواية لم تنشر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أفاقت «خيرية» في غرفتها على صدر «سارة» ، أو لعل الأصح والأقرب إلى الصواب أن نقول إنها استعادت سكينة نفسها فما ترى العين ، بعد أن أسلت ملء حفنة من الدموع روت بها زهور خديها النضيرين ، وأصارت أرنبة أنفها كالجزرة . وفي قليل من البكاء شفاء للصدر وجلاء للبصر ، وغنى عن المناخيق !

وأحست «سارة» بانتظام أنفاسها فضمتها إليها في رفق وحنان ، فجاوبتها «خيرية» بضغطة خفيفة . وطاف برأسها وهي تفعل ذلك أن لو كان هذا صدر شاكر !؟ ! وتنهدت كالمتحسرة ، وذهبت تتصور ساعديه القويين على خصرها يهصرانه ، وثدييها يعصران على تندوتيهما [1] ، وأنفاسه على شعرها ، وكلامه العذب في أذنها . فأخذها من هذا الخاطر مثل الدوران في رأسها ، وأظلمت عيناها ، وشعرت بمثل النار تندلع في أحشائها وترقى إلى صدرها ونحرها وتأخذ بكظمها ، على حين كانت تحس بالبرد في قدميها .

وشدت «سارة» على خصرها في هـذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات ، فرفعت «خيرية» وجهها المضطرم ونظرت إلى صاحبتها بعين ثابتة الحلاق إلا أن عليها كالضباب فهي لا تبصر ، وأقبلت على فمها تقبله — قبلة حارة طويلة عصرت فيها روحها ونسيت نفسها ، وإذا «بسارة» تهتز وتنتفض وترسل راحتها تتحسس علواً وسفلاً ، و «خيرية» كالسكرى : تضم ، وتئن ، وتبوس ، وتمسح الخد بالخد ، وعينها مغمضة ، وأصابع يمناها تتقبض على لحم «سارة» والأخرى تعبث بشعرها وتتخلله وتشده ، وهما في عناقهما تميلان يمنة ويسرة ، وتقبلان إلى الأمام تارة ، وتنثنيان إلى الخلف طوراً ، وتزحف كل منهما إلى صاحبتها كأن بينهما متسعاً فتتزحزحان على الطارقة [1] حتى تهاوتا فتخاذرتا ، وصار صدراهما كالخضم المضطرب .

وقالت «سارة» بصوت يذوب من الرقة :

«أأحسن ؟»

فدانت «خيرية» بين جفونها والتفت إلى صاحبتها — بمؤخر عينها — نظرة فيها من الرضى والشكر والرجاء معان ، وكانت كلتاهما مضطجعة ، فمدت «سارة» يدها وتناولت راحة «خيرية» وأطبقت عليها أصابعها — في صمت — وظلتا هكذا برهة ؛ ثم شخصت «سارة» إلى السقف وقالت كأنما ترى من تخاطبه فيه «ليتك كنت أخاك !»

ثم ثنت إلى «خيرية» وجهاً ينضح بالبشر ويغرى بالعبث والمصارحة ، فرفعت «خيرية» حاجبيها وأمالت رأسها على الوسادة ثم ردت وجهها إلى سارة وقالت :

«إنك سعيدة ياسارة . . .»

فسألتها «سارة» :

«وأنت ؟ . .»

قالت خيرية «موزعة . . »

(١) الثندوة مغرز الثدي وما حوله من لحم الصدر .

(١) الطارقة السرير الضيق وقد اخترناها للكنبة .

ماذا يجب في عمل الملهاة : إن الغرض الذي يتوخاه واضعو القواعد للعمل الروائي هو التقريب بين الافتراض والحقيقة . وأقوى الوسائل إلى هذا التقريب هي قاعدة الامكانية . ولما كان عمل الملهاة منتزعاً من العادات المألوفة ، والأخلاق المعروفة ، والنكتة الحاضرة ، كان بعده عن الحقيقة ، ومخالفته للواقع أمراً سهل الملاحظة صعب الاحتمال . لذلك وجب أن تراعى القواعد في الملهاة مراعاة شديدة ، وعلى الأخص وحدة العمل ، واستمرار الخلق ، وسهولة الأسلوب ، وبساطة التعقيد ، وطبيعة الحوار ، وصدق العاطفة . وقوة الفن في إخفاء الفن ، بحيث يكون كل ما يحدث ويقال على المسرح صورة ساذجة للمجتمع حتى ينسى الشاهد أنه في مشهد من مشاهد التمثيل ، لأن الصورة إذا رسمتها يد عاجزة اتجه فكرك فيها بعد النظرة الأولى إلى الرقعة والألوان والأطار . قبل أن يتجه إلى التدور والنتوء والبعد .

يتبع (الزيات)

– موزعة ؟

– نعم ! ... وعسى أن أكون واهمة ... ولكنه يخيل إلىّ أحياناً أنى أحب « عبده » وهو لا شك يحبنى ... على طريقته ... حباً صامتاً ... أخرس ... يحيرنى ... أعنى ياسارة انه يحرك نفسى لحظة ثم يدعها فارغة لا أثر فيها له ... ليس عنده كلام يقوله ... ينظر إلىّ كأنه يشتهى أن يأكلنى بعظامى ... فهو يخيفنى ويفزعنى ، ويسحرنى أيضاً ويجذبنى حين يفتح علىّ عينه بهذه النظرة المنهومة ، ولكنه يخيفنى أكثر مما يسحرنى ... آه لو كان ينطق ... ! ولكنه لا يعرف الكلام ... ولا المغازلة .

... جسمه ضخم ولسانه أبكم ... فهو قوة مرعبة ... لو كان رق فينفى الخوف !

... لو كان يشعرنى أن الحب يلينه أو يذيبه قليلاً ؟ ... ولكنه ليس مثل ... »

وأمسكت ، ونزعت يدها من يد سارة ، وظلتا مفترقتين برهة وهما تفكران فى الغزل ! « خيرية » فى بكم عبده وفى خلو حبه من هذا العنصر الذى يلطف الوقدة ، ويخفف الحدة ، ويسلب العاطفة المشبوبة لذعها وكيها ، ويجعل الحديث أحلى من التقبيل والعناق . أما « سارة » فقد فتح لها كلام « خيرية » باباً جديداً من التفكير أعانتها دراستها العلميـــة على ولوجه ، فراحت تقول لنفسها إن الغزل ليس عبثاً ولا تكلفاً ، وإن الرقة فيه واجبة وليست ضعفاً ، وإن الطبيعة لا تزال تطلب التوازن وتسعى له وتحدثه ، فلولا رقة الرجل القوى ، فى غزله ، لأرعب المرأة حبه ولما احتملته ، وهو حين يجثو أمامها ويريح خده على ساقها ، أو يناجيها بهواه ويشكو إليها ضعفه عن احتماله ، ويصف لها ضيق صدره بما يجن ، وقلبه بما يجد ، ويتذلل لها ويتوسل إليها ، انما يفعل ذلك بفطرته ليعتدل الميزان ، فيذهب عن المرأة الخوف من قوته ، وتشعر أن فيه موضع ضعف تستطيع أن تستغله وتقاوم به طغيان القوة ، وعلى قدر ما يبدى الرجل من الرقة فى موقف الغزل والمناجاة تحس المرأة أنها قوية وأنها كفء له ، فتطمئن وتعتقد أنها نده ، وإن كان فى ظاهره أقوى ، وتبادله حباً بحب غير مكرهة ولا محمولة على ذلك ، ولا شاعرة بتفريط فى كرامتها أو تضييع لشخصيتها أو محو لإرادتها .

ولم يشعرا أن الصمت طال بينهما أو أن الحديث انقطع لما قالت « سارة » بعد ذلك :

« ولكنك تحبينه . . ! لا شك فى ذلك »

فقالت « خيرية » بلهجة المفكر لا المستفسر .

« هذا ظنك ؟ »

قالت « سارة » :

« لقد كنت تفكرين فيه ونحن متعانقان » .

فاعتدلت « خيرية » فى جلستها ، وواجهت « سارة » وقالت بلهجة حازمة :

« كلا . . أبداً »

فوضعت سارة يدها على كتف صاحبتها وقالت :

« تعالى . . تعالى . . اطرحى عن صدرك هذا العبء . . . لماذا لا تبادليننى حبى ؟ »

فسألتها خيرية وهى تضحك :

« أتحبيننى ؟ »

« أتسألين ؟ »

« أعنى كمادة ؟ »

« لا أزعم ذلك ولكنى أحببتك »

« من أجله ؟ لأنى أخته ؟ »

« لذاتك »

« صحيح ؟ »

« أتشكين ؟ »

« لا أشك . . ولكنى غيره . . أعنى أنى فتاة مثلك »

« وما دخل هذا ؟ ماقيمته ؟ ألم نكن نتعانق على حب قبل دقائق ؟ قد يختلف الغرض من الحب أو نوع الاحساس به ولكنه يظل حباً »

« سارة ! »

« نعم »

« لا أدرى كيف أقول . . إنى لم أعرف من هو إلا الليلة »

ودفنت وجهها فى راحتيها فصاحت بها « سارة »

« أهو ذاك ؟ »

فرفعت « خيرية » رأسها كأنما تتحدى الدنيا والناس وقالت

وهي تسوي شعرها وترد عن جبينها خصله

« نعم . وقد عرفت الآن »

فقالت « سارة » بإخلاص :

« يا حبيبتي هذا أسعد يوم في حياتي . أنا لأخيك . وأنت لأخي »

فقالت « خيرية » وهي تكاد تبكي :

« كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ إنه لم يرني قبل اليوم إلا مرة واحدة ! »

فسألتها « سارة » وهي تنظر اليها نظرة من يُحيي ذكرى تمعن في الغمض :

« قبل اليوم ؟ أتعنين . . ؟ »

قالت « نعم كنت خارجة من سمعان فعثرت . . »

فصاحت بها سارة وقد صح ظنها :

« هو أنت ؟ »

« أهو أنا ؟ ماذا تعنين ؟ »

أعني أنك فتاته التي يحبها ويبحث عنها . . يا لسعادتي »

فتعلقت بها خيرية وأمطرتها وابلاً من الأسئلة ، وسارة تضحك ولا تعرف كيف تجيب ، وإذا بحمادة ينقر ويسأل قبل أن يسمع الاذن بالدخول

« سارة ! ما هذا الذي يقوله عبده ؟ »

فوثبت الفتاتان ووقفتا مبهوتتين من المفاجأة ، واحتاج حمادة أن يعيد سؤاله

« أهو صحيح ؟ »

فقالت « سارة » وهي تبتسم له وترف : « ماذا يا روحي ؟ »

فأذابته ابتسامتها وراح يتلعثم

« أ . . . أ . . . »

فقالت سارة « تعال يا حبيبي . . . أم تخرج ؟ ؟ أظنه آن لي أن أخرج . بكرهي يا روحي . . . فتعال احملني الى سيارتك . . . وفيها . . . الى بيتي »

فنبئني حمادة ما أفضى به اليه عبده . . .

ابراهيم عبد القادر المازني

من الأدب الأندلسي :

٢ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

دخل ابن شهيد وادي الجن ، ورغب في البدء بلقاء الشعراء على ما بيَّنا في المقال السابق ، وقد حدَّثنا الرجل أنه طلب من صاحبه زهير بن نمير أن يقدمه أول ما يقدمه إلى تابع امرىء القيس ، وإنما حق له هذا ، أولاً : لأن امرىء القيس سابق في عمر الزمن ، وحساب الأيام ؛ وثانياً : لأن النقاد جميعاً على أنه أمير الشعراء في العصر القديم ، وشيخهم الذي أوضح لهم الطريق ، فهو مقدم بالطبع والوضع كما يقول المناطقة ، ولم يرد ابن شهيد أن يخرج على ما قضت به الأيام ، وما تواضع عليه النقاد ، فأنزل الرجل منزلته المقررة ، ووضعه في مكانته المعلومة ، ولذا قدمه على نفسه في الأنشاد ، ووصفه بتطامح الطرف ، واهتزاز المعطف ، علامة الغرور والثقة ، وأخذته الهيبة منه ، فهم بالحيصة والهرب من أجازته ، لولا أن شدَّ في قوى نفسه ، وأنشده ما أنشد .

وعلى هذا النهج راح ابن شهيد يتحدث عن توابع الشعراء واحداً بعد واحد ، ويقرر ما وقع له معهم ، وما جرى بينه وبينهم من الأنشاد والمساجلة ، وهو في أثناء ذلك يعرض بالتصوير لأحوال الشعراء ، ويهتم بوصف نفسياتهم وميولهم ويشير إلى ما اشتهر عنهم في أخلاقهم وسلوكهم وآرائهم ، تارة بالتلميح ، وطوراً بالتصريح ، ومن حين لآخر تجده يجمل كلامه بالنادرة المستملحة ، فيجعل القارىء يقبل عليه في سرور وائتناس ، استمع اليه وهو يحكي ما وقع له مع « بغلة » من التوابع أقبلت تحكمه في شعرين لبغل وحمار اختلف فيهما الفريقان ، فقال لها حتى أسمع ، فقالت الشعر الأول لبغل من بغالنا وهو :

على كل صب من هواه دليل
سقام على جسد الهوى ونحول

وما زال هذا الحب داء مبرحا
إذا ما اعترى بغلاً فليس يزول

بنفسي التي أما ملاحظ طرفها
فسحر ، وأما خــدها فأسيل ! !
تعبت بما حملت من ثقل حبها
وإني لبغل للثقـــال حمول !
وما نلت منها نائلاً غــير أنها
إذا هي بالت بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحماز وهو :

دهيت بهذا الحب منذ هويت
وراثت ارادتي فلست أريث
كلفت بالتي منذ عشرين حجة
يجول هواها في الحشا ويعيث
وغــيرّ منها قلبها لي نميمةٌ
نعاها أخم الحصيتين خبيث
وما نلت منها محرماً غــير أنها
إذا هي راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : « فاستضحك زهير وتماسكت ، وقلت للمنشدة ما هويت ؟ قالت : هويت بغلة الحسير ؛ قلت والله ان للروث لرائحة كريهة ، ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعرين ، فقالت فهمت عنك » ثم يتفكه ابن شهيد في القول أكثر فيقول « وقالت لي البغلة : أما تعرفني أبا عامر ؟ قلت لو كان ثم علامة ، فأماطت لثامها فاذا هي بغلة أبي عيسى ، والخـال على خدها فتباكينا طويلا ! وقد أخذنا في ذكر أيامنا فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت ما ترين ! قالت : شب عمرو عن الطوق ! وما فعل الأحبة ؟ قلت شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الأخلاق ومن إخواننا من بلغ الأمارة ، وانتهى الى الوزارة ؛ فتنفست الصعداء ، وقالت ؛ سقاهم الله سبل العهد ، وان حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود . . »

فالرجل كما ترى فكه ظريف ، وفي رسالته كثير من الفكاهات والنوادر ، وكلها على غرار هذه الفكاهة ملاحة وخفة وطرافة ، وإنما براعة الرجل تظهر أكثر في تصوره — كما قلنا — لأحوال الشعراء والكتاب ، ووصف ميولهم ، والتحدث عما جرى لهم معهم ، ولعل من أعذب ماله في ذلك ، وصفه لما جرى بينه وبين صاحب أبي نواس ، ذلك الشاعر الذي قطع العمر في نشوة السكر ، وشرك الخمر ، واستطراده في الحديث عن « دير حنة » مقام هذا الشاعر وما اشتمل عليه من الرهبان والغزلان ! ! فقد أجاد الرجل في ذلك وأبدع ؛ أنظر اليه وهو يصور ذلك فيقول « ثم قال لي زهير فمن تريد ، قلت صاحب أبي نواس قال هو « بدير حنة » قد غلب عليه الخمر ، فركضنا ساعة ، وجزنا في ممرنا بقصر ، فقلت لمن هذا القصر يازهير ؟ قال لطوق بن مالك أبي الطبع صاحب البحتري ، فهل لك أن تراه ؟ قلت : أجل ، إنه من أساتيذي وقد كنت أنسيته ، فصاح يا أبا الطبع ، فخرج لنا فتى على فرس أشهب وبيده قناة ، فقال له زهير : إنك موفق ، قال لا ، صاحبك أشجع مارنا من ذلك لولا تنقصه ! ؛ قلت يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفزان ، وأنشدنا من شعرك فأنشد :

ما على الركب من وقوف الركاب[1] »

حتى انتهى منها ، ثم قال هات أنت شيئاً فأنشدته :

« هذه دار زينب والرباب »

حتى أتيت فيها الى قولي :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون في جوف غاب
وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

فكأنما غشي وجه أبي الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى الوراء دون أن يسلم ، فصاح به زهير أأجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر ! !

قال ابن شهيد « ثم سرنا حتى انتهينا الى « دير حنة » فضرب زهير الأدهم ، فسار بنا في قنته ، ففتق سمعي قرع النواقيس فقلت فصحت عن منزل أبي نواس ورب الكعبة ، وسرنا نجتاب أديارا وكنائس وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتضوع نوافحه ، فوقف زهير ببابه وصاح به : سلام على أهل « دير حنة » فأرقلت نحونا الرهبان مشدودة الزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، مبيضة الحواجب واللحى : مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ، فقالوا أهلا بك يازهير من زائر ، وصاحب أبي عامر ، ما بغيتك ؟ قال « حسين الدنان » ، قالوا : إنه لفي شرك الخمر منذ أيام عشرة ، وما نراكا منتفعين به ، فقال وعلي أنا ذلك ، ونزلنا وقادني الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعلقت عزلانه ، وفي دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة ، قد افترش أضغاث الزهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة وحواليه

(١) مطلع قصيدة للبحتري يمدح فيها اسماعيل بن شهاب ونصفها في الغزل والتشبيب والنصف الآخر في المديح .

صبية كالظباء ، فصاح به زهير : حياك الله أبا الأحسان ، فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فقال لى زهير : اقرع أذنيه باحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد :

وزب حان قد شممت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره

في فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعاً لكبيره ! !

والقس مما شاء طول مقامنا
يدعو بعود حولنا بزبوره

ويرتم الناقوس عند صلاتهم
ففتحت من عيني لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته : أأشجعي ؟ قلت : أنا ذاك ، فاستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه فأفاق ، واعتذر الي من حاله ، فأدر كتني مهابته ، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم والشعر . . »

فهذه صورة دقيقة ، تشتمل على حال أبي نواس كأنك تراه ، وتمثل أمامك « دير حنة » بغزلانه ورهبانه تمثيلا رائعا كله براعة وقوة ، والواقع أن ابن شهيد لم يستمد هذه الصورة من خياله ، ولكنه صورها من الواقع ، ونقلها كما رأى وأبصر ، فقد كان هذا الرجل ولوعاً بالتردد على كنائس النصارى في قرطبة لايتحرج من المبيت فيها مع الرهبان ، برشف الكأس ، ويبهج النفس ، ومن ذلك « أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة ، وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور وائتناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح :

لا يعمدون الى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حمياً ، كأنما يرشف من شفة لميا ، وهي تنفح له بأطيب عرف ، كلما رشف أعذب رشف ، ثم ارتجل[1] في وصف ذلك هذه الخمرية ، التي قرع ببعضها سمع أبي نواس ، فتنبه من حبائل نشوته ، وصحا من سكرته ! !

وابن شهيد يذكر أنه تقابل في طريقه بصاحب البحتري بعد أن قد أنسيه مع أنه من أساتيذه . ويذكر أنه أجازه فخذله حتى لقد هرب يخزي « وكر راجعاً الى الوراء دون أن يسلم » وهذه شنشنة ابن شهيد مع كثير من الشعراء والكتاب ، خصوصاً شعراء المشارقة وكتابهم ، فهو يحدث أنه التقى « بزبدة الحقب » تابع بديع الزمان ، وبعد أن تم التعارف بينهما ، طلب منه ابن شهيد أن يجرى على سمعه وصفه للماء ، فتطاول زبدة بذلك الوصف ، وقال إنه من العقم بحيث لا يبلغه أديب ، ثم انطلق يقول ، « أزرق كعين السنور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فكان كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة » فعارضه ابن شهيد فقال : « انظر ياسيدى كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر لياح ، ينصب من إنائه ، انصباب الكوكب الدرى من سمائه ، كأنه خيط من غزل فلق ، أو مخصرة ضربت من ورق ، يرفع عنك فتردي ، ويصدع به قلبك فتحيا » فلما سمع ذلك زبدة غار في الأرض ، وهو مبهوت خجل ! !

وقد حسب الدكتور زكى مبارك ذلك غروراً من ابن شهيد وعذره في هذا الغرور نظراً لنبوغه وعبقريته ، والواقع أن الغرور صفة تكاد تكون ملازمة لكل أديب ، وقد يكون ابن شهيد مغروراً في نفسه الى أبعد حد ، ولكن كلفه بالتفوق على الشعراء والكتاب لم يكن مبعثه الغرور ، كما حسب الدكتور مبارك ، فان الرجل كما قلنا كتب رسالته في جماعة من معاصريه ، حطوا من قدره حسداً له ، وغمطوه فضله حقداً عليه ، فأراد أن يطلعهم على مكانته في الأدب ، وأن يبين لهم قدرته في الشعر والنثر ، ولذلك فهو يحرص على الظهور أمامهم بالتفوق والتغلب ، ليس في اجازة الشعراء والكتاب فحسب ! بل إنه ليذكر أن التوابع والزوابع احتاروا في أمره ، وشدهوا لقدرته في الشعر والنثر والخطابة ، وأن أحدهم فتن ببيت من شعره فقام ينشده ورقص ، وأنه قرأ عليهم رسالته في وصف الحلواء فأعجبوا بها أيما إعجاب ، وقالوا « إن لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرته من حلاوة طبعك ، وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى في أبناء جنسك » وأظن في الجملة الأخيرة ما يكفي للفصل بيننا وبين الدكتور زكي مبارك .

على أن ابن شهيد لم يقف عند هذا الحد من التعالى وإظهار التفوق أمام معاصريه ، بل راح يحط من قدرهم ، ويتهكم بعلمهم وأدبهم فوصفهم ببلادة الطبع ، نعم — كما يقول — ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران ، الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة لا منفذ لها في الرقة ، ولا مدب في شعاع البيان ، كل بضاعتهم من الأدب ، كلمات من غريب اللغة ، وبعض مسائل من النحو

(١) مطمح الأنفس

الغد المجهول

للأديب سيد قطب

ياليتَ شعري ، مايُخبّئه غدي … إني أروحُ مع الظنونِ وأغتدي
وأُجيلُ باصرتي بها وبصيرتي … أبغي الهُدَى فيها ، وما أنا مهتدِ
حتى إذا لاحَ اليقينُ خلالَها … أشفقتُ من وجهِ اليقينِ الأسودِ
وأشحتُ عنه ، ولو أطقتُ دعوتُه … وطرحتُ عني حَيرتي وتردُّدي
فكأنني الملاحُ تاهَ سفينُه … ويخافُ من شطٍّ مُخيفٍ أجردِ

* * *

ماذا سيولدُ يومَ تُولَدُ ياغدي ؟ … إني أحسُّ بهولِ هذا المولدِ !
سيُصَرِّحُ الشكُّ الدفينُ بمهجتي … فأبيتُ فاقدَ خيرِ ما ملكتْ يدي
ستروعُ من حولي عواطفُ لم تزلْ … تُضْــــفي عليَّ بعطفها المتودّدِ
ستجفُّ أزهارٌ يفوحُ عبيرُها … حولي ، وينفخُ بها الأريجُ الندي
والمشعلُ الهادي سيخبو ضوؤه … ويلفُّني الليلُ البهيمُ بمفردي

* * *

ماذا تخلِّفُ يومَ تذهبُ يا غدي … لا شيءَ بعـــدَ الفقدِ للمتفقِّدِ
ستخلِّفُ الأيامَ قاعاً صفصفاً … تذرو الرياحُ بها غبارَ الفدفدِ
لا مُرتجَّى يُرجى ولا أسفٌ على … ماضٍ يضيعُ كأنه لم يُوجَدِ
أبداً ، ولا ذكرى تجدِّد ما انطوى … حتى التألمُ لا يعودُ بمشهدي !
ربّاه إني قد سئمتُ تردُّدي … فالآن فليتقدمْ بهولك ياغدي

والصرف لا يفهمون منها إلا ما يفهم القرد اليماني في الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان . . . قال ابن شهيد : « ومن خلق هذه العصابة أنهم إذا امتحنا أبصارهم قابلونا بالملق ، وهم منطوون على الحسد والحنق ، فاذا جمعتنا المحافل ، وضمتنا المجالس ، راموا الينا مبصبصين ، وإنما يتبين تقصير المقصر ، وفضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب . وازدحمت الحدق ، واستعجل المقال » .

« للكلام صلة » **محمد فهمي عبد اللطيف**

إلى طائر . . .

للأديب فايز العمروسي

إلى أي وادٍ ترسل الصوت يجتلي … سرائر هذا الليل والليـــل ساهرُ
وفي أي معنى تبعث اللحن صارخاً … فتطويه في جوف السكون الدياجر
وقد غفلت عين الحياة وأسدلت … على الكون من وهم الظنون ستائر
هتكتَ حجابَ الليل يا طير فاتّئدْ … ورفه ، فقـــد هاجت بنفسي خواطر

* * *

هنالك أعشاش على دوح شاطئٍ … يمازجها طيب من الروض عاطر
تداعبها الأهواء وهي عوازف … وتهفو بها الأرواح وهي فواتر
هنالك أفراخ إذا ملت نحوها … تثنت ومالت نحو فيك المناقر
فرُدْها ، وخلِّ الليل عنك لشاعر … يطوف به سهرانَ والفكر حائر

* * *

وفي أي واد في الظلام مقدس … هتفت به ياطير والقلب ثائر
أذلك وادى الدهر يقضي شؤونه … على الخلق والأقدار فيها سواهر
تطل على الأكوان في غفلاتها … فتكشف عما خبأته السرائر
ألا حدّث الأقدار ياطير وانثني … بما حجبته في الغيوب المقادر
وأكبر ظني والظنون خواطر … بأنك مثلي في المقادير حائر

في النقد الأدبي

صفحة من كتاب اللاوكون

طريقة التعبير عن الفن

للنقادة ليسنغ

للأستاذ خليل هنداوي

وهكذا بعد الملاحظة وجدنا أن الفن في العصور القديمة كان يتمتع بمقاييس أكثر اتساعاً، وكان بامكانه أن يتناول جميع الأشياء الطبيعية المرئية التي يعد الجمال فيها جزءاً صغيراً ، فكانت الحقيقة وطريقة التعبير هما فيه المطلب الأول . وكما أن الطبيعة تضحي في كل لحظة بالجمال بناء على نظرات لها سامية ، فكذلك الفنان نفسه ينبغي له أن يخضع للطبيعة رسمه الموضوع دون أن يطمع في أكثر من الظفر بالحقيقة والتعبير ، فاذا انقادا له فقد أوتي القدرة بهما على أن يحيل القبيح في الطبيعة جميلاً في الفن .

هب أننا نريد أن نتقبل بدون مجادلة — عمر لحظة واحدة — هذه الأفكار صالحة كانت أم سيئة ، أفلا يبقى هنالك مجال فسيح لندرس سبب اضطرار الفنان إلى مراعاته مقياساً خاصاً في التعبير دون أن ينتخب الحالة التي يكون فيها الأثر المرسوم على أشد ثورته .

ولكن مثل هذا الدرس سيكون رده سهلاً بدرس تلك اللحظة الواحدة التي تحدد أوضاعها الأوضاع الفنية . فاذا كان الفنان في الطبيعة المتقلبة دائماً لا يستطيع أن يلتقط منها إلا لحظة واحدة ؛ وإذا كان المصور بعد ذلك لا يستطيع في هذه اللحظة نفسها أن يلتقط إلا جانباً واحداً من جوانبها ، وإذا كانت آثار هذا الرسام إنما صنعت لا لمد إليها الناظر عينيه فحسب ، ولكن ليتأمل فيها طويلاً ، فإن من الحق أن هذه اللحظة الواحدة قد انتخبها المصور ولم تكن مخصبة كثيراً . على أن المخصب حقاً هو ما يترك حقل المخيلة وسيعاً فسيحاً يجول فيه البصر كيف يشاء .

وبقدر ما نرى الأثر الفني عميقاً يحتوي جوه على خاطرات كثيرة نرى قدرته على توليد الأفكار ، وبقدر ما نرى توليده الكثير للأفكار نتصور أننا نرى فيه أشياء وخواطر كثيرة .

في كل مظهر لعاطفة نرى ساعة احتدادها هي التي تنعم بهذا الامتياز وعملك على إبداء هذا التأثير المثير للعين هو أن تسلم بأجنحتك إلى المخيلة ، فاذا لم يكن في استطاعة المخيلة أن تعلو فوق ما تريد لها صورة التعبير فهي ولا بد هابطة إلى أوضاع دانية ، ووراء هذه الأوضاع يخشى عليها أن تتقيد « بافراط في التعبير » فيقف بذلك مدى ارتفاعها وسموها . فاذا نهد تمثال (اللاوكون) كان في استطاعة المخيلة أن تسمعه يصيح ؛ ولكنه إذا صاح أصبحت المخيلة لا تستطيع أن تعلو درجة ولا أن تسقط درجة عما تفرضه الصورة ، ولا تقدر أن تفرض جواً له أكثر احتمالاً وإن كان بنتيجته أكثر اعزاء . وإنما هي مضطرة إلى حالتين : فاما أن تسمعه ينوح وإما أن تراه يموت .

وبما أن هذه اللحظة الواحدة قد اكتسبت بواسطة الفن خلوداً لا يتغير فلا يجب علينا أن نعبر إذ ذاك عن شيء يعرض ويزول . فان كل الحوادث التي نحكم عليها بطبيعتها تبدو وتتوارى فجأة ، والتي لا يمكن تمثيلها بحقيقتها إلا لحظة واحدة ؛ هذه الحوادث

مهما كانت طبيعتها إنما تمثل على قدر الخلود الذي وسمها به الفن منظراً غير طبيعي ؛ كلما مددنا إليه أبصارنا ضعف تأثيره فينا حتى لا يبقى بعد ذلك من هذا التأثير وهذا المنظر إلا الملل والسأم .

أنظر إلى تمثال (دموقريطس) (١) الفيلسوف اليوناني الضاحك من جنون الانسان ، فانه لا يضحك إلا للوهلة الأولى حين تراه ، ثم يغدو الفيلسوف بليداً وضحكته تشنجاً ملتوياً ، وكذلك الحال في الألم الشديد الذي يرافقه الصياح ، فهو إما أن يهدأ ، وإما أن يشوه وضع المتألم ويذهب بجماله ، وإذا كان الانسان الجلد القوي لا يقدر على مواصلة الصياح بصورة دائمة ، فكذلك الأمر في الصورة التقليدية الفنية تحيل مواصلة الصياح فيها ضعفاً لا يأتيه إلا الأطفال في ساعات الألم . وهذا ما تحاشاه رسام (اللاوكون) في نفس اللحظة التي لا يضر الصياح فيها مظاهر الجمال . وفي نفس اللحظة التي تبيح له قواعد فنه ان يمثل الألم بدون الجمال .

قد أدرك الرسام (تيتموماك) بين معاصريه الأقدمين مقاماً سامياً لحذقه التعبير عن الأهواء الجامحة . فالخلود صنع صورة (اجاكس الغاضب) وصورة (ميدي) الساحرة وهي تقتل أولادها .

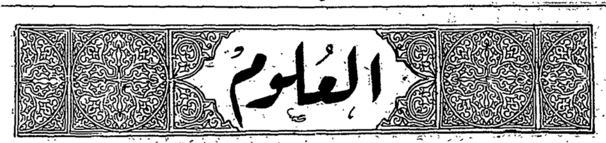
وبعد هـذه الأوصاف التي جئنا بها نقول : قد اتضح أن الفنان قد وقف على تلك اللحظة التي ترك فيها الناظر سارحاً في تأملاته يدرك من معاني التمثال هـذه القسوة العنيفة الملتهبة أكثر مما يرى . . . . فهو لم يأخذ (ميدي) في اللحظة التي قتلت فيها أولادها ، ولـكنه رسمها قبل لحظات حين كانت تتنازعها عاطفتا الأمومة والغيرة . إنما نحن نتنبأ نهاية المعركة ، ونحن نضطرب إذ نراها في ثورة غضبها ونقمتها . ومخيلتنا قد تذهب في مسارب أبعد غوراً قبل أن يحملنا الرسام على النزول في مساربه في مثل هـذه الساعة الهائلة . وبهذا وحده نرانا أمام هذا (البقاء) (٢) الذي يفرضه الفن لحيرة هذه الأم كي لا يرتطم بشيء . إذ نريد أن يكون الوضع في الطبيعة كهذا الوضع ، حيث لا تنتهي معركة الأهواء في النفس ، وإذا قدر لها الانتهاء انتهت ناجحة حتى يستطيع الزمن وإدمان التأمل أن يضعفا الغضب ويخففا غرب الحدة ، ويحققا انتصار عاطفة الأمومة . وحكمة هذا الرسام قد رفعته مقاماً عالياً ، ووضعت مرتبته فوق مرتبة رسام غيره مجهول ، إذ أراد هذا المجهول أن يرسم (ميدي) وكان غير فطن ؛ فرسمها في ثورتها العنيفة ، فأعطى هذه الثورة الحالية من صفة البقاء ما يتجاوز الحد الطبيعي ، وهنالك شاعر نظر إلى هذه الصورة وقد انتقدها بعقل صائب ، وناجى الصورة : «هل أنت ظمأى إلى الأبد لدماء أبنائك ؟ هل هنالك ولد لك جديد وابنة جديدة ، تجددين من أجلها غضبك وتصبين سوط نقمتك ؟ ألا فاذهبي إلى الشيطان وأنت بهذه الهيئة المرسومة » .

والصورة الثانية صورة (اجاكس الغاضب) لم يمثله الرسام في غضبه العنيف حين كان يقيد البهائم ويقتلها بدل الناس ، وإنما رسم هذا الرجل بعد هذا العمل الوحشي وقد أنهكه التعب وغلب عليه الوجوم وهو يتأمل في عاقبة عمله . . هـذه الصورة تمثل حقاً (اجاكس الغاضب) لا لأنها تمثله في سورة غضبه ، ولـكن لأنها مثلته بعد غضبه ، ولأن الناظر يدرك بواطن هذا الغضب من وراء الوجوم الذي يراه مرتسماً على وجهه ، واليأس البادي على ملامحه ؛ ألا يرى الناس العاصفة إذا رأوا الخرائب التي دمرتها والجثث التي بعثرتها على التراب ؟

(بيروت) خليل هنداوي

(١) ديموقريطس فيلسوف يوناني كان يضحك من جنون البشر كما كان هيراقليطس يرثى لهم .

(٢) المراد بالبقاء الهيئة التي تبرز بها الصورة وتتحلى بها أبداً .



٣ ـ بحث في أصل الإنسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال في الجغرافية

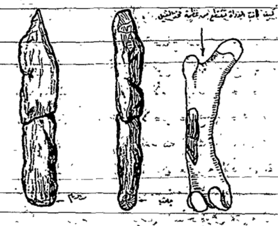
مهارة الإنسان الأول :

لم يكن الأنسان الأول إنسان عقله وتركيبه فقط ، بل كان إنساناً تميزه حقائق أخرى كثيرة عرفناها عنه . وإن الأدوات الحجرية التي وجدت عن ذلك الوقت الثائر لا تدل على مدى تفكيره فحسب ، بل تدل على ميل للفن والمهارة في الصناعة .

وقد وجد المستر داوسون Mr. Dawson قطعة مستطيلة من العظام المتحجرة شكلها يد الانسان القديم لتقوم له بوظيفة صنعها من أجلها ، وتشبه في شكلها شكل مضرب اللعبة المعروفة « بالكريكيت » وحالة التحجر ودرجته تماثل تماماً ما وجد في أقدم عصور إنسان البلتداون . وعند فحص هذه القطعة العظمية اكتشف أنها قد اقتطعت من عظمة فخذ نوع من أنواع الفيلة الضخمة البائدة التي تشبه الماموث كانت تعيش في انجلترا في أوائل عصر البليستوسين (شكل ٥) ؛ فانسان البلتداون كان ذكياً ماهراً الى حد ما ، أو لدرجة أوصلته الى أن يشكل من عظام فخذ هذه الفيلة أسلحة مشوهة الشكل ، ومن العدل حينئذ أن نضيف الى ذكائه ومهارته شجاعته وقدرته في الصيد والقنص .

سبق أن بينت أن إنسان الكهوف Cave Man كان أسير التقاليد والأزياء . وكيف كان نوعٌ وشكل واحد من أنواع الأدوات أو الأسلحة أو غيرها يعم استعماله القارة كلها ، وكيف أن بقاء الزي الواحد كان لمدة أطول بكثير مما هو عليه الآن .

وإذا نحن بدأنا إلى عصر الأودية فاننا نجد براهين أخرى على ما ذكرنا حقيقة لا يمكننا معرفة وقت بدء استعمال هذه الآلات والأدوات الحجرية سواء في عصر الأشيلية والشيلية



شكل (٥) وجدت أدوات من العظم طول الواحدة ١٦ بوصة قطعها بلا شك انسان البلتداون واستخدمها كسلاح يدافع به عن نفسه أو يستعملها في صيد ما يقابله من وحش
(نقلا عن رينيه سير سميث وودوارد)

أو البريشيلية ، إلا أنه يمكننا مع ذلك أن نقول وأثقين كل الثقة أن المرأة كانت تحمل نفس الشعور والحواس النفسية التي تدفع أي إمرأة في أي عصر من العصور الى طريق العبودية للأزياء . وفي الوقت الحاضر بما فيه من وسائل مواصلات حديثة ، يكفي الزي الواحد أسابيع قلائل كي ينتشر ويعم استعماله العالم أجمع ، ولو أنه سريع الذهاب قليل البقاء أو الثبات ، وهذا الأمر هو ميزة العصر الحالي ، عصر السرعة والتقلب في كل شيء . بعكس القديم الذي نحن بصدده ، والذي ذكرنا في مقرتنا السابقة أن انتشار الزي الواحد كان يلزمه وقت طويل ، ولكنه عند ما ينتشر يستمر عشرات آلاف السنين دون أن يتغير .

قد استطعنا من الآثار والمخلفات التي وجدناها في المقابر والكهوف وسواها أن نتتبع تاريخ حياة الانسان من نحو مائتي الف سنة ، وبذلك وصلنا الى عصر من العصور سماه علماء الجيولوجيا عصر البليستوسين Pleistocene . ولدينا من البراهين

القوية ما يثبت أن الانسان فى هذا العصر قد وجد كامل التكوين جسماً وعقلاً ، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين لأن نرجع الى ما قبل هذا العصر ، الى عصر أطلق عليه اسم عصر البليوسين Pleiocene وبذا نجد أن مخلفات العصر السابق ليست ذات أهمية لنا . ونجد ضروريا أن نبحث عن آثار أقدم . وقد وجد أن الانهار الشمالية ومنها التيمس والرين والألب وغيرها تحفظ فى قاعها وبين طبقات شواطئها من مخلفات العصر الذى نحن بصدده ما يجعلها تفوق فى الأهمية أى متحف جيولوجى أو طبيعى .

كانت مصبات الأنهار الشمالية تصل الى أقاصى القارة الأوربية وتصب فى بحر الشمال . وكانت انجلترا تتصل بباقى أوروبا عن طريق سهل فسيح جداً تمتد بينها وبين القـارة . الا أن هذا السهل قد ذهب ضحية عوامل الانخفاض فى القشرة الأرضية فغمرته المياه ولم يبق منه إلا شريط مستطيل رفيع يمتد فى شرق انجليا . وإنك لترانا ما زلنا فى بحثنا عن إنسان البليوسين نعتمد على مخلفات الأنهار وما تحفظه المجارى المـائية بين طبقات قاعها أو كهوف شواطئها . وحقيق بى أن أذكر هنا عبارة Sir Arthur Keith حين قال :

« All rivers write history; the geologist deciphers their hieroglyphs for us. »

وهذا معناه أن الأنهار تحفظ لنا بين ثناياها التاريخ الصحيح لقـديم الزمان ، وعلى العالم الجيولوجى أن يقرأ لنا هذا التاريخ ويفسر ما التبس منه وما غمض .

قلنا إن شرق انجليا يكون جزءاً من سهل بحر الشمال البليوسينى ، فاذا كان هناك إنسان قد عاش فى أوربا وسكنها فى ذلك العصر فلا بد أن نجد آثاراً أو مخلفات تدل على سابق وجوده . وقد حدث أن المستر ريد مور Mr. J. Reid Moir بدأ يبحث فى طبقات البليوسين فى شرق انجليا فلاحظ أنه على أعماق مخصوصة وجد قطعاً صخرية صماء دلته دلالة لا نقض فيها على أنها من عمل الانسان . وبعد سنوات عديدة أمكنه أن يكون مجموعة من هذه الصخور تختلف اختلافاً بيناً فى الشكل والنوع عما وجد من مخلفات عصرى البريشيليان والشيليان . ثم وجه بحثه وراء إنسان البليوسين فبحث فى شواطىء سفولك ونورفولك ، حيث تكشف الأمواج المتلاطمة عن طبقات الربوات العاليـة البليوسينية . وقد ساعده الحظ فى العثور على صخور نادرة دلت على عمل الانسان (شكل ٦) وقدرته على التشكيل والابتكار ، لكنه لم يعثر ولم يعثر غيره على هيكل متحجر من هيا كل ذلك الانسان الذى صنعها وشكلها فى تلك الأزمنة السحيقة المتناهية القدم وهى عصر البليوسين

وقبل أن نتقدم بعيداً عن ذلك نقف لحظة هنا لنقدر عمراً لهـذا العصر . قال العلماء إن سمك طبقات البليوستوسين يبلغ ٤٠٠٠ قدم ، وأن سمك طبقات البليوسين ٥٠٠٠ قدم . فاذا علمنا أنه يلزم لتراكم طبقات البليوستوسين (٤٠٠٠ قدم) ٢٠٠ ألف سنة فانه من الممكن أن نقول إن طبقات البليوسين (٥٠٠٠ قدم) تحتاج الى ٢٥٠ ألف سنة أى ربع مليون سنة . وهذا ما يمكن أن نقدره عمراً لعصر البليوسين . وقد كانت أقدم جهة وجد فيها

ريد مور مخلفاته الصخرية تقع فى حمى السافة ، فاذا اعترفنا بذلك وجب أن نعترف أنه من مدة تبلغ نحو ١٣٠٠ر١ ألف سنة كان يسكن العالم عنصر بشرى كان له من الذكاء والقدرة ما كشف له عن طريق عمل واستخدام الآلات والأسلحة .



شكل (٦) نماذج من أدوات مصنوعة من الصخر النارى من عصر Eoliths تدل على تفكير ومهارة قام بهما الانسان الأول
(نقلا عن رسم مستر ريد مور)

ولم تكن صخور ريد مور التى وجدها فى شرق انجليا أقدم آثار لعصر البليوسين ، لأن هناك جهة تعرف باسم N. Drowns of Kent لوحظ أن بها مناطق لا تجرى فيها مجار مائية فى العصر الحالى وإنما تدل الدلائل على أنه كانت توجد بها أنهار سريعة الجريان ، وذلك من البقايا الرسوبية التى وجدت فى هذه الجهة ، ابتدأ بنيامين هاريسون بحثه فى عام ١٨٦٤ فوجد أدوات صخرية نحتتها يد الانسان ، وقد سميت هذه الصخور باسم Eoliths ، ويعترف ريد مور أن هذه الصخور أقدم مما وجده فى شرق انجليا . وقد وجد مدير دار الآثار البلجيكية فى Belgium Rutôt أمثلة أخرى كثيرة لمحاولة الانسان الأول تشكيل الصخور واستعمالها أدوات وأسلحة .

ولم يقتصر البحث على مخلفات الطبقات الجيولوجية لمناطق بحر الشمال البليوسينية ، بل تعداها إلى كل أنحاء العالم ، ففى هيترلاند وفى السهول الشمالية لأواسط آسيا دار البحث والتنقيب عن إنسان البليوسين .

ولعل الدكتور هنرى فيرفيلد أوزبورن Dr. H. F. Osborn كان يتوقع العثور فى آسيا على الحلقة المفقودة لسلسلة تطور الانسان فى مخلفات عصر البليوسين .

ورغم الأبحاث المتوالية والجهود الجبارة التى قام بها العلماء فى مختلف جهات العالم ، لم يعثر إلا على بقايا فرد واحد من العنصر الذى عاش فى عصر البليوسين ، وجد فى منطقة ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ٥٠ قدماً وتقع على الساحل الشرقى لنهر بنجوان Bengawan فى أواسط جاوة ، وقد عثر عليه شاب هولندى طبيب ذهب الى جاوة سنة ١٨٩١ واثقاً من عثوره على ما يدله على خطوات التطور الانسانى فى هذه الجهة .

وكانت شواطئ نهر البنجوان غنية بالمياه كل التحجرة لحيوانات بائدة ، ولذلك استرعت هذه الجهة نظر الطبيب الشاب فوجه بحثه اليها .

الحلقة المفقودة

وبعد بحث وحفر طويلين وجد هيكلا لمخلوق غريب أطلق عليه اسم Pithecan thropus أى الانسان القرد ، إذ أنه قد ظن أنه وجد بقايا من يتكلم عنه الناس أجمع ولم يروه ، ألا وهو الحلقة المفقودة بين القرد والانسان .

وقد ظهر أن هذه الطبقة الأرضية التى وجدت بها بقايا هذا العنصر أو المخلوق لم تتكون إلا فى أواخر عصر البليوسين ، ولذلك يمكننا أن نقول إنه اذا كان هذا الانسان القرد عاش هو وإخوته وأعمامه وأخواله وكل أفراد عائلته فى جزيرة جاوة فى العصر الذى تم فيه تكوين طبقات شرق انجليا ، فانه يمكننا أن نقدر لعصره عمراً يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف سنة .

بعد أن قدرنا هذا العمر لهذا المخلوق العجيب يجب علينا أن نبحث لنعرف نوع هذا المخلوق وأصله . فما الذى وجدناه منه ؟ كل ما عندنا من آثار : غطاء الجمجمة ، عظمة فخذ ، ثلاث أسنان منها ضرس من أضراس العقل .

فلندرس هذه كلها ، ولنر ما يمكن أن تكشف لنا عنه .

(يتبع) نعيم على راغب



ذكرى الفردوسي

تحتفل الحكومة الفارسية في هذه الأيام بذكرى الفردوسي الشاعر الفارسي الكبير بمناسبة مرور ألف عام على مولده . ولا يعرف تاريخ مولد الفردوسي بالتحقيق ، ولكنه يوضع عادة بين سنة ٩٣٥ وسنة ٩٤٠م ؛ وكانت وفاته نحو سنة ١٠٢٠ م . واسمه الحقيقي هو أبو القاسم منصور ، وأما الفردوسي فهو اسمه المستعار . وأعظم آثاره قصة « الشاهنامة » الشهيرة ، وضعها نظما ، واستمد موضوعها وحوادثها من تاريخ فارس القديم . وترجمها بالعربية نثراً الفتح بن علي البنداري . وقد ترجمت الشاهنامة الى بعض اللغات الأوربية كالانجليزية والفرنسية والألمانية وظهرت منذ أوائل القرن الماضي . وظهرت الترجمة العربية مكملة محققة منذ عامين بعناية الدكتور عبد الوهاب عزام ، أستاذ الفارسية بالجامعة المصرية .

وقد اهتمت الحكومة الفارسية بتنظيم هذا المهرجان الأدبي اهتماماً عظيما ، ودعت معظم الحكومات والجامعات والهيئات العلمية لشهوده بصفة رسمية ؛ وسينزل المدعوون الرسميون ضيوفاً على الحكومة الفارسية منذ دخولهم الحدود الفارسية ؛ وتنظم الحفلات والزيارات الأولى ما بين الثالث والثامن من اكتوبر . ثم يفتتح جلالة الشاه الاحتفال الرسمي الكبير في الثاني عشر من اكتوبر في مدينة طوس حيث يرقد الشاعر العظيم ، وسيكون الافتتاح برفع الستار عن أثر تذكارى أقيم تخليداً لذكراه .

وقد وفد على فارس مئات من العلماء والمستشرقين ممثلين لحكوماتهم وجامعاتهم ؛ وانتدب لتمثيل مصر في هذا المهرجان العظيم الأستاذان عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادي . وقد بلغ عدد المدعوين الى حفلة ذكرى الفردوسي الألفية من أوربا وأمريكا ٩٠ عالماً ، ومن الشرق الاسلامي ٢٤ ، وأعدت لهم الحكومة جميع مظاهر الضيافة والكرم ، وسيعودون الى بلادهم في ٢٥ اكتوبر إذ تنتهي الاحتفالات القومية الفارسية .

وترجو الرسالة أن توافي قراءها بتفاصيل شائقة عن هذا المهرجان وعن الخطب التي ستلقى فيه .

ألمانيا تحتفل بذكرى الفردوسي

احتفل في برلين بذكرى مرور ألف سنة على مولد الفردوسي شاعر الأمة الفارسية بحضور بعض سفراء الدول الأجنبية وأساتذة الدراسات الشرقية من الألمان .

وقد تكلم المستشار وهلن باسم وزير المعارف فقال : إن الفردوسي قد أثبت القرابة الموجودة بين أوائل الفرس وأوائل الجرمان ، وتكلم سفير فارس فقال إن الفرس سعداء فخورون لأن كلمة إيران التي تطلق على بلادهم معناها : وطن الشعوب الآرشية الآرية الأوربية .

اللغة الفارسية

يدور في محافل وزارة المعارف الايرانية أن هناك فكرة ترمي إلى عقد مؤتمر لغوي فارسي بعد الاستئناس بآراء المستشرقين الموجودين في طهران لحضور حفلات الفردوسي . والغرض من هذا المؤتمر هو : آلأصلح أن يستمر تقدم اللغة الفارسية في طريقها الحاضر مع إحياء المفردات القديمة ، أم اقتباس طريقة مصطفى كال في جعل اللغة التركية مجردة من الألفاظ العربية وسواها ؟ ويؤيد الرأى الأول فريق الشباب . أما المعارضون فهم أكثرية الشعب الايراني لاعتبارات دينية وتقليدية .

اللغة التركية

إن المؤتمر اللغوي التركي قرر أن يكون يوم ٢٦ أغسطس من كل سنة ، وهو اليوم الذي انعقد فيه المؤتمر الأول ، عيداً قومياً للغة التركية في جميع أنحاء الوطن التركي . وكانت الجمعية قد احتفلت بهذا العيد في العام الماضي احتفالاً اقتصر على إقامة مأدبة رسمية في مركز الجمعية في أنقرة . أما في هذه السنة فإن النية اتجهت إلى صبغ هذا الاحتفال بالصبغة القومية العامة ، وفي اليوم المقرر يلقي أعضاء لجان حزب الشعب الخطب والمحاضرات بواسطة

الراديو لتعميم فكرة استقلال اللغة القومية . وفي هذا اليوم تصدر الصحف التركية أعداداً خاصة تتناول فيها الموضوعات المتعلقة بمسألة اللغة القومية وتركيزها .

أول مؤلف في اللغة اليابانية عن الاسلام

نشر في طوكيو أخيراً كتاب جليل باللغة اليابانية اسمه « تطور الأمم الاسلامية » عني بتأليفه ونشره الأستاذ أوقوباشي جدينة للاسلام ، ويجمع هذا الكتاب بين دفتيه خمسمائة صفحة من الحجم الكبير زين معظمها بالصور الشمسية التي تمثل نواحي الحياة والعادات في بلاد الاسلام .

والكتاب يحوي كثيراً من المعلومات العامة عن الاسلام وأهله ، وقد اعتنى مؤلفه بعالم الترك اعتناء عظيما فنشر فيه مقالات وفصولاً طويلة في تاريخ الترك والمدنية التركية ، وأحصى الدول التي أنشأها الأتراك ، وأعرب عن وحدة المدنية التركية بوضوح تام ، ثم وضع الانقلاب التركي الأخير في مكان رفيع ، وشرحه للأمة اليابانية شرحاً وافياً كما شرح أحوال الأتراك القيمين في روسيا والصين ، وأسهب في الكلام عن المسلمين عامة ، وزين الكتاب بصور عظماء المسلمين من أتراك وغيرهم كما زينه بصور زعماء ايديل أورال وتركستان وقريم وقوقاز .

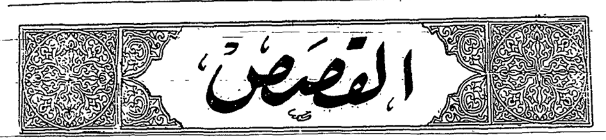
البحث عن أصل النور

سبق أن نشرنا بحثاً مستفيضاً عن النور (الغجر) وخواصهم ، وما زالت آراء البحث الحديث متضاربة في أصل ذلك الشعب البدوي الجوال ؛ وأكثر الباحثين على أنهم نزحوا في الزمن الغابر من الهند إلى الشرق الأوسط ، ثم تسربوا بعد ذلك إلى مختلف الأقطار الأوربية ، وما زالت منهم جموع عظيمة في المجر ورومانيا وبولونيا وتركيا وأسبانيا وغيرها . وتعنى معظم الحكومات بتحضيرهم وتهيئة عوامل الاستقرار لهم لتجعلهم من الرعايا الخاضعين للقانون . ولكنها لم تنجح حتى اليوم في تحقيق هذه الغاية . وقد ألفت أخيراً لجنة علمية دولية لتقوم بالبحث عن أصل النور ، وعن منشئهم الأول ، في الهند ذاتها ، وفي نفس المنطقة التي يظن أنها كانت موطنهم الأصلي ، وهي منطقة تسمى « زجر بستي » وتقع بين نهري الكنج والسند . وتتألف هذه البعثة من عضو انكليزي هو الأستاذ فرنك فيلو ، وعضو أمريكي هو الأستاذ جاكوب كوركي ، وعضو روماني هو الأستاذ لازوريكا وهو نوري الأصل ، وعضو بولوني ؛ ويصحب البعثة الأستاذ قالتي كانجا الروماني ، وهو علامة في اللغة السنسكريتية التي يظن أنها أصل اللهجات النورية ؛ وسيقوم ببحث الوثائق التي يمكن الحصول عليها من المعابد والأديار البوذية والبرهمية بمعاونة الحكومة الهندية ، وقد يكون فيها ما يلقي الضياء على حياة النور الأصلية وهجرتهم من موطنهم فراراً من اضطهاد المغول أيام جنكيز خان وتيمور لنك ؛ وتزور البعثة اقليم مالابار حيث توجد طائفة تتكلم لغة فيها كثير من العبارات والألفاظ التي توجد في لهجات النور . وستنشر البعثة خلاصة مباحثها عن النور في كتاب لاريب أنه سيثير عند ظهوره كثيراً من الاهتمام .

سر الحياة

قرئت أخيراً أمام أكادمية العلوم الفرنسية وثيقة غريبة أودعها الأكادمية نائب وعلامة اقتصادي يدعى فرنسيس لور في ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، واشترط ألا تفتح الا في ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ ، وكثيراً ما تودع بالأكادمية أمثال هذه الوثائق ، وتحترم الأكادمية رغبات مودعيها . وإليك نص هذه الوثيقة الغريبة :

« أعتقد أنني قد استطعت وضع طريقة لأطالة الحياة . ولكني لما كنت مهندساً ، فاني لا أعتقد بالنظريات إلا إذا تحققت بالعمل ؛ ولهذا فاني أعلن اليوم أنني أريد أن أعيش حتى يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ على الأقل ، وفي هذا التاريخ أكون قد بلغت سن التسعين ، وهي سن أرجو أن أبلغها ، إذا كنت مصيباً في طريقتي لإطالة الحياة » . وقد توفي المسيو فرنسيس لور في شهر مايو الماضي ، أعني قبل الميعاد الذي حدده لوفاته بأشهر قلائل فقط ؛ ومعنى هذا أنه بلغ أمنيته ومات معمراً في سن التسعين . ولكن الذي يؤسف له أنه لم يرفق تصريحه ببيان طريقته ، وعلى أي حال فسواء أكان هذا العمر الطويل نتيجة نظام غذائي أم أية تحوطات صحية أخرى ، فانه مما يدعو إلى الدهشة أن يؤكد هذا المعمر أنه سيعيش أربعين سنة ثم يعيشها حقاً . وقد أحيلت وثيقته إلى القسم الطبي بالأكادمية لبحثها .



مُقَطَّفَــــة

للأستاذ ابراهيم بك جلال
وكيل محكمة أسيوط الأهلية

كنا فى حاضرة صغيرة فى صعيد مصر ، يجرى فى سفحها النيل زاخراً فياضا ، وينطلق بين أغوارها رعاة الماشـية فى إثر الكلأ ، وتستقيم على أنجادها بواسق النخيل يسطع بريق الضحى من سعفها كالأسنة فى متون القنا .

وكان فى أقصى المدينة خليج صغير يأخذ من النيل ، يجرى فيه الماء غديراً رقيقاً ، يفيض بركة وبمتناً حول ربوة عالية فيها أكواخ بالية لقبيل من الناس ، عدتهم بين العشرين والثلاثين ، فيهم الشيخ والطفل ، وبينهم حفنة دون العشرة أهل بأس ونجدة .

وتمتد أكواخهم فى ذرى النجد كالحة الجدران ، تنساب بين شعابها عنزات عجاف ، وتنيخ بأفنائها الأباعر ، وتسبح فى أفقها أسراب الحمائم .

ولأهل ذاك القبيل حقل صغير فوق الربى العاليـة عز على القوم سقياه ، فشقـوا له فى السفح ثلاثة « شواديف » ، يستقى أدناها من ماء الخليج فيسـقى الذى يليه ، وذاك يحمل ما تملل به من البلل الى الثالث ، وذلك يلقى سقياه الى الحقل .

ويتناوب أهل النجد تلك الشواديف ؛ فهم أبداً جاثمون تحت السعير المتقد من جمرة الصيف فى أسمال كشفها البلى عن سواعد دونها الفولاذ ، فيشتدون فى ساريات الشواديف جذباً ودفعاً حتى يستوفى الحقل رياً ، فيُفيئون الى صفصافة فى الحى بها ظل وارف .

وكنا فى دهشة الحرب العظمى ، نخيم حول المدينة طائفة من جنود بريطانية يحرسون شعاب الصحراء ومفاوزها من أشياع السيد السنوسى ، فكنا نصطبح بفرسانهم دارعين يمشون الى المصاف ثم يعرجون الى المضارب .

وجاء فيض النيل غمراً كأحسن العهد بالوفاء ، وجرى الماء كثيفاً فى خليج أهل القبيل ، فاندفع الغلمان يسبحون فيه ، وتوافد النساء يرتمن ويلمبن .

وكان بالنجد عذراء فتيـة ، لونها الخمر اذا صفا ، وغرتها البدر ، وخطرتها الظبى ، وحدقها المها ، تسرى بين الربى فى قميص قُدَّ من قُبل فى غير إثم ولا حرج . وفى خصرها نطاق من نسيج قرمزى كبرزخ الحسن ، يعلو بك صعداً الى معاقد ما بين ثدييها حيث الفتنة نائمة ، ثم يهوى بك الى كثيب تنوء به ساقاها .

ونشأت « مقطّفة » فى حمى اليتم ، فكفلها أخواها تحت جناحى رحمة ، وجمعا لها زخرف الثياب والعقود والأقراط ، وجمّلا قدميها بخفين فيهما كل ظلى من صنع المدينة ، وضربا لها خدراً كريماً بين الحى ، فاذا أقلها الخدر ربض أخواها ببابه بابه كأنه عريناً دونه جبهة الأسد .

وكرّت مقطفة الى مشرع الخليج وحولها أتراب من الغوانى ، فأشرق النجد أغواره ورباه ، ونضت ثيابها عن قامة كالغصن ، فغمرها مدلا بروعة حسنها ، ونسج الأتراب من معاصمهن حولها شفقاً رقيقاً كالذى نراه عنـد مغيب الشمس ، فكانت غرتها تشرق بينهن ثم تغرب فى دجى فرعها .

وقدمت فصيلة من جنود الانجليز الى الخليج أفراداً وجماعات حتى أكملوا المائة ، فنزعوا ملابسهم المضايقة ، وبعثروا فوق الثرى قلانسهم ومناطقهم ، ثم نضوا بقية الثياب وافترشوا أديم الأرض ، يستقبلون النيل فى فورته واندفاعه الى الخليج ، وكانوا بمعزل عن أهل الحى تحجبهم هضاب وشعاب .

وخرج من صفوفهم فتيان يسبحان فى الماء ، وظلا فى مرح واستباق وتراش بالماء ، حتى رنت فى أفقهما أغاريد بنات الحى من أقصى الخليج ، فهوى أحدهما الى القاع يسترق الخطى ويسبح

الهوينا ، حتى كشف له عذارى النجد كالحلقة المفرغة حول «مقطفة» .

تجاب لينة ما صاغ الشيرق من الحسن ، فهو كامن فى أفنان النخيل ، وطيف النسيم العليل ، وصفاء الماء السلسبيل ، وملاحة ذلك القد الأسيل .

وسرح الافرنجي حدق المأخوذ فى دمية النجد وغانية الحى ، وبهره وضح جبينها ودقة تكوينها ، وسولت له الفتنة أن يستقى حمياذلك الثغر المصفى .

وتم على الذئب حر أنفاسه فنفر الظباء فى ذعر وفرق ، وتخلفت مقطفة تجمع أشتات العقود والعصائب ، وأسبلت قميصاً فضفاضاً يجرى ماء الجبين من جيبه إلى ذيله ، وهمت فى إثر أترابها لولا أن لاحقها الافرنجي فرأت بشراً من غير معدنها فى قميص مندى يكاد يلوكها بماضغ عينيه ، ويعتصر جوح غريزته الملحة ، فمد يمينه إلى جيدها الغض ، ولكنها انتثرت كما ينتثر العقد بدداً ، وفرت إلى خدرها تملأ الحى رجيجاً موجعاً والرجل يشتد فى إثرها ، وتعلقت فتاة الحى بذروة خدرها ولوحت لأهلها بالعصائب القرمزية فكانت نفير النجدة .

وأبطأ الفتى الجندى على رفاقه من الانكليز ، فخفوا فى أثره وتسنموا ذرى النجد ، فخرج عليهم من ظلال الصفصافة حفنة من الفتيان غضاباً للأعراض والأحساب الكريمة ، يحملون ساريات الشواديف ، ولولا من أعجاز النخيل ، وأبالت الساريات تدق الضلوع ، وتفلق الهام ، وتطهر باب الخدر بالدماء ، واستعر لهب الملحمة واشتد أوارها ، وصرع من عامة الجنـــد نيف وثلاثون .

وجاء النذير الى دار الشرطة بالمدينة ، فقدموا على ضوامر الخيل ، وطوقوا الحى سهله ونجاده ، وحمل الجرحى الى مضاربهم . وسيق الفتيان إلى السجن مصفدين فى الأغلال .

وحشر أهل المدينة فى الدروب والمشارق يستعرضون تلك الفئة القليلة التى غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، فإذا هم بضعة نفر من البدو غرا محجلين ، يمشون فى سكينة وعزة ويقين ، مشية آبائهم مفاتيح النصر الى اليرموك والقادسية ، حيث دكوا عروش الروم وفارس . وجاء على أعقابهم نساء النجد يبكون حماة الحريم ودفاة المجد القديم ، وفى طليعتهن مقطفة تندى النقاب . وتهتك الحجاب ، وتندب الأهل والأصحاب .

وعقد مجلس التحقيق فكان مستفيضاً ، وطال أمده يومين كاملين .

وجاءت البينات من جنود الانجليز تشهد جراحاتهم وما تركت الساريات بأضالعهم وسواعدهم وأعجازهم وهامهم ، وأنف حماة النجد من الكذب ، وراحو يصورون للقاضى ما كانوا فيه من دعة وسكينة بين الأهل والولد ، حتى وثب الجند بالعقائل يستحلون المحارم ويستبيحون الخدور ، فقامت سواعدهم بغريزة الذود وسجية الدفاع المشروع .

وكشف للناس فرسان من الانجليز يمشون فى ركاب أمير الجيش إلى المحكمة ، ودخل القائد مجلس التحقيق فى عتاده وشارات حسن بلائه ، فساور القوم قنوط ويأس وظنوا بالله الظنون ، وظلوا واجمين بالباب محتسبين عند الله أكرم القرابين .

ولهم معذرة ، فان مصر كانت فى أغلال عرفية لاخيار لها ولا سلطان .

واستبان القائد بدخائل التحقيق وأسراره فنهض إلى الوثائق يجمعها ويطوى سجلها ويحكم رتاجها ، ثم عاد إلى مضاربه وبين يديه الجارمون من أهل النجد .

وهلل الفجر فنصبت محاريب المساجد بأهل الدعاء ، يرفعون العقائر ويعلنون السرائر ، وتوارى بعضهم بين الشعاب المفضية إلى المضارب يتسمعون دوى البنادق وزفرات الشهداء .

فكشف للناس فى أفق الصبح قوافل من السيارات تنوء بالعتاد والمضارب وفيها أشباح يخفقون ، وهى تطوى ما بين المضارب والمحطة .

وسارع الناس فرادى إلى الأفاريز فتبينوا بارقاً من الرحمة ، وتوسموا الخير كله فى نواصى السيارات ، فقد كان ركبها من الذين استباحوا حمى مقطفة وأهل نجدها ، تطوح بهم القائد إلى أطراف الديار .

وذهر القطار يمشى بهم فى غير ذمة الله تشيعهم من ناحية القائد عين نائمة متبرمة .

وأومأ أمير الجيش إلى سيارة موصدة ، فانفرجت عن فتيان النجد فى أمن ودعة ، واستمعوا حكم البراءة مهللين مكبرين ، يلوحون بالعمائم ويملئون الأفق حمداً وثناء على مكارم القائد ونبله .

وتقدمتهم إلى النجد مقطفة تلوى عصائبها القرمزية ، وحولها حلقة مفرغة من بنات الحى يغنين نغم البيد ، ويرتلن حلو الأغاريد .

ابراهيم جلال



ابنــة الشمس

بقلم فرنسيس شفتشي

نشرت مجلة « الرسالة » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٢٤ سبتمبر الماضى نقداً لحضرة الأديب الفاضل (الخفيف) عن روايتى ابنة الشمس.. وإنى لأتقدم بمصافحته ، راجياً أن يكون ذلك بدء التعارف بينى وبينه، وأرى لزاماً فى عنق أن أشير قبل كل شيء الى روح النزاهة التى بدت فى نقده ، وعدم تأثره بأية عوامل فى اصداره ذلك النقد ، وهو ما أرجو أن يتقبل عنه منى خالص الشكر ، غير أنى قد رأيت أن أدفع المآخذ التى أخذها حضرته علىّ بما يأتى :

قال حضرة الناقد المحترم : إن عقدة القصة مبهمة ، وإننى لم أوفق الى انتخاب حادثة رئيسية ، فهنا بنت آتات تحب بنطاؤر ، وهنالك نيفرت تحب مينا ، وهذا رئيس الكهان يشترك مع والى مصر فى إثارة الشعب ضد الملك ، وهذا بماكر قائد الطليعة يريد أن يكيد للملك .

ولعل حضرة الناقد يوافقنى على أن الرواية المسرحية لا يجب أن يكون قوامها حادثة واحدة ، ولكن محور واحد يدور عليه الحوادث المختلفة ، وإن قليلاً من الامعان فى روايتى يبين للقارئ بسهولة : ان ذلك المحور هو النزاع القائم بين الكهنة والعرش وان جميع حوادث الحب والثورات والمظاهر المختلفة ، إنما تشعبت من ذلك الأصل . كما يوضح له أننى لم أحل العقدة التى كان أساسها ذلك النزاع إلا فى الفصل الرابع من الرواية ، أى فى الفصل الأخير . وقبل ذلك كان لزاماً علىّ أن أحيط العقدة بغموض وإبهام كما يشير حضرة الناقد ، حتى يكون المتفرج فى شوق الى معرفة الغاية التى أسير به اليها .

إن الكهنة يتآمرون على العرش ، وهم بحاجة الى شخص يكون آلة فى أيديهم ، وهذا الشخص يجب أن يكون حاقداً على الملك ، وهو قائد طليعته . فيجب إذن إيجاد سبب لذلك الحقد . هذا السبب هو حبه الشديد لنيفرت . وعدم توفيقه فى الوصول اليها بسبب أوامر الملك . هذا من جانب واحد ، جانب الهجوم — إذا صح هذا التعبير — أما من الجانب الآخر — جانب الدفاع — فقد كان الملك غائباً عن دياره . وحلت ابنته محله فى ادارة شؤون البلاد ، وقد اطلعت بواسطة حبيبها بنطاؤر على دسائس الكهنة . فتعاونا معاً على كشف الجريمة واتخاذ التدابير الكفيلة بانتصار رعمسيس .

وبسبب غياب رعمسيس وتنبه الكهنة الى نفوذ ابنته كانت سياستهم موجهة ضدها ، فاخترعوا لذلك قصة الدنس ، وما تفرع عن ذلك من الحوادث التى ليست فى مجموعها إلا إطاراً زاهى اللون لذلك المحور الذى ذكرناه ، وهو العامل السياسى ، ولو خلت القصة من تلك الزخارف ، فلا شك أنها تكون جافة لا يستسيغها القارئ ولا المتفرج ، ولاسيما فى التراجيديات الكبرى التى تتطلب جهداً وانتباهاً عظيمين . وبراعة المؤلف هى فى حسن سبك هذه الحوادث وصبغها بصبغة الأهمية . وإعطائها اللون الذى يجعل لها فى نظر المطلع عليها قوة الموضوع الأسسى وعظمته ، وفى أن يشعره بأنها متصلة به اتصالاً وثيقاً . وهذا ما توخيته فى روايتى .

ولقد قال حضرة الناقد فى موضع آخر من مقاله : إن كل منظر فى الرواية يكاد يكون مستقلاً . فلعلى لا أكون مخطئاً اذا لفت نظر حضرته إلى أن القاعدة الفنية المعمول بها فى معظم المآسى العالمية الكبرى هى التى أوحت الىّ السير على هذا النمط الذى أجده معقولاً ، فان موضوع القصة يجب أن يقسم تقسيماً

عادلاً بين الفصول ، بحيث أن الحادثة أو جزء الرواية الذي يتناوله المؤلف في أحد الفصول يجب أن تكون جزئياته كاملة بحيث لا ينسدل الستار على شيء أبتر والمتفرج فاغر فاه في انتظار شيء يشعر بلزومه . إن المتفرج يجب أن يشعر إزاء كل جزء من الرواية أنه إزاء رواية كاملة بجميع جزئياتها في دائرة جزء القصة المخصص لذلك الفصل ؛ على أن يربط هذه الحوادث جميعاً بحوادث الفصل التالي للموضوع الأصلي ، وهذا بالذات ما فعلته .

أما قول حضرة الناقد أنني جعلت خاتمة المأساة متوقفة على نصيب رعمسيس في الحرب وأن هذا معروف للقارئ . فليسمح لي بأن أقول لحضرته إن المعروف للقارئ عن انتصار رعمسيس لم يتطرق إلى ذهنه بواسطة روايتي إلا في النهاية ، ومعرفة القارئ هذا الانتصار من كتب التاريخ لا يقلل من أهمية القصة ، بل بالعكس يجعل لها قيمتها التاريخية من حيث أن المؤلف مطالب بالاحتفاظ بروح التاريخ وإثبات الحوادث الكبرى المعروفة . فما يعتبره الناقد عيباً من هذه الناحية هو حجتي في الدفاع عن الرواية . إن المؤلف لا يبالي معرفة الجمهور بحادث تاريخي معين إنما هو يسير في عمله على حسب ما يقتضيه سياق القصة وحسن سبكها ، ومهمة المؤلف هي في إيضاح تلك الحوادث المعروفة وتصويرها بدقة وإلباسها الثوب القشيب الذي يجعل الجمهور يتقبلها بغير عنت ولا نفور . فاذا نجح المؤلف في ذلك فلا شك أن الاستمتاع بالعمل الفني يكون كاملاً .

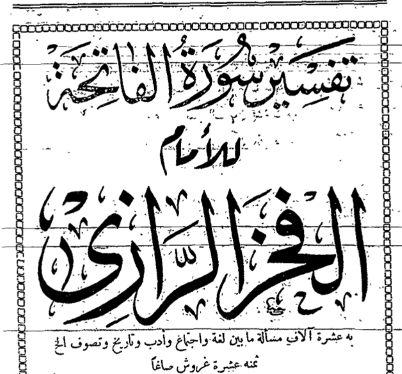
أما ما يأخذه على حضرة الناقد من سذاجة الحوار في بعض الحوادث فان ذلك كان يتبع روح الأشخاص الذين كنت أتكلم بلسانهم .

أما ما يتعلق برجوع بنطاؤر عن فلسفته بسرعة وانقياده إلى بنت أنات ، فاني أوافق الناقد على انهما لم يكونا بصدد موضوع تافه بل بصدد موضوع خطير للغاية ، ولكن بنطاؤر كان مدفوعاً بعدة عوامل أظهرناها جميعاً بجلاء تام في سياق القصة ، وخلاصتها أنه كان يحب بنت أنات حباً مبرحاً منذ تام ، وأنه كان يخالف في قلبه جميع معتقدات الكهنة ويدين بما تدين به حبيبته ، وأنه يخاف عليها أن يتولى عقيدتها الظاهرة الفساد . هذا فضلاً عن قوة الحجة التي أدلت بها بنت أنات في حضرة الكاهن وثورتها عليه ولين عاطفة بنطاؤر ونفسه الشاعرية الحساسة . لقد اجتمع لديه كل ذلك في وقت واحد فسلم السلاح . على أن ضميره عاد يؤنبه بعد ذلك فكاشف صديقه نبسشت بعد تردد قليل بما يكنه قلبه . ولا غرابة في ذلك فان بنطاؤر ونبسشت صديقان حميمان وكلاهما بعد نفسه أمين سر للآخر وموضع ثقته وملاذه .

واما انني جمعت بين التأليف والتمثيل باشارتي إلى ما ينبغي حدوثه على المسرح فلا أظن في ذلك ما يعيبني ، ولا سيما أن هذه هي الطريقة المتبعة في كل المسرحيات الحديثة .

هذا ما وجب أن أدفع به المآخذ الموجهة إلى روايتي ، فلعلي أكون قد وفقت في بياني ، والله سبحانه وتعالى يهدينا جميعاً إلى ما فيه السداد .

فرنسيس جفنشي



أرملة حكومة . . .

[بقية المنشور على صفحة ١٦٤٤]

إذ كان بهذا مطيقاً أن يكون أبا ينفق على أبنائه ، لا سفيهاً ينفق على شياطينه .

فان كان قد بنى رأيه على أن يتعزّب مدة ثم يتأهل ، فهذا أحرى أن يعينه على حسن التدبير ، وهو مَضْراةٌ له على شهوة الجمع والادخار ؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يكدح لعياله وهو فى سعة منهم بعدُ ، وهم لا يزالون فى صلبه على الحال التى لايسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهماً وعزائم يرثونها من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا .

إنما العزب أحد رجلين : رجل قد خرج على وطنه وقومه وفضائل الانسانية ، قاعدته : جُرَّ الحبل ما انجرّ لك . وهذا داعر فاسق ، مبذر متلاف إن كان من المياسير ؛ أو مريب دنىء حقير النفس إن كان من غيرهم — ورجل غير ذلك ، فهو واثق الضرورة إلى أن تُطلقه الأسباب ، ومن ثم فهو يعمل أبداً للأسباب التى تُطلقه ، ويعرف أنه وإن لم يكن آهلاً فلا تزال ذمته فى حق زوجة سيعولها ، وفى حقوق أطفال يأبوهم ، وواجبات وطن يخدمه بانشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده ، والقيام على سياستها ، والنهوض بأعبائها . فانظر ويحك أىّ الرجلين أنت ؟

قال : فتريدنى أن أقمر بتعب سنة وأنا بعد ذلك وما يُقدّر لى ، وقد أشترى بتعب سنة من العمر تعب العمر كله ؟

قلت : فهذه هى خسة الفردية ودناءتها الوحشية فى جنايتها على أهليها ، وسوء أثرها فى طباعهم وعزائمهم ؛ فهى فردية تضرب فيهم العاطفة الاجتماعية ضرب التلف ، وتبتليهم بالخوف من التبعات حتى ليتوهم أحدهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة ، ولكن على معركة . وهى تصيبهم بالقسوة والغلظة ؛ فما دام الواحد منهم واحداً لنفسه ، فهو فى تصريف حكم الأثرة ، وفى قانون الفتنة بأهواء النفس ومنافعها ؛ كأنما يعامله الناس رجالاً كله معدة ، أو هو فيهم قوة هضم ليس غير .

قال : ولكن الزواج عندنا حظ مخبوء « لوترية » والنساء كأوراق السحب ، منهن ورقة هى التوفيق والغنى بين آلاف هن الفقر والخيبة المحققة .

قلت : هل اعتدت أن تتكلم وأنت نائم ؟ فلعلك الآن فى نومة عقل ، أولاً فأنت الآن فى غفلة عقل .

إن هذا المسكين الذى يمسح الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لايخلو منها — يعلم علماً أكثر من اليقين أن عيشه هو من مسح الأحذية لا من الأخيلة التى فى هذه الأوراق ؛ فهو لا يعتدّ بها فى كبير أمر ولا صغيره ، وما يُنزلها فى حساب رغيفه وثوبه إلا يوم يُخالط فى عقله فيتنزّه أن يمسح أحذية الناس ، ويرى أن عظيماً مثله لايمسح إلا أحذية الملائكة . . .

أنت ياهذا مهندس ، ولك بعض الشأن وبعض المنزلة ، فهبك ارتأيت أنه لايحسن بك أو لا يحسُنُ لك إلا أن تتزوج بنت ملك من الملوك ، فهذه وحدها هى عندك « الثمرة الرابحة » وسائر النساء فقر وخيبة ما دام الأمر أمر رأيك وهواك ؛ غير أنك اذا عرضْت لتلك « الثمرة الرابحة » لم تعرفك هى إلا صعلوكاً فى الصعاليك وأحمق بين الحمقى .

إن تلك الأوراق تُصنع صنعتها على أن تكون جملتها خاسرة إلا عدداً قليلاً منها ؛ فاذا تعاطيت شراءها فأنت على هذا

همـــام

قرأت ما كتبه الأخ الأديب « م » عن قصة « همام » فى (الرسالة) الغراء ، وأشكره على حسن ظنه فى تقريظه ، وأدبه فى نقده ، وأرجو أن أكون أكثر ارضاءً له فى المستقبل .

وما أريد أن أعقب على شىء من كلمته إلا قوله : (تدور القصة حول محور واحد ، إلا وهو حفلات الزواج فى عاصمة الأحقاف) والواقع أنها تدور حول العادات السيئة بحضرموت وإصلاحها ، ولم يرد وصف حفلة الزواج إلا عرضاً .

ولا بد لى من التنبيه على أن البيت (لولا انتصاف الكأس الخ . .) ليس لصاحب القصة ، بل هو لصديق له من كبار شعراء الأحقاف ، ورد اسمه فى القصة تنويهاً بفضله وأدبه .

على أحمد باكثير

الأمل تأخذها ، وبهذا الشرط تبذل فيها ؛ وما تعترى أنت ولا غيرك أن القاعدة ههنا هى الخيبة ، وشذوذها هو الربح ؛ وليس فى الاحتمال غير ذلك ؛ ومن ثمّ فقد يرىء اليك الحظ إن لم يصبك شىءٌ منـه ، وأين هذا وأين النساء ، وما منهن واحدة إلا وفيها منفعة تكثر أو تقل ، بل الرجال للنساء هم أوراق السحب فى اعتبارات كثيرة ، ما دامت طبيعة اتصالهما تجعل المرأة هى فى قوانين الرجل أكثر مما تجعل الرجل فى قوانينها . وهل ضاعت امرأة إلا من غفلة رجل أو قسوته أو فسولته أو فجوره ؟

قال المهندس : فانى أعلم الآن — وكنت أعلم — أن لا صلاح لى إلا بالزواج ، وأن طريقى الى الزوجة هو كذلك طريقى الى فضيلتى والى عقلى . وتالله ما شىءٌ أسوأ عنـد العزب ولا أكره اليه من بقائه عزباً غير أنه يكابر فى المماراة كلما تحاقرت اليه نفسه ، وكلما رأى أن له حالاً ينفرد بها فى سخط الله وسخط الانسانية . ولا مكذبة ، فقـد والله أنفقتُ فى رذائلى ما يجتمع منه مهر زوجة سرية تشتطّ فى المهر وتغلو فى الطلب ؛ ولكن كيف بى الآن وما جبرنى من قبلُ إصلاحٌ ، ولا أعاننى اقتصاد ، ومن لى بفتاة من طبقتى بمهر لا أحمل منه رهقاً ، ولا تتقاصر معـه أمورى ، ولا تختل معيشتى ؟

قلت : فاذا لم يحملك الحمار من القاهرة الى الاسكندرية ؛ فانه يحملك إلى قليوب أو طوخ . وفى النساء اسكندرية ، وفيهن شبرا ، وقليوب ، وطوخ ؛ وما قرب وبعد ؛ وما رخص وغلا .

قال : ولكن بلدى اسكندرية . . .

قلت : ولكنك لا تملك إلا حماراً . . . وللمرأة من كل طبقة سعرها فى هذا الاجتماع الفاسـد ؛ ولو تعاون الناس وصلحوا وأدركوا الحقيقة كما هى ، لما رأينا الزواج من فقر المهور كأنما يركب سلحفاة يمشى بها . . ونحن فى عصر القطار والطيارة ، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا فى عصر الحمار والجمل — كأنه وحده من السرعة فى طيارة أو قطار . .

***

حين يفسد الناس لا يكون الاعتبار فيهم إلا بالمال ؛ إذ تنزل قيمتهم الانسانية ويبقى المال وحده هو الصالح الذى لا تتغير قيمته . فاذا صلحوا كان الاعتبار فيهم بأخلاقهم ونفوسهم ؛ إذ تنحطّ قيمة المال فى الاعتبار ، فلا يغلب على الأخلاق ولا يسخرها .

والى هذا أشار النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لطالب الزواج : « التمس ولو خاتماً من حديد[1] . » يريد بذلك نفى المادّية عن الزواج ، وإحياءَ الروحيّة فيه ، وإقرارَه فى معانيه الاجتماعية الدقيقة . وكأنما يقول : إن كفاية الرجل فى أشياء إن يكن منها المال فهو أقلها وآخرها ، حتى إن الأخسّ الأقلّ فيه ليُجزِىء منه كخاتم الحديد ؛ إذ الرجل هو الرجولة بعظمتها وجلالها وقوتها وطباعها ، ولن يجزىء منه الأقلُّ ولا الأخسّ مع المال ، وإن ملء الأرض ذهباً لا يُكمّل للمرأة رجلاً ناقصاً ؛ وهل تتمّ الأسنان الذهبيةُ اللامعة يحملها الرجل الهرم فى فمه شيئاً مما ذهب منه ؟ وما عسى أن تصنع قواطعُ الذهب الخالص وطواحنه لهذا المسكين بعد أن نطق تحاتُّ أسنانه العظمية وتناثرها أنه رجل حلّ البلى فى عظامه . . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

(1) سنكتب — إن شاء الله — قصة المهر فى مقال آخر .



2me Année, No. 67. — Lundi-15-10-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٧ « القاهرة فى يوم الأثنين ٦ رجب سنة ١٣٥٣ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

شـــــوقى . . . !

بمناسبة ذكراه الثانية

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد خرج فى هذه الدنيا شعراء ما أحسب أحداً منهم كان يستطيع ألا يكون شاعراً . لقد تتصل الشاعرية بالطبع والجبلّة . وليس بمَلك المرء أن يخرج عن جبلّته وطبعه . ولست أجد مثلاً أضرب به لهذا الطراز من الشعراء أبلغ من أبى نواس فى الغابرين ، وأحمد شوقى فى المحدثين . وأغلب اعتقادى أن الشاعر من هؤلاء حين ينزل عليه الشعر لايقدر على صرفه عنه أو حبس لسانه أو قلمه عن الجريان به إلا برياضة ومطاولة وجهد .

هؤلاء يطلبهم الشعر أكثر مما يطلبونه . ويتغشاهم البيان أكثر مما يرتصدون له ، ويتجرّدون فى اصابته .

وبحسبك أن تطالع دواوين شوقى — والحديثُ فيه اليوم — لتعلم أنه لو كان رزق أعظم حظ من العزم والقوة والجبروت ، ما كان ليقوى على كتم شاعريته الفائضة الجيّاشة . وهيهات للسدّ بالغاً ما بلغ من المتانة والمناعة أن يكفّ النيل عن جريانه ، وأن يكبح إذا طمى من طغيانه ! .

تقرأ شعر شوقى ، فيتعاظمك هذه الكثرة الكثيرة من فاخر الشعر وبارع الصنعة وروائع البيان . ويذهب العجب بك كل مذهب ، وتروح تتساءل : أية قوة بدنية هذه التى احتملت كل هذا المجهود الفكرى ؟ وكيف تهيأ لهذا الرجل أن يعيش ما عاش !! . .

والواقع الذى لا يتداخله الشك أن شوقى لم يكن على حظ كبير من صحة البدن ، بل لقد تستطيع أن تقول إنه كان رجلا مصموماً مختل الأعصاب من أول نشأته . فاذا طلبت السر فى شأنه ، فالسر كله فى أنه لم يكن يجهد فى قرض الشعر ؛ لأنه لا يتكلفه[1] ولا يتعمل كما قلت لك ، فى طلبه ، ولا يرهف فى ذلك حساً ولا يحد عصباً ، إنما هو الينبوع ينبثق فيجرى الماء دفقا ما يحتاج الى متح ماتح

نعم ، لقد كانت تكاليف الحياة تقتضى شوقى كما تقتضى غيره أن يستفتح الشعر ويبعثه فى مديح ، أو رثاء ، أو تهنئة ، أو فى غير ذلك من الأسباب الخاصة أو العامة التى لا يرى بداً من القول فيها . على أنه لا يكاد يقبل على صناعة الشعر فيطالبه ، حتى تتحرك شاعريته ، فتجره عما هو بسبيله جراً ، وتملى عليه هى ما تشاء ، أكثر مما يملى عليها هو ما يريد . ولست أطلب فى هذا دليلا أبلغ من أن شوقى لم يمدح أحداً قدر ما مدح سمو الخديو السابق . على أنه حين جرد تلك القصائد من ذلك المدح ليدخلها فى ديوانه ، ظلت سوية قوية رائعة بما فيها من رقيق غزل ، أو من بارع وصف ، ومن بالغ حكمة وجليل مثل ، كأن لم تفقد شيئاً ، ولم يعوزها شىء . . .

إذن كان شوقى شاعراً مطبوعاً ، أتم طبع ، سريا أجزل السرى ، موفقاً الى أبعد غايات التوفيق . . .

تصرف فى فنون الشعر كلها فما ضعف قط فى واحد منها ، بل قل أن يتعلق بغباره فى أى باب من أبواب القصيد شاعر ، اللهم خلا الهجاء ، فلم يؤثر عنه فيه بيت واحد . ولعل ذلك يعود ، كما قلت فى (مرآتى) ، الى لطف نفسه ، وأنفته من أن يشتهر الناس ويطلب معايبهم ، أو لعله يعود الى الخوف والورع من أن يزيد فى ثورة خصومه به ، أو لعله فطن الى أن الزمان سيمحق هذا الضرب الحقير من الشعر . وما أحسبه لو عالجه إلا موفياً فيه على الغاية والإحسان . على أن الله تعالى كان ألطف به من أن يدليه فى هذا الهوان

وإذا كان عجبا من كثير من الشعراء أن يكون حظهم من البراعة فى فنون الشعر بدرجة سواء — فان هذا من شوقى وأمثال شوقى غير عجيب . فالرجل ، كما زعمت لك ، لا يملك من شاعريته أكثر مما تملكه شاعريته . وما إن اجتمع لقول الشعر ، ومضى يجيل الفكر ويطير الخيال ، إلا ملكته تلك الشاعرية عن نفسه ، وراحت تجوده بالهاتن الحنان من وحى القريض . فان أصابت ما احتفل له ، وإلا ففى فنون المعانى الآفاق العراض . وأرجوك أن تراجع شعر شوقى فى كل ما يتورط فيه الشاعر ، ولا ينبعث له من نفسه لو كان أمره كله اليه ، لتزداد إيماناً بما أقول

وأرجوك ألا تحسبنى غالياً ولا متزيداً إذا زعمت لك أن شعر شوقى كان فى بعض الأحيان ، بل فى كثير من الأحيان ، يتخطى إدراكه العادى . أعنى أنه لقد كان يصيب ألواناً من المعانى لو أنك راجعته فيها غداة نظمها لاحتاج فى فهمها الى فكر وتدبر ! .

ولقد وقع لى أكثر من مرة أن راجعته فى بعض شعره أرى أنه قد مس فيه معنى رقيقاً جداً ، ولكن اللفظ أقصر من أن يطوله بواضح البيان ، وإنى لأضمر ما ألمح ، وأحياناً ما كان يلمح غيرى ، فاذا هو بادىء الرأى كقارئه متحير متردد ، وإذا هو فى فهم مرامى الكلام فى حاجة الى جس والى استخبار ![1] وأريد أن أقول لك إن هذا الرجل لقد كان يفاض عليه ساعة وحى الشعر ما لم يكن لفكره فى الحساب . ولقد ذكرت هذا من بضعة أيام لنفر من الأدباء ممن كانت لهم صلة بشوقى ، فأكد لى بعضهم أنه وقع له مثله مع هذا أمير الشعراء .

صنعة شوقى

وإذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يعد من

(١) يقال كلف الأمر : حمله على مشقة .

(١) أشار الكاتب الى هذه الحالة من شوقى فى (المرآة) التى جلاها له فى « السياسة » الأسبوعية .

عمله، فهو احتفاله للمعنى أولاً ، فإن واتى اللفظ ولان ونصع وأشرق ، وإلا فلامَّ هذا اللفظ الهبل !.

لم يكن شوقي إذن يكلف بالديباجة ، ولا يجهد في تسوية اللفظ وصقله ، ولكنه مع هذا لقد يجيء بالعجب العاجب ! بل لقد استحدث شوقي في العربية صيغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الإشراق . وأحسب أن قوة المعاني هي التي أرادته على هذا ودفعته اليه دفعاً

ولقد كان مما يعدّ على شوقي أنه يكثر من الغريب في شعره ، حتى لقد كان يضطر هو الى تذييل ما يفشى من قصائده في الصحف بالشرح والتفسير . ولا أحسب هذا سائغاً في العصر الذي نعيش فيه ، بل إني لأزعم أن محصول شوقي من متن اللغة لم يكن يواتي هذا القدر الذي يشعره استكثاره من الغريب في قصيده ، فلقد كنت تسأله معنى الكلمة المفردة تكون قد خلت في بعض شعره ، فإذا هو لا يدريه في بعض الأحايين . وإنني لأرجح أن الرجل لم يكن يعمد بهذا للتكثر بسمة العلم ، ووفرة المحصول من اللغة ، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعاني ما لا يتيسر له أداؤه باللفظ الشائع ، كما كان يطيل أحياناً كثيرة في القصائد إطالة يحتاج معها الى الكد في التماس القوافي ، فكان يضطر في هذا وفي هذا الى التماس الألفاظ من القواميس ينتزعها انتزاعاً .

التجديد والمجددون

وهنا أحب أن أقول شيئاً يسيراً في التجديد والمجددين ، وإنني أوجه هذا الكلام ، بنوع خاص ، الى الناشئين من المتأدبين

إذا كان من آيات الحياة في الكائنات تطوّرُها ، ونموها ، وتجدُّدها . فالأدب ، ولاشك ، من هذه الكائنات التي لا تكتب لها الحياة إلا على التطوّر والنموّ والتجديد ، وإلا كان ميتاً أو أشلّ على أيسر الحالين

ولكنني أحب أن ألفت في هذا المقام ، الى مسألة قد تدق أفهامَ الكثير أو القليل . وتلك أن هناك فرقاً بين التربية والتجديد ، وبين المسخ والتغيير . ولست أجد مثلا أسوقه في هذا الباب خيراً من حياة الطفل وحياة النبات . كلاهما ينمو ويربو ، وكلاهما يطول ويزكو ، حتى يبلغ الحدّ المقسوم لكماله ؛ وقد تتغير بعض معارفه ، وقد تحوّل بعض أعراضه ، ولكنه ، في النهاية ، هو هو لا شيء آخر ، فحسنُ الوليد ، هو حسن الطفل ، هو حسن الفتى ، وهو حسن الشاب ، هو حسن الكهل ، وهو حسن الشيخ ؛ وتلك الفسيلة الصغيرة ، هي هذه النخلة الباسقة ، كلٌّ نما وربا بما دخل عليه من الغذاء ، وما اختلف عليه من الشمس والهواء

لقد أصاب كل منهما ما أصاب من أسباب التربية والأزكاء ، فاحتجز منها ما واءمه وما تعلّقت به حاجته ، ونفى عنه ما لا خير له فيه وما لا حاجة به إليه . ثم أساغ ما أمسك وهضمه ، فاستحال دماً يجري في عرقه ، ويزيد في خلقه .

ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصر ، وله مقوّمات ، وله شخصية بارزة معيّنة ، فمن شاء فيه تجديداً — ومن الواجب الحتم على القادرين أن يجددوا — فليتقدم ، ولكن من هذه السبيل .

ولا تنسوا أن من أهم هذه المقومات ، إن لم يكن أهمها جميعاً ، هو صحة العربية وتحرّي فُصَحها . فمن تهاون هذا وتجاوزه ، فليس ما يصنع من الأدب في شيء أبداً . ومما يتصل بهذا المعنى ما أملى لا أخطئ إذا دعوته تقاليد العربيــة ؛ فللعربية كسائر اللغات القوية تقاليدها المأثورة على الزمان .

وهنالك مقوّمان آخران لهما خطرهما العظيم ، ألا وهما التخييل والذوق العام . ولا أحسبك تنكر أن لكل أمة ذوقها الخاصّ بها في كثير من أسباب الحياة ، ولقد تشارك غيرها من الأمم في بعض هذا ، ولقد تفارقها في بعض فراقاً شديداً أو يسيراً

أما التخييل فقد قلت لك في مقال مضى إن خيال المرء مهما حلّق وعلا ، ومهما أسرف وغلا ، فهو لا يمكن أن يخرج عن كونه مجرد تلفيق من الحقائق المحسّة الواقعة . وأنت بعدُ خبير بأن أصدق خيال وأروعه ، وأن أحكم تشبيه وأطبعه ، هو ما اشتقه الشاعر مما يحيط به ويقارنه ، ويقع لأسماعهما ولأبصارها جميعاً . وإلا نبا عن السمع ، ونشز على الطبع ، ولو كان بالغاً غاية الغاية في بيئة أخرى .

نعم ، لقد يشهد الشاعر من مجالي الطبيعة ما لم يشهد عامّة

قومه . ولقد يظهر على كثير مما انتضحت به بلاغات أئمة البيان في الأمم الأخرى . ولقد يتذوق هذا في أناة ، ويتأثر به الى حد بعيد ، ولقد يرى أن ينقل ما يطول من ذلك الى معشره باخراجه في لغتهم لينعمهم ويلذهم ويرهف حسهم ، ويفتق في أذهانهم ، ويفسح في أدبهم بادخال جديد عليه ، وإضافة بديع من الآداب الأخرى إليه ، فان له من ذلك ما يحب ، على أن يصوغه في صحيح لغته ، ويطبعه على غرار أدبه ، ويحتال على تسوية خلقه ، حتى يصبح تام المشابه لما ألف قومه ، حتى لا يحسوا فيه غربة ، ولا يشعروا منه بوحشة ، فاذا وفق الأديب الى هذا وأجاده وأحكمه فهو المجدد التام .

شوقي إمام المجددين

ولقد ضرب شوقي في الأرض كثيراً ، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها ما لم تتهيأ رؤيته لكثير . وقرأ في الفرنسية لأئمة البيان في الغرب ما لا يكاد يلحقه الإحصاء ، ولقد أساغ ما استعار ، وجرى في أعراقه طلقاً ، واستطاعت شاعريته الفخمة أن يجلو منه ما شاء أن يجلو عربياً خالصاً لا شك فيه . وهذه دواوينه تزخر بهذا البديع زخراً .

فاللهم إن كان التجديد ما ذكرنا فشوقي إمام المجددين في هذا العصر غير مدافع . أما إن كان التجديد هو المسخ ، واستحداث صور شائهة ، وابتكار ألوان من المعاني لا تمت إلينا بسبب ، على صيغ لا هي بالعربية ولا هي بالأعجمية ، فاللهم اشهد أن شوقي ليس مجدداً بل ليس شاعراً أبداً ! .

***

ولقد جال شوقي بشعره في كل عرض ، وقصد كل قصد ، وأصاب من كل معنى ، وطال نفسه في أكثر قصيده إلى مالم يطله كثير من أنفاس الشعراء ، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسف ، ولا فسلت أخيلته ، ولا شاهت معانيه ، بل لقد يأتي أكثر ما يأتي بالجوهري الرائع من حر الكلام

وليس شوقي بالذي يستدل على مكانه بالبيت أو البيتين في القصيدة ، أو بالقصيدة والقصيدتين في الديوان ، بل إذا طلبت عليه دليلا فهذه دواوينه ، شق منها ما تشاء ، وقع منها على ما تريد لك المصادفة ، فلن تصيب إلا أرفع الشعر وأنفس الكلام .

***

وبعد ، فلقد مات شوقي ، وانحسمت جميع أسبابه من الدنيا ، وفرغ من مودات الناس ومن عداواتهم ، وأصبح شعره حبساً على التاريخ . فمن كان يرى حقاً أن شوقي لم يبلغ هذه المنزلة ، أو أنه لم يبلغ بعضها ، أو أنه لم يكن شاعراً ألبتة ، فهذا له رأيه ، وعليه تبعته . ولا حيلة لنا ولا لغيرنا فيه . وأما من يقدر شوقي حق قدره ، فينزله هذه المنزلة أو ما هو أقرب إليها ، فمن واجب الذمة أن يشيد بقدره ، ويدل على جلالة محله ، لا قضاء لحق الانصاف وحده ، ولا أداء لشكر النعمة فحسب ، فلقد كان شوقي نعمة عظمى أسبغها الله على أبناء العربية جميعاً ، بل لاستدراج نشء المتأدبين إلى استظهار شعره ، وإلهامهم من أدبه ، واتخاذه النموذج المحتذى إذا اجتمع أحدهم للبيان

هذا واجب الذمة للحق وللبيان جميعاً ، وخاصة بعد هذا التبلبل الذي لا أحسب أن البيان العربي شهد مثله في أي عصر من عصور التاريخ . وحسبي هذا ، فما أحب أن أقذف بنفسي في هذه الحرب الناشبة من أنصار قديم وأصحاب جديد .

عبد العزيز البشري

من قول شوقي يصف تمثال نهضة مصر ويشير الى المرحوم المثال مختار :

تعالوا تروا كيف سوى الصفاة	فتاة تلملم سربالها
دنت من أبي الهول مشي الرؤوم	الى مقعد هاج بلبالها
وقد جاب في سكرات الكرى	عروض الليالي وأطوالها
وألقى على الرمل أرواقه	وأرسى على الأرض أثقالها
يخال لأطراقه في الرمال	سطيح العصور ورمالها
فقالت : تحرك فهم الجماد	كأن الجماد وعى قالها
. . . .	. . . .
وما الفن إلا الصريح الجميل	إذا خالط النفس أوحى لها
وما هي إلا جمال العقول	إذا هي أولته اجمالها

قصـــة زواج
وفلسفة المهر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال رسولُ عبد الملك : ويحك (يا أبا محمد) لَكأن دَمَكَ والله من عَدوك فهو يفور بك لتَلِجَّ في العناد فتُقتَل، وكأني بك والله بين سَبُعَين قد فَغَرَا عليك؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما تفرّ من حتف إلا إلى حتف ، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخاليبها .

ههنا هشام بن اسماعيل عاملُ أمير المؤمنين ، إنْ دَخَلَتْه الرحمة لك استوثق منك في الحديد ، ورَمَى بك إلى دمشق ؛ وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله إلا أن يطعم لحمك السيف يَعَضّ بك عضّ الحية في أنيابها السمّ ؛ وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه ، وبهذا الوجه مُضَرَّجا بدمائه ، وبهذه اللحية مُعَفَّرَةً بترابها ، وبهذا الرأس مُحتَزًّا في يد (أبي الزُّعَيزِعة) جلاّد أمير المؤمنين ، يلقيه من سيفه رَمْيَ الغصن بالثمرة قد ثقلتْ عليه .

وأنت (ياسعيد) فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها ، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : « لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لَسَرَّه » فان لم تَكرُمْ عليك نفسك فَلْيَكرُمْ على نفسك المسلمون ؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفقهُ في جميع الأمصار إلى المَوالي ؛ ففقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير ، وفقيه البصرة الحسن ، وفقيه الكوفة إبراهيم النَّخَعي ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراساني . وإنما يتحدث الناس أن المدينة من دون الأمصار قد حرسها الله بفقيهها القرشيّ العربيّ (أبي محمد سعيد ابن المُسيَّب) كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد علم أهل الأرض أنك حَجَجْتَ نيفاً وثلاثين حَجّة ، وما فاتتك التكبيرة الأولى في المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمت إلا في موضعك من الصفّ الأول ، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجل في الصلاة ؛ ولا وجد الشيطان مايعرض لك من قِبَله في صلاتك ولا قفار رجل ؛ فالله الله يا أبا محمد ، إني والله ما أغشّك في النصيحة ؛ ولا أخدعك عن الرأي ، ولا أنظر لك إلا الخير ما أنظر لنفسي ؛ وإن عبد الملك ابن مروان منْ عَلِمْتَ ؛ رجلٌ قد عمّ الناس ترغيبه وترهيبه ، فهو آخذُك على ماتكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحِبّ ؛ وإنه والله يا أبا محمد ، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى ، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك ، رعايةً لمنزلتك عنده ، وإكباراً لحقك عليه ؛ وما أرسلني أخطُب إليك ابنتك لوَلِيّ عهده إلا وهو يبتذل نفسه إليك ابتذالاً ليَصِل بك رَحِمَهُ ، ويُوَثِّق آصرته ؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبمُلكه وَرَعاً وزهادة ، فما أحوج أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده ، وأن يكونوا أصهار (الوليد) فيستدفعوا شرًّا ماله عنهم غنى ، ويجتلبوا خيراً مابهم غنى عنه ؛ ولستَ تدري ما يكون من مصادر الأمور ومواردها . وإنك والله إن لجَجت في عنادك وأصررْتَ أن تردّني إليه خائباً ، لَتهيجَنّ قَرَمَ سيوف الشام إلى هذه اللحوم ولَحمُكَ يومئذ من أطيبها . ولأمير المؤمنين تارتان : لينٌ وشدة ؛ وأنا إليك رسول الأولى ، فلا تجعلني رسولَ الثانية . . .

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأنه لا يَخلُص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقط معانيه في الأرض ، هيبةً منه وفرقاً من إقدامها عليه ؛ وقد لان رسول عبد الملك في دهائه حتى ظنّ عند نفسه أنه ساغ من الرجل مساغ الماء العذْب في الحلق الظامىء ، واشتدّ في وعيده حتى مايشكّ أنه قد سقاه ماء حميا فقطّع أمعاءه ؛ والرجل في كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض ، لو تحوّل الناس جميعاً كنّاسين يثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم ، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلألأ .

وقلّب الرسولُ نظرَه في وجه الشيخ ، فاذا هو هو ليس فيه معنى رغبة ولا رهبة ، كأن لم يجعل له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالة ، ولم يملأ الجو سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى ؛ وأيقن أنه من الشيخ كالصبيّ الغرّ قد رأى الطائر في أعلى الشجرة

فطمع فيه نفاء من تحتها يناديه : أن انزل إلىّ حتى آخذك وألعب بك . . .

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

« ياهذا ، أما أنا فقد سمعت ، وأما أنت فقد رأيت ، وقد روينا أن هذه الدنيا لاتعدل عند الله جناح بعوضة ، فانظر ماجئتني أنت به ، وقسه إلى هذه الدنيا كلها ، فكم — رحمك الله — تكون قد قسمت لى من جناح البعوضة . . . ؟ ولقد دُعيت من قبل إلى بضع وثلاثين ألفاً لآخذها فقلت : لاحاجة لى فيها ولا فى بني مروان ، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم . وهأنذا اليوم أُدعى إلى أضعافها والى المزيد معها ؛ أفأقبض يدى عن جمرة ، ثم أمدّها لأملأها جمراً ؟ لا والله مارغب عبد الملك لابنه فى ابنتى ، ولكنه رجل من سياسته إلصاق الحاجة بالناس ليجعلها مقادة لهم فيصرِّفهم بها ؛ وقد أعجزه أن أبايعه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين . وماعبد الملك عندنا الا باطل كان ابن الزبير ، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك ؛ فانظر فانك ماجئت لابنتى وابنه ، ولكن جئت تخطبنى أنا لبيعته . . .

قال الرسول : أيها الشيخ ، دع عنك البيعة وحديثها ، ولكن من عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله اليك ؟ انك لراع وانها لرعية وستسأل عنها ، وما كان الظن بك أن تسيء رعيتها وتبخس حقها ، وأن تعضلها وقد خطبها فارس من بني مروان ، وان لم يكن فارسهم فهو ولىّ عهد المسلمين ؛ وان لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليد بن أمير المؤمنين ؛ وأدنى الثلاث أرفع الشرف فكيف بهن جميعاً ، وهن جميعاً فى الوليد . . ؟

قال الشيخ : أما إنى مسؤول عن ابنتى ، فما رغبت عن صاحبك الا لأنى مسؤول عن ابنتى . وقد علمت أنت أن الله يسألني عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين والقائمين لا يكونون فيه الا وراء عبيدها وأوباشها ودُعّارها وفجّارها ، يخرجون من حساب الفجرة الى حساب القتلة ، ومن حساب هؤلاء الى الحساب على السرقة والغصب ، الى حساب أهل البغى ، الى حساب التفريط فى حقوق المسلمين . ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعّارها وفجّارها فى زحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما ، وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرتُ فى حسن الرعاية لابنتى ، لو لم أضنّ بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقتُ نفسى . لا والله مابيني وبينكم عمل ، وقد فرغتُ مما على الأرض فلا يعزّ السيف منى فى لحم حىّ .

***

ولما كان غداة غد جلس الشيخ فى حلقته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل ، فسأل رجل من عرض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ، إن رجلاً يلاحيني فى صداق ابنته ويكلفني مالا أطيق . فما أكثر ما بلغ إليه صداق أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداق بناته ؟

قال الشيخ : روينا أن عمر رضى الله عنه كان ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول : « ما تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا زوّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم[1] . » ولو كانت المغالاة مهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورويناعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً . »

فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتى أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر ، وحسنها هو يغليها على الناس ؛ تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : أنظر كيف قلت . أهم يساومون فى بهيمة لا تعقل ، وليس لها من أمرها شىء إلا أنها بضاعة من مطامع صاحبها يغليها على مطامع الناس ؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير النساء من كانت على جمال وجهها ، فى أخلاق كجمال وجهها ؛ وكان عقلها جمالاً ثالثاً ؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء ، يسّرت عليه ثم يسّرت ثم يسّرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً ، لا متاعاً يطلب شارياً . فهذه لا يكون رخص القيمة فى مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة فى عقلها ودينها ؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها ، أى

(١) الدرهم خمسة قروش

لحقها؛ وهى بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن.

ولقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان الأثاث: رحى يد، وجرّة ماء، ووسادة من أدَم حشوها ليف. وأولم على بعض نسائه بمُدَّين من شعير، وعلى أخرى بمدَّين من تمر ومدَّين من سويق.

وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقر، ولكنه يشرّع بسنّته ليُعلّم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفسٌ لنفس، لا متاعٌ لشاريه، والمتاع يُقوَّم بما بُذل فيه إن غالياً وإن رخيصاً، ولكن الرجل يُقوَّم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحمل إلى داره، ولكنه الذى تجده منه بعد أن تُحمل إلى داره؛ مهرُها معاملتها، تأخذ منه يوماً فيوماً، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجلها ما دامت فى معاشرته. أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى، أفلا ترى هذه الغالية — إن لم تجد النفس — قد تكون عروس اليوم ومطلّقة الغد؟!

وما الصداق فى قليله وكثيره إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها؛ فهو إيماء، ولكن الرجل قبلُ، ولكن الرجل قبلُ. إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً، والسيف إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواءً، وقد يحمل الجبان فى كل يدٍ سيفاً، ويملك فى داره مائة سيف؛ فهو إيماء، ولكن البطل قبلُ، ولكن البطل قبلُ.

مائة سيف يمهَر الجبانُ بها قوته الخائبة، لا تغنى قوته شيئاً، ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله. ويوشك أن يكون المهر الغالى كالتدليس على الناس وعلى المرأة، كى لا تعلم ولا يعلم الناس أنه ثمن خيبتها؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيُسر مهرها، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله، وكفّت حماقتها أن تفسد عليه.

فصاح رجلٌ فى المجلس: أيها الشيخ، أفى هذا من دليل أو أثر؟

قال الشيخ: نعم؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى: «خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وجعل منها زوجها». فهى زوجُه حين تجده هو، لا حين تجدُ ماله؛ وهى زوجه حين تتمّمه لا حين تنقصه؛ وحين تلائمه لا حين تختلف عليه: فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها، فيكونان معاً كالنفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه، يريد من جسمه الحياة لا غيرها.

وأما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روينا: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.»

فقد اشترط الدين، على أن يكون مرضياً لا أيّ ذلك كان؛ ثم اشترط الأمانة، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته؛ وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً وعلى حقوقها أميناً، وفى معاملتها أميناً، فلا يبخسها، ولا يعنتها، ولا يسىء إليها؛ لأن كل ذلك ثلمٌ فى أمانته. فإن ردَّت المرأة من هذه حاله وصفته من أجل المهر — تقدم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته، فوقعت الفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هو بها، وفسد النسلُ بهما جميعاً، وأُهمل من لا يملك، وتعنّست من لا تجد، ورجع المهر الذى هو سبب الزواج سبباً فى منعه، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة؛ فيقع معنى الزواج ويبقى المعطّلُ منه هو اللفظ والشرع.

هل علمت المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها، وتبلوَ فيه بلاءها؛ وهل يقوم مال الدنيا بحقّها فيما تعمل وما تجاهد، وهى أم الحياة ومُنشئتها وحافظتها. فأين يكون موضعُ المال ومكانُ التفرقة فى كثيره وقليله، والمال كلّه دون حقّها؟.

ولئن يتفاوت الناس بالمال تختلف درجاتهم به وتكون مراتبهم على مقداره، تكثر به مرة وتقل مرة — إلا إذا فسد الزمان، وبطلت قضية العقل، وتعطّل موجب الشرع، وأصبحت السجايا تتحوّل، يملكها من يملك المال، ويخسرها من يخسره؛ فيكون الدّين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه، والمتدلّى فى غير حقه؛ وبهذا يرجع باطل الغنيّ ديناً يتعامل الناس عليه، ودينُ الفقير بَهْرَجاً لا يروج عند أحد. وليس هذا من ديننا

دون النفس والخلق ، وإن ألف بعير يقتنوها الرجل خالصة عليه ثابتة له لا تزيد في منزلة دينه قدر نملة ولا مادونها . والحجران : الذهب والفضة — قد يكون شعاعها في هذه الدنيا أضوأ من شمسها وقمرها ، ولكنهما في نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذها الرجل من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك أنهما في قدر الشمس والقمر .

وهلاك الناس إنما يفضي بمحاولتهم أن يكونوا أناساً ببيوتهم وذويهم ؛ فهذا هو الانسان الذي عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لا يكون أبوه أباً في عطفه ، ولا أمه أماً في حبها ، ولا ابنه ابناً في بره ، ولا زوجته زوجة في وفائها ؛ وإنما يكونون له بهالك كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ؛ يعيّرونه بالفقر ، ويكلفونه ما لا يطيق ؛ فيدخل المداخل التي تذهب فيها دينه فيهلك . »

***

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة ، ثم خرج إلى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره ، قالت يا أبت ، كنت أتلو الساعة قوله تعالى : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » فما حسنة الدنيا ؟ قال : يا بنية هي التي تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة ، ولا للمرأة . . . .

وطرق الباب فذهب الشيخ يفتح ، فإذا الطارق (أبو وداعة) وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقده أياماً . فدخل فجلس . قال الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « توفيت أهلي فاشتغلت بها . »

قال الشيخ : « هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ » ثم أخذ يفيض في الكلام عن الدنيا والآخرة . وشعر أبو وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم ؛ فقال (سعيد) : « هل استحدثت امرأة غيرها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومن يزوّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا . . . . »

أنا ، أنا ، أنا . . . دوّى الجو بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح الله يطن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ، ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد ، وكأنها كلمة زوّجته إحدى الحور العين .

فلما أفاق من غشية أذنه . . قال : « وتفعل ؟ »

قال (سعيد) : « نعم » وفسر (نعم) بأحسن تفسيرها وأبلغه ، فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوّجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) . ثلاثة دراهم مهر الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولي عهده بثقلها ذهباً لو شاءت .

وغشي الفرح هذه المرة عيني الرجل وأذنيه ، فإذا هو يسمع نشيد الملائكة يطن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

ولم يشعر أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدري من فرحه ما يصنع ، وكأنه في يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرف إليه بهذا الصوت الذي لا يزال يطن في أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا »

وصار إلى منزله وجعل يفكر ممن يأخذ ، ممن يستدين ؟ فظهرت له الأرض خلاء من الانسان ، وليس فيها إلا الرجل الواحد الذي يضطرب صوته في أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . .

وصلى المغرب وكان صائماً ، ثم قام فأسرج ، فإذا سراجه الخافت الضئيل يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكأن في نوره وجه عروس تقول له : « أنا ، أنا ، أنا . . . . »

وقدّم عشاءه ليفطر ، وكان خبزاً وزيتاً ، فإذا الباب يقرع ؛ قال : من هذا ؟ قال الطارق : سعيد ! . .

سعيد ؟ سعيد ؟ من سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؟ أبو علي ؟ أبو الحسن ؟ فكر الرجل في كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ؛ إلا الذي قال له : « أنا . . . . »

لم يخالجه أن يكون هو الطارق ، فإن هذا الامام لم يطرق باب أحد قط ، ولم ير منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثم خرج إليه ، فإذا به سعيد بن المسيب ، فلم تأخذه عينه حتى رجع القبر فهبط فجأة بظلامه وأمواته في قلب المسكين وظن أن الشيخ قد بدا له فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر ، ويتعذر إصلاح الغلطة ؛ فقال : « يا أبا محمد ، لو . . لو . .

لو – لو أرسلت إلىَّ لأتيتُك ! »

قال الشيخ : « لأنت أحقُّ أن تُؤْتَى »

فما صكَّت الكلمة سمع المسكين حتى أُبلِس الوجودُ في نظره ، وغشِيَ الدنيا صمتٌ كصمت الموت ، وأحسَّ كأن القبر يتمدَّد في قلبه بعروق الأرض كلِّها ! ثم فاء لنفسه وقدَّر أن ليس محلُّ شيخه إلا أن يأمر ، وليس محلُّه هو إلا أن يطيع ، وأنَّ من الرجولة ألاَّ يكون معرَّة على الرجولة ، ثم نكَّس وتنكَّس ، وقال بذلَّة ومسكنة : « ما تأمرني ؟ »

تفتحت السماء مرة ثالثة ، وقال الشيخ : « إنك كنت رجلاً عزَباً ، فتزوَّجت ، فكرهتُ أن تبيت الليلةَ وحدك ؛ وهذه امرأتُك ! »

وانحرف شيئاً ، فاذا العروس قائمة خلفه مستترةٌ به ، ودفعها إلى الباب وسلَّم وانصرف .

وانبعث الوجود فجأةً ، وطنَّ لحنُ الملائكة في أذن أبي وداعة : « أنا ، أنا ، أنا ... »

* * *

دخلت العروس الباب وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانها ، واستوثق من بابه ، ثم خطا إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت ، فوضعها في ظل السِّراج كي لا تراها ؛ وأغمض السراج عينَه ونشر الظلّ ...

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيران بحُصَيَّاتٍ ؛ ليعلموا أن له شأناً اعتراه ، وأن قد وجب حقُّ الجار على الجار « وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التليفون اليوم) فجاءوه على سطوحهم وقالوا : ما شأنك ؟

قال : « وَيْحَكُم ! زوَّجني سعيد بن المسيّب ابنته اليوم ، وقد جاء بها الليلة على غفلة . »

قالوا : وسعيد زوّجك ! أهو سعيد الذي زوّجك ! أزوّجك سعيد ؟ . »

قال : « نعم »

قالوا : « وهي في الدار ! أتقول إنها في الدار ؟ . »

قال : « نعم »

فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار ، وغشيت الرجل غشيةٌ أخرى فحسب داره تتيه على قصر عبدالملك ابن مروان ، وكأنما يسمعها تقول : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

* * *

قال أبو وداعة : « ثم دخلتُ بها ، فاذا هي من أجمل الناس وأحفَظِهم لكتاب الله تعالى ، وأعلَمِهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفِهم بحق الزوج . »

قال : « ومكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلَّمتُ ، فردّ عليَّ السلام ، ولم يكلمني حتى تفرّق الناس من المجلس وخلا وجهه ، فنظر اليَّ وقال :

« ما حالُ ذلك الأنسان ... ... ؟ . »

* * *

أما ذلك (الأنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر وليّ العهد ابن امير المؤمنين وبين حجرة أبي وداعة التي تُسَمَّى داراً ... ! إلا أن هناك مضاعفةَ الهمّ ، وهنا مضاعفة الحُبّ .

وما بين (هناك) إلى القبر مدةَ الحياة ستخفُتُ الروح من نور نور ، الى أن تنطفىء في السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) الى القبر مدةَ الحياة — تسطع الروح بنور على نور ، الى أن تشتعل في السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خير وأبقى .

* * *

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) ويَرصُدُ غوائلَه حتى وقعت به المحنةُ ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطاً في يوم بارد ، وصبَّ عليه جرّة ماء ، وعرضه على السيف ، وطاف به الأسواق عارياً في تُبّان[1] من الشَّعر ، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه . وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه المَخزاة قال عبد الملك بن مروان : « أنا ... ... ؟ »

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سراويل قصير يلبسه الملاحون .

الترجمة في الأدب العربي
وتراجم عظمائنا المحدثين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في العام الماضي فكر جماعة من الأساتذة والكتاب في اصدار مجموعة من التراجم القوية المحققة لعظماء مصر في العصر الحديث. وكانت الغاية من إصدار مثل هذه المجموعة علمية قومية قبل كل شيء؛ فليس في تراثنا التاريخي المعاصر مثل هذه السلسلة؛ ومازالت سير الكثيرين من عظمائنا مجهولة مغمورة، وما زال شبابنا المتعلم يتوق الى استعراض هذه السير في بحوث محققة ممتعة تغرى بالقراءة والدرس فلا يجدها. وسير العظماء زينة التاريخ القومي، والتاريخ القومي غذاء للشعور الوطني. ولكن هذا المشروع العلمي الجليل لم يجز مع الأسف طور التفكير، وطوى كما طويت مشاريع مثله من قبل.

إن تراجم العظماء تشغل في آداب الأمم العظيمة وفي تاريخها أسمى مكانة؛ فأقطاب الأمراء والساسة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين، هؤلاء جميعاً يأخذون مكانهم في التاريخ القومي العام، ثم يأخذون مكانهم في تراجم خاصة؛ تذهب أحياناً الى البحوث النقدية المستفيضة التي تشغل مجلدات بأسرها وتخصص للمراجعة العلمية والدراسة العليا؛ وتقتصر أحياناً على صور موجزة، ولكن قوية ممتعة تخصص لدرس الشباب وللقراءة العامة. ويخص هؤلاء العظماء بالدرس في كل عصر ووقت، ويحظون بمختلف البحوث والدراسات؛ وقد تصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير، ولكل مقامها العلمي والأدبي. أما نحن فكما أن النقص يشوب تاريخنا القومي، وكما أن هذا التاريخ لم يكتب بعد بما يجب من تحقيق وإفاضة، فكذلك يتوزع النقص لدينا هذه الناحية الخاصة، أعني ناحية التراجم والسير المفردة؛ وقلما خظيت آدابنا التاريخية بترجمة محققة وافية لعظيم من عظمائنا المحدثين.

على أن هذه الناحية الخاصة من المباحث التاريخية تشغل في الأدب العربي القديم مكانة هامة. وقد بدأت العناية بها في عصر مبكر جداً. فمنذ القرن الثاني للهجرة يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة. وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى تملأ فراغاً كبيراً في الآداب التاريخية العربية؛ ولم تقف الترجمة الخاصة عند نوع معين أو طائفة معينة من العظماء، بل تناولت رجال السيف والقلم، والملوك والوزراء، والقادة والمفكرين، والكتاب والشعراء من كل ضرب؛ ومنها الموسوعات العامة، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف معينة، ومنها التراجم والسير الفياضة، ومنها الموجزة. وفي الآداب العربية من هذه وتلك تراث شاسع قد لا تحظى به أية آداب أخرى، اذا استثنينا العصر الحديث الذى ركدت فيه الآداب العربية، ونهضت فيه الآداب الأخرى. غير أن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث، وينقطع سيره انقطاعاً تاماً، فلا نكاد نظفر في ذلك العصر بآثار قيمة في التراجم العامة أو الخاصة؛ وهذه ثغرة في آدابنا التاريخية لم نوفق الى تداركها حتى اليوم.

ويجدربنا أن نستعرض بهذه المناسبة طرفاً من تراث التراجم والسير الخاصة في الأدب العربي، لنذكر شبابنا المتعلم بما خص به هذا الفن في أدبنا من العناية والاهتمام، وما انتهى اليه من النضج والتقدم. وما نذكره هنا هو على سبيل التمثيل فقط، إذ يقتضى الالمام بجميع آثار هذا الفن فصولا بأسرها. وفي مقدمة هذه الآثار السيرة النبوية الكريمة، وأشهرها وأنفسها سيرة ابن اسحاق التي دونت في منتصف القرن الثاني من الهجرة. وكتب ابن النديم كتاب الفهرست الشهير في أواخر القرن الرابع، وألم فيه بطائفة كبيرة من تراجم الفلاسفة والمفكرين والكتاب وآثارهم حتى عصره؛ ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة؛ فنجد الخطيب البغدادي المتوفى في أواخر هذا القرن يستعرض في كتابه الضخم «تاريخ بغداد» مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الاسلامية؛ وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته التامة «وفيات الأعيان» في تراجم العظماء من كل ضرب. ولا ريب أن معجم ابن خلكان

من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعاً . فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الاسلامية ، ومنها تراجم ضافية تملأ صفحات كبيرة ، ومنها تراجم موجزة ، ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصور ؛ وقد عنى ابن خلكان عناية خاصة بتحقيق الأسماء والتواريخ ، ونستطيع أن نقول إنه أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة فناً حقيقياً ، وما زال معجمه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها .

وبلغ فن الترجمة ذروة ازدهاره فى القرنين الثامن والتاسع ؛ وظهرت فيه الموسوعات الفنية الشاسعة ، وخص كل عصر وكل قرن بأعيانه وأعلامه . ونستطيع أن نذكر من آثار هذا العصر ، كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو موسوعة كبيرة فى تراجم الأعلام المعاصرين لم يصلنا منها سوى بضع مجلدات . وللصفدى أيضاً كتاب « الوافى بالوفيات » ، وهو موسوعة عامة فى تراجم أعلام الأمم الاسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره ، ولم يصلنا منها أيضاً سوى بضعة مجلدات ؛ وقد ذيل عليها مؤرخ مصر أبو المحاسن بن تغرى بردى بكتاب عنوانه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ضمنه تراجم الأعلام منذ منتصف القرن السابع إلى عصره أى إلى منتصف القرن التاسع . ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم الترجمة ، يختص كل معجم منها بقرنه ، وأولها كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للحافظ بن حجر العسقلانى ؛ ثم كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » لشمس الدين السخاوى ، وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية ؛ ثم كتاب « الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى العامرى ؛ ثم « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى الحموى ؛ ثم « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » لأبى الفضل المرادى . وقد ترجم لنا عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ مصر فى عهد الفتح الفرنسى طائفة كبيرة من أعيان مصر فى القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، وهو يصل بذلك سلسلة التراجم . وترجم لنا المغفور له العلامة على باشا مبارك كثيراً من أعيان مصر فى العصر الأخير فى كتابه « الخطط التوفيقية » ؛ ووضع المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا عدة تراجم لبعض أعيان مصر فى القرن الرابع عشر ، وهى التى نشرتها « الرســـالة » تباعاً فى أعدادها الأخيرة .

هذا عن التراجم العامة . وأما عن الترجمة المفردة التى تقتصر على سيرة شخص معين ، والترجمة الخاصة التى تعالج طائفة خاصة من الأعلام ، فلدينا منها الكثير أيضاً ، ونستطيع أن نمثل للترجمة الفردة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم المتوفى فى أوائل القرن الثالث ؛ وسيرة المعز لدين الله لابن زولاق المصرى المتوفى فى أواخر القرن الرابع ، وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى شذور قليلة ؛ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى من علماء القرن السادس ، وتاريخ تيمورلنك المسمى « بعجائب المقدور » لابن عربشاه الدمشقى من علماء القرن الثامن ؛ وترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون بقلمه ؛ وترجمة الحافظ ابن حجر بقلم تلميذه السخاوى ، وترجمة ابن الخطيب للمقرى ، وغيرها . ولدينا الكثير أيضاً من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسفة والأدباء والقضاة والنحاة وغيرهم ، مثل أخبار الحكماء للقفطى ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقضاة مصر لابن حجر ، وكثير غيرها ؛ هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة وهى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها . (١)

والخلاصة أن الأدب العربى غنى بتراثه فى فن الترجمة ، وقلما تنافسه فى ذلك آداب أخرى ، إذا استثنينا العصر الحديث . ولكن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ؛ ولو لم يوهب لمصر مؤرخها البارع عبد الرحمن الجبرتى فى القرن الثانى عشر (القرن الثامن عشر الميلادى) وبتحفنا بموسوعته النفيسة « عجائب التراجم والآثار » لضاعت إلى الأبد حقائق ومعالم كثيرة عن تاريخ مصر فى هذا العصر ، ولطمست سير الكثيرين من أعلامه . نعم إن الترجمة العربية لم تعرف الأسلوب النقدى ، ومنهج التحقيق العلمى ، لأنها ازدهرت فى

(١) يستطيع من يريد التوسع فى معرفة كتب التراجم والسير أن يرجع إلى كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوى ، وكتاب « كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون » لحاجى خليفة .

عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية ؛ ولكنها مع ذلك تتمتع فضلاً عن غزير مادتها بكثير من التحقيق التاريخي ، وفي وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها نفائس مادته ؛ وقد كان الجبرتي خاتمة هذا الثبت الحافل من مؤرخين عنوا بتدوين الحوادث والتراجم المعاصرة ، ولم يقع لتراثنا مثل هذا الأثر النفيس منذ الجبرتي أي منذ أوائل القرن التاسع عشر . وقد تقدمت المباحث التاريخية في العصر الأخير تقدماً واضحاً ، وبدئ بكتابة تاريخ مصر الحديث [1] ؛ ولكنا حتى في هذه الناحية العامة مازلنا في مستهل جهودنا ؛ ومما يبعث على أشد الأسف والألم أن نجد عناية الكتاب الغربيين بكتابة تاريخنا الحديث سواء من الوجهة العامة أو من بعض الوجوه الخاصة أوفر من عنايتنا ، وأن نجد في مختلف اللغات الأوربية من الآثار المتعلقة بتاريخنا أكثر مما نجده في لغتنا العربية .

أما النواحي الخاصة في تاريخنا القومي ، وأما سير عظمائنا ، وهي التي أوحت إلينا بكتابة هذا الفصل ، فما زالت مغمورة منسية . وأي نسيان ، بل وأي نكران أشد من أن يبقى ذلك الثبت الحافل من عظمائنا ومفكرينا في العصر الحديث دون ذكر محقق منظم ؟ أليس مما يشين نهضتنا العلمية والأدبية أن يحرم رجال مثل عرابي والبارودي وعلي مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من أبطال نهضتنا القومية من تراجم ضافية ناقدة محققة يقرأها الشباب والخلف ؟ إن العظماء في الأمم المتمدينة يذكرون دائماً أثناء حياتهم بما يخلد ذكرهم بين مواطنيهم ؛ فإذا توفى أحدهم صدرت عنه غداة وفاته الفصول والكتب المحققة ، هذا عدا ما يكون قد صدر منها أثناء حياته ؛ أما نحن فننظر إلى التاريخ المعاصر نظرة الجمود والاستخفاف ، ونكتفي يوم يذهب أحد عظمائنا بأن نشيعه إلى قبره ببعض المقالات والمراثي ، ثم لا نلبث أن يغمره النسيان إلى جانب أسلافه ؛ وهكذا يتكدس أمامنا ثبت عظمائنا فلا نتلقى من سيرهم وأعمالهم إلا صوراً مشوهة ؛ بينما نعرف الكثير عن عظماء الأمم الأخرى ، لأننا نجد في سيرهم كتباً محققة ممتعة تشوق قراءتها .

ولاريب أن معظم التبعة في ذلك الإهمال الشائن ترجع إلى نوع الثقافة التاريخية الذي نتلقاه في مدارسنا ؛ فهذه الثقافة ماتزال قاصرة ، بعيدة عن أن تخص التاريخ القومي بما يجب من عناية ، بعيدة عن أن تذكي الشعور الوطني في نفوس النشء . والشعور بالكرامة القومية هو أول دافع للشباب والباحثين على استقصاء سير عظماء الوطن ثم على تحقيقها وتدوينها .

هذه كلمة أخرى نرسلها على صفحات « الرسالة » لننبه على احدى مواطن الضعف في ثقافتنا وآدابنا التاريخية ؛ ولنذكرها إخواننا الذين فكروا منذ عام في وضع تراجم وافية محققة لعظماء مصر في العصر الحديث أن يعاودوا البحث في هذا المشروع العلمي الوطني الجليل ، ولعلهم موفقون هذه المرة إلى تحقيقه وإخراجه ؛ فيسدون بذلك ثغرة مشينة في تاريخنا القومي ويضعون سنة حسنة في آدابنا التاريخية ، ويستحقون بذلك عرفان الجيل الحاضر والأجيال القادمة .

محمد عبد الله عنان
المحامي

[1] يسرني أن أنوه بهذه المناسبة بجهود صديق المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك وكتابه الجامع القيم « الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » وهو خير ما أخرج بالعربية في تاريخ مصر الحديث .

بين فني التاريخ وفن الحرب

٣ – خالد بن الوليـــد *

في حروب الردة

للفريق طــه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

٥ – أسلوب القتال :

من الخطأ القول بأن ليس للعرب أسلوب في القتال قبل الاسلام . فان من تتبع أخبارهم في الجاهلية اتضح له أن للقوم مبادىء يسيرون عليها في قتالهم ، وكانت هــذه المبادىء ملائمة لاستعمال سلاحهم ومنطبقة على البيئة التي يقاتلون فيها .

أجل ، إن العرب لم تقاتل بالجموع التي كان يقاتل بها الفرس أو الروم الذين كانت جيوشهم كبيرة قد تربو على المائة ألف في بعض المعارك . وجيش بهذه القوة يحتاج الى تنظيم ليسوقه قبل المعركة وتعبئته فيها . فجيش أولئك الأعاجم كان ينقسم الى راجلين وفرسان والى طاعنين وضاربين ورماة . وكانت الفيلة عند الفرس والعجلات الحربية عند الروم ، تقوم مقام الأسلحة الثقيلة كالدبابات والمدافع الضخمة في يومنا هذا .

فنظام القتال عند اليونان كان مستنداً الى « الفيلق » (الفلانكس) وهو وحدة تعبيوية يبلغ متوسط قوتها (٤٠٠٠) مقاتل ، يصطف الجنود فيها على ستة عشر صفاً طول كل صف (٢٥٦) مقاتلاً . والجنود في « الفيلق » (الفلانكس) من المشاة مسلحون بالرمح والسيف والحربة والمغفر والدرع والترس . ويتكون من « الفيلق » القلب ويقف في الخط الثاني الذي يسبقه الخط الأول المؤلف من الرماة ويليه الخط الثالث . وتقف الخيالة في الميمنة والميسرة لحماية الجانب .

ويتألف الجيش عادة من أربعة « فيالق » (فلانكسات) متى تيسرت القوة فيه . فتقف « الفيالق » جنباً إلى جنب وبينها فاصلات صغيرة تتراوح بين عشرين وأربعين خطوة .

وكان هذا النظام لا يصلح للقتال إلا في الأرض السهلة المنبسطة ، والقدرة على الحركة فيه قليلة ، ولا يستطيع تغيير الجبهة متى اقتضى الموقف ذلك ، فضلاً عن أنه معرض للخسارة إذا أصيب برمى السهام .

أما نظام القتال عند الرومان فكان مستنداً الى (اللجيون) ، وهذا ينقسم الى الكراديس ومجموعها عادة عشرة . وكانت الكراديس سابقاً تعبأ على خطين كل خمسة منها في نسق وبينها فاصلة جهة كردوس ، على أن تقف كراديس الخط الثاني وراء فاصلات الخط الأول .

ثم تطور هذا النظام في عهد يوليوس قيصر ، فكان اللجيون يقف على ثلاثة خطوط : في الخط الأول أربعة كراديس ، وفي كل من الخطين الباقيين ثلاثة ، وتبلغ قوة كل كردوس ألف مقاتل .

وتؤلف الكراديس القلب ، ويقف أمامه الرماة الذين يرمون العدو بسهامهم أو بحرابهم قبل الاصطدام ثم ينسحبون الى المجنبات . أما الخيالة فتحمي المجنبتين .

وكان نظام الكراديس يفوق نظام « الفيلق » « الفلانكس » في المقدرة على القتال والحركة والسير بسهولة ، وكان في استطاعة الكراديس أن ينجد بعضها بعضاً .

والجانب في اللجيون قوي بخلاف جانب « الفيلق » (الفلانكس) ، لأن كراديس الجانب متى غيرت ناصيتها استطاعت أن تقابل العدو الملتف حولها .

وسار الروم أو البيزنطيون في قتالهم على نظام الكراديس . فأخبار الفتوح الأولى تدل على أنهم كانوا يعبئون قواتهم كراديس ويحمون مجنبتهم بالميمنة والميسرة . وكانت قوة الجيش تختلف باختلاف عدد اللجيونات وتقف على خط واحد ، فاما أن تؤلف القلب فتؤلف الخيالة وحدها الميمنة ، واما أن تؤلف القلب والميسرة والميمنة وتكون الخيالة على الجانبين .

وإذا كان عــدد اللجيونات كثيراً يحتوي القلب عادة على أكثرها . وقد زادت قوة الخيالة على ما كانت عليــه في زمن

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل .
« الرسالة »

الرومان ، ذلك لأن الأقوام المتوحشة التي هاجرت من آسيا ودخلت أوربا باغتت رومية بجيوشها الخيالة الكبيرة . ولما توطنت هذه الأقوام في أوربا ، واندمجت في القاطنات الرومانية وجهزت الجنود لجيوش رومية زاد عدد الخيالة فيها وأصبح للفارس شأن خطير في القتال .

ولا يختلف نظام القتال عند الفرس عن نظام القتال عند الروم إلا اختلافاً يسيراً . والجيش الفارسي على ما يظهر كان منقسماً إلى كتائب — والكتيبة تقابل الكردوس وتبلغ قوتها ألف مقاتل — وكان خط القتال فيه ينقسم الى القلب والميمنة والميسرة ، وكانت كتائب الخيالة تحمي الجانبين على ما هو شائع . وكانت الفيلة تتقدم في جبهة القتال وعلى ظهورها الجنود المسلحون بالحراب والقسي . والذي يلفت النظر أنه كان للرماة شأن خطير في الجيش الفارسي . ولعل المشاة كانوا جميعاً مجهزين بالقسي وجدّ ماهرين في الرماية .

ومن الأساليب التي كان الجيش الفارسي يلجأ اليها في حرج الموقف ربط الرجال بعضهم ببعض بالسلاسل لكي يثبتوا في محلهم مهما كلفهم الأمر .

فازاء هذه الأنظمة الشائعة بين الدول الكبرى المجاورة لبلاد العرب ، كان طبيعياً أن يسير الحرب على أسلوب معين في قتالهم . ولم يترك العرب في عُقر دارهم في السنوات التي سبقت الفتوح . فالرواة يروون هجوم الحبشة على بلاد اليمن ، وتوغلهم فيها بعد انتصارهم على الجيش اليماني ، ويشيرون الى التجاء تابعة اليمن الى أكاسرة فارس وطلب النجدة منهم . فخاض الجيش الفارسي عباب البحر على أسطوله ، وأرست سفنه على شواطيء اليمن ، وحارب الأحباش وانتصر عليهم وطردهم من اليمن .

والقصاصون ينقلون أخبار المناذرة والغساسنة في حروبهم ومنازعاتهم لكسرى أو لقيصر في الحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين الفرس والروم . وقد ورد في القرآن الكريم نتف من أخبارها . أما مؤرخو الرومان فيذكرون انتصار ملك تدمر أذينة على الرومان واعتزاز زوجه الزباء (زينوبيا) بالعاصمة تدمر .

فهذا الاحتكاك المستمر بين العرب والأمم المجاورة لهم والاشتراك في القتال مع الجيوش الأجنبية منجدين أو مستنجدين ، والغارات المتوالية على أرض السواد في العراق أو أرض الشام ، كل أولئك حمل العرب على اقتباس بعض الأساليب الحربية الشائعة عند الفرس والروم ، لذلك لا يأخذنا العجب اذا سمعنا أن المناذرة كتيبتين ، أي كردوسين : الدوسر والشهباء ، وأن بكر بن وائل قاتلت الفرس في يوم ذي قار على تعبئة .

ومن المبادىء الحربية التي كان العرب يتمسكون بها في قتالهم مبدأ المباغتة ، والقدرة على الحركة ، والأمنية . فالمباغتة من أخطر المبادىء التي كانوا يتوخون منها الفوز في جميع خططهم . لذلك تدل أخبار أيامهم ووقائعهم في الردة على عنايتهم الزائدة بالاستطلاع ، فكانت العيون تسبق حركاتهم ، فاما أن يباغتوا عدوهم بأخذه على غرة ، أو أن يكمنوا له فيفاجئوه .

أما مبدأ القدرة على الحركة فظاهر من سيرهم على ظهور خيلهم أو جمالهم خفافاً مسافات بعيدة بسرعة فائقة . وأما عنايتهم بمبدإ الأمنية فمعلوم من إيفادهم الأرصاد والعيون ، ووضع الخيالة في المجنبة في القتال ، ومراقبة جانب العدو مراقبة مستمرة للهجوم عليه عند سنوح الفرصة .

ومن المحتمل أننا لا نرى في كتب التاريخ مثالا للحركة السريعة التي قام بها خالد بن الوليد حين أمره عمر بنجدة جيش سورية وهو يحارب في العراق . فقطع ابن الوليد البادية بجيش يبلغ عدده تسعة آلاف مقاتل على ظهور الخيل والجمال ، وابتدع وسيلة لضمان الماء اللازم لخيله ، وذلك عمل يدل على نبوغ نادر ، وسنشير الى ذلك عند البحث في فتح العراق .

وفي غزوة أُحُد كانت قوة المسلمين الف رجل ، تخلف منها ثلثمائة رجل . وكانت قوة قريش ثلاثة آلاف رجل ، فنظر الرسول في كثرة قوة العدو ، فأخلى المدينة وانسحب الى شمالها جاعلاً جبل أحد خلفه للاستفادة من مناعته ومن وضعه المشرف على ما حوله . ولما لم يكن الجانب الأيسر مسنوداً بقوة ، وضع فيه مفرزة رماة بقوة خمسين رجلا لحمايته . أما جيش قريش فرتب صفوفه للهجوم بعد أن وضع قوة الخيالة على مجنبته ، وكانت تبلغ مائتي رجل ، وقدم الرماة في الخط الأول .

وكان خالد على رأس خيالة قريش في الجانب الأول يراقب رماة المسلمين ويشاغلهم ويتحين الفرص للهجوم عليهم ، لكي

يقطع خط الرجعة على المسلمين . وفعلاً استطاع ذلك لما سنحت الفرصة ، فقلب فوز المسلمين الى انكسار مروع . فهذا كله يثبت لنا أن للعرب أسلوباً فى القتال ، وأن مبدأ الباغتة ومبدأ الأمنية كانا من أخطر المبادىء التى ساروا عليها .

وفى يوم ذى قار نرى بوضوح النظام الذى سار عليه العرب فى قتالهم الفرس ، وهو يؤيد ما ذهبنا اليه .

ولا يخفى أن معركة ذى قار وقعت بين غزوة بدر وغزوة أحد ، فانتقم فيها العرب من الفرس ، ونالوا ظفراً حاسماً شجعهم على الاستهانة بقوة فارس ، وساعدهم على غزو بلاد السواد غزواً متواصلاً ، حتى آل الأمر الى فتحهم تخوم العراق .

ويروى لنا صاحب الأغانى أخبـــار ذلك اليوم بالتفصيل .

والواضح من ذلك أن العرب عبأوا قوتهم صفوفاً وقسموها إلى كتائب ، وجعلوا الظعن فى الوراء ليحموه بقلبهم ، وكان بمنزلة القاعدة التى يتمون منها الجيوش فى يومنا هذا وتوضع الخطط الحربية لحمايتها .

وأقاموا قوة فى الميمنة من بنى عجل ، وقوة فى الميسرة من بنى شيبان ، أما القلب فألفته قبائل بنى بكر بن وائل . ومن الأساليب التى ساروا عليها أنهم لم يقدموا الصفوف للقتال دفعة واحدة لكى لا تصيبها سهام الفرس فتفتك بها . وكان الفرس على ما نعلم ماهرين فى الرماية . والحقيقة أن تقدم الصفوف بأجمعها فى وقت واحد يجعلها عرضة للسهام دفعة واحدة ، بينما البدء بالحركة بكتيبة واحدة يجعل الصفوف الأخرى فى مأمن من ضررها . وهـذا من الأساليب التى كانت تراعى فى هجوم الخيالة على المشاة ، إذ تبدأ الحملة بخط منتشر ضعيف من الخيالة وتليها الخطوط المنظمة .

فالعرب على ما يظهر جلياً دخلت ميدان القتال بنظام لم يكن أقل شأناً من نظام الفرس ، وكان من أمره أن هزموهم شر هزيمة ، وطاردوهم الى أرض السواد بعد أن غنموا أحمالهم وأثقالهم .

ولعل الطريقة التى سار عليها الرسول (ص) فى غزوة بدر تدل على فكرة التعبئة عند العرب . كانت قوة المسلمين تبلغ ثلثمائة مقاتل ، بينهم خيال أو خيالان فقط ، بينما كانت قوة قريش تربو على الألف وفيها مائة خيال .

وكان القصد من هذه الغزوة مباغتة قافلة قريش عند عودتها من الشام الى مكة . ولما وصلت قوة المسلمين الى مياه بدر علمت من الأسرى أن قريشاً أنجدت القافلة بقوة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف قوة المسلمين . وكان لابد من الاصطدام ، لأن انسحاب المسلمين دون القيام بعمل مما يؤثر فى سطوة الاسلام ويشجع المنافقين على الشغب .

لذلك قرر الرسول أن يقاتل قريشاً بقوته الضعيفة على أن يزيد مناعتها بالتدابير التعبوية الموافقة . فاختار موضعاً يهيمن على معسكر قريش وقسم قوته الى ثلاثة أقسام ، وجعل لكل قسم قائداً ، ورتب الأقسام بعضها بجانب بعض ، وعبأها صفوفاً كالبنيان المرصوص ، وعرض الصفوف بنفسه فقدم المتأخر من الجنود وأخر المتقدم منهم فأصبحت الصفوف متراصة .

ومنع المسلمين من رمى النسهام ومن التفاخر ، وطلب منهم أن لا يتقدموا من محلهم ، ولا يرموا إلا بعد أن تدنو قريش منهم على مسافة قريبة . وكان يقصد بذلك أن تصيب السهام قوة قريش الفائقة فلا تتبعثر . وبفضل هذه الترتيبات انتصر المسلمون على قريش مع قلة عددهم وضآلة سلاحهم . ولا شك فى أن القتال بالكر والفر كان شائعاً عند العرب : ولعلهم كانوا يستعملونه كثيراً فى غزواتهم لأخذ الثار أو لجر مغنم . وكانت يقع بين متقاتلين يبلغ عددهم العشرات ولا يجاوز المئات . ولما كانوا يقاتلون بالجموع فى أيامهم الشهيرة أو فى مقاتلتهم الفرس أو الروم كانوا بلا ريب يعبئون قواتهم صفوفاً .

(يتبع) طه الهاشمى

لبيك ! لبيك ! . . .

للأستاذ كرم ملحم كرم

رأى أديب دمشقي فاضل أن يسألني ماذا أعني بقولي : « إن للتوراة والإنجيل والقرآن من الرواية أكبر نصيب » ، وعليّ أن أوضح للأديب الكريم ماذا أعني وإن يكن فيما أوردت في مقال « ما هو أدب اليوم ؟ . . . » بيان مسهب جلي .

فقد تحدثت في أدب اليوم عن الرواية ، وقلت إنها ركن الأدب في كل عصر وكل آن . أما القصد منها فلا يعدو تغذية النفس بالمواعظ ، والحث على الفضيلة ، ومحاربة الفساد ، وقد تخرج روايات كثيرة عن هذا الهدف ، فينصرف قائلها أو واضعها إلى امتلاك سامعيه أو قرائه بحوادث رائعة مدهشة ترمي إلى التفكهة وقضاء الوقت ، والوقوف على غرائب لا وجود لها في أحيان كثيرة في غير مخيلات ناسجيها .

والرواية نوعان : منها التاريخية ومنها الخيالية ، بل هي محيط واسع تشمل الحقائق والأكاذيب ، تشمل الملموس المحسوس والخيالي المجهول . فمن حق الراوي أن يتفنن في سرد حكاياته على ما شاء . له أن يستعين بالتاريخ وأن يسخر بالتاريخ . له أن يقدس الحقيقة وأن يعرض عنها .

فهو حر مطلق في أن يقول ما شاء . وما يقوله رواية تختلف قيمتها باختلاف قدر قائلها وقوة تركيبها ومن تتناول من الأفراد .

والكتب المقدسة تحمل روايات عديدة . ففي كل فصل من فصولها رواية ، وإننا لنبدأ بالتوراة . ففي سفر التكوين رواية ، وفي تمرد الملائكة وسقوطهم إلى الجحيم رواية ، وفي عصيان آدم وحواء مشيئة الله وأكلهما الثمرة المحرمة رواية ، وفي حكاية ابراهيم وهاجر رواية ، وفي موقف عيسو من أبيه اسحق رواية ، وفي حب يعقوب لابنة خاله رواية ، وفي حكاية يوسف وإخوته رواية ، وكم من حكاية وحكاية في التوراة . فالكتاب يجمع بين دفتيه حكايات العهد القديم في معظمها .

ولننتقل إلى الانجيل . فالمسيح نفسه صارح سامعيه بأنه يخاطبهم بالأمثال لكي يفهموا . فحدثهم عن الابن الشاطر ، وعن تجار الوزنات الخمس ، وعن العاملين في الكرم الذين أقبلوا في أوقات متعددة وتقدم رب الكرم أجراً واحداً ، وعن العذارى اللواتي يحملن زيتاً في مصابيحهن . وهناك حكايات لا تحصى ضربها المسيح مثلاً لتلاميذه وسامعيه .

والقرآن ما خلا من هذه الحكايات . خصوصاً الحكايات الواردة في التوراة . من حكاية سفر التكوين ، إلى حكاية سقوط الملائكة ، إلى حكاية زكريا ، إلى حكاية مريم بنت عمران ، وربك نفسه قال في سورة يوسف : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . فان قول ربك : « نحن نقص عليك أحسن القصص » دليل ناطق على أن القرآن لا يخلو من الرواية .

ولماذا يخلو من الرواية ؟ أتكون الرواية نقيصة ؟ أليس من شأنها تهذيب النفس ورد الخاطئين إلى الله اتعاظاً بما سبق ونال الضالين من عقاب وقصاص كما اتفق لعاد وثمود ؟ . . .

فلا غضاضة إذاً على الكتب المقدسة ، والقرآن منها ، اذا حوت الروايات ؛ وفي الروايات عظات بليغة . ولا حاجة لقول الأديب الدمشقي عن التوراة والانجيل : « صاحب البيت أدرى بما فيه . . . » ، فلا مجال في بحثنا للطوائف والنيل من الأديان ؛ فالحديث حديث أدب ، والطائفية في واد ونحن في واد ، وكل قصدنا مما قلنا أن الرواية تتغلغل في أي مكان ، في الكتب المقدسة وفي سواها . كل قصدنا أن نقول إن الرواية انبثقت بانبثاق الكون ، وإنها أدب كل يوم . كل قصدنا أن نحث أدباء العرب على الاشتغال بالفن الروائي ، فان آثار هذا الفن تكاد تمحى في الأدب العربي .

أما أن نكون رمينا الى الحط من منزلة الكتب المقدسة ، فذلك مما لا نفكر فيه ولا يحق لنا أن نفكر فيه ، فنحن نحترم هذه الكتب ، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدين بتعاليمها ، وتؤمن كل الايمان بآيها ؟ . . .

والكتب المقدسة تطبع العقول على الخير ، وتثقف النفوس وتقودها في الطريق السوي ، وإذا كان بعضنا يرتاب في أصلها وطريقة وضعها ورموزها ، فليس له أن يعلن هذا الارتياب لئلا

من ذكريات الصبى

الذهاب الى المدرسة

للأديب حسين شوقى

حينما أعيد على نفسى الآن بعض ذكريات صباى ، أدهش من الشخصية المؤلمة التى كانت لى فى ذلك العهد .

كنت مضرباً أولاً عن الذهاب الى المدرسة ، برغم تقدمى فى السن ، وقد بلغت الثامنة . . وكان والدى يحبنى كثيراً ، فلا يعارضنى فى رغبتى ، برغم إلحاح أفراد أسرتى جميعاً ، وبخاصة مربيتى العجوز ، وكانت امرأة شركسية شديدة المراس ، تفشل معها حيلى وتوسلاتى . . كانت هذه المربية مغرمة بالشاكسة ، فاذا لم تجد من تشاكسه ، عمدت الى ضرب القطط والكلاب !

وكنا جميعاً نتحمل هذه المزية المتعبة ، لأنها قديمة العهد عندنا ، إذ كانت مربية لوالدتى قبل أن تكون مربية لنا .

وكان لا يروق هذه المربية أن تثير موضوع ارسالى الى المدرسة إلا أثناء الطعام ، فتنغص علىّ . . فكان والدى رحمه الله يثور عليها ، وينحى عليها باللوم القارس فتسكت ، ولكن تعود فتتمتم شتائم — بالتركية — تتناول الجميع . . فكنت من جانبى أنتهز هذه الفرصة للثأر منها ، إذ أعيد بالعربية فى صوت عال هذه الشتائم . . فيهيج عليها الجمع ، ويضطرونها الى مغادرة الحجرة مغضبة ثائرة . .

ولكن لما تكررت منى هذه « الدسائس الشرقية » افتضح أمرى ، وأخذت مربيتى تقابل دسائسى بالدس لى ، فألحت إلحاحاً شـــديداً فى إرسالى الى المدرسة حتى تمكنت من ذلك ، للتخلص منى غالباً ، لا حباً فى العلم .

أدخلت مدرسة الآباء اليسوعيين « بالظاهر » بالقسم التحضيرى الذى تديره الراهبات . . وكان بين مربيتى وبينى نضال كل يوم فى الصباح ، إذ كنت أحاول ألا أذهب الى المدرسة ، متعللاً بالمرض . . ولكن مربيتى الخبيثة كانت تفهم حيلتى ، فتقول : حسين . . إذا كنت مريضاً فابق بالمنزل ، ولكن عليك أن تأخذ مسهلاً ، فكانت بقولها هذا تضعنى بين أمرين أحلاهما مرّ . . وكنت فى النهاية أفضل المسهل لأن المدرسة كانت سجناً ؛ إذ أغادر المنزل فى الساعة السابعة صباحا (وكنا وقتئذ نقيم فى المطرية) ، ولا أعود إلا فى الساعة السابعة مساء ، أى أن النهار كان يولد ويموت وأنا بعيد عنه وعن ضوء شعاعه البهيج . .

حقاً ، ما أتعس حياة التلميذ !

كان الخادم المكلف بمرافقتى من المدرسة الى المنزل يتأخر أحياناً لدى الخروج ، فكنت أجهش بالبكاء مخافة أن أقضى ليلى أيضاً بالمدرسة . .

وكان لى رفيق بالمدرسة ، مصرى كذلك ، يبكى مثلى اذا تأخر عنه خادمه . فيا لنا وقتئذ من جوقة نداَّبة !

أما داخل المدرسة فكان الراهبات الطيبات لا يألون جهداً فى تحبيب الحياة المدرسية الينا ، فكن يغمرننا بالهدايا ، من ورق ملوّن وحلوى وغيرها . . ولكن برغم هذا كله كنت أطمح الى استرداد حريتى المفقودة ، فما أبعد الفرق بين حياة تقضى بين جدران أربعة فى وسط الغرباء ، وبين حياتى الأولى التى كنت

يؤثر فى عقول العامة ويخرج بها عن إيمانها وتقواها ، ويثير فى قلوبها الشكوك . فلولا الدين لعمّ الانسانية البلاء ، وتفاقمت الشرور ، وتعاظمت الويلات ، وانغمس الناس فى الرذيلة ، وعاشوا لأهوائهم ، وباتوا كالانعام ! .

فليطمئن الأديب الدمشقى إذاً بالاً ، فالدين نحترمه ونرغب فى أن نصونه ممن يتاجرون به لو استطعنا الى صونه منهم سبيلاً . وما حديثنا عن الرواية فى كتب الدين غير حديث اقتضاه الأدب لا الطعن على الدين . والأديب الفاضل رأى بعينيه مما أوضحنا له ، أن للرواية من أى كتاب دينى أكبر نصيب .

فليهدأ روعه القلق ، ولتسكن جدته ، ولينظر مرة أخرى فى مقالنا « ماهو أدب اليوم ؟ . . » فيثبت له أننا وضعنا الكتب الدينية على مسافة بعيدة جداً من روايات « ڤولتير » ، واعترافات « جان جاك روسو » وغراميات « لا مارتين » . . .

وعهدنا بالأديب الدمشقى تكفيه الاشارة !

بيروت — كرم ملحم كرم
صاحب مجلة « العاصفة »

أقضيها في رياض المطرية الغناء ، متنقلا بين الخضرة والزهور .

إن الحرية لا تقدر في كل وقت وفي كل زمن !

كم كان يرهقني في ذلك الوقت حفظ أشعار لا فونتين ! فكنت أبغض ذلك الشاعر المسكين ، كما كنت أسخر منه ، لأنه يجعل الحيوانات تتكلم شعراً . ومن رأيي ألا يدرس لا فونتين وأمثاله في مثل هذه السن التي لا يمكن فيها تقدير هذه النفائس الأدبية ..

ولكن ذهابي الى تلك المدرسة لم يدم طويلا ، فقد فصلت منها لكثرة انقطاعي ، فجيء لي حينئذ بفضل تعضيد والدي — بمدرسين في المنزل ! فكان هذا بداية عهد سعيد ، لم يطل مع الأسف ، إذ نفينا بعده بأشهر قليلة الى اسبانيا !

* * *

وأذكر من ذلك العهد أيضاً حادثاً يدل على مقدار حقد الطفل وعلى روح الانتقام الكامنة فيه ، وذلك خلاف ما ينتسب اليه من طهر وبراءة .

اشترى والدي وقتئذ سيارة (تورنيدو) ذات أربعة مقاعد ؛ وكنت أطمح الى أن أقودها مثل أخي وهو يكبرني بسنوات قليلة ؛ ولكن السائق رفض لصغر سني ، فرفعت الامر كعادتي الى والدي فلم ينصفني على خلاف عادته ، بل أعطى الحق للسائق إشفاقاً منه على حياتي .. فأقسمت أن أثأر من السائق ، واليك كيف أتيحت لي الفرصة أن أحقق هذه الأمنية :

كانت هناك في المطرية في ذلك الوقت حانة تديرها أجنبية فاسدة ، يحذروننا منها . فاتفق ذات يوم أنني كنت عائداً في المساء من محطة المطرية الى المنزل — مشـياً على الأقدام — فاعترضني في الطريق جنديان بريطانيان يستفهمان عن عنوان تلك الحانة ، فأعطيتهما من فوري عنوان منزل السائق ! فكان ما قدرته ، إذ عندما جاء السائق — الى منزلنا — في صباح اليوم التالي ، كعادته ، كانت عينه اليمنى زرقاء اللون ، فقد تشاجر مع الجنديين البريطانيين ذياداً عن عرضه !

حسين شرقي

من ذكريات لبنانية

النفوس المغلقة

للأستاذ أديب عباسي

نهضت في الصباح الباكر ودعوت حمالاً يحمل الحقائب الى المحطة . وكنت قبلها قد هممت مرتين في صباحين متواليين أن أسافر ، ولكنني كنت كل مرة أصل المحطة متأخراً عشر دقائق أو نحوها . وكنت بالطبع ألقى اللوم على أصحاب الفندق الذين يتعمدون التلكؤ عن تنبيهي صباحاً حتى يستنزفوا البقية الباقية من دراهمي ! والحقيقة التي لا امراء فيها أن أصحاب الفندق لم يهملوا تنبيهي في الوقت الذي سألتهم أن ينبهوني فيه ، ولكنها الرغبة الكامنة في البقاء في هذا البلد الجميل — لبنان — كانت كل مرة تتغلب على الارادة الشاعرة فتغمض العينين بعد انفتاح ، وتضرب على الأذنين بعد انتباه ، وتهوم للشعور فيغفو بعد صحو ، ويغيب بعد حضور .

وكنت بعيد أن أبلغ المحطة وألحق في القطار الذاهب في حنق مكذوب أعود أرضي نفساً وأوفر بشراً مما لو كنت لحقت بهذا القطار — قطار لبنان العجيب — ليحملني بين أنفاسه الفاسدة في أنفاقه المتعددة ، وسيره المتخلع البطيء ، ويلفظني بعد مسيرة سبع ساعات على حال شر من الحال الذي خرج عليه يونان بعد ضيافة ثلاثة أيام قضاها في بطن الحوت في غير رحب ولا سعة .

وسمعت ، وأنا لا أزال في الطريق ، مناديا ينادي : ياأفندي ، تفضل ! وأدركت أنني أنا المقصود بهذا النداء ، فاستدرت ونظرت وإذا شاب حسن البزة واقف بجانب سيارته البديعة وعينه الى ويده تشير الى السيارة . ودنوت أسأله في تلكؤ متكلف ماذا تريد ، فأجابني متلطفاً : أوتوموبيل جميل . وخير لك أن تسير فيه من أن تسير في القطار .

وبعد أن استنزف بلاغته في صرفي عن السفر في القطار قال إنني لا آخذ منك إلا مثل ما آخذه من كل راكب . وذكر مبلغاً هو

ضعف ما يؤخذ عادة أجراً على مثل هذه المسافة . وعندها أدركت أنى ألبس سدارة ، ومن هنا سيأتيني الخطر في هذه الصفقة ، وبادرت أصلح الموقف على قدر ما يمكنني الإصلاح وقلت : لتعلم أن من غير العراقيين من يحب أن يلبس السدارة (وإخواننا العراقيون — سامحهم الله — يبعثون ، حيثما حلوا ، موجة من الطمع في نفوس الساقة والباعة . على أن السدارة من ناحية أخرى «حماية» وصاحبها لا يرزأ إلا في نقوده . وفيما عدا ذلك فهو من نفوس القوم حيث تشاء الكرامة ويسمو الإباء والعزة) . وبعد مساومة قصيرة رضي صاحبنا بنصف القيمة التي ذكرها .

ووقفت السيارة أمام فندق جميل من فنادق (عاليه) . وبعد نفخة أو نفختين من بوق السيارة أقبل راكبان : رجل وامرأة يجرى أمامهما طفلان صغيران .

والرجل ربعة القامة ، تخطى العقد الرابع من عمره ، جامد الملامح ، محني الظهر كأنه يحمل عبئاً ثقيلاً . أما الفتاة ففي ربيع الحياة ، في قامة هيفاء يخيل إليك أنها نحيلة وما هي بنحيلة ، ضحوك المبسم في وجه صبوح ، ونظرات تشع ذكاء ، يكسر منها قليلاً خفر طبيعي ووداعة ملازمة .

***

وانطلقت بنا السيارة في بطء ملحوظ ، فكأن سائقها الذكي فهم من تلفتنا ونظراتنا الشائعة أننا نودع عزيزاً ونشيع غالياً ، فلا تحمد السرعة في هذه الحال .

وأطلت زوجة الزامل من نافذة السيارة ، وأخذت تجيل الطرف في كل ما يمكنها من اتجاه . والتفت إليها زوجها ونصحها مترضياً بأن تكف عن النظر والالتفات ، وإلا أصابها الدوار ؛ ثم إذا كان لابد من النظر فلتنظر إلى الأمام فقط .

والتفتت إليه الفتاة وقالت في وداعة ظاهرة : لست أرى أمامي إلا الزفت ؛ فهل تريد لي أن أغادر لبنان وليس ما يقع عليه ناظراي إلا الزفت ؟ إنني أحب أن أشبع النظر من لبنان ، وأشبع الخاطر من فتنته قبل أن أغادره . فبادرها بقوله : ماذا في لبنان مما يفتنك ويتصباك ، ويجعلك تعرضين نفسك لخطر الدوار المؤكد ؟ عندها خاطبته في شيء من التبرم وكثير من الإغراء والرغبة في استثارته إلى مشاركتها في بثها وقالت :

الله ! ألا ترى هذه الجبال كيف تهاوت صخورها عند الحضيض ، وكيف شخصت برؤوسها المدببة كأنها أعمال رصت صفاً وراء صف ؟ ثم ألا ترى إلى هذه الأخاديد والوهاد كيف تقطعها تقطيعاً بديعاً فتجعل منها مثل ما تجعل الشوارع من المدينة ؟ وإليك هذه الأشجار ، منها الجبار يقف ثابتاً لا تلوى به ريح ولا يثنيه إعصار ، تستكين إلى ظلها هذه الشجيرات الصغيرات كأنها الحجلان تفيء إلى جنح الأم وتلوذ بحنوها وتدنو قدر ما تدنو من قلبها الخفاق . ألا ترى في ذلك جمالاً ولا جلالاً ؟ وأي جمال وأية فتنة في هذه الجبال الجرداء الشامخة تقوم إلى جانبها هذه التلال الوطيئة في هذا الحقل من شجر الأرز ، والسنديان يكلل رؤوسها ، وكأن كل ربوة من رباها دوحة جبارة واحدة أغصانها جذوع هذه الأشجار وأوراقها أغصانها ! ؟ ثم هذه الغيوم ومنها الذي أسف إلى قعر الوادي واختلط بأهله اختلاط الألفة ، وجاورهم جواراً زالت معه الكلفة ؛ ومنها الذي أبى إلا تصعيداً ومنافسة لأعلى هذه الجبال فيخيم على رأسه إكليلاً من ذهب صباح مساء ، ومن فضة فيما بين ذلك ؛ ومنها الذي أبى إلا إمعاناً في التحليق والتصعيد فوق ذلك ، فجعلت من التيارات القوية ما يحمله النسر من ريش الطائر ، وقد شحذ النسر عليه مخالبه وألهبه سعار الجوع ؟ ثم هذا البحر السجى من ورائنا ، جاث عند ركبتي لبنان يبللها زبده ويغسلها موجه ، ويهمس في أذنه أن خل مكانك ، وتعال أبوئك الصدر بدل أن تكتفي مني بالزبد ، والزبد دائماً يذهب جفاء . وقديماً أغراه همس البحر السحري فتحرك وتناول خير ما أنبت ، وبعث به جوارى من الأرز ملء ضلوعها رجولة وقلوب كبيرة ... أو نسيت الباروك وماءه القر النمير ؟ أنسيت ينابيع لبنان المثلجة وكيف كنا نتجرع ماءها قطرة قطرة لما كانت تفعل الجرع الكبيرة المتوالية في الأسنان ؟ ثم هل نسيت البارحة وكيف أمطرتنا السماء وابلاً اضطرنا أن نتعطف المعاطف كأننا من العام في شهر آذار ؟ أمثل هذا يجتمع ويتيسر لغير لبنان من بقاع الدنيا ؟ أوه ! وماذا أقول في هذه المدن المنثورة المنورة ، وقد ألهبتها في الليل مشاعل الكهرباء ، فغدت نجوماً تومض على الأرض ، وتتحدى السماء فتحار أيهما أجمل وأروع : تلك التي تحتك ، أم هذه التي فوقك ؟ وهذه البيوت المبثوثة هنا وهناك ، لا هي بالقرى المتراصة ولا هي بالصوامع المنعزلة ، ترف عليها وحولها أغصان

السنديان والصنوبر رفيفاً كأن يداً سحرية تروّح عليها ؛ وأخيراً هذه الحمائم البيضاء فى عرض البحر تمد أجنحتها للريح تتلقى منه الندى فتسير باسم الله مجراها ومرساها ؟ أنسيت كل هذا لتسألنى ماذا فى لبنان من جمال وماذا أرى من فتنة ؟ ألا يفتنك بالله هذا التعانق الشديد بين السماء والماء والغبراء ، وهذه الألفة الفاتنة بين هذه العناصر حتى لكأن هذا ما خلق إلا ليكمل ذاك ، ولا ذاك إلا ليكمل هذا؟؟؟

وبعد أن غمرت فتاتنا فتاها بهذا السيل الجارف من الأسئلة صمتت ترقب وتتأمل . وفتح صاحبنا فاه . . أوتدرى بماذا أجاب عن كل ذلك ؟ قد تحسبه أضاف لوناً آخر الى هذه اللوحة التى رسمها خيال فتاتنا بهذه السرعة الطائرة ؟ لا ! إن شيئاً من هذا لم يحدث ، إذ لم يزد صاحبنا أن قال :

« هذه الجبال قد رأيت مثلها وأعلى منها فى البرازيل . والأشجار — كذلك — فى البرازيل ، لفَّة متداخلة تكاد لا تدع للأحد منفذاً . والبحر رأيت أضعاف سعته فى طريقى الى أمريكا . والمطر كثير أيضاً فى تلك البلاد . والبارود بُعدُ « حنفية » ماء بالنسبة الى الأمريكيين . . . »

عندها كدت أتشق غيظاً ، وهممت والله أن أتناول شيئاً وأطرحه فى وجه هذا الجلف الغليظ القلب ، الذى لا يرى إلا أن يقيس الجمال بالأميال ، ويكيله بالمكيال . وحاولت الفتاة محاولات يائسة أن تنبه من هذا الصخرة مكامن الإحساس بالجمال ، فكانت — كما يقولون — كالصارخ فى واد ، وكالنافخ فى رماد . .

* * *

وأدركت أخيراً من الفتاة ومن فتاها : هى شعلة من الذكاء والثقافة العالية ، والإحساس العميق بالحياة ، والتفطن الى همس الجمال بأصواته . أما هذا الذى يجالسها فهو من هؤلاء الذين ذهبوا إلى أمريكا ورجعوا خلواً من كل شىء ، إلا المال ، فتقدموا بهذا الطمع المغرى ، فاصطادوا خيرة الفتيات جمالاً وعلماً وذكاء !

وصاحبنا هذا — مع الأسف الشديد — ليس بالمثال النادر فى الشرق ولا بالشاذ ، وإلا ما كنا نعنى به ونثقل على القارئ الكريم بعرض صورته البغيضة ، إنما هو يمثل لنا طغمة من الناس فى شرقنا كثيرة كثرة مفزعة حقاً ، لا تتفتح نفوسهم على جمال ، ولا تنبسط لفتنة ، ولا تنشط لمتعة من متع الفن . يعيش الواحد من هؤلاء فى بقعة ركم الجمال فيها ركماً ، ولكنه يحيا — ان صح أنه يحيا — ويموت ، وكأن هذا الجمال لا يعنيه بحال من الأحوال ، وكأن هذه المفاتن لأناس من غير طينته ، وفى عالم غير عالمه ، وقد يصيب بعضهم من ينبه فيهم مراكز الجمال ، والتفطن إلى مواطن الملاحة فتتبدل النفوس غير النفوس وتنقلب حياتهم إنقلاباً شديداً ، وتنفسح أمامهم متع الحياة انفساحاً يمتد مداه على قدر ما تكشف لهم من مفاتن الطبيعة ومجالى الجمال ؛ إلا أن السواد الأعظم منهم يظلون على جمودهم ونضوب أنفسهم مهما حاولت أن تثير فيهم مكامن الاحساس بالجمال ، وتذوق الفن . وإذا رأيتهم يستملحون أو يستظرفون فانما يفعلونها من طرف لسان ومجاراة ، خشية أن يرموا بتبلد الأحساس وعقم العاطفة ، ولسنا نعزو هذا إلى نقص طبيعى فى الأحساس ، ونضوب معين العاطفة فى الشرقيين ؛ إنما نعزوه متأكدين إلى نقص فى التربية وتقصير فى التوجيه . فمدارسنا قلما تعنى بتنبيه مواطن الأحساس بالجمال فى الصغار ، وإذا فعلت ففى صورة سطحية ميكانيكية ، وهو تقصير يدفع الشرقيون اليوم ثمنه غالياً — يدفعون ثمنه ضعفاً فى الوطنية ، وجوداً عن التضحية . وهل ترجو خيراً ممن لا يرى فى جبال بلاده ولا فى سهولها ، ولا فى حزونها ولا فى أنهارها ، ولا فى ينابيعها ولا فى أشجارها ، ولا فى أطيارها ، ولا فى سمائها ، ولا فى مائها سحراً ولا فتنة يربطانه بها بعرى من الشوق والهيام لا تنفصم ولا تهى ؟؟ هذا الأوربى إجمالاً ، والإنكليزى ، على التخصيص ؛ أنظر كيف ينقل ذكرى جباله وأنهاره ، وقراه ودساكره ، ووديانه وينابيعه ومدنه إلى أمريكا وأفريقيا وأوستراليا وغيرها من قارات العالم ؛ لم يستطيعوا أن ينقلوا هذه الأشياء العزيزة عليهم بالذات فنقلوا ذكراها الحبيبة ، فظلت تربطهم بها رابطة من الشوق والهيام يؤكدها التذكير ويذيعها النوى . . .

* * *

ولنعد إلى فتاتنا . فقد شاقنى حقاً أن أتابع هذه الدراما الصغيرة إلى النهاية ، أبت الفتاة إلا تطلعاً وإسرافاً فى التطلع ، برغم نصائح زوجها الغالية ، فكأن حديثها السابق قد أذكى شعورها

وفتح لها أفقاً أوسع للتفطن والاستشراف ، وقد آلمني حقاً أمر هذه الفتاة . فهي تشعر شعوراً عميقاً بهذا الجمال الغزير وتأبى إلا أن تشرك غيرها معها في هذا الشعور ، وهي نزعة طبيعية ملحوظة في جميع الناس . فليس أحد يشعر بجمال الفن سواء أكان طبيعياً أم صناعياً ، إلا رغب أن يرى من يساهمه فيه الأحساس ويشاطره المتعة ، ولعلَّ متع الفن هي المتع الوحيدة التي لا يخشى المرء فيها الشركة ، بل هي المتع الوحيدة التي لا تطيب نفسه ولا يحسُّ بها أرهف الاحساس وأحده ، إلا إذا كان من يشاركه . فكأن كثرة الناظرين أو السامعين لآيات الفن ، المرايا تتقابل حول الصورة فتضاعف الأشباح وتزيد الصور .

***

ويئس صاحبنا من صرف الفتاة عما تريد من النظر والتلفُّت ، فراح يتلهى بالصغيرين ويناغيهما ، وانتهى به الحديث معها والمناغاة إلى صيغته بعينها جعلها لازمة حديثه وهي : يا بابا ! صباح الخير يا بابا ! وراح يرددها ويدهورها في حنجرته طوال الطريق . وخيل إلى أن الرجل لن يكف عن ترديدها ولو أمسى المساء ، وضاقت به الزوجة الوديعة ذرعاً (وللصبر حد) وطلبت اليه متوسلة أن يكف عن الحديث ، أو يغير هذه العبارة التي يوشك أن يتبرم بها الصغيرين ! وصمت قليلاً . فخيل إلينا أننا قد ارتحنا بهذا القليل من الجرأة من هذه القدر المقرقرة . غير أنه ما عتَّم حتى عاد وكأن عشرين ضفدعاً تنق في حلقه ! ولعله خشى إذ صمت أن تحسبه ذلَّ وخنس . فضاعف الصخب وزاد الجلب ، وقلت : ليتك يافتاتي لم تحاولي إسكاته ، فقد زدته ضراماً على ضرام . على أنه لم يمض حتى فاجأه أحد الصغيرين بقيء شديد ملأ صدره وانحدر يسيل إلى أسفل ، وهنا عبس الأب وانقطع عن المناغاة ، واضطر أن يشتغل بإماطة ما علق بصدره من هذا السائل المبارك ، وقلت في نفسي : عوفيت معدة ياصغيري ؛ فقد أرأت شقمنا ، وجازيته جزاء وفاقا ، وليت معدتك أوسع قليلاً فقد نحتاج إليها مرة أخرى .

***

وبلغت السيارة دمشق . وغادرتها وفي القلب ما فيه من غصة وألم بهذا الدهر الأهوج الذي يجمع بين الأنسان وشبه الأنسان .

أديب عباسي

في الأدب الدرامي

١٠ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة في مختلف القرون

أول ما نال الملهاة الأغريقية من العناية كان في صقلية . وكانت يومئذ مقصورة على تصوير العادات العامة دون تلميح إلى السياسة . وكان عميدها في هذا القطر إبيكارم (٤٥٠ ق م) . فلما انتقلت إلى أثينا تقلب بها الزمن . فمر بها على أدوار ثلاثة : دور الملهاة القديمة ، ودور الملهاة الوسطى ، ودور الملهاة الحديثة . فالقديمة تمتاز بكثرة النقد الشخصي الصريح ، فتسمي الأشخاص وتعين الحوادث . وكانت تستمد موضوعاتها من الوقائع اليومية . وتتمتع بالحرية المطلقة في مهاجمة العظماء . والوسطى ظلت كتلك تهاجم أشخاصاً معينين ، ولكنها عفت عن ذكر أسمائهم ، وأخذت تمثل أنماطاً من الناس وصوراً من الأخلاق ، وأما الحديثة فلم تطلب الجاذبية والتشويق في الحوادث اليومية والأهاجي الشخصية ، وإنما طلبتهما في تعقيد العمل الروائي ، وتصوير الأخلاق العامة . وأشهر من عالج الملهاة القديمة أرسطفان (٤٥٠ — ٣٨٧ ق م) وقد كان معروفاً بصفاء الأسلوب ، ومرارة الهزل ، وشدة الوطنية . غير أن مناظره كانت خليعة فاحشة . أما الملهاة الوسطى والحديثة فلم يؤثر منهما غير قطع منثورة مشتتة ، حتى سنة ١٩٠٧ ، فعثروا على ملهاة تكاد تكون كاملة وهي ملهاة التحكيم لميناندر .

وكان للملهاة عند الرومان من العناية والحظ ما لم يكن للمأساة ، فقد نبغ فيها كثير منهم ، أشهرهم (بلوت ٢٢٧ — ١٨٣ ق م) وقد سار على نهج إبيكارم ، إلا أنه عرف بسرعة العمل الروائي ، ونشاط الحوار ، دون تصوير للعادة ، ولا تحقيق للخلق . ثم (تيرانس) (١٩٢ — ١٥٩ ق م) ، وقد قلد منيناندر ، وامتاز

في هزاه بالجرارة والأناقة والأدب وتنويع الأخلاق والصدق في وصفها .

ثم هجرت الملهاة في القرون الوسطى ، وخلفتها في الشهرة والذيوع الرواية الرمزية الخلقية (Moralités) ، والملهاة العامية (Farce) ، والأحموقة (Sotise) ، فلم تدب فيها دبيب الحياة إلا في القرن السادس عشر . فعادت إلى الظهور في ثوب الملاهي الأغريقية والرومانية ، غير أنها كانت مصبوغة باللون الحديث ، مطبوعة بالطابع الفرنسي . وما زالت الملهاة تتردد بين الكساد والنفوق ، وتترجح بين الهبوط والصعود ، حتى جاءها موليير (١٦٢٢ — ١٦٧٣) فأقرها في نصابها ، وشرع السبيل إلى كتابها ، وطبعها بطابع الملاحظة القوية والحرارة القلبية والذوق السليم . وقد عالج موليير أنواع الملهاة المختلفة بالنظم والنثر : فله غير الملاهي الجوية والاشكالية ، ملاه اجتماعية : كالمتحذلقات السخيفات ، والنساء العوالم ، والحضري الشريف ؛ وملاه خلقية : كترتوف ، ودون جوان ، والمتوحش ، والبخيل .

وكان موليير يتناول العيب أو الحمق وهو في عنفوانه ، فيصور منه مناظر طبيعية صادقة ، ثم ينتهي من هذا التصوير ببيان عواقبه الوبيلة على صاحبه وعلى المتصلين به . فتصوير العيوب هو أكثر ما في ملاهي موليير . أما التعقيد الروائي فواه ضعيف ، والحل في جملته تعوزه الامكان والمنطق ، إذ ليس بنتيجة طبيعية لحوادث العمل . ثم ذهب موليير وأعقبه رنيار (١٦٥٥ — ١٧٠٩) فكتب طائفة من الملاهي الاشكالية كالمقامر والذاهل ، ولكن أخلاق أشخاصه ليست محددة الرسوم ، وإنما ملأها بالنكات المضحكة ، حتى قال فيه (جوبير) : (رنيار يهزل هزل الخدم ، وموليير يمزح مزاح السادة) . وظهر في القرن السابع عشر ، ولم يشتهر في الملهاة غير هذين الكاتبين . ولما جاء القرن الثامن عشر ظهرت فيه طائفة من الملاهي الجيدة . كملهاة تركاريه Turcaret أو المالي ، للكاتب لساج (١٦٦٨ — ١٧٤٧) ، فضح بها خديعي النعمة من المثرين ، وأخلاق أشبلية ، وزواج الفيجارو لبومارشيه (١٧٣٢ — ١٧٩٩) وهما ملهاتان قويتان إلا أنهما لم تراعيا حقوق الأسرة . ثم السارات الباطنة ، والوصية ، والتجربة ، لماريفو (١٦٨٨ — ١٧٦٣) وهي ملاه عني فيها كاتبها بتفصيل الدلال ، وتحليل الحب ، دون العناية بتصوير الأخلاق ووصف العادات . ثم اشتهر القرن التاسع عشر بنخبة من الملاهي القيمة لطائفة من نوابغ الكتاب . كبيكار (١٧٦٩ — ١٨٢٨) ، وسكريب (١٧٩١ — ١٨٦١) ، ولابيش (١٨١٥ — ١٨٨٨) ، وأوجييه (١٨٢٠ — ١٨٨٩) ، واسكندر دوماس الصغير (١٨٢٤ — ١٨٩٦) ، وفيكتوريان ساردو (١٨٣١ — ١٩٠٨) . وقد كان النوع الغالب على هؤلاء الكتاب هو الملهاة الاجتماعية (Comédie de moeurs) مشوبة بالمذهب الطبيعي ، فقد أخذ أوجييه ودوماس يقللان فيهما من تعقيد اسكريب . وجاء هنري بيك (١٨٣٧ — ١٨٩٩) مؤلف (الغربان) فجا التعقيد وتوخى بساطة العمل وسذاجة الأسلوب . ثم انقلب المذهب الطبيعي من بعد هؤلاء إلى مذهب المسرح الحر ، وهو مذهب سطحي الفكرة خامد الحركة ، يهزأ بالقواعد المسرحية ، ولا يتقيد بالعمل الروائي ، وإنما يكتفي بتكثير المناظر المضحكة ، وتصريف الحوار في مختلف النكات المستطرفة الحديثة . ولم يدم هذا المذهب الخليع إلا قليلاً ، ثم أودى به إسرافه وتهوره . وظلت الملهاة الاجتماعية أو الجدية أو المبكية تسير مع الزمن ، وتتطور مع أهله ونظمه ، حتى حلت محل الدرامة الابتداعية (Le drame romantique) ، وأصبحت اليوم موضوع المسرح الحديث كما سنبينه عند الكلام في الدرامة .

تلك حال الملهاة في فرنسا . أما حالها في إيطاليا فقد ظلت خافتة الصوت ضعيفة الأثر قليلة النجح حتى القرن الثامن عشر . فما كان يظهر منها قبل ذلك العهد إلا نوع غير مسطور ، يرتجله الممثلون تبعاً لخطة مرسومة من قبل . فلما نبغ الكاتب (جولودوني) (١٧٠٧ — ١٧٩٣) وهو عند الايطاليين كموليير عند الفرنسيين ، أسس قواعد الملهاة ونهج سبيلها لبني قومه .

وأما في اسبانيا فملهاتها الوطنية كانت ملهاة المعطف والسيف (Comédia di capa a espady) وهي نوع من الرواية المنزلية ، بطلها دعي من أدعياء الشجاعة الذين يسمونهم ماتامور matamore (أي قاتل العرب) لأن الرجل من هؤلاء كان يملأ ماضغيه فخراً بكثرة ما قتل من العرب كذباً وادعاء . وكانت عنايتهم في هذا النوع بتعقيد الحوادث أشد من عنايتهم بتصوير الأخلاق . وأشهر تلك الملاهي : الطاحون ، وكلب البستاني ،

للوبي دي ڤيجا (١٥٦٢ – ١٦٣٥)؛ وساحر أشبيلية، وبديم بطرس، لجبريل تلز؛ والحقيقة المريبة لروز دالركون (١٦٣٩) وهي التي استمد منها موليير أخلاق ملهاة (الكذاب).

وأما في انجلترا فلم ينبغ في الملهاة غير شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) فقد كتب: (ثارات وندسور الفرحات)، وجعجعة ولا طحن (Much ado about nothing) وتيمون أثينا، وهذا كل ما تجده من الملهاة الأصيلة في الأدب الانجليزي.

أما غيره فقد اكتفى باقتباس الملاهي الفرنسية أو تقليدها.

وأما في ألمانيا فلم ينفق فيها غير الملهاة العامية في ألعاب (المرفع)، وهو نوع من التمثيل المضحك البذيء. أما الملهاة الأدبية فلم يؤثر عن الألمان منها إلا شيء قليل القيمة عديم الأثر، على رغم مانال كوتزيبو وإيرمان، وبلوم، وبينديكس، وهكلندر من الفوز.

تحليل موجز لأشهر ملاهي موليير

كانت الملهاة قبل موليير تعتمد على قوة المواقف بدلاً من تصوير العواطف، وعلى المضحكات الخيالية بدلاً من المضحكات الطبيعية، وعلى أسماء الأجناس بدلاً من أسماء الأشخاص، وعلى العمل الخارق المستحيل بدلاً من العمل الواقعي الممكن. فكانت خليطاً مبهماً من الأسماء، ومكارم ساقطة من السماء، وعفواً في موضع الانتقام، ومزيجاً غريباً من التقاليد الأغريقية والرومانية والاسبانية والايطالية. فجاء موليير فخلق الملهاة الفنية الحقيقية لجميع العالم، ولذلك نكتفي بأن نحلل بعض ملاهيه نموذجاً لبناء الملهاة، وتقسيم فصولها، وتدبير عملها، وتدريج جاذبيتها.

***

(المستوحش Le misanthrope) صورة لرجل كريم غالٍ في الصراحة والتشدد حتى كان موضع الهزؤ والسخرية، وهي من الملاهي الخلقية التي لا وجود للعمل الروائي فيها. أهم أشخاصها: ألسست المستوحش، وهو خطيب سليمين، وفيلنت صديق ألسست، وهو رجل لطيف المعاشرة، إلا أنه مفرط المزاح، وسليمين فتاة أرملة تسعى إلى الاعجاب من طريق الزهو والصلف، وأورنت حبيب آخر لسليمين، واليانت بنت عم سليمين، وآكاست وكليتاندر مركيزان، وأرسينويه صديقة سليمين. وقد وقعت حوادثها في باريس في قصر سليمين.

الفصل الأول: السست وصديقه فيلنت في قصر سليمين ينتظران خروجها عليهما، وفي أثناء ذلك يؤنب ألسست صديقه فيلنت على أنه لقي رجلاً في عرض الشارع لا يكاد يعرفه، فبالغ في تحيته وإكرامه. فهو يقول له: إن مثل هذا العمل لا يزكو بالحر ولا يتسع له العذر. وفيلنت يجيبه في مداعبة ورفق: إن المرء مادام في الناس مقضيٌ عليه أن يسايرهم بالمصانعة، ويباشرهم بالموادعة، والحياة تحب التظرف، والعقل يكره التطرف. ولكن ألسست مسرف في بغض الناس فلا يستمع له، حتى أن له قضية منظورة في المحكمة لا يفكر فيها ولا يشغل باله بها اعتماداً على ظهور حقه، بل يتمنى أن يخسرها لتهيء له أسباب السخط والحفيظة على ظلم الانسان. على أنه بالرغم من انقباضه واستيحاشه يحب فتاة أرملة تدعى سليمين، ولكنه يعترف بدلالها وخلاعتها، ويأسف لأنها تستقبل في بيتها كثيراً من الخطاب والأحباب، وهو لذلك يريد أن يستطلع رأيها في هذا الموضوع. ويدخل على الصديقين في هذه الساعة أورنت — وهو خطيب آخر لسليمين مولع بقرض الشعر — فينتظرها معهما. وفي أثناء ذلك يرجو مهما أن ينشدها قصيدة من نظمه، فيستحسنها فيلنت ويستهجنها ألسست، ولكنه يعتب على مافي نفسه منها، ثم يلتج عما فيها من المآخذ، وينتهي به الأمر الى التصريح بأنها سخيفة ركيكة، فيخرج الشاعر غضبان يتوعد. ويقول فيلنت لصديقه وهو يحاوره: هاك خصومة جديدة جلبتها على نفسك بافراطك في الصدق وغلوك في الصراحة.

الفصل الثاني: (بهو سليمين والغيبة). يلقى السست سليمين فيلومها على خلاعتها، ويريدها أن تصرح له بحقيقة حبها ورغبة قلبها، فيقطع عليهما الحديث قدوم (آكاست) و (كليتاندر)، ثم (اليانت) و (فيلنت) فيأخذون مجالسهم، ويخوضون في أعراض الناس، ويجيد سليمين وصف النفوس اللئيمة، فيعجبون بها ويصفقون لها. ولكن السست ينكر ذلك منها، ولا يجرؤ على مجابهتها بالانكار، فتنفجر مراجل غضبه على المراكيز لتصويبهم رأيها. فاذا ما تبادر الغضب عن وجهه عاد الى سليمين يسألها أن تعلن من اختارته من الخطاب، ولكن شرطياً يقتحم الباب فجأة ويدعوه الى المحكمة للفصل في الخصومة التي بينه وبين أورنت.

الفصل الثالث : (خبث الرياء وعبث الدلال) كذلك المركيزان آكاست وكليتاندر يريدان سليمين على أن تعلن من اختارته منهما ، وتقبل (أرسينويه) صديقة سليمين فيخرج المركيزان وتخلى الصديقتان فتتبادلان السباب فى أسلوب المناصحة : تحكى أرسينويه لسليمين فى لهجة حرة مارميها به الناس فى الأندية والمجامع من الخلاعة والتهتك ؛ وتحكى سليمين لأرسينويه ما يتقوله الناس عليها من المراءاة بالحشمة وهى داعرة . ويدخل عليهما ألسست فتخرج سليمين لتكتب رسالة وتتركه مع أرسينويه فتنتهز هذه الفرصة لايغار صدر ألسست على سليمين فتريه أنه مخدوع وأنها خادعة ، وتعده أن تقيم له على خيانتها إياه الدليل .

الفصل الرابع : (رسالة سليمين) يأتى فيلنت فيعلن أن الخصومة بين ألسست وأورنت قد انتهت بالصلح ، ويدخل من بعده ألسست وهو ينتفض من الغضب ، وفى يده كتاب غرام من سليمين إلى أورنت جاءته به أرسينويه دليلاً على خيانة خطيبته . فيقول : آه ! لقد خاب الرجاء ، وضاع الأمل ، وظهرت الخديعة ، وبان الغدر ! فتترضاه سليمين بالدهاء ، وتفثأ غضبه بالملاطفة ، ويجرى بينهما الحديث ، ولكن خادمه يأتى مسرعاً إليه ينبهه إلى أن شرطياً جاء يقبض عليه فى خصومة .

الفصل الخامس : (القاطعة) يخسر ألسست قضيته التى أهملها فيتنحى باللوم والسخط على فساد الحياة ولؤم الناس ، ويعثر أكاست وكليتاندر على رسائل لسليمين فيقرآنها على ألسست ويستيقنون جميعاً بأنها تخونهم وتخدعهم وينصرف عنها المركيزان ويبقى ألسست مقيداً بسلاسل هواها ، فيعدها بالعفو عما سلف إذا رضيته زوجاً وعاشت معه فى خلوة الريف ، فترفض طلبه فييأس المستوحش ويعتزل الناس وهو يقول :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

ملحوظات على الرواية

الفصل الأول آية من آيات الفن ، فقد عرض فيه المؤلف فى حوار قوى على لسان فيلنت وألسست أسماء الأشخاص الأصليين وأخلاقهم ، وذكر غضب ألسست وغرامه ، وبرودة قلب فيلنت ، وخلاعة سليمين ، وإخلاص إليانت ، ورياء أرسينويه الخ .

أما التنقيد فيؤخذ عليه ضعفه وبطؤه ، إلا أن العمل كاف وبسط الأخلاق متدرج . والحل يعيبه بعض النقاد بالنقص من غير حق . فإن سليمين جوزيت على خلاعتها وخبثها بأن هجرها خطابها جميعاً . وألسست اعتزل العالم ، والمركيزان ذهبا يعرضان زهوهما الأجوف فى مكان آخر ، وفيلنت واليانت يستعدان لحفلة الزفاف .

يتبع **(الزيات)**

في المعلقات أيضاً

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

...... ولابد قبل المضى فى تكميل رأينا فى المعلقات أن نعود إلى الكلام على مذاهب علماء الأدب ، قدمائهم ومحدثيهم فى تسميتها ، فان الذى يراه أبو جعفر النحاس ليس كما ذكرناه فى (الرسالة) وذكره غيرنا قبلنا فتأثرنا به ، أن هذه القصائد سميت باسم المعلقات من قول الملك (علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى) فيكون أبو جعفر على هذا مشاركا لغيره من القدماء فى قدم هذه التسمية ، ولا يخالفهم إلا فى توجيههم لها بأنها مأخوذة من تعليقها على الكعبة . ويذهب علماء العربية الأوروبيون بفضل الرأى الراجح الآن فى هذه التسمية ، أنها حديثة مصنوعة فى عصر التدوين أو قبله بقليل ، وأنا ننقل هنا كلام أبى جعفر فى ذلك لنرى مذهبه حقيقة فيه .

قال فى افتتاح شرحه للقصائد السبع : « الذى جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الأكابر فى تفسير غريب الشعر ، إغفال لطيف ما فيه من النحو ، فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورة ، وأتبعت ذلك بما فيها من النحو ، ولم أكثر الشواهد ولا الأنساب ، ليخف حفظ ذلك إن شاء الله تعالى » .

وقال فى آخر شرحه لها : « فهذه القصيدة آخر السبع المشهورات ، واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع ، فقيل العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون ، فاذا استحسن[1] الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها فى خزائنى . فأما قول من قال إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر ، جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا » .

فهذا صريح فى أن أبا جعفر لا يرى فى المعلقات أيضاً رأى من يذهب الى أن تسميتها بذلك مأخوذة من قول الملك (علقوا لنا هذه) وإن كان يراه أرجح من رأى من يرى أن تسميتها بذلك مأخوذة من تعليقهم لها بالكعبة ، فكلا الرأيين عنده مبنى على أن هذه القصائد كانت مجموعة قبل جمع حماد لها ، فكانت معروفة عندهم بهذا الأسم (المعلقات) أو غيره إن كان لها اسم غيره ، لأن جمعها هو الذى يجعل لها وجوداً خاصاً تحتاج أن تتميز فيه الى اسم من الأسماء .

وأبو جعفر ينكر جمع هذه القصائد قبل جمع حماد لها ، فهو عنده هو الذى جمعها ، لما رأى زهد الناس فى الشعر ، فجمعها لهم من الشعر القديم ، وحضهم عليها ، وهذا رأى آخر عند أبى جعفر غير ذينك الرأيين ، وقد رآه أصح ما قيل فى هذه القصائد

فهناك لقدمائنا اذن فى هذه القصائد ثلاثة آراء لا رأيان ، وأصح هذه الآراء الثلاثة عند أبى جعفر أن هذه القصائد لم يكن بعضها يمت إلى بعض قبل جمع حماد لها ، بل كانت مغمورة فى الشعر العربى الجاهلى مثل غيرها من القصائد الجاهلية ، ولم تكن تمتاز عليها باسم يجمعها من اسم المعلقات أو غيره ، فلما جمعها حماد للناس قال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وهو الاسم الذى ذكرها به أبو جعفر فى افتتاح شرحه لها وفى آخره أيضاً . ولا شك أن تحاشيه ذكرها باسم المعلقات كما يسميها غيره ويوجهه بأحد ذينك التوجيهين دليل على أنه لا يرى صحة تلك التسمية ولا يرى صحة التوجيهين اللذين وجهوها بهما ، فهى عنده تسمية مستحدثة مصنوعة بعد الأسلام ، وبعد جمع حماد لها ، وهذا هو الذى ننسبه الآن الى علمائنا الأوربيين ليذهبوا بفضله ، وينسى فيه فضل أبى جعفر رحمه الله .

هذا وقد رأيت فيما رجعت إليه قبل كتابة هذا المقال من شروح المعلقات ، وقد تعلقت نفسى باستقصائها حتى يجىء بحثى وافياً فيها من تلك الناحية ، رأيت ما يتفق مع رأيى فى المعلقات فى مقدمة الطبعة المنيرية لشرح الخطيب التبريزى على المعلقات العشر ، إذ جاء فيها : (وذهب فريق إلى أن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرؤوسيهم ورؤسائهم ، وذلك لشدة اعتنائهم بها) وهذا قريب من رأيى فى المعلقات ، وهو من عجائب توارد الخواطر ، ولكنه لم يبين فى تلك المقدمة

(١) لا يمكن أن يفهم من هذا ما فهم الأستاذ تولدكه أن هذا الملك كان معهم فى عكاظ ، فقال إن من الصعب احتمال أن ملكا عربياً كان يشهد سوق عكاظ ، بل الذى يفهم منه أنه كان يفعل ذلك وهو فى حاضرة ملكه بعد أن يجمع العرب على استحسان القصيدة فى عكاظ ، ولا شك أن خزائنه فى حاضرة ملكه ، فلا يقول أثبتوها فيها إلا وهو بها .

هل يذهب من يرى هذا في المعلقات إلى أن تلك التسمية على توجيهة قديمة أو مصنوعة، والظاهر أنه يراها قديمة، وهو خلاف ما نراه فيها على توجيهنا لها.

وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لها جمعاً آخر مع قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعاً وأربعين قصيدة، قال عنها الفضل الضبي إنها عيون أشعار العرب في الجاهلية والاسلام، وأنفس شعر كل رجل منهم، وهي التي جمعها أبوزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه جمهرة أشعار العرب.

ويخالف المفضل حماداً في أصحاب هذه القصائد السبع، فهم عند حماد: امرؤ القيس، وطرفة، وزهير، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، ولبيد بن ربيعة. وهم عند المفضل: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة. وقد تبع المفضل في هذا أبا عبيدة، وقال عن الشعراء السبعة: «هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة». ثم ذكر بعد هذا السبع المجمهرات، والسبع المنتقيات، والسبع المذهبات، والسبع المراثي، والسبع المشوبات، والسبع الملحمات.

وإذا كان المفضل يخالف حماداً في هذا فهو يوافقه في أنه لم يرد فيما رواه أبوزيد القرشي عنه تسمية هذه القصائد السبع بالمعلقات، ولم يذكر إلا أن العرب تسميها السموط، فإذا كان يعني العرب الأقدمين فهي تسمية جاهلية، وإذا كان يعني العرب في عصره فهي تسمية إسلامية. وقد كانت العرب قبل الاسلام تطلق هذا اللفظ على غير هذه القصائد السبع، ومن ذلك ماردووا أن علقمة الفحل كان يأتي مكة فيعرض شعره على قريش، وكانت العرب تعرض أشعارها عليهم، فما قبلوا منها كان مقبولاً، وماردوا كان مردوداً، فأتاهم مرة فعرض عليهم قصيدته:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ... أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم قصيدته في مدح الحارث الغساني، وكان أسر أخاه شاسيا فرحل إليه يطلبه:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا هاتان سمطا الدهر.

ويمكننا بعد هذا أن نجزم بأن اسم السموط كان يطلق عند العرب على قصائد غير هذه القصائد السبع، ولا يدل ما ذكره المفضل على حصر هذه التسمية (السموط) في هذه القصائد السبع، وإنما معناه أنها كانت تسميها السموط فيما كانت تسميه بذلك من قصائدها، فلا يدل ذلك على أنها كانت مجموعة متميزة عند العرب بهذا الاسم قبل جمع حماد لها، بل يتفق هذا أيضاً مع ما رجحه أبو جعفر النحاس من أن حماداً هو الذي جمعها، ولا يخالفه في شيء من المخالفة.

هذا وقد كانت وفاة حماد الراوية سنة ١٥٥ هـ، ووفاة المفضل الضبي سنة ١٦٨ هـ، ووفاة أبي زيد القرشي صاحب الجمهرة سنة ١٧٠ هـ، فنستطيع مع هذا أن نحكم بأن هذه القصائد السبع ما كانت تعرف باسم المعلقات إلى سنة ١٧٠ هـ، وإنما كانت تسمى القصائد المشهورة أخذاً من قول حماد فيها بعد جمعها هذه هي القصائد المشهورة، وكان يقال لها السموط كما كان يقال لبعض قصائد أخرى، فلم يكن هذا اسماً خاصاً بها، وقد سماها المفضل السبع الطوال فيما نقله أبو زيد في الجمهرة عنه.

وقد نقبنا في المقدمة التي ذكرها أبوزيد في جمهرته قبل القصائد السابقة التي أوردها فيها، فلم نجد فيها ما يمكن أن يؤخذ منه أن السبع الأولى منها كانت تسمى في عصره باسم المعلقات. وكان الواجب على طابعي الجمهرة أن يلاحظوا ذلك فلا يضعوها تحت اسم المعلقات، ولا يذكروا قصيدة امرىء القيس (قفانبك) تحت اسم معلقة امرىء القيس، ولا قصيدة زهير (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) تحت اسم معلقة زهير، وهكذا في باقي السبع، وهو خطأ ظاهر، وتسمية لهذه القصائد بما لم يسمها به صاحب الجمهرة. فإن كان هذا في الأصل الذي طبعوا منه فهو خطأ من ناسخه قطعاً.

ولعلنا نظفر بعد هذا بأول من سماها باسم المعلقات في الزمن الذي بين أبي زيد القرشي وأبي جعفر النحاس وهو الذي أورد فيها ما نقلناه عنه من ذلك الخلاف؟

عبد المتعال الصعيدي

من طرائف الشعر

شوقيتان لم تنشرا

١ – قصيدة لم تتم للمرحوم شوقي بك في (سعد) والثورة

يا شبابُ اقتدوا بشيخ المعالي ... فالمعالي تَشَبُّهٌ وتَحَدِّى

هو لو لم يكنْ له من الفضل إلا ... هذه كان غايةَ الفضل عندى

قد تصدّى لنائبات حقوق ... غيرُ سهلٍ لمثلهن التصدّى

حَزَنَتْه بلادُه وهى صَيْدٌ ... بين نابَىْ مُظَفَّر الناب وَرْد

أمّةٌ من غرائب النصر نَشْوَى ... تَسلُبُ الْمُلْكَ مَنْ تشاء وتُسدى

أَخْرَستْ أفصحَ القياصر سيفاً ... بأساطيلَ فى الخصومة لُدِّ

جاءها سعد شاهرَ الحق يدعو ... سيفها المنتضَى لخِطَّة رُشْد

أعْزَلَ المنكبيْن إلا من الحق ... ومن حجة كنَصْل الفِرِنْدِ

خاطبَ النارَ وهى فى شَفَة المِدْ ... فع والسيفَ وهو فى غير غمد

غَمْرةٌ يُشفِق الضياغِمُ منها ... خاضها لم يَهَبْ عواقب وِرْد

فَتَوْا فانثنى فصادف حظاً ... حبذا الجِدُّ إن أُعينَ بجَدّ

واذا مصرُ كاللبوةِ غَضْبى ... لابنها تبذُل الدماء وتفدى

. . . .

٢ – قصيدة أخرى للمرحوم لم تتم فى (موليير) الشاعر الفرنسى

.. وإن (مُولْيير) نجمٌ لا أُفولَ له ... وان تغيّب فى الأحقاب واحتجبا

شريعةٌ من بيان الغرب صافية ... وان يك الشرق أحياناً بها شربا

وآيةُ الأدب الرومِىّ فى لغة ... لم تخل من سرها عجماً ولا عربا

لو استطاع ذووها من عنايتهم ... بنشرها علّموها الجنَّ والشهبا

فاحفظ لسانك واجهدْ فى صيانته ... كما يصون الكريمُ العرضَ والحسبا

***

كأنما كانت الدنيا على يده ... يصوّر الناس عنها كلما كتبا

إذا مضى يعرض الأخلاق عارية ... أراك من كل نفس صورةً عَجَبا

يأتى النفوس فينضو عن ضمائرها ... ستراً ويهتك عن أهوائها الحجبا

فربما ازددتَ علماً بالبخيل وإن ... نشأت تلقاه جَدًّا أو تراه أبا

وقد يزيدك بالكذّاب معرفةً ... وأنت تُضحى وتُمسِى تسمع الكَذِبا

وقد يريك أخا الوجهيْن منكشفاً ... وأنت تلقاه فى الإخوان منتقبا

. . . .

ومن جيد ما نشره المرحوم من الشوقيات قوله يعتب على بنى وطنه اختلافهم وتنازعهم :

وأين الفوز لا مصر استقرت ... على حال ولا السودان داما

وأين ذهبتمو بالحق لما ... ركبتم فى قضيته الظلاما

لقد صارت لكم حكماً وغنما ... وكان شعارها الموت الزؤاما

شببتم بينكم فى القطر ناراً ... على محتله كانت سلاما

إذا ما راضها بالعقل قوم ... أجدّ لها هوى قوم ضراما

ترامیتم فقال الناس قوم ... الى الخذلان أمرهمو ترامى

وكانت مصر أول من أصبتم ... فلم تحص الجراح ولا الكلاما

إذا كان الرماة رماة سوء ... أحلوا غير مرماها السهاما

وقال يوجه الخطاب الى توت عنخ آمون عقب كشف قبره :

قل لى : أحين بدى الثرى ... لك هل جزعت على العرين ؟

آنست ملكا ليس بالشا ... كى السلاح ولا الحصين

البر مغلوب القنا ... والبحر مسلوب السفين

لما نظرت الى الديا ... ر صدفت بالقلب الحزين

لم تلق حولك غير (كر ... تر) والنطاسىّ المعين

أقبلت من حجب الجلا ... ل على قبيل معرضين

تاج الحضارة حين أشـ ... ـرق لم يجدهم حافلين

والله يعلـــم لم يرو ... ه من قرون أربعين

حصن طارق

للأستاذ فخري أبو السعود

أقام على شط الجزيرة مفرداً — ورانت عليه وحشة وسكون
على الصخرة الصماء يصخب دونه — من اليم لج زاخر ومتون
مُضِبٌّ، يجيش الشرق والغرب حوله — صموت على كر العصور مبين
به صدفة عما يرى في زمانه — وفيه إلى ماضي الزمان حنين
تغيرت الدنيا، وباد قبيله — وغيره دهر مضى وقرون
وقطب لما أنكر العصر حوله — وسارت بما لا يشتهيه شؤون
وأنكر خيلاً حوله وأعاجماً — تقر لهم تلك الربى وتدين
تدين لرئبال بكل مفازة — له في أقاصي العالمين عرين

***

تعطل من بعد اعتصام ومنعة — أسيراً بأيدي الغالبين رهين
وكان يصون القوم فارتد أعزلاً — وأصبح حتى النفس ليس يصون
إذا لم تكن همات قوم حصونهم — تداعت رواس دونهم وحصون

***

خوت من تلاد المجد صخرة طارق — على الدهر ما لا يحتويه رقين
تعالت بها «الله أكبر» مرة — فدانت سهول دونها وحزون
وسالت شعاب بالصوارم والقنا — وأحرق خلف الفاتحين سفين
وقامت بأطراف الجزيرة دولة — وأزهر عرفان وأشرق دين
جلا أمس عنها آلها، وبنوهم — على الضفة الأخرى الغداة قطين (1)
فمن لي بمن ينبي الجدود بأننا — وقد عز عبدان الجدود نهون؟
وأنا إذا اغتمنا رسوم علائهم — تناهبت القلب الحسير شجون
خشعت وعادتني لدى حصن طارق — همومي وابتلت لديه جفون
لشعب يسيغ الذل من بعد ما سما — له في الورى ملك أشم مكين

القاهرة — فخري أبو السعود

الوحيد المريض

للأستاذ محمد خورشيد

سال ذوب الفؤاد في أناته — وتلاشى بكاه في آهاته
ساكن الطرف لا يرف له جفن ولا يعرف الضنى عن أذاته
واجف الصدر، شاحب الوجه خطت — نفثات الأسى على قسماته
كادت الروح تستحيل أريجاً — تتملى الجنان من نفحاته
وظلام المنون مد رواقيه — ليطوي في الليل فجر حياته
وأبوه المرور ضم إلى الصد — ر فتاه ليفتديه بذاته
حابساً ما استطاع أنفاس صدر — شب جمر اللأواء في جنباته
ولو اسطاع أسكت القلب حتى — لا يضج الصغير من خفقاته
كلما أرسل ابنه زفرات — كاللظى خالها صدى زفراته
كلما أسبل الدموع فتاه — كاللآلي تشف عن حسراته
ظن وجه الفطيم أصبح مرآ — ة أرته المرار من عبراته

***

بات قلبي طي الضلوع مسجلاً — لجنان الوحيد في نبضاته
إن همسا سرعا حكاه ابن جنبي — أو تأنى شاكلته في أناته
وضميري ناجى الحبيب فأصغى — وهو رهن الضنى الى همساته
قد حرمت السبات والداء يقظا — ن يوالي مسدداً رمياته

***

حار إذا عادنا الطبيب ولما — يدر أيا يطبه بأداته
أ(نزاراً) وقد ذوت مقلتاه — أم أباه والروح قرب لهاته
إن سقم الأبناء أقسم إلا — أن يكون الآباء مرمى تراته

***

يا رسول الردى أمانا فهذا — قد عقدنا المنى على بسماته
إن أردت الفداء دونك روحي — تلك عند الشباب أغلى هباته
يرث التاج أولياء العهود الصيد والمجد موقع نغماته
فاعف عني، ولي عهدي، لأني — خفت دهري فكنت من أقواته
لم أورثك غير شعر شجي — سال ماء الفؤاد من أبياته

***

أصبح البؤس توأم الشعر عندي — يزدهيني بندبه وشكاته
إن وحي الأسى المروع يحبو الشاعر الفذ مجتبى خطراته

القدس — محمد خورشيد

(1) قطين: عبيد.

توماس كارليل

Thomas Carlyle

١٧٩٥ — ١٨٨١ م

بقلم عبد الكريم الناصري

— ١ —

« العبقرية الحق ، هي التي تعمل ولا تشبع ، وتجد في الألم لذة ، وفي الموت من أجل العمل حياة ، ولا تحسب يوماً أنها وجدت ماتنشده وتصبو إليه ! . . »

« العبقرية الحق ، هي التي تخلق وتنشيء ، وتنظر دائماً إلى الممكن والى المستقبل ؛ هي باذرة بذور الخير والحب والطيبة والجمال في الوجود ؛ والطامحة دائماً الى الأحسن ، والآخذة بالناس من الظلمات إلى النور ، ومن العبودية الى الحرية . ويخلد العبقرى بقدر ماتترك رسالته من أثر على وجه البسيطة ؛ فكلما كانت رسالة العبقرى إنسانية ، كان الأعجاب بها شديداً والثناء عليها قوياً . »

***

ولد توماس كارليل في قرية « اكلفكان » ـ بأقليم أنانديل ـ بجنوبى اسكوتلندة ، في تشرين سنة ١٧٩٥ . وكان أبوه بنّاء ، وهو الذى بنى البيت الذى ولد فيه ابنه ؛ وكان صلب الرأى ، ميّالاً الى الجد والعمل . أما أمّه فكانت امرأة صالحة حنوناً طيبة القلب . أدخله والده — أول الأمر — في مدرسة القرية ، فتلقى فيها مبادىء العلوم ، ثم في مدرسة قرية « أنان » . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره دخل جامعة ادنبرج . وفي سنة ١٨١٤ عيّن مدرساً للرياضة بمدرسة أنان ، وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره . ولم تمض عليه ثلاث سنوات حتى صار رئيس مدرسة بلدة « كركالدى » .

وفي سنة ١٨١٨ ترك حرفة التعليم متبرّماً بها ، ساخطاً على المنتسبين إليها ؛ وذهب الى ادنبرج باحثاً عن عمل يعيش منه ؛ ودرس هناك علم المعادن الذى أفاده فائدة كبيرة ، إذ اضطره الى تعلم الألمانية « التى كانت من أسباب ظهوره ورفعته . » مع أنه كان عقته مقتاً شديداً . وكان يتقن الفرنسية أيضاً ويترجم عنها مقالات علمية فيتكسب من ذلك . . .

— ٢ —

. . . اجتمعت في كارليل صفات أبيه وأمّه ، ورث عن أبيه صلابة الرأى ، ومضاء العزم ، وخصب الخيال ، وقوّة التصوّر ؛ وورث عن أمّه دماثة الخلق ، وسلامة النيّة ، وطيبة القلب ، وكثرة الحنان ، وخفة الظل .

وفيه أيضاً اجتمع هدوء الانجليزى ووطنيته الصادقة ، واعتزاز الألماني بقوميته ، واعتداده بنفسه واستبداده برأيه ، وفكاهة الفرنسي ومزاحه .

كان فيلسوفاً نابغة ، ومؤرخاً مدققاً ، وناقداً صائب الرأى قوىّ الحجة ساطع البرهان ، وكاتباً بليغاً ساحر البيان ، عجيب التصوّر للحقائق ، مدهشاً في عرضها على قارئه أو سامعه واضحة جلية ؛ وكان خياله يشبه النافورة التى يتدفق ماؤها فيسقى هيا كل الأبطال القدماء العظمية ، ويحيلها إلى أناسىّ مثلنا يتحركون ويضطربون ! . . .

كان في كتاباته جاداً وهازلاً ، مكتئباً وضاحكاً ، تلمح من خلال سطور كتاباته نفساً هادئة ، مؤمنة ، قنوعاً ، ولكنك تجده أحياناً ليثاً كاسراً ، غضوباً متمرداً . . . وكان متبرّماً بالوظائف والحرف المقيدة لحريته ، ولما ترك مهنة التعليم صاح محتداً ساخطاً : « لاطاقة لى بعد بهذه الحرفة المقوتة ! . . . »

وأرى أنه كان في آرائه وأقواله قومياً ومتعصباً أحياناً ، وإنسانياً أحياناً أخرى . يتعصب حين يحدثك عن « كرومويل » أو عن فردريك الكبير ملك بروسيا ، فيغرق في مدحهما والاشادة بذكرهما ، ويحملك على تصديق أقواله بسحر بيانه وقوة برهانه ، لأن الأول انجليزى ، والثانى بروسى ، وكان كارليل حريصاً على إرضاء البروسيين . ويقول الكاتب والناقد الانجليزى ج . ك . تشسترتون : « لقد سلط كارليل تيار خياله القوىّ المتدفق على شخصية هي كالجمجمة جفافاً ويبوسة وصلابة (أى فردريك) ، وسكب عبقريته الخلاّقة المبدعة ليخلق من أسفل وأدنأ وأوحش شخصيّة عرفها التاريخ انساناً شهماً كريماً عظيماً ! . »

وهو انسانىّ حين يحدثك عن محمد (ص) والاسلام مثلاً ، فيقول : « لقد أصبح من أكبر العار على أىّ فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى مايظن من أن دين الاسلام كذبٌ وأن محمداً خدّاعٌ مزوّر ؛ وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول

ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مليون من الناس . » أو حين يقول : « ما محمد بالكاذب ولا الملفق ، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع » ...

وقد قال « ريتشارد جازييت » : « فلما كتب كارليل مقالته عن الإسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل عن دينه ، لم يبق هجاء أطلق به فى عرض محمد (عليه السلام) إلا قيضها مجذوبة شيلاء ، ولا فاش يذرى ذلك الأديم الأملس ، وتلك الصحيفة البيضاء ، بسهام الشباب إلا وردت سهامه فى نحره حتى راح شرف النبى فى تلك الديار بفضل الفيلسوف الأكبر صحيح الأديم موفور الجانب ... »(١)

ومن هنا ترى أن الرجل كان يعتمد على ذكائه وصفاء ذهنه ، واستقامة منطقه القوى ، وبلاغته وخياله أيضاً ، فى حمل الناس على اعتناق مذاهبه ، والأخذ بآرائه ، والإيمان بمعتقداته ، وقد نجح فى ذلك نجاحاً عظيماً ، وفاز فوزاً جباراً ! .

— ٣ —

وقد أحب ذلك الفيلسوف فتاة جميلة تدعى « مرغريت جوردون » ، وقد ابتدأ ذلك الحب حين صار رئيس المدرسة التى ذكرناها ببلدة كركالدى ، ووصفها فى كتابه « فلسفة الملابس » .

وكان كارليل « يعبد الجمال ويكبر ملكات العالم (أى النساء) ويقدسهن ، ويرى لهن جلالا إلهيا ... » ولكن حظه منهن « لم يكن إلا حظ اللمس من الخيال ، والقليل من الآل ! »

لقد كان حبه عنيفاً جداً لمرغريت ، ولا تكاد تقرأ بضع صفحات — بل بضعة أسطر — من كتابه فلسفة الملابس حين يصفها ، إلا وتؤمن أنه لم يكن هوى أو حباً ، بل لاعجاً محرقاً ، بل هياماً جنونياً ، ولكن العبقرى المسكين أخفق فى ذلك الحب ولم يتزوج من بلومين (كما يسميها فى ذلك الكتاب) لتعرض أصدقائها ...

اسمعه يقول بآكيا(٢) : « فكن للفتى (أى كارليل) كأنهن من الهواء مخلوقات ، ومن الضياء مصوغات ، أرواح فى أشباح ، وأذهان فى ألوان ... وكأنهن ملائكة تحمل كل منهن معراجاً يرتقى فيه عاشق الى مقامات الأبرار فى الجنان . فليت شعرى هل قضى الله للفتى المنفرد (يعنى نفسه) أن يظفر يوما ما بأحدى هذه الملكات ؟ بل أين منه ذلك ، هيهات هيهات ! ! »

« أما والذى خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه ، لئن قضى الله للفتى أن تهبط عليه واحدة من تلك الخيالات المليحة ، فتحول له جسماً حياً ملموساً ، وحقيقة محسة ، ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد ، وتقول له بمبسمها : (لك الآن أن تحب وتحب !) إذن فأى بركان هائج يثور ، وأى جحيم كامن يجيش ويفور !! »

« وقد اشتعل مثل هذا الحريق يوما ما فى فؤاد الفتى المنفرد اشتعالاً بركانياً ؛ وكيف يكون الأمر غير ذلك والفتى مزاج رقيق ، وطبع سريع الهياج — فيه « كاربون » الحدة ، و « فوسفور » الشهوة ، و « كبريت » الانفعال — ينتظر أدنى شرارة من لحاظ دعجاء المحاجر ، فتالة الألحاظ ، فتتأجج وتشتعل ؛ وما شرار اللحظ فى هذا العالم بالشىء المفقود ؛ فليت شعرى اذا هبطت عليه من آفاق العزة مليحة حسناء ، فرمت « كبريته » بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل ؟ ! .... »

واسمعه يخاطب فتاته المحبوبة : « وما هى إلا هنيهة حتى قربت الى الغادة وقدمت لها ! يارعاك الله أيتها الآنسة ! إنك لتشرقين بين أترابك من الفتيات ، وتبهرين صواحبك من الغانيات ؛ كأنك الكوكب الدرى هبط من السماء فتوسط طائفة من المصابيح والشموع ! يا أشرف الفتيات ! وسيدة النساء ! يامن سبيت الخامل المسكين فتهافت عليك بدناً وروحاً ؛ وهو مع ذلك منكس الجيد فى حضرتك ، من فرط هيبتك ، خاشع الطرف ، تعروه لذة أليمة ، ويعلوه حيرة لذيذة !! أحقاً أصبح الفتى المسكين يشهد مجلسك ويجتلى نور طلعتك ، وبهاء غرتك ، وحقاً تشرق عليه أشعة لحاظك ! ؟ وحقاً يتكلم فتنصتين ، ويقول فتبسمين ، ويمزح فتضحكين ، ويعظ فترقين ، ويشكو فتوجمين ؟ وحقاً كان الحب متبادلا ، والغرام متداولا ، والعطف متقارضاً ، والود متقابضاً ، والقلبان يخفقان للالتصاق ، ويرجفان للاعتناق ، ؟ ! ! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعب فى حضرة القمر ! ؟ بلى ! حقاً كان كل ذلك » .

البصرة عبد الكريم الناصرى

(١) ترجمة معرب « الأبطال » .

(٢) الفقرة التالية من ترجمة معرب الأبطال أيضاً ، ولم أشأ أن أترجمها أنا لأنه أقدر وأفضل منى فى ذلك .



٤ ـ بحث فى أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

بدراسة الجمجمة التى وجدت فى جزيرة جاوة ، إحدى جزائر الهند الشرقية ، وجد أنها تشبه جمجمة نوع من أنواع القردة ، وهو المسمى جيبون Gibbon ، وهذا القرد معروف أن نسبة مقاس جمجمته تتناسب تناسباً اطرادياً مع ارتفاعه وحجم جسمه . بمعنى أن مقاس كذا هو لقرد ارتفاعه كذا . . الخ

فاذا نحن طبقنا هذه القاعدة على تلك الجمجمة التى وجدت خرجنا منها بنتيجة ، هى أن ذلك المخلوق الذى تخلفت عنه هذه الجمجمة لابد وأن يكون فى ارتفاع قامة الانسان ، على عكس قردة ذلك النوع المشار اليه فانها لا تتعدى فى القامة قامة ابن خمس سنوات من الأطفال .

وإذا لاحظنا أن سطح الجمجمة وعظام محاجر العين وشكلها تعين عدم وجود جبهة لصاحب تلك الجمجمة ، نجد لزاما علينا من ذلك ومن نتائج أبحاث العلماء أن نقول إن هذا الذى يمثل إنسان البليوسين كان عبارة عن قرد كبير ، وتبين لنا بعد ذلك من قياس تلك الجمجمة أننا لم نكشف عن الانسان القرد فحسب ، بل كشفنا عن أحط درجة من درجات التطور الانسانى . واذا كان للانسان صفات تميزه ويختص بها عن سائر أنواع الحيوان ، فانما هى ذكاؤه وقابليته للتعلم ، ثم حدة الشعور ، وهذه كلها تأتى من المخ مصدر الشعور والوجدان .

وإن قصة تدرج الانسان ما هى إلا تاريخ لتطور قواه العقلية . فمنذ ما كشف الأمر عن جمجمة انسان النياندرتال عام ١٨٥٧ ، قال بعض من العلماء إنها بجمجمة القرد أشبه منها بجمجمة الانسان . لماذا ؟ . لأنه لوحظ بها البروز الكبير الظاهر فى محاجر العين ، وهو ما تمتاز به أنواع الغوريلا ، كذلك لاحظ أن غطاء الجمجمة الأعلى واطى منخفض ومفرطح . لكن الكشف الذى تلا ذلك دلنا على القدرة والقوة الفكرية عند هذا النوع من الانسان ، وهو انسان النياندرتال . وأنها قد تفوق كثيراً من الاجناس البشرية فى القدرة والمهارة والدقة

والجمال فى صناعة الأدوات الصخرية البارية .

ولم يجد الدكتور Dubois أى أثر فى طبقة الأرض التى وجد بين ثناياها الانسان القرد ، وليس هناك ما قد يلقى لنا ضوءاً على مقدار ذكاء هذا النوع وقدرته ، إلا أنه يمكننا أن نتكهن بشىء من ذلك من حجم فراغ جمجمته التى استطاع الدكتور ديوا أن يصورها لنا .

فأما من جهة حجم المخ فان الانسان القرد أو انسان جاوة (٩٠٠ سنسميه) يقع تحت أسفل درجة من درجات المخ الانسانى . فالأبورجونيز سكان استراليا يتراوح حجم مخ الفرد فيهم من ١٣٠٠ إلى ١٤٠٠ سم مكعب ، ولو أن هذه النسبة تقل فى نسائهم فتصل إلى ١٠٠٠ سم مكعب أو إلى ٩٣٠ سم (كما يبالغ السير وليام تيرنر) ولكى نقول إن الرجل أو المرأة يفكر أو يستطيع التفكير يلزمه مخ لا يقل عن ٩٥٠ سم مكعباً ، ولكن أبحاث الدكتور ديوا دلت على أن حجم مخ انسان جاوة لم يتجاوز مقدار ٩٠٠ سم مكعب ، برغم أن الأستاذ ج . ه . ماك جريجورى يرتفع به إلى ٩٤٠ سم مكعباً . وهكذا نرى أن الانسان المذكور لم يكن ليستطيع التفكير الصحيح كما نراه أو كما نعقله ، إلا أنه قد اقترب وصار على عتبة باب الانسان الحق بتفكيره وقوته العقلية .

وإذا قارنا إنسان جاوة بالغوريلا وجدنا أن حجم مخ الذكر من هذه القردة يبلغ فى المتوسط ٥٢٠ سم مكعباً ، ولو أنه قد يرتفع إلى ٦٥٠ سم مكعباً أو ينخفض إلى ٤٧٠ سم بينما نجده يرتفع إلى ستة أمثاله عن حجم مخ هذه القردة برغم التشابه العظيم بين شكل سقف جمجمة إنسان جاوة وقرد الجيبون .

إلا أن هذا النوع الانسانى وهو إنسان جاوة إذا قورن بالانسان الأوروبى الحديث وجد بينهما فرق كبير جداً . إذ أن الأخير يزيد فى حجم المخ على الأول بما لا يقل عن ٥٦٠ سم مكعباً إذا ما قدرنا للأخير متوسطاً قدره ١٥٠٠ سم مكعب .

أما عن حجم مخ إنسان البليوسين فانه يرتفع كثيراً عن مستوى أكبر أنواع القردة المعروفة ، ويصل إلى أسفل درجات الانسانية ، ونصل إلى نفس النتيجة إذا ما قارنا بين مخ إنسان جاوة والغوريلا ، أو مخ امرأة الأبورجينز الأسترالية . وبفحص مخ قرد من القردة لوحظ أن الطبقة الظاهرية منه وهى التى تتصل بالقدرة على السمع والأبصار والحس كاملة التكوين ، وأن الطبقة الظاهرية التى تليها وهى التى تتصل بالقدرة على الفهم والتذكر تكاد تكون معدومة التكوين ، بينما نجد أنها فى إنسان جاوة رغم تناسب أجزائها واتساعها لا تصل إلى تلك التى توجد عند أحط وأسفل الأنواع البشرية المعروفة التى تعيش على سطح الأرض فى عصرنا هذا . ولذلك أمكننا بفضل اكتشاف الدكتور العلامة ديوا أن نعرف الماهية التفكيرية والقدرة العقلية التى كان يتمتع بها ذلك الجنس الذى عاش فى عصر البليوسين .

ونحن لا يمكننا مع ذلك كله أن نقرر ما إذا كانت عندهم القدرة على التخاطب والكلام . إلا أنه قد أمكننا أن نعرف من تلافيف المخ عند الانسان المعروف بانسان جاوة مقدار ما كان له من استعداد لذلك ، وما قد وجد عنده من عوامل تساعده عليه ، ومن المحتمل أنه قد تكلم وتفاهم ، ثم عبر عما يجول بخاطره بعبارات

صوتية غير منتظمة تعبر عن رغبة أو شعور ، ولكنها لم تكن لتعبر عن فهم . ويمكننا أن نقارن بين قدرتهم على الكلام وقدرتهم على صناعة الأدوات والمرافق بما نسمعه من لغات اليوم وما نراه بين أيدينا من مرافق وأدوات كادت أن تبلغ حد الكمال .

ونحن إذا اعتبرنا أن إنسان جاوة بالقوى العقلية التي سبق الكلام عنها وشرحناها في الفقرات السابقة ، هو الحد الذي وصل اليه الانسان في أواخر عصر البليوسين ، وأن إنسان البلتدون هو مثل لما قد وصل اليه الانسان في أوائل عصر البلستوسين ، لوجب علينا أن نعترف أن هناك فترة تقع بين العهدين يمكن أن نطلق عليها فترة التطور العقلي للانسان القديم . لأننا نعرف أن حجم مخ انسان البلتدون الذي وصل الى ١٤٠٠ سم مكعب يتناسب مع حجم مخ الانسان الحديث ، ويقترب به الى الانسانية الحق . بينما نجد أن إنسان جاوة بمخه الذي يمكننا أن نقدر حجمه بمقدار ٩٤٠ سم مكعباً ينزل الى أسفل الدرجات ، ولا يصل الى أحط نوع من الأنواع البشرية المعروفة ، وأن تلافيف المخ في انسان البلتدون ، ولو أنها لا تصل الى ما نراه من تلافيف مخ الأنواع المنحطة من الأنواع الحديثة ، إلا أنها تفوق وترتفع كثيراً عن مستواها عند انسان جاوة .

وإذا كنا قد أوضحنا في مقالاتنا السابقة مدى أهمية فحص العلماء لمخ الانسان وما كشفه لهم حجمه من حيث تاريخ تطوره ، فيجب ألا ننسى أهمية فحصهم لأسنانه وما كشفت عنه الحفريات . فانه قد لوحظ أن أسنان القرد كانت أسناناً انسانية لا تختلف في شيء عن أسنان الانسان الحاضر الا من حيث كبر الحجم . ولا بد لنا أن نذكر مما قد سبق ذكره ، أن إنسان البلتدون قد امتاز بأنياب حادة مدببة ، لا تختلف في شيء عن أنياب القردة ، بينما نجد أنها تصغر عند انسان جاوة ، وتتناسب مع باقي أسنان الفم كما هو الحال في انسان هيدلبرج وجميع الأنواع الانسانية الأخرى . فهل يمكننا القول أن أسنان الانسان بعد أن تعدل شكلها في عصر البليوسين قد رجعت تزادت حجماً في عصر البلستوسين . كي تنكمش بعد ذلك وتناسب باقي نظام أسنان الفم في النهاية ؟ ... وهذا ستجد له شرحاً وافياً في مقال قادم . وفي الوقت نفسه لا يمكننا شرح كل هذه الغرائب إلا إذا اعتبرنا أن الانسان القرد وانسان الهوموهيدلبورجنيز يمثل كل منها فرعاً من أصل الشجرة التي نشأ وتطور منها الانسان ، والتي لم تكتشف من فروعها إلا أغصان قليلة محطمة ....

يتبع

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا



البريد الأدبي

القصة في الأدب الصيني

تناولت مجلة الأخبار الأدبية (نوفيل لترير) في عددها الأخير ذكر كتاب صدر أخيراً في باريس بالفرنسية عن « القصة الصينية » بقلم كاتب صيني هو مسيو « أو اتاي » . والقصة الصينية حديثة النشأة ؛ وكانت القصة حتى عصرنا تعتبر في الأوساط الأدبية الصينية ضرباً من العبث ؛ وكان التاريخ والشعر والفلسفة وحدها تعتبر خليقة بجهود العلماء وذوى الذوق الحسن . أما كتابة الحوادث والمغامرات الخيالية ، فقد كانت تعتبر خفة لا تليق برزانة العلم والأدب ، وكانت تترك لصغار الكتاب والمتأدبين . أما اليوم فإن الأدب الصيني يقتفي أثر الآداب الغربية في تقدير القصة ويتجه إليها ، ويخرج في ميدانها آثاراً شائقة جديرة بالاهتمام .

على أن ما أخرج الأدب الصيني في ميدان القصة في القرن الماضي ليس مما يخلق إغفاله والحط من شأنه . صحيح أنه لم يصل في السعة والتنويع إلى ما وصل إليه القصص الغربي ، ولكنا نستطيع أن نحصي منه مع ذلك كثيراً من الآثار الشائقة الجميلة . وقد ظهرت بعض هذه الآثار في أوربا مترجمة إلى الألمانية والفرنسية والانكليزية ، فاستطاع العالم الغربي أن يقف على صفوة الأدب القصصي الصيني .

ويقول مسيو « أو اتاي » في مقدمته إن القصة الصينية ترجع في أصلها إلى الحكايات والأساطير الدينية . ففي العصور الغابرة كان الشعب يشهد ظواهر الطبيعة الخارقة فلا يستطيع أن يدرك كنهها ، ويعتقد أنها فوق مقدرة البشر ، ثم يحاول أن يفسرها ويفهمها في شروح وأقوال غدت أصل الأساطير الصينية ، ومن ثم يجيء أهمية عنصر السحر في القصة الصينية . وقصص السحر هي أقدم وأغرب ما في الأدب الصيني من عنصر القصص ، ثم يجيء بعد ذلك القصة التاريخية أو التي تقوم على بعض حوادث التاريخ ، ثم القصة العاطفية ، ثم القصص الإباحي ؛ وقد كان هذا النوع مما يطارد ويحرق ، ولكن نجا منه الكثير .

ومن أحب القصص إلى الذوق الصيني ، ذلك الذي يعالج « المعرفة » وتعرض فيه المعلومات والمعارف الغريبة ، في صور قوية واضحة من البيان والعبارات الرشيقة . وللقصص الساخرة مكانة أيضاً ، ولكن معظمها سياسي ، ويرمي إلى بث دعوة معينة . أما قصص المغامرات الشائقة والحب والبطولة فقد ظهرت حديثاً ولم تتقدم إلا في القرن التاسع عشر ؛ ومنها آثار خطيرة فياضة بالخاطرات والعجائب .

وقد كان هذا التراث كله مغموراً حتى هذا العصر ، ولكن الجيل الفتي يقبل عليه اليوم ويستكشفه ، ويتذوق ما فيه من كنوز الطرافة والخيال والجمال . بل لقد أنشئت في الجامعات الصينية دراسات للقصص القديم ، وهو ما لم يكن يتصور منذ خمسين عاماً .

أزمة الأدب

يظهر أن أزمة القراءة والكتب أخذت تشغل الأذهان في جميع الأمم المتمدنة ؛ فقد ضعفت حركة القراءة وركدت ريح الأدب والكتب في الأعوام الأخيرة بدرجة محسوسة . وكان للراديو والسينما أثر كبير في ذلك التطور . وقد رأت الحكومة الايطالية أن تعالج هذه الأزمة بالدعوة الى القراءة عن طريق الراديو وإثارة الاهتمام بالآداب الايطالية القديمة . ونشرت إحدى الصحف الأدبية الفرنسية فصلاً في ذلك الموضوع نوهت فيه بانحلال الذوق الأدبي ، وانشغال الهيئات العلمية والأدبية بتنظيم الحفلات وتوزيع الجوائز ، وإغفال الحكومة لكل ما يذكي شغف القراءة ويصقل الذوق الأدبي ، حتى انها لم تفكر يوماً في أن تنشئ « وزارة للآداب » تقوم بالاشراف على الحركة العقلية ، مع أنها تقوم بالاشراف على ادارة الشرطة وإدارة الجمارك . وتخلى الحكومة

عن هذه المهمة يحول دون القيام بأي حركة منظمة لتوجيه الحركة الأدبية ، واحياء الذوق الأدبي بعد أن تولاه الذبول والضعف .
ويرى الكاتب أن تنظيم « المكتبة » من أنجع الوسائل لمعالجة هذا المشكل ، ويقترح أن تعنى ادارة معرض باريس الكبير الذي سيقام في سنة ١٩٣٧ ، بانشاء مكتبة نموذجية يكون فيها من الطرافة وحسن الابتكار والتنسيق مايذكي شغف القراءة ويبعث إلى الذوق الأدبي حياة جديدة

حرارة الأزهار

تذكر أن العلامة الهندي جاجاديس بوز صاحب نظرية « حس النبات » زار القاهرة منذ بضعة أعوام ، وعرض تجاربه العلمية النباتية على جمهرة العلماء والمثقفين ؛ ورأى النظارة الذين شهدوا تجاربه كيف يتجف النبات ويتأثر بمختلف العوامل ، والآن يتقدم العلامة الفرنسي بلارنجم ، الذي قضى حياته في دراسة خواص النبات الى أكاديمية العلوم الفرنسية بنتيجة مباحثه عن « حرارة الأزهار » .

ويرى العلامة بلارنجم أن الأزهار كالانسان والحيوان ، يمكن أن تصاب بالحمى ، وأن حرارتها تختلف باختلاف درجة نموها وباختلاف الوقت ؛ فمثلا يبدي معظم الأزهار حرارة أعلى من حرارة محيطها ببضع درجات ، وتبلغ بعض الأزهار أقصى درجة حرارتها بين الساعة العاشرة والظهر . ولبعض الأزهار مثل النرجس واليقطين والهندباء أوقات تصاب فيها بالحمى ، ويلاحظ مسيو بلارنجم أيضاً ، أن الأزهار المذكرة في النباتات المزدوجة ، أي التي تحمل أزهارها المذكرة وأزهارها المؤنثة كل على أعواد مختلفة ، وفي النباتات الفردة ، أي التي تحمل أزهارها مختلطة على نفس العود أكثر حرارة من الأزهار المؤنثة في نفس الشجرة ، وهنالك أيضاً أزهار تختلف درجة الحرارة فيها باختلاف مواضعها ؛ وغير ذلك من المشاهدات والحقائق المدهشة .

فلوبير والمسرح

لما وضع القصصي الفرنسي الكبير فلوبير قصته الشهيرة « مدام بوفاري » فكر أحد كتاب المسرح في اقتباسها وتقديمها للتمثيل ، ونفذ فكرته بالفعل ، وقدم الرواية الى المسرح ، وأرسل الى فلوبير يستأذنه ؛ فأبى بشدة أن يأذن له ، وكان فلوبير قد عاف المسرح وحقد عليه ، مذ فشلت قصته « الطالب » حين مثلت لأول مرة . واستمر فلوبير يعارض كل اقتراح بتمثيل « مدام بوفاري » حتى وفاته .

ولكن حدث بعد وفاته ، أن ابنة أخيه ووارثته مدام جرول صرحت لأحد كتاب المسرح باقتباس بعض المناظر من مدام بوفاري لكي تمثل على المسرح ، وكان ذلك سنة ١٩٠٦ . ولكن القطعة لم تشتهر يومئذ ، ولم تلق نجاحا يلفت الأنظار .

ومنذ أشهر قلائل عادت « مدام بوفاري » تلفت أقطاب السينما ، وانتهى الأمر باقتباسها للشاشة البيضاء ، وتلحينها للسينما الناطقة . ولن تمضي أشهر أخرى حتى يستطيع المعجبون بأدب فلوبير أن يشهدوا أعظم قصصه ، وقد أخرجت في ثوب مسرحي بعد كتابتها بنحو تسعين عاماً .

ويقال أيضاً إن قصة فلوبير التاريخية « سلامبو » ستظهر قريباً على المسرح السينمائي ، وأن العمل يجري بالفعل لاخراجها في وقت قريب .

أمير شرقي شاعر

في البريد الانجليزي الأخير أن صاحب السمو نظام حيدر أباد عميد الأمراء المستقلين في الهند ، وأعظم رجالات المسلمين فيها ينظم الشعر ويجيده . وعما قريب يصدر في الهند الجزء الأول من ديوان سموه ، وفيه قصيدة مطولة في مولد المسيح .

المستشرق شخت

وصل إلى القاهرة الأستاذ شخت ليشغل كرسي أستاذ فقه اللغة واللغات السامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية خلفا للأستاذ شاده الذي انتهى عقده وعاد إلى جامعة همبرج .

والأستاذ شخت أحد تلاميذ المستشرق الكبير المرحوم برجستراسر وقد درس اللغة العربية بجامعة برسلاو وعين مدرساً في جامعة فريبرج فأستاذاً بجامعة كونسبرج ، ثم وقع اختيار الجامعة المصرية عليه ليشغل كرسي اللغات السامية .

وقد طاف الأستاذ شخت بلاد الشرق فى طلب المخطوطات المجهولة فتمكن من العثور على عشرات الكتب فى تاريخ العلوم الاسلامية ونشرها بعد أن ترجم بعضها إلى اللغة الألمانية منها :

١ – رسالة فى كتاب الحيل والمخارج للخصاف وقد حصل بها على دكتوراه من جامعة برسلاو فى عام ١٩٢٥ .

٢ – ترجمة وشرح كتاب الحيل فى الفقه للقزويني والمقارنة بينه وبين الحيل الحنفية .

٣ – المخارج للامام محمد بن الحسن الحنفى .

٤ – كتاب الشروط للطحاوى .

٥ – كتاب جالينوس فى الأسماء الطبية وقد اشترك مع الدكتور ماكس مايرهوف فى ترجمته وشرحه وتقديمه .

٦ – كتاب بالألمانية عنوانه : مجموعة متون إسلامية . وفى هذا الكتاب جمع كثيراً من تاريخ العلوم الاسلامية . مبتدئاً بالأحاديث النبوية ومنتهيا برسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

٧ – كتاب ملتقى الأبحر للشيخ إبراهيم الحلبى ، وقد كان أصل هذا الكتاب عند المستشرق المرحوم برجستراسر ولم يتم شرحه وتقديمه .

٨ – أخبار القضاة لوكيع .

جورج دوهامل مرشح الأكاديمية

منذ أشهر خلا بالأكاديمية الفرنسية كرسى بوفاة صاحبه المسيو كاميل جوليان المؤرخ الكبير . وقد تقدم للحلول فى كرسيه عدة من مشاهير العلماء مثل الأستاذ شارليتى مدير جامعة باريس ، ومسيو دكولى المؤرخ ، ومسيو ليون بيرار الكاتب الشهير ، ولكن أحداً منهم لم يظفر بالعدد اللازم من الأصوات . وسيعاد الانتخاب مرة أخرى . وفى هذه المرة يطرح مع المتنافسين اسم جورج دوهامل الكاتب والروائى الشهير ، وقد رشح نفسه للكرسى الخالى بصفة رسمية . وجورج دوهامل طبيب سابق حمله تيار الأدب وصرفه عن المهنة ؛ واشتهر برقة خياله وسحر أسلوبه وبراعة نقده . ويمتاز أسلوبه بالأخص بنزعة إنسانية مؤثرة ، وعطف عميق على المنكوبين فى الحياة . وتدور معظم نظرياته وفلسفته حول الدفاع عن الانسان ، ورفعة الفرد والأخلاق .

بنت مدام كورى تتابع أعمال أمها

– قالت « البتى جورنال » أن ابنة مدام كورى مكتشفة الراديوم وزوجها سيذيعان قريباً الطريقة المطلوبة منذ عهد طويل لايجاد الراديوم الاصطناعى

وسيعلنان هذه الطريقة لمؤتمر من العلماء فى لندن وكمبردج بين اليوم الأول واليوم السادس من شهر أكتوبر .

اسبانيا ترشح شاعراً لجائزة نوبل

اقترحت جامعة سلامنكا الاسبانية على الحكومة ترشيح العالم الشاعر ميجل دى أونا مونو لجائزة نوبل للآداب فى العام الحاضر . فقبلت الحكومة اقتراحها .

النقد

أصدقائى الشعراء!

هذا لا يؤدى

بقلم معاوية محمد نور

ظهرت فى الشهور الأخيرة عدة دواوين شعرية ، فأثارت كثيراً من اللغط فى الصحف ، وكثرت عنها الكتابة الرديئة والحسنة ، وشاع الحديث بمناسبتها عن الشعر والأدب .

ولقد كان فى نيتى ألا أتعرض لهذه الدواوين بخير أو شر ، لأن نفوس الأدباء بمصر تضيق ذرعاً بالملاحظة والنقد، ولا تتسع الصدور لكلمة الحق ، ويقل التسامح ، وتغلق أبواب النظر وسعة الفكر ورحابة العطف الفكرى . ولأن معظم من يكتب أو ينظم الشعر يعتقد أن الأدب نوع من الملكية الفردية يسوء صاحبها ألا تقول كلمة الأطراء عن بضاعته .

غير أن الحديث قد تشعب فى الآونة الأخيرة فى الصحف والمجلات الأدبية عن هذه الدواوين . ويسوء الناقد المخلص أن يرى أن معظم ما كتب فى هذا الموضوع لا يوجه القارىء الراغب فى الفهم ، ولا يصلح الأذواق الأدبية ويوجهها وجه الصدق وطريق الصلاح الأدبى .

وسبب آخر كان ينأى بنا عن الكتابة فى هذا الموضوع ، وهو أن صاحب « وراء الغمام » صديق عزيز علينا ، أهدى الينا ديوانه ليلة ظهوره ، وكذلك فعل صاحب « الملاح التائه » . وهما ولا شك ينتظران المديح والثناء من صديق يجلس معهما ويأنس الى محبتهما . غير أن الموضوع فى رأينا قد تعدى أخيراً هذين الأديبين الى ما هو أخطر وأبعد شأناً ؛ تعداه الى الحديث عن طبيعة الشعر والكتابة ، وأن الأقلام قد خطرت فى هذا الطريق بكلام نعد معظمه خطرا على الحركة الأدبية فى مصر ، وفهم الفنون الأدبية على الوجه الذى يفهم منها فى الجيل الحاضر .

ولهذا رغبنا فى كتابة هذه الكلمة لا لنمدح أو نذم ، ولكن لندلى برأى فى الشعر كما نقرؤه ونفهمه ، وكما ننتظر من الكتاب والقراء أن يقرأوه ويفهموه .

وأول ما يلاحظ على هاتين المجموعتين أن ديوان « وراء الغمام » يكاد ينحصر فى الحب ومطالبه ، وأن موضوعات « الملاح التائه » تكاد تنحصر فى النظم عن مظاهر الطبيعة الكبرى كالبحر والليل ، وأن أكثر أخيلته وألفاظه هى عن النسائم والأمواج والشواطىء العامرة أو المهجورة ، وما إليها من « الشعريات » التى تواضع العرف الدارج على أنها « الطبيعة » . فأولهما إذن يمكن تسميته « بشاعر الحب » والثانى « بشاعر الطبيعة » . فكيف يفهم صاحبنا الأول الحب ، وكيف يعى الثانى الطبيعة ، والى أى شىء منها يلتفت ذهنه ؟

والمفروض بالبداهة أن مثل هذا الشعر يكتب ليقرأه الرجل المصرى أو العربى المثقف ، الملم بشىء من حضارة هذا العصر وثقافته ، الشاعر « بوعى » هذا الزمن الذى يعيش فيه ، والذى تشغله مناظر وآراء ومسائل تثير شكوكه أو تبعثه على التفكير والتأمل والانتاج الفنى .

فلنتكلم عن الحب كموضوع شعرى يتناوله أى شاعر عصرى ، يود أن يقرأه أى مخلوق حى شاعر فى القرن العشرين ، فليس ثمت شك فى أن الحب كحاجة « فسيولوجية » هو كحاجة أى مخلوق حى الى الأكل والنوم . وهو مظهر عادى تشترك جميع الأحياء فيه (ويمكن أن يقال إن النبات والجماد يعرفان الحب أيضا والسلب والايجاب من قوانين الكون بأجمعه) فلم يختص اذن بنظم الشعر والنشيد والأغانى ؟

فاذا حدثنى صديق أو عشير بأنه يحب امرأة بذاتها ، وانه لا يطيق الابتعاد عنها ، وأنها تثير لواعج أشجانه وأمراض نفسه ، فقد يسمع مثل هذا الحديث ويحمل حينما أجلس إلى أى صديق هادىء فيحدثنى عن متاعبه ، وما يسمن من الأكال وما يستهجن ، وعما يحب أو يكره من ألوان الثياب ، ولكنى لا أطيق كقارىء

حتى أن أستمع إلى شعر لا يتعدى نغمه مثل ذكر هـذه الأشياء الأولية، وإلا لكان كل فرد منا شاعراً، لأن لكل فرد حاجاته وأذواقه وشؤونه التي تتعلق بالحب والأكل والنوم والمجيء والذهاب ... فأما هذه «أبجدية» كل انسان.

أصدقائي ! .. إن هذا «الشيء» الذي نسميه شعراً والذي نود أن نقرأه نحن الأحياء العارفين لعالم الحبر والورق، هو خلاف «الكلام الحسن» عن الأشياء العادية . إنه يتطلب وجود شاعر يأكل كبقية الناس ولا شك، ويحب مثلهم، ولكن نظره وأحاسيسه والتفاتات ذهنه وقفزات وعيه نحو هذه الأشياء العادية «غير عادي»؛ وهو شيء آخر خلاف ما يحس عامة الناس ويقفون عنده .. ومن هنا كانت قيمة الشاعر الحق . أي أنه (ولو أنني لا أود استعمال الكلمة ولكنها كبيرة الدلالة) فيلسوف .

فالحب يصبح موضوعاً جديراً بالشعر كما تصبح أية حاجة إنسانية أخرى حينما يكشف لنا الشاعر معنى ونغماً وراء مظاهره المعروفة ومصاحباته العادية . وربما لا يقع من نفس القارئ هـذا النغم وذلك المعنى، وقد يبدو سخيفاً أو غير صادق، فالأمزجة تختلف، والثقافات تتباين وتفترق، ولكنه لا يخطئ في أن يده أي قارئ يحس بأن هناك شيئاً جديراً بالالتفات والعناية .

أما الشاعر الذي يبدئ ويعيد في الحديث عن ملذاته وآلامه وخبراته التي يثيرها شخص المحبوب أو ذكراه فحسب، (مهما اختلفت القافية وتعدد الإيقاع) لا يعدو أن يكون انساناً لم تتسع أنانيته إلى أكثر من حاجاته البسيطة المتعارفة، وهو يشبه الطفل الذي اكتشف لذة الخبز لأول مرة، أو الرجل الصحيح الذي حيل بينه وبين النوم، فيفرح الأول حينما يتناول وجبة فاخرة، ويتألم الثاني لذلك النوم الهنيء الذي طلقه الآن؛ وهذه ولا شك أشياء إنسانية عادية لا غبار عليها ولا نقد فيها، ولكن ليس فيها ما يبرز وضعها فنا يسترعي اهتمام القارئ الصحيح ؛

وربما يصلح مثل هذا الشعر ويجمل عند أناس هم دون طبقة هذا «الكوكب الجديد» الذي اكتشف «قارة الأكل» أو «قارة المرأة» ثم وقف ينسج بحمدها .

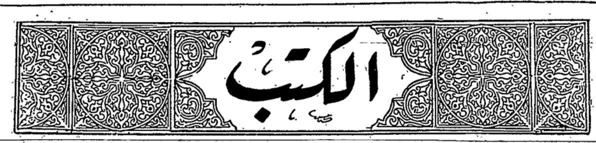
والدكتور ناجي بعد كل هذا قد قرأ بعض قصائد «لورنس» «وت . س . ايليوت» وأضرابهما من الشعراء المحدثين والقدماء عن الحب، أولئك الشعراء الذين تراهم جاهدين يفتشون عن الله، ويبحثون في الجنس ونشوة العفاف الروحي، ثم يعود كل منهم «وحقيبة وعيـه» ملأى بالأحاسيس المختلفة، والأفكار المرة أو العذبة، ملأى بالثعابين التي تبرق كاللؤلؤ، وبالسلام الذي تعقبه أشد فترات الحرب تمزيقاً للأجسام والأرواح، وبالذهول الذي يسمو إلى طبقات السماء، وبالسخر الذي «يرى القمر في أمسية حب أشبه ببالون يلعب به صغار الأطفال»، ثم يذكر أن المساء ينام كرجل عليل ينتظر مبضع الجراح، وبالاختصار «بمعنى» أو «لا بمعنى» عظيم أو «بتيار وعى» ركما يرى في أنامل الحبيب أقطاراً مبتسمة، ولو أنها بادية التناقض، أو بأحاسيس متناقضة بعيدة، حالكة الظلمة، أو شديدة الوهج .

ونحن لا نريد من هذا الحديث أن يقلد أي أديب أحاسيس غريبة عن نفسه بعيـدة عن مطارح فكره، ولكن كقراء مخلصين نطلب منه إذا لم يكن لديه ما يؤلم ويحير، ويسعد ويشقى الشاعر والمفكر والقارئ المعاصر، أن يريحنا ولا يكلف نفسه هذا الجهد، ففي الحياة من التفاهات اليومية، وفي أطراد هذه الحاجات التي نشعر بها في صباحنا ومسائنا ما يجعلها عسيرة الاحتمال، ويضاعف مشقة العيش، فليس بنا ثمت حاجة الى أن نقرأها في عالم الحبر والورق .

والشاعر العصري — سواء في مصر أو في الصين — الذي لا تثيره تيارات الفكر المعاصر، واكتشافاته ومتاعبه، والذي ليس له وجدان يتغير ويتفاعل Catapisis بما يسمع ويقرأ ويفكر ويشاهد من عيوب في نظام حياتنا الحاضرة، أو نشوز في أنغام فكرنا المعاصر، أو ألوان تسترعي الاهتمام في نسيج الثوب الذي يلفنا، أو فراغ في إنسان بادي الامتلاء، أو أغنية في زاوية من زوايا بيتنا المعنوي، ليس له، بل لنا الحق في ألا نعده في عداد الشعراء المخلصين .

والظاهر أن شعراءنا يعيشون في أجسام محدودة الفكر والاحساس بحدود جسدها وغرفها التي تسكن، وأن الأشياء التي تبعث الرجل المعاصر على أن يفكر ويضطرب أو يغني لا تدنو منه أو هو لم يعرفها قط . إن نظرة واحدة حيث يتقاطع شارع عماد الدين بشارع فؤاد الأول مثلاً في أي مساء جديرة بأن تبعث في الفنان أحاسيس وأفكاراً تصلح لأن تكون قصيدة جيدة إذا كان له من الشعر نصيب .

والذي يبدو لي من قراءة هؤلاء الشعراء والحديث معهم أيضاً



الكتب

ابن سعود

سياسته . حروبه . مطامعه

بقلم مصطفى الحفناوى

كتاب كبير يقع فى نحو مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير ، افتتحه مؤلفه بمقدمة بليغة عن بلاد العرب منذ عصورها القديمة حتى ظهور جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، ثم تكلم عن والد الملك وعن البيئة التى نشأ فيها ، وأخذ يسرد بعد ذلك تاريخ ابن سعود ، فشرح كيف استولى على الرياض ، ثم كيف أصبح أمير نجد و إمام الوهابيين ، وتكلم عن حالة بلاد العرب ، وظروفها قبيل الحرب العظمى ، وموقف الإنكليز منها ، وموقف الملك حسين من هذه الظروف وما لعبه من الأدوار ، إلى أن أرانا ابن سعود ملك الحجاز ونجد ، ثم صوره لنا بطل بلاد العرب ، وأخيراً أخذ يشرح لنا إصلاحاته ومقاصده إلى أن اختتم الكتاب بملحق عن الحرب الأخيرة بين الحجاز واليمن ، وما آل اليه أمرها .

فأنت ترى أن الكتاب حافل بالمعلومات التى يتوق اليها من يميل إلى معرفة سيرة ابن سعود وبلاد العرب ، والحقيقة أن حاجة مصر الى هذه المعرفة حاجة شديدة ، ولذلك كان اغتباطى بهذا الكتاب عظيما ، ولقد وضع صاحب السعادة محمد على علوبة باشا مقدمة قيمة له ، تحدث فيها عما شاهده فى بلاد العرب أثناء سفره فى مؤتمر الصلح ، وإنى أشاطر الباشا رأيه إذ يدعو مصر « أن يكون لها هناك صوت مسموع ومشورة نافذة ، وأن تتبوأ المركز الذى وضعتها فيه العناية الالهية فى الأقطار الشرقية ، وفى مقدمتها مملكة العرب »

ولقد قرأت هذا الكتاب القيم النافع ، فبرزت لى فيه بعض

أن ليس فى حياتهم الفكرية والشعورية أى شئ يشبه الصحارى العارية الجرداء ، أو الظلمات الحالكة ، أو البريق الخاطف ، أو الحيرة الشاعرة ، أو أى اشتغال جدى بناحية من نواحى حياتنا الراهنة ، وأن الشكوك والمذاهب والقيم الفكرية التى تحرك الفنان العصرى فى أوروبا إلى الثورة حيناً ، وإلى السأم حيناً آخر . أو إلى أى فلسفة أو « عدم فلسفة » يكتشفها الفنان المرهف الاحساس ، الواسع العطف ، القدير الفهم ، وراء مظاهر الحياة اليومية من عمل ونوم ، وأكل وحب ، ومال وجنس ، ما يجعله يقف وقفة قصيرة أو طويلة يحاسب نفسه ويحاسب العالم بأجمعه ، أو يجرؤ على حوار مع الطبيعة أو الأحياء أو ما وراءها ، لم تدن منه أو هو لم يعرفها أبداً .

ليس الشعر أيها الأصدقاء بالمادة الكاملة الصنع التى يمكن أن نشتريها جميعاً من الحانوت . أو يمكن صنعها كما تصنع الثياب على هذا الطراز أو ذاك .. إنما الشعر هو « تجربة حية » يحسها شخص حى ، ويبصرها وجدان نير ، وهى تجربة فردة لم تحصل ولم تر إلا كما حصلت وكما رآها ذلك الشخص الحى ، ثم يحاول نقلها وإيصالها عن طريق الكلم والايقاع — على قدر مهارته — إلى أمثاله من الأحياء الشاعرين .

وشعر صديقنا ناجى ما زال نغماً واحداً بسيطاً لا يتعدى — بعد زخرفة النظم — إحساس رجل عادى حينما يرى وجهاً مشرقاً ، أو جسماً جميلاً أو عملاً عظيماً . فيقف مشدوهاً ويقول : « ما أحلى ذلك الوجه ، وأى ألم أحس به لحرمانى من ذلك الشكل البديع » إلى آخر الأحاسيس التى يحسها أى مادة تحس ، وإنها لتبدو لى فى بداءتها وطفولتها بما يسمى « رد الفعل » « Reflex action » . وليصدقنى القارئ أن هذا هو كل ما يخرج به الانسان من شعر ناجى بعد تجريده من صناعة « الكلم » ورنين القافية . أما الرنين « والكلام العالى » كما يسمونه ، فقد أفضل أن أسمع الأول من « الجازبند » والثانى من الخطابة ، ولا أهرع للشعر لأسمع شيئاً من ذلك !

بقية المقال فى العدد القادم

مظاهر ، رأيت مع احترامي لآراء مؤلفه الفاضل ، وتقديري لجهوده أن أشير اليها إشارة وجيزة :

الكتاب شيق جذاب ، لن تضعه حتى تتمه ، ومن حسناته البارزة كثرة ما يحتوي عليه من المعلومات ، مضافاً إلى ذلك حسن ترتيبها ومهارة سياقها ، غير أنني آخذ على المؤلف موقفه في الغالب موقف من يكتفي بسرد الحوادث ، ولعل هذا يفسر لي ما أشار إليه المؤلف في نزاهة وصراحة على غلاف الكتاب من أنه عن « ولينز وآرمسترنج بتصرف » فإن إعجابه بابن سعود أولاً ، وما كتبه هذان المؤلفان ثانياً ، قد حفزه إلى وضع كتابه ، فناحيته فيه ظاهرة ، ويحيزه إلى الملك واضح ، لذلك اكتفى كما ذكرت بسرد الحوادث ، ولم أجد به رغم استعداده وما يتجلى في عبارته من آثار ذكائه ، يعلق عليها معللاً استحسانه إذا استحسن ، أو استنكاره إذا استنكر ، وأظن ذلك أمراً جوهرياً في صدد الكتابة عن بطل من الأبطال ، فالمؤرخ في مثل هذه الحالة مطالب بأن يشرح الحوادث شرحاً علمياً ، مفنداً أوجه الصواب أو الخطأ مع ذكر الأدلة العلمية والأمثلة التاريخية كلما أمكن ذلك ، وبهذا تظهر شخصيته ، ويصبح لكتابه إلى جانب ما يحوى من معلومات قيمته العلمية . كذلك ليسمح لي الأستاذ أن أعيب عليه هذا التحيز لابن سعود ، فهو لا يرى فيه إلا بطلاً ، فإن أعانته الظروف أرجع الفضل إليه ، أو اكتفى بقوله إنه نصر من عند الله ، وإن أخطأ استخدام الظروف ، أشاد بعبقريته ونفوذه . ومما لاحظته بنوع خاص أن المؤلف يحمل على الانجليز حملات مباشرة مشيراً الى أطماعهم ومظالمهم في عبارات سطحية أشبه بمقالات الجرائد ، وكان خيراً له فيما أعتقد وأجدى عليه ، أن يوضح أطماعهم ، ويترك للقارئ التعليق عليها ، فالأبحاث العلمية يجب أن تطبع بطابع الهدوء والرزانة ، ولن يعدم المؤلف القدير أن ينال من أعدائه بهدوئه ومهارته أضعاف ما يناله بحدته وضجيج عبارته .

على أن هذه المآخذ لن تغير من جوهر الكتاب ، ولن تقلل من نجاح المؤلف الذي قصد إليه ، ولئن قدرت كتابه بما ترك في نفسي من أثر ، فضلاً عما احتوى عليه من شتى المعلومات ، فإني أشهد أني استمتعت بقراءته واستفدت منه كثيراً ، وإني أدعو كل أديب الى قراءته موقناً أني أدله على أثر نافع طريف .

الخفيف

أصول التدريس الحديث

عن كتاب « التربية المدرسية » لشاربه

تعريب واقتباس سامي الدهان

يبحث هذا الكتاب في طريقة تدريس المواد المختلفة ، وهو مطبوع طبعة جيدة في مطبعة العصر الجديد بحلب ، على ورق جيد ، ويقع في نيف ومائتي صفحة من القطع المتوسط . تعرض مؤلفه لطرق تدريس الأخلاق ، والقراءة ، والخط ، واللغة ، والاملاء ، والمحادثة ، والانشاء ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والتدبير المنزلي ، وإنك لا تكاد تقلب صفحاته حتى تشعر بمتانته ودقته ، وتحس بما للمؤلف من خبرة ومران وسعة اطلاع ، ودقة بحث . خذ لذلك مثلاً : أصول تدريس الخط ، فترى المؤلف قد ألم بجميع نواحي الموضوع ، فهو يتكلم عن درس الخط وفائدته ، ثم يتكلم عن الخط والصحة مشيراً إلى مساوئ الجلسة المعوجة ، ومحاسن الجلسة المستقيمة ، ثم يذكر كيفية تدريسه ، والى فائدة النماذج الخطية . . . الخ

من ذلك ترى مقدار اهتمامه بموضوعه . ولقد أعجبني بنوع خاص ما ذكره عن تدريس التاريخ فتساءل أولاً عن فائدة هذه المادة ، ثم بين فوائدها الوطنية والاجتماعية والخلقية ، وشرح أهمية التاريخ من وجهة الثقافة العقلية ، وبين مقدار ما يجب أن يوزع منه في المناهج بحسب الفصول الدراسية ، وأخيراً ذكر طريقتي تدريسه . ولقد تبينت في بحثه الروح الفنية العلمية ، التي تميز الراسخين في العلم من سواهم ، لذلك أقرر أن الأديب الفاضل سامي الدهان قد أحسن الى اللغة العربية والناطقين بها بنقل هذا الكتاب اليها ، وأعتقد أن الدرسين سيجدون فيه فائدة عظيمة ، فإني وإن كنت أعتقد أن الطرق الخاصة بتدريس المواد تختلف في مملكة عنها في أخرى ، بل وفي مدرسة عنها في مدرسة ، فضلاً عما يطرأ من الظروف المحلية والمؤقتة ، مما يجعل التمسك بطريقة خاصة أمراً مستحيلاً ، أقول إني على الرغم من هذا أعتقد أن القواعد لابد منها ، والمدرس الكفء جدير بأن يستأنس بها وأن يكيف ظروفه على ضوئها ، ولهذا أحمد للمعرب مجهوده ، وأثني على مقدرته في التعريب ، ولا شك أنها نتيجة لصحة فهمه ما عرب وصدق ميله اليه .

الخفيف

2me Année, No. 68.

Lundi-22-10-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩ بالقاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٦٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ١٣٥٣ — ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

فى سبيل التحرر الاقتصادى

موسم السياحة

أقبل موسم السياحة . ولمصر موسم للسياحة مشهور فى جميع أنحاء العالم ، لا لأنها أغنى بقاع الأرض من الناحية الأثرية فقط ، ولكن لأنها تتمتع أيضاً فى الشتاء بجو بديع وطبيعة ساحرة . وفى جميع الأمم التى تشتهر بتراثها الأثرى أو جمالها الطبيعى ، يوجد موسم أو مواسم للسياحة ؛ وتنظم هذه المواسم بحيث تغدو موارد ينتفع بها أهل القطر من الناحية المادية ؛ بل توجد أمم وبقاع تعيش على السياحة كسويسرا مثلاً وبلاد التيرول ، وساحل الريفيرا والبندقية وغيرها . وتعتبر السياحة فى مصر أيضاً مورداً له قيمته وأهميته ، وتبذل الحكومة لترويجه كثيراً من المال ومن وسائل الدعاية ؛ ولكن هل استطاعت مصر أن تنظم موسم سياحتها على نحو يكفل مصالحها ومصالح أبنائها الذين يتصلون به كما تفعل جميع الأمم ؟ وهل تجنى مصر ويجنى المصريون منه ما يحق لهم أن يجتنوه من المزايا المادية والمعنوية ؟ الجواب معروف ، وهو أن مغانم موسم السياحة المصرى مازالت نهباً للأجانب ، يستغلونها باسم مصر والمصريين ، ولكن دون مصر والمصريين ؛ وما تفيده

الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار ، وما يفيده بعض المصريين المتصلين بالموسم لا يعد شيئاً بالنسبة لما تحققه الفنادق ووكالات السياحة الأجنبية من الأرباح الوفيرة .

هذه حقيقة لا ريب فيها ، ولكن هنالك حقيقة أخرى هي أن تبعة هذه النتيجة المؤلمة تقع على عاتق مصر حكومة وشعباً . فالحكومة لم تفعل حتى اليوم شيئاً جدياً لتنظيم موسم السياحة على نحو تراعى فيه المصالح المصرية ، ويوضع فيه حد معقول للاستغلال الأجنبي ؛ والمصريون من جانبهم لا يفكرون في العمل على استثمار هذا الموسم الذي تهيئه لبلادهم مزاياها الأثرية والطبيعية . فمن المعروف مثلاً أن الفنادق تستأثر بأهم موارد الموسم ، وأن هذه الفنادق كلها أجنبية ؛ ولكن هل فكرنا نحن في إنشاء فنادق يستطيع أن يؤمها السياح ؟ إن إنشاء الفنادق صناعة لها قيمتها وأهميتها ولا سيما في مراكز السياحة المشهورة ؛ ففي سويسرا مثلاً تعتبر صناعة الفنادق من أهم الموارد القومية ، وقد عرف الأجانب في مصر هذه الحقيقة فعنوا بإنشاء الفنادق واحتكروا صناعتها ، ولكن المعروف أنهم يذهبون في استغلالها إلى حدود مرهقة ، حتى أن كثيراً من السياح الذين يفدون على مصر يضجون بالشكوى من غلاء الأجور والأثمان التي تفرض عليهم ، وهذا بلا ريب عيب في موسم السياحة المصري له أثره السيء في سير الموسم ، وهو بلا ريب يصرف الكثيرين من متوسطي الحال عن القدوم إلى مصر والتمتع بآثارها ومشاهدها .

ونذكر أن الحكومة قدرت خطر هذه المسألة منذ أعوام ، وفكرت فعلاً في إنشاء فندق كبير فخم يقتضي من السياح أجوراً معتدلة ، ولكن الفكرة ماتت في مهدها ككل فكرة يخشى منها على المصالح الأجنبية في مصر . وإذاً فليس لنا إلا أن نعتمد على الجهود الخاصة في غزو هذه الصناعة التي يحتكرها الأجانب في بلادنا ، ويجنون منها الثروات الطائلة ؛ وهي صناعة لا تقتضي فنوناً أو مواهب خارقة ، ولا تقتضي سوى الأقدام وموهبة التنظيم وحسن الذوق ؛ وهي ليست أجل خطراً من الشئون المالية الدقيقة التي استطعنا أن نغزوها وأن نبرع فيها على يد بنك مصر وشركاته القوية الميمونة . ولقد أتيح لهذه المؤسسة القومية المتيدة أن تبدأ بالفعل بغزو ميدان له صلة وثيقة بالسياحة وموسمها ؛ فقد أنشأت شركة للمواصلات الجوية وأسطولاً جوياً يقوم اليوم بنصيبه في المواصلات المحلية ؛ وأنشأت شركة للملاحة لها اليوم أسطول بحري لا يزال في مستهل حياته ، ولكنه يشق اليوم عباب البحر الأبيض ، ويربط مصر بالقارة الأوربية ؛ وإذا كنا ننبه اليوم على تقصيرنا في العمل على استثمار موسم سياحتنا والأخذ بنصيبنا في صناعة الفنادق المحلية ، فإنما نتجه في تلافي هذا التقصير بادئ بدء إلى بنك مصر أيضاً ، وإلى تلك العصبة الميمونة من زعمائنا الاقتصاديين الذين أتوا في الميدان الاقتصادي بالعجائب ، فهم أحق الناس بأن يتولوا الزعامة في هذه الناحية أيضاً ، فينشئوا لنا شركة مصرية حقيقية تقوم بإنشاء بضعة فنادق فخمة تشترك في استثمار موسم السياحة لحساب المصالح المصرية ، وتفتح بذلك باب هذه الصناعة واسعاً أمام المصريين ، فيقتدون بها في الاقدام والعمل ؛ ولا ريب أن صناعة فنادق مصرية إذا أقيمت على أسس مستنيرة تلقى نصيبها الأوفر من النجاح ، نظراً لقناعتها واعتدالها .

هذا وفي وسع المصريين أن يحققوا بغزو هذه الصناعة ، فضلاً عن الأرباح المادية لبلادهم ، مزايا أدبية جليلة عن طريق الاتصال بموسم السياحة ؛ فالسياح من مختلف الأمم ، لا يتصلون عند مقدمهم إلى هذه البلاد بكثير من المصريين المستنيرين ، إذ يتلقفهم الأجانب والفنادق الأجنبية ، ويأخذون معظم معلوماتهم عن مصر من الأجانب ؛ وليست هذه المعلومات دائماً دقيقة ولا نزيهة . فإذا أتيح للمصريين أن يتصلوا بطبقات السياح عن غزو ميدان السياحة ، فإنهم يستطيعون أن يقدموا لضيوفهم عن بلادهم كل المعلومات المطلوبة ، وأن يذيعوا بذلك مآثرها ومحاسنها بين السياح من مختلف الأمم ، فيكون لها بذلك حسن الذكرى في كثير من البلاد .

هذه كلمة أوحى بها إلينا إقبال موسم السياحة الذي يتجدد كل عام في مثل هذا الفصل ؛ والذي ما زال الأجانب يستأثرون بغنائمه باسم مصر ؛ نرجو أن يكون لها بعض الصدى والأثر .

« ع »

قبح جميـــل

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة، فصنع له مسلم بن عمران التاجر المتأدب صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء، فجاء ابنا صاحب الدعوة، وهما غلامان، فوقفا بين يدي أبيهما، وجعل ابن أيمن يطيل النظر إليهما، ويُعجب من حسنهما وبزّتهما وروائهما، حتى كأنما أُفرغا في الجمال وزينته إفراغاً، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس، أو هما قد نبتا في مثل تهاويل الزهر من زينته التي تُبدعها الشمس، ويصقلها الفجر، ويتندّى بها روحُ الماء العذب. وكان لايصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر، كأن جمالهما لاينتهي فما ينتهي الاعجاب به.

وجعل أبوهما يسارقه النظرَ مسارقة، ويبدو كالمتشاغل عنه، ليَدَعَ له أن يتوسّمَ ويتأملَ ماشاء، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومخايلهما. بَيْدَ أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمةَ الاعجاب به، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً، وحتى ليحس أنّ غريزةً في داخله كلَّمها الحسنُ من كلامه فردّتْ عليــــه من كلامها.

قال ابنُ أيمن: سبحان الله! ما رأيت كاليوم قطّ دُمْيَتَيْنِ لاتُفتِّح الأعينُ على أجملَ منهما! ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكةُ ثياباً من الجنة ما حسِبْتُ أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسن مما صنعت أمهما.

فالتفت إليه مسلم، وقال أحب أن تعوّذهما. فمد الرجل يده ومسح عليهما، وعوّذهما بالحديث المأثور، ودعا لهما، ثم قال: ما أراك إلا استَجَدْتَ الأمّ تُحْسِنَ نسلك، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً، صغارُه من كباره؛ وما عليك ألاّ تكون قد تزوجت ابنةَ قيصر فأولدتَها هذين، وأخرجتْهما هي لك في صبغتها الملوكية [1] من الحسن والأدب والرونق، وما أرى مثلهما يكونان في موضع إلا كان حولهما جلالُ المُلْك ووقاره، مما يكون حولهما من نور تلك الأم.

فقال مسلم: وأنت على ذلك غير مُصدّق إذا قلت لك إني لا أحب المرأة الجميلة التي تصف، وليس بي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحبُّ النساء إليّ، وأخفُّهن على قلبي، وأصلحُهن لي، ما أعدِل بها ابنةَ قيصر ولا ابنة كسرى

فبقي ابنُ أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطين ويستطيبه لفساد في طبعه، فلا يحلو السكّر في فمه وإن كان مكرّراً خالصَ الحلاوة. ورَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكون هذا الرجل الجِلْف قد ضارّها [2] بتلك الدميمة أو تسرّى بها عليها. فقال وما يملك نفســه: أما والله لقد كفرتَ النعمة، وغدرْتَ وجحدْتَ وبالغت في الضُّر، وإن أمّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوق النساء، إذ لم يَتَبَيَّنّ في ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدرِ نفسها، وقد كان يسعها العذر لو جعلتْهما سَخْنَةَ عين لك، وأخرجتْهما للناس في مساوئك لا في محاسنك، وما أدرى كيف لا تَنِدُّ عليك، ولا كيف صَلُحَتْ بمقدار ما فسدْتَ أنت، واستقامت بمقدار ما التويْتَ، وعجيبٌ والله شأنكما! إنها لتعلو في كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق، كما تعلو أنت في البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة.

قال مسلم: فهو والله ما قلتُ لك، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبتْ بي كلَّ مذهب، وأنستْني كل جميلة في النساء، ولئن أخذت أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشَّوَهَةِ والدَّمامة؛ غير أنها مع ذلك لاتجيء إلا دالّةً على أجمل معاني المرأة عند رَجُلها في الحظوة والرضى وجمال الطبع. وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة في القبح هي زيادة في الحسن وزيادة في الحب، وكيف يكون اللفظ الشائه، وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحس؟

(١) تجيء هذه الكلمة في كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب وهو الأفصح في رأينا، ومن ذلك تسمية الامام ابن جني كتابه « التصريف الملوكي ».

(٢) المضارة اتخاذ الضرة على الزوجة.

قال ابن أعين : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشياطين ، وقد عجّل الله لك من هذه الذميمة زوجتك التي كانت لك فى الجحيم ، لتجتمعا معاً على تعذيب تلك الحوراء اللائكية أمّ هذين الصغيرين ، وما أدرى كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذى أدخلْتَ من القبح والدمامة فى معاشرتها ومعايشتها ، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرها إلى تلك . أفَبَهيمةٌ هى لا تعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس فى الناس ، أم أنا لا أفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم وقال : إن لى خبراً عجيباً : كنت أنزل « الأبُلّة » وأنا متعيّش فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ، ثم بدا لى أن أتّسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسط يدى للنال حيث يكثر وحيث يقلّ ، وكنت فى ميعة الشباب وغلوائه ، وأول هجمة الفتوة على الدنيا ، وقلت : إن فى ذلك خلالاً ؛ فأرى الأمم فى بلادها ومعايشها ، وأتقلّب فى التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأفيد عظة وعبرة ، وأعلم علماً جديداً ، ولعلنى أصيب الزوجة التى أشتهيها وأصوّر لها فى نفسى التصاوير ، فإن أمرى من أوله كان إلى علوّ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرى إلا السَّبْق ، ولا أرضى أن أتخلف فى جماعة الناس ؛ وكأنى لم أر فى الأبلة ولا فى البصرة امرأة بتلك التصاوير التى فى نفسى ، فتأخذها عينى ، فتعجبنى ، فتصلح لى ، فأتزوجها ، وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أحرزه فى دارى ؛ فما زلت أنزل من بلد إلى بلد حتى دخلت « بلخ »(١) من أجلّ مدن خراسان وأوسعها غلّة ، تحمل غلّتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم ؛ وفيها يومئذ كان عالمها وإمامها « أبو عبد الله البلخى » وكنا نعرف اسمه فى البصرة ؛ إذ كان قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرواة والعلماء ؛ فاستخفتنى إليه نزوةٌ من شوقى إلى الوطن ، كأن فيه بلدى وأهلى ؛ فذهبت إلى حلقته ، وسمعته يفسر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « سوداء ولود خير من حسناء لا تلد » . فما كان الشيخ إلا فى سحابة ، وما كان كلامه إلا وحياً يوحى إليه . سمعت والله كلاماً لا عهد لى بمثله ، وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء وأداخلهم فى فنون من المذاكرة ، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخىّ ، ولقد حفظته حتى ما تفوتنى لفظة منه ، وبقى هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله ، ويدفعنى إلى معانيه دفعاً حتى أتى علىّ ما سأحدّثك به . إن الكلمة فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا .

قال ابن أعين : إطْوِ خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لى كلام البلخى ، فقد تعلّقت نفسى به .

قال سمعتُ أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث : أما فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تنبّه إليه ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كَنَى بها عما تحت السواد ، وما فوق السواد ؛ وما هو إلى السواد من الصفات التى يتقبّحها الرجال فى خلقة النساء وصورهن ؛ فألطف التعبير ورقّ به ، رفقاً بشأن النساء أن يصف امرأة منهن بالقبح والدمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيهاً لسانه النبوىّ ؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إن ذِكْر قبح المرأة هو فى نفسه قبيح فى الأدب ، فإن المرأة أمّ أو فى سبيل الأمومة ؛ والجنة تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يتخيّل فى الحسن تحت قدمى امرأة ، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أما إن الحديث كالنصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألا يصف امرأة بقبح الصورة ألبتّة ، وألا يجرى فى لسانه لفظ القبيح وما فى معناه ، موصوفاً به هذا الجنس الذى منه أمه : أيودّ أحدكم أن يمزّق وجه أمه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العرب يفصّلون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظاً كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرقبون المرأة عن السائمة والماشية . أما أكمل الخلق صلى الله عليه وسلم ، فما زال يوصى بالنساء ويرفع شأنهن ، حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات كان يتكلم بهن ، إلى أن تلجلج لسانه وخفى كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة . . الصلاة . . وما ملكت أيمانكم ، لا تكلّفوهم ما لا يطيقون ؛ الله الله فى النساء . . »

(١) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان .

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هي إنما هي صلاةٌ تتعبّد بها الفضائلُ ، فوجبتْ رعايتها وتلقّيها بحقها . وقد ذكرها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوع رقّ ؛ ولكنه ختم بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج في حقيقته نوع عبادة .

قال الشيخ : ولو أن أمّاً كانت دميمة شوهاء في أعين الناس لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجمل من ملكة على عرشها ؛ فني الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسّه ولفظه ، لم يكذب في أحدها ، فقد انتفى القبح إذن ، وصار وصفها به في رأى العين تكذيباً لوصفها في رأي النفس ، ولا أقلّ من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما في معنى الحديث ، فهو صلى الله عليه وسلم يقرّر للناس أن كرَم المرأة بأمومتها ، فاذا قيل : إن في صورتها قبحاً فالحسناء التي لا تلد أقبحُ منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبح الذي يقال إن الحسن أقبح منه . . . !

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أنْ لا قبح في صورة المرأة ، وأنها منزّهة في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فان كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبّ المرأة حباً على طريقة البهائم ، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته لايتكذّبُ في الغريزة ولا في الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله ، ووضعها مرّة فوق الحدّ ، ومرّة دون الحد .

فأكبر الشأن هو للمرأة التي تجعل الانسان كبيراً في إنسانيته ، لا التي تجعله كبيراً في حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحة لا الجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الأيمان أن يعيش فيما يصلح به الناس ، لافيما يصطلح عليه الناس ؛ فان الخروج من الحدود الضيّقة للألفاظ الى الحقائق الشاملة هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدي الى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرة فيه ، وهو إنما يصل من هذه الى تلك ، فلا ينبغي أن يحصر السماوية الواسعة في هذه الترابية الضيّقة . والقبح إنما هو لفظ ترابيّ يشار به الى صورة وقع فيها من التشويه مثلُ معاني التراب . والصورة فانية زائلة ، ولكنّ عملها باقٍ ؛ فالنظر يجب أن يكون الى العمل . فالعمل هو لا غيره الذي تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا الى الشوهاء ، ولكن الى الحور العين . إنهما في رأي العين رجل وامرأة في صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً ؛ أما في الحقيقة والعمل وكمال الايمان الزوجيّ فهما إرادتان متّحدتان تجذبُ إحداهما الأخرى جاذبية عشق ، وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والانسانية ؛ ولذلك اختار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلها ؟ . فقيل : العوراء . فقال : زوجوني إياها . فكانت العوراء في رأي الامام وإرادته هي ذات العينين الكحيلتين ، لوفور عقلها وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشريف بعد كلّ هذا الذي حكيناه يدلّ على أن الحب متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الأنسانية العالية ، متّسعاً لها غير محصور في الخصوص منها ، كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس ، واستطاع الانسان أن يجعل حبّه يتناول الأشياء المختلفة ، ويردّ على نفسه من لذّاتها ، فان لم يسعده شيء بخصوصه ، وجد أشياء كثيرة تسعده بين السماء والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يعدّ جمالاً ، رأى الجمال في أشياء منها غير الصورة ، وتعرّف إلى ما لا يخفى ، فظهر له ما يخفَى ،

وليست العينُ وحدها هي التي تؤامَر في أيّ الشيئين أجمل ، بل هناك العقلُ والقلب ، فجوابُ العين وحدها ، إنما هو ثلث الحق . ومتى قيل « ثلث الحق » فضياعُ الثلثين يجعله في الأقل حقّاً غير كامل .

فما نكرهه من وجه ، قد يكون هو الذي نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الارادة السليمة تعمل عملها الانسانيّ بالعقل والقلب ، وبأوسع النظرين دون أضيقهما « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً . »

***

فوثب ابنُ أعين ، وأقبل يدور في المجلس مما دخله من طرب الحديث ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يابن عمران . قال مسلم : فكيف بك لو سمعته من أبي عبد الله ؛ إنه والله قد حبّب إليّ السوداء والقبيحة والدميمة ، وتغلغلت نفسي

بغير النظرين ، وقلت : إن تزوجت يوماً فما أبالي جمالاً ولا قبحاً ، إنما أريد إنسانية كاملة مني ومنها ومن أولادنا ، والمرأة في كل امرأة ، ولكن ليس العقل في كل امرأة .

قال : ثم إني رجعت إلى البصرة ، وآثرت السكنى بها ، وتنافس الناس إقبالي ، وعلمت أنه لا يحسن بي المقام بغير زوجة ، ولم يكن بها أجل قدراً من جد هذين الغلامين . وكانت له بنت قد عضلها وتعرض بذلك لعداوة خطابها ، فقلت : ما لهذه البنت بد من شأن ، ولو لم تكن أكمل النساء وأجملهن ، ما ضن بها أبوها رجاء أن يأتيه من هو أعلى ، فحدثتني نفسي بلقائه فيها ، فجئته على خلوة ...

فقطع عليه ابن أعين وقال : قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريد من خبر تلك الدميمة التي تعشقتها .

قال : مهلاً فستنتهي القصة إليها . ثم إني قلت : يا عم ، أنا فلان بن فلان التاجر . قال : ما خفي عني محلك ومحل أبيك .

فقلت : جئتك خاطباً لابنتك . قال : والله ما بي عنك رغبة ، ولقد خطبها إلي جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإني لكاره من إخراجها عن حضني إلى من يقومها تقويم العبيد .

فقلت : قد رفعها الله عن هذا الوضع ، وأنا أسألك أن تدخلني في عدادك ، وتخلطني بشملك . فقال : ولا بد من هذا ؟ قلت : لا بد . فقال : أغد علي برجالك .

فانصرفت منه إلى ملأ من التجار ذوي أخطار ، فسألتهم الحضور في غد . فقالوا : هذا رجل قد رد من هو أثرى منك ، وإنك لتحركنا إلى سعي ضائع . قلت : لا بد من ركوبكم معي . فركبوا على ثقة من أنه سيردهم .

فصاح ابن أعين ، وقد كادت روحه تخرج : فذهبت فزوجك بالجبلة الرائعة أم هذين ، فما خبر تلك الدميمة ؟

قال مسلم : يا سيدي قد صبرت إلى الآن ، أفلا تصبر على كلمات تنبئك من أين بدأ خبر الدميمة ؟ فإني ما عرفتها إلا في العرس .

قال : وغدونا عليه فأحسن الإجابة ، وزوجني ، وأطعم القوم ونحر لهم ، ثم قال : إن شئت أن تبيت بأهلك فافعل ، فليس لها ما يحتاج إلى التلوم عليه وانتظاره .

فقلت : هذا يا سيدي ما أحبه . فلم يزل يحدثني بكل حسن حتى كانت المغرب ، فصلاها بي ، ثم سبح وسبحت ، ودعا ودعوت ، وبقي مقبلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك ، فأمضني — علم الله — كأنه يرى أن ابنته مقبلة مني على مصيبة ، فهو يتضرع ويدعو . ثم كانت العتمة فصلاها بي ، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دار قد فرشت بأحسن فرش ، وبها خدم وجوار في نهاية من النظافة . فما استقر بي الجلوس حتى نهض وقال : أستودعك الله ، وقدم الله لكما الخير وأحرز التوفيق .

واكتنفني عجائز من شمله ليس فيهن شابة إلا من كانت في الستين . . . فنظرت فإذا وجوه كوجوه الموتى ، وإذا أجسام بالية يتضام بعضها إلى بعض ، كأنها أطلال زمن قد انقض بين يدي . . .

فصاح ابن أعين : وإن دميتك لعجوز أيضاً ... ؟ ما أراك يا ابن عمران إلا قتلت أم الغلامين ... !

قال مسلم : ثم جلون ابنته علي وقد ملأن عيني هرماً وموتاً وأخيلة شياطين وظلال قرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتي ، حتى أسرعن فأرخين الستور علينا ؛ فحمدت الله لذهابهن ، ونظرت .

وصاح ابن أعين وقد أكله الغيظ : لقد أطلت علينا فستحكي لنا قصتك إلى الصباح ، قد علمناها ، فما خبر الدميمة الشوهاء ؟

قال مسلم : لم تكن الدميمة الشوهاء إلا العروس ! ... ...

* * *

فزاغت أعين الجماعة ، وأطرق ابن أعين إطراقة من ورد عليه ما يحيره . ولكن الرجل مضى يقول : ولما نظرتها لم أر إلا ما كنت حفظته عن أبي عبد الله البلخي ، وقلت : هي نفسي جاءت لي إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل في ويديرني ويصرفني . وما أسرع ما قامت السكينة فأكبت على يدي وقالت :

« يا سيدي ، إني سر من أسرار والدي ، كتمه عن الناس وأفضى به إليك إذ رآك أهلاً لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيك . ولو كان الذي يطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها لعظمت محنتي . وأرجو أن يكون

معى منها أكثرَ مما قصَّر بى فى حُسن الصورة؛ وسأبلغ محبَّتك فى كل ما تأمرنى. ولو أنت آذيتنى لَعَددتُ الأذى منك نعمةً، فكيف إن وَسِعنى كرمُك وسَترك؟ إنك لا تعامل الله بأفضلَ من أن تكون سبباً فى سعادة بائسة مثلى. أفلا تحرص ياسيدى على أن تكون هذا السببَ الشريف؟»

ثم إنها وثبتْ فجاءت بمال فى كيس وقالت: ياسيدى، قد أحلَّ الله لك منى ثلاثَ حرائر وما آثرته من الإماء؛ وقد سوَّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياع الجوارى من مال هذا الكيس، فقد وقفتُه على شهواتك، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط.

***

قال أحمد بن أيمن: فحلف لى التاجر: إنها ملكتْ قلبى مِلْكاً لا تصل إليه حسناءُ بحسنها، فقلت لها: إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه منى: «والله لأجعلنَّك حظىَّ من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة، ولأضربنَّ على نفسى الحجاب ما تنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبداً.» ثم أتممتُ سرورَها فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله البلخى. فأيقنتُ والله يا أحمد أنها نزلتْ منى فى أرفع منازلها، وجعلتْ تحسُن وتحسُن كالغصن الذي كان مجروداً ثم وخزته الخضرة من هنا ومن هنا.

وعاشرتها فاذا هى أضبط النساء، وأحسنهن تدبيراً، وأشفقهن علىَّ، وأحبُّهن لى؛ وإذا راحتى وطاعتى أوَّلُ أمرها وآخره؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لى من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر؛ فجمل القبح يقلُّ ويقل، وزال القبح باعتيادى رؤيته، وبقيتْ المعانى على جمالها؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة.

ولما ولدتْ لى جاء ابنها رائع الصورة، فحدثتنى أنها كانت لا تزال تتمنى على كرم الله وقدرته أن تتزوج وتلد أجمل الأولاد، ولم تدع ذلك من فكرها قط، وألَّف لها عقلُها صورة أجمل غلام تتمثله وما برحت تتمثله. فاذا هى أيضاً كان لها شأنُ كشأنى، وكان فكرُها عملاً يعمل فى نفسها، ويديرها ويصرِّفها.

ورزقنى الله منها هذين الابنَيْن الرائعيْن لك، فانظر أىُّ معجزتين من معجزات الايمان؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

صفحة من التاريخ

ميــــــدان القبق

بين السعد والنحس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

صف لى ملاهى قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة — وإذا أخطأنى حظ الاصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع — وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبنى ما لم يهب سواى من قدرة على التكهن أو التنبؤ، بل هى مجارى الأقدار تنساق فى سبيل لا حيلة فى الحيد عنها، ولا وسيلة إلى الانفلات منها.

وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الانسانية من تصور ما كان يجرى فيها من فظائع. وايمن الحق ما كان لامرىء أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال ما دامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية. وقد رأيت ما تم عليه آثار مدنية بومبى من هوى إلى سحيق الدعارة، وما كان لك أن تتطلع فى مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط، إذ أن النفوس لا تلهو إلا بما ضرِيت عليه واطمأنت إليه وسرى فى عاداتها وتغلغل فى حياتها. والحياة القوية مطالب وتكاليف؛ إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها فى مباشرتها. ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم إيضاح، فذلك شعب الانجليز ترى لذة شبانه وكهوله فى ممارسة الرياضة بأنواعها، والجولان فى البحر والبر والهواء، يجدون اللذة القصوى فى مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات. وإذا شئت مثلاً آخر فلن تعوزك المُثُل؛ فالشعوب القوية ولله الحمد كُثْر فى كل عصر، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته فى مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة.

ولقد كان لنا آباء — رحمهم الله — لم يكونوا من المتخلفين فى ميدان الحياة، بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم. ولست

أتردد في أن أسميهم بالآباء ، على أنهم قد لا يكونون لي آباء . كما أنني لا أتردد في أن أسمي الفراعين آبائي ، ولعلهم لم يكونوا من آبائي . فانني لا تجري في دماء الملوك ؛ ولئن كان في شيء منها فقد جهلته .

فالملوك الأقدمون منذ خلدوا على صفحات التاريخ قد أصبحوا اليوم آباء لنا في أنهم كانوا الحفظة لمثلنا العليا ، والقوام على آمالنا القومية . فهم آباؤنا في التراث القومي وإن بعدت بيننا علاقات النسب . لا ، بل وإن اختلفت ألوان الدماء وتباينت مواطن الشعوب .

في جانب القاهرة المعزية من الشمال الشرقي حي اسمه الآن حي العباسية الشرقية ، ومن ورائه من ناحية الجبل مساحة عظيمة مسطحة لا تكاد ترى فيها نشزاً ، وقد اختطت في بعض جهات هذا المتسع في أيامنا الحاضرة مدافن حديثة شقت ما بينها الشوارع وأنشئت الحدائق ؛ وهذا السهل يتصل إلى جنوب القاهرة فيما يلي قلعة الجبل لا تكاد ترى في كل هذه المسافة تلا يعكر سهولة السطح ، وهذه المساحة هي بعينها الميدان القديم الذي أنشأه أحد أجدادنا العظام الذين قدمت الإشارة إليهم ، وهو الملك العظيم الظاهر بيبرس البندقداري ؛ وكان اسم هذا الميدان الفسيح في تسمية العامة : (الميدان الأسود) أو ميدان السباق . وكان في تسمية الخاصة : (ميدان القبق) .

أما القبق فهو آلة من آلات التمرين الحربي ، وهو عبارة عن قرص كبير من الخشب يوضع فوق منارة عالية ، ويوضع وراءه هدف ترمي إليه الجنود سهامهم ؛ وكان الرمي بالقسي والسهام من أكبر وسائل الرياضة عند أهل ذلك العصر من سني القرن الثالث عشر الميلادي أو القرن السابع الهجري .

وكانت مصر حينئذ قلب الشرق الاسلامي وكنانته . إذ كانت بلاد ما بين النهرين قد أكلتها نيران التتار ، وأصبحت دامية صريعة تئن تحت سنابك خيل أحفاد جنكيز خان ؛ وكانت بلاد الشام لا تزال تعاني بقايا الفتح الأوربي الذي اعتراها في مدة الحروب الصليبية ، وكانت أوربا لا تزال في أول أدوار النهضة بعد أمد العصور الوسطى ، ولا تزال على عقليتها القديمة التي دفعتها إلى الحروب الصليبية تحاول ما استطاعت أن تبطش بدول الاسلام . فكان على دولة مصر أن تحفظ مدنية الاسلام ، وتراثه العلم والنور من موجة التتار المخربة المدمرة من جانب الشرق ، وأن تدفع عادية أوربا المحنقة الثائرة من جانب الغرب . ولهذا كان لا مفر من أن تكون مصر على رباط دائم ، وفؤاد يقظ حديد .

وكان بيبرس ممثل الدفاع في القرن الثالث عشر الميلادي ؛ حمل الراية مدة حكمه الطويل فكان بطلاً موفقاً مجدوداً لم تكن أعوامه تخرج عن عام غزو في بلدة من بلاد الشام ، أو عام موكب انتصار عقب فتح من الفتوح . وما كانت مواسم مصر على يديه إلا تلك المواسم النابضة بالحماسة ، الجياشة بمعاني الرجولة والحياة القوية .

وكان ميدان القبق مشهد أكبر المواسم وأحبها إلى الناس ، سواء في ذلك العامة والخاصة . وها نحن أولاء نصف واحداً من تلك المواسم البيبرسية التي سادها السعد والتوفيق ؛ فكان مبعث سرور للآلاف من الناس وآية مجد وجلال للدولة ورجالها .

كان ذلك في يوم شديد الحر في شهر رمضان ؛ وكانت العادة أن ترش أرض الميدان الأسود بالماء قبل أن يبدأ فيه الاحتفال ؛ فرأى السلطان الجليل (بيبرس) أن رش هذا الميدان الفسيح في مثل هذا اليوم القائظ وفي شهر الصيام فيه تكليف شاق على الناس . وأشفق أن ينالهم من ذلك أذى ، فأمر بأن يكف الناس عن الرش وأن يتحمل هو وجنوده مشقة الاحتفال في القيظ بغير ترطيب الأرض بالماء .

وأبى الله أن يجزي مثل هذا العطف بغير جزائه . فكان من دلائل سعد السلطان ويمن أيامه أن ساقت الرياح غمامة في ذلك اليوم على غير عادة في مثل ذلك الوقت ، فأمطرت الميدان حتى رطبت أرضه ، ثم أقلعت . وما أتى وقت الاحتفال حتى رأى بيبرس وفرسانه ميداناً دهسا غير ملبد ولا زلق .

ودخل السلطان العظيم على رأس قواده وجنوده ، فكلف كبارهم باظهار ما عندهم من البراعة في الرماية . ووقف الناس ألوفا حولهم يعجبون بما يرون ، وتثب قلوبهم سروراً بما يعجبون به ، إذ رأوا حماتهم جديرين بما أولوهم من زعامة في الدفاع المجيد .

ثم ركب السلطان في قمة الصف ، واصطف وراءه القواد والجنود بحسب المراتب المرسومة ، وحمل كما يحمل إذ يكون في

في ميدان الحرب وحمل وراءه أتباعه كباراً وصغاراً ، كأنما هم رجل واحد ، ولهم إرادة واحدة . فاذا كر السلطان كانت الألوف وراءه جزء منه ، وإذا لف كانت الألوف من خلفه كأنما هي قطعة واحدة — وتعالت عنـــد ذلك أصوات الأعجاب والحماسة ، واختلطت بزفرات الدعاء والولاء ، فلقد كان بيبرس العظيم مليكاً على الناس مسيطراً على الأفئدة .

وانتهى اليوم على ما ابتدأ به من السعد ، ووزعت الهبات والصِلات ، وتتابعت العطايا والهدايا ، ونال الناس من بر ذلك اليوم ما لم يفت طبقة من الطبقات ، فقد قرت أعين الأمراء بالتكريم ، وأثلجت صدور الفقراء بالعطاء .

وما كان مثل عصر (بيبرس) ليذهب بغير أثره ، فقد أصبح الناس جميعاً ولا همة لهم إلا في تقديس أبطال الفرسان ، ولا مسرة إلا ما تبعثه مناظر الكر والفر ، وأصبح بفضل هذا الروح في مصر جيش من أبطال ما زالوا مضرب الأمثال في النظام والشجاعة والمهارة ، وأصبح الشعب وذهنه منصرف إلى ناحية حياة الرجولة والدفاع والنضال ، لا يقبل على لهو إقباله على شهود أيام الاحتفال . قال المقريزي في وصف ذلك : « وصارت تلك الأمكنة لاتسع الناس ومابقي لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمى النشاب » .

غير أن ذلك الميدان لم يشهد السعد وحده ، بل شهد بعض ساعات من النحس بعد أن تغير الزمان وتبدل الحال . ولم يكن في الامكان أن يجود الزمان بالأفذاذ يتبع بعضهم بعضاً بغير انقطاع . وإلا فلم سمي الأفذاذ أفذاذاً ؟

فحكم مصر في أواخر القرن الثالث عشر المسيحي سلطان آخر يمتاز عن بيبرس بأنه من سلالة ملكية ، إذ كان أبوه سلطاناً قبله ، غير أنه لم يكن في مثل قوة بيبرس ولا في مثل توفيقه وسعده ، وذلك هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

أراد يوماً أن يحتفل احتفالاً مجيداً كمن سبقه من السلاطين العظام ، واختار ميدان القبق لذلك الاحتفال ، وأراد أن يجعل ذلك الاحتفال على ما شاء له الملك الضخم والغنى الواسع وبيت العز الجليل . وكانت الخاتون الجليلة زوجة السلطان على وشك أن تضع ولداً . وكان أكبر أمل الملك العظيم أن تلد له غلاماً يكون وارثاً الملك جده وأبيه . وسبق السلطان الأقدار إلى إعداد العدة لاستقبال المولود السعيد المنتظر ؛ وكان يرجى أن يكون يوم ذلك الاحتفال هو يوم الوضع الموعود .

ومهد الميدان ورشت جوانبه ، وجهزت أدواته وآلاته ، وزينت طرقه وحواشيه ، وأقبل السلطان في موكبه الفخم وركابه المهيب . وابتدأ الاحتفال يباهي الايام الماضية بجلاله وضخامته ، غير شيء واحد كان غير ماثل فيه ، وهو جلال بيبرس العظيم وتعلق قلوب الشعب والجنود به . وجرى كل شيء على سنته المعتاد غير أمر واحد ، وهو سعد السلطان بيبرس العظيم وتوفيقه . فما هي الا جولة حتى اغبر الجو وأظلمت السماء ، وثارت عاصفة هوجاء يكاد الواقف فيها لا يرى جاره أو يستبين ما حوله . فتحول اليوم من احتفال وعيد الى فوضى واختلال ، وهدم في ساعة ما قضى السلطان في إعداده أياما طوالا وبذل في سبيله اموالا طائلة . ثم وضعت الخاتون طفلها أنثى ، ولم يتحقق أمل السلطان في وارث يحفظ الملك عقبه في بيته .

وهكذا تجري الأقدار في مسالكها الغامضة ، وإنما يرى الناس منها الآثار التي تدهش لها الألباب وتعشى منها الأبصار ، بغير أن يستطيعوا رؤية ما وراء ذلك من تدبير القضاء ، فكان ذلك اليوم آخر ما شهده ميدان القبق من جليل الاحتفال . حقاً لقد عاد اليه بعض الملوك حيناً وأرجعوا اليه الحلبة ، غير أن الروح لم يعد إليه ، والروح سر عجيب لم تستطع البشرية أن تسمو اليه ، فانه يحل فلا تعرف أنه حل الا من آثاره ، ثم يذهب فلا تدرك ذلك الا من آثار ذهابه ، ولكنه غامض غموض الغيب المحجوب . ومن أعجب ما فيه أن السعد إنما يقبل مع اقباله ، والنحس إنما يحل عند إدباره ، وانه إذا كان أدبر يوماً ، فلا جرم أنه يدبر لكي يعود في يوم آخر ، ولو بعد حين .

محمد فريد أبو حديد

القتل السياسي

جريمة مرسيليا المروعة

عرض تاريخي لظروفها وبواعثها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يشهد العالم منذ مقتل الارشيدوق فرنز فرديناند ولي عهد الامبراطورية النمسوية في يونيه سنة ١٩١٤ ، جريمة سياسية أشد روعة وأبعد أثراً من تلك الجريمة التي وقعت في التاسع من هذا الشهر في مرسيليا ، والتي ذهب ضحيتها المرحومان الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية . وقد كان مقتل الارشيدوق فرنز فرديناند فاتحة الأزمة الدولية الخطيرة التي انتهت بنشوب الحرب الكبرى ، وكانت من أسبابها المباشرة . ومن المحقق أن جريمة مرسيليا ستحدث أثرها في شئون يوجوسلافيا الداخلية ، وفي سير السياسة الأوربية بوجه عام ؛ ومن الصعب أن نقدر منذ الآن مدى هذه الآثار ، وإن كنا نشهد منذ الآن نذرها ومقدماتها .

كان الاغتيال وما زال على كر العصور وسيلة لتحقيق مآرب السياسة ، وجريمة الأمس جريمة سياسية وقومية كما كانت جريمة سنة ١٩١٤ . وقد شهدت اوربا في العصر الحديث طائفة حافلة من الجرائم السياسية الرنانة ؛ وكان الملوك ، والملوك الطغاة بنوع خاص هدف هذه الجرائم . ولم تكن هذه الجرائم شخصية ، ولم تقع على الملوك أو الطغاة لمجرد أشخاصهم ، ولكن لأنهم يمثلون في نظر الجناة نظاماً أو فكرة لا تتفق مع مثلهم القومية أو الديموقراطية . وكانت « النهلزم » الروسية أعظم مصادر الوحي للقتل السياسي خلال القرن التاسع عشر ؛ وفي ظلها وبتدبيرها ارتكبت عدة جرائم رنانة على أشخاص القياصرة وأعوانهم من الطغاة ؛ وذهب ضحية هذه الجرائم قيصران : اسكندر الثاني سنة ١٨٨١ ، واسكندر الثالث سنة ١٨٨٥ ، وعدة من أكابر الحكام والساسة . ولما خبت ريح النهلزم في أواخر القرن الماضي خلفتها الدعوة اللاحكومية (الانارشى) في تنظيم الجريمة السياسية ؛ وذهب ضحية هذه الدعوة عدة من الملوك والأكابر مثل كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية ، والامبراطورة اليزابيث النمسوية ، وماكنيلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ثم الملك أومبرتو ملك ايطاليا الذي قتل سنة ١٩٠٠ بعد عدة محاولات دموية مروعة . ووقعت في الاعوام الأخيرة على الملوكية عدة محاولات جديدة دبرها اللاحكوميون ايضاً ، كان منها الاعتداء الذي وقع على الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا السابق (سنة ١٩٢٦) ، والاعتداء الذي وقع على جلالة ملك ايطاليا (سنة ١٩٢٨)

هذه أمثلة قليلة من ثبت القتل السياسي الحافل الذي شهدته اوربا في العصر الأخير . ولكن جريمة مرسيليا تختلف عما تقدم في ظروفها وبواعثها ؛ فهي جريمة قومية عنصرية كما سنرى ؛ وهي أثر بارز من آثار ذلك الصراع الجنسي الذي تضطرم به امة ينقصها التناسق الجنسي ، والتضامن القوي ، وتمثل فيها اقليات قومية غير راضية عن مراكزها ومصايرها ؛ وهي كذلك أثر من آثار ذلك الطغيان الحديدي الذي تعيش في ظله يوجوسلافيا منذ ستة اعوام ، والذي تشعر بوطأته الاقليات الساخطة بنوع خاص . والقاتل بتروس كاليمن Petrus Kalemen ، كرواتي الاصل ، ينتمي الى الشعب الكرواتي ، أو إلى تلك الاقلية القوية التي ترزح تحت حكم الاغلبية الصربية ولا تشعر نحوها الا بعواطف الغيرة والسخط . وقد وقعت الجريمة المروعة في ظل هذه المعركة الجنسية المضطرمة ، واندفع الجاني او الجناة في طريقهم بوحي الفكرة الجنسية التي تسيطر على شعب يعتقد أنه مغبون مضطهد مسلوب الحقوق .

ويجب لكي نفهم ظروف الجريمة وبواعثها الحقيقية أن نعود بضعة أعوام الى الوراء ، ففي سنة ١٩٢٨ ، وقع الفصل الاول من حوادث هذه المأساة في بلغراد في بهو الجمعية الوطنية (الاسكوبشتينا) ذاتها ، وكان ذلك في مساء ٢٠ يونية ، وكانت المناقشة تدور حادة بين نواب الأكثرية من الصرب والسلوفين ، ونواب الاقلية المعارضة ، وهم نواب الشعب الكرواتي حول العلائق اليوجوسلافية الايطالية وموقف الحكومة منها ، وكانت المعارضة ممثلة في حزب الفلاحين الكرواتي ورئيسه استيفان رادتش زعيم كرواتيا الوطني ، والحزب الديموقراطي المستقل وزعيمه بربتش فتش ؛ فلم تلبث المناقشة أن تحولت الى نوع من السباب والتراشق المقذع ؛ وعندئذ نهض أحد نواب الحزب

الراديكالى الصربى ، وهو حزب الاغلبية أو حزب الحكومة ، وأطلق الرصاص على مقاعد حزب الفلاحين فقتل من نوابه اثنان أحدهما بول رادتش قريب الزعيم رادتش واحد أقطاب الحزب ، وجرح ثلاثة آخرون منهم استيفان رادتش نفسه زعيم كرواتيا الوطنى . ووقع على أثر هذه الجريمة المروعة اضطراب لا يوصف فى بلغراد وفى كرواتيا ، وأوقفت جلسات الجمعية الوطنية واستقالت الوزارة القائمة ، واستمرت الأزمة الوزارية نحو شهرين . ثم كانت الطامة الكبرى بوفاة استيفان رادتش زعيم كرواتيا متأثراً من جراحه بعد ذلك بأسابيع قلائل ؛ فشيعه مواطنوه إلى قبره فى مظاهرات فخمة مؤثرة تجلت فيها البغضاء الجنسية التى يضطرم بها الكرواتيون نحو الصربيين ونحو حكومة بلغراد

كان لهذه الفاجعة الوطنية أثر عظيم فى إذكاء الأحقاد الجنسية فى مملكة يوجوسلافيا الجديدة ، وهى أحقاد تقوم على تراث التاريخ ، وتنافر العناصر التى تتألف منها . ذلك أن مملكة الصرب القديمة المتواضعة استحالت عقب الحرب الكبرى الى مملكة جديدة تسمى مملكة الصرب والسلوفين والكرواث ؛ تضم مملكة الصرب القديمة ، وأمارة الجبل الأسود ، وسلوفينا ، وكرواتيا ، ودلماسيا ، والبوسنه والهرسك ، وبعض أنحاء أخرى من امبراطورية النمسا والمجر القديمة . والشعب الصربى هو الكثرة بين هذه الأجناس المتنافرة ، وهو صاحب الحكم والسيادة ، واليه تنتمى الأسرة الملكية ومعظم الوزراء والحكام والقادة . وكانت كرواتيا أو بلاد الكروات بين الولايات الجديدة أشدها مراساً وأعرقها قومية وتعصباً . وتشغل كرواتيا نحو خمس المملكة الجديدة وعاصمتها « زغرب » أو « أجرام » مدينة قديمة سكانها نحو ربع مليون وبها جامعة . والكروات شعب جبلى فلاح ساذج يبلغ زهاء ثلاثة ملايين من مجموع قدره ثلاثة عشر مليوناً . وكان الشعب الكرواتى قبل الفتح التركى فى القرن الخامس عشر يتمتع باستقلاله فى ظل مملكة بلقانية قوية ، ثم غدت كرواتيا كما غدت صربيا والمجر ولاية عثمانية ، وضمت منذ أواخر القرن التاسع عشر الى النمسا والمجر . ولم ينس هذا الشعب الجبلى الوعر استقلاله ونزعته القومية ، فكان فى ظل الأمبراطورية النمسوية يجيش بالأمانى الوطنية ، ويطمح الى الاستقلال الذاتى ؛ ولم يقف الى جانب آل هبسبورج أثناء الحرب إلا طمعاً فى تحقيق شىء من أمانيه القومية . واستمرت تحفزه مثل هذه الأمانى فى ظل يوجوسلافيا الجديدة ؛ وكان بطل كرواتيا الوطنى استيفان رادتش رئيس حزب الفلاحين أقوى الأحزاب الكرواتية وأشدها نفوذاً ؛ وكان هذا الزعيم القوى الذى كونه مزيج من الثقافات الألمانية والفرنسية والروسية يسيطر ببيانه الساحر وخلاله القوية على مواطنيه ويقودهم حيثما شاء ؛ وكان حزب الفلاحين حتى سنة ١٩٢٥ جمهورى النزعة يطالب بالاستقلال الذاتى ؛ وكانت كرواتيا تضطرم من حين لآخر بالقلاقل والمظاهرات القومية ؛ فتخمدها حكومة بلغراد الصربية بمنتهى الشدة ؛ وتذكى بذلك أحقاد الكروات الجنسية . وفى سنة ١٩٢٥ أدرك الملك اسكندر خطر هذه الحركة على وحدة يوجوسلافيا ؛ فاستدعى الزعيم رادتش وتفاهم معه ؛ وعقد اتفاق بين الصرب والكروات يمنح به الكروات بعض الحقوق والمزايا القومية ؛ فهدأت حركة الكروات الاستقلالية نوعاً وأبدى الشعب الكرواتى شيئاً من الولاء نحو العرش والحكومة ؛ واحتل الكروات مقاعدهم فى الجمعية الوطنية ؛ واشتركوا فى حكم البلاد ؛ وكان لهم فى الجمعية ٨٥ كرسياً أى نحو ربع مجموع الكراسى . ولكن هذا التفاهم لم يلبث طويلاً ؛ لأن الجبهة العسكرية المحافظة التى تحكم البلاد من وراء الملك اسكندر لم يرق لها هذا التسامح مع الأقلية ؛ ورأى الكروات من جهة أخرى أنهم لم ينالوا بهذا التهاون كل مايطمحون اليـه من المزايا الاستقلالية ؛ فعاد سوء التفاهم بين الفريقين مرة أخرى ؛ واشتدت الخصومة بينهما منذ سنة ١٩٢٨ ؛ ووقعت فى كرواتيا قلاقل جديدة ؛ واتخذت المعارضة الكرواتية فى المجلس اتفاقات « نتونو » التى عقدت يومئذ بين يوجوسلافيا وإيطاليا بشأن الحدود مادة لحملات قوية على حكومة بلغراد والملك اسكندر ؛ واستمرت هذه الحملات فى شدتها حتى ضاقت حكومة بلغراد وضاقت الأكثرية الصربية البرلمانية بها ذرعاً ؛ ووقعت بين الفريقين فى الجمعية مناقشات ومناظر عاصفة انتهت فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٢٨ بوقوع تلك المذبحة البرلمانية الرائعة ، وسفك دم الزعماء الكروات فى نفس المجلس الذى دعوا الى الاشتراك فى أعماله ، ومصرع استيفان رادتش زعيم كرواتيا القومى ومعبودها الوطنى .

وهنا أدرك الملك اسكندر خطورة الموقف ، وحاول مرة

أخرى أن يعمل على تهدئة الأحقاد القومية التي أثارتها الجريمة ، ولكنه لم يستطع فيما يظهر أن يغالب نفوذ العسكرية المسيطرة على الحكم ؛ فلم تتخذ حكومة بلغراد في شأن النائب أو النواب القتلة إجراءات جدية تهدئ الشعور المضطرم ؛ وكان موقفها في ذلك كموقفها يوم مقتل الأرشيدوق فرديناند من عطف على الجريمة ورفق بالجناة ؛ وأخمدت حركات زغرب عاصمة كرواتيا ومظاهراتها بشدة ، وساد حكم الارهاب في كرواتيا ، وطورد زعماؤها وأبناؤها أشد مطاردة ؛ وأبدت حكومة بلغراد وعمالها الصربيون في معاملة الشعب المغلوب منتهى الخشونة والقسوة ؛ فتوجست العناصر الأخرى شرا واشتدت الأحقاد القومية وتعقدت الأزمة ، وكادت يوجوسلافيا تنحدر الى الحرب الأهلية ؛ عندئذ لجأ الملك إسكندر الى إجراء خطير حاسم ؛ ففي ٢٩ يناير سنة ١٩٢٩ أعلن إلغاء الدستور والجمعية الوطنية ، وأعلن نظام جديد يقبض الملك في ظله على كل السلطات ، وتؤلف الحكومة من ستة عشر وزيراً ، يسألون أمام الملك شخصياً ؛ والغي تقسيم يوجوسلافيا القديم الى ولايات عنصرية ؛ وقسمت الى تسع ولايات جديدة لكل ولاية حاكم مطلق ؛ وغير اسمها من مملكة الصرب والسلوفين والكروات الى مملكة يوجوسلافيا ؛ وحل حزب الفلاحين الكرواتي ، وقمعت كل حركة ومظاهرة عنصرية بمنتهى الشدة . وساد على يوجوسلافيا كلها حكم مطلق حديدي حتى اليوم . ولكن الملك اسكندر أبدى في اضطلاعه بمهام الحكم المطلق كثيراً من الحزم وبعد النظر ؛ فاستقرت السكينة في البلاد ، وخبت الأحقاد والنزعات القومية المحلية أمام البطش ؛ ولكنها لبثت كالنار تحت الرماد تسري في صمت ، وتتربص فرص الاشتعال . وكان من المستحيل إزاء هذه المشاكل العنصرية الخطيرة ، وإزاء استئثار العنصر الصربي بالسيادة والحكم أن تحكم يوجوسلافيا بغير الحكم المطلق ، ولم يكن في تقاليد العسكرية الصربية التي تحكم من وراء العرش ، ولا في تقاليد أسرة كاراجورج فتش الجالسة عليه ما يؤيد النظم البرلمانية ، أو يفسح لها أي مجال حقيقي .

وقد تولت أسرة كاراجورج فتش التي ينتمي اليها المرحوم الملك اسكندر بوسائل عنيفة أيضاً ، وكان العرش قبلها لأسرة أوبرينوفتش بتولاه الملك اسكندر أوبرينوفتش حتى سنة ١٩٠٣ . وفي يونيه من هذا العام دبر الحزب العسكري بتحريض أسرة كاراجورج فتش مؤامرة كانت نتيجتها أن قتل الملك اسكندر أوبرينوفتش وزوجته مدام دراجا ماشين التي أثار زواجه بها قبل ذلك بعامين ضجة كبيرة ، في غرفة نومهما ؛ وعلى أثر ذلك أعلن بطرس كاراجورج فتش ، والد الملك اسكندر ملكا ؛ وعهد بمهام الحكم الى الجناة الذين اشتركوا في مقتل سلفه ، فدلل بذلك على أنه لم يكن بعيداً عن الجريمة . واستمر ملكا حتى سنة ١٩٢١ ، وخاض غمار الحروب البلقانية والحرب الكبرى ، وتولى ولده الملك اسكندر الحكم من بعده ، وكان مولده سنة ١٨٨٨ ، وكان أثناء حياة أبيه يتولى أخطر المهام العسكرية والسياسية ، فأبدى حزماً ومقدرة في قيادة يوجوسلافيا الكبرى ، ولكنه لم يوفق الى حل المشاكل العنصرية ، ولم يستطع كبح جماح العسكرية كما قدمنا ، وشاء القدر أن يذهب ضحية الأحقاد العنصرية على ذلك النحو المؤسي .

***

هذه هي حقيقة البواعث والظروف التي أدت الى مقتل الملك الراحل ، فالأحقاد القومية هي التي سلحت القاتل كاليمن وزملاءه الكرواتيين ، وهي التي دفعتهم الى ارتكاب جريمتهم الفظيعة انتقاماً لمصرع زعماء كرواتيا الوطنيين ، وانتقاماً لما تلاقيه من آلام الاضطهاد المنظم . ومن المحقق أن سيكون للحادث أخطر الآثار في مصاير يوجوسلافيا ، وإن كان من المستحيل أن نتنبأ اليوم بما سيكون . وقد تكون ثمت وراء الجريمة عوامل تحريض أجنبية عرفت أن تستغل الأحقاد العنصرية وأن توجهها ، ولكن الجريمة تبقى مع ذلك جريمة عنصرية ، باعثها الانتقام القومي .

إن المسألة الكرواتية تعتبر بالنسبة ليوجوسلافيا كالمسألة الأرلندية بالنسبة لانكلترا ، وستبقى خطراً دائماً على الوحدة اليوجوسلافية ، ما دامت العسكرية الصربية تأخذ بسياسة السيادة العنصرية ، ومادام الشعب الكرواتي يشعر بأنه لم يأخذ حقه من العدالة والمساواة والاشتراك في أعباء الحكم .

أما المرحوم مسيو لوي بارتو ، فقد كان ضحية بريئة للجريمة ، ولم يقصده الجناة بالذات ، وسيكون لمقتله أثر عميق في شئون فرنسا الداخلية ، وربما في سياستها الخارجية .

محمد عبد الله عنان

المحامي

ابن من يا فاجرة ؟

للدكتور احمد زكى
وكيل كلية العلوم

كانت فاجرة لأنها ادعت ابنها الوليد لغير أبيه ، وهى تعلم أنه لأبيه . وكان الرجل المتهم فى عرضه ، القدوح فى طهارته ، رجلاً من ذوى الثراء ، جمع من المال ما جمع فى أيام صباه ، من أعمال واسعة النطاق ، وأشغال استغرقت كل زمانه فألهته عن ملذات الجسم ومتع الشباب . وبلغته الشيخوخة على حين غفلة ، فأراد أن يدرك الفائت ، وأن يلحق بالهارب ، وأن يذكر نفسه ، ويسترجع حسه ، ويستجمع بقايا شبابه ، فطلب الأنثى الشابة ، فجاءته إناث كثيرات ، فعلم أنهن لم يردنه ، وإنما أردن ماله ، وكان كلا أنس من بعضهن إلى الجناب الرقيق والصدر الحنون ، وكاد يهم بالخطبة ، هتف فى نفسه الهاتف يقول : جناب عن قريب ينبو ، وصدر لا يلبث أن يخون . وظل على هـذه الحال زماناً ، يحدوه أمله ، ويرده سنه ، وقام رواؤه يهم كل امرأة ولو أخلصته النية ، ورضيت صادقة رعايته وحضانته وبتمريضه بكل ما فيها من أنوثة .

وفى أثناء ذلك اتصل بأحد المقربين اليه من مستخدميه ، فشكا له الوحدة عرضاً ، فذهب هذا المقرب إلى زوجته تلك الليلة يذكر لها الشكوى . وفى الصباح أتت البرى من الزوجة دعوة على طعام ، وتلت تلك الدعوة دعوات ، فى حضرة الزوج ، وفى غير حضرة الزوج ، وكثيراً ما حضرها الشباب من الصحاب ، فامتلأت البطون ، واحتر الدم بالرقص والشراب ، وكثيراً ما نسى الشيخ وقاره فى تلك الأجواء الرائطة ، فنال من الزوجة المضيافة القبلة بعد القبلة ، فأعطت عن سخاء ، على أعين ضيوف اليوم الفرحين ، وشهود الغد المحرجين .

فلما ولد المولود ، وهم الشيخ بالتبريك ، جاءه رسول القضاء يعلن اتهامه . وانعقدت المحكمة ، وجاءها الشهود كأنما كانوا على موعد ، فأثبتوا روحاته وجيئاته ، وأثبتوا إختلاءه ، وأثبت الزوج تغيبه ، ولم يبق على استقلال الطفل بكل تلك الثروة الواسعة من بعد أبيه إلا حكم المحكمة .

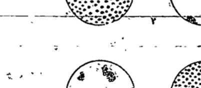
وفى اللحظة الأخيرة طلب الدوع نجدة العلم ، والالتجاء الى المعمل عسى أن تكون عنده الشهادة التى لا ترد ، وفى الغد أو الذى يليه احتكموا عند أحد الاخصائيين المحلفين الى قطعة زجاج ، وبعض سوائل فى أنابيب ، ثم الى المكرسكوب — جمادات كلها لا تكذب إذا كذب الانسان . وبذلك ، وبذلك وحده ، نجا الشيخ من الشرك ، ونذر ما عاش أن يبتعد عن الآنسات ميلاً ، وعن المتزوجات أميالاً .

ثم غلب التهمة الملحة فى نفسه واقترن بأرملة ، باعدت عنه الريب وحملت عنه أعباء الحياة .

أما همنا اليوم ففى تلك الأشهاد من الجماد . وقصة ذلك أن الدم الانسانى يتركب من كرات حمراء وأخرى بيضاء ، يسبحن فى سائل يسمى المصل ، عديم اللون أو هو كلون زلال البيض ، يحتوى عدة مواد ذائبة فيه . وقد كشف العلماء فى الكرات الحمراء عن مادتين تسمى أولاهما ألفاً والثانية باء . ووجدوا فوق هذا أن الكرات الحمراء للرجل (أو المرأة) قد تحتوى على المادة ألف وحدها ، وقد تحتوى على المادة باء وحدها ، وقد تحتوى عليهما معاً ، وقد تخلو منهما جميعاً . وبناء على ذلك قسموا الناس الى مجموعات أربع : مجموعة ألفية ، ومجموعة بائيـــة ، ومجموعة ألفبائية ، ومجموعة صفرية ، نسبة الى الصفر فى قولك رجل صفر اليدين أى خاليهما . فأنا وأنت وكل أحد لا بد واقعون فى أحد هذه الأقسام . وتعرف المجموعة التى ينتسب اليها الفرد من تفاعلات تقع بين الدماء عند خلطها . فهب أنى أنا من المجموعة الألفيـة ولا فخر ، وهب أنك أنت من المجموعة البائية ولا حط من قدرك ، فلو أنك أخذت شيئاً من دمى ، وفصلت عنـه مصله ومزجته بنقطة من دمك لتجمعت كراتك الحمراء وتزاحمت فى هلع وارتياع ، كقطيع النعاج داهمها الذئب ، فاتخـــذت تحت المكرسكوب شكل عنقود العنب . وسبب هذا أن بدمى مادة معادية خصيمة لكراتك الحمراء ، أو بالأحرى للمادة البائية التى بها . وعلى هذا تسمى مادتى هذه بالخصيمة البائية .

ولو أنك مزجت مصل دمك بدمى لتعنقدت كراتى الألفيـة كذلك ، لأن بمصلك الخصيمة الألفية . فبدمى إذن المادة الألفية والخصيمة البائية ، وبدمك أنت المادة البائية والخصيمة الألفية ، والزوجان فى دمك وفى دمى بالطبع على غاية المحبة والوفاق وإلا لتعنقدت كراتنا جميعاً وودعنا الحياة ، لأن تلك الكرات لا بد من نفاذها فى الشعريات الدموية الرفيعة التى تصل ما بين الأوردة والشرايين

وهناك دم ثالث نستميز لشرحه صديق الأستاذ الزيات ، فدم الأستاذ تجمع كراته الحمراء المادتين ألفاً وباء معاً ، فلو أنك





في كل سطر أفقي قطرتان من دم واحد أضيف إلى يسراها مصل من دم ألفي وإلى يمناها مصل من دم بائي فكانت النتيجة المكتوبة أمام كل من الدماء الأربعة

خلطت نقطة من مصل بقطرة عزيزة من دمه لتمنقدت كراته ، ولو أنك خلطت نقطة من مصلك بتلك القطرة لتعنقدت كذلك ، فصديق الزيات من المجموعة الألفبائية . أما الدم الرابع فخالية كراته من كلتا المادتين فهي لا تتعنقد لا بمصلي ولا بمصلك .

وتابع العلماء دراسة دماء الناس في نواحي المعمورة تقصياً في البحث ، وامتحنوا دماء الصغار والكبار ، والأبناء والآباء لآلاف من الأسر ليتعرفوا العلاقة التي قد تكون بين الولد والأصلاب والأرحام التي انحدر منها ، فوجدوا قوانين مطردة على مقتضاها يتسلسل التناسل . من ذلك أنهم وجدوا أن الطفل الألفي يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل ألفي . وأن الطفل البائي يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل بائي . وأن الأب أو الأم إن كان أحدهما ألفبائياً ورّث كلا من بنيه ألفاً أو باء . فالرجل الألفبائي لا ينتج طفلاً صفرياً . كذلك إن كان الطفل ألفبائياً يحتم أن يكون قد ورث ألفاً من أحد أبويه وباء من الآخر ، ومثل هذا الطفل لا ينتج عن أب صفري

وفي قضية الشيخ المثري التي فات ذكرها امتُحن دم الزوجة بأخذ قطرة دم من أنملها ، وقسمت القطرة قطرتين ، مُزجت



الرجل يعطي من دمه

إحداهما بمصل الخصيمة الألفية فتعنقدت كراتها ، ومزجت الأخرى بمصل الخصيمة البائية فلم تتعنقد الكرات ، فقُضي بأن الأم من الفصيلة الألفية . وامتُحن دم الوليد على هذا النحو فكان من الفصيلة البائية ، فلزم على هذا أن يكون أباه بائياً أو ألفبائياً . فامتُحن الزوج فكان بائياً . وامتُحن الشيخ فكان صفرياً ، فنجا

على أن امتحان الدم قد لا يؤدي الى نتيجة حاسمة . فلو أن الشيخ كان بائياً أو بائياً ألفياً لجاز أن يكون الوليد من صلبه ، ولجاز أيضاً ألا يكون . وقد حسب حاسب عدد الحالات التي يمكن فيها الجزم بوالد الطفل منسوبة الى الحالات جميعها التي يحدث فيها اشتباه ، فوجد أنها تبلغ الثلث

وأريد أن أنبه أن المعمل قد يبرئ ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يتهم أحداً . فهب أن الولد كان بائياً ، والأم ألفية . وكان زوجها ألفياً ، وامتحن الشيخ فكان بائياً ، فهل يُقطع بأبوة الشيخ من أجل شهادة المكرسكوب وحدها ؟ كلا . فكم من الرجال بائيون ! ولم لا تكون الزوجة اتصلت بأحدهم ؟ وإذن كان يتحتم على الاتهام إثبات ما كان بين الشيخ والمرأة في مسالك الحياة

أحمد زكي

عصران في دار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

هي أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد ، ولكن عصور أفرادها متباعدة ، وثقافاتهم متعددة متفاوتة ، والحضارات التي يمثلونها لا تنفك تتصادم وتحترب في دارهم . وقد عرفت بعضهم في لبنان وبقيتهم في مصر ، وكنت أمشي يوماً قبيل الغروب في طريق « ضهور الشوير » ، والشوير « ضيعة » كما يسمونها ، أو قرية في واد يشرف عليه الجبل ، فهذا هو « الضهور » أو « الظهور » ، فملت الى مكان هناك يسمونه « قهوة الحاج الياس » وهي قاعة بين بساتين فاكهة وزهر ، فلمحت في طريق من ظننتها واحدة ممن عرفتهن هناك ، فحثثت الخطى اليها ، فاذا هي فتاة لا عهد لي بها ، وليس بنظري قصر ، ولكني كنت مطفلاً ، وكانت الشمس قد اصفرت وضعف ضوؤها ، وكان الشجر يحجب وجهها عني أعني الفتاة لا الشمس — في العذر إذا أخطأت . وعلى أنه خطأ لم يسؤ وقعه في نفسي . بهذا أعترف . وكانت جالسة ترسم فأغراني هذا بها ، فدنوت منها على أطراف أصابعي ، ثم وقفت أتأملها — من وراء ظهرها — وهي مقبلة على اللوح . فلما طال ذلك علي ، وهي لا تلتفت وراءها ، تنحنحت ، فأدارت وجهها بسرعة وقالت : « أوه ! » ولم يكن في وجهها لا ابتسام ولا دهشة ، كأنما كان من المألوف عندها أن تسمع الناس يتنحنحون وراءها وهي ترسم ! .

فقلت وقد أحسست أن في الفتيات عسراً :

« هل أزعجتك ؟ »

فقالت وهي ماضية في رسمها وغير ناظرة إلي :

« أزعجتني ؟ ؟ هل سمعتك تقول إنك أزعجتني ؟ »

وكانت لهجتها واشية باحتقار يحول الأدب دون ظهوره على وجهها ، أو لعل الأصح أن أقول إن في اللهجة تهكما خفيفاً حملته على محمل الاحتقار ، فحقدتها عليها — في سري — غير أني لم أظهر ذلك لها واكتفيت بأن أقول :

« هذا ما كنت أخشى — فالحمد لله ! »

فمضت في تخطيطها على اللوح وقالت : « إذا كنت تريد أن تتكلم فاجلس » . فكانت هذه صدمة ثانية . فتلجلجت قليلاً وقلت « أ ... أ ... أجلس ؟ » فقالت وهي مكبة على اللوح « آه .. معذرة .. ثيابك بيضاء نظيفة ، والأرض بليلة . . . مفهوم »

فاجترأت وقلت : « هل تريدين أن تدعيني الى الجلوس ؟ »

فقالت : « وماذا أصنع بك جالساً أو واقفاً ؟ معذرة ! إن غرورك هو الذي أجرى لساني بهذا الكلام »

فسألتها وأنا مبهوت : « غروري ؟ »

فقالت بلا اضطراب : « أعني غرور الرجال ... وكنت تستطيع أن تدرك قصدي ولا تحوجني الى الايضاح »

وكنت في أثناء هذا الحوار لم أبرح مكاني وراءها ، فتحولت حتى صرت أمامها وقلت وفي صوتي نبرة غضب بكظاوم :

« هل تستطيعين أن تدعي أن بيني وبينك ثأرا قديماً ؟ »

فأدهشني أنها أجابت ببساطة ومن غير أن ترفع وجهها الي :

« ثأر ؟ أوه لا ! . ولكن ألا ترى أن أمثالك لا خير فيهم لمثلي »

فقلت : « معذرة فاني غير فاهم ! . »

قالت : « بالطبع ! ولست وحدك الذي لا يفهم . . . كلكم هكذا . . . لأنكم تفكرون بعقول معطلة . . . أعني أن أهواءكم تغلبكم وتدفع عقولكم في مجراها ، وتمنعكم أن تفكروا في حاجات غيركم مثل تفكيركم في حاجاتكم . قد يبدو هذا القول غريباً من فتاة مصرية ، لأن الفتاة في نظركم ليست سوى مطية ... لا تستغرب هذه الصراحة ، فلستم وحدكم كل من تعلموا وذهبوا الى أوربا ورأوا بعيونهم وفكروا بعقولهم ... ماعلينا من هذا ... نعم الفتاة ليست عندكم سوى مطية ... لا تجادل من فضلك ... لا تحاول أن تكذب ... كلا ... لا تقاطعني ... إنك هنا لتتحكك بي ... هــذا واضح ... بالطبع ! دعني أتمم كلامي ، لقد كنت أقول حين هممت بمقاطعتي إنكم معشر الرجال تعتقدون أن الفتاة مطية ، وإنها لكذلك : ولكنها غير ذلك أيضاً ... إعترف بصراحة — هل خطر لك مرة واحدة أن الفتاة أكثر من مطية ؟! »

فخجلت لأني لم أكن أنتظر أن أسمع هذه المحاضرة ، وأورثتني المفاجأة اضطراباً فقلت :

« ولكن هل من موجب لهذا الكلام ؟ ؟ إني . . . »

فقاطعتني قائلة « نعم فاتك ما جئت إلى هنا إلا وفى أملك أن تقضي دقائق لذيذة مع فتاة ترجو أن تواتيك وأن تنيلك دقائق أخرى ألذ منها وأعذب »

فهممت أن أقاطعها ولكنها أومأت إلى فسكت ، واضطجعت هي على الكرسي وقالت :

« لا تكابر . . . واسمع مني ، ولا تعجب إلا إذا كنت غبياً . . لا مانع عندي ألبتة أن أمنحك الدقائق اللذيذة لو كنت تستحقها في نظري . . فأني أنا أيضاً أطلب لنفسي دقائق لذيذة وأشتهي أن أتمتع بحياتي وأفوز بنصيبي من لذات الدنيا ، ولكن هناك لذائذ أخرى تعدل هذه وتستبد بالنفس وتغلبها على أهوائها الأخرى . . . هذا التصوير مثلاً هو مهنة لا كل العيش إلى حد ما ، ولكنه أيضاً فن يزاول لذاته وبغض النظر عن المنافع المادية . . إني حرة . . فقيرة ، نعم ، ولكني أجد الكفاية ، وقد استطعت أن أتعلم أرقى تعليم تسمح به مواردي ، والباقي أحصله باجتهادي . . درست التصوير في انجلترا ثلاث سنوات بينما كنت مبعوثة إليها لأدرس شيئاً آخر ، ولكني لا أتكسب به . نعم أبيع بعض صوري ، ولكني أستخدم ثمنها في إتقان فني . . في تجويد أداته . . لقد بعدت عن الموضوع جداً . . . على الأقل في نظرك . . ولكن هذا الشرح كان لازماً لأمثالك حتى يستطيع أن يجتنب إساءة الظن حين أمثاله . . هل تستطيع أن تكون أنموذجاً لصورة ؟ »

فصحت « إيه ؟ أنمو . . . »

فقالت مقاطعة « نعم ، أنموذج لصورة . . إن جسمك ليس معتدلاً ، وقوامك . . . غير جميل . . وهذا ليس عزلاً مقلوباً من فضلك . . ولكن لو أمكن أن أرسمك وأنت عار . . ولكن بالطبع لا تستطيع . . . كلا . . . لا تستطيع . . . لا فائدة . . . خسارة . . . إن في ذهني صورة تصلح لها ، ولكن الحياء الكاذب . . كلا . . لا فائدة »

فكدت أجن من جرأة هذه الفتاة ، ثم تصورت نفسي واقفاً أمامها على رجل واحدة . . . وأنا كما خلقني الله فقهقهت ، فصعدت إلى طرفها مستغربة مستفهمة ، فلم أكتمها ما دار في نفسي وتمثل لخاطري ، ثم تعارفنا .

***

وفي مصر رأيت أباها ، وهو شيخ في السبعين من عمره ، تخرج في دار العلوم وزاول التدريس حتى أقعده الكبر ، ولكنه لا يزال على ارتفاع سنه نشيطاً . ومن شذوذه أنه لا يقنع بأن ينفي العامية من كلامه ، بل يفرض الكلام بالفصحى حتى على الخدم :

كنت معه يوماً ، وكنا جالسين في حديقة البيت ، فبصر بالخادم ، فصاح به « ليس هكذا ؟ »

فانتفض الخادم ودار حول نفسه ، وقال بلهجة المتثل لقضاء الله فيه ولا ستبداد هذا المجنون به :

« أفندم ؟ »

قال الشيخ : « ليس هكذا »

فعاد الخادم يسأل « أفندم ؟ »

فقال الشيخ مفسراً : « أقول ليس هكذا . ارفع رأسك وافتح صدرك . ألم أنهك أن تمشي متخلعاً ؟ »

فقال الخادم معترفاً : « أيوه يا افندم ؟ »

فصاح به الشيخ : « قل نعم يا جاهل ! أو بلى »

فاستغرب الخادم وسأل بلهجة المنكر : « بلى ؟ »

قال الشيخ : « بلى »

فعاد الخادم يسأل : « بلى ؟ »

قال : « نعم بلى ! ماذا تظنني أقول ؟

قال الخادم : « بلى ! »

قال الشيخ : « إذن قلها »

فحاول الخادم أن يعيدها ولكنه نسيها فجعل يقول : « أ . . أ . . . ، . . . وحك رأسه .

فأنكر الشيخ ضعف ذاكرته وقال : « نسيت بسرعة ؟ »

فتذكر الخادم وقال : « أ . . . بلى »

فعاد الشيخ يصيح : « مدهش ! قل « لا » في هذا الموضع »

فظن المسكين أن عليه أن يردد كل ما يسمع فقال : « لا في هذا الموضع »

فضجر الشيخ وصاح : « ماذا كنت قبل أن تجيء إلى هنا ؟ بيغاء ؟ »

فكر الخادم مسرعاً إلى الأولى استرضاء للشيخ وقال « أ . . . أ . . . بلى »

فيئس الشيخ وقال وهو ينظر إلي « لا فائدة . . . لا فائدة ! »

نبتـــون

للأستاذ راشد رستم

فى ناحية من نواحى الحديقة النسقة الواسعة ، أنشأوا بحيرة صغيرة صافية ، وحول هذه البحيرة الساكنة قامت الأشجار عظيمة السيقان ، كثيرة الأغصان ، تباعدت فى الأرض جذوعها ، والتقت فى السماء فروعها ، دوحة خضراء ، نادرة المثال فى هذا النوع من التنسيق والجمال ، اتخذت منها الأطيار الوديعة أراجيحها اللينة ، وأقامت فيها أعشاشها الآمنة ..

وفى وسط هذه البحيرة الصغيرة أقاموا تمثالاً كبيراً لإله البحر الأعظم : نبتون [1] بن زحل ...

أقاموه فى هذا المكان الهادئ ، واقفاً يحمل فى يمناه صولجانه مثلث الأسنان ، ويمد يسراه فى اطمئنان مشيراً الى الماء الخاضع فى هدوء عند قدميه ، وكأنه يقول : هذا ملكى ، هذا عرشى !

* * *

(١) إله البحار . نبتون Neptune عند الرومان يقابل فوسيذ Poseidon عند اليونان

أى نبتون ! مزعزع ركن الثرى [1]

ما كنا لنجهل ملكك ، أو نسلبك عرشك .

رمز لظلمات ذلك الخيال المضطرب لما رآك أجدادنا المتقدمون ؛ ولذلك الرعب الآخذ بنفوسهم لما تركوك الى برهم ؛ ولذلك التعدى ، وقد جهلوه منك ، عندما حاولت أن تصل اليهم عدك ؛ ولذلك الفشل ، وقد تمنوه لك ، لما غدت عنهم خائباً بجزرك .

على أنك لا تزال تطغى ولا ترحم ، وستهشم ما تصل اليه يدك فى غدك ، كما كنت تفعل فى أمسك ، وإن كنت تحوى الدر ، وتؤدى خيراً ، فانك لا تدرى أن هذا خير وذاك در

* * *

إن هذه البحيرة الصغيرة الهادئة لا تستحق من أهل السلام وأهل الجمال ، أن تقوم أنت وسطها على جزيرة لا تكاد تفى بموطئ قدميك ، تقوم فيها بثقيل هيئتك ، وكالح وجهك وخشن شكلك . وهنالك فى المحيط الواسع جزائر عظمى ، خذها مسكناً ومقيلاً ، فعندها تجد لخشونتك مجالاً ، ولوحشيتك ميداناً ، وهنالك حيث أهلها وسكانها أقرب طباعاً لما يرضيك ، فتتخذهم أعواناً أو عبيداً أو خلقاً جديداً ، تسخرهم فيما تشاء من إغراق وإغداق ، وتراهم يتآخون لجوارك ويحافظون على سلطانك ، وهم يرون فى عتوك وجبروتك حماهم الذى لولاه لكانوا فى الأرض أغناماً لشياعها ، أو أسلاباً لناسها .

* * *

أى نبتون !

تضيع بهجة هذا المكان ، وتذهب وداعة هذه البحيرة ، ما دمت قائماً فيها برمزك هذا الخشن .

وكأنى بصاحب المكان فظاً غليظ الفؤاد ، إذ يجعل جباراً يداعب ضعيف الجناب ! أى ضعف فى الذوق ! وأى خشونة فى

(١) « مزعزع ركن الثرى » لقب من ألقاب فوسيذ ، جاء فى الالياذة ترجمة البستانى

وكاد العدى يحرزون الظفر	وفوسيذ فيهم يهيج الزمر
فان مزعزع ركن الثرى	لنصرتهم بقواه انبرى

وحسنب الخادم أن الكلام له فقال : « بلى » .

فصاح الشيخ . « اذهب ... اذهب ... وارم نفسك فى بئر »

فظن المسكين أنه يحسن به أن يقول شيئاً آخر فقال :

« لا فى هذا الموضع »

* * *

هذه هى الأسرة — أو على الأصح ، هذا هو الأب ، وتلك فتاته ، وهما يعيشان فى بيت واحد تحت سقف واحد ، ولا أدرى أيشعران أم لا يشعران بما بينهما من مسافة الزمن التى تحسب بالقرون ، ولكن الذى أدريه أنهما على تباعد عصريهما سعيدان .

وقد ساعد على ذلك وأتاحه سمة أفق الفتاة وما تمتاز به الشيخوخة من الحلم والجنوح إلى التسامح ، أو الضعف إذا شئت . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

الطباع أشد من أن يقيم المنسق رمزاً للخشونة الواضحة ، والقسوة المتجددة في المكان الساكن ذي الروح الوديعة ، والجو الهادئ . . .

***

كأني بهذا المنسق ، وقد أقامك بين هدوء المكان وبهجته ، بل وقد حبسك في هذا القفص الرطب ، كأني به يستهزئ من قوتك ، ويستنزل من شأنك ، فيقيم الرمز الثقيل في بحيرة صغيرة ، تكاد تكون نقطة من بحرك .

***

أم أن هذا المنسق حكيم بصير ! أراد تغليب صفاتك القاسية على ميزات المكان اللينة ، فيقول للناس بذلك ، وهم وقوف عند البحيرة المسكينة المستسلمة ، يقول : أحقاً أيها الناس أرباب العواطف ، أحقاً تشعرون بجمال هذا المكان ووداعته ، وها هو ذا تمثال طاغية يذكركم بأمواج كالجبال ، وطباع كالبحار ، ودخيلة لا أمان لها ؟ أتظنون أن طائر الرحمة والرضا يأوي الى القلوب وهو يرى رمز القسوة والجفاوة قائماً بإزائه ؟

أتظنون أيها الفنانون أن في هذا العالم جمالاً صافياً خالياً ؟ جمالا للجمال . . .

***

لا أدري حقيقة ما يقصد صاحب المكان ، ولكن خطأ يا سادة أن تقيموا هذا الرمز الخشن في هذه الطبيعة الناعمة . إن من جمال النفس أن تجمع بين الماء والخضرة «والتمثال» الحسن وإن الذي يأتي الى هذا المكان الهادئ ، لا يقيم قليلاً حتى تمسه تيار قائم من روح هذا الجبار العتيق . يشعر وسط هذا النعيم الأخضر بلفحات من جحيم الحياة القاسية .

نبتون في البحيرة — تصوير الأستاذ محمد رفعت

***

فيا حراس المكان ، وحفظة السلام ، ويا أهل الجمال ، أزيلوا هذا الرمز الخشن ، وردوه الى حيث تتناسق صفاته وقسوة الطبيعة فتكونون قد صنعتم جميلا ، وأرضيتم أهل الخيال وأهل الحقيقة .

« حديقة انطونيادس »

راشد رستم

اسكندرية

٥ - الشخصيـة

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

الثقة بالنفس والاعتماد عليها :

من العناصر الأساسية في تقوية الشخصية الثقة بالنفس أولاً ، والاعتماد عليها ثانياً . ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها في كل عمل ممكن من الأعمال ، وفي التغلب على صعوبات الحياة . والسبب في كثرة الاعتماد على الغير أن الغريزة الاجتماعية قوية في الجنس البشري متأصلة فيه ، وأننا اعتدنا التفكير الجمعي لا التفكير الاستقلالي . فينبغي أن نعود الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال في تفكيرهم من غير اتكال على أحد ، حتى يستطيعوا في المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم .

ولا نريد بذلك أن يعتزل الانسان العالم وينقطع عن الناس ، ويفكر في نفسه فحسب ، فليس هذا من الانسانية في شيء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يربح إلا قليلاً . ولكننا نريد تعويد الأطفال الاستقلال الشخصي والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على الغير في كل شيء ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ونحو المجتمع . والاعتماد على النفس يتطلب الثقة بالنفس ، والدقة في العمل ، والتحقق منه ، حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأمورنا نافذة ، وأقدامنا ثابتة . أما إذا انتفت الثقة بالنفس أو الدقة في العمل ، أو التثبت منه ، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثاً ومن قبيل الأحلام . والرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد ، الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وحده منادياً برأيه مبرهناً على سداده وصوابه . وليس من يستقل برأيه في أمر من الأمور يكون مخطئاً دائماً ، بل قد يكون مصيباً في رأيه ، وقد يسبق في آرائه المجتمع الذي يعيش فيه بعشرات السنين ، كما هي الحال في المصلحين الذين يكونون غالباً في واد والمجتمع في واد آخر ، لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم ، وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم يحيا المجتمع . وإذا مدحنا الثقة بالنفس فلا نمدح الأفراط فيها ؛ لأنه قد يكون علامة على الضعف لا على القوة ، كما لا نمدح ضعف الثقة فانه دليل على ضعف الشخصية .

المزاج :

من العناصر الهامة المؤثرة في الشخصية : المزاج ؛ فالناس يختلفون في أمزجتهم كما يختلفون في شخصياتهم ، فهذا متفائل ، وذاك متشائم ، هذا سريع التأثر ، وذاك بليد لا يكاد يتأثر ، هذا كثير التردد ، وذاك كثير الاقدام . كل له مزاج خاص ، وسلوك يختلف باختلاف ذلك المزاج . ولكن ما السبب في اختلاف هذه الأمزجة ؟ وللاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر رأى العلماء قديماً وحديثاً ، حتى تتضح لنا الأسباب التي من أجلها اختلفت الأمزجة فنقول :

إن العلماء قديماً حاولوا تقسيم الأمزجة إلى أربعة أقسام : دموى ، وصفراوى ، وبلغمى ، وسوداوى . وبنوا هذا التقسيم على السوائل والافرازات الجسمية .(١) فالشخص الاجتماعي المتفائل الواثق بنفسه ، الغيور على عمله ، الصافي الذهن ، الحاد الذاكرة ، كانوا يعتبرونه كثير الدم ، وبعبارة أخرى دموى المزاج . والشخص العنيد السريع الانفعال القوى الارادة ، كانوا يقولون إن لديه كمية زائدة من الصفراء ، أو المرة ، ويدعونه صفراوى المزاج . والشخص الهادىء ، الذي يغلب عليه الكسل ، وتلوح عليه البلادة ، الذي لا يبالي ولا يكترث كثيراً ولا يتأثر بسهولة ، كانوا يحسبون أن عنده مقداراً زائداً من البلغم ، ويسمونه بلغمياً .

أما الشخص الذي تنتابه الأحزان ، وتلعب به الوساوس ، وتتقاسمه الهموم والمخاوف من غير سبب ولأقل سبب ، فكانوا يخالون أن لديه زيادة في المرة السوداء أو الطحال ، ويعدونه سوداوياً . وقد زاد بعضهم مزاجاً خامساً وهو المزاج العصبي الناشىء من وفرة السائل العصبي .

أما المحدثون من العلماء فيرون أن هذا التعليل قديم ولا قيمة له من الوجهة العلمية ؛ لأنه مبنى على الجهل بعلم وظائف الأعضاء ، وعلى نقص في المباحث العلمية قديماً . وهم وإن أنكروا هذا

(١) The fluids of the body.

التعليل في اختلاف الأمزجة لا ينكرون اختلافها ، ويسلمون بتعدد أنواعها ، ويعتقدون أن هنالك أسباباً أخرى لاختلاف الأمزجة كالوراثة ، والبيئة ، والغذاء ، والمرض ، وضعف الأعصاب ، كما يعتقدون أن إفرازات الغدد لها أثر كبير في اختلاف الأمزجة ؛ فمزاج الشخص يختلف باختلاف قوة إفراز الغدد أو ضعفه . فلهذه الإفرازات تأثير كبير في الجسم والعقل ، وعنها وعن الأمور السابقة ينشأ الاختلاف في الأمزجة . فالمزاج في رأي المحدثين يتأثر بالمواد الكيميائية وإفرازات الغدد المختلفة التي يحملها الدم إلى المخ والعضلات ، لا بوفرة الدم أو الصفراء أو البلغم أو السوداء كما يقول القدماء . ومن هذه الغدد :

(١) الغدتان الخاصتان بالكليتين ، ولهما صلة بالانفعالات والعواطف ؛ فاذا كان إفرازها قوياً كان الشخص سهل التأثر ، سريع الغضب ، وإذا كان إفرازها ضعيفاً كان حليماً بطيء التأثر قليل الغضب .

(٢) والغدد الكفية ، وهي غدد صغيرة أسفل العنق ، ولها صلة بالذكاء ، فإذا كانت قوية الإفراز كان الشخص ذكياً ، وبالعكس . ويرى (مكدوجل) وهو حجة في علم النفس أن الضعف العقلي قد ينشأ عن قلة إفراز الغدد الكفية أو عن عدم وجودها .

(٣) وغدة تفاحة آدم ولها صلة بنشاط الشخص ومثابرته على العمل . وبالتجربة رأى بعض الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغدد تأثيراً قوياً في الانسان ، وقالوا — ونرجو أن تثبت التجارب قولهم — إن العمليات الجراحية يمكن أن تنظم إفراز غدتي الكليتين ، وتغير سلوك الشخص وطباعه . وإذا ثبت أن للغدد تأثيراً كبيراً في ذكاء الشخص ومزاجه فينبغي التفكير في معالجة الضعف العقلي وحدة الطبع من الوجهتين الطبية والنفسية معاً .

وجمل القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحقق فيها العناصر الآتية :

(١) الجاذبية ، (٢) النشاط العقلي أو الذكاء ،
(٣) المشاركة الوجدانية ،
(٤) الشجاعة ، (٥) الحكمة ،
(٦) التفاؤل ، (٧) التواضع وعدم التصنع ،
(٨) حسن مظهر الإنسان وقوامه ، (٩) قوة البيان ،
(١٠) الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، (١١) اعتدال المزاج .

وهناك صفات أخرى كثيرة لا بد منها في الشخصية . سنتكلم عنها فيما بعد عند التكلم على أنواع الشخصية والصفات الكمالية لها . ولكن العناصر المذكورة هي الأساسية في تكوين الشخصية الضرورية للنجاح في الحياة .

يتبع

محمد عطية الابراشي

بين فن التاريخ وفن الحرب

٤ – خالد بن الوليد *
فى حروب الردة

للفريق طـه باشا الهاشمى
رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

الحركات الأولية :

والواضح من أخبار الرواة أن مناوشات طفيفة وقعت قبل أن يتسلم خالد بن الوليد قيادة الجيش للقضاء على أهل الردة فى بلاد نجد .

والظاهر أن الرواة لم يتفقوا على أخبار هذه المناوشات جرياً على عادتهم ، والروايات المنتهية إلى سيف بن عمر وهو الراوى الذى يستند اليه الطبرى فى ذكر الكثير من أخباره تبحث فى قتال عنيف وقع بين المسلمين وأهل الردة قبل أن يزحف خالد بجيشه الى طليحة بن خويلد الأسدى فى بزاخة . أما الأخبار التى رويها الواقدى والبلاذرى فتذكر قتالاً طفيفاً جرى فى ذى القصة أو البقعاء بين مقدمة المسلمين وعبس وذبيان انتهى بهزيمة المرتدين بعد أن رأوا أن كوكب (القسم الأكبر) جيش المسلمين وصل لنجدة المقدمة، وأن قسما من هذا الجيش طاردهم الى ثنايا الموسجة ، ولما لم يلحق بهم عاد الى المعسكر .

ولم يتفق الرواة على هذا القتال أجرى قبل عودة جيش أسامة بن زيد أم بعد عودته من بلاد الشام .

ومن الأخبار ما تروى أن كبار الصحابة أشاروا على أبى بكر ألا يرسل جيش أسامة بعد أن وردت الأخبار بارتداد العرب ، إلا أن أبا بكر لم يقدم على تغيير ما أمره الرسول به فى حياته .

والذى اتفق عليه الرواة أن جيش أسامة لم يغب عن المدينة أكثر من شهرين ، وكان الجيش متجمعاً فى الجرف فى شمال المدينة لما توفى الرسول . ومع أن أكثر الرواة يزعم أن أخبار الارتداد فى الشرق وفى الشمال وفى الجنوب الشرقى وردت قبل حركة جيش أسامة — وذلك ما جعل كبار الصحابة يشيرون على الخليفة بابقاء الجيش ليعتز المسلمون به فى محاربتهم أهل الردة — إلا أن الواقع لا يؤيد ذلك ، إذ لا يعقل أن يصل نبى النبى الى بلاد عمان والبحرين فيرتد أهلها ويصل ذلك النبى الى المدينة وجيش أسامة قاعد لا يحرك ساكناً . وإذا كان الخليفة يريد أن ينفذ أوامر الرسول فلماذا يؤخر حركة هذا الجيش طول هذه المدة ؟ وتدل الأنباء على أن أول من أنبأ بالارتداد عامل مكة وأعقبه عامل الطائف بالخبر ، ثم ورد عمرو بن العاص الى المدينة بخبر ارتداد أهل عمان والبحرين ونجد ، وكان الرسول بعد حجة الوداع قد أوفده الى عمان ، فلما بلغه نعى النبى قفل راجعاً الى المدينة وأخبر بوضوح أن العرب ارتدت من دبا الى المدينة ، والمدة التى تصل فيها أخبار الوفاة الى عمان ليست قصيرة ، كما أن السفر من عمان الى المدينة أيضاً يتطلب عدة أيام ، لأن المسافة بين عمان والمدينة ١٢٥٠ ميلا (أعنى مسيرة أكثر من عشرين يوماً على الذلول)

ومن الواضح أن كبار الصحابة لم يرتأوا إبقاء جيش أسامة بمجرد رؤيتهم قبائل فزارة وغطفان يرتدون ، والأمر الذى لاشك فيه أن خبر امتناع بعض القبائل العربية القريبة من المدينة عن تأدية الزكاة وردت الى المدينة قبل حركة جيش أسامة .

وإذا صح ادعاء الرواة بأن خبر ارتداد العرب فى أقصى البلاد ورد الى أبى بكر فأطلعه على حرج الموقف قبل سفر جيش أسامة ، فيكون الخليفة قد جازف مجازفة خطيرة ، بانفاده الجيش شمالا بينما كان الخطر يهدد المسلمين فى عقر دارهم .

ومن الرواة من يزعم أن أبا بكر شرع فى قتال أهل الردة بعد عودة جيش أسامة ، ومنهم من يدعى أن قتال ذى القصة والربذة جرى قبل عودة الجيش .

أما نحن فنميل الى الاعتقاد أن القتال وقع قبل عودة الجيش ، إذ لا يعقل أن تتواطأ غطفان على الهجوم على المدينة ، وتعلم بأن

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

جيش أسامة مرابط في شمالها . بينما الروايات التي يستند إليها الواقدي والبلاذري تدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة في ذلك القتال .

الشروع في العصيان :

أول من شرع في العصيان خارجة بن حصن الفزاري من رؤساء بني فزارة ، إذ أنه أوقف جابي الزكاة في طريقه إلى المدينة وأخذ منه ما في يده فرده على بني فزارة ورجع الجابي إلى أبي بكر .

أما القبائل التي ثارت وتظاهرت بالعداء فهي : بنو أسد وغطفان والبعض من بطون طيء ، فاجتمع بنو أسد في سميراء ، وعلى رأسهم طليحة بن خويلد ، واجتمعت فزارة في جنوبي طيبة ، واجتمعت عبس وذبيان في الربذة والتف حولهم جماعة من كنانة ، ولما كثر عددهم لم تحملهم البلاد لأن المياه شحيحة والمرعى قليل فتفرقوا إلى فرقتين ، فأقامت فرقة بالأبرق بالقرب من الربذة والأخرى في ذي القصة ، وأمد طليحة فرقة ذي القصة بقوة من بني أسد ، والداعي إلى تفرقهم هو أن الوقت كان صيفاً لأن الرسول توفي في شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة . وهذا التاريخ يوافق شهر حزيران سنة ٦٣٢ ميلادية ، والمياه على ما نعلم تشح في الصيف ، وكذلك المرعى يقل حينئذ . فبعثت غطفان وفداً إلى المدينة ليعرض على أبي بكر رغبتها في أن تقيم الصلاة وألا تأتي الزكاة ، وكان عيينة بن حصن الفزاري والأقرع ابن حابس في الوفد .

فلم يلب أبو بكر طلبهم رغم إشارة بعض الصحابة عليه بالتساهل معهم إلى أن يعود جيش أسامة ، إلا أنه في الوقت نفسه قدر خطورة الموقف لما عاد الوفد إلى أهله ، وكان للوفد على ما يظهر مهمتان : عفو الزكاة ، والاطلاع على قوة المسلمين في المدينة . وقد لاحظ أبو بكر ذلك ، إذ لم يبعد الوفد حتى جمع الصحابة وأطلعهم على حرج الموقف وكلفهم بحراسة المدينة ليلاً ونهاراً . فأقام رجالاً في الأبراج لمراقبة الطرق الممتدة إلى المدينة من جهة البادية ، ورتب قوة احتياطية في المسجد لتكون على استعداد للنجدة عند الحاجة ، وحذر أهل المدينة بقوله « إنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد » يشير بذلك إلى قرب المنافقين من المدينة والقبائل المتحفزة للهجوم .

وقد يعجب الانسان بصلابة أبي بكر في رفضه طلب الوفد بعد اطلاعه على أخبار عماله لدى القبائل وسماعه حديث عمرو ابن العاص . وكانت جميعها تنبئ بارتداد العرب عامة أو خاصة ولا يوجد في المدينة سوى نفر قليل وجيش أسامة بعيد عنها .

ونظراً إلى ما ذكره الواقدي في كتاب الردة أن أبا بكر لم يكتف بالتدابير التي اتخذها في المدينة ، بل طلب من القبائل العربية كأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب أن تمده بالرجال ، فأسرعت إلى نجدته ، فأخذ الناس يتوافدون إلى المدينة بسلاحهم ، وأرسلت جهينة أربعمائة راكب .

وإذا صدقنا رواية سيف بن عمر التي نقلها الطبري ، ظهر لنا أن ظن أبي بكر كان في محله ، إذ لم تمض ثلاثة أيام على عودة الوفد حتى كان المرتدون قد غزوا المدينة ليلا .

لا بد أن الوفد بعد عودته أخبر القبائل المتحفزة للهجوم عن ضعف قوة المسلمين بالمدينة وشجعها على الهجوم وكانت من غطفان ، وهي عبس وذبيان وفزارة على ما نعلم .

المواقع التي جرى القتال فيها :

وردت أسماء السميراء والربذة وطيبة والأبرق وذي القصة عند البحث في تجمع القبائل . ولا يوجد الآن من هذه الأسماء في الخرائط الحالية إلا السميراء . ولنا من الأخبار التي نستقيها من رواة العرب الأقدمين أن القبائل الساكنة في شرقي المدينة وعلى طرفي الطرق الذاهبة إلى العراق وخليج فارس هي بنو سليم وهي أقربها إلى المدينة في الشمال الشرقي ، ثم يليها بنو كلاب إلى شمالي بني سليم ، ثم عبس وذبيان في شرق حرة خيبر إلى الشمال .

أما قبائل طيء فتسكن في جبليها أجأ وسلمى ، وفي شرقي بني عبس وذبيان وفزارة من غطفان في وسط وادي الرمة وعلى جانبيه . وتأتي بعدها قبائل بني أسد . وموقع سميراء على ما يظهر من الخريطة واقع إلى شمالي وادي الرمة ، ويبدأ منه وادي السميراء الذي يصب في الوادي في جوار الحاجر .

الربذة :

يذكر ياقوت الحموي أن موقع الربذة على الطريق التي تصل موقع فيد بالمدينة . وفيد في حي طيء وهي قرية من قرى جبل شمر واقعة إلى شرق جبل سلمى على الطريق التي تصل الكوفة بالمدينة

ويمر بها طريق الحج ، وهى بعيدة عن المدينة مسافة ست مراحل . وتلتقى فيها عدة طرق من الجوف والعراق والمدينة وبريدة والرس .

والربذة على هذه الطريق ، وهى تبعد عن المدينة اربعة وعشرين فرسخاً ، وواقعة الى شمالى شرقها ، ولعل موقع حناكية الحالى هو موقع الربذة القديم أو قريب منه ، لأن بعده عن المدينة زهاء ثمانين ميلاً . والفرسخ العربى طوله اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر أو أربعة كيلومترات . والذى يجعلنا نميل الى ذلك أن القوة لم تجتمع فى الربذة بل فى الابارق ، وكلمة ابارق اسم خاص لبعض المحلات تدل على أرض حجرية ورملية مختلطة .

وموقع الحناكية بالقرب من حدود حرة خيبر ، والحرة على ما نعلم أرض بركانية خامدة وفيها محلات يترا كم الماء فيها . ومادامت القبائل مجتمعة فيها فلا بد حينئذ من وجود الماء بها . والحناكية واقعة فى بطن وادى الحمض .

ذو القصة أو البقعاء : والظاهر أن كلتيهما تدلان على موقع واحد واقع فى شرقى المدينة وقريب منها ، وهو بلا شك على الطريق التى تمتد الى المدينة فى غربى الربذة او فى جنوبها ، وهو اما الشقرة او سابية .

والأخبار تدل على أن أبا بكر بعد أن هزم المرتدين فى البقعاء طاردهم بخيله الى ثنايا العوسجة بالقرب من الركبة ، وهذا الموقع الاخير واد يصب فى الرمة ، ولعله وادى الركب الذى ينبع من حرة خيبر ويجرى شمالا فى شرق وثنايا العوسجة فى المحل الضيق الذى يتسلق فيه الطريق صاعداً الى رأس الوادى او ينزل منحدراً منه .

أما موقع طيبة الذى اجتمع فيه غطفان وفزارة فلم نعثر عليه فى معجم البلدان ولعله فى شرقى الربذة أو فى شماليه . أو انه موقع طابة فى سفح جبل سلمى الجنوبى فى شمالى السميراء . وهو من ديار غوث من طيء .

اغتنام المدينة :

لم يهجم المرتدون بكل قوتهم لانهم أرادوا أن يكونوا خفافاً فتركوا قسماً منهم فى ذى حسى بين ذى القصة والمدينة ليكون ردءاً لهم ، واقتربوا ليلا من المدينة ولم يباغتوها لأن العيون اخبرت المسلمين بدنوهم ، فقاتلتهم الربايا الخارجية ، وأسرع ابو بكر بمن فى المسجد فأنجد الربيئات وهزم الهاجمين ، ولم يكتف بذلك بل هاجمهم على الجمال التى تستقى الماء من الآبار لأسقاء مزارع المدينة ، الى أن نفرت الابل من الجلود المنفوخة التى دهدهها الفارون من أعلى الروابى ، فرجعت على أعقابها نافرة حتى دخلت المدينة .

والظاهر أن الهاجمين لم يكونوا فى قوة كبيرة ، ولا سيما بعد أن تركوا قسماً منهم فى الخلف . ويظهر أنهم من بنى عبس وذبيان . أما فزارة فبقيت فى ذى القصة . وهكذا انقسمت القوة التى أرادت أن تهاجم المدينة الى ثلاثة أقسام : قسم فى ذى القصة وقسم فى ذى حسى ، والقسم الثالث أغار على المدينة . أما قوة المسلمين فلا شك فى أنها كانت ضعيفة ، ولعلها لم تزد على المائتين .

وتشجع المرتدون من فرار جمال المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا الى من بذى القصة بالخبر فلحقوا بهم .

يتبع — طه الهاشمى

في الأدب الدرامي

١١ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر ملاهي موليير

(البخيل L' avare)

موضوعها وصف البخيل، وأهم أشخاصها: أرباجون البخيل أبو كليانت وإيليز وعاشق مريان، وكليانت بن أرباجون وحبيب مريان، وإيليز بنت أرباجون وخبيبة ڤالير بن أنسلم، ومريان بنت أنسلم وخبيبة كليانت ومحبوبة أرباجون، وأنسلم أحد الأغنياء وأبو ڤالير ومريان، ومترجاك طباخ البخيل وسائقه، وفرسين امرأة محتالة، ولافيش خادم كليانت، وسيمون سمسار. وقد وقعت حوادثها في بيت أرباجون بباريس.

الفصل الأول: (كنز أرباجون ومشروع زواجه) يتنكر ڤالير خطيب إيليز، ويقيمه البخيل وكيلاً على بيته، فيعلن إلى ابنته غرامه، ويشكو إليها بثه، فتعده بالزواج. ويدخل كليانت فيفضي إلى أخته بحبه لفتاة فقيرة شريفة تدعى مريان. ويشكو إليها عجزه عن مساعدتها لبخل أبيه، فهو يبحث عن مراب يقترض منه ما يصلح به حالها، ثم يدخل أرباجون البخيل وهو يشاجر خادمه (لافيش) في عنف ويتهمه بالسرقة، فيقرره ويعززه ويبحث في جيبه ومطاوي ثوبه ثم يطرده، وهو لا يتحرج أن يعامل ولديه معاملة العدو، ويتهمهما بالتبذير. وحينما يريد الولدان أن ينبئاه عن مشروعي زواجيهما يفاجئهما هو بأنه عقد العزم على الزواج من مريان، وأنه فكر في مستقبل ولديه فخطب لكليانت أرملة غنية، ولإيليز أنسلم الثري، لأنه قبل أن يتزوج منها من غير مهر تسبوقه إليه. ثم هو لا يقبل جدلاً ولا يريد مشورة. ويدخل ڤالير فيتخذونه في الموضوع حكماً.

الفصل الثاني: (ربا أرباجون) يريد كليانت أن يقترض خمسة عشر ألف فرنك فيجدها له السمسار سيمون بشروط فادحة وربح خمسة وعشرين في المائة. ويقبض منها كليانت اثني عشر ألف فرنك عيناً، ثم يأخذ باقيها مجموعة من الأثاث البالي. على أن أغرب ما في المسألة أن السمسار يطلب هذا القرض من أرباجون، فيقف الابن أمام الأب موقفاً غريباً يتبادلان فيه ألفاظ التقريع على بخل أحدهما وتبذير الآخر، فلا يخرجهما من هذا الموقف الحرج إلا دخول (فرسين) المحتالة تعلن إلى أرباجون أن أم مريان قبلت أن تزوجه من ابنتها، وهي تطلب منه مقداراً من المال يسيراً تستعين به على كسب قضية لها في المحكمة، فيبادر إلى الخروج قائلاً: آه! إن أحد الناس يدعوني . . .

الفصل الثالث: (إعداد المأدبة) دعا أرباجون أنسلم وابنته مريان إلى العشاء. فهو يوزع العمل على خدمه: فيأمر كلود أن تنظف البيت، ويحذرها أن تحك الأثاث بقوة مخافة أن يبلى، ويخصص (براندافوان) و(لامرلوش) للشراب، وينهاهما أن يقدماه إلا إلى من به ظمأ شديد، ويوكل إيليز بملاحظة المائدة، ويأمر الطاهي جاك أن يهيء الطعام بثمن زهيد. ولكن المترجاك يؤدي عمل الطاهي وعمل الحوذي معاً، فهو باعتباره الأول يطلب مالاً كثيراً، فيغضب أرباجون ويرشده إلى صنع المآكل التي تصد النفس وتميت الشهوة، ويرفض باعتباره الثاني أن يشد الخيل إلى العربة، لأن الجوع قد أضناها والتعب قد أنهكها، ويلوم سيده على شحه القبيح فينهال عليه البخيل ضرباً بهراوته.

الفصل الرابع: (سرقة الكنز) يعثر الخادم (لافيش) على كنز سيده البخيل مدفوناً في الحديقة فيأتي به إلى كليانت. ويحاول الابن أن يحول بين الأب وبين زواجه من مريان، فيرميها عنده بالخلاعة والجفاء والغباوة، ويرتاب الأب في نصيحة ابنه، فيتظاهر بأنه يريد أن يزوجه منها حتى يحمله على الإقرار بحبه إياها، فتثور ثائرة البخيل، ويلوح له بالعصا، ويحاول أن يصده عن حبها فيأبى كليانت فيخرجه الأب من ميراثه ويلعنه، ثم يفتقد الكنز فلا يجده، فينسى مشروعاته الجليلة، ويصيح بملء صوته: يالي من اللص! يالي من القاتل! يالي من السفاك! ثم يفزع إلى القضاء يريد أن يشنق كل الناس، حتى إذا لم يجد كنزه شنق نفسه. وهذا الموقف من أبدع مواقف الرواية.

الفصل الخامس: (وجود الكنز): يحضر رجال الشرطة فيسألون (الأسطا جاك) فيتهم الوكيل ڤالير. ويدخل الوكيل فيشهر به أرباجون ويقول له: أريد أن تخبرني عن المكان الذي خطفتها منه، فيظن ڤالير أنه يكلمه عن إيليز فيجيبه: إني لم أخطفها، ولا تزال عندك في منزلك. ويستمر هذا الخطأ بينهما طويلاً، ثم ينتهي بأن يبوح ڤالير بحبه إيليز، ويدخل حينئذ أنسلم فيعرف ابنه ڤالير وابنته مريان، وقد فقدهما منذ ست

عشرة سنة . ثم يقترح أن يتزوج ڤالير من إيليز وكليانت من مريان ، فيقبل البخيل على شرط أن يردوا اليه كنزه ، وألا يغرم صداقاً الى ولديه ، وأن يفصلوا له ثوباً جديداً يوم الزفاف . وتنتهي الملهاة بقول ارباجون : ولنذهب لنرى كنزى العزيز ! هذه الملهاة متقنة محكمة ، فحركة العمل فيها سريعة قوية ، والأخلاق تبدو ظاهرة جلية ، والحوار طبيعي حي يملك الذهن ويسترعي الأسماع . ولكنهم يأخذون عليها أن الموضوع محزن وأن الحل ضعيف .

(النساء العالمات Les femmes savantes)

موضوعها تحذلق النساء وتركهن تدبير البيت ، واشتغالهن بالفلسفة والحساب والفلك . وأهم أشخاصها : كريزال وزوجته فيلامنت ، وابنتاه ارماند وهنريت ، وأخوه أريست وأخته بيليز وخادمته مارتين ، ثم كليتاندر حبيب هنريت وتريسوتين أحد الأذكياء ، وڤاديوس أحد العلماء . وقد وقعت حوادثها في منزل كريزال بباريس .

الفصل الأول : هنريت ترغب في الزواج من كليتاندر ، ولكن أختها أرماند المتحذلقة تنصح لها أن ترفض هذا الزواج وتعكف على دراسة العلم فان ذلك أخلق بالمرأة اللبقة الذكية ، وتضرب لها المثل بأمها وخمولها في الأندية والمجامع لجهلها ، فتتهمها هنريت بالغيرة وتناقشها في الموضوع بحضرة كليتاندر ، فيفصل في هذه المسألة بتصريحه أن الذكارة من النساء لا يلائمن ذوقه ، وانه يفضل أن تكون المرأة مستنيرة فاهمة ، لا متشدقة عالمة . هو إذن يختار هنريت ، ولكنه لا يجرؤ على مكاشفة أمها فيلامنت بحبه ، لأنها مولعة بالمدعي تريسوتين ، وهو يحتقره لادعائه وتحذلقه . وتدخل بيليز فيستميلها اليه ويصارحها بأمره ، فتظن أن هذا الحب لها لا لغيرها .

الفصل الثاني : يأخذ على نفسه اريست أخو كريزال أن يخطب هنريت لكليتاندر ، فهو يقول لأخيه : إن كليتاندر فقير من المال ولكنه غني بالفضيلة . فيجيبه كريزال الى طلبه ، ثم يذهب الى زوجته يقنعها به . وفي تلك الساعة تطرد فيلامنت خادمتها مارتين ، لا لأنها كسرت وعاء أو سرقت إناء ، ولكن لأنها أهانت النحو والقواعد . ويضعف كريزال أمام امرأته فيقر هـــذا الطرد ، ولكنه يسخط كل السخط على حمق النساء العالمات ، ويختصر شكواه في هذا البيت الجميل :

انني أعيش بالحساء الجيد ، لا بالانشاء البليغ !

فاذا ما كلمها في زواج هنريت من كليتاندر تأبى الإباء كله ، وتعلن اليه أنها ستزوجها من الشاعر الأديب تريسوتين . ويحرض أريست أخاه على المقاومة حتى يرفع عن كاهله نير هذا الظلم الفادح .

الفصل الثالث : يقرأ تريسوتين للعالمات فيلامنت وأرمان وبيليز موشحاً وأهجية من نظم الأميرة (أوراني) فيملك عليهن حواسهن وأنفاسهن ، إلا هنريت فتظل فارغة البال من كل ذلك . لم يكتب هؤلاء المتحذلقات شيئاً ، ولكنهن يردن أن يتعمقن في العلوم ، وينشئن أكاديمية لهن كأكاديمية الرجال . ويقبل المتفيهق ڤاديوس فيصفه تريسوتين للنسوة بأنه أعلم الفرنسيين باللغة اليونانية ، وأبرع الأدباء في صـــناعتي النظم والنثر . ويبادله المتحذلقات صنوف التحية وضروب التعظيم ، ثم ينتقد ڤاديوس موشح الأميرة (أوراني) ، دون أن يعلم أنه من نظم تريسوتين ، فيتخاصم الرجلان ويتسابان بأفحش السباب . ويخرج ڤاديوس محنقاً يتحدى خصمه بقوله : (إني أدعوك لمناجلتي في النظم والنثر واللاتينية واليونانية) . وتعزى فيلامنت صديقها تريسوتين عن هذه الفضيحة بأن تقدم إليه ابنتها هنريت لتكون له زوجة ، ويصر كريزال على أن يزوج ابنته من كليتاندر .

الفصل الرابع : تتلهب فيلامنت من الغيظ ، فتقسم أن تقطع زوجها عن عزمه ، وتنفذ إرادتها على هنريت ، ويأتي إليهما في تلك الساعة كتاب من ڤاديوس يتهم فيه تريسوتين بالنفاق والطمع في ثروة هنريت ، فلا يضعضع ذلك من عزم فيلامنت فتبعث في طلب المأذون (المسجل) ؛ ولكن كريزال يصمم على رأيه فلا يتقهقر .

الفصل الخامس : تسخر هنريت من تريسوتين ، وتريده على أن يرفض زواجها ، وأبوها يرغى ويزبد موغر الصدر على أمها ، ويقول إني أريد أن أعلمها كيف تعيش ، ولقد أرجعت مارتين إلى الخدمة على الرغم منها . وتدخل حينئذ فيلامنت وفي أثرها المأذون وتريسوتين ، ويصل الأمر في العقد إلى تسمية الزوج فتقول الأم : تريسوتين ، ويقول الأب : كليتاندر . فتغضب فيلامنت وتنتصر الخادم مارتين لسيدها فلا تزداد السيدة إلا عتواً وإصراراً . ويوشك كريزال أن يسلم الأمر إلى امرأته لولا أن يدخل أخوه أريست ، فيخبرهم بالكذب أن أسرتهم قد أفلست لخسرانها قضية كبيرة . فلم يكد يسمع تريسوتين النبأ حتى يدير لهم ظهره ويخرج فيظهر نفاقه وأثرته ، وينتهي الأمر بانتصار كريزال وتحقيق أمل كليتاندر .

يتبع

(الزيات)

الى الفردوسى

أتينــــا محتفلين

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

« ذهب شاعر الفراتين ممثلا للأدب العراق في الاحتفال الالفى بالفردوسى ، فألقى على قبر الشاعر الخالد هذه القصيدة الخالدة »

١

أنت فى شعرٍ كان فتحاً مبينا ... واحدٌ من أولئك الخالدينا
بعد ألفٍ من السنين أتينا ... بك يا فردوسىُّ محتفلينا
والى قبرك الذى فيه تغفو ... نحمل الوردَ الغضَّ والياسمينا
ولو ان الإحداثَ ألفى مساغا ... جعل القوم حجَّ قبرك دينا
لك فى تاريخ الملوك كتابٌ ... يحمل الوحىَ والهدى واليقينا
قمتَ فى نظمه ثلاثين عاما ... ثم لم تسأم طولَ تلك السنينا
حزتَ حينا تجلةً واحتراما ... وتألمتَ للمصائب حينا

٢

شاعرٌ أنت جامعٌ للمزايا ... خالدٌ لا تدنو اليك المنايا
أنت فى دولة البيان بحق ... ملكٌ ذو عرشٍ ونحن الرعايا
جاء ماقد نظمته من كتابٍ ... تحفةً فارسيةً للبرايا
ولقد أهديتَ الكتابَ الى من ... لم يكن ذا علم بقدر الهدايا
وألمَّت بك الرزايا ولكن ... أنت ما كنتَ عابئاً بالرزايا
يا إمام القريض بعدك فينا ... نفذ الشعرُ الجزل إلا بقايا
قد طلبنا التحرير للشعر حتى ... كثرت فى الطلاب منا الضحايا

٣

إن ما قد قصصته من حروب ... سوف يبقى تأثيره فى القلوب
أنت شمسٌ لها البيان شعاعٌ ... لم تمل فى طريقها للغروب
ما الإلياذةَ التى حبّرتها ... يدُ هوميرَ مثلُ ذا الأسلوب
تلك ليلٌ جهمٌ وهذا صباحٌ ... مُسفرٌ ما بوجهه من شحوب
كنتَ تمشى الى الامام حثيثا ... بخطى لم تخلق لغير الوثوب
يهتف اليوم الوافدون من الأقطار أفواجاً ... باسمك المحبوب
جلّ ما قد نظمته فى مزايا ... الفارسيين عن جميع العيوب

٤

أنت فى شعرك البليغ امام ... فسلام عليك ثم سلام
حبذا ما نظمتهُ من كتاب ... أكبرته الشعوب والأقوام
أنت للشرق شاعرٌ عبقريٌّ ... تتغذى بقوله الافهام
«لستُ أدرى وليتنى كنتُ أدرى» ... أهو السحر أم هو الالهام
كنتَ للناس كوكباً ذا بهاء ... أينما ألقى النورَ زال الظلام
فى رياض الآداب غرسُك يحكى ... شجراً من أثماره الآلام
حُلُماً كان ما أملتَ ولكن ... بعد ألفٍ قد صحت الأحلام

٥

أنت يامَن بهرتَ بالشعر عينى ... شاعرُ المشرقين والمغربين
أنت لو تُمسِكُ الثريا بأيدٍ ... شعراءُ ، أمسكتَها باليدين
أنت مما تشعّه من ضياء ... يملأ العين ، ثالثُ القمرين
ما كتاب الملوك إلا بلاغ ... من أبي قاسمٍ الى الملوين
كلما جئتُ منه أقرأ فصلا ... أسبلت عينى فوقه دمعتين
تحفةٌ من بلاغة وشعورٍ ... قد جلتْ ما بخاطرى من رين
جمعت بعد أن مضى ألفُ عامٍ ... بينه لُحمةُ القريض وبينى

٦

إن ما ناله الردى من حياتك ... لم ينله العجز من كلماتك
أنت فى شعرك البليغ نبيٌّ ... وكتابُ الملوك من معجزاتك
لك فيه بلاغة أدهشتنا ... أىَّ روحٍ نفختَ فى أبياتك
كلّ ما كنا قد نظمناه قبلاً ... نظرة فى الحياة من نظراتك
كل ما عندنا من النظم والنثـ ... ـر قبسناه من سنا آياتك
كل ما قد قلناه فى هذه الذكـ ... ـرى ثناء عليك بعضُ صفاتك
قيل لى أنت فى حفيرٍ ولكن ... لم أجد فى الحفير غيرَ رفاتك

٧

قصّرت فى تقديرك الآباء ... فتلافت ما فاتها الأبناء
بعد ألفٍ من السنين أقامت ... لك نيروزاً امةٌ شماء
لك يا حجّة البلاغة شعرٌ ... عجزت عن تقليده الشعراء
بمصابيح شعرك ازدانت الأر ... ضُ كما ازدانت بالنجوم السماء
نمقته يراعةٌ ذات حول ... وبه لوّحت يدٌ بيضاء
واذا ضيمَ الشاعر الحرّ يوماً ... فى بلاد جلاه عنها الإباء
بعد آمال كنّ فيك خيالاً ... فاجأتك الحقيقةُ السوداء

٨

يا كتاب الملوك أنت كتاب — فيه للناس حكمة وصواب
خلق الغزنوى منك خضماً — فاض يرغو كما يفيض العباب
بك للشرق ما اهتدى الشرق فخر — بك للغرب ما ارتقى إعجاب
بك فى أمة قد ازدادت الأخلاق طيبا وازدانت الآداب
معجزات وراءها معجزات — آمنت إعجابا بها الألباب
إنما فى الشعر الحقيقة أصل — والخيالات كلها أثواب
وإذا أنكر النبوغ على الشرق فريق فأنت أنت الجواب

٩

الذى لم يقم به الغزنوى — قام مستوفيا به البهلوى
ملك من ارقى الملوك عظيم — لاسمه فى سمع الزمان دوى
ملك بالسياستين خبير — وله فيهما الطريق السوى
أخضع الأمة العظيمة بالحسنى فلله عطفه الأبوى
وإذا قوة الارادة جلت — جل فيهم تأثيرها المعنوى
والذى لا يرى الحقيقة أعمى — والذى ينكر الرشاد غوى
إنما اليوم ليس يصلح للملك على وجه الأرض إلا القوى

١٠

إنك السيف فى يد الأيام — قد نضته للحرب أو للسلام
خافقا للدماء بالمثل منها — فى صدام الأقوام بالأقوام
فى يديك القوتين إذا الأمر دعا حق النقض والابرام
وإذا ما بدأت يوما بإصلاح جديد فالبدء للاتمام
حبذا إيران وعمران ايران وما فى بلادها من نظام
ولقد سرنى كما سر غيرى — ما بها من نزاهة الاحكام
زرت بالأمس الروض أمتع عينى — وإذا الورد فيه ذو أكمام

١١

أهل إيران والحديث شجون — أمة ما بها يليق السكون
شأنها فى التأريخ أكبر شأن — حبذا فى التأريخ تلك الشؤون
وعلى عين الشرق ران رقاد — دونه فى غير الرجاء المنون
ثم أحيى ينبه الشرق منه — ملك حد سيفه مسنون
إنه لما قام للمجد يدعو — شخصت عن بعد اليه العيون

طار بالشعب كله للثريا — صاعداً لو يكون مالا يكون
سيعود المجد القديم لإيران فتفضى الى اليقين الظنون

١٢

أيها الشعر إنك ابن شعورى — تغتذى من كآبتى وسرورى
حاملا ضحكة الذى عيشه كان رغيدا أو دمعة الموتور
نابتا من ضعف يريبك منه — خاليا من زوائد وقشور
ليس شعراً ما ليس فيه شعور — لا يهيج الشعور غير الشعور
واذا الشعر لم يهزك منه — روعة فهو جامد كالقبور
إنما الشاعر الموفق يمشى — من خلود على رقاب الدهور
معجب بالهزار كل بنى الأرض وان لم يكن سوى عصفور

جميل صدقى الزهاوى

شوقى أيضاً

قطعة كتبها الأستاذ البشرى صدراً لحديثه فى الراديو عن ذكرى شوقى ، ثم بدا له أن يرتجل .

سيداتى سادتى :

فى مثل هذا اليوم من عامين مضيا أذن مؤذن أن البلبل قد سكت بعد طول سجعه وتغريده ، وأن الزهر قد ذبل بعد إشراقه وتوريده ، وأن النجم قد هوى فلم يعد يتألق ، وأن الغدير قد غاض وهيهات له بعد الآن أن يترقرق .

مات شوقى ، ولو كان شوقى كسائر الناس ما كان لموته جليل خطر . ولرب رجل يموت فلا يفرق المجموع بين موته وحياته . ولكن موت شوقى شىء آخر : أرأيت الى النهر اذا يبس ، والى المطر حين يحتبس ؟ وارحمتا للسارين اذا لحق النجم الغروب ، وقد تشعبت الطرق واختلفت وعوس الدروب !

لقد كان شوقى نعمة من النعم العامة التى تفضل الله بها على هذه البلاد ، بل التى تفضل بها على أبناء العربية جمعاء . فموته من المصائب العامة التى يحس خطرها كل امرئ يقدر روعة الفكر ، ويحتفل لأبهى صنوف الجمال .

ولو أن الله تعالى بعث الشعور فى مظاهر هذه الطبيعة وأقدرها

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]



٥ - بحث في أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

إذا قلنا إن الانسان يمتاز من سائر الحيوان بقواه العقلية وقدرته على التفكير الحر فيجب ألا ننسى حينئذ أن من أهم مميزات الانسان اعتدال قامته وعدم اعتماده على شيء عند المشي : لكنا مع ذلك لا نستطيع القول بأنه خلق كذلك ، لأن صغار القردة Antrepoids تكون ذات جسم معتدل تحمل جسمها وكل عضلاته فى صغرها على اتجاه عمودى ، إلا أن أقدامها لا تساعدها على البقاء كذلك فى سيرها ، ولا يمكن لجسمها الاحتفاظ بتوازنه عليها ، لأنها لا زالت تعد وتستعمل أداة للقبض ، فانفرج ما بين أصابعها لهذا الغرض ، بعكس الجنس الانسانى الذى تطورت حالة قدميه ، فصار فى طاقته المشى عليهما وحدهما دون الاعتماد على يديه

هناك أجزاء ثلاثة : وهى القدم وعظام الفخذ والسلسلة الفقرية ، وقد كان فى تطورها والتغيرات التى حدثت بها أكبر مساعد على اعتدال قامة الانسان وقدرته على المشى وحده . ولذلك يمكننا أن نحكم على أى مخلوق بالدرجة التى وصل اليها مقترباً من الانسانية أو مبتعداً عنها بمجرد فحص عظمة فخذ أو عظمة من عظامه المتحجرة .

كيف وقف انسانه جاوة

إذا نحن دققنا البحث فى عظمة فخذ إنسان جاوة وهى الأثر الذى تركه ، نجدها طويلة دقيقة إنسانية فى كل شيء ، تدلنا على أن ذلك الانسان أو المخلوق الذى صارت هى بقيته الباقية ، لا بد وأنه كان يسير مستقيم الظهر يعرف الجرى والقفز ... حقيقة هنالك بعض اختلافات فى تكوين وشكل هذه العظام المتحجرة إلا أن هذه الاختلافات لا تبعدها عن كونها إنسانية ولا تقربها بأى حال من الأحوال من شكل عظم فخذ القردة . ورغم أوجه الشبه بين الانسان القرد والقرد فانه كان انساناً . ومن شكل وطول عظمة الفخذ هذه يمكننا أن نصور إنسان جاوة

على النطق ، لتشارك فى إحياء ذكرى شوقى البحر الخضم ، والجبل الأشم ، والفلك الدائر ، والنجم المختلج الحائر ، والعود إذا أورق ، والزهر إذا نور وأشرق ، ولاجتمعت لمأتمه كل متجوع من بنات الهديل ، يقمن عليه المناحات بأحد النواح وأحر العويل . فلقد طالما أضحك وسرى ، ولقد طالما أطرب وأشجى ، ولكم جلا من صور الطبيعة فأجاد وأحكم ، وأنطق الصخر فى مرسخه لو كان الصخر يتكلم ، ولكم لاغى الطير غادية ورائحة ، ولكم لاعب الغزلان شاردة وسانحة ، ولكم داعب الغصن حتى يثنى خصره ، وغازل الزهر حتى تنفس بهواه أرجه وعطره !

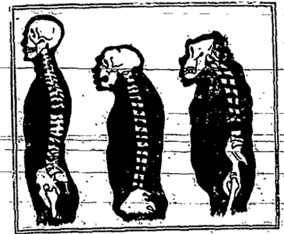
شوقى لم يمت ، ومثل شوقى لا يموت أبداً ، بل إنه ليزداد حياة على تطاول الأجيال . هذا شوقى حى أقوى الحياة فى بيانه القوى ، وسيظل هذا البيان المشرع العذب النمير ينهل منه بنو العروبة ما قدرت للعربية فى هذه الدنيا حياة .

سيداتى ، سادتى :

وافقت ليلة حديثى ذكرى وفاة أمير الشعراء . ولابد من أن أقول فيه كلاماً ، ولكن كيف لى بهذا الكلام ، وقد جئت الليلة الى المحطة وأنا متداع متهدم من أثر المرض ، هذا فضلا عن أننى لا أذكر أننى كتبت فى إنسان مثل ما كتبت فى شوقى . فلقد جلوت له من ثمانى سنوات (مرآة) عريضة فى السياسة الأسبوعية ، وحللت تاريخه وشخصيته وشاعريته فى كتاب المفصل المقرر للسنين الأخيرة فى التعليم الثانوى . وكتبت فيه هذه الأيام كلاماً كثيراً سينشر هذا الأسبوع فى مجلة «الرسالة» بمناسبة هذه الذكرى أيضاً ، فلم يبق لى مع هذه الأحوال طاقة بجديد فيه الآن ، فأرجوكم أن تعذرونى إذا حدثتكم بعد هذا بنبذ مما سبق به القول ، أقتبسها من هنا ومن هنا ، ولعلها تجلو شوقى على من لم يدرسه بعض الجلاء .

عبد العزيز البشرى

بأنه كان نحيفاً تبلغ قامته ٥ أقدام و ٩ بوصات ، وأنه كان معتدلاً يمشى كما نمشى نحن الآن تماماً .



شكل (٧) الى اليمين عظام قرد ، ومنها يلاحظ ان العظام مركبة بحيث تسمح بالانتصاب عند الحاجة ، أما هذه التى الى اليسار فانها فقرات انسان بها ثلاث انحناءات وهذه ميزة خاصة به لانها تمكنه من الانتصاب الدائم ، وأما الوسطى وهى الخاصة بانسان النياندرتال فوسط بين الاثنين
(نقلا عن رسم البروفسور بول)

وهنا يمكننا أن نقول بكل ثقة إن الانسان قد اكتسب هذا الاعتدال فى القامة والمشى قبل نهاية عصر البليوستين ، وإننا إذا أردنا البحث عن حاله قبل ذلك فانه يجب علينا حينئذ أن نتوغل فى عصر جيولوجى أقدم من ذلك بكثير ، ولكن قبل أن نتقدم بذلك يحسن بنا أن نذكرك بالحقيقة الهامة وهى أن الانسان قد اكتسب قوامه المعتدل قبل اكتسابه قواه الفكرية كانسان ، وانه قد ظل مطبوعاً بطابع القردة فى شكل الفك والجمجمة حتى نهاية عصر البليوسين ، وبدء عصر البلستوسين .

وبواسطة تلك الآثار والمخلفات التى وجدناها فى المقابر والكهوف ومدرجات الأنهار ، أمكننا أن نتتبع تاريخ الانسان الى عصور سحيقة من عصور التاريخ متناهية فى القدم . وعند ما أردنا البحث فى ذلك بدأنا البحث فى بقايا العصور الحديثة ، ومنها تعمقنا الى ما هو أقدم منها ، وطريقنا فى ذلك سهلة للغاية ، فاننا نبدأ بالمعلوم كى نصل الى المجهول ، وبالظاهر حتى نكشف عن الخفى ، ولذلك فانه بفضل تلك الأدوات والمخلفات الصخرية القديمة قد أمكننا أن نتتبع تاريخ الانسان فى عصر البلستوسين ، ومنه تدرجنا الى البليوسين .

هولى فى عصر زوات الثدى «العصر الثالث» Tertiary

لذلك سوف نتعمق فى أبحاثنا نحو عصر من العصور القديمة جداً ، هو العصر الثالث أو ال Tertiary . ولكن قبل أن نخوض غمار ذلك البحث نجد لزاماً علينا نحو القارىء الكريم أن نعطيه فكرة عن ذلك العصر الذى ذكرناه .

شكل (٨) نقلا عن رسم السير أرثر كيث ومنه يظهر تتابع العصور الجيولوجية وتتابع الحياة وعمرها

لا زلنا نذكر أننا قد أعطينا فى مقال سابق تحت عنوان مقال اليوم مقياساً تقديرياً لعصور الكهوف ومدرجات الأنهار وتتابع الطبقات وأعمارها فى كل منهما ، وسنجد أنفسنا مضطرين لأن نفعل ذلك فى ذلك العصر الذى نحن بصدده الآن .

من الشكل «٨» يمكنك أن ترى تتابع عصر البلستوسين لعصر البليوسين ، وهذان العصران يفصلهما حد زمنى له أهمية فى هذا المجال لأنه عند تخطى عصر البليوسين للعصر الذى يتبعه نجد اختلافاً كبيراً فى شكل الحيوانات الثديية الموجودة به ، ولذلك فان علماء الجيولوجيا يعتبرون عصر البلستوسين أول مجموعة من المجاميع التى تكون حلقات تاريخ الأرض وتاريخ الانسان الذى سكنها ، وقد وضع لهذه المجموعة اسم quaternary وهى تبدأ بعصر البلستوسين وتنتهى حينما تراجع الخط الجليدى الى الدائرة القطبية

أما الحلقة الثانية فقد بدأت (على قول العلماء) بعد ذلك بنحو عشرة أو اثنى عشر ألف سنة ، وفى إبانها أخذت

الانسانية تظهر عظمتها الحديث ، ويبدأ الانسان باعداد نفسه بعقل مواهبه وقواه الفكرية ، ليغزو العالم ويسيطر على عرشه الذي قد أعده الله له .

أما عصر البليوسين وهو الذي يقع في الجانب الآخر من هذا الفاصل فهو الرابع والأخير لمجموعة تتكون إحدى حلقات السلسلة التي تكلمنا عنها ، وهذه المجموعة هي التي أطلق عليها العلماء اسم Tertiary .

وأما الحلقة الثالثة وهي عصر الميوسين Miocene فانها تشمل مدة أطول من مدة عصر البليوسين . ولما كانت الطبقات التي تدل عليه وتحمل آثاره يبلغ سمكها ٩٠٠٠ قدم ، بينما طبقات البليوسين لم تتجاوز ٥٠٠٠ قدم ، واذا كنا قد قدرنا عمراً لعصر البليوسين مقداره ٢٥٠ ألف سنة بالنسبة إلى سمك طبقاته ، فاننا لا نغالي إذا قدرنا لهذا العصر من العمر ٤٥٠ ألف سنة .

وأما ثاني حلقات عصر الـ Tertiary وهو الأوليجوسين فانها تعمر عصراً أطول من سابقيها ، وقد بلغ سمك طبقاتها ١٢ ألف قدم ، ولذلك فانه لا يسعنا أن نقدر لها عمراً أقل من ٦٠٠ ألف سنة .

نصل بعد ذلك إلى أولى وأقدم حلقات هذا العصر وهى الأيوسين ونقدر لها عمراً ٦٠٠ ألف سنة أخرى وذلك بالنسبة إلى سمك طبقاتها التي تساوى أو تقارب سمك الحلقة السابقة .

وهذه هي الحلقات التي يتكون منها العصر المسمى Tertiary وهي في الدرجة الأولى من الأهمية في تطور الانسان . إذ أنها تشمل فجر نشوء الحيوانات آكلة الخضروات ، وهي التي ترضع صغارها ، وهي كلها من ذوات الرحم عدا أنواع قلائل عكن استثناؤها . وفي فجر هذا العصر بدأت ذوات الثدى في تغيير شكلها وتكوينها تغيراً كبيراً ، وتغلبت في تنازعها البقاء والصلاحية على باقي الحيوانات الزاحفة القديمة .

ولما كان الانسان من ذوات الثدى ، فان من العبث أن ننتقل إلى عصر آخر أقدم من هذا لنبحث عن نشأة الانسان ، لأن العصر الذي يلى ذلك لا يشمل إلا كل زاحف ، ومن الشكل (٨) نرى أن العصر الثاني وهو الشامل لعصر ذوات الثدى عند لفترة طويلة جداً قد يبلغ مقدارها نحو ٦ ملايين سنة كما يقول العلماء ، وإني لا أريد أن يتبادر إلى ذهنك أنه عند الحد الفاصل بين العصرين قد حلت ذوات الثدى محل الزواحف دفعة

واحدة ، أو أن الأخيرة صارت من الأولى بتغيير سريع فجائى ، لأن هذا التغير يلزمه وقت طويل مع بطء وتدرج ، وقد وجد من حفائر العلماء في طبقات العصر الثاني آثار لزواحف كانت قد أخذت تتغير وتتطور من شكلها وتكوينها كى تتناسب مع الوسط الذى كانت ستعيش فيه ، وهو وسط ذوات الثدى ولتصير إحداها ، وأن هذه الزواحف قد أخذت تتغير وتتشكل حتى نهاية هذا العصر واتسمت بسمات خاصة منها في أوائل عصر الايوسين

ولست أرى أنه ضرورة لأن أتعمق أكثر من هذا إلى العصر الجيولوجي الأول حيث تظهر قوة التطور في الأسماك والحيوانات البحرية حتى أمكنها أن تغير من شكلها في أواخره وتستطيع العيش على البر كما تعيش في البحر فأطلق عليها اسم Amphibians برمائية .

والآن وقد تكلمنا عن العصور الجيولوجية وأعطيناك من المعلومات عنها ما فيه الكفاية ، نعود بك إلى بحثنا الأصلي وهو أصل الانسان .

عندما تتبعنا آثار الانسان القديم في الطبقات الجيولوجية القديمة في شرقي إيجليا أمكننا الوصول والتعمق بأبحاثنا إلى ما نريد بواسطة ما قد وجدناه من آثاره وأدواته الصخرية المتحجرة إلى وسط عصر البليوسين ، وقد توصلنا بعد ذلك إلى الكشف عن بقايا مخلوق آخر أسميناه إنسان جاوه واعتبرناه أنموذجاً للكائن الذي كان يسكن هاته الجزيرة في ذلك العصر . وعرفنا أنه كان شبيهاً بالقردة في شكل الجمجمة فقيراً إلى تلافيف المخ ، قليل الادراك والتفكير ، لكننا مع ذلك عرفنا أنه كان إنساناً في مشيته واعتدال قامته .

ولذلك كان واضحاً جلياً أن يعمد العلماء إلى التعمق في بحثهم في عصر أقدم من ذلك العصر بكثير حين تطور الانسان شكلاً وعقلاً من جمال القردة ، ومع أنه لم يوجد أي أثر لهذه الحلقة في التطور الانساني في أي طبقة من طبقات الأرض ، وذلك ما جعل العلماء في حيرة من أمرها ، فقد وجد في الطبقات الأولى من عصر البليوسين ما ساعدهم على كشف سر هذا التطور والوصول إلى حلقتهم المفقودة .

يتبع

نعيم على راغب



مؤتمر الكتاب السوفييت

وسير الأدب الروسي الحديث

عقد أخيراً مؤتمر الكتاب السوفيتيين (الروسيين البلاشفة) في موسكو ، فشهده زهاء سبعمائة كاتب من مختلف الجمهوريات السوفيتية مثل : اليوكرين ، والقوقاز ، وبلاد الكرج ، والتركمان ، والقرغيز ، ثم روسيا ذاتها ؛ وهم يمثلون اثنتين وخمسين أمة مختلفة هي أمم الاتحاد السوفيتي ، واثنتين وخمسين لغة وآدابا مختلفة ؛ وشهده أيضاً جمهور كبير من كتاب الأمم الأخرى والصحفيين من مختلف البلدان ؛ وألقى أعلام الأدب الروسي المعاصر مثل جوركي ، وبوخارين ، وإيفانوف ، وبابل ، واربنبورج ، واسكندر تولستوي ، خطباً ضافية في وصف الروح الجديدة التي تسيطر على التفكير الروسي ، وهي روح الحقيقة الإشتراكية . وخطب في جمهور الشباب الذين شهدوا المؤتمر الكاتب الفنان أوليشا ، فتساءل عن الجيل الروسي الجديد ماهو ؟ وماذا يغلب في توجيهه ، أهي العاطفة أم العقل ؟ وهل هو حساس يفيض حناناً ودمعاً ؟ وماذا يشعر نحو المجتمع الاشتراكي الذي خلقه ورعاه ؟ وكان من المناظر الشائقة أن خطبت صبية سيبيرية في الرابعة عشرة من عمرها ؛ فتحدثت عن أماني الشباب نحو الأدب ، وطالبت الكتاب الروس بمضاعفة نشاطهم في إخراج الكتب التي يحتاج اليها الشباب ، ثم نوهت بما يلاقي الأطفال من رعاية في روسيا ، وبأنهم ينعمون بما لا ينعم به الأطفال في أي بلاد أخرى من بلاد العالم .

وقد ساد في المؤتمر على ما يصفه كاتب مشاهد ، جو من الحرية والصراحة والاخلاص قلما يبدو في المؤتمرات العامة ، وألقيت فيه الآراء المضمرة والظاهرة بحرية لم يحدها شيء ؛ ولم يحجم الكتاب الضيوف عن إبداء آرائهم بمنتهى الصراحة ؛ وتولى الرد عليهم أقطاب التفكير البلشفي مثل بوخارين وكارل رادك ؛ وكان الجدل برغم احتدامه يطبعه كثير من الصراحة والولاء .

ونقول بهذه المناسبة إن الفن والآداب الروسية لم تتأثر بالموجة البلشفية الهدامة بل ازدهرت في عهد الحكم السوفيتي ، وعني البلاشفة دائماً برعايتها وتشجيعها . ذلك لأن أقطاب البلاشفة كانوا كتاباً وأدباء قبل كل شيء . والاشتراكية تقوم على توجيه الفكر وتغذيته بالأدب والفن ؛ وفي روسيا الآن نهضة أدبية وفنية تضارع أعظم النهضات المماثلة في البلاد الأخرى . ويرجع فجر النهضة الأدبية الروسية المعاصرة منذ سنة ١٩١٩ بعد أن خمدت الحركة الأدبية مدى عامين كانت روسيا تضطرم فيها بنار الثورة والحرب الأهليـــة . وظهرت الروايات والقصص الأولى المطبوعة بروح الاشتراكية سنة ١٩٢٠ ؛ وبدأ الكتاب القدماء باتخاذ أساليب وصور جديدة تناسب الروح والأحوال الجديدة . وفي وسعك أن تتبع مراحل البلشفية والمجتمع الجديد خلال الكتب . ففي المرحلة الأولى كانت المبادئ الثورية والاقتصادية الجديدة تطبع الأدب بطابع عميق ؛ ولما تطورت البلشفية ، وأبيحت الملكية الخاصة في حدود معينة ، وظهر مجتمع « بورجوازي » جديد ، ظهرت الميول « البورجوازية » مرة أخرى في الأدب الروسي ولكن بصورة مخففة . ونشبت هنا معركة بين الأدب الشيوعي المتطرف ، والأدب المعتدل ، وعاونت الحكومة دعاة التطرف في هذه المعركة ؛ وسيطر الجناح الشيوعي على التوجيه الأدبي ، وعاق بذلك تقدم الحركة الأدبية . ولكن مهمة الجناح الشيوعي الأدبيـــة انتهت بتغلب السياسة الاقتصادية الجديدة . وفي ابريل سنة ١٩٣٢ أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي حل جميع الجمعيات الأدبية ، ومنها جماعة الحزب نفسه ؛ وأعلنت إنشاء هيئة واحدة تضم كتاب الاتحاد السوفيتي جميعاً ؛ واستمرت الهيئة الجديدة في طور الانشاء مدى عامين ؛ وهذا المؤتمر هو أول مؤتمراتها .

الناعق ضد الحمى الصفراء

اكتشاف طبي جليل

قدمت أخيراً إلى أكاديمية العلوم الفرنسية مذكرة باكتشاف طبي خطير ، هو مصل جديد لمقاومة الحمى الصفراء . والحمى الصفراء من الأمراض الوبائية التي تجتاح المناطق الحارة في

أفريقية وأمريكا الجنوبية ، وتحدث من لدغ البعوض الذي يحمل ميكروبها ، وهو المعروف في اللغة العلمية Stegomuya fasciata وقد وفق إلى هذا الاكتشاف الجليل الدكتور ليجريه من أطباء معهد باستور في تونس ، والدكتور ستيلاردس الأمريكي ، ومذ اكتشف البعوض الذي يحمل الميكروب كانت مقاومة الحمى الصفراء تجري بواسطة اتلافه في المدن الاستوائية الكبرى مثل ريودي جانيرو وهافانا وثغور أفريقية الغربية ، ولكنه كان في الداخل يعصف بالسكان شر عصف . فعكف العالمان المذكوران على إجراء البحث لاكتشاف مصل يفيد في المناعة ضد الميكروب ويقي الانسان نهائياً شر هذا البعوض الفتاك ، وتوصلا إلى اكتشافه عن طريق القرد والجرذ . ذلك أن ميكروب هذا البعوض لا تمكن رؤيته بالميكروسكوب ؛ وهو شديد الفتك بالقردة ، ولكنه لا يؤذي الجرذان إلا إذا كانت الاصابة في المخ ، فتشتد بتحول قمل الميكروب ويغدو شديد الفتك بها ؛ وقد لقح العالمان المذكوران الجرذ في المخ بدم البعوض ، ثم استخرجا « الفيروس » (الميكروب) من الجرذ ولقحا به القردة فلم يؤثر فيها . ومن هنا نشأت فكرة المصل الواقي ، وقد لقي الدكتور ليجريه صعاباً كثيرة ، ومنع من إجراء تجاربه في النشر في معهد باستور ؛ ولكنه استطاع أن يجربها في ثلاثة من التونسيين تطوعوا لذلك ؛ فجاءت النتائج المملة تؤيد اكتشافه . فانتقل إلى أفريقية الغربية ، وفاوض السلطات في دكار حتى سمحت له بتلقيح ثلاثة آلاف أوربي بالمصل الجديد ، وكانت النتيجة باهرة ، لأن الفين لم يحدث لهم شيء ، وأصيب الألف الباقي بشيء من رد الفعل والحمى اليسيرة ؛ وكانت مناعة الذين لقحوا تامة ضد البعوض المعدي ؛ وتأيدت بذلك صحة الاكتشاف وخطورته ، وقدم بذلك مذكرة إلى أكاديمية العلوم لتوجه بصفة رسمية .

ويجري اللقاح المذكور على ثلاث دفعات بين كل منها عشرون يوماً ، وتؤخذ مادته من ميكروب الجرذان الحي ، ويمكن تجفيفه وتصديره إلى الجهات الحارة دون أن يفقد خواصه .

ولا ريب أن سيكون لهذا الاكتشاف أثر عظيم في مكافحة الحمى الصفراء وانقاذ الملايين من فتكها الذريع .

مؤرخ مسرحي

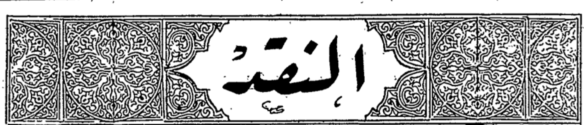
توفي في أوائل هذا الشهر أديب ومؤرخ فرنسي كبير هو فيلكس جاف ؛ أستاذ الآداب بالسوربون ، وكان مولده في سنة ١٨٧٤ ، وقد بدأ بتدريس النحو وفقه اللغة في السوربون ؛ ولكنه شغف بالموسيقى والمسرح والفن ؛ وعني عناية خاصة بدرس تاريخ الفن والمسرح ؛ وأصدر في سنة ١٩١٠ أول كتاب جامع عن « الدرامة » ، وعنوانه « الدرامة في فرنسا » Drame en France ؛ ثم أصدر كتاباً عن « التناقضات في عصر لويس الرابع عشر » وشغل كرسي « تاريخ الأدب المسرحي » في كلية باريس أعواماً طويلة ، وكان حجة في كل ما يتعلق بهذا النوع من الأدب .

ذكرى أناتول فرانس

كان يوم ١٢ أكتوبر الجاري هو الذكرى العاشرة لوفاة كاتب فرنسا الأكبر أناتول فرانس . وبهذه المناسبة عنيت جمعية تخليد ذكرى أناتول فرانس التي يرأسها الكاتب الكبير جول رومان بوضع لوحة تذكارية في قرية بشيليري التي قضى فيها فرانس أعوامه العشرة الأخيرة ، وتوفي في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، واحتفل بوضع هذه اللوحة في جمع حافل من أصدقاء الكاتب الكبير والمعجبين به . وهي خطوة من خطوات تزمع الجمعية اتخاذها لتخليد ذكراه .

قبر سيرانو دي برجراك

للفرنسيين ولع شديد باكتشاف قبور عظمائهم التي طمست وغمرها النسيان ، وفي فرنسا جمعيات أثرية كثيرة تعنى بالعمل في هذا السبيل ، ومنذ أعوام قلائل استطاعت إحدى هذه الجمعيات أن تعثر بقبر الفيلسوف فولتير ورفاته تحت أقبية الكنيسة التي تذكر الرواية أنه دفن بها . ومنذ أشهر اكتشفت جمعية أخرى قبر الشاعر رونسار في بلدته التي دفن بها ؛ وقد قرأنا أخيراً أن جماعة أثرية أخرى تعنى باكتشاف قبر « سيرانو دي برجراك » وهو السيد الذي خلد روستان اسمه في روايته الشهيرة . والمعروف أن سيرانو حينما اشتد عليه المرض غادر باريس في سنة ١٦٦٥ إلى بلدته الأصلية « سانوا » ومات هنالك ، ولا زال اسمه مسجلاً في دفتر الوفيات بكنيسة القرية المذكورة . وقد أجريت مباحث في السهل الذي يوصف بأنه دفن فيه في ظاهر القرية ، واكتشف بالفعل هيكل عظمي ظن بادئ بدء أنه هيكل سيرانو ؛ ولكن ظهر من فحصه أن عظامه دقيقة كأنما هي عظام امرأة أو فتى لم يكتمل أطوار النمو . ولكن الباحثين لم ييأسوا ، ولا زال البحث يجري لاكتشاف رفات سيرانو ذي الأنف الضخم .



٢ - أصدقائى الشعراء !

هذا لا يؤدى

بقلم معاوية محمد نور

وعندى أن السر فى أن شعر على محمود طه المهندس قد نال شيئاً من التقدير والثناء مرجعه لأجادة الصنعة والصقل ، ولو أن مواده هى الأخرى تافهة بدائية المعنى ، غير صادقة ، يعوزها الشعور الفردى القوى ، والنظر الأصيل الواحد .

ثم لأن العرف الدارج والعقل الشعبى قد تعود أن يقرن الشعر بمظاهر الطبيعة المعروفة . فيقول الناس عن ليلة مقمرة : إنها ليلة شعرية ، أو عن روضة فيحاء : إنها تبعث على النشوة والسرور ، وإنهما لكذلك . غير أن الشاعر الذى لا يتعدى فى نغمه ووعيه الشعرى سوى ترديد ما تواضع عليه الناس وأقروا به ، إنما يدل على أن المحاكاة والتقليد والعرف الدارج هى أميز خواص فكره ، وأخص ميادين لعبه الفكرى .

وعلى محمود طه يكتب عن الطبيعة ويستوحى النهر والبحر والغدير والقمر والأشباح والرياض والشفق ، ويفهم أن « الطبيعة » التى يجدر بأن تنظم شعراً هى الطبيعة فى أضخم مظاهرها وأعظمها ، وأوقعها فى الحس ، وأشدها رائحة ، وأهولها منظراً ؛ وهو لا يفهم هذا الفهم ويتجه اليه لأن مزاجه هكذا ، ولكن لأن هذه الأشياء قد كثرت فى الشعر وأصبحت معروفة معترفاً بها على أنها تصلح موضوعاً للشعر ، ولو لم يحس الأديب تجاهها بأى شعور غريب أو نظر حديث .

وبديهى أن الشاعر المعاصر الذى لا يلتفت فى عالم الطبيعة إلا الى المظاهر التى التفت اليها خلافه من عهد آدم ، يدل أولاً على أن تقدمه الذهنى وقف هناك ، وأن وعيه الفنى لم يتطور ؛ ففى الطبيعة خلاف البحر الذى يقف عنده القروى ، وفى الطبيعة خلاف الشواطئ التى تقف عندها سفن البحارة ؛ أشياء أخرى أدق وربما كانت ألصق بحياتنا وأجدر بالتفات الشاعر . فالحجر الصلد الذى يقف فى طريقك ، و « الشارع » الذى تصقله مصلحة التنظيم حيث يعمل جماعة المهندسين ، والفأر الهارب من سفينة خربة ، والذباب الذى يطن على جيفة عفنة ، وقطعة الحديد التى أكلها الصدأ ، والخشب الذى نأكل عليه ، والزرع الذى نلبسه ثياباً ، والعصفور الوحيد الذى ينتقل من بيت لآخر ، والنمل ، والنحل ، وصوت الباخرة ، وضجيج الترام ، وخلافها من المظاهر التى نراها ونسمعها فى غدونا ورواحنا هى أجزاء حية فى الطبيعة ، والالتفات اليها فى وضع جديد أتى به نظام حياتنا الراهنة وحضارتنا المعاصرة ، لأدل على فهم الطبيعة من آلاف القصائد عن البحر والشفق والنجوم ! .

ويجب ألا يفهم من هذا أننا ننكر على الشاعر أن يعنى بمظاهر الطبيعة الكبرى ، البدائية الجميلة أو المتوحشة ، ولكن هنا يقل الابداع ، ولا يسلم الشاعر من الاسفاف والتفاهة ، إلا اذا كان عميلاقاً عظيم النظر فريد الشاعرية ؛ كما أننا لا ننكر الالتفات الى « المظاهر الرومانتيكية » التى يولع بها المهندس ، ولكن هذا الالتفات وهذه المنابة « بالربيعيات » يسهل فيه الغش ، وتندر به الاجادة والتفرد ؛ وهو أقرب طريق يلجه الأديب القليل الحيلة ، المقلد الأسلوب ، الذى لا تميزه شارة ، ولا يستشف فى تكوينه إصالة نظر أو عمق تفكير .

وكثير من شعراء أوربا المعاصرين اقتربوا من الموضوعات الرومانتيكية بأسلوب جديد ، فبدلاً من الحديث عن سحرها وخوفها وهولها ، تراهم يحاولون تفسيرها والنظر اليها من خلال شعور وعقلية رأت وسمعت وقرأت ما يجعلها تنظر الى هذا الجمال والهول والخوف من زوايا جديدة ليس فيها ذلك الجهل الناطق .

فان كل شيء لا يعرفه الانسان يبدو له سراً تحار فيه الأذهان، ولو كان من أبسط البسائط!

فالقروي الذي يزور القاهرة لأول مرة ويشاهد «المصعد الكهربائي» لا يمكنه إلا أن يذكر الله والأسرار، وتتملكه الحيرة والعجب، فاذا حاول مثل هذا الرجل أن ينظم قصيدة عن «المصعد» فقد تروق لأمثاله الذين لا يعرفون الميكانيكيات «وقوانين الطبيعيات». ولكن القارئ المتحضر لا يستطيع قراءة قصيدة تنسب الى هذا المصعد أهوال الجن وعمل الشياطين!

فالثقافة ووعي العصر الذي نعيش فيه لابد منهما لأي فنان يكتب ليقرأه الجيل الذي يعيش بينه، وذلك لأن الشاعر المصري المعاصر لا يعيش في «شبرا» أو «ديوان حكومي»، ولكنه قبل ذلك إنسان حي يعيش في كل العالم، ويحس بعض ما يدفع بالنفوس الآدمية الى مناجاة النفس مثلاً في روسيا، أو الحركة والعمل في أسبانيا واليابان. والذي يستطيع أن يرى في شارع عماد الدين مثلاً وجوهاً وأجساماً وثياباً وآلات كاملة الصنعة مصقولة المظهر، يخبر مظهرها عن السكون والاطمئنان، غير أنها تفتح عوالم داخلية مروعة. وبالاختصار فان الفنان الذي لم يحس بقبس أو لمحة أو ناحية من «تيار وعي Stream of consciousness» كامل يمكنه من رؤية التشابه في أشياء، ومظاهر بادية الاختلاف، أو بالعناصر والقوى والفكر التي تذهب جميعاً لإخراج فكرة أو مظهر عادي مما نراه في حياتنا اليومية؛ ليس لديه تلك الملكة الشاعرة التي تستطيع أن تبني القصور من الرماد والهواء، أو تحلل السيارة الجيدة الصنع، الجميلة المظهر الى عناصر حلم وغفوة إنسان وعصب حيوان، أو فقرات مادة تنبجانية وجرح عامل فقير، ليس له ذلك الاحساس النافذ القدير على التكوين والتحليل، الذي يجبر القارئ على الانصات له والاستماع لنغمة الشعري.

وإني لأعجب كيف يعجب أي قارئ له حظ من الثقافة ودقة الحس بكلام مثل هذا:

رب ليل مر أمضيناه ضماً وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمراً تتساقى
في طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه، وصفا الجو وراقا

فاذا كان هنالك حب وضم وعناق، وزهر وبدر وجو رائق، فالانسان العادي ليس به حاجة ليحس بنشوة آدمية حسية من غير أن ينظم له هذا الكلام شعراً. وإن أي افريقي في أدغال أفريقيا، حينما يصفو الجو، وينمو الزهر، ويشرق البدر، ويحب امرأة يستطيع أن يقول هذا الكلام.

وعند علي محمود طه أيضاً شعور غير محمود بأنه شاعر، ذلك لأنه قد ضم كل الشعريات وأحصاها في ديوانه. فقصيدة ميلاد شاعر مثلاً كلها تمجيد لهذا الرجل الذي يحسب نفسه شاعراً، لأن لفظة الشعر والشاعر والزهور والألحان تكثر في كلامه.

والرجل الذي يستطيع أن يكتب — بعد معرفتنا الحاضرة وشعورنا المحدود الذي أتاحه لنا العلم والبحث العصري مثل هذه الأبيات الآتية، إنما أحسده لبساطته التي لا تحسد.

وتجلى الصدى الهتوف الساحر في محيط من الأشعة غامر
وسكون يبث في الكون روعاً وقفت عنده الليالي الدوائر (كذا)
واستكان الوجود والتفت الدهر وأصغت الى صداه المقادر (كذا)

وقد يتورط محمود طه في غرامه «بالشعريات» برسمه صوراً مضحكة إذا لم تكن مستحيلة كقوله:

ماؤه ذوب خمرة وسناه شمس وريا ورد وألحان طائر

وعنده اذا لم يجعل هذا الماء ذوب خمر وسناه شمس وريا ورد وألحان طائر في آن واحد فهو ليس بشاعر. وأي منطق يستطيع أن يفهم شيئاً يكون سناً شمس محرقة، وريا ورد، ثم يكون في نفس الوقت صوت طائر؟! اللهم إن هذا خلط قبيح لا ارضاه لصديقنا الشاعر.

وليس أدل على فهم شاعرنا لطبيعة الشعر من قوله في رثاء شاعر:

وهو شعر صورت ألوانه بهجة الفجر وأحزان الشفق
ونشيد مثلت ألحانه همسات النجم في أذن الغسق.

وفي قصيدة «الله والشاعر» بساطة مؤلمة في أن يأمر أديب الأرض بأن:

مدي لعينيه الرحاب الفساح ورقرقي الأضواء في جفنه
وامسكي يا أرض عصف الرياح والراعد المغضب في أذنه

فهذا كلام لا يشرف أي طالب في مدرسة ثانوية، فضلا عن شاعر عصري. والقصيدة ملأى بهذه الأشياء التي تواضع

البسطاء على أنها الطبيعة التي لا طبيعة غيرها .

من نهر دافق سلسبيل تهفو القمارى حول شاديه
فى ضفتيه باسقات النخيل ترعى الشياه تحتها غانيه

فاذا كان هذا النهر ملحاً مثلا ، وكانت هنالك ضفادع على حوافيه ، وأحجار تدمى الأقدام بدلا من النخيل ، فليس هنالك طبيعة تجدر بالشاعر والشعر ! :

حتى إذا شارف ظل الشجر فى روضة غناء ريا الأديم
قد ضحكت للنور فيها الزهر وصفقت أوراقها للنسيم

فهذا الشاعر لا يكفيه أن تكون هنالك روضة غناء ريا الأديم ولكن لا بد أن يضحك الزهر ويصفق النسيم لأول مرة !

أما المسائل الفكرية التي أثارها الشاعر فى حواره مع الله فهي أول ما يقرأ الطالب فى العلوم الدينية فى باب القضاء والقدر . إن مسألة الألم والشر لا يعالجها فنان عارف بمثل هذه البساطة

وفى قصيدة «قيثارتى» مثل قوى لهذه النزعة نحو «الشعريات» التي حاولنا إيضاحها ، وهذه هي أواخر الأبيات من غير تحوير ولا مبالغة ، ولو أنها أشبه بالمبالغة والتحوير :

الغور والآكام . الشعر والالهام . مودتى وذمامى — قديم هيامى . قلبى الدامى . دمعى الهامى . حبيسة الأنغام .

إن مثل هذا الشعر ليوحى الى القارىء الدقيق الحس كراهة الآكام والزهور والبحار والأنغام وما إليها لهذه النغمة المبتذلة الكثيرة التكرار ، التي لا تحس معها بواقعة حال صحيحة ، أو شعور نضر مباشر !

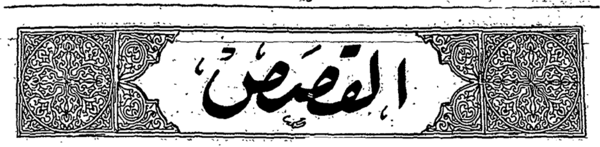
وإنما أتينا بهذه الاستشهادات لندل القارىء على أننا لا نتعسف ، وإلا فان الديوان كله يصح أن يستشهد به ، فما يخرج فى ألفاظه ومعانيه عن هذه الألفاظ والأمثلة والمعانى .

وقد كنا نظن أن أصدقاءنا من الجيل الجديد الذين يشتغلون بالشعر ، يفهمون الشعر على حقيقته ، وأنه ليس ألفاظاً ومبالغات عن عالم الطبيعة والزهر والحب وما اليه من الألفاظ والأخيلة التي يسهل على أي يد تحرك القلم أن تأتي بها .

***

أصدقائى الشعراء ، أقولها لكم مخلصاً : إن هذا عبث قبيح بالكبار . وأقبح ما فيه أن يأتى من جيل جديد له دعوى كبيرة نسمع عنها فى الصحف ، وهو على هذا التخلف المعيب فى فهم الفنون والحياة . ولو أننا رأينا الاتجاه صحيحاً ، وأن الطريق الذى تسلكونه مهما كانت النظرة زائغة والنغم غير منسجم لتساهلنا ، وكانت معالجتنا للموضوع غير هذه ، غير أن الطريق من أوله خاطىء ، وأن الفهم من أساسه غير صحيح ، وأن هذا الطريق لا يؤدى أبداً ، وأن الشيء الذى نسميه شعراً هو خلاف هذا فى جملته وتفصيله ، فمن شاء منكم فليرجع الى نفسه يحاسبها ، وينظر من جديد ، ويقرأ ما يقول خلافه من الشعراء الفحول ، وخاصة المعاصرين فى أوروبا ليرى فى أى طريق تسير الأقدام ، وأى عوالم يكتشف الفنان المعاصر ، وأى المسائل يبحث النقاد ، وأى «وعى فنى» يجدر بالفنان الحى الذى يعيش فى عالم الأحياء الشاعرين .

معاوية نور



الأم الثانية

للأستاذ محمد سعيد العريان

كم كان نجيب أفندي وفياً لزوجه براً بأسرته! إنه لم يكن يسمح لنفسه أن يقضي خارج البيت قليلاً من الوقت لغير عمل؛ فأين تلتمسه لا تجده إلا في الديوان أو في البيت؛ وفي فترات قليلة كان يجلس إلى أصحابه في النادي يستمع إليهم ويستمعون إليه، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على الموعد الذي حدده لعودته إلى حيث يجد في الأنس بزوجه وولده ما لا يجد جزءاً منه في مكان آخر. لقد كان من طراز غير طراز هؤلاء الكثرة من الرجال الذين لا يعرفون البيت إلا كما يعرفون الفندق أو المطعم؛ ولا يفهمون من واجبات الأسرة إلا كما يفهم المدين ألح عليه دائنه، ولا من حقوق الزوجة إلا ما تلهمه الغريزة، ولا من بر الوالد أكثر مما يفهم مدير ملجأ اليتامى!!

ولم يكن يعجب لشيء أو يرثي لأحد عجبه ورثاءه لهؤلاء الذين لا ينفكون يصرحون بالشكوى والألم من متاعب الزوجية وقيود الزواج؛ بل لقد كان يسيء الظن بهؤلاء الشاكين ويرميهم بالحمق وسوء التدبير في سياسة بيوتهم أكثر مما يرثي لهم ويعجب.

ولكن هذه السعادة التي كانت تشرق عليه بالبشر والإيناس، وتغمر صدره بالبهجة وحب الحياة — لم تلبث أن زالت؛ وتبدل البيت من أنسه وحشة، وتحولت ضحكات المرح والمسرة فيه إلى همسات حزينة باكية، وخيم الظلام الوحش الرهيب.. لقد ماتت زوجه..!

من لهذين الصغيرين يرعاها ببره، ويسبغ عليهما من عطفه وحنانه ما يعوض عليهما بعض ما فقداه من بر الأم وحنانها؟ من لهذه الصغيرة (كريمة) يرتب شعرها ويغني لها في الصباح تلك الأغنية الجميلة التي كانت تدللها بها أمها وهي توقظها في رفق لتذهب مبكرة إلى المدرسة الإلزامية القريبة.. ومن للصغير (صلاح) وما تزال الأرض تجاذبه فما يمشي خطوات إلا معتمداً على الحائط، ثم يتم مسيره حبواً على أربع؟ من ذا يقطف من ثغره الزهرة الناضرة حين يبتسم، ويطبع على خده القبلة الناعمة حين يبكي؟ بل من ذا يجيبه حين يحرك شفتيه بالكلمة العزيزة التي لا يعرف غيرها: «أمي!» وقد ماتت أمه. ومن ذا يعوض على نجيب زوجه التي فقد بفقدها نضارة عيشه، وبهجة حياته، وأنس أليفه، وأم ولديه..؟ إنه ما يزال يذكر ذلك الحديث القصير بينه وبين كريمته غداة حملوا أمها إلى حيث لا تراها، فتسأله:

— أبي، أين أمي؟

— أمك عند أبيها يا كريمة.

— لقد كنت أظنها عند الطبيب، وأين أبوها؟ إنني لا أعرف بيته.

— أبوها هناك.. في مكان بعيد لا تعرفينه ولا أريد أن تعرفيه..

— ولماذا لم تأخذني معها، لقد غابت كثيراً فمتى تعود؟!

وأخفى الرجل دمعة تتحدر على خده، وأطبق فمه أن تفلت منه زفرة محبوسة؛ وقام يستحث الخادم على إعداد الطعام..

لقد ترك هذا الحديث في نفس نجيب أثراً عميقاً كان عسيراً عليه أن ينساه، وكان أليماً أن يذكره؛ وكلما أحس أن ابنته توشك أن تعود إلى مثله أسرع يقص عليها حكاية مسلية، أو يروي نادرة مضحكة ليصرفها عن الحديث..

وأنس الصغيران إلى أبيهما، ومرت يد الزمن رفيقة على رأسيهما فمحت منهما تلك الذكريات عن صاحبة الوجه الجميل التي كانا يدعوانها «أمهما» إلى قريب. ولكن هذا الزمن لم يستطع بأيامه ولياليه أن يمحو هذه الذكريات وذكريات أخرى عزيزة كان يحتفظ بها نجيب أثراً من ماضيه السعيد.

وكلما مرت الأيام أحس نجيب بالوحشة والفراغ من حوله، وعاد يستذكر الماضي بما فيه، ويقلب حوله عيناً حزينة لا تقع على أثر من آثار ذلك الماضي إلا عادت ملأى بالدموع.. ومضت خمس سنين وهو يعيش في هذا البيت عزباً يرعى ولديه، ويقوم بأمرها

قيام الأم والأب ، تعاونه خادم صغيرة على إعداد الطعام وتنظيف البيت وقضاء حاجات الصغيرين . .

* * *

وأتمت كريمة دراستها الأولية والتحقت بمدرسة ابتدائية قريبة من الحي ، وأخوها يتأهب لأن يفارق معلم (الكتّاب) وعصاه إلى المدرسة ، ونجيب مايزال على عهده يشعر بالضيق من وحدته ، ويتمنى لو يستطيع أن يظفر بزوج تعمر هذه الدار الموحشة ، وتعيد إليها بهجة فقدتها منذ عهد طويل ، بل تشرق بابتسامتها في وجهه العابث ، وتمهد بيدها الناعمة فراشه الخشن ، ولكنه . . . ولكنه يحب ولديه ويريد أن يؤثرهما بهذا الحب ، وهو يرى أنه ليس في الوجود إلا أم واحدة لكل مخلوق وأب واحد وقد ماتت أمهما ! وإنه ليخشى أن يفقدا في سبيل البحث لهما عن أم ثانية — أباهما الواحد ؛ يخشى أن تستأثر به زوجه فلا يكون لهما أب ولا أم .

وتعرّف إلى صديق جديد ، هو زميله في الديوان ، وتوثقت عرى الود بينهما حتى اطمأن كل منهما إلى صاحبه ، وتعاهدا على الوفاء فكانا روحاً في جسدين ، واتحدا عاطفة وإحساساً . فصارا كالشخص وخياله — يبتسمان ويقطبان في مرآة .

وعرف (إبراهيم) من حال صاحبه ما لم يعرف فنصح له أن يتزوج ، وعرض عليه أخته زوجاً له وأماً لولديه . . . ومضى شهر أن زفت بعدها (زينب) إلى نجيب ، فرأى من أدبها وإشراق طلعتها وحسن معاملتها لولديه — ما أعاد إليه بهجة الشباب . وكأنما تناول القدر مقصاً قطع به ذلك الجزء الباقي من صور الماضي القريب ليصل عهدين كلاهما له من السرور رونق ورواء .

وعاد إليه أنسه ، واطمأنت نفسه ، واسترْوح نسيم السعادة وتفيأ ظل الاستقرار ، ومضت أشهر .

وقالت له زوجه : « البيت مدرسة الفتاة ، فهلا احتجزنا كريمة عن مدرستها تعرف من شئون البيت ما عرفت من فنون العلم ، وتجيد في الطهي ورفو الثياب ما تجيد من القراءة ومداعبة القلم ؟

وتريث نجيب قليلاً ثم سمع لكلام زوجه ؛ وبقيت كريمة من اليوم التالي في البيت تستمع إلى دروس جديدة من فن تدبير المنزل ، وعرفت كيف تدير الملعقة في القدر ، وكيف تقشر البصل وكيف تغسل الأطباق وترتبها على المائدة في نظام جميل . وكانت تفرح حين تكلفها (أمها) إعداد شيء ، أو تطلب إليها مرافقة الخادم إلى السوق لقضاء حاجة ، ولم يكن يسوءها شيء أكثر مما تسوءها سرعة اتساخ ملابسها الزاهية ؛ لأنها كانت تغسلها بنفسها . وخرجت الخادم مرة فلم تعد ؛ لأن زينب طردتها .

وقالت لزوجها :

— إن هؤلاء الخادمات لا يحسنّ القيام بشيء غير طلب الأجر ، وأكثرهن لا يعرف الأمانة ولا يشكر النعمة ؛ فلا تتعجل في اختيار أخرى قد تكون شراً من سابقتها ، وسأبحث على مهل عن خادم أمينة لا تضايقنا ما كانت تضايقنا تلك الفتاة اللعوب . . . وأسند عمل الخادم مؤقتاً إلى كريمة ، ولكن هذا التوقيت لم يكن إلى نهاية . . . ! فلم تعد تلك الفتاة الناضرة التي كانت ، وانطفأ بريق عينيها ، وذبل خداها ، وعلت وجهها غبرة من الحزن كانت تواريه عن أبيها . . . وأخذت تعود إلى

رأسها الصغير ذكريات بعيدة مشرقة ؛ تبدو خلف ضباب البعد في فتنة الخيال — ذكريات عن أم أخرى رفيقة كانت دائماً تبتسم في وجهها ، وكثيراً ما كانت تحتضنها الى صدرها وتقبلها وتعنى بنظافتها وراحتها ؛ فتصنع لها اللعب وتشاركها اللعب بها ؛ وكانت إذا جاء المساء تروح تحدثها حديثاً عذباً ، وتقص عليها حكايات لا تزال تذكر بعضها ، فاذا جاء وقت النوم احتوتها بين ذراعيها ، ثم لا تستيقظ في الصباح إلا على نغمات من صوتها الندى الرقيق . أين ذهبت تلك الأم فلم تعد ، ومن هذه الأخرى ؟ لقد كانت أمها الأولى أرحب صدراً وأوسع عطفاً وأكثر حناناً ! وابتدأت الفتاة تتبرم بما تؤديه من عمل ، وابتدأت زينب تشكوها الى أبيها . وأول مرة سمعتها كريمة من بعيد تحدث أباها عنها ذهبت الى غرفتها وجلست تبكي ، فلم يتسائل عنها أحد ...

ويوماً عاد صلاح من المدرسة في الصباح ، فقد طرده الضابط لقذارته ، وانهالت عليه (أمه) توبخه وتشتمه ، وتركته منزوياً في جانب من الردهة يبكي حتى عاد أبوه في الظهر ، ورفعت اليه الشكوى من (ولدها) وتجاهلت أشياء واختلقت أشياء . وغضب الوالد وهم بالولد يخنقه برفع يده ، ووقفت كريمة في الطريق :

«أبي ، ماهذا ؟ إن أخي لم يفعل ذنباً ، أمي هي التي تهمله !»

وسقطت يد الرجل بجانبه ، لقد رأى كريمة في صورة أخرى ، لكنه لم يسمع صوتها منذ زمن طويل . هذا الصوت الذي يحدثه به ، لشد ما أثار في نفسه من ألم وأعاد الى رأسه من ذكريات . ووازن بين صورتى ابنته أمس واليوم ؛ صورتها أمس في طفولتها الجميلة وهي جالسة في حجره تعبث بشاربه وتربت بيدها على خده . لقد كانت مثل زهرة تفتحت في الربيع تتألق في حسن وتفوح بعطر — وصورتها اليوم ! ماذا تلبس ؟ إنها ثياب الخادم المطرودة ... وحوّل وجهه الى ناحية أخرى فأبصر ولده منجمعاً من خوف في زاوية المكان : صلاح . ووقف الولد يرتعد ، وجذبه أبوه برفق ، وطأطأ رأسه في ذلة ، وانحدرت من عينيه دمعة : ولدي ، وتهدج صوته فأمسك عن الكلام ؛ وأحست زينب عاصفة توشك أن تنقض فانسحبت في هدوء .

لم يتحدث نجيب مع زوجه في شأن الفتاة وولديه ، فقد عرف معنى انسحابها ، وأدرك أنها فهمت ما هم أن يفعله ... وعادت الحياة في البيت مطمئنة هادئة ، فقد غيرت زينب سياستها في معاملة الولدين ، وبنى نجيب ما كان ، أو كاد .

وليلة جلسوا على المائدة للعشاء ، ومد صلاح يده يتناول قطعة من الفاكهة ، فانجذب اليه غطاء المائدة فتلف نظامها وسقط بعض الأطباق على ملابسه وملابس أخته في جواره ، وغضب أبوه ونظر اليه نظرة ، وتوقفت زينب عن الأكل لحظة تقلب بصرها في نظرات ذات معنى بين الولد وأبيه ، وتألم الولد فقام عن المائدة يدعى الشبع ، ثم نهضوا جميعاً . ولم يطل بهم السهر تلك الليلة فصحب الرجل زوجه الى النوم ، وترك الولدين يهيئان فراش نومهما في غرفتهما . ولما سكن الصوت قالت زينب :

— نجيب ! أرأيت مافعل صلاح ؟ لقد فقدت شهوتي للطعام حين رأيتك متألماً لما فعل ، ألا ترى من الخير أن يأكلا وحدهما ؟

— زينب ! اسكتى . ونهض الرجل الى الفراش ولكن لم يغمض له جفن ، لقد تعاورته أفكار مظلمة ، وأخذ يردد النظر بين حاضره وماضيه ، لقد كان للأسرة معنى يحس وجدته في قلبه فأصبح لها في مرأى عينيه معنيان ؛ في زوجه وولديه . ورجع أدراج الزمن يلاحق ذكريات عزيزة كاد يطمسها البعد الطويل ؛ ثم أخذته إغفاءة الفجر ، وخرجت له امرأته الأولى من فكره المضطرب وقلبه المتألم طيفاً نعاتبه ، وتخلت عنه حجة المعتذر ؛ وأغضى حياء من عنف تأنيب تبينه العينين ؛ ورأى ولديه يفران في رعب وفزع الى حيث يلتمسان الأمان في صدر أمهما . وابتسم

الطيف في رثاء وألم ... واستيقظ ، فارتدى ملابسه على عجل وخرج مبكراً الى الديوان .

***

ووقف ابرهيم افندي على سر صاحبه ، وآله من أخته أن تكون على ما وصف زوجها قسوة وغلظة ، ولم يخش على عشها أن ينهدم أكثر مما يخشى على ما بينه وبين صديقه من ود أن تنفصم عروته ، وينحل وثاقه ، ويعبث في عقدة الاخلاص منه إصبع الشيطان أو إصبع امرأة . ودبرا أمراً وافترقا على ميعاد في عصر ذلك اليوم دعا نجيب زوجه الى نزهة ، فركبا سيارة الى بيت أخيها حيث استودعها نجيب الى أن يعود . وأبدى ابراهيم لقدمها شعور مرتاح وهو يخفي الغيظ في صدره ، وتعلق بها أولاد أخيها يتجاذبون ثوبها في سرور ظاهر ، واستقبلتها زوجه بقبلة وداد وعناق مشتاق ؛ واستدارت بهم حلقة يتناولون من كل حديث طرفا ، ويتبادلون شتى ذكريات أمس وأنباء اليوم وآمال الغد .

منذ أشهر لم تطأ زينب عتبة هذه الدار ؛ منذ فارقتها الى بيت زوجها تعترك في رأسها أحلام ، وتصطرع في نفسها عواطف ، وتعبث بطيأنينتها رهبة ، وتتحرك في دمها غريزة امرأة ، ترى ماذا تحقق من أحلامها وما أخفق وماذا تسى إليه بعد ، وأي حاليها كانت خيراً : حالها الآن وقد أصبحت ربة بيت وصاحبة أمر وسلطان ، أم حالها أمس في تلك الغرفة من بيت أخيها ريانة شبعانة كاسية ، ثم حسبها مما وراء ذلك من سعادة العيش أحلام لا تولد إلا في الظلام فلا تعيش تحت الشمس ؟

وانتهت تأملاتها وقد زحف الظلام ولم يعد نجيب . ترى أي جليل من الأمر تلبث به وهو الوفي إذا وعد ! وهفت نفسها اليه ، وهتفت باسمه الشوق ، وتحدثت اليه النفس : متى يعود ؟ ومد الليل رواقه ولم يعد ، وراحت تتناهبها الأفكار ، وتنوشها الهواجس ، وتعبث بها مختلف الخواطر ، وذكرت موقفها من ولديه أمس وتوقيته ، وخشيت أن يكون به ألم من بعض ما فعلت يريد أن يعاقبها عليه ...

وكأن لم يكن لها عهد بالأكل على مائدة أخيها فجلست تقلب بصرها في أنواع الطعام وفي وجوه الآكلين ، لا تكاد تمد يدها أو تحرك فكيها . وقاموا عن المائدة ، ثم أوشك الليل أن ينتصف ولما يعد نجيب ... وغلبها الخوف والألم ، وهمت أن تكاشف أخاها بما في نفسها فلم تفعل ، وطوت صدرها على هم متكبر ! وقام أخوها يتثاءب فدعاها الى النوم هناك ... في الغرفة التي ودعتها منذ أشهر يوم صحت من أحلامها تستقبل الحياة التي طالما تمثلتها وتخيلت أيامها ولياليها في كنف الزوج العزيز . وسلخت ليلها لم تنم على جنب واحد ، وأقبل الصباح أقبح من ليل داج مخيف . ومضى يوم ويوم وأيام وهي تصبح وتمسي على حال واحدة ، وأحست أنها ضيف مملول . وشعرت بالوحشة تكتنفها ، واجتمعت عليها الأفكار السود ، ولم تستبن في ظلام نومها ما يضمره لها الغد ، وأيقنت بما هناك ... أترى زوجها يقدم على ذلك وهو الذي كانت تعرف من حبه إياها أنه يشق عليه أن يفارقها لحظة ، فهل يطيق أن يفارقها الى الأبد ؟ ولكنها لم تحرص على هذا الحب ، لقد كانت تطمع أن يكون لها وحدها قلبه ، وأن تستأثر بحبه من دون ولديه ، ففقدت كل شيء ولم تظفر بشيء ! !

وقال لها أخوها وقد جلسوا الطعام :

— لماذا لا تأكلين يا زينب ؟ لعلك تخجلين أن تجلسي معنا على المائدة ، فلا حرج أن تأكلي وحدك إن كان يحلو لك ذلك ؛ وتستطيعين أن تطهي طعامك بيدك إذا أحببت ألا تأكلي من طعامنا . ونظر الى زوجه ونظرت اليه . وسكتت زينب فلم تجب ، ولم تأكل أيضاً ، فقد ازدحمت في عينيها الدموع . وقامت عن المائدة فلم يلح عليها أن تجلس كما يلح على زوجه وأولاده حين يفرغون قبله من الطعام . أتراها ثقلت عليهم الى حد أن يكرهوا أن تأكل معهم من طعام واحد ؟ لقد هانت عليهم من قبل ، حين أذنوا للخادم أن تسافر لزيارة أمها ، وتركوها وحدها تؤدي عملها ، فلم يساعدها أحد أو يشكر لها يداً ، أي هوان !

وخلت الى نفسها تبكي وتدفن الزفرات في صدرها ، ثم تحصي الزمن وتقدر حساب الغد . لقد طال بها الانتظار ونجيب لما يعد . ومرت بها من الماضي صورة فذكرت . لكم كانت قاسية جبارة في معاملة كريمة وصلاح ، ما أقبح الجريمة وما أعدل الجزاء ! وانحدرت على خدها عبرة الندم . لقد كانت عمياء فأبصرت ، واشتملها إحساس عميق بالرثاء والعطف ، كيف لم تدرك من قبل سوء ما كانت تصنع ؟ إنه ذنب الصغيرين ، ستكفر عنه حين تعود ، ولكن .... هل تعود ؟

وتركت كبرياءها في الغرفة وخرجت تحدث أخاها :

— إبرهيم ، ألم يقابلك نجيب ؟

— بلى .

— إنه لم يحضر !

— أعرف ذلك !

— وهل تعرف السبب ؟

— السبب ؟ !

وتركها مطأطئة الرأس تبكى فى حسرة وندم ومذلة ، وراح يخفى علائم الظفر تبـــــدو فى أساريره ؛ لقد أفلحت الخطة ونجح العلاج :

وحين عاد فى المساء كانت زينب لاتزال تبكى . لقد غلت القدر وتوشك أن تنفجر ؛ واقترب منها فوضع يده على كتفها ؛ ورفعت إليه عينين مخضلتين بالدموع ، واندفع فى غير رفق يصب عليها جام غضبه ، وبوجه إليها قارص اللوم وعنيف العتاب ؛ وراحت تعتذر فى كبرياء جريح ، وراح يحملها تبعة ما يخشاه ؛ يخشى أن يفقد صديقه أكثر مما يخشى أن تفقد زوجها . . . ثم ترك القدر فى غليان .

والتقى الصديقان ، وقص إبرهيم على صديقه ما سمع وما رأى . . . وجلست زينب تصارع اليأس بالايمان ، وتغالب الحزن بالأمل . ومر يومان ولم يعد إبراهيم إلى التحدث معها فى شأن زوجها ، ولم يعد نجيب . وغلبها الهم واليأس ، واستسلمت للمقادير مؤمنة بأنها إنما تلقى جزاءها العادل . وجاء يوم الجمعة ثالثاً وعاد أبرهيم من الصلاة ومعه ضيف .

لقد عاد نجيب بعد طول الغياب ! .

وجلسوا حول المائدة يتداعون إلى شهى الطعام ، ويتبادلون بين اللقيمات كلمات قصيرة عذبة . ثم انفضوا عن المائدة يسمرون ، إلا نجيباً وزينب ؛ لقد ظلا صامتين ، ولكن ضمائرهما كانت تتناجى فى حديث خافت ، وخواطرهما تفترق وتتلاقى .

* * *

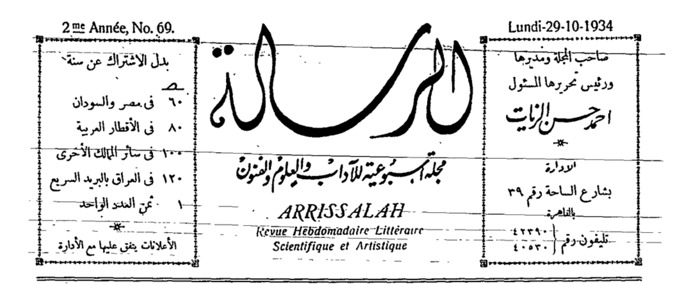
وفى اليوم التالى حين عادت زينب إلى عشها المهجور كانت أسعد منها يوم قدمت إلى هذا البيت أول مرة عروساً متوجة بالزهر ، مودعة بالزغاريد . ورأت كريمة (أمها) فأسرعت تسلم عليها فى لهفة وشوق ، وعلى فمها ابتسامة ، وفى نظراتها بشر وفرح وترحيب . وهرول إليها صلاح يتعلق بذراعها ويجذبها إلى الخلف كأنما يخشى أن تهجره ثانية إلى غير لقاء .

لقد استوحش الطفلان لغيبة زينب ، فنسيا كل ما كان من قسوتها ، لأن قلوب الصغار طاهرة بريئة ، لاتمسك العداوة ، ولا تذكر السيئة ، ودنياها يومها المتجدد . وكأنما أحس الولدان أن المصيبة إن كانت فى فقد الأم ، فتمامها أن يفقدا شبه الأم ! .

ورأت زينب فى ترحيب الصغيرين معنى لم تحسه من قبل ، وتحركت فيها الأمومة ، وتزاحمت فى رأسها إحساسات شتى : من الندم ، ومن الحب ، ومن التأثر بهذا الوفاء . وطفرت من عينيها قطرتان من الدمع تلهبان خديها بأقسى مما يلذع صدرها الندم . واقتربت منها كريمة وعلى شفتيها تساؤل مشفق :

— أمى ، أنت تبكين ؟ لا يا أمى ، لا تبكى لا تبكى . ودفنت رأسها فى صدر زينب مختنقة بالعبرات . ووقف صلاح على مقربة ، وقد وضع إصبعه على فيه فى حيرة ودهش مما يرى . وتحرك فى قلب زينب حنين الحب ، فمسحت بيدها فى رفق وحنان على رأس (ابنتها) وتدانى فم من وجنتين . وأقسمت ، وأشهدت ربها ، لتكونن من اليوم لهذه الطفولة الوفية — أمها الثانية ! ! ٰ

محمد سعيد العريان



العـــدد ٦٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ١٣٥٣ — ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

صفحة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كيف نشأت فكرة هذه اللجنة ؟

بمناسبة عيدها الفضي ..

بقلم الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم بالجامعة المصرية وعضو اللجنة

لابد لمن يريد أن يفهم كيف نشأت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن يرجع اذا أمكنه العمر ، وأسعدته الذاكرة ، الى حال مصر منذ عقدين ، أي الى عام ١٩١٤ حين تأسست اللجنة ، لا ، بل لابد له أن يرجع بذاكرته الى عقد أو بعض عقد قبل ذلك ، أيام كانت الكثرة من أعضاء اللجنة المؤسسين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، تلك السن الحساسة التي فيها يتصل اليافع بالحياة العامة لأول مرة ، يتصل بها بقلبه أكثر من عقله ، ويهتز عنيفاً بحوادث قلّما يفقه كُنه أسبابها ومراميها . ففي تلك السنوات صاح أول صائح أسمعَ بالاستقلال ، فسمعنا صوته خافتاً في حجرات الفصول النهائية للمدارس الابتدائية ،

أو سمعناه أكثر وضوحاً وأعلى نبرة في حجرات الفصول الأولى من المدارس الثانوية ، ثم شاء الله أن يذهب بصاحب الصوت ويؤثره بجواره ، فكانت لانتقاله من الدار الى الدار رنة جزع دوت في مصر والصعيد ، وأنتجت ذلك المشهد الخالد الذي بدأ كالبحر الزاخر عند « لاظوغلي » ، ثم سال في شوارع القاهرة خاشعاً صامتاً إلا صوتاً يوحد الله ، فبلغ الصحراء وما زال في المنبع فيض ، وأبت المدارس على الطلبة الخروج ، فحطمت أبوابٌ وفتحت قسراً نوافذ ، ورأينا جبار المعارف يطل على المشهد الرهيب من وراء حجاب وهو لا يكاد يصدق عينيه

***

ذلك هو الحدث الأول الذي فتح للعيون الصغيرة أول كوة تطل منها على شيء يسمى وطناً ، وعلى ناس فيه بأنسين يسمون أهلاً ، أو هو أول صدع في القلوب الصغيرة فتح فيها مدخلاً لحب الخير ورعاية الغير ، وقد كنا رُبّينا تربية من لون العصر الذي نعيش فيه ، لا تعين على الأكثر إلا على حب الذات ، والاستعداد للرزق عن طريق المرتبات

وجاء من بعد هذا الحدث أحداث ، ونحن نتماشى معها حدثاً حدثاً ، وجاءت من بعد هذا على الشرق ، أو على تركيا ممثلة الشرق ، نوازل ، ونحن نتابعها نازلة نازلة ، فكانت حرب البلقان وكانت حرب الطليان ، وجرت الشائعات بالمزعجات ، وتجهم المستقبل ، ففعلت تلك القلوب الطرية الشابة ، فكانت جماعات ، وكانت اجتماعات ، وكانت مظاهر للاخلاص لا تكون إلا في عهد النبوة ، وحوادث للتجرد من منافع النفس لا تكون إلا بوحي السماء ، وكانت آراء ، وكانت خطط للمستقبل اتسعت لها قلوبنا الكبيرة ، واتسعت لها كذلك رؤوسنا الصغيرة ، وضاقت بها ممكنات الحياة ، وأخذ العود اللين يشتد ، والبصر القاصر يمتد ، والرأي الفطير يختمر ، والخيال العالي يهبط من لازورد السماء إلى سواد الأرض ، حتى جاءت الحرب العظمى ، فلم يكن بد في مصر من طلب النهضة من أوثق السبل وأقربها من مظاهر المسالمة والسلام ، من طريق بث العلم بكل وسائل البث ، ونشر الثقافة بكل أساليب النشر ، فتألفت لجنة التأليف والترجمة والنشر من نفس ذلك النفر الذي كونته الحوادث ، وصهرته التجارب ، وميزته الآلام

***

« كم ربحنا من الحلبة هذا العام يا فريد ؟ » و « كم خسرنا في الفول يا يوسف ؟ » (١) تلك كانت بضاعة اللجنة الأولى ، وذلك رأس مالها الذي كان ، جمعته من قروش بقدر ما سمحت به أكياسهم الخفيفة منذ عشرين عاما ، ولم يكن لها مقر إلا بيوت متواضعة هي منازل أعضائها . وارتأوا تأليف الكتب المدرسية والشعبية ، وفاضلوا بينها ، ونزلوا بحكم الحاجة الى المال الى أقرب الصنفين مكسبا ، فبدأوا بالمدرسية ، رجاء أن ينفق من أرباحها على الكتب الشعبية ، فكان أول كتاب أخرجته كتاب « مبادئ الكيمياء للمدارس الثانوية »

***

هذه هي اللجنة الى حين إنتاجها أول نتاج لها ، وهذه إشارة خفيفة إلى تاريخ نشأتها ، وفي تتبع تفصيلات هذه النشأة تتبع لبعض تفاصيل النهضة المصرية في ذلك الأوان ، فليس تاريخ اللجنة تاريخ أفراد ، ولو كان كذلك لهان ، وإنما هو فصل موجز من تاريخ هذا البلد ، وقطعة صغيرة من نهضة هذه الأمة ، ومرآة يرى الرائي فيها بعض آثار ذلك الزمان ؟

أحمد زكي

(١) اشارة من الكاتب الى فرع من فروع الجماعة الأولى كانت تشتغل بالتجارة لتستثمر أموال اللجنة . أما فريد فالأستاذ محمد فريد أبوحديد ، وأما يوسف فالأستاذ يوسف أحمد الجندي .

رؤيا فى السماء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال أبو خالد الأحول الزاهد : لما ماتت امرأةُ شيخنا أبى ربيعة الفقيهِ الصوفىّ ، ذهبتُ مع جماعة من الناس فشهدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها وسُوِّى عليها ، قام شيخنا على قبرها وقال : يرحمكِ الله يافلانة ! الآن قد شُفيتِ أنتِ ومرضتُ أنا ، وعُوفيتِ وابتُليت ، وتركتِني ذاكراً وذهبتِ ناسية ، وكان للدنيا بكِ معنىً ، فستكون بعدكِ بلا معنى ؛ وكانت حياتُكِ لى نصفَ القوّة ، فعاد موتُكِ لى نصفَ الضَّعف ؛ وكنتُ أرى الهمومَ بحواسِّكِ همومًا فى صُوَرها المخفَّفة ، فستأتينى بعد اليوم فى صُوَرها المضاعفة ؟ وكان وجودُكِ معى حجابًا بينى وبين مَشَقَّاتٍ كثيرة ، فستخلُص كلُّ هذه المَشَاقّ إلى نفسى ؛ وكانت الأيام تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ فى رقّتكِ وحنانِكِ ، فستأتينى أكثرَ ما تأتى مُتجرِّدةً فى قسوتها وغلظها . أَمَا إنى والله لم أُرْزَأْ منكِ فى امرأةٍ كالنساء ، ولكنى رُزِئتُ فى المخلوقةِ الكريمة التى أحسستُ معها أن الخليقة كانت تتلطّف بى من أجلها !

قال أبو خالد : ثم استدمَعَ الشيخُ ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمَ بما يعزّى الناسُ بعضُهم بعضاً ، وأحفظَ لما وَرَدَ فى ذلك ؛ غير أن الكلام ساعاتٍ تبطُل فيها معانيه أو تضعف ، إذ تكون النفسُ مُستغرِقةَ الهمِّ فى معنىً واحدٍ قد انحصرتْ فيه ، إما من هَوْلِ الموت ، أو حبٍّ وَقَع فيه من الهَوْل ظلُّ الموت ، أو رغبة وقع فيها ظلُّ الحب ، أو لحاجةٍ وقع فيها ظلُّ الرغبة . فكنت أحدِّثه وأعزّيه ، وهو بعيد من حديثى وتعزيتى ؛ حتى انتهينا إلى الدار فدخلْنا وما فيها أحد ؛ فنظر يَمْنةً ويَسْرةً ، وقلّب عينيه ههنا وههنا ، وحوقل واسترجع ، ثم قال : الآن ماتت الدارُ أيضاً يا أبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التى تتحرك فى داخله ؛ وما دام هو الذى يحفظها للرجل ، فهو فى عين الرجل كالمُطْرَف[1] تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها : وانظر كم بين أن ترى عيناكَ ثوب امرأةٍ فى يد الدلاّل فى السوق ، وبين أن تراه عيناك يلبسُها وتلبسُه ! ولكنك يا أبا خالد لا تفقَهُ من هذا شيئاً ، فأنت رجلٌ آليْتَ لاتقربُ النساء ولا يقربْنك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله ؛ وكأن كل نساء الأرض قد شاركْن فى ولادتك فرَمَيْن عليك ؛ وهذا ما لا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لاتفهم أنت ما أجده الساعة إلا ألفاظاً ؛ وشتان بين قائلٍ يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلّف .

فقلت له يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطّرحْتَ أثقالك وانبتّتْ أسبابُك من النساء — أن تعيش خفيف الظهر ، وتفرغَ للنُّسك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسماء انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ؛ فإنه يقال : إن المرأة ولو كانت صالحةً قانتة — فهى فى منزل الرجل العابد مدْخلُ الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابد كان يسكن فى حسناته لا فى دارٍ من الطوب والحجارة لكانت امرأتُه كُوَّةً يقتحم الشيطان منها . ولقد كان آدم فى الجنة ، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلّق روحُ الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بحوّاء ، وتتعلّقَ هى بآدم ؛ ومكر الشيطان فصوَّرها لهما فى صيغة مسئلة علمية ، وَمَكَرتْ حوّاءُ فوضعتْ فيها جاذبيّة اللحم والدم ، فلم تعد مسئلة علمٍ ومعرفة ، بل مسئلة طبعٍ ولحاجة . فأكلا منها فبدَتْ لهما سَوْءاتُهما . وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصب الحياة وهمومها ، وشهواتها ومطامعها ، ومضارها ومعايبها — فى معنى « بَدَتْ لهما سوآتهما » . . . ؟

كلا يا أبا ربيعة ، مَنْ لهم سَيْرٌ بالباطن فى هذا الوجود غيرُ السير بالظاهر ، ومن لهم حركةٌ بالفكر غيرُ الحركة بالجسم ؛ فقبيحٌ بنا أن نتعلّق أدنى مُتَعَلَّقٍ بنواميس هذا الكونِ اللَّحمىّ الذى يُسمَّى المرأةَ ؛ فهو تدلٍّ وإسفافٌ منا . ولعلك

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة فى دارها ، وهو المسمى (الروب)

تقول: «النسل وتكثير الآدمية» فهذا إنما كُتِبَ على إنسانِ الجوارح والأعضاء، أما إنسانُ القلب فله معناه وحُكمُ معناه؛ إذ يَعيش بباطنه، فيعيشُ ظاهرُه في قوانين هذا الباطن، لا في قوانينِ ظاهرِ الناس. وإنه لشرٌّ كلُّ ما تَقَلَّكَ الى طبع أهلِ الجوارحِ وشهواتِهم، فزيّنَ لك ما يُزيِّن لهم، وشغلك بما يَشغَلُهم؛ فهذا عندنا — رحمك الله — بابٌ كأنه من أبواب الجنون الذي ينقل الرجلَ الى طبع الصبي.

فاطمس يا أخي على موضعها من قلبك، وألقِ النورَ على ظلها؛ فالنور في قلب العابد نورُ التحويل إن شاء، ونور الرؤية إن شاء، يَرى به المادةَ كما يريد أن تكون لا كما تكون. وأنت قد كانت فيك امرأة، فَحَوِّلْها صلاةً واعمل بنورك عكسَ ما يَعمل أهلُ الجوارح بظلامهم، فقد تكونُ في أحدهم الصلاةُ فيُحوِّلُها امرأةً.

قال أبو ربيعة: تالله إنه لرأيٌ؛ والوحدةُ بعد الآن أرْوَحُ لقلبي، وأجْمَعُ لهمي؛ وقد خلّصني اللهُ مما كنت فيه، وأخذ القبرُ امرأتي وشهواتي معاً، فسأعيش ما بقي لي فيما بقي مني. وزوالُ الشيء في النفس هو وجود شيء آخر. ولقد انتهيتُ بالمرأةِ ومعانيها وأيامها الى القبر، فلأبدأنَّ الآن من القبر ومعانيه وأيامه.

* * *

وتوافقنا على أن يسيرا معاً في (باطن) الوجود . . . ! وأن يعيشا في عمرٍ هو ساعة معدودة اللحظات، وحياةٍ هي فكرةٌ مرسومة مصوّرة. قال أبو خالد: ورأيت أن أبيت عنده وفاءً بحق خدمته، ودفعاً للوحشة أن تُساوِدَه فتدخل على نفسه بأفكارها ووساوسها. وكان قد غمرنا تعبُ يومنا، وأعيا أبو ربيعة وخذلته القوة؛ فلما صلّينا العشاء قلت: يا أبا ربيعة، أُحِبُّ لك أن تنعس فتريح نفسك ليذهب ما بك، فاذا استيقظت أيقظتك فقمنا سائر الليل.

فما هو إلا أن اضطجع حتى غلبه النعاس. وجلست أفكّر في حاله وما كان عليه وما اجتهدت له من الرأي؛ وقلت في نفسي: لعلّي أغريته بما لا قِبَل له به، وأشرتُ عليه بغير ما كان يحسن بمثله، فأكون قد غششته. وخامرني الشكُّ في حالي أنا أيضاً، وجعلت أقابل بين الرجل متزوجاً عابداً، وبين الرجل عابداً لم يتزوج؛ وأنظر في ارتياض أحدهما بنفسه وأهله وعياله، وارتياض الآخر بنفسه وحدها؛ وأخذت أذهب وأجيء من فكر الى فكر، وقد هدأ كل شيء حولي كأن المكان قد نام؛ فلم ألبثْ حتى أخذتني عيني فنمت واستثقلت، كأنما شُدِدْتُ شدًّا بحبال من النوم لم يجيء من يقطعها.

ورأيت في نومي كأنها القيامة وقد بُعث الناس وضاق بهم المحشر، وأنا في جملة الخلائق، وكأننا من الضغطة حَبٌّ مبثوثٌ بين حَجَرَيِ الرحى. هذا والموقفُ يَغْلي بنا غَلَيانَ القدر بما فيها، وقد اشتدَّ الكربُ وجَهَدَنا العطش، حتى ما منا ذو كبدٍ إلا وكأن الجحيم تتنفس على كبده، فما هو العطش بل هو السُّعار واللهبُ يَحتدمُ بهما الجوفُ ويتأجج.

فنحن كذلك إذا وِلدانٌ يتخلّلون الجمع الحاشد، عليهم مناديلُ من نور، وبأيديهم أباريقُ من فضة وأكوابٌ من ذهب، يملئون هذه من هذه بسلسالٍ بَرُودٍ عذب، رؤيته عطشٌ مع العطش، حتى ليتلوّى من رآه من الألم، ويتلعلع كأنما كُوِيَ به على أحشائه.

وجعل الولدانُ يسقون الواحدَ بعد الواحد ويتجاوزون من بينهما وهم كثرةٌ من الناس، وكأنما يتخللون الجمعَ في البحث عن أناسٍ بأعيانهم ينضحون غليلَ أكبادهم بما في تلك الأباريق من روح الجنة ومائها ونسيمها.

ومرّ بي أحدهم، فمددت اليه يدي وقلت: «اسقني فقد يبستُ واحترقت من العطش!»

قال: «ومن أنت؟»

قلت: «أبو خالد الأحول الزاهد.»

قال: «ألكَ في أطفال المسلمين ولدٌ افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله؟»

قلت: «لا . . .»

قال: «ألك ولدٌ كبر في طاعة الله؟»

قلت: «لا . . .»

قال : « ألك ولدٌ نالتْك منه دعوةٌ صالحة جزاء حقِّك عليه في إخراجه الى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبتَ في تقويمه ، وقُمْتَ بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمكَ الله ، إني كلما قلتُ « لا » أحسست « لا » هذه تمرُّ على لساني كالمِكْواة الحامية . . . »

قال : « فنحن لا نسبق إلا آباءنا ؛ تعبوا لنا في الدنيا ، فاليوم نتعب لهم في الآخرة ؛ وقدّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمةُ الحَسَنةِ والسيئة . وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشدُّ طلاقةً من ألسنة الأطفال ، فما للطفل معنى من معاني آثامِكم يحتبس فيه لسانُه أو يَنْجَلِجُ به »

قال أبو خالد : فجُنَّ جنوني ، وجعلتُ أبحث في نفسي عن لفظةِ « ابن » فكأنما مُسحت الكلمةُ من حفظي كما مُسحتْ من وجودي ؛ وذكرت صلاتي وصيامي وعبادتي ، فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليدُ ضحكاً وجدتُ في معناه بكائي وندمي وخيبتي .

وقال : ياويلك ! أما سمعت : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفّرها الصلاة ولا الصيام ، ويُكفّرها الغمُّ بالعيال . » أتعرف من أنا يا أبا خالد ؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابن ذلكَ الرجل الفقير المُعيل ، الذي قال لشيخك ابرهيم بن أدهم العابدِ الزاهد : « طوبَى لك ! فقد تفرّغتَ للعبادة بالعزوبة . » فقال له ابرهيم : « لَرَوْعة تنالك بسبب العيال أفضلُ من جميع ما أنا فيه . . . » . وقد جاهد أبي جهادَ قلبه وعقله وبدنه ، وحَمَلَ على نفسه من مقاساة الأهل والولد حَمْلَهَا الانسانيَّ العظيم ، وفكّر لغير نفسه ، واغتمّ لغير نفسه ، وعمل لغير نفسه ، وآمن وصبر ووثق بولاية الله حين تزوّجَ فقيراً ، وبضمان الله حين أعقب فقيراً ؛ فهو مجاهد في سبُلٍ كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة ؛ هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ، أمّا هو فيستشهد كل يوم مرة في همومه بنا ، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا في الدنيا

أما بَلَغَكَ قولُ ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغَزْو : « أتعلمون عملا أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نَعْلَمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال : رجل مُتعفّفٌ على فقره ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر الى صبيانه نياماً مُتكشّفِينَ ، فسترهم وغطاهم بثوبه ؛ فعَمَلُهُ أفضل مما نحن فيه . . . . »

يخلع الأب المسكين ثوبه على صبيته ليدفئهم به ويتلقى بجلده البردَ في الليل . إن هـذا البرد — يا أبا خالد — تحفظه له الجنة هنا في حرّ هذا الموقف ، كأنها مؤتمنةٌ عليه إلى أن تؤدّيه . وإن ذلك الدفء الذي شمل أولاده يا أبا خالد — هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين

قال أبو خالد : وبَهِمُّ الوليدُ أن يمضيَ ويدعَني ، فما أملك نفسي ، فأمدّ يدي إلى الابريق فأنشِطُه من يده ، فاذا هو يتحوّل إلى عظمٍ ضخم قد نَشِب في كتِفي ومايليها من أَسَلةِ الذراع[1] فغابت فيه أصابعي ، فلا أصابعَ لي ولا كفّ . وأبى الابريقُ أن يسقيني وصار مُثْلَةً بي ، وتجسّدتْ هذه الجريمةُ لتشهدَ عليّ ، فأخذني الهولُ والفزع ، وجاء إبريقٌ من الهواء ، فوقع في يد الوليد ، فتركني ومضى

وقلت لنفسي : ويحك يا أبا خالد ! ما أراكَ إلا مُحاسَباً على حسناتك كما يُحاسَب المذنبون على سيئاتهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

وبلغتْني الصيحةُ الرهيبة : أين أبو خالد الأحول الزاهد العابد ؟

قلت : هأنذا .

قيل : طاوُوسٌ من طواويس الجنة قد حُصَّ[2] ذيلُه فضاع أحسنُ مافيه ! أين ذيلُكَ من أولادك وأين محاسنُك فيهم ، أَخُلِقَتْ لك المرأةُ لتتجنّبَها ، وجُعِلْتَ نَسْلَ أبويك لتتبرّأَ أنت من النسل ؟

(١) الأسلة : مايلي الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها . فالأسلة هي العظمة التي تشد عليها ساعة اليد

(٢) حص ذيله : قطع وجذ

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا أن هربت منها وانهزمت عن ملاقاتها ، ثم أنت تأمل جائزة النصر على هزيمة . . !

عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك ، ولكنها عقمت فلم تعمل بك . لك ألف ألف ركعة ومثلها سجدات من النوافل ، والخير منها كلها أن تكون قد خرجت من صلبك أعضاء تركع وتسجد

قتلت رجولتك ، ووأدت فيها النسل ، ولبثت طوال عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبة الأب ! فلئن أقمت الشريعة ، لقد عطلت الحقيقة ، ولئن . . . .

قال أبو خالد : ووقعت غنة النون الثانية في مسمعي من هول ماخفت مما بعدها كالنفخ في الصور ؛ فطار نومي وقمت فزعاً مشتت القلب ، كمن فتح عينيه بعد غشية فرأى نفسه في كفن في قبر سد عليه . . . !

وما كدت أعي وأنظر حولي وقد برق الصبح في الدار حتى رأيت أبا ربيعة يتقلب كأنما دحرجته يد ، ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال : أهلكتني يا أبا خالد ، أهلكتني والله .

* * *

قلت : ما بالك يرحمك الله !

قال : إني نمت على تلك النية التي عرفت : أن أجمع قلبي للعبادة ، وأخلص من المرأة والولد ، ومن المعاناة لهما في مرمة المعاش والتلفيق بين رغيف ورغيف ، وأن أعفي نفسي من لأوائهم وضرائهم وبلائهم لأفرغ إلى الله وأقبل عليه وحده . وسألت الله أن يخير لي في نومي ؛ فرأيت كأن أبواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، أجنحة وراء أجنحة ؛ فكلما نزل واحد نظر إلي وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وينظر هذا الآخر إلي ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

ومازالت « المشئوم ، المشئوم » حتى مروا ؛ لايقولون غيرها ولا أسمع غيرها ، وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم ، هيبة من الشؤم ، ورجاء أن يكون المشئوم إنساناً ورائي يبصرونه ولا أبصره . ثم مر بي آخرهم ، وكان غلاماً . فقلت له : ياهذا ، من هو المشئوم الذي تومئون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك ، وتحزنت على مافاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ؛ ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا ! . . . .

* * *

إن سُمُوَّ الرَّجُلِ بنَفْسِهِ عن الزَّوْجَةِ والوَلَدِ طَيَرانٌ إلى الأَعْلَى . . ولكنَّه طَيَرانٌ على أَجْنِحَةِ الشَّياطِين !

طَيَرانٌ بالرَّجُلِ إلى فُوَّهَةِ البِئْر كانَ الَّذِي فِى الأَعْلَى . . !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الشيخ على يوسف

للأستاذ عبد العزيز البشرى

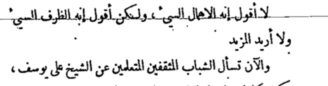
في يوم ٢٥ أكتوبر من سنة ١٩١٣ والقلوب واجفة، والأبصار زائغة، ومصاير الأمور تتواثب للأوهام في صور مبهمة غامضة، تضطرب بين اليأس كله، وبين الرجاء كله، والناس يتساءلون متهامسين من الخوف ومن الورع: تُرى ماذا عسى أن يكون قسم مصر من هذه الحرب العامّة، وماذا كتبت لها الأقدار، في صفحتي الليل والنهار؟

الشيخ على يوسف

في ذلك اليوم من تلك الأيام السوداء مات رجل ليس مثله في مصر كثير، رجل إذا أحبه ناس أشد الحب، فلأنه قوة كبيرةٌ في مصر. وإذا كرهه ناس أشد الكره، فلأنه قوة كبيرة في مصر، فالشيخ على يوسف، على تفرق الأهواء فيه، كان قوة هائلة في هذه البلاد يحسب الناسُ جميعاً لها كل حساب

ولقد كنت من الذين أبغضوا الشيخ علياً أبعد البغض، ثم كنت من الذين يحبونه أعلى الحب، ولا والله ما رأيته في حالى بغضى وحبي له إلا رجلا عظيما!

مات الشيخ على يوسف في ذلك اليوم فما قامت الدنيا لموته كما كان ينبغي أن تقوم، ولا قعدت الدنيا لموته كما كان ينبغي أن تقعد؛ بل لقد شيّع ودُفن كما يُشيَّع ويُدفن أوساط الناس، وكأن الناس لم يشيعوا فيه مفخرة من مفاخر مصر، ولا أودعوا الضريح كنزاً من كنوزها الثّمان!



لا أقول إنه الاهمال السيء، ولكن أقول إنه الظرف السيء ولا أريد المزيد

والآن تسأل الشباب المثقفين المتعلمين عن الشيخ على يوسف، وكيف كان خطبه في البلاد من إحدى وعشرين سنة فقط، فترى أقلّهم من لا يعرف عنه كثيراً، وترى أكثرهم من لا يعرف عنه كثيراً ولا قليلا!

أهكذا، وبهذه السرعة السريعة، تختفي سيَر الرجال عندنا كما تختفي الصور إذا ساد الظلام، أو كما تختفي أشباح الرُّؤى ساعة الهبوب من النام؟

وإنني لأضيف الوزر في هذا أيضاً على الظروف. والحمد لله الذي جعل لنا من هذه (الظروف) تُكأة نعتمد عليها كلما غشيتنا غاشية من الاهمال، أو طاف بنا طائف من سيء الأعمال!

***

ولقد قُلّد الشيخ على منصب مشيخة السجادة الوفائية، فاستحق بهذا أن يسمى السيد علياً؛ وقلده الخليفة العثماني الرتبة الأولى من الصنف الثاني، فاستحق بذلك أن يدعى على بك أو على باشا يوسف؛ ولكنني لا أعبّر عنه إلا بالشيخ على يوسف. هذا الاسم الذي طالما رنّ في الآذان، وتجاوبت به الأصداء من كل مكان: الشيخ على يوسف! الشيخ على يوسف! وحسبه بهذا لقباً، بعد ما اعتز بنفسه حسباً، وكرُم بالرسول الأعظم نسباً

كان الشيخ على يوسف رجلا عصامياً بأوفى معاني الكلمة. نجم في (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا، في أسرة إذا كرم أصلها فقد رقّت حالها. ولا تنس أن المال هو كل شيء في هذا الزمان. وتعلم القراءة والكتابة في كتّاب القرية، وحفظ القرآن الكريم. ثم انحدر إلى بني عديّ من أعمال مديرية أسيوط. فطلب العلم هناك على الشيخ حسن الهوارى، ثم قدم الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين.

وإلى هنا كانت حياة الشيخ على حياة عادية بحتاً، فلم يزد خطبه على مجاور مغمور في ذلك الخضرم الزاخر بآلاف المجاورين.

وتستشرف نفس الفتى للأدب. والأدب في ذلك الوقت أن تقول شعراً مقفى موزوناً. فاذا أعوزك العروض، وحُميت عليك أوزان الشعر، فحسبك أن يكون المصراع في طول المصراع. فان

زاد الكلام في تصغير الكتابة وتدقيق الحروف متسع للجميع .

وعلى شرط أن تتنزّل . فتتغزل كلما طلبت مديحاً ، وتتغزل كلما أردت رثاء ، وتتغزل كلما ابتغيت هجاء . وكانت هذه ، وخاصة في البيئة الأزهرية أهمّ فنون الشعر ، إن لم تكن جميع فنون الشعر .

وعلى هذا قرض الشعر المجاور على يوسف ، فذهب له به بين المجاورين صيت وذكر

ولقد كان الأدب يحمد من المجاور عند أشياخه إلا أن يسرف فيه ويجرد له صدراً كبيراً من وقته ، فإنهم كانوا يكرهون ذلك منه ، لأنه في الواقع يشغله ، بقدر ما ، عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار ، ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح) والعياذ بالله ! وحسبه في العام قصيدة يمدح بها شيخه يوم يختم الكتاب ، وقصيدة أو اثنتين يرثي بهما من يموت من علية العلماء .

وأسرف الشيخ عليّ في قرض الشعر ، فمدح ورثى ، وتنزّل (بالطبع) وهجا ، حتى اتسق له من هذا النظم ما جمعه بعد في ديوان كامل ، وبهذا أصبح مجاوراً ممتازاً و إن حق عليه القول ، وتراءى له شبح الهول !

إذن أصبح الشيخ مجاوراً ممتازاً بين المجاورين بالأدب ، أو إن شئت ، قلت : لقد أدركته من الناحية الأزهرية ، حرفة الأدب .

ولقد دعاه هذا إلى الاختلاف إلى مجالس الأدباء ، ومشاهدتهم ومسامرتهم والتزوّي عنهم ، ثم إلى غشيان دور بعض العلية ممن كانوا يجلسون لأهل العلم والفضل والأدب ، فيتحاضرون ويتذاكرون ، وأقبل الشيخ على هذا الشأن بقدر ما أدبر عن النكد في دروس الأزهر ، ثم جعل يرسل المقالات المنثورة في الصحف والمجلات التي كانت قائمة في ذلك الوقت ، وكان يكتب أول الأمر على طراز الكاتبين في عصره : مقدمات طويلة تمهد بين يدي كل موضوع ولو لم تدع إليها حاجة الكلام ، واحتفال للمحسنات البديعية تستكره استكراهاً ، ولو استهلكت الغرض المطلوب ... الخ .

على أن من حسن حظ الشيخ عليّ أنه ابتدأ في معالجة الكتابة في الوقت الذي انبعثت فيه تلك النهضة البيانية الفاخرة ، تلك النهضة التي نفخ صورها بالإرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغاني ، وبالفعل من الإنشاء والتعليم والتأليف الشيخ حسين المرصفي ، وللشيخ على طبيعة ، وفيه فطنة قوية ، فجعل يدرب قلمه ويروضه على إرسال البيان سهلاً جزلاً خالياً من الاعتساف ، متطلقاً من تكاليف البديع

وفي هذا المقام يجدر بي أن أنبه إلى شيء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجودة المقال لا ترجع في جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه في أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، إلى حسن ذوق ورهافة حس ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، ويصورها أبدع تصوير . بل إن ذلك ليرجع في بعض الأحوال ، وهي أحوال نادرة جداً ، إلى شدة نفس الكاتب وقوة روحه ، فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنيّ بتقصي منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأقلام . ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكرته ، تأبى إلا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعا . ولعل في بيان السيد جمال الدين الأفغاني ، وهو غريب عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها ، أبين مثال على هذا الذي تقول .

ولقد يعجب القارئ أشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدي باشا ، وكان رجلاً قلّ أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان !

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم في الأزهر ، وقرأ طرفاً من كتب الأدب ، واستظهر صدراً من مظاهر البلاغة في منظوم العربية ومنثورها — إلا أنه لم يكن مديناً في بيانه لشيء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة روحه وسطوة نفسه . وإنك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك ، وتشعر أن أحداً لم ينته في البيان منتهاه . ثم تقبل على صيغه تفتشها وتفرّها ، فلا تكاد تقع على شيء من هذا النظم الذي يتكلفه صدور الكتاب . وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً ، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوي نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات

ولندع الآن بيان الشيخ على وأثره ، فلذلك موضع آخر من هذا الحديث . ونعود إلى تاريخ الرجل فنقول إنه ما كاد يستوى له ذلك القدر من الأدب حتى أنشأ مجلة دعاها (الآداب) . وهى وإن لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى المجلات الأدبية القائمة الآن ، إلاّ أنها كانت شيئاً مذكوراً بالقياس إلى المجلات التى كانت قائمة فى ذلك العهد . وخاصة بعد إذ عفّى الزمن على مجلة روضة المدارس التى كان يقوم على تحريرها وإجالة الأقلام بروائع البيان فيها صدور العلماء والشعراء والكتاب

المؤيد

وإذا قلت « المؤيد » قلت شطر من تاريخ مصر محتفل بالأحداث العظام

راع أهل الرأى فى مصر أن ليس لهذه الأمة ، أعنى للمسلمين وهم كثرتها الكثيرة . صحيفة تتحدث عنها وتدلى بحاجاتها . وتترجم عن أمانيها ، وتذود عن حقوقها وكرامتها . وإن أمة ليس لها فى هذا الزمان صحيفة ، لهى أمة لا تحس لنفسها وجوداً . ولقد قوى الشعور بشدة الحاجة إلى صحيفة وطنية إسلامية بعد إذ صدر المقطم صحيفة تظاهر الاحتلال الانجليزى ، وتروّج للسياسة الانجليزية فى هذه البلاد ، وتدفع فى صدر الأمانى القومية مااعترضت تلك السياسة فى يوم من الأيام . وهنا يتقدم الشيخ على مع صاحب له يدعى الشيخ أحمد ماضى فينشئان جريدة المؤيد يومية سياسية وطنية إسلامية . ثم لايلبث الشريكان أن يختلفا ، ولايخرج أحدهما عن الشركة إلاّ على مال ، والمال فى يد الشيخ على أقلّ من القليل . وهنا تحركت أريحية بعض كبار المصريين فأدوا المال عن الشيخ إلى صاحبه . وهكذا خلص المؤيد للشيخ على يوسف . وكان للمرحوم سعد باشا زغلول فى هذا سعى مشكور

وأذكر أنه لما أتى رحمه الله ، بمطبعة جديدة من طراز (الروتاتيف) وعقد لذلك حفلاً جامعاً فى إدارة المؤيد خطب فى الجمع فأتى فى سيرة المؤيد على هذه الحادثة ، ونوّه بفضل سعد بك زغلول (المستشار بمحكمة الاستئناف) الذى أبى أن يسمع هذه الخطبة إلاّ واقفاً

وجرى المؤيد طلقاً ، والله يعلم كم عانى الشيخ على فى إخراجه فرداً لا مسعد له من معين أو من مال . الحق أن الرجل لقد جاهد فى هذا جهاد الجبابرة ، وعانى عناء لوصوّره القلم على حقيقته لظنه الناس من إحدى القصص التى تمثلها أخيلة الكتاب . وهكذا لم يمض زمن طويل حتى جنى ثمرة الصبر العجيب (إنّ الله مع الصّابرين) صدق الله العظيم

مضى المؤيد يحرره الشيخ على يوسف ، ويرفده بالمقالات البارعة أعيان أهل الرأى والعلم والأدب فى البلاد من أمثال المرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد بك زغلول ، وقاسم بك أمين ، وفتحى بك زغلول ، وحفنى بك ناصف ، وكثير غيرهم من أصحاب البيان . وكانوا يُسرّون أسماءهم فى الأحاديث السياسية ، بوجه خاصّ ، فدلك مما لا تأذن به المناصب الحكومية بحال . وكذلك أضحى المؤيد مجالاً لأجل الأقلام وأنضج الآراء . بل لقد أضحى المدرسة التى تخرج عليها من شهدوا الجيل الماضى من أعلام البيان

ويسير المؤيد ، ويذهب صيته لافى مصر ولا فى العالم العربىّ فحسب ، بل فى العالم الاسلامىّ كله ، فلقد أصبح لسانه المعبّر أفصح تعبير عن حقيقة حاله ، والترجم أنصح ترجمة عن آلامه وآماله ، ومتحدّث أخبار المسلمين ورواويها ، وملتقى أفكارهم فى قواصى الأرض وأدانيها

لايرحل الناس إلاّ نحو حجرته ... كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل

وحسبنا هذا القدر الآن فى المؤيد وفى صاحب المؤيد . وسنعاود الحديث فيه إن شاء الله تعالى عسى أن نوفيه بعض حقه إن لم نوفه كل حقه . رحمة الله عليه ؟

عبد العزيز البشرى

لا مؤاخذة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كنت أعرف رجلاً طيب القلب بلغت منه طيبة القلب مبلغاً عظيما . فكان يحب الخير ولا يميل إلى الأذى ؛ ويعف عما في أيدي الناس ، ويعطيهم مما في يديه أكثر مما كان ينبغي له ، حتى إنه كان يحب أحياناً أن يولم لبعض أصدقائه ولمية فلا يجد ما يولم لهم به من المال في كفه ، فيدفعه حرصه على إرضائهم إلى أن يؤذي نفسه في سبيل ذلك الرضا ، فقد استدان مرة بضعة جنيهات من صديق له وأولم في اليوم التالي لبعض أصدقائه ولمية لذيذة ، وأبى عليه كرمه أن يُهمل صديقه الذي استدان منه فدعاه إلى الحضور ، وكانت فكاهة الأصدقاء بنبأ الوليمة والدين الذي ركب صاحبها من ورائها سبباً في شحذ شهوة الطعام في الجمع حتى لم يبقوا على شيء من ذلك الطعام اللذيذ .

غير أن هذا الرجل الطيب كان فيه عيب واحد لا أعرف فيه عيباً سواه ، وهو أنه كان يعني عناية عظيمة برأي الناس فيه ، فلا يكاد يسمع من أحد مدحاً في نفسه حتى يثور طربه ، ويهتز للمديح اهتزاز الغصن الرطب في الريح ، وقد تدفعه الأريحية عند ذلك إلى الخروج عن طاقته في جزاء المادح ؛ وأما إذا هو سمع أحداً يذمه ولو ذماً ضئيلاً ، فانه لا يمالك نفسه من الغضب ، وقد تكون غضباته مضرية هائجة ، ولولا إنه من الثابتين المطمئنين إلى حكم القانون ، لكان لا يرى شيئاً يغسل عنه معرة الذم ، إلا أن يراق في سبيلها الدم . وقد عرفت أنه سمع مرة أن بعض الناس يتغمزون فيه ويتندرون بأنه يأكل في بيته الثريد بأصابعه الخمس ، وأنه ما يكاد يصل إلى بيته حتى يخلع ثيابه المحترمة ، ويلبس لباساً ساذجاً مما يلبسه عامة الناس من طبقات الفقراء ، فيضع على رأسه لبدة بيضاء من الصوف الخشن ، ويلبس في رجله قبقاباً من الخشب الثقيل ، ويلبس على جسمه جلباباً من القطن الرخيص ، فما كاد يسمع ذلك القول حتى ثارت ثائرته ، وجعل يصيح في الحاضرين بأعلى صوته واصفاً ما يلبس وما يأكل ، مجتهداً أن يطلع الناس على حاله في بيته ، وعلى ما هو عليه من تنعم بأقصى ما يتنعم به المتحضرون المتأنقون ؛ ولعله قد لاحظ شيئاً من التردد بين سامعيه في تصديق أقواله ، فجعل يزيد في التأكيد حتى بلغ الأمر منه أن جعل يقسم لهم جهد الايمان ، ولما أحس مع كل ذلك أن السامعين فيهم المعاند والمكابر ، اتخذ خطة عملية حازمة لبيان صدق قوله . فقد حلف على الجميع وعزم أشد العزيمة أن يزوروه في منزله في صباح الغد ليقيموا عنده النهار أجمعه فيطلعوا على أسلوب حياته معاينة واختباراً . ثم ذهب من فوره إلى أقرب أصدقائه إليه ، وأوثقهم مودة عنده ، وأملئهم جيباً . فاستدان منه ما يستعد به لحفلة الغد ، ولم ينس أن يدعوه في المدعوين لشهود ما هو على نية إظهاره وإجلائه

ولكن لا يظنن أحد من القراء أنني أصف هذا الرجل لأنه ممن يستحق العناية الخاصة لميزة في شخصه ، أو لمكانة له بين الناس . فانما أنا أسوقه مثلاً لقوم في مصر يريدون أن يقحموا البلاد في مثل ما تورط فيه صاحبنا هذا . فمثلاً قد تكرر ما قال القائلون من الدعوة لمصر في الخارج ، وما صاح الصائحون من وجوب إظهار أهل الغرب على ما نحن عليه من رقي وتحضر ، وهم لا يضنون على ذلك السعي بالمال مهما عظم مقداره ، والحق إنني أعطف أشد العطف على وطنية هؤلاء وسلامة طويتهم . فمثلاً قد ذهب أحد المصريين إلى مؤتمر من المؤتمرات ، وكان بطبيعة الحال لابساً بذلة من البذلات الرسمية الوجيهة ، فمال عليه جاره وكان من ممثلي بعض دول الغرب فسأله عما هو صانع ببذلته تلك بعد انصرافه من المؤتمر . وأغلب ظني أن ذلك الزميل الأوربي المحترم قد ظن في الممثل المصري أنه لا يكاد ينفلت من المؤتمر حتى يرمي بتلك البذلة فوق أقرب شجرة من شجر الجميز إذا بلغ الطريق المؤدية إلى عاصمة بلاده ، وهو راكب جملاً قوياً يحمله في سفره ، ثم يقف تحت تلك الشجرة ينتظر مرور أول وعل من وعول الجبل فيرميه بسهم من قوسه الشديدة ، ويسلخ عنه جلده ، وينشره في الشمس يوماً أو بعض يوم ، ثم يلبسه بدل بذلته الرسمية . ثم يتابع سيره نحو العاصمة لمقابلة أولي الأمر فيها ، وإبلاغهم نتيجة بحوث المؤتمر الذي كان يمثل بلاده فيه .

لعل ذلك الزميل قد حسب هذا ، ولا بد أن الممثل المصري قد تصور هذا الظن ، ورأى فيه مساساً عظيما بكرامته وكرامة بلاده

فغضب له ، وجاء يشكوه لبنى وطنه ليظهر لهم مقدار جهل الناس بحقيقتهم ، وقد سمع هذا القول طائفة من الناس فغضبوا له غضباً شديداً ، وجعلوا يطالبون بأن تبذل الحكومة من أموال الشعب بضع مئات من الوف الجنيهات الذهبية لكي تنظم دعوة لاطلاع أهل الغرب على حقيقة أمر الشعب المصرى

وإننى لا أرى مانعاً يمنع من بذل المال ، ولا من القيام بدعوة فى سبيل مصر ، فكل شيء فى خدمة مصر هين ، وكل قصد الحياة هو خدمة مصر

ولكنى مع ذلك أحب أن تتجه الدعوة نحو قصد مخالف كل المخالفة لما يريد هؤلاء السادة أن يدعوا اليه . ولا يسعنى إلا أن أعتذر لهم وللقراء عن هذه المخالفة التى قد تغضبهم متى وصفت لهم حقيقتها ، ولا أجد شيئاً أقدر أن أعتذر به اليهم إلا أن أقول لهم : « لامؤاخذة » ، فان هذه الكلمة كلمة سحرية ، وقد جربت أثرها فى مختلف المواقف ، فوالله ما خانني سحرها يوماً ، ولا خذلنى نصرها فى ساعة من ساعات الشدة . فكم وطئت على أقدام فى الترام وقت الزحام ، فلما رأيت ثورة الذى وطئت قدمه أسرعت وتلفظت بذلك الطلسم ، فاذا وجهه تشرق عليه ابتسامة عريضة ، ويهز رأسه لى ، كأنما هو يعتذر عما ظهر على وجهه من التجهم فى أول الأمر . وكم أخطأت فلم ينجنى من تبعة الخطأ إلا هذا اللفظ المبارك ، وكم خرجت عن حدود اللياقة ونفذت الى العفو الفسيح من مداخل هذا اللفظ البديع . فلا مؤاخذة أيها السادة إذا كنت أعتقد أن خير مصر ونفع الوطن فى أن نبذل بضعة آلاف أو بضع مئات من الآلاف من جنيهات الذهب ، على أن يقوم جماعة من المخلصين لمصلحة هذه البلاد بدعوة فى شعوب العالم أجمع ، يعلون فيها من ذكر مصر ، بأن يصفوا أهلها بالتوحش والغلظة ، وينعتوهم بأقبح النعوت وأبشع الصفات — وحبذا يوم يعتقد فيه شعوب أوربا وأمريكا أن المصريين لايلبسون إلا جلود النمور والأسود ، ولا يعرفون من المساكن إلا الكهوف والأدغال ، وأن لهم قسياً قوية وسهاماً مسمومة ، وأنهم يقفون لأعدائهم تحت الصخور ووراء الجذوع ، فيسددون اليهم سهاماً مصمية لاينجو أحد من جراحها ، وأن الذى يدخل بلادهم لايلقى إلا مشقة ، ولا يرتاح فى حل ولا ترحال . وأن المصريين يأكلون لحم الحيوان بغير نضج ، فاذا لم يجدوا من لحوم الحيوان شيئاً أشبعوا الجوع بما يجدونه قريباً منهم من اللحم ، ولو كان آدمياً ؛ وأنهم حديدو الأسنان ، حمش السيقان ، خزر العيون ، قبيحو الخلقة . أقول هذا «ولامؤاخذة» فان تلك الدعوة عندى آثر وأحب ، وأثرها فى ظنى أبلغ فى إجلال القوم لنا ومراعاتهم لحرمتنا . فان الناس على حضارتهم لم يزيدوا بعد على أنهم متوحشون ، قد طلوا ظاهرهم بطلاء من الفضة أو الذهب ، وأما باطنهم فلا يزال فيه الحيوان البرى الذى يخشى القوة الوحشية خشية أعظم من تقديره لفضائل الفلسفة

وإنها لأهانة لاتعدلها إهانة أن يذهب نفر من أهل مصر ليعلنوا فى ملأ الشعوب الأخرى أن شعب مصر يلبس الملابس المعتادة ، لا جلود الحيوان ، وأنه يأكل الخبز والطعام ، لا لحوم البشر ولا المن والجراد . أما أنا فيمين الحق إنه لأحب الى أن يذهب الناس عنى قائلين إنى متوحش ، أو إنى جاهل ، أو إنى غر ، أو إننى من أكلة لحوم الانسان ، من أن أكلف نفسى أن أبين لهم أننى لست كما يزعمون . لا بل إننى أحسب أنه لو ظن الناس فى مثل هذه الظنون لكان هذا مبعث فكاهة لنفسى أنعم بها وحدى وأنا أتأمل مقدار جهل هؤلاء الناس بى ، وضلالهم فى معرفة حقيقة أمرى

ولعل أهل الغرب إذا فشت فيهم عقيدة أننا من لابسى الجلود وآكلى اللحوم النيئة ، حملهم ذلك على بعض التحرز فى معاملاتنا ، وبعض الخشية من أنيابنا

ولا مؤاخذة . . . !

محمد فريد أبو حديد

بوانكاريه وبارتو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فقدت فرنسا فى أسبوع واحد رجلين من أعظم رجالها ، وسياسيين من أقدر ساستها وكاتبين من أكبر كتابها ، هما مسيو لوى بارتو وزير خارجيتها ، ومسيو رايمون بوانكاريه رئيس جمهوريتها الأسبق ؛ فذهب مسيو بارتو ضحية بريئة فى حادث مرسيليا المروع الذى اغتيل فيه الملك إسكندر ملك يوجوسلافيا ، وتبعه مسيو بوانكاريه الى القبر بعد أيام قلائل . وكان السياسى العظيم مريضاً منذ حين ، يستشفى فى الرڤييرا ، ولكنه عاد الى باريس منذ أشهر متمتعاً بالصحة والنشاط ، ثم توفى فجأة ، بينما كان يتابع الكتابة فى مذكراته ؛ فذهب بموته ركن من أعظم أركان السياسة الفرنسية المعاصرة . ولا يشغل بوانكاريه وبارتو مكانتهما الممتازة فى عالم السياسة فقط ، ولكنهما يشغلان مكانتهما الممتازة فى عالم البيان والأدب أيضاً ، ولكل منهما آثار أدبية تتبوأ المقام الأول بين تراث الأدب الفرنسى المعاصر

كان رايمون بوانكاريه فرنسياً عظيماً من غلاة الوطنية الفرنسية التى تذهب الى حد التعصب ؛ وكان يمثل مدرسة سياسية خاصة شعارها القومية المغرقة فى كل شىء ، ووسيلتها القوة والتفوق المادى قبل كل شىء ؛ وكانت سياسته قبل الحرب وفى خلالها ، ثم من بعدها ، تمثل دائماً روح العسكرية المحافظة ، وروح الاستعمار الجشع ، فكان بوانكاريه من أعظم بناة العسكرية الفرنسية ، وكان من أعظم بناة الامبراطورية الفرنسية الاستعمارية .

وكان مولده فى « بارلديك » من أعمال اللورين فى اغسطس سنة ١٨٦٠ ، ودرس الحقوق فى باريس ؛ وبدأ حياته العملية فى الصحافة ، فتولى حيناً تحرير القسم القضائى لجريدة « لى ڤولتير » ثم عين موظفاً فى وزارة الزراعة ، ولكن جو الوظائف الحكومية لم يرقه ، فاستقال لنحو عام من تعيينه ؛ وكانت أحداث السياسة تهزه وتستغرق اهتمامه ، فخاض المعركة الانتخابية ودخل البرلمان لأول مرة فى سنة ١٨٨٧ نائباً عن مقاطعة الموز . ومن ذلك الحين بدأ نجمه السياسى فى التألق ؛ وامتهن المحاماة فى باريس ، فظهر فيها بمقدرته وساحر بيانه ؛ وجدد انتخابه لمجلس النواب سنة ٨٩ ، ثم فى سنة ٩٣ . وفى هذا العام دخل الوزارة وزيراً للمعارف وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، ثم تولى وزارة المالية فى العام التالى ، ثم المعارف مرة أخرى سنة ٩٥ . واستمر فى مجلس النواب حتى سنة ١٩٠٣ ، ثم دخل مجلس الشيوخ ، وتبوأ بوانكاريه مركزه فى الزعامة السياسية ؛ كما تبوأ مركزه فى الزعامة الأدبية ؛ وكان الى جانب مقدرته السياسية كاتباً ممتازاً ؛ بلفت الأنظار روعة كتاباته السياسية والأدبية . وفى سنة ١٩٠٦ تولى وزارة المالية مرة أخرى . وفى سنة ١٩٠٩ توجت زعامته الأدبية بانتخابه عضواً فى الأكاديمية الفرنسية . وفى يناير سنة ١٩١٢ ألف بوانكاريه وزارته الأولى خلفاً لوزارة كايو المستقيلة ، وتولى الى جانب الرياسة وزارة الخارجية . وهنا بدرت بوادر الأزمات الدولية التى مهدت الى الحرب الكبرى ، فأبدى بوانكاريه خلال هذه العواصف قوة ومقدرة ، وظهرت قوة وسائله بالأخص فى مسألة مراكش حيث استطاع أن يرغم السلطان على الاعتراف بالحماية الفرنسية ، وظهرت ميول بوانكاريه العسكرية واضحة فى عنايته بمسألة التسليحات ، ومضاعفة قوى فرنسا البحرية . وفى سنة ١٩١٣ انتخب بوانكاريه رئيساً للجمهورية الفرنسية خلفاً للرئيس فاليير ؛ واستدعى أرستيد بريان لرياسة الوزارة . وكانت أوربا تسير يومئذ الى الأزمة الكبرى بخطى سريعة ؛ وكان بوانكاريه يسهر على ثمار سياسته ، وعلى المحالفات التى انتهت اليها . وفى يوليه سنة ١٩١٤ كان بوانكاريه الى جانب نيقولا الثانى قيصر روسيا فى بطرسبرج ؛ وكانت بواعث هذه الزيارة ظاهرة واضحة ، وهى تمكين التحالف الروسى الفرنسى ضد ألمانيا والنمسا والمجر ، وتنظيم الخطط للمعركة القادمة

ولما عاد بوانكاريه الى فرنسا كانت الأزمة قد وصلت ذروتها ولاح شبح الحرب جلياً فى الأفق . وكتب بوانكاريه بهذه المناسبة الى جورج الخامس ملك انجلترا خطاباً اشتهر بقوة منطقه وبيانه . ثم كانت الحرب ؛ فكان بوانكاريه رجل الموقف ؛ وأبدى خلال هذه الأعوام العصيبة كثيراً من الحزم والقوة والبراعة فى تدبير شؤون الحرب ومعالجة المشكلات الخطيرة التى كانت تثيرها ، واستطاع أن يقف البرلمان عند حده وأن يحمى الجيش من نفوذه ،

وأن يرد حملاته عن الحكومة ، وأن يقضى على التنافس الحزبي وآثاره السيئة فى سير الأمور . ولم يحجم فى سنة ١٩١٧ عن استدعاء خصمه القديم جورج كليمنصو الى تولى الحكم ، فكان موفقاً فى اختياره ، وكانت وزارة كليمنصو وزارة النصر النهائى

وهنا نقطة خطيرة يجب أن نشير إليها تلك هى موقف بوانكاريه الحقيقى إزاء الحرب الكبرى ومبلغ مسئوليته فى العمل لإثارتها . وقد أثارت مسئولية الحرب منذ عقد الصلح كثيراً من البحث والجدل ، وألقى عليها كثير من الضوء سواء من الوثائق الرسمية المختلفة التى نشرت ، أو تصريحات أقطاب السياسة الأوربية الذين اتصلوا بمقدماتها . وقد ظهر منها جميعاً أن رايمون بوانكاريه يحمل فى إثارة الحرب الكبرى أكبر التبعات وأنه كان من العاملين لها قبل نشوبها بأعوام ؛ وظهر بالأخص من الوثائق السياسية التى نشرها مسيو أزفولسكى سفير روسيا فى باريس قبيل الحرب ، أن بوانكاريه كان دائب العمل بالتفاهم مع القيصر على تنظيم الخطط لإذكاء الأزمة ، وأن زيارته للقيصر فى يوليه سنة ١٩١٤ لم تكن إلا لأحكام خطط العمل والدفاع فى الحرب المنشودة . وهذه نقطة خطيرة تثقل كاهل بوانكاريه بلا ريب ، ولم يوفق هو قط إلى دحضها رغم كل ما قال وكل ما كتب .

وانتهت رياسة بوانكاريه للجمهورية فى سنة ١٩٢٠ ، وخلفه مسيو دى شانل الذى لم تطل رياسته سوى أشهر ؛ وعاد إلى مجلس الشيوخ ، وإلى العمل فى المحاماة والصحافة ، وفى يناير سنة ١٩٢٢ ، ألف بوانكاريه وزارته الثانية ، وتولى وزارة الخارجية ، وكان الجدل يشتد يومئذ بين فرنسا وألمانيا حول تنفيذ شروط معاهدة الصلح وأداء التعويضات المفروضة على ألمانيا ؛ وكان بوانكاريه يرى منذ البداية أن تذل ألمانيا ، وتسحق حتى النهاية ، وكان من أشد خصوم الهدنة ووقف الحرب ، وكان يرى مع فوش أنه يجب مطاردة الجيش الألمانى حتى عاصمة بلاده ، وجعل الرين حداً لألمانيا ؛ فلما بدأت ألمانيا فى التذمر من شروط الصلح ، ومن أداء التعويضات ، رأى بوانكاريه الفرصة سانحة للعمل ، فقرر احتلال الروهر فى أوائل سنة ١٩٢٣ تنفيذاً للعقوبات التى نصت عليها المعاهدة فى حالة التخلف عن التنفيذ ، وكان هذا الاجراء من أشنع الأخطاء التى ارتكبتها السياسة الفرنسية ؛ ولم يقف إلى جانب فرنسا فيه سوى بلجيكا ؛ وانتهى إلى عكس المقصود منه إذ أثار فى ألمانيا روح السخط والمقاومة ، وفقدت فرنسا من جرائه كثيراً من العطف ، وظهرت فيه بمظهر التحامل والتحرش ؛ وفقد بوانكاريه أيضاً كثيراً من ثقة مواطنيه وتقديرهم ؛ وظهر ذلك جلياً فى انتخابات سنة ١٩٢٤ حيث فاز فيها خصومه ومعارضوه واضطر إلى الاستقالة ؛ وتتابعت من بعده عدة وزارات ضعيفة كانت تسحقها الأزمة المالية وأزمة الفرنك بنوع خاص . ولما تفاقم خطب الفرنك وكادت فرنسا تنكب بكارثة مالية شنيعة دعى الرجل القوى (بوانكاريه) إلى الحكم مرة أخرى فى يوليه سنة ١٩٢٦ ، فلبى الدعوة ؛ واستطاعت وزارته بما اتخذت من التدابير السريعة القوية أن تجتنب الكارثة وأن ترد إلى الفرنك ثباته ، واستمر بوانكاريه فى الرياسة إلى سنة ١٩٢٩ ، ثم استقال لأسباب صحية ، وتفرغ إلى كتابة مذكراته التى بدأ بإخراجها قبل ذلك بأعوام تحت عنوان « فى خدمة فرنسا » Au Service de France ، وفيها يبسط مراحل حياته السياسية ، وما اضطلع به من الأزمات السياسية قبل الحرب وفى أثنائها ، وما بذله من جهود لإحراز النصر . وكان بوانكاريه أثناء اعتزاله الحكم يكتب فى الصحف فصولاً سياسية قوية ، واشتهرت منها بالأخص سلسلة مقالات يكتبها تحت عنوان « الوعاء المتكسر » ، وفيها يندد دائماً بسياسة الضعف نحو ألمانيا ؛ وكما أن بوانكاريه كان يعرب فى سياسته عن عميق تعصبه القومى ، فكذلك تطبع كتاباته مثل هذه النزعة القومية العميقة ، وهو ينحو فى ذلك نحو مواطنه الكاتب اللوريني الأشهر موريس باريس الذى اشتهر بعنف حملاته على ألمانيا ، وتحريضه على سحق العنصر الجرمانى ؛ ولبوانكاريه آثار أدبية وتاريخية أخرى ، وله فى المحاماة مواقف مشهورة ، وقد وصل أثناء العمل بها إلى أرفع ما يطمح إليه محام ، وانتخب نقيباً للمحامين ، ورفع بذلك إلى صف أعلام الفصاحة القضائية ، كما رفع من قبل إلى ذروة المجد السياسى .

وقد لبثت السياسة الفرنسية مشربة بروح الأثرة والقومية

المبتقة ، الذي عمل لاذكائه رجال مثل فوش وبوانكاريه وكليمنصو ؛ ثم تطورت منذ سنة ١٩٢٦ ، أي منذ اشتد ساعد الاشتراكيين والاشتراكيين الراديكاليين ، وقويت الدعوة إلى السلام والتضامن الدولي ، وتولى أرستيد بريان توجيه السياسة الخارجية الفرنسية ، ولاح مدى حين أن التفاهم ممكن بين أعداء الأمس ، وأن سلام العالم يمكن تحقيقه بالوثائق والمعاهدات الصريحة ، ولكن بريان توفي بعد أن ازور نجمه ؛ ثم قامت الاشتراكية الوطنية في ألمانيا ، وعادت موجة التطرف الهتلرى توجه النذير إلى فرنسا ؛ فعادت فرنسا إلى سياستها القومية المتطرفة ، وظهر بوانكاريه لمواطنيه مرة أخرى بأنه في دعوته إلى هذه السياسة ، أبعد نظراً من الوجهة العملية ، من أولئك الذين ينشدون السلام بالتفاهم والحسنى .

***

وقد كان لوى بارتو من تلاميذ هذه المدرسة السياسية المغرقة في القومية ، وكان مثل صديقه وزميله بوانكاريه يؤمن بسياسة القوة والتحالف العسكرى . وكان مولده في بيارن من أعمال فرنسا الجنوبية سنة ١٨٦٢ ، ودرس الحقوق أيضاً ثم انتظم في سلك المحاماة ، تلك المهنة الخلابة التي يتخرج فيها معظم الساسة الفرنسيين ؛ ودخل بارتو مجلس النواب لأول مرة في سنة ١٨٨٩ ، ولم يلبث أن ظهر بقوة منطقه وبيانه . ودخل الوزارة لأول مرة سنة ١٨٩٤ إلى جانب بوانكاريه وهو يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره . وكانت يومئذ بدعة أن يتولى الوزارة فتيان أحداث مثل بارتو وبوانكاريه . ولكن النبوغ المتفتح كان يسود كل اعتبار آخر ؛ واستمر بارتو بين النيابة والمحاماة ، مدى حين . وتولى الوزارة بعد ذلك مراراً ، في وزارة الأشغال والداخلية . ثم تولى وزارة الحقانية منذ سنة ١٩٠٩ في وزارة بريان ، واستمر في هذا المنصب أربعة أعوام . وفي سنة ١٩١٣ استدعى بارتو لرئاسة الوزارة ، فاستمر مضطلعاً بأعبائها إلى ماقبيل الحرب الكبرى ؛ واستطاع في هذه الفترة أن يحمل البرلمان على إصدار قانون الخدمة العسكرية الجديد الذي مدها إلى ثلاثة أعوام ؛ ثم تولى وزارة الأشغال مرة أخرى في سنة ١٩١٧ ، ثم وزارة الحقانية في وزارة بوانكاريه الثانية (سنة ١٩٢٤) . وعني بارتو بدرس حركة النقابات وأصدر عنها كتاباً جامعاً بعنوان العمل النقابي L' action Syndical وظهر في عالم الأدب ظهوراً قوياً ، واشتهر بروعة أسلوبه التحليلي ؛ وكتب تراجم نقدية بديعة لميرابو خطيب الثورة الفرنسية ولامارتين وغيرهما وهي من أقيم كتب الترجمة الفرنسية ، وكتب كتاباً عن غرام فكتور هوجو Les amours d'un Poeté وهو من أرق ما كتب عن هذا الشاعر ؛ وكتب رسالة عن ڤاجنر ؛ وكتب غير ذلك من الكتب والرسائل مما يضيق المقام بذكره ؛ وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية منذ سنة ١٩٢٤ ؛ وكان محاضراً ومحدثاً ساحراً ، اشتهر بغزر ثقافته وقوة عارضته وتدفق بيانه .

ولما نشبت الحرب الكبرى دفع بارتو بابنه الوحيد إلى الصفوف المدافعة عن الوطن ، فقتل في المعارك الأولى ، وأصاب فؤاد الوالد الكسير جرح لم يندمل قط .

وعاد بارتو مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ في سنة ١٩٢٢ واستمر يخوض المعركة السياسية ؛ ولكنه كان من فريق الساسة الهادئين الذين لايظهرون كثيراً على مسرح المعارك الصاخبة . ثم تولى وزارة الخارجية منذ فبراير الماضي ، وكانت منذ سنة ١٩٢٧ وقفا على ارستيد بريان حتى توفي سنة ١٩٣٢ ؛ وتولاها من بعده بول بونكور . وكانت وفاة بريان نذيراً بتطور سياسة فرنسا الخارجية ، وعودها إلى الخضوع لروح الأثرة والوطنية المغرقة ؛ فلما تولاها بارتو كانت نظريات فوش وبوانكاريه قد غلبت في توجيهها مرة أخرى ؛ وبارتو من أبناء هذه المدرسة كما قدمنا . وجاء عنف الحركة الهتلرية في ألمانيا نذيراً جديداً لفرنسا بوجوب التحوط ومضاعفة الأهبات والمحالفات العسكرية . وقد أبدى بارتو في تنفيذ هذه السياسة نشاطاً وبراعة فائقين فطاف بالبلاد المحالفة لفرنسا مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا ليحكم أواصر التحالف بينها وبين فرنسا ، ولكي تحاط ألمانيا بسياج قوى من الأمم الخصيمة التي تقف وقت نشوب الحرب إلى جانب فرنسا . بيد أن أعظم ظفر استطاع بارتو أن يتوج به سياسته هو تقوية التفاهم الفرنسي الروسي واستئناف سياسة التحالف القديم بين روسيا

وفرنسا ، وإدخال روسيا فى حظيرة عصبة الأمم وحظيرة الدول الغربية بعد أن لبثت بعيدة عنها زهاء ستة عشر عاما . وكانت هذه أول مرحلة فى سياسة فرنسا الجديدة لتحقيق عزلة المانيا عن باقى الدول الأوربية ؛ وكانت المرحلة الثانية ، هى توثيق أواصر التحالف بين يوجوسلافيا وفرنسا ، ثم حمل يوجوسلافيا على التقرب من إيطاليا ، وأخيراً تحقيق التفاهم بين فرنسا وإيطاليا وتسوية المسائل المعلقة بينهما وحملها بذلك على نبذ سياسة التفاهم مع المانيا الهتلرية بصورة نهائية . وكانت زيارة الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا تحقيقاً لهذا البرنامج . ولكن وقعت فاجعة مرسيليا التى ذهب ضحيتها الملك اسكندر ومسيو بارتو ؛ ولقيت السياسة الفرنسية بذلك صدمة قوية . بيد أنها صدمة مؤقتة ، والظاهر أن فرنسا ستمضى فى تنفيذ برنامجها السياسى ، وأن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد ، سيستأنف العمل حيث وقف مسيو بارتو ؛ وسيقوم مكانه بزيارة رومه ، كما كان مقرراً من قبل . ولكن الموقف ما زال غامضاً ، ولا سيما إزاء ما يخشى وقوعه فى يوجوسلافيا عقب وفاة الملك اسكندر من الحوادث والتطورات الخطيرة .

* * *

تلك سيرة الرجلين اللذين فقدتهما فرنسا فى أسبوع واحد . وقد فقدت فرنسا فى الأعوام الثلاثة الأخيرة جل أقطاب زعمائها القدماء ، مثل كليمنصو وفوش ودومير وبريان وبوانكاريه وبارتو ؛ وطويت بذهابهم مرحلة أو مراحل من تاريخ فرنسا المعاصر ، ولم يبق من أقطاب ساسة الجيل المنصرم سوى القلائل ، مثل تارديو الذى يمثل الكتلة القومية ، وهريو الذى يمثل السياسة الأشتراكية . ولا ريب أن فرنسا ستشعر بفداحة هذه الخسارة خصوصاً فى هذه الآونة العصيبة التى تقتضى كثيراً من العمل السياسى المستنير . بيد أن للسياسة الفرنسية تقاليد راسخة ، وسوف يبرز الى الميدان السياسى رهط من الساسة والزعماء الجدد ليملأوا ذلك الفراغ ، وليقودوا الجمهورية الثالثة الى نفس المثل والغايات التى عمل لها ساسة الجيل الراحل

محمد عبد الله عنان
المحامى

فى العيد الألفى لمولد الفردوسى

الشاهنامه

للدكتور عبد الوهاب عزام

ترجمة الكلمة التى ألقاها الأستاذ عزام بالفارسية على قبر الشاعر فى طوس

لست أريد أن أفصل الكلام فى الشاهنامه أو بعض مباحثها الكثيرة . فأدباء إيران الكرام أعرف بذلك وأقدر عليه ، ولكني أريد أن أتقدم اليكم بكلمة موجزة تبين عن مكانة الشاهنامة فى آداب الأمم ولا سيما الأمم الشرقية :

قال بعض المؤلفين إن الشاهنامه إلياذة الشرق . وذلك التشبيه غير صحيح من بعض الوجوه ، فان الشاهنامه جديرة أن يكون لها بين أمم الشرق مكانة أرفع من مكانة الالياذة بين أمم الغرب . ذلكم بأن الالياذة قصة حروب وقعت فى معترك ضيق من آسيا الصغرى بين اليونان والطرواديين . وهى زهاء ثمانية آلاف بيت ، تستمر حوادثها ستة وخمسين يوماً . والشاهنامه تقص حادثات ميدانها ما بين الهند والصين إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتشمل كل ما وعت الروايات من تاريخ الأمة الايرانية وأساطيرها من أقدم عصورها الى العهد الاسلامى ، ويشترك فى وقائعها التورانيون والعرب والروم والهند ، ولا تحرم الصين من نصيب فيها . فكل أمم آسيا العظيمة وبعض أمم أوربا يتناولها موضوع هذا الكتاب العظيم . فقد أوعى الكتاب من التاريخ والأساطير ما هو جدير بعناية المؤرخ الناقد ، مؤرخ السياسة أو مؤرخ الأدب والاجتماع

وصفت الشاهنامه نشوء الحضارة الايرانية وتطورها ، وقصت تاريخ الايرانيين ملوكهم وأبطالهم وكبرائهم فى القرون المتطاولة ، وأبانت عما كان بينهم وبين الأمم المجاورة من عداء ومودة ، وحرب وسلم . وصفت الجلاد الهائل المستمر بين إيران وتوران ، ثم مثلت ما كان بين الأمتين من جوار ومودة فى القرابة بين ملوك إيران وتوران ، إذ جعلتهم جميعاً بنى أفريدون ، ثم وصلت هذه القرابة بمصاهرات عديدة : كتزوج سياوخسن بن كيكاوس جريرة بنت پيران أعظم قواد التورانيين ، ثم فرنكيس بنت أفراسياب أعظم ملوك توران ، ومن سياوخسن وفرنكيس ولد كيخسرو حفيد كيكاوس وسبط أفراسياب . وكذلك نجد فى العصور التاريخية تزوج أنوشروان بنت الخاقان

وأما العرب فقد أجمل الكتاب في أنبائهم ما كان بين الايرانيين والساميين من حوادث في العصور المتطاولة ، فجعل الضحاك عربياً ، وقص وقائع كيكاوس وملك هاماوران (حمير) ووقائع أخرى بين الساسانيين والقبائل العربية . ثم ذكر طرفاً مما كان بين الأمتين من مودة وتعاون فيما كان من مصاهرة بينهما إذ تزوج بنو أفريدون الثلاثة سلم وتور وايرج ثلاث بنات لملك اليمن . وتزوج كيكاوس سوذابة بنت ملك حمير ، وتزوج زال بن سام روذابة بنت مهراب ملك كابل وهي عربية من نسل الضحاك ، فولد رستم بطل الأبطال من أب إيراني وأم عربية . وأوضح من هذا ما كان بين الأمتين من مودة في العهد الساساني أعظم مظاهرها علاقة ملوك الحيرة بملوك الفرس ، وما كان للفرس من سلطان ومحبة بين العرب في البحرين واليمن

والروم ذكروا في أنباء الوقائع المادية التي كانت بين الساسانيين ودولة الروم الشرقية وفي قصة الاسكندر . ووصفت مودتهم في قرابة ملوك الروم أبناء سلم بن أفريدون ، وفي تزوج كشتاسب بن لداسب من كتايون بنت ملك الروم ، وتزوج كسرى پرويز مريم بنت القيصر

والهند ذكروا في حوادث منها وقائع كابلستان وحوادث بهرام كور وتزوجه بنت ملك الهند . والصين تذكر في وقائع التورانيين وفي التجارة

فهذه المنظومة العجيبة التي تتناول حوادث قرون وأمم كثيرة لا ينبغي أن تشبه بالالياذة الضيقة الحدود ؛ وينبغي أن تكون عناية الشرقيين بها أعظم من عناية الغربيين بالالياذة

ولا ريب أن في الشاهنامه أساطير كثيرة ، ولكن الأساطير في الأدب أروع من الحقائق . ثم لا ينكر دلالة الأساطير على تطور الأمم وعلى كثير من عاداتها وأخلاقها . فان الأساطير وليدة خيال الأمة وأمانيها ، لا يحدها الواقع ولا تضيقها الحقيقة

فكم في أساطير الشاهنامه في العهدين الأول والثاني — عهدي البيشداديين والكيانيين — من حقائق دينية واجتماعية وتاريخية ألبست ثوب الخيال ، وحرفت فيها الوقائع والأسماء

وللشاهنامه ميزة أخرى على الالياذة ، وملاحم أخرى كالمهابهاراته والرامايانا ، بأنها كلها لشاعر واحد ، اذا استثنينا ألف البيت التي نظمها الدقيقي . والفردوسي ناظمها شاعر تاريخي معروف لا يشك أحد في وجوده ، وأنه ناظم هذه الملحمة الرائعة ، على حين يكثر خلاف المؤرخين في الالياذة وناظمها ، وعلى حين أن المهابهاراتا والرامايانا نظم شعراء عديدين بعضهم مجهول

فالشاهنامه سجل تاريخ أمة وأساطيرها منذ أقدم عصورها ، وهذا لا يعرف في منظومة أخرى

* * *

لم يكن الفردوسي مخترع هذه الحادثات بل كان مصورها ، فقد نظم الرجل ما ادخرته الروايات ، ولم يكن حراً في الذهاب مع خياله كيف يشاء . ودليل هذا في الكتب الأخرى ولاسيما كتاب الثعالبي «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» وهو أقرب الكتب الى الشاهنامه ، وقد عاصر الثعالبي الفردوسي وقدم كتابه للأمير نصر أخي السلطان محمود الغزنوي الذي قدمت اليه الشاهنامه



أبو القاسم الفردوسي لدى عودته من عند السلطان محمود الغزنوي

وهذا يزيد في قيمة الكتاب ، ويجعله مرآة تاريخ الأمة وأفكارها ، لا صورة من خيال الشاعر وأوهامه . وهذا أيضاً يزيد في قدر الفردوسي ، فيسير جداً أن يذلل الشاعر هذه الأكداس من الحوادث للنظم السلس المتين ، ويكلف نفسه السير في حزنها وسهلها ، لا يتخير الأيسر والأسهل من موضوعات النظم .

لو كانت الشاهنامه قصصاً منثورة خالية من روعة الشعر وموسيقى النظم ، لكانت مع هذا جديرة بعناية الايرانيين والأمم الشرقية ، ثم عناية المؤرخين والباحثين في الأمم كلها . فكيف وقد أفرغت هذه القصص في صور شعرية رائعة ، ونظم متين منسجم ، يزيد المعنى جلالاً وروعة ؟ كيف وهي جهد شاعر

نابغة فى أكثر من ثلاثين عاماً ؟ لا تقتصر الشاهنامه على قصص الحادثات ، ولكنها تصور الوقائع حتى يكاد القارىء يرى الفرسان فى حومة الوغى ، ويبصر النقع معقوداً فى الآفاق ، ويسمع صليل السيوف ووقع الأسنة ، وصياح الأبطال وصهيل الخيل

وهذا الفردوسي وصاف الحروب لا يقصر فى تصوّر عواطف الانسان والابانة عنها على لسان أبطال قصته ، وهو ليس عاجزاً فى قصص الحب كما ترى فى قصة زال وروذابه ، وقصة بيژن ومنيژه ، وقصة گشتاسب وكتايون . وناهيك به رجل أخلاق لا يألو فى الدعاء الى الخير والنهى عن الشر . وهو بصير بأحداث الزمان يستخرج المواعظ من وقائع الكتاب ، فلا يكاد يفتتح فصلاً أو يختمه إلا واعظاً بليغاً محذراً من غِيَر الزمان

وإنى أستشهد هنا أستاذاً من كبار المستشرقين درس الشاهنامه درساً بليغاً ، هو الأستاذ نلدكه الألمانى قال :

« إن الفردوسي شاعر مطبوع ، يستولى على فكر القارىء ، ويحيى القصة التافهة بانطاق الممثلين أمامنا ، بل كثيراً ما تضيع الحركات فى جلال الأقوال . وهو يفصل الحادثات فيبين أحسن إبانة عن حادثة لم يكتب عنها فى الأصل الذى نظم عنه أكثر من أنها وقعت ، ويبيح لنفسه أن يخلق حادثات صغيرة ليتم الوصف . وهو يعرف كيف يحيى أبطاله ، بل يخرج أحياناً البطل فى صورة جديدة غير التى عرفته بها الروايات ، وما أقدره على تبيان ماوراء أعمال الأبطال من أسباب وأفكار . والوصف النفسانى رائع جدا ، ونغمة البطولة تسمع فى الكتاب كله ، وعظمة الزمان القديم وأبهته ، وفرحه وترحه وجلاده ، مصورة فى أسلوب معجب ، حتى ليسمع الانسان صليل السيوف وجلبة المآدب . هو لا يبلغ فى التفصيل مبلغ هومير ، ولا يستطيع مثله أن يجمل حادثة فى كلمات قليلة ، ولكنه مع هذا يمضى قدماً الى غايته حين يصف الوقائع ، وإن يكن فى الخطب والرسائل مكثاراً

مشاهد الحرب تستقبل القارىء فى كل مكان ، ولكن هناك ميادين للحب والعواطف الرقيقة ، فهناك قصص للحب عظيمة كقصة زال وروذابه ، وبيژن ، ومنيژه . وهى أجمل أقسام الكتاب ، والشاعر فى هذا ، بل فى كتابه كله ، يملك القارىء ببساطة الوصف . وعاطفة الأمومة والأبوة والقرابة واضحة فى الكتاب كذلك ، ولكن يصحبها التعطش للدماء ثأراً للأقارب ، فقصة الانتقام لسيا وخسن مثلاً تملأ صفحات من الكتاب كثيرة جداً ، وهذا الولع بالثأر يتمكن حتى نجد الرجل العاقل گودرز يشرب دم أطيب الأعداء پيران . . . .

ويتجلى فى الكتاب كذلك ندب حظوظ الانسان فى هذا العالم الحائل والاعتبار بتَغيّر الزمان » اه

هذه الميزات الأدبية والتاريخية جعلت للشاهنامه مكانة علية فى الأدب الفارسى منذ نظمت ، فحاكاها كثير من الشعراء بقصص متصلة بموضوعها ، فنظمت ست قصص أبطالها من أسرة رستم وهى : گرشاسب نامه ، وبطلها گرشاسب جد أسرة سام ابن نريمان . وسام نامه ، وبطلها سام بن نريمان جد رستم . وجهانگير نامه ، وبطلها جهانگير بن رستم . وفرامرز نامه ، وبطلها فرامرز بن رستم . وبانو گشاسب نامه ، وبطلتها بانو گشاسب بنت رستم وامرأة گيو بن گودرز . وبرزو نامه ، وبطلها برزو بن سهراب بن رستم . ونظمت بهمن نامه ، وبطلها بهمن بن اسفنديار

ثم نظمت بعد قصص أخرى كتيمور نامه التى نظمها الهاتفى ، وشاهنامة القاسمى الكونابادى ، وشاهية مجد الدين البابوى النسائى . ولا تزال محاكاة الشاهنامه مستمرة حتى العصر الحاضر

وقد حاكاها الترك إن صح ما روى أن شاعراً فى القرن العاشر الهجرى من بروسه اسمه الفردوسى الطويل نظم شاهنامه طويلة جداً فى ٣٨٠ جزءاً ، وأهداها للسلطان بايزيد الثانى ، فأمر بانتخاب ٨٠ جزءاً منها وإحراق الباقى ، فغضب الشاعر وهجا السلطان وهجر بلاد الروم الى خراسان حيث مات غمّاً

وأولع الناس بترجمة الشاهنامه الى لغاتهم ، فترجمت الى عشر لغات . وكانت اللغة العربية أولى اللغات بترجمة الشاهنامه : لما بين الأدبين العربى والفارسى من التقارب . ولذلك كانت العربية أسبق اللغات الى إحراز هذه الترجمة . فقد أمر الملك المعظم بن الملك العادل الأيوبى الفتح بن على البندارى الأصفهانى أن يترجم الشاهنامه الى اللغة العربية ، فشرع يترجمها فى جمادى الأولى سنة ٦٢٠ ، وأتمها فى شوال سنة ٦٢١ . استطاع أن يترجم هذا الكتاب العظيم فى ثمانية عشر شهراً ، وهى همة عالية ومقدرة عظيمة من هذا الأديب الكبير . ونحن نعترف لاخواننا الايرانيين بفضل إنشاء الشاهنامه وفضل ترجمتها الى اللغة العربية

ترجم البندارى الكتاب نثراً بلغة سهلة غير متكلفة ، ونقل الحوادث مجردة من التفصيل والتصوير الشعرى ، فجاء الكتاب

فى نحو ١٨٥٠٠ سطر ، فى كل سطر نحو عشر كلمات . وذلك نحو نصف الشاهنامه

ومعظم تصرف المترجم يرجع الى ما يأتى :

١ — حذف بعض الفصول الصغيرة كفصل تجريب أفريدون أولاده فى قصة أفريدون ، وقتل رستم الفيل الأبيض وذهابه الى الجبل الأبيض فى قصة منوچهر ، ومقاتلة رستم وجنكس فى قصة كامدس الكاشانى ، ونصح زال ابنه رستما فى قصة اسفنديار الخ

٢ — وحذف بعض الحوادث كما حذف ما وقع بين رستم والتركمان حينما ذهب لاحضار كيقباد من جبل البرز ، وحذف ذهاب امرأة گيو الى أبيها رستم حينما ذهب زوجها الى توران باحثاً عن كيخسرو

٣ — وحذف أكثر مقدمات الفصول التى يتكلم فيها الفردوسى عن نفسه أو يعظ ، كما حذف مقدمة قصة سهراب ورستم التى تكلم فيها الشاعر عن موت الشبان وحكمته ؛ ومقدمة قصة سياوخش التى يتكلم فيها الفردوسى عن الشعر والكلام البليغ

٤ — اختصار الرسائل والخطب والوصايا المطولة ، واختصار الوصف فى الحروب وآلات الحرب ، ووصف الخيل والوحوش ، ووصف المآدب الخ

٥ — وحذف مدائح السلطان محمود ، وإثبات مدح الملك المعظم فى بعض مواضعها

٦ — وزيد روايات من كتب التاريخ كالطبرى والمسعودى ، كما روى قصة ملك الحضر فى عهد سابور بن أردشير ، ونقل ما كان بين هرمز بن نرسى ورعيته

والمترجم فى هذا أمين لا ينقل كلمة من كتاب آخر إلا نبه اليها الخ . الخ . وقد أصلحت بعض هذه العيوب على قدر الطاقة حينما نشرت الترجمة العربية

ثم لم ينقل المترجم الى العربية جمال شعر الفردوسى ، ولكن نقل حوادث الشاهنامه مختصرة فيسَّر لقارئ العربية الاحاطة بموضوع الكتاب فى وقت قصير . ولا بد أن يكمل نقص هذه الترجمة بترجمة منظومة للكتاب كله أو لفصول منه

ولهذه الترجمة العربية قيمة أخرى ، فقد ترجمت فى أوائل القرن السابع الهجرى قبل أن يكثر الاختلاف بين نسخ الشاهنامه . وليس عندنا نسخة من الكتاب ترجع الى ذلك القرن . فيمكن أن يستعان بهذه الترجمة فى المقارنة بين نسخ الشاهنامه المختلفة وترجيح بعضها على بعض

***

اهتمت الأمم الشرقية الاسلامية من بعد بترجمة الشاهنامه ، فترجمت الى التركية العثمانية ، والى التركية الشرقية ، وطبعت الترجمة الأخيرة فى طشقند سنة ١٣٢٦ . وترجمت الى اللغة الكجراتية وطبعت فى بمباى (١٨٩٧ — ١٩٠٤) ، وترجمت الى اللغة الأردية كذلك

وفى القرن التاسع عشر الميلادى عرف الأوربيون الشاهنامه واهتموا بها ، فترجمها مول الى الفرنسية وطبعت على نفقة الدولة فى نصف قرن بين سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٧ وطبع معها الأصل الفارسى فى ثمانية مجلدات ضخمة ، وهى أعظم طبعة للشاهنامه عرفت فى العالم كله

وترجم اتكنسون الى الانكليزية رستم وسهراب ، ثم الكتاب كله ترجمة مختصرة وطبعت فى لندن سنة ١٨٣٠ ، وترجم أرنولد سهراب ورستم أيضاً . ثم ترجم ورنر وأخوه الكتاب كله نظماً وطبع سنة ١٩٠٥ فما بعدها ، وكذلك ترجم رجرس معظم الكتاب وطبع فى لندن سنة ١٩٠٧

وترجم الكتاب الى الألمانية نظماً مرتين : ترجمة فون شاك وطبع فى برلين سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٦٥ ، ثم ترجمة ركرت ، وطبع فى برلين من سنة ١٨٩٠ — سنة ١٨٩٥

ومن قبلهما ترجم جرس خلاصة الكتاب الى موت رستم ، وطبعه فى برلين سنة ١٨٣٠

وأوفى ترجمة للشاهنامه الترجمة الايطالية ، ترجمها بزى نظماً ، وطبعها فى تورينو ١٨٨٦ — ١٨٨٨ فى ثمانية مجلدات

وطبع الأوربيون الشاهنامه الفارسية نفسها مراراً ، طبع الجزء الأول منها لمسدن فى كلكتا سنة ١٨١١ ، وطبعها كلها ترنر مكن فى كلكتا سنة ١٨٢٩ وهذه الطبعة أصل لطبعات أخرى . وطبعها مول فى باريس كما تقدم . وطبع ثلاثة أجزاء منها فون فولر فى ليدن بين سنة ١٨٧٧ و سنة ١٨٨٤

فهذا اهتمام الأوربيين بالشاهنامه وهم لا تربطهم بها وبقومها ما يربط الأمم الشرقية . وإنا لنرجو أن يزيد اهتمام الشرقيين بهذه المنظومة العظيمة حتى لا تخلو لغة من اللغات الشرقية من ترجمة كاملة منثورة ومنظومة

ولعل هذا الاحتفال العظيم بذكرى شاعرنا النابغة الخالد ،

٦ ـ الشخصيــــة

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

أنواع الشخصية

الشخصية نوعان : عملية وفكرية ، ولنتكلم عن كل منهما بالتفصيل فنقول :

(١) الشخصية العملية

كثيراً ما يُسأل الانسان : أيهما أفضل : الأمور النظرية أم العملية ؟ وبعبارة أخرى أيهما أفضل : الأفكار أم الأعمال ؟ وجوابنا على ذلك أننا لا نستطيع أن نفصل النظريات من العمليات ، فنحن فى حاجة إليهما معاً ، وكل منهما متوقف على الآخر ومكمل له ، لا ضده ونقيضه كما يظن البعض ، والأفكار أمهات الأعمال ، ومن الممكن اعتبارها مظهرين لشىء واحد

وكما أن لكل أمر من الأمور ناحيتين : إحداها نظرية والأخرى عملية ، كذلك نقول إن للشخصية ناحيتين : نظرية وعملية ؛ فالرجل مثلاً قد يكون موضع الاعجاب لأفكاره وأعماله ، ولو أن الأعمال فى النهاية نتيجة للأفكار ، ومع ذلك قد تغلب على الانسان إحدى الناحيتين : النظرية أو العملية تبعاً لميوله وعاداته ، فهذا قد يميل إلى الجهة العملية ، وذلك قد يميل إلى الناحية الأدراكية فتنمى فيه بطريقة التعود هذه الناحية أو تلك

ولا شك فى أن الشخصية العملية التى تظهر بالعمل والتنفيذ أكثر أثراً وظهوراً فى الحياة العملية من الشخصية الفلسفية البعيدة عن هذه الحياة . والأولى كممثل يقوم بتمثيل دوره عملياً على المسرح أمام الناس ، والثانية كمن يقوم بتمثيل دوره فى الخفاء أو وراء الستار بعيداً عن الأنظار ، فأثر الأولى أكثر وضوحاً وظهوراً من أثر الثانية . وتتمثل الشخصية العملية فى المصلحين وقادة العمل والمستكشفين الذين ترى آثارهم فى أعمالهم التى قاموا بتحقيقها وتنفيذها خدمة للانسانية . وتتمثل الثانية فى الشعراء والفلاسفة والخياليين الذين يقومون بتصوير الأشياء ووصفها ، فيسبحون تارة فى عالم الحقيقة ، وتارة فى عالم الخيال ؛ ولا ينكر فضلهم أحد ، ولكن أثرهم فى هذا العالم المادى أقل ظهوراً ؛ ففى اليوم الذى اجتاز فيه (بُليريُوت) القنال الانجليزى بطيارته كانت الأفكار كلها وأحاديث الفخر والاعجاب موجهة إليه ، لا إلى العالم الذى فكر فيها عدة سنوات حتى اخترعها

وإننا لانقصد بذلك أن نقلل من قيمة العلماء والمفكرين أو قادة الفكر ، ولكننا نقصد الاعتراف بأن تأثير رجال الأعمال أظهر من تأثير رجال الفكر ، وأننا نتأثر بالأعمال النبيلة أكثر من تأثرنا بالأفكار مهما كانت سديدة ، ولا ننكر أن الفكر والوجدان ينتهيان بالعمل

ومنذ زمن ليس بالبعيد كانت التربية تفكر فى العلم أكثر من العمل ، فكان الانسان إذا اختُبر سُئل عن « مقدار ما يعرفه » أما اليوم فقد تبدلت الحال وانعكس الأمر ؛ فأصبحت التربية تعنى كل العناية بالعمل والأعمال ، وأصبحت الأسئلة : « ماذا فعل الانسان ؟ وماذا يستطيع أن يفعل ؟ وما مقدار ما يفعل ؟ » ولم تكن الجامعات فيما مضى لتعنى بالجانب العملى من الحياة ، ولم تكن لتعمل على تربية رجال ليعملوا ، بل كانت عنايتها موجهة إلى تكوين رجال مثقفين حباً فى الثقافة ، معلمين حباً فى العلم ، ليكونوا كزينة لها أينما وجدوا فى الأسرة أو فى المجمع الدينى أو فى المجمع الأدبى . وكان الرجل الجامعى المثقف لا ينتظر منه أن يعمل شيئاً بيده ، فكان كأداة من أدوات الزينة ، وكان المجتمع يزدريه ويحتقره إذا حاول أن يعمل عملاً يدوياً . أما الأعمال اليدوية وأما الصناعات فكانت خاصة بالطبقة الفقيرة التى تُدعى

يكون فاتحة نهضة فى الشرق توفى الشاهنامه حقها من العناية

وإن المندوبين المصريين ليسران ويفتخران بالمشاركة فى هذا المهرجان ، ويبلغان مشاركة الحكومة المصرية والأمة المصرية الاحتفال بالفردوسى الشاعر العظيم الذى تربطه بهم وأدباء الفرس عامة روابط أدبية وتاريخية لا تمحى على كر الأيام

عبد الوهاب عزام

الخميس ٢٠ جادى الأولى سنة ١٣٥٣
٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٤

الطبقة العاملة . وكان يظن خطأ أن هذه الطبقة خلقت لتعمل ، أما الطبقة الأخرى فخلقت لتفكر

أما اليوم فقد أصبحت الفكرة السائدة أن التفكير غير مقصور على طبقة من الطبقات ، وأن العمل لا تختص به طائفة دون أخرى ، وصار التعليم عاماً بين الفقراء والأغنياء على السواء في الأمم المتمدينة ، لا يمتاز به هؤلاء على أولئك ، وجعل وسيلة لاعداد الجميع للقيام بواجبهم العلمي والعملي والأدبي في الحياة . وأصبحت الفرصة ، فرصة العمل ، سانحة أمام الجميع من غير ما تفريق . فالعلم الآن في هذا العالم المادي لا يصلح في نظر الماديين — وما أكثرهم — لأن يكون غاية مستقلة ، بل يجب أن يكون وسيلة للعمل . ولسنا في شك مطلقاً من أن العلم قوة ، لا ، بل أكبر قوة في يد الانسان . وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس . وسيكون قوة الى الأبد ، ولكننا في حاجة الى العلم الذي يؤدي الى العمل ، العلم الذي يمكن تنفيذه والانتفاع به عملياً بتحويله الى عمل ؛ فالعلم بلا عمل لا خير فيه ، مثله كمثل شجرة بغير ثمر . هذا هو القياس الذي يقاس به العلم ، ويحكم به على العلوم اليوم . ولا عجب ؛ فبعد أن كان العلم يطلب للعلم ، حباً في العلم ذاته ، أصبحنا لا نفكر إلا في الماديات ، نتساءل عن مقدار ما يمكن أن يستفاد به عملياً في الحياة من تعلم هذا العلم أو هذه المادة ، وأصبحت العلوم التي لا تؤدي الى أكل الخبز ، أو الخبز والزبدة ، ينظر اليها نظرة تشكك في الاقبال عليها . ويكثر الاقبال على العلم أو المهنة بقدر ما يمكن أن تدره من المال في أقصر وقت . هذا هو مقياس الاقبال على العلم الآن ، وهذا هو الرأي السائد بين الأكثرية من المربين والمتعلمين في الأمم المتمدينة . فالعالم أصبح تجارياً ، والعلم كذلك أصبح ينظر اليه بنسبة ما يستطيع صاحبه أن يكتسبه بوساطته من وظيفة أو ثروة أو مركز أو نفوذ . ويكاد هـذا العصر المادي يقضي أو قضى بالفعل على العالم الروحي ، وعلى تعلم العلم حباً في العلم ، والاشتغال بالفن حباً في الفن . وإننا لا ننكر المادة ، ولا ننادي بكره المادة أو احتقارها ، ولكن يؤلمنا أن تسيطر المادة على كل شيء ، حتى على أفكارنا وتعليمنا . ولا ننكر أن النجاح هو الحياة ، وهو الفوز ، وحبذا الأمر لو أمكننا أن ننجح النجاح المادي مع المحافظة على الروح العلمية الخالصة ، فنجمع بين عالم المادة وعالم الروح

فالحياة اليوم نزاع بين القديم والجديد ، بين عالم الروح وبين عالم المـادة ؛ وهو نزاع لا نهاية له ، ولكنه ليس نزاعاً عدائياً ، بل هو نزاع ودي تكميلي لا غرض منه سوى النجاح في الحياة

ولكن ما النجاح الذي نبغيه ؟ وما الرقي الذي نريد الوصول اليه ؟ هو نجاح الشعب ورقيه ، روحياً ومادياً ، قوة ونفوذاً ، علماً وعملاً ، مبدأ وإنسانية . ولكن هل يمكن الجمع بين الروح والمادة في آن واحد ؟ ولم لا ؟ إن الانسان يستطيع أن يكون روحياً الى حد ما ، ومادياً الى حد ما ، بحيث لا تتغلب الروح على المادة ، ولا تسيطر المادة على الروح ؛ فيأخذ من كل منهما نصيبه ، ولا يعنى بناحية ويهمل الأخرى ؛ والنجاح هو الفوز بعد الجد والتعب ، التعب الجسمي والعقلي ، سواء أكان ذلك النجاح في التأليف أو في نسج القطن وغزله ، أو في بيعه وشرائه ، أو في صنع السيارات أو الطيارات ، أو في كتابة الروايات . . الخ

ومن الضروريات الأساسية للشخصية العملية العلم بالشيء الذي يراد القيام به ، والرغبة في النجاح فيه ، ولا فائدة في العلم والرغبة إذا لم يصحبا بقوة تنفيذية معنوية أو حسية ، داخلية أو خارجية تعمل على التنفيذ

فكما أن السيارة لا تستطيع السير إلا إذا كانت معدة للسير تمام الإعداد ، وكان بها المقـدار الضروري من زيت الوقود ، وكان الطريق معبداً صالحاً لسير السيارات ، كذلك الانسان لا يمكنه أن يقوم بعمل عظيم إلا إذا كان هناك علم به ، ورغبـة شديدة فيه ، وقوة دافعة تدفعه الى القيام به ، هي قوة الارادة والعزيمة الثابتة . وطالما صادف الانسان أشخاصاً لديهم الوسائل الضرورية للنجاح في العمل من علم وخبرة وذكاء وحسن تقـدير ، ولكنهم فقدوا صفة واحدة من أهم الصفات الضرورية للنجاح ، تلك هي قوة العزيمة والتنفيذ ، فلم ينجحوا في أعمالهم ، لأنهم يميلون الى كثرة النقد والتحليل والتشكك في كل شيء حتى في أنفسهم فيمنعهم ذلك الشك من رؤية فائدة الشيء فيترددون في الاقدام ، ويرجعون الى الوراء ، فتضيع منهم فرصة النجاح ، والفرصة إن أتت مرة قد لا تعود مرة أخرى . فالعزيمة الصادقة تعـد سراً عظيماً من أسرار الشخصية العملية والنجاح في العمل ؟

محمد عطية الابراشي

من مشاهداتي في أوروبا

معجزات طبيب

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

يرى الداخل إلى مصحة تسابلابس حديقة جميلة زينت بالورود ونسقت بالزهور المختلفة الألوان . فإذا ما انتهى من الحديقة ودخل من الباب العام للمصحة ، وجد نفسه في ردهة فسيحة ذات جناحين كبيرين أحدهما للرجال والآخر للنساء قد صفت فيهما الأرائك ، ونسقت أشجار الظل وأصص الأزهار المعروفة بالحدائق الشتوية Winter Gardens التي لا تنفك عينك تقع عليها أبداً في بلاد النمسا الجميلة .. ثم لا يلبث أن يرى أفواج المرضى يتدفقون عند ما يقترب موعد العلاج : وهو منظر يذعر له من يراه لأول مرة ، ويكاد يذوب قلبه حسرة على أولئك المساكين وخاصة منهم المشلولين والمقعدين الذين يجرون في العربات جر الأطفال الصغار لعدم قدرتهم على المشي والحركة . يأخذ كل مريض مكانه على تلك الأرائك . وفي يد كل تذكرة دخول ثمنها ثلاثة شلنات نمساوية أي نحو أحد عشر قرشاً مصرياً تبيح له الدخول مرة واحدة . وقبل ميعاد العلاج بعشر دقائق يفتح باب يوصل الى ردهة فسيحة ثانية توجد بها أرائك أخرى ومشاجب تعلق عليها الملابس ، وتقف سيدة تتسلم تذاكر الدخول وأخرى تأخذ بيد العميان الى أماكنهم . وهنا يخلع الجميع ملابسهم العليا ليصير النصف العلوي لجسم كل منهم عرياناً . فإذا دقت الساعة النصف بعد السابعة أو العاشرة صباحا ، أو الثانية بعد الظهر ، فتح باب حجرة العلاج على مصراعيه ، ووقف به ساحر جالزباخ يستقبل مرضاه ، وهو رجل مسن ، ولكنه بدين الجسم طويل القامة قوي الساعد مفتول العضل حاد النظر طويل اللحية أحمر الوجه دائم الابتسام ، يفيض البشر من عينيه الواسعتين البراقتين ، يحيي مرضاه بابتسامة ساحرة ، ويداعبهم بمختلف الدعابات ، ويقف بجواره نجله الدكتور فرتز الذي درس الطب في ألمانيا ثم انقطع لمساعدة والده في تلك المصحة العظيمة .. أما حجرة العلاج فهي حجرة فسيحة مربعة طولها ١٢ متراً وارتفاعها ٧ أمتار ، غطيت جدرانها بطلاء بنفسجي اللون ، وأقيمت بجوار تلك الجدران عدة أفران كهربائية ذات أضواء مختلفة الألوان بعضها قوي جداً وبعضها ضعيف . فإذا دخل فوج المرضى تلك الحجرة تراصوا صفوفاً أمام آلة العلاج يتقدمهم الأطفال ويتلوهم المشلولون والعميان ويتبعهم باقي المرضى . أما الجدد فيجلسون على أرائك خلفية بعد أن يكونوا قد دونوا البيانات الخاصة بهم وبأمراضهم عند السكرتيرة التي تعرضها على الطبيب فيما بعد . تغلق أبواب الحجرة بعد ذلك فتصبح مظلمة إلا بصيصاً من نور ضئيل . ثم يبدأ الساحر بالعلاج : تسمع صوتاً يدوي في أرجاء الحجرة كأنه الرعد القاصف يصم الآذان ، ويدخل الرعب في القلوب ، فترتاع له أفئدة أولئك الذين كتب عليهم أن يلجوا هذه الحجرة لأول مرة ، ثم ترى شرراً كهربائياً بنفسجي اللون يتطاير من كرة معدنية كالبطيخة تتصل بأحد طرفي عصا يقبض عليها الساحر من الطرف الآخر ، ثم يمسك بعنق كل مريض ويمر تلك الكرة مرات سريعة بالقرب من عموده الفقري من أعلى إلى أسفل ، ويضعها أحياناً على الجزء الذي يشكو منه الألم ، ولا يستغرق ذلك كله أكثر من عشرين ثانية ، ثم يتركه إلى غيره وهكذا حتى ينتهي منهم جميعاً في زمن لا يزيد على نصف ساعة ، فإذا خرج المريض من قبضة يده القوية ومن تحت تلك العصا السحرية مر في أحد الأفران الكهربائية مروراً لا يستغرق بضع ثوان أيضاً بإرشاد إحدى المرشدات هنالك

والحق أقول إننا لأول مرة سمعت أنا وصديقي ذلك الصوت المزعج ورأينا ذلك الشرر الكهربائي البنفسجي الذي علمنا عنه فيما بعد أنه نتيجة تيار كهربائي عالي الضغط جداً إذ يبلغ ٥٩٥ الف فولت ، أقول إننا عند ذلك ذعرنا وامتلأت قلوبنا رعبا ، وكاد صديقي يترك الحجرة ويعود أدراجه من شدة الخوف ، ولكني تملكت قواي وشجعته ونبهته الى أولئك الأطفال والشيوخ الذين يتلقون ذلك الدش الكهربائي بلا خوف

ولا وجل ، واتضح لنا بعد التجربة أن فعل تلك الآلة فى الجسم أخف كثيراً من صنوها المرعب فى النفس حتى أن صاحبي بعد بضعة أيام أصبح لا يرهبها بل على العكس من ذلك كان يسعى ليكون فى القدمة ، فكنت أذكره بقول الشاعر العربى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

أما الكشف على المريض الجديد فلا يستغرق أكثر من دقيقة لأنه يسأله عن الداء وموضع شكواه، ثم يضع فوق ذلك الموضع أنبوبة زجاجية يمر بها تيار كهربائى ذو ألوان مختلفة ، وكأنى به يتعرف بذلك موضع الداء تماماً . ويدخل المرضى لتكرار ذلك العلاج بالألكترواديوم ثلاث مرات يومياً . ثم إنه علاوة على ذلك العمل الأساسى يستعمل طرقاً أخرى فى العلاج ، فانه يأخذ بالمحقن من كل مريض كمية معينة من دمه فى حجرة خاصة ويضعها فى أنبوبة كتب عليها اسم المريض ، ثم يمر فيها تيارات كهربائية لتقوية الدم ، وفى اليوم التالى يعيدها بالمحقن إلى جسم المريض نفسه ، وكأنى به يتمثل بقول أبى نواس :

ودوانى بالتى كانت هى الداء

وفى المصحة فوق ذلك حجرات أخرى لعلاج بعض الأمراض الخاصة كالربو مثلا حيث يستنشق المريض بعض غازات معينة فى أوقات تعين له . وهناك حجرة أخرى يدخلها المرضى بترتيب خاص حيث يحصر الجزء المريض من الجسم بين قرصين من المعدن تمر فيهما أشعة كهربائية قصيرة . وفى المصحة نحو ثلاثين موظفاً من رجال ونساء طبيبات وممرضات ، ولهم جميعا فى المصحة مسكنهم ومأكلهم ومشربهم

ولقد تقابلنا مع الدكتور فرتز وتحادثنا معه طويلا باللغة الانجليزية فكان مثال التواضع والأدب الجم ، وعرفنا منه أنه تجرى عمليات فى المصحة بوساطة التيار الكهربائى ذى الضغط العالى ، وأنهم يعالجون الأمراض على اختلاف أنواعها كالشلل والعمى والربو والسكر والسل الرئوى وعرق النسا الخ . ما عدا الحميات بأنواعها والصرع والجنون ، وعلمنا منه أيضاً أنه يبحث بحثاً جديداً فى استخدام الأشعة القصيرة فى العلاج ، وهو ينتظر فائدة كبيرة من وراء ذلك البحث . وأما الدوزيليس Zeileis نفسه فهو فى الخامسة والستين من عمره وهو أقوى من أى شاب تراه ، ويأمل أن يعيش مائة سنة أخرى بفعل الألكترواديوم ، وهو لم يتعلم فى المدرسة ليكون طبيباً ، وإنما كان إخصائياً فى النبات ، ولما غادر المدرسة هوى الكهرباء ، وأخذ يدرسها ويجرب فعلها فى الأمراض حتى انتهى الى ذلك النجاح العظيم الذى صادفه باستخدام الضغط العالى الكهربائى ، وأخذ الشعب النمساوى والألمانى يقبل عليه وينتفع بعلمه وتجاربه حتى علا كعبه ، فأخذ الأطباء فى النمسا وألمانيا ومن ورائهم أطباء العالم يحملون عليه حملات شديدة وازدادت حملتهم علية لما نبه ذكره وافتتح مصحته فى سنتى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ فحاربوه بكل ما أوتوا من قوة واتهموه بأنه دجال وأنه عالة على الطب ، وحرضوا عليه الحكومة ، فقبضت عليه وقدمته للمحاكمة ، فكان برغم ذلك رابط الجأش عظيم الثقة بنفسه وحصر دفاعه فى الكلمة القصيرة الآتية قال : « أولئك الأطباء الدبلمون كثيراً ما يخطئون ويكون فى خطئهم القتل لمرضاهم ، ذلك القتل الذى لا يقام له وزن . أما أنا فيجيئنى المريض بعد أن ييأس يأساً تاماً من شفائه على أيديهم فيبرأ من سقمه ويشفى من علته فيتركنى شاكراً مسروراً ، ولم يشك مريض واحد الى أحد بأن طريقتى أوقعت به أى أذى . فهل هذه الحملة إذن إلا حملة حقد وحسد ؟ » فكان فى ذلك الاقناع كل الاقناع للمحكمة فخرج منها منتصراً . ثم سار على نهجه ففاز ثقة الشعوب جميعاً . وفى نظرنا أن الخير كل الخير للأنسانية جمعاء ، ولهؤلاء الأطباء أن يتشجعوا وأن يضحوا بشىء من تعصبهم وغرورهم فى سبيل الصالح العام ، وأن يمدوا أيديهم إلى ساحر جالزباخ فيصافحوه معتذرين عما فرط منهم ، وفى يقيننا أنه لن يمتنع عندئذ عن أن يبيح لهم بسره الغامض وأن يطلعهم على أعماله وتجاربه ومخترعاته ، فتتكاتف الأيدى جميعاً وتتوافر على دراسة الأشعة القصيرة والألكترواديوم . فيخطو العالم الخطوة الحاسمة نحو استخدامها بدلا من المشرط ، ونحو إحلالها فى العلاج محل الأدوية والعقاقير وفى هذا ما فيه من خير ونفع

عبد المجيد فهمى مطر

بين فني التاريخ وفن الحرب

٥ - خالد بن الوليد *

في حروب الردة

للفريق طـه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ويختلف الرواة في الحركة التي جرت ، فالأخبار التي يستند إليها الواقدي والبلاذري لا تبحث في غارة المرتدين على المدينة ، ولا تذكر موقع ذي حسى ، وتذكر أن أبا بكر لما علم أن القبائل اجتمعت في ذي القصة بقصد الغارة قرر أن يقاتلها في عقر دارها غير مبال بقلة عدده ، وقصده من ذلك إرهاب المرتدين وإلقاء الرعب في قلوب العرب ، وجعلهم يعتقدون أن المسلمين أقوياء وأن ذهاب جيش أسامة لم يقلل من قوتهم ، فتقدم أبو بكر على رأس المقدمة الراكبة نحو ذي القصة يعقبه الكوكب (القسم الأكبر)

وبالنظر الى رواية سيف أن الجمال بعد أن نفرت براكبيها ، ودخلت المدينة بات أبو بكر ليلته يتهيأ للهجوم ، فبعد أن رتب قوته خرج مبكراً من المدينة وباغت عدوه فهزمه شر هزيمة . والذي يلوح لنا أن الروايات الأولى هي الأصح . وكانت قوة المقدمة تبلغ مائة رجل ، وسارت يومها وعسكرت مساء بالقرب من أجة ، فباغتها العدو من مكمنه وألجأها الى الفرار ، فاحتمى أبو بكر بالأجمة منتظراً ورود الكوكب (القسم الأكبر) ولما نادى أحد المسلمين بوروده انهزم المرتدون ، فطاردهم المسلمون الى ثنايا العوسجة ثم قفلوا راجعين الى ذي القصة

ويذكر الواقدي أن أبا بكر لم يخرج الى ذي القصة إلا بعد عودة جيش أسامة الى المدينة ، غير أننا لا نميل الى رأيه ، لأن مجرى الأخبار يدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة لما خرجت من المدينة قاصدة العدو . ويزعم سيف أن بني ذبيان وعبس بعد هزيمتهم هذه وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم ، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين في كل قبيلة ، وليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين . وكانت وقعة ذي القصة والبقعاء أول نصر للمسلمين على المرتدين ، ومنها تظهر فراسة أبي بكر وصلابة عوده

لابد أن القارئ انتبه الى فساد خطة القبائل في محاولتهم غزو المدينة ، إذ بدلاً من أن يجتمعوا في محل واحد للهجوم على المدينة أو أن يقاوموا جيش المسلمين معاً اجتمعت كل قبيلة في حيها ، فاجتمع بنو أسد في السميراء ، وفزارة في طيبة ، وجديلة وغوث من طيء في جبليهما ، وذبيان وعبس اجتمعت فرقة منهما بالقرب من الربذة والأخرى في ذي القصة أو البقعاء

والداعي الى تفرقهم على ما يظهر أن المياه في كل محل من تلك المحلات لم تكن كافية لإرواء جماعة كبيرة ، وكان الكلأ قليلاً فضلاً عن صعوبة اجتماع كلمة القبائل على غاية واحدة

وكان قبل ذلك حلف بين بني أسد وغطفان وطيء ، بيد أن قتالاً وقع بين غطفان وبني أسد من جهة وطيء من جهة أخرى فأمست القبائل متخاصمة . وكذلك كلمة طيء لم تكن مجتمعة فمال الى المرتدين فرقتان منها فقط ، وهما جديلة وغوث . أما الفرق الأخرى فبقيت على إسلامها . وكانت القبائل في قيامها على المدينة يراقب بعضها بعضاً ، ولا تريد أن تكون البادئة بالعداء ، ذلك ما جعل كلا منها يبقى في حيه ويراقب عمل الآخر

وقد اختبر الصديق حالة القبائل وتأكد أن كلمتها لم تجتمع ، لذلك لم يشأ أن يؤخر جيش أسامة عن سفره ، واكتفى برجال المدينة والموالين من القبائل القريبة منها وقد أيدت الوقائع رأيه .

وبعد انتصار أبي بكر على القبائل في البقعاء قفل راجعاً الى المدينة ، ولما شاع خبر انتصار المسلمين على أهل الردة في أول قتالهم أخذت الصدقات تأتي من الأطراف بعد أن تردد أهلها في إرسالها ، فوردت صدقات عدي بن حاتم من طيء وصدقات أخرى

وبعد مدة قصيرة عاد جيش أسامة من الشمال ، فقرت به أعين المسلمين فلم يمهل أبو بكر المرتدين بعد أن بلغه أن بني عبس وذبيان

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

أوقعت بمن فيها من المسلمين ومثلت بهم ، وبعد وقعة ذى القصة أراد أن يفنى من فى الأبرق فأراح جيش أسامة بضعة أيام وخرج بالقوة التى سار بها الى ذى القصة بعد أن أنجدها بالناس من جيش أسامة وتوجه نحو الأبرق ، وفيه الفرقة الثانية من بنى عبس وذبيان وبنى كلاب وغيرهم

وقد ناشده كبار الصحابة بألا يعرض نفسه للخطر بقيادة الجيش بنفسه إلا أنه لم يجب طلبهم . فبعد أن عبأ جيشه باغت المرتدين فى الأبرق فهزمهم شر هزيمة وانسحبت فلولهم الى السميراء والتحقت ببنى أسد ، ولما رأى طليحة الخطر انسحب بجميع القوات التى التفت حوله الى بزاخة

وأقام أبو بكر فى الأبرق وكان يملكه بنو ذبيان ، فأعطى مراعيهم لخيل المسلمين وحرم بطون ذبيان منها

تولية خالد بن الوليد قيادة الجيش :

تدل الأخبار على أن خالداً اشترك فى قتال ذى القصة والأبرق مع المهاجرين ، ولما رجع أبو بكر الى المدينة انسحبت قوة المسلمين الى ذى القصة ، وتولى قيادتها خالد بن الوليد

وتذكر الروايات التى تبدأ بسيف بن عمر ، أن أبا بكر لما وصل الى المدينة جمع رجالاً من القبائل المجاورة للمدينة وأرسلها الى ذى القصة لتقوية جيش المسلمين . ثم عاد الى ذى القصة فاستعرض الجيش وقسمه الى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لكل منها ووجهها الى مناطق المرتدين فى جزيرة العرب لقتالهم والقضاء على حركة الردة

وهذه الرواية التى يرويها سيف يصعب تصديقها وذلك :

أولاً — لأن قوة المسلمين لم تكن فى عدد يكفى لتقسيمها الى إحدى عشرة فرقة

ثانياً — إن انفاذ فرق البحرين وعمان ومهرة وحضرموت واليمن قبل قمع الفتنة فى قلب جزيرة العرب مسئلة فيها نظر ، لوجود طريق البحرين وعمان ومهرة ببلاد بنى حنيفة ، وفيها مسيلمة ثائراً ، وهو معتصم فى بلاده الوعرة . والحقيقة أن قوة جيش المسلمين لم تجاوز بضعة آلاف على ما ذكرناه فى بحث تقدير قوة الفريقين ، فجيش أسامة لم يجاوز ستة آلاف ، أما القوة التى جهزها للمقاتلة من اجتمع فى ذى القصة فلم تتجاوز الألفين .

فتقسيم هذه القوات جميعاً الى أحد عشر قسماً مما يجعل كلا منها ضعيفاً بحيث لا يستطيع القيام بالواجب المنوط به . بينما الأخبار تؤيد أن جيش خالد بن الوليد وحده كان يبلغ أربعة آلاف رجل ، ثم إن هناك أخباراً تؤيد حبوط هجوم فرقة عكرمة بن أبى جهل ، وكذلك هجوم فرقة شرحبيل بن حسنة على قوات مسيلمة وانسحابهما الى الوراء والتحاقهما بفرقة خالد بن الوليد مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد أن أبا بكر فكر قبل كل شىء فى القضاء على حركة الردة فى وسط جزيرة العرب ، وجمع لذلك ما فى يده من القوات المتيسرة وناط قيادتها بخالد

قوة الجيش :

إن الرواة على عهدنا بهم لم يرووا لنا مقدار قوة المسلمين التى احتشدت بقيادة خالد بن الوليد فى ذى القصة . والمصدر الوحيد الذى يذكر لنا قوة خالد هو أبو جعيش ، إذ يروى لنا أنها كانت تبلغ أربعة آلاف مقاتل قبل حركته الى بزاخة

وكان الجيش على ما سبق بيانه مؤلفاً من القوة التى جمعها أبو بكر من القبائل المجاورة للمدينة على جناح السرعة للهجوم على المرتدين فى ذى القصة بعد تهديدهم للمدينة ، ومن القسم الذى التحق به من جيش أسامة بعد عودته الى المدينة قبل الهجوم على الأبرق . ومن الواضح أن البعض منه تخلف عن الالتحاق ليقضى مدة من الزمن بين أهله بعد أن غاب عنهم مدة شهرين فى سفرة الى الشمال

والذى يظهر من رواية سيف أن أبا بكر لما عاد الى المدينة أرسل هذا القسم المتخلف أيضا الى ذى القصة ، وبعد التحاقه أصبح جيش خالد أربعة آلاف أو أكثر . وكانت قوة الانصار وحدها تبلغ زهاء خمسمائة مقاتل . أجل ، إن هذا العدد ضعيف بالنظر إلى المهمة الخطيرة المنوطة به ، إلا أن تجانس القوة فى هذا الجيش وصلابة المعتقد فيه ، وتفرق كلمة القبائل المرتدة جملته أهلاً للعمل

منطقة الحركات :

يحيد المنطقة التى جرت فيها الحركات من الشرق : الدهناء ، وهى الساحة الرملية الممتدة من الشمال الغربى الى الشرق الجنوبى فى شرقى القصيم . وكانت الدهناء ولا تزال المفازة التى تفصل

أرض السواد (أعني العراق) عن بلاد نجد . ويحدها من الشمال جبل شمر أعني بلاد طيء المرتفعة التي تمتد جبالها على ما سبق من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وأخطرها جبلا سلمى في الجنوب وأجأ في الشمال ، وفيها وديان كثيرة أجلها شأناً وادي حائل ، وهو يبدأ من بزاخة طيء بشعاب متعددة ، ويفصل الجبلين أحدهما عن الآخر حيث تنصب فيه عدة شعاب من الشمال والجنوب وتغمره بالمياه في موسم الأمطار . وقد شيدت على جانبيه القرى التي ترتوي بمياه الآبار المنصرفة اليها من الجبال . ولما كان جبل سلمى وجبل رمان يشرفان على وادي الرمة من الجهة الشمالية ، فالشعاب التي تمر بالأطناف الجنوبية تنحدر جميعاً الى ذلك الوادي . وهذه الأطناف هي الحدود الفاصلة بين حي بني أسد وحي فزارة من بني غطفان ، وقريتا فيد وطابة لبني طيء وهما على الحدود

ويحد منطقة الحركات من الغرب حرة خيبر ، ومن الجنوب الهضبة المشرفة على وادي الرمة من الجنوب ، وفيها بنو سليم في الشمال وبنو عامر في الجنوب . وموقعا العمق في الغرب ورابية أبان الأبيض في الشرق في أرض بني سليم

والوادي أرض منخفضة بين هضبتين مرتفعتين تنصرف اليه جميع المياه التي تنزل عليهما في موسم الأمطار . وإذا حفرنا الآبار في بطنه على عمق بضعة أقدام نعثر فيها على ماء كثير . والطريق التي تصل المدينة ببلاد القصيم تمر بهذا الوادي . وبعد أن يترك المدينة يمر بالبقماء أو ذي القصة بالقرب من سابية ، ثم بالشقرة فالربذة بالقرب من الحناكية فالشقق فبئر الطرفة ، فالى جنوب أكمة الخيمة حيث يدخل أرض بني أسد ، ويمر بعد ذلك بين الأبانين : أبان الأسود في الشمال ، وأبان الأبيض في الجنوب . والأسود في أرض بني أسد الى أن يمر بشمال الرس وهو بئر ماء لبني أسد ، فيصل الى القريتين في بلاد قصيم ، أعني العنيزة في الجنوب وبريدة في الشمال وكلتاهما في حي بني تميم

ويسكن بنو أسد في الساحة الواسعة التي شمال الوادي من جنوبي فيد وأطابة غربي السميراء والظهران والسليلة .

وفي غربي النقرتين نقرة السلاسل ونقرة الخطوط وجبل صارة . وفي أرض بني أسد يقع موقع النمر وهو رابية مرتفعة تشرف على وادي النمر الذي ينبع من سفح جبل الموشم الشمالي ويصب في الكهفة ، وبالقرب منه تقع بزاخة بني أسد . وهي الموقع الذي نشبت فيه المركة بين جيش خالد وجيش طليحة .

والذي جعلنا نميل الى الاعتقاد بأن موقع بزاخة في هذا المحل هو ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه نقلاً عن ابن الكلبي . أما الأصمعي فيروي أن بزاخة ماء لطيء . وفي جبل طيء موقع آخر يسمى بزاخة . وعلى ما يظهر لنا من مجرى الحركات أن القتال بين المسلمين وبين المرتدين لم يقع في أرض طيء ، بل وقع في أرض بني أسد بالقرب من النمر ، ولا سيما أن خالداً بعد انتصاره على طليحة وجه سراياه في جهات مختلفة مطارداً فلول المنهزمين . وهذه السرايا قاتلت المنهزمين في جبل رمان وفي الأبانين . ولا يعقل أن المركة نشبت في بزاخة طيء والطاردون يطاردون المنهزمين الى رمان والأبانين ، بل من المعقول أن تنشب المركة في جوار النمر فيشرد المنهزمون الى أنحاء مختلفة ، فينهزم بنو فزارة الى حيهم في جنوبي الرمان وغربيه ، وبنو أسد الى الأبانين والى ظفر في جوار كهفة والى النقرة — أعني الى حدود الحي

وفي منتهى الشرق بلاد بني تميم والقصيم على الحدود بين بني أسد وبني تميم . وهي من أغنى البقاع الواقعة في نجد ، وتحدها رمال الدهناء من الشرق ، وفي غربيها مراعي الحزن ، وفي شرقيها مراعي الصمان ، وكلتا البقعتين من أخصب المراعي وهما لبني تميم . وبنو يربوع في الحزن الى وادي حائل ، والصمان الى بني حنظلة ، وماء الطريفة في شمالي البريدة لهم أيضاً . والبطاح في جنوبي الحزن وفيه قرية بريدة وموقع البعوضة والقمرة ، وهو مشهور بجودة الكلأ وفيه دارت الدائرة على مالك بن نويرة رئيس بني يربوع

ولا تزال إحدى ضواحي البريدة تسمى بالبطاح ، والقصبة تتألف من أربع ضواح ، وهي جردة وجديدة وشمال وبطاح .

وموقع النباج في حي بني تميم وهو المحل الذي وصلت اليه سجاح برجالها فقاتلها بنو تميم وكسروها ، وهو واقع في الحزن على طريق الكوفة بعد الفيد

طه الهاشمي ... يتبع

قصة لؤلؤة

للأديب حسين شوقي

ولدتُ في أعماق المحيط الهندي ، وكنت أقيم هادئة مطمئنة في مقصورتي الصدفية ، إلا أنني سئمتُ الحياة التي كنتُ أقضيها على نمط واحد ، واشتقتُ إلى مشاهدة العالم الآخر القائم فوق سطح الماء الذي طالما حدثتنا عنه الأسماك في دهش وإعجاب ، ولكن أخواتي من اللؤلؤ أشرن عليّ بالصبر ، زاعمات أن الإنسان سوف ينزل إلى الأعماق لينتزعني من خلوتي ، لأننا معشر اللؤلؤ — على زعمهن — ذوات قيمة نادرة عنده ، وقد صدقن في زعمهن ، إذ نزل إلينا ذات يوم زنجي ليأخذني من صدفتي ، إلا أن الحوت افترس المسكين ، ثم حاول زنجي آخر بعد ذلك بقليل أن يفعل فعلة سابقه ، ولكنه لم يدركني ، إذ كنت في عمق سحيق فمات مختنقاً . . بعد هذين الحادثين لم يبق لدىّ شك في قيمتي عند الإنسان ، وأنا خاملة الذكر في البحر ، لذلك ازداد شوقي إلى مشاهدة هذا العالم . . . ثم أتى زنجي ثالث مجدود استطاع أن يرفعني إلى سطح الماء ، وهذا سلمني إلى رجل أبيض أخذ ينظر إليّ في بشره بعد أن انتزع عني بسكينته الحادة صدفتي المسكينة !

وأراد زنجي رابع أن يسرقني من الرجل الأبيض ، ولكن الأبيض داهمه أثناء السرقة فضربه بالسوط ضرباً مبرحاً مزق جلده وأسال دمه . . يا لخيبة أملي لو كان هذا هو كل ما يشاهد في دنيا الإنسان ! .

سافرت بعد ذلك إلى لندن على متن باخرة فخمة . . وهناك قامت فتاة حسناء بصقلي في دقة وأناة . . وبعد أن انتهت من عملها رفعتني بأصبعيها ، وأخذت تتأملني طويلاً ثم تنهدت من الأعماق ، فخشيت عليها أن تفعل فعلة الزنجي السارق ، لأن جلدها ناعم لا يتحمل السوط . أما أنا فكان بودي أن أتعلق بجيدها البلوري أو أعلق بيدها الناعمة . .

ثم أخذني جوهري فعرضني في زجاج دكانه . . وكان المارة ينظرون إليّ في إعجاب وفضول ، وذلك ما أدخل على نفسي الزهو . . والواقع انني كنت جميلة حقاً بلوني الوردي الذابل ، ولاسيما بعد عملية الصقل التي قامت بها تلك الفتاة الحسناء . وقد لاحظت أن أهالي لندن فضوليون إلى حد بعيد ، وقد يصح مثل هذا الفضول من جانبي أنا مثلاً إذ قضيت حياتي سجينة في صدفة . . أما من جانب الانجليز فهو أمر مستغرب ، وهم قوم رحل أفاقون . . وكان صاحبي الجوهري في الغالب يهودياً ، لأن أنفه كان مقوساً ، ثم إنه كلما وضعني في يده الجعدة ، ضغط على في قسوة وشره حتى كنتُ أخشى على نفسي الهلاك . وقد باعني ذات يوم إلى سيدة متقدمة في السن بربح وافر على ما أظن ، لأنه جعل يفرك يديه طويلاً عقب إتمام الصفقة ، وكانت نية هذه السيدة أن تصنع مني خاتماً . إلا أن وليدها وهو طفل «عفريت» في السابعة من عمره ابتلعني ظناً منه أني قطعة من الحلوى . فغشي على السيدة من الحزن ، أكان ذلك من أجل ولدها أم من أجلي ؟ لا أعلم ، ولكني أرجح الثانية على الأخص بعد حادث الزنجيين اللذين ماتا في سبيلي . .

وقد تناول الطفل مسهلاً قوياً أعادني إلى الحياة والنور . . ثم انتقلت إلى أيد أخرى كلها مرتعشة مجعدة . .

ربِّ ! كيف نُظِّم هذا الوجود ؟ كيف يكون الجاه والغنى عند العجائز والدميمات فقط ؟

ولكن من حسن حظي وقعت في النهاية في يد فتاة أمريكية حسناء مثرية جداً ، أعطيت لها في شكل خاتم قدمه شاب خاطب ، وكانت الفتاة سعيدة بي . . فكم من رحلات شيقة قمنا بها — نحن الثلاثة — على متن طيارتها الخاصة ؛ إلا أنه اتضح للفتاة يوماً أن هذا الشاب يخونها ، وأنه لم يخطبها إلا طمعاً منه في ثروتها ، لذلك ثار ثائرها : فألقت بي في وجهه ، وكان ذلك أمام الباب الخارجي للدار الواسعة ، فتدحرجتُ حيث اختبأت في حفرة مظلمة بالحديقة أنتظر من ينقذني ، وأرجو أن يكون ذلك على يد فتاة جميلة .

حسين شوقي

تعليقات القراء على الرسالة

الى الأستاذ الرافعي

للأستاذ على الطنطاوى

سيدى :

أعرني هذا القلم السحرى الذى تكتب به ... لأصف لك الشعور الذى خامرني وإخواني هنا ، حين قرأنا فصلك الأخير : قصة زواج ... فما أدرى والله كيف أصفه لك

وقد والله قرأناه مثنى وثلاث ورباع ، وقد والله قطعنا القراءة مرة وثانية وثالثة ، لأننا لم نكن نملك نفوسنا أن تفلت من قيود المادة ، وتنفذ من بين السطور الى عالم أسمى وأوسع ، تطير فى أرجائه لتلحق بهذه البلاغة العلوية التى تسمو بتاليها وتسمو ... حتى تدنو به من حدود العالم الكامل — عالم القرآن — وتريه تحقيق ما قاله فيها سعد « بطل المشرق » : كأنها تنزيل من التنزيل !

وقد والله خرجنا منها وكأننا لم نعرف عبد الملك أمير المؤمنين ، وسعيداً سيد التابعين ، إلا الساعة ... فاذا أنت قد نقلت الملك والجلال من ذاك الى هذا ، واذا مقالة منك واحدة ، تغلب عبد الملك على جيوشه وأمواله وملكه ، ثم تجرده منها ، ثم تعرضه جسداً هزيلاً ؛ وتمنح سعيداً على فقره وتواضعه ، أسمى العظمة والهيبة والجلال ... حتى يقول هذا : « أنا ... ... » فترددها ملائكة السماء . ويقول ذاك : « أنا » فتستحي أن تعيدها شياطين الجحيم !

وأقسم لقد سمعت هذه القصة وقرأتها ، وحفظتها ، وحدثت بها . وانحدرت بين أذنى ورأسى ولسانى عشرين مرة ، ثم كأنى لم أسمع بها إلا الآن ... وكأنى كنت فيها فى ليل مظلم ، فطلعت علىّ مقالتك شمساً ساطعة ؛ عرفت معها كيف تكون خصيصات الليل لآلئ النهار ... فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد ؟ وما بالك بمن لا يعرف فى الدنيا أدباً ، إلا الأدب الذى يسقط علينا من باريس أو لندن أو بوينس ايرس ؛ ولا يدرى من البلاغة إلا أنها التى تلوح بين سطورها رءوس البنادق ، وأفواه المدافع ، وأجنحة الطيارات ؟

ومثل أولئك كثير ، فقد عابوك بالغموض ، ورموك بالابهام ، وادعوا أن كتبك لا تفهم ، ومعانيك لا تساغ ، فلما ظهر أن فى الغرب شاعراً خلا مذهبه الغموض يتخذه ويدعو له ويدافع عنه ، أصبح الغموض فناً من فنون الأدب تتمحل له الأسباب وتتلمس له الدواعى ! فما الذى جعل سيئة الرافعى حسنة بول فاليرى ، إلا أن ذاك من فرنسا وهذا من مصر ؟

أما إن هذا الايمان بالغرب اذا انتقل من الشيوخ الى الشبان لم يكن إلا كفراً بالشرق وإلحاداً بالعقائد الشرقية ، وجهلاً باللغة الشرقية ، وخروجاً من الجلدة الشرقية ... وإن عندنا فى دمشق ندوة أرادت أن تعيب مجمعنا الأدبى ، فلم تجد أبلغ فى العيب من قولها : إن المجمع ثقافته شرقية ، بل لقد (ضبطتنا متلبسين بالجريمة) ، وأشهدت علينا أننا كنا نحمل كتباً صفراء . وكان الذى نحمله « شرح المواقف للسيد » . ومثل هؤلاء لا يقرأون الأدب العربى إلا إذا صيغ هذه الصياغة

***

وعندنا أن هذه القصة بكل ما قرأنا فى العربية من قصص ما يزال أكثر أصحابها ينشئون أدباً فرنسياً أو انجليزياً بحروف عربية

وعندنا أنك إذا استكثرت من هذا النوع غطيت على خيام أهل الجديد ودورهم المبنية من الطين والقش ، بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبت الدهر

وعندنا أن مائة قصة من مثل هذه القصة ، تنشىء الأدب العربى إنشاء جديداً ، وتخرج من الشيخ الهمّ الفانى ، الذى ينتظر الموت شاباً قوياً بهياً ، جاء يستأنف الحياة بحنكة الشيخوخة . وتجعل من الأدب العربى أدبين : أدب أربعة عشر قرناً ، وأدب الرافعى

***

ولست والله أمدحك لأتملقك وأتزلف إليك ، وما بى بحمد

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

الله رذيلة التملق والتزلف، وإني لأنقم منك أحياناً. إنك تبالغ في الدقة، وتمعن في السبك الفني لمعانيك وألفاظك، حتى ما أكاد أفهم عنك، وإننا لنحفظ جملك هذه الغامضة، ونتنادر بها، على حين أنك تعرف من نفسك القدرة على أسهل الكلام وأوضحه، وإن شعرك لين سائغ عذب كالماء.

ولكني أمدحك، وما أجدني صنعت شيئاً، لأنك في نفسي أكبر من ذاك، إنك واحد من عشرة هم كتاب العربية في كل عصورها، إنك لسان القرآن الناطق.

فاقبل تحياتي وإكباري وشكري، وأسألك أن تزيدنا من هذا النوع من الأدب، وأن تستكثر من هذه الفصول الاجتماعية، وأن تعلم أن مقالاتك في الزواج كان لها من الأثر ما لا يكون لقانون صارم من ورائه السجن والغرامة. وإننا نحمد الله على أن جعل في العربية مجلة صاحبها الزيات، ويكتب فيها الرافعي

علي الطنطاوي
عضو المجمع الأدبي بدمشق

من شعر الشباب

لا تباهوا

للأستاذ فخري أبو السعود

مَنْ لِمُلْكٍ بات مهضوم الحمى ؟ ... وتراثٍ بات نهب الناهبين ؟
ولأرضٍ نام عنها أهلها ... تاركيها بين أيدي الآخرين ؟
وتخلّى قادةٌ عن أمرها ... فاستوى المائنُ منهم والأمين
خيرُها يُخطئ شعباً قانعاً ... ويصيب الدُّخلاءَ الطامعين
كلُّ من هبّوا على الأرض سعَوْا ... يبتغون الرِّفدَ فيها والمَعين
كلهم من عسكرٍ أو عُزَّلٍ ... جُنْدُ إذلالٍ عليها يخطرون
أمِنوا فيها فكانوا حِزبَها ... ومَشَوْا في ظلّها مستهزئين

***

مَنْ لشعبٍ فترتْ همّتُه ... للذي يجري عليه مُستكين ؟
يتسامى كلُّ شعبٍ للعلا ... وهْوَ يشقى في حماه ويهون
وأرى حريةَ القوم دنتْ ... مورداً لكنهم لا يَرِدون
قيّدَ الحرصُ من الشعب الخُطى ... فهْوَ بالعيش وإنْ ذلَّ ضنين
ولو اعتزّوا بعزمٍ لعنا ... لاعتزام الشعب كيدُ الكائدين
ولدانت لهمُ آمالُهم ... إنما الآمالُ بالعزم تدين

***

لا يظُنَّ منّا بفضلٍ أحدٌ ... لا يعزُّ الفردُ والجمعُ مَهين
لا تسامَوْا درجاتٍ بينكم ... كلُّكم للغاصب العادي قطين
لا تباهَوْا بمغانٍ رُفعتْ ... هيَ للسُّكنى قبورٌ وسجون
أو بألقابِ علاً زائفةٍ ... تتعالَوْن بها مُفتتنين
أو بأثوابٍ عليكم نُمِّقتْ ... أنتمُ أسرى بها لو تعلمون
حيثما راح ابنُ مصرٍ أو غدا ... فهْوَ في الأسْرِ وفي القيد رهين
حرِّروا أعناقكم ثم افخروا ... بحطامٍ أو بجاهٍ تملكون
ما ارتقاءٌ ندّعيه بيننا ... ونهوضٌ وعلومٌ وفنون
يا لشعبٍ بات عن حريةٍ ... غافلاً تُلهيه سفسافُ الشؤون

***

تندُبُ الحاضرَ نفسي وترى ... فيه وجهَ الغدِ مُربدَّ الدجون
عصفَ العصرُ اصطخاباً حولنا ... وتفانَى آلُه مشتجرين
وعلينا آلَ مصرٍ حُجُبٌ ... من بقيّات الليالي والقرون
ليت شعري — إذ تعالَى بينهم ... صيحةٌ في كل يوم ورنين —
أأفاق القومُ من نومهمُ ؟ ... أم مَشَوْا في نومهم مختبطين ؟
نحن نحيا في خيالٍ ورؤًى ... نحن في كهفٍ عن الدنيا كنين
نحن — والدنيا اجتهادٌ ووغًى — ... نهبُ لذّاتٍ ولهوٍ ومجون
صاحَ بعضٌ بهراءٍ وأختنى ... بعضُنا بالصمت عجزاً والسكون
كثُرَ القولُ وما أغنى الحِجى ... عن دعاوى اللاغطين القاعدين
إنما يطلُبُ من أبنائه ... عملاً ينسخُ قولَ القائلين

فخري أبو السعود

الحياة الغالية

للأديب سيد قطب

بالأمس كنت أعيش نضو ترقب … أزجي حياتي كالأجير المتعب
أرنو إلى الإصباح، ثم تمجه … نفسي، وأنظر كارهاً للمغرب
وأحس بالقفر الجديب يلفني … فأعيش في ظلم كقفر الغيهب
ولو أنما اختصرت حياتي لم أكن … أدري بما نقصت، ولم أتعتب
وإذا تشابهت الحياة وأقفرت … كرهت، فلم يشعر بها أو تطلب

***

واليوم آسف للدقائق تنطوي … من عمري الغالي الثمين الطيب
واليوم أرقبها وأرقب خطوها … فأعيشها مثلين بعد ترقبي (١)
وهي العميقة كالخلود وإنما … تمضي حثيثاً في خطا المتوثب
وأود أن لو أبطأت وتلبثت … في خطوها لبث الوئيد المتكثب (٢)
تتلو الدقائق في حياة خصبة … وتهون أعوام بعمر مجدب!

***

الحب فاض على الحياة بخصبه … وأجد عمراناً بكل مخرب
وأزاح أستار الدجى فتكشفت … ظلماته عن كل زاه معجب
وكذاك تخلو لي الحياة وتجتلي … وتعز ساعات الغرام المخصب

(١) ترقب الدقائق قبل حلولها ثم حياتها عند مجيئها يجعل الحي كأنما عاشها مرتين. (٢) المتكثب: المقترب، والبطيء الخطا القريب منك يمكنك من إتمام النظر فيه.

يا ثغر ...

أتأذن يا ثغر في قبلة؟ … فديتك يا ثغر بالمهجتين
فدتك البحار بمرجانها … وعوذت درك من كل عين
أريدك يا ثغر بشاً ضحوكا … ولو كان فيك خداع ومين
فإنك منغر وحق الجمال … تغر بفتنتك الحسنين (١)
فبالورد قد لفت الشفتان … فأصبحتا فيك ريانتين
فبالله تأذن في قبلة … وإن كنت سمحاً ففي قبلتين
فكل نعيم بهذي الحياة … ينال على تينك الشفتين

حسين شوقي

(١) الحسنان هما الزاهدان الحسن البصري والحسن بن سيرين.



فكرة النظام الشمسي الحديثة

تغلب النظام الكوبرنيكي على النظام البطليموسي

بقـــلم فرح رفيدي

من البدهيات التي لا تستلزم حيرة الانسان كثيراً هي أنا نرى الشمس تدور لأن الأرض تدور ، ولولا ذلك لما كان ليل ونهار ، ولكانت الأرض أبداً نصفين ثابتين ، نصفاً مظلماً قاتماً ، ونصفاً مستنيراً أبداً بشمس ثابتة

وهذا الذي قد نعتبره أمراً بدهياً اليوم ، كان بالأمس سبب الشقاق وموضوع الحوار ، وقبلة أنظار الباحثين من الفلكيين وغير الفلكيين . ومنذ مئة وخمسين سنة فقط كان الحوار قائماً على منبر جامعة هارفرد بأمريكا فيما إذا كانت الأرض تدور أو لا تدور ، وكان من برنامج الجامعة نفسها أن يدرس الفكرتين المتناقضتين في وقت واحد . وقبلها بوقت قصير كانت جامعة باريس تؤيد الفكرة القائلة بأن حركة الأرض حول الشمس فكرة مناسبة إلا أنها خاطئة . فدانة هذه الفكرة تدل على أن الفكرة اليونانية عن نظامنا الكوني لم تزل من قلوب الناس باعلان كوبرنيكس لفكرته الجديدة ، بل ظلت الفكرتان تتحاربان في عقول الناس الى أن تغلبت إحداهما على الأخرى . وكان الانتصار الذي أحرزته الفكرة الجديدة انتصاراً نهائياً للحقيقة ، وموتاً أبدياً للفكرة الباطلة التي شغلت عقول الناس بتناقضها وكثرة تعقدها

قبل أن يبزغ نور الفكرة الحديثة بألفي سنة كان فيثاغورس اليوناني يعتقد بحركتي الأرض اليومية والسنوية ، غير أن هذا الاعتقاد قد قضى عليه أرسطو ، ورفضته الكنيسة لمنافاته للدين المسيحي في العصور الوسطى ؛ فمات قبل أن ينشر أو ينتفع به أحد ، والكنيسة لم تقف عند حد رفض الفكرة وتحريم الاعتقاد بها ، بل تعدته الى تضحية كل نفس جاهرت بمعتقدها الحر ، فأحرقت جيوردانو برونو Giordano Bruno سنة ١٦٠٠ لاعتقاده بعوالم عديدة في الكون غير عالمنا ، وقاسى غاليليو ألواناً من العذاب لتأييده ما أقره كوبرنيكس . وكوبرنيكس نفسه كان محجماً طول مدة حياته عن أن يجاهر بعقيدته خوفاً من الكنيسة ومن أن يهزأ بفكرته ، ولم ينشر كتابه عن النظام الشمسي (De Revolutionibus Orbium Coelestinm) إلا بعد أن مات

أول شيء جعل كوبرنيكس يطرح النظام البطليموسي جانباً ويجاهر بنظامه الحديث هو صعوبة الأول وتعقده ، وعدم مطابقة الحجج الكثيرة للظواهر المشاهدة في الكون ، وذلك ما يفقده ميزة الجمال والبساطة الطبيعية . وليس بالأمر الغريب الذي جعل الفونس العاشر ملك قشتالة يقول لما رأى النظام اليوناني كما شرح له . « لو استشارني الله يوم خلق هذا العالم لكان الكون أبسط وأجمل مما هو عليه الآن » . وقد أصاب شيشرون الروماني في وصفه الكواكب بأنها لم تكن سهلة التعبير ، إذ هي تارة متأخرة ، وتارة متقدمة بين النجوم . وقد نراها في بعض الأوقات سريعة ، وفي غيرها بطيئة ، وأحياناً في المساء وأخرى في الصباح ، فهي لا تبقى على حال واحدة أبداً . واليونان أنفسهم أقروا بفظاعة أفكارهم وعسر تعليلاتهم ، ولم يقدروا أن يتصوروا كوناً طبيعياً من صنع الإله الأكبر وفيه هذه المتناقضات والصعوبات الجمة التي شاهدوها في حركات الكواكب السيارة . فكان عندهم الكون ظاهره وباطنه وما فيه من أجرام مختلفة الحجم متباينة الضوء مثالاً للتكامل والتلاؤم . فشكل الكون كان كروياً كشكل أجرامه التي تحدث بدورانها دوائر مستقيمة متعادلة . ولأن الدائرة كانت أتم الأشكال الهندسية تلاؤماً ، والكون متلائم ومتسق مثلها ، كانت صفة تابعة لحركات النجوم ومداراتها . على أن محاولتهم هذه من تفسير الكون كنظام يسير لتطبيق قواعد هندسية سطحية ، لا كنظام خاضع لنواميس طبيعية أصلية ، أفسدت عليهم الأمر

وكانت سبباً في تعقيد الفكرة وإخراجها بصورة يصعب على العقل تصورها أو إدراكها. فكانت النتيجة أن قام كوبرنيكس بفرض نظرية أسهل على الفهم وأقرب للمنطق من الفكرة القديمة. فجعل فكرته سهلة التعبير، بسيطة خالية من الدوائر أو شبه الدوائر الموجودة في النظام البطليموسي.

في سنة ١٥٠٧ آمن كوبرنيكس بدوران الأرض حول الشمس، وكاد يذيع ذلك لولا خوفه من أن يُتهم بالهرطقة والكفر. وذلك لأن الكنيسة حينئذ كانت تدّعي أن الانسان ملخص أعظم المخلوقات في الكون، وغاية ما أبدع الله على صورته، وأن كل مخلوق ملعداه وُجد له وله وحده، ومادامت الأرض هي موضع ذلك المخلوق العظيم ومكان الجبلة الممتازة المنفوخ فيها من روح الإله، فهي بلا شك مركز الكون، ومحور دورانه، ومركز انعكاس أضوائه من مختلف الجهات حولها. وإن من أخذته أدنى ريبة في ذلك فقد أهان الانسان وحط من مقامه الرفيع بين المخلوقات، ونال من كرامة الإله وقوته وجبروته، لأنه هو والانسان صورة واحدة.

رأى كوبرنيكس أنه إذا كانت الأرض ثابتة فان كل شيء ما عداها يتحرك - أي أن الكون من كواكبه السيارة وغير السيارة في حركة دائمة حول نقطة ثابتة في مركزه، ونقيض ذلك هو دورة الأرض وثبات ما حولها، وإذا قابلنا بين الفرضين وجدنا أن الظواهر الناتجة من الثاني هي كالنتائج الظاهرة من الأول، بل إن الفكرة الثانية، أي دورة الأرض، أسهل للعقل وأخف على الفكر من الفكرة الأولى. لذلك افترض كوبرنيكس دورة الأرض كشيء أقرب للحقيقة وأصدق للتعبير عن مظاهر الكون من فرض ثباتها ودورة الكون حولها. وقد رأى مما يبرر اعتقاده بدورة الأرض، أن الكواكب السيارة شذوذاً في حركاتها، وأن اختلاف هذه الحركات يبين أن الكواكب تدور حول مركز غير الأرض. فبما أنها تظهر تارة قريبة وتارة بعيدة عن الأرض، فان الأرض ليست مركزاً لدوائر حركاتها

أكد لبطليموس ثبات الأرض اعتقاده أن الدوران يهدمها ويفتتها فتتناثر في الفضاء قطعاً. فهاجم كوبرنيكس هذا بقوله: إن دورة الكون السريعة حول الأرض يجب بناء على ذلك أن تفتت الكون كله في الفضاء، ولو سلمنا بدورة الكون بدون تفتيت، أليس من نتيجته أن يتسع الكون ويتمادى في الاتساع حتى تبتعد أجزاؤه عن مركزه؟ وهذا الابتعاد عن المركز يزيد بسرعة الكون وقوة دورانه؟ وذلك لاتساع حلقته ولزوم دورتها في مدة أربع وعشرين ساعة؟ ثم إن قوة الدوران تدفع بأجزائه أكثر عن المركز فيتسع وتزيد بذلك سرعته التي تعود فتزيد بتوسيعه وهكذا إلى ما شاء الله. وعلى ذلك تصبح السرعة متناهية ويمتد الكون إلى ما لا نهاية له؛ فاذا كان كذلك غير محدود الأطراف فالحركة ليست من صفاته لعدم وجود متسع في الفضاء لأتمامها، ثم لو كان الكون محدوداً ومتحركاً فماذا يكون وراء الجليد؟ فاذا كان لا شيء فهل يمكن أن يكون شيء

بجاطاً بلا شيء ؟ هكذا احتار كوبرنيكس في أن يعتقد بكون محدود متحرك ، أو بكون متحرك غير محدود . والتناقض جلي بين الفكرتين . لم يدر كوبرنيكس ما إذا كان الكون محدوداً أم غير محدود ، ولكنه كان متأكداً من حد الأرض وإحاطتها بسطح كروي ، وقد عرف أن الاعتقاد بحركة شيء محدود أسهل من الاعتقاد بشيء متناهٍ غير معروف الحدود . فالأرض إذن حقيقة تدور ، ونتيجة هذه الدورة في هذه الحركة الظاهرية في السماء التي نشاهدها ليل نهار .

قبل أواخر القرن السادس عشر سمع بالفكرة الجديدة « تيخو براهي » ، ولاشتياقه لمعرفة صحتها اعتزم عمل زيج جديد دقيق لحركات الكواكب ، فبنى مرصداً ذاقبة متحركة ، وعمل ربعاً قطره ١٩ قدماً ، وكرة تمثل الكون قطرها خمسة أقدام ، فحصل بذلك على أرصاد دقيقة جداً . على أنه لم يتم ما أراد تحقيقه إذ مات في سنة ١٦٠١ .

أتى بعد براهي رجل ألماني اسمه يوهنس كپلر ، وكان هذا بعكس تيخو تنقصه الموهبة الميكانيكية . ولكنه كان ذا مقدرة كبيرة في الاستنتاج والتمييز بين حالة وأخرى ، وجمع الحقائق بعضها إلى بعض لتكوّن نتيجة حقيقية واحدة . فما كان منه إلا أن أخذ نتائج أرصاد تيخو في الكواكب ، وصار يتأملها ويبحث فيها ويقابلها مع بعضها ، حتى توصل إلى ثلاث حقائق أساسية في بناء فكرة الكون الحديثة :

الأولى : توصل إليها كنتيجة لسبعة أرصاد للمريخ في موضع واحد ، وهي أن الأرض تدور حول الشمس ، ليس بشكل دائرة كما اعتقد اليونان ، بل بشكل منحرف قليلاً عن الدائرة يسمى قطعاً ناقصاً (ellipse) ، والشمس تقع في إحدى بؤرتيه (foeus)

الثانية : المستقيم الذي يصل الأرض بالشمس يقطع في الفضاء مساحات متساوية في أوقات متساوية .

الثالثة : نسبة مربع زمن دورتين لكوكبين هي كنسبة مكعب المسافتين من الشمس . أي إذا كانت مسافة الكوكب الأول من الشمس $م_١$ ومسافة الكوكب الثاني $م_٢$ ، وكان زمن دورة الأول حول الشمس س ، وزمن الثاني ص فهذه الحقيقة هي كالمعادلة $م_١^٢ : م_٢^٢ :: س^٣ : ص^٣$. وقد دل نيوتن فيما بعد بمعادلات رياضية وبالمقابلة أن هذه الحقائق الثلاث تنطبق لا على الأرض وحدها ، بل على كل كوكب من كواكب المجموعة الشمسية ، وقد عرفت بقوانين كپلر نسبة لمكتشفها العظيم

في العصر الذي كان فيه كپلر يجرب أن يوحد أجرام النظام الشمسي بقوانين أساسية ثابتة ، ويحكم ظواهر الكون لمسبباتها الطبيعية ، كان بعيداً عنه وفي بلاد بعيدة ، رجل ايطالي منهمك في صنع تلسكوب جديد لينظر به سطح القمر ، وليرى قوانين كپلر تعمل عملها بين المشتري وأقماره . في سنة ١٦٠٩ صنع غاليليو أول تلسكوب ، وفي سنة ١٦١٠ استطاع أن يرى سطح القمر ويميز الأماكن المرتفعة من المنخفضة فيه ، وأن يظهر حقيقة المجرة كمجموعة كبيرة من النجوم الصغيرة المتقاربة من بعضها ، والتي تُرى لكثرتها كأنها جسم واحد .

في مساء ليلة من ليالي يناير سنة ١٦١٠ أحرز غاليليو أعظم نصر عرفه النظام الكوبرنيكي على النظام البطليموسي ، إذ رأى حينئذ المشتري وحوله أقمار أربعة تحوم حوله . وهذا ما يؤيد

أن الأرض ليست هي وحدها صاحبة الكون ومركزه ، بل هناك أجرام أخرى لها ذات الميزة التي اختصها بها اليونان الأقدمون . واستطاع غاليليو بذلك أن يُسقط أهم دعامات النظام البطليموسي الذي يقول : إن الأرض وهي — أهم الأجرام في السماء وأقدسها وموطن أرقى المخلوقات والمسرح الذي مثلت عليه مأساة المسيح ابن الله — لا بد أن تكون مركز الكون ومحور دورانه

ومن جملة الأسباب التي كان يحتج بها أوسطو في تأييد النظام القديم ، هو أنه لو فرض دوران الأرض حول الشمس ، فان عطارد والزهرة يجب أن يظهرا بأوجه كأوجه القمر ، وما أننا لا نرى شيئاً من ذلك فدورة الأرض حول الشمس فكرة فاسدة ، ولكن غاليليو لم يجب على ذلك قبل أن رأى في تلسكوبه أوجه الكوكبين واختلافها بحسب موقعهما من الأرض ، وهكذا سقطت دعامة أخرى من دعامات النظام البطليموسي ، ولم يبق لذلك النظام إلا أن ينهار من أسسه التي لم تقدر على احتمال ضغط التجارب الشديد

منذ تلك الاكتشافات كان غاليليو سبب ثورة عاصفة من النقد والبحث والشك في أوروبا . وكان الناس يتساءلون فيما قد تكون حقيقة هذا الكون الذي خدعهم ظاهره مدة طويلة من الزمن ؟ وماذا عسى أن يحدث من حط عظمة الأرض والانسان والخالق من مكانها الأول ؟ وما الذي تجيبه عليه الكنيسة والتوراة دحضاً لهذه المظاهر الجديدة وتطميناً للنفوس الحيرى المضطربة . ذلك ما زاد قلق الكنيسة والبابا على ضياع النفوس من حظيرتها ، فهبت تناصر القديم بالتوراة والدين ، وتشددت في تعاليمها ورفضت كل معتقد غريب عنها ، وحاكمت من الشعب كل من عصى أمرها أو أهان قدرها . وكان غاليليو أول من صبت جام غضبها عليه ، فصادرت كتبه وأرغمته مرات على رفض معتقده والتمسك بأقوال الكنيسة ، وحوكم وعوقب من أجل ذلك . غير أن وقفة الكنيسة هذه لم تخفه ولم يهب سطوتها ، وقد جرب إقناع مناوئيه ببراهين منطقية وعملية على فساد فكرتهم ، حتى أنه كثيراً ما كان يناقضهم بحجج من التوراة ، وكان يقول لرؤساء الدين إن عملهم هو تعليم الناس كيف يذهبون إلى السماء لا كيف تدور السماء . بيد أن الكنيسة لم تعر ذلك سمعاً ، وأبت عليه أن يقارعها الحجة بالحجة خوفاً على هيبتها ووقارها أمام الشعب

وأخيراً في سنة ١٦١٦ التأم المجمع المقدس في روما ، وقرر رفض حركة الأرض رفضاً باتاً من تعاليمها وعد الاعتقاد بها هرطقة وعصياناً . وبعد ذلك بسنة أصدر البابا بولس الخامس أمره لغاليليو بألا يعتقد ولا يعلم ولا يدافع عن فكرته الجديدة . ومن بعض أتباع البابا وأصدقاء غاليليو من نصح له أن يفرض ما يعتقد به عن حركة الأرض فرضاً بدون أن يجزم بحقيقته . غير أن غاليليو ظل يشتغل حتى سنة ١٦٣٢ عند ما أظهر كتابه وفيه الحوار بين رجلين عن النظامين البطليموسي والكوبرنيكي ، فسمعت الكنيسة به ومنعت بيعه ، وأوعزت إلى محكمة التفتيش جلبه لروما ، وهناك حوكم وهُدد بالتعذيب إن عاد وجاهر بأفكاره ، وحكمت عليه المحكمة أن يتلو كل أسبوع أمامها مزامير التوبة السبعة لمدة ثلاث سنوات ؛ ولولا أصدقاؤه الكثيرون في روما لذهب ضحية أفكاره الجريئة

لكن برغم كل ما فعلته الكنيسة من إرهاب وتشديد ، وبرغم كل ما أصدره البابا من أوامر تحريم وتعذيب ، فان الحقيقة ظلت سائرة في طريقها إلى الأمام ، وما كانت لتختفي مرة إلا لتظهر للملأ بصورة أوضح وأروع من الأولى . وبدأت فكرة النظام الحديثة تتحقق تدريجياً في عقول معتنقيها ، وتكبر وتتسع حول أساس جديد متين . وما زرع البذرة الأولى كوبرنيكس ونمت حتى أتى كبلر وغاليليو بعده وزادا في نموها وتحكيم أصولها في النفوس . ثم جاء نيوتون وربط أجزاء النظام الجديد بقانون الجاذبية العام ، وأثبت صحة الحقائق التي استلمها عن غاليليو وكبلر ببراهين رياضية دقيقة ، وظلت الفكرة تنمو وتتسع ، والنظام الشمسي يكبر باكتشاف سيارات جديدة فيه كأورانوس ونبتون ، حتى اكتُشف نهائياً بلوتو في سنة ١٩٣٠ وهو أبعد الكواكب السيارة عن الشمس . وكان ذلك خاتمة النمو المطرد في فكرة النظام الشمسي الحديثة ، الذي ابتدأ من كوبرنيكس وبقي نحواً من ثلاثة قرون .

فرج رفيدي



في دار لجنة التأليف والترجمة والنشر

في مساء الخميس الماضي أقامت لجنة التأليف والترجمة والنشر في دارها مأدبة عشاء شرقية فخمة احتفالاً بمرور عشرين عاماً على إنشائها دعت إليها أعضاءها وأصدقاءها وصفوة من وجوه الأمة ورجال الصحافة، فتوافوا إليها في الساعة الثامنة، ثم تحلقوا حول الموائد الكريمة الشهية يتجاذبون ذكريات المودة ويتساقطون أعذب الأحاديث، ويتمتعون بشعور الرضا عن اطراد النجاح لهذا العمل النافع المخلص. فلما فرغوا من الطعام وقف صديقنا الأستاذ أحمد أمين رئيس اللجنة، فألقى كلمة قيمة شكر فيها الحاضرين وألم بتاريخ اللجنة وأطوارها إلمامة وافية واضحة ستنشرها في العدد القادم، ثم عاد القوم إلى السمر بعد أن وقفوا على سر هذا المجهود الموفق، وأدركوا أن بقاءه ونماءه إنما يرجعان إلى تجانس الميول فيه، وإخلاص النية له، ونبالة القصد منه، وقوة الإيمان به. وكانت فرقة هاوية من أعضاء نادي الموسيقى تفصل بين الأحاديث الحين بعد الحين بألحانها الساحرة، فأضافت إلى جلال العلم، وجمال الأخوة، بهجة الفن ونشوة الطرب؛ ثم انقضى السمر بانقضاء الهزيع الأول من الليل، وانصرف القوم مبتهجين بجمال الحفلة، مغتبطين بنجاح اللجنة، مثنين على جهود الأعضاء..

أزمة المسرح

يجوز المسرح اليوم أزمة حقيقية، وينظر المتشاءون إلى مستقبله في كثير من الجزع. وقد عقد أخيراً في رومة مؤتمر دولي برعاية الأكاديمية الملكية الإيطالية لينظر في شئون المسرح، وعلائق المسرح والدولة، وشهده جمع كبير من أقطاب الكتاب المسرحيين في مختلف البلدان. وخطب السنيور لويجي بيراندللو المندوب الإيطالي، فنوه بأهمية المسرح في تنظيم الحياة الاجتماعية، وقال بأنه الإعراب الأسمى للفن، وإنه يستطيع وحده أن يثبت الظواهر الخالدة لعصر من العصور. وتحدث الكاتب المسرحي الأشهر موريس ميترلنك عن أزمة المسرح فأنكر خطورتها، وقال بأن المسرح يشبه طفلاً مريضاً منذ مولده، وقد لا يصل إلى اكتمال صحته قبل مرور ألفي عام، أي بعد أن يكون قد استنفد كل أمراضه، وكل آلام نموه. وإذن فإن الحمى التي يجتازها المسرح اليوم ليست إلا مظهراً من مظاهر هذا التطور الطويل الأمد.. ثم إن هذا العارض يرجع في الغالب إلى عوامل خارجية لا علاقة لها بالمسرح ذاته.

وقد عني المؤتمر عناية خاصة بشئون المسرح الدرامي، وبحث عدداً من مسائله الهامة، مثل ظروف المسرح الدرامي الحالية وعلاقتها بظروف المناظر المسرحية الأخرى، وخصوصاً السينما، وهندسة المسرح، والمسارح العامة والخاصة، وفن المناظر والزخرف، وأثر المناظر المسرحية في أخلاق الشعوب، وعلاقة المسرح بالدولة، وغيرها. وقد أثارت هذه المسألة الأخيرة في المؤتمر كثيراً من الجدل، لأن جميع الدول الأوربية تحاول اليوم أن تضع لها سياسة خاصة للمسرح، وتحاول أن تجعل منه أداة تعبر عن المثل القومية العليا. ومنها من تحاول بواسطة المسرح إحياء التقاليد القديمة، ومزج الأساليب الحديثة بأساطير الماضي. وقد بذلت بالفعل جهود لتحقيق هذه الغاية بصورة عملية، فأسست معاهد للثقافة المسرحية، ولاسيما في روسيا والنمسا. وفي ألمانيا يغدو المسرح أداة حكومية. وفي هذه الوصاية التي تحاول الحكومات أن تفرضها على المسرح خطر على استقلال الفن يجب اتقاؤه.

وتثير المسألة المسرحية اليوم كثيراً من الجدل، ويذهب بعض المتشائمين إلى القول بأن المسرح يحتضر. ولكن كثيراً من أقطاب المسرح يرون مثل موريس ميترلنك في هذا التصور مبالغة كبيرة. وقد قرأنا أخيراً في جريدة «الفيجارو» مقالاً بديعاً للكاتب المسرحي الكبير هنري برنشتين، يقول فيه إن أزمة المسرح نغمة قديمة ترجع إلى عهد ارستوفان ذاته، وإنها مازالت تتجدد خلال العصور المختلفة؛ وفي رأيه أن أزمة المسرح اليوم محلية ترجع أولاً إلى أسباب اقتصادية، أسلمها [illegible]

التنافس فى بناء المسارح منذ الحرب ، وضغط الحكومة على المسرح وإرهاقه بالضرائب الفادحة . وثانياً الى ندرة الموهبة الدرامية ، وصعوبة العمل الدرامى

وهل نحن فى حاجة الى أن نذكر أن صدى هذه الأزمة المسرحية يتردد فى مصر منذ حين ، وأنها قد تفاقمت حتى غدت خطراً حقيقياً على المسرح المصرى ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن المسرح المصرى لا وجود له الآن

احياء الأقصوصة الطويلة (الحكاية)

كتب الكاتب الكبير بول موران فصلاً ممتعاً عن الحكاية Nouvelle ، فلاحظ أنها تمزج بالقصة Roman ، وحمل على القائلين بأن الأقصوصة الطويلة إنما هى قصة من النوع الطويل ، ولكنها أقل منها حجماً . ويرى بول موران أن هناك فرقاً جوهرياً بين النوعين ، فالأقصوصة الطويلة صغيرة الحجم حقاً ، ولكنها تخالف القصة من حيث الجوهر ؛ ذلك أن القصة العادية لا يحدها حجم ، وقد تطول أو تقصر فلا يغير ذلك شيئاً من موضوعها ، ولكن حجم الأقصوصة الطويلة يفرضه موضوعها ذاته . وفى وسعك أن تترك الكتابة فى القصة إلى حين ثم تستأنفها دون حرج ، ولكن الأقصوصة إذا تركت على هذا النحو تصدع بناؤها

ويجب ألا تمزج الأقصوصة بالتصوير الموجز Esquisse وقيمتها قبل كل شىء فى نوعها ، فهى عمل معتنى به وليست عملاً مهلهلاً سريعاً ؛ أما قيمة القصة فهى ما تخلعه عليها مواهب كاتبها ، وتخضع الأقصوصة لقوانينها الخاصة ، وهى لم تتغير منذ عهد الاحياء . وموضوعها دائماً هو أن تعزل شخصية أو عملاً ، وأن تجرده من ملحقاته ، وأن تخرجه من الحياة . أما القصة العادية (الطويلة) فتحملنا إلى أفق خلق محض ، ولهذا كان الانكليزى قصصياً (روائياً) مجيداً ، أما الفرنسى فانه لبراعته فى التخليل يجيد كتابة الأقصوصة .

وقد نستطيع أن نكتب قصة طويلة دون التزام الذوق الحسن ، أو دون موهبة وعبقرية ، ولكن الأقصوصة الحسنة لا يمكن أن تكتب إلا طبقاً لأصول الفن ؛ فالكاتب الذى ليست لمواهب فنية لا يستطيع مطلقاً أن يكتب أقصوصة ذات شأن .

بين الدوتشى وجبرائيل دانونزيو

يقيم دانونزيو شاعر إيطاليا الأكبر منذ أعوام فى قصره فى «فتوريالى» على مقربة من بحيرة لوجانو ، وقد ذاعت فى العهد الأخير إشاعات كثيرة عن علائقه مع زعيم إيطاليا السنيور موسولينى ، حتى قيل بأن الشاعر معتقل فى قصره فى الواقع وأنه لا يسمح له بالانتقال منه أو استقبال أحد فيه إلا باذن خاص ، ولكن الظاهر أن هذه الاشاعات حديث خرافة ، وأن الصداقة التى توثقت بين بطل فيومى (دانونزيو) والدوتشى (موسولينى) لم تزعزعها الحوادث .

وقد زار السنيور موسولينى أخيراً صديقه الشاعر الكبير فى قصره فى فتوريالى زيارة خاصة مجردة عن كل صبغة رسمية ، واستقبله دانونزيو بغبطة وحماسة ، وتعانق الرجلان عند اللقاء ، وصاح دانونزيو بصديقه . « هاقد أتيت أخيراً » ، وكانت آخر مرة زار فيها موسولينى صديقه ، منذ عامين حينما كان يزور تورينو وميلانو محتفلاً بذكرى الثورة الفاشستية . وقد وفد موسولينى على الشاعر عند الغروب وتناول معه العشاء ، واستمر معه حتى منتصف الليل ؛ ثم ودعه مرتحلا إلى مدينة كريمونا التى أعلن منها الزحف على رومه سنة ١٩٢٢ ، وكانت مهد الثورة الفاشستية .

مدام جولييت آدم

بلغت مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة عامها الثامن والتسعين فى هذا الشهر ، ومدام جولييت من أعظم كاتبات فرنسا المعاصرات ، ولدت سنة ١٨٣٦ ، وعاصرت أقطاب الأدب الفرنسى فى عصر الجمهورية الثانية والامبراطورية مثل هوجو ، ولامارتين ، وبلزاك ، والفرددى فينى ، وموسيه ، وجورج صاند ، وكوبيه ، وموباسان ، وذاعت شهرتها منذ سنة ١٨٦٠ ؛ وكانت تتمتع من جراء جمالها الباهر ، ومواهبها الأدبية الممتازة فى المجتمع الفرنسى الرفيع بنفوذ عظيم ، وظهرت لأول مرة بروايتها الشهيرة «قريتى» Mon Village ؛ ثم كتبت من بعدها عدة قصص وكتب نقدية ؛ وأنشأت « المجلة الجديدة » سنة ١٨٧٧ فلقيت نجاحاً عظيماً وظهرت بمواهبها الصحفية . وتعيش مدام جولييت آدم منذ نحو خمسين عاماً فى أحد الأديرة التاريخية ، فى قرية « جييف سير فييت » ، وما زالت تستقبل هنالك كل يوم أحد كثيراً من أصدقائها العظماء ، وما زالت على رغم تقدم سنها تعنى بالشؤون السياسية والأدبية عناية كبيرة .

وقد كان زعيم الوطنية المصرية المغفور له مصطفى كامل باشا على اتصال بمدام جولييت آدم ؛ وكانت بينهما رسائل منظمة ، يبدو فيها عطف الكاتبة الشهيرة على القضية المصرية ، ونشرت ترجمة بعض هذه الرسائل فى ترجمة المرحوم مصطفى كامل



مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

العـــروس ...

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يَرُقها اليوم أن تجلس إلى المرآة جلستها الطويلة ، فدلفت إلى النافذة تنوء بهمٍّ ثقيل على صدرها ، واتكأت بمرفقها على حافة المقعد ، ثم أزاحت السجف وجلست ترقب الطريق . وصك أذنيها غناء الفتيات في بيت جارتها كريهاً نابياً كأنما ينعى إليها الشباب . . . !

لقد جاوزت (إحسان) العشرين وما تزال قعيدة الدار ، تنتظر الخاطب المجهول يدق الباب ليطلب يدها . أتراها لم تكن أجمل من فلانة وفلانة وفلانة ؟ بلى ، وإنها لخير منهن ؛ ولكنهن تزوجن جميعاً وانتهى بهن القدر إلى المستقبل الذي تحلم به كل فتاة ، وهي وحدها ما تزال تنتظر . . . !

* * *

وأخذ الزمن يتراجع ، كما تُطوى سِنِّيبيةُ الخيالة [1] فإذا هي ما تزال بنت السادسة عشرة ؛ تزدهيها فتنة الجمال ، وتسيطر على نفسها كبرياءُ الغِنى ، وتعبث بها أهواء الأنوثة الباكرة ؛ وإذا هي بين أترابها في المدرسة – كما كانت – معقدُ المنى ، ونجوى الخواطر ، وملتقى نظرات الغبطة ؛ لم يجتمع لواحدة من رفيقاتها يومئذ ما اجتمع لها مما تفخر به الفتاة ؛ فلم تكن لتشارکهن الحديث إلا على كبرياء وأنفة ؛ وحين يجري حديث الشبان بينهن في همس موسيقيٍّ مُطرِب ، كانت تمط شفتيها في سخرية عابثة ، ثقةً بأنها الفتاة المرموقة المشتهاة ، كأن على من دونها من الفتيات أن ينتظرن ريثما تختار هي فتاها المجدود ، ثم تترك لهن من بعدُ حقَّ الأمل في الزوج الذي يشتهين . . . !

وكان لها من نشأتها وجاه أبيها ما يُفسح لها في الأمل ، ويعدّ لها أسباب المنى العريضة . ولكن أباها قد مات ! أفينقص من شرفها وجمالها وثرائها أن أباها قد مات . . . فأين الخطّاب يزدلفون إليها ويزدحمون ببابها في طلب الرضى والقبول ؟

إنها لرهينة الدار منذ سنوات خمس ؛ فلا تبصر الطريق – على رغم عصريتها – إلا من خصاص النافذة ، ولا تفارق محبسها إلا في ظل أمها الأيِّم العجوز ؛ فلم تكن تعرف من الشبان غير ابن عمها (فريد) . لقد كان فيما ترى مثال الشاب الذي يداعب خيالها . لم يكن قد أتم دراسته العالية بعد ، ولكنه أتم الرجولة ؛ وكان على فقر من المال ، ولكنه على غنى في النفس ، وكمال من الأدب والفضيلة . كم كانت تُعجب برجولته ونبله ! ولكنها لم تكن تسمح لنفسها أن تمنحه أكثر من الاعجاب . آه لو كان على سعة من المال . . . لتمنَّت أن يكون زوجها الذي تقاسمه الحياة . . . من أين له أن يهيئ لها أسباب الرفاهية التي تشتهي . . . ؟

لم تكن تدري أنها تحبه إلا يوم جاءها البشير أنه خطب لنفسه فلانة ، فأغلقت من دونها الباب وجلست وحدها تبكي ما أسعفها الدموع . ولم يكن يدري أنه يحبها إلا يوم زارها من بعدُ ، فإذا في عينيها تساؤل وجواب ، وعلى شفتيها ابتسامة ذابلة ، ثم إذا هي تفرّ فتضرب الحجاب بينها وبينه ، خشية أن يرى على وجنتيها علامة التأثر ترسمها الدموع . . . !

ولكمْ تمناها لنفسه وبات يرعى خيالها ليالي طويلة ، ولكنه كان يزجر نفسه أن تؤمل الزواج من إحسان ؛ وأين فقره وإقلاله من غنى إحسان . . . !

* * *

[1] سِنّيبية الخيالة : شريط السينما .

ومسحت الدموع عن وجنتيها ، وقالت تعزى نفسها :

« لقد تزوج فريد ، فما أسفى على زواجه ؟ إننى لجميلة ، وإننى لغنيّة ، وإن الشبان ليسرعون الى ذوات الجمال والمال »

وطافت برأسها أحلام ، وزيّنت لها الأمانىُّ دنيا بهيجة من الخيال أفعمتها أنساً وسعادة ؛ واستنامت الى المنى ، تصبح وتمسى حالمة بالخاطب المجهول

وتصرّمت الأعوام عاماً بعد عام ، وإحسان تعيش من أحلامها فى رضى وقناعة ؛ وحسبها من مسرات الشباب أنها توقظ كل يوم واحداً من شباب أحلامها تساقيه المنى وتبادله الحب ، فاذا انتبهت من أحلامها السعيدة قالت حين ، كأنما هى من حبيبها على ميعاد

وأخذت زهرات الربيع تنتثر أوراقها دامية على الشوك ، لأن البستانى يحول أن تمتدّ اليها اليد التى تشعرها أنها جميلة ؛ ولكن بقيت على ثغر الزهر ابتسامته الناعمة ، لأنه من أحلامه على رضى وقناعة .

لشد ما كان يعجب شباب الناحية باحسان ! فما يحلو لهم سمر إلا الحديث عن جمالها وفتنتها ، وما يطيب لهم مجلس إلا بذكر كمالها وشمائلها ؛ ولكنها على ما حلّت من نفوسهم أكرمَ منزلة — لم تبلغ أن تكون موضعَ الأمل عند واحد منهم أن تصير زوجته . لقد تقاصرت دونها المنى ؛ من إبائها ، وغناها ، وحرص أهلها على التقاليد

ومن أين لغير القليل من الشبان أن يُرضىَ مطامع إحسان ؛ من أين له (المعجزة المالية) ليؤدى لها المهر الذى ترضاه ، وينفقَ فى أكلاف العرس ما يُرضى التقاليد ؟

وطالت الأيام على العذراء الحالمة ، وبدأت تملّ وحدتها الفارغة ، وأخذت تسىء الظن بجمالها وفتنتها . ولم تجد غير المرآة تبثها خواطرها ، فتعودت الجلوس إليها الساعاتِ كل يوم ، تبادلها الرأى فيما تظهر به جميلة جذابة ؛ لعلها أن تجد بالجمال المصنوع رجلها الذى تحلم به . . .

أفتستطيع المرآة أن تمنحها الزوج إن منحتها الجمال ؟ . . !

واستيقظت من أحلامها حين توالت عليها الأنباء بأن صواحبها اللاتى كانت تسخر منهن وتُزهى عليهن بمالها وجمالها — قد تزوجن واحدة بعد أخرى ، واستقرت بهنّ الحياة فى بيت الأمومة

وهذه صديقة أخرى تتزوج . لقد طالما هزئت إحسان من (خديجة) جارتها وزميلتها فى المدرسة ؛ وما أكثر ما كانت تركبها بالدعابة الثقيلة والنكات اللاذعة حتى تطفر من عينيها دموع الذلة والانكسار ! لم تكن خديجة فى مثل جمال إحسان ، ولا لها قليل من جاه أبيها أو ماله ؛ ولكن ، هاهى ذى تتزوج وتعزف لها الموسيقى ، وإحسان ما تزال تنتظر . . . !

***

وانقطعت سببةُ الذكرى ، فأفاقت إحسان من غفلتها ، وراحت تمسح الدموع عن وجنتيها بأطراف السجف وتنظر الطريق

وأخذ عينيها بريقُ الكُرات الملوّنة مدلاّة من حبالها ، يتلاعب بها الهواء تلاعبَ اليأس والهم بنفسها ؛ واضطربت فى مرأى عينيها الراياتُ الخضر ، اضطرابَ أوراق الشجر هبّت عليها رياح الخريف . . . !

لقد كانت وحدها فى البيت ، فلم ترافق أمها إلى بيت خديجة لتزف إليها التهنئة . منذ أمس ، حين زارتها صديقتها داعية ، وهى لا تستقر على حال من لذع الغيرة وألم الحرمان ! وقدرت — إن هى أجابت الدعوة — أنها ستكون بين المدعوّات موضع السخرية والاشفاق ؛ وما تحب أن يسخر منها أو يشفق عليها أحد . . . !

ومرّ من تحت النافذة فوج من الشباب يقصدون بيت العروس ، وراحت إحسان تختبر فراستها ، لعلها أن تعرف زوج صديقتها من بين هؤلاء . أفكانت تريد ذلك حقاً ؛ أم هى تريد أن تعرف من بينهم رجل أحلامها الذى صحبته فى الوهم سنوات . . ؟

وزفرت زفرة خافتة ، وراحت تحصى سنيها التى عمّرتها على الأرض . ياويلتا ! اثنتان وعشرون سنة . . . ! لقد تزوجت أمها فى الثالثة عشرة ، فلعل إحسان لو تزوجت فى مثل سن أمها — كانت موشكة أن تصير جدة . . . ! وركبها اليأس ، واصطلحت عليها الأفكار السود ، ولم تجد لنفسها طاقة بالوحدة بعدُ ؛ فازّينت وأسرعت إلى بيت العروس تتفرج . . .

وهاجت أحزانها مظاهر الفرح ، وبهرتها الأنوار البراقة . ولدغتها ثعابين الغيرة من عناقيد الزهر متعانقة متشابكة ، ورنّت فى أذنيها ضحكات النساء كأن قلباً من الزجاج ينكسر . وانتظم النساء حلقات — على عادتهن — يتهامسن عابثات ضاحكات ؛ فوقع فى نفسها أنهن يتهامسن فى شأنها ، فانطوت على نفسها فى زاوية من البهو تحاول ألا تتحدث إلى أحد ، أو يتحدث إليها

أحد . وخُيِّل إليها أن التمنيات التي توجهها إليها صواحبها — سخرية وشماتة . . .

« المُقْبِي لكِ . » ما أحراهن أن يترجمنها إلى اللغة الصريحة فيقلن : « الرحمة والرثاء لك أيتها التاعس السكينة . . . ! »

وأديرت — على برد الخريف — أكواب الشراب المثلوج ، ووزعت الحلوى في العلب المذهبة الثمينة ، وتزاحم النساء يتخاطفنها كأنما يقتضين الأجر على ما شرفن العروس بالحضور للتهنئة . . . ! ورأت إحسان أنها لم تتفرج مما بها ولكنها زادت همًّا على هم ، فأسرعت عائدة إلى الدار

ولم تنم السكينة ليلتها ، ولكن أخذتها إغفاءات متقطعة تتخللها الرؤى والأحلام . وعاد تفكيرها في الزواج بعض عملها اليومي ، ولكنها لم تعد تفكر في الرجل — إذ تفكر في الزواج — أكثر مما تفكر في مظاهر الاحتفال ، وزينة العرس ؛ وفيمن تدعو ليشاركها الفرح من نساء المدينة وشبان المدينة . كانت تفكر في الانتقام لكبريائها التي زعمتها دنست يوم عرس خديجة . سيكون احتفالا خيراً من احتفالها ، وستزين البيت أروع مما أزين بيتها ، وستجتمع لها من سراة المدينة ووجهائها من لم يجتمع لعروس قبلها . ستحاول يومئذ أن تسعر الغيرة والحسد في قلوب كل صواحبها ، أكثر مما كانت تسعرها بكبريائها وتيهها عليهن وهي ما تزال صغيرة تطلب العلم معهن بالمدرسة ، أو تشاركهن اللعب في فناء الدار . . . !

***

كان العام قد استدار ، وأخذت زهرات الربيع تتفتح ويضوع أريجها في الجو ؛ ولكن قطرات من الندى كانت تبللها كدمعة الحزن في وجه عذراء مستحيية . . . ولكنها تبتسم ؛ أكانت تصطنع الابتسام لتخفي عن الناظر بعض ما في صدرها من هم ؛ أم كانت هذه دموع الفرح على وجنتيها . . . ؟

وأطل الفتيات من النوافذ يتعرفن خطيب إحسان خارجاً من دارها في جماعة من أهله ؛ ورأين بضعة من الرجال عليهم سيماء السراة من أهل الريف ، في جلابيبهم الفضفاضة ومعاطفهم السود ، يلوون ألسنتهم بالحديث في لهجة جديدة على أهل الحضر ، وبينهم (أفندي) واحد يبدو من مظهره ، ونظام لباسه أنه وإن عاش في المدينة طويلا — ما يزال بعض أهله

وقالت فتاة لأختها :

— « أهو هذا ؟ »

— « بل هو ذاك »

ولم يكن هذا ولاذاك ؛ ولكنه خرج بعد انفضاض الجمع ، يتوكأ على نفسه من ثقل وبدانة حشو ثيابه الغالية ، يلوك بين شدقيه لساناً يتفقد بقايا الطعام بين أضراسه ، ولم يخف ميل طربوشه أثر الوشم في صدغه

وقالت فتاة :

« أبنه هو ؟ »

فأجابها صاحبها بابتسامة

وبرق الماس في أصبعه ، وبرق الذهب من سلسلة ساعته ؛ فقالت الفتاة :

« إنه لغني . . . ! »

***

وكان الحفل الحاشد بعد أيام ، فاجتمع فيه من مظاهر البذخ والغنى ما لم يتهيأ لسكان الحي أن يشهدوا مثله منذ أعوام ؛ فأقيمت المقاصف ، ووزعت الهدايا ، ودقت الطبول ، وعزفت الموسيقى ، وتجاوبت ألحان المغنين والمغنيات بين فناء البيت وأعلاه ، وتناثرت نجوم الكهرباء تنقل إلى الأرض بعض معاني السماء ، وعبق أريج الزهر يحمل إلى أهل الحياة أنفاس أهل الجنة . . . وإحسان في مجلسها راضية ناعمة ، تشرف من علٍ على الحفل وزينته فخوراً مزهوة

لقد كانت فرحة الزواج عندها أن تشهد لنفسها مثل هذا الحفل ، وقد شهدته على أكمل ما أبدعته في خيالها ؛ وبلغت مأملها في الظهور على صواحبها بما يتقاصرن عنه من بذخ وإسراف . أما الزوج ، أما الرجل الذي سترتبط اليه ويرتبط إليها فلا فكاك مدى الحياة ، أما رجل أحلامها الذي أحبته زماناً من طول ما صحبها في الخيال — أما ذاك ، فما عليها أن تظل نائمة تحلم ما دامت قد انتقمت لكبريائها الجريح

لم تفتش السكينة عن الرجل الذي سعدت في الوهم بصحبته ، وذاقت معه على البعد نعيم الحياة ، وتنورت من فكرها فيه عالم الحب ودنيا الجمال . . . وراحت تفتش عما يرضي الناس ويطلق ألسنتهم بالإعجاب . . .

وباعت سعادة العمر ؛ واشترت سعادة ليلة . . . !

محمد سعيد العريان



هبة الأيام

فيما يتعلق بأبى تمام

تأليف الشيخ يوسف البديعى قاضى الموصل (١٠٧٣ هـ)

نشره وعلق عليه الأستاذ محمود مصطفى

أهدى إلى زميلى الأستاذ محمود مصطفى كتاب «هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام» من تأليف الشيخ يوسف البديعى قاضى الموصل المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ، وهو كتاب عثر عليه الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر فى محفوظات دار الكتب المصرية، فأعجبه منه جريه على طريقة القدماء فى دراسة الأدب من التنقل بالقارىء من خبر مستطرف، إلى معنى مستظرف، إلى فكاهة بارعة، إلى حكمة رائعة. فمدار الكلام عنده على أبى تمام، ولكنه إذا ذكر قوة حفظه عرض لكثير ممن عرفوا بهذه المنقبة، فروى من أخبارهم ماروى صدى التأدب؛ وإذا ذكر مدحه لأحمد بن أبى دؤاد مثلا عرج على حياة هذا الممدوح، بجلاها القارىء بما لا يترك فى نفسه بقية من حاجة؛ وإذا مر بمعنى له تناوله الشعراء سرد من أقوالهم فيه مايشبع نهمة النهم من طلاب الأدب. وهكذا جرى فى كتابه من أوله الى أن فرغ منه، وهذا عمل يثير الاعجاب حقيقة من عالم فى هذا القرن الحادى عشر من القرون الهجرية، وهو من القرون التى طغت العامية فيها على العربية، وأصبح العلماء لا يحسنون فيها التأليف بالعربية الفصيحة، فكيف بهذا النوع من التأليف فى الأدب والموازنة والنقد؟ ومؤرخو الآداب العربية يكادون ينسون الشيخ يوسف البديعى وأدبه فى وسط تلك الظلمة القائمة، التى غطت على الأدب العربى فى تلك القرون المظلمة.

فكم أحسن الأستاذ محمود مصطفى بلفت الأذهان الى أدب الشيخ يوسف البديعى، حتى لاتغطى عليه تلك الظلمة، ولا ينسى مؤرخو الآداب عمله فى وقت لم يكن لغيره عمل يذكر فيه.

وكم أحسن فى تعليقاته على هذا الكتاب إذ تابع مؤلفه فى طريقته، فعرف قارئه بالرجال الذين عرض لذكرهم ولم يعرض للتعريف بهم، وشرح ماوقع فيه من أشعار أبى تمام وغيره، ولم يكن المؤلف يعنى الا بشرح القليل منها، لأنه لم يؤلف كتابه لذلك وانما ألفه لتلك الأغراض السابقة.

وللأستاذ محمود مصطفى فى شرحه طريقة تليق بوظيفته الجامعية، فهو يعنى فيه بشرح المعانى الأصلية للكلمات وماخرجت اليه من مجاز أو كناية، ثم يستخرج من ذلك معنى البيت وينقده اذا رأى أبا تمام قد خرج به عن الجادة، فتكلف فى الصنعة، أو ركب الشطط فى مجازاته؛ وقد يجعل من نقده إطراءه اذا جمع موجبات الحسن فى شعره، وهى كثيرة فيه، ولم يفته مع هذا أن ينقل من آراء الأقدمين الذين نظروا فى شعر أبى تمام من الآمدى والجرجانى وغيرهما، ثم يعقب على ذلك برأيه فيوافقهم تارة فيما رأوه فى شعره، ويخالفهم تارة أخرى فيه.

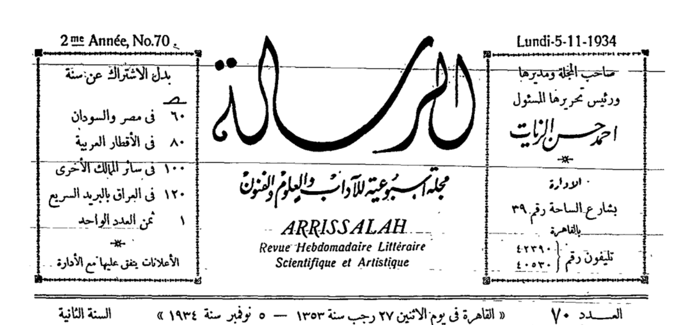
وقد جلونا بهذا كتاب هبة الأيام للقراء، وعرفناهم قيمة عمل الأستاذ محمود مصطفى فيه، وأدينا بذلك حقه علينا كأثر من أحسن الآثار الأدبية، وبقى لنا عليه أشياء أردنا للزمالة ألا نعرض لها، وأراد الأستاذ محمود إلا أن نطلق لقلمنا العنان مقرظين أو ناقدين، وإنا نكتفى عما عندنا بهذين النقدين

فالأستاذ محمود فى قول أبى تمام:

وإذا مشت تركت بصدرك ضعف ما ... بحليها من كثرة الوسواس

برى فيه استخداماً طريفاً حسنا، لأن أمثلته قليلة فى العربية، والاستخدام عنده فى أن الوسواس يطلق على صوت الحلى، وعلى حديث النفس بما لا خير فيه، وقد أراد المعنى الأول فى كلمة الوسواس الظاهرة فى البيت، وأراد الثانى فى الموصوف المحذوف فى قوله «ضعف ما»، ولا شك أن هذا ليس من الاستخدام فى شىء، وليرجع الأستاذ الى تعريف الاستخدام وأمثلته فى كتب البلاغة، فسيرى أن هذا لا يشمله تعريفه، ولا يشابه أمثلته.

وكذلك نخالف الأستاذ محموداً فيما صنعه فى قول أبى تمام:



2me Année, No.70. — Lundi-5-11-1934

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة
مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

العـــدد ٧٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ رجب سنة ١٣٥٣ — ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

يا هادىَ الطريق جرت ! !

ذلك هُتاف الأمة الحيرَى ، يتجلجل فى صدرها المكظوم كلما بهرتها الشدائد ، وأجهدتها المفاوز ، وفدحتها الضحايا ، ووقف بها اللغوب ، ودارت ببصرها فى معامى الفضاء فلا تتبين نَسَماً لطريق ، ولا تتعرف وجهاً لغاية .

يا هادىَ الطريق جُرْت ! !

ذلك صراخ القافلة المكروبة ، تَخبط منذ طويل فى مجاهل الأرض ، وخوادع السُّبُل ، وأدلاَّؤها الغواة يلتهمون زادها مع الوحش ، ويقتسمون مالها مع المغير ، ويغتنمون ضلالها مع الحوادث ، حتى قطعوها عن رَكْب الانسانية ، وتركوها فى مطاوى التيه تنفق جهدها على غير طائل ، وتَنْشد قصدها من غير أمل

يا هادىَ الطريق جُرْت ! !

ومن يستطيع اليوم أن يُعرِّف هذا الهادى بالنداء ، أو يخصصه بالوصف ، أو يأخذه بالتبعة ؟ لقد تعدد الهداة فى هذه القافلة ! واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجاذبوا

فهرس العـــدد

الأزمة ، فأخرجنا هذا من مذهب الى مذهب ، وصرفنا ذاك من مطلب الى مطلب ، حتى إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ، تدور حول الموقف الذي كنا فيه ، أو ترجع الى الموضع الذي فصلنا عنه !

على هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقرى زهاء ثمانين سنة : رجعنا الى العهد الذي كنا نهدهد الدستور فيه على هوى السلطان المطلق ، وندرب القانون على مصارعة العرف الغالب ، ونعلم الشعب الأخير معنى الأمة المالكة ! وليتنا عدنا الى ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ! فقد كنا على قلتنا أعزة ، وعلى فاقتنا أعفة ، وعلى جهالتنا أعلم بالخير وأفهم لمعنى المجتمع : كنا نتواصى على الصبر ، ونتعاون على البر ، ونتهادى صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع ، فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكئ على النقيصة ، ويتحمل على الخبث ، ويتجر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبه شريعة !

ولكننا وا أسفاه ، بعد هبّة مصطفى ، ونهضة سعد ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولد النبوغ ، وتوحد الشعب ، وتكون الرأي ، نصاب بهذه النكسة الشديدة ، فنعود ناقضين ما أبرم خاسرين ما غنم [illegible]

***

اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادي لا يزال ينبت ، وإن الشمس التي أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تشع ، وإن الأيدي التي غرست أولى الحضارات على الضفتين لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر ، وتتحرر الشعوب الضعيفة ونحن لا نتحرر ؟

دع عنك ما يقال من كلب الاحتلال ، وفقد الاستقلال ، وتجني الدول ، فإن ذلك كله عرض من أعراض العلة الدخيلة الوبيلة وهي انحلال الخلق . وانحلال الخلق في دهرنا الحديث داء جرثومته أننا عنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الابن قبل تعليم البنت ، فكان لنا من ذلك الوضع المقلوب رجال يجرون في عنان مع علماء الغرب ، بل وربما طاولوهم في حذق اللغات وتلون المعرفة ؛ ولكن كثيراً منهم يخلون من أخلاق الرجولة خلو البيت من الأم الصالحة ، والمدرسة من المربي القادر ، فتخونهم الكفاية عند التطبيق ، وتخذلهم الشجاعة عند العمل ، ويفارقهم الضمير عند الواجب ، فلا يبقى إلا الغرائز الحيوانية التي تثب على أموال الناس ، وتعتدي على حقوق الشعب ، وتستخدم السلطان العام في مساعدة الصديق ومكايدة العدو ومناوءة الخصيم ! . .

وليت غريزة الحياة بقيت فينا على حال الفطرة ! إذن لعلمنا ما تعلم النمل من قوام العمل ، وفهمنا ما تفهم النحل من نظام الجماعة ، وسرنا على نور الله لا نعمه في ظلام ، ولا نسدر في غواية

***

إن بعض الأمم الإسلامية أقل منا عدداً ، وأرق ثروة ، وأضيق ثقافة ، وأحدث مدنية ، ما في ذلك شك ، ولكن غرائزها الأصيلة لم يزلزلها الرق السياسي ، وخلائقها النبيلة لم يفسدها زور المدنية الوافدة ، فتمردت على الضيم ، وتعنتت على الأحداث ، وقلمت الأظفار الناشبة في استقلالها ، وقطعت الأيدي الطامعة في استغلالها ، ومشى أبناؤها الأباة على هدى ماضيهم المشرق لا يستكينون لمشورة خليفة ، ولا يستنيمون لمعونة أجنبي ، ولا يستجيبون لوساوس الأطماع في مرافق الأمة ومناصب الدولة ، حتى انخزلت عنهم التهم ، وغفلت عنهم الفتن ، واستوثق لهم الأمر أو كاد

ذلك يا قوم ما يهدي له منطق الطبع ، وصوت التاريخ ، وعبقرية الجنس ، أما هذا الذي نحن عليه فلا يمكن أن يؤدي إلا إلى الذي نحن فيه ، فتداركوا إفلاس المدرسة ، وفشل السياسة ، وفوضى الحكم ، بإيقاظ الضمائر الغافلة ، واستخدام الكفايات العاطلة ، واستلهام هذا الشعب المجيد الذي عودته عناية الله أن يعوّق ولا يضل ، ويعذّب ولا يذل ، ويحارب ولا يستكين

احمد حسن الزيات

لجنة التأليف والترجمة والنشر

نبذة تاريخية

للأستاذ احمد أمين

رئيس اللجنة

فى سنة ١٩١٣ كان فى مدرسة المعلمين العليا بدرب الجماميز طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامى ، ويطيلون التفكير فى وسائل إصلاحه والنهوض به ، ألّف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله ، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه ؛ وقد نبتت هذه الفكرة عندهم على أثر حرب البلقان ، ومطالعتهم فى كتب تثير هذه المعانى فى النفوس ، أمثال كتاب « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » للكواكبى

فكانوا يجتمعون اجتماعات متعددة للبحث فى وضع خطط لما ينوون القيام به من أعمال ، يجتمعون أحياناً فى مدرسة ، وأحياناً فى منزل ، وأحياناً فى مسجد الجزيرة عقب توضّهم ، وأحياناً يسافرون الى بلد أحدهم فى الأجازة ، وأحياناً يفرون من العمران ويجتمعون فى الصحراء

وكانوا يتبادلون الرأى فى مختلف الوسائل ، وينحون فى ذلك مناحى مختلفة ، فمنهم من كان يميل الى تركيز كل الجهود فى الأصلاح الدينى ويرى أنه هو الوسيلة الوحيدة لرقىّ العالم الاسلامى ، ومنهم من كانت تغلب عليه النزعة الى الاصلاح الاجتماعى بأوسع معانيه — وكانت الآراء فى ذلك تتشعب ، وتذهب المناقشات بينهم كل مذهب

وهناك فى « زاوية البقلى » فى أحد اجتماعاتهم اعتزموا تكوين لجان منهم للقيام بأعمال مختلفة ، إحداها « للتأليف والترجمة والنشر » ، وهذا هو السبب فى تسميتها « لجنة » لا جمعية ولا غيرها

وفى هذه الأثناء اتصلوا ببعض إخوانهم فى مدرسة الحقوق فساهموهم هذه الأفكار وتطوعوا للعمل لها وبذل الجهد فى تنفيذها ؛ وكان من أظهر أفراد هذه الجماعة ، وأول الداعين إلى هذه الأفكار ، وأشدهم حماسة ونشاطاً ، الطلبة : محمد احمد الغمراوى ، وأحمد عبد السلام الكردانى ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، وأحمد زكى ، وحسن مختار رسمى ، ويوسف أحمد الجندى ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد عبد البارى

فلما تخرج أكثر هؤلاء من مدرستى المعلمين والحقوق سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٥ عقدوا النية على أن يتموا رجالاً ما بدأوا به طلبة ، واتصل بهم إذ ذاك بعض إخوانهم ممن يميلون ميلهم ويشعرون شعورهم ، ومن هؤلاء : محمد كامل سليم ، وأمين مرسى قنديل ، وعبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران ، وعبد الحميد فهمى ، ومحمد صبرى أبو علم ، وأحمد أمين

ليس المقام الآن مقام ما فكروا فيه من مشروعات أخرى ، وما عملوا فيها ، وما آلت اليه ، إنما المقام الآن للجنة التأليف ؛ فقد أكثر هؤلاء الأعضاء من ذكر التأليف والترجمة والنشر ، وأملوا أن تقوم جماعتهم بهذا العمل ، وأن يتسع نطاقها ، فيكون لهم مكتبة ومطبعة ، ومدرسة نموذجية ، ومجلة ، وأن تكون لهم كتب فى مختلف العلوم والفنون تناسب جمهور المتعلمين فى جميع مراحل التعليم

وكان أول ما عملوا أن عهدوا إلى الأستاذين أحمد زكى وأحمد عبد السلام الكردانى تأليف كتاب فى الكيمياء للمدارس الثانوية ، والى الأستاذ محمد احمد الغمراوى تأليف كتاب فى الطبيعة ، والى الأستاذين محمد خلاف وعبد الحميد فهمى تأليف كتاب فى الحساب ، وإلى الأستاذين محمد كامل سليم ومحمد بدران تأليف كتاب فى الجغرافيا . وقد نفذت كل المشروعات ماعدا الثانى منها

أملوا هذه الآمال ، وكوّنوا هذه اللجان ، ووضعوا مشروع هذه الأعمال ، وليس لديهم مال يستعينون به على أغراضهم ، ولكن كان لهم أمل قوى ، وعزيمة ثابتة ، وإخلاص نقى ، وحسبهم من هذا غنى

فى هذا الحين بدأت اللجنة فى عمل قانون لها وعهدت الى الأستاذ حسن مختار رسمى بوضعه

واجتمع الأعضاء سنة ١٩١٥ بالمدرسة الأعدادية بالعباسية لأن كثيراً من أعضاء اللجنة كانوا مدرسين بها ، فقرأوا القانون وأدخلوا عليه بعض تعديلات وانتخبوا أعضاء مجلس الادارة ، وبدأ الأعضاء يدفع كل منهم عشرة قروش فى الشهر ، ثم جعلت مالية اللجنة أسهماً كل سهم ثمنه جنيه ، وهذا بدء التكوين المالى

اللجنة — ولم يكن يزيد عدد الأعضاء إذ ذاك على خمسة عشر عضواً

بدأت اللجنة عملها بأن وضع الأستاذان احمد زكي واحمد الكرداني كتابيهما في الكيمياء في جزأين فمهد في قراءته ونقده للأستاذين محمد خلاف ومحمد الغمراوي، وكان من أجمل المناظر اجتماعهم وعملهم؛ فقد استأجروا شقة خاصة في منزل أحدهم أعدها لهم أولهم، وظلوا يجتمعون ليل نهار يقرأون وينقدون ويراجعون الى أن يدركهم الليل فيناموا وقد بلغ منهم الجهد، حتى اذا أتموه بعد عناء قدموه للطبع، ولم يكن في اللجنة ما يكفي للانفاق عليه، فاقترضت اللجنة من بعض الأعضاء ما يكفي لذلك

لم يكن في مال اللجنة ما يكفي أيضاً لاستئجار مكان خاص، فكان مجلس الادارة يجتمع في بيت أحد الأعضاء، وأكثر ما كان ذلك في بيت عبد الحميد افندي العبادي بالحلمية، أو بيت محمد افندي بخلاف كذلك — وأحياناً يجتمعون في مقهى قل زواره — ولما أنشئت نقابة المعلمين استأذنتها اللجنة في أن تجتمع فيها فأذنت، وكانت الجمعية العمومية لها تنعقد في إحدى المدارس الأهلية كالاعدادية، ووادي النيل

كذلك لم تكن تستطيع أن تستأجر مكاناً تخزن فيه كتبها، فكان كل مؤلف يخزن كتابه في بيته، ويبيع منه ما طلب منه ويقبل حسابه بنفسه ويقدمه للجنة

ثم اتفقت اللجنة مع مكتبة أن تودع فيها كل كتبها في نظير خصم أكبر على ما يباع — وكان أحد الأعضاء يتولى حساب اللجنة على طريقة ساذجة بسيطة. وقد كانت هذه الأعمال كلها مما يعرض اللجنة للضياع والانحلال لولا ما ملئ به أعضاؤها من صدق وإخلاص وثقة

أخذت اللجنة بعد ذلك تنمو تدريجاً فزاد أعضاؤها حتى بلغوا الآن بضعاً وسبعين، وزاد إنتاجها، واتسع عملها، وكثر مالها، فاتخذت لها مركزاً، وكان أول ما فعلت ذلك أنها استأجرت مكاناً في شارع الأمير يوسف بالحلمية القديمة بثلاثة جنيهات شهرياً اتخذته مخزناً ومكاناً للادارة، ثم انتقلت منه الى مكان في شارع غيط العدة، ثم الى مكان في شارع البتدولي، ثم في شارع الشابخة، ثم في مكانها الحالي. ونظمت دفاترها واستخدمت لها العمال ليقوموا بحساباتها على الطراز الحديث

ومما يلاحظ أنها بدأت أول أمرها بالكتب المدرسية لرواجها، ولتكون دعامة مالية لها، ثم توسعت بعد ذلك فلم تبال ما تطبع متى وثقت به من الناحية العلمية، ولو كان الكتاب كتاب الخاصة كما فعلت في ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو، والبصريات

كما يلاحظ أن أكثر أعضائها وأوفرهم إنتاجاً كان من المعلمين، لأن طبيعة عملهم جعلتهم أكثر اتصالاً بالكتب، وميلاً الى تأليفها أو ترجمتها

وقد ساعد اللجنة على رواج كتبها الثقة التي منحها الجمهور إياها مقابل ما تبذله من جد في التدقيق فيما تنشر، فليست تخرج كتاباً إلا بعد أن يمر على لجنة مختصة تنظر فيه بإمعان، وتقدم تقريراً عنه بصلاحيته، أو تقترح إدخال إصلاح عليه غير مبالية كثيراً برواج الكتاب أو عدم رواجه متى وثقت أن الكتاب يخدم العلم ويحقق غرضها، ويفيد ولو الخاصة

ومنذ أربعة أعوام سمت اللجنة لدى وزارة المعارف أن تمنحها مبلغاً من المال للاستعانة به على تأليف الكتب القيمة وترجمتها ونشرها. إذ كان هذا العمل من أهم الأعمال التي يصح أن تقوم بها وزارة المعارف

وكان لبعض أعضاء اللجنة السعي المشكور في أن مجلس النواب طلب من وزارة المعارف أن تمنح اللجنة مقداراً من المال لهذا الغرض. كما كان لبعضهم سعي مشكور آخر في إجابة وزارة المعارف له

وألفت وزارة المعارف لجنة من الأستاذ سكرتير عام الوزارة، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، ورئيس اللجنة، للنظر في المال الذي تقرره الوزارة، وكيفية صرفه، والكتب التي ينفق عليها هذا المبلغ

وقد منحت الوزارة اللجنة ألف جنيه في ثلاثة أعوام متوالية أنفقت منها على طبع كتاب فتح العرب لمصر، والنجوم في مسالكها، والجزء الأول من السلوك للمقريزي، ولا تزال مستمرة في إخراج الكتب القيمة كلما تجمع لها شيء من المال

فلوزارة المعارف الشكر على هذه الثقة كما للأعضاء الذين سعوا هذا السعي الشكر على ما سعوا

***

وأخيراً وبعد عشرين سنة من حياتها يحق للجنة أن تقف

[البقية على صفحة ١٨٠٤]

قصة زواج

ذيل القصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهب الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد ابن المسيَّب وتزويجه ابنتَه من طالب علم فقير بعد إذ ضنَّ بها أن تكون زوجاً لوليّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريّات المتعلمات تصيح وتولول . . . وحدّثنا أديب ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان . . .

أفتُراها ستكتب اليه أنها تقبل الزواج من ولي عهده ؟

على أن للقصة ذيلاً، فان الطبيعة الآدمية لا عصرَ لها، بل هي طبيعةُ كل عصر. والفضيلةُ الأنسانيةُ يبدأ تاريخُها من الجنة، فهي هي لا تتجدّد ولا تزالُ تلوح وتختفي؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسها، فهي هي لا تتغيّر ولا تزالُ تظهر وتستتر

***

لما زوّج الامامُ ابنتَه من أبي وَداعة وأخذها بنفسه اليه في يوم زوّجها منه، ومشى بها في طريق حصاهُ عنده أفضلُ من الدُّرّ، وترابُه أكرمُ من الذهب؛ طارت الحادثةُ في الناس واستفاضَ لهم قولٌ كثير. « فأما الذين آمنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . » وقد قال جماعةٌ منهم : تاللهِ لئن انقطع الوحيُ فان في معانيه بقيّةً ما تزال تنزل على بعض القلوب التي تُشبه في عظمتها قلوبَ الأنبياء؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا في معنى سُورة من السُّوَر قد انشقّت لها السماءُ ونزل بها جبريلُ يخفُقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان.

« وأما الذين في قلوبهم مَرَضٌ فزادتهم رِجْساً الى رِجْسِهم . » وقال أُناسٌ منهم : أمَا واللهِ لو تهيّأ لأحدنا أن يكون لصاً يسرق أمير المؤمنين أو ابنَ أمير المؤمنين لركب رأسَهُ في ذلك، ما يردّه عن السرقة شيء؛ فكيف بمن تهيّأ له الصهرُ والحسبُ، وجاءه الغنيُّ يطرُقُ بابَه — ما باله يردُّ كل ذلك ويُخزي ابنتَه برجل فقير تعيشُ في داره بأسوإ حال؛ وكيف تثقُلُ همتُه وتبطُؤُ وتموتُ إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة؛ ثم ينبعث ويمضي لا يتلكّأُ عزمُه إذا كان العلم والفقر والدين والتقوى

وانتهى كلام الناس الى الامام العظيم فلم يَحفِلْهُ إلا من الظن خَفِيّاً خفيّاً، كأنما هي أقوالٌ حَسِبَها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألف سنة، في زمننا هذا، حين يكون هو في معاني السماء، ويكون القائلون في معاني التراب النَّجِس الذي نفضتْه على الشرق نعالُ الأوربيين . . . !

قال الراوي : ولم يستطع أحد من الناس أن يواجه الإمامَ بشَفَةٍ أو بنتِ شفة، لا مُضيِّقاً عليه من قلبه ولا مُوسِّعاً، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة، وقد مال الناس بعد الصلاة الى حلْقة الشيخ وتقصَّفوا بعضُهم على بعض فغَصَّ بهم المسجد، وكان إمامُنا يُفسِّر قوله تعالى : « وما لَنا ألا نَتوكَّلَ على اللهِ وقدهدانا سُبُلَنا، ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذيتُمونا . وعلى الله فليتوكَّلِ المتوكّلون . »

قال الراوي : فكان فيما قاله الشيخ :

إذا هُدِيَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى في الحياة إما عداءً له، وإما معارَضَةً، وإما رَدّاً؛ فهو منها في الأذى، أو في معنى الأذى، أو عُرْضَةٌ للأذى . لقد وجد الطريق ولكنه أصاب العقبات أيضاً، وهذه حالة لا يَمضي فيها المُوَفَّق إلى غايته إلا إذا أعانه الله بطبيعتين : أُولاهما العزمُ الثابت، وهذا هو التوكّل على الله؛ والأخرى اليقينُ المستبصِر، وهذا هو الصبر على الأذى

ومتى عزم الانسانُ ذلك العزم، وأيقن ذلك اليقين — تحوّلت العقباتُ التي تصدّه عن غايته فآل معناها أن تكون زيادةً في عزمه ويقينه، بعد أن وُضِعْنَ ليكُنَّ نقصاً منهما؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تُعين على الغاية . وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحَه على الطريق، فما بُدٌّ أن يَغلبَ على الطريق وما فيها . وينظر الى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً على سَعتِها وتناقضها

الا سبيله وما حول سبيله ، فهو ماض قدماً لا يتراد ولا يفتر ولا يكل ، وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً

ومن ثم لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت — إلا نفاذاً من طريق واحدة دون التخبط فى الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمر مهما طال إلا مدة صبر فى رأى المؤمن . وعزيمة النفاذ وعزيمة الصبر هما الضوء الروحانى القوى الذى يكتسح ظلمات النفس مما يسميه الناس خمولاً ودعة وتهاوناً وغفلة وفجراً ونحوها

قال : ولكن كيف يعان المؤمن على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين إعجاز الآية الكريمة ؛ فقد ذكر فيها التوكل ثلاث مرات ، وافتتحت به وختمت ، والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا . وذكرت فى الآية بين ذلك هداية المرء سبيله ؛ وهذه الاضافة (سبلنا) تعين أنها هداية الانسان الى سبيل نفسه ؛ أى سبيله الباطنى الذى هو مناط سعادته فى الشعور بالسعادة (١) ثم ذكر الصبر على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا فى حيوانية الانسان ، ولا يؤثر إلا فيها . فكان الآية مصرحة أن نجاح المؤمن ونفاذه فى الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم الثابت . وأن الصبر ليس شيئاً يذكر ، أو شيئاً يجدى ، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية فى أفظع وحشيتها ؛ فالروح لا تؤذى الروح ، ولكن الحيوان يؤذى الحيوان . وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداء من غيرك ، ويسمى أذى لك ، هو شيء ينبغى أن يجعله العزم نخراً لقوة الاحتمال فيك ، كما جعله البطش نخراً للقدرة عند المعتدى

وبهذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانى ، ووهبك حقيقة الشعور ، وصحح بمعانى روحيتك معانى حيوانيتك ؛ وحينئذ ترى السعادة حق السعادة ما كان هداية لنفسك أو هداية بها ، ولو انقلب فى الشخص الحيوانى منك أذى وألماً . ذلك صبر أولى العزم من الرسل

***

قال الراوى : وعنـد ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسه عامل الخليفة ، ليسأل الشيخ سؤالاً على ملأ الناس ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ؛ وقد مكر العامل فاختاره شيخاً كبيراً أعقف ، ليرحم الناس رقة عظمه وكبر سنه فلا يعرضون له بأذى ، ثم ليكون صوته كأنه صوت الدهر من بعيد . قال الصائح : ذلك أيها الشيخ صبر أولى العزم من الرسل ، أو صبر ابنتك على مكاره العيش مع أبى وداعة ، لا تجد إلا مضغة تمسك بها الرمق عليها وقد كانت النعمة لها معرضة ، فدفعتها اليه زعمت — لتهلك به شخصها الحيوانى ، وتوكلت على الله وألقيت ابنتك فى اليم ... ؟

فتربد وجه الشيخ وأطرق هنيات ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلم آنفاً ؟ فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادن منى . فتقاعس الرجل كأنما تهيب ما فرط منه . فاستدناه الثانية ؛ فقام يتخطى الناس حتى وقف بازائه ثم جلس ؛ فقرأ الشيخ قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هـداناا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص »

ثم قال : أيها الرجل ، لا تسمعنى بأذنك وحدها . أرأيتك لو سمعت خبراً ليس فى نفسك أصل من معناه ، أو ورد عليك الخبر ونفسك عنه فى شغل قد أهمها ، أفكنت تنشط له نشاطك للخبر احتفلت له نفسك أو أصاب هوى منك أو رأيته موضع اعتبار ؟

قال : لا

قال الشيخ : فاذا سمعت بأذنك وحدها فانما سمعت كلاماً عبر بأذنك مراً ، وإذا أردت الكلام لنفسك سمعت بأذنك ونفسك معاً ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فكل ما لا تنفرد به حاسة واحدة ، بل تشارك فيه الحواس كلها أو أكثرها — لا يكون إلا موضع اهتمام للنفس ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فمن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما إذا شاركت فيهما الحواس ، فيأتى كل منهما كثيراً مهما قل ، وتزيد كل حاسة فى اللذة لذة وفى الألم ألماً ، فتعمل النفس فى ذلك أعمالاً

(١) سيأتى فى كلام الامام بسط لهذا المعنى

تستحضرها ، فيكون الشيء لصاحبه غير ماهو للناس ، كالصوت الباكي أو الضاحك في لسان طفلك ، تسمعه أنت منه بكل حواسك فاذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل في الناس رأيته غير ذاك . أ كذلك هو ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فيكون السرورُ بالغاً عجيباً أكثرَ ماهو بالغ ، حين يجدُ المالَ والغِنى في الأنسان ، أم حين يجد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَح والرضى ؟

قال : بل حين يجدُ في النفس

قال الشيخ : أرأيت الأنسان يكون سعيداً بما يتوهّم الناسُ أنه به غنيٌّ سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بَعدُ فيما لا يتوهم الناسُ فيه الغنى والسعادة ؟

قال : بل بشعوره

قال الشيخ : أفلا توجدُ في الدنيا أشياءُ من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع ؛ كالطفل عند أمه ، كل ما تعلق به من شيء وُزِنَ به هو لا بغيره ، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه ، أتعرف أمّاً ترضى أن يُذبَح ابنُها في حجرها لقاء أن يُملأ حجرُها ذهباً ؟

قال : لا

قال الشيخ : فاذا كانت النفس تشعرُ أكثر مما ترى ، أفيذهب ما تراه فيما تشعر به ، ويكون شعورها هو وحده الذي يَلبَسُ ما حولها ويصوّره ويصرّفه ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفسٍ قويةٍ من هذا العالم الذي نعيش فيه عالَماً آخر هو عالم أفكارِها وإحساسِها ، وفيه وحده لذاتُ إحساسِها وأفكارِها ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفرأيتَ المرأةَ إذا صحّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها ، أرأيتها تكون إلا في عالَم أفكارِها ، أرأيتَ كلَّ ما يتصل برغبتِها حينئذ يكون إلا من أشياءِ قلبِها لا من أشياءِ الدنيا ؛ أرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبِها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط ؟

قال : نعم هو ذاك

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الأعمال قد وُلِدَ ونشأ وترعرع في قلب المرأة ، ألا يكون هو طفلَ قلبِها ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الحمر عند مدمنها شيئاً عظيماً ، وكانت ضرورةً من ضرورات وجوده الضعيف المختل ، فلا يستقيم وجودُه ولا سَفَهُ وجودِه إلا بها ، أفيلزمُ من ذلك أن تكون الحمر من ضرورات صاحب الوجود القويّ المنتظم ؟

قال : لا

قال الشيخ : أفموقنٌ أنت أن لا بدّ من آخر لأيام الأنسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفيؤرَّخُ الانسان يومئذ بتاريخ مَعِدَتِه وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه

قال الشيخ : فاذا كنتَ صاحبَ حربٍ ، وكنتَ بطلاً من الأبطال ومِسعَراً من المَساعير ، وأيقنتَ الموتَ في المعركة ؛ أيكونُ الحقيقيُّ عندك في هذه الساعة هو الموتَ أم الحياة ؟

قال : بل الحياةُ عندئذ وهمٌ وباطل

قال الشيخ : فتَنفِرُ في تلك الساعة الى الحياة ولذّاتها في خيالك ، أم تفرّ منها ومن لذاتها ؟

قال : بل الفرارُ منها ، فان خيالها يكون خَبَالاً

قال الشيخ : ففي تلك الساعة التي هي تُعمِّرُ نفسك وتَمَلُ نفسك ورجاءُ نفسك ؛ تستشعر اللذةَ في موتك بطلاً مذكوراً ، أم تُحِسّ الكربَ والمَقتَ من ذلك ؟

قال : بل أستشعر اللذة

قال الشيخ : إذن فهي كبرياءُ الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أيّ أشكالها ولو في الذهب

قال : هي تلك ؟

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا ، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا

قال : نعم

قال الامام : يرحمك الله . كذلك يُحيى عندنا أميرُ المؤمنين

وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحيِي المال والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة . ومن رحمة الله أن كلَّ مَن هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمة استطاع أن يصنع بنفسه لنفسه سعادتها في الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لُقَيْمات ؛ فان السَّعَةَ سَعَةُ الخُلُق لا المال ، والفقرَ فقر الخُلُق لا العيش

***

قال الراوي : ثم إن الامام العظيم التفت الى الناس وقال : أما إني — عَلِمَ الله — ما زوّجتُ ابنتي رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً ، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة . وقد أيقنتُ حين زوّجتُها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلةَ نفسه ، فيتجانسُ الطبعُ والطبع ؛ ولا مَهْنَأَ لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعُه طبعَها . وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشترى هذه المجانسة ، وأنها لا تكونَ إلا هديةَ قلبٍ لقلب يأتلفان ويتحابّان

ثم قال الإمام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ، ورأيتهنّ في دورهنّ يقاسِين الحياة ، ويُعانِين من الرزق ما شحّ دَرُّه فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة ؛ وهنّ على ذلك ، ما واحدةٌ منهنّ إلا هي مَلِكةٌ من مَلِكاتِ الآدميّة كلِّها ، وما فقرُهنّ والله إلا كبرياءَ الجنة ، نظرت الى الأرض فقالت : لا . . . !

يجاهِدْنَ مجاهَدَةَ كل شريفٍ عظيمِ النفس ، همُّه أن يكونَ الشرفُ أو لا يكونَ شيء ؛ ويرى الغافلُ أن مثلَهن في تعب الجهاد ، ويعلَمْنَ من أنفسهن غيرَ ما يرى ذلك المسكين — يعلمْنَ أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها

كانت أنوثتُهنّ أبداً صاعدةً متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ؛ ولا تزال متسامية صاعدةً ، على حين تنزل المطامعُ بأنوثة المرأة دون موضعها ، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأةُ تطمع ؛ ورُبَّ ملِكة جعلتْها مطامعُ الحياة في الدرك الأسفل ، وهي باسمها في الوهم الأعلى . . . !

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطّلعْتُ في الجنة فإذا أقلُّ أهلِها النساء ، فقلت أين النساء ؟ قال : شغَلَهنّ الأحمران : الذهب والزعفران[1] . » أي الطمع في الغنى والعملُ له ، والميلُ الى التبرج والحرصُ عليه

ونفسُ الأنثى ليست أنثى ، ولكن شغْلَها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع — هو يُخصصها بخصائص الجسد ، ويُبطِلها من حكمه ، ويُنزلها على إرادته ؛ وهذه هي الزلّة ، فتهبط المرأةُ أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما تقوى ، وتَفسد أكثر مما تَصلح . إن نفسَ الأنثى أنثى لرجل واحد ، لزوجها وحده

رأيتُ أزواجَ النبي صلى الله عليه وسلم فقيرات مقتوراً عليهن الرزق ، غير أن كلا منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوى ، في دار صغيرة فرشُها الأرض . . . ولكنها من معانى ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران . إنهن لم يبتعدْنَ عن الغنى إلا ليبعدْنَ عن حماقة الدنيا التي لا تكون إلا في الغنى

***

أفٍّ أفٍّ ! أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيَها الله على يديّ ، وأدفعها الى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كلَّ أقذار النفس ودنس الأيام والليالي ؛ أأُزَوّجها رجلاً تعرفُ من فضيلة نفسها سقوطَ نفسه ، فتكون زوجةَ جسمه ومطلّقةَ روحه في وقتٍ معاً ؟

ألا كم من قصر هو في معناه مقبرةٌ ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهم ونسائهم إلا جيفٌ يَبلى بعضُها بعضاً !

(١) توفي سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل ، وعنه أكثر روايته

(١) هذان هما فتنة النساء في كل دهر ، وهذا الحديث من المعجزات ، فالذهب كناية عن المال والحلي وما كان من بابهما ، أما الزعفران ففيها المعجزة لأنها كناية مطلقة فهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة ، ونفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء ، من المساحيق والعطور ، الى (المودة) التي هي أصباغ معنوية لأشكال الثياب . وقد كان العرب يقولون : غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها . ويقولون من ذلك : امرأة مغمرة ، وتغمرت . أي فعلت ذلك (فالزعفران) كما ترى كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختانة ، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية . . . وسنضع إن شاء الله مقالا في التبرج وحقيقته وفلسفته

٢ـ الشيخ على يوسف

للأستاذ عبد العزيز البشرى

تتمـــة



ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، على أنه كان الى الطول . يظهر فى مرأى العين نحيلا هزيلا ، ولكنه كان مكتنز اللحم . مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجبهة ، أزرق العينين ، طويل الهدبين كثيراً ما ترى له فى إطراقه ، نظرة غريبة ساجية . ضيق الفم ، على أن فى شفتيه الجراوين شيئاً من الغلظ . تعلوه صفرة ما أحسبها من أثر مرض . وشعر لحيته الدقيقة المتسقة يميل الى الشقرة . رفيق الصوت لينه إذا يحدث ، فاذا رفع صوته ضمر بعض الضمور ، وتسلخ بعض التسلخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التى تصلح للخطابة

وكان بعدُ رجلاً شديد العقل ، قوى النفس ، حديد العزم ، وافر الشجاعة . لا تتعاظمه قوةُ خصم بالغةً ما بلغت قوةُ ذلك الخصم وبأسه . وإذا تحداه متحدٍّ ركب رأسه فى نضاله لا يبالى أين يقع المصير ، وصحّ فيه قول الشاعر :

إذا همّ ألقى بين عينيه عَزمَه ونكّبَ عن ذِكر العواقب جانبا

وأذكر أنني مضيتُ إليه مرة فى صحب لى من خلصانه ، وسألناه أن يترفق بالمؤيد ، فلقد تظاهر عليه خصومه ، وألبوا الجمهرةَ عليه ، وأذكوا عليه حماسة الشباب فى رأى له قد لا يحسن فهمَه العامةُ ، ولا يستريح اليه طموح الشباب . فأصغى الينا وأحسن الأصغاء ، وترك كل واحد منا يقول ما عنده ، حتى إذا انتهينا ونحن على الظن بأنه نازل عند رأينا ، عادل إلى ما سألنا ، فاذا هو يرتج فى مجلسه ارتجاجة عنيفة ، ويقول فى قوة وفى عزم حديد : «والله لا يعنيني أن يكون الناسُ جميعاً فى صف واحد ، وأنا والحق الذى أعتقده بازائهم فى صف واحد» ! . وتركناه ونحن نرى متحدر المؤيد بطغيان الخصومة يوماً بعد يوم !

ولقد كان الشيخ على ، رحمة الله عليه ، رجلاً متمكناً من نفسه حقاً ، ولقد كان مما يُشاع عنه ، ولعل خصومه هم مبعث هذه الاشاعة ، أنه كان يقول : أنا لا أبالى أن أخسر هذا البلد ، فى إمكانى أن أعود فأكسبه بثلاث مقالات . . !

ولقد عاشرتُ الرجل ما عاشرتُه ، واستمكن ما بيننا من الودّ والالف إلى الحدّ الذى يبعثنى على الاعتقاد بأنه ما كان يخفى عني شيئاً حتى من نجوى نفسه فى الأسباب العامة . وشهد اللهُ ما سمعت منه قط هذا الكلام ، ولا أية عبارة أخرى يمكن أن تؤدى معناه

ولكن مع هذا لقد كان هذا هو الواقع ، أعنى الواقع من حاله لا من مقاله : فانني لا أعرف رجلا سياسياً عظيما كان أقل الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً كما كان الشيخ على يوسف . وخصومه ، على كثرتهم ، لقد كانوا من جميع الطبقات ، وكانوا من جميع الهيئات ، وإنهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب ؛ وكلهم عاملٌ على إسقاطه ، جاهدٌ ما امتدّ به الجهد فى هدم المؤيد ، مذكٍ عليه الأقلام والألسن من كل ناحية ، تدمغه بتهمة الخيانة

* * *

قال الراوى : وضجّ الناس لحمامة صغيرة قد جنحتْ من الهواء فوقعت فى حجر الشيخ لائذةً به من مخافة ، وجعلتْ تدفّ بجناحيها وتضطرب من الفزع ، ومرّ الصقر على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تمطّر ومرق فى الهواء إذ رأى الناس

وتناولها الامام فى يده وهى فى رجفها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعروس مُسرْوَلة قد غاب ساقاها فى الريش ، وعلى جسمها من الألوان نمنمةٌ وتحبير ، ولها روح العروس الشابة يهدونها الى من تكره ، ويزفّونها على قاتلها الذى يسمى زوجها

وأدناها الشيخ من قلبه ، ومسح عليها بيده ، ونظر فى الهواء نظرة . . . . وهو يقول : نجوتِ نجوتِ يامسكينة !

طنطا مصطفى صادق الرافعى

الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا إشفاق ، والمؤيد يتقلص بين أيدى القارئين ويتقلص حتى يظن أنه قد تشرّف على العفاء . ثم إذا الشيخ يتجمع ، وإذا هو يشرع القلم شرع الرمح الردينى ، وإذا هو يطعن الطعنة البكر ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فلا يصيب إلا الكُلَى والمفاصل . وإذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، وإذا المؤيد يرنّ فى البلد رنينه ، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه !

وقد عرفت أن الشيخ على يوسف كان مبغّضاً إلى الكثرة فى البلاد . وإن هذا البغض ليرجع ، فى الأكثر ، إلى أسباب صناعية : منها المنافسات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولى الأمر ، ومنها أنه كان هنالك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر ، كان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر ، ولربما ظاهروا المعتمد البريطانى أحيانا فى عدائه للقصر . . فهم ، بالضرورة ، ينقمون من كل رجل توافيه للقصر ، وخاصة إذا كان رجلاً كالشيخ على يوسف جبار العقل جبار القلم .

أرأيت كيف كان هذا الرجل محاطاً من جميع أقطاره بنطاق من العداوات المختلفة ، بل التى يصطرع التناقض أحياناً بين أسبابها بعضها وبين أسباب بعض ؟ . على أن إذكاء بغض الشباب والعامة للرجل من جهة ، وبغض بعض الخاصة له من جهة أخرى ، إنما كان يسلكه له خصومه من أخذ طريق الضعف فيه ، إن صح هذا التعبير . أولها أنه كان معتدلاً لا يرى العنف سبيلاً إلى استرداد حقوق البلاد ؛ بل إن هذا العنف لقد يردها فى أخطار لم تكن لها فى الحساب ، وكان طوعاً لهذا يرى ألا يتحدث على الشئون العامة إلا الشيوخ الناضجون المجربون ، وهذا وهذا ، ولا شك ، مما لا يرضى الشباب المشتعل حماساً لحق الوطن . ولا تنسى أن العامة من وراء هؤلاء .

أما السبب الثانى فلصوقه بالقصر ، وشدة توافيه له ، ومظاهرته له على الدوام ، وأظن أن هذا مقام لا تحمد فيه إطالة الكلام .

مع هذا كله فى يوم الجُلّى ، يوم تحدث الأحداث القومية ، ينفض الناس قلوبهم حتى يتساقط عنها كل ما علق بها من الحقد على الشيخ على يوسف ، ويتلعون أعناقهم نحو المؤيد شاخصة أبصارهم ، مرهفة آذانهم ، معلقة فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسهم . فاذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وبغيه ، فلا يزال يوسعها تمزيقاً بمخلبه ، وضغماً بأنيابه ، حتى ما يدعها إلا (أعظماً وجلوداً)

نعم ، لقد كان يقول الشيخ على فيروى كل غلة ، ويشفى كل علة ، ويعلو بسطوة قلمه حتى ما ينتهى منتهاه فى ذلك أحد . والناس طراً لهذه النصرة بين مهلل وبين مكبر ! . هذه كانت قدرة الشيخ القادرة ، وهذه كانت قوته العبقرية النادرة . وهذه مقالاته فى أعقاب حادثة دنشواى ما برحت ترن فى آذان من قرأوها إلى الآن .

وإنى لأذكر له حادثاً طريفاً فى هذا الباب :

نشبت الفاشية ، لا أعادها الله ، بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس باشا غالى ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ ، على ما أذكر ، وعقد الأقباط مؤتمراً مليّاً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله فى القاهرة ، وأفضوا برياسته إلى أكبر رجل فى البلاد يومئذ ، وهو المرحوم مصطفى رياض باشا ، واختار القائمون على هذا المؤتمر مثوى لاجتماعه ملعب مصر الجديدة ، ومضى الناس أفواجاً فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالات البلد لم يتخلف منهم إلا من انقطع به العذر . وتصدر الحفل رياض باشا . وتعاقب الخطباء كابراً بعد كابر . فأبلوا فى المقال أيما بلاء ، وأبدعوا فى الخطاب أيما إبداع

حتى إذا كانت النوبة على الشيخ على أذكى بعض شبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بهو الملعب طائفة من الفتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القوم ألا يصفقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يظهروا أية إشارة تدل على الاستحسان . فوعدهم أكثر الناس بهذا ، وأصروا عليه مخلصين لما تنطوى صدورهم من حقد عليه ومن بغضاء

وينبعث الشيخ يخطب ، وهو كما قدمت لك غير خطيب . استغفر الله ، بل لقد انبعث يتلو مقالته فى أوراق بين يديه ؛ وأنت حق خبير بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضع دقائق حتى أخذ الناس عن نفوسهم ،

ونسوا ما عاهدوا أولئك الفتيان وعاهدوا أنفسهم عليه . فبروا من التصفيق أكفهم ، وشققوا بالصياح حناجرهم تشقيقاً ، فكنت تسمع من هتافهم مثل الرعد القاصف ، وترى من اضطرابهم وتموجهم فعل الريح بالأغصان في اليوم العاصف ! وكان من أشدهم سفراً من كلام الرجل هم أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على ألا يلقوا خطابه إلا بالجحود والأعراض

و جهد بالرجل ، فتعاور التلاوة عنه كل من أستاذنا ابراهيم بك الهلباوى ، والمرحوم أحمد بك عبد اللطيف المحامى الأشهر ، وأنت كذلك خبير بأثر خطبة يتلوها فى الساعة غير منشئها ، ما أرخى اليها من قبل نظراً . ومع هذا فما برحت تزداد الفورة وتشتد بالقوم الفتون !

ولقد أذكر أنه بعد إذ فرغ من خطاب الشيخ وافقت فى طريق صديقاً لى من شبان الحزب الوطنى ، وهو الآن من أعلام أهل الفضل الذين يتولون منصباً جليلاً فى السلك القضائى . وكان يومئذ مسرفاً غالياً فى التشيع لمبادىء حزبه ، مفرطاً فى بغض الشيخ ، شديد التحامل عليه . ورأيته يضرب كفاً بكف ، فسألته ما به ؟ فأومأ الى مكان الشيخ من منصة الخطابة وقال : (على جيبن الخطبة دى ، يقعد ابن الـ ... يخون فى البلد ثلاث سنين) !

ولا زلت كلما لقيت صاحبى أذكره هذه الحكاية ، فيضحك فى غيظ لا أدرى إن كان من تذكيرى له بهذه القصة ، أم أنه ما تزال فى صدره بقية من هذا الضغن القديم ؟ ! الله أعلم !

***

ولقد عرفت أن الشيخ على يوسف كان رجلاً مكافحاً ، بل إن قلمه لم يكن يجود فى شىء مثلما كان يجود فى الكفاح . ولم تكن سياسة الاحتلال فى مصر تخشى سطوة قلم قدر ما تخشى قلم هذا الرجل ، فانه كان فوق كفايته البيانية ، وما آتاه الله من شدة العارضة ، والتمكن من نواصى جلائل المعانى ، لا يهرول إذا هرول فى الصغائر ، ولا يطعن إذا طعن إلا فى الصميم

ولا أحب أن أتجاوز هذا المعنى فى الرجل قبل أن أدل على خلة من خلاله فى كفاحه : ذلك بأنه كان يعتمد أضعف النقاط فى خصمه فيتجمع لها ، ثم يثب عليها بكل قوته ، ولا يبرح يطعنه منها دراكا ، حتى يدوخ رأسه ، ويذهله عن سائر أسلحته ، إذا كانت له أسلحة أخرى يجهز بها لذلك النضال

وكان فى كتابته سريعاً جداً ، حتى لتحسبنه ويده تجول فى القرطاس عازفاً على قانون لامسطراً بيراع ، وتراه كلما فرغ من وجه الرقعة من الأضمامة دفع بها الى من يفضى بها الى المطبعة . وهكذا حتى يأتى على غاية المقال ، لا يتتعتع ، ولا يتحبس ، ولا يحتاج الى مراجعة شىء مما أسلف ، ومع هذا تجد المقال سوياً غاية فى الحبك وتناسق الأطراف !

ومن العجب العاجب فى أمره أنه كثيراً ما كان يكتب والغرفة محتفلة بالزوار وأصحاب الحساجات ، يرفعون أصواتهم بفنون الأحاديث والجدل ، بل لقد يأخذ معهم فى بعض ما هم فيه وهو ماض لشأنه لايشغله هذا عنه كثيراً ولا قليلا !

الشيخ على الصحفى

ولقد كان رحمه الله ، صحفياً بأجمع معانى الكلمة ، يكتب المقال الرئيسى كل يوم بيده ، ويراجع كل ما يدلى به اليه الكتاب من المقالات ، ويفض البريد بنفسه ، فما رآه كفؤاً للنشر أذن فى نشره ، وقد يحذف بعض المقال ويبقى على بعض ، فاذا تهيأت الجريدة للطبع وراجعها المصححون تناولها فقرأها من أولها الى آخرها يصحح ما عسى أن يكون قد فات القوم تصحيحه ، ويتثبت من ألا يكون قد دس على الجريدة شىء مما يكره ، أو يكون قد سقط اليها فى سر منه إعلان عن خمر أو غيره من المناكر

وكان على جلالة محله ، وكثرة المخبرين لديه ، يطوف بنفسه كل يوم بأكثر الدواوين فى تنسم الأخبار يستخرجها بالطف حيلته من النظار (الوزراء) أو من المستشارين الانجليز فمن دونهم من عيون الموظفين

وهكذا استطاع الشيخ على بكفايته وحد عزمه ، أن يجعل من المؤيد أعظم جريدة فى مصر ، برغم كل ما كان يعتريها من الكيد ، بل أعظم جريدة فى العالم العربى كله

من أخلاق الشيخ على

وقبل أن أختم الحديث فى الشيخ على يوسف أرى لزاماً أن أشير الى فضيلتين من فضائله البارزة بروزاً عظيماً : أولاهما أنه كان خيراً مطبوعاً ، ما رأيته سئل الخير قط يستطيعه إلا فعله

كيف كنت حلاقا؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

هل وجهي وجه حلاق ؟ ؟

هذا ما ظللت أسأل المرآة عنه أياماً بعد أن وقع لي ما سأقصه اليوم ، والمرآة لا تجيب ، وإن كنت لا أضن عليها بالالحاح وطول التحديق ، أو لعلها أجابت وأبيت أنا أن أسمع أو أصدق . وقد كففت عن مشاورة المرايا وأسلمت أمري إلى الله ، وأمر وجهي إلى حسن أدب الذين يرونه

وصحيح أني كنت — وما زلت أحياناً — أحلق ذقني بيدي ، لأني كنت في عنفوان الاضطرام السياسي أخاف أن يوقعني سوء الحظ في يد حلاق سياسي لا يشايعني على رأيي ، فيذبحني ويروح يدعي أن قتلي كان خطأ لا عن عمد وسبق إصرار ، ولكني بلوت من متاعب الحلاقة ما زهدني فيها ، فرددت نفسي على مكروهها ولم أعد أبالي ما عسى أن يصنع برقبتي الحلاقون السياسيون . وللذبح أهون من تهمة الجنون . أي نعم . فقد شرعت مرة أحلق ذقني ، ولكن حد الموسي كان كليلاً جداً ؛ فجعلت أحك به وأحت حتى صار وجهي — أو خدي — الأصيل كالطماطم الناضج ، ولم أعد أحتمل هذا الألم ، وفرغ ما في صدري من الهواء من طول النفخ ومن كثرة قولي «أووففففف !»

فطويت الموسي ، وقلت إن هذا سلخ لا حلاقة ، ولست بشاة ، ثم إني ما زلت حياً ، ولم أصنع قبيحاً أستحق عليه أن أسلخ وجهي بيدي

وارتديت ثيابي ووضعت منديلاً على جانب وجهي الذي سلخته وخرجت ألتمس دكان حلاق — أقرب دكان — وسرت على بركة الله ، وفي أملي أن يظن من يراني أن أضراسي توجعني . واهتديت إلى دكان على كثب من البيت ، ولكن الحلاق كان مشغولاً ، فقعدت أنتظر ، وكفي على المنديل فوق خدي ، وفرغ الحلاق فدعاني فأسرعت إلى الكرسي ، ورفعت المنديل عن وجهي ، وجاء بالفوطة (1) ولف طرفها على عنقي ثم ارتد بغتة ووقف يتأملني وقد قطب وذوى ما بين عينيه ، فقلت :

« ماذا ؟ ؟ قل ولا تخف ! »

قال وهو يهز رأسه : « كلا . لا شيء ! »

قلت ملحاً : « بل تكلم . . فاني مستعد للإصغاء . . »

فتكلف الابتسام — أعني أنه ابتسم بشفتيه دون عينيه — وراح يجمع أدوات الحلاقة ويعدها ويرصها ، وكان في أثناء ذلك يخالسني النظر ، فلم يبق عندي ريب في أن الشك خالجه في صحة عقلي ، وما أحسبه رأى قبلي رجلا يدخل عليه ونصف وجهه محلوق والنصف الآخر يطلب الموسي . وكأنما حار ، ماذا يصنع

(1) الفوطة عربية فصيحة وجمعها فوط

مهما يكن فيه من عنت ومن إرهاق ، وإنه ليفعل مغتبطاً راضياً هاشاً حتى ليكاد يلتمس السائليه الخير التماساً ، وحتى ليكاد يصدق فيه قول الشاعر (كأنك تعطيه الذي أنت سائله) . وإني لأعرف أنه كان يجرد صدراً من يومه في السعي لحاجات الناس ابتغاء رضوان الله ، هذه واحدة . أما الثانية فشدة وفائه . ولقد عرفت صلة الرجل بالقصر ، ومبلغ ضعفه له . ولقد يتغير ولي الأمر يومئذ على رجل من صدقائه أو ممن أسلفوا له يداً ، فتتناهشهم الأقلام من كل جانب ، اللهم إلا المؤيد ، فإنه الذي لا يطلق مقالة السوء فيه أبداً ، وحسبك دليلاً في هذا الباب شدة توافيه للمرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، ورياض باشا ، وغيرهم كثير ، فإن كان قد مس بعضهم كما مس رياض باشا عقب خطبته المشهورة ، فلقد كان عذره واضحاً ، وأي وطني يطيق أن يسمع الأشادة بفضل المعتمد البريطاني على حساب كرامة أمير البلاد ! على أنه فيما مسه لقد كان به أرفق الكاتبين

***

فإن زعمت بعد هذا أنه كانت في الرجل هنة أو كانت فيه هنات ، فمن ذا الذي سلم على العيوب كلها ، و (كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه) . وحسب الشيخ علي أنه كان بمجموعة مزاياه ومواهبه مفخرة من مفاخر هذه البلاد التي لا يسخو بمثلها الزمان و (إن الزمان بمثله لبخيل)

رحمه الله رحمة واسعة ، وعزانا عنه نحن القادرين قدره ، أحسن العزاء !

عبد العزيز البشري

بالنصف الحليق ؟ أيجرى عليه الموسى ؟ أم يدعه ويعنى بالنصف الثانى ؟ فقد وضع عليه حد الموسى ثم رفعه ووقف متردداً فقلت لأستحثه :

« تفضل . تفضل . . . إن هذا أيضاً يحتاج الى الموسى »

فألقى إلىّ نظرة سريعة ، وأكب على العمل بلا كلام ، والحلاقون كما يعرف القراء ، ثرثارون ، ولكن منظر وجهى كان له وقع عميق فى نفس هذا الرجل ، فنشف ريقه ، وعصب لسانه ، وانقطع أيضاً ، ولم يسؤنى هذا ، ولكنى فزعت إذ رأيت يده ترعش . فجعلت أدعو الله فى سرى أن يلطف بى ويرأف بعيالى ، ويرحم شبابى

واستجاب الله دعائى لأول مرة . . ولآخر مرة فيما أذكر . . وعلى أنه من يدرى ؟ لعل الرحمة كانت أن يذبحنى الحلاق — عفواً أو عمداً — فما تكون للمذبوح عناية بهذه الفروق

***

واتفق يوماً أنى نزلت فندقاً ، وكان فيه غيرى كثيرون كما لا حاجة بى أن أقول ، وبينهم أجنبى هرم له بنت جميلة ، وكان هذا الشيخ أحمق حاد الطبع ، وبنته على خلافه لينة العريكة سلسة الطباع ، ولو أنها كانت حمقاء مثله لشفع لها جمالها ، فكيف وهى تجمع الى حسن الوجه دماثة الخلق ورقة الحاشية ؟ وعرفتها لأنى اصطدمت بها فأوسعتها اعتذاراً فلم يضق بى عفوها ، وصرنا بعد ذلك كلما التقينا نتبادل التحية — بالرأس — وكنت ألقاها فى اليوم الواحد خمسين مرة ، فلا أدرى أينا الذى كان يتعقب صاحبه ؟ وفى المرة التاسعة والأربعين من اليوم الأول استطعت أن أفتح فمى وأحرك شفتى فقالت مستفسرة :

« نعم ؟ »

قلت : « لا شىء . أعنى أنى أردت أن أقول نهارك سعيد »

قالت : « آه ! صحيح ! نهارك سعيد ! »

قلت : « إ . . إ . . الجو اليوم جميل . . »

قالت وهى تضحك بلا داع : « إ . . . نعم . . . جـ . . . جميل . . . »

قلت : « لاخوف من المطر » ، وعضضت لسانى

قالت — وكفت عن الضحك — : « مطر ؟ فى أغسطس ؟ فى الاسكندرية ؟ »

فاضطربت وقلت : « إ . . . أعنى . . . أعنى أن الجو جميل »

فابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت : « لقد قلتَ هذا من قبل . . . »

فحقدت عليها — فى سرى — وقلت : « صحيح ! لقد نسيت ! فيا للغباوة ! لقد كنت أظنها جملة مبتكرة ! »

ولو كنا بقينا خمس دقائق بعد ذلك لحلت عقدة لسانى ، فقد عاودتنى الثقة بنفسى ، وأيقنت أن العقدة ستحل بعد أن نطقت بآخر كلمة ، ولكن أباها — لعنة الله عليه — أبى إلا أن يقبل فى هذه اللحظة ، وكان وجهها اليه ، وظهرى له ، فرآنه قبلى وقالت :

« هذا أبى » ، وأشارت اليه

فدرت على عقبى بسرعة ، ولم أكد أبصر وجهه حتى استولى علىّ الرعب ، فهربت بلا كلام ولا استئذان ، ولم يكن ثم باب آخر فى هذه الناحية أخرج منه ، ولم أجد أمامى غير « صالون الحلاقة » ، فدخلته وكان — كما شاء الحظ — خالياً . وشعرت أن بى حاجة الى منعش بعد الذى أصابنى من منظر هذا الشيخ الشرس ، فتناولت قطرات من « الكولونيا » وشممتها ومسحت بها وجهى ، وإذا بالرجل يصيح بى :

« ماذا تعنى بهذا التلكؤ ؟ لقد بعثت اليك منذ نصف ساعة لتوافينى فى غرفتى وتحلق لى ذقنى ! عجل يابليد ! »

وكان من الواجب أن أذهل ، أو أبهت ، أو احتج ، ولكن كرهى له أيقظ حواسى جميعاً ، فقلت هذه فرصة سنحت للانتقام منه ، وأسرعت فقلت :

« حالاً . . حالاً . . كم رقم الغرفة من فضلك ؟ »

قال : « ١٥ . . . »

ومضى عنى ، فجمعت أدوات الحلاقة ووضعتها فى حقيبة صغيرة رأيتها هناك فى ركن ، وخرجت ، فاذا بالفتاة تدنو منى وتقول :

« ماذا تنوى أن تصنع ؟ »

فقلت : « أحلق ذقن أبيك »

قالت : « حاذر . . . هذه مجازفة »

قلت : « أعرف ذلك وأشكرك ، ولكن ألا تثقين بى ؟ »

قالت : « إنك لا تعرف أبى »

قلت : « ثقى أنك أنت أيضاً لن تعودى تعرفينه ! »

قالت : « دع المزاح . . . لم أكن أظن أنك طائش الى هذا الحد »

قلت : تعالى . . . وانظرى »

وتركتها وقصدت الى السلم ، وهى ورائى

***

ولم تكن الفتاة مبالغة حين حذرتنى وأنذرتنى ، فان أباها شىء فظيع ، وقد أسمعنى فى خمس دقائق من ألفاظ التعنيف والشتم والقذف والطعن والقدح ما لم أكن أظن أنه يوجد فى لغات العالم مجتمعة بله فى لغتنا العامية التى يعرف أقلها ويجهل أكثرها ، ولكنى أنا أيضاً لم أكن مبالغاً حين أكدت للفتاة أنها لن تعرف أباها بعد أن أفرغ من حلاقة ذقنه . فقد أرقت نصف رطل على الأقل من دمه الثقيل ، ولم أكد أضع الموسى على خده حتى صرخ وصاح بى :

« أنت جزار . . . لا حلاق »

فقلت « عفواً يا سيدى . إن حد الموسى لم يلمس جلدك »

قال « لم يلمس جلدى ! تقول لم يلمس جلدى يا أعمى ! لقد قطع لحمى ! »

فطاوعته وفهرنى ، وزجرنى عن الكلام ، فأجريت الموسى ، وخرجت بقطعة ثانية من لحمه القديم ، وماذا أصنع إذا كان جلد وجهه عميق الأخاديد ؟ أهذا ذنبى أم ذنبه ؟ وقلت له :

« يحسن بك ياسيدى أن تجيء فى كل صباح بأربع بيضات أو خمس فتكسرها وتصبها فى وعاء وتمزجها بمسحوق الثلج — يعنى بودرة الثلج — وتعجن هـذا بذاك ، وتدهن به وجهك ، وتظل نصف ساعة لا تفتح فمك بكلام ما ، ثم تغسل وجهك . فإذا واظبت على ذلك شهراً كاملا عادت الى وجهك نعومته بإذن الله »

فصاح بى « اخرس . أقول لك اخرس »

فقلت « طيب خرست » وواصلت انتقامى . وكنت قد بلغت عنقه ، فجعلت أنظر الى الفتاة نظرة لا تخفى دلالتها ، نظرة ظهر فيها الحقد والتصميم على القتل عمداً ومع سبق الأصرار ،

ورفعت يدى بالموسى نحو ذراع ، وهممت أن أهوى بها على رقبته ، وإذا بالفتاة تصرخ ، فارتدت مذهولا ، ووثب هو عن الكرسى وذهب يعدو اليها ، وسألها « مالك ؟ »

فلم تجبه ، وجعلت تشير إلىّ وتهيب بى أن « اخرج . اخرج . . . »

فهززت رأسى آسفاً ، فقد ذهبت الفرصة الى حيث لا يمكن أن تعود ، فسألها هو :

« يخرج ؟ يخرج كيف ؟ ويدعنى هكذا » وأشار الى خده الآخر الذى لم يحلق

فقالت « إنه ليس بحلاق ! »

قال « إيه ؟ ليس بحلاق ! »

ودار فالتفت إلىّ ، فرآنى أضحك ، فطار عقله ، وتحرك يريد أن يهجم علىّ ، فتذكرت ما يفعل الذين يقاتلون الثيران فى أسبانيا ، فخطفت الفوطة وألقيتها على وجهه ، وفررت

***

وقالت لى الفتاة بعد ذلك :

« لم أكن أعلم أنك شرير »

قلت « شرير ؟ ! »

قالت « نعم . . . كدت تقتله وتقتل نفسك »

قلت « أينا كنت تبكين عليه ؟ »

قالت « لا تكن خبيثاً . . . إنه أبى »

قلت « لا أصدق . . . »

قالت « من فضلك . . . لا تذكره بسوء أمامى »

قلت « اعترفى إذاً أنه . . . »

قالت « لو كنت أعتقد أنك ستقتصر على جرح أو جرحين . . . »

قلت « وهل كنت تتوهمين أنى يمكن أن أذبحه ؟ »

قالت « لقد خفت والله . . . »

قلت « يابلهاء . . . لأجل عين تكرم ألف . . . »

وصرنا صديقين ، ولكن أباها لا يرانى — الى اليوم — إلا ارتد راجماً ، وحسناً يفعل . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

نذر الحرب الجديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهد معظم العواصم الأوربية منذ أشهر فترة غير عادية من النشاط السياسي؛ وقد تحول هذا النشاط منذ مأساة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ومسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية، الى نوع من الحمى الدبلوماسية. وتلوح اليوم في أفق السياسة الأوربية سحب كثيفة تثير الجزع في كثير من العواصم والأمم. ما الذي سيعقب مأساة مرسيليا من الحوادث والتطورات سواء في يوجوسلافيا ذاتها أم في أوربا بصفة عامة؟ وهل يكون السلم في خطر حقيقي؟ وهل نشهد اليوم مقدمات أزمة دولية مستعصية قد تفضي الى نشوب الحرب؟ هذه الأسئلة الخطيرة تتردد اليوم في جميع دوائر السياسة العليا لا على أنها هواجس واحتمالات بعيدة الوقوع، ولكن على أنها فروض حقيقية خطيرة يجب التحوط لها

وقد لوحظ بحق أن للجريمة السياسية شأناً كبيراً في إثارة هذه السحب التي تحلق اليوم في أفق السياسة الأوربية؛ فمنذ أشهر قتل مسيو دوكا رئيس الوزارة الرومانية فترتبت على مقتله صعاب وأزمات مازالت رومانيا تعاني من أثرها؛ وفي أواخر يولية الماضي قتل الهير دولفوس رئيس الحكومة النمسوية في ظروف وحشية فأثار مقتله أزمة سياسية خطيرة لا في النمسا وحدها، ولكن في أوربا الوسطى كلها، وذهبت إيطاليا في إجراءاتها وتحوطاتها لصون استقلال النمسا من اعتداء ألمانيا وعمالها الأجورين، الى حشد الجنود على حدود النمسا الجنوبية، ولاح شبح الحرب واضحاً مدى حين. ثم كان مقتل الملك اسكندر ومسيو بارتو أخيراً في مرسيليا، فبدت الأزمة الأوربية في أروع مظاهرها، وتجددت نذر الخطر وأحاديث الحرب. ويخشى المتشائمون أن يكون التاريخ إنما يعيد نفسه، وأن تكون مأساة مرسيليا قرينة مأساة سيراجيفو ونظيرتها في الظروف والنتائج.

والحقيقة أن مؤرخ الحرب الكبرى لا يسعه الا أن يعتبر مأساة سيراجيفو من أهم العوامل — الظاهرة على الأقل — في اثارة الحرب. فقد اتخذت امبراطورية النمسا والمجر مقتل الأرشيدوق فرنز فرديننذ وقرينته في سيراجيفو في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ بيد طالب صربي سبباً لاعتبار حكومة صربيا مسئولة عن الجريمة مباشرة ومطالبتها في بلاغ نهائي بمطالب عدتها صربيا افتئاتاً على سيادتها؛ وشدت ألمانيا أزر النمسا في موقفها، ولكن روسيا تدخلت لتعضيد صربيا ضد النمسا باعتبارها حامية الشعوب السلافية. وكانت الأزمة الخطيرة التي أدت الى وقوع الحرب بعد ذلك بأسابيع قلائل

وإذا لم يكن لجريمة مرسيليا مثل هذه النتائج السريعة الحاسمة، فلا ريب أنها زادت الأزمة الأوربية تعقيداً وخطورة، وكانت عاملاً جديداً عميق الأثر في زعزعة السلام الأوربي. واذا وقعت حرب جديدة في القريب العاجل، فان جريمة مرسيليا تكون بلا ريب بين عواملها الأولى. ومن المعروف أن السياسة الأوربية كلها تقوم اليوم على تهيئة أسباب الهجوم والدفاع في الحرب القادمة، وأنها تأخذ الطابع القديم الذي يوصف في لغة السياسة بالسلم المسلح، أو السعي الى صون السلام بالاستعداد للحرب دائماً. ومثل هذه السياسة تخضع دائماً لأزمات الساعة، لأنها تقوم على الأثرة والقومية المفرقة، وليست تحدوها أية مثل إنسانية أو دولية عامة. وقد وقعت جريمة مرسيليا في وقت تجتمع فيه أوربا في معسكراتها القديمة التي حالت آثار الحرب الكبرى مدى حين دون بعثها وتكونها. والدول التي تسيطر على مصاير السياسة الأوربية اليوم هي فرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا؛ وهي التي تتجاذبها في تكوين المعسكرات الهجومية والدفاعية؛ وفرنسا أشدها سيطرة على الموقف ونفوذاً في تطوراته، ومقصد السياسة الفرنسية معروف هو العمل بكل الوسائل لعزل ألمانيا عن باقي الدول الأوربية حتى لا تقوى بالتحالف على مهاجمة فرنسا، وإحاطتها بسياج من الدول الخصيمة المتأثرة بالسياسة الفرنسية حتى تبقى دائماً في موقف الأحجام والضعف؛ وإذا وقعت حرب فان فرنسا تستطيع بمعاونة حلفائها أن تتغلب على ألمانيا. وقد سارت فرنسا في هذه السياسة الى ما قبل جريمة مرسيليا شوطاً بعيداً، واستطاعت أن تجذب روسيا السوفيتية الى معسكرها وأن توثق سياسة التحالف الروسي الفرنسي القديم بعد أن لبثت روسيا مدى حين بعيدة عن حظيرة الدول الغربية، وأن تتوج هذا التحالف بالعمل على ضم روسيا الى عصبة الأمم بعد أن لبثت تخاصمها منذ قيامها. وقد كانت السياسة الألمانية ما قبل الحرب تغالب التحالف الروسي الفرنسي بالتحالف الألماني النمسوي.

ولكن امبراطورية النمسا والمجر القديمة قد ذهبت وقامت على أنقاضها دول تخاصم ألمانيا أو تتأثر بالسياسة الفرنسية . والسياسة الفرنسية هي التي خلقت كتلة التحالف الصغير في أوربا الوسطى من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وهي التي توجهها في سياستها الأوربية . ولما قامت الحركة الهتلرية في ألمانيا ، وظهرت ألمانيا في صورة المهدد لفرنسا ، والمهدد للسلام الأوربي ، ضاعفت فرنسا جهودها في توثيق التحالف بينها وبين روسيا ودول التحالف الصغير خصوصاً بعد أن شعرت أن بولونيا قد أخذت تتحرر من نفوذها وتتجه نحو ألمانيا . وكان من أهم أغراضها أن تجذب يوجوسلافيا بصورة نهائية إلى جانب السياسة الفرنسية لأنها شعرت أن السياسة الألمانية قد أخذت تتجه نحو يوجوسلافيا وتحاول كسبها بوسائل شتى . ولكن فرنسا رأت من جهة أخرى أن هذا التحالف لا يحقق الغاية المنشودة إلا اذا آزرته ايطاليا . وبين ايطاليا ويوجوسلافيا خصومة قديمة ، فيجب أن تذلل قبل كل شيء .

لهذا كانت رحلة مسيو بارتو إلى يوجوسلافيا ، وكانت رحلة الملك اسكندر إلى فرنسا ، وكان المقرر أن تكون مفاوضات الملك اسكندر مع الحكومة الفرنسية تمهيداً لمفاوضات فرنسية إيطالية تجرى في رومة ، وتسوى فيها جميع المسائل والخصومات القائمة بين إيطاليا ويوجوسلافيا من جهة ، وبين فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى . وكان الأفق مناسباً لتحقيق هذا البرنامج ، لأن إيطاليا كانت قد بدأت في الآونة الأخيرة تتباعد عن ألمانيا على أثر حوادث النمسا التي انتهت بمقتل الهير دلفوس ، وافتضاح نيات ألمانيا ومشاريعها نحو الاعتداء على النمسا ؛ وتم الشطر الأول من هذا البرنامج بالمفاوضات التي وقعت في بلغراد بين فرنسا ويوجوسلافيا ؛ ولكن الشطر الآخر لم يتحقق لأن الملك اسكندر ما كاد يطأ أرض فرنسا حتى سقط قتيلاً برصاص الوطنيين الكرواتيين ، وسقط إلى جانبه مسيو بارتو ؛ وأخرت هذه المأساة مشاريع السياسة الفرنسية إلى حين ؛ وأودت بمشاريع حكومة بلغراد ، وبعثت إلى أفق السياسة الأوربية ، ولا سيما أوربا الوسطى ، ريباً وهواجس جديدة ، وأثارت صيحة الحرب مرة أخرى .

والواقع أن مقتل الملك اسكندر كان ضربة شديدة ليوجوسلافيا ؛ وقد بينا في مقال سابق كيف أن تكوين يوجوسلافيا الجديدة من عناصر متنافرة خصيمة يعرض وحدتها للتمزق دائماً ، وكيف أن هذه الوحدة تقوم على أسس مصطنعة في ظل طغيان حديدي كان الملك اسكندر عماده وقوته ، فالآن يحدق الخطر بهذه الوحدة المغصوبة ، وتقف حكومة بلغراد حائرة متوجسة من المستقبل القريب ؛ وتقف إيطاليا أيضاً مترددة تسبر غور الاحتمالات الجديدة . هل تستمر في الاصغاء إلى عرض السياسة الفرنسية ، فتهادن يوجوسلافيا وتحالفها وتدخل في حظيرة هذا التحالف الذي يجمع دول الاتفاق الصغير وروسيا إلى جانب فرنسا ؟ ومما يزيد في تردد إيطاليا ما تحاوله ألمانيا لديها الآن من تحويلها عن ذلك الطريق ، وإعلان استعدادها لضمان استقلال النمسا ، وتسوية المسائل الأخرى التي تهم إيطاليا ؛ بيد أن السنيور موسوليني يقف الآن وقفة المنتظر ليرى أولا ما يمكن أن تحدثه آثار جريمة مرسيليا في شئون يوجوسلافيا الداخلية ، وهل توجد ثمة ما يحمل على الاعتقاد بقرب تفكك هذه الكتلة السلافية الخطرة التي خلقتها معاهدة الصلح ، والتي تنازع إيطاليا سيادتها في بحر الأدرياتيك ، وتهدد نفوذها في البلقان وأواسط أوربا ، وهل تقوم في يوجوسلافيا حركة انفصالية ، يقوم بها العنصر الكرواتي خصيم العنصر السربي الذي يستأثر بالسلطة في يوجوسلافيا ، ويضطهد العناصر الأخرى ؟ فاذا آنس موسوليني شيئاً من هذه البوادر فقد يفضل أن يستبقى حريته في العمل مدى حين ؛ وعندئذ تعمل إيطاليا من جانبها على تشجيع العناصر الانفصالية في يوجوسلافيا ، حتى يتم تفكك هذه الكتلة السلافية ، وتستطيع إيطاليا أن تتجه ببصرها نحو دلماتيا التي تطمح إلى امتلاكها ، وعندئذ ينهار التحالف الصغير أيضاً ، وينفتح أمامها مجال العمل في أوربا الوسطى

على أن فرنسا تعمل من جهة أخرى بكل ما وسعت لتحقيق التفاهم والتحالف مع إيطاليا ، وهي على أهبة لأن تضحي في هذا السبيل ببذل بعض المطالب التي تطمح إيطاليا إلى تحقيقها . وما تعرضه فرنسا على إيطاليا ينحصر فيما يأتي : (١) تعديل الحدود الطرابلسية من جهة تونس ، والتجاوز لايطاليا عن بعض المناطق المتاخمة لبرقة (٢) عدم مقاومة التوسع الايطالي في طرابلس من جهة الجنوب في اتجاه بحيرة تشاد (٣) عدم مقاومة مشاريع إيطاليا وأطماعها في الحبشة (٤) تسوية مسألة الرعايا الايطاليين في تونس ، ومنحهم بعض الحقوق والمزايا الخاصة ؛ فهذه عروض

ومزايا لا تستطيع إيطاليا أن تأبى قبولها ، خصوصاً إذا علمنا أن التوسع الاستعماري قد غدا من أعظم أهداف السياسة الفاشستية . وعلى أي حال فان برنامج السياسة الفرنسية لم يتغير بمقتل مسيو بارتو ، وقد أعلن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد أنه سيعمل لإتمام ما بدأ به سلفه ؛ وسوف يقوم بزيارة رومة كما كان مقرراً من قبل للمفاوضة في تحقيق البرنامج المرسوم

هذه هي خلاصة العوامل التي تسيطر الآن على مجرى السياسة الأوربية . والظاهرة الجوهرية التي تبدو خلال ذلك كله هي اشتداد التنافس في إحياء المعسكرات الأوربية القديمة ، وإنشاء الكتل الهجومية الدفاعية التقليدية . لماذا ؟ استعداداً لحرب تلوح في الأفق . ومازالت فرنسا هي المتفوقة في هذا الميدان ، ولكن ألمانيا تعمل أيضاً ، رغم عزلتها السياسية على إنشاء معسكرها ، وحشد حلفائها . وقد ظفرت أخيراً بكسب بولونيا وسلخها عن كتلة الدول المتأثرة بالسياسة الفرنسية وإحداث أول ثغرة بذلك في المعسكر الفرنسي . ولم تعبأ ألمانيا بفداحة الثمن الذي دفعته لتحقيق هذه الغاية ، وهو التسليم بالممر البولوني الذي يشق أراضيها الى البحر . ومازالت ألمانيا تتمتع بشيء من العطف في المجر ويوجوسلافيا لأنها تشتري محاصيل البلدين . ولكن ذلك لا يمكن أن يعوض عليها خسارتها الفادحة بفقد معاونة روسيا ومحالفتها ؛ وقد كان إغضاب روسيا وفقدها من أعظم أخطاء ألمانيا الهتلرية ، خصوصاً وأن روسيا لم تتحول عن ألمانيا إلا لكي تتفاهم وتتحالف مع فرنسا ألد وأخطر خصومها . وروسيا السوفيتية قوة لا يستهان بها

وقد يكون من المبالغة أن يقال إننا الآن على أبواب حرب قريبة ، ولكن ليس من المبالغة أن نقول إننا نشهد الآن نذر الحرب القادمة ومقدماتها . ومتى هذه الحرب ؟ قد تقع بعد أشهر وربما بعد أسابيع إذا تطورت الحوادث في يوجوسلافيا فجأة ، وأفلت زمام الموقف من يد حكومة بلغراد ؛ وقد لا تقع إلا بعد عامين أو أعوام قلائل اذا بذلت جهود صادقة لاتقائها أو لتأخيرها . وعلى أي حال فليس مبالغة أن نقول إننا نشهد الآن من تطورات السياسة الأوربية أقربها وأشبهها بتلك المرحلة التي تقدمت الحرب الكبرى ، وبلغت ذروة خطورتها في صيف سنة ١٩١٤ . والواقع أن أسباب الأزمة الأوربية الكبرى تجتمع وتتفاقم منذ عامين ؛ وأهمها بلا ريب إخفاق مشروع نزع السلاح ، والفشل الذريع الذي لقيته عصبة الأمم في حل مختلف المشاكل الدولية ؛ وانهيار سياسة التفاهم الدولي والتحكيم التي بلغت ذروتها بعقد ميثاق تحريم الحرب ، ولم يلبث أن ظهر عقمها من الوجهة العملية ، ثم قيام الحركة الهتلرية في ألمانيا وماجنحت اليه من سبل العنف والوعيد ، وما أثارته في فرنسا من هواجس ومخاوف جديدة . بيد أن هذه الأسباب كلها ترجع الى أصل واحد ، هو معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) التي لم يراع في وضعها سوى تحقيق شهوات الظافرين وأطماعهم ، ولم يقصد بها الى وضع أي سلام شريف دائم ، ولكن أريد بها تحطيم قوى الأمم المغلوبة ، وتمزيق وحدتها القومية دون مراعاة الحدود الجغرافية ووحدة العناصر وتراث التاريخ ، فجاءت كالبركان الصامت يضطرم في خفاء ، ولكن تسري ناره تحت الهشيم ، وغدت أعظم عامل في إثارة الأحقاد والأطماع القومية ، وخلقت مشاكل الحدود والأقليات الشائكة في طول أوربا وعرضها ، ومهدت الى هذه الأزمة الشاملة التي تهب ريحها اليوم على أوربا منذرة بشر العواقب

وكما أن الأزمة الدولية الكبرى التي اجتمعت أسبابها قبيل الحرب قد لقيت نذر انفجارها في مأساة سيراجيفو ، فكذلك تلقى الأزمة الدولية الحاضرة نذراً خطراً في مأساة مرسيليا ؛ واذا كانت حكومة النمسا الامبراطورية قد رأت يومئذ أن تحمل الحكومة الصربية تبعات هذه الجريمة الرائعة ، وأن ترتب عليها من المطالب الفادحة ما أثارت له روسيا وعجل بوقوع الكارثة ، فكذلك ترى حكومة بلغراد أن تحمل الحكومة المجرية تبعة جريمة مرسيليا ، لأنها تأوي في أرضها عدداً كبيراً من اللاجئين الكرواتيين ، وتتقدم اليها بمطالب ترى فيها افتئاتاً على سيادتها ؛ وقد يكون ثمة فارق بين وقع الجريمتين في سير الأزمة الأوربية ، ولكن الذي لاريب فيه هو أن جريمة مرسيليا من أخطر العوامل في تفاقمها . فسلام أوربا ، وربما سلام العالم ، في خطر لاريب فيه ، واذا تركت الأمور في مجراها الحاضر ، ولبثت الأحقاد والأطماع القومية على حالها مطلقة العنان ، واذا لم تتضافر القوى النزيهة المخلصة لقضية السلام وتقف سداً منيعاً في وجه هذا التيار الخطر ، فسوف نشهد في القريب العاجل انفجار البركان المروع مرة أخرى ؟

محمد عبد الله عنان
المحامي

عـــودة ...

بقلم جورج وغريس

« امرأة هجرها زوجها منذ أمد بعيد ، فعاشت وحيدة مع طفلها إلى أن قضت نحبها ، فذرفت عيني دمعاً التأمت قطراته في كلمات قرأها الزوج الهارب في العدد الحادي والستين من « الرسالة » ثم جاءني يبكي ... »

في سكون الليل الرهيب طرق طارق باب منزلي ، فلما أن فتحته وجدت أمامي شخصاً لم أتبينه

قلت : من ؟

قال : ألا تعرفني ؟ ...

قلت : معذرة ... فمن طبيعة الانسان أن ينسى ، ومن صفات الليل أن يسكب على الأشياء لوناً غير لونها

قال : صديق قديم

قلت : « مرحباً » .. ثم أخذت بيده الى غرفة الاستقبال ؛ وتحت ضوء المصباح رأيت أمامي رجلاً في الحلقة الرابعة من عمره ، ترتسم الكآبة على وجهه الشاحب ، ويظهر عدم الاكتراث على لباسه غير المنتظم ورباط رقبته الذي يتدلى على قميصه كالخرقة البالية ...

قلبت بصري في زائري الكريم ، ولكنني لم أذكر تلك الصداقة القديمة التي كانت تربطني به ، لذا أحسست في نفسي بشيء من الريبة والخوف ؛ وقبل أن أقول شيئاً أو أبدي حركة اعتدل ضيفي في جلسته ثم قال :

— أما أنت حقيقة ... ؟

قلت : من ؟

قال : زوجتي

قلت : ماذا تعني ؟ أنت أعلم بحالها ، أما أنا فلا أدرك ما تقصد ولا أدري من أمرك شيئاً

قال : بل إنك تدري كل شيء ، ولكنك تريد أن تجهلني وتجهل كل شيء ، وبالأمس أخرجت للناس صورتي مشوهة ممسوخة ، أملاها عليك خيالك الحاقد وأعصابك الثائرة ، فقد قرأت في « الرسالة » ... ...

قلت متنفضاً : أأنت فلان ... ؟

قال : نعم

قلت : معذرة ... لقد غيرت الأيام من سحنتك ؛ وبدل الزمان من هيئتك ، حتى أضحيت شخصاً غير الذي كنت أعرفه أتدري ما فعل الخريف في الشجرة المورقة الفينانة ؟ أتعلم ما ينتابها من تساقط أوراقها وتراجع أغصانها وتقلص ظلالها ... ؟ إن ما يصيبها ياصديقي في تلك الآونة لأهون والله مما أصابك في خريف حياتك ، ولئن كان لتلك الشجرة ربيع تستعيد فيه ما فاتها وتسترجع فيه أسباب الحياة ، فهيهات أن تجد لنفسك ربيعاً يبدل من حالك بعد هذا الجدب الذي أصابها . وحسب الأيام منك الآن أنها ستقف عند الحد الذي وقفت عنده فلا هي بدافعة بك الى الأمام لأن النمو من خصائص الطبائع الحية ، ولا هي بقاذفة بك الى الخلف لأنك في قرار الهوة ... ولطالما مدت اليك حبال النجدة ، وقد فتلت من خيوط الرحمة والعطف والصفح والمروءة . ولكنك أبيت إلا أن تقطعها بأسنة الجحود والنكران والرياء والختل ، فربطت مصيرين بمصيرك ، وقتلت نفسين وأسأت الى نفسك ...

قال : مهلاً ، فقد بدأتني قبل أن أبدأك ، وأوغلت في القول وما تركت جارحة إلا وأرسلتها تنهش في نفسي ، وأراني قد جئت لأغسل إهانة فأتبعتها بأخرى ، وأتيت لأرد سهماً فأصابتني منك بسهام ، ولا أدري من سبب يجعلك معي في هذا الموقف العنيد سوى أنك كنت تنظر بعين واحدة في قصتي وتسمع بأذن واحدة . وليس ببعيد على المرأة التي تدفع العالم بيدها الرقيقة دفعاً شديداً في غير رفق ولا هوادة أن تكون قد سكبت سمومها في نفسك فجعلت منك نصيراً لقضيتها ، وهي إذ تكسبك الى جانبها تدفعك في الواقع عن طريقها

لقد خلصت زوجتي من براثن أبيها ، ولكنها منذ اللحظة الأولى وهي تريد أن يصرع رأيها رأيي ، وأن تقف رغبتها دون رغبتي ، فاذا قلت قولاً أبدت نقيضه ، وإذا أديت فعلاً امتعضت منه ، كأن الله قد جعل القبح من نصيبي في القول والفعل ، او كأنه وضع كل الجمال بين شفتيها وعلى أطراف أناملها ليكون غلافاً حسناً لكل ما تقوله أو تعمله ... أردت لها الحجاب فأعلنت السفور ، وأخذت عليها العناد فأنكرت عليّ هذا الحق ، وأحببت أن تكون كما أريد فشاءت أن تكون كما تحب . وكان لي صديق أحبه وأعزه ، ويزورني في منزلي وأتردد عليه في داره

فوشت لى به ، وفى سورة الغضب كدت أقتله ، ولولا قرائن فى براءته وحزم فى تفكيرى لكان هذا الصديق اليوم وديعة القبور . وكنت أنا نزيل السجون . . . كان من أثر كل هذا أن أحسست بآمالى ترتطم بصخرة قاسية ، وشعرت بالأفق العريض تضيق دائرته شيئاً فشيئاً ، حتى أوشك أن يجعل لى من هذه الحياة قفصاً لا حيلة لى فى رد غائلته . . . فماذا كنت تريدنى أن أفعل ياصديقى وهذه الأسباب قد أجمعت علىّ أمرها فغلبتنى على أمرى . . ؟

لقد وليت هارباً ، ولكن ضميرى ظل يضايقنى باحتباسه حتى أفرجت عنه بكأس الخمر . . تلك الكأس التى أحرقت همومى وأحرقتنى ، وأذابت ضميرى وكبدى ، وسلبتنى ولم تعطنى . . . أليست تلك النار من الشعلة التى أسلمتها الشياطين ليد المرأة . . ؟ إنك تقدر المرأة لأنك غريب عنها ، ولكن اعلم ياصديقى أنها منذ القدم آلة فساد ، وعنصر تقلب ، وأداة رياء ، وكل مافى الحياة من شر إنما هو بسمة خادعة انفرجت عنها شفتا امرأة ، وهذا المصير المحزن الذى انحدرت إلى أعماقه ، إنما يرجع إلى تلك المرأة التى أحببتها فبكرهت لى الحياة ، وغمرتها بفضلى فرفعت رأسها كالحية الرقطاء . . . مرت الأيام كالأشباح الهزيلة ، وأنا أهيم على وجهى إلى أن شاءت الأقدار أن تدفع إلى يدى صحيفة « الرسالة » فقرأت عن المرأة التى هجرها زوجها فماتت كظيمة الحزن دفينة الألم ، وبقى طفلها على صدرها يبكى وينتحب ، ورأيت طرفاً من قصتى يختبئ بين سطور تلك القصة ، وما إن وصلت فى القراءة إلى اسمك فى ذيل المقال ، حتى ذهب عنى الشك ، وتذكرت جارى القديم ، وأخذت عليه اندفاعه فى الكتابة دون تبصر أو روية . . . وها أنا قد سعيت إليك بعد أسابيع ، بعث الله لى فيها من تولى الدفاع عنى ، فقد قرأت بجوار قصتك ما كتبه الرافعى فى « تربية لؤلؤية » وتابعت ما وصف به المرأة فيما تلا ذلك من أعداد ، فسررت ان رأيت المرأة تدفع دفعاً إلى المكان الخليق بها . . .

قلت : يشاء الجحود أن يجعل فى نفسك طبيعة صخرية حتى أمام جلال الموت ، وتشاء تلك الطبيعة الصلدة أن تنبش قبور الراقدين فى غير رحمة ولا شفقة ، فزوجتك التى لفحت وجهى بأنفاسها المحترقة وهى تعانى عذاب الموت ، والتى ظلت تردد اسمك الى أن لفظت روحها ، تلك الزوجة المسكينة المنكودة يأبى عليها القدر القاسى أن تفوز منك وهى تحت أطباق الثرى إلا بوابل

السخط واللعنة تصبه على جدث هامد لا يملك رد غائلة ، ولا يقوى على دفع نازلة ، وهذا لعمرى عداء ضاعت منه صفة الشرف . . .

والمرأة مذ خلقت ، وهى تعانى شر هذا العداء لا لشيء سوى أن الرجل يميل بطبيعته الى جنسه ، وتدفعه الأثرة الى أن يسوّد نفسه ويعظم من شأنه ، ويحقر من أمر تلك المخلوقة التى جاءت تنازعه البقاء ، فهو فى عصوره الأولى كان يبعث بالمرأة طعاما للآلهة ، وهو فى الجاهلية كان يئد مولودته ولا يعترف لها بالحياة ، وفى اليابان كان الرجل يدفع بابنته الى أمكنة الفجور خرقة يمسح بها الرجال شهوتهم حتى تسد دون أبيها . وفى الصين كان الرجل اذا ماوُلد له غلام ذكر يفرح ويتهلل ، أما إذا كان المولود أنثى قال مكتئباً : « لقد سقط حجر من سقف منزلى . . . » ، حتى فى عهود المدنية ، وفى مواطن الحضارة ، يدمغ ظلم الرجل المرأة إلى ما يسمونه « الرقيق الأبيض » وهو اللطخة الدامية فى الجبين الناصع ، وفى مصر وبلاد الشرق لاتفوز الزوجة غالباً من زوجها إلا بما تفوز به الخادم من سيدها . فهل رأيت حالة كريهة كالتى تعانيها المرأة منذ ولادتها حتى يحويها الرمس . . . ؟ وأى الأمراض انفردت بها المرأة عن الرجل حتى استحقت منه هذا الجزاء . . . ؟ أليست كل امرأة ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ، وأما لرجل . . تأخذ الخلق عن أبيها ، وتهديه الى زوجها ، وترضعه لطفلها . . . ؟ فاذا فسدت المرأة أليس هذا الفساد أثراً من تهاون أبيها فى تربيتها . . . ؟ وإذا ضلت المرأة أليس من بين الرجال من هم أشد منها ضلالاً وأقبح رذيلة . . . ؟ ولئن جاز للرجل أن يقول فى كل ما ينتابه من مصائب : « فتش عن المرأة » ألا يجوز للمرأة أن تقول فى كل ما يلحقها من أذى : « فتش عن الرجل » . . . ؟

وأعجب العجب قولك ان الأستاذ الرافعى يدافع عنك فيما كتبه ويكتبه ، وهذا لا يمكن أن يقع لأنه إنما يكتب عن عقيدته الخاصة فى المرأة . ومهما فاض « السحاب الأحمر » بما توحيه اليه تلك العقيدة ، ومهما جاء فى كتاباته فى « الرسالة » عن الحجاب والسفور فهو لا يوافقك على تلك اللطمة القاسية التى صفعت بها خد المرأة . والحجاب الذى ينادى الرافعى به فى « تربية لؤلؤية » لا يمكنه أن يعيش طويلاً بعد تلك النظرة الساخرة التى ترسلها اليه مدنية القرن الحاضر ، ولا أدرى ، ولا أحد يدرى ما ضر المرأة الفاضلة إن خرجت سافرة ، أو ما نفع المرأة الفاسقة إن قعدت متحجبة . . ؟ وأى الرذيلتين أشد ضرراً ، تلك التى

تستتر خلف الجدر كالداء الذي يختبئ في قلب العليل لا يدركه ولا يتداركه، أم تلك التي تتكشف سافرة، ويبين قبحها كالمرض الذي يظهر على صفحة الجسم، ما تلمحه العين حتى يلحقه العلاج ..؟

للمرأة عقل كما للرجل: وكذب من ألصق بها العاطفة دون العقل، وإلا ما حلّقت في سماء العظمة أسماء جان دارك ومدام كوري وإيمي جونسون: ولما حكم النساء بجوار الرجال في أكبر الدول شأناً وأرفعها مكاناً. فحرام أن يأخذ الرجل من كبريائه صداً يغشى به عقل المرأة ليغرب خيالها عن ميدانه، وكفى ما نعانيه لغيابها عنه من ركود في المجتمع، وشذوذ في العلائق، وخشونة في الحديث، وعقم في التفكير. حتى أصبحنا أضحوكة الغرب إذ أننا نسخر من لهوه، ولا يأتي جدنا بجديد . . .

قال: يصعب على من تلدغه الحية أن يشمر نحوها بدافع من الرحمة أو العطف: وإذا صح لي أن أوافقك على بعض ما ذكرت عن المرأة فالسفور أبعد ما يكون عن تأييدي: وليكن لك فيه رأيك، ولكن دعني أكن على دين « الرسالة »

قلت: وما دين « الرسالة » . . . ؟

قال: الحجاب . . .

قلت: وكيف حكمت ؟

قال: ألا تعلم أن مبدأ الصحيفة إنما يشتق من مبدأ كتابها، فعقيدتها هي عقيدتهم ورأيها هو رأيهم الذي ينادون به على صفحاتها . . . ؟

قلت: هذا في السياسة، أما في الأدب والاجتماع فمظهر النشاط فيهما هو تضارب الفكر واختلاف الرأي، والرسالة لا يمكن أن تنادي بالحجاب، ولكنها مع ذلك ميدان حر لأقلام الكتاب على اختلاف نزعاتهم. وإن كنت قد قرأت فيها للرافعي وصفه للحجاب أنه « كالصدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيها في الحجاب تربية لؤلؤية »، وقوله عن قاسم أمين إنه « قد تكلف ما لا يحسن » فأغلب الظن أنك لم تقرأ ما كتبه الزيات صاحب « الرسالة » عن المرأة والحجاب، وهو يخالف الرافعي فيهما خلافاً بيناً؛ ففي العدد السابع من « الرسالة » تراه وهو يكتب عن شواهده « في العيد » يستنكر هذا الفتور الذي تقبل به أعيادنا في مصر والشرق، ويعزو ذلك إلى غيبة المرأة عن المجتمع، وهو في ذلك يقول: « كرهنا الدور لاحتجاب المرأة، وهجرنا الأندية لغياب المرأة، وسئمنا الملاهي لبعد المرأة، وأصبحنا كالسمك في الماء أو الهباء في الهواء، نحيا حياة الهوام والتشرد، فلا نطمئن إلى مجلس ولا نستأنس لحديث » ولما أن همس الهامسون لما جاء في هذا المقال، عاد الزيات في العدد التاسع إلى بسط رأيه ذاكراً أن « صلة الحجاب بالدين قد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل » وأن مجتمعاً لغياب المرأة « أعرج لأنه يمشي على رجل واحدة، أشل لأنه يعمل بيد واحدة، بليد لأن حدة العواطف تنقصه، خشن لأن لطافة الأنوثة تعوزه » فهل بعد هذا تعتبر « الرسالة » نصيرة الحجاب . . ؟ إنك تريد أن تنتزع العطف على قضيتك من كلمات كتبها الرافعي، وهي في الحقيقة لا تنفعك، وهو لو علم أن دعوته تصادف هوى في نفوس أمثالك لتحول عنها، وكان أول من ينادي بالسفور

***

لم يحرك شفتيه بكلمة، وكان جوابه ناطقاً في عينين ساهمتين، ورأس يهتز باستخفاف، فتركته ينصرف وبه ما به من جمود، وأويت إلى فراشي، وبي عجب من نفس لو حادثتها حتى تشرق الشمس مرة ثم مرة فما هي بنازلة عما هي فيه من غروب وأفول ؟!

اسكندرية جورج وغريس

بين فني التاريخ وفن الحرب

٦ – خالد بن الوليـــد *
في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

نسبة القبائل : من المفيد أن نذكر نسبة القبائل وقرابة بعضها لبعض . أكثر القبائل التي ارتدت عدنانية تنتسب الى مضر ، ماعدا قبيلة بني حنيفة فهي من ربيعة

والقبائل العـــدنانية تنسب الى شعبين كبيرين ، وهما : مضر وربيعة

وشعب مضر ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية فالقسم الأول : قيس ، ومنها غطفان وهوازن وسليم ، والى غطفان تنسب فزارة وعبس وذبيان ، والى هوازن تنسب ثقيف

والقسم الثاني قبيلة طابخـة ، واليها ينتسب بنو تميم ، والقسم الثالث مدركة ، واليها ينتسب بنو أسد ، ومنها كنانة ، واليها تنتسب قريش

أما شعب ربيعة فاشتهرت منه القبائل الآتية :

عنترة وعبـد قيس وبكر وتغلب وبنو حنيفة وينتسبون الى بكر بن وائل

الموقف قبل الحركات :

التقت فلول غطفان بن فزارة وعبس وذبيان بطليحة بعد انهزامها في ذي القصة والربذة ، واجتمعت مع بني أسـد في بزاخة . وقد مال اليهم فرقتان من طيء وهما جديلة وغوث على ماذكرناه سابقاً ، ولم تترك هاتان الفرقتان حيهما ، بل اجتمعتا في أكناف جبل سلمى ، أعني بالقرب من موقع طابه في الجنوب الغربي من فيد

أما الباقي من بني طيء فظل على الحياد بسعي عدي بن حاتم .

وأما قبائل بني عامر بن صعصعة وهي في الشمال الشرقي من جبل شمر فكانت تراقب مجرى القتال ، وتنتظر عاقبة المعركة لترى رأيها بعد ذلك

أما بنو تميم فلم يوحدوا كلمتهم ، بل كانوا منقسمين على بعضهم . وبينما كانت القبائل المرتدة على هذا النحو من تفرق الشمل واختـلاف المقصد ، كان خالد بن الوليد على رأس جيش متجانس صقلته الغزوات والحروب وحنكته التجارب ، متأهباً للحركة عند أول أمر يصدره قائده

وكان هذا الجيش قليل العدد ، غير أن كفاية قائده ضمنت له الفوز . وكلما أحرز فوزاً ازدادت قوته بانضمام الحايدين اليه ، لأن الغلبة كانت تأتي لهم ، وقد تم ذلك فعلاً . ويزعم بعض المؤرخين أن قوة جيش خالد كانت تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل حين تقدم نحو طليحة . فلما تقدم نحو مسيلمة أصبحت عشرين ألفاً

الحركات :

يقول ابن حبيش نقلاً عن الواقدي أن جيش خالد بدأ بالحركات من ذي القصة في اليوم السابع والعشرين من الشهر ، وهذا الشهر إما جمادى الآخرة وإما رجب . لأن الرسول توفي في شهر ربيع الأول ، وأن جيش أسـامة قضى في حملته شهرين ، وأجل حركته في الجرف مدة من الزمن ، والمعلوم أن معظم قوة أسامة ألفت جيش خالد ، فتكون المدة التي انقضت من وفاة الرسول الى حين حركة خالد من ذي القصة ثلاثة أشهر على أقل تقدير

فزمن الحركة إما أن يقع في منتصف شهر سبتمبر ، وإما في منتصف شهر أكتوبر من سنة ٦٣٢ ب . م

واستعرض أبو بكر جيش المسلمين في ذي القصة وخطب في رجاله وأبان لهم الطريقة المثلى التي يجب أن يسيروا عليها ، ولفت نظر خالد الى خطورة الاستطلاع ، وأخذ الحيطة عنـد الهجوم على أهل اليمامة ، وأن يجري الحركات على التعاقب ، فلا يبدأ بحركة مالم يظفر بالتي سبقتها ، وأن يستعمل الرمح في

(*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

مكافحة الرمح ، والسيف في مكافحة السيف ، ثم طلب منه مراعاة المهاجرين والأنصار والرفق بمن معه

وكانت قوة الجيش تتفاوت بين أربعة آلاف وخمسة آلاف ، وكان عدد الأنصار منه يربى على الخمسمائة . وكانت قوة جيش طليحة في بزاخة تزيد على خمسة آلاف ؛ ومعظمها من بني أسد والباقي من غطفان ، وكان عيينة بن حصن على رأس هذا الباقي .

وكانت فرقتا جديلة وغوث من طيء في أكناف جبل سلمى متأهبتين للالتحاق بطليحة في بزاخة ، وتبلغ قوتهما زهاء ألف مقاتل . وكان بنو تميم على ما نعلم مشغولاً بعضهم ببعض ، فمنهم من التحق بسجاح ومنهم من خالفها . أما بنو حنيفة فكانوا في ديارهم باليمامة معتصمين بجبالهم ، ومعتزين بنبيهم مسيلمة يراقبون الحوادث في نجد

خطة خالد بن الوليد

إن الطريق الأقصر الذي ينتهي بجيش المسلمين الى بزاخة هو الطريق الذي يخترق وادي الرمة . وبزاخة واقعة في المنطقة حيث تكون أحياء طيء وأسد قد قرب بعضها من بعض . فكل حركة من ذي القصة على هذا الطريق الأقصر تشجع قبائل طيء على الالتحاق بطليحة في بزاخة . ومن عادة القبائل أنه إذا لم يهدد الخطر حيها توا تتركه وتسرع الى نجدة الأحياء الأخرى متى أغار عليها الأعداء

كذلك درس خالد الموقف وقرر أن يسلك طريقاً يهدد به بلاد طيء ، فاما أن يلجأ أهلها الى الحياد وإما أن يستميلهم الى جانبه ، وإذا ما تقدم رأساً نحو بزاخة يكون قد ترك بلاد طيء الى جانبه الأيمن وخاطر بالهجوم على بزاخة ؛ أما إذا ضمن حياد طيء أو استمالهم الى جانبه فيكون قد هيأ أسباب الفوز على طليحة

والأخبار تدل على أن خالداً صارح أبا بكر بخطته هذه في ذي القصة فأقرها أبو بكر ، وسبق أن قال لخالد : « اعلم أنك إذا قاتلت أسداً وغطفان فان رجالا منهم معك ينتظرون النصر ، وإذا ما رأوه حليفك كانوا معك على عدوك »

ولكي يجعل العدو يقنع بأن المسلمين قاصدون بلاد طيء قبل بزاخة ، يقول ابن الكلبي إن أبا بكر أمر خالداً أن يصمد لطليحة وعيينة بن حصن وهما على بزاخة ، ولظهر أنه ملاق خالداً بمن معه من نحو خيبر مكيدة ، وقد أوعب مع خالد الناس ، ولكنه أراد أن يبلغ ذلك العدو فيرعبه ثم رجع أبو بكر الى المدينة

ثم هناك خبر آخر مفاده أن أبا بكر أمر خالداً أن يبدأ بطيء على الأكناف ، ثم يكون وجهه الى بزاخة ثم يثلث بالبطاح (بني تميم) وأظهر أنه خارج الى خيبر منصب عليه منها حتى يلاقي خالداً بالأكناف : أكناف سلمى ؛ فخرج خالد فازور عن بزاخة وجنح الى أجأ وأظهر أنه خارج الى خيبر ثم منصب على طيء

فهذه الأخبار تريك الخطة بوضوح . إن بلاد طيء جبلية ، وفيها سلسلتان وعرتان ممتدتان على موازاة خط الحركات بين المدينة وبلاد بني أسد ، وسلسلة سلمى وجبل رمان في الجنوب ، وسلسلة أجأ في الشمال . والأكناف الواردة في الجنوب المذكورة هي أكناف هذه الجبال . أما أهل البلاد فمنهم من تأهب لمعونة طليحة ومنهم من بقي في أرضه يتربص ، وكان أعظم رئيس في القسم الأخير عدي بن حاتم مع قبائل طيء ، ومن الأخبار ما يؤيد أن أبا بكر بعث عدياً الى طيء قبل حركة خالد ليدركهم

والواضح أن خالداً بخطته هذه أراد أن يسهل خطة عدي بن حاتم ، وأن إشاعة أبي بكر في الجيش مسيره نحو خيبر بقصد الحركة نحو بلاد طيء ، مما يجعل القسم المتحفز لمعونة طليحة من طيء يرجع الى أرضه للدفاع عنها أو للبقاء على الحياد مع الباقين من طيء

والحقيقة أنها خطة ناجحة تدل على بعد نظر خالد في قيادة الجيش . والخطة تجمع بين الناحية السياسية والناحية العسكرية . وكان عيينة بن حصن الفزاري رئيس بني فزارة كما سبق يسعى لاعادة الحلف الجاهلي بين بني أسد وبني غطفان وطيء محرضاً جماعته على ذلك بقوله « والله لئن نتبع نبياً من الحلفين أحب الينا من أن نتبع نبياً من قريش »

وإذا ما تم هذا الحلف يكون أمام المسلمين قوة كبيرة يصعب التغلب عليها . وينحصر التدبير السياسي في إيفاد أحد رؤساء طيء البارزين لاقناع القبائل بأن يتركوا جانب طليحة ويميلوا إلى جانب المسلمين ، ولتسهيل هذه المهمة والقيام بحركة إغفال بالتظاهر بالهجوم على بلاد طيء

وكان التدبير العسكري يرمي الى فصل طيء عن بني أسد

وغطفان ، والهجوم بعد ذلك على قواتهم فى بزاخة

فتناولت الخطة اذن الأمور التالية : —

١ — القيام بحركة إغفال من المدينة فى اتجاه خيبر بقصد اقناع طىء أن المسلمين متوجهون نحو بلادهم

٢ — تقدم جيش خالد على الطريق الأقصر نحو بزاخة لتغل قوات طليحة فى محلها حتى لا تساعد طيئا

٣ — ترك هدف بزاخة فى منتصف الطريق والانعطاف نحو بلاد طىء لأرغام قبائل طىء على الالتحاق بالمسلمين قبل أن ينجدها طليحة

٤ — بعد الوثوق من التجاء (دخالة) طىء ، والاستفادة من قواتهم ، التقدم بجميع القوات نحو بزاخة لضرب جيش طليحة

الحركة :

وبعد عودة أبى بكر الى المدينة وإشاعة خبر مسيره من المدينة بالباق من المسلمين نحو خيبر نظم خالد قواته وجعل على كل قسم منها قائداً ، وكان ثابت ابن قيس على الأنصار

وتحرك خالد من ذى القصة فى منتصف شهر أيلول « سبتمبر » أو شهر تشرين الأول « اكتوبر » سنة ٦٢٢ ماراً بربذة ووادى الركبة ، ومنحدراً الى وادى الرمة ، وقبل أن يصل الى منتصف الطريق مال الى اليسار يريد بلاد طىء ، ولقد نجحت حركة الاغفال التى أشاعها أبو بكر لأن طيئاً التى كانت تستهزىء بالخليفة وتكنيه بأبى الفصيل صارت تخشى بأسه لما سمعت خبر تقدم جيشه نحوها ، فأقنع عدى بن حاتم قبيلته وحذرها سوء العاقبة قائلاً لبنى قومه : « لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم » . فطلبوا منه أن يؤخر تقدم جيش خالد حتى يسترجعوا من لحق بطليحة فى بزاخة ، وهم جديلة وغوث وآخرون وكانوا يعلمون أنهم إذا خالفوا طليحة بينما بنو جديلة وبنو غوث فى بزاخة يبقيهم عنده رهائن ، ويجبر طيئاً على الالتحاق به ، وكانت حجتهم عند طليحة طلب إخوانهم من بزاخة ، لأن خالداً قادم نحوهم فهم يريدون أن يستنجدوا بهم للدفاع عن بلادهم قبل أن يصل جيش المسلمين

وخرج عدى الى خالد ولاقاه فى السح ، فطلب منه أن يبقى فيها مدة قصيرة حتى يتخلى من فى بزاخة عن طليحة ويعود الى بلاده ، فوقف خالد فى السح ، فتفرقت غوث من بزاخة وعادت الى بلادها ، فأراد خالد أن يتقدم الى الأنسر ليلجىء جديلة الى ترك طليحة أيضاً ، بيد أن عدياً طلب منه أن يتريث حتى لا يفسد عليه ما دبره . فعادت جديلة أيضاً الى بلادها . وهكذا تم لخالد ما أراده : فانفصلت طىء تماماً عن المرتدين وجددت إسلامها وأمدت خالداً بألف مقاتل

وهكذا طبق القسم الأول من الخطة

يتبع

طه الهاشمى

من أدب الحزن

وفي . . . وناكر

بقلم يوسف جوهر عطية

. . . وإذ أرسلت روحي في الماضي ذكرتك يارفيق ، وكانت قد أذهلتني عنك الحياة وقسوتها ، والأيام واضطهادها ، وعاد بي الفكر إلى تلك الأشبار من صحراء « الأقصر » حيث استقرت عظامك من خمس سنين . . .

ما أكفرني بحق الصداقة ياصاحبي ! ما أغلظ هذا القلب اللحمي وما أقساه ! كيف نسيت حباً وثقناه ، وعهداً قطعناه ! كنا نسير في الحياة كل يده في يد صاحبه ، وكل صورته في قلب رفيقه مرسومة . فلما فارقت الحياة أنكرت بدى الود القديم ، وران على قلبي صدأ النسيان ، وابتلع ظلام نفسي ذكراك . . بعد أن كان مكانك عرش القلب ، وبعد أن كانت تملك كل النفس ، وبعد أن كنت ملجأ روحي القلقة ، وملاذ فكري المكدود . .

سامحني يارفيق فانني إنسان ، والانسان قد جبل على الغدر وفطر على النكران . . لكن إنسانيتي عذري لديك . ولا تقس الوفاء بمقياس أهل السماء ، فانني بعد سجين في الجسد مأسور الروح ، عبد لنواميس الحياة . كن كما كنت كريماً ، متجاوزاً ، رفيقاً . .

أنت أنت الوفي ، وأنا أنا الناكر . .

وهيا يارفيق نعود فنصل الحديث ، ونمحو الجفاء ، فانني لحديثك مشتاق ، ولسمرك ظمآن . .

كنا لانصبر على الفراق ساعات ياصاحبي . لكن ها هي ذي عجلة الزمن تدور دورتها الطاحنة ، وتباعد خمس سنين بيني وبينك ، ولا أعود أرى وجهك بعد أن استوطنت أنت السماء وظللت أنا مغترباً في الدنيا . لقد استرحت في قبرك ، وخلفتني أعيش وحدي في هذا القبر الكبير !

لماذا عجلت ذهابك يارفيق ! . كنا قد تعاهدنا أن نقتسم مباشقوة الدنيا ، وأن نستقبل متكاتفين قسوة الحياة ، وأن يتقي كل بأخيه غدر القدر ! . لماذا ملت وتركت صاحبك يهيم وحده ! ! أأعياك حمل رداء الهموم وأنت في سن الفتوة وعمر العزيمة ، فآثرت الفرار من هذه الدار ؟ ! . .

لكن لا ياصاحبي . . سامحني . إني لعارف أنك لست من الذين يجبنون ويفرون ، وأن الله هو الذي اختارك واصطفاك . .

هو الحزن القديم النائم تحت رماد الأيام تهب عليه ذكراك فتستيقظ جمراته ، وتكوي قلبي من جديد ، فيضل تفكيري ويطيش منطقي ، وأتهمك بما أنت منه بريء ! .

كيف حالك ياصاحبي ؟ ! . .

أ كبرت أم أنت فتى كما كنت ! ؟ . هل بقيت لك بسمتك وبهاء طلعتك ، أم شاخت بسمتك وشحب محياك ؟ ! أم أن صور الأرض غير صور السماء ، وأنك هناك دائم الفتوة ، متجدد الشباب ، مسترسل السرور في كنف الله ؟ ! .

كيف حالك ؟ !

أين أنت الآن ؟ أين تقيم روحك ؟ هل أنت معذب أم منعم ؟ قلق أم مطمئن ؟ هل روحك في سلام ؟ .

رجائي قوي أنك في سلام . . فقد كنت باراً . وقضيت أيامك كالزهرة النقية تلثمها في النهار أشعة الشمس ، وتباركها في الليل أنوار النجوم . . كنت جم الفضائل . عشت وديعاً كطير الأفنان . كنت مصباح البيت في الهدى ، ونبراس الخلق الكريم .

إني مطمئن عليك يارفيق ، وعارف بحظوتك عند الله ، وبمقامك في جوار الملائكة . . يهنيك نصيبك ، يهنيك انك تخلصت من الدنيا قبل أن تدرك نفسك المطامع ، وتلوثها الشهوات ، وتشوهها أمراض الأغراض . وتدفعها قوى الشر في مزالق الخطيئة . لقد نجوت ، وخلفتني وحيداً في الحياة ، في سوق النفاق ، أكابد الخسائر وأتجر بقواي ، وأنفق من فضائلي ، وأقاوم بأيامي ، وأصارع حظي الشقي . .

ياصاحبي . . لقد كلت قدمي . تعبت ، هرمت روحي وأنا في شرخ الشباب . . وها هي ذي آلامي ترهقني فأفر إلى الماضي ، وأذكرك . . وهأنذا ألجأ إلى حنانك كما كنت أفعل وأنت في الحياة . . هيا نجدد العهد ، ونسمو إلى اللقيا في عالم الوهم ، حتى تجمعنا الحقيقة في الخلود ، فنعود إلى العزف على قيثارة حبنا القديم ، ونسترد ألحاننا الضائعة . . .

يوسف جوهر عطية

في الأدب الدرامي

١٢ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

المأساة العصرية أو الدرامة

(Le drame)

كانت كلمة الدرام تطلق على جميع الأنواع التمثيليـة ، حتى خصصها المحدثون بنوع جديد عرفه قاموس المجمع العلمي الفرنسي بأنه (قطعة مسرحية نثرية أو نظمية تخلط المأساة بالملهاة ، وتبرز الموضوع الجدي في المعرض الفكه ، وتقبل كل نمط من الأشخاص والأخلاق واللهجات) . وتكميلاً لهذا التعريف نضيف إليه كلمة قالها « هجل » وهي : (إنها نوع وسط غير مستقر ، يُعنى بدقائق الحياة الداخلية ومشاكلها ، وصور الحياة الخارجية ومناظرها ، وتتميز من المأساة الاتباعية (Classique) البسيطة الساذجة بكثرة أشخاصها ، وغرابة حوادثها ، وتعدد مفاجآتها ، وتعقيد العمل فيها الى حد الارتباك والغموض) . أما أرباب المذهب الابتداعي (Romantique) ومن قبلهم شكسبير فلم يكتفوا بتأليفها وتمثيلها ، وإنما وضعوا لها القواعد ، وشرعوا لها المناهج ، وقالوا إن الدرامة صورة صادقة مؤثرة للحقيقة ، بل هي الحياة نفسها : هي الهوى يعمل ويتكلم ويحكم ويفكر بصوت جهير أمام الجمهور السامع

إن المأساة لم ترد أن تتنزل عن أفق الأبطال والسراة والملوك ، والملهاة قصرت نفسها على وصف عيوب الأوساط ، أما الدرامة فهي أتم وأعم وأصح ، لم تفضل فريقاً على فريق ، ولم تؤثر طبقة على طبقة ، فهي تسوى بين الملوك والسوقة ، وتمزج البسمات بالعبرات ، وتستمد التاريخ والقصص والحكايات والخرافات ، لا تستثني شيئاً ولا تحتقر شخصاً ، ولا تحصر نفسها في ضيق القـــواعد والتقاليد ، فموضوعها الانسانية بأسرها . أما اليوم فقد اختلفت على هذا النوع الأسماء والتعاريف لتشعب مناحيه ، وتعدد مذاهبه ، واتساع مجاله ، واختلاف أطواره . فكان يسمى أولاً : الرواية الجدية المنزلية (Tragi-comique) ثم المأساة الحضرية (Tragédie bourgeoise) ثم المأســـاة الشعبية (Tragédie populaire) ثم الملهاة الجدية (Comédie serieuse) ، وهم يطلقون عليهـا الآن اسم الدرامة الحديثة ، أو الدرامة فقط . ولا نجد أبلغ في الكشف عن حقيقة الدرامة مما كتبه عنها زعيمها وابن بجدتها فكتور هوجو في مقدمة (كرومويل) نستعين بتلخيصه لك على شرح هذا النوع الطريف الذي يعدونه الآن أفضل الأنواع وأكمل الأشكال للتمثيل فوق المسرح الحديث ؛ لأنه باختياره الأشخاص من كل الطبقات ، وتفضيله التأثير في الحواس على تحليل الشهوات ، كان أكثر أنواع المأساة ملاءمة للذوق الديمقراطي الغالب اليوم .

قال هوجو ما محصله : النظارة أصناف ثلاثة : النساء والخاصة والعامة ؛ فالعامة يطلبون من الرواية العمل أو الحادث ، والخاصة يطلبون منها الخُلق أو الدرس ، والنساء يطلبن منها الشهوة والهوى . لأن العوام يبتغون من المسرح الهيَّج ، والخواص يبتغون منه التفكر ، والنساء يبتغين منه التأثر ؛ وغرض هؤلاء جميعاً اللذة : فالعامة تريد لذة النظر ، والخاصة تريد لذة العقل ، والمرأة تريد لذة القلب . ولكلٍّ منهم الحق فيما يبتغي ويريد . ومن ثم كانت روايات هوجو ثلاثة أنواع مختلفة : أحدها عامي سوقي ، والآخران شريفان رفيعان ، وفي ثلاثتها حاجة المسرح وكفاية الناس . فللعوام المأساة العامية (الميلودرام) التي تصف لهم الفظائع ، وللخواص الملهاة التي تصور لهم الأخلاق ، وللنساء المأساة التي تحلل لهن الأهواء . وربما تدخَّل بعض هذه الأنواع في بعض ، فقد يوجد في السوقة من يتذوق الجمال ويتطلب الكمال ويغرق في التخيل ، وفي السراة من يطلب غير الأدب لطف الشعور ، وفي النساء من تبتغي مع التأثر رياضة الذهن . فغرض الدرامة إذن هو تصوير الأخـلاق بخلق الأشخاص وتمثيلهم على المسرح تبعاً لشروط مستمدة من الأدب والطبيعة ، وبث الأهواء والنزاع في هؤلاء الأشخاص لبيان أخلاقهم وتوضيحها ، واستخراج الحياة الانسانية من هذه الأخلاق والأهواء التي تتصادم وتتلاحم ، فتنتج الوقائع الكبيرة والصغيرة ، والحوادث المحزنة والمضحكة ،

التي تنطوي على لذة للقلب يسميها الناس منفعة ، وعلى عظة للعقل يسميها الحكماء حسن خلق . فبان من ذلك أن الدرامة تأخذ من المأساة تحليل الأهواء والشهوات ، ومن الملهاة تصوير الأخلاق والعادات . فهي الشكل الثالث من أشكال الصناعة الأدبية ، وهو أكبرها وأعمها ، لأنه يشمل الشكلين الأولين فيمزجهما ويشرحهما . ولولم يوجد شكسبير بين كورني وموليير فيد يسراه الى الأول ويمناه الى الثاني ، لبقي كل منهما بعيداً عن الآخر ؛ فبوجوده التقت الملهاة بالمأساة التقاء الموجب بالسالب في الكهرباء ، فحدث من التقائهما شرارة هي الدرامة

ثم مضى هوجو بعد ذلك في بيان حقيقة الدرامة من جهة الفلسفة التاريخية نحيلك عليه إذا شئت ، ونكتفي نحن هنا بما أجملناه من كلامه

فالدرامة إذن تقبل كل نوع ، وترتضي كل شكل ، ما دامت تضمن التأثير في المشاعر والخواطر والقلوب ، وهي تسلك لهذه الغاية أسهل الطرق وأقرب السبل . فلها في الطفولة المعذبة ، والشيخوخة العاجزة ، والزمانة المعدمة ، والكرم في الأملاق ، والقحط واليأس ، مواقف قوية التأثير شديدة الروعة ؛ وفي المستشفيات والسجون والأحياء الفقيرة العاملة مسارح للرعب والرحمة ، لها من البيان والتأثير ما يغني المؤلف الذي يعرضها للأنظار والأفكار عن تكلف الأداء وتجشم البلاغة

إن المصائب المنزلية ، والحوادث الاجتماعية ، لا تدهشنا حقيقة كما تدهشنا مصائب الملوك ومخاطر الأبطال وحوادث القصور ، ولكنها تؤثر فينا كل التأثير لاتصالها بنا واقترابها منا ؛ وإذا كان أفضل الأنواع أمتعها للجمهور ، وأشدها أثراً في الكثرة ، فان الدرامة تفوق المأساة بهذه المزية ، وتفضل الأنواع جميعاً بقوة الجاذبية . وإذن يكون كورني وراسين وڤولتير قد جهلوا فن التأثير ، وسهروا الليالي الطوال في البحث عنه في الطبقات العليا ، والحوادث الكبرى ، وهو منهم على طرف الثمام لو نظروا في الطبقة الدنيا وفكروا في الحياة العامة . ولو كان هؤلاء حقيقة قد جهلوا قوة الدرامة وسهولتها فما بال الأغريق واللاتين لم يتوسلوا بهذه الوسائل القريبة إلى التأثير والجاذبية ؟ وما بال شكسبير وهو إمام الروائيين غير مدافع لم يختر موضوعاته من حياة الشعب ، ويفضل جرائم الملوك ونكباتهم على جرائم السوقة ونكبات العامة ؟ الحق أن الأغريق كانوا يعلمون علم اليقين أن في الناس من كبا به الجد فألقاه في مراغة الذل والبؤس ، فأعسر بعد اليسر ، وهان بعد العز ، ولكنهم كانوا يجهلون أو ينسون أن الملوك هم أيضاً غرض لسهام القدر ، وأن المرء مهما عظم قدره لا يعظم على النوائب ولا يكبر على الاحداث ، وأن خطوب الدهر لا تخص بفتكها طبقة دون طبقة ، فاستفادوا من المسرح هذا الدرس النافع والعظة البالغة . كذلك كانوا يعلمون أن في الناس المأفون والشهوان والخبيث والمجرم ، ولكنهم كانوا يجهلون أن الملوك أيضاً فيهم الأفن والشهوة والخبث والأجرام ، وأن نتائجها فيهم أفظع وأفجع منها في السوقة ، فاستنتجوا من المسرح أن الشعب مأخوذ بجرائر الملوك ، فأخذوهم بالحزم وحسن السياسة ، بَلْهَ ما كان عليه الناس في الأزمان الخالية من تنزيه الملكية ، وتقديس البطولة ، وازدراء الشعب . فلما ابتذلت أفنية الملوك ، وعلت كلمة الشعوب ، وغلب نظام الدعقراطية ، احتقر الناس مصائب الخاصة ، ورأوا أن الاهواء والأرزاء تنصب فخاخها لكل الناس ، وأن الواقع فيها من أي طبقة ومن أي بيئة يصح أن يكون عبرة ونكالاً لغيره . حينئذ أخذ الكتاب يدرسون العامة ، ويعلمون الجمهور بتحليل نفسه وتعليل جرمه ، ويثقفون خلقه بتصوير نقصه ووصف عيبه ، فيحاربون العيب بالخوف من السخر والخشية من الخجل ، والجريمة بالفزع من وخز الضمير الذي يصحبها والقصاص الذي يعقبها ، والهوى بوصف ما يجره من الآلام والمخاطر والمصائب ، ووجدوا الحال تقتضي نوعاً جديداً من الرواية يلائم حال الاجتماع ونظام الحكومة ورقي الفكر ، فكانت الدرامة وليدة هذا الانقلاب وسداد هذا العوز

على أن التأثير والجاذبية لم يكونا يوماً ما من أغراض المسرح في الأمم المثقفة المستنيرة ، وإنما كان التمثيل عندهم كالخطابة ، يجذب ليهذب ويعلم ، ويؤثر ليقرر ويفهم . وما التأثير إلا وسيلة من وسائله لا غاية من غاياته . فالدرامة التي لا تعلم ولا تهذب تكون من المأساة بمثابة المهزلة من الملهاة . ولا شك أن المهزلة (Farce) تضحك الجمهور أكثر مما تضحكه ترتوف والمستوحش ، والدرامة التي من هذا النوع تبكيه أكثر مما تبكيه (سنّا) و (أتالي) ، ولكنه اذا ظل مائة سنة يضحك ويبكي لهذه المناظر ، فأية فائدة يستفيدها ، وأية فكرة يكتسبها ويسترندها ؟

فالدرامة القوية هي ما وضعت في قلب الرجل علل حوادثه وبواعث عمله ، فتجعله شقياً بزلته ، مشفياً على الخطر بغفلته ؛ وهي لذلك تطلب مؤلفاً يكون ثاقب الفكر صادق النظر قوى الملاحظة خصب المخيلة عميق الاحساس بليغ الأسلوب جيد الاختيار ؛ وموضوعاً يجمع بين التأثير والافادة وبين الابتذال والصيانة وبين الغرابة والسذاجة ، فلا يكون عقيماً ولاسقيماً ولا سوقياً ولا شعرياً ولا متكلفاً ؛ وعملاً يكون سيره نشيط الحركة موزون التدرج محكم التعقيد بارع الحل ؛ وعادات حضرية أو شعبية تكون مع موافقتها للحق غير ساقطة ولا جافية ؛ ولهجة بسيطة تلائم الأشياء والأشخاص ، فتكون صحيحة سهلة نقية ذكية شاعرة لاتعلو على الموضوع ، ولا تسفل إلى درك التعمل والركاكة . وتلك مطالب أعيت أولى القرائح الكليلة ، فانصرفوا إلى الجانب الأسهل منها ، وأخذوا يلتمسون التأثير في الجمهور بعرض الحوادث المنتزعة من الحياة العامة لتغنيهم بفظاعتها عن إجادة الكتابة وإجالة الفكر ، ويبنون هذا الرأي السخيف على قاعدتين خاطئتين : أولاهما أن كل جذاب من القول والفعل صالح للمسرح ، وأخراهما أن كل ما أشبه الطبيعة جميل ، وكل تقليد صادق لها حسن . لا أنكر أن لا شيء يلوع القلب ويمزق الحشا مثل أن ترى بيتاً متهدماً تسكنه امرأة كريمة عدا عليها الفقر ومسها الضر وجاز بها الدهر حد اليأس والفاقة ؛ وأنا زعيم لك بأنك تغرق الناس بالدمع ، وتضرم الأنفاس بالحزن ، إذا عرضت على العيون منظر هؤلاء الأطفال يتضاغون من الجوع ويطلبون إلى أبيهم المسكين كسرة من الخبز وهو لا يستطيع ، ومثلت دموع تلك الأم ترى رضيعها يلفظ أنفاسه في حجرها من السغب وهي لا تملك له حياة ولا نفعاً ، ولكن أرني ذلك الشعب الغليظ الكبد الذي يلهيه ويسليه مثل هذه المناظر ؟ وأية فائدة تجدها في هذا المصاب الأليم المقيم الذي فجع هذه الأسرة وهي لم ترتكب خطأ ولم تقترف إثماً ؟ آلمني ، ولكن لتعلمني كيف أحتاط لنفسي من الوقوع في مثل هذا الضرر الذي أشهده . مثل لي أسرة بائسة أوقعها بين مخالب البؤس والفاقة عيب أصيل في نفسها ، وهوى دخيل في قلبها ، فان الألم الذي ينالني من رؤية هذا المنظر يعوضني منه ذلك الدرس الذي أستفيده من شهود ما يجره الهوى المتحكم والعيب المتأصل من الأذى والمضرة : أستفيد أن الانسان حر في اتقاء مثل هذا المصاب ، وأن أسبابه من العيب والهوى والغفلة والضعف لم تكن أدواء لازمة ولا محتومة . أما الحرق والغرق والزلزال والوباء وكل ما يصيب المرء من غير كسبه ولا اختياره فلا أستفيد من رؤيته غير الألم المقيم والهم الخالص

إن فضل الكاتب وجمال المسرح هما في عرضهما ما نود أن نكونه لا ما نحب أن نتأثر به . ومهما يكن الشيء العامي المبتذل مؤثراً ، فلا بد أن يكون على المسرح أسمى وأروع مما أستطيع أن أراه وأجمعه من شباك بيتي ، فان بين الأشياء المؤثرة كذلك تفاوتاً وتفاضلاً وتخيراً . وليس في الحياة موضوع يصح أن يكون روائياً بنفسه إذا قلدته على علاته ونقلته بجميع صفاته ؛ فقد تجد فيه من الطول والفضول والنقص والسخف ما يخجلك إذا حكيته ، ويأفنك إذا مثلته . إن مهارة الكاتب القصصي في أن يجعل الموضوع طريفاً لذيذاً ، ومهارة الكاتب الروائي في أن يبسطه ويزخرفه ، فيحذف منه البارد الغث ، ويضيف اليه ما يزيد في تأثيره وحدته وجدته وطرافته ، بحيث يكون شبه الحقيقة وهيئتها لا صورتها ولا نسختها . والحال في الأعمال مثل الحال في الأقوال : فان الكاتب الذي يكتب كما يتكلم ليس بكاتب . إذ كل لغة من لغات الناس فيها الشريف الحر والرقيق الأنيق ، كما أن فيها السوقي والحوشي والفج . والذوق وحده هو الذي يصفي العبارة من اللغو ، وينقي الأسلوب من الغثاثة ، كما يعزل الغربال الزؤان والحصا من الحب الصحيح . ذلك ما نعقله ونقبله ؛ أما نقل ما ترى وحكاية ما تسمع بما فيه من سماجة وفضول واقتضاب ، على أنه صورة الطبيعة ورسم الحقيقة ، فتلك حجة يلجأ اليها الأدعياء ليدرأوا عن أنفسهم معرة الضعف في الاختيار والعيي عن الابتكار والعجز عن التجديد والتوليد

بعد ما تقدم نستطيع أن نجمل القول في المأساة العصرية بذكر الفروق بينها وبين المأساة القديمة فنقول : إن الدرامة تجمع بين الجد والهزل والسرور والحزن والاحتشام والتبسط والضعة والرفعة ، وتختار أشخاصها من كل طبقة وبيئة ، وتقتبس موضوعها من حياة العامة أو العصور الوسيطة أو العصر الحديث . أما المأساة فكما علمت تزدري الموضوعات القومية والعصرية ، وتختار موضوعاتها من الأساطـــير أو من التاريخ القديم ، وتعنى على

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

فقيد الأدب التونسي

أبو القاسم الشـــابي

ولد سنة ١٩٠٩ وتوفي سنة ١٩٣٤

ثكلت تونس ، بل الأدب العربي عامة ، أديباً عبقرياً فذاً ، كان منتظراً منه — لو امتدت حياته — أن يكون كوكباً لامعاً في سماء الأدب العربي الجديد ، بل دعامة قوية ترتكز عليها المدرسة الحديثة للشعر العصري . ذلك هو الشاعر المبكي على شبابه أبو القاسم الشابي .

أبو القاسم الشابي

ولد أبو القاسم الشابي عام ١٩٠٩ في مدينة « توزر » عاصمة الواحات التونسية الجميلة بالجنوب ، من أسرة ذات مجد ، وكان أبوه الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي قاضياً شرعيا ، تنقل بوظيفته في مدن مختلفة . وهو من قبيلة كبيرة ذات تاريخ حافل تدعى الشابية

أما حياة الشاعر الفقيد فليس فيها من الحوادث ما يهم كثيراً لقصرها ، فلم يتخط فجر شبابه الغض ، ولم يطو الخمسة والعشرين عاماً بعد ؛ إلا أن هذه الفترة الصغيرة في تاريخ نموه الفكري ذات خطر عظيم ، ذلك أن المذهب الذي ذهب اليه في نظم أشعاره ، مذهب قد لم يظهر منه في الشعر العربي إلا النادر

وليس في مراحل تعلمه التي قطعها بغاية الفوز والنجاح شيء غير عادي ؛ فهو كأمثاله الكثيرين قد حفظ القرآن في طفولته ، والتحق بجامع الزيتونة بتلقي علوم العربية على الأساليب القديمة من المتن والشرح والحاشية ، وعلوم الشريعة الاسلامية كالفقه والأصول والتوحيد ، الى أن كان الامتحان النهائي فتخطاه عام ١٩٢٦ ونال الشهادة المسماة بالتطويع

والتحق بعد ذلك بمدرسة الحقوق التونسية فاجتاز امتحاناتها وحصل على إجازة الحقوق ، ثم لم يتركه مرض الصدر يتمم دراسته ، فانقطع عن التعلم من ذلك الحين والتفت الى معالجة هذا المرض العضال الذي ظل معه يغاديه ويراوحه حتى ذهب في يوم ٨ أكتوبر بحياته الغضة

لم يدرس أبو القاسم لغة أجنبية ، ولم يكن له من الزمن ما يسمح بطول الدرس ومطالعة المترجمات ، فقد كان أطباؤه ينهونه عن كد ذهنه والاشتغال بالأعمال الفكرية ، وتلك لعمري آية عبقريته النادرة ، ومعجزة نبوغه الفريد

كان جباراً متمرداً على القديم ، وكان في الوقت ذاته رقيق الاحساس مشبوب العاطفة ، لا يستمرئ النازعات والمشاكسات ، فكان من جراء ذلك تفاعل بينه وبين بيئته ، تلمح آثاره واضحة في أشعاره

فقد كانت مطالعاته الأولى في الأدب العربي بالمهجر الأمريكي ، فاستأسره أسلوب زعيم تلك المدرسة المرحوم جبران ، وكانت أشعاره الأولى ذات نزعة جبرانية في الأسلوب . وكان يقول الشعر منظوماً ومنثوراً ، ولكنه كان أعمق روحاً وأبعد قراراً . وكانت موضوعاته في فلسفة البؤس والشقاء ، والتبرم بالحياة ومتاعبها

الخصوص بالعالم الداخلي من الانسان ، فتبحث عن أخلاقه وعواطفه وأهوائه ، فهي تضع على المسرح نفوساً بدل أن تضع أشخاصاً ، ولا تعنى مطلقاً بالرياش المسرحي ولا باللون المحلي ، وتقصد كل القصد في تعقيد العمل الروائي ؛ ولكن الدرامة لا تحفل إلا بالعالم الخارجي من المرء ، والجزء المادي من المسرح ، وتبالغ في رعاية الرياش والزخرف ، وترجح التأثير في الحواس على التأثير في الذهن ، وتحرص على أن تظهر الأشخاص في لباس الزمن الذي عاشوا فيه وتسمهم بعادات بنيه ، وتؤثر تعقيد العمل وتخرج المواقف على وصف الأهواء وتصوير العواطف . ثم إن المأساة تخضع لقانون الوحدات الثلاث ولا تجيز نجوى النفس . ولذلك خلقت الأنجياء Confidentes ليسارّهم الأشخاص عما يفكرون ؛ ولكن الدرامة تحللت من سلطان الوحدات الثلاث فلم تبق إلا وحدة العمل ، وأسرفت في إيراد النجوى على ألسنة الأشخاص الأصليين فياضة بالأسلوب الوجداني فقضت بذلك على الأنجياء

يتبع الزيات

على أننا إذا قلنا إن أبا القاسم قد تأثر بمدرسة جبران فلا بد لنا أن نتحفظ ، فقد تزود — رحمه الله — من الأدب العربي القديم بثروة طائلة ، مكنته من إخضاع التعابير الفصيحة لمانيه الجديدة بما يميزه من غيره ، ومما لم يكن من ظواهر تلك المدرسة التي تذهب أحياناً وراء حرية التعبير عن خوالج النفس مذاهب تخرجها عن سنن العربية وقواعدها الأولية.

ثم إن شاعرنا كان مفتوناً بالآداب الغربية ، يتهافت على قراءة كبار عباقرة الغرب الذين ترجمت أشعارهم وآدابهم ويدرسها روية حتى تأثر بها وخالجت روحه ، وربما تعجب قراؤه كثيراً حينما يعلمون أنه لا يقرأ إلا اللغة العربية لجهله بغيرها

ويمكنك أن تدرك سعة اطلاعه على الأدب العربي القديم وإحاطته بجميع ما ترجم إلى العربية من نفائس الأدب الغربي ، اذا اطلعت على مؤلفه الذي أخرجه منذ سنوات تحت عنوان « الخيال الشعري عند العرب » فمن مطالعة هذا الكتاب الذي هو عبارة عن دراسة مستفيضة على طريقة النقد العصرية للأدب العربي في جميع عصوره ، ومقارنة للأدب الغربي في كثير من أعلامه تدرك مبلغ تفوقه ونبوغه

قلنا إن أبا القاسم كان يتجرع في أوائل أمره نزعة تشاؤم وتبرم بالحياة ، على أن سخطه هذا لا شيء فيه من الضعف والرخاوة ، فهو يعاتب الدهر وكأنه ند له في كبرياء وجبروت يمان عن حب الحياة في أعماق نفسه ، حتى أنه لم تدم شكواه طويلاً ، فتجلت روح التمرد والقوة في قصائده الأخيرة التي منها « نشيد الجبار » وقد نشرت في أحد أعداد « أبولو » ومنها قصيدة « البعث » وستظهر في ديوانه ، أودعها كل ما في نفسه من حب للحياة وتطلع الى مثلها العليا في أسلوب رائع فريد

ولا نستطيع أن ننسى أن للصدمات التي اعترضته أثراً عميقاً في صهر نبوغه واستقلال فنه ، كما أنه قضى مدة أربعة أشهر في وحدة شعرية بديعة بين جبال « عين دراهم » وغاباتها ، وهي من أجمل بلاد تونس منظراً وسحراً ، فخرج بشعر طبيعي نادر

رحم الله أبا القاسم الشابي ، وعوض الأدب العربي عنه خيراً

نموذج من شعر الفقيد

اصطدم أبو القاسم الشابي بشعور بيئته الراكدة ، وضايقه المتزمتون الجامدون ، فضاق الشاعر ذرعاً ، ونفّس عن قلبه الحساس بهذه القصيدة الرائعة :

النبيء المجهول

أيها الشعب ، ليتني كنت حطّا … با ، فأهوي على الجذوع بفأسي!
ليتني كنت كالسيول إذا سا … لت تهد القبور رمساً برمس . .
ليتني كنت كالرياح . . فأطوي … كل ما يخنق الزهور بنحسي (1)
ليتني كنت كالشتاء . . أغشي … كل ما أذبل الخريف بقرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعـ … ـبي فألقي اليك ثورة نفسي . . .
ليت لي قوة الأعاصير .. لكن … أنت حي يقضي الحياة برمس ..
أنت روح غبية تكره النو … ر وتقضي الدهور في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن … طافت حواليك ، دون مس وجس

* * *

في صباح الحياة ضمخت أكوا … بي وأترعتها بخمرة نفسي . .
ثم قدمتها اليك ، فأهرقـ … ـت رحيقي ودست يا شعب كأسي!
فتألمت .. ثم أسكت آلا … مي وكفكفت من شعوري وحسي.
ثم نضدت من أزاهير قلبي … باقة لم يمسها أي إنس
ثم قدمتها اليك ، فمزقـ … ـت ورودي ودستها أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً … وبشوك الصخور توجت رأسي

* * *

. . . ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ … ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي … في صميم الغابات أدفن نفسي . .
ثم أنساك ما استطعت فما أ … نت بأهل لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أنا … شيدي وأفضي لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري … أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضي هناك في ظلمة الليـ … ـل وألقي إلى الوجود بيأسي
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ … ـو تخط السيول حفرة رمسي
وتظل الطيور تلغو على قبـ … ـري ويشدو النسيم فوق بهمس
وتظل الفصول تمشي حوالي … كما كن في غضارة أمسي . . .

* * *

أيها الشعب أنت طفل صغير … لاعب بالتراب والليل مغس

(1) النحس الريح الباردة عند إدبارها

أنت في الكون قوة لم تسسها   فكرة عبقرية ذات بأس

أنت في الكون قوة كبلتها   ظلمات العصور من أمس أمس

والشقي الشقي من كان مثلي   في حساسيتي ورقة نفسي

* * *

هكذا قال شاعر ناول الشعـ   ـب رحيق الحياة في خير كأس

فأشاحوا عنها ، ومروا غضابا   واستخفوا به وقالوا بيأس :

« قد أضاع الحياة في ملعب الجنـ(م)   ـن فيا بؤسه ! أصيب بمس ! »

« طالما خاطب العواصف في الليـ   ـل وناجى الأموات في كل رمس »

« طالما رافق الظلام إلى الغا   ب ونادى الأرواح من كل جنس »

« طالما حدث الشياطين في الـ   ـوادي وغني مع الرياح بجرس »

« إنه ساحر تعلمه السحر الشيا   طين كل مطلع شمس . . . »

« أبعدوا الكافر الخبيث عن الهيـ   ـكل إن الخبيث منبع رجس »

« اطردوه ، ولا تصيخوا إليه   فهو روح شريرة ذات نحس »

* * *

هكذا قال شاعر فيلسوف   عاش في شعبه الغبي بتعس

جهل الناس روحه وأغانيـ

ـها فساموا شعوره سوم بخس

فهو في مذهب الحيـاة نبي

وهو في شعبه مصاب بمس !

هكذا قال ثم سار إلى الغا

ب ليحيى حياة شعر وقدس

* * *

وبعيداً ، هناك في معبد الغا

ب الذي لا يظله أي بؤس

في ظلال الصنوبر الحلو والزيـ

ـتون يقضي الحياة حرساً بحرس

في الصباح الجميل يشدو مع الطيـ

ـر ويمشي في نشوة المتحسي

نافخاً نايه ، حواليه تهتز (م)

ورود الربيع من كل قنس

شعره مرسل تداعبه الريـ

ـح على منكبيه مثل الدمقس

والطيور الطراب تشدو حواليـ   ـه وتلهو في السرو من كل جنس

وتراه عند الأصيل ، لدى الجد   ول يرنو للطائر المتحسي

أو يغني بين الصنوبر ، أو ير   نو الى سدفة الظلام المُمسي

فاذا أقبل الظلام وأمست   ظلمات الوجود في الكون تغسي

كان في كوخه الجميل مقيما   يسأل الكون في خشوع وهمس :

عن مصب الحياة ، أين مداه ؟ ؟   وصميم الوجود ، أيان يرسي ؟ ؟

وعبير الورود في كل واد   ونشيد الطيور حين تمسي . .

وهزيم الرياح في كل فج . .   ورسوم الحياة من أمس أمس . .

وأغاني الرعاة ، أين يواريـ   ـها سكون الدجى ، وأيان تمسي ؟ . .

* * *

هكذا يصرف الحياة ويفني   حلقات السنين حرساً بحرس

يا لها من معيشة ، في صميم الـ   ـغاب تضحى بين الطيور وتمسي !

يا لها من معيشة ، لم تشبها   نفوس الورى بخبث ورجس !

يا لها من معيشة ، هي في الكو   ن حياة غريبة ذات قدس . .

تونس   محمد مبارك

على قبر الفردوسى

للدكتور عبد الوهاب عزام

أبا القاسم اسمع ثناء الوفود   تنظّم فيــك عقود الدرر
أبا القاسم اسمع نشيد الخلود   يرتّلُهُ فيك كلُّ البشر
أبا القاسم اسمع لسان الزمان   بخلدك ، وهو الضنين ، أقرّ
فهذى اللغات وهذى السّمات   وهذى الوفود وتلك الزُّمَر
تترجم عن غرض واحــد   ويدركها فى مداك الحصَر
تُطيف بقبرك صرح العلاء   وباب الخلود ومثوى الظفَر
فيالك قبراً قريب المدى   تظل العقول به فى سفر
ويالك قبراً كعين البصيـ   ـر يحوى العوالم منها الصغَر
ويالك قبراً غــدا طلسما   وراءك كنز الخلود استتر
ويالك ســطراً بقرآنه   تضيق الحياة ويفنى العمُر
ويالك بيتاً سما شِــعره   بمعنى الحياة ولفظ الحجر
وأحجاره كحروف الهجا   ء كل المعانى بها تُستطر

* * *

إمامَ البيان وربَّ القريض   وأصبرَ مَن للقريض صبر
وسبّاقَ حلبتــه فى الورى   ورب الحجول بها والغُرر
وناظمَ نعقــد على نظمه   تخر الدهور وما ينــدثر
نظمت الكتاب كتاب الملوك   وما هو إلا سجلّ القدَر
طويت الزمان وأحداثه   بأوراقه ونشرتَ العِــبَر
فما جام جمشيد[1] إلا كتابُـ   ـك يجلو الأقاليم فيه البصر

* * *

فيالك من شاعر نابغ   عظيم الحياة جليــل الأثر
ويالك من شاعر رابح   وكم شاعر فى الورى قد خسر

(١) كأس جمشيد كانت ترى فيها الأقاليم السبعة

ثلاثين عاماً نسجت القريض   حليف المنوم أليف السهر
ثلاثين عاماً مضت للفناء   بهن اشتريت خلود الدهر
لقد صدّق الدهر ما قلتَ فى   كتاب الملوك بغيب النظر :
بنا هاى أباد گردد خراب   بجرّ ذُكاء وصوب المطر
پى افكندم أز نظم كاخى بلند   على الريح والقطر ما إن يخرّ[1]
مضى ملك محمود فى الذاهبين   وملكك فى الدهر ما يندثر
رضاه شاه حسبك من ناصر   لقدرك بعد القرون قدَر
يسيّر ذكرك فى الخافقين   مسير ذُكاء ومسرى القمر

* * *

طوينا البحار وشُمَّ الجبال   وجُردَ القفار وأيْكَ الشجر
يطير بنا الشوق ملء القلوب   ويُحلى حديثك مُرّ السفر
وفى مصر كنت نجىّ الكتاب   بليغ العظات وحلو السمر
وها أنا فى طوس بين يديْـ   ـك يبهر نفسى جلال بهر
فهيبة ذكراك روع الفؤاد   ومشهد حفلك يُخسى البصر
يضيق علىّ مجال الكلام   ويشردُ عنىَ سِرْب الفكَر
ويذهب شعرى ذهاب الحباب   على لجة البحر حين زخر
هر آنكس كه دار دهش ورای ودين
عليك الثناء الجميـــــل نثر[2]
وما شاعر أنا كفء المديح   فأهدى اليك الثناء الأغر
ولكن سحابك أحيا المواتَ   وما بالارادة ينمو الزهر
خلدت على الدهر فى الخالدين   وخلّد شعرك من قد غبر
ودوّى قريضك فى الخافقين   يغنّى البُداة به والحضر
وروحك فردوسه فى السماء   وقبرك فردوس من قد شعر

طوس   عبد الوهاب عزام

(١) بيتان للفردوسى أثبت شطريهما الأولين بالفارسية وقد ترجمت الأخيرين ؛ ويجدها القارئ فى أول صفحة من ترجمة الشاهنامه العربية
وترجمة الشطر الاول : يخر على الدهر كل بناء
وترجمة الشطر الثانى : بنيت على الدهر صرحاً أغر

(٢) هذا بيت للفردوسى معناه : كل من له عقل ورأى ودين سيثنى على بعد الموت . وقد أثبت شطره الاول وترجمت الثانى

البريد الأدبي

العيد الفضي

عزيزي الزيات

في افتتاحية العدد الماضي أسميتم العيد العشريني للجنة التأليف العيد الفضي . وإن جاز أن يكون في هذه التسمية متسع لاختلاف الآراء ، فإني أرى الأولى تسميته بالعيد الصيني ، وذلك جرياً على العادة القديمة في بعض الأمم ، واتباعاً للمراسيم المألوفة عندهم في الأعراس . فقد اصطلحوا على أن يهدوا للعروسين في ذكرى العرس السنوية الأولى شيئاً مصنوعاً من الورق ، وفي الذكرى الثانية شيئاً مصنوعاً من « البفتة » ، وفي الثالثة شيئاً من الكتان ، وفي الرابعة شيئاً من الحرير ، ويتلو هذه الخشب فالحلوى فالزهر فالجلد فالقش فالقصدير فالعقيق ، إلى آخر قائمة طويلة يعني باستظهارها من لا يزال يُعني بتلك المراسيم ، ولاسيما التجار . ومن أشهر تلك الأعياد العيد العشريني ويهدى فيه الخزف الصيني ، فالخامس والعشرون ويهدى فيه الفضة ، فالثلاثون ويهدى فيه اللؤلؤ ، فالأربعون وهديته الياقوت ، فالخمسون وهو الذهبي ، ثم الخامس والسبعون وهو الماسي ؛ ومن بلغه فقد عمَّر دهراً طويلاً . ولا شك أن ربط هذه الأشياء بهذه الأزمان منشؤه في كل حالة خاصة غير واضح ، ولكن نستطيع أن نقول على وجه التعميم إنه بمت من قريب أو بعيد إلى ما كان يعتقد القدماء في المعادن والجواهر من يمن أو شؤم ، حتى لتجدهم إلى اليوم يخصون الفصول والأيام ، حتى والساعات ، بأحجار كريمة خاصة تدر على لابسها ، أو الأرجح لابسيها ، كل خير وبركة ، فالزمرد حجر الربيع لخضرته ، والياقوت الأحمر حجر الصيف لأن لونه من النار ، والياقوت الأزرق للخريف ، والماس للشتاء ولونه من لون الثلج ، يأخذ النور ويشع بالنور

أحمد زكي

(الرسالة) لصديقنا الدكتور الحق في هذه الملاحظة ، ولنا كذلك الحق في هذا الاستعمال ، لأنهم اختصروا اليوم هذه الهدايا السنوية إلى ثلاث وهي الفضة في الشباب ، والذهب في الكهولة ، والماس في الشيخوخة . وأطوار العمر الثلاثة لا تحدد بسنة معينة

الأدب اليوجوسلافي في مختلف أطواره

كثر الحديث أخيراً عن يوجوسلافيا وأحوالها لمناسبة مأساة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر . وكان للناحية الأدبية نصيب من تلك الأحاديث ؛ فنشرت مجلة « الأخبار الأدبية » مقالاً ضافياً بقلم الكاتب السربي ايفو ياربتش عن الأدب اليوجوسلافي في مختلف العصور نلخصه فيما يلي :

ليوجوسلافيا حضارة قديمة وأدب قديم . وترجع آثار الأدب السربي والكرواتي والسلوفيني القديم الى القرنين العاشر والحادي عشر ؛ وظهرت في القرن الحادي عشر أول آثار باللغة السلافية القديمة بقلم كيرلل وميتود رسولي الأدب السلافي ، وبلغت الحضارة اليوجوسلافية ذروتها في عصر « نياجنا » ؛ وهرع الى الأديرة القديمة كثير من شباب الأشراف والأمراء ، يعيشون في تقشف ، ويدرسون الآداب البيزنطية والنصرانية القديمة ، ويترجمون آثارها الخالدة الى السربية القديمة . وبعد الفتح التركي (سنة ١٣٨٩) دخلت الآداب اليوجوسلافية في طور جديد ، وسادت فيها مثل البطولة والعناصر الشعبية والغنائية ، وبلغت ذروة هذه المرحلة في القرن التاسع عشر ، ولفتت نظر الغرب بشاعريتها القوية المؤثرة التي تقص آلام شعب مهيض وتستوحي ماضيه المجيد ، وتدعو الى تحرره من نير الغاصب

وقامت الى جانب هذه الحركة الأدبية العامة حركات أدبية محلية في البلقان وعلى ساحل بحر الأدرياتيك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت رعاية الحضارة البندقية . فكانت مدينة راجوزا مركزاً لحضارة سربية زاهرة ، ونبغ بها عدة شعراء سربيين مثل منتشتش ، ودرزتش ، وجيورجتش . وبلغ شعر راجوزا غاية ازدهاره بالشاعر جوندلتش صاحب الأثر الشعري الخالد « عثمان » ؛ وهي قصيدة قومية كبيرة ، تضطرم وطنية ، ويطبعها وحي الآداب الرومانية والنصرانية القديمة . وكان للدرامة

والكوميدية والشعر الريفى نصيب كبير فى هذه الحركة . وتردد صدى هذه النهضة الأدبية الزاهرة فى كثير من المدن الساحلية الأخرى مثل زارا ، وسبلاتو ؛ ونبغ بها عدد كبير من الشعراء والكتاب ؛ كما ترددت فى بلاد الكروات والسلوفين

على أن هذه المظاهر الأدبية كانت تنقصها الوحدة والتناسق حتى القرن التاسع عشر . وكان أعظم العاملين على تحقيق هذه الوحدة الكاتب الكبير فوك كرادجتش الذى لبث زهاء نصف قرن يناضل فى سبيل وحدة اللغة الأدبية يؤازره جماعة من أنصاره وتلامذته ، فكتب أجرومية للغة الأدبيـــة ، وألف قاموساً ، ووضع قواعد جديدة للأملاء . وكتب اوبراد فتش كتباً شعبية كثيرة يدلل بها على وحدة الأصل الذى تنتمى اليه العناصر الصربية المختلفة ، وكانت زغرب عاصمة كرواتيا مهداً خصيباً لهذه الحركة الفكرية الجديدة ، وفيها ظهر لودفيت جاى وجمهرة من الكتاب الذين يعملون على تحقيق هذه الوحدة الأدبية

وكان ذلك بدء الأدب اليوجوسلافى الحديث ، وقد بدأ هذا الأدب متأثراً بالطابع الساذج القديم ، ولكن مشرباً بروح الأدب الغربى الحديث ، وكان زعماء هذا العصر نيوجوخ أعظم شاعر يوجوسلافى وصاحب الديوان الشهير «غار الجبل» ومازورانتش الكرواتى ، وبرشرن السلوفينى ، ونستطيع أن نذكر من الشعراء المعاصرين دوتشتش ، وشانتتش ، ورا كتش ، ونازور ، وكيت . ونبغ أيضاً عدد من القصصيين متأثرين بالأدب الروسى والفرنسى ، ومنهم ليوبيشا ، ولازارفتش ، وسرماك ، وكوزاراك ، ولسكوفار ، وكانكار

وامتاز عصر مابعد الحرب باضطراب فكرى عظيم ؛ وأبدى الجيل الشاب ميلاً جديداً لمتابعة الغرب فى نزعاته نحو الأدب والفن ؛ وظهرت فى حلبة الآداب اليوجوسلافية الفكر القومية والدولية والاشتراكية الجديدة ، أو بعبارة أخرى كانت النزعة الثورية تطبع أدب هذه المرحلة ، بيد أن هذه النزعة قد اختفت اليوم ، وعاد الكتاب والشعراء يعملون فى هدوء لاخراج الآثار الأدبية الباقية . ومن زعماء الحركة الأخيرة مشش ودراجان ، وهما اللذان جمعا حولهما الشباب ، لمكافحة النزعة الواقعية التى مازال يدافع عنها أساتذة جامعة بلغراد . وثمة حركة أخرى ربما كانت أكثر رسوخا وهى حركة «التعبير» التى يتزعمها قافر ، ثم مانيولفتش الذى ترك الشعر ليكتب القصة والقطع المسرحية . ومن أقطاب حركة التعبير أيضاً راستكو ، وكريانسكى ، وهو قصصى شاب يبشر بمستقبل عظيم ، وله تلاميذ ومقلدون كثيرون ؛ وملادنوفتش الذى أثار بعنف دراماته كثيراً من النقـــد ، وبجدانوفتش الناقد الكبير

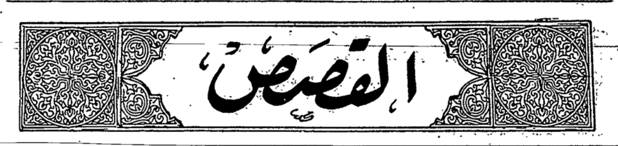
على أن هناك عدداً من الكتاب الذين استطاعوا أن يحتفظوا برزانتهم بعيداً عن التأثر بأزمة ما بعد الحرب ؛ ولهؤلاء آثار تمزج فيها النزعة الواقعية بالطابع الابداعى . وهنالك صفوة من الكتاب والنقدة يجمعهم «نادى القلم» (P. E. N) ، ويكونون ما يمكن أن يسمى «أرستوقراطية أدبية»

وقد تأثرت الحركة الأدبيـــة بالأزمة الاقتصادية الأخيرة ، وأحجم كثير من دور النشر عن إخراج المؤلفات الجديدة ، بيد أنها أزمة مؤقتة لا يلبث أن يتغلب عليها الجيل الشاب بنشاطه وحيويته الفتاة

عيد اللغة الألمانية

تحتفل الدوائر العلمية والأدبية فى ألمانيا بمرور أربعمائة سنة على نشوء اللغة الألمانية الحديثة وترجمة الأنجيل الى الألمانية . ولم تكن ألمانيا قبل أربعمائة عام تتمتع بلغة موحـدة ؛ وكانت اللغة اللاتينية ما تزال سائدة فى الكنيسة والأدارات الحكومية ، بل كان الشعب نفسه يجد فى اللاتينية مثله الأعلى فى الأدب والثقافة . ففى أوائل القرن السادس عشر ظهرت حركة الاصلاح الدينى (البروتستانتية) على يد زعيمها مارتن لوتر ، فكانت إيذاناً بقيام اللغة الألمانية الموحدة . وكان الشعب الألمانى يتكلم عندئذ عدة لغات متقاربة ترجع كلها الى أصل جرمانى ؛ فدرس لوتر هذه اللغات مع أصدقائه وتلامذته ، واستخرج منها لغة عامة يتقارب الجميع فى فهمها ، واتخذ عمادها لغة ألمانيا الوسطى (سكسونية) التى ينتمى اليها ، فأنشأ بذلك فى الواقع لغة جديدة هى أصل اللغة الألمانية الحديثة ، وكانت أكبر أداة فى إذاعة هذه اللغة الموحدة ترجمة الأنجيل ؛ ترجمه اليها لوتر ، وعانى فى هذه الترجمة صعاباً لا

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]



ورقة النصيب

للأستاذ محمد سعيد العريان

جلس إسماعيل على المقعد الخشبي بجانب غرفته على السطح ، يغني في حنين الواجد ولهفة المشتاق بعض أغنيات بلاده ، ويتابع بعينيه الشمس الغاربة منحدرة انحدارها اليومي ، كأنها جمرة كبيرة تطفأ في النيل.

كان يعيش وحده في هذه الغرفة من منزل كبير في حي « بولاق » يشرف من بعد على النيل ، فكانت سلوته وأنسه أن يجلس ببابها عصر كل يوم ، من لدن عودته من المدرسة حتى يعم الظلام ؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكب على مصورّاته ودفاتره

وقد انحدر منذ عام واحد من بلده في الصعيد الأدنى عقب حصوله على شهادة (الكفاءة) ليطلب العلم بمدرسة الفنون

كم كان مفتوناً بالقاهرة قبل أن يهبط اليها ، ولوعاً بها أشد الولع . ولعله لم يمعن في الجد والدأب للحصول على الشهادة ، إلا لأنه كان موعوداً أن يرسل الى القاهرة إن جاز الامتحان !

فلما هبط اليها إذا هي تتضاءل وتتضاءل على الأيام ، حتى لم تعد إلا هذا الحيّ العتيق الذي يسكنه ، وهذه الطريقَ الملتوية التي يسلكها كل يوم بين مدرسته والبيت ، وهذا السطحَ الذي يشرف منه على أطلال الحلم السعيد — أطلالِ القاهرة التي عرفها في الخيال ، واستمتع فيها بلذة المنى ووهم الحب ودنيا الشباب !

وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلةً سعيدة من تلك الليالي العابثة التي عاشها في القاهرة أول ما هبط اليها ! ولكن . . . ولكن من أين له المال ؟

إنه ما يزال يذكر في لهفة ويشوق تلك الليالي السعيدة ؛

يحيى . وقضى في إخراجها زهاء اثني عشر عاماً . وكان أثناء ذلك يلقي خطاباته ويخرج رسائله وكتبه باللغة الجديدة التي اختارها .

ولما ظهرت ترجمة الأنجيل الجديدة في سنة ١٥٣٤ في فتمبرج ، كان ظهورها ظفراً عظيماً في الكنيسة وفي الأسرة معاً ، وكان فجر اللغة الألمانية الجديدة . وطبع أنجيل لوتر أربع عشرة مرة في كل مرة ثلاثة آلاف نسخة ، وذاع في طول البلاد الألمانية وعرضها ، وأقبل الشعب على قراءته وحفظه ، وبدأت الشعوب الألمانية المختلفة تتبادل التفاهم والتعامل باللغة الموحدة . وإنجيل لوتر هو الأصل الأول الذي تقوم عليه اللغة الألمانية المعاصرة مع شيء من التغيير والتطور ، وما زالت لغته مفهومة لجمهرة المثقفين والمتعلمين

في الأكاديمية الفرنسية

نقص عدد الخالدين أعضاء الأكاديمية الفرنسية في هذا العام خمسة ، فأصبحوا اليوم خمسة وثلاثين بدلاً من أربعين ؛ فخلت مقاعد بريون وكاميل جوليان والماريشال ليوتي ثم بارتو وبوانكاريه بالوفاة تباعاً . ولم تشهد الأكاديمية الفرنسية منذ أمد بعيد مثل هذه الثغرة في كراسيها . والمعروف أن المرشح لكرسي جوليان هو جورج دوهامل ، ولكن ينافسه ليون بيرار ؛ وأما المرشح لكرسي بوانكاريه فيقال إنه سيكون مسيو دومرج الذي خلف مسيو بوانكاريه في رياسة الجمهورية ثم في رياسة الحكومة

وكان انتظام بوانكاريه في الأكاديمية في التاسع من ديسمبر سنة ١٩٠٩ في الكرسي الذي خلا بوفاة أميل جبهار . واستقبله المؤرخ الكبير ارنست لافيس مدير الأكاديمية يومئذ بهذه الكلمات التي تعود فتتردد اليوم : « إن ذكاءك يجعلك على اتصال مع عمال الفكر جميعاً . فأنت ضوء من أضواء المحاماة ، وأنت ضوء من أضواء البرلمان ؛ وإن الأكاديمية الفرنسية لتستقبلك باسطة الذراعين . ثم إن فيك قوة ، قد تغدو هائلة ، يوم تعتقد أن السياسة تتطلب رجلها »

وما يزال يذكر أيضاً فى ألم وحسرة أنه احتمل مما أنفق فى تلك الليالات ما لم تكن له به طاقة ، من ألم الجوع وذل الحرمان ، وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ أنه فارغ اليد مما أسرف على نفسه

وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة ، وبأن يعيش من الجنة فى ظل حائطها الفينان . وعرف فيه بنات الدار شاباً حيّ الحياء ، عفيف اللسان والنظر ؛ فألِفْنَ الصعود الى السطح فى الأصيل يستمتعن الى ترجيع أغانيه فى طرب ونشوة ، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام ؛ وألِفَ إسماعيل أن يراهن كل يوم ، وأن يبادلهن الحديث البرىء فى شؤون وفنون . . . وزال الحجاب بينهما على الأيام

***

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس ، ولم تصعد واحدة . ترى ماذا منعهن الليلة ، وقد اعتدْنَ واعتاد منذ شهر أو يزيد — منذ سكن هذه الدار — أن يجالسهن جميعاً أو أشتاتا ، ساعة أو بعض ساعة كلّ مساء ؟ . . . ومد الظلام رواقه على القاهرة ، وعلى قلب المبعد اللهفان

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره ، فاذا هو لا يكاد يرى ، واذا الكلمات والسطور تتلوّى أمام عينيه ، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة . . . !

وطوى دفاتره وارتدى ثيابه وخرج الى الطريق ؛ كانت الليلة ليلة الجمعة ، فلم يجد حرجاً أن يقضيها فى السينما . . . ووقف ببابها متردداً وهو يحصى النقود فى جيبه ، وعيناه تتبعان المارة أزواجاً وجماعات ، وهو وحده من بينهم لا يتأبّط إلا همّه ! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته فى الدار الى نزهة ، فيصحبها ذراعاً الى ذراع فى الطريق كهؤلاء الذين يرى ! ولكن من أين له ، من أين له المال ؟

كم يكفيه ليقضى ليلة سعيدة فى صحبة فتاة ؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً ، فلا سبيل الى أن يُخدع . سيشاهد معها السينما فى شرفة ذات أستار ، ويتمشيان معاً فى مطعم فاخر ، ثم يستقلان سيارة الى الهرم ، ويشترى لها كل ما تهفو نفسها اليه فى الطريق ، وبعدئذ . . . وبعدئذ يعودان الى الدار

وفرغ من حسبته وهو يبسط أصابعه ويطويها يحصى ما أنفق ، وعيناه تأخذان كلّ من عبرّ به . . . جنيه ، جنيه واحد سيمنحه سعادة ليلة ! وسخر من نفسه حين انتهى الى ذلك : من أين له الجنيه ؟

ومرّ به غلام يبيع الجنيهات بالقروش ؛ يبيع النصيب ! ومدّ إسماعيل يده فأعطى البائع قرشاً ، وتناول ورقة فطواها بعناية ووضعها فى جيبه ؛ كأنما هو يطوى الجنيه الذى سيصل بين يقظته وأحلامه . ثم عاد الى البيت ، فلم يشهد السينما

لم يفكر فى شىء من أمره تلك الليلة ، فنام ملء عينيه وملء بطنه ! ورأى أباه فى الرؤيا بجلبابه الأسود الفضفاض ، وعمامته التى تكبس أذنيه وبعض وجهه ؛ جالساً بين غرائر الفول على ظهر المركب المُنْحدِرة الى الشمال ، يحصى ربحه ونفقاته ، وقد اغبرّت لحيته وعلا التراب كتفيه

ونهض فى الصباح فنسى كل ما كان من أمره . وصعدت احدى صواحبه الى السطح لبعض شأنها ، فحياها وحيته وهو يبتسم ، كأنه يخفى عنها مفاجأة سارة . وعادت الفتاة وعاد اسماعيل الى شئونه

وأوقد النار ، وراح يهيىء الفول بيده على طريقة بلاده ؛ سوف لا يتغدى فى المدرسة هذا اليوم لأنه يوم عطلة ، وفى فطوره الفول ما يغنى عن الغداء ، فلا تختل ميزانية اليوم !

ومرّ يومان وراح يكشف عن بخته بين أوراق النصيب . . .

وترقب الفتيات أن يسمعن غناءه فيصعدن اليه ، ولكنه لم يعد ، واستقلّ أول قطار الى الصعيد . . .

مائة جنيه ! يا للبخت ! لم تكن أحلامه لترتفع الى ذاك ! إنها لثروة . وقسم النقود قسمين ، واشترى حافظة ثمينة فوضع فيها بعض ماربح ، وخاط جيبه على الباقى . . . لقد دبّر أمراً ليخدع أباه ، حتى لا يحرمه المالَ كلّه !

***

وخرج الشيخ متولى من المسجد يداعب سبحته بيده ، ويتمتم بالتسبيح والدعاء ، وهو فى هم لمقدم ولده من غير داعية . . . وقبّل الفتى يد أبيه ، وقال له وهو يبتسم :

— الحمد لله على سلامتك يا أبى ، لقد كنت مشتاقاً اليك !

— مشتاقاً الىّ ! وهل جئت من أجل ذلك ؟ حسبتك رجلا يا اسماعيل !

— نعم . . . ولكن . . .

— لكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر ، ولست ولدى إن لم تكن رجلا

— بلى ، وإنما قنعت لأمر . . .

— أى أمر ؟

— لقد ربحت خمسين جنيهاً فرأيت أن أجعلها عندك !

— خمسين جنيهاً ؟

— نعم !

وانبسطت أسارير الرجل ، وداعبت شفتيه ابتسامة ، واتسعت حدقتاه ، وعاد يقول :

— ومن أين لك رأس المال ؟ لم تخبرنى من قبل أنك فى تجارة !

— لقد ربحت ورقة نصيب !

— وى ! ورقة نصيب ؟ قمار ؟ ميسر ؟

واستوى عوده ، وانكمشت يده واختلجت شفتاه ، ثم قال :

— لا لا ، ويحك ! لا تجعلها فى مالى ، إننى رجل شريف ، إن مالى من عرق جبينى فلا أريد أن يمحقه المال الحرام !

— أبى ! . . .

— أسكت ! قم فردها اليهم ، دعهم يفرقونها على أصحابها المساكين ؛ من يد كم بائس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنيهاً ؟ إنهم يخدعون الجهال البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التى يملكونها ، ليوهموهم أنهم سيقاسمونهم بعض ما يجمعون ؟ بعض ما يسرقون !

— وهل يمكن . . .

— يمكن أو لا يمكن ، فلن أجعلها فى مالى ، إنها ملوثة ، قذرة ، هل تعرف من أين اجتمعت ؟

— لا أعرف . . .

— المال الحلال يعرف دائماً مأتاه . . .

كان قلب الولد يضحك ووجهه عابس ، ولم تنته المناقشة بينهما الى حد ؛ فقد تحرج الشيخ الورع أن يضم ربح (الميسر) الى ماله ، ولكنه لم يسأل نفسه عما سيفعل ولده بالمال

* * *

وعاد اسماعيل الى القاهرة ، ولكنه لم يعد الى داره إلا بعد ليال ثلاث . . وأطل الفتيات من خلف الباب يشهدن اسماعيل عائداً الى الدار ، يصعد الدرج فى زهو وكبرياء ، وعليه حلة جديدة ، وفى عينيه فتور ينبىء أنه قضى ليله سهران .

وترامى اليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حناناً وفتنة ، كما بدا هو أكثر مرحاً ونشاطاً مما كان . وتبادل الفتيات النظر ، ثم ولجن غرفهن وغلّقن الأبواب

لم تحاول واحدة منهن أن تصعد اليه عرأى صواحبها ، فقد بدا لهن مما تغير من هيئته وحركاته كأنه شخص آخر غير اسماعيل الذى يعرفنه ويثقن بعفته وأدبه ، وكأنما ألهمن جميعاً معنى واحد ، فخجلن أن يبدون له ، وإن أخذت كل واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقاتها لتصعد اليه وحيدة ، وسبقتهن (حكمت) الى ذاك ، ولكنها لم تظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت أن تصعد

واستقبلها اسماعيل ضاحكا ، وهز يدها بلطف ، وجلسا يتبادلان الحديث . ثم افترقا على ميعاد . . . ووجد الفتى تعبير رؤياه ، وكان حلماً أشرق عليه الصبح ، فأتمته اليقظة التى تصنع الأحلام

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة ، وعاد يتعرف القاهرة من جديد ، القاهرة التى فتنته قبل أن يراها ، والتى ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم ؛ وراح ينتقم لشهوات نفسه التى قمعها على ألم وضيق عاما وبعض عام

ونفدت دراهمه

* * *

لم تجر سفينة الشيخ متولى مجراها كما كانت ، فركدت ريحه ، وأدبرت أيامه ، وعادت الحياة تقتضيه مضاعفة الجهد وبذل الوفور

وجلس اسماعيل مع أبيه ذات يوم صائف بباب متجره ، ومر بائع التصبيب ؛ وتحلب لعاب الفتى وطارت أمانيه الى هناك ؛ الى القاهرة وليالى القاهرة ؛ والى حكمت وصواحب حكمت ! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه الى ذراع أبيه . . .

والتفت فاذا الغلام واقف ، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقا

يكشف بينها عن بخته، ثم يمزقها ويلقيها، وإذا هو يشتري غيرها فيطويها ويجعلها في جيبه، ليضم صدره على أمل جديد ... !

وتَبَالَهَ الفتى فنهض من مجلسه ليخفي ابتسامة ساخرة، وعلى طرف لسانه كلام . . .

لم يعد الشيخ متولي يسأل نفسه: من أين اجتمعت هذه الجنيهات التي يحاول أن يشتريها بالقروش! فلعله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الكثيرة التي أدّاها هو الى باعة البخت، منذ تعلّم أن يحاول شراء البخت بالمال ... منذ رع ولده ... !

وضحك (إبليس) من الشيخ متولي وهو يمزق الأوراق ويشتري غيرها، وقال لشيطان صغير وهو يعلمه:

« أنظر هذا الأبله؛ ما أرسلت اليه ابنه إلا رسالتي، فقد علِقَتْه الحبالة. حسْبُ الانسان الضعيف أن أريَهُ الحرامَ مرة؛ فهذا أول عملي في طبيعته »

قال الشيطان الصغير « ثم بعد ذلك؟ » قال المعلم « بعد ذلك — أيها الأبله — طبيعتُه . . . ! »

محمد سعيد العريان

الشاعر والوردة

في سنة ١٢٥٧ ميلادية في إحدى قرى ألمانيا على ضفة نهر الرين، كان البارون أوتودي سيد القاطعة مشهوراً بين قومه بثروته الطائلة وأحكامه القاسية

جمع هذا الرجل كل ما ملك من ذهب وجواهر ووضعها في صناديق مفتوحة في قاعة تحت الأرض، وكانت الشمس تدخل هذه القاعة من ثغرة في نهايتها فتضيء بأشعتها هذه الجواهر الغالية

وكان البارون يجد تسلية لا تعدلها تسلية في السماح لمن يشاء أن يدخل تلك القاعة ويملأ جيوبه من المال بقدر ما يستطيع على ألاّ يستغرق في ذلك إلا مقدار ما تدق الساعة عشر دقات، فاذا انتهت المدة ولم يخرج الرجل اعتبر سارقاً ما يحمله من الجواهر وحُكم عليه بالرق مدة حياته

فكان يطمع في هذا المال كثيرون كلَّ يوم، وكان عدد عبيد البارون يزداد بقدر عدد الذين طمعوا في ماله لأنه لم ينج من هذه الأحبولة أحد. وهذا ما كان البارون يتوقعه؛ ولم تخيب الأيام ظنه مرة واحدة

ففي ذات يوم مرّ على قصر هذا البارون شاعرٌ مطبوع، وشاب مشهور بين قصور أمراء ألمانيا في ذلك الحين بجماله ورقة شعره ورخامة صوته ومهارته البالغة في الضرب على القيثارة. وكان يقضي حياته متنقلاً بها من قصر الى قصر

واتفق أن ابنة البارون ووحيدته دخلت في ذلك اليوم في عامها السادس عشر، فطلب اليه البارون أن يحيي ليلة موسيقية تكريماً لها

وقبل أن ينصرف الشاعر طلب اليه البارون أن يدخل قاعة المال ويأخذ منها ما يشاء، على شرط أن يكون خارج القاعة قبل أن تنتهي المدة المقررة، وكأنه بهذا الطلب أراد أن يستأثر بهذا الشاعر ويستعبده كغيره من الشبان

ولكن الشاعر أجاب: « وماذا أفعل بمالك؟! لست في حاجة إليه، لأنني أشعر أن في نفسي من اللآلئ مالا تعد جواهرك الثمينة بجانبه شيئاً » ولكن البارون ألحّ عليه فأجاب طلبه

فلما كان الشاعر داخل القاعة أبصر من هذه الثغرة وردة انبهر من جمالها نظره وخفق لحسنها قلبه، فوثب فوق المال المكدس واقتطف تلك الوردة وخرج مسرعاً قبل أن تنتهي المدة. فلما رآه البارون أول من خرج من القاعة دهش. وقال له « إن ما حملته من المال ملك لك » ولكن البارون لم يجد شيئاً مع الشاب سوى تلك الوردة الجميلة. فقال له « أهذا كل ما أخذته من القاعة؟! » فقال الشاعر « إني لم أر في مالك ما هو أجمل منها، بل ليس على الأرض ما هو أجمل منها . . . »

ولم يكد ينتهي من حديثه حتى أقبلت الفتاة على والدها وحمرة الخجل تعلو وجنتيها. فلما رآها الشاعر دهش لجمالها الفاتن وقال متمماً حديثه مع والدها « . . . إلا هذه الفتاة » ثم طلب من البارون أن يسمح له بتقديم تلك الوردة هدية الى ابنته. فقالت الفتاة لأبيها: « إنه يفضلني على هذه الوردة يا أبي، وقد فضلها على كل جواهرك؛ فليس على الأرض فارس أرق منه شعوراً ولا أشرف منه عاطفة، ولا أصدق شعراً، ولن أكون زوجة إلا له »

وهكذا أصبح هذا الشاعر الحق، وذلك الشاب النبيل، زوجاً لهذه الزهرة الحية الجميلة

(عن الانجليزية) كلية غردون علي محمد أحمد

الكتب

في التربية

بحث في عوامل التربية غير المقصودة

تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب لطلبة دار العلوم، وهو يقع في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبير

وجد مؤلفه الفاضل أن كتب التربية التي صدرت في مصر حتى الآن توجه القسط الأكبر من عنايتها الى عوامل التربية المقصودة، أعني تلك العوامل التي تنحصر فيما يتخذه المربون من وسائل حيال الناشئين بقصد التأثير في جسومهم وعقولهم وأخلاقهم تأثيراً يعدهم للحياة المستقبلة، بينما تنصرف عناية المؤلفين عن تلك العوامل التي يسميها الدكتور الفاضل عوامل التربية غير المقصودة، والتي تؤثر تأثيراً قوياً في حياة الصغار دون تدخل من المربين، ومن تلك العوامل البيئتان الطبيعية والاجتماعية وما اليهما من طرق معيشة الأمة ومقدار حضارتها وأشكال نظمها وصنوف تقاليدها، مضافا الى هذا تلك الأمور التي يقوم بها الطفل من تلقاء نفسه، ويكون لها أثر قوي في سلوكه ونشوئه، كالألعاب الحرة والأعمال التي يميل اليها الطفل مدفوعاً بغريزة المحاكاة والتقليد

ولقد خصص المؤلف كتابه هذا لدراسة طائفة من تلك العوامل وهي اللعب والتقليد والوراثة والبيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية

تكلم عن وظائف اللعب التربوية وما قيل فيها من نظريات، وناقش هذه النظريات مناقشة العالم المجرب في منطق مستقيم وترتيب حكيم، دون أن يغفل أي ناحية من نواحي الموضوع، ثم أورد ملخص هذه النظريات مبيناً وظيفة اللعب الأساسية ووظائفه الثانوية، وبعد ذلك أتى على أقسام اللعب الانساني وأوضح الفرق بين اللعب والعمل، وتكلم على تطور الألعاب وارتقائها، وختم موضوع اللعب بما عساه أن ينتفع به المربي من اللعب في التعليم، وهو كما ترى فصل قوي شيق يستغرق أربعاً وستين صفحة من الكتاب

وانتقل بعد ذلك إلى التقليد، فتكلم عن التقليد في الصوت شارحاً الأصوات الوجدانية واللغة وأساس كل منهما عند الطفل، وشرح التقليد في الحركة مبيناً أنواعه ومراتبه وأساسه، إلى أن انتهى إلى بيان وظائف التقليد التربوية، كل ذلك في بسط ودقة وحسن ترتيب

أما الفصل الثالث وموضوعه الوراثة، ذلك الموضوع الدقيق فقد تناوله المؤلف بما يتناسب مع خطره من الشرح والبسط، فحدثنا عن أنواع الوراثة وأسبابها وأهميتها وعلاقتها بالتربية، حديث الخبير الفطن

وفي الفصلين الأخيرين تكلم عن البيئتين الجغرافية، والاجتماعية العامة، ناهجاً في ذلك نهجه في الفصول الثلاثة السابقة

فهذا الكتاب كما ترى من موضوعه، أحد الكتب الهامة التي تعد من مظاهر هذا الدور العلمي الذي تجتازه مصر في عهدها الحالي، فأذا أضفت إلى موضوعه، تلك الروح القوية التي عرض بها، وذلك المجهود الذي يتجلى فيما حواه من شروح وتعليلات ومناقشات، وكلها وليدة عقل مترن ونتيجة اطلاع واسع ودراسة دقيقة، أمكنك أن تقدر قيمة هذا الكتاب العلمية فهو بحق أحد المؤلفات التي تقابل بالغبطة، والتي يحتاج إليها كل معلم، بل وكل مثقف يهمه أن يقف على نواح من المعرفة تهمه في حياته العملية وفي دراساته النظرية

الخفيف

الالحان الضائعة

نظم حسن كامل الصيرفي

قرأت ديوان شاعرنا الشاب، فأحزنني لعمر الله هذا البكاء الذي لا ينقطع، وهذه الشكوى المريرة التي تعج بها قصائده، ورحت أتلمس سر تلك الكآبة الجازعة، فلم أهتد الى شيء، فطويت الكتاب وأنا برم بهذه النزعة من شاب في مقتبل العمر، أجل، ربما كان الشاعر قد صادف في حياته ما أجرى دموعه، ولكن متى كانت رسالة الشعر النحيب والشكوى في غير سبب معروف وفي غير ايضاح من الشاعر عما ناله؟ على أنه لو كشف عن سر بكائه لكان الواجب يقضي عليه أن يقتصد في شكواه أو يعرضها في صورة غير تلك الصورة اليائسة المستسلمة.

تفتح ديوان هذا الأديب الفاضل فتجده يصف نفسه بالضحية ويرمز لنفسه بالواحة المنسية ، ثم يصور لك حياته في صور باكية يائسة ، وذلك في عدة قصائد ، « كالحي الدفين » و « اللحن الضائع » و « القلب المحطم » و « الشكوى الصامتة » و « جرح الألم » و « الصدى الخافت » و « جفاء الطبيعة » . . . الخ

أما شعره في ذاته فلي عنه بعض ملاحظات أرى الرغبة في الانصاف تقضي على بسردها .

أول ما ألاحظ عليه أنه كثير الميل إلى المجازات والاستعارات الغريبة فيذكر في شعره كهوف الحياة ، وقيثارة الحياة ، وقبر الحياة ، والفضاء الجود ، ولهيب الأنين ، وجنان الخيال ، وعصير الشجون ، وظلال الفتون .. الخ فضلاً عن إتيانه بكثير من المعاني والأخيلة الغريبة فيتحدث عن الشمس مثلاً عند الغروب بأنها :

يختفي الأسى خلف النخيل مثل ابتسامات العليل

ويقول :

نزل المساء برجله وجرى الظلام بخيله

ويصف الفجر فيقول :

فاذا الجو غارق في اهتزاز كاهتزاز الأوتار دون (نشاز)
وخفوق لكنه باعتزاز

ويقول :

أعيش أشاطرهم بؤسهم وأملأ كأسي عصير الشجون

إلى غير ذلك من الصور والأخيلة الجزئية ، فضلاً عن الصور الكلية ، وهي لا تقل عن هذه غرابة كقصيدة « الشاعر وموت عزرائيل » و « أغاني الربيع » وغيرها ، وبهذه المناسبة أقول إن بعض شعراء الشباب قد استولت على أذهانهم فكرة غامضة هي فكرة الشعر الرمزي ، يرددون هذه الكلمة دون أن يفهموا المقصود منها ، وينظمون القصائد ويسوقونها مطلقة جامحة ، وأي غضاضة في هذا ، أليست من الشعر الرمزي ؟ ! وهكذا يطلقون الأعنة لأخيلتهم على غير هدى وإلى غير مقصد ، ولا يخفى مايجره هذا من الضرر على تفكيرهم ومثلهم ، واني لأخشى طغيان هذه الظاهرة وأعدها من أكبر العقبات التي تقف في سبيل تقدم الشعر العصري ، ولابد لشبابنا أن ينبذوا هذه الفكرة إذا أرادوا أن تنضج مدرستهم ، وتبرز شخصياتهم ، وتحدد وجهاتهم .

والأديب الصيرفي فضلاً عما تقدم قليل العناية بقوافيه وبلغته على وجه العموم ، ولعله في ذلك أيضاً متأثر بفكرة أخرى رددها بعض أدبائنا وهي أن الألفاظ يجب أن تضحى في سبيل المعاني ، فما دام المعنى جيداً فلا عبرة باللفظ الذي يؤديه ! وليت شعري كيف يكون اللفظ سقيماً والمعنى سليماً ؟ إن للشعر ألفاظاً خاصة وديباجة خاصة ، وروحاً خاصة ، لا في اللغة العربية فحسب ، ولكن في غيرها من اللغات ، ولو آمن بذلك شبابنا لأخذوا أنفسهم بما يصلح أذواقهم ويصفي عباراتهم فيتم لهم الجمع بين جمال الفكرة وجمال أدائها

هذه هي بعض ملاحظاتي عن ديوان الصيرفي في موضوعه ، أما عن شكله فأراني مضطراً إلى أن أصارحه بأننا نود أن نخلص من أمثال تلك المقدمات التي يجتهد أدباؤنا في الحصول عليها من أصدقائهم ، تلك المقدمات التي تحشد فيها عبارات الاطراء من غير تحفظ ، إذ أن هذا الاطراء يأخذ السبيل على القارىء ، ثم هو من جهة أخرى لما يتضمنه من المبالغة يجعل القارىء ينتظر من الديوان مايتفق مع عبارات المديح حتى إذا جاءه لم يجد فيه مايحقق رغبته ، وفي هذا مافيه من تقويض دعائم النقد والاستخفاف بعقول القراء . . .

وأحب قبل أن أختم كلمتي أن أشير الى بعض قصائد في هذا الديوان سما فيها الشاعر سمواً عظيماً ، ولو جرى في شعره على مثلها لكان لنا أن ننتظر منه أحد شبابنا المتفوقين ، وتلك القصائد هي : النسمات الساخرة ، والشجرة العارية ، وتحت ضوء القمر ، ووحي الشعر ، وموت البلبل ، وأشباهها ؟

الخفيف

الانشاء التعليمي

تأليف الأستاذين

محمد شفيق معروف و محمد عبد الغني الأشقر

يقع هذا الكتاب في مجلدين أنيقين ، على ورق مصقول . ولعله الأول من هذه الكتب الكثيرة التي أخرجها مؤلفوها يقصدون بها الى صغار التلاميذ لينهضوا بانشائهم الى المستوى الذي يريدون ، فقد سلك هؤلاء المؤلفون جميعاً طريقاً واحدة ، لا أحسبها مؤدية بهم الى الغاية المقصودة على الوجه الأكمل ، لأنهم قنعوا بأن يقدموا لتلاميذهم طائفة من الموضوعات الجيدة ليتخذها هؤلاء نماذج فيما يسطرون ، ونحن نرى في ذلك قلباً للاوضاع وعكساً للمنطق ، وكأننا بهؤلاء المؤلفين قد أرادوا أن يقفزوا بالصغار الى سطح الدار دون أن يمهدوا لهم درجاً هيناً يمكنهم من الصعود

أما هذا الكتاب الذى نقدمه الى القراء ، والمدرسين خاصة ، فقد فرض فى الطفل طفولته المتعثرة العاجزة ، فأخذ بيده أخذاً رفيقاً متدرجاً به من تكوين الجملة الى بناء الموضوع ، فلا يعترض طريقه نتوء يقعد به عن إتمامها

ذلك مجهود موفق مشكور أملتـه خبرة بالتدريس لا تتفق للكثيرين

ز . ن . م

دير الربان هرمزد

بقلم كوركيس حنا عواد

تناول هذا الكتاب بالبحث المستفيض أثراً قديماً فى العراق يقع قريباً من الموصل ، وهو ذلك الدير الذى أشار اليه العنوان . وقد بسط المؤلف القول فى هـذا الدير بسطاً صوره للقراء تصويراً شاملاً دقيقاً ، فرسم لك الطريق التى تؤدى بك الى مكان هذا الأثر ، ثم وصف لك الدير نفسه ومن فيه من رهبان . وهنا استطرد فقدم كلمة عن الرهبنة فى الشرق وما يجرى عليه من سنن ثم تناول حياة الربان هرمزد نفسه بالبحث

وأقل ما يشكر عليه مؤلف هـذا الكتاب الفنى الدقيق ، ما يجشمه من عناء لكى يبرز هذا الأثر فى ضوء الشمس ويضعه من قراء العربية تحت أبصارهم

ز . ن . م

نبذة تاريخية

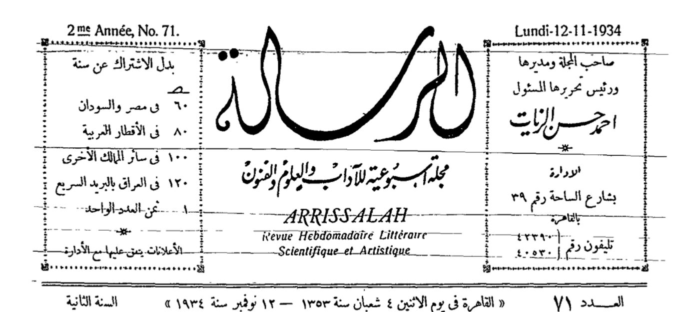
(بقية المنشور على صفحة ١٨٠٤)

وقفة قصيرة تنظر فى ماضيها وتستعرض تاريخها . وأظنها تغتبط لذلك — أولاً — لأنها عاشت عشرين عاماً فى جو كثيراً ما تموت فيه مشروعات وليدة — وثانياً — لأنها عاشت عيشة طبيعية فتدرجت فى أدوار الحياة على مهل ولم تطفر طفرة شيطانية . وتغتبط إذ تراها قد ضمت كثيراً من صفوة رجال العلم ، وأخرجت للناس نحو الستين كتاباً بين مؤلف ومترجم ومنشور ، تسد كلها حاجات الثقافة فى أطوار التعليم المختلفة — كما أنها تغتبط بثباتها فى مركزها وحصرها نفسها فى الدائرة التى رسمتها لنفسها من أول أمرها ، فلم تتدخل فى مجادلات دينية ، ولم تتماس فى نواح سياسية ، إيماناً منها بأن الثقافة ونشرها وسيلة من أكبر الوسائل لرقى الأمة ، ومن أكبر عوامل الاسراع فى نهضتها

وتبتهج إذ تبتدئ مرحلة أخرى من مراحلها ، بدايتها تكوين مطبعة مستقلة لها تساعدها على تحقيق غرضها فتزيد نتاجها ، وبتضاعف مجهودها . وقد أسست — فعلاً — المطبعة وبدأت من ثلاثة شهور تخرج الكتب التى ترى اللجنة نشرها ، وهذا بلا شك يتطلب من اللجنة بذل مجهود أكبر فى التأليف والترجمة ، إذ تشعر — مع وجود المطبعة — بأن وراءها ما تموله يصيح دائماً بطلب الغذاء ، وليس غذاؤه إلا ما نؤلف أو نترجم أو ننشر . وأظن أن فى مكنة أعضائها ما يضمن لهذا الطفل الغذاء الكافى حتى التخمة

ولعل الذين فكروا فى اللجنة أيام ولادتها سنة ١٩١٤ أو قبلها بقليل يغتبطون إذ يرون سنة ١٩٣٤ أن كثيراً من الآمال أصبحت حقائق ، وأن الأمانى تحولت إلى شجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وأنهم وقد جنوا ثمارها قد تجددت لهم أمانى أخرى أوسع من الأولى وأبعد مدى ، ولكنهم يشعرون أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى ، وأنهم اليوم أكثر خبرة ، وأقدر بعالمهم ورجالهم على تحقيق أغراضهم الجديدة ، فهم لا يرتاحون إلا أن يروا كل مرحلة من مراحلهم يتضاعف إنتاجها — حقق الله آمالنا ، ووفقنا فى مستقبل أعمالنا أضعاف ما وفقنا فى ماضينا ، فقد عودنا أن يجازى الجد والاخلاص بالخير دائماً ؟ .

أحمد أمين



فهرس العـــدد

داء الوظيفة

قال: وهو يقلب كفيه من الهم ، ويَعَض على يديه من الغضب : سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قبل أن يمضى القرار بالوظيفة ، فهل رأيت مثل هذا الحظ المتخلف والقدر العاثر ؟...

فقلت له : هون عليك يا بنى ، ولا تسلط على نفسك أساك ، إن معك الشباب القادر ، والأمل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التى تفتح لك كنوز الأرض ، وتُدر عليك أخلاف السماء ، وفى القرية متسع لأمثالك ممن يحيون مَواتها ، ويجددون حياتها ، ويفيضون على أهلها نعمة العلم ، وخير المدنية ، ونعيم الحضارة ؛ فلِمَ لا تستأجر مزرعة فى بعض دوائر الأمراء تجرب فى استغلالها كفايتك وإرادتك وحظك ؟ إنك إذا فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ، وخلقك من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزقك من تحديده بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة . فأجاب وفى عينيه سهوم العجب من هذا الرأى : مالى أدفع بنفسى فى هذه المغامرة المجهولة ؛ والوظيفة تضمن حاضرى بالمرتب ، وتؤمن مستقبلى بالمعاش ؟ والقليل المتصل خير من الكثير المنقطع ، والموضع المتطامن المتماسك ، أصلح للقرار من الرفيع المترجح ...

فقلت له : ذلك كلام لاكته الألسن حتى تفِهَ ، وتقبلته الآذان حتى سمج . ولقد كان له مساغه وبلاغه يوم كانت المدارس معامل لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة ؛ فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجال العمل ، وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتحال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب ، فإن الإخلاد إلى المقاعد الأميرية إخلاد إلى العجز ، واطمئنان إلى الهون ، وانخزال عن تحرير الوطن .

قال : ولكن فريقاً من الشباب ارتحلوا بعض الأماني الاقتصادية الجامعية في الزراعة والتجارة والملاهي ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل . فقلت له : إن هؤلاء فاروا عن حرارة وفتية ، وثاروا عن ريح عابرة ، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه ، وزاولوه دون أن يفرغوا له ، وأخطأوا تقدير المنافسة الأجنبية فأخطأهم التوفيق ؛ ومالك تقيس أمرك بهذا القياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتواثب في عينيك من كل مكان ؟ ألم تر إلى اليوناني أو الطلياني كيف يفد عليك من غير رأس مال ، ولا شهادة جامعة ، ولا توصية وزير ، ولا تعضيد جمهور ، ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرغ معالي الأمور في روية وصبر ، حتى يبلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ، ويثمر زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويستعبدك برباً مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينيه الحدائق ، وتكفل لمتاجره الأمن ، وتدير لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر !

* * *

رأى صديقي الفتى أن لهجتي لا تلائم جمه الغالب ، ومنطقي لا يساير منطقه اليائس ، فتولى عني غير راض ولا مقتنع ، وتركني أحدث نفسي ، وأقارن بين يومي وأمسي ، فأجدني بين عملي القيد الذي انصرفت عنه ، وعملي الحر الذي انصرفت إليه ، أشبه بالسجين المقيد يعمل برأي غيره ، ولحساب غيره ، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ولا يسير ولا يقف إلا في نظام ، وهو يأكل حين لا يشتهي ، وينام حين لا يريد ، ويستيقظ حين لا يحب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعي : قوة بحركة وآلة ، ثم يدركه لطف الله فتتفكك عنه السلاسل وتتفتح له الأبواب ، فيجد عقله في النور ، وخلقه في الطبيعة ، وحريته في الجو ، ووجوده في المجتمع ؛ فينبت الريش الناسل ، ويخفق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة !

* * *

إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش ، وعاشوا في ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغلولين عن الحركة ، مكمومين عن الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ، ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمخنق الستين وكأن لم يحدث في العالم شيء ؛ يختلف الليل والنهار ، وتتبدل الأحوال والأطوار ، وهو على مكتبه الضيق في غرفته المظلمة ، يعمل ساعة ويجتر أخرى ، دون أن يشعر بدوران الفلك ، أو يفطن إلى حركات العالم .

يدخل الديوان وهو طرير الشارب ، أثيث الجمة ، ريان من الشباب والقوة والأمل ؛ ثم يودعه وهو مخدد الوجه ، أشيب الشعر ، متداعي الجسم ، فقير من الغنى والذكر والمال ، لا يصلح إلا عموداً في مسجد ، أو منضدة في قهوة . وربما أقصدته المنون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة ، وحياة رتيبة ، وأعمال واحدة ، في ساعات لا تختلف ولا تتبدل

* * *

أيها الموظفون ! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ، وللخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب ؛ فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد ، فإنها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكامن الخمول والموت ، واقرأوا على أبوابها ما كتبه (دانتي) على أحد أبواب الجحيم :

« قوضوا حصون آمالكم ، وأضمروا اليأس من مآلكم ، أيها الداخلون ! »

احمد حسن الزيات

تصويب

وقع في افتتاحية العدد الماضي أخطاء مطبعية لم نر بداً من تصحيحها فقد جاء فيها : وصرفنا ذاك من مطلب . والصواب عن مطلب

وجاء « : كنا نتواصى على الصبر « بالصبر

« « : بل وربما ظالوهم « بل ربما

بنت الباشـــا ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت هـذه المرأةُ وضّاحةَ الوجه زهراءَ اللون كالقمر الطالع ، تحسَبُها لجمالها قد غذّتها الملائكة بنور النهار ، ورَوّتها من ضوء الكواكب

وكانت بَضّةً مُقسَّمةً أبدعَ التقسيم ، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيء التفافاً هندسياً بديعاً ، يرتفع عن أجسام الغِيدِ الحِسان ، أُفرِغَ فيها الجمالُ بقدر ما يُمكن — إلى أجسام الدُّمَى العبقرية التي أُفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل

وكانت باسمةً أبداً كأوّلِ ما يتلألأ الفجر ، حتى كأنّ دمَها الغَزَليَّ الشاعرَ يصنعُ لثغرها ابتسامتَها ، كما يصنعُ لخدّيها حُمرتَيهما

ما لها جلست الآن تحت الليل مُطرِقةً كاسفةً ذابلة ، تأخذُها العينُ فما تشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنبَعُ نورٍ وغاض ! وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المعروقَ هو بُقعةٌ من الحياة أُقيمَ فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلة تُذرِي الدمعَ وتسترسلُ في البكاء وتَلِجُّ فيـه ، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصر بين الدموع طريقاً تُفضي منـه نفسُها الى الحبيب الذي لم يَعُد في الدنيا ؛ الى وحيدها الذي أصبحت تراه ولا تلمسه ، وتكلّمه ولا يَرُدُّ عليها ؛ إلى طفلها الناعمِ الظريفِ الذي انتقـل الى القبر ولن يرجع ، وتتمثلُه أبداً يريد أن يجيء اليها ولا يستطيع ، وتتخيلُه أبداً يصيح في القبر يناديها « يا أمي ، يا أمي . . »

قلبها الحزينُ يقطّع فيها ويُمزّق في كل لحظة ؛ لأنه في كل لحظة يريد منها أن تضمّ الطفل الى صدرها ، ليستشعرَه القلبُ فيفرحَ ويتهنأ إذ يمسُّ الحياةَ الصغيرةَ الخارجةَ منه . ولكن أين الطفل ؟ أين حياةُ القلبِ الخارجةُ من القلب ؟

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبَها إلى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يهدأ عمّا يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاولُ أن يُفجّرَ صدرَها ، ويريد أن يدقّ ضلوعَها ، ليخرجَ فيبحثَ بنفسه عن حبيبه !

مسكينةٌ تترنّحُ وتتلوّى تحت ضرباتٍ مُؤلمةٍ من قلبها ، وضرباتٍ أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللحظة التي تكون فيها الذبيحةُ تحت السكّين . ولكنها لحظةٌ امتدّت الى يوم ، ويومٌ امتد الى شهر . يا ويلَها من طول حياة لم تَعُدْ في آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدّة الذّبح للمذبوح

ولو كان للموت قطارٌ يقف على محطّةٍ في الدنيا ، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب ، ويسافرَ من وجود الى وجود ، وكانت هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطة منتظرة تتربص ، وقد ذُهِلت عن كل شيء ، وتجردت من كل معاني الحياة ، وجدت جودَ الانتقال الى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها ؛ تُطلّ على الليل المظلم وعلى أحزانها . . . !

***

هي فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك . ترادفَت النِّعَمُ على أبيها فيما يَطلبُ وما لا يطلب ، وكأنما فرَغ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه ، فلم يُعجب الزمانَ فأخذ يقترح له ويصنع ما يقترح ، ويزيدُه على رغمه نعماً تتوالى !

وكان قد تقـدم إلى خِطبة ابنته شابٌ مهذّب ، عالك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلمَ ، ومن أسلافه العنصرَ الكريم والشرفَ الموروث ، ومن أخلاقه وشمائله ما يُكاثِر به الرجالَ ويُفاخر . بَيْدَ أنه لا عالك من عيشه إلا الكَفافَ والقِلّة ، وأملاً بعيـداً كالفجر وراء ليلٍ لا بد من مُصابرته الى حين ينبثقُ النور

وتقدم صاحبنا الى الباشا فجاءه كالنجم عارياً ؛ أي في أزهى نورانيّته وأضوَئها . وكان قد عَلِقَ الفتاةَ وعُلِّقته ، فظنّ عند نفسه أن الحب هو مالُ الحب ، وأن الرجولة هي مالُ الأنوثة ، وأن القلوب تتعامل بالمَسرّات لا بالأموال ؛ ونسي أنه يتقدم الى رجلٍ ماليّ جعلته حقارةُ الاجتماع رُتبة ، أو الى رتبةٍ ماليّة جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلاً . وأنّ كلمة « باشا » وأمثالها ، إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم : مذهب الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعونُ وأمثالُه ، ليتعبّدوا الناسَ

منها بألفاظٍ قلوبهم المؤمنة ؛ فإذا قيل « إلـه » كان جواب القلب : « عزّ وجلّ » ، « سُبحانه »

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ، تلطّفتْ تلك الألوهيةُ ونزلت إلى درجات إنسانية ، لتتعبّد الناسَ بألفاظِ عقولهم الساذجة ؛ فلن قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير : « سعادتلو أفندم[1] ! »

نسى الشاب أنه « أفندى » سيتقدم إلى « باشا » وأعماه الحبُّ عن فرْقٍ بينهما ؛ وكان سامىَ النفس ، فلم يدركْ أن صغارَ الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحل السموَّ انتحالاً ، وأن الشعب الذى لايجد أعمالاً كبيرة يتمجّد بها ، هو الذى تخْترَع له الألفاظُ الكبيرة ليتلهَّى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة ، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فان قيل « باشا » فهذه الكلمة هى الاختراعُ الاجتماعى العظيم فى أمم الألفاظ ، ومعناها العلمىّ : قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛ ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ « الآلة البخارية » ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصاناً أو أقلّ أو أكثر !

نسى هذا الشاب أن « أمم الأكل والشرب » فى هذا الشرق المسكين ، لاتتم عظمتها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هى فى الواقع أوصافٌ اجتماعيةٌ للمَعِدة التى تأكل الأكثر والأطيب والألذّ ، وتملك أسباب القدرة على الألذّ والأطيب والأكثر .

وتقدم (الأفندى) يتودّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيداً وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق ؛ إذ لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك العظيم كان أولُ معانيه أن كلمة « أفندى » تطاولت إلى كلمة « باشا » بالسبّ علنا . . . !

***

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة

و « بك » منبِّهةٌ للاسم الخاطب ، وبشرفٌ وقدْرٌ وثناء اجتماعى ، وذِكْر شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحُرُمَات اللازمة للاسم لزومَ السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بك) رجل ، فان تحتها على كل حال (بك) . . . !

وأنعمَ له الباشا ، ووصل يده بيد ابنته فألبسها وألبسْته ، وأعلمها أبوها أنه قد فحَصَ عن البك فاذا هو (بك) قوة مائتى فدان . . . ! أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر . . !

وخنَسَ الأفندى وتَراجَع مُنْخزِلاً ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوّج لقبَه قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة ، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلتْه « أمم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌّ مُفْلِس ، أو أديبٌ عظيمٌ فقير ، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لا فى سموّ المال

وقدَّمت مِائتَـا الفدانِ مهرها «الطِّينىَّ» المظيم بما تعبيرُهُ فى اللغة الطينيَـة : ثمنُ عشرين ثوراً ، ومثلها جاموساً ، ومثلها بغالاً وأحمِرة ، وفوقها مائةُ قنطارٍ قطناً ، ومائة أردبٍ قمحاً ، ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والمجموعُ الطينيُّ لذلك ألفُ جنيه ، وعزّى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اختزلتها الأزْمة قبحَها الله . . . !

ثم زُفَّت « بنت الباشا » زِفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيرُهُ : أنه أنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلاً ، ومائةِ غَرارةٍ من السَّمَاد الكيماوى ، كأنما فُرِش بها الطريق . . . !

وطفق الباشا يُفاخر ويتمدّحُ ، ويَتَبَذّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين ومعانى الطين ؛ فردّت الأقدار كلامَه عليه ، وجعلت مرْجِعَه فى قلبه ، وهيّأتْ لبنت الباشا معيشة « طينية » بمعنىً غيرِ ذلك المعنى . . .

***

ومات الطفل ؛ فردّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معانى انفرادِها بنفسها قبل الزواج ؛ وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها الترابَ والطين

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة . فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة ، وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل.

ولجّ الحزنُ بينت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبر ولا تتمنى إلا القبر، تلحق فيه بولدها؛ فوضعت الأقدار من ذلك في روحها معنى الطين والتراب

وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابها؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عملَ الطين، في تحليله الأجسامَ وإذابتها تحت البِلَى

* * *

وكان وراء قصرها «حواء»(١) يأوي إليه قوم من «طين الناس» بنسائهم وعيالهم، وفيهم رجل «زبّال» له ثلاثة أولاد، يراهم أعظمَ مفاخره وأجل آثاره، ولا يزال يرفع صوته متمدّحاً بهم، ويخترع لذلك أسباباً كثيرة لكي يسمعه جيرانه كل ليلة مُفاخراً، مرة بأحمد، ومرة بحَسن، ومرة بعَلِيّ. وأعجبُ أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متميّزين في الطبيعة لأولاد «الباشوات»... وهو يحبهم حبَّ الحيوان المفترس لصغاره؛ يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعة قوّته، فلا يزال يَحوطُهم ويتممّهم ويرعاهم، حتى إنه ليقاتل الوجودَ من أجلهم؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرّاتِ قلبه، ذلك القلبِ الذي انحصرت مسرّاته في النسل وحده، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ إلى نهاية الحب. وكذلك الزبّال الأسد(٢)

ومن سخرية القدر أن زبّالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا في تلك الليلة التي جلست فيها بنت الباشا على ما وصفنا، وفي ضلوعها قلب يُفتّتُ من كبدها، ويُمزّق من أحشائها

وبينا تُناجي نفسها وتَعْجَب من سخرية الأقدار بالباشا والبك، وتَستَحْمِقُ أباها فيما أقدم عليه من نبذ كُفْئها لعجزه عن مهر باشا، وإيثار هذا المهر الطيني، وتباهيه به أمام الناس، وانْدِرانه بالطَّعن على من ليس له لقب من ألقاب الطين — بَيْنا

كذلك إذا بالزبال، كانس التراب والطين يهتف في جوف الليل ويتغني:

يا ليل، يا ليل، يا ليـــل ما تِنْجِلي يا ليـــل

* * *

القلب أهُو راضي لك حَمدي يا ربي
مِن الهمومْ فاضي إفرحْ لي يا قلبي

يا دُوبْ كدا يا دُوبْ زيّ الحمامْ عايشْ
ما يِمْتلِكْ غير تُوبْ طُول عمرُه فيه نافشْ...
يا ليل، يا ليل، يا ليـــل ما تِنْجِلي يا ليـــل

* * *

إن قلت أنا فَرْحانْ دا مِينْ يكدّبني
وأكتر مِن السلطانْ فرحانْ أنا يا بني
بين السيوف يا ناسْ كَمْ أنكسرْ سيفي
وابْن الغَنِي محتاسْ وانا على كيفي....
يا ليل، يا ليل، يا ليـــل ما تِنْجِلي يا ليـــل

* * *

وابْن الغنِي في هُمُومْ والخالي خالي البالْ
والفقر ما بِيدُومْ وتدُومْ هموم المالْ

يا طيرْ يا طيرْ، يا طير الحرّ فُوقِ اللومْ
والخيرْ.. جميع الخير لُقمَة، وعافيه، ونُومْ
يا ليل، يا ليل، يا ليـــل ما تِنْجِلي يا ليـــل

* * *

ولم تختر الأقدارُ إلا زبالا تُرْسِلُ في لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا...!

وكَسْرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ وحَطْمُ نَفْسٍ بحطمِ نفسِ
ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسَى كُناسةً هُيِّئَتْ لِكَنْسِ...!

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) الحواء: جماعة من البيوت كهذه العشش التي يسكنها الصعايدة في بعض الاحياء

(٢) هذا الزبال شخصية حقيقية، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان «أرسطو» رجع زبالا ليتم فلسفته. والكاتب يعرف الرجل ويبره أحياناً، وكان حضرته قد طلب الينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به في (أوقات الصفاء) فوضعنا له الاغنية التي يراها القارىء بعد وهو يصدح بها في لياليه. وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصاً ان شاء الله

فردريش شيلر

بمناسبة احتفال ألمانيا بذكراه

للأستاذ محمد عبد الله عنان



منذ عامين احتفلت ألمانيا بذكرى شاعرها الأكبر «جيته» لمناسبة مرور قرن على وفاته ؛ وتحتفل ألمانيا اليوم بذكرى شاعرها الثاني «شيلر» لمناسبة مرور مائة وخمسة وسبعين عاماً على مولده . واذا كانت حياة الخالدين تمثل دائماً فى الأذهان المستنيرة ، فان الاحتفاء بهذه الذكريات يضاعف الاهتمام بسيرهم وآثارهم . ومن ثم فانا نلتمس هذه المناسبة لنأتى على ترجمة الشاعر العظيم

كانت حياة شيلر صفحة مؤثرة من ذلك الكفاح الذى يضطر الى خوضه أصحاب المثل الأعلى حتى يفوزوا بمثلهم أو يزهقوا دونها ؛ وقد أنفق حداثته وشبابه فى خوض هذه الغمار ، حتى اذا اكتملت له أسباب الفوز والطمأنينة ، غادر هذه الحياة شاباً فى إبان ظفره ، وذروة خصبه ، وروعة شاعريته ؛ وكان مولده فى العاشر من نوفمبر سنة ١٧٥٩ فى مدينة مارباخ الواقعة على نهر نيكر ، فى أسرة رقيقة الحال ؛ وكان أبوه يوهان كاسبار جراحاً مساعداً فى الجيش ، استقر فى مارباخ بعد عوده من الحرب وتزوج اليزابيث كودفايس ، وهى ابنة صاحب فندق ؛ فرزق منها أولاً بابنة تدعى اليزابيث ؛ ثم كان مولد الشاعر ، ثم ابنة أخرى تدعى لويزا . ونشأ الطفل فريدريش أو فرتز (شيلر) ضعيف البنية ، كثير الحياء والوجل ، وتلقى دروسه الأولى فى مدرسة لورش ؛ ثم انتقلت الأسرة الى مدينة لودفجسبورج حيث نقل الأب ، وكانت يومئذ مقام دوق فرتمبورج ؛ وهنالك التحق شيلر « بالمدرسة اللاتينية » ، وبدأ دراسة الأدب واللاتينية ، وقرأ هوراس وأوفيد وفرجيل ؛ وكان لأستاذه القس موزر أثر كبير فى تكوينه . وفى سنة ١٧٧٣ دخل شيلر «أكاديمية كارل» التى أسسها الدوق فى شتوتجارت ، ودرس الحقوق أولاً ثم الطب والتاريخ ، وأظهر تفوقاً فى اليونانية واللاتينية ؛ بيد أنه لم يكن ميالاً الى هذا النوع من الدراسة ، وكان شغوفاً بالأدب ، يهجس به فى أوقات فراغه شاعرية قوية ؛ وكان يكثر من قراءة هومير وفرجيل وكلوبشتوك شاعر ألمانيا فى هذا العصر ، ويتأثر بتفكيره أيما تأثير : وفى ذلك الحين ظهرت قطعتان مسرحيتان قويتان هما : « أوجولينو » لجرستنبرج ، و «جتزفون برلخنجن» لجيته ؛ فتأثر شيلر بقراءتهما واتجه ذهنه الى المسرح ؛ وكتب بعض القصائد والمناظر المسرحية الأولى ، ولكنه مزقها ، ثم بدأ بكتابة روايته المسرحية الأولى : Die Raüber « قطاع الطريق » . وفى سنة ١٧٧٩ أتم دراسته وحصل على أجازته ، وسنحت له بهذه المناسبة أول فرصة لرؤية الشاعر العظيم الذى ملأ صيته ألمانيا يومئذ ، ونعنى «جيته» ؛ فقد وفد مع دوق فيمار على شتوتجارت فى فاتحة سنة ١٧٨٠ ليشهدا احتفال الأكاديمية بتوزيع الأجازات . وكان شيلر يومئذ فتى فى عشرينه ، يحمل أجازة الطب والجراحة ، ولكن هوى الشعر يحمله ويملأ جوانحه .

وكان يتوق الى التعرف بزعيم الشعر وإمامه ؛ ولم يكن يحلم أنه سيغدو فى أعوام قلائل قرينه وزميله الأوفى . ولم يهتم جيته فى هذا اللقاء الأول بأمر الشاعر الحدث الذى لم يسمع به أحد بعد ، ولكن نجم الشاعر الحدث كان على وشك البزوغ . ذلك أنه ما كاد يعين على أثر تخرجه طبيباً فى حامية شتوتجارت بمرتب يسير ، حتى عكف على إتمام درامته « قطاع الطريق » ، ولكنه لم يلق ناشراً

يقوم بطبعها ، فقترض نفقات الطبع من بعض أصدقائه وظهرت القصة سنة ١٧٨١ غفلاً من اسم مؤلفها ؛ وهي قطعة مسرحية عنيفة تحمل طابع البداية ، وفيها يصور شيلر كثيراً من عواصف حداثته . ومثلت « قطاع الطريق » عقب صـــدورها في شتوتجارت ، ثم مثلت في العام التالي في مانهايم ؛ وأحدث ظهورها وتمثيلها ضجة كبيرة . ولكن شيلر لم يؤخذ بهذا النجاح الجزئي . وكانت وظيفته العسكرية تثقل على نفسه ، فاعتزم مغادرة شتوتجارت خفية الى أفق أوسع ، وفي اكتوبر سنة ١٧٨٢ غادرها مع صديق موسيقي يدعى شترايشر الى مدينة مانهايم . وكان يحمل معه مخطوط درامة جديدة هي Fiesco «فيسكو» فعرضها على مدير مسرح يدعى (دالبرج) فأعجب بها ومثلت بنجاح ، وكتب في الأشهر التالية Kabale und Liebe « المؤامرة والحب» ومثلت أيضاً . وكلتاها قرينة « قطاع الطريق » في طابعها العنيف وحماستها الساذجة . بيد أنه رأى المسرح لم يحقق أمله ، ولم تسعفه موارد القطع التمثيلية ، فاضطر أن يبحث للعيش عن وسيلة أخرى ، ولكن في دائرة الأدب أيضاً ، فأسدر مجلة أدبية نقدية اسمها « تاليا » Thalia وظهر العدد الأول منها في مارس سنة ١٧٨٥ وفيه قسم من درامته الجديدة « دون كارلوس » ولكنها لم تستقبل بحماسة . وفي ذلك الحين جاء دوق ڤيمار الى « دار مشتات » لزيارة صهره « اللاند جراف » وكان شيلر قد سمع كثيراً عن نبله ورفيع خلاله وتمضيده للآداب والفنون ، فسار لرؤيته مزوداً ببعض خطابات التوصية ، فاستقبله الدوق بعطف ، وأذن له أن يتلو بين يديه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، فاستحسنه وشجع المؤلف بكلمات طيبة ، واستأذنه شيلر في أن يهديه قصته فأذن له ، وأنعم عليه بلقب « مستشار » في خدمته ، وهو لقب لم تكن له سوى قيمة أدبية واجتماعية

وكان شيلر يومئذ فتى في الخامسة والعشرين يضطرم أملاً نحو العلياء والمجد ؛ وكان يقضي حياة عاصفة في الدرس والتفكير والكتابة ؛ وكان قلبه الكبير يخفق أحياناً للحب ؛ ولكن في اعتدال ورزانة . ولم تحمل شيلر نحو النساء تلك النوبات الغرامية العاصفة التي كانت تملأ حياة جيته ؛ ولكنه عرف الحب في تلك الفترة ؛ وتعلق بادىء بدء بفتاة تدعى مرجريت شفان ، وهي ابنة كتبي في مانهايم ؛ وكانت فتاة ساحرة لعوباً خطرة الأهواء ؛ وفكر شيلر في الاقتران بها ولكن أباها رفض في رقة وأدب لأنه لم يأنس في الشاعر بلا ريب مستقبلاً يحمل على الطمأنينة . ثم تعرف شيلر بعد ذلك بفتاة تدعى شارلوت دوستايم ، وشغفت هي به حباً ؛ ولكنها لم تلبث أن اقترنت بضابط يدعى « فون كالب » ؛ وانتقلت معه الى ڤيمار ؛ واستحال حب الشاعر ومدام فون كالب بعد ذلك الى صداقة حميمة استمرت مدى الحياة

وأنفق شيلر في مانهايم زهاء عامين ونصف عام ، وهو يشهد آماله تنهار تباعاً ، وموارد العيش تضيق به . وأخيراً اعتزم أن يغادر مانهايم ، وأن يهجر تلك المهنة التي لم تؤته قوته — مهنة القريض ؛ وأن يلتمس العيش من مهنة أخرى مستبقياً للشعر أوقات فراغه ؛ فغادر مانهايم بعـد وداع ممزق لصديقه الحميم شترايشر ؛ وقصد الى قرية جوليس بالقرب من لايبزج حيث كان يقيم صديقه العزيز « كرنر » وكان كرنر ذهناً رفيعاً وقلباً كبيراً ، ألفى فيه الشاعر مثل الصداقة الأعلى ؛ فأقام الى جانبه مدى حين في جوليس ثم في درسدن ، وأتم في تلك الفترة قصته « دون كارلوس » (سنة ١٧٨٦) . وكان ظهورها ظفراً حقيقياً للشاعر ، وكانت في الواقع بداية مجده ، وحداً فاصلاً بين ماضيه الغامر ومستقبله الباهر .

وكانت مدينة ڤيمار يومئذ كعبة الشعر ومقام إمامه جيته ، وفيها يجتمع حول الشاعر الأكبر جمهرة من الشعراء والأدباء مثل هردر ، وڤيلاند ، ومابر ، ويظللهم دوق ڤيمار جميعاً برعايته ؛ وكان شيلر يفكر منذ حين في السفر الى ڤيمار ليجرب حظه في ذلك المحيط الأدبي الزاهر ؛ وكانت صديقته الحميمة مدام فون كالب تقيم هنالك منذ حين ؛ وكان ڤيلاند يدعوه فوق ذلك للاشتراك معه في تحرير مجلته « مركور » ؛ فقصد الى ڤيمار في أغسطس سنة ١٧٨٧ ، وقلبه مفعم بالآمال الكبيرة ؛ فاستقبله الدوق بفتور ، ولكن مدام فون كالب استقبلته بعطف مؤثر ؛ ورحب به ڤيلاند الشاعر أيما ترحيب ، واشترك معه في تحرير مجلته ؛ واشترك أيضاً في تحرير مجلة أخرى في « يينا » وترك مجلته الخاصة ؛ واستمر يعاون ڤيلاند مدى عامين ، ثم ترك التحرير معه ، ولكنه لبث صديقه الحميم

وفي سنة ١٧٨٨ ، أقام شيلر حيناً في قرية « فولكشتات »

الحادثة ، وهنالك أتم قصته « المنتم » ، وتاريخ « ثورة الأراضى السفلى » الذى بدأه من قبـــل Geschichte des Abfalls der Vereingten Niederlande

فى ذلك الحين كان جيته فى إيطاليا يطوف ربوعها ؛ ثم عاد من رحلته فى سبتمبر . وكان شيلر يرقب مقدمه ليراه ويتعرف به . وسنحت له هذه الفرصة ؛ واجتمع بالشاعر الأكبر وصديقته مدام دى شتاين وهردر فى منزل أسرة لنجفلد التى صاهرها شيلر فيما بعد . وهنالك رأى شيلر ذلك الرجل الذى بلغ ذرى المجد ، والذى رآه من قبل لأول مرة فى حفلة توزيع الأجازات على متخرجى المدرسة ؛ وكان شيلر يعلق على هذه المقابلة آمالاً كبيرة ؛ ولكن جيته استقبله بفتور ظاهر ، ولم يكن قد لفت نظره إلى ذلك الحين . وكانت صدمة مؤلمة لشيلر ؛ فكتب إلى صديقه كرنر يصف أثر هذا اللقاء فى نفسه : « يلوح لى من كل الظروف أن الفكرة السامية التى لدى عن جيته لم يزعزعها هذا التعارف الشخصى ؛ بيد أنى أشك أننا نستطيع أن نتقارب بأى نوجه . إن قسماً عظيماً مما يزال يشغلنى ، ومما زلت أؤمل قد انتهى وقته لديه ، والواقع أن كل شخصة يميل إلى ناحية غير التى أميل إليها ، وبين وجهات نظرنا اختلاف جوهرى . وعلى أى حال فلسنا نستطيع أن نستخلص من هذه المقابلة شيئاً مؤكداً أو ثابتاً ؛ وسوف يعلمنا الزمن ما تبقى » . ولما عاد شيلر إلى ڤيار من مقامه المنعزل لم يحاول كثيراً أن يرى جيته . بيد أن فتور جيته نحوه لم يدم طويلاً فقد رأى فى قصيدته « آلهة اليونان » جمالاً يلفت النظر ؛ ويعترف شيلر من جهة أخرى بأنه كان من ذلك الحين يخشى نقد جيته ، وأنه كان متأثراً بتلك العاطفة حينما وضع قصيدته « الفنانون » وتأنق فى صياغتها

على أن الذى لاريب فيه هو أن لقاء الشاعرين — جيته وشيلر — كان من أعظم حوادث حياتهما إن لم يكن أعظمها جميعاً . وسرعان ما تحول ذلك الفتور الذى أبداه الشاعر الأكبر نحو زميله الفتى إلى حب وإعجاب خالصين ؛ ولم تمض أعوام قلائل حتى توثقت بينهما أواصر صداقة عميقة ؛ ولم يمنع تنافسهما النبيل فى آفاق الشعر أن تبقى هذه الصداقة إلى الأبد ، مقرونة بالوفاء الخالص والاعجاب المتبادل ، وأن تغدو صفحة خالدة فى تاريخ التعاون الأدبى . كان شيلر رجل المثل العليا ، وفيلسوفاً ذا آراء ونظريات خاصة فى الحياة . ولكن جيته كان رجل الحقيقة ، يعرض ما فى الطبيعة ويصوره كما يراه ؛ وكان شيلر شاعر « الدرامة » وكان جيته شاعر الخيال والفروسية ؛ ولكن كلا منهما كان جندياً عظيماً لبناء الآداب الرفيعة وتحطيم الآداب المبتذلة ؛ وكلاهما قائد عظيم لحركة « العاصفة والدفع » Sturm und Drang التى كانت ظاهرة التفكير والآداب الألمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى كانت ترمى إلى تحطيم القديم وتجديد كل شىء ؛ وكان لهذه الصداقة الحميمة ، وهذا التعاون الأدبى الوثيق بين الشاعرين الكبيرين أثره فى نفس جيته وفى نظمه ، يبدو ظاهراً فى « أغانيه » Balladen ، وفى قصة « هرمان ودروتيا » ، وغيرها مما أخرج فى هذا العهد



صورة تاريخية تمثل الشاعر (الى اليسار) وأمامه جيتى (الى اليمين)

وفى سنة ١٧٨٩ عين شيلر أستاذاً للتاريخ بجامعة يينا بمعاونة صديقه وأستاذه جيته ، وفى العام التالى اقترن بالآنسة لنجفلد التى تعرف بها وبأسرتها قبل ذلك بأشهر قلائل ؛ وبذلك استقرت حياته ، وعاش فى نوع من الصفاء والرغد ؛ وانكب فى هذه الفترة على دراسة التاريخ ؛ وألف كتابه عن « حرب الثلاثين » Gescbichte des Dreissigjarige Kriegs ؛ وأصدر مجلة أدبية فلسفية بعنوان « الساعات » Die Horen ؛ كانت نموذجاً بديعاً

للتفكير الرفيع ، وفيها كان يكتب أئمة العصر : جيته ، وهردر وكانت ، ونخته ، ومابر ، وانجل ، وجاكوبى وغيرهم ؛ وكان لها أثر عظيم فى سير الثقافة الألمانية والتفكير الألمانى فى ذلك العصر . وكان شيلر من أنصار الثورة الفرنسية التى كانت تضطرم فى ذلك الحين ، وظهر ذلك العطف فى كثير من كتاباته وقصائده حتى أن «المؤتمر الوطنى» الفرنسى منحه لقب «مواطن فرنسى». وفى تلك الفترة أيضاً أخرج شيلر درامته القوية « فالنشتاين » Wallenstein (١٧٩٩) ، واستمر فى تدريس التاريخ فى يينا حتى سنة ١٨٠٠ ، ثم استقال من منصبه ، وعاد فاستقر فى ڤيمار إلى جانب جيته ؛ وهنالك أخرج عدة قطع جديدة : ماريا ستوارت ؛ وعذراء أورليان Jugfrau von Orleans ، وعروس مسينى Braut von Messina ؛ فكان لصدورها جميعاً دوى عظيم ؛ وكانت جميعاً من أبدع ما كتب

واستقر شيلر فى ڤيمار نهائياً ، ولم يغادرها إلا ليزور برلين زيارة قصيرة ليشرف هنالك على إخراج بعض قطعه . وكانت ڤيمار يومئذ كعبة الأدب الرفيع ، يجتمع فيها حول إمامى الشعر ، جيته وشيلر ، صفوة من أقطاب الشعر والأدب ؛ وكانت صداقة جيته وشيلر أبدع وأروع مظاهر هذا المجتمع الأدبى الباهر . وفى سنة ١٨٠٤ كتب شيلر درامته « ولهلم تل » Wilhelm Tell ، فكانت أعظم قصصه وأروعها . والمعروف أنه استقى موضوعها من صديقه جيته ، وكان جيته قد زار سويسرا قبل ذلك بقليل ودرس هنالك تاريخ تل بطل سويسرا القومى ، وزار الأمكنة التى تقول الأسطورة إنها كانت ميادين بطولته ، لينتفع بذلك الدرس فى قصة يعتزم كتابتها عن تل . ولكنه لما عاد الى ڤيمار نبذ الفكرة ، وأعطى مواد دراسته الى شيلر لينتفع بها هو ؛ فاستقى منها موضوع قصته « ولهلم تل » ، فجاءت أبدع ما كتب ، وأثارت من جيته أيما إعجاب . بيد أنها كانت أيضاً آخر ما أخرج شيلر . ذلك أنه مرض فى أوائل سنة ١٨٠٥ ، ومرض أيضاً جيته فى الوقت نفسه ؛ واشتدت عليهما وطأة المرض ، حتى صرح جيته بأنه يشعر بدنو أجله ، وأن أحدهما لابد ذاهب . ولكن الذى توفى هو شيلر . توفى فى الثامن من شهر مايو ، فى الخامسة والأربعين فقط ، فوقع موته فى ڤيمار وقع الصاعقة ، وارتدت ثوب الحداد مدى حين . وتلقى جيته نبأ الفاجعة وهو فى فراش مرضه ، فبعثت الى نفسه أيما حزن ، وسمع ليلا وهو يبكى أحر بكاء . وكتب يومئذ الى أحد أصدقائه مشيراً الى فقد شيلر : « لقد فقدت نصف حياتى » ، وغلب عليه الحزن حيناً فأضرب عن العمل والكتابة ؛ والى ذلك يشير بقوله : « إن مذكراتى فى هذه الفترة صحف بيضاء . والصحف البيضاء عنوان الفراغ فى حياتى . ولم يك ثمة شىء يستهوينى فى تلك الأيام »

وهكذا مات شيلر فى إبان مجده وذروة شاعريته ، ولم ينعم بالحياة الناعمة المستقرة إلا ردحاً قليلاً ؛ فكانت حياته كلها صفحة كفاح مستمر ؛ بيد أنه خرج من هذا الكفاح ظافراً متسماً بميسم المجد والخلود . ولم يكن شيلر شاعراً مبدعاً فقط ، ولكنه كان فيلسوفاً عظيماً ، وفناناً كبيراً ، ومؤرخاً بارعا ؛ وكان يؤمن بالثقافة كوسيلة لرفع الانسانية الى ذرى القوة والعظمة ؛ ويرى أن الفن ليس ترفاً لذوى الفراغ والجدة ، وليس لهواً يستمرئه الخامل ، ولكنه قوة عظيمة ذات أغراض جدية وإن كانت وسائله شائقة سارة ، وإنه قرين الدين يعاون على تنظيم هذا العالم . وكان ذهنا ثائراً جريئاً جلداً يمجد بالحرية ، ويمقت كل صنوف الاستعباد ؛ وكان قلباً رقيقاً يفيض حساً وانسانية ؛ خبيراً بأسرار الطبائع والنزعات البشرية ؛ وكان مؤرخاً بارعاً ينفذ إلى أسرار التاريخ ، ويستوعبها بقوة ودقة . وهذه النزعة التاريخية الناقدة تبدو فى كثير من قطعه المسرحية . ولو مد فى حياة شيلر ، كما مد فى حياة صديقه جيته ، لظفرت منه الآداب الألمانية بأضعاف ما ظفرت ؛ وكان على الأرجح ينازع جيته إمارته فى الشعر الألمانى ، بيد أنه مع ذلك يتبوأ إلى جانبه المقام الأول فى عالم المجد والخلود ؟

محمد عبد الله عنان

المحامى

٧ — الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

وسائل تقوية الشخصية العملية :

قلنا فيما مضى إن الشخصية نوعان : عملية وفكرية ، وذكرنا شيئاً عن الشخصية العملية ، واليوم نتكلم عن الوسائل التي تقويها فنقول :

هناك وسائل لتقوية الشخصية العملية نذكر منها ما يأتي :

(١) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل :

إن تحديد الغرض في أي عمل من الأعمال مع معرفة السبيل الموصلة إلى ذلك الغرض من أهم الوسائل المشجعة للانسان على الاجتهاد في العمل والسير فيه إلى النهاية من غير تردد ، وبخاصة إذا صحب العمل بإرادة قوية ، وثقة به . فمعرفة الغرض لها أثر كبير في نفوسنا ، سواء أكان ذلك الغرض عادياً أم عظيماً . وإن نظرة واحدة إلى العالم تبين لنا أن لكل إنسان غرضاً يسعى ليدركه مهما اختلفت هذه الأغراض . ولكن المهم أن يكون الغرض محدوداً سامياً

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العلا غرضا

فالصياد يقف على شاطئ البحر وعصاه في يده ينتظر بصبر عظيم وملاحظة دائمة ، أملاً في اصطياد السمك وما فيه من لذة وإرضاء للنفس ، وسائق السيارة يسير في طريقه مهما لاقى فيها من مطر أو ثلج أو ضباب أو غبار رغبة في الوصول الى مكان معين ، وقبطان الباخرة العظيمة في البحر الخضم يقود باخرته في طريق معينة نحو ميناء أو موانئ معينة في جهات خاصة . وهنا يتمثل تحديد الغرض ، ومعرفة الطريق الصالحة ، والتأكد منها ، والثقة بها . وإذا تمثلت هذه الأحوال العقلية في الشخصية الانسانية كانت من أعظم القوى العملية في العالم . فينبغي أن يكون للشخص غرض معين من العمل يسعى ليدركه ويحققه بكل ما أوتي من عزيمة وقوة ومثابرة وثقة بالنفس ؛ حتى ينتفع بقواه العقلية . قال « وردزورث » شاعر الطبيعة من الانجليز عن الأفراد الذين يسيرون في الحياة نحو أغراض معينة : « إن اجتهادهم ناشئ عن وازع نفسي ينير الطريق أمامهم دائماً ؛ فيقدرون جمال الطبيعة ، ويعملون بما يعلمون ، ويثابرون على التعلم . »

وبعد الوصول الى الغرض الأول أو المرحلة الأولى من الحياة يمكن التفكير في مرحلة أخرى وتحديدها والعمل للوصول إليها وهكذا الى نهاية الحياة . قال عمر بن عبد العزيز « : إن لي نفساً تواقة لم تزل تتوق الى الامارة ، فلما نلتها تاقت الى الخلافة ، فلما نلتها تاقت الى الجنة » . وقيل : « ذو الهمة إن حط فنفسه تأبى إلا علواً ، كالشعلة من النار يضربها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً »

(٢) الرغبة في العمل :

بعد تحديد الغرض من العمل يجب أن تكون هناك رغبة فيه وميل إليه ؛ لأن الرغبة :

(أ) ترفع من شأن العمل الذي نقوم به .

(ب) تؤدي الى الاقدام والنشاط وهما القوة الطبيعية للشخصية ، وتكون كوازع نفسي أو باعث داخلي يستنهض همتنا ويستحثنا على المثابرة بالعمل

(جـ) تمدنا بالقوة التنفيذية ، والارادة الحق الضرورية للوصول الى أغراضنا .

فالرغبة هي الدافع الطبيعي للإنسان نحو العمل مهما لاقى في سبيل ذلك العمل من متاعب ومصاعب . والرغبة الحق هي تلك القوة الروحية التي توحي الى الشخص بالقيام بالشيء بهمة لا تعرف الكلل ولا تقف دونها أي عقبة . فاذا وجدت الرغبة ثم وجدت الارادة ، سهل الطريق مهما كان شاقاً ، والحاجة تفتق الحيلة . فاذا رغبت في معرفة صناعة غزل القطن ونسجه كان الذهاب الى معمل الغزل والنسج أحب الأشياء إليك ، وأخذت تشعر بأنه يجب أن تعرف كل شيء يتعلق بالقطن وأنواعه ، وأين يزرع ، وكيف يزرع ، وكيف تتقى آفاته السماوية ، وما الأحوال الجوية التي يتطلبها ، وكيف يجنى ، وكيف يوضع في الزكائب ، وكيف يخزن ، وكيف يرسل الى السفن ، وكيف يحلج ، وكيف يغزل ، وكيف ينسج

وكذلك القول فى رغبة (ابراهام لنكولن) فى تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال الى السوق ، فوجد جارية تباع وتشترى فتألم لبيع الانسانية وشرائها الألم كله ، فتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الأسترقاق بيد من حديد . فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً بانتخابه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا فكان من أوائل أعماله العمل على تحرير العبيد . وقد أدى ذلك الى حرب داخلية ، ولكن النصر كان أخيراً فى جانبه . وبذلك يعتبر محرراً للعبيد ، مدافعاً عن الانسانية المظلومة

وإن شدة الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى هى التى جعلت « شارلز ديكنز » أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترا فى القرن التاسع عشر . وإن الرغبـة فى شراء أسهم قناة السويس بعد التأكد من فائدتها هى التى خلدت ذكرى « دزرائيلى » بين الانجليز ، وجعلته يعمل بكل ما أوتى من قوة على تنفيذ الشراء مع شدة ما لقى من معارضة فى مجلس الأمة ، ومن معارضة مدير مصرف انجلترا ، وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت « أديسون » أكبر مخترع فى القرن العشرين ، والأمثلة كثيرة لا حصر لها

فبغير الرغبة لا يستطيع الانسـان أن يقوم بعمل عظيم فى الحياة . فاذا أردت القيام بعمل من الأعمال — سواء أكان ذلك العمل دينياً ، أم اجتماعياً ، أم أدبياً ، أم علمياً ، أم فنياً ، أم حربياً — فأوجد الرغبة الصادقة وهى كفيلة بالتنفيذ والنجاح فى ذلك العمل

والرغبة نوعان : مباشرة وغير مباشرة ؛ فالمـؤلف الذى يؤلف كتاباً ، أو يكتب مقالة لصحيفة يومية ، يجب أن يكون تأليفه وكتابته عن رغبة حقيقية إذا أراد أن يكون لعمله قيمة علمية أو أدبية ، فالرغبة فى العمل هى الشرط الأساسى للتقدم والنجاح فيه . ولكن هل الرغبة وحدها تكفى للنجاح ؟ الحق أنها لا تكفى ، بل ينبغى أن يكون هناك بعض التشجيع الأدبى أو المادى ؛ لأن المؤلف أو الكاتب قد لا يكتب حباً فى الكتابة فحسب ، بل قد يكتب ليعيش ، أو ليحصل على ضروريات الحيـاة أو كمالياتها . فهو ينتظر تشجيعاً ، ويجب أن يشجع بتقدير عمـله وإعطائه ما يستحق وحينما توجد الرغبة المبـاشرة الطبيعية فى العمل ، ثم تصحب برغبة أخرى غير مباشرة كالربح المادى أو المركز الأدبى فاننا لا نتردد فى أن نقول : إن النشاط يتضاعف والاجتهاد يستمر والعمل يزداد حسناً ، ودواعى النجاح تكون أقوى وأشد ، لأن الرغبة متوفرة من كلتا الناحيتين المباشرة وغير المباشرة

ولا ننكر أن المثل الأعلى هو أن نعمل حباً فى العمل ، ونؤدى الواجب رغبة فى أداء الواجب ، ونقوم بالشىء من غير أن ننتظر جزاء أو شكوراً . ولكن من حيث أن الانسان إنسـان فهو يفكر دائماً فى النتيجة ، وفيما يعود عليه من المنفعة والمكافأة على العمل ، وهذه المكافأة نوع من التقـدير يشجعه على العمل ، ويدفعه الى أدائه كما ينبغى وكما يجب أن يكون ، وكلما كانت المكافأة قيمة زادت الرغبة فيهـا وكثر التلهف عليها والعمل على نيلها . ومعظم الأعمال التى نقوم بها يومياً من قبيل الأعمال التى نؤجر عليها . ويجب أن نصرح بأنه لولا الأجور والمرتبات التى يتقاضاها العمال والموظفون ما قام أحد منهم بعمل قيم

ولا تكفى الرغبة غير المباشرة — كالرغبة فى الأجر — للنجاح فى العمل واكتساب شخصية قوية ، بل لابد أن تصحب برغبة طبيعية وميل حقيقى نحو العمل نفسه ، وإلا كان مكروها لدى النفس ، تبغضه وتنتظر بفارغ الصبر التخلص منه ، كما هو حال العامل الذى لا يجد لذة فى عمله ، فيترقب انتهاء اليوم ومجىء ميعاد الانصراف بكل صبر ، ونحن لا نبنى إلا عملاً مصحوباً بلذة ورغبة وسرور ، حتى ننجح فى ذلك العمل ونجيده ونجد شوقاً الى العودة اليه ، ونظهر فيه تفوقاً ومهارة . ومن الصعب أن تنبغ فى عمل غير محبوب لديك .

يتبع — محمد عطية الابراشى

ليلة في مضارب النور

للأستاذ عبد الحليم عباس

في مجهول حوران التي ليس للأفق في فسيحها حد، وقف الليل يصغي لهذه الفتاة النورية تعبر عن شجو شعب لفظته الحياة، فلفظها وفي صدره غصة، وفي قلبه جرح لا يلتئم

غنت ورقصت كالطير الذبيح

وكانت أغانيها صدى لهذه الغربة الطويلة

من بدء الخليقة زموا رحيلاً، يفتشون لهم عن وطن، كادوا يبلغون حد الأفق، ولما يجدوا مبتغاهم، كل شبر فيها ممتلك، وراء الأفق... وراء الأفق، على ليكم به داراً

والتمت الكواكب، فكأنها قلوب تجف، أو عيون تذرف فاطلعت إليها، وكأنما اذكرت أوطاناً مجهولة، وأحباباً خلفتهم عند مطلع الشمس، فاندفعت تغني ما أنقل معناه، وكان غناؤها في هذه النوبة بالنا في أساه، مشجياً في تعابيره، يحمل في ثناياه ريح الكبد المحروق. قالت:

«إيه ياليل الشجن، ليت جوانبك الفسيحة تطوى، وآفاقك المترامية تتضام على نفسها، فاذا هي في مدى النظر دار وأيكة، نجلس فيها مع الحبيب، لايفزعنا النوى ولا تطوح بنا المقادير

إيه ياليل الشجي: ظننا الغربة يوماً وليلة، ما علمناها العمر كله، فمتى تكون الرجعة، ومتى نلتقي والأحبة.

إيه ياليالي، خلفناهم شباباً فبعد عشرين عاماً كيف أضت لممهم السود المعطرة، وشفاههم الريانة بخمر الحياة؟ كيف أضحت وجناتهم الناعمة؟ هل جعدها النوى وغضنتها السنون؟ وقاماتهم المنتصبة كالغصن الرطيب، أظنها انحنت تحت ثقل العمر والشجون... ليتني صخرة صغاء مشدودة إلى هاتيك الربوع التي أحببت فيها حبيباً لم يغدر ولكن غدرت بنا الحياة

إيه فتاتي! أوصيك ألا تأتي السمع لكلمات الحب تتدفق عن أفواه الشباب الجميلة، ما برح مكتوب على شعبك النوري جوب الأرض، وذرع هذه الفلوات. فيموت القلب بالخلو من الحب، أخف من احتراقه في جحيم الذكريات

إغمضي عينيك عن الهوى، عن النعمة الكبرى، فلو كنا أهلاً لها، لبرئنا على غير هذه الشاكلة...»

إلى هنا وكأنما طغت موجة الحزن في نفسها، وكأنما فتحت لها الأنشودة عالماً من الذكريات الشجية فجلست مجهودة لاغبة

***

وكنا في مضاربهم أربعة، كلنا يفهم الحياة على غير الوجه الذي يفهمها عليه الآخر، فمنا من يطلب فيها اللذة، ومنا من لا يبالي بلذتها وألمها، ومنا من لا يرى فيها متسعاً للذة، ومنا من يجدف عليها في الصباح، ويهزأ بها عند المساء، وفي الليل يدب إلى لذائذها يعصرها حتى لا يدع فيها بقية؛ ونحن وإن اختلفنا فيها كثيراً نلتقي على شعور بعينه، وهو الحس بألم الغير، والرثاء لآلام الناس

فكان من هذا أن هزنا شعور طيب، هو مواساة هؤلاء النا كيد فكففنا عن طلب الغناء. وساجلهم الحديث منا فتى لبق. قال وهو يوجه كلامه إلى هذه التي غنت وجلست هامدة، كأنما ذابت روحها مع أغانيها:

— ألك إخوة ياعزيزتي؟

— نعم، ثلاثة، واحد دفنته في الصين، وآخر واريته في طينة، والثالث على قيد الحياة

— كلنا سنموت، فكيف رأيت هذه الديار؟

— هي دياركم أنتم، أما دارنا، فهذا البيت الممزق، وظهر هذا البهيم

قال وهو يحب أن يمزج الجد بالدعابة ليخفف هذا الألم الطافح ويستل هذا الحزن المستعصي:

— ليست الأرض ملكاً لأحد، أما سمعت قول الأديب الأكبر، أهون علي أن أتصور الانسان ملكاً للجبل، ولا أتصور الجبل ملكه. ملكه كيف؟ أيستطيع أن يحمله؟

— لا أفهم ما تعني

— ستفهمين، أجمل ما على أديم الأرض هذه الزهور الناجمة تميس بقاماتها، وأجمل ما فيها هذا العطر يفوح، فهل يملك عطر الزهرة؟ هل تحجب وجنة السماء عن أعين الرائين؟ أبهج ما في الحياة ملك الجميع، وما بقي فأقوات وفضلات يشترك الانسان فيها مع أدنى المخلوقات

— صحيح هذا، ولكن هذه أشياء ليس لنا منها أدنى

فائدة ، أنا كل الكواكب ؟ أم نقتات بهذا الذى تنشره الزهرة ؟

فبهت صاحبنا

فنبهناه إلى غلطته ، وإلى أن هذه التى يخاطبها أضيق عقلاً وأسف إدراكاً من أن تفهم مجالى الفن الرفيع

فلم ييأس ، وعاد يفهمها ، ويأتى باللفظ القريب إلى عقليتها ، يقول : إنها لاتقيت ، ولكن فيها شيئاً أثمن من القوت ، وهل خلق الانسان لملء بطنه فحسب . . . هل أحببت ؟

فكأنها خجلت من هذا السؤال الثائر ، فرمت برأسها الى الأرض ، فعاد يلح عليها بالاجابة

— نعم ، أحببت ، والنور شعب لا يخجل من المصارحة بمثل هذه الأحاديث

— وهل فى الحب لذة ؟

— نعم يا افندى

— أيهما أكبر لذة ، الحب أم القوت ؟

— الحب يا افندى . . .

— إذن فى الدنيا أشياء كثيرة أثمن من القوت أفهمت ؟

— نعم

— وهذه الأشياء يتساوى فيها الغنى والفقير ، والأمير والحقير ، بل إن حظ الصعاليك ليربو فى بعض الأحايين على حظوظ ذوى الجاه العريض والمنازل الرفيعة

فصمتت ، وكأنها تفكر وتزور حديثاً ، وبعد حين قالت : والغربة ، هل يستقيم معها نعيم ؟ انظر ها نحن أولاء نقيم هنا بعضاً من أشهر الصيف ، فاذا جاء الشتاء بقره ، اضطررنا الى النزوح كارهين ، فنحن نقضى العمر كله رحيلاً ، ولو شئت لقلت حنيناً ، نحن الى هذه المرابع ، وغداً نحن الى غيرها إذا أنسنا بها ، وهكذا نقضى العمر بالذكريات الموجعة ، والحنين الذى يقطع نياط القلوب

قال : اسمعى ، ليس على ظهر هذا السهل — سهل حوارن — الممتد شمالاً حتى أذيال الشام ، المنفسح غرباً الى سفوح هذه الجبال التى شاقها منظر سماء عجلون ، فنهضت اليها بغابات الصنوبر ، وملتف أشجار السنديان والبلوط ؛ لتقبل وجنتها . . . وليتك تريها فى الصباح ، والضباب يلفها فى مثل غلائل العروس وهى تجاهد بنسيمها المنعش ، ونداها العطر لترى السماء ، فتمزق الردن تارة ، وتشقق البنائق أخرى ، وهى فى كل ذلك آية فى السحر والجمال والجلال . . أقول ليس على هذا السهل أخلد حياة ، وأكبر فؤاداً وإحساساً من صديقكم شاعر الواد[1] أعرفته ؟

— نعم ، فهو يزورنا فى غالب لياليه ، ويبقى حتى مطلع الفجر . .

— هذا الشاعر الضائع يا فتاتى ، هو فى هذا السهل أضيع منكم غربة ، يذيب كبده فى لحنه ، وتسيل روحه على قوافيه . . . ولا من يسمع

— كيف ! ؟ انه لايحضر إلا ومعه لفيف من صحبه وخلطائه ، فكيف يكون غريباً فى دياره وبين أحبابه ؟

— هو غريب ووحيد ، يأتيكم ليأتنس بكم ، هو غريب لأنه لا يجد صدى لروحه ، وليست تقاس الغربة ببعد الشقة والنأى عن الوطن ، وإنما تقاس بما بين الأرواح والأرواح من تفاوت وتقارب ؛ كم من ضجيعين على مهاد واحد بينهما من البعد ما بين ذاك النجم وهذا الوتد

فهزت النورية رأسها فعل الحائر الذى لم يفهم

وكنا ضقنا بصاحبنا ذرعاً ، وأسمعناه من قوارض اللوم والاستخفاف بفلسفته التى جاء يلقيها فى مضارب النور شيئاً كثيراً ، وكأنه تعب . . فلم يعمل فى هذه المرة على إفهامها . . . فقلنا له متندرين مالك ؟ عد الى وصل قولتك ، وشرح فلسفتك

قال : أطلتم اللوم ؛ لقد نلنا مبتغانا ، أما كان عزمنا أن نذهب بشىء من ألم هذه الفتاة ، فها هى الابتسامة تسيل على شفتها ، وشفاه عدة من قومها ، قلنا : غلطت يا أستاذ ، فما هى ابتسامة الصفو ، وإنما هى ابتسامة الاستخفاف بك ، والهزء من أقوالك

— ليكن ، فما يضيرنى أن أكون ساعة موضع سخرية النور . .

* * *

وطلعت علينا الشرطة ، فخفقت قلوبهم ، فراحوا يلممون أنفسهم ، ويلقون علينا نظرات الرجاء أن نكفيهم شر هذا البلاء ، فكنا عند حسن ظنهم

(١) هو السيد مصطفى وهبى التل ، من أشعر شباب الأردن ، ومن أعرق شعراء العرب فى البوهيمية ، صادق النور ، وله فيهم قصائد هى آية فى الجودة ، وهو ينوى الآن مزاملتهم فى رحلاتهم القصية

وقفنا إلى السيارة ، ولما تبوأنا مقاعدنا جاءت النوبية وهمست فى أذن صاحبها

— أيوجد مثلنا أناسٌ يذوقون حرَّ سياط الجنود الغلاظ الأكبد ؟ وهل يساوينا أحدٌ فى هذه النعمة ؟

— نعم يا فتاتى ، ليست هى على ظهوركم بأشد نكاية وأنا وأثقل وطأة منها على ظهور الأحرار

— ومن هم الأحرار ؟؟

لا أدرى ، أخشى سياطهم إن تفوهت ، وتلمس جنبه كأنما أحس بألمها ، هم ، هم صف ..... وة رجال الو .. طن ، فى كل أمة ، سلى عنهم مصر ..! وضاع الصوت فى لجب هذه الرعناء ؟

شرق الأردن عبد الحليم عباس

حول مقال الشخصية

جاء فى عدد (٦٨) من مجلة الرسالة الغراء فى مقال الأستاذ محمد عطيه الأبراشى عن الشخصية بعض الأخطاء من الوجهة العلمية :

فقد قال الأستاذ :

(٣) « والغدد التكفية وهى غدد صغيرة أسفل العنق ولها صلة بالذكاء ، فإذا كانت قوية الافراز كان الشخص ذكياً وبالعكس . »

ومن المعلوم أن الغدد التكفية هى الغدد التى بجوار الأذن وليست بأسفل العنق ، وتسمى بالانجليزية « Parotid » وليس لها أى دخل فى الذكاء ، بل كل إفرازها يصب فى الفم بواسطة قناة يقرب طولها من الثلاثة سنتيمترات ، ووظيفة إفراز هاتين الغدتين كما دلت كل التجارب هى تحويل النشويات « Cabobydiate » إلى « ملتوز » « Maltose » ولها وظيفة ثانية هى المساعدة على ازدراد الطعام وتليينه وليس لها غير هاتين الوظيفتين

أما قوله بأنها غدد صغيرة فى أسفل العنق فأظنه قد أراد Parathyroid !! وهذه الغدد أيضاً ليس لها تأثير كما هو ثابت على الذكاء بل تأثيرها على « الكلسيوم » الموجود بالدم ومن ثم على العظام نفسها ، ولهذه الغدد وظيفة أخرى خاصة بالأعصاب ، إذ لو قطعت هذه الغدد لأصبح تأثر العضلات سريعاً ولاشتدت قوة انقباضها ، وليس لها غير ذلك كما ثبت بالتجارب وقد يكون لها ، لكن العلم لم يقل كلمته بعد

وقد سمى حضرته Thyroid !! بغدة تفاحة آدم ، وأظن أن من المستحسن إطلاق الاسم العربى المتداول وهو الغدة الدرقية فهو أسهل وأقصر

محمد رضوان
بكلية الطب

بين فنى التاريخ وفن الحرب

٧ ـ خالد بن الوليد *
فى حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمى
رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

معركة بزاخة :

يقول ابن الكلبى إن بزاخة ماء لبنى أسد ، ولم يوضح لنا ياقوت هذا المحل فى معجمه ، والذى يلوح لنا أنه فى جنوبى فيد فى وادى الغمير على الطريق الذى يصل فيد بالبريدة . فالأرض فيه سهلة وهى صالحة للقتال

ولعل المعركة وقعت فى نهاية ايلول « سبتمبر » أو فى نهاية تشرين الأول « أكتوبر » إذ مضى على حركة خالد من ذى القصة ما يقارب الخمسة عشر يوماً ، وبعد أن أمن خالد جانب طئ واستنجد بهم تقدم رأساً نحو بزاخة يريد طليحة

وتقدمت أمامه قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم ، وتدل الأخبار على أن المرتدين باغتوا هذه القوة وقتلوا قائديها ، وكانا من فرسان المسلمين المشهورين ، وكان جيش طليحة متأهباً للقتال يقود بنى أسد سلمة أخو طليحة ، ويقود فزارة عيينة ابن حصن ومعه سبعمائة فارس من فزارة

ومن الروايات ما يدل على أن خالداً وقف بالغمير قبل شروعه فى القتال ، وإن كانت الرواية التى يرويها الطبرى نقلاً عن سيف لا تذكر ذلك بوضوح ، وخلاصة الرواية أن أحد المسلمين أخذ رجلاً من بنى أسد فأتى به خالداً ، وكان الرجل عالماً بأمر طليحة فسأله خالد عما يعلمه عن طليحة

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

وموقع الغمير رابية تشرف على مياه بزاخة واسمه فى الخريطة جبل الغمير ومنه ينصب وادى الغمير

ولعل خالداً أرسل قوة الاستطلاع من هذا الموقع ليستكشف قوة العدو وموضعه وجيش المسلمين فى موضع مسيطر . ولعل عكاشة وثابتاً قتلا لما كانا يقومان بالاستطلاع فقتلتهما الطليعة التى أوفدها طليحة بقيادة أخيه سلمة فنصب كميناً لقوة الاستطلاع وباغتها ، ولما اطلع المسلمون على مقتل عكاشة وثابت هالهم الأمر

ومن الروايات ما يشير الى أن خالداً لم يزور عن طريقه كما تقدم من ذى القصة الى بزاخة إلا بعد ما رأى الجزع المستولى على أصحابه عند مقتل عكاشة وثابت فمال بهم الى حى طئ وقال لهم « هل لكم الى أن أميل بكم الى حى من أحياء العرب كثير عددهم شديدة شوكتهم . . . الخ »

ولعل هذه الروايات ذكرت لتسويغ ازورار جيش خالد عن طريقه نحو بلاد طئ على ما أثبتناه فيما تقدم ، إذ لا يعقل أن يصيب المسلمين الجزع بمجرد أن يقتل منهم فارسان ، والروايات ذاتها تذكر قتل عكاشة وثابت بيد طليحة وأخيه سلمة بمعنى أن القتال وقع بالقرب من بزاخة فيكون من الصعب أن يدير خالد ظهره ويترك عدوه ويتوجه نحو بلاد طئ بينما كان أهلها مترددين

والواضح من هذه الروايات أن خالداً قدر الموقف قبل مسيره من ذى القصة

القتال

رتب خالد جيشه فى خط القتال وجعل الأنصار والمهاجرين فى الميسرة ورجال القبائل فى الميمنة ، ولعل أهل طئ كانوا فى القلب مع بعض القبائل

أما جيش طليحة فكان عيينة بن حصن مع سبعمائة فارس من فزارة فى الصف الأول ، وكان طليحة بن خويلد فى القلب يشرف على القتال ، وفى أطرافه أربعون فتى من بنى أسد استماتوا فى الدفاع عنه . وكانت راية بنى أسد حمراء رآها المسلمون من بعيد

وتدل الأخبار على أن القتال بدئ بهجوم الفريقين أحدها على الآخر ، فكان عيينة بن حصن يقود الفرسان ، أما حبال وسلمة أخوا طليحة فكانا يقودان المجنبتين من جيش الأعداء

ويذكر الواقدى نقلاً عن رجل من هوازن حضر قتال بزاخة أن المسلمين فازوا بالمعركة بفضل البطولة التى أبداها خالد ابن الوليد

ويقول الراوى إن ميمنة المسلمين ارتدت على أعقابها لما هاجمها الأعداء فأثر ذلك فى الميسرة فانسحبت بدورها ، فتدارك الأمر خالد بحملته على الأعداء ونداثه يا أنصار الله ! الله ! فحمس هذا النداء المتراجعين وكروا على الأعداء ملتفين حول خالد فتقاتل الفريقان بالسيوف ، فترجل خالد عن ظهر جواده وحارب راجلاً ، ولما رأى أصحابه أن الخطر محدق به التمسوا منه أن يترك خط القتال ويقف فى الوراء ، ويقود الجيش إلا أنه امتنع عن ذلك .

وفى رواية أخرى للكلبى أن المسلمين لما تراجعوا أتى رجل من طئ خالداً وكلفه بالاعتصام بجبلى سلمى وأجأ ، إلا أن خالداً رد طلبه قائلاً إنه يعتصم بالله

وبقى طليحة فى القلب الى أن قتل فتيانه جميعاً فانسحب الى الوراء والتف بكسائه يتحين الفرص . ولما ضاقت الدنيا بعيينة بن حصن سأل طليحة هل جاء الوحى ؟ وهذا يقول له لا فيرجع يقاتل ، وفى الكرة الثالثة قال طليحة لعيينة إن الوحى يقول له : « إن لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه » فتأكد عيينة أن الدائرة تدور عليه ، فنادى يا بنى فزارة انصرفوا فهذا والله كذاب فانصرفوا وانهزم الناس

أما طليحة فأعد فرسه وهيأ بعيراً لامرأته فوثب على فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، ولما سأله قومه ماذا يأمر ، قال « من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل »

وقع عيينة أسيراً بيد خالد فكبله بالحديد وأرسله مخفوراً الى المدينة

وكان المرتدون قد تركوا عيالهم خلفهم فى محل أمين لكى لا يسبيهم المسلمون ، لأن العرف كان يقضى فى ذلك الزمان بسبى النساء واتخاذهن إماء ، ولم تنته المعركة حتى عاد الكثير من بنى أسد وفزارة إلى خالد وجددوا إسلامهم خشية على الذرارى

واغتنم المسلمون غنائم كثيرة فى معسكر الأعداء من جمال وحمير وسلاح وغير ذلك . لم يكتف خالد بهذه الغنائم بل أوفد السرايا إلى جهات مختلفة لمطاردة المنهزمين والتقت بهم فى جبل

رمان في جنوب جبل سلمى وفي الأبانين على جانبي وادي الرمة وهما رابيتا أبان الأسود في شمالي الوادي وأبان الأبيض في جنوبه وأسرت كثيرين منهم وصادرت خيلهم وسلاحهم

ولما نشب القتال بين المسلمين والمرتدين في بزاخة كان بنو عامر بن صعصعة على الحدود يراقبون مجرى القتال وينتظرون العاقبة

وبعد أن انتهى خالد من أمر بني أسد وفزارة عرج على حي طيء ومكث بين أكناف سلمى وأجأ ، ولعله أراد بذلك أن يقرب من حي بني عامر وينهي أمرهم . هذه القبائل كانت في الأرض الواقعة الى شمال شرقي بلاد طيء بين الدهناء وجبل شمر

فأوفد بنو عامر وغطفان وفودهم إليه وجددوا إسلامهم . بيد أن خالداً لم يكتف بذلك بل فرض عليهم جانباً كبيراً من السلاح جزاء ترددهم كما أنه جمع سلاحا من بني أسد أيضاً

وكان للسلاح شأن كبير في هذه الحروب ، وكان المسلمون بحاجة اليه ليجهزوا به الجيوش ، وسبق أن أغنياء الصحابة في عهد الرسول كانوا يجهزون المقاتلين للغزوات

واحتفظ خالد بهذا السلاح ووزعه بعد ذلك على رجال القبائل الذين أسرعوا إلى الأنضمام الى جيشه كما وثقوا بالنصر

لقتال في ظفر :

تدل الأخبار على أن خالداً لم يهمل الشاردين بل إنه لما علم أن أم زمل سلمى جمعتهم حولها في ظفر وشجعتهم على المقاومة توجه فوراً نحوها فقاتلها قتالاً شديداً وهي واقفة على جمل أمها أم قرفة تحمسهم على القتال ، وقد اجتمع على الجمل جمع من فرسان المسلمين فعقروه وقتلوها وقتل حول جملها كما تذكر الرواية مائة رجل . وكان قيام أم زمل وتشجيعها للناس على قتال المسلمين طلباً للثأر

المطاردة :

ومن المنتقد يعتب على خالد إهماله المطاردة بعد انتصاره في بزاخة إذ كان في وسعه أن يطارد الأعداء ولا يمهلهم للمقاومة مرة أخرى ، إلا أن المتتبع ليتبين في محله ، لأن القتال في البادية مع القبائل لا يشبه القتال في الحواضر ، فالقبائل بعد أن تغلب تنهزم الى جهات مختلفة بعد أن تترك حيها وتلجأ الى الأحياء القريبة وتستنجد بها ولا تقصد هدفاً ترمي اليه . وكان خالد مضطراً الى البقاء في بزاخة ليقبل إسلام المرتدين ويعاقب من مثل بالمسلمين منهم عملاً بوصايا أبي بكر

وكان خالد قبل ذلك أوفد السرايا الى أنحاء مختلفة ليقضي على المتشردين فقاتلهم في جبل رمان على حدود طيء ، وقاتلهم في الأبانين على حدود بني سليم ، وقاتلهم في النقرة على حدود بني تميم فكل ذلك يدل على أن خالداً استثمر نصر بزاخة ولم يهمل المنهزمين بل طاردهم بكل شدة

يقع موقع ظفر كما يذكر ياقوت الحموي بالقرب من حوأب ، وهذا على الطريق بين البصرة والمدينة . كانت عائشة قد تشاءمت من نباح كلابه لما رحلت من المدينة الى البصرة للاشتراك في وقعة الجمل . ولعل موقع ظفر يبعد عن بزاخة مسافة مرحلتين وهو الى شرق كهفه . فالفلول الشاردة من بزاخة التجأت اليه ، وكانت أم زمل تحرضهم على الاجتماع فيه لمقابلة خالد . فالمسافة بين بزاخة وظفر يجب أن تكون بعيدة بدرجة أنها تساعد الفلول على الاجتماع مرة أخرى للقتال

تقدم مسير خالد نحو البطاح لقتال بني تميم

البطاح : — لانعلم بالضبط المدة التي قضاها خالد في حي بني أسد بعد أن انتصر على طليحة في بزاخة . والمؤكد أن خالداً استثمر فوز بزاخة فقام بمطاردة فلول الجيش المهزوم ، ولما سمع أن بعض الفلول اجتمع في ظفر تحت راية أم زمل تقدم بجيشه اليهم وهزمهم شر هزيمة كما أشرنا الى ذلك فيما تقدم .

والظاهر من ذلك أن خالداً قضى أكثر من شهر في حي بني أسد على أقل تقدير ، ولما استتب له الأمر في نجد وتأكد معونة طيء ودان له بنو عامر وبنو صعصعة انتهز الفرصة ليتقدم نحو بني تميم

وكان بنو تميم من أقوى القبائل العربية لكثرة عددها وخصب أرضها وشدة بأسها . وتنقسم هذه القبيلة الى أربعة أقسام :

القسم الأول — الرباب وهم من شعب ضبة وعبد مناف

القسم الثاني — عوف والأبناء ومقاعس وبطون وهم من شعب سعد بن زيد مناة

القسم الثالث — بهدى وخضم وهم من شعب بن عمرو

القسم الرابع — حنظلة ويربوع وهم من شعب بني مالك

وكان الزبرقان بن بدر يترأس رباب وعوفاً والأبناء ، وقيس ابن عاصم يترأس مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان يترأس بطن بهدى ، وسبرة بن عمرو يترأس بطن خضم ، ووكيع بن مالك يترأس بني حنظلة ، أما مالك بن نويرة فيترأس بني يربوع وهم فرقة من بني حنظلة

وكان بنو يربوع يسكنون أرض الحزن غربي الدهناء ، أما بنو حنظلة فيسكنون الدهناء والصمان ، وأرض الصمان في شرق الدهناء والحزن والصمان كلاهما ذو مراع خصبة يضرب بها المثل

وكان من حسن حظ المسلمين أن هذه الشعب والبطون لم تكن متصافية فيما بينها ، ويظهر أن الخصومة كانت متأصلة فيها من قبل الأسلام . فصفوان وسبرة متفقان ، أما قيس بن عاصم فخصم للزبرقان

وكان الزبرقان وصفوان يميلان الى المسلمين وينتظران المعونة منهم ليتفوقا على خصومهما . أما قيس بن عاصم فكان متردداً . وأما وكيع بن مالك ومالك بن نويرة فتظاهرا بالعداء للمسلمين ، وكان العداء متأصلاً في نفوس الرؤساء لدرجة أن البطون والشعب كانت تتقاتل

ولما ظهرت سجاح اشتد هذا العداء ، وادعت سجاح النبوة في بني تغلب في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وهي ترتبط ببني يربوع برابطة القرابة ، فجمعت حولها جموعاً من بني تغلب وبني نمر وبني اياد وبني شيبان ، وتقدمت بهم الى بلاد بني تميم ، ويدل مجرى الوقائع على أنها ادعت النبوة قبل وفاة الرسول

ماذا كانت تقصد سجاح بمسيرها جنوباً نحو بلاد تميم ؟ هل أرادت أن تمهد السبل لتأسيس مملكة بين العراق ونجد تضم فيها قبائل بني تغلب والبعض من بطون بكر وبني تميم ؟ أو أنها أرادت الهجوم على المدينة كما روى سيف بن عمر ؟ ثم هل شرعت في السير قبل وفاة الرسول أو ان وفاته شجعتها على السير ؟ هذه أسئلة تصعب الاجابة عنها بصورة جازمة . والذي يلوح لنا أنها لم تكن تقصد لاهذا ولاذاك ، ولعلها برزت بالكهانة وأحسنت السجع فالتف حولها الناس ، وأرادت أن تستغل نفوذها فسارت برجالها ، وكلما مشت كثر أتباعها حتى أدى بها السير الى الدخول في أرض بني تميم . ومع ذلك فمن المحقق أنها بدخولها ديار بني تميم أرادت أن تستفيد من القرابة التي تربطها بهم . وهذه القرابة غير واضحة ، ومن الرواة من يزعم أنها تميمية من بني يربوع وأخوالها من بني تغلب ، ومنهم من يدعى أنها تغلبية وبنو يربوع أخوالها . والواضح من أخبار الرواة أنها دخلت بلاد بني تميم بعد وفاة الرسول . وكان دخولها مما زاد الشحناء بين رؤساء بني تميم فأراد كل منهم أن يستغلها لمصلحته ، والغريب في أمر بني تميم أنهم لم يخضعوا لرئيس واحد أسوة بالقبائل الأخرى ، فكان لبني أسد رئيس ولبني حنيفة رئيس ولغطفان رئيس وهلم جرا

يتبع

طه الهاشمي



في الأدب الدرامي

١٣ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الدراما في خلال القرون

كان لهذا النوع أوائل في أدب الأغريق واللاتين ظهرت في أشكال مختلفة وأسماء متعددة ، وظلت محافظة على وجودها أثناء العصور الوسيطة وبعد عصر النهضة في ثوب الرواية الجدية الهزلية ، ولكن الدرامة بمعناها الحديث لم تعرف إلا في القرن الثامن عشر حين كتب (لاشوسيه) مدرسة الأمهات ، و(ديدرو) رواية الابن الطبيعي ، و (سيدين) رواية الفيلسوف بغير علمه ، و (بومارشيه) رواية الأم المجرمة ، و (ڤولتير) روايتي نانين والطفل المبذر . وقد كان هؤلاء المؤلفون يقتبسون موضوعات رواياتهم من الحياة الحضرية والمعيشة المنزلية ، ويملأونها بالحساسة المتصنعة والآراء الفلسفية والحكم الخلقية في لهجة تارة تكون بكائية وتارة تكون خطابية . على أن هذه الدرامة لم تلبث أن نزلت الى مكان المأساة العامية (الميلودرام) ، وهي درامة تسير بالموسيقى وتفيض بالضربات المسرحية العنيفة ، والمواقف الشديدة المخيفة ، والعمل الروائي المعقد ، وتدين بنجاحها الى إثارة الشعور وإهاجة الوجدان . ثم أدرك الدرامة التحول وأخلقها الترك فامحت من المسارح حوالى سنة ١٨٣٠ حتى جاء أرباب المذهب الابتداعي فنفخوا فيها من روحهم وبعثوها الى الحياة في شكل جديد ، واختاروها ميداناً للمعركة الحاسمة بينهم وبين رجال المذهب الاتباعي ، فرفع هوجو لواءها وشرع منهاجها في مقدمة كرومويل سنة ١٨٢٧ وجعل مميزتها الظاهرة امتزاج الجد والترفع بالهزل والمجون على نحو ما تجد في روايات شكسبير . ثم أخذ هذا المذهب الحديث يتحلل من قواعد المذهب القديم ، ولا سيما قانون الوحدات الثلاث كما ترى ذلك ظاهراً في روايات الزعيم كهرناني وكرومويل وماريون دلوْرم وروي بلاس وبيرجراف الخ . على أن سهم الابتداعيين قد طاش ، وأملهم في اصلاح المسرح قد كذب . فقد تجد في روايات هوجو درراً من الشعر الرصين ، وغرراً من المقطوعات البليغة ، وصوراً من المواقف التي تسترق الشعور وتملك القلب ، ولكنك تجد بجانب ذلك البناءَ الواهنَ والاحالة القبيحة والعمل المرتبك والتاريخ المشوه ، فضلا عن أنه أحل الطباق والمقابلة محل النظر والملاحظة ، وملأ المسرح بالانماط الغريبة من الناس كقاطع الطريق الشهم (هرناني) ، والخادم الوزير (روي بلاس) ؛ ولم يجد في طبقة السراة إلا أنماطاً ممقوتين أو مجرمين ، أما الطبقة السفلى فهي عنده مستودع العواطف الكريمة والأخلاق القويمة . ثم إن الدرامة الابتداعية (Romantique) خلت خلو الميلودرام من درس العواطف وتحليل الأخلاق ، وتعدت حدود المنطق في سير العمل ، وسترت كل ذلك بسيل من الحوادث الخارقة ، والمسائل المعقدة ، والمفاجآت الدهشة ، وما يتخلل ذلك من المبارزة والقتل والتسميم والخطف والتعرف . لذلك لم يصطبر الناس على هذه الدرامة طويلا فملوها وأغفلوها ، وحلت محلها في المسارح والقلوب في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الملهاة الاجتماعية ، أو الملهاة الحديثة ، أو الملهاة المبكية ، أو الدرامة الواقعية . وهي في الحقيقة طور من أطوار الدرامة التي بدأها (ديدرو) ورفع سمكها اسكندر دوماس الصغير ، وأميل أوجييه وڤيكتوريان ساردو . تستمد من الدرامة التاريخية عناصر الجد ، ومن ملهاة (اسكريب) فن التعقيد ، ومن قصة بلزاك درس العادات وتحليل الأخلاق ، وتدور موضوعاتها على بحث المسائل المتعلقة بالمال والأثيرة ، وما ينجم من صراع الطبقات ، وصدام الجماعات ؛ وتعنى على الأخص بوصف العادات والسعي في تهذيبها وإصلاحها . وكان لاسكندر دوماس الفضل في تطبيق المذهب الواقعي على هذه الملهاة أو الدرامة بتأليفه ذات الكاميليا (La dame anx camelias) وهي درامة جريئة الفكرة ، طريفة البحث ، جديدة الشكل ، أحدثت في المسرح انقلاباً خطيراً كان له أثره ونتيجته حتى اليوم . لأن المؤلف كان أول من زين المسرح بالأثاث الجديد ، وأظهر الأشخاص في اللباس العصري ، ومثل البيئة الحاضرة في شكلها الحقيقي ؛ فهو خالق الملهاة الحديثة (La comedie modernee) كما خلق من قبلها الملهاة العلمية (Pièce à thèse) وهي مبنية على نظرية سماها المسرح النافع

(Le rhèatre utile) ملخصها أن الكاتب المسرحي يجب أن يبادر الى حل المشاكل الأجتماعية على المسرح وإلا كان مضحكاً مهرجاً. يجب أن يعرض على الناس ما يشغلهم من مشاكل الأسرة ، ويثقلهم من أحوال المجتمع ، ثم يناقش هذه المسائل ؛ ويحل هذه المشاكل بتغليب الخير على الشر . وإقرار الحب فى النفوس مقر المال

وظل المسرح اليوم فى فرنسا جارياً على سننه المشروع فى منتصف القرن التاسع عشر فى شيء من البساطة والسهولة . وأشهر الملاهى الدرامية فى العهد الأخير ما كتبه الأستاذ جول لمتر إما تحليلاً للعواطف (كالثائرة) و (الغفران) ، وإما زراية على ذميم العادات (كالنائب ليفو) . وكذلك الأستاذ هنرى لافادان عنى بدراسة المجتمع الفرنسى الحديث ؛ وعرض لما ينجم عن المنافسة بين طبقاته من المشاكل المعضلة والمسائل العويصة فى رواية (أمير أوريك) . ثم المنطقي الجبار بول هرفيو فقد عالج المشاكل الاجتماعية التي تتولد من الزواج والطلاق ، ونحا فى بحثها منحى اسكندر دوماس الصغير فى رواياته العلمية (Piece à thése) ولكنه كان أكثر منه بساطة وأشد جفاء . كتب فى ذلك ملاهيه المشهورة ، وهى التيه (Le dédaie) ، والكلبتان (الكماشة) (Les tenailles) ، وقانون الرجل (La loi de l'homme) ؛ واعرف نفسك (Connais - toi) ، وشوط القبس (La course du flameau) ولا تزال هذه الرواية الى اليوم أبلغ روائعه وواسطة بدائعه . ثم الأستاذ (بريو) مؤلف القباء الأحمر (La Robe rouge) ، والأستاذ فرنسوا كوريل مؤلف الدمية الجديدة ، ونشوة الحكيم والأستاذ (الفريد كابو) مؤلف الحظ (La veine) والطير الجريح ، والأستاذ (هنرى برنستين) مؤلف السارق ، والسر ، وشمشون . ولا نريد أن نسترسل فى ذكر أسماء الكتاب المعاصرين ، فأكثرهم لا يزالون يؤلفون ويرزقون . وإنما ذكرنا منهم من سبق لنقول لك إن ما ألفوه قد يطلق عليه أحياناً اسم الدرامة ، وأحياناً اسم الملهاة الدرامية (Comédie dramatique) أو الجدية . والاسم الثانى أدق لما ذكرناه من الفرق بين النوعين

هذا مجمل ما أتى على الدرامة من الأطوار فى فرنسا . أما فى أسبانيا فالمسرح قومى محض ، ولد فى الكنيسة وظل على صفته الأمية حتى جاء عصر النهضة ، فجنح بعض الكتاب الى بناء المسرح الأسبانى على الطراز الأغريقى ، ولكن ذوق الجمهور أحالهم عن ذلك القصد وصرفهم عن محاكاة المأساة الأتباعية (Classique) فسخروا من قانون الوحدات الثلاث . وجمعوا فى الرواية الواحدة بين الحوادث المضحكة والمواقف المفزعة . وبين سراة الطبقة العليا وصعاليك الطبقة الدنيا . ثم كانوا يعقدون العمل ويفخمون الأسلوب ، حتى سرت من روحهم نفحة الى كورني ، وكان الشرف محور مآسيهم ، وموضوع حوادثهم ، ومكان قوانينه الصارمة منها مكان القدر من مآسى الأغريق . على هذه القواعد والصفات كتب نابغهم الخالد لوب دى فيجا Lope de Véga (١٥٦٢ — ١٦٣٥) مآسيه ، وهى لا تقل عن ألفى مأساة ، يدخل منها فى باب الدرامة الروايات التاريخية (ككشف العالم الجديد) وروايات (سان سكر منت) كوارث السماء . وقد تميز هذا الكاتب بالخيال الخصب ، والقريحة المتقدة ، والتنوع البديع ، والقدرة المعجزة على تصوير الأخلاق ، ولا سيما أخلاق النساء . وكان همه أن يعرض الحوادث دون أن يشرح أسبابها ، ويمثل الحياة الحقيقية دون أن يطرز أثوابها . ثم يليه فى النبوغ والأثر (كالدرون دى لاباركا) (١٦٠٠ — ١٦٨٠) . وقد بقى من دراماته اثنتان وسبعون درامة أشهرها (الحياة حلم) و (كرامة المولى) . وأما فى انجلترا فقد ولد مسرحها فى الكنيسة أثناء العصور الوسيطة كما كان الأمر فى فرنسا وأسبانيا ، وكذلك لم يقو تقليد الكتاب والشعراء لآداب النهضة على الحيلولة بين الدرامة الحديثة وبين الانتشار والتقدم . ففى القرن السادس عشر جاء (مارلو) فهز النفوس وحرك المشاعر بمآسيه (ادوار الثانى) و (يهودى مالطة) و (وموت الدكتور فوست وحياته) . ولكن شكسبير ظهر فأخفت ذكره ووضع قدره . وكان القدماء من أرباب المذهب الاتباعى يذكرون شكسبير بالسوء ، ويتناولونه بالنقد حتى لقبه فولتير : (بالمتوحش السكران) . أما أرباب المذهب الابتداعى فيرونه مثال الفن الروائى ، ورسول الشعر التمثيلى . وقد سردنا لك فيما سبق طائفة من مآسيه فى بعضها ما يشبه الدرامة ، ولكن دراماته الحقيقية هى : صاع بصاع ، وتاجر البندقية ؛ وقطعه المقتبسة من تاريخ انجلترا ، كالملك حنا ، وريشار الثانى ، وهنرى الرابع ، وهنرى الخامس ، وريشار الثالث ،

ودرامات شكسبير[1] على الجملة ضعيفة البناء ، بعيدة الأمكان ، متكلفة الأسلوب . وقد أراد أن يمثل فيها مناحى الأنسانية كلها ، فجمع بين العظيم الرفيع والعامى الخليع والمضحك الساجن ، وجعل العواطف الرقيقة الوادعة بجانب الأهواء العنيفة الفاجعة ، ولم يقنع بتمثيل الحوادث مجردة ، بل حرص على أن يصور الأهواء والعواطف التي صدرت عنها وتولدت منها

وأما فى ألمانيا فليسنج (١٧٢٩ — ١٧٨١) هو خالق مسرحها القومى : وقف بين مواطنيه وبين المأساة القديمة ، فحال بينهم وبين تقليدها ، ودعا الناس قبل الابتداعيين إلى الأخذ عن شكسبير ، وإلى وضع الأساس لبناء المأساة العصرية . وأشهر مآسيه (منا درنهلم) و (ناتان الحكيم) و (أمليا جالوتى) . أما جيته فقد جمع بين الذهن القديم والعبقرية الحديثة . وقد ظهر ذلك جلياً فى دراماته ، وأشهرها (جوتز در ليشنجين) و (تركاتو تاسو) و (إجمنت) و (فوست) . فأما (جوتز) فهى صورة قوية — وإن تكن غير جلية — لألمانيا فى أواخر العصور الوسيطة . وموضوعها أن السيد جوتز لا يعترف لأحد بالسلطان غير الأمبراطور ، فهو يشعل الثورة فى رؤوس الفلاحين ، ويقودهم لمحاربة النبلاء والكهنة ، ثم ينتهى أمره بالأسر والسجن فى قاع مظلم بقية حياته . وأما درامته فوست فهى تجده وخلوده تجدها غامضة فى جملتها ولكنها رائعة فى تفصيلها . موضوعها أن الدكتور فوست تبرمه الحياة وتعنته الوجود ويكربه فراغ نفسه فيتعاطى السحر ، ولكن اليأس يحتوشه فيدفع به إلى الانتحار . وبينما هو متردد بين الحياة والموت إذ يفجاه قرع الأجراس المؤذنة بدنو عيد الفصح فيذكره بقيامة المسيح ويأفكه عن عزمه المشئوم ، إلا أن الشك يعاوده ، فيدفعه إلى محالفة الشيطان فيبيعه نفسه على أن يمتعه بزهرة الحياة ونعيم الدنيا . فيؤتيه الشيطان من كل شىء إلا السعادة ، فيشرف على الموت ، إلا أن مازى تدركه فتنجيه

وعلى طريقة جوت كتب صديقه شيلر دراماته الرائعة كدرامة اللصوص ، ودون كارلوس ، ووليم تل . وأنبه الكتاب الروائيين فى ألمانيا اليوم هو (جيرار هوبتمان)

ومن فحول الدرامة فى العصر الحديث الكاتب النرويجى (جوهان إبسن) (١٨٢٨ — ١٩٠٦) وكان ينزع فى مآسيه الدرامية نزعة فلسفية اجتماعية ، فهى من الدرامات العلمية أو الرمزية ، وقد سما فيها بقوة الفرد وهمته إلى أبعد غاية وأرفع منزلة حتى ولو ناقض ذلك الدين والتقاليد . أشهر دراماته بيت العروس (La maison de poupée) ، والأرواح ، والكنار الوحشى - -

يتبع **(الزيات)**

---

(١) كان شكسبير يسمى بعض رواياته مآسى ، وبعضها ملاهى .. ولكن معنى هاتين الكلمتين كان يختلف إذ ذاك اختلافاً شديداً عما نريده منهما الآن . فقد كانوا يطلقون الملهاة على كل رواية خيالية الموضوع سواء أضحكت أم لم تضحك ، والمأساة على كل رواية حقيقية الموضوع سواء تأثر بالخيال أم لم يتأثر .

من مشكلات الحياة

قصة فتـــاة

تلقينا هذه الكلمة من فتاة سورية فلخصناها وعرضناها على القراء كما شاءت . وسننشر فى موضوعها ما نراه أحجى بالنشر وأدنى الى الغرض

كثيرات هن اللواتى يغبطننى على حياتى ، ويتمنين لو أتاح لهن الحظ حياة مثلها . يرون فىّ كما يرى بقية الناس شابة جميلة ، أربح من وراء مهنتى مبلغاً يدنى حياتى من الرفاهية ، وماذا أبتغى من الحياة بعد ؟ . . .

ولكن آه ! لشد ما أعانى من الألم فى اخفاء حقيقة نفسى ، وظهورى أمام الناس بهذا الوجه الباسم ، والعينين المتلئتين نشاطاً واغتباطاً وبهجة . حقاً إن أشقى الناس ذلك الذى ينزل الى قرارة نفسه ، وهناك فى أعماقها يدفن ما يعانى من ألم ممض وشقاء ملازم — وهكذا الأيام تمر ، والسنون تكر ، وآلامى مدفونة لا أستطيع الجهر بها حتى لأقرب الناس إلىّ ، لأنهم هم مسببوها ومُصَيِّبوها من حيث يشعرون أو لا يشعرون . . .

ولدت فى أحضان الترف والنعيم ، ورببت فى حجر الدلال والرفاهية ، محاطة بالحب ، مغمورة بالأعزاز ، ولكن ما كدت أتجاوز العاشرة من العمر حتى أصيب والدى بنكبة مالية زعزعت كياننا وقلبت كل شىء رأساً على عقب . كنت صغيرة حينذاك ، ومن كانت فى هذه السن لا يهمها إلا بالمرح واللعب ، ولكن كان الأمر معى على النقيض ، بدأت أشعر بفداحة المصاب وأتألم بقلبى الصغير ألماً هادئاً ساكناً ؛ ولما كنت بكر والدىّ ، وكنت محور آمال أبى لما يرى من جدى واجتهادى فى المدرسة ، كان يؤثرنى بعطفه ويخصنى بمحبته . كان لا يرى بداً من تعليمى والأنفاق علىّ . وفى الرابعة عشرة من عمرى أرسلنى الى مدرسة لبلية أجنبية بعد أن نلت الشهادة الابتدائية بتفوق عظيم ، ولقد مضى على هذه الحادثة ما مضى وأنا أتصورها بنت الساعة . أودعنى ذلك الوالد الحنون المدرسة ، وأوصى بى الرئيسة والأخوات خيراً . وبعد ثلاثة أيام زارنى قبل سفره ليستفهم عما إذا كنت فى حاجة الى شىء ؟ وأعلمنى بعزمه على السفر ، وزودنى بنصائحه الغالية ، فاغرورقت عيناى بالدموع ، وتكلفت الابتسام لأخفى ألمى لهذا الفراق الذى كان أول عهدى به ؛ فضمنى الى صدره وغمر رأسى بقبلاته ثم بكى ؛ وكأنه أبصر بعينى بصيرته ما ينتظرنى من ألم وشقاء

قضيت حياة المدرسة ، وبدأت حياة العمل لأرفه عن هذا الوالد الحنون بعض ما يعانيه فى إعالة أمى وأخواتى ، مغتبطة فى قرارة نفسى بأننى استطعت أن أكافئه بعض المكافأة . ولكن جمالى وثقافتى وسيرتى الحسنة بين أترابى كانت تستثير الناس لطلب يدى ؛ وما من شاب من الطبقة الراقية فى تعليمها أو فى ثروتها إلا تمنى أن أكون له ، ولكن كان الجواب دائماً سلبياً ، ولما كان قلبى لم يتفتح لحب بعد ، كنت لا أعير هذه المسائل شيئاً من الاهتمام ، وكنت أعتقد أن كل فتاة تقدم على الزواج مجنونة ولا أريد أن أكونها

قاوم أبى تلك النكبات التى كانت تهاجمه بصبر وثبات ، ولكنها أخيراً خرجت عن طوقه فأصيب بالشلل ، وها هو الآن ليس بالميت فينسى ولا بالحى فيُرجى . وخلف لى أعباء ثقالاً لا قبل لمن كانت فى مثل سنى باحتمالها ، وشعرت بخطورة المسئولية الملقاة على عاتقى ، فكنت أقضى نهارى فى العمل على الآلة الكاتبة وأعود فى المساء باشة هاشة ضناً بوالدتى عن أن أحملها هماً فوق هم ، وبأخواتى اللواتى ينتظرن من عودتى الملاطفة والحلوى عن أن أخيب أملهن . المستقبل قاتم لا ألمح فيه قبساً من أمل ، والغد مجهول لا أعلم ماذا يحمل بين طياته ، ولا أدرى ماذا يكون المصير

طالبو الزواج يريدوننى بالحاح ، وأمى ترفض بدعوى أن ليس بينهم من يستحق يدى ، فكل شاب لا يخلو من عيب ، وهى تريده ملاكاً لملاكها ، إذاً فلننتظر ولننتظر ، ولكن الانتظار طال . وفهمت ، ولكن فى وقت متأخر أنها محاولات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب . فشقيقاتى الصغيرات تزوجن ، ووالدتى لم تبد فى أمرهن تلك الملاحظات التى عودتنيها ، واثنتان منهن أصبحتا أُمَّين ، وأنا أنظر بعينى والألم يصهر نفسى والأباء يعقد لسانى عن الافصاح عما يخالجنى . هى تريد إبقائى عذراء أشتغل وأشتغل حتى الموت لأعولها مع بقية أطفالها . ولو أنها أفصحت لى عن غايتها لكتبت لها صكاً على نفسى أننى سأظل أشتغل الى أن يكبر أطفالها !! هى تحبنى ، لا أشك فى ذلك ، ولكن هذا لأننى أبذل فى إسعادهم قلبى ومستقبلى وسعادتى !!

لقد ضقت ذرعاً بهذه الحياة ولم يبق فى قوس الصبر منزع . خلقتُ أنثى وحرمتُ ما ينعم به مثيلاتى ويسعدن ، واشتغلت كالذكور وحرمت الحرية التى يتمتع بها الذكور !!

لذلك عولت على أن أطرح هذه الصفحة الموجزة أمام قراء « الرسالة » وقارئاتها علنى أجد بينهم من يرشدنى برأى ينقذنى من هذه الحيرة ؟

(. . .)

من تراثنا العلمي

فضائل مصر لابن زولاق

وصف وتلخيص لنسخة مخطوطة

للأستاذ علي الطنطاوي

قال مؤرخ مصر الأستاذ عنان في كتابه مصر الاسلامية إن لابن زولاق كتاباً يسمى فضائل مصر ، وقد يسمى أخبار مصر ، وإن بعض المؤرخين نقلوا عنه . وقد رأيت نسخة من هذا الكتاب في المكتبة العربية العامرة في دمشق أطلعني عليها صديق الأديب الأستاذ احمد عبيد وهاك وصفها :

* * *

مخطوط يقع في (٦٣) صفحة من القطع المتوسط ، في كل صفحة (٢٥) سطراً ، وهو مكتوب بخط قريب من النسخ ، وليس فيه ما يدل على تاريخ نسخه ، وإنما يوجد في آخره هذه العبارة :

« طالعت هذا الكتاب المسمى بفضايل مصر وصفاتها للشيخ ابن زولاق الليثي رحمة الله عليه وعلى كاتب هذه الحروف ومالك هذا الكتاب الحاج ابراهيم الشكوري الطرابلسي والمسلمين . تحريراً بأواخر شهر ذي الحجة في سنة ١١١٥ ألف ومائة وخمسة عشر »

أما صفحة العنوان ففيها اسم الكتاب :

« كتاب فضايل مصر وصفاتها لابن ذولاق الليثي رحمه الله آمين » وفيها أسماء الذين ملكوا الكتاب ، بعضها ظاهر ، وبعضها غير ظاهر ، وهي مكتوبة بخطوط متباينة :

السيد هاشم باكيكج

الحمد لله .. ملكه أفقر الورى أحمد الرشيدي الشافعي الأزهري .

الفقير عفو ربه الغني عمر العمري

الفقير محمد العمري سنة ١٢٠٩

الفقير محمد سعدي العمري

* * *

وجاء في أول الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على القوم الكافرين . الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى

١ — قال أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن ابن علي بن خالد — راشد بن عبيد الله سليمان بن ذولاق الليثي [1] :

هذا كتاب جمعتُ فيه جملة من أخبار مصر وفضايلها وصفتها ، اختصرته من كتابي الكبير في (تاريخ مصر وأخبارها) ولم أذكر في هذا الكتاب إسناد الخبر ليقرب على من أراده ، وبالله التوفيق

فأول ما ابتدئ من ذلك ، أن الله جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ، ذكر مصر في ثمانية وعشرين وصفاً في القرآن (وعدّد الآيات التي فيها ذكر مصر ، أو فيها إيماء إليها ، وذكر ما قاله العلماء فيها)

* * *

٢ — باب ماروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ستفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فان لهم ذمة ورحماً . (وسرد كثيراً من الأحاديث التي تدلّ على فضل مصر وأهلها ، ولكنه أوردها مجرّدة من الأسانيد ، ولم يذكر درجتها ومخرّجيها)

٣ — ذكر دعاء الأنبياء عليهم السلام لمصر

٤ — ذكر وصايا العلماء لمصر ودعاؤهم لها :

قال سعيد بن أبي هلال : إسم مصر في الكتب السالفة أم البلاد . وقال عبد الله بن عمرو : أهل مصر أكرم الأعاجم ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب عامة ، وبقريش خاصة (وذكر مثل ذلك عن آخرين)

٥ — ذكر من ولد بمصر من الأنبياء ، ومن كان بها منهم

٦ — من كان فيها من الصدّيقين والصدّيقات :

(ذكر مؤمن آل فرعون واسية امرأة فرعون ، وأم إسحاق ومريم ابنة عمران وماشطة بنت فرعون ، وأن إبراهيم تسرى بهاجر أم اسماعيل ، وتزوج يوسف بنت صاحب عين شمس . وذكر مارية القبطية الخ . . .)

٧ — وأن مصر بلد الحكمة والعلم ومنها خرج الحكماء الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمتهم وتدبيرهم ، فمنهم ذو القرنين وهو الاسكندر (وذكر القرية التي هو منها وذكره في القرآن

(١) والمعروف في كتب التراجم أنها زولاق بالزاي لا بالذال

وأنه به سميت الأسكندرية ، وأنه بنى اسكندرية أخرى ببلاد الخزر وثالثة ببلاد الروم الخ . .) ومن مصر جماعة الحكماء ، هرمس[1] وهو المثلث بالنعمة ، نبي وحكيم وملك (وعدّ فيمن خرج منها طائفة كبيرة من الفلاسفة والحكماء ثم قال) فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤها الذين ورثوا الحكم ، من مصر خرجوا وبها ولدوا الخ . وكانت مصر يسير إليها فى الزمن الأول طلبة العلم الخ . . وبمصر من العلوم التى عمرت بها الدنيا علم الطب اليونانى الخ . .

٨ — ذكر من ملك مصر من الطوفان إلى أن فتحت بالاســـلام :

ملك مصر ثلاثة وخمسون ملكا ، أولهم مصر بن نيصر بن حام بن نوح . وآخرهم هرقل الرومى وكسرى الفارسى ، منهم أربعة وثلاثون فرعوناً ، ممن طغى وتكبر وادعى الالـهية ، ومنهم من عمّر أربعمائة سنة وأقل وأكثر ، ولم يكن أعتى ولا أشد من فرعون موسى ، ولم يكن من أولاد الملوك ، وإنما أخذ مصر بحيلة (وذكر هذه الحيلة ، ثم جاء بأخبار طويلة عنه وعن بختنصر ، ولم يسم إلا قليلاً من سائر الفراعين)

٩ — ذكر من ملك مصر فى الاسلام من الولاة منذ فتحها عمرو بن العاص فى سنة عشرين من الهجرة الى سلخ شعبان سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة (واثنى عشر)

أولهم عمرو بن العاص وآخرهم جوهر ، منهم أربعة عشر من بنى هاشم ، وعشرة من قريش ، واثنان من الأنصار ، وسبعة وثلاثون من سائر العرب ، واثنان وأربعون من الموالى ، الى أن دخلها المعز لدين الله أبو تميم — بن اسماعيل المنصور بن محمد القائم ابن عبد المهدى ، وصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، وقد عملت فى ذلك كتاباً

١٠ — ذكر من دخل مصر من الخلفاء قبل المعز (عدّ فيمن دخلها منهم ابن الزبير فى الجيش الذى فتح المغرب أيام عثمان ، ومعاوية بلغ الى عين شمس ولم يدخلها ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الخ . . .)

١١ — ذكر عمال الخراج بمصر ، وذكر قضاتها :

ولى بمصر من عمال الخراج منذ فتحها المسلمون الى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة ، واحد وعشرون ، منهم من جمع لهم الحرب والخراج ، ومنهم من انفرد بالخراج (وعدّ طائفة منهم ثم قال :) وقد شرحت ذكرهم فى التاريخ

وأما قضاتها منذ فتحها الى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة فهم واحد وستون قاضياً ، أولهم قيس بن أبى العاص وآخرهم على بن النعمان ، فمنهم من أقام خمساً وعشرين سنة مثل بكار بن قتيبة ، ومنهم من بلغ عشرين سنة وأقل من ذلك ، وأقل من وليها يحيى ابن أكثم ، ولىَ ثلاثة أيام والمأمون بمصر ، ثم صرفه وسيّره معه الى الثغر

١٢ — ذكر من دخل مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن توفى بها منهم

١٣ — ذكر من كان بمصر من عيون العلماء والرواة وطبقاتهم : يزيد بن أبى حبيب ، وعمر بن الحارث ، والليث ابن سعد[1] والمفضل بن فضالة ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب بن عبد العزيز الخ . . وسكن بمصر محمد بن ادريس الشافعى الخ . . وكان بمصر جماعة بعد هؤلاء : أيوب بن سليمان الفارضى ، ويوسف بن يحيى البويطى ، وأحمد بن صالح ، واسماعيل بن يحيى المزنى الخ . . وكل هؤلاء مفتٍ ، ومنهم من يفتى فى علوم ، وقد سارت مؤلفاتهم

وكان بمصر من المحدثين المسندين : حرملة بن يحيى وعيسى بن حماد ويونس بن عبد الأعلى الخ . . والحسن بن على بن زولاق جد أبى ، وجماعة سوى هؤلاء . وكان بعد هؤلاء جماعة منهم محمد ابن زمان واسماعيل بن داود الخ . .

وكان بمصر من الفراض المؤلفين : أيوب بن سليمان والحسن ابن محمد الخ . . . وكان بمصر من عيون حفاظ الحديث محمد بن أحمد بن عبد الحميد الخ . .

وكان بمصر من رواة الحديث والأخبار والفقه : سعيد بن عفير وسعيد بن أبى مريم الخ . . وبعد هؤلاء الحسن بن على بن زولاق جد أبى ، ويحيى بن عثمان الخ . . وبعد هؤلاء على بن حسن بن قديد الخ . .

وكان بمصر من عيون النحويين عبد الملك بن هشام ، ومحمود النحوى الخ . .

وكان بمصر من عيون الشعراء الخ . ونصيب وجميل وبها توفى . والأخوص وابن قيس الرقيات وأبو نواس الخ . . وخمفر

(١) قال فى موضع من الكتاب أن هرمس هذا حوادريس

(١) سنفرده بالترجمة فى (رسالة) آتية

ابن خذار ويوسف بن المغيرة والحسن بن عبد السلام واسماعيل ابن أبي هاشم ومحمد بن الحسن الخ . .

وكان بمصر من المتكلمين حفص الفرى واسماعيل بن يحيى الخ
وكان بمصر من النساب هانئ بن المنذر ومحمد بن أحمد الحداد الخ
وكان بها من الزهاد وأصحاب الوعظ سليمان بن ... (وعدّ جماعة)

١٤ — ذكر عيون أشراف مصر ومن دخلها من آل أبي طالب وأول من دخل منهم :

قال : كانت مصر دار تشيّع منذ أيام محمد بن أبي بكر ، وهرب من مصر جماعة من شيعته — عند دخول مروان بن الحكم اليها وماصنعه بأصحاب مسجد الأقدام — وكان أهل مصر لا يؤولون في فتاويهم إلا بما يرد جواب جعفر الصادق رضي الله عنه

وسافر إلى مصر جماعة من العلوية ، وكان أول علوى دخل مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبي طالب ، دخل يدعو إلى بيعة أبيه وعمه ، فسعى به إلى حميد بن قحطبة أمير مصر ، فراسله سراً إشفاقاً عليه الخ . . وتوفى على بن محمد بريف مصر الخ . .

ثم دخلها اسحاق بن جعفر بن محمد الخ . . ومعه زوجته نفيسة بنت زيد وتوفيت بمصر فأراد حملها إلى المدينة فسأله أهل مصر دفنها بمصر ، واتخذوا قبرها مشهداً وهو باق إلى اليوم معروف . ثم دخلها محمد بن جعفر الخ . . وكلثوم صاحبة القبر المشهور ابنته (وذكر سائر من دخلها منهم وأخبارهم ووفاتهم في فصل طويل)

١٥ — ذكر من حدث بمصر من ولد أبي طالب (عدّ أسماء جماعة منهم ثم قال) ولو شرعت في شرحهم لخرج الكتاب عن فنه

١٦ — ذكر من عدّل بمصر من العلويين وقبل القضاة شهادتهم

١٧ — ذكر من كان بمصر من وجوه العباسيين

١٨ — ذكر التشيع بمصر والبيوتات المتشيعة :

قال يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر : أقلبت [1] أهل مصر عن التشيع إلا جماعة : يعني بيت بني لهيعة وبني نباته ، وكان أهل مصر يكتبون بمسائلهم إلى جعفر الصادق رضي الله عنه ولا يعدلون عن فتياه . ولما قدم عليهم اسحاق بن جعفر حفوا به كالكعبة ، ولما توفيت زوجته نفيسة الخ . .

وأما البيوتات المعروفة بمصر بالتشيع المكشوف قديماً فمنها : عبيد الله بن لهيعة وعباس بن لهيعة ، وكان الليث بن سعد فقيه مصر لما أحرقت دار عبيد الله بن لهيعة أرسل إليه الليث بألف دينار وقال استعن بهذه واعفنا من فضائل على بن أبي طالب ، فأخذها عبيد الله وأنفذ إليه حديثاً من فضائل على ليغيظ به الليث :

ومنها بيت الحسن بن على بن زولاق جد أبي . بيت علم ونسك وفقه ورواية ، وإنما احتمل له التشيع لفقهه وإتقانه وتفقهه في الرواية ، وكان مقبول الشهادة منذ سنة عشرين ومائتين إلى أن توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وكان عليه قولا لا يملى حديثاً أو يبتدئ بفضائل على رضى الله عنه

وكان بعده ابنه الحسين جدى ، وابن ابنه ابراهيم والدى رحمه الله . ومنهم . . (وعدّ طائفة منهم)

١٩ — ذكر من كان بمصر من عيون الفرسان

٢٠ — ومصر فرضة الدنيا الخ . . وكذلك ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين والى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر

ومن جهة دمياط والفرما ، فرضة بلد الروم وأقاصي الأفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام إلى حدود العراق

ومن جهة الاسكندرية فرضة أقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب وبلد البربر والحبشة والحجاز واليمن

وأما ما فيها من ثغور الرباط ، فمن ذلك رباط البرلس ورباط رشيد ورباط الاسكندرية ورباط ذات الحمام الخ . . وما ينضاف إلى هذه الثغور وجهاتها الخ

وكانت برقه وطرابلس من ثغور مصر إلى أن خرجت منها في سنة ثلثمائة فأضيفت إلى رباط المغرب

٢١ — وأما المساجد الشريفة (فعد منها كثيراً ثم قال) وبمصر مساجد الصحابة سوى ما ذكرناه . . . عدتها مائتين ثلاثة وثمانين مسجداً (؟) كانوا يبنونها بالآجر الأحمر ويبنون منازلهم باللبن وأ كثرها باق إلى اليوم . منها . . (وعدّ طائفة منها ، ثم قال) هذه مساجد الخطط التي بناها أصحاب رسول الله (ص) سوى ما حدث بعدهم وبعد استقرار الخطط الخ . . وبالقرافة ونواحيها مساجد منها : مسجد الاجابة ، ومسجد الكرب ، وبها دار الأبرار

٢٢ — وبمصر من البقاع الشريفة :

(عدّ ما شاء ثم قال :) ولولا أني اشترطت الاختصار وأن أذكر عيون كل من الأخبار لأطلت كتابي هذا

للبحث بقية علي الطنطاوي

(١) لعلها أقلبت

من الأدب الأندلسي :

٣ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

رأينا فى المقال السابق كيف راح ابن شهيد يتهكم بالأدباء الذين غمطوه فضله حقداً عليه، وحطوا من قدره حسداً له، وقد أبدى ابن شهيد – وهو بسبيل الكلام على أدب هؤلاء الأدباء – كثيراً من الآراء فى النقد والبيان هى أهم وأقوى ما اشتملت عليه التوابع والزوابع، بل هى أهم وأقوى ما لابن شهيد من الآثار الأدبية، حتى من شعره على عذوبته، ومن نثره على ملاحته، فنحن بلا خلاف نعتقده الناقد الأول بين النقاد الأقدمين فى الأدب العربى، ولكنا بلا خلاف لا نعتبره الشاعر الأول، ولا الكاتب الأول. ولما كانت هذه الآراء قد جاءت متناثرة فى الرسالة، رأينا من الخير أن نجمع شتاتها وأن ننظمها فى سمط واحد، حتى نتبين منها مذهب الرجل فى النقد واضحاً جلياً. وإذا كانت هذه الآراء قد شابها شىء من حقد ابن شهيد وضغنه على معاصريه، إلا أنها آراء صحيحة ثابتة، تزداد على طول الزمن صحة وثبوتا. وهذه الآراء فى مجموعها تنقسم إلى شقين، شق يرجع إلى شخصية الأديب، وآخر يختص بالآثار الأدبية، وإنما نعنى بشخصية الأديب مواهبه العقلية، واستعداده الفطرى، وسعة معارفه، وهذه ناحية قد أبدع فى بحثها ابن شهيد أيما ابداع، وله فيها آراء قوية لم يسبقه اليها ناقد فيما نعلم؛ فقد حاول أن يستخدم العلم والفلسفة فى دراسة الشخصيات وتفهم الملكات الأدبية فى الشخص، ومقدار استعداده وطبعه، والطبع – عند ابن شهيد – هو أهم ركن فى شخصية الأديب، بل هو المرجع الذى يرجع اليه سر البلاغة. فمن كلامه: «إن البيان هبة إلهية لاعلاقة لها بالنحو والصرف، واللغة والغريب، وإن الاختلاف الى الأساتيذ، والتوفر على الدرس والبحث فى بطون الكتب، كل هذا لا يجدى ولا ينفع إذا لم تكن ثمة فطرة سمحة، ونفس مجلوة، وطبيعة مواتية. وقد روى فى ذلك أنه التقى فى وادى الجن بشيطان أنف الناقة (وهو على علاته زى علم، وزبيل فهم، وكنف رواية) فأراد ابن شهيد أن يناوشه فى اللغة والنحو، وطلب منه أن يطارحه كتاب الخليل وشرح ابن درستويه، فقال الشيطان: أنا أبو البيان. وقد علمنيه المؤدبون، قال ابن شهيد (ليس هو من شأنهم، وإنما هو من تعليم الله حيث يقول: الرحمن علم القرآن. خلق الانسان علمه البيان) وانما أنت كمن وسط، لا يحسن فيطرب، ولا يسىء فيلحى، وليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، حتى يكون نفسك من نفسك، وقليبك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه»

وقد بحث ابن شهيد فى مقدار الطبع وتركيبه فى النفوس، وأثره فى صور الكلام وتفويق المعانى، وذهب فى البحث مذهباً فلسفياً فقال: «مقدار طبع الانسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من أصل تركيبه، كان مطبوعا روحانياً يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيآتها، وأروق لباساتها، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه، كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال» ومن رأى ابن شهيد أن للأعضاء الظاهرة تأثيراً على الملكات الباطنة، فتجده يقول فى جماعة من أدباء قرطبة «إنهم يدركون بالطبيعة، ويقصّرون بالآلة، وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم، والباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن القدار الطبيعى ما يعين على ذلك بالحسّ وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وازوراء الأرنبة»

وهذا المذهب قريب الشبه من مذهب النقاد الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الذين استخدموا القوانين العلمية فى النقد الأدبى ودراسة الشخصيات، وهو أشد قرباً من مذهب الناقد المشهور «سانت بوف». فقد كان هذا الباحث يعمل على تطبيق علم التشريح، وعلمى – الفسيولوجيا والبسكولوجيا – على تراجم الشعراء والكتاب، وكان يتعمق فى بحث النفسيات، ويهتم بالعرض كما يهتم بالجوهر، ويبحث عن شكل صاحب الترجمة الظاهر، من الطول أو القصر، والنحول أو البدانة، والقبح أو الجمال، ليستطيع أن يدرك مقدار استعداده ومواهبه، وما عنده من صفاء الروح وقوة الطبع. ولكن ابن شهيد كما ترى

له فضل السبق الى تقرير هذه الآراء ، ولقد أصاب ابن شهيد في كل ما قرره ، ووفق في شرحه وتعليله ، فلا جرم أن الطبع هو سر البلاغة ، ومبعث الصفاء وحسن الرونق في صور الكلام ، وأن علوم اللغة والنحو والتصريف لا تجدي مع القلوب الغليظة ، ولا تخدم في الفطن الجئة ، وإنما يسمو الكلام ويرتفع بقدر سمو طبع قائله ، وشرف نفسه وصفاء روحه ؛ وليس معنى هذا أن ابن شهيد يطلق الكلام في الحط من قيمة علوم اللغة والغريب ، أو ينكر فائدتها في تكوين شخصية الأديب ، بل إنه يقر بفضلها ويعترف بفائدتها كعامل مساعد على نمو الطبع وتقوية الروح ، إلا أنه يرى أن استعمال الغريب واستخدام النحو مما يحتاج الى الدقة والبراعة ، فليس من الفصاحة أن تخرج العبارة في أي وضع نحوي ، أو تجري غريب اللغة على أي وجه كان ، ولكن الفصاحة أن تختار أملح النحو وأفصح الغريب ، بمعنى أن تكون العبارة على الوضع النحوي الذي يتفق والمعنى البياني ، وبمعنى أن تكون الكلمات الغريبة في وضعها اللائق ، ومكانها المناسب ، فان بين الألفاظ قرابة يجب أن تراعى في الوضع . وقد جلا ابن شهيد هذه النظرية الدقيقة في حكاية رواها عما كان يقع بينه وبين تلاميذه فقال : «اجلس إلي يوماً يوسف الاسرائيلي ، وكان أفهم تلميذ مر بي وأنا أوصي رجلاً عززاً علي من أهل قرطبة ، وأقول له إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت؟ قال : أي والله ؛ قلت وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر . أفهمت ؟ قال : نعم ، قلت وكما تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه ، قال : أجل ؛ قلت ، أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :

لتجزك أني يوم بانوا فلم أمت ... خفاتاً على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطريق نسير
فغاضت دموع العين حتى كأنها ... لناظرها غصن براح مطير

فقال : أي والله ، وقعت «خفاتاً» موقعاً لذيذاً ، ووضعت «رميت» و «متن الطريق» موضعاً مليحاً ، وسرى «غصن براح مطير» مسرى لطيفاً ، فقلت له أرجو أنك تنسمت شيئاً من نسيم الفهم ، فاغد علي بشيء تصنعه . وكان ذلك اليهودي ساكتاً يعي ما أقول ، فغدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال ... لقد وزنت لروسي بالجبال

في أبيات تشبهه ، وجاء اليهودي فأنشدني :

أعم ركبانهم منعجاً ... وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمر الى آخر القصيدة فأتى بكل حسن . فقال لي ذلك القرطبي شعر اليهودي أحسن من شعري ، قلت : ولا بأس بفهمك إذا عرفت هذا ، ولم يزل يتدرب باختلافه الى حتى ندي تربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقه . . »

والظاهر أن مسألة استعمال الغريب واختيار الألفاظ كانت من المسائل التي شغلت أذهان النقاد في عصر ابن شهيد وقبله ، فقد عالج هذه الناحية أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ؛ وكان من رأيه « أن تخير الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض من أحسن نعوت الكلام وأزين صفاته ، فان أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه . . . فينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقا هاديه[1] لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر أطراره ، فتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ، ومقرونة بلفقها ، فان تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام » والظاهر أن العسكري قد تابع غيره في هذا الكلام ، فقد روى عن أبي أحمد . . أنه قال : « كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب ، نختلف الى مدرك نتعلم منه الشعر . . فقال لنا إذا وضعتم الكلمة بلفقها كنتم شعراء » وقد يطول بنا القول ، لو أخذنا نتقصى أقوال النقاد في هذه الناحية ، وإنما آثرنا كلام العسكري لأنه في مجموعه قريب الشبه بكلام ابن شهيد ، فقد قال بتآخي الكلمات ، وتخير الألفاظ ، ومراعاة الحروف ، وهذا هو معنى قول ابن شهيد : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة » إلا أن كلام ابن شهيد أدق وأعم ، كما إنه يمتاز بالقول في اختيار الوضع النحوي للكلام مما سماه ملاحة النحو ، وهذا ما لا يسبقه اليه أحد من النقاد ، فحبذا لو درج الأدباء في أساليبهم من هذه الجهة على النهج الذي أوضحه ابن

(١) الهادي العنق

من شعر الشباب

من القلب

« مهداة إلى صاحب الملاح التائه »

قلبيَ الخفّاق أضناهُ الحنين وبَرَته الذكريات القاتلهْ
وهو في ذكراه مُلتاعٌ حزينْ يتعزّى بالأماني الخاتلهْ
ضجّ في أنحائه الحبُّ الحبيسْ وسرى في الكُرَة الكبرى صداهْ
إنْ هَفَتْ للحبِّ أطماح النفوسْ (فالحياة الحب والحب الحياه)

يا حبيبي هزّني الشوق إليكْ هزّةَ الغصن بيومٍ عاصفِ
أنا أخْفَى منكَ يا روحي عليكْ شَـدَّ ما أشقى بحبي الجارفِ
ذاك روحي ماثلٌ بين يديكْ فاشفِ جُرحاً من جراحات الهوى
أنا روح ذائبٌ في راحتيكْ ذاب شوقاً من تباريح الجوَى

يا حبيبي أنا في الدنيا خيالْ أتراءى كالشعاع الشاحبِ
مُستطار بين خَبْوٍ واشتعالْ أتعزّى بالخيال الكاذبِ
أنا من دنيا المُنَى مبتئسُ لا أرى في الكون نُعمى أرتجيها
هل جَنَى الأقوام ما قد غرسوا ؟ إنها دنيا تُسَجَّى عاشقيها ! !

ياعزاء النفس ، يا لحن الأسى يادموع القلب : ياشعري تَدَفَّقْ
لحنُكَ الباكي بأنّاتي انْتَسَى فأذِبْ قلبي وبالروح ترفَّقْ
يا مَراح الحب يا مهد الغرام يا هتون الدمع : ياقلبي الجريحْ
هـذه الدنيا كأطياف المنام لفظتْ (موسى) وضاقت (بالمسيح)

في سكون الليل تَبْدُو غرفتي كشراعٍ رَفَّ في اللُجِّ البعيدْ
مَلّ طيف الحب فيها وحدتي فشدا يُسمعني لحن الخلودْ
أنا فيهـا ساهمٌ مُنفردُ أستشِفُّ الكون من عليائها
أنا في روض غرامي غَرِدُ أتلقّى الوحي من أرجائها

عجباً للناس ، سامُوني العـذابا وأرادوني على ما لم أطِقْ
كيف أختار (الثعابين) صحابا أوَليس الغدر في الناس خلقْ ؟!
مَنْ له روحٌ كروح الشاعر فَنِيَتْ في خدمة الناس جميعاً
إنْ هُمُ أنُّوا لظُلْمٍ جائرٍ صَهَرَ القلبَ وأذْرَاهُ دُمُوعاً
مَنْ رأى الشاعر يُعْنَى بشئونهْ من رآهُ مُطْرِقاً في أمرِهِ ؟؟
إنمـا الشاعر آسٍ — في سكونهْ لجراحاتِ الورى في شعرِهِ

اسكندريه عبد الرحمن عثمان علي

شهيد ، فإنهم يخدمون أساليبهم ، ويخدمون لغتهم بإحياء كلمات اللغة المهجورة التي تصلح للاستعمال والتداول

بقيت ناحية في كلام ابن شهيد السابق ، وهي قوله بتأثير الأعضاء الظاهرة على الملكات الباطنة ، فهذا كلام صادق الى حد ، بمعنى أنه لا يطرد في كل الشخصيات ، فليس من الأنصاف أن نتخذه مقياساً للنبوغ ، أو قاعدة نبني عليها الحكم على الآثار الأدبية ، وليس أدلّ على هذا من إخفاق ابن شهيد نفسه حينما أراد أن يسوق الشواهد لاثبات هذا الرأي ، فقد اضطر أن يفضل سهل بن هرون على الجاحظ ، واستباح لنفسه أن يرمي الجاحظ بالغفلة وسقوط الهمة ، والنقص في أدوات الكتابة ، ثم راح يشرح ويدلل على هذا النقص فقال : « وربما أنكر قولنا في شرط جميع أدوات الكتابة ، فقيل : وأي أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالماً غير عاقل وجدلياً غير حصيف . وفقيهاً غير حليم ، وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر ممن ينسبه الى الجاحظ . . . ولو شاهد الجاحظ سهلاً يخادع الرشيد ملكاً ويدبر له حرباً ، ويعاني له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضاً في ذلك كله بعقله وتجربة علمه ، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين المعلم والكاتب فرقاً »

وهذا كلام قد تعثر ابن شهيد في إيراده ، فلا نجده ينهض من جهة إلا ليسقط من جهة أخرى ، فالجاحظ أكتب كتّاب العربية غير مدافع ، وابن شهيد يقول إنه لا يوجد كاتب غير عاقل ، فكيف إذن يرميه بالغفلة وقلة العقل ، وكيف يقدم عليه سهلاً لبراعته في مخادعة الرشيد ، وسياسة الأمور ، وهذه ناحية لا تقتضي من العقل أكثر مما يقتضيه القول في صفة غراميل البغال ، وبنات وردان ، فإن براعة الكاتب إنما تظهر فيما تفه من الأمور . وهيهات أن تخرج العربية خدناً للجاحظ في هذه الناحية . . . ؟

« للبحث بقية » محمد فهمي عبد اللطيف

حب الشكور [1]

إنْ لمْ أُحبَّكِ للسَّنا والنُّورِ … ولُحسنِ وجهٍ في الحياةِ نَضيرِ
ولِسحرِ رُوحكِ حين يختلسُ النُّهى … منِّي فأتبعُهُ اتِّباعَ سَحيرِ [2]
ولِمَا تضمَّنتِ الجمالَ فأفصحتْ … بكِ منهُ ساحرةٌ منَ التَّعبيرِ
ولِمَا ابتدعْتِ ومامنحْتِ منَ الهوى … للكونِ، أوأحييْتِ منْ مَقبُورِ
إنْ لمْ أُحبَّكِ حبَّ مفتونٍ، ولاَ … حُبَّ الأسيرِ، إذنْ فحُبَّ شكورِ!

***

حُبَّ الذي أحييْتِ فيهِ حياتَهُ … ممَّا لديْكِ منَ الحيا المذخُورِ
ووهبْتِهِ مِلكَ الحياةِ، وطالما … قدْ عاشَها كالعاملِ المأجورِ
ومنحتِهِ ماضيهِ بعدَ ضَياعهِ … وأعدْتِ قابلَهُ منَ المحظُورِ
حُبَّ الذي أشرقْتِ في وجدانهِ … فجلوتِ كلَّ محجَّبٍ مستورِ
ونفخْتِ في عزماتِهِ فتوهَّجتْ … وسمَتْ لكلِّ ممنَّعٍ وخطيرِ

***

أوَ فلا أحبُّكِ حبَّ منْ ألهمتِهِ … شعراً، يضيء سناهُ كلَّ شعورِ
شعراً جمعتُ منَ الحياةِ زهورَهُ … ومنَ الجمالِ نفحتُهُ بعبيرِ
ومنَ الضياءِ وهبتُهُ آمالَهُ … ومنَ النَّدى علماً كوجهٍ غريرِ!
وبعثتُهُ وَحْيَ الحياةِ وفنَّها … تجلوه ضمنَ جمالِها المأثورِ

***

أفَلاَ أحبُّكِ؟ إنَّهُ لفريضةٌ … حبُّ الشكورِ لواهبٍ مشكُورِ

سيد قطب

(1) من ديوان يصدر أول يناير (2) سحير بمعنى مسحور

عاصفة في قلب

عَيِيتُ بالقلبِ واستنكرتُ أحلامي … ونُؤتُ بالعمرِ واستثقلتُ أيَّامي
حطَّمتُها أمسِ آمالاً مُذهَّبةً … كانتْ تهدهدُ أحزاني وأسقامي
حطَّمتُها وهي في شرخِ الصِّبا مَللاً … ما للمُنَى وفؤادي الموجَعِ الدامي
مالي وللحُلُمِ الرفَّافِ يُسعدُني … في عالَمٍ مائجٍ بالشرِّ ظلاَّمِ
ما قيمةُ العيشِ لا تَلقى بساحتِهِ … من المُنى غيرَ أشباحٍ وأوهامِ؟!
كفرْتُ بالحُلْمِ ماهامَ الغُفاةُ بهِ … فلستُ في هذهِ الدُّنيا بنوَّامِ
أأقطعُ العمرَ كيْ أحظَى بلذَّتِهِ … وهيمانَ تربَ خيالاتٍ وأحلامِ
لدمعةٍ وأنا مُستيقظٌ أرِقٌ … أحبُّ منْ حُلُمٍ كالزَّهرِ بسَّامِ
أصبحْتُ بعدَ الرُّؤى في مَهْمَهٍ حَلِكٍ … من الحقائقِ داجٍ جِدِّ مِظْلامِ
حيرانَ أخبطُ كالمجنونِ مرتقباً … نوراً يفيضُ فيمحُو كلَّ إظلامِ
أسيرُ والدُّجْيَةُ النكراءُ غاشيةٌ … تزدادُ ما زدتُ في سَيري وإقدامي
حتى رَجعتُ — وقد أخفقْتُ في طلَبي — … منَ الشكوكِ ببحرٍ مُزبدٍ طامِ
هي الحقيقةُ ما تدنُو مودَّتُها … ولو وقفْتُ عليْها كلَّ أعوامي

وأنت يا خافقاً فى كهفه صخباً
ختام تمعن فى شجوى وإيلامى
أأنت معبد شك لا أنى قلقاً
أم أنت ياخافقى ناقوس آلام
هذى الحقائق تنأى عنك هاربة
وأنت مازلت فى شوق وتهيام
تفرق الناس فيها كل ناحية
فكم ترى من (معرى) و (خيام)
من عهد (سقراط) لم تبرح محجبة
طخياء، شتان بين النسك والجام
ما روضة برزت للعين سافرة
إذ جادها سحراً دمع الندى الهامى
تهيج فى الصب نار الحب خابية
وتملأ النفس من وحى وإلهام
ترى الطيور على الأفنان حالمة
سكرى تلهى بألحان وأنغام
والنحل يرقص حول الزهر منتشياً
صباً ولوعاً بتقبيل وتضمام
هبت على بشرها هوجاء عاصفة
فخيم البؤس فيها بعد إنعام
لا طائر ناغم فى الروض مرتنح
فوق الغصون ولا نحل بحوام
كالقلب هبت رياح الشك تلفحه
فقطع العمر فى عزم وإحجام
أهكذا الكون أحلام ملفقة
قرت حقائقها فى صدر كتام
تلقى أخا اللب فى بيدائه دهشاً
حيران يدلج فى ريب وإبهام

دمشق — أمجد الطرابلسى

كما أراك

يا شعلة من جنون وصورة للمجون
وهيكلاً للأمانى ومعبداً للفتون
قدست فيك شعاعاً يرف فوق الجبين
منغماً سرمدياً سكبته فى حنين
تلألأ الكون منه وشامه الناس دونى
وتلك كأس الأمانى أترعتها من شجونى
وأنت نبع قريضى وفتنة لعيونى
وصورة فى خيالى وبارق فى دجونى
ولمحة من ضياء مسكوبة بجفونى
وخطرة بضميرى ونغمة فى سكونى
عبدتها فى علاها وإن شجانى حنينى
وأنت وحى خفوق بدا بأفق الفنون

***

فى هيكل الحب شعرى وقعته من أنينى
يا شعلة من جنون وصورة للمجون

حسن محمد محمود

في الأدب الإنجليزي

شارلس مورجان

ومناحى التطور فى القصص الحديثة

بقلم محمد أمين حسونه

— ١ —

إن ظهور رواية شارلس مورجان «صورة فى مرآة» ونفاد طبعتها فى بضعة أيام ، من شأنه أن يوجه أنظارنا إلى كاتب قصصى برز فجأة من بين المؤلفين العصريين ، وامتاز بعبقرية فذة تجلت فى سطور هذه الرواية كما تجلت فى روايته الأخرى

شارلس مورجان

« النافورة » The Fountain التى هتف لها النقدة ورفعوها الى الصف الأول بين الروايات التى ظهرت عقب الحرب الكبرى .

فبينما يحدثنا المؤلف عن هذا النوع الجديد من التصوف « حياة التأمل — Contemplative life » الذى يحيط بفصول روايته كهالة من القداسة ، ويحلق بنا فى الأجواء التى تخلد فيها أرواح أرسطو وأفلاطون وديكارت ، إذ نراه فى فصل آخر ينزل بنا إلى التحدث عن علاقة الأجساد بالشهوة ، أى يعود بنا آدميين تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا ، فيصف فى صراحة مخيفة التبشير باللذة الجسدية وأثرها فى العلاقات الجنسية وصفاً هو أشد وقعاً من الفن الذى ابتدعه الروائى الاباحى د . ه . لورانس

كان القصصيون إلى العصر الفكتورى يهتمون كثيراً بصنع قوالب لشخصيات شاذة ثم يصبون ماء الحياة فيها ويحملون القارئ على أن تعلق هذه الشخصيات بذاكرته . وكثيراً ما كانوا يملأون صفحات مملة باردة يصفون فيها نشأة أبطالهم وعوائدهم وطباعهم ونظرتهم إلى الحياة والدين والأخلاق ، ثم تنتهى الرواية بترجيح كفة الخير على الشر . وكان اهتمام الروائيين فى عصر الملك ادوارد موجهاً إلى تسجيل الحركات والدوافع والفضائل . وكانوا يلقنون البطل أقوالاً يعرب بها عن عقائدهم وأفكارهم ونزعاتهم ودروساً وعظات أخلاقية ، أما الفن الروائى الحديث فيختلف عن هذا كله وينحو منحى جديداً ، فقد جعل كتابه من أهم مظاهره تقريب الحياة إلى ذهن القارئ بأن يشعر كأنه يعيش فى نفس البيئة والجو ، كما يهتمون بتسجيل حركات شخصيات رواياتهم وخواطرهم ومشاعرهم الخفيـة ورسم أطياف أحلامهم وذرات تفكيرهم وارتباطها بنشاط العقـل وإبراز العبقريات المدفونة وتقديسها ، فالرواية الحديثة حوض بلورى تسبح فيه الرغبات والآمال ، والأفراح والأتراح ، وتشف من جوانبه الهواجس والأحلام . . .

ونحن نشعر لأول وهلة بعد مطالعتنا لقصص شارلس مورجان بهذه الصفات جميعاً ، وبقوة جذابة فى الأسلوب وفى اللهجة ، قوة هادئة منظمة تسيطر على الأعصاب وتبـدو من خلالها صفات المؤلف التى لا تمت مطلقاً لا إلى الواقعية ولا إلى التحليلية ، بل إلى تجارب ثمينة وإرادة حديدية وفن إبداعى لم يسبقه إليه أحد

بدأ شارلس مورجان[1] حياته فى البحرية الانجليزية وعمره سبعة عشر عاماً فطاف ببلاد وموانٍ مختلفة ، وقد تولد ميله إلى الأدب بتأثير حادث خفى . ولما زار أكسفورد للمرة الأولى راقته حياة الطلبة ودفعته رغبته فى إتمام تعليمه وتعلقه وشغفه بالأدب إلى أن يؤثر الالتحاق بالجامعة على الاندماج إلى الأبد فى سلك البحرية . غير أن شبوب الحرب العالمية حال دون أن يحقق رغبته فاضطر إلى أن يعود ثانية إلى العسكرية واشترك فى الدفاع عن أنفرس إلى أن سقطت فى يد الألمان فوقع فى الأسر وأرسل إلى أحد المعتقلات العسكرية فى هولندا ثم أفرج عنه عقب الهدنة وعاد إلى انجلترا ليلتحق ثانية بجامعة أكسفورد

كانت أول أعماله الأدبية روايته الأولى « غرفة البنادق » فى عام ١٩١٩ وقد تحدث فيها طويلاً عن حياة البحرية ، غير أنها قوبلت من جانب الصحف والنقدة بقلة الاكتراث لعدم

(١) بعض تفاصيل حياته استقيتها شخصياً من المؤلف بعد أن علم أنى أنقل روايته النافورة إلى العربية

ذيوع اسم مؤلفها . وفي عام ١٩٢٥ أصدر روايته الثانية « احمي لا عبد له » فكان نصيبها نصيب روايته الأولى

أحس مورجان بدبيب الفشل يتطرق الى نفسه ، وانصرف الى الوحدة والمطالعة وخاصة في كتب الفلسفة والتصوف ، وفي عام ١٩٣٢ ظهر في الجو الأدبي للمرة الثانية بروايتين : الأولى « صورة في مرآة » ، والثانية « النافورة » يصفهما كلير اليان انجيل الناقد الفرنسي : « بأنهما ثمرة مجهود طويل دقيق ، أشرفت عليه إرادة جبارة تدل على نضوج في الرأي وقوة في التفكير » ويقول عنه محرر « النوفيل ليتربر » في معرض نقده لفن شارلس مورجان : « بأن أهم مميزات عبقريته تحفظه في التعبير ، ولا يمكن مطلقا اتهامه بالبرود والجفاء لأن الانفعالات المكبوتة قد لا تخلو من الاحساس ، ولهذا فأشخاص قصصه يشعرون ويتألمون ولكنهم يتهامسون دون رفع أصواتهم »

يمتاز أسلوب شارلس مورجان بفصاحة في التعبير ، وربما كانت روايته «النافورة» مشوبة بشيء من الاسهاب في الوصف ، ويمكن أن يقال أيضاً بأن الوضع في روايته الأخرى « صورة في مرآة » غير متناسق في مجموعه ، غير أن بعض نكات المؤلف الطريفة تعطينا شيئاً من الطلاقة الى جانب عبوس الموضوع . وقد جاءنا المؤلف أيضاً بأشباح هم أبسط تكويناً من أبطاله ، يعيشون فوق سطح الموضوع لا في قاعه ؛ مثال هذا : وصفه في القسم الأول من « النافورة » حياة الضباط الانجليز في المعتقلات الهولندية ، والآنسة فولاتون العانس في رواية «صورة في مرآة» وجعلها تلقي الكلام على عواهنه في شيء من المزاح الخطر . ومع ذلك فالمعاني التي يأتي بها المؤلف ترتكز على تلك الصراحة التي يصور بها نفسية أبطاله ، وهو لا يكاد يشرح مسألة هامة حتى يترك المجال رحباً لاثنين أو ثلاثة من أبطاله ، فيختفي وراء شخصياتهم ليلقنهم آراءه وأفكاره .

في رواية « صورة في مرآة » يصف لنا حياة رسام شاب يدعى نيجل فرويز يقابل مصادفة صديقة له كان يحبها منذ سنوات ، فحين يلتقي بها بعد هذه الغيبة الطويلة ينبعث الماضي من قلبه فجأة كعالم كان يجهله . حاول أن يهبها حبه فأخفق ، لأن صورتها الأولى التي كان يهيم بعبادتها قد تغيرت بمرور الزمن ، وكانت أيضاً على وشك أن تتزوج من غيره ، فتترك عريسها وتتعلق بالرسام الشاب وتمنحه قوة حبها السابق ، على حين أنه يشفق عليها فقط لأنه يعطف على ذكرى الماضي ويقدسه .

وتعتبر روايته الثانية « النافورة » رداً على هذه النظرية ، فموضوعها هو التفاهم الفكري بين رجل وامرأة ، والتفاهم الروحي بين رجل ورجل هما في القصة أخصام ، ولكن الخصب الفكري والتوافق في ذلك الأفق العالي من الثقافة يمحو الخصومة ويسمو بهما الى مراتب الآلهة

بطلها لويس اليسون شاب لا يزال في مقتبل العمر ، ولكن لفرط تعمقه في الفلسفة والتفكير يبدو أكبر سناً من حقيقته . وعند ما يتكلم بروية يضطر غيره الى الاصغاء ؛ هو مغرم بالتاريخ لا يدرسه لنفسه ولكن للفلسفة في التاريخ ، يدرس تطور العقل الانساني المشترك في العصور المتعاقبة ويتابع ناحية جلية منه ، وهي أن هناك عقلاً واحداً من أقدم عصور التاريخ الى اليوم ، وسواء أكان هذا العقل عقل افلاطون أو ديكارت أو نيوتن فانه العقل الانساني يحاول أن يخترق الحجب وأن يمزق قناع الغيب

فشارلس مورجان يطبق النظرية الفلسفية الحديثة القائمة على توحيد العقل الانساني ويطبق أثر تصوفه في أخلاق أفراد قصته ، فيقول على لسان أحدهم حين يتلو صلاته في تقوى وخشوع : « عندما كنت طفلا أخذ الله بيدي ، ولما كبرت هربت منه ، وعندما احتجت الى الراحة والسلام بحثت عنه وطفت المدينة بمصباح ، ثم غمرتني الذلة وانحنيت الى الأرض أبحث عنه في الأوكار وتحت صفحات الأزهار ، ولكن لم أجد سلاماً ولا راحة ، وصرت كطفل أو كعالم كبير ضل طريقه فلم أعد أعلم عمن أبحث ، فرميت مصباحي ومفاتيحي وبكيت ، ورأيت فجأة نوره يملأ قلبي ، وعدت الى المدينة فاذا النور لا يزال حيث هو ، واذا بي أصرخ في سجن نفسي بينما الدنيا تتابع الطرق على بابي ، رب أعطني يدك عندما تدعوني اليك »

— ٢ —

نراه يصف الأسرى في المعتقلات الهولندية فيسهب في تسجيل حركاتهم وخواطرهم ، عند ما يتألم الطيار الذي اعتاد الجو فلا يستطيع الصبر على الأسر ، يقول لويس اليسون المفكر الغارق في فلسفته : أتعلم أني حين أطير أصل الى لحظات ينكشف لي فيها الغيب وأرى ما لا تراه العيون كما ترى أنت بالطبع حين تخلو الى نفسك والى أفكارك ، ثم أعود الى الأرض . . . أعود آدمياً مع الأسف كما تعود أنت بعد خلوتك لتختلط بنا وتتكلم معنا

وعند ما يتقابل لويس اليسون مع جولي نارويز — وهي سيدة

شابة انجليزية متزوجة من ألمانى لا تحبه — يعرف أنها كانت تلميذته القديمة وهو فى لندن فتأخذ الذكريات تتفتح فى قلبه شيئاً فشيئاً كما تتفتح الزهرة فى أشعة الشمس وتحاوره قائلة :

— أستاذى . . . كيف ترانى الآن ؟ هل تغيرت ؟

فيجيبها وهو شارد فى تأملاته :

— معاذ الله . . لقد صرت كشبح جميل قام من هذه البحيرة .

فتلذعه بقولها :

— إذاً وداعاً للحم والدم !

تتحول صداقة لويس وجولى الى حب ، هو فى نظرها وسيلة للبحث عن توازن يتغلب على تقلبات الدهر ، أو كما يصفه المؤلف نفسه : « عند ما يتم امتزاج الرجل بالمرأة وهما فى أشد أدوار النشوة ويحاولان أن يعبرا جسر الجسد الى وحدة الروح ، فانهما لابد واصلان الى سخرية ما بعدها سخرية ، ومهما أخطأ الحب من خيال وحرارة وإيمان وابتغاء الخلود بالذرية ، فان الاحساس الجسدى يظل كما هو ، جسمان منفصلان كطائرين يحاولان التلاقى خلال (لوح) من زجاج ! »

والخلاصة أن بطلى هذين النزاعين النفسيين متشابهان كل التشابه ، بنجل[1] فروزن فى السابعة عشرة من عمره ، ولويس[2] اليسون فى الثلاثين ، ولكن كليهما يبدو أكبر سناً من حقيقته ، فنضجت فى الحياة تجاربهما . وصورة الرسام الفنان تتشابه تماماً وصورة الضابط الشاب ، فانهما يمتازان بعمق الارادة وانحصار قوة التفكير المحاط بتكتم يخضع المحيط بهما ، ولوعة الذكرى التى تعذب بنجل وشعوره بالألم من مجرد مرور طيف كلير بمخيلته ، هو نفسه شعور اليسون عند ما يلتقى بتلميذته جولى ويحبها . وقد يمتاز اليسون عن زميله بأنه رجل كثير التفكير ، يسبح فى آفاق عالية ، فعند ما يؤخذ الى الأسر يفرح كالطفل ويقول ، بأنه سوف يخلو الى مطالعاته وتأملاته

فحياة التأمل ما هى فى نظره إلا التاج لآمال الرجال الذين فجعوا وهم فى زهرة العمر

أما كلير وجولى فانهما تختلفان نوعاً ، فبطلة « صورة فى مرآة » بطيئة فى فهم جموح عاطفة الطفل المعجب بها والذى يحبها حباً نادر المثال ، لذا نراها مبتعدة عنه بل تكاد تكون سلبية ، على حين أن جولى ضحية تنازع لعوامل مرتبكة ، وهى لذلك كثيرة الاضطراب مبلبلة الفكر ، وقد تجنب المؤلف أن يثير بشأنها مسألة الجنسيات ، فهى انجليزية ولكنها متزوجة من ألمانى يدعى فون ناروتز ، وشخصية هذا الضابط غريبة حقاً فى الرواية ، فالمؤلف يظهره أمامنا وقد عاد من الحرب مشوهاً مريضاً بالربو ، يقاسى نوبات حادة من الألم ، يقول عنه « إنه ترك مرتبة التفكير وصعد الى أعلى من هذا واستقر ، فهاهو يعود الى داره بآلامه التى لا تطاق ، فيحاول أن يصبر كالـه جبار »

ولكن البارون ، رب القصر — وهو رجل موفور الصحة ، لا يكتم رأيه العملى حيال فون ناروتز فيقول : « إن العالم كمزرعة لا يجب أن يتسامح المرء فى الضعيف فيها وإلا قل الانتاج وحل الخراب ، فالضعيف المريض يجب أن يمحى »

يسمع ناروتز منه هذا ويحاول أن يصبر على الألم ولا يشكو فيقول فى إحدى محادثاته : حقاً إن الرجل القوى يتحكم لدرجة ما فى الموت والحياة

وهو قد جاء الى القصر بآلامه وانتصر على الموت لأنه يحب زوجته جولى حباً عميقاً خالصاً ولأجلها يريد أن يعيش

ولكنه يعلم بعد هذا أن العلاقة التى تربطه بزوجته أصبحت علاقة المريض بالمرض فهى تخونه مع لويس لأنها محرومة منه ، ولو طالبها بالوفاء له وهى شابة ناضجة الأنوثة ملتهبة العاطفة لكان هذا فوق طاقة البشر ، فيقذف بنفسه فى غمرة من المثل الأعلى اليائس ، وأخيراً يصل إلى حالة انفصال تام عن الحياة وحالة هدوء واستسلام وتجلد أمام الآلام ويأخذ الجبار فى الموت فلا يلبث قليلاً حتى تختفى شخصيته

وقد قصد المؤلف بإظهاره أن يطلعنا على صورة من صور النساك الحديثين الذين يعتبرون أن الحرب ما هى إلا تكفير دينى لخطايا البشرية ، ولو كانت شخصية فون ناروتز غير هذا من الخلق لأصبح الموضوع تافهاً ، ولكن إظهاره بهذه الصورة يدل تماماً على طريقة رسم المؤلف لشخصياته

جميع أبطال شارلس مورجان مثقفون لا يعيشون إلا بأرواحهم ، وبالرغم من تحليله النفسى الدقيق فانه لا يسرف مطلقاً فى وصف « تيار الضمير » كما هو الحال فى أكثر المؤلفات الانجليزية الحديثة

فأشخاص مورجان يحكمون عقولهم ويدرس بعضهم أخلاق بعض ، وهم ذوو إرادة قوية ، ولا يمكن للغريزة أن تحكمهم حتى فى أعمالهم ، يسلكون طريقهم الطبيعى ، ويقفون أحياناً يائسين

١ — بطل « صورة فى مرآة »
٢ — « « النافورة »



٦ – بحث فى أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

من تلك الفكوك المتحجرة التى وجدناها عرفنا أنه قد عاش فى الغابات الاستوائية فى أوائل عصر البليوسين نوع من القردة الكبيرة ، وأنه قد كان لنوع من أنواع الغوريلا أو الشمبانزى أو أورانج وتنيو وسومطره كبير الحجم يمت الى الانسان بالشبه من وجوه مختلفة . وأننا نعرف أن أصناف القردة التى تسمى Anthropoids والتى يمثلها قرد الأورانج والسيامى كانت موجودة ، وأنه كانت هناك كذلك أنواع أخرى تختلف كثيراً عما نراه فى نظيراتها اليوم ، إلا أنها كانت من أصل واحد . ولذلك فان من الممكن القول أن ذلك النوع الذى تفرع وتطور منه الانسان كان موجوداً فى أوائل عصر البليوسين

ونحن إذا تقدمنا فى بحثنا الى عصر الميوسين فانه لا يمكننا أن نجد فيه أى أثر إنسانى . وليس فى استطاعة من يعرف أن بحثنا لم يكن إلا قصير المدى ولمدة وجيزة وأن هناك معلومات قيمة جيولوجية لم يكشف عنها بعد ، إلا أن يقول إن الانسان لم يوجد فى عصر الميوسين بشكله الذى نعرفه به . وليس هناك أى شك فى أن أواخر ووسط عصر الميوسين كانت فترة تطور كبيرة مدهشة فى عالم القردة ، دليلنا على ذلك ما قد كشف بين ثنايا طبقات ذلك العصر من متحجرات وبقايا مما لا يقل عن عشرة أنواع من أنواع القردة الكبيرة التى فاق حجمها حجم الانسان . وكانوا عمالقة إذا ما قورنوا بما قد سبقهم من الأنواع الكبيرة . ولما كان الانسان عملاقاً أوليا بالنسبة لباقى المخلوقات وكانت هذه الحيوانات وأحجامها أمام فكرنا ، فانه لا يسع الانسان إلا أن يشك فى أن الانسان قد تفرع فى ذلك الوقت عن فرع منها .

أما معلوماتنا عن هذه القردة فقد بنيناها على ما قد وجدناه من بقايا فكوكها وحطام أسنانها : يقول عنها بعض العلماء إنها بقايا نوع من القردة الكبيرة كان متجها نحو التطور الانسانى ، ولكن لا يمكننا الحكم بذلك من مجرد بقايا لفك أو بضع أسنان ، لأنه قد سبق لنا أن مظهر الفك وشكله لا يدلان على نوع صاحبه كما عرفنا فى انسان البلتدون . ولكن البرهان الحقيقى الذى يمكننا أن ننتزع منه الحقائق الثابتة هو الجمجمة وعظمة الفخذ والقدم ، وهذا ما لم يوفق اليه أحد حتى الآن

لكننا مع ذلك يمكننا القول حدساً بأن قردة عصر الميوسين رغم اختلافها فى الشكل والتكوين عن نظيراتها فى العصر الحالى

بعد تردد ، وهم لا يعملون عملاً متفقاً عليه ولا يتحركون كالآلة ، بل تبدو من خلال شخصياتهم الارادة القوية والشعور باحترام أنفسهم ، وبرغم الحوادث والكوارث التى تتتابهم تراهم محتفظين بنزاهتهم الأدبية وباستقلالهم فى الرأى والحكم

فشارلس مورجان يعد أيضاً من هذه الناحية من المؤلفين الارشاديين ، وهو يوجه قراءه إلى مثل عال واضح محدود . وفى الوقت الذى يتلمس التأليف الروائى الانجليزى سبلاً للوصول إلى نوع جديد ، نرى مورجان يسلك طريقاً مبتكراً ، وهو يشبه فى فنه « برنسيس دى كليف » وغيرها من القصص التى يجمع أبطالها بين الشهوة والاتزان فيفخرون بتحمل آلامهم باحثين عن الراحة فى شعورهم بالاخلاص للمثل الأعلى

وخير ما أختتم به هذه الدراسة المقتضبة أن أردد ما قاله الناقد الروائى للملحق التيمس الأدبى :

« إن الذين تطربهم الشهرة والذين يعترفون بقوة الالهام ويقدرون أيضاً نعمة إظهار الأخلاق على حقيقتها وتحديد العواطف البشرية ورسمها ، والذين يميلون بفطرتهم إلى آداب النثر الفنى الانجليزى وعظمته يستطيعون أن يجدوا كما وجدنا هذه الآثار الرائعة فى روايات شارلس مورجان »

محمد أمين حسونه

لا تختلف عنها فى شىء آخر، وقد وجدت آثار لصغار القردة التى تمثلها نوع الجيبون وتمتاز أسنانها بصغرها، مختلفة فى ذلك عن باقى الحيوانات التى كانت منتشرة فى غابات الملايو . وإننا لا نشك لحظة فى القول بأنه إذا كان هناك عالم حيوانى قد نزل الأرض من كوكب آخر منذ ٧٠٠ ألف سنة لوجد كل الأجناس موجودة بها ما عدا الانسان، وهذا معناه أن الانسان كما نعرفه الآن لم يوجد قبل تلك الفترة، ولكن هل كان الانسان الأول موجوداً فى ذلك الوقت؟ أو هل كان أصل الانسان الذى تفرع عنه موجوداً فى ذلك الوقت؟ . . لا يسعنا إذا نظرنا إلى كال جسم الانسان وتمامه قبل نهاية عصر البليوسين إلا أن نقول إن الانسان فى تطوره أو تفرعه عن شجرة الأجناس (كما سنطلق عليها الآن) قد بَعُد عن أن يكون قرداً أو عن نوع القردة من بدء عصر الميوسين على أقل تقـدير، وهذا ما احتاج إلى ملايين السنين، وربما كان ذلك قبل ذلك الوقت حيث عصر الأوليجوسين

ولنجل اليوم جولة أخرى حيث يقودنا الماضى السحيق الذى يبعد عنا بما لا يقل عن نصف مليون سنة إلى عصر مبكر من عصر الأوليجوسين حينما كانت الغابات تغطى شمال أفريقيا ومنطقة الصحراء الكبرى والسودان، وحينما كان يغمرها نهر عظيم فياض كان يفيض فى الشمال والجنوب مكوناً دلتا عظيمة كانت بمكان دلتا النيل الحالية، وتظهر آثارها فى الفيوم على شكل ربوات عالية من الطباشير، غنية بحفرياتها التى تمثل نوع الحيوان الذى كان يسكن شمال أفريقيـا فى النصف الأول من عصر الأوليجوسين، ولذلك نوجه بحثنا إليها .

فى سنة ١٩١٠ كشف بها عن اكتشافات هامة هى أسنان وحطام أفكاك ثلاثة أنواع غريبة من الأنواع الأولى البائدة . وكان أشد ما أدهشنا فى تلك الأسنان أنها صغيرة الحجم، وأن تلك الأنواع صغيرة الحجم لا يتجاوز حجمها حجم القرد الأمريكى المعروف باسم Marmoset ونسبة حجم جسمها إلى جسم الجيبون توازى نسبة حجم ذلك إلى حجم القردة الكبيرة . إلا أنه قد كشف أن أحدها وهو الذى أطلق عليه Propliopithecus عن صلات تقربه جداً إلى النوع المعروف باسم الجيبون. وإنا نشك فى أن هذا النوع الذى ذكرناه قد يكون أصل قردة الأوليجوسين والميوسين والأنواع التى يطلق عليها اسم الجيبون

وقد وجد الباحثون هيكل قردين آخرين: الأول صغير الحجم (وقد وجدا بالقرب من الفيوم) يظن أنه قد تفرع عن أصل قردة الجيبون وقردة الدنيا القديمة . وفى هذا النوع الذى وجدوه نلتمس القرابة والتشابه المحسوس مع قردة الأيوسين . أما الهيكل الثانى فانه لقرد صغير يظن أنه من حلقات تطور القردة الأولى

وإن منطقة الفيوم هذه قد أعطتنا فكرة عن قردة الدنيا القديمة وتطورها فى عصر الاوليجوسين، وهذه الفكرة تكفينا لنعرف أننا نقترب فى بحثنا ونتعمق فى عصر من الدرجة الأولى لتطور أنواع القردة الى عصرنا هذا الذى تختلف فيـه أنواع القردة الأولى، ولو أن كليهما من عنصر واحد وتركيب واحد

وقد أمكننا من بحثنا فى صخور الاوليجوسين أن نعرف ونرى بوضوح تام أنه لم يوجد فى ذلك العصر أى نوع من الأنواع الانسانية أو القردة، بل وجد أصل كل تلك الأجناس العظيمة

ولم نكن نريد أن نتعمق أكثر من هذا فى بحثنا ونصل فيـه الى عصر سحيق متناه فى القـدم يمثله العصر المعروف باسم عصر الايوسين، إلا أننا علمنا أن العلامة الكبير الأستاذ ف . وود جونز Prof. F. Wood Jones وهو من عباقرة هذا العصر يصرح بأنه يؤيد أصحاب النظرية التى تقول إن الانسان قد تفرع من شجرة الأجناس وابتعد عن باقيها من عصر الايوسين حينما أخذت ذوات الثدى تعدل من شكلها ويتخذ كل منها له صفات ومميزات تميزه من غيره

لذلك نقول إنه قد وجد فى طبقات عصر الايوسين وبخاصة فى الولايات المتحدة وفرنسا متحجرات لأنواع كثيرة جدا من ذوات الثدى البائدة وكلها صغيرة الحجم . وقد وجد ضمنها نوع يشابه القردة التى أطلق عليها اسم Tarsioid وهذا النوع قد باد ولم يبق ما يماثله الآن سوى نوع واحد يعيش فى غابات الملايو سريع الحركة براق العينين واسمها لا يظهر إلا بالليل ويطلق عليه اسم Tarsius

ويعتقد الأستاذ وود جونز أننا فى بحثنا هذا سوف نجد حتما سلسلة متتابعة من الهياكل المتحجرة التى تثبت لنا أن أصل الانسان يرجع الى سلف من أسلاف هذا النوع (Tarsius) وبذلك يعطى للانسان وأصله عمراً يقدر بنحو مليونين أو ثلاثة ملايين سنة ؟

يتبع

نعيم على راغب



تاريخ عام للآداب

عنى بكتابة التاريخ العام من نواحيه السياسية والحربية كثير من المؤرخين فى مختلف العصور ؛ وكان المؤرخون المسلمون فى طليعة من تناولوا تاريخ الانسانية على هذا النحو . وصدرت فى العصر الحديث موسوعات تاريخية عديدة تعالج التاريخ عصوراً أو أمماً ، ولبعضها قيمة علمية ونقدية رفيعة . ولكن تاريخ التفكير الانسانى لم ينل مثل هذه العناية ، وقلما عولج على هذا النحو ؛ ويندر أن يضطلع باحث واحد بمثل هذه المهمة الفادحة المتعددة النواحى ؛ بيد أن هذا هو ما يضطلع به اليوم الكاتب العلامة الايطالى جاكومو رامبوليني ؛ فهو يشتغل منذ أعوام بوضع تاريخ عام للآداب Storia unviersale della Letteratura والمعروف أن إيطاليا تجيش اليوم بنهضة علمية وأدبية كبيرة ، وقد عنيت الحكومة الايطالية بالاشراف على إصدار موسوعة (دائرة معارف) إيطالية هى اليوم من أحدث وأقيم الموسوعات ؛ وهى تشجع الحركة الفكرية بمختلف الوسائل ، والسينور رامبوليني علامة واسع الثقافة ، وكاتب وافر الخصب ؛ ولم يرعه أن يضطلع وحده بكتابة تاريخ عام للتفكير الانسانى ، وقد استطاع أن يصدر حتى اليوم جزأين من تلك الموسوعة الشاسعة ؛ ولكنهما يدلان على ما بذل مؤلفهما من الجهد المستفيض ، وما يمتاز به بحثه من الرسوخ والدقة . ويتناول الجزء الأول الذى تربى صفحاته على الألف ، تاريخ التفكير فى الشرق وفى العصور الغابرة ؛ فالأدب الصينى وشعراؤه وفلاسفته ، والأدب اليابانى ، والأدب الهندى وتراثه الفلسفى القديم ، والأدب العربى فى مختلف نواحيه ، سواء فى الجزيرة أو مصر أو أفريقية أو اسبانيا وصقلية ، ثم الأدب الفارسى منذ سيروس إلى عصرنا ، والأدب التركى ، والأدب التتارى : هذه كلها يعالجها الأستاذ رامبوليني فى الجزء الأول من موسوعته بأسلوب بديع فائق ؛ ثم يعالج إلى جانبها آداب العصور الغابرة التى تغذت منها الآداب الأوربية ، مثل الأدب الفرعونى ، والأدب الأشورى ، والأدب الاسرائيلى ، والآداب اليونانية والرومانية بكل ما وسمت من ألوان الشعر والفن والجمال

ويصل الأستاذ رامبوليني فى الجزء الثانى من موسوعته فى استعراض تاريخ التفكير الانسانى حتى العصور الوسطى ، وذلك بعد أن يستعرض الآداب النصرانية الأولى فى المشرق والمغرب ، ويعرض مراحل هذه العصور الغامضة فى وضوح ودقة ؛ ويخصص عدة فصول قيمة للأدب البيزنطى ، والأدب العبرى فى العصور الوسطى ، ثم يتبسط فى الكلام على الأدب اللاتينى فيخصه بنحو مائة وخمسين صفحة من الألف التى يضمها هذا الجزء ؛ ومما يلفت النظر فى هذا الجزء بنوع خاص أن المؤلف يفيض فى تاريخ الآداب الجرمانية والسكسونية الشمالية القديمة التى قلما يعنى الباحثون بأمرها . وقد عنى الأستاذ رامبوليني فوق ذلك بأن يزين موسوعته بطائفة عظيمة من الصور والنقوش الهامة تزيد فى رونقها وطلاوتها

وكان لصدور هذه الموسوعة الأدبية الشاسعة وقع عظيم فى الدوائر العلمية الايطالية والأجنبية ، خصوصاً وأن مؤلفها مازال شاباً معدوداً من الكتاب الشبان ، ومع ذلك فقد أبدى فى إخراج مؤلفه سعة فى البحث والتحقيق قلما يضطلع بها الشيوخ ؛ وتعتبر الدوائر العلمية أن هذه الموسوعة من أقيم ما ظهر حتى الآن فى تاريخ الآداب العام ؛ وترجو أن يوفق مؤلفها إلى إتمامها حتى عصرنا ، لتغدو مرجعاً بديعاً لمراحل التفكير الانسانى

كتاب عن حياة العذراء

صدر أخيراً كتاب للكاتبة الانكليزية مارى بوردن عن حياة السيدة مريم العذراء بعنوان « مارى النصرانية » ، فأثار ظهوره ضجة كبيرة فى دوائر الأدب . ذلك لأن الكاتبة تعالج حياة العذراء من ناحية إنسانية ومنزلية محضة ، وتعرض بأسلوب مؤثر قصة حبها الأموى ؛ وتدلل الكاتبة على معرفة دقيقة بفلسطين والحياة اليهودية ، ومواطن المسيح ، وحياته الأولى ؛ وتصور لنا « مارى » (السيدة مريم) هائمة بحب ولدها متعلقة

به ، بجزعة على انفصاله ، مرتابة في صحة رسالته الى ما قبل الخاتمة المفجعة . وتقول لنا إنها استندت في تصوير هذه الحياة المؤثرة الى الكتب المقدسة ، وبخاصة الى العهدين القديم والجديد ، والى أقوال السيد المسيح ، والى كتب الصلاة العبرية والتلمود وغيرها ، ثم الى بعض الكتب التاريخية التي تلقي ضياء على هذا العصر ؛ ثم تقول لنا إنها اضطرت منذ البداية أن تخوض ذلك الجدل الخالد الذي يتعلق بأسرة المسيح ، والذي لبث مدى قرون يثير بين أحبار الكنيسة أشد الخصومات

وكتاب السيدة ماري بوردن يعتبر في معنى من المعاني قريناً لكتاب المؤرخ الفرنسي « رينان » عن حياة المسيح ؛ فقد أثار كتاب رينان يوم ظهوره ضجة عظيمة ، ونال من الدوائر العلمية أعظم تقدير ، لأن مؤلفه استطاع أن يتبسط بجرأة وقوة في شرح الجانب الانساني من حياة المسيح ؛ وهذا مافعلته ماري بوردن في بسط حياة العذراء

هنري بوردو يدافع عن فيوليت نوزيير

حكم القضاء الفرنسي أخيراً بالأعدام على فيوليت نوزير ، وهي الفتاة التي قتلت أباها وشرعت في قتل أمها بالسم لكي ترث مالها ، فاستقبل الرأي العام هذا الحكم بالرضى ، ولكن هنري بوردو الكاتب الكبير وعضو الأكادمية الفرنسية — وهو محام قديم — حمل على هذا الحكم ، وأنشأ في دفاع فيوليت نوزيير فصلاً بديعاً قال إنه يصور دفاعه كمحام عن هذه الفتاة القاتلة لو أنه دعى للدفاع عنها . ومما جاء في هذا الفصل : « لقد كان فينا مبقى في هذه القاعة شخص كانت تغلبه الرحمة ؛ وقد حمل هذا الشخص وأتى به وأختفى في مكان لا نعرفه ، في بعض زوايا هذا القصر — قصر العدالة ؛ ولقد كان يحمل الشقاء الانساني مهما بلغ ، وكان يدعو اليه كل بائس وكل مذنب ، ويعاونهم على حمل مصائبهم أو جرائمهم . ولكن فيوليت نوزيير لم تعرفه ، ولم يرشدها اليه انسان ؛ وقد حرمت من كل شيء حتى وجود الاله .

أتجرؤون الآن إذاً أيها السادة المحلفون أن تنزعوا منها الحياة ؟ إن الحياة هي كل ماتبقى لها ، أتجرؤون على نسيان أولئك الذين خلقوا هذا الوحش ورعوه ؟ أتجرؤون أن تنتزعوه من اصوله ، ومن محيطه ، ومن شركائه ، فتحكموا بالاعدام على هذه الطفلة التي لم تجاوز التاسعة عشرة ، والتي اتهمت بأشنع الجرائم ؟ ارجعوا إذاً الى منازلكم ، وتأملوا أولادكم ، واسألوا أنفسكم ماذا عسى يصيروا اليه اذا رفعتم عنهم رقابتكم وحبكم ، واذا حرمتموهم من الشفقة الانسانية ، واذا حرمتموهم من معرفة الله . . . »

رسائل جديدة لشاتوبريان

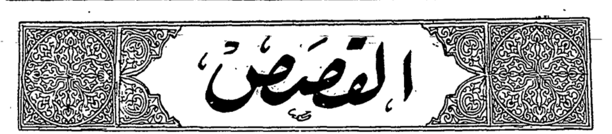
عرضت أخيراً للبيع ضمن مجموعة ثمينة من الكتب والمخطوطات النادرة ، عدة رسائل خطية لشاتوبريان الكاتب الفرنسي الأشهر ، وهي الرسائل التي كتبها الى مدام كوستين ، بين سنتي ١٨٠٤ و١٨٠٦ ، أثناء رحلته في المشرق ، ثم سنتي ١٨٢١ و١٨٢٣ ؛ وقد بيعت هذه الرسائل ، وعددها ثلاثون بمبلغ ٥٤٦٥ فرنكا (أو ما يساوي نحو ثمانين جنيها) ؛ ولكنها بيعت متفرقة كل رسالة على حدتها ، وبلغ ثمن واحدة منها فقط ١٠٢٥ فرنكا (نحو ١٥ جنيها) ، وهي عبارة عن ثلاث صفحات ، يحمل فيها شاتوبريان على الكنيسة ورجال الدين ، ويخاطب صديقته بما يأتي « أأنت إذن حزينة جداً ؟ ولماذا ؟ ألأن عصافيرك قد ماتت ؟ ومن ذا الذي لايموت ؟ أم لأن بلابلي قد طارت ؟ إنك تعلمين أن كل شيء يطير ، وفي مقدمة الأشياء الطائرة أيام حياتنا » ومن هذه الرسائل رسالة فيها ثلاث كلمات فقط وهي « الى الغد أيتها التذمرة ! » ، وقد بيعت وحدها بمبلغ ٢١٠ فرنكات

جائزة نوبل

لبثت جوائز نوبل الطبية مدى حين وقفاً على العلماء الألمان والنمسويين ؛ ولكنها منحت هذا العام (سنة ١٩٣٤) الى ثلاثة من العلماء الأمريكيين هم الأساتذة : جورج نيوت ، ووليم مورفي من أساتذة جامعة بوسطن ، وهويل من أساتذه جامعة روشستر ، وذلك لاكتشافاتهم الخاصة بعلاج أمراض الكبد في أحوال فقر الدم ، وهي اكتشافات كان لها أعظم شأن في تقدم الطب والعلاج في هذه الناحية ، وقيمة الجائزة التي خصتهم ١٦٢،٦٠٨ كرونا سويدياً ، أو ما يساوي نحو تسعة آلاف جنيه ، وزعت بينهم بالتساوي

من الرسالة الى الوادي

ترجو الرسالة من زميلتها الوادي أن تعتقد أن ما نشر هنا عن لجنة التأليف والترجمة والنشر إنما كان بموافقة الأستاذين الكاتبين (لكثير الذين يعلمون من أمر لجنتنا ما نحب أن يعلم) كما تمنت هي



منذ أحد عشر عاما فى سان مالو

للكاتب الشهير بانيت استراتى
Panaït Estrati

ترجمة علي كامل

فى اليوم الخامس عشر من أغسطس الماضى كان قد مضى خمسة عشر عاماً على نشر قصتى الأولى (كيرا كيرالينا) فى مجلة (أوروبا)

لقد كنت فى ذلك الوقت رجلاً سعيداً . فقد كانت صحتى أولا خيرا مما هى اليوم ، ولم أكن أحمل هذه الشاغل التى تسحقنى سحقاً . كذلك كنت أشعر بالسعادة لأننى كنت قد انتهيت من كتابة قصتى (كيرا) وأنا أشتغل مصوراً فوتوغرافياً متنقلاً أنعم بالحرية والمرح . وكنت أعتقد أننى قد (فتحت ثقباً فى السماء) كما يقولون فى رومانيا . وأخيراً كنت سعيداً لأنه كان لى صديقة صغيرة من الالزاس أرادت عن طيبة خاطر أن تشاركنى مصيرى كمصور فوتوغرافى متنقل وليس هذا بالأمر اليسير

كان الشهر شهر يوليو عند ما اتخذت أولاً طريق بانيول دولورن ، وقد تسلحت بجهاز فوتوغرافى جديد وجميل تجاورنى رفيقتى الباسلة . على أننى لم أقم إلا مدة قصيرة فى هذه البلدة المتعبة للأعصاب حيث شراب السدر الرائع ، والغابة الممتدة الأطراف ، ولم يكن شراب السدر هو السبب فى قصر مدة إقامتى ، بل السبب هو تلك الغابة التى بها ، ذلك أن صديقتى كانت تحبها حباً جماً . وا أسفاه ! لقد كانت تحبها على الخصوص حين تسبب لها الآلة الفوتوغرافية الضيق والعصبية فتخلق تلك المشاجرات المحبوبة التى هى فتنة الحياة البوهيمية وبهجتها . ولكى تسرى عن نفسها كانت تختفى فى الغابة حيث كان من العسير على أن أجدها حتى بعد مسير كيلومترات وساعات من الصياح . ذلك الصياح الذى كان يبح صوتى ثلاثة أيام . وعند ما يهبط الليل كانت رفيقتى تؤدى لى من الخدمات وهى نادمة مفعمة بالحب لى أكثر من أى وقت آخر ، وذلك مما كان يغمرنى بالسعادة والنعيم

وبعد أسبوع قلت لنفسى : ماذا يهم ! يجب أن أذهب لأجرب آلتى فى أماكن عارية مكشوفة يمكن فيها رؤية رفيقتى من بعيد عنـد ما ترغمها الضرورة على الهرب من أجل تهدئة خاطرها

وانتقلنا فعلاً إلى بونتورسُن ثم إلى جبل سان ميشيل . ولما كنت قد ربحت ربحاً عظيماً فى بانيول دولورن اعتزمت سكنى الجبل نفسه برغم ارتفاع أجره ، وعلى الامتناع عن العمل مدة يومين ، زرنا خلالها آثار المكان التاريخية ، وأكلنا (عجة الأم بولارد) وتأملنا ملياً فى مد البحر وجزره أثناء النهار والليل .

وبعد هذين اليومين حملت آلتى وابتدأت أصور الانجليز الذين يريدون أن يحتفظوا بصور تذكارية لمرورهم بجبل سان ميشيل

ففى اليوم الأول كان كل شىء على خير ما يرام ، فصورت عشر صور فى مقابل مائة فرنك . وفى اليوم الثانى انتابت فتاتى أزمة عصبية فتركتنى بقسوة وحيداً ابتداء من الظهر ، فكنت مضطراً إلى أن أسرع فى عملى دون احتياط كى أستطيع إنجازه ، على أننى لم أحاول أن أغضب ، بل كنت أتابع بنظراتى من قمة الجبل وجه صديقتى الرقيقة التى كانت تهدىء من حسرتها بالتطلع الى الأماكن الرملية العارية فى ذلك الأقليم الرائع

كنت أقول لنفسى :

— آه ! ليس لك هنا غابة تختفين فيها . إنك مرغمة على أن تحومى حول ناظرى كسمكة فى إناء زجاجى

وكنت أفكر أيضا فى شراء منظار مقرب لأرى من بعيد هذا الذى تفعله امرأة غضبى وهى وحيدة فى صحراء واسعة

ولكن فى اليوم الرابع من وصولنا عند ما غضبت صديقتى للمرة الثانية وابتعدت عن الجبل الى أبعد مما تبصره عيناى لفت نظرى راهب كان يهتم بسعادتى النزلية الى الرمل المتحرك المشهور به ذلك الأقليم ، والذى تتعرض لخطره فتاتى إذا داومت على نزهاتها الخالية من التبصر حول الجبل أثناء المد والجزر

لقد ملأنى هذا التحذير رعباً وفزعاً ، فى اليوم الثانى تركت الجبل وذهبنا الى سان مالو حيث لا توجد غابة ولا رمل متحرك ، بل ساحل عظيم أو بالحرى ساحلان أو ثلاثة تمتد من بارانيه الى دينار ، ويجمع من الناس أغربهم طباعاً ، فهناك ينتقل المرء من مكان الى آخر لأتفه الأسباب ، فليس هناك غرض يدفعه الى هذا التنقل إلا إفهام الذين يقولون فى أما كنهم أن من يغادر بلده بعد ثلاثة أيام فانما يكون ذلك لأنه غنى يسعى وراء التغير والتجول

ونزلنا فى فندق صغير فى بارامية ، وحاولنا أن نجرب حظنا على ساحل البحر ، ولكننا لم نصادف نجاحاً ، فقد كان هناك كثير من المصورين وقليل من الزبائن ، ولم أستطع طول هذه الأيام أن أحصل على نفقات الغرفة والطعام التى كانت باهظة . وأكثر من ذلك أنه كان يمر تحت المنزل تماما ترام كأنه فيل ميكانيكى هائل ، فكان يهز المدينة بأجمعها هزاً مرعباً كلما تحركت أطنان الحديد الخفيفة المركب منها . وكنت أعود فى المساء يقتلنى التعب والاعياء من حمل آلتى الثقيلة على كتفى من أول ساحل البحر حتى منتهاه ، وكنت أستيقظ مبكراً لكى أقتنص زبوناً من بين المستحمين المبكرين ، فكانت حاجتى الى النوم تسحقنى سحقاً عند ما ألقى بجسمى فى السرير بعد العشاء . على أنه لم يكن هناك سبيل الى النوم قبل الساعة الواحدة صباحاً حين تقف حركات ذلك الجسم البشع الثائر

وعندما انتهى الأسبوع الأول من إقامتنا انتقلنا الى الطرف الآخر من المدينة نبحث عن الهدوء تحت أسوارها العالية . على أننا لم نجد مسكناً معتدل الثمن ، فاضطررنا أن نقنع بغرفة ممتلئة بالأثاث المتراكم فوق بعضه بدون نظام ، وكنا ندفع أجرها عشرة فرنكات كل ليلة ، نعم كل ليلة لا كل يوم ، فقد كان لزاماً علينا ألا ندخلها إلا فى المساء وأن نخرج منها فى الساعة التاسعة صباحا على الأكثر ، وكان محرماً علينا أن نستخدم باب الغرفة لأن فى ذلك إزعاجا لأصحاب الدار ، فكنا ندخل الى الغرفة ونخرج منها من نافذة تطل على الفناء

وانتظرت ماسوف تكون عليه صديقتى فى حالاتها المختلفة ، وكنت أنظر والحسرة تمزق قلبى الى سور المدينة الشاهق . ذلك السور الذى سوف لا تتأخر رفيقتى عن اختياره مكاناً تختفى فيه انتقاماً منى . والذى كانت تتحطم فى أسفله جماجم كثير من الناس الذين كانوا يتنزهون فوق سطوحه العالية . ولقد بلغ منى العجب مبلغاً كبيراً إذ لم يحدث شىء مما كنت أتوقع . فقد كانت رفيقتى دائمة السرور والابتسام ، وكانت تجد مجالاً واسعاً للسخرية والهزء فى غرابة أطوار صاحب الدار الذى سمح بتأجير

آخر غرفة (معدة للإيجار) لديه على أن يدخل المستأجر اليها ويخرج منها من النافذة!

ولكي أثير حب استطلاع فتاتي التي كانت تعجب بقصص الهاربين؟ قلت:

— إنه يبدو لي تماماً أن هذه المدينة كانت موطناً لقرصان البحر القدماء

فارتعدت صديقتي عندما تذكرت أننا نعيش تحت سقف أحد أحفاد القرصان وقالت:

— هل يؤذى الناس أولئك الرجال؟

فأجبتها:

— إنهم لا يؤذون النساء ولا المصورين المتنقلين، وقضيت أسبوعاً في العمل متمتعاً بالهدوء. إنني لم أكن أربح كثيراً ولكن سعادتي في ذلك الوقت كانت في التصعلك مع رفيقتي المحبوبة دون أن يقع بيننا نزاع. لقد كنت مغموراً بالنعيم طوال ذلك الأسبوع، وكنت أعتبر نفسي مديناً بهذا النعيم الى صاحب الدار حفيد القرصان

نعم لقد كان يبعث السرور الى قلب صديقتي عندما كان يرغمنا على تسلق النافذة في الساعة العاشرة مساء، ثم يدخل من باب المطبخ ليطلب الايجار اليومي لغرفته، ثم يغادر الغرفة بمجرد حصوله على العشرة فرنكات. ولكن في هذه اللحظة القصيرة كان جسمه الضخم يحرمنا من المتر المكعب الوحيد الذي سمحت لنا به الأربعة (دواليب) التي كانت تملأ غرفتنا الصغيرة، وكانت رفيقتي تقول وهي غارقة في الضحك كجنونة بعد أن غيرت رأيها في حفيد القرصان:

— ماذا يكون حالنا لو شرع حفيد القرصان بقص علينا ذات ليلة أعمال أجداده. إننا سوف نموت بالاختناق!

وهكذا كنا نظل حتى منتصف الليل في الضحك والتنادر ولكن لكل شيء نهاية. فى ذات ليلة بعد أن أدخل حفيد القرصان كتفيه بصعوبة ماداً ذراعه ليتناول نقوده نظر الى فتاتي بعينين مفترستين وقال:

— إنك تضحكين كثيراً أيتها السيدة!

كانت هذه العبارة القصيرة هي كل ماقاله، ثم خرج، ولكنها كانت كافية لأن يسود السكون التام في غرفتي

قالت صديقتي وهي تنظر إلى باب الغرفة وقد انتابها شحوب شديد:

— إذن ليس مسموحاً للمرء أن يضحك في سان مالو، بينما رغم على الدخول في داره من النافذة كي ينام في سرير أشبه بتابوت ميت مدفون تحت أربعة دواليب؟

لقد كان لها حق فيما تقول. وكذلك كان لحفيد القرصان. ولم يبق إلا أنا الذى رأيت واجباً على أن أستسلم كالعادة مرة أخرى وأرضى بألا يكون لي كلمة في منزلي

ولقد بذلت جهدي في أن أحصر الضرر، فوعدت صاحبتي أن ننتقل من الغرفة سريعاً. ولسوء حظي هبت عاصفة على البلدة في اليوم التالي لتلك الحادثة فامتنعت عليَّ الوسيلة الوحيدة لكسب قوتي، إذ أن الرياح التي كانت تبعث السرور الى نفوس المستحمين كانت تهدد آلتي في كل لحظة بالانقلاب. ولكي أقاوم ساعتين على ساحل البحر من أجل التقاط اثنتي عشرة صورة، كان لابد لي أن أحمل من الصبر ما لا يمكن أن أتطلبه من فتاتي. فقد كانت فتاة رشيقة رغم انها خياطة بسيطة. وكانت تحب أن تكون نظيفة وقوراً حسنة الهندام، فلم تكن تستطيع العمل معي، لأن الرياح كانت تعبث بشعرها وتضرب رداءها (الفوال) بقطع الملح فتغطيه ببقع صفراء، ذلك أن عملها كمساعدة لي تغسل الصور وتجففها وتسلمها الى أصحابها، كان هذا العمل يدفعها الى البحث على ساحل البحر وفي الفنادق. لذا لم تقم لي بمساعدة ما، وتركتني وحيداً أقوم بكل مراحل الحرفة التي نعيش منها.

قالت لي:

— تصور مركزي عند ما أكون أقذر النساء البوهيميات. ليس لي هنا ما أفعله. سأذهب لأبحث عن عمل... في الخياطة أو غيرها. فاذا وجدت فاعلم يقينا أنني لن أعود مطلقاً!

تركتني عند الظهر وكان في جيبها الصغير خمسة فرنكات، ولم تكن قد تناولت بعد طعام الغداء، فجلستُ على شاطيء البحر محطم القوى وعدتي على ذراعي، أنظر اليها وهي تغيب عن عيني، وقد ملكها الألم وأوشكت أن تنفجر بالبكاء. ولقد كان

مظهرها يحمل حقاً كل معاني الطهر والصفاء مما أفعم قلبي بالحزن والحسرة من أجل هذه المرأة الصغيرة الجميلة

ولم أتناول أنا أيضاً طعام الغداء ، فقد تراكمت على الحسرات وكانت كل ثروتي عشرين فرنكاً ، أي عبارة عن أجر ليلتين عند حفيد القرصان

وبعد أن أعددت أدوات عملي خرجت أجوب المدينة . وكانت الريح تدوي دون انقطاع ، فكنت أسائل نفسي : ما الذي يؤول اليه حالي إذا لم أوفق الى جمع الثلاثين فرنكا التي هي أقل ما يمكن أن أحتاج اليه يومياً . وكنت أعرف تماماً أن صديقتي لا يمكن أن تنفذ كل تهديداتها لأنها كانت مثلي تبغض العمل أثناء النهار ، ومع كل ذلك فان منظرها وهي تتركني بقي ماثلاً أمامي ، وكان يمزق قلبي تمزيقا . وكانت حتى لواجهات المحلات التجارية يجبتني أحياناً بطريقة آلية ، على أنني كنت أتطلع الى الواجهات دون أن أرى شيئاً ، لأن فكري كان يتابع صورة فتاتي التي ظهرت لي وكأنها قد انتزعت منها كل فتنة ، فبدا لي الشعر مهملاً ، والرداء ممزقاً ، والوجه مستسلماً يائساً ..

وفكرت ثانية في مصيري . ذلك المصير الذي دفعت ثمنه غالياً لأشعر يوماً بشمس الحرية تدفئني . ومثلت أمامي مرة واحدة فكرة بعثت الشر في عيني . فقد وجدت نفسي أمام منضدة مكتبة . وفي الوسط أمام عين الناظر ، رأيت مجلة (أوروبا) وكان غلافها الأصفر محاطاً بغطاء أخضر ، ولم يكن مكتوباً عليه غير الموضوعين الأولين من موضوعات المجلة وهما :

جوركي البلقاني بقلم رومان رولان

كيرا كيرا لينا « بانيت استراتي

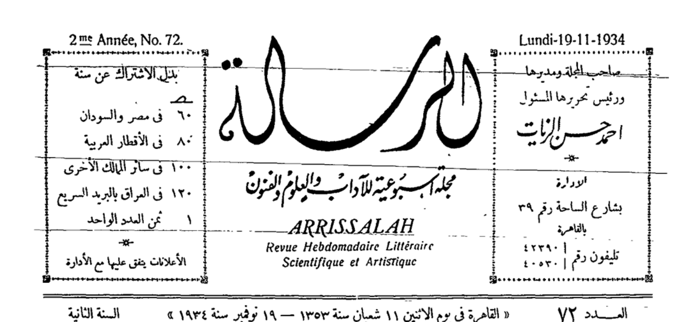
شعرت بأن ساقي قد خارت قواها ، ودخلت في المكتبة وأنا أكاد لا أستطيع السير ، ورأسي يطن طنيناً كأن بداخله بحراً هائجاً ، واشتريت المجلة وضممتها إلى قلبي المضطرب ، وذهبت كالمجنون إلى شرفة مقهى كبير وطلبت نوعاً من الشراب وسجائر فاخرة ، وقرأت ثم قرأت مقال (جوركي البلقاني) وأنا أذرف الدموع الحارة الصادقة على عبارات ذلك الرجل الذي كان مقاله هذا ضربة حديدية صارمة غيرت مجرى حياتي ومصيري . وبعد ذلك أرسلت رسالة تلغرافية إلى الناشر . وفي ظهر اليوم التالي وصلني بالتلغراف الأربعمائة وعشرون فرنكاً وهي حقوق تأليف قصة (كيرا) التي احتوت على اثنتين وأربعين صفحة من مجلة (أوروبا) نشرت في الخامس عشر من شهري أغسطس وسبتمبر عام ١٩٢٣

وفي الليلة التي تلت هذا الحادث العظيم في حياتي كنت مريضاً لما انتابني من النعيم والسعادة فلم أنم مطلقاً ، وأطبقت ذراعيَّ في صمت ، ناسياً رفيقتي التي لم تكن تفهم شيئاً لا حالتي ولا (جوركي البلقاني) وساءلت قلبي وهو خير أصدقائي وأكبر أعدائي قائلاً :

إلى أين نحن ذاهبون ؟ إلى أين نحن ذاهبون ؟

لم نذهب إلى أي مكان .. ولقد صدق رومان رولان حين قال لي يوماً من الأيام :

(إن الانسان في هذا العالم لا يحدث في عمله أو حياته تغييراً كبيراً)



2me Année, No. 72.

Lundi-19-11-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

بشارع الساحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	في مصر والسودان
٨٠	في الأقطار العربية
١٠٠	في سائر الممالك الأخرى
١٢٠	في العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٧٢ « القاهرة في يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ١٣٥٣ — ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

عهـــد زاهر!

نشرت الصحف أخيراً بعض إحصاءات عن التعليم في مصر ؛ ومنها يستفاد أن التقدم مضطرد في عدد المدارس وعدد الطلبة ، ولكن الذي يلفت النظر بنوع خاص ماورد فيها عن حالة التعليم الأولى ؛ ذلك أن المكاتب والمدارس المخصصة لهذا النوع من التعليم لايتجاوز عددها في مختلف أنحاء القطر ألفين ومائة ، فيها نحو ٨٥٠ ألف تلميذ وتلميذة . ومعنى ذلك أن الذين يتلقون التعليم الأولى في هـذه البلاد لاتزيد نسبتهم على خمسة في المائة من مجموع السكان ؛ فاذا علمنا أن باقي المتعلمين على اختلاف طبقاتهم لايتجاوز عددهم أيضاً نحو أربعة أو خمسة في المائة ، استطعنا أن نقدر إلى أي مدى ما زالت الأمية تفتك بعقول الشعب المصري

لقد اعتدنا في العهد الأخير أن نسمع نغمة ما تزال تتردد في كل فرصة ، لمناسبة وغير مناسبة ، هي أن مصر تجتاز في ميدان التعليم والثقافة والآداب عهداً زاهراً لم تبلغه من قبل في أي مرحلة من مراحل تاريخها ، وأنها تظفر لأول مرة في

تاريخها بجامعة مدنية كبرى وجامعة دينية ، ومجمع علمي ، وطائفة كبيرة من المعاهد والمدارس الفنية ، والجماعات العلمية المختلفة .

ولقد نولع في ترديد هذه النغمة ، وإذاعة هذه الدعوة ، حتى كادت تطمس الحقائق ، وحتى كدنا نؤمن بهذا التمويه ، وننسى ما يعتور سير التربية والتعليم في هذه البلاد من ضروب النقص والضعف والفساد

نعم ، لقد زاد عدد المدارس والطلبة زيادة كبيرة ؛ والتعليم يتقدم من حيث العدد بلاريب ، ولكن هل يتقدم التعليم من حيث النوع ؛ وهل ارتفع لدينا مقياس التربية والثقافة عما كان عليه منذ جيل ؟ لقد كان التعليم قبل الحرب آليا يخرج للحكومة تسيطر عليها إرادة المستعمر عمالاً خاضعين لا رأى عندهم ولا شخصية لهم ؛ وما يزال التعليم يصطبغ في عصرنا بهذه الصبغة الخطرة ، صبغة العقم وفقدان الشخصية ؛ وشأن المتعلمين اليوم شأنهم بالأمس في التطلع الى الوظائف حتى بلغ تهافتهم عليها حداً يدعو الى الرثاء ؛ وهم في الحياة حيارى لا عزم لهم ، لأنهم لم يتلقوا من صنوف التعليم ما يسلحهم بمثل هذا العزم ، أو عدم بتلك الشخصية التي تصمد لمصاعب الحياة العملية ومتاعبها ، وتستغل مباذلها ومواهبها استغلالاً صالحاً منتظما

وفي مصر جامعة مدنية كبرى ، وجامعة دينية كبرى لها ماض مجيد ؛ ولكن هل نتمتع حقاً بالتعليم الجامعي ؟ وهل استطعنا أن نخلق فيهما تلك البيئة العلمية الرفيعة ، وتلك الحرية الفكرية ، وذلك الاستقلال في البحث ، وهي أسمى المزايا الجامعية ؟ إن الجامعة عندنا اسم على غير مسمى ؛ وليست في الواقع أكثر من مدرسة عادية ، تخضع لكل ما تمليه أهواء الذين يرون في الاستعباد الفكري وسيلة ناجحة لتدعيم الاستعباد السياسي

ولدينا حقاً مجمع علمي للغة العربية ، ولكن هل يثير ذكر هذا المجمع وظروف تكوينه غير الابتسام ؟ وهل نذكر قصة إنشائه إلا على أنها لون من ألوان ذلك الطلاء الخلاب الذي يعتمد على الأسماء دون المسميات

ولدينا جماعات علمية ذات أسماء ضخمة ، ولكنها أجنبية في روحها وغايتها ، وهي قلما تعنى بأعمال علمية خطيرة ، ولا تعنى إلا بإذاعة ما يوحى اليها به من الدعايات

وفي كل عام ننفق عشرات الألوف على بعثات الطلبة خارج القطر ؛ ولدينا الآن من خريجي هذه البعثات ألوف من خيرة الشباب المثقف المتخصص في مختلف العلوم والفنون ؛ ولكن هل استطعنا أن نستغني بهم عن أولئك الأجانب الذين يبثون في كل فروع الحكومة ، ويستأثرون بأرفع المناصب بحجة أنهم خبراء وفنيون ؟

***

الواقع أن هذه النهضة العلمية تقوم على كثير من العوامل المصطنعة والمظاهر الخلابة ، وينقصها كثير من المزايا الحقيقية ؛ فهي أشد ما تكون ضعفاً من الناحية الوطنية ، وما زالت خاضعة لكثير من المؤثرات الأجنبية التي لا تتفق في كثير من الأحيان مع الغايات القومية ؛ وهي ما زالت من الناحية العملية قاصرة عن أن تجعل من الشباب المتعلم عمالاً نافعين لأنفسهم وللوطن . ومن الأسف أن المظاهر هي في كثير من الأحيان كل ما يعنى به ، وأن الأسماء الرنانة هي كل ما يهم ذكره وترداده . وقد ذهبنا بعيداً في التشبث بهذه المظاهر ، والتهويل من شأنها ، وغفلنا عن معالجة أوجه النقص الحقيقية . ويكفي لإدراك هذه الحقيقة أن نذكر أن البلاد بعد هذه الجهود كلها ما زالت تتخبط في ظلام الأمية ، وأن مصر بعد عشرة أعوام من تنفيذ مشروع التعليم الالزامي لم تستطع أن تنقذ من الأمية المطبقة أكثر من أربعة أو خمسة في المائة من بنيها

لقد آن الوقت الذي يجب أن نستعرض فيه مظاهر حياتنا على حقيقتها ، وأن نقدر أوجه الخير والنفع فيها قدرها الصحيح ؛ فليس من العار أن نعترف بأننا في منتصف الطريق أو مستهله ؛ ولكن الخطل أن نزعم أننا حققنا ما لم نحقق ، ومن الخطر على بنائنا القومي أن نؤمن بما ليس منطبقاً على حقيقتنا ولا هو حتى من مظاهر نهضتنا .

« ع »

قصيدة مترجمة

إحــــذرى !

للأســـتاذ مصطفى صادق الرافعى

ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر [1]) . وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة ؛ رآنى جالساً تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضعَ كلمةً للمرأة الشرقية فيا تحاذِرُه أو تتوجّسُ منه الشرَّ ؛ فتخايَلَ الملكُ بأضوائه فى الضوء ، وسَنَحَ لى بروحه ، و بثَّ فىَّ من سرِّه الالٰهى ؛ فجعلتُ أنظرُ فى قلبى إلى فجرٍ عن هذا الشعر ينبعُ كلمةً كلمة ، ويُشرِقُ معنًى معنًى ، ويستطيرُ جملةً جملة ، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرتُ فى حُلمٍ من الأحلام فجئت بها .

وانطلق ذلك المَلَك وتركها فى يدى لُغَةً من طهارته للمرأة الشرقية فى ملائكيتها .

إحــــذرى !

إحذرى أيتها الشرقيةُ وبالغِى فى الحذر ، واجعلى أخصَّ طباعِك الحذَرَ وحده .

إحــذرى تمدُّنَ أوربا أن يجعــلَ فضيلَتكِ ثوباً يُوسَّعُ ويُضيَّق ؛ فلُبْسُ الفضيلة على ذلك هو لُبسُها وخَلْعُها . . . .

إحذرى فنَّهم الاجتماعىَّ الخبيثَ الذى يَفْرِضُ على النساء فى مجالس الرجال أن تؤدِّىَ أجسامُهُنَّ ضريبةَ الفن . . . .

إحذرى تلك الأُنوثةَ الاجتماعيةَ الظريفة . إنها انتهاء المرأة بغاية الظَّرفِ والرقة إلى . . . . الى الفضيحة .

إحذى تلك النسائيةَ [2] الغزَليةَ . إنها فى جملتها ترخيصٌ اجتماعىٌّ للحرَّة أن . . . أن تشاركَ البَغِىَّ فى نصف عملها .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى التمدُّنَ الذى اخترعَ لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدّس ، لقبَ « المرأة الثانية » . . . . .

واخترع لقتل لقب العــذراء المقدس ، لقبَ « نصف عذراء » . . . .

واخـــترع لقتل دِينيةِ معـانى المرأة ، كلمة « الأدب المكشوف » . . . .

وانتهى إلى اختراع السرعة فى الحب . . . . فاكتفى الرجل بزوجة ساعة . . . .

وإلى اختراع استقلال المرأة ، فجاء بالذى اسمهُ (الأب) من الشارع ، لتلقِىَ بالذى اسمهُ (الابن) إلى الشارع . . . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى ! .

* * *

إحذرى وأنت النَّجْمُ الذى أضاء مَنذ النبوَّة ، أن تقلِّدى الشمعةَ التى أضاءت منذ قليل .

إن المرأةَ الشرقية هى استمرارٌ متصلٌ لآداب دينها الانسانىِّ العظيم .

هى دائمـا شديدة الحفاظ حارسةٌ لحوزتها ؛ فان قانون حياتها دائمـا هو قانونُ الأُمومة المقدّس .

هى الطُّهر والعفة ، هى الوفاء والأَنَفة ، هى الصبر والعزيمة ، هى كل فضائل الأُمّ .

فما هو طريقُها الجديد فى الحياة الفاضلة ، إلا طريقُها القديمُ بعينه ؟

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى و يحكِ تقليدَ الأوربية التى تعيشُ فى دنيا أعصابها محكومةً بقانون أحلامها . . . .

(١) نشرت فى العدد ٦٢ من الرسالة

(٢) نحن نستعمل النسائية والنسوية وكلاهما عندنا صحيح والاختيار فى كل موضع للأفصح فى موقعه .

لم تعُد أنوثتها حالةً طبيعيةً نفسيةً فقط بل حالةً عقليةً أيضاً تشكُّ وتجادل . . . .

أنوثة تفلسَفت فرأت الزواجَ نصفَ الكلمة فقط . . . .
والامُّ نصف المرأة فقط . . . .

ويا ويلَ المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة العقلية فتنفجرُ بالدواهي على الفضيلة . . .

إنها بذلك حرّةٌ مساويةٌ للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدُودَة بفضيلتها . . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى خجَلَ الأوربية المترجِّلة من الإقرار بأنوثتها .

إن خجَلَ الأنثى من أنها أنثى يجعل فضيلتها تخجل منها . . . .

إنه يُسقِطُ حياءَها ويكسو معانيها رُجولةً غيرَ طبيعية . . .

إن هذه الأنثى المترجِّلة تنظر إلى الرجل نظرةَ رجلٍ إلى أنثى . . . .

والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانية ، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجةً أنسانيةً بالزواج .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى تهوُّسَ الأوربية فى طلب المساواة بالرجل .

لقد ساوته فى الذهاب إلى الحلاّق ، ولكن الحلاّقَ لم يجد فى وجهها اللحية . . . .

إنها خلقت لتحبيبِ الدنيا إلى الرجل ، فكانت بمساواتها مادّةَ تبغيض .

العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبى أبداً أن تتساوى المرأةُ بالرجل إلا إذا خسِرته .

والأعجبُ أنها حينَ تخضع ، يرفعها هذا السرُّ ذاته عن المساواة بالرجل إلى السيّادة عليه .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى أن تخسرى الطباعَ التى هى الاليقُ بأمٍّ أنجبت الأنبياء فى الشرق .

أمٌّ عليها طابَعُ النفس الجميلة ، تنشرُ فى كل موضع جوَّ نفسها العالية .

فلو صارت الحياةُ غيماً ورعداً وبرقاً ، لكانت هى فيها الشمسَ الطالعة .

ولو صارت الحياةُ قيظاً وحَروراً واختناقاً ، لكانت هى فيها النسيمَ يتخطَّر

أمٌّ لا تُبالى إلا أخلاقَ البطولة وعزائمها ، لأن جدّاتِها ولدْنَ الأبطال .

أيتها الشرقية ! أحذرى احذرى

* * *

إحذرى هؤلاء الشبّانَ المتمدنين بأكثر من التمدن . . . .

يُبالغُ الخبيثُ فى زينته ، وما يدرى أن زينتَه مُعلِنَةٌ أنه انسانٌ من الظاهر . . . .

ويبالغُ فى عَرض رجولته على الفتيات ، يحاولُ إيقاظَ المرأة الراقدة فى العذراء المسكينة .

ليس لامرأة فاضلة إلا رَجُلُها الواحد ؛ فالرجالُ جميعاً هم مَصائبُها إلا واحداً .

واذا هى خالطتِ الرجال ، فالطبيعيُّ أنها تخالطُ شهَوات ، ويجب أن تحذَرَ وتبالغ .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى فان فى كل امرأة طبائعَ شريفةً متهوِّرة ؛ وفى الرجال طبائعُ خسيسةٌ متهوِّرة .

وحقيقةُ الحجابِ أنه الفصلُ بين الشرفِ فيه الميل الى النزول وبين الخسةِ فيها الميلُ الى الصعود .

فيكِ طبائعُ الحبِّ والحنان ، والإيثار ، والإخلاص كلما كبُرتِ كبُرت

طبائعُ خَطِرَة ، إن عملتْ في غير موضعها .... جاءت بعكس ما تعمله في موضعها .

فيها كلُّ الشرف ما لم تنخدعْ ، فاذا انخدعتْ فليس فيها إلا كلُّ العار .

أيتها الشرقية ! احذري احذري !

***

إحذري كلمةً شيطانيةً تسمعينها في قيمةِ الجمال أو قيمةِ الأنوثة

وافهميها أنتِ هكذا : واجبات الأنوثة وواجبات الجمال .

بكلمةٍ يكون الاحساسُ فاسداً ، و بكلمة يكون شريفاً .

ولا يَتَسقَّطُ الرجلُ امرأةً إلا في كلمات مُزيَّنَة مثلها .....

يجب أن تتسلَّحَ المرأةُ مع نظراتها ، بنظرة غضب ونظرة احتقار .

أيتها الشرقية ! احذري احذري !

***

إحذري أنْ تُخْدَعي عن نفسك . إن المرأةَ أشدُّ افتقاراً الى الشرف منها الى الحياة .

إن الكلمةَ الخادعةَ إذ تقالُ لك ، هي أختُ الكلمة التي تقال ساعةَ انفاذ الحكم للمحكوم عليه بالشَّنْق .....

يَغترُّونك بكلمات الحب والزواج والمال ، كما يقال للصاعد الى الشَّنَّاقة(١) : ماذا تشتهي ؟ ماذا تريد ؟

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هذه صَلاةُ الثعلب حين يتظاهرُ بالتقوى أمام الدَّجاجة ....

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يا لحمَ الدَّجاجة ! بعض كلمات الثعلب هي أنيابُ الثعلب .....

أيتها الشرقية ! احذري احذري !

***

إحذري السقوط . إن سقوطَ المرأة لِهَوْلِهِ وشدَّته ثلاثُ مَصائبَ في مصيبة :

سقوطُها هي ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوطُ من تُوجدهم .

نَوائبُ الأُسرةِ كلُّها قد يسترها البيتُ الا عارَ المرأة .

فَيَدُ العار تقلب الحيطانَ كما تقلبُ اليدُ الثوبَ فتجعلُ مالا يُرى هو ما يُرى .

والعارُ حكمٌ يُنفِّذه المجتمعُ كلُّه ، فهو نفيٌ من الاحترام الانساني .

أيتها الشرقية ! احذري احذري !

***

لو كان العارُ في بئرٍ عميقةٍ لقلبَها الشيطانُ مِئْذنةً ووقف يؤذِّنُ عليها .

يفرحُ اللعين بفضيحة المرأة خاصةً كما يفرح أبٌ غنيٌّ بمولود جديد في بيته ....

واللصُّ ، والقاتل ، والسكِّير ، والفاسق ، كلُّ هؤلاء على ظاهرِ الانسانية كالحرِّ والبرد .

أما المرأةُ حين تسقط ، فهذه من تحت الانسانية هي الزَّلزلة .

ليس أفظع من الزَّلزلةِ المُرْتجَّة تشقُّ الأرض إلا عارَ المرأةِ حين يشقُّ الأُسرة

(لمنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) كلمة « الشنقة » ليست عربية ، ولكن في وجهاً في الاشتقاق ، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة ، وكان اسمها قديماً « الشناقة » ذكرها ياقوت في معجم الأدباء ، وهي أفصح وأخف ، فلعل الشناقة سد هذا تشتق الشنقة .

محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

قبل أن أتحدَّث عن هذا الرجل الذي يجب أن يتحدَّث عنه مدوّنو تاريخ الأدب العربيّ في العصر الحديث — قبل هذا أحب أن أقول في هذا الباب شيئاً عاماً . ذلك بأننا اعتدنا أن نُغفل الكلامَ في سيرة من عاصرناهم ، ورأيناهم ولا بسناهم ، إلاَّ أن يكون القولُ من جنس هذه المراثي التي تُضفَى فيها حللُ الثناء ، ويُكال فيها المديحُ في العادة ، بغير حساب . ولقد يكون هذا الثناء حقاً أو قريباً من الحق ، بحيث لا يؤذى التاريخ في كثير ولا قليل ، ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبلة شيئاً من حقيقة الرجل ، لأن الكاتبين في هذه الحالة لا يعنَون ببسط حياة الرجل ، وظواهر خلاله ، والعوامل البارزة في تكوينه ، ومطبوع عاداته ، ولو ما يتصل منها بالأسباب العامة . وذلك من أيسر الأمور لأنهم عرفوه بالمشاهدة ، واستيقنوه بالملابسة وطول الاختبار . وهذا ولا شك مما يهيئ للقادمين دراسته وتحليله دراسة إن لم تنته إلى أصدق النتائج ، فهي أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال

وليس يذهب عن القارئ أن إهمال المعاصرين ، على هذا النحو ، لابدّ مفضٍ إلى إحدى حالين : إما إلى إدراج كثيرين من رجال الآداب والفنون في مطاوى النسيان ، أو التحيّف من أقدارهم بقدر كثير أو قليل ؛ وإما إلى تجليتهم ، إذا تراخى الزمان في غير صورهم ، وتحليتهم صفاتٍ وخلالاً لم تكن لهم ، بحكم العنعنة في رواية الأخبار ، والاتكاء في تحليل نفس الرجل على ما صدر عنه من الآثار . وكثيراً ما يضل الباحث المستنتج في هذا أبعدَ الضلال . هذا إلى ما في معاناة مثل تلك البحوث من إضاعة للوقت ، ونفقة من الجهد ، وتجشم للعناء

وأغلب الظن في هذا الأغفال من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفنون والآداب يرجع إلى أن الرجل العظيمَ قلّ أن يراه معاصروه بالعين التي يراه بها الخالفون ، فهو في الغالب إذا استحق منهم ترديد ذكره والهتاف باسمه ، وتدوين سيرته ، فقلّ أن يُعنى أحدٌ بتقصى عاداته ، والتسلل إلى مداخله ، وعرض ما يلابس الأسبابَ العامّة من سائر أموره ، أو لأنهم لا يُعنَون بهذا لأنه حاضر لمعاصريه قريب منهم . فهو في حكم المبذول الذي ينال منه من شاء أن ينال . ولا شك أن في هذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيغيب على الزمن ، وأن المبذول سينقبض ، وأن ما في متناوَل اليد اليومَ ستتقطّع من دونه غداً علائق الآمال !

ولقد يسكت النقدةُ عن تقصّى ذلك عمداً ، والتلبّث بتحليل الرجل ، وردّ العوامل في تكوينه إلى مناجمها حتى ينطوى الزمن عليه وعلى أهله ؛ وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه ، حتى يتهيأ الجوّ للبحث والتحقيق ، لا رغبة ولا رهبة فيه ، فيكون البحثُ أنور وأصفى ، وتخرج النتائج أدقّ وأوفى

وهذا مذهب في الرأي له أثره وله خطره ، بالرغم من أنه يفوّت على المؤرخ المدقق من عناصر الحكم ما قد يسيء في بعض الأحيان إلى حكمه ، فاذا هو طلبها تصحيحاً لبحثه ، فلن ينالها إذا نالها صادقة إلا بعد أن يتجشّم في سبيلها عرَق القربة كما يقولون !

على أنني في هذا لا أذهب إلى القول بنشر المعايب ، واستظهار المكاره ، حتى لا يثير المدوّنُ ثائرةَ الأهل والصحاب والأنصار ، إنما أريد أن يجلو المعاصرُ ، من غير ذلك ، كلَّ ماله خطرٌ في تكوين الرجل ، فاذا كانت هناك مغامز لا ينبغي إغفالها في تجليته وتحليله ، فليسجّلها على أن يكتمها حتى يجلّيها لوقتها ، أو يجلّيها من بعدَه من الأعقاب

وعلى أيّ حالٍ فانّ إغفال هذه الأمور التي تحسبها في غالب الأحيان من التوافه ، كثيراً ما يخل بحق التاريخ ، ويُفضى إلى الجهل بالجمّ من حقائق الأشياء . ولست أجد في هذا الباب مثلاً أيسرَ ولا أدنى إلى الحسّ من أننا ، لولا مهبط البعثة العلمية التي صحبت الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨ ، ما اهتدينا بسهولة أو ما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وسمْتهم من قرن وثلث قرن من الزمان ، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد في مذهب التاريخ ؟

ولو قد عُنى أهل كل عصر بأن يحفظوا لخلفهم نماذج من ثيابهم ، وآلاتهم في سائر حوائجهم ، وفعل هؤلاء مثل فعلهم لظلَّت سلسلةُ الأزياء واضحة على وجه الزمان

ولعل من الخير أن أنبّه في هذا المقام إلى أن محاولة كشف

الرجل من آثاره المحفوظة لاتجدى كثيراً فى الأبانة عن خلاله ومداخل عيشه ، حتى مظاهرها . بل إنها لكثيراً ما تكون من وسائل الضلة فى إثبات التاريخ . ولست أسوق لهذا أكثر من مثلين اثنين : ذلك بأنك لو اتكأت فى طلب خلال الجاحظ على مجرد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهد الناس فى المال ، وأنه لو سقط ليده لكان أجود به من الريح المرسلة . فان أحداً لم ينع الشح ولم يذم الأشحاء كما نعى الجاحظ وكما ذم : وإن أحداً لم يؤلف كتاباً فى (البخلاء) أبلغ فيهم ايجاعاً ، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعاً ، كما صنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسه من أشد البخلين الذين أوفوا على الغاية من الجشع ، والحمل على المروءة أحياناً فى طلب المال

وإنك لو التمست مثل هذا فى أبى الفرج لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سمتاً ، وأنظفهم بدناً وثوباً ، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك فى طعامه وشرابه ، وغير ذلك من أسبابه . ولكن الواقع أنه كان من أشد الناس شرهاً ، وأقبحهم مؤاكلة ، وأقذرهم خلقاً وثوباً ، حتى ليصح فى بعض خلته قول الشاعر :

وسخ الثوب والعمامة والبر ذون والوجه والقفا والغلام !

ولو لا أن معاصرى هذا وهذا أثبتوا لكل منهما ما أثبتوا لزلت فيهما الأقلام ، وضلت الأوهام !

***

بعد هذا آخذ فى حديث أستاذى ورئيسى وصديقى العالم الفيلسوف ، الأديب ، الكاتب ، الناقد ، السيد محمد بك المويلحى رحمة الله عليه

من أكثر من ثلاثين سنة خلت ، ولما أزل بعد فى أيام الفتوة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) فى أربع صفحات دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب الى الحمرة . ويقوم بتحريرها ابراهيم بك المويلحى وابنه السيد محمد المويلحى . وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفسولة والأسفاف وتفاهة الموضوعات الى أبعد الحدود

مصباح الشرق

لقد كان هذا « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً ، لقد كان أبلغ من طريف ، فنه لأعجوبة حقاً ، لقد كان هذا « مصباح الشرق » أبلغ من أعجوبة . إنه لشىء يكاد يتصل بحكم الخوارق فى تلك الأيام !

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخير . وديباجة مشرقة ، وصيغ مونقة . ونسج متلاحم . وأسلوب ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه السهل الممتنع

أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة فى سياسة الأمم وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكر المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف اللغى فى عبارة عربية بليغة سلسلة ناصعة واضحة لاتستروح منها أى ريح للاستعجام . وهل رأيت قط ترجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف فى النقد ، نقد الأشخاص ، لاعهد للأدب العربى به من قديم الزمان ؛ بل لعله لاعهد له به من أول الزمان !

لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثاً حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة فى هذه البلاد !

لايدخل الأصيل فى يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرشت جباه ، وتقلصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، ووجفت قلوب . هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ . كذلك كان يترقب الخاصة مشرق « المصباح » وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان مايشيع البصر كله فى مساحة النقد كلها ، لا يستقر على موضوع خاص ، ولايتحيز فى حديث معين . بل إنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلحى اسم صاحبه فيمن شك أم أرسله فى جملة الطلقاء ؟ ! حتى إذا اطمأن الرجل الى أنه قد كتبت له السلامة لجمته ، ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نفسه ، ويبسط من خلقه ماتقبض ، ويفرخ من روعه ماتحبس

وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيين ، فاحكم أنت ، عصمنا الله وإياك ، كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ؟

على أنه مما ينبغى أن يُذكر هنا ، أن « المصباح » لم يكن يتعرض قط لأعراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتدسس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم ؛ بل لا يتناول من أمورهم إلا ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم ، فلقد كان « المصباح » أجل من ذلك موضعاً وآنف كرامة

وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهد به للأمم العربية جماء . وهذا النوع من النقد يقوم ، فى الجملة ، على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل ، فيعرضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافى لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يحضره من فنون الاستشهاد والتمثيل ، ولا يبرح يمط الموضوع فى هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة ، والملابسات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهى الى ما لا ينتهى اليه أحد من الناقدين !

ولقد كان هذا من « مصباح الشرق » الأصل الثابت لهذا اللون من النقد ، أعنى النقد (الكاريكاتورى) فى مصر . كما كانت صحيفة الويلحيين (أبو زيد) أول ما عرف ، فيما أعرف أنا ، من التصوير (الكاريكاتورى) فى هذه البلاد . ولعلى ألمح إلى هذه الصحيفة فى بعض هذا الكلام

لم ينته خطب « مصباح الشرق » الى هذا الموضع فحسب ؛ بل لقد كان ، على أنه صحيفة لا تظهر فى جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، يروى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة ما لا تبلغه الصحف اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذكاء عيونها الكثيرة فى طلبه وتقصيه ، فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج فى كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار نقلا عن « مصباح الشرق » الأسبوعية مضافة اليها معزوة لها . وفضل « المصباح » فى هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم بك المويلحى عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار

ولا أحب أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « المصباح » أول من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقرية ابن الرومى بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان ، وأول من عالج النقد الأدبى لما تنتضح به قرائح الشعراء . وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى ، الذى جمع بين أساليب النقد فى أزكى عصور العربية ، وبين طرائقه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان

وعلى الجملة ، فلقد فتح « المصباح » فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى « مصباحا » حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام . وبهذا وهذا أصبح « مصباح الشرق » أنخر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد . ومما ينبغى أن يذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاظمتهم سطوة «المصباح» فى باب النقد فحسبوا له كل حساب ، ويا ويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والأحسان

وإنى لأكتفى اليوم من حديث السيد محمد المويلحى بهذا القدر على نية العودة إليه فى القريب إن شاء الله ؟

عبد العزيز البشرى

صحف مطوية من التاريخ الإسلامي

العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين كشفت المباحث الأثرية في وادي اللوار بفرنسا على مقربة من مدينة تور، عن عظام بشرية، وسيوف ودروع قيل إنها عربية؛ ورأى فريق من الباحثين الأثريين أن هذه الآثار هي على الأرجح من مخلفات الموقعة العظيمة التي نشبت بين العرب والفرنج في سهول نهر اللوار منذ ألف ومائتي عام (٧٣٢م)، وارتد فيها العرب أمام جيوش كارل مارتل زعيم الفرنج بعد أن قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وأن اكتشافها يلقي ضياء جديداً على حقيقة المكان الذي نشبت فيه الموقعة، والذي ما زال مثار خلاف بين المؤرخين

وتلك الموقعة الشهيرة هي التي تسميها الرواية الإسلامية بموقعة بلاط الشهداء أو موقعة البلاط، لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين وقادتهم، وتعرف في الرواية الفرنجية بموقعة تور أو بواتييه لأنها وقعت في السهول التي تمتد بينهما؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخها في رمضان سنة ١١٤ من الهجرة، متفقة بذلك مع الرواية النصرانية التي تضع تاريخها في أكتوبر سنة ٧٣٢م. وقد كانت هاتيك السهول التي تمتد بين تور وبواتييه وتشرف على ضفاف اللوار هي أقصى ما بلغه العرب في فتوحاتهم في قلب فرنسا؛ وقد عبر العرب جبال البرنيه لأول مرة عقب افتتاحهم لاسبانيا، وغزوا سبتمانيا (أو لانجدوك) سنة ٩٤ هـ (٧١٣م) واستولوا على مدينة قرقشونة وثغر أربونة؛ ثم توالى عبورهم بعد ذلك لجبال البرنيه وتوالت غزواتهم في غالة أو غاليس (جنوب فرنسا)، في سبتمانيا وفي أكوتين، ثم في وادي الرون شمالاً حتى بورجونيه؛ وأنشأوا من فتوحاتهم في غاليس ولاية سميت بالثغر أو الرباط وعاصمتها أربونة؛ ولما ارتدوا أمام الفرنج في بلاط الشهداء، احتفظوا مدى حين بفتوحاتهم في غاليس؛ واستمر لظى الحرب يضطرم بينهم وبين الفرنج في تلك الأنحاء مدى ربع قرن، والفرنج يستردون مدنهم وأراضيهم تباعاً من أيدي الغزاة؛ حتى انتهوا أخيراً بالاستيلاء على أربونة آخر معقل إسلامي في غاليس سنة ٧٥٩م

وكان ذلك خاتمة الفتوحات الإسلامية المستقرة في فرنسا، ولكنه لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية أو خاتمة النفوذ الإسلامي في تلك الأنحاء. ذلك أن المسلمين عادوا فنفذوا إلى جنوب فرنسا، ثم إلى بيمون وسويسرة، وغلبوا على كثير من المواقع والأراضي في تلك الأنحاء أحقاباً طويلة، ولكنهم كانوا في تلك المرحلة جماعات مستقلة مغامرة تعمل لحساب نفسها أكثر مما تعمل لحساب الحكومات التي تنتمي إليها، وكانوا مستعمرين أكثر منهم غزاة؛ وتلك صفحة من تاريخ النضال بين الشرق والغرب والإسلام والنصرانية قلما تعنى بذكرها الرواية الإسلامية، وإن كانت الرواية النصرانية تشير إلى كثير من وقائعها وتفاصيلها. وسنعنى في هذا الفصل بسرد حوادث هذه الصفحة الغريبة المجهولة، وبما كان للاستعمار الإسلامي في تلك الأنحاء من الخواص والآثار

كانت أول غزوة إسلامية لفرنسا بعد قيام الدولة الأموية في الأندلس؛ في عصر أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن الأموي، ففي سنة ٧٩٣م دعا هشام إلى الجهاد، وأرسل إلى فرنسا جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، فعبر البرنيه، وزحف على أربونه، فلما لم يستطع افتتاحها، ارتد إلى قرقشونه؛ وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه على ضفاف الدانوب بعيداً عن فرنسا؛ فتأهب أمير أكوتين لرد العرب، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة الكونت دي تولوز، فالتقى الفريقان في مكان يسمى «ڤيل دنى» بين أربونة وقرقشونة، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ارتد على أثرها العرب إلى الجنوب مثقلين بالغنائم. وتشير الرواية العربية إلى تلك الغزوة وتقول إن المسلمين استولوا خلالها على أربونة [1]، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذا الفتح

(١) المقرى في نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

وفى سنة ٨٠٦م هاجمت شرذمة قوية من البحارة العرب جزيرة كورسيكا؛ فبعث بين بن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم، ولكنهم هزموه وقتلوا قائده، وحصلوا كثيراً من الغنائم والسبى. ولم يمض عامان حتى عاد البحارة العرب إلى غزو شواطئ كورسيكا وسردانية. ثم توالت غزواتهم إليها بعد ذلك؛ وكانت شواطئ فرنسا الجنوبية عرضة أيضاً لمثل هذه الغزوات البحرية الناهبة، وكان قوام هذه الغزوات عصابات قوية مغامرة من مسلمى الأندلس وأفريقية تجوس خلال هذه المياه فى سفن خاصة وتثخن فى هذه الشواطئ، وتعود مثقلة بالغنائم؛ وكان البحارة المسلمون كالبحارة النورمانيين، رعب هذه الشواطئ، وكانت أخبار غزواتهم تدوى فى جنوب فرنسا، وتعنى الروايات الفرنجية المعاصرة، ولا سيما الروايات الكنسية بتدوين أخبار هذه الغزوات، وتبالغ فى تصوير عصفها ووقعها، وتقول لنا إن البحارة العرب ذهبوا فى جرأتهم إلى حد التجول فى مياه الإطلنطيق ومهاجمة شواطئ فرنسا الغربية، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الاطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١)

وفى سنة ٨٣٨م خرج أسطول عربى من ثغر طراكونه (تراجونا) ومياه البليار؛ ورسا فى مياه بروفانس، وهاجم ثغر مرسيليا وماحوله من المواقع والأراضى، وأثخن فيها، وحمل كثيراً من الغنائم والسبى. وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس (لى ديبونير) بن شارلمان، وكان ملكاً عاجزاً ضعيفاً، فلما توفى فى سنة ٨٤٠ م، اضطربت أحوال المملكة، وضعفت الثغور، فانتهز البحارة العرب تلك الفرصة، وغزوا بروفانس عند مصب نهر الرون، وهاجموا مدينة آرل، وخربوا معاهدها. ثم توالت غزواتهم بعد ذلك فى تلك المياه، وهاجموا مراراً مرسيليا وآرل. وفى سنة ٨٥٠، فى عهد عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، عبر المسلمون جبال البرنيه مرة أخرى بقيادة موسى حاكم سرقسطة، وغزوا سبتمانيا، وأثخنوا فى نواحيها، واضطر شارل «الأصلع» ملك فرنسا أن يعقد الصلح معهم؛ ومن المرجح أن هذه الغزوة كانت ذات صفة رسمية، وأن حكومة قرطبة هى التى نظمتها أو أوحت بتنظيمها. وفى سنة ٨٦٩، هاجمت شراذم من البحارة العرب بروفانس مرة أخرى، واستولت على جزيرة كامارج الواقعة فى مصب الرون، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم فيها، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى

— ٢ —

ولقد أذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وأفريقية حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ورغبة استعمارها والاستقرار فيها. وكانت أحوال غاليس (جنوب فرنسا) قد اضطربت يومئذ، وغلب سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وبروفانس وتلقب ملك آرل، وقام يناوئه بعض منافسيه، ونشبت بينه وبينهم حروب أهلية (نحو سنة ٨٩٠). فى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين فى خليج جريمو أو خليج سان تروبيه؛ ونزلوا الى الشاطئ، ولجأوا الى غابة كثيفة تظللها الجبال، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها. ولما رأوا منعة معقلهم سواء من جهة البر أم البحر، عولوا على الاستقرار فيه، ودعوا إخوانهم من الثغور الاسلامية القريبة الى القدوم؛ وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومتى الأندلس وافريقية؛ فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل، ولم تمض أعوام قلائل حتى استقروا فى ذلك المكان وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة اسم (فراكسنتم) Fraxintem والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية «جارد فرينيه» Garde-Frinet (١) الواقعة فى سفح جبال الألب، ومازالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المكان. ولما كثر جمعهم واشتد ساعدهم، أخذوا فى الاغارة على الأنحاء المجاورة، وأصبحوا قوة يخشى بأسها؛ وسعى اليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم بعضهم على بعض، فلبوا الدعوة،

(١) جمعت أقوال الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة فى موسوعة «Bouquet» بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة، وعليها جل اعتمادنا فى استخراج حوادث هذا الفصل

(١) Reinaud; Invasins des Sarrazins en France (P. 160)

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المغلوبة ؛ وبثوا الذعر والروع فى جنوب بروفانس حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً واثنين يهزمان ألفين »[1]

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار العرب لجنوب فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون خطوة أخرى . فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب الى إيطاليا ليحارب الى جانب حلفائه ، فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ؛ وساد الانحلال والفوضى فى غاليس كلها . فانتهز المسلمون تلك الفرصة ، واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع فى وادى « سيس » على حدود بييمون ، وفر الأحبار فى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا الى « تورينو » (بايطاليا) وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين الى زملائهم ؛ واشتد بأس العرب فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ؛ ثم انحدروا من آكام الألب الى سهول بييمونت ، وأغاروا على بعض مناطقها

وفى سنة ٩٠٨ نزلت سرية قوية من البحارة العرب فى شاطىء بروفانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بسالمودى . وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة لما كانت تغص به من الذخائر والأموال . وانتشر العرب بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ؛ وهاجموا مرسيليا وهدموا كنيستها ، وغزوا أيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم اليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ؛ وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم والتجأوا الى الداخل خشية القتل أو الأسر ، وأغلق العرب طريق الألب الى إيطاليا . وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون الى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور

— ٣ —

ثم اتخذ العرب خطوة جديدة فى سبيل التقدم الى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم الى بييمون ومونفراتو . وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر الى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوه ؛ ويروى ليوتبراند وهو كاتب معاصر أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ مدينة « آكى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) . ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى « ساجيتوس » ولكنهم هزموا ومزقوا ؛ وفى هذا الوقت أيضاً ، نزلت شرذمة قوية من البحارة الأفريقيين بساحل جنوه ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال

وفى سنة ٩٣٩ غزا العرب منطقة « فاليه » فى جنوب سويسرا ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال سافوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « فاليه » قاعدة للاغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرا وإيطاليا ونفذوا منها الى أواسط سويسرا ثم الى « جرزون » فى شرق سويسرا ، ونهبوا دير دزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الفنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن العرب وصلوا فى غزواتهم الى بحيرة جنيف ، وجازوا الى مفاوز جورا الواقعة فى شمالها . وكانت سويسرا يومئذ من أقاليم مملكة بورجونيه ، وملكتها يومئذ « الملكة برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب الى حصن ناء فى جهة نيوشاتل

وفى سنة ٩٤٠ غزا العرب فريجوس ، وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ؛ وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان الى الجبال ، وعاث العرب فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس

ولما اشتدت وطأة العرب فى جنوب فرنسا وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته . اعتزم سادة الجنوب وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك

(١) Reinaud; ibid; P. 161

العدو المزعج ؛ ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فرا كسنيه (فرا كسنتم) الذي يمتنع به العرب ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وأفريقية ، وقاعدة للأغارة على الداخل ، وكتب الى صهره امبراطور قسطنطينية يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية حتى يستطيع مهاجمة العرب من البر والبحر معاً . فلبى نداءه ، وفي سنة ٩٤٣ رسا اسطول بيزنطي في مياه ثروبيه ، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فرا كسنيه ؛ وهوجم العرب من البر والبحر بمنتهى الشدة وأحرقت سفنهم ؛ ونفذ هوج الى الحصن بعد قتال رائع ، وفر العرب الى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء . ولكن حدث عندئذ أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه قد عاد الى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها ؛ فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع العرب بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراته وأن يغلقوا الطريق الى إيطاليا في وجه خصمه ؛ وبذلك استعاد العرب قلاعهم وسيادتهم في جنوب بروفانس

واحتل العرب آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير الموصل بين سويسرا وإيطاليا وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية ، أن يجتاحوا الانحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع واستقرت منهم جموع كبيرة في السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا بالنساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب

ونفذ العرب أيضاً الى منطقة نيس إحدى ولايات مملكة آرل الجنويسة ، واجتاحوا شاطىء ليجوريا كله (جنوة) ؛ بل يظهر أن سرية منهم استقرت في نيس ذاتها ، وما زال في نيس الى اليوم حي يعرف بحي العرب Canton des Sarrazins

وأخيراً نفذ العرب الى قلب ولاية دوفينه وغزوا مدينة جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصيب ، « جريزيفودان » الذي يجرى فيه نهر الازير فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه الى الشمال حاملين رفات قديسهم.[1]

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامي

(١) Reinaud; ibrid; P. 180 & 181

٨ – الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

(٣) الشعور بالواجب :

من الوسائل التي تساعد على التنفيذ ، وعلى تقوية الشخصية العملية ، تلك الصفة الحية وهي الشعور بالواجب ، وإجابة نداء الضمير ؛ فالانسان حينما يشعر بوازع نفسي بأنه يجب عليه أن يفعل كذا ، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا ، فان هذا الشعور وحده يرمي إلى مغزى خاص ، ويستدعي نشاطاً عقلياً لفعل الشيء أو محاربته ، فهو بمثابة مؤثر داخلي يؤثر فيه تأثيراً قوياً . وإن إجابة هذا المؤثر أو الباعث النفسي خير كفيل لاستنهاض الهمة ، ومضاعفة العزيمة . قال « إمرسون » إن الانسان إذا استحثه الواجب لأن يقوم بعمل ما ، قام به » وليس الشعور بالواجب أو تلبية نداء الضمير ، أو الصوت الداخلي ، مقصوراً على طبقة دون أخرى ، ولا على جيل من الأجيال ، ولا سن من الاسنان

وإذا تذكرنا أن الشعور بالواجب يتضمن حكم النفس وضبطها ، أمكننا أن ندرك العلاقة بين الشخصية وبين الشعور بالواجب وإجابة الداعي النفسي ؛ ففي كل أمر من أمور الحياة نجد أن هدوء البال ، وراحة الضمير ، والاطمئنان ، والجمال – ثمرة من ثمرات الطاعة ، ومراعاة القوانين العلمية والفنية

وإننا إذا بحثنا في تاريخ العظماء والأدباء والفنانين ، وجدنا أن ذوي الشخصيات الخالدة (في التاريخ) كانوا من ذوي الضمائر الحية الحساسة ، الذين يجيبون نداء الضمير ، ويصغون إلى صوت الله فيهتدون بهديه ، وكانوا يحسون بالواجب فيقومون به ، ويعملون على تنفيذه . وكثيراً ما يكون الضمير الحي والشعور بالواجب سبباً في إنقاذ الانسان من صروف الحياة ، ومن السقوط إلى الهاوية فلا يكون فريسة للنفس الشريرة . فكل إنسان تفتح

أمامه السبل المختلفة ، ولكن الروح الطاهرة لا تفكر إلا فى الطرق الشريفة السامية ، أما الروح الدنيئة فلا تنظر إلا الى الطرق الدنيئة ، ومعظم الناس يسلكون طريقاً وسطاً . وإن الشعور بالواجب، وحب الفضيلة ، والتمسك بالخير تكسب الشخص قوة وروعة ووقاراً ، وتبعث فى نفسه الحياة ، وتقوده الى الطريق السوى ، وتعوده الصبر والمثابرة ، وتقوى الارادة ، وهى التربة الصالحة التى فيها تنمو وتثمر الشخصية القوية الغنية

(٤) قوة الوازع الدينى :

إننا فى البحث فى الشخصية الانسانية لا يمكننا أن ننسى الدين وأثره ، والوازع الدينى وقوة تأثيره فى حياة الانسان ، فكثيراً ما يواجه الانسان بأزمات وشدائد لا قبل له بها ، ولولا الثقة بالله والايمان به لجزع ، وتملكه اليأس ، واستولت عليه الهموم من كل جانب . ولكن الوازع الدينى هو الذى ينتشله من وهدة القنوط ، ويبعث الأمل فى نفسه ، ويحييه من يأسه ، وينير الطريق أمامه بعد أن كان مظلماً ، ويهديه بعد الضلال ، ويسليه عند الشدة . فالعنصر الوجدانى قوى فى العقيدة الدينية ، وهو يستحث الشخص فى أداء الواجب ، وإرضاء الضمير ، والصبر ، والمثابرة ، ويوحى إليه بفعل الخير واجتناب الشر ، ويدعوه إلى الحركة والعمل فى الحياة ، ويرشده ، فيعمل الانسان العمل وكله أمل وثقة بالله ، يؤدى واجبه ويترك النتيجة لله ، لا يفكر فى الماضى ؛ لأنه قد فات . وينظر فى الحاضر ، ويترك المستقبل لله يفعل ما يشاء . وبهذه الوسيلة يهدأ باله ، ويطمئن خاطره ، وتقوى شخصيته ، ويكون سعيداً فى الحياة . والانسان عادة يطمئن الى رجال الدين والمتدينين الذين يثقون بالله تمام الثقة ، ويفعلون ما يفعلون ابتغاء مرضاة الله . أما الرجل الذى لا دين له فلا ضمير له ، ولا يمكنك أن تطمئن اليه

ومعظم المصلحين فى العالم كان الوازع لهم فى الاصلاح دينياً ، أمثال الأنبياء والخلفاء والأئمة من المسلمين ، وهليل والربانى «عقيبة» من الاسرائيليين ، ومارتن لوثر ، وكار لَيْل ، ورَسْكين من المسيحيين . فالوازع الدينى هو الذى أمدهم بثروة فى العقل ، وقوة فى الروح ، وعظمة فى الخلق ، فأثروا فى جيلهم ، وفى الأجيال التى أتت من بعدهم . ولسنا اليوم فى حاجة إلى رجال يقومون بالواجب فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى رجال يمكنهم أن يحثوا غيرهم على القيام به

الخلاصة :

وصفوة القول أننا فى الشخصية العملية نحتاج الى ما يأتى :

(١) أن يكون لنا غرض معين فى الحياة ، نعمل للوصول اليه بحيث نعتمد على أنفسنا ولا نكون صدى لأصوات غيرنا فنكرر ما يقولون ونفعل ما يفعلون ، ولا نتأثر بهؤلاء المترددين الذين لا يعرفون لهم غرضاً فى الحياة ، ولا يثبتون على حال ، ولا نشغل أنفسنا بكثير من المشروعات التى لا يمكن تنفيذها ، بل بمشروع واحد فى وقت واحد ، ثم نعمل على إجادته وتنفيذه ، ثم الابتداء بغيره وهكذا

(٢) أن يكون لدينا حب شديد لأعمالنا ، ورغبة كبيرة فى تكملتها ، ونعمل على ألا نفقد تلك الرغبة فى تهذيبها ومضاعفتها

(٣) الشعور بالواجب والقيام به فى الحال على أكمل وجه ، فلا نؤخر عمل اليوم الى الغد ، ولا نفكر فيما سنحصل عليه من الجزاء عند القيام بالعمل ، بل نجعل الجزاء أمراً ثانوياً ، ونؤدى العمل لا لشىء إلا لأنه يجب أن يؤدى ، ونثق بغيرنا كما نثق بأنفسنا ، ولا نهزأ بالمثل الدليا التى يتخذها سوانا

(٤) قوة الوازع الدينى مع التمسك بالدين ، بحيث لا نفكر فى الماضى ، ونعمل على الانتفاع بالحاضر ، ونقوم بواجبنا كما ينبغى ، ونترك المستقبل لله . وبهذه الوسيلة نستريح وتستريح نفوسنا ؟

(تم البحث) محمد عطية الابراشى

كيف ولماذا

سافرت إلى أوربا؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

منذ بضع سنوات — أربع أو مائة ، لا أدرى ! — استقر عزمى على قضاء الصيف فى لبنان ، فجمعت ما عندى من الثياب القديمة ، وحشوت بها حقيبة ، وقلت أقضى أياماً فى الاسكندرية ثم أبحر منها الى بيروت . وهناك — فى الاسكندرية ، لا بيروت — لم أدع شركة ملاحة الا دخلت مكتبها واستفسرت من رجالها عن البواخر ، حتى الذاهبة الى الهند ، ومواعيد وصولها ورحيلها . وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق ، فيها صور مغرية وأسعار ميسرة . فاتفق يوماً أن ألح وكيل « شركة سيتمار » فى تزيين السفر لى على الباخرة « اسبيريا » الى ايطاليا ، وكان الوقت ظهراً ، وأنا جوعان ، فدار رأسى ، ووهن عزمى ، وكدت أنقده ثمن التذكرة ، ولكنى تذكرت أن « الجواز » يحتاج الى « تأشيرات » فاعتذرت به وانصرفت

وعدت الى فندق « بوريفاج » فى أقصى « الرمل » وكنت مقيماً به ، وأسرعت الى مائدتى فجلست اليها ، وكنت مهموماً مكروباً موزع النفس بين لبنان والباخرة « أسيريا » — أى والله ! كأنما كنت سأقضى الصيف كله على ظهرها ! — فناديت الخادم وطلبت قليلاً من النبيذ عسى أن يذهب عنى الفتور ، وملأت الكأس ، وتناولتها ، ورفعتها الى فمى ، فسمعت من ورائى — صوتاً ناعماً رخيماً يقول :

« المازنى — هذا — حشرة ! »

فارتدت يدى عن فمى ، وهى ترعش ، وسالت عليها قطرات من النبيذ ، ومضى الصوت الحلو يفرى أديمى :

« حشرة حقيرة — يجب سحقها بالأقدام . »

فتلفت مذعوراً وقد خيل الىّ أن العيون كلها صارت علىّ ، وتمنيت لو أن إدارة الفندق تحرم الكلام على الطعام ، أو تجيء بموسيقى فتغرق فى أنغامها العالية القوية هذه الأصوات الحلوة ! ولكن الكلام لم يكن محظوراً ، ولا موسيقى هناك ، فسمعت مكرها :

« سكير لا يفيق ، ومعربد لا يرعوى »

فقلت فى سرى « يا خبر اسود ؟ ! أنا سكير لا أفيق ؟ ؟ أنا عربيد ؟ ؟ » ودهشت ، ولو أن رجلا كان يزعمنى كذلك لما حفلت نفسى ماذا يقول عنى ، ولكنها فتاة — فتاة على التحقيق .. صوتها وحده دليل على ذلك — تذكرنى بلهجة المحنق ، كأنما كنت قد قتلت أباها ، — قاتله الله على أى حال ! — وكان الخادم قد وضع أمامى شبوطة[1] مغرية ، ولكن نفسى انصرفت عنها وزهدت فيها ، فاضطجعت وأنا أعجب للذين يؤاكلون هذه الفتاة لماذا لا يتكلمون ؟ ؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع

« رجل مستهتر ، لا يبالى ماذا يقول عن نفسه ، ويظن لسخافته أن هذا من الظرف » فلم أعد أطيق هذا الطعن ، واشتهيت أن أكتم أنفاسها بالفوطة ، ولكنى طويتها — أعني الفوطة — ووضعتها على المائدة وهممت بالقيام ، فسمعتها تقول :

« على كل حال ماذا ننتظر ؟ إن « اسبيريا » تسافر بعد غد ، واذا لم نشتر التذاكر غداً تأخرنا وفاتتنا . . . »

وتسللت ، كاللص ، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت وجهها ، من غير أن ترانى ، وكانت مع الأسف جميلة . فزاد عجبى ، فان الحسن رىّ ولين ، وهذه الفتاة تحمل لى فى جوفها بركاناً فائراً بالسخط والنقمة وكل ما ينافى معانى الجمال . فقرضت أضراسى وأقسمت لأسافرن على هذه الأسبيريا لأرى آخر هذه الحكاية

وأقبل الليل ، وكنت أتمشى فى حديقة الفندق ، وحدى ، كما لا أحتاج أن أقول ، وكنت لا أزال أحدث نفسى بما سمعت من أوصافى ، وكان صدرى كالخضم المضطرب ، وكان الخدم يروحون ويجيئون فى أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق المصفقين ، وكان الأطفال يجرون هنا وهنا ، وأنا ذاهل عن هؤلاء وأولئك جميعاً بالحجارة التى صكت سمعى على الطعام ، فكنت أخطو خطوات ، وأقف وأقول لنفسى :

---

(١) الشبوط والشبوطة سمك عريض ذيله دقيق

« حشرة . . . ! »

فقال صوت « أفندم ؟ »

قلت — غير عابئ به أو جاعل بالى إليه — «حشرة حقيرة .. تستحق السحق بالأقـدام» واستأنفت السير ، أو الخطو ، وتركت الخادم — فقد كان أحد الخدم — يسخط ويلعن ، أو لا يدرى هل يضحك أو يغضب

وإنى لفى ذهولى هذا ، وإذا بصرخة خافتة ، فالتفت مسرعاً إلى مصدرها ، فبصرت بفتاة حانية على غصن مريج علق به ثوبها ، فوثبت إليها وأعنتها على تخليص الثوب ، ولكن بعد أن تخرّق

وقلت وأنا أنفض التراب عن كفى وأشير إلى الثقوب الظاهرة فى ثوبها :

« ليس هذا ذنبى . . إنه ذنب البستانى المهمل الذى ربى هذه الألفاف لتزين بها الطريق ولا يعنى بتقليمها . . . »

فقالت : « على العكس . . . إنى شاكرة لك نجدتك ، ولولاك لصار الثوب فى يدى هلاهيل ... فأنا مدينة لك ... »

فرفعت عينى إليها فاذا بها هى التى سلقتنى على المائدة بلسانها وحرمتنى لذة الطعام وأنا جائع أتضور ، فارتددت عنها مقدار خطوة وندت عن صدرى آهة مخنوقة :

فقالت وهى تدنو منى :

« ماذا بك ؟ »

ورأتنى أتكلف الابتسام فقالت : « بالدور . . . أنت مرة وأنا مرة »

فقلت : « لا شىء . . . لاشىء . . . »

فألحت « ولكن ماذا بك ؟ »

قلت : « أوه . . . لاشىء . لم أكن أحسب أنك أنت ... »

فقالت مستغربة : « ولكن بالطبع أنا أنا . . . »

قلت : « طبعاً . طبعاً . إنى سخيف »

قالت « هل تعرفنى ؟ »

قلت : « أعرفك ؟ الجواب نعم ولا »

قالت : « كيف يمكن هذا ؟ ماذا تعرف عنى ؟ »

قلت : « أقل مما تعرفين عنى »

قالت : « لا مؤاخذة ، ولكنى لا أعرف عنك شيئاً »

قلت : « صحيح ! ؟ »

قالت : « بالطبع صحيح ! إنى لم أرك إلا الساعة »

فتنهّدت وانحط عن صدرى حجر ، وقلت : « الحمد لله ! ، ياما أكرمك يارب ! »

فقالت : « ولكن لماذا تتكلم هكذا ؟ لست أفهم شيئاً ... »

قلت : « أحسن »

قالت : « هل معنى هذا أنك تخشى أن أعرفك ؟ »

قلت : « جداً جداً جداً ! »

فضحكت وقالت « هل أنت مجرم هارب ؟ »

قلت : « شر من مجرم ، وبودى لو أستطيع الهرب ولكن إلى أين ؟ كلا . لست مجرماً ولكنى حشرة ! »

فصاحت « إيه ؟ حشرة ! »

قلت : « أى نعم . حشرة حقيرة . . . »

فوضعت راحتها البضة على كتفى وقالت : « لا تتكلم هكذا ! هل أنت مريض ؟ »

قلت : « نعم . نعم . نعم . »

قالت : « مسكين . ماذا بك ؟ »

قلت : « أذنى . . . أذنى . . . آه من أذنى »

والمصيبة أنى كنت أبتسم ، فقد راقنى هذا الموقف على الرغم مما أجن من الحقد على الفتاة ، فأقبلت علىّ ، وجعلت تهوّن من أمر أذنى وتشير علىّ بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من «الجليسيرين» ، وأن أبلع قرصاً من «الأسبيرين» فشكرتها وافترقنا

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، مررت « بقلم الجوازات » وبدار «القنصلية الايطالية» ، ثم استخرت الله وذهبت إلى مكتب « شركة سيتمار » ، وطلبت تذكرة على الباخرة « اسبيريا » وإذا بالفتاة تقول لى :

« وأنت أيضاً مسافر عليها ؟ »

قلت : « نعم . هل هناك بأس ؟ »

فضحكت وقالت : « كيف أذنك اليوم ؟ »

قلت : « أذنى ؟ آه ! صحيح ! تطن »

قالت : « يظهر أنها شفيت . . . »

فهممت بأن أقول شيئاً ولكن الرجل سألني عن اسمي ، ولم أكن أتوقع هـذا ، فهبط قلبي إلى حذائي ، ونظرت من الفتاة إلى الرجل ، ومن الرجل إلى الفتاة ، وقلت :

« اسمي ؟ ولكن هل هذا ضروري ؟ »

فقال : « لا . . . ولكن يحسن . . . إن أسماء الركاب تكتب وتوزع على الباخرة »

وكنت قد أنفقته قبل ذلك ثمن التذكرة ، فلولا هـذا لعدلت ، فقلت :

« اسمي ؟ اسمي ؟ أظنه . . ابراهيم . . نعم . . ابراهيم عبده »

وقالت الفتاة ونحن خارجان :

« هل هذا اسمك الحقيقي ؟ »

قلت : « هل تعرفين اسمي الحقيقي ؟ »

قالت : « لا . . . إذن هذا اسم مستعار ؟ معذرة إذا كنت أتطفل بلا . . . »

قلت : « لا لا . . . ليس اسماً مستعاراً . . . إنه اسمي من الآن فصاعداً »

فهزت رأسها وقالت وهي تبتسم : « ليس لي حق ، هذا فضول لا يغتفر . . سامحني »

فقلت بلهجة الجد الصارم : « أسامحك ؟ كلا ! أبداً . . . أبداً . . . »

فتعجبت ، وطلبت العـذر ، وقالت : « هل أسأت إليك بشيء ؟ إني آسفة . . . »

قلت : « أسأت ؟ أسأت فقط ؟ لقد قتلتني يا فتاتي ! »

قالت ، وهي تدير وجهها لترى وجهي :

« أتمزح أم تتكلم جاداً ؟ »

فواجهتها وقلت : « هل تعرفين أني أمزح ؟ كلا ! أعني نعم . قتلتني . . . طعنتني هنا » (وأشرت إلى موضع القلب)

فضحكت وقالت : « بهذه البترعة ؟ ! إنك حساس جداً »

قلت : « نعم . جداً . فاتقي أن تدوسيني بقدميك . . . »

قالت : « ولكن لماذا أدوسك بقـدمي ؟ لست أفهم كلامك . . . . »

قلت : « لأني حشرة . . . »

قالت : « أوه ! لا تقل هذا . . لماذا تشتم نفسك هكذا ؟ »

قلت : « نعم حشرة ، وحشرة حقيرة أيضاً . . . »

قالت : « أوه ! إنك تضجرني بهذا او . . . »

قلت : « وسكير عربيد . . . . »

فوقفت في الطريق وصاحت

« أهو أنت ؟ »

فقلت مقلداً : « بالطبع أنا أنا »

قالت : « وسمعتني ؟ »

قلت : « كل كلمة . . . خرقت أذني كالمسمار المحمى »

قالت : « إني آسفة . . . جدا . . . وأعتذر »

قلت : « آسفة ؟ همم . وأنا أتقلق ! لا بأس . هيا بنا . . . »

قالت : « لقد تعمدت ذلك . . . »

فصحت بها : « إيه ؟ كان هذا كله الى الآن تمثيلاً ؟ »

قالت : « نعم . قلت ما قلت عمداً . . . عرفتك من وجهك ومن . . . لا مؤاخذة . . . من رجليك . . ولكنك تؤثر الوحدة ولا تبالي الناس وتتقي أن تكلمهم ، بل تهرب منهم ، فماذا أصنع غير ذلك ؟ »

قلت : « كنت تستطيعين أن تحدثيني مثلاً فأسر . . . أم هذا حرام ؟ »

قالت : « والآن ألا تعفو عني ؟ »

قلت : عفوتا يا ستي . . بعد أن غرمنا ثمن تذكرة الى أوربا بلا داع !

قالت : « إيه ؟ »

قلت : « نعم . كنت مسافرا الى لبنان ، فلما سمعت منك بعض الحقائق . . . »

فاحتجت : « لا تقل الحقائق . . . »

« أردت أن أعرف البقيـة . . . فقد أوصانا سقراط أن نعرف أنفسنا »

فوضعت كفها على فمي

فلم أقبلها — أعني كفها — ولكني عضضتها عضة مغيظ ، ولم أبال صراخها في الطريق ...

ابراهيم عبد القادر المازني

من تراثنا العلمي

٢ ـ فضائل مصر لابن زولاق

وصف وتلخيص لنسخة مخطوطة

للأستاذ على الطنطاوى

تتمة

باب : إن المأمون قارن مصر بالعراق

١ — صفة مصر وخبرها :

قال : كان سعيد بن عفير بحضرة المأمون وهو بمصر فسمعه يقول لعن الله فرعون حين يقول : أليس لى ملك مصر . فلولا رأى العراق ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تقل هذا فان الله عز وجل يقول : ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . فما ظن أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذه بقيته (ثم وصف مصر وأنهارها وقناطرها وأرزاقها وخلجانها السمة وما كان من خبرها ، وخبر الخليج الاسلامى الذى حفر فى زمان عمر)

٢ — ذكر كور مصر ، وما فى كل كورة من أصناف البر والأوانى والفواكه والسلاح والطعام والشراب وجميع ما ينتفع به الناس

(وذكرها كورة كورة ، وذكر ما فيها فى فصل طويل ، وأحال فى مواضع منه على تاريخه . وقال وهو يتكلم عن اسكندرية) وقد شرحت ذلك مستفيضاً فى كتابى التاريخ الكبير فى أخبار الاسكندرية

(الى أن قال) : وذكرت الحكماء أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها عشرون بمصر والعشرة فى سائر الدنيا :

مسجد دمشق ، وكنيسة الرها ، وقنطرة سنجا ، وقصر غمدان . وكنيسة رومية ، وصم الزيتون بصقلية ، وحجر العوارى ، وايوان كسرى ، وبيت أرنج . . . . ؟ وكنيسة بعلبك

وبمصر من العجائب ما يعى عن هذا ويربو عليه (؟) فمن عجائبها : مدينة منف وقد ذكرناها ، ومن ذلك عين شمس وهى هيكل الشمس ، وبها قدت زليخا على يوسف القميص ، وبها العمودان لم ير أعجب منهما ولا من بنائها وهما محمولان على وجه الأرض بغير أساس طولهما فى السماء خمسون ذراعاً الخ . . ومن عجائب مصر البرابى بأخميم وسمنود وفيها الصور أمثال الفرسان والرجالة الخ . .

(وذكر لها خبراً طويلاً) ومن عجائب مصر أمر الهرمين الكبيرين الخ .

٣ — ذكر النيل وأموره

٤ — وصف مصر وتمثيلها :

(ذكر وصف عمرو بن العاص ووصف غيره من الولاة مصر . وتكلم عن خراج مصر وكيف كان يصرف كلاماً طويلا ذكر فيه مقدار الخراج فى زمن الفراعنة الأولين وفى أيام يوسف ومصارفه ، وذكر أن عمرو بن العاص جباها عام الفتح عشرة آلاف ألف دينار ، فكتب بذلك الى عمر ، فكتب اليه عمر بن الخطاب يعجزه ويقول جباها الروم عشرين ألف ألف دينار ، فلما كان العام المقبل جباها عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار ، فلما وليها عبد الله بن سعيد بن أبى سرح لعثمان جباها أربعة وعشرين ألف ألف . فقال عثمان لعمرو وكان عنده فى المدينة : درت بعدك اللقحة يا أبا عبد الله . فقال : أضررتم بالفصيل.

ثم انحط الخراج إلى ما دون الثلاثة آلاف ألف . إلا فى أيام هشام ، ثم قصر الى سنة ٢٥٤ ، فلما وليها أحمد بن طولون استقصى العمارة وبالغ فيها فجباها أربعة وعشرين ألف ألف الخ)

٥ — ذكر مقبرة مصر وفضائلها وذكر مقطمها

٦ — ذكر ما تختص به مصر دون غيرها من الملبوس والمركوب والمأكول والمشروب (فى فصل طويل)

٧ — فى أسماء الشهور القبطية (وما كانوا يصنعون فى كل واحد منها)

***

هذه أبواب الكتاب وفصوله ، وفى الكتاب أشياء رواها المؤلف على علاتها ولم يسلك فيها سبيل التحقيق ، كالذى جاء به عند الكلام على المواضع الشريفة فى مصر ، وعجائب مصر ، وخبر الأهرام . وفيه أشياء نادرة وجليلة .

ولكي نزيد القارىء بياناً نقدم اليه هذه النبذة مما ورد فى الكتاب نموذجاً لأسلوبه :

قال : (ذكر ما في مصر من ثغور الرباط والمساجد الشريفة وما فيها من شركة شرف الحرمين وسائر الدنيا . فأما مشاركتها للحرمين وأعمالها — (؟) ولما أمكن الواردين اليها من كل فج عميق المقامُ بها يوما لنفاد أزوادهم وأنهم إنما يمتارون من ميرة مصر . وقال بعض المتكلمين : لو أن رجلاً عابداً ترك التصوف وأقبل على العبادة وأن آخر قام له بكفايته وسائر مئونته من كسوة وطعام وشراب لكان شريكه فيما يعمله وأن له أوفر أجرة ، وكذلك مصر منزلتها من الحرمين . ومن فضايلها أن الذي بنى الكعبة رجل من قبط يكنى أبا قدم . ومصر فرضة الدنيا ويحمل من خيرها الى سواحلها وكذلك ساحلها بالقلزم ينقل الى الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلدة الروم وأقاصي الفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبـــلد الروم والمغرب كله الى طنجة والسوس ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد المغرب وبلد البربر و — (؟) والحبشة والحجاز واليمن . وأما ما فيها من ثغور الرباط فمن ذلك : رباط البرلس ، ورباط رشيد ، ورباط الاسكندرية ، ورباط ذات الحمام ، ورباط البحيرة ، ورباط إخنا ، ورباط دمياط ، ورباط شطا ، ورباط تنفس (؟) ورباط الاستوم ، ورباط الفرما ، ورباط النقار ، ورباط الفرادة ، ورباط العريش ، ورباط الشجر بين وما ينضاف الى هذه الثغور وجهاتها ، ورباط الحيرس من جهة الحبشة والحة (؟) ومايقرب منهم (كذا) ورباط أسوان على النوبة ، ورباط الواحات على البربر والسودان ورباط قوص . وقد روينا في أول هذا الكتاب قول الرسول عليه السلام : إن مصر خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال لأنهم وأزواجهم وأبناؤهم في رباط إلى يوم القيامة [1] وكانت برقة وطرابلس من ثغور مصر إلى أن خرجت في سنة ثلاثمائة فأضيفت إلى رباط المغرب . وأما المساجد الشريفة والمشاهد العظيمة فان بمصر مساجد هي مشاهد والعمل فيها [2] منه في غيرها سوى الحرمين ، فمن ذلك مسجد سليمان عليه السلام في الاسكندرية ، ومسجد يوسف عليه السلام بمنف ، ومسجده بطرا . ومسجده بوادي القطم . وللخضر مسجدان منها مسجده بالاسكندرية ، ومسجده ببلوهة في أسفل الأرض ، ومسجد ذي القرنين بالاسكندرية عند النجاث . ومنها مسجد الأقدام وهم قوم من أهل الشام قتلوا على موالاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسجد عقبة ابن عامر الجهني بسوق وردان ، ومسجد مسلمة بن مخلد بسوق وردان ، ومسجد الزمام بني على رأس محمد بن أبي بكر بناه غلامه زمام وجعله مشهداً ورأسه في موضع المنارة ، ومسجد — (؟) بني على رأس زيد بن علي بن الحسين بن (— علي) أبي طالب أنفذه هشام بن عبد الملك إلى مصر نصب على هذا المنبر ووقف عنده — (؟) فسرقه أهل مصر . ودفنوه في هذا الموضع ، ومسجد درب الكندالذي الزقاق فيه قبر الحسين بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب أرسله أبو جعفر المنصور بن العباس الى الأمصار فأخذه أهل مصر فدفنوه في هذا الموضع واتخذوه مسجداً . وبمصر مساجد الصحابة سوى ما ذكرنا الخ)

***

هذا وليس على الكتاب تعليقات للقراء إلا تعليقة واحدة على أسماء الشهور القبطية قال كاتبها :

(قوله أشهر الأعجمية القبطية المراد هذه الشهور على الأبراج الفلكية الاثنى عشر برج ، لأن كل برج من هذه الأبراج سموه باسمه في لغتهم فأول الأبراج وهو الحمل سموه توت ، وثانيه الثور سموه بابه ، وثالثه جوزا سموه هتور ، ورابعه سرطان سموه كيهك ، الخامس أســـد سموه طوبا ، والسادس السنبلة سموه امشير ، ٧ ميزان سموه برمهات ، ٨ الثامن عقرب سموه برمودة ، ٩ قوس سموه بينس ، العاشر الجدي سموه بؤنه ، الحادي عشر دلو سموه أبيب ١٢ حوت سموه مسرى)

***

وكأن هذا الفصل الأخير (مطلب في أسماء الشهور القبطية) ملحق بالكتاب وإن جاء قبله بجملة فيها معنى الختام قال :

وقالوا في مصر كلاما محفوظاً : طينها عجب ، ونيلها ذهب ، ورجالها قصب ، ونساؤها رُطب ، وهي لمن غلب . وقالوا في الكوفة : اقرأ الناس للقرآن لايجاوز تراقيهم . وقالوا في أهل البصرة

(١) نحذر القراء أن يحفظوا هذا الحـديث ويرووه قبل معرفة درجته ورواته (٢) هنا كلمة ناقصة لعلها كلمة أفضل والصحيح أن الصلاة في المساجد كلها إلا الثلاثة سواء في الفضل

نعم وردن معاً وصدرن شتاً [١]. وقالوا فى أهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق وأجرأهم على أمر لا يدرون ماهو . وقالوا فى أهل الحجاز : أجرأهم على فتنة وأعجزهم عنها . وقالوا فى أهل الموصل كناسة بين قريتين . وقالوا فى أهل واسط منزل بين كنيفين . وذكروا الحديث المسند : (إن مصر يساق إليها أوائل [٢] الناس أعماراً) . والبلدان فيها الطوال الأعمار وفيها القصار . إن طول الأعمار فى سر وحمير ، وجو اليمامة ووادى فرغانة . وقد جعل لمصر نصيب من ذلك فى طوال الأعمار بجربوط وقرا بالحفار . وقد ذكرنا لمصر من الفضائل ما أغنى وكفى ، ووصفنا الحكماء الذين كانوا بها وأنها معدن الحكمة التى انتشرت فى أيدى الناس ، وليس يوجد فى الدنيا بلد زينه أهله زينة مصر فى أبنيتها ونهرها وإتقان أمرها وبالله التوفيق

وإن فى الكتاب كثيراً من العبارات المضطربة . وفيه كلمات ليست بالواضحة وإن فيه كثيراً من الأخبار التى لم تصح، ترد غالباً عند ما يتكلم عن تاريخ مصر القديم . كقوله :

— (ذكر من كان بمصر من عيون الفرسان والشدة : عوج ابن عنق قتله موسى عليه السلام وجره الناس على النيل فمروا عليه شهراً ، قال . وكان طول سرير عوج بن عنق ثمانمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع ، وكانت عصاة (هكذا) موسى عشرة أذرع ، وضربه موسى فأصاب كعبه فخر على نيل مصر فجسره الناس فمشوا على صلبه وأضلاعه سنة وقيل شهراً الخ)

وقوله :

(ومن الفراعنة الذين جربوا الدنيا وغلبوا على مصر بختنصر وهو من قرية من قرى بابل يقال لها نفد ، ودخل مصر فى ستمائة ألف فارس وراجل ، راكباً على أسد ورد ، متقلداً سيفاً طوله عشرة أشبار وعرضه شبر ، أخضر النصل كالسلق ، يتحدر منه شبه ماء السدر ، وغمد من ذهب مرصع بالجواهر والياقوت الأحمر مكتوب عليه :

وأنت إن لم ترجُ أو تتق ... كالميت محمولاً على نعشه
لا تنحس السر فتصلى به ... فقلّ من يسلم من نحسه
وأخمد السر فإن هجته ... واحذر لأعدائك من حبسه
للبحر أفراش لها صولة ... فاحذر لأعدائك من قرشه
إذا طفى بالكلى شحم الكلى ... أدخل رأس الكبش فى كرشه
وناطح الكبش له ساعة ... يأخذه الناطح من كبشه
وكم نجى من يدى أعدائه (كذا) ... وميت مات على فرشه
من يفتح القفل بمفتاحه ... نجا من التهمة فى فتشه
ونابش الموتى له ساعة ... يأخذه ابليس من نبشه
لله فى قدرته خاتم ... يجرى المقادير على نقشه

***

وهذا ختام المخطوط :

(وهذا جملة ما أودعناه هذا الكتاب باختصار بغير إسناد ولم أثبت فيه شيئاً إلا وقد رويته واختصرته ليقرب على من أراد وبالله التوفيق ، ولو لم يكن لمصر فضل إلا أن العزيز عليه السلام امامها . والوزير أيده الله ملكها وعاملها ومدبرها لكان فضلاً عظيما وبالله أستعين . تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه)

دمشق — علي الطنطاوي

---

[١] هكذا ولعلها أشتاتاً   [٢] لعلها أطول

بين فني التاريخ وفن الحرب

٨ - خالد بن الوليـــــد *

في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعـــير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

والتربيب في ذلك أن الفرق كانت تعيش مستقلاً بعضها عن بعض ، وكانت تتقاتل بخلاف فرق القبائل الأخرى . ولعل الداعي الى ذلك أنها كانت جسيمة لا يمكن لرئيس واحد السيطرة عليها ، وأنها في بلاد جعلتها بمأمن من غزوات القبائل الأخرى فلم تر الفرق والبطون حاجة الى الوحدة

ويظهر أن مالك بن نويرة استطاع أن يستميل سجاحاً الى جانبه لقرابتها منه ، وأراد أن يستغلها لمصلحته فيضرب بها الفرق المخالفة له ويرأس بني تميم بالقوة ، أما هي فكانت تريد أن تستفيد منه للهجوم على المدينة . ومال وكيع بن مالك رئيس بني حنظلة الى جانبه . وهكذا مالت شعب بني مالك الى جانب سجاح

وكانت الشحناء قبل ذلك شديدة بين رؤساء بني تميم كما نعلم . ولما ورد خبر وفاة الرسول عليهم أرسل بعضهم الصـدقات الى المدينة ، وانتظر بعضهم ما يصنع البعض الآخر . ويروي أن قيس بن عاصم رئيس مقاعس والبطون قال « واويلنا من ابن العكلية - يريد به الزبرقان - والله لقد مزقني فما أدري ما أصنع ، لئن أنا تابعت أبا بكر وأتيته بالصدقة لينحرنها في بني سعد فيسودني فيهم ، ولئن نحرتها في بني سعد ليأتين بها أبا بكر فيسودني لديه » فعزم قيس على توزيع الصدقات على مقاعس والبطون ففعل ، وعزم الزبرقان على الوفاء بإرسال الصدقات الى المـدينة .

(*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

وكانت النتيجة أن نشب القتال بين عوف والأبناء من جهة والبطون من جهة أخرى ، وبين الرباب من جهة ومقاعس من جهة أخرى . وبين خضم وحنظلة وبين بهدى ويربوع

ولما وصلت سجاح الى الحزن أرض بني يربوع واتفقت مع مالك ابن نويرة والتحق بهما وكيع بن مالك شرع مالك ينفذ خطته ليرأس بني تميم ، فبدأ بقتال الرباب وعوف والأبناء ، فلم يظفر بهم بل دارت الدائرة عليه وعلى سجاح فوقع وكيع أسيراً بيد الرباب .

وأرادت سجاح أن تجرب حظها مع بهدى وخضم من شعب بني عمرو فكان نصيبها الخيبة أيضاً . فلما لم تظفر بطائل تركت مالكاً وانسحبت برجالها من بلاد بني تميم وسارت الى اليمامة

هذا هو الموقف حين كان خالد يجول ويصول في بلاد بني أسد ولم يكن يجهله ، لذلك لم يكد ينتهي من أمر بني أسد حتى رآه قد انتهز الفرصة وأمر جيشه بالسير الى أرض بني تميم دون أن ينتظر أمراً من الخليفة ، وهكذا نراه يستعمل إبداعه ويسير جيشه نحو البطاح رغم مخالفة الأنصار له مدعين أن عهد الخليفة اليهم أن يقيموا بعد فراغهم من بزاخة إلى أن يكتب اليهم . إلا أن خالداً تقدم نحو البطاح قائلاً لهم إنه هو الأمير واليه تنتهي الأخبار وإن لم يأته أمر من الخليفة ، فإنه لا يريد أن يضيع الفرصة ما دام مالك بن نويرة بحياله . وشعب بني تميم نافرة منه . لذلك لم يتردد خالد في الذهاب اليه من دون الأنصار

والواقع أن مالك بن نويرة بقي وحيداً بين بني تميم ، لأن صفوان بن صفوان كان قد أرسل الصدقات الى المدينة وكذلك الزبرقان ، أما قيس بن عاصم فكان عليه ، وكذلك وكيع بن مالك لما سمع بانتصارات خالد أرسل صدقات بني حنظلة اليه . فبقي مالك حائراً ماذا يعمل ، وكان بالبطاح مع رجاله من بني يربوع ، والبطاح أرض دون الحزن ، وهي ذات مراتع خصبة وفيها مياه كثيرة ، فالقصيبة والبريدة من مواقعها

وندم الأنصار على تخلفهم لأنهم خشوا أن تصيب المسلمين مصيبة فيلاموا عليها ، فأوفدوا رسولاً إلى خالد يطلبون منه الاقامة إلى أن يلحقوا به ، فأقام خالد حتى لحقوا به فسار الى البطاح . والروايات غـير متفقة في أمر مالك بن نويرة . ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً قاتل المسلمين برجاله من بني يربوع فقتل في القتال .

ومنها ما يزعم أنه لما تأكد من الخيبة فرق رجاله وأمرهم بألا يقاتلوا المسلمين ورجع الى منزله ؛ ولما قدم خالد البطاح بث أربع سرايا الى جهات مختلفة ، فرجعت السرية التي كان يقودها أبو قتادة الأنصاري بمالك والبعض من رجاله

ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً حارب السرايا التي أوفدها خالد فقتل ، ومنها ما تزعم أنه وقع أسيراً في القتال فأمر خالد بضرب رقبته مع الأسرى الآخرين ، والبعض الآخر من الروايات تذكر أن خالداً أراد قتل الأسرى بما فيهم مالك ، إلا أن أبا قتادة شهد أنهم أذنوا وقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد أن يحبسوا ، وكانت الليلة شديدة البرد ، فأمر خالد منادياً فنادى أن أدفئوا أسراكم ، وكانت كلمة الدفء في لغة كنانة تعنى القتل ، فقتلهم الخفراء وقتل ضرار بن الأزور مالكاً

وكان قتل مالك على هذه الصورة ، وتزوج خالد بامرأته ليلى بعد قتله بمدة قصيرة . وهذا مما جعل عمر يتقم على خالد فطلب من أبي بكر أن يعاقبه على فعلته هذه ، فاضطر الخليفة الى استقدام خالد الى المدينة وطلب الايضاحات منه ، فلما اقتنع أن خالداً لم يقصد قتل مالك أعاده الى جيش المسلمين وكلفه بالسير الى اليمامة ليقاتل مسيلمة الكذاب

الحركات في اليمامة

من الصعب التثبت من المدة التي قضاها خالد بن الوليد في البطاح حتى نعلم الوقت الذي تقدم بجيشه نحو اليمامة لمقاتلة بني حنيفة . فيكاد أكثر المؤرخين من العرب يتفق على أن القتال في اليمامة وقع في أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية . أما أبو بشر الدولابي واليعقوبي فيزعمان أن القتال وقع في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة

فبدأ السنة الثانية عشرة الهجرية يوافق شهر آذار « ابريل » سنة ٦٣٣ ميلادية . والذي نعلمه أن خالداً توجه من ذي القصة نحو بزاخة في منتصف شهر ايلول « سبتمبر » أو شهر تشرين الأول « اكتوبر »

وقضى خالد في حركته نحو بزاخة أكثر من عشرين يوماً يترقب أخبار طيء . وبعد انتصاره على جيش طليحة بن خويلد مكث في بني أسد مدة غير قصيرة ليقبل إسلام المرتدين ويجمع منهم السلاح . أضف الى ذلك قتاله في ظفر ، وانتظاره مجيء رؤساء بني عامر

ويدعي المؤرخون أن مالكاً بن نويرة قتل خطأ في ليلة شديدة البرد . وعلى ما في كتاب الطبري رواية عن سيف ابن عمر أن الأسرى من بني يربوع حبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء . والليالي الشديدة البرد في البادية تقع في أشد شهري الشتاء برداً وهما كانون الأول «ديسمبر» وكانون الثاني «يناير» . إذن وقع القتل بين أواخر كانون الأول وأوائل كانون الثاني ، فتكون حادثة البعوضة (*) وقعت بين شهري شوال وذي القعدة في السنة الحادية عشرة الهجرية

يقيناً أن خالداً قضى مدة غير قصيرة في البطاح ، وقضى وقتاً في ذهابه الى المدينة ملبياً دعوة الخليفة . ولما عاد منها لم يحرك جيشه نحو اليمامة بمجرد وصوله الى المعسكر ، بل انتظر مدة لورود النجدة التي أمد بها الخليفة جيش المسلمين . فيظهر من كل ذلك أن الحركة من البطاح نحو اليمامة وقعت في أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية — أي في ربيع سنة ٦٣٣ ميلادية ، في شهر آذار أو شهر نيسان « مايو »

ومن رواية رواها أبو هريرة نستدل على أن سلمة بن عمير الحنفي كان يشجع بني حنيفة على المقاومة بعد معركة عقرباء فينادي قائلاً : « يا بني حنيفة قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فان الحصن حصين وقد حضر الشتاء » . ومعنى ذلك أن الحركات في اليمامة جرت في صيف الثالثة عشرة الهجرية — أي بدأت حوالي شهر مايو لسنة ٦٣٣ ميلادية

منطقة الحركات

اليمامة مؤلفة من مقاطعتي العارض والخرج الحاليتين ، ومقاطعة الخرج من أخصب مقاطعات نجد ، فالماء مبذول فيها وهو على عمق بضعة مترات تحت الأرض . ولما كانت أرضاً منخفضة تنصرف اليها مياه الأمطار من الجبال والهضاب التي تحيط بها ، ومدينة اليمامة — العاصمة القديمة — واقعة فيها

ويدعي كثير من الجغرافيين بأن أرض اليمامة القديمة هي مقاطعة الخرج الحالية . وهذه القاطعة واقعة في جنوب شرق

* البعوضة اسم المحل الذي قتل فيه مالك بن نويرة

العارض ، ويحدها من الشرق وادي حنيفة ، وعلى إحدى شعبه اليمني بثيت مدينة اليمامة . ولا تزال مقاطعة الخرج من أكثر المقاطعات النجدية نفوساً ، وفيها مراع خصبة وبساتين نخل كثيرة

ويحد المنطقة التي جرت فيها الحركات من الشرق هضبة العرمة ، وهي الهضبة المرتفعة المشرفة على الدهناء ، ومن الغرب الأنفيدة الموازية لسلسلة طويق ؛ ومن الشمال مقاطعة القصيم . والمنطقة جبلية تعد من أوعر مناطق نجد من حيث الوديان والمضايق والروابي والآكام

وتمتد جبال طويق في وسط المنطقة من الشمال الى الجنوب وهي حجرية كلسية جرداء متموجة ، تتألف من سلسلتين متوازيتين ، وسفوحها الغربية منحدرة ، أما سفوحها الشرقية فقليلة الانحدار . ويبلغ ارتفاعها زهاء سبعمائة قدم على الهضبة الغربية . وتمتد الجبال من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وتتكسر في الوسط وتغير اتجاهها الى الجنوب فالجنوب الغربي فتنتهي الى وادي الدواسر . وفي المحل الذي تتكسر فيه تجري الوديان من الشرق الى الغرب وتصب في وادي حنيفة . وهذه الوديان ضيقة وعرة في محل الانكسار حيث ترتفع سفوحها الشمالية والجنوبية بانحدار شديد

وتنحدر مياه الأمطار التي تهطل على الجبال الى الشرق والغرب في الوديان والشعب ؛ فمنها ما يصب في وادي حنيفة ، ومنها ما يكون وادي الخفس وشعيب العتشي حيث تنصرف مياهها الى الدهناء ، ومنها ما يصب في مقاطعة الوشم ويسقي متخفضاتها ويكون واحاتها الخصبة . والشعيب الذي يكون وادي الخفس ينبع من جنوبي نادق ويجري نحو الجنوب الى الحرملة ومنها يتوجه شرقاً . وهذا الشعيب ووادي حنيفة يقسمان الجبال الى سلسلتين : الغربية منهما مرتفعة ووعرة وهي طويق ، أما الشرقية فمنخفضة وقليلة الانحدار ، وهي روابي العارض في الشمال وجبل صلبوخ في الوسط والجبيل في الجنوب . وأما وادي حنيفة (وهو أعظم واد في هذه المنطقة) فقد سميت القبائل الساكنة على جانبيه باسمه . ومصدره في الأرض الفاصلة بين العارض من جهة ، والحمل والسدير من جهة أخرى . ويبدأ الوادي في ثنية اليمامة في شرق بجشم الجبسية ، ويتكون من عدة شعب تجري من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . فيستمد الوادي ماءه منها فيجري من الغرب الى الشرق . وفي جوار عقرباء ، حيث نشبت المركة الفاصلة بين جيش خالد وجيش مسيلمة ، يغير الوادي اتجاهه فيجري من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في واد يضيق في بعض المحلات ويعرض في البعض الآخر ، وهو شديد الوعورة في الشمال وسهل المجرى في الجنوب . وعلى حافتي الوادي شيدت القرى والمدائن ، حيث استقيت المياه المنصرفة اليه ، وزرعت البساتين حولها . والوادي في هذا القسم يتغذى بعدة شعاب ينصب أكثرها فيه من السفوح الغربية

وفي محل انكسار سلسلة طويق تصب فيه عدة وديان بحيث أنها تغير اتجاهه في جوار السلينية واليمامة ، فيتوجه نحو الشرق فالجنوب الشرقي الى أن ينتهي في رمال الربع الخالي

وكان من وصايا أبي بكر الى خالد بن الوليد أن يأخذ الحيطة عند الهجوم على أهل اليمامة . وكان الخليفة محقاً في هذه الوصية ، لأن أهل اليمامة سكان القرى المبنية في الوديان الضيقة ، وعلى سفوح الجبال الوعرة ، بنوا دورهم بالحجارة ، وسوروا قراهم بالجدران ، وأنشأوا الحدائق بالقرب من قراهم ، وزرعوا فيها النخيل والأشجار وأحاطوها بالحجارة ليمنعوا المارة من دخولها أو ليعتصموا بها عند الحاجة

فأهل اليمامة إذن لا يشبهون أهل البادية في القتال ، فهم معتصمون بجبالهم المنيعة ، ومعتزون بقراهم المتينة ، وحدائقهم المستحكمة . ولا تزال آثار هذه القرى ظاهرة في تلك الأنحاء . وهذه القرى كثيرة ومنتشرة على طوار وادي حنيفة ، وفي مقاطعة الخرج ، وفي الوديان والمنخفضات والواحات

« يتبع » طه الهاشمي

في الأدب الدرامي

١٤ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لرواية هرناني

هرناني Hirnani

دراما شعرية في خمسة فصول نظمها هوجو سنة ١٨٣٠ ومثلت أول مرة في (الكوميدي فرانسيز) يوم ٢٥ فبراير سنة ١٨٣٠ فكان تمثيلها معركة شعواء بين الاتباعيين والابتداعيين تبودلت فيها اللعنات واللكمات بين الفريقين. وكان أنصار المذهب الجديد قد وزعوا قبل يوم التمثيل (تذاكر) مجانية على طلاب المدارس وتلاميذ المصانع، فملأوا مشهد المسرح قبل بدء التمثيل بثماني ساعات. ثم ابتدأ التمثيل على المسرح، والعراك الصاخب في المشهد، حتى أسدل الستار الأخير على فوز الابتداعيين وفشل الاتباعيين

أهم أشخاص هذه الرواية: هرناني، وهو نبيل اسباني اتخذ اللصوصية وقطع الطريق وسيلة لأخذ ثأر أبيه المشنوق في جريمة سياسية؛ ودون كرلوس ملك اسبانيا، وهو الذي قتل أبا هرناني؛ ودون روى جوميز دوق سلفا؛ ودونا سول بنت أخيه التي يريد أن يتزوج منها. وقد وقعت حوادثها في سرقوسة، ثم في قصر سلفا، ثم في إكس لا شابل، ثم في سراقوسة ثانية

ففي الفصل الأول: يعيش هرناني في الجبال مع ذؤبان الأنس، يقطع الطريق ويغير على البلاد؛ وهو يحب (دوناسول) وتحبه، وينافسه على هذا الحب (دون كرلوس) ملك اسبانيا والشيخ روى جوميز عم الفتاة، ويقع هرناني في خطر داهم فينجو منه بفضل الملك

وفي الفصل الثاني: يقابل هرناني الملكَ في بيت دوناسول، وقد أقبل في حرسه يخطفها، فيملك حياته وموته. ولكنه يُبقي عليه ويخرج، فيجد البيت محصوراً بالجند الملكي فينجو بنفسه بعد لأي

وفي الفصل الثالث: يحكم الملك بالقتل على هرناني ويجعل لمن يأتي برأسه جعالة مالية، فتذعن دونا سول لأحكام القدر وتستسلم لإرادة عمها فترضى أن تتزوج منه. وفي الساعة التي يتأهبون فيها للذهاب إلى الهيكل لعقد الزواج يدخل هرناني القصر في زي حاج يطلب الحماية والجوار من ربه. فاذا ما رأى حبيبته في زينة العروس يظن أنها نكثت عهده، ونسيت وعده، فتهون عليه الحياة ويعلن عن نفسه طالباً القبض عليه. ولكن واجب الضيافة لصاحب القصر يقوم دون ذلك. وليس جوميز ممن ينقض الذمام ويخيس بالذمة. على أنه يفجأ الحبيبين وهما يتساقيان الهوى ويتصارحان بالحب، فيستقله الغضب وترعده الغيرة، ويدخل الحاجب عليه في تلك الحال يعلن إليه قدوم الملك، فقد جاءه يطلب منه تسليم المجرم المحكوم عليه إذ علم أنه لاذ بقصره. فتتنازع الدوق عوامل الشرف والغضب والانتقام، وتتراءى له صور آبائه المعلقة على حوائط القصر تتحرك أمام عينيه تذكرة له وتبصرة، فيغلب الشرف ويخبئ هرناني في مخبأ سرى أمين. ويدخل الملك فيعاتب الدوق على أن يجير عليه، ويطلب منه المجرم. فيجيبه جوميز في إباء وشمم أنه يؤثر الموت على أن يسلم جاره. فيغتصب الملك دوناسول ويخرج انتقاماً من عمها وثأراً لنفسه. ويخلو الدوق بهرناني فيرد إليه حياته وحريته بشرط أن يساعده على غسل هذه الإهانة عنه بدم الملك، فيجيبه هرناني إلى ذلك ويضع حياته في يده ضماناً بوعده، فيقسم أن يقتل نفسه متى نفخ الدوق في هذا البوق الذي يعطيه إياه

وفي الفصل الرابع: يسافر الملك في أثناء ذلك الى اكس لاشابل يروض لنفسه الأمور ويهيء الأسباب لفوزه في الترشيح لأمبراطورية ألمانيا، ويأتمر الدوق وهرناني بالملك، ويتوافى المؤتمرون في حندس الليل الى أقباء الكاتدرائية على مقربة من ضريح شارلمان. ويقف دون كرلوس على سر المؤامرة فيجيء الى مكانها يريد أن يفجأ المجرمين وهم جلوس على الجريمة، ويظل مختبئاً ينظر. وتهب عليه في تلك الساعة نفحة من قبر شرلمان وهو الذي يريد أن يخلفه على مجده وسلطانه، فتوحى اليه بتلك النحوى

المشهورة التي تبلغ ستين ومائة بيت من عيون الشعر وغرره ، ويدخل الملك ضريح العاهل فيتسنى له أن يسمع مايقرره المؤتمرون فيعرف أن هرناني قد انتخب بالقرعة ليقتله . ويدوي في تلك اللحظة صوت المدفع فجأة فيعلن انتخاب دون كرلوس عاهلا لألمانيا ، فيخرج حينئذ من مكمنه ويدهم المتآمرين فيملأ قلوبهم رعباً ودهشة ، ويريدون الفرار فيجدون المكان محصورا بالجند ، ويتقدم هرناني فيكشف للملك عن نفسه ويذكره بجنايته على أبيه . ويكون لهرناني ودونا سول والملك موقف رائع تتجلى فيه عواطف الحب والتضحية والشهامة ، وينتهي بأن يعفو الملك عن جميع المتآمرين ويتخلى عن دونا سول لهرناني فيستعبد قلبه بهذه الأريحية . ويصبح اللص الشريف صادق الولاء مخلص القلب لشرلكان وهو الاسم الجديد للعاهل الجديد

وفي الفصل الخامس لم تتحلل هذه النهاية في صدر الدوق جوميز ، فلا هو رحض إهانته ولا هو نال حبيبته ، فيأبى عليه طبعه أن يسعد غيره بشقوته ، فيدع الزواج يتم والعرس يقام والعاشقين ينعمان معاً بنعمة الحب ولذة القرب ، ولكنهما يسمعان نفخة بوق على بعد ! ثم يدنو الصوت فإذا هو الشيخ جوميز يستنجز هرناني وعده بأن يقتل نفسه عند نفخة البوق ، فيتوسل العروسان إليه بالرجاء والدعاء والدموع فلا يزداد إلا إصراراً وعناداً . ويظلم اليأس في عيني الزوجين البائسين فيخرج هرناني من منطقته قارورة من السم ، فتأخذها منه دونا سول وتجرع نصفها وتقدم الباقي إلى زوجها فيشربه ، ويخر الحبيبان صريعين تحت قدمي الدوق ، ويهجم عليه هو أيضاً الندم ووخز الضمير فينتحر على جثتيهما الهامدتين

***

يؤخذ على هذه الدرامة أن العمل الروائي فيها خيالي محض ، ينقصه الصدق والطبيعة ، وأن تحليل أخلاقها سطحي غير عميق ، وأن كثيراً من مواقفها غريب غير ممكن . ونجد هذا العيب أوضح مايكون في الحل ، فإن الدوق جوميز الذي ظل طوال الرواية شهماً كريماً لا يسوغ في العقل أن يكون في آخرها جامد الشعور زميت المروءة كما ظهر

تتمة

في الملهاة العامية Farce والمأساة العامية mélodrame

الملهاة العامية هي ملهاة غرضها الأضحاك والإلهاء بتصوير العيوب المضحكة تصويراً يتعدى حدود الأدب والحشمة والذوق والامكانية . فهي تقوم على الاحالة والبذاءة ، كما تقوم الملهاة على السخر والأضاحيك

والرأي بين الناس مختلف في بقاء هذا النوع في أمة راقية وحكومة منظمة ومسرح مهذب . فالذين يدافعون عن الملهاة العامية يقولون إن الناس يرفهون عن صدورهم بشهودها ، وإن الأذواق ليست واحدة في تقدير اللهو الرفيع ، وإن العكوف على الجد الخالص واللهو الجدي يتعب الذهن ويكد القريحة ، وإن الجمهور يجب أن تطلق له الحرية في اختيار ما يلهيه ويسليه

ونحن لا ننكر مطلقاً على الملهاة العامية أنها تلهي الجمهور وتسر الناس ، بل نعترف بأن الرومان كانوا يهجرون مسرح (تيرانس) ويحتشدون عند المصارعين والمهرجين ، ولا ننكر كذلك أن القليل في الناس هم الذين يدركون معنى الحق والجمال والخير ، فيلذهم إدراكه ويمتعهم فهمه ، وأن دهماء الشعب وسواده لا يلهيهم إلا الخيال الفاحش والبذئ المقذع ، وأن من الأذهان ما يعتريه الكلال من الجد فلا يشحذ إلا بالمزاح الخالي من الذوق والفكر ، ولكن سلطان هذا النوع على الشعب هو مصدر الخطر فيه ومنشأ الضرر منه . فإن من يحبه ويميل إليه يكره غيره ويصد عنه ، وانصراف الشعب عما يغذي عقله بالحكمة وذوقه بالجمال ووجدانه بالفضيلة ، إلى ما يملأ عينه بالفحش وقلبه بالرجس ولسانه بالبذاء ، مؤد إلى الوهن والانحلال والعدم . ذلك إلى أن اللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله . وإذا استرسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر ، كما يخمد جسمه بترك العمل . أما قولهم إن الملهاة العامية لا تضر مادامت تسر ، فذلك مثل قولهم : إن نوع الغذاء لا يهمك مادام يلذك

إن هذه الملهاة خلقت لرعاع الشعب وغوغائه فلتبق لهم ولتحي بينهم ، بشرط أن تظل على شكلها العامي الخشن في أدب وحشمة ، فتقوم في الأسواق والأعياد والموالد تحت الخيام والمضارب ، حتى لا تجذب إليها إلا خشاش الناس ممن تعود أنفه

الثمن فلا يشمه، ومرن لسانه على الشجر فلا يهمه. أما رفعها بفحشها ورجسها الى المسارح الراقية وتمويهها بالرقص والموسيقى، وتزيينها بزخرف المناظر والأزياء، فذلك تذهيب لحافة الكأس المسمومة يشربها الشعب فتقتل فيه عناصر الخير وعواطف الفضيلة!

المأساة العامية (mélodrame)

المأساة العامية درامة تتألف من الحوادث الفاجعة، والمواقف المروعة، والهزل الجريء، وتستعين بالرقص والموسيقى. وقد علق بها اسم (الميلودرام) في منتصف القرن الثامن عشر، واشتهر بتأليفها من الكتاب الفرنسيين (جلبير دبكسيريكور) و(دوكانج) و(دينيري). ولكن ما كتبوه عافه النقد لتبذله وتسفله. يمتاز هذا النوع بأثره القوي وعمله العنيف. فموضوعه إما أن يكون طاغية غشوماً يرتطم في مراغة العيب والفحش، أو رئيس طغمة من قطاع الطرق يطارد فتاة طاهرة عفيفة فاضلة، أو خائناً يخب في الضلال ويوضع في الغي، أو حبيباً باسلاً يقع حبيبه في قفص الأشرار فيغالب الأخطار ويصارع الفجار حتى يرد مكرهم ويدفع شرهم، أو غبياً يعقد العمل بغباوته ويحرج الموقف بسخافته. ثم تتدخل العناية الآلهية بعد هذه التقلبات الشديدة، والمشاكل العديدة، فتأخذ للبريء من المجرم وتقتص للفضيلة من الرذيلة. وعملها شديد العنف قوي الأثر، يضحي بالأمكانية في سبيل الضربات المسرحية والمفاجآت القوية، وتعتمد على الخناجر والسموم والحرائق في الأخذ بكظم النفوس، وإثارة الرعب في القلوب. أما موسيقاها فتعبر عن المواقف والعواطف، وتتقدم دخول الأشخاص، ورقصها قد يكون تعبيراً عن معنى وتمثيلاً لفكرة (Ballet) وقد يكون إمتاعاً وتسلية يتخلل حوادث الرواية. وأما أسلوبها فمزيج من النهرج الخالب والعامية المبتذلة، مما يلائم هذه الأفكار التي تشرحها، والعواطف التي تصفها. وماذا تجدي الأساليب الفخمة، والتراكيب المونقة، في جمهور لا يريد أن يتأثر إلا بالزياط والعياط، ولا يتسلى إلا بالصراع والقراع، ولا يعرف إلا أن يقول في نهاية الفصل الخامس وهو مجذوب للحادث مكروب للبطل: آه! رباه لقد نجا!!

على أن مآل هذا النوع إلى الفناء، فإن الشعب كلما رقت عواطفه، وتهذب حسه، ودق شعوره، آثر الصدق والامكان، وقدر الفن والبيان، وعاف الصخب والهذر والعنف، ولذلك تجد الدرامة تحتل في كل مكان محل الميلودرام

الزيات

(يتبع)

الممهدون للأكتشاف والأختراع

بقلم الأستاذ قدري حافظ طوقان

نشوء العلم وارتقاؤه

يأخذ الانسان ما عمله غيره وسلفه ويزيد عليه: يبدأ من حيث انتهى سلفه ويدخل تحسيناً عليه، ثم يسمي للزيادة على ذلك. بينما يأخذ الحيوان ما عمله سلفه ويبدأ حيث ابتدأ (سلفه) وينتهي به دون زيادة. هذا فرق مهم بين الانسان والحيوان. وهذه ميزة اختصه الله بها، ولولاها لما كان هناك تقدم أو حضارة. وعلى هذا ليست المدنية وما نراه من مظاهر العمران إلا مجموع مجهودات قام بها الأفراد في سبيل ترقية المجتمع من نواحيه المتعددة. وإذا قيل إن جاوس، وفير، اخترعا التلفون، فليس معنى ذلك أن لهما كل الفضل في إيجاده، وأنهما توصلا إليه بدون الاستعانة بما عمله غيرهما، بل إن لبحوث الذين سبقوهما فضلاً كبيراً عليهما، فلولا ليساج العالم السويسري الذي ظهر في القرن الثامن عشر للميلاد، ولولا سومرنج الألماني الذي قام بعمل تلغراف بواسطة التيارات الكهربائية من بطارية وبواسطة الماء لأعطاء الأشارات، ولولا أمبير الذي نقل في سنة ١٨٢٠ الاشارات بواسطة التيارات الكهربائية في عدة إبر مغناطيسية، أقول لولا كل هؤلاء وغيرهم لما استطاع جاوس وفير أن يفكرا في التلفون وأن يتوصلا إلى استعمال المغناطيس الكهربائي، حتى أصبح للتلغراف قيمة عملية يمكن الاستفادة منها

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن للتحسينات الجمة التي أدخلها العلماء ستينهيل وكوك ومورس وستون، الفضل الأكبر في تعميم استعماله وجعله سهل التناول، وها نحن أولاء نرى العلماء يدخلون عليه تحسينات أخرى ويتفننون في صنعه

وليست نظرية النسبية بأكملها من نتاج قريحة العالم الشهير البرت اينشتين ، وقليلون جداً الذين يعرفون أن لمجهودات وبحوث لورانتز العالم الهولاندي وغيره من علماء الرياضة والطبيعة فضلاً عليها ، فلولاهم ولولا كتاباتهم وبحوثهم وتمهيداتهم لما استطاع اينشتين أن يخرج النسبية بشكلها الذي نعرفه الآن

فليست الاختراعات والاكتشافات اذن إلا نتيجة مجهودات جبارة قام بها أفراد مختلفون اشتغلوا في ميادين العلوم والفنون ، وهي لم تظهر بشكلها العملي المفيد إلا بعد تمهيدات عديدة وإدخال تحسينات جمة قام بها العلماء في عصور مختلفة ، ولا يزال القراء يذكرون المقال الشيق الذي نشر في العدد ٦٢ من مجلة الرسالة بقلم الأستاذ محمود مختار في موضوع (التلفزة في عهدها الأول) وقد جاء فيه أن العالم الانكليزي (جون بيرد) طلع في سنة ١٩٢٦ بجهازه الأول في عالم التلفزة وقد عرضه على الجميع الملكي في لندن ونقل صوراً لأجسام بسيطة موضوعة في غرفة مجاورة ، وكانت الصور كثيرة الاهتزاز عديمة الوضوح . وقد شغل هذا الجهاز الأدمغة الكبيرة ، فقام غير واحد وأخذ فكرة العالم المذكور وعمل على تحسينها وإنمائها حتى وصل الاختراع إلى ما توصل إليه من الاتقان . ولا يزال العلماء يدخلون عليه في كل يوم تحسيناً ، ولا يزالون يفكرون في الوسائل التي تجعله سهل التناول في استطاعة الكثيرين اقتناءه والاستفادة منه .

وقد يظن القارئ أن ميزة الأخذ عن الغير والزيادة عليه تتجلى في الفرد دون الأمم . هذا الظن في غير محله ، إذ ظهر وثبت أن الحضارات المختلفة تجري أيضاً على هذه النظرية : نظرية الأخذ عن السلف والغير والزيادة على ذلك .

فالحضارة الرومانية استعانت بحضارات الأمم التي سبقتها واستفادت منها فوائد عديدة عادت على الرومان بالتقدم ، وكذلك استعان العرب والمسلمون بغيرهم من الأمم ، فأخذوا عن اليونان والرومان والهنود والفرس ، وبعد أن أدخلوا على ما أخذوه الاصلاح والتغيير ، زادوا عليه زيادات جعلت الكثيرين من منصفي الغرب يعترفون بعبقرية العقل العربي وبقوته على الانتاج ، وبخدماته الجلى في رفع مستوى المدنية والانسانية . وحينما انتبهت أوروبا من غفلتها وبدأ فيها عصر النهضة العلمية استعانت بنتاج العقل العربي والإسلامي في ميادين العلوم المختلفة والفنون المتنوعة . فالحضارة الأوروبية في صميمها ترتكز على الحضارة العربية والاسلامية وهي لم تستطع أن تتقدم تقدمها العجيب إلاّ بفضل العرب . قال سارطون إن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الوسطى . واعترف غير واحد بأن العرب قدموا خدمات جليلة في كثير من فروع المعرفة . وقال ويدمان : إن علماء العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وطبقوها ، وقد بذلوا الجهد في تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثة . واعترف سيديو بأن العرب أساتذة أوروبا في جميع الأشياء . . .

ولنرجع الآن إلى مقالنا فنقول : لقد ظهر في العرب علماء عديدون ابتكروا واكتشفوا واخترعوا في ميادين العلوم والفنون . وقد وجد فيهم من استطاع أن يمهد ببحوثه وتجاربه لبعض الاكتشافات والاختراعات هي من خطورة الشأن على جانب عظيم ، ولولاها لما استطاع علماء الفرنجة أن يقطعوا شوطاً بعيداً في التقدم والرقي .

التكامل والتفاضل :

علم التكامل والتفاضل من العلوم الرياضية العالية التي لها اتصال وثيق في الاختراع والاكتشاف ، والتي سهلت كثيراً من المسائل العويصة . هذا الفرع من الرياضيات حديث الوجود ، فقد اكتشفه واكتشف قوانينه الأولية نيوتن وليبنتز في أواخر القرن السابع عشر للميلاد ، وهو لم يزدهر ازدهاره الحالي إلاّ بعد زيادات هامة قام بها العلماء فيما بعد . ويظن كثيرون ، بل يعتقد بعض الرياضيين ، أن العلماء الذين سبقوا نيوتن لم يمهدوا له ولم يضعوا فيه شيئاً جديراً بالاعتبار . هذا خطأ إذ ثبت لدى البحث والتنقيب أن ثابت بن قرة من الذين مهدوا لهذا العلم ، ومن الذين حلوا مسائل في إيجاد المساحات والحجوم بطرق تتم نوعاً ما على طريقة التكامل المتبعة الآن . ويعترف سمث بذلك وبأن ثابت بن قرة هو الذي أوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره ، وأن العلماء الذين أتوا بعده اهتدوا بنور طرقه في إيجاد المساحات والحجوم

دوران الأرض :

مما لا ريب فيه أن كوبرنيكس وغاليلو بلغا شأواً بعيداً في

العلم وفتحا فيه أبواباً كانت مغلقة ، وأماطا اللثام عن حقائق كانت غامضة ، ودقائق كانت غير معروفة ، ولهما الفضل الأكبر في تثبيت فكرة دوران الأرض ، ولكن كل هذا لا يمنعنا من القول بأنهما سُبقا إلى فكرة دوران الأرض ، وأن السالفين لذلك بعضٌ من علماء اليونان والعرب ؛ فقد كان فيثاغورس يعلّم تلاميذه على طريقة حركة الأرض ، وكان هذا قبل المسيح بخمسمائة سنة ، ثم أتى بعده بطليموس ورمى بهذه الفكرة عرض الحائط وقال بسكون الأرض ودوران الشمس حولها ؛ واشتهرت هذه النظرية كثيراً وأخذها الكثيرون من علماء اليونان والعرب ، ويجب بعض علماء الفرنجة من قبول البيروني لهذه النظرية ومن أخذ الفارابي وابن سينا بها . ولقد وُجد في العرب مَنْ لم يأخذ برأى بطليموس ومَنْ قال بدوران الأرض حول الشمس . جاء في (المواقف) للعلامة عضد الدين عبد الرحمن بن احمد الذي ظهر في القرن الثامن للهجرة ما يلي « . . . الحركة اليومية (ويعني حركة الشمس) لا توجد ، إنما تتخيل بسبب حركة الأرض ، إذ يتبدل الوضع من الفلك دون أجزاء الأرض ، فيظن أن الأرض ساكنة والمتحرك هو الفلك ، بل ليس ثمة فلك أطلس ، وذلك كراكب السفينة فإنه يرى السفينة ساكنة مع حركتها حيث لا يتبدل وضع أجزائها منه ، وكذلك يرى القمر سائراً إلى الغيم حيث يسير الغيم إليه . وهذا كله من غلط الحس . . »

ومن هنا يتبين أن عضد الدين سبق كوبرنيكس في القول بفكرة دوران الأرض ومهّد السبل لكوبرنيكس وغاليلو للتوسع في هذه الفكرة ولاستعمال المعادلات والأرقام في ذلك

الرقاص :

لقد ثبت لدى بعض علماء الفرنجة أن العرب سبقوا غاليلو في اختراع الرقاص وفي استعماله في الساعات الدقاقة . جاء في تاريخ العرب لسيديو ما يلي « وكذا ابن يونس المتقن في سيره أبا الوفاء البوزجاني ألف في رصدخانته بجبل المقطم الزيج الحاكمي واخترع الربع ذا الثقب وبندول الساعة الدقاقة . . . »

واعترف سارطون وسدويك بأن العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمن ، وفوق ذلك عرف العرب شيئاً عن القوانين التي تسيطر عليه . قال سمث العالم الأميركي الشهير « ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه . وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد . . » فهم بذلك مهدوا السبيل لغاليلو لاستنباط كل القوانين التي تسود الرقاص ، إذ استطاع أن يجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل وأن يضع ذلك في قالب رياضي بديع ، ومن هذا الوضع توسعت دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه

اللوغارتمات :

ثابت لدينا أن نابيير هو الذي اخترع أساس اللوغارتمات وأنه أول من عمل الجداول لذلك ، ولا يمكن أن تجدُ اثنين يختلفان فيه . وقد كنت أعتقد أن هذا البحث من الرياضيات لم يُعهد له أحد ، وأن الرياضيين الذين سبقوا نابيير لم يصلوا في بحوثهم الى معرفة شيء عنه ، وأن هذا الفرع بقي مجهولاً الى أن جاء نابيير وفكر في إيجاد طرق لتسهيل أعمال الضرب والقسمة فوفق الى اختراع اللوغارتمات . هذا ما كنت أعتقده ، وهذا ما لا زال يعتقده الكثير من علماء الرياضة والتاريخ ؛ ولكن لدى قراءتي لبعض الكتب القديمة التي تتعلق بالرياضيات ، ولدى تصفحي لكتاب يبحث في تراجم بعض علماء الفلك والرياضيات وجدت أن ابن حمزة المغربي الذي ظهر في القرن الحادي عشر للميلاد استعمل في بعض بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقاً تقرب من اللوغارتمات ، إذ لو استعمل مع المتوالية الهندسية سلسلة عددية تبدأ بالصفر واتخذ الحدود في هذه أساساً لنظائرها في جدول المتواليات الهندسية لكان اكتشف اللوغارتمات التي أوجدها نابيير بعده بأربع وعشرين سنة

والحقيقة التي أود الأدلاء بها أنه مادار بخلدي أني سأقرأ بحوثاً كهذه لعالم عربي كابن حمزة تمهد السبل لاختراع اللوغارتمات وتكون الخطوة الأولى في وضع أساسه

الجاذبية :

تقرن كلمة الجاذبية باسم اسحق نيوتن العالم الانكليزي الشهير ، فهو الذي وضع قوانين الحركة والجاذبية في قالب لم يُسبق اليه ، إذ استعمل فيها الأرقام والمعادلات . ولكن هذا لا يعني أن نيوتن لم يُسبق الى فكرة الجذب والجاذبية فقد قال بذلك بعض

علماء اليونان والعرب . فاعترف سارطون بأن للعرب بحوثاً في الجاذبية وأن الخازن وثابت بن قرة وموسى بن شاكر وغيرهم قالوا بالجاذبية ووضعوا بعض قوانينها . قال ثابت بن قرة « إن المدرة تعود الى السفل لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأغراض ، أعني البرودة والكثافة ، والشيء ينجذب الى أعظم منه » وقد شرح محمد بن عمر الرازي هذه العبارة في أواخر القرن السادس للهجرة ، فقال « إنا إذا رمينا المدرة إلى فوق فانها ترجع الى أسفل ، فعلمنا أن فيها قوة تقتضي الحصول في السفل ، حتى إنا لما رميناها الى فوق أعادتها تلك القوة إلى أسفل . . »

أليس في هذا تمهيد لفكرة الجاذبية ؟ أليست مباحث محمد ابن موسى في حركة الأجرام السماوية وخواص الجذب سابقة لبحوث نيوتن ، وهي الخطى الممهدة للتوسع في قانون الجاذبية ؟ ألا ترى معي أن اكتشاف أبي الوفاء البوزجاني ، الذي ظهر في القرن العاشر للميلاد ، لبعض أنواع الخلل في حركة القمر دليل على أنه كان يعرف شيئاً عن الجاذبية وخواص الجذب ؟ من هنا يظهر أن علماء العرب (وقد يكون من قبلهم اليونان) سبقوا نيوتن في البحث عن الجاذبية . قد يعترض على هذا القول كثير ولكن لدى إنعام النظر يتبين أن الاعتراض في غير محله ، فنحن لا ندعي بأن العرب أو (غيرهم) وضعوا الجاذبية وقوانينها وما اليها في الشكل الرياضي الطبيعي الذي أتى به نيوتن ، إنما جل ما في الأمر أن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان وزادوا عليها ، ووضعوا بعض القوانين لسقوط الأجسام . ثم أتى بعد ذلك نيوتن وأخذ ما عمله غيره في هذا المضمار وزاد عليه ، وبفضل ما وهبه الله من العبقرية وما اتصف به من المثابرة والثبات استطاع أن يضع الجاذبية بالشكل الذي نعرفه بما لم يسبق اليه ، ولا شك أن له في ذلك فضلاً كبيراً جداً ، ولكن هذا لا يعني تجريد العرب ومن قبلهم اليونان من الفضل ، فلواضع الأساس في علم من الفضل ما للمكتشف أو للمخترع فيه .

مرض الانكلستوما :

إذا قلنا الدكتور محمد خليل عبد الخالق فنعني بذلك أنه من الأطباء النادرين الذين يعنون بما جاء في الكتب الطبية القديمة ومن القليلين الذين يهمهم تطور الاكتشاف في الأمراض والعوارض التي تصيب الانسان

وزيادة على ذلك فهو من المجددين في علم الطب ، ومن الذين يعرفون كيف يقومون بواجبهم الانساني على وجه كامل ، ولسنا فيما نقوله مبالغين ، بل قائلين الحقيقة ومقررين الواقع . لقد علق الدكتور حرسه الله على مقال لي نشرته في مجلة الرسالة عن ابن سينا بما يلي : « . . . وأود أن ألفت النظر الى أن ابن سينا أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الانسان المسماة الآن بالرهقان أو مرض الانكلستوما . وقد كان هذا الاكتشاف في كتابه (القانون في الطب) في الفصل الخاص بالديدان المعوية ، وهذه العدوى تصيب الآن نصف سكان العالم تقريباً

وقد بلغ ما كتب عن هذا المرض من المقالات والكتب الى سنة ١٩٢٢ ، (٥٠٠٠٠) مرجع عنيت بجمعها مؤسسة ركفلر بأمريكا . وقد سمى ابن سينا هذه الطفيلية باسم (الدودة المستديرة) وقد كان لي الشرف في سنة ١٩٢٢ أن قمت بفحص ما جاء في كتاب القانون في الطب عن الديدان المعوية ، وأمكنني أن أقوم بتشخيصها بدقة ، وتبين من هذا أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالانكلستوما ، وقد أعاد اكتشافها دوبيني في إيطاليا سنة ١٨٣٨ أي بعد اكتشاف ابن سينا عنها بثمانمائة سنة تقريباً . وقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة ، وكذلك مؤسسة ركفلر كما يرى من المراجع المذكورة بعد . وكذلك كتبت هذا ليطلع عليه الأدباء ويضيفون الى اكتشافات ابن سينا العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرض هو من الأمراض الكثيرة الانتشار في العالم الآن » .

فاذا كان الدكتور محمد خليل بك كتب هذه القطعة ليطلع عليها الأدباء فقط ، فأنا أعيد كتابة ما كتبه ليطلع عليه العلماء والأدباء والباحثون وتلاميذ المدارس العليا وغيرهم . ومن مقال الدكتور يتبين أن العرب لم يعهدوا فقط لمرض منتشر ، بل قد سبقوا غيرهم في اكتشافه وفي معرفة الشيء الكثير عنه

ولا يسعني قبل الختام إلا أن أشكر الدكتور على اهتمامه بالتراث العربي والاسلامي في كشفه ناحية كانت غامضة ومحاطة بسحب من الأبهام ، وفي فتحه باباً ظل مغلقاً قروناً عديدة ، جزاه الله خيراً وأبقاه ذخراً .

نابلس قدري حافظ طوقان

من ذكريات الصبي

أول حب

للأديب حسين شوقي

كان أول حب لي في سنة ١٩١٨ أثناء المنفي في اسبانيا . . كنا نقضي صيف ذلك العام بغرناطة في الغابة الجميلة التي تحيط بقصر الحمراء الشاهق ، حيث كانت رُبا حظيّة الملك ابن الأحمر المنعمة المدللة تمرح بين النرجس والياسمين . وكنا نقيم في فندق شيِّد في الغابة نفسها حيث يستطيع الزائر أن ينعم بالراحة والسكون مع بقائه بالقرب من ذلك القصر العربي المجيد ، وكانت هذه الغابة التي غرست فوق رابية ، تطل على مدينة غرناطة بمنظرها الرائع وضواحيها الفاتنة . . وكنا في أوائل فصل الصيف ، فلم يحضر إلا القليل من السياح ، فلم يكن بالفندق غير أسرة أحد كبار الضباط الاسبان وأسرتنا ؛ فما لبثت الأسرتان أن تعارفتا بعد زمن قليل . . كان أهلي يقضون أوقات طويلة مع الضابط وزوجه يتحدثون عن جمال الطبيعة في هذا المكان : سكون الغابة ، صفاء المياه التي تترقرق في الجداول الآتية من جبل « الشيرا » الذي يشرف هو كذلك على الحمراء وقد جلل الثلج رأسه صيف شتاء . .

أما أبي فقد وجد في الضابط سميراً أنيساً ، لأن الرجل كان رغم تربيته الحربية، واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ . . كما كان يشارك والدي في توجّعه على تلك المدنية العربية الأندلسية العظيمة التي أضاءت العالم الغربي حقبة من الزمن ، حين كان يتخبط في دياجير الجهل والهمجية ، ثم ما لبثت أن اختفت فجأة في فوضى الوجود . . .

وكان هذا الضابط أسمر البشرة إلى حد يلفت النظر ، وقد قال له أبي مرة إنه لابد أن يكون من أصل عربي ، فأمّن الضابط على قوله ذاكراً في شيء من الزهو أنه عربي من بني أمية الأمجاد كما تثبت ذلك شجرة نسب أسرته ، إذ كان من النبلاء . .

أما أنا ، وكان عمري إذ ذاك ثلاثة عشر عاماً ، فما كنت أحفل ببني أمية ولا بغيرهم ، بل كنتُ أقضي الوقت في الغابة أبحث عن فراشة جميلة أضمها إلى مجموعتي .

كانت تعاونني في مهمتي هذه بنت الضابط الصغرى ، إذ كان له بنتان : إحداهما في العاشرة وكانت مع الأسف دميمة ، ومع ذلك كنتُ أصطحبها في جولاتي خلال الغابة لافتقاري إلى رفيق . . أما أختها الكبرى فكانت في مقتبل العمر ، وهي آية في الحسن ، ببضاضتها ولونها الخمري ، وعينيها السوداوين الصغيرتين الحادتين ، ووجهها الذي يبسم دائماً كأنه أيام الربيع . . .

وكانت هذه الفتاة الرشيقة التي تُسمى خوانا ، وكان أهلها يدعونها خوانيتا (تصغير خوانا) — تدليلاً ومحبة — تتكرم أحياناً بمصاحبتنا في رحلاتنا . . عندئذ كنتُ أحسّ بسعادة عظيمة تغمر قلبي ووجداني ، لابد أني كنت أحب خوانيتا حباً جماً إذ ذاك ، فقد فقدت يوماً شالها الحريري الصغير الذي كانت تلف به عنقها في إحدى هذه الرحلات ، فأخذنا نبحث عنه — نحن الثلاثة — حتى عثرت عليه أنا معلقاً على جذع شجرة ، ولكني بدلاً من أن أرده اليها ألفيت نفسي أقبله ، ثم وضعته خلسة في جيبي لأحتفظ به . كم كان طيباً عبيق هذا الشال ! وكيف لا يكون وقد أحاط بجيد محبوبتي خوانيتا ، وتنسم عبيق غدائرها الساحرة ؟ وكنت في الليل حينما أرجع الى مخدعي وتتراءى لي صورة خوانيتا فتطرد عني النوم أضمّ الى صدري هذا الشال فيهدئ وجوده أعصابي ويجلب اليّ النوم والراحة .

أردت مرة أن أقدم اليها هدية مدفوعاً في ذلك بحب الصبا الجنوني ، ولكن ما الذي كنت أستطيع أن أقدمه اليها ونفقة جيبي ضئيلة لاتزيد في الشهر على ثلاثين فرنكاً اسبانياً ؟ عندئذ قمت بهذه التضحية : أعطيتها مجموعة الفراش التي عانيت المشاق في جمعها !

أما خوانيتا فلم تكن مع الأسف تشاركني هذا الحب . . . كم كنت أحمق حين ظننت أن فتاة كخوانيتا في العشرين من عمرها تبادل صبياً في مثل سني الحب ؟ على أن خوانيتا كانت تجد تسلية كبيرة في التظاهر بحبي ، فتلعب معي أدواراً مؤلمة . . فمن ذلك أنها كانت تحتفظ بيدي في يدها — أثناء الرحلات — فكنت اذا ماعدت الى الفندق لا أغسل تلك اليد طول النهار ، حتى أحتفظ برائحة خوانيتا فيها ، كما كنت أشمها وأقبلها خلسة من وقت الى آخر . . .

وكانت خوانيتا ترسل الى أحياناً بعض تلك النظرات التي لا يقوى على مواجهتها قديسو اسبانيا جميعاً ! وصار أهلها الذين

من شعر الشباب

عيد الجهاد

للأستاذ محمود الخفيف

تزيد صباحه الذكرى جلالا ... وقد لبست به الدنيا جمالا

ترى فى أفقه شفقاً خضيبا ... ترقرق فى جوانبه وسالا

دم الأحرار ألبسه وشاحا ... يتيه به على الزمن اختيالا

تخذناه من الأيام عيداً ... هو النيروز والأضحى مثالا

عقدنا حول مفرقه صليبا ... وفوق مسيل غرته هلالا

صباح تسفر الآمال فيه ... فتجتاح التردد والملالا

تزيد السلم ساحته وقارا ... وتبسط فى جوانبها الظلالا

ترفرف فيه أرواح الضحايا ... وتقرؤنا التحية والسؤالا

تطل من الغمائم سابحات ... خوافق تسبق الريح انتقالا

تطوف بكعبة الوادى حفافا ... ولا تبغى عن الركن ارتحالا

تقبل حائط الحق ابتهاجا ... وتملأ ساحة البيت ابتهالا

علموا أهذه الخديعة منها ينظرون إلى بعين ملؤها العطف، بل كانوا يضطرونها أحياناً إلى مرافقتى فى الغابة مع أختها...

وا أسفاه! ألم أعرف الكوميديا التى كانت تلعبها خوانيتا الآن قبل رحيلنا من غرناطة بأيام قليلة! أيها القدر القاسى لماذا لم تترك الصبى مثلى لذته الموهومة وسعادته المزعومة؟ لماذا لم نرحل قبل اطلاعى على هذه الحقيقة المرة؟ وإليك كيف عرفت الخديعة:

.. كان أحد باعة الحلوى المتجولين يمر أمام الفندق من حين إلى حين.. فنزلت ذات يوم أشترى منه شيئاً من الشكولاته لخوانيتا وأختها، كما كنت أفعل مراراً، فلما عدت إلى الفندق وصعدت إلى الحجرة التى كانت تجلس فيها الشقيقتان، وجدت بابها مفتوحاً وسمعت خوانيتا تضحك مع شاب غريب (هو ابن عمها كما علمت ذلك فيما بعد) وإذا بها تخبره بقصتى بصوت جهير ولهجة ساخرة، وتذكر له كيف كانت تلعب بعواطفى... عندئذ سقطت الشكولاته من يدى المضطربة، وأحسست نفسى تذوب كما يذوب تمثال من الثلج تحت أشعة الشمس الحادة!

كرمة ابن هانئ ... حسين شوقى

وتمسح منبراً ولدت عليه ... عقيدتنا وكان لها مجالا

ترى نور القضية فى ذراه ... وتسمع صوتها سحراً حلالا

وتلمح من جلال الغار ظلا ... ومن طهر الحطيم له خلالا

تطالع وجه حسان لديه ... وتسمع فى مشارفه بلالا

سيلوى الدهر حائطه المفدى ... ويُفنى رأسُه العالى الجبالا

* * *

رعى المولى على الأجيال يوما ... بدأنا فيه للحق النضالا

سيوف لقافرين به تشاوى ... ونار البطش تشتعل اشتعالا

دعا داعى الجهاد به فسرنا ... ولم نخش الأسنة والنصالا

سل الحرية الحمراء عنا ... ألم نوسع أعادينا قتالا ؟

ألم نرخص به المهج الغوالى ... ونملأ جانب الدنيا صيالا ؟

ألم نبذل غداة الروع أمنا ... وأبناء وأقواتاً ومالا ؟

ولم نرهب من المحتل بطشا ... وإعداماً ونفياً واعتقالا

تطوف الشائعات بنا فنمضى ... إلى الميدان لا نألو نزالا

يقاسى شيخنا فى الأسر ظلماً ... ولكن لا يحس له كلالا

يريهم فى صلابته مثالا ... من الإيمان ظنوه محالا

وقد ألفوا من الشرق انقياداً ... لسيفهمو وذلا وامتثالا

وكان أعز بالأعزال جندا ... وأرهف من أسنتهم مقالا

لقد ترك الأماثل من بنيه ... وحمل راية الحق الشبالا

فما وهنوا بمصر وما استكانوا ... وخاضوا الموت أياماً طوالا

يتوج هامهم شرف وفخر ... وإن جال الردى فيهم وصالا

وأعظم ما تكون الحرب هولا ... إذا الأحرار شنوها سجالا

* * *

سأذكر ما حييت صباح يوم ... كسته شمس آذار جمالا

سلخت من السنين لديه تسعاً ... نعمت حيالها باللهو بالا

ولكنى صحوت على هتاف ... وألحان وأسماء توالى

رأت عينى الغريرة مهرجاناً ... قد انتظم الأوانس والرجالا

مشى الشبان أثرهم جموعا ... خفافاً فى مواكبهم عجالا

يجيبون النداء ولم يحسوا ... لما هتفوا به الا خيالا

وأعذب ما يكون الحق صوتا ... إذا هتف الشباب به ارتجالا

ولن أنسى وجوهاً سافرات ... وكانت قبل غضبتها وجالا

وصوتاً رن فى الوادى حنونا ... وقبل اليوم لم يعدُ الحجالا

يزيد حنانه الأبطال عزما ... ويمسح وقعه دمع الثكالى
كسا الدم باطن الأيدى خضابا ... وصاغ العزم فى الوجنات خالا
فلا يدرى العدو إذا التقينا ... أيخشى الليث أم يخشى الغزالا

***

بنى مصر تعالوا حدثونى ... أنرضى اليوم ما نلقى منالا ؟
وهل نلنا سوى الدستور مما ... أردناه لنهضتنا مآلا
أخذناه جهاداً واجتهاداً ... ولم نأخذه نوماً واتكالا
ولكنا فقدناه رضيعا ... وكان الفقد غدراً واغتيالا
وما أدرى غداة بدا سناه ... أكان حقيقة أم كان آلا
أعيدوه إلى مصر غلاما ... فقد لج الحنين بها وطالا
سيبلغ فى حضانتها صباه ... ويضمن فى رعايتها الكمالا
تواصوا بالوفاء له وسيروا ... كفانا فى قضيته مطالا
رأيتم كيف عاقبة التلاحى ... وكيف قضيتمو العهد اقتتالا
تنابذتم ودب الخلف فيكم ... فنمتم عن عدوكم اشتغالا
ولولا يقظة الأبطال منكم ... جنينا من ترامينا الوبالا
ولم أر كالخلاف بمصر عيبا ... ولم أر مثله داء عضالا
نرجى مصر فينا اليوم خيراً ... ونرتقب الصنيعة والفعالا
شهدتم أظلم الأحكام عهداً ... وذقتم أسوأ الأيام حالا
شربتم ماءه بالأمس صابا ... خذوه اليوم معسولاً زلالا

المعجزة (١)

أو

السهم الأخير

للأستاذ سيد قطب

منحتنى اليوم ما الأقدار قد عجزت ... عن منحه ، وتناهى دونه أملى !
منحتنى الحب للدنيا التى جهدت ... فى أن تميل لها قلبى فلم تمل !
وكلما قربتنى قلت : خادعة ... وكلما طاردتنى ، قلت : واوجلى !
ويغمر الشك نفسى كلما كشفت ... عن فتنة من حلاها ، غير مبتذل
حتى خسرت من الأيام ما غبرت ... به السنون ، وحتى عقنى أجلى

***

واستلهمت هذه الدنيا طبيعتها ... فى معجز من قواها ، قاهر ، حان
فأبدعتك جمالاً كله ثقة ... يؤلف الحب من وحى وإيمان
وأودعتك رحيقاً من خلاصتها ... ومنبع السحر فيها جد فتان
وأرسلتك يقيناً فى طلائعها ... منيرة فى دجى عقلى ووجدانى
فكنت آخر سهم فى كنانتها ... وكنت معجزة من خلق فنان

***

والآن أخلص للدنيا وأمنحها ... حبى ، وأدرك ما فيها من الفتن
والآن أنظر للدنيا وأنت بها ... كعاشق ، بهواها جد مفتتن
والآن أعمل للدنيا على ثقة ... بأننى قلبها الخفاق فى الزمن !
والآن أنصت للدنيا فيطربنى ... من صوتها العذب لحن ساحر اللحن
لك الحياة إذن مادمت مانحة ... لى الحياة بلا أجر ولا ثمن !

(١) من قصائد الغزل والمناجاة بديوان « سيد قطب » الذى يصدر أول يناير

صرخة الألم

بقلم فريد عين شوكة

تعال نجدد عهود الغرام ... ونحيى لياليه الماضيه
لياليه الطيبات العذاب ... وساعاته الحلوة الغاليه
وحيدين فوق ضفاف الغدير ... وتحت خمائله الضافيه
يرف علينا ملاك الهوى ... كما رفت الزهرة الناديه
ويسمعنا من سماء الخلود ... أناشيده العذبة الحاليه
تهدهد أشواقنا الصارخات ... وتسكن أوجاعنا النازيه
وتسرى مع الدم بين العروق ... فتروى جوانحنا الصاديه
تعال فقد عصفت بى النوى ... كما تعصف الريح بالجاريه
وراحت تمرغ فى مهجتى ... مخالبها الصلبة القاسيه
فخلت فؤادى جم الجراح ... وألقت به جثة داميه
تعال ودع كل لاح مهين ... يرى الحب أسطورة باليه
فلو عرف المرء معنى الهوى ... وشاهد فيه النوى ماهيه



خلق النظام الشمسي

نظرية جينز في أصل السُّدُم والنجوم وتكوُّن نظامنا الشمسي

بقلم فرح رفيدي

قبل ٣٠٠ سنة، ولمدة ألفي سنة تقريباً، كانت الأرض تدعي سلطانة هذا الكون العجيب، وسيدة العالم كله، ومحور دوران شموسه الكثيرة. وقد جعلت ملكة الكون من أبنائها، لا لأنها كانت أهلاً لهذا اللقب، أو لأنها حقيقة كانت في ذلك المحل الرفيع من الكون، بل لأن أبناءها اغتروا بأنفسهم كثيراً، وحسبوا لوجودهم حساباً كبيراً، فاعتبروا مسكنهم مسكناً عظيماً يليق به أن يكون مركز الكون وأهم موضع فيه. والصواب أنهم لم يرعووا عن غيهم، ولم يضعوا أنفسهم في المقام الجدير بهم إلا منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة فقط، لما عرفوا أن أرضهم هذه هي أقل من جزء من المليون من الذرة الصغيرة، بالنسبة إلى الكون كله، وأن الشمس هي بمقدار هذه الذرة فقط، وأن الإنسان نفسه هو أيضاً بمقدار يكاد لا يذكر . . .

لنفرض أولاً ثلاثة أشياء نسلم بصحتها، دون أن نكلف أنفسنا مشقة الخوض في برهانها وإثبات حقيقتها

أولاً: المادة مركبة من ذرات مكهربة تكهرباً إيجابياً وسلبياً، بروتونات والكترونات (Protons, electrons)، وفي حركة دائمة، وبما أن الكهربائية تيار من الالكترونات وحالة من أحوال الطاقة (forw of energy). كذلك المادة هي مظهر طاقة، يمكن تحويلها لحرارة أو ضوء، كتحويل الشهب لحرارة أثناء احتكاكها الشديد بدقائق الهواء

ثانياً: كل ذرة في الكون تجذب كل ذرة أخرى بقوة تختلف عكسياً بحسب مربع المسافة بينهما، وطردياً بحسب حاصل كتلتيهما (mass). فكل ذرة في الشمس تجذب كل ذرة في الأرض، وكل شيء على الأرض له تأثير على كل نجم في السماء، وهكذا لا يمكنني أن أضرب بيدي على المنضدة دون هز النجوم من مواضعها، ولكنه هز ضعيف جداً، لا يدرك ولا بأدق الملاحظات، وهو ضعيف بمقدار صغر كتلة يدي بالنسبة إلى كتل الكواكب كلها

ثالثاً: المواد المركبة منها الكواكب والشمس كالمواد المركبة منها الأرض، ولكنها في الأولى تحت ظروف تختلف فيها تبعاً للحرارة والضغط

في البدء قبل أن تكون شمس أو نجوم أو أي ضوء آخر، وكانت الظلمة تخيم على سكون عميق في كل أنحاء الكون، كانت دقائق المادة الصغيرة مبعثرة ومنتشرة انتشاراً متساوياً على أجزاء الفضاء كله، وكانت البروتونات والالكترونات تجيء وتذهب هنا وهناك في كون لا نظام فيه ولا قانون يضبطه، وكل شيء كان في ظلام دامس من فوضى الطبيعة (chaos)، وفي حالة غير مستقرة (unstable) وعلى وشك الانقلاب لأقل حركة تبدو فيه. كان الكون حينئذ عديم التوزان، كقلم أوقف على رأسه،

وذاق لديه نعيم الجنان | وكُبكب في نارِ الحاميه
وهبت عليه رياح الظنون | وثارت به الغيرة الطاغيه
لما عاش يعبث بالمغرمين | ويزري بشكوى الباكيه
هو الحب لولا يداه اللتان | تفيضان بالرحمة الحانيه
لما عرف الناس معنى السلام | ولا قدسوا روحه الساميه
كتاب بعثت به للحبيب | قلائد من مهجتي الحانيه
فألقاه متثراً في الطريق | كما تنثر الزهرة الذاويه
كأني به تحت عتبة القيامة (م) يشكو إلى ربه راميه . . . ! !

فريد عين شوكه

أقل اهتزاز يغير وضعه إلى وضع ثابت أكثر اتزاناً (stable) ، أو كآلة تحتاج إلى من يحركها ، أو كدولاب على وشك الانزلاق ، يحتاج لدافع يدفعه لينطلق بدورانه انطلاقاً . كان حقاً بحاجة الى يد الله تسرى فيه تياراً من ذلك الغاز المنتشر ، حتى يندفع بأجمعه لأن يخلق نفسه بنفسه ، وتكون حاله إلى ماهى عليه الآن

لا نعرف كيف أو أين ابتدأ التيار ، ولكن لسبب ماجرى تشويش (disturbance) فى نظام الطبيعة ، حينئذ جعل ذلك الغاز يتجمع ويتضام ويكون من نفسه كتلاً (condensations) كبيرة وصغيرة وفى أماكن مختلفة من الفضاء ، والكتل الكبيرة بعظم ما تجمع لها من المادة صار لها قوة جذب كبيرة قدرت بها أن يجمع أكثر من الغاز الذى حولها ، وتتغلب بها على سرعة الذرات من أن تهرب . وحجم الكتلة يتوقف على شيئين : كثافة الغاز وسرعة ذراته . ففى الغاز الخفيف تكون سرعة التيار ومدى توسعه أكثر من سرعته ومداه فى الغاز الثقيل (dense) ولذلك تكون كمية المادة المتجمعة أكبر . واذا كانت سريعة فانها لا تنقاد لكتلة صغيرة لضعف جاذبيتها ، كخروج ذرات الهواء عن طاعة القمر لقلة جاذبيته بالنسبة لسرعة الذرات .

ففى غاز معلوم الكثافة وسرعة ذراته يكون فقط كتلاً لا ينقص الوزن فيها عن حد معين . وإن كان بعض الكتل صغيراً إلى حد أن يمنعها من ادخار جاذبية كافية تقاوم بها سرعة الذرات الهاربة ، فانها لا تلبث أن تتلاشى وتنتشر فى الفضاء كما كانت . والكبيرة بعكس ذلك ، فان كبرها يزيد فى قوة جاذبيتها التى تزيد فى مادتها وحجمها ، فكلما كبرت الكتلة كان طبيعياً فيها أن تتجمع وتكبر وتزداد مادة وقوة ، وكلما صغرت ساعدت الأحوال على عكس ذلك

حسب هبل (Hubble) أحد الفلكيين أنه إذا انتشر كل غاز النجوم فى الفضاء انتشاراً متساوياً فى جميع جهاته ، فان كثافة ذلك الغاز حينئذ تكون قدر كثافة الماء ب (١٠)^٣٠ مرة ووجد أيضاً أن سرعة الذرات فى حالتها تلك تكون حول ٥٠٠ ياردة فى الثانية ، فوجد من ذلك أن وزن كل كتلة من الكتل المتكونة بواسطة التيار أكبر من وزن الشمس بمقدار يتراوح من ٦٢ ½ مليوناً إلى ٤٠٠ مليون مرة ، وعند اكتشاف الفلكيين اليوم لوجود آلاف من الأجسام التى لها هذا الثقل تحقق جيداً : أن هذه السدم التى نراها اليوم هى ذات الكتل التى تكونت بتأثير ذلك التيار الابتدائى الذى حدث بين دقائق الغاز الأول

وكانت هذه السدم التى تكونت مختلفة الحجم والشكل ، وكان شكل الواحدة مترتباً على متجه التيار الذى أحدثها . فان اتجه التيار الى المركز كان الشكل كروياً وبدون حركة . وإن زاغ الاتجاه عن المركز ، وهو الأكثر حدوثاً ، بدأت الكتلة بحركة دوران حول محور فى وسطها . وللجسم الدائر صفة حفظ قوة الاندفاع الدورى (Constant Angular Momentum) وهى إن تقلص حجم الجسم بقصر طول قطره ، فتزيد سرعة دورانه . وهكذا كان فى أمر الكتل المتكونة حديثاً : زاد انكماشها بسبب جاذبيتها فى سرعة دورانها أكثر فأكثر . وكان أثر ذلك الدوران أن حور شكل الكتلة من الكروى الى شكل عدسى ؛ وكما أن دورة الأرض سببت انبعاجها عند خط الاستواء وتفرطحها عند القطبين ، كذلك ازدياد سرعة دوران تلك الكتل كان يزيد فى تنظيمها الى حد بعيد . وكانت اذا زادت سرعتها أكثر من ذلك لا تزيد فى تسطحها فحسب ، بل تبدأ بقذف غاز من مادتها ينتشر حولها فى السطح الاستوائى (equatorial plane) انتشاراً متساوياً .

وهكذا حول كل كتلة تكون غاز خفيف . وله كالغاز الذى كون السدم نفسها صفة التجمع والتجزء الى كتل تختلف قليلاً عن بعضها فى الحجم والشكل ، ولكنها أصغر من الكتل الأولى . وكما قدر العلماء رياضياً يتقارب وزن الواحدة منها من وزن الشمس ومعظم النجوم اللوامع . واذا أدرنا بصرنا بالتلسكوب الى السماء شاهدنا السدم اللولبية الشكل تبتدىء بوسط غازى وتنتهى أطرافها بمجموعة من النجوم ، وذلك يدل على أن أصل تكون النجوم والشمس هو من السدم

هذه النجوم الجديدة المنفصلة عن السدم الدائرة ، بقيت دائرة مثلها لتحفظ قوة الاندفاع الدورى . وقد كانت ولا تزال للآن تشع فى الفضاء بلا انقطاع كميات كبيرة من الضوء والحرارة تنبعث منها نتيجة لاحتراق مادتها فى داخلها . فالشمس التى نستضىء ونستدفىء بها تخسر من مادتها فى كل دقيقة تمر حوالى ٢٥٠ مليون طن . وهذه كلها تحترق وتتحول

نوراً وحرارة ، بجزء قليل جداً نستمده ، والباقى يذهب هباء فى الفضاء . ذلك يدل على أن حجم الشمس والنجوم يقل تدريجياً ، وقلة الحجم هذه يقابلها سرعة فى الدوران ، وتبقى السرعة فى ازدياد مستمر ما دام الأشعاع فى النجم مستمراً ، واذا ازدادت السرعة فى بعض النجوم الكبيرة فقد تقسمها الى قسمين متعادلين أو غير متعادلين تماماً . وبهذه الطريقة نشأت النجوم المزدوجة (double Stars).

وقد نظن هنا أن منشأ الكواكب فى المجموعة الشمسية حصل من دوران شديد فى الشمس جعلها تفصل عنها هذه الأجرام حولها . ولكن الأمر غير ذلك ، اذ لو قابلنا أوزان بعض النجوم المزدوجة بأوزان الكواكب السيارة ، لوجدنا الفرق بعيداً ، فأوزان الأولى تقرب من وزن الشمس ، ووزن أحد الكواكب كالأرض أقل من جزء من المليون من وزن الشمس . وعلى ذلك فمن غير المحتمل أن يكون منشأ نظامنا الشمسى على هذه الطريقة .

لتعليل منشأ نظامنا الشمسى يأتى السر جينز بنظريته المعروفة بنظرية المد (Theory of Tidal Friction) ، وهى أن يقترب نجمان مختلفا الوزن من بعض ويكون تأثير جاذبية الكبير على الصغير شديداً بأن يرفع على سطحه مداً من مادته الغازية كرفع القمر مياه الأرض بقوة جاذبيته . ولكن اقتراب النجمين ليس بالأمر الهين أو بالشيء الذى يقع مرة ويتكرر مرات ، إذ أن عظم المسافات الشاسعة التى تباعد بين نجم ونجم ، تجعل أمر الاقتراب شيئاً صعباً وبعيد المدى ، وقد لا يحدث ملايين من السنين تمضى ، ولكنه محتمل الحدوث ولو مرة فى هذا الزمن الطويل

دعنا نفرض مرور الملايين من السنين على شمسنا وهى سابحة فى الفضاء وحدها بدون رفيق أو رقيب ، ودعنا نفرض أن هذه المصادفة ، مصادفة الاقتراب بين نجمين حدثت ، وحصل هذا الشيء البعيد الوقوع والنادر الحدوث بين شمسنا ونجم آخر ، ومر هذا النجم بالقرب من الشمس دون تصادم أو احتكاك ، وكان كبيراً بحيث كان تأثيره قوياً عليها ، فتأثير ذلك النجم ، على رأى جينز ، كان ان عمل على سطح شمسنا مداً ارتفعت فيه كمية كبيرة من الغاز ، وتمددت طويلاً متتبعة جهة ابتعاد النجم عن الشمس ، فانفصلت عنها وتكونت بشكل سيكار تخين فى الوسط ودقيق عند الطرفين ، وصار هذا الغاز المنفصل وسطاً لتجمع كتل صغيرة وكبيرة ومتوسطة بقدر ما تستوعب وتستجمع من المادة التى حولها . ولصغر هذه الكتل ضعفت فيها قوة انبعاث النور والحرارة ، وانطفأت شعلتها النارية ، فبردت وانخفضت حرارتها تدريجياً ، وتحولت الغازات أمطاراً من سوائل المعادن على سطوحها ، وتقلص حجمها الغازى الى حجم سائلى ، وعند انخفاض الحرارة أكثر تجمدت السوائل وتحول بعضها الى مواد صلبة قاسية ، وانكمشت السطوح كثيراً ، وتجعدت ، وتكونت أجساما معتمة ، لا مصدر للحرارة أو النور فيها غير ما تستمده من الشمس أو من بعض المواد المشعة فى باطنها ، وجعلت حفظاً للاندفاع الدورى تدور حول الشمس دورات مختلفة فى البعد والوقت . وهكذا كانت الكواكب السيارة ، منها عطارد وبلوتو فى طرفى السيكار ، والمشترى وزحل فى وسطه

وفى بدء خلق هذه الكواكب ، وقبل اعتدال دوائرها وثباتها حول الشمس كما هى الآن كانت تدور بغير انتظام ربطها ، أو قانون يوحدها . فكانت تارة تقترب ، وتارة تبتعد عن الشمس ؛ فحدث فى أثناء ذلك أنه بينما كانت الأجسام غازات ملتهبة ، اقترب بعضها من الشمس ، الى حد يمكن الشمس أن تسحب من غازاتها كتلاً أخرى انفصلت عنها وكونت أقمارها ومن جملتها قمرنا .

وهكذا من فوضى الطبيعة الأولى تكونت السُدم ، والسدم من جراء دورانها حول نفسها تشتت غازها وانقسمت إلى أنجم ، كل نجم منها قائم بذاته ، وسائر فى الكون بقوة حركته واندفاعه . ومن سرعة سير هذه الكواكب ابتعدت عن بعضها أبعاداً شاسعة . تكاد تعدمها حقيقة وجودها ، بالنسبة لسعة الفضاء وعظمته ، وصار مجرد اقتراب الواحد من الآخر من قبيل المصادفة فقط . ولكن حدث أن اقترب نجم من شمسنا ، وسحب منها غازات توجدت وتجمعت كتلاً صغيرة وكبيرة . وتصلبت أجسامها وتحولت الى كواكبنا السيارة هذه ، ومن جملتها الأرض ، وبمجرد اقتراب الأرض من الشمس انفصل جزء منها وكون القمر

رام الله

فرح رفيدى

البريد الأدبي

الأدب المجري الحديث

خواصه ومميزاته

نشرت «مجلة المجر الجديدة» مقالاً عن دور الشباب فى تطور الأدب المجرى المعاصر ، فوصفت الخواص التى يتميز بها أدب الشباب سواء فى الشعر أو النثر ؛ وقالت إن الأدب المجرى الحديث يرجع إلى أواخر القرن الماضى ، ويمتاز قبل كل شىء بالخروج على النزعة « الغربية » التى بلغت ذروتها بالشاعر الكبير « آدى » أعظم شعراء المجر فى القرن الماضى ؛ كما إنه يمتاز بالإغراق فى الظاهر الشعبية ، والتعلق بالأصول الشرقية للروح المجرية ، والتأثر بالحياة الريفية .

ومع ذلك فان أساس التطور الحديث فى الأدب المجرى ، هو شعر « آدى » ؛ ومن المحقق أن الأدب المجرى المعاصر ، إذا راعينا أكابر الشعراء مثل يوسف أرديلى ، ويوليا إلياس ، وآتيلا يوزيف ، ولوران زابو وأكابر القصصيين مثل آرون تمازى ويوسف نييرو ، يجوز مرحلة عود على بدء . وإنها لظاهرة جديدة فقط أن تتجه الأفكار إلى استكمال الأساطير القومية الجديدة ، وإلى اعتبارات الجنس والأرض والتاريخ فى نوع من المظاهر الشعبية الجديدة ؛ والجيل الحاضر ينظر إلى التطور القديم بهذه الروح بينا يعمل على إحياء النزعة التى أشرنا إليها ، ومن ثم كانت أعظم مصادر وحيه ، السياسة والمجتمع ؛ وكثير من شعراء العصر يرددون قول الشاعر يوتوتوس : « إن الشاعر الذى لا تهزه عواطف عصره ، يمزق أعصاب غنائه »

وفى مقدمة شعراء هذه الطبقة يوسف أرديلى ويوليا إلياس . ومن يقرأ أرديلى فى قصيدته الشهيرة « بلا سلاح » أو قصيدته « النجم الفريد » يشعر بأثر الرسالة التى يقول الجيل الشاب إنه يقوم بها . وليوليا إلياس قصة شعرية ظهرت أخيراً عنوانها « شباب » ، وهى تفيض بالجمال الابتداعى والنزعة الغنائية ، ومن نظمه أيضاً « ثلاثة شيوخ » . وهو أشد من يمثل نزعة الجيل الجديد من حيث النزعة الغنائية والفردية ، والطموح إلى استكمال التقاليد والتعلق بالتراث الشعبى

ومعظم هؤلاء الشبان لايعنى بالشكل ، ويتنكرون فى نوع من التحدى أناقة اللفظ أو ضخامته ؛ وكثير منهم يجنح إلى القديم الساذج ، وإلى الروى الشعبى ، وشعرهم ينضح على العموم عن لون قومى قوى ، وهم فى الواقع « أبناء الشعب » ينشأون فى مهاد « الفقر العذب » ، وينزعون إلى بساطة اللفظ ، وإلى التقاليد وإلى الأساطير وإلى كنوز الخيال الشعبى

وأما النثر ، فمن أقطابه يوسف نيرو القصصى الكبير ؛ وهو كاتب ذو نزعة دينية إنسانية ترجع إلى تربيته الكنسية ، فقد نشأ قساً ، ثم حمله تيار الأدب . وهو ريفى النزعة من حيث المادة والوصف يصور لك الوطن المجرى ، ولا سيا وطنه « ترانسلفانيا » فى صور قوية مؤثرة ، ومن أشهر قصصه « تحت نير الله » وهى فى الواقع قصة حياته الكهنوتية عرضت فى قالب قصصى مؤثر ؛ وله مجموعة أقاصيص شهيرة من أبدع ما أخرج الأدب المجرى المعاصر

ومن أقطابه آرون تمازى ، وهو قصصى بارع ينزع إلى المأساة ، ويلزم الطابع القوى العميق ، وله مجموعة قصص تفيض سحراً وإنسانية عنوانها « كواكب ترسلفانيا » ، ومجموعة أخرى عنوانها « عصفور الصباح » يدعو فيها إلى المثل الأعلى . ومنهم جان كودولانى ، وهو مصور بارع لمناظر القرية ومجتمعها . وكذلك زولتان ستنيا ، فهو يصف فى قصصه مجتمع الأعيان المنحل ؛ وبول زابو ، وهو كاتب ريفى محض وافر الطرافة والقوة

والفرق قوى واضح بين ذلك الجيل وبين الجيل المنصرم الذى كانت تغلبه النزعة « الغربية » . وليس الفرق متعلقاً بالشكل فقط ، بل هنالك ثمة صورتان مختلفتان ، تمثل كل منهما ناحية من الروح المجرية ؛ وإلى الأولى ينتمى أبناء الأعيان والموظفين الذين متى اضطروا إلى نبذ ترف هذه الحياة ، لجأوا إلى عالم المكتب ليتخذوا منه سداً بينهم وبين حياتهم السكينة ، وينتمى

إلى الثانية أبناء الفلاحين وطبقة الأعيان الريفية التى تقرب منهم والساخطون على هذا المجتمع . وهم الذين يزعمون أنهم رسل الإصلاح الاجتماعى . وعلى العموم فإن البون شاسع بين الكتاب الجدد وبين الجيل القديم سواء من حيث النظر إلى العالم وإلى الحياة

بسمات العدالة

عنى كثير من المؤرخين والكتاب بالكتابة عن المآسى القضائية ، والمحاكمات الجنائية الكبرى ؛ ولكن أحداً منهم لم يعن بالكتابة عن « الكوميديات القضائية » والوقائع والمواقف المضحكة التى تعرض أمام القضاء . وهذا ما فعله الكاتب الفرنسى « چيو لندن » الكاتب القضائى لجريدة الجورنال . وقد تخصص چيو لندن فى كتابة الصور والأخبار القضائية منذ أعوام بعيدة ، واشتهر بسحر أسلوبه ودقة ملاحظاته ، وهو الذى يلخص أخبار المحاكمات والقضايا الكبرى فى جريدة « الجورنال » . وفى كل عام يجمع أشهر المحاكمات والمآسى القضائية فى مجلد خاص ، ولكنه اختار هذا العام أن يترك المآسى والجنايات المثيرة ، وأن يجمع المواقف القضائية الفكاهية فى مجلد عنوانه « العدالة وبسماتها » La Justice et ses Sourires وقد استقبل هذا النفر الطريف فى دوائر النقد والأدب أحسن استقبال ، ونوهت بما يضمه من الصور الساحرة والمواقف الشائقة ، وبما يسوده من قوة فى الملاحظة وخفة روح فى العرض ؛ فهنالك أغرب القضايا المضحكة حقاً ، وأغرب الشخصيات الساذجة التى تنسيك بسذاجتها أحياناً خبث المجرم الخطر ، وهنالك حيل النساء الماكرات تبدو واضحة أمام بساطة الرجل المتيم . وقد علق أحد النقدة على ظهور هذا الكتاب بقوله : « إنه يحملنا على التفكير بأن التردد على جلسات القضاء يخلق منافسة قوية للمسرح الفكه ؛ بل ربما كان عاملاً من عوامل الأزمة المسرحية ؛ إن كانت ثمة أزمة »

جائزة نوبل الأدبية

ذكرنا فى العدد الماضى أن جائزة نوبل للطب قد منحت لثلاثة من العلماء الأمريكيين . هم الأساتذة جورج نيوث ، ووليم مورفى ، وهويل . ونذكر الآن أن جائزة نوبل الأدبية لسنة ١٩٣٤ قد منحت الى الكاتب والفنان الايطالى السنيور لويجى بيراندللو وهو كاتب مسرحى تخصص فى وضع القطع التمثيلية ، وتنظيم المسرح ؛ وأشهر رواياته قطعة عنوانها : « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » ، اشتهرت فى جميع المسارح الأوربية . والسنيور بيراندللو فى نحو السابعة والستين من عمره ؛ وهذه هى المرة الثانية التى تمنح فيها جائزة نوبل للكتاب الايطاليين

أستاذ شرقى يعثر على مخطوطات عربية نادرة

نقل الى الجامعة العربية من أمريكا أن الدكتور فيليب حتى من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت وأستاذ الآداب السامية فى جامعة برنستن بأميركا الآن عثر فى أثناء بحثه وتنقيبه فى المخطوطات الموجودة فى مكتبات أمريكا المشهورة على ترجمة عربية ضافية لبحوث كلوديوس جالينوس فى التشريح والطب بين خمسة آلاف مجلد من المخطوطات العربية فى مكتبة جامعة برنستن . ومما قاله الدكتور حتى فى وصف هذه الترجمة « إنها من أندر وأنفس المخطوطات التى سجلت فى الفهارس حتى الآن » والترجمة العربية مؤرخة فى سنة ١١٧٤ م وقد وضعها حنين بن أسحق المسيحى النسطورى وكان يعد إمام المترجمين من اللغة اليونانية فى عصره

وعثر الدكتور حتى كذلك على مخطوطة فى علم التنجيم يستدل من الشارة الذهبية المرسومة على الصفحة الأولى منها أنها وضعت فى الأصل للسلطان صلاح الدين الأيوبى وكانت فى مكتبته ، ويقول الدكتور حتى إن صلاح الدين نفسه كان يسترشد بهذه المخطوطة قبل إقدامه على منازلة الصليبيين فى المعارك

وعثر أيضاً على مخطوطة فى الموسيقى قد تميط اللثام عن النغمات الموسيقية التى كان يستعملها العرب قديماً . وهذه المخطوطة مزينة برسوم ، وقد وضعها الفارابى الموسيقى والفيلسوف المشهور فى القرن العاشر

وهناك مخطوطة عربية رابعة وجدها الدكتور حتى فى جامعة برنستن وهى شرح ابن رشد فيلسوف الأندلس وأرجوزة ابن سينا الطبية المشهورة لمؤلف طبى وصفه ابن جزله البغدادى فى القرن الثانى عشر



الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

تأليف الأستاذ أمين سعيد

هذا كتاب كبير يقع فى ثلاثة مجلدات تبلغ فى مجموعها ما يقرب من ألف وأربعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهو فى وضعه الحالى يعتبر مرجعاً عظيما للثورة العربية القومية منذ قيامها عقب الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٨ إلى الوقت الحاضر

خشى المؤلف الفاضل الأستاذ أمين سعيد كما ذكر فى مقدمة كتابه النفيس أن تنسى الثورة العربية وما تخللها من حركات وما اكتنفها من ملابسات « فتضيع معالمها وتطمس آثارها ويتعذر التأليف فيها فلا يجد الكاتبون العرب فى المستقبل سوى رسائل مبعثرة أو مقالات منثورة أو كتب ألفت باللغات الأجنبية وقد وضعها واضعوها لخدمة غاية معينة »

لذلك تراه يضطلع بهذا العمل على ما فيه من صعوبات ؛ فلا بد له أن يدعم آراءه بالحجج والبراهين ، وأن يسند براهينه بالوثائق والمستندات ، وهذا كله مما لا يسهل جمعه وترتيبه . ولكن القارئ حين يتناول هذا السفر الجليل يحس بالدهشة لكثرة ما احتوى عليه من الوثائق والبيانات ، هذا إلى ما حواه من الصور المتنوعة للأشخاص والحوادث

ولقد قسم الأستاذ المؤلف كتابه تقسيماً جيدا فجعل المجلد الأول للنضال بين العرب والترك ، يضم حوادث الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ حتى قيام الحكومة الفيصلية فى دمشق عام ١٩١٨ ، وجعل المجلد الثانى لتاريخ الحكومة الفيصلية من قيامها حتى سقوطها ؛ ولقد أفرد به جزءاً كبيراً للثورة العراقية الكبرى وأدوارها مبيناً عوامل الثورة ومقدماتها وحروب الانكليز فى العراق والتصادم بينهم وبين الترك وما ترتب على هذا كله مع جلاء الحوادث والاهتمام بالتفاصيل كمن رآها رأى العين . أما المجلد الثالث فقد جعله لتاريخ القضية فى الفترة الممتدة من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٤ ، أورد فيه وصفاً وافياً لتاريخ إمارة شرق الأردن مع شرح القضية الفلسطينية والوطن القومى اليهودى وبيان أخبار الثورة السورية فى اتصالها السياسى الداخلى بين السوريين والفرنسيين

بذلك ترى هذا الكتاب الكبير قد اشتمل على عدة حركات قومية يتوق أبناء الشرق العربى إلى الوقوف عليها . ولعل من أعظم فوائد هذا الكتاب ، أنه فى طريقته المفصلة التى سار عليها ، يعطى القارئ العربى فرصة نادرة ليقارن بين ما يسمعه من أحد أبناء الثورة وبين ما يشيعه عنها خصومها . هذا إلى أنه يكشف عن ناحية من نواحى نهوض الشرق عقب الحرب العظمى مبينا إلى حد كبير وجهته وآماله

ولقد راعى المؤلف الفاضل فى كتابه التسلسل التاريخى للحوادث ، وختم كل حلقة بملخص حلل فيه الحوادث تحليلا مبيناً ما طرأ على القضية من تقدم أو تأخر

وإنى وإن كنت أرى اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة وسرده الحوادث الكثيرة المتنوعة أكثر من اهتمامه بالتعليق عليها وبيان مقدماتها ونتائجها ، أقرر أن لطريقته هذه فى موضوع كهذا متشعب النواحى محاسنها إلى جانب معايبها ، فلقد هيأت للقارئ كما قدمت الفرصة ليكوّن لنفسه حكماً ، وذلك خير مما لو اقتصر المؤلف على طائفة من الحوادث واهتم بإيراد رأيه والدفاع عنه ، فان القارئ فى هذه الحالة وخصوصاً من يجهل تفاصيل المسألة العربية يكون مقيداً برأيه أو على الأقل فى شك منه

وسيرى القارئ العربى فى كتاب الأستاذ أمين سعيد كثيراً من مواقف التضحية والبطولة ، وكثيراً من مواطن الهول والصراع العنيف مما يجعل للكتاب إلى جانب ناحيته التاريخية ، ناحيته الجذابة القوية ، فيقبل الأدباء على مطالعته فى شغف واهتمام ولذة . وإنى لأنتهز هذه الفرصة فأتقدم إلى الأستاذ أمين سعيد بأجمل الثناء على ما تجلى فى مؤلفه الجليل من أريحية ووطنية وهو عثل ذلك من شباب الأمة العربية خليق

الخفيف

الخط الديواني الملكي

للأستاذ مصطفى بك غزلان

رئيس التوقيع بديوان جلالة الملك

ازدهر الخط العربي في صدر القرن الماضي ، وظهر في عالم الفن جمهرة من القادرين على اجادته واتقانه ، وكانت الآستانة يومئذ كعبة الآمال ، ومرجع أفذاذ الرجال في الفنون العربية الجميلة

بلغ من ولوعهم بهذه الصناعة أن يتخذها الخلفاء والسلاطين مفخرة يفخرون باجادتها واحسانها ، وزينة يدلون بها على أساتذتها وأساطينها ، فكان السلطان « محمود » يجيد خط « الثلث » « وجلي الثلث » ولا تزال « لوحته » القيمة التي خطها بقلمه الجميل تحتل الصدر من « المسجد الحسيني »

وصار على أثره السلطان عبد المجيد ، فكان خطاطاً وسطاً لم يبلغ شأو أبيه . . . وله قطعة كبيرة تتصدر « القبلة » في ذلك المسجد

تطاول الخط على سائر الفنون الجميلة منذ أحبه الخلفاء والسلاطين وعلت مكانته يوم أن فتحت قصور المواهل على رحبانها لكبار الخطاطين ، يعلمون الخلفاء ذلك الفن الجميل

ودام للخط العربي هذا الحظ الميمون ، والآستانة تصدر إلى العالم العربي من سحره الفاتن وجماله الرائع ، ما خلب اللب ، واستولى على النفس ، حتى وفد على القاهرة المرحوم عبد الله بك زهدي بدعوة من خديو مصر اسماعيل

جاء ليكتب « الكسوة » بعد أن كتب الحرم النبوي الشريف ، فلقي من لدن ولي الأمر التعضيد والتأييد

وكان يومئذ في مصر نهضة مباركة ، نشأت في شخص المرحوم محمد أفندي مؤنس ، ولكنها كانت في حاجة إلى اذكائها وتنبيهها ، فطلع « زهدي » على الناس ، بخط الكسوة وسبيل أم عباس . . وتداولت الأيدي بعض نماذجه في الثلث والنسخ فكانت بادرة سعيدة ، صعدت بالمرحوم مؤنس إلى الذروة العليا من ذلك الفن البديع

وكان الرجل خيراً بفطرته ، فأخذ يذيع فنه على الناس ويعلمهم إياه ، لا ينتظر أجراً ولا شكراً ، فكانت داره يومئذ أشبه مدرسة داخلية ، يتعلم فيها الطلاب ويتممون بحديقتها الرحبة ، بل يأكلون ويشربون

ومن يومئذ بدأ الخط يتحول إلى القاهرة ، وكانت العناية شديدة باتقانه واجادته ، وكان له شأو رفيع وشأن جليل في المدارس الابتدائية والثانوية بله العالية

* * *

تلك خلاصة موجزة يسطها بين يدي القارىء ، لأستطيع التحدث إليه عن فتح جديد في الخط العربي ، طلع به علينا الفنان النابغة الأستاذ مصطفى بك غزلان رئيس التوقيع بديوان جلالة الملك

فقد يعرف المتتبعون لتاريخ هذا الفن أن الخط الديواني نقل فيما نقل من الآستانة إلى مصر ، وكان خطاً خاصاً لا يعرفه عامة الشعب ولا يقرأه دهماء الناس ، بل كان قاصراً على « الفرمانات الشاهانية » « والارادات السنية » ، التي تصدر عن السلاطين ، إلى الولاة ، ثم على براءات الرتب والنشانات

ولما كانت مصر يومئذ تابعة للدولة العلية ، وكانت تلك الدولة هي صاحبة الحق في منح هذه الرتب ، وتلك النشانات فالبراءات إذن تأتي من دار الخلافة مكتوبة ممهورة بخاتم الدولة إلى أن رخص للولاة والخديوين بمنح بعض الرتب المحدودة القيمة ، يومئذ اختير لكتابتها بعض الاتراك الذين يعرفون هذا النوع ، وهم قليل حتى في الآستانة ؛ فقديماً كان كتاب آل عثمان يستأثرون بهذا النوع من الخط لأنه كان الخط الرسمي للباب العالي كما قدمنا ؛ ومن ثم كانوا يعدونه من الأسرار الفنية التي لا تذاع لجمهور الخطاطين ، ليكون مرجعها إليهم ومفتاحها بأيديهم ، أما بقية الخطوط فلها نماذج مختلفة بأقلام أساطين الفن على اختلاف مراتبهم

واليوم بفضل الرعاية الملكية ، نستقبل نماذج الخط الديواني التي عكف على كتابتها وتنسيقها وتنميقها خطاط مصر الأكبر الأستاذ مصطفى غزلان بك ، وأدخل عليها حسناً جديداً وذوقاً مصرياً خالصاً لا تلحظه فيما كتب بهذا الخط من الفرامانات القديمة

وقد طبعها ديوان الأوقاف الملكية ، على نفقة صاحب الجلالة الملك في مطبعة المساحة طبعاً دقيقاً أنيقاً جعل هذه النماذج في موضوعها وشكلها مظهراً رائعاً من مظاهر الفن الخالد الخالص ؟

فى المصايف

بقـــلم ابراهيم عبده

للأديب ابراهيم عبده أسلوب رقيق وخواطر لطيفة يطالع بها القراء من حين الى حين . وهذا الكتاب الذى أحدثك عنه قد انتظم الكثير من ملاحظاته وخواطره الطريفة فى المصايف ، وطبيعى أن تكون المصايف موضع حديث ابراهيم ، فهى ملتقى الناس من كل صنف ومن كل طبقة ، وهى مجال واسع تقع فيه عين الأديب الناقد وخصوصاً من يهتم بالناحية الاجتماعية كالأديب المؤلف على كثير مما يثير خواطره ويرســل قلمه . افتتح المؤلف كتابه فى رأس البر ثم انتقل بنا الى السويس فبور سعيد فالاسماعيلية فالاسكندرية ، وختم الكتاب بفصل رقيق هو حديث العودة

أجمل ما يحسه القارىء فى هذا الكتاب تلك الروح الهادئة التى تتجلى فى سطوره أشبه بالنسمة الهادئة تهب عليك فى ليالى الصيف وأنت فى معزل على الشاطىء . وإنك لتحس من هذا الشاب بميل شديد الى القصص . ولقد أحسن صنعاً بإيراده خواطره فى المصايف على تلك الصورة التى تجدها فى كتابه ، فلقد كان يأتى بها مرة على طريقة الحوار بينه وبين فتاة كان قد عرفها فى الخرطوم ودار على ذكرها كتابه الأول «الحياة الثانية» ، ومرة كان يتبع طريقة المراسلة ، مما أبعد كتابه عن الملال وأكسبه كثيراً من الجاذبية والظرف

ولئن كان لى أن آخذ على ابراهيم شيئاً وهو فى صدر حياته الأدبية فهو أنه يجتهد فى تقليد أحد كبار الكتاب عندنا تقليداً يظهر فى أسلوبه وفى طريقة الدخول على موضوعه وتوجيهه ويخشى منه على أصالته وشخصيته ، وهو فى غنى عن هذا ، فله كما ذكرت استعداد قوى . نعم لا جناح عليه أن يحذو حذو من تأثر به فى تجويد فنه والعناية بآثاره ، ولكن على أن يحتفظ مع ذلك بشخصيته وروحه

الخفيف

أحسن ما كتبت

علم . فن . فلسفة . اجتماع

بأقلام طائفة من خيرة العلماء والأدباء فى الشعر العربى

أصدرت إدارة الهلال هذا الكتاب الطريف فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير . وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد ، وهو يضم بين دفتيه كما يتبين من عنوانه مختارات فى العلوم والفنون والآداب من آثار كبار الكتاب فى الشرق العربى . وقد بلغ عددهم فى هذا الكتاب نحو سبعة وستين كاتباً وشاعراً . ولعل ما حواه هذا الكتاب كما جاء فى مقدمته « لم يتح لكتاب آخر من نوعه . وهو أشبه بالروضة المونقة التى انتظمت ألواناً مختلفة من الأزهار» . يطلب من إدارة الهلال ومن المكاتب الشهيرة ٩

تعليق على نقد

الألحان الضائعة

بقلم حسن كامل الصيرفي

تناول الأستاذ الخفيف في العدد الماضي من « الرسالة » ديواني « الألحان الضائعة » فبدأ كلته بأن أخذ على تلك الكآبة التي لزمتني في عهد من حياتي ، وراح يتلمس سرها فلم يهتد الى شيء مع أن هذا السر واضح كل الوضوح في كثير من قصائد الديوان بل من أول قصيدة الى آخر مقطوعة فيه . فني قصيدة « الضحية » تفسير قوي لناحية من تلك الكآبة ، يؤكده قولي في القصيدة التي تليها بعنوان « الواحة المنسية » :

في ذمة الفن ما رددته أبداً
فضاع لحني سدًى في جو نكرانِ
طغى عليــــه ضجيج القوم فانطمست
أصـــداؤه ، وفؤادي طي ألحاني

وفي قولي في قصيدة « اللحن الضائع »:

يا أغاني الربيع ما أنا إلا
مقطع من قصيدة ضاع لحنُه
لم تلد لي الأيام من يتـــولى
بعث لحني ، وكيف يبزغ شأنه؟
أو بين الصخور يكتمل الصو
ت ؟ محال هذا .. وكنت أظنه

وفي قصيدة اللغز تظهر نواح كثيرة من سر هذه الكآبة ، وتظهر فيها قوة الشباب الغلاب لا اليأس المستسلم

وأظن أن تصوير الشاعر لآلامه ليس من العيوب التي تؤخذ عليه وإلا فليس من الواجب أن تطالبه بالصدق في التعبير ، وألا نؤاخذه على تزوير شعوره

ولو اطلع الناقد الفاضل على « الصورة السريعة » التي كتبتها عن حياتي في الديوان لعرف شيئاً عن سر الكآبة التي لازمت شعري في الأربع السنوات الماضية ، وزادها سواداً ذلك الجحود الذي لقيته في الأدب وعبرت عنه في معظم قصائدي

ثم يرى الناقد الفاضل أن « الأديب الصير في قليل العناية بقوافيه وبلغته على وجه العموم » ... هذا حكم يصدره ناقد فاضل لأنه عثر على بعض هنات يعثر عليها في كثير من أشعار المتقدمين والمعاصرين ، ولأنه وجد محاولات عروضية مخالفة للسنة القديمة ، وهي لم تضر الأدب في شيء ، إن كان قد أصابه ضرر من محاولات شعراء الأندلس . . هذه الهنات التي لم يذكرها والتي يمكن لكل ناقد أن يعدّها على أصابعه تجعل من صاحب الديوان رجلا لا يهتم بلغته وقوافيه (على العموم) !

إني لأهتم إذ أحاول التكلم عن أصول النقد وواجباته ، ومن هذه الأصول عدم الحيدة عن الحقيقة والانصاف ، وأدعو الله أن يهدينا جميعاً أقوم سبيل . هـذا وأختم تعليقي بالشكر للأستاذ الخفيف على تنويهه ببعض ما وجدني قد أحسنتُ فيه مما كان يرفعني — أو يُرجى منه ذلك — لو أني سرتُ على نهجه في جميع قصائدي كما يقول . وأنا عند حسن ظنه بي يوم يتقدّم بي العمرُ حتى يتكافأ وأدبي ما ؟

حسن كامل الصيرفي

العروبة

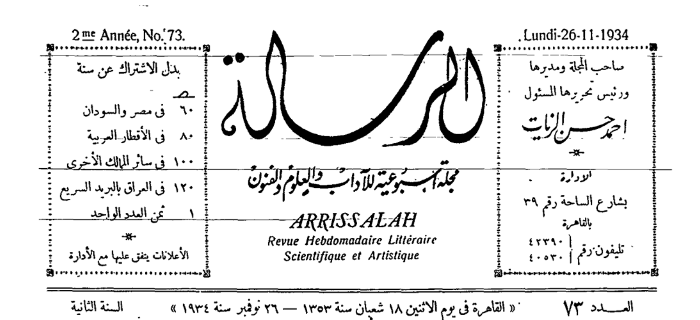
مجلة أسبوعيـــة جامعة

تصدر عن بيروت للأستاذ محمد علي الحوماني

بين يدينا الآن العدد الأخير من هذه المجلة الرفيعـة ، وهو محرر بأقلام الأساتذة الكاتبين من رجال الأدب العربي السوري ، يتجلى فيه وفي سوابقه صدق الرأي ونزاهة النقد ورصانة الأسلوب وشرف الغرض . وقراء الرسالة يعرفون الأستاذ رئيس تحريرها بما نشر له فيها من الموضوعات التي جمعت بين عمق التصور وبلاغة التصوير ، ودلت على ثقافة شاملة وعقلية متزنة وذوق مصقول في النثر والنظم والنقد . وهذه الصفات الغر كفيلة بسير (العروبة) على النهج الذي يرتضيه الخلق وتقتضيه الحال وتتطلبه مصالح العرب المشتركة ووحدتهم المرجوة . فنتمنى للزميلة الكريمة ما تستحقه من الرقي المطرد والفوز المبين والعمر البالغ

الاسلام

صدر العدد الحادي والثلاثون من مجلة الاسلام حافلاً بالموضوعات الدينية الشائقة من تفسير القرآن الكريم ، وشرح الحديث النبوي الشريف ، والقصص القرآني ، ومع هذا العدد هدية ثمينة مما تصدره المجلة شهرياً ، وتطلب من إدارتها بشارع محمد علي رقم ١٤١


2me Année, No. 73. — Lundi-26-11-1934

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٧٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ١٣٥٣ — ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

عهدٌ وأى عهـــد !!

كان كرعْدة الحمّى ، أو كرجْفة الزلزال ، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين ، فكدَّر من طبعه ، وغيَّر من وضعه ، وبدد من نظامه !

هل تخيَّلتَ الجنة وقد اتسق فى ظلالها الخفض ، واطّرد فى مياهها النعيم ، وانبلج فى أجوائها الأنس ، وانبسط على أرجائها السلام ، يقتحمها شياطين الجحيم عَنوة ، فيجعلون ظلها حَروراً ، وماءها مُهْلاً ، وأنسها وحشـــة ، وسلامها فتنة ؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم و بعده !

كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام ، وتتدرج مع الطبيعة فى النمو ، وتتوثب مع الحق على العدو ، فنجم فيها ناجم من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص ، ثم أثار فى وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلف ، وامتحن قلوبها بالبطش فنزعت إلى الصبر ، وسلط على مُترفيها المُنى فقروا على الرِّيَب ؛ وراح الذئب المقنَّع أو الطاغية الكاذب يعيث فى كل ديوان ، ويفتك فى كل

مكان ، ويختل في كل جماعة ، حتى عطل سلطة الأمة ، وأبطل سطوة القانون ، وقوض ركن الفضيلة .

***

تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس والهواجس والأوهام في مثل الدجى الحالك ، تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد ، وتركب رءوسها ويعلنون أنها تسير ، وتضطرب في شقائها اضطراب الذبيح ويوهمون أنها تحيا ؛ ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشرطها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم ، ورياضته على الاستكانة ، فنسي الجندي أنه حشد لمدافعة العداة ، والشرطي أنه رصد لمراقبة الجناة ، والموظف أنه أعدَّ لتصريف الأمور ، ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر ، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر ، وتعهُّد هذا المحالف فلا يخلفه بر ، وتعقب ذاك المخالف فلا يفلته أذى . . .

ثم انتشر الوعيد والوعد في جنبات النفوس يستنزلانها عن الخلق ، ويفتنانها عن العقيدة ، ويغريانها بالعدالة ، ويحرضانها على الصداقة ، حتى اشتبه الوفاء ، وأبهم القضاء ، ومرضت الأهواء ، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه ، وانفرجت الحال بين الرجل وواجبه ، وكل ذلك ليثرى جماعة ويتسلط فرد ! !

***

لا لله ولا للوطن كانت هذه المحنة ! إنما كانت نزوة رعناء من بغي الإنسان على الانسان ! والناس لا يزالون كما كانوا في الدهر الأول يسرقون ليأكلوا ، ويقتلون ليعيشوا ، ويستعبدون ليسودوا ، ويستبدون ليحكموا ، لا يحمى الفردَ من الفرد قانون ، ولا يعصم الأمةَ من الأمة معاهدة ! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبي على الناب ، وطلاء ورديّ على المخلب !

***

على أن ضعف الشعوب خداع ! لأنه قوى متفرقة في نفوس متفرقة ، فإذا ما تجمعت ذات مرة حول القوة الزعيمة الملهمة ، كانت هي الرجفة التي تهز الأرض من حين الى حين ، وتنقل التاريخ من فصل الى فصل !

ولكن ابن آدم سهوان : يذهله لجب السلطان عن صوت العبر ، كما يذهله غرور الحياة عن يقين الموت ! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء ، ولا من سَوْرة الحكم إلا بسقطة الوزارة !

***

سيتحرَّج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن سجل كثيراً من أمثاله ! لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر ، ويترقى ولا ينحط ؛ فكيف يجد المعاذير لقطعة من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر ، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد بينها وبين الحرية والديمقراطية ، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك ؛ ولكن التاريخ لا ينسى — وإن نسيَ الناس — أن للنظام العالمي جاذبية تجذب المتخلف ، وللعدل الالهي صيحة تسمع الأصم ، وللشعب الوديع حيوية يقظى تعود بالمبطل صاغراً الى الحق ، وتفيء بالحق السليب موفوراً الى أهله !

***

حنانيك يا رب ! لقد تألمنا حتى أشفق الألم ، وصبرنا حتى جزع الصبر ، وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا ! ! فعسى أن يشاء عدلك وتريد رحمتك ألاّ نقاسيَ مثل هذا العهد ، وألا نعانيَ مثل هذه التجربة ، وألا نكابد مثل هذا البلاء !

***

الآن أصبح الليل ، وانجلت الغمة . وتهتكت سدول الظلام عن السماء الواعدة ، والضياء الهادى ، والأفق الممتد ، والطريق القاصد ! فهل ترتد الشياطين إلى قماقم سليمان ، وترجع الخفافيش إلى حوالك الغيران ، ويستقيم القوم على عمود رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية !

احمد حسن الزيات

الأجنبيـــــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أحبَّها وأحبَّته، حتى ذهب بها في الحب مَذْهباً قالت له فيه: «لو جاءني قلبي في صورةٍ بشرية لأراه كما أُحِبُّه، لما اختار غيرَ صورتك أنتَ في رقّتك وعطفك وحنانك.»

وحتى ذهبتْ به في الحب مذهباً قال لها فيه: «إن الجنة لاتكون أبدعَ فناً، ولا أحسنَ جمالاً، ولا أكثر إمتاعاً لو خُلِقَت امرأةً يهواها رجل؛ إلا أنْ تكون هي أنتِ.» فقالت له: «ويكونَ هو أنتَ ...»

وتدلّهتْ فيه، حتى كأنما خلبها عقلها ووضع لها عقلاً من هواه؛ فكانت تقول له فيما تبثُّه من ذات نفسها: «إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتبرِّئةً من أنها إرادة، مُقِرَّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر، مُذْعِنةً أنها قد سلَّمت كبرياءَها لهذا الحبيب، لتراه في قوّته ذا كبريائين.»

وافتتن بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخذ، فملأتْ نفسه بأشيائها، وملأتْ عينَه من أشياء؛ فكان يقول لها في نجْواه: «إني أرى الزمن قد انتسخ مما بيني وبينك، فإنما نحن بالحب في زمنٍ من نفسَيْنا العاشقتين لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور، وإنما نعيشُ في أيام قلبيّة لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها، ولكن السعادة بحقائقها ولذّاتها.»

وتحابّا ذلك الحبَّ الفنِّيَّ العجيبَ الذي يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يفيضُ وينسكب، وهو مع ذلك لا يَبْرحُ يطلب الزيادة، ليتخيّل من لذتها ما يتخيّلُ السكّيرُ في نشوته إذا طفحت الكأس، فيرى بعينيه أنها ستتّسع لأكثرَ مما امتلأتْ به، فيكونُ له بالكأس وزيادتها، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهم.

تحابّا ذلك الحبَّ الفوّار في الدم، كأن فيه من دورته طبيعةَ الفراقِ والتلاقي، بغير تلاقٍ ولا فراق؛ فيكونان معاً في مجلسهما الغَزَليِّ، جَنْبُه إلى جنبها وفاها إلى فيه[1] وكأنما هربَتْ ثم أدركها، وكأنما فرّتْ ثم أمسكها. وبين القُبْلةِ والقُبْلةِ هجرانٌ وصلح، وبين اللفتةِ واللفتةِ غضبٌ ورضى

وهذا ضربٌ من الحب يكون في بعض الطبائع الشاذّة المُسْرِفة التي أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها فيُخالِفُ الحيوانيّةَ بالإنسانية، ويجعلُ الرجلَ والمرأة كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها؛ لا تلتقي إلا لتمازج، ولا تمازجُ إلا لتتّحد، ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك

* * *

وضرَب الدهرُ من ضرباته، فأبغضتْه وأبغضها، وفسدَتْ ذاتُ بينهما، وأدبرَ منهما ما كان مُقبِلاً؛ فوثَب كلاهما من وجود الآخر وثْبةَ فَزِعٍ هاربٍ على وجهه. أما هو فسَخِطَها لعيوب نفسها، وأما هي ... وأما هي فتكرَّهته لمحاسنِ غيره. وانْسَرَبَتْ أيامُ ذلك الحب في مَسَاربها تحت الزمن العميق الذي طوَى ولا يزالُ يطوِي ولا يبرحُ بعد ذلك يطوِي؛ كما يغور الماءُ في طِباق الأرض.

فأصبح الرجلُ المسكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلة أقاربَ وأصدقاءَ وأحبّاءَ ماتوا بعضُهم وراء بعض؛ وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فكْرَه، فكانوا له مادّةَ حسرةٍ ولَهْفة. أما هي ... أما هي فانشقّ الزمنُ في فكرها برجّةٍ زلزلة، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم ... !

* * *

حدّثنا «الدكتور محمد» رئيس جماعة الطلبة المصريين في مدينة ... بفرنسا، قال: وانتهى إليّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة، وأنه قادمٌ من مصر، فتَحَنّنَ الشوقُ إليه، ونزعتْ إلى لقائه نفسي، وما بيننا إلا معرفتي أنه مصريٌّ قدِمَ من مصر؛ وخُيِّلَ إليّ في تلك الساعة مما اهتاجني من الحنين إلى بلادي العزيزة، أن ليس بيني وبين مصرَ إلا شارعان أقطعُهما في دقائق؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه، كما يصنع الطير إذا ترامى إلى عشّه فابتدرَه من قُطْر الجوّ

(١) تأويل هذا في باب (الحال) عند ظرفاء النحويين: متلاصقين متعانقين

قال : واستبتته وإنما يعلوه الحزن ، فتعرفت إليه فما أسرع ما تملأ من نفسى وما ملأت من نفسه . وكما يمحى الزمان بين الحبيبين إذا التقيا بعد فرقة — يتلاشى المكان بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقوا فى الغربة . فذابت المدينة الكبيرة التى نحن فيها ، كأن لم تكن شيئاً ، وتجلى سحر مصر فى أقوى سطوته وأشدها ، فأخذنا كلينا فما استشعرنا ساعتئذ إلا أن أوروبا العظيمة كأنما كانت مرسومة على ورقة ، فطويناها وأحللنا مصر فى محلها

وطغى علينا نازع الطرب طغياناً شديداً ، فأرسلت من يجمع الاخوان المصريين ، واخترت لذلك صديقاً شاعر الفطرة ، فنزا به الطرب ، فكان يدعوهم وكأنه يؤذن فيهم لاقامة الصلاة . وجاءوا يهرولون هرولة الحجيج ، فلو نطقت الأرض الفرنسية التى مشوا عليها تلك المشية لقالت : هذه وطأة أسود تتخيل خيلاءها من بنى النشاط والقوة

ألا ما أعظمك يامصر ، وما أعظم نعنتك فى هذا السحر الفاتن ! أينبغى أن يغترب كل أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوى العظيم « مصر كنانة الله فى أرضه . » فيعرفوا أنك من عزتك معلقة فى هذا الكون تعليق الكنانة فى دار البطل الأروع ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا فى الدار التى أنزل فيها ، فراع ذلك صاحبة مثواى[1] ، فقلت لها : إن ههنا ليلة مصرية ستحتل ليلتكم هذه فى مدينتكم هذه ؛ فلا تجزعوا . ثم دعوتها الى مجلسنا لتشهد كيف تستعلن الروح المصرية الاجتماعية برقتها وظرفها وحماستها ، وكيف تفسر هذه الروح المصرية كل جميل من الأشياء الجميلة بشوق من أشواقها الحنانة ، وكيف تكون هذه الروح فى جو موسيقيتها الطبيعية حين تناجى أحبابها ، فيجىء حديثها بطبيعته كأنه ديباجة شاعر فى صفائها وحلاوتها ورنين ألفاظها ؟

(١) صاحبة المثوى هى ربة البيت الذى ينزل فيه الضيف ومن كان فى حكمه ، يقول العربى : من كانت صاحبة مثواك ؟ تنطق على صاحبة البنسيون . .

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخذ زينتى ، وأصلح من شأنى ، وأكون بعد خمس دقائق فى مصر !

قال الدكتور : وأخذنا فى شأننا ، وكان معنا طالب حسن الصوت فقام الى البيانة[2] وغنى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التى تطقطق فيها النفس ، فجعل يمطل صوته بآه ، وآه ، ودار اللحن دورة تأوهت فيها الكلمات كلها . ثم اعتور البيانة طالب آخر فما شذ عن هذه السنة ، وكان بعد الأول كالنائحة تجاوب النائحة . فمالت على السيدة الفرنسية وأسرت إلى : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحن تاريخى ذو مقطوعتين كانت تتطارحه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة . فأعجبت المرأة أشد الأعجاب ، وأكبرت منا هذا الذوق المصرى أن نكرمها لوجودها فى مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة ، وطربت لذلك أشد الطرب ، وملكها غرور المرأة ، فجعلت تستعيد « يالوعتى ، ياشقاى ، ياضنى حالى . . . » وتقول : ماكان أرق كيلوباترة ! ماكان أرق أنطونيو ! يالفتنة الحب الملكى !...

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلت والله من هذا الكلام المخنث ، ومن تلفيقى الذى لفقته للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضت انتفاضة من ملؤه الغضب ، وقد حمى دمه ، وفى يده السيف البائر ، وأمامه العدو الوقح ؛ وثرت الى البيانة فأجريت عليها أصابعى ، وكأن فى يدى عشرة شياطين لاعشرة أصابع ، ودوى فى المكان لحن « اسلمى يامصر » وجلجل كالرعد فى قبة الدنيا ، تحت طباق الغيم ، بين شرار البرق . فكأنما تزلزل المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً ، وصرخ أجدادنا يزأرون من أعماق التاريخ : « اسلمى يامصر » . ولما قطعت التفت إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين

ثم راجعنا صاحبنا الضيف ، وأحفيناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعنا طويلاً : إنه يحسن شيئاً من الوسيقى ، وإن له لحناً سيطارحنا به لنأخذه عنه . فطرنا فرحنا به قبل أن نسمعه ،

(١) البيانة : كلمة استعملناها فى كتابنا (سحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات

وقلنا له: افعلْ متفضلاً مشكوراً، وما زلنا حتى نهض متثاقلاً فجلس الى البيانة وأطرق شيئاً، كأنه يُسوِّى أوتاراً فى قلبه، ثم دَقَّ يَتَشاكى بهذا الصوت:

أضاعَ غدى من كان فى يده غــدى
وحطَّمنى من كان يجهَدُ فى سَبْكى
فان كنتُ لا آسى لنفسى فمَنْ إذن ؟
وإن كنتُ لا أبكى لنفسى فمن يبكى(١)

قال «الدكتور محمد»: فكان الغناء يَعتلج فى قلبه اعتلاجا، وكانت نفسه تبكى فيه بكاءها وتَغصّ من غصَّتها، وكأن فى الصوت فكراً حزيناً يَستعلن فى هم موسيقى؛ وخيل الينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تُطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها، فاجتمع من صوتيهما أكملُ صوت انسانىّ وأجملُه وأشجاه وأرقُّه

فأَطفْنا به وقلنا له: لقد كتمْتَنا نفسَك حتى نَمَّ عليها ما سمعنا، وما هذا بغناء، ولكنه هموم مُلحَّنةٌ تلحيناً، فلن ندعك أو تُخبِّرَنَا ما كان شأنُك وشأنها.

فاعْتَلَّ علينا ودافَعنا جهدَه، فقلنا له: هيهات؛ والله لن نُفْلِتكَ وقد صرتَ فى أيدينا. وإنك ما تريدُ على أن تعظنا بهذه القصة؛ فان أمسكتَ عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا، وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلم من علم الحياة نُفيدُه منك؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا فى اجتماع فاسدٍ كلُّه قِصَصٌ قلبيَّة، بين نساء لا يَلْبَسْنَ إلا ما يُعَرّى جمالهن، وفى رجال أفرطتْ عليهم الحرية، حتى دخل فيها تَخدعُ الزوجة . . . !

قال الدكتور: ونظرتُ فاذا الرجل كاسِفٌ قد تغيّر لونُه، وتَبَيَّنَ الانكسارُ فى وجهه، فألْمَمْتُ بما فى نفسه، وعلمتُ أنه قد دُهِىَ فى زوجة من هؤلاء الأوربيّات اللواتى يتزوَّجن على أن يكون مخدعُ المرأة منهن حرّاً أن يأخذ ويَدَع، ويُغيّر ويبدّل، ويقسّم كلمةَ «زوج» قسمين وثلاثةً وأربعةً وما شاء . .

وكأنما مستتُ البارود بتلك الشرارة، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصةٍ ما أفظعَها:

قال: يا إخوانى المصريين، قبل أن أَقُصّ لكم ذلك الخبر، أسديكم هذه النصيحة التى لم يَضعها مؤلفٌ تاريخى لِسوء الحظ، إلا فى الفصل الأخير من رواية شقائى:

« إياكم إياكم أن تغترّوا بمعانى المرأة، تحسبونها معانى الزوجة. وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها، وبين المرأة بمعانيها؛ فان فى كل زوجةٍ امرأة، ولكن ليس فى كل امرأةٍ زوجة.

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونها النسائية الفرديّة، كهذا السحاب الملوّن فى الشفق حين يبدو؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسَخ مسخاً؛ ولكنّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس؛ قد يحجبها ذلك السحاب، بَيْدَ أن البقاء لها وحدها، والاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقتُ كلُّه.

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية؛ إن أجنبيةً يتزوجُ بها مصرىّ هى مسدّس جرائم فيه ستٌّ قذائف:

الأولى: بَوارُ امرأةٍ مصرية وضَياعُها بضَياع حقها فى هذا الزوج. وتلك جريمةٌ وطنية؛ فهذه واحدة

والثانية: إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا — فى هذا الاجتماع الشرقى، وتوهينُه بها وصَدْعُه؛ وهى جريمةٌ أخلاقية

والثالثة: دَسُّ العُروق الزائغة فى دمائنا ونَسْلِنا، وهى جريمةٌ اجتماعية

والرابعة: التمكينُ للأجنبىّ فى بيتٍ من بيوتنا، يملكُه ويحكمُه ويُصرّفهُ على ما شاء؛ وهى جريمة سياسية

والخامسة: للمُسْلِم منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة، ثم تحكيمُه الهوى فى الدين، ما يعجبُه وما لا يعجبه، ثم إلقاؤُه السمّ الدينىّ فى نَبْع ذرّيته المقبلة، ثم صَيْرُورَتُه خِزْياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهن سَبايا، ويجعلونهن فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة؛ فأخذتْه هى رقيقاً لها، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد . . . وهذه جريمةٌ دينية

والسادسة: بعد ذلك كلّه، أن هذا المسكين يُؤْثِر أسفلَه على أعلاه . . . ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جرائم فظيعة. وهذه السادسة جريمة إنسانية!

***

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة، وكم لهذه القصة من أبطال . . !

إلى مصر ... أنى أحضرت معى من أوربا آلة تصنع أحزانى ومصائبى ! ولم يكن وعظنى أحد بما أعظكم به الآن ، ولا تنبهت بذكائى الى أن الزوجة الأجنبية تثبت لى غربتى فى بلادى ! وتثبت علىّ أنى غير وطنى أو غير تام الوطنية ، ثم تكون بيتى حماقة تثبت للناس أنى أحمق فيما اخترت ؛ ثم تعود مشكلة دولية فى بيتى ، يزورها أبناء جنسها ويستترون بها رغم أنفى وفى وجهى كله ! ويستطيلون بالحماية ، ويستترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويرخون ستاراً عن فصل ... وأنا وحدى أشهد الرواية ... !

إن الشيطان فى أوربا شيطان عالم مخترع . فقد زيّن لى من تلك الزوجة ثلاث نساء معاً : زوجة عقلية ، وزوجة قلبية ، وزوجة نفسية ؛ ثم نفث اللعين فى روعى أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجة الجسم وحده ؛ فلا تسمو الى العقل ، ولا تتصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظة الحس ، خشنة الطبع ، لا تكون مع المصرى إلا كما تكون الأرض المصرية مع فلاحها

لعنة الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع ! ما علمت إلا من بعد أن هذه الشرقية الجاهلة الخشنة الجافية هى كالمنجم الذى تبره فى ترابه ، وماسه فى فحمه ، وجوهره فى معدنه ؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفة الممتنعة ، وأن خشونتها من خشونة الحب المعتز بنفسه ، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى على المادة ؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبر الذى لا يتخلله العجز ، وكان لها الوفاء الذى لا تلحقه الشبهة ، وكان لها الايثار الذى لا يفسده الطمع . هى جاهلة ، ولها عقل الحياة فى دارها ؛ وغليظة الحس ؛ ولها أرق ما فى الزوجة لزوجها وحده ؛ وخشنة الطبع ، لأنها تأبى أن تكون ملمساً ناعماً للذة هذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربية ، التى تجعل نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقى من التفضيل والايثار والاجلال والاباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . امرأة أنشأتها الحرب العظمى بأخلاق مخربة مدمرة ، تنفجر بين الوقت والوقت

عندنا يا إخوانى تعدد الزوجات ، يتهموننا به من عمى وجهل وسخافة . أنظروا ، هل هو إلا إعلان لشرعية الرجولة والأنوثة ، ودينية الحياة الزوجية فى أى أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلان بطولة الرجل الشرقى الأنوف الغيور أن الزوجة تتعدد عند الرجل ولكن . . . ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أن الزوج يتعدد عند المرأة . . . !

يتهموننا بتعدد المرأة على أن تكون زوجة لها حقوقها وواجباتها ، بقوة الشرع والقانون ، نافذة مؤداة ، ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدد المرأة خليلة مخادنة ليس لها حق على أحد ، ولا واجب من أحد ، بل هى تتقاذفها الحياة من رجل الى رجل ، كالسكير يتقاذفه الشارع من جدار الى جدار

لعنة الله على شيطان المدنية العالم المخترع الخنث ، الذى يجعل للمرأة الأوربية بعد أن يتزوجها الرجل الشرقى أصابع « أوتوماتيكية » ؛ ما أسرع ما تمتد فى نزوة من حماقاتها الى رجلها بالسكين ، فاذا الرصاص والقتل ؛ وما أسرع ما تمتد فى نزوة من عواطفها الى عاشقها بمفتاح الدار ، فاذا الخيانة والعهر !

ماذا تتوقعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنثة بكل ما فيها أنوثة تكفى رجالاً لا رجلا واحداً ، وقد ضعفت روحيتها الأنثوية فى رأيها ، وابتذلت الروحية فى مجتمعها ابتذالاً ، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه ؛ وبذلك عاد الزواج حقاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها ؛ فان كان الزوج مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رجل قلبها — فعليه أن يدع لها الحرية لتختار زوج قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعى بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعى . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مخيباً ، وكان قد بلغ الى قلبها زمناً ثم ملّه قلبها — فعليه أن يدع لها الحرية لتتنقل وتتلذذ بلذات الهوى ، ويقول لها : شأنك بمن أحببت ، فان هذا المنحوس المخيب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية انسانية انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصل آخر بحوادث غير تلك . فلمن يشهد الرواية أن يتبرم ما شاء ، ويستثقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأة هذه المدنية هي امرأة العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تلبسه العاطفة من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة

تقوى العاطفة فتجيء بها الى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهب بها مع رجل آخر . . . ! وتقيد نفسها إن شاءت ، وتسرح نفسها إن شاءت ؛ وما بد من أن تبلو الحياة كما يبلوها الرجل ، وأن تخوض في مشاكلها ؛ وإذا شاءت حملت نفسها إحدى مشاكلها . . ! ولا مندوحة من أن تتولى شأن نفسها بنفسها ، فاذا خاست أو غدرت فكل ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكل ذلك رأي وحق ، إذ كان محورها الذي تدور عليه هو عاطفتها وحرية هذه العاطفة ؛ فمن هذا يقرر لها خطتها ، وعلى عليها واجباتها ، ويزور لها الأسماء على ارادته دون إرادتها ، فيسمى لها نكد قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمان عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوله الحق أن يقرر وأن يملي ؟

وهذا الشرق العتيق الأفون الذي قبلها سافرة لا تعرف روحها ولا جسمها الحجاب ؛ ما باله يريد أن يضرب الحجاب على عاطفتها ، ويتركها محبوسة في شرفه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبة في الدار ؟

ما علمت يا إخواني إلا من بعد ، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يمسكها عليه ، ولن يكرهها على الوفاء له ، إلا أن تكون حثالة يزهد فيها حتى ذباب الناس ؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكين مطمعها ، وهي مع ذلك لو خلطته بنفسها لبقيت منها ناحية لا تختلط ، إذ ترى أمته دون أمتها ، وجنسه دون جنسها ؛ فما تسب أمة زوجها وبلاده بأقبح من هذا !

أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى ... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته ! وقد يكون هناك ما يشذ ، ولكن هذه هي القاعدة

***

أما قصتي يا إخواني ... ...

قال الدكتور محمد : قد حكيتها « يرحمك الله »

طنطا (توقيع)

٢ ــ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

لست أغلو إذا زعمت أنني في مطلع نشأتي الأدبية كان « مصباح الشرق » عندي هو المثل الأعلى للبيان العربي . وبهذا كنت شديد الاكباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان في روائع صيغه وطرائف عباراته . حتى لقد كنت أشعر أنني أترشفها ترشفاً لتدور في أعراقي وتخالط دمي ، وتطبع ملكتي على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولكن (ما كل ما يتمنى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين في ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحي في المصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زادني وزاد لداتي به فتونا

كيف تمثل لي محمد المويلحي ؟ :

لم تكن عيني الى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحي ، ولا خيار للمرء في تمثل صورة من لم ير من الأناسي ، وما لم يشهد من البقاع . فكانت الصورة التي جلاها على الخيال لهذا الرجل ، صورة شاب معتدل القد ، وضيء الطلعة ، وسيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيان الجوهري ليجلو علي من الرجل غير ذلك . على أنني كنت أرى أباه ابراهيم بك الحين بعد الحين في زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفي زيارات والدنا له (بعمارة البابلي) يوم كنت أصحبه . وكان هذا المويلحي تحفة من تحف العصر التي قل أن يجود بمثلها الزمان : قوة لسن ، واشتعال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعته وتوفيقه في إيراد الشاهد من عبر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يتعلق بغباره فيه أحد . فكان مجلسه متاعاً من أعظم المتاع على أنني لم أوفق الى رؤية المويلحي الابن مرة واحدة !

وتتابعت السنون ، وخلص تحرير « المصباح » الى محمد . ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطيش من أبناء (الذوات) في إحدى القهوات . وابتغى الخبر الى المرحوم

الشيخ علي يوسف ، وكان في صدره موجدة شديدة على محمد وعلى أبيه لما كان بينه وبينهما من كيد وصراع ، فانتهز الفرصة . وروى الحادثة في صورة مهولة ، واستدرج الكتاب والشعراء للقول فيها ، وفسح لهذا في المؤيد مكاناً عريضاً . ومن ذا الذي لم يكن موتوراً من المويلحي ؟ ومن ذا الذي لم يقدر الوتر منه في مستقبل الأيام ؟ وإذا كان الرجل عاجزاً عن أن يخرج للمويلحي وحده ، فهذه جموع الأدباء والشعراء والعلماء أيضاً قد تداكت لقتاله بكل ما في أيديها من سلاح : ألا فليتقدم لطعن المويلحي من شاء أن يتقدم ، فليس على أحد في قتاله اليوم من بأس !

وتثور العاصفة ، ويشتد البأس ، وتحمر الحدق . وأذن النفير العام ، فوثب القاعد ، وتحرك الساكن ، وانبعث الجاثم ، وهب النائم ، وأهاب القعديون بالمتخاف ، واستحمسوا المتخاذل . وشد الجميع على قلب رجل واحد . وهل كان من المستطاع أن يصمد لهذا الجيش اللجب رجل واحد ؟ . لم يستطع المويلحي أن يثبت في الميدان ، فأطفأ « المصباح » وأنسل إلى داره وقد ألقى بيد السلام ، واحتجب ولكن في انتظار الثأر وري الغلة بالانتقام !

ولقد تم للمويلحي من هذا بعض ما أراد أو كل ما أراد . فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ علي يوسف أيام حادث الزوجية المشهور ، وفتح له في جريدة (الظاهر) باباً مثل ذلك الباب ، واستدرج له أقلام الشعراء والكتاب . . واحدة لواحدة ، كفاء .

متى رأيت المويلحي ، وكيف اتصلت به :

بين سنتي ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، لا أذكر على التحديد ، سألت صديقاً حديث العهد بصداقتي ، ولكن وده للمويلحي قديم — مسألته ، وتمنيت عليه أن يجمع بيني وبينه ، وما كان أبلغ دهشي واغتباطي حين قال لي : إن المويلحي قد طالما أنه يحب أن يراني ، ولعله عرفني من أيام كنت أرسل القول في الشيخ في فتنة الزوجية شعراً ونثراً (وليسأل الله أن يغفر لي هذا) . وتواعدنا أن نذهب إليه في الأصيل

وكان ، رحمه الله ، قد اتخذ مسكنه داراً من دور سعيد باشا نصير ، تقع في أطراف العباسية يومئذ . وهذه الدار لا يعطى العين ظاهرها أكثر من منظر (حوش) في قرافة الإمام ، فإذا جزت مداخلها انفرجت للعين حديقة واسعة قد عبدت طرقها تعبيداً ، ونضدت أشجارها تنضيداً ، وتأنقت يد البستاني في تسويتها وتنميقها ، كما تأنقت يد الطبيعة في تشجيرها وتزويقها : فهذا الفل الوضيء الآلق . وهذا الورد المشرق الضاحك ، وهذا النرجس تنبعث من عيونه الأسحار ، وهذا الياسمين لقد استحال تنفساً في سماع الأسحار .

ولقد أفرد زاوية من زوايا الحديقة للغزلان والطواويس وجماعات الطير من كل غرد صداح

ويستقبلني ، رحمة الله عليه ، بالبشر والتأهيل والترحيب ، وإذا بي إزاء رجل حنطي اللون ، بين الطويل والقصير ، والسمين والهزيل ؛ مستطيل الوجه ، عريض الجبهة ، حاد العينين ، مستوى الأنف ، له فم قريب إلى الفوه في غير قبح ولا استكراه . إذا تمثل واقفاً لحت في ساقيه تقوساً خفيفاً لعله دخل عليه من أنه عالج المشي قبل أن تصلب عظامه . وله إذا تحدث صوت لا أقول خشن بل أقول جزل . فإذا أقبل على القراءة زر عينه اليسرى فبان التكرش الشديد في معقد ما بين أعلى العارض وأسفل الجبين ، وهذا التكرش لا شك كان من أثر السنين ، وإن كان يخفيها في المويلحي شدة عنايته بصحته ، وتكلفه ألواناً من علاج البدن بمأثور الوصفات ، والتزام الحمية في كثير من الأوقات ، وأخذ النفس بالراحة التامة ما تستثيره أزمة من الأزمات ، ولا يستدرجه مجلس لهو ولا تقنصه داعية لذة من اللذات ؛ وبهذا تهيأ له أن يحيا في مثل نضرة الشباب الى الممات

وقد تلقاني في غرفة الاستقبال ، وهي غرفة أنيقة حقاً . لقد أثثت بأنخر الأثاث وأغلاه ، وأنخر من كل شيء فيها الأناقة في تصفيف الفراش والذوق التام . وقد زينت أجبنتها بصور كبيرة له ولأبيه ، وللأميرة نازلي فاضل ، وللسيد جمال الدين الأفغاني . وبلوحات خطية جميلة جرت بروائع الحكم ، وأ كثرها من شعر المعري

وخضنا في أحاديث من أحاديث الأدب ، ولونا الكلام تلويناً حتى تجاوزنا نصف الليل ، وتفارقنا وكأن حبل المودة بيننا ممدود من عشرين سنة . وتواعدنا اللقاء ما تهيأ لنا . وكذلك استمكن

الإلف واستوثقت حبال الود ، فما نتفارق إلا على موعد من لقاء قريب . ولقد أعيش معه اليومين والثلاثة نقرأ عامة نهارنا وصدراً من ليلنا كتباً ، أو نتذاكر أدباً

وكان ممن يختلفون الى داره مغربَ الشمس عادةً بعض أقطاب العلم وأصحاب الرأى والبيان والبداهة المواتية ، وأذكر منهم المرحومين عمه السيد عبد السلام باشا المويلحى (سر تجار مصر) ، والسيد محمد توفيق البكرى ، والشيخ على يوسف ، بعد إذ تصافت القلوب مما كان علق بها من الأضغان ، والسيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، وحافظ بك ابراهيم ، وعبد الرحيم بك احمد ، وحافظ بك عوض ، والسيد عبد الحميد البنان . أحياهما الله أطيب الحياة . وخذ ماشئت فى أثناء هذه المجالس من أدب رائع ، ومن نادرة طريفة ، ومن حاضر نكتة قل أن تسخو بمثلها الأذهان .

ولقد كنا نقضى معاً عامة الصيف فى مدينة الاسكندرية . ولعل من أسعد هذه الأصياف ذلك الذى قضيناه معاً فى فندق فى ضاحية المكس خالصَين للرياضة ومراجعة الكتب فى مختلف الآداب ، لا ننحدر الى صلب المدينة إلا لقضاء سهرة مونقة مع آثر الصحاب . كما عشنا معاً فى شتاء سنة ١٩١١ - ١٩١٢ بضعة أشهر فى دار استأجرناها فى حلوان

وفى سنة ١٩١٠ قُلد فى ديوان (عموم) الأوقاف منصب رئيس قسم الادارة والسكرتارية ، وفى يناير من سنة ١٩١١ عينت فى (قلم السكرتارية) . وللمويلحى فى هذا التعيين سعى غير منكور . وبهذا أصبح لى رئيساً ، كما كان لى أستاذاً وصديقاً

ولقد ظل الودّ بيننا موصولاً حتى قبض إلى رحمة الله

نشأته ودراسته :

هو السيد محمد المويلحى بن ابراهيم بك بن السيد عبد الخالق المويلحى . أصلهم من مرفأ المويلح ببلاد العرب ، هبط جدودهم مصر من زمن غير قصير ، وكانوا يتجرون فى صناعة الحرير ، وهم أهل نعمة وثراء . ولقد أتلف أبوه ابراهيم كل ما كان فى يده من الأموال فلم يتزلق عنه لبنيه إلا نطافٌ من الاستحقاق فى بعض الأوقاف

وما أحسب محمداً تجاوز فى الدراسة المنظمة التعليم الابتدائى . ثم جعل يتعلم على أبيه ، ويُكِبّ على قراءة الكتب فى العلوم والآداب ، ثم اتصل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب من أمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وغيرهم من أعلام عصره فحذق العربية وبرع فيها ، وجود البيان أيما تجويد ، وهيأ له جده واضطرابه فى أسفاره بين الشرق والغرب تجويد اللغات الفرنسية والتركية والايطالية ، كما أصاب حظاً من الانجليزية واللاتينية . وكان كثير القراءة الى غاية الممات ، فلا تكاد تقتحم عليه إلا رأيته يعالج بالتنسيق حديقته ، أو يقرأ فى كتاب عربىّ أو فى كتاب يجرى فى إحدى هذه اللغات

ولقد سألته ذات يوم عن أحسن الفرص التى هيأت له أعظم حظ من العلم فقال : كنت فى الآستانة فى ضيافة رجل فاضل يدعى سليمان افندى ، وكان عنده مكتبة تعدّ من أنخر المكاتب الأهلية ، فلبست ثيابى ذات عشية تأهباً للخروج كعادتى لأسهر فى بعض ملاهى المدينة ، وتفقدت كيسى فاذا هو صفر من الدرهم والدينار ، فنضوت ثيابى ثانية وقلت باسم الله ، ولبثت عاكفاً على قراءة الكتب لا أبرح هذه المكتبة إلا للنوم أو لغيره من حاجات الحياة . وظللت على هذه الحال ستة أشهر وبعض الشهر حتى أذن الله بالفرج ، وجاءنى من المال ما هيأ لى استئناف الحياة مع الناس !

ومن يعرف صبر المويلحى ، وشدة حمله على نفسه ، لا يستطيع أن ينكر منه هذا المقال ، وسأُلمّ إن شاء الله بهذه الخلة العجيبة فيه عند الكلام فى عاداته وأخلاقه . وحسبى هذا الآن فقد أطلت الحديث ، وإلى الملتقى القريب ؟

عبد العزيز البشرى

صحف مطوية من التاريخ الاسلامي

٢ – العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتشرت المستعمرات والمعاقل العربية خلال القرن العاشر في بروفانس وسافوا وبيمون وسويسره كما بينا، وبسط العرب سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللومبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسره، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل، واحتلوا في سويسرا ولاية فاليه ومفاوز جورا المتاخمة لبرجونية، واحتلوا في ايطاليا الشمالية ولاية ليجوريا. وكانت معاقلهم في بروفانس ولا سيما حصن «فركسنيه» قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم. والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بيمون فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية لتكون مراكز غزواتهم في بلاد اللومباردي وفي سويسره؛ فان الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوفاليس تذكر لنا اسم حصن عربي في تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» Fraschendellum؛ والظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنيتو» وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر «بو». وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعى أيمون دفعه شغف المغامرة والكسب إلى محالفة العرب، فانضم إليهم واشترك في غاراتهم الناهبة، وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن، فاستبقاها إيمون لنفسه، ولكن زعيماً عربياً استحسنها وانتزعها منه قسراً؛ فغضب إيمون، والتجأ إلى كونت روتبالدوس حاكم بروفانس العليا، وفاوضه سراً في محاربة العرب وإنقاذ البلاد منهم، فرحب الكونت بهذا المشروع، ودعا السادة إلى معاونته، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة، وهوجم العرب في بيمون من كل صوب ومزقوا، وسقطت قلاعهم في يد النصارى، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء. وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد

ملك برجونية لاهلاك العرب النازلين في أملاكه، في جورا وعلى حدود برجونيه، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الاغارة والعيث في تلك الأنحاء. وذلك أنه كتب إلى العرب يستحثهم لقتال منافسيهم المجر، وانتزاع ما بيدهم من الأراضي والضياع الخصبة؛ وكتب مثل ذلك إلى العرب يستحثهم لقتال المجر والمعاونة على إجلائهم، وعين مكاناً للقاء الفريقين؛ فالتقت الجموع المتنافسة من العرب والمجر ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين، ثم أشرف كونراد بجموعه ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً، وتضع الرواية تاريخ هذه الواقعة في سنة ٩٥٢م؛ ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها (١)

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك العرب المستعمرين المغامرين في الأفول، وتضمحل سيادتهم في تلك الأنحاء؛ بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك يحتلون كثيراً من مواقع سافوا، ويجوبون أنحاء سويسرا كلها في طلب الغنيمة والنهب. وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها؛ وبلغوا في توغلهم في سويسره مدينة سيان على مقربة من بحيرة كونستانس، وانشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا، ولبثوا حيناً في سان جال، حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من القاتلين الأشداء، وفاجأوا العرب في جوف الليل ومزقوهم قتلاً وأسراً، وبذلك خفت وطأة الغزوات العربية في شمال سويسرا.

واستمرت المستعمرات والمعاقل العربية في دوفينه وبروفانس وبعض جهات الألب؛ وكان قربها من «فركسنيه» أمنع المعاقل العربية يمدها بأسباب الجرأة والعون، ويمدها قربها من البحر دائماً بامداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وأفريقية

* * *

في ذلك الحين كان أعظم أمراء النصرانية أوتو الكبير (أوتون) ملك ألمانيا، وكان أعظم أمراء الإسلام عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس؛ وكان للناصر مع معظم أمراء النصرانية، من امبراطور بيزنطية الى ملوك الشمال والغرب، علائق سياسية منظمة؛ وكانت له مع أوتو الكبير علائق ومراسلات. فلما رأى أمراء

(١) Bouquet, T. IX p. 6 — Reinaud, ibid, p. 128

غاليس أنهم لا يستطيعون رد العرب عن أملاكهم وأراضيهم ، سعوا الى الامبراطور أوتو زعيم النصرانية أن يعاونهم بمفاوضته الناصر زعيم الاسلام فى انقاذهم من هذا النير المزعج ؛ وكان المفهوم دائماً أن حكومة قرطبة تحمى هذه المستعمرات العربية النائية وتمدها بعونها الأدبى على الأقل . فعول الامبراطور أوتو على السعى لدى الناصر فى تحقيق هذه الغاية ؛ وأوفد اليه فى سنة ٩٥٦ سفارة على رأسها حبر يدعى « چان » فقصد الى اسبانيا عن طريق فرنسا ، ووفد على قرطبة يحمل بعض التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر ، واستقبل بحفاوة بالغة وأنزل فى منزل خاص ريثما يستقبله الخليفة . وتتفق الروايات العربيـة والنصرانية فى وصف مظاهر العظمة والبهاء التى كانت تبدو بها قرطبة ، ويبدو بها البلاط الاموى يومئـذ[1] . وتقص علينا الرواية الـكنسية المعاصرة تفاصيل هذه السفارة ، فتقول : إن الناصر لم يستقبل سفير أوتو فى الحال ، وإنه كان يحقد على أوتو لأنه تعرض فى بعض مراسلاته للاسلام ، ولأنه كان قد اعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً أرسله اليه الناصر ، ولذلك أمر الناصر باعتقال السفير (چان) حتى يرسل سفيراً الى أوتو يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ؛ واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة ، وكان أوتو يومئذ يشتغل ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلاً فى قبول وجهات نظر الخليفة . ولما عاد السفير ، ارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وإذن برؤية سفير الامبراطور ؛ فاستقبل استقبالاً فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ؛ وتحدث الى الناصر عن الغرض من سفارته . ولا نعرف ماذا كانت نتيجة هذه السفارة ، لأن الرواية الـكنسية لا تحدثنا عن ذلك ؛ ولـكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس ، وانها لا تحتمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها : وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس لم تـكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر الى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانيـة بعين العطف . على أن لويتبراند ، وهو مؤرخ كنسى معاصر يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون[1]

وبعد ذلك بقليل (فى نحو سنة ٩٦٠) أخرج العرب من معاقلهم فى آكام سان برنار ؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ؛ ولـكن المحقق أن العرب أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم ؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء العرب

واستمر العرب فى دوفينه وبروفانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الأمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملـكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدالبرت الى عرب « فراكسنيه » ليعاونوه فى استعادة ملـكه . وكان هذا التحالف بين السادة والعرب يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما آذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال مذ فقد العرب معاقلهم فى بلاد الألب . وفى سنة ٩٦٥ هـ أخرج العرب من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جريزيفودان) وطوردوا فى تلك النواحى وساءت أحوالهم ؛ وأعلن الامبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة ، وهو يومئذ فى ايطاليا أنه سيتولى طرد العرب من الأراضى النصرانية ، ولـكنه توفى دون القيام بمشروعه

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة ، وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت هو سان مايل ، وهو أسقف دير كلونى من أعمال برجونيه ، حج الى رومه ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره العرب المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ؛ فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان مايل وزملاؤه . ولما عاد سان مايل الى مقامه دعا مواطنيه الى إنقاذ البلاد من عيث الغزاة ، وأذكى حماستهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسره وما يعانيه الحاج من شر العرب وعدوانهم ، فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون (أو بيڤون) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة ، وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى

(١) راجع فى وصف هذه المظاهر التى شهدها سفراء النصرانية — نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و١٤٣ — وراجع Reinaud; ibid, p 188 — 189

(١) Reinaud; ibid; p. 193

حصناً فى سستيرون على مقربة من حصن كان يملكه العرب ، ولبث يتحين الفرص لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى العرب فى حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة ٩٧٢ م)

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا العرب فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه ولم تبق إلا فى بروفانس . ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه على بروفانس وتلقب بألقاب الأمارة ، واعتزم أن يخرج العرب نهائياً من تلك الأرض ؛ فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى العرب أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام الى البسيط فى صفوف متراصة ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى «تورتور» ؛ فهزم العرب ، وارتدوا الى قلاعهم ، ولا سيا « فركسنيه » التى غدت ملاذهم الأخير ؛ فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ؛ فحاولوا الفرار تحت جنح الليل الى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وأبقى على من استسلم منهم ، وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض طويلاً

وهكذا سقط حصن « فراكسنتم » أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ؛ وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء .

أما المستعمرات العربية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية ؛ ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر ، حتى تولى مطاردتها وسحقها زعيم يدعى جيروليبوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة العرب فى غاليس وسويسره ؛ ولم يجب أحد فى أفريقية والأندلس صريخ الغوث الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل الى اخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية فى تلك المياه ؛ ففى سنة ١٠٠٣م ، سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩م ، نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة ، وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ ، هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة بالقرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرئ هو مجاهد العامرى أحد أمراء الطوائف ، وصاحب دانية وجزائر البليار ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله الى مياه كورسيكا وسردانية ؛ وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها ، (سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ، ولكن النصارى استردوها على الأثر[1] ؛ ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية « موجيه » أو موسكتوس ، مدى حين سيد هذه المياه يبث فيها بحملاته الرعب والروع

***

هذه هى قصة العرب والغزوات العربية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسره ، وهى قصة تغفل الرواية الاسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ؛ ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ؛ ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عناد
المحامى

(١) ابن خلدون — المقدمة — ص ٢١٢

بين فني التاريخ وفني الحرب

٩ - خالد بن الوليـــــد *

في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمي
رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ولا يخلو من الفائدة أن نقتبس هنا وصف المســتر فلبي الذي تجول في هذه المنطقة في صيف سنة ١٩١٨ ؛ فدون مشاهداته في كتابه «البلاد العربية الوهابية» (Arabia of Wahhabit) وقد وصف قرية الجبيلة الواقعة بالقرب من قرية (عقرباء) التي دارت رحى المعركة فيها بما يلي :

« والقرية الآن آهلة بعدد يسير من السكان البؤساء ، ومعظمها أطلال دارسة ، ومقابر الصحابة على ضفة الترعة المقابلة للقرية (أي الضفة اليسرى للوادي) وعلى مسافة نحو ربع الميل منها . وقد يشاهد المسافر بقاعاً متفرقة مغروسة بأشجار الأثل (الطرفاء) تسري عن المرء الانقباض الذي يعتريه من إدامة النظر الى اللون الأغبر الذي لا يتغير ، وهو اللون الدائم لتلك السهول الرسوبية المترامية التي ســدت الوادي . وبقرب الحي آبار كثيرة بعضها مطوي بالحجارة يستقي منه أهل الحي دائماً . أما بيوت أهل الحي فمعظمها أطلال من اللبن بلا خشب ، وقد عبثت بها يد البلى ودرست آثارها الأيام . أما ما بقي منهـا فلا بأس بحاله ، ويستدل منه على أن أهل تلك البيوت عنوا بصيانتها ودعموها بأعمدة حجرية مشيدة بالجص لتحمل على متونها روافد السقوف . وقد شاهدت في دار منها وعاء مزدوجاً كبيراً من اللاط المغطى بطبقة رقيقة من الصاروج (الجص) الأسمر لخزن التمور ، ولا تزال جدرانه ملوثة بعصارة التمر » إلى أن يقول : « ومعظم الجدران المبنية من الطين مؤزر الى ما يقارب نصفه بأيادات من الحجر الصلد مبنية على وجه الجـدار بناء منحرفاً توخوا فيها بساطة التزويق لا غـير » . . . ويقول في وصف جبل طويق والهضاب التي يشرف عليها : « أما ما استدار من الأرض حول تلك المنطقة فلم أجد في حياتي أرضاً مثله ، فلم أعثر في ارباضه على شيء تنقبض له النفس ، فتجد أمامك طويقاً معرضاً لمهاب الرياح ، خالياً من الظاهرات الطبيعية ، ضارباً في كافة الجهات على نمط واحد لا نهاية له ، ولا يعترضه في ذلك التكوين الغريب سوى الحزف المطمئن المسمى جبل صلبوخ الواقع الى الشمال الشرقي »

وعند ما يبحث في أطراف عينة عاصمة آل ابن معمر القدماء وهي القرية الواقعة الى غربي عقرباء ، في واد ضيق — يقول :

« أما ربوع عينة التي اشتهرت في قديم الزمن بجمالها وخصبها فمنبسطة على جانبي السيل شرقاً وغرباً نحو ميلين ، وقد أمست الآن قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين ، ونبتت أدغال الأثل في البقاع التي وطئت أراضيها ومهد ثراها لغرس فسائل النخيل فيها . أما البلد الأصلي أو المحلة التي كانت يوماً موطناً لآل ابن معمر فلا تختلف عما كان حولها من الربوع الضاربة في صدر تلك المحلة الرحبة ، إلا أن أطلالها الشاخصة قد شغلت بقعة وسيعة ، وعمر عابر السبيل في تلك البيداء بين آونة وأخرى بأطلال البنيان القديم كالعمد المزوقة رؤوسها . وفي كل ناحية من نواحي تلك المحلة الوسيعة آبار نضب عنها الماء وهي مطوية بالحجارة والآجر وعليها أحواض مبنية بالصاروج . أما ضفاف السيل فمدعمة بأيادات كالمسنيات على أشـد ما تكون من متانة البنيان ، عقدها أصحابها في وجه السيل من زمن بعيد لحبس المياه في بطن السيل . فرحلوا عنها وتركوها وشأنها فعبثت بها يد الدهر فتداعت جدرانها وتقوض بنيانها المحكم ثم غديت تراباً فوق أنقاض بالية . وشاهدت في بعض تلك الجدران حجارة كبيرة من الصخر الصلد طول الحجر الواحد قدمان في عرض نصف قدم » الى أن يقول . « جزنا الأطلال وخرجنا من عينة الخربة وسلكنا طريقاً تخترق أشجار الأثل في عنفوان نموها والمنتشرة في طول الأرض وعرضها الى أن تنتهي في طرف المحلة القائمة في الناحية الغربية فولينا وجوهنا شطر المغرب صاعدين الوادي . فسـار بنا الظعن يطوي صوحه صعوداً . وعرض الوادي في أسفله (أي في عقيقه) نحو الميل ،

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

وكلما ارتقى الانسان صوب الوادي وارتفع عن عقيقه ازداد انفراج الوادي الى أن يبلغ عرضه ميلين أو ثلاثة اميال . ولما أرسلت رائد الطرف في ميمنة الوادي بدا لي شعيب في منخفض الوادي ، وقد قيل لي إن هذا الوادي يأخذ في الصعود مرة أخرى الى حوض عظيم كسيت جدرانه بالصاروج ، يقع على سفح التل لحبس مياه الأمطار والشاعب المنحدرة على جوانبه ، ولم يزل حتى الآن خزاناً لري حقول القمح المزروعة في وسط الخرائب . وهنالك شعيب آخر الى يمين طريقنا يقال له شعيب عينة ينحدر من الهضبة الضيقة التي تفصل وادي حنيفة عن وادي سدوس »

قوات الفريقين

برغم كثرة الروايات التي تتناول حركات اليمامة والقتال في عقرباء نجد الغموض ظاهراً في معرفة قوة الفريقين

فالطبري يذكر نقلاً عن سيف بن عمر أن القوة المحاربة لدى قبائل بني حنيفة بلغت أربعين ألفاً . ولما ذكر أخبار السنة الحادية عشرة الهجرية نقل عن ذلك الراوي نفسه ، وزعم أن القوة المحاربة بلغت عشرة آلاف . أما ابن حبيش فيذكر في رواية نقلها عن الواقدي مفادها أن قوة المسلمين بلغت أربعة آلاف ، وقوة بني حنيفة أيضاً بلغت هذا المقدار ذاته . وفي رواية تسند الى سيف بن عمر يزعم الراوي أن عدد القتلى من بني حنيفة بلغ عشرين ألفاً

أما المؤرخ الفارسي ميرخوندي فيزعم أن عدد القتلى في تلك الموقعة بلغ سبعين الفاً ، والذين قتلوا في حديقة الموت بعد المعركة بلغ عددهم سبعين ألفاً . ولماك أدركت أنه يصعب الوصول الى عدد يقرب من الحقيقة بين هذه الروايات التي تقدر قوة الحنفيين بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً ، وعدد القتلى منهم بين عشرين ألفاً الى مائة وأربعين ألفاً

ولكن الثابت أن مسيلمة جمع أعظم قوة لمقابلة جيش المسلمين ووضعها على الحد الفاصل بين بلاد حنيفة وبلاد بني تميم وترك القرى العامرة وراءه . وكان من مصلحة الحنفيين أن يجتمعوا تحت لواء رئيسهم للدفاع عن جبهم الذي تركوه وراء ظهورهم ، ويظهر من مجرى المعركة أن عدد القتلى في قوة الحنفيين كان كبيراً

لقد قدرنا جيش بني حنيفة عند البحث في قوات الفريقين بخمسة عشر ألف مقاتل — يعني أن الحد الأقصى للقوة التي يستطيع الحنفيون سوقها لا يجاوز العدد المذكور . والذي يلوح لنا أن القوة التي جمعها مسيلمة في عقرباء تبلغ عشرة آلاف مقاتل

قوة المسلمين

روى الواقدي أن جيش خالد بلغ أربعة آلاف مقاتل في معركة عقرباء . وفي رواية أخرى تسند إلى عيسى بن سهل أن الجيش الذي تولى قيادته خالد لما خرج من المدينة كان بقوة أربعة آلاف مقاتل ، وهذا الجيش حارب في اليمامة . والذي لاريب فيه أن قوة جيش المسلمين بلغت أربعة آلاف مقاتل لما تركت الربذة وتقدمت نحو بزاخة وانضمت إليه قوات من بني طيء قبل المعركة . ثم زاد هذا الجيش بعد إسلام قبائل بني أسد وغطفان . ولعل قوته بلغت أكثر من خمسة آلاف لما نزل في البطاح . ومن الثابت أن جماعات من بني تميم انضمت إليه قبل أن يتوجه نحو اليمامة . وتروي لنا الأخبار أن الخليفة أبا بكر أمد الجيش بقوات من المدينة لما كان محتشداً في البطاح ، وأن خالداً سبق هذا الامداد من المدينة وانتظر وروده من البطاح . فجميع هذه الأخبار تدل على أن جيش المسلمين تضاعفت قوته بانضمام القبائل ووصول النجدة إليه قبل أن يتحرك من البطاح نحو اليمامة

وكان من البديهي أن تلتحق به القبائل متى اتصل بها خبر خيرات اليمامة ووفرة النعم فيها .

ويلوح لي أن قوة الجيش بلغت أكثر من ستة آلاف قبل حركته من البطاح .

الموقف قبل الحركة

لبى خالد أمر الخليفة فذهب إلى المدينة ليدافع عن عمله في قضية مالك بن نويرة ، وفي رواية لسيف بن عمر أن أبا بكر أرسل عكرمة بن أبي جهل إلى اليمامة لما كان خالد يحارب المرتدين في بزاخة وأمده بقوة أخرى بقيادة شرحبيل بن حسنة . والرواية تزعم أن عكرمة بدأ القتال قبل وصول شرحبيل فنكب . فأقام شرحبيل في الطريق حيث أدركه الخبر . وهذه الرواية تؤيد زعم سيف في أن الخليفة قسم جيش المسلمين في ذي القصة إلى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لكل منها فوجهها إلى مناطق المرتدين . وقد سبق أن بينا فساد هذا الزعم . وفي رواية أخرى أن شرحبيل

ابن حسنة الذى تلقى أمراً من الخليفة بأن ينتظر ورود خالد ولا يتحرك بادر إلى قتال مسيلمة قبل قدوم خالد فنكب وانسحب .
وإذا صحت هذه الروايات يلوح لنا أن عكرمة بن أبى جهل كان يراقب اليمامة بقوة ساترة من المسلمين لما وقف خالد فى البطاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين الحنفيين حبطت مساعيه فيها فانسحب . أما شرحبيل بن حسنة فانه تولى قيادة جيش المسلمين عند ذهاب خالد إلى المدينة . فبدلاً من أن ينتظر ورود خالد أسرع إلى مقاتلة الحنفيين فانكسر

ولما قدم خالد البطاح كان جيش المسلمين مرابطاً فيها ، وكانت قبائل بنى تميم عرضت الولاء إلا البعض منها فالتجأ إلى اليمامة . وكان بنو طىء وبنو أسد وبنو غطفان وبعض بنى تميم أمدوا جيش المسلمين بالمقاتلين

أما مسيلمة فانه جهز عدداً كبيراً من بنى حنيفة وتقدم شمالاً يريد مقابلة جيش خالد . وتدل الأخبار على أن بعض الحنفيين كان يخابر المسلمين سراً ويطلع خالداً على موقف مسيلمة . ومن الروايات ما يؤيد أن الحنفيين الذين حافظوا على إسلامهم تحفزوا للشغب على مسيلمة

الطريق الذى سلكه خالد

هناك طريقان للتقدم من البطاح نحو اليمامة : طريق شرقى وطريق غربى . أما الطريق الشرقى فيتجه شرقاً أولاً ثم يمتد إلى سفح جبل طويق الغربى متوجهاً إلى الجنوب الشرقى ماراً بالأرض الجبلية ، وهو الطريق الذى يصل بريدة بالزلفى ثم يمتد إلى المجمعة ومنها إلى الحوطة فتادق فسدوس ؛ أما الطريق الغربى فيتوجه نحو الجنوب الشرقى فيمر بين نفود السر ونفود الشقيقة إلى أن يصل الى الشقرة عاصمة الوشم ومنها يمتد موازياً لسفوح جبل طويق الغربية فينعطف نحو الشرق ويتسلق الجبال ويمر بثنية اليمامة حيث ينبع وادى حنيفة فى غربى عينة فينتهى فى عقرباء ويدخل اليمامة .

والذى يلوح لنا أن خالداً سالك الطريق الغربى لاجتيازه أرضاً سهلة تجعل المدينة فى ظهره . أما الطريق الشرقى فيخترق أرضاً جبلية وعرة . وقد تعرقل عليه السير إذا أراد أهلها المقاومة فضلاً عن أنه طويل

ومن الأخبار ما ينبىء بأن طليعة جيش المسلمين باغتت بعض رجال مسيلمة فى ثنية اليمامة — أى فى عقبة الجيسية وهو المضيق الواقع إلى شرق الجيسيان بين خشم الجيسية وخشم الخرشة وفيه تنقسم مياه الأمطار ، فمنها ما يصب إلى الشرق ويجرى فى وادى حنيفة ومنها ما يصب إلى الغرب ويجرى فى بطن الحور

ومن جملة الأسباب التى تجعل خالداً يميل إلى سلوك الطريق الغربى قربه من قاعدة الحركات أى المدينة . فاذا ما نكب الجيش يصل إليه المدد من خلفه ، وإذا ما تضايق يستطيع الانسحاب إلى المدينة أو إلى مكة من بلاد أسد وغطفان ، أو من بلاد بنى عامر وهوازن . لذلك نجزم بأن جيش المسلمين سلك ذلك الطريق فى مسيره نحو اليمامة

معركة عقرباء

يقيناً أن معركة عقرباء من المعارك الفاصلة التى ختمت دوراً وفتحت دوراً آخر . فالمسلمون جمعوا أقصى قوتهم بقيادة أمهر قوادهم . والمرتدون حشدوا أعظم قوة فى استطاعتهم جمعها فى أوعر منطقة . فمجرى المعركة يدل على الغاية التى كان يستهدفها كل من الفريقين

فلو انكسر المسلمون ، لا سمح الله ، فى هذه المعركة ، لبقى العرب متزوين فى جزيرتهم ، واحتفظ الأكاسرة بملكهم فى العراق ، ولم يبك هرقل ضياع سورية . فالنبى الكاذب أسود العنسى الذى سيطر على اليمن مدة من الزمن قتل غيلة ، فلم يضطر المسلمون الى حشد قوة كبيرة للتغلب عليه . أما بنو أسد فلم يكن من الصعب التغلب عليهم لتفرق كلمة القبائل . بيد أن فى عقرباء احتشدت أعظم قوة من أمنع قبيلة فى أرض مستحكمة ، وكان الناس يقاتلون عن حيهم ، ويتفانون فى سبيل نبيهم

ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين انكسرت مقاومة المرتدين فى الأقطار الأخرى ، ولم يلاق المسلمون صعوبات فى تمكين الاسلام من قلوب أهلها ؛ فخضعت البحرين ، ودانت عمان ومهرة بدين الاسلام ، وجددت حضرموت إسلامها ، وعادت اليمن الى حظيرة الاسلام . وكان من أثر ذلك أن اجتمعت كلمة العرب فشمروا بقوتهم فبادروا إلى الفتوح بقيادة رؤسائهم ؛ فاندفعوا كالسيل الجارف يثلون العروش ويقضون على امبراطورية الأكاسرة ودولة القياصرة ، فلم يمر بضع سنوات على ذلك حتى كان العرب يصولون بخيولهم فى بلاد خراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً .

(يتبع) طه الهاشمى

في الأدب الدرامي

١٥ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تتمة

الغنائية (الأوبرا L'opéra)

الغنائية :

الغنائية هي درامة شعرية جدية أو هزلية تؤلف من الغناء والانشاد وتأبى الحوار الكلامي ، وتقبل الخوارق كالأشباح والأرواح والهواتف ، وتوقع على أنغام الموسيقى ، وتختلط أحياناً بالرقص ، وتعنى كل العناية بالزينة والرياش . وهي غاية ما وصل إليه الجمال الفني والذوق الانساني ، لأنها تجمع الفنون الجميلة . ومظهر الآداب الجليلة ومتعة النفوس ولذة الحواس بما تفيضه على العيون والآذان والأذهان من جميل الصور وحلو النغم وروائع الشعر ، بله ما تقتضيه من كمال الفن الآلي (mécaniqu) لأحداث الخوارق وتغيير المناظر . فهي ولا ريب أفصح الألسنة إبانة عما بلغته القرائح من النبوغ وأدركته الفنون من النضوج في عصرها الذي مثلت فيه

على أن قوام الغنائية وفروعها هو الموسيقى والمناظر ، فهي تنزل الكلام والحادث والتعقيد في المحل الثاني منها . لذلك لا تجد كلامنا عنها إلا إجمالاً يكاد يقفك عند التعريف والتقسيم . وقبل أن نأخذ في تقسيم الغنائية يحسن بي أن أنقل إليك ما قاله في هذا الصدد الفيلسوف ابن رشد في تلخيصه كتاب الشعر لارسطاطاليس . وما قاله لا يدخل في موضوعنا إلا من الباب التاريخي . وهذا الملخص قد طبعه الأستاذ المستشرق (لاريجو) بمدينة فلورنسا بسنة ١٨٧٣ قال : (المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفق ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص ، والمحاكاة في اللفظ ، أعني الأقاويل المخيلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال ، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الأندلس)

ولا مرية في أن أعاريض الموشحات والأزجال أنسب لنظم الغنائيات من سائر بحور الشعر لحلاوة نغمها وسهولة توقيعها وتنوع قوافيها

فالغنائية تنقسم باعتبار تلحينها الى أجزاء نسردها لك دون أن نعرض لها ، لأنها ليست من شأننا ولا مما يدخل في علمنا . وهي الافتتاح ، والمقدمة ، والانشاد ، والألحان ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، والخامس ، والخورس ، والختام في نهاية كل فصل . فالافتتاح ما يسبق رفع الستار ، والمقدمة ما يهيء للعمل ، والانشاد نوع من الغناء يحل محل الحوار الكلامي دون أن يتقيد بوزن ، والثاني والثالث والرابع والخامس قطع يزدوج فيها الصوت أو يثلث أو يربع أو يخمس ، والخورس ما فوق ذلك . على أن اجتماع هذه الأجزاء ليس ضرورياً ولا جوهرياً . فالملحن يستطيع أن يغفل منها ما لا يتفق مع الرواية

ثم تنقسم الغنائية باعتبار تأليفها الى غنائية جدية ، وهي ما كان موضوعها سامياً وعملها رائعاً وأداؤها غنائياً كله . فلا تجيز الحوار النثري وإنما تستبدل به الانشاد ، وغنائية هزلية وهي ما تجيز الحوار النثري في خلال القطع الغنائية

الغنائية الجدية (L'opéra seriese)

ليس من اليسير أن تجد لهذه الغنائية تعريفاً جامعاً لتنوعها وتفرعها ، واختلاف الرأي فيها بين الفرنسيين والايطاليين ؛ فان لكلا الشعبين نظرية فيها سار عليها ودعا إليها . ولعلنا إذا ذكرنا النظريتين تستطيع أن تقف منهما على موضوع الغنائية ومداها

فالنظرية الفرنسية زعيمها (كينو) وهي منبنية على تقليد الملحمة في استعمال الخوارق والأعاجيب وتنوع المناظر وتعدد الصور ، ونقل كل ذلك إلى عين الناظر كما تنقله الملحمة إلى ذهن القارئ . فقد يكون التأليف كله مختلقاً غريباً ، ولكن في هذا الاختلاق اتفاقاً واتساقاً تنتج منهما الحقيقة : كما أن الموسيقى تظهر جمال الخوارق ، والخوارق تبين إمكان الموسيقى . فأنت في جو جديد يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ويضيف إلى جمال الخيال سحر

الطبيعة ، وذلك كان يسير في انسجام والتئام ودقة . أما العمل الروائي فواضح يسهل عقده وحله ، والحوادث يتوالد بعضها من بعض ، والأهواء رقيقة تشتد حيناً ثم ترق ، والأخلاق ساذجة ، والمناظر متنوعة ، والجاذبية قوية مؤثرة ، ولكنها تتراخى أحياناً فتخفف عن الأعصاب وترفه عن النفوس

تلك هي غنائية (كينو) ونظريته : يجمع كل ما يستطيع من الوسائل ليخلب السمع ويبهر البصر ؛ وهو لذلك يستمد موضوعاته من الأساطير والسحر ، فيملأ المسرح بالأعاجيب والصور ، ويهيئ لنفسه الانتقال من الأرض إلى السماء ومن الجنة إلى النار . مهيمناً على الطبيعة مستولياً على الوهم فاتحاً للمأساة طريق اللحمة ، ليجمع بين فضائل النوعين ، ويوفق بين مرمى القصيدتين

ومزية هذه الطريقة الخرافية أن تكفي الشاعر مؤونة التفصيلات الدقيقة التي تطلبها الحقيقة ، فان الموضوعات التاريخية تقتضي جلاء الغامض وتعليل الحوادث وتقريب البعيد وإمكان المستحيل

أما النظرية الايطالية فزعيمها (ميتا ستاز) وهي مبنية على محاكاة الطبيعة وتوخي التأثير والبلوغ بالمحزنات الفواجع إلى حد لم تبلغه المأساة . فهو يكسو الأفق بالسواد ، ويصبغ المسرح بالدم ، ويسرع بحركة العمل وهو مغرق في الاشارة والاثارة وروعة الأداء وحدة الهوى . وفضل هذه النظرية على الأولى ظاهر في قوة الأثر ودقة المواقف وجمال الحقيقة وسهولة الامكانية . لذلك عني الشعراء والموسيقيون بالتوفيق بين النظريتين والجمع بين الطريقتين ليدركوا مزايا هذه وتلك . فهم يمزجون الصور العجيبة بالرهيبة ، والمواقف الطريفة بالعنيفة ، والمناظر التي تسحر العين بالتي تخلب اللب

على أن الغنائية ليست مقصورة على الخوارق والمحزنات ، وإنما تتناول الاناقة الحضرية والحياة الريفية والخلق الفكه والهزل المضحك ، على شرط أن يتسق كل ذلك في طبيعة حية وحركة قوية وتنوع جاذب

الغنائية الهزلية (L'opéra comique)

أما الغنائية الهزلية فاسم يطلق اليوم على درامة جدية الموضوع فكهة الأسلوب ، تخلط الغناء الشعري بالحوار النثري ، وتعنى بتعقيد العمل الروائي . ومنشأ هذا النوع كان في مستهل القرن السابع عشر ، ظهر أولاً في شكل ملهاة غنائية كانت تمثل في سوقين شهيرتين : (سان جرمان) و (سان لوران) . ثم أخذ مع الزمن يقترب من الغنائية الجدية بتغليب جانب الوسيقي والغناء حتى لم يبق بينهما اليوم إلا فروق سطحية شكلية أهمها الأسلوب الفكاهي . فاطلاق هذا الاسم على الغنائية التي لانصيب للهزل فيها اطلاق غير صحيح ، لأن الغنائية إنما وضعت في الأصل للدلالة على كل عمل موسيقي ، ولا سيما العظيم الجدي منه . فاضافتهم صفة الهزل (Comique) اليها دليل على أنهم يريدون بها عملاً أقل في العظمة ، وأقرب من الهزل ، وأقبل للحوار النثري . ويؤيد هذا الرأي أن الغنائية الهزلية أو الابرا كوميك سليلة المهزلة (الفودفيل)(١) ولا يفرق بينهما إلا أن ألحان المهزلة كلها معروفة مألوفة من قبل ثم تقتبس لأوزان جديدة تؤلف للرواية . أما ألحان الغنائية الهزلية فهي مصنوعة لأوزانها خاصة ، ولذلك كان شعرها محكم الرصف بديع الوصف ، يقوم عليه الشطر الأكبر في نجاح الرواية

وعبرت الغنائية الهزلية حقبة من الدهر وهي خاضعة لسلطان المهزلة فلا تستطيع أن تتجاوز مداها ، ولا أن ترتفع عن مستواها ، وانما كانت تستعير أساليبها الحية ، وأناشيدها الطلية ، حتى جرؤ الملحنون على أن يطلبوا الى المؤلفين أن يوسعوا الدائرة القديمة ، وأقدموا هم أيضاً على ابتكار ألحان جديدة ، واقتباس بعض الثاني والثالث والأشكال من الغنائية الجدية ما دامت تتصل بها وتتعلق بسببها . فلما صارت الغنائية الهزلية فناً أدبياً

---

(١) تطلق هذه الكلمة اليوم على ملهاة صغيرة تافهة الموضوع محكمة التعقيد ، هزلية الأسلوب ، لاتتحرج من ارسال النكتة المقذعة . وقد تشتمل على بعض الأصوات الغنائية استبقاء لأثر الماضي وخصائص الأصل . فقد قالوا في بدء تكوينها إن (أوليفييه باسلين) من أهل (فير) وهو واد في (نرمانديا) نظم سنة ١٤٥٠ أغاني هجائية ذاعت في وادي فير فسميت بذلك فود فير (Vau de vire) أي (وادي فير) ثم نزحت عن منبتها ومكان نشأتها فتصحف الاسم الى (فودفيل) . وفي مستهل القرن الثامن عشر أدخلوا هذا النوع من الأغاني المقذعة في ملاه كانت تمثل في الأسواق وتسمى (ملاهي مع الفودفيل) ثم اقتصروا بعد ذلك في اسمها على الفودفيل ، وكانت حينئذ كلها شعراً يغني على أنغام معروفة من قبل لم تصنع لها خاصة حتى دخلها الحوار النثري فصارت أشبه بالغنائيه الهزلية لايميزها منها إلا الفرق الذي مر بك عند الكلام عن هذه الغنائية . ثم فعل بها الزمن ما فعل بسائر الأنواع فشذب أطرافها ، وهذب إسفافها ، حتى ردها الى التعريف الذي بدأنا به هذه الكلمة

١ - محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تمهيد

كان أفلاطون فيلسوفاً فناناً على بعد ما بين الفن والفلسفة ، فقد دون آراءه كلها فى أسلوب الحوار الذى بلغ من الدقة والجمال حداً وضعه فى أسمى مراتب الفن . ونحن إذ نتقدم الى القراء بهذه الترجمة لمحاوراته ، إنما نلتمس العفو عما قد تصاب به تلك الآيات البينات من تشويه . على أن القارىء إذا فقد جمال الأسلوب فلن تضيع منه بإذن الله دقة المعنى وأمانة النقل

وهذا الحوار الذى نترجم لك اليوم ، كتبه أفلاطون ليصور به دفاع سقراط عن نفسه يوم حاكمته بتهمة الالحاد وإفساد الشباب . ولسنا ندرى الى أى حد تطابق هذه الصورة الأفلاطونية الحقيقة الواقعة . هل احتفظ أفلاطون بألفاظ سقراط نفسها أو ما يقرب منها ؟ أم أنشأها إنشاء ليعبر بها عما كان يجب أن يكون من سقراط فى دفاعه ؟ أم هى قصة جمعت بين الطرفين ، فأثبتت ما قيل وأضافت اليه ما كان يجب أن يقال ؟ وسواء أكانت هذه أم هذه أم تلك ، فهى على كل حال تصور روح سقراط فى الحديث تصويراً دقيقاً ، وتحلل نزعته تحليلا بارعاً ، فلا يسع القارىء وهو يقرأ هذا الحوار الذى دبجته براعة أفلاطون الا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه إنما يتلو عبارة تحركت بها نفس سقراط وجرى بها لسانه ؛ فشخصيته بارزة فى كل سطر من سطوره بروزاً لا يخطئه النظر ، فأنت ترى لمحات من التهكم اللاذع الذى امتاز به سقراط فى حديثه ، وأنت تلاحظ روح التحدى جلية واضحة ، والتحدى طابع معروف فى شخصية سقراط . وسترى كذلك فى هذا الحوار تفككاً فلا تتصل أجزاؤه بصلة من منطق قوى ، فكأنما أراد أفلاطون بهذا أن يكون أميناً فى الصورة التى يقدمها عن سقراط ؛ فسقراط لم يكن فى حياته يعنى بمنطق الحديث . فهو إذا بدأ حواراً مع آخر لا يلبث أن يشتبه باستطراده من ناحية ، وبالأسئلة العرضية التى يطرحها مناقشوه أثناء الحديث من ناحية أخرى ، فيخرج الكلام آخر الأمر ، وليس فيه وحدة تربط أوله بآخره

وقد تعمد أفلاطون فى هذا الحوار أن يسوق الى القارىء أبرز ما حدث لسقراط فى حياته ليكون عنه فكرة متصلة ، وقد كان أفلاطون فى ذلك قديراً ماهراً ، حتى لا يكاد يشعر القارىء أن تلك الحوادث أضيفت إضافة مدبرة ، بل جاءت عفواً كما اقتضى منطق الحديث

يبدأ سقراط فى هذا الدفاع ، أو إن شئت تعبيراً دقيقاً فقل يبدأ أفلاطون فى دفاعه عن سقراط ، بأن قسم المتهمين الى قسمين : الرأى العام من ناحية ، وطائفة من الأشخاص النابهين من جهة أخرى ؛ ثم لخص للقضاة نقط الاتهام ، وأخذ يفندها واحدة فواحدة . وعلى الرغم من هذا فقد حكم عليه بالموت . ولما طلب اليه أن يقترح حكماً — كما جرت بذلك عادة القضاء الأثينى — لتقف المحكمة موقفاً وسطاً بين الحكمين ، أجاب فى تهكم لاذع وحكمة نادرة . وانتهى الأمر وقضى عليه بالموت

***

وعملاً روائياً حقيقياً أصبح الكاتب يضع روايته حراً من كل قيد ، ثم يدفعها الى الملحن فيختار لها فكرة موسيقية تقوى التعبير عن الغرض . وهم اليوم يميلون الى تقليل الحوار وتكثير الغناء ، ورد هذا النوع الى شكل لا يكون معه إلا درامة غنائية وملهاة غنائية لا يدخل فيها ما ليس منها حتى لا يقول فيه القائلون اليوم إنه نوع مزيف ، وحتى لا يصفه (تيوفيل جوتييه) « بأنه سفيح قبيح ، قد خلط بين وسيلتين متباينتين من وسائل التعبير ، فجعل الممثلين يسيئون الغناء بحجة أنهم ممثلون ، والمغنين يسيئون التمثيل بحجة أنهم مغنون » .

على أنه بالرغم من هذا النقد الوجيه يستحق العناية والتأييد ، لأنه سبب واصل بين ذوق العامة وذوق الخاصة ، ودرج صاعد بالجمهور الى الفن الموسيقى فيرفعه من حضيض (الفودفيل) الى أوج (الأوبرا) .

وهنا نقف القلم معتقدين أن فيما بسطناه من قواعد الفن البزازى بلاغاً للكاتب الناشىء وسداً لنقص البيان العربى فى هذا الباب .

الزيات

نص الحوار

لست أدرى أيها الأثينيون كيف وقعت من نفوسكم خُطَبُ متهمىَّ ، أما أنا فقد أحسست لكلماتهم الخلابة أثراً قوياً أنسيت معه نفسى ، وإنهم لم يقولوا من الحق شيئاً . ولشد ما دهشت إذ ساقوا فى غمر باطلهم نذيراً لكم أن تكونوا على حذر فلا تخدعكم قوة فصاحتى . يا خجلتهم مما يزعمون ! فاذا نبست ببنت شفة نهضت لكم دليلاً على عىّ لسانى وافتضح أمرهم ؛ وانهم بذلك عالمون ، ولكنهم يمارون ولا يخجلون . أم تراهم يطلقون الفصاحة على قوة الحق ؟ إذن لأشهدت أنى مصقع بليغ . . ألا ما أبعد الفرق بينى وبينهم ! فهم كما أنبأتكم لم ينطقوا كلمة صدق ولم يقولوا الا كذباً ، أما أنا فخذوا الحق منى صراحا ، ولن أصوغها عبارة منمقة كما فعلوا ، ولكنى سأسوق الحديث اليكم عفو ساعته ، ولست أشك فى أنه الحق . فلن أقف يوماً بينكم أيها الأثينيون موقف الخطيب ما دمت حياً ، فلا يرجُوَنَّ الآن أحد منى خطاباً ، ولعلى أظفر منكم بهذا الفضل : إن جاءت فى فى دفاعى كلمات قلتها من قبل ، وسمعها بعضكم فى الطريق أو عند موائد الصيارفة أو فى أى مكان آخر ، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا الحديث ، لأننى أقف — وقد نيفت على السبعين عاماً — للمرة الأولى فى ساحة القانون ، فلم آلف هذا المكان ، ولم أتعود تقاليده وطرائقه ، فانظروا الىَّ نظرَكم الى الغريب تلتمس له المعذرة لو جرى لسانه بلغة قومه ولهجة وطنه . وما أحسبنى بذلك أطلب شططاً ، فدعكم من عبارتى وقبحها ، وانظروا فى عدالة القضية وحدها ، واذا حكم منكم قاض فليحكم بالعدل ، واذا نطق متكلم فلينطق بالحق .

ولأبدأ أولاً برد اتهام الطائفة الأولى من المدعين[1] ، ثم أستطرد الى دعوى الفريق الثانى ؛ فلقد اتهمنى من قبل نفر كثير ، ولبثت دعواهم الباطلة تتردد أعواماً طوالاً ؛ وإنى لأخشاهم أكثر من هذا الرجل (أنيتس) وعصبته ، وإن كيدهم لعظيم ، ولكن أولئك الذين نهضوا اذ كنتم أطفالاً فملكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد من هؤلاء خطراً ، فهم يحدثونكم عمن يسمى سقراط أنه حكيم يسبح بفكره فى السماء ، ثم يهوى به الى الغبراء ، وانه يخلع على الباطل رداء الحق . أولئك هم من أخشى من الأعداء ، فقد أذاعوا فى الناس هذا الحديث ، وما أسرع ما يظن الدهماء أن هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة . كثيرون هم أولئك المدعون ، ودعواهم قديمة العهد ، نشروها حين كنتم فى سن الطفولة أو الشباب ألين انطباعاً . ولم يكادوا ينطقون بالدعوى حتى انطلقت تحمل عنى فى ذيلها السوء دون أن تجد لها مفنداً . وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماؤهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك الشاعر الهازل[1] الذى ساقته الظروف . وإنه لمن العسير أن أتحدث الى أشخاص هؤلاء الهجائين الذين نفذوا الى نفوسكم بما يحملون من ضغينة وحقد ، صدر فيها بعضهم عن عقيدة ، ثم ألقوا بذورها فى قلوب الآخرين ؛ فلا أستطيع أن أدعوهم الى هذا المكان لأستجيبهم ، فأنا ان دافعت الآن فانما أدافع أشباحاً ، وأستجيب حيث لا مجيب . وإنى لأرجو أن تقبلوا ما فرضته لكم من قبل بأن الأعداء صنفان : فطائفة حديثة العهد وأخرى قديمته ، وأحسبكم ترون صواب رأيى فى أن أبدأ بالرد على هذه الطائفة الأخيرة ، فدعواها أقدم عهداً وأكثر تردداً

وبعد ، فها كم دفاعى ، ولعلى أستطيع فى هذه البرهة القصيرة التى تفضلتم بها على أن أمحو شائنة السوء التى قرت عنى فى أذهانكم طوال هذا الزمن ، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان فى التوفيق خير لى ولكم ، ولعل كلماتى تصادف منكم قبولاً حسناً . فأنا عليم أنى مقدم على أمر عسير ، وانى لأقدر مهمتى حق قدرها ، فليقض الله بما يريد . وها أنذا أبدأ دفاعى طوعاً للقانون

واستهل الحديث بهذا السؤال : أى ذنب جنيت حتى حامت حولى الشبهات فاجترأ مليتس أن يرفع أمرى للقضاء ؟ ماذا يقول عنى دعاة السوء ؟ ها كم خلاصة ما يدعون : « قد أساء سقراط صنعاً ، وهو طُلَعَةٌ يصعد البصر الى السماء وما تحوى ، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى ، وهو يُلبس الباطل ثوب الحق ، ثم إنه يبث تعاليمه فى الناس » تلك هى جريرتى ، وقد شهدتم بأنفسكم فى ملهاة أرستوفان كيف اصطنع شخصاً أسماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه يستطيع أن يسير فى الهواء ، وأخذ يلغو فى موضوعات لا أزعم أنى أعرف عنها كثيراً ولا قليلاً — لست أقصد بهذا أن أسىء الى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية — ولكن شد ما يسوؤنى

(١) يقصد بها الرأى العام

(١) يقصد به أرستوفان الذى مثل سقراط فى روايته « السحاب » أشنع تمثيل

أن يتهمنى بها مليتس . أيها الأثينيون ! الحق الصراح أنى لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب ، ويشهد بصدق قولى كثير من الحضور ، فاليهم أحتكم . انطقوا إذن يا من سمعتم حديثى وأنبئوا عنى جيرانكم ، هل تحدثت فى مثل هذه الأبحاث كثيراً أو قليلاً ؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا بصدق مما يقررون

أما القول بأنى معلم أتقاضى عن التعليم أجراً فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما فى سابقه ، على أننى أمجد المعلم المأجور إن كان معلماً قديراً . فهؤلاء جورجياس الليونتى (Gorgias of Leontium) وبروديكوس الكيوسى (Prodicus of Ceos) وهبياس الالبزى (Hippias of Elis) يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بنى وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسعوا اليهم ، فلا يؤجرونهم وكفى ، بل يحمدون لهم ذلك الفضل العظيم . ولقد أتانى نبأ فيلسوف من بارا يقيم فى أثينا ، حدثنى عنه رجل صادفته ، قد بذل للسوفسطائيين مالاً طائلاً ، هو كالياس بن هيبونيكوس . ولما أنبأنى أن له ابنين سألته : لو كان ابناك يا كالياس حمارين أو بقرتين لما شق عليك أن تجد لهما مدرباً ، فما أهون أن تستخدم مدرب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال فى حدود فضيلتهما ، ولكنهما إنسانان من البشر ، فمن ذا فكرت أن يكون لهما مؤدباً ؟ أثمت من يدرك فضيلة الانسان وسياسة البشر ؟ حدثنى فلابد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والداً . فأجاب : « نعم وجدت » فسألته : من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر ؟ فأجاب هو أفينس البارى وأجره خمسة دراهم » فقلت فى نفسى : « أنعم بك يا أفينس إن كنت تملك هــذه الحكمة حقاً ، وتعلمها بمثل هذا الأجر الضئيل ، فلو كانت لدىّ لزُهيت وأخذنى الغرور ، ولكنى بحق أيها الأثينيون — لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً »

رب سائل منكم يقول : « وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إدّا ؟ فلو كنت فرداً كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث . أنبئنا إذن بعلة هذا إذ يؤلمنا أن نحكم فى غير صالحك » وإنى لأحسب هذا تحدياً دقيقاً ، وسأحاول أن أوضح لكم لم دعيت بالحكيم ، ومن أين جاءتنى الأحدوثة السيئة ، فأرجو أن تنصتوا لقولى ، ولو أن بعضكم سيظن بى الهزل ، ولكنى أعترف أننى لن أقول الا الحق خالصاً . أيها الأثينيون ! إن لدى ضرباً معيناً من ضروب الحكمة ، كان مصدر ما شاع من أمرى ، فان سألتمونى عن هذه الحكمة ما هى ؟ أجبت أنها فى مقدور البشر ، وإلى هذا الحد فأنا حكيم . أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر ، لا أستطيع أن أصفها لأننى لا أملكها ، ومن ظن أنها لدىّ فقد ظن باطلاً ، وكان أبعد ما يكون بعداً عن حقيقتى . أيها الأثينيون ! أرجو ألا تقاطعونى ولو بالغت فى القول ، فلست قائل هذا الذى أرويه لكم ، ولكنى سأنيب عنى شاهداً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتى — فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً ؟ وإن كنت أملك ، فما نوعها — وأعنى بذلك الشاهد إلـه دلفى . إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون) ، فهو صديقى منذ عهد الصبا ، وهو صديقكم منذ ظاهركم على نفى من نفيتم ثم عاد أدراجه معكم . كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور فى كل ما يعمل ، فقد ذهب الى معبد دلفى وسأل الراعية فى جرأة لتنبئه — وأعود فأرجو ألا تقاطعونى — سأل الراعية لتنبئه إن كان هناك من هو أحكم منى ، فأجابت النبيّة أن ليس بين الرجال من يفضلنى بحكمته . لقد مات شريفون ، ولكن أخاه ، وهو فى المحكمة بيننا ، يؤيد صدق ما أروى .

وفيم أسوق اليكم هـذا الخبر ؟ ذلك لأننى أريد أن أتقصى لكم علة ما ذاع عنى من سوء الذكر . لما أتانى جواب الراعية ، قلت فى نفسى : ماذا يعنى الالـه بهذا ؟ إنه لغز لم أفهم له معنى ! أنا عليم أن ليس لدى من الحكمة كثير ولا قليل ، فماذا عساه يقصد بقوله إننى أحكم الناس ؟ ومع ذلك فهو إلـه يستحيل عليه الكذب ، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته . ففكرت وأمعنت فى التفكير ، حتى انتهيت آخر الأمر الى طريقة أحقق بها القول . اعتزمت أن أبحث عمن يكون أحكم منى ، فان صادفته ، أخذت سمتى نحو الالـه لأرد عليه ما زعم ، فأقول له : « هاك رجلاً أكثر منى حكمة ، وقد زعمت أنى أحكم الناس » . لهذا قصدت الى رجل من الساسة — ولا حاجة بى الى ذكر اسمه — فقد عرف بحكمته ، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة الآتيـة : لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت فى نفسى عقيـدة لا تمحى بأنه لم يكن حكيماً حقاً ، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة ، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه فى حكمته ، وقد جاوز به الغرور شهادة

كتاب الأوراق

وخطره فى كتابة التاريخ

بقلم محمد طه الحاجرى

فى ذمة الأدباء من أهل هذه اللغــة الكريمة للأدب العربى من ناحية ، وللروح العلمية السائدة من ناحية أخرى ، دين لامعــدل لهم عن أدائه ، ولامترخص لهم فى الوفاء به ، اذ كان مرجع الأمر فيــه شخصيتهم المعنوية التى يظهرون بها ، والى كيانهم الأدبى الذى لاحياة لهم من دونه ، والى شعورهم بالروح العلمية المتغلغلة فى كل عناصر الحياة ومظاهر الوجود . ثم هو متصل فوق هذا بالقومية التى نفاخر بها ونحرص على توثيق عراها وتقوية أسبابها . ذلك هو العناية بتاريخ هذا الأدب الذى تمده خمسة عشر قرناً عناية تظهر ، فيما أحسب ، فى كتابة هــذا التاريخ ، وإقامته على أسس قوية من أساليب البحث العلمى ، ومناهج النقد الأدبى ، والتبسط فى ذلك بما يطوعه الجهد الواسع ، والنفس الممتد ، والعزمة القوية ، والروح العلميــة المتبصرة ، والرغبة المتوثبة فى إقامة كياننا المصرى على أقوى ما تفاخر به الشعوب وتعتمد عليه الأمم ، فما أحسب أن أدب أمة من الأمم بلغ من سعة المـادة ، وامتداد العمر ، ومجاراة الحياة ، ومساوقة الزمن مابلغه الأدب العربى ، ثم لا أحسب أن أدب أمة من الأمم مني بما مني به هذا الأدب من إغفال أهله أن يقيموه على أسس هذا العصر .

فتاريخ الأدب عندنا علـم حديث النشأة ، غض التكوين ، لايكاد يرجع ميلاده الى ماوراء الجامعة الأولى ، ولايكاد يثبت فى طريقه لما يحتوشه من أسباب الضعف ، ومايعوزه من عناصر الحياة ، ومايحيط به من شتى العوامل التى تثبطه وتصده وتحمل عليــه بما لايحتمله الجلد القوى بله الضعيف الواهن ، وإنما هى القوة الذاتيــة التى تمسكه ، فمن أقدس الواجبات علينا لقاءه أن نمكن له فى الحياة ، وأن نوفر له العناصر التى يقوم بها كيانه الصحيح ، وهى تتلخص فى أمرين لا بد منهما : تقرير الأسلوب العلمى ، واستجماع المادة التى يتكون منها تاريخ الأدب العربى .

أما أول الأمرين فقد كفانا مؤونته الأساتذة الأجلاء الذين شقوا لنا ذلك الطريق ، ووضعوا أمامنا معـالم البحث العلمى ، وبصرونا بمناهج النقد والتمحيص والموازنة وما الى ذلك .

أما المادة التاريخيــة فهى العنصر الأول فى كتابة التاريخ ، وكلما توفرت لدى الباحث ، واتسعت نواحيها ، وتنوعت أبوابها ، وتعددت مذاهبها ، وكثرت الأيدى التى تقدمها ، وأخذت تضرب فى شتى جهات الحياة ، وتتناول الأطراف المختلفــة ، كان المؤرخ أكثر توفراً على بحثه ، واستضاء أمامه العصر الذى يؤرخه ، فأخذ يصفه وصفاً أشبه باليقين ، ويقرر التيارات الأدبية فيه تقريراً أقرب الى الحقيقة ، بعد أن يكون قد نظر فى أجزاء هذه المادة نظر الناقد البصير ، فجعل يوازن بينها ، ويقارن بين مختلف أجزائها ، وليكن هناك ما يكون من التناقض فى الروايات ، والتضارب بين الأقوال فذلك ، فيما أحسب ، أدعى الى استبطان الحقيقة المستكنة فى ثنايا هذه الاختلافات ، وأقرب بالباحث الى ثلج الصدر وبرد اليقين .

والأدب العربى يملك من هذه الناحية ثروة طائلة بالرغم من عوادى الزمن ، والنكبات التى أصابت المكتبة العربيـــة فى مناسبات مختلفة ، ولـكنها ثروة ضائعة لا تجد من يستغلها إلا قليلاً ، إذ لم يقدر لها من ينشرها من قبورها ، ويبعث فيها الحياة التى تعرفها ، حتى يستطاع استغلالها ، وإنما هى جهود ضئيلة بالنسبة الى عظم العمل ، وجلال التبعة .

الشاهدين ، فحاولت أن أقنعه بأنه وإن يكن قد ظن فى نفسه الحكمة ، إلا أنه لم يكن بالحـكيم الحق ، فأدى به ذلك الى الغضب مني ، وشاطره فى غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث ، فغادرته قائلاً فى نفسى : إنى وإن كنت أسلم أن كلينا لا يدرى شيئاً عن الخير والجمال . فاننى أفضــل منه حالاً ، لأنه يدعى العلم وهو لا يعلم شيئاً . وأما أنا فلا أدرى ولا أزعم أننى أدرى — ولعلى بهذا أفضله قليلاً . ثم قصدت الى آخر ، وكان أعرض من سابقه دعوى فى الفلسفة ، فانتهيت معه الى النتيجة نفسها ، وعادانى هو الآخر ، وأيده فى موقفه عدد كبير

يتبع زكى نجيب محمود

ولقد تقدمنا الفرنجة في هذا السبيل حتى أخجلونا وأبهظوا عاتقنا بفضلهم ، وضربوا لنا خير الأمثال بما نشروا من كتب ، وما قاموا به عليها من عناية بتصحيحها وفهرستها ومقارنتها ، في تواضع العالم المخلص ، وهدوء الباحث المستبصر . فدلوا بهذا على روح علمية ثابتة الأساس ، ومعرفة حكيمة بطرائق البحث الصحيح .

لست الآن بصدد البحث عن جهود المستشرقين العظيمة المتوالية في سبيل الأدب العربي ، وإنما سبيلي الآن أن أتحدث عن كتاب من خيرة الكتب التي كادت تتلاشى في غمار القرون وثنايا النسيان وعوادي الاهمال ، فنشره مستشرق ناشىء ، هو المستر هيوورث دن ، وخلع عليه هذا المظهر الذي تتجلى عليه الروح العلمية في بهائها ورونقها وجلالها . ذلك هو كتاب الأوراق لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ .

والصولي إمام من خير أئمة الأدب ، وكاتب من أفضل الكتاب الذين ازدهر بهم تلك الفترة من الزمن ، وعالم ضليع غزير المادة جيد الرواية ، روى عنه أبو الفرج كثيراً في أغانيه ، وأستاذ جليل تخرج عليه كثير من رجالات ذلك العصر مثل أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، وهو من هو رجلا ، وناهيك من عالم قد ترك ثروة كبيرة من الكتب الجليلة في قيمتها الأدبية والتاريخية ، نقرأ بياناتها في كتب الفهارس ، ثم ننطوي على أنفسنا حسرة وأسفاً على ذلك الكنز الذي طاحت به الطوائح .

ولا أحسب أنه قد بقي لنا منه إلا هذا الكتاب الذي عني به المستر دن هذه العناية ، وكتاب آخر في أدب الكتاب نشره منذ عشر سنوات العلامة الأثري المرحوم علي بهجت . وكان كتاب الأوراق في حكم تلك الكتب التي لا نعلم شيئاً عن مصيرها ، لولا تلك الروح العلمية التوثبة التي حفزت ذلك الشاب العالم على اخراجه للناس في ثوب علمي جليل ، ومعاناة تحقيقه وتمحيصه ومقارنة رواياته ، فأضاف بذلك إلى المادة التاريخية لعصر بني العباس ما هو جدير أن يضيء الطريق أمام الباحث المؤرخ في كثير من مجاهل هذا العصر ومسائله الملتوية الغامضة .

وقد نجد في ترجمة الصولي كلاماً مختلف الأطراف بين مدح وقدح ، وتقدير وتشهير ، ولكنا لا نشك ، إذ نقرأ كتابه « الأوراق » أنه كان رجلاً عالماً يمثل الروح العلمية خير تمثيل ، ويضعها فوق كل اعتبار ، متثبتاً على طريقة عصره في النقد والرواية ، لا يميل مع الهوى ، ولا يذهب مع الخواطر ، ولا يقف دون النقد والمقارنة والتمحيص .

عرض في أثناء حديثه عن أحمد بن يوسف الى رواية يحدث ابن طيفور عنه بها ، وخلط فيها ، فلم يدعها الصولي تمر دون أن ينقدها بما طوع له علمه الغزير وروحه العلمية القوية ، ثم كتب هذه العبارة التي نثبتها هنا لتدل على تثبته العلمي من ناحية ، وعلى مظهر من مظاهر الروح العلمية في ذلك العصر ، من ناحية أخرى .

« وقد رأيته (يعني ابن طيفور) بالبصرة سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقدمها إلى أحمد بن علي المادرائي ، وكتبت عنه مجلسين أو ثلاثة ، فلما رأيته صحفياً لم أرعنده ما أريد تركته ، ويعز علي أن أذكر أحداً من أهل الأدب بسوء وأن أستخفه ، ولكن لابد من أن نعطي العلم حقه ، ونضع الحق موضعه »

أفرأيت إلى أي حد من الاجلال والتقدير كان نظر الرجل إلى العلم والحقيقة والأدب ؟

يمثل لنا هذا الخبر الصغير الذي ينبغي أن يرجع اليه القارىء في الكتاب صفتين من أبرز صفات الصولي وكثير من علماء ذلك العصر : وهما سعة المادة ، والتثبت في الرواية . وعلى هاتين الصفتين قامت عظمة السلف ، وعليهما يجب أن تكون الدعائم التي تقيم عليها أبحاثنا العلمية في تاريخ الأدب ، فلن تغنينا كل أساليب البحث ومناهج النقد ، عن سعة المادة وتوفر المصادر ، والتقصي فيها بكل ما يتسع له الجهد ويطوعه الامكان .

فاذا كنا نحتفي بكتاب الأوراق ، فانما ذلك لأنه صورة لتلك الشخصية العظيمة في تاريخ الأدب العربي ، ومثال من خير الأمثلة عن الطريقة الأدبية لأسلافنا في معاناة الرواية ونقدها وتمحيصها . والتوفر على الجمع والمقارنة ، ثم هو فوق هذا كله ، زيادة في المادة التاريخية ، وتوطيد لأسس البحث العلمي ، بالنسبة إلى عصر من أشد عصور الأدب العربي اختلاطاً واضطراباً ، وأغصها بالتيارات المختلفة ، والنزعات المتباينة المتشاكسة .

وهذا القسم الذي نشر من كتاب الأوراق خاص بأخبار الشعراء المعاصرين ، وقد سلك الصولي في تصنيفهم مسلكاً حسناً جديراً بالتنويه ، ذلك أنه راعى في ذلك أسرهم : فذكر أولاً

أسرة اللاحقيين ، ثم أسرة احمد بن يوسف وزير المأمون ، ثم أسرة السلمى أشجع بن عمرو . وهذا نحو جديد فى التصنيف الأدبى جدير بأن يغتبط به الذين يتتبعون الصفات الوراثية المشتركة ، والذين يرون فى الأدب صوراً لقوانين الوراثة المقررة .

وإذا كانت هذه طريقته فى عرض الشعراء ، لم يتقيد بذكر المشهورين منهم ، ولا حبس نفسه عليهم ، وقد صرح هو نفسه بهذا الاتجاه فى آخر كتابه فقال : « قد جئت بأكثر أشعار هؤلاء إذ كانوا شعراء ظرافاً كتاباً لا يعرفهم الناس ، ومن عرفهم لا يعرف أخبارهم . . . وانما أستقصى أشعار من لا يعرفون وأخبارهم » وكذلك كان الصولى ، فقد انطلق فى ذكر هؤلاء الشعراء المغمورين ، وسرد أخبارهم ورواية أقوالهم وأشعارهم ، مما هو جدير بالرواية ، حقيق أن ننعم فيه النظر ، ونستخلص منه كثيراً من الحقائق التاريخية التى قد لا تتضح فى مشاهير الشعراء ، فقد تقيد الشهرة صاحبها بكثير من القيود التقليدية ، وتنشر حوله غشاء مصنوعاً ، حتى يصبح من العصر الذى يعيش فيه ، صورة كثيرة التزوير والتمويه . على حين ينطلق الشاعر المغمور فى سبيله يصور من نفسه وعصره وبيئته ما وسعته الحرية فى التعبير والقدرة على التصوير .

ولعل كبار الشعراء هم صور من عبقرياتهم ، أكثر من أن يكونوا صوراً لعصورهم وبيئاتهم ، وما تموج به من شتى النزعات ومختلف الصور والتيارات .

فكتاب الأوراق يضع بين أيدينا إذن مصدراً عظيم الخطر من مصادر التاريخ ، ويبصرنا بكثير من الحالات التى سيطرت على الأدب فى ذلك العصر ، بما يكتبه عن أولئك الذين انطبعوا بحياتهم ، وصوروها تصويراً حراً طليقاً من قيود الشهرة .

ومن قبل عنى المفضل الضبى بجمع شعر الشعراء المقلين نخدم بذلك الاتجاه التاريخى الذى نتوجه أجل خدمة ، إذ كانت المفضليات أصدق صورة للعصر الجاهلى .

هذه ميزة شديدة الوضوح من ميزات كتاب الأوراق ، لها خطرها فيما نقصد اليه من الدراسة الأدبية . ولست أتعرض الآن لشرح هذا الوجه من الخطورة ، ولعله يتاح لنا فيما بعد أن ندرسه دراسة مفصلة تتسع لما لا يتسع له هذه الكلمة العاجلة .

ومما يستطرف ويلفت النظر فى هذا الكتاب ، أنه يظهرنا على أولية ذلك النوع من الشعر الذى يسميه الفرنسيون الشعر التعليمى La poésie didactique فى الأدب العربى ، فنحن نرى أنه قد بدأ بأبان بن عبد الحميد اللاحق ، فقد صنع قصيدة سرد فيها أحكام الصيام على نحو ما نعرفه فى منظومات العلوم. والظاهر أن أبان كان مضطلعا بهذا النوع من الشعر ، فقد نظم كذلك كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب المنطق ؛ وكان ذلك فنا طريفاً . وقد ذكر الصولى أنه عاتب البرامكة على قلة عطائهم مع خدمته لهم وموضعه منهم ، فأشار عليه الفضل أن يقول شعراً فى هجاء الطالبين، فتذمم أبان ، ثم قال قصيدة استطرفها الفضل ، وهى لا شك طريفة . فقد سلك فيها مسلكا عجباً فى الشعر ، إذ أخذ يجادل الطالبيين فى دعواهم جدلا فقهيا بحتا مستندا الى أحكام الوراثة فى الأسلام وما يقرره الشرع فى حالات الحجب والهبة وما إلى ذلك . ولما جاء بهذه الأبيات إلى الفضل قال له : ما يرد اليوم على أمير المؤمنين شىء أعجب اليه من أبياتك .

هذا تاريخ نوع من الشعر كثير الشيوع فى اللغة العربية ، على أن لهذا فيما أحسب ، بعض الدلالات الأخرى على بعض العوامل فى ذلك العصر .

وعقد الصولى فصلا عما روى فى صحة دين أبان ، وعندى أن هذه النصوص التى تروى فى هذا الصدد عظيمة الخطورة فى تحقيق المسألة الدينية فى عصر العباسيين : ذلك الأمر الذى اضطربت فيه الأقوال واشتبهت فيه الظنون ، واختلفت فيه منازع الرأى . ولا نزال فى حاجة إلى التحقيق العلمى القائم على النقول الصحيحة والنقد المنزه البصير .

وبعد فما نستقصى فى بيان قيمة كتاب الأوراق من ناحية التاريخ الأدبى ، وحسبنا أن يكون هذا الكتاب زيادة فى المادة التى ترتكز عليها أبحاثنا ، وأن يكون واضعه أبو بكر الصولى ، وهو من عرفنا ، وأن ينشر نشرا علمياً خالصاً لوجه العلم والأدب . حتى نحتفى به ، ونرحب بظهوره .

محمد طه الحاجرى

الشباب في أمريكا

حركته وتربيته وحياته السياسية

ومقارنته بالشباب في أوروبا

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

لا نستطيع أن نفهم النزعة الجديدة التي تملكت أفئدة أبناء الجيل الحديث في الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا اذا فهمنا قبل كل شيء الفوارق الرئيسية بين الحركة العامة للشباب في أوروبا ومثيلتها في أمريكا . وأول ما يلفت النظر عدم اهتمام الشباب الأمريكي اهتماماً جدياً بالروحانيات والاجتماعيات ، بينما نجد زملاءهم في أوروبا على عكس ذلك . كذلك هم لا يعرفون التكالب على الدرس بنفس النهم الذي نجده عند الشباب الأوروبيين . والواقع أن أمريكا رغم ما لها من تنوع في الآداب لا تعرف حتى الساعة ما يسمى « بثورة الشباب » كتلك التي عرفناها لشباب الألمان مثلاً لنهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين . وقد تكون التقاليد الاجتماعية التي توارثها الشباب الأمريكي عن سلفه والتي يرعاها كل الرعاية سبباً ، إذا ما أضيف إليها مركز الشباب الاقتصادي ، يحول بينه وبين تحمل عبء مسئوليات جسام .

ولكن الشباب إلى تلك التقاليد وراح يحافظ عليها فتجلت في حياته السياسية ، ثم سرعان ما انتقلت العدوى بعد ذلك إلى كل ميدان من ميادين حياة الشباب . ورسخت هذه التقاليد في النفوس بدلاً من أن يتم التعاون على مقاومتها لتتلاشى . فمثلاً بينما كان الشباب الألماني منذ ثلاثين سنة يثور على سلطة العائلة وسلطة المدرسة ولا يأبه بسلطان الدولة ولا بسلطان الكنيسة ، كان الشباب الأمريكي ينزع في نفس الوقت إلى انتهاج ما ثار عليه زميله الأوروبي ، وكان مما لابد منه أن تنبذ أمريكا آراء أوروبا وطرقها في تربية النشء وتبحث لها عن أسس جديدة ، فاهتدت إلى جعل الدراسة العلمية في المرتبة الثانية من منهج التعليم . وما هي إلا سنوات حتى استوثق رجال التربية والتعليم في أمريكا من أن النظريات والعمليات التي سار عليها زملاؤهم في أوروبا لم تعد صالحة للعالم الجديد ، فاستعاضوا عن « القوانين العامة » في علم النفس بفكرة رعاية الشباب وتهذيبه عملياً . وهم يتبعون في ذلك رأي زعيم التربية الحديثة في أمريكا المستر جون ديوي الذي تعتبر آراؤه إنجيلاً للمربين الأمريكيين . وخلاصة آرائه : أن العلم والمعرفة يجب أن ينتزعا من الحياة ، وأن لا علم إلا إذا جاء عن طريق ممارسة العمل ومزاولة الأمور العملية . وهذه الأسس هي التي يعبر عنها « بطريق الشروع » القائمة في علم النفس على « المحاولة والخطأ » . وقد يهزأ الأوروبيون بهذه النظريات العملية ، وهذا النوع من التربية . ولكنهم ينسون أن تربية النشء وفق هذه الأصول تكوّن عندهم قوة الارادة وصحة الحكم على الأشياء . ومن أهم المبادئ المعمول بها في أمريكا لتربية النشء اعتبار الشباب وفرديته في مرتبة لا تقل عن مقام العلم وعلمه . وكثيراً ما ينعي علماء التربية الأمريكيون على زملائهم في أوروبا التسرع في الحكم بأن الطفل له شخصية أقل خطراً من شخصية الرجل المكتمل الرجولة . ولكن علماء التربية الأوروبيين يقولون هم الآخرون بأن الآراء الأمريكية تحوي جرثومة تهدد نظام التربية والتعليم من أساسه ، كما أن تلك الآراء تعمل على إضعاف مركز المربي في نظر النشء وإضعاف الثقة به . ولكن الأمريكيين يقولون إن المسألة عكس ذلك تماماً . ثم إذا نظرنا إلى المدارس الأمريكية على اختلاف أنواعها ، ولاحظنا تباين الأعمار في الفصول ، حكمنا بأن النظام كما يفهمه الأوروبيون ليس له أثر ملموس في هذه المدارس . وكثيراً ما قال المربون الأوروبيون عند أول مشاهداتهم للشباب الأمريكي : « يا لها من فوضى ! » إذ يجدون الطلبة هنالك يتوجهون بكلياتهم إلى شخص الأستاذ ، أما اهتمامهم بدرسه فأمر ثانوي لديهم : ولهذا نجد بين الأساتذة والطلبة علاقة ألفة قد تبدو أشبه بالصداقة التي يضيع معها كل نظام ، ولعل السر الذي يفسر لنا تلك الألفة هو أن ٩٠٪ من مجموع المعلمين في المدارس الأولية والابتدائية والثانوية في كافة البلاد الأمريكية نساء . ولا يعوق المعلمة عملها لو أن لها زوجاً وكانت في مقتبل العمر . ثم هنالك ظاهرة غريبة أخرى قد لا نجد لها مثيلاً في أي بلد أوروبي ، تلك هي اعتبار المدرسة والكلية مزرعة يتعهد فيها المدرسون بتربية الألفة والصداقة بين كل أفراد الشباب ، ولا زالت الكليات الأمريكية برغم ما وجه إليها من نقد محافظة كل المحافظة على حياة الأخوة بين الطلاب ، مانعة كل النعم تسرب دخلاء إلى

[البقية في ذيل الصفحة التالية]

من شعر الشباب

رسالة

وردتْ وُرُودَ النافحاتِ رسالةٌ هاجتْ كمين صبابتي وغرامي
رقّافة الصفحات يعبق نشرها من طيبِ عهدٍ غابرِ الأيامِ
مِن سالفِ اللذاتِ لي في معهدٍ سلفتْ به اللذاتُ كالأحلامِ
في معهدٍ حفلٍ بأوطار الصِّبا فيه حمدتُ على البعادِ مُقامي
نَشَرتْهُ للعينِ الصحيفةُ وانجلى في الطرسِ حُسْنُ صعيده المترامي
واستَنْفتُ من بينِ السطورِ نسيمَهُ ورأيتُ باسقَ سَرْحِهِ المتسامي
وتمثّلتْ لي ساكناتُ غصونهِ غِبَّ السماءِ نَوادِيَ الأكمامِ
وذكرتُ فيه كلَّ ماضي بُكرةٍ طلعتْ تألّقُ في الضياءِ الطامي
طالعتُ فيها الشمسَ تسكبُ ضوءَها
تبْراً على الأنجادِ والأعلامِ
وعشيةٍ خشعتْ كأنَّ نسيمها . مُتوجِّسٌ من عودةِ الإظلامِ
راقبتُ فيها الليلَ من مُستشرفٍ يطغى على الأغوارِ والآطامِ
إني لأهوى فيه كلَّ طريقةٍ حاولتُها وهَمامةٍ ومرامِ
وأُحبُّ أيّاماً به ولياليا موصولةَ الألطافِ بالأنعامِ
وأُحبُّ أشعاراً نظمتُ عقودها في ذلك الوادي النضيرِ النامي
ما زلتُ أذكُرُ كلما رجَّعتُها أفُقاً جرى مِن سحرهِ إلهامي
من مائهِ الرقراقِ أو أزهارهِ قد صُغتُها أو فَجْرِهِ البسّامِ
قد كان حَفْلاً بالقوافي جوُّهُ في حالتيهِ : الصحوِ والإرزامِ
ما ازدادَ إلاّ فتنةً وملاحةً لشُروقِ شمسٍ أو هُتُونِ غمامِ
يهفو لذكراه الفؤادُ إذا جرتْ وتثور أشواقي له وهيامي
ويحيّهُ مني السّلامُ وإن أنلْ أقصى الأماني جئتُه وسلامي

فخري أبو السعود

حظيرة الشباب ، وحتى في المدارس الابتدائية يتدرب الأطفال على معيشة أخوية كاملة المظهر ، لايعني فيها باتباع طريقة شحن الذهن بالعلوم

والواقع أن المثل الأعلى وطابع التربية عند الأمريكيين هو جعل التعليم المثالي عملياً ووطنياً

ابراهيم ابراهيم يوسف

تاجرة!!

دعته الى العش عصفورة بتغريدها المطلق الساحر
شكت قبله وحشة الانفراد على ذلك الفنَن الزاهر
وطول المقام بلا صاحب تفيء الى جنحه القادر
يشاطرها واجبات الحياة ويحمل من عبئها الوافر
ويمنحها عائدات الوداد وتمنحه جذوة الشاعر
تفيض حناناً الى قربه ويسعد في حبها القاسر

***

قضى زمناً شادياً لاهياً بأحلامه هادىء الخاطر
يروح الى الأيك جم النشاط فينعم في ظله الناضر
وينهل من مائه المستطاب ويستاف من عرفه العاطر

***

دعاه الصبا ولباناته فلبى نداء الصبا الغامر
وفارق أحلامه الساحرات الى صرحها الوارف العامر
الى حيث يقطف آماله ثماراً ويجني جَنى الصابر
إلى حيث يملأ ما قد خلا من القلب في الزمن الغابر

***

فلما أتاها رأى أنها تهيب بذي الثروة الكاثر
وقد جعلت نفسها سلعةً كسلعة صاحبنا التاجر
فهذا يسوم وذاك يزيد وذا يتقي صفقة الخاسر
فعاد الى أيكه نادبا بذلك من جده العاثر
إذا ما الزواج غدا سلعة فأنت على تركه عاذري

جنين — فلسطين ع ١٠

عرسٌ في مأتم

واعجبَا للمرءِ في جَهْلِهِ وهو أخو اللُّبِّ شقيقُ النُّهى
يُمْعِنُ في غفلتهِ حالماً ويحسبُ الضلةَ كلَّ المدى
يطوي شقاء العمرِ في سكرةٍ نشوانَ يُغريه رفيفُ الرُّؤى
وهمانَ كلَّ العمرِ ما إن يعي سرَّ الدُّنى . يا بؤسَه لو وعى !
يا سرَّه ! أيةُ أُلعوبةٍ هيّنةٍ في كفِّ هذي الدُّنى

وسَرَّ هذا الكون من شاعرٍ — مُنْتَفِجِ اللفظ غريب اللُّغَى

* * *

شَيَّعْتُ بالأمس زُفاتِ الصِّبا — في لَوْعةِ الثُّكْلِ ومُرِّ الجوى

يَقولُ لي صَحْبِيَ في فَرْحَةٍ — هَوِّنْ على نفسك بعضَ الأسى

* * *

لله قَلْبُ المرء مِنْ غامضٍ — يُحيِّرُ اللُّبَّ ويُعْيي الحِجى

يَبْكي لما يُضْحِكُ حيناً وقَدْ — يُضحكُهُ ما يَستفِزُّ البُكا

تراه كالدَّمْعِ همى رِقَّةً — طَوْراً وطَوْراً كحَرونِ الصَّفا

* * *

هذا الشبابُ الجَهْمُ ما عندَهُ ؟ — أثَمَّ مِنْ بارقةٍ تُرْتجى

صحراؤهُ مُرْمِضَةٌ رَحْبَةٌ — وكلُّ شيءٍ موحشٌ في الفلا

لا بُلبُلٌ يُطْرِبُ إمّا شدا — ولا رُبى يَعْبَقُ فيها الشَّذى

أقطعُ وحْدي عَرْضَها راكباً — صَهْوَةَ آمالي ، أسيرَ القضا

أضْرِبُ في آفاقِها حائراً — أجْري وما لِلجَرْيِ من مُنْتَهى

أخْبُّ لا مُؤنسَ في وَحْدتي — تِلكَ ولا من سامرٍ في الدُّجى

ظمآن ! إنْ آلٌ بدا مرّةً — بَذَلْتُ خَلْفَ الآلِ كلَّ القوى

يَحِفُّ بي مِنْ أنْسُرٍ مَوْكِبٌ — يَرْقُبُ أنْ يأتي على الرَّدى

ترى أأجْتو سالماً ؟ أم ترى — أهوي صَريعاً جاهداً للثرى

* * *

وفِتْيَةٍ هَمُّهُمُ مَلْعَبٌ — وكلُّهم كالزَّهرِ غَضُّ الصِّبا

ضَجِيجُهُمْ العَـــذْبُ فَتَّانَةٌ — كما يَضُمُّ الدَّوحُ سِرْبَ القَطا

مثلَ الظِّبا في مَرَحٍ دائمٍ — يَحيونَ في أحْلامِهِم والمُنى

يا فَرْحَةَ الأطفالِ ! لَوْ أنَّها — تَدومُ للإنسانِ طُولَ المَدى

يأتي عليها الدهرُ مُسْتأسِداً — يُشْهِرُ غَضْبانَ نُيُوبَ الأذى

* * *

يا رَحْمَةَ الله لِعَهْدِ الصِّبا — مِنْ حُلُمٍ ما رفَّ حتى اختفى

* * *

تَقولُ لي النَّفْسُ وقد هالَنا — أنْ تَجِدَ العَهْدَ الحبيبَ انطوى

أهَكذا الأيّامُ مجنونَةٌ — مُسْرِعَةٌ في سيرِها والسُّرى ؟!

دمشق — أمجد الطرابلسي

غيرة . . .

ذهبتُ كي أوقظه — من غفوة لم تنجل

فكان في ضجعته — طفلاً من الهمِّ خَلي

عليه من شرخ الصبا — أبهى الثياب والحلي

بل كان مثل مَلَكٍ — سمح تدانى من عل

وقد وجدتُ وجهه — في النوم في تهلل

ما باله منشرحاً — كأنه في غزل ؟

بِمَن تراه يحتفي — في نومه وينجلي ؟

عندئذ ألفيتني — غيرانَ قلبي يصطلي

فلم أدعه ناعماً — في نومه المسترسل

بل هبَّ مذعوراً على — عواصف من قُبَلي

كرمة ابن هانئ — حسين شوقي

لونجفـــلو

الشاعر الأمريكي الملهم

بقلم مأمون اباسي

لاشك أن « هنرى وودسورثو لونجفلو » الشاعر الأميركى النابه غنى عن التعريف الى قراء الانجليزية ، وأن قصته الشعرية « ايفانجلين» تعد فى طليعة الآثار الأدبية الخالدة التى خلفها ، وخدمة لمن لم يقرأوا هذا الشاعر العبقرى رأينا أن نكتب هذه النبذة عنه فنقدم لهم بذلك أحد الشعراء العالميين الذين يقدسهم الشعب الأميركى

***

ولد « لونجفلو » فى ٢٧ فبراير فى سنة ١٨٠٧ فى مدينة « بورتلاند » فى ولاية « مين » وقضى طفولته وصباه فى بيت واقع فى شارع « الكونجرس » ما زال الى الآن محفوظاً على حاله الأولى عند ما كان يعيش فيه الشاعر العظيم . ويحج الى ذلك البيت آلاف من الناس الذين يذهبون الى « بورتلاند » فى كل صيف ، ويدخلون اليه للتفرج على كل غرفة من غرفه ، وعلى مطبخه الذى ما زالت الأوانى الثقيلة مبعثرة على مواقده منذ مائة عام ونيف . ثم يصعدون الى غرفة فى الدور الثالث ليروا السرير الخشبى الذى كان ينام عليه « لونجفلو » ويطلوا من النافذة التى كان يرى منها المنارة الموصوفين فى إحدى قصائده

وكانت « بورتلاند» مدينة موافقة لفتى له روح « لونجفلو» الحساسة الرقيقة ، إذ كانت شوارعها الطويلة المظللة بالأشجار الوارفة ، وأحراجها المكتظة ، وشاطئها الشعرى الهادىء ميداناً خصباً لخياله الواسع

كان «لونجفلو» فى السادسة من عمره عندما عاد من المدرسة يوماً وناول والده شهادة — لم تزل محفوظة للآن — كتبت فيها معلمته بأنه تلميذ مجتهد وأخلاقه قويمة . وبعد ذلك بسبعة أعوام عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة يصف فيها إحدى المواقع المشهورة بين الأميركيين والجنود الحمر . وكان على ثقة تامة بأنها جديرة بالنشر ، فاستجمع شجاعته ورماها فى صندوق إحدى الجرائد ، ولكن رئيس تحرير تلك الجريدة لم يوافقه على رأيه فكان نصيبها سلة المهملات . فما كان من الشاعر الصغير ، وقد جرحت كبرياؤه ، إلا أن أرسل القصيدة الى جريدة منافسة فنشرتها . وقد قال بعد سنين عديدة بأن الشعور الذى استولى عليه عند ما رأى أول شعر له مطبوعاً لم يعاوده بعد ذلك لدى نشر أى شعر آخر

وكانت حياته المدرسية بعد ذلك نجاحا مضطرداً وتفوقاً يثير الاعجاب . وعند ما أتم علومه فى جامعة « بودوان » راح يلتمس من والده إرساله لقضاء سنة فى جامعة « هارفارد » واعترف له عما يجول بخاطره من آمال قائلاً : « الحقيقة يا والدى هى أننى أطمع فى مستقبل أدبى حافل . إن نفسى لتتحرق شوقاً الى ذلك » ولكن والده نصحه بأن يفكر فى صنعة تكفل له عيشة غير صنعة الأدب . وأرغم الشاب على النزول على إرادة والده والعمل بنصيحته ، فدخل كلية الحقوق . ولكن أحد المفتشين سمعه مرة يلقى ترجمة لمقطوعة من أصعب أشعار « هوراس » فأعجب به ، وعند ما كانت الادارة تفكر فى إدخال فرع جديد للغات الحديثة فى برنامج الجامعة وقع اختيار ولاة الأمر على « لونجفلو » ليكون أستاذاً لذلك الفرع ، ولما يتخط عامه التاسع عشر ، ولكنهم اشترطوا عليه أن يمضى ثلاث سنوات فى أوربا فيدرس لغاتها ثم يعود . ووافق والده على تزويده بالمال الكافى للقيام برحلته ، وأبحر الأستاذ الشاب الى أوربا بقلب مفعم حياة وأملاً ، فقضى ثلاث سنوات متنقلاً بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا واسبانيا وانجلترا ، فدرس لغاتها وأحوال أهلها وطرق تفكيرهم ، ثم عاد ليقوم بأعباء منصبه بنشاط وحماس ، ويتقاضى تسعمائة دولار كل شهر (وهذا المبلغ كان يعد ثروة فى ذلك الحين)

لم يكن تدريسه فى جامعة « بودوان » وإدارة مكتبتها ليعوق « لونجفلو » عن الكتابة شعراً ونثراً ، فواصل جهوده فى النظم والتأليف ، ولكن كتاباته اقتصرت الى حد ما على الموضوعات التى كان يدرسها

وثبت اسم الشاعر فى عالم الشهرة حتى أن إدارة جامعة « هارفارد » طلبت اليه أن يتولى رياسة فرعها للغات الحديثة عند ما استقال أستاذها . فقرر « لونجفلو » القيام برحلة ثانية الى أوربا استزادة فى درس اللغات والآداب . وعندما كان فى هولندة

وصلة في امرأته فواصل أبحاثه ودروسه بقلب مثقل بالهم والحزن

وهنالك نادرة تحكي عنه عند ما عاد من أوروبا ليتولى عمله في «هارفارد» ، وكان في الثلاثين من عمره ، ولكن هيئته لم تكن لتدل على ذلك ، فذهب الى « بنسيون » ليستأجر غرفة فيه ، فنظرت اليه صاحبة « البنسيون » من رأسه الى قدمه وقالت له : « أنا لا أقبل تلامذة عندي » ولكنه قال لها « لست تلميذاً » . أنا الأستاذ «لونجفلو» . فما كان من السيدة إلا أن قالت له وهي تفتح الباب على مصراعيه : « إذا كنت مؤلف « وراء البحار » فتفضل على الرحب والسعة » — « ووراء البحار » هو الكتاب الذي وضعه أثر رحلته الأولى الى أوروبا ، ووصف فيه تلك السلسلة من الأسفار في بلدانها — وقادته السيدة الى غرفة في الزاوية الشرقية في منزلها قائلة « كانت هذه غرفة الجنرال وشنجطن ويمكنك أن تنزل فيها . » وبقيت تلك الغرفة مسكنه طوال التسع عشرة سنة التي قضاها في « هارفارد »

وفي سنة ١٨٤٢ قام برحلته الثالثة الى القارة الأوربية . وبعد ذلك بسنة تزوج مرة ثانية وقضى ثماني عشرة سنة في هدوء بين أطفاله وعائلته وأصحابه والقصائد التي كان ينظمها تترى

***

دعى الكاتب الأمريكي المعروف « ناثانيال هوثورن » مرة الى الغداء على مائدة « لونجفلو » مع صديق للأول . ودار الحديث على الغداء حول قصة جرت وقائعها بين «نوفاسكوتيا» — وهي شبه جزيرة ملحقة بكندا — والولايات الأمريكية الشرقية . فقال صديق «هوثورن» مخاطباً «لونجفلو» : «أنا أجرب أن أقنع «هوثورن» بكتابة قصة عن الحادثة ، ولكنه لا يرى فيها فكرة لقصة »

فسأله «لونجفلو» أن يسرد على مسامعه تلك الحادثة علّه يجد فيها المواد لقصيدة أو أنشودة

ولخص له الصـــديق الحادث بقوله : « كانت مقاطعة « نوفاسكوتيا » التي كان يسميها الفرنسيون « أكادى » تنتقل من أيدي الفرنسيين الى الانجليز ثم يسترجعها الفرنسيون ، وهكذا الى سنة ١٧١٣ ، إذ انتقلت الى الإنجليز بموجب معاهدة «أوترخت» ، وهي باقيـة تحت سلطتهم الى يومنا هذا . وكان يغلب على سكانها الدم الفرنسي . فنشأت عداوة بين المنصرين الإنجليزي والفرنسي ، أدت الى منازعات ومناوشات دائمة .

وتفاقمت الحال في شبه الجزيرة حتى أصبح من الصعب جداً على الحكومة تهدئتها ، فاستنبطت حيلة لم تجد أنفع منها في تلك الأحوال ، وهي نقل «الأكاديين» الى جهات أخرى من أمريكا الشمالية حيث لا يتيسر لهم الأجتماع بالسكان الانجليز . وكانت الطريقة التي نقل بواسطتها أولئك المساكين غاية في الغلظة والفظاظة . طلب الحاكم الى جميع الرجال والفتيان الذين تزيد سنهم على العشر سنوات أن يجتمعوا في الكنيسة ، لأنه سيذيع عليهم أوامر هامة من السلطة . واجتمع الرجال والفتيان ، وهم يتساءلون عما أوجب حشدهم بتلك الطريقة ، وما أن دخلوا الكنيسة حتى حاصرتهم الجنود من الخارج ، وألقى الكاهن على مسامعهم الأمر الرهيب بصوت ملأه حنواً ورأفة . وفي مدة قصيرة كانت السفن حاضرة على الشواطىء ، فحشد فيها السكان بطريقة عسكرية قاسية كان من نتائجها أن تفرقت أسر كثيرة ، وأضاع أفرادها بعضهم بعضاً

وكان بين الذين نقلوا الى الولايات الشرقية فتى وصبية كان الكاهن قد عقد قرانهما في ذلك الصباح فقط . فأضاع أحدهما الآخر ، وبقيت « ايفانجلين » تجوب السهول والقفار وتقطع الأنهار ، وتنام الليالي على الطوى كل حياتها باحثة عن « جابريال » الى أن انخرطت في سلك الممرضات ، بعد أن قطعت الأمل من وجوده ، وإذا بها يوماً تلتقى به بين المرضى ، فعرفته رغم التغير العظيم الذي طرأ عليه . وكانت صدمة عنيفة أودت بحياته لضعفه ، وأودت بحياتها هي لسرورها وحزنها المتعاقبين

وما انتهى الصديق من سرد قصته حتى التفت « لونجفلو » الى « هوثورن » قائلاً : « أتسمح لي بألا تكتب شيئاً عن هذه الحادثة حتى انتهى من نظم قصيدتي ؟ » ووعد « هوثورن » وبدأ « لونجفلو » في نظم القصيدة التي خلد فيها بطلي ذلك الحادث ، تخليداً بدورها ، وجعلت « ايفانجلين » اسمه يطبع بحروف كبيرة على صفحات الجرائد ، وتتوارد عليه رسائل الأعجاب تترى

ومن الغريب أن «لونجفلو» لم ير قط مشاهد قصيدته ، مع أن الوصف فيها كان مطابقاً للحقيقة كأشهد الذين سكنوا تلك الأمكنة

وقد اقتبست من قصة « ايفانجلين » رواية سينمائية أخرجت في عهد السينما الصامتة ، وقامت بالدور الأول فيها الممثلة المكسيكية الفاتنة « دولوريس دلريو »

بيروت مأمون اياسي



لمحة في تاريخ الرياضيات

بقلم محمد المبارك

بكالوريوس في العلوم

اجتازت العلوم الرياضية كغيرها من العلوم أدواراً ثلاثة: دوراً إلهياً théologique ، ودوراً تجريبياً عملياً ، ودوراً نظرياً مجرداً

فكانت فكرة القوة الميكانيكية فكرة إلهية تعزى الى الآلهة في جميع حالاتها في تلك الأزمان التي كانت تنسب فيها جميع الحوادث الى الآلهة المتعددة حينئذ بصورة مباشرة ، وكذلك كانت الأشكال الهندسية مقدسة ، وللأعداد خواص يعتقد بتأثيرها، ومع ذلك فقد أخذت الحقائق الرياضية تتولد تدريجاً بالحدس مستمدة من العمل والتجربة اللذين هما مصدران من مصادر الالهام ، وينبوعان يستقي منهما العقل البشري أفكاره في كل زمان . وعلى هذا النحو اكتشف كثير من النظريات والحقائق الرياضية ، كنظرية مساواة مربع الوتر لمربعي الضلعين القائمين في المثلث القائم

وكثيراً ما أدت أغراض عملية الى حقائق نظرية كانت لها خطورة في نشوء العلم وتطوره ؛ فعملية المساحة عند قدماء المصريين أدت الى اكتشاف كثير من الحقائق الرياضية . كما أن الفينيقيين اضطروا الى الحساب استعانة به على أمر تجارتهم ، وكذلك لجأ إليه الكلدانيون لمزاولتهم الفلك والتنجيم

على أن أكثر الأمور العملية كانت تشوبها أمور دينية ، فعملية المساحة عند المصريين كانت مهمة دينية يقام لها محفل يحضره الملك . ولا يخفى كذلك أن الفلك عند الكلدانيين لم يكن منفصلا عن التنجيم . فبسبب هذه العوامل اكتشفت بضع قواعد عملية ، لم تصل الى درجة يؤبه لها من اليقين العلمي ، وكثيراً ما كانت تقريبية غير مضبوطة ، عرفت بفضل التجربة — ولا أعني بالتجربة في كل ما تقدم القيام بعمل يقصد منه اكتشاف قضية علمية أو إثباتها كما يفهم منها اليوم ، بل أريد منها ما يصادفه الانسان من المشاهدات والملاحظات أثناء القيام بأعماله الحيوية — فكانت الهندسة في تلك العصور الغابرة عبارة عن مجموع طرق لا رابطة بينها لحل المسائل العملية التي تستوجبها الحياة آنئذ ، كمعرفة كون كل مثلث تتناسب أضلاعه فيما بينها كتناسب الأعداد: ٣ ، ٤ ، ٥ قائم الزاوية . فبإنشاء هذا المثلث يمكن الحصول على مستقيمين متعامدين . هذا وإن كثيرا من تلك القواعد تقريبي كما قلنا ليس له قيمة علمية ؛ مثال ذلك أن المصريين كانوا إذا أرادوا مسح[1] شكل رباعي ضربوا نصف مجموع ضلعين متقابلين منه في نصف مجموع الآخرين ، مع أن هذا العمل لا يصح إلا في المربع والمستطيل ، وكذا إذا أرادوا معرفة مساحة المثلث أخذوا نصف جداء[2] أكبر أضلاعه في أصغرها

وأما البرهان على تلك القواعد العملية فلم يروا في أنفسهم حاجة اليه ، واكتفوا بالمشاهدة الحسية ، ثم أخذوا بعد ذلك يبرهنون على المسائل ببراهين تجريبية تستند على الواقع ، لا على المحاكمة المنطقية ، أو على تمهيدات يقدمونها دون أن يبرهنوا عليها كأنها بديهية بنفسها ، وقد بقيت طريقة البرهان مدة طويلة على هذه الحال

وأما الحساب فأحرى أن يكون في صبغة عملية بعيداً عن الصبغة العلمية ، إذ هو أكثر تجريداً من الهندسة ، ولذا لم يتم منه حينئذ إلا ما مست اليه الحاجة في الحياة من القواعد البسيطة جداً التي تكاد لا تستحق أن يطلق عليها اسم قواعد إلا بالاضافة الى عصرها ؛ فكان المصريون إذا أرادوا ضرب عدد في ثلاثة أضافوه الى ضعفه ، أو في سبعة أضافوه الى ضعفه ، ثم

(١) مسح الأرض يمسحها مسحا ومساحة قاسها وتعرف مقدار سطحها

(٢) الجداء حاصل الضرب تقول ثلاثة في ثلاثة جداؤها تسعة

ضعفوا الحاصل وأضافوا العدد إليه ، كما أن القسمة كانت بالطرح المتوالي ، فلم يكن لهذه العمليات قواعد نظرية

هذا مجمل حال الرياضيات في العصور القديمة ، فلنبحث الآن بالتفصيل عما عرض لكل علم منها من الأطوار المتباينة من حين نشوئها حتى بلوغها تلك الدرجة العالية التي وصلت اليها في العصور الحديثة ، ملاحظين في هذا البحث تقسيم العلوم الرياضية الى ثلاثة أقسام .

(١) الرياضيات المشخصة ، وتشمل الهندسة والميكانيك

(٢) الرياضيات المجردة ، وهي على قسمين

(ا) ما يبحث في الكم المنفصل ويشمل علم العدد والجبر

(ب) ما يبحث في الكم المتصل ويشمل الهندسة التحليلية وحساب التوابع fonctions وحساب اللانهايات calcul infinitesimal

(٣) الرياضيات التطبيقية وتشمل المثلثات والهندسة الوصفية géometrie descriptive وحساب الاحتمالات

ونقتصر في بحثنا على أهم فروع الرياضيات تاركين البحث فيما هو في الحقيقة ملحق بهذه الفروع المهمة ومشتق منها ، ومبتدئين بأقسام الرياضيات المشخصة ، إذ هي أقدم في الظهور وأسرع في التقدم .

(١) الرياضيات المشخصة :

الهندسة : إن ما تركه اليونان من الآثار في هذا العلم يدلنا على أنهم أول من صاغ الهندسة في قالب علمي ، فقد أخذت طريقة البرهان في عهدهم شكلاً عقلياً مجرداً . وربما كان فيثاغورس (٥٥٠ ق . م) أول من أقام البراهين العقلية وحررها من صبغتها العملية التجريبية القديمة . وإليه وإلى تلاميذه يرجع الفضل في أكثر مسائل كتاب الأصول لأقليدس ، والنظرية المنسوبة إليه في المثلث القائم مشهورة ، ولا يعلم على التحقيق كيف كان برهانه عليها . وأما أقليدس (٢٨٠ق.م) فقد حرر الهندسة ، ونظم نظرياتها ، وهذب براهينها . وكان كتابه إلى ما قبل عهد النهضة الأخيرة أجمع كتاب في هذا العلم ، وقد رتبه على الطريقة الاستنتاجية . قال أبو نصر الفارابي في « إحصاء العلوم » : « والنظر فيها — يعني الهندسة — على طريقين : طريق التحليل وطريق التركيب ، والأقدمون من أهل هذا العلم كانوا يجمعون في كتبهم بين الطريقين ، إلا أقليدس فإنه نظم ما في كتابه على طريق التركيب وحده » ويظهر أن أقليدس لم يكن مؤلفاً لكتاب الأصول ، وإنما كان محرراً ومهذباً .

وعلى هذا القول الفيلسوف يعقوب الكندي والفيلسوف اليوناني دِيَدُوخس برقلس Proclus . وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية جماعة كثيرون منهم أبو الوفاء محمد بن محمد البوزجاني وثابت بن قرة ، وحرره أيضاً جماعة تصرفوا فيه إيجازاً وضبطاً وإيضاحاً وبسطاً ، والأشهر مما حرروه تحرير العلامة نصير الدين محمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهو أحسن تحرير له في العربية[1] وهو مطبوع طبعاً لا بأس به ، يتألف من خمس عشرة مقالة ، ويحتوى على ٤٦٨ نظرية في الهندسة المسطحة والمجسمة ، ونظريات الحساب مطبقة على الأشكال الهندسية ، كل ذلك مما لا يختلف كثيراً عما يقرأ في المدارس الثانوية اليوم لا في الكمية ولا في الكيفية . وبلغ عدد من اشتغل في هذا الكتاب من المسلمين من ناقل ومحرر وشارح ومختصر أكثر من خمسة وعشرين عالماً

وقد ألف المسلمون كثيراً في الهندسة ، ونقلوا عن اليونانية كثيراً من كتبها ، وزادوا كثيراً من النظريات ، وبرهنوا على كثير من القضايا التي لم يبرهن عليها في عهد اليونان . فقد ألف محمد بن الحسن بن الهيثم خمسة وعشرين كتاباً في الرياضيات[2] منها رسالة في برهان الشكل الذي قدمه أرخميدس في قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه . وكتاب في تحليل المسائل الهندسية وشرح لأصول أقليدس وغيرها مما هو مذكور في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ج : ٢ ص : ٩٠)

وقد حفظت العربية بعض كتب اليونان الهندسية التي لم يبق إلا ترجمتها العربية مثل كتاب الكرات لمنالاوس Menelaus والخلاصة أن الهندسة وصلت في عهد اليونان ثم في عهد العرب إلى درجة من التجريد النظري لا يستهان بها

الميكانيك : نشأ علم الميكانيك بالتدريج من الأمور العملية ، وقد درس أريسطو بعض مسائله ، ولكن بصورة عملية مغلوطة

(١) أنظر ترجمة الكتاب وذكر مترجميه وشراحه ومختصريه في الجزء الأول من كشف الظنون ص ١٣٠

(٢) وألف في الطبيعيات والالهيات أربعة وأربعين كتاباً بحسب ما قال هو عن نفسه في حياته ، ونقل قوله صاحب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، وعدد تلك المؤلفات ، وفيها ما يدل عنوانه على نفاسة موضوعه وخطورة شأنه لو أنه وجد بين أيدينا اليوم

أحياناً . وأرخميدس أول من أسس أركان الميكانيك النظرى ، ولكنه كان يعد النظر فى الآلات التى يستعان بها على الحياة المادية صناعة خسيسة يترفع العلم عن البحث فيها . وكان العرب يسمون هذا العلم علم الحيل ، قال الفارابى فى تعريفه « إنه يبحث فى مطابقة جميع ما يبرهن وجوده فى التعاليم — أى العلوم الرياضية — على الأجسام الطبيعية »

ولم يصل هذا العلم عند اليونان والعرب إلى درجة تذكر ، فقد كان علما عملياً ، ولم يتم تأسيسه إلا فى العصور المتأخرة ، ويرجع الفضل فى تقدمه الأخير إلى سيمون ستيفن Simon Stévin وديكارت من علماء القرن السابع عشر ، فهما اللذان فكرا فى تمثيل القوة بشعاع هندسى ، ودراسة مبحث القوى بصورة هندسية مما أدى إلى تطور عظيم فى هذا العلم . ثم توسع بعد ذلك فى هذه الأبحاث لاجرانج Lagrange فى كتابه الميكانيك التحليلى سنة ١٧٨٧

ولم يكن تطور علم الميكانيك واحداً فى جميع أقسامه ، فقد درس أرخميدس توازن القوى ، وتأخر مبحث الحركة والقوى المسببة لها (dynamique) حتى درسه غليلو سنة ١٦٣٨ ، ومبحث الحركة مستقلة عن القوة cinématique حتى درسه أمبير Ampère سنة ١٨٣٤ ، ويلاحظ أن تطور هذا العلم كان متصاعد التعميم . فبحث توازن القوى أخص من مبحث الحركة والقوى ، كما أن هذا أخص من مبحث الحركة

(٣) الرياضيات المجردة :

علم العدد arithmologie : وهو أكثر العلوم الرياضية تجريداً ، ولذلك كان أبطأها ترقياً وتطوراً . ففكرة العدد التى هى أساس هذا العلم لم تستقر إلا بعد تطورات طويلة تقلبت فيها البشرية . فالانسان فى حالته الابتدائية لا يدرك منها سوى الوحدة والكثرة ، فهو يعلم الواحد والأثنين والكثير ، ولا يفرق بين العدد والمعدود ، ولربما اختلفت أسماء الأعداد باختلاف معدوداتها ، إذ ليس للعدد المجرد مفهوم عنده ، ولذلك يستعين بأصابعه وكثير من أعضائه أو بالحصى والأحجار فى التعداد ، ومن ثمة كان اعتبار العشرة والعشرين أساساً فى الترقيم بحسب أصابع اليدين أو أصابع اليدين والرجلين عند الأقوام الحفاة الأقدام

وكان اليونان يفرقون بين الحساب العملى والحساب النظرى . ومع ذلك فقد كان علم الحساب عندهم يبحث عما للأعداد من الخواص الغريبة مما نقل منه كثير الى العربية ، ولا أعنى بالخواص الغريبة هنا السحرية ولكن العملية ، كمساواة كل عدد لنصف حاشيتيه ، أى العدد الذى قبله والعدد الذى بعده ، وكالخواص التى يذكرونها لهذه الأعداد (وهى سلسلة هندسية أساسها الأثنان ومبدؤها الواحد) : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ من أنك إذا جمعت الأعداد من الواحد الى أى عدد منها يكون الحاصل أنقص من العدد الذى انتهيت اليه بواحد ، فلو جمعت الواحد والأثنين والأربعة بلغت سبعة ، وهى أقل من الثمانية بواحد ، ويسمون كل عدد من هذه السلسلة (ما عدا الواحد طبعا) زوج الزوج ، وهو الذى اذا قسمته على اثنين بصورة متوالية تنتهى الى الواحد

وقد تأخر هذا العلم لأسباب ، منها فقدان أصول حسنة للتعداد عند اليونان ، فقد كانت طريقتهم فى كتابة الأعداد صعبة المسلك يتعسر بواسطتها إجراء العمليات الحسابية ، وهى الطريقة التى يستعملها الغربيون اليوم فى بعض المواضع ويسمون أرقامها الأرقام الرومانية chiffres romains وهى هذه I ، V ، X ، L ، C ، D ، M ، ويقابلها بالعربية : ١ ، ٥ ، ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ٥٠٠ ، ١٠٠٠ .

ومن أسباب تأخرهم أنهم كانوا يسلكون فى إثبات المسائل العددية طريقا هندسية ، وعلى هذا سار أقليدس فى أصوله ، فلم يفصل العدد عن المقادير الهندسية . ومنها أيضاً فقدان الأشارات والرموز فى العمليات الحسابية . والخطوة العظيمة التى خطاها هذا العلم هى أصول التعداد على أساس العشرة . ولذلك كان من أعظم مآثر المسلمين فى الرياضيات نقل الحساب الهندى والأرقام الهندية من الهند الى سائر نواحى العالم . وهم يسمونها أرقاماً هندية ، لأنهم نقلوها عن الهنود ، والغربيون يسمونها عربية لأنهم نقلوها عن العرب . وأول من أخذ تلك الأرقام عن الهنود واستعملها فى مؤلفاته محمد بن موسى الخوارزمى (فى القرن التاسع للميلاد)

قال الزوزنى فى كتابه تاريخ الحكماء[1] : « ومما وصل الينا من علومهم — يعنى الهند — حساب العدد الذى بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى وهو أوجز حساب وأخصره ، وأقربه

(١) ص ٣٦٦ — ٣٦٧ طبع ليبسك وهو مختصر كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى

تناولاً وأبينها مأخذاً ، يشهد للهند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار والاختراع » ومن اسمه اشتق الغربيون لفظة algorithme التي كانت تدل على الطريقة العشرية في الحساب ، وقد مزج الخوارزمي بين ما تمكن من الوصول اليه من أصول الحساب عند الهنود وأصول الحساب عند اليونان ، واستخرج من ذلك الحساب والجبر العربي ، وهو أول من ألف في الجبر ، وقد انتشرت مؤلفاته في أوربا في القرن الثاني عشر للميلاد حيث ترجمها الى اللاتينية Gerard de Erémone و Adelharp de Bath.

الجبر : كثيراً ما يذكر بأن ديوفنطس Diophante (في القرن الثالث للميلاد) أول مشتغل بالجبر ، مع أن جل ما وصل اليه أنه كان يستعمل حروفاً في العمليات الحسابية يأخذها من الألفاظ الدالة على العملية المراد إجراؤها

واستعمال الحروف للدلالة على المقادير كان معروفاً منذ أرسطو ، وكان ديوفنطس يرمز للمجهول ولقواه حتى القوة السادسة ، ولمقلوب هذه المقادير وللوحدة بحروف مختزلة من أسمائها اليونانية ، ويتبع كل رمز بأمثاله العددية ، ففي ذات الحدود الكثيرة polynôme توضع الحدود الموجبة مرتبة بجانب والسالبة بجانب آخر يفصل بينهما بهذه الاشارة T الدالة على الطرح والتي هي مأخوذة من كلمة يونانية تدل على الطرح

فالمقدار الجبري : $س^{٦} - ٦س^{٥} + ١٥س^{٤} - ٢٠س^{٣} + ١٥س^{٢} - ٦س + ١$

يكتب هكذا : cc I qq XV ٩ X V uI T qcVI c XX N VI

فالحرف c الدال على التكعيب أعني القوة الثالثة مأخوذ من كلمة cupe والحرف q الدال على التربيع أعني القوة الثانية مأخوذ من كلمة quadratus والحرف u الدال على الوحدة مأخوذ من كلمة unum

وكذلك للمساواة والجذر رموز حرفية تدل عليها مأخوذة من ألفاظها اليونانية ، كما أن قواعد ضرب المقادير الجبرية ذات الحدود الكثيرة مع اعتبار الجهة ، أعني الموجب والسالب كانت معروفة لدى ديوفنطس

وأما العرب فلم يستعملوا الرموز الحرفية ، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار ، وهم الذين وضعوا رمز الكسر فجعلوا صورته أو بسطه في الأعلى ومخرجه أو مقامه في الأسفل يفصل بينهما خط أفقي ، على حين أن ديوفنطس كان يجعلها على عكس هذا الوضع ، والبيزنطيون يضعون المخرج فوق الصورة كما تضع نحن الآن القوة أو الأس فوق العدد

والعرب يرمزون للمجهول بكلمة شيء . قال بهاء الدين العاملي في كتابه خلاصة الحساب « يسمى المجهول شيئاً ومضروبه في نفسه مالا ، وفيه كعباً ، وفيه مال المال ، وفيه مال الكعب ، وفيه كعب الكعب إلى غير النهاية » ويسمون مقلوب هذه المقادير جزء الشيء وجزء المال وجزء الكعب وهكذا . ولنضع بجانب كل منها مصطلحه الحالي :

شيء	: $س$	، جزء الشيء	: $\frac{١}{س}$
مال	: $س^{٢}$	، جزء المال	: $\frac{١}{س^{٢}}$
كعب	: $س^{٣}$	، جزء الكعب	: $\frac{١}{س^{٣}}$
مال المال	: $س^{٤}$	، جزء مال المال	: $\frac{١}{س^{٤}}$
مال الكعب	: $س^{٥}$	، جزء مال الكعب	: $\frac{١}{س^{٥}}$
كعب الكعب	: $س^{٦}$	، جزء كعب الكعب	: $\frac{١}{س^{٦}}$

فيقال مثلاً للرمز $س^{١١}$ مال كعب كعب الكعب ولمقلوبه جزء مال كعب كعب الكعب ، وكذلك كانوا يعلمون قاعدة ضرب هذه القوى أو هذه الأجناس كما كانوا يسمونها بعضها ببعض ، وقسمتها مع اعتبار الجهة ، فيجمعون الأسس أو يطرحونها . وقد ذكر العاملي في كتابه المذكور قواعد ضربها ثم قال : « وان كان — يعني في أحد المضروبين — استثناء ، يسمى المستثنى منه زائداً والمستثنى ناقصاً وضرب الزائد في مثله والناقص في مثله زائداً والمختلفين ناقص ، فمضروب عشرة وشيء في عشرة إلا شيء مائة إلا مالا »

وفي اصطلاحنا : $(١٠ + س)(١٠ - س) = ١٠٠ - س^{٢}$

وبعد أن أورد أمثلة عديدة على الضرب قال : « تفرض المجهول شيئاً وتعمل ماتضمنه السؤال إلى أن تنتهي إلى المعادلة ، فالطرف ذو الاستثناء يكمل ويزاد مثل ذلك على الطرف الآخر وهو الجبر ، والأجناس المتجانسة المتساوية في الطرفين تسقط ، وهو المقابلة » ثم قسم المعادلات إلى ستة أنواع وبين كل واحدة وطريقة حلها وأتبع ذلك بمسائل منها هذه : « رمح مركوز في

حوض، والخارج عن الماء منه خمسة أذرع مال مع ثبات طرفه حتى لاقى رأسه سطح المكان، فكان البعد بين مطلعه من الماء وموضع ملاقاة رأسه له عشرة أذرع فكم طول الرمح؟ — أقول توضيحاً لكلامه: الرمح هو (م ب) والخارج عن الماء منه هو ب حـ = ٥ أذرع، أثبت في م وأدير حتى صار رأسه ب في ت والطول حـ ت = ١٠ أذرع —

تفرض الغائب في الماء شيئاً، فالرمح خمسة وشيء، ولا ريب أنه بعد الميل وتر قائمة أحد ضلعيها عشرة أذرع، والآخر قدر الغائب منه، أعني الشيء، فمربع الرمح أعني خمسة وعشرين ومالا وعشرة أشياء، مساو لمربعي العشرة والشيء أعني مائة ومالا. وبعد إسقاط المشترك يبقى عشرة أشياء معادلة لخمسة وسبعين والخارج من القسمة سبعة ونصف، فالرمح اثنا عشر ذراعاً ونصف ذراع»

وعلى حسب اصطلاحنا تجرى المعادلة هكذا

$$(٥ + س)^{٢} = ١٠^{٢} + س^{٢}$$

$$٢٥ + س^{٢} + ١٠ س = ١٠٠ + س^{٢}$$

$$١٠ س = ٧٥$$

$$س = ٧,٥$$

والذي توصلوا إليه في الجبر هو حل المعادلات من الدرجة الثانية، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الاسلامي أن عمر بن ابراهيم بسط حل المعادلات من الدرجة الثالثة، ولم نر ذلك فيما بين أيدينا من كتب المتقدمين كالياسمينية وخلاصة الحساب وشروحها، ولا ندرى من عمر بن ابراهيم هذا هل هو الخيّام الفيلسوف الفارسي المشهور أم غيره؟ وعلى كل فعسى أن يقيض الله لهذا السر من يكشفه

هذه نبذة يسيرة من الجبر العربي يتضح منها أن هذا العلم وصل في عصور المدنية الاسلامية إلى شيء كثير من التجريد برغم فقدان الاشارات والرموز واستعمال الألفاظ الدالة على المجهولات دون اختزالها

ولما انتقل الجبر الى أوروبا بواسطة المسلمين عم استعمال الحروف بطبيعة الأمر وبتأثير بعض العلماء كفرنسوا فيت Viéte (١٥٤٠ — ١٦٠٣) وديكارت

أما الأشارات التي نستعملها اليوم فهي متأخرة الظهور، فاشارة الناقص (—) ترجع الى القرن الثالث عشر، ولا يعلم أصلها ومصدرها، واشارة الزائد (+) ترجع الى القرن الرابع عشر، إذ شاع استعمالها في المانيا، على حين أن علماء إيطاليا ظلوا مدة يستعملون للزائد والناقص حرفي p , m من كلمتي moins, plus

وأما اشارة المساواة = فهي من اقتراح العالم الانكليزي Recorde سنة ١٥٥٦، وقد اتخذها نيوتن ووالیس، فعم استعمالها في انكلترا، على حين أن ديكارت في فرنسا كان يستعمل هذه الاشارة ∞ وكثير غيره كانوا يستعملون لذلك خطين رأسيين متوازيين هكذا: ||

الأس أو قوة الرفع: أول من أشاع استعمالها على الشكل المعروف الآن ديكارت، ولكن منشأها يرجع الى عهد أقدم من ذلك، وكان علماء هولندا يكتبون الأس في دائرة صغيرة فوق العدد المرفوع

وأما اشارة الجذر الدالة على درجة الجذر فهي متأخرة أيضاً، فقد كان ديكارت نفسه يستعمل للجذر التربيعي هذه الأشارة: $\sqrt{}$ وللتكعيبي هذه: $\sqrt{}_c$ فحرف c يدل على التكعيب الذي هو درجة الجذر من كلمة cube ومن المستبعد أن تكون هذه الاشارة كما زعم البعض جيماً عربية مقلوبة ح اختزالا لكلمة جذر، فليس لهذا القول من مؤيد تاريخي، وهاهي الكتب العربية القديمة في الرياضيات الموجودة الآن خلو منها

الأقواس: هي كذلك متأخرة الظهور، ففي النصف الأول من القرن السابع عشر كانوا يضعون خطاً أفقياً فوق الحدود التي يراد إجراء عملية واحدة عليها، ولا يزال هذا الاستعمال في المجذورات $\sqrt{\quad}$

وأما الاشارات الثانوية كاشارة الضرب والقسمة فلم يتم وضعها كذلك إلا بعد ظهور الجبر الحديث

ويرجع الفضل في ظهور الجبر الحديث الى فرانسوا فييت، فهو أول من أجرى العمليات الجبرية مع استعمال الحروف والاشارات، وقد أراد أن يستبدل كلمة جبر «البربرية» كما يقول بكلمة تحليل analyse ولكن هذه التسمية الجديدة لم تلق نجاحاً، وإنما بقيت كلمة تحليل منصرفة الى فروع أخرى من الرياضيات وجملة القول أن ترقى الطريقة الرمزية في الرياضيات وذيوع

الاشارات والرموز أدى الى ترق عظيم فى العلوم الرياضية ، بل الى ظهور فروع جديدة كالهندسة التحليلية .

الهندسة التحليلية وحساب التوابع

إن علم الجبر أدى تدريجاً باستعمال الحروف للدلالة على المقادير الى فكرة التابع fonction وقد كان اليونان كما تقدم يعبرون عن القيم العددية بأطوال هندسية ، وبذلك تمكنوا من حل بعض المسائل الجبرية هندسياً ، وهم وإن كانوا لم يتوصلوا الى المفهوم العام للاحداثيات coordonnées فدراستهم للقطوع المخروطية الناقص والزائد والمكافىء شبيهة جداً بالهندسة التحليلية ، فقد كانوا بعد تعريف هذه القطوع ينسبون نقاطه الى قطر أو محور ، ويحصلون على علاقة بين الفاصلة abcisse والترتيب ordonnée وعلى كل فانهم درسوا خواص بعض المنحنيات بقصد حل المسائل ، ولفقدان مفهوم الوجب والسالب للكميات لم يتمكنوا من التوسع فى ذلك

وهذه الفكرة أعنى فكرة التابع إنما وجدت واضحة للمرة الأولى فى كتابات نيقولا اورسم Nicolas Oresme فى القرن الرابع ، إلا أنه اقتصر على الكميات الموجبة . وقد كان لفرانسوا فييت أثر بيّن فى رقى الهندسة التحليلية التى ظهرت ظهورها الرائع أخيراً على يد ديكارت سنة ١٦٣٧ ، ومع هذا فقد احتوت هندسة ديكارت على مسائل تقريبية أو غير مضبوطة

(٣) وأما الرياضيات التطبيقية فهى متفرعة عما تقدم ذكره من أقسام الرياضيات ومتأخرة فى النشوء والظهور ، إذ أنها كانت مبعثرة مندمجة فى العلوم التى كانت منبعها الأصلى ، ولم تنسلخ عنها وتظهر بالصورة التى هى عليها الآن إلا فى العصرين الأخيرين ، هذا إذا استثنينا المثلثات trigonometrie التى اتسعت بقسميها المستوية والكروية منذ عهد قديم لشدة الحاجة اليها فى الحسابات الفلكية . وللعلامة نصير الدين الطوسى كتاب فى المثلثات الكروية اسمه شكل القطاع[1] وقد اشتغل فى هذا العلم غيره من المتقدمين كأبى ريحان البيرونى وأبى الوفاء محمد البوزجانى وأبى جعفر الخازن وأبى فضل الله التبريزى ، فقد ألفوا فيه كثيراً ووضعوا نظريات جمة هى من أهم نظريات هذا العلم . ومما هو جدير بالذكر فى تاريخ المثلثات أن أبا ريحان البيرونى هو أول من اعتبر نصف قطر الدائرة واحداً قياسياً فى أبحاث المثلثات[1]

(١) مطبوع مع ترجمة فرنسية له فى القسطنطينية ١٣٠٩ هـ

هذه صورة مجملة عن تاريخ العلوم الرياضية يتبين لنا منها أن المدنية الاسلامية حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ وركن أساسى عظيم فى هذا البناء ، فالمسلمون هم الذين وضعوا علم الجبر وحفظوا تراث اليونان ، وهم الذين نقلوا عن الهنود الأرقام ونظام كتابتها المعروف اليوم ، وتعهدوا كل ذلك بالعناية شرحاً وتهذيباً وتنقيحاً وتوسيعاً ، وأحدثوا كثيراً من الأوضاع ، وتوسعوا فى كثير من الأبحاث ، ووضعوا كثيراً من النظريات ، فكان لقرائحهم الفياضة أثر بيّن لا يزال العلم يحفظه لهم ، ومآثر خالدة لا تنى المدنية العلمية عن الأشادة بها ، وبالجملة فليس من شك فى أن ما خلدوه من الآثار فى هذه العلوم كان تمهيداً مباشراً لما حدث فيها من التقدم والرقى فى العصور الحديثة

دمشق

محمد المبارك
بكالوريوس فى العلوم

(١) شكل القطاع ص : ١٢٧

البريد الأدبي

اليابان سنة ١٩٣٤

تثير نهضة اليابان العسكرية والاقتصادية في الأمم الغربية أعظم اهتمام وجزع ، ذلك لأنها تسير بخطى الجبابرة ، ولا تقف عند حد ، وتحمل في طريقها كل شيء . كانت اليابان قبل خمسين عاماً فقط محصورة في جزائرها لا يزيد سكانها على ثلاثين مليوناً ؛ أما اليوم فهي امبراطورية عظيمة ، تسيطر على كوريا ومنشوريا وقسم من منغوليا ، ويبلغ سكانها وسكان الأراضي التي تسيطر عليها نحو مائة وعشرين مليوناً

وقد أصدر الكاتب الفرنسي موريس لاشان عن اليابان ونهضتها تحقيقاً جامعاً في كتاب عنوانه « اليابان سنة ١٩٣٤ » وفيه يلقي الضياء على بعض الحقائق المدهشة ؛ فان اليابان مثلاً مازالت تجمع بين روحها وتقاليدها القديمة وبين روح الدولة الحديث ؛ وما زالت صور الأقطاع والعبودية القديمة تثقل كاهل الشعب ؛ والشعب رغم التقاليد والتراث الروحي القديم وحب الامبراطور على الخضوع والطاعة ، وهو يضطرم بنوع من الاشتراكية الوطنية . ويلاحظ الكاتب أيضاً أن قوى الشعب الياباني كلها ، والامبراطور ، والجيش والبحرية ، وأقطاب العهد القديم من جهة وقوى الرأسمالية ، وكل الجموع البائسة التي يغص بها المعمل من جهة أخرى ، كلها تعمل في نفس الاتجاه وبنفس الروح ، ولنفس الغاية ، وهي افتتاح أسواق الصين ، والسيطرة على المحيط الهادي ، بل هي في الواقع غزو العالم كله ؛ وقد غزت اليابان بالفعل جزائر الهند الشرقية ، وأخذت تهدد قاعدة سنغافورة ، واستراليا ، ووصلت تجارتها الى شواطئ المحيط الهندي ، ونفذت الى بلاد الحبشة ، وجازت مضيق عدن وقناة السويس ، وانتشرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط

ويتوقع المسيو لاشان أن النزاع قد يضطرم عما قريب بين اليابان وأمريكا ؛ ولكن يجب لاضطرامه أن يقع حادث ما ؛ ومثل هذا الحادث قد يكون أول انتصار اليابان على الصين ، أو انتصارها على الروسيا ، أو تنازعها مع الصين والروسيا على تحقيق الامبراطورية الكبرى التي تسعى اليابان الى تحقيقها باسم الشعوب الصفراء ، ذلك أن شعوب الصين المختلفة قد ترغم غداً على أن ترى في اليابان ما رأته الأمم الجرمانية من قبل في بروسيا ، أعني زعيماً ومعلماً وقائداً

ذكرى العلامة الطبيعي بريم

تحتفل الهيئات العلمية الألمانية بالذكرى الخمسينية لوفاة العلامة الطبيعي الألماني الفرد أدموند بريم ، وقد ولد بريم في تيرنجن في فبراير سنة ١٨٢٩ ، وكان أبوه قساً يعنى بتربية الطيور ودرس خواصها ، فنشأ ولده بريم شغوفاً بهذه الناحية من الدرس ، وفي سن الثانية عشرة سافر الى أفريقية مع البارون فون ميلر في رحلة علمية دراسية ، ومر بالقاهرة يومئذ (سنة ١٨٤٧) فصادف بها الزلزال الشهير الذي وقع فيها عندئذ وكاد يهلك ؛ ثم سافرت البعثة الى النوبة والسودان ، واصطادت كثيراً من الحيوانات المختلفة ؛ وعكف بريم على دراسة خواصها المادية والروحية ، وفي أثناء عوده الى القاهرة كانت بمثة « لبوة » الشهيرة « بجيته » فكان يطوف بها الشوارع ذلولا مطيعة ، ثم عاد بريم من القاهرة بعد عامين الى السفر مرة أخرى مع أخيه وزميل آخر ، واعتزموا اختراق السودان حتى منابع النيل ، ولكن البعثة كانت غير موفقة ، إذ غرق أخوه في النيل ، ونفدت موارد البعثة ، وعندئذ أمده حاكم السودان لطيف باشا بشيء من المال ليتابع رحلته على ضفاف النيل الأزرق ، وهناك اصطاد كثيراً من الحيوانات وأنفق نحو خمسة أعوام في هذه الرحلة ، واكتشف فيها كثيراً من الحقائق العلمية ؛ ثم عاد الى ألمانيا ، وانكب على دراسة العلوم الطبيعية ؛ ونال إجازة الدكتوراة من جامعة بينا في علم الحيوان سنة ١٨٥٦ وانتخب عضواً في الأكاديمية البروسية الملكية ، وأخذ منذ ذلك

الجنين يكتب عن حياة الحيوان ؛ ثم قام برحلة فى أسبانيا ، وأخرى فى لابلاندا وجزائر لوفوتن ؛ ثم قام برحلة أخرى فى شمال الحبشة فى سنة ١٨٦٢ ، وكتب كتباً عن هذه الرحلات والمباحث كلها .

ولما عاد الى المانيا كتب مع زميلين له كتاباً مصوراً عن حياة الحيوان فى ستة مجلدات اختص منها هو بأربعة ؛ وعين مديراً لحديقة الحيوانات فى برلين وهمبورج مدى حين . ولكن شغف البحث حمله مرة أخرى ، فسافر الى سيبيريا الشرقية ، وكاد يهلك فى هذه المرة ، وسافر الى أمريكا الشمالية سنة ١٨٨٣ ، ولما عاد الى المانيا لم يمكث طويلا حتى توفى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٤

وكتاب بريم عن حياة الحيوان من أشهر الآثار وأقيمها فى هذا الموضوع ، وهو يعتبر أستاذ موضوعه فى العلم الألمانى ؛ ولم يسبقه ، بل ولم يأت من بعده أحد استطاع مثله أن ينفذ إلى روح الحيوان وإدراكه ، وقد ترجم أثره إلى جميع اللغات

عيد الأكاديمية الفرنسية

مضى اليوم على تأسيس الأكاديمية الفرنسية ثلاثمائة عام كاملة ؛ ذلك لأنها أنشئت فى عهد لويس الثالث عشر ، فى أوائل سنة ١٦٣٥ ؛ أنشأها جماعة من النبلاء الأدباء برعاية الكردينال رشيليو الحبر السياسى وزير لويس الثالث عشر ، فكانت من خالد آثاره ، وسيجرى الاحتفال بهذه الذكرى بمنتهى البساطة ، ويقام لذلك معرض فى المكتبة الوطنية فى شهر يونيه القادم ، وستعرض فيه طائفة من الوثائق الخطية الشهيرة الخاصة بالأكاديمية ، ومنها مسودة الخطبة الأولى التى أعدها السيد بول هاى صاحب الشاتليه لالقائها فى أول جلسة للجماعة العلمية فى ٥ فبراير سنة ١٦٣٥

وقد تساءلت إحدى الصحف الأدبية الكبرى بهذه المناسبة عما اذا كان المسيو رنيه دوميك سكرتير الأكاديمية يقبل أن يضم هذا المعرض التذكارى بعض الصور الرمزية المضحكة التى أوحى بها تقاعد الأكاديمية عند إصدار «قاموسها» الشهير ، وما وقعت فيه من الأغلاط النحوية ، ومنها اللوحة الشهيرة التى رسمها «فيرتيير» ، وعنوانها « دفن قاموس الأكاديمية » ؟

البترول من ماء البحر

كتب المهندس الفرنسى مسيو ساهير إلى الحكومة الفرنسية ينبئها بأنه وصل إلى طريقة لاستخراج البترول من ماء البحر العادى ، وأنه على استعداد لأن يبيعها سر هذه الطريقة نظير ٢٥ مليوناً من الجنيهات

وقد قالت جريدة « الماتان » فى تعليقها على هذا النبأ إن المهندس ساهير واثق كل الثقة من طريقته ، وأنه دعا إلى معمله بمدينة « روين » بعض الخبراء فى وزارة الحربية والطيران ليشهدوا التجربة

وقال مسيو ساهير فى حديث له مع مندوب « الماتان » إنه لاحظ أن المناطق الغنية بالبترول توجد بها عدة كميات كبيرة من الماء الملح . وأن هذه الملاحظة هى أساس الفكرة التى أوصلته إلى استخراج البترول من ماء البحر ، لأنها دلته على أن الماء الملح لابد أن يكون من العناصر الأساسية

الأدب وسيلة للتفاهم الدولى

أذاعت إحدى دور النشر الكبرى فى برلين أنها تخصص جائزة قدرها عشرون الف مارك (نحو ١٥٠٠ جنيه) لمن يضع أحسن كتاب قصصى عن مسألة التفاهم بين فرنسا وألمانيا . والمفهوم أن إنشاء هذه الجائزة كان بايعاز من وزارة الدعوة ؛ وقد وافق وزير الدعوة الهير جيبلز على أن يكون الهر هانز بلونك رئيس الجمعية الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) للكتاب الألمان هو الحكم الوحيد فى فحص الكتب المقدمة وتخصيص الجائزة . وقد علقت الصحف الفرنسية على هذا النبأ بأنه من بعض أساليب الدعوة الهتلرية التى يراد بها إخفاء نياتها الحقيقية نحو الاستعداد للحرب



عمامة الأفنـــدى

للأستاذ محمد سعيد العريان

طال بنا انتظار صاحبنا (المأذون) فى هذه الليلة حتى دقت العاشرة ولم يجيء ، وكنا نرقب مقدمه علينا كلَّ مساء رقبة المشتاق ، فما تخلَّف منذ عرفناه ليلة ، وإنه ليقدم فيحلّ البشرُ ويستخفّنا السرور ، سرورُ النفس بدعابته ، وسرور المعدة بحَلْواه ؛ فقلما كان يوافينا إلا ومعه هدية من عُرس نتوزّعها بيننا . ولم يكن لمقدمه ميعاد ، فانه لَعَلى تجوال دائم ، يتأبط دفتره من دار الى دار ، رسولَ سلام وحب ، أو رسول فرقة وقطيعة !

وتوزّعتْنا الظنون من غيبته ، وحسبناه قد أصاب الليلة حظاً من عرس ، فبخل علينا بحلواه ومرق الى الدار ؛ فما كنا لنتركه حين يقدم علينا إلا فارغَ الجيب من الحلوى وغير الحلوى مما يجمع من الأعراس ، وما كان ليتركنا إلا فارغة رءوسنا من كثرة ما نضحك من دعابته وهزله . وإنه لشاب ضُحَكَة[1] جريء على النكتة ، ليس فيه زمانة الشيوخ من أهل هذه الطائفة

وتهيأنا لاستقباله بفيض من النكات المصنوعة ، لعلنا ننال منه لقاءَ ما كان يُشبعنا كل مساء من عبث ودعابة ؛ فقد كان له فى كل ليلة هدف من الجلساء يتندّر عليه ويتخذه ضُحْكَة[2] فما ينصرف عنه إلا مُغْضَباً ليترضّاه فى غد !

وجاء بعد قليل ، فحيّا وجلس ، ولكنه كان عابساً مبهوراً ما يكاد جفنه يطرف ؛ فحسبنا من وراء مظهره العابس نكتة مبتكرة ، فما عهدناه يألم فى الحياة لشيء ، وإن الهموم لتصطرع عن يمينه وشماله

وهممنا به نتناوله بما أعددنا له من عبث ، فاذا كلماتنا تتساقط حواليه ولا تصيبه ، وظلّ على حاله من الغضب والعبوس ومرّت الينا نفسُه ، وتقمّصنا مما به روح الكآبة والوحشة ؛ فأمسكنا عن الحديث لحظات

ورفع الشيخ رأسه بعد هنيهة ، وتحركت شفتاه بكلام ، فتقصّفنا عليه نستمع لما يقول

وسأل : « ما لديكم من أنباء صاحبنا عاطف ؟ »

قلنا : « لقد انقطع عن نادينا من زمان بعيد ، فلعله على شُغُل ببعض شأنه ؛ وإن لذّاتِ الحياة لحبيبةٌ اليه ؛ فما رآه قد منعه لقاءَنا إلا لهوٌ آثره علينا ، أو لذةٌ دعته فلبّاها ؛ أو لعله يتفيّأ من دنياه الجديدة ظلالَ الحب والسعادة »

قال : « بل دنياه الجديدة ، ولكن ليس فيها من السعادة والحب ولا ظلّهما ؛ ولكنْ مكابدةُ الأحزان ، وألم الوحدة ، ومشقة الحرمان ، وظلام اليأس ! »

ورنّت كلماته فى أذنى رنيناً مفزعاً سمعت صداه فى قلبي ؛ فقد توثّقت صلتي بعاطف صبياً وغلاماً وشاباً ؛ فأيُّ أمل كان يجيش فى تلك النفس ، وأيّ روح كان يحمل ذلك الجسد ، وأيّ حيوية كانت تصطرع من ذلك الشباب !

فما كربني كربٌ ونظرته إلا عادت الحياة فى عيني باسمة نضرة ، وما أهمّني همٌ فلقيتُه إلا تعلمت منه فلسفة الرضى بما هو كائن ، وكان من بهائه وإشراق طلعته ، الى كماله وعفته — كأنه فتنة مستحيية . . .

وأخذ الشيخ يقصّ علينا من نبئه ، ونحن نستمع اليه فى صمت

* * *

كان عاطف على ما انبسط له من النعمة ، وما اتفق له من حسن الرأى — لا يؤمل فى الزواج إلا من فتاة ذاتِ مال . ولقد كان عجيباً عندنا أن يكون على هذا الرأى ، وهو مَن نعرف من شباب الجيل الجديد ؛ ولكنا لم نكن لنستطيع على ما نسرف فى مهاجة رأيه — أن نصرفه عن بعض ما كان يعتقد . وراح فى سبيل غايته يبحث عن الزوجة الغنية على أبواب المجلس الحسبي . . . !

(١) الضحكة (بضم ففتح) الكثير الضحك (٢) والضحكة (بضم فسكون) الذى نضحك منه

ووجدها بعد إذ جد فاغتنى ، ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت بتيدة من الدمامة ، وكانت جاهلة ، ولكنها من بنات الحاضرة . وقد مات أبواها وخلفا لها قصراً وضيعة ، وأخاً يقوم عليها وعلى الضيعة جميعاً .

واستوثق الفتى من غنى صاحبته ، فأقبل يخطبها إلى أخيها وقد اجتمعت له الأسباب . وأدى المهر ؛ مهر الضيعة والقصر والعروس . . . وعُقد له على فتاته

لقد غبطناه يومئذ على النعمة ؛ نعمة الثروة والجاه والزواج . وما عنانا كم دفع وكم أنفق ؟ فقد كنا على ثقة بأن حبته مردودة اليه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . ورحنا نتهم أنفسنا بفساد النظر وأفن الرأي وسوء التدبير

ومضى أسبوع ، وشهر ، وأشهر ، وأوشك العام أن ينتصف . وعاطف متهلل الوجه ، ضاحك السن ، يحلم بالغد القريب يوم تزف زوجته اليه ، وتزف ثروتها الى خزانته . . . ويمني إلى صهره يستعجله ، فاذا هو يبسط له المدى ، ويفسح الأجل ، ويستشفع بالتقاليد . . .

وعاد الفتى إلى نفسه يطمئنها ويترضاها . وما عليه من ذاك ؟ أليست ستزف اليه لامحالة في يوم قريب أو بعيد ؟ بلى ؛ وإنها لزوجته ، ما في ذلك شك ولا إنكار ؛ فلا عليه أن ينتظر !

ودار دولاب الزمن فأتم دورة ، وراح الفتى يستنجز صهره الوعد ، فقابله وهو يبتسم ، وبسط له وجهه ومجلسه ، وأخذ يتنقل به في الحديث من فن إلى فن حتى زالت وحشته ، وأنسيت روحه ؛ فودعه ولم يظفر بجواب . . . !

وتولت الأيام بعضها في أعقاب بعض ، وتصرمت الأشهر شهراً في أذيال شهر ؛ ومازال صاحبنا يراوح بين جنبيه في فراش الوحدة ، وعروسه هناك من دونها الأبواب والحارس العتيد !

ومل الفتى مقامه ، وضاقت به نفسه ؛ فراح يطلب التعجيل في الزفاف فيلحف ، وأخو الفتاة في هدوء المطمئن يبعد له الأجل ويعتذر بالظروف !

« أي ظروف ؟ لقد مر عامان مذ تزوجت ، فمن لي على الحياة أحتمل بردها وحرورها وحدي ، وما أنا عزب فأنطلق حيث أشاء ، ولا زوج فآوى إلى بيتي ألتمس هدوء النفس وبرد الراحة ؟ »

وعاد الأخ يتعذر ويجدد الميعاد ، وهو يربت على كتف الزوج الغاضب . . .

وخرج عاطف من الدار والقدر تغلي في رأسه ؛ لقد ابتدأ يعرف ما هنالك ، ولكنه لم يجرؤ على التصريح . أيكون ذلك من قوانين البر ، أهو كذلك ناموس الرحمة والعدل ؛ أيبخل الأخ أخته فيحرمها الاستمتاع بالحياة من أجل المال ، من أجل مالها الذي يخشى أن يفلت من يده إلى الزوج يتصرف فيه كيف يشاء ! وما يضيره من ذلك وإن له لضعف ما تملك أخته المسكينة ، وإن ماله ليكفيه ويفضل عن حاجته ، ولكن . . . ولكن أين هو الفضل منذ سنوات ؟

لكأنما هو مستخدم على أن يجمع المال فيبدده هنا وهناك ، وما له من ذلك إلا اللقمة ، وما تمتاز كثيراً من لقمة الفقير ؛ وإلا الثوب ، وإنك لترى الثياب الغالية يُزهى بها من هم دونه من عامة الناس ! أما فضل المال فله مصرف من وراء ذلك : على المرأة والكأس والقمار . . .

وهم عاطف أن يعود فيصرخ في وجهه بما عرف من أمره وشئون تدبيره ، ولكنه كظم الغيظ على ألم وضيق

وتلاقيا بعد أيام ، وكانت القدر ما تزال تغلي ؛ فملأ الزبد يترشش مُخضرّاً عن غضب مغيظ . . . وافترق الرجلان على خصومة وعداء . . .

***

ودق عاطف باب المحكمة لعلها أن تحمل زوجته على (الطاعة) أين هي المسكينة ؟ وعلى طاعة هي أم على عصيان ؟ إنه لم يرها إلا مرسومة في ورقة ، أتراها في الأحياء ، أم هي من وراء جدران سجنها جثة بلا روح ، وجسد بلا عاطفة ، وطاعة بلا ارادة ، ومعدة بلا وجدان . . . !

ويحك أيتها المسكينة ! أتشعرين أنك في الأحياء ؟ لعل في الموتى من هم أقرب منك إلى الحياة ؛ لأنهم يعيشون من عواطف أهليهم في عواطف حية وحب مشبوب . . . !

وفي المحكمة رأى الفتى عروسه لأول ما رآها ، وقد جاءت تسعى عن أمر أخيها تطالب زوجها بالنفقة والكسوة والمأوى !

يالسخرية ! أضاق بها أخوها طاعمة كاسية من مالها عنده ! فيدفعها الى القضاء تلتمس القوت واللباس . . . !

وكان بينهما ما يكون دائماً بين كل زوجين يعرفان المحكمة الشرعية ؛ في كل يوم بينهما (جلسة) للقضاء ، وكل منهما يفتن في الكيد والاغاظة ؛ والغالب منهما من ينال من صاحبه من غير عائدة عليه : والمال يتسرب من بين أيديهما للمحامي

والكاتب ورسوم الدعاوى وأجر الشهود ... !

وامتدت بينهما الفتنة ، ولجّت بهما الخصومة ، وطالت إجراءات التقاضى ، وتصرمت سنوات . وأخذ الزوج المسكين يبيع ما يملك قطعةً بعد قطعة ، وفاء لنفقة الزوجة ونفقة القضاء ؛ وأوشك الزوج الذى راح يطلب الغنى من تحت أقدام امرأة — أن تصفر يداه ... !

واصطلحا فى النهاية على الطلاق ... !

***

قال المأذون :

« وقلت للفتاة : أأنت على نية إبرائه رغبة فى الطلاق ؟

وزاغت نظرة الضحية العذراء من هنا الى هناك ، حتى استقرت على الرجل الجالس هناك ، ثم نكست رأسها ولم تجب

قلت : إنك إنما تفصلين فى أمر مستقبلك ، فليس هنا لأحد عليك سلطان

فدقت فى طويلاً كأنما تلتمس المعونة ، ثم تحولت النظر الى أخيها فاذا فى عينيه كلام طويل ، فأطرقت وهى تقول فى همس : « نعم لقد أبرأته ... ! »

والتفت إليها الرجل يصوب النظر ويصعّده ، ثم نطق بالكلمة الفاصلة ... !

وتحولتُ إلى الرجل فأنكرته ، وأقسم لكأنما لم أكن أعرفه من قبل ، وما كان فى بالى أنه صديقى لعاطف . لقد انطفأ بريق عينيه كأنما ينظر من خلف زجاجة ؛ وغاض ماء الشباب من وجهه ، فما تراه إلا كوردة الخريف ؛ وقد أطلق لحيته ، كأنما تركتْ لطماتُ القدر فى عارضيه سوادَ حظه ؛ وكانت فى يده سبحة ، أحسبُه كان يحصى عليها همومَه وأحزانَ نفسه ؛ وما رأيت شيئاً أبيض — فيما رأيت — إلا عمامته ... ! »

قلنا : « عمامته ؟ . . عهدُنا به لا يلبس إلا الطربوش ... ! »

قال : « نعم عمامته ، فاستأنوا . . . قلت له : ما فعلتْ بك الأيام يا عاطف ؟

قال : ذاك ما ترى . ولقد أقسمتُ أن أفرغ لله ، فلم تعدْ لى فى الزواج إربة ، ولن ترانى إلا بين المسجد والبيت حتى ألقى منيتى ! حسبى ، حسبى ما لقيتُ من دنياى . . . ! وانكبّ على سبحته يتمتم والحبات تتساقط فى الخيط واحدةً فوق واحدة ، ورأسه يهتز كأنه يقول : كذلك تتعاقب الأيام كما تتساقط الحبات حبة وراء حبة ، حتى تكون النهاية ، حتى يكون الموت ... !

وما وجدت عندى جواباً إلا أن أتحول وأدعه حيث جلس يداعب سبحته . أتراه كان يذكر الله ، أم يسب الدنيا . . . ! »

لقد راح المسكين يبحث عن الزوجة الغنية ليضاعف بمالها ماله ، فآب فقيراً من مالها ومن ماله ؛ وذهب يسعى لأن يضاعف بالزواج مسرات الشباب ، فردّه الزواجُ شيخاً فى الثلاثين ! ؟

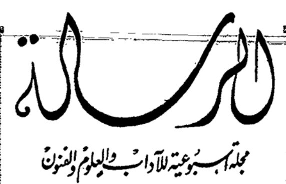
محمد سعيد العريان

2 me Année, No. 74.

Lundi-3-12-1934

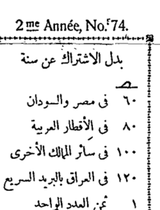
صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠
٤٠٥٣٠



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العــــدد ٧٤ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٣ — ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العــــدد

دارٌ تَبـــلى ! . . .

دارٌ تَبلى ! وكانت إلى الأمس القريب دار الأمة ! عليها نزل وحى الوطنية ، ومنها انبعث صوت الحرية ، وفيها انبثق فجر النهضة ، وبها وُلِدَ معنى الاستقلال

كانت مَلجأ الخلافة فى الآستانة ، ومفزَع الخديوية فى القاهرة ، ومخافة الاستعمار فى لنـدن ، ومثابة الاسلام فى العالم كله ! ! تجمَّعت فيها للأمة رغائب ، ونشأت بها للشباب آمال ، وخفقت عليها للجهاد (ألوية) ، وسمعت مصر فى أفنيتها للمرة الأولى أصوات بَنيها الخُلَّص يهتفون باسمها ، ويهزجون بمجدها ، ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها ، ويستنجزون الغاصب المحتلّ وعده المطول وعهده الفاجر ! ! ثم كانت (عكاظ) للبلاغة الخطابية ، و (فورُم) للمساجلة السياسية ، و (كعبةً) يتجه إليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن ، وأنقياء الصحيفة من ممالأة العدو

تلك هى دار اللواء ، ونادى مصطفى كامل !

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ الحافل تُعفّيه الأحداث والنوازل ! كأنها لم تكن

في عهدها النائي قلب مصر النابض، وعزم نشئها الناهض، ومنارة أمرها المادية! أتى عليها أتيّ البِلَى فنكّر أعلامها وأخفت صداها! كأنها لم تنفض عن الوادي غبار الخمول، ولم تمسح عن الأجفان فتور الوسن! وكأن مصطفى لم يسجل على أركانها أول صيحة بالجلاء، وأول رغبة في الدستور، وأول غضبة للحرية!!.

ولكن الزمن الجوار القهار يحطم كل ما برأ الله وصور البناس من شخص وشيء، فلا يظهر على بأسه إلا الفكرة، ولا يخلد على رغمه إلا العقيدة

***

ألا فاسلمي على رغم هذا البلى يا دار! فإن لك في كل قلب آية مسطورة، وفي كل تاريخ صفحة منشورة، وفي كل جيل نشيداً يعطف القلوب إلى الحق، ويلفت العيون إلى النور، ويهدي النفوس الشاردة إلى الغرض الأسمى والسبيل القصد

ومن الذي ينسى ومضة الروح الإلهي في ذلك الجسد الضارع، فيفور فورة الجبارين، ويصمد صمود الرسل، ويقوم في وحدة النبي وإيمان الشهيد يجاهد الإشراك بمصر، والكفران بالأمة، ويقارع بالحجج الثائرة اللازمة طغيان انجلترا وهي يومئذ علة العلل ودولة الدول؟

أم من الذي ينسى خفقة التضحية القدسية في ذلك الشباب العليل، فيحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه، ويضيء ظلام يومه بوميض روحه، ويذكي خمود عزمه بحرارة دمه، ثم يزهد في المال والجاه والحكم زهادة الحكيم، فيحيا للمبدأ والفكرة، ويموت للقدوة والعبرة؟

***

على إخلاص مصطفى، وإيثار فريد، وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة! حتى إذا كذب الرائد، ومكر الدليل، وخاس الحادي، انبلج في جوانب الطريق شعاع من هذه الأرواح البرة، فيجلو العمى، ويكشف الضلال، ويفضح المكيدة!

وقد ماتوا رضوان الله عليهم ميتة الأنبياء لا (عمائر) تحجب سماء المدن، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى! لقد ملكوا وما تركوا! إنما ورثونا حفظ الكرامة وإن أرهقنا الظلم، وطلب الحرية وإن أجهدنا الطغيان، ورعاية الحق وإن خدعنا الباطل!

كانت قافلتنا تسير باسم الله يا دار! تسير على ضوء من مبادئ الزعماء لا يخبو ولا ينكسر، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب! فالتفتنا فإذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد، ثم ولّوا وجوههم إلى الخلف، وأخذوا يؤخرون القافلة جذباً وجراً، حتى لتكاد عواتقهم تهي، ومفاصلهم تنبتر، وانبث في الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان، يلبّسون عليه الأمر، ويوهمونه أن هؤلاء هم القادة، وأن هذه هي الوجهة! وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا الوراء والأمام، ويتنازعنا النور والظلام، حتى ضعضع الصبر الأبي، وناقة الطاغية تخر صريعاً ليديه وفمه!!

***

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يا دار! فانتشر ما كان يحجبه من نور، وسرى ما كان يصده من نسيم، وعدنا إلى نهج الحياة شامتين بمن هووا من أعاليه وثووا تحت أنقاضه!

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وآثاره! فأما آثارك فتبقى بركة على الناس، وحجة على البغي، وتفسيراً لمعنى البطولة؛ وأما آثاره فستبقى لعنة في فم الدهر، ودمامة في وجه التاريخ، ووضاعة في كبر الانسانية!

***

ألا فاسلمي على رغم هذا البلى يا دار! فإن لك في كل ذهن صورة، وفي كل نفس ذكرى، وفي كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى، وتلهم الصبر، وتعين على مخاوف الطريق!

احمد حسن الزيات

قلت لنفسي ...
وقالت لي ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لنفسي : ويحكِ يا نفسُ ! مالي أتحامَلُ عليكِ ؛ فاذا وفَيْتِ بما في وُسْعِكِ أردتُ منكِ ما فوقه وكلّفتُكِ أن تَسعي ؛ فلا أزال أُعَنّتُكِ من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه ، وبعد الحَسَنِ فيما هو الأحسن ، وما أنفكُّ أُجْهِدُكِ كلما راحَمَكِ النشاط ، وأُضْنيكِ كلما ثابت القوة ؛ فان تكن لكِ همومٌ فأنا أكبَرُها ، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرُها مما أجلبُ عليكِ . أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النّهج وأنا أعتسِفُ بكِ ، أُريد الطيرانَ لا السَّير ، وأبتغي عملَ الأعمار في عُمْرٍ ، وأستحثُّكِ من كلّ هَجْعَةِ راحةٍ بفجرٍ يمتدُّ منه نهارٌ مضطرب ؛ وكأني لكِ زمنٌ يُضادُّ بعضُه بعضاً ، فما يبرحُ يَنبثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلامٍ ؛ ليُهيِّءَ لكِ القوّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخ من بَعدُ ، فتذهبي حين تذهبين ، ويعيش قلبُكِ في العالم سارياً بكلماتٍ أفراحه وأحزانه

وقالت لي النفس : أمّا أنا فاني معكَ دأباً كالحبيبة الوفيّةِ لمن تُحبّ ؛ ترى خضوعَها أحياناً هو أحسن المقاوَمة . وأما أنتَ فاذا لم تكن تتعبُ ولا تَزالُ تتعب ، فكيف تدلُّني أنك تتقدّمُ ولا تَزالُ تتقدّم ؟

ليستْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُه من غيرك ، بل ما توجده بنفسك ؛ فان لم تَزِدْ شيئاً على الدنيا كنتَ أنتَ زائداً على الدنيا ، وإذا لم تدَعْها أحسنَ مما وجدتَها ، فقد وجدتَها وما وجَدَتْكَ ، وفي نفسكَ أولُ حدودِ دنياكَ وآخِرُ حدودها . وقد تكون دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً ، ودُنيا الآخرِ كالقريةِ المُتَسَلّحة ، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة ؛ أما دنيا العظيم فقارّةٌ بأكملها ، وإذا انفردَ امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا

والقوةُ يا صاحبي تتغذى بالتعب والمعاناة ؛ فما عانيتَه اليومَ حركةً من جسمك ، ألفَيتَه غداً في جسمكَ قوةً من قُوَى اللحم والدم . وساعةُ الراحة بعد أيامٍ من التعب ، هي في لذّتها أيامٌ من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبهَ الحيَّ في هذه الدنيا ووَشْكِ انقطاعِه منها — بمَن خُلِق ليعيش ثلاثةَ أيام معدودةٍ عليه ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها ؛ أفتُراه يَغفُل فيُقدّرُها ثلاثةَ أعوام ، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضروباً من لهوِه ولعبِه ومُجونه ، إلا إذا كان أحمقَ أحمقَ الى نهايةِ الحُمْق ؟

إتعبْ تعبَكَ يا صاحبي ، ففي الناس تَعَبُ مخلوقٍ من عمله ، فهو لَيِّنٌ هَيِّنٌ مُسَوًّى تسويةً ؛ وفيهم تَعَبُ خالقٍ عمَلَه ، فهو جبارٌ متمرّدٌ لهُ القهرُ والغَلَبة . وأنتَ إنما تكِدُّ لتسموَ بروحك الى هموم الحقيقة العالية ، وتسموَ بجسمك الى مشقّات الرُّوح العظيمة ؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حفْرِ الأرض ، ولكنه تعب في حَفرِ الكنز

إتعبْ يا صاحبي تعبَكَ ؛ فان عَناءَ الروح هو عُمْرُها ، فأعمالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ ، كعُمْرِ الجسم للجسم ؛ وأحدهما عُمْرُ ما يعيش ، والآخر عُمْرُ ما سيعيش

***

قلتُ لنفسي : فقد مَلِلْتُ أشياءَ وتبرَّمتُ بأشياء . وإن عَمَلَ التغيير في الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلما بُنِيَتْ ، ثم بناؤُها كلما هُدِمتْ ؛ فما من شيءٍ إلا هو قائم في الساعة الواحدة بصورتين معاً ؛ وكم من صديقٍ خلطتُه بالنفس يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء ، حتى إذا مَرَّ يومٌ ، أو عَهْدٌ كاليوم ، رأيتُ في مكانه إنساناً خيالياً كمسئلةٍ من مسائل النُّحاة فيها قولان ...! فهو يحتمل تأويلَ ما أظنُّ به من خير ، وما أتوقّع به من شرٍّ ؛ وكم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَس في خاطري قلتُ : آه ، هذا الذي كان ...!

أما والله إن ثيابَ الناس لتجعلُهم أكثرَ تشابُهاً في رأي النفس ، مما تجعلهم وجوهُهم التي لا تختلف في رأي العين . وإني لأرى العالَمَ أحياناً كالقطار السريع منطلقاً بركْبِه وليس فيه مَن

(١) كتبت في ساعة ضجر ، من هذه الساعات الطارئة على الروح ، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده ، والعالم كله وحده ؛ ذاك في وجود نفسه خاصة ، والآخر في وجود الطبيعة كلها

يقوده. وأرى الغفلة المُغبرطة قد بلغت من هذا الناس مبلغَ من يظنُّ أنه حيٌّ في الحياة (كالموظَّف تحت التجربة). فإذا قضى المدةَ قِيلَ له: ابدأ من الآن؛ كأنه إذا عاش يتعلَّم الخير والشرّ، ويدرك ما يَصلُح وما لا يصلح، وانتهى من عمره إلى النهاية المحدودة — رَجَعَ من بعدها يعيش منتظماً على استواءٍ واستقامة، وفى إدراكٍ وتمييز. مع أن الخرافة نفسها لم تَقبل قطُّ أن يُعَدَّ منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجَلُه فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه، بل وجدوه مولوداً في فراشه...!

وقالتْ لى النفسُ: وأنت ماشأنكَ بالناس والعالَم؟ ياهذا، ليس لمصباح الطريقِ أن يقول: «إن الطريقَ مظلم» إنما قولُه إذا أراد كلاماً أن يقول: «هأنذا مضيء..»

والحكيم لا يَضجرُ ولا يَضيقُ ولا يتململ، كما أنه لا يَسخَفُ ولا يَطيشُ ولا يَسترسِلُ في كَذِب الوهم؛ فإن هذا كلَّه أثرُ الحياةِ البهيميَّة في هذه البهيمة الانسانية، لا أثرُ الروح القويّة في إنسانها. والحيوانُ هو الذي يجوعُ ويشبع لا النفسُ.. وبين كل شيئين مما يَعتَورُ الحيوانيةَ كالخلوّ والامتلاء، واللذة والألم — تعمل قُوَى الحيوان أشياءَها الكثيرة التي تتسلَّط بها على النفس لتَحُطَّها من مرتبةٍ مرتبةً الى أن تجعلَها كنفوس الحيوان؛ ولهذا كان أول الحكمة ضَبط الأدوات الحيوانية في الجسم، كما توضَع اليدُ العاملةُ على مفاتيح القطار المنطلق يتسعَّرُ مرجلُه ويغلى

إعملْ يا صاحبي عملَكَ؛ فاذا رأيت في العاملين من يَضجَر فلا تضجرْ مثله، بل خذ اطمئنانَه الى اطمئنانك، ودعه يخلو وتضاعفْ أنت

إنه ليوشِكُ أن يكون في الناس ناسٌ (كالبُنوك): هذه مُستودَعاتٌ للمال تحفظه وتخرج منه وتُثمِّرُه، وتلك مستودعاتٌ للفضائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها. وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال هو إطلاقُ النكبة مُسدَّدَةً بها على رجلٍ تقتله؛ ولكنّ إفلاسَ (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ بدفعها الكبير على مدينةٍ تُدَمِّرها.

***

قلت لنفسى: فما أشدَّ الألمَ في تحويل هذا الجسد إلى رشيد رُوحٍ مع الروح! تلك هى المعجزة التى لا توجد في غير الأنبياء، ولكنّ العمل لها يجعلها كأنها موجودة. والأسدُ المحبوسُ محبوسةٌ فيه قُوّتُه وطباعُه؛ فإن زال الوجودُ الحديديُّ من حوله، أو وَهَنَت ناحيةٌ منه انطلق الوحش.

والرجل الفاضلُ فاضلٌ ما دام في قفصه الفكريّ، وهو مادام في هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح المكن في النفس الانسانية، تُصيبُه السيئةُ من الناس لتختبرَ فيه الحسنة، وتبلوه الخيانةُ لتجد الوفاء، ويكثر نه البُغضُ ليقابلَه بالحب، وتأتيه اللعنةُ لتجدَ المغفرة؛ وله قلبٌ لا يَتعب فيبلغُ منزلةً إلا ابتدأ التعبَ ليبلغَ منزلةً أعلى منها، وله فكرٌ كلما جَهَد فأدركَ حقيقةً كانت الحقيقةُ أن يَجْهَدَ فيدركَ غيرها

وقالت لى النفس: إن مَن فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمتُه في أن يفوقَ نفسَه الكبيرة؛ إن الشيء النهائيّ لا يُوجَد إلا في الصغائر والشرّ، أما الخير والكمالُ وعظائمُ النفس والجمال الأسنَى فهذه حقائقُ أزليّة وُجدتْ لنفسها؛ كالهواء يتنفَّسه كلُّ الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهى، ولا يُعرف أن ينتهى؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض، يُشْبِه أن تكون تلك الصفاتُ منبعثةً إلى النفوس من أنوار الملائكة، وبهذا كان أكبرُ الناس حظاً منها هم الأنبياء المتّصلين بتلك الأنوار

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الانسانية أصلا صغيراً، يجمع فكرةَ الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى، وقد تَعظمُ فيه هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضها، وقد تَصغر فيه بعضها أو كلها. ألا وهو الحبّ

لابدّ أن تمرّ كلُّ حياةٍ إنسانية في نوع من أنواع الحب؛ من رقّة النفس ورحمتها، إلى هوى النفس وعشقها

وإذا بلغ الحبُّ أن يكون عشقاً، وَضع يده على المفاتيح العصبية للنفس، وفتح للعظائم والمعجزات أبوابَها؛ حتى إنه ليجعل الخرافةَ الفارغةَ معجزةً دقيقة؛ ويملأ الحياةَ بمعانٍ لم تكن فيها من قبل، ويصبح سرُّ هذا الحبّ لا ينتهى؟ إذ هو سرٌّ لا يُدْرَك ولا يُعرف

إجهدْ جهدكَ يا صاحبي ، فما هو قفصك الفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسك ، ولكنه صقلُ النفس لتاقي الأنوار ، ولا بدَّ للمرآة من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحجَر

***

قلتُ لنفسي : فما أشدَّه مضضاً أعانيه ! إن أمري ليذهب فرَطاً . أكلما ابتغيتُ من الحياة مَرحاً أطربُ له وأهتزُّ ، جاءتني بفكرة أستكدُّ فيها وأداب . أهذا السرور الذي لا يزال يقع بين الناس هو الذي لا يكاد يقع لي . وهل أنا شجرة في مغرسها ؛ تنمو ، صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها غير أنها لا تبرحُ مكانها . أو أنا تمثالٌ على قاعدته ؛ لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً ، ولا يَدعُها حتى تَدعه معاني العظمة التي نُصب لها ؟

وقالت لي النفس : ويحك ! لا تطلبْ في كونك الصغير ما ليس فيه ؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يَسيح أهلُ قارةٍ من الأرض في قارةٍ غيرها ، وابتغوا أن يحملوا معهم مما هناك تذكاراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها . فأنت سائح في سموات

أنت كالنائم ؛ له أن يرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى ، إلا وَصفه ، وحكمته ، والسرورَ ربما التذَّمنه ، والألَم ربما توجّع له

لن تكون في الأرض شجرة برِجلين تذهب هنا وههنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهي تُبدِع الثمار إبداعَ المؤلف العبقريّ ما يؤلفه بأشدِّ الكدِّ وأعظم الجهد ، مُطْلِقةً ضميرها في الفكرة الصغيرة ، تَعقِدُها شيئاً شيئاً ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كل وقت تعود عليها ، حتى تستفرغَ أقصى القوة ، ثم يكونُ سرورُها في أن تهبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجدتْ

إن في الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة ، فالحياةُ فيها على حقيقتها ؛ وأكثرُ ما تكون الحياةُ في الانسان على مجازها ، وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلون . ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقرَّ فيه سراً من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرة التي تصنعُ ثمارَها — فقد غرسه شجرةً في منبتها لا مفرَّ ولا مندوحة . وقد يُخيلُ له ضعف طبيعته البشرية أحياناً أن نضرةَ المجد التي تعلوه وتتألق حوله كشعاع الكوكب — هي تعبُه ونَجره ، أو أثر انخذاله وألمه ومسكنته . وهذا من شقاء العقل ، فانه دائماً يضيف شيئاً الى شيء ، ويخلط معنًى بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ماهي ؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ، والعقل لا يرى أمامه إلا الآلهية ، فهو يقلدها في مُداخلةِ الأشياء بعضها في بعض ، لايجاد الأسرار بعضها من بعض

ومن ثمَّ كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعاةً للملل العقليّ في الانسان ، لا يكاد يقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمع في غيره ، وما فاز بلذةٍ إلا ليزهد فيها ، وأجل ما أحبه الانسانُ أن يناله . فلا بدَّ لهذا الانسان مع كل صواب من جزء من الخطأ ، فان هو لم يجد خطأ في شيء أنتفكَ لنفسه الخطأ المضحك في شبه رواية خيالية

إنه لشعر سخيف بالغُ السخافة أن يتخيل الغزيق مفكراً في صيد سمكةٍ رآها . . . ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يضيفه الى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجل حقائق اللذة عن ألم يتألم به ليعْبَس فيه !

***

قلت لنفسي : فهل ينبغي لي أن أحرق دمي لأني أفكر ، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسناء بمنظار مكبِّر لا يريه ذلك الوجه المعشوقَ إلا ثقوباً وتخريماً كأنه خشبةٌ نُزعت منها مساميرُ غليظة . . . ! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال . وهل بُدٌّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارتصد له من عمل ؛ فلا يكون الحوذيّ حوذياً إلا لشبه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالتْ لي النفس : إن فأس الحطاب لا تكون من أداة الطبيب ، تخذ لكل شيء أداته ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة ؛ فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرهف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمداً ، ولكانوا في هذا الوجود ، على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذي قُيِّد وحُبس في رَهَجٍ تثيره القدم والخف والحافر ؛ لا يتنفس إلا الغبار يثار من حوله الى أن يقضي عليه

إجهلْ جهلَكَ يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها التَعَلُّمُ الخبيثُ الذي يُفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لروحك الطفلة في ملائكيتها حين تساورك الشهوات : « هذا ليس لي ؛ هذا لا ينبغي لي »

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفلُ الملائكي

وعِلْمُ خسائس الحياة يجعل للانسان في كل خسيسة نفساً تتعلقُ بها ، فيكون المسكينُ بين نفسين وثلاث وأربع ، الى ثلاثين وأربعين ، كأنهن يتنازعنه فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويصبح بعضه بلاءً على بعض ، وتشغله الفضول ، فيعود لها كالمزبلة للَّتي فيها ، ويُمْحَقُ في نفسه الطبيعيةِ حسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمْحَق في المزبلة معنى النظافة ومعنى الحسِّ بها

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الانسان المنكود ، هي الأرواح التي يَنْفُخُها في مصائبه ، فتجعلها مصائبَ حيةً تعيشُ في وجوده وتعمل فيه أعمالها ، ولولاها لماتت في نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائبُ كثيرة

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كلَّه في سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنةُ الطرب ؛ وانظر بالعقل العالم ، فلن ترى في الكون كلِّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء

وَمَدَى الروح جمالُ الكونِ كلِّه ؛ وَمَدَى العقل قطعة من حجرٍ ، أو عظمةٌ من حيوان ، أو نسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذَةٌ من مَعْدِن ، وما أشبهها

إجْهلْ جهلَكَ يا صاحبي ؛ ففي كل حُسْنٍ غَزَلٌ ، بشرط ألاّ تكونَ العاشقَ الطامع ، وإلاّ أَصَبْتَ في كل حسنٍ هَمّاً وَمَشْغَلَة . . . !

* * *

قلتُ لنفسي : إلى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمتُه عنكِ

وقالت لي النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذي كتمتَه عني . . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

٣ـ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري



المرحوم محمد بك المويلحي

نحو في نشأته ودراسته

لقد عرفتَ مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً عالياً بيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصامياً عما حصّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه فأكبَّ على الكتب دائرها ومجفوِّها . ولعل أكثر نظره إنما كان في كتب التاريخ والسِّيَر ، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لهما في مواطن الاستشهاد فطنة عجيبة ، الى دقائق دقيقة ، مما يَعلَق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قل أن يفطن لها أكثر القارئين ، وقلّ أن يحفل بها أو يعلَقها من يفطن اليها من الدارسين . على أنها قد يكون لها في دواعي الكلام مقام عظيم ، وكثيراً ما ترفعه درجات على درجات

كذلك اعتمد محمد في تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخل رجالَ الحكم وأصحاب السياسة في مصر وفي الآستانة فعرف أساليبهم ، وأدرك مذاهبهم . ولم ينكسر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحبَ كذلك

أهل الظرف وأصحاب البداهة ، وشاركهم في أسمارهم ، ودخل معهم في مناقلاتهم ومنادراتهم

وعالج البيان من صدر شبابه ، يصقل له أبوه القول ، ويقرّب له مصطلح اللفظ ، ويأخذه بتجويد النسج ، ويهديه الى مضارب العلم . وسرعان ما نضج وأدرك ، وجرى قلمه بالبيان حلواً متيناً نيراً ، ووقع من فنون المعاني على أجلّها وأكرمها . ونهج لنفسه أسلوباً خاصاً به إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقين من أعلام الكتاب فكان منه بذلك كله الأديبُ التامّ

واحترف صنعة القلم ، واشترك في تحرير جريدة القطم بضع سنين على ما أظن . ولا أحسبه قد شارك أباه في تحرير الصحف التي أخرجها في عهد المرحوم الخديو اسماعيل ، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده ، فهو أبعد في أرجح الظن ، من حمله القلم والله أعلم !

وكان أبوه ، رحمة الله عليهما ، كثير الاختلاف الى الآستانة مثوى الخلافة يومئذ ، فكان يصحبه في بعض هذه الرحلات ، وقُلّد ابراهيم بك في زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بضع سنين ، لعلها تسع إن صدقتني ذاكرتي ؛ فقضى محمد في الآستانة هذه السنين

ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارة مصر ، وآثر المقام في إيطاليا دعا بابراهيم بك ليؤنسه ويسامره ، ويخدمه في بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولده وأقاما في نابولي في قصر اسماعيل بضع سنين . ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغةَ الطليان

ولقد طاف محمد كثيراً ببلاد أوربا ، إما موفداً من أبيه في بعض مساعيه ، وإما متفرجاً متنزهاً . وله في وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقال بارع بديع ، كان ينشر منجماً في مصباح الشرق[1] وطاف كذلك بالبلاد السورية ، وزار المدينة المنورة ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ، ونشره في جريدة المؤيد[2]

واستقرّ المويلحيان أخيراً في مصر ما برحانها إلا للنزهة والرياضة . وأصدرا صحيفة «مصباح الشرق» وقدمت لك صفتها في أول مقال . ثم طواها كما ذكرت لك ، واعتكف في داره لا يلي عملاً عاماً ؛ حتى عين في سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الادارة والسكرتارية في ديوان (عموم) الأوقاف ، وأزيل عن هذا المنصب بعد إذ قامت الحرب العظمى ، وتبدّلت الحال ، لأسباب لا يحتمل ذكرها هذا المقال . فعاد الى اعتكافه لا يتدلىّ الى البلد إلاّ في قضاء حاجة ، أو مساهرة من يستطيب مجالستهم من الصحاب ، وظل كذلك الى الشكاة التي مات فيها ؛ عليه رحمة الله . وكانت وفاته في يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠

أخلاق المويلحي وعاداته :

قبل أن أطرق هذا الباب من سيرة الرجل يحسن بي أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يعتريه في بعض الحديث مايشبه الحُبْسة ؛ بل لقد تتعثر الكلمةُ في حلقه فلا يستطيع أن يلفظها إلا بعد عنت ، كأنما يعترض لها مجرى الصوت

ومن أهم ما يلفت النظرَ في خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمر المرءَ من متعارف الناس ومصطلحهم في عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ؛ بل لقد كان له نظرهُ الخاصّ في الأشياء ، وكان له حكمه الخاص عليها ، وهو إنما يأخذ نفسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالي أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجيّ ، ولو كان مما انعقد عليه اجماعُ الناس ، وإذا كنتُ قد نعتّه (بالفيلسوف) فانما أعني هذه الصفةَ فيه . فانني لم أكد أرى رجلاً لاءم كل الملاءمة بين رأيه في أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لي من خلّةَ هذا الرجل بحكم ملابستي له السنين الطوال

ولقد كانت له آراء في كثير من الأشياء لقد تبدو غريبةً حتى يُظَن أن في طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف . وما أُحيلُ هذا إلاّ على أنه لا يخفّ لمطاوعة الناس في كل ما يستوى من الأدراك للناس !

ثم لقد كان رجلاً رجح عقلُه ذكاءه . وإنه ليحتاج في تفهُّم دقائق المعاني الى شيء من المطاولة والتدبير . على أنها بعد هذا تتّسق لذهنه مدركة ناضجة ، لا كما تخطر لحداد الذكاء (خطرةَ البرق بدا ثم اضمحلّ) !

---

(١) ألحق هذا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) في آخر طبعاته

(٢) وكان قد دعى إلى هذه الزيارة الكريمة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالا بافتتاح سكة الحديد الحجازية .

كذلك كان مما يلفت النظر فى شأن المويلحى أنه شديد الاستيحاش من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألف . ولقد يكون فى مجلس يجمع الصفوة من خلانه ، ومعهم رجل لا يعرفه ، فاذا هو يفتُر وينقبض حتى يكاد (يوحش فى المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخول فى زحمة الناس ، والترائى للجماهير ، وما إلى هذا من مقتضيات الظهور

ومن أجلّ صفات هذا الرجل حدّة العزم ، وقوة الصبر ، وشدة التحمل على النفس . فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهراً للبَرم بالحياة مهما كرثه تصرّف الحياة . ولقد يكثر المالُ فى يده فيبسطها ، إلى ما يقرب من السرَف فى النفقة فى حاجاته ، واصابة ما يحلو له من المتع واللذائذ . ولقد يرقّ المال فى يده ، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يبرحها أبداً ، متجملاً فى عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة ، لا يسأل أحداً عوناً ولا يطالع الصديق بحاجة

كذلك كان من أجلّ صفاته الصدق فى القول ، ولقد عاشرته ما عاشرته ، فما أذكر والذى نفسى بيده ، أننى أحصيت عليه كذبة واحدة قط ، ولا من ذلك النوع الذى يتورّط فيه المرء فى مصانعة الناس ومجاملتهم ، فإن ألجأت التقاليد عليه فى شىء من هذا سكت أو ورّى . ولقد أذكر أنه قابل ولىّ الأمر الأسبق فى يوم من أيام رمضان ، فسأله أصايم أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره (والله يا أ. كذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك ملء شدقيه من هذا الجواب

***

ثم لقد كان ، رحمه الله ، شديدَ العناية بالنظافة فى جميع ملابساته ، متأنقاً عظيم التأنق فى كل شىء ، يحب الزهر ويكلف به ، ويحسن تأليفه وتصنيفه ، ولا يمس إلاّ أزكى العطر وأغلاه

وكان شديد الاحتفال للطعام ، مبالغاً فى التأنق فيه . ولربما طالع طاهيه المرات العديدة فى مطبخه ، يتقدم اليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع بتلك الصحفة كيت وكيت ، وهو بهذا حق خبير . فاذا قرّب اليه طعامه اجتمع له احتياج شهوان يلتذ به أتم التلذاذ . على أنه مع هذا كان حسن الأكل ، يلتزم فى تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب

وكان رجلاً طَبًّا ، كأن طول تمرينه فى النقد الكتابى قد طبعه على النقد فى كل شىء ، وأنضج ملكته فيه ، فلا تراه يتخذ شيئاً فى أى سبب من أسبابه إلا إذا فحص ونقد وتخير ، فما يكاد يُخدع على أمر أبداً !

وهو ، بعدُ ، يحبّ النكتةَ البارعةَ ويحتفل لها . على أنه إذا وصل المجلسُ بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال المرحومين السيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن فى الغالب هو المنشىء للنكتة والمبتكر لها ، ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاّها بالتخريج والمطّ والتوليد والتلوين ، فما ينتهى أحد فى ذاك منتهاه

ومهما يكن من شىء فان هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فاذا تحدّث فى هذا الباب فحديث المتمكن الخبير

ومما ينبغى أن يذكر له ، ويختم به هذا الحديث ، أنه رجل لم يجد الالحاد ولا الزيغ الى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمناً شديد الايمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فان رأيت منه شيئاً من الانحراف فى تخريج مسألة جزئية من مسائل الدين ، فأرجع الأمر على مجرد الخطأ فى الاجتهاد والتأويل

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ، وأحسن جزاءه فى دار الجزاء ؟

عبد العزيز البشرى

صفحة من التاريخ

مأســـاة

وقعة انبابة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

علة الشرق هاهى : حاكم يسطو ويعبث بالقطيع الذى هو حارسه ، ويبطش به بطش الذئب إذا عدا فى غيبة الحارس الأمين ، فتجفل الشياه ذات اليمين وذات الشمال . ويتقدم من هنا أو من هناك كلب جرىء يحاول أن يدفع الغائلة عن شياهه . فاذا هو يرى سيده الحارس هو الذى يبطش ويفتك . فيضع ذيله بين رجليه ، ويكتم عواءه فى حنجرته ، ويجرى إلى ناحية يكشر عن أنيابه منفرداً وهو متخاذل مهدود العزيمة . لو كان ذلك العادى ذئباً حقيقياً لما وضع الكلب المسكين ذيله بين رجليه ، بل لرفع ذيله وعدا عامداً إلى رقبة ذلك الذئب وأنجى منه القطيع . فأما والذى يفتك بالقطيع هو حارسه ، وأما والذى يبطش به هو الرجل الذى اعتاد أن يحمل الهراوة ويسطو بها على رأسه يكاد يحطمه ، فأمر آخر . وللكلب كل العذر إذا هو التمس العافية فى مهرب من مهارب المرعى ، أو فى مكمن من مكامن الوادى . ولا لوم عليه إذا هو فعل

كان (خوارزم شاه) حاكم خوارزم (أو بلاد مابين سيحون وجيحون) فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى ، حاكماً جباراً عاتياً . وكان لا يتردد عن مظلمة ، ولا يحجم عن إيقاع . فكم مثل بتجار من بلاده ، وسجن وعذب ونهب . وكم مثل بتجار من بلاد جيرانه التتار ، وسجن وعذب ونهب . ولم يقف أذاه عند هذا الحد ، بل تعدى إلى الدولة التى هو حاكمها ، ففت فى عضدها وخضد شوكتها ، وحطم عودها ، حتى صارت بلاده شعباً مشدوهاً وحكومة منحلة مضيعة

ثم كانت الكائنة التى لا بد منها فى بلاد مثل بلاده ، فأغارت جيوش جنكيز خان على أطرافها فعجمتها ، فاذا هى رخوة جوفاء ، فتقدمت فيها وأوغلت ، فلم تجد من الطاغية إلا جباناً ، ولم تر منه إلا حرصاً على نفسه وماله وأهله . فما هو إلا أن رأى الجد من أعدائه ، وأحس بما كان لا بد منه من ضعف ومن عجز ، حتى ترك البلاد وهرب إلى مأمن ليلتجىء إليه ، وبقى الناس حيارى بعد هربه يحاولون الدفاع وما لهم به من قوة ، ويرجون النجاة وأنى لهم ذلك وقد اقتلع الطاغية جذور القوة من الشعب لتلين له قناته ، فلانت قناة الشعب له حقيقة ، ولم يستطع أن يقاوم طغيانه ما بقى للطغيان ، حتى إذا ما أتاه العدو وألفى نفسه عاجزاً ، ترك ذلك الشعب المسكين وهو أعزل ذليل عاجز عن حماية نفسه . فكانت الكارثة ، وذهب الطاغية وشعبه كلاهما ضحية لعواقب الطغيان

هذه سنة الطغاة أبداً ، وهذه سنة الكون منذ نشأ . وما كان للقرن الثامن عشر أن يحيد عن سنة الكون التى نكبت خوارزم فى القرن الثالث عشر . فقد كانت مصر فى القرن الثامن عشر تحت طاغيتين من طغاة البشر : مراد وابراهيم ، وكانا كسائر الطغاة قصيرى النظر مفلولى العزيمة ، لا همة لهما إلا فى صغائر الأمور والأنانية . ولسنا بسبيل وصف ما كان عليه حكمهما من الميل والاعوجاج ، ولا ما كان عليه خلقهما من الشناعة والفظاعة ، فقد يكون لهذا حديث آخر ، وإنما نقصد من كلمتنا هذه وصف حال البلاد عندما أزمت الأزمة التى كان لا محيد عنها ، ووقعت النكبة التى كان لا بد منها من وراء حكمهما

جاء الفرنسيون إلى ثغر الاسكندرية ، وأصبح الصباح وإذا أهل ذلك الثغر يرون الجنود يخالطونهم ، ويترددون فيما بينهم

وكان الفرنسيون يحملون سلاحاً عجيباً غريباً ، لا عهد لأهل الثغر به ، فما كان عهدهم بالجنود إلا هؤلاء (الانكشارية) الذين يقيمون فى القلاع بين ظهرانيهم يدخنون الشبقات الطوال ، ويطيلون شواربهم ، ويملون أصواتهم بالسباب ، ويعدون أيديهم بالأذى ، ولا يحملون من السلاح إلا تلك البنادق العتيقة الرثة التى أكلها الصدأ وعفى عليها القدم

وتقدم الانكشارية نحو الجنود الفرنج ليدفعوهم عن الاسكندرية ، فما هى إلا جولة قصيرة حتى رموا بما فى أيديهم من الأسلحة العتيقة ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى حيث يجد لنفسه مأمناً

ورأى أهل الاسكندرية أن هؤلاء الجنود ليسوا سوى شوكة فى حوانهم فى السلم ، فاذا حل الحرب فهم لا يدفعون أذى ولا

يرجى منهم غير الأذى . فوقفوا بعضهم يشجع البعض، وأحدهم يساعد الآخر ، يحاولون أن يلتمسوا لأنفسهم الحماية بسواعدهم . فتحصنوا في المنازل وجعلوا في كل ركن متراساً ، وفي كل حائط مرصداً . غير أنهم واحسرتاه أرادوا الدفاع ولم يستطيعوه ، فإذا بالعدو يحصدهم حصداً ، ويدك بيوتهم دكاً ، ويجتاح متاريسهم اجتياحاً . فسلموا للعدو ونزلوا على حكمه ، وصار الفرنسيون في ساعة أصحاب الأسكندرية

ثم تقدم الجيش الفرنسي المنصور إلى طريق القاهرة ، وسمع طاغيتا الدولة بسيره ، فأجمعا أمرهما على أن يسير مراد ليلقاه فيشتت شمله بصدمة من صدمات فرسانه الشجعان . وخرج من القاهرة منتفخ الأوداج كبراً ، ممتلئ النفس إدلالاً وغروراً . وجعل الناس يسائلون أنفسهم ماذا عساه يفعل ، ويأبى هو إلا أن يرد بالازدراء على ذلك التساؤل قائلاً : « سنحطم ذلك الجيش المغير تحت سنابك خيولنا » وسار حتى بلغ شبراخيت أو قريباً منها ، وهنالك لاحت له طلائع الجيش الفرنسي . ثم كان الاصطدام ، ولطم لطمة خفيفة لم يصبر عليها ، بل هرب فزعاً ، واضمحلت كبرياؤه ، وذاب إدلاله كما يذوب الثلج في الحر ، وأسرع راجعاً إلى العاصمة لعله يأتنس بمن هنالك من جنود زميله ابراهيم ، أو ينتصر بمن هنالك من الشعب المصري الذي طالما أوقع به في طغيانه وجبروته . فلما بلغ مصر وقف ببقايا جيشه عند (انبابه) ، وأرسل إلى القاهرة يستنجد ويستمد ، فنودي على أهل القاهرة بالنفير والتجهز للدفاع . وهكذا لم يجد الطاغيتان أخيراً أن لهما غنى عن الشعب ، وعلما بعد أن وقعت الواقعة أن الملجأ الأخير إنما يكون إلى هؤلاء التافهة ، وقد كانا في أيام السلم لا يقيمان لهم وزناً ولا يفكران فيهم إلا من أجل أموال يبتزانها ، أو من أجل كبريائهما يغذيانها ، أو من أجل نفسيهما الطاغيتين يشبعان شهوة طغيانهما

ولكن كان الشعب واحسرتاه قد قتله الطغيان . فأجاب دعوة النفير وجعل يستعد للدفاع ، ولكنها إجابة المضنى الذي أجهده الضنى ، واستعداد النزيف قد خارت قواه من طول ما أريق من دمائه ، فما يكاد يعتمد على رجليه حتى يخر إلى الأرض مهدوداً متهالكاً

أغلق الناس (دكاكينهم) وهجروا أسواقهم ، وخرجوا جميعاً إلى بولاق يجمع بعضهم من بعض ما عندهم من المال الضئيل ، فأما من عنده فضلة من ماله فقد تطوع بالانفاق على غيره ، وبذل السلاح والطعام لمن يحتاج إليه . وهم في كل ذلك يتلفتون لعلهم يرون هؤلاء الألى كانوا بالأمس يشمخون بأنوفهم عتواً وكبراً ، فلا يجدون إلا باحثاً منهم عن أمر نفسه ، أو منهمكاً في نقل متاعه وأمواله إلى حيث يكون آمناً عليها من النهب أو المصادرة .

وأبصر الناس ذلك فلم يثنهم عن التقدم نحو واجبهم وهم في غير عدة . لا بل ماهو أكثر من ذلك ، قد تقدموا وهم غير أكفاء ولا مدربين في أمور الحرب ، إذ طالما قد وقف الطغاة بينهم وبين أداء حق الدفاع عن الوطن ، خوفاً منهم أن يجعلوا لهم في أمر بلادهم رأياً ، أو في حكم وطنهم شأناً . وتقدم شعب مصر نحو الجهاد الوطني ، وأكثرهم أعزل لا علم له بالحرب ، ولا بما تستلزمه من جهد أو من دربة . حتى لقد خرج بعضهم بالنبابيت ، لا يحسبون ذلك إلا مغنياً عنهم في معمعان ذلك الجهاد

ووقف الطغاة ينظرون ما صنعت أيديهم ، ومع ذلك لم تنفطر قلوبهم أسى مما يشهدون ، ولم يبخعوا نفوسهم على آثار ما اجترمت حكومتهم في البلاد . بل ظلوا وهم « حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، يختالون في ريشهم ، مغترون بجمعهم . محتقرون لشأن عدوهم ، مرتبكون في رؤيتهم ، مغمورون في غفلتهم »[1]

وقدم جيش فرنسا بعد قليل إلى انبابة ، فتقدمت اليه جماعة من العسكر ليصدم الجيش المغير مرة أخرى بهجمتها العنيفة . فدفعوا الخيل في صدر الجيش المقبل ، ولكن لشد ما عجبوا إذ رأوا ذلك الجيش ، لا يتمزق لصدمتهم ، ولا يتصدع من هجمتهم ، فعادوا مذعورين ، وستة آلاف من الجيش الفرنسي تضرب في أقفائهم ، حتى بلغوا متاريس مراد بك ، فانضموا اليه وقد دب الرعب في قلوبهم

سار الجيش الفرنسي المتقدم وراء المنهزمين ، وانقسم على أسلوبه وطريقته ، ثم دار على نظامه وخطته ، فاذا متاريس مراد بك محصورة وسط نيران الجيش الفرنسي ، وإذا النار تنصب على المصريين من خلف ومن قدام . وكان فزع ، وكانت مذبحة ، وما هي إلا ساعة أو أقل من ساعة ، حتى انجلى الغبار وارتفع القتام عن حطام الجيش المصري ، بعضها ملقى فوق اليابس ، وبعضها يتخبط في ماء النهر ، وفلول أسارى في أيدي العدو ، والنقع الثائر من جهة الجنوب يخفي وراءه الطاغية (مرادا) ، وهو هارب نحو الجيزة حرصاً على حياته

(1) هذه كلمات الشيخ عبد الرحمن الجبرتي رحمه الله

صحف مطوية من التاريخ الإسلامي

٣ - العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة البحث

أتينا فيما تقدم على أخبار الغزوات واستعمرات المسلمة في غاليس ولومبارديا وسويسره منذ أواخر القرن الثامن الميلادي حتى جلاء المسلمين نهائياً عن تلك الوهاد والسهول في أواخر القرن العاشر ، ونحاول الآن أن نعرض طرفاً من العوامل والظروف التي أحاطت بتلك الغزوات ، وطرفاً من الآثار التي خلفتها في البلاد والأمم التي كانت ميداناً لها

ينكر بعض مؤرخي الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والاسلامية بوجه عام خاصة الاستقرار والانشاء ، ويقولون إنها كانت في الغالب حملات ناهبة تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم ، ولا ريب أن ظمأ المغنم ، وشغف المغامرة ، وما إليهما من لذة الاستكشاف والسيادة كانت من أهم العوامل التي قامت عليها هذه الغزوات ؛ وتلك هي العوامل الخالدة التي تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل كانت تحفزهم الحماسة الدينية وفكرة الجهاد في سبيل الله ؛ وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل في الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف الحكومات والأمم الاسلامية التي تنتمي إليها ، وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات جليلة بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية وإضعاف جيوشها ومواردها ، ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والأنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1] ؛ وقد استقروا بالفعل واستعمروا حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبل البقاء ، كما فعلوا في أقريطش ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها ، زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١ م) ونشروا بها الاسلام والحضارة الاسلامية ؛ وكذلك استقروا مدى حين في باري وفي تارانت من ثغور إيطاليا الجنوبية ، وفي راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ، وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوب إيطاليا) مستعمرات زاهرة لبثت حلية هذه المياه عصراً . هذا ولسنا نتحدث عن دولة الاسلام في اسبانيا ، ولا دولة الاسلام في سقلية ، لأننا نخص بهذا الحديث غزوات الجماعات والعصابات المسلمة التي كانت تعمل لحساب نفسها مستقلة عن الحكومات

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً في تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الاسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك ، ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب لم تكن خاصة بالغزوات الاسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ؛ ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الاسلامية أقل عنفاً وسفكاً ؛ ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الاسلامية أروع صنوف الدمار

(١) Finlay: Byzantine Empire Ch. III—I

وسمع من في الجانب الشرقي من النيل بضجة الحرب ، ورأوا ما اندلع فيها من لهب ، وما تردد فيها من قصف يشبه قصف الرعد ، فلم تثبت نفوسهم بما لا عهد لهم به ، وإن كانوا حريصين على أن يجاهدوا ويجالدوا ، وخانهم الجلد وإن كانت نفوسهم تواقة الى أن يثبتوا ويصبروا . والذعر متى استولى على النفس ، لم يبق فيها محل لثبات ولا لصبر ، ولم يترك في القلب موضعاً لحفاظ ولا لحمية . فركبوا رءوسهم وهاموا على وجوههم ، بعضهم ناج بنفسه لا يلوي على شيء ، وبعضهم استطاع أن يثبت نفسه ليخرج بأهله وحرمه ، وأقبل عليهم الليل ، وهم فوضى مشردون مشدوهون ، يحسبون كل ضجة صوت مطارد ، ويخشون أن يكون كل متردد في الظلام عدواً مقبلا بسفك الدماء وهتك الأعراض

وهكذا شهدت أهرام مصر كيف تم للطاغية جريمته بنكبة شاملة ، لا يبقى فيها بر ولا فاجر ، ولا يسلم منها الظالم ولا الضحية

محمد فريد أبو حديد

والسفك ؛ بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الاستعمارية الحديثة : الاسبانية والانكليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة في أفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار

***

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الاسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب ، ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكويتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الاسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت أقرب إلى المغامرات المؤقتة منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمي ، لأنهم كانوا في مراكزهم النائية متفرقين يشغلون قبل كل شيء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة ، وهذه المستعمرات العربية النائية خلفت وراءها في الأراضي المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضي على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التي كانت قائمة في تلك الأرض ، والتي لا تزال قائمة في بعض آكام الألب الفرنسية والبيمونتية ، وهي تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة في فن التحصينات والمنشآت الحربية ؛ وهنالك في جنوب فرنسا ، وفي بعض أنحاء ايطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية ؛ ويرى البعض أن هذه الأبراج إنما هي آثار عربية من مخلفات الغزاة ، كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى في سبتمانيا (لانجدوك) أعني منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون في الأراضي المفتوحة حصونا وأبراجا تسمى « بالرباط » . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ليستعينوا بها على رد الغزاة

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (الداليات) في أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ، ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع الى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً في الأعوام الأخيرة في منطقة تور سيوف ودروع قيل إنها عربية من مخلفات الواقعة الشهيرة التي نشبت في تلك السهول بين العرب والفرنج (بلاط الشهداء)

ومن الحقائق التي لا شك فيها أثر العرب في الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم واستقروا في تلك الأرض وزرعوها . ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا الجدبة الى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا اليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة ؛ وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون الى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الانحاء ؛ ويقال إن « القمح الأسمر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا انما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره وكانوا أول من زرعوه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وأفريقية الى شواطىء الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » الذي تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسي « Quitran » ينم عن أصله العربي

ومن الحقائق الثابتة أيضاً فضل العرب في تحسين نسل الخيل في تلك الأنحاء ، وما زال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما في « كاماراج » ، وفي مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ؛ ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة إنما هي من سلالة الخيول العربية التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم الى تلك الأنحاء

ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا ، فقد رأينا أن العرب أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية وتزوجوا من نساء تلك الأرض وتناسلوا فيها ؛ ولما تغلب عليهم النصارى ، وأخرجوا نهائياً من تلك الأرض ، تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ؛ وقد

لبث أبناء هؤلاء العرب المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة ، حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا أخيرا فى المجتمع النصرانى . واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية . ، وما زالت ثمة فى بروفانس فى وادى الرون على مقربة من ليون ، وكذلك فى بيجور على مقربة من جبال البرنيه ، جماعات فرنسية تتكلم لهجات غريبة ، ولها أخلاق وتقاليد خاصة ، ويظن البعض أنها ترجع إلى أصل عربى ؛ ولكن البحث يرجح أنها ترجع الى بعض قبائل النور الذين استقروا فى تلك الأنحاء منذ عصور

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات بروفانس التى استقر فيها العرب مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص ، يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour ، والتى ظهرت فى جنوب فرنسا وفى شمال اسبانيا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف الى ذلك أن تأثير الحضارة الأسلامية فى سير حضارة أوربا الجنوبية لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس ، والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها الاجتماعى أعظم الآثار

ولقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها إلينا الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر ، وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالاً لاتذكر بجانبها أهوال الغزوات الاسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب ، وأضحت تقرن بكل ماهو عظيم ضخم[1] ، يقول رينو : « إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لاتوجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب مازالت ماثلة فى جميع الأذهان ؟ لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمن والمجر ، واستطالت إقامتهم بها بعد الغزوات النورمانية والمجرية . وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ؛ حتى أننا لانستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك أن العرب ، دون النورمان والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ؛ ثم أنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا ، موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وأفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً . بيد أن هذه العوامل كلها قد لاتكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لايزال ملموساً الى يومنا[1]

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) Reinaud, ibid, P. 310

(١) Reinaud; ibid, p. 311,312 وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه النقط الخاصة بآثار العرب فى جنوب فرنسا

في يوم ماطر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كانت السماء مُطبِقةً على الأرض ، والمطر يسحّ حثيثاً متداركاً يكاد من شدته يقشر القطران ، والماء يسيل على جانبي الطريق ويتدافع ويرتفع له مثلُ الموج ، وكان أمام نافذتي بوابة عريضة وقفت على عتبتها فتاة تتقي المطر في ظُلّتها . وكانت ترتدي ثوباً مُشرّقاً بين الحمرة والبياض كأنما استعارت صبغته المزدوجة من الشمس الغاربة والقمر الطالع . وكانت فيه كأنها بقطيع أومثال فصل الثوب على قدها لعرضه على العيون ، فمحاسنها كلها مجلوّة ، وخطوط قوامها اللين مرسومة ، وقد اجتمع طرفان منه على سرتها وانعقدا على صفة وردة كبيرة ، وتدلت على مدار خصرها الهضيم ذلاذل تكاد تمس قدميها الدقيقتين ؛ أما صدرها فأطاف به شيء لا أدري ماصفته كان نهداها الناهدان يبدوان من تحته كأنهما في كأسين ، أو كأنهما موجتان متناوحتان حجزتا وحيل بينهما وبين التسرب والانسياب

ولم يكن أفتن من منظرها وهي واقفة ترقب انقطاع المطر ، وكان معي في البيت صاحب يحمل مظلة جميلة غالية ، لا تفارق يده في صيف ولا شتاء ، ولا ليل ولا نهار ، فكأنها قطعة منه ، أو امتداد لذراعه ، فغافلته وحملتها ، ومضيت بها الى هذه الفتاة ووضعتها في يمينها ، وارتددت عنها بلا كلام . فلما أفاقت من دهشتها كنت قد غبت عن عينيها

وآن لصاحبي أن يخرج ، فنظر فلم يجد المظلة ، فتلفت هنا وههنا ثم سأل فقلت :

« أترى هذه البوابة ؟ كانت هنا فتاة جميلة تخشى على نفسها وعلى ثيابها من المطر فلم يسعني إلا أنجدها . . . . »

فقال : « أعطيتها الـ . . . »

قلت : « ألم أقل لك إنك ذكي ؟ بل أنت أيضاً ذو مروءة ونجدة وشهامة »

قال : « ولكن مظلتي ؟ كيف أخرج الآن . . . . وفي هذا المطر أيضاً ؟ »

قلت : « إنها بلا شك تشكر لك هذا الصنيع الجميل ، فأنت سعيد بذلك ، فليتني كنت صاحبها — أعني المظلة ! »

قال : ولكن ماذا أصنع ؟ كيف أخرج ؟ إن هذا شيء . . »

قلت : « ياصاحبي . إن الأيثار حميد ، والأثرة ذميمة »

فقال : « تعطي مظلتي لفتاة ؟ أما إن هذا لغريب ! »

قلت : « ياصاحبي . لو رأيتها لما قلت « فتاة » بهذه اللهجة التي أنكرها ولا أرضى عنها . إنها فتاة رائعة . وإني لرجل متزن الأعصاب في العادة ، ولكني أرجو أن تثق أنها فتنتني . وإني لآسف على حرمانك هذه المظلة الثمينة — أو التي كانت ثمينة منذ أربع سنوات — ولكن عليك أن تتعزى بأن التي تحملها الآن أجمل فتاة على ظهر هذه الأرض ، وأنك أنت سبب سعادتها في هذه اللحظة ، وأن اسمك سيخلد في التاريخ ، وأني لو كنت شاعراً لقلت أبياتاً أخلد فيها صنيعك الحسن هذا ، وإن أبنائي سيحفون بي كل ليلة ويطلبون أن أقص عليهم كيف فقد صاحبي العظيم مظلته الغالية . . . »

ولم أتم خطبتي لأنه خرج مغضباً ، فأمسكت وحمدت الله !

***

وحمل إليَّ البريد رسالة غريبة هذا نصها بعد الديباجة المألوفة :

« إن ما أقرأه لك يحملني على الثقة بأنك لن تخيب رجائي فيك . فهل لك أن تقابلني أمام باب « جروبي » الساعة السابعة من مساء اليوم ؟ ولا أجرؤ أن أبدو لك حتى تبدو لي ، فاذا صدق ظني فيك فلعلك تتفضل بأن تضع في عروتك زهرة من زهور « الأرواله » البيضاء ، لأعرفك بها ، وزيادة في الحيطة أرجو أن تقول لي « لا مطر غداً » فأقول لك « لم ولماذا وكيف يكون ذلك » . فلا تنس » .

ولم يكن على الرسالة توقيع ، فلم أشك في أنها فتاة مصرية لم تألف أن تدخل « جروبي » وتجلس في حديقته ، ولكنها تسمع باسمه فهي تقف عند بابه ، فما يعقل أن يكون كل هذا الحرص والحذر من رجل ، واطمأنت نفسي بعد أن خلصت إلى هذه النتيجة ، وشكرت الحظ الذي أبعد عني صاحبي قبل أن تردني

هذه الرسالة ، بدقائق ، ولو أنه كان معي لأطلعته عليها بلا أدنى ريب ، ولكان المحقق أن يسبقني إلى باب « جروبي » فيطردني بوجوده ، عنه

واشتريت الزهرة المطلوبة ، ووضعتها في العروة ، وأخرجت منديلاً وظللت أرفع يدي به وهو منشور إلى أنني لأحجب هذه الزهرة عن العيون ، فقد كانت كبيرة وأنا أخجل أن أضع على صدري زهراً ولو كان في حجم الحمصة ، ووقفت بباب جروبي أتأمل الداخلين والداخلات ، والخارجين والخارجات ، وأشاور نفسي وأسائلها كيف أقدم على خطاب من لا أعرف ؟

ولم يكن ثم بد من الاقدام ، فما اشتريت الزهرة البيضاء الكبيرة وغرستها فوق حبة قلبي لأعرض نفسي على الأنظار ، فتوكلت على الله ، على أني — كما لا أحتاج أن أقول — أهملت العجائز وتركتهن يرحن ويجئن كما يشأن دون أن أكلف نفسي حتى النظر إليهن ، وأقبلت فتاة رشيقة تتلفت كالمترددة فتمنيت أن تكون هي ودنوت منها وقلت :

« معذرة . واغتفري لي تطفلي ، لامطر غداً ! »

فنظرت إلي باسمة وقالت :

« باردون ؟ »

فقلت لنفسي : « ليست بها . وقد غلطت والله ياولد ، فاخرج من هذا المأزق بسرعة » فتبالهت وسألتها بغير العربية :

« إنما كنت أسأل هل هذا جروبي ؟ »

فقالت وهي تبتسم : « طبعاً ... الأسم مكتوب ... »

فبلعت ريقي وشكرتها وارتددت عنها

وأقبلت أخرى أعذب منها — بلا شك — وأظرف على التحقيق ، وأولى بأن ترؤف بي إذا غلطت فيها ، وكانت تتأمل إعلانات وصوراً لشركة بواخر هناك ، فدعوت الله أن يجعلها من نصيبي ، وأقبلت عليها أقول بلا تمهيد :

« لا مطر غداً »

فقالت بعربية محطمة ، أستحي أن أثبتها بنصها : « شيء غريب ! متأكد ؟ »

قلت : « ثقي بي ... إلى نشرة جوية مثقلة ... مرصد إنساني متجول ... »

قالت : « ظاهر .. أشكرك ... »

قلت : « هذا واجبي ... فلا أستحق شكراً »

قالت : « إنك تؤديه بذمة .. لقد رأيتك الآن تخاطب سيدة هناك ... وهذه أخرى آتية ، فاسمح لي ألا أحول بينك وبين عملك »

قلت : « لم يكذب ظني »

قالت : « كيف ؟ »

قلت : « كنت موقناً أنك أظرف من تلك التي هزئت بي وأخجلتني »

فسألتني : « هل أنت على موعد مع مجهولة ؟ »

قلت : « أصبت ... »

قالت : « مسكين ! .. لعلها هذه » وأشارت فالتفت فاذا فتاتي — أعني الفتاة التي تفضلت عليها بمظلة صاحبي ، فقلت :

« اخفيني عنها لحظة حتى تمر ... تظاهري بأنك صديقتي دقيقة واحدة .. أرجو »

فضحكت وقالت : « لماذا تخشاها ؟ هل خنت لها عهداً ؟ لابأس . تعال »

ووضعت ذراعها في ذراعي وهممنا بأن نسير ، وإذا بفتاتي تصيح ورائي :

« من فضلك ... من فضلك ... ألا تذكرني .. إني مدينة لك بالشكر ، لقد تركتني فجأة كما ظهرت لي فجأة ، فلم أدر أين اختفيت ، فهل تسمح لي باسمك وعنوانك لأعيد اليك المظلة ؟ »

فقلت : « هذا شيء تافه ... لا تفكري فيه »

قالت : « ولكني لا أستطيع أن أبقيها عندي وأحرمك »

قلت : « ثقي أنك لا تحرميني شيئاً فانها ليست لي ، بل لصاحب »

قالت : « ما أرقه ! »

قلت : « إنه على نقيض ذلك . . أبعد ما يكون عن الرقة »

قالت : « هذا أدعى لردها اليه »

قلت : « لقد انتهى الأمر ، سرقت مظلته وأعطيتك إياها ، وعرف ما كان ، وغضب وشال نفسه وحطها ، ولم يبق هناك شيء آخر يمكنه أن يصنعه ، فلا تكترثي له ولا تفكري فيه »

قالت بعطف : « مسكين ! »

قلت : « لقد كنتُ أنا المسكين ، وكانت هذه المظلة تفقأ عيني كلما رأيتها ، فالآن أمنت ، وفي وسعي أن ألقاه وأنا مطمئن ، من غير أن يؤذي بصري منظر المظلة »

قالت وهي تضحك : « على كل حال لابد من ردها اليه ولك وله الشكر »

فكتبت لها الاسم والعنوان ، ولم يفتني أن أحذرها من مقابلته ، ولم يبق بعد ذلك ما يقال ، فهممت بتوديعها وإذا برجل همَّ هرم يدنو مني وينظر الى الزهرة التي على صدري ثم يقول وهو يفرك كفيه :

« هل سمعتك تقول لا مطر غداً ! »

فحدقت فيه متردداً ، ثم رفعت يدي الى الزهرة فأخرجتها من العروة ورميتها على الأرض ، فلم ينهزم وقال :

« لم ولماذا وكيف يكون ذلك ؟ »

فكاد عقلي يطير ، فتناولت ذراعي الفتاتين وأوليت الرجل ظهري ومضيت بهما عنه ، وهما ذاهلتان تنظران الي ولا تفهمان ، غير أن هذا لم يمنع الرجل أن يمشي ورائي وهو يصيح :

« لم ولماذا وكيف يكون ذلك ؟ »

فقلت لفتاتيّ : « لم يبق إلا أن نجري ، فهل تقدران على ذلك ؟ »

وجرينا مسافة ونحن نضحك ، فلما أمنا أن يدركنا وقفنا وقصصت عليهما الخبر ،

فسألتني فتاة المظلة :

« ولكن ماذا يريد منك ؟ »

قلت : « لا أعرف ، ولا أحب أن أعرف . . »

قالت : « ألا يحسن أن تتبين ؟ »

قلت : « أتبين ؟ أليس حسبي ما منيت به من خيبة الأمل . ومع ذلك لقد عوضني الله خيراً . . . هيا بنا لنستريح . . . »

ابراهيم عبد القادر المازني

بين فني التاريخ وفن الحرب

١٠ — خالد بن الوليد*

في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

خطة خالد

لا شك في أن خالداً كان يقدر حرج الموقف في قتاله أهل اليمامة . وكان يعلم أنه مقدم على أمر يتوقف عليه نجاح الاسلام أو خيبته . فالبلاد وعرة ، والقرى فيها منيعة ، والناس ملتفون حول داعيهم ، معتصبون بحبهم ، وعددهم كثير ، وسلاحهم يضرب به المثل

لذلك لم يقدم على الحركة قبل أن تصله النجدة الموفدة من المدينة . وأراد أن يمهد سبيل الظفر بالتدابير السياسية وذلك :

أولاً — باستمالة التميميين في اليمامة الى جانبه ؛

ثانياً — بتفريق رؤساء سجاح عن مسيلمة

ثالثاً — باستخدام المسلمين من بني حنيفة للمشاغبة على مسيلمة

والأخبار تدل على أنه أرسل الكتب الى التميميين ليتركوا جانب مسيلمة فوفق الى ذلك ، كما أنه ساق قوة خيالة لمقاتلة رؤساء سجاح الثلاثة وهم عقة وهذيل وزياد ، ففرق رجالهم واضطرهم الى العودة الى حي بني تغلب في الشمال . وأن المسلمين من بني حنيفة ثاروا على مسيلمة وشاغبوا عليه ، ولعل عكرمة بن أبي جهل أراد أن يستفيد من المشاغبين فقاتل رجال مسيلمة فلم ينتصر . وكانت الأخبار تأتي خالداً وتنبئه عما في اليمامة

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

أما خطته العسكرية فكانت ترمى الى الزحف الى اليمامة على أقصر طريق ، والهجوم على جيش مسيلمة أينما لقيه

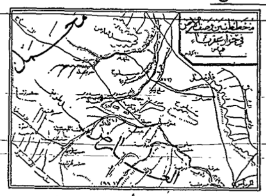
عاد خالد من المدينة الى البطاح فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية ، وكان الجيش مجتمعاً فيها ينتظر أمر الحركة . وقضى خالد مدة قصيرة فى البطاح يترقب ورود المدد من المدينة ، فكانت القبائل تمد جيشه برجالها ، فالتحق به رجال من بنى أسد وتميم وبنى عامر ، وكانت الأخبار ترد اليه من اليمامة منبئة بأحوالها . وآخر من وصل اليه ابن عمير اليشكرى فأطلع خالداً على جلية الأمر فى اليمامة

ساحة القتال

اختار مسيلمة موقع عقرباء لجيشه ، وهذا الموقع على الحدود الفاصلة بين اليمامة وبلاد بنى تميم ، وهو مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية بين مقاطعـــة العارض ومرتفعات المحمل وجبل طويق

وبالقرب من هـذا الموقع تقوم قرية جبيلة الحديثة ، وقد بحث فيه (فلبى) فى كتابه الآنف الذكر قال : « وإذا تأملت الوادى (أى وادى حنيفة) عنـد جبيلة — وجبيلة هذه أحد منازل بنى حنيفة من قديم الزمن ، والهم تنشب الوادى وفى سمائه ارتفع لواء صيتهم فسمى بوادى حنيفة — لألفيته وهدة من الأرض قريبة القرار ، واسعة الجوانب ، تكتنفها الهضاب المطمئنة الجرداء من كل حدب وصوب ، وللوادى عقيق يضيق شيئاً فشيئاً حتى تراه قد غاص فى بطن مجرى نشرت على ضفافه الطنوف الشواخص على النحو المتقدم وصفه . فالقرية إذن مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية وأعظمها شأناً ، واقعة بين مساكن العارض ومرتفعات المحمل وطويق . وقيل فى هذا المكان وقعت معركة فاصلة من معارك التاريخ الاسلامى ، دارت فيها رحى القتال بين أصحاب النبى وبعض المؤمنين من رجاله ، وبين مسيلمة نبى حريملة الكذاب وقواته ، وكان النصر فيها حليف المسلمين بعد أن خسروا آنئذ فى سبيل دينهم القويم نحو سبعين من نخبـة الصحابة ، وهم الرجال الخلص الذين اصطفاهم النبى فأودع فى صدورهم تعاليمه الشفوية ..» إلى أن قال : « لاتزال قبور الصحابة الذين استشهدوا فى تلك المعركة ظاهرة الى يومنا هذا ، مهجورة فى منبطح من غربى نهر عميق صفا ماؤه واقع على مقربة من القرية . وقد رأيت القبور أيام زيارتى لها ومرورى بها وقد بليت وتحاتت بتأثير الزوابع وفعل الأعاصير ، وقد نجم عن ذلك أن تفتحت جوانب الكثير منها ، فظهرت فيها ثغر فاغرة أفواهها نحو الوادى . ولم يزد ارتفاع الرسوب الغرينى على ثلاث أو أربع أقدام فوق القبور . فلنا إذن من ذلك أحد الأمرين : إما أن تكون دفائن تلك القبور أحدث مما يزعمون ، وإما أن الغرين قد رسب من قبل فى المكان الموجود الآن فيه وبات مستواه على ما هو عليه بطبيعة الحال قبل معركة جبيلة . ولا غرو فى أن الأمر الثانى هو الافتراض المحتمل وقوعه »

وصف الموضع :



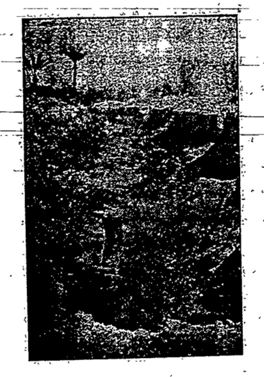
خريطة تبين وصف الأرض فى جوار عقرباء

يظهر من مطالعة الخريطة أن المحل الذى اختاره مسيلمة لقبول المعركة واقع فى جنوبى العقدة التى تتشعب منها الجبال وتمتد فى جهات مختلفة وتشرف على رؤوس الوديان المتدفقة من أرجائها والتى منها ما يجرى نحو الشمال ويغـذى وادى الخفس ، ومنها ما يجرى نحو الشرق ويغذى وادى حنيفة ، ومنها مايجرى نحو الغرب ويغذى بطين الجور . وقد اجتمعت قريتا عينة وسدوس وجبيلة حول هذه العقدة . وتمـلو فى وسطها رابيتا الأبكين : الرابية الغربية والرابية الشرقية ، والغربية أعلى من الشرقية إذ يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر (٣٢٠٠) قدم ، وعن وادى حنيفة الذى يجرى فى جنوبيها (٢٠٠) قدم . وفى شرق الأبكين جبل رامة يمتد من الغرب الى الشرق ، وهذا الجبل مع جبل الأبكين يفصلان بين شعيب سـدوس ووادى حنيفة . فالشعيب فى الشمال ينبع من غربى سدوس ويجرى نحو الشرق فيترك على ضفافه سدوس وحزوة ، ويلتقى بشعاب كثيرة أخرى

ينصب جميعاً في وادي الخفس ، والوادي الثاني يجري في الجنوب والى شرق جبيلة يرتفع جبل صلبوخ . فكأن الجبال الثلاثة — الأبكين ورامة وصلبوخا — متصل بعضها ببعض ومحيطة بعوضع جبيلة كالقوس

ويصف المستر فلبي المنظر قرب الأبكين فيقول : « وقفنا نتأمل بطحاء طويق الفسيحة الأرجاء ، فألفينا مشهدها رائعاً مهيباً ، وتتخللها الهضاب المتموجة والأودية السحيقة ... وإنا لكذلك إذ لاحت مني التفاتة الى الشمال فشاهدت على مسافة ميلين من بسطة أرضاً انطوى تحتها واد فسيح تحدرت جوانبه وانقطعت مجامعه عند حوض الخفس الواقعة فيه واحة سدوس — تلك الواحة الغضة الرائعة المشهورة بجمالها الفتان — كنا نراها ونرى فيها كل صغيرة وكبيرة ، ونحن واقفون في مكاننا كأنها أمامنا وعلى مقربة منا ، ولكنها وبالأسف لم تكن على استقامتنا فشق علي زيارتها لبعد طريقنا عنها . وقد شاهدت بساتين النخيل ممتدة على طوار الينبوع الدافق مسافة ميل تقريباً في عرض قدرت معدلة بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ياردة » الى أن يقول : « ورأيت على مدى البصر الى الجهة الشمالية الشرقية تجف مرتفعات العرمة ، وقد بدت بلون أدكن ، ونظرت الى الشمال الغربي وادي جرعلة ، وهو فرع آخر من فروع حوض الخفس ، وقد انفصل عن فرع سدوس بجرف متبع المتون مرتفعها ، ورأيت في الجهة الجنوبية الغربية صدع جرف طويق فبدت من موضعه عقبة الجيسية [1] . والى الجنوب وراء خط وادي الحيسية ، وجرف اللاتي تمتد ظهور طويق العريضة في الفضاء الأغبس الفسيح »

وعند ما يبحث في ثنية اليمامة يقول : « وبعد مسير سبعة أميال (على موازاة الابكين) وصلنا الى عقبة الحيسية المعتبرة منبع وادي حنيفة ، فوجدنا أشجار السنط منتشرة حولها ، وكان ارتفاعنا عن مستوى سطح البحر في هذه البقعة نحو ٣٢٠٠ قدم ، وكانت المسافة بيننا وبين البطين (بطين الحور) نحو ٤٦ ميلاً ، وقد استطعت أن أشاهد من هذا المكان وادي حنيفة بأسره آخذاً الى الجنوب حتى اليمامة ، وهذا بون شاسع يربو طوله على ٥٠ ميل ، وتأخذ فيه الأرض في الانخفاض تدريجاً إلى أن يبلغ ١٩٠٠ قدم ، ولم أجد عند الصبيب من المناظر الطبيعية ما يحملني منها على الأطناب في الوصف ، وشاهدنا هناك الأرض أمامنا وقد انحدرت بهيئة مثلث فسيح الأرجاء ، ضلعاه لجبان منفرجان من جرف طويق ومنته طرفها بأنفين بارزين أحدها خشم خرشة في الجنوب ، والآخر خشم الحيسية في الشمال ، وتمتد بين هذين الأنفين قاعدة المثلث بشكل جناح ناشز من الحجارة الرملية الجرداء الغبراء يسمونه الرق في جانبه الأبعد يهبط شديد الانحدار ينتهي الى وادي البطن . أما صدر شعيب هشة فهو في منبعه يتغلغل صبياً بين جدران منهره متمعجاً في عقيق ضيق ، ثم يأخذ بعد حين في الاتساع على متون المنحدرات حتى إذا بلغ الحاشية الغربية من جناح الرق ينفرج في بطن المحلة الخصبة ثم ينثني فيجد له مسيلا في خلال الحواجز الصخرية فيتسرب منها الى وادي البطين



منظر من مناظر وديان اليمامة ويرى فيه كيف تتصرف المياه إلى الوديان

وعلى نحو أربعة أميال من منبع وادي حنيفة نجد ما بقي من آثار ديار الهشة ، وهي لا تتعدى بعض بساتين النخيل المتفرقة وثلاث آبار دائمة المياه ، اثنتان منها مطويتان بالحجارة غزرتا

[1] يعني ثنية اليمامة

الماء دائمة الورد ، يبلغ عمق كل بئر منها نحو قمتين ، ويظهر لون الماء عند استقائه من البئر أطحل بتأثير الطبقة المتحجرة المستبطنة قرار البئر ، وإذا ترك الماء وشأنه قليلا ركد فيه الغرين فصفا وراق . وطعمه لذيذ عذب جداً وينفرد آل قحطان بالاستفادة من هذه البئر » الى أن يقول : « وليس فى عقبة الحيسية صخور حرشاء تقف عثرة فى سبيل الابل . وربما كانت أسهل عقبات طويق مسلكا ، لذا فضلت على غيرها باتخاذها طريقاً للحج ، وهو الطريق الذى سلكناه لما غادرنا الرياض من حيث ينحدر هذا الطريق الى الضرمة »

الحركة من البطاح الى اليمامة

وبعد أن اجتمعت قوات المسلمين فى البطاح واطلع خالد على موقف الحنفيين قرر التقدم نحو مسيلمة . وكان قبل ذلك قد رتب جيشه ، فكانت نواته على ما نعلم الأنصار والمهاجرين والقبائل الضاربة بين المدينة ومكة . فقسم الجيش الى فرق : فرقة من الأنصار ، وفرقة من المهاجرين ، وألفت كل قبيلة فرقة . وناط بأبي حذيفة وزيد ابن الخطاب قيادة المهاجرين ، وبثابت بن قيس وبر بن مالك قيادة الأنصار . أما القبائل فكانت بقيادة رؤسائها

ويروى أبو بشر الدولابى فى كتاب التاريخ أن معركة عقرباء وقعت فى شهر ربيع الأول للسنة الثانية عشرة الهجرية ، وأول هذا الشهر يقابل أوائل شهر أيار ٦٣٣ ميلادية . وتبلغ المسافة بين البطاح وعقرباء زهاء ٣٥٠ كيلومتراً ، أى مسير عشرة أيام بجيش كبير على أقل تقدير . فيظهر من ذلك أن خالداً ترك البطاح فى نهاية شهر نيسان أو فى أوائل شهر أيار

فكانت خطة خالد ترمى الى الزحف تواً إلى اليمامة ، على أن يهجم على جيش مسيلمة أينما لقيه . وكان يعلم أن مسيلمة متأهب للمقابلة على حدود بلاده . لذلك قدّم أمامه مقدمة من بنى طيء بقيادة عدى بن حاتم ، وعين لها فرات بن حيان دليلاً ، وسلك طريق الوشم نحو الشقرة . وأرسل الى الأمام مكنف بن زيد الخيل وأخاه ليتجسسا الأخبار

ولم يشأ أن يترك خط الانسحاب معرضاً للخطر ، لذلك أقام سليطاً مع قوة فى البطاح ليكون رداءً له من القبائل . وتزعم الرواية أن أبا بكر أمد خالداً بسليط ليكون رداءً له لئلا يأتيه أحد من ظهره . أما مسيلمة فلما علم بمسير خالد نحوه تقدم بجيشه من اليمامة نحو الشمال وعسكر فى عقرباء بجميع قواته منتظراً ورود جيش المسلمين متأهباً للمقاومة الشديدة . وكانت أخبار انتصار المسلمين على أهل الردة قد سبقت جيش المسلمين فألقت الرعب فى قلوب الحنفيين

وتقدم جيش المسلمين على الطريق المذكور وكانت المقدمة تسبقه وتستطلع الأحوال

يتبع طه الهاشمى

٢ — محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

أخذت ألتمس الناس رجلاً فرجلاً وأنا عالم بما أثيره في الناس من غضب كنت آسف له وأخشاه، ولكنها ضرورة لم يكن عن المضي فيها محيص. إنها كلمة الله، ويجب أن أحلها من اعتباري المكان الأسمى، فقلت لنفسي: لا بد أن أحاور أدعياء العلم جميعاً لعلي أفهم ما قصدت إليه الراعية. وأقسم لكم أيها الأثينيون أغلظ القسم(1) — فواجبي أن أقول الحق — إنني قد انتهيت من البحث إلى ما رويت، وقد صادفت فيمن هم دون هؤلاء مقاماً رجالاً بلغوا من الحكمة ما لم يبلغه هؤلاء. وسأقص عليكم حديث تجوالي وما عانيت خلاله لتحقيق ما قالته الراعية. تركت رجال السياسة وقصدت إلى الشعراء، سواء في ذلك شعراء المأساة أو الأغاني الحماسية أو ما شئتم من صنوف الشعر، وقلت في نفسي: إن الأمر لا ريب منكشف لدى الشعراء، فستأخذني بإزائهم أشد جهلاً. ثم جمعت طائفة مختارة من أروع ما سطرت أقلامهم، وحملتها إليهم أستفسرهم إياها لعلي أفيد عندهم شيئاً. أفأنتم مصدقون ما أقول؟ واخجلتاه! أكاد أستحي من القول لولا أني مضطر إليه، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقول في شعرهم أكثر مما قالوا هم وهم ناظموه. عندئذ أدركت على الفور أن الشعراء لا يصدرون في الشعر عن حكمة، ولكنه ضرب من النبوغ والوحي. إنهم كالقديسين أو الأنبياء الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها. هكذا رأيت الشعراء، ورأيت فوق ذلك أنهم يعتقدون في أنفسهم الحكمة فيما لا يعلمون فيه من الحكمة شيئاً استناداً الى شاعريتهم القوية. فخلفت الشعراء وقد علمت أني أرفع منهم مقاماً، فقد فضلني عليهم بما فضلني على رجال السياسة

وأخيراً قصدت الى الصناع، وكنت أظنني جاهلاً بما يتصل بالصناعة من علم، وكنت أحسب أن لدى هؤلاء الصناع مجموعة طريفة من المعارف، وقد ألفيتني مصيباً فيما ظننت، إذ كانوا يعلمون كثيراً مما كنت أجهله، فكانوا في ذلك أحكم مني بلا ريب ولكني رأيت حتى مهرة الصناع قد ترددوا فيما تردى فيه الشعراء من خطأ، فتوهموا أنهم ما داموا أكفاء في صناعتهم فلا بد أن يكونوا ملمين بكل ضروب المعرفة السامية، فذهبت سيئة الغرور بحسنة الحكمة. لهذا ساءلت نفسي بالنيابة عن الراعية: أكنت أحب أن أظل كما أنا، لا أملك ما تملكون من علم، ولا أكبو فيما كبوا فيه من خطأ، أم كنت أحب أن أكون شبيههم في العلم والجهل على السواء؟ فأجبت نفسي، وأجبت الراعية: إنني خير منهم حالاً

وهذا الذي انتهيت إليه قد حرك العداوة في قلوب نفر من أشد الناس سوءاً وخطراً، كما نسج حولي طائفة من التهاويل الباطلة. ولقد جرى الناس على تسميتي بالحكيم، إذ يخيل إليهم أنني ما فتئت أحمل الحكمة التي كانت تعوزهم. ولكن الله — أيها الأثينيون — هو الحكيم الأوحد، ولعل الله حين أجرى على لسان راعيته ما نطقت به، أراد أن الحكمة في البشر ضئيلة أو معدومة، إنه لم يتخذني قصداً عن سقراط، إنما ضرب باسمي مثلاً، كأنما أراد أن يقول إن من يدرك كما أدرك سقراط أن حكمته في حقيقة الأمر لا تساوي شيئاً، يكون أحكم الناس. فأنا كما ترونني أسير وفقاً لما يرسمه لي الله، أفتش عن الحكمة في كل من يدعيها، لا أبالي أكان من أبناء الوطن أم غريباً، فإن لم أجده كما ادعى، صارحته بجهله كما أمرتني الراعية. ولقد انصرفت إلى هذا الواجب انصرافاً لم يبق لي معه من الوقت ما أبذله فيما يشغل بال العامة، أو أنفقه في شئوني الخاصة؛ وهكذا كرست حياتي لله فعشت فقيراً معدماً

أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تضنيهم شواغل الحياة كثيراً ما قد التفوا حولي، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم، ليشهدوا امتحان الأدعياء؛ وكثيراً ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدعياء الحكمة ليجروا عليهم التجربة نفسها. وما أكثر ما

(1) في الأصل « أقسم لكم أيها الأثينيون بالكلب » وقد آثرنا هذا التحريف

صادفوا رجالاً ظنوا فى أنفسهم العلم ، فاذا بهم لا يعلمون إلا قليلا ، أو هم لا يعلمون شيئاً ؛ فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشبان أن يصبوا علىّ جام غضبهم ، وأنفسهم أحق بهذا الغضب ، ويستنزلون اللعنة على سقراط لأنه أفسد الشبان . فان سألهم سائل فيم هذه اللعنة ، وأى جريرة أتى ، وأى رذيلة علّم ، لما حاروا جواباً ، لأنهم لا يعرفون لغضبهم سبباً . ولكى يستروا علائم الحيرة تراهم يعيدون التهم المعروفة التى قذف بها الفلاسفة جميعاً ، من أنهم يعلّمون مايتصل بالسحاب ، وما هو دفين تحت الثرى ، وأنهم كافرون بالآلهة ، وأنهم يلبسون الباطل صورة الحق ؛ والحقيقة أنهم جاهلون ويأبون الاعتراف بجهلهم المكشوف . ولما كانت تلك الفئة كثيرة طامعة نشيطة ، وقد تصدوا جميعا للنزال بما لهم من ألسنة حداد تلعب بالنفوس ، فقد ملأوا أسماعكم بهذا الاتهام الباطل . وكان أن ناصبنى العداء هؤلاء المدعون الثلاثة : مليتس ، وأنيتس ، وليقون . فقد ناهضنى مليتس ليمثل جماعة الشعراء ، وأنيتس ليمثل طبقة الصناع ، وليقون ليمثل الخطباء . وإننى كما قدمت لا آمل فى أن أمحو فى لحظة كل ما علق بى من تهم باطلة . أيها الأثينيون ! لقد رويت لكم الحق كل الحق ، لم أخف شيئاً ، ولم أشوه شيئاً ، ومع هذا فأنا أعلم أن صراحتى فى الحديث ستصدكم عنى ، وما هذا الصد إلا برهان على أنى أقول الحق . تلك هى دعواهم وذاك منشؤها ، ولن تسفر هذه المحاكمة ولا أية محاكمة مقبلة عن غير هذا

حسبى هذا دفاعا للفريق الأول من المدعين . وهأنذا أتوجه الآن بالحديث نحو الطائفة الأخرى وعلى رأسهم مليتس ، ذلك الرجل الطيب ، الوطنى ، كما يقول عن نفسه . وسأحاول أن أدفع عن نفسى ما اتهمنى به هذا الفريق الجديد . وجدير بنا أن نبدأ بتلخيص دعواهم ، فماذا يزعمون ؟ إنهم يقولون : إن سقراط فاعل للرذيلة ، مفسد للشباب ، كافر بآلهة الدولة ، وله معبودات طنعها لنفسه خاصة . تلك هى دعواهم ، وسبيلنا الآن أن نبحثها تفصيلا

أما الزعم بأنى فاعل للرذيلة مفسد للشباب ، فأنا أقرر أيها الأثينيون عن هذا الرجل مليتس ، أنه هو صاحب رذيلة . ورذيلته أنه يتفكه حيث يجب الجد ، وهو لا يرى غضاضة فى أن يسوق الناس الى ساحة القضاء متستراً وراء الحماسة المصطنعة والاهتمام المتكلف بأمور لا تعنيه فى شىء ؛ وسأقيم لكم الدليل على صدق هذا

— اقترب منى يا مليتس لألقى عليك سؤالاً . هل تفكر طويلاً فى إصلاح الشباب ؟

— نعم ، إنى أفعل

— إذن فقل للقضاة من هو مصلح الشبان ، فأنت لابد عالم به مادمت قد عانيت آلاماً فى اكتشاف مفسدهم ، فها أنت ذا قد سقتنى الى القضاء متهماً . تكلم إذن وقل للقضاة من هو مصلح الشبان . مالى أراك يا مليتس لا تحير جواباً ؟ ! أفليس هذا دليلاً قاطعاً ، مزرياً بك ، يؤيد ما ذكرته من أن أمر الشبان لا يعنيك فى شىء ؟ تكلم يا صديق وحدثنا عن مقوم الشباب !

— هى القوانين

— ولكن ليست القوانين هى ما عنيتُ يا سيدى ، إنما أردت أن أعرف ذلك الشخص الذى يحفظ القوانين قبل كل شىء

— هم من ترى فى المحكمة من قضاة يا سقراط

— ماذا تريد أن تقول يا مليتس ؟ أتعنى أن القضاة قادرون على تعليم الشبان وإصلاحهم ؟

— لست أشك فى أنهم كذلك

— أ كلهم كذلك ، أم بعضهم دون بعض

— القضاة جميعاً

— قسما بالآلهة إن هذا لخبر سار . إذن فهناك طائفة من المصلحين ، وماذا تقول فى النظارة ؟ أهم يصلحون الشبان ؟

— نعم هم يفعلون

— وأعضاء الشورى كذلك ؟

— نعم إنهم كذلك يصلحون

— ولكن قد يكون رجال الدين لهم مفسدين ؟ أم هم كذلك يقومون الشباب ؟

— إنهم كذلك من المصلحين

— إذن فكل الأثينيين يصلحون الشبان ويرفعون من قدرهم ، ما عداى . فأنا وحدى الذى أفسدت الشباب . أهذا ما أردت أن تقول ؟

— وذلك ما أؤيده بكل قوتى

— بالبؤس إذن إن صح ما تقول ! ... ولكني أريد أن أسألك سؤالاً : أيصح هذا القول كذلك على الجياد ؟ أيمكن أن يقدم لها الأذى فرد واحد ، بينا يقدم لها الخير العالم أجمع ؟ ألست ترى أن العكس هو الصحيح ؟ فرجل واحد يستطيع أن يعمل لها الخير ، أو قل هى فئة قليلة ، وأعنى أن مروّض الجياد هو الذى يقدم لها الخير ، أما بقية الناس الذين يستخدمونها فى عملهم فهم لها مسيئون . أليس هذا صحيحاً يا مليتس بالنسبة الى الجياد وكل أنواع الحيوان ؟ نعم ولا ريب ، سواء رضيت أنت وأنيتس أم لم ترضيا ، فذلك لا يعنينا . اللهم أنعم بحياة الشبان لو كان عليهم مفسد واحد فحسب ، وكانت بقية العالم لهم مصلحين . وأنت يا مليتس ، لقد أقمت لنا الدليل ناصعاً على أنك لم تكن تفكر فى الشبان ؛ فاهمالك إياهم واضح حتى فيما ذكرت فى صحيفة الدعوى

والآن يا مليتس ، لابد أن أسألك سؤالاً آخر : أيهما خير ، أن يكون أبناء وطنك الذين تعيش بينهم فاسدين أم صالحين ؟ أجب يا صاح فذلك سؤال ميسور الجواب ! ألا يقدم الصالحون الخير لجيرانهم بينا يسىء اليهم الفاسدون ؟

— نعم ولا ريب

— وهل هناك إنسان يفضل أن يسىء اليه على أن يحسن اليه ممن يعيش بينهم ؟ أجب يا صديق ، فالقانون يتطلب منك الجواب . أيحب أحد أن يصيبه الضر ؟

— كلا ولا ريب

— وأنت حين تتهمنى بافساد الشبان والحط من شأنهم ، أتزعم أنى أتعمد ذلك الافساد أم يجىء عنى عفواً ؟

— أنا أزعم أنه إفساد مقصود

— ولكنك اعترفت الآن أن الرجل الصالح يقدم الخير لجيرانه ، وأن الفاسد يقدم لهم الشر ، أفتظن أن هذه الحقيقة قد أدركتها حكمتك البالغة وأنت لا تزال من الحياة فى هذه السن الباكرة ، وأنا ، وقد بلغت من الكبر عتياً ، مازلت أخبط فى ظلام الجهل فلا أعلم أنى أفسدت أولئك الذين أعيش بينهم فيغلب أن يصيبنى منهم الضرر ؟ أفأكون عالماً بهذا ومع ذلك أفسدهم ، وأفسدهم متعمداً ؟ هذا ما تقوله أنت ؛ فلا أحسبك مقنعنى به ولا مقنعاً به كائناً من كان . إحدى اثنتين : إما أننى لا أفسد الشبان ، أو أننى أفسدهم عن غير عمد ؛ وسواء أصحت هذه أم تلك فأنت كاذب فى كلتا الحالتين[1]

فان كانت جريمتى بغير عمد فلا يحاسب عليها القانون ، وكان خليقاً بك أن تسدى لى النصح خالصاً ، محذراً ومؤنباً فى رفق ولين ، فان انتصحت بك ، أقلعت ولا ريب عما كنت آتيه بغير قصد ؛ ولكنك أبيت لى نصحاً وتعليماً ، وآثرت أن تجىء بى متهماً فى ساحة القضاء ، وهى محل العقاب لا مكان التعليم

لقد تبين لكم أيها الأثينيون أنه لا يعنيه أمر الشبان فى كثير ولا قليل ، ولكنى مازلت أود يا مليتس أن أعرف منك فيم كان إصرارى على إفساد الشباب ؟ لعلك تعنى كما يبدو من اتهامك أنى حملتهم على إنكار الآلهة التى اعترفت بها الدولة ، ليقدسوا فى مكانها معبودات جديدة أو قوى روحانية . أليست هذه هى الدروس التى زعمت أنى أفسدت بها الشباب ؟

— نعم ، هذا ما أقوله وأؤكده

— إذن فقل لى يا مليتس ، وقل للمحكمة فى عبارة واضحة ، أى آلهة أردت فى دعواك ، لأننى حتى الساعة لا أفهم ما تأخذه على . أكنت أعلم الناس الايمان بآلهة معينة ؟ وإن كان هذا فهم مؤمنون بآلهة ما ، ولم أكن إذن كافراً تمام الكفران . إنك لم تشر إلى ذلك فى الدعوى واكتفيت بالقول أنها ليست نفس الآلهة التى تعترف بها المدينة . ما تهمتى ؟ أهى الدعوة إلى آلهة مخالفة أم تزعم أنى ملحد ومعلم للالحاد ؟

— أردت الأخيرة ، فأنت ملحد غاية الالحاد

— هذا قول عجيب لم نعهده يا مليتس ، ماذا تعنى به ؟ ألست أومن بألوهية الشمس والقمر ، وهى عقيدة سائدة بين الناس جميعا ؟

— إنى أؤكد لكم أيها القضاة أنه لا يؤمن بهما ، فهو يقول إن الشمس كتلة من الحجر ، وأن القمر مصنوع من تراب !

يتبع

زكى نجيب محمود

(١) هذه إشارة الى فلسفة سقراط فى الفضيلة . وملخصها أن الفضيلة هى العلم ، فيكفى أن تعلم الخير لتعمله ، فمن وقع سوء من انسان يكن هذا دليلا على جهله بالفضيلة لأنه يستحيل أن يعرفها ولا يعملها

ذكرى ميلاد

عنــــد الثلاثين

للأستاذ محمد سعيد العريان

لشدّ ما أعياني السُّرَى !

منذ تسع وعشرين أُصَعِّد في الجبل وما بلغت . أتراني الى القمّة أدبّ دبيبي ، أم قد جاوزتُها وما أدري ، فأنا منحدر أتدكّف من جانبها الى بطن الوادي .. ؟

يكتنفني الغيبُ فما أعرف أين يومي من أمسه ومن غده .

أما أمس فقد خلعتُه عني ، وطوته الأيامُ طيَّ مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلْقاناً مركومة كاليت لفّته أكفانه . وهل الماضي إلا الجزءُ الذي مات منا ؟

وأما الغد . . . فمن لي بما هناك ؟ إن الأحلام لتكذب ، فما أحسبها كانت تتراءى لي إلا من دنيا غير دنياي ليس من أيامها يومي ولا غدي .

هــذه الأيام صرعَى على مَدْرَجة الزمن ، وما تزال المنى تصطرع في رأسي !

يالي من الأيام ! لشدّ ما كانت تسخر منّي إذ تمدّ لي أسبابَ المنى ، حتى إذا هممتُ لم تكن عثراتي إلا أمانيّ !

انفشي أيتها الغيوم واكشفي لي عما وراءك ؟ إن لي أمنيةً هناك !

* * *

إني لأراني كأنما لبستني النوم ، فأنا من الرؤيا في دنيا غير التي أعرف ، وناس غير هذا الناس ، وثمّتَ طفلٌ يعدو خلفَ فَراشة ، أتراه مُدْرِكَها ؟

لقد آبَ فارغَ اليد ، ولكن على شفتيه ابتسامة !

وأقبل يتعرّفني وما كانت به اليّ من حاجة

قال : « من أنت ؟ »

قلت : « أما تعرفني ؟ »

قال : « نعم ، فمن تكون ؟ »

قلت : « فانظرْ في مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب . »

ونظر ونظرتُ من خلفه ، فما كان في المرآة إلا وجهُ الطفل الضاحك

ولوى رأسه وعاد ينظر اليّ ويقول :

— « لستَ هناك ، وما أُراني أعرفك ولا تعرفك مرآتي »

ورفّت الفَراشة فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه !

يا طفولتي التي فرّتْ بأسعد أيام الحياة ، ليتكِ كنتِ تعرفين !

* * *

وعاد الطفل فتًى يخطر ريّانَ الوجه مُشرقَ الجبين ، فازْوَرَّ إذ رآني على الطريق

قلت : « أتنكرني يا فتى ؟ فانني صاحبك ! »

قال : « متى ؟ فما أظنني عرفتُك ! »

قلت : « ذاكَ يومَ التقينا على السفْح والشمسُ ضاحية ، وتصاوير الزهر ترفّ من أجنحة الفَراشة »

وابتسم الفتى ومرّ بيمناه على جبينه وهو يقول :

— « لعلي أذكر من بَعدُ ! »

وانطلق يغنّي جذلان

يا نضارةَ الصبَى وبُكْرَةَ الشباب ، ليتكِ إذْ تولّيت عابثةً ناعمةً بالحرّية — كنت تدْرين مَن هناك !

* * *

وأقبل من بعدُ شابٌ يبتسم .. ما أشبهه بصاحبه !

قلت : « ها أنت ذاك ، أما تعرفني ؟ »

قال : كأني رأيتكَ من قبل ، بربّك مَن تكون ؟ »

قلت : « فانك مازلت تنكرني على ما صحبتُك زماناً ولما يَنقض عهد طويل ! »

ولم أجدْ جوابي ؛ فقد لوى الشابُ رأسه يتابع بعينيه فتاةً تخطر ، ثم انطلق مُهْطِعاً وراءها ونفسي تتبعه

يا لله ! لكأنها هي . . . !

* * *

وتلاشى الوجودُ من أمامي فلم أعدْ أرى غير وجه ضاحكٍ ، وطلعةٍ مشرقة ، وعينين تشعّان النور من وجه الفتاة

ورأيتها تدنو مني وفي وجهها كلام ...

قلت : أما تزالين تذكرين يا فتاة ؟ يا للنفس العطوف ! »

قالت : أأنتَ لأنت ؟ لله صبرُك ! »

وانقضّتْ كلما تُها على صدري بالهم والوحشة والعذاب ، وكأنما اجتمع منها تاريخُ سبع سنين طوال ، ما زال في القلب منهن جراحٌ تنزف !

وانثالت الذكرياتُ على نفسي تتمثّل من مشاهدها قِصّة

غرام ثائر ، أغفلتها منشئها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية

ورحت أنكت الأرض بالعصا ، كأنى أفتش تحت التراب عن الجزء الذي مات من قلبي ! ورأيت ظلها على الأرض ، فاستحييت أن أرفع رأسي وفى عيني دموع !

يا للشباب من حب بلا رجاء ! أوَضيّع أنضر أيام الحياة مصبوباً على نفسى ، أبحث عن أهون ما فى الحياة ؟

وأين الرجولة إن بذلت شبابى ونفسى لأعدو فى ظل فتاة؟ أتراها تجد تقيدى ؟

إن المرأة للرجل إن هى إلا وحى المجد ومطلع الأمل ، فاذا عادت لهفة ودموعا فما هى امرأة ، ولكنها اليأس والحرمان والخيبة !

وتنكرت صاحبى الذى أنفلت منى مهطعاً إلى فتاته ، فاذا هو أمامى والفتاة الى جانبه ذراعاً إلى ذراع

قال : «ما تقول لنفسك ؟ »

قلت : «أو تسمع همس النفس ونجوى الضمير ؟ »

قال : «قد علمت بعض هذه النجوى . . . أفكنت تتحدث عما تتحدث إلى نفسك ، لو لم تكن هذه الشعرات البيض تخفق وتلوح فى فوديك ؟ »

قلت : «أو تراها ؟ . . . فاسأل صاحبتك عن خبرها ؛ فهل جاءك أن هذا الشيب الباكر يدل إلا على شباب القلب ؟ ما أحسبك تعلم حتى تنشيبك الشعرة البيضاء ! »

واستضحك الفتى والفتاة . . . !

***

وتلاشى الوجود ثانية من أمامى ؛ وإذا أنا فى دنيا غير دنياى ، وناس غير هذا الناس ؛ وإذا المرآة أمامى تجلو لى ما تجلو (الخيالة) ، وكأنما اجتمع بها فى زمان ومكان تاريخى كله على الأرض منذ تسع وعشرين بماضيه وحاضره ، وران ضباب أنفاسى على ثلث المرآة

وإذا فيما ظهر لى من المرآة طفل يعدو خلف فراشة ، ماينفك يقفز ويثب

وغلام يخطر مغنياً جذلان ، ما يثنيه إلا الكرة يرتق فتوقها ، واللدات من الصبيان يتجاذب وإياهم أسباب المسرة فى الحارة وعلى ناصية الطريق . . .

وشاب باسم الثغر منبسط الأسارير دنياه هذه الفتاة ، له منها فى النهار مشغلة وفى الليل مشغلة

ثم . . . ثم هذا الوجه الذى يعرفه صحابتى ، على شفتيه ابتسامة عابسة ، وفى عينيه سر يبالغ فى الاستخفاء ، ومن وراء جبينه أمانى تصطرع ، ودنيا يموج بعضها فى بعض

ليت شعرى أهذه هى الحياة ، أليس فيها أحسن مما رأيت ، أهذا كل ما هنالك ؟

يا ضيعة المنى إن كان الغد يوماً مكرراً مما فات !

أين المثل الأعلى الذى جهدت فى تخيله ، وأعيانى الكد فى البلوغ اليه ؟ أترى البشرية الضالة قد حطمت تمثاله ، وخربت هيكله ، أم لا يزال قائماً هناك مختبئاً خلف الغد ؟

محمد سعيد العريان

ذكريات

دمه العـــربى ...

للأديب حسين شوقى

حينما كنتُ فى باريز أتلقى دراسة القانون تعرفتُ بالفندق الذى كنتُ أقيم فيه بالحىّ اللاتينى (حىّ الطلبة) بطالب اسبانى ، وقد دفعتنى إلى حب التعرف به معرفتى للغة الاسبانية ، (فقد قضيتُ خمس سنوات باسبانيا) ، والميل إلى التمرن عليها . كذلك جذبتنى إليه سيماه العربية كسمرة بشرته ، وعيونه السوداء ، وهى فى حدتها كعيون البدو فى الصحراء ، وجذبنى إليه اسمه العذب الذى ينتهى بحرف « الثاء » إذ كان يدعى مونيوث ، وهذا الحرف لايوجد على ما أعلم — إلا فى اللغة العربية ، فورثته الاسبانية عنها ..

كنا نقضى الليل أنا وهو فى كثير من الأحيان ، فى مقهى ليلى جميل يديره بعض الصينيين بالحىّ اللاتينى ، ذلك الحى الذى لم يكن تخلّى بعد لحى مونبرناس (حىّ الشعراء والفنانين) عن إمارة الليل ..

وكان مجلسنا يضمّ أيضاً طالبين اسبانيين ، وطالباً آخر من جزر الفلبين ..

وا آسفاه على تلك الليالى الغابرة التى قضيناها فى المتاع واللهو ! بينما كنا ذات ليلة جالسين كالعادة فى المقهى ننعم بالرقص والموسيقى ، إذا بأحد الشبان يصفع صديقته وقد رآها تتبادل النظرات غير المشروعة مع شاب آخر . . فغضب مونيوث لهذا النظر ، وهمّ بالتدخل فى الأمر لولا أننا أمسكنا بسترته لأننا كنا نخالفه الرأى اشفاقاً على العاشق المخدوع الذى لم يقدم على عمله فى اعتقادنا ، إلا تحت سلطان الغيرة . .

وقد دفعنا هـذا الحادث إلى الخوض فى موضوع الغيرة فأطبق رأينا على أنها شعور طبيعى يلازم الحب ، وعلى أنها مقياس حرارته الصادق ، بخلاف مونيوث الذى كان يرى فى الغيرة شعوراً أولياً همجياً يمكن القضاء عليه بالتربية والتهذيب كما قضت المدنية من قبل على بعض عيوب البشر الأولى . .

فقال عندئذ فرناندو — الطالب الفليبينى — موجهاً الكلام لمونيوث :

إذا كنت ياصديق لا تغار فما بالك تحجب عنا حبيبتك نانيت ؟

فبُهت مونيوث لهذا السؤال الفاجئ وتلعثم قائلاً :

أنا لا أحجب نانيت بل هى التى تعرض عن الحضور لأنها لاتحب الرقص . .

فصاح ريكاردو ، أحد الطالبين الآخرين :

يا للعذراء ! هل هنـاك فتاة تبغض الرقص ؟ إن رجلىّ البائستين لم تعودا تحملاننى من كثرة مارقصت مع صديقتى سيمون !

فقلت بدورى لمونيوث :

ولـكنى لم أشاهد صديقتك نانت هذه !

فتدخل فرناندو قائلاً :

إنه يخاف عليها يا عزيزى كما تخاف القطة على صغارها

ثم استمرتُ موجهاً كلامى لمونيوث :

لا يمكن إلا أن تـكون غيوراً ياصديقى ، ففى عروقك الدم الشرقى العربى الفائر . .

ولـكن مونيوث أصر على إنكاره الغيرة كما أنـكر الدمّ العربى ، واعداً إحضار نانيت معه فى أقرب فرصة . . .

ولـكن مونيوث طبعاً لم يف بوعده . .

***

تعرفت بعد ذلك بأيام بنانيت هذه بالفندق ، إذ أتت لتزور مونيوث وكان إذ ذاك معتل الصحة ، فعذرت عندئذ صديقى لحرصه على نانيت ، لأنها كانت جميلة الى حد بعيد ، بشعرها الذهبى المنفوش ، وعينيها الخضراوين اللتين كأنهما عينا قطة أنقرية . .

ولما كنا فى ذلك الوقت فى أواخر شهر ديسمبر ، وضعنا ذات ليلة برنامج سهرة فى ليلة رأس السنة ، ووعدنا مونيوث باصطحابه نانيت فى تجوّلنا تلك الليـلة بمقاهى باريز الليلية . . على أننا شككنا فى هذا الوعد أيضاً .. ولـكن حينما جاءت الليلة الموعودة ، أقبلت نانيت متأبطة ذراع صديقها ! بدأنا طوافنا بالذهاب إلى ملهى « الطاحونة الحمراء » حيث كانت الممثلة الاسبانية الرشيقة « راكل ملر » تخلب البار يزيين بصوتها الشجىّ ورقصها السماوىّ . .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى مقهى قريب من « الطاحونة الحمراء »

يديره بعض أشراف الروس الذين هاجروا من بلادهم على أثر قيام النظام الشيوعي في روسيا؛ وكان المحل غاصاً بالأجانب والفرنسيين على السواء الذين أتوا ليستقبلوا السنة القادمة بين المرح والسرور عساها تأتى لهم بالسعادة . . . ؟!

جلسنا في البار الذي كان مرتفعاً حتى نستطيع أن نشرف على الرقص بأجمعه . . ثم شاهدت بعض أصدقائي من المصريين جالسين بالقرب من حلبة الرقص، فانتقلت الى مائدتهم لتحيتهم ...

ولكن لم يمض زمن طويل على وجودي معهم حتى سمعنا جلبة قوية آتية من جهة البار، فذهبت لفوري الى هناك فاذا بأصدقائي الأسبان يتشاجرون مع بعض الفتية الفرنسيين، وقد تمكن الحاضرون من تفريقهم بعد جهد كبير دون الالتجاء الى البوليس . . أما سبب المعركة فكان نانيت! والمحرك الأول هو مونيوث!

غازل شاب فرنسي جميل نانيت، ولكن مونيوث لم يفعل شيئاً وقتئذ برغم ملاحظته للأمر، وذلك عملاً بعادته السلمية وتغلباً على الغيرة المرذولة! ولكن مونيوث المسكين لم يطق صبراً حينما شاهد نانيت تبتسم بدورها لمغازلها، فأفلت منه جواد الغيرة الجامح . . فأمسك مونيوث بكرسي وقذف به الشاب الفرنسي عندئذ هب بعض الفرنسيين الحاضرين للدفاع عن مواطنهم، وكان بغض الفرنسيين للأجانب شديداً في ذلك العهد، فهب الاثينيان بطبيعة الحال للدفاع عن مونيوث

انتقلنا بعد ذلك الى صيدلية ضمدت فيها الجراح وأهمها جرح بلينغ في شفة مونيوث السفلى، إذ كنا عازمين على السهر الى آخر الليل حتى لا نستقبل السنة الجديدة بمثل هذا الحادث النكير . . ثم قصفنا طويلا في أحياء باريز المختلفة

سألت مونيوث ونحن في طريق العودة الى الفندق ألا يزال ينكر الغيرة ولا يؤمن بدمه الشرقي العربي؟ فأومأ برأسه إعترافاً بهزيمته أمام الغيرة، وبما يخالط دمه الاسباني من دم عربي حر . .

وا كتفيت بهذا الاعتراف، فان الكلام كان يؤلمه، لأن فمه لا يزال دامياً، ولعل قلب مونيوث المسكين كان أدمى من فمه! . .

(كريمة) **حسين شوقي**

من شعر الشباب

الطائر السجين

للأستاذ محمود الخفيف

راسفٌ في القيد موصول الأنين ... مطرق الهامة في يأس حزين
تلمح الحسرة في نظرته ... نظرة اللوعة والغيظ الدفين
وترى الثورة في إذعانه ... وهو بالأذعان من قبلُ ضنين
ناسل الريش نحيل شاحب ... ذابل المقلة محزون الجبين
ساهم طوراً وطوراً راقص ... رقصة المُوثَق بين الموثقين
سائل عن ذنبه في حسرة ... وسكوت هو كالنطق مبين
نائح في يأسه ملتمس ... رحمة الغادين بعد الرائحين
يحسب الرائي إليه مشفقاً ... يعرف الرأفة بالمستضعفين
فيرجِّي الغوث في إقباله ... ولقد يرجى مع اليأس اليقين
فاذا مر به في غلظة ... وجمود عاد مكروب الحنين
يتمنى الموت في محنته ... ضجعة الموت خلاص اليائسين
وإذا أبصر سرباً عابراً ... وهوى السجن رهين مستكين
هز للطير جناحيه كما ... جرَّ الأغلال في الأسر سجين
نسي القضبان في لهفته ... ومضى يسبح بين السابحين
رده السقف سريعاً فهوى ... طارفَ العينين مكتومَ الأنين
وكسا ريش جناحيه دمٌ ... من جراح الصدر أو نضح الوتين
وإذا غنى لديه طائر ... لم يذق قبلُ عذاب الراسفين
بلغت لوعته غايتها ... وتوالى النوح والدمع السخين
يعرف المحزون أقصى حزنه ... حين يمسي في قبيل ضاحكين
أيها العاني برغمي أن أرى ... ما تلاقي من عذاب وشجون
أيها الطائر مالي حيلة ... ليت من صادوك يوماً يشفقون
حسبوا أنك فيهم ناعم ... أولا تأكل مما يأكلون؟
أولا تمسي لديهم آمناً ... وترى الأحسان فيما يصنعون؟
قفص تصدح فيه سالماً ... أين من زينته سود الوُكون
وصحاف وشراب طاهر ... وهدوء لم ينله المترفون
قبما لو حاسبوا أنفسهم ... لمضوا عن ذنبهم يستغفرون
أين هذا القيد من حرية ... هي أحلى لك مما يصفون

تجد القسوة فيما أحكموا ومعاني الظلم فيما يدّعون
وتعاف الضيم في نعمتهم ولو اسطعت تخيرت المنون
وترى الشهد لديهم علقماً وهمو عن غيهم لا يرجعون
رُبَّ يوم عضك الجوع به كان أشهى لك مما يبذلون
أين ما تلقاه في أغلالهم من ظلال كنت فيها وعيون؟
وفضاء كنت فيه مطلقاً ومَقيل لك في وكر مصون
وطعام لم يكن ذا غصة لم يكدره لديك الطاعمون
أتُرى القضبانُ في قسوتها كوثير العشب أو خضر الغصون؟

***

ياعدو الأسر في فطرته يا طليقاً بات في القيد رهين
إن تألمت لما تلقى به لن تراهم بك يوماً حافلين
كنت في جوك حراً آمناً فتلقتك شباك الصائدين
قتل الأنسان ما أظلمه! دأبه العدوان والغدر المهين
يكبره الظلم إذا ما مسه وهو إن يأمنه شر الظالمين
يتحدى الطير في أجوائها ويصيد الوحش في الغار الكنين
أو لم يكف ضحايا بغيه من بنيه الوادعين الآمنين؟
يا أسيراً ينزف الدمع دما لست في بلواك معدوم القرين
كم سجين بات يبكي حظه مثلما تبكي، ويُبكي الناظرين
هذه الدنيا لعمري قفص لبنيها العُزل المستضعفين
قد قرأنا الظلم في غابرها في فتوح الغاصبين الناهبين
فكرهناه ونددنا به وبرئنا من ضلال الغابرين
أولا نمرح في أصفاده ونراه اليوم في المستعمرين؟
وإذا الناس على فطرتهم ولئن راق خيال الواهمين
وإذا العدل سراب لامع طالما بتنا به منخدعين
قف بهذا الشرق وانظر كم ترى فيه من بغي ومن حكم لعين
اسأل الواديَ عن محتله وفلسطينَ عن المغتصبين
واذكر الهند في محنتها حجة تنسخ قول المبطلين
دخل السجن بريئاً شيخها ساخراً من باطل المستكبرين
حمل العبء على أسقامه وكفاه لو دروا عبء السنين
ويميناً لو نسوا أطماعهم لجثوا بين يديه نادمين
وكأيّنْ في الورى من آية ويمرون عليها معرضين!
يعرف الأغلال من كابدها وعرفناها كراماً صابرين
جرّب المحتل فينا مكرَه ورمانا بيننا الغادرين
وأتى الثورة من مقتلها فوقفنا دونها مستبسلين
فرمانا بلظى من ناره وسقطنا عشرات ومئين
وافتدينا الحق في هودجه واحتشدنا حوله مستشهدين
ورفعنا فوقنا رايته وتزاحمنا عليها مقسمين
ورأى الغاصب أنا لم نكن بالخياليين أو باللاعبين
ضاقت الأنفس حيناً وبدت نُذر الرجعة للمستهزئين
والتقى الأشبال في غضبتهم ومشوا نحو المنايا طائعين
أيقظوا الثورة لولا حكمة من بنيها السابقين الأولين
أفسدوا كيد المحيطين بهم فأتوا غيرانهم منكفئين
قسماً ما أجلوها خشية ولئن طال حديث المرجفين
ليس من يبذل طوعاً دمه بالذي يرهب بأس المعتدين
كمنت فيهم، فإن لم ينتهوا بعثوها في غد مستأنفين

حنين إلى الوطن

للشاعر الحجازي أبي يعرب المدني

أحن الى ذكريات الحجاز حنين الفطيم الى ظئره
أحن اليه حنين الحما م اذا ما تغرب عن وكره
اذا هبّ من جانبيه النسيم تروّحت دنياي في نشره
يرفرف روحي على ساحليه فيغترف الشعر من بحره
وما ذبل الوجد حتى يجف لسان القصائد عن ذكره
ألا يا سقى الله أرض الحجاز بوطفاء تغدق في قُطره
ويا حبذا أن يفيق الحجاز فيا طال ما نام في سُكره
اذا ثاب ثابت جميع البلاد وسارت الى المجد في إثره
يقال تباشيره أقبلت طلائعها الغرُّ في فجره
وأنّى له أمل أن يفيق وقد يئس الناس من أمره؟
وما ارتبتُ حتى رأيت الزمان يسوّل لي اليأس من مكره
وغيري إذا ازورّ عنه المنى تشفّع بالدمع في عذره
أناني تبسّمُ تحت القطوب إذا ما تذمرتُ من شره
وأطلب حقي بحد الحسام إذا نام ذو الثأر عن وتره
الى أن تلين قناة الزمان ويعدل إذ ذاك عن جوره

لويدجي بيراندللو

LUIGI PIRANDELLO

صاحب جائزة نوبل لعام ١٩٣٤.



منح الكاتب الايطالي بيراندللو جائزة نوبل للآداب، فجاء ذلك القرار برهاناً جديداً قوياً على خطر الدور التجديدي الذي أداه بيراندللو في تطور المسرح الايطالي المعاصر.

فقد كان المسرح الايطالي منذ عام ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية يعاني تدهوراً شديداً حتى دفع ذلك الناقد بنجامان كرميو الى أن يعتبر المسرح الايطالي أثناء هذه الفترة الطويلة خارجاً عن دائرة الأدب الصحيح. والواقع أن من العسير أن يشعر الانسان بوجود فن مسرحي في ايطاليا خلال نصف القرن الذي سبق الحرب العظمى إلا بأعمال الكاتب الكبير جبرييل دانونزيو، وبعض أعمال عدد من الكتاب مثل جيا كوزا Giacosa وبراجا Praga وبراكو Bracco وسمبنللي Sem Benelli

لم يكن التأليف المسرحي ضعيفاً فحسب، بل إن محاولات الكتاب الحائرة كانت تعيش كلاً على الآداب الأجنبية، وتمعن في تقليد الكتاب الفرنسيين، وأخصهم دوماس الصغير وأوجييه، ثم الكتاب الروس والكاتب النرويجي ابسن Ibsen فيما بعد

وكان المسرح الايطالي في هذه الفترة من العبودية، بحيث كان يتغير بتغير العوامل المؤثرة فيه. فعندما قوي المسرح الطبيعي théâtre naturaliste في فرنسا، لقي ذلك التغير صداه السريع في المسرح الايطالي فسادت روح الواقعية Vérisme أعمال المؤلفين؛ وكانت هذه الروح من القوة بحيث تشبه الثورة على فن دوماس وأوجييه اللذين كانا يطبعان المسرح الايطالي بطابعهما حتى ذلك الوقت.

على أن التحرر من سيادة فن دوماس وأوجييه لم يكن إلا بنقل السيادة من يد الى أخرى، وكانت هذه اليد هي فن ابسن الذي ظل يغذي المسرح الواقعي الايطالي بمشاكله التي يعالجها، وبعواقف أبطاله حتى أوائل الحرب الماضية

كان للمسرح الواقعي بعض القوة، إلا أن تكرار معالجة المشاكل التي عالجها ابسن في قصصه خلق نوعاً من الملل الشديد فقامت محاولات جديدة لبناء مسرح شعري théâtre poélique كان من زعمائه قبل الحرب سمبنللي، وبعد الحرب أركول مورسلي Morsélli (١٨٨٢—١٩٢١). على أن هذا المسرح أيضاً لم يؤد الى الغرض المنشود، لأنه بالغ في روما نتيكيته حتى كانت قصصه أشبه بالأساطير القديمة، وكان أظهر عوامل الضعف فيه انطفاء الأسلوب وخطأ التحليل. لذا ظل الرجاء معقوداً على طبقة أخرى من الكتاب حتى لاحت شمس النهضة الجديدة على يد (المسرح الساخر) théâtre grotesque الذي كانت فكرته نواة أدب بيراندللو، فاليه يرجع الفضل الأول في تحرير القصة المسرحية الايطالية مما يسمى الفكرة التصويرية préjugé photographique التي خلقتها النظرة الواقعية والرجوع بالقصة الى معالجة الموضوعات وتحليل العواطف والنزعات الانسانية بطريقة أكثر حرية وانطلاقاً. طريقة تقوم على أساس من الدعابة والسخرية

وجاء بعد ذلك بيراندللو فاستطاع بعبقريته أن يبني على تراث (المسرح الساخر) فلسفة خاصة هي وليدة تجاربه في الحياة، وآلامه النفسية، وقراءاته الواسعة. وأن يركز هذه الفلسفة في مذهب فني عرف باسم (مذهب الدعابة) hunorisms أو باسم (مذهب بيراندللو) Pirandillisme الذي رفع به مسرح بلاده بعد انحطاط نيف على نصف قرن كامل

لقد بلغ بيراندللو الآن سن الشيخوخة، ففي شهر يونيو الماضي أتم السابعة والستين. وقد ابتدأ الكتابة وهو في العشرين من عمره. وكان إنتاجه من الغزارة بحيث أنه كتب إلى الآن أربعمائة أقصوصة، وعشر قصص، وثلاثين رواية مسرحية! ومع كل ذلك كان اسمه منذ عشرة أعوام يكاد يكون مجهولاً في عالم الآداب! على أن بيراندللو قد استطاع في الأعوام الأخيرة — بفنه المسرحي على الخصوص — أن يشق طريقه الى المجد، ويكون له أتباعاً في أوربا بأسرها. وأن ينال أخيراً أعظم الجوائز الأدبية في العالم أجمع

* * *

ولد بيراندللو في بلدة أجريجانتي Agrigente بجزيرة صقلية في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٦٧ . وعندما شب درس الأدب في روما . ثم سافر إلى ألمانيا حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة بن Bonn ، ولما عاد إلى بلاده عين أستاذاً في (المدرسة العليا للبنات) بروما ، وبقي فيها أربعة وعشرين عاماً من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩٢١

ابتدأ بيراندللو حياته الأدبية قصصياً يكتب القصص الطويلة والقصيرة ، ولكنه تحول فيما بعد إلى الكتابة المسرحية فلقى عن طريقها سبيله إلى الشهرة العالمية . وقد كتب بيراندللو من القصص الطويلة قصة Feu Mathias Pascal (١٩٠٤) و Son mari (١٩١١) و On tourne (١٩٢٤) و Un, personne, cent mille (١٩٢٦) وغيرها. أما قصصه القصيرة فإنها تظهر تدريجياً مجموعة تحت عنوان رئيسي ثابت هو (حكايات لعام) Nouvelles pour un an وأشهر هذه المجموعات Innocentes و Livret Rouge و Vieille Sicile.

أما الروايات المسرحية فقد ابتدأ بيراندللو الكتابة فيها عام ١٩١٢، فكتب روايته Le devoir du médecin و Citrons de Sicile و L'étau ثم كتب La raison des autres (١٩١٣) ثم Le bonnet de fou (١٩١٤) . على أن هذه الروايات كانت في الواقع بمثابة الخطوات الأولى لفنه الذي لم يزدهر إلا ابتداء من عام ١٩١٧ حين كتب رواية Chacun sa vérité . وتوالت بعد هذه الرواية رواياته المسرحية الرائعة التي أشهرها Le plaisir d'être honnête (١٩١٨) و L'homme, la bête et la vertu و La greffe و Tout pour le mieux (١٩١٩) و Comme avant, mieux qu' avant (١٩٢٠) و Six personnages enquète d'auteur و (١٩٢١) و Vêtir ceux qui sont nus و Henri IV (١٩٢٢) و La vie que je t' ai donnée (١٩٢٣) و Comme ci (ou comme ça) (١٩٢٥) و Diane et la Tuda (١٩٢٦) و L' Amie des femmes (١٩٢٧) الخ . . .

***

كان أظهر ما يميز فن بيراندللو منذ قصصه الأولى ميله إلى الدعابة ، يسعى إليها بغريزته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . على أن فكرة بيراندللو عن الدعابة قد تطورت وتحددت بتحوله إلى المسرح واهتمامه على الأخص بكتابة الروايات المسرحية ونبوغه فيها . فقد كان بيراندللو في البداية يلجأ إلى الدعابة إجابة لنداء طبيعته الساخرة . لكنه اقتصر فيما بعد — وخصوصاً في مسرحه — على اختيار الموضوعات التي تثير حقاً سخرية المرء ودعابته . ثم يجعل بعد ذلك من هذه الموضوعات مجالاً واسعاً لأطفاء ظمئه الطبيعي في حب الدعابة . وقد اتفق النقاد على أن عبقرية بيراندللو هي من مهارته الفائقة في حسن اختيار هذه الموضوعات وتوخي الصدق فيها

ويجب أن نلاحظ أن رواية بيراندللو لا تصلها بالرواية الهزلية صلة ؛ ذلك أن الناحية النقدية هي الغرض الأسمى من الرواية ، فهي لم توضع لتبعث الضحك والمرح الى نفوس المشاهدين كما هو الحال في الرواية الهزلية ، بل لتكشف لهم بطريقة تحليلية لاذعة عن حقيقة الطبيعة البشرية ونواحي الصراع بينها وبين تقاليد المجتمع وموجباته . وقد كتب بيراندللو عام ١٩٢٠ يشرح ذلك قال :

« إنني أعتقد أن الحياة مهزلة محزنة . لأننا نرى في داخلنا دائماً خفياً لا ندري سببه يدفعنا الى أن نخدع أنفسنا على الدوام ، فنخلق لنا شخصيات وأفكاراً تختلف باختلاف كل فرد . ثم لا نلبث أن يبدو لنا أن ما فعلنا ليس إلا وهما وخديعة . إن في تمتلئ بالشفقة الحارة على أولئك الذين يخدعون أنفسهم ، على أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن ألحق بهذه الشفقة سخرية قاسية من الأقدار التي تفرض على الانسان فرضاً هذا الغش والخديعة »

وفن بيراندللو يعالج مشكلة من أكبر مشاكل الطبيعة البشرية . تلك هي مشكلة (الشخصية) ؛ فكم ينتاب شخصياتنا كل يوم من التغير والتقلب ؟ وكم يعاني الانسان في علاقاته بسائر الناس الذين يختلف بعضهم عن بعض في العادات والطباع ، فيرى المرء نفسه مرغماً أن يلبس مع كل فرد ولكل حادث ولكل زمن شخصية جديدة حتى يستطيع الحياة في هذا العالم . فبيراندللو حين معالجته لمشكلة الشخصية تراه يقارن بين طبيعة الانسان وما تمليه عليه مقتضيات البيئة ومظاهر الحياة وبين ما يتبع ذلك من صراع ، وما يتخلل ذلك الصراع من رياء الحياة الانسانية وصغائرها

يريد بيراندللو أن لكل انسان شخصيتين كامنتين فيه ، ها

أبداً فى تناقض مستمر وحرب دائمة

أولاهما : (حيوانيته) أى شخصيته الطبيعية بغرائزها وشهواتها

وثانيهما (انسانيته) أى شخصيته الأجتماعية التى تحتم عليه أن يخضع للتقاليد والأوضاع والمبادىء الجامدة ، وكل ما اصطلح المجتمع على تمجيده وتقديسه

ويرى بيراندللو أيضاً أن الفرد يعتبر فى حالته الطبيعية حين يتبع غرائزه وشهواته و (حيوانيته) ، فان خالف ذلك وحاول أن يكون (انساناً) يتقيد بنظم مخصوصة ، ويخضع تصرفاته لقواعد مرعية ؛ فهو فى نظره قد خرج على طبيعته ، وأوقف سير (حياته الحقيقية) ليدخل (حياته الوهمية) التى يتصور أنها الحياة الحقيقية

وهنا يجب أن نتساءل : ما الذى يرغم الأنسان أن ينتقل من (حياته الحقيقية) الى (حياته الوهمية) أو من (حيوانيته) إلى (انسانيته) ؟

إنه الضمير . الضمير فى نظر بيراندللو هو الذى يفرق بين الانسان والحيوان ، وبين الانسان والنبات . الضمير الذى يولد معنا يوم ميلادنا ، ويصاحبنا حتى الموت هو الذى يفتتر حياتنا . هو الذى يقيدها بالأوضاع ، ويخضعها لناموس الخطأ والصواب .

ولكن هل استطاع الضمير أن يكبح غرائز الانسان وشهواته ويمنعها من الظهور والانفجار بين حين وآخر ؟ لا . لم يستطع الضمير ذلك . فحيوانية الأنسان لا تزال كامنة فيه تتلمس الخروج كلما وجدت الفرصة المناسبة . وكثيراً ما تستبد بصاحبها وتعميه وتسيره فى الطريق الذى تشاء . ولذا يرى بيراندللو أن كل شقاء الأنسان النفسى إنما هو وليد وجود الضمير . فقد أراد الضمير أن يكبل الطبيعة الأنسانية بسلاسل التقاليد والأوضاع الأجتماعية ، بينما الضمير لا يعرف التقاليد ، ولا يخضع للأوضاع . فلا الضمير إذاً استطاع أن يميت (حيوانية) الفرد فتسود (انسانيته) على الدوام ، ولا هو سمح لهذه الحيوانيـة أن تتحقق وفق هواها ليحيا الأنسان (حياته الحقيقية) . وكانت نتيجة ذلك نشوء هذا الكفاح الدائم بين شخصية الأنسان الطبيعية وشخصيته الأجتماعية ، أى بين حيوانيته وانسانيته

هذا الكفاح القاسى بين الشخصيتين الكائنتين فى كل منا هو الذى يخلق الهم الممتزج بالابتسام ، والتشاؤم الممتزج بالسخرية ، وذلك هو أظهر ما يميز فن بيراندللو ويطبعه بطابع خاص . على أن هذا الطابع الخاص لم يمنعه من أن يكون ملتقى عدة تيارات فكرية كان لها تأثير كبير فى تفكيره . فغرابة شخصيات القصص تذكرنا بقصص الكاتب الروسى دستويفسكى والكاتب النرويجى إبسن . وطريقة تحليل نفسيات الأبطال والبطلات المضطربين الحائرين بين الحقيقة والخيال تبين لنا بأجلى بيان الأثر العظيم لنظريات العالم النفسى فرويد عن (اللاشعور) أو ما يسمونه (العقل الباطن) ، والعالم انشتين عن (النسبية) ، والفيلسوف برجسون عن (الحركة) ؛ كذلك فيها كثير من (ذاتية) الكاتب القصصى مارسل بروست

على أن هذا الكفاح يختلف نوعه فى نظر بيراندللو عند الرجل والمرأة . فالرجل تتغلب عليه (شخصيته الاجتماعية) . وهو لذلك يحاول جهده أن ينظم حياته ويخضعها قدر الطاقة لأوضاع المجتمع . أما المرأة فتتغلب عليها (شخصيتها الطبيعية) وهى لذلك أقل من الرجل قدرة على سيادة نفسها وتقييد غرائزها وميولها . على أن هذا الاستعداد لدى كل من الرجل والمرأة هو عند بيراندللو أمر نسبى ومؤقت . فالرجل لا يستطيع أن يمنع (شخصيته الحقيقية) من أن تحطم أحياناً القالب الاجتماعى الذى وضع نفسه فيه كما فى قصتى (شهوة الشرف) Volupté de l' honneur و (هنرى الرابع) Henri IV . وكذلك المرأة التى تسيرها طبيعتها تود من وقت الى آخر أن تكبح جماح عواطفها وشهواتها كما فى قصة : Vêtir ceux que sont nus

فأزمة بيراندللو المسرحية تحدث عند اصطدام شخصيتى كل فرد ، وهى تختلف — على ضوء ما ذكرنا — عند أبطال قصصه (أى الرجال) عنها عند بطلاته (أى النساء) . فالأزمة تحدث عند الأبطال — وهم كما سبق يخلصون للوضع الاجتماعى — إما حين يظهر لهم فجأة أنهم يحيون (حياة وهمية) على خلاف ما كانوا يتصورون ، حياة تخالف كل ماجبلت عليه (شخصيتهم الحقيقية) ، وإما حين تنفجر هذه الشخصية الحقيقية مرة واحدة وتخرجهم عن الوضع التقليدى الذى كانوا يحيون فيه . . . أما الأزمة عند البطلات فبالعكس تحدث حين يرين أنفسهن مرغمات على الخضوع لوضع مخصوص أو فكرة مخصوصة كما فى قصة : Comme avant, mieux qu' avant حيث نرى بطلة القصة مضطرة

[البقية على صفحة ١٩٩٢]

البريد الأدبي

ذكرى الموسيقى بوتشيني

مضت عشرة أعوام كاملة على وفاة الموسيقى الايطالي الأشهر جاكومو بوتشيني ، فقد توفى فى ٢٩ نوفبر سنة ١٩٢٤ ، ولكن اسمه وفنه وموسيقاه مازالت تملأ الأذهان والأسماع . واليوم تذكر دوائر الفن والموسيقى بوتشيني ، وتكتب عنه وعن فنه الفصول والبحوث الفياضة . وكان مولد الموسيقى الكبير فى سنة ١٨٥٨ ؛ ودرس على أكابر أساتذة عصره مثل بازيني وبانكيلي ، ولبث مدى عصر أعظم شخصية فى الموسيقى الايطالية والموسيقى الغربية بصفة عامة ، وكان يشغل فى إيطاليا نفس المركز الذى كان يشغله معاصره فاجنر فى المانيا ، ويوهان شتراوس فى النمسا . ويعتبره النقدة الفنيون ثالث أقطاب التأليف الموسيقى فى العالم كله ، فأولهم فاجنر ، وثانيهم فردى ، وهو الثالث . وقد نالت أوبراته الموسيقية شهرة عظيمة ، ولا سيما « مانون لسكو » و « البوهيمية » و « لاتوسكا » و « مدام بترفلاى » وهى تجمع الى نزعة روزيني وفردى الغنائية ، نزعة حديثة الى التعبير ؛ وكان بوتشيني موسيقى الحب المعذب ، وأروع قطعه ما كان يمثل القلوب الكليمة البائسة ؛ ذلك لأنه كان فى حياته الغرامية منكوداً معذباً ، وكان دائماً طائر القلب والعواطف ، لا يكاد ينضج فى قلبه غرام ، حتى يسارع الى غرام جديد . وكان صعب الرضى فيما يتعلق بالنصوص ، لا يكاد يعجبه نص مهما كان من الروعة ، ولهذا كان يجوب القارة باحثاً عن النصوص المختارة لتلحينها ، وقد غضب يوماً إذ أفلتت منه قطعة لبيير لوئيس انتزعها منه الفرد برينو ، وأفلتت منه أيضاً « بلياس ومليزند » لماترلنك ، ولكنه ظفر « بتوسكا » وهى من تأليف فكتوريان ساردو ، بيد أنه لم يكن راضياً عنها كل الرضى ، وقد ألف لها بعض أناشيد من عنده . ويروى أنه اضطر « اليكا » مؤلف « البوهيمية » الى حذف مناظر برمتها ، وتغيير كثير من النصوص . وقد تزوج بوتشيني من مدام « الفيرا بونتورى » بعد فضيحة غرامية طويلة ، وكانت الفيرا زوجة للسنيور بونتورى ، ولكنه هام بها رغم زواجها ، وبادلته الحب ، وحملت منه ، ثم فرت اليه ، ولم يستطع أن يتزوجها إلا بعد وفاة زوجها . وكان بوتشيني مع ذلك يبحث عن مخاطرات غرامية جديدة كلما أصابه السأم ، ثم يعود بائساً فيرتمي بين أحضان الفيرا

وقد توفى بوتشيني فى بروسل ، فى ٢٩ نوفبر سنة ١٩٢٤ ، بعد مرض طويل ، ودفن حسب وصيته فى قصره فى تورى دللاجو (شمالى إيطاليا) ، ولما توفيت زوجته الفيرا فى سنة ١٩٣٠ دفنت معه فى نفس قبره

مكتبة نابليون وآثاره الخطية

عرضت أخيراً فى دار التحف المعروفة « باوتيل درووه » بباريس مجموعة فريدة حافلة لآثار الامبراطور نابليون بونابرت ومخطوطاته الشخصية ؛ وهذه المجموعة التى يملكها المسيو « بروبه » والتى لا تضارعها أية مجموعة أخرى من آثار الأمبراطور ، تعرض الآن للبيع ، وفيها عشرات من الذخائر والتحف البونابارتية فى عصر الأمبراطورية ، ومعظمها مما احتوته مكتبة الامبراطور الشهيرة فى قصر مالميزون من الكتب النادرة الممهورة بتوقيع الامبراطور ، والوثائق الحربية والسياسية النادرة ؛ وهى تعرض تاريخ نابليون كله مذ كان ضابطاً صغيراً فى حصن فالانس حتى وفاته فى جزيرة سنت هيلانة سنة ١٨٢١ ، ومنها رسائل شخصية تصور ما كان عليه الامبراطور من وفرة فى السلطان والعزم ؛ ومنها رسائل غرامية كتبها نابليون الى « جوزفين بوهارنيه » التى غدت زوجته الامبراطورة فيما بعد ؛ وفيها يبدو القائد العظيم محباً ذلولاً يخضع لسلطان الهوى خضوع الطفل ، وكان أهم مالفت النظر منها رسالة كتبت على ورق أخضر بتاريخ يوليه سنة ١٧٩٦ وفيها يخاطب نابليون جوزفين بما يأتى : « ألست

روح خيالى ، وعاطفة قلبى ؟ إنى أؤمل أن أظفر منك برسالة هذا المساء ؛ وأنت تعلمين ياعزيزتى جوزفين أى سعادة آنسها لرسائلك ، وإنى لعلى يقين أنك تغتبطين بكتابتها . . . سأسافر هذا المساء الى جبال التيرول ، الى فيرونا ، ومن هنالك الى مانتوا ثم الى ميلان ، لأظفر ثمة بقبلة ، فأنت تؤكدين لى أن القبلات ثمة ليست باردة ولكنها محرقة . . . ماذا تصنعين فى هذه الساعة ؟ إنك تنامين أليس كذلك . وأنا لست بجانبك لكى أستنشق تنفسك ، وأتأمل ظرف محاسنك ، وأغمرك بالقبلات . إن الليالى بعيدة عندك طويلة ، ذابلة محزنة ؛ والى جانبك يأسف المرء أن ليس الليل بخالد ، فوداعاً أيتها الحسناء الرقيقة ، التى لامثيل لها ، والتى تسمو الى السماء ؛ وألف قبلة ناعمة ؛ فى كل مكان ، فى كل مكان . . .

وقد أثار عرض هذه المجموعة فى الدوائر الفنية والأرستوقراطية اهتماماً عظيماً ، وهرعت الجموع إلى « أوتيل دروو » ، تتنافس فى اقتناء هذه الذخائر ، ومنها كتب وتحف بشعار الامبراطور ، ومنها كتب كانت لقادته واخوته وآله .

فمتى نعنى فى المشرق بآثار عظمائنا ، ومتى نعتبرها ذخائر مقدسة يتنافس المتنافسون فى اقتنائها ؟ ومتى تخرج إلى الضياء قبل كل شىء ؟

جائزة نوبل للكيمياء

سبق أن أشرنا إلى أن جائزة نوبل الطبية منحت هذا العام لثلاثة من علماء الطب فى أمريكا ، وأن جائزة نوبل الأدبية منحت إلى الكاتب المسرحى الايطالى براندللو . ونذكر الآن أن جائزة نوبل للكيمياء عن سنة ١٩٣٤ قد منحت أيضاً إلى أمريكى هو الأستاذ هارولد كليتون يور أحد أساتذة جامعة كولومبيا الشهيرة بنيويورك ، وذلك لأجل مباحثه واكتشافاته الخاصة بالهيدروجين الثقيل ؛ وبذلك تكون أمريكا قد ظفرت هذا العام بجائزتين من جوائز نوبل .

هذا وأما جائزة نوبل عن العلوم الطبيعية فقد تقرر أن يوقف منحها هذا العام ، وأن ترجأ إلى العام القادم ، لأنه لم يتقدم لنيلها من العلماء من هو جدير بنيلها

لويدجى بيراندللو

[بقية المنشور على صفحة ١٩٩٠]

الى مجاراة ابنتها — التى تظن أن أمها ماتت — فى اعتقادها أنها زوجة أبيها

وفى الفصول الأولى من روايات پيراندللو المسرحية ، ترى حوادث القصة غامضة أشبه ما تكون بالقصص البوليسية . وكل حوادث القصة تحدث فى هذه الفصول الأولى . فاذا ما جاء الفصل الثانى — وهو أعظم فصول القصة شأناً — ابتدأ دور (التنبه) prise de conscience . وفى الفصل الثالث — وهو عادة أقصر كثيراً من الفصلين الأولين — يكمل دور (التنبه) ويكون ذلك مصحوباً غالباً بحركة مسرحية عنيفة تحل بها العقـدة المسرحية

فنواحى التجديد فى مسرح پيراندللو :

أولا : أن القصة لاتبلغ حدتها فى الفصل الذى يقوى فيه (الحادث) action بل فى الفصل الذى تقوى فيـه (المعرفة) connaissance

ثانياً : أن القصة ترمى إلى إثارة الشاهدين عن طريق (الاكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق (الحركة) geste

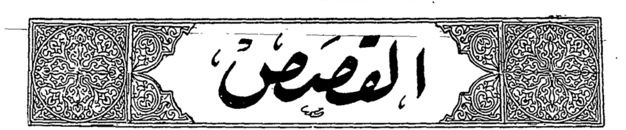
ومن الحق أن نذكر ما وجهه النقاد الى فن پيراندللو . فقد اتهمه ناقدوه بأن رواياته لاترتفع عن مستوى الدرام ، بل عن مستوى الميـلودرام . وأنه اختار لقصصه موضوعات هى من التعقيد بحيث كان من العسير التصديق بأمكانيتها فى الحياة الانسانية الواقعة ، وأخيراً أن رواياته لا تخلو من بعض الملل لأن پيراندللو كان فيها (مفكراً) أكثر من اللازم

على أنه مهما قيل فى فن پيراندللو فانه لا يمكن إنكار أهمية مسرحياته وأثرها التجديدى فى المسرح العـالمى مما جعل بعض قصصه الشهيرة يترجم الى خمس عشرة لغـة أجنبية ؛ كما أن پيراندللو هو الكاتب الايطالى الوحيد الذى استطاع أن يحل المعضلة التى اعترضت كل الكتاب الايطاليين منـذ عام ١٨٧٠ ألا وهى كتابة عمل أدبى يعالج موضوعات ويرسم شخصيات قومية بحتة وينال فى الوقت نفسه إعجاباً عالمياً .

فكأن پيراندللو بنيله جائزة نوبل قد نال فخراً مضاعفاً . إذ بلغ مجده الأسمى وحقق أملاً عزيزاً من آمال وطنه

على كامل

أهم المصادر :
1) Benjamin Cremieux :
Panorama de la littérature italienne contemporaine
2) M lle. Th. Laignel. La littérature italienne
3) Encyclopaedia Britannica (1932)



من الأدب التركى

الزواج المبـــارك

ترجمة الآنسة « فتاة الفرات »

كنت سائراً يوماً وأحد رفقائى فى شارع (بك اوغلى) أحد شوارع الآستانة الجميلة . وكان رفيقى على عادته يحدثنى أحاديث مختلفة ، يحدثنى عن نفسه وعن غيره أحاديث منها ما يقبل ومنها مايمج ويرد . وبينما هو يهدر فى حديثه وقف فجأة وصاح :

ـ إلى أين ؟

التفت فاذا هو يكلم رجلاً طويل القامة محدودب الظهر ، كأنه قد تعب من الحياة ؛ أسمر اللون ، قد طال شعر رأسه ولحيته حتى خرجا عن الحد المألوف ، عليه بذلة لا يعلم إلا الله ما لونها ، قد أثر فيها الغسل الكثير حتى اختلطت ألوانها وتهلهل نسجها

فقال له رفيقى :

ـ ألا يزال الحال على ما نعهد ؟

فهز الرجل رأسه علامة الايجاب وارتسمت على ثغره ابتسامة الترح لا ابتسامة الفرح

فقال له رفيقى :

ـ بارك الله فيهم . وانصرف عنه

ثم التفت إلىَّ وقال هل أقص عليك قصة هذا الرجل ؟

فقلت له على مضض :

ـ هات ما عندك

فأخذ يقص على قصة الرجل ، يقصها بصورة مونقة ، لمابها من اشاراته اللطيفة ومن بيانه البديع خير حلية وأبدعها . قال :

هذا الرجل من لداتى فى السن ، ومن رفقائى فى العمل ، كنا مأمورى حساب فى مصنع حديدى ونحن فى نهاية العقد الثانى من عمرنا ، وكان مرتبه الشهرى أربعة دنانير ، ولكنه كان بالرغم من قلة المرتب ذا زى حسن ، وهندام جميل ، فاذا ظهر زى كان أسبق الناس إليه . كان زيه أحسن أزيائنا جميعاً ، وكان يفوقنا طراً فى العناية بثيابه وجسمه ، فكان يحلق ذقنه فى كل يومين مرة ، وكان مغرماً باللهو كثيراً ، فاذا كان يوم الاثنين جاءنا بكل طريف من أحاديث لهوه ومرحه فى بياض يوم الأحد وسواد ليله ، ولم نكن نجد عند أحد ما نجد عنده من أخبار معارض الصور ومسارح التمثيل والمتنزهات

جاء فى يوم جمعة صباحاً إلى الدائرة وهو تحفة فى هندامه وآية فى زيه ؛ كان فى رجله حذاء لماع قد جمل حوله قطعة جوخ من قماش بنطلونه ، وحول رقبته عقدة من قماش أزرق اللون قد ربطها ربطة جميلة ، وجعل فى وسطها دبوساً ماسياً على شكل نحلة جناحاها من ياقوت ، لعله قد ورثه عن أمه ، ومن جيبه الخارجى تدلى منديل حريرى ذو ألوان جميلة ، وفى صدره سلسلة ساعة ذهبية رأسها فى عروة صدارته وطرفها الآخر فى جيبها ، وفى أصبعه خاتم زمردى ، وفى رأسه طربوش صغير قاتم الحمرة يختال بلذة لارتفاعه فوق ذلك الهندام الجميل

فاجتمعنا حوله ضاحكين نسأله عن سر هندامه الجميل وتأنقه الشديد فى هذا اليوم ، فقال :

ـ سأذهب اليوم إلى متنزه « كاغدخانه » ، وكل ما أرجوه منكم أن تكونوا عوناً لى على الرئيس ليسمح لى بالذهاب ، فان التأخر يضرنى كل الضرر

ثم مد يده إلى جيب معطفه وأخرج محفظة أوراقه وسحب من بينها ورقة « حمراء » اللون لوح لنابها وهو يبتسم ويقارب ما بين جفنيه وينظر إلينا نظرة ذات مغزى ؛ ولكنه ضن علينا بسر تلك الورقة ، وأهمنا ما أهمه ، وأحببنا أن ينعم ذلك اليوم بنزهة ،

فذهب أحد أصدقاء الرئيس إليه ، ومازال به يكلمه فى شأنه حتى سمح له بالذهاب فى ذلك اليوم ، وكاد صاحبنا يجن حين علم ذلك . فكان يصفق بيديه ويخالف بين رجليه ، وقفز إلى الشارع وهو يقول :

ــ سأقص عليكم غداً ما يكون فى هذا اليوم

كنا ننظر إليه نظر حسد ممض ، ننظر إليه نظر المحبوس فى غرفة مظلمة يؤدى عملاً شاقاً ، إلى رجل حر ، طليق ، يسرح ويمرح كما يحب ويختار

أما هو فطار كما يطير العصفور أفلت من القفص . . .

عاد فى اليوم الثانى إلى عمله بهندامه المألوف ، فاجتمعنا حوله نسأله باصرار عن سر الورقة « الحمراء » وعن أخبار النزهة فى « كاغدخانه » ، فلزم السكوت مع أنه هو الذى وعدنا بأن يقص علينا ما يجرى معه هناك ! كان لا يجيبنا إلا بقوله :

ــ لا شىء ، لا شىء . . .

ويبتسم ابتساماً يدل على أن لديه أشياء كثيرة ، لكنه يود إخفاءها عنا

فلما قطعنا الأمل من إفشائه سر الورقة وأخبار النزهة عاد كل منا إلى مكانه وأقبل على عمله

أخذت ألاحظه ملاحظة خفية فرأيته بين آونة وأخرى يستتر خلف دفتره الذى أمامه ويفتح محفظته ويلقى على ما فيها نظرة تنم عن غبطة وسرور . ثم رأيت ورقة « زرقاء » بجانب « الحمراء » ، فقلت له وهو يلقى خلسة نظرته المعتادة على ما فى محفظته :

ــ أراك تهيىء نزهة أخرى فى « كاغدخانه » ؟

فأجابنى ضاحكاً

ــ ربما . . .

بعد هذا الأسبوع أصبح رفيق يتحل أسباباً يسمح له معها الرئيس بالتغيب أيام الجمع ، فكان يذهب إلى متنزه « كاغدخانه » يقضى أيام الآحاد والجمع هناك ، ولكنه خلافاً لعاداته لا يقص علينا أخبار نزهاته ورياضاته . كنت ألاحظه دائماً من حيث لا يشعر بى ، فرأيت محفظته قد امتلأت بالأوراق « البنفسجية والخضراء ، والصفراء » بجانب « الزرقاء ، والحمراء » .

فقلت فى نفسى ، كأن رفيق يستعرض الألوان متخيراً ، وسنرى أى لون يختاره فى النهاية ويستقر عليه رأيه

وبعد مدة علمنا اللون الذى وقع عليه اختياره . . . .

جاءنا فى صباح يوم بادى القلق ظاهر الاضطراب ، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً يحاول أن يتكلم ويفضى إلينا بشىء ولكنه لا يقدر ، ثم نظر إلى وجه كل واحد على حدة وقال :

ــ سأقول لكم شيئاً

حولنا جميعاً أنظارنا إليه ، وكنت واثقاً أن ما سيقوله يتعلق بالأوراق الملونة التى فى محفظته فقال :

ــ سأتزوج . . .

فصعقنا لهذه الكلمة كأنها قنبلة سقطت علينا من السقف ، واستتلى فقال بكل جد :

ــ لقد سئمت هذه الحياة ، حياة الوحدة ، وعزمت على أن أستريح ، إن ملازمة غرف البيت والاشتغال بالعيال والأطفال خير من قضاء الليالى الطوال فى أماكن اللهو ومحال الفجور

فقلت له :

ــ إن مسألة الأطفال مسألة ثانية ، والمهم الآن أن نعرف من هم العيال ؟

فأجابنى بكل جد :

ــ إنها موافقة لى تمام الموافقة ، إنها ليست غنية ، وأنا لست من طلاب الغنى فى الزواج ، ستأتينى بثيابها فقط ، إن والدى ما زال يشكو من الوحدة بعد وفاة والدتى ، ويقول إن كل بيت يحتاج إلى امرأة ، فسأسبقه وأتزوج قبله ، هذا كل ما هنالك

فقلت له :

ــ لابد من صلة متينة بين هذا الزواج وبين الأوراق الملونة ؟

فلم يصدق ما قلت ولا أنكر ما ادعيت ، إنه سكت ، وكيف ينكر ما لا يقبل الإنكار ؟

سمعنا هذا منه وسكتنا ، ولم يظهر بيننا من يخالفه فى رأيه الذى اعتزم عليه ، ولا من يقول له : إن الاقدام على الزواج مع مرتب ضئيل لا يتجاوز الأربعة دنانير كل شهر ، لا يدل على رأى حسن وفكر مستقيم ، وإن الزواج لو كان يترتب على كل رؤية يعقبها ميل لكان الزواج عبارة عن سلسلة لها أول وليس لها آخر

كان العقد وكان الزفاف ، وكانت الحفلات الشائقة التي نعمنا فيها بنعيم صديقنا . وبعد غياب أسبوع عاد إلى عمله وأول كلمة قالها هي :

– إني سعيد . . .

نعم كان سعيداً . . . كنا نعرف ذلك من الطيش الذي أظهره باستدانته من هنا وهناك نقوداً أنفقها في حفلات العرس . كنا نتحقق سعادته حينما نرى الصيارفة عند باب الدائرة في أكثر الأحيان . . . وحينما نراه يوم أخذ المرتب غارقاً يفكر وقلمه بيده يكتب أعداداً ويمحو أخرى . . .

لم نره مسروراً إلا أسبوعاً واحداً فقط

ثم جعلت ألاحظ أن خطوط الهم والتفكير أخذت تظهر على جبينه ، ولكنه مع ذلك كان بين آونة وأخرى يقول لنا :

– إنني سعيد . . .

كأنه يحاول بذلك أن يخدع نفسه ، أو كأنه يريد أن يخدعنا

سمعته في أحد الأيام وقد أخذ الموظفون يستعدون للذهاب إلى منازلهم للغداء يقول :

– إني اليوم أشعر بفتور في جسمي لا أقدر معه على الذهاب إلى البيت للطعام ، لذلك سأبقى هنا وسأتناول شيئاً من الخبز والجبن

وفي اليوم الثاني أتى بعلبة صغيرة ووضعها في درج مكتبه ثم أخرجها عند الظهر وقال :

– لقد رأيت أهل البيت يقددون لحماً فاشتهيت أن أجعل منه غدائي هذا اليوم

كأنه يريد أن يعتذر عن عدم ذهابه إلى البيت ليتناول فيه طعام الغداء على حسب العادة ، عند ذلك قوى عندي الشعور بسعادته وقلت :

– حقاً إنه جد سعيد . . .

أصبح بعد ذلك اليوم لا يخرج ظهراً إلى البيت لتناول طعام الغداء ، ولا يرى حاجة إلى الاعتذار عن ذلك إلى رفقائه ، وأصبح في أكثر الأحيان يأكل الخبز والجبن لا يزيد عليهما ، وربما أتى معه من البيت بسمك محمر ، أو لحم مقدد ، قد صر ذلك في جريدة ، وربما عدل عن اللحم إلى البيض المسلوق

رأيته يوماً يفتح قماشاً فوق منضدته ويقلبه بين يديه ويتأمله مفكراً ، فلما وقع نظره على نظرى رفع قطعة القماش بيده وقال لي :

– ألا تعجبك هذه القطعة لمعطف نسائي ! إنها حقيرة في نظرها لأن ثمنها ثلاثة دنانير !

لقد أقدم على شراء معطف بثلاثة دنانير مع أن مرتبه الشهري أربعة فقط ! ومع هذا فهي ساخطة وتعدها حقيرة . . .

يا للغرابة ! . . لم أر من اللياقة أن أجيبه بما يجب ، فأرسلت زفرة من أعماق قلبي وقلت :

– انه سعيد وسعيد . . . !

في اليوم الثاني أخذنا مرتباتنا ، وبينما كنا خارجين من الدائرة كان أحد الصيارفة في انتظاره عند الباب فتعلق به وطالبه بنقوده صائحاً معربداً ، فدفعه عنه ، ولكن الصيرفي أخذ بتلابيبه ، ولم يرض أن يتركه حتى يدفع له كل ما عليه ، فتخلص منه بعد جهد ، وعاد إلينا قائلاً كأنه بكلامه يريد أن يخفف وقع المنظر في نفوسنا :

– يا له من وقح ! كأني قد أنكرت ما له عليّ من دين ، فهو يطالبني بهذه الشدة !

فقلت في نفسي :

ستدفع اليه ماله بلا شك ، وما الذي يقوله هذا النذل فيك إذا أنت لم تأخذ من المرتب إلا ثمن المعطف الذي قدمته للفتاة التي عبثت بلبك بوريقاتها الزاهيـــة ، وإلا نفقاتك البيتية والخصوصية ، ثم قدمت اليه الباقي جملة واحدة ؟!

كان يفقد نشاطه بالتدريج ، لقد حل مكان النشاط سكون وفتور ، أما اعتناؤه بزيه وهندامه فكان يقل شيئاً فشيئاً ، ولكننا مع ذلك كنا أحياناً نرى دبوسه الماسي فوق عقدة رقبته ، وخاتمه الزمردي في أصبعه ، وسلسلة ساعته على صدره

أما الثياب فكان يقضي داخل الحلة الواحدة فصلاً كاملاً ، وكان لا يبدل قميصه إلا نادراً ، وظهر عليه انقباض ، فربما مرت عليه أيام لا يحرك شفته فيها بكلمة

كنا نشعر نحن أن وراء هذا التبدل ما وراءه من حياة بيتية مضطربة . . . . إلا أنه جاءنا يوماً على غير عادته فرحاً مستبشراً فقال لنا عند دخوله :

– هنئوني ، لقد رزقت اليوم فتاة

ثم نظر الى تقويم الأوقات وكتب في دفتره :

١٥ آذار ١٣٠٠

هنأه كلهم بالمولود الجديد وأنا من جملتهم وقلت :

– ها قد جاء دور الأطفال بعد العيال

جاءني بعد أسبوع وقال والحمرة تعلو وجهه :

– هل عندك دينار تقرضني إياه ؟

ثم أردف قائلاً من غير أن يترك مجالاً لرد طلبه :

ــ يجب عليَّ أن أدفعه الى القابلة

لقد سمعت الدينار فى جيبى يزفر زفرة حرى . ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أرد طلبه ؛ فأعطيته الدينار . ومن الغريب أنه منذ ذلك الحين أخذ يعاملنى معاملة باردة ، ويقابلنى بوجه جاف ، مع أنه لم يكن ثمة حاجة الى ذلك ، لأنى منذ ناولته « الدينار » نفضت يدى منه

لقد تغير حال رفيقنا وازداد اضطرابه بعد أن صار أباً . دخل يوماً الى الدائرة وهو يقول :

ــ ألا تسألون عما حلَّ بى ؟

فأخذنا ننظر اليه بقلق وننتظر أن يذكر لنا ما حلَّ به ، ففتح حينذاك ملفاً صغيراً بيده وأخرج منه علبة صغيرة سوداء فرفع غطاءها وأرانا إياها فاذا فيها :

ثدى صناعى . وقال :

ــ إن زوجتى لن ترضع ابنتها بعد الآن ، سترضعها بالثدى الصناعى ، فهل تدرون لماذا ؟

حينذاك توقف عن إتمام كلامه كأنه كان يتردد بين أن يقول وبين أن يسكت ثم قال وهو خجل :

ــ لأنها حامل !

كان ينظر الينا باضطراب ، وكان منظره مؤلماً ومضحكاً معاً

رأيته يوماً عند طعام الظهر أخرج قطعة « كمك » وقطعة من جبن « القشقاوان » وأخذ يأكلها وهو يتمتم قائلاً :

ــ أنت تجوع وابنتك فى البيت تأكل مرق اللحم الدسم

أخـذت علائم الحزن ترتسم على محياه وتظهر بأجلى مظاهرها ، وبدت على وجهه معان مؤلمة حزينة لبعد عهده بالموسى ، وكان كثيراً ما يكلم نفسه كالمجانين ، وكثيراً ما يشتغل بحسابه الخاص ــ حساب الدين ــ عن حساب الدائرة ، ويسافر بفكره الى أقصى حدود الخيال

عدنا يوماً من الغداء الى الدائرة فرأيناه يخيط بطانة معطفه ، ذلك المعطف الذى صحبه زمناً طويلاً ، فخجل منا وقال :

ــ إن زوجتى مريضة لذلك أنا أخيط ثيابى بيدى

إنه لم يقل الحقيقة لأنه ما كان يخيط بطانة معطفه المفتوقة ، بل كان يرفو بطانته التى تهلهل نسجها لطول الأيام

حينما ذكر لنا خبر ولادة المولود الثانى لم يكن فرحاً مستبشراً كما كان فى أول مرة بل قال :

ــ لقد رزقت اليوم غلاما

ثم نظر الى تقويم الأوقات وأخرج دفتره من جيبه وكتب فيه :

١٢ نيسان ١٣٠١

لم نره بعد ذلك شكا أو تبرم ، ولكنه كظم كل ذلك فى قلبه صابراً مستسلماً لقضاء الله وقدره . سعينا مع الرفاق عند رئيس الشركة لنزيد راتبه فلم نفلح ، وكان جواب الشركة :

ــ إن أولاد الموظفين ليسوا من صنع معاملها حتى تتكفل بهم . أربعة دنانير للزوجين وللولدين . . . . .

صار طعامه عند الظهر الخبز والجبن بصورة منتظمة ، ولم نعد نراه فى متنزه ولا متفرج ، وأنزل نوع التبغ الذى يدخنه درجة ثم درجات ، وأصبح كثير النظر فى أوراق الحساب ، وفى آخر أحد الشهور زاره الصيرفى الملح يطالبه بالدين فصاح به :

ــ لن أعطيك ، لن أعطيك شيئاً ، افعل ما تشاء

لقد كان قبل اليوم يكلمه سراً ، أما اليوم فهو يكلمه علناً ، لأنه لم يعد يخجل منا

جاءنا فى صباح أحد الأيام وبيده علبة فيها ثدى صناعى . فقلت له :

ــ ما هذا ؟

فقال :

ــ لا شىء

كأنه خجل أن يقول ما قاله أولاً ، وفى ذلك النهار لم يزاول عملاً ، ولكنه جعل رأسه بين يديه واسترسل فى أفكاره حتى المساء ، لا ينظر الى شىء ولا إلى أحد

ولاحت منى التفاتة اليه أحد الأيام فاذا هو ينظر الى تقويم الأوقات ثم يخرج دفتره من جيبه ؛ فقلت له :

ــ هل من قيد جديد لزائر جديد ؟

فأرسل نفساً قصيراً وكتب فى الدفتر :

١٠ مايس ١٣٠٢

ثم قال وهو ينظر إلى مبتسماً ابتسامة مؤلمة :

ــ لقد رزقت اليوم فتاة أخرى

كنت أنا أشعر من أعماق نفسي بألم من كثرة أولاد هذا الرفيق ، أما هو فكان يبكي من فرط تألمه ، فحول عينيه عني وأقبل على عمله . أخرج يوماً ساعته من جيبه وفصل عنها سلسلتها الذهبية ولفها بورقة ، فقلت في نفسي :

– لن نرى السلسلة الذهبية بعد الآن

إن رفيقي لم يدفع ثمن القهوة في هذا الشهر ، وأصبح منذ ذلك اليوم يشربها مرة واحدة في النهار بدلاً من ثلاث مرات .

ساءت حال الرجل واشتد به الضيق ، وظهرت ملابسه ملونة ببقع الحبر ، واستحال لونها ، وتهلهل نسجها ووهى ، فكنت إذا رأيته على هذه الحال رثيت له وبكيت عليه . ولقد دخل عليّ يوماً وعليه حلة جديدة لم أرها عليه قبلاً ، ففرحت لذلك ، الا أن فرحي لم يطل ، فقد قال لي غير خجل مني :

– إنها قديمة ، ولكني صبغتها فصارت جديدة

وبعد هذا الاعتراف أصبحنا صفيين ، وزال ما بيننا من الفتور الذي سببه « الدينار » واتخذني كاتماً لأسراره ، يبثني آلامه وأحزانه . لقد سرد عليّ تدريجاً كل آلامه في الحياة . فذكر لي أولاً مبدأ صلته بزوجته وأساس هيامه بها ، وأن ذلك كان في متنزه « كاغدخانه » ، وبسبب تلك الأوراق الملونة . . . وأنه كان يأمل أن ينعم بالاقتران بها ، إلا أنه لم ينعم بذلك إلا أسبوعاً واحداً وأتى بعد ذلك الشقاء . . . ، ثم تجلت حياة البؤس من اجتماع فقره وفقرها ، فكان بينهما نزاع سببه عدم تمكنه من تأدية نفقاتها وطلباتها ... ثم الأولاد ...

وعاد الى زوجته فقال :

– إنها لما رأت نفسها محرومة مما تشتهي من ملبس ومأكل ومشرب أخذت تعامله معاملة قاسية لا تطاق ، ولكن ماذا يعمل هو إزاء ذلك ، وها هو لم يلبس بذلة جديدة منذ تزوج حتى الآن ، وأن ياقاته قد تمزقت فقلبها على قفاها لأنه لا يجد غيرها ولا يستطيع الوصول اليه ، على أنه قد عزم على أن يتخذها من مشمع كيلا تتمزق سريعاً ، وها إن ولديه الأثنين قد كبرا ، وهما في حاجة الى ثياب والى أحذية لا يجدها

وكان بعد ذلك اليوم الذي نفض فيه جعبته أمامي ، يسمعني كل يوم فصلاً من فصول حياته المؤلمة . نظر إلي يوماً وهو يريني قماشاً أخذه لأبنته الكبرى وقال :

– سأقول لك شيئاً

ثم عاد وقال :

– لن أقول لأنك لا تصدق

إلا أني عرفت ما يقصده حينما رأيت دفتره في يده ونظره في تقويم الأوقات ، لقد كتب في دفتره :

٨ حزيران سنة ١٣٠٣

فقلت له :

– أطفل أيضاً ؟

قال : نعم غلام ، وقد أصبحوا أربعة

ثم قال وهو يبتسم :

– إنهم لا يخطئون نوبتهم : فتاة ثم غلام ، ثم فتاة ثم غلام ، وهكذا . .

كان يضحك ولكن كان قلبه يبكي . فقال لي في نفس ذلك اليوم :

إن الدخان يؤثر في صدره ويؤذيه ، وهو يرغب في تركه لو يستطيع

أدركت ما يقصده المسكين من ترك الدخان ، فتألمت له كثيراً حتى كدت أبكي

رزق ولداً آخر ، فصار الأولاد خمسة ، وفي ذلك اليوم خرجت نفسه من يده ، فانه ما كاد يدخل الدائرة ويجلس إلى منضدته حتى أخرج دفتره وكتب فيه وهو ينشج نشيجاً يفتت الكبد ويصدع القلب : ٥ تموز ١٣٠٤

فقال بعض رفقائنا الجفاة ساخراً منه :

– ضع أرقاماً متسلسلة بجانب أولادك كيلا تنسى عددهم ...

كانت الخامسة فتاة على الترتيب المعتاد

بعد ذلك بقيت معه ثلاث سنين في الوظيفة رأيته فيها ثلاث مرات يكتب في دفتره

كتب فيه بجانب اسم فتاة وغلامين :

١٤ آب ١٣٠٥

٨ ايلول ١٣٠٦

١٤ تشرين الأول ١٣٠٧

[البقية على صفحة ٢٠٠٠]



الكتب

(الخطابة) : تأليف محمد أبو زهرة

(الأدب العربي في آثار أعلامه) : وضع لجنة من أدباء لبنان

(نسمات الأصيل) : تأليف عبد العزيز رمضان وعبد الفتاح العشري

(التعابير) : تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين

(ابنة استرما) : تعريب محمد عبد الفتاح ابراهيم

(ظلال القمر) : نظم أحمد مخيمر

. . . تدل هذه المجموعة من الكتب ، فضلاً عما تظهر من نشاط التأليف في العالم العربي ، على بعض مظاهر الحركة الفكرية عندنا ، من حيث تشعبها واتجاهاتها ومقدار ما دخل عليها من تطور في طريقة عرض الآراء وبسطها وتوجيهها ، وما دخل على الشاعر من آثار التجديد

. . أما أولها فبحث قيم في الخطابة وأصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب ، اضطلع بوضعه الأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ تاريخ الخطابة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية ، وهو كتاب كبير يقع في نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير جعله مؤلفه قسمين ، فتناول في القسم الأول أصول الخطابة ، فعرف هذا العلم وبين علاقته بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ثم تكلم عن فائدة الخطابة وطرق تحصيلها وقواعدها كالايجاد والأدلة ومواضعها الذاتية والعرضية ، وآداب الخطيب وصفاته وما يتخللها من إثارة الأهواء والميول واستغلال العواطف ، وغير ذلك من أصول هذا العلم كالتنسيق وما يدخل فيه من مقدمة وإثبات ، ثم التعبير وحسن الأداء وما يصحبهما من موقف الخطيب وإشاراته وصوته ، ولم يفته أن يبين في وضوح أنواع الخطب من سياسية ومن قضائية حتى الوعظ الديني والمحاضرات العلمية والخطب العسكرية . . الخ وفي القسم الثاني تكلم عن تاريخ الخطابة في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، وفي العصر الأموي وصدر العصر العباسي مع إيراد نماذج لكل من هاتيك العصور

فأنت ترى أنه بحث قيم جدير بالثناء ، كما ترى أنه موضوع طريف في مسألة لها أهميتها وخصوصاً في عصرنا هـذا . عصر الرقي الاجتماعي والاتصال الفكري ، عصر المجادلات السياسية والمناقشات البرلمانية والمحاضرات العلمية والوعظية في المجتمعات والنوادي وفي الراديو وغيره

وإني وإن كنت أشايع المؤلف الفاضل في رأيه أن الخطابة ملكة وهبة طبيعية ، فاني أرى معه أيضاً أن الأصول والقواعد الفنية لابد منها حتى للموهوبين ، فما أبدع الجمع بين الاستعداد الفطري والأوضاع الفنية ، هذا ولو لم يقتصر الأستاذ الفاضل على الخطابة عند العرب فتناول الخطابة عنـــد أمم الغرب لكان موضوعه أتم ، وكانت فائدته أعم ، إذ تتسنى بذلك المقارنة . ولاشك أن ما طرأ على الأمم من تغيير في نظم الاجتماع وطرق التفكير قد أدخل على الخطابة في العصر الحاضر عناصر أخرى جديرة بالبحث ، والمؤلف كما يظهر من كتابه جدير بأن يفرد لها رسالة أخرى لايتقيد فيها ببرنامج الدراسة وحدوده

***

وأما الكتاب الثاني فعبارة عن نصوص منتخبة من النظم والنثر وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية قام بوضعه الأساتذة واصف بارودي ، وفؤاد افرام البستاني ، وخليل تقي الدين ، وفي يدي الآن الجزء الأول منه ؛ ويشمل الجاهلية وعصر صدر الاسلام ، ويقع في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع طبعاً أنيقاً في بيروت ، إختار مؤلفوه الأفاضل من عصر الجاهلية شيئاً من أشعار امرىء القيس وطرفة بن العبد وزهير وعنترة والنابغة الذبياني مع إيراد ترجمة قصيرة لكل منهم ، وبيان ظروف معلقته ، واختاروا من عصر صدر الاسلام للأخطل والفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة والحجاج بن يوسف وعبد الحميد الكاتب ،

على نحو ما فعلوا في العصر الجاهلي مع الأشارة هنا إلى الدواوين أو المؤلفات

وقد يظن القارىء أن مثل هذا العمل قليل الخطر ، ولكن الواقع أنه من أدق الأعمال الأدبية ، فالاختيار يحتاج إلى توخى الفائدة وإلى التقيد بالذوق العام ، ومراعاة سن القارىء ودرجة استعداده ، ثم ملاحظة القطع المختارة ومقدار دلالتها على تفكير صاحبها ونوازعه في الشعر والكتابة وما ينعكس فيها من أخلاقه وصفاته ، وهذا بلا شك يزيد في قيمة النصوص ، فالنصوص كما لا يخفى أمر لابد منه لدراسة الأدب وتذوقه ، وهي الخطوة السابقة للنقد بل الأساسية له . هذا وكثير من النصوص ما تزيد قيمته في نفس الجمهور بحسب من اختارها لا من حيث هي في ذاتها . فاذا كان من يختار سليم الذوق ضليعاً في فنه ، جاءت مختاراته على قدر منزلته ، وهــذه النصوص التي أحدثك عنها تدل على ذوق وفن عظيمين

***

وتجد ثالث تلك الكتب من نوع سابقه فهو عبارة عن مختارات من النظم والنثر ، غير أنه يختلف عنه في طريقته ، فلم يراع فيه ترتيب ولا تبويب ، كما لم ينظر فيه الى درس أو غاية فنية اللهم إلا الاستمتاع والغذاء العقلي الذي يستمد من الآثار الأدبية عامة أيا كان شكلها أو موضوعها ، وإنك لتجد فيه المقالة المعربة الى جانب القطعة المختارة ، الى جانب الترجمة لشاعر أو كاتب ، الى قطع شعرية قديمة وحديثة متناثرة هنا وهناك دون أن تستطيع أن تعرف السر في اختيارها ، اللهم إلا أنها قد أعجبت مختاريها ، وبينا تجد بعض القطع منسوبة الى أصحابها من أعــلام الشعراء والكتاب تجد غيرها غفلا من كل اشــارة ، وتكاد لا تساوى شيئاً في معناها أو في أسلوبها

لذلك يحق لي أن أعتب في رفق على الأديبين المختارين عــدم تنظيم كتابهما ، فان فيه كثيراً من التحف الأدبية لو أنها عرضت بطريقة منظمة لكان ذلك أجمل وأدعى الى الاستمتاع والانتفاع

***

أما كتاب الثعابين فهو بحث يتناول الثعابين عامة والأنواع المصرية منها خاصة ، قام بتأليفه أستاذ متخصص في علم الحيوان هو الدكتور حسين فرج زين الدين ، وإن اختيار المؤلف الفاضل لهذا الموضوع الذي لم يسبقه اليه غيره في اللغة العربية ، لدليل واضح يضاف الى كثير غيره من الأدلة على مجاراة المصريين غيرهم من أمم الغرب في التخصص العلمي ، وتناول المسائل العلمية على أمثل الطرق ، والكتاب مملوء بالصور الدقيقة لأنواع الثعابين ، والمصرى منها خاصة ، ولن أجد في وصفه أحسن مما قاله في مقدمته الفريق الدكتور أمين باشا المعلوف « قرأت الكتاب من أوله الى آخره فوجدته مكتوباً بلغة علمية فصيحة ، وأسلوب علمي سهل المنال ، مما يثبت أن اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمي لمن أراده . هذا من جهة اللغة ، أما العلم فقد بحث المؤلف الثعابين بحثاً وافياً ولاسيما ما كان منها في مصر وما جاورها وذكر أسماءها العربية الفصيحة والعامة ، وإذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الأسم العلمي . وبحث في الحيات والانسان وأنواع الحيات وأشكالها بوجه عام ثم بحث في تشريحها . . . الخ ثم بحث في السم وأنواعه وأعراض التسمم والمصل في علاج الملدوغين »

ونحن نتقدم بجزيل الثناء للدكتور المؤلف على مجهوده المحمود

***

وأقدم للقارىء بعد ذلك تلك القصة المعربة وهي « ابنة استريا » وتقع في جزءين ، ولقد نشرت تباعاً في جريدة الاهرام ومعربها هو الأستاذ محمد عبد الفتاح ابراهيم ، أما مؤلفها فهو الروائي الانكليزي الذائع الصيت فيلبس اوبنهايم ، صاحب الروايات المحبوبة عند جمهور القراء في الامبراطورية البريطانية ، وليس لدى الأصل الانجليزي حتى أستطيع أن أحكم على ما إذا كان التعريب جيداً ، غير أني أجد في جودة العبارة وسلامتها من الركاكة ما يرجح عندى هذا ، أما موضوع القصة فموضوع غرامى ســاحر ملىء بكثير من المواقف المدهشة والأوصاف الساحرة . « كتبه اوبنهايم بعد أن زار جزيرة (استريا) وسط المحيط الجنوبي وسمع القصة بأذنيه »

بقى الكتاب الأخير «ظلال القمر» وهو ديوان صغير الحجم يقع فى نحو ثمانين صفحة للأديب أحمد مخيمر ، مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق جيد ، ومحلى بعدة صور ريفية بديعة . وتدور معظم قصائده على وصف المناظر الريفية ، وهى نزعة أحمدها للشاعر الفاضل فلقد تناول البيئة المصرية المحبوبة ، ولم يجر كغيره وراء أخيلة وصور لاتمت الينا بصلة ، ولذلك تلمس فى شعره الروح القروية الرقيقة ، وكثير من قصائده فى القمر والحقول يقنعك بأن الشاعر لايعرف التكلف ، وحبذا لو اتجه شعراؤنا الى الريف المصرى فوصفوا جماله واستلهموا سحره ، واستوحوا صفاءه وبهجته . ولكني إذ أغتبط بنزعة الشاعر من حيث الموضوع أقرر مع الأسف أنه كثيراً مايسف فى شعره إسفافاً قد يقربه من الابتذال ، ولكنه يسمو أحياناً سمواً يبشر بأنه مع الصبر والتجويد قد يأتي فى المستقبل بما يجعل منه شاعراً مصرى الروح والعاطفة ؟

الخفيف

الزواج المبارك

[بقية المنشور على صفحة ١٩٩٧]

كأن الدهر كان يريد مداعبة هذا الرجل الفقير المسكين فهو يقذفه مصراً فى كل سنتين بفتاة وغلام . . .

لقد خلت محفظته من الأوراق «الملونة» بعد أن كانت تغص بها ، ولم يبق فيها غير دفتر صغير فيه صحيفة كاملة لتواريخ أولاده بعد أن قيد تاريخ ولادة الولد الثامن . . . ألقى نظرة فاحصة على الصحيفة من أولها إلى آخرها ثم جاء إلينا وقال :

ـ تعالوا لأريكم اتفاقاً غريباً

فاجتمعنا حوله فقال :

اقرأوا من أعلى الصحيفة حتى أسفلها

فقرأنا فاذا فيها :

آذار ، نيسان ، مايس ، حزيران ، تموز ، آب ، ايلول ، تشرين الأول

ثم أخذ يشرح لنا مكان الغرابة فى ذلك فقال :

ـ انظروا إن بين كل ولد من أولادى ورفيقه ثلاثة عشر شهراً لاتزيد ، لذلك كانت شهور ولادتهم متعاقبة لا فاصل بينها

فقال أحدنا مستهزئاً أيضاً :

ـ الآن جاء صاحب تشرين الأول ! وسيأتيك أربع آخرون حتى شباط . وفيه تنتهى المجموعة ويكمل عددهم «إثني عشر»

لقد مضى على خروجى من خدمة الشركة أربع سنوات لم أر خلالها هذا الرفيق القديم ، فلما رأيته اليوم سألته عن حاله فاذا «سيل» الأولاد لايزال كما كان . وعلى ذلك فان «شباط» قد وضع «هديته» وتمت المجموعة التى بُشر بها ، مع أن المسكين لا يزال يلبس الثياب التى كانت عليه منذ أربع سنين ، وربما كان مرتبه لا يزال «أربعة دنانير»

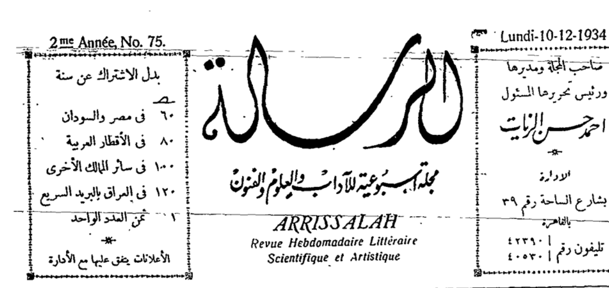
***

هنا انتهت القصة التى رواها رفيق فودعته وركبت الترام إلى بيتى ، وأنا أفكر فى ذلك الرجل المسكين وسوء طالعه ، وأستنزل الرحمة والرضوان على جدث دفين معرة النعمان

حلب **فتاة الفرات**

2me Année, No. 75.

Lundi-10-12-1934



بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٧٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ رمضان سنة ١٣٥٣ — ١٠ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

إلى القرية يا بك ...

أهلاً وسهلاً بعلى بك !... كيف حالك ؟... آنست هنا وأوحشت هناك !... منذ كم سنة لم أرك ؟... نعم أكثر من ست سنين !...

وكان هذا اللقاء المفاجئ فى ميدان ابراهيم أمام (النيو بار)، فمال بنا الشيخ فى حماسة الشوق ودهشة المفاجأة الى مجلس من مجالس هذا المقهى الحاشد، ثم أخذ يسألنى عن أمرى حتى نقع نفسَه ونضح وده. فلما طال بنا نفَسُ الحديث عطفته مترفقاً الى عمره المفقود، فذا كرتُه عهود القرية أيامَ الشملُ جامع والحبل واصل والدار نادية! فكانت أرسالُ هذه الذكَرَ — واأسفاه — ترتد عن شعورهَ الأصم ارتداد الأمواج عن صخور الساحل! لقد خَفتَ الماضى فى ذاكرته خفوت المحتضَر؛ فرَجْعه البعيد لا يكاد يَبين إلا فى نظرة قصيرة من عينه المتفخة، أو نفثة طويلة من نرجيلته المكركرة

نشدَّ ما صَنعت المدينة بهذا الرجل! كان مكتنز اللحم فترهّل، ومشبوبَ اللون فانكفأ، وخفيفَ الحركة فثقّلته الأملاح،

وظليق المشية فتيذبه العلل؟ ثم كان يعقد مجلسه في القرية فيكون في جلالته ديوان عرش ، وفي مهابته جلسة محكمة ! يلقي النظرة مثقلة بالدلائل فتأخذها العيون وعداً لا يخلف ، أو وعيداً لا يشفق ، أو عاطفة لا تكذب ، ويرسل الكلمة موقرة بالمعاني فتلقفها الآذان أمراً لا يرد ، وقانوناً لا يخالف ، ورأياً لا ينقض ، فأصبح في زحمة القاهرة قطعة من الوجود المتطفل ، يتسكع في الطريق ، أو يتقمع[1] في القهوة ، أو يتمطى في البيت ، وليس له رأي في أمور الناس ، ولا أثر في جهاد العيش ، ولا شأن في طبقات المجتمع ؛ وكان كليل اللسان حافل الخاطر اذا تحدث الى الفلاحين في شئون الفلاحة ، فلما حاول مناقلة المدنيين أحاديث السياسة والأدب والاجتماع ، قعد به الجهل عن مجاراتهم ، فغلب الوجوم على نفسه ، وختم الغبي على فمه !

***

تخاذل حديث (البك) واسترخى حتى انقلب إلى أنة موجعة وشكوى أليمة ! قال وهو يطلب من الغلام جمرة ترسل النار في النرجيلة الخامدة : منذ حبب إلى أبنائي — وهم في المدارس كما تعلم — أن أنقل البيت من القرية إلى الحاضرة ، انقلب وجودي رأساً على عقب ! فأنا أحيا كالغريب ، وأعمه كالشريد ، وأمشي كالتائه . نقصت غلة الأرض لاتكالي في زرعها على الناس ، وزادت أكلاف العيش لاعتيادي في الوجاهة على السرف ، وقدحتني أعباء الديون فأنا من شواغلها في غصة لا تساغ وكربة لا تنسلي ، وفسدت على سياسة الأسرة ، فالبنون لا يريدون العمل في غير الحكومة ، والبنات لا يرغبن الزواج في غير المدينة ، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا : لها في كل يوم ملهى ، وفي كل أسبوع وليمة ، وفي كل شهر (مودة) ، وفي كل عام مصيف . فأنا يا صديقي مذبذب العيش بين هنا وهناك ، لم أستفد مزايا الحضر من اتساق الأمر واطراد الحياة ، ولم أستعد محامد الريف من سعادة النفس وبساطة العيش وخلوص الفطرة وصحة الدين وسلامة الثروة ؛ فهل تطمئن على هذه الحال نفس، وهل تشرق في هذا الوجود سعادة ؟

فقلت له وقد تمثل في خاطري ما دهى القرية وأصاب الأمة من أمثال هذا الرجل :

لو أن سراة الريف استقبلوا من أمرك ما استدبرت لما كانوا على أنفسهم شراً وعلى قراهم جناية

فانك لو بقيت في قريتك ، وقمت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك ، وعاد بنوك من الكلية فاستثمروا علمهم فيها ، ونشروا مدنيتهم وثقافتهم بين ربوعها وأهلها ، ورجع بناتك من المدرسة فبثثن في نسائها النظام والتدبير والذوق بالارشاد والقدوة ، ثم فعل غيرك ما فعلت ، إذن لتوفر فيها الرزق ، وورف عليها الأمن ، وانتقل اليها العلم ، وتذوق أهلها المساكين جمال الحضارة ونعيم الصحة ولذة المعرفة ، وشعرت أنت في هذه البيئة شعور الغبطة والرضا ، لأنك أعنت فريقاً من ضعاف الناس على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل

ولكن أكثر القرويين متى ارتجع كثيراً من المال ، أو شدا قليلاً من العلم ، أغلق (المضيفة) ، وخرب (الدوار) ، وخلف القرية للفاقة والجهالة والمرض

فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر في هذه القرى فتدعو إلى الله ، وتهدي إلى الحق ، لظل الريف وساكنوه على الحال التي عثر فيها التاريخ بطلائع الانسان

***

أنت لا تزال عميد أسرة مجيدة ، لها في سياسة الأمة صحائف مشرقة ، وفي ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع الى ماضيك ، واستصرخ عزيمة الجنس فيك ، واستعد سلطانك على أهلك وبنيك ، ثم عد الى مسقط رأسك ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك ! عد إلى القرية يا بك ! !

احمد حسن الزيات

(١) يتقمع : يطرد الذباب من فراغه وبطالته

شهر للثورة ...

فلسفة الصيام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لم أقرأ لأحد قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته ؛ أما منفعته للجسم وأنه نوع من الطب له ، وباب من السياسة في تدبيره ، فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك ؛ وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبة تؤخذ في كل سنة لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم ؛ ولكنا الآن لسنا بصدد من هذا ، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الاسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملة على استمرار الفكرة الانسانية فيها ، كي لا تتبدل النفس على تغير الحوادث وتبدلها ، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق

من معجزات القرآن الكريم أنه يدخر في الألفاظ المعروفة في كل زمن حقائق غير معروفة لكل زمن ، فيجليها لوقتها حين يضج الزمان العلمي في متاهته وحيرته ، فيشغب على التاريخ وأهله مستخفاً بالأديان ، ويذهب يتتبع الحقائق ويستقصي في فنون المعرفة ، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً ، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم ، ويوجهها بالعلم الى غايتها الصحيحة ، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية ، ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربها ؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدي علمائها لم يحققوها ولم ييأسوا منها ، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة في دورتها ، تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلا الى حيث تبدأ

***

يضطرب الاشتراكيون في أوربا ، وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الانسان بزيادة ونقص في أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كتب ورسائل . ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الاسلام ، لرأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ؛ فهذا الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم ، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير ، ومن ملك القرش الواحد ، ومن لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الانسانية بالصلاة التي يفرضها الاسلام على كل مسلم ؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع

فقر إجباري يراد به إشعار النفس الانسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون باحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون باحساس الأهواء المتعددة

ولو حققت رأيت الناس لا يختلفون في الانسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فمن البطن نكبة الانسانية ، وهو العقل العملي على الأرض ؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة مد البطن مده من قوى الهضم فلم يبق ولم يذر . ومن هنا يتناوله الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناس فيه سواء ليس لجميعهم إلا شعور واحد وحس واحد وطبيعة واحدة ، ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة ، ويبالغ في إحكامه فيمسك حواشيه العصبية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى نفثة من دخينة[1] . وبهذا يضع الانسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها ، ويطلق في هذه الانسانية كلها صوت الروح يعلم الرحمة ويدعو إليها ، فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق ، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقير الى الغني بطبيعته ؛ ومن هذين : (الاطمئنان والمساواة) يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والايجاب في هذا الاجتماع الانساني .

(١) الدخينة كلمة وضعاها للسيجارة ، وجمعها دخائن

وإذا أنت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الانساني تاريخاً لا طبيعة له

***

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم ، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم ، إذ يبالغ أشد المبالغة ، ويدقق كل التدقيق ، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة . فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث ، فهما طريقتان كما ترى : مبصرة وعمياء ، وخاصة وعامة ، وعلى نظام وعلى فجأة

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الانسانية الداخلية سلطانها النافذ ، وحكم الوازع النفسي على المادة ؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول : « أعطني ... » ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء ، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه كما يواسي المبتلي من كان في مثل بلائه .

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الاسلامية التي تقضي أن يحذف من الانسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ، ليحل في محله تاريخ النفس[1] ؟ وأنا مستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً ، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم ، وأعمال الجسم للنفس ؛ كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة ، لأحداث الترميم العصبي في الجسم ؛ ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الانساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق ؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر كأنها في (مد) من نور القمر ما دام هذا النور الى زيادة ، ثم يراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاما . وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية ، وفي مد الدم وجزره ، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره

وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر ، وهو — مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها — إثبات الارادة وإعلانها ، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبه الانساني العام لفروض الرحمة والانسانية والبر

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم ، وهي عمله في تربية الارادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي الذي يدرب الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذة حيوانيته . ويبقيه مصراً على الامتناع متهيئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول ، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة

وإدراك هذه القوة من الارادة العملية منزلة اجتماعية سامية هي في الانسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ؛ ففي هذين تعرض الفكرة مارة مرورها ، ولكنها في الارادة تعرض لتستقر وتتحقق . فانظر في أي قانون من القوانين ، وفي أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فرضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها وملابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الانسان ، لا خيالاً يمر برأسه مراً ؟

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الارادة ؟ وهل تبلغ الارادة فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مذعنة لفكره ، منقادة للوازع النفسي فيه ، مصرفة بالحس الديني المسيطر على النفس ومشاعرها ؟

أما والله لو عم هذا الصوم الاسلامي أهل الأرض جميعاً لآل معناه أن يكون إجماعاً من الانسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، ومحق الأثرة والبخل فيه ، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله ، فيهبط كل

(1) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى ، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر رمضان ، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعوه في النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل ... ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده

رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكانها ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه — لا في الكتب — معانيَ الصبر والثبات والارادة، وليبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الانسانية والمواساة والاحسان؛ فيُحقق بهذه وتلك معانيَ الاخاء والحرية والمساواة

شهرٌ هو أيام قلبيّةٌ في الزمن، متى أشرفتْ على الدنيا قال الزمن لأهله: «هذه أيامٌ منْ أنفسكم لامن أيامي، ومن طبيعتكم لامن طبيعتي» فيُقبِلُ العالَمُ كلّه على حالةٍ نفسية بالغةِ السموّ يتعهّد فيها النفسَ برياضتها على معالي الأمور ومكارمِ الأخلاق، ويفهم الحياةَ على وجهٍ آخر غير وجهها الكالح، ويراها كأنما أُجيعَتْ من طباعها اليومي كما نجاع هو، وكأنما أُفرِغتْ من خسائسها وشهواتها كما فرغ هو، وكأنما ألزمتْ معاني التقوى كما ألزمَها هو. وما أجملَ وأبدع أن تظهر الحياةُ في العالم كلّه — ولو يوماً واحداً — حاملةً في يدها السُّبحة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟

إنها والله طريقةٌ عمليةٌ لرسوخ فكرةِ الخير والحق في النفس؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائس العقل المادّيّ؛ وردِّ هذه الطبيعة الحيوانية المحكومةِ في ظاهرها بالقوانين، والمحرَّرةِ من القوانين في باطنها — إلى قانونٍ من باطنها نفسه يُطهِّر مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويَبصر فُها إلى معاني إنسانيتها، ويُهذّب من زياداتها، ويحذف كثيراً من فضولها، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من براءة الطفولة، فيجعلَها صافيةً مُشرقةً بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والاشراق. إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفِكَر الأخرى. والنفسُ في هذا الشهر مُحتَبَسةٌ في فكرة الخير وحدها، فهي تبني بناءَها من ذلك ما استطاعت

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصلٌ نفسانيٌّ كفصول الطبيعة في دَوَرَانها. ولَهُوَ والله أشبهُ بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجوِّ الذي من طبيعته السُّحُبُ والغيث، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائلَ لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يَكسبها الصلابةَ والانكماش والخفّة، ومن غايته إعدادُ الطبيعة للتفتّح عن جمالِ باطنِها في الربيع الذي يتلوه

وعجيبٌ جداً أن هذا الشهر الذي يدّخر فيه الجسمُ من قواه المنوية فيُودِعُها مَصرِفَ روحانيته ليجدَ منها عند الشدائد مَدَدَ الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة — عجيبٌ جداً أن هذا الشهر الاقتصاديّ هو من السنة كفائدة ٨½ في المائة . . . فكأنه يسجّلُ في أعصاب المؤمن حسابَ قوّته وربحه، فله في كل سنة زيادة ٨½ من قوّته المنوية الرُّوحانية

وسِحْرُ العظائم في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدّخر هذه القوّة وتوفّرها لتستمدّها عند الحاجة، وذلك هو سِرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجد الجيوشُ العظمى اليوم في مخازن العَتَاد والأسلحة والذخيرة

***

كلُّ ما ذكرتُه في هذا المقال من فلسفة الصوم فانما استخرجته من هذه الآية الكريمة: «كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبْلِكم، لعلكم تتَّقون.» وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى «التقوى» أما أنا فأوّلتُها من «الاتّقاء»

فبالصوم يتّقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعتُه مَعِدتُه، وألاّ يعاملَ الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة؛ ويتّقي المجتمعُ على إنسانيّته وطبيعته مثلَ ذلك، فلا يكون إنسانٌ مع انسان كحمارٍ مع انسان يبيعه القوّةَ كلَّها بالقليل من العَلَف

وبالصوم يتّقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفَه، فان ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خَلْفَه هو الجيل الذي سَيَرِثُ من هذه الطِّباع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي[1]

وكلُّ ما شرحناه فهو اتّقاءُ ضررٍ لجَلْبِ منفعة، واتقاءُ

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس). «وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . . .»

ويشير الى هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فاذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم»

والجنة الوقاية يتقي بها الانسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقي شر حيوانيته وحواسه، فقوله: «إني صائم إني صائم» أي إنني غائب عن الفحش والجهل والشر؛ إني في نفسي ولست في حيوانيتي

نظرية الاستقلال القومي

وتطبيقها على التاريخ المصري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشارت إحدى الصحف الانكليزية الكبرى أثناء حديثها أخيراً عن الشئون المصرية، الى نظرية تاريخية قديمة ترددها ألسنة الاستعمار في كل مناسبة، وهي أن مصر لم تكن مستقلة في أي عصر من عصور تاريخها

وترمي ألسنة الاستعمار بترويج هذه النظرية إلى غرض واضح، وهو أن مصر التي لم تتمتع خلال هذه الآماد الطويلة من تاريخها بنعمة الاستقلال والحرية، ليست جديرة بأن تتخذ مكانها بين الأمم المستقلة، وأن حكم التاريخ يقضي عليها بأن تكون دائماً مسودة لغيرها من الأمم القوية؛ فلماذا لا تكون انكلترا هي الدولة التي تنفذ على مصر حكم التاريخ الخالد؟ ولماذا تحاول مصر أن تغالب قدرها، وطبيعتها كأمة استعبدت مدى الأحقاب تنافي طبائع الحرية والاستقلال؟

وهذه نظرية باطلة بلا ريب، يهدمها حكم التاريخ النزيه الحق؛ ولكنها أيضاً نظرية خطرة؛ وترويجها في العالم المتمدن يضر بالقضية المصرية ضرراً بليغاً، ويسيء الى تراث مصر التاريخي، وإلى سمعتها كأمة ناهضة تطمح الى تحقيق استقلالها. ومن الأسف أن هذا القول الباطل في تصوير التاريخ المصري، يروّج له في مصر ذاتها، ويتأثر به كثير ممن يطغى على أذهانهم وعواطفهم سيل الثقافة الأجنبية، ولا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم. بل من الأسف أن هذه النظرية الاستعمارية الخطرة، ما زالت تمثل في تعليم التاريخ في بلادنا وفي معاهدنا، لأن برامج التعليم الرسمية ما زالت بعيدة عن التحرر من أغلال المؤثرات الأجنبية، بعيدة عن رعاية النواحي القومية

ولهذا نرى أن نعرض بهذه المناسبة الى بحث هذه النظرية لنرى حظها من التطبيق على عصور التاريخ المصري. وأول ما يلفت النظر ذلك التصوير الخاطئ الذي يصور به تعاقب العصور والدول على مصر؛ فمصر حسبما تقول النظرية، قد غادرت منذ أيام الفراعنة عهد الحريات القومية إلى الأبد، وتعاقبت عليها الدول الغالبة تباعاً، فافتتحها الفرس، ثم اليونان، ثم الرومان، ثم العرب في سلسلة متصلة من السيادة الأجنبية، وتعاقبت عليها بعد ذلك دول اسلامية أجنبية من الشرق والغرب ودول المماليك المختلفة حتى كان الفتح التركي، فاستمرت تحت السيادة التركية حتى كان الفتح الفرنسي وظهور محمد علي؛ ولم يطل أمد استقلالها عندئذ، حتى عادت فوقعت في قبضة الانكليز، واتصلت بذلك حلقات استعبادها الطويل

وتصوير أدوار التاريخ المصري على هذا النحو تصوير خاطئ من الوجهة العلمية، وتصوير مغرض وضعه الكتاب الغربيون منذ أوائل القرن الماضي — وهم أول من كتب عن تاريخ مصر في العصر الحديث — ومعظمهم متأثر بنزعة الغرب الى استعمار الشرق، وتبرير هذه النزعة بالعوامل التاريخية والاقتصادية ونشر المدنية الحديثة. وقد كان لدعواهم أثر كبير في معظم ما كتب عن مصر؛ بل لقد تأثر بها الكتاب المصريون أنفسهم، وتأثرت بها دراسة التاريخ في مصر وبرامجه الرسمية؛ وأضحى واجباً علينا أن نحارب هذه النظرية الخطرة في كل مناسبة، وأن نبين خطأها من الناحية العلمية

لقد توالت على مصر حقاً عصور طويلة من الغلبة والاستعباد، ولكنها تمتعت أيضاً بعصور طويلة من الحرية والاستقلال والسؤدد القومي. وقد قطعت مصر أيام الفراعنة آماداً بعيدة في ظل الحريات القومية والاستقلال المطلق، وكانت سيدة امبراطورية مصرية تمتد من قلب السودان الى الشام؛ وكان

رذيلة لجلب فضيلة، وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهة فلسفية عالية لا يأتي البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفة بأوجزَ ولا أكمل من لفظها؛ ويتوجهُ الصيام على أنه شريعة اجتماعية انسانية عامة، يتقي بها الاجتماع شرورَ نفسه؛ ولن يتهذبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانونُ العام الذي اسمه الصوم ومعناه « قانون البطن » . . . . .

ألا ما أعظمَكَ يا شهر رمضان! لو عرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِكَ لسَمَّاكَ « مدرسة الثلاثين يوماً »

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

لها فى تلك العصور من القوة والعظمة والمدنية الزاهرة ، ما لم تتمتع به أية أمة من الأمم الغابرة . وإذا كانت مصر قد سقطت فى عصور الانحلال فريسة النير الأجنبى ، واستمرت ترزح نحو الف وخمسمائة عام تحت نير الهكسوس والفرس ، واليونان والرومان ، فقد تمتعت بحرياتها واستقلالها قبل ذلك آلاف السنين

ويبدو خطأ نظرية الكتاب الغربيين بنوع خاص فى الحكم على تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى ، فهم لا يكتفون باعتبار هذا الفتح بدء عصر جديد من الاستعباد بالنسبة لمصر ، بل يرون أن مصر كانت طوال الدول الاسلامية التى تعاقبت عليها ، أمة مسودة خاضعة لنير الحكم الأجنبى ، ويعتبرون هذه الدول كلها ، دولا غازية سيدة ؛ وهو خطأ كبير فى فهم الحقائق التاريخية وفى تصورها . ويجب أن نذكر أولاً أن الأمة المصرية لبثت أيام الفرس واليونان والرومان تحتفظ بطابعها الفرعونى القديم ، وأن هذه الدول الغازية لم تستطع أن تجعل من الأمة المصرية المغلوبة وحدة من وحداتها الاجتماعية ، وإن كانت مصر قد تأثرت بلا ريب بنفوذ هذه الدول وحضاراتها ؛ وعلى هذا فقد كانت مصر فى هذه العصور أمة مغلوبة حقاً ، ولكن تحتفظ باستقلالها كوحدة اجتماعية . بل لقد استطاعت مصر أن تحتفظ بهذا الاستقلال الاجتماعى ، حتى بعد أن أرغمت على اعتناق النصرانية ، ولم تندمج قط فى الامبراطورية الرومانية ، كما اندمجت أمم وشعوب أخرى . ولكن الأمة المصرية شهدت منذ الفتح الاسلامى تطوراً جوهرياً فى تكوينها الاجتماعى ؛ فقد استطاع العرب فى أقل من قرن أن ينشئوا منها أمة اسلامية ، وأن يجعلوا منها وحدة اجتماعية من وحدات الامبراطورية الاسلامية الكبرى ؛ واندمج الغالب والمغلوب فى أمة جديدة موحدة تدين بالاسلام وشرائعه ، وتتكلم بلغته ، وتضطرم بروحه ؛ ولم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى أضحى التميز عسيراً بين السلالة العربية النازحة ، وبين السلالة المصرية المسلمة . وكانت مصر حتى منتصف القرن الثالث ولاية من ولايات الخلافة ؛ ولكنها استطاعت من ذلك الحين أن تنزع الى الاستقلال فى ظل الدولة الاسلامية الكبرى ، على يد بعض الحكام والقادة الخارجين على الخلافة ؛ وبدأت من ذلك الحين سلسلة الدول الاسلامية المستقلة فى مصر

وهنا تعرض النقطة الجوهرية . هل كانت مصر سيدة أم مسودة فى ظل هذه الدول ؟ وهل كانت مصر الفاطمية ، والأيوبية ، ومصر فى عهد أسر المماليك المختلفة حتى الفتح العثمانى ، أمة مستقلة أم كانت ترزح تحت النير الأجنبى ؟ وجوابنا أن مصر كانت فى تلك العصور أمة مستقلة تتمتع بكامل حرياتها القومية ، وكانت أمة سيدة لا مسودة ، تسير فى ميدان الحرب والسلام من ظفر الى ظفر . أما هذه الدول الأجنبية المسلمة التى كانت تتبوأ السلطان والحكم ، فلم تكن أكثر من أسر نازحة أو مستقرة تبوأت الرياسة لأصولها الملوكية أو لمؤهلاتها الخاصة ؛ ولم تكن تتولى هذه الرياسة لحسابها الخاص ، وإنما كانت تتولاها لحساب الأمة المصرية ، وتعمل باسمها وبتأييدها ، فكانت تغدو بعد استقرارها أسراً مصرية خالصة ليس لها مركز للرياسة غير مصر ، وليست لها أمة أخرى تمثلها غير مصر ؛ وحتى الدولة الفاطمية التى دخلت مصر غازية ، لم تشذ بعد استقرارها عن هذه القاعدة ، فكانت مصر هى مركز الدولة الفاطمية ومستقرها ، وغدت الخلافة الفاطمية مصرية بعد أن كانت مغربية ؛ ومنذ الدولة الأيوبية حتى الفتح العثمانى تظهر الأسر السلطانية فى مصر ذاتها ، بين القادة والأمراء النابهين ؛ ولم تكن تلك العروش والأسر التى قادت الأمة المصرية منذ الدولة الفاطمية الى الظفر فى ميادين الحرب ، والى مراتب العظمة والبهاء فى ميادين السلام والحضارة ، سوى عروش وأسر مصرية أو متمصرة ، تعمل جميعاً لمصر وباسمها ، ولم تكن تلك الجيوش الباسلة التى لبثت أكثر من قرنين تتلقى ضربات الحملات الصليبية فى مصر والشام ، وتبث أعمالها وانتصاراتها الروع فى أمم الغرب ، سوى جيوش مصرية تقودها تلك الأسر التى ارتضتها لزعامتها ؛ على أن تلك الأسر الملوكية ذاتها لم تلبث غير بعيد أن فقدت زعامتها السياسية ، وأصبحت خاضعة فى التعيين والعزل لرأى الأمة المصرية ممثلة فى زعامتها الدينية والفكرية ؛ وإنه لمن التعسف أن نخرج من حظيرة الأمة المصرية أسراً نبهت فيها ، وتوالت زعامتها بحكم تراثها الموروث آماداً ، وعملت لمصر ولم تعمل لسواها ، ولم يبق لها من صبغتها الأجنبية سوى ذكريات المنشأ والماضى ———

كانت مصر الاسلامية إذاً ، مذ تقلص عنها ظل الخلافة ، أمة مستقلة ، وكانت مصر الاسلامية أمة مستقلة حين غزاها الترك العثمانيون وحطموا بها صرح حضارة اسلامية زاهرة

تكدست على مر العصور ؛ ولقد كان الفتح العثماني عملاً همجياً ، كما كانت فتوح القبائل البربرية لرومة وأقطار الدولة الرومانية ؛ ولم يكن عملاً إنشائياً ، كما كان الفتح الاسلامي ؛ على أن مصر استطاعت في ظل أولئك الوندال أن تسترد غير بعيد كثيراً من مظاهر استقلالها المحلي ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى أصبحت السيادة العثمانية على مصر سيادة اسمية ، كل ما يهم الحكام الترك منها أن يستدروا بعض الموارد والأموال من الشعب المحكوم

ولا حاجة بنا للقول بأن مصر استردت كامل استقلالها في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وان كانت قد عادت فانضوت تحت لواء أسرة جديدة

***

مما تقدم يبدو تصوير النظرية الغربية لعصور التاريخ المصري بأنها سيادات أجنبية متعاقبة ، واستعباد متصل للأمة المصرية ، تعسفاً لا يؤيده منطق الحقائق التاريخية ؛ ولو طبقنا هذه النظرية الخاطئة على التاريخ القومي لبعض الأمم الأوربية العريقة في الاستقلال والحرية لانتهينا في شأنها إلى مثل ما ينتهي الكتاب الغربيون في شأن مصر . ولنتخذ فرنسا مثلاً ، فقد نزحت إليها عقب انهيار الدولة الرومانية قبائل غازية من الشمال ، وأقام بها « الميروفنجية » على يد زعيمهم كلوفيس ، منذ القرن السادس مملكة جديدة هي مملكة الفرنج ؛ ولما انحلت أسرة الميروفنجية ، قامت بأمر الفرنج الأسرة « الكارلية » القوية ، وانتزعت عرش الفرنج ، واستمرت في زعامة فرنسا حتى أواخر القرن التاسع ، ونبغ فيها أميران من أعظم أمراء النصرانية هما كارل مارتل الذي رد العرب في بلاط الشهداء (سنة ٧٣٢ م) ، وكارل الأكبر (شارلمان) أعظم ملوك الغرب في عصره ؛ وكان الميروفنجية والكارلية كلاهما من القبائل الألمانية الشمالية ، فهل نعتبر أن فرنسا كانت في هذه العصور أمة مستعبدة ترزح تحت حكم النير الأجنبي ، لأن أسراً أجنبية نزحت إليها ، واستقرت بها ، وتولت زعامتها ، وعملت لحسابها وباسمها ؟ وهل نعتبر نابليون (وهو إيطالي الجنس والأصل) فاتحاً لفرنسا مغتصباً لعرشها وزعامتها ، ونعتبر أن فرنسا كانت في عصره خاضعة للحكم الأجنبي ؟ ونستطيع أن نلاحظ بهذه المناسبة أيضاً أن أدولف هتلر زعيم ألمانيا وسيد مصايرها اليوم ، إنما هو أجنبي نمسوي المولد والنشأة ؛ ومن المعروف أن الأسرة التي تتولى عرش انكلترا اليوم ، إنما ترجع إلى أصل ألماني ، وأن معظم الأسر الملوكية الأوربية ترجع إلى أصول أجنبية ، وإذا كانت هذه الأسر اليوم لاتتمتع بمثل ما كانت تتمتع به أسر السلاطين من السلطة المطلقة ، فذلك لأن روح العصر قد تطورت ، وغاضت روح العصور الوسطى ، وانتهت الأمم بأن جعلت من العروش رمزاً قومياً ليس غير

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت نير الحكم الأجنبي في بعض أدوار تاريخها ، فهي لم تشذ في ذلك عن معظم الأمم الغربية التي تتمتع اليوم بكامل حريتها واستقلالها ، ولنضرب لذلك مثلاً بأمة عظيمة هي إيطاليا ، التي لم تتمتع باستقلالها إلا منذ أواخر القرن الماضي ، والتي لبثت طوال العصور الوسطى والحديثة مسرحاً لمطامع الدول والعروش الأجنبية ، ولم تستقل فيها سوى البندقية وبعض الجمهوريات الصغيرة . ولنضرب مثلاً آخر باليونان ، وقد لبثت زهاء ألفي عام ترزح تحت نير الحكم الأجنبي ، منذ الرومان فالبنادقة فالترك ، ولم تنل حريتها القومية إلا منذ قرن فقط ، ولم تنلها إلا بمؤازرة أوربا النصرانية ؛ وهنالك غير إيطاليا واليونان ؛ هنالك هولندة والبلجيك ، وهنالك بولونيا التي لبثت ثلاثمائة عام ممزقة بين دول ثلاث من جيرانها ، وهنالك رومانيا والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، فهذه كلها أمم حديثة في الاستقلال والحريات القومية ، ولم يقل انسان إنها من أجل ذلك تستحق أن يسلب استقلالها وأن تسكن إلى نير التغلب إلى الأبد

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه النظرية الاستعمارية في تصور أدوار التاريخ المصري ، كلما بدا بطلانها وتعسفها وما يحفزها من الغرض والهوى

فليستعرض الشباب المصري تاريخ بلاده كلما طرقت آذانه هذه النغمة الغادرة ، فتاريخ مصر ، كتاريخ الأمم العظيمة ، حافل بمواطن الفخار والمجد ، وعصور الحرية والاستقلال ؟

محمد عبد الله عنان
المحامي

جزيرة العـــرب

صفحة مجيدة من تاريخها القديم

بقلم الأستاذ رزوق عيسى

كلمة عرب وأصل معناها . المكتشفات الحديثة . الكتابات الأثرية . ملكة سبأ والسبئيون . معين والمعينيون . اكتشاف أسماء ٣٢ ملكا . التجارة القديمة وطرق المواصلات . اللبان والأطياب . المعارف والعلوم في الجاهلية . التقاليد والروايات القديمة . الاله أونيس . الأنباط . وطن الساميين الأول . الحروف الهجائية العربية أقدم من الحروف الفينيقية . شهادة من التواريخ القديمة العهد

ذهب اللغويون والمؤرخون فى معنى كلمة عرب مذاهب متعددة ، فمنهم من قال إنهم تسموا باسم جدهم يعرب بن قحطان ، وذهب فريق الى أن العرب مشتقة من « عربا » وهي مفقودة في العربية إلا أنها موجودة في العبرية والآرامية بمعنى البادية والصحراء ، ومنهم من زعم أن كلمة (عرباء) وردت في العربية بمعنى خالص في قولهم العرب العرباء أي العرب الخلص ، وهم أهل البادية ؛ وقال آخرون إن اسم العرب وبلادهم التي تدعى جزيرة العرب مشتق من لفظة (عربة) وهى أرض بتهامة دعيت بذلك أخذاً من يعرب بن قحطان جد العرب الأولين ، وفي فلسطين موضع يسمى عربة أيضاً كما جاء في مراصد الاطلاع

والأقرب الى الصواب أن لفظة عرب مشتقة من (أوربى) الشمرية بمعنى سكان الخيام ، فان كلمة أور — أو — أورو التى أصبحت فى عصر البابليين والأشوريين بمعنى مدينة كان يراد بها فى عهد الشمريين الخيمة ، ثم أطلقت على الدار من باب التوسع[1] وهذا الاشتقاق ليس ببعيد ، لأن العرب من أعرق الشعوب فى القدم ، وقد عاصروا جميع الأمم المعروفة فى التاريخ كالشمريين والآكديين ، والبابليين ، والكلدان ، والأشوريين ، والميتانيين ، والحثيين ، والمصريين ، والفرس ، واليونان ، والرومان . وكانت بلاد العرب تعرف عند الأشوريين باسم أربى وأهلها أوربى أو أوروبى ، ومعناها ديار ساكني الخيام[1]

(١) راجع كتاب علم الآثار القديمة فى الكتابة المسمارية الخط « فصل الشمريين » ص ٨٥ لمؤلفه سايس المطبوع فى لندن عام ١٩٠٨ م

جزيرة العرب قديمة جداً ، ولا تفوقها فى القدم ديار مصر وبابل ، وقد جاء فى كتاب مصادر البشر لمؤلفه صموئيل لينغ الانكليزى ما نصه[2] : « عثرنا مؤخراً فى أصقاع عربية على أنباء آثار وكتابات ربما ضارعت فى قدمها أنباء بلاد مصر والكلدان ، فقد كانت بلاد العرب ، ولم تزل ، من الأقطار المجهولة الوعرة ، ولا سيما فى الأزمنة المتأخرة حينما أصبحت مقدسة فى نظر أصحابها ، ولا يجوز للرواد والرحالين الأجانب أن يطأوا أرضها ، قصد الاكتشاف والتنقيب فى طولها الدوارس »

وقد توفق نفر من السياح الأوربيين وعلمائهم الى التوغل فى بلاد العرب ، بعد أن خاطروا بحياتهم وقاسوا من المشاق والأهوال مالا يوصف ، بيدأنهم نالوا مبتغاهم أخيراً ، واكتشفوا مواقع المدن القديمة ، ونسخوا كتابات عديدة وجدوها مطمورة فى الأنقاض ومسطورة على الجدران المتداعية . وفى متاحف أوربة ودور كتبها آثار البلاد العربية المنقوشة على الحجر ، وعلى ألواح نحاسية ، وعددها يبلغ اليوم نحو ثلاثة آلاف عادية . ومن العلماء الذين جاهدوا جهاد الأبطال فى الوقوف على مجاهل هذه البلاد الدكتور غلازر « Dr Glasfr » فانه راد الديار العربية الجنوبية ثلاث مرات ، ونسخ فى خلالها من صور الكتابات التى عثر عليها فى رحلاته ١٠٣١ صورة حملها معه الى مسقط رأسه ، وبينها آثار نفيسة ، ولأ كثرها فائدة تاريخية عظيمة ، إذ وقفت علماء الآثار على ما كانوا يجهلونه من تاريخ هذه البلاد ومدنيتها فى جاهليتها

لقد استفاد الباحثون المدققون فوائد شتى من أنباء تلك الكتابات ومن غيرها أيضاً ، حتى تسنى لهم أن يكشفوا النقاب عن أصل السكان القدماء ، ويزيلوا الغموض والابهام عن تاريخهم ويستقصوا أخبار الأمم الغابرة ، وما كانت عليه البلاد العربية من الحضارة والتجارة فى العصور العريقة فى القدم ، واليك ماقاله الأستاذ سايس : « إن ماضى تاريخ شبه جزيرة العرب المظلم قد

(١) المتون الأشورية ص ٣٠ لمؤلفه الأثرى أرنست بدج المطبوع فى لندن عام ١٨٨٠

(٢) Human Crigins مصادر البشر ص ٣٧ المطبوع فى لندن سنة ١٩٠٩ وللمؤلف المشار اليه كتب نفيسة ومنها : العلم الحديث والرأى الحديث ، ومعضلات المستقبل والزردشتية الجديدة الخ

انبثق فجره بغتة فسطعت أشعته وأنارت وجه المسكونة ، فقد وجدنا أن البلاد العربية كانت قبل عصر صاحب الشريعة الإسلامية بزمن مديد أرض الثقافة والأدب والحكمة ، وكانت موقع ممالك ودول قوية بلغت شأواً بعيداً في تاريخ العالم القديم ، وانتشرت في ربوعها تجارة واسعة» إلى آخر ذلك المقال البديع[1]

إن زيارة ملكة سبا[2] أورشليم ومثولها بين يدي سليمان ملك إسرائيل تعد من اللمع الأولى الواردة في الأخبار القديمة ، وقد جاء ذكرها في سفر الملوك من التوراة ، وكانت تلك المملكة عربية ، ويظهر أنها قدمت من ديار كانت لها حضارة عريقة في القدم ، ولها سطوة عظيمة بين الأمم ، والهدايا التي قدمتها الى سليمان تدل على أنها جلبت من حاصلات قطر اشتهر بإبله وأطيابه ، وهذا القطر واقع في جنوبي بلاد العرب ، وقد عرف باسم سبا أو شبا في تاريخ العالم القديم

انتشرت تجارة هذه المملكة القديمة العهد في أقطار العالم ، وامتدت إلى بلاد الحبشة والسومال حتى ساحل أفريقية الشرقي ، والكتابات الأشورية تؤيد ذلك ، فقد ورد فيها أن سبأ كانت مملكة عظيمة في القرن الثامن قبل الميلاد ، وكانت تخومها تحاد تخوم مملكة نينوى من جهة الشمال في عصر (تغلث فلاسير) وسرجون الثالث ، فيستفاد من هذا النبأ وغيره أن بلاد العرب كانت مملكة قديمة جداً ، وقد تدرج الحكم فيها من الملوك الكهنة وحكومات المدن المستقلة ودويلات وإمارات الى اتحاد مملكة عظيمة واسعة الأطراف فسيحة الأرجاء كالتطور السياسي الذي نشأ في مصر وفي بلاد الكلدان . وكان الملوك الكهنة يعرفون باسم (مكارب) كما جاء في بعض الآثار ، وواحدهم (مكرب) ويراد به رئيس كهنة السبئيين . وتدل هذه الكلمة على أن الحكم الأول كان عبارة عن دولة تحت رياسة الله «ثيوقراسية» ، هذا ولفظة سبأ اسم إله أطلق على بقعة في بلاد عربية ، كما أطلقت كلمة أشور على صقع في بين النهرين وتفيد معنى الإله .

ورد في بعض العاديات أن مملكة سبأ القديمة تأسست على أنقاض دولة أقدم منها عهداً نشأت في هذا الإقليم ، وعرفت باسم معين ، فقد عثر الباحثون المنقبون على أسماء ٣٢ ملكاً من السبئيين والمعينيين ، وهذا عدد كبير لا يستهان به ، بالنسبة إلى قلة المكتشفات الأثرية في تلك الأصقاع . وجاء في بعض الكتابات أن سلطة بعض الملوك المعينيين لم تكن محصورة في المنطقة الجنوبية بل منتشرة في كل بلاد العرب حتى تخوم سورية ومصر ؛ ويؤيد ذلك كل التأييد عثور المنقبين على ثلاثة أسماء من أولئك الملوك في أطلال تيماء الوارد ذكرها في العهد القديم من التوراة في الطريق المؤدية إلى بلاد الشام وسيناء . وفي البلاد العربية الجنوبية وجدت صفيحة نذر جاء فيها أن أصحابها يشكرون الآلهة «اطار»[1] على نجاتهم من الحرب الناشبة بين حاكم الجنوب وبين حاكم الشمال ، وخلاصهم من القتال الواقع بين مظة ومصر ، ويحمدون الآلهة على عودتهم سالمين الى مسقط رأسهم مدينة قوران ؛ وأصحاب هذه الكتابة يصرحون بأنهم كانوا تابعين لملك معين الدعو (رابي — يدعي — يائي) وهو أحد حكام بلاد تسار وأشور ووراء ضفة النهر

لقد ورد اسم تسار مراراً عديدة في الآثار المصرية كحصن قائم في جهة الحدود العربية ، وموقعه يمثل اليوم طرفاً من قناة السويس . هذا وكتابة أخرى تشير إلى غزة ، ويظهر من مضمونها أن سلطة الحكام المعينيين امتدت إلى أدرم فبلغت فلسطين وما جاورها من البقاع ، والقبائل القاطنة فيها خضعت لسلطانهم . وقد أسست المناقل في البراري والقفار للمحافظة على طرق المواصلات ، وأنشئت المدن العظيمة في تلك الأصقاع النائية لتوسيع نطاق التجارة والعمران منذ القدم ، لأن سبل التجارة بين الشرق والغرب كان متدفقاً يجري بعضه بطريق البحر الأحمر وبطريق خليج فارس ، ومن أطراف هذه المياه الشرقية ينتقل إلى البحر المتوسط ، وبعضه يسير في طرق القوافل مجتازاً آسيا

وكان الاستيلاء على إحدى هذه الطرق يعد وسيلة ناجعة في ترويج التجارة وباباً للمواصلات مع ممالك عديدة ، فان سليمان ملك إسرائيل لما عقد معاهدة مع مدينة صور أخذت تجارة مملكته تنتشر انتشاراً مطرداً حتى بلغت شأواً عظيماً ، ونالت شهرة واسعة ، فقصدها التجار الأجانب من كل فج وناحية ، والحروب التي وقعت بين المصريين والأشوريين والحثيين والعيلاميين والبابليين كان منشؤها السيطرة على طرق المواصلات ، ليتسنى للدولة القابضة

(١) راجع ما كتبه في مجلة المعاصر الانكليزية بعنوان (بلاد العرب القديمة) Ancient Arabia

(٢) سبأ أو شبا لفظة عبرية معناها الأثنان

(١) لعل هذه اللفظة محرفة عن استار أو اشتار

على أزمة تلك المسالك أن تروج تجارة بلادها أولاً ثم تفرض الضريبة على البضائع والأموال التي تمر في أراضيها ، وبهذه الوسيلة تزداد إيرادها وتقوى شوكتها

كان للبلاد العربية موقع تجاري مهم ، وكانت مركز اتصال بين الشرق والغرب تحميه الصحارى الرملية الوعرة من هجوم الأعداء وتوغلهم في قلب الجزيرة ، وتكتنفه البحور فتدفع عنه غارات الدول ؛ وكان للأصقاع الجنوبية تجارة واسعة وشهرة عظيمة ، فان اللبان والأطياب كانت تصدر بمقادير كبيرة تنفق في أسواق العالم المعروف في ذلك الزمن القديم ، وكانت توقد في الهياكل والمذابح والمعابد وفي قصور الملوك والأمراء وفي دور الأغنياء ، ولم يمكن الاستغناء عنها بوجه من الوجوه ، لأنها كانت مفروضة في الديانات القديمة كالقرابين والذبائح . فاذا تناولنا مثلاً هيكل سليمان نجد أنّ فيه كانت تقرب الذبائح ويوقد البخور لتستعطف (يهوه) ربّ الجنود ، ومثل ذلك كان يجرى في ألوف من الهياكل والمعابد المنبثة في أطراف آسيا ، وكان يجلب معظم اللبان والأطياب المستهلكة في الأماكن المقدسة من بلاد العرب

وقد ذهب الكاتب المحقق صموئيل لينغ أن سبب رواج تجارة اللبان والأطيـاب في الشرق كان لتعطير هواء الهياكل والمذابح والمعابد حيث يكثر فيها ذبح الذبائح وإهراق دماء الكبوش والعجول وتنتشر في أطرافها غازات فينتن المكان ويفسد الهواء ؛ ومما لاريب فيه أن أحسن اللبان وأنفسه كان يجلب من بلاد العرب . وقد عثر أحد المنقبين على صفيحة جاء فيها « إن الروائح العطرية والأطياب السبئية يفوح شذا عبيرها في السواحل العربية الميمونة »

إن للمكتشفات الأثرية في بلاد العرب فوائد جمة لأنها وقفت طائفة من العلماء البارزين على كثير من أنباء هذه الأمصار وعادات أهلها وأسـباب اتساع التجارة التي كانوا يتعاطونها مع الديار الدانية والقاصية . وقد أرشدتنا كتابات العاديات إلى أن بلاد العرب عريقة في القدم ، ومن ربوعها نزح طوائف من الناس ومصروا دياراً أخر . وكان للبلاد العربية حضارة وعلم وأدب ، ولكتابها حروف هجاء خاصة بهم ، وأسلوب كتابتهم يرتقى إلى عهد الكتابة المصرية القديمة وإلى الخط السياري ؛ وقد سبقت بأزمنـة طويلة أقدم صور الكتابات بالحروف الفينيقية . وفي عام ١٨١٠ اكتشف سيتزن أول كتابة عربية فنسخها ونظمها وصفها حسب الحروف الحميرية المنسوبة إلى حمير . وقد قال العلماء إن لغة تلك الكتابة كانت سامية ، وحروف هجائها تماثل الحروف الحبشية ، ويظهر أنها معدلة عن الحروف الفينيقية وهي مكتوبة بصورة عمودية بدلاً من الأفقية

وقد أدّت مكتشفات وأبحـاث الدكتور غلازر الى أن الكتابة الحميرية قائمة على نوعين أو مجموعتين من الكتابة : فالأولى كانت أقدم من الثانية ، وتتضمن حركات أصلية وصوراً وأشكالاً نحوية ، وقد عدها المستشرقون كتابة معينية ، بينما قالوا عن الكتابة الثانية إنها سبئية ، لأن لهجتها وصورة كتابتها تدل على أنها أحدث عهداً من شقيقتها . وظهر ظهوراً بيناً أن قواعد الصرف والنحو وأنواع العلوم والآداب المعينية سبقت آداب وعلوم السبئيين بزمن وافٍ بحيث أصبحت الأخيرة قابلة لتغيرات عديدة طرأت على مفردات لهجتها ومحصت صرفها ونحوها من الشوائب والزوائد ، وليس في هذا التبدل العجيب يد أجنبية فعلت فعلها الأدبي في فتوحها هذه البلاد ، بل يرى جمهور المحققين أن القبائل العربية تطورت أحوالها بجهودها وانتقلت من منزلة الى أخرى بفعل تدرج عنـــاصرها في سلم النشوء والارتقاء حسب سنة الطبيعة

إن مملكة السبئيين يرجع عهـد تاريخ حضارتها الى عصر سليمان ملك اسرائيل ، أي قبل الميلاد بألف سنة ؛ وقد كانت موجودة قبل هذا الزمن بقرون عديدة ، لأن جدول أسماء اثنين وثلاثين ملكاً من المعينيين والسبئيين يدل دلالة واضحـة على رسوخ قدم هذه الديار في الحضارة والعمران . ومن المرجح أن المكتشفات المقبلة ستقف أبناء هذا العصر على كثير من الأمور التي كان يجهلها أسـلافهم . نعم إن أقدم الكتابات المكتشفة تشير الى حضارة وتجارة وعلم وأدب بزغت أنوارها في ديار قيدار وسالع قبل عهد التاريخ ؛ وعليه قال أحد الأثريين : يجب أن تُصف بلاد العرب في مصاف ديار مصر والكلدان لأنها إحدى الممالك القديمة التي ظهر فيها جماعات من القبـائل أبلغوها الى ذروة الحضارة والسؤدد منذ العصور المتوغلة في القدم ، وقد نطقت بعض العاديات شهادة صادقة ، وهي ان جنوب بلاد العرب يرتقي عهد مدنيته الى عصر سرجون والى منيس

تشير روايات قديمة وتنبئ أسانيد أثرية عن بلاد العرب الجنوبية أو عن البلاد المتصلة بساحل أفريقية من جهة الشمال الشرقي بأنها كانت مصدر الحضارات الأولى ، فقد جاء في أساطير البابليين أن الآله (اونيس) وهو إله الثقافة عندهم كان يخرج من الخليج الأرثري أي خليج فارس ويهذب الكلدان القدماء ، وهو أول من علمهم العلوم ولقنهم الفنون وشهد قدماء الفينيقيين ، وقالوا إن منشأهم كان من جزر البحرين الواقعة في الخليج المشار اليه. هذا والمصريون كانوا ينظرون الى البنط بكل احترام ، ويجلون قدرهم ويرفعون منزلتهم فوق الأمم الأخرى . ومن المؤكد الثابت أن موقع هذه الديار كان يمثل بلاد العرب السعيدة وأرض السومال . وقد ذهب أهل مصر في ذلك العهد الى أن مصدر ثقافتهم وينبوع آدابهم ومعارفهم ومدنيتهم لم يكن في مصر العليا والسفلى بل في مصر الوسطى في ابيدوس حيث حكم توت وأوزريس ، وهناك مضيق يفصل النيل عن البحر الأحمر ، وهذه الشقة الضيقة من الأرض كانت من أهم وأعظم طرق المواصلات التجارية بين البلاد العربية ومصر .

كانت أواصر الألفة والاتحاد متينة بين المصريين والبنطيين منذ الأزمنة القديمة ، وهذه قضية تؤيدها الكتابات المصرية القديمة العهد ، فان ما دُوّن في بطون الأسفار عن حسن الجوار بين هاتين المملكتين يخالف ما جاء مسطوراً على الحجر من عبارات النفور والكراهة الموجهة الى سائر الأمم المجاورة لمصر كالحثيين والليبيين والزنوج وغيرهم ؛ فان المصريين كانوا يلقبونهم بالبرابرة ، والوحوش الضارية ، والأوغاد والأنذال . وهذه شهادة ناطقة تثبت ما كان للعرب القدماء من الشهامة وعزة النفس وإغاثة الملهوفين

وقد جاء منقوشاً في بعض الآثار أن طائفة من السفن التجارية أبحرت الى ديار البنط «Punt» في عصر الملكة العظيمة (هتبنو) وهي إحدى ملكات الدولة التاسعة عشرة ، وكانت الغاية من تلك السفرة مبادلة البضائع بين القطرين دلالة على الولاء والصفاء . وعادت تلك السفن الى مصر مشحونة بالسلع النفيسة ، حتى أن ملك تلك الديار وزوجه رافقا ذلك الأسطول التجاري ، وحملا معهما هدايا لا نظير لها الى فرعون مصر . ويظهر أن محالفة تجارية كانت معقودة بين البلادين ، وأن سفن هاتين الدولتين كانت تمخر في البحر الأحمر وفي سواحل أفريقية منذ القدم

إن رسوم رؤساء البنط الطبيعية المنقورة على الأنصاب المصرية تشبه كل الشبه رسوم الطبقة المالكة في ديار مصر في عصورها الأولى ، وجميع الأدلة تحملنا على الاعتقاد أن وطن الساميين الأول كان في الجنوب الغربي من آسيا . وقد ذهب جماعة من المؤرخين الى أن جزيرة العرب كانت مهد الأقوام السامية قبل عصر التاريخ ، فان الباحث يرى آثارهم ظاهرة في كل صقع كشعب مهاجر أو فاتح أو غاز سكان بلاد أخرى أقدم منهم عهداً ويختلفون عنهم في اللسان والعادات والعنصر ؛ غير أن الأمر لم يكن كذلك في بلاد العرب ، فان أهاليها كانوا أصليين فيها . فاذا أخذنا مثلاً ديار الكلدان والأشوريين نراها تمثل أقواماً وشعوباً وأمماً جاء عنهم في الأسانيد القديمة وفي الروايات المأثورة أنهم كانوا قد وفدوا على بين النهرين من الجنوب على طريق خليج فارس ، وعلى طريق بادية الشام من بلاد العرب ، فأخذ هؤلاء النازحون شيئاً فشيئاً يتحدون بالشعب الشمري والأكدي بالمصاهرة ؛ وبعد مرور أجيال عديدة تغلب العنصر السامي العربي على سائر العناصر ، وأصبح سيد هذه الديار ، وأسس حضارة جديدة في عصر حمورابي ملك بابل العظيم المعدود أول من جمع وسن الشرائع في العالم القديم

بيد أن العنصر السامي لم يؤثر في حضارة المصريين القدماء ، لأن الساميين لم يحتلوا بلادهم احتلالاً طويلاً ، بل كانوا يحملون عليهم حملات متواصلة ؛ وقبل أن ترسخ أقدامهم في تلك الربوع كانوا يردون على أعقابهم مدحورين . أما في سورية وفلسطين فكان الفينيقيون والكنعانيون والعبريون ، وهؤلاء الأقوام لم يكونوا بالسكان الأولين ، لأنهم حينما احتلوا هذه البقاع وجدوا فيها عناصر أخرى كالأموريين والحثيين واليبوسيين ، وأصل هذه الشعوب يرجع الى السكان الأصليين المنتمين الى طائفة من القبائل المنقرضة المعروفة في التاريخ القديم باسم زاموميم ، ومن هؤلاء من وفد الى هذه الديار من خليج فارس ؛ ومنهم من تخوم بلاد العرب

يجد المنقب في بلاد العرب العنصر السامي سائداً منذ الأزمنة القديمة ، ولا يجد له أثراً في صقع آخر في ذلك العهد العهيد ، فقد انتشرت لغته وسارت عاداته وعمت الديار المجاورة لبلاده ، ثم تدرجت حضارته السابقة لمملكة المعينيين العريقة في القدم ، وذلك في أواخر العصر الحجري وأوائل عصر النحاس . وهنا يشاهد الباحث العصرين مشتبكين متلازمين ؛ فقد انتقل القناصون

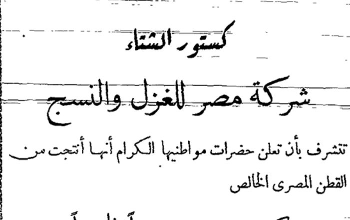
والسبئيون من عصر الانحطاط إلى عصر التجدد ، فبلغوا مستوى ثقافة حديثة وحياة اجتماعية عالية ، إذ أصبحوا فلاحين وزراعين ورعاة غنم وتجارا وصناعا

لنرجع من تلك الحضارة القديمة ، ولنعد النظر فى اكتشاف الكتابة المعينية التى تدلنا على وجود حروف هجائية أقدم عهداً من الحروف الفينيقية التى اشتهرت فى العالم القديم بأنها الحروف الأولى التى استنبطت لغاية تدوين الأفكار وصيانتها من الاندثار والطموس . وقد أجمع أهل التحقيق والتدقيق على أن حروف الهجاء اليونانية والرومانية وسائر حروف هجاء الأمم الحديثة مقتبسة كلها إما رأساً أو بوسيلة من الوسائل من مخترعيها الفينيقيين ، غير أن كتابة المعينيين كشفت اللثام عن وجود كتابة أقدم عهداً من جميع الكتابات التى ظهرت وانتشرت فى ذلك الحين ، ومن ثمّ فقد ذهب بعض العلماء الواقفين على أصل اللغة وتركيبها وتاريخها إلى أن الحروف الفينيقية مشتقة من الحروف المعينية

لاشك فى أن اللغة المعينية وحروفها أقدم عهداً بكثير من لغة الساميين وكتاباتهم ؛ ومن المحتمل أن العناصر السامية اختارت تلك الحروف بعد أن عدلتها وهذبتها حسب طبيعتها وميلها . وكان للمقتبسين علاقات تجارية ومواصلات بريدية مستمرة تحمل على ظهور الجمال فتخترق القوافل صحارى بلاد العرب وتعود حاملة لبانها وطيوبها وأفاويهها وآدابها ومعارفها ، ولا يعقل أن تلك الأقوام استمرت جاهلة استعمال حروف الهجاء حتى اقتبستها فينيقية من مصر ونشرتها فى أطراف المعمور . وقد أيد الأستاذ سايس هـذا الرأى بقوله « إنه إذا ذهبنا الى أن مصدر الحروف ومنشأها كان فى بلاد العرب يكون أحسن حل لهذه المعضلة » لأن أسماء صور الحروف الفينيقية ليس فيها أدنى شبه فى كثير من الأحوال للرموز والأشارات التى تدل عليها ؛ فان تناولنا – مثلا – الحرف الأول وهو ألف (ثور) فان رسم الألف يشابه كل المشابهة رأس ذلك الحيوان فى الكتابة المعينية ، هذا وإن أنعمنا النظر فى الحروف الهيروغليفية وهى الحروف المصرية القديمة ، فلا نجد شبهاً لذلك الحرف

إن المكتشفات والتى المقبلة فى بلاد العرب ستوقفنا على أنباء الشعوب التى سكنت تلك الاصقاع ومصرتها قبل عصر التاريخ ، فقد كانت بلاد الكنعانيين متحضرة قبل حملة الاسرائيليين عليها وتدويخها ، وكان لهم حروف هجاء وآداب خاصة بهم تعد أقدم عهداً من الكتابة الفينيقية وآدابها . هذا والتنقيب فى ديار العرب وفلسطين سيكشف النقاب عن وقائع وأنباء لا تزال مطمورة فى أنقاض المدن القديمة التى تضارع بل ربما تفوق فى قدمها بلاد مصر والكلدان ، وهى تنتظر بفروغ صبر معاول المنقبين لتنبشها من مدافنها وتنشرها فى عالم الظهور لكى ترى نور الشمس الساطعة ، بعد أن احتجبت عنها قروناً عديدة

بغداد **رزوق عيسى**



عقوبة الإعدام

رأى الفريد روكو وزير حقانية إيطاليا

للأستاذ محمود خيرت

في سنة ١٨٥١ ساق بعض الحراس الفرنسيين شاباً في العقد الثالث من عمره الى المقصلة تنفيذاً للحكم الصادر عليه . وما كاد يقترب منها وتقع عليها عيناه حتى اضطرب وجُنَّ ، فوقف وكأنه تسمّر في الأرض ، وأخذ الحراس يدفعونه اليها دفعاً ، وهو يقاويهم مقاومة الجبار اليائس ، وكان وافر الجسم مفتول الساعدين قوى العضلات

وكان الناس من حولهم ينظرون إلى هذا الصراع بين قوتين غير متعادلتين تريد إحداها للأخرى الموت ، وتريد هذه لنفسها الحياة . حتى إذا مضت على ذلك نحو ساعة والحراس كلا تقدموا به نحو المقصلة خطوة رجع هو بهم إلى الوراء خطوتين ، خارت قواهم ولم يجدوا خيراً من أن يعودوا أدراجهم به ، والناس يظنون أن الأمر وقف عند هذا الحد ، وكأن كابوساً ارتفع عن صدورهم بعد ما رأوه من هول الموقف ، وما كان إلا صراعاً عنيفاً بين حياة وموت . ولكن الجنود عادوا به في المساء بعد أن ضاعفوا عددهم ، وبعد أن أحكموا وثاقه حيث نفذوا الحكم فيه

وكان من بين من حضروا هذا المشهد المثير شارل هوجو ، وكان من أنصار إلغاء عقوبة الإعدام ، فوصف ما رآه وأفاض في شناعته بجريدة الحادث (Evénement) ولكن النائب العام وجه اليه هو ومدير الجريدة تهمة تعمد احتقار القانون .

أما شارل فقد كان الذى تولى الدفاع عنه أبوه ڤكتور هوجو الكاتب الكبير ، وإذا ذكرنا ڤكتور هوجو فقد ذكرنا قوة الجنان ، وسحر البيان ، وذلاقة اللسان ، ولاسيا أنه إنما كان يدافع عن ولده وفلذة كبده ، حتى أنه قال في بعض ما تناول دفاعه : « أنا المجرم دون ولدى ، لأنى أنا الذى وقفته هذا الموقف ، وكنت من خمسين وعشرين سنة لا آلو جهداً في محاربة عقوبة الأعدام . وقد عز عليّ ألا أكون نصيراً للحياة البشرية أطلب احترامها والأبقاء عليها ، منادياً بذلك في كل وقت وعند كل مقام بأعلى صوتى وبملء فمى ، لأن عقوبة الأعدام بقية من بقايا الدم بالدم شريعة الوحشية الأولى »[1]

وقد كان هناك غير ڤكتور هوجو كثيرون من أنصار هذه العقيدة ، وأكبر حججهم في شناعة هذه العقوبة أن إعدام المجرمين فوق أنه مناف لقواعد الرحمة ، وأن العقوبة يجب أن يراعى فيها الاصلاح لا الانتقام ، فان منظره يقسّى قلوب الناس ، ويبذر فيها بذور الغلظة والتوحش

ولكن كيف نسى هؤلاء المفكرون أن الثورة الفرنسية نفسها التى قررت حقوق الانسان ، والتى يشيد بذكرها ڤكتور هوجو وغيره لم تقم إلا على الدم ، وكيف يريدون أن تشمل السفاكين رحمة القانون وقد وطئوا بأقدامهم هذه الرحمة وهم يقتلون

ألا إن شريعة الدم بالدم ، لم تكن أثراً من آثار الوحشية الأولى ، وإنما كانت سبباً شريفاً من أسباب العدل ، وأثراً محموداً من آثار الرحمة لا بالمجرمين ولكن بالناس أجمعين

إن طبيعة الحياة نفسها تقضى ببتر العضو الفاسد من الجسد حتى لا يتعدى فساده اليه ، فكيف نقبل هذا في الجسم الواحد ولا نقبله في جسم المجتمع كله ، بل إن أبسط قواعد الفهم تربأ بنا أن نسلم أن إفلات المجرم من حكم القانون لا يشجعه على السير في شروره وقد استمرأ طعم العدوان وأمن غوائل العقوبة

وعلى كل حال فان عقوبة الاعدام برغم محاولة هؤلاء الأنصار لا تزال قائمة ، مع أنها أبطلت في فرنسا مرة ، وفي إيطاليا بعدها مرة أخرى . ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ... ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب

ومع ذلك فهذا رأى المسيو الفريد روكو بصدد هذا البحث ، وحسبنا أنه من أئمة التشريع في إيطاليا ، وهو وزير حقانيتها قال :

« لما أن كانت إيطاليا من أندر الدول التى ألغت عقوبة الأعدام سألنى كثيرون عما إذا كان الغاؤها عاد بالفائدة على مجتمعنا ؟

وقبل أن أخوض في الرد على السائلين أسجل هذا الحادث الغريب ، وهو أننا أخذنا هذا التشريع عن الفرنسيين برغم

(١) راجع هذا الدفاع في ص ٤٣٩ من كتاب « قبل النفى » طبعة نلسون باريس

أنهم بعد أن جرّبوه عدلوا عنه للنتائج الخطيرة التي ترتبت عليه . أخذناه عنهم على سبيل التجربة نحن أيضاً ، وكان ذلك في عهد لم يكن يخطر ببالنا قيام نظام الفاشستيّة فيما بعد ، وعلى كل حال فان هذا الأصلاح الذي فكر الشارع الايطالي في إدخاله على قوانيننا الجنائية لم يجرّنا إلى الفشل الذي أصاب جيراننا من إدخاله على قوانينهم

ولكن يلاحظ أن هبوط نسبة الجرائم بعد هذا التعديل لايمكن في الواقع إرجاعه إلى مجرد إلغاء هذه العقوبة ونحن نرى انخفاضها في كثير من البلدان التي جرت قوانينها على إعدام القتلة

على أننا مع ذلك غير آسفين لسنّ تشريع كهذا هو مما لاشك فيه اتجاه محمود نحو الرفق بالأنسانية . بل إن أنصاره عندنا لم يحذوا حذو روبسبيير الذي أرسل كما نعلم آلاف الأبرياء إلى المقصلة ، وهو هو الذي كان يشيد بذكره ويعتبر بقاء عقوبة الأعدام ضرباً من ضروب الوحشية

وقد دل إحصاء عدد الجرائم التي كانت تستوجب هذه العقوبة بعد الحرب الكبرى على اطراد في هبوط النسبة التي أشرنا إليها ، فان عدد حوادث القتل من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٠ ينيف على ستة آلاف حادثة ، ولكن هذا العدد هبط في السنة الأخيرة إلى أكثر بقليل من ألفين ، إلا أن جزءاً كبيراً من هذا العدد الأخير يتعلق بالجرائم التي لا يمكن لأية عقوبة مهما كانت من الشدة أن تحول دون وقوعها كالجرائم التي أساسها الشهوات الثائرة وما يترتب عليها « crmies passionnrels » كما يسميها الفرنسيّون ، لأنها بطبيعتها لامناص من وقوعها ؛ فالرجال والنساء إذا لدغتهم الغيرة أو خدعوا في حب وجدوا كل شئ تقع عيونهم عليه مصبوغاً بالدم ، فلا يلبثون أن يندفعوا إلى الأثم مهما وقفت بينه وبينهم كل عقوبات الدنيا ، حتى ان محلّفي محاكم البلدان اللاتينية أصبحوا على اعتقاد ثابت بأن هذه الجرائم لايمكن تجنبها ؛ ولذلك فهم يقضون في الغالب ببراءة من يساقون إلى ارتكابها . على أنني وإن كنت أميل إلى هذا الأتجاه — لأن هذه الجرائم لا تخلو دائماً من ظروف مخففة تحيط بها — إلا أنني أرى أن تعليل هذه الأحكام دائماً باضطراب الحواس عند ارتكابها فيه كثير من التطرف

ذلك لأن لكل عقوبة بشرية دائماً وجهين يجب ملاحظتهما . فاذا ما نظرنا إلى الجريمة من حيث الفرد الذي أقدم عليها في ذاته كان ماذهب إليه لبروزو من عدم قيام المسؤولية الجنائية بسبب ما يحيط به مقبولاً ، لأنه وإن كان حراً فيما فعل إلا أنه ما كان في مقدوره أن يفلت من تأثير الأسباب الباطنة الراسخة فيه . وفي هذا الموقف يجب اعتبار العقوبة كوسيلة من وسائل إصلاحه لا كعقوبة يراعى أن يتساوى أثرها مع أثر الجرم الذي أقدم عليه . وفي الواقع كيف يسوغ لك أن تعدم شخصاً كان في جرم تحت سلطان قانون الوراثة ، أو تأثير البيئة ، أو كانت نفسه فقيرة من أسباب التهذيب والتربية ، بغير أن تكون قاسياً عليه بعيداً عن إنصافه ؟

أما إذا اعتبرناه عضواً في جسم المجتمع الذي يعيش فيه ، فمؤاخذته على هذا الاعتبار يجب أن يكون لها صفة العقوبة التي يستحقها وإن كانت صارمة

وإذا سألتني الآن رأيي في ضرورة عقوبة الأعدام ، أجبتك بأنها يمكن أن تكون كذلك في أغلب الأحوال . بل إنني لأعلم أن كثيراً من الجرائم الوحشية التي تستحق الأعدام كان يمكن ألا تقع لو أن هذه العقوبة الشديدة قائمة كالجرائم التي تقع من الفوضويين

وقد ذكرني هذا البحث بحادثة ضمنها القصصي الفرنسي جول فيرن في احد كتبه تتلخص في أن بعض المهاجرين كادوا يغرقون على مقربة من إحدى جزر المحيط الهادي ، ولم يكن على ظهرها غير فيلسوف فوضوي نفر من العالم وفر منه إليها . فلما أقبلوا عليه أكرمهم ودعاهم إلى اعتناق مذهبه . ولكن أسباب الحياة تغيرت بعد قليل ودب الخلاف فيما بينهم ، فلم ير لنشر السلام بينهم إلا أن يفرض عليهم إرادته فرضاً فكان مثله فيهم كمثل الحاكم المستبد (ديكتاتور)

وهذه الغاية لاتبعد عن نظريتي في العقوبة كثيراً ، فالأحكام التي يقررها قانوننا الجنائي أشبه بهذا الحاكم ، بغيرها لا يكون هناك أمن على الحياة ، وإنما تكون الفوضى . . »

محمود خيرت

بقلم قضايا المسالية

مقتل شاعر...

للأستاذ على الطنطاوى

أفاق « هُدْبَة بن خَشْرَم » وما يدرى أصبح أم مساء ، وما يعلم من أمر الحياة شيئاً .. ولقد غَبَر عليه سبعة أعوام ما رأى فيها وضح النهار ، ولا اجتلى صفحة السماء . كأنما هو نصف حىّ ، وكأن حياته « مختصر حياة » .. فالسنوات السبع(١) بنعيمها وبؤسها ، وليلها ونهارها ، ليلة واحدة ، طالت وامتدت ، ثم لا يكون صبحها إلاّ الموت .. والدنيا على رَحْبها وسَعَتها ، وجمالها وجلالها ، غرفة ضيّقة فيها أكثر معانى القبر ... وما بعدها إلا القبر !

ونظر يميناً ، ونظر شمالاً ، وجعل ينفض المكان بعينه ، فلا يبصر إلاّ الظلام ، وحاول النهوض فجذبته الى الأرض سلاسل غليظة ، شدّوه بها الى حَلَق متينة ...

***

سمع صَلْصَلَة الحديد فى عنقه ويديه ، فعاد الى نفسه يذكر ما كان من أمره ، ويستعيد قصته كلها ، ويرى كيف ...

... دخلت عليه أخته فاطمة ، وبيدها المِجْمَر ، فقال لها :

— ويحك ما هذا ؟

— هذا لك ! قم استجمر ، إنما أنت من النساء !

— وما ذاك لا أمّ لك ؟

— فقالت : أنت قابع فى كِسْر الخيمة كما تقبع العجوز ، وهذا زيادة يتغزّل فى أختك ، ويرسل فيها الشعر يفضحها به فى العرب

— ماذا ؟ زيادة ؟

— زيادة ! نعم . زيادة يهتك نسباءك ، ويَفْرى عرضك ...

فوثب هُدبة يقول : زيادة يهتك نسائى ، ويفرى عرضى ؟ .. والله لأجأنّه بهذا السيف . فقامت اليه تعنّفه وتلومه :

— والله ما علمت أنك مجنون إلاّ الساعة ! أتعمدُ الى ابن عمك فتقتله ، فتحقق ما قاله فىّ ، وتنصرف بسبّة الدهر ؟ قل فى أخته « أم قاسم » مثل ما قال الخبيث فى أختك ، فاذا بدأك بالشرّ ، جزيته به شرّا

— إذن لأجعلنّها والله أحدوثة الأبد

— شأنك بها يومئذ ...

***

وكان ما ظنّت فاطمة فبيّتت زيادة هدبة وأهل بيته ، وهم عنه غافلون ، فضرب هدبة على ساعده ، وشجّ أباه خشرماً . وانصرف يقول :

شججنا خشرماً فى الرأس عشراً ووقفنا هديبة إذ أتانا

فثارت ثائرة هدبة ، فتقلد سيفه وانصرف لا يلوى على شىء ، حتى وجد زيادة فجلّله به فقتله . ولما سكت عنه الغضب ، ورأى أنه قتل رجلاً مسلماً ندم وجعل يلوم نفسه ويقرّعها :

— ويل لى ! ماذا صنعت ؟ أعمدت الى ابن عمى فقتلته ، ومن قتل نفساً مؤمنة فكأنما قتل الناس جميعاً . أفعلتها من أجل هفوة لا تقدّم ولا تؤخر : يا نفسُ ما أضلك وأشقاك ! ألم يردعك دين ؟ ألم يحجزك إيمان ؟ ألم تنهنه من عَزْمك جهنّم ؟ ماذا تقولين لربّك غداً ؟ وانطلق يقول لها هذا وشبهه حتى طلع الفجر ...

وكان الغد ، فاذا عبد الرحمن « أخو زيادة » عند أمير المدينة سعيد بن العاص يشكو اليه قتل أخيه . وأحضر سعيد هدبة ، فلم ينكر ولم يكذب .... وكره سعيد أن يقتل هدبة ، وهو الشاعر المتقدم ، لسان بادية الحجاز ، وهو أخو ثلاثة كلهم شاعر : حوط وسيحان والواسع ... وهو الفارس الكريم المحبوب .. ولم يكن يستطيع أن يعفو أو يغيّر حكم الله

فبعث بهما سعيد الى « معاوية »

وكان معاوية ضنيناً بهذا الشاعر أن يعرضه على القتل ، ولكنّ حكم الله فوق هوى أمير المؤمنين ... فلما مثلا بين يديه ، قال عبد الرحمن :

— أشكو اليك يا أمير المؤمنين مظلمتى ، وقتل أخى ، وترويع نسوتى !

فقال معاوية :

— يا هدبة ! قُل

— فقال هدبة « مرتجلاً » :

ألا يا لقومى للنوائب والدهر والمرء يردى نفسه وهو لا يدرى
وللأرض كم من صالح قد تلمأت عليه فوارته بلماعة قفر
فلا تتق ذا هيبة لجلاله ولا ذا ضياع هنّ يتركن للفقر

حتى قال :

رُمينا فرامينا فصادف رمينا منايا رجال فى كتاب وفى قدر

(١) حبسه معاوية سبع سنين فى المدينة لسبب ستعرفه ، وقيل بل حبسه ثلاثاً فقط « الأغانى »

فلما رأينا أنها هي ضربة من السيف أو إعطاء عين على وتر
عمدنا لأمر لا يميز والذي خزايته ولا يسب به قبري
وأنت أمير المؤمنين فما لنا وراءك من معدى ولا عنك من قصر
فان تك في أموالنا لم نضق بها ذراعاً ، وإن صبر فنصبر للصبر

فقال معاوية :

— أراك أقررت بقتلك صاحبهم

وكره أن يقتله ، وما كان له أن يعفو ، ففكر ثم قال لعبد الرحمن :

— هل لزيادة ولد ؟

— قال : نعم ، المسور ، وهو غلام صغير لم يبلغ ، وأنا عمه وولي دم أبيه

— قال : إنك لا تؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق . والمسوّر أحق بدم أبيه ، فليرد هدبة الى المدينة ، فليحبس بها حتى يرشد المسور فيكون له حكمه في القاتل .

وتنبه هدبة وسمع مرة ثانية صلصلة الحديد ، وأحس بدنو الساعة التي يقف فيها على شفير الهاوية فاما الى موت ، وإما الى حياة . فجزع واضطرب ، ثم أدركه من نعمة الايمان مايدرك كل مؤمن حاق به خطر ؛ فسكن واطمأن ، وراح يهدىء نفسه ويسكنها . . . ويقول :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ، ويفك عان ويأتي أهله النائي الغريب[1]

***

فلما كان صباح تلك الليلة ، لم يسمع في المدينة إلا نبأ واحد ، يجرى على كل لسان ، ويلج كل أذن :

— اليوم يوم هدبة — اليوم يسلم الى المسور بن زيادة ليحكم فيه — إنه سيقتله — بل سيعفو — لن يعفو عنه — لن يقتله . . . .

وخرج الناس أرسالاً الى الحرّة ، فلم ير مثله من يوم ، خلت فيه المدينة إلا من شيخ فان أو امرأة عاجزة ، وانتقلت بأهلها الى الحرّة . . . .

وما هي حتى جيء بالرجل وهو مثقل بالحديد ، وقد صدىء عليه وحز في جسمه ، وبليت من دونه ثيابه . فماج الناس وازدحموا بالمناكب ، واشرأبت الأعناق ، وارتاع النساء وأجفلن وعرتهن رعدة . . . ثم فاضت منهن العيون شفقة ورحمة ثم انتهى به الى الحرّة ، وقد جلس فيها الأمير سعيد بن العاص ووجهاء المدينة ، وأقيم المسور ليقول كلمته . وقام اليه رسول معاوية فعرض عليه عشر ديات من خالص مال أمير المؤمنين ، فأباها ، فعرض عليه سعيد ووجهاء المدينة أضعافها فأبى الا قتل هدبة . . .

فاصفرت وجوه الناس ، وودوا لو حالوا بالقوّة بين هدبة وبين القتل ، ولكن حجزهم احترام الحق ، ومنعتهم هيبة الدين فلبثوا صامتين كأن على رءوسهم الطير ، ونظروا الى هدبة . فرفع رأسه وأنشد بصوت شجي رائع :

ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح
وقبل غد يا لهف قلبي من غد إذا راح أصحابي ولست برائح
إذا راح أصحابي تفيض عيونهم وغودرت في لحد علي صفائحي
يقولون هل أصلحتم لأخيكم وما القبر في الأرض الفضاء بصالح

فضج النسوة بالبكاء ، وماج الناس ، فأشار اليهم فأسكتهم ، وخاطب امرأته وكانت من أجمل النساء وكان أجدع :

أقلي علي اللوم يا أم بوزعا ولا تجزعي مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحي إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا
ضروباً بلحييه على عظم زوره إذا الناس هشوا للفعال تقنعا
وحلي بذي أكرومة وحمية وصبر اذا ما الدهر عض فأسرعا

وعرى الناس صمت عميق ، وأقبلوا ينظرون عماذا تجيب هذه المرأة : أتفي وهي الشابة الجميلة الفتانة لرجل أجدع هو الساعة ميت ، وتقيم على عهده ، وتحرم على نفسها من أجله الرجال ، أم هي تعده وتمنيه ، حتى اذا مات انطلقت فتزوجت ؟ وجعلوا يتهامسون ، ويتقولون . . .

أما هي ، فلم يكن منها إلا أن مالت الى رجل ، فسألته شيئاً ، ثم أرسلت ملحفتها على وجهها هنيهة ، ثم عادت فاذا . . . فاذا هي قد جدعت أنفها ، وقطعت شفتيها . . .

وقالت : ياهدبة ! أتراني متزوجة بعد ماترى ؟.. فقال : لا ، الآن طاب الموت ، ثم استأذن في ركعتين فصلاهما وخفف ، ثم التفت الى من حضر ، وقال : والله لولا أن يظن بي الجزع لأطلتهما ، فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما

ثم تقدم من المسوّر وقال :

أثبت قدميك ، وأجد الضربة ، فاني قد أيتمتك صغيراً وأرملت أمك شابة . . .

علي الطنطاوي

(1) من أبيات له

بين فن التاريخ وفن الحرب

١١ – خالد بن الوليــــد*

في حروب الردة

للفريق طــه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

فوصلت المقـدمة مساء الى القرب من ثنية اليمامة ولقيت مفرزة من بني حنيفة نياماً في أسفل العقبة فباغتتهم وأسرتهم ؛ وكانت هذه الفرزة مؤلفة من ستين رجلاً بقيادة مجاعة بن مرارة أحد رؤساء بنى حنيفة

والروايات جميعاً متفقة على أن مجاعـة خرج من اليمامة على رأس سرية يطلب بثأر له في بني عامر وبني تميم ، لأن بني عامر منعوه من أن يتزوج خولة بنت جعفر . وبعد أن باغت بني عامر عاد بخولة ووقف في أسفل العقبة مع رجاله ليبيت ليلته هناك وإذا المسلمون يباغتونه ويقودونه مع رجاله أسرى الى خالد

والذي يلوح لنا أن مجاعة كان يراقب مجيء جيش المسلمين من الثنية — أى عقبة الحيسية . ويظهر أن قوة المسلمين باغتته دون أن يستطيع التملص منها ، فلما وقف أمام خالد زعم أنه خرج للثأر

وتزعم الروايات أن خالداً قتل رجال مجاعة لتأكده كفرهم ، واستبقى مجاعة ليستفيد منه في حركاته على مسيلمة . فيا ترى هل تواطأ مجاعة مع خالد على مسيلمة ، أو أنه تأكد نصر المسلمين فأراد أن يسوغ موقفه أمامهم فعرض الخدمة على خالد ؟ أو أنه خرج برجاله ليلتحق بجيش المسلمين فيدلهم على عورات أعدائهم ؟ ذلك مالا نعلمه العلم الأكيد . والمحقق أن مجاعة ظل محجوراً عليه في معسكر خالد وقام بالوساطة بين خالد وبني حنيفة لعقد الصلح بعد انكسار جيشهم في عقرباء ، فأفاد الفريقين بتلك الوساطة

ولابد أن خالداً استجوب مجاعة فاستقى منه جميع الأخبار الموثوق بها عن مسيلمة وجيشـه ، فعلم منه أن مسيلمة ينتظر وروده في عقرباء

المعركة

في رواية نقلها ابن حبيش أن خالداً لما تثبت من عسكرة جيش مسيلمة في عقرباء شاور أصحابه في الأمر فأشاروا عليه جميعهم أن يتقدم نحو عقرباء . وكانت الأخبار تنم على أن طليعة الحنفيين يقودها الرحال ، وهو من رؤساء بني حنيفة ، فتقدم خالد حينئذ بجيشه نحو العدو . فجعل أبا حذيفة على الميمنة وشجاع ابن وهب على الميسرة ، وكان زيد بن الخطاب يحمل راية المهاجرين ، وثابت بن قيس يحمل راية الأنصار . وعزل خالد براً بن مالك من قيادة الخيالة وأحل محله أسامة بن زيد

أما جيش مسيلمة فكان مولياً وجهه شطر الشمال الغربي ومترتباً في سهل عقرباء بين جبل صلبوخ ووادي حنيفة . فيستدل من ذلك على أن الأرض كانت صالحة لاتخاذ نظام القتال ولحركة الخيالة ، وتنم الروايات على أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت في وجه المسلمين وزحزحتهم عن مكانهم في القتال — أى أن جبهة المسلمين كانت موجهة نحو الجنوب الشرقي . ويظهر أن قوة الرحال انسحبت لما رأت المسلمين قادمين نحوها . وكان جيش مسيلمة مرتباً على الأسلوب الشائع ومنقسماً الى ثلاثة أقسام : الميمنة والميسرة والقلب — ولم يكن الضمن خلفه لأن قرى بنى حنيفة كانت في الخلف على مانعلم

وكان محكم بن طفيل — وهو من أجلّ رؤساء بنى حنيفة شأناً على الميمنة ، والرحال على الميسرة ، وشرحبيل بن مسيلمة يقود القلب . فكان مسيلمة وراء القلب يراقب مجرى القتال

وبعد أن قضى المسلمون ليلتهم في عقبة الحيسية — أى ثنية اليمامة — واستوثق خالد من أمر مجاعة ، تحرك الجيش صباحا وكانت الشقة بينه وبين عقرباء مسير يوم . وفي رواية نقلها الطبري أن الموقع الذى باغت المسلمون فيه مجاعة بن مرارة يبعد عن عسكر مسيلمة مسير ليلة . والحقيقة أن المسافة بين العقبة وعقرباء لا تزيد على خمسة وعشرين ميلاً — أى مسير يوم في ذلك الزمن

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

والظاهر أن خالداً قضى ليلته التى سبقت يوم المعركة قريباً من جيش مسيلمة ، لأن المعركة بدأت صباحاً واستمرت الى العصر . وكان الموقع الذى اختاره كثيباً مشرفاً على اليمامة كما ينقله الطبرى . وسبق أن رأينا من وصف فلبى لرابية الابكين أنها تشرف على وادى حنيفة وتتسلط على الأرض الممتدة الى الجنوب . فالأرض فى الشمال تتسلط على الأرض فى الجنوب ، وكان لوضع الأرض على هذه الصورة فائدة لجيش المسلمين

وليس لدينا معلومات عن تعبئة المسلمين فى ميدان القتال ، وتدل الأخبار على أن أبا حذيفة كان يقود الميمنة وشجاعا الميسرة وزيد بن الخطاب القلب وأسامة بن زيد الخيالة . فهل كان كل من المهاجرين والأنصار على مجنبة من المجنبتين ، وكانت القبائل فى القلب ؟ أو أن المهاجرين والأنصار كانوا فى القلب وكانت القبائل فى المجنبتين ؟ أو أن المهاجرين كانوا فى القلب مع قبائل الحجاز ، وكان الأنصار على إحدى المجنبتين وكانت قبـــائل البادية فى المجنبة الأخرى ؟

هذه أسئلة تصعب الاجابة عنها . والواضح من مجرى القتال أن إحـدى المجنبتين (ولعلها الميسرة) انهزمت فتلاها القلب ووصل الى الخيام فى الضمن . وأن أهل القرى — المهاجرين والأنصار وأهل الحجاز — عزوا هـذه الهزيمة التى كادت تقضى على المسلمين الى أهل البادية . فلنا من ذلك أن أهل البادية كانوا فى الميسرة ، وكان المهاجرون مع بعض قبائل الحى فى الميمنة ، والأنصار مع البعض الآخر من قبائل الحجاز فى القلب . ويظهر أن الخيالة كانت فى الامام فانسحبت الى الميسرة لتراقب الوادى ، وكان الضمن وراء القلب وفيه الخيام والنساء . ووقف خالد بن الوليد وراء القلب يراقب سير القتال

صفحات القتال

نشبت المعركة صباحاً واستمرت الى العصر . فبذل الفريقان قصاراهما لتغلب أحدهما على الآخر واقتتلا اقتتالاً شديداً . وكما يقول الطبرى كانت حرب لم يلق المسلمون مثلها قط

وجرى القتـال فى ثلاث صفحات : تغلب الحنفيون فى الصفحة الأولى على المسلمين وأزاحوهم الى الضمن وكادوا ينتصرون عليهم . وفى الصفحة الثانية كر المسلمون راجعين فتغلبوا على أعدائهم فأزاحوهم من المحل الذى وصلوا اليه . وبعد أن تضافرت جهودهم استطاعوا أن يهزموا الحنفيين . وفى الصفحة الثالثة اعتصم الحنفيون فى الحديقة فحاصرها المسلمون من كل صوب ودخلوها عنوة وقضوا على البقية الباقية من الحنفيين

ونذكر فيما يلى مجرى القتـال فى كل صفحة من الصفحات الثلاث :

الصفحة الأولى

بدأ القتال صباحاً بتحميس القواد رجالهم بالكلمات المأثورة والخطب الحماسية . فنادى شرحبيل بن مسيلمة فى رجاله قائلاً : « يابنى حنيفـة اليوم يوم الغيرة ، إن هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات . قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

وكان فى أول القتال براز من الفريقين كما جرت عليـه عادة العرب ، فقتل فى هذا البراز الرحال بن عنفوة الذى كان فى طليعة الحنفيين قبل القتال . وكان على الميسرة قتلة زيد بن الخطاب ، ويظهر أن رؤساء آخرين من بنى حنيفة قتلوا فى البراز مما حمل الطبرى على القول : « قتل الرحال وأهل البصائر من بنى حنيفة » وبدلاً من أن يوهن هذا القتل عزائم بنى حنيفة شدد عزيمتهم فتذامروا وحمل كل قوم فى ناحية . ويلوح من مجرى القتال أن الضربة كانت قوية من الجانب الأيمن على ميسرة المسلمين فزحزحتها من محلها وتراجعت منكسرة لاتلوى على شىء . فأثر ذلك فى موقف القلب فرجع متقهقراً وبنو حنيفـة يطاردونه الى أن وصلوا الى المعسكر فقطعوا أطناب الخيام

ومن الروايات ما يزعم أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت فى وجوه المسلمين فضعضعت صفوفهم ، فاستفاد بنو حنيفة منها فهزموا المسلمين حتى أزاحوهم من محلهم وطاردوهم الى المعسكر فدخلوا فى الفسطاط فرعبلوه بالسيوف

والروايات متفقة على أن بعض الأعداء دخل خيمـة خالد بن الوليد وكان فيها مجاعة مكبلا بالحديد قيـد مراقبة أم تميم التى تزوجها خالد بعد قتله مالك بن نويرة . فأراد الحنفيون إنقاذ مجاعة فهموا بقتل أم تميم إلا أنه منعهم من ذلك . فقال لهم : « لاتنشاغلوا فى المعسكر ، ودونكم الرجال » فى مثل هـذا الموقف الحرج برز خالد الى الميدان شـاهراً حسامه تشجيعاً للمسلمين ومنادياً بشمار « يا محمداه ! »

ويكاد المؤرخون جميعاً يتفقون على أن خالداً بفراسته وبطولته أنقذ الموقف . ولولا قيادة خالد وجـلادة الصحابة الذين لقوا حتفهم بعد أن أظهروا للمسلمين أمثلة حسنة ، لدارت الدائرة على المسلمين ولا ريب

الصفحة الثانية

تبدأ الصفحة الثانية بدعوة الرؤساء من المسلمين الى الثبات في محالهم والكر بعد ذلك على الأعداء

فثابت بن قيس الذى كان يقود الأنصار كان ينادى الأنصار قائلاً : « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، هكذا عنى حتى أريكم الجلاد » وقال زيد بن الخطاب الذى كان يقود القلب حين انكشف الناس عن رحالهم — أى العسكر — : « لا تحوز بعد الرحال » وقام البراء أخو أنس بن مالك ينادى قائلاً « أنا البراء ابن مالك . هلم الى » أما أبو حذيفة الذى كان يقود الميمنة فكان ينادى قائلاً : « يا أهل القرآن ! زينوا القرآن بالفعال »

وفى مثل هذا الوقت العصيب تدبر خالد الموقف ففكر فى حيلة يعيد بها نخوة المسلمين ، ويزيد حماستهم ، ولا سيما لما رأى أهل القرى يجبنون أهل البادية وهؤلاء يجبنون أهل القرى

وتكاد الروايات جميعاً تتفق على أن القبائل من أهل البادية انهزموا لأول مرة فألقوا الوهن فى صفوف المسلمين . والظاهر من نتائج المعركة أن أهل القرى ثبتوا « فاستحر بهم القتل » كما يذكر الطبرى . وكان التدبير الذى توصل اليه خالد لينقذ الموقف ويتغلب على عدوه منحصراً فى أمرين :

أولاً — فصل أهل القرى عن أهل القبائل ، ووضع كل فريق منهم فى جانب . فكان الأنصار والمهاجرون وأهل القرى الآخرون فى جانب ، والقبائل فى جانب آخر . لأن انهزام المسلمين أوقع الخلل فى ترتيب المعركة ، فاختلطت الميسرة بالقلب ، والقلب بالميمنة ، وتخلى الناس عن رؤسائهم

ثانياً — طلب من كل جانب أن يمتاز ، وذلك لما رأى أهل القرى يعزون سبب الخيبة الى القبائل ، والقبائل تعزو الخيبة الى أهل القرى . وفى هذا تناحر لدى الفريقين ، وإذا ما اشتد التناحر يؤدى الى التقاعس

فصرخ فى المسلمين طالباً منهم أن يمتازوا ليتبين من أين يأتى الخلل . وكان يريد بذلك أن تبرز الفرق فلا ينسب اليها ذلة الانكسار . ونال بذلك ما أراد . فامتاز أهل القرى والبوادى ، وامتازت القبائل من أهل البادية ، فوقف بنو كل أب على رايتهم كما يذكر الطبرى . فتولى خالد بنفسه قيادة صفوف أهل القرى ، فقاموا جميعاً قومة واحدة فقاتلوا قتـال الأبطال . وكان خالد فى أول الصف يشجع المسلمين ببطولته ولا يقابله أحد إلا قتله . وكان يفتش عن مسيلمة ليقتله ، لأنه عرف أن الحرب لا تركد إلا بموته ، وأن بنى حنيفة لا تحفل إلا بقتله . وكان من أمر ذلك أن تشجع المسلمون فصدوا العدو

ويذكر الواقدى أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون من أطرافه قال : « والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتى ؛ عضوا على أضراسكم أيها الناس ! واضربوا فى عدوكم وامضوا قدماً » ولم يزل يشجع أصحابه الى أن قتل والراية فى يده ، فأخـذها أبو حذيفة ، فجادل بسيفه حتى قتل . أما ثابت بن قيس فكان يحمل راية الأنصار ، فنادى فى قومه « العزة لله ولرسوله ولأحزابه ، أرونى كما أريكم » ثم جلد فى الأعداء وقاتل حتى قتل . وتسلم راية المسـلمين سالم مولى أبى حذيفة ، وظل يناضل عنها الى أن قتـــل ، فتسلمها آخرون وقتلوا

وإزاء هذه الجهود المتضافرة والأمثلة المشجعة تمكن المسلمون من أن يزحزحوا الأعداء من مكانهم حتى أزاحوهم تماماً ، فأخذوا يطاردونهم . وفى مثل هذا الحين أخذ محكم بن الطفيل المدعو بمحكم اليمامة يشجع بنى حنيفة منادياً : « يامعشر بنى حنيفة الآن والله تستحقب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حصينات ، فما عندكم من حسب فأخرجوه » . فقاتل قتالاً شديداً

أما أهل اليمامة فلما رأوا المسـلمين يركبونهم صرخوا فى وجه مسيلمة قائلين له : « أين ما كنت تعدنا ؟ » فأجابهم قائلاً : « قاتلوا عن أحسابكم » ، ولما رأى المحكم أن الدائرة دارت على بنى حنيفة صاح فيهم : الحـديقة ! الحديقة ! يريد بذلك أن يتحصنوا فيها ويقاوموا المسلمين . فانسحبوا إلى الحديقة واعتصموا بها . ويظهر أن المحكم لم يتمكن من الوصول اليها لأن عبدالرحمن ابن أبى بكر رماه بسهم فقتله

يتبع

طه الهاشمى

٣ــ محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ـــــــ

— لعلك يا صديقى مليتس ترمى أنا كسجوراس[1] بهذا الاتهام : ويظهر أنك تسىء الظن بالقضاة ، فتحسبهم بلغوا من الجهالة حداً لا يعرفون معه أن تلك آراء مسطورة فى كتب أنا كسجوراس الكلازوميني ، وهى مليئة بمثلها . وتلك التعاليم هى التى يقال إن سقراط قد أوحى بها إلى الشبان ، والواقع أنهم عرفوها من المسرح الذى كثيراً ما يعرضها ، وأجر المسرح لا يزيد على دراخمة واحدة ، فى مقدور الناس جميعاً أن يشهدوها بهذا الأجر الزهيد ، ثم يهزأون من سقراط كلما نسب إلى نفسه تلك الأعاجيب ، ولكن حدثنى يامليتس ، أتظن حقاً أنى لا أومن بآلـه ما ؟

— أقسم بزفس أنك لا تؤمن بكائن من كان

— أنت كاذب يامليتس ، ولا تستطيع أنت نفسك أن تصدق هذا القول ، ولست أشك أيها الأثينيون فى أن مليتس هذا مستهتر وقح ، كتب هـذه الدعوى بروح من الحقد والطيش والغرور ، ألم يبتكر هذه الأعجوبة ابتكاراً ليقدمنى بها الى المحاكمة ؟ كأنما قال لنفسه : سأرى هل يستطيع هذا الحكيم سقراط أن يكشف عن هذا التناقض المحبوك ، أم أنى خادعه كما سأخدع بقية الناس ؟ فهو كما أرى يناقض نفسه بنفسه فى الدعوى فكأنه يقول : قد أجرم سقراط لأنه كافر بالآلهة ، ولأنه مؤمن بهم ، وتلك مهزلة ولا ريب

أيها الأثينيون ! إنه متناقض لاتستقيم روايته ، وأحب أن تتعاونوا جميعاً على تحقيقها ، وعليك يامليتس أن تجيب — وأعيد الرجاء ألا تقاطعونى إذا تكلمت بأسلوبى المعهود —

يا مليتس ! هل جاز لانسان مرة أن يعتقد بوجود ما يتصل بالبشر من أشياء ، دون أن يعتقد بوجود البشر أنفسهم ؟ إنى أحب منه — أيها الأثينيون — أن يجيب ، وألا يعمد دائماً الى المقاطعة . هل اعتقد انسان مرة وجود صفات الجياد دون الجياد نفسها ؟ أو وجود نغمات القيثارة دون العازف عليها ؟ إن كنت تأبى أن تجيب بنفسك ياصديقى ، فسأجيب لك وللمحكمة

كلا ، لم يفعل ذلك إنسان . والآن ، هل لك أن تجيب عن هذا السؤال الثانى : أيستطيع انسان أن يؤمن برسول روحى الـهى ، ولا يؤمن بالأرواح نفسها أو بأشباه الآلهة ؟

— إنه لايستطيع

— يسرنى أن أحصل منك بعون المحكمة على هذا الجواب ، ولكنك قد أقسمت فى دعواك أننى أثق وأعتقد فى رسل روحية الـهية ، وسواء أكانت تلك الرسل قديمة أم محدثة ، فأنا على أية حال أومن بها كما قلت وأقسمت فى صحيفة الدعوى . ولكن إذا كنت أعتقد بموجودات الـهية ، أفلا يلزم أن أعتقد بالأرواح وأشباه الآلهة التى بعثتها ؟ أليس هذا حقاً ؟ مالى أراك صامتاً ؟ إن الصمت معناه الرضى . فما هذه الأرواح وأشباه الآلهة ؟ إنها إما أن تكون آلهة ، أو أبناء آلهة ، أليس كذلك ؟

— نعم هو كذلك

— وإذن فهذا موضع التناقض المحبوك الذى أشرت اليه ، فأشباه الآلهة أو الأرواح هى آلهة ، وقد زعمت عنى أول الأمر أنى كافر بالآلهة ، ثم ها أنت ذا تضيف أنى مؤمن بها ، لأنى مؤمن بأشباهها . ولا يضيرنا أن تكون هذه الأشباه أبناء للآلهة غير شرعيين ، فسواء أعقبتها الآلهة من الشياطين أو من أمهات أخريات كما يُظن ، فوجودها يتضمن بالضرورة — كما ترون جميعاً — وجود آبائها ، وإلا كنت كمن يثبت وجود البغال وينكر وجود الجياد والحمير . لايمكن أن يكون هذا الهراء يامليتس إلا تدبيراً منك لتبلونى به ، ولقد سقته فى دعواك لأنك لم تجد حقاً تتهمنى به . ولكن لن يجوز على من يملك ذرة من فهم ، قولك هذا بأن رجلاً يعتقد فى أشياء الـهية ، هى فوق مستوى البشر ، ولايؤمن فى الوقت نفسه بأن هناك آلهة وأشباه آلهة وأبطالاً

(١) هذه العقيدة التى قالها مليتس عن سقراط هى فى الحقيقة رأى فى فلسفة أنا كسجوراس وكان قد اتهم به هذا بالالحاد لولا أنه فر من أثينا

حسبي ما قلته رداً لدعوى مليتس ، فلا حاجة بي الى دفاع قوي بعد هذا ، ولكني كما ذكرت من قبل لابد أن يكون لي أعداء كثيرون ، وسيكون ذلك دافعي الى الموت لو قضى علي به ، لست أشك في هذا ، فليس الأمر قاصراً على مليتس وأنيتس ، ولكنه الحقد الذي يأكل القلوب ، ويغري الناس بتشويه السمعة ، فكثيراً ما أدى ذلك برجال الى الموت ، وكثيراً ما سيقضي بالموت على رجال ، فلست بحمد الله آخر هؤلاء

سيقول أحدكم : ألا تخجل يا سقراط من حياة يغلب أن تؤدي بك الى موت مباغت ، وعلى ذلك أجيب في رفق : أنت مخطئ يا هذا ، فان كان الرجل خيّراً في أي ناحية منه ، فلا ينبغي أن يتدبر أمر حياته أو موته ، ولا يجوز أن يهتم إلا بأمر واحد ، وذلك أن يرى هل هو فيما يعمل مخطئ أم مصيب ، وهل يقدم في حياته خيراً أم شراً . أترى إذن أن الأبطال الذين سقطوا في طروادة لم يحسنوا صنعاً ، فذلك ابن ثيتس الذي استصغر الخطر وازدراه حينما قرنه بما يثلم الشرف . ولما قالت له أمه الآلهة ، وهو يتحفز لقتل هكتور بأنه لو قتله انتقاماً لصاحبه باتروكلس ، فسيدركه هو نفسه الموت ، ثم قالت : « إن القدر يترصدك بعد هكتور » فلما سمع هذا ، احتقر الخطر والموت احتقاراً ، ولم يخشهما كما خشي أن يحيا حياة يدنسها العار دون أن ينتقم لصديقه ، فأجاب : « ذريني أمت بعد موته ، فأنتقم من عدوي ، فذلك خير من الحياة فوق هذه السفن ، فأظل عاراً على جبين الدهر تنوء بحمله الأرض » هل فكر أخيل في الموت أو الخطر ؟ فمهما يكن موقف الرجل ، سواء اختار لنفسه ذلك الوضع أم أقامه فيه قائده ، فلابد أن يلزمه ساعة الخطر ، ولا يجوز أن يفكر في الموت أو في أي شيء آخر غير دنس العار . إن هذا أيها الأثينيون لقول حق .

يا بني أثينا ، كم كان سلوكي عجيباً ، لو أنني عصيت الله فيما يأمرني به ، كما أعتقد — بأن أؤدي رسالة الفلسفة بدراسة نفسي ودراسة الناس ، وفررت مما كلفني به خشية الموت أو ما شئت من هول ، وأنا الذي حين أمرني القواد الذين اخترتموهم للقيادة في بوتيديا ، وأمفيبوليس ودليوم ، لزمت موضعي ، كأي رجل آخر ، أواجه الموت . ما كان أعجب ذلك ، وما كان أحقني بأن أساق الى المحكمة بتهمة الكفر بالآلهة ، وكم كنت عندئذ أكون بعيداً عن الحكمة ، مدعياً إياها خاطئاً ، لو أنني عصيت الراعية خوفاً من الموت ؟ فليست خشية الموت من الحكمة الصحيحة في شيء ، بل هي في الواقع ادعاء بها ، لأنه تظاهر بمعرفة ما تستحيل معرفته ، فما يدريك ألا يكون الموت خيراً عظيماً ، ذلك الذي يلقاه الناس بالجزع كأنه أعظم الشرور ؟ أليس ذلك توهماً بالعلم ، وهو ضرب من الجهل الشائن ؟ وهنا أراني أسمى مقاماً من مستوى البشر ، وربما ظننت أني في هذا الأمر أحكم الناس جميعاً — فما دمت لا أعلم عن هذه الحياة إلا قليلاً ، فلا أفرض في نفسي العلم ، وإنما أعلم علم اليقين أن من ظلم من هو أرفع منه أو عصاه ، سواء أكان ذلك انساناً أم آلهاً ، فقد ارتكب إثماً وعاراً ، ويستحيل على أن أتحاشى ما يجوز أن يكون فيه الخير وأخشاه ، لأقدم على شر مؤكد ؛ ولهذا فلو أنكم أطلقتم الآن سراحي ، ورفضتم نصح أنيتس ، الذي قال بوجوب إعدامي بعد إذ وجه الي الاتهام ، لأني لو أفلت فسيصيب الفساد والدمار أبناءكم باستماعهم لما أقول . لو قلتم لي يا سقراط ، إننا سنطلق سراحك هذه المرة ولن نأبه لأنيتس ، على شرط واحد ، وذلك أن تقف البحث والتفكير فلا تعود اليهما مرة أخرى ، ولو شاهدناك تفعل ذلك أنزلنا بك الموت ، إن كان هذا شرط إخلاء سبيلي أجبت بما يأتي : أيها الأثينيون ! أنا أحبكم وأمجدكم ، ولكني لابد أن أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أمسك عن اتخاذ الفلسفة وتعليمها مادمت حياً قوياً ، أسائل بطريقتي أيّاً صادفت بأسلوبي ، وأهيب به قائلاً : مالي أراك ياصاح تعنى ما وسعتك العناية بجمع المال ، وصيانة الشرف ، وذيوع الصوت ، ولا تنشد من الحكمة والحق وتهذيب النفس إلا أقلها ، فهي لاتصادف من عنايتك قليلاً ولا تزن عندك فتيلاً ، وأنت ابن أثينا ، مدينة العظمة والقوة والحكمة ؟ ألا يخجلك ذلك ؟ فان أجاب محدثي قائلاً : بلى ، ولكني معني بها ، فلن أخلي سبيله ليمضي من فوره ، بل أسائله وأناقشه وأعيد معه النقاش ، فان رأيته خلواً من الفضيلة ، وأنه يقف منها عند حد القول والادعاء ، أخذت في تأنيبه ، لأنه يحقر ما هو جليل ، ويسمو بما هو دنيء وضيع ؛ سأقول ذلك لكل من أصادفه ،

سواء أكان شاباً أم شيخاً، غريباً أم من أبناء الوطن، لكني سأخص بعنايتي بني وطني، لأنهم إخواني، تلك كلمة الله فاعلموها. ولا أحسب الدولة قد ظفرت من الخير بأكثر مما قمت به ابتغاء مرضاة الله، وما فعلت إلا أن أهبت بكم جميعاً، شيباً وشباناً، أن انصرفوا الى أنفسكم وما تملكون، وبادروا أولاً بتهذيب نفوسكم تهذيباً كاملاً، وهأنذا أعلنكم أن الفضيلة لاتشترى بالمال، ولكنها هي المعين الذي يتدفق منه المال ويفيض بالخير جميعاً، سواء في ذلك خير الفرد وخير المجموع. ذلك مذهبي، فان كان هذا مفسداً للشبان، فالتعلم إلى مودٍ بالشباب الى الدمار! أما إن زعم أحدكم أن ليس مذهبي هو ذاك، فهو إنما يزعم باطلاً. أيها الأثينيون! سواء لدى أصدعتم بما يأمركم به أنيتس أم فعلتم بغير ما يشير، وسواء أأصبت عندكم البراءة أم لم أصبها، فاعلموا أني لن أبدل من أمري شيئاً، ولو قضيتم عليّ بالموت مراراً.

أيها الأثينيون! لا تقاطعوني واصغوا إلى قولي، فقد وعدتموني أن تسمعوا الحديث حتى ختامه، وإن لكم فيه لخيراً. أحب أن أفيض لكم بما عندي، فان بعثكم على البكاء فأرجو ألا تفعلوا. أريد أن أصارحكم أن لو قضيتم عليّ بالموت فسيصيبكم من الضر أكثر مما يصيبني. إن مليتس وأنيتس لن يؤذياني، لأنهما لايستطيعان، فليس من طبائع الأشياء أن يؤذي فاسد من هو أصلح منه، نعم، ربما استطاع له موتاً أو نفياً أو تجريداً من حقوقه المدنية، وقد يبدو له كما يبدو للناس جميعاً، أنه يكون بذلك قد أنزل به أفدح البلاء، ولكني لا أرى ذلك الرأي، فأهول به مصاباً هذا الشر الذي يقدم عليه أنيتس — بأن يقضي على حياة انسان بغير حق. لست أكلمكم الآن — أيها الأثينيون — من أجل نفسي كما قد تظنون، ولكن من أجلكم، حتى لاتسيئوا إلى الله، أو تكفروا بنعمته بحكمكم عليّ، فليس يسيراً أن تجدوا لي ضريباً إذا قضيتم عليّ بالموت، وإن جاز أن أسوق اليكم هذا التشبيه المضحك؛ لقلت إني ضرب من الذباب الخبيث، أنزله الله على الأمة، التي هي بمثابة جواد لنبيل عظيم، ثقيل الحركة لضخامته، ولا بد له في حياته من حافز. أنا تلك الذبابة الخبيثة التي أرسلها الله الى الامة، فلا شاغل لي متى كنت وأنى كنت، إلا أن أثير نفوسكم بالاقناع والتأنيب، ولما كان من العسير أن تجدوا لي ضريباً فنصيحتي لكم أن تدخروا حياتي. نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتكم فأيقظتكم من نعاسكم العميق، ولكم أن تأملوا، إذا ما صفعتموني صفعة الموت، كما ينصح أنيتس، — وما أهون ذلك عليكم — أن يهدأ لكم الرقاد بقية حياتكم، مالم يبعث لكم الله ذبابة أخرى، إشفاقاً عليكم. أما إنني جئتكم من عند الله فهذي آيته: لو كنت نكرة من الناس لما رضيت مطمئناً، باهمال شئون عيشي اهمالاً طوال تلك السنين، لأخصص نفسي لكم، فقد جئتكم واحداً فواحداً، شأن الوالد أو الأخ الأكبر، فأحملكم على الفضيلة حملاً، وليس ذلك ما عهدناه في طبيعة البشر. ولو كنت قد أفدت من ذلك أجراً أو جزاءً لكان لذلك مدلول آخر، ولكن هل تجرؤ حتى وقاحة المدعين أن تدعي أني أخذت أجراً أو سعيت إليه؟ إنهم لن يفعلوا، لأنهم لن يجدوا لذلك دليلاً. أما أنا فعندي ما يؤيد صحة ما أقول، وحسبي بالفقر دليلاً.

يتبع

زكي نجيب محمود

٣ ـ مصطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزى أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفى غالى

وعاش مصطفى كمال مع أمه فى سالونيك بعد وفاة زوجها الذى كان يمقته وينفر منه ، وهناك حاول أن ينشىء مع زملائه من صغار الضباط فرعاً لجمعية الوطن ، فأخفق لأنهم كانوا فى ريبة من أمره ، فلم يؤيدوه ولم يعارضوه ، كأنما كانوا يريدون أن يقفوا على حقيقته ويتبينوا أمره قبل أن يتصلوا به ويتعاونوا معه فى أمثال هذه المغامرات . وأخيراً أسر إليه أحدهم أن بسالونيك جمعية ثورية كبيرة تدعى « جمعية الاتحاد والترقى » يجتمع أعضاؤها فى منازل بعض اليهود من رعايا إيطاليا ، فيستطيعون أن يدبروا الخطط ، ويتشاوروا فى أمرهم بأمن من بطش الحكومة ، ومنجاة من عيون الخليفة ، وبعد أن اختبرت الجمعية إخلاص بطلنا ، وأنست منه نفساً ثائرة وقلباً قلقاً ، دعته إلى الانضمام إليها ، فتم لها ما تريد ، وانخرط مصطفى فى سلك أعضائها ، فألفى نفسه فى جو لا يلائمه ولا يتفق وميوله ، إذ رأى من حوله أشخاصاً يتحدثون فى أمور لا تعنيه ولا تتصل بتركيا التى يحبها ويفنى فى سبيلها ، فماذا يهمه من متاعب اليهود وما يلاقونه من اضطهاد فى روسيا ، فهو تركى قبل كل شىء ، وهو معتز بتركيته تياه بها ، ولا غرض له سوى إنقاذ تركيا من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية ، وفضلا عن ذلك فهو ما زال فى الجمعية « أخا » صغيراً ، عليه أن يتلقى الاوامر بالطاعة والاذعان ، وعليه أن ينفذها بأمانة ونشاط . وهذا ما لا يرضى بطلنا الذى خلق ليأمر ويسود لا ليأتمر ويخضع ، فبرم بالجمعية وسخط عليها ، وأخذ ينقدها نقداً حاداً قارصاً غير متلطف فيه ولا متهاون قائلا : إنه يسمع مناقشات بيزنطية لا يعززها عمل حاسم ، وهو يريد خطة محكمة دقيقة ، ينفذها بكل ما وسعه من جهد ، وكل ما فى نفسه من حرارة الايمان والوطنية ، ولم يكن يرعى للرؤساء حرمة أو مقاماً ، فمن هم أولئك الذين يستأثرون بالنفوذ ويستبدون بالأمر دونه ؟ أأنور ذلك المجازف المتهور ، أم جمال ذلك المظلم العقل المضطرب الذهن ، أم داود ذلك اليهودى الدنىء الذى انقلب مسلماً ، أم نيازى ذلك الألبانى فاقد التوازن ، أم طلعت ذلك الموظف المصلحى والدب البطىء ، فهكذا كان يراهم بطلنا ، ويرى نفسه فوقهم أجمعين ، وهكذا نرى العظماء شديدى الأنانية عظام الثقة بأنفسهم ، وهى صفة لابد منها لمن يتطلعون الى مسابح الأفلاك . أما من ضعفت ثقته بنفسه ، وتنحى عن نفسه لغيره ، فليقنع إذن بمدارج الأسماك . وكان يخاطبهم مخاطبة الأستاذ لتلميذه ، وحدث ذات مرة أن كانوا يتحدثون عن جمال ويمتدحون وطنيته فقاطعهم مصطفى كمال متهكما بهم ، وأخذ يلقى عليهم درساً عن العظمة الحقيقية . فلما التقى بجمال فى اليوم التالى صارحه برأيه فيه قائلاً له إنه طالب شهرة ، وألقى عليه ما ألقى على زملائه بالأمس

وقد كان زملاؤه الضباط يبغضونه لاعتداده بنفسه واستصغاره لشأنهم وسخره منهم ، كما كان اليهود لا يثقون به ، فلم يرتق الى مراكز الماسونية العليـا ، وظل بعيداً عن مركز القيادة أو مبعداً عنه .

ولم يكن فى البيت أيسر نفساً ولا ألين جانباً ، ولم يكن يسمح لأحد غير أمه أن ينتقده ، وكان مع ذلك يأبى عليها التدخل فى عمله أو المساس بكبريائه . وقد اجتمع فى يوم من الأيام ببعض زملائه بالمنزل ، فأخذ الخدم يتسمعون حديثهم من وراء الأبواب وأخبروا أمه ، فعارضت فكرته ، فحاول أن يقنعها بصوابها ، فركبت رأسها وأصرت على رأيها ؛ وما كان الاثنان ليتفقا ، فقد كانت هى امرأة صادقة الايمان وثيقة الاخلاص لقديمها ، بينما ابنها لم يكن يؤمن بشىء أو يجل شيئاً على الاطلاق ؛ وأخيراً سايرت الأم الرؤوم ولدها العزيز فى طريقه برغم اعتقادها فى خطئه ، خشية أن يهجر المنزل فيشق عليها فراقه ، ولكنها ظلت تحذره سوء المنقلب وظلام المصير ، قائلة : إن من الحمق التآمر بالخليفة والدين

وقد سئم بطلنا الحياة المنزلية بما ينقلها من ثرثرة الأقارب ، وتجسس النساء ، وفضول الخدم ، إذ لم يكن أبغض اليه من الحد من حريته ، فهو يريد أن يكون سيد نفسه مهما كلفه ذلك من مشقة وغرم ، فهجر المنزل ، ولكن ظل حبل الود متصلاً بينه وبين أمه ، فكان يزورها ويصغى إليها

* انظر عددى ٦١١ و ٦١٥ من الرسالة

وكان ينفق بياض النهار مكباً على عمله ، كما كان ينفق معظم لياليه في المقاهي حيث يجتمع بزملائه أحياناً أو يذهبون الى مكان خفي بعيد ، حيث يشربون ويدخنون ويدبرون الخطط للثورة المقبلة

على أن بطلنا لم يكن ليرضى أن يكون جندياً خاملاً مغموراً ، بل يريد أن يكون قائداً له شرف النصر وفخار الغلبة والقهر ، ولم يكن يحب الرؤساء أن يقربوه منهم ، فقل على توالي الأيام اتصاله بالجمعية واشتراكه في أعمالها ، وأصبح أكثر ميلاً للعزلة والصمت

وبينما كان بطلنا في بعده وعزلته إذا بالثورة تشب من غير إنذار ، فسار نيازي على رأس فئة قليلة من الثائرين الى جبال مقدونيا الجنوبية متحدياً الحكومة ، وحذا حذوه أنور ، وأصدر في الحال منشوراً يعلن فيه الثورة . أما بطلنا فظل في سكونه وعزلته ، وأبى أن يشاركهم ، إذ لم يكن من طبعه المغامرة في مشروع إلا إذا كان متين الأساس مقدراً له بعض النجاح ؛ ولكن هذه المغامرة الجنونية نجحت بأعجوبة ، وساعد على ذلك تسخط رجال الجيش على الحكومة لتأخر مرتباتهم ، فأبى بعضهم أن يحارب بني وطنهم ، وانضم آخرون الى الثوار فسقطت حكومة الظلم كما تسقط أوراق الشجر أمام الريح الضعيفة ، وقبل عبد الحميد الحكم الدستوري قائلاً : إنه كان يعمل لهذه الغاية من عهد بعيد ! ! وأتحى باللائمة على مستشاريه ، وألقى عليهم تبعة الماضي الفاسد . وألغى الجاسوسية ، ورحب بالثوار ، وعاد نيازي وأنور ، وقد أسكرتهم نشوة الانتصار ، وتوجت رؤوسهم أكاليل الغار ، فاستقبلهم الشعب بحماسة فائقة تجل عن الوصف ، وقد لقيهما مصطفى برفقة بعض زملائه ، ووقف الجميع في شرفة أحد فنادق سالونيك ، وأعلن أنور منها الدستور على الشعب الذي يرمقه بعين الاعجاب والاجلال ، ووقف من خلفه مصطفى وإن ما به من الهم والحسد ليكاد يقطع قلبه ويذهب بنفسه

وقد عاد الى الآستانة جميع من نفاهم عبد الحميد ، وأخذوا يتنازعون السلطة والحكم ، وأرسل أنور ملحقاً حربياً في سفارة برلين ، أما نيازي فعاد الى ألبانيا حيث اغتيل ، أما مصطفى كمال فأرسل على رأس بعثة ليتفقد حال حامية طرابلس ، ويكتب عنها تقريراً لحكومة الآستانة

وقد خشيت دول أوربا أن يستعيد الأتراك قوتهم ، فانتهزت فرصة هذه الفتنة الداخلية لتصفي مع الأتراك حسابها ، فاستولت النمسا على البوسنة والهرسك ، واحتلت اليونان كريد ، وأعلنت بلغاريا استقلالها تظاهرها الروسيا

أما في داخل الامبراطورية فقد شبت الثورة ببلاد العرب وألبانيا ، واحتدم النزاع بين المسلمين والمسيحيين واشرأبت الرجعية بعنقها تريد استعادة سلطانها البائد ، فلجأت الى الجيش والشعب لاثارته على أولئك اليهود والملاحدة الذين يريدون هدم الدين ، وتقويض خلافة المسلمين ، ونجحت هذه الدعاية الخداعة البراقة ، وثار الجنود في الآستانة ، وقتلوا ضباطهم أو سجنوهم ، وأعلنوا إخلاصهم للدين وولاءهم لأمير المؤمنين ، واستولوا على الآستانة وطردوا منها أعضاء الجمعية ، فالتجأوا الى محمود شوكت قائد الجيش بمقدونيا فتردد بادىء الأمر لأنه كان من المقربين الى عبد الحميد ، ولكنهم وفقوا أخيراً الى إغرائه بمساعدتهم والعمل معهم فسير أنور — وكان قد عاد مسرعاً من برلين — على رأس فرقة من الفرسان كما ناط بمصطفى — وكان قد عاد من طرابلس — رئاسة أركان الحرب ، وتقدم الجميع نحو الآستانة فقضوا على الثورة الداخلية ، وقبضوا على عبد الحميد ووضعوه في « فيلا » صغيرة بسالونيك تحت رقابة الضابط فتحي القدونى وأعادوا الجمعية الى الحكم

وكان أنور إبان هذه الحوادث ، الشخصية الفذة ، والبطل البارز ، ترمقه العيون بالاعجاب والحب ، لأنه كان جندياً مقداماً جريئاً ، كثير الاتجاه الى الجمهورية ، فواتته الشهرة وسعت اليه ، بينما ذهب مصطفى كمال في غمار النسيان والاهمال ، إذ لم يحظ باعجاب الشعب لتردده ، ولم يكسب رضاء الرؤساء لصلفه ، حتى قالوا عنه « إنه ذو كفاية ممتازة ، ولكنه جامد النسيم ، كثير التمرد على كل أمر ، قارص النقد لكل شخص ، شديد الغرور ، لا يميل اليه أحد ، وهو كثير الاعتداد برأيه ، لا يشرك معه أحداً في الأمر »

وأبعدوه عن الحكم وأبقوه في منصبه ، فأكب على واجبه يؤديه بهمة ونشاط ، وأخذ يدرس تاريخ نابليون وفون ملتكة . ثم رقى في سنة ١٩١١ الى رياسة أركان حرب القسم الثالث من الجيش بمقدونيا

وقد أرسل في بعثة حربية الى باريس تحت اشراف الجنرال على رضا ، وأعجب رئيسه به وأثنى عليه . ولما عاد نيط به الأشراف

على مدرسة الضباط بسالونيك ، ورغم كون بطلنا جنديا بفطرته فقد كان يتطلع بنظره الى السياسة دائماً ، ويحاول أن يجرب طالعه فيها ، فلم يرضه هذا المنصب ، وأخــذ ينقد زعماء جمعية الاتحاد والترقى نقــداً لاذعاً فى غير تحفظ ولا خشية قائلا إنهم ليسوا جديرين بالحكم ، وإن الدول أخذ طمعها يشتد ويدها تطول عن ذى قبل ، ولا سيما المانيا التى قبضت على مرافق البلاد الحيوية وسيطرت على سكة حديد بغداد . أما فى الداخل فلا يزال السخط عاما والفقر والبؤس مخيمين ، ويجب القيام بعمل حاسم لاصلاح الحال . وأخذ الضباط يصغون اليه ويستمعون له ويلتفون حوله فأرضى هذا كبرياءه ، وأصبح يشــعر أنه ذو مكانة وخطر ، وأنه يقترب رويداً رويداً من قيادة حركة ذات شأن ، ونمى هذا الى محمود شوكت ، وكان يعرف بطلنا ويقدر خطره ، لا سيما فى البلقان مصدر كل فتنة ومهد كل حركة ، فنقله الى منصب آخر ، وكان شوكت فى تصرفه هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد سهل المنصب الجديد لبطلنا بلوغ دعوته الى أنصار أكثر من ذى قبل ، ولم يخفه تهديد شوكت ووعيده ، وظل فى مهاجمة رجال الجمعية وحملته عليهم غير خائف ولا متحفظ ، كما أخذ يستحث أنصاره على طرد الأجانب لتصبح « تركيا للأتراك »

ولقد عظم خطر بطلنــا حتى كتب أعوان الحكومة اليها ينذرونها ويحذرونها منه ويستحثونها على تدارك الأمر ، وطلبت الجمعية معاقبته ، فبعث اليه شوكت يتهمه بأنه يحرض الجنود على الثورة ، فرد عليــه رداً لم يكف فى نظر شوكت لدحض التهمة ونفيها عنه ، كذلك لم يجد شوكت أدلة قوية تثبت إدانته فنقله الى المكتب الحربى فى الأستانة ليبعده عن البلقان مستودع البارود ومنبع الخطر وليستطيع مراقبة حركاته وتتبع خطواته ، فلم يرده هذا عن خطته ، وأخــذ يتقرب من بعض سياسيى الجمعية الذين كانوا يبغضون الألمــان ويمقتون سفيرهم صديق أنور الذى أخذ يعمل بنشاط وكياسة لجعل تركيا آلة فى يد المانيا ، وأخذوا هم يشجعونه بعض الشىء ، إذ رأوا إمكان استخدامه ضد أنور عند الحاجة ، ولكنهم مع ذلك لم يستسيغوه ولم يقربوه كل القرب لذهابه بنفسه ، فحز ذلك فى نفسه وآلمه أشد الألم

وبينما هو يجاهد خصومه ويجــاهدونه إذا بإيطاليــا تنزل جنودها فى طرابلس وتحتل الساحل ؟

منفى غالى

الشمس فى الطلوع

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

الشمس قد طلعت بوجه أروع ... فوقفت مبهوتاً لحسن المطلع

وجه كما تهوى الطبيعة سافر ... ما إن عليه سوى السنى من برقع

فى موكب فخم يزيد جلاله ... لمع الأشعة فى الفضاء الأوسع

هى فى علاية أوجها وشعاعها ... فى كل ما تبدو له من موقع

بيضاء لولا ما بهــا من وخزة ... لذاعة من حسنها لم أشبع

إنى أدين بحسنها لا كالذى ... أملى عليه جهله ألّا يعى

مرت تعاورها الدهور وحسنها ... أبداً جديد بالشباب الممتع

***

أنظر اليها فهى تحكى غادة ... ترنو اليك من المحل الأرفع

ولقد بدت فى خيلع[1] من ضوئها ... أحسن بها لما بدت فى الخيلع

تجرى بلا تعب إلى الغايات فى ... صمت على لقم[2] الطريق المهيع

لا تحرم الأرض الضياء فان جلت ... عن موضع منها بدت فى موضع

تمتد من شغف لها الأنظار من ... حشرى تكل من العياء وضلع

***

ظهرت على متن السحاب كأنها ... نار تشب على كثيب أسفع

ولقد علتها وهى تبرح أفقها ... وطفاء حانيــة حنو المرضع

ودنا يطوف بها الغمام كمصطل ... بالنار يذكى جمرها أو مترمع

قد كان منها القرص أحمر فاتحاً ... حتى اختفى فى العارض المتجمع

أما الغيوم فتلك بعد تراكم ... أخذته بين صدورها والأذرع

صور محببة وليس بمنكر ... حوج الحياة إلى الجمال الأروع

الشمس فى طول النهار نجيتى ... والشمس حيث ذهبت ذاهبة معى

وكأنما بينى وبين شعاعها ... نسب قديم ما لأوله أعى

ما ذر قرن الشمس إلا اهتز من ... فرح فؤاد تحتويه أضلعى

***

---

(١) ثوب بلا أكمام (٢) معظم الطريق

الصبح لما ابيضَّ من أنوارها أخفى على ضوء النجوم اللُمَّع

والصبح بعد الليل يحكى ضوءه أملاً لذيذاً بعد يأسٍ مُوجِع

ولقد تيقظت العيونُ من الكرى ولفظنَ أحلامَ النفوس الهُجَّع

قد كان ليلاً قد تضاعف دَجْوُه والليلُ يُذكى الحزنَ فى المتفجّع

ثم انجلى متـأخراً عمـا له قد كان فى طغيانه من موقع

وبدت عليه ذِلَّةٌ فكأنما صفعته كفُّ الصبح فوق الأخدع

لا تحزنى مما لقيتِ من الأذى ما أنتِ منى يا نجوم بأضيع

***

أمّا الحياة فإنها لجميـلة بك يا «ذُكاء» وإن أقضَّت مضجعى

يا حبذا لو أننى من بعد ما أردى يكون اليك يوماً مرجعى

انى لأرجو أن تُطلّى من علٍ حتى ترىْ عند النهاية مصرعى

لا ضَيْرَ إن أبكى الدجى عينى فقد مسح ابتسامُكِ فى النهاية أدمعى

أقلعتُ عن حبِّ الحسان جميعها الا هواكِ فلستُ عنه بمقلِع

بالشمس فى الأفق البعيد تغزّلى لا بالعقيق ورامتين ولَعْلَع

جميل صدقى الزهاوى

عمرو بن العاص

والزعيم المصرى

للشاعر الاسكندرى عبد اللطيف النشار

حدثونا أن عمراً حينما أخضع مصرا

عاهد الأقباط عهداً حفظوه فاستمرا

وكذا المصرىُّ إن قا ل وإن عاهد برّا

غير من شذ، ومن شذ فلا ينقض أمرا

شذ عن أقباط مصرٍ رجل ناوأ عمـرا

ألبَ الروم عليـه وأثار الحـرب غدرا

وقضى الله لعمـرو فأباد الجيش ذعرا

فولوت وقتـلى وفلول الجيش أسرى

وأتى الخائن فى الأ سرى وقد أحرج صدرا

أى عذر ينفع اليو م إذا مارام عذرا؟

ورأى عمرو حليفـاً خانه بغيـاً وكفرا

واستشار الصحب فيه فقضوا بالقتل صبرا

قال أدهى الناس عمرو قـولة ترفع عمـرا:

بل ستحيا فابغ ما شـ ـئت بنا سراً وجهرا

وبأمثال الألى جئـ ـت بهم فائت بأسرى

ومضى الخائن فى ذل وقد شاهد كبرا

ليس كل البطش بطشاً ليس كل الصبر صبرا

حسب قلبى

بقلم فريد عين شوكه

هات ماشئتَ من جفاكَ وهجرك إن فى القلب ما يقوم بعذرك

وأشح يا حبيبُ وجهك عنى حين تهفو عيناى فيه لسحرك

واغمر الكون بالحبور مع الغيـ ـر وعبّس إذا استرحتُ لبشرك

واستهنْ بالهوى وضق بى ذرعا حين أشكو إليك، يا ضيق صدرك!

ضاع قلبى لديك، يا لفؤادى منك لما نبذته خلف ظهرك!

هان شأنى عليك رغم سموّى واعتزازى مدى الحياة بقدرك

وأنا البلبل الذى بك غنّى والنسيم الذى يضوع بعطرك

***

يا نجىَّ الضمير حتى لدى الرّو ع أما آن أن أمرّ بفكرك؟

يا كثير العقوق للعاشق المضـ ـنى أرحنى فقد عييتُ بهجرك

قد ترشفتُ حلو عطفك عاماً وتجرعتُ بعده كأس مُرّك

وتربعتُ فى رضاكَ مريعاً ثم شُرّدتُ فى مهامه قفرك

صارخا فى الدجى البهيم وغيرى يستشف الآمال فى ضوء فجرك

وإذا أنت مستريح لغيرى وفؤادى ما يستريح لغيرك!

***

أيهذا الحبيب عذرك أنى لم أزل رغم ثورتى طوع أمرك

أنا كالطائر السجين فمهما هاجنى الوجد لم أزل رهن أسرك

حسب قلبى فى ذلك الغضب القا تل ما مرّ من رضاك وبرّك

نجوم السينما

للأستاذ فخرى أبو السعود

عَوِّدْ فؤادك من بوادر فتنة ... مجلوّة فى معرض الأشباح
ما القلبُ إلا بضعةٌ لو قُسِّمَتْ ... لم تكفِ أسرابَ المها يا صاح
أو تُوفِ ما بالمشهد الخلاب من ... فِتَنٍ ومن غُرَرٍ ومن أوضاح
ماذا تُبين الشاشةُ البيضاء من ... سِحْرٍ وراء سرابها اللمّاح؟
تجلو خيالاتِ الجمال كأنها ... أطيافُ أحلامٍ براها الصاحى
تُبْدى لعينك كلَّ أغيدَ شادنٍ ... سابٍ وكلَّ مغرِّدٍ صدّاح
جمعت ملاحاتِ الشعوب جميعها ... كالطير من متفرّق الأدواح
من بضّة تُزرى بكل خميصة ... وخميصة تُزرى بكل رَدَاح
وغضيضة تُصبى بساجى طرفها ... ولبيقة تُغرى بثغرٍ أقاح
وقسيمة تَسْبى بوحْفٍ فاحمٍ ... داجٍ وبخرٍ دونه متضاح
ووضيئة شقراء تُقنع كلَّ ذى ... بصرٍ بأنّ الحسن شعرٌ ضاح
إنّ الطبيعة ما تزال سخيةً ... بالحسن توليه عطاءَ سماح
أبداً موكَّلةً بهاتيك الدمى ... تشتقها من حُسْنها الوضّاح
فلذى حواريّاتُ كلِّ مدينة ... الناظرين تجمّعت فى ساح
خلعت عليهن الطبيعةُ حسنَها ... بأنامل فى البذل غير شحاح
وسخت عليهن الحضارةُ بالحُلى ... فرفلن فى الوضّاء والفيّاح
دوماً تبدّلُ حالةً من حالةٍ ... ما بين جدٍّ تارةً ومزاح
بيناً ترى فى ثوب زوج ناشزٍ ... يخشى أذاها الناظرون وقاح
حتى تكون غداً بتولاً أقبلت ... فى طُهر أردانٍ وسمتِ صلاح
وتجود أحياناً — وغيرُ فؤادها ... عرف الأسى — بالمدمع السحّاح
من مثلُ هاتيك النجوم تزوّدا ... من بهجة الدنيا بكلِّ صُراح؟
حاكين أقمارَ السماء تعدُّدا ... وبذذنها فى الحسن والإصباح
وتخذن هذا العمر يوم رياضة ... ومتاعَ ألبابٍ وصرفَ مراح
وتركن فى جهلاتها وضلالها ... دُنيا تلاحٍ دائمٍ وكفاح
من لا يغرن الشرّ وهو مثيرُهُ ... ومدجّجٍ يدعو لنزع سلاح
بين الحياة وبين تمثيلٍ لها ... لا تثقلُ الدنيا على الأرواح

١ — بين القاهرة وطوس

للدكتور عبد الوهاب عزام

أطوى حديث السفر بين القاهرة وبغداد، فقد وصفت هذه المراحل من قبل فى الكلام عن سفرتى إلى مدينة الياسمين، وليس فى هذه المراحل من جديد إلا السيارات الضخام التى تعبر بادية الشام بين المدينتين الخالدتين: دمشق وبغداد. أعدت شركات عربية، وأخرى أوربية، سيارات كباراً تسع واحدتها أكثر من عشرين راكباً فى مقاعد وثيرة، تريح المسافر صاحياً وتمكنه من الأغفاء حتى يغلبه النوم. ركبنا إحدى هذه السيارات، ففصلنا من دمشق صبيحة الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٣٤) وبلغنا بغداد والساعة تسع من صباح الأربعاء بعد سفر ست وعشرين ساعة

فهذه بغداد العظيمة فى جمالها وكبريائها، تزدحم فيها حادثات التاريخ أكثر من ازدحام أهلها، وتزخر فيها ذكرى الماضى أعظم من زخور دجلتها. ولله بغداد، ما يستقر بها فكر زائرها حتى يحلق فى أرجاء العصور، وثنايا التاريخ أمداً بعيداً. فما يفتأ البصر يتراءى بين الرصافة والكرخ، يتمنى أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء، أو مجلس من مجالس العلماء، أو حفل

طفتُ بالحمراء..

للأديب حسين شوقى

طفتُ بالحمراء والقلب كليم ... أسأل الحمراء عن ساداتها
قلتُ: يا حمراء لمْ زُهر النجوم ... لا تضيء اليوم فى هالاتها؟

* * *

قالت الحمراء: دع هذى الذكرْ ... لا تذكرنى بما مرّ وفاتْ
أفلَ الأقمارُ عنى واندثرْ ... زمنَ العز ودهرُ المكرمات!

للأدباء والشعراء . ففي كل نظرة ذكرى خليفة ، وفي كل فكرة حديث فيلسوف أو عالم أو شاعر

ثم يقع الفكر وقوع الطائر بعد طول التدويم ، فيستريح من بغداد الحاضرة إلى أمة قد أخذت للمجد أهبتها ، وأعدّت للعظائم عدّتها ، وعرفت بين الأمم غايتها ، وشقت بين الخطوب سبيلها . فسارت في مواكب من الهمة القعساء ، والعزة الشماء . تحدوها عزة إسلامية ، وأنفة عربية . قد آلت لتسيرنّ سيرتها حتى تبلغ غايتها . وسيرّ الله يمينها ، ويعنو الزمان لأمرها

وما جهد هذا الدهر إلاهزيمة إذا نازلت عزمَ الكرام كتائبه

ذلكم ماضٍ مجيد يمدّ حاضراً مجيداً ، ذلكم تاريخ يتدفق من قمم المجد الشاهقة في مجرى العزمات الماضية ، إلى المستقبل الوضّاء . ومن ذا يصد السيل إذا هدر ، أو من ذا يرد على الله القدر ؟ بل من يسلسل البحر بأمواجه ، ويردّ الحرّ الأبيّ عن منهاجه ؟ سلام يا دار السلام ! رعاك الله في كل خطوة ، وخار لك في كل عزمة

دار السلام لا عداك المجد وارفة ظلاله تمتد
ولا خدا نجمك إلا السعد موصولة الآجال بالآجال
لابسة مجدّد القرون

ان حديث بغداد لا ينفد ، وحبها في القلوب لا يُحدّ . وإنك أيها القلم لأعجز من أن تخط الزمان الماجد ، والتاريخ الخالد ، والخطوب والعبر ، والقضاء والقدر ، في هذه الأسطر . فحدث عن الرحلة إلى طوس ؛ وحسبك أن تحمّل « الرسالة » هذه الرسالة

لبثنا ببغداد من صبح الأربعاء إلى عشية السبت ، في حفاوة اخوان كرام ، وسرور بدار السلام . ويوم السبت ركبنا نحن والوفود التي قدمت بغداد في طريقها إلى طهران ، قطار الليل نؤمّ خانقين . والمسافة بين خانقين وبغداد زهاء مائة ميل ، ولكن قطار خانقين المتمهل يقطعها في عشر ساعات ، فيمكّن المسافر أن ينام ملء جفونه حتى يصبح . برحنا بغداد والساعة ست مساء ، وودعنا على المحطة القائم بأعمال المفوضية المصرية حافظ بك عامر ، ووزير ايران في بغداد . وسافر معنا الأديب الفاضل أحمد حامد الصراف مندوب العراق إلى مؤتمر الفردوسي . وكان المندوب الثاني الشاعر الكبير الزهاوي ، قد سبقنا إلى خانقين في سيارة . وصحبنا في القطار إلى منتصف الطريق الأخ الهمام ابراهيم الواعظ المحامي ، وكان ذاهبا إلى كركوك ، فما زلنا في اكرامه واحتفائه حتى افترقنا ؛ أهدى إلى وإلى الأستاذ العبادي ديوان السيد محمد سعيد حبوبي النجفي ، فكان خير زاد للمسافر . ولما وقف بنا القطار على محطة باب الشيخ ببغداد اشترى لنا قلة بغدادية روينا بها في سفرنا . وقلل بغداد نقية الطينة ، سريعة التبريد ، تمنيت أن أحمل بعضها إلى مصر فلم يتيسر لي ، وهي أمنية أعجزت الأستاذ الزيات من قبل

بلغنا خانقين والساعة أربع من الصباح ، فبقينا في القطار حتى أسفر النهار ، فنزلنا وحملنا أمتعتنا الى حجرة من حجرات المحطة ، استبد بها الأستاذ الصراف فشاركناه فيها . ولبثنا ننتظر قدوم مندوبي الحكومة الايرانية حتى جاء القنصل الايراني ، وآقاى روشن المهماندار ، الذي كان طليعة ركبنا في رحلتنا كلها . وعلمنا حينئذ أن موعد السفر غد ، أول أكتوبر فتفرقنا . ذهب جماعة الى دار القنصل ، وآخرون الى منازل أخرى . ودعانا صديقنا الصراف الى دار صديقه عبد القادر صالح ، معاون جمرك خانقين ، وكلمه بالتليفون ، فأرسل سيارته ، فذهبنا الى الدار فاذا فتى نبيل من فتيان العراق ، وكم في العراق من فتى نبيل ! فلبثنا في ضيافته إلى صبيحة اليوم الثاني ، وسعدنا بصحبته وصحبة موظفي خانقين الكرام ، وأحمدنا هذا التأخر الذي أتاح لنا هذه السعادة

وخانقين مدينة صغيرة على حدود العراق ، وعلى طريق خراسان ، يمر بها نهر حلوان (حلوان چاى) ويسمى نهر ألوند ، وهو فرع من نهر ديالى أحد روافد دجلة . وعند المدينة قنطرة كبيرة من آثار الساسانيين . وقد وصفها ياقوت في المعجم . وكانت المدينة في العصور الأسلامية الأولى معروفة بالتمر والغلة ، ولا تزال كثيرة التمر . وقد مدح ابن المعتز نبيذها

وقال عتبة بن الوعل التغلبي :

ويوم بيا جسرى كيوم مقيلة
إذا ما اشتهى الغازى الشراب وهجرا
ويوم بأعلى خانقين شربته
وحلوان حلوان الجبال وتسترا

وفي خانقين حبَس كسرى برويز النعمان بن المنذر حتى مات

ويوم الأثنين اجتمع المندوبون عند محطة خانقين ، وجاء آخرون من بغداد منهم أستاذى سيردنسن روس ، والشاعر الأنكليزى درنكووتر ، وعبد الكريم أفندى الحسينى ،

والدكتور نظام الدين مندوبا حيدر آباد . وتقسمنا السيارات فركبت أنا والأستاذ العبادي والأديب الصراف معاً ، وكانت صحبة الصراف فألاً سعيداً في هذه السفرة ، فقد نعمنا بحديثه وإنشاده من الشعر العربي والفارسي وتغنيه بالأغاني المصرية . كنا كلما تمادى بنا السير وماطلنا المدى ، قلنا هات ياصراف ، فانطلق ينشد من محفوظه الذي لاينفد ، فيدوّي صوته على الجبال الشاهقة ، وفي السهول الفسيحة ، فتنشط له نشاط الأبل للحداء . وسنذكر بعد طرفا من أحاديث الصراف . سرنا الى الحدود في طريق معبّدة مقيّرة ، فوقفنا قليلاً ؛ وجاء الينا رسول ايراني فرحّب بنا وأعطانا دليلاً مكتوباً بالفارسية والفرنسية ، فيه طرف من أخبار البلاد التي نمرّ بها بين خانقين وطوس . وهناك تركت الرفيقين الكريمين ، وركبت مع صديقي السيد عبد الكريم الحسيني مندوب حيدر آباد ، إذ كان في سيارة وحده فأردنا أن نؤنسه في السفر .

بلغنا قصر شيرين بعد نصف ساعة ، فتوقفنا لشرب الشاي على الطريق . وقصر شيرين مدينة صغيرة على طريق خراسان ، وعلى نهر حلوان ، سميت باسم القصر الذي بناه كسرى برويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) لامرأته شيرين .

ولا تزال أطلال قصور كسرى قائمة الى الشمال والشرق من المدينة . وقد وصفها ياقوت فقال : « وفيه أبنية عظيمة شاهقة يكل الطرف عن تحديدها ، ويضيق الفكر عن الاحاطة بها ؛ وهي إيوانات كثيرة متصلة ، وخلوات وخزائن ، وقصور وعقود ، ومتنزهات ومستشرفات ، وأروقة وميادين ، ومصايد وحجرات ، تدل على طول وقوة » .

ولا تزال ذكرى كسرى وشيرين وعاشقها فرهاد الراز (١) ، والمغني بلهبذ تطيف بهذه الخرابات ، وأساطيرهم تسمع في هذه الأرجاء .

وحلوان المدينة القديمة المذكورة في الأخبار والأشعار قريبة من قصر شيرين . وكانت مدينة كبيرة عامرة ثم خربت منذ القرن الثامن ، فلم يبق منها إلا أطلال دارسة ، ونخلتا حلوان وقصصهما وما قيل فيهما من الأشعار من الأحاديث الدائمة .

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) الراز هو المعمار (Architecte)

فصول ملخصة في الفلسفة الالمانية

١ — تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الأســـتاذ خليل هنداوي

فصول لم نرد بها التحدث عن الفلسفة للفلسفة ، ولكنا أردنا بها أن نبدي تأثير الفلسفة في تطور الأدب الألماني ، وما كان لأصحاب الفلسفة من فضل عميم على هذا التطور الذي أصاب جميع حقوله الأدبيـــة

الكاتب

تمهيد

الفلسفة الالمانية قبل (كانت)

كانت تستمد ألمانيا مادة فلسفتها وأدبها من فرنسا طيلة القرن السابع عشر ، والفلسفة الديكارتية (١) هي الفلسفة التي كانت تتطارحها الجامعات الألمانية ، (وليبنز) (١٦٤٦ — ١٧١٦) هو أول فيلسوف استطاع أن يبث الحياة في عروق الفلسفة الألمانية ويذهب بها في مضمار التقدم شوطاً بعيداً ، كتب الفلسفة باللغة اللاتينية طوراً ، وطوراً بالفرنسية ، وهما اللغتان السائدتان يومئذ ، ولعل شيوعهما واستئثارهما بالكتابات الفلسفية كان يقرّب كثيراً بين المفكرين والأدباء حتى يغدو هذا التقريب أحد الأسباب العاملة على تشييد صرح اللغة وتزيينه وتجميله بما يستطيع فكر ناهض أن يضمه ؛ ولكن علة (ليبنز) أنه كان يتناول المسائل الفلسفية كمادة فنية تلهو بها نفسه ، وهو خلال ذلك قد يعالج المسائل الكبرى ، كمسألة الحياة والوجود ، وقد يوفّق في الأجابة عنها توفيقاً كبيراً ، ولكنه كان واحداً من كثيرين ممن يعالجون الفلسفة ، ولا يعملون على لم أفكارهم حتى تكون مذهباً خاصاً يضم منها الآراء الناضجة وفكرتهم الخاصة في الحياة ؛ وجل ما وصل إليه في فلسفته أن عالج الجبر والاختيار ، ومعرفة الله وعلمه بالمستقبل ، والعناية الالـهية ووجود الشر ، وألف مذهبه في (التفاؤل Optimisme) الذي يرضى عن الوجود ويحبب الوجود إلى الانسان ، هذا المذهب الذي سخر منه (ڤولتير)

(١) نسبة الى ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذي يعزى إليه تطور الفلسفة الحديثة

في مقطوعته زلزال (لزبونة) [١] وفي روايته (كانديد) . وخير كتب ليبنز الخالدة كتابه (la monadologie) ، وفي هذا الكتاب يعلن انفصاله عن المذاهب المتقدمة ومروقه من مذهب ديكارت الذي جعل من الكون جزأين : أحدهما عالم الأرواح والآخر عالم الأجساد . فجاء ليبنز ونقض هذا المذهب ، وأحل محله مذهب (الجزء [٢] الفرد la monade) الذي لا يتجزأ ولا يفنى ، وشأنه في مذهبه هذا كشأنه في غيره يفتقر إلى ترتيب وتوفيق وتوحيد

وهذا العمل الذي كانت تفتقر إليه آثار (ليبنز) إنما أتمه وشذبه من بعده الفيلسوف الصارم (وولف) الذي نزع عن فلسفة ليبنز الخيال والشعر وشد وثاقها بالحقيقة ، ونفى عنها شيئاً وزاد عليها شيئاً حتى غدت أجزاؤها متآلفة متداخلة كأنها أعضاء في جسد واحد . وقد كان له تأثيره العظيم في الأدب الألماني والفلسفة الألمانية بشهادة الفيلسوف (كانت) ، لأنه هو الذي خلق في الألمانية لغة للفلسفة خاصة ، وهو الذي فتح آفاقاً واسعة في التعبير والأداء لمن بعده ، فهان على هؤلاء أن يحلقوا وأن يحلقوا ما استطاعوا ؛ ومن هؤلاء (كانت) نفسه ، الذي كانت له صفحات خاصة تشدو بالمزايا التي أسداها (وولف) الى الأدب والى الفلسفة

على أن الأندية الفلسفية قد تغض بصرها عن كل ما شاد هؤلاء في صرح الفلسفة ، وتعتقد أن الفلسفة الألمانية إنما كانت قبل (كانت) غيهباً ممدوداً ، وأن الذي محا هذا الغيهب وبعث النور في خلاله هو الفيلسوف العظيم (كانت) الذي تزعزعت له الأندية الفلسفية والأدبية ، وكانت له فيهما جولات يعزى إليها كل ما غمر الحقل الأدبي والفلسفي — في ألمانيا — من خصب ومن إنتاج

كانت (KANT)

١٧٢٤ — ١٨٠٤

حياته : فلسفته : تأثيره

حياته

كان (كانت) في التاسعة من عمره حين فقد والده ، فكفلته أمه ونشأته نشأة عالية ، فدرس في معهد اللاهوت ، كما هو العهد في دراسات تلك العصور ، ثم درس الرياضيات ، ثم الفلسفة ، حتى اذا أتم عهد الدراسة عرض له هم المعيشة ، الهم الذي كان يوقر ظهره في جميع أدوار حياته ، فرضي بأن يدرس في مواطن خاصة ، وهو خلال ذلك يتفرغ الى الدرس ، ويلم بجميع العلوم التي توائم الفلسفة . وفي عام (١٧٧٠) أسند اليه كرسي خاص لتدريس الفلسفة ، وقد عاد أمره الى الضيق ، وحريته الى الارهاق في عهد فردريك غليوم ، إذ تدافعت عليه الوشايات يخلقها حسد القوم ؛ ولكنه ظل مثابراً على العمل حتى عام ١٧٩٧ . وقد كان لمعهده هذا تأثير بليغ في نفوس طلابه الذين جالت يراعاتهم من بعده في صحف الأدب والفلسفة ؛ وهو الذي يوصي زملاءه في إحدى محاضراته : « بأن يحذروا كل الحذر من أن يلقوا في نفوس طلابهم أن العلم بالغ أوج الكمال ، أو أن يعلموهم ماهي ماهية الفلسفة ، وإنما ينبغي لهم أن يلقنوهم كيف يتفلسفون ، وأن يساعدوهم — لا أن يحملوهم على ظهورهم — إذا أرادوا أن يعلموهم الدروج على الأقدام » . والحق يقال إن (كانت) لم يخلق إلا ليعيش فيلسوفاً ، ولم يلاق منه مذهبه إلا قريناً يحيا به ومعه ، ناهيك ببعض مآثر رواها عنه القوم ، تدل على ما اتصف به كانت من حب العمل والنظام والتوقيت ومواصلة الجهود الجبارة في سبيل دراساته المتتالية ، فقد كان الرجل موفقاً كل التوفيق بين مذهبه وسلوكه ؛ قد سن لكل شيء نظاماً ، واتبع هذا النظام كأنه الرسول يأمر وهو أول من يأتمر

وكانت آخر كلمة له هذه الكلمة حين لقي حتفه عام ١٨٠٤ : « إنه حسن ! » كأنما يريد أن يقول «لقد عشت كما كنت أود أن أعيش »

***

فلسفته

بدأت فلسفة « كانت » تنمو شيئاً فشيئاً شأن كل فلسفة ، وإنما تميزت من غيرها بطابع الاستقلال الذي انتحى بها ناحية جديدة ، فقد تأثر كانت بمن تقدمه من الفلاسفة واتخذ غذاءه العقلي منهم ، وما كاد ينشأ ويترعرع ويشتد ساعده حتى أعلن انفصاله عنهم ونهج منهجاً جديداً اختطه لنفسه

---

(١) سبقت ترجمة المقطوعة للكاتب في الرسالة

(٢) الجزء الفرد كائن بسيط يدخل في المركبات ، لاجزئية فيه ولا مساحة ، ولكنه يتصف بصفات ، ومنه تشكلت عناصر الطبيعة ... (ليبنز)

وفى كتابه (آراء فى التقويم الحقيقى للقوات الحية) حيث أراد أن يوفق فى الفلسفة الطبيعيــة بين ليبنتز وديكارت يقول : « قد أتمثل أن هنالك لحظات لا يفنى الانسان فيها أن يعتمد على قوته ، إن هذا الاعتماد ليولد فينا جهوداً متواصلة ، ويمنحها سبيلاً يفيدها فى سعيها نحو الحقيقة ، وجميل بنا أن ننخدع ألف مرة ، لأن الضلال المنخدع ليعمل على خدمة العلم أكثر ممن لا يسلك إلا السبيل المطروقة ... إننى هنالك سأطأ ... وقد سلكت السبيل التى أردت أن أتبعها . . . . سأسلكها ولن يقف سيرى أحد »

إن هذه الثقة المطلقة بالنفس بدأ يظهر فضل إنتاجها فى فلسفة « كانت » لأنها فرضت عليه أن يخط سبيلاً جديدة ، ويطلع على الناس بمدرسة للفلسفة جديدة ، وهل كان المصاميون إلا أبناء اعتمادهم على أنفسهم ؟ وقد ظهر أول إنتاجه فى كتابه (تاريخ الطبيعة العالمى ، ومنهج السماء العام ، وتجربة على الأصل الميكانيكى للعالم حسب قوانين نيوتن) ، فكتابه هذا هو تجربة ميكانيكية سماوية مؤسسة على علم الطبيعة . فالعالم نيوتن لم يسن إلا قانون الحركات السماوية . وعند ما أتى على درس أصل هذه الحركات ناط الأصل بالأرادة الالهية التى يدعن لها كل شىء ، ولكن « كانت » أدرك أن القانون الذى أفاد فى تعيين مذهب الوجود ، ينبغى له أن يحلل مركباته ، وأن القوات التى تحفظ الوجود ينبغى ألا تختلف عن القوات التى أبدعت الوجود . وأخيراً يفترض فى بيان أصل الوجود أن مادة (Hamogene) متشابهة مؤلفــة من أجزاء متشابهة تقودها حركة دائرة ، وهى تتشكل وتتنوع بحسب ما يحتوى باطنها من قوة وفاعلية ، ثم يصف الخلاء (أو الفراغ) ، وقد استحال جواً غائماً ، وشموساً وسيارات وأقماراً ، ولكنه فى الحقيقة لم يزد شيئاً ؛ إلا أنه سار بالمسألة التى وقف نيوتن عليها ، وهذه المسألة المبهمة هى عديمة الحل فى ذاتها ، إذ ليست الحياة إلا العمل الدائم نقبله على وضعه ؛ وفصول أخرى جاءت فى الكتاب يتمرها أنفاس شعرية تبدى لنا (كانت) فى عهد كان لا يفر من عاطفته ، وقد تراه فى بعض صفحاته يسوق اليك نظريات قد استقبلها (لابلاس) نفسه بعد خمسين عاماً

كانت العلوم الطبيعية هى شغل (كانت) فى جميع أدوار حياته ، وهــذه العلوم هى التى فتحت لنفسه أفقاً جديداً تركها لا يقنعها مدى الأفق الضيق الذى تخلقه المدرسة ، حتى إذا مرت عليه أعوام عاد اليه حنينه الى الفلسفة المقصودة بذاتها ، فحارب المذاهب الهندسية التى تمنى بالبراهين المنطقية ولا تمنى بالبراهين العملية ، وقد وضع كتاباً خاصاً ناضل به أصحاب العلم النظرى

يستشهد (كانت) بكلمة لأرسطو « ترانا حين نكون شيوخاً نعيش سواء فى هذا العالم نفسه ، ولكننا عند ما نسترسل فى الأحلام والأوهام فكل منا له عالمه ... » ثم يقول : « وحين يبنى الناس دعائم الوجود كل بحسب رغبته ، فليأذنوا لنا بأن نقول : إن هؤلاء الناس يحلمون ! ولكن هل يدفعنا هذا الى القول : أن كل علم نظرى فاسد ؟ لا . لأن العلم النظرى قد يسد حاجة من حاجات عقلنا ، ولكنه لن يكون ناجماً مفيداً إلا إذا كان موثقاً بحبال معرفتنا . ويقول كانت : إن العلم النظرى له عمــلان : يجيبنا فى الأول على أسئلة كثيرة يخلقها العقل الطامح إلى كشف أسرار الوجود ، وههنا يكثر انخداعنا بنتائج تأتينا على غير ما نتوقع ؛ وفى العمل الثانى يبين لنا ماهية المسألة التى نعالجها وموضعها من حدود إدراكنا ، وإمكان اتصالها أو استحالته بتجاربنا ومعارفنا . وعلى هذا نرى العلم النظرى إنما هو معرفة لحدود العقل البشرى ، وهو كالبيت الصغير ترى حدوده دائماً كثيرة ، وإنما ينبغى لهذا العلم أن يكون أكثر شغفاً بالمعرفة ، وأشد صيانة لما يملكه ، لأن ذلك أجدى عليه من انتصارات جديدة يركض وراءها ركضاً أعمى لا يغنيه شيئاً

هذا هو رأى كانت فى العلم النظرى ؛ وهــذا الرأى نفسه هو الذى خلق كتابه (نقد العقل الخالص) هذا الكتاب الذى أظهر مزية (كانت) وعلو كعبه فى الفلسفة ، وكان له التأثير العميق فى فلسفة أوربا الحديثة

خليل هنداوى

تصويب

وقع فى مقال (لويجى بيراندلو) المنشور فى العدد الماضى خطآن مطبعيان نرجو اصلاحهما . ففى آخر صفحة ١٩٨٩ : يريد بيراندلو ، والصواب : يرى . وفى صفحة ١٩٩٢ سطر ١٥ : (اكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق الحركة ، والصواب : وليس عن طريق الحركة



فى تاريخ الرياضيات

للأستاذ محمد محمد السيد

للأستاذ قدرى طوقان آثار مشكورة فى الأبانة عن فضل العرب فى الرياضيات والعلوم ، ومقاله الأخير فى الرسالة (١) يكشف عن بعض أثر العرب فى تلك الناحية . إلا أنه يلوح لى أن حرصه على إنصاف العرب يكاد يدفع به الى إسناد الفضل لغير أهله

خذ مثلاً حساب التفاضل والتكامل . فالمعروف فى تاريخ الرياضيات أن يودكسوس (حوالى ٤٠٠ ق م) وأرشميدس (حوالى ٢٥٠ ق م) وغيرهما كانوا سباقين فى استعمال طرق تقرب من طرق التكامل فى إيجاد المساحات والحجوم . فأرشميدس مثلا أعطى مساحة أى قطعة من قطع مكافىء . وأوجد مركز الثقل لصفائح ذات أشكال مختلفة . الخ وفى كتابه (Method) نسب الى ديموقراطيس (حوالى ٤٥٠ ق م) بأنه أول رياضى قرر المعادلة الصحيحة لحجم الهرم أو المخروط بتقسيم كل الى شرائح صغيرة (٢)

فاذا كان بعض مؤلفى العرب قد نسجوا على منوال رياضيى اليونان فى حل مسائل عن المساحات والحجوم ، فهم لا يستحقون لذلك فضل المبتكر . ولو أن فضلهم فى الدرس والمثابرة مشكور غير منكور على كل حال

ومثل ذلك يقال عن دوران الأرض . فقد أبان الأستاذ بحق أن الفكرة قديمة . وقد تنازعها كثيرون من أعلام اليونان تأييداً وتفنيداً . فاذا ظهر من العرب من يأخذ بها أو من ينكرها ، ففضله فى ذلك لا يعدو فضل الحكم يختار من بين الآراء المختلفة أحدها بدون أن يأتى بجديد من الحيثيات مؤيداً أو مفنداً

جاء فى تاريخ الرياضيات لبول (١) أن أحد كتاب العرب فى الأندلس ويدعى Arzachel (؟) (عاش فى طليطلة حوالى ١٠٨٠م) قال بحركة الكواكب فى قطع ناقص . ولكن معاصريه أنكروا قوله لمخالفته لبطليموس . ومن المعلوم أن يوحنا كبلر هو الذى توطد على يديه هذا الرأى حوالى ١٦٠٠ م ، ولكنه لم يشهر رأيه ولم يقتنع به ولم يدافع عنه إلا بعد مشاهدات وأبحاث استغرقت أعواما عديدة . ولا شك أن فضل كشف هذه الحقيقة يجب أن يستأثر به كبلر وحده دون غيره . فالرأى نفسه عار عما يعززه ، لا يقدم ولا يؤخر فى العلم . ولكن المشاهدات والأدلة هى التى يقوم عليها الاقتناع والاقناع

ومن المشهور فى كتب الرياضيات والعلوم أن جهد اليونان ثم العرب فى العلوم الرياضية كان مقصوراً على الجانب النظرى . ولم يكن للتجربة والمشاهدة أثر فعال فى كسب المعلومات إلا بعد عصر الأحياء فى أواسط أوربا . صحيح أن أثر العرب لا ينكر فى الكيمياء والطب . ولكن تجاربهم فى الفيزيقا والرياضة التطبيقية نادرة . وحتى هذا النادر مختف فى طيات الكتب القديمة ينتظر كولمبس جديدا لكشفه .

ولذلك قرأت بشغف ما كتبه الأستاذ خاصاً بالجاذبية ، ومن أن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان « وزادوا عليها ووضعوا بعض القوانين لسقوط الأجسام » ، فاذا كان العرب قد وضعوا حقاً بعض القوانين لسقوط الأجسام ، فمعنى هذا أنهم سبقوا فى ذلك جاليليو وتجربته الشهيرة التى أجراها من برج بيزا . والتى يقول علماء التاريخ بأهميتها فى القضاء نهائياً على ما قال به اليونان من اختلاف سرعة سقوط الأجسام الثقيلة عن الخفيفة . فاذا كانت هناك تجارب فى هذا الشأن أجراها علماء العرب

---

(١) الرسالة عدد ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٤

(٢) The Great Mathematicians تأليف H. W. Turnbull الباب الثانى

(١) Ashort Account of the History of Mathematics' تأليف R. Ball الباب الثامن

فتفصيلها يضيف زيادة ذات بال إلى المعروف المشهور عن فضلهم على العلوم والمعارف . ولعل الأستاذ يدلي بما وصل إليه علمه في هذا الشأن

ومثل ذلك يقال عما جاء في مقال الأستاذ عن « ابن حمزة المغربي » واستعماله في بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقاً تقرب من اللوغارتمات[1] فمن المفيد نشر فضل هذا الباحث وآثاره في هذه الناحية بالتفصيل خدمة للتاريخ

* * *

في المقال النفيس الذي ظهر في العدد التالي من الرسالة فصل الأستاذ المبارك أثر العرب في الرياضيات ، ولكن فضل العرب في الجبر يحتاج إلى بعض الأبانة

فقد ذكر الأستاذ أن العرب لم يستعملوا رموزاً حرفية في معادلاتهم الجبرية ، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار ، ولعل الأستاذ قصد الخوارزمي دون غيره في هذه الفقرة . وإلا فمن المؤلفين العرب من استعمل الرموز كما تستعمل في الجبر اليوم ففي مؤلف للقلصدي (Al Kalsâdi)[2] (توفي سنة ١٤٨٦ م أو ١٤٧٧ م) عنوانه (كشف الستار عن علم الغبار)[3] كان يستعمل في المعادلات الجبرية الرمز (س) للمجهول (أول كلمة شيء) والرمز م (ربما كان أول كلمة مال) لمربعه والرمز ل (ربما كان الكاف أي مثل) لعلامة التساوي . فمثلاً المعادلة

م ش
٣ ل ١٢ ٦٣ يقصد بها $3\text{س}^{2} = 12\text{س} + 63$

كذلك جاء في هذا المؤلف أيضاً استعمال الرمز (جـ) (أول كلمة جذر) علامة الجذر التربيعي فكان يكتب

$\frac{\text{جـ}}{48}$ ويقصد بها الجذر التربيعي للعدد ٤٨

ولاشك أن هذا الاستعمال ، إن صح ، يعزز الأصل العربي للاصطلاح المذكور وهو ما ينكره الأستاذ المبارك

أما حل العرب لمعادلات الدرجة الثانية جبرياً فلا فضل لهم فيه ، فقد سبقهم ديوفانتس والهنود في ذلك . ولكن يرجح أنهم اقتبسوا حلهم من الهنود . إذ لم تكن أعمال ديوفانتس قد وصلت إلى علمهم بعد

ولكن العرب أضافوا حلولاً هندسية لمعادلات الدرجة الثانية من ابتكارهم[1] . كذلك فعلوا بمعادلات الدرجة الثالثة إذ أعطى كل من المهني (؟) Al Mahâni وأبي جعفر الخازن وأبي الجود وعمر الخيام حلولاً هندسية لمعادلات الدرجة الثالثة[2] وقد حل عمر الخيام[3] معادلات من الدرجة الثالثة من الصور الآتية

$$\text{س}^{3} + \text{ب}^{2}\text{س} = \text{ب}^{2}\text{ح}$$

$$\text{، س}^{3} + \text{ا س}^{2} = \text{ح}^{3}$$

$$\text{، س}^{3} \pm \text{ا س}^{2} + \text{ب}^{2}\text{س} = \text{ب}^{2}\text{ح}$$ حيث

ا ، ب ، جـ أعداد صحيحة موجبة

وحل أيضاً المعادلة من الدرجة الرابعة الآتية

$$(100 - \text{س}^{2})(10 - \text{س})^{2} = 8100$$

كذلك أعطى ثابت بن قرة[4] حلاً هندسياً لبعض صور معادلات الدرجة الثالثة (وهو في هذا يسبق عمر الخيام)

وقد يكون من المفيد أن ألفت نظر الأستاذ فيما يختص بإشارة الناقص التي تستعمل للطرح إلى أصل محتمل لها وهو « النقطة التي كان يستعملها الهنود ويضعونها فوق الكميات المطروحة . وقد تكون علامة ناقص من الشرطة التي كانت توضع فوق الكتابات القديمة دليل ضياع أحرف منها . . . »[5]

طنطا — محمد محمد السيد
مدرس

---

(١) قال الأستاذ في الكلام عن نابيير واختراعه اللوغارتمات : انه في هذا الاكتشاف غير منافس . ولكن كاجوري في مؤلفه A History of Elementary Mathematics يقول « وممن ينازعون نابيير فخر اختراع اللوغارتمات السويسري Joost Bürgi أو Byrgius (١٥٥٢ — ١٦٣٢) اذ كان مع كبلر في براج . وقد نشر جداوله في اللوغارتمات بالحاح كبلر بعيد ظهور مؤلف نابيير بتسع سنوات . ويلوح أنه اهتدى للفكرة قبله (أي قبل نابيير) وربما معه

(٢) A History of Elementary Mathematics تأليف F. Cajori في الكلام عن فضل العرب في الجبر

(٣) علم الغبار ويقصد به علم الحساب . وهذه التسمية تدل على الأصل الهندي للأرقام الحسابية ، اذ أن الهنود كانوا يستعملون في عملياتهم في الحساب ألواحاً يرشون عليها التراب ويخطون فوقه أرقامهم . وقد كان في هذا عون لهم في عملياتهم الحسابية ، اذ كان أساس هذه العمليات عندهم كتابة الحواصل الجزئية ثم محوها وكتابة الحواصل التالية وهكذا حتى لا يبقى على اللوحة في النهاية ، مثلا في عملية الضرب ، إلا المضروب والمضروب فيه وحاصل الضرب .

---

(١) انظر تاريخ الرياضيات المذكور آنفاً تأليف R. Ball تحت اسم الخوارزمي الباب التاسع

(٢) A History of Elementary Mathamarics تأليف F. Cajori في الكلام عن فضل العرب في الجبر

(٣) انظر تاريخ الرياضيات المذكور أعلاه تأليف R. Ball تحت اسم الخوارزمي الباب التاسع

(٤) انظر مؤلف Ball تحت اسم ثابت بن قرة الباب التاسع

(٥) انظر مؤلف Ball الباب الثاني عشر

البريد الأدبي

الأدب البلغاري

الأدب البلغاري من الآداب الأوربية الفتية التي نشأت وازدهرت بسرعة مدهشة؛ فالأدب البلغاري الحديث يرجع إلى نحو ثلث قرن فقط، أي إلى عهد الاستقلال القومي، ومع ذلك فقد سارت هذه النهضة الأدبية واستكملت عناصر النضج بسرعة. وقد نشر الكاتب البلغاري نيكولاي دونتشيف أخيراً كتاباً بالفرنسية عنوانه «المؤثرات الأجنبية في الأدب البلغاري» استعرض فيه مراحل الحركة الفكرية في بلغاريا وخواصها؛ وملخص بحثه أن هذه الحركة على فتوتها قد استطاعت أن تستكمل عناصر ثقافة نامة؛ ومن الطبيعي أن تتجه قبل كل شيء نحو المثل والأماني السلافية، على أنها لم تهمل الاقتباس من مختلف الآداب الأوربية التي تستطيع الانتفاع بها؛ وقد ألفت الحركة لسانها وروحها في الوطن البلغاري والروح البلغاري، ولم تتدخل المؤثرات الأجنبية إلا لتصوغ أو توجه هذه المادة القوية الأصيلة، ولكنها لم تحولها قط عن طرائقها وتقدمها الطبيعي.

وقد استطاعت الحركة الأدبية البلغارية في مبادلاتها مع آداب الأمم الأخرى أن تنفذ إلى جميع نواحي الشعر والنثر والخواص النفسية، وجميع مظاهر التفكير البشري؛ ويشرح دونتشيف في كتابه مختلف التيارات التي اندمجت في المجرى القوي الذي أوحى به الاستقلال القومي، ويبين كيف أن هذا الأدب الفتي الذي استعاد كل ثروته اللغوية، قد تحول إلى مادة غنية تضم كل ما وهبته الأمم المجاورة أو كل ما بثته فيها

والأدب البلغاري، ما يزال بلغارياً في روحه وجوهره، وذلك رغم تأثره بالآداب الروسية والفرنسية والألمانية، مما يدل على قوته وحيويته؛ فهو لم يخضع قط لهذه المؤثرات خضوع العبد المساق، وهو ليس مقلداً ولا ناقلاً فقط؛ وكل ما هنالك أنه كالتلميذ الذي يستقي من أستاذه، ليصوغ ما يأخذه في معدن عبقريته المستقبلة، وهو لا يقتبس إلا ما يفيد في تغذية قلبه وروحه، ويرفض كل ما هو سطحي أو مصطنع؛ وكل ما يخرجه يتميز بطابعه الخاص، بحيث لا يطغى عليه أي طابع آخر، وهذا الازدهار نتيجة طبيعية لحركة لا تدور حول نفسها عبثاً، ولكنها تفتح صدرها لكل الرياح التي تهب عليها من كل مكان يتفتح فيه الذهن البشري، فتزداد بذلك نماء وخصباً

ولم يبق الأدب البلغاري مجهولاً بعد في أوربا الوسطى والغربية. فقد ترجم كثير من الآثار البلغارية، إلى الألمانية والانكليزية؛ وظهرت قطع مسرحية بلغارية في أثوابها المترجمة على كثير من المسارح الأوربية

في الأكاديمية الفرنسية

خلت منذ حين أربعة كراسي في الأكاديمية الفرنسية على أثر وفاة المسيو بوانكاريه ومسيو بارتو، ومن قبلهما مسيو كاميل جوليان المؤرخ، والماريشال ليوتي، وقد انتخب أخيراً مكان كاميل جوليان المسيو ليون بيرار السياسي والخطيب الأشهر، وانتخب مكان الماريشال ليوتي زميله الماريشال فرانشه دسبريه. وأما كرسي المسيو بارتو، فإنهم يرشحون له مسيو دومرج رئيس الجمهورية الأسبق ورئيس الوزارة السابق؛ وهنالك إجماع على انتخابه فيما لو قدم ترشيحه، غير أنه لم يعرف رأيه في ذلك الاقتراح بعد

وستعقد الأكاديمية جلستها التالية في يوم ٢٠ ديسمبر الحالي؛ ويلقي مسيو بول ڤاليري خطاب الافتتاح وتوزع بعض الجوائز الأدبية

مؤلف جديد عن نابليون

صدرت كتب عديدة جامعة بمختلف اللغات عن نابليون بونابارت وعن عصره؛ وصدر أخيراً مؤلف جديد بقلم المؤرخ الفرنسي الكبير «لوي مادلان» عنوانه «نابليون» ويدرس مسيو لوي مادلان نابليون من ناحية جديدة، هي ناحية «المنشئ على الطريقة الرومانية». وكان من أشهر الدراسات التي صدرت عن نابليون في العهد الأخير دراسة لأميل لودفيج الكاتب الألماني يدرس فيها نابليون من نواحيه الشخصية والأنسانية، ولكن

دراسة لودفيج يغلب عليها الطابع المسرحي ، وهو الذي يغلب على معظم كتابات لودفيج ؛ أما بحث لوى مادلان ، فيغلب عليه الطابع النفسي والعلمي . وهو يرى في نابليون « لاتينياً » وارثاً للأمبراطور شارلمان ؛ ويراه امبراطوراً من طراز روماني ، نام منذ عصر ماركوس أورليوس ، ثم نهض فرأى العالم حوله أنقاضاً وأطلالاً ؛ ولكنه بدلا من أن يتخذ رومة مركزا لبنائه اتخذ باريس وجزيرة فرنسا ، وكانت فرنسا في نظره نواة مركزية لاتحاد أوربي جامع ، ولكنه لم يكن يرمي إلى طبع أوربا بالطابع الفرنسي ، بل كان يرى في حريات الشعوب التي تتألف منها الأمبراطورية الشاسعة ما كان وراء الرومان

ثم هل كان نابليون فرنسياً ؟ لقد كان يشعر أنه فرنسي ؛ ولم يكن في قوله : « إني أريد أن أثوى على ضفاف السين إلى جانب أولئك الفرنسيين الذين شد ما أحببتهم » ما يدل على شعوره بأنه أجنبي ؛ وإنما كان شعوره أنه « روماني » . وقد جاء هـذا الروماني في أواخر القرن الثامن عشر ، والعالم من حوله أطلال ممزقة ، فأراد أن يحيي نوعاً من « العالم الروماني » الذي يعتقد أنه ما زال حياً يمكن إنقاذه .

أكاديمية الأدب الفكاهي

لعل من الشائق أن يعرف القراء أنه توجد في باريس جمعية أدبية تسمى « أكاديمية الأدب الفكاهي » وأن هذه الجمعية ترعى حركة الكتابة الفكاهية ، وتمنح الكتاب الفكهين جوائز أدبية ، وتشجع بذلك على إنشاء الأدب الفكاهي ونهضته ، وقد وضعت هذه الجمعية أخيراً مكافأة قدرها خمسمائة فرنك (سبعة جنيهات) لمن يضع أحسن قصة فكاهية لا تزيد على ثلثمائة سطر ، ولا تقل على ثلثمائة سطر ، ولا تقل عن مائتين وخمسين : (وستعنى الجمعية بنشرها في صحيفة باريزية كبرى) ؛ وتشمل هـذه الجمعية أيضاً برعايتها أصحاب الفن الفكاهي مثل مصوري الصور الهزلية (الكاريكاتير) ، ومن إليهم من الفنانين

الشفالييه ديون

ظهر أخيراً كتاب بقلم الكاتب الفرنسي جان جاك روبيون عنوانه « الشفالييه ديون La Chevaliere d, Eon » ؛ ويتناول هذا الكتاب موضوعاً مدهشاً لازال لغزاً من ألغاز التاريخ والمجتمع ، هو شخصية لم يتفق المؤرخون على جنسها ؛ هل كان الشفالييه ديون رجلاً أو امرأة ؟ ويجب أن تعرف أن هـذا الشخص المشكل قد عاش في عصر لويس الخامس عشر ، وكان يتبوأ مركزاً هاماً في البلاط وفي سياسة الدولة

وقد عرف الشفالييه ديون أولا بأنه رجل ، وتولى بهذه الصفة بعض المناصب ؛ ولكنه كان فتى ناعماً خلاباً يضارع في الحسن ورقة المحيا والتقاطيع أجمل فتاة . وكان إذا مثل في الحفلات الراقصة يرتدي دائماً ثياباً نسوية فيبدو كأنه امرأة فاتنة ؛ وكان في أحيان كثيرة يرتدي هذه الثياب ويؤثر الظهور بها ؛ وكان يتسلل بهذا الزي إلى أعمق المجتمعات الرفيعة ، وإلى غرف الأميرات والملكات ؛ ولما وقف لويس الخامس عشر على مسلكه قضى بأن يعتبر امرأة ، وأن يرتدي الثياب النسوية دائما ؛ ثم خشي لويس الخامس عشر من دسائسه فأمر بسجنه في قلعة ؛ ولما أطلق سراحه فر إلى انكلترا ، واحترف تدريس المبارزة ، وظهر في المجتمع اللندني بأنه أستاذ بارع في الفن ؛ ولما توفى فحصه بعض الأطباء ، فيقال إنهم وجدوه رجلاً كامل الأعضاء والرجولة ولكن شخصية الشفالييه ما زالت غامضة . هذه هي القصة التي يعالجها المسيو روبسون في مؤلفه الشائق ، ويفضل مسيو روبسون أن يعتبر الشفالييه امرأة ذات خواص غير عادية ، وأن صفة الأنوثة هي الأصيلة فيه . ويورد في كتابه كثيراً من السير العجيبة عن هذه الحياة المدهشة التي لبثت تثير دهشة المجتمع الفرنسي مدى حين

الإذاعة اللاسلكية العربية

إن محطات الأذاعة التي تذيع باللغة العربية اليوم هي :

المحطة المصرية وموجتها وقوتها ومواعيدها معروفة

ومحطة الجزائر وموجتها ٣١٨,٨ م وقوتها ١٢,٥ ك و وتذيع باللغة العربيـة يومي الاثنين والأربعاء من الساعة ٢٠ الى الساعة ٢٠,٤٥ ، ويوم الثلاثاء من الساعة ٢٤ الى الساعة ٤,٤٥ ، ويوم الخميس من الساعة ٢٣,٥ بحساب الزمن في مصر

ومحطة الرباط بالمغرب وموجتها ٤٩٩,١ وقوتها ٦,٥ ك و وتذيع بالعربية ساعة في كل يوم من أيام الأحد والثلاثاء والخميس والجمعة من الساعة ٢١

ومحطة باري بايطاليا وموجتها ٢٨٣,٣ م وقوتها ٢٠ ك و وتذيع بالعربيـة ربع ساعة في كل يوم من أيام السبت والثلاثاء والخميس من الساعة ٢٠,٣٠ ، ولا تذيع إلا الأخبار فقط

وتلاحظ مجلة العالم الأدبي التونسية التي ننقل عنها هـذا



من الفن القصصي الحديث

حقيبة القـــــدر

للقصصي الألماني لدفج باوَرْ Ludwig Bauer

كان جورج شاباً هادىء الطبع فاضل الخلق ، لم يكد يخرج من أزمة بسيطة انتابته حتى استقل القطار قاصداً بلدة صغيرة ليشغل فيها وظيفة متواضعة . وكان كل شيء يبدو لجورج عادياً لا خطر له ، وقد مرت سنو عمره دون أن تتخللها مغامرة ، أو يعتريها حادث خطير يهز حياته التي كانت أشبه بحياة أبناء الطبقة الوسطى ، وعند ما بلغ القطار عند منتصف الليل المكان الذي يقصده جورج أخذ حقيبته من الغرفة المكتظة التي كان يجلس فيها مولياً وجهه شطر حياته الجديدة

وصل جورج الى الفندق الصغير الذي عزم على الاقامة فيه ، وعند ما ذهب إلى سريره لينام نظر الى الحقيبة ، فسرعان ما علته الدهشة ، فقد كانت تشبه ولاشك حقيبته ، ولكنها لم تكن هي بذاتها ، على أن جورج خشي أن يكون مخطئاً في تقديره ، فحاول أن يفتحها بالمفتاح الذي لديه ، ولكن عبثاً حاول . على أنه عند ما ضاعف جهده انفتحت فجأة . وكانت أول نظرة ألقاها كافية لأن تثبت له أنه لم يكن مخطئاً . نعم كانت الحقيبة لشخص آخر .

أما حقيبته الأصلية وما فيها من سقط المتاع وهو كل ما علكه ، فقد كانت في ذلك الوقت تجوب الآفاق المجهولة حيث لاصاحب لها . ووجد جورج نفسه ـ وهو الذي لم يصادف في حياته مشاكل صعبة يحتاج لحلها ـ عاجزاً منذ اللحظة الأولى عن أن يجمع في ذهنه فكرتين أثناء ذهوله ودهشه . ما العمل الآن ؟ كيف يستطيع الحصول على البذلة التي يرتديها أيام الآحاد أو على زوج حذائه الثاني وسائر ملابسه ؟ كان جورج يأمل أن يجد في محتويات الحقيبة بعض المعلومات عن مالكها الحقيقي الذي قد يكون هو الآخر مستاء من استبدال حقيبته بأخرى ، لذا شرع جورج يبحث أثناء تفتيشه في الملابس المتسخة عما يدله على الشخص الذي أخذ حقيبته . وشعر تحت يديه برزمة من الأوراق ، فلما جذبها وجدها سلسلة من الخطابات والرسائل البرقية ، وأفلتت هذه الرزمة من يد جورج فانتشرت على أرض الغرفة رزمة من الأوراق المالية من كل نوع .

لم يعرف جورج من هذه الأوراق الغريبة المتعددة الألوان إلا عددا ضئيلا . وجمع جورج الأوراق المالية واستمر في البحث ، فاكتشف في قاع الحقيبة المفروشة بالورق مايشبه وسادة منتفخة من الأوراق المالية المختلفة . ونظر جورج حواليه وقد انتابه العجب والذهول منتظراً شخصاً يأتي اليه ليوقظه من ذلك الحلم اللذيذ المخيف في وقت واحد . على أنه لم يأت أحد ، وبقيت الأوراق في موضعها دون أن تختفي ، كما لو كان الأمر حلماً من الأحلام . لم يكن جورج قد رأى من قبل مثل هذا القـدر من المال . أخذ يعده ، وكان حبه للنظام يجعله يضع كل نوع من الأوراق على حدة ، دون أن يعرف بالضبط قيمة كل منه ، على أنه بعد بضع دقائق عرف جيداً أن ما أمامه مقداراً بالعملة الذهبية ، يتراوح بين مليون ونصف ومليونين . وكان يستطيع حينئذ أن يقول لنفسه إن محتويات حقيبته قد دفع لها ثمن أكثر من الثمن الذي تساويه . على أن هذه الفكرة لم تخطر بباله . وكل ما كان يضايقه هو فكرة الاتصال بصاحب هذه الكنوز ،

البيان أن محطة الأذاعة المصرية إنما قصرت عن مجاراة المحطات العالمية الأخرى لعاملين اثنين : أولهما ضعف قوتها ، فقد جعلوها (٢٠ ك و) والعالم العربي منتشر من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، والأمة ذات اللسان المنتشر لا تكتفي بأقل من (٦٠ ك و) ؛ وثانيهما أن موجتها ذات مقياس مشترك مع محطة الأذاعة الفرنسية لعاصمة البلجيك ، وذلك ولا شك يؤثر في قوتها ويزيد من اضطرابها . وهما ملاحظتان جديرتان بالنظر

واستبدال كل من الحقيبتين بالأخرى . قال لنفسه :

لعل من الخطابات ما يدل على اسم صاحب الحقيبة وعنوانه

كان جورج شاباً ذا خلق قويم ، لذا كانت فكرة البحث في الخطابات التي لم تكتب إليه تضايقه وتؤلمه ؛ على أنه في هذا الظرف كانت الضرورة ومصلحة كل من الطرفين تحتمان عليه أن يفعل ذلك . لذا شرع يقرأ

قرأ جورج الخطابات فعرف من القراءة أشياء كثيرة لم يعرفها طوال الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاها في هذا العالم : أشياء لم تكن تخطر له ببال . لم يستطع جورج أن يفهم جيداً هذه الخطابات ، فقد شعر منذ ابتدأ في قراءتها أنها ممتلئة بالتلميحات والكلمات السرية والمصطلحات . على أنه استطاع أن يدرك أن هذه الأوراق المالية هي ملك أحد لصوص الفنادق ذوى النفوذ الواسع ، وكانت تصل إليه من شركائه ومن صديقة عزيزة كل أنواع المعلومات والارشادات . ولمعت أمام عيني جورج أسماء كثير من الأماكن والبلدان الأجنبية التي تمتاز بفنادقها وروفاهيتها . وفي بلدة (كان) على الخصوص استطاع ذلك اللص الخطير أن يلعب دوراً رائعاً مع السائحين الأمريكيين . وفهم جورج من آخر خطاب أرسلته صديقة ذلك اللص إليه أنه يريد أن يضع حداً لمغامراته ويلجأ إلى الراحة والعزلة . فقد كان الاثنان يملكان ثروة كافية وكانا يستطيعان أن يعيشا من الآن حتى آخر العمر عيشة مدنية مريحة ، فقد كانت الحلى قد بيعت بثمن ضخم ، ولم يبق إلا عقد من الزمرد كان يمكن أن يباع بخمسين ألف فرنك لولا أنه كان من الحتم أن تنتهى عملية البيع خفية وبأسرع ما يمكن . ولذلك بيع بثمن غير مناسب . وعرف جورج أثناء قراءته أن كل شيء قد أعد وأن السعادة الأكيدة كانت تنتظر الصديقين بعد محن عديدة وأخطار لا عدد لها أمكن التغلب عليها بمهارة وشجاعة

ووضع جورج رأسه في الماء البارد . كان من اللازم أن يتخذ قراراً . فقد كان واثقاً على الأقل أن صاحب الحقيبة سوف لا يأتي إليه ليستبدل حقيبته بالأخرى لأنه لا يحب أن يقبض عليه . كان أكثر الأمور احتمالاً إذن أن يلوذ اللص هارباً ببذلة جورج وحذائه وملابسه التي منها عدد من القمصان الجديدة كان يحبها جورج ويفتخر بها . وأن يقع العبء كله على كتفي جورج وحده . فهذه الحقيبة التي لديه تجعله هو الذي اخترق الجدران والأسطح ، وهو الذي تسلح بالليل البهيم والمسدس في قبضته ليدخل الفنادق الفاخرة فيحطم صناديق الجواهر الموضوعة إلى جانب أصحابها السائحين في نومهم . على أن هذا اللص كان أيضاً بالنسبة لجورج المحسن المجهول ، فقد ترك له ثمرة حياته الاجرامية الطويلة المفعمة بالمغامرات . فبعد أن أراد ختام هذه الحياة والفراغ من هذه المهمة وبعد أن وثق من الغد ورقد في القطار يستريح مجهوداً مكدوداً ، أخذ جورج حقيبته دون أن يدري . ولا بد أن ذلك اللص الخطير قد ثار في تلك اللحظة غاضباً يسخط حيناً ويقسم حيناً آخر لا يعرف إلى من يشكو ، لاعناً ذلك السارق القذر الذي خدعه وانتزع منه قائمة أعماله كلها . تلك القائمة التي ضحى من أجلها كثيراً ولاقى في سبيلها الأهوال . على أن هذا السارق القذر ليس في الواقع إلا شاباً من أسرة متوسطة فاضل الخلق طاهر الذيل ، لم يكد يقع في هذه المشكلة الخطيرة حتى أحس في عقله البسيط رعباً فظيعاً وعذاباً مضنياً

واتخذ جورج قراراً سريعاً ، وقام لفوره وأغلق الحقيبة وتقدم نحو باب الغرفة متجهاً إلى مركز البوليس ليعرض مسألته : وقد أحس وهو يفعل ذلك بالهم والحسرة ، ولكنه كان يعزي نفسه كلما فكر في المكافأة التي يمكن أن يحصل عليها بسبب تبليغه ومساعدته في القبض على ذلك اللص الخطير . وأخذ يحسب ما سوف يناله من المال لو كانت هذه المكافأة خمسة أو ستة في المائة

ووجد جورج نفسه أمام دائرة البوليس ونظر الى الجرس متأملاً مفكراً ، ولم يكد يضع أصبعه على الزر حتى تبدد حلمه في الغنى والجاه . على أنه بالرغم من ذلك سوف يدخن — عندما يقبض المكافأة — نوعاً من السجائر أغلى ثمناً من النوع الذي يدخنه ، وتذكر — وهو يدق الجرس — والديه الكريمين المتوفين ، وتذكر معهما تلك الدروس القيمة التي كان يتلقاها منهما ؛ وتذكر أيضاً تلك العبارة (إن المال المكتسب عن طريق غير شريف لا يأتي بفائدة) . وكان يقول لنفسه أيضاً : إن البوليس سوف يعترف عليه يوماً من الأيام . لقد دفعه كل ذلك إلى أن يدق الجرس بغير قوة ولا عزم ، ولكنه دق الجرس والسلام . وانتظر ... ولكن لم يجبه أحد . ودق المرة الثانية واستمر واضعاً إصبعه على الزر ، وانبعث صوت شخص نائم يسأله ما يريد ، طالباً منه أن يعود في اليوم التالي ، لأن دائرة البوليس لا تفتح أثناء الليل . وسمع في ذلك الوقت صوتاً صاخباً هو صوت نافذة تقفل بعنف

عندما رجع جورج الى الفندق بدا له فجأة أن مشيئة علوية

هى التى أرادت ألا "تبيل" الحقيبة الى دائرة البوليس. فقد فعل كل ما يستطيع حتى أنه عرض نفسه للخطر ولكن الله لم يشأ ، لذا ترك جورج كل فكرة فى الذهاب الى دائرة البوليس واعتقد أنه يجب أن يكون أكثر شجاعة وجرأة . ومرة واحدة وجد نفسه عازماً على الاحتفاظ بالمال . ولم لا ؟ ليس هو الذى سرقه ، كما أنه ليس من الأجرام أن يأخذ الانسان من لص خطير مالاً حصل عليه بطريقة غير شرعيـة . وأحس جورج دفعة واحدة باحساس جديد ، وا كتشف فى قلبه راحة خفية كانت ولاشك نتيجة شعوره بأنه غنى . وفكر جورج فى كل تفاصيل حياته المستقبلة . سوف لايرجع مطلقاً الى منزله . كذلك من البديهى ألا يبقى أيضاً فى تلك البلدة الصغيرة ، فسينتاب أهلها العجب والرعب حين يرون التغييرات الكبيرة فى عاداته ومعيشته .

على أن جورج لم يكن يعرف فى الواقع ماسوف يفعله بكل تلك الثروة الهائلة ، فهذا شىء جديد لم يتعلمه من قبل ولم يهيىء نفسه له . وهو الآن يريد أن يستعد لتلك الحياة الجديدة ويتخذلها أهبتها بعد أن اختاره الحظ الزاهر ليتمتع بثروة ذلك اللص الخطير الذى ولد ليكون طول حياته سيىء الحظ منكود الطالع

وعند ما بلغ جورج المحطة ليستقل القطار فكر فى ذلك المحسن المجهول دون أن تبدو عليه عاطفية الاعتراف بالجميل . بل كان يغمره سرور من يلتذ بايلام الغير

* * *

وبعد أشهر كان جورج يسكن قصراً على ساحل الريفييرا ، وكان يرتدى أفخر الملابس وآنقها ، وقد أصبح الجاه عنده أمراً طبيعياً جداً . على أنه فى داخل نفسه كان يشعر بالضيق . وكان كلما فكر فى أمره وجد نفسه ليس أكثر سعادة من ذى قبل

وفى ذلك اليوم عندما أوشكت عينه أن تغمض سمع وقع أقدام وضجة فى ردهة القصر . ما الذى يحدث ؟ لبس جورج بيجامته الحريرية وخرج من الغرفة . لم يحدث شىء غير عادى ، فقد قبض على أحد لصوص الفنادق فى اللحظة التى كان يفتح فيها باب غرفة نوم جورج . ورأى جورج وجه الرجل الذى كان رجال البوليس السرى والخدم يمسكونه بقسوة ويسوقونه أمامهم . وبدا لجورج أنه رأى ذلك الوجه . ولكن أين ؟ وسرعان ما تذكر وقد ملأه الوجل : أنه الشخص الذى كان يحتل المقعد المقابل له فى القطار يوم وقع حادث الحقيبة الشهير

وابتسم جورج ابتسامة صفراء وألقى بنفسه ثانية على سريره ، على أن نومه طول تلك الليلة كان قلقاً مضطرباً .

علي كامل

بعض الكتب الجديدة

(الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى) للأستاذ محمد هاشم عطية

(شهيرات التونسيات) للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب

(أيام بغداد) للأستاذ أمين سعيد

ألف الكتاب الأول الأستاذ محمد هاشم عطية المدرس بدار العلوم ، لينتفع به طلاب هذه المدرسة وطلاب كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية ، وقد جعله قسمين يقعان معاً فى نحو أربعمائة صفحة كبيرة . ففى القسم الأول تكلم الأستاذ أولاً عن معنى كلمة الأدب ومنشئها ، ثم حدد العصر الجاهلى وانتقل الى أقوال العلماء فى الأدب الجاهلى ، فأورد طرفاً منها فى معرض التدليل على صلاحية هذا الأدب ليكون مرآة للحياة الجاهليـة ، ثم تكلم عن تاريخ الأدب والمراد منه وفائدته وعلاقته بالتاريخ العام ، ودرس جزيرة العرب وأصل العرب وطبقاتهم ، ونشأة اللغة عامة والعربية خاصة وخصائص اللغة العربية ، ومعارف العرب فى الجاهلية ، والنثر الجاهلى والشعر الجاهلى وخواصهما ، ثم درس المعلقات درساً مفصلاً . وأما القسم الثانى من الكتاب فقد جعله للتراجم بعد أن مهد له بفصل ممتع فى النقد الأدبى وتاريخه وأصوله ، وترجم فيه لأمرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ولبيد وطرفة وعبيد ابن الأبرص وأوس بن حجر وأمية بن أبى الصلت

فالكتاب كما ترى من وصفه حسن الترتيب حافل بالمعلومات التى لابد منها لطالب الأدب ، وهو فى شكله المدرسى هذا كفيل بأن يفيد جمهور المثقفين من غير الطلاب ؛ بيد أن هذا الشكل أو هذا الوضع المراعى فيه منهاج الدراسة قد حال بين الأستاذ على رغم مايبدو من متانته وضلاعته وسعة اطلاعه ، وبين ما كان يتطلبه الكثير من الموضوعات من البسط والاستيعاب ، ومن أمثلة تلك الموضوعات مسألة الانتحال والرواية والحياة الاجتماعية للعرب ، وهما موضوعان أساسيان فى مثل هذا الكتاب ، وكثيراً ما يحول التقيد بالبرنامج بين المؤلف وبين ما يريد ، فيجمل بحثه خاصاً أكثر منه عاماً ، ويكون الى إيراد المعلومات المتنوعة أقرب منه الى

التحليل والاستقصاء والاستدلال ، ولا سيما في المسائل العامة التي يبنى عليها فهم الأدب فهماً صحيحاً ، وهذا واضح في القسم الأول من الكتاب ، أما في القسم الثاني حيث سمح المنهاج للأستاذ بالتحليل والدرس الدقيق ، فقد تجلت براعته وأصالته وحسن ذوقه .

فاذا نحن نقدنا الكتاب في شكله الحالي ككتاب مدرسي لا يسعنا إلا أن نضعه في عداد الكتب المدرسية الممتازة ، كما لا يفوتنا أن نرجو الأستاذ الفاضل أن يستغل علمه ومقدرته في بسط ما أجمل في رسالة أخرى تنفع المتأدبين عامة

* * *

أنتقل بالقارئ بعد ذلك الى هذا البحث الطريف ، الذي اضطلع به الأستاذ العالم التونسي الفاضل حسن حسني عبد الوهاب ، وهو بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي من الفتح الاسلامي الى الزمان الحاضر

ذكر الأستاذ في مقدمة كتابه أن ما دعاه الى وضعه ما جرى من حديث بينه وبين صديق له حول الكتاب المسمى (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور) وقد أشار عليه صديقه أن يضع كتاباً في شهيرات التونسيات ، فهزته إلى هذا العمل عاطفة قوية كان ثمرتها هذا الكتاب الذي أحدثك عنه . وقد تكلم فيه الأستاذ عن نابغات النساء في تونس في الدور العربي ، والدور الأغلبي ، والدور العبيدي ، والدور الصنهاجي ، والدور الحفصي ، والدور التركي ، والدور الحسيني ، وترجم في هذه الأدوار جميعاً لعدد من كرائم السيدات ، مبيناً مآثرهن وأدبهن في حديث طلي وعبارة قوية . ولن تقف أهمية هذا الكتاب عند الترجمة لهؤلاء الأوانس ، بل إنك لتجد المؤلف الفاضل يربط الموضوع بالتاريخ في مهارة وكياسة ، فتجد في كل دور من هذه الأدوار التي مر ذكرها ظلا للعصر الذي يقع فيه ، وتطالع ألواناً مختلفة من ألوان الحياة الاجتماعية ، ومألوف العادات والتقاليد ، هذا فضلا عما كان يبثه المؤلف في ثنايا الكتاب من الحكمة والأدب والموعظة الحسنة ، والطرف الأدبية ، مما هو جدير بمن كان له مثل أريحيته وأدبه ، وإني إذ أقدم هذا المؤلف الطريف لجمهور القراء في العالم العربي آمل أن يحذو حذوه المؤلفون في الشرق ، فما أحوجنا في نهضتنا الحديثة الى المثل العليا في عالم المرأة ، وما أجدرنا أن ندفع عنا تلك الاتهامات القاسية التي توجه الى المرأة الشرقية في غير تحرج ولا استحياء ، وفي كثير من الجهل والادعاء

* * *

أما أيام بغداد فهو كما يعرفه الأستاذ مؤلف أمين سعيد ، وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ونهضته التاريخية ، والقارئ يذكر أن الرسالة قد قدمت إلى قارئها منذ وقت قريب كتاباً كبيراً للأستاذ المؤلف هو « الثورة العربية الكبرى » . ومن هذين الكتابين تدرك مقدار اهتمام الأستاذ أمين بالشرق العربي ومدى حماسته له . أما هذا الكتاب فيقع في نحو مائتين وخمسين صفحة ، جيد الطبع متين الورق . وهو كسائر كتب الرحلات يجمع بين اللذة والفائدة . ولا سيما أن موضوعه العراق ، ذلك القطر الفذ في تاريخه

افتتحه المؤلف الفاضل بفصل في النقد في بلاد العرب ، ثم بآخر في سكة حديد فلسطين والاستعمار الصهيوني ، وبعد ذلك تبتدئ رحلته في فصل عنوانه إلى بغداد ، فينتزعك من وسطك ويسير بك إلى تلك البلاد ، فاذا أنت معه على ضريح المغفور له الملك فيصل ، ثم إذا بك كأنك ترى حفلة التأبين الكبرى ، فوصف الأستاذ دقيق ، والموضوع ذاته يستهويك ويحيطك بجو خيالي ملئ بالصور . ولقد حافظ الأستاذ على هذه الدقة في وصف جميع الأماكن التي زارها والحفلات التي حضرها ، ثم انه لم يقتصر على الوصف وعلى إيراد ما رأى ، بل تراه يحدثك عن بعض المسائل الهامة في العراق كالعمران في بغداد والمدرسة العسكرية في الكرادة ونهضة التعليم في تلك الديار ؛ وما هو أهم من ذلك كمدى نفوذ الانجليز هناك ومعسكراتهم ومطاراتهم ، وأخيراً تراه يحدثك عن الأشوريين وأحوالهم حديث من رآهم وخبرهم بنفسه

وأنا وإن لم أر العراق أحس أنني قد استفدت من هذا الوصف ، ووقفت به على كثير من المسائل التي كنت أجهلها والتي كانت تشغل ذهني ، كما أني استمتعت به كما لو كنت أرى هاتيك الصور على الشاشة البيضاء ، أما من حيث مطابقة ما ذكر الأستاذ للواقع ومقدار إحاطته بضروب الاصلاح والتعمير في العراق ، فالأمر في ذلك متروك للقارئ العراقي ولمن زار العراق من أبناء مصر وأهل الأقطار العربية

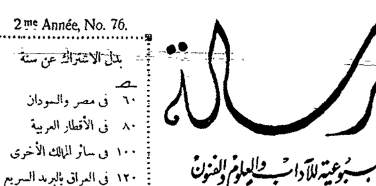
الخفيف

2me Année, No. 76. Lundi-17-12-1934

بدل الاشتراك عن سنة

صـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العــــدد ٧٦ « القاهرة في يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٣ — ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العــــدد

أثر السياسة الحزبية
في الأخلاق

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد عاهدت نفسي من عهد غير قريب على ألا أعالج عملاً سياسياً من أى نوع كان ، وأن أكتم قلمي فلا يتنفس بحديث السياسة أبداً ، فانني لم أصب من هذه السياسة إلا شراً كبيراً ، ولعلى لم أُجْدِ بها على وطني خيراً كثيراً ، بل لقد رأني بعضُ الناس صنعت في هذا الباب شراً كثيراً . فان كنتُ كذلك حقاً فأسأل الله أن يغفر لي ما أسأتُ من حيث ابتغيت الاحسان . والله ذو الفضل العظيم

ومهما يكن من شيء فانني عاهدت نفسي على ألا أعالج حديث السياسة ، وقد صدقتُها ماعاهدت . على أنني أرى صدرى يجيش اليوم بكلام يقتضيني واجبُ الذمة الوطنية أن أنفثه نفثاً وإلاَّ مزّق صدرى تمزيقاً . وهـذا كلام قد يظهر لبعض الناس في صور أحاديث السياسة ، ولو قد تفطّن هؤلاء إلى ماأريد لأدركوا أنه ليس كذلك ، أو أنه ، على الأقل ، ليس من ذلك النوع الذى أخذت نفسي بألا أخوض فيه أو أتناوله بأى علاج

إنما أخذت نفسي، في الواقع، بهجران السياسة الحزبية، فلا أخب في فتنة ولا أضع. وليس معنى هذا أنني لا أدلي برأي أراه في مصلحة بلدي، أو أنصح به لقومي، أو أنضح به عن مبشري إذا كانت الجسلي وتربدت وجوه الحادثات. فانني إن فعلت، فقد عطلت مصريتي، وأثمت في حق بلادي، وكنت مختلساً لشرف الانتساب إلى هذا الوطن. وأستغفر الله العظيم من هذا الذنب العظيم!

على أنني من يوم ذلك العهد لا أدع فرصة للحديث في شأن الوطن إلا تحدثت، وهذا الرديو أحاضر منه كل أسبوع، وهذه صحف شتى، ومجلات مختلفة الألوان أرسل القول فيها كلها، فأتناول الموضوعات الاجتماعية، والأخلاقية، والاقتصادية؛ بل إنني لألح على بعض موظفي الحكومة بالنقد القاسي على تصرفهم فيما بين أيديهم من الشئون العامة. فاذا عد هذا كله من السياسة، فهي ليست السياسة التي جمعت العزم على هجرها من ذلك العهد البعيد

والموضوع الذي أتناوله بالكلام اليوم هو أثر السياسة في الأخلاق العامة، لا أخلط في حديثي حزباً معيناً ولا أظاهر شيعة من الشيع السياسية القائمة في البلاد. وسيرى القارئ أنه أشبه بالبحوث الاجتماعية منه بالبحوث السياسية:

مما لا شك فيه أنه كان لتلون الحكومات التي تعاقبت على مصر في السنين الأخيرة، واختلافها في النزعات السياسية وتفرقها في الأهواء الحزبية أثر بعيد جداً في الأخلاق العامة. وأشد ما كان هذا الأثر في الموظفين عامة وفي بعض أعيان البلاد

تعاقبت الشيع السياسية الحزبية في الحكم، وتداولته مرات متعددة. وكان من سوء الحظ أن المسألة السياسية الكبرى لم تستقر على حال، فكان هذا مدعاة إلى التناحر والتطاحن بين النزعات المختلفة، فكلما وليت طائفة أمر الحكم، والحكم عندنا أصبح في هذه الظروف يدخل فيه معنى الحزب، رأت نفسها في أشد الحاجة إلى الاستعانة عن تثق بهم، وتعتمد على صدق ولائهم لها من الموظفين. وسرعان ما تعمد إلى إقصاء قوم وتقريب قوم، ورفع جماعة وخفض آخرين، لا تأخذها في هذا أية هوادة. وهل تأخذ القائد الهوادة فيمن قبله من الجند إذا حمي الوطيس واستحر القتال؟

فاذا زالت عن الحكم هذه الطائفة أو أزيلت، أسرع من يليها فيه فأقصى من قربت، وقرب من أقصت، ووضع من رفعت، ورفع من وضعت، وهكذا دواليك. وربما تطاولت القسوة في هذا التناحر الحزبي إلى تخريب الدور وتجويع العيال، حتى أصبح الموظفون وكأنهم ليسوا مستوين في الدواوين على مكاتبهم، بل على منضدة قمار، تدور الحظوظ فيها في اللحظة بالفقر واليسار، وبالغنى والأعسار!

اللهم إن الموظف المصري قبل كل شيء إنسان يحرص كل الحرص على أن يعيش. وإنما وسيلته إلى العيش ما يجري عليه من الوظيفة الشهرية يقيم بها شأنه ويعود بها على شمله

ثم إنه لا يرى سبيلاً إلى عصمة المنصب إلا إذا استراح رؤساؤه بالثقة اليه، وهو لا يظفر بهذه الثقة منهم إلا إذا أرضاهم وطاوعهم، وعمل بكل جهده على استخراج عطفهم وإيثارهم. وقد عرفت أن الحكم الحزبي، وخاصة في هذه المرحلة التي تجوزها البلاد، قد يقتضي الموظف الاداري، على وجه خاص، شيئاً من الانحراف عن النهج والعنت على القوانين. فان هو فعل فقد فسق عن واجب الذمة وخان الأمانة، وإن هو آثر الصدق في الخدمة العامة، وتهدى في جميع أسبابه بهدى القانون فلأمه الهبل!

ثم إنه ليعلم علماً ليس بالظن أن دوام الحال من المحال، وأن هذه الحكومة التي يعمل في ولايتها لابد زائلة إن في قريب وإن في بعيد. وأنه ستخلفها حكومة أخرى تعاقب أولياء هذه الحكومة على ما شايعوا وما صانعوا. ولقد تكون هذه الحكومة عادلة نزيهة، فهي إن تجاوزت عن هوى الموظف إلى الحكومة السابقة، فانها لا تتجاوز عما قارف في سبيل مصانعتها من إيذاء الناس والكيد لهم والخروج على أحكام القوانين

أما أن نطلب الى الموظفين جميعاً أن يصبروا على المكروه أشد المكروه في سبيل الحق وإيثار طاعة القانون، وأن يعصوا أمر رؤسائهم في طاعة الواجب، فيستهدفوا بهذا لطردهم، وحبس أرزاقهم عنهم، وإجاعة من يعولون من الأهل والولد، أما أن تقتضي هذا جميع الموظفين فضرب من العبث؛ وأقول إنه ضرب من العبث لأنه قد شهد بكذبه الواقع المحسوس، فأكثر

الموظفين الكثير جداً ، مع الأسف العظيم ، قد نزلوا عند ما تطلب منهم الحكومات المختلفة ، وفى بعض هذا الذى يطالب منهم ما لا يرتضيه العدل ، ولا يستريح اليه القانون ؛ وأقلهم القليل جداً هم الذين صبروا على الأذى وصابروا ، وآثروا على متاع الدنيا إراحة الذمة وإرضاء الضمير

إذن فالموظف ، وأعنى من تتصل الوسائل السياسية الحزبية بعمله ، مضطر فى سبيل عصمة عيشه الى مصانعة الحكومة القائمة ، ولو أدت هذه المصانعة الى مخالفة حكم الذمة والقانون . ثم إنه فى الوقت نفسه ليحسب للمستقبل كل حساب ، فتراه لا يني عن العمل له أيضاً . أى أنه لكى يعيش ويسلم من المكروه يجب عليه أن يجمع بين الضدين ، وأن يسعى فى وقت واحد فى طريقين متخالفتين ، وإنه لن يبلغ هذا المدى إلا إذا بذل فى سبيله ماشاءت ضعة النفس ، وفسولة الطبع ، وإهدار الكرامة ، وتمييع الأخلاق ، وإهراق ماء الوجوه ، وفساد الذمة ، أن تبلغ !

هذا الموقف لقد يقتضى هذا الموظف المسكين أن يكون له وجهان ، ولسانان ، وذمتان ، وهويان ؛ يلقى هؤلاء بواحد من أولئك ، ويلقى أولئك بواحد من هؤلاء . فهو يظاهر الحكومة القائمة فى اعلانه وجهره ، وهو عدة أسباب الهوى للشيعة المقبلة فى خفائه وسره ، ولا يزال هذا شأنه ما تعاقبت الحكومات الحزبية ، حتى كادت تفرى الأخلاق فريا ، وتبرى الكرامات بريا ، وحتى لقد نجم فى بلادنا هذا الفن المحقور المرذول : فن الخرص ، بكل ما اتسع له الذرع ، واتسع له الخلق والكرامة ، على المناصب الحكومية ، فشاع به فينا أبلغ ما عرف من خلة النفاق والرياء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

لست ، شهد الله ، ألوم فى هذا أحداً ، ولا أحمل الوزر فيه قوماً ، ولكننى إنما أحيل الأمر كله على الظروف ، ولعنة الله على هذه الظروف !

* * *

حسبى اليوم هذا القدر ، وانى لعائد الى الكلام فى هذا الباب كرة أخرى إن شاء الله ؟

عبد العزيز البشرى

٢ ـ كلمة وكليمة [1]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

رب قانون تحكم به أمة ؛ ولو أنهم حاكموه لاعتبروه كالشروع فى قتل هذه الأمة

* * *

إذا كان القاضى صاحب دين وذكاء وفهم وضمير ؛ فكثيراً ما يرى نفسه محكوماً عليه أن يحكم على الناس . . . .

* * *

أصبحت الأخلاق الشرقية فى هذه المدنية الفاسدة كرقعة الفقير المعدم ، حيث لا تجد رقعة لا بد أن تجد فتقا . . . .

* * *

أضيع الأمم أمة يختلف أبناؤها . فكيف عن يختلفون حتى فى كيف يختلفون . . . ؟

* * *

من مضحكات السياسة إنشاؤها أحزاباً يقوم بعضها كما تغرس الخشبة لتكون شجرة مثمرة . . . .

* * *

يأتى الغرور من ضعف النظر إلى الحقيقة ؛ لو أن للنملة عيناً وسئلت عن الذبابة كيف تراها ؟ لقالت هذا فيل عظيم . . . .

* * *

فى الضرورات السياسية لا يحفل أهل السياسة أن يصدقوا أو يكذبوا فيما يعلنون إلى الناس ؛ ولكن أكبر همهم أن يقدموا دائماً الكلمة الملائمة للوقت

* * *

إذا كانت المصلحة فى السياسة هى المبدأ ؛ فمعنى ذلك أن عدم المبدأ هو فى ذاته مصلحة السياسة

* * *

(١) نشرت القطعة الأولى فى العدد ٦٥ من الرسالة

ليس الفقرُ اختلالاً في الناس ؛ إن الفقر على التحقيق هو اختلال في القوانين

***

معنى فرض الزكاة فى الشريعة الاسلامية أن أفقر الصعاليك فى الدنيا له أن يقولَ لأعظم ملوكِ المال : قدِّمْ لى دفاترك . . .

***

مَثَلُ مذهبِ الاشتراكية فى وهم توزيع المال ، ومذهبِ الاسلام فى الزكاة ، مَثَلُ رجلين مرَّ أحدهما بغريق يختبط فى اللُّجِّ ، فاستغاثهُ الغريقُ ، فنظر فاذا حبلٌ مُلْقى على الشاطىء ، ولكنه صاح بالهالكِ : أنت واللهِ فى نفسى أكبرُ منزلةً من أن أُخرجَك بالحبل فأنا ذاهب أبحثُ لك عن زورق . . . . ومرَّ الثانى فألقى له الحبلَ فنجا

***

التمدنُ والفقرُ كصاحبين معاً ذى رِجلين وأعرجَ يمشيان فى طريق ؛ كلما انفسحتْ خُطُواتُ الأول زادت عثراتُ الآخر

***

التليسكوب العظيم فى استكشاف معانى الحب قد يكون دمعة

***

ينظر الحبُّ دائماً بعينٍ واحدة ، فيرى جانباً ويعمَى عن جانبٍ ؛ ولا ينظرُ بعينيه معاً إلا حين يريدُ أن يتبيَّنَ طريقه لينصرف . . .

***

تتكبر المرأةُ على كل ما يُشعرها بضعفها ؛ ومن هنا تبلغُ المرأةُ آخرَ كبريائها فى أوائل حبها

***

إذا صاحبتَ عاشقاً فليس لك أن تبدأه كلما لقيتَه إلا بأحد سؤالين : ماهى خرافتك اليوم ؟ أو ما هى حماقتك اليوم : . . . ؟

***

متى نظرت المرأةُ إلى رجل تُعجَبُ به كانت نظراتُها الأولى متحيرة قلقةً غيرَ مطمئنة ؛ معناها : هل هو أنت ؟ فاذا داخلها الحبُّ واطمأنت جاءت نظراتُها مسترسلةً مُتدللةً ، متأنثة ، معناها : هو أنت

***

لايضحكُ الحيوانُ إذ كان لا يَفهمُ إلا فهماً واحداً ؛ ويضحكُ الانسانُ لأنه حُرِمَ هذا الفهمَ الواحد . أهو البلاءُ وعلاجُه ؛ أم النعمةُ وبلاؤها ؛ أم هذا مرةً وهذه مرة ؟

***

لا يُكثِرُ الضحكَ إلا الأبلهُ الذى يفهم الشيءَ فهماً تمسخُهُ شيئاً آخر ؛ وإلا العامىُّ الفارغُ الذى لايفهمُ الأشياء إلا ممسوخة ؛ وإلا الفيلسوفُ الساخرُ المركَّبُ فى طباعه من الفيلسوف والأبله والعامى . . .

***

عنعُ الهمُّ ويمحوه من الضحك إذ كانت هذه حقائق صريحة فى النفس لا تُفهَمُ أبداً على وجهين

***

لاتكونُ امرأةٌ معشوقةَ رجلٍ إلا وهو يراها وحدَها النساءَ جميعاً ؛ ولا يكون رجلٌ معشوقَ امرأة إلا وهى تراه وحدَه كلَّ الرجال . فالحبُّ وَحدانيةٌ لاتقبل الشِّرك ، ومن هٰهنا يتألَّه ،

***

يُولَدُ المولودُ من رجل وامرأة ولن يكونَ من ثلاثة ؛ ولهذا لن يكونَ فى الحب الصحيح ثلاثة أبداً

***

قد تُحب المرأةُ رَجلين ، أو يُحب الرجلُ امرأتين ، ولكن هذا ليس حباً ، إنْ هو إلا كِبَرٌ فى العربة جعلها تحتاج إلى جوادين . . .

***

لعلَّ من حِكَم الحجاب فى الاسلام أن العشق إذا انتهى إلى الزواج فقلَّما يكون إلا تمهيداً لولادة إفراطٍ عصبىٍّ فى قوة أو ضعفٍ أو بلادةٍ أو . . أو رذيلة .

***

ابنُ المرأة العجوز عجوزٌ حتى فى الطفولة ، وابن الشابة شابٌّ حتى فى الكهولة ؛ فيا ضيعةَ الانسانية من تأخير الزواج !

***

أكثرُ النساء على أن نصفَ الذكاءِ الساحرِ فى الرجل

ينبغى أن يكون فى عقله ، ويكون النصف الآخر فى البنك . . .

***

عند ما تكون الساعةُ هى ساعةَ انتظار الشئ المحبوب ، يكون قلبُ المنتظر من زحمةِ الدقائق كالذى يشُقُّ طريقاً زاحمَهُ الناسُ فيه

***

الذليل فى رأى الحب مَن إذا هجرته المرأةُ كان هجرُها إياه عقوبتَه ، والعزيزُ فى رأى الحبّ من إذا هجرته المرأةُ كان هجرُها إياه عقوبتَها

***

اليومُ الذى يكونُ قلبياً محْضاً يبقى له دائماً باقٍ لا ينتهى ؛ ولهذا لا يزالُ الحبُّ الطاهرُ كأنه فى بقيةٍ من أوله مهما تقادَم

***

لا يعرفُ الطفلُ تاريخَه من الزمن ومافيه ، ولكن من بيت أهله ومَن فيه ؛ فأمسِ واليومِ وغداً هى كلُّها عنده أمسِ الذى يكبَرُ شيئاً فشيئاً . . . ابنُ الطفولة إنما هو ابنُ حالةٍ من حالات الحياة لا ابنُ زمن ، وهذا سرُّ السعادة

***

يالها عجيبة ! إن الصوفىَّ إذا فاز فى حبه الآلهى رأى نفسَه باقياً فى الزمن بلا بقاءٍ يَعْلَمُهُ ، وفانياً عن الزمن بلا فناءٍ يشعرُ به ؛ وذلك بعينه ما يراه العاشقُ إذا خاب فى حبه الانسانى . . .

***

الفرقُ بين كاتبٍ مُتَعَفِّفٍ وبين كاتب مُتَمَهِّرٍ أن الأول مُثْقَلٌ بواجب ، والآخر مُثْقِلٌ به ذلك الواجب . . .

***

كانت الشفقةُ هى الأصلَ فى كل موضع استهزاءٍ فما تستهزئُ إلا بخطأٍ أو ضعفٍ أو عجز ؛ ولكن شعورَ الحيوان بقدرته على حيوان آخر ، أو بانتصاره ، أو بامتيازه ؛ هو فى الانسان أصلُ ذلك الاستهزاء

***

كما يضرُّ أهلُ الشر غيرَهم إذا عملوا الشر ، يضرُّ أهلُ الخير غيرهم إذا لم يعملوا الخير

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

الدعوة الى القصص

علام تقوم وماذا أنتجت ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يجوز الأدب العربى اليوم حركة تطور وتجديد لا ريب فى قوتها وأهميتها ؛ والحركات الفكرية ، كالحركات السياسية ، عرضة للأغراق والتطرف ، ولاسيا قبل أن تبلغ مرحلة النضج والاستقرار ؛ وقد كانت حركتنا الأدبية عرضة لبعض هذه المظاهر المتطرفة ؛ فقد أفرط البعض مثلاً فى التحدث عن الجديد والقديم دون أن يسفر هذا الجدل الخالد عن معان واضحة أو نتائج عملية ؛ وقد زعم البعض أن التجديد هو إغفال الماضى كله ، والسير وراء التفكير الغربى فى حركة تقليد عمياء ؛ وظهرت فى الأعوام الأخيرة فى حركتنا الأدبية خاصة تطرف أخرى ، هى الأغراق فى التحدث عن القصة وكتابة القصة ، وفى تقدير المكانة التى يجب أن يتبوأها القصص فى أدبنا ؛ ويذهب بعض أصحاب هذا الحديث الى أن القصص هو أعظم وأجل وأقيم ما فى الأدب الغربى ، فيجب أن يكون له مثل هذه المكانة فى أدبنا ، ويجب أن ينصرف الكتاب الى تأليف القصة حتى يصبح لنا تراث قصصى عريض مثلما فى الأدب الغربى

وهذا قول يحتاج الى بيان ومناقشة . نعم إن القصص يتبوأ فى الآداب الغربية الحديثة أسمى مكانة ؛ ولكنه ليس كل شيء فى هذه الآداب ، وليس هو أعظم شيء فيها ؛ وإنما يتخذ القصص هذه المكانة فى آداب عظيمة تفتحت فيها جميع نواحى التفكير والفن ونضجت ، واتصلت مراحل نموها وتطورها مدى عصور . وللقصص الرفيع فى هذه الحضارات والآداب العظيمة مهمة سامية أخرى غير متاع القراءة والرياضة العقلية ، هى المعاونة فى تربية النشء وتكوينه ، وتكوين الأخلاق والخلال الفاضلة ، والدعوة الى المثل العليا . والقصص يتخذ أداة للتعبير عن خفايا النفس البشرية ، وصياغة العواطف النبيلة والعبر المؤثرة ، كما يتخذ أداة لعرض ما فى اللغة القومية من كنوز البيان الساحر . وإنا لنتساءل

أولاً : هل يفهم القصص فى أدبنا على هذا النحو ؟ وهل استطعنا بعد كل هذا الضجيج أن نخرج فى ميدان القصص ما يمكن أن يرتفع ، فى فنه وفى قيمته الأدبية ، الى هذا المستوى ؟ وهل نضجت حركتنا الأدبية واستكملت كل ما ينقصها من النواحى والعناصر التى يجب أن تمثل فى كل الآداب العظيمة فلم يبق أمامنا إلا أن نعالج القصص وأن نحسنه ؟

إن القصص لم يتبوأ مكانته الرفيعة فى الآداب الغربية إلا فى العصر الحديث حينما ازدهرت هــذه الآداب ، واستكملت عناصرها الجوهرية . نعم إن القصص وجد فى الآداب القديمة منذ أقدم العصور ؛ ولكنه لم يشغل فى الآداب القديمة ذلك الفراغ الشاسع الذى يشغله فى الآداب الحديثة ، وقد كان فوق ذلك من نوع خاص ، قصصاً دينياً أو قصص بطولة أو فروسة قومية ، ولم يخرج قصص العصور الوسطى فى الآداب الغربيـة عن هذه الدائرة . ولنا مثل هذا القصص فى أدبنا العربى القديم ؛ ولكن الحركة الفكرية اضمحلت فى الشرق فى الوقت الذى نهضت فيه فى الغرب وأخذت تتفتح فى سائر النواحى وتنمو بخطى عظيمة ؛ وبينما كانت الآداب الغربية تغزو ميادين جديدة ، منها ميدان القصص ، اذا بالحضارة الاسلامية والآداب العربيـة تخبو وتتراجع أمام الغزوات التترية التى قام بها التتار والترك فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ؛ ولما افتتح الترك مصر ، وهى يومئذ ملاذ التفكير الاسلامى ، لقيت الآداب العربية ضربتها القاضية ، وركدت ريحها زهاء ثلاثة قرون ، وتخلفت عن الآداب الغربية فى كل نواحى التقدم ؛ ولم تستطع أن تنهض من سباتها الطويل إلا بعد أن تقلص عنها ظل هذا النير البربرى

وما نراه اليوم من نقص فى نواحى حركتنا الفكرية ، إنما هو من أثر هذا الاضطهاد الذى أصابها مدى هذه الأحقاب الطويلة ؛ والقصص إحدى هذه النواحى ، بيد أنه ليس أهمها وأحقها بالعناية ؛ فهنالك نواح أخرى فى أدبنا لم تنضج ولم تستقر ، وهنالك فى ميادين العلوم والفنون نقص واضح ، والقصص الرفيع عنوان حركات فكرية نضجت واستقرت وازدهرت فيها مختلف نواحى الثقافة والفنون . وقد يظهر القصص فى آداب أمم وحضارات متأخرة ، ولكنه يكون قصصاً ساذجاً تنقصه عناصر الفن والتفكير . وإذا كان من المسلم به أن حركتنا الفكرية لا زالت بحاجة الى استكمال كثير من العناصر الجوهرية ، فليس مما يقويها ويدعمها ، أن ننصرف الى نواح دون أخرى ، وأن نؤثر بعض هذه النواحى بالأهمية والخطورة ، وأن نصورها خلاصة الفن والأدب ، وكل شىء فيهما ، على نحو ما يصور البعض كتابة القصص ، فمثل هذا الأغراق لا يخدم قضية الأدب والثقافة ؛ ولكنه بالعكس يجنى عليها اذا أثمر ثمره فى الأذهان والأقلام الناشئة . وهذا ما يلوح لنا أنه يحدث اليوم فى حركتنا الأدبية ؛ فقد ذهب أصحاب الدعوة الى القصص فى تصوير أهميته وقيمته الأدبية الى حدود بعيدة ، وتأثر بهذه الدعوة المغرقة كثير من الشباب الذين لم يستكملوا كل عناصر الثقافة القوية ، فانصرفوا الى قراءة القصص والى كتابته ، حتى أصبحنا أمام سيل من القصص الساذج الغث يشغل وقت الشباب والناشئين

***

والآن لنر ماذا كانت نتائج هذه الدعوة ، وهل أسفرت حقاً من الوجهة الأدبية عن نتائج تذكر . وأول ما يلفت النظر هو كثرة القصص التى تغمر الصحف والمجلات . ولكن الكمية ليست هى كل ما فى الانتاج الأدبى ، وإنما يهم النوع قبل كل شىء ؛ ومن الزعم الباطل أن يقال إننا استطعنا أن نخرج حتى اليوم آثاراً قصصية ترتفع فى قيمتها الأدبية والفنية الى مستوى القصص الغربى ؛ وقد نظفر بآثار قليلة تمتاز بشىء من القوة والطرافة ، ولكنها مع ذلك تحمل طابع المجهود الأول ، وينقصها كثير من العناصر الفنية ؛ أما الكثرة الساحقة من هــذا القصص الذى يغمر اليوم ميدان أدبنا ، فليست لها أية قيمة أدبية تذكر ؛ ويلاحظ أولاً أن كثيرا من القصص الذى يبدو فى ثوب التأليف إنما هو قصص منقول عن الأدب الغربى ، يصاغ فى أثواب مصرية لكى تضيع معالمه ، ولكنه ينم دائما على حقيقته ؛ ولا نلمس فى هــذا القصص الناشىء أية لمحة من الفن الحقيقى أو الخيال الشائق ؛ ثم هو لا يكاد يحظى بأى قسط من البيان القوى ، بل يعرض دائماً فى أساليب ضعيفة ينقصها روح التعبير القوى ، ويبدو فيها أثر التقليد والنقل واضحاً ؛ ولسنا ندرى ماذا تكون القيمة الأدبية لقصص عاطل عن مزايا الفن والخيال

والبيان معاً ، وكل ما فيه أنه قصص فقط ؛ أضف إلى ذلك أن هذا السيل المتصل من القصص ينقصه عنصر التوجيه والثقافة ، فهو لا يتجه إلى غاية ثقافية معينة ، ولا تحدوه أية مثل اجتماعية . أو أخلاقية محترمة

ولقد قام القصص الغربي فى معظم الأحيان على تراث التاريخ والحضارة ، وما زال فى كل أمة معرضاً قوياً للتاريخ القومى والحياة الاجتماعية القومية ، ولكن ما هى المواد التى يستق منها كتاب « القصص » عندنا ؟ وأى نواح من حياتنا الاجتماعية أو تاريخنا القومى استطاعوا أن يعرضوه ؟ إنهم فى الواقع يعرضون صوراً باهتة من الحياة الاجتماعية الغربية ، ويحاولون أن ينسبوها للحياة الاجتماعية المصرية . ذلك لأنهم مقلدون ناقلون فى الغالب ، يندفعون وراء نزعة لم تقم على الدرس الصحيح ؛ وهل قصص الحب المبتذل ، ومناظر المسارح والملاهى والمراقص ، ومقابلات السينما والشاطئ (البلاج) ، والمراسلات الغرامية السخيفة ، هى كل ما فى الحياة الاجتماعية المصرية ؟ ولقد كان لنا ثمة مادة بديعة للقصص فى تاريخنا القومى ، فهو حافل بصنوف المآسى الملوكية والشعبية ، والحوادث والمواقف الشائقة ؛ فهل فطن أحد من كتاب القصص إلى هذا الكنز الزاخر والمورد الخصب ؟

ولقد قلنا إنهم يزعمون أن الرجوع إلى الماضى ينافى دعوة « التجديد » التى يضجون بها ، ولا يستطيعون فهمها أو تحديد معانيها ، فهم لذلك لا يعنون بالتنقيب فى تراثنا الغابر ؛ ولكن الواقع أنهم لا يفعلون ذلك تعففاً أو قصداً وإنما هو القصور وانقطاع الصلة الروحية بينهم بين مراحل الأدب الذين يزعمون أنهم طلائعه . والبحث يجشمهم جهوداً لا يستطيعون الاضطلاع بها . على أن القصص الرفيع فى الآداب الغربية يفسح أكبر مجال لمآسى التاريخ وحوادثه . ويكفى أن نذكر بعض الأسماء لتأييد هذه الحقيقة ، فقد كان التاريخ وحده تقريباً مادة شيللر فى جميع قصصه المسرحية ؛ وكان أروع ما أخرجه سنكيفتش قصته التاريخية الرومانية « كوفاديس » التى تعتبر من أعظم ما أخرج القصص الغربى ؛ وكتب لورد ليتون « أيام بامبياى الأخيرة » ، وكتبت جورج اليوت « رومولا » ، وعرض اسكندر دعا مراحل التاريخ الفرنسى فى سلسلة من القصص التاريخية البديعة . بل لقد ألقى بعض أكابر كتاب الغرب فى تاريخنا ، وفى التاريخ الاسلامى مادة نفيسة ؛ فكتب تشارلس كنجسلى « هيباسيا » عن العصر اليونانى الرومانى فى مصر ، وكتب اسكوت « ايفانهو » عن بعض حوادث الحروب الصليبية ، وصاغ فون هامار ولاهارب مصرع البرامكة فى قالب قصصى بديع ، وكتب شاتوبريان « آخر بنى سراج » إلى غير ذلك مما يضيق المقام بذكره

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه الدعوة الصاخبة إلى كتابة القصص واعتباره كل ما فى الأدب من قيم ونفيس ، وتأملنا ما انتهت إليه من النتائج العملية ، ألفينا فراغاً فى كل ناحية ، وألفينا فشلاً مطبقاً . والفشل دائماً حليف كل نزعة أو حركة لا تقوم على قواعد صحيحة ، ولا تتوسل إلى غاياتها بالوسائل الطبيعية ؛ وقد فشلت هذه الحركة المغرقة ، لأنها قصدت أن تبتدئ حيث يجب الانتهاء ، ولم تسر فى مراحل التدرج ؛ جنباً إلى جنب مع باقى نواحى الحركة الأدبية ؛ ولم تقم بالأخص على الدرس والبحث ، وإنما قامت على عوامل وبواعث مصطنعة . أراد فريق من كتابنا أن يصبحوا بين الأمس واليوم من أساتذة القصص ، وأن يناهضوا كتاب القصص الغربيين الذين كونتهم حضارة وآداب وثقافات مؤثلة متصلة المراحل ، وتصوروا أنهم يستطيعون تحقيق هذه الغاية بإخراج هذه القطع الركيكة الذابلة التى تنقصها كل عناصر الفن والخيال والبيان

ونحن نقدر قيمة القصص ورفيع مكانته فى الأدب الغربى ، ولكنا نود فقط أن نعرض الأمور على حقيقتها ، وأن نلفت النظر إلى ما يترتب على هذا الأغراق فى شأن القصص من الآثار السيئة فى حركتنا الأدبية ، وهى لم تستكمل بعد كل عناصر النضج والاستقرار . ولقد كان الاندفاع فى هذا التيار على هذا النحو من وجوه الضعف فى حركتنا الأدبية ؛ لأنه يستغرق جهوداً كان خليقاً أن تصرف فى نواح أخرى ؛ ولقد كان الجهد كبيراً مستفيضاً ، ولكن دون تبصر وتمكن ، فجاء الغنم ضئيلاً يدعو إلى الرثاء . ومن المبالغة أن نقول إننا قد استطعنا أن نغزو بعد ميدان القصص الرفيع ، أو إننا أخرجنا تراثاً قصصياً يجدر بالتقدير والاحترام .

محمد عبد الله عنان
المحامى

أين أنتم يا أحبابي ؟

للأستاذ محمد سعيد العريان

الغد . . . إن الغد ليتراءى لي خلف ضباب المنى كأني من توهّمه أستعيد تاريخاً غبر لا يفصلني منه إلا ما فات من أيامي : وإني لأرى من خلفه ثلاثة أحباب كانوا كنا معاً ثم افترقنا إلى ميعاد !

هأنذا في الفلك مرتفق إلى حافته ، والموج من حولي يهيج ويصخب ، والنسيم يصافح خدّي فأسمع في دمدمته أصداء ذكرى بعيدة ، طوّفت ما طوّفت ثم عادت تتراءى إلى أذني خافتة من طول ما أعيت في مجاهل الزمان . . . !

وها هي ذي إلى جانبي في الفلك مرتفقة إلى ذراعي ، قد عطفها عليّ خوف البحر لتلتمس الأمان من قربي ، فما ركبت البحر من قبل ، ولا كان لها بهدهدة الفلك عهد .

قلت لها : « أتخشين البحر ؟ »

قالت : « بل أخشى الفراق ! »

قلت : « فإني إلى جانبك فما يفزعك ؟ »

قالت : « حبذا أن يكون هذا حقيقة ! أهذا هو البحر وتلك هي السماء ، وهذا أنت ؟ فما بي خوف البحر وإنك إلى جانبي ، ولكني أريد لك أن تعيش ! »

وهدأ البحر وامّلست صفحته ، وراح الفلك يشق الماء في لين وخفة ، وإن له لموسيقى هادئة فيها عذوبة الأمل الواثق ونشوة السعادة الراضية

وثابت إلى نفسها ، فراحت تنقل الطرف من هنا إلى هناك وفي ابتسامتها معان من الغبطة وفي عينيها نظرات . . .

قالت : « أتسمع إلى هذه الموسيقى ؟ فإنها لحن نفسي وفي نفسي ! »

قلت : « ما أحبّ إليّ أن أبقى إلى جانبك الدهر نستمع إلى أغاني الحب في خرير الماء وهمس النسيم ، ونمتد في أحلام السعادة ما امتدت بنا الحياة ! »

قالت : « أتنك لتقرأ ما في نفسي ، فما أعدل بما نحن فيه أن يكون لي الملك ! أرأيت في الحياة ملكاً يعدل قلبين يؤلف بينهما الحب ؟ »

ورأيت على الشاطئ القريب قصراً قائماً ، تلوح النعمة من شرفاته ويستعلن الغنى

قلت : « أفلا تودّين أن يكون لنا هذا القصر ، نعيش للحب في أفيائه ونستظل منه بوارف السعادة ؟ »

قالت : « ما أتمنى لهذا الحب أن يتعلق من أوهام الأرض بمثل ذلك ! ليتني وإياك على رمث في البحر ليس لنا إلا البحر ، أو في كوخ من قش على حدود الدنيا ليس لنا إلا حدود الدنيا ، أو كهف من جبل في طريق الصحراء ليس لنا إلا الصحراء ، فهناك سموّ الحب لا حيث ترى الآن .. ! ما لنا وللناس يا حبيبي نطاولهم بالطين والتراب ؟ وإنما الحب قلب لقلب ، ودنيا من وراء الدنيا . أنا وأنت هما كل الناس ، ويومنا هو الزمان ، ومحلتنا العين في العين ، والجنب إلى الجنب ، هو الدنيا كلها ما تتسع لغيره ، ولا تمتد لسواه ؟ »

ورسا بنا الفلك على خضراء مزهرة ، فانسابت هي في الطريق على حذر ورقبة ، وخلفتني هناك أنتظر ...

يا ويح الشباب من أحلامه ! متى تعود إلى جانبي ، فنعيش الروح للروح ، والنفس للنفس ؟ لقد طالت بها النوى وما آبت

***

ومضيت أتوكأ على نفسي في ظلال الروض ، أتمثلها في كل منعطف وكل ثنية ، وإن عينيّ لتأخذان الطريق ، وإن الزهرة لتهمس في أذن أختها : « لقد كانت هنا ثم لم تكن ! » ، وإن الغصن الناضر ليشير بأصبعه إلى هناك ؛ وكل شيء من حوله قد مسته الحياة ، ونفخ فيه الحب روحاً من روحه ، إلا ... إلا قلبي ؟

وتهاويت على مقعد بين ملتف الحدائق ، فأغمضت عيني وإنني ليقظان ، وسمعت من خلل الغصون حمامة تقول لأختها « أنظري ! هل يعرف السلام من عرف الحب ؟ »

ودقت بجناحيها فطرفت عيني ، ثم علت فأمعنت في الجو تصعيدا ، وإن عبارتها لترن في أذني ؛ وفتحت عينيّ فإذا هي إلى جانبي . . . !

قلت: «أهذا أنت ياحبيبتي؟ ما أصبرك على البعاد!»

قالت: «فانك ما تزال هنا، لقد كنتُ على يقين بأنك تنتظر!»

قلت: «وأين لي أن ألتمس السعادة في غير دنياكِ، وكيف لي أن أسلَّ الثواء هنا، ومعي خيالُك، وأنا منكِ على ميعاد؟»

***

وذهبنا نخطر جنباً الى جنب، وإن قلبي ليتحدّث، وإن قلبها ليجيب، وإن المنى لتبتسم!

وطوينا الطريق في خطوات، وإذا نحن في بيت يجمع من أمرنا ما تفرّق، نُطلّ من شُرُفاته على ذلك النهر الذي شهد بُكرةَ هذا الحب ووَعَى ذكرياتِ هذا الغرام، وإن له لحديقةً تزْهر فيها الأماني وتتفتّح الأحلام

ورحنا نمرح في جنبات الدار كأسعد عاشقين أتمَّ عليهما الحبُّ نعمته وأسبغَ أمنه. فاذا دنا المساء فذراعها الى ذراعي في الحدائق الفينانة والملاعب الساهرة؛ فما في الناس إلا مَن يعرفنا فيتمنّى ويرانا فيغبطنا!

وكنا في البيت فجاءت تسعى اليَّ ضاحكةً مَزْهوّة

قالت: «كيف ترى هذا الثوب ياحبيبي؟»

قلت: «إنكِ به لأكثرُ فتنة!»

قالت: «إنما صنعتُه بيدي، ولقد أدْمَتْ الابرة إصبعي؛ ولكني بما أصابها لسعيدة! أرأيت ياحبيبي إنني لا أشترى جمالي من السوق، ولا ألتمسه عند الخيّاطة؟»

قلت: «إنني بكِ لفخور!»

قالت: «بل قل بربّك إنك تحبني، واترك لي وحـــدى نعمةَ الفخر بحبك!»

ثم لوَتْ لتهيىء لنا الطعام. ما أشهى ما آكُلُ من صنع يديها الجميلتين!

ومضيتُ في سبيلي الى المجد أقتحم الصعب وهي من ورائي تدفعني الى الجهاد وتضاعف فيَّ الأمل. فاذا أعياني الجهدُ ونالني التعبُ وتكاءدتني عقباتُ الطريق — مالتْ عليَّ تهمس في أذني عاتبة:

«كيف تضيق بنفسك ياحبيبي وأنا الى جانبك!»

***

يا لله! أكان هذا كلُّه خيالاً من تلفيق الأحلام، تجمّع من صورة الى صورة دنيا تموج، ومن جزءٍ الى جزءٍ عالماً مصوّراً من المنى التي نلتمسها في اليقظة فلا نراها...؟

لا أكاد أصدق من طول ما تتراءى لي هذه الصور أنها غير حقيقة! فهـأنذا ما أزال أفتش عنها... عنها هي، واثقاً أنني سأجد عندها تعبير أحلامي...!

ويحي؟ أين هي الآن مني؟ أتراني ألقاها في الخيال على غفلة منها، أم أنا من فكرها في مثل موضعها من فكري فنحن نلتقي على ميعاد؟

ألا كَمْ يفعل الحب من معجزات! إنه ليضاعف وجود العاشقين إذ يلتقيان على البعاد في دنيا الوهم؛ فهي معي هنا، وأنا معها هناك...!

***

ومضيتُ على وجهي أتنفّس في الحقول المبسوطة مَدّ البصر وهرول إليّ صبيٌّ ضاحكٌ مبسوط اليدين

قال: «أبي! أنتَ هنا؟ لقد نَشَدْتُكَ طويلاً فما بلغتُ إليكَ نفسي!»

قلت: «أهذا أنت ياولدي؟ ما بيدك؟»

قال: «هي زهرة جميلة، سأغرسها في حديقة الدار تنفح العطر وتبعث البهجة والجمال؛ سَيَسُرُّ أمي أن تراها... أين أمي، لماذا لا أراها هنا؟»

قلت: «أمُّك؟ حسبتُها معك، أتَعْرِف أين ألقاها؟ فقد نَشَدْتُكما طويلاً؛ إن الدار من دونكما خلاء!»

قال: «آه، سأذهب لأدعوَها فإنها في انتظارك من زمان...!»

ويلي! هي هناك تنتظر وأنا هنا؛ فمالنا لم نلتقِ من زمان؟

***

ومضى الصبيّ يبحث عن أمه، وإن عينيه لتنظران إلى الخلف يستوقفني إلى أن يعود!

إن الولد لأبويه هو الحبّ والحنان والرحمة؛ هذا هو يسعى ليجمع الحبيبين وما التقيا قَبْلَها مرّة، فاذا تمّ له أن يخرج إلى الحياة يمرح بين أبويه فانه لَعُقْدَةُ الحب ووثاق الأبد

أرأيتَ إلى الزوجين إذ ينفث الشيطانُ نفثته فتفترق أجسادهما؛ أتراهما يفترقان حقيقة وبينهما غلام؟ ألا إن خواطرهما لتلتقي عنده على طواعية ورضىً في كل لحظة مرات، وإن لم يتراءيا وجهاً لوجه . . . !

***

مضى الصبيّ يبحث . . . وأنا لا أزال أبحث

أنا إلى الآن رجلٌ عزبٌ يحلم . . . وابني إلى الآن لا يزال في الغيب، يستجديني الحياة مني ومن أمه التي لم أعرفها بعد، ولا أزال أبحث عنها، وهي لا تزال تبحث عني . . . !

أين أنت يا ولدي؟

أُتراك تعود إليّ حياً كأولاد الدنيا، أم كنت ومضة أمل برقتْ لعينيّ خاطفة في الحلم، ثم توارتْ كلمحة البرق في ظلال السماء!

أيْ زوجتي التي لم أعرفها لأني لم أرها بعد!

أيْ زوجتي التي تنتظر وراء الستر حالمة ترقب الميعاد!

أيْ ولدي الذي يتوارى خلف الغيب ينادي أباه وأمه!

يا أحبّائي الذين يبحثون عني كما أبحث عنهم منذ سنين وسنين وسنين؛ أما آن لنا أن نلتقي حتى ألتقي النِّعَم الثلاث في زوجتي وولدي وفتاتي؟

أين أنتم يا أحبائي . . .؟

طنطا — محمد مفيد الشوباشي

عظمة الكون وسعة وأنظمة

ربنا ما خلقت هذا باطلاً!

للأستاذ قدري حافظ طوقان

قد يستغرب القارئ إذا قيل له إن شمسنا ما هي إلا واحدة من شموس لا عدّ لها، وقد يزيد استغرابه إذا قيل له أيضاً إنه بتلسكوب جبل ولسون الذي قطر عدسته العاكس متران ونصف متر، وبالوسائل المتعددة للتصوير بالفوتوغراف استطاع العلماء أن يكتشفوا أن مجرتنا تتكون من ألوف من الملايين من النجوم، وأن وراء ذلك مجرات وجزراً كونية أخرى يربو عددها على ملايين عديدة.

قد يظن البعض أن الكون على هذه الحال مزدحم وليس فيه فراغ، وأنه ملآن بالعوالم والأجرام، ولكن الثابت أن كل هذه العوالم والأكوان لا تشغل إلا حيزاً صغيراً جداً بالنسبة للكون الأعظم، وأننا في خضم من الفراغ، وأن الفضاء أفرغ من أي شيء نستطيع تصوره. ليتصور القارئ وجود ثلاث نحلات في قارة أوروبا وعندئذ يكون هواؤها لا يزال أكثر ازدحاماً بالنحل من ازدحام الفضاء بالنجوم في أجزائه التي نعرفها. إن الأمواج اللاسلكية التي تسير بأعظم سرعة نعرفها (سرعة الضوء وقدرها ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية)، هذه السرعة تصل المريخ في دقيقتين، ولكن قد يذهل البعض اذا علم أن هذه الاشارات تحتاج إلى سنين، بل إلى مئات وألوف منها لتصل إلى سيارات بعض النجوم الموجودة خارج مجرتنا؛ وقد لا يصدق البعض الآخر إذا قيل له إن أقصى السدائم التي نراها في الفضاء يبلغ بعدها (١٤٠) مليون سنة ضوئية، أي أن ضوءها يستغرق ١٤٠ مليون سنة في الوصول إلينا. وسيكشف لنا العلم بوسائله المتعددة عن سدم أبعد من هذه بكثير

يظهر مما مر أن المسافات التي تفصل بين الأجرام السماوية شاسعة جداً قد لا يستطيع العقل البشري تصورها، وأن الكون أعظم مما نتصور، وكلما تقدم الانسان في ميدان المدنية على اختلاف مناحيها تتجلى له عظمة هذا العالم وروعة هذا الكون، وتتجلى له غرائبه بما يخلب اللب ويدهش العقل ويحير الفكر

ومن يبحث فى هذا الكون العظيم ويسع فى الوقوف على أنظمته والقوانين التى تسيطر عليه يجد أن لا شىء فيه إلا ويسير ضمن دائرة من القوانين لا يتعداها ، وأن لكل شىء سبباً ، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها . . . فالمادة تتألف من الجواهر الفردة ، وهذه تتألف من كهربائية سالبة تسمى كهرباً ، وكهربائية موجبة تسمى نواة ؛ والكهارب تدور حول النوايا فى أفلاك ، وهذا التركيب وما فيه من نظام وما يسوده من قوانين يشبه النظام الشمسى ، فهو مجموعة شمسية مصغرة ، فالنواة تقابلها الشمس ، والكهارب تقابلها السيارات دائرة فى أفلاكها حول الشمس ، وتصدق هذه المقارنة على حجوم الكهارب والنوايا وعلى المسافات ؛ فلقد ثبت أن نسبة حجم الكهرب إلى النواة تقارب النسبة بين حجم أحد السيارات المتوسطة والشمس . مما تقدم ومن نتائج بحوث علماء الفلك يظهر أن الكون متسق فى نظامه ، متناسق فى أجزائه ، متشابه فى تركيبه ، والنظام الموجود فى السيارات والشموس هو بعينه فى الجوهر الفرد ، فى الكهارب وفى النوايا ؛ والقوانين التى تسيطر على الأولى تسيطر على الأخيرة ، أى أن الكون فى أصغر موجوداته وأكبرها سار ويسير حسب نظام مخصوص وحسب قوانين ثابتة اكتشف الانسان بعضها ، وأن موجودات هذا العالم أيضاً متصل بعضها ببعض لا يستغنى أحدها عن الآخر ، وأنه ما من شىء خلق لنفسه أو يقدر أن يعمل شيئاً بدون غيره ، والجوهر الفرد بالكتروناته ونواياه هو أصل كل شىء فى الوجود ، فى الأرض ، فى السيارات ، فى الشمس ، فى النجوم . . . . والعلاقة بين كل هذه متينة والرابطة أمتن ، علاقة التشابه ورابطة التركيب ؛ فمن الذرات الكهربائية تكونت الجواهر الفردة ، ومن الجواهر الفردة تكونت الدقائق التى منها تتكون المادة ، ومن ذلك أصل النظام الشمسى والأنظمة الشمسية الأخرى وما فيها من نجوم وسدم وسيارات ومذنبات وشهب الخ . . . .

والآن . . . نأتى الى الانسان . . . . ما علاقته بهذا الكون ؟ ما مقامه ؟ بينما نرى الانسان كبيراً جداً جداً بالنسبة الى الجواهر الفردة ، إذ وزنه يعدل ألف مليون مليون مليون مليون جوهر فرد ، نراه فى الوقت ذاته صغيراً جداً جداً بالنسبة الى أحد الكواكب المتوسطة القدر التى وزنها يعدل عشرة آلاف مليون مليون مليون مليون رجل . . . .

من هنا نرى أن الانسان يكاد يكون متوسطاً بين الجواهر الفردة والكواكب ، ومن هذه النقطة المتوسطة يستطيع (الانسان) أن يكشف عن طبيعة الأشياء الصغيرة من جهة ، والأشياء الكبيرة من جهة أخرى بفضل ما وهبه الله من الصفات العقلية والروحية

قد يقول البعض إن الانسان استطاع أن يصل الى نقطة قد تساعده على فهم أسرار هذا الوجود ، وعلى الكشف عن غوامضه والوقوف على حقيقته

ولكن مهلاً . . . . كلما تقدم الانسان فى الكشف عن قوانين الطبيعة وفى تفهم أسرارها ، رأى نفسه أمام أسئلة عديدة لا يستطيع الاجابة عنها ، وقد زاد اعتقاداً بضآلته وجهله وبأنه لم يكتشف شيئاً بعد ، وأنه لا يزال فى فجر يقظته العقلية ، وفى أول مراحل التفكير الجدى فى الوقوف على أسرار الوجود . وكلما قلب بصره فى هذا الفضاء وزاد معرفة به ، شعر بأن الوداعة تقترب منه ، وأن من الواجب عليه أن يكون فى الذروة العليا من التواضع وسمو الخلق ؛ ولا عجب فى ذلك ، فحسبه أن يعرف أن الأرض إزاء الأجرام السماوية التى لا عد لها أشكالاً وأنواعاً كذرة من الغبار سائرة الى الفناء لا تأبه للحياة

وفوق ذلك فأجزاء هذا العالم مرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقاً لا يستغنى أحدها عن الآخر ، ولا يستطيع أى جزء أن يسير بدون غيره ، والانسان مرتبط بأخيه الانسان ، وهذه كرته التى يعيش عليها وما فيها من حيوان وجماد ونبات ، لها علاقات مباشرة وغير مباشرة مع غيرها من الكواكب والنجوم ؛ فلولا الشمس لما عاش النبات والحيوان والانسان ، ولولا القمر لاختل نظام التجارة ، ولولا الكواكب والنجوم وجذب بعضها لبعض لما استطاع أن يحفظ كل نجم أو كوكب مركزه فى هذا الوجود ، ولسادت الفوضى وعم البلاء . وعلى هذه الحال ، فالعالم مترابطة أجزاؤه ، تسيطر عليها أنظمة وتتولاها قوانين لا تتعداها ولا تشذ عنها . والذى لا ريب فيه أن هذا الكون لم يوجد من تلقاء نفسه ، إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه (أى فى

٢ - من أدب الزراعة

للأستاذ محمد محمود جلال

تمر اليوم بالحقل فتقر عيناك ببساط سندسي وقد نبت البرسيم فجلّى عاطل الأرض بعد أن كان حباً ميتاً يوم جيء به من المخزن فبذر في ظل الذرة نامية السوق ناضرة اللون فتتمثل بقول الصانع الحكيم «يخرج الحيّ من الميت» . . .

ولكل نبت من شعرات البساط مهما دق روح وخصائص للنمو والتزاوج والأزهار والأثمار

يروقك المنظر بعد أن انجلى عنه ما كان يشوبه منذ أيام من سوق يبست فثقلت على النفس، وهانت على الزمن، فناداها أجلها فانتهت أشبه ما تكون بعهد الظلم أو بالظلام عفّى ضياء العدل أو ضوء الشمس آثاره .

حبذا الحدود تضع لكل مخلوق دوراً، وحبذا التزامها، وما أبكر الطغيان !!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أخذ من الدنيا فوق حاجته أخذ حتفه وهو لا يشعر»

ولكن الخير المحض لا وجود له في الدنيا، وكذلك لم يخل الله مخلوقاً من نفع، فذاك اليبس في السوق، وتلك الضآلة في منظر الذرة حين يجف، إنما تحمل مادة الحياة وغذاء الغالبية العظمى

تلك الأمطار(1) المثقلة أشبه بثمار التجارب وعميق الفكر، لا تنضج إلا في استواء العمر وأواخر الحياة، فيكثر الأطراق والأغضاء اتساعاً للناس على علم من الحياة، ورحمة بالعاني والخاطئ، وتحبب إلى النفس العزلة والانزواء، فيسعى إلى أهل الرأي والتجربة رائدو الحكمة وطالبو العلم كما يسعى الناس إلى التمون من تلك الثمار الجافة حيثما وجدت

وفي مظاهر الهدوء والأطراق سمة الأنماط والبعد عن الزهو والصلف، وهي مظاهر لا تلقاها إلا حيث تلتقي الفضل والنبل، بل هي سياجهما وشارتهما كما يقول المرحوم شوقي بك :

ومن لم يجمّل فضله بتواضع ... يبن فضله عنه ويعطل من الفخر

على أن هذا البساط الذي يأخذ بالأبصار، ويضفي اليوم على الوادي ثوباً قشيباً حبيباً، إنما نبت في كنف غيره، وإنما كفله وأخذ بيده سواه .

في دفء «الذرة» يوم كانت حلية الأرض تغذي، وفي حمى سوقها التي تزدري اليوم الزهر . فكانت له الأب البار أو الوصي الأمين، حتى تم الدور فتخلت ناعمة لسمتها راضية قدمت الخير وما أنت، وما خلفته إلا حين رأت فيه القدرة على بدء دوره

معان للتعاون وربط أدوار الحياة بعضها . (وفي الأرض آيات للموقنين) . ومنذ آلاف السنين تمر قوافل الأجيال منا في كنف الوادي الأمين بتلك العظات، وتتصفح أخراها تاريخ أولاها، وتتبين العز يكلل جبين القوم متحداً، وسيف الذل مسلطاً على رقابه متفرقاً :

عظة قومي بها أولى وإن ... بعد العهد فهل يعتبرون

أجل، لا يعتبرون ولو تكررت العظة في كل موسم !!

فاذا أشحنا عن منظر لا يروق، ردنا إليه الذكر حين ندرك بدءه فيما يروق، وفاء للغابر، وعرفاناً للجميل :

ومن شكر المناجم محسنات ... إذا التبر انجلى شكر الترابا

***

(1) الأمطار جمع مطر بضم الميم وسكون الطاء سنبول الذرة (كوز)

الكون) هذا النظام وهذا التنسيق، بل إن هنالك قوة خارقة منسقة منظمة، لا يحيط بها عقلنا، بل هي تحيط بنا وبهذا الوجود من كل ناحية. أوجدت هذا الكون الأعظم وجعلته يسير ضمن نواميس ثابتة . ومهمتنا نحن البشر أن نزيد معارفنا عن هذه النواميس ونبحث في أصولها، وكلما زدنا معرفة بها زدنا اعتقاداً بقدرة الله الخارقة المنظمة، وإيماناً بعظمته وقوة إبداعه، وظهر لنا بجلاء مقام الإنسان في هذا الكون الذي لم يخلق باطلاً

هذا الاعتقاد، وذاك الايمان اذا رسخا عن طريق الدرس والبحث فإنهما يسموان بصاحبهما الى عالم أسمى من عالمنا، وفي هذا لذة روحية هي أسمى أنواع اللذات

«إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك . . .»

قدري حافظ طوقان

والحياة مزيج ، فهنا تلقى بقعة من منضور النبت حاليــة ، وهناك تلقى قطعة من بهجة الأرض عاطلة ، بل قد ينفر سمعك من الأسم الذى يطلقه عليها «أدب الزراعة» فهى تسمى فى العرف بوراً

هذا (البوار) مقدمة الخطبة ، وهذه « البائرة » كثيرة الخاطبين فعطلها اليوم مؤقت ، وخلوها قصير الأمد « وبورها » فأل الخير الدافق فى المستقبل القريب

هذه القطع الخالية هى المعدّة لزراعة القطن فى الموسم القادم ، فهى اليوم رهن التهييء والأعداد

(بورها) كيوم الجمعة عندنا ، تستجم فيه العافية ، وكيوم الأحد عنـد غيرنا ، جعلوه للراحة والتسلية ، فاذا أقبـل يوم السبت أو الأثنين فنشاط يفوق نشاط الأيام الأخرى

عاطلها اليوم كذوى النفع والخير المستخفين ، أو الذين تقصيهم الأوضاع السقيمة وطغيان المتحكمين فى البيئة كما قسمت الأرض لمحض فكرة الزارع فى الكسب – حتى يأتى عدل الله ، فيقيم المعوج ، ويقصى الضار ، ويظهر الحق ، ولكل أجل كتاب

هذه القطع (البور) غمرها ماء النيل رجاء إخصابها ، ولتجدن من بينها اليوم ما يأنس بالمحراث أنس الطروس بالأقلام ، تسيل علماً وحكمة وأدباً مروحاً ، حتى إذا نظرت اليها نظرت الى سطور خير فى أسرع الصحف تلبية وانتاجاً

ولقد شاد بتلك الروعة الضابط الميوف (محمد توفيق على) حين اضطر الى ترك الصفوف وخدمة الجيش ، وعكف فى مزرعته ينـدى ميدانى الأدب والزراعة فقال :

ويا سطوراً بمحراثى أدبجها
لا يستقل بها القرطاس والقلم

أما « المحراث » الذى يشق لنـا الأرض اليوم ليفتح سيل الخير غداً فقد جاءنا بأ كثر من احتلال واحد

فاذا ذكرت «قصر النيل» ومآله ، «وقشلاق العباسية » وعاره ، فانك واجد فى أعماق الريف وأينما سرت فوق التربة المصرية «فوردسن» و«لانس» و«هوفر» من معادن غربية عنا ، وبائعين لا بد كرون لنا من حسنة الاسداد « القسط » ، فاذا أردنا للمحراث حركة ، فلابد من « البنزين » من أمريكا ، « والقار» من رومانيا ، والزيوت من أصقاع نائية

وأما تلك الأوراق التى يوقعها الزارع . فنـذاء للمحاكم المختلطة ، وجن يحمل المال من مصر الى أوربا ، وآفة من آفات الأهمال قضت على إحدى صناعات الزراعة ، وهى تربية الماشية ، ودهورت أسعار الحبوب والزروع من فول وشعير وعلف ، كانت تحمل من أرضنا الى موانينا ، ونؤدى الثمن فى المنيا والخرطوم ، فلا تعدو خيراته الأسكندرية ، ثم يعود فى أبواب أخرى الى المدينتين وسواهما من مدن القطر المصرى السودانى وبلاده وقراه !

محمد محمود جهلول
المحامى

الشاعر والطبيعة

بقلم نظمي خليل

... كل شئ في هذا العالم محاكاة ، والفن هو أكثر الأشياء محاكاة للطبيعة . والشعر هو أسمى أنواع الفنون ، لأنه لا يعطينا الصوت فقط كما تفعل الموسيقى ، أو الشكل فقط كما يفعل النحت ، أو اللون فقط كما يفعل التصوير ، ولكنه يمزج هذه كلها ويقدم لنا صورة حية تؤثر في الحواس كأنها الحقيقة بعينها ، بل ربما كانت أكثر حقيقة من الحقيقة ذاتها ؛ لأن الشئ الذي لا نراه إلا بالفن يكون خارجاً عنا ولا يقع تحت إدراكنا ، ولكن عندما يصفه شاعر موهوب نراه ونشعر به أيضاً ، ونقف على مادق وصغر من كنهه الدفين . بل قد يتفتح هذا الشئ من تلقاء نفسه عندما تتسلط عليه عين شاعر نافذة فتكشف عن دخائله في غير تستر ولا استخفاء .

.. ولكن الشاعر لا يحاكي ما يراه من مظاهر الطبيعة ومناظرها كما يحاكيها الرجل العادي ، بل هو لا ينظر إليها نظرة سطحية ساذجة كتلك التي يلقيها الرجل العادي ، ولكن نظرة الشاعر أوسع وأشمل ، لأنه يعيش في عالم أوسع وأشمل وأعمق من عالمنا ، وينفذ ببصيرته إلى جوهر الأشياء ولبها . بل إن أذن الشاعر أكثر موسيقية وحساسية من أذن الرجل العادي لأنه يشعر ويسمع كل ما يحيط به من عالم الحس والموسيقى ، ويتبين أنغامه ويستمع أصواته المتوافقة الجميلة . فهو وحده الذي يستطيع أن ينفذ إلى قلب هذا العالم الذي يهتز دائماً بأنغام موسيقية متزنة ، وهو وحده الذي يمكنه أن يفصح عن هذا الجمال الموسيقي في صوت قوي جذاب ، لأن صوت الشاعر أقدر الأصوات وأصلحها لأداء هذه المهمة السامية الجليلة !

فقد يقف إنسان على صخرة عالية وينظر إلى البحر الذي أمامه فيراه يتحرك ثم يصطفق ثم يعلو ثم يفيض ثم يهتز ثم يلمع فلا تهيج فيه هذه الصور الجميلة المتتابعة شعوراً ولا تهز منه قلباً ، ولعله لا يفطن إلى هذه التغيرات السريعة المتعاقبة ، ولا يفقه لهذه الحركات والتموجات المائية جمالاً ، ولكن هذه الصور المتحركة الجميلة لا تمضي دون أن تثير في الشاعر نوعاً من الاحساس العميق القوي فتدفعه إلى تحريك اللسان ، كما حركت لسان تنيسون من قبل فقال : « إن البحر المتجعد يدلف تحته » أو كما حركت لسان بيرون في المحيط فقال : « مرحى ! مرحى ! أيتها الأمواج الزرقاء . مرحى مرحى أيتها المناور والفجاج ! إلى الأمام أيها السفين إلى الأمام ! إن أرض الوطن قد توارت . أيها الوطن سلام عليك ! اصطخب أيها المحيط الأزرق العميق ، اصطخب أيها المحيط لقد أحببتك . وعلى صدرك كانت ملاعب صباي ، ومواطن سروري ؛ كنت أعبث بأمواجك صبياً وكان ذلك أعظم سروري . فإن جعلها البحر رعباً فما أحبه رعباً ! كنت ألجأ إليك كأنك أبي ، وأخلد إلى أمواجك القريبة والبعيدة ، وأمر يدي على لبدك المتكاثفة كما أفعل هنا الآن . »

. وقد يقف إنسان بجانب ماء آخر ليس لامعاً ولا متحركاً ، ولكنه مظلم عميق ، فلا يفكر في جمال هذه الصورة ولا يشعر بها ، لأنه لم يوهب حساسية غزيرة أو شعوراً قوياً عميقاً يدفعه إلى أن يديم النظر في مثل هذه الصورة الطبيعية الأخاذة ، ولكن الشاعر الذي يشعر بهذا السكون ويفكر في هذا السكون ، لا يفوته هذا الجمال الطبيعي الساذج فيصيح من تلقاء نفسه كما صاح تنيسون من قبل إذ يقول : « إنها عين ماء نائمة »

. فالشعراء يشعرون بما حولهم من عالم الحس والطبيعة وهم لا يقنعون بهذا العالم الأرضي ، بل يشعرون بكونه بالعالم السامي ، عالم الخيال ، دون أن ينفصلوا عن عالمهم الأول . أما أولئك الذين لا يحسون بهذا العالم السامي ، عالم الفكر الدقيق ، والخيال البعيد ، فإنهم لن يكونوا شعراء وإن كانوا يستطيعون النظم ونحت القوافي

وقد يتمادى بعض الشعراء في شعورهم بهذا العالم الآخر فينسون أنفسهم وهم يحلقون إليه فيضلون الطريق ولا يستطيعون الرجوع إلى أوكارهم الأولى فيمضون يضربون بأجنحتهم في الفضاء على غير هدى حتى ينالهم التعب ويلحقهم اليأس فيهوون من سماء عليائهم محطمين . . . .

. . . فالشعراء حقاً هم الذين يصلون العالمين ، ويجمعون بين الحياتين : حياة الواقع وحياة الخيـــال . الشعراء حقاً هم الذين يتأثرون بما حولهم ويأخذون جانباً كبيراً من عواطفهم من العالم الظاهري . من نسائه وأزهاره وأجوائه ودقائقه ،

ثم هم يلقون على هذه العواطف ألواناً من العالم الخفي حتى تظهر كأنها غريبة عنا . . .

فالشاعر لا يرى الأسد كما يراه عالم الحيوان ؛ ولكنه يخلع عليه صوراً تجمع بين ضروب المشابهة والضد ؛ فيتأمله في حالات عدة كالذعر والخوف والاعجاب ، وقد يأتي وصفه بعيداً عن الحقيقة ؛ ولكنه وصف شعري جميل على كل حال

وليس المهم في الأمر هو صدق الوصف ومطابقته للواقع أو عدم مطابقته ، بل الشيء المهم هو صدق عاطفة الشاعر . فان لم يكن الشاعر صادق الشعور والعاطفة جاء شعره رديئاً ... ووصفه غثاً

. . . ونظرة الشاعر لزهرة السوسن الأبيض ليست كنظرة البستاني لها ، وليست نظرة هذين الاثنين كنظرة عالم النبات الأخصائي . فاذا سألت البستاني عن هذه السوسنة لم يزد على أن يذكر اسمها ؛ هذه حقيقة ، ولكن الشاعر لا يقف عندها بل قد يجيبك كما أجاب « سبنسر » « إنها سيدة الحديقة » وهنا نبتدىء نحس ببعض ما في هذه الزهرة من جمال شعري وحسن ، وقد يأتي شاعر آخر « كبن جونسون » وينظر الى هذه السوسنة متأملاً فيقول « إنها نبتة الضوء وزهرته » وهكذا يظهر لنا الشعر الجميـــل هذه الزهرة في حلل بهائها وسرها الدفين

***

الآن وقد عرفنا أن مادة الشعر هي الحياة ، كما هي مادة كل فن آخر من الفنون السامية ، وأن غـذاءه من الطبيعة ، وهي غذاء سائر الفنون ، نريد أن نعرف مـدى تأثير طبيعة إقليمنا المصري في شعرائنا المصريين

لقد قدمت أن الشاعر الحق هو الذي يشعر بما حوله ، أي هو الذي يحس بطبيعة بلاده أو البلاد التي يعيش فيهـا ، فيتأثر بجوها ، ويستلهم سماءها ومناظرها ، فتوحي اليه روائع الأشعار

هذا ما كان عليـــه ذلك الشاعر الجاهلي الذي عاش في الصحراء ، والذي أفصح عن حياته البسيطة الساذجة في أسلوب شعري دافق

عاش الشاعر العربي القديم تحت سماء صافية سافرة . وفوق رمال مترامية متصلة ، وجبال تتفاوت عـلواً وانخفاضاً . يجيل بصره فيما حوله فلا يرى إلا كثباناً من الرمال . وأودية ممرعة نبتت حول بعض الآبار ، وقطعاناً من الأبل تروح وتغدو على هـذه المراعي الخضراء . هذا ما كان يراه ، وهـذا ما ألف رؤيته كل يوم ، فلم يحاول له تغييراً . . .

لم يعرف حياة الاستقرار والطمأنينة ، ولم يتعود حياة الرفاهية والكسل ، بل كانت حياته حرباً مع الطبيعة ، لا ينفـك عن الصراع معها . لذلك جاء شعره صدى لتلك الحياة القوية العنيفة التي كان يحياها قوياً عنيفـاً ، يعـبر عما كان يعصف بقلبه من أشواق ولهب ، وما يتنازعه من نورات ونزوات . ومن أجل هـذا نرى الشعر الجاهلي أصدق أنواع الشعر لسلامة نفوس قائليه . فهو شعر الفطرة والسذاجة لا شعر الصنعة والتكلف . هو خال من كل فن ورياء ، يكشف عن نفسية عربية سليمة ، وروح أبية كريمة . ومن أجل هذا نجد كل ما في هذا الشعر من صور قد أخذها الشاعر مما حوله ، فهو يستهل قصيدته بوصف الأطلال ، ودار الحبيبة التي أقفرت وخلت بعد أهلها . ثم يصف النؤى والأحجار التي حول هذه البيوت ، وكيف أن هذه النؤى قد أعانته على معرفة هذه الديار بعد غياب دام سنين طوالاً . ثم يذكر حبيبته وما كان بينهما من حب ، وينتقل من هـذا الى وصف ناقته وصفاً دقيقاً ، يصف جسمها وسرعتها ، وصبرها على وعورة الطريق وبعد السفر . ثم ينتقل بعد هذا إلى موضوع القصيدة من مدح أو فخر

هذا شأن الشاعر الجاهلي الذي عاش في قلب الطبيعة ، والذي تأثر بالطبيعة ، ففاضت نفسه بحبها والاشادة بجمالها .

فأين شعراء مصر اليوم من أولئك البدو الذين صوروا لنا تلك المناظر الجافة من رمال وجبال وأطلال قد لا تثير إعجاباً ، ولا تهز قلب من يراها اليوم في صور شعرية كلها صدق وجمال

ما بال شعرائنا المصريين قد جهلوا الطبيعة وتغافلوا عن أثرها القوي في حياة الشعر وخلوده ؟

. . . إن أدبنا المصري الحديث على ما يزخر به من دواوين شعرية لا تعد ، وكتب نثرية لا تحصى ، أعجز من أن يقف بجانب غيره من الآداب الغربية كالفرنسي أو الانجليزي في وصف الطبيعة . فاذا عرضنا الى الأدب المصري الحديث فاننا نجده خلواً من الأوصاف الطبيعية والصور الريفية

أليس من النقص المعيب فى أدبنا المصرى ألا نرى فيه أغانى شعبية تمتزج بالطبيعة المصرية وتصطبغ بالصبغة القومية ؟ أليس من العيب أيضاً أن نجد شاعراً انجليزياً « كلى هنت » يصف النيل ويستمع الى ضحكات كليوباطرة وسط خرير مائه العذب ويستوحى طبيعة مصر الشاعرة فتأتيه الصور متزاحمة فيندفع بشعوره مع تيار النهر ويمتزج بطبيعته ثم يفيض على جانبيه شعراً قوياً جيلاً ؟ بل أليس منظر الفيضان وجريان مائه فى قلب الوادى مما يثير فى كل مصرى شعور العزة والمجد والفخار ، ويهز قلب كل شاعر مصرى فيترنم بأناشيد الحب والجمال . . ليس من شك فى أن طبيعتنا المصرية طبيعة جميلة ، شاعرة ، وليس من شك فى أن طبيعتنا المصرية طبيعة هادئة تبعث على التأمل والتفكير . . ولكن لم لم تلهم شعراءنا المصريين هذا الشعور القوى والإحساس الغزير الذى يحسه فى شعراء الطبيعة الغربيين ولا سيما الانجليز ؟ إن الذى يقرأ وردزورث ويرون وشلى وكيتس وغيرهم من الشعراء الابتداعيين الذين ظهروا فى أوائل القرن التاسع عشر يشعر بقوة هذا الشعر وأثر الطبيعة فيه ، بل يشعر بأن روح الشاعر قد امتزجت بما حولها من الجبال والوديان والبحيرات والبحار فصارت جزءاً منها .

ومن يقرأ « شلى » يقف على سر إحساسه بالجمال . فهو لم يرض بهذا العالم ليكون مأوى صالحاً لروحه ، ولكنه لم يجعله عدواً لمثله الأعلى . فهو يتساءل لم لا يكون جيلاً كالبحار والنجوم والبحيرات والغابات والجبال . فطبيعة شلى كانت ميالة دائماً الى ازدراء الحقيقة .

وإن من يقرأ مناجاة شلى للقبرة يقف على تلك العاطفة القوية ، عاطفة الحب التى تسلطت على جميع مشاعره ، فهو يقول : « سلام عليك أيها الطائر السامى الذى لم تلامس الأرض ، ولكنك تحلق فى أطباق السماء العامرة بينابيع الفن الأصيلة حيث تنسكب فى قلبك . ترتفع عن الأرض وتسمو عالياً وعالياً كسحابة من نار ، وترفرف بجناحيك فى أعماق الجو الصافى . ثم تشدو وأنت تغنى ، وتغنى وأنت تشدو . . . فى الأنوار الذهبية للشمس الغارقة فى بحار السحب تطير وتسبح . أيها الطائر إنك وإن كنت بعيداً عن أنظارنا ، ولكنى أسمع أنشودة سرورك ، تملأ الأرض والجو بصوتك إذا ما خلع الليل رداء السحب وسقطت أشعة القمر الباردة فغمرت الكون . . . أيها الطائر إنك شاعر مختبىء فى ضوء الفكر يترنم بأناشيد الخلود ، حتى يتنبه له العالم فيحنو على الآمال ولا يبالى بالمخاوف . . . خبرنى من أى الينابيع تستق سعادتك ؟ أمن الحقول ، أم من الأمواج ؟ أم من الجبال ، أم من الأجواء ، أم من السهول ؟ إن سرورك الصافى العميق لن يفتر ولن يقل ، وإن شبح الكدر لن يحوم حولك ، إنك تحب ، ولكنك لم تشرب قط ثمالة الحب المحزنة . . . . . »

وقد تحس وأنت تقرأ شعر بيرون بذلك التجاوب القوى بين روح الشاعر وروح الطبيعة . تلحظ ذلك واضحاً فى سياحته الثانية فى أوربا عندما يترك الآثار والتاريخ والمجد والشهرة والشعوب وماضيها وينحاز الى جانب الطبيعة ، فيتحدث اليها فى شعر عذب رقيق ، فيقول : « إن الطبيعة المحبوبة لا تزال أبر أم بنا ، ومع أنها دائمة التغير فهى باسمة دائماً ، فدعنى أرتمى على صدرها العارى الحنون ، فانها لم تفطم ابناً وإن لم يكن عزيزاً لديها . . . إنها أجمل ما تكون فى مظاهرها الوحشية حيث لا شىء إلا السذاجة والفطرة والبعد عن كل زينة وصنعة . إنها تبتسم لى دائماً ، ليل نهار ، مع أنى أرقبها حيث يخلو الطريق من الناس ، وأبحث عنها فى دأب وصبر ، وأحبها فى شغف وكلف عند الغضب . . . . أيتها البحيرة الساكنة السطح الراقدة الماء . لقد لجأت اليك فى هذا العالم الصامت . إن فيك لدفئاً لفؤادى ، وإن فى مياهك الهادئة لراحة لنفسى وسلواناً . . طالما أحببت اصطخاب البحر وزئيره ولكن وسوسة مياهك الناعمة والهدير المردد بين ضفافك يرن فى أذنى حلو الأنغام كأنه صوت أختى أتانى خلال مياهك . . . إن أقوى اللذات لا تنعش روحى هكذا . . .

. . . هاهو الليل . . أيها الليل الجليل . إنك لم ترسل للنوم . دعنى أقاسمك أنسك ووحشتك ، وأتلاش فى العاصفة وأفنى فيك . . كيف تضىء البحيرة ، وكيف يلمع البحر ويأتى المطر راقصاً مهتزاً الى الأرض . . »

. . . قد يقول قائل إن الطبيعة المصرية خلو من مناظر سويسرا ، مفتقرة الى الجبال الشامخة والوديان العميقة والبحيرات

الجميلة . فهي طبيعة هادئة لينة أقرب الى الضعف منها الى القوة .

وقد يشتط فى القول فيعلل ضعف أثر الطبيعة فى نفوس شعرائنا المصريين بعدم وجود الهيارات الثلجية والجو القارس الذى يبعث النشاط والحركة . قد يكون لهذا الاعتراض بعض وجاهته . وقد تكون الطبيعة المصرية مفتقرة الى هذا العنصر من عناصر القوة ، وقد تكون الطبيعة المصرية متشابهة المناظر موحدة الصور . فقد لا يشعر المسافر من الاسكندرية الى أسوان باختلاف كبير فى طبيعة وادى النيل ، فقد يجد سهولاً مترامية تكسوها النباتات الخضراء فى أراضى الدلتا . وقد يجد وادياً ضعيفاً تكتنفه على الجانبين جبال تتفاوت فى البعد والقرب فى أقليم الصعيد

قد تكون وحدة الصور هى التى عملت على إضعاف أثر الطبيعة فى نفوس شعرائنا فجعلتهم ينصرفون عنها ، ويستوحون طبيعة أوربا ذات الصور المتعددة والأشكال المتباينة . قد يكون لوحدة الطبيعة المصرية ، وقرب تشابهها بعض الأثر . ولكن هذا الأثر لا يجعل شعراءنا وكتابنا ينسون أو يتجاهلون أثر الأقليم المصري كله ، أثر ذلك الجو الصافى والسماء الزرقاء والحقول المنبسطة

إنى لا أنكر أن بيننا كتاباً وشعراء طبيعيين قد أحسوا بما جهله غيرهم ، وأنهم قد شعروا بهذا النقص المعيب فى أدبنا فأرادوا أن يسدوه

... ولكنى أتساءل فى صراحة غير جارحة ، هل كان شعورهم بطبيعة بلادهم آتياً من طبيعة نفوسهم . هل أووا الى طبيعة بلادهم يستلهمونها هذا الفن الخالد ، فن الأدب السامى الرفيع بدافع نفسى خالص ، أم أن أثر الثقافة الغربية والتأثر بالشعراء الابتداعيين فى فرنسا وانجلترا كان هو الموجه لهم الى ذلك ...

... إنى أخاف أن يكون هذا صحيحاً . وأخاف أن تكون طبيعتنا المصرية الجميلة الساحرة ، طبيعتنا المصرية المتأملة المفكرة قد عجزت عن أن تلهم شعراء مصر الشعور بالجمال والغبطة والهدوء . أخاف أن تكون طبيعتنا المصرية الشاعرة عاجزة عن أن تستأثر بأبنائها الكتاب والشعراء فتجذبهم نحوها وتفنى فيهم ويفنون فيها كما تفعل الطبيعة الانجليزية مثلاً . . .

أرجو أن تكون طبيعتنا المصرية قوية كما هى جميلة ، ساحرة كما هى هادئة . وأرجو أن يكون هذا النقص راجعاً الى شعرائنا الذين لا يكادون يشبون حتى يتركوا أمهم الرءوم وينسون موطنهم الأول ويدلجون فى ظلم الحياة فتلهيهم عن ذلك المستودع الغنى بفنون الحسن والجمال

نظمى خليل
بكالوريوس فى الأدب الانجليزي

آخر طلق من بندقيتى

للامارتين

....

خرجت ذات يوم للصيد ، فلمحت على بعد ظبياً تلوح عليه دلائل الطهارة والغبطة وهو يقفز مرحاً فوق الخضرة التى بللها الندى

ويظهر أن الغريزة التى تخلقها العادة تتغلب دائماً على الطبيعة النفور من القتل ، ولذلك لم أشعر إلا وقد فتتت رصاصتى إحدى كتفيه . وعندئذ أخذت أقترب منه وقد هرب دمى واضطربت نفسى ، لأن ذلك الحيوان الوديع كان ورأسه ملقى فوق العشب ينظر إلى بعينين تسبح فى مآقيهما الدموع

نعم إننى لن أنسى تلك النظرة التى جمعت بين دهشته وألمه ، لأنها كشفت لى عن مبلغ شعوره الناطق وإن كان أبكم . شعرت كأنها توجه إلىّ مرير العتب على قسوتى التى لم تقم على سبب ، وكأنها تقول لى :

« من أنت ؟ إننى ما أسأت إليك . بل ربما كنت من الصابرين على حبك . فلمَ طعنتنى تلك الطعنة القاتلة ؟ ولمَ تطمع فى حصتى من السماء والهواء والنور وتحول بينى وبين الحياة والشباب ؟ ماذا يكون حال أمى واخوتى وصغارى وصحبى وهم يرقبون عودتى إذا لم يروا بعد ذلك إلا بعض نتف مبعثرة من صوفى على أثر اعتدائك ، وهذه النقط من دمى الذى لطخت به وجه هذا العشب النضير ؟ أفاتك أن فى السماء منتقماً لى وقاضياً لك ؟ ومع ذلك فقد صفحت عنك ، وهاهاتان عيناى لم يبق فيهما أثر للحقد ، لأننى فطرت على التسامح ، حتى مع قاتلى ! »

محمود خيرت

أسطورة هندية

قلب الشاعر

للأديب حسين شوقي

لما فرغ الآلهة من خلق العالم السفلي ، دعوا إلى حضرتهم الشاعر الذي كان قد سئم الأقامة بجوارهم وقالوا له : « إن الحياة هنا كما ترى عابسة لا تسرك أيها الشاعر ، إنك في حاجة إلى التسلية . . اذهب إلى العالم السفلي الذي فرغنا من خلقه عساك تسر بما تشاهد هنالك من مناظر وملاه ، ولسوف تدهشك أخلاق الذين أسكناهم إياه . . إنما يجب أن نحذرك تعاطي مخدر يتناوله بنو البشر يدعى الحب ، لأن هذا المخدر قتال وإن كان لذيذاً ، وبخاصة لقلب شاعر رقيق . . »

انصرف الشاعر من حضرة الآلهة بعد أن سجد لهم شكراً على هذا العطف ، ثم تناول مظلة ففتحها ثم هوى بها في الفضاء آخذاً طريقه إلى الأرض . . ما كاد شاعرنا يهبط حتى عرف أن البشر مقسمون الى ثلاث طبقات : العظماء ، والأوساط ، والفقراء . . قصد الشاعر طبقة العظماء على ظن أن هذه الطبقة تجمع ولا شك خلاصة الناس وأرقاهم . . وهنالك وجد الشاعر قصوراً فخمة حليت جدرانها بالذهب وكسيت بالحرير ، ولكن اشتدت دهشته حينما وجد حجرات هذه القصور قد انقلبت الى معامل للدسائس يديرها الحقد ، والطمع ، والغرور . . كما أنه شاهد في هذه القصور أناساً تبهر ثيابهم الأنظار بوشيها الفاخر العجيب ، ولكن قلوبهم ويا للأسف ! صيغت من النحاس . . انصرف الشاعر عن هؤلاء العظماء وهو حانق لما شاهد فيهم من أخلاق لا تتفق ومثله العليا . . ثم قصد الطبقة الوسطى . . فوجد قوماً يجدون ويكدون في جمع المال ، فاذا حصلوا عليه أخذوا يحاكون طبقة العظماء محاكاة القرد للانسان . . عاف الشاعر هذا المنظر أيضاً فانصرف إلى عالم الفقراء عساه يجد في النهاية مثله العليا لدى هذه الطبقة القانعة المتواضعة . . فوجد الشاعر قلوباً تحاكي الماس صفاء ، ولكن وجد بجانبها ويا للأسف ! بؤساً وانحطاطاً وأموراً لا تتفق وروح الشاعر الأرستقراطية . .

ضاق الشاعر بالبشر ذرعاً فقصد الخلاء ، فرأى فيه أودية ناضرة ، وأنهاراً زاخرة ، وزهوراً بهيجة الألوان ، وبلابل تكاد تنفجر حناجرها الصغيرة من كثرة الألحان . . حقاً ، كلها مناظر جميلة ، ولكن أين هذه الطبيعة المتواضعة من حدائق الآلهة الغناء حيث كان مباحاً للشاعر النزهة والتروض في أي وقت شاء ؟ . .

يئس الشاعر من العالم السفلي وكاد يعود الى السماء ، إلا أنه فكر في اللحظة الأخيرة في تناول مخدر الحب الذي حذرته منه الآلهة ، لأن النفس تواقة بطبيعتها الى استيعاب المحظور وكشف المستور

كان الشاعر كلما قصد صيدلية يسألها هذا المخدر شبهه أصحابها إما بالسخرية ، وذلك اذا ظنوه مجنوناً ، وإما بالغضب ، وذلك اذا ظنوه عابثاً . . . ولما يئس من الحصول عليه ، رجع الى الخلاء فجلس هناك فوق ربوة في مكان تظلله شجرة متهدلة الأغصان ، وهو مطرق الرأس ، فأطل عليه حينئذ زرزور فضولي من فوق غصن وقال : فيم تفكر أيها الشاعر الصديق ؟ فقص عليه الشاعر قصته لعل هذا العصفور يهديه الى ما يريد ، فهو دائم الحركة والتنقل في حدائق البشر وحقولهم ، فلا شك أنه يعرف عنهم أشياء كثيرة . . .

أغرب العصفور في الضحك من قول الشاعر حتى كاد يسقط من فوق غصنه وقال : تبحث عن الحب ؟ ها كه ! ثم أشار الى مكان آخر من الربوة ظلله كذلك الشجر الكثيف ، فنظر الشاعر حيث أشار فوجد فتاة آية في الحسن ، تجلس وحدها تغزل الصوف . . أخذ الشاعر بجمالها الرائع وأدرك معنى الحب من نفسه حينما حل هذا الأكسير العجيب في قلبه . .

ثم أخذ شاعرنا يتدفق في إنشاد الشعر فعجب من السهولة التي صار ينشده بها ، ومن أن هذا الشعر أصبح أرق وأعذب من قبل . . ودهش من أمر هؤلاء الآلهة الذين يحرمون مثل هذا المخدر العجيب . .

ولما كانت الفتاة تختلف كل يوم الى هذا المكان تقضي فيه ساعة أو ساعتين في غزل الصوف كان الشاعر يأتي لينظر اليها متأملاً ملامح وجهها الفتانة في خشوع وإجلال ، فاذا انصرفت أخذ ينشد هذه المحاسن بصوت جميل أيضاً ، لأن

بين فني التاريخ وفن الحرب

١٢ ـ خالد بن الوليـــد *

فى حروب الردة

للفريق طــه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

الصفحة الثالثة

جرى القتال فى هـذه الصفحة حول الحديقة ، والحديقة تشمل بساتين القرية المسورة بالجدران . وهذه البساتين كثيرة فى قرى اليمامة . والكثير من قرى العارض والوشم والقصيم والسدير له بساتين . فبساتين القرية على ما يتراءى لنا واقعـة فى بطن الوادى ، ولا يعقل أن تكون على ضدفه لصعوبة استقاء الماء لأروائها ، لأن الآبار على ما نعلم فى بطن الوادى تتصرف اليها مياه الأمطار

ويذكر المستر فلبى عندما يبحث فى الجبيلة أنها واقعـة على الضفة اليمنى من الوادى ، وأن قبور الصحابة الذين قتلوا فى عقرباء موجودة فى الضفة المقابلة لقرية الجبيلة وعلى مسافة ربع ميل منها . وهذا مما يدل على أن الحديقة واقعة فى الوادى تحيط بها الجدران المبنية بالحجر والطين وعلوها ، أكثر من قامة كما هو شأن الجدران التى تحيط بالبساتين عندنا

ولبى الحنفيون نداء المحكم فهجروا ميدان القتال تاركين قتلاهم فيه لدخول الحديقة واعتصموا بها مؤملين المقاومة فيها وطارد المسلمون بنى حنيفة الى الحديقة فأحاطوا بها وتوقفوا مدة من الزمن مترددين . وكان التجاء الحنفيين الى الحديقـة وبالاً عليهم

ويظهر من أخبار الرواة أن مسيلمة قتل فى أثناء الهزيمة الى الحديقة برمية حربة . وقد ادعى عدة أناس قتله . وكل فرقة من فرق المسلمين أرادت الاشتراك فى قتله . وكان للحديقة باب أغلقه المنهزمون بعد أن دخلوها وقرروا المقاومة فيها الى اللحظة الأخيرة

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »



منظر حديقة من حدائق نجد وهو السور بالجدران

أوتار صوته صارت ذات رنين كرنين الذهب من جراء الحب ، حتى أن بلابل الوادى كانت تسكت اذا مرّ بها الشاعر لتصغى الى قلب الشاعر وهو يبوح بأول حب له . .

ونقل الآلهة صوت الشاعر بواسطة الراديو وأخذوا يستمعون اليه فى سرور عظيم . .

ثم انقطعت الفتاة عن المجىء الى الربوة ، فانقطع الشاعر عن الأنشاد . .

قلق الآلهة حينما انقطع إنشاد الشاعر ، فأرسلوا رسولاً الى الأرض يأتيهم بالخبر ، وقد خيل اليهم لأول وهلة أن الأنقطاع نشأ عن عطب فى محطة الأذاعة . . فعاد الرسول بعـد قليل من الزمن يقول : إن المحطة لم يصبها عطب ، وانما العطب وا أسفاه أصاب قلب الشاعر فتمزق قطعا تحت شجرة الصفصاف !

كوم ابو هالى — حسين شوقى

وبعد أن تريث المسلمون ردحاً من الزمن ، مترددين فيما يفعلون ، صرخ فيهم البراء بن مالك قائلاً : « احملونى الى الجدار حتى تطرحونى عليه » . فساعدوه على التسلق ومع أن رواية ابن اسحاق تزعم أن البراء وحده تسلق الجدار فاقتحم الحديقة وقاتل الحنفيين على الباب حتى فتحه للمسلمين ، إلا أننا نجزم أن رجالاً آخرين تسلقوا معه الجدار وكان بعضهم على الباب

وبعد أن دخل المسلمون الحديقة أوقعوا بالحنفيين إيقاعاً ذريعاً ، وكانت مذبحة لم يشهد المسلمون مثلها وقد سموها حديقة الموت ، ومع أن روايات الطبرى جميعاً تروى أن المسلمين قتلوا جميع الحنفيين فى الحديقة ، إلا أن رواية ينقلها ابن حبيش تزعم أن بعض الحنفيين فر من الحديقة بعد أن دخلها المسلمون

وفى رواية يذكرها ابن حبيش والبلاذرى أن نساء المسلمين أيضاً اشتركن فى المعركة . ولقد كسب المسلمون المعركة بعد أن حاربوا من الصباح إلى العصر ، ولم يعلموا بهول المصيبة إلا بعد أن توقفت رحى القتال وراحوا يكشفون عن القتلى فى الميدان

وفى رواية عن أبى سعيد الخدرى الذى اشترك فى القتال أن خالداً أمر السقاة بعد صلاة العصر أن يسقوا الجرحى ، وكان أبو عقيل بن الحرجى فيه خمسة عشر جرحاً . أما بشر بن عبد الله فكانت أمعاؤه خارجة من بطنه .. وكل هذا يدل على شدة القتال

الخسائر

يبالغ المؤرخون فى تقدير خسائر الحنفيين . فسيف بن عمر مثلاً يزعم أن قتلى بنى حنيفة بلغوا عشرة آلاف فى المعركة وفى القتال فى حديقة الموت . وفى رواية أخرى تزعم أن عدد قتلى بنى حنيفة بلغ واحداً وعشرين ألفاً ، سبعة آلاف منهم فى المعركة وسبعة آلاف فى حديقة الموت وسبعة آلاف فى المطاردة

ولكننا نستبعد هذا العدد ، إذ سبق أن ذكرنا أن قوة الحنفيين فى معركة عقرباء بلغت عشرة آلاف مقاتل . والثابت أن بنى حنيفة كابدوا خسائر فادحة سواء فى ميدان المعركة لثباتهم فى محلهم ، أم فى الحديقة لأنهم بالتجائهم إليها مكنوا المسلمين من أن يقطعوا عليهم خط الانسحاب فقضوا عليهم القضاء المبرم . ولعل عدد قتلاهم بلغ أكثر من ثلاثة آلاف . ومما يدل على كثرة القتلى فى بنى حنيفة اندثار اسمهم بعد هذه المعركة وعدم اشتراكهم فى الفتوح . ويقول البرنس كايتانى فى كتابه الآنف الذكر(*) « ان محدثى المسلمين يبالغون فى ذكر خسائر بنى حنيفة . فانهم يذكرون أن كل ذكر بلغ سن الرشد قتل فى المعركة ، ومع ذلك فان أحد الأدلة التى تدل على أن الحنفيين كابدوا خسائر لا تتناسب مع عددهم هو أن هذه القبيلة التى كانت قبل الاسلام كثيرة النفوس مرفهة العيش إن لم يكن لديها شىء فان كثرة عددها وحده يجب أن يجعلها ذات حصة كبيرة فى المعارك التى نشبت بعد ذلك . ولكننا نرى أن ذكر هذه القبيلة يكاد يدرس تماماً من تاريخ الاسلام ، وأن اسم الحنفيين لا يذكر على الاطلاق حتى على انفراد »

أما خسائر المسلمين فكانت كثيرة بالنسبة إلى عددهم أو مقدار الخسائر التى كابدوها فى المعارك السابقة . فالروايات فى عدد قتلى المسلمين مختلفة ، فهى متفاوتة بين ٥٠٠ و١٧٠٠ . وروى عيسى بن سهل عن جده رافع أن قتلى المسلمين بلغ عددها نصف قتلى الحنفيين ، وأن الأنصار وخدمهم (وكان عددهم خمسمائة مقاتل) خسروا سبعين قتيلاً ومائتى جريح . أما أبو سعيد الخدرى فيزعم أن عدد قتلى الأنصار بلغ سبعين ، ويقول زيد بن طلحة أن قتلى المهاجرين بلغوا السبعين وقتلى الأنصار بلغوا السبعين أيضاً وأن مجموع قتلى باقى المسلمين بلغ الخمسمائة .

أما سالم بن عبد الله بن عمر فيذكر أن مجموع قتلى المسلمين بلغ الستمائة . وأما البلاذرى فيقول : « وقد اختلفوا فى عدة من استشهد فى اليمامة فأقل ماذكروه من مبلغها سبعمائة وأكثر ذلك ألف وسبعمائة . وقال بعضهم إن عدتهم ألف ومائتان ، والذى يلوح لنا أن هذا العدد الأخير هو الأصح . وهو يؤيد الرواية التى يرويها الطبرى نقلاً عن سهل إذ يقول : « قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون ، ومن المهاجرين من أهل المدينة والتابعين باحسان ثلثمائة من هؤلاء وثلثمائة من هؤلاء ستمائة أو يزيدون . »

وذكر المؤرخون أسماء الشهداء من المهاجرين والأنصار ونظموا قائمات بذلك . ويتضح من مطالعتها أن بين القتلى زيد بن

(*) Annalli Dell islam

الخطاب قائد القلب ، وأبا حذيفة بن عتبة قائد الميمنة وشجاع بن وهب قائد الميسرة وقيس بن ثابت قائد الأنصار ، ويدل كل ذلك على شدة القتال فى المعركة

يقول ضرار بن الأزور فى يوم اليمامة :

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت عشية سالت عقرباء وملهم
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت حجارته فيها من القوم بالدم

بعد المعركة

بدأت المعركة صباحاً على ما ذكرناه فيما تقدم وانتهت عصراً ولم يبق وقت للمطاردة . وقد نهك التعب قوى المسلمين وأضاعوا خيرة رجالهم ، واستشهد أكثر حفظة القرآن . لذلك نجزم أن المسلمين قضوا ليلتهم فى جوار الحديقة للترويح عن أنفسهم من عناء الحرب ، تأهباً للمطاردة فى اليوم التالى . ومع أن نتيجة المعركة كانت فاصلة لم تزل أرياف اليمامة فى الخلف (وفيها المؤن والذخائر والقسم الذى لم يشترك فى القتال من بنى حنيفة) ، والقرى فى الأرياف جميعاً منيعة وفيها الحصون والأبراج

ويذكر الطبرى نقلا عن سيف بن عمر أن عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر طلبا من خالد أن ينزل بالناس على الحصون . وكانا يقصدان بذلك ألا يترك مجالا للبقية الباقية من بنى حنيفة لتستعد للمقاومة . أما خالد فلم يشأ محاصرة الحصون ، بل رجح أن يوفد سرايا الخيالة الى الأطراف لتلتقط من ليس فى الحصون ، وكان يعلم أن منازلة الحصون تكبد المسلمين ولا سيما أنهم اطلعوا على كبر المصيبة بعد أن تفقدوا القتلى . وكان من رأيه أن يلقى الرعب فى قلوب بنى حنيفة ويدهشهم بسرايا الخيالة التى تتجول فى حيهم وتقبض على كل من تلقاه . وشأنه فى ذلك شأن القواد الذين لا يريدون أن يضيعوا الوقت فى الحصار ، ويتركوا فلول أعدائهم يفلتون من يدهم .

ولقد أصاب خالد فى رأيه ، لأن سرايا الخيالة أصابت خوت ما وجدت من مال ورجال ونساء وصبيان ، فضمها الى الغنائم فى المعسكر

الصلح

أثبت خالد فى عقده الصلح مع أهل اليمامة أنه سياسى حازم بقدر ما كان قائداً محنكاً

انتهت المعركة وقد خسر المسلمون خيرة رجالهم من الصحابة أما القبائل فقد قتل منها رجال كثير . فالمعارك من الصباح الى العصر بتلك الشدة والمقاومة التى أبداها الحنفيون ، مما زاد فى حنق المسلمين عليهم . وكانت القبائل تريد غنماً يوازى التضحية التى تحملتها . أما الصحابة فأقل ما أرادوه العمل بوصية الخليفة وهى « ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان » والداعية الأذان — فاذا آذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن آذنوا سألوهم ما عليهم ، فان أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغى لهم »

فبنو حنيفة لم يجيبوا الداعية ، بل قاتلوا المسلمين وقتلوا نخبة الصحابة وقضوا على حفظة القرآن . فكان عقابهم القتل عملاً بوصية الخليفة ، فالروايات جميعاً تدل على أن الأنصار والمهاجرين كانوا يلحون على خالد بمعاملة بنى حنيفة بصرامة

أما خالد بن الوليد فنظر فى الصعوبات التى لقيها فى التغلب على الحنفيين وتأمل عاقبة الشدة التى يظهرها نحوهم إن هم أبوا وقاوموا فى حصونهم فامتنعوا بها . وقد دلت المعركة على أنهم متفانون فى التضحية . ولا بد من أنه علم أن حزباً من الحنفيين وعلى رأسه سليمة بن عمير يريد المقاومة حتى الموت . لذلك لم يتردد قط لما عرض مجاعة بن مرارة توسطه لعقد الصلح . وكان هذا أسيراً عند المسلمين وقد احتفظ به خالد ليستفيد منه . وكانت الشروط التى فرضها على مجاعة ثقيلة وهى تتلخص فى أن يُعطى الحنفيون كل ذهبهم وفضتهم وسلاحهم وخيلهم ، وأن يسبى جميع الأسرى

حمل مجاعة هذه الشروط وهو يضمر الخير لبنى قومه ويريد أن يخفف حملهم بعد أن أصابهم ما أصابهم ، لذلك أقام النساء والشيوخ على الحصون ليحمل المسلمين على الاعتقاد أنهم يريدون الدفاع عن حصونهم . فرجع مجاعة وأخبر أن القوم لا يقبلون بهذه الشروط الثقيلة ، وأنهم عازمون على الدفاع حتى الموت . وبعد ذهاب وجيئة استطاع مجاعة أن يستميل الحزب المخالف إلى جانبه من جهة ويخفف من شدة الشروط من جهة أخرى

يتبع

طه الهاشمى

الى مؤتمر الفردوسي

٢ - بين القاهرة وطوس

من قصر شيرين الى همذان

للدكتور عبد الوهاب عزام

سرنا من قصر شيرين تلقاء كرما نشاهان ، فمررنا بعد خمسين دقيقة بقرية ذهاب ، ثم أصعدنا في جبل شامخ فسيح ، فلبثنا بين قمه ووهاده نصف ساعة . وذلكم « كوه باطاق » أى الجبل ذو الطاق . سُمّي بطاق قديم قائم فى منتصف هذه الطريق الجبلية . ثم انبسط بنا السهل نصف ساعة الى قرية كرند ، وهى قرية خضراء مشجرة ، وبعد أربعين دقيقة وقفنا فى شاه آباد ، وهى قرية ذات بساتين فيها ضياع لجلالة الشاه ، وباسمه سميت » ولهما دار صغيرة نزلنا بها ، فاسترحنا قليلاً وشربنا الشاى ، وأكلنا كرنطية ، فيها عنب صغير جيد ، وكان ذلك أول ما طعمنا من فاكهة ايران ثم استمر بنا السير فاجتزنا جبالاً أخرى الى كرمانشاهان بعد ساعة وثلث من شاه آباد

وكرمانشاهان (قرميسين) مدينة عامرة فيها شوارع جديدة واسعة ، وأسواق كبيرة ، وموقعها على درجة ٣٤ من العرض ، و٤٧ من الطول ، فى بقعة طيبة الهواء يسقيها نهر قره صو . وهى على الجادة الكبرى من بغداد الى همذان ، تبعد عن كل منهما خمسا وستين ومائة كيلو . أنشأها الملوك الساسانيون ، وكانوا يقيمون بها أحياناً . ونزلها فى العصر الاسلامى الخليفة هارون الرشيد ، وعضد الدولة البويهى ، ولم تبلغ مكانة عظيمة الا فى القرن العاشر حين اتخذها الملوك الصفويون قاعدة لمحاربة الدولة العثمانية

والمدينة فى وسط ولاية كرمانشاه . وهى الأرض التى قامت عليها الدولة الميدية القديمة ، وفيها من المدن والقرى قصر شيرين وكرند وأسد آباد وكنكاور أو كنكور (وكانت تسمى فى العصور الاسلامية الأولى قصر اللصوص) وبيستون ونهاوند وخرائب الدينور . وبها آثار عن الأكمينيين والساسانيين . وهى من أغنى ولايات ايران

نزلنا من المدينة فى دار أحد كبرائها — معتمد الدولة . وهى دار جميلة ذات حديقة كبيرة . فيها بناء على يسار الداخل استرحنا به وغسلنا عن وجوهنا غبار الطريق . ثم سرنا فى الحديقة فى مستوى به حوض كبير فصعدنا درجات كثيرة الى مستوى آخر فيه حوض يسيل الماء منه الى المستوى الأسفل مترقرقاً على درجات السلم فيملأ العين رواء . وعلى المستوى العالى بناء آخر صعدنا اليه درجات ، فاجتمعنا للغداء وخطب معتمد الدولة مرحباً بنا ، وأجابه أستاذنا سير دنسن رُس . ثم أخذت صورتنا على الدرجات التى بين المستويين (وقد نشرت هذه الصورة فى جريدة البلاغ) . وانتقلنا من بعد الى دار أخرى فى أقصى المدينة لأحد الأعيان — أمير الكل ، وهى دار واسعة بها حديقة جميلة ، فيها أحواض ونافورات كثيرة ، فتقسمنا حجراتها للمبيت . وهاتان الداران تشهدان بما لأهل ايران من كلف بالحدائق والمياه ، وبراعة فى تنسيقها

وخرجنا فى المساء لنرى آثار « طاق بستان » على أربعة كيلات [1] من المدينة فى لحف جبل شاهق مشرف على الجادة . وهو طاق من آثار الساسانيين يقابل داخله تمثال فارسى منحوت فى الصخر ، وهو فيما يظن تمثال كسرى برويز على فرسه شبديز ، وبجانبه تمثال شيرين زوجه ، وعلى جانبى الطاق نقش كثير يمثل الصيد فى اليبس والماء وغير ذلك . وفى أعلى الجانب الأيسر صورة فتحعلى شاه وجماعة من رجاله منحوتة فى الحجر . أراد ذلك الملك أن يزاحم كسرى برويز فى داره والجبل فسيح ، وأرض الله واسعة . وشبديز ومعناه (هادى الليل) فرس لكسرى برويز مشهور فى قصص الفرس وشعرهم ، وفى الشعر العربى أيضاً .

ومما يقص عنه مارواه ياقوت فى المعجم : « وكان سبب صورته فى هذه القرية أنه كان أذكى الدواب ، وأعظمها خلقة ، وأظهرها خُلقا ، وأصبرها على طول الركض . وكان ملك الهند أهداه الى الملك ابرويز . فكان لايبول ولا يروث مادام عليه سرجه ولجامه ؛ ولا ينحز ولا يزبد ، وكانت استدارة حافره ستة أشبار . فاتفق أن شبديز اشتكى وزادت شكواه ، وعرف ابرويز ذلك ، وقال لئن أخبرنى أحد بموته لأقتلنه . فلما مات شبديز خاف صاحب خيله أن يسأله عنه فلا يجد بدا من إخباره بموته فيقتله ؛ فجاء الى البلهبذ مغنّيه ، ولم يكن فيما تقدم من الأزمان ولا ما تأخر أحذق منه بالضرب بالعود ، والغناء — قالوا كان لأبرويز ثلاث خصائص لم تكن لأحد من قبله : فرسه شبديز ، وسريّته شيرين ، ومغنيه بلهبذ — وقال : اعلم أن شبديز قد نفق ومات ، وقد عرفت ما أوعد به الملك من أخبر بموته . فاحتل لى حيلة ولك كذا وكذا ؛ فوعده

(١) ينبغى أن يعرب كيلو بحذف الواو فيقال كيل وكيلات

الحيلة . فلما حضر بين يدي الملك غناه غناء ورى فيه عن القصة ، الى أن فطن الملك وقل له : ويحك مات شبديز ، فقال : الملك يقوله ، فقال له : «زه» ما أحسن ما تخلصت وخلصت غيرك ! وجزع عليه جزعاً عظيماً ، فأمر تنطوس بن سنمار بتصويره ، فصوره على أحسن وأتم تمثال ، حتى لا يكاد يفرق بينهما إلا بإدارة الروح في جسدها . وجاء الملك فرآه فاستعبر باكياً عند تأمله اياه الخ »

— ومما رواه ياقوت عن الهمذاني . أن بعض فقهاء المعتزلة قال : لو أن رجلاً خرج من فرغانة القصوى ، وآخر من سوس الأبعد قاصدين النظر الى صورة شبديز ما عنفا على ذلك —

وأما أنا فلم أر التمثال من الأتقان والاحكام على النحو الذى وصفوا . ولا ريب أن الزمان قد ذهب برواثه ، وقد كسر رأس الفرس وبقى سائره

وقد نظم خالد الفياض قصة شبديز التي تقدمت . ومما قيل في شبديز من الشعر قول أبي عمران الكردي :

وهم نقروا شبديز في الصخر عبرة ... وراكبه برويز كالبدر طالع

عليه بهاء الملك والوفد عكف ... يخال به فجر من الأفق ساطع

تلاحظه شيرين واللحظ فاتن ... وتعطو بكف حسنتها الأشاجع

يدوم على كر الجديدين شخصه ... ويبلى قويم الجسم واللون ناصع

— وعلى الجبل الى يسار الطاق صور أخرى ساسانية ، منها صورة تمثل أردشير بن بابك مقيم الدولة الساسانية ، وقد داس عدوه أردوان ، وصورة أخرى تمثل الملك سابور ، وأمامه أسيره الامبراطور فلريان جاثياً

برحنا كرمانشاهان صباح الثلاثاء ، فنزلنا عند طاق بستان مرة أخرى لنعيد النظر الى برويز وشبديز وما هنالك من الصور ، ثم استأنفنا المسير والساعة ثمان ونصف ، فوقفنا بعد نصف ساعة على آثار الملك دارا في جبل بيستون . وهو جبل شاهق يكاد يعيا الطرف دون قمته . وقد سويت فيه على ارتفاع عظيم صفحة صور فيها الملك دارا وأمامه وفود الأمم المغلوبة . وتحت الصورة نقوش كثيرة بالفارسية القديمة ، والأشورية . وكانت هذه النقوش مفتاح اللغة الفارسية القديمة كما كان حجر رشيد مفتاح اللغة المصرية . وعلى مقربة من هذه الآثار موضع في الجبل منحوت يظن أنه أريد تسويته للنقش عليه ثم عدل عنه . ولكن الروايات الفارسية تقص في ذلك قصة عجيبة عن فرهاد عاشق شيرين الذي ذكرته آنفاً . وسأعود الى هذه القصة حين الكلام عن مرورنا بجبل بيستون ليلاً ونحن قافلون من طهران

يتبع — عبد الوهاب عزام

٤ – محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قد يعجب بعضكم لماذا أطوف بالناس آحاداً ، فأسدى إليهم النصح وأشتغل بأمورهم ، ولا أجرؤ أن أتقدم بالنصح إلى الدولة بصفة عامة ؟ وإليكم سبب هذا : كثيراً ما سمعتموني أتحدث عن داعية أو وحي يأتيني ، وهي معبودتي التي يهزأ بها مليتس في دعواه ، ولقد لازمني ذلك الوحي منذ طفولتي ، وهو عبارة عن صوت يطوف بي فينهاني عن أداء ما أكون قد اعتزمت أداءه ، ولكنه لا يأمرني بعمل إيجابي ، فذلك ما حال دون اشتغالي بالسياسة ، وإخال ذلك آمن الطرق ، فلست أشك أيها الأثينيون – في أني لو كنت ساهمت في السياسة للاقيت منيتي منذ أمد بعيد . ولما قدمت خيراً لكم أو لنفسي ، وأرجو ألا يؤلمكم الحق إن أنبأتكم به ، فالحق أنه يستحيل على من يرافقكم إلى الحرب أو أي اجتماع آخر ويقاوم فساد الأخلاق وأخطاء الدولة أن ينجو بحياته . فإن من يحارب مخلصاً في سبيل الحق لن تمتد به الأجل إلى حين ، إلا إن كان مشتغلا بالأعمال الخاصة دون العامة ، وإن أردتم لذلك برهاناً لما سقت إليكم كلاماً فحسب ، بل لذكرت لكم حوادث بعينها ، وهي أقوى حجة من الألفاظ ، فاسمحوا لي أن أقص عليكم طرفاً من حياتي الخاصة ، ينهض دليلا على أنني لم أخضع قط لظلم خشية الموت ، حتى لو وثقت بأن العصيان سيعقب من فوره موتاً محققاً . سأقص عليكم قصة قد تشوقكم أو لا تشوقكم ، ولكنها مع ذلك حق . إنني لم أشغل منصباً إلا مرة عضواً في مجلس الدولة ، وكانت رياسة المجلس عند محاكمة القواد الذين لم ينقذوا جثث القتلى بعد موقعة أرجنيس ، لقبيلة أنتيوخس – وهي قبيلتي – فرأيتم أن تحاكموهم جميعاً ، وكان ذلك منافياً للقانون كما أدركتم ذلك جميعاً فيما بعد ، ولكنني كنت إذ ذاك وحدي بين أهل بريتان أعارض الافتئات على القانون ، وأعلنت رأيي مخالفاً لكم . ولما تهددني الخطباء بالحبس والطرد ، وصحتم جميعاً في وجهي ، آثرت أن أتعرض للخطر بدافعاً عن القانون والعدل على أن أساهم في الظلم خشية السجن أو الموت ؛ حدث ذلك في عهد الديمقراطية ، فلما تولى زمام الأمر الطغاة الثلاثون ، أرسلوا إليّ وإلى أربعة معي ، وكنا تحت السقيفة ، فأمرونا أن نسوق إليهم ليون السَّلامي من بلدة سلامس لينزلوا به الموت – وذلك مَثَلٌ لأوامرهم التي اعتادوا أن يلقوها لكي يشركوا معهم في جرائمهم أكبر عدد ممكن من الناس ، فبرهنت لهم قولاً وعملاً ، أني لا أعبأ بالموت ، وأنه لا يزن عندي قشة ، إن صح هذا التعبير ، وأن كل ما أخشاه هو أن أسلك سلوكاً معوجاً شائناً ، فلم أرهب طغيان تلك العصبة الظالمة ، ولم تضطرني إلى ركوب الخطأ . فلما أخرجنا من السقيفة حيث كنا ، ذهب الأربعة الآخرون إلى سلامس في طلب ليون ، أما أنا فقد أخذت سمتي نحو الدار في هدوء صامت ، وكنت أتوقع أن أفقد حياتي لقاء ذلك العصيان ، لولا أن دالت دولة الثلاثين بعد ذلك بقليل ، وما أكثر من يشهدون بصدق ما أقول

وهل تظنون أن قد كان يمتد بي الأجل إلى هذه السن ، لو قد ضربت في الحياة العامة بنصيب ، على فرض أني – كما ينبغي للرجل الصالح – لزمت جانب الحق ، وأحللت العدالة من نفسي ما هي جديرة به من مكان رفيع ؟ كلا ثم كلا ! فلو قد عولت ، أو عول كائن من كان ، على ذلك ، لما أتيح لي – بني أثينا – البقاء ، ولكني لم أحد فيما فعلت – عاما كان أم خاصا – عما رسمت لنفسي من جادّة ، فلم أنغمس فيما انغمس فيه هؤلاء الذين أشيع بين الناس أنهم تلاميذي ، أو من عداهم ، فلم يكن لي في حقيقة الأمر تلاميذ دائمون ، إذ أبحت الحضور لكل من أراد حضوراً واستماعاً ؛ إني كنت مؤدياً رسالتي ، لا فرق عندي بين شيخ وشاب ، لم أتخذ شرطاً ، ولم ألتمس أجراً ، فكان الحوار مشاعاً لمن أنقد ومن لم يُنقَد ، فلمن شاء أن يوجه إلى سؤالاً ، أو يجيب لي عن سؤال ، أو يصغي إلى ما أقول من حديث ، أما أن ينقلب أحد أولئك بعد ذلك خيّراً أو شريراً ، فليس عدلاً أن أحمل تهمته ، لأنني لم أعلمه شيئاً . وإن زعم امرؤ أني ربما علمته أو أسمعته شيئاً في خلوة خاصة خفيت على الناس جميعاً ، فاعلموا أنه إنما يزعم لكم باطلاً

فإذا سئلت لماذا يصادف الناس من حوارك المتصل لذة ومتاعا ؟ أجبت أيها الأثينيون بالحقيقة التي أنبأتكم بها ، وهي

أنهم يستمتعون بشهادة أدعياء الحكمة فى امتحانهم ، فلهم فى ذلك لذة ، وذلك واجب أمرنى به الله ، كما علمت يقيناً من الرسل والرؤى ، وكل طريقة أخرى يمكن لإرادة القوة الآلهية أن تفصح بها عن نفسها لكائن من كان . أيها الأثينيون ! ذلك حق ، فان كان افتراء فما أهون أن تكذبوه ، ولو كنت أفسد الشبان حقاً ، وكنت قد أفسدت بعضهم فعلاً ، لوجب أن يتصدى منهم للانتقام أولئك الذين تقدمت بهم السن ، فأدركوا ما نفثت لهم فى نصحى من سوء أيام الشباب ، فان لم يفعلوا ذلك بأنفسهم ، وجب أن ينهض ذوو قرباهم أو آباؤهم أو إخوتهم ، أو من إلى هؤلاء ، فيقتضيني ما أنزلت بأبنائهم من سوء ، ها قد حان حينهم ، وإنى لأرى منهم فى المحكمة كثيراً ، ها هو ذا كريتون وهو يعدلني سناً ، وهاأنذا أرى ابنه كريتوبوليس ، وذاك ليساناياس السفيطى أبو أشينس الجـه بين الحضور ، وذاك أنتيفون السفيسى أبو أبجينوس ، وهؤلاء أخوة كثير ممن التفوا حولى ، فهناك نيكوستراتوس ابن تيوسدوتيد وأخو تيودوتس (وقد اختار الله تيزدوتس الى جواره ، فهو على أية حال لن يستطيع لى معارضة) وذلك بارالوس بن دعودوكس ، وقد كان له أخ يدعى تياجس ، وأديمانتوس بن أرستون الذى أرى أخاه افلاطون بين الحاضرين ، وكذلك أرى بينكم آنتودورس وهو أخو أبولودورس . ويمكننى أن أذكر غير هؤلاء كثيرين ممن كان لزاماً على مليتس أن يقدم منهم للشهادة من يشاء فى سياق دعواه ، ومع ذلك فادعوه الآن يستشهدهم إن كان قد فاته ذلك أولاً ، وسأفسح له الطريق . سلوه هل بين هؤلاء من يشهد له فيقدمه ؟ كلا أيها الأثينيون ، فنقيض ذلك هو الصحيح ، اذ هؤلاء لا يأبون أن يؤيدوا بالقول ذلك المتلاف الذى أفسد ذويهم — كما يسميني مليتس ، وأنيتس ، إنى لا أستشهد الشبان الذين أفسدتهم فحسب ، فقد يكون عند هؤلاء ما يحيد بهم عن الحق ، ولكنى أستشهد ذويهم ، وهم بعيدون عن إفسادى ، ويكبرون أولئك سناً ، فلماذا يظاهروننى بشهادتهم ، إلا أن يكون ذلك تأييداً للحق والعدل ؟ فهم يعلمون أنى أقول الصدق ، أما مليتس فمفتر كذاب

أيها الأثينيون ! هذا وما اليه هو كل دفاعى الذى وددت أن ألقيه ، ولكنى أرجو أن أضيف اليه كلمة أخرى : قد يكون بينكم من يصب على نقمته إذا ما ذكرت كيف استجدى الشفاعة والرحمة بمبنين باكيتين فى مثل هذا الموقف أو ما هو دونه خطراً ، وكيف ساق أبناءه الى المحكمة فى جمع من أصدقائه وأقربائه لعله يحرك بذلك الرحمة فى النفوس ، ثم ينظر فلا يرانى أهم بمثل ذلك ، على ما يتهدد حياتى من الخطر ؛ قد يطوف بذهنه هذا فيقف منى موقف العداوة ، ثم يصوت وهو فى سورة من الغضب لأن موقفى لا يرضيه ، فان كان ذلك الرجل بينكم ، ولا أحسبه كذلك ، فاليه أسوق الحديث رفيقاً : أى صديق ! إننى رجل ككل الناس خلقت من لحم ودم لا من خشب وحجارة ، كما يقول هومر ، ولى أسرة ولى أبناء ، عدادهم — أيها الأثينيو ن — ثلاثة ، بلغ أحدهم الصبا وما زال الآخران طفلين ، ومع ذلك فلن أسوق اليكم منهم أحداً يستجديكم براءتى . ولم لا ؟ لست أصدر فى ذلك عن اعتداد بنفسى أو ازدراء لكم ، وسواء خشيت الموت أم لم أخشه فذلك شأن آخر لن أتحدث عنه الآن ، وإنما دفعنى الى ذلك عقيدة أن ذلك تصرف يضع من قدرى ويحط من شأنكم ويصم الدولة بأسرها وصمة العار ، فلا يجوز لرجل قضى من العمر ما قضيت ، وذاع صوته فى الحكمة بحق أو بغير حق ، أن يحقر من نفسه . فمهما يكن من أمر ، فقد استقر رأى الناس أجمعين على أن سقراط يفضل من عداه فى إحدى نواحيه ، فان كان أولئك الذين يقال عنهم إنهم يفضلوننى حكمة وشجاعة وما شئت من فضيلة ، يمتهنون أنفسهم بمثل ذاك السلوك ، فوا خجلتاه مما يفعلون ! فقد شهدت ناساً من ذوى الصوت الذائع يفعلون ساعة الحكم عليهم عجباً عجاباً فبدوا كأنما خيل اليهم أنهم ذاهبون ، اذا قضيتم عليهم بالموت ، الى حيث الرعب والجزع ، كأنهم حسبوا أن لو خليتم بينهم وبين الحياة السبيل فسيكونون من الخالدين ، إنما هؤلاء فى حسابى وصمة عار فى جبين الدولة ، ولو أبصرهم وافد غريب لانقلب الى أهله يروى عن أثينا أن أعلام رجالها الذين يرفعهم الأثينيون فوق الهام ويسلمونهم زمام الأمر ، لا يفضلون الناس فى شىء ، ولا يجوز فى اعتبارى أن يكون ذلك من هؤلاء الذين بلغوا بيننا شأوا عظيماً ، فان وقع فلا تدعوه حادثاً يمضى ، ولا تأخذنكم بهم هوادة وخذوا بالشدة كل من يقف منكم هذا الموقف المتوجع ، لأنه بذلك يعرض المدينة للسخرية ، ولا كذلك الصابر الوديع

ودعوكم من العار ، فيلوح لى أن في استرحام القاضي واستجدائه العفو فى مكان اقناعه وإنبائه بالنبأ الصحيح خطلاً ، فليس واجب القاضى أن يمنح العدالة منحاً ، بل عليه أن يحكم حكماً عادلاً ، وقد أقسم أن يحكم وفق القانون ، دون أن يميل مع الهوى ، ولا يجوز له ولا لنا أن تتعود الحلف باطلاً ، فلا أحسب فى ذلك شيئاً من الورع والتقوى . فلا تريدونى إذن على أن أفعل ما أعده فجوراً وشيناً وخطلاً ، ولا سيما وأنتم تحاكموننى فيما ادعاه مليتس عنى من فجور ، فلو استطعت أيها الأثينيون أن أحيد بكم بالأغراء والرجاء عن قسمكم لكنت بذلك معلمكم الكفر بالآلهة ، ولانقلب دفاعى على اتهاماً بالزيغ عن الايمان ، ولكن الواقع غير هذا ، فعقيدتى فى الآلهة قائمة على شعور أسمى جداً مما تقوم عليه عقيـــدة أى من المدعين . فأنا أضع قضيتى أمامكم وأمام الله لتحكموا فيها بما هو خير لى ولكم .

***

وهنا حكم على سقراط بالموت

أيها الأثينيون ! لقد قضيتم بإدانتى ، فلم يُثر شجنى هذا القضاء ، وعندى لذلك أسباب كثيرة ، فقد كنت أتوقع ذلك ؛ ولشد ما أدهشنى أن كادت تتعادل الأصوات ، فقد ظننت أن فريق الأعداء لابد أن يكون أوفر من ذلك عدداً ، وإذا بكفة البراءة لو زاد مؤيدوها ثلاثين صوتاً لرجحت ، أفلم أظفر بهذا على مليتس ؟ بل إنى لأذهب إلى أبعد من الظفر فأزعم أنه لولا أن ظاهره أنيتس وليقون لما ظفر بخمس الأصوات الذى يحتمه القانون ، ولاضطر تبعاً لذلك الى دفع غرامة قدرها ألف دراخمة ، كما ترون .

ولذلك يقترح أن يكون الموت جزائى ، فماذا أقترح بدورى أيها الأثينيون ؟[1] بالطبع ما أراني جديراً به . فماذا ينبغى أن أبذل من غرم، أو أنال من غنم ؟ ماذا أنتم صانعون برجل لم يوفقه الله أبداً ليصطنع البلادة طوال أيام حياته ، وأهمل ما عُنيت به كثرة الناس — أعنى الثروة ومصالح الأسرة والمناصب الحربية ، ولم يقل فى جمعية الشعب قولاً ولم يشترك فى مجالس الحكام ، ولم يساهم فى الدسائس والأحزاب بنصيب ؟ كنا فكرت أنى كنت رجلاً بلغ من الشرف جداً بعيداً فسلكت من سبل الحياة ما سلكت ، لم أقصد الى حيث لا أستطيع أن أعمل خيراً لكم ولنفسى ، بل التمست طريقاً أمكننى أن أقدم لكل منكم على حدته خيراً عظيماً ، وحاولت أن أحمل كل رجل بينكم على وجوب النظر الى نفسه لينشد الفضيلة والحكمة قبل أن ينظر الى مصالحه الخاصة ، وأن يضع الدولة فى اعتباره فوق مصالحها ، فيكون ذلك دستوراً لأعماله جميعاً . ماذا أنتم صانعون بمثل هـذا الرجل أيها الأثينيون ؟ لا إخا لكم إلا مجازيه خيراً إن كان لابد من الجزاء ، ويجدر باحسانكم أن يجيء ملائماً لحالته ، فماذا يحسن برجل فقير أحسن اليكم الصنيع ، ورغب فى الفراغ ليتمكن من تعليمكم ، سوى أن يظل أبداً فى مجلس الدولة ؟ وانه أيها الأثينيون لأجدر بهذا الجزاء ممن كوفىء فى أولمبيا فى سباق الخيل أو سباق العجلات ، سواء أكان يشد عجلته جوادان أو أكثر ، لأننى فقير محتاج ، وذاك غني عنده ما يسد منه العوز ، على أنه لا يعطيكم الاسعادة ظاهرية ، أما أنا فأدلكم على الحقيقة . فاذا كان لى أن أقدر لنفسى عقوبة عادلة ما قلت بغير البقاء فى مجلس الدولة جزاء أوفى

يتبع زكى نجيب محمود

[1] كان من عادة الأثينيين أن يقترح المدعى حكماً ، والمدعى عليه حكماً آخر ثم ترى المحكمة بعد ذلك رأيها

من شعر الشباب

مصر

بقلم فريد عين شوكه

مصر يا آيةَ الخلو د ويا غُرَّةَ الزمن
حبذا أنت فى الوجو دِ إذا اعتزَّ من وطن
أشرق المجد والسنا
منه والكون فى الظلَمْ

نيلك العذب كوثرٌ جنة الخلد ساحلهْ
كلما جاء يخطرُ وتهادت جداوله
هلَّل القطر بالمنى
وشدا الطير بالنغم

وصحا التُّربُ باسماً فى تهاويله الوضاءْ
وسرى الريح ناظماً فيك أنشودة الرخاء
وهفا الزرع وانثنى
لك يا كعبة الأمم

مصرُ، كم عقَّك البنو نَ وهم معقد الرجاءْ
وعصوا قلبك الحنو نَ إذا ضجَّ بالنداء
ولكم صحتِ من ضنًا
كِ وهم عنك فى صمم

بل لقد كان منهمُ من بَغَى غير محتشمْ
وقضى الحكم يهدمُ فيك ما شِيدَ من نظمْ
ورأى الجُرْم هيِّناً
فيك يا مصر فاجترم

أيها النيل لاجرى عذبك السائغ النميرْ
إنما نحن فى الورى ميِّتو العزم والضمير
فارْوِ يا نيل غيرنا
من أُولِى البأس والهمم

ضاق واديكَ بالعذابْ من بنيكَ الأصاغرِ
الألى أغروا الذئاب بالشياه الضوامرِ
فنزا الذئب بيننا
نزوة الفاتك النَّهِم

وإذا الشعبُ كلُّهُ يقتدى طوعَ فاجرِ
إن رأى يستذلُّه لم يخَفْ زجر زاجرِ
بل رآنا كأننا
فيك لحمٌ على وَضَمْ

لعنةُ الله والوطن لك يا عهداً انقشعْ
كم دهى مصر بالمحن ورمى النيل بالفزعْ
وسرى فى ربوعنا
ينفثُ السمَّ فى الدِّسَمْ

كان حُمَّى تعاورَت مصر فى الأربع السنين
وأهاويل ساوَرَتْ قلبها الموجَع الحزين.
ونهشت نفوسنا
كاللظى تبعث الحِمَمْ

كان فى مصر راجفهْ زلزلت ركنها المشيد
وأعاصير عاصفهْ مزَّقت شملها النضيد
وكتاباً تضمنا
سُبَّة النيل والهرم

سطِّرى مصرُ سطِّرى كيف يعثو بك البنون
أنتِ لو لم تقصِّرى فى أذى الآثِمِ الخئون
ما رأى النيل خائناً
فيك يطغى ويجترم

الحق

للمرحوم أبى القاسم الشابى التونسى

ألا أيها الظالم المصعِّر خدَّه : رويدك إنَّ الدهر يبنى ويهدمُ
أغرك أنَّ الشعب مغضٍ على قذًى ؟ لك الويل من يوم به الشرُّ قشعمُ

ألا إنَّ أحلام البلاد دفينةٌ تجمجم فى أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتى بعد لأى نشورها وينبثق اليوم الذى يترنَّمُ
هو الحق يبقى ساكناً فإذا طغى بأعماقه السخط العصوف يدمدم
وينحطُّ كالصخر الأصمِّ إذا هوى على هام أصنام العتوِّ فيحطم

* * *

إذا صعق الجبار تحت قيوده سيعلم أوجاع الحياة ويفهم

في الروض المحزون

بقلم أمجد الطرابلسي

يا روضُ ما لشبابكَ النَّضِرِ ... جارتْ عليهِ فواجعُ القَدَرِ؟
أفأنتَ مثلي تشتكي - حَدَثاً - ... عِبْءَ السّنينِ وعاديَ الكِبَرِ؟
ماذا جَنيْتَ وكنتَ مُزْدهِراً ... حتّى رُميتَ بأفدحِ الغِيَرِ؟
أينَ القيانُ الصادحاتُ على ... عُرُشٍ مُكرّمةٍ منَ الزَّهَرِ؟
يَبكينَ إن نزلَ الدُّجى - فَرَقاً ... منهُ - وأسبلَ حالكَ السُّتُرِ
ويَكدْنَ يَملأنَ الفضا فرَحاً ... إن أزمعَ التّرحالَ في السَّحَرِ
بل أينَ، كالأمسِ الهنيِّ، مَهاً ... يَمرحْنَ في الآصالِ والبُكَرِ؟
أوَلمْ تكنْ بالأمسِ تَمطرُني ... إمّا أتيتكَ أطيبَ الثَّمَرِ؟
واليومَ كلُّ نداكَ من وَرَقٍ ... ذاوٍ معَ الأرياحِ مُنتثِرِ!!

***

يا روضُ لا يأخُذْكَ بي عَجَبٌ ... إن جئتُ تحتَ الرّيحِ والمَطَرِ
أشكو إليكَ هواجساً حُلكاً ... كالليلِ قد غشّتْ على بصري
الآنَ طابَ ليَ المُقامُ هُنا ... يا روضُ تحتَ ثَوا كلِ الشّجَرِ
يُلقينَ بالأوراقِ ذابلةً ... مثلَ المُنى في هَبّةِ القَدَرِ
ما حاجتي بالرّوضِ مُزدهِراً ... إنْ كانَ قلبي غيرَ مُزدهِرِ!؟
في خافِقي يا روضُ عاصفةٌ ... غضبى تَهيجُ كوامنَ الفِكَرِ
نارٌ تَوَقّدُ فيَّ لاهبةً ... تَرمي حَنايا الصّدرِ بالشّرَرِ
وخواطرٌ سُودٌ تَدفّقُ في ... عقلي الشّتيتِ تَدفُّقَ النّهَرِ
حتّى كأنّي جَذْوةٌ شَرَدَتْ ... مِنْ قبلِ يومِ الحشرِ عن سَقَرِ
فلعلَّ إحدى السُّحْبِ تُطفئُها ... يوماً بغيثٍ جِدِّ مُنهمِرِ

***

إمّا تجدْني هازلاً أبداً ... أجزي حُقودَ الدّهرِ بالسَّخَرِ
وأسيرُ في دُنيايَ مُتّئِداً ... بينا المنونُ تجدُّ في أثري
لا الدّهرُ تُنسيني غوائلُهُ ... يوماً معاني الأُنسِ والسَّحَرِ
فلَرُبّما ابتسمَ الفتى وبهِ ... ألمٌ يُفتّتُ أصلدَ الصّخَرِ
ولرُبَّ عهدٍ كانَ أعذبَهُ ... لوْ كانَ يَعذُبُ غايةَ القَرِ(١)
ولرُبَّ ليلاتٍ لبثتُ بها ... سَهرانَ أرقُبُ طلعةَ القمرِ
أشكو لهُ همّاً يُساورُني ... وأبثُّ بعضَ مظالمِ البشَرِ
تلكَ الطفولةُ ما عرفتُ بها ... إلّا الدموعَ وأكؤسَ الصّبِرِ

***

يا ليتَ شِعري والحياةُ أسىً ... ما جاءَ بي للعالمِ النُّكُرِ
أأتيتُ أقطعُ رحلتي عبثاً ... أم جئتُ للأحزانِ والضّجَرِ
أنا في زمانٍ قد تنكّرَ لي ... مُنذُ الولادِ بأبشعِ الصُّوَرِ
فعلامَ أجزعُ من نوائبِهِ ... وأخافُ مِنْ أحداثِهِ الكُثُرِ
يا موتُ جِيءْ أو لا تجيءْ أبداً ... سيّانِ طالَ أوِ انطوى عُمُري
أنا حائرٌ ما عشتُ في زَمَني ... ومتى رَسولُكَ يَدعُني أطِرِ

. . . .

أتُرى وراءَكَ يا ردى قَبَسٌ ... أمْ ليسَ إلّا ظُلمةُ الحُفَرِ؟

(دمشق) أمجد الطرابلسي

أصداء البيئة

شيطاني

بقلم عبد اللطيف النشار

شيطاني لا تبحث عني ... لن تظفر بي يا شيطاني
الوحدة من دأب الجن ... والوحشة دأب الانسان
الجمع الحاشد لي مأوى ... والعزلة مأوى الجان
ضحك الشيطان وأضحكني ... من فلسفتي للشيطان
شيطاني لا تهرب مني ... وتعال أبثك أشجاني
لن أملأ شعري بالشكوى ... فلديك دخائل وجداني
قال الشيطان أأنسيٌّ ... ينجو من شر الانسان؟
فأبت نفسي شكوى جنسي ... ومشيت أردد ألحاني
شيطاني لا تبحث عني ... لن تظفر بي يا شيطاني

الاسكندرية عبد اللطيف النشار

(١) القر — الصبر

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأســتاذ خليل هنداوى

نقد العقل الخالص La critique de le raison pure

ليست غاية هذا النقد إحباط نتائج العلم النظرى ، ولكن غايته أن يسيّره فى مناهجه الواضحة ، فالعلم النظرى الذى كان فى عهد ما ملك العلوم قد فقد تأثيره ، لأنه قد آلى على نفسه أن يتوجه لمباحث تكاد لا تغنى شيئاً ، يريد من ورائها التحقيق ، وهى – كل يوم – ينقضها من عالم الواقع ألف برهان وبرهان ، ثم انتهى « كانت » الى الشكوكية ، ثم الحيادية التى يقول عنها : « هذه التى تظهر عند تفتح العلوم ، وتعمل على إظهار العلم الذى حانت ولادته ؛ أليست هذه الحيادية من الأشياء التى تسترعى انتباهنا ؟ إنها والحق ليست وليــدة الخفة ، ولكنها وليدة محاكمة عصر طويل ، شاء ألاّ ينخدع بظواهر المعرفة كثيراً ، إنها دعوة عنيفة تدعو عقلنا الى عمل عنيف ، الى معرفة نفسه » ، وإنما هى مهذب مجلساً يذود عنهــا ويصون تعــاليمها الصحيحة ، ويحكم عليها إذا ظلمت حسب شرائعها ونظمها الثابتة ، وما هذا المجلس إلا مجلس العقل الخالص

والعقل الخالص عنــد (كانت) هو العقل نفسَه ، قبل أن يدخل الأمتحان فى تلافيفه شيئاً ، هو العقل المجرد قبل أن ينطبع فيــه شىء ، وفيه ثلاث قوى نفسانية : الأولى قوة المعرفة التى تنطوى على الأدراك والحكم العقلى ، وترتيب الأحــكام ، وهى تبحث عن أكناه الأشياء وحقائقها ، والبحث فيها يتعلق بنقد العقل الخالص . والثانية خاصة الارادة ، وهى تبحث عن الخير ، ومرجعها الى نقــد العقل العملى . والثالثــة هى الشعور بالسرور والشقاء ، وموضوعها الجميل ، ومرجعها الى نقد الحــكم

ماذا أستطيع أن أعرف ؟ هذا هو السؤال الذى يضعه الفيلسوف أمام نفسه ، وهو يبتغى حله . إن كل معرفة تبدأ عن طريق الاحساس ؛ ففى كل إحساس يجب أن نفرّق بين مادتين : بين المادة التى تهدينا اليها حواسنا ، وبين الهيئــة التى لا يختلقها العقل من الخارج ، ولــكنه يجدها فى نفسها متعلقة بهذه المادة ؛ إن فى عقلنا إدراكات خالصة (pure) مُلهمَة ، كالصور الأصلية المنطبعة فى أذهاننا ، ومن بين هذه الصور الداخلة فى كل امتحان دخولاً اضطرارياً صورتان ، وصفهما (كانت) بدقة ومهارة وحكمة . وهما : « معرفة المكــان والزمن » فان هذا القياس ليس له قياس ، أو كما يقول هو عنه ليس له حقيقة مدركة ، وعلمنا المبنى على مثله لن يكون نصيبه من الحقيقة أكبر منها ، إذ ليس للزمن والمكان حقيقة ذاتية ممكن إدراكها ، وما الزمن والمكان إلا مقاييس نسبية أبدعناها لتساعدنا على إدراك الأشياء ، فهى كالمرآة التى تعكس لنا صورة العالم كما نراه نحن محدوداً بمقاييس الزمان والمكان لا كما بُنى على حقيقته

وفى وجهة أخرى نرى علمنا كله ليس إلا مظاهر ، يضعف ويقوى بحسب الملاحظة ، ولا يكون قوياً الا بنا ، لأنه لا يملك شيئاً من الجزم والقوة بنفسه ، وليس يبعيد أن يكون وراء عالمنا هذا عوالم يدرك أصحابها معنى هــذا الوجود ، بخلاف ما أدركته عقولنا ، ويحدونه بمقــاييس تتباين عن مقاييسنا ، والحقيقة أننا فهمنا العالم كما نود أن نفهمه ، وأدركناه كما تستطيع مداركنا أن تدركه ، وهذه الحقيقة التى نسجنا نحن خيوطها ستظل محاطة بالروعة والجلال ، ولن تغير الطبيعة نظرتنا اليها حتى تغير أوضاع تفكيرنا وتبدلنا بها أوضاعاً أخرى

وهذه النظرة العميقة هى النقطة التى ترتكز عليها فلسفة كانت ، ومثله الأعلى الذى يفترضه مثلاً أسمى من المثل الشائعة ، فهو يجحد حقيقة العالم الخارجى ، ويرتفع بذاته عن المادية ، ويعتقد أن أدوات معرفتنا أداة للأدراك ، لا تقع تحت سلطان الحواس ، لأنها منعزلة عنها وأسمى منها . وبهذه الأداة نراه ينتقل الى عالم الله والروح والوجود ، ويؤسس على كل عالم منها فكرة ، ولــكن حقيقة هذه العوالم برغم أنها شغلت العقل وتشغله وسوف تشغله لا تزال محجوبة عنا ، بل يجــد كانت أن تشبثنا بادراكها عن طريق التجربة لا يغنينا نفعــاً ، بل يتركنا فريسة الخيالات والاعتراضات المتتالية

الله ، والروح ، والوجود : ثلاثة أكوان متعاقبة لا تبــدو للعين حقيقتها

نقد العقل العملى La critique de la raison pratique

للشاعر هنرى هاين دعابة لطيفة ذكرها فى كتابه « ألمانيا » قال فى جملة بحثه عن كانت : « ولما وصل – أى كانت – إلى

هذه النقطة التفت وراءه فوجد خادمه الكهل (لامب) يبكي ، فقال كانت : إن لامب ليس له إله ... ولكن لابد له من إله يضمن سعادته في العالم» فكتب كانت إذ ذاك نقد العقل العملي ، وما العقل العملي إلا نفس العقل النظري متجهاً للعمل ، وهو يستمد أصوله من نفسه كالعقل النظري مجرداً من كل تجربة ؛ ترى الشريعة التي رتبها على نفسه تصير شريعة عامة ، وليست هـذه الشريعة محدودة بفكرة الخير والشر ، وإنما هي فكرة محدودة بنفسها ، تنبثق من ذاتها وتعود إلى ذاتها ، فما تراه الأخلاق خيراً يكون خيراً وما تراه شراً يكون شراً ، وهذه الشريعة تولد رأساً من الشعور لا تفتقر الى شيء من المنطق ، ولا تحتاج الى نظرة من نظرات العقل ، وإنما هي تفرض نفسها بنفسها إذا فرضت ؛ كأنها صيغة أمر شامل مطلق ، والشريعة الأخلاقية هي لغة الطبيعة السامية في الانسان ، وقد يسمو الانسان بقدر ما تتجلى فيه هذه الشريعة على قدر ما توائم أعماله قواعدها .

وهكذا جرب كانت أن يجمع كل ما تحتوي عليه الشريعة الأخلاقية في دستور واحد يضم إليه جميع ما يركب الانسان من واجبات في المجتمع ، وهذا هو الدستور أو الكلمة الجامعة التي يريدها الفيلسوف «اعمل واعمل عملك وأنت تتمنى أن الطريق الذي سلكته يصبح شريعة عامة » أليست هـذه الكلمة هي صدى الكلمة القديمة القائلة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ان هذه الكلمة لا تحدد إلا علاقة الفرد مع الفرد ؛ ولكنه (كانت) يضع الانسان الفرد إزاء المجتمع كله ، فاذا قدر للخير أن يمتد سلطانه ويظهر أمره في الأرض فانما تظهره جهود الناس المتضافرة وسمو طبيعتهم العالية ، وهكذا بنى (كانت) على هذه القواعد نظرية جديدة في عالم ماوراء الطبيعة ووجد مجالاً جديداً ليبحث عن الحرية والخلود ووجود الله بعد ما ترك العلم النظري هذه العوالم كلها فراغاً يباباً ، فاذا كانت الشريعة الأخلاقية فرضاً على الانسان ودينا لا مفر منه ، واذا كانت هذه الشريعة واجباً مطلقاً عنده ، فهي ذلك لأنه قادر على إتمامها ، إذاً فالانسان حر ، والحرية هي ابنة الشعور الطبيعي ، والحرية هي نبالة العقل العملي . وقد لا نستطيع أن نثبت وجود الحرية نظرياً ، ولكنها تستمد وجودها من وجود الشريعة الأخلاقية التي يتوقف فهمها على وجودها . وكذلك الأمر في بقاء الروح ووجود الله

العقل العملي يبعث فينا نشاطاً غريباً يدفعنا الى مثل الكمال . هذا المثل الذي يملك علينا سلطانه كل شيء هو سلطان الخير المطلق .

واذا كان الخير المطلق شرطه الأول هو الفضيلة فهو إذاً داع من دواعي السعادة ، بل يوجب العقل أن تكون الفضيلة والسعادة من عنصر واحد

لنترك الخير المطلق ، ولنعتبر الشريعة الأخلاقية وهماً أو خرافة ، أفلا نؤمن بأن هنالك نظاماً شاملاً للأشياء مؤسساً على معنى السعادة والفضيلة ، وأن هنالك في قلب الكون علة عاقلة تحكم وتسيطر وتربط بين الأجزاء وتؤلف وتفكك ؛ وهـذه العلة تحتم وجود الله ؟

وهكذا نرى العقل العملي يقدر له الاثبات بغير برهان ، والعقل النظري يعجزه أن يبرهن ، ويتساءل (كانت) عن سر التنازع بين العقلين :

ولكن أليست الطبيعة التي ابتلت أحدهما بالعجز والوهن هي القاسية ؟ ولكن لنفرض أن الطبيعة قد وافقتنا على أمانينا ، ومنحتنا ما تمنيناه منها ، ووهبتنا أنوار الهداية التي نهيم فيها ، ولنفرض أن البعض مناقد ملك عليها ، فماذا تكون النتيجة ؟ أندرونها ؟ سيكون الآله بعظمته وروعته متمثلاً في أعيننا وفي أنفسنا ، نطيع شريعته المرسومة طاعة عمياء لا نحيد عنها ولا نعتسف طريقها ، ولكن أعمالنا هذه لا يقودنا إليها الا عصا الرهبة تأتيها خالية من الفضيلة المبتغاة لذاتها ؛ وهل يكون كل إنسان في كل ما يأتيه الا كالآلة الميكانيكية تأتي ما يطلب منها وتؤمر به غير واعية ولا شاعرة ؟ إن كل شيء يمشي في السبيل القويم ؛ ولكنك تلمس باطلاً نسمة الحياة تلفح هـذه الوجوه الشاحبة التي أكلها السأم ...

والآن ، ونحن على هذه الحالة قد دلتنا الكائنات على عظمة المبدع ونزل فينا شرائعه الأخلاقية من غير أن تمنينا بالوعود أو تروعنا بالوعيد ، وانفسح لكل واحد منا سبيله يبلغ به المثل الأعلى في الوجود

وفي النهاية يقول كانت إن النظام الالهي مؤسس على شريعة الأخلاق ، فاذا وجد الله ، واذا خلدت الروح فذلك لأنني أشعر بأني أحيا حراً ، وأن حريتي بدون وجود الله وخلود الروح تغدو وهماً باطلاً . الاله الحقيقي — عند كانت — هو الحرية ، وما اله الديانات الا وزيره الأول ، وهو يحترم الدين بقدر ما يرعى للأخلاق والفضيلة عهودها وذممها ، ويرى أن ممارسة الخير هي أسمى عمل يحبه الله

يتبع خليل هنداوي

تاريخ الأدب الألماني

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

تمهيد:

عنى أبناء العروبة فى عشرات السنين الأخيرة بدراسة الآداب الغربية دراسة توحى الاطمئنان نوعا الى ما سوف يكون عليه الجيل المقبل من تنوع الثقافة . وكانت آداب الغرب فى نظر المتأدبين منا فى بادئ الأمر هى الآداب الفرنسية وحدها ، ثم انتهى بهم الأمر ، وذلك منذ ربع قرن أو نحوه ، الى الأخذ بدراسة الآداب الانكليزية أيضاً ، وبذلك اتسع نطاق معرفة الآداب الغربية بعض الشيء . ولكن برغم هـذا فاننا ما زلنا فى مستهل الطريق . ولعل الخطوة الطبيعية التى تتلو ذلك ويتبعها المتأدبون فى الشرق الأدنى والأوسط ، لا تكون إلا دراسة الآداب الألمانية دراسة جامعة ، بعد أن أخذوا بقسط غير قليل من الآداب الفرنسية والأنكليزية . . . نعم لقد ظهرت بوادر هـذه الدراسة فى مصر منذ عشر سنين أو تزيد ، إلا أنها كانت دراسات موجزة لا تتفق وعظمة الآداب الألمانية ووفرة كنوزها وارتباطها بالآداب الغربية والشرقية على السواء ، ومن أجل ذلك كله حق لبعض من عكف على دراسة الحياة الأدبية فى مصر وبقية بلاد الشرق العربى أن يقول عنا بأننا أقل الشعوب المتمدنة إلماماً بالآداب الألمانية . . . والواقع أن هـذه الظاهرة لا تلائم بغية المتأدبين ، إذ أول واجباتهم نحو الأدب بالذات أن يحيطوا علماً بالآداب العالمية ، وليس من ينكر بأن للألمان صرحاً فيها ما زال ، وسيبقى ، موضع فخر الأدباء فى كل صقع . . .

لهـذا كله ونزولاً على إرادة بعض من أجلهم ، رأيت أن أكتب فى هـذا الباب ، عسى أن أوفق الى إثارة الرغبة عند كرام القراء فى الاطلاع على الآداب الألمانية ، بقدر توفيقى الى استمالة الأدباء للاكثار من نقل غرر الآداب الألمانية

***

مقدمة:

لاتخلو الآداب الألمانية فى أطوارها التاريخية من صفات عامة مشتركة بينها وبين الآداب الأوربية الأخرى . نعم إن عصور ازدهار الآداب الألمانية وعصور سقوطها لا تسير مع العصور التى تماثلها فى آداب فرنسا أو انكلترا أو ايطاليا ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن الآداب الألمانية فى تطورها لم تكن مرتبطة بالحركات الدينية والثقافية والأجتماعية التى غمرت القارة الأوربية . فقد كانت ألمانيا قبل دخول المسيحية اليها فى حالة أقل ما توصف به أنها حالة غامضة مبهمة . وكان الناس إذ ذاك يكادون ألا يعرفوا شيئاً غير الجمود والنسك ، شأنهم فى ذلك شأن بقية الناس فى البلاد الأوربيـة الأخرى . ثم تلا ذلك عصر آخر اضطر فيه فرسان الحروب الصليبية الى التقهقر أمام المدن الثائرة . وجاء عصر الاصلاح ممهداً لعصر النهضة . وكانت ألمانيا أسرع من جيرانها استجابة للحوادث الجسام التى كانت تنتاب أوربا من وقت الى آخر . واذا كان من المسلم به أنه لا يوجد أدب أوربى كان فى كل تطوراته مستقلاً تمام الاستقلال عن آداب جيرانه ، فانه مما لا شك فيه أن الآداب الألمانية مدينة بالشيء الكثير الى آداب الغير . لهذا كانت دراسة الآداب الألمانية هى ، الى حد بعيد ، دراسة ما يطلقون عليه اليوم اسم «الأدب المقارن» ، واذاً فمن المهم معرفة مركز الآداب الألمانية بالنسبة للآداب الأوربية ، وعلاقة هذه بتلك . وستؤدى بنا طبيعة هذا البحث الى التمييز بين الوطنى من آداب الألمان والأممى منها . وكذلك سنقف على مدى تشعب كل من النزعتين فى تطور الآداب الألمانية وما ينتسب منها الى الوطنية ، وماله صلة بالتاريخ السياسى أو الاجتماعى

ولكل من مؤرخى الآداب الألمانية طريقه الخاص فى استعراضه لتاريخ هذه الآداب . وكذلك كانت نظرة كل منهم فى تقسيم تاريخه إلى مراحل . وموقفنا هنا يضطرنا الى الأخذ بالسهل منها ؛ ولذلك يمكننا القول بأن تاريخ الآداب الألمانية ينقسم الى ثلاثة أقسام بينة ، لثلاثة عصور مختلفة ، لكل عصر منها لغته وطابعه . فالقسم الأول يشمل العصر القديم للألمانية الرفيعة The old high German Period الذى يبـدأ حوالى سنة ٧٥٠ ميلادية ، وينتهى حوالى سـنة ١٠٥٠ . والقسم الثانى يشمل العصر الوسط لآداب الألمانية الرفيعة ، Middle High German Literature الذى يبدأ من سنة ١٠٥٠ وينتهى سنة ١٣٥٠ ميلادية . ثم العصر الأول

لجديد آداب الألمانية الرفيعة Early New Hfgh German Literarute التي يبدأ من سنة ١٣٥٠ وينتهي سنة ١٧٠٠ ميلادية ، ثم تلي تطورات الآداب الألمانية في هذه المراحل الثلاث تطوراته الأخيرة في كل من القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين وسنعالج كل طور من هـذه الأطوار التي مر بها الأدب الألماني في باب خاص ، جاعلين بغيتنا في ذلك إيضاح النزعات الفنية في الآداب الألمانية وأثر كل منها في تاريخه

***

العصر القديم للألمانية الرفيعة

الثقافة الألمانية الأولى

نجد في تطور كل أدب عهداً مرتبطاً بما اتفق على تسميته في التاريخ السياسي « بعصر ما قبل التاريخ » . وفي ذلك العصر لم تكن للشعوب ثقافة عامة ، كما لم يكن لها أدب مخطوط ، ولم يكن للألمان في ثمانية القرون الأولى المبتدئة من يوم مولد المسيح شيء يتم عنه تاريخهم السياسي من ثقافة عامة . كذلك لم يكن لهم أدب مخطوط يمت الى الحوادث الواقعيـة حتى عهد كارل العظيم . والواقع أن التاريخ القديم للعشائر الجرمانيـة لا زال موضع جدل بين المحققين ، ولا يمكن الاجابة القطعية على سؤالك من أين جاءوا ، ومتى أتوا إلى الجهات التي استوطنوها . ولكن من الثابت أنهم ينحدرون من الأسر الجرمانية الهندية Indo germanen وموطنها الأصلي أواسط آسيا . وكانوا في نفس الوقت الذي أخـذت فيه روما توطد مركزها في جنوب أوربا يقطنون البلاد الواقعة على شواطئ بحر الشرق Ost see الممتد فيما بين بحر البلطيق وبحر الشمال . وكان أول من جاء بأخبارهم الى العالم المتحضر في القرن الرابع قبل المسيح ، رجل رحالة مغامر إسمه بيتيس (Pytheas) فأثبت أنهم يتكلمون بلهجات ألمانية دون شك ، إذ هي تختلف عن بقيـة اللغات الأوروبية الهندية (die Indoeuropaeische Muttersprache, The Indo - European mother-tongue)

وربما كان أول حدث سياسي هام يدل من كيان تلك الجماعات التي كانت تسكن المناطق الواقعـة على بحر الشرق ، هو ذلك الذي أثار التفرقة بينهم وجعلهم فريقين : فريق الجرمانيين الشرقيين die Ostgermanen , West Germans وهم القوط Goten, Goths والعشائر التي استوطنت اسكندنافيا Skandnavia وفريق الجرمانيين الغربيين die West germanen, West Germans وهؤلاء كانوا يؤلفون الجنسيات الوطنيـة التي عرفت فيما بعد بالفريزية die Friesen, the Frisians والسكسون الأنجليز the Anglo - Saxons والجرمانيين البحريين die Niederdeutschen' the Law Germans — وهم الذين يتكلمون اليوم اللغة الهولاندية واللغـة العامية الألمانية Plattdeutsch ثم الجرمانيين العلويين die Hochdeutschen, High Germans . ومضت بضـعة قرون قبل أن تستقر هذه العشائر في مواطنها الجديدة . وكانت غزوة الجرمانيين لأسكندنافيا قد تمت قبل مولد المسيح ببضعة قرون . ثم حفزتهم غريزة الترحال فيهم الى الرجوع ثانية الى الجنوب فأسسوا دولة الدانوب البحرية

أما الجرمانيون الغربيون فكانوا أقل من زملائهم سرعة في التطور ، إذ لم يدعهم يوليوس قيصر julius Caesar في القرن الأول قبل المسيح يستقرون في مكان ، وظلوا أشبه بالقبائل الرحل حتى كانت غزوة الهونيين die Hunen, the Huns في أواخر القرن الرابع ، التي دكت عامة الجرمانيين

وكان النزاع بين الجرمان والدولة الرومانية قد استمر نحو نصف قرن ، مما دفع مؤرخي الرومان إلى حب الوقوف على أحوالهم . فكان منهـم تاكيتوس Tacitus وهو في كتابه جرمانيا Germania كثير التدقيق والتحقيق ، وقد قال فيه إن الأبجدية لم يستعملها الجرمان في مراسلاتهم بشكل عام إلا في القرن الثالث . وهم كـكل شعب مبتدئ ليس لهم شعر مخطوط . وفي أغانيهم القـديمة ، وهي المستند الوحيد ، يحيون إلـهم تيســتو Tuisto الذي أنبتـه الأرض كما يحيون ابنـه مانوس Mannus لاعتقـادهم أنهما أس الجنس الجرماني . وللبطل أرمينوس Armitnisu ذكر في أغانيهم . وكان له نشيد وطني معروف باسم بارديتوس barditus ينشـدونه والدروع إلى أفواههم ليكون له دوى عظيم . وكانت أناشيدهم الدينية وأغاني تمجيد أبطالهم تقترن بالرقص ويسيرون في مواكب تشبهاً بالجرمانيين الأقدمين كما جاء في ذلك الشعر ؛ وكان قدماء الجرمان يطلقون على هـذه الحفلات اسم لايكاس laikas وكانت هـذه هي الخطوة الكبرى نحو المأساة Drama . وأضاف تاكيتوس إلى ذلك القول بأنه لابد أن يكون للجرمانيين أدب له

البريد الأدبي

أعمال الاستكشاف في قلب افريقية

قررت أكاديمية العلوم الفرنسية أن تمنح جائزة « البردى موناكو » الشهيرة وقدرها مائة ألف فرنك (نحو ألف وثلاثمائة جنيه) إلى العلامة الجغرافي المكتشف الأفريقي الجنرال تيلهو ، أحد أعضاء بعثها الجغرافية ، وذلك لما قام به من الاكتشافات الخطيرة في منطقة بحيرة تشاد والأنهر المتصلة بها ، ومعاونته بذلك على وضع هذه المنطقة تحت الحماية الفرنسية

وقد كانت فرنسا تعني منذ بعيد بشأن هذه البحيرة الشاسعة التي تقع في وسط أملاكها الصحراوية الافريقية ، وتؤثر أعظم أثر في مستقبلها الأقتصادي ؛ فجهزت إليها عدة بعوث علمية منذ أوائل هذا القرن ، ولما زادت أملاكها في تلك المنطقة باستيلائها على أملاك ألمانيا ، وتوغلها في السودان الغربي ، زاد اهتمامها باكتشاف هذه المنطقة وتحديدها وتأمين حمايتها ؛ وتمكن تقدير أهمية بحيرة تشاد متى علمنا أنها تغطى مسطحاً قدره ١٨٫٠٠٠ كيلو متر ، ويصب فيها نهران كبيران هما « شارى » و « لجونى » وعلى مائهـا تقف حياة الملايين من سكان المناطق المجاورة ، وكان الجنرال تيلهو ، مذ كان ضابطاً فتى في أواخر القرن الماضي ، يهتم باكتشاف هذه المنطقة ، وينوه بأهمية مستقبلها الاقتصادي والسياسي ، وقد كان أول من استطاع أن يضع لها خريطة دقيقة ؛ وقد بدأ بارتيادها منذ سنة ١٨٩٨ ليحقق أبعادها بالنسبة لنهر النيل ونهر النيجر ، ولكنه لم يستطع أن يتوغل يومئذ في تلك الأنحاء لخطر قبائلها الهمجية . ولكنه عاد بعد بضعة أعوام فالتحق ببعثة الجنرال مول التي أوفدت لضبط حدود النيجر بين فرنسا وبريطانيا ، وفي سنة ١٩٠٦ عين رئيساً لبعثة جديدة أوفدت لاكتشاف المنطقة الواقعة بين النيجر وبوركو ، فاستمرت في تجوالها في تلك الأنحاء مدى ثلاثة أعوام . وفي سنة ١٩١٢ عاد على رأس بعثة أخرى ، وقضى في تجواله خمسة أعوام اكتشف أثناءها كثيراً من أسرار المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد ، ومنطقة بركو ، وبيستى ودارفور ، وضبط وسائل المواصلة بين مستعمرات فرنسا الأفريقية الغربية والسودان الفرنسي (السودان الغربي) ؛ وعلى أثر هـذا الاكتشاف العظيم عين الجنرال تيلهو عضواً في أكاديمية العلوم ومنح مدالية الاستحقاق الذهبية ؛ ثم أنعم عليه بعد ذلك بلقب عضو في المجمع العلمي ؛ والجنرال تيلهو جندى باسل ، وعلامة جغرافي ومحقق أخصائي في جغرافية أفريقيا الوسطى ، وقد قرر أن يخصص الجائزة التي منحت له لمتابعة أعماله واكتشافاته العلمية في تلك الأنحاء

ولم ينفذ العالم الأوربي إلى تلك الأنحاء الا منذ أوائل القرن الماضي ، منذ اكتشافات منجو بارك الاسكتلندى ، ورنيه كاييه الفرنسي ؛ ولكن يبدو من دراسة رحلة ابن بطوطة الرحالة المغربي الشهير أنه ارتاد كثيراً من تلك الأنحاء ، على أثر عودته من رحلته في الشرق الأقصى (في أواسط القرن الرابع عشر) ؛ وهو يذكر أسماء مدن ومواقع لم يعرفها الغرب إلا منذ قرن مثل سكوتو ، وغيرها

سحره وجماله الذي نجده عند الأوروبيين الهنود كافة . وللجرمان غير ما ذكرنا أغان للموتى ، وأخرى لانتصار الشمس على الظلام والزوبعة ، وغيرها عن الحدث الأكبر : موت النهار ، أو عن ذبول الصيف . وهذه الأغاني بقايا خرافاتهم القديمة عن الطبيعة

وكان القوط أول من نهض من الجرمان بحياة ثقافية . وفي دولتهم التي أنشأوها في المنطقة القريبة من الدنواب خطوا خطوات سريعة نحو الثقافة ونحو المدنية . ولعل مركزهم الجغرافي هو الذي ساعدهم على الاتصال بالفكر الأغريقي وبالمسيحية ، بينما كان إخوانهم في الشمال ما يزالون همجاً وثنيين

ويعتبر فولفيلا — الذئب الصغير (Wuelfila) أول من وضع أساس الأدب في لغة القوط

« للبحث صلة » ابراهيم ابراهيم يوسف

دائرة المعارف الفرنسية

كان الأدب الفرنسي أول ما ظفر باخراج الموسوعات الأدبية والعلمية والحديثة ؛ ويرجع تاريخ هذه الموسوعات الحديثة إلى أواسط القرن الثامن عشر ، حيث ظهرت جماعة العلماء المعروفة « بالأنسيكلوبيديين » وعلى رأسهم ديدرو ، ودالمبر ، وهولباك وغيرهم. وقد ظهرت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى La grande Encyd منذ أواسط القرن الماضي ، وتمت في أواخره ؛ ولكنها لم تطبع من ذلك الحين مرة أخرى ، وأضحت في عصرنا أثراً قديماً تنقصه عناصر هامة من العلوم والفنون والاختراعات الحديثة ، وتاريخ العالم منذ أواخر القرن الماضي ، وقد تقدمت الموسوعات الأجنبية على الموسوعة الفرنسية من هذه الناحية تقدماً عظيماً ؛ فصدرت الطبعة الخامسة عشرة من دائرة المعارف البريطانية سنة ١٩٣٠ ، وأضحت أثراً عظيماً شاملاً لآخر ما أخرج العصر من آداب وفنون وعلوم ؛ وصدرت دائرة المعارف الأيطالية الجديدة منذ عامين أو ثلاثة ؛ وصدرت دائرة معارف روسية جديدة ؛ وقد اهتمت وزارة المعارف الفرنسية والهيئات العلمية الفرنسية منذ بضعة أعوام بأمر الموسوعة ، وألفت لجنة من أكابر العلماء والكتاب للأشراف على إخراجها في طبعة جديدة وعلى رأس هذه اللجنة ، المسيو دي مونزي وزير المعارف السابق ، والمسيو لوسيان فابر الأستاذ بالكوليج دي فرانس ؛ وهو المدير العلمي للموسوعة ، والمسيو هنري دي جوفنل الكاتب والسياسي ، والأستاذ بايان نقيب المحامين السابق ، ويوسف بدييه مدير الكوليج دي فرانس ، وفرانسوا ميلان عضو الشيوخ ، وغيرهم من أكابر العلماء والمفكرين . وقد أتمت اللجنة تنظيم الأعمال التحضيرية ، وبدأت أعمال التحرير فعلاً ، والمرجو أن يصدر الجزء الأول في سنة ١٩٣٥ ، ثم تصدر الأجزاء تباعاً بعد ذلك ، حتى تغدو الموسوعة الفرنسية لائقة بما للأدب الفرنسي من مكانة ممتازة في عالم الآداب الحديثة

مدام آدم وعصرها

مدام جولييت آدم من أعظم كاتبات فرنسا ، وهي اليوم في الثامنة والتسعين ، وقد لبثت مدى النصف الأخير من القرن التاسع عشر تتزعم الحركة الأدبية النسائية في فرنسا ، وكانت بينها منذ أواخر القرن الماضي وبين زعيم الوطنية المصرية مصطفى كامل رسائل سياسية وعلائق صداقة وثيقة استمرت حتى وفاته

وقد أصدرت أخيراً كاتبة فرنسية أخرى هي مدام مانون كورمتيه عن مدام جولييت آدم وعصرها كتاباً كبيراً استعرضت فيه حياة الكاتبة الكبيرة منذ تحريرها « للمجلة الجديدة » في شبابها ، وما كان بينها وبين أكابر عصرها من علائق الصداقة أمثال جورج ساند الكاتبة الشهيرة ، وليون جامبتا السياسي الكبير ، وبيير لوتي الكاتب الأشهر . وكان يسميها « بأمه العزيزة » ، وما كان لها من زعامة روحية وفكرية على كثير من المفكرين والكتاب داخل فرنسا وخارجها

الاحتفال بتوزيع جوائز نوبل

أقيم في استوكهلم عاصمة السويد في العاشر من ديسمبر الجاري الاحتفال السنوي الكبير الذي تمنح فيه جوائز « نوبل » وقد رأس ملك السويد بنفسه الحفلة كالمعتاد ، وتولى بنفسه تقديم الجوائز الممنوحة لممثلي الدول التي ينتمي اليها الكتاب والعلماء الفائزون ؛ فناب عن الكاتب الإيطالي بيراندللو الفائز بجائزة نوبل للأدب سفير ايطاليا ، وناب السفير الأمريكي عن الأساتذة جورج مورفي وهوبيل ونويث الفائزين بجائزة نوبل للطب ، وكذلك عن الأستاذ هارولد ادري الفائز بجائزة نوبل للكيمياء ؛ ومقدار كل جائزة منها ١٦٢٦٠٧ كورونا سويديا (أي نحو أربعة آلاف جنيه) ويعتبر هذا الاحتفال أعظم الاحتفالات العلمية

المصور « سم »

توفي أخيراً في باريس أستاذ من أساتذة التصوير الرمزي (الكاريكاتور) هو الرسام « جورسا » المعروف في عالم التصوير باسم « سم » Sem وهو الأسم الذي يوقع به صوره . وقد بلغ هذا النوع من التصوير في العصر الأخير ذروة قوته وخطره ، وأصبح فناً قائماً بذاته ، يشترك مع القلم في التعبير عن الحوادث والمشاعر ، ولا سيما أحداث السياسة ، وقد كان « سم » من أقطاب هذا الفن ، وكانت صوره الرمزية التي تنشرها جريدة « الجورنال » من أسمى ما أخرج الفن ؛ وكانت تمتاز بقوة التعبير والفكاهة اللاذعة المحتشمة معاً . ولبث « سم » يعمل في قلم تحرير « الجورنال » أعواماً طويلة ، وقد توفي كهلا لم يجاوز الخمسين في عنفوان قوته وفنه



من الأدب التركي

العـــذراء الدميمة

ترجمة عبد اللطيف أحمد

لم يتجاوز التفاوت بينهما في السنّ غير عامين ، ولكنه في الجمال وحسن الخلْق كان جد عظيم . لازم النحس (عصمت) منذ رأت النور ، فقد ولدت وأمها تكاد تفقد الحياة من معاناة مرض خطير ، بله آلام الوضع ، ولم يكن للأسرة هم إلا إنقاذ الأم من براثن الموت ، ومحاولة إصلاح ما أفسده مرض ذات الجنب من جسمها الرطيب ، فلم يرحب أحد بالقادمة الجديدة ، أو يفكر في أمرها حتى الأم — وا أسفاه — كأنها في هذه اللحظة قد فقدت غريزة الأمومة ، فلم تنظر إليها حينما تلقفتها يد القابلة إلا كما تنظر إلى خرقة بالية !

ولم يكن حظها من عناية أبيها بأوفر منه عند أمها ، فكثيراً ما كان يراها وهي ملقاة على الأرض تشارك الكلب في مزجره ، وفي يدها هنة تشبه قطعة الخبز دون أن تتحرك في قلبه عاطفة الأبوة نحو التي أتى بها إلى الحياة على كره منها ؛ وهكذا سرت العدوى إلى سائر أفراد الأسرة وكأنها وترتهم جميعاً قبل أن تأتي إلى هذا العالم ، فلما واتتهم الفرصة ثأروا لأنفسهم بأهمالها والحط من شأنها ، ولولا وشيجة الانسانية لقضت هذه التعسة جوعاً فأراحت واستراحت

* * *

أسندوا أمر العناية بها إلى ظئر خامل كسول ، فلم تعطها من الرعاية إلا القدار الذي يسمح لها بالحياة ؛ فشبت الى أسفل ، وكأنها كانت تسير في نموها نحو مركز الأرض !

شاء القدر أن يصور للناس صورة ناطقة للقبح الجسماني ، وينصب تمثالاً حياً للتنافر الجسدي ؛ فكانت (عصمت) كما أراد : عينان غائرتان لا يكاد يبدو منهما نور الحياة ، وخدان شاحبان بل عظمان عاريان إلا من ذلك الجلد الحائل ، بينهما نتوء يشبه الأنف ، تحته شفتان ضل سبيله إليهما الدم !! يضم كل هذا وجه أشبه بوجوه الموتى ، إن فقد معالم الحسن فلم يفقد معاني الرحمة والرثاء ، ينوء بذلك جذع ناحل وأطراف هزيلة

وهنا يجدر أن نسائل أنفسنا : أيكون القبح عقبة في سبيل حب الوالدين لفلذة كبدهما ؟؟! . . .

هذا مالا نستطيع الجواب عنه ، ولكن الذي نعلمه أن عاطفتهما نحو (عصمت) كانت أشبه بالرحمة منها بالحب ، وحسبنا مصداقا لهذا محاولتهما البعد عنها تحت تأثير غريب كان يستولي عليهما كلما لحاها

* * *

استردت الأم صحتها بعد جهاد عنيف ، ودبت العافية في جسمها دبيب الراح في جسم شاربها ، فشبّا خداها ، وبرقت عيناها ، وغمرت الهناءة وجهها ، وجرى ماء الحياة في جميع أطرافها ، وبينما هي على وشك الظفر بالنصر الحاسم على عقابيل المرض المنهزم ؛ إذا هي تحس حركة في أحشائها تؤذنها بزائر جديد ، فاستخفها السرور ، وحملت البشرى إلى زوجها باسمة ، ثم ذاع الخبر بين أفراد الأسرة ، فعمّهم البشر كأنه يولد في هذا المنزل لأول مرة ، وكأن (عصمت) المنكودة الحظ لم تكن في الحسبان !

أخذوا في إعداد العدة لاستقبال هذا الوليد ، وطفقت الوالدة تهيء الأقمطة الناعمة ، والأقمشة الفاخرة ، وذهب الوالد يبحث في الأسواق عن أحسن مهد وأثمن هدية . وكان شغله الشاغل في شهور الحمل البحث عن كل ما يسعد الوالدة والمولود

* * *

وبينما (عصمت) تعيث في غرفة الخدم، تحبو كأنها الحشرة لا يعبأ بها أحد، ولا يثيرها التفاته إنسان، والجميع في شغل شاغل — فقد جاء الأم المخاض — إذا القابلة تقول: كأنها قطعة من نور... يا أم ابنتي هلا نظرت إليها. ؟ وكان هذا إيذاناً منها بانتهاء الأمر... لم تصدق الأم بادي بدء، وسألتها جازعة: تشبه من يا ترى؟ وكأنها تخاف أن ينكبها القدر مرتين، ولما يزل شبح (عصمت) يتراءى لها. فأجابتها بلهجة الظافر. تشبه من..!؟ لمن يحتمل أن تشبه سوى أمها وأبيها..!؟ وشاع البشر في وجه الأم حينما وجدت مصداق قولها في وجه ابنتها الجميل التكوين

* * *

علم أهل الحي فجاءوا مهنئين، وحفلت الدار بهم، فصارت الأم بما ملكها من الزهو بوليدتها الجميلة تكشف لهم عن وجهها، وهم يتلون آيات الأعجاب بهما ويكررون كلمات التهنئة، وأخذوا يتخيرون اسماً لطفلهم، وأي اسم يؤدي كل هذه المعاني التي تنم عنها ملامحها من الحسن الرائع؟ إن كل ما نذكر من الأسماء غير واف بتلك المعاني. فليبحث أبوها إذن في المعاجم، وليسأل الغادي والرائح علّه يظفر بضالته التي ينشدها... بعد جهد، خطر له اسم لبطلة قرأ عنها في إحدى القصص، فأطلق عليها (لمعان)

* * *

تعاقبت الأيام، وشبت (عصمت) فبدأت ترقب طفولة أختها المترعرعة، وترى من إعزازها وإعجاب الأسرة بها ما لم تظفر في يوم من الأيام ببعضه فتعجب، ولكن سرعان ما تهديها غريزتها إلى أن بها نقصاً، فيعتريها شعور مبهم غامض؛ أهذا هو السر في أنها ليست محبوبة، وأنها أدنى منزلة من تلك التي تتبوأ ذراعي أمها مفترة الثغر باسمة الملامح؟ كانت (عصمت) مرهفة الحس إلى حد بعيد، وكأنما عوضها الله سبحانه ما نقص من خلقها بكمال حسها ودقته — ويا ويل من دق حسه وقصرت يده عما يريد...!

كانت ترى الفارق كبيراً في معاملة أبويهما لها فيعتريها من الألم والحسرة ما دونه وخز الإبر ووقع السهام

ينظر الوالد إلى أختها التي لا تفارق ذراعي أمها فيشع من عينيه السرور، حتى إذا وقع بصره على (عصمت) أطلت الشفقة من وجهه، وكأنها تسخر من هذا المخلوق العجيب، وربما تصدق عليها بقبلة تدرك معناها فتشمر برعدة المحموم من فتورها وبرودتها، وقد يخيل إليها أن الثلج طفق يذوب من موضعها، فتذوب حسرة وألماً، وتجر جسمها الهزيل جراً وتنزوي في ركن قصي، ويعوزها البكاء فلا تجرؤ عليه؛ وقد تحاول التمرد على أخذها بجناية لا يد لها فيها فيقعدها العجز عن السير في هذه السبيل

* * *

بقيت (عصمت) تعاني من أمرها ما تعاني، و (لمعان) تتفتح كزهرة الربيع، ترعاها عناية الأب ويكفلها حنان الأم وعطف الأسرة... أكسبها كل هذا نضارة فوق نضارتها، ونشاطاً فوق ما طبعت عليه من الخفة والمرح ودوام الابتسام، ولا عجب، فهذا شأن كل من اطمأن على أنه استوى على عرش القلوب وتملك ناصية الأفئدة

* * *

أقبل العيد، واشترى الوالد لكل من ابنتيه ثوباً من المخمل القرمزي الجميل، فكان لهذا — في أول وهلة — من الأثر الطيب في نفس الأختين ما سرهما، ولكن شد ما اختلف شعورهما بعد ذلك! رأت (عصمت) أختها وهي تختال في ثوبها الجديد، وقد أفاضت عليه من حسنها ما ضاعف بهاءه ورونقه، ثم تأملت نفسها فكادت تصعق...... إنهما من نوع واحد! ولون واحد! ومن صنع يد واحدة! فما بال أحدهما يصعد إلى قمة الحسن، وينزل الآخر إلى أحط دركات القبح!؟ هل شارك الجماد أبويها في إذلالها والزراية بها؟ هل عجز الثوب بين الوسامة والدمامة حتى يصدمها هذه الصدمة الأليمة....!!؟

إذن أف له ما أقبحه، وما أشد بغضى له!. ناجت نفسها بكل هذا، والألم يحز في أحشائها حزاً تحس أثره اللاذع في السويداء من قلبها، وكأنها نسيت نتوء عظام كتفيها، وهزال جسمها، وشحوب لونها الأسمر الذي ضاعفه لون ثوبها الجميل؛ على حين تخلع (لمعان) من روعتها ونضارتها على ثوبها ما يزيده جمالاً وروعة

هتفت بالأختين مربيتهما : هيا قبلا أبويكما وهنئاهما بالعيد ... لبتا الأمر ، ومشت (عصمت) على استحياء والهم يملأ فؤادها المكلوم ، وقد سبقتها (لمان) — وكأنها ظبي أهيج — في خفة ورشاقة ، ولكنها انتظرت مقــدم أختها لتتقدمها في أداء هذا الواجب

مشت البائسة مطأطئة الرأس ، مكتئبة النفس ، في وجوم يكاد يكون بلادة ، ثم تناولت أيدي أبويها وقبلتها ، فبادلها كل منهما بقبلة ، وكأنما يقبلان جثة هامدة لما غشيهما من الحزن والكآبة ، ولكنهما ما لبثا أن تهللا حينما جاء دور (لمان) . .

يا لله للمحدود التعس . . ! ! حتى في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً ، ويتناسى كل حزين حزنه ، وكل بائس بؤسه ، تطعن هذه الشقية تلك الطعنة النجلاء !

ظلت (عصمت) شاخصة ، وسرى من روحها الحزين تيار قوي شل حركات الجميع فجمدوا كأنهم التمــاثيل ، ولم يخرجهم من هذه الحال إلا (لمان) حينما تحركت ، وكأنها أدركت فجأة مقدار ما أصاب أختها من غبن وما نالها من شقوة ، فجاش قلبها بالرحمة والحب ، فاحتضنتها وتعلقت بها ، وبذلت جهدها حتى طبعت قبلتها على جبينها ، ولكن (عصمت) لم تبادلها إياها ، وكان هذا عن غير عمد منها ، فقد كانت شاردة اللب ، كليلة الذهن ، يضطرب صدرها بشتى الآلام وضروب الأوجاع ، وقد أيقنت في هــذه الساعة بما كانت لاتشعر به إلا محاطا بالغموض والأبهام ، وحاولت أن تجزي أختها بما فعلت ، فاحتضنتها وأرادت أن تقبلها ، ولكنها انفجرت باكية في نشيج محزن ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، وعيونها تفيض بغزير الدمع وهي تحاول منعه ، ولكن هيهات فقد أفلت من يدها الزمام

***

منـــذ تلك الساعة (وعصمت) في هم دائم ، حتى الابتسامة التي كانت تزور شفتيها لماما ، وكأنها ضلت طريقها الى الثغور الفرحة ، فأوقعها سوء الحظ في هذا الثغر الحزين ... حتى هذه الابتسامة غادرتها الى غير رجعة ، فقد أزالت تلك الدموع الحارة التي ذرفتها عيناها يوم العيــد الغشاوة التي طالما حجبت عنها الحقيقة في أيامها الأولى

وأيقنت أن جرحها عميق بعيــد الغور لايرجى له برء ، ولا يعرف له دواء ، وكلما تقدمت سنها قوي عندها الشعور ، وضوعف الألم . . . .

أما (لمان) ففي شغل عنها بزينتها ولهوها ومرحها

***

كبرت الأختانـــ ، وأشرفتا على سن الزواج ، وأصبحت (لمان) فاتنة المدينة ، وغادتها الفريدة ، وشرع الأبوان في إعداد مايلزم لزفاف فتاتيهما ، كسباً للوقت واستعداداً للطوارىء ، فكانت (لمان) تجلس الساعات الطوال ، تصور لنفسها ذلك المستقبل السعيد الذي ينتظرها ، بينا (عصمت) تتخيل في كل أداة تهيأ لها حية تنهش فؤادها ، أو سهماً يسدد الى قلبها ، فكل شيء يذكرها بذل الخيبة ، ومرارة الفشل . . . .

الزواج ! نهاية الأمل ، وغاية الرغبة ، وهل عاش لها أمل أو بقيت لها رغبة ؟

لقد فقدت الأمل ، ولقــد فقدت الرغبة ، ولم يبق لها إلا إحساسها ، وكم كانت تجاهد المسكينة نفسها حينما تعرضها أمها الى جانب (لمان) على الخواطب .....

وهل تنتظر منهن كلمة الأعجاب التي لم تظفر بها في يوم ما من أبويهــا ؟ وهل هن أشفق على إحساسها وأرحم بفؤادها منهما ؟ . . . إذن فليذب كبدها ، ولتتقطع أوصالها ، وهي تساق الى ذلك الموقف سوقاً ، ولتتحمل على الرغم منها تلك المخالب التي تنشب في أحشائها وتمزقهـا تمزيقاً ، ولتتقبل كارهة ذلك الأعراض الساخر وقلما يأتلق للخواطب نور (لمانـ) بجانب دمامتها

هاهي ذي أمامهن تدور بعينيها في الغرفة تلتمس الخلاص كما يلتمسه الطائر السجين فلا يجــده ، وقد خيل اليها أن الفلك قد وقف عن دورانه في هذه اللحظة الطويلة ، حتى اذا أذن لها بالخروج بادرت متهالكة وقذفت بنفسها الى غرفتها وكأنها فرت من الجحيم فتغلق عليها بابها ، وتنزوي في ركن من أركانها جامدة الحركة ، كسيرة الجناح ، واهنة القوة ، لاتستطيع نزع ثيابها ولا النظر في مرآتها ، وتظل شاخصة ببصرها الى نقطة وهمية ، وعواطفها تلتهب بين جوانحها حتى يكاد يحترق جسمها النحيل

أما (لمان) فتذهب متهللة الى غرفة الخدم ، وتسر الى فتاة لعوب منهن كانت تصطفيها — ما كان من أمر الزائرات معها ،

وكيف كن يحدقن فيها ويداعبنها، خصوصاً تلك السيدة الشابة ذات المخمل الأزرق المكسو بالفراء، كانت تقص هذا على صاحبتها وهي مفترة الثغر، مشرقة الجبين، تنطق أساريرها بما استولى عليها من الزهو

***

ظل الخواطب يترددن على منزل الأسرة عامين كاملين، و(عصمت) تكتوى بنار العرض عليهن، الى أن صهرتها الآلام وحولتها الى مخلوقة أخرى، الى قديسة تنشد الصبر، وتطلب من الله العزاء، وكانت تسمع عقب كل زيارة همساً ينبعث من غرفة والديها لم تتبينه بادىء الأمر، الى أن سمعت أباها ذات مرة يقول للمان وهي تدخل عليهما الغرفة بغتة: لاشك يا ابنتي في أنك تقبلين الانتظار حتى تتزوج أختك بصدر رحب، أليس كذلك؟

فصمتت (لمان) خجلاً، ولكن هذه الكلمة فعلت في نفس (عصمت) ما فعلت فاعترمت أمراً. وما زالت ترقب الفرصة لما اعترمت حتى لاحت لها عقب زيارة بعض الخواطب، وقد طلب الوالد من ابنتيه أن يذهبا الى مخدعهما، وحينئذ لم يخف على (عصمت) أن أباها يريد أن يخلو الى أمها ليتحادثا فيما جاء من أجله الخاطبات، فاختفت بحيث تنصت لحديث والديها دون أن يراها.

سمعت أباها يقول: لا لا. لا يمكن أن نزوج الصغرى ونترك (عصمت) فريسة للهواجس، فتقول أمها وهي تحاوره:

لقد انتظرنا طويلاً، وليس من الحكمة أن نغامر بمستقبل (لمان) في سبيل أمل دلت الشواهد على أنه لا يتحقق، وإذا لم تتزوج (لمان) فلا سبيل إلى زواج (عصمت) وتكون العاقبة تضحية الاثنتين؛ وهذه جريمة لن أوافق على اقترافها أبداً...

لم يجر أي حديث في شأن (عصمت) في زيارة من تلك الزيارات العديدة، ولم تذكر على لسان أحد بزواج، بينا تلح الخواطب إلحاحاً شديداً في طلب (لمان) فلم هذا العناد جرياً وراء سراب خادع ووهم باطل؟

ولو أن سهماً أصاب فؤاد (عصمت) لما تألمت كل هذا الألم الذي اعتراها عند ما صك سمعها هذا الكلام. أي بلية جديدة وأي نكبة!؟؟ أتكون عقبة في سبيل إسعاد أختها؟ لقد شربت كأسها وحدها صابرة محتسبة. فهل تكون سبباً في شقاء غيرها..؟؟ لا. إن هذا لن يكون أبداً

هذا ما تحدث به ضمير (عصمت). أما أبوها فأخذ يقول لأمها:

تحاولين عبثاً إقناعي بزواج (لمان) أولاً، وإني لأفضل تضحية الاثنتين على أن أرى كبرى بناتي تموت غماً، وأكون مع القدر عليها

واستمر في حديثه و(عصمت) ترتجف خلف الباب تأثراً، ولم تستطع كبح جماح عواطفها طويلاً، فاقتحمت الباب عليهما صائحة:

كلا يا أبتاه. إن (عصمت) لن تتزوج، فهي لم تخلق للزواج؛ إنها دميمة، ولن يبحث الأزواج عن الدميمات، ارحمها يا أبتاه، ولا توقفها ذلك الموقف المؤلم، ودعها تحيا في ظلك ما قدر لها، إنني بائسة فلا تجعلني حائلاً بين أختي وبين سعادتها ومستقبلها، وأجهشت باكية، فبكى أبواها رحمة بها وإشفاقاً عليها

***

مرت الأيام ولم يجد الأبوان أمام إلحاح (عصمت) وإصرارها بداً من زواج (لمان)، وقد اغتبطت عصمت لذلك اغتباطاً شديداً، وكانت ترى في خدمة أختها وزوجها بعض السلوة

***

انقطعت زيارة الخواطب منذ تزوجت (لمان). وناءت (عصمت) بعبء ما مر بها من خطوب، فأصبحت وهي في عقدها الثاني كأرملة في الثمانين، وقد زهدت الحياة وملتها حتى وضعت (لمان) طفلاً جميلاً فاتخذته ولداً لها، ولم تكن لتتركه لحظة واحدة؛ جعلت له من صدرها مهداً، ومن عنايتها حارساً فشب على حبها، ووجدت لذلك برد الراحة، فحبب إليها الحياة، وكانت تعتقد أنها جوزيت على جميل صبرها خير الجزاء حينما تداعب الطفل فيطوقها بذراعيه الصغيرتين، ويغمر وجنتيها الجافتين اللتين لم يسعدهما الحظ لثماً وتقبيلاً وهو يقول: خالتاه... ما أحيلاك يا خالتاه...!

اسكندرية

عبد اللطيف أحمد

من الأدب الفرنسي

هنريت البائسة

للكاتب الفرنسي أندريه موروا

لشد ما كانت دهشتي عند ما دعاني صديقي روبير بالتليفون الى زيارته بمنزله، لقد جالت في نفسي خواطر كثيرة أثارت علي حربا من الشكوك والريب. لقد كنت أشعر بحنان شديد وعطف خالص لزوجته هنريت، وكان روبير حسن الذوق لطيف المعشر، يميل الى الدعابة في شيء من المجون، وهو بعد عاشق من عشاق الخمر الذين يتهافتون على الكأس ولا يتركونها إلا الى الكأس ما عهدت في حياتي ولاء مثل ذلك الولاء الذي كانت هنريت تتعهده به طوال خمسة عشر عاماً لم تذق خلالها يوماً واحداً من السعادة

لقد لقيته في اليوم نفسه وتصافحنا ثم جلست قبالته، وظل صامتاً ثم حرك يده في هدوء، وأخرج علبة سجائره وتناول إحداها ثم أشعلها وأومأ الي برأسه ثم قال:

— إن لي عندك حاجة فهل لك أن تقضيها..؟ وعليك في الحالين أن تصدقني الوعد... إنني لن أسيئك في مادة، ولن أجهدك في عمل، وإنك تعلم أن هنريت تحترمك وتأخذ بآرائك من غير تفكير، وحسبك هذا منها دليلاً على ثقتها بك. إنك رجل قد خبرت الحياة ولابستها وعرفت عنها كثيراً... وهنريت عاقلة تفهم عنك ذلك بقدر ما أفهم أنا عنك. لقد عرفت بتجاربي الخاصة أنك رجل سديد الرأي، ولا يفوتني صواب قريحتك أن نصائح الزوج لا تلقى من الزوجة أذناً صاغية، ثم نفث من فمه نفثة غليظة من الدخان، ونظر الي بعينين يفيض منهما الحنان والألم، وعقب قائلاً

— فكر معي يا عزيزي — لقد قيضت لي الظروف عند عودتي من المؤتمر لقيا امرأة، أو لتقل فتاة، ولعبت بها لساعتها، فهي من أهل الشمال، وقد تبين لي ذلك من لهجتها وصوتها، وقد تعجب يا صديق إن قلت لك إن هذه اللهجة وذلك الصوت الأبح، هما اللذان أسرا لبي وملكا على قلبي. لقد بعثت في هذه الفتاة حياة جديدة... أوه يا صديقي ما أشد قسوة الظروف وما أمرها!

لا يكاد الانسان منا يتناول الكأس إلى شفتيه الظامئتين حتى يبعدها مجبراً قبل أن ينال منها رشفة

هكذا كانت رحلتنا في الطائرة.. لم يتسع الوقت لأن نجرع من الكأس ولو جرعة.. إنك تعرفني يا صديق.. أنا لا أطيق صبراً على شيء تداعبه نسمة من الشك.. وتعرف أن لذة الانتصار يدفعها جنون الغرام تحملني على أن أركب متن الشطط حتى أنتهي...

ولقد دعاني المؤتمر اليه في الشتاء القادم - وستبقى هنريت - هنريت المسكينة.. ستبقى هنا يا صديق، وستبقى بجانبها أنت لتقوم بدورك فقلت:

— بينك وبين زوجتك!.. ومن أين لي ذلك..!

فقاطعني قائلا:

— رويداً يا عزيزي.. هون عليك فالأمر سهل يسير ولن أذهب بك إلى شيء غير ما يصلح من شأن هنريت، لقد أخذ يتسرب إليها الشك في تلك الرحلة حتى صممت على مصاحبتي... وإن ذلك لأمر قريب المحال.. كل ما أريد أن أستمده منك من معونة لا يكلفك إلا أن تفوه ببضع كلمات، وستحدثك هنريت في هذا الموضوع وتصارحك بكل شيء...

فسر لها يا صديق حاجة الكاتب إلى الظهور في مثل هذا البلد الغريب الذي سأرحل اليه حتى تسوغ سفري. ثم قل لها إن الوقت سيكون قسمة بين ولائم تورث النفس السأم، ومقابلات رسمية تبعث فيها الضجر والملل، ولا يفوتنك ذكر تكاليف الرحلة، فكيف بها إذا صاحبتني وأنا أحرص على راحتها، وأخيراً حل بينها وبين مرافقتي، وخفف من غلوائها فهي لابد لنصحك مستمعة، ولرأيك خاضعة، ولسؤالك مجيبة، ولا تنس - لا تنس أن تقرب إلى ذهنها أني لا أزال باقياً على حبها، وأني سأسهر على سعادتها ما حييت، وفي الغد ستسنح الفرص لأشهر طوال أعيد إليها خلالها ذكرى أيامنا الماضية الجميلة

لقد دام حديثه قرابة ساعة، بينما كان صوت أصابعي وهي تنقر على المائدة التي جلسنا حولها في غير انتظام يتجاوب صداه في أنحاء الغرفة، وأخيراً تركني من غير أن يطمئن الى وعدي،

وبعد الظهيرة بقليل لم أشعر إلا وبدي تحمل آلة المسرة ولقد كانت مصادفة غريبة عند ما سمعت صوت هنريت تناديني

— برتراند !... كيف حالك يا عزيزي الصغير ؟... أظن أن في وقتك بقية اليوم متسعا للقائي ، فهل تسمح بزيارتي ؟.. سأعد لك فنجاناً من الشاي ، وربما يكون هناك مشورة بيني وبينك... أسرع يا عزيزي

***

لقد كانت ممسكة بكتاب « باخ » تحركه في يدها في طفولة بريئة ، لم تكن هنريت تقل عن الأربعين ، ولم تكن تزيد عليها ، ولكنها ظهرت لي في هذه الليلة في ثوب فضفاض ، وقد شاعت على قسماتها أشعة من نور الشفق الأحمر الحائل كامرأة في الثلاثين

قالت لي في غير تكلف :

— يا صغيري برتراند ! — سأ كلفك أمراً تؤديه إلى — واعلم أني سأكون لك مطيعة ... ولأمرك سميعة ...

— إنك تعلمين علم اليقين يا هنريت ...

فقاطعتني قائلة :

— هيه يا عزيزي برتراند ! ليس في الوجود رجل أوليه ثقتي غيرك ، ولكن الأمر خطير .. عزيزي برتراند .. اني ... أحب ... أحب شاباً يصغرني بكثير ... إني أعلم أنك ستمقت هذا الشاب وستحقد عليه وسيتملكك السخط على إذا قلت لك أن بينك وبينه تبايناً كبيراً ... هو شاب سلافي جميل طالب بكلية باريس ، وهو فوق ذلك راقص ماهر ومثقف الى حد كبير ، ورغم ذلك لا أرتاح اليه كثيراً ، إذ هو مجنون ، دنيء الأصل كما يتبين لي .. ولكني على الحالين أحبه .. وأنا سعيدة به

فقلت :

— أوه ... وروبير .. ! !

— روبير لا يعرف شيئاً عن هـــذا الحادث ... روبير يرعاني كمن يرعى امرأة مسكينة ، أو كمن يشفق على خادم بائسة غضها الدهر ... لقد صرت بغيضة اليه وهو بعد في شغل عني بفتاة دانيمركية

— كيف ؟ أتعلمين هذا الخبر ؟

— أوه !... منذ أمد بعيد ، وكيف عرفت أنت ذلك ؟ !

— لقد كان روبير عندي اليوم صباحاً

— أحدثك عن هذا الموضوع ... يا له من نذل جبان !...

إن صراحتي لك تجيز لي التماس ضراعتك .. استمع لي يا برتراند .. سيسافر روبير ، وسيقضي في رحلته خمسة عشر يوماً من شهر أكتوبر القادم ، وسأطوف أنا و « فيدين » الجزر الاغريقية

فقلت :

— هنريت : لا حاجة إلى أن أعيد على مسمعك أن ليس هناك أمنية لروبير غير السفر ، ولكنه لا يعتقد ...

فقاطعتني قائلة :

— استمع يا برتراند ، إني على يقين من سفره . ولقد أخبرني أنه صمم على ذلك ، ولكني عارضته ، وبكيت وتوسلت اليه ، وأخاف أن يوهن ذلك من عزمه

— لقد عسر على الفهم .. لم هذه الكوميدية ... ؟

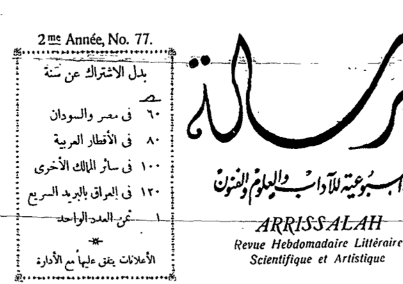
— إن ابتسامة واحدة مني يا برتراند لكافية أن تكشف الستار عن نصف رغائبه على الأقل ، وأن تخلق في نفسه الشك في علاني بأمره ... وكل ما أرجوه منك يا عزيزي الصغير أن تحبذ له فكرة السفر وأن تحمله على الاعتقاد بأن في هذه الرحلة ضماناً لمستقبله وعظمته ، وإذا ما غير من رأيه وفضل البقاء على الرحيل فلا بد أن يغير من هذه الطريقة في معاملته لي ، وأن يزيل من نفسه هذا النوع من الشفقة الخسيسة علي ، وقل له إن هو هجر البيت مرة فانه سيعود فيجده خراباً .. ألق في ذهنه هذه المعاني وقل له إن سبيل التعزية الوحيد في غيبته — هو الرحلة الصغيرة التي أفهمتك عنها

فقلت : مسكين أنت يا روبير !

فقالت في هدوء : حقا .. انه مسكين !

2 me Année, No. 77.

Lundi-24-12-1934



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٧٧ « القاهرة في يوم الاثنين ١٧ رمضان سنة ١٣٥٣ — ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

أثر السياسة الحزبية في الأخلاق

للاستاذ عبد العزيز البشرى

لقد عرفت من حديث الأسبوع الماضي بعض الآثار التي أشاعتها الحكومات الحزبية المتعاقبة في أخلاق جمهرة الموظفين، الأداريين منهم بوجه خاص، حتى نجم في بلادنا ذلك الفنّ المحقور المرذول: فن إرضاء القائم ومشايعته في هواه، ومدّ حبل الولاء للمقبل ومقاسمته أنه صادق الولاء له؛ ولقاء هذا بوجه، وذاك بوجه آخر، والتحدث الى هذا بلسان، والى ذاك بلسان آخر. ولا شك أن من شأن النجاح بمثل هذه الوسائل، وعصمة المنصب باتخاذها، أن يمسّ كثيراً من الموظفين الآخرين على التبارى فيها، والافتتان في طلب السبق بها. وهكذا تتميّع الأخلاق تميُّعاً، وتتحطم طباع الرجولة تحطيما!

على أن أثر هذه الحال لا يقتصر على الأخلاق فحسب، بل إنه ليدخل الاضطراب والاختلال على الأعمال العامة التي يعالجها هؤلاء الموظفون. فالموظف، في هذه الحال، يجب أن يُرضي أشياع الحكومة القائمة، ولا يجب أن يسيء الى خصومها من

أشياع الحكومة المقبلة ، ليتخذ اليد عندهم ليوم تتبدل الحال غير الحال . فهو بين أن يعوق ما بين يديه من الأعمال تعويقاً ليتحلل من المسئولية البتة ، وأما أن يعمد الى توزيع المنافع بين هؤلاء وهؤلاء على حساب المصلحة العامة . وفى الأولى شل لحركة الأعمال الحكومية وتعوّد الإسترخاء عن الاضطلاع بالمسئوليات ، وفى الثانية عبث بحقوق العباد ، وإخلال بمصالح البلاد ، وفى كلتيهما شر عظيم وفساد كبير!

ولقد امتدّ أثر هذه الحال الى الأعمال الفنية العظيمة ، فان الحكومات الحزبية فى بلادنا إنما تعمد ، فى العادة ، الى المشروعات الفنية التى هيأتها سابقتها ، فتتناولها بالتغيير والتبديل ، إن لم تتولها بالالغاء والتعطيل . ولقد تكون قد جردت عليها وهى فى المعارضة حملة حزبية شعواء ، فانظر ، رعاك الله ، موقف الموظفين الفنيين الذين هيأوا تلك المشروعات وأعانوا عليها من هؤلاء ومن هؤلاء !

وليس لهذا من أثر إلا أن يتقبضوا عن معالجة الأعمال الجسام ، وأن يحتالوا على الخلاص منها طلباً للخلاص بأنفسهم من ألوان المسئوليات . وفى ذلك إثم فى حق الفن وحق الوطن على بنيه من أصفوة المتعلمين .

ولقد سبق لى أن زعمت أن طبيعة قيام الحكومات الحزبية لا تدعو إلى شئ من كل هذا الاضطراب والتخلخل فى أخلاق الموظفين ولا فى تصرف الموظفين ، بدليل تعاور الحكومات الحزبية للحكم فى جميع البلاد الدستورية ، ومع هذا لم يسمع عن حال الموظفين بعض ما نسمع ونرى فى هذه البلاد . وعللنا هذا بأننا نجتاز مرحلة سياسية خاصة لا أظن أنه يجتاز مثلها الآن بلد آخر من بلاد الله .

وبمناسبة الحديث فى اعتداد الحكومات القائمة مشروعات سلفها بالتغيير أو التعطيل ، أذكر أن المستر سنودن ، وهو من تعرف جبروتاً وعظم كفاية ، لما تولى وزارة المالية الانجليزية فى وزارة العمال ، أراد أن يغير فى شكل الميزانية ، فيقدم هذا الباب على ذلك الباب ، ويضيف من هذا الفصل لهذا الفصل ، صمد له الموظفون الفنيون ومنعوه هذا منعاً ، وقالوا له : إن لك أن تصنع بسياسة الدولة المالية ما تشاء . فتفرض من الضرائب ما تشاء ، وتحط منها ما تريد ، وأن تزيد ما ترى زيادته من وجوه النفقات ، وتنقص ما ترى نقصه . لك كل هذا ، أما أن تدخل فى الوضع الفنى للميزانية فذلك مما لا سبيل لك إليه بحال ! ويقتنع الرجل ويعدل عن هذا بنيته . فمتى نرى موظفينا على بعض هذه المتانة والثبات والايمان ؟

الذى أعتقده أن مثل هذا من السهل اليسور إذا أمن الموظفون سطوة الحكومات الحزبية بهم يوم يعصونها فى طاعة الواجب والحق والقانون . فاذا زلّت قدم الموظف ، بعد هذا ، أو صانع على ذمته وما ائتمن عليه من الحقوق العامة ، كان جزاؤه النكال والوبال . فهل نطمع من حكومتنا فى أن تعالج هذا فيما أخذت نفسها به من وجوه الإصلاح بعد إذ تفرغ من مهمة التطهير ، واستخلاص الأداة الحكومية من هذا الفساد ؟

***

هذا ما كان من شأن الموظفين ، أما شأن بعض الأعيان فى بلادنا فأعجب وأغرب ، إذا منعنا الحياء من أن نقول إنه أخزى وأفحش . فاننا إذا تمحلنا بعض المعاذير لأولئك من الحرص على مناصبهم ، وإمساك أسباب العيش على أزواجهم وبنيهم ، فاننا لا يمكن أن نصيب عذراً لهؤلاء . اللهم إلا إذا كان من بين الأعذار البائنة حاجة المرء الى الجاه والسطوة ، واغتصاب المنافع العامة ، وقضاء حاجات الأهل والأقربين ، ولا ينال هذا إلا إذا وضع على رأسه ذمته ، وعقيدته ، وكرامته ، وراح ينادى عليها فعل الباعة المضطرين يسلمهم فى الأسواق .

اللهم انه لا يعيب المرء مطلقاً أن يتغير رأيه فى شيء من الأشياء ، ولو من صواب فى الواقع الى خطأ فى الواقع ما دام الأمر موصولاً بصحة الاعتقاد ، ولا يعيب المرء مطلقاً أن يهجر حزباً ويتصل بحزب آخر طوعاً لتغير عقيدته فى الحزبين جميعاً . بل العيب كل العيب فى ألا يفعل ، وإلا كان آثماً أبلغ الأثم فى حق وطنه ، مأخوذاً فى تعصبه بحمية الجاهلية التى هجنها الله تعالى فى كتابه العزيز . ماذا يعيب المرء إذا تكشف له خطأ رأيه فعدل عنه الى الصواب ؟ وماذا يعيبه إذا رأى شيعته قد إنحرفت

عن القصد، وعبثت عابثات من المبادئ، في توجيه سياسة البلاد؟ بل الذي يعيبه كل العيب ألا يفارقها الى من هو أصدق منها في تحقيق كريم الأغراض!

لو أن أولئك الأعيان إنما يتحولون ويضطربون بين الأحزاب المختلفة طوعاً لرأي يعتريهم، أو لعقيدة تدخلها الظروف عليهم، لما استحقوا إلا الحمد والثناء. أما وهم صامدون بآرائهم وعقائدهم لكل حزب يتولى الحكم، فيهرولون لساعتهم اليه، ويعلنون انضواءهم تحت لوائه. ولا يتوانون في كل مناسبة عن الأذان بأنه الحزب الصادق السمح في تحقيق آمال البلاد؛ حتى إذا ما أدال الله منه بالحكم لحزب غيره، سرعان ماولوا وجوههم شطره فأعلنوا أنهم بمبادئه مؤمنون، وأنهم تحت لوائه منضوون، لأنه قد بان لهم أنه الحزب لا حزب غيره، الصادق المسماة في إصلاح الحال، القادر الكفء لتحقيق أعز الآمال!

وهكذا دواليك لا يقعد عن هذا الرقص والحجلان وقار ولا تحشم ولا حياء، حتى أصبحوا على البلاد من أشنع المعرات، وحتى هونوا على غيرهم شأن الكرامة، وأرخصوا في الناس فضيلة الحياء، وأعلنوا أن المبادئ والعقائد مما يباع ويشترى، وأن الأهواء الحزبية مما يؤجر ويكترى، وليس في إطلاق هذا الصنع على أذلاله إلا إفساد الأخلاق، وتوطئ النفوس لقبول الضعة والهوان

***

وبعد، فلقد تقتضيني الرأى في علاج هذا الداء، ولعله يتعاظمك هذا العلاج!

اللهم إن علاج هذا الداء في بعض هؤلاء الأعيان، إنما هو في العلاج الذي وضعناه لشأن الموظفين. فانه ما دام الحكم جارية أسبابه على مقتضى النزاهة والعدالة، والحرص على إقامة حدود القوانين، بحيث يصل المرء الى حقه في يسر، وبحيث يحال بين المرء أياً كان وبين أن يبلغ ما لا حق له فيه بحال — لم يبق بأحد حاجة الى اللف والدوران، والرقص والحجلان، والتشكل في مختلف الصور، والتلون بشتى الألوان؛ فهل نحن فاعلون؟

عبد العزيز البشرى

سمو الحب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

صاح المنادى في موسم الحج: «لا يفتي الناسَ إلا عطاءُ ابنُ أبي رباح[1]» وكذلك كان يفعل خلفاء بني أمية؛ يأمرون صائحهم في الموسم، أن يدلَّ الناسَ على مفتي مكة وإمامها وعالمها، ليتلقوه بمسائلهم في الدين؛ ثم ليُمسكَ غيرُه عن الفتوى. إذ هو الحجة القاطعة لاينبغي أن يكون معها غيرُها مما يختلف عليها أو يعارضها، وليس للحجج إلا أن تظاهرها وتترادف على معناها

وجلس عطاءٌ يتحيَّنُ الصلاةَ في المسجد الحرام، فوقف عليه رجلٌ وقال يا أبا محمد، أنت أفتيتَ كما قال الشاعر:

سَلِ المُفتيَ المكيَّ: هل في تزاوُرٍ
وضمةِ مشتاقِ الفؤادِ جُناحُ؟

فقال: معاذَ اللهِ أن يُذهبَ التُّقى
تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جِراحُ!

فرفع الشيخُ رأسه وقال: والله ما قلتُ شيئاً من هذا، ولكنّ الشاعر هو نحلَني هذا الرأيَ الذي نفثه الشيطان على لسانه؛ وإني لأخاف أن تَشيعَ القالةُ في الناس؛ فاذا كان غدٌ وجلستُ في حلْقتي فاغدُ عليَّ، فاني قائلٌ شيئاً

وذهب الخبر يؤُجُّ كما تؤجُّ النار، وتعالَمَ الناسُ أن عطاء سيتكلم في الحب، وعجبوا كيف يدرى الحبَّ أو يُحسنُ أن يقول فيه مَن غبَرَ عشرين سنةً فراشُه المسجد، وسَمع من عائشة أمِّ المؤمنين، وأبي هريرة صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابنِ عباس بحرِ العلم! وقال جماعةٌ منهم: هذا رجلٌ صامتٌ أكثرَ وقته، وما تكلم إلا خُيِّل الى الناس أنه يؤيَّد بمثل الوحي؛ فكأنما هو نجيُّ ملائكةٍ يَسمع ويقول، فلعلَّ

(١) وبد هذا الامام سنة ٢٧ هـ وتوفى سنة ١١٥ ولوا: ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا

البيانَ مُوحيةٌ الى الأرض بلسانه وحياً في هذه الضلالة التي عمّت الناس وفتنتهم بالنساء والغناء

ولما كان غدٌ جاء الناس أرسالاً الى المسجد، حتى اجتمع منهم الجمع الكثير. قال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار: وكنتُ رجلاً شاباً من فتيان المدينة، وفي نفسي من الدنيا ومن هوى الشباب، فغدوت مع الناس، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض، ولم أكن رأيته من قبلُ، فنظرتُ اليه فإذا هو في مجلسه كأنه غرابٌ أسود، إذ كان ابنَ أمةٍ سوداء تسمى «بَرَكة» ورأيته أسودَ أغورَ أفطسَ أشل أعرج مفلفل الشعر، لا يتأمل المرءُ منه طائلاً، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن والله أن هذه قطعةُ ليلٍ تسطع فيها النجوم، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل

قال: وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام، ووافقته وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى: «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلّقت الأبواب وقالت: هَيْتَ لك. قال: مَعاذَ الله، إنه ربي أحسنَ مثواي، إنه لا يُفلح الظالمون. ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى بُرهانَ ربه؛ كذلك لنصرفَ عنه السوء والفحشاء»

قال عبد الرحمن: فسمعتُ كلاماً قُدسياً تضعُ له الملائكةُ أجنحتَها من رضىً وإعجاب بفقيه الحجاز. حفظتُ منه قوله: عَجَباً للحب! هذه ملكةٌ تعشق فتاها الذى ابتاعه زوجها بثمن بخس؛ ولكنْ أين مُلْكها وسطوةُ مُلْكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآيةُ على أن قالت: «وراودته التي» و«التي» هذه كلمة تدلّ على كل امرأةٍ كائنةً من كانت؛ فلم يَبْقَ على الحبّ مُلكٌ ولا منزلة؛ وزالت الملكةُ من الأنثى!

وأعجبُ من هذا كلمةُ «راودته» وهي بصيغتها المفردة حكايةٌ طويلة تشير الى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسفَ بألوانٍ من أنوثتها لونٍ بعد لون؛ ذاهبةً الى فنٍّ راجعةً من فن؛ لأنها من رَوَدان الإبل في مشيتها: تذهب وتجيء في رِفق. وهذا يصوّر حَيْرةَ المرأة العاشقة؛ واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ الى غايتها؛ كما يصوّر كبرياء الأنثى. اذ تختال وتترفّق في عرض ضعفها الطبيعي. كأنما هي شيءٌ آخر غيرُ طبيعتها، فمهما تهالكْ على مَن تحبّ وَجَب أن يكون لهذا «الشيء الآخر» مظهرُ امتناعٍ أو مظهرُ تحيرٍ أو مظهر اضطراب، وان كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعةً ماضيةً مصممة

ثم قال: «عن نفسه» ليدلّ على أنها لا تطمع فيه، ولكنْ في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها؛ وكأن الآية مصرِّحةٌ في أدبٍ سامٍ كل السموّ، منزه غاية التنزيه عما معناه: إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغوائه وتصبّيه، مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبّةً من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضةً كلّ ذلك عَرْضَ امرأةٍ خلعتْ أولَ ما خلعت أمام عينيه ثوبَ الملك.»

ثم قال: «وغلّقت الأبواب» ولم يقل «أغلقتْ» وهذا يُشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعتْ في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالاً عدة، وتجري من بابٍ الى باب، وتضطرب يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سدّ الأبواب لا إغلاقها فقط

«وقالت هَيْتَ لك» ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة الى آخر حدوده، فانتهت الى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثةً حيوانيةً صِرْفة، متكشفةً مصرّحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها!

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعةُ الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها. فاذا انتهت المرأةُ إلى نهايتها ولم يَبْقَ وراء ذلك شيءٌ تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثَمّ عظمةُ الرجولة السامية المتمكّنة في معانيها، فقال يوسف: «معاذ الله» ثم قال: «إنه ربي أحسنَ مثواي» ثم قال: «إنه لا يُفلح الظالمون.» وهذه أسمى طريقةٍ إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساسُ ضميرها في كل عصر هو اليقينَ بالله، ومعرفةَ الجميل، وكراهةَ الظلم. ولكن هذا التنبيه المترادفَ ثلاثَ مرّات لم يكسر من نزوتها، ولم يَفْثأ تلك الحِدّة. فان حبّها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت

بكلّ أسبابها في زمنٍ، في مكانٍ، في رَجُل ؛ فهي فكرةٌ مُحتَبِسَة كأن الأبوابَ مغلّقةٌ عليها أيضاً ؛ ولذا بقيتْ المرأة ثائرةً ثورةَ نفسها . وهنا يعود الأدبُ الإلهيّ السامي إلى تعبيره المعجز فيقول : « ولقد همَّتْ به » كأنما يُومِئُ بهذه العبارة إلى أنها ترامَتْ عليه ، وتعلّقتْ به ، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة ، وهي لَمْسُ الطبيعةِ بالطبيعة لألقاء الجمرةِ في الهشيم . . . !

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان الذي يَقْذِف به في آخر محاولته ؛ وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهانُ ربّه كما وقع لها هي برهانُ شيطانها . فلولا برهانُ ربّه لكان همَّ بها ، ولكان رجُلاً من البَشَر في ضعفه الطبيعيّ

قال أبو محمد : وههنا ههنا المعجزةُ الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألاّ تنفيَ عن يوسف عليه السلام فحُولةَ الرجولة ، حتى لا يُظَنّ به ، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلّم الرجالُ ، وخاصة الشبانَ منهم ، كيف يتسامَوْن بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالة مَلِكة مُطاعة فاتنة عاشقة مُختَلِيَة متعرِّضة متكشِّفة متهالكة .

هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل ، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئاً من هذا — هي أن يرى برهانَ ربّه

وهذا البرهان يُؤوّله كلُّ إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلِّها فيفضُّها كلَّها ؛ فإذا مثّل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة أمام الله يراهما ، وأن أمانيّ القلب التي تهجس فيه ويظنها خافيةً ، إنما هي صوت عالٍ يسمعه اللهُ ؛ وإذا تذكّر أنه سيموت ويُقبَر ، وفكّر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا ، أو فكّر في موقفه يوم تشهدُ عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكّر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مَرْجِعُه عليه في أخته أو بنته — إذا فكّر في هذا ونحوه رأى برهانَ ربّه يُطالعه فجأة ، كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرى برهانَ عينيه ؛ أتُرونه يتردّى في الهاوية حينئذ ، أم يقف دونها وينجو ؟ أحفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام ، وأكثرُ الموعظة ، وأكثرُ التربية ، والتي هي كالدِّرْع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان ، كلمةَ « رأى برهان ربّه »

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سُهَيْل ابن عبد الرحمن : ولزِمْتُ الإمامَ بعد ذلك ، وأجمعْتُ أن أتشبّه به ، وأسلكَ في طريقه من الزهد والمعرفة ؛ ثم رجعتُ إلى المدينة وقد حفظتُ الرجلَ في نفسي كما أحفظ الكلام ، وجعلتُ شِعاري في كل نزعة من نزعات النفس هذه الكلمةَ العظيمة : « رأى برهانَ ربّه » ، فما ألممت بإثم قطّ ، ولا دانيتُ معصية ، ولا رَهِقَني مطلبٌ من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا ، وأرجو أن يعصمني الله فيما بقي . فإن هذه الكلمة ليست كلمة ، وإنما هي كأمرٍ من السماء تحملُه تمُرُّ به آمناً على كل معاصي الأرض فما يَعترضُك شيء منها كأن معك خاتَمَ المَلِك يجوزُ به

قال سهيل : فلهذا لقّبك أهل المدينة « بالقَسّ » لعبادتك وزهدك وعُزُوفك عن النساء ، وقليلٌ لك والله يا أبا عبد الله ، فلو قالوا : ما هذا بَشراً إن هذا إلا مَلَكٌ ، لصدقوا

***

قالت سَلاّمة جارية سُهيل بن عبد الرحمن المُغنِّيَةُ الحاذقة الظريفة ، الجميلةُ الفاتنة ، الشاعرة القارئة ، المؤرخة المتحدثة ، التي لم يجتمع في امرأة مثلها حسنُ وجهها ، وحسنُ غنائها ، وحسنُ شعرها — قالت : واشتراني أمير المؤمنين يزيدُ بن عبد الملك بعشرين ألفَ دينار «عشرة آلاف جنيه» وكان يقول : ما يُقرُّ عيني ما أُوتيتُ من الخلافة حتى أشتري سلاّمة ؛ ثم قال حين ملكني : ماشاء بعدُ من أمر الدنيا فَلْيَفُتْني ! قالت : فلما عُرِضتُ عليه أمرني أن أغنيه ، وكنت كالمخبولة من حبّ عبد الرحمن القسّ ، حباً أراه فالقاً كبدي ، آتياً على حشاشتي ؛ فذهب عني والله كلُّ ما أحفظه من أصوات الغناء ، كما يُمسح اللوح بما كُتِب فيه ، وأُنسِيت الخليفةَ وأنا بين يديه ، ولم أرَ إلا عبد الرحمن ومجلسه مني يوم سألني أن أُغنيه بشعره فيَّ ، وقولي له يومئذ : حباً وكرامةً وعزازةً لوجهك الجميل . وتناولتُ العود وجسسته بقلبي قبل يدي ، وضربتُ عليه كأني أضرب لعبد الرحمن ، بيد أني أرى فيها عقلاً يحتال حيلة امرأةٍ عاشقة . ثم اندفعتُ أغني بشعر حبيبي :

إن التي طَرَقَتْكَ بين ركائبٍ تمشي بمِزْهَرِها وأنتَ حَرَامُ

لِتَصِيدَ قلبَكَ ، أو جزاءَ مودّةٍ   إن الرفيقَ له عليكَ ذِمامُ
باتت تُعَلِّلُنا وتَحسِبُ أننا   في ذاك أيقاظٌ ، ونحن نيامُ

وغنيته والله غناء والهةٍ ذاهبة العقل كاسفة البال ، ورددتُه كما ردَّدتُه لعبد الرحمن ، وأنا اذ ذاك بين يديه كالوردة أولَ ماتتفتح . وأنا أنظر اليه وأتبين لصوتي في مسمعيه صوتاً آخر ... وقطعته ذلك التقطيع ، ومددتُه ذلك التمديد ، وصحت فيه صيحةَ قلبي ونفسي وجوارحي كلها كما غنيت عبد الرحمن ، لكيما أؤدِّيَ الى قلبه المعنى الذي في اللفظ ، والمعنى الذي في النفس جميعاً ، ولكيما أسكره – وهو الزاهد العابد – سكرَ الخمر بشيء غير الخمر !

وما أفقتُ من هذه النَشْوَة إلا حين قطعتُ الصوت ، فاذا الخليفة كأنما يسمع من قلبي لا من فمي وقد زلزله الطرب ، وما خفي عليَّ أنه رجلٌ قد ألمَّ بشأن امرأة ، وخشيتُ أن أكون قد افتضحتُ عنده ؛ ولكنْ غلبته شهوتُه ، وكان جَيِّداً عالماً فيه ، يريد جسداً لِما فيه ؛ فمن ثَمَّ لم يُنكِر ولم يتغيّر .

واشتراني وصرتُ إليه ، فلما خلونا سألني أن أغني ، فلم أشعر إلا وأنا أغنيه بشعر عبد الرحمن :

ألا قُلْ لهذا القلبِ : هل أنت مُبْصِرُ
وهل أنتَ عن سلاّمةَ اليومَ مُقْصِرُ
إذا أخذتْ في الصوتِ كادَ جليسُها
يطيرُ إليها قلبُه حين تنظرُ

وأدّيته على ما كان يستحسنه عبدُ الرحمن ويطربُ له ، إذ يسمع فيه هَمْساً من بكائي ، ولهفةً مما أجدُه ، وحسرةً على أنه ينسكب في قلبي وهو يَصُدُّ عني ويتجافاني ، وما غنيتُ : «وهل أنتَ عن سلاّمة اليومَ مُقصرُ» إلا في صوتٍ تنوح به سلاّمةُ على نفسها وتندُب وتتفجّع !

فقال لي يزيد وقد فضحتُ نفسي عنده فضيحةً مكشوفة : ياحُبَيِّبَتي ، مَن قائلُ هذا الشعر ؟

قلت : أحدثك بالقصة يا أمير المؤمنين ؟

قال : حدثيني .

قلت : هو عبد الرحمن بن أبي عمّار الذي يلقبونه بالقَسّ لعبادته ونسكه ، وهو في المدينة يُشبه عطاءَ بن أبي رباح ، وكان صديقاً لمولاي سُهَيْل ، فمرَّ بدارنا يوماً وأنا أغني فوقف يسمع ، ودخل علينا « الأحْوَصُ » فقال : وَيْحَكُمْ ! لكأنّ الملائكة والله تتلو مزاميرَها بحلْق سلاّمة ، فهذا عبد الرحمن القس قد شُغل بما يَسمع منها ، وهو واقف خارجَ الدار . فتسارعَ مولاي فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمع منّي فأبى ! فقال له : أما علمتَ أن عبد الله بن جعفر ، وهو مَنْ هو في محلّه وبيته وعلمه قد مَشى إلى جميلة أستاذةِ سلاّمة حين عَلِمَ أنها آلَتْ أَلِيَّةً ألا تُغني أحداً إلا في منزلها ؛ فجاءها فسمع منها ، وقد هيأت له مجلسها ، وجعلتْ على رءوس جواريها شعوراً مُسْدَلَةً كالعناقيد ، وألبستهن أنواع الثياب المصبَّغة ، ووضعتْ فوق الشعور التيجان ، وزينتهن بأنواع الحلي ، وقامتْ هي على رأسه ، وقام الجواري صفَّين بين يديه ، حتى أقسم عليها فجلستْ غير بعيد ، وأمرتِ الجواري فجلسْن ، ومع كلِّ جارية عودُها ؛ ثم ضربْنَ جميعاً وغنّتْ عليهن ، وغنّى الجواري على غنائها ، فقال عبدُ الله : ما ظننتُ أن مثل هذا يكون !

وأنا أُقْعِدُك في مكانٍ تسمع من سلاّمة ولا تراها ، إن كنتَ بالمنزلة التي لم يبلغها عبدُ الله بن جعفر !

قالت سلاّمة : وكانت هذه والله يا أمير المؤمنين — رُقْيَةً من رُقَى إبليس ؛ فقال عبد الرحمن : أمّا هذا فنَعَم . ودخل الدار وجلس حيث يسمع ، ثم أمرني مولاي فخرجتُ إليه خروجَ القمر مشبوباً من سحابةٍ كانت تغطيه ، فما رآني حتى عَلِقتْ بقلبه ، وسبّح طويلاً طويلاً ، وما رأيته حتى رأيتُ الجنةَ والملائكة ، ومُتُّ عن الدنيا وانتقلتُ إليه وحده . . .

قالت سلاّمة : وافتضحتُ مرةً أخرى ، فتنحنح يزيد . . . فضحكتُ وقلت : يا أمير المؤمنين ، أحدّثك أم حَسِيبُك ؟ قال : حدّثيني وَيْحَكِ ! فوالله لو كنتِ في الجنة كما أنتِ لأعدتِ قصةَ آدم مع واحدٍ واحدٍ من أهلها حتى يُطرَدوا جميعاً من حسنها الى حسنك ! فما فعل القَسّ ويحكِ ؟

قلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنه كان يُدعى القس قبل أن يهواني

فقال يزيد: وهل عجبٌ وقد فتنته أن يطارده «البطريق»

قلت: بل العجبُ وقد فتنته أن يصير هو البطريق ... !

فضحك يزيد وقال: إيه، ما أحسب الرّجل الا قد دُهي منك بداهية! حدثيني فقد رفعتُ الغَيرة؛ إني والله ما أرى هذا الرجل في أمره وأمرك الا كالفحل من الأبل، قد تُرِكَ من الركوب والعمل، ونُعّم وسُمّن للفحلة. فَنَدّ فذهب على وجهه، وأتى نَهَم في مفازة، وأصاب مرتعا فتوحّش واستأسد، وتبين عليه أثر وحشيته، وأقبل إقبال الجن من قوة ونشاط وبأس شديد؛ فلما طال انفراده وتأبُّده عرضت له في البرّ ناقةٌ كانت قد نَدّتْ من عَطَنها، وكانت فارهةً جسيمةً قد انتهت سمناً وغطاها الشحم واللحم، فرآها البازلُ الصئول فهاج وصال وهدر، يخبط بيده ورجله، ويُسْمعُ لجوفه دويٌّ من الغليان، وإذا هي قد ألقت نفسها بين يديه! أما والله لو جعل الشيطانُ في يمينه رجلاً خلاً جميلاً، وفي شماله امرأةً جميلةً تهواه، ثم تمطى متدافعاً ومدَّ ذراعيه فابتعدا، ثم تراجع متداخلاً وضم ذراعيه فالتقيا، لكان هذا شأن ما بينك وبين القس!

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين؛ ما كان صاحبي في الرجال خلاً ولا خمراً، وما كان الفحل الا الناقة ... ! وما أحسب الشيطان يعرف هذا الرجل؛ وهل كان للشيطان عملٌ مع رجل يقول. إني أعرف دائماً فكرتي، وهي دائماً فكرتي لا تتغير. ذلك رجل أساسه كما يقول «برهانُ ربه» ولقد تصنّعتُ له يا أمير المؤمنين، وتشكلتُ وتحليتُ وتبرجتُ، وحدّثتُ نفسي منه بكثير، وقلت إنه رجل قد غبر شبابه في وجود فارغ من المرأة، ثم وجد المرأة فيّ. وغنّيته يا أمير المؤمنين غناء جوارحي كلها، وكنت له كأني حريرٌ ناعمٌ يترجرج وينتشر أمامه ويُطوى، وجلستُ كالنائمة في فراشها وقد خلا المجلس، وكنتُ من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوة تقول لمن يراها: كُلني ... ! »

قال يزيد: ويحك ويحك! وبعد هذا؟

قلت: بعد هذا يا أمير المؤمنين، وهو يهواني الهوى البَرّح، ويعشقني العشقَ المُضني — لم ير في جمالي وفتنتي واستسلامي إلا أن الشيطان قد جاء يَرْشوه بالذهب ... بالذهب الذي يتعامل به!

فضحك يزيد وقال: لا والله، لقد عرض الشيطانُ منك ذهبه ولؤلؤه وجواهره كلّها، فكيف لعمري لم يُفلح؛ وهو لو رشاني من هذا كلّه بدرهم لوجد أمير المؤمنين شاهدَ زور ... !

قلت: ولكني لم أيأس يا أمير المؤمنين، وقد أردتُ أن أُظهر امرأة فلم أفلح، وعملتُ أن أُظهر شيطانةً فانخذلت، وجهدتُ أن يرى طبيعتي فلم يَرَني إلا بغير طبيعة، وكلما حاولتُ أن أزل به عن سكينته ووقاره رأيتُ في عينيه ما لا يتغير كنور النجم، وكانت بعضُ نظراته لي والله كأنها عصا المؤدّب، وكأنه يرى في جمالي حقيقةً من العبادة، ويرى في جسمي خُرافة الصنم، فهو مُقْبلٌ على جميلةٍ، ولكنه مُنْصرفٌ عن امرأة.

لم أيأس على كل ذلك يا أمير المؤمنين، فان أوّل الحب يطلبُ آخره أبدا الى أن يموت. وكان يُكثر من زيارتي، بل كانت إليّ الغدوةُ والروحة، من حبّه إياي وتملّقه بي، فواعدته يوماً أن يجيء متى وارى الليل أهلَه لأغنيه «ألا قل لهذا القلب... » وكنتُ لحّنته ولم يسمعه بعدُ. ولبثت نهاري كله أسترْوح في الهواء رائحةَ هذا الرجل مما أتلهّف عليه، وأتمثّل ظلامَ الليل كالطريق الممتدّ إلى شيء مخبوء أعلّل النفس به. وبلغْتُ ما أقدر عليه في زينة نفسي وإصلاح شأني، وتشكلتُ في صنوف من الزهر، وقلت لأجملهن وهي الوردة التي وضعتها بين نهديّ: يا أختي، اجذبي عينيه اليك، حتى إذا وقفَ نظرُه عليك فأنزلي به قليلا أو اصعدي به قليلا

قال يزيد وهو كالمحموم: ثمّ ثمّ ثمّ؟

قلت يا أمير المؤمنين: ثم جاء مع الليل، وإن المجلس لخالٍ ما فيه غيري وغيره، بما أكابدُ منه وما يُعاني مني. فغنيته أحرّ غناء وأشجاه، وكان العاشق فيه يطرب لصوتي، ثم يطرب الزاهد فيه من أنه استطاع أن يطرب، كما يطيش الطفلُ ساعةَ ينطلق من حبس المؤدّب

وما كان يسوؤني إلا أنه ممارس في الزهدَ ممارسة، كأنما

أنا صعوبةٌ إنسانية فهو يريد أن يغلبها ، وهو يجرّب قوى نفسه وطبيعته عليها ، أو كأنه يرانى خيال امرأة فى مرآة ، لا امرأة ماثلة له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ، أو أنا عنـده كالحورية من حور الجنة فى خيال من هى ثوابه ، تكون معه ، وإن بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة ، فأجمعت أن أحطم المرآة ليرانى أنا نفسى لا خيالى ، واستنجدت كلّ فتنتى أن تجمله يفرّ الىّ كلما حاول أن يفرّ منى .

فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسـه ، وانصببت اليه من كل جوارحه ، وهجت التيار الذى فى دمه ودفعته دفعاً قلت له : أنت يا خليلى شىء لا يعرف ، أنت شىء متلفف بالنسيان ، ومن التى تمشق ثوباً ليس فيه لابسه ؟

ورأيته والله يطوف عنـد ذلك بفكره ، كما أطوف أنا بفكرى حول المعنى الذى أردته . فملت اليه وقلت[1] : أنا والله أحبك ! »

فقال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو ! »

قلت : وأشتهى أن أعانقك وأقبلك ! »

قال : « وأنا والله ! »

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخالٍ ! »

قال : يمنعنى قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » . فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة »

رأنى أرى « برهان ربى » يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتك وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أحببت الأنثى لوجدتك فى كل أنثى ، ولكنى أحب ما فيك أنت بخاصتك ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنت تعرفينه ، هو معناك يا سلامة لا شخصك

ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ، ما عاد بعد ذلك ، وتركنى لندامتى وكلام دموعه ! وليتنى لم أفعل ، فقد رأى أن المرأة تكشف وجهها للرجل أحياناً ، وكأنها لم تلق حجابها بل ألقت ثيابها ... ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغانى ، وهو كل القصة فى كتابه .

الصراع بين الحبشة والاستعمار الغربى

وهل يدبر الاستعمار غزوها ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقعت أخيراً عدة حوادث ومصادمات خطيرة على حـدود الحبشة بين الايطاليين والأحباش ؛ وكان المظنون أن الكدر الذى أصاب العلائق الحبشية الايطالية من جراء حادث الاعتداء على القنصلية الايطالية فى جوندار قد زال بعد اعتذار الحكومة الحبشية وقيامها بالترضـية المطلوبة . ولكن حادثاً أشد خطورة وقع منذ أيام قلائل على الحدود الحبشية مما يلى السومال الايطالى ؛ فقد نشبت معركة دموية شديدة بين قوة من الأحباش وقوة من الايطاليين عند مركز اولوال الذى يدعيه كل منهما ، قتل وجرح فيها من الفريقين عدد كبير يقدر بالمئات ؛ وقد وقف القتال على أثر ذلك ، وانسحب الأحباش الى داخل الحدود ، ورفعت الحكومة الحبشية الأمر الى عصبة الأمم ؛ ولكن الجو ما زال كدراً مثقلاً بمختلف الاحتمالات

ومما يلفت النظر بنوع خاص أن يقع هذا التوتر وهذه الحوادث الخطيرة بين الدولتين عقب الزيارة الملكية التى قام بها ملك ايطاليا فى الأرتريا والسومال ، والمظاهرات العسكرية التى نظمتها السلطات الايطاليـة بهذه المناسبة . ولا ريب أن طواف ملك ايطاليا بالأملاك الايطالية فى افريقية الشرقية لم يكن بقصد النزهة والترييض ، ولكنها زيارة سياسية ظاهرة المغزى ، وطليعة خطة جـديدة تزمع ايطاليا الفاشستية انتهاجها فى سياستها الاستعمارية . ومن المعروف أن ايطاليا الفاشستية تعنى عناية شـديدة بالتوسع الاستعمارى ، وأنها خطت فى ذلك السبيل خطوات واسـعة فى طرابلس ، حيث استطاعت أن تتوغل فى داخلها بعد أن لبثت منـذ غزوها تقتصر على احتلال البلاد الساحليـة وما يليها الى مسافة قصيرة ، واستطاعت بواسطة انكلترا أن تنتزع واحة جغبوب المصرية وما يليها بمقتضى المعاهدة

المعروفة ، وأن تصحح بذلك حدودها على حساب الأراضي المصرية ؛ بل لقد استطاعت أخيراً أن تنتزع بواسطة انكلترا أيضاً جزءاً من واحة العوينات السودانية وأن تضمها الى برقة الجنوبية ، ونزلت لها انكلترا عن تلك المنطقة باسمها وباسم مصر ، ومصر لا تعلم بشيء من ذلك ولم يطلب رأيها فيه . وتبدى ايطاليا الفاشستية نشاطا واضحاً فى تنظيم مستعمراتها الافريقية وتقوية نفوذها الاستعمارى ، وتجعل التوسع الاستعمارى أساساً لسياستها الأوربية ، فتشترط لتفاهمها مع فرنسا أن تحصل على حقوق ومزايا استعمارية فى جنوب تونس ، وفى منطقة تشاد ، وتدعو الى تعديل معاهدة الصلح (معاهــدة فرساى) ، وتحاول أن تثير مسألة الانتدابات الاستعمارية التى استأثرت بها فرنسا وانكلترا وحرمت هي منها فلم تظفر بشيء من أسلاب ألمانيا أو الدولة العثمانيــة ؛ هذا الى اهتمامها بتقوية نفوذها فى كثير من الأمم الشرقية ، ومضاعفة جهودها فى نشر تجارتها ونفوذها الاقتصادى

ومن الطبيعى أن تخص ايطاليا المنطقة الحبشية بمعظم جهودها واهتمامها ، فهى تملك فى تلك المنطقة مستعمرتين كبيرتين هما بلاد الاريترية التى تحد الحبشة من الشمال الشرقى وتحجب عنها ساحل البحر الأحمر ، وبلاد السومال الايطالى ، وهى تحد الحبشة من الجنوب الشرقى ، وتحجب عنها ساحل المحيط الهندى . بيد أن هذا الاهتمام ليس حادثاً ولا طارئاً ؛ فقد بدأت ايطاليا عصرها الاستعمارى فى تلك المنطقة ، وامتلكت بها أول مستعمرة ايطالية . وكان ذلك سنة ١٨٨٥ ، وقت أن كانت الدول الكبرى تنظم اقتسام افريقية الى أملاك ومستعمرات ، فاستطاعت ايطاليا أن تضع يدها على ثغر مصوع وأن تحتل بلاد الاريترية ؛ وكانت السياسة الايطالية تتطلع يومئذ الى التوسع فى تلك المنطقة ، والى إنشاء امبراطورية استعمارية ايطالية فى شرق افريقية ؛ ولم يكن يحقق ذلك الحلم سوى الاستيلاء على بلاد الحبشة ؛ فاتخذت من الاريترية قاعدة لتحقيق هذه السياسة ، وكانت الحبشة تجوز يومئذ ظروفاً سيئة من تعاقب الثورات والخلافات الداخلية ، وكان الغزو الأوربى قد استطاع أن ينفذ اليها قبل ذلك بأعوام قلائل ؛ فى سنة ١٨٦٨ ، نفذت حملة انكليزية بقيادة السير نابيير الى بلاد الحبشة لتعمل على إنقاذ بعض المبعوثين والرعايا الانكليز الذين اعتقلتهم حكومة الحبشة وأبت إطلاق سراحهم ، وكان المتغلب على الحبشة يومئذ زعيم يدعى كاساى ، الذى تلقب باسم الملك « النجاشى) تيودور ، فهزم واضطر الى التسليم ، وانتحر على أثر ذلك ، وانسحب الانكليز بعد أن أملوا شروطهم وحققوا غايتهم . وقام على عرش الحبشة النجاشى يوحنا الثانى ، وفى عهده تقربت ايطاليا من الحبشة وعقدت معها صلات ودية وثيقة سرعان ما تحولت الى نوع من الوصاية . واستمرت ايطاليا تعمل على تقوية نفوذها وسلطانها فى الحبشة حتى توفى يوحنا الثانى سنة ١٨٨٩ وخلفه منليك أمير شوا ؛ وكان النير الايطالى قد اشتدت وطأته يومئذ ، وضعفت الحبشة واضطربت شئونها الى حد استطاعت معه أن تفرض ايطاليا عليها معاهدة تقضى بوضعها تحت الحماية الايطالية ، وهى المعروفة بمعاهدة « اوشالى » (سنة ١٨٨٩) وعنـــدئذ تغلغل النفوذ الايطالى فى الحبشة ، وسيطرت ايطاليا على شئونها ومصايرها ، وأخذت تطمح الى امتلاكها وضمها . ولكن شاء القدر أن يكون منليك ، ذلك الأمير الذى ضاعت فى عهده الحريات الحبشية هو نفس الأمير الذى يقوم بتحريرها من النير الأجنبى . فى سنة ١٨٩٥ ، اضطرمت الحبشة بثورة عظيمة ضد النفوذ الأجنبى بزعامة منليك ، ونشبت الحرب بين الايطاليين والأحباش ، وهزم الايطاليون هزيمة ساحقة فى « عدوه » من أعمال ولاية تجرى فى قاصية شمال الحبشة ، وذلك فى أول مارس سنة ١٨٩٦ ، وأرغمت ايطاليا على أن تعقد مع الحبشة معـاهدة جديدة تعترف فيها باستقلالها (معاهدة اديس ابابا) ، وبذلك اسـتردت الحبشة حرياتها التى لم يطل أمد ضياعها ، وانهارت آمال الاستعمار الايطالى ؛ واستمر منليك الثانى ، أو منليك الأكبر محرر الحبشة يسهر على مصايرها بقوة وعزم ، ويسير بها فى سبيل المدنية والاصلاح والتقدم حتى توفى سنة ١٩١٣ . وفى عهده نظمت الحبشة علائقها مع الدول الأوربية ، وعقدت معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى ، واستطاعت أن ترغم الدول الاستعمارية على احترامها وعلى الحد من أطماعها

وفى سنة ١٩٠٦ عقد بين ايطاليا وبريطانيا وفرنسا تحالف ثلاثى يقضى بالعمل المشترك لحماية أراضيها ومصالحها فى تلك

المنطقة ، وهو تحالف تجدد فى سنة ١٩٢٥ . ولما توفى منليك الثانى فى سنة ١٩١٣ ، خلفه حفيده ابن ابنته « ليجى ياسو » ، وقد كان أبوه الراس ميخائيل مسلماً فتنصر تحقيقاً لأطماعه وتزوج من ابنة منليك . ثم نشبت الحرب الكبرى ، واضطرمت الدسائس حول ليجى ياسو ؛ واتهم بممالأة المسلمين الذين ينتمى إليهم بأصله ودمه ، ثم اتهم بالارتداد عن النصرانية ؛ ولكن الواقع أن ليجى ياسو كان يرى أن مصلحة الحبشة أثناء الحرب تقضى باتجاهها نحو التحالف الجرمانى التركى وابتعادها عن دول الحلفاء ؛ فخشى الحلفاء ولا سيما انكلترا عاقبة هـذا الاتجاه ، وأخذت تعمل لاثارة الشعب الحبشى ضد أميره ، وألفت فى بطريرك الحبشة القبطى خير أداة لحياكة هذه الدسائس ، فاستعمل الدين وسيلة لاضرام الثورة وألقى الزعماء المستقلون فرصتهم ، وهزم ليجى ياسو بعد وقائع وخطوب جمة ؛ وأعلنت « زوديتو » ابنة منليك الكبرى امبراطورة للحبشة ، (سنة ١٩١٦) وعين الراس تافرى ماكونن وصياً للعرش وولياً للعهد ؛ وكان هو الملك وهو الحاكم ، ولم يكن للامبراطورة من السلطة الحقيقية شئ ؛ وبعد بضعة أعوام أعلن الراس تافرى نفسه امبراطوراً الى جانب الامبراطورة زوديتو ؛ ولما توفيت الامبراطورة سنة ١٩٣٠ ، استقل الراس تفرى بعرش الحبشة باسم الامبراطور « هيلى سلاسى » ؛ وكان أعظم حادث سياسى فى عهده انضمام الحبشة الى عصبة الأمم . وفى عهده قطعت الحبشة مراحل عظيمة فى سبيل التقدم والتجديد ، وبذلت جهوداً كبيرة لتنظيم قواتها الدفاعية وتزويدها بوسائل التسليح الحديثة ؛ ونظمت الحبشة علائقها السياسية والتجارية مع معظم الدول الأوربية ، واستطاعت أن ترد عادية النفوذ الأجنبى عن استقلالها وحرياتها

ولكن السياسة الاستعمارية تعود اليوم فتتربص بالحبشة ؛ وتعود ايطاليا فتتجه ببصرها وأطماعها إلى تلك المنطقة ؛ وظاهر أن نشاط ايطاليا فى الارتيرية والسومال ، وما تبدى هنالك من الاستعدادات الحربية ، وأن زيارة ملك ايطاليا لهاتين المستعمرتين ، وأن تحرش ايطاليا بالحبشة ومحاولتها أن تدفع حدود السومال الى داخل الأراضى الحبشية مما أدى الى حادث أولوال الدموى ؛ ظاهر من ذلك كله أن ايطاليا مقبلة على تنفيذ خطة استعمارية جديدة فى تلك المنطقة . ومما تجدر ملاحظته أولاً أن لفرنسا وانكلترا مصالح هامة فى تلك المنطقة ، فانكلترا تحتل السومال الانكليزى ، وتحتل فرنسا السومال الفرنسى وثغره جيبوتى الذى هو مخرج التجارة الحبشية من جهة البحر الأحمر ، والذى يتصل بعاصمتها أديس أبابا بالسكة الحديدية . ولكن فرنسا وانكلترا تلتزمان الصمت والجمود إزاء النشاط الايطالى نحو الحبشة ، ويبدو تحفظ انكلترا وحيادها بنوع خاص فى أمرها لمندوبها فى السومال وهو الذى شهد معركة الحدود بين الأحباش والايطاليين فى أولوال الا يتدخل فى النزاع مطلقاً ، وأن ينسحب الى الداخل . ومن المعروف أن التحالف الذى عقد بين ايطاليا وفرنسا وانكلترا فى سنة ١٩٠٦ ، وجدد فى سنة ١٩٢٥ ، ينص على اعتراف الدولتين بتفوق المصالح الأيطالية فى الحبشة . ولكن ذلك لم يكن ليكفى لحيدة انكلترا فى معركة بين الاستعمار الايطالى والحبشة ، لو لم يتدخل فى الموقف عامل خطير آخر ، هو ظهور اليابان على المسرح . فاليابان تبذل منذ أعوام جهوداً جبارة لغزو الأسواق العالمية فى الشرق والغرب ، وقد استطاعت أن تنافس التجارة البريطانية فى معظم الأسواق منافسة خطيرة ، وأن تخلق لبريطانيا مشكلة اقتصادية عظيمة تهددها اليوم فى تجارتها الأمبراطورية بأخطر العواقب ؛ وظهرت اليابان فى شرق افريقية كما ظهرت فى غيره ، واستطاعت أن تغزو سوق الحبشة بسرعة ، وأن تكسب عطفها وثقتها ، حتى قيل بأن الامبراطور ينوى أن يعهد فى تدريب جيشه الى خبراء عسكريين يابانيين . ولما كانت بريطانيا العظمى تعمل لأحباط هذا الغزو اليابانى الخطر بكل ما وسعت ، فقد رأت أن تطلق يد ايطاليا فى المنطقة الحبشية لـكى تعمل على مقاومة النفوذ اليابانى ، ورأت ايطاليا من جانبها أن تعمل لتحقيق مشاريعها الاستعمارية . وأما سكون فرنسا فيحمل على أنها ترى إرضاء التوسع الايطالى فى تلك المنطقة ، مما يصرف نظر السياسة الايطالية عن محاولة التوسع فى منطقة بحيرة تشاد فى السودان الغربى ، ومما يهدئ ثورتها وأطماعها نوعاً ؛ هذا ومن جهة أخرى ، فان ايطاليا تتطلع بنوع خاص الى منطقة بحيرة تسانا الحبشية والى الانتفاع بمواردها ، وبحيرة تسانا التى تغذى النيل الأزرق ، وتعتبر من أهم منابع نهر النيـل ، تقع فى شمال الحبشة على مقربة من الأريترية المستعمرة

ما نرى فى الغردقة

فى محطة الأحياء البحرية التابعة للجامعة المصرية

للدكتور كروسلاند
مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

أعدت محطة الأحيـاء البحرية بالغردقة للأبحـاث العلمية البحتة ، فليس بنا من حاجة الى معرض نربى فيه بعض الحيوانات الجميلة التى تعيش بالبحر الأحمر . ولـكن كثيراً ما يُعنى زائرو المحطة بجمع هذه الحيوانات للتمتع بمشاهدتها فى المرابى كل فى معمله المعد له . وقد نجحت المعـدات التى زودنا بها هذه المرابى نجاحاً باهراً ، فقد عاش أغلب هذه الحيوانات عيشة صحية بضعة أسابيع أو أشهر حتى يغادر صاحبها المحطة فيطلق سبيلها فى اليم أو تقتل لتحفظ فى المتحف . والمعدات التى هيأناها للمرابى هى : —

أولاً — أن نزود بسيال مستمر من ماء البحر الطازج الذى يؤخذ تواً من نهاية الرصيف حيث يكون صافياً لا يحتـاج الى ترشيح ، فيوضع فى صهريج صغير يملأ ثلاث مرات يومياً ، ومنه يوزع على المرابى

ثانياً — تجرى الميـاه فى أنابيب مصنوعة من السليوليد (الطبخ) وصنابير من السـليوليد أو الولـكنت (Yulcanite) أما المضخة فمبطنة بالخزف . وبذلك لا تتصل الميـاه فى طريقها من البحر الى المربى بأى معدن

كثير من الأسماك الاستوائية جميل فى لونه ، وبعضها كفرس البحر والأمفسيل (Aeoliscus punculatus) غريب فى شكله كما جاء فى مقالى السابق (بالرسالة) ؛ وكثيراً ما نحصل هنا على فرس البحر والأمفسيل ، فيعيش الأول فى المربى ويموت الثانى بمجرد إخراجه من البحر . وغـير هذين النوعين يوجد أبو صندوق (Ostracion, Box fish)، والدرمة (Puffer fish, Tetraodon) وقد اقتنينا من هذه سمكة صغيرة كانت تسبح بزعانفها فقط ، بينما تجر ذنبها ملتوياً الى جسمها ، فاذا أهيجت سبحت به بسرعة ونشاط

الايطالية ؛ وقد حاول بعض رجال المال الأمريكيين أن يبتاعوا من الحبشة امتيازاً باستغلال هذه المنطقة وكادوا يظفرون ببغيتهم رغم مقاومة السياسـة البريطانية ؛ ولـكن الأمبراطور هيلى سلاسى رأى أخيراً أن يحتفظ بهذا المورد للحبشة ؛ وانـكلترا تؤثر أن تقع هـذه المنطقة تحت النفوذ الايطالى اذا لم تستطع هى أن تبسط نفوذها عليها ؛ وايطاليا ترتب على التوسع فى هذه المنطقة مشاريع زراعية واقتصادية كبرى

هذه هى ظروف المعركة التى يلوح لنا أن الاستعمار الايطالى يعتزم أن يشهرها على الحبشة ؛ وحكومة أديس أبابا ليست غافلة عن الخطر الذى يهددها ، فهى تشعر بما وراء السياسة الايطالية من المشاريع والمطامع . والحبشة كما ذكرنا من أعضاء عصبة الأمم ؛ وقد رأت على أثر الحوادث الأخيرة أن تطلب الى الحـكومة الايطاليـة قبول التحكيم معها الى هيئة دوليـة ؛ ولـكن رومة رفضت هذا الاقتراح ، ورفعت الحبشة الأمر الى عصبة الأمم بالتطبيق للمادة الحادية عشرة من ميثاق العصبة وهى التى تنص على حالة خطر الحرب الذى يهدد أحد أعضاء العصبة ، وعلى وجوب اتخاذ جميع الاجراءات الممكنة لصون السـلام . والظاهر أن حكومة رومة لا تحفل أيضاً بتدخل عصبة الأمم ، وأنها ماضية فى خطتها العـدائية نحو الحبشة ، لأنها تقدمت الى حكومة أديس أبابا بطلب تعويضات وترضيات جديدة عن حادث أولوال . وليس من ريب أيضاً فى أن الحبشة لم تلتجئ الى عصبة الأمم إلا قياماً بواجبها الدولى ، وأنها لا تعتمد على العصبة فى رد شئ مما يهددها من عدوان الاستعمار الغربى ، لأنها تعلم أن العصبة لا تملك شيئاً من الأمر ؛ والحبشة تشعر بهذا الخطر وتقـدره بلا ريب منذ بعيد ، وتعمل دائماً على رده بكل ما وسعت . ومهما يكن من مظاهر القوة التى تبديها السياسة الفاشستية ، فانا لا نعتقد أنها قادرة على أن تغزو بالقوة المادية بلاداً وعرة كالحبشة ، وعلى أن تخضع بالسيف شعباً شديد المراس كالشعب الحبشى ، وفى وسع حكومة رومة أن تنظم من المظاهرات ما شاءت ؛ ولـكنها ما زالت بلا ريب تذكر الدرس القاسى الذى ألقتـه الحبشة على الجيش الايطالى فى « عدوه » ، منذ جيل فقط

محمد عبد الله عنان
المحامى

وشاهد أحياناً الرعاد ويعرف هنا (بالرجدة) (Electric Ray, Narcine pantherina) على الشاطئ الرملي بجوار المعامل، وهو سمك كهربائي يحدث رعشة خفيفة ولكنها كافية لأن تحمل (سيباء) على أن تلقي بنفسها خارج المربى الذي كانا يعيشان فيه سوياً.

وتوجد أنواع من الأسماك الصغيرة مثل الكشكوشة (Atherina forskali) في أسراب كبيرة بجوار المرسى تعيش على الأحياء الدقيقة المعلقة بالماء (Plankton)، وأعجب خواصها مقدرتها على الحياة مدة طويلة في المربى، ولعلها تجد مقداراً كافياً من هذه الأحياء المعلقة، وخاصة عندما يملأ الصهريج الخازن في المساء، إذ تكثر الأحياء المعلقة في المياه السطحية، كما تكفي تلك لغذاء المرجان وقرب البحر (Ascidians) وغيرها.

وتحفظ الكشكوشة فريسة لحيوانين من أعجب حيوان المربى هما السيباء وزهرة البحر الكبيرة. تجثو السيباء أكثر الوقت على القاع، وقد ضمت ثمانياً من أذرعها جنباً إلى جنب فتكون قلنسوة حول الفم، وتحاكي (mimic) السيباء القاع الذي تعيش عليه تماماً، غير أن لها خطاً أزرق راقاً يحف زعنفتها. وهكذا تظل جاثمة في مكانها مختفية عن الأنظار حتى إذا دنت منها سمكة كالكشكوشة أطلقت عليها ذراعيها الطويلتين المختبئتين في جيب مخصوص وأمسكتها بممصاتها، وفي رهة تتوارى السمكة في قلنسوة أذرعها القصيرة، وفي الوقت نفسه تظهر على جسم السيباء خطوط عريضة بنية داكنة تجعلها واضحة جلية. ذلك التغيير في اللون وغيره مما يحدث إثر أي حافز stimulus أو بدون حافز ظاهر يجعلها فتنة للناظرين، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نبحث عن العلاقة الحقيقية بين ذلك التغيير في اللون والحوافز المختلفة

وعندنا من الرخويات صدف اللؤلؤ، ذلك الذي يعيش حتى يقتله الإنسان طمعاً في صدفه البراق، أو في اللؤلؤة يصادفها في كل نحو من عشرة آلاف صدفة.

والبزق (Slugs, Nudibranchs) من أعجب الرخويات، وهي عديمة المحار، كثير منها جميل خلاب ما دام حياً، فإن حفظ بعد الموت تحول إلى كتل لا شكل لها تكون أقرب إلى الطين لوناً

وهناك عائلة من البزق (Doridae) من أهم مميزاتها أن أفرادها ذوات ألوان أخاذة، وفيما عدا ذلك لا تختلف أنواعها إلا في خواص طفيفة. ومن بين ردف العائلة كرومود وريدى Chromodoridae هنا نوع واحد (Chromodoris quadricolor) شكل (١) ذو حجم لا بأس به يبلغ خمسة سنتيمترات طولاً، واثنين ونصفاً عرضاً، وهو من أقلها جمالاً ومع ذلك فهو خلاب حقاً. ظهره مسطح يمتد منه من الأمام قرنا الاستشعار، ويرجح أنهما للشم، ومن الخلف عدة خياشيم ريشية منتظمة في دائرة. لونه أسود مقلم طولياً بخطوط زرقاء قد يكون جزء منها أو كلها أبيض.

شكل (١)

كرومودورس كوادريكولور — (Chromodoris quadricolor)

أما القرون والخياشيم فذات لون أصفر برتقالي زاه. ويحف الظهر خط من نفس اللون داخله خط آخر أبيض. ولما كانت هذه البزق لا تلجأ عادة إلى الاختباء تحت الأحجار، كما تفعل البزق المعتمة اللون، كانت أداة طيبة للعرض. ولون هذه الحيوانات في جلائه ووضوحه إرهابي warning colouration يقيها أعداءها التي تخشى طعمها الرديء.

ومنذ قريب عثرنا على نوع آخر من (Chromodoris) وجدت منه كثيراً في زنجبار منذ نيف وثلاثين عاماً عندما كنت أقوم بعمل مجموعة الأحياء للسير (شارلز إليت)، ولكني لم أره هنا من قبل برغم ألوانه الغريبة؛ جسمه أبيض يميل إلى الصفرة، تزينه نقط صفراء فاقعة، ويحفه خط بنفسجي وحلقة بيضاوية بنفسجية تحيط بقرني الاستشعار وأخرى تحيط بالخياشيم. ولهذه الحلقات يسمى (Chromodoris annulata) شكل (٢)



شكل (٢)

كرومودورس انيولاتا

(C. annulata)

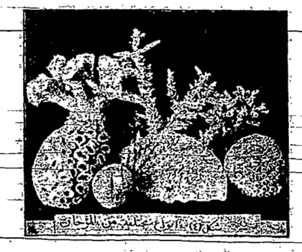
وأضخم هذه البزق وأجملها لوناً هو (Hexabranchus sanguineus) ويسميه الصيادون هنا لسان البحر ، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمتراً ، وله برنس عريض كثير الحواشي قرمزى اللون يحفه شريط أبيض قد تتخلله خطوط دقيقة مستعرضة ؛ وتختلف نسبة هذا الشريط الأبيض ، فقد لا توجد فى بعض سلالات ، وفى أخرى من المحيط الهندى (لم نرها بالبحر الأحمر) بداخله كثير من الصفرة

ويذكر إليت (Eliot) أن هذا الحيوان كثير الانتشار ، ولكنى أعتقد أن حجمه الكبير ولونه الزاهى هما اللذان يساعدان على رؤيته . ولم أره إلا مرة واحدة فى موطنه الطبيعى بين المرجان ؛ وكل نماذجنا الأخرى حصلنا عليها بعد أن لفظها البحر على الشاطئ فى فصل الربيع . وعند ما نلتقطه يظهر قدمه كنقر ضيق ، فتبدو قبضته على السطح الذى يزحف عليه واهنة جداً ، فاذا طغت الأمواج أزاحته عن موطنه وطفا على سطح البحر . ولكنه إذا وضع فى المربى تفرطحت قدمه وأمسك بالقاع جيداً ، فان أهيج ترك القاع وارتفع فى الماء سابحاً بتموجات غريبة . لعلكم لم تروا فيلاً يطير ، ولكننا هنا نرى بزاقة تسبح بنشاط . وليس لى عهد ببزاقة أخرى تقدر على السباحة ماعدا توردِسا (Thordisa) فى زنجبار ، ولم أرها منذ ذلك الوقت . ومن خصائص هذا النوع أنه يخدر بسهولة باضافة كبريتات المانزيا إلى الماء الذى يعيش فيه ، وبذلك يمكن قتله وحفظه على شكله وهو حى ، غير أنه يفقد لونه بسرعة .


شكل (٣) أنواع مختلفة من الشوكيات

وكثير من الشوكيات يعيش طويلاً فى المربى ، ونرى فى الشكل (٣) أنواع من قنفذ البحر لبعضها أشواك غليظة كمبسم الغليون (مثل أبى مباسم Heterocentrotus & Cidaris) ولغيرها أشواك دقيقة طويلة كالأسلاك ، مثل الهلمان (Diadema) ، وأخرى قصيرة كالأبر ، وقد يتجرد أبو مباسم من أشواكه كلها ، ولا نعلم بالتحقيق هل ينبت عليه غيرها كما يكون الحال فى الرتسة الأوربية (Echinus esculentus) فأننا لم نحفظها بالمرابى مدة كافية للفصل فى ذلك.

وبين نجوم البحر نجمة قرمزية اللون تزينها نقط زرقاء ، كذلك كف مريم (Astropecten) وهو يشبه النوع الأنجليزى كثيراً ، ويزحف فوق القاع على أرجله الأنبوبية المدببة بدلا من التسلق بالمصات كبعض الأنواع الأخرى


شكل (٤) أنواع مختلفة من المرجانات

أما المرجان[1] فيسهل حفظه حياً فى المرابى ، وهو يتكون عادة من مستعمرات من عدد كبير من البوليبات (Polyps) متفاوتة الحجم ، وأفضلها ما كانت بوليباته كبيرة كما فى الشكل (٤) ؛ ففى نوع من الفافيا مثل (Favia speciosa) يبلغ قطر البوليب خمسة عشر ملليمترا ، وفى (Lobophyllia) يبلغ ثلاثين ملليمترا ، ولكليهما عدة زوائد طويلة تقوم بالحس والغذاء

وأضخم بوليبات المرجان هو مرجان عيش الغراب (Fungia; Mushroom coral) وهو ما يسميه الأهالى هنا بالطبق ، وكلا الاسمين يدل تماماً على شكله ، ويتكون من قرص كبير له زوائد قصيرة . أما النوع المعروف باسم (Fungia actiniformis) الذى يشبه زهرة البحر فى طول زوائده فلا يوجد هنا . تلك الأنواع تظهر

(١) كلمة مرجان ترجمة للكلمة الأنجليزية (coral) وهى حيوانات من الحوفمويات لها صلة بعيدة بمرجان الزينة . وهذا الأخير لا يوجد بالبحر الأحمر أو بالشعاب المرجانية ، ولكنه يوجد بالبحر الأبيض المتوسط

طرائق تغذية المرجان بجلاء . والمعروف أن المرجان حيوان لَحِم (carnivorous) ولكن ذلك العلم ليس كالعيان . وقليل من العلماء من مكنتهم الظروف من ملاحظة تغذية المرجان . إنها تقتنص الفريسة بالخلايا اللاسعة ، وتحملها القرون والتيارات الهدبية إلى الفم . وفي مرجان عيش الغراب (Fungia) تحمل الأهداب وحدها الفريسة المشلولة (من أثر الخلايا اللاسعة) وفيه أيضاً نشاهد ظاهرة هامة ، وهي ارتكاس الحركات الهدبية (ciliary reversal) . وقد كانت تغذية المرجان مجالا لكثير من الشك حتى درسها ينج (Yonge) في الحاجز المرجاني العظيم بأستراليا

ويظل حيوان المرجان من هيكله الجيرى في ظلمة الليل ، ويختبئ فيه نهاراً ، حتى في نور الصباح الباكر تراه يبدو كأنه الجماد . ومن بين المرجان جنس يدعى تربناريا (Turbinaria) تظل بوليباته نهاراً فتبدو صفراء فاقعة خارج الهيكل الأصفر الداكن . أما أجمل أجناس المرجان ، فهو الدندرونفليا ، ففيه يبلغ قطر البوليب سنتيمتراً ، ويرتفع كالزهرة ذات الألوان المختلفة كالأصفر أو البرتقالي أو الأحمر (D. Willeyi) أو القرمزي الأسود (D. nigrescens) ويظهر أن هذه الألوان تتفق مع انعدام الطحالب المعايشة (commensal algae) في أنسجة هذا الجنس من المرجان فلا يمكن للطحالب أن تعيش تحت هذا الحجاب من اللون الذي يحول دون أشعة الشمس إليها ، فإن لون (D. willeyi) يشبه لون الورق البرتقالي الذي كان يستعمل قديماً في لف ألواح التصوير (الفوتوغرافيا) ليقيها الضوء ، وبينما يوجد هذا النوع في أماكن ظليلة ينمو (D. nigrescens) كبقية المرجان في الأماكن المعرضة لضوء الشمس

وعندنا من زهور البحر (sea anemones) الشيء الكثير ، وليس منها ما يعدل في بهائه زهرة البحر الريشية التي نراها كثيراً في مرابي أوربا . ولكن الزهرة التي يسميها روبل (Ruppell) (Actinia quadricolor) من أكبر أنواع الزهور في العالم — تعيش لمدة أشهر في المربى ، وتعايشها دائماً (كبقية الزهور الكبيرة في المنطقة الحارة) سمكة أنيقة (Amphibrion bicinctus) فأينما وجدنا السمكة وجدنا الزهرة على مقربة منها والعكس بالعكس . فإذا أوجست خيفة من شيء هرعت إلى الزهرة وتحصنت بين قرونها من أعدائها . ولا يعرف لماذا لا تلسع الزهرة هذه السمكة فتقتلها كما تفعل مع غيرها ومع أكبر منها . ويمكننا أن نشاهد تبادل المنفعة بين الحيوانين إذا وضعنا معهما سردينة صغيرة . فاننا نشهد مأساة من مآسى الطبيعة التى يتألم لها الانسان ، إذ تهيج السمكة المعايشة وتطارد السردينة هنا وهناك حتى تلامس قرون زهرة البحر وتلتصق بها ، ثم لا تلبث أن تفر منها ، ولكن سرعان ما يصيبها الشلل ويعتريها الخبال فتنقض عليها السمكة وتجرها من ذنبها إلى الزهرة ، فتجاهد جهاداً عنيفاً قد تفلت بعده ، وهكذا تتكرر المأساة حتى تخر صريعة فتنطوى عليها قرون الزهرة وتزج بها إلى فيها فتخفيها ، ثم تلفظ عظامها بعد بضع ساعات . وهنا أيضاً تساعدها السمكة على التقاط الفضلات وإزالتها

وهنا على الأقل مثلان آخران للمعايشة بين زهور البحر والأسماك ، ولكننا لم نراقبهما في المربى . وفي هاتين الحالتين تكون زهرة البحر كبيرة والسمكة صغيرة جداً

يحمل بعض الشبابش [1] على المحارة التي يسكنها عدداً من الزهور البحرية تبلغ الخمس أو الست ، وتكون عادة من نوع عادى لم يتحور تبعاً لهذه العادة كما تحورت الزهرة الأوربية (Adampsia)



مستعمرة من الدندرونفليا منكمشة نهاراً

(١) جمع شبش وهو الاسم الذى يطلقه بحارة البحر الأحمر من الاعراب على ما يعرف بالانجليزية (Hermit crab)

Palliata) ، وغير هذه الزهور زهرة غريبة تتميز بقرونها الثلاثية الريشية (tripinnate) فتبدو الزهرة كأنها مستعمرة من الزنيا (Xenia) (جنس من الالسيوناريا) ، وقد حيرت نماذج محفوظة من هذه الزهرة بيلجيين لتقلصها الى كتلة لا شكل لها

أما الألسيوناريا أو المرجان اللين أو مايسميه البحارة الربلة (Alcyonaria, soft corals) فذات بوليبات ثمانية التماثل ، ويختلف نموها هنا عنه فى المناطق المعتدلة كما يختلف المرجان نفسه ، فبينما لا نرى فى أوربا الا (أصابع الموتى) (Alcyonium digitatum, Dead men's finger) ومروحة البحر الحمراء (Sea fan, Gorgonia) ، ولا يمكن الحصول على الأخيرة الا بالجراف (dredge) من قاع البحر — أما هنا فتوجد الألسيوناريا فى كل مكان بكثرة عظيمة وبأشكال متنوعة ، منها الكتل اللحمية ، ومنها الشجيرات ، ومنها النورات والمراوح . وقد حاولنا حفظ القليل منها فى المربى فلم يعش الا واحدة (Dendronephythya) شكل (٦) وهذه جنس مشعب لين من عائلة الألسيوناسيا (Alcyonacia) وتختلف عن قرائنها من

شكل (٦) مستعمرة من الدندرونفثيا مثل شكل (٥) ولكن هذه خدرت بعد التمدد ليلا وقتلت ممددة فى الصباح المبكر ، وقد رسمت بعض البوليبات عند نهاية الأفرع ، أما أكثرها فقد اكتفى بتعيين موضعه فقط

نفس العائلة فى عدة نقط مهمة ، فتعيش الأخيرة معرضة على سطح الشعب وتبدو لمن لا عهد له بها كأنها شجيرات من الطحالب السمراء ، وترجع سمرة لونها الى وجود طحالب وحيدة الخلية فى أنسجتها لا تعيش إلا معرضة لأشعة الشمس . أما الدندرونفثيا فتعيش بعيدة عن الأنظار فى شقوق بين المرجان ، ولذلك لا تأوى اليها طحالب معايشة كبقية أفراد العائلة . ويغلب أن تكون ذات لون قرمزى طريف ، ومنها أيضاً البرتقالى والأصفر والأبيض والأسمر والأزرق . ولا يعرف عدد أنواع هذا الجنس ، إلا أنى بحثت فى فصل نوعين فقط ، بينما لا تزال الأنواع الأخرى تنتظر البحث . ولا يتم ذلك إلا بدراسة الحيوانات الحية ، إذ لم ير أحد هذه الحيوانات وهى ناشرة بوليباتها غير من زاروا محطتنا ، أو على الأقل ليس بين الصور والأشكال المنشورة ما يوضح هذه الظاهرة . فالشكل (٥) يمثلها كما تبدو نهاراً ، فاذا وضعت فى المربى تمددت الى ثلاث مرات أو أربع طولاً ، وتنقص بنفس النسبة عرضاً ، وتغطى الأفرع الحمراء أو الوردية مئات من البوليبات كما فى الشكل (٦) وتعيش المستعمرات الصغيرة جيداً (ليس عندنا مكان يتسع لحفظ المستعمرات الكبيرة التى تصل الى قدم فى الارتفاع) وسرعان ما تموت الحيوانات الأخرى التى تنتمى الى نفس العائلة وتتحول الى مخاط ، ولكنها تعيش معرضة الى ضوء الشمس

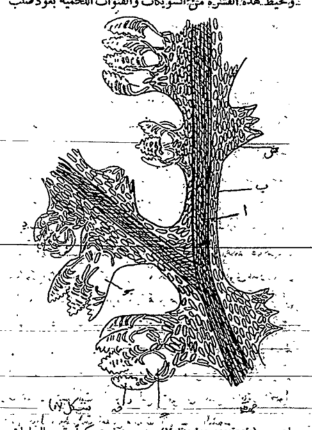
بين الشكلان (٧ و ٨) جنساً آخر كثير التشعب يدعى (Melitodes coccinea) يعيش قليلاً فى المربى ثم تختفى أنسجته الحية ويبقى هيكله ، وهو جميل فى ذاته يستحق العرض ومثل ذلك

شكل (٧)

مستعمرة من المليتودس (Melitodes coccinea) الحجم الطبيعى

مروحة البحر التى تعرض فى المرابى فى أوربا فانها خداع نظرى وليست حية ، انما هى هياكل خاوية . ولعل أفضل ماروق الزائر من غير الاخصائيين أن يرى مرجان الزينة فى المربى ، إلا أنه معدوم فى البحر الأحمر ولكن المليتودس كوكسينيا تشبهه كثيراً غير أن عودها الصلب المكون من التحام شويكاتها (Spicules) لا تزيد غلظه على نصف المليمتر . ويبين الشكل (٨) جزءاً منها مكبراً من تحضير شفاف ، وقد ظهرت بوليباتها بارزة من غشاء رقيق يتكون من

قنوات لحمية دقيقة يحيط بها عدد كبير من الشويكات غير الملتحمة . وتحيط هذه القشرة من الشويكات والقنوات اللحمية بعود صلب



شكل (٨)

مليتودس (Melitodes coccinefa) جزء من فرع مكبراً وترى البوليبات مطلة ومنكمشة قليلا (جـ) ماعدا عند (د) حيث القرون منكمشة : (ا) العود المحورى المكون من التحام الشويكات (ب) القشرة المكونة من الشويكات المتفككة والغشاء الحى التى تتصل به البوليبات (ش) الشويكات

هو نظيم (homologous to) مرجان الزينة .

وتمثل الشويكات فى الشكل بأجسام بيضاوية، وترى هيئتها الحقيقية فى الشكل (٩) مكبرة كثيراً . أما البوليبات فمنكمشة قليلاً وبقرونها شويكات كالعصى الملتوية . ولا تمكن رؤية هذه التفاصيل إلا إذا قتلت الحيوانات بعد تخديرها بحذق ومهارة وإلا اختفت البوليبات . لهذا السبب لا يمكن وصفها فى مئات النماذج من الألسيوناريا التى جلبتها الرحلات العلمية إلى أوربا ،

شكل (٩) شويكة من القشرة الخارجية للمليتودس مكبرة لتبين شكل الشويكة الحقيقى

ويتوقف على هذه الشويكات وترتيبها أساس تقسيم جنس الدندرو نفثيا (Dendronephthya) إلى أنواعه المختلفة . لذلك كان من ضروريات البحث فى الألسيوناريا والمرجان دراسة الحيوانات حية . ولمثل هذا النوع من البحث العلمى أنشئت محطة الأحياء البحرية بالغردقة

ويوجد لون المليتودس القرمزى فى الشويكات كما هو الحال فى كثير من الالسيوناريا . وهو ثابت جدا ولا يعرف كنهه الى الآن ، والمرجح أنه يرجع الى عوامل فيزيائية وكيميائية معاً ؛ فيجب أن يتكاتف فى دراسته البيلجى والكيميائى والفيزيائى . ومما يزيد فى صعوبة البحث أو يقلل منها أننا نجد تحت حجر واحد وتحت ظروف واحدة مستعمرات متشابهة فى كل شىء ماعدا اللون ، فقد يكون بعضها وردى اللون وبعضها قرمزيا أو أصفر ، ولا نجد أى ألوان متوسطة بين تلك كما نجد فى مرجان الزينة بين الأبيض والأحمر والوردى

هذه أغلب أدلتنا التى نجحنا فى توفير أسباب الحياة لها فى المرابى . إلا أن هنا قليلا من الدخلاء ، فلو فرضنا أن مربى وضع فى البحر لمدة ستة أشهر لتغطى بطبقة يبلغ غلظها البوصة من قرب البحر (Barnacles) والرخويات والأطوم (Ascidians) والأشنة البحرية (Polyzoa) مع عدد من الديدان والبزق . ولعل أمتع شىء النظر الى أعمدة رصيف ميناء الغردقة إذ تكسوها الدندرونفثيا ، ونوعان من مراوح البحر (Gorgonians) ، وقرب البحر ، والديدان الأنبوبية (Tube worms) ، والأشنة البحرية ، وغيرها ، فهى إذ ذاك متحف طبى . وفى المحطات الأخرى حيث ترشح المياه وتخزن لاسبيل لليرقات الى المرابى ؛ أما عندنا فالباب مفتوح لها على مصراعيه . وفى الأسابيع القليلة التى استعملت فيها المرابى باستمرار نمت لطخ صغيرة من الطحلب الجيرى (Lithothamnion) ونوعان من الديدان الأنبوبية وآخران من قرب البحر وواحد من الرخويات ذات المصراعين (Anomia) . فلو أن المرابى استعملت عاماً مثلاً لحصلنا على الشىء الكثير ، ولكن قلة النمو فى الفترة السابقة تدل على أن الفترة الحرجة فى حياة الأحياء البحرية هى تلك التى تستقر فيها اليرقة وتنتقل الى حياة اليافع . ذلك الانتقال الذى يتعذر فى الطبيعة إلا على واحدة فى الألف أو بعض الآلاف ، وذلك لقلة الغذاء أو المكان المناسب لنموها

الغردقة — الدكتور كرلس كرسلند

من ذكريات لبنان

كيف كنت غيرى ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كنا نقصف — ذات ليلة — فى فندق كبير فى « ضهور الشوير » . والقصف أن نشرب ونضحك ونأكل — بعيوننا — الفتيات المشوقات اللواتى يخطرن فى الرقص مع السعداء من الشبان ، وكانت الأنوار فى المرقص ألواناً شتى متعاقبة ، وكان الضوء الأرجوانى — حين ينساب الفتيات فيما يترقرق عليهن منه — أقوى فتنة وأشد إغراء ، فكنا ننهض عن المائدة ونتزاحم على أبواب المرقص ، وعيوننا تكاد تخرج من فرط التحديق ، وكانت هناك فتاتان تتراقصان وتأبيان أن يخاصرهما الرجال ، وكانتا ســاحرتين — فى جمالهما ، ودلهما ، ولعبهما ، وحركاتهما ، فأغريت بهما أحد رفاقى — وكان يجيد الرقص — وأنا أقول لنفسى : « اذا راقص إحداهما عرفناها جميعاً وفزنا بصحبتهما » ولكنهما ردتاه ببسمة وكلمة رقيقة لاتغنى ولا تسمن

فقلت لنفسى : « لم يبق لها إلا رجالها » ودنوت منهما وقلت وأنا أتناول كرسياً وأجلس بغير استئذان :

« أمِنْ قلةٍ فى الرجال تتراقصان ؟ »

فقالت إحداهما — بعد أن ألقت الى صاحبتها نظرة :

« بل من كثرتهم ! »

فقوّى قلبى أنها ردت ، فقلت : « اسمعا منى . إن هذه النظرات الخبيثة التى تتبادلانها لن تجديكما ..(ضحك) وأنا باسم هؤلاء الشبان الكثيرين الذين لا أعرف أسماءهم ولا أحب أن أعرفها . . . . . »

فسألت احداهما : « لماذا ؟ »

فقلت : « لاتقاطعى من فضلك ! ثم إن هذا شأنى وحدى ، وعلى ذكر ذلك أسألك . . . هل أنت مصرية مثلى ؟ »

فقالت الخبيثة — أعنى التى تتكلم — : « هل أنت مصرى ؟ »

فصحت بها : « يخرب عقلك ! وهل ترين أنى أتكلم إلا كما يتكلم المصرى ؟ »

فضحكتا وقالت الأخرى : « هذا أحسن . لقد كنت أسأل نفسى أين يا ترى رأيتك ؟ »

فقاطعتها : « نعم إنى أراك دائماً . . . . . »

فسألتنى جادة : « أين ؟ »

فقلت : « بخيالى . . . فى أحلامى ! »

فقالت الأولى وهى تبتسم — لا أدرى لماذا — ألست عبد . . . . عبد الله ؟ »

فتشهدت وقلت : « طبعاً ، طبعاً ، عبد الله حقاً وصدقاً »

قالت : « لقد كنت واثقة أنى أعرف وجهك . . . . ألم تعرفيه يا توحة ؟ »

فأجبتها أنا : « لماذا تحرجينها ؟ دعى لها سرها حتى تهمس به فى أذنى ، ونحن نتمشى فى غابة بولونيا ، والقمر الطالع . . . . »

فضحكتا وقالت توحة : « بهذه السرعة ؟ »

فقلت : « معذرة ! إن خيالى وثاب . . . طيار إذا شئت ، ولكنه صادق . . . لايطير إلا بجناحين من الحقيقة »

فقالت الأولى : « وكيف زوجتك ؟ »

فصحت : « إيه ؟ »

ولم أكن أتوقع أن ترمينى بسؤال عن زوجتى ، وخفت أن يكون وراء السؤال شرك منصوب ، فلذت بالحذر . وقالت :

« إنما سألت كيف زوجتك ؟ »

فقلت : « زوجتى ؟؟ أوه ! آه ! مفهوم ! »

قالت : « لماذا تركتها ؟ »

فلم أدر ماذا تعنى بالترك ؟ وآثرت أن أروغ فقلت :

« هل تعرفينها ؟ »

فقالت الخبيثة : « إنه يسأل هل أعرفها ؟ قولى له ياتوحة »

فدار رأسى ، وارتبكت ، فما رأيتهما قط فى بيتنا ولا فى بيوت أحد من أهلنا أو معارفنا ، وزاد شعورى بالشراك المنصوبة تحت كل كلمة ، ولعنت الساعة التى أقدمت فيها على كلامهما ، ولكنى كنت قد تورطت ، وانتهى الأمر ، ولم تبق لى حيلة ، وخجلت أن أنهزم أمامهما فتشددت وقلت :

« ما أجمل هذه المصادفة ! بالله حدثاني عن نفسيكما . . . .
إن أذنيّ معكما . . . . لكل واحدة منكما أذن . . . تكلما . .
بارك الله فيكما ، وفي ليلتي هذه معكما ! »

فقالت الخبيثة : « ماذا جرى بينكما ... إلا أن يكون هذا سراً لا تحب الأفضاء به »

فقلت : « لا لا لا ... وعلى أنه لم يجر بيننا إلا ما يجرى بين الزوجين ... أعني عادة ! »

فقالت توحة وهي تضحك : « إن الذي تعنيه أختي ... »

فسألتها « أختك ؟ »

فقالت « نعم أختي ... من كنت تظنها ؟ »

فقلت « كنت أظنها ... ا ... أ ... أختك »

فأضحكهما هذا التخليط ، وضحكت معهما ، ولما قرَّت الضجة قلت :

والآن يا أختها بأي اسم تخاطبين نفسك حين تنظرين في المرآة ؟

فقالت : « أتريد أن تعرف اسمي ؟ »

فأردت أن أستفزها فقلت : « لا (بفتور) يكفي أن أعلم أنك أخت توحة »

ولكنها كانت أخبث مما توهمت ، فقالت :

« نعم كفاية . والآن ألا تحدثنا عن سبب انفصالك عن زوجتك ؟ إنها صديقتنا من أيام المدرسة ، وقد آلمنا ما وقع ، ولكن لعل لك عذراً »

فحمدت الله في سري على جهلها بي وبزوجتي ، وأيقنت أني آمن معهما ، ولكني مع ذلك حاولت أن أزحزح الحديث عن هذا الموضوع فقلت :

« هذا شيء مضى ، ومن العبث الكلام فيه »

فقالت أخت توحة : « مسكينة ! »

وقالت توحة : « ما أفظع الرجال ! يأكلون المرأة لحماً ، ويرمونها عظماً »

وألفيت نفسي غرضاً لسخطهما ونقمتهما ، فضاق صدرى وقلت :

إني لم أكن أحب أن أقول شيئاً ، ولكن الرجل لا يستطيع أن يظل يحتمل طول عمره أن يرى بصحاف الطعام اللآى

فصاحت توحة : « إيه ؟ ماذا تقول ؟ »

وأعجبني صوتي ، وسرني أني تبينت آية الدهشة في وجههما فمضيت أقول :

لقد كانت تتناول قطتي البيضاء وتلعب بها الكرة ، أو تمسكها من ذيلها وتطوح بها ذراعها ، وتزعم أن هذا خير من اتخاذ الحديد للعب »

فقالت أخت توحة : « مستحيل ! لا أصدق »

وقالت توحة : « زينب تفعل ذلك ؟ ! »

فقلت : « المسألة بسيطة والبرهان حاضر ، تعاليا معي الى مصر وأنا أريكما القطة ! »

وآلمني أن أرزق (زينب) هذه بالغيب ، وأدركني عليها عطف شديد ، ولكن ماذا أصنع وقد أبت الفتاتان الا أن تحشراها في الحديث حشراً ، والا أن تركباها كتفي ، وتزعماها زوجة لي ، وتدعيا أني أسأت اليها وجنيت عليها وتخليت عنها ؟

وقالت توحة : « ولكن كيف يمكن ؟ لقد كانت في المدرسة أرق التلميذات قلباً ؟ »

فهززت رأسي وقلت : « وأشهد أنها ظلت كذلك زمناً حتى اعتادت الشراب »

فصاحتا بصوت واحد : « الشراب ؟ زينب ؟ »

قلت : نعم ، مع الأسف ! وبعد ذلك انقلبت زوبعة لا تسكن قط ... بالله اتركا هذا الحديث ... إنه يؤلمني ... وما أفضيت اليكما بهذه الحقائق إلا لأنكما كنتما معها في المدرسة ، فاعذراني وانتقلا إلى كلام آخر »

***

وصرنا أصدقاء ، نلتقي كل بضعة أيام ، أعني أني كنت أزورهما من حين إلى حين في مصيفهما « بضهور الشوير » ، ونخرج الى البساتين والضياع المجاورة ، ثم مضت فترة لم أرهما فيها ، واتفق يوماً أني كنت مدعواً الى حفلة في فندق بيروت ، فبصرت بأخت توحة واقفة تطل على البحر ، فوقفت الى جانبها وحييت ، فردت التحية بفتور فقلت :

« الجو حار »

قالت : « نعم »

قلت : « ولكن البحر يلطف الحرارة »

قالت : « نعم »

ولم يخطر لى كلام جديد فقلت :

« كبرٌ ما بنا أم جفوة ؟ »

فواجهتنى وسألتنى بحدة :

« ألا تزال اسمك عبد الله ؟ »

قلت : « يا فتاتى لا تجهلى ! ما زلت عبد الله حقاً وصدقاً ، وإن كنت مع هذا لا أنكر أنه غير الأسم الذى اختاره لى أبواى »

قالت : « ألا تخجل ؟ » .

قلت : « إنى أستحق عطفك . . لقد احتملت هذا الاسم الذى لا يبعث على الزهو ، لأنك أنت اخترته لى »

قالت : « لقد رأيت زينب . . . وأخبرك أيضاً أنها مع زوجها ، وأنهما يقضيان الصيف فى لبنان . لماذا قلت عنها ما قلت ؟ »

قلت : « أى زينب ؟ »

قالت : « لا تكابر ! إنها لا تعرفك ولم ترك قط فى حياتها »

قلت : « ما أضعف ذاكرة النساء ! »

قالت : « إن عذرك الوحيد — فى نظرى — أنك مجنون . وكلما تذكرت ما قلته عن زينب وما أضعته سدى من العطف عليك . . . »

فقاطعتها : « كلا . لم يضع . . . لقد زادنى هذا حباً لك وتعلقاً بك . . . »

قالت : « ألا تزال تجرؤ على مثل هذا الكلام ؟ »

قلت : « أو يحتاج ذكر الحقيقة والأقرار بها إلى جرأة ؟ »

قالت : « وتتصور أنى أصدقك أو أصدق أنك تتكلم جاداً ؟ »

قلت : « كلا . إن هذا لا يجرى لى فى بال . إنما أنا منظر . . ويمكنك أن تعدى كلامى صورة طبق الأصل من حديث أحلامك ونجوى أمانيك . . . وسيأتى يوم تظلم فيه الدنيا أمام عينيك ، وتحسبين أنه ما من أحد يحبك فى هذه الحياة — كلنا يمر به يوم كهذا — فاذا جاء — أعنى ذلك اليوم — فقولى لنفسك . . كلا . إنى مخطئة . فان فى الدنيا قلباً يخفق بحبى ، بحبى مخلصاً ، . . »

فقالت : « إنك مجنون ولا شك »

قلت : « وفى أثناء ذلك ترين شخصيتى الجميلة الجذابة تتفتح تحت عينيك كما تتفتح غلائل الزهرة تحت أشعة الشمس . . . »

قالت : « لن أصغى لك »

قلت : « اذن احضرى معى هذه الحفلة ؛ وكونى فيها ملاكى الحارس »

فصاحت بى : « لن أغفر لك هذا »

فقلت : « إنى لست عبد الله ! ولكنى عبده والله ! »

فابتسمت ، فقلت : « هذا أحسن وأين توحة ؟ »

قالت : « لو كانت هنا لما نجوت بهذه السهولة »

قلت : « الحمد لله — أعنى على النجاة لا على غيابها . اذهبى بى إليها »

قالت : « والحفلة ؟ »

قلت : « تستطيع أن تنتظر — أعنى الحفلة — فان مرضاتها — أعنى توحة لا الحفلة — أولى وأندى على كبدى . »

وكان هذا هو السر الذى لم يعرفه المحتفلون ، فى أن حفلتهم تأخرت نصف ساعة . فليت حظى من كل حفلة نصف ساعة كهذه !

ابراهيم عبد القادر المازنى

بين فن التاريخ وفن الحرب

١٣ – خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طـه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

والواقع أن خالداً أيضاً كان راغباً فى الصلح دون أن يلجأ إلى القتال . وهذا ما دعاه إلى أن يخفف الشروط . فتعاهده مع بنى حنيفة ينص على أن يسلموا الذهب والفضة ونصف السبى والسلاح والخيل ، وأن يأخذ هو كل قرية ومزرعة وحائط (حديقة مسورة) باسم بيت المال ، وأن يسلموا أنفسهم حتى يسلموا . أما البلاذرى فيروى أن المعاهدة فرضت على بنى حنيفة ربع السبى ونصف الذهب والفضة والسلاح

ولعل هذه الرواية هى الصحيحة ، لأنها تدل على تساهل خالد فى عقد الصلح . ويذكر الطبرى أن أبا بكر أرسل كتاباً إلى خالد مع سلامة بن وقش يأمره إن أظفره الله بأن يقتل من جرت عليه المواسى من بنى حنيفة — يريد بذلك أن يقتل من قاوم من الحنفيين — فوصل الرسول بالكتاب بعد عقد المعاهدة . فأراد الأنصار أن يمتثلوا أمر الخليفة ، فطلبوا إلى خالد أن ينفذ ما جاء فى الكتاب ، وكان أسيد بن حضير رئيس الأوس على رأسهم . إلا أن خالداً لم يلتفت إليهم ، بل وفى لبنى حنيفة وثبت على ما كان منه لجمع بنى حنيفة إلى البيعة والبراءة

ويذكر ابن حبيش الأسباب التى ألجأت خالداً إلى عقد الصلح ومخالفته كتاب الخليفة ، وهى تتلخص فى كثرة الخسائر التى انتابت المسلمين فى المعركة ، إذ قل عدد المسلمين وكان أكثرهم جريحاً . وبعد عقد المعاهدة لا يجوز النكول عنها ، ولا سيما أن بنى حنيفة أسلموا . وتنقل الرواية أن سلامة بن وقش أيضاً أصر على خالد بتنفيذ أوامر الخليفة . غير أن خالداً لم يغير رأيه واعتبر القضية منتهية

ومع ذلك استعمل خالد الشدة فى معاملته أهل العارض وبعض قرى بنى حنيفة . فقرية سيوح وعرفة والغبراء وقيشان ومربعة والصانع اعتبرت فى خارج أحكام المعاهدة ، فسبى أهلها وصادر أملاكها . والروايات لا تبحث فى أسباب هذه الشدة ، غير أنه يلوح لنا أن أهل هذه القرى إما أنهم حاولوا الإخلال بشروط الصلح ، وإما أنهم قتلوا المسلمين غدراً ، وإما أنهم مثلوا بالمسلمين فى بلاد اليمامة قبل الحركات

المناقب

يستنتج الباحث من حركات اليمامة بعض المناقب التى ينبغى الوقوف عليها ، وهى تدل على سجايا العرب الأولين مسلميهم ومرتديهم ، وتوضح لنا بعض المزايا الكامنة التى مكنت العرب من الانتصار على أعدائهم فى الشرق وفى الغرب

المنقبة الأولى — التضحية

كان ابن عمر عبد الله وأخوه زيد بن الخطاب فى الجيش الذى قاتل فى عقرباء . وكان زيد على مانعل يقود القلب ، وقد استشهد فى المعركة مشجعاً المسلمين ومدافعاً عن رايتهم

ويذكر الطبرى أن عبد الله بن عمر لما رجع إلى المدينة قال له أبوه : « ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حى »

فأجاب ابنه قائلاً : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخرت فأكرمه الله بالشهادة »

وفى رواية أخرى قال عمر لابنه : « ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عنى ؟ » . فأجاب عبد الله : « سأل الله الشهادة فأعطيها وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها »

والتضحية كلمة مرادفة للبطولة ، وهى من أخطر العوامل فى حضارة الأمم إن لم تكن أخطرها . ولا أغلى إذا قلت إن تاريخ الحضارة مكتوب بمداد هو دماء الأبطال المراقة ومساعيهم المبذولة من أجل بنيان صرح التمدن الباذخ بجميع أركانه الأدبية والعلمية

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

والسياسية . ولولا التضحية لما خرج الانسان الأول من الغاب والكهف إلى المدينة والقصر . والعرب لولا بطولتهم في تضحيتهم لما تربعوا في قصور بغداد والشام والقاهرة والحمراء ، ولظلوا تائهين في مجاهل باديتهم القاحلة الجرداء ، ولخنق الاسلام في مهده . فالتضحية رفعت عمد الأديان ، ونشرت ألوية العلوم ، ووضعت أسس الدولة قديمها وحديثها ، وسمت بابنائها الى أوج العز والسؤدد ، وقمة المجد والصولة . أجل إن العرب من الأمم الفاتحة المفطورة على البطولة والتضحية ، إلا أن نبيهم العظيم جاءهم برسالة وضع بها نصب أعينهم مثلاً أعلى هو إيمانهم الوطيد ، فبرزت نفوسهم الى ذلك المثل الأعلى على حد تعبير علماء النفس ، وحصروا وجدانهم في ايمانهم القوى ، فضلاً عن دافع غيرتهم على أحسابهم . وقوة ذلك الايمان زادتهم إقداماً على التضحية التي تجلت بأروع مجاليها في حروبهم ، ولاسيا في حروب خالد بن الوليد ، ومنها حروب الردة التي نحن بصددها . فهذا عبد الله بن عمر أنبه أبوه لأنه رجع حياً دون أن يستشهد في الذود عن ايمانه أو مثله الأعلى . ولا تزال روح التضحية متغلغلة في نفوس العرب والأعراب حتى اليوم . وما أكثر الروايات المنقولة عن رجال العرب ونسائهم من ميادين القتال في التضحية العربية المجيدة في ثوراتهم الأخيرة في الأقطار العربية ، ومنها ما يروى عن رجال اسبرطة ونسائها بهذا الصدد . يروى عن امرأة عربية عراقية أنها كانت تشجع أبناءها السبعة في إبان الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ ، وكانت كلما سقط أحد أبنائها في حومة الشرف تنشد قائلة : « يا موت اطحن وأنا اهلك » — أي يا رحى الموت اطحنى الرجال وأنا أقدم اليك أبنائي !

المنقبة الثانية — السياسة

كان مجاعة بن مرارة من رؤساء بني حنيفة ، وقد وفد على الرسول وأسلم فاقطعه أرضاً ، فلما ثار مسيلمة ببني حنيفة وادعى النبوة كان مجاعة معه . ويلوح لنا أنه كان يداري مسيلمة من جهة ويراقب حركات جيش خالد من جهة أخرى . فلما وثق بتقدم جيش خالد نحو اليمامة استفاد من الشغب الثائر على مسيلمة ، فخرج مع بعض رجاله من اليمامة طالباً الثأر من بني عامر وبني تميم . ولعل طلب الثأر كان حجة لخروجه من اليمامة قبل وصول جيش المسلمين إليها . ولما باغتته طليعة المسلمين في ثنية اليمامة استحياه خالد لعلمه أنه ينفعه في قتاله في اليمامة وحبسه عنده كالرهينة وتركه في فسطاطه قيد مراقبة زوجه أم تميم . فلما تغلب الحنفيون على المسلمين وأزاحوهم عن المعسكر دخلوا الفسطاط وهموا بقتل أم تميم فمنعهم مجاعة من ذلك صارخاً في وجههم « مه ! أنا جار لها فنعمت الحرة ! عليكم بالرجال ! »

وفي رواية أن مجاعة عاهد أم تميم على أن يساعدها اذا انتصر الحنفيون على المسلمين ، وعلى أن تساعده هي بدورها اذا انتصر المسلمون على أهله . ولما انتهت المعركة عرض مجاعة الخدمة على خالد وطلب اليه أن يتوسط في عقد الصلح ، فقبل خالد ذلك ، وأوفده الى بني حنيفة حاملاً شروط الصلح . وكان مجاعة قد علم بأن المسلمين كابدوا خسائر فادحة ، وأن الحرب أنهكت قواهم ، لأنه تفقد مع خالد ميدان المعركة وأطلعه على قتلى الحنفيين ، وهو الذي دلهم على جثة المحكم بن الطفيل وجثة مسيلمة . ولا شك أنه تأكد شدة مصاب المسلمين . فلما ذهب بمهمته تيقن شدة الشروط التي فرضها خالد على بني قومه فأراد أن يخدمهم خدمة يخلص بها قومه من هذه الشروط القاسية ويمهد السبيل لاستلانة جانب خالد . وفي مثل هذا الموقف دبر حيلة أثبت بها دهاءه .

وكانت الحيلة التي دبرها — كما يرويها الرواة — تتلخص فيما يلي : « دخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفاء ، فظاهر الحديد على النساء — أي ألبسهن الدروع وسلحهن — وأمرهن بأن ينشرن شعورهن ويشرفن على رؤوس الحصون إلى أن يرجع إليهن » ، وبذلك أراد أن يظهر لخالد أن القوم لا يزالون في حصونهم متأهبين للدفاع لكي يحمله على تخفيف الشروط . فلما عاد قال لخالد : « إن القوم قد أبوا أن يجيزوا ما صالحتك عليه ، ولكن ان شئت صنعت شيئاً فعرضت على القوم » يريد بذلك أن يخفف خالد من شروط الصلح . وحدق المسلمون من بعيد إلى الحصون ، فرأوا عليها الناس ظانين أن بني حنيفة محتلوها وأنهم عازمون على الدفاع

ولقي مجاعة صعوبة في حمل المخالفين من بني حنيفة على قبول شروط الصلح . وكان سلمة بن عمير يقول لبني حنيفة : « قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء » . أما مجاعة فيقول لهم : « يا بني حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فانه رجل مشئوم ، قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسيلمة ؛ قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات »

والرواية تقول إن بني حنيفة أطاعوا مجاعة وعصوا سلمة . وكان من أمر حيلته أن أقنع خالداً بأن يخفف شروط الصلح . فقرض الربع من السبي والنصف من الذهب والفضة والسلاح والخيل بعد ما كان قد طلب أن يعطوه كل ذلك . فلما فرغ من الصلح ، وفتحت الحصون أبوابها إذا هو لم يجد فيها إلا النساء والصبيان . فقال خالد لمجاعة : « ويحك خدعتني » فقال مجاعة : « قومي ، ولم أستطع إلا ما صنعت »

لم ينس مجاعة توجعه لقومه ولا استهواه حب الانتقام فطاش حتى يدع بني جلدته يلقون أنفسهم في مهاوى الهلاك ، بل كان مخلصاً في قضيته ، وعمد مجاعة إلى الحيلة الواسعة فصان بقية قومه من أشراك الهلاك ، وخفف عنهم وطأة الانكسار الهائل ، فكان في تلك السياسة مصلحة بني حنيفة

المقتبة الثالثة — القضية القومية

كان سلمة بن عمير يشجع الناس على المقاومة ، وقد رأى من الذل أن يحكم المسلمون في بني قومه بعد أن قاتلوا قتال الأبطال منعاً لحوزتهم ودفاعاً عن نسائهم . وكان يرى الموت ولا يرى النساء تسترق غير رضيات وينكحن غير حظيات . وقد قتل مسيلمة وابنه شرحبيل وصرع محكم اليمامة ابن طفيل . أبعد كل هذا يرضى بالهوان ؟ بل الموت أولى دون التسليم بالشروط التي يشترطها خالد . فيصرخ في أصحابه : « قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء » ثم يعود فيشجعهم على المقاومة قائلاً : « فإن الحصن حصين والطعام كثير وقد حضر الشتاء »

لقد قارن بنو حنيفة بين ما قاله سلمة وما قاله مجاعة ، ورأوا أن لا قبل لهم بالمسلمين ، فلم يروا بداً من التسليم بشروط الصلح ولاسيما أن مجاعة دبر الحيلة لمموه على المسلمين بقوة الحنفيين للدفاع ويخفف من وطأة الصلح . فلم يحفل سلمة بكل ذلك ، بل أضمر سوءاً لخالد ولم يحتمل إهانة الغلبة لقومه فأجمع على أن يفتك به . ولما حشر بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة طلب سلمة من مجاعة أن يستأذن له في الدخول على خالد ليكلمه في حاجة له . فأقبل سلمة مع بني قومه مختبئاً سيفه تحت القباء ، فلما رآه خالد لم يقبله ، ولعله كان يعلم كرهه له ، فأخرجوه عنه وفتشوه فوجدوا معه السيف ، فثار ثائر الحنفيين فأخذوا في سبه ولعنه صارخين في وجهه ، أتريد أن تهلك قومك وتستأصل بني حنيفة وتسبي الذرية والنساء ؟ فأوثقوه ووضعوه في الحصن . غير أن سلمة أقسم أن يثأر لبني قومه . لذلك عاهدهم على ألا يحدث حدثاً فيعفون عنه . فلم يصدقوه ولم يقبلوا منه عهداً . أعيته الحيلة ولم ير بداً من الإفلات ليفتك بخالد مهما كلفه الأمر . فيهرب من الحصن ليلاً ويعمد إلى معسكر خالد ، ويصيح في وجهه الحرس فيفزع بنو حنيفة فيتبعونه حتى يدركوه في إحدى الحدائق المسورة فيقاومهم بالسيف فيكتنفونه بالحجارة فيرى أن جميع الأبواب موصدة في وجهه ، وأنه غير قاتل خالداً ، فالأولى أن ينتحر ولا يرى المسلمين يسبون الذراري ، فيضرب نفسه بالسيف ، ويسقط في البئر فيموت

مبادئ خالد الحربية

تم الحركات التي قام بها خالد في قتاله أهل الردة على المبادئ الحربية التي نهجها . وفي هذه المبادئ أسس لا تختلف كثيراً عن الأسس التي اتخذها القواد العظام وأصبحت من المبادئ الحربية الخالدة . نذكر فيما يلي بعض تلك الأسس :

أولاً — التوفيق بين القيادة والسياسة : يبدو لنا من الخطط التي وضعها خالد للحركات على طليحة بن خويلد ومسيلمة الكذاب والتدابير التي اتخذها بعد الانتصار أن خالداً من القواد الذين وفقوا داعياً بين القيادة والسياسة . وأصبح هذا الأس في عصرنا من أخطر عوامل الظفر . ويقيناً أن من أكبر العوامل التي حالت دون استثمار الانتصارات الباهرة التي أحرزها نابليون في حروبه على الحلفاء عدم توفيقه بين السياسة والقيادة . وكذلك من العوامل التي أدت إلى خيبة الألمان في الحرب العامة نظر قادتهم إلى الأمور من الوجهة الحربية فقط ، وعدم توفيقهم بين السياسة والقيادة

فنرى خالد بن الوليد في الخطة التي وضعها للحركات على طليحة بن خويلد أنه وفق بين السياسة والقيادة ، فلم يقدم جيشه إلى بزاخة إلا بعد أن مهد له سبيل الانتصار بجلب قبائل طيء إلى جانبه وفصل الفرقتين : جديلة وغوث عن بني أسد والاستفادة فعلاً من القوة التي أمدت قبائل طيء بها جيش المسلمين

وبعد انتصاره في بزاخة نراه يفرض على القبائل تقديم عدد معين من السلاح . وفي ذلك تعزيز لجيشه وإضعاف لشأن خصمه

وقبل أن يتقدم بجيشه نحو اليمامة يسعى قبل كل شيء لاستمالة التميميين الذين التجأوا إلى مسيلمة وإخراج جماعة سجاح من

ميدان العمل . ولما ظفر ببني حنيفة لم يتردد فى عقد الصلح معهم على أساس التساهل برغم مخالفة رؤساء الأنصار والمهاجرين له ودون أن يعمل بأمر الخليفة الصريح . وقد ذكرنا مجمل الأسباب التى ألجأت خالداً إلى ذلك . ولخالد مواقف تدل على استعماله الشدة واللين تبعاً لمقتضى الحال

ثانياً — الاستطلاع : لقد عنى خالد بالاستطلاع فى جميع حركاته . وقبل تقدمه نحو بزاخة يوفد قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم . وفى حركاته على بنى تميم يوفد أمامه السرايا للتجسس والاستطلاع . أما فى حركات اليمامة فيرسل مكنف بن زيد الخيل وأخاه ليتسقطا الأخبار . وكان فى جميع حركاته على اتصال مستمر بالخصم الذى يريد أن يضربه للاطلاع على شؤونه والقيام بالحركة فى الوقت الملائم

ثالثاً — المطاردة : من الأسس التى اعتمدها خالد فى حركاته القيام بالمطاردة بعد المعركة . وقد يختلف فى أسلوب مطاردته عن الأسلوب الشائع الآن ، وهو يتطلب سوق أقصى قوة فى اليد لقطع خط الاتصال على العدو المنسحب . أما خالد فكان يوفد السرايا فى اتجاهات مختلفة للتفتيش عن العدو المنهزم والقضاء عليه أينما وجدته . فالعدو بعد انكساره لم ينسحب الى محل معين كما هو شأنه اليوم ، وذلك لأن الحياة فى البادية تساعد المنهزمين على الالتجاء إلى أحياء مختلفة . هكذا كان شأنه فى مطاردة بنى أسد وفزارة بعد انتصاره فى بزاخة . وهكذا كان عمله بعد معركة عقرباء . فلم يشأ أن ينازل الحصون ، بل أوفد السرايا لتلتقط من كان خارج الحصون

رابعاً — الأبداع : لم يتأخر خالد لحظة فى استعمال إبداعه الذاتى حين تطلب الموقف ذلك . وهو يشذ عن الأوامر الصادرة اليه متى رأى الفرصة سانحة للعمل بمخالفة الأوامر . فتراه بعد أن أنهى أمر بنى أسد فى بزاخة واطلع على أحوال بنى تميم وتأكد أن الفرصة سانحة للتقدم أمر جيشه بالحركة برغم الأوامر الصادرة اليه والقاضية بألا يتقدم من محل إلى محل آخر قبل أن يتلقى أمر الخليفة . فالأنصار يذكرونه بأمر الخليفة الصريح . إلا أن خالداً يقول لهم إنه هو الأمير واليه تنتهى الأخبار ، وإن لم يأته أمر من الخليفة لا يريد أن يضيع الفرصة مادام مالك بن نويرة حياله وبطون بنى تميم نافرة منه .

خامساً — التنظيم : اتضح لنا من حركات خالد أنه ينظم جيشه ويقسمه إلى أقسام ، ويعين لكل قسم قائداً . ويعرض الجيش بنفسه قبل أن يتحرك . ففى ذى القصة ينظم جيشه قبل الحركة ، وفى البطاح ينظمه ويعين لكل قسم منه قائداً . وقبل القتال يجعل على كل قسم من نظام القتال قائداً خاصاً . وبعد انكسار المسلمين فى عقرباء ، ودخول الأعداء الفسطاط يغير خالد تعبئة الجيش فيضع أهل القرى فى جانب وأهل البادية فى جانب آخر للأسباب التى سبق ذكرها

سادساً — حشد القوات : رأينا خالداً فى جميع حركاته يحشد جميع قواته قبل المعركة ولا يشتتها . فيسير على طريق واحد ويسير به نحو الهدف دون أن يضعفه بفرز بعض القوات منه لمقاصد أخرى . وكان يفرز قوة من جيشه ويوفدها الى الأمام مقدمة بقصد الامن والاستطلاع ، وأحياناً يقيم له ردءاً فى الخلف ليحمى خط الانسحاب . وكانت المقدمة دائماً تشترك فى المعركة مع الكوكب (القسم الأكبر)

سابعاً — التعرض : لقد اتخذ خالد فى جميع حركاته خطة الهجوم ، ففى بزاخة ، يهجم بجميع قواته على قوات طليحة بن خويلد ، وفى عقرباء يتقدم نحو العدو ويهاجمه فى بلاده . وكان يتوخى الهدف ولا يحيد عنه قط . والهدف عنده هو محو العدو من سفر الوجود

انتهى البحث

طه الهاشمى

إلى مؤتمر الفردوسي

٣ – بين القاهرة وطوس

من همذان إلى طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

ثم مررنا بكنكاور بعد ساعتين من كرمانشاهان . وهى قرية صغيرة بها آثار معبد قديم . وبعد ساعة مررنا بقرية أسد آباد ، وهى قرية السيد جمال الدين الأفغانى ، وبها بعض قرابته . كذلك أخبرني بعض الثقاة . ويقول الأفغانيون إنه من أسد آباد القريبة من مدينة كابل . وكذلك أخبر السيد عن نفسه . ومهما يكن فقبيح أن تتنازع رجال الأسلام العظام عصبية الأقوام والبلدان . فقد كان المسلمون أمة واحدة لها موطن واحد هو دار الاسلام ، والسيد جمال الدين عربى هاشمى حسينى . ولكنه كما قال الشاعر

أبى الأسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

فنحن بنو الأسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر

فان أراد المسلمون أن يفترقوا أقواماً وبلداناً وشيعاً ، فلا يتطلبوا أسلافهم العظماء بزجهم فى هذا المعترك ، فقد كانوا أعظم نفوساً وأسمى أفكاراً من أن تحيط بهم عصبيات اللحوم والدماء ، والأرض والبناء

وأسد آباد قرية أسسها أسد بن ذى السرو الحميرى فى زعم الرواة ، وهى على مرحلة من همذان الى الجنوب والغرب منها ، فى حضيض جبل الوند (جبل أسد آباد) ، وكانت منزلاً كبيراً على الجادة العظمى بين بغداد وهمذان ، وكانت فى العهد الأسلامى الى عصر المغول غنية رائجة التجارة ، كثيرة السكان ، نشأت كثيرا من العلماء . وهى اليوم قرية صغيرة . وعندها كانت الوقعة الكبيرة بين السلطانين السلجوقيين محمود بن محمد بن ملكشاه وأخيه مسعود سنة أربع عشرة وخمسمائة . وعلى ثلاثة فراسخ من أسد آباد أبنية ساسانية تعرف فى الكتب العربية باسم مطابخ كسرى

ثم ارتقينا جبل أسد آباد ، وهو جبل شامخ فسيح تتراءى بين قممه وأوديته مناظر جميلة جليلة ، محبوبة هائلة ؛ رأيناه وقد ذبلت أعشابه وزياحينه وأشجاره . وقيل لنا إنه فى الربيع يبدو فى حلل رائعة من الأزهار مختلفة الألوان ، لا يعرى منها مكان فى القمم والأودية ، وترى الطرق جداول على سفح الجبل ، تتمعج فيها السيارات صاعدة وهابطة ، وقد عد سائقو السيارات فى بعض الطريق اثنتين وسبعين ثنية ، فما ينعطف السائق الى اليمين إلا لينعطف الى اليسار ، وهكذا اثنتين وسبعين مرة أو أكثر . ولكن الطريق فى جملتها ممهدة واسعة مأمونة ، لم أشعر فيها بالخوف الذى أنذرنا به من قبل

هذه همذان الجميلة ، فى حجر جبلها الأشم ، جبل ألوند . تبدو فى زينة من أشجارها الباسقة ، وبساتينها الواسعة . هذه بلدة بديع الزمان ، وأحمد بن فارس ، وابن الفقيه . هذا مرقد الشيخ الرئيس أبى على بن سيناء ، ليت الوقت يتسع فنقضى بهمذان أياماً نتعرف حاضرها ، ونتلمس أعلام التاريخ من ماضيها

همذان مدينة عظيمة قديمة ، ذكرت فى الآثار الفارسية القديمة باسم هگمتانة ، وهى فى التوراة أحمتنا ، وفى كتب اليونان أكبتانا . وقد لجأ اليها دارا بعد أن هزمه اسكندر فى موقعة « أربل » حتى قال ابن حوقل إنها كانت هى وأرباضها فرسخاً مربعاً . وصارت حاضرة لبعض دول السلاجقة . وقد روى ابن الفقيه الهمذانى وياقوت كثيراً من أخبارها وما قاله الشعراء فيها ، وبردها شديد جداً . وقد روى فى ذلك أن عبد الله بن المبارك قدمها ، فأوقدت بين يديه نار ، فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها البرد ، وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد فقال :

أقول لها ونحن على صلاء ... أما للنار عندك حر نار

لئن خيرت فى البلدان يوماً ... فما همذان عندى بالخيار

وقال آخر :

همذان متلفة النفوس ببردها ... والزمهرير ، وحرها مأمون

غلب الشتاء مصيفها وربيعها ... فكأنما تموزها كانون

وقيل لأعرابى كيف رأيت همذان ؟ فقال أما نهارهم فرقاص ، وأما ليلهم فحمال ، يعنى أنهم بالنهار يرقصون لتدفأ أرجلهم ، وبالليل يحملون ثياباً كثيرة

دخلناها والساعة واحدة بعد الظهر ، فنزلنا فى دار بظاهرها ، اسمها باغ رئيس الاسلام ، وهى دار جميلة ذات حديقة كبيرة ، وفيها مجلس واسع حول حوض عظيم . نزلنا بها فاسترحنا وتغدينا ، وجلسنا برهة وأخذت صورتنا

وقد رأيت صاحبنا السندباد الذى ذكرته آنفاً يرتب الحاضرين

لأخذ الصورة . فقلت يا سندباد أنت فى كل مكان ولكل عمل . انك أبو الفتح الأسكندرى أو أبو زيد السروجى ، فقال الأستاذ منورسكى : هذا ابن بطوطة . ومما أذكر من لطائف هذا المجلس أن أحد مندوبى الهند محمد اسحاق ، نظر إلى أشجار عنب قصار ، فسألنى ما هذا ؟ قلت كرم ولكنه صغير ، فقال إذاً ما كذب الثعلب فى الحكاية المعروفة ، حين قال هذا حصرم . فعنب هذا الكرم فى متناول الثعالب . ثم خرجنا لزيارة قبر الشيخ الرئيس ، دخلنا الباب إلى رحبة تنتهى إلى بابين أيسرها باب مكتبة صغيرة عامة ، والأيمن مكتوب فوقه « آرامگاه أبو على بن سينا » أى مرقد أبى على بن سينا . دخلنا حجرة صغيرة بها قبران متشابهان يغطى كلا منهما صفيحة واحدة من الحجر عليها نقوش كثيرة . ويحيط بها سياج من حديد . فالقبر الذى يلى الباب قبر الشيخ الرئيس ، والذى إلى جانبه قبر رجل اسمه أبو سعيد . قال بعض أصحابنا إنه أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى المعروف . وليس هذا صدقاً فابن أبى الخير مات فى خراسان

ثم ذهبنا لزيارة مزار هنالك يعظمه اليهود ويحجون اليه ، ومن أجله كثر عددهم فى همذان حتى صاروا زهاء ألفين — وهو فى زعمهم قبرا ايستر ومردخاى . وهما امرأة ورجل من اليهود ، لهما قصة فى التوراة فى « سفر ايستر » . وخلاصة القصة أن ايستر كانت فى حضانة ابن عمها مردخاى فى مدينة سوس ، وأن ملك الفرس أخشورش غضب على امرأته وشتى ، وأراد أن يختار غيرها ، فعرضت عليه فتيات مملكته ، فاختار ايستر اليهودية وحظيت عنده . وكان هامان وزير الملك قد نقم على مردخاى أنه لا يسجد له كما يسجد الناس ، فأغرى الملك باليهود وأخرج أمره بقتلهم حيثما ثقفوا فى المملكة . وكاد مردخاى وايستر لهامان حتى أمر الملك بصلبه على الخشبة التى أعدّها هو لصلب مردخاى ، وكتب الملك إلى الولاة ألا ينفذوا أمره فى اليهود وأن يسلطوا اليهود على أعدائهم فيقتلوهم

والقبران كبيران عليهما سياجان ، وهما فى حجرة ذات قبة لها مدخل صغير واطئ لا يدخله الداخل إلا راكعاً

قضينا فى همذان ثلاث ساعات ونصفا ، ثم برحناها والساعة أربع ونصف ، متوجهين تلقاء قزوين

برحنا همذان ، وما قضت النفس منها لبانة
وتلفتت عيني ممذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

وبعد ساعة نزلنا منزلاً على الطريق اسمه رزان ، وقد أعد لنا الشاى والفاكهة ، والفستق والحمص واللوز الخ ، فرأينا ضرباً من الحمص والفستق كبيراً لم نر مثله من قبل . وكان سير دنسُن رُس ، والشاعر الانكليزى درنك ووتر قد سبقا إلى هذا المنزل ، إذ فارقا همذان قبل الركب دون أن يزورا قبرى ايستر ومردخاى ، فطال بهما الانتظار فى هذا المنزل ، فلما بلغته أنا ورفيقى عبد الكريم الحسينى قابلنى أستاذى رُس دهشاً يقول : لماذا تأخرتم ! هل زرتم ايستر ومردخاى ! قلت نعم . قال هل ألقى فلان هنالك محاضرة طويلة ؟ قلت محاضرة قصيرة . قال ذلك ما ظننت . قد تأخرنا جداً وأظلم الليل . ثم سرنا قبل أن يدركنا الرفاق فى طريق موحشة تتخللها قرى وضياع قليلة ، منها مكان اسمه آب گرم أى الماء الحار فيه حمّة ، أى ينبوع ماء حار . وقفنا للاستراحة ورؤية الينبوع ، فتركنا السيارة ومشينا وراء رجل يحمل مصباحاً حتى أتينا النبع ، فاذا حجرة فيها حوض يفور منه الماء ، فقلت لصاحبي : ما أحسنه حماماً لو هيئ له بناء . وكم فى الشرق من معادن ومياه أغفلتها الأفكار والأيدى ! واستأنفنا السير ، وطال بنا السفر ، حتى لاحت قزوين تحت ظلام الليل ، فوردناها متعبين والساعة تسع ونصف من المساء ، وقدم بقية الركب بعد ساعة . بتنا فى دار جميلة بجانب كنيسة روسية . وقد وهبت الدولة الروسية هذه الدار والكنيسة وما يتصل بهما للدولة الايرانية

وقزوين بلد قديم ذكره بطليموس باسم قسابين . وهى على الجادّة العظمى من بغداد إلى خراسان ، وتلتقى عندها طرق القوافل الآتية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فمن أجل ذلك اتسع عمرانها فى القديم وراجت تجارتها ، وهى على مقربة من جبال ألبرز ، ويجرى عندها نهر صغير يفضى إلى نهر أبهر ، وتبعد عن طهران مائة وخمسين كيلاً

وكانت قبل الأسلام وبعده ثغراً لمحاربة الديلم . وقد مصّرها سعيد بن العاص بن أمية ، وجعلها مغزى أهل الكوفة . وأغزى الحجاج ابنه محمداً الديلم ، فنزل قزوين وبنى بها مسجداً سمى بعد مسجد الثور . وبنى موسى الهادى مدينة بجوارها عرفت بمدينة موسى . وبنى المبارك التركى مولى المأمون أو المعتصم حصناً بها سمّاه المباركية . وروى ياقوت « اجتاز الرشيد بهمذان ، وهو يريد خراسان ، فاعترضه أهل قزوين ، وأخبروه بمكانهم من العدو ، وعنائهم فى مجاهدته ، وسألوه النظر لهم ، وتخفيف ما يلزمهم

من عشر غلاتهم فى القضية . فسار إلى قزوين ودخلها ، وبنى جامعها ، وكتب اسمه على بابه فى لوح حجر . وابتاع بها حوانيت ومستغلات ، ووقفها على مصالح المدينة ، وعمارة قبتها وسورها » .

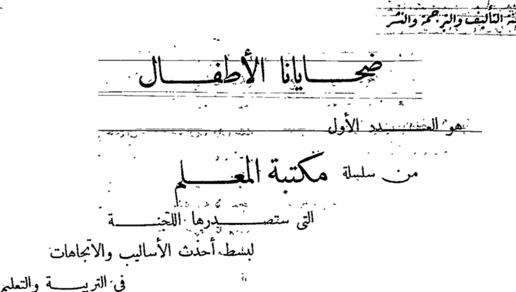
وقد ذكرها بديع الزمان باسم الثغر ، فى المقامة القزوينية التى أولها ، غزونا الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين . وروى بعض المحدثين أخباراً فى فضائل قزوين ، والحث على الأقامة بها لكونها من الثغور . وقد ذكرت فى الشعر العربى . ومن ذلك قول الطرماح ابن حكيم

خليلى مدّ طرفك هل ترانى ظعائن باللوى من عوكلان
ألم تر أن عرفان الثريا يهيّج لى بقزوين احتزانى

وقد نشأت قزوين جماعة من العلماء والأدباء ، منهم زكريا ابن محمد صاحب عجائب المخلوقات المتوفى سنة ٦٨٢ ، وحمد الله المستوفى المؤرخ صاحب تاريخ گزيده ، ونزهة القلوب فى الجغرافيا ، المتوفى سنة ٧٥٠ ، وأبو حاتم محمود بن الحسن الفقيه الشافعى أخذ عن الأسفرائينى والباقلانى ، وأخذ عنه الشيرازى وله كتب كثيرة ، منها كتاب الحيل فى الفقه وتوفى سنة ٤٤٠ ، ومنهم الحكيم شاه محمد ، الذى أخذ عن جلال الدين الدوانى ، وذهب الى مكة للمجاورة فدعاه السلطان بايزيد الثانى الى استانبول فعاش فى رعايته ورعاية سليم وسليمان من بعده ، وكتب التفسير والعقائد والفلسفة ، وترجم حياة الحيوان للدميرى الى الفارسية

تركنا قزوين والساعة تسع ونصف من صباح الأربعاء ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ (٣ أكتوبر سنة ١٩٣٤) ، فبلغنا طهران بعد الظهر ، ونزل جماعة منا فى الفندق الكبير (جراند أوتيل) وآخرون فى الفندق النادرى

عبد الوهاب عزام



٥ ـ محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قد يذهب بكم الظن أني إنما أتحداكم بهذا كما فعلت حينما حدثتكم عن الضراعة والبكاء، كلا فليس الأمر كذلك، إنما أقول هذا لأنني أعتقد أني لم أسيء الى أحد عامداً، ولا أظنني قادراً على إقناعكم بذلك في هذا الحوار القصير، فلو كان في أثينا قانون — كما هي الحال في سائر المدن — لا يبيح حكم الإعدام في يوم واحد، لاستطعت فيما أعتقد أن أقنعكم، أما الآن فالفترة وجيزة، ولا يمكنني أن أدحض في لحظة هؤلاء المدعين الفحول، وإن كنت كما ظننت لم أسيء الى أحد فلن أتقدم بالأساءة الى نفسي قطعاً. وإذن فلن أعترف بنفسي بأني حقيق بالسوء، ولن أقترح عقوبة ما. ولماذا أفعل؟ أخوفاً من الموت الذي يقترحه مليتس؟ على حين أني لا أعلم إن كان الموت خيراً أم شراً؛ لماذا أقترح عقاباً فيكون شراً مؤكداً لامفر منه؟ أأقترح السجن؟ ولماذا أزج في غياهبه فأكون عبداً لحكام هذا العام — أعني الأحد عشر؟ أم أقترح أن أعاقب بالتغريم، وأن أسجن حتى تدفع الغرامة؟ فالاعتراض بنفسه قائم، لأنني لابد أن ألبث في السجن لأنني لا أملك مالاً ولا أستطيع دفعاً. وإن قلت النفي (وربما قر رأيكم على هذه العقوبة) وجب أن يكون حب الحياة قد أعمى بصيرتي، لأنكم وأنتم بنو وطني لا تطيقون رؤيتي ولا تسيغون كلامي، لأنه في رأيكم خطر ذميم، فوددتم لو نجوتم من شرى عسى أن يطيقه سواكم، فما حياتي في هذه السن، ضارباً من مدينة الى مدينة، مشرداً أبداً، طريداً دائماً، يلفظني البلد في إثر البلد، فما أرتاب في التفاف الشبان حولي أينما حللت كما فعلوا هنا، فلو نفضتهم رغبوا الى أوليائهم في طردي فاستجابوا لرجائهم، ولو تركتهم يسعون الى طردي آباؤهم وأصدقاؤهم صوناً لأنفسهم

رب قائل يقول: نعم ياسقراط، ولكن ألا تستطيع أن تمسك لسانك حتى اذا ارتحلت الى مدينة أخرى ما اشتبك انسان معك؟ وعسير جداً أن أفهمكم جوابي عن هذا السؤال، فلو أنبأتكم أني لو فعلت ذلك لكان عصياناً مني لأمر الله، ولذلك لا أملك حبساً للساني، لما صدقتم أن يكون جداً ما أقول. ولو قلت بعد ذلك إن أعظم ما يأتيه الانسان من خير هو أن يحاور كل يوم في الفضيلة وما يتصل بها مما سمعتموني أسائل فيه نفسي وأسائل الناس، وإن الحياة التي تخلو من امتحان النفس ليست جديرة بالبقاء، كنتم لهذا أشد تكذيباً، ولكني لا أقول إلا حقاً وإن عز على إقناعكم بصدقه. إني لم أعهد نفسي جارمة تستأهل العقاب، ومع ذلك فلو كان لدى مال لاقترحت أن أعطيكم ما أملك، ولم يكن ذلك ليضيرني في شيء، ولكنكم ترون أني لا أملك مالاً، لا بل أظنني قادراً على دفع مينة واحدة (المينة تساوي مائة دراخمة) ولذا أقترح هذه العقوبة. إن أصدقائي: أفلاطون، وكريتون، وكريتوبوليس، وابولودورس، وهم بين الحاضرين، يرجون مني أن أقول ثلاثين مينة، يضمنون هم دفعها؛ حسناً، إذن فاحكموا بثلاثين مينة، ولتكن هي عقوبتي، وأحسب هؤلاء كفلاء بدفعها

أيها الأثينيون! لن تفيدوا بقتلي إلا أمداً قصيراً، وستدفعون له ثمناً ما تنطلق به ألسنة السوء تذيع عن المدينة العار. ستقول عنكم إنكم قتلتم سقراط الحكيم، فسيدعونني وقتئذ بالحكيم وإن لم أكن حكيماً تقريعاً لكم. ولو صبرتم قليلاً لظفرتم بما تبتغون بطريق طبيعي، فلقد طعنت في السن كما ترون، ودنوت من أجلي. إنما أسوق هذا الحديث الى هؤلاء الذين حكموا علي بالموت، وأحب أن أضيف اليهم كلمة أخرى: قد تحسبون أن اتهامي جاء نتيجة لعي لساني، فلو قد آثرت أن أفعل كل شيء وأن أقول كل شيء، لجاز لي أن أظفر بعفوكم، ولكني لم أفعل ذلك، فليس عيا في لساني ما أدى الى إدانتي، ولكنه ترفعي عن القحة والصفاقة، وصدوفي عن مخاطبتكم بما كنتم تحبون أن أخاطبكم به: بالعويل والبكاء والرثاء، وأن أقول وأفعل كثيراً مما تعودتم استماعه من الناس، وهو لا يجمل بي كما ذكرت، فقد رأيت واجبي ألا أتبذل في العمل، أو أسف في ساعة الخطر، ولست آسف على ما سلكت من طريق للدفاع، فإني لأوثر

خطتى التى رسمتها ولو أدت بى الى الموت ، على أن أصطنع خطتكم احتفاظاً بالحياة . فلا يجوز لانسان فى ساحة الوغى أو أمام القانون أن يلتمس أى سبيل فراراً من الموت ؛ فلو ألقى المحارب بسلاحه فى المعمعة ، وجثا على ركبتيه أمام مطارديه لظفر غالباً بالنجاة من الموت . ولكن ضرب من ضروب الخطر طرق للنجاة من الهلاك ، اذا لم يتعفف المرء عن كل قول وكل فعل مهما يكن شائناً . فليس عسيراً أيها الأصدقاء أن تفر من وجه الموت ، ولكن العسر كل العسر فى تجنب الأخلاق الفاسدة . فالفساد والموت يعدوان فى أعقابنا ، ولكن الفساد أسرع من الموت عدواً . فأنا الذى اكتهلت ، إنما أسير سيراً وئيداً ، فيكاد يدركنى أبطأ العادين ، أما المدعون فسراع متحمسون ، وسيلحق بهم أسرعهما — أعنى الفساد . وبعد ، فسأترك موقفى هذا ، وقد جرى على قضاؤكم بالموت ، وكذلك هم سيتطلقون كل الى سبيله ، وقد قال فيهم الحق كلمته ، بأن يعانوا ما هم فيه من ضعة ، ولابد لى أن أخضع للحكم على به ، وعليهم كذلك أن يرضوا بما كتب لهم ، أحسب أن قد جرى القدر بهذا جميعاً ، فعسى أن يكون خيراً ، ولا أحسبه إلا كذلك

وبعد ، فيا هؤلاء الذين أجروا على قضاءهم ، ها كم نبوءتى التى أحب أن أبلغكم إياها ، لأنى مشرف على الموت ، وتلك ساعة يوهب فيها المرء مقدرة على التنبؤ ، أتنبأ لكم يا قاتلى ، بأنه لن يكاد ينفذ حكم الموت حتى ينزل بكم ما هو أشد من ذلك هولاً — لقد حكمتم بموتى ، لأنكم أردتم أن تفلتوا من ذلك الذى يتهمكم ، ولكيلا تحاسبوا على ما قدمت أيديكم ، ولكن لن يكون لكم ما ترجون ، بل نقيضه ، فسيكون متهموكم أوفر عدداً منهم اليوم ، إذ سيهب فى وجوهكم من كنت أمسكهم حتى الآن ، وسيكون أولئك أشد قسوة عليكم لأنهم دونكم سناً ، وسيذيقونكم من العذاب أكثر مما تذوقون اليوم ، فان حسبتم أنكم خالصون من متهميكم بقتلهم ، كى لا ينغص عليكم عيشكم ، فأنتم مخطئون ، إذ ليست تلك سبيلاً مؤدية الى الفرار ، ولا هى مما يشرفكم ، وأيسر من ذلك وأشرف ألا تهاجموا الناس ، بل تبادروا باصلاح أنفسكم . تلك هى نبوءتى التى أبلغها الى القضاة الذين حكموا على ، قبل رحيلى

وأنتم أيها الأصدقاء الذين سعوا الى براءتى ، أحب كذلك أن أحدث اليكم عما وقع ، عند ما يشغل الرؤساء ، وقبل أن أذهب الى مكان مدتى ، فالبثوا قليلاً ، لأننا نستطيع أن يتحدث بعضنا إلى بعض ما دامت هناك فسحة من وقت . أنتم أصدقائى ، وأحب أن أدلكم على معنى هذا الذى وقع . يا قضاتى — فأنا أدعوكم قضاة بحق — أحب أن أحدثكم بأمر عجيب ، لقد كانت مشيرتى حتى الآن ، تلك المشيرة التى عهدتها فى دخيلتى ، لاتفتأ تردنى فى توافه الأمور ، إن كنت مقدماً على زلل أو خطأ فى أى شئ ، والآن — كما ترون — قد داهمنى ما يحسبه إجماع الناس أقصى الشرور وأقساها ، ولم تلوح لى مشيرتى بعلامة المعارضة حينما تركت دارى فى الصباح ، ولا حين كنت أصعد إلى هذه المحكمة ، ولا حين ألقيت كل ما اعتزمت أن أقوله ، ومع أنى عورضت كثيراً أثناء الحديث ، إلا أن المشيرة لم تعارضنى فى كل ما قلت أو فعلت مما يتصل بهذا الأمر ، فبم أعلل هذا ؟ وكيف أفهمه ؟ سأخبركم : إنى أعد هذا دليلاً على أن ما حدث لى هو الخير ، ويخطئ من يظن منا أن الموت شر . هذا دليل ناهض على ما أقول ، لأن الاشارة التى عهدتها لم تكن لتتردد فى معارضتى لو كنت مقبلاً على الشر دون الخير

لنقلب النظر فى الأمر ، وسنرى أن ثمت بارقة قوية من الأمل تبشر بأن الموت خير . فاحدى اثنتين : إما أن يكون الموت عدماً وغيبوبة تامة ، وإما أن يكون كما روى عنه الناس تغيراً وانتقالاً للنفس من هذا العالم الى عالم آخر . فلو فرضتم فيه انعدام الشعور ، وأنه كرقدة النائم الذى لا تزعجه حتى أشباح الرؤوس ، ففى الموت نفع لا نزاع فيه ، لأنه لو أتيح لانسان أن يقضى ليلة لا تزعج نعاسه فيها شئ ، حتى ولا أحلامه ، ثم قارنها بما سلف فى حياته من ليال وأيام ، وسئل بعد ذلك : كم يوماً وليلة قضاها بين أعوامه وكانت أبهج من تلك الليلة وأنعم ؟ فلا أحسب أحداً — ولا أختص بالقول أحداً — بل لن يجد حتى أعظم الملوك بين أيامه ولياليه كثيراً من أشباهها . فاذا كان الموت كهذا فأنعم به ، وليس الخلود إذن إلا ليلة واحدة ! أما إن كان الموت ارتحالاً الى مكان آخر ، حيث يستقر الموتى جميعاً كما يقال ، فأى خير يمكن أن يكون أعظم من هذا أيها الأصدقاء والقضاة ! وإذا كان حقاً

أنه اذا بلغ الراحل ذلك العالم السفلي ، خلص من أساطين العدل في هذا العـالم ، وألفى قضاة بمعنى الـكلمة الصحيح ، إذ يقال إن القضاء هناك في أيدي مينوس ، ورادا منتوس ، وايكوس ، وتربتوليموس وسائر أبناء الله الذين عمروا حياتهم بأقوم الأخلاق ، فما أحب إلى النفس ذاك الارتحال ! وهل يضن الرجل بشيء اذا أتيح له أن يتكلم مع أورفيوس ، وموسيوس ، وهزيود ، وهوميروس ؟ كلا ، لو كان هذا حقاً فذروني أمت مرة ومرة ، فسأصادف متاعاً رائعاً في مكان أستطيع فيه أن أتحـدث الى بالاميدس ، وأجاكس بن تلامون ، وغيرهم من الأبطال القدامى الذين تجرعوا المنون بسبب قضاء ظالم ، ولا أظنني حين أقارن الآن آلامي بآلامهم إلا مغتبطا مسروراً . وفوق كل هذا فسأتمكن من استئناف بحثي في المعرفة الحق ، والمعرفة الزائفة ، وكما فعلت هنا سأفعل في العالم الثاني ، وسأكشف عن الحكيم الصحيح ، وعمن يدعي الحكمة باطلاً . بماذا يضن الرجل أيهـا القضاة اذا أتيح له أن يمتحن قائد الحملة الطروادية الـكبرى أو أوذيس ، أو سسفوس وغير هؤلاء ممن لا يقعون تحت الحصر رجالاً ونساء ؟ ألا ما أعظمها غبطة لا تحد ، تلك التي أجدها في نقاشهم ومحاورتهم ، لأنهم في ذلك العالم لن يقضوا على أحد بالموت من أجل هذا . كلا ولا ريب ، هذا فضلاً عما يصادفه الناس في ذلك العالم من سعادة عزت على هذه الدنيا ، فان صح ما يقال فهم ثمت خالدون

فابتسموا إذن للموت أيها القضاة ، واعلموا علم اليقين أنه يستحيل على الرجل الصالح أن يصاب بسوء ، لا في حياته ولا بعد موته ، فلن تهمله الآلهة ، ولن تهمل ما يتصل به ، كلا ، وليست ساعتي الآزفة قد جاءت بهـا المصادفة العمياء ، فلست أرتاب في أن الموت مع الحرية خير لي ، ولذلك لم تشر مشيرتي بشيء

ولست لهذا غاضباً من المدعين ، أو ممن حكموا عليّ ، فما نالني منهم إساءة ، ولو أن أحداً منهم لم يقصد إلى أن يعمل معي خيراً ، وقد أعاتبهم لهذا عتاباً رقيقاً

وإن لي عندهم لرجاء . فأنا ألتمس أيها الأصدقاء ، إذا ما شب أبنائي ، أن تنزلوا بهم العقاب ، وأحب أن تؤذوهم كما آذيتكم ، وذلك إن بدا منهم اهتمام بالثروة ، أو بأي شيء أكثر مما يهتمون بالفضيلة ، أو إذا هم ادعوا أنهم شيء ، وكانوا في حقيقة الأمر لا شيء . إذن فأنحوا عليهم باللائمة كما فعلت معكم ، لأهمالهم ما ينبغي أن يبذلوا فيـه عنايتهم ، ولظنهم أنهم شيء على حين أنهم في الواقع لا شيء . فاذا فعلتم هذا ، أكون قد نالني ونال أبنائي العدل على أيديكم .

لقد أزفت ساعة الرحيل ، وسينصرف كل منا إلى سبيله فأنا إلى الموت ، وأنتم إلى الحياة ، والله وحده عليم بأيهما خير

(يتبع) **زكي نجيب محمود**

الأنتكيرة

هم الإنجليز لا الإسبان

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

هذا هو رأيى فى ذلك النص الذى سأنقله بعد عن وزيرنا الخطير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه (الأحاطة فى أخبار غرناطة ج ٢ ص ٢٤) وقد كتبت ذلك فى جريدة البلاغ الغراء (٨ - ٣ - ١٣٥١ هـ ١٢ - ٧ - ١٩٣٢ م) تحت عنوان (الإنجليز فى القرن الثامن الهجرى كما يصفهم سياسى مسلم) أما الأستاذ محمد لبيب البتنونى فيرى فى كتابه (رحلة الأندلس) أن الأنتكيرة الذين وردوا فى ذلك النص من كتاب الأحاطة هم الأسبان، وقد ذكر ذلك فى كتابه (رحيـلة الأندلس ص ١٦٠) بدون أن يعنى بتحقيقه أو يخطر ببالة أنهم أمة أخرى غير الأمة الأسبانية، فيحمله ذلك على العناية بإثبات رأيه، بل ذكره كأنه قضية مسلمة، وأمر مفروغ من صحته

وقد قرأت كتاب الأستاذ البتنونى من شهور، ومن يوم أن قرأته وأنا أحاول أن أبين له صحة ما ذهبت اليه فى «الرسالة» الغراء، فيحول بينى وبين ذلك اشتغالى بغيره من أمور عنيت بها قبله، وها أنذا اليوم أمضى فيما عزمت عليه من ذلك، ولا أحاول به أن أنتقص شيئاً من فضله، فان فضله أكبر من أن تؤثر فيه زلة من زلات القلم، ولكل جواد كبوة

ذكر لسان الدين فى كتاب الأحاطة من حوادث سنة ٧٦٧ للهجرة أن بطرة بن الهنشة ملك أسبانيا حينما غلبه أخوه القمط على الملك التجأ الى ابن صاحب (الأنتكيرة) المعروف ببرقسين، وبين أول أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام، فأعانه بجيش ذهب معه الى اسبانيا يحارب به أخاه حتى غلبه واسترد ملكه، وقد رأى لسان الدين بن الخطيب حرب هذه الأمة الجديدة (الأنتكيرة) أو سمع به فلفتت نظره اليها وجعله يلقى فيها نظرة سياسى صادق الفراسة قد شاهد أفول نجم أمته فى تلك القارة، فوقف ينظر من بعيد إلى من يخلفها فيها فأعجبه حال هذه الأمة الناشئة فى حروبها وأخلاقها، وأخذ يوازن فى ذلك بينها وبين أمة العرب فى نشأتها، وكأنى به كان يقدر لها مستقبلا مثل مستقبلها، وحكما متسعاً فى الأرض مثل حكمها، وقد صدقت فراسته فى هذه الأمة، وأدت بها أوصافها التى أعجبته منها ولفتت نظره إليها الى ما يقدر لكل أمة تتحلى بهذه الأوصاف، وتتجمل بتلك الشيم، وهذا هو الذى قاله فيها: «وحال هـذه الأمة غريب فى الحماية الممزوجة بالوفاء، والرقة والأستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية عادة العرب الأول، وأخبارهم فى القتال غريبة من الأسترجال والزحف على الأقدام أميرهم ومأمورهم، والجثو فى الأرض أو الدفن فى التراب، والأستظهار فى حال المحاربة ببعض الألحان الهيجة، ورماتهم قسيهم عربية جافية، وكلهم فى دروع، ولا لجام عندهم، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع، ورماتهم يسبقون الخيل فى الطراد، وحالهم فى باب التحلى بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب»

فهذه أوصاف تنطق بنفسها أنها لأمة غريبة عن أرض الأندلس ومن فيها من نصارى ومسلمين، هذا إلى أن التاريخ الانجليزى قد ورد فيه ما يؤيد رواية ابن الخطيب من ذهاب ذلك الجيش منهم الى أرض الأندلس فى الزمن الذى عينه ابن الخطيب له، فقد بلغت هذه الأمة فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) درجة عظيمة من التقدم السياسى والحربى على عهد ملكها (إدورد الثالث) وكانت له حروب كثيرة مع الفرنسيين انتصر فيها عليهم، وبينما كانت جيوشه تفعل ذلك مع فرنسا بقيادته، كانت زوجه تقود جيشاً آخر حاربت به اسكتلندا وأسرت ملكها، ثم جهزت جيشاً آخر سارت به الى أسبانيا. فحاربت الأسبانيين وهزمتهم، وهذه هى الغزوة التى ذكرها لسان الدين بن الخطيب فى سنة ٧٦٧ هـ لأن مدة ولاية ادورد الثالث على انكلترا كانت بين سنتى (١٣٢٧ - ١٣٧٦ م)، وهذه السنة الهجرية تقع فى هذه المدة

فهذا ما يؤيد رأينا من الناحية التاريخية، وأما الناحية اللغوية فهذا الاسم (الأنتكيرة) من الأسماء التى أطلقها مؤرخو العرب على أمة الأنجليز، ولم تخل من بعض تحريف لبعد ديار هذه الأمة عنهم، وما كانت فيه من عزلة بجزرها عن غيرها من الأمم، ولم يبتدىء تاريخ الأمة الأنجليزية إلا فى نحو سنة ستين قبل الميلاد، وكانت جزائرها تسمى عند الرومانيين (بريطانيا)

وكانوا يسمون سكانها بريطون ، وقد فتحوها سنة ٨٣ بعد الميلاد ، ثم استقلت هذه الأمة بجزرها في أوائل القرن الخامس الميلادي ، فقامت فيها حروب وفتن كثيرة مزقت شملها وأضعفتها ، ولم تزل مضطربة بالحروب الداخلية وغزوات المجاورين لها ، إلى أن استولى عليها بعض الجرمانيين ؛ فطردوا سكانها الأصليين إلى الأقاليم المجاورة لها ، ثم فتحها (أغبرت) سنة ٨٢٣ ميلادية ، وجعل نفسه ملكاً عليها ، وهو أول ملك قام بها ، وكان يلقب نفسه ملك انكلترة

وقد عرف المسلمون هذه الأمة بعد الرومانيين ، إلا أنهم لم يتصلوا بها ولم يعرفوا أمرها تمام المعرفة ، وكان هذا سبباً فيما وقع من اضطرابهم في اسمها ، فسماها قدماء مؤرخيهم (الأنكتار) وبعضهم كان يسميها (الأنكتير) ولعل كلمة (الأنتكيرة) في ذلك النص الذي نقلناه عن لسان الدين بن الخطيب عن هذه الأمة محرفة عن هذه التسمية (الأنكتير) بتقديم التاء على الكاف وزيادة التاء المربوطة التي زادها بعضهم بعد ذلك على هذا الاسم كما سيأتي

ثم ذكر صاحب كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) هذه الأمة باسم (انكليترة) وكان المسلمون قد اختلطوا بهذه الأمة في الحروب الصليبية فعرفوا حقيقة اسمها وأضافوا إليه اللام التي كان يسقطها قدماؤهم منه ، وصاحب كتاب الروضتين هو أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وكتابه في أخبار الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية

وقد ذكرهم بعد هذا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري باسم (الأنكليز) صاحب كتاب (المؤنس في أخبار أفريقية وتونس) وهو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم وقد ذكر فيه أخبار هذا الأقليم إلى سنة ١٠٩٢ هـ والأنكليز سمك كالحية يكثر في البحر الذي توجد فيه الجزائر البريطانية فسموا هذه الأمة باسمه ، ويسمى أيضاً الأنكليس والجنكليس ، ولم يسم هذه الأمة من مؤرخي العرب فيما أعلم بالاسم الذي كان يسميها به الرومانيون إلا صاحب كتاب (صبح الأعشى) فقد ذكرها باسم (بريطانيا) ولم نجد من سماها بهذا الاسم غيره

فهذا هو رأينا فيما ورد في ذلك النص من أخبار أمة الأنتكيرة . ولعل الأستاذ البتنوني يعلم في ذلك ما لا نعلم فينشر ما عنده فيه على صفحات الرسالة الغراء لنصل في ذلك إلى الصواب الذي هو غايتنا جميعاً

عبد المتعال الصعيدي

نجوى النيل

للاستاذ محمود الخفيف

مضيت إلى النهر وقت الطَّفَلْ ... وقد لبس الأفق أبهى الحُلَلْ
وألقت عليه ظلالُ الغروب ... صفاء تتوق إليه المقلْ
ورقَّت على الشط خضر الرياض ... وراق الخريف بها واعتدلْ
ولاح ليَ النيل في منظر ... تناهى الجمالُ به واكتملْ
تروَّحت النفسُ فيه الهدوء ... ولاحت لعيني سمات الجذلْ
تذكرت قولي في عذله ... فأشرب وجهي صبغ الخجلْ
ورحت أجدد عهد الولاء ... كمن تاب عن ذنبه فابتهلْ

***

أتيتك يا نيل مستغفراً ... وعندك يُنسى رقيق العذلْ
فمنك الوفاء ومنك الصفاء ... ومنك المودة منذ الأزلْ
وما كان عتبيَ إلا الوداد ... وما كان ودِّيَ بالمفتعلْ
لئن عذت أحكم فيك القريض ... فلي في صفاتك ورد علَلْ
يروق حديثك إما استعيد ... وما هو إن طال بالمبتذلْ
ويملك قلبيَ حين أراك ... لذيذُ الخيال وحلوُ الثملْ
طيوفٌ من الحسن رفافة ... تريك من السحر ما يُستحلْ
ألذُّ من الحلم جمَّ الرؤى ... ليالِيَ عهد الصبا المقتبلْ
وأعذب من خلجات المنى ... وأجملُ من بارقات الأملْ
وأطيب من ذكريات الغرام ... وألطفُ من لمحات الغزلْ
وأشهى من الماء حلوَ الصفاء ... تسلسلَ حولك بعد الغللْ
وأنضرُ من باكرات الربيع ... تحلَّى بها الكون بعد العطلْ
وأبهى من الصبح في مهده ... تبسَّم في داكنات الكللْ
وأندى من الكون عند الشروق ... رفيفَ الحواشي نقيّ الطللْ
وأروع من بسمات الضحى ... وومض الأصيل وصفو الطفلْ

جمالك يا نيل أعيا البيان ... ودق فقصّر عنه المثلْ

***

تدفّقُ مائك يوحى إلىّ ... مناظرَ فيضك أنّى هطلْ

فأصبو لمرآك بين الدّغال ... وحول الشّعاب وفوق القُلَلْ

خيالك تيسانا وما حولها ... وعند نيانزا وبحر الجبلْ

وحيث خطرت بسودان مصر ... لطيف الأناة حليم النُّقَلْ

وحيث انهلكت بأعلى الصعيد ... وقد عجّ موجُك لما اتّصلْ

يروع فؤادىَ هذا العباب ... وكيف تلاقى وكيف انتقلْ

وأعجب ماذا يروم الدخيل ... حيال تدفُّقِه المتّصلْ؟!

وكيف يُقطِّع هذا الوريد ... وتأمن مصرُ دنوَّ الأجلْ؟

***

يشعُّ الخلود على جانبيك ... ويصحو الفؤادُ لذكر الدُّوَلْ

وأقرأ فيك سجلّ الزمان ... وأسمع همسَ العصور الأُوَلْ

شهدتَ الحضارةَ فى مهدها ... وحينَ تفنُّنها المرتجَلْ

وشبّ الزمان على ضفتيك ... بطىء العصور طويلَ المَهَلْ

فآنست فى مصر عهد النبوغ ... وعهدَ العظائم لما حفلْ

إلى أن بلوت بعصر الهوان ... وكيف تناها الونى والخزلْ

هتفتَ بفرعون فى عزه ... وأنكرت فرعون لما خَمَلْ

وساءك قمبيز يغزو البلاد ... ويبذر فيها بذورَ الخَلَلْ

وراعك إسكندرٌ مقبلا ... سريعَ الفتوح وثيقَ العَجَلْ

وقيصرُ حين غزته الجفون ... وجازت عليه ضروبُ الحِيَلْ

فألقى السلاح على بأسه ... وهام بسحرَ العيون النُّجُلْ

وكم بطلٍ فتنته العيون ... وكم مَلَكَ الحبُّ حتى قَتَلْ

تلقيتَ عمرا لقاء الحنيف ... تراءى الهلالُ له فابتهلْ

وهللت حين أقام الحدود ... وحين تقصّى وحين عَدَلْ

وحين توشّم فيك الجلال ... فنمق فيك رصين الجُمَلْ

وجاء بوصيف تلته القرون ... وما عرفت فيه بعض المَلَلْ

دهاك الفرنسىُّ فى جنده ... وجندك يا نيل بعضُ الهمَلْ

تلفتُّ حولك مستنجداً ... فلم تلق حولك غير الفشَلْ

إلى أن تلقى زمام الأمور ... بمصر من الشرق فرد بَطَلْ

فأحيا بواديك مَيْتَ الرجاء ... وقد دهش الدهر مما فعلْ

***

تفيّأت حيناً ظلالَ النعيم ... إلى أن دهاك المصاب الجَلَلْ

فجاس العدو خلالَ الديار ... وغالتك يانيل شر الغِيَلْ

حباك الوعودَ ولكنه ... أقام لديك السنين الطُّوَلْ

فيوماً يمد حبال الرجاء ... ويوماً يثير عقيم الجدَلْ

ويوماً يجيئك مستأسدا ... يجرب فيك صنوفَ الوَهَلْ

ألم تر بالأمس كيف افترى ... وكيف تعامى وكيف خَتَلْ؟

وكيف رماك بأدهى الخصومَ ... وكان بواديك أصل العِلَلْ؟

لقد بات يتلو حديث الوفاق ... وهل يخطبُ الذئب وُدَّ الحَمَلْ؟

مللنا لعمرىَ هذا النفاق ... وملنا إلى الجد بعد الهزَلْ

وقمنا نحطمُ عنا القيود ... ونخلع عنا رداء الكسَلْ

تحركتَ بالأمس مستعدياً ... وأنكرت يا نيل عهد الخطَلْ

وقد كنت قبلُ مثالَ الهدوء ... ولكن أثارك طولُ الزّلَلْ

وشعبك مثلك فى صمته ... وإن حسبوه سكوت الوَجَل

وما قرَّ موجُك إلا استجم ... وما إن تناقص حتى كَمَلْ

وما نسىَ الشعبُ تاريخَه ... وما نام عن مجده أو غَفَلْ

أبىٌّ وإن دهمته الخطوب ... فتىٌّ وإن زعموه اكتهَلْ

سرى فيه يا نيل منك الخلود ... وألهمَ مثلك حبَّ العمل

وما كان سرُّكَ مُستحدَثا ... وما كان مجدُك بالمُنتحل

سيمضى الزمان على جانبيك ... وتبقى كما كنت منذ الأزل

الخفيف

نجوم السينما للأستاذ فخرى أبو السعود

سقط من هذه القصيدة المنشورة فى العدد ٧٥ بعض أبيات شوهت من جمالها فنرجو المعذرة

بين الشاعر وبين نفسه

بقلم عبد الحق فاضل

هو — مالى أرى الوجه الجميل عليه آثار الضنى ؟
إنا بأفراح الشباب عن الكآبة فى غنى
تبكين ..؟ لمني ! أى خطب حلّ يا (نفسي) بنا ؟

هى — من أين جئتُ ؟ ولِمْ أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ؟؟

هو — فيم التأمل والتألم والتبرم يا حبيبه ؟
وأشدّ من وقع المصيبة أن نفكر فى المصيبه
هيا بنا ، يامنيتى نلهو بأحلام الشبيبه

هى — من أين جئت ؟ ولم أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ؟؟

هو — لا يارفيقة ! لا تطيلى الفكر فى كنه الأمور
هذا الشباب يسير موكبه على عجل ، فسيرى
أخشى عليك إذا أضعنا الوقت ، من وخز الضمير !

هى — من أين جئتُ ؟ ولم أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ؟؟

هو — كفّى بربك ! واتركينا نعش فى سبل الكمال
فبنا لديّ من القوى ، وبما لديك من الجمال
نبنى لنا مجداً رفيعاً ، لا يصير إلى زوال

هى — من أين جئت ؟ ولم أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ؟؟

هو — إن الفراش يحوم حول الزهر يجهل ما غوى
والطير يسجع فى الغصون ، مشبباً لا عن هوى
قومى نحم . هيا نغنّ ، قبل أن تقع النوى

هى — من أين جئت ؟ ولم أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ؟

هو — كل الأحبة . يا حبيبة ، فى وئام واتفاق
إلا أنا ! مع قربنا ، أشكو تباريح الفراق
لم يقصنى الهجران منك ، ولم يقربنى اشتياق !!

هى — من أين جئت ؟ ولِمْ أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ؟؟
من أين جئت ؟ ولِمْ أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما أنا ...؟

(بغداد) عبد الحق فاضل

أنصاف رجال

بقلم محمود غنيم

يعنى بعض الشبان بمظهره أكثر مما يعنى بجوهره ، ويسرف فى توخى الأناقة الى الحد الذى ينقلب الى الضد . فالى هؤلاء أوجه القول :

شباب النيل يازين الشباب ويا أشبال آساد غضاب
معى عتب أوجهه إليكم وقد تصفو المودة بالعتاب
أرى فيكم فريقاً حين يمشى يحك بأنفه ظهر السحاب
كليث الغاب فى صلف وتيه وليس لدى القراع بليث غاب
لزهر النرد قد خلقت يداه وليست لليراع ولا الكتاب
تفنن فى محاكاة العذارى وخالفهن فى وضع النقاب
وأرسل شعره المضغوط يحكى وميض البرق أو لمع السراب
تداعبه الصبا فيموج موجا كما هب النسيم على العباب
له حلل تحاكى الطيف لوناً بأزرار من الذهب اللباب
وفيها جسمه انصب انصباباً فما تدرى الثياب من الإهاب
وليس بمحكم عملا شريفا ويحكم وضع أربطة الرقاب
ولا يخشى على شئ ويخشى إذا ثار الغبار على الثياب
إذا خاطبته فى غير لين تأوه أو تنهد فى الخطاب
وإن أربى على العشرين منهم فتى أمسى يغالط فى الحساب
وكم من لمة فى مصر شابت ولم تنفك عن دعوى التصابى
وإن يحلل فتاهم قلب أنثى يحل هناك بالركن الخراب
فلن ترضاه كالطاووس شكلا ولكن كاسراً مثل العقاب
وكم ضاق الجمال بطالبيه وأوذى بالتجمل والخضاب
فقل للغاصبين الحسن مهلا متى نيل الجمال بالاغتصاب ؟
اذا الذئب استحال بمصر ظبيا فمن يحمى البلاد من الذئاب ؟
رثت من الفتى يبدو فتبدو عليه نعومة البيض الكعاب

محمود غنيم



رسائل لم تنشر

من نابليون الى مارى لويز

عرض أخيراً للبيع فى أحد أبهاء التحف بلندن ، مجموعة كبيرة من رسائل الامبراطور نابليون بونابرت الى زوجه الامبراطورة ماري لويز النمسوية ؛ وتبلغ هذه الرسائل التى كتبت جميعها بخط الامبراطور ؛ ووقعت بامضائه ثلاثمائة رسالة ، تشمل تاريخ أربعة أعوام كاملة من حياة الامبراطور ، أعنى من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨١٤ ، وقد كتب معظمها فى أوراق مذكرات صغيرة ، وأرسلت من مختلف أنحاء القارة التى كان يجوبها الامبراطور أو يعسكر فيها بجيشه الى الامبراطورة الصغيرة التى شغفته حباً ، والتى جاءت له بأول ولد يعلق عليه آمال الامبراطورية . وتبدأ الرسالة التى كتبها الامبراطور فى فبراير سنة ١٨١٠ يطلب فيها يد مارى لويز ، وفيها يخاطبها بلهجة رسمية وبذات الجلالة ، ثم تتدرج الرسائل بعد ذلك فى البساطة وعدم الكلفة ، فيخاطبها الامبراطور بلهجة الحب الوثيق ، وتغدو مارى بعد أن غدت امبراطورة فرنسا ، « حبيبتى ، عزيزتى . . . . » ويكتب اليها الامبراطور فى مختلف الشئون الشخصية والمنزلية ؛ ويغدق عليها نصحه ، سواء فيما يتعلق بصحتها أو نزهتها ، أو علائقها بسيدات البلاط وسادته . وأشد هذه الرسائل سحراً وتأثيراً ، ماتعلق منها « بالملك الصغير » ولد الامبراطور ومارى لويزا ، والسؤال عن صحته ورجاء تقبيله وعناقه

وتوضح هذه الرسائل تاريخ الامبراطورية فى مراحل متعاقبة ، فالأولى مرحلة الزواج والتحالف بين النمسا وفرنسا ، ورحلة الامبراطور والامبراطورة الى اشرس وفلسنج ، ثم قضاء شهر العسل فى تريانون (صيف سنة ١٨١٠) . وكان الامبراطور يومئذ فى أوج قوته وظفره ، يحكم على معظم ممالك القارة ، ويحكم فى رومه ومدريد ، ويشدد الحصار على انكلترا ويهددها ؛ والمرحلة الثانية هى مرحلة الغزوات الثانية فى بولونيا وروسيا ثم موسكو فى صيف سنة ١٨١٢ ؛ وهنا نجد رسائل كتبت عن معركة بورودينو ، والزحف على روسيا ، ثم حريق موسكو ثم ، الارتداد المروع عن هاتيك السهول الثلجية ؛ والمرحلة الثالثة حينما تتحد الدول على نابليون ؛ وهنا يكتب نابليون الى مارى لويز أن تنصح الى والدها (الأب فرانسوا) امبراطور النمسا بألا يتحد مع هذه الدول ، وألا يصغى الى تحريض مترنيخ ، ويحاول بذلك أن يزج بالامبراطورة فى غمار السياسة ، ولكن امبراطور النمسا حماه وأبا زوجه ينضم الى خصومه ، فيحاربه نابليون مع من يحارب ، ويكتب الى مارى لويز بأنه انتصر على جنوده ، وبأن جنوده لم تكن أسوأ منها فى أى وقت مضى . ثم تأتى المرحلة الرابعة وهى مرحلة التقهقر والهزيمة ، وهنا تتعاقب الرسائل كل يوم بأنباء الظفر والحركة والعمل المتواصل ، ثم تجىء الهزيمة ، ولكن الرسائل مازالت تنم عن سمو هذه الروح التى تستقبل المصائب والمحن باسمة ساخرة

تلك هى خلاصة المأساة التاريخية العظيمة التى تصورها رسائل نابليون الثلاثمائة الى زوجه مارى لويز . وقد عرضت للبيع فى لندن فى يوم ١٩ الجارى مقسمة الى عدة مجموعات ، ولم ينشر منها من قبل شىء ، وقدر الخبراء ثمنها بنحو مليون ومائة الف فرنك (نحو ستة عشر الف جنيه) ، وقدرت مذكرات مارى لويز المعروضة معها بمبلغ خمسمائة الف فرنك (نحو سبعة آلاف جنيه)

وقد علقت الصحف الفرنسية على عرض هــــذه التحف الأثرية التى تهم فرنسا قبل كل شىء ، وأبدت توجسها من استعداد بعض كبار الهواة الأمريكيين لاقتنائها وبذل أكبر الأثمان فى سبيلها ، وطالبت الحكومة الفرنسية وهيئاتها العلمية

أن تبادر الى اقتناء هذه الوثائق التي خلفها امبراطور فرنسا ، لتضم الى تحفه وآثاره . وقد استجابت الحكومة الفرنسية الى هذه الدعوة ، واستطاعت أن تحصل على الرسائل الثلاثمائة بطريق المزايدة بمبلغ خمسة عشر الف جنيـــه حسبما ورد في الأنباء البرقية الأخيرة

وفاة المكتشف دى جيرلاش

توفى البارون دى جيرلاش دى جوميرى الرحالة والمكتشف البلجيكي الشهير بعد مرض طال أمده ، في سن السادسة والستين ؛ وهو ينتمى إلى أسرة عسكرية نبغ فيها كثير من الضباط العظام ؛ ولكنه آثر البحر منذ فتوته ، وقضى شبابه بحاراً على ظهر السفن ، وفي سنة ١٨٩٠ ، نال رتبة نائب سفينة ، وخطر له من ذلك الحين أن يخصص جهوده لاكتشاف المناطق القطبية التي لم يصل اليها سلفه المكتشف دومون دورفيل ؛ فسعى إلى الجمعية الملكية الجغرافية البلجيكية حتى قبلت أن تؤازر جهوده ، وأعد لتلك الرحلة السفينة « بلجيكا » وسلحها ، وسافر على ظهرها في أواخر سنة ١٨٩٧ ، ثم عاد بعد رحلة استغرقت نحو عامين ، بعد أن اكتشف كثيراً من الأنحاء القطبية ، وحمل كثيراً من الوثائق العلمية والمعلومات الهامة ، وكانت هذه فاتحة الرحلات القطبية التي انتهت باكتشاف القطب الجنوبي بعد ذلك على يد الأميرال بيرد الأمريكي وزملائه ، وقام دى جيرلاش برحلات أخرى منها رحلة الخليج الفارسي حيث حقق كثيراً من النتائج العلمية . وفي سنة ١٩٠٣ سافر مع الدكتور شاركو المكتشف الفرنسي على ظهر السفينة « بوركوابا » إلى القطب الجنوبي ، ثم عاد سنة ١٩٠٥ . ولم يمض سوى قليل حتى سافر كرة أخرى على ظهر بلجيكا مع الدوق أورليان ، وقاما برحلة اكتشافية علمية في بعض أنحاء الجزيرة الخضراء (جرينلاند) ، وحصلا على مجموعة نادرة من الحيوانات القطبية ؛ وبعدئذ قاما برحلة أخرى فيما وراء الجزيرة الخضراء ووصلا إلى الحاجز الثلجي الأكبر ، واكتشفا أنحاء لم تكتشف من قبل . وقد نشر دى جيرلاش رسائل شائقة عن رحلاته ؛ ثم عهدت اليه الحكومة البلجيكية بادارة القسم البحري ، ومن آثاره في هذا القسم إنشاء السفينة البحرية المدرسية « مركاتور » التي اشتهرت بطوافها في أنحاء العالم

وكان دى جيرلاش عضواً في عدة جمعيات علمية أو مراسلا لها ، ومن أشهر آثاره . كتاب نشره في فاتحة الحرب ، وكان له دوى عظيم ، بعنوان « الأمة التي لا تريد أن تموت »

جائزة نوبل للسلام

نعرف أن من بين جوائز نوبل الشهيرة ، جائزة للسلام ، تمنح كل عام لمن يتفوق في خدمة قضية السلام سواء أكان من رجال السياسة أم التفكير ؛ وقد نال جائزة نوبل للسلام في الأعوام الماضية عدة من كبار الساسة الأوربيين ، مثل السير أوستن تشمبرلن وزير خارجية انكلترا الأسبق . والمرحوم المسيو ارستيد بريان رئيس وزارة فرنسا ووزير خارجيتها الأسبق . والمرحوم الدكتور شترزمان وزير خارجية ألمانيا الأسبق ؛ وقد فاز أخيراً بجائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٣٣ ، المستر ارثرهندرسون زعيم حزب العمال البريطاني ، ووزير خارجية انكلترا في وزارة العمال ، ورئيس مؤتمر نزع السلاح الملحق بعصبة الأمم ، وذلك لما قام به في مؤتمر نزع السلاح من جهود لتأييد قضية السلام ؛ وفاز بجائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٣٤ ، انكليزى آخر هو المستر نورمان آنجل الكاتب والصحفى الشهير . وذلك لما ألفه من الكتب والرسائل ، ونشره من المقالات في سبيل الدعوة إلى السلام العالمي . وفي فوز الانكليز بجائزة السلام عامين متواليين مغزى تغتبط له السياسة البريطانية

في معرض الفن النمسوى

أقيم في فينا أخيراً معرض للتصوير والنحت لنيل الجائزة الرسمية ؛ ونال المثال هربرت بكل من كارنتيا جائزة الحكومة عن معروضاته البرونزية ؛ ونال المثال والتر ريتر من جراتز جائزة الحكومة عن معروضاته الحجرية

القصص

من أساطير الأولين : رمز الشعر والفضيلة

إكسوس ومكريا

أو

عليقة السنديانة Le gui de chêne

للشاعر الفرنسي هجيسب مورو

١٨١٠ — ١٨٣٨

بقلم احمد حسن الزيات

في ذات يوم لا أذكر من تاريخه إلا أنه كان لعامين من موت هرقليس، كانت مدينة (دلفي) تموج بالناس وتعج بالضوضاء وتزخر بالفتوة . كان ذلك اليوم آخر أيام الألعاب الفيتونية ، ومن أعجب الأشياء أن الصراع والسباق كانا يجريان على غير مشهد من أحد ، والرياضيين والسواقين كانوا ينتصرون على غير علم من إنسان ، حتى قيل إن الشاعر سيمندس كان ينشد رائع الشعر في الفرس المجلّي ولا يستمع إليه يومئذ إلا بطله ! ذلك لأن كلمة واحدة طار بها السماع فطارت بالقوم من ميدان اللعب إلى معبد أبولون .

« هاهم أولاء أبناء هرقليس ! هاهم أولاء أبناء هرقليس ! »

ومن في الناس لا يضحي بمقعده من الملعب ليرى أبناء هرقليس سيد أبطال الأغريق ؟ وكانت أثينا منذ شهر قد استيقظت ذات صباح فوجدت هؤلاء الأبناء مخلوعين مضطهدين مشردين يتهافتون في الساحة العامة على مذبح الرحمة فثارت بها الحفيظة لشكواهم ، ورقت فيهم القلوب والسيوف لبلواهم . ثم بعثت بهم في هذا اليوم على رأس السفارة المقدسة الى دلفي يستنبئون آلهتها عن مصدر هذه الحرب

ودلفي كما تعلمين[1] مدينة مقدسة تفيض جوانبها بالعجائب ، والناس يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وأنا كأولئك الناس في هذا اليوم ، لا أريد أن أنتقل بك من البرناس إلى الهيبدروم ، ولا من الهيبدروم الى منصة أبولون ، فانك ولا شك حججت إلى هذه الأماكن منذ طويل في (سياحة أناكرسيس) . وأنا — ولا أخفي عنك — مشوق كذلك الى رؤية أشبال هرقليس

كان الشعور الذي استولى على الأغريق لدى رؤيتهم أولئك الأبطال يترجم عنه هذا الهتاف الأجماعي الصاخب : « يا للآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام وما أصلب العضل ! » وكان في الجمع شيخ سبط العظام ، تحسبه وفي يده عصاه الذهبية ، وعلى جبينه عصابته البيضاء ، ملكاً من ملوك الأغريق العشرين ، مال على كاهن من كهنة أبولون ، وهو يجتاز المعبد حاملاً مبخرة من مباخر العطور ، وقال له في صوت خافض :

— لقد عرفت هرقليس وزوجه ديجانير حق المعرفة ، فما عرفت لهما غير ثلاثة بنين ، فمن إذن هذه العذراء المنتقبة التي تجلس مع أبناء هرقليس على مقعد واحد ؟

— كلامك يا أبي الحق لا مرية فيه . فليس لهرقليس من ديجانير غير ثلاثة بنين ، ولكن له من زوجته الأخيرة (يول) . . . . .

— فقاطعه الشيخ قائلاً : صحيح ! ثم ضرب على جبينه بأصبعه علامة التذكر وقال : لقد روى لي (فيلوكتيت) هذا الحديث عشرين مرة ! ولكن قرنين من الزمان يدوران على الرأس لا بد أن يضعضعا فيها الذاكرة ! نعم أذكر الآن أن هذا

(١) يوجه الكاتب الحديث إلى صاحبته التي دعاها أخته وكتب إليها طائفة من الأقاصيص عنوانها (أقاصيص إلى أختي Contes à ma soeur) وهذه احداها .

الرواح أعقب بنتا . . . فارتفع من وراء الشيخ صوت يدوي عذب بهذه الجملة :

— بنتاً وابناً يا أبي »

فالتفت الشيخ فرأى يافعاً شاحب اللون هش مطام ، في زي أهل الأرجوليد يردد في احتشام وخجل :

— بنتاً وابناً هما إكسوس ومكريا

فيتبسم الشيخ ضاحكاً من الغلام . وقال للكاهن : أنظر : في (بيلوس) يهتف الناس بعلمي ، وفي (ارجوس) يرسلون الى تلاميذهم ليعلموني . . .

ثم قال للغلام : من الذي أنبأك هذا يا بني ومذا تسمى ؟ ولكن الفتى لم يتحمل ملاطفة سطور (وهو الشيخ) فأفلت منه وغاب في زحمة الناس دون أن يجيب

وكان ذلك الهتاف لا يزال يدوي في الفضاء لا يعتريه فتور ولا يناله تغير :

« ياللآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام ؛ وما أصلب العضل ! »

ولعلك تعجبين لهذا الأطراء ؛ وتحملينه على محمل الاستهزاء ، ولكنك تذكرين أننا في بلاد قسمتها طبيعة الأرض ومطامع الناس الى عشرين دولة صغيرة ، يتضارب أقيالها الصيد من شدة الزحام بالمرافق والمناكب ، وكان العرف الدارج في الأمم القديمة أن يقتتل الناس رجلاً لرجل ، وجسماً لجسم ، فجعلوا قوة البدن جماع القوى وملاك الفضيلة ، وكانوا يتوسمون مخايل الكفاية والفضل في قبضة اليد وقوة الكتف ، كما نتوسمها نحن اليوم في أسرار الجبهة ولمحات العين ، وحسبك أن هرقليس رمز القوة ومثالها كان إلهاً

تأخر ظهور الكاهنة الوسيطة التي يتكلم بلسانها الآله . (La pythie) ولكن أحداً لم يسمع هنين السأم ، ولم يلمح عبوس الانتظار ، لأن الجمهور كان يجد فيما يرى غذاء لفضوله وريا لشوقه : كان يرى هلوس بكر هرقليس وأكبر الأخوة . وهو محارب عملاق عاري الذراعين مجدول العضلات مطهم الوجه ، فيجده وعلى منكبيه جلد الأسد ، وفي يده الهراوة المقداء ، أشبه بأبيه من الليلة بالليلة . ثم يرى أنتينور ، وهو سوغه (١) هيلوس وأدق منه ملامح وأرشق قامة . كان يتشح بقداسته الجديدة . ويتسم لشباب الأغريق . ومنخراه منفوخان يتنسمان عبير الاعجاب في نشوة ولذة . وعلى الجملة كان الآله أنتينور شديد الخيلاء والصلف . أما أخوهما (إيجسط) فكان لا يشبههما في شيء غير القوة والشهامة . كان وجوده في هذا العصر وفي هذا المصر خطأ صارخاً في تقويم الزمن ، وأعجب شيء فيه أنه كان أشقر الشعر ساهم الوجه منقبض المزاج ، وانقباض المزاج عاطفة عصرية مسيحية . ثم كان يرجع من المعارك الدامية الشعواء الى الدار عذب الروح حي الطبع ، كأنه أحد أولئك الحمار بين الشقر من أهل الشمال : يصرعون المردة والأغوال . ثم يطأطئون الهام ويحرمون الكلام أمام عصا ساحرة صغيرة . كان وهو يتحسر على عرش (أرجوس) كأنما يأسى على شيء أعز عليه من عرش : فالى أين إذن كانت تصعد زفراته وتتبخر دموعه ؟ ألى بيت صديق ، أم الى قبر أم ؟ علم ذلك عند الله . فمن سره لم يسافر عن ضميره الى أحد ، حتى أخته الفتاة مكريا ، وهي أمينة سر الأسرة لم يفض اليها بذات صدره . وكانت مكريا جالسة الى جانبه تصلي . . عفواً يا أختاه ! لقد شغلت بالأبطال عن العذراء ، ولكنها هي الملومة ! أنظري ! إنها مستترة في ظل إخوتها ، كأنها تحرص على أن تغفلها العيون . إنها لم تكشف عن وجهها النقاب بعد ، فقسماتها لا تزال مجهولة ، ولكنك أستافت لها الحب ولا شك ، لأنك سمعت منذ قليل أنها وديعة تقية

* * *

وأخيراً أعلنوا ظهور الكاهنة الوسيطة . وكان الوهن لا يزال بادياً عليها من أثر ما أصابها من اختلاج الأعصاب في وساطتها الأخيرة بين الآلهة والناس . فهي تجر نفسها جراً من الأعياء والجهد ، حتى بلغت المنصة متكئة على كاهنين من كهنة أبولون . حينئذ انفتح في جوف المحراب باب على مصراعيه فاقتحمته هبة عريضة من الهواء العازف ، فقشعت دخان القرابين وهزت الجمع الحاشد فضج الناس قائلين : « الآله ! هذا هو الآله ! » وعندئذ اضطربت النبية المذبة في المنصة اضطراب الذبيح . فخشعت الأصوات وأصغى القوم

بدأت الكاهنة أمرها بالشهيق ، ثم أتبعته عقاطع من الأنين والضراعة ، ثم انتهت الى كلمات ذاهلة لا تسفر عن معنى ، ثم تكلم الآله بلسانها فقال :

« إن (منيرفا) ستقابل . . . . ؛ وعلى جودتها الآلهية

(١) يقال : هو سوغ أخيه وسيغه إذا ولد بعده وليس بينهما ولد . وهو بالفرنسية (puîné)

ستصيح البومة : « إنى عطشى » ويذهب جهدها باطلاً
تدعو منيرڤا البهة النضير
والهية النصر أختها فلا تخذلها . . .
إلى أسمعها وهى قادمة تئز أجنحتها فى الهواء . . .
ولكن البومة تصيح : إنى عطشى ؛ وأريد أن أرتوى بالدماء . .
إن ارجوس تنتظر ملوكها لتؤلهم :
انظرى وميدى يا ارجوس ! إن البومة فى طيرانها السفاح
تحوم فى الجو باحثة عن جبهة نقية تضحيها
إنها تحوم وتحوم ثم تقع على . . . ولد من أولاد هرقليس »

وفى هذه الساعة الرهيبة العصيبة على أبناء هرقليس ، لم يكن فى المعبد من ملك نفسه وضبط حسه غير أبناء هرقليس ؛ على أن الكاهنة لم تكد تمسك عن الكلام حتى صاح بها هيلوس:

— عينى الضحية بالاسم

ولكنها كانت تتساقط من الضعف على درج المنصة ولم يبق منها إلا رمق . فقال كبير الكهنة : إن الآلهة كان جبار القلب غليظ الكبد ، فإذا استأنفت التجربة قتلها ولا شك . فليقدم أحد أبناء هرقليس نفسه .

فارتفع من بين الجمع ذلك الصوت الرخيم الذى تكلم منذ هنيهة من وراء نسطور وقال : أنا أقدم نفسى ؛ فقال له الكاهن فى لهجة قاسية : « من أنت ؟ وماذا تسمى ؟ » فأجابه الغلام :

« أنا ابن هرقليس واسمى اكسوس »

فانفجر الناس بأصوات الدهش لهذا الجواب المفاجئ ، ثم قال قائل منهم يتهكم : « إذا صدق قوله فقد صدق اسمه » . وستعلمين يا أختاه أن اكسوس كلمة يونانية معناها القليق ، فكأن أبوه عند ما ولد وسماه بهذا الاسم احتقاراً لشكله واستصغاراً لشأنه . والحق أن هذا المخلوق الهش يشبه فى انتسابه الى هذا العرق القوى ذلك النبت الطفيلى الرخو الذى تعبث به الريح وهو قائم على جذوع السنديان

ذلف (تيبنور) الى الغلام وقال له بلهجة الحانق المتوعد : لقد منعناك أن تتبعنا الى دلفى . . . ولكن ابنة هرقليس التى ظلت الى تلك الساعة ساكنة ساكتة محتجبة ، ألقت نفسها بين الأخوين فقطعت ما بينهما الشر ، ثم أخذت الصغير من يده وخرجت به من المعبد وهى فى شغل عن نداء هيلوس يدعوها إليه ، وفى ذهول عن مختلف الأعاجيب التى انبعث عن يمينها وعن شمالها ، لأن نقابها انحسر من ذات نفسه لسرعة المشى وشدة الحركة ، فبدت مكريا للعيون بارعة الجمال رائعة الحسن لطيفة الروح ، وقد زاد فى جمالها تلك الشفقة التى تجلت فى صوتها وفى عينيها ؛ والشفقة عاطفة تجمل القبيح ، فكيف يكون أثرها فى الحسن ؟

* * *

عادت أسرة هرقليس كلها الى أثينا فى مركبة واحدة ، وقد عقد الأبطال الثلاثة قلوبهم على أن يقترعوا بينهم غداً فى معبد منيرڤا ليعلموا أيهم يجب عليه أن يموت . وكان اكسوس المسكين قد جاء فى اختيال ومرح يضع اسمه مع أسماء اخوته فى الصندوق ، ولكنهم منعوه ودفعوه معتقدين أن من الاهانة للآلهة أن يهيئوا للقدر — وهو فى أغلب أمره ساخر عابث — الفرصة ليقدم اليوم هذا القربان الضئيل الأعجف . أما أختهم مكريا فلم يشاءوا أن يعرضوها معهم على رغبة الموت لسبب آخر غير سبب اكسوس ؛ لقد كانت خطيبة (ليكوس) وهو زعيم من زعماء أثينا ذوى الرأى المسموع والأمر النافذ ، (وأثينا هى التى غضبت لهم تلك الغضبة وشهرت دونهم السيف) فهم يحرصون لسبب سياسى أو أدبى على ألا يقطع الاستعداد للتضحية الاستعداد للزفاف . لذلك وجدت مكريا غرفتها بعد عودتها تضوع بعبير الألطاف والتحف التى قدمها (ليكوس) ، ولكن نفسها وهى تتسلف الحداد على أخ من إخوتها لم يهزها كرم الهدايا ولم يسرها جمال التحف . على أنها رأت إكليل الزفاف مصوغاً من الزنبق الجميل النضير فحملته ووضعته على جبينها من غير إرادة ولا وعى . وفى هذه اللحظة سمعت من خلفها زفيراً يتصعد فى ضعف ، فالتفتت فاذا هى ترى إكسوس ، إكسوس أخاها الذى جمعت له فى قلبها الأم والأخت فى وقت معاً ، إكسوس الذى عنيت به وأشبلت عليه لأنه عليل الجسم مبذوء الهيئة ، إكسوس الذى لا يخطو فى البيت خطوة إلا بابتسامة من مكريا تبدد بؤسه وتجدد أنسه ، فاذا غابت عن الدار غاب عنه الأنس واستولت عليه الوحشة .

كان ينظر الى الزهور الخضرة والدمع يجول فى عينيه ، والهم يعتلج فى صدره ، والألم الممض يرتسم على أسرار وجهه ، فاستطير فؤاد أخته من الخوف عليه ؛ لأنها تعودت أن تراه يشكو ويتألم منذ اثنى عشر عاماً ، فلم تجده يوماً على مثل هذه الحال من الكمد القلق واللوعة الأليمة ؛ فأقبلت عليه تعتذر اليه وتسرى عنه وتقول :

— أوه ! اعف عني واغفرلي يا طفلي المسكين !

— أنا أعفو عنك وأغفر لك يا مكريا ؟ علام إذن ؟ والسعادة التي غمرت بها قلبي وعمرت بها وجودي ؟

— لا تشكر لي عنايتي بك ؛ ذلك دين أقضيه . . . . . ذلك تكفير أؤديه . . . . .

فانبعثت من عين الفتى المشدوه نظرات ضارعة تسأل أخته حل هذا اللغز ، فقالت له : « سمعك الىَّ ! منذ أربع سنين (كان عمرك يومئذ ثماني سنوات وعمري أربع عشرة) جرت في أسرتنا حوادث عجيبة وأمور خارقة لم يصل علمها بأبي ولا بأخوتي . لعلك تذكر ذلك الكوخ الذي بنوه على شاطئ البحر ليختفوا فيه عن أعين المضطهدين الكثيرين الأقوياء . كنت فيه ذات مساء وكان أبي وإخوتي في الصيد ، وكنت أنت منهوك القوى من كثرة ماجريت في الغاب طول النهار ، فاستسلمت على هدهدة المطر والريح لنوم ثقيل ، وكان الليل قد أقبل منذ حين ، وأبي وإخوتي لم يقبلوا بعد ، فسمعت قارعاً يقرع الباب فذهبت أفتحه وفي حسباني أني أجد الصيادين والصيد ، ولكني وجدت عابر سبيل يطلب الدفء والمأوى برهة من الزمن ، فأدخلته ، ثم جلست الى جانب سريرك ، واشتغل هو بتجفيف ثيابه على نار الموقد ؛ وما كان أشد دهشتي حين رأيت نوراً لطيفاً يتلألأ على شعره الأشقر ! عزوت ذلك النور بدياً الى انعكاس النار التي في الموقد ، ولكن الموقد خبا وغرة المسافر ماتزال مشرقة ! حينئذ أدركت أنه أبولون ، أبولون الذي طرد من الأولب فهام متنكراً في العالم على وجهه ، ثم بقيت على رغم تنكره بقايا النور من هالته

فخررت جاثية أمامه ، وقلت : ماذا تبتغي مني أيها الآله العظيم ؟ فقال : « لاشيء غير المأوى ! على أن المطر قد كف والجو قد صفا ، فأنا ذاهب ، وسأقبلك قبلة الوداع » فتقدمت واجفة القلب مضطربة الحواس الى عمي ، وقدته من يده الى مرقدك ، وقلت له : « الأولى أن تلاطف هذا الصبي المسكين فانه لم يظفر بعد بملاطفة آله ؛ إلمس وجنته الذابلة فتنضر ، وانفخ في شفته الباردة فتغني »

فتبسم أبولون لرجائي ، ودنا منك فنفث في فمك من روحه ؛ ولكن نفثته كانت قوية مضطرمة ، فسرت الى قلبك فأفعمته وأشعلته ! من أجل ذلك كان قلبك يحترق ولا يفتر عن الوجيب ! ومن أجل ذلك كان جسمك يذوى وروحك لا تستجيب . . . فأنذا وقفتك على جلية الأمر فهل تصفح عني ؟

فما كان جواب إكسوس إلا أن قبل أخته . فقالت له : إن برهان عفوك عني ، أن تنقاد لي وتسمع مني ؛ قل يا قليل الحكمة : بأي معجزة نجوت من الموت جوعاً وظمأ في طريقك الطويل من أثينا الى دلفي ؟

فقال إكسوس : أوه ! كنت من الصباح الى المساء استرجع النشاط بالغناء ، واستفتح الأبواب بالنشيد ، فكما دلني الدخان على وليمة في أحد البيوت طرقت الباب وأنشدت الأغنية فيفتح لي أهله وينزلونني خير منزل

فتبسمت مكريا وقالت : أغنية عجيبة ! هل لك أن تعلمنيها يا إكسوس حتى أغنيها أنا أيضاً في ذهابي الى دلفي أو الى الأولب ؟

فتمنع إكسوس وتدلل على عادة المغنين في كل عصر ، ثم نزل على مشيئة أخته بعد رجاء قليل :

أغنية اكسوس

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ، أنا عُلَيقَة السنديانة التي إن تمر عليها هبة الريح تمت ! منذ اثني عشر عاماً سقط قزم من جلد الأسد الذي يتنكبه هرقليس ، فكنت أنا ذاك القزم . كان أبي لا يحبني لأنني كنت صغير الجثة رقيق البدن ، وحين كنت أصطدم بركبتيه وأنا طفل كنت أسمع فوق رأسي زمجرة كزمجرة العاصفة . وكان إخوتي يضربونني كلما دعوتهم اخوتي ! ومع ذلك أريد أن أعيش ، لأن لي أختاً تحبني وتحنو عليَّ ، هي الجميلة الكريمة مكريا !

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التي إن تمر عليها هبة الريح تمت

٢

قال لي أخوتي ذات يوم : « اجتهد أن تكون صالحاً لشيء . . تعلم اقامة التماثيل وشيادة الهياكل ، فلعلنا نصير يوماً آلهة » فحاولت أن أُلبيَّ مبتغى اخوتي ، ولكن الأزميل والمنحت كانا ثقيلين على يدي ! ثم كانت هنالك رُؤى غريبة تطوف بيني وبين جنادل (باروس) وكانت إصبعي الناحلة الذاهلة تخط في التراب اسماً لا تخط غيره : اسم أختي الحبيبة مكريا . . .

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التي ان تمر عليها هبة الريح تمت

٣

حينئذ قال لي اخوتي : « ان في مضيفنا شيخاً من شيوخ

الكلدان يقرأ في صفحة السماء أسرار الغيب وأنباء المستقبل ، فاستمع إليه ، وتثقف عليه ؛ ثم قل لنا أترى في مطاوى السحب كنوزاً أو نصراً » فسمعت من الشيخ ، ثم قضيت ليالى طويلة أرصد النجوم والغيوم فلا أرى كنوزاً ولا نصراً . إنما كنت أرى عيون السماء تنظر إلىّ نظر المحب ، كأنها عيون مكريا . . .

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التي ان تمر عليها هبة الريح تمت

٤

حينئذ قال لى اخوتى : « خذ قوساً ونشّابا واخرج إلى الصيد فى الغاب » فجُبْتُ الغاب بقوسي ونشابي ، ثم لم ألبث أن نسيت اخوتى وذهلت عن صيدى . وبينما كنت أسمع غناء الرياح وتغريد البلابل أقبلت ظبية فأكلت طعامى من جيبى ، ثم جاء طائر صغير أعياه طول الطيران فنام فى كنانتى ، فحملته الى مكريا

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التي ان تمر عليها هبة الريح تمت

٥

حينئذ قال لى اخوتى : « انك لاتصلح لشىء » ثم ضربونى ، ولكننى لم أبكِ ، لأن فكرى كان مشغولاً بأختى ! وغداً سيأخذون منى مكريا ! وغداً ستسأل وهى جالسة فى حفلة الزفاف : ما هذا الدخان الذى يسطع هناك وراء الغار ؟ فيجيبها المدعوون : « لاشىء »

« إنها محرقة إكسوس المسكين ، عليقة السنديانة التي عصفت بها الريح فجعلتها كالرميم »

فصاحت الفتاة وقد مسكها الحنان وأدركها الجزع : كلا إنك ستعيش ! وسأحملك فى قلبى ، حتى إذا ثارت العواصف الهوج لايمسك منها أذى . ان (ليكوس) سعيد محبوب ، وعذارى أثينا كثيرات يفتحن له دورهن وصدورهن . أما أنت أيها الفريد الشريد الموجع ، فالىك وحدك كل أيامى وأحلامى وحبى

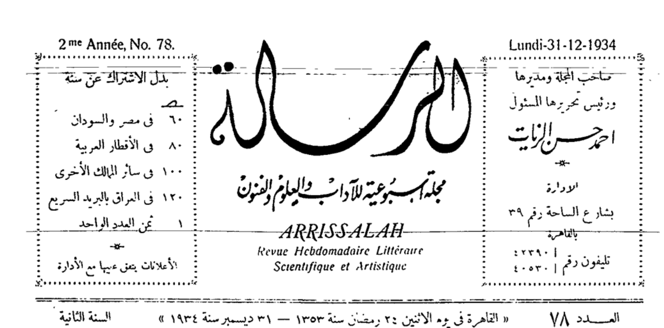
« خذ يا أخى ، خذ يا شاعرى ! هذا ثمن أغنيتك » ثم نزعت من فوق جبينها الأبلج إكليل الزفاف وألقته مبللاً بالدمع تحت قدمى إكسوس ! فأراد إكسوس أن يجيب ، ولكن التأثر المفاجىء صعق الصبى المسكين فلم يستطع إلا أن يقول بصوت خافت : آه ! ثم وضع يده على قلبه وخر مغشياً عليه ! ثم بات طول الليل يتضور من شدة الحمى ، وأخته بجانبه لايغمض لها جفن ، ولا يرقأ لعينيها دمع

وكان الغد موعد أبناء هرقلبس إلى المعبد ليقترعوا هناك على الضحية . فتقدموا الى الهيكل كما يتقدمون الى المعركة : قلوبهم فارغة من الهم ، ورءوسهم مرفوعة من العزة ؛ ثم جرت المراسيم المألوفة وهى لا تختلف عما رأيناه فى دلفى . وأقبل كاهن من كهنة (منيرفا) فأجال الأسماء فى الصندوق ، ثم تقدم طفل معصوب العينين إلى الأناء المقدس يستخرج منه حكم الموت . فلم تكد يده تلمس حافته حتى دوى على عتبة المعبد صوت امرأة يقول : « قف ! ها كم الضحية . . »

وكان ذلك الصوت صوت مكريا وهى تتقدم الى المذبح كاسفة اللون ، كاملة الأهبة ، تنوس على جبينها الأزهر الجميل عصبة الذبيحة . فدلف إليها ايجسط وقال : أهنا أنت يا أختاه ! لقد وعدتنى أن تتخلى لتقوى على سرير إكسوس . فقالت وهى تغالب الدمع وتحبس الزفرة : إن إكسوس مات ! وليس الآن ما يمنعنى أن أفديكم بنفسى . ثم تابعت سيرها البطىء الى الهيكل بين تصفيق الجمع وإذعان الاخوة . ثم جثت مكريا أمام المذبح ، وعوقت بالاشارة مدية الذابح العجلان حتى تلقى على إخوتها ابتسامها الأخير ، ثم أغمضت عينها ، وأزاحت الغطاء عن ثدييها ، وكانت بعد دقيقتين جسداً يضطرب على مذبح الهيكل :

ثم أضرموا النار وجعلوا منها لاكسوس ومكريا محرقة واحدة ! وعندئذ رأى الناس شيئاً يصعد من اللهيب الى السماء ، رفاف الأجنحة ناصع الريش رائع الرواء !

وهكذا كانت الفضيلة (مكريا) فى العصور الخوالى تكفل الشعر (اكسوس) وتلهمه . والفضيلة والشعر أجمل ما فى الحياة وأنبل ما فى الانسان !



2me Année, No. 78. — Lundi-31-12-1934

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
صـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٢٣٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العــــدد ٧٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ رمضان سنة ١٣٥٣ — ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــــدد

الراديو و «الشاعر» ...

ألفتُ منذ سنين أن أزور رمضان فى ربوعه الأصيلة ، ومغانيه الباقية . ومن لم يشهد رمضان فى حىّ الحسين . أو فى حىّ الحسينية ، أو فى أمثالها من الأحياء القديمة لم يشهده فى قداسته البهية وجلالته الباهرة !

كنت فى إحدى لياليــه الزهر أحرج متى استيقظت المشاعر من فَترة الصيام . وسكْرة الطعام ، فأعبُر القرون العشرة التى تفصل بين قاهرة الملك فؤاد وقاهرة الخليفة المعز ، فأجد رمضان العظيم قد نشر نوره ، وأعلن وجوده ، فى كل شارع وفى كل منزل ! فهو خير يتدفق فى البيوت ، وبشر يتهلل فى الوجوه ، وأنس يتطلق فى المجالس ، وذكر يتضوع فى المساجد ، ونور يتألق فى المآذن ، وسمر يتنقل فى الأندية ، ونفحات من الفردوس ترطب القلوب ، وتلين الأكباد ، وترفُّ على ما ذوى من العواطف

فالحوانيت ساهرة وان لم تبع ، والمصانع ساهرة وان لم تنتج ، والأبهاء عاطرة بحديث الأحبة حتى نصف الليـل ، والأفنية عامرة بذكر الله حتى أول السحر . أما كثرة الناس فقد أخذوا

مجالسهم من قهوات الحي وباتوا ينشحذون «بن أحمهم» الظامئ بالفناجيل الروية ، ويشقِّقون أحاديثهم الطلية بالنكات المصرية ، ثم يستمعون في خشوع العابد وسكون العاشق ولهفة الطفل إلى القصاص أو الشاعر ، وقد طوّقت به أشباح القرون ، وغمغمت في صوته أصداء الزمن . يتربع في صدر المكان على منصة عالية من الخشب العتيق ، وهو في سمته وهندامه ولهجة كلامه وطريقة سلامه نموذج العامي الأديب ، ومثال الحضري المثقف : حفظ كثيراً من الأشعار فاكتسب ظرف الأدب ، وروى صدراً من الأمثال فاكتسى وقار الحكمة ، ووعى طائفة من الأخبار فاتسم برقة النادمة . وهو إلى ذلك بارع النادرة ، دقيق الفطنة، غنب الفكاهة ، حاضر الجواب ، يؤدي إلى هذا الجمهور الغرير الساذج دعوة الواعظ ، وأمانة المعلم ، ورسالة الأديب ...

هاهو ذا قد فرغ من احتساء القهوة ، وجباية النقوط ، ومباذلة السامع المتاز بجميل التحية ، ومسارقة الزائر المتاز بوغيب النظر ، ثم أخذ يحتفل للقصص أو الانشاد ، فاختبئت قهقهة (النكتة) ، وانقطعت قرقرة (الجوزة) ، وانتشرت سكينة الجد في القهوة ، واتجهت عنون الجمع إلى المنصة ، ثم رن في سكون القوم ذلك الصوت العريض المترن يرسل الكلام والأنغام في ترجيع مؤثر ، وتقطيع معبر ، وتنويع مطرب ؛ فهو يفخم ويرقق ، ويقسو ويلين ، ويأنف ويستكين ، ويثور ويهدأ ، ويسخط ويرضى ، ويتدلل ويتذلل ، ويتحمس ويتغزل ، كأنه في تعاقب ذلك كله عليه الأوتار الطيعة تحت الأنامل اللينة البارعة ، فيملأ الآذان بالنغم ، والأذهان بالفكر ، والقلوب بالشوق ، والمشاعر باللذة .

***

ذهبت ليلة الأمس على عادتي أزود المعاهد ، وأجوس الديار ، وأستشفي ما بقي على أطراف الزمن من عبير الفاطميين ، فوجدت القاهرة الشرقية لا تزال تتحدى القاهرة الغربية بمساجدها ومدارسها ومستشفياتها وخاناتها وحماماتها وأسواقها ، وتعلن شهادة هذه الآثار أن حضارتها العربية الحقة إنما كانت تقوم على الدين والعلم والمدنية والانسانية والعمل . وترغم بأدلة الاعتبار أن هذا الظاهر الحسي القوي الرائع الذي يميز حضارة الغرب من حضارة الشرق إنما يرجع إلى أن هذه تقوم على الروح ، وتلك تقوم على الآلة ، وهذه تصدر عن العاطفة والايثار ، وتلك تصدر عن المنفعة والأثرة ؛ والميزة التي ينبغي أن تكون لحضارة على حضارة إنما هي ضمان السعادة للناس ، وتحقيق السلام للعالم

***

ولكن أين صديق الشاعر ، وأين أخوه القصاص ! هذا هو الحي ، وهذه هي القهوة ، وهؤلاء هم الناس ، ولكني وجدت في مكان الأريكة المنجدة ، والحلة المفوفة ، والعمامة الفردة ، صندوقاً من الخشب ، دقيق الصنع ، أنيق الشكل ، قد علق بالحائط ، فأغنى غناء القصاص ، وأبلى بلاء الشاعر ! !

تركت هذه القهوة ومضيت أتحسس في زوايا الحي وحنايا السوامر ذلك الصوت الذي كان ينبعث من جوف الماضي السحيق شادياً بالمجد والنبل والبطولة ، فلم أجد له إلا أصداء متقاصرة خرساً ولاصدى ! !

لقد هزم الراديو الشاعر في كل قهوة ، كما هزمت الآلة الانسان في كل عمل ! فني كل مقهى من هذه المقاهي (البلدية) آلة من هذا الاختراع العجيب تغري الأذواق العامية بالفن ، وتروض الآذان العصية على الموسيقى ، وتنبه العقول الغافلة إلى العلم ، وتحبب النفوس المستهترة في الأدب ؛ فهي تقرأ القرآن ، وترسل الألحان ، وتذيع العلم ، وتشيع اللهو ، وتثير البهجة ! ولكني مع ذلك كله عظيم الأسف على موت القصاص ، شديد الأسى على فقد الشاعر !

فان مخاطر الشهامة (لأبي زيد) ، ومواقع البطولة (لعنترة) ، ومواقف النبل (لسيف بن ذي يزن) ، أصلح لتهذيب العامة فيما أظن مما يبثه المذياع كل يوم من النوادر الوضيعة ، والأناشيد الخليعة ، والألحان الرخوة !

احمد حسن الزيات

السطر الأخير من القصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

رجعتُ إلى أوراقٍ لى قديمةٍ ، يبلغ عمرها ثلاثين سنةً أو يُدانيها ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ؛ وجعلتُ أُفلِّي هذه الأوراقَ واحدةً واحدة ، فإذا أنا على أطلال الأيام فى مدينةٍ قديمةٍ من تاريخى القديم ، نائمةٍ تحت ظُلماتِها التى كانت أنوارَ عهدٍ مَضَى ؛ وإذا أنا منها كالذى اغترب ثلاثين سنةً عن وطنه ثم آب إليه ، فما يَرَى من شيءٍ كان له به عهدٌ فى أيام حداثته ونشاطه إلا اتّصلَ بينهما سِرٌّ . ومن طبيعة القلبِ العاشقِ فى حنينِه أن يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ يتّصل به كأنّه ذو قلبٍ مثلِه له حنينٌ ونجْوى !

وذلك التّلاشِي المحفوظُ فى هذه الأوراق ، يَحفظُ لى فيها وفيما تحتويه نفْساً وطبيعةً كانتا نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روضةٍ ، فى عهدٍ من الصِّبى كنتُ فيه أتقدّم فى الشباب وفى الكونِ معاً ، كأن الأشياء تُخلَق فىَّ خلقاً آخر ؛ فإذا قرضْتُ شِعراً واستوى لى على ما أُحب ، أحسستُ إحساسَ الملك الذى يَضُمّ إلى مملكته مدينةً جديدة ؛ وإذا تناولتُ طاقةً من الزهر وتأمّلتُها على ما أُحب ، شَعَرْتُ بها كأجمل غانيةٍ من النساء تُوحى إلىّ وحىَ الجمال كلّه ؛ وإذا وقفتُ على شاطئ البحر تَرَجْرج البحرُ بأمواجه فى نفسى ، فكنتُ معه أكبرَ من الأرض وأوسعَ من السماء . أما الحب . . . ؟ أما الحب فكانت له معانيه الصغيرةُ التى هى كضرورات الطفل للطفل ، ليس فيها كبيرُ شىء ، ولكن فيها أكبرَ السعادة ، وفيها نَضْرَةُ القلب

عهدٌ من الصِّبى كانت فيه طريقةُ العقل من طريقة الحُلُم ؛ وكانت العاطفةُ هى عاطفةً فى النفس ، وهى فى وقتٍ معاً خُدْعَةٌ من الطبيعة ؛ وكان ما يأتى يُنْسِي دائماً ما مضى ولا يُذَكِّرُ به ؛ وكانت الأيام كالأطفالِ السعداء ، لا ينام أحدُهم إلا على فكرةِ لَعِبٍ ولهو ، ولا يستيقظ إلا على فكرةِ لهْوٍ ولعب ؛ وكانت اللغةُ نفسُها كأنّ فيها ألفاظاً من الحلوى ؛

وكانت الآلام فى قلبها كالبيض الذى تحته دواؤه الخرّب ؛ وكانت فلسفة الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير ، الواضحِ كلَّ الوضوح ، المقتصرِ بكل لفظ على ما يعرف من معناه ، المتفلسِفِ فى تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف فى تحليل الفِكْرة !

هو العهدُ الذى من أخصِّ خصائصه أن تعملَ ، فيكونَ العملُ فى نفسه عملاً ، ويكونَ فى نفسك لذة . .

* * *

فى أوراق تلك بحثتُ عن قصّة عنوانها « الدّرس الأوّل فى علبة كبريت » كتبتها فى سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدرى يومئذ أنها قصّةٌ يَسْبَح فى جوّها قدَرٌ روائىٌّ عجيب سيأتى بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذى تتم به فلسفة معناها

وهأنذا أنشرها كما كتبتُها ؛ وكان هذا القلمُ إذ ذاك غضّاً لم يَصْلُبْ ، وكان كالغصن تميل به النَّسمة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل ، بلاغةَ فرحه أو بلاغة حزنه ؛ وهذه هى القصة :

« عبد الرحمن عبد الرحيم » غلامٌ فلاّح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعةَ أعوام ، مرّت به كما يمرّ الزمنُ على ميتٍ لا تزيده حياةُ الأحياء إلا إهمالاً ؛ فنشأ مَنشأَ أمثاله ممن فقدوا الوالدين ، وانتزعوا من شَمْلِهم فتُرِكوا للطبيعة تَفْصِلهم وتَصِلهم بالحياة ، وتضيِّق لهم فيها وتوسِّع

وهيّأت الطبيعةُ منه إنساناً حيوانياً ، لا يبلغ أشُدَّه حتى يغالبَ على الرزق بالحيلة أو الجريمة ، ويستخلصَ قُوتَه كما يرتزق الوحْش بالمِخْلب والنّاب ؛ ولن يكون بعدُ إلا مجموعةً من الأخلاق الحيوانيّة الفاتكةِ الجريئة ؛ فان الطبيعة متى ابتدأت عملَها فى تحويل الانسان عن إنسانيته ، نزلت به إلى العالَم الحيوانىّ ووصلَتْه بما فيه من الشر والدناءة ، ثم لا تترك عملَها حتى يتحوّلَ هو إليها

وألِفَ « عبد الرحمن » فى بلده حانوتَ رجلٍ فقير ، يستغنى بالبيع عن التكفّف وعن المسألة ؛ فكان الغلام يُكْثِر الوقوفَ عنده ، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرِزْق الطير ، فُتَيتاً وبقايا ، إذ كان الغلام شحّاذاً ، وكان صاحبُ الحانوت

لا يرتفع عن الشحاذة إلا بمنزلة يحمل الناس يتصدقون عليه بالشراء من هنات التي يسميها بضاعة : كالخيط والإبرة ، والكبريت والملح ، وغزال الولد ، وكحل للصبايا ، ونشوق للعجائز ، نسخة الشيخ الشعراني ، وما لف لفها مما يصعد ثمنه من كسور المليم ، إلى المليم وكسوره !

وتغفله الغلام مرة ، وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت ، فالتقطت « علبة كبريت » . كان الفرق كل الفرق بين أن يسرقها وأن يشتريها نصف مليم . ولكن من له « بالمشربن الجردة » ؟ وهى عند مثله دينار من الذهب يرن رنيناً ويرقص على الظفر رقصة إنجليزية

وماذا يصنع بالعلبة ؟ همت نفسه أن تجادله ولما تسكن رعشة يده من هول الأثم . ولكن الغلام كان طبيعياً ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك رأى أن يحرز الحقيقة بعد أن وقعت يده عليها ، وقد اصطلح الناس على أن مادة السرقة هى « مد اليد » أخطأت أم أصابت ، وجاءت بالغالى أو جاءت بالرخيص ؛ فضم أصابعه على العلبة وانتزعها ، وترك فى مكانها فضيلة الأمانة التى لم يعرف له الناس قيمتها ، فهانت كذلك على نفسه ، وانطلق وهى تناديه :

— أيها الغلام ، أتدفع عن علبة الكبريت سنتين من عمرك ، وهل يخلو الناس ممن يعرفون لعمرك قيمة ؟ .

وارتد رجع الصوت الخفى الى قلبه من حيث لا يشعر ، فضربت قلبه ضربات من الجوف ، ونزا نزوة مضطربة ؛ فالتفت الغلام مرة أخرى ، ثم أمعن فى الفرار وترك الأمانة تناديه :

— أيها الغلام ، إن لك فى الآخرة ناراً لا توقد بهذا الكبريت ، ولك فى الدنيا سجن كهذه العلبة ، فالعب العب مادام الناس قد أهملوك ، والعب بالثقاب الذى فى يدك فسيمتد فيك يغنى اللهب حتى يجعل حياتك فى أعمار الناس دخاناً وناراً ، وستكون أيامك أعواداً كهذا الكبريت تشتعل فى الدنيا وتحرق

وكأن أذناب السياط كانت تلهب ظهر الغلام المسكين ، ولكنه ما كاد يلتفت هذه المرة حتى كان فى قبضة صاحب الحانوت ، وإذا هو بكلمة من لغة كفه الغليظة ، خيلت له فى شعرها أن جداراً انقض عليه ، وتلتها جملة من قوافى الصفع جلجلت فى أذنيه كالرعد ، وأعقب ذلك مثل الموج من جماعات الأطفال أحاط به ، فترك هذا الزورق الانسانى الصغير يتكفأ على صدمات الأيدى . فما أحس الغلام التعس إلا أن الكبريت الذى فى يده قد انقدح فى رأسه ، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده فى جلد وجهه الخشن !

* * *

وذهبوا به الى (دوار) العمدة يقضى فيه الليل ، ثم يصبح على رحلة الى المركز والنيابة . وانطرح المسكين منتظراً حكم الصباح ، مؤملاً فى عقله الصغير ألا يفصح النهار حتى يكون « سيدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة وشهودها ؛ ثم أغفى مطمئناً الى ملك الموت وأنه قد أخذ فى عمله بجد ، وأيقن عند نفسه أن سيشحذ فى الخيس مما يوزع فى المقبرة صدقة على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذى عهدوا اليه جره الى المركز . . . ! وكيف يشك فى أن هذا واقع بهم وهو قد توسل بالولى فلان ونذر له شمعة يسرقها من حانوت آخر .. !

هكذا عرف الشر قلب هذا الصبى ، وانتهى به عدل الناس الى أفظع من ظلم نفسه ، وكأنهم بذلك القانون الذى يصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سبحة ليظهر بها مظهر الصالحين ، ولم يفهموه شيئاً فهم أنهم يقولون له : هذه الجريمة واحدة ، فعد جرائمك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ !

كانت فى الحقيقة لعبة لا سرقة ؛ وكانت يد الغلام فيما فعلت مستجيبة لقانون المرح والنشاط والحركة ، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يد اللص ؛ وكان أشبه بالرضيع يمد يده لكل ما يراه ، لا يميز ضارة ولا نافعة ، وإنما يريد أن يشعر ويحقق طبيعته ؛ وكان كل ما فى الأمر وقصارى ما بلغ — أن خيال هذا الغلام ألف قصة من قصص اللهو ، وأن الكبار أخطأوا فى فهمها وتوجيهها . . ! ليست سرقة الطفل سرقة ، ولكنها حق من حقوق ذكائه يريد أن يظهر

* * *

وانتهى « عبد الرحمن » الى المحكمة ، فقضت بسجنه فى

(اصلاحية الأحداث) مدة سنتين ، واستأنف له بعض أهل الخير فى بلده ؛ صدقةً واحتساباً . . . إذ لم يكلف الاستئناف إلا كتابة ورقة . فلما مَثَلَ الصغيرُ أمام رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه ، ولكن انطلق من داخله مُحامٍ شيطانىٌّ يتكلم بكلام عجيب ، هو سخريةُ الجريمة من المحكمة ، وسخريةُ عمل الشيطان من عَمَلِ القاضى . . . !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ »

— : « إسمى عبده ، ولكن العمدة يسمينى : ياِبن الكلب ! »

— : « ما سِنَّك ؟ »

— : « أبويا هُوَ اللى كان سَنَّان »(١)

— : « عُمْرك إيه ؟ »

— : « عُمْرى ؟ عُمْرِى ما عَمَلت شَقَاوة ! »

النيابة للمحكمة : « ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة ! عُمره تِسع سنوات ! »

الرئيس — : « صَنعتك إيهْ ؟ »

— : « صَنعتى أَلْعَب مع محمود ومريم ، وأضرب اللى يِضْرَبنى ! »

— : « تعيش فين ؟ »

— : « فى البلد ! »

— : « تاكل منين ؟ »

— : « آكل من الأَكل ! »

النيابة للمحكمة : « يا حضرات القضاة ؛ مثلُ هذا لا يسرق علبة كبريت إلا ليُحرق بها البلد . . . ! »

الرئيس : « ألكَ أُمّ ؟ »

— : « أُمى غضبتْ على أبويا ، وراحت قعدت فى التُرْبة ، مارِضيتْش تِرْجع ! »

— : « وأبوك ؟ »

— : « أبويا لآخرْ غِضِبْ وراحْ لها »

الرئيس ضاحكاً : « وأنتَ ؟ »

— : « والله يا افندى عاوز اغضَب ، مُش عارف أغضب ازّاى ! »

— : « إنتَ سرقت علبة الكبريت ؟ »

— : « دِى هِىَّ طارت من الدكان ، حسبتها عصفورة ومْسِكْتها . . . . »

النيابة : « وليهْ ماطارتْش العلب اللِّى مَعاها فى الدكان ؟ »

— : « أنا عارف ؟ يِمْكِن خافت منى ! »

النيابة للمحكمة : « جراءة مخيفة يا حضرات القضاة ، المتهم وهو فى هذه السن ، يشعر فى ذات نفسه أن الأشياء تخافه »

فصاح الغلام مسروراً من هذا الثناء .. « والله يا افندى إنتَ راجل طيِّب ! أديكْ عَرفتِنى ، ربِّنا يكفيك شر العمدة والغفير ! »

***

وأمضى الحُكْمُ فى الاستئناف ، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين يسوقهم الجند ، ثم احتَبَسوا الجميعَ فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة ، ليستوفىَ أعماله الكتابية ؛ ثم يساقون من بعدُ الى السجن

وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة المجرمين يتحادثون ويتغامزون ، وكلهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم ؛ فاطمأنَّ شيئاً قليلاً ، إذ قدَّر فى نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أُريدَ بهم شرٌ لما سكنوا هذا السكون ، وأن الذى يرادُ بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ، كصفعةٍ أو صفعتين مثلاً . . . وهو يسمع أن الرجال يَقتلون ويُحرِّقون ويَسِمُّون ويعتدُون وينهبون ؛ وما تكون (علبة الكبريت) فى جنب ذلك ، وخاصةً بعد أن استردَّها صاحبُها ، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم ؟

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنانُ فى عينيه دموعا كاد يُريقها الجَزَع . غير أن القلق اعتادَهُ فالتفتَ إلى كُتَّاب المحكمة مرّة وإلى الجند مرّة ، ثم لوى وجهَه ولم يَستبحْ لنفسه أن يتجرّأ على الفكر فيهم ، لأنه قابَلَ مهابتهم بالحق ببلده : العمدة والمشايخ والخفراء ؛ فأدركَ أن الجنود هم الحكومة القادرة ، واستدلَّ على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصقيلة ، وتمثَّت فى قلبه رهبةُ هذه الخناجر ، فاضطرب خشيةَ أن يكونوا قد أسلموه إلى مَن يذبحه ، فنظر الى الذى يليه من المجرمين وسأله : « راحْ ياخدُونى فينْ ؟ » فأجابته الكَمْةٌ خفيّة انطلق لها

(١) كان أبو الغلام سناناً ، ومثل هذا القدر من العامية فى القصة هو ملح القصة

دمعه، حتى أسكتته ابتسامة من الجانب الآخر. وكان في رأيه بين الصالحين!

ثم اتصل الخزع بين فمه وعينيه، فهما تضطربان الى الجهات الأربع، وكأنما يحاول أن يستشف من أيها سيأتيه الموت ذبحا. ولم يكن فهم معنى (الاصلاحية)، وحكم القضاة عليه كأنه رجل يفهم كل شيء، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مفسرة. وعدل التربية غير عدل القانون، فكان الواجب على القاضي الذى يحكم على الطفل، أن يجعل حكمه أشبه بصيغة القصة منه بصيغة الحكم؛ وأن يدع الجريمة تنطلق وتذهب فلا يقول لها امكثى . . .

وبقى للخناجر رهبتها فى نفس هذا المسكين، ولو أنهم قدوه إلى حبل المشنقة لأفهمه (الحبل) معنى العقوبة، أما وهو بين هذه الخناجر المغمدة — وفى الخناجر معنى الذبح — فانما هو الذبح لا غيره

وطرقت أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذته من هذا الخاطر، وثبتت عينه فى الرجل، فاذا هو يرى وجها متلألئا، وجسما رابط الجأش، وهزؤا وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم. واستراح الغلام الى صاحبه هذا، وألح بنظره عليه، وابتدأ يتعلم فى وجهه الفلسفة؛ وليست الفلسفة مقصورة على الكتب، بل إن لكل إنسان حالة تشغله، فنظره فى اعتبار دقائقها وكشف مستورها هو الفلسفة بعينها

وقال الغلام لنفسه: « هذا الرجل أقوى من كل قوة؛ فهو محكوم عليه ولا يبالى، بل يقهقه ضحكا؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف. لا، بل هو تعود الأحكام، إذن فمن تعود الأحكام لم يخف الأحكام؛ إذن يا عبد الرحمن ستتعود، فان الخوف هذه المرة قد غطك من (علبة الكبريت) فى حريق متسعر؛ وما قدر (علبة الكبريت)؟ فلو كانت السرقة جاموسة ما لقيت أكثر من ذلك؛ يا ليتنى إذن . . . ولكنى لا أزال صغيرا، فمتى كبرت . . . آه متى كبرت . . . »

وبدأ القانون عمله فى الغلام؛ فطرد منه الطفل وأقر فيه المجرم

***

وأطرق « عبد الرحمن » هادئا ساكنا، وقامت فى نفسه محكمة من الأبالسة، بقضاتها ونيابتها، يجادل بعضهم بعضا، ويداولون بينهم أمر هذا الغلام على وجه آخر

وقال شيطان منهم: « ولكنا نخشى أمرين: أحدهما أن (الاصلاحية) ستخرجه بعد سنتين شريفا يحترف؛ والثانى أن الناس ربما تولوه بالتربية والتعليم فى المدارس رحمة وشفقة، فيخرج شريفا يحترف »

وما أسرع ما نفى الخوف عنهم قول الغلام نفسه بلهجة فيها الحقد والغيظ، وقد صفعه الجندى الذى يقوده الى السجن —:

« ودا كله على شان علبة كبريت . . ؟ »

.. ..

.. ..

فى سنة ١٩٣٤ قضت محكمة الجنايات بالموت شنقا على قاتل مجرم خبيث، عيار متشطر، اسمه « عبد الرحمن عبد الرحيم » . . !

هنا وهناك

حماية التفكير

وتكريم النبوغ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

...

نقرأ تباعاً أنباء الجوائز العلمية أو الأدبية أو الفنية التي تمنحها المؤسسات والهيئات العلمية المختلفة لأقطاب رجال التفكير والآداب والفنون؛ وهناك غير الجوائز المحلية القومية التي تنظم في كل أمة لتشجيع الحركة الفكرية، جوائز عالمية ترمى الى تشجيع أبدع ما يخرج الذهن البشرى في أى البلاد أو الأمم؛ ولعل جوائز «نوبل» هي أشهر جوائز من هذا النوع، فهى تمنح الى أقطاب العلم والأدب والسياسة في أنحاء العالم دون فارق بين الجنسية أو الدين أو اللغة، ثم هي تمنح للنساء كما تمنح للرجال؛ وهذا هو أبدع ما في هذه الجوائز، فهي تقصد الى تكريم النبوغ البشرى حيث يوجد، وهى ترتفع فوق جميع الاعتبارات القومية، ولا تنظر إلا الى أفق الانسانية الشاسع. ولقد خلد ألفرد نوبل السويدى صاحب هذه الوصية العلمية والانسانية الجليلة اسمه بتأسيسها وتنظيمها بما لم يخلده فاتح؛ والواقع أنه لم يكن ينقص هذا المخترع العبقرى شيء من بعد الصيت والذكرى، فقد كان عالماً ومخترعاً عظيماً، له ثبت حافل من الاختراعات العظيمة؛ وقد كان لتجاربه واكتشافاته في أواخر القرن الماضي أثر عظيم في تقدم الفنون العسكرية ولا سيما فيما يتعلق «بالديناميت» الذى وصل إلى اكتشافه وتركيبه. ومن الغريب أن يتجه هذا الذهن الذى أنفق نبوغه في اختراع المفرقعات المهلكة، الى تشجيع النبوغ البشرى في مختلف نواحي التفكير والآداب، وأغرب منه أن يتجه الى تشجيع السلام العالمي، فيخصص ضمن جوائزه الشهيرة جائزة لأية جماعة أو شخصية تمتاز بخدمتها الجليلة لقضية السلام

وليست جوائز نوبل سوى مثل من أمثلة لا تحصى لهذا النظام المحمود — نظام الجوائز العلمية — الذى ترتبه جميع الأمم المتمدنة لتشجيع الحركة الفكرية، وتكريم أقطابها المبرزين بنبوغ التفكير والابتكار، ومعاونة الأذهان والعبقريات المغمورة على الظهور والعمل لاستثمار كفاياتها ومواهبها في مختلف النواحي. ولنلاحظ أن هذه الجوائز الشهيرة إنما هي من وضع فرد فقط، وأن كثيراً من الأغنياء في بلاد الغرب يحذون مثل ألفرد نوبل فيهبون الألوف والملايين الى الجامعات والجماعات العلمية والأدبية؛ ويرتبون الجوائز لتشجيع الباحثين والمفكرين، وإظهار جهودهم وثمرات نبوغهم؛ وفي كل يوم نقرأ نبأ هذه الهبات والجوائز السنية، ونهتز اعجاباً واكباراً لهذه النفوس والهمم الرفيعة التي تجد مثلها الأعلى في العمل على تشجيع المثل العليا، ولا تنظر الى المال إلا كوسيلة لإذكاء النبوغ واستثماره لخير العلم والانسانية.

وفي هذه الأمم التي يتقدم أغنياؤها للاضطلاع بهذه الأعمال الجليلة تجد الحكومات والهيئات العلمية الرسمية تعنى أشد العناية ببذل هذا التشجيع المنظم للدرس والبحث والنبوغ؛ ففي الجامعات ترتب جوائز دائمة لنوابغ الطلاب، فضلاً عن إعفائهم من أجور الدراسة، وترتب جوائز دورية مختلفة لتشجيع البحوث والجهود العلمية الممتازة؛ ولا تكاد توجد هيئة علمية أو أدبية، إلا ولها جوائز دورية ثابتة تمنح لكل عامل لتحقيق الأغراض العلمية أو الأدبية التي رتبت لتشجيعها. وأمامنا مثل الجمعيات الطبية والجغرافية والتاريخية في مختلف العواصم الغربية، فانها جميعاً تبذل من المعاونات المادية في سبيل البحث والدرس والاستكشاف ما هو معروف ومشهور؛ ويكفي أن نذكر أن معظم الاكتشافات العلمية والطبية والجغرافية، تم تحت رعاية هذه الهيئات المحترمة. بل يكفي أن نذكر أن معظم العلماء والمكتشفين لا يستطيعون القيام بعشر أعمالهم الا بمؤازرتها المادية، وأنها هي التي أوفدت في العصر الحديث معظم المكتشفين الى مختلف مجاهل أفريقية وآسيا والقطبين

والخلاصة أن الهيئات الرسمية والخاصة في هذه الأمم العظيمة، تتحد جميعاً في مؤازرة الحركة العلمية، وتشجيع التفكير والنبوغ بجميع الوسائل. على أن أبدع ما في هذه النزعة، هو الجهود الخاصة والفردية؛ وليس مثل ألفرد نوبل وحيداً، وان كان من أعظم الأمثلة وأبدعها؛ فهنالك في فرنسا مثلا مشروع جائزة

«جونكور» الذي وضعه الكاتب الفرنسي أدمون جونكور لتتويج الآثار الأدبية البارزة ؛ وقد وهب المشروع مالا كثيراً ، وما زالت « أكادمية جونكور » منذ أواخر القرن الماضي تمنح جوائزها الأدبية للكتاب والقصصيين النابهين ، عاماً بعد عام ؛ وما زالت تعتبر شرفاً أدبياً يطبع الفائزين بطابع النبوغ ، ولا سيما كتاب الشباب ، ويفتح أمامهم أبواب المستقبل الذهبي ؛ وهنالك أيضاً أمثلة عديدة لهذه الجهود والمنشآت الفردية ، كما أن هنالك صحفاً كثيرة تنشئ مثل هذه الجوائز الأدبية ؛ ولهذه الجهود المتخذة بلا ريب أثرها القوى فى تقدم الحركة الأدبية وازدهارها فى هذه الأمم

أما نحن فلم نعرف بعد أهمية هذه المؤازرة العلمية ، ولم تأخذ بها إلى اليوم جماعاتنا العلمية الرسمية ؛ ولم يسنها بعد أغنياؤنا . فوزارة المعارف لم تفسح فى ميزانيتها أى مجال لمثل هذه المؤازرة ، لأنها لا تريد على ما يظهر أن تضطلع برعاية الحركة الفكرية العامة ، وتريد أن تقتصر دائماً على شئونها الادارية ؛ ولدينا جامعة دينية عظيمة ولها ميزانية ضخمة ، ولكنا لم نسمع أنها تقدمت ذات يوم لمؤازرة أى مجهود علمى حتى فى دائرة مهمتها الدينية ، فلم تساهم قط فى تشجيع المباحث الاسلامية التى تنفق فى سبيلها الجامعات الأوربية مئات الألوف تحقيقاً لمهمتها العلمية ، ولم تساهم قط فى إخراج أى أثر دينى أو عربى جامع ؛ ولم نسمع أنها رتبت جائزة علمية محترمة ؛ ولدينا الجامعة المصرية مازالت تحتفظ بأفقها المترمت ، وما زالت بعيدة عن أن تخلق ذلك الجو العلمى الذى يمكن أى تنضوى تحت لوائه الجهود العلمية الفردية ؛ ولم نعرف أن الجامعة ساهمت فى تشجيع مجهود علمى فردى ، ولا نعلم أنها على استعداد لذلك ؛ كذلك لم تعرف الجامعة المصرية بعد نظام الجوائز العلمية والأدبية المحترمة ، وإن كانت تعرف كيف تغدق على الأساتذة الأجانب ؛ ولدينا عدة جمعيات علمية تتمتع بالرعاية الرسمية وبأموال الدولة ، ولكنها جميعاً أجنبيــة فى روحها وعواطفها ، ولا يمكن أن تعتبر بحال ما مصرية ، ولا يمكن أن تضطلع بمثل هذه المهام العلمية المحلية ، التى يجب أن تتوفر لمؤازرتها عاطفة قومية لا توجد فى هذه الجماعات

على أن هنالك لدى جهاتنا الرسميــة نزعة أخرى إلى تشجيع الجهود «العلمية» لا يمكن تجاهلها ، ولكنها مع الأسف وقف على الأجانب ؛ ونستطيع أن نحصى عشرات العلماء الأجانب الذين يفوزون بتعضيد الهيئات الرسمية المصرية للقيام بمختلف المهام العلمية أو لأخراج جهودهم ، وهم لا يجدون مشقة فى الحصول على هــذه الهبات والجوائز السنية ؛ ولكنك لا تجد مفكراً مصرياً استطاع أن يحظى بهذه الرعاية . ولا ريب أن تشجيع الجهود العلمية مبدأ محمود فى ذاته ، والعلم لا وطن له ؛ ولكنه لا يقتضى الأيثار وحرمان المفكرين المصريين من كل تعضيد ومعاونة ، بينما يرتع العلماء الأجانب فى أموال الأمة المصرية ؛ وما زلنا نذكر الضجة التى قامت منذ أشهر حول المنح المالية الباهظة التى أغدقت على أستاذ انكليزى هو الكبتن كرزويل ، لكى يخرج كتاباً له ولم يخرج منه سوى مجلد واحـد ، وكان مجموع الهبات التى استولى عليها من مختلف الجهات الرسمية يبلغ بضعة آلاف جنيــه ؛ وهنالك علمـاء أجانب يتقاضون الألوف المؤلفة من الأموال المصرية لكى يضعوا كتباً معينة ؛ وتطلع علينا هذه الكتب من آن لآخر باللغات الأجنبيـة ، فلا نراها ترتفع الى مستوى المؤلفات العلمية القيمة ، ولا نرى فيها سوى كتب دعاية ينقصها الطابع العلمى المحترم ؛ وما زلنا نذكر تلك البدعة التى ظهرت فى الأعوام الأخيرة ، وهى انتداب بعض الجهات الرسمية لبعض العلمـاء الأجانب الذين يؤمون مصر فى الشتاء زائرين متنزهين ، لألقاء بعض المحاضرات ، ومنحهم عن المحاضرة الواحدة مكافآت باهظة تبلغ أحياناً خمسين جنيهاً !

***

لقـد كانت الرعاية العـامة وما زالت أكبر عامل فى تشجيع الحركات الفكرية وازدهارها . ومع أن قسطاً كبيراً من هذه الرعاية تضطلع به الهيئات الخاصة والأفراد النابهون فى الأمم الحية ، فان الحكومات والجامعات وما اليها من الهيئات العلمية الرسمية تقوم بتنظيم هذه الرعاية والسهر على توزيعها حيثما تبزغ بوادر النبوغ . ذلك أن النبوغ يعتبر فى الأمم الحية ثروة قومية يجب المحافظة عليها واستثمارها وحمايتها من عوامل الخمول واليأس . ولقد مرت عصور كثيرة فى تاريخنا كانت الحركة الفكرية فيها تأخذ حظها من الرعاية والمؤازرة ؛ وكان العلماء

والمفكرون يتبوأون أرفع مكانة وتغدق عليهم المنح والهبات الوفيرة لكي يتفتح نبوغهم ويستطيعون العمل في دعة وسكينة ؛ وكان الخلفاء والسلاطين يأخذون بأعظم قسط في تشجيع الحركات الأدبية ، وكان من بواعث الفخر أن يكون القصر أو العاصمة ملاذاً لأكبر عدد من الكتاب والشعراء ؛ وكان من زينة العصر والدولة دائماً أن تزدهر الحركات الفكرية في ظل الرعاية الرسمية ؛ وهاهو ذا الأزهر لم يعاونه على الحياة حتى عصرنا سوى التفات السلاطين اليه وتعهد علمائه وطلبته بالبذل والعون : ولم يكن اللقي ، دائماً ، كما هو الشأن في أيامنا عن هذه الرعاية . ذلك أن رعاية العلم والعلماء في تلك العصور كانت تعتبر من واجبات الدولة القوية المستنيرة ، وكان العلماء يعملون في ظل هذه الرعاية مستقلين في الغالب ، ولم يكن يطلب اليهم دائماً أن يكونوا أذناباً أو دعاة للأمر أو الحكومات التي تشملهم برعاية يعتبرونها حقاً عاماً لهم يجب تأديته اليهم

ومن العبث أن ندعي أن الحكومات والهيئات الرسمية المصرية المختلفة قد استطاعت أن تؤدي هذا الواجب التام أو بعضه نحو رعاية الحركات الفكرية في عصرنا ، والحركة الفكرية لم تفد شيئاً من تلك الدعايات الواسعة التي تذاع حولها ، وتلك النشآت العقيمة التي تقام باسمها ، والتي يراد أن تكون هيا كل فقط تمجد العصر وتنسب اليه ؛ وما نخشاه هو أن الجهات الرسمية ما زالت بعيدة عن تقدير هذا الواجب ، بعيدة عن تأديته . إن النبوغ في مصر ما زال يعني الفقر والبؤس ، إذا لم يوفق من تلقاء نفسه الى الخروج من غمرة الظلمات والصعاب التي ينشأ فيها ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، هو أن النبوغ يعتبر في مصر أحياناً خطراً يخشى منه ويجب اتقاؤه ؛ وعندئذ يشترى لا ليعضد ويزدهر ، بل لكي يسكت ويقبر . أما أغنياؤنا فلن نطمع أن نجد بينهم واحداً يقدر واجباً لا تقدره الحكومة ؛ ومن المحال أن يروا مثلهم الأعلى في رجال كالفرد نوبل يرون ذخر الانسانية في صون التفكير الانساني ، والارتفاع به الى ذرى التقدير والاجلال ؟

محمد عبد الله عنان
المحامي

الشيخ الخالدي

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت في الآستانة منذ خمس سنين شيخاً جليلاً ينقب عن الكتب ، ويتحدث عن نوادرها ، وعرفت أنه الشيخ خليل الخالدي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس

ثم شرفت بلقائه في مصر مرات . كان كلما قدم القاهرة تفضل فزارني في الجامعة . تقابلنا مرة فتكلم عن الكتب والمؤلفين كلام خبير بحاثة . فحرصت على لقائه والافادة منه فراعني علم لا ينفد ، وحفظ لا يخطئ

يبدأ حديثه عن الكتب ، فيذكر أنه رأى كتاب كذا في مكتبة كذا ، ويصف النسخة وما عليها من سماع العلماء ، ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه ، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم ، ودرجته بين العلماء ، وهلم جرا ، يفضي من حديث إلى حديث ، والسامع فرح بما يسمع ، معجب متعجب . وقد زار مكاتب الآستانة والأناطول وفينا والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس ، ونقب فيها عن نفائس الكتب ، فلحظ عالم يحظ به سواه . والشيخ حفظه الله منقطع النظير في هذا الموضوع ما رأيت ولا سمعت بمثله

وهو من أسرة الخالدي إحدى أسر الشام العظيمة ، تنتسب إلى سيدنا خالد بن الوليد . وهي معروفة في التاريخ بأسرة الديري ، وفيها العلماء والقضاة في الشام ومصر منذ خمسمائة وخمسين سنة

والشيخ نزيل القاهرة الآن . وقد أسعدني الجد بلقائه مرات في شعبان ورمضان هذا . وأرجو أن أسعد أنا وأصدقائي بحديثه مرات أخرى قبل رجوعه الى فلسطين .

وقد حرصت أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشعره بذلك ، فلما اجتمعنا في حلوان ليلة السبت ثامن رمضان ، سأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه ، فدونت بعض ما قاله إجمالاً ، ثم عدت إليه بعد انفضاض المجلس ففصلته على قدر ما وعيت . وإني أقدم للقارئ هنا ما حفظته عن الشيخ العلامة في ذلك المجلس :

سأل أحد الحاضرين عن المدارس ذات المكانة في التاريخ الإسلامي فقال : المدارس النظامية كانت في بغداد والموصل ، وأصفهان ونيسابور ، ومرو وهراة ، وكان في نيسابور مئات المدارس : منها المدرسة البيهقية . ومدرسة ضياء الدين في سمرقند ، وكان يقيم بها صاحب الهداية وشمس الدين الكردلي صاحب مناقب أبي حنيفة ، ومدرسة الأمير مسعود في بخارى ، ومدرسة قطلغ تيمور في خورزام ، وهـــذه البلاد التي ذكرت كانت من مراكز العلم ، ومثلها بخارى وبلخ وفرغانة وجرجان ، وكان ببخارى من معاهد العلم مسجد كوكلتاش ومسجد كلام ، ومن

الشيخ خليل الخالدي في قصر بني عباد بأشبيلية سنة ١٣٥١ هـ

رجال مرو : القفال الكبير والقفال الصغير ، ومشايخ إمام الحرمين والبغوي ، والسمعاني ، وابن حنبل . وكان بدمشق مدارس كثيرة ، منها العمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة . وهو أخو الموفق أخو قدامة صاحب كتاب المغني في مذهب الحنابلة ، وهو اثنا عشر مجلداً . ومنها المدرسة الضيائية ، وكان بها خطوط المحدثين كلهم ، وهي منسوبة إلى ضياء الدين المقدسي ابن أخت أبي عمر بن قدامة . وقد تخرج فيها ابن تيمية والذهبي ، ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية ، وهي دار التحف العربي الآن . وقد درّس بها النووي وابن الصلاح وأبو شامة ، والمدرسة العادلية ، وقد درس بها ابن مالك وابن خلكان ، والمدرسة الرواحية التي تخرج فيها النووي ، وصارت الآن من دور آل الغزي . والمدرسة التي درس بها ابن القيّم ، وهي بقرب بيت العظم . وكانت بيوت العلم في الشام بني قدامة ، وبني تيمية ، وبني عساكر ، وبني عبد الهادي ، وهؤلاء من مشايخ الذهبي

ثم انتقل الحديث الى الفخر الرازي ، فقال في أثناء كلامه : إن الرازي من بني أبي بكر الصديق ، فتعجب الحاضرون ، فقال : ومن ذرية الصديق أيضاً جلال الدين الداوني ، وعضد الدين صاحب العقائد ، وأبو اسحق الشيرازي ، والفيروز آبادي ، قلت : وجلال الدين الرومي . قال : نعم وجلال الدين ، وأين جلال الدين من هؤلاء ، قلت : لكل وجهة ، ثم سئل الشيخ عن بني عمر بن الخطاب في العلماء فقال : منهم السهرورديون من المتصوفة ، ومنهم القيسري . وكان في بخارى جماعة منهم . وكان تيمورلنك يجلهم كل الاجلال ، قال : وصدر الشريعة من بني عبادة ابن الصامت ، وليس كل من نشأ في بلاد الفرس فارسياً ، فأبو داوود السجستاني ، والترمذي صاحب الشمائل ، والترمذي صاحب البيد ، وابن عبد البر ، كل هؤلاء من العرب ، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري من بني ضبة ، ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، وأبو القاسم صاحب الرسالة القشيرية من بني قشير ، والمازري ، وابن يونس الصقلي ، وعبد الحق الصقلي الذي غلب إمام الحرمين في المناظرة ، من بني تميم ، والقاضي عياض من يحصب

ثم ساقه الحديث الى القطب الشيرازي العلامة المطلق ، وفخر الاسلام البزدوي وصدر الشريعة فأفاض في الحديث . وقال : لفخر الاسلام البزدوي كتاب في الأصول منقطع النظير ، حدث شمس الدين الأصفهاني شارح الطوالع أنه دخل على أستاذه القطب الشيرازي فرأى عنده كراسات على وسادة ، فقال ما هذه ؟ قال : إني منذ سنة كذا أقرأ كتاب البزدوي ، وأنقل عنه وما أنهيته . ولصدر الشريعة كتاب تعديل العلوم في المنطق والحكمة والكلام والتصوف والأخلاق . رأيت منه نسخاً كثيرة . وله كتاب التنقيح وشرحه التوضيح

سأل سائل لماذا قل أمثال هؤلاء العلماء من المسلمين اليوم ؟ قال لذلك أسباب : منها أن أسلافنا كانوا يطلبون العلم للعلم لا يبغون من ورائه شهادة ولا منصباً ؛ كان كل منهم يتخذ عملاً يعيش منه ثم يحصل العلم عن جهابذته . ولم تكن أساليب التعليم صناعية آلية كنظام المدارس في الوقت الحاضر ؛ ومن الأسباب انقطاع الرحلة ، كان سلفنا يشدون الرحال في طلب العلم لا يفترون ، فيلق بعضهم بعضاً ، ويأخذ بعضهم عن بعض . الخ . انظر إلى قضاة السلف كيف كانوا يفرّون من القضاء إشفاقاً على دينهم ؟ . هذا أبو علي الصدفي أحد قضاة الأندلس ذبح الذبائح وحج شكراً لله على خلاصه من القضاء . ومن القضاة الأباة عظماء النفس ، أهل التقوى أبو بكر بن السليم القاضي الأندلسي ، وله رأي في الفقه معروف : «أن الانسان إذا اشترى بيتاً فوجد به بقاً فله خيار العيب» ومنهم ابن زرب القاضي ؛ وكان في عهد المنصور بن أبي عامر . وحسبك بقاض يتعاظم على مثل المنصور . وله كتاب الخصال الكبير والخصال الصغير في مذهب مالك ، رأيتهما في مجريط . وقد قيل إن من قرأ الخصال استغنى به عن الكتب الأخرى ، وكان الأندلسيون ذوي همة عظيمة في تحصيل العلم ؛ كان طلابهم يبدأون بحفظ التسهيل لابن مالك ، ومختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول ، هذا عند المتأخرين . وأما من قبلهم فكانوا يحفظون الموطأ ، ومن قبل هؤلاء كانوا يحفظون تهذيب المدونة ، وسلفهم كانوا يحفظون المدونة ، وكان ابن بشكوال يحفظها كلها ، وكان الرازي يحفظ كتاب الشامل لأمام الحرمين ، وهو مجلدان في علم الكلام . وأرى أن تفوق الأندلسيين كان من عنايتهم بأمهات الكتب . كانوا يقرأون في النحو كتاب سيبويه ، وأين من كتاب سيبويه كتاب الأشموني وحاشية الصبان ؟ وقد رأيت في مكتبة الأسكوريال خط أبي علي الشلوبين على كتاب سيبويه يعدد الكتب التي قرأها في النحو وكلها من الأمهات . ورأيت في مكتبة كوبريلي بالآستانة اجازة قاضيخان كتبها بخطه على السير الكبير للسرخسي وعدد الكتب التي أقرأها في الفقه . وهي كتب تضمن لقارئها التفقه . أنظر ! أهل الأزهر يقرأون في الأصول جمع الجوامع ، وليس هو من كتب الأصول القيمة . — قال بعض الحاضرين : قرأوا كتاب الآمدي في عهد الشيخ المراغي ثم أبطلوه ، فقال كتاب الآمدي جيد ، وللآمدي كتابان : إحكام الأحكام ، وأبكار الأفكار ، وكتاب ابن الحاجب في الأصول مأخوذ من منتهى السول والأمل للآرموي ، وهذا مأخوذ من كتاب الآمدي ، والآمدي أخذ من الأدلة القواطع للسمعاني ، وهذا مأخوذ من كتاب الباقلاني ؛ فهذا الأصل الذي لم يؤخذ من غيره . ثم تكلم عن أصول الحنفية وعلمائهم وكتبهم وطريقتهم ، ورجع الى الباقلاني فقال : وكان الباقلاني آية من آيات الله . وقد روى أبو الوليد الباجي أنه كان يسير مع الدارقطني — والدارقطني من كبار المحدثين ، في درجة الترمذي وابن ماجه — فلقيا رجلاً ، فأعظمه الدارقطني غاية الأعظام وقبله ، فقال أبو الوليد : من هذا ؟ قال : سيف أهل السنة أبو بكر بن الطيب ، يعني الباقلاني ، وقد رثاه بعض الناس فقال :

انظر الى جبل تمشي الرجال به ... وانظر الى القبر مايحوي من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام منغمداً ... وانظر الى درة الاسلام في الصدف

وكان الباقلاني يناظر ابن المعلم فيفحمه . وكان ابن المعلم يوماً في أصحابه فأقبل الباقلاني ، فقال ابن المعلم : جاءكم الشيطان ، فسمعها الباقلاني فتلا قوله تعالى : ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً . وتناظرا مرة ، فلما أفحم ابن المعلم أخرج قبضة من الباقلي ورماها في وجه الباقلاني ، يعني بذلك أنه ابن بائع باقلي . فأخرج الباقلاني درة من ثيابه ورمى بها ابن المعلم يعني أنه ابن معلم صبيان ، فتعجب وقال : ما أخبرت أحداً أني سأرميه بالباقلي ، فكيف أعد لي هذه الدرة ؟ — وعقائد الدواني مأخوذة من عيون المسائل ، وهذه مأخوذة من رءوس المسائل . وكلاهما للجرجاني ، ورءوس المسائل مأخوذة من جواهر الكلام لعضد الدين صاحب المواقف ، والجواهر من المواقف ، والمواقف مأخوذة من أبكار الأفكار للآمدي ، وهذه عن الباقلاني . وهذا كما نرى في فقه المالكية : كتاب أقرب المسالك للشيخ الدردير مأخوذ من كتاب خليل ، وهذا عن كتاب ابن الحاجب عن تهذيب البرادعي عن المدونة . وقد رأيت نسخة من المدونة في مكتبة القرويين في فاس بخط عبد الملك بن مسرة شيخ ابن رشد ، وهي في ثمانين مجلداً صغيراً ، وكتب في نهايتها :

بالله ياقارىء استغفر لمن كتبا ... فقد كفتك يداه النسخ والتعبا

كتبه عبد الملك بن مسرة اليحصبي.

وقد ذكر ابن مسرة ابن فرحون في كتاب الديباج وهو من

أنفس الكتب. وابن رشد الجد له كتاب البيان والتحصيل في الفقه ستة عشر مجلداً. وقد ضمن مقدماته الاجتهاد. وابن رشد الحفيد الفيلسوف كان في المغرب بمنزلة الرازي في المشرق

ثم تكلم عن محنة ابن رشد في دولة الموحدين وقال:

والسلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان من العلماء، كان يحفظ كتاب المحلى لابن حزم — سأل بعض الحاضرين عن رسالة صلاح الدين إلى يعقوب بن يوسف فقال هي في كتاب أبي شامة. وكان أبو شامة حافظاً وقارئاً ونحوياً وعالماً في الأصول والفروع. ويشبهه في هذا أبو عمرو الداني. قال بعض الحاضرين هل كانا متعاصرين؟ قال لا، أبو شامة توفي سنة ٦٢٣ والداني توفي سنة ٤٤٤ ... إلخ إلخ. ولعلنا نعود فندون عنه مجلساً آخر

عبد الوهاب عزام

تطور الحركة العقلية

في شمال أفريقية

للكاتب المستشرق جاستون بوتول

نشرت مجلة «الأخبار الأدبية» (النوفيل لترير) في عددها الأخير مقالاً للكاتب المستشرق جاستون بوتول عن الحركة العقلية في شمال أفريقية هذه ترجمته:

كلما أوغلنا في التاريخ أدركنا أن تونس أو بعبارة أخرى أن تونس — قرطاجنة المقدسة كانت دائماً أعقل أفريقية الشمالية. وإنه لقدر غريب: قدر هذه المدينة؛ التي كأنها سارية القارة، والتي هي الحد الفاصل بين شرق البحر الأبيض المتوسط وبين غربه؛ ولقد كانت دائماً طريق الفتوح العظيمة، كما كانت مجمع الطرق التجارية الكبرى؛ وهي أقصى بلد في شمال أفريقية وأقربها إلى أوربا، ولكنها أقربها إلى المشرق أيضاً؛ ثم هي أعرقها في الطابع الأفريقي؛ لأن السهول الصحراوية التي تفصلها عن البحر في الجهات الأخرى حواجز عالية، تمتد بلا انقطاع إلى تونس؛ وأخيراً هي المدينة التي كانت تلتقي فيها النزعات العقلية وتمتزج من جميع الأنحاء

كانت قرطاجنة في الوقت الذي كانت رومة تصارع فيه ما حولها من الظلمات، قد قامت برسالة عظيمة في المدنية، واكتشفت غرب البحر الأبيض والبرتغال وساحل أفريقية الغربي. ثم غدت قرطاجنة بعد الحروب البونيقية المدينة الثانية في العالم الروماني؛ ولما أتمت مراحلها الثلاث أعني البونيقية، والرومانية، ثم النصرانية، دخلت تونس في مرحلتها الاسلامية، وسرعان ما تفوقت على القيروان وغدت مرة أخرى أهم مراكز الحركة العقلية في المغرب. ولم يكسفها قط بهاء فاس المحدث، ولبثت تونس هي المركز الذي تزدهر فيه العلوم والفلسفة العربية لآخر مرة، وكان ابن خلدون، في فجر الأحياء، آخر ثمارها العظيمة

أما اليوم فان الموقف أكثر تعقداً؛ وعلى رغم ازدهار جامعة الجزائر، ونجاح معهد الدراسات العالية المراكشي في رباط وتقدمه نحو التحول الى شبه جامعة، فان تونس تبقى مركز التفكير الاسلامي في شمال افريقية. ويكفي لتوضيح خطر هذا الدور أن نقول إن المسلمين يبلغون اليوم في المغرب أكثر من اثني عشر مليونا، ولكن لا توجد بقعة أخرى غير تونس يزداد عددهم فيها نحو خمسين ألفا كل عام

ويرجع هذا النفوذ الى عاملين: الأول أنه يوجد في تونس أهم وأقدم جامعة عربية، والثاني أنه يوجد بها أكبر عدد من صفوة المسلمين الذين تلقوا الثقافة الفرنسية. وصحف تونس العربية، والصحفيون التونسيون هم الذين يوجهون الحركات السياسية والعقلية في الجزائر ومراكش. ومن تونس تخرج الأزياء، ويخرج القصص والغناء، وفيها تتألف الفرق التمثيلية أو الموسيقية التي تجوس خلال المغرب

ويضاف الى نفوذ جامعة الزيتونة القديمة، التي تأخذ اليوم بأسباب التجديد، نفوذ «الخلدونية» وهي مركز للدراسات التاريخية والعلمية؛ وقد أسست منذ ثلاثين عاماً على يد بعض التونسيين، وكلية الصادقي، وهي معهد غريب تدرس فيه العلوم الحديثة واللغتان الفرنسية والعربية. وقد عقد في اكتوبر الماضي مؤتمر من الطلبة المسلمين في شمال افريقية

وفي ذلك ما يوضح الدور الهام الذي تؤديه تونس في المسائل الاجتماعية التي تعرض في شمال افريقية. ومن العسير أن نحدد

نزعات الأجيال الفتية في هذه البلاد ؛ ويختلف عدد الشباب المثقف وتوزيعه كثيراً في هذه المناطق ؛ وأظهر هذه النزعات وأشدها تعرضاً للخلافات الظاهرة هي النزعة السياسية ، ولكن هذه الخلافات ترجع دائماً الى ظروف السياسة المحلية ، فهي مؤقتة في الواقع ، فمثلاً كان التونسيون يشكون من إقصائهم عن بعض الادارات ، فلما تقرر منذ أشهر أن يسمح لهم بدخولها انتهت هذه الشكوى

اما النتائج الثابتة ، فهي نتائج التطور العقلي ؛ وهي أهمها أيضاً ، لأنها تتعلق بالمستقبل ، ولا تتقدم إلا ببطء ، ولا يمكن تعديلها أو توجيهها بقوانين الشرع . وقد يستطيع الشرع أن ينتهز بعض الفرص السانحة في حرص وحذر ، ولكن الاختيار النهائي يبقى لأصحاب الشأن أنفسهم

ويوجد في فاس ، كما يوجد في الجزائر وقسطنطينة شباب يتلمس ويتساءل . وقد عفت التقاليد التي كانت تسمح للشباب بأن يندمجوا في الحياة بسهولة ، وأضحت لا تلائم الحياة الحديثة ، وعرضت حاجات جديدة ومطالب جديدة ؛ ولكن الشعار الجديد هو أن تبحث وتجد . ويتجه معظم الشباب على الأخص بأنظارهم الى تونس ، لأنهم يعرفون أنهم هنالك يتكونون شيئاً فشيئاً بين الأمل والتثبيط

ولهذا ، وعلى الرغم من أن تونس ليست إلا قطعة صغيرة من شمال افريقية ، فانه يجب أن نتتبع بمنتهى الاهتمام مايدور في المجتمع التونسي العقلي ؛ وهو اهتمام يجب أن يقرن بالعطف ، لأن هذا المجتمع هو الذي يحمل أعباء التنقيد وأزمات الضمير ، وما يترتب حتما على مثل هذا التطور النفسي الهام من أسباب الجزع والاضطراب ؛ ومن هذا المجتمع وحده يمكن أن يأتي حل المسائل الاجتماعية الشائكة التي تعرض للبحث ، وليس من ريب في أن الموقف الذي يتخذه هذا المجتمع يكون ذا أثر قوي في باقي أنحاء البلاد

ونستطيع أن نتكهن بشيء من المستقبل ؛ فقد أثبتت الطبقة المتوسطة التونسية إمكان التطور المتناسق في ظل أفق فرنسي ؛ وقد ظهر فيها مجموعة من الكتاب والمؤرخين والعلماء والصحفيين الذين يكتبون بالفرنسية ؛ ونجد حتى في ظروف الأسرة ، وفي الظروف الاجتماعية ، مايدل على تسرب الحياة الحديثة بقوة ، وهي حركة اختيارية لأنها تسير حرة دون ضغط ما ، وبعد تأمل عميق

ونستطيع أيضاً أن نقرأ في أمثلة يقدمها لنا الماضي مبلغ التعاون بين المسلمين والنصارى ، فعلى مقربة من تونس وقعت الحالة الأولى والوحيدة في العصر الحديث للتعاون بين هؤلاء وأولئك ؛ ومن الغريب أن ممثلي هذه التجربة العظيمة كانوا فرنسيين وتونسيين ؛ في مملكة النورمان الصقلية التي يعمرها سلالة الفاتحين الأغالبة ، ازدهرت أعظم حضارة في العصر ، واشترك في إنشائها النورمان والمسلمون ، وكانت بالرم يومئذ هي أعظم مجمع بين الشرق والغرب ؛ وكان نجاح هذا التعاون الحر الذي تطاول زهاء قرن ، أشنع فضيحة في العصر ، في نظر المتعصبين من الجانبين

وقد استطاعت العبقرية الفرنسية أن تنسى في العصور الوسطى مجمعاً شديد التناقض من حضارتين خصيمتين في كل مكان ؛ واليوم إذ نستعرض ذلك المركز الذي حفظته لنا تونس القديمة ، نجد أمامنا جامعة الزيتونة الموقرة — وهي قديمة قدم السوربون — ذات الحنايا المرمرية الجليلة ، تحيط بها حوانيت الكتب والعطور ؛ ثم نجد مكتبة عظيمة فرنسية على الأخص ، أقيمت في قصر قديم ؛ ثم نجد بعد ذلك فوق مرتفع يشرف على المدينة كلية الصادقي الواسعة التي أخرجت نخبة مختارة من المثقفين العرب ، الذين استقوا أيضاً من الثقافة الفرنسية .

وعندئذ نتذكر تلك المقدمة التي يهدي فيها الشريف الأدريسي أثره الجغرافي الخالد الى الملك رجار (روجر) الذي عاش الأدريسي في بلاطه ، والتي تبدو فيها ألوان هذا التعاون الذي قام بينهما

هذه كلها أدلة مادية على قيام تعاون عقلي واضح تقوم به الصفوة ، وإنه ليقع على عاتق المفكرين والجامعة أن يخلقوا تلك البيئة التي تتطور فيها عادة الحياة المشتركة ، الى رغبة في الحياة المشتركة

جاستون بوتول

(الرسالة) ترجمنا هذا المقال ليطلع قراؤنا على رأي العلماء الفرنسيين في الحركة العقلية في شمال أفريقية ؛ ولسنا نوافق الأستاذ بوتول على بعض آرائه ، وعلى الأخص في أثر الثقافة الفرنسية في تونس . والمقصود بشمال أفريقية في هذا المقال هو البلاد الغربية التي تسيطر عليها فرنسا : أعني تونس والجزائر والمغرب الأقصى . فان من المعلوم أن مصر لا تدخل تحت هذه التسمية ، ولم ينصرف اليها هذا التعبير في أي عصر من العصور

ليلة حافلة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

منذ نحو ربع قرن — فقد صرنا نحسب مسافات الزمن بأرباع القرون ! — مات لنا قريب شاب ، أبوه من سراة الريف ، فرافقنا رفاته على قطار خاص الى البلدة . وكانت العادة في تلك الأيام أن يظل المأتم قائماً أسبوعاً أو أربعين يوماً ، وكنت يومئذ مدرساً ، وكان الوقت صيفاً ، والمدارس موصدة ، فني وسعي أن أشاطر القوم حزنهم الى آخر المدى ، فجاءني يوماً شاب من أقربائي ، وانتحى بي ناحية وأسر الي أن أخته تكاد تموت جوعاً ، فعجبت ، فان الخير كثير والطعام وفير ، وما يذبح كل يوم من الخراف والعجول يكفي جيشاً . فأخبرني أن الموائد توضع ثم ترفع كما هي ، لا تمتد الى ما عليها يد ، وأن أخته تستحي أن تتناول شيئاً ، ولكن نساء البيت بعد ذلك يتسللن الى حجرة قصية فيقبلن على الطعام ويلهمن منه ما لا يحسب الحاسب ، فهن يمسكن عن الطعم علانية ويصبن منه سراً ، وأخته تنظر وتتحسر ، وقد التوت أمعاؤها من الجوع . ثم سألني :

« والآن ما الرأي ؟ أشر كيف تأمر ! »

فقلت له : « دع هذا لي »

وللشباب جمحاته وحماقاته — ركبت الى مدينة قريبة ، فاشتريت شيئاً من الرقاق الملفوف باللحم ، ومربى ، وألواناً من الحلواء ، وأرغفة ، وعدت وأنا أقول لنفسي : « هذا شيء ينفعها إذا نام الليل » ، ولم يكن من السهل أن أدخل البيت ومعي هذا الحمل ، تحت عيون هذا الخلق كله ، وماذا عساي أن أقول إذا سألني سائل عما لف عليه الورق ؟ لهذا اضطررت أن ألف ، وأدور ، وأختبئ هنا وههنا ، حتى تيسر لي أن أبلغ غرفتي من غير أن يراني أحد ، وبقي أن أنتظر حتى يقبل الليل ، وينقطع الرجل ، فأحمل هذه الربطة الى حريم الدار ، والله المسئول أن يوفقني الى الوصول الى قريبتنا الطاوية ، وأن يقيني عواقب هذه المجازفة ! وهل أعدم خادمة تدعوها الي أو تحمل اليها هذه الرسالة ؟

وجاء الليل ، وقمنا إلى المخادع ، وكان لي في غرفتي شريك ، فذهبت أدخن سيجارة بعد سيجارة ، حتى علا شخيره ، ففتحت الباب وأرهفت أذني ، فلم أسمع شيئاً ، فتوكلت على الله ، وأقدمت — أعني مشيت مترفقاً حتى خرجت من هذا البناء المهيأ للضيوف ، إلى صحن واسع يفصل حريم الدار عن ثوي الرجال . وكان الليل طاخياً ، فلم أزل أتخبط حتى لمست باباً توهمته باب المنزل فدخلت ، ولكني لم أجد سلماً أرقى فيه ، فاستغربت ورحت أدور بالمكان ، ويدي على الجدار ، فكنت أجد أبواباً ، بعضها مفتوح ، والبعض موارب أو مغلق ، ولكن لا مرقاة ، فقلت أخرج من هذا التيه ، وتركت الجدار واندفعت ، ويداي أمامي لتتلقيا عني الصدمة إذا بلغت حائطاً أو شبهه ، وإذا باللفافة التي معي تلمس جسماً فيسقط منه شيء على الأرض فأفزع ، وأدع اللفافة تهوي ، ثم إذا بواحد يهجم علي فأقع وتتدحرج معاً على البلاط ، وهو يمسك برجلي يريد أن ينزعها ، وأنا أدفع في بطنه ، حتى تخلى عن رجلي فقدرت على ركبتي ، وقد أيقنت من صمته أنه غريب واغل يتلصص ، وألقيت يدي على عنقه ، فأخذت بمخنقه ، فلكمني بجمع يده فانقلبت على ظهري وقد تخليت عن رقبته ، فانقض علي ، فضربت برجلي فأصبت جنبه ، فمال عني فنهضت على ركبتي وجعلت أضرب بيدي ، ولكن في الهواء ، حتى لمست رأسه فقبضت على شعره وجذبت بكل ما في من قوة ، فنطحني في بطني ، فانثنى بعضي على بعض ، فركلني برجله ، فتدحرجت كالكرة . ومذا يريد أن يجهز علي ، فأخطأني وخبط الباب برأسه فكأن قنبلة انفجرت في سكون الليل ، وإذا بصوت رجل يصيح :

« مين . . ؟ »

ثم انقطع الصوت ، لأن صاحبه على ما يظهر داس بعض الطعام الذي تبعثر في المكان ، فتزحلق فوقع على الأرض كالحجر ، وكنت أنا قد نهضت ، ولمست يدي باباً ففتحته ودخلت ، وأنا أسوي شعري وأمسح وجهي وأنفض التراب عن ثوبي ، وكانت هذه لحسن الحظ غرفتي ، فقد سمعت شريكي فيها يقول وهو يثب عن السرير :

« ما هذه الأصوات ! ماذا جرى ؟ »

فقلت — وقد ارتدت الي نفسي — « لا أدري . . . يظهر ان هنا لصاً ، قم لننظر »

فصاح : « لص ؟ » وأسرع إلى الشباك فنادى

« ياولد ! يا مخيمر ! يا مخيمر ! »

وفتحت الأبواب ، وأطلت منها رءوس النوّام — أو الذين كانوا نوّاما — وكثر اللغط ، وعلت الضجة ، واختلطت الأصوات ، وصار هذا يسأل عن الخبر ، وذاك يدعو مخيمر وغيره ممن نسيت أسماءهم من الخدم ، وثالث يصيح أن هاتوا نوراً ، ورابع يقول أين المصباح ؟ وخامس يسأل محتجاً « أليس مع أحدكم عود ثقاب ؟ »

وفى أثناء ذلك كان الذى وقع قد لامس خده المربى التى انكسر وعاؤها فسالت ، فلم يخالجه شك فى أن قتلا حصل وأن هذا دم القتيل ، فكاد يموت من الرعب ، ولزم مكانه ولم يحاول حتى أن يرفع خده عن المربى ، وجاء مخيمر يحمل بندقيته ، ووراءه كثيرون غيره ، وفى يد أحدهم مصباح ، تقدم به — فى حماية البندقية — وإذا بنا نرى « وكيل » صاحب البيت ، مطروحاً على وجهه ، ويداه ممدودتان ، وخده لاصق بالمربى ، وهو يرفع رأسه وينظر محاذراً ، ثم كأنما اطمأن قليلا فجعل يطوف ، ويدير عينه ، فيبصر الوعاء وما سال منه ، فيمسح بعضه عن خده وهو ينهض ، فتجمعنا حوله وحففنا به ، وجعل بعضنا ينظر إلى بعض مستغرباً متأففاً ، منكراً على هـذا « الوكيل » الشره ، ألا يكون له هم سوى بطنه ، وأن يزعجنا فى عتمة الليل بهرسه ومحاولته إخفاء ما يأكل

ونظر إليه صاحب البيت نظرة سخط واشمئزاز ، وقال له :

« ماهـذا ؟ مربى ، ورقاق ، لم أكن أعرف انك مبطان نهم إلى هذا الحد ؟ ؟ وقليل الذوق أيضاً ؟ حلواء فى مأتم ! فهلا انتظرت حتى ينفض المأتم ؟ ؟ أم شامت أنت بى ؟ لعنة الله عليك وعلى والديك ! قم . . . قبحك الله ! ولا ترنى وجهك ! »

فهمّ الرجل بأن يقول شيئاً ، فقد كان مظلوماً ولا ذنب له ، ولكن سيده أبى أن يسمع والتفت إلينا وقال :

« إن هذه فضيحة والله ! الخير كثير والحمد لله ، وفى وسعه أن يأكل ما شاء ، ويشبع ، اذا كان يمكن أن يشبع ، فانظروا ماذا صنع ؟ وبأى شىء يجزينى وقد ربيته وكفلته ولم أزل به حتى جعلته وكيلاً لى . وأميناً على أملاكى ! ! يشترى حلواء ومربى ورقاقاً ليأكلها خفية فى مأتم ابنى ! ! اخرس يا كلب ! ولك وجه تقابلنى به يا كافر النعمة ! والله لولا أنك حقير لأفرغت فى قلبك الآن الرصاص . امش . . اخرج من عندى . . »

فقلت : « شىء فظيع ! »

وارتددت إلى غرفتى ساخطاً

* * *

ولبثنا ساعة نمزق أديم هـذا الوكيل الشره الجحود الذى يأبى إلا أن يأكل حلواء فى مأتم ابن سيده ! وأصبح الصباح فاستأنفت ألسنتنا هجوه وذمه . وكنت أشعر بعطف عليه ومرثية له ، ولكنى لم أكن أستطيع أن أذكر الحقيقة فأحوّل الى نفسى كل هذا اللعن الذى ينصب على رأسه . ودنا منى الشاب قريبى الذى كان سبباً فى كل هذا ، وسألنى همساً : « أتعرف حقيقة ما حصل أمس ؟ »

قلت : « لا . ولا أزال مستغرباً ما كان من هذا الوكيل »

قال : « إنه مظلوم ! »

قلت : « يا شيخ ! كيف يمكن أن يكون مظلوماً وقد رأيناه بأعيننا ؟ »

قال : « والله إنه لمظلوم ! »

قلت : « ربما يا أخى ! العلم عند الله ! »

قال : « فينا من يكتم السر ؟ »

قلت : « لا تخف . إن صدرى بئر لاقرار لها »

قال : لقد احتلت حتى جئت بشىء من اللحم والخبز ، ولففته فى ورقة ، وكنت أريد أن أصعد به الى أختى بالليل ، ولكنى اصطدمت فى الظلام بواحد كان يريد أن يقتلنى . . . »

فقلت مستغرباً : « يقتلك ؟ لماذا ! »

قال : لا شك أن هذا كان قصده ، فقد كان همه أن يقبض على عنقى ويضغط ، وكان يحرص على الصمت حرصاً شديداً ، وعندى دليل آخر : ذلك أنه لم يكد يسمع صوت الوكيل يصيح « مين » حتى اختفى فجأة ! »

فسألته : « وماذا منعك أن تستنجد ؟ »

قال : « وأفضح نفسى ؟ ماذا يقولون عنى إذا رأوا معى هذه الأطعمة ؟ لقد كان كل همى أن أتخلص وأرتد الى غرفتى

قلت : « وكيف خطرت لك هذه الفكرة السخيفة ؟ »

قال : « ليست سخيفة . إنها طبيعية ، أول مايخطر للمرء »

الحكم الأدبي

بقلم السيد محمد نوفل

لا يختلف الآراء وتتشعب المذاهب اختلافها وتشعبها في الآثار الأدبية ، فهذا يرضي عن قطعة أدبية يضيق بها الآخر ، وذاك يعجب بمعاني قصيدة يراها غيره مرذولة . . . ومن العسير أن ترجع مخالفك في مسألة فنية عن رأيه ما دام يستطيع إلى الدفاع عنه سبيلاً . ولا عاب في هذا ، إنما العاب في ألا يخلص الناقد للحقيقة في بحثه ، وينــدفع مع الهوى في رأيه

وليس من شك في أن للوهم أثراً بيناً في الأحكام الأدبية ، فالكاتب الذي رفعه الجد إلى مرتبة الشهرة يستجيد جل الناس ما يصدر عنه ، إن جيداً وإن رديئاً ، ولا يكادون يستمعون لاعتراض معترض عليه أو لنقد ناقد له ، بينما المغمور يلاقي من عنت الناس وإرهاقهم الشيء الكثير . بل ندر أن يخرج الأديب من غمرة المجتمع ويحتل مرقياً بارزا فيه بغير يد مشهور يقدمه إلى الجمهور بصوته المسموع ، بعد أن ينثر عليه درر المدح ويكسوه

قلت : « وهل كان من الضروري أن تجيء عربي وحلواء ؟ »

قال : « لم أجيء بهما ، وهذا هو اللغز الذي يحيرني . . . »

فقلت : « فمن أين جاءت إذن ؟ الوكيل طبعاً ! »

فقال : « لا أصدق ، لقد كان خارجاً من غرفتي لينظر ما الخبر »

قلت : « صحيح . الحق معك »

قال : « إذن من أين جاءت ؟ »

فضحكت ، « وهل أنا أعرف ؟ ألا يكفي فزعنا بالليل حتى نحطم إلى رأسي بالنهار ؟ »

فاعتذر ومضى عني

ومشى الوكيل بعد أيام أن يسترضى بنيه

أو الغريب أن قريني نسي أني وعدته أن أنقذ أخته ، ولو تذكر لعرف من أين جاءت المربى والرقاق ، ولأدرك أن الذي اشتجر أمه في الظلام لم يكن قاتلاً متربصاً ، وإنما كان قريبه

ابراهيم عبد القادر المازني

حلل التقريظ . . . ومن أوضح الأمثلة لهذا ما لقيه الكاتب الكبير جولدسمث ، فقد ذاق البؤس أعواماً مكث فيها يعرض آثاره الأدبية القيمة والناس يعرضون عنها حتى ألف قصته التمثيلية البارعة « تمسكنت فتمكنت » She Stoops to Conquet وصار يقدمها إلى مديري المسارح وهم يرفضونها إلى أن أيده الله بزعيم الأدب في عصره الدكتور جونسون ، فعرضها عرضاً جميلاً وأثنى عليها بالذي هي أهله ، فكان تمثيلها وإعجاب الجمهور بها واستمرار عرضها أياماً عدة ، وبدأ ظهور نجم جولدسمث ، وكان هذا رداً قوياً على بعض مشاهير الكتاب السكسونيين الذاهبين إلى أن الانسان سيد نفسه وليس للمقادير تحكم فيه . . .

ولعل إمام البيان الجاحظ كان يرى هذا الرأي حينما نصح لمن يريد مزاولة الأدب أن يعرض ثمرة عقله على العلماء « في عرض رسائل أو أشعار أو خطب » لمشاهير أهل البيان ، فإن رأى الأسماع تصغى له والعيون تحدج إليه ، علم أنه ذو موهبة أدبية واستمر في سبيل الأدب وإلا انصرف عنه إلى غيره مما تتاح له طبيعته ، ولا يشق عليه مزاولته . نعم كان الجاحظ يرى أن للوهم تأثيراً في الحكم الأدبي ، وإن لم يوفق إلى طريقة سديدة يختبر بها الناشئة في الأدب نفسه ، فإن الوهم الذي يصرف العلماء عن الحكم له بحوله هو بعينه الذي سيصرفهم عن الحكم على غيره لشهرته ، وكان الأولى أن يرشده الجاحظ إلى هــذا الناقد الذي يتجرد من المحاباة وينظر إلى ما يقال لا إلى من يقول ، ولا يحكم سوى عقله الصائب وخبرته الأدبية .

ولكن الجاحظ الذي أخفق في هــذا الموضع — وما أقل ما يخفق ! — كاد يدلنا على هذا الناقد الذي يصح أن يعتمد عليه ، ويركن في الأحكام الأدبية إليه ، حينما تعرض لشرح موقف الجمهور في المفاضلة بين بليغين[1] فذكر أن الناس في هــذا ثلاثة رجال : رجل يعطي كلاهما من التعظيم والتبجيل على قدر مالهما في نفسه وموقعهما من قلبه ، ورجل يتهم نفسه فيسرف في اتهام من يعظمه خشية أن تكون منزلته عنده قد خدعته في أمره ، فالأول يزيد في حقه لما له في نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه . أما الذي في استطاعته أن يقدر المعاني حق قدرها ويعطي للأشياء قيمتها الحقيقية فهو العالم الحكيم المعتدل المزاج القوي

(١) ج ١ ص ٧٦ — البيان والتبيين

المنة الوثيق المعقد الذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر

ولكن هل العلم وقوة المنة ، والتجرد من الوهم هي كل شيء في الحكم الأدبي ؟ أو بعبارة أخرى ، هل من تتحقق لهم هذه الصفات تتشابه أحكامهم الأدبية ، ولا تتباين آراؤهم الفنية ؟

الحق أن هناك عوامل أخرى تعمل في تكوين الحكم الأدبي ، وبقدر وجودها كاملة أو منقوصة تكون قوة الأحكام الأدبية وضعفها وهي : —

أولا : الاستعداد الذاتي — فهناك فضائل في الانسان يصح اعتبارها مواهب فطرية ، كخصب القريحة وصفاء الذهن ودقة النظر ومرونة الطبع . فمن المؤكد أن بعض العقول تستفيد أو يظهر أنها تستفيد في أيامها الأولى أكثر من غيرها ، كما يظهر أنها أكثر انتباهاً ويقظة ، وأحفظ لما تستفيد من الجزئيات ، وأقدر على تكوين كل منها ، وعلى حفظها متفرقة كما هي ، ثم أقدر على تهيىء أنفسها للاجابة على مطالب الوجود الجديدة والحكم على المسائل المستحدثة ، وآية أن هذه الصفات فطرية لا اكتسابية هو أنها قد تهيأ للمتعلم كما قد تهيأ للأمي ، وقد يحظى بها المهمل كما قد يحظى بها المثقف ، ولكن لا ننس أن هذا الاستعداد ليس صفة ثابتة كصلابة المعدن مثلاً ، بل يعظم بالمران حتى أنه في استطاعة صاحب الاستعداد تقوية استعداده الى درجة كبيرة تضؤل بجانبها حاله الأولى

ثانياً : النقل بأوسع معانيه — فقل من يستفيد من شعوره وتفكيره الذاتيين ، ولكن معظم الناس يستفيد خبرته ممن حوله ، وهذا النقل يبتدىء مع الانسان من يوم ميلاده ، حتى إن علماء التربية ذهبوا الى أن الطفل يتعلم عن طريق حاسة اللمس في أيامه الأولى . ويروى صامول سميلز Samuel Smiles « أن أماً سألت قساً عن الوقت المناسب لتربية طفلها الذي كان عمره حينئذ أربع سنين فأجابها : « لقد فقدت هذه السنين إن كنت لما تبتدئي في تربيته »

ولكن الواقع أن تربيته قد بدأت بالفعل ، وإن توهمت أمه غير ذلك ، فالطفل يتعلم بالمحاكاة البسيطة ، وهذا التكوين الأولى لخلق الطفل يلازمه طيلة حياته . ومن هنا صح قول ملتون milton « الطفولة عنوان الرجولة كما أن الصبح عنوان النهار » ويقوى هذا النقل ويعظم بالتربية المدرسية والاطلاع على أحوال الأجيال الغابرة ، وتعرف الآداب الماضية والحاضرة

وهذا العامل مع ما سبقه في تنازع مستمر وتجاذب دائم وهذا التنازع هو الذي يفرق بين الناس ، فمنهم ضعيف الاستعداد الذاتي : مستسلم لما ينقل لا يرى رأياً جديداً ، ومنهم ناقد لما يختار وقلما يرى رأي غيره ، ولا يراه إلا بعد تدقيق وتمحيص . وعامل النقل ظاهر الأثر في الحكم الأدبي ، فرأي القارىء في قصيدة مثلا مرتبط بكيفية معرفته المعاني العرفية المتعددة لكلماتها وتصورها ، وبكيفية ائتلاف هذه المعاني في ذهنه ، وبالحد الذي تنضبط اليه خبرته الذاتية العامة المعنى المركب الذي ألفته هذه المعاني الجزئية . وهكذا فما يأتي في ذهن القارىء نتيجة مجموعة مبهمة من التأثيرات الخارجية

ثالثاً : سلامة الفكر أو النزاهة — وهذه الصفة هي التي تجعل الحكم محكماً وتربط بين العقول ، أو بعبارة جامعة تجعلنا انسانيين . وأصدق التعاريف لها هو « تقدير كل الاحتمالات الممكنة ، وعدم ترجيح أحدها إلا بمرجح » فأي قصيدة مثلا تقدم نفسها الينا على أنها محتملة مقاصد كثيرة ، وهذه الاحتمالات ميادين صالحة للمران العقلي ، وقد يؤثر بعضها في بعض ، وما دامت هذه الاحتمالات تنال نصيباً من عنايتنا فان أحكامنا تكون نسبياً في مأمن من الزلل ، ونحن حين نفرض كل الاحتمالات الممكنة نكون أكمل في معنى الانسانية البعيدة عن التحيز منا حين نستبد بفرض واحد بعينه ثم نلتمس له البراهين . ثم الرأي القائم على النزاهة لا يكاد يتسرب اليه الوهن ، لأننا قبل الأخذ به نفند ما عداه من الآراء

رابعاً : فهم صاحب الأثر المنقود — وهذا يكون بتعرف خلقه وما فيه من لين وقسوة وقوة وضعف . فأدب القوة ينتجه أديب قوي ، وأدب الضعف ينتجه أديب ضعيف ، ولا عيب على كل منهما من الناحية الأدبية ، فما عيب من يصدر عنه ما يمثل نفسه ؟ أما أن يطابق الأدب المثل العليا أو لا يطابقها فهذه مرتبة ثانية

والأمة التي تريد أدباً قوياً ، عليها أن تعمل على تكوين أدباء أقوياء ، وإلا كانت كمن يتطلب في الماء جذوة نار . . . ثم لا بد مع هذا من قراءة أعظم قدر من بيان الأديب المنقود ، حتى يألف الناقد أسلوبه في التفكير وطريقته في الأداء

ولكن لسوء الحظ ينسى الكثيرون هذه العوامل فيتوهمون

توماس كارليل

نظره الى التاريخ

للأستاذ محمود محمود محمد

« ليس التاريخ العام فى روحه ومغزاه — تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا العالم — إلا تاريخ عظماء الرجال الذين ظهروا فى هذه الدنيا ، فقد كانوا أئمة ، وكانوا مثلاً وكانوا قدوة لغيرهم ، بل كانوا مبدعين لكل ما مارس الانسان من أعمال ، وكل ما حقق من أمانى . إن كل ما نراه قائماً فى هذا الوجود كاملا متقناً إنما هو نتيجة مادية محسوسة ، وتحقيق عملى مجسم لكل ماجال فى رؤوس أولئك الرجال من أفكار ، أولئك الرجال الذين هبطوا الى هذا الوجود فكان تاريخهم بحق هو لحمة التاريخ وسداه »

بهذه العبارة يفتتح كارليل كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » فيلخص لنا نظريته فى التاريخ . يرى كارليل أن الفرد هو كل شىء ، وأن قادة الشعوب هم خالقوها ومكيفوها ، يؤثر الفرد فى الجماعة ولا يتأثر بها . والبطولة فى نظره تتقمص فى فحول الرجال على صور شتى ؛ فالرسول والشاعر والكاتب والمصلح والفيلسوف كل هؤلاء من طينة واحدة ، ليس بينهم من خلاف ، اللهم الا فى الهيئة التى يكتسون والأسلوب الذى ينتحون « ويصح لنا أن نعتبر أمثال هؤلاء الرجال من فصيلة فوق البشر ، فصيلة غير آدمية ، فكلهم رسول مبعوث الينا برسالة خاصة من الأبدية المجهولة ، من الحقائق الباطنة للأشياء ، لاتحجبها عنه أباطيل الناس ، وكيف ذلك والحقيقة تسطع على عينيه حتى يكاد يعشى لنورها ... الرجل العظيم مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، وهو جزء من الحقائق الأوليـة للأشياء » لاتعميه عن واجبه جهالة عصره أو نقص فى نفسه ؛ هو يرى الى الحقيقة الثابتـة ، الى الحقيقة الحية . ومن هذا الحق يستمد قوته ، والى هـذا الحق تصغى الجماهير ، رسالته أبدية مثمرة « وأعمال الرجال ! خبئها تحت روابى الجبـال ، أو فى أعشاش اليوم ، فهى لاتموت ولن تموت »

ويرى كارليل أن الناس مسوقون بطبيعتهم الى عبادة البطولة « وأن الاعجاب بمن هم أعلى منا إدراكاً لأسمى شعور يتردد فى الصدور ، وليس روح الوجود وحياة الشعوب وكيان الجماعة الانسانية إلا خضوعاً للعظماء وعبادة لأفكار العظماء »

وهذا الشعور كامن فى الانسان فى كل زمان ومكان حتى فى هذا العصر الحـديث الذى تحاول فيه الانسانية أن تتخلص من سلطة الزعماء وتقيم الديمقراطية مكان الديكتاتورية كلما اتسع المجال وأتيحت الفرص

لم يكن كارليل مبتـدعاً فى الرأى حين رفع البطولة الى هذا المقام وقدسها هذا التقديس ، فقد سـبقه الى ذلك هيجل الفيلسوف الألمانى إذ كان يقول : إن وراء كل أمة أو عصر أو مدنية « فكرة » تسيرها . هذه الفكرة هى السمة الكبرى لذلك العصر أو تلك المدنية ، منها تتفرع واليها تنتهى جميع مناحى التفكير من فلسفة أو دين أو فن أو أخلاق . هذه « الفكرة » عند هيجل هى « روح البطولة » عند كارليل .. ومن ثم نرى أن كارليل كان أشد وضوحاً وأدق تعبيراً من صاحبه الألمانى ، وقد

أنه ليس فى الموضوع شىء خارج عن ذات القصيدة الواحدة التى يقرأها القراء فيصورونها صوراً مختلفة ، ولكن الحق هو أن اختلافهم بالقياس إلى هذه العوامل هو سبب اختلافهم فى كل شىء ، حتى تفسير القصيدة وتعيين مدلولات مفرداتها فيه مجال واسع للاختلاف بين القراء تبعاً لاختلاف مؤهلاتهم الخاصة ، فمن قرأ كثيراً من شعر شاعر فهم ألفاظه فهماً مخالفاً لفهم من لم يقرأ له أو قرأ قليلا . وهكذا فكيفية فهم القارىء للقصيدة مثلا يتوقف على استعداده الذاتى وكيفية ترقيه ، وكيفية حيازته للمعانى الاجتماعية الموروثة والفرص التى تهيأت له لاستخدام هذه المعانى متسقة ، والبيئة التى نشأ فيها وحاكاها ، وتنازع استعداده الذاتى والنقل السيطرة على فكره وغلبة أحدهما للآخر ، وما يعرف من خلق صاحبها وشعره ، ولأن الحكم الأدبى يتوقف على هذا كله كان أكثر الأحكام تعرضاً للزلل وأقربها من الخطأ ووجب على من يتعرض له أن يحذر حذراً تاماً ؟

السيد محمد نوفل
بكلية الآداب

أراد أن يزيد وضوحاً ويتخلص من غموض « الفكرة » تماماً ، فجسد « روح البطولة » فى شخص « البطل » فانتقل بذلك من المعقول الى المحسوس ، ومن الفكرة المجردة الى الحقيقة الملموسة

ومع ذلك فان كارليل لم يتخلص من تجريد الفكرة تماماً فان هذا « البطل » ، هذا « الكائن الحى » الذى تتجسد فيه الفكرة هو فى ذاته معنى مجرد تتجمع فيه فروع الحياة الشتيتة . البطل فى نظر كارليل يمثل المدنية التى يعيش فيها ، ورأى البطل نبراس يهتدى به بنو عصره . فلو أردنا معرفة تاريخ عصر من العصور بحثنا عن زعيمه وقائده . ولا يريدنا كارليل فى دراسة هذا الزعيم أن ندرس تاريخ حياته ومجراها وإنما واجبنا أن نحلل آراءه ومعتقداته حتى نستطيع أن نفهم مدنية العصر الذى نشأ فيه بمظاهرها المختلفة ، لأن المدنية — كما كان يرى — كل لا يتجزأ لها مرمى واحد ومعنى واحد

روح البطولة هى رائد التاريخ ومنشأ المدنيات ، ومجددة الحياة الانسانية ، وما دامت كذلك منبع كل حركة فلا ينبغى أن نفهم التاريخ إلا عن طريقها وبوساطتها . ليضع علماء الاجتماع ماشاءوا من القواعد والقوانين ، وليضع رجال السياسة ما شاءوا من نظم ودساتير ، وليفرض علينا المؤرخون ما شاءوا من أسباب تسير هذا العالم ، فليس الانسان بكائن جامد تكيفه قاعدة ، ويعبر عنه بقانون ، وإنما هو روح حى يفكر ويشعر ويتأثر ، يخضع لافذاذ الرجال كلما ظهروا برغم كل قانون .

وأحسن مثال يتمثل فيه بكل جلاء ، نظر كارليل للتاريخ كتابه عن « كرومويل » . أراد كارليل أن يؤرخ البيورتيانية ، فكتب عن كرومويل زعيمها الأكبر ، وحامل لوائها تاريخاً مفصلا تكاد حين تقرأه تسمع كلمات الرجل ونبرات صوته وتتخيل صورته ورسمه . يعرض عليك المؤلف صورة واضحة يضعها أمام ناظريك لتبلغ من قرارة نفسك بقدر ما فيها من قوة وتأثير ، ولا يفرض عليك رأياً بعينه ولا فكرة بذاتها ، يعرض عليك الحقيقة مجردة من غير تعليق ، فلا ترى المؤلف ولا أثراً من نفسه ، كان البيورتان يتطلعون الى إنشاء حكومة على دينهم ومبادئهم فوجدوا فى كرومويل الرجل الذى تتجسد فيه ميولهم واهواؤهم، فوضعوه على رأس حكومتهم ورضوا به حاكما مستبداً ، ذلك لأن كرومويل بطل تتمثل فيه آراء جيل كامل وأمة بأسرها

كان كارليل يرى فى كرومويل مثلاً للبطولة الحق ، وينظر إلى الثورة الانجليزية التى قام بها نظرة الأعجاب ، لأنها كانت تقوم على أساس دينى متين ، ولكنا نجده فى كتابه عن « الثورة الفرنسية » لا ينظر بعين الرضا الى هذه الثورة لأنها لم تخضع لزعيم واحد يمثلها ويسير بها الى الأمام ، كما أن فلسفتها كانت فى صميمها غير دينية ، اندفع فيها الفرنسيون وراء غرائزهم الوحشية وعملوا على إشباع شهواتهم البهيمية واحلال الفوضى محل النظام

وظاهر أن كارليل لم يكن عادلا فى حكمه هذا . نعم كان فى الثورة الفرنسية كثير من الوحشية والهمجية ، ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن فيها خيراً كثيراً ، وأنها وإن تكن ثورة غير دينية إلا أن الفلسفة التى كيفتها كانت تنطوى على كثير من المبادئ القديمة ، وإذا كانت الثورة الانجليزية قد خدمت انجلترا فان الثورة الفرنسية قد خدمت العالم أجمع ، وما تزال تخدمه الى يومنا هذا

وكما انقلب كارليل على الثورة الفرنسية لخروجها على الدين ، فهو كذلك ثائر على انجلترا الحديثة لأهمالها هذا الجانب الهام فى حياتها العامة ، ثائر على هذه الديمقراطية الواسعة التى تفسح المجال لكل من هب ودب ليكون ذا رأى محترم وقول مسموع ، وليس من سبيل الى خلاص البلاد إلا بعد أن تسلم زمام أمورها لزعمائها غير منازعين

* * *

وهنا نقف عند هذا الحد من بسط آراء كارليل فى البطولة وأثرها فى التاريخ ونسائل أنفسنا : هل كان كارليل مصيباً حينما رفع أفذاذ الرجال الى هذا الحد من القوة وهذه المكانة من التقديس ؟

إن من يتصفح تاريخ الحياة وتقدمها يرى أن الانسانية فى كل عصورها تنقسم الى شطرين : رعية كبيرة وطائفة قليلة من الرعاة ، تدق هذه الرعية أمامها ، هؤلاء الرعاة هم أدوات التقدم الانسانى وهم عظماء الرجال الذين يمثلون الآداب والآراء التى هى على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها بمثابة ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أى إنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر من أن تكون أثراً من آثار الفرد الذى رآها ونشرها بين الناس .

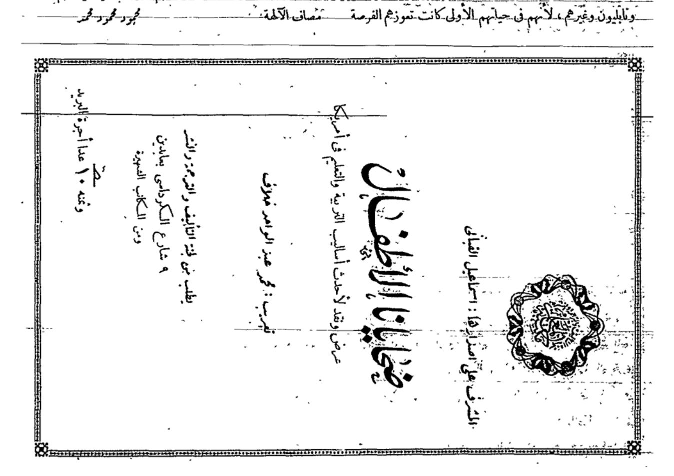
وإذا كان الأمر كذلك فليس من الحق في شيء أن ننسى الجماعة التي هي المؤثر الأول في ظهور الآداب والآراء والفلسفة، ونقصر عنايتنا على الفرد الذي كان مظهراً لهذه الآداب وتلك الآراء فنمحو الجماعة محواً ونهملها إهمالاً، إذ الفرد لم ينشئ نفسه وإنما الجماعة كلها متعاونة متضافرة على تنشيئه وتربية عقله وجسمه وشعوره، فهو صورة منها وظاهرة من ظواهرها. الفرد مدين بلغته ودينه وخلقه الى الجماعة، إذن فليس من البحث العلمي القيم في شيء أن نقدس الأفراد كل هذا التقديس ونحتقر الجماعة كل هذا الاحتقار. وأنا لو صورنا لأنفسنا طائفة من أوساط الناس متوسطي الذكاء ليس لهم مواهب خاصة ولا عقلية ممتازة قد رحلوا الى جزيرة جرداء ليس فيها أثر من آثار المدنية ولا عمل من أعمال الانسان أدركنا بسهولة كيف يظهر سريعاً من بينهم المخترع والفيلسوف والسياسي والقائد، ولا يلبثون أن يعيدوا في خلال جيل أو جيلين تاريخ التقدم الانساني كله، ويصبح هؤلاء الأوساط صورة مصغرة من نيوتن ووطسن وكرومويل ونابليون وغيرهم، لأنهم في حياتهم الأولى كانت تعوزهم الفرصة التي أتاحتها لهم الجزيرة الجرداء، فظهرت عبقرياتهم بعد أن كان مقضياً عليها بالموت والفناء

ويتبين لنا من هذا أن الانسانية لا تتقدم بظهور الرجال، وإنما يظهر الرجال لأنها تريد أن تتقدم، وفي علم الحياة نظرية ثابتة تقول إن الوظيفة تخلق العضو ولا يخلق العضو الوظيفة، فالانسان لا يمشي لأن له قدمين، وإنما له قدمان لأنه أراد أن يمشي، ولا ينظر لأن له عينين ولكنه ذو عينين لأنه أراد أن ينظر

ومن يتدبر التاريخ ير أن الانسانية تمر بها فترات من الجمود تعقبها النهضات التي تظهر فيها الشخصيات البارزة، ولا تعلل هذه الظاهرة إلا بأن الظروف الاجتماعية والزمنية في فترات الجمود تخالف مثيلاتها في فترات النهضات، فالأولى لا تدعو إلى ظهور الرجال بينما الثانية تتطلب الرجال العاملين وتخلقهم خلقاً. فاذا صح لنا أن نقول إن النهضة أوجدت أبطالاً لا يصح أن نقول إن الأبطال أوجدوا النهضة

ولكن كارليل أراد أن ينزههم عن البشرية ويرفعهم الى مصاف الآلهة.

محمود محمود محمد



٦ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثاني

كريتون أو واجب المواطن (١)

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

أشخاص الحوار : سقراط . كريتون
مكان الحوار : سجن سقراط

سقراط ـ ماالذي أتى بك الساعة يا كريتون ؟ إنها الآن جد باكرة

كريتون ـ بلى إنها لكذلك

سقراط ـ كم هي على التحديد ؟

كريتون ـ الفجر في البزوغ

سقراط ـ عجيب أن يأذن لك حارس السجن بالدخول

كريتون ـ إنه يعرفني يا سقراط لأنني جئت مراراً ، ولأنني فوق ذلك ذو فضل عليه

سقراط ـ أجئت الآن تواً ؟

كريتون ـ كلا بل جئت منذ حين

سقراط ـ إذن فما الذي أجلسك صامتاً ، وكان أخلق بك أن توقظني على الفور ؟

كريتون ـ حقاً يا سقراط إني لم أكن لأرضى لنفسي كل هذا الغم والأرق ، ولكني أخذت بالعجب أن رأيتك في نعاس هادئ ، فلم أرد لهذا أن أوقظك ، وآثرت لك أن تظل بعيداً عن الأسى ، لقد عرفتك دائماً سعيداً بما لك من مزاج هادئ ، ولكني لم أر الدهر ضريباً لك في احتمالك لهذا المصاب مستخفاً باسماً

سقراط ـ إن الانسان يا كريتون إذا عمر ما عمرت فلا ينبغي له أن يجزع من شبح الموت

كريتون ـ ولكن سواك من الكهول ، إذا ما نزلت بهم أشباه هذه الكوارث لا يعنهم الهرم من الجزع

سقراط ـ قد يكون ذاك ، ولكن هلاّ حدثتني عما أتى بك في هذه الساعة الباكرة ؟

كريتون ـ أتيت أحمل نبأ مؤلماً يبعث على الشجن ، لا بالنسبة إليك فيما أظن ، بل بالنسبة لنا جميعاً ـ نحن أصدقاءك ـ وهو عندي أبلغ ما يكون إيلاما

سقراط ـ ماذا ؟ أحسب أن قد عادت السفينة من ديلوس (١) ووصولها نذير بموتي ؟

كريتون ـ كلا ، لم تبلغنا السفينة بعد ، ولكنها ربما وصلت اليوم ، فقد أنبأني أناس جاءوا من صونيوم ، أنهم خلفوها هناك ، وإذن فآخر يوم من حياتك يا سقراط هو الغد .

سقراط ـ مرحى يا كريتون ، إن كانت هذه إرادة الله فرحباً بها ، ولكني أعتقد أن سيؤجل الأمر يوماً آخر

كريتون ـ ومن أنبأك هذا ؟

سقراط ـ هاك الخبر . إني بالغ أجلي في اليوم التالي لوصول السفينة

كريتون ـ نعم ، وهذا ما يرويه أولو الأمر

سقراط ـ ولكني لا أظن السفينة بالغتنا إلا غداً . عرفت ذلك من رؤيا رأيتها ليلة أمس ، بل كنت أراها الآن تواً ، حين تركتني ـ لحسن حظي ـ نائماً

كريتون ـ وكيف كانت رؤياك تلك ؟

سقراط ـ جاءتني شبيهة امرأة جميلة وسيمة ، تدثرت بثوب أبيض ، وصاحت بي قائلة : ياسقراط ، إنك ذاهب إلى أخراك في اليوم الثالث غداً من الآن

(١) لا يعلم على وجه الدقة إن كان هذا الحوار قد وقع بهذا النص الذي أثبته أفلاطون أم اخترعه اختراعاً ، ومهما يكن من أمر فقد صور أفلاطون سقراط في هذا الحوار ، لا في رداء الفيلسوف الذي يؤدي في حياته رسالة إلهية ، ولكن في صورة ابن الوطن الصالح الذي يقبل على الموت رضي النفس مطمئن الضمير ، تنفيذاً لقوانين الدولة ، التي يرى وجوب احترامها حتى ولو كانت في قضائها جائرة كما هي الحال في قضيته

(١) قد كان للأثينيين شهر حرام ، يمتنع فيه إعدام المجرمين ، وهو شهر كانت تمضي فيه سفينة مقدسة إلى معبد ديلوس ، ثم تعود ثانية ، فلم يكن يجوز أن ينفذ الموت في احد من أبناء أثينا ما دامت تلك السفينة في رحلتها تلك . ولذلك كان لا بد لسقراط بعد الحكم عليه أن يظل في سجنه حتى تعود السفينة

كريتون – ما أعجبه من حلم ياسقراط !

سقراط – معناه ظاهر يا كريتون ، وليس فيه مجال للريب

كريتون – نعم إنه جلي غاية الجلاء ، ولكن ، أواه ! ياعزيزي سقراط ، دعني أتوسل اليك مرة أخرى ، أن تأخذ بنصحي فتعمد إلى الهروب ، لأنك إذا مت فإن أفقد فيك صديقاً فريداً وكفى ، ولكن ثمت فوق ذلك شراً : سيزعم من لا يعرفك ولا يعرفني من الناس أني كنت أستطيع لك النجاة لو أنني رغبت في بذل المال ، ولكنني لم أعبأ بك ، أفيمكن أن يكون بعد هذا العار عاراً – أن يقال إني آثرت المال على حياة صديق ؟ وهيهات أن يقتنع الدهماء بأني أردتك على الفرار فرفضت

سقراط – وفيم العناية بحديث الدهماء ياعزيزي كريتون ؟ سترى الفئة الصالحة في ذلك رأياً صواباً يطابق ما وقع ، وهي وحدها جديرة بالاعتبار (١)

كريتون – ولكنك ترى ياسقراط أن رأي الدهماء لا بد من اعتباره وذلك ظاهر في قضيتك أنت ، ففي مقدورهم أن ينزلوا الفدح المحن بمن لم يظفر عندهم بالرضى كائناً من كان

سقراط – ليتهم يستطيعون ذلك يا كريتون فذلك كل ما أرتجوه ، إذ لو استطاعوا لكان كذلك في وسعهم أن يفعلوا أعظم الخير ، فيكون ذلك منهم جميلاً . ولكنهم في حقيقة الأمر عاجزون عن فعل الخير والشر على السواء ، وليس في مقدورهم أن يصيّروا الرجل حكيماً أو قدماً ، وكل أفعالهم وليدة المصادفة

كريتون – نعم ولست منازعك في ذلك ، ولكن هلاّ تفضلت فأنبأتني ياسقراط – إن كنت لا تغض النظر عني وعن سائر أصدقائك فيما تصرف من الأمر – : ألست تخشى أنك إن فررت من هذا المكان فقد يصيبنا النمامون بالضر بسبب اختطافك ، وإنا قد نفقد أملاكنا كلها أو جلها ، أو قد ينزل بنا من الشر ما هو أشد من ذلك هولاً ؟ فليطمئن قلبك إن كان ذلك ما تخشاه ، فواجب حتم علينا أن نخاطر بهذا ، وبما هو أعظم من هذا في سبيل نجاتك ، فاقتنع إذن بما أقول ، وافعل بما أشير

سقراط – نعم يا كريتون ، وليس هذا الذي ذكرته كل ما أخشى ، وإن يكن جانباً منه

كريتون – لا تخف . إن هناك نفراً يود لو ينجيك فينتزعك من غيابة السجن ، ولن يكلفهم ذلك شططاً ، أما النمامون فهم كما ترى لا يشتطون في الطلب ، ويقنعهم من المال قليله . إن مالي بأسره رهن إشارتك ، وهو كافٍ فيما أعتقد ، فإن أشفقت أن ينفد كله ، فهاهم أولاء نفر من الغرباء يمدونك بما يملكون ، وهذا أحدهم سمياس الطيبي قد أحضر معه لهذا الغرض نفسه مبلغاً من المال . وذلك سيبيس وغيره كثيرون ، يتمنون أن يبذلوا في سبيلك أموالهم ، إذن فلا تحسب لذلك حساباً ، ولا تتردد في تنفيذ الفرار . ولا تقل كما قلت في المحكمة إنك لا تدري ماذا عساك أن تفعل بنفسك إن فررت ، فأنى حللت نزلت من الناس منزلاً كريماً ، وليس ذلك قاصراً على أثينا ، فثمت في تساليا ستجد من أصدقائي حماية وتقديراً إن أحببت الذهاب اليهم ، ولن تصادف بين بني تساليا جميعاً فرداً يصيبك بالأذى ، ولست أرى بعد هذا كله ما يبرر لك ياسقراط أن تفرط في حياتك ، والنجاة ميسورة مستطاعة . إنك لتلعب بنفسك في أيدي أعدائك وقاتليك ، بل إني لأزعم فوق هذا أنك إنما تسيء الى أبنائك ، لأنك آثرت أن ترتحل تاركهم لما قسمت لهم حظوظهم وكان في وسعك أن تقوم بنفسك على تنشئتهم وتربيتهم ، فإن لم يصبهم ما يصيب اليتامى عادة من قضاء ، لما استحققت عندهم من الشكر إلا قليلاً ، فليس لإنسان أن يقذف في العالم بأطفال لا يحب أن يستميت حتى النهاية في إطعامهم وتربيتهم ، ولكنك تختار أيسر الأمرين ، فيما أظن ، لا أحسن الأمرين وألصقهما بالرجولة ، وكان ذلك أجدر برجل مثلك يبشر بالفضيلة في أفعاله جميعاً . حقاً إني لأستحي منك بل من أنفسنا نحن أصدقائك ، وكلما دار بخلدي أن قصتك هذه جميعاً ، ستنسب الى نقص في بسالتنا ، فما كان ينبغي أن تكون المحاكمة ، أو كان يجب أن تختم بغير ما ختمت به ، وهذه النهاية التي أراها أسوأ العبث ، ستبدو للناس كأنما صادفت منا ارتياحاً ، لما أبديناه من ضعة وخور ، نحن الذين كان بوسعنا أن ننجو بك ، كما كان بوسعك أن تنجو بنفسك ، لو كنا نملك لأي شيء نفعاً . إذ لم

(١) يعبر سقراط في هذا عن رأيه الذي أخذ به في حياته ، وهو ألا يعير رأي الناس التفاتاً ، وألا يصغي إلا إلى ما يمليه العقل الحكيم دون سواه كائناً ما كان وقعه عند الناس

يكن الفرار أمراً عسيراً) وسيُظن ياسقراط أنا لم نقدر أن ذلك كله سينقلب علينا وعليك بؤساً وعاراً ، نفكر إذن في الأمر إن لم تكن قد اعتزمت بعد شيئاً ، فقد انقضت فرصة التفكير ولم يعد لديك إلا أمر واحد يجب إنجازه هذا المساء ، لو كنت تريد له إنجازاً ، فان أرجأت أمرك تعذر واستحال ، وعلى ذلك فأنا أتوسل اليك ياسقراط أن تسلس لي القياد وأن تفعل بما به أشير

سقراط — أي عزيزي كريتون ! ما أعز حماسك وما أنفسه ، لو كان في جانب الحق ، أما إن كان للباطل فكلما ازداد الحماس اشتعالاً ازداد الأمر سوءاً ، فلننظر إذن إن كانت هذه الأعمال واجبة الأداء أم ليست كذلك ، فقد كنت دائماً ، وما أزال ، من تلك الطبائع التي تلتزم دليل العقل ، كائناً ما كان رأيه ، مادام يبدو عند التفكير أنه الرأي الأمثل . أما وقد أصابتني هذه المحنة فلا يسعني أن أهمل الآن ما ارتأيته قبلاً ، فما زالت مبادئي التي طالما أجللتها وقدستها ؛ تنزل عندي منازل الاجلال والتقديس[1] . فثق أني لن أظاهرك في الرأي ، اللهم إلا إذا اهتدينا الآن إلى مبدإ يكون خيراً منها . نعم ، لن أصغي إليك حتى ولو زادني الدهماء حبساً ومصادرة وموتاً ، ملقين في نفوسنا من أراجيف الشياطين المفزعة ما نرهب به الأطفال ، فأي سبل التفكير أهدى إلى بحث هذا الموضوع ؟ أعَوْداً إلى رأيك الذي سقته من قبل عما يقول الناس عنا ، وبعضه يستحق الاعتبار دون بعض كما سبق لنا القول ؟ أكنا نصيب لو أننا أخذنا برأيك (وهو أن يقام وزن لما يقول الناس) قبل الحكم بالأدانة ؟ أم هل ينقلب الرأي الذي كان صائباً حيناً ما ، كلاماً لمجرد الكلام ، ويتبين أنه لم يكن في الواقع إلا عبثاً اتخذ سبيلاً للتسلية واللهو ؟ ابحث معي هذا يا كريتون : أترى أن لم يعد منطق الذي اتخذته أولاً يلائم على أية حال ما يكتنفني الآن من ظروف ، أم لست ترى الأمر كذلك ؟ ثم هل هو حقيق عندي بالرفض أم بالقبول ؟ إن كثيراً ممن يزعمون لأنفسهم رجاحة الرأي يذهبون فيما أعتقد إلى هذا الذي أشرت اليه من قبل ، وهو أن من الناس بعضاً يجدر بآرائهم الاعتبار . وأما بعضهم الآخر فلا يصح أن يؤبه له . وأنك يا كريتون لست مقبلاً غداً على موت ، أو ليس هناك احتمال بشري بهذا على الأقل ، فأنت إذن حَكَمٌ صالح ، لا يؤثر فيك الهوى ولا تميل بك ظروفك وموقفك عن جادة الحق . حدثني إذن : ألستُ مصيباً فيما أزعم ، بألا نقدر من آراء الناس إلا بعضها فقط ؟ لقد أخذتُ بهذا الرأي ، وأنا أسائلك هلاّ تراني قد أصبت فيما ارتأيت ؟

كريتون — ليس في ذلك ريب

سقراط — ألا يجب أن نحفل بما يقوله أبرار الناس دون شرارهم ؟

كريتون — بلى

سقراط — وما يرى الحكماء فهو خير ، وما يرى غير الحكماء فهو شر ؟

كريتون — لا شك في ذلك

سقراط — لننظر ما قيل في غير هذا الموضوع ، هل يطالب إلى طالب التمرينات البدنية أن يصغي إلى القدح والثناء ، والى رأي كل انسان فيه ، أم يجب أن يستمع الى رأي رجل واحد فقط — هو طبيبه أو مدربه كائناً من كان ؟

كريتون — إنه يستمع الى رأي رجل واحد فحسب

سقراط — أينبغي أن يخاف اللوم وأن يرحب بالثناء يوجهه ذلك الرجل وحده ، وألا يأبه للوم الناس ومدحهم ؟

كريتون — بدهي ما تقول

سقراط — ويجب أن يعيش ويُدَرَّب ، وأن يأكل ويشرب ، على نحو ما يبدو صالحاً لذلك المعلم الأوحد ، وهو عليم بأمره ، فذلك أجدى من السير تبعاً لما يراه سوى معلمه من الناس ولو كانوا أجمعين ؟

كريتون — هذا حق

(يتبع) زكي نجيب محمود

---

(١) يشير سقراط بهذا الحديث إلى المحاورات الكثيرة التي عقدها هو وأصحابه قبل محاكمته حول ما يجب على الانسان من حيث علاقته بالمجتمع ، وكانوا قد انتهوا من تلك المحاورات إلى طائفة من المبادئ أقروها جميعاً ، وخلاصتها أنه لا يجوز للانسان أن يفعل الشر ، أو أن يرد الشر بالشر ، أو أن ينقض الحق مهما كانت الظروف . فهو هنا لا يرضى لنفسه أن يهدم تلك المبادئ التي أقرها هو ومحاوروه بحجة أن ظروفه تقتضي منه ذلك .

زواج الشـــاعر

للأديب حسين شوقي

(س) شاعر شاب تزوج منذ عام بزوجة من الريف ، لأنه كان يريد فتاة ساذجة طاهرة الجسم والعقل — وذلك ما يندر فى المدن الكبرى — يستطيع أن يصوغها على ما يلائم ذوقه الفنى ، وما يتفق ومثله العليا . . .

عاد (س) بالفعل من الريف بالزوجة المنشودة ، إلا أنه وجد من الصعوبة فى تكوينها ما وجده آباؤنا فى نحت الجرانيت ؛ لأن الفتاة كانت ساذجة جداً . . . ثم وجد مع الأسف أنها أقل عاطفة من فتيات المدن وهى بنت الريف التى نشأت وترعرعت بين الحدائق والزهور . . . فان حب الفتاة لشاعرنا كان حباً ضئيلاً جداً إذا قيس بحبه لها ، لأن الشاعر احتفظ بطهارة قلبه طوال شبابه من أجل هذا اليوم المشهود (مع استثناء بعض جولات فى الغزل البرىء) فكان ما به من احتياطى الحب قد يتعادل بما فى خزائن بنك فرنسا من احتياطى الذهب ... أما قلب الفتاة فكان أشبه بجليد « الأسكيمو » . . .

ولما كان (س) شديد الأحساس كمقياس الحرارة ، فانه كان يتألم من الحركات والاشارات غير الموفقة التى كانت تأتيها زوجه كى تغطى حبها الضئيل له ... ولشدَّ ما كان الشاعر شديد الأشفاق عليها من أجل هذا . . !

انقضى عام على زواج الشاعر ، فخرج بهذه المناسبة الى الخلاء يشكو همه الى الأطيار والأزهار ، أصـــدقاء الشاعر الحقيقيين . . .

جلس الشاعر هناك على بساط من الخضرة ، ثم أخذ يستعيد فى ذاكرته حياته الزوجية خلال العام المنصرم ، فأحسَّ من جراء ذلك بهم شـــديد وحزن بالغ . . . فكم من حوادث محزنة وقعت خلال تلك السنة !

إنه ما زال يذكر مع الأسف والحسرة تلك الليلة التى اتفق فيها الزوجان على الذهاب الى المسرح ليشهدا رواية مشهورة . . إلا أن الزوج مرض فى اللحظة الأخيرة ، فقال عندئذ من باب المجاملة لزوجه ، وقد ظن أنها ستبقى بجانبه لتمريضه وتسليته : اذا شئت فاذهبى أنت يا عزيزتى الى المسرح . . سأطلب م . . (صديق الشاعر) فى التليفون ليأتى فيصطحبك . . ولشد ما كانت خيبة أمله كبيرة حينما أجابته : حسن . . سأذهب مع م . . بعد أن أقيس حرارتك لأطمئن عليك ! أرادت الزوجة بقولها هذا أن تظهر اهتمامها بجسمه . . . ولكن هل فكرت فى قلب الشاعر المسكين ؟

وفى ليلة أخرى ذهب الزوجان الى حفلة رقص . . . فلما عزفت الموسيقى بلحن « الدانوب الأزرق الجميل » الذى كان الشاعر يحبه حباً جماً ، ذهب من فوره الى حيث كانت تجلس زوجه ليطلب منها أن ترقص معه هذا الدور ، فاعتذرت اليه لارتباطها بوعد سابق ! مع علمها بحب زوجها الشديد لهذا اللحن . . . وكان قد أهدى اليها قبل الذهاب الى الحفلة وردة بيضاء حلَّت بها صدرها . . . فافتقدها أثناء الحفـلة فلم يجدها على صدرها ، فسأل عنها وقد ظن أنها سقطت منها أثناء الرقص ، إلا أنها أجابته بكل سـذاجة : الوردة ؟ إن صديقتى البارونة ل . . أظهرت إعجابها بها فأعطيتها إياها ! كاد الشاعر يموت فى تلك الليلة من الغم . . .

وفى مرة أخرى سافرت زوجه الى الريف تعود أمها وكانت مريضة مرضاً خطيراً . . ومكثت هناك أسبوعين لم ترسل اليه خلالهما إلا كتابين قد احتويا على عواطف تشبه تلك العواطف الأنموذجية الموجودة فى كتب « برليتز » للتمرين والترجمة ! . . وفى يوم عودتها من الريف ، بدلاً من أن تقضى السهرة على انفراد مع زوجها بعد تلك الغيبة ، دعت بعض الأصدقاء الى السينما لمشاهدة الممثلة جريتا جاربو فى فلمها الأخير .

بينما كان الشاعر يعيد هذه الحوادث فى مخيلته إذ به يسمع تغريد عصافير على شجرة ، فرفع الى الشجرة نظره ، فاذا به يبصر عصفورين على غصن ، متعانقين فى شوق وحنان ، عندئذ سقطت دمعة كبيرة على خد الشاعر ، ثم نظر فى سـاعته فوجد أنه قد تأخر فى نزهته ، فبادر بالعودة الى المنزل ، لأن زوجه كانت قد دعت بعض الأصدقاء للاحتفاء بمرور عام على زواجهما السعيد ؟

كرمة ابن هانى — حسين شوقى

من الأدب الأندلسي :

٤ ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

أتينا في المقال السابق على آراء ابن شهيد في شخصية الأديب، وقلنا إنها آراء صائبة لم يسبقه اليها أحد في العربية، ونريد في هذا المقال أن نستجلي آراءه في الآثار الأدبية، فنتعرف المظاهر التي اعتبرها مسباراً لبراعة الأديب الفنية، واتخذها مقياساً لقوته في الصناعة، وقد اعتبر ابن شهيد لذلك عدة مظاهر دل عليها في مواضع متفرقة من « التوابع والزوابع »؛ وأول مادل عليه من هذه المظاهر: المعنى السامي البديع، يختال في اللفظ المشرق السمح. فالأديب عند ابن شهيد لا يبلغ الشأو ولا يستحق اسم الصناعة إلا « بتممد كرائم المعاني، وتقحم بحور البيان . . . فيمتطي الفصل، ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة، وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته » ولعل من المعلوم أن قضية « اللفظ والمعنى » كانت من القضايا التي طال فيها جدال النقاد المشارقة، واختلفوا في الأخذ بها بعضاً وكلاً، فاعتبر بعضهم اللفظ وحده مظهراً لبراعة الأديب وقوته، ذلك لأن المعاني مطروحة أمام الناس، فالبليغ من أجاد صياغتها، وأحسن سبكها. واعتبر آخرون المعنى فحسب، فالأديب لا يفضل الأديب ولا يفوقه إلا بجدة أفكاره وغزارة معانيه، ثم استقر الرأي على الجمع بين شقي القضية، فأصبحت براعة الأديب تستجلي في ألفاظه ومعانيه، وأصبح الأديب لا يبلغ منتهى البراعة والقوة « إلا بتممد كرائم المعاني وتقحم بحور البيان » كما يقول ابن شهيد

وابن شهيد يحب الازدواج في الكلام، ويرغب في المماثلة والمقابلة، ولكنه يكره التزام السجع، ويراه أفناً لا يليق بفارس البيان، ومن العجيب أنه مع ذلك كان يلتزم السجع كثيراً في أسلوبه، وكأن الرجل قد توقع الاعتراض عليه من هذه الناحية، فأراد أن يعتذر عن نفسه، فزعم أنه التقى بعتبة بن أرقم شيطان الجاحظ[1] فشهد له بأنه خطيب وحائك للكلام مجيد، ولكن لامه على غرامه بالسجع، فقال ابن شهيد يرد عليه: « ليس هذا - أعزك الله - جهلاً مني بأفن السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام . . . » ثم ينطلق في الانتقاص من معاصريه فيزعم أنهم لغباوتهم لا يفقهون الازدواج ويكبرون من قيمة السجع، فاضطر أن يسجع حتى يحرك من نفوسهم، ويبلغ بكلامه إلى قلوبهم، فيقول عتبة: إنا لله، ذهبت العرب وكلامها، ارمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم، ويطير لك ذكر فيهم. وهذه معذرة إن صحت لا نقبلها من ابن شهيد، فليس من حسن الرأي أن ينحرف الكاتب عن طريقة يراها سديدة إلى أخرى مستهجنة لظفر بالرضى من بعض الناس، وإنما الكاتب العبقري هو الذي ينتهج طريقه ويدع الأذهان تتبصر مسلكه؛ وتتبين خطواته فترسم سيره، وتأخذ أخذه . . .

ولكن ابن شهيد يعود ليستدرك على قضية « اللفظ والمعنى » مظهراً آخر من مظاهر البلاغة، فيرى أن هناك « صوراً من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس، فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده، ولجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن . . . وذلك كقول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

فهذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده!! ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى .. »

وهذا كلام حمله ابن شهيد على ما اشترطه في شخصية الكاتب من قوة الطبع وصفاء الروح كما سبق بيانه، ومعنى هذا الكلام أنك إذا تأملت بعض الصور الكلامية الرائعة لا تجد لروعتها أصلاً من جزالة اللفظ أو طرافة المعنى، بل قد تكون سهلة التناول قريبة الغور، ولكن روعتها ترجع الى ما يكمن فيها من القوة الروحية للكاتب، وأكثر ما تتجلى هذه القوة في كلام الله « حين يتحدث ذو الجلال عن ذاته وصفاته. وقدرته وقوته، وجلاله وعزته، ولطفه ورحمته، وناره وجنته، ووعده ووعيده،

(١) ذكر ابن شهيد أنه التقى شيطان الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وكثير من شياطين الكتاب والخطباء. وهذا اختراع منه، وإلا فالشياطين لم يعرفوا إلا للشعراء

وإنذاره وإعذاره ، وقد كان لهذه القوة الرائعة الأثر الأقوى في رياضة العرب واجتذاب نفوسها نحو الاسلام ، وهي التي كانوا يشعرون بوقعها من غير أن يعلموا كنهها (١) » . ومن العجيب أنك تقرأ الأبيات من الشعر العالي أو النثر البديع فتشعر بهذه القوة رائعة ظاهرة تكسو الكلام جلالاً وجمالاً ، فتحاول أن تعبر عنها كما يجب فتجد نفسك عاجزاً مقصراً ، ذلك لأن قوة الكلام لا ترجع في هذه الحال الى الألفاظ والمعاني ، وإنما هي ترجع الى ما فيه من القوة الروحية ، وقد أخذ بعض الكتاب المعاصرين هذه الفكرة عن ابن شهيد ، وتبناها لنفسه ، وادعى أنها انحدرت من عقله على قلبه ، وهاجم بها الباقلاني في أقواله في إعجاز القرآن ، وجادل بها الكتاب والنقاد الذين تصدوا للرد عليه ! !

وثمت مظهر آخر من مظاهر القوة والبراعة عند الاديب في رأي ابن شهيد ، وهذا المظهر هو التفنن في توجيه الخطاب بحيث يكون على وفق أقدار المخاطبين ، والتصرف في إيراد القول بحيث يكون من السهولة أو القوة على حسب ما يقتضيه المقام ، وقد ذكر ابن شهيد هذه المسألة وهو يشرح ما كان يقع له مع الشحاذين في قرطبة ، وكيف كان يعينهم بشعره على نيل مآربهم ، فقال : « وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ، ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فيصادف منا حالاً لا تتسع له في كبير مبرة ، فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فاذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقـدهم ، وجل شخص ذلك البائس في عيونهم ، فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كمه ، ورقبة سمينة تدس في مخلاته ، وتينة رطبة يسد بها حلقومه . . فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغباً في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له ، وبادرت برفدها اليه . وتعليمه ذلك النحو من الشحذ لا نستطيعه ، لأن هذا الذي يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب ! ! ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان . . »

وقد سبق أبو هلال العسكري ابن شهيد الى تقرير هذه الحقيقة بعبارة أصرح وأوضح فقال في كتابه الصناعتين :

« وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات ، واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ... فان كنت متكلما أو احتجت الى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب ، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد ، فتخط ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض واللون والتأليف والجوهر ، فان ذلك هجنة . وكذلك كن أيضاً إذا كنت كاتباً »

ولعل بشار بن برد كان أول من دل على هـذه الظاهرة واستعملها في شعره من حيث كان الناس يعيبونه بها ، فقد جاء في الأغاني بسنده أن بعضهم قال : قلت لبشار إنك لتجيء بالشيء المجين المتفاوت ! قال وما ذاك ؟ قلت بينا تقول شعراً يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبـة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال بشار : لكل وجه ، وموضع الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض ، فهذا عندها أحسن من « قفا نبك ... » عندك

وصدق بشار فيما قال ، فان البليغ هو من يحوك الكلام على حسب الأماني ، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني ، وقد تكون هناك مواقف للقول يطلب فيها الأسفاف ، ويحلو فيها التبذل ، فيكون باقل في عيه وفهاهته ، أفصح من سحبان في تشدقه ورغائه ، ويقيني لو أن بشاراً توجه في الخطاب الى جاريته بلغته في الفخر والحماسة ، لدل على الحماقة في طبعه ، والسقم في ذوقه ، وربما ظنت هذه الجارية أنه يشتمها ، فكانت تمنعه بيض دجاجها ، وتحتم عليه أن يشتري البيض من السوق ، فلا يفيده تقعره ، ولا ينفعه شعره ،

(١) الزهرات الشيخ عبد الله عفيفي

فمن القصور أن يلتزم الشاعر أو الكاتب نمطاً واحداً في التعبير لا يتعداه، فيكون في جده كهزله، ومن الهذيان أن يتعنت في توجيه الخطاب، فيكون في كلامه إلى أهل الثقافة والمعرفة كما هو في كلامه إلى ذوي الفهاهة والعي، وإنما الطبع القوي هو الذي يواتي صاحبه في كل طريق يسلكه، والذوق السليم هو الذي يقضي عليه بتوجيه الخطاب على مقتضى الحال، حتى يستطيع من وراء ذلك أن ينال غرضه عند المخاطب، وأن يصل إلى قرارة نفسه في يسر وسهولة، فلو انتهج الأدباء هذه الخطة التي أوضحها ابن شهيد، ولو علموا أن لكل ضرب من الناس ضرباً من الكلام ووجهاً من البيان، لأمكنهم أن يغزوا نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم بأفكارهم وأساليبهم، وأن يخلقوا الأحساس الفني في نفوس الجمهور على مر الزمن

محمد فهمي عبد اللطيف

٤ – بين القاهرة وطوس

طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

استرحنا بقية اليوم وزرنا بالليل دار المفوضية المصرية، ومررنا بوزير المعارف فتركنا بطاقاتنا للمندوبين، ووزع عليهم منهاج المؤتمر وأوراق أخرى فيها دعوات إلى حفلات كثيرة، وعرفنا من المنهاج أن أيام المؤتمر والحفلات خمسة عشر يوماً من الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ (١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٤ = ١٢ مهرماه سنة ١٣١٣) إلى يوم الجمعة عاشر رجب. ومن ذلك ستة أيام في طهران، وثلاثة في مشهد، وستة في الطريق بين طهران ومشهد ذهاباً وأوبة. وقد سجل في بيان أعضاء المؤتمر اثنان وأربعون من ممثلي الأمم المختلفة، ومثلهم من الايرانيين. ومندوبو الأمم ثلاثون يمثلون ثماني عشرة أمة بينها من أمم الشرق: مصر والعراق وتركيا وأفغانستان والهند واليابان.

وفي اليوم التالي بدئت أعمال المؤتمر بمدرسة دار الفنون في بهو فسيح صفت فيه مقاعد كثيرة، صفوفها الأولى لأعضاء المؤتمر والأخرى للحضار من غيرهم. ووضع في صدر المكان تمثال للفردوسي، ومنصة الرياسة، ومنصة الخطابة، واستمر اجتماع المؤتمر خمسة أيام: وكان الموعد من الساعة التاسعة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر. وزيدت جلستان في مساء اليومين الثالث والرابع لكثرة مريدي الكلام من الأعضاء. وقد تكلم زهاء أربعين قليل منهم من الايرانيين، وترك بعض الايرانيين الكلام ليفسحوا مجال القول لضيوفهم.

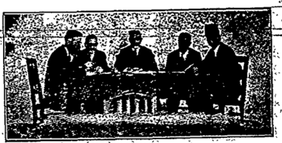
افتتح المؤتمر فروغي خان رئيس الوزراء، ولجنة الآثار القومية، فشكر الوفود باسم الأمة الايرانية، والحكومة، ولجنة الآثار على ما أجابوا الدعوة وتحملوا مشاق السفر، وأبلغهم سرور جلالة الشاه بقدومهم، وأنه سيقابلهم في طوس، وقال:

«يقول الشيخ سعدي «إن السفر لا يطول على قصد الحبيب(١)» وإنما أجاب السادة الفضلاء دعوة الفردوسي. وإذ كان الداعي هو الفردوسي أمكن أن نقول: «ليس في السفر الروحي بعد المنازل»(٢) ونحن مواطني الفردوسي الذين عهد إلينا شرف الترحيب بكم نيابة عنه، نعرف أنكم كنتم على يقين مما تلقون من المشقات الجسمانية، ولكن أرواحكم الكبيرة الكريمة قلبت المحنة راحة بهمتها العظيمة. وأولت إيران يداً لا تنسى. أجل قد حملتموها المنن العظيمة، ولكن كان لكم الحق فيما حملتم أنفسكم من مشقة، فإن الفردوسي إن تعلق بإيران جسماً فهو ابن الانسانية روحاً، بل أقول إذا أذنتم لي: إنه من آباء الانسانية. وبعد، فقبيح أن يتصدى جاهل مثلي تعريف علماء أمثالكم بالفردوسي، فمن الخير ألا أشغل أوقاتكم النفيسة، وأن أفسح المجال لأعمالكم المفيدة»

ثم أعلن افتتاح المؤتمر، وأخبر أن علي أصغر حكمت كفيل وزارة(٣) المعارف سيتكلم بالفرنسية، لأن بعض الحاضرين لا يعرف الفارسية. فتكلم كفيل المعارف مبدياً سرور الايرانيين وشكرهم للعلماء الذين وفدوا للمشاركة في حفلات الفردوسي ثم قال:

«إن اجتماع هذا العدد من العلماء على اختلاف الأوطان دليل قاطع على ما قيل من أن العلم والأدب لا وطن لهما. فحيثما لمع نور هذه الموهبة الآلهية اتجهت إليه النفوس المستعدة، والأرواح

(١) سفر دارز نباشد بپای طالب دوست
(٢) بعد منزل نبود در سفر روحانی
(٣) كفيل الوزارة هو القائم بأعمالها



من اليمين الى اليسار : الدكتور عبد الوهاب عزام . الحاج محتشم السلطنة اسفنديارى رئيس المؤتمر . الأستاذ كريستنسون نائب الرئيس . الأستاذ هنرى ماسى سكرتير

المشتاقة كالفراش ، فيرون أنفسهم فى هذه المرآة المشتركة بينهم ويقولون : كنا متحدين ، كنا جوهراً واحداً ، كنا بغير أجسام ورءوس ، كنا جوهراً وضاء كالشمس ، وكنا صافين كالماء . فلما تصور هذا النور الجليل ظهرت أعدادنا ظهور الظلال على الشرفات (١)

وسيلة إلى التقريب بين الأمم ، وقال : لذلك فتخر بأن أقول إن اهتمام الأمة الايرانية بعيد الفردوسى ، ودعوة الأمم إلى المشاركة فيه يعد فى الحقيقة خطوة إلى التفاهم الحقيقى بين الأمم وان يكن فى ظاهره ذا مقصد أدبى وتاريخى »

وبعد فراغ وزير المعارف من كلمته دعى الحاضرون الى انتخاب مكتب المؤتمر فكانت نتيجة الانتخاب :

الحاج محتشم السلطنة اسفنديارى	رئيس
الأستاذ كريستنسون الدانمركى	نائب الرئيس
الأستاذ زاره الألمانى	» »
الأستاذ هنرى ماسى الفرنسى	منشى (سكرتير)
الدكتور عبد الوهاب عزام المصرى	» »

ثم تلا الرئيس رسائل كثيرة من الحكومات والجامعات



المؤتمر فى احدى جلساته ، ويرى على اليمين تمثال الفردوسى وقد ظهر من خلفه الدكتور عبد الوهاب عزام وأمامه الأستاذ هنرى ماسى

إن اهتمام الأمم العظيم بعيد الفردوسى الألفى ، واحتفاءها به فى بلادها ، وإرسال فضلائها إلى قبر شاعر ايران برهان على أن الأمم لا تختلف فى الحقائق على رغم ظواهر الأمور . إن بين الأمم اختلافاً فى السياسة ، والاقتصاد ، والتجارة ، والمعيشة ، والآداب والعادات — اختلافاً جعل العالم الحاضر ماديا ملؤه الشرور والآفات ، ولكن كلما لاحت للناس الأمور المعنوية والفوائد العلمية والأدبية أمحت هذه الاختلافات ، وتجلى الوفاق والوئام — ثم بين كفيل المعارف أن الاشتراك فى مثل هذه الأمور أحسن



الأستاذ الزهاوى وهو ينشد قصيدته

(١) هذه ترجمة أبيات صوفية أظنها من المثنوى وهى :

متحد بوديم ويك جوهر همه بى تن وبى سر بديم آن سر همه
يك كهر بوديم همچون آفتاب بى كهر بوديم وصافى همچو آب
چون بصورت آمد آن نور سره شد عدد چون سايه‌هاى كنكره

تبين عن مشاركة الإيرانيين في الحفاوة بشاعرهم . ثم تكلم بعض المندوبين كلمات قصيرة أبانوا فيها عن سرورهم بالمشاركة في هذا الاحتفال . وكان من المتكلمين الأستاذ عبد الحميد العبادي فتكلم بالعربية عن فضل الفرس على الأدب العربي . وألقى الشاعر الكبير الزهاوي قصيدة فارسية

ثم بدئت المحاضرات على ترتيب حروف الهجاء ، فكان أول المتكلمين الأستاذ العبادي فتكلم عن الأخلاق في الشاهنامه ، واستمرت كلمته خمساً وعشرين دقيقة وتلقاها الحاضرون بالاستحسان . واقتبس منها بديع الزمان أحد أدباء إيران حينما تكلم عن الشاهنامه من بعده

وفي اليوم التالي تكلم سفير الروس ، وترجمت كلمته الى الفارسية ، وأهدى عن دولته كتباً وصوراً فارسية قيمة ، ثم خطب سفير الألمان ، وقدم هدايا من الكتب منها فهرست للشاهنامه ، وأعلن منح بعض الجامعات الألمانية رئيس وزراء إيران دكتوراه في الآداب ، وانتخاب وزير المعارف عضواً في جمعية المستشرقين الألمانية . ثم تكلم آخرون ، وانتهت الجلسة بانشاد الشاعر الكبير الزهاوي قصيدة عربية (نشرت في الرسالة)

وفي اليوم الثالث كانت جلستان : في الصباح والعشي ، وتكلم ثمانية . وكنت ثاني المتكلمين في الصباح فألقيت بالفارسية كلمتي « مكانة الشاهنامة في آداب الأمم » في عشرين دقيقة . وقد تفضل الحاضرون فأحسنوا استقبالي حينما قمت للكلام ، وأحسنوا الاستماع لي ، ثم أبدوا استحساناً عظيما حينما فرغت ، وإني أدع للجرائد الايرانية الكلام ، فان القارىء المصري يهمه أن يعرف ما قالت جرائد إيران في ذلك .

قالت جريدة اطلاعات :

« ثم ألقى الدكتور عبد الوهاب عزام معلم الأدب الفارسي والعربي بالجامعة المصرية ، خطبة بالفارسية ، وموضوعها مكانة الشاهنامة في آداب الأمم ، وقد بدأ كلامه بقوله : أنا لا أحسن التكلم بالفارسية ، ولكني لا أريد في حضرة هذا الشاعر الكبير (وأشار إلى تمثال الفردوسي) أن أتكلم إلا بلغة الشاهنامة — ولخصت الجريدة المحاضرة ، ثم قالت — : وفي نهاية الخطبة أبدى سروره بمشاركته هو وزميله في عيد الفردوسي باسم الأمة المصرية والحكومة . وقدم الى رياسة المؤتمر نسخة نفيسة من الشاهنامة العربية التي أخرجها الدكتور عزام أخيراً ، بعد أن صححها وعلق عليها ، وقدم لها مقدمة نفيسة جامعة ، وطلب أن ترفع هذه النسخة إلى الحضرة الهمايونية الشاهنشاهية . وكذلك قدم نسخة إلى حضرة رئيس الوزراء ، وأخرى إلى كفيل وزارة المعارف ، وكانا حاضرين . وقد قوبلت خطبته وعمله بتصفيق مديد . وحينئذ تقدم إلى منصة الخطابة السيد حكمت كفيل وزارة المعارف ، وشكر الدكتور عزام على ما أظهر من عواطف المودة وقال :

« أشكر الدكتور عبد الوهاب عزام من جهتين : الأولى أنه تحمل مشقة في ترجمة الشاهنامة وتصحيحها والتعليق عليها . والثانية أنه تكلم بلغة الشاهنامة . يقول حافظ الشيرازي إن الترك المتكلمين بالفارسية يهبون لي الحياة . وأما أقول إن العرب المتكلمين بالفارسية يهبون لي الحياة . والحق إن لساني قاصر عن الشكر . والاستاذ عزام من أدباء الشرق الذين درسوا الفارسية رغبة وعشق وكاف خاص ، وإني أختم شكري بهذين البيتين للشيخ سعدي :

« قلت لقلبي إن الناس يجلبون السكر من مصر فيهدونه إلى الأحباء . فان تكن يدي خالية من هذا السكر فعندي كلام أحلى من السكر » (٢)

ولما جلس الدكتور عزام في مكانه من منصة مكتب المؤتمر قال له الرئيس (لقد أردت أن تثبت أنك أستاذ الأدب الفارسي بحق) اه

ثم توالى المتكلمون في اليومين الرابع والخامس ، وأنشد الشاعر الانكليزي درينكووتر قصيدة وترجمها نظماً وأنشدها في المؤتمر من بعدُ الشاعر الفارسي بهار الملقب بملك الشعراء . وتكلم في اليوم الأخير الأديب أحمد حامد الصراف أحد مندوبي العراق ، فألقى بالعربية كلمة قصيرة جميلة تكلم فيها عن المودة بين العراق وإيران

وكانت هذه الأيام الخمسة مزدحمة بحفلات الغداء والعشاء ، ومشاهد التمثيل والألعاب الرياضية ومشاهدة الأماكن العظيمة في طهران . ونرجىء الكلام في ذلك الى المقال الآتي خشية الإطالة

عبد الوهاب عزام

(١) تركان پارسى كو بخشند كان عمرم

(٢) بدل گفتم أز مصر قند آورند بر دوستان أرمغانى برند
مرا گرتهى بود أزين قند دست سخنهاى شيرين تر أز قند هست

الشمس في الغروب

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ماذا تحن الشمس عند غروبها   فيكون ذلك باعثاً لشحوبها ؟
ما إن رأت عيني وقد راقبتها   كالفرق بين طلوعها وغروبها
بعد ابتسامتها لنا قد قطبت   والحزن كل الحزن في تقطيبها
إني ليحزنني الغروب فإنه   لمذكِّر نفسي بكل كروبها
الشمس في الدنيا إليَّ حبيبة   والنفس تأسى من فراق حبيبها
ويزيدها شجناً إلى أشجانها   مرُّ السحاب محاولاً لركوبها
كانت إذا طلعت تفوز الأرض من   أنوارها مبثـــوثة بنصيبها
كانت تجذوتها السماء منيرة   والأرض كانت تصطلي بلهيبها
أجمل بألوان الغمائم حولها   لو دامت الألوان بعد مغيبها
مدّت مودّعة بنان شعاعها   لبعيـــدها وتلمّست بقريبها
انظر إلى الأفق البعيد تخل به   ناراً تخوض العين بعد شبوبها

***

بالشمس تحيا الأرض ضاحية لها   وبها تتم لها حياة شعوبها
صفراء خائفة كأن وراءها   سوداء تخطف شلوها بنيوبها
وقد اكتست بعد اصفرار حمرة   بدم لها أهريق فوق تريبها
وكأنما قطع السحاب أمامها   سدّت لتمنعها طريق وثوبها
غربت وأبقت في السماء وراءها   شفقاً يثير الشجو بعد غروبها
قد أوّبت شمس النهار فهل إلى   هذا مصير الشمس في تأويبها
أمّا الغمائم فهي قد هبّت بها   ريح الأسى فتمزّقت لهبوبها
والثاكلات أذابها عصف الأسى   فقلوبها تنشق قبـــل جيوبها

***

تهوى وتقلى في زمان واحد   دنيا محاسنها نواء عيوبها
وكأنها من نورها وظلامها   ممزوجة أفراحها بخطوبها

جميل صدقي الزهاوي

شعري

للمرحوم أبي القاسم الشابي

شعري نفاثة قلبي   إن جاش فيه شعوري
لولاه ما انجاب عني   غيم الحياة الخطير
ولا وجدت اكتئابي   ولا وجدت سروري
به تراني حزيناً   أبكي بدمع غزير
به تراني طروبا   أجرّ ذيل حبوري

***

لا أنظم الشعر أرجو   به رضاء أمـــير
بمدحة أو رثاء   تهدى لرب السرير
حسبي إذا قلت شعرا   أن يرتضيه ضميري

***

لا أقرض الشعر أبغي   به اقتناص نوال
الشعر إن لم يكن في   جماله ذا جـــلال
فإنمـــا هو طيف   يسعى بوادي الضلال
يقضي الحياة طريداً   في ذلة واعتزال
ما الشعر إلا فضاء   فيه يرف خيالي

أبو القاسم الشابي

جنون الغيرة

لفريد عين شوكة

يغار إذا ما لاحه في جماعة   يبادلها بعض الرضى وتبادله
ويكره أن يلقى له أيّ صاحب   يفوز بعطف عنده أو يحاوله
ويعبس إن ردّ التحية لامرئ   يحييه أو مدّت إليه أنامله
ويغضب منه إن أطل ببسمة   على الغير أو أصغى إلى من يسائله
فكيف إذا ألفاه يسعى لغيره   ويعرض عمن ناء بالهجر كاهله
تساوره من حرقة الوجد لفحة   تضج لها أحشاؤه ومفاصله
ويغشاه إعصار من الهم متلف   يزعزع ركن القلب حين يصاوله

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٣ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوى

نقد الحكم La critique du jugement

يرى كانت – في فصله هذا – يعزو كل تأثير الى أحاسيس باطنية ، فهو لا يتحرى اذ يتحرى عن أسباب الجمال الخارجية ، لأن الحس لا يكمن في الأشياء ولكنه يكمن في الانسان

وقد شطر نقد الحكم شطرين : الأول ويحتوى على الألفة بين الجميل والسامي لما بين الجمال والسمو من تقارب ، والآخر وهو يعنى بظاهر الأشياء المؤتلفة المتطابقة في الوجود

إن (كانت) بحث في موضوع الجميل beau واللذيذ agréable كما بحث فيه الأولون ، ولكنه وسع دائرة البحث وتعمق في تحليله ؛ فاعتبر اللذيذ كل ما فيه لذة للحواس مصحوباً بالرغبة ، واعتبر اللذة التي يولدها مشهد الحسن والجمال لذة خالية من الأهواء والأغراض ؛ وإن حكماً ما عازجه قليل من الهوى لهو حكم فاسد غير مبني على الذوق ، ولكن لما كان حكم الذوق مبنياً على العاطفة فهو بحكم الضرورة قابل للتغير ، وفي الامكان أن نرى في كل بيوت الفن – وفي الطبيعة تماثيل ودُمى تحظى برضا الناس ؛ ولكننا لن نرى مقياساً واحداً صحيحاً للجمال ، لأن الذوق نفسه هو كالبراعة شيء مبتكر

فاذا كان الجمال يؤثر في شعورنا تأثيراً خفياً ويرسل فينا الراحة واللذة من حيث لا نشعر ، فان السمو ليبلونا باهتزاز عنيف قد يكون مضنيا ومرهقاً للنفس ولأن يكون مايبعثه السمو في أنفسنا أدنى الى عاطفة الأعجاب والاجلال منه الى الراحة واللذة أحرى وأجدر ، واسمه الحقيقي هو « اللذة السلبية »

ويفرق كانت بين السمو الرياضي mathématique والسمو الآلي « أو ذو الحركة » dynamique هذا مؤسس على فكرة القوة وذلك على فكرة العظمة والروعة ، فالطبيعة هي سامية عالية – رياضياً – في حوادثها التي يصعب على مخيلاتنا إدراكها ، وهي سامية أيضاً بحركات أجرامها الهائمة في الفضاء ، حتى كأنها تريد أن تسحق وجودنا المادي . وفي كلا الحالين تهيب مخيلتنا بعقلنا ، فيتركنا العقل ذاهلين أمام السماء ذات الكواكب واللانهاية التي لا تُحد ولا تبلغ الى عظمتها المخيلة مهما سمت ، وهو العقل الذي يثير فينا عاطفة السمو ، ويجعلنا نردد معه «ما أنا إلا قصبة ، لكنها قصبة مفكرة »

فالسمو إذاً لا يكمن في الأشياء ، ولكن في أنفسنا ، فلا يجب علينا أن نقول «إن هذا الشيء هو سام » ولكنه شيء يبعث فينا فكرة السمو ، فلا شيء في الطبيعة مهما جلّ – إذا نظرنا اليه نظرة قياسية – إلا وهو يهوى الى أحقر الأشياء ، ولا شيء حقير – إذا قسناه بمقياس آخر – إلا وهو يرقى الى أعلى الأشياء ، وهناك المراصد والمجاهر تثبت صحة دعاوانا

يعرض أمامنا شيء رائع ، يعجزنا التعبير عنه فنقول : إنه لسام رائع ؛ ويخلق معركة حامية بين العقل والمخيلة ، فلا تستطيع المخيلة إدراك كنهه ، والعقل لا يفتأ يتحرى عن وسيلة يفهمه بها ، فينشأ من ذلك تلك الروعة التي نحسها أمام الأشياء العظيمة السامية ، ولكنها روعة ترفع أنفسنا الى المثل العليا ، لأنها تنبه

يريد له ألاّ يصاحب دونه	وألاّ ينيل الغير ما هو نائله
يريد له ألاّ يخف لغيره	ولو كان من تشبيه شمائله
أمان كمال البدر يدنو ضياؤه	وتُمعِنُ في بُعد المزار منازله
وعبء تنوء الشامخات بثقله	ويعقد رَضوَى عزمه وهو حامله
فكيف بمحبوب أرق من الصبا	وأحنى من الغصن النضير كواهله
فيا غيرة الصب التي طوّحته في	خضمّ من البلوى تناءت سواحله
ويا ويحه يخشى لقاء حبيبه	مع الغير حتى لا تهيج بلابله
فيهجره رغم الجوار وإنه	لأحوج أن ترْوِي صداه مناهله
ويحمل في النأي العذابَ وكلما	تراءى له المحبوب ضجّت مراجله
وأغرقَ في بحر الأسى وحبيبه	تفيض بآيات الحبور محافله
ويا حيرة المحبوب فيما يشاؤه	مُحبٌّ بعيدُ الغَوْر ما هو آمله
عزيز عليه أن يرى بشره المحّى	ونضرته كالروض جنّت خمائله
ولكنه لا يستريح لناصح	له في الهوى أو يرتضى من يجادله

فريد عين شوكة

فينا ناحية العظمة الصادقة التي تتجلى بها طبيعتنا الإنسانية وحريتنا الأخلاقية .

أسلوب كانت

يعد كانت أصدق الفلاسفة اعتقاداً وأصفاهم أسلوباً ، يقول ما يعتقد به حقاً ويكتب لقرائه كما يكتب لنفسه ، تكاد تنطق جملته بفكرته ، ويعتقد أن الحقيقة غنية بنفسها ، وأن الزخرفة في التعبير عنها مما يرخص من قيمتها ، وبرغم هذا الأسلوب الواضح رماه بعضهم بظلمة التعبير ، وقد أراد هؤلاء أن يظهروا أن كانت ليس ممن تنبسط أفكارهم للقارئ بسهولة . على أن أفكار كانت لا تمشي إلى قارئها ، وإنما على القارئ أن يسعى إليها ليدركها ، ولكنه لا بد مدركها كلها ، ولكن إدراكها لا يخلو من المجهود الذي لا يستغني عنها رجل يسعى

إن أسلوب كانت واضح جد الوضوح ، ولكن عيبه الواحد الذي أخذه عليه النقاد أنه يخلق في الموضوع شعباً كثيرة لا يترك منها شيئاً إلا انتقده ، وهذا قد يدل على سعة اطلاع ونظر بعيد وإن كان لا يخلو من السأم ، ولكن كانت لم يكتب إلا لذوى الألباب بهذا الموضوع فقد يأخذ الموضوع الحقير الذي لا يكاد يخوض فيه عقل فيخلق منه موضوعاً كبيراً ، وقد ذكر أحدهم نكتة جرت على لسان صديقه (فيار) أن هذا أعلن للفيلسوف أنه لا يستطيع أن يقرأ تصانيفه ، لأن الله لم يخلق له أكثر من هذه الأنامل ، يريد أن يضع أنملة على هذه الكلمة وأخرى على الثانية وهكذا حتى تنتهي أنامله ولما يكمل العبارة ويقف على دقائقها ، لأن كانت يستعمل كثيراً الأقواس والأهلة في عباراته المتصل بعضها ببعض . وقد كان لكانت فضل كبير في خلق كلمات وتعابير جديدة فلسفية خلقها بنفسه ، وفرضها على اللغة الفلسفية بنفسه

وأخيراً نستطيع أن نقول إن كانت كان مطلع الثورة الفلسفية في ألمانيا التي خلقت « فيخت وشيلنغ وهيجل [1] » وقد تناول تأثيره جميع المدارس العلمية والأدبية ، وما ثمت فيلسوف ولا أديب ولا شاعر نشأ بعد كانت إلا وكان مديناً له ولمذهبه بكثير من آرائه ، وشيلر نفسه قد استمد من كانت آراءه في الجمال والسمو ، وما أصدق كلمة (غليوم همبولد) حين قال : « إن قسماً من الذي هدمه كانت لن يقوم أبداً ، وإن قسماً من الذي شاده لن يخسف أبداً »

(1) سنبحث في مقالاتنا الآتية تأثر هؤلاء الفلاسفة بمعلمهم الكبير كانت

فيخت

FICHTE

١٧٦٢ — ١٨١٤

ولد « فيخت » سنة « ١٧٦٢ » في قرية « رامينو » ولم يكن أبوه ليقدر على القيام بأعباء تعليمه ، فكفله أحد سدة القرية وأنفق في سبيل تعليمه ما أنفق ؛ وبعد جهاد عنيف ودرس طويل دخل في العالم الفلسفي ، فكان أول كتاب له « تجربة نقدية لكل وحي » وكتابه الثاني « تقويم أحكام الشعب على الثورة الفرنسية » وكتابه الثالث « نداء عام لأمراء أوروبا لكي يفكوا العقل من عقاله » وهذه الكتب الثلاثة وضعت « فيخت » في مصاف أرباب فلسفة النقد والثورة ، وبعد هذا الانتاج الطيب أعلن في محاضرة له قيمة مذهبه الذي وسمه بالمذهب العلمي ؛ وهو الذي يرد به كل العلوم إلى مصدر واحد . وهذا المذهب أو هذه الثورة الفلسفية أطارت اسمه في الآفاق ، حتى غدا حديث المجامع والنوادي . وقد أسند إليه منبر في « لينا » ليحاضر في الفلسفة ، فسهل له هذا المقام أن يعاود شرح مذهبه وتفصيله من جميع نواحيه في كتبه العلمية ، وكان خلال ذلك يواصل نشر مقالاته في « واجب العلماء » فهو يريد من العالم أن يسيطر على شؤون بلده ، لأن العالم عنده ليس بالرجل الذي علا رأسه علماً وعرفاناً ، ولا من يتخصص في مادة واحدة يذهب بها كل مذهب ، ولكنما العالم هو الرجل الحر الذي اجتمعت له ثقافة عصره ، وسما فوق مشاغل حياته اليومية ، هو يريد أن ينقاد المجتمع للرجال الألمع ذكاء والأروع عقلاً

وربما دفعه هذا المذهب — أضف إليه بعض مشاغل خاصة — إلى أن يقطع الكثير من دراساته المتواصلة ، كان يحاول من ورائها أن يطبق مذهبه النظري على الأخلاق والحقوق والسياسة والدين ، يقطع هذه الدراسات ملتفتاً إلى شؤون أمته المجروحة ، وقد خطب الشعب كثيراً في « برلين » بأسلوب تبدو فيها حماسة الفيلسوف وشدة تعلقه بوطنه ، ومن خطبه خطبة ذكر فيها أسباب انحطاط أمته ووصف العلاج الشافي لهذا الانحطاط

قال : (إن أسباب الانحطاط داخلية ؛ لا يمكن أن تعزى إلى بأس الخصم وسيطرته ، إنها تتجلى في خنوعنا ولين أخلاقنا ، وفي أنانية مرشدينا وقوادنا ، وفي إعجابنا وتقليدنا الأعمى للأجنبي

[البقية على صفحة ٢١٥٨]

ادب الحرب

كبتن كونان

للقصصي الفرنسي روجيه فرسال

(صاحب جائزة جنكور لعام ١٩٣٤)

كان لهذا الشهر في عالم الأدب الفرنسي أهمية كبرى تميزه من سائر شهور العام. فقد سطعت في النصف الأول منه أسماء أربعة من الكتاب بعد أن فاز كل منهم بأحدى الجوائز الأدبية الكبرى



التي تمنح في فرنسا في مثل هذا الشهر من كل عام الى خير قصة يقع عليها اختيار لجنة تحكيم كل جائزة من هذه الجوائز. ولقد ذكرنا أكثر من مرة أن اهتمام الغرب بالأكثار من الجوائز الأدبية، يرتفع عن المكافأة المادية التي تصيب الكاتب الفائز؛ وأن الغرض الأساسي هو شحذ همم الكتاب، والاحتفاظ بعاطفة المنافسة حارة في قلوبهم. وكل من تصفح الجرائد الأدبية الفرنسية الكبرى خلال الشهر الفائت استطاع أن يعرف مقدار اهتمام الفرنسيين - وهم كغيرهم من أمم الغرب - بأمر هذه الجوائز الأدبية. واستطاع أن يحس بما تخلقه هذه المباريات في نفوس الأدباء حين يقرأ أحاديثهم قبل ظهور قرار المحكمين. تلك الأحاديث الممتلئة بالعبارات المتحمسة، القلقة على مصاير أعمالهم وعصارة عقولهم. وعندئذ يشعر بحاجة كل أمة متمدنة تبغي النهوض لفنونها وآدابها إلى مثل هذه الجوائز

***

وروجيه فرسال Roger Vercel الفائز بجائزة جنكور أستاذ للآداب بكلية دينان Dinan، وهو الآن في الأربعين من عمره. ولد في بلدة نانز، ولما شب تعلم في (فليش) ثم انتقل الى (كان) ليدرس الأدب، ولكن لم يكد ينقضي عام حتى شبت الحرب الكبرى فانتزعته من أحضان كتبه وأساتذته الذين كان يجلهم أعظم إجلال مثل پيير فيي الأستاذ الضرير الذي لا يزال يذكره روجيه فرسال بالخير، ويرجع إليه أكبر الفضل في نجاحه في الحياة العامة، ومثل موريس سوريو الذي أصلح له فيما بعد رسالته عن كورني، فنال بها ليسانس الآداب.

حارب فرسال في كثير من الميادين الحربية في فرنسا مثل: ايبر وشمپاني وسُّم وأرجون، ثم أوفدته السلطات العليا إلى عدد من بلدان أوروبا الشرقية للقيام ببعض المهام، فرأى اليونان وصربيا وبلغاريا ورومانيا، واستفاد من ذلك أجل الفائدة. إذ عرف أمماً تختلف عن وطنه في كثير من النواحي، وفهم نفسيات شعوبها، وأخلاق أهلها، وكان ذلك أكبر عون له على رسم كثير من شخصيات قصصه. وفكرة قصته Copitaine Conan التي نال عليها الجائزة إنما انبعثت في نفسه حين كان يعمل مقرراً لمجلس الحرب في صوفيا

ابتدأ فرسال يخوض غمار الأدب برسالته القيمة I mages dans l'oeuvres de Corneille التي نال بها ليسانس الآداب. وبعد ذلك نشر كتابه Lexique des images de Corneille et de Racine وبعد هذا الكتاب ظهرت قصته الأولى Notre péres Trajin، وتلتها قصة Le maitre du réve ثم Au large l'Eden ثم En Dérive ثم ظهرت له هذا العام Copitaine Conan. وقد ابتدأت مجلة (جرنجوار) الأدبية تنشر له منذ بضعة أسابيع آخر قصصه La nuit macédonienne

ولفرسال ترجمة شيقة عن (دوجسكلان) Du Guesclin وهو يراسل عدداً كبيراً من المجلات الفرنسية الكبرى، وعلى الأخص (ريڤودوفرانس) و (ماريان) و (جرنجوار)

***

وروجيه فرسال يهيم بالقوة، والأرادة الجبارة، والشجاعة الخارقة التي يراها واضحة جلية في كثير من رجال الجيش وبحارة السفن والصيادين المخاطرين. وهو يرى أن غرائزنا الوراثية الأولى التي تدفعنا إلى احتقار الحياة والأستهانة بالموت، والغرام بالنزال

والقتال ، تلك الغرائز التي يظن الكثير أنها ماتت بتطور الانسان لا تزال كامنة فينا ، وسرعان ما تطغى على شخصيات الكثير منا عند ما تمهد الفرصة المناسبة لظهورها كالحرب مثلاً التي هي أكبر عامل في اظهار هذه الغرائز الأولى . وفي قصة (كبتن كونان) يرسم لنا ڤرسل صوراً من أولئك الأبطال الذين يحملون أرواحهم على أكفهم مستهدفين للمهالك غير عابئين بالموت ، وإليهم يرجع كل فضل في الفوز والانتصار

و(كونان) بطل القصة رجل صغير الجسم ، هادئ الطبع ، لين الجانب كان يشتغل بائعاً صغيراً في سان مالو . ولم تكد تشب الحرب عام ١٩١٤ ويتطوع فيها في جيش الشرق حتى تستيقظ فيه بطولة كانت خامدة تسوقه إلى مراتب الرقي السريع ، فنراه على رأس فصيلة صغيرة في الجيش نفخ فيها من روحه وبسالته ، حتى استيقظت في أفرادها نفس الغرائز التي استيقظت فيه ، غرائز الانسان الأول الذي لا يعرف للحياة قيمة ولا للموت رهبة ، فينساقون وراء زعيمهم (كونان) إلى شتى ضروب المهالك دون خوف ولا وجل .

لقد تجردوا من كل صفات الجنود النظاميين ، وأصبحوا أشبه بما يكون برؤساء العصابات ، لا يعرفون لهم قانوناً إلا الشجاعة الخارقة التي يجب أن تذوب أمامها كل عقبة تحول بينهم وبين تحقيق ما يرغبون . فبينما نرى في كثير من الأحيان أن سائر فصائل الجيش ينقصها الزاد والماء ، نرى ذلك عند فصيلة الكبتن (كونان) دائماً كاملاً موفوراً بل زائداً عن حاجتهم . وبينما نرى سائر الجنود يرهبون النزال مع العدو وجهاً لوجه حيث يمزق بعضهم أجسام بعض بالسيوف أو بأسنة الحراب ، ويعتبرون ذلك أشد ضروب القتال هولاً . نرى الكبتن كونان وأتباعه لا يترددون لحظة في الهجوم على خنادق العدو ، وقد تسلحوا بالقنابل اليدوية والخناجر معلقة إلى جوانبهم يغرسونها في أحشاء أعدائهم دون شفقة ولا رحمة حتى أطلق عليهم اسم (منظفي الخنادق) ، ذلك أن كلا منهم كما يقول زعيمهم (كونان) لا يعترف إلا أنه (محارب) فحسب ، وليس جندياً يخلص للنظم العسكرية وتقاليدها كما يفعل سائر الجنود الآخرين . بل هم ينظرون إلى هذه النظم والتقاليد العسكرية نظرة الاستهتار بها والاحتقار لأنها في الانتصار ، وإنك لتستطيع أن تتبين جيداً نفسية أولئك (المحاربين) حين تقرأ كلام (كونان) إلى أحد رفاقه الذي يلومه على تصرفاته هو وزملاؤه ويقول : (حاول قليلاً أيها العجوز المسكين أن تفهم) فيجيبه كونان :

(أفهم ؟ أتظن أنني لا أفهم لأنني أتكلم بصوت عال ؟ إنني أعرف جيداً منذ بعيد أنهم كانوا يخجلون من أعمالنا ، وكانوا لا يعرفون كيف يتخلصون منا ! إنني أنا وشباني الذين خضنا حقيقة غمار الحرب ، ونحن الذين يرجع إلينا كل فضل في الانتصار ! أنا ومن يماثلني من الأعوان الذين أرعبنا الجيوش . أسامع أنت ؟ الجيوش التي كانت ترانا في كل مكان ، وكانت لا تحسب لغيرنا حساباً ، ولا ترهب سوانا منذ اندلعت أول شرارة ! إن قتل جندي أمر في استطاعة كل فرد أن يقوم به ، أما مهمتنا نحن فكانت قتل ذلك الجندي بطريقة تلقي الفزع في أدمغة عشرة آلاف آخرين ! لذا كان من اللازم الذهاب للقاء العدو بالخناجر . أفاهم أنت ؟ إن الخنجر هو الذي كسب الحرب ، وليس المدفع ! إن ذلك النوع من الرجال الذي أحدثك عنه لا يزيد على ثلاثة آلاف في كل جهات القتال . على أن هؤلاء هم المنتصرون وحدهم . هم المنتصرون الحقيقيون !)

والقارئ لا يستطيع أن يمالك نفسه من الأسى والتأثر أمام الخاتمة الحزينة التي تنتهي بها مأساة تلك الشخصيات الغريبة . فقد مضت سنو الحرب الأربع ، وإذا (كونان) بطل مقدام فائز بوسام الشرف ، تحلى صدره نياشين المجد والفخار . على أنه لا تكاد

تعقد الهدنة العامة وينطفئ جحيم المجزرة البشرية الكبرى ، وتوزن الأعمال بميزان أقرب إلى العدل والمنطق حتى نرى الذين كانوا يعتبرون بالأمس أبطالاً صناديد ، والذين بيسالتهم النادرة وإراقة دمائهم دون حساب ضمنوا لجيشهم الفوز مراراً في ساحة الوغى ، نراهم اليوم وقد أضحى الجميع يعتبرون عملهم جريمة لا تغتفر . وينظر اليهم مجلس الحرب نفسه نظرة الخارجين على القانون ، المنتهكين لحرمة الشرف العسكري !

وبانتهاء الحرب ينصرف الجنود جميعاً إلى بلادهم وذويهم متنفسين الصعداء بعد أعوام مريرة من العذاب والشقاء . إلا أن هذه الظاهرة العادية لا نجدها عند الكبتن كونان ورفاقه . إذ يصور لنا روجيه فرسل كيف عاد كونان إلى مسقط رأسه يعمل كما كان تاجراً بسيطاً كسير القلب محطم النفس ، غير راض عن حالة السلم والهدوء ، غير مرتاح إلى العيش في مجتمع لا يناسب ميوله وغرائزه التي بعثتها الحرب من مرقدها ، وأصبح لا يجد إلى التخلص منها سبيلاً

ويتزوج كونان . ثم تمضي الأيام فإذا الحياة الهادئة الوادعة لا تناسبه فيترهل جسده وتنتفخ أوداجه ، ويضنيه مرض الكبد وكلما تقدمت به السن شعر بأنه فقد كل شيء ، وضاق بالحياة كلها ذرعاً

إن روجيه فرسل يجمع في قصته فكرتين : أولاها الأعجاب بأولئك الأبطال والرثاء لهم ، وثانيتهما الدعوة ضد الحرب ، فهو لا يبرر الحرب التي توقظ في هذا النوع من الناس بطولتهم الراقدة تحت وعيهم . بل هو بالعكس يريد أن يبين لنا أن (الحرب هي الشر الأعظم) كما يقول . أليست هذه الشخصيات التي يصورها لنا خير تصوير كأبطال الحرب الحقيقيين هي كذلك أولى ضحاياها ؟ أليست شجاعتهم الخارقة تجعلهم أول وقود لسعيرها الجهنمي ؟ ثم أيضاً ذلك النفر منهم الذي ينقذه الحظ الحسن من الموت في ميدان القتال ، ألم تتحطم سعادته ، وتشق حياته كما رأينا في كونان ، ذلك التاجر البسيط الوديع الهادئ العيش الذي أصبح بعد أربعة أعوام من المذابح البشرية وجلا أجدر به أن يوضع في عداد المرضى حين لا يستطيع الحياة في مجتمع خلو من القتل وسفك الدماء ؟ !

تلك هي ميزة قصة (كبتن كونان) الكبرى ، فلقد كتب عن الحرب منذ بدئها إلى الآن عدد كبير من الكتب الرائعة ربما كان أعظمها كتابا جورج دوهامل Vie des Civilisation و Martyre ، وكتاب رولان دورجيليه Croix de Bois ، وكتاب هنري باربوس Le feu الذي نال جائزة جنكور عام ١٩١٧ ، وقد تفوق هذه الكتب قصة (كبتن كونان) في كثير من النواحي ، إلا أن روجيه فرسل يمتاز في قصته بأنه عالج موضوعاً ورسم نوعاً من الشخصيات الانسانية بطريقة لم يسبقه اليها غيره من الكتاب

علي كامل

البريد الأدبي

الجوائز الأدبية الفرنسية

ظهرت في فرنسا في أوائل هذا الشهر أسماء الفائزين بالجوائز الأدبية الفرنسية الأربع ، ففاز بجائزة Goncourt الكاتب روجيه فرسل بقصته Capitaine Conan وقد تحدثنا عن القصة ومؤلفها في غير هذا المكان . وفازت قصة Le Bateau - Refuge لروبرت فرانسس بجائزة Femina - Vie Heureuse . وقصة Anny لمارك برنار بجائزة Interallié . وقصة Blanc للكاتب لوى فرانسيس بجائزة Th. Renaudot

وروبرت فرانسس شاب في الخامسة والعشرين من عمره ، ولد عام ١٩٠٩ وكان منذ صغره كلفاً بقراءة الأدب ودراسته ، إلا أن أسرته أرغمته على الالتحاق بمدرسة الهندسة ، فكان هذا التصرف دافعاً على ازدياد شغفه بالأدب والكتابة . فأصدر وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره هو وشقيقه مجلة Les Cahiers 1928 التي عاشت ثلاثة أعوام

وابتدأ يكتب فيها عدداً من المقالات السياسية . وكذلك القسم الخاص بنقد الكتب ، وفي ذلك الوقت أيضاً نشر في المجلة أول أعماله الأدبية Souvenirs Romencés d' une vie d' enfant وهي ترجمة حياته مصوغة في قالب روائي . وفي عام ١٩٣٠ أدى روبرت فرانسس خدمته العسكرية في قسم الطيران ، وقد أظهر كفاءة أثناء اشتغاله في الحصون الشرقية دفعت وزير الحربية الى انتدابه عام ١٩٣١ للعمل في الحصون الشمالية ، فقضى ستة شهور متنقلاً بين (مان) و (ريغز) تاركاً للفنان لأحساسه الشعرى يتأمل تلك الغابات الواسعة المترامية الأطراف . على أن المرض حال بين فرانسس وبين الاستمرار في البقاع الشمالية فرجع الى (فانش) حيث قضى ستة أشهر طريح الفراش . ولم يكد يبل من مرضه حتى شرع يكتب أولى قصصه La Grenge aux trois bella التي ظهرت في العام الماضي ، وفي هذا العام ظهرت قصتاه التاليتان Le Bateau - Refuge و La maison de verre نال عليهما الجائزة وهما تحملان عنواناً رئيسياً واحداً هو La chute de la maison de verre والقصتان تكملة للقصة الأولى . والقصص الثلاث تفيض بالأخيلة الشعرية التي تدنيها من الأساطير

وفن روبرت فرانسس يمت الى تلك المدرسة التي يسميها الناقد ادمون جالو Réalisme magique وهي مدرسة تحاول أن تصلح ما وجه من النقد إلى المدرسة الشعبية populisme التي تكاد تقتصر على وصف شقاء المجتمع الفقير وما يخلقه هذا الشقاء من الرذائل . فالمدرسة الجديدة بتجديدها تحاول أن تتكلم عن فضائل هذا المجتمع الفقير . ولذا نرى روبرت فرانسس يرسم لنا في قصته مقدار إحساس أبناء الطبقة الدنيا بالكرامة ومقدار سموهم الروحي وصفاء نفوسهم . مما يجعلهم أهلاً لأن يرتفعوا عن مستوى حياة الحيوانات التي يحيونها

وروبرت فرانسس إلى جانب انتاجه القصصي كاتب سياسي ، وهو في مقالاته التي ينشرها من حين لآخر يدعو إلى إصلاح اجتماعي يهيء للطبقات البائسة حياة حرة كريمة

أما مارك برنار الفائز بجائزة Interallié فقد نشأ في بلدة نيمز فقيراً معدماً . وكان طبيعياً أن يحول بؤسه وشقاؤه بينه وبين الدراسة المدرسية ، وأن ترغمه ضرورات المجتمع الحاضر على الاشتغال في سن مبكرة ليجني القدر الضئيل من المال كي يطفئ ألم الجوع ، فهجر نيمز متنقلاً من بلد إلى آخر . ولم يترك عملاً من الأعمال إلا طرق بابه وعالج سبيله . فاشتغل في السادسة عشرة ممثلاً في مرسيليا ، ولما لم يصادفه النجاح اشتغل حمالاً للبواخر ، ثم اشتغل عاملاً في السكك الحديدية ، وعاملاً في مصانع المعادن ، وصابغاً للأحذية وغير ذلك من الأعمال الوضيعة المختلفة .

وكان مارك برنار لا يميل ميلاً شديداً للكتابة ولا يرى في نفسه استعداداً لها . على أن الضرورة أرغمته على معالجتها علّه يستطيع عن طريقها أن يضمن عيشه ، فنشر عام ١٩٢٨ أولى قصصه

Zih - Zag فصادف نجاحاً دفع الكاتب هنرى باربوس رئيس تحرير مجلة (موند) إلى أن يعهد إليه تحرير قسم النقد الأدبى فى مجلته ، فعرف برنار عن طريقها عدداً من أعاظم الكتاب ، وابتدأ يشارك أيضاً فى تحرير (المجلة الفرنسية الجديدة) ومجلة (أوروبا)

وقد نشر برنار بعد قصته الأولى قصة Au secours ثم تلتها قصته الأخيرة Anny التى نال عليها الجائزة

وبرنار كاتب اشتراكى ، وهو فى قصصه ومقالاته يفيض بالثورة على المجتمع الرأسمالى ، ويعلى من شأن الطبقات المهضومة الضعيفة بفقرها التى خصص لوصفها — كما يقول — قصته التى يوشك أن ينتهى منها واسمها (المنفيون) Les exilés

أما لوى فرانسيس الفائز بجائزة Renaudot فقد بدأ حياته مدرساً بالليسيه فرانسيه بالقسطنطينية ، فعرف الشرق عن ذلك الطريق ، ووصف ما وصلت إليه خبرته ودراسته فى كتابه Chroniqus turques ثم كتب بعد ذلك قصته Blanc التى نالت جائزة رينو دوه

الفردوسى فى السوربون

احتفل فى الأسبوع الماضى بمهرجان الفردوسى فى السوربون واشترك فى هذه الحفلة رئيس الجمهورية المسيو ليبران ، وعدد كبير من السراة والأعيان ، بينهم الجنرال غورو حاكم باريس العسكرى ، وكان بين الذين حضروا المسيو شارلتى مدير جامعة باريس ، وسفراء العجم فى فرنسا وانكلترا ، والجنرال نوله مستشار وسام اللجيون دونور الأعلى ، ومن رجال المجمع العلمى ابيل بونار ، ومدير كلية (الكليج دفرانس)

وقد أقيمت فى القاعة قاعدة أقيم عليها تمثال يمثل الفردوسى أحيطت بالأعلام الايرانية والفرنسية

وألقى مدير الكليج دفرانس خطاباً باسم المجامع الفرنسية ثم عقبه الأستاذ ماسيه مدير اللغات الشرقية فعرض لشعر الفردوسى وأثره ، وألقى المسيو ابيل بونار خطاباً أطرى فيه الفردوسى وختمت الحفلة بخطاب وزير التربية والتعليم تناول فيه حياة الفردوسى

ايطاليا تحتفل بالفردوسى

احتفل فى الأكاديمية الملكية فى روما بذكرى الفردوسى ، وألقى السنيور مالينو محاضرة فيه عن الفردوسى وعن شعره الخالد وأثره الكبير فى الأدب العالمى

وفاة جوستاف لانسون

توفى أخيراً بباريس الدكتور جوستاف لانسون أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة السربون عن سبعة وسبعين عاماً باحتقان الرئة : ولقد كان المصاب به عظيماً أحدث هزة شديدة فى الأوساط الأدبية فى فرنسا

ولد جوستاف بمدينة أورليان ، فى الخامس من شهر أغسطس عام ١٨٥٧ ، وفى عام ١٨٨٦ دعاه القيصر ليثقف بالأدب الفرنسى ولى العهد الذى صار فيما بعد نقولا الثانى ، ثم عاد إلى التدريس بمدارس الليسيه بفرنسا ، وانتقل بين ثلاث مدارس من مدارسها وكان مثلاً للنشاط والجد ، وقد أدى اختياره مدرساً بها إلى انتخابه مديراً لمدرسة المعلمين العليا بباريس وكان ذلك عام ١٩١٩ وبقى بها حتى عام ١٩٢٧ ومنذ يومئذ بدأ يتم مؤلفاته فى النقد ، ونذكر من مؤلفاته وكتبه ، نصائح فى فن الكتابة ، بوسويه ، وبوالو ، والناس والكتب ، ودراسات أدبية وأخلاقية ، وكورنى ، وڤولتير ، وثلاثة أشهر فى التعليم بالولايات المتحدة ، وطرق تاريخ الأدب ، والمثل الفرنسى الأعلى فى الأدب ، ونهضة الثورة ، وابتكارات لامرتين

وفى عام ١٩٢٤ عين عضواً فى رابطة الشرف ، ولكنه أبى أن يدخل الأكاديمية الفرنسية برغم إلحاح المعجبين به ، وإن كتابه تاريخ الأدب الفرنسى الذى ظهر فى عام ١٨٩٤ ثم أضاف إليه كثيراً من التعليقات فيما بعد لكفيل بأن يجعل للانسون مكانة عالية محترمة

تحسين جديد فى (التليفون)

يتسابق رجال العلم والاختراع فى إدخال التحسينات على «التليفون» وآخر ما طالعناه فى إحدى الصحف العلمية أن أحد المخترعين الفرنسيين تمكن من اختراع جهاز جديد أدخله على التلفون الأوتوماتيكى الأعتيادى . والقصد من هذا الجهاز أنه عند ما يرغب المتكلم فى محادثة أحد ، فما عليه إلا أن ينطق بالرقم المطلوب فتدور الأسطوانة من تلقاء نفسها بفعل تموجات الهواء . وهذا الجهاز يصلح استعماله فى الظلام أى عند ما يكون الانسان مضطجعاً فى فراشه ولا يريد أن يجهد نفسه . ويعتقد المخترع أن هذا الجهاز سيعم استعماله جميع أنحاء العالم

تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

[بقية المنشور على صفحة ٢١٥٢]

الغريب . أما علاج هذه الأدواء فهو التربية المؤسسة على الفضيلة التى تشجع النفوس وتعلم الأرواح معنى التضحية ... والوطن وما الوطن – عند فيخت – إلا خلود الانسان على الأرض ، أتلك صفة محمودة فيمن يرغب عن مؤازرة أخيه بعقله أو بعمله ؟ من هو ذلك الانسان الذى يبغى ألا يخلق فى فراغ الأزمان شيئاً جديداً لم يمر بخاطر ، ولم يقع عليه ناظر ؟ هذا الشئ الذى يغدو مورداً لا ينضب لاكتشافات جديدة ؟ ومن الذى لا يرضى بأن يفادى بمقامه فى هذا الوجود ويتجاوز عن أجله القصير المقدر له لقاء بعض شئ سيخلد أبداً فى هذه الأرض ؟ أى خلق نبيل لا يرضى بهذا ؟

ألا إن هذا الرضا لا يتمثل إلا لمبون الذين يعتقدون بأن الوجود كامل الصورة ، ملائم كل الملاءمة لحاجهم ، وجامع لأمانيهم ، ما خلق إلا لهم . وأصحاب هذه الفكرة هم عندى أصحاب هذا الوجود ، وهم أصله ونواته . أما أولئك الذين ينظرون الى الحياة غير هذه النظرة فليسوا إلا حشرات سخيفة ترحف فى مسارب وجود سحيق)

وبينما كان فيخت يكسو فلسفته الآراء السامية ، كان يعمل على أن يكسو نفسه أثواب السمو . ولكن الردى غاله ولما يؤد رسالته ، فقضى نحبه سنة ١٨١٤ مستريحاً من جميع أوصابه .

فلسفته :

فلسفة « فيخت » هى فلسفة رجل لا يعرف للعقل والقوة الانسانية حدوداً يقفان عندها . وقد كان – كانت – يرى أن معرفتنا تقوم على أن نوفق بين العقل الخارجى وبين نظام إدراكنا الداخلى ، وهو يرى أن وراء ما ندركه شيئاً قائماً بنفسه منسلخاً عنا لا يتطاول اليه إدراكنا ، وما معرفتنا – عند كانت – إلا مظهر يتوارى وراءه السر الأبدى واللغز السرمدى . أما « فيخت » فهو يوقن بأن هذا المظهر نفسه هو الحقيقة ذاتها ، وهو وليد قوة « النفس » التى لا تنفد ، وذلك الشئ القائم بنفسه إن هو إلا حد يكبح قوة النفس ويحاول أن يقضى على سلطانها ، ولكنه حد يزداد أمره ضعفاً كلما استطاعت النفس أن تبرز من قوتها وتفرض شيئاً من سيطرتها على الوجود ؛ وبهذا كانت غاية العلم أن يتغلب العالم الداخلى وهو عالم العقل والروح على العالم الخارجى وهو عالم المادة

والنقطة الأساسية لفلسفة « فيخت » هى هذه الذات التى يجعل منها « الفاعل المطلق » فى هذا الوجود ، لكن هذه الذات لا تكمل لها معرفة ذاتها إلا إذا قورن بينها وبين غيرها ، وبضدها تتميز الأشياء . فان تخصيصى مثلاً لوجودى بقولى « أنا » يثبت منطقياً لغير ذاتى وجوداً . لأن الأخص يستثنى من الأعم . وهذا الغير هو الذوات السارحة فى هذا الوجود

قد تيقظت الذات فى إحدى خطراتها يوم أحست بنفسها فألفت أمامها سداً يقف سيرها . فوقفت وشعرت بأنها مقيدة ، من ورائها ومن أمامها سدود ، فأخذت تنظر الى علة هذه الحدود وهذه السدود ، فخالت أن هذه العلة كامنة فى جواهر الأشياء ، فأما الشعور العادى فهو يرى العلة فى جوهر الأشياء ، أما الفيلسوف فهو يعتقد بأنها كامنة فى التحريض الذى تثيره الذات لبسط سلطانها على الأشياء ، وتحقيق غاياتها التى تطويها فى صدرها . وهكذا تجرى حياة الكائن المفكر ، فهو طوراً يصيب مركز الدائرة وطوراً يحيد عنه

(يتبع) دير الزور خليل هنداوى

بعض الكتب الجديدة

فى علم النفس

تأليف

محمد عطية الابراشى و حامد عبد القادر

صدر هذا الكتاب النفيس الذى يقع فى أكثر من أربعمائة صفحة من القطع المتوسط ، منذ شهور قلائل ، فملأ من المكتبة العربية فراغاً شاغراً ، كان يأسف له كل من يتمنى لهذا الشرق أن يساير الغرب فلا يتخلف من دونه فى بعض الطريق .

وما ظنك بهذا العلم الذى تبوأ فى أوروبا وأمريكا منذ منتصف القرن الماضى مكانة رفيعة بين العلوم ، وأصبح منذ ذلك التاريخ حلبة العقول وحومة الأقلام ، تتناصر كلها وتتضافر على دراسة النفس الانسانية ، حتى سارت فى ذلك شوطاً ، إلا تكن قد انتهت به إلى نتيجة حاسمة ، فهى على كل حال سائرة فى الدرب السوى سيراً مطرداً حثيثاً . نعم ، كان علم النفس طوال القرن الماضى شغل الساعة فى عالم الغرب ، أما نحن فقد لبثت أقلامنا بازائه صامتة ، لا تكاد تمس الموضوع إلا مساً رفيقاً ، إذا استثنينا كتاباً أو كتابين ؛ وكأنما أحس الأستاذان المؤلفان بهذا النقص المعيب ، بل هو أجدر أن يسمى فقراً وإجداباً ، فشاءت لهما همة عالية ، أن يتداركا الأمر بعزم حديد ، وكفاية ممتازة ، فأخذا منذ عام أو نحوه يخرجان للناس بحوثاً مستفيضة فى كتب تترى ، هذا ثالث أجزائها ، وفى فصول متلاحقة أخذت تغمر الصحف ، حتى كان لنا فى علم النفس بفضلهما محصول ذو غناء بوفرته ومتاعه ، وأى شىء أحب إلى النفس وأمتع من أن تطالع نفسها مشروحة مفصلة ، فى تحليل دقيق عميق سهل مستساغ ، لا تشوبه خشونة العلم وغلظته ؟ فقد وفق الأستاذان الفاضلان فيما يكتبان الى : « السهولة فى الأسلوب ، والوضوح فى العبارة ، مع الدقة فى التعبير ، والبحث وراء الحقيقة ، حباً فى الوصول الى الحقيقة لذاتها ، حتى يسهل الصعب ، ويتضح الغامض ، ويقرب الى الأذهان ما بعد عنها ، من تلك الموضوعات التى لم تخدم بالعربية الخدمة اللائقة بها » . وأما فصول هذا الكتاب القيم فهى :

الفكر ، الحكم ، الاستنباط ، التعليل ، التفكير الراقى ، الوجدان ، الانفعالات ، العواطف ، الأمزجة ، الأذواق ، الشخصية . . . . . وقد وضعا بجانب الاصطلاحات العلمية ما يقابلها باللغة الأجنبية تجنباً للخلط ، ومنعاً للخطأ فى التفكير

وما دمنا بصدد ترجمة الألفاظ ، فقد نحب أن نعترض اعتراضاً نعترف أنه تافه يسير بالقياس الى هذا المؤلف الجليل : فقد ترجم الكاتب كلمة Conception بلفظة (التعقل) فى الصفحة الخامسة من الكتاب ، ثم عاد فى الصفحة الثالثة عشرة فأطلق لفظة التعقل هذه ، تعريباً لكلمة Ideation ومهما يكن بين اللفظتين من قرب وشبه ، فقد كنا نؤثر أن تنقل الكلمتان الانجليزيتان المختلفتان الى كلمتين عربيتين مختلفتين ، وليس ذلك بعزيز على الأستاذين المؤلفين . وهناك ملاحظة أخرى أخذتها العين أخذاً أثناء التصفح السريع ، فقد أراد الكاتب أن يورد تعليل الوجدان (ص ١٤٦) فقال : « التعليل الجثمانى — ومعناه أن الوجدان راجع الى تغيرات مادية خاصة تحدث فى الجسم ، فينشأ عنها الشعور بالسرور أو الألم . وقد أجريت تجارب لأثبات ذلك فوجد مثلاً أن القلب يبطىء فى دقاته ، وأن التنفس يسرع عند السرور . أما عند الألم فقد شوهد العكس ، أى أن القلب يسرع فى ضرباته ، وأن حركات التنفس تكون بطيئة . . . » وعندنا أن هذا متناقض أوله مع آخره ، أو على الأقل كتب بعبارة يفهم منها القارىء هذا التناقض ، لأنه يريد أن يثبت أن علة الوجدان جثمانية ، أى أن الحركة الجثمانية تكون أولا ، ويكون السرور أو الألم ثانياً ، ولكن قوله إنه قد أجريت تجارب فوجد أن الجسم يحدث به كذا وكذا عند السرور ، قد يفهم منه أن السرور ينشأ فتنشأ تبعاً له حالة معينة بالجسم ، وهو عكس ما أريد إثباته

ولا يسعنى فى ختام هذه الكلمة القصيرة ، وقد كان المقام يستدعى الإسهاب ، إلا أن أسجل رغبة أحسستها عند تصفحى الكتاب ، وتلك أننى وددت لو خرج هذا السفر الجليل الممتع المفيد ، أجمل انسجاماً من حيث الطبع ، وبخاصة فى مواضع العنوانات وحجومها

وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأهنىء المؤلفين الفاضلين على هذا التوفيق ، وأهنىء قراء العربية أن كان لهم هذان المؤلفان الفاضلان

زكى نجيب محمود

وجهة الإسلام

تأليف جماعة من المستشرقين

ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده

كتاب في نحو مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، ألفه بالأنجليزية الأساتذة هـ . ا . ر . جب أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن ك ل . ما سينيون الأستاذ بجامعة باريس وكلاهما عضو بالمجمع اللغوي الملكي المصرى ك ج . كامبفاير بجامعة برلين ك ك . برج بجامعة ليدن واللفتننانت كولونل فرار بالجيش الهندى سابقاً . ولقد قام بتعريب هذا الكتاب الأديب محمد عبد الهادى أبو ريدة خريج قسم الفلسفة بالجامعة المصرية

وانك لتفهم موضوع الكتاب من تلك العبارة التى جاءت في مقدمة الترجمة العربية بقلم الأستاذ جب : « فأما الذى يرى إليه مؤلفو هذا الكتاب فهو أن يحللوا تيارات الفكر التى تعبر عن حالة المسلمين ثم النزعات التى تتردد بينهم ليراها القارىء الأوربي اللبيب الذى له بعض الخبرة بحياة البلاد الشرقية » . ولقد قسم المؤلفون موضوعاته بينهم فاختص الأستاذ ماسينيون عن ابتعد من العمال المسلمين اتصالاً وثيقاً بالحياة الأوربية، وتكلم الأستاذ كامبفاير عن النظم الجديدة فى الحياة الاجتماعية والعقلية فى آسيا الغربية ، وانفرد الكولونل فرار بدراسة الأسلام فى الهند وعلى الخصوص علاقته بالناحية السياسية ، أما الأستاذ برج فقد اتخذ اندونيسيا موضعاً لبحثه ، وقدم الأستاذ جب هذه الدراسات فى فصل طويل ممتع عن الأسلام والحالة فى العالم الأسلامى

فهذا كتاب جدير بالدراسة ، حرى بأن يقرأه الأديب المسلم ليرى رأى علماء المشرقيات ، أو بعبارة أخرى ليرى مقدار فهمهم للعالم الأسلامى ، ونزعتهم الفكرية أثناء الكتابة عن أحوال الأسلام ، وسيرى فيه كثيراً من الأفكار الدقيقة والنقط الهامة الجديرة بالبحث والتحليل كما أنه سيرى بعض أغلاط المستشرقين فى نظرتهم إلى العالم الأسلامى ، فكثير منهم يقف من هذا الموضوع موقف من يزور مدينة كبيرة لأول مرة فيكون أسرع من أهلها أو أكثر تأثراً منهم بمواضع الدهشة والقوة فيها ، على حين أنه يغفل عن كثير من نواحى ذاتيتها ومعانى روحها وألوان شخصيتها مما لا يستطيع معرفته حق المعرفة إلا أبناؤها الخلص

أما عن التعريب فآثار العناية بادية فى الموضوعات كلها على العموم ، وإن كان المعرب أحياناً يتأثر بالتركيب الانجليزى والأخيلة الانجليزية فى طريقة سياق الأفكار وتسلسلها فى الجملة الواحدة فتلتوى العبارة العربية التواء يلبسها الروح الانجليزى ، مما يسبب صعوبة فهمها أحياناً ، أو يخرج بها عن المراد منها أحياناً أخرى . خذ لذلك مثلاً قوله : « ولعل من سداد الرأى توقعنا أن يكون انتشار الأسلام على هذه الأصقاع الشاسعة واشتماله على أجناس كثيرة وتقاليد قديمة أمرين سيحولان دون بلوغ وحدة حقيقية فى المدنية الأسلامية ، وإنه رغم اتحاد المظاهر الدينية فان بقاء العادات التى رسخت قديماً وأساليب التفكير المختلفة فى طبيعتها اختلافاً لا يدع لاتفاقها سبيلاً سيؤثر تأثيراً قوياً فى ثقافة كل اقليم على حدة حتى لايترك مجالاً لتقاليد شاملة ولا لأى وحدة تامة فى الشعور وحتى يوجد غداً من الثقافات الأقليمية الأسلامية »

على أن المعرب الفاضل قد أحسن صنعاً على أى حال بتقديم هذا الكتاب القيم إلى لغة الضاد **الخفيف**

لموضوعات المجلد الثاني من السنة الثانية

فهرس أبجدي عام

لموضوعات المجلد الثاني من السنة الثانية

فهرس ابجدي عام

لموضوعات المجلد الثاني من السنة الثانية

ج

فهرس أبجدي عام
لموضوعات المجلد الثاني من السنة الثانية

فهرس ابجدى عام

لموضوعات المجلد الثاني من السنة الثانية

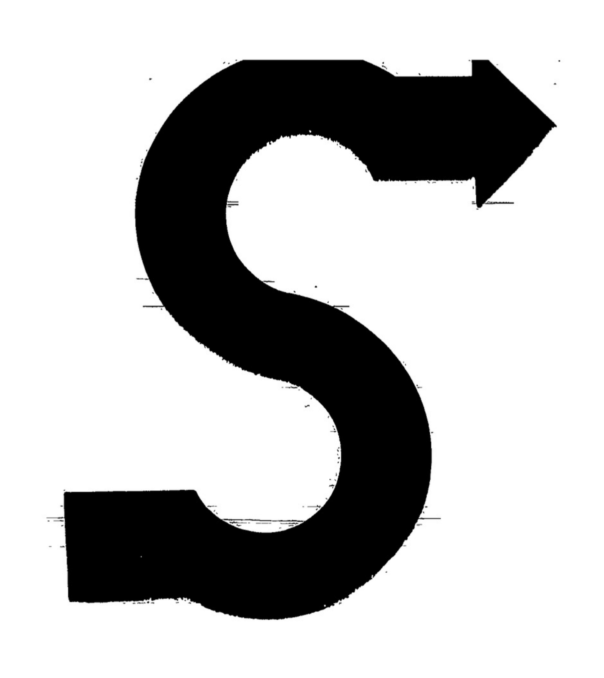
فهرس أبجدي عام

للكتاب الذين كتبوا فى المجلد الثانى من السنة الثانية

FIN

DU

DOCUMENT



Suite sur une autre bobine

NF Z 43-120-6